شرح

كتاب التوحيد

الذي هو حق الله على العبيد

تصنيف الإمام

محمد بن عبد الوهاب التميمي

المتوفى سنة (1206) رحمه الله رحمة واسعة

شرح الشيخ

أ.د. صالح بن عبدالعزيز بن عثمان سندي

أستاذ العقيدة بالجامعة الإسلامية

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

دمج الشرح والثاني

١-الأول: في ٤٧ مجلس بدأ في ليلة الإثنين ١٩ ربيع الآخر ١٤٣٠ وانتهى في غرة شهر ربيعٍ الآخر ١٤٣٢ في مسجد ذي النورين بالمدينة النبوية

٢-والثاني: في ٨٥ مجلس بدأ في ليلة ١٣ ربيع الآخر ١٤٣٧ وانتهى في ٢ محرم ١٤٣٨ في المسجد النبوي بالمدينة النبوية

النسخة الأولى

الشيخ لم يُراجع التفريغ

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودينِ الحقّ ليظهرَه على الدّين كلّه وكفَى بالله شهيدًا، وأشهد أن لّا إله إلا الله وحده لا شريك له إقرارًا به وتوحيدًا، وأشهد أنَّ نبينا محمدًا عبدُه ورسولُه؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليمًا مزيدًا. وبعد:

ففي هذه اللَّيلة نجتمع في هذا المسجد المبارك لنتدارس في متنٍ عظيم النَّفع(١)؛ ألا وهو: **(كتاب التوحيد)** للشيخ الإمام المجدّد محمد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

إنَّ من نعمة الله على أهل النَّهج المحمّدي والمسْلك السّلفي أن يكون لهم عناية فائقة بكُتُب التوحيد؛ فإنَّ أهل العلم لم يزالوا معلِّمين ومدرِّسين، ولم يزلْ طلبة العلم حريصين وجادّين في تحصيل علم التوحيد، فإنَّ كلّ خير في الدنيا والآخرة فهو من ثمرات هذا العلم، والله عَجَّلَ أكبر من كلّ شيء، فالعلم به أكبر من كل علم.

لم يزلْ مشايخنا وأهل العلم فينا ذُو عنايةٍ فائقةٍ بهذا الكتاب العظيم ألا وهو (كتاب التوحيد)، ولم تزل السلسلة مستمرة في دراسة هذا الكتاب، لم يزلْ هناك من يدرِّسه، ولم يزلْ هناك من يتعلَّمه، وقد حصل بسبب هذا الكتاب وبسبب العناية به خيرٌ عظيمٌ.

(١) نتدارسُ بتوفيق الله وإعانته كتابًا عظيمًا من كتب الاعتقاد عند أهل السنة والجماعة، بل لا أُبْعِدُ إنْ قلتُ: إنه أهم كتب الاعتقاد وأشهرُها في العصر الحديث .

ولمَّا حصلت الغفلة والانشغال عن كُتُب التوحيد -ولاسيّما عن هذا الكتاب- دبَّ الضعف في التوحيد علمًا وعملًا ودعوةً، بخلاف الأمر في السابق، لا سيّما في هذه البلاد، وقد أدركتُ شيخ الإسلام في وقته -الشيخ عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ رحمة واسعة- وله عنايةٌ عظيمة بهذا الكتاب، حتى أنه كان يُقرأُ عليه في الأسبوع الواحد أكثر من مرّة، وما أن ينتهي من الكتاب إلا ويعود إليه مرةً أخرى، وهكذا إخوانه من أهل العلم. فمن فضل الله عَزَّ وَجَلَّ على طالب العلم أن يكون عنده همة منصرفة لدراسة علم التوحيد، ولا سيّما هذا الكتاب المبارك.

وقد رأيتُ أن أجعلَ الدرس الأول مقدّمة للتعريف بالمُؤلِّف وبالمُؤلَّف، ولِي في هذا غرض؛ وهو حثُّ الإخوة على حفظ هذا الكتاب العظيم، بحيثُ أنَّه من الدرس القادم يكون مَن كان له رغبة في حفظه مستعدًا لذلك. فأحثُّ الإخوة على أن يهتموا بهذا الأمر، وهي فرصة أن يحفظَ الإنسان هذا المتن العظيم.

أمَّا عن التعريف بالمؤلِّف: فإنَّه شيخ الإسلام الإمام المجدِّد أبو علي محمد؛ بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي المُشَرَّفي التَّميمي النَّجدي، وُلِد رَحِمَهُ ٱللَّهُ سنة خمس عشرة ومائة بعد الألف من الهجرة، في بلدة (العُيَينة) من بلدات نجد[2]، وتوفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالدِّرعية -وهي قرية متاخِمة للرياض- سنة ستٍ ومائتين بعد الألف من الهجرة، وقد نيَّف على إحدى وتسعين سنة قضاها رَحِمَهُ ٱللَّهُ في العلم

(٢) في وسط الجزيرة العربية.

والتعليم والدعوة والجهاد[٣]، وكان يوم وفاته يومًا مشهودًا، ورثاه كثيرٌ من أهل العلم.

كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذَا زُهدٍ عظيم في الدنيا؛ حتى إنَّه لما توفي ذكر المؤرخون أنه لم تُقسم له ترِكة، ما كان عنده شيء فلم تُقسم له تركة رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

نشأ الشيخ محمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ نشأةً علميةً دينية؛ فبيتُه بيتُ علمٍ وشرفٍ، أبوه الشيخ عبد الوهَّاب كان فقيهـًا حنبليًا، وقاضيًا في العُيَينة ثمَّ في حُريملاء، وأما جدّه سليمان فإنه كان علَّامة نجد ومفتيها، وأكبرَ علمائها في وقته[٤]؛ نشأ الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا البيت العلمي وفي هذه البيئة العلمية نشأةً صالحة، حفظ القرآن ولم يبلغْ العاشرة من عمره، وأكبَّ على مطالعة كُتُب الحديث وكُتُب أهل العلم، لا سيّما كُتُب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم.

وبلغ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قبل الثانية عشرة من عمره، وكان مشهورًا بين أقرانه بحدّة الذكاء، وسرعة الحفظ، وسرعة الكتابة، حتى إنَّ أباه كان يذكر أنه كان يستفيد من ابنه، وكان يتناقش مع أبيه وعمّه؛ كلاهما من أهل العلم.

ومُنْذُ أن بلغ أو بُعيدَ ذلك طلب أن يحجَّ فسمح له والده رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وعمره في ذلك الوقت ثلاث عشرة سنة، ذهب إلى مكة ثمَّ عرَّجَ بزيارة المدينة ومكث فيها

---

(٣)ونفع الله به نفعـًا عظيمـًا حتى أضحى مجدِّد القرن الثاني عشر بلا منازع.

(٤) عمُّه كان قاضيـًا وفقيهـًا، وكان في بيتهم مكتبة متوفرة على جملة من أمّهات الكتب؛ فنشأ نشأةً علميةً صالحة، وما عُرِفَ عنه شيءٌ من صبوات الشباب، بل عُرِفَ بالتديُّن والاستقامة والانكباب على العلم ، إضافةً إلى سرعة البديهة وحِدَّةِ الذكاء.

شهرين يطلب العلم؛ هذا يدلك على أنه كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ طِرازًا فريدًا، تخيل شاب صغير عمره ثلاث عشرة سنة يترك أهله وبيته ويرحل في طلب العلم، ويمكث في المدينة شهرين يأخذ عن أهل العلم فيها وعمره ثلاث عشرة سنة!.

ثمَّ إنَّه تتابعت رحَلاته العلمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وقد أحصى بعض الباحثين المُدَد التي قضاها في السفر والتّرْحال والعودة والسفر مرة أخرى لطلب العلم فبلغت ما يَزيد على عشر سنوات، ما بين ثنتي عشر سنة إلى ستة عشرة سنة قضاها في حِلٍّ وتِرْحال في طلب العلم.

والأقاليمُ التي رحل إليها في الطلب لم تتجاوز الحجاز والعراق والأحْساء، وهي على وجه التفصيل: مكة، والمدينة، والأحساء، والبصرة، والزُّبير في العراق، ويمكن على وجه الاحتمال -وأورد هذا بعض المؤرخين- أنه رحل أيضًا إلى بغداد، والأمر محتمِل.

وقد استفاد رَحِمَهُ ٱللَّهُ من هذه الرحلة المتنوّعة فوائد جمَّة؛ منها أنَّه جمعَ علومًا إلى العلوم التي كانت تُدرَّسُ في نجد، قد كانت شِبهَ منحصرة في دراسة الفقْه الحنبلي، لكنَّه لمَّا زار تلك البلدان وكانت آهلةً بأهل العلم استفاد علومًا جمَّة؛ علوم الآلة، استفاد علوم الحديث، واستفاد علوم التفسير وما يلتحق بها، كما أنَّه أصبح أكثر عناية بقضية التوحيد والعقيدة، وقد كان معتنيًا بها من قبل لكن زاد

اهتمامُه بذلك لما رحل تلك الرَّحلات والتقى ببعض العلماء السلفيين من أهل تلك الأمصار[٥].

وأشهر من أخذ عنه الشيخ: والده، وعمُّه، والشيخ عبد الله بن إبراهيمَ بن سيف النَّجدي المدني، والشيخ محمد حياة بن إبراهيم السِّندي المدني، والشيخ المجموعي، والشيخ الدّاغستاني من علماء الشام وقد التقاه في الحجاز، والشيخ عبد الله بن عبد اللَّطيف الأحْسائي، وغيرهم من أهل العلم الذين أخذ عنهم الشيخ محمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغفر لنا وله.

الشيخ محمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ -كما أسلفتُ- بارك الله في عمره؛ نيَّف على إحدى وتسعين سنة، وعنايته بالعلم مُنْذُ صغره، قبل العاشرة أتمَّ حفظ كتاب الله، يعني لك أن تتخيل أنه عاش أكثر من ثمانين سنة في العلم والتعليم والدعوة والجهاد في سبيل الله عَزَّ وَجَلَّ، ولذلك حصل بسبب هذا الشيخ من الخير أمرٌ عظيمٌ جدًا .

والناسُ أَلْفٌ مِنهمُ كَواحِدٍ ... وَوَاحدٌ كَالألفِ إِن أَمرٌ عنى
وتَرى كثيرًا ولكن لا تَرى أحدًا ... وَقَدْ تَرَى هِمَّة الآلافِ في رَجلِ

وهذا حصل للشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

---

(٥) ولما حصَّل هذا الحظَّ العظيم من العلم؛ نهض بدعوته وأعلن دعوته في حُرَيْملاء أولاً، ثم في العيينة، ثم استقر به المقام في الدرعية، واجتمع بالإمام محمد ابن سعود -رحمة الله على الجميع- ، وكان ما كان من التعاهد والتعاقد على نصرة التوحيد، بدأت دعوةً وانتهت دولةً تدعو إلى التوحيد وتقوم على التوحيد.

وقد تميّز رَحِمَهُ اللَّهُ بهمّةٍ عالية وصبر ومجاهدة وحِرص عظيم على هداية الناس، وقد ذكر المؤرّخون أنه لما حجَّ دعا الله عَزَّوَجَلَّ عند المُلتزم أن ينصر الله الإسلام به، وأن يجعل له قبولًا في الناس؛ ونرجو أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قد استجاب له دعاءه، فقد حصل بدعوة الشيخ من الخير العظيم والتجديد لهذا الدين ما لا يخفى على كل مُنصِف(٦).

ولك أن تتخيلَ رجلٌ واحدٌ نشأ غريبًا في فِكْره وما يدعو إليه، حتى إنه حُورِبَ أشدَّ المحاربة؛ ضُرب واعتُدي عليه وهُدِّدَ بالقتل مرات، وكانت الثمرة هذه الدعوة العظيمة التي نتفيأُ ظِلالها، نشأ بسبب دعوته دولة كاملة تدعو وتقوم على التوحيد، ونفع الله بعلمه ودعوته وكتبه الجمَّ الغفير من الناس من ذلك الوقت وإلى اليوم، وإلى ما شاء الله. وهذا فضلٌ من الله عَزَّوَجَلَّ وهو سبحانه يؤتيه مَن يشاء.

لم يكن ولا شكَّ الطريق مفروشًا -كما أسلفتُ- بالوُرود للشيخ، كانت هناك عقباتٌ عظيمة، منها عقباتٌ في طريق طلب العلم؛ من ذلك أنه لمَّا كان راجعًا من مكة إلى المدينة لغرض الطلب -وقد حجَّ رَحِمَهُ اللَّهُ مرة أو مرتين أو ثلاث مرات على خلاف بين المؤرّخين لكنها أكثر من مرة قطعًا- المقصود أنه

(٦) فإنَّ هذا الإمام الجليل قد نَهَضَ بدعوةٍ سلفيةٍ علميةٍ على منهاج النبوة، بدأت في وَسط نجد وبَلَغَ أثرُها مشارق الأرض ومغاربَها، ونحن اليوم -ولله الحمد- نتفيأُ ظلال هذه الدعوة المباركة التي هي امتداد لدعوات الأئمة المصلحين السائرين على طريق إمامهم نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

لمَّا سافر من مكةَ إلى المدينة ترصَّد له بعض الأعراض فضربوه وأخذوا ما معه، وتعطَّل عن الرحلة إلى الشام، كان ينوي الذهاب إلى الشام، فذهب الحاجُّ الشامي وما استطاع أن يلحق بهم بسبب هذه الحادثة.

وهذا فيه خيرٌ عظيمٌ فإنه ارْتحل إلى حُرَيملاء وبدأ دعوتَه، لأنَّ والده قد حصلت له واقعة فانتقل من العُيَينة إلى حُريملاء وصار قاضيًا هناك، فعاد الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى حُريملاء، وبدأ يدعو إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، لكن الانطلاقة الفعلية لدعوتِه إنَّما بدأت بعد وفاة والده؛ عام ثلاثٍ وخمسين ومائة بعد الألْف.

بدأ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ينشط في الدعوة إلى الله تَعَالَىٰ وينكر المنكرات العظيمة التي تقدح في التوحيد، وحصل أن تسوَّر عليه بعض أولئك الذين آذاهم ما يقوم به الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ من الدعوة للتوحيد تسوَّروا عليه وأرادوا قتله، فتنبَّه لذلك بعض جيرانه وصرخوا بهذا العدوّ حتى ذهب، فأدرك الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه في خطر فارتحل إلى العُيَينة، وفي بداية الأمر آواه أميرها ابن مُعمَّر وسانده، وبدأ الشيخ يدعو إلى الله وينكر المنكرات لا سيّما ما يتعلق منها بجانب الاعتقاد.

وحصل بهذا خيرٌ عظيمٌ، إلا أنَّ هذا الأمير قد تراجع عن موقفه بسبب أنه قد حذَّره من ذلك وأنذره حاكم الأحْساء، فخاف أن يقطع عنه ما كان يعطيه إيَّاه من العطاء السنوي، فطلب من الشيخ أن يرحلَ، ودبَّر له مَكيدة؛ وذلك أنَّه أمر حارسًا له أن يتبَعه فإذا خرج إلى الصحراء قتَله، وبهذا -في زعْمِه- تنتهي فتنة ابن عبد الوهَّاب، فكان الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يمشي على قدمه وهذا الحارس راكبٌ خلفه،

لكنَّ رحمة الله سبحانه بهذا الشيخ كانت أعظم، فأصاب هذا الحارس رُعْبٌ عظيمٌ من الشيخ فما استطاع أن يمسَّه بسوءٍ ورجع(٧).

---

(٧) والشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إنَّما شَرُفَ باتِّباعه طريق السابقين الأولين، وإلا فإنَّه لم يأتِ بشيء جديد يتميز به في العقيدة والعبادة والعلم، إنَّما دعوته هي دعوتهم، دعوةُ من قَبْلَهُ من علماء التوحيد، لكنَّ الشيخ قد جعل الله له القَبول وجعل لدعوته المُناصِر، فاجتمع في دعوته الكتابُ الهادي والسيف الناصر، وكفى بربك هاديـًا ونصيراً.

مكَّن الله ﷻ لهذه الدعوة ويسَّرَ لها أسباب الانتشار، ولعل هذا من آثار إخلاص هذا الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ونحمد الله أنَّه ما سَمِعَ بالشيخ ولا بدعوته أحدٌ مُنْصِفٌ إلا وقد تلقّى ما يقول بقَبُولٍ حَسَن، ولذا أطبق علماء أهل السنة والجماعة حقًّا على الثناء على هذا الإمام الجليل وعلى الاحتفاء بمؤلفاته وبدعوته.

وأمَّا مَنْ شَرِقَ بهذه الدعوة وألَّبَ عليها وعلى صاحِبِها؛ فإنَّ هؤلاء كانوا أخلاطـًا وأصنافـًا، وغالبُهُمْ أخذته حميةٌ وعصبيةٌ جاهلية تِجاه هذا الشيخ أو ما يدعو إليه، أو كانوا ممن يخافون فواتَ حظٍ من حظوظ الدنيا التي كانوا يتأكّلون بها قبل أن ينهض الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بدعوته، ولكنَّ الشيخ وفقه الله إلى أن كان شجاعـًا مِقْدامًا صابرًا على ما يلاقي من أعدائه الأقربينَ والأبعدينَ.

بدأ وحيدًا وخُتِمَتْ حياتُهُ بأن أقرَّ الله عَزَّوَجَلَّ عينَهُ بقَبول الناس لهذه الدعوة وانتشارها في كثير من أجزاء الجزيرة العربية وما كان خارجَها أيضـًا. واستمر الخيرُ بعد وفاته، وحَمَلَ لواء دعوة التوحيد بعده أئمةٌ أجلّاء إلى هذا العصر –ولله الحمد والمنة–.

وقد أعْيا أعداءَ الشيخ أن يجدوا شيئـًا يُعابُ عليه من كلامه ومؤلفاته، ولذا إذا نظرت إلى كل ما يُقال عن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لا تجد شيئـًا من منصوص كلامه؛ كلامه موجود ومحفوظ، ورسائله مدوّنة، وكُتُبُهُ منشورة ، جُمعت مؤلفاته في كتابٍ حافل في أكثر من عشرة

ونجَّى الله الشيخ، ووصل إلى الدِّرعية، ونزل على أحد الأشخاص هناك، ثمَّ سمِع به أميرها الإمام محمد بن سعود رَحِمَهُ اللهُ، وحصل ما تعلمون من التقاء الإمَامين، وحصول العهد والميثاق بينهما على الدعوة ونُصرة التوحيد، وأثمر ذلك -والفضل لله والمنَّة- هذه الدعوة العظيمة، وكان الشيخ رَحِمَهُ اللهُ في ذلك الوقت هو الآمر النَّاهي، والإمام محمد بن سعود هو المنفِّذ، الشيخ هو الذي يحكم ويأمر، والإمام محمد بن سعود هو الذي ينفّذ، وحصل من إقامة الحدود وإزالة المنكرات والجهاد في سبيل الله ما هو معلومٌ ومُدوّن في سِيرة هذا الإمام، حتى إذا شعر الشيخ رَحِمَهُ اللهُ بأن الأمور قد استقرت ألقى بمقاليد الحكم إلى الإمام محمد بن سعود وتفرّغ هو للتعليم والعبادة.

مجلدات، ومع ذلك إنَّما تجد القيل والقال والنُّقول الـمُغْرِضَةَ عنه من أشياءَ لا تَمُتُّ له بسبب.

وبين أيدينا هذا الكتاب «**كتاب التوحيد**»؛ ما استطاع أحد أن ينتقد هذا الكتاب نقداً علمياً يبين فيه مخالفةً واحدة على الشيخ في الاعتقاد، أو أنه عارض الكتاب والسنة، أو أنه أتى بشيء جديد ما سَبَقَهُ إليه أحد من السلف الصالح؛ فالأمر أنَّ أعداء الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تجدهم هم أعداءَ التوحيد وأعداءَ السلف الصالح، وما تميّزوا بشيء عن غيرهم من أهل البدعة والخرافة، وأما الشيخ فمضى رَحِمَهُ ٱللَّهُ في دعوته وما التفت إليهم ولا أثّروا فيه. والحمد لله أنَّ «كتاب التوحيد»، و «ثلاثة الأصول» و«كشف الشبهات» وغيرَها من مؤلفات الشيخ ومؤلفاتِ مدرسته تُباع وتُذاع وتُدرَّس وتُحفظ، ولم يؤثِّر طعنُ الطاعنون في ذلك ولله الحمد، بل إنما زادهم مَضاءة وإنما زادهم قوة.

ولم تكن دعوة الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ بعد أن وصلَ إلى حُرَيملاء، بل كانت قبل ذلك، حتى وهو في طريق طلب العلم ما كان رَحِمَهُ اللَّهُ غافلًا عن قضية الدعوة كما هي حال كثيرٌ من طلبة العلم اليوم! بل كان رَحِمَهُ اللَّهُ يجمع بين العلم والعمل؛ وهو يطلب العلم يدعو إلى الله، يأمر بالمعروف، ينهى عن المنكر.

وقد حصلت له واقعة مشهورة؛ وهو أنه لمَّا كان بالبصرة يطلب العلم كان ينكر ما يراه من مظاهر الشرك؛ فتجمَّع عليه أهل البدع والخرافة وضربوه وأخرجوه من البصرة في حرّ الظهيرة، كان يمشي رَحِمَهُ اللَّهُ وليس معه طعام ولا شراب تحت حرّ الشمس، حتى إنَّه أشرف على الهلاك، فلقيه رجل من أهل الزبير على حمارٍ له فسقاه وحملَه معه إلى مدينة الزُّبير، ونجَّاه الله عَزَّ وَجَلَّ.

المقصود أنَّ الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ كانت قضية الدعوة إلى التوحيد قضية تشغل باله، كان باذلًا نفسه في سبيل الله[٨]، وهكذا العلماء الصادقون؛ سعيد ابن المُسيّب

---

(٨) والشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ عوَّد تلاميذه ومُحبّيه على التجردِّ للحق وقَبولِهِ ممن أتى به، وكان يخاطب مَنْ يعارضه بهذا في مخاطباتٍ مشهورة، ويبيِّن لهم أنهم إن أتوه بحرفٍ واحد خالف فيه الكتاب والسنة فإنه راجعٌ عن ذلك، بل إن أتوه بشيءٍ قاله خالف فيه أئمة المذاهب الأربعة -وكان يحاجج أهل كل مذهب بكلام أئمة مذهبهم- إن أتوا بشيء يخالف ما عليه هؤلاء الأئمة المحققين فإنه راجعٌ عنه، وما استطاعوا أن يأتوا بشيء من ذلك.

المقصود أنَّ الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ جاء بـــ (قال الله) و(قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، جاء بـــكلام الصحابة والتابعين، وما جاء بشيء من عنده البتة؛ ولذا فإنَّ أهل التوحيد قاطبةً

رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذُكر في ترجمته أنَّه كان يرى نفسه في ذَات الله أَهْون من الذّباب. وذكر ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في جامع العلوم والحكم عن بعض السلف أنَّهم قالوا: «ودَدْنا لو أنَّ

أوَّلهم وآخرَهم لسانُ حالهم يقول: لو أنَّ الشيخ بُعِثَ من قبره وقال للنَّاس "إنَّ كل ما دعوت إليه قد رجعت عنه" ، فإنهم سيقولون عن بَكْرَةِ أبيهم: "هذا شأنك، أما نحن فلا نرجع عن كلام الله وعن كلام رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"؛ لأنَّ التوحيد هو لبُّ ما جاء في كتاب الله وما جاء في سنة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وما أجمعَ عليه السلف الصالح، فالرجوعُ عن ذلك رجوعٌ عن التوحيد الذي جاء به الرسل عن الله عَزَّ وَجَلَّ. وهذا الكتاب الذي بين أيدينا «كتاب التوحيد» ما الذي فيه؟ لا يتجاوزُ الآيات والأحاديث والآثار، هذا الكتاب فيه ثمانينَ آية، وفيه مائةٌ وواحدٌ وأربعون حديثـًا، وفيه جملةٌ من الآثار، وأحاديثُهُ أكثرُ من نصفها لا تخرج عن الصحيحين، والباقي بين صحيح وحسن وما يحتمل التحسين، ونزّه كتابه عن حديثٍ موضوع أو حديثٍ مُجْمَعٍ على ضعفه، لا تجد إلا هذا؛ الآيةَ والحديثَ والأثر، حتى نقولات الشيخ عن العلماء كانت يسيرة جداً، ما نقلَ إلا عن ستة فقط من أهل العلم؛ منهم: شيخ الإسلام ابن تيمية في ثلاثة مواضع، والبقية نقل عنهم موضعـًا موضِعـًا. إذًا دعوة الشيخ كانت قائمةً على الكتاب والسنة، وعلى ما جاء ومضى عليه السلف الصالح رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ.

إذًا الذين يقولون: "إنَّ محمد بن عبد الوهاب أتى بشيء جديد أو اخترع مذهبـًا خامسـًا" هؤلاء عليهم أن يأتوا بالدليل والبرهان على ذلك، وإلّا فعليهم أن يعيدوا النَّظر فيما هم عليه وأن يتوخَّوا الحذر، وأن يتنبَّهوا إلى أنَّ هناك مَقامـًا عظيمـًا بين يديِّ الله جَلَّ وَعَلَا ، فإنَّ الظلم ظلماتٌ يوم القيامة، وإذا كان على الشيخ شيءٌ من المآخذ فليُبْرِزوها بشرط أن تكون من كلامه، أمَّا مما يفتريه أعداؤه عليه! فهذا عند كل مُنْصِفٍ شيءٌ غيرُ مقبول.

لحومنا قُرِّضَت بالمقاريض، وأنَّ الناس ما عصوا الله ﷻ ». وكان عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز رحمهما الله يقول لأبيه: «ودَدْتُ أنه قد غلت القُدور بي وبك في سبيل الله ﷻ».

كان هناك حرصٌ، كان هناك عناية عظيمة، كان هناك بذْل في سبيل الله ﷻ، يحرص الواحد من هؤلاء الأعلام الأخيار أشدّ الحرص على أن لا يُعصَى الله ﷻ، لأنَّه يعتقد أنَّ الله ﷻ أهلٌ أن يُذكرَ فلا يُنسَى، وأن يُشكرَ فلا يُكفَر، وأن يُطاعَ فلا يُعصَى، فلله ﷻ في نفسه تعظيم أن يرى المنكر وأن يُعصى وأن يُشرَكَ به وهو لا يُحرّك ساكنًا!!

فهذه دروس وعِبر من حياة الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ينبغي أن يقف عندها طالب العلم حينما يريد أن يدرس شيئًا من عِلْم هذا الإمام.

أمَّا عن هذا الكتاب العظيم وهو كتاب التوحيد؛ اسمه المختصر: **«كتاب التوحيد»**، واسمه التام : **«كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد»**[٩].

أمَّا مكان تأليفه: فقد اختلف المُؤرّخون وأهل العلم في ذلك؛ ذكر الشيخ حسين ابن غنَّام رَحِمَهُ ٱللَّهُ مؤرخ الدعوة وأعظم من أرَّخ لتاريخ هذا الإمام لأنه من تلاميذه[١٠]، ذكر في تاريخه أنَّ الشيخ ألَّفه بحُريملاء لمَّا رجعَ[١١].

---

(٩) ألَّفَهُ الشيخ وهو في بحرِ العشرينات من عمره.

(١٠) وكذلك الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن.

(١١) من العراق.

ورأيٌ آخر ذكره الشيخ عبد الرحمن بن حسن حَفيد الإمام: أنَّ الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أَلَّفه لمَّا كان يطلب العلم بالبصرة[١٢]؛ استفاده أو جَمَعَه من كتب الحديث التي كانت بمدارس البصرة، هكذا نصَّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

الذي يظهر -والله أعلم- أنَّ ما ذكره الشيخ عبد الرحمن فيه زيادة علْم، وهذا الأقرب؛ أنَّ الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بدأ تأليف الكتاب بالبصرة، وجمْعًا بين هذا وما ذكره الشيخ ابن غنَّام يُقالُ: إنه حرَّرَ الكتاب واسْتَتَمَّ تأليفه في نجد في حُريملاء لمَّا رجعَ.

عِدّةُ أبوابِ هذا الكتاب :

- من أهل العلم مَن يقول: إنَّها ستةٌ وستون بابًا.
- ومن أهل العلم من يقول: إنها سبعةٌ وستون بابًا.

والخلاف راجع إلى المُفتَتَح لهذا الكتاب؛ هل هو باب؟ أو هو مُجرّد مقدّمة؟ لأنَّ الشيخ قال: (**بسم الله الرحمن الرحيم. كِتَابُ التَّوْحِيدِ وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾** [الذاريات: ٥٦])؛ سرد في هذه القطعة خمس آيات وحديثًا وأثرًا، ثمَّ المسائل ذكر أربعًا وعشرين مسألة.

-هل أراد الشيخ بهذا أنَّه الباب الأول، ولأنَّه المقدّمة اكتفى بالبسملة وأنَّه كتاب التوحيد الذي يُعَبِّر عن مضمون الكتاب؟

-أو أراد أنه مقدّمة والأبواب تبدأ من الباب الثاني الذي يَليه؟

---

(١٢) لمَّا كان قد وقف في مكتباتها على كتب الحديث وكتب أهل العلم أَلَّفَ من مجموع ما انتخب من كتب أهل العلم هذا الكتابَ الفريدَ في بابه.

والأظهر -والله أعلم- أنَّ هذه المقدّمة باب؛ لأنَّ الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عاملها معاملة سائر الأبواب، وذكر فيها المسائل كما ذكر في سائر الأبواب، والأمر في هذا يَسير.

منهج الشيخ في كتاب التوحيد: كتاب التوحيد كلّ مَن له مُمارسة له يدرك أنه كتابٌ بديع الوضْع عظيم النَّفع، ومنهج الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيه: أنَّه قسَّمه رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى أبواب، وهذه الأبواب في الغالب الأعمّ كان يعتني فيها بتقديم الأعمّ على الأخصّ، والأهمّ على المُهِم، هذا في الغالب وإلا فإنه قد يخالف ذلك أحيانًا.

ضمَّن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه الأبواب موضوع التوحيد، وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ جامعًا في هذا الكتاب لأنواع التوحيد الثلاثة: الألوهية، والربوبية، والأسماء والصفات، لكنَّه اقتضَبَ كثيرًا في الربوبية والأسماء والصفات، وكان النصيب الأكبر من هذا الكتاب لتوحيد الألوهية(١٣)، **ويظهر أنَّ سبب ذلك راجعٌ إلى أمرين**:

الأمر الأول: أنَّ الحاجة أمسّ إلى توحيد الألوهية؛ فإنَّ الخللَ الذي حصل في الأمة -لا سيّما في عصر الشيخ- كان في جانب توحيد الألوهية أعْظم.

الأمر الثاني: أنَّ عناية أهل العلم بنوعي التوحيد الأخيرين -الربوبية والأسماء والصفات- كثيرة، كثُرَت المؤلّفات من قديم في الربوبية وفي توحيد

(١٣) الذي هو كان المقصود الأهم في تأليفه لهذا الكتاب.

الأسماء والصفات، أمَّا الألوهية فإنَّه قد أجمع علماء التوحيد أنه لم يُؤلَّف كتابٌ على مِنوال كتاب الشيخ من حيثُ الجمْع وحُسن الترتيب والتقسيم(١٤).

أقول: لم يُؤلَّف قبل كتاب الشيخ كتابٌ، كان ما يتعلق بتوحيد العبادة في الكتب المصنَّفة منثورًا في أعطَاف كُتُب أهل العلم، أما أن يُؤلَّف كتابٌ مفرد فيه جمْعٌ لِجُلِّ مسائل توحيد العبادة معَ تضمين ذلك الأدلة والآثار! هذا ما حصل قبل الشيخ.

يقول قائل: كلمة الإخلاص وتحقيق معناها لابن رجب؟!

يقال: هذه الرسالة في جانبٍ مُعيَّن وفي جزئية مُعيَّنة، ولا يمكن أن تقارنَ بكتاب التوحيد.

إنما قد يُقال: كتاب «تجريد التوحيد المفيد» للمقريزي المتوفى سنة خمسٍ وأربعين وثمانمائة، لكن أيضًا هذا كتاب لا يمكن أن يُقارن بكتاب التوحيد للشيخ محمد؛ كتاب «تجريد التوحيد» لا شك أن فيه فوائد وفيه نفع

---

(١٤)الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أَلَّفَ للحاجة لا للترف العلمي، وكأنَّه رأى أن المؤلفات في توحيد المعرفة والإثبات إذا تعلقت بالربوبية والأسماء والصفات كثيرة، لم يزل التأليف فيها منذ القِدم، أما في توحيد الألوهية فإنَّ هذا التأليفُ فيه قليل؛ فألهمه الله ووفقه إلى أن يَخُطَّ ذراعُهُ هذا الكتاب الحافل العظيم الذي أجمع كل من اطَّلع عليه أنه لم يسبقه إليه سابق ولم يلحقه فيه لاحق، وأنه كتابٌ فذٌّ فريدٌ في بابه، لم يُؤلَّفْ كتاب على نمطه وجَمْعِهِ وما فيه من حُسن الترتيب والتبويب والاستنباط، لم يسبقه إلى هذا سابق، وهذا أمرٌ يشهد به كل مُنصِفٍ اطَّلع على هذا الكتاب.

وفيه كلام حسن عن التوحيد وعمَّا يضاد التوحيد، لكن لا يمكن أن يقارنَ بكتاب التوحيد من حيثُ المادة العلمية، من حيثُ الجمع، من حيثُ التقسيم. وهذا الكتاب «كتاب التجريد» في الحقيقة ما هو إلا مجموعٌ من كلام ابن القيم، كان المقريزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يؤلِّف بين الكلام ويربط بينه، وإلا فإنه في جُملته مأخوذٌ من كُتُب ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ ينقل الكلام بنصّه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

المقصود؛ أنَّ الكتاب كتابٌ نسيج وحْدِه، لم يُسبقْ إليه ولم يُلحقْ فيه البتَّة، وهذه -كما ذكرتُ- كلمة إجماع بين علماء التوحيد الذين درسوا وعرفوا وكانوا أهل خِبرةٍ بهذا الكتاب العظيم.

هذا الكتاب وهذه مادة الكتاب جَمَعَ فيه الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ الآيات والأحاديث وجملة من الآثار وشيئًا من كلام أهل العلم المتعلّق بتوحيد العبادة من حيثُ بيان أهميتِه، ومن حيثُ تفسيره وبيان معناه، ومن حيثُ ذكْر أفراده، وأيضًا من حيث ذكْر ما يُضاده أو يقدح فيه.

وقد جَمَعَ فيه رَحِمَهُ ٱللَّهُ جملة من الآيات وجملةً من الأحاديث، تبلغ الأحاديث في الكتاب خمسًا وعشرين ومئة، نصفها تقريبًا من الصحيحين أو أحدهما؛ هذا يدلُّك على عناية الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأحاديث كتاب التوحيد. الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ علَّامةٌ محدِّث، وله عناية عظيمة بحديث رسول الله ﷺ، وله مجموعٌ حديثيٌّ معروفٌ عند أهل العلم جَمَعَ فيه أحاديث الأحكام بوَّبها، وبوَّبها على الأبواب، وهذا الكتاب من أنفس الكتب ومن أوعَبِها لأحاديث الأحكام، حتى

إنَّه يفوق في عدد أحاديثه ما في (المنتقى) للمجدِ ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ وهذا يدلُّك على عناية الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بحديث رسول الله ﷺ.

المقصود أنَّ أحاديث كتاب التوحيد نصفها تقريبًا من الصحيحين، وجُلُّها لا تخرج عن الكتب الستة، وهي في مُجملِها أحاديث صحيحة متفقٌ على صحتها، أو أحاديث صحيحة أو حَسنة، وفي بعض تلك الأحاديث -وهي قِلّةٌ قليلة منها- ما انتُقِدَ في إسناده، ومن ذلك ما له شواهد يتقوَّى بها هذا الحديث أو ذاك حتى يصل إلى درجة الاحتجاج، ومنها ما هو ضعيف ولكن تشْهد له قواعد الشرع ونصوصُه، لكن لم يبنِ الشيخ بابًا من أبواب التوحيد قطّ على حديثٍ ضعيفٍ.

كذلك نزَّه الشيخ كتابه عن حديثٍ موضوع أو حديثٍ اتُفِقَ على ضعفه؛ هذا غير موجود في كتاب التوحيد. وما انتُقِدَ على الشيخ من الأحاديث التي فيها كلام فإنَّ الشيخ قد سبقَه إلى تصحيحها أو تحْسينها بعضُ أهل العلم، ولا يوجد حديث اتُفِقَ على ضعْفه في هذا الكتاب. وهذا ولا شكَّ لا يقدح في إمامة هذا الشيخ أو تضلُّعه في علم الحديث، مَن الذي سلِم من النَّقد في أحاديث أثبتها أو احتج بها!!.

أيضًا للشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الكتاب فقْهٌ نفيسٌ جدًا، **ويظهر فقْه الشيخ في هذا الكتاب من ثلاث جهات:**

أولًا: في تبويبه لأبواب الكتاب؛ فيظهر في هذا فِقْهٌ نفيسٌ للشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يذكِّر بفقْه الإمام البخاري، فإنَّ فِقْهَهُ في تبويبه.

وثانيًا: فيما يورده من نُصوصٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ؛ فإنَّه كان ينتقي فيما يورده مما هو أدلُّ على المراد من غيره.

وأمرٌ ثالث يظهر به فقْه الشيخ: هو في المسائل التي كان يُذِيِّلُ بها الأبواب؛ فإنَّ في هذه المسائل فقهًا نفيسًا وعظيمًا جدًا. الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكر ما يقرُب من ستمائة من المسائل، وهي على وجه التحديد عدَّها بعض الباحثين (خمسمائة وإحدى وتسعين مسألة)، وهي من أعظم ما يكون من الفائدة، ينبغي على طالب العلم أن يكون له عناية بها.

وكان للشيخ أيضًا عناية بكلام أهل العلم، ورأسهم أصحاب رسول الله ﷺ؛ فقد حلَّى كتابه بجملةٍ من الآثار عن الصحابة ثمَّ عن التابعين، وأيضًا مَن بعدهم من أهل العلم.

هذا الكتاب أثنى عليه أهل العلم ثناءً عظيمًا، اجتمعت كلمتُهم على أنَّ الشيخ قد أحسن فيه وأجادَ وبلغ الغاية والمراد، وأنَّه لم يُنسجْ على مِنواله، وأنَّه لم يسبقْه إليه سابق ولم يلحقْه إليه لاحِق، وأنَّه كتابٌ عظيمُ النفعِ بَدِيع الوضع، أثنوا عليه كثيرًا نثرًا ونظمًا، وحثّوا على حفظه، والعناية بدراسته، لأنَّه كتابٌ فريدٌ في الحقيقة في بابه، حتى قال حسان الدعوة الشيخ بن سِحمان رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قدْ ألَّف الشيخُ في التَّوحِيد مختصرًا ... يَكْفي أَخَ اللُّبِّ إيضَاحًا وتِبيانَا
فيه البَيانُ لِتوحيدِ الإلهِ بِما ... قدْ يَفْعل المرْءُ للطَّاعَات إيمانَا
فاشْدُدْ يَديكَ بهذا الأصْل مُعتمدًا ... يُورثك فيما سِواهُ اللهُ عِرْفَانا
وقُلْ جَزا اللهُ شيخَ المسْلمينَ بِما ... أَشَادَ للتَّوحيدِ أرْكَانا

رحمة الله على الشيخ، وجزاه عنَّا خيرًا.

أمَّا طبعات الكتاب: فإنَّ الكتاب طبعاته كثيرة ويصعب في الحقيقة حصرها وتعدادها، كما أنَّ للعلماء على هذا الكتاب جهودٌ عظيمة؛ شُرِحَ هذا الكتابُ شرحًا كثيرًا مختلفًا ؛ منْه الشرح المُوجز الذي إنَّما هو عبارة عن تعليقات، ومنه شرحٌ متوسطٌ، ومنه شرحٌ مبسوطٌ وموسَّعٌ(١٥).

أوّل الشروح المؤلَّفة على هذا الكتاب: هو التيسير؛ «تيسير العزيز الحميد» للشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب؛ حَفيد الإمام، المتوفى سنة ألف ومائتين وثلاثٍ وثلاثين؛ هذا الكتاب هو أهمُّ شروح الكتاب ومن أوسع هذه الشروح وأدقّها، والشيخ سليمان رَحِمَهُ اللَّهُ إمامٌ فذّ، على علمٍ عظيم بالتوحيد وبحديث رسول الله ﷺ وبالرجال والعِلَل، ولذلك كان ينبِّه تنبيهاتٍ مهمّة -لاسيَّما في مسألة الحديث- فإنَّ الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ فيما يظهر قد كتب بعض الأحاديث من حفظه، ولذلك حصل عنده روايةٌ بالمعنى له، وقد يحصل وهْم في العزو، وهو قليل، كان يتتبعه وينبّه عليه في ذلك الشيخ سليمان رَحِمَهُ اللَّهُ في «التيسير». تُوفيَ الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ قبل أن يُتِمَّ الكتاب، انتهت المُسوّدة التي وُجِدَتْ للشيخ عند نهاية باب (ما جاء في منكري القدر)، بَقِيَ عليه سبعة أبواب.

---

(١٥) والكتاب قد جعل الله عَزَّوَجَلَّ له قَبولًا ، واحتفى به أهل العلم منذ أن ألّفه، ونُسخ هذا الكتاب كثيرًا، وطُبع طبعاتٍ لا تكادُ تُحْصَر، وشُرِحَ في مؤلفات حافلة، منها الموسَّع، ومنها المتوسّط، ومنها المختصر، ودُرِّسَ في دروسٍ لا تحصى، منها ما هو مُسَجَل ومنها ما لم يسجَّل.

ثمَّ من حيثُ الترتيب يأتي بعد ذلك: شرح الشيخ عبد الهادي العُجَيلي المسمَّى بـ«التجريد»، والشيخ عبد الهادي من علماء المنطقة الجنوبية في المملكة، توفي سنة اثنتين وستّين ومائتين وألف، وهو يُعتبرُ من حيثُ التاريخ الشارح الثاني من الشروح الموجودة والمطبوعة لكتاب التوحيد، وفيه فوائد وعناية لا سيَّما في باب اللُّغة وتحرير المعاني التي أرادها الشيخ في الكتاب.

يَلِي ذلك: كتاب «فتح الحميد بشرح كتاب التوحيد» لعثمانَ بن منصور التميمي، متَوفى سنة اثنتين وثمانين ومائتين وألف، وهذا الكتاب أوسع شروح كتاب التوحيد، لكن لم يحفَلْ به علماء التوحيد ولم يحصل له انتشار، وما طُبِعَ إلا حديثًا عن رسالتين علميّتين. والكتاب مؤلِّفه معروف وله مواقف سلبية من دعوة الشيخ محمد رَحِمَهُ اللَّهُ، وهذا الكتاب له فيه كلامٌ حَسَنٌ وتحريراتٌ جيدة، وفيه أيضًا سقطات وهفوات، وقد حذَّر منه بعض أئمة التوحيد، كالشيخ عبد اللَّطيف بن عبد الرحمن رَحِمَهُ اللَّهُ ؛ فإنَّه بيَّن أنَّ له في هذا الكتاب سقطات لا يحصيها إلا الله عَزَّ وَجَلَّ ؛ من ذلك: أنه يورد أحيانًا في هذا الكتاب كلام أهل السُنَّة وكلام المتكلّمين، ورُبَّما يرجّح خلاف مذهب أهل السُنَّة والجماعة، كما قد تجده في تفسير قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]؛ له فيها كلام نقله عن بعض المتكلّمين خلاف مذهب أهل السُنَّة والجماعة، وله من هذا نظائر، المقصود أن هذا الكتاب ليس من الكتب التي قد حَفِلَ واهتمَّ بها علماء التوحيد.

ﭸ **الشرح الذي يليه:** «فتح المجيد» للشيخ الإمام المجدِّد الثاني حَفيد المؤلف؛ الشيخ عبد الرحمن بن حسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهذا الكتاب يُقابِل كتاب «التيسير»، فإذا كان كتاب «التيسير» له الأوّلية والسَّبق فإنَّ لهذا الكتاب الشّهرة والانتشار، وهو أشهر شروح كتاب التوحيد، والشيخ عبد الرحمن رَحِمَهُ ٱللَّهُ ألَّفه بعد وفاة ابن عمّه الشيخ سليمان بن عبد الله، وقد طال عمر الشيخ فإنه توفي سنة خمسٍ وثمانين ومائتين وألْف، وكتابه تهذيبٌ لـ«التيسير»، لكنَّه ضمَّنه فوائد حسنة وزوائد على ما في شرح الشيخ سليمان في «التيسير».

ﭸ وللشيخ عبد الرحمن أيضًا اختصارٌ لـ«الفتح»، وضمّنه أيضًا على اختصاره زوائد على «فتح المجيد»؛ شرْحه «فتح المجيد» وهذا اختصار، ورُبَّما يسمّيها بعض أهل العلم (حاشية على كتاب التوحيد)، وهي المشهورة بـ «قُرّة عُيون الموحّدِين»، وقد سمَّاها بهذا ابنُه الشيخ عبد اللَّطيف بن عبد الرحمن، لم يسمِّها بذلك الشيخ عبد الرحمن وإنَّما تلميذه الشيخ عبد اللَّطيف رحمهما الله رحمةً واسعةً، وهي حاشية من أنفسِ الحواشي على كتاب التوحيد.

ﭸ **أيضًا من الشروح المهمة:** «إبطال التنديد باختصار شرح كتاب التوحيد» للشيخ حَمد بن عتيق رَحِمَهُ ٱللَّهُ. والشيخ حمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ من تلاميذ الشيخ عبد الرحمن، توفي سنة إحدى وثلاثمائة وألْف، وكتابُه هذا من الشروح الحسنة اختصر فيه «التيسير» وزاد فيه زوائد نفيسة.

❁ **أيضًا من الجهود على هذا الكتاب**: حاشية مختصرة ودقيقة جدًا للشيخ عبد الرحمن بن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، المتوفى سنة ستٍ وسبعين وثلاثمائة وألْف، سمَّاها «القول السديد»، ضمَّنها رَحِمَهُ ٱللَّهُ غُررًا من القواعد والأصول والضّوابط في باب التوحيد، ولم يستوعبْ الكلام على كتاب التوحيد كله، بل رُبَّما أغفلَ الكلام على بعض أبواب كتاب التوحيد.

❁ **أيضًا من الشروح والحواشي على هذا الكتاب**: حاشية نفيسة جدًا وهي من أهمّ الحواشي؛ «حاشية كتاب التوحيد» للشيخ عبد الرحمن بن قاسم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، متوفى سنة ألْف وثلاثمائة واثنين وتسعين، حاشيتُه هذه ضمَّنها ما في شرحَي حَفيدَيه -الشيخ سليمان والشيخ عبد الرحمن- وأيضًا ما اقْتبسَه من علْم مشايخه؛ الشيخ عبد الله بن عبد اللَّطيف، والشيخ سعد بن حَمد بن عتيق، وأيضًا الشيخ محمد بن إبراهيم رحمهم الله، وغيرهم من أهل العلم، لذلك هذه الحاشية حاشيةٌ نفيسةٌ جدًا.

❁ **هناك شروحٌ معاصرة** وعناية أهل العلم بهذا الكتاب لم تزلْ ولله الحمْد، من أشهر تلك الشروح المعاصرة: «القول المُفيد» شرح الشيخ محمد بن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهو شرحٌ نفيس وفيه تحريراتٌ نافعاتٌ. كذلك: «إعانة المستفيد» للشيخ صالح الفوزان حفظه الله، وكذلك «التمهيد» للشيخ صالح آل الشيخ، وغيرهم من أهل العلم.

المقصود: أنَّ الكُتُب والمؤلَّفات والحواشي والدّراسات على هذا الكتاب كثيرة، وهي مِمَّا يُطلعُكَ على أهمّية هذا الكتاب وعلى عظيم النفع الذي حصل به، وقد نفعَ الله ﷻ بهذا الكتاب وحصل به خيرٌ عظيمٌ.

ومِمَّا يُسْتملَحُ ويَحسُنُ أن يُذكرَ في هذا المقام: قصة حَكَاها الشيخ محمد بن إبراهيمَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهي موجودة في فتاوى الشيخ ، في الجزء الأول في صحيفة خمسٍ وسبعين من فتاويه، قصة حَكَاها الشيخُ عن أحدِ أهل العلم من أهل نجد واسمه (عبد الرحمن البكْري)، ذكر الشيخ أنَّه من تلاميذ عمِّه الشيخ عبد الله بن عبد اللَّطيف، وهو أنَّه كان يطلب العلم في نجد ثمَّ رأى أن يدعو إلى التوحيد في عُمان، فذهب إلى هناك وافْتَتَحَ مدرسةً يُعلِّمُ فيها التوحيد، كما أنَّ له تجارة؛ كان إذا قلَّ المال في يده أخذ تجارةً أو بضائع من بعضِ أهل تلْك المناطق ورحلَ إلى الهند لكي يحصِّل مالًا ثمَّ يعود ، وربَّما جلس نصف سنة هناك.

المقصود يقول: كان بجوار الدكّان الذي كان يتاجر فيه عالمٌ هنديٌّ له تلاميذ، وكان كلَّما ختمَ الدرس دعا على محمد بن عبد الوهَّاب وسبَّه ولعنَه، وهم يؤمِّنون، يقول: فأهمَّ هذا الشيخ عبد الرحمن البكْري ذلك، وكان هذا الشيخ يمرُّ به إذا انتهى من الدرس ويقول له: "أنا أعرف العربية وأُحِبُّ أن أسمعَها من أهلِها"، يقول: فكنتُ أضيفُه وأعطيه ماءً باردًا، فاهْتدى إلى أن أخَذ كتاب التوحيد وأزال غلافَه عنه حتى لا يُعرف المؤلّف ووضعه على رفٍّ عنده، ثمَّ لمَّا جاءه هذا الشيخ استأذنه في أن يُحضرَ له بطّيخةً، فتركه ولمَّا عاد إليه وجد أنَّ هذا الشيخ قد مدَّ يدَه إلى هذا الكتاب وأخذ ينظر فيه، فلمَّا رجع سأله قال:

لمن هذا الكتاب؟ فإنَّ فيه نفَس البخاري، وصَدَقَ رَحِمَهُ اللَّهُ هذا الكتاب فيه شَبَهٌ كبير بما بوَّبه البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في صحيحه.

المقصود: أنَّ الشيخ عبد الرحمن أظهر جهلَه بهذا المؤلّف، ودعاه إلى أن يذهبا إلى أحدِ الأشخاص -يبدوا أنَّه من أهل التوحيد عنده مكتبة- وذكر الشيخ محمد أنَّهما ذهبا إلى هذا الرجل وأعطاه الكتاب وقال: لمن هذا الكتاب؛ فإنَّ الشيخ يسأل عن مؤلّفه؟ فَفَهِمَ صاحب المكتبة الأمر ودعا بمجموعة التوحيد وقارن بين الكتابين وقال: هذا هو «كتاب التوحيد» للشيخ محمد بن عبد الوهَّاب. يقول الشيخ: فصرخَ الرجل مُغْضَبًا، فقال: "محمد بن عبد الوهَّاب الكافر!" ثمَّ إنَّه توقّف وقفةً وتأمَّل في شأنه ثمَّ قال: "إن كان هذا الكتاب لمحمد بن عبد الوهَّاب فقد ظلمْناه".

وكان أن هدَى الله هذا الشيخ إلى دعْوة التوحيد بعد ذلك وأصبح -كما يذكر الشيخ محمد بن إبراهيمَ رَحِمَهُ اللَّهُ- أنَّه يدعو للشيخ محمد بعد أن يفرغ من درسِه، بعد أن كان يدعو على الشيخ! وصار تلاميذ هذا الشيخ دعاةً إلى التوحيد في نواحي الهند؛ وهذا من توفيق الله عَزَّ وَجَلَّ وإنعامه على هذا الإمام وعلى دعْوة التوحيد[١٦].

---

(١٦) المقصود أنَّ هذا الكتاب كتابٌ قيِّم وعظيم، وينبغي على طالب العلم أن يعتني به، وأن يَشْدُدَ يديه عليه، وأن يحفظه إن تيسَّر له ذلك.وأنا أوصيكم -أيها الإخوة- بحفظ هذا الكتاب، ولعل مِثْلَ هذا الدرس ما يكون سبباً في شَحْذِ الهمة على حفظ هذا الكتاب، احرص على أن تحفظه، فإن أبيت فأكثرِ النظر فيه واقرأه مرات وكرّات حتى تُحْفَرَ معانيه

قال المصنف رحمه الله:

بِسْمِ اللّهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ

١-كِتَابُ التَّوْحِيدِ

وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦]

وَقَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]

التي دلت عليه في ذاكرتك، فإنَّ هذا من أهم الأشياء، فالتوحيد حق الله على العبيد، التوحيد هو الغاية التي من أجلها خَلَقَ الله الخَلْق، التوحيد هو اعتقاد ما يجب لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وما يختص به جَلَّ وَعَلَا. إذًا عِلمُ التوحيد علمٌ يدور على العلم بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ، وإذا كان الله أكبر من كل شيء فالعلمُ به أكبر من كل علم، وإذا كان الله أعظمَ من كل شيء فالعلمُ به أعظمُ من كل علم.

وماذا تكون قد عَلِمْتَ إذا كنتَ تجهل ربك يا عبد الله!! إذا كنت تجهلُ ما له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من الأسماء والصفات التي دلَّنا عليها كتابُ الله وسنة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، أو حقَّه على العباد؛ وهو أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، وهذا له تفاصيلُ كثيرة لابدَّ من أن تكون على علمٍ بها؛ ماذا تعلم إذا كنت تجهل ذلك يا عبد الله!!.

إذًا من أهم المهمات وأوّلِ الأوّليات العنايةُ بعلمِ التوحيد؛ دَرْسًا وحِفْظًا ومُطالعة، وأن تكون متأملاً في نصوصه وآياته، ولا شك أنَّ أعظم كتابٍ للتوحيد هو كتاب الله جَلَّ وَعَلَا ، ثم ما صح عن رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فهذه القضية ينبغي أن تكون منك على بال وأن تكون منك على قَدْرٍ من الاهتمام.

وَقَوْلِهِ: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣] الآية.

وَقَوْلِهِ: ﴿وَاعْبُدُوا اللهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء:٣٦] الآية.

وَقَوْلِهِ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ﴾ [الأنعام: ١٥١]. الآيات.

قَالَ ٱبْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى وَصِيَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ الَّتِي عَلَيْهَا خَاتَمُهُ؛ فَلْيَقْرَأْ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١]، إلى قوله: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام:١٥٣]» الآية.

وَعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: كُنْتُ رَدِيفَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى حِمَارٍ، فَقَالَ لِي: «يَا مُعَاذُ؛ أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَى العِبَادِ؟، وَمَا حَقُّ العِبَادِ عَلَى اللهِ؟»، قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «حَقُّ اللهِ عَلَى العِبَادِ: أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقُّ العِبَادِ عَلَى اللهِ: أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ أَفَلَا أُبَشِّرُ النَّاسَ؟، قَالَ: «لَا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا». أَخْرَجَاهُ فِي «الصَّحِيحَيْنِ».

❁ ❁ ❁

قال الشارح وفقه الله:

بدأ المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتابه بالبسملة، قال: (**بسم الله الرحمن الرحيم**)، والحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «الفتح» ذكر أنَّ المصنفين قد استقر أمرهم على البداية في مصنفاتهم بالبسملة[١٧].

وهذا مما جرى عليه كتاب الله جَلَّ وَعَلَا فهو مُفتتحٌ بالبسملة، وكل سورة مُفتتحة بالبسملة.

وهذه سُنَّةِ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في رسائله ومخاطباته؛ فإنَّه قد بَعَثَ إلى هرقل عظيم الروم كما في «الصحيحين» من حديث ابن عباس عن أبي سفيان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ: بدأ كتابه إلى هرقل بـ(بسم الله الرحمن الرحيم). كذلك كتابُ الصلح كما في «الصحيحين» أيضاً في قصة الحُديبية بدأه بـ(بسم الله الرحمن الرحيم)[١٨].

كذلك أصحابه من بعده؛ فأبو بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ كما في «البخاري» حينما بَعَثَ كتاب الصدقات إلى البحرين بدأه بـ(بسم الله الرحمن الرحيم)، فهذا كتابُ علم افُتتح بـ(بسم الله الرحمن الرحيم).

---

(١٧) قال الحافظ ابن حجرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أوائل «فتح الباري»: «**وقد استقرَّ عمل المصنِّفين على افْتتاح كُتُب العلم بالبسْملة**» ا.هـ. وهذا عمل كثيرٍ من المتقدِّمين وربَّما أقول جميع المتأخّرين.

(١٨) وكما ثبت في «الصحيحين» أيضًا من حديث البراء في كتابة العقد الذي كان يوم الحُديبية؛ فدلَّ هذا على أنَّ الأمور المهمَّة كالعقود تُفْتَتَحُ بـ (البسْملة).

بل إنَّ هذه سنة الأنبياء فيما يظهر ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾[النمل:٣٠].

والعلماء لهم كلام طويل في الباء في: (بسم الله الرحمن الرحيم)، هل هي للمصاحبة؟ أو هي للاستعانة؟ أو هي لغير ذلك؟ والأقرب والله أعلم أنَّها: للاستعانة.

والمُقَدَّرُ هاهنا في (الباء)[١٩]؛ اخْتُلِفَ فيه أيضًا هل هو اسمٌ أو فعل؟ وإذا كان فعلاً فما هو؟ والأقرب والله أعلم أنه يُقَدَّرُ: فِعْلاً خَاصًا مُتَأَخِّراً.

أمَّا (فِعْلاً)؛ فلأنه الأصلُ في العمل.

و(متأخِّراً)؛ للتبرُّكِ بذكر اسم الله عَزَّوَجَلَّ أولاً.[٢٠]

و(خاصًا) يعني: بحسب ما يقتضيه الحال، فحينما يكتب الإنسان فإنه يقول: (بسم الله الرحمن الرحيم)، والتقدير: أنني أستعين باسم الله وأتبرك باسم الله في كتابتي، كذلك إذا قالها قبل أن يقرأ أو قالها قبل أن يكتب؛ فإنه يستعين

---

(١٩) اتفق أهل العلم على أنَّ الجارَّ والمجرور هاهُنا (بسمِ الله) متعلِقٌ بمحذوف، واختلفوا اختلافًا طويلًا في هذا المحذوف أهو اسمٌ أو فعلٌ؟ والأمر فيه قريب؛ بالاسم والفعل جاء كتاب الله ﷻ؛ فقال الله سبحانه:﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق:١]، وقال سبحانه:﴿ بِسْمِ اللهِ مَجْرَاهَا ﴾ [هود:٤١].

(٢٠) فقد ذكر كثيرٌ من أهل العلم أنَّ في هذا مراعاةً للأدب مع الله ﷻ، لاسيَّما والإنسان راغبٌ إليه جلَّ وعلا أن يعينه وأن يبارك له في فعله؛ فناسب أن يكون التقديمُ له.

بالله جَلَّوَعَلَا ويتبرك بذكر اسمه الذي تَحُلُّ البركة بذكره جَلَّوَعَلَا ، ويفعل ذلك بالاستعانة بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

وهذا أحسنُ مِنْ أن يُقال: إنه يَفتتح أو يَبتدأ بذكر اسم الله، وذكر شيخ الإسلام رَحِمَهُٱللَّهُ أنَّ التقدير بالفعل أولى من التقدير بالابتداء، حتى يكون الإنسان مستعيناً بالله جَلَّوَعَلَا في كل الفعل.

(بسم الله الرحمن الرحيم)

بدأ المؤلف رَحِمَهُٱللَّهُ بالبسملة ولم يذكر المقدمة المعتادة عند المؤلفين لاسيما من المتأخرين من الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله الكريم صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ، ولعله كان في هذا:

◉ مقتديًا بأئمة الحديث المتقدمين، كمالك في «موطئه»، والبخاري في «صحيحه»، وعبدالرزاق في «مصنفه»، وكذلك أحمد في «مسنده»،[٢١] وغيرِهم من أهل العلم.

◉ وقد يُقال: إنَّه رأى أنَّ المقصود هو التبرك بذكر الله ﷻ وقد حصل بالبسملة.

◉ على أنه قد جاء في نسخةٍ من نسخ كتاب التوحيد الثابتة كما أشار إلى هذا الشيخ عبدالرحمن بن حسن في مُفْتَتَح «فتح المجيد»، ذكر أنه وقع على

---

(٢١) و«أبي داوُد»، وغيرهم كثير من أهل العلم افْتتحُوا كتبَهم المصنَّفة في العلم بـ (البسْملة).

نسخة للكتاب فيها الحمدلة وفيها الصلاة والسلام على الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(٢٢).

---

(٢٢) **وهاهُنا قد يقول قائل**: بدأ المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالبسملة وأخْلى كتابه من أمرين جرت عادة المؤلّفين على ذكرهما:

أمَّا الأمر الأول: فهو الحمدلَة والصلاة والسلام على الرسول ﷺ.

وأمَّا الأمر الثاني: فهو المقدّمة التي تُبيّنُ موضوع الكتاب والمقصود من تأليفه.

أمَّا عن (الحمدلَة) ؛ فإنَّ الجواب عن ذلك أنَّ يُقالَ:

❁ قد يكون مُراد المؤلّف موافقة ما جرى عليه كثيرٌ من المُتقدّمين -كما أسلفتُ- وهو: أنهم يفتتحون بالبسملة فقط، نعم! قِلّةٌ من المُتقدّمين وجُلُّ المتأخّرين على ذكر الحمدلَة والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ، ومِن المتقدّمين من فعل هذا؛ كمُسلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، لاسيَّما وأنَّه قد جعل خطبةً لكتابه. لكن يُقال: قد يكون مراد المؤلّف موافقةَ ما عليه المُتقدّمون، لاسيَّما والمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ متابعٌ في كثيرٍ من خصائص هذا الكتاب للإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في صحيحه، والبخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ إنَّما افتتح كتابه بالبسملة دون الحمدلة والصلاة على الرسول ﷺ؛ **هذا جواب**.

❁ **وجوابٌ ثانٍ أن يُقالَ**: إنَّ المؤلّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهكذا مَن تقدَّم أجرَوا هذه الكُتُب مُجرَى الرسائل التي تُفتتح بالبسملة، وليس مُجرى الخُطب التي يُناسبها الحمدلَة، فكأنَّه رسالةٌ يكتبها الشيخ لأهل العلم والمسلمين لكي ينتفعوا بها.

❁ **وجوابٌ ثالث أن يُقالَ**: إنَّ المقصود هو ذكر الله ﷻ ، سواءً بسملَ، أو حَمِدَ الله، أو صلى على النبي ﷺ ، المقصود أن يذكر الله لتحصل البركة بذلك، وهذا قد حصل بالبسملة لاسيَّما وهي مشتملةٌ على ثناءٍ بليغٍ على الله ﷻ.

❁ **وجوابٌ رابع أن يُقالَ:** لعلَّ المؤلّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ حَمِدَ الله وصلى على النبي ﷺ بلسانه، ولا يلزم أن يذكر هذا بقلَمِه.

❁ **وجوابٌ خامس أن يُقالَ:** إنَّه قد جاء في بعض النُّسخ -نُسخ كتاب التوحيد- أنَّ المؤلّف افتتح بعد قوله: (بسم الله الرحمن الرحيم) بقوله: (الحمد لله وأصلي وأسلِّم على محمدٍ وآله وصحبه)، وذكر هذا الشيخ عبد الرحمن بن حسن في «فتح المجيد» قال: (وقد وقع لي نُسخةٌ بخطّ المؤلف فيها كذا وكذا)، وهي التي اعتمدها في «فتح المجيد»، فإنَّه ذكر هذه النُّسخة التي فيها: البسملة والحمدلة .. إلخ.

جُلُّ هذه الأجوبة قد أجاب بها أيضًا ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «الفتح» عن عدم افتتاحِ البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في صحيحه بالحمدلَة والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ.

أمَّا المُقدّمة ؛ وهو كونه جعل الكتاب خاليًا من ذكر المُقدّمة كما هي عادةُ أهل العلم، فإنَّ الجواب عن هذا أن يُقالَ:

❁ إنَّ الغرض من المُقدّمة هو: بيان حدِّ موضوع الكتاب وبيان الغرض من تأليفه، وهذا قد حصل بقوله: (كتاب التوحيد) ، فكلّ من يقرأ هذه الكلمة (كتاب التوحيد) فإنه يعلم موضوع الكتاب، وأنَّه مُختصٌ ببيان مُتعلقات التوحيد، وبيان حدِّه، وأنواعه، ومُكمّلاته، وما يقدح فيه؛ فاستغنى بهذا رَحِمَهُ ٱللَّهُ تغليبـًا لجانب الإيجاز على جانب الإطناب.

❁ **وأجاب بعض أهل العلم بجوابٍ ثانٍ** وهو: أنَّه رَحِمَهُ ٱللَّهُ إنَّما أراد ألّا يتقدَّم بين يدي الله ورسوله ﷺ، لاسيَّما والكتاب كتاب توحيد، فمن تعظيم الله ومراعاة الأدب معه ومع رسوله عليه الصلاة والسلام؛ أن يجعل الافتتاح بكلام الله، كما فعل رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ حيث قال: (كتاب التوحيد) ، ثم عقَّب على هذا بقوله: (وقول الله تعالى:﴿وَقَضَى رَبُّكَ﴾ [الإسراء:٢٣])، وذكر خمسة آيات، وذكر حديثًا عن رسول الله ﷺ وذكر أثرًا. وهذا الجواب لطيفٌ، وأجاب به بعض أهل العلم عن صَنيع الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كونه لم

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**كتاب التوحيد**)؛ كتاب : مصدرُ كَتَبَ يَكْتُبُ، وهذه المادة تدور على معنى (الجمع)، يقولون: تَكَتَّبَ بنو فلان إذا اجتمعوا، ومن ذلك: الكتابة؛ لأنَّ فيها جمعـًا بين الحروف والكلمات.

والكتاب على وزن فِعَال بمعنى مفعول، كتاب بمعنى: مكتوب، فراش بمعنى: مفروش، فعال بمعنى: مفعول؛ فالكتاب بمعنى مكتوب، وسمِّيَ كذلك لأنَّه قد جُمِعَ فيه الكلام، أو جُمِعت فيه الأسطر، أو جُمِعت فيه الحروف.

فهو كتابٌ في التوحيد، مضافٌ ومضافٌ إليه.

و(**كتاب**) الأقرب أن يُعْرَبَ بأنَّه: خبرٌ لمبتدأ محذوف؛ هذا كتابُ التوحيد؛ فهو كتابٌ في شأن التوحيد وفي موضوع التوحيد، جمَع فيه كاتبه شيئًا من العلم والكلام المتعلق بالتوحيد.

أمَّا (**التوحيد**) فإنَّه مصدر وَحَّدَ يُوَحِّد، وهذه المادة في اللغة تدور على معنى (الانفراد)، فالتوحيد في اللغة:

- جَعْلُ الشيء واحداً.
- أو الحكم على الشيء بأنه واحد.
- أو اعتقاد الشيء واحدًا.

يجعلْ حمدلةً لكتابه الصحيح، وإن كان الحافظ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد تعقَّب ذلك ونظر فيه، كما تجده في أول «الفتح».

بكلٍّ قال أهل العلم(٢٣).

والتوحيد في الشرع: هو إفرادُ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته.

وَعَبّرَ شيخ الإسلام رَحِمَهُٱللَّهُ في الجزء الثالث من «الفتاوى» بكلمةٍ حسنةٍ عن التوحيد وهي: (أنَّه لا يَشْرَكَهُ أحدٌ في شيء من خصائصه)، فالله جَلَّوَعَلَا له ما يختص به ولا يشاركه فيه أحد؛ وهذا هو أنَّ له الربوبية وأنَّ له الأسماء والصفات التي اختص بها، كما أنَّ له حقًّا على العباد لا يقبل سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أن يشاركه فيه مشارك، وهو أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا.

والتوحيد قد دل استقراءُ الكتاب والسنة على أنَّه ينقسم إلى قسمين:

◉ توحيدِ المعرفة والإثبات.

---

(٢٣) وبعضهم ذكر أنَّه لا يصلح أن يُقالَ في التوحيد إذا نُسِبَ إلى الله ﷻ جَعْلُك الشيء واحدًا، كما ذكر هذا السَّفَّارِيني في «اللَّوامع»؛ فإنَّه ذكر أنَّ هذا لا يصلح؛ لأنَّ الله ﷻ واحدٌ بالذَّات لا بجعْل العباد له واحدًا .

وما ذكره رَحِمَهُ ٱللَّهُ ليس بوجيه؛ لأنَّ الجعل يأتي ويُرادُ به:

-الخلق والتصيير؛ ﴿**الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا**﴾ [البقرة:٢٢] .

-ويأتي كما يقول الرَّاغب الأصْفهاني في «المفردات» بمعنى: الحكم بالشيء على الشيء، ﴿**وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا**﴾ [الزخرف:١٩]، ﴿**الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ**﴾ [الحجر:٩١]. وليس المقصود هنا أنَّهم صيّروهم أو خلقوهم وإنَّما المقصود أنَّهم حكموا على الملائكة بأنَّهم إناث.. إلخ.

◉ توحيدِ القصد والطلب.

وإن شئت فقل: ينقسم إلى:

◉ التوحيد العلمي.

◉ التوحيد العملي(٢٤).

وبعض أهل العلم يجعل القِسمة ثلاثية فيقول التوحيد ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

◉ توحيد الربوبية.

◉ توحيد الألوهية، وإن شئت فقل: إلى توحيد العبادة، والمعنى واحد؛ لأنَّ الألوهية هي العبادة.

◉ توحيد الأسماء والصفات.

هذا التقسيم مستفادٌ من استقراء كلام الله ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبالتالي فإنَّ من قسَّم هذا التقسيم ما أتى بشيء جديد، إنَّما أبرز ما هو موجودٌ في الكتاب والسنة(٢٥).

---

(٢٤) وفي «اجتماع الجيوش الإسلامية»، وفي غيرهما عبَّر [ابن القيم]:

- بالتوحيد العلْمي الخبري الاعتقادي،

- والتوحيد القصْدي الطلبي الإرادي.

وكلُّ هذه المصطلحات تعود على معنًى واحد.

(٢٥) وهنا يحْسنُ أن يُشارَ إلى أنَّ بعض أهل البدع لم يزالوا يُثيرون قضيةً وهي: أنَّ هذا التقسيم تقسيمٌ مُحدَثٌ مبتدَعٌ، ابْتُدِعَ من ابن تيمية وتابعه عليه مَن بعده إلى محمد بن عبد

الوهَّاب وإلى تلاميذه ومَن هم على مدرسته إلى اليوم! وهذا الإنكار دالٌ على جهْل قائله، وقد نُوقِشَتْ هذه المسألة من عددٍ من أهل العلم، وأنا أذكر فيها قولًا مختصرًا لعلَّه يكفي في الردِّ على هؤلاء.

يُقالُ لهذا المُنكر: أنت بين أمرين:

- إمَّا أن تقول: إنَّه لا يوجد شيءٌ اسمُه توحيد الله بالرّبوبيّة وتوحيده بالألوهية مثلًا، يعني ليس هناك شيءُ اسمه أن تُفرد الله بالرّبوبيّة، وأن تُفرده بالألوهية؛ وقائل ذلك: إمَّا لا عقل له ولا يدري ما يخرج من رأسه، أو أنَّه ملْحدٌ كافر، لا يثبت انفرادًا لله ﷻ بالخلْق والملْك والتدبير، ولا يؤمن باسْتحقاق الله ﷻ بالعبادة ولا يؤدّيها له، وهذا لا كلام لنا معَه.

- أو هو قائل: إنَّه لا فرْق بين التوحيدين، توحيد الرّبوبيّة مثلًا هو توحيد الألوهية والتفريق باطل. إذًا هو يناقش في التفريق وأنَّ هذا شيء وهذا شيء. **ومثْل هذا يُقالُ له:**

-ماذا تقول في رجلٍ يؤمن بأنَّ الله ﷻ وحده هو الخالق الرازق المُدبّر لكنَّه يسجد للأصنام ويتعبّد لها؟

إن قلتَ: هو مسلم فقد خالفتَ إجماع المسلمين بلْ قد كفرتَ بالله.

وإن قلتَ: هو مشركٌ فيُقالُ له: ماذا تُسمّي اعتقاده بأنَّ الله وحده الخالق الرازق المدبّر؟

إن قلتَ أُسمّيه توحيدًا فيُقالُ لك: ومن أين إذًا جاءه الشرك وقد جاء بالتوحيد؟

إن قلتَ مشرك يُقالُ لك: ماذا تسمّي هذا الاعتقاد؟ إن قلتَ أُسمّيه توحيدًا، يُقالُ: كيف تصِفه بالشرك وقد جاء بالتوحيد؟ وإن قلتَ هو جاء بجزءٍ من التوحيد وخالف في جزءٍ آخر فيُقالُ: قد فرَّقتَ وهدمتَ قولك، ونحن لا نُنازعُك في ألفاظ، سمِّ هذين النَّوعين جُزأين أو سمِّهما ما شئْتَ فالنزاع معَك ليس في الألْفاظ وإنَّما في المعاني، فأنت قد قلتَ بالتفريق بين هذين الأمرين ولابدَّ.

-**ويُقالُ له ثانيًا**: إنَّ عدم تفريقكَ بين توحيد الرّبوبيّة وتوحيد الألوهية جهْلٌ منك بلُغة العرب وبكتاب الله ﷻ:

أمَّا جهْلك من جهة اللُّغة: فإنَّ كلمة (ربّ) وكلمة (إله) مختلفتان مبنًى ومعنًى، أمَّا المبنى: فإنَّ (إله) الذي تُنسبُ إليه الألوهية فِعَال بمعنى: مفْعول، كتاب بمعنى: مكتوب، بساط بمعنى: مبسوط، فراش بمعنى: مفروش، فـ(إله) إذًا على زِنَةِ: اسم المفعول. وأمَّا (ربّ) فأصلها: (رَابٌّ) وهي على زِنَةِ: اسم الفاعل، ويا جهْل مَن لا يفرّق بين اسم المفعول واسم الفاعل.

وأمَّا من جهة المعنى: فإنَّ الألوهية التي هي المصدر (أَلِهَ، يَأْلَهُ، إِلهةً، وأُلُوهِيّةً) ليست هي الرّبوبيّة؛ فالألوهية : بمعنى العبادة والتَّذلّل باتفاق أهل اللُّغة، (أَلَهَ يَأْلَهُ إذا ذلَّ وتعبَّد)، وأمَّا الرّبوبيّة: فإنَّ الرَّب هو المالك السيّد، كما جاء في الحديث في ضالة الإبل: «**حتى يلْقاها ربُّها**»، «**أن تَلِدَ الأمةَ ربَّتَها**» ، فأينَ معنى المعبود من معنى المالك السيّد؟ فكيف يجعلهما كلمتين في معنًى واحد، هذا جهْلٌ منه باللُّغة.

وأمَّا الجهْل بكتاب الله: فإنَّه يلزم منه أنَّ قول المسلم: (الله ربُّ النَّاس) وأنَّ (الله إله النَّاس) شيءٌ واحدٌ لا فرْق بينهما، وهذا جهْل بكتاب الله؛ لأنَّ الله ﷻ قال: ﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ**﴾ [الناس: ١-٣] ، وعلى قولك يكون هذا تكرارًا لا فائدة منه، وكلام الله يُنزَّهُ عن التَّكرار الذي لا فائدة فيه.

كما أنَّ في قولك نفيًا لبلاغة القرآن؛ لأنَّ قولك يقتضي أنَّه يمكن أن يكون معنى السورة يمكن أن تقول: (قلْ أعوذ برب الناس، ملك الناس، ربّ الناس) وهذه لغةٌ لا يقع فيها أبلْد الناس فكيف بأفصح الكلام وأبلغه وهو: كلام الله ﷻ! فاتضح بهذا أنَّ التسْوية بين الرّبوبيّة والألوهية جهْلٌ من قائلها، وخطأٌ عظيم.

ويُقالُ أيضًا في الردِّ على هذا الشخص: إذا قال -وما أكثر ما قالوا- يقولون: إنَّ النبي ﷺ لم يكن يقول لأصحابه: اعلموا أنَّ التوحيد ثلاثة أقسام، فيُقالُ في الردِّ عليهم: وكذلك لم يكن النبي ﷺ يقول لأصحابه: اعلموا أنَّ التوحيد نوعٌ واحد وأنَّه لا فرق بين الرّبوبيّة والألوهية، هذا جواب متَّجهٌ أو لا؟ جوابٌ متَّجه، وكلُّ جواب لهم على ما أوردْناه هو جوابنا عليهم في قولهم.

ويُقالُ ثانيًا: ومَن قال لك إنَّ النبي ﷺ لم يقلْ ذلك؟ نعم! لم يقلْه بهذا اللَّفظ لكنَّه قاله بالمعنى، والعبرة إنَّما هي بالحقائق والمعاني لا بالألْفاظ والمباني، وأدلتُنا على ذلك لا تُحصى.

ويُقالُ ثالثًا: إنَّ قولك يقتضي أنَّ جميع التقسيمات الاسْتقرائية الشرعية غلطٌ وباطلٌ وضلالٌ، وبالتالي فكُتُب الفقْه وكُتُب الاعتقاد وغيرها من كُتُب العلم التي تطفح بالتقسيمات الاسْتقرائية كلّها غلطٌ وانحرافٌ وضلالٌ؛ لأنَّها جميعًا لم يأتِ فيها حديثٌ واحد يقسّم فيها النبي ﷺ المسألة إلى أقسام، أو يُعدّدُ شروطًا، أو يذكر أركانًا، إلى غير ذلك، فكما تقول ها هنا قلْ هناك.

ويُقالُ رابعًا: إنَّ هذا النَّقد المتوجّه من هذا الإنسان في قضية التقسيم الاسْتقرائي دليلٌ على قِلَّة علْم هذا القائل؛ وذلك أنَّ الاسْتقراء ليس مثبِتًا شيئًا جديدًا حتى يُقال: ما الدليل عليه؟ وهل قال هذا النبي ﷺ؟ ومَن سبقَ هذا من أهل العلم؟ هذا لا يُقال؛ لأنَّ الاسْتقراء لا يُوجِدُ شيئًا جديدًا وإنَّما يُبرزُ شيئًا موجودًا، وبالتالي فالسؤال ينبغي أن يكون: هل هذا الاسْتقراء صحيح، هل دلَّت الأدلّة على مضمون ما ذُكِرَ أمْ لا؟ أمَّا أن يُقالَ: إنَّ النبي ﷺ نصَّ على هذا أو لم ينصّ عليه؟ وهل سبقَ إلى هذا سابق أو لم يسبقْ؟ هذا في الحقيقة غير وارد، هذا لا يتّجه ولا يُوجَّه هذا السؤال في قضيةٍ اسْتقرائيةٍ شرْعية.

فاتَّضحَ إذًا بهذا الجواب المختصر أنَّ هذا المُنكِر لا يعرف حقائق ما جاء في كتاب الله وفي سُنَّة رسول الله ﷺ، أو أنَّه معاندٌ مكابر.

نعود إلى أقسام التوحيد؛ كما أسلفتُ ينقسم التوحيد إلى تقسيم ثنائي، أو تقسيم ثلاثي.

أمَّا توحيد الألوهية الذي يُرادُ به: إفراد الله بالعبادة ؛ فإنَّه سيأتي البحث فيه -إن شاء الله- تفصيلًا، وجُلُّ كتاب التوحيد إنَّما تناول هذا النوع.

وتوحيد الأسماء والصفات الذي يُعنَى به الإيمان بما وصفَ الله به نفسه وبما وصفه به رسوله ﷺ من غير تكْييفٍ ولا تمثيلٍ، ومن غير تحْريفٍ ولا تعْطيلٍ؛ هذا النوع سيأتي عنه طرفٌ من الكلام -إن شاء الله- في بابٍ مستقلّ.

أمَّا توحيد الرّبوبيّة فإنَّه يُعرَّفُ: بأنَّه إفراد الله بأفعاله. وبعض أهل العلم يعبّر بعبارة أخرى فيقول: إفراد الله بالملْك، والخلْق، والرَّزق، والتّدبير. وهذه الأمور هي أصول أفعال الله ﷻ.

وهذا النَّوع من التوحيد قد دلَّ عليه الفطرة، والعقل، والنَّقل، والحسّ، وهو أوّل الأنواع التي تصل إلى القلوب، فأوّل ما يقع في القلب: إفراد الله ﷻ بالرّبوبيّة، وأنَّه الخالق، المُحْيي، المُميت، المُعطي، المانع، المُدبّر وحده لا شريك له، ثمَّ يرْتقي بعد ذلك إلى توحيد الألوهية فيتوجّه بقصْده وطلبه وتذلُّلِه وعبادته لله ﷻ، ولذلك يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «فباب توحيد الألوهية توحيدُ الرّبوبيّة»، من الأبواب التي يُولجُ منها إلى توحيد الألوهية: توحيد الرّبوبيّة.

هذا النوع كما قال الإمام المجدّد محمد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ اللهُ **مُبيّنًا أهمّيته قال:** «وأمَّا توحيد الرّبوبيّة فهو الأصل، ولا يغلط في الألوهية إلا مَن لم يعطِه حقَّه، وإلا فإنَّ مَن تحقَّقَ بتوحيد الرّبوبيّة على وجْه الكمال فإنَّه سيعظِّم الله وحده، وسيتوجّه له بالقصْد والعبادة، ولن ينصرف في هذا إلى غيره».

أقول: **هذا النوع قد دلَّت الأدلة والواقع على أنَّ المشركين قد أقرُّوا به على وجْه الإجمال لا على وجْه الدقّة والتفصيل والكمال**-وهذا موضع مهمّ تنبَّه له- ودلَّ على إقرارهم به جُملةً أنواعٌ من النُّصوص:

ـ منها: تصريحهم بأنَّ الله هو الخالق، الرازق، المدبّر وحده ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ [الزخرف:٨٧].

- ونوع ثانٍ من الأدلة: وهو كونهم في الشّدائد يلجؤون إلى الله ﷻ وحده، فهذا دليل على أنّهم يعتقدون أنَّ مصاريف الأمور بيد الله ﷻ، قال الله سبحانه: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [العنكبوت:٦٥].

- ونوعٌ ثالثٌ من الأدلة: وهي الأدلة التي تدلُّ على أنَّ المشركين إنَّما كانوا يتوجّهون بالعبادة لآلهتهم لاعتقادهم أنَّها تقرّبهم إلى الله، وأنَّها شافعة لهم عند الله ﷻ: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى﴾ [الزمر:٣] ، وما كانوا يعتقدون أنَّها هي التي تخْلق، وهي التي تُحْيي، وهي التي تُميت.

- ونوعٌ رابعٌ من الأدلة: وهو قوله سبحانه: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف:١٠٦]، جاء عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا فيما خرَّجه ابنُ جرير في «تفسيره» قال رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «من إيمانهم إذا قِيلَ لهم: مَن خلق السماوات ومَن خلق الأرض؟ قالوا: الله، وهم يشركون».

- ومن أنواع الأدلة وهو النوع الخامس: أنَّ الناظر في كتاب الله يجد أنَّه قد جاء فيه الأمر بعبادة الله ﷻ؛ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [البقرة:٢١] ، ولم يأتِ فيه: (يأ أيُّها الناس وحِّدُوا الله في رُبوبيّته)، أو (اعتقدُوا أنَّ الله هو الذي يُحْيي ويُميتُ وحدَه) ؛ فدلَّ هذا على أنَّ هذا الأمر محلّ تسْليمٍ وإقرارٍ من المشركين.

هذه جُملة من الأدلة التي تدلُّ على موقف المشركين من توحيد الرّبوبيّة. وكما أسلفتُ لا يُظنَّ أنَّهم مؤمنون بهذا التوحيد كما عليه أهل الإسلام، ليس المراد ذلك؛ إنَّما هم في الجُملة مقرّون بهذا التوحيد، وإلا فهم كما يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ في موضع: «مشركون في بعض الرّبوبيّة»، يعني عندهم خلَلٌ في بعض تفاصيل الرّبوبيّة.

من ذلك مثلًا : أنَّهم يعتقدون أنَّ ثمَّة تصرّفًا للآلهة: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ [هود:٥٤].

ومن ذلك أيضًا: أنَّهم كانوا يسْتقسمون بالأزْلام، وهذا منهم صرْفٌ لنوع من أنواع التصرّف في هذا الكون لغير الله عَزَّوَجَلَّ.

أيضًا: انحرافهم في بابِ القدر ﴿لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام:١٤٨] لا شكَّ أنَّه خلَلٌ منهم في توحيد الرّبوبيّة، فإنَّ باب القدر -كما هو معلوم- فرْعٌ من فروع الرّبوبيّة.

هذه الأوجه تدلُّك على أنهم لم يكونوا مقرّين على وجه الكمال بتوحيد الرّبوبيّة، لكن القدْر الذي أقرّوا به -وهو: أنهم يقرّون بالإجمال بربوبيّة الله عَزَّوَجَلَّ وانفراده بذلك لاسيَّما في أصول الرّبوبيّة؛ كالخلْق والرّزق والإحْياء والإماتة إلى آخره- هذا كافٍ في إلْزامهم بتوحيد الألوهية، وهكذا كانت طريقة القرآن.

طريقة القرآن في عرْض توحيد الرّبوبيّة: هي أنَّه يجعل توحيد الرّبوبيّة دليلًا على توحيد الألوهية، وهذا له نظائر كثيرة في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ:

كقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ۞ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾ [الصافات:٤-٥] لِمَ كان الإله واحد؟ الجواب: ﴿لأنَّه رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾.

ومن ذلك أيضًا: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ لِمَ؟ كأنَّ هناك الْتفاتًا وسؤالًا: لِمَ؟ الجواب: أنَّ العلَّة في ذلك أنَّه: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:٢١]، ثمَّ قال في خِتام السّياق: ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٢].

إذًا الأدلة كثيرة في كتاب الله دالةٌ على أنَّ توحيد الرّبوبيّة دليلٌ على توحيد الألوهية، وهذه مسألة ينبغي أن يتنبَّه إليها طالب العلم؛ وهي: أنَّ القُبوريّين المشركين حريصون على أن ينفوا عن المشركين إقرارهم بتوحيد الرّبوبيّة، وأن يثبتوا أنَّ شركهم إنَّما تعلَّق بتوحيد الرّبوبيّة، ولِمَ هذا؟ حتى لا يُقالَ لهم: إنَّ النُّصوص المتعلّقة بالتوحيد وإنَّ النبي ﷺ إنَّما جاء أوَّل ما جاء وفي أهمّ ما جاء به: لتقرير توحيد الألوهية، ولذلك يريدون أن يصرفوا النُّصوص المتعلّقة بإثبات الشرك لمن دعا غير الله ولمن توجَّه بالعبادة لغير الله إلى اعتقاد الإشراك معَ الله في الرّبوبية، وأنَّ صرْف العبادة وحده لغير الله ليس شركًا، هذا الذي يريدون الوصول إليه؛ ولذلك يركّزون كثيرًا على أنَّ المشركين لم يكونوا مقرّين بتوحيد الرّبوبية.

وهذه قضية ينبغي أن تَتَنبَّهَ لها، وأن تعرفَ أنَّ النُّصوص التي تدل على أنَّ المشركين مقرّون بتوحيد الرّبوبيّة متكاثرة، إنَّما تُحصى بنوع صعوبة، ولذلك كان الذي يُوجَّه إليهم من الأمر إنَّما تعلَّق بالعبادة ليس بتوحيد الرّبوبيّة، وأنَّه جُعِلَ إقرارهم بتوحيد الرّبوبيّة دليلًا عليهم في إشراكهم في توحيد الألوهية.

على كلّ حال هذا المقام فيما يتعلَّق بموقف المشركين يحتاج إلى تفصيل، ولعلَّه يأتي له موضعٌ قادمٌ -إن شاء الله-.

وكلمة (التوحيد) كلمةٌ مأثورة قد جاءت في كلام النبي صَلَّٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وكلام أصحابه ، وليست كلمة مُخترعة كما يظنه بعض الجهال، بل هذه كلمةٌ عظيمةٌ واردة في السنة، من ذلك ما خرّج الإمام أحمد بسند حسن من حديث عمرو بن

المقصود: أنَّ النُّصوص قد دلَّت على أنَّ التوحيد ينقسم إلى هذين القسمين: المعرفة والإثبات، والقصْد والطَّلب، أو إلى التقسيم الثلاثي الذي أسْلفتُ، **وهذه الأدلة جاءت على نوعين:**

النوع الأول: جاءت بإثبات كلّ نوع على حِدَة؛ فأدلةٌ دلَّت على انفراد الله بالرّبوبيّة، وأدلة دلَّت على انفراد الله بالألوهية، وأدلةٌ دلَّت على انفراد الله بالأسماء والصفات.

النوع الثاني: وجاءت أدلّة بجمْع هذه الأنواع في سياقٍ واحد ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم:٦٥] أنواع التوحيد الثلاثة في هذا السياق.كذلك في قول الله جلَّ وعلا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:٢١] إلى أن قال: ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٢]. بلْ في فاتحة القرآن وفي خاتِمِ القرآن وهو (سورة الناس) ما يُشيرُ إلى هذا التقسيم.

إذًا الأدلّة في هذا الموضوع متكاثرة، وفي الجُملة توحيد المعرفة والإثبات، وتوحيد القصْد والطلب العلاقة بينهما: أنَّ توحيد المعرفة والإثبات يلْزمُ منه توحيد القصْد والطلب، وتوحيد القصْد والطلب يتضمّن توحيد المعرفة والإثبات؛ فمن أقرَّ بانفراد الله ﷻ في الرّبوبيّة فإنَّه يلزمه أن يُفردَ الله ﷻ بالألوهية، ومَن أفرد الله ﷻ بالألوهية فإنَّ ذلك منه يقتضي أنَّه قد أفرد الله ﷻ في الرّبوبيّة. والله ﷻ أعلم.

العاص ﷺ أنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال له: «**أَمَّا أَبُوكَ، فَلَوْ كَانَ أَقَرَّ بِالتَّوْحِيدِ، فَصُمْتَ وَتَصَدَّقْتَ عَنْهُ نَفَعَهُ ذَلِكَ**»، فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**أَقَرَّ بِالتَّوْحِيدِ**»(٢٦).

كذلك ما أخرج الترمذي بإسناد صحيح أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**يُعَذَّبُ نَاسٌ مِنْ أَهْلِ التَّوْحِيدِ فِي النَّارِ حَتَّى يَكُونُوا فِيهَا حُمَمًا، ثُمَّ تُدْرِكُهُمُ الرَّحْمَةُ فَيُخْرَجُونَ وَيُطْرَحُونَ عَلَى أَبْوَابِ الجَنَّةِ ، فَيَرُشُّ عَلَيْهِمْ أَهْلُ الجَنَّةِ الْمَاءَ فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ الغُثَاءُ فِي حِمَالَةِ السَّيْلِ**»، فالشاهد أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**أَهْلِ التَّوْحِيدِ**»

كذلك ما ثبت عند ابن ماجهْ بإسناد صحيح من حديث عائشة وأبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أن رسول الله ﷺ كان إذا أراد أن يضحي اشترى كبشين عظيمين أقرنين أملحين موجوأين، فذبح أحدهما عن أمته لمن شهد لله بالتوحيد وشهد له بالبلاغ، وذبح الآخر عن محمد وعن آل محمد ﷺ ».

وكذلك ما ثبت في «صحيح مسلم» من حديث جابر الطويل في ذِكْرِ حَجّة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**فَأَهَلَّ النبي ﷺ بِالتَّوْحِيدِ؛ لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لاَ شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ**»، فهذا إهلاله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان بالتوحيد.

كذلك ما ثبت عند أبي داود وغيره من حديث جابر بإسنادٍ صحيح «أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما أنهى طوافه وأتى إلى المقام وقال: ﴿**وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى**﴾[البقرة:١٢٥]، صلى ركعتين كما يقول جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «**فَقَرَأَ فِيهَا**

(٢٦) وهذا الحديث حسَّنه الشيخ ناصر رَحِمَهُ اللَّهُ وصحَّحه الشيخ أحمد شاكر.

بِالتَّوْحِيدِ وَ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾»، أراد بكلمة التوحيد هاهنا: سورةَ الإخلاص؛ لأن فيها التوحيد وفيها بيان التوحيد[٢٧].

فالشاهد أن هذه الكلمة كلمةٌ مأثورة ثابتة عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وبالتالي فهي كلمةٌ شرعية يجب أن يُحتفى بها، وأن تُعَظَّم وأن يُعرف معناها الذي دلت عليه الأدلة ومضى عليه السلف الصالح.

والمؤلف رَحِمَهُٱللَّهُ عَطَفَ على قوله (كتاب التوحيد) ذِكْرَ الدليل الأول في هذا الكتاب العظيم، وأَتْبَعَهُ بأربع آياتٍ وحديثٍ وأَثَر.

هذا الباب هو مقدمة الكتاب، واستغنى المؤلف رَحِمَهُٱللَّهُ بما أورده عن المقدمة التي تُفْصِحُ عن موضوع الكتاب، فهو أراد بهذه الآيات الخمس والحديث والأثر أن يخبرَنا أنَّ موضوع كتابه هو: بيانُ التوحيد وبيانُ أهميته، هذا هو الذي يدور عليه هذا الكتاب ، وهذا ما أرشدَت إليه الأدلة التي أوردها.

قال رَحِمَهُٱللَّهُ: (**كتابُ التوحيد، وقولِ الله تعالى**)، ولك أن تقول: (وقولُ الله تعالى)، وهذا مُطّرِدٌ في الكتاب كلِّه:

- إمَّا أن تعطفَ على كلمة التوحيد.
- أو تستأنفَ فترفع.

قال رَحِمَهُٱللَّهُ: (**وقولِ الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾**[الذاريات:٥٦]) .

(٢٧) ومن ذلك أيضًا: ما ثبت في «الصحيحين» من حديث ابن عُمر: «**بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ**»، جاء في رواية عند «مسلم» : «**عَلَى أَنْ يُوَحَّدَ اللهُ**».

هذه آيةٌ عظيمة وأصلٌ في باب الاعتقاد، ويتفرّعُ منها مسائل كثيرة، واستيعابُ القولِ فيما تضمَّنَتْهُ هذه الآية من مسائل العقيدة أمرٌ يطولُ به المقام، والمهم الذي ينبغي أن نَعْلَمَهُ أنَّ هذه الآية قد دلت على أنَّ الحكمةَ التي لأجلِها خَلَقَ الله الجنَّ والإنس هي عبادتُه سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، والعبادة لا تكون عبادةً صحيحةً إلا بالتوحيد، فصار التوحيد والعبادة الصحيحة مترادفان؛ الله جَلَّوَعَلَا أمرَ العباد لا بعبادةٍ مطلقة، إنَّما بعبادةٍ مقيّدة؛ وهي ما كانت خالصةً لله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾[الزمر:٢]،﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾[الزمر:٣]، فصار التوحيد وعبادة الله الصحيحة أمران مترادفان؛ فالغاية والحكمة والعلة من خلق الجن والإنس إذًا إنما هو توحيد الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾؛ ومر بنا كثيرًا أنَّ (ما) و(إلا) تفيد الحصر، فهذه هي الحكمة التي خلق الله الجن والإنس لأجلها لا غير.

والآية تدل كما هو بَيِّنٌ على أنَّ الجنَّ مكلّفون، وهذا أمرٌ مُجْمَعٌ عليه بين أهل العلم، فهم مكلّفون ويشتركون مع الإنس في جنس التكليف، وإن كانت تفاصيلُ ذلك مختلفة، لا يَلْزَمُ من كَوْنِهِمْ مكلَّفين أن يكونوا مساوين للإنس في تفاصيل التكليف، وذلك لأنهم يختلفون عن الإنس في الحقيقة والكيفية، إنما لهم تكليفٌ يناسبهم، ومن ثَمَّ فإنهم من أهل الثواب والعقاب؛ يعني: يثابون أو يعاقبون بناءً على ما صَدَرَ منهم تِجاه هذا التكليف.

◉ فأمَّا إثابتهم على التوحيد والطاعة؛ فهذا ما عليه جماهيرُ أهل العلم، وهو الصحيح الذي لا شك فيه بدِلالة القرآن الكريم: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ﴾[الرحمن:٥٦] (٢٨).

◉ وأما عقوبتهم المؤبّدة في النار بالكفر، أو توعّدُهم بالعقاب على معاصيهم التي هي دون الكفر، فإن هذا محلُّ إجماعٍ بين أهل العلم(٢٩).

المقصود أنَّ الله جَلَّوَعَلَا بيّن أنَّه سبحانه خلق الجن والإنس لهذه الحكمة العظيمة ليعبدوه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

وهنا مبحثٌ طويلٌ عند أهل العلم في قوله: ﴿ لِيَعْبُدُونِ﴾؛ والذي عليه أهل السنة والجماعة: أنَّ (اللام) في قوله: ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾ هي:

---

(٢٨) أمَّا من حيث الثواب: فإنَّهم يُثابون على إيمانهم وطاعتهم بالجنَّة ونعيمها في قول جماهير أهل العلم ، وذهب قِلّة من أهل العلم إلى أنَّ ثوابهم هو نجاتهم من النَّار، ثمَّ بعد ذلك يأمر الله ﷻ الجِنَّ بالفناء فيفْنون وينتهون، ولا شك أنَّ هذا القول غير صحيح وتردُّه صرائح آيات الكتاب؛ ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ﴾ [الرحمن:٥٦] ، فدلّ هذا على أنَّ الجنَّ يتأتَّى منهم طمْثُ الحُور العِين، إذًا هم يدخلون الجنَّة، والآيات في هذا كثيرة تدلُّ على أنَّ هذا القول ضعيفٌ.

وبعض أهل العلم تكلم في جِنس نعيمهم في الجنَّة، وأنَّهم يُنعَّمون فيها بأن يكونوا في ربَضِ الجنَّة ولا يراهم الإنس وأمثال ذلك، وكل هذا لا يثبت به دليل، والقول به موقوفٌ على ثبوته، والأصل في ذلك أنَّهم يُنعَّمون في الجنَّة كما نطقت بذلك النصوص.

(٢٩) أمَّا في العقاب فاتفق أهل العلم: على أنَّهم يُعاقبون على الكُفرِ والمعاصي، فكافرهم خالدٌ في النَّار، وعاصيهم تحت المشيئة، كالقول في الإنس.

◉ لام التعليل.

◉ أو لام الحكمة.

◉ أو لام كي.

وكلٌّ قد عبَّر به أهل العلم والمعنى واحد.

فالمقصود : أن ما دخلت (اللام) عليه هو «الحكمة والغاية»، أو كما يعبّرون أنه «العلة الغائيّة» من الخلق؛ العلة الغائية هي: العلة التي لأجلها وُجِدَ المعلول[٣٠]، فكان خَلْقُ الخَلْقِ لأجل هذه الحكمة، ولأجل هذه الغاية[٣١].

وفي هذا إثبات الحكمة والتعليل في أفعال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وفي أوامره وفي قضائه، وهذا أيضًا من الأمر المُجمع عليه بين أهل العلم ودلائلُه لا تكاد تُحصَر؛ أنَّ الله جَلَّوَعَلَا يخلق لحكمةٍ يحبها ، ويأمر لحكمةٍ يحبها ، ويقضي لحكمةٍ يحبها سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

وأمَّا أهلُ البدع فإنَّ طائفةً منهم أنكرت أن يكون الله جَلَّوَعَلَا فاعلًا لحكمة – يعني: أنْ يفعل شيء لشيء– أنكروا هذا بتحريفاتٍ وتأويلاتٍ وتعليلاتٍ عليلة

---

(٣٠) بخلاف أنواع العِلل الأخرى كـ: العِلة الفاعِلِية، والعِلة الصُورية، وغير ذلك ممَّا يذكره أهل العلم في بيان أنواع العِلل.

(٣١) ولا يلزم في العلة الغائية وجودها، فقد توجد وقد لا توجد، وهذه الآية نظيرُ قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ﴾ [النساء:٦٤] ، فـ (اللّام) هاهُنا: لام التعليل كاللام في قوله: ﴿ لِيَعْبُدُونِ﴾. إذًا العلة التي من أجلها خلق الله الجنَّ والإنس: عبادة الله سبحانه، وقد يقع ذلك وقد لا يقع لحكمةٍ يُريدها ﷻ ويعلمها.

وتُصادِمُ كتاب الله عَزَّوَجَلَّ وسنةَ رسوله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الصريحة، ولأجل هذا فإنه ليس عندهم في كل ما يُضاف إلى الله جَلَّوَعَلَا (لام تعليل) ؛ فهذه الآية وأمثالُها اللام فيها عندهم هي: «لام العاقبة» أو «لام الصيرورة» كما يعبُّر بعضهم، يعني: أنَّها التي إذا دخلت على الفعل بيّنَتْ أنه هو الذي يكون إليه المآل ، وهو الذي تكون إليه العاقبة (٣٢).

ولا شك أنَّ هذا باطل ليس بصحيح، بل الذي حققه شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، ونقل هذا عنه ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «البدائع» أنَّ لام العاقبة لا ترِد في الأفعال المضافة إلى الله ﷻ البتة ، بل لا يجوز أن يُقال هذا؛ لا يجوز أن يقال: إنَّ (اللام) في أفعال الله ﷻ إذا أضيفت إليها أنها تكون (لامَ العاقبة)، أو (لامَ الصيرورة)، وذلك لأنَّ «لام العاقبة» إنَّما تأتي في كلام مَنْ يجهلُ العاقبة، أو لا يستطيعُ دَفْعَها. أمَّا من هو على كل شيء قدير ومن هو بكل شيء عليم فإنه لا

(٣٢) المُتكلّمون كثيرًا مِنهم ذهبوا إلى أن (لام التعليل) لا تُضاف لله ﷻ، وإنما اللام هاهُنا تُسمّى (لام العاقبة)، بمعنى: أنَّ الأمر في العاقِبة يكون كذا وكذا، وذلك مبنيٌ على قاعدتهم بنفي تعليل أفعال الله ﷻ ، وهذا أصلٌ فاسد والأدلة عليه كثيرة جداً، حتى قال ابن القيم رَحَمَهُ اللَّهُ في «الشفاء»: (إنَّ الأدلة على ثُبوت تعليل أفعال الله ﷻ تبلُغ عشرة آلاف دليل) ، وأورد جُملةً منها رَحَمَهُ اللَّهُ في هذا الكتاب.

يُقال في كلامه أو في ما يُضاف إليه: إنَّ اللام في هذه الآية أو تلك هي «لام العاقبة»(٣٣).

فمثلاً في قوله تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾[القصص:٨]، هم ما فعلوا هذا لأجل أن يكون لهم عدوًا وحَزَنـًا، إنما كان عاقبة الأمر أنْ كان لهم عدوًا وحزنـًا ، وذلك لجهلهم، وإلا فإنهم إنما الْتقطوه لأجل أن ينتفعوا به ، لأجل أن يُدْخِلَ عليهم السرور ، لا لأن يكون عدوًا لهم وحزنـًا، فهم جَهِلوا العاقبة. أو أن تكون العاقبة معلومةً لكنهم لا يستطيعون دفعها، كما في قول الشاعر:

لِدُوا للموتِ وابنُوا لِلخُرابِ ....

فلا أحد يستطيعُ أن يدفع الموت أو خَراب هذه الدنيا.

إذًا من الخطأ البيّن أنْ يُقال : إنَّ (اللام) في قوله تعالى: ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾هي: «لامُ العاقبة»، أو «لامُ الصيرورة».

---

(٣٣) ولمَّا قال المُتكلّمون: أنَّ الّلام ههُنا (لامُ العاقِبة)، وهذا لا شك أنَّه غير صحيح، بل يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ ، ونقل هذا عنه أيضًا ابن القيم في «البدائع» : إنَّ (لام العاقبة) لا تثبُت لله عَزَّوَجَلَّ ولا في موضع واحد في كتاب الله، بلْ لا يصح أن تُضاف لله تَعَالَى؛ لأنَّ «لام العاقبة» إنما يذكرها من هو جاهلٌ بعاقبة الأمور، أمَّا مَن يعلم عواقب الأمور فإنَّه إذا قال هذه العلة فإنَّه يعلم ما سيكون عليه الأمر في المستقبل، ولذلك يقول أهل العلم: إنَّ (العلة الغائية) متقدمةٌ في العِلم والإرادة، متأخرةٌ في الوجود والخلق؛ فالله عَزَّوَجَلَّ يعلم ويُريد هذه العلة الغائية ليطاع﴿ لِيَعْبُدُونِ﴾، ووقوع ذلك أو عدم وقوعه أمرٌ متأخرٌ بعد ذلك.

وضَمَّ هؤلاء المتكلمون إلى خَطَئِهِمُ الأول خطئًا ثانيًا وهو: خطؤهم في تفسير العبادة؛ فطائفةٌ من المتكلمين عرّفت العبادة هاهنا بأنَّها: الخضوعُ لأمر الله القَدَرِيّ، وهذا لاشك أنَّه باطل، فلم يأتِ دليلٌ في الكتاب والسنة أنَّ العبادة هي الخضوعُ لأمر القَدَرِيِّ، ولو كان ذلك كذلك لصحَّ أن يُقال: إنَّ كفر الكافر عبادة؛ لأنَّ الكافر خاضعٌ لقَدَرِ الله جَلَّوَعَلَا، أيستطيعُ أحدٌ أن يَخْرُجَ عمَّا يشاء الله ﷻ ويُقدّره؟ الجواب: بالتأكيد لا. إذًا بناءً على هذا فلازمُ قولهم: أنَّ كفر الكافر عبادة، وهذا حكايته تغني في بيان فساده، فهذا لا يجوز لمسلم أن يقوله.

إذًا ليس صوابًا أن يُقال: إن العبادة هي الخضوع لأمر الله القَدَري؛ بل العبادة هي: التذلُّلُ لله جَلَّوَعَلَا بفعل أوامره واجتناب نواهيه محبّةً وتعظيمًا، وإن شئت فقل: هي اسمٌ جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

والفرق بين التعريفين: أنَّ الأول: عَرَّفَ التعبُّد، **والثاني**: عرَّف الـمُتَعَبَّدَ به.

إذًا؛ **كلُّ ما جمع هذين الوصفين ودلَّ الدليل عليهما فإنه عبادة:**

❁ أن يكون محبوبًا لله.

❁ وأن يكون مشروعًا مرضيًّا لعباده.

و متى ما كان ذلك كذلك فهذا الأمر عبادة، وإذا كان عبادة كان خالصَ حق الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

قال جَلَّوَعَلَا : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات:٥٦]؛ فسَّر طوائفُ من أهل العلم كلمة (يعبدون) بمعنى: يوحّدون، وهذا ما فسَّرَ به

البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «صحيحه»: عند تفسير سورة الذاريات؛ قال: (يعبدون: يوحّدون)، وهذا أيضًا مرويٌّ عن الكلبي وقاله غير واحد، وتوارد كثيرٌ من علماء التوحيد المتأخرين على التنصيص عليه(٣٤).

ولا شك أنَّه معنىً صحيح؛ فإنَّ العبادة الصحيحة -كما ذكرتُ لك- هي التوحيد، فالتوحيد : عبادة الله وحده لا شريك له. والعبادةُ الصحيحة هي: العبادة التي تكون لله وحده لا شريك له، فصارت العبادة الحقَّةُ الصواب هي حقيقة التوحيد.

وبعضُ أهل العلم قال: إنَّ معنى قوله: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أي: إلا لآمُرَهم وأنهاهُم، ومراد هذا القائل: إلا لآمرهم وأنهاهم فيطيعوني، و إلّا لا شك أنه ليس

(٣٤) ومهما يكن من شيء؛ فإن العبادة هي التوحيد، ومن عبَد غير الله ﷻ فإنه ما أتى بالعبادة التي أمر الله ﷻ بها، وبالتالي فلا تكون العبادة عبادةً إلَّا إذا أُريدَ بها وجه الله ﷻ؛ إلَّا إذا كانت خالصةً لله ﷻ .

وهذه الآية على هذا المعنى تكون نظير آيات أخرى؛ كقوله سبحانه: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة:٣٦]، ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون:١١٥]، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ ﴾ [النساء:٦٤] ، وأمثال ذلك من النصوص. أي أن الحكمة من الخلق: عبادة الله ﷻ .

إذًا فسّر المؤلّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ التوحيد بأنه عبادةُ الله ، ولا تكون العبادة عبادةً إلا إذا كانت خالصةً لله ﷻ.

مجردُ الأمر والنهي هو المقصود، إنَّما المقصود أمرٌ ونهيٌ يكون ثمرتُه طاعةَ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

وبعض أهل العلم قال: إنَّ هذه الآية خاصةٌ بالمؤمنين؛ يعني: وما خلقت الجن والأنس إلا ليَعْبُدَني أهل السعادة وأهل التوفيق. وهذا مَيْلٌ من قائله إلى بيان أنَّ هذا مراد الله سبحانه الكوني من أهل السعادة؛ وهذا صحيح، لكنَّ القولَ بأنّ الآيةَ بيّنَتْ مرادَ الله الشرعي هو الأصوَب والأصح، ولشيخ الإسلام رَحِمَهُٱللَّهُ مناقشةٌ حَسَنَةٌ للأقوال في هذه الآية في كتابه «درء التعارض» وفي غيره أيضًا.

المقصود أن الله جَلَّوَعَلَا بيَّن في هذه الآية أنه يريد من عباده أن يعبدوه، وهذه الإرادة إرادةٌ شرعية، يعني: أنه يحب منهم ذلك ويأمرهم بذلك، ويريدُ منهم ذلك إرادةً شرعية، ويبقى بعد ذلك أنهم قد يستجيبون وقد لا يستجيبون، ومَرَدُّ هذا إلى إرادته الكونية.

وبناءً على هذا؛ **لا ينبغي أن يُسْتَشْكَلَ فيقال: كيف يَخلق الله ﷻ الخلْق لحكمة ثم لا تقع من جميع مَنْ خَلَقَ!!**

والجوابُ عن هذا: أنَّ هذه الآية فيها بيانُ مراد الله الشرعي لا مراد الله الكوني، بمعنى: أنَّه فعل بهم الأول ليفعلوا هم الثاني ، هذا هو الذي جاء في هذه الآية، الآيةُ أفصحت عن أنَّ الذي أراده منهم شرعًا هو أن يعبدوه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، أمَّا كَوْنُهُمْ يفعلون هذا، يقومون به بالفعل أو لا يقومون؛ هذا مردُّهُ إلى إرادة

كونية له سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وهذا ليس له علاقة بالآية، لم تأتِ الآية لبيانه، إنما جاءت لبيان الإرادة الشرعية (٣٥).

وبناءً على هذا فإننا نقول: إنَّ الله جَلَّوَعَلَا قد يريد ما لا يقع، وقد يقع ما لا يريد -انتبه لهذا- قد يريد الله شرعًا ما لا يقع؛ لأنَّه لم يُرِدْهُ كونًا، وقد يقع بإرادته الكونية ما لا يريد شرعًا، **وبالتالي فالإرادة اثنتان:**

❁ **إرادةٌ شرعية** المرادُ فيها: محبوب لله جَلَّوَعَلَا ؛ وقد يقع وقد لا يقع بحسب ما تقتضيه حكمة الله جَلَّوَعَلَا.

❁ **وهناك مرادٌ كوني**؛ مُتَعَلَّقُهُ: هو كل ما شاء سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وقوعَه، ولا رادَّ لحكمه جَلَّوَعَلَا، فالذي شاءه ويشاؤه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فإنَّه واقع ولابد، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

---

(٣٥) وأهل العلم يبيّنون في هذه المسألة قاعدةً مُهمة، فالله ﷻ فعَل الأول ليفعلوا هم الثاني؛ الله ﷻ فعَل الخلْق، وهم أُمِرُوا أن يفعلوا الأمر الثاني وهو عبادته؛ وهذا هو الحِكمة من خلقهم، أمَّا وقوع ذلك أو عدم وقوعه فهذا راجعٌ إلى الإرادة الكونية، والله ﷻ قد يُريد إرادةً كونية من العبد أن يطيع فيطيع، وقد لا يريد ﷻ لحكمة يعلمها جلَّ وعلا فلا يُطيعُ العبد، ولذلك الله ﷻ لمَّا قال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْض وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الدخان:٣٩] ؛ قال أهل العلم في هذه الآية: الحقُّ نوعان: حقٌّ أُريد منهم، وحقٌّ أُريد بهم؛ أمَّا الحق المُراد منهُم فهو عبادة الله ﷻ، وأمَّا الحق المُراد بهم فهو الثواب والعقاب. ولذلك فإنَّ الله ﷻ حينما يأمر بالأمر توحيدًا وعبادةً وطاعةً فإنه يُريده إرادة شرعية، بمعنى: أنَّه يُحبه ﷻ ، وهذه الإرادة تقتضي محبة الله ﷻ للمراد، وقد يقع، وقد لا يقع.

فلا تلازمَ إذًا بين المراد شرعًا والمراد كونًا.

ثم إنَّ كَوْنَ الله جَلَّوَعَلَا يريد شرعًا ما لا يشاء وقوعَهُ؛ هذا راجعٌ إلى حكمة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ من جهة أنَّه أراد كونًا ما لا يحب لأنَّه يُفْضِي إلى ما يحب، فصار المبغوض لله الواقعُ بمشيئته مرادًا لغيره لا مرادًا لذاته، فكل ما أراده الله كونًا - يعني كل ما شاءه الله عَزَّوَجَلَّ كونًا- فإنَّ وجودَهُ أحبُّ إلى الله من عدمه، ولأجل هذا شاءه، فإذا شاء وجود الكفر، إذا شاء وجود المعاصي، إذا شاء وجود إبليس، فإنَّ هذا راجعٌ إلى أنَّه يترتب على وجود هذه المبغوضات لله شيءٌ يحبُّهُ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ولأجل هذا أوجدَهُ، لمَّا وُجِدَ إبليس وُجِدَتِ التوبة، والله يحبها ويحب أهلها، ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾[البقرة:٢٢٢] ، لَمّا وُجِدَ إبليس وُجِدَتِ المجاهدة في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، لما وُجِدَ إبليس وُجِدَ الشيء الذي يقتضي مغفرةَ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وهو الذنوب، والله عَزَّوَجَلَّ يحب أنْ تظهرَ آثار أسمائه وصفاته سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ(٣٦).

---

(٣٦) قد يقول قائل: كيف يُريد الله ﷻ شيئًا يعلم أنَّه لا يقع؟

الجواب: أنَّ الله ﷻ إذا أراد عدم وقوع هذا الشيء فلأنَّه يُحبُ عدم وقوعه مِمَّن لم يقع منه، فهو مرادٌ لغيره لا لِذاته. إذًا؛ الكفر والمعاصي وترك التوحيد وترك الطاعة ، الله ﷻ أراد هذا الترك وأراد هذا الكُفر وأراد هذا الانحراف لا لِذاته ولكن لِحكمةٍ يعلمها ﷻ تترتّب على هذا الكفر، إذًا أراد الله ﷻ هذه الأمور التي لا يُحبها لغيرها لا لِذاتها.

وبناءً عليه فإنَّه لا يَرِدُ هذا السؤال الذي ذكره المُتكلّمون وأوردوه على أهل السُّنَّة حينما بيَّنوا أن اللام هاهُنا (لام التعليل)، فقالوا: إنَّ هذا يلْزم منه أنَّ الله ﷻ يُريد ما يعلم أنَّه لا

إذًا هذه نبذة يسيرة في موضوع طويل، **لكنَّ الخلاصةَ المهمةَ التي نحتاجها:** أن الآية بيّنَتْ مراد الله الشرعي؛ وهو الحكمة التي لأجلها خلق الله الخلق ألا وهي: عبادته وتوحيده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**وَقَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾** [النحل: ٣٦]»؛ أردف المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ الآية الأولى التي بيّنَتْ الحكمةَ من خلق الخلق بآية بيّنَت الحكمة من بعثة الرسل(٣٧)، وكِلا الآيتين تدلّان على معنىً مقارب؛ فالله جَلَّوَعَلَا إنَّما بَعث الرسل لأجل الدعوة إلى توحيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾؛ فبعث الله الأنبياء والرسل لدعوة النَّاس إلى التوحيد، وإقامة الحُجَّةِ عليهم، وبيانِ حقِّ الله على العباد.

يقع!! فنقول: هذا حق، والله ﷻ أراد إرادةً شرعية من العباد أن يعبدوه، ثمَّ مِنهم من هدى الله، ومِنهم من حقَّت عليه الضلالة؛ من أراد الله ذلك منه كونًا حصل منه العبادة وحصل منه التوحيد، ومن لم يُرِد الله ﷻ منه ذلك فإنَّه لا يُطيع ولا يُوحِّد ولا يعبد، وذلك لِحكمةٍ يحبها ﷻ.

(٣٧) الله ﷻ إنما بعث الرسل لأجل غايتين، وكلاهما راجعتان إلى بيان التوحيد:

الغاية الأُولى: تعريف العباد بربهم ﷻ وما يستحقّه جلَّ وعلا من العبودية، وما يثبُت له من نُعوت الجلال والجمال.

الغاية الثانية: إقامة الحُجَّة عليهم وقطع العُذر عنهم: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥].

قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا﴾ ؛ **البعثُ جاء في كتاب الله على ضربين:**

❁ **الضرب الأول**: البعث الكوني كما في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ﴾[الإسراء:٥]، ﴿فَبَعَثَ اللهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ﴾[المائدة:٣١]، وبالتالي فهذا البعث لا يَلْزمُ أن يكون لنبي أو صالح أو حتى مكلَّف.

❁ **والضرب الثاني**: البعثُ الشرعي؛ وهو: بعث الله الرسلَ إلى الأمم لبيان حقِّه سبحانه عليهم، وتعريف الأمم ما يحبه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وما يُبغضه، ولأجل بيان عاقبة استجابتهم أو إعراضهم عن الدعوة؛ فبيّنوا لهم أنَّ من استجاب فمآله إلى رحمة الله ، ومن أعرض فإن مآله إلى عذابه وغضبه.

قال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ﴾؛ الأمة هي: الجيل من النَّاس، فالجيل والطائفة من الناس تُسمى: أمة، قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾[فاطر:٢٤]، فالله جَلَّوَعَلَا عمَّ بفضله الذي هو إرسال الرسل مجموعَ الخلائق، مجموعُ الأمم بعث الله عَزَّوَجَلَّ إليهم مَنْ يُقيمُ عليهم الحجة، وهم الأنبياء والرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ﴾؛ (أن) الأقرب هاهنا أنها تفسيرية، وضابط (أنْ التفسيرية): أنها هي التي سُبِقَتْ بمعنى القول لا لفظِه، ومعنى ذلك: أنَّ الله جَلَّوَعَلَا أرسل الرسل وبَعَثَهُمْ إلى الأمم لأجل أن يخبروهم ويأمروهم أن يعبدوا اللهَ وأن يجتنبوا الطاغوت، والعبادة لله جَلَّوَعَلَا مع الكفر بالطاغوت هذان هُمَا حقيقة التوحيد، ولا يُغني أحد الأمرين عن الآخر، لا

يكون التوحيد توحيدًا إلا إذا ضُمَّ إليه الكفر بالطاغوت: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ ، ومن عَبَدَ الله واجتنبَ الطاغوت فهذا هو الذي أتى بالتوحيد، ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ ويُؤمِن باللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالعُرْوَةِ الوُثْقَى﴾[البقرة:٢٥٦]؛ العروة الوثقى هي: (لا إله إلا الله)، وهي مفتاح التوحيد.

إذًا بيّنَتْ هذه الآية مسألةً مهمة أشاد وأشار إليها المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأنها المسألة العظيمة وأنها المسألة الكبرى وهي: أنَّه لا يكون التوحيد إلا بالكفر بالطاغوت، وسيأتي معنا -إن شاء الله- في عدة مواضع في هذا الكتاب تفاصيلُ في بيان حقيقة الكفر بالطاغوت.

الطاغوت على وزن فَعَلوت وهو من صيغ المبالغة، من الطغيان، والطغيان: مجاوزة الحد، ﴿إِنَّا لَـمَّـا طَغَا الـمَاءُ﴾[الحاقة:١١] .

وأكثرُ تفاسير السلف لكلمة الطاغوت هي: أنَّه الشيطان، ومن ذلك ما علَّق البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن عمرَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّه قال: (الطاغوت: الشيطان)، ومن العلماء من فسر أيضًا الطاغوت بأنه: (الأصنام)، ومنهم من فسر بتفسيرات بهذا السبيل؛ يعني: بذكر تفاصيل؛ هذا كلُّه من التفسير بالمثال وليس حدًّا جامعًا مانعًا.

وأقرب ما يُقال في تفسير الطاغوت: ما ذكره ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أوائل «إعلام الموقعين» أنَّ الطاغوت: (كلُّ ما تجاوز به العبد حدَّهُ من معبوده أو متبوعٍ أو مُطاعٍ)؛ العبدُ له حَدٌّ معيّنٌ لا يجوز أن يُرفع فوقه، فمتى تُوُجِّهَ إليه بالعبادة فإنَّه يكون طاغوتًا تجاوز به العبد حدَّهُ، صار طاغوتًا لعابده. كذلك إذا

تجاوز العبدُ حدَّ المتبوع من العلماء أو المطاعَ من الأمراء إلى الحد الذي يكون لله جَلَّوَعَلَا ولا يجوز أن يَشْرَكَهُ فيه غيرُه، مثل: أن يطاع في تحليل ما حرم الله أو تحريم ما أحل الله ؛ فإنه حينئذٍ يكون طاغوتًا بالنسبة لمن تجاوز به حدَّه.

إذًا، هذا هو الطاغوت وهذا هو الذي أوجب الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ على العباد اجتنابَهُ.

ولاحظ أنَّه قال هاهنا ﴿ **وَاجْتَنِبُوا**﴾ ولم يَقُلْ: (اتركوا)؛ فإنَّ الاجتناب تركٌ وزيادة، ففيه معنى القصد، وفيه معنى المباعدة، وفيه معنى اجتناب الأسباب الموصلة إلى هذا المتروك، كأنه يقول: كونوا في جانبٍ وعبادةَ الطاغوت في جانبٍ آخر، ﴿ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ .

وهذه الآية دلَّتْ على أنَّ حقيقةَ التوحيد ما جمعَ النفيَ والإثبات، ﴿**أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ**﴾ هو الإثبات، ﴿**وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ**﴾هو النفي، ولا توحيد إلا باجتماعهما، فإنَّ الإثبات المجرد لا يمنع الشَّرِكَةَ، والنفيُ المجرّدُ عدمٌ لا مدح فيه، وحقيقة التوحيد إنَّما هي اجتماع النَّفي والإثبات، والمراد: نفي العبادة عن ما كل سوى الله عَزَّوَجَلَّ وإثباتُ العبادة لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وحده.

أود أن أنبه هنا إلى مسألة تتعلق بالطاغوت، وهي: أنَّ **النظر إلى الطاغوت يكون من جهتين:**

❁ **من جهة عابده.**

❁ **ومن جهة من عُبِد.**

أَمَّا من جهة عابده؛ فإنَّه يُقال في حقِّ كلِّ من عَبَدَ غير الله جَلَّوَعَلَا إنَّه عَبَدَ الطاغوت، كلُّ من عبد غير الله أو أطاع غير الله في تحليل ما حرّم الله أو تحريم ما أحل الله إنَّه اتخذ طاغوتًا، وعبادتُهُ وطاعتُه طاغوتيّة.

أَمَّا بالنَّظر إلى من اتُّخِذَ كذلك ؛ إذا نظرنا إلى هذه الجهة فإنَّ هذا الإطلاق فيه تفصيل: فإن كان المعبود من ذوي الإرادة وكان راضيًا صحَّ أن يقال فيه: إنه طاغوت، أمَّا إنْ كان ممن له الإرادة وهو كارهٌ لذلك فلا يصحُ أن يُقال فيه: إنه طاغوت، وإن كان لا إرادةَ له صحَّ أن يقال فيه: إنه طاغوت.

إذن يتلخّص لنا أنَّ **الأحوال في النظر إلى مَنْ عُبِدَ مع الله** عَزَّوَجَلَّ **لا يَخْلو الأمرُ من ثلاث أحوال:**

❁ **الحال الأولى**: أن يكون لا إرادة له؛ كأن يكون قد عُبِدَ صنم، أو حجر، أو شجر فإنه يقال : هذا الصنم طاغوت.

❁ **الحال الثانية** : أن يكون له إرادة وهو راضٍ بعبادته مع الله؛ فهذا يقال في حقه إنه طاغوت؛ إذا دعا أحدٌ إلى عبادة نفسه، ترشَّحَ للعبادة، أو حتى ولو لم يترشَّحْ للعبادة، لكنْ وَقَعَ أنْ عُبِدَ فرضيَ بذلك ووافق فإنه يكون طاغوتًا.

❁ **الحال الثالثة**: وهي ما إذا كان ذا إرادة، ولكنَّه كاره لأن يكون معبودًا مع الله عَزَّوَجَلَّ، فإنَّه لا يقال في حقه إنَّه طاغوت؛ فإنَّ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قد عُبِدَ مع الله، والنبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد عُبِدَ مع الله، وعلي وفاطمة والحسين وكثيرٌ من الصالحين عُبِدوا مع الله، ومع ذلك فإنَّهم ليسوا بطواغيتَ وحاشا؛ إنَّما يُقال فيمن رضيَ ووافق، أو ترشَّحَ حتى ولو لم يُعبد؛ لو قال للنَّاس "اعبدوني، أنا

استحق العبادة" ولم يُعبد فإنه يكون طاغوتًا. ولذلك هؤلاء الصالحون الذين عُبِدوا من الملائكة والأنبياء والأولياء يبرؤون إلى الله جَلَّوَعَلَا، ولذا يوم القيامة يوم يحشر الله الخلائق يقول الله عَزَّوَجَلَّ للملائكة: ﴿أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾[سبأ:٤٠] ماذا جوابهم؟ ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ﴾[سبأ:٤٠]؛ تبرؤوا إلى الله عَزَّوَجَلَّ من هذه العبادة. وكذلك يقول عيسى عَلَيْهِٱلسَّلَامُ كما في أواخر المائدة.

إذًا إذا كان البحث في شأن من عَبَدَ مع الله ﷻ، فإنه يقال: إن العابد عَبَدَ الطاغوت مهما كان معبودُه، أما المعبود فلابد فيه من التفصيل السابق(٣٨).

قال رَحِمَهُٱللَّهُ: (**«وَقَوْلِـهِ: ﴿وَقَضَـى رَبُّـكَ أَلَّا تَعْبُـدُوا إِلَّا إِيَّـاهُ وَبِالْوَالِـدَيْنِ إِحْسَانًا﴾** [الإسراء: ٢٣] **الآية»**).

هذه الآية الثالثة آية الإسراء وهي إحدى الآيات العظيمة الْمُحْكمة التي تضمّنَتْ وصايا عُظْمَى يحتاجها كل مسلم، وافتُتِحَتْ هذه الوصايا بالتوحيد: **﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾** ، ثم ثَنَّى الله عَزَّوَجَلَّ بعد ذلك بوصايا أخرى

(٣٨) **المقصود أنَّ خلاصة هذه الآية**: أنَّ حقيقة التوحيد الذي بُعِثَتْ به الرسل وأُنزلت به الكُتُب هو عبادة الله ﷻ وحده لا شريك له، والكفر بكلّ ما يُعبدُ من دون الله ﷻ. ولذلك ذكر المؤلّف رَحِمَهُ اللَّهُ في مسائل على هذا الباب قال: (المسألة الكبيرة) سمَّاها مسألةً كبيرة ، (وهي: أنَّ العبادة لا تحصل إلا بالكفر بالطاغوت)؛ بيَّن رَحِمَهُ اللَّهُ أنها تكون في معنى قوله جلَّ وعلا: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقى﴾ [البقرة:٢٥٦]. هذا فيما يتعلّق بالآية الثانية.

بَلَغَتْ سبع عشرة وصية، فمجموع هذه الوصايا ثمانَ عشرة وصية أوصى الله عَزَّوَجَلَّ بها عبادَه، افْتُتِحَتْ بالتوحيد واختُتِمَتْ بالتوحيد أيضًا، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا﴾[الإسراء:٣٩].

فهذا يدلُّكَ على أنَّ التوحيد هو أول الأمر وآخره، وأنَّه ظاهره وباطنه، وأنَّه القضية الأهم، وأنَّه الذي ينبغي أن يفتتحَ به المسلم حياته ويختتم به حياته، فالسعيدُ الموفّق من قال (لا إله إلا الله)، وعاش على (لا إله إلا الله)، ومات على (لا إله إلا الله)، -نسأل الله أن يجعلنا منهم-.

قال تعالى: ﴿**وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاه**﴾؛ لا يزال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يبيِّن لنا ما هو هذا التوحيد، يكرّرُ علينا الأدلة التي تُفْصِحُ عن هذه القضية الكبرى التي لأجلها خَلَقَنا الله.

قال: ﴿**وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاه**﴾(٣٩)؛ ﴿قَضَى﴾ فَسَّرَ هذه الكلمةَ كثيرٌ من السلف بمعنى: (وصّى)، وهكذا جاءت في قراءةِ أُبَيٍّ وابنِ مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا. وذهب بعض الصحابة ومَنْ بعدَهُمْ من السلف إلى أنَّ معنى ﴿وَقَضَى﴾ يعني: وأَمَرَ وأوجب.

---

(٣٩) القضاء جاء في كتاب الله على نوعين أيضًا، كالقول في السابق:

ـ القضاء قد يكون قضاءً كونيًا قدريًا ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرائِيلَ﴾ [الإسراء:٤]، ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ [فصلت:١٢].

ـ النَّوع الثاني: القضاء الشرعي؛ كقوله سبحانه: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٢٣].

وكلُّ ذلك بمعنًى متقارب؛ يعني: وصّى، وأمر، وأوجب ألا يُعْبَدَ إلا إيّاه ﷻ، وهذا فيه تأكيدٌ على المعنى السابق، وهو أنّ التوحيدَ الذي أَمَرَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ به ما جمع بين النفي والإثبات ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إياه﴾، ﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ ﴾[البقرة:٢٥٦]، ﴿ وَاعْبُدُوا اللهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾[النساء:٣٦]، في آياتٍ كثيرة سيأتي إن شاء الله الكلام عنها. فهذا كله يدلك على أنه لا يكون الإنسان مُوحّدًا إلا إذا كَفَرَ وبَرِئَ من كل عبادةٍ لسوى الله عَزَّوَجَلَّ، ثم أفردَ اللهَ بالعبادة وحده لا شريك له: ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إياه﴾ .

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**﴿وَاعْبُدُوا اللهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ الآية**[النساء:٣٦] »[٤٠].

هذه الآية الرابعة، آية النساء: ﴿وَاعْبُدُوا اللهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ ، وهي مُفتتح الحقوق العشَرة عند العلماء، هذه الآية ضمّتِ الحقوقَ العشرة التي أمر الله عَزَّوَجَلَّ بها: ﴿وَاعْبُدُوا اللهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى

(٤٠) وهذه الآية حصل في ترتيبها اختلاف في نسخ كتاب التوحيد؛ ففي بعض النسخ هي الآية الرابعة، وفي بعضها هي الآية الخامسة، والنسخة التي مشى عليها صاحب التيسير هي تأخير آية النساء، والتي مشى عليها صاحب الفتح هي تقديم آية النساء؛ لأنّها بذلك أنسب من جهة أنَّ آية الأنعام تكون قريبة من قول ابن مسعود الذي هو متعلّقٌ بها، فمن المناسب أن يكون بعدها، وإن كان صَنيع المؤلّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ظاهره يدلّ على أنها هي المؤخَّرة؛ لأنَّه في ذكر المسائل قدَّم ما يتعلّق بآية الأنعام على ما يتعلق بآية النساء. والأمر على كلّ حال في ذلك سهلٌ.

وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾[النساء:٣٦].

فهذه حقوق عشرة لهؤلاء المذكورين في هذه الآية أَمَرَ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى بها، ولا شك أنَّ الحق الأول، وأنَّ الحق الأولى، وأنَّ الحق الأعظم، وأنَّ الحق الأهم هو حق الله جَلَّوَعَلَا؛ وهو أن يُعبَد وحده لا شريك له، وأن تُجْتَنَبَ عبادةُ ما سواه.

﴿وَاعْبُدُوا اللهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾؛ لا يزال الشيخ يُؤكّد لنا حقيقةَ هذا التوحيد، وأنَّه الجمعُ بين النفي والإثبات؛ ﴿وَاعْبُدُوا اللهَ﴾، ﴿وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾.

ولاحظ أنَّ قوله ﴿شَيْئًا﴾ هاهنا نكرةٌ في سياق النَّهي فتَعُمُّ، بمعنى: لا يجوز أن يُشْرَكَ مع الله شيءٌ البتة، أيُّ شيء مهما كان ومهما ارْتَفَعَتْ منزِلَتُهُ ومهما عَلَتْ مكانتُهُ فإنه لا يجوز أن يُشرك مع الله جل وعلا، فالله له حق لا يجوز أن يُشرك معه فيه غيرُه سُبْحَانَهُوَتَعَالَى. وهذا فيه بيانٌ واضحُ لحقيقةِ الشرك، وأنَّ الشركَ كلَّهُ مبغوضٌ لله منهيٌّ عنه مهما دَقَّ. فهي آيةٌ عظيمة فيها بيانُ بُطلانِ الشركِ كبيرِهِ وصغيرِهِ، جليِّهِ وخفيِّهِ.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ **الآيات**[الأنعام:١٥١]).

هذه الآية وما بَعدها، واختلفت نُسخ الكتاب في الموضع الذي وقف عنده قلمُ المؤلف، لكنَّ الشاهد من ذلك هو: أنَّ هذه الآية بيَّنَتْ حقيقة التوحيد الذي

هو حق الله على العبيد؛ ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾، وهذه الآية دليلٌ على التوحيد؛ وذلك لأنَّ النهيَ عن الشرك يستدعي التوحيد بالاقتضاء كما يقول أهل العلم، يعني كأنه قال: لا تشركوا بالله شيئًا مع عبادته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وإلا فإنَّ اجتنابَ عبادة غيرِ الله دون عبادتِهِ سبحانه لا ينفع صاحبه شيئًا، على أنه لا يمكن أنْ يكون الإنسان مُنْفَكًّا عن توحيدٍ أو شرك، يعني: لا يمكن أن يكون هناك إنسان ليس بموحِّدٍ ولا مشرك، إنَّما هو لابدَّ أن يكون أحدَ رجلين: إمَّا أن يكون موحدًا لله، أو أن يكون مشركًا الشرك الأكبر، أمَّا أن يكون خاليًا من الأمرين فهذا لا يمكن؛ لأن التوحيد والشرك نقيضان، والنقيضان لا يجتمعان ولا يرتفعان.

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾؛ هذه وما بعدها آياتٌ عظيمة تسمى آياتِ الوصايا العشر، افتتحها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالتوحيد والأمر به والنهي عن ضده، وقد يقال: إنه اختتمها بذلك أيضًا لأنه قال في ختامها: ﴿وأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ ، ومعلومٌ أنَّ صراطَ الله المستقيم والسبيلَ الذي دعت إليه الأنبياء إنَّما هو توحيد الله جَلَّ وَعَلَا، فهذه الآيات أيضًا افتُتِحَتْ بالتوحيد واخْتُتِمَتْ بالتوحيد. ودِلالة الآية الأولى على بيان حقيقة التوحيد دِلالةٌ واضحة كسابقاتها [٤١].

---

(٤١) ولا شكَّ أنَّ مَن حقق هذه الوصايا كانت له جائزة عظيمة، فيكون قد اكتسب العقل والتذكر والتقوى، ولذلك الله ﷻ في هذه الآيات قال: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾،

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**قَالَ ٱبْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى وَصِيَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ الَّتِي عَلَيْهَا خَاتَمُهُ؛ فَلْيَقْرَأْ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾** [الأنعام: ١٥١]، **إلى قوله: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾ الآية** [الأنعام:١٥٣]» ».

هذا الأثر عن ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ خرجّه الترمذي وقال: (حسن غريب)، وحسَّنه طائفةٌ من أهل العلم، وضعّفَهُ طائفة.

وأورده المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بلفظٍ مُقارب للفظ الترمذي: **(مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى وَصِيَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)**، وعند الترمذي: (من سرَّهُ أن ينظر إلى صحيفة محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التي عليها خاتَمُه) ، ولك أن تقول: (خاتِمُه) ، يجوز: «خاتَم» و«خاتِم».

(فليقرأ هذه الآيات)؛ الآيات في سورة الأنعام[٤٢]، وهذا يدلُّ على أنها آياتٌ عظيمة مشتملةٌ على حقوقٍ واجبة على جميع العباد، وعلى أنَّ هذه الآيات مُحْكَمَةٌ لم تُنْسَخْ، وأنها من آخر ما نزل؛ لأنَّ عليها خاتَمَ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهي من الآيات التي يجب أن يعمل بها المسلم ويتنبَّهَ لها، والمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ استنبط بعض الفوائد منها فيما أورده رَحِمَهُ ٱللَّهُ من مسائل على هذا الباب، هذا الباب استنبط منه المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ فوائدَ ومسائلَ كثيرة بَلَغَتْ أربعًا وعشرين فائدة ومسألة.

﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾. وذكر أهل العلم لطيفةً في ذلك وهي: أنَّ مَن عقل ذلك أدَّاه إلى التذكّر، وإذا تذكر فإنه يخاف ويتقي.

(٤٢) المراد: أنَّ النبي ﷺ لو كان موصيًا لأوصى بهذه الوصية.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنْتُ رَدِيفَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى حِمَارٍ، فَقَالَ لِي: «يَا مُعَاذُ؛ أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَى العِبَادِ؟ وَمَا حَقُّ العِبَادِ عَلَى اللهِ؟» قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «حَقُّ اللهِ عَلَى العِبَادِ: أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقُّ العِبَادِ عَلَى اللهِ: أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ أَفَلَا أُبَشِّرُ النَّاسَ؟ قَالَ: «لَا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا». أَخْرَجَاهُ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»».

هذا الحديث الصحيح المُخرّج في صحيحَي البخاري ومسلم فيه بيان حقيقة التوحيد من كلام النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو: أن يُعْبَدَ اللهُ ولا يُشركَ به شيء، وأن هذا من الحقوق التي يستحِقُّها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على عباده ، بل هو أعظم حقٍّ له جَلَّ وَعَلَا على العباد.

هذا الحديث فيه: أنّ معاذًا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ كان رديفَ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على حمار؛ الرديف هو: الراكبُ خلفَ الراكب.

وفيه: جواز الإرداف على الدّابة؛ كما ذكر المؤلف في المسائل.

وفيه: تواضع النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ حيث كان يركب حمارًا.

وفيه أيضًا: تسمية الدواب، فإنه جاء في الصحيح تسميةُ هذا الحمار بـ«عُفَيْر»، وذكر علماء السيرة أنَّ هذا الحمار أهداه له «الْمُقَوْقِسُ» عظيمُ مصر.

فلمّا كان مع النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بادره عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بهذا السؤال: «أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَى العِبَادِ؟ وَمَا حَقُّ العِبَادِ عَلَى اللهِ؟»؛ وهذا أسلوبٌ بليغ في التعليم؛ وهو استثارةُ ذهن المتلقّي وجَلْبُ انتباهه لِما يُلقى إليه من خلال إرسال هذا السؤال إليه، «أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَى العِبَادِ؟ وَمَا حَقُّ العِبَادِ عَلَى اللهِ؟»

فأجابه معاذ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بتواضعٍ وأدب برَدِّ العلم في ذلك إلى الله وإلى رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الذي يوحى إليه من الله، فبيَّنَ النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ جوابَ هذا السؤالِ العظيمِ الذي هو من أهم المهمات في حياة كل إنسان، لابد أن يعرف الجواب عنه؛ ما هو حق الله عليَّ؟ وما حقّي على الله عَزَّوَجَلَّ؟

ومع الأسف كثيرٌ من الناس على وجه الأرض يعيشون كالبهائمُ، أو - أستغفر الله- البهائم خيرٌ منهم؛ لأن البهائم تعرف حقَّ الله ﷻ عليها، ولا تعصيه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، أمَّا هؤلاء فإنهم يعيشون أسوأ من حالة البهائم والأنعام، لا يعرفون لحياتهم هدفًا ولا غايةً ولا يعرفون لله عَزَّوَجَلَّ حقًّا يقومون به.

الشاهد: أنَّ النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بيَّن أنّ **(حَقُّ اللهِ عَلَى العِبَادِ: أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا)**، هذا هو التوحيد؛ النفي والإثبات، وهو حقٌّ استحقَّهُ الله على عبادِهِ بمقتضى كونه ربَّهم وسيّدَهُمْ وخالقَهُم، وكلُّ العقول مُجْمِعَة على أنّ للسيد على عبده حقًّا.

وهو يستحق هذا الحق ثانيًا على عباده؛ لأنَّه المُنْعِمُ المتفضّلُ عليهم، وشكرُ الـمُنعِم مما أجمع العقلاء على حُسْنِه؛ فصار من حق الله عَزَّوَجَلَّ عليهم من هذه الجهة.

واستحق جَلَّوَعَلَا هذا الحق على العباد من جهة ثالثة وهي: من جهة أنَّ هذا ما تقتضيه ذاتُهُ وصفاتُهُ ونعوتُ جلاله وجماله، إذْ كلُّ مَنْ عَرَفَ اللهَ جَلَّجَلَالُهُ وعَظُمَ سلطانه بأسمائه وصفاته فإنه لا يَمْلِكُ إلا أنْ يُذْعِنَ له بالمحبة والمهابة والخوف والتعظيم والإجلال، فهذا شيءٌ يستحقه لذاته سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

فلأجل هذه الوجوه الثلاثة كان حقُّ الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئـًا.

وأما الشِّقُّ الثاني في الحديث وهو (حَقُّ العِبَادِ عَلَى اللهِ) [٤٣] ؛ فإن أهل السنة والجماعة يقولون: إنَّ للعباد على الله حقًّا بمقتضى هذا الحديث وأمثالِه من الأدلة، ولكنَّه حقُّ تفضُّلٍ من الله عَزَّوَجَلَّ، يعني: حقٌّ أحقَّهُ الله على نفسه، لا أنَّ العبادَ هم الذين استحقّوا على ربهم أو أوجبوا على ربهم حقًّا، العبادُ أذلُّ وأحقرُ من ذلك، والله أجلّ وأعظمُ من ذلك [٤٤].

وهذا التأصيلُ مرجعُه عند أهل السنة والجماعة إلى ثلاثة أصول:

❁ **الأول**: أنَّ الله جَلَّوَعَلَا كَتَبَ على نفسه إثابةَ الطائعين ومغفرةَ ذنوب التائبين وما إلى ذلك، قال جَلَّوَعَلَا: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾[الأنعام:٥٤] ،

---

(٤٣) وهذه مسألةٌ مهمّة ينبغي أن يتنبَّهَ طالب العلم إلى مذهب أهل السُّنَّة والجماعة فيها، فإنه وسطٌ بين انحرافين، أو هدى بين ضلالتين.

(حقّ العباد على الله) إذا أدّوا حقّه ﷻ : (أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا)؛ وهذا يتضمّن عبادته أيضًا، بمعنى: أنه لا يعذّب من عبَد الله ولم يشركْ به شيئًا، وهذا بيِّن حتى لو لم يُذكرْ في الحديث ؛ لأنَّه قال: (حَقُّ العِبَادِ عَلَى اللهِ) ، والعباد لا يكونون عبادًا إلا إذا أدّوا العبادة لله ﷻ، السياق يدلّ على هذا، وأنهم عبدوا الله ولم يشركوا به شيئًا فاستحقّوا على الله ﷻ (أن لَا يُعَذِّبَ) هؤلاء الذين عبدوه ولم يشركوا به شيئًا.

(٤٤) يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في النُّونية:

ما لِلْعبادِ عليه حقٌّ واجبٌ   هو أوجبَ الأجرَ العظيمَ الشانِ

فهذا شيءٌ كَتَبَهُ الله على نفسه، لا أنَّ العباد كتبوا وأوجبوا عليه شيئًا؛ فصار هذا حقًّا للعباد بمقتضى إيجاب الله وكتابته على نفسه [٤٥].

❁ **الثاني**: أنَّ الله وعد عباده المطيعين بالإثابة، والمستغفرين والتائبين بالمغفرة، ﴿إِنَّ الله لَا يُخْلِفُ المِيعَادَ﴾[آل عمران:٩]، ﴿وَعْدَ اللهِ لَا يُخْلِفُ اللهُ

(٤٥) وهذا مِمَّا خالف فيه أهل السُّنَّةُ والجماعةُ المعتزلةَ القدرية ؛ فإن أهل السُّنَّة يقولون: هو حقٌّ تفضّل الله بإحقاقه على نفسه، أمَّا هم فيقولون: إنَّ إثابة المطيعين والجنَّة والنَّعيم فيها هذا حقّ على سبيل المقابلة وعلى سبيل المُعاوضَة لا على جهة التفضّل ، ولذلك ترى الزَّمخْشري في تفسيره في قوله تعالى: ﴿أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:٤٣] يقول: (أي على سبيل المقابلة لا التفضّل كما تقول المبطلة) يريد أهل السُّنَّة، فهذا ليس على سبيل التفضّل عند هؤلاء، وإنما على سبيل المُعاوضَة ، يعني: عملٌ عمِلوه واستحقوا عليه الأُجرة، كما لو استأجرتَ أجيرًا وعمِل لك ما اتفقتَ أنت وإيَّاه عليه فإنك ستعطيه الأُجرة على سبيل المُعاوضَة، وليس أنك تتفضّل عليه بهذه الأُجرة؛ هكذا قعَّد هؤلاء هذه المسألة، ولا شكَّ أنه انحرافٌ عظيم مخالف لكتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ، ولِمَا أجمعَ عليه السّلف الصالح؛ العباد عبيدٌ لله ﷻ، والله ﷻ هو الذي خلقهم، وهو الذي أمدَّهم، وهو الذي أعانهم على أداء هذه العبادات.

والله لولا اللهُ ما اهْتدينَا ....

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللهُ﴾ [الأعراف:٤٣]. إذًا الأمر كلّه فضْل من الله ﷻ ، فالله قد تفضّل ابتداءً بأن أعان، وسدَّد، وَوَفق، وهدى للقيام بالتوحيد، وأداء العبادات ثمَّ تفضّل ثانيًا ﷻ بأن تقبَّل وأثاب.

وَعْدَهُ﴾[الروم:٦]، ﴿وَعْدَ الصِدْقِ الذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾[الأحقاف:١٦]؛ فصار هذا حقًا للعباد بمقتضى وَعْدِ الله الذي لا يخلف وعدَه.

❁ **الثالث**: وهو أنه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ حرَّم على نفسه الظلم، ﴿إِنَّ الله لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا﴾[يونس:٤٤]، ﴿إِنَّ اللهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾[النساء:٤٠]، «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا»، ومن الظلم وَضْعُ الشيء -كما تعلمون- في غير موضعه، فإذا كان وَعَدَ وأوجب بالإثابة والمغفرة، كان خلافُ ذلك وضعًا للشيء في غير موضعه، وهذا حقيقة الظلم.

إذًا حقُّ العباد على الله حقٌّ تفضَّلَ الله عَزَّوَجَلَّ به فأوجبه على نفسه، ومرجعُهُ إلى هذه الأصول أو الأدلة الثلاث التي سَلَفَتْ(٤٦).

---

(٤٦) والأصل الأول والأصل الثالث حصل فيه نزاع بين أهل السُّنَّة والجماعة والأشاعرة.
أمَّا الأصل الأول -وهو المتعلّق بأنَّ الله كَتَبَ على نفسه وأحقّ على نفسه- فقد حصل فيه عند الأشاعرة اضطرابٌ كبير؛ فمنهم مَن أثبت، ومنهم مَن نفى.

وأمَّا الأصل الثالث فقد أخطئوا فيه؛ إذْ الظلم عندهم الذي يمتنِع على الله ﷻ هو المُمتنع لذاتِه، الله ﷻ إذا نفى عن نفسه الظلم فإنَّ المقصود بذلك في زعْمهم هو المُمتنِع لذاتِه. وهذا ليس بصحيح، والله ﷻ إنما تَمَدَّح وإنما أثنى على نفسه بأنه لا يظلم معَ كون هذا الظلم مقدورًا له جلَّ وعلا، الله ﷻ قادرٌ على أن يظلم لكنه لا يظلم لاقتضاء صفاته سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ذلك، ولأنَّه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ له الكمالُ المطلق من كلّ وجه فإنه لا يظلم.

وعلى كلّ حال هذه المسألة لها أصول عند هؤلاء الأشاعرة ولها تفريعات ومبنيّة على أصول تتعلّق بنفيهم التعْليل، وبنفيهم تأثير الأسباب، إلى غير ذلك مِمَّا المقام لا يقتضيه

«**أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا**»؛ هذه المسألة راجعة إلى قضية الوعد والوعيد، وفي ذلك تفصيلٌ يطولُ به الكلام، وسيأتي البحث فيه -إن شاء الله- على وجه التفصيل في الباب الآتي، فنُرْجِئُ الكلام عن قوله: « **أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا**».

لَمّا سمع معاذٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هذه البشارةَ العظيمةَ طَلَبَ من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يبشِّرَ النَّاس؛ وهذا يدلُّكَ على أن من محاسن الأخلاق التي كان عليها الصالحون، ومنهم أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومنهم معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ وهو محبّة تبشير الناس بما يسرُّهُمْ وبما يُفْرِحُهُمْ، ولا شك أنَّ الصالحين أعظمُ ما يفرحون به فضلُ الله عَزَّ وَجَلَّ ورحمته وإحسانه، ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾[يونس:٥٨] .

إلا أنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حثَّهُ على عدم بيان ذلك، وذلك لئلّا يتّكِلوا؛ فإن من الناس مَنْ قد لا يحملُ هذا الحديثَ وأمثالَهُ على مَحْمَلِهِ ، فيقعون في الخطأ بناءً على ذلك.

وأنبه إلى أنه قد وقع في بعض شروح كتاب التوحيد أنَّ معاذًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حدَّث بهذا قبل أن يموت تأثُّمـًا، والذي يبدو والله أعلم أنَّ هذا ليس بصواب ،

وإنما هو توضيحٌ لهذه المسألة، واسْتطراد اقتضاه ما جاء في هذا الحديث وهو حقّ العباد على الله عَزَّ وَجَلَّ.

المقصود أنّنا نفهم أن حقّ العباد على الله عَزَّ وَجَلَّ هو حقّ تفضّل لا حقّ مقابلة ومُعاوضَة بين الله عَزَّ وَجَلَّ وخلْقه.

وأنه قد حَصَلَ خلطٌ بين حديثَيْن؛ فإنَّ لمعاذٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قصةً قريبةً من هذه لكنَّها تختلف عنها في السياق والموضوع، وهو أنه كان رِدْفَ النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ على رَحْل وليس على حمار، يعني: كانا على بعير ، فناداه النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ثلاثَ مرات ، وهذا أسلوب آخر لاسترعاء الانتباه؛ «يا معاذ، يا معاذ، يا معاذ»، وكلُّ ذلك يقول: «لبيك يا رسول الله وسعديك»، ثم قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «مَا مِنْ أَحَدٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ صِدْقًا مِنْ قَلْبِهِ إِلَّا حَرَّمَهُ اللهُ عَلَى النَّارِ» ، هنا كرَّرَ معاذ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ الطلب بأن يبشِّرَ الناس، فكرر النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ التوجيهَ نفسَه، ثم جاء في ختام الحديث: «فأخبر بها معاذ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ تأثُّمـًا»، والذي استظهره الحافظُ رَحِمَهُٱللَّهُ في «الفتح»(٤٧) -وهذا الذي يبدو رُجْحانُهُ- أنَّ هذه قصةٌ مخالفةٌ لتلك، وأنه قد تكرر لمعاذ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن يكون رديفًا للنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، لكنْ في كل مرة كان الحديثُ مختلفًا(٤٨).

---

(٤٧) اسْتظهر الحافظ ابن حجر رَحِمَهُٱللَّهُ في شرحه لحديث معاذ في «كتاب الجهاد» أنهما حديثان. وهذا الأقرب؛ لأنَّ سياق الحديثين مختلف، ولأنَّه لا مانع من تعدّد الموقف.

(٤٨) **الخلاصة المستفادة**: أنَّ المؤلّف رَحِمَهُٱللَّهُ عقد هذا الباب الأول لبيان أهمّية التوحيد ووجوبِه وأنَّه الحقّ الأعظم على العباد، وكان فقْه المؤلّف رَحِمَهُٱللَّهُ في الإيراد لِمَا ذكر من الآيات والحديث فقهًا عظيمًا؛ فإنه ذكر أولًا موضوع الكتاب، ثمَّ عقَّب على ذلك بآية تبيّن حقيقة التوحيد وأنه الحِكمة من خلْق الجن والإنس، ثمَّ بآية تبيّن حقيقة التوحيد أيضًا وتبيّن الحِكمة من إرسال الرسل، ثمَّ كانت الآية الثالثة والرابعة والخامسة في بيان أنَّ هذا التوحيد هو أهمّ المهمّات وأوّل الأوّليات وأوجب الواجبات، ثمَّ ختمَ ذلك بحديثٍ يبيّن



أن هذا التوحيد هو حقّ الله على العباد، وذيَّل رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد ذلك بمسائل اسْتنبطها، وهي مسائل نفيسة جرى ذكْر أكثرها في الدرس وهي أربع وعشرين مسألة، والحديث الأخير فقط استغرق قُرابة النصف من هذه المسائل، لكن ما يتعلق من ذلك بالتوحيد جاء تقريبًا في ثلاث مسائل، والباقي لا يتعلق بالتوحيد. والله عَزَّ وَجَلَّ أعلم.

قال المصنف رحمه الله:

٢-بَابُ

فَضْلِ التّوحيدِ، وما يُكَفِّرُ من الذُّنُوبِ

وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام:٨٢]).

وَعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ، وَرُوحٌ مِنْهُ، وَالْجَنَّةَ حَقٌّ، وَالنَّارَ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ». أَخْرَجَاهُ.

وَلَهُمَا فِي حَدِيثِ عِتْبَانَ: «فَإِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ)؛ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ».

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ، عَنْ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ قَالَ: «قَالَ مُوسَى ﷺ: يَا رَبِّ عَلِّمْنِي شَيْئًا أَذْكُرُكَ وَأَدْعُوكَ بِهِ، قَالَ: قُلْ يَا مُوسَى: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، قَالَ: كُلُّ عِبَادِكَ يَقُولُونَ هَذَا؟ قَالَ: يَا مُوسَى؛ لَوْ أَنَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعَ وَعَامِرَهُنَّ - غَيْرِي - وَالْأَرَضِينَ السَّبْعَ فِي كِفَّةٍ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فِي كِفَّةٍ، مَالَتْ بِهِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ». رَوَاهُ ابْنُ حِبَّانَ وَالْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ.

وَلِلتِّرْمِذِيِّ - وَحَسَّنَهُ - عَنْ أَنَسٍ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «قَالَ اللهُ تَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِيْ بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا، ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا، لأَتَيْتُكَ بِقِرَابِهَا مَغْفِرَةً».



قال الشارح وفقه الله:

بعد أن بيَّن المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ في الباب السابق حقيقة التوحيد وأهميته، عَطَفَ عليه هذا الباب ببيان فضل التوحيد؛ فإنَّ النُّفوس كأنَّها قد تشوَّفَتْ بعد أنْ عَرَفَت التوحيد إلى معرفة فضله، فكان من المناسب عَقْدُ هذا الباب في هذا الموضع. وأيضًا حتى تَنْبَعِثَ الهمة وتَعْظُمَ الرغبةُ في الاهتمام بما سيأتي في هذا الكتاب من تفاصيلِ مسائلِ التوحيد.

(بَابُ فَضْلِ التَّوْحِيدِ)؛ (الباب) عند أهل التأليف والتصنيف: هو القِسم من الكتاب، والذي يحتوي غالبًا على مسائل من جنسٍ واحد؛ هذا يطلقون عليه (الباب)، ويُقَسِّمُون الكتب كثيرًا إلى أبواب(٤٩) .

و(الباب) في اللغة: هو ما يوصِل إلى المقصود(٥٠)؛ وهذا مناسبٌ لهذا المعنى الاصطلاحي، فإنَّ أبواب الكتب مُوصلةٌ إلى فَهْمِ المراد. هذا التقسيم

(٤٩) ومن طريقة أهل العلم أنهم يقسِّمون كُتُب العلم المصنَّفة إلى أبوابٍ وإلى فصول؛ وذلك لأنَّه يسهل به الوصول إلى مظانِّ المسألة، كما أنَّ في ذلك تنشيطًا للنفوس.

(٥٠) **والمقصود به في اصطلاح المصنّفين**: هو جُملةٌ من العلم تشتمل على فصولٍ ومسائل غالبًا.

إلى المسائل المجموعة كُلٍّ على حِدَة تحت جزءٍ واحد وقسمٍ واحد تُعين على فَهْمِ هذا الموضوع.

قال: (**بَابُ فَضْلِ التَّوْحِيدِ**) [٥١]؛ يعني هذا بابٌ موضوعٌ لبيان فضل التوحيد، وجاء في نسخة عند حفيد المؤلف الشيخ عبد الرحمن بن حسن في «فتح المجيد»: (باب بيان فضل التوحيد).

(**وَمَا يُكفِّرُ مِنَ الذُّنُوب**)؛[٥٢] الأقرب أنَّ «ما» هاهنا مصدرية؛ يعني: باب فضل التوحيد وتكفيرِه الذنوب؛ أراد الشيخ أن يُبَيِّنَ أنَّ هذا التوحيد له فضائلُ وأنَّه يكفِّرُ الذنوب، وعليه فيكون قولُه: (**وَمَا يُكفِّرُ مِنَ الذُّنُوب**) من باب عطف الخاص على العام ، فبعض فضائل التوحيد تكفيرُه الذنوب.

ولا شك أنَّ التوحيد له أعظمُ الفضل، والإحاطةُ بهذا الفَضْل مما تَعْجَزُ عنه العبارة، فإنَّ التوحيد أعظم الأشياء وأكملها وأشرفها، وهو لُبُّ الدِّين، وهو أساسُه وقاعدتُه، وليس في دين الرسل ولا في كتب ربِّ العالمين شيءٌ أعظم من

---

(٥١) قوله: (بَابُ) أو (بَابٌ) هذه الكلمة مرفوعة على أنها خبرٌ لمبتدأ محذوف؛ هذا باب فضل التوحيد. وإن شئتَ فقلْ: مرفوعةٌ على أنها مبتدأٌ لخبر محذوف؛ باب فضل التوحيد وما يكفّر من الذنوب هذا.

(٥٢) (ومَا) هاهُنا قِيلَ: إنها موصولة يعني: والذي يكفّر من الذنوب. وقِيلَ: إنها مصدرية؛ باب فضل التوحيد وتكفيره الذنوب، وهذا أوْلى دفعًا للإيهام بأنَّ من الذنوب ما لا يكفِّره التوحيد، هذا إذا جعلْناها موصولة.

التوحيد. والشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ انتقى أدلةً يسيرةً في بيان فضل التوحيد، وإلا فالمقام أعظم من ذلك بكثير.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾**[الأنعام:٨٢]).

ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الباب آيةً واحدة، هي هذه الآية التي بين أيدينا: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ**﴾؛ فسَّر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الظلم هاهنا بـ: (الشرك)، ففي «الصحيحين» من حديث ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّ هذه الآية لمَّا نَزَلَتْ شقَّ الأمر على أصحاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فجاءوا إلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقالوا: «أيُّنا لم يظلم نفسه؟» فقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّهُ لَيْسَ بِذَاكَ، أَلاَ تَسْمَعُونَ إِلَى قَوْلِ لُقْمَانَ: ﴿إنَّ الشرك لظلمٌ عظيم﴾». فالنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيَّن في هذا الحديث أنَّ الظلم هو: الشرك، ولا شك أنَّ الشرك ظلم، والظلم في اللغة: هو وضع الشيء في غير موضعه؛ ولأجل هذا تقول العرب: (ظَلَمَ الشَّيْبُ الشَّعْرَ)؛ يعني: إذا خرج في غير أوانه. ومن الشعر السائر:

بِأَبِهِ اقْتَدَى عَدِيٌّ فِي الكَرَمْ	وَمَنْ يُشابِهْ أَبَهُ فَمَا ظَلَمْ

(**فَمَا ظَلَمْ**) يعني: ما وضع الشَبهَ في غير موضعه، بل وضع الشبه في موضعه، إذا وافق وشابه الابن أباه فإنه يكون قد وضَع الشبَهَ في موضعه.

وعليه؛ فإنّ الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ ظُلم، بل هو أعظم الظلم؛ وذلك لأنه -أعني المشرك- وَضَعَ العبادةَ في غير موضعها؛ فالعبادة حقٌ لله، وموضعها الصحيح أن تكون مُتَقَرَّبًا بها إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فمتى ما صُرِفَ ذلك لغير الله كان هذا ظُلمًا، وكان وضعًا للشيء في غير موضعه.

على أنَّ الظلمَ يُطْلَقُ على جنس المعاصي سواءً كانت من الصغائر أو من الكبائر أو من الشرك، وذلك أنَّ معصيةَ الله عَزَّوَجَلَّ وضعٌ للعبد ولعمله ولقوله ولعقله في غير موضعه، وإذا كان ذلك كذلك؛ كان هذا ظلمًا، وهذا الذي فَهِمَهُ أصحاب النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فهموا أنَّ المعاصي من الظلم. وعليه فإنَّ الإنسانَ لا يَخْلو من معصية، فظنّوا أنه قد فاتهم الأمن والاهتداء بسبب المعاصي.

وتنبّهْ هاهنا إلى أنَّ النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أراد أن يُبيّنَ لأصحابه أنَّ الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ هو الذي يُذهِب الأمن، ويمنع الأمن والاهتداء، وليس أنَّ مَنْ لم يشرك ووقع في المعاصي يكون له كمال الاهتداء والأمن، ليس هذا المراد، إنَّما أراد النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أن يبين أنَّ كلَّ من كان مؤمنًا بريئًا من الشرك الأكبر فإنَّ له حظًّا من الاهتداء والأمن.

ولكنَّ الأمرَ لا شك أنَّه متفاوتٌ، فَمَنْ كان له الإيمان المطلق؛ كان له الأمنُ والاهتداءُ المطلق، ومن كان له مطلق الإيمان -عنده أصل الإيمان مع ذنوبٍ ومعاصٍ وإدمانٍ على ما حرم الله- فإنَّه يكون له مطلق الأمن والاهتداء.

إذًا تنبَّه إلى هذه القاعدة المهمة وهي قاعدةٌ مطّردة: أنَّ الأمن والاهتداء المطلق- يعني الكامل - يكون حظَّ مَنْ معه الإيمان المطلق -يعني الكامل-،

وأمَّا مَنْ كان معه مطلق الإيمان - يعني أصل الإيمان - فإنه يكون له مطلق الأمن والاهتداء، يعني: له حظ وله نصيب بحسب ما معه من هذا الإيمان، وأنه لا يفوته الأمن والاهتداء بالكلية، ﴿ولِكُلٍ دَرَجَاتٌ مِمَا عَمِّلُوا﴾[الأنعام:٨٢]، كل إنسانٍ بحسب ما يقدِّم فإنه يكون له هذا الحظ من الأمن والاهتداء.

وذهب بعض أهل العلم إلى أنَّ الأمن يراد به: في الآخرة، وأنَّ الاهتداء يكون في الدنيا، والأقرب والله أعلم: أنَّ الأمن والاهتداء يكون حاصلًا في الدنيا ويكون حاصلًا في الآخرة.

أمَّا الأمن في الدنيا فإنه يكون بأنواع الأمن، وحصولِ الطمأنينة في النُّفوس؛ وهذا يقع -بفضل الله- للنفوس التي اطمأنَّتْ إلى ربها وخالِقِها وأقبلَتْ عليه وقَصَدَتْهُ بالعبادة والتذلُّل. **كما أنه يكون لهؤلاء المؤمنين الأمنُ في الآخرة**، ﴿وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾[سبأ:٣٧]، ﴿وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾[النمل:٨٩].

وكذلك الاهتداء؛ يكون في الدنيا، وكذلك يكون في الآخرة. **أمَّا في الدنيا** فلاشك أن من ثواب الإيمان والطاعة والإقبال على الله عَزَّوَجَلَّ: أن يهديَ الله عَزَّوَجَلَّ هؤلاء المؤمنين إلى الصراط المستقيم، ويوفقَهم إلى لزوم هذا الصراط المستقيم فيكون لهم الهداية في الدنيا. **وفي الآخرة** : يهديهم الله عَزَّوَجَلَّ إلى الجنة، وهذه ثمرة الاهتداء في الدنيا: أن يُهدى الإنسان إلى جنات النعيم، ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾[يونس:٩].فالله جَلَّوَعَلَا يجازي المؤمنين الذين اهتدوا بالدنيا بأن يهديَهم يوم القيامة إلى منازلهم في

الجنة، قال السلف رَحِمَهُمُاللَّهُ: (فإنَّ أحدَهُم لهو أهدى إلى منزلِه في الجنة منه كان في الدنيا)، وجاء في هذا بعض الأحاديث والآثار[٥٣].

إذًا مَنْ حقَّق الإيمان بالله جَلَّوَعَلَا فإنه يكون له الأمن والاهتداء بحسب ذلك. أما مَنْ نَقَضَ إيمانَهُ ووقع في الشرك فلا شك أنه يكون قد زال عنه الأمن والاهتداء، وهذا يكون مِنْ إثم وعقوبة الشرك بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ[٥٤].

قال رَحِمَهُاللَّهُ: (**وَعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ شَهِدَ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ، وَرُوحٌ مِنْهُ، وَالجَنَّةَ حَقٌّ، وَالنَّارَ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ اللهُ الجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ العَمَلِ» أَخْرَجَاهُ**).

هذا الحديث عظيمُ القَدْر جليلُ المنزلة، وهو من أعظم الأحاديث بيانًا لمسائل التوحيد؛ هو كنزٌ من كنوز علم الاعتقاد الذي ينبغي أن يعتنيَ به المسلم[٥٥].

---

(٥٣) قال صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَأَحَدُهُمْ أَهْدَى بِمَنْزِلِهِ فِي الْجَنَّةِ مِنْهُ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا» رواه البخاري.

(٥٤) ووجه إيراد الآية في هذا الباب: بيان فضل التوحيد، فإنَّ مَن حصَّل الإيمان الكامل والتوحيد التام فإنَّه يحصل له الأمن والاهتداء المطلق، وهذا من فضل التوحيد.

وهل هذه الآية: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ هي من كلام إبراهيمَ عَلَيْهِالسَّلَامُ في تَتِمَّة مُحاجّته لقومه؟ أو هي حُكْمٌ فصلٌ من الله عَزَّوَجَلَّ بين إبراهيم وبين قومه؟ قولان لأهل العلم في تفسير هذه الآية.

وقبل أن نشرعَ في تعلُّمِ ما فيه من مسائلَ وفوائدَ ؛ **أنبِّهُ إلى قاعدةٍ عامة تتعلق بفضائل التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله.**

تواتَرَت النُّصوص أنَّ: من قال: لا إله إلا الله؛ دخل الجنَّة، وأنَّ من أتى ربه جَلَّوَعَلَا ووافاه دون أن يكون مُشْركًا به سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فإنه يكون من أهل الجنة؛ وهذا موضعٌ قد يَغْلَطُ فيه بعض الناس، ويحملون ذلك على غير محمَلِهِ، وربما جرَّهُمْ عدمُ الفهم الصحيح لهذه النُّصوص -نصوصِ الوعد- إلى الوقوع في شيءٍ من الإرجاء والغرور(٥٦).

فالقاعدة هي: أنَّ الوعد الذي جاء في فضائل التوحيد ولا إله إلا الله وعدٌ مشرُوطٌ بشروط ومقيّدٌ بقيود؛ فَمَنْ أتى بهذه الشروط وهذه القيود حصل له هذا

---

(٥٥) وهو من أجْمع أحاديث العقيدة كما قال هذا بعض أهل العلم.

(٥٦) جاء في نصوصٍ كثيرة متواترة أنَّ (مَن قال لا إله إلا الله -أو شهد ألا إله إلا الله- دخل الجنَّة)، وسيمرّ معَنا أيضًا من حديث عِتْبان أنَّ مَن شهد شهادة التوحيد حرَّمه الله على النار، معَ أنَّه قد تواترت النُّصوص أنَّ من أهل التوحيد الذي عصوا الله ﷻ أنهم سيدخلون النار، وأنه سيخرج من النار مَن كان في قلبه مثقال ذرّة من إيمان، ومرَّ معَنا قوله ﷺ: «يخرج قومٌ من أهل التوحيد من النار» ، **فكيف الجمْع بين هذه النُّصوص؟**
المقطوع به أنَّه لا تعارض، ولا يمكن أن يقع التعارض بين النُّصوص. والشأن في منهج أهل السُّنَّة والجماعة في التلقّي وفي الاسْتدلال: الجمْع بين النُّصوص، وهذه من أهمّ قواعد ومُميّزات أهل السُّنَّة والجماعة؛ أنهم يجمعون النُّصوص ويألّفون بينها ويعاملونها معاملة النَّص الواحد، لا كطريقة أهل البدع الذي يؤمنون بِبَعضٍ ويكفرون أو يتركون بعضا.

الفضل الذي جاء في هذه الأحاديث. وقد مرَّ بنا في مراتٍ عدَّةٍ قولُ الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ حينما قيل له: «من قال لا إله إلا الله دخل الجنة»، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من قال لا إله إلا الله وأدّى حقَّها وفَرْضَها دخل الجنة»، وهذا كلامٌ حسنٌ متين يُنْبِئُ عن فقهٍ عظيم. ولما قيل لوهبِ بنِ مُنَبِّهٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أليست لا إله إلا الله مفتاحَ الجنة؟ قال: «بلى ولكن لكل مفتاحٍ أسنان، فإن أتيت بمفتاحٍ له أسنان فُتِحَ لك، وإلا لم يُفتَح لك».

إذًا النصوص التي جاء فيها أنَّ «من قال لا إله إلا الله دخل الجنة» مقيّدةٌ بتحقيق أصل التوحيد وكمالِهِ الواجب، وكمالُ التوحيد الواجب إنما يكون بفعل الأوامر، واجتناب النواهي.

وهذا التقييد في النصوص مستفادٌ من الأدلة الصحيحة، وهي على ضربين:

❁ **الضرب الأول**: النصوص التي جاء فيها قيودٌ في قول (لا إله إلا الله).

❁ **الضرب الثاني**: النصوص التي جاء فيها قيودٌ مع قول (لا إله إلا الله).

انتبه لهذا؛ فالنصوص في هذا المقام، النصوص المقيِّدة -والواجب حمل المطلق على المقيِّد- هذه النصوص جاءت على ضربين: منها نصوصٌ فيها تقييدٌ في قول لا إله إلا الله، ومنها نصوصٌ فيها تقييدٌ مع قول لا إله إلا الله.

وإن شئت فقل:

❁نصوصٌ فيها شروطٌ باطنة.

❁ونصوصٌ فيها شروطٌ ظاهرة.

أما الضرب الأول: فهو مِثلُ الحديث الذي سيأتي معنا -إن شاء الله- وهو حديث عِتبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «فإنَّ الله حرم على النَّار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله» ، لاحظ معي أن هاهنا قيدًا مُهِمّـًا في تحصيل ثمرة قول (لا إله إلا الله) وهي التحريم على النار، ألا وهي قوله: «يبتغي بذلك وجه الله».

إذًا لابد من إخلاص، ولابد أيضًا من عمل؛ لأنَّ مَنْ كان يبتغي شيئًا فلابد أن يكون باذلًا للأسباب التي توصِلُهُ إلى تحصيله، وأما إذا لم يكن كذلك فإنه لا يكون مُبْتَغِيًا. المبتغي الذي يَصدُقُ عليه وصف الابتغاء لابد أن يَبْذُل ولابد أن يعمل ما يوصِلُهُ إلى ما يريد، وأما إذا لم يكن كذلك فإنه كاذبٌ في زعمه أنه مبتغٍ.

إذًا تجد أن هذا قيْد؛ قَيَّدَ تحصيلَ الفائدة المرجوّة من (لا إله إلا الله) بقيْدٍ مهم لا ينبغي إغفاله، وعليه؛ فالنصوص التي جاءت مطلقة جاء لها تقييد، فالإطلاق ينبغي أن يُحملَ على هذا التقييد، وهذا في النُّصوص له أدلّةٌ عِدَّةٌ تجد أنه يقيَّدُ بأنَّ (من قالها صدقًا من قلبه)، إذًا هذا قيدٌ مهم لابد في اعتباره في أدلةٍ كثيرة سيأتي طَرَفٌ منها فيما يأتي من هذا الكتاب -إن شاء الله-.

إذًا هذا هو الضرب الأول المقيِّدُ للنُّصوص المطلقة؛ أن يكون فيها قيود في قولِ (لا إله إلا الله).

الضرب الآخر: أن تأتيَ النصوص فيها بيانُ فضل (لا إله إلا الله)، ولكن معَ أشياءَ أخرى ، فتكون القيود مع قول (لا إله إلا الله).

من ذلك ما ثبت في «الصحيحين» مِنْ أنَّ أعرابيًا أمسك بخِطام دابة النبي ﷺ وسألَهُ عن عملٍ يدخِلُهُ الجنة، فأجاب النبي ﷺ بقوله: «تعبدُ الله ولا تشركُ به شيئًا» هذا هو التوحيد، هذا هو مضمون (لا إله إلا الله)، ثم قال: «وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصل الرحم». إذًا تلاحظ أن هناك قيودًا مع قول (لا إله إلا الله) لابد من تحصيلها؛ لنيل الثواب المترتِّبِ على التوحيد.

تجد مثلًا عند الإمام أحمدَ وغيرِه بإسنادٍ جيد أن النبي ﷺ قال: «من عَبَدَ الله لا يشرك به شيئًا -هذا التوحيد- وأقامَ الصلاة، وآتى الزكاة، واجتنبَ الكبائر فله الجنة» أو قال: «دخل الجنة». تلاحظ معي أن هاهنا قيودًا مع التوحيد وهي: أن تأتيَ بالواجبات وأرفعُها وأعلاها الصلاة والزكاة، ثم أن تَكُفَّ عما حرّم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ، هنا تُحصِّلُ الثمرةَ التي تريد ، وهي أن تدخل الجنة.

إذًا النصوص في فضل (لا إله إلا الله) ينبغي أن تُحْمَلَ على هذه السبيل، وهي أنها نصوصٌ مطلقة، ولها قيود؛ قيودٌ في قولها، وقيودٌ مع قولها، وبالتالي يستقيم فَهْمُ الإنسان لهذه النصوص، ويكون متوسّطًا بين طَرَفَيْ أهلِ الوعيد وأهلِ الإرجاء.

وإن كنت طالبًا للعلم حريصًا على الفائدة؛ فأوصيك بمراجعة موضعٍ أُراه من أحسن المواضع في تحقيق هذا المقام، وهو موطنٌ لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «تفسيرُ آياتٍ أَشكلت»، فهذا من أحسن المواضع التي وقفْتُ عليها في تحقيق المقام في هذه المسألة العظيمة.

قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الحديث: «مَنْ شَهِدَ أَن لَّا إِلَـهَ إِلَّا اللهُ»؛ مرَّ بنا أن الشهادة: قولٌ وإخبارٌ عن علمٍ ويقين، لا تكون الشهادة شهادةً دون قول، ولا تكون الشهادة شهادةً مع جهل، ولا تكون الشهادة شهادةً مع شكٍ وارتياب(٥٧). إذًا يكون الإنسان شاهدًا بأن لا إله إلا الله إذا تكلَّمَ بها عن علمٍ ويقين؛ يعلم المعنى ويستَيْقِنُ به، وبالتالي يكون مُتشهِّدًا.

وهذا الحديث أيضًا مما يمكن أن يُقال إنه من النصوص المقيِّدة؛ فإن الشهادة لابد فيها من يقين، واليقين يَسْتَتْبِعُ العمل، من لوازم اليقين: أن يكون هناك أثرٌ في العمل، فإذا صَلَحَ القلب باستيقان معنى (لا إله إلا الله) أَثْمَرَ ذلك على الجوارح الإقبالَ على الأوامر واجتنابَ النواهي.

قال: «مَنْ شَهِدَ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» ؛ (أن) هنا هي المخففة من الثقيلة، تُكْتب ولا تُنطق، يُخطِئ بعض الناس عندما يقول: "أشهد أنَّ لا إله إلا الله"، قد تسمع هذا من بعض الناس في الأذان وغيرِه، وهذا غَلَطٌ ، الصواب أن تُقال هكذا: (أشهد أن لا إله إلا الله) تُكتب ولا تُنطق. و(لا إله إلا الله) هي الكلمة العظيمة التي قامت من أجلها السماوات والأرض.

---

(٥٧) (شَهِدَ) بمعنى: قال عن علْمٍ وعمل؛ فلابدَّ من القول، ولابدَّ أن يكون هذا القول عن علْم ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف:٨٦]، ولا يكفي هذا حتى يعمل بمقتضى هذه الشهادة، ومقتضى هذه الشهادة: ترْك الشرك، والإخلاص لله ﷻ ؛ مَن أتى بذلك فقد شَهِدَ بالحقّ.

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ»؛ تلحظ أنَّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أكّدَ معنى لا إله إلا الله بقوله: «**وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ**»، ومرَّ معنا أنّ (لا إله إلا الله) جملةٌ مشتملةٌ على نفيٍ وإثبات، وأنه لا يكون توحيدٌ إلا باجتماعهما؛ فالنفي وحده عدم، والعدم ليس بإيمانٍ ولا توحيد، والإثباتُ وحدَهُ لا يمنع المشاركة فلا توحيد، التوحيد: الجمع بين النفي والإثبات ، وسيأتي معنا -إن شاء الله- بابٌ مختصٌّ بتفسير هذه الشهادة العظيمة.

ثم قال: «**وَحْدَهُ**» هذا تأكيدٌ للإثبات، تأكيدٌ لقوله: «إلا الله»، و «**لَا شَرِيكَ لَهُ**» تأكيدٌ للنفي ، تأكيدٌ لقوله: «لا إله»، قال أهل العلم[٥٨]: (تأكيدٌ بعد تأكيد؛ اهتمامٌ بمقام التوحيد)، المقامُ مقامٌ عظيم يحتاج إلى تنبيه وتذكير وتأكيد؛ حتى يستقرَّ المعنى في النُّفوس المؤمنة.

قال: «**وأنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه**»؛ محمدُ بنُ عبد الله القرشيُّ الهاشميُّ رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هذا النبي الكريم لا يكون الإنسان مؤمنًا موحِّدًا إلا إذا شَهِدَ له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالرسالة؛ أنه رسولٌ من عند الله جَلَّ وَعَلَا، وأنه خاتَمُ الأنبياء والمرسلين، وأن رسالَتَهُ عامةٌ للثقلَيْن، هذا معنى شهادتك أنّ محمدًا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **ولازم ذلك**: طاعته فيما أمر، وتصديقُه فيما أخبر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وألا يُعبدَ الله إلا بما شرع.

هذه الشهادة قرينةُ شهادة التوحيد لله؛ فلا يكون الإنسان موحِّدًا إلا إذا شهد الشهادتين ووحَّدَ التوحيدَيْن: التوحيدَ لله بالعبادة، والتوحيد لرسوله

---

(٥٨) قاله الشيخ ابن القاسم رَحِمَهُ اللهُ.

ﷺ بالاتباع. ومتى أتى الإنسان بواحدةٍ من هاتين الشهادتين ما انتفع، فلا تنتفع بشهادةٍ إلا بضَمِّ الأخرى إليها.

النبي ﷺ جَمَعَ الله له كمالَ أكملِ وصفَيْنِ في البشر؛ ألا وهو: أنه عبدُ الله ورسولُه، وهذان الوصفان أكملُ وصفين للبشر، وللنبي ﷺ منهما كمالُهُما؛ بمعنى: أن للنبي ﷺ كمالَ العبودية، وللنبي ﷺ كمالَ النبوة والرسالة، فإنه بالاتفاق أعظم الأنبياء وأفضل المرسلين، وهو إمامُهُمْ ﷺ، وآدمُ فَمَنْ دونَهُ تحت لوائه ﷺ يوم القيامة.

هذان الوصفان -كما ذكرت لك- أكملُ وصفٍ يمكن أن يصلَ إليه بشر؛ أن يكون عبدًا لله وأن يكون رسولًا لله، وذلك مقامُ الأنبياء والمرسلين الذين هم أفضل البشر ، ولكن لنبينا ﷺ كمالُ العبودية، ولنبينا كمالُ الرسالة وكمالُ المنزلة في النبوة. إذًا النبي ﷺ أفضل الأنبياء، وأفضل المرسلين، وأفضل البشر ﷺ.

ولاحظ أنَّ في هذا الحديث ردًّا على طَرَفَيِ الضلال: على أهل الغُلُوّ وعلى أهل الجفاء، على الذين فرّطوا وعلى الذين أفرطوا.

فقوله ﷺ: «**وأنَّ مُحَمَدًا عَبْدُهُ**» ردٌّ على أهل الغلو الذين رفعوه ﷺ مِنْ مقام العبودية إلى مقام الإلهيّة، بل إنَّ منهم من رفعَهُ إلى مقام الربوبية، وهذا لا شك أنَّه غايةٌ في الضلال، والردُّ على هؤلاء بقوله ﷺ: «**عبدُه**» ، فالغالي في النبي ﷺ الذي رفعه إلى درجة أن يكون معبودًا لا عابدًا، فإنَّه يكون مُكذِّبًا لقول النبي ﷺ إنه عبدُ الله.

وقوله ﷺ: «**وَرَسُولُهُ**» ردٌّ على أهل الجفاء، وهم الذين كذّبوا بنبوة النبي ﷺ ورسالته، أو قصَّروا في اتّباعِه. هؤلاء وهؤلاء الردُّ عليهم بقوله ﷺ: «**ورسولُه**».

-فَمَنْ كان غير مؤمنٍ برسالته ﷺ فإنه يُرَدُّ عليه بقوله: «**ورسولُه**».

-والذي يُقَصِّرُ في اتباع النبي ﷺ، إمَّا باتباع الشهوات والإعراض عن أوامر النبي ﷺ وسُننه، أو يكون متبعًا للشبهات مُقدِّمًا قولًا غيرَ قول نبينا ﷺ، فإن هذا بين أن يكون مُكذِّبًا لرسالته كحال الكفار، أو يكونَ عندَهُ نقصٌ في الشهادة بالرسالة بحسب حاله ، إذا كان من أهل الكبائر أو كان من أهل الابتداع.

فهؤلاء وهؤلاء عندهم نقص وعندهم تقصيرٌ في الشهادة للنبي محمدٍ ﷺ بالرسالة. مَنْ كان مؤمنًا وشاهدًا برسالة النبي ﷺ، فإنه يَلْزَمُهُ أن يطيعَهُ فيما أمر، وأن يصدِّقَهُ فيما أخبر، وأن يجتنبَ ما نهى عنه وزجر، وأن يعبدَ الله وفق ما بيَّن وشرع ﷺ، وما سوى ذلك تقصيرٌ ولا شك(٥٩).

ثم قال ﷺ: «**وأنَّ عِيسَى عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ**»؛ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أحدُ أولي العزم من الرسل الذين هم أفضل الأنبياء والمرسلين، وهم الذين جَمَعَهُمُ الله عَزَّوَجَلَّ في قوله: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى:١٣] ،

---

(٥٩) وبناءً عليه فمحمد ﷺ (**عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ**)؛ عبدٌ لا يُعبد، ورسولٌ لا يُكذَّب، بلْ يُطاعُ ويُتَّبعُ عليه الصلاة والسلام.

فهؤلاء الخمسة هم أولوا العزم من الرسل، وأعظمُهُمْ منزلةً ومكانةً هو نبينا محمدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال: «**وأنَّ عِيسَى عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ**» ؛ هذا أيضًا فيه ردٌّ على طَرَفَيِ الضلال في شأن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ الذين رفعوه إلى أن يكون إلهًا، أو ابْنًا للإله، أو واحدًا من ثلاثة.

وردٌ أيضًا في قوله « **وَرَسُولُهُ**» على الذين طعنوا في نبوَّتِه ورسالتِه، أو قدحوا فيه؛ كاليهود حينما وضعوا عليه ما وضعوا من ألقاب السوء، كزعمهم إنه ابن زانية – وحاشاه عليه الصلاة والسلام –.

إذًا هؤلاء الرد عليهم جميعًا بقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « **وأنَّ عِيسَى عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ**».

قال: «**وَكَلِمَتُه أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ**»؛ معنى قوله: «**وَكَلِمَتُه**» أي: أنه كان بكلمة الله، كما بيَّن هذا الإمام أحمدُ رَحِمَهُ اللهُ في كتابه «الرد على الجهمية والزنادقة»، وكما فعل أيضًا غيرُه من المتقدمين كقتادة، أو ممن بعدَهُم كالدارمي في «نَقْضِه على بِشْر»، وتَسَلْسَلَ هذا في كلام أهل العلم قاطبةً؛ أنَّ معنى قوله «**وَكَلِمَتُه**»: أنَّه بالكلمة كان، لا أنه هو الكلمة؛ أي: أنَّ الله خَلَقَهُ بقول (كُنْ)، ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[آل عمران:٥٩] . فعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ خُلِقَ بهذه الكلمة، ولم يُخْلَقْ بالسبب الْمُعتاد في خلْق بني آدم، فإن الله جَلَّ وَعَلَا خَلَقَ عامة الناس بتوسُّطِ سبب، وهو التقاء

الوالدين، أما عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وكذلك آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ فلم يكن خلقُهُمْ بهذا السبب المعتاد، إنما خَلَقَهُ الله عَزَّ وَجَلَّ بقوله: ﴿كُنْ﴾. إذًا (كَلِمَتُه) يعني: بكلمته كان.

وقولُه ﷺ: «وَرُوحٌ مِنْه» أي: أنه مخلوقٌ بالروح التي خَلَقَها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. فالروح في قوله: «منه» يعني: الروح المخلوقة التي خُلِقَتْ من الله عَزَّ وَجَلَّ. فقوله: «منه» هاهنا (من) لابتداء الغاية، وذلك له نظائرُ في النصوص(٦٠)، فهذه الروح من الله كانت خَلْقًا وإيجادًا، وجبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ نَفَخَ في جيب مريم هذه الروحَ التي خَلَقَها الله عَزَّ وَجَلَّ. قال أهل العلم: (الله خَلَقَ بكُنْ، وجبريل نَفَخَ الروح)، جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ كان منه النفخ في الروح، والله جَلَّ وَعَلَا كان منه الخلق بـ(كُنْ).

وهذا الموضع مما ضلَّ فيه مَنْ ضلَّ من أهل الكفر وأهل الضلال؛ فالنصارى ضَلُّوا هاهنا حيثُ زعموا أنَّ صفةً من الله عَزَّ وَجَلَّ - وهي الروح- قد حلَّتْ في عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فكان اللاّهوت في النَّاسوت -كما يقولون-، أو أنَّ جزءً من الإلهية في عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولا شك أنَّ هذا من الضلال البيِّن، فإن إضافةَ الروح هاهنا إلى الله جَلَّ وَعَلَا: إضافةُ مخلوقٍ إلى خالقه، الشأن فيها كالشأن في «ناقةِ الله» و«بيتِ الله» وأمثالِها مما جاء في النصوص.

والقاعدة: أنَّ الإضافةَ إلى الله جَلَّ وَعَلَا جاءت على قسمين:

❁ **القسم الأول:** إضافةُ صفةٍ إلى موصوف.

---

(٦٠) ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ [الجاثية:١٣] يعني: خلْقًا من الله عَزَّ وَجَلَّ، مبتدئًا منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خلْقًا، وليس أنَّه صفةٌ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

❁ **القسم الثاني**: إضافةُ مخلوقٍ إلى خالقه[٦١].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فإضافة الأوصاف ثابتةٌ لمن قامت به كإرادة الرحمانِ

وإضافةُ الأعيان ثابتةٌ له مُلْكًا وخَلْقًا ما هما سِيّانِ

فانظر إلى بيت الإله وعِلْمِهِ لَمّا أُضيفا كيف يفترقانِ

فرقٌ شاسع بين أن تقول: (علمُ الله)، فهذه إضافة صفةٍ إلى موصوف؛ لأنَّ العلمَ صفةٌ، لا تقوم الصفة بنفسها، بل لابد أن تقوم بذات، وحينما تقول: (بيتُ الله) الأمر هاهنا مختلف، هذه إضافة مخلوق إلى خالقه؛ لأنَّ هذا المخلوق قائمٌ بنفسه.

---

(٦١) **وإضافة المخلوق إلى الله ﷻ جاءت على ضرْبين:**

إضافة لبيانِ أنَّها داخلةٌ في عموم مخلوقات الله ﷻ وأنَّها مِلْكٌ لله سبحانه ، وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ﴾ [العنكبوت:٥٦]، وكما يقول القائل: (المال مالُ الله) مثلًا.

وهناك إضافة تشريف: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾، و ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾، ﴿نَاقَةَ اللهِ﴾ ، وأمثال ذلك من النُّصوص؛ هذه من باب إضافة التشريف.

وكِلا الإضافتين من إضافة المخلوق إلى الخالق. والروح هذه التي أُضيفت إلى الله ﷻ هي من هذا الباب؛ أي من باب إضافة المخلوق إلى خالقه.

«الروح» مخلوقٌ كائنٌ قائمٌ بنفسه، وإن كان يَحُلُّ في غيره! لكنَّه مخلوقٌ مستقل، فإضافَتُهُ إلى الله جَلَّوَعَلَا من إضافة المخلوق إلى خالقه.

قال: «**وأنَّ الجَنَّةَ حَقٌ وَالنَّارَ حَقٌّ**»، الجنة والنار: هما الداران اللّتان جعلهما الله عَزَّوَجَلَّ محلًّا لثوابه؛ وهذه الجنة، أو محلًّا لعقابه؛ وهذه النار. فالمؤمنون يعتقدون أنَّهما حق، وذلك يتضمن أنَّهما داران مخلوقتان موجودتان الآن، وأنَّهما باقيتان لا تَفْنَيان وما فيهما، وأنَّ الله جَلَّوَعَلَا قد أعدَّ فيهما شيئًا عظيمًا لا يحيطُ به فكرُ الإنسان، ففي ذلك مما أعدَّ الله عَزَّوَجَلَّ من أصناف النعيم في الجنة أو أصناف العذاب في النَّار -نسأل الله السلامة والعافية، ونسأل الله من فضله- لا شك أنَّ في ذلك ما لا يحيط به فكرُ إنسان، فهذا مما يَجِبُ أن يعتقدَهُ المسلم؛ أن الجنةَ حقٌّ وأنَّ النارَ حقٌّ.

ثم قال النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**أَدْخَلَهُ اللهُ**»، إعراب (أدخله): جواب الشرط، والشرط: «**مَنْ شَهِدَ**».

إذًا هذا هو جواب الشرط، هذه هي الجائزة التي وعد الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ مَنْ حقّق هذه المذكوراتِ في هذا الحديث، وعد الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ - وهو الذي لا يخلف وعده جَلَّوَعَلَا - أنَّ من كان منه ذلك: «**أَدْخَلَهُ اللهُ الجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ العَمَلِ**»؛ يعني: على أي عملٍ كان يلاقي فيه ربَّه جَلَّوَعَلَا فإنه سيكون من أهل الجنة.

وهاهنا وقفةٌ عند قول النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: « **أَدْخَلَهُ اللهُ الجَنَّةَ**» ؛ فإنَّ هذا النصَّ وأمثالَهُ محمولٌ عند أهل العلم على أحدِ وجهين بحَسَبِ حالِ العامل:

❋ « **أَدْخَلَهُ اللهُ الجَنَّةَ**» ابتداءً.

❁ أو «**أَدْخَلَهُ اللهُ الجَنَّةَ**» مآلاً.

سيدخل الجنة قطعًا، تحقيقًا لوعد الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، هذا مما لا يقبل الشك؛ ولكنْ لابد من التنبُّهِ هاهنا إلى أنَّ الدخولَ مختلف؛ قد يكون الدخولَ المطلق، وقد يكون مطلقَ الدخول؛ بمعنى:

- **قد يكون الدخولَ أولَ وَهْلَةٍ**، مباشرة من الحشر، من عرصات القيامة وإلى الجنة، دون المرور على النار -نسأل الله أن يجعلنا من هؤلاء- ، هذا شأنُ كُمَّلِ المؤمنين، هذا شأنُ الذين حقَّقوا أصلَ التوحيد وحقّقوا كمالَهُ الواجب، ومن باب أوْلى الذين حقّقوا كمالَهُ المستحب.

- **وأما الدخول المآلِيُّ**؛ يعني ما عبّرْنا عنه بمطلق الدخول، فإنه يكون لمن مات على التوحيد وأتى بكبائرَ لم يَغْفِرْها الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى له؛ فإن هذا سيدخل الجنة قطعًا، ولكنْ بعد أن يدخلَ النار دخولًا مؤقّتًا ، يعني في مدةٍ يشاءُها الله سبحانه وهو العليم بها ، فهذا سيخرج من هذه النار بعدَ ذلك قطعًا، ويدخل الجنة ويبقى فيها أبدًا، فهو داخلٌ إلى الجنة إذا أتى بهذا التوحيد وشهد هذه الشهادات، وكفَّ عمَّا يُناقِضُ ذلك؛ فإنه سيدخل الجنة قطعًا إما دخولًا أوليًا أو ابتدائيًا، وإما دخولًا مآليًّا.

مع ملاحظة أنَّ أهلَ الكبائر الذين ماتوا مُصِرّينَ على الكبائر، قد يكونون من أهل الصنف الأول ممن يدخلون الجنة دخولًا أوليًّا ؛ لأنَّ عندنا هاهنا أصلاً آخر: وهو أنَّ كل الوعيد الذي جاء في حق العصاة فهو مقيدٌ بقوله تعالى:

﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾[النساء:٤٨] . فهذه قواعدُ مهمة لابد من استحضارها حين النظر في نصوص الوعد والوعيد ، والله تعالى أعلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَلَهُمَا [٦٢] فِي حَدِيثِ عِتْبَانَ: «فَإِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؛ يَبْتَغِي بِذَٰلِكَ وَجْهَ اللهِ»).

هذا الحديث الثاني في هذا الباب وهو حديث عِتبان؛ وهو عِتبان بنُ مالك الأنصاري، صحابيٌ جليل. ومن اللطائف أنَّ هذا الصحابيَّ رابعُ صحابيٍ يذكره المؤلف في كتابه، وكلُّ هؤلاء الأربعة الذين افتتح المؤلف كتابَهُ بذكرهم بَدْرِيُّون، مرَّ معنا: ابن مسعود، ثم معاذ، ثم عُبادة، ثم عِتبان، وكلُّهم بَدْرِيَّون رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين.

قال: «فَإِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ»؛ قال هذا النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حديثٍ فيه قصة، وهي أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زار عِتبان لَمَّا استزارَ النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ يعني طلب زيارته، وأن يصليَ في بيته بعد أن ضَعُفَ بصرُه. الشاهد: أنه ذُكِرَ بعضُ مَنْ رُمِيَ بالنفاق، حينها قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَإِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؛ يَبْتَغِي بِذَٰلِكَ وَجْهَ اللهِ».

وهذا الحديث مخرّجٌ في الصحيحين؛ خرّجَهُ الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مواضعَ من صحيحه؛ من حديث الزهري، عن محمود بن الربيع، عن عِتبان بن مالك. وجاء في موضعٍ عند مسلم من حديث أنسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن عِتبان. وجاء في

---

(٦٢)يعني للشيخين في صحيحَيهما.

مسند الإمام أحمدَ بإسنادٍ فيه بعضُ النظر من حديث أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن عِتبان أنَّ الصحابة ما فَرِحوا قَطُّ كفرحِهم بما قال هاهنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فهذا الحديث من المبشرات العظيمة، بل جاء في هذه الرواية: أنَّ أنسًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال لابنه أبي بكر: (احفظ هذا الحديث؛ فإنَّه من كنوز الحديث)؛ هذا من كنوز الحديث يعني: فيه فضلٌ وله منزلةٌ ومكانة؛ لأنَّ فيه بِشارةً عظيمةً لأهل التوحيد الذين قالوا (لا إله إلا الله)، بشرط أن يكونوا مبتغين بذلك وجهَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى [٦٣].

قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَإِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؛ يَبْتَغِي بِذَٰلِكَ وَجْهَ اللهِ»؛ هذا الحديث فيه بيانُ فضل التوحيد، وأنَّ من فضائل التوحيد أنَّه يُحَرِّمُ صاحبَهُ على النار -نسأل الله من فضله-، وهذا التحريم أمرٌ قطعي؛ لأنَّه وَعْدُ الله، والله لا يُخْلِفُ وعدَه.

ولكن الجمعُ بين النصوص يدُلُّ على أنَّ هذا التحريمَ ينقسم إلى قسمين:

❁ **قد يكون التحريم**: تحريم الدخول.

❁ **وقد يكون التحريم**: تحريم الخلود.

---

(٦٣) وهذا الحديث فيه قيدٌ مهمٌّ، ومَن جمعَه معَ النُّصوص المطلقة تبيّن له غرور المغرورين كما قال إمام الدعوة في إحدى المسائل؛ فإنَّ مَن قال بذلك يبتغي وجهَ الله فلابدَّ أن يكون محصِّلًا للأسباب الموصلة لبُغْيته، وإلا فإنَّه لا يكون يبتغي بذلك وجهَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

-من النَّاس - أعني المؤمنين - مَنْ يَحْرُمُ عليه دخولُها أصلًا، لا يدخلُها البتَّة؛ وهؤلاء الذين حققوا كمال التوحيد الواجب، وأوْلى منهم من حقق التوحيد المستحب.

-أمَّا الذين يَحْرُم عليهم الخلود فيها؛ فهؤلاء الذين معهم أصلُ التوحيد، لكنَّهم من العصاة أهلِ الكبائر، والشأنُ فيهم كالشأن فيمن ذَكَرْنا قبلَ قليل؛ فهؤلاء يَصْدُقُ عليهم قول النبي ﷺ: « **فَإِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؛ يَبْتَغِي بِذَٰلِكَ وَجْهَ اللهِ**»، لا شك أنَّهم قالوها وحَصَلَ لهم حَظٌّ من ابتغاء ذلك لوجه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لكنْ ما حصل لهم كمالُ الابتغاء، فحصل منهم التقصير بترك الواجبات، أو فعل الكبائر، أو الإصرارِ على الصغائر .

أما كُمَّلُ المؤمنين الذين لهم كمالُ الإيمان والتوحيد؛ فهؤلاء مُنزَّهون عن فعل الكبائر أو الإصرارِ عليها، ليسوا معصومين، هم بشر، وكل ابنِ آدم خطّاء؛ لكنَّ ذنوبَهُمْ إمَّا أن تكون صغائر، وإما أن تَزِلَّ بِهِمُ القَدَم فيقعوا في كبيرة لكنَّهم يبادرون إلى التوبة، والله جَلَّ وَعَلَا قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾[الأعراف:٢٠١]، ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ ماذا يكون منهم؟ ﴿ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾[آل عمران:١٣٥].

إذًا، هذا شأن الكُمَّل من أهل التوحيد؛ أنَّهم لا تقع منهم الكبائر، أو إذا وَقَعَتْ بادروا إلى التوبة إلى الله جَلَّ وَعَلَا. أما هؤلاء الذين نتحدّثُ عنهم في هذا الصنف؛ فهم الذين ماتوا وعليهم كبائر أو كانوا مُصِرّينَ على الصغائر ولم يَشَأِ

الله عَزَّوَجَلَّ أن يعفوَ عنهم؛ فهؤلاء يَدْخُلون النار دخولًا مؤقّتًا، مدةً يشاءُها الله، ثم يخرجون إمَّا بسبب شفاعة أو بمَحْضِ رحمةِ أرحم الراحمين سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، وبالتالي يَصْدُقُ عليهم أنَّهم حُرِّموا على النار؛ بمعنى حُرِّموا على النار خُلودًا (٦٤).

والله تعالى أعلم.

(٦٤) وهذا مِمَّا يدلّك على فضل التوحيد، وأنَّ هذا التوحيد ينجي من النار؛ كماله ينجي من دخولها، وقليله ينجي من الخلود فيها -عياذًا بالله منها-؛ وهذا برحمة الله ﷻ وعفوه.

قال رَحِمَهُ اللهُ: (وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «قَالَ مُوسَى عليه السلام: يَا رَبِّ؛ عَلِّمْنِي شَيْئًا أَذْكُرُكَ وَأَدْعُوكَ بِهِ، قَالَ: قُلْ يَا مُوسَى (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ) ، قَالَ: كُلُّ عِبَادِكَ يَقُولُونَ هَذَا!، قَالَ: يَا مُوسَى؛ لَوْ أَنَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعَ وَعَامِرَهُنَّ غَيْرِي وَالأَرَضِينَ السَّبْعَ فِي كِفَّةٍ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فِي كِفَّةٍ، مَالَتْ بِهِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» رَوَاهُ ابْنُ حِبَّانَ وَالحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ).

هذا الحديث حديثُ أبي سعيدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فيه بحثٌ من جهة إسناده؛ خرّجَهُ - كما رأيت - ابنُ حِبَّان والحاكم ، بل خرجه النسائي في الكبرى[٦٥] وغيرُهُم من أهل العلم، لكنَّ الإسنادَ فيه بحث ، فإنه جاء من طريق درّاج - أبي السمح - عن أبي الهيثم، وهذه الرواية فيها ضعف، بل وقعت فيها مناكير، وإن كان قد صحَّحَ هذا الحديثَ طائفةٌ من أهل العلم كابنِ حِبَّان والحاكم، وكذلك الحافظ ابنُ حجر رَحِمَهُ اللهُ في الجزء الحادي عشر من «فتح الباري».

وهذا المعنى الذي جاء في هذا الحديث جاء في حديثٍ عند الإمام أحمد بإسنادٍ جيد من حديث عبد الله بنِ عمرو بنِ العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، ولكنَّ السياقَ مختلفٌ، فليس الأمر في كلامٍ بين الله عَزَّ وَجَلَّ وموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وإنما بين نوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وابْنِهِ[٦٦].

---

(٦٥) وأيضًا في «عمل اليوم واللَّيلة».

(٦٦)فإنَّ نوحًا عليه السلام فيما جاء في هذا الحديث الذي أخبر به النبي ﷺ أوصى ابنَه عند موته بـ (لا إله إلا الله)؛ فإنَّ السماوات السبع والأرضين السبع لو وُضِعَتْ في كِفَّة و(لا إله إلا

وكذلك جاء عند ابن أبي شيبة بإسنادٍ صحيح ، معنى هذا الحديث من قول كعبِ الأحبار رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

الشاهدُ: أنَّ معنى هذا الحديث لاشك في صحته، وهو عِظَمُ وفَضْلُ التوحيد، والكلمة التي هي دالّةٌ على هذا التوحيد وهي (لا إله إلا الله)، وأنَّ زِنَتَها وقَدْرَهَا أعظمُ من السماوات والأرض ، وهذا لا شك أنه حقٌّ وصدق.

موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أحدُ أولي العزم من الرسل؛ سَأَلَ ربَّهُ جَلَّ وَعَلَا أن يعلِّمَهُ شيئًا يدعوه ويذكره به؛ كونُ (لا إله إلا الله) ذكرًا هذا شيءٌ واضح، وكونُها دعاءً هذا شيءٌ صحيحٌ أيضًا؛ وذلك أنَّ هذا الذكر وأعلاه قول (لا إله إلا الله) دعاءٌ بلسان الحال، ومرَّ بنا في مناسباتٍ سابقةٍ أنَّ **الدعاءَ ينقسم إلى قسمين**:

❁**القسم الأول**: دعاء المسألة؛ هذا هو: السؤال والطلب، الدعاء المعروف (اللهم إني أسألك)، (يا الله)، (يا رب).

❁**القسم الثاني**: دعاء العبادة؛ وهو كل أنواع العبادة فإنها طلبٌ من الله عَزَّوَجَلَّ بلسان الحال؛ طلبٌ من الله أن يعفوَ، وأن يغفرَ، وأن يُدْخِلَ الجنة بسبب هذا العمل.

طَلَب موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ شيئًا يدعو الله ويذكره به؛ فأمرَهُ ربُّهُ جَلَّ وَعَلَا أن يقول: (لا إله إلا الله)، هنا موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ طَلَبَ شيئًا يختصُّ به ويتميَّزُ به عن غيره ، والنفوسُ مجبولةٌ على حبِّ أن تتميّزَ فقال: «كُلُّ عِبَادِكَ يَقُولُونَ هَٰذَا!» ؛

الله) في كِفَّة لرجَحَتْ بهنَّ (لا إله إلا الله). تلاحظ في هذا الحديث يشهد في معناه لحديث (أَبِي سَعِيدٍ) السابق.

ليس هذا انتقاصًا من قَدْرِ هذه الكلمة العظيمة، لكنَّه طلبٌ للاختصاص، أن يَخُصَّهُ الله عَزَّوَجَلَّ بشيء.

فبيّنَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى في هذا الحديث أنَّ (لا إله إلا الله) لها شأنٌ عظيم، حتى وإن كانت كلمةً عامة يقولها المؤمنون جميعًا إلا أنَّ الشأن فيها عظيمٌ جدًا، حتى إنَّه لو كانت السماوات والأرض في كِفَّة(٦٧)؛ لو كانت السماوات والأرض(٦٨) هذه المخلوقات العظيمة الكبيرة الواسعة الثقيلة في كِفَّة من كِفَّتَيْ ميزان، وهذه الكلمةُ الطيبة (لا إله إلا الله) في الكِفَّة المقابلة؛ فإنَّ (لا إله إلا الله) أثقل، لـ«مَالَتْ بِهِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» يعني: ترجَّحَتْ، وذلك يدلُّكَ على عظيم شأن هذه الكلمة، وعظيم قَدْرِها عند الله، وعظيم ثوابها عند الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

وهنا اختلف أهل العلم في هذا الحديث إن صحَّ عن النبي صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ:

❁ أكان مراد النبي صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أن يُمثِّلَ ويُبيّنَ عِظمَ شأن هذه الكلمة؟ بمعنى أنه لو قُدِّرَ أن جُسِّدَ أو صُوِّرَ فضلُ (لا إله إلا الله) بحيث يكون في كِفَّة، والسماوات والأرض وُضِعَتْ في كِفَّة ميزان، فإن (لا إله إلا الله) ثِقَلُها ومكانَتُها وثوابُها أعظمُ من ثقل السماوات والأرض؟.

(٦٧) وهذا هو الأشهر في هذه الكلمة، وقال بعضهم (كَفَّة)، وقال بعضهم: إنها من مُثَلَّثِ الكلام؛ (كِفَّة، وكَفَّة، وكُفَّة)، لكنَّ الأشهر بالكسر.

(٦٨) فبيَّن جلَّ وعلا في هذا الحديث: (أَنَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعَ وَعَامِرَهُنَّ) يعني: مَن يكون في السماوات غير الله ﷻ، وهذا الاسْتثناء لأنَّ الله ﷻ على السماوات وليس داخل السماوات، إنَّما الذي هو داخل السماوات هو الملائكة.

❁ أو أنَّ مراد النبي ﷺ: أن (لا إله إلا الله) في كِفَّةِ الميزان الأُخْرَوِيِّ الذي يَضَعُهُ الله جَلَّوَعَلَا يوم القيامة؟ ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾[الأنبياء:٤٧]؛ أنّ وزنَ هذه الكلمة في الميزان الأُخْروي أثقل من السموات والأرض؟.

الحديث محتملٌ للأمرين، والمؤلّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ كأنه يَميلُ إلى الثاني؛ فإنه ذكر في مسائل الكتاب أنَّ الميزان له كفتان، وكأنه يشير بذلك إلى أنَّ الميزان الأخروي له كِفّتان، وهذا الأمر ثابتٌ ولا شك فيه، كما يدلُّ عليه حديثُ البطاقة، وأظنُّه معلومًا عندكم[٦٩].

الشاهد: أنَّ هذا الحديث يؤيّد ويؤكّدُ ما دَلَّتْ عليه النصوصُ السابقة في فضل (لا إله إلا الله). والله تعالى أعلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وَلِلتِّرْمِذِيِّ –وَحَسَّنَهُ– عَنْ أَنَسٍ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «قَالَ اللهُ تَعَالَى: يَا ٱبْنَ آدَمَ؛ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا، ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا، لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً»**).

هذا الحديث حديثُ الترمذي وذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه حسَّنه، وإن كانت النسخة المطبوعة ليس فيها هذا التحسين، إنما قال الترمذي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن هذا الحديث: «إنه غريبٌ من هذا الوجه»، ولكنْ الحديثُ حسن، إسناده لا بأس به. وقال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرحه على الأربعين النووية، وهذا آخر حديث في

(٦٩) ومن أهل العلم مَن رأى أنَّ هذا الحديث لا علاقة له بالميزان الأُخْروي، وإنَّما المقصود تمثيل عظمة كلمة التوحيد وبيان كبير فضلها. والله ﷻ أعلم.

«الأربعين النووية» قال عن إسناده: «إنه لا بأس به»، وصحّحهُ ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «المدارج»، وصحّحهُ الشيخ الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في موضعٍ في «صحيح الترمذي»، وحسَّنهُ في «السلسة الصحيحة» فهو حديثٌ ثابتٌ إن شاء الله.

ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ قطعةً من هذا الحديث، وأوَّلُهُ: أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يقول -فهو حديثٌ قدسي-: «**يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلاَ أُبَالِي ، يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ ، وَلاَ أُبَالِي ، يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لاَ تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا(٧٠) مَغْفِرَةً**».

«**لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا**» هذا فيه تمثيلٌ لكثرة الذنوب التي لو لقيَ الإنسان ربَّهُ بها -يعني: توفّيَ مُصِرًّاً عليها ، لم يَتُبْ إلى الله جَلَّوَعَلَا منها- ولكنّه لم يشرك بالله شيئًا ، لَقِيَ الله بريئًا من الشرك، وقلنا سابقًا إن النصوص التي فيها نفيُ الشرك تستدعي التوحيدَ بالاقتضاء، (لا يشرك بالله شيئًا) يعني :كان موحّدًا لله جَلَّوَعَلَا مع اجتنابه للشرك.

وهذا يدلُّكَ على عظيمِ شأن التوحيد، وأنَّ التوحيد أعظمُ سببٍ لمغفرة الذنوب، حتى قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ : (إن التوحيد الذي هو توحيد) ،انتبه ليس التوحيد الذي لا يتجاوز الشفتين، ولا يصل إلى سُوَيْداء القلب، ولا يكون له أثرٌ على الجوارح! إنما هذا التوحيد الضعيف أثره ضعيف ، (لكنَّ التوحيد الذي هو

---

(٧٠) «قُراب» وهذا هو الأقرب، وقال بعضهم «قِراب» يعني: ما يَمْلأُ الأرض، أو ما يُقارب ملئ الأرض.

توحيد تكفيرُه للذنوب أعظمُ من تكفير التوبة للذنوب؛ لأنَّ حسنة التوحيد أعظمُ من حسنة التوبة)، فمن لَقِيَ اللهَ جَلَّ وَعَلَا بذنوبٍ عظيمة حتى إنها تكاد أن تبلغَ حجمَ هذه الأرض، لكنَّه لَقِيَ الله عَزَّ وَجَلَّ بتوحيدٍ صادق ولم يشرك بالله شيئًا فليبشِرْ بمغفرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهذا من وعد الله جَلَّ وَعَلَا، وهو لا يخلف وعده تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

وهذا الحديث ينبغي فَهْمُهُ على الوجه الصحيح؛ فإنَّ كَوْنَ الإنسان يأتي بمثل هذه الذنوب العظيمة البالغة التي تبلُغُ هذا القَدْرَ الذي هو كقَدْرِ السموات والأرض، لا يتأتّى ممن لا يشرك بالله شيئًا ولا يقع في شيءٍ من الشرك البتَّة، بل لابد لمن كان مُدْمِنًا على هذه الذنوب والمعاصي وأتى بهذا القَدْر الكبير لابد أن يكون قد وقع في شعبةٍ من الشرك ولابُدَّ، لابُدَّ أنْ تؤثِّرَ هذه الذنوبُ العظيمة شيئًا من الوقوع في شعبةٍ من الشرك؛ بأن يحبَّ غير الله، أو أن يرجوَ غير الله، أو أن يخافَ من غير الله، أو أن يضعفَ تصديقُهُ بخبر الله ووَعْدِهِ ووعيدِه.

وبالتالي فإن الذين يُدخَلون النار من عُصاة الموحدين - وهذا أصلٌ قطعي فلابد من دخول طائفةٍ من العصاة النار قطعًا، تصديقًا لأحاديث النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - هؤلاء اجتنبوا الشرك الأكبر، ولكنَّهم وقعوا في ذنوبٍ ومعاصٍ وأطرافٍ من الشرك الأصغر.

وبناءً على ذلك؛ فالجمع بين النصوص؛ كهذا الحديث الذي بين أيدينا، وتلك التي تدل على أن عصاةً أَتَوْا بـ(لا إله إلا الله) ومعهم توحيد - كما مرَّ معنا- أنه يدخل قومٌ من أهل التوحيد النار ، نص النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أنهم من

أهل التوحيد ومع ذلك دخلوا النار! بسبب ذنوبٍ ومعاصٍ وقعوا فيها، فالجمع بين النصوص إذًا أن يقال: إنّ هذا الذي يغفر الله عَزَّوَجَلَّ له إذا أتى بالمعاصي

❁ إما أن يكونَ لا تقع منه المعاصي إلا على نُدْرَة؛ يقع منه صغائرُ، وهي مُكَفَّرَةٌ باجتناب الكبائر.

❁ أو يقع منه كبائرُ يبادر بالتوبة منها، وبالتالي فإنها لا تؤثر فيه.

❁ أو أن هذا الإنسان وإن أتى بهذه الذنوب العظيمة ولكنَّه يُوفَّقُ إلى تجديد التوحيد، وتجديد (لا إله إلا الله) في قلبه ، فتكون أنوارُ (لا إله إلا الله) مُحْرِقَةً لذنوب هذه المعاصي. بمعنى: أرأيتَ إنسانًا أتى بذنوبٍ عظيمةٍ وكثيرةٍ جدًا، ولكنَّه رُزِقَ التوبةَ إلى الله عَزَّوَجَلَّ قبل وفاته، مات على توبةٍ من هذه الذنوب؛ ما حكم تلك السيئات؟ مغفورة، قال النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «التائب من الذنب كَمَنْ لا ذَنْبَ له».

إذًا هذا الإنسان لو ما أتى بالتوبة لكنَّه جَدَّدَ التوحيدَ -أتى بـ(لا إله إلا الله) بصدق ويقين وإخلاص- تأثيرُ التوحيد في مغفرة تلك الذنوب أعظمُ من تأثير التوبة(٧١) ، فهذا هو الذي يقتضيه الجمع بين النصوص التي جاءت عن النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في هذا الشأن(٧٢).

---

(٧١) فحسنة التوحيد أعظم من حسنة التوبة، وإذا كانت التوبة من المكفّرات العظام للسيئات؛ فإنَّ التوحيد أعظم تكفيرًا للسيئات من التوبة.

(٧٢) وفهْمُ هذا النَّص بهذا التوجيه يزول معَه إشكالات كثيرة، ولا يتذرّع به أهل الإرْجاء؛ لأنَّهم قد يتذرّعون بهذا النَّص وأمثاله، لكن مَن فَهِمَ هذا النَّص بضميمة النُّصوص الأخرى

والنـاس في هـذا لا شـك أنهـم متفـاوتون تفاوُتًـا عظيمًـا، وإنْ كـان كُـلُّ المسلمين يقولون (لا إله إلا الله) ، فإن قولهم لـ (لا إله إلا الله) وإنَّ أَثَرَ (لا إله إلا الله) في نفوسهم لا شك أنه يتفاوت تفاوتًا عظيمًا.

والشأن في هذا كما قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «الداء والدواء»: أنَّ (لا إله إلا الله) في النفوس متفاوتة؛ من الناس من تكون (لا إله إلا الله) في نفسه ميّتة، ومنهم من تكون (لا إله إلا الله) في نفسه مريضة، ومنهم من تكون (لا إله إلا الله) في نفسه نائمة، إذا أُوقِظَتْ تَيَقَّظَتْ، ومنهم من تكون (لا إله إلا الله) في قلبه مُتَيَقِّظَةً، قائمةٌ بمصالح الروح والبدن، فهي في النفس بمنزلة الروح؛ فروحٌ ميتة، وروحٌ ضعيفة، وروحٌ نشيطة. هكذا الناس يتفاوتون في (لا إله إلا الله)؛ في تحقيق شروطها، في الإتيان بقيودها، في مجانبة نواقِضِها، في الابتعاد عن القوادح فيها، وبالتالي فإنَّ لهم درجاتٍ بحسب أعمالهم، ولهم ثواب بحسب ما قدَّموا .

إذًا لو أتى الإنسانُ بتوحيدٍ صادق، ولقيَ الله جَلَّوَعَلَا على هذا التوحيد؛ فلْيُبْشِرْ بأن الله جَلَّوَعَلَا سيغفر له ذنوبَهُ السالفة، فالشأن إذًا في الجِدِّ والتشمير في تحقيق هذا التوحيد، أسأل الله جلَّ وعلا أن يجعلني وإياكم من المحققين للتوحيد.

أخيرًا أنبه إلى فائدة ذكرها المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في المسائل وهي**: أنه يُستفاد من هذا الباب وما جاء فيه: (إثباتُ الصفات لله جَلَّوَعَلَا ؛ خلافًا للأشعرية)، وجاء في

وجمَع وألَّف بينها فإنه يزول عنده الإشكال وتستقيم عنده الأمور، ولا يصبح عنده لبْسٌ أو إشكالٌ في شيءٍ منها.

نسخة (خلافًا للمعطلة)[٧٣]؛ وذلك أنَّ الأحاديث التي مرّت بنا فيها إثبات الوجه لله جَلَّوَعَلَا، «**يَبْتَغِي بِذَٰلِكَ وَجْهَ اللهِ**»، وفيها أيضًا إثباتُ الكلام والقول لله؛ كما في هذا الحديث، وكما في الحديث الذي قَبْلَهُ. ففي هذا أن أهل السنة والجماعة يُثْبِتون لله الصفاتِ التي جاءت في الكتاب والسنة دون تحريف ودون تعطيل، كما أنهم يُثْبِتونها دون تكييف ودون تمثيل. وهذا يدلُّكَ على عناية المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بذكر الفوائد التي تتعلق بأنواع التوحيد كلِّها.

والله تعالى أعلم.



(٧٣) والأشاعرة من المعطّلة، لكن كلمة (المعطّلة) أعمّ، فتشمل الأشاعرة وغيرهم، وهذا من عناية المؤلّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالنصيحة للمسلمين؛ تحذيرهم من البدع ومن أهل البدع.

قال المصنف رحمه الله:

٣-بَابُ
مَنْ حَقَّقَ التَّوْحِيدَ دَخَلَ الجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ

وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠].

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٩].

وَعَنْ حُصَيْنِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، فَقَالَ: أَيُّكُمْ رَأَى الكَوْكَبَ الَّذِي انْقَضَّ البَارِحَةَ؟، فَقُلْتُ: أَنَا، ثُمَّ قُلْتُ: أَمَا إِنِّي لَمْ أَكُنْ فِي صَلَاةٍ؛ وَلَكِنِّي لُدِغْتُ، قَالَ: فَمَا صَنَعْتَ؟، قُلْتُ: ارْتَقَيْتُ، قَالَ: فَمَا حَمَلَكَ عَلَى ذَلِكَ؟، قُلْتُ: حَدِيثٌ حَدَّثَنَاهُ الشَّعْبِيُّ، قَالَ: وَمَا حَدَّثَكُمْ؟، قُلْتُ: حَدَّثَنَا عَنْ بُرَيْدَةَ ابْنِ الحُصَيْبِ؛ أَنَّهُ قَالَ: «لَا رُقْيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ»، قَالَ: قَدْ أَحْسَنَ مَنِ انْتَهَى إِلَى مَا سَمِعَ؛ وَلَكِنْ حَدَّثَنَا ابْنُ عَبَّاسٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيَّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، إِذْ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمَّتِي، فَقِيلَ لِي: هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي: هَذِهِ أُمَّتُكَ، وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ»، ثُمَّ نَهَضَ فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ، فَخَاضَ النَّاسُ فِي أُولَئِكَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ صَحِبُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الإِسْلَامِ فَلَمْ يُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئًا، وَذَكَرُوا أَشْيَاءَ، فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَأَخْبَرُوهُ، فَقَالَ: «هُمُ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَكْتَوُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»، فَقَامَ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ؛ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ؛

ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَقَالَ: «أَنْتَ مِنْهُمْ»، ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ آخَرُ، فَقَالَ: ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَقَالَ: «سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ».

❁ ❁ ❁ ❁

قال الشارح وفقه الله:

بعد أن بيَّنَ المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ شيئًا من فضل التوحيد، عَقَدَ هذا الباب ليبيِّنَ لنا أنَّ كمالَ فضلِ التوحيد إنَّما يكون بكمال تحقيقِه، وتحقيقُ التوحيد: هو أن يبلغَ الإنسانُ بالتوحيد الغايةَ والمنتهى؛ حقَّقَ الشيءَ: إذا بَلَغَ غايَتَهُ، فتحقيقُ التوحيد: بلوغُ غايته، وذلك إنما يكون: بتَصْفِيَتِهِ وتكميلِهِ. إذًا، لا يكون تكميل التوحيد إلا بهذين : بتصفيتِهِ وبتكميلِهِ.

وتحقيق التوحيد على درجتين:

❁ **الأولى**: تحقيقُ التوحيد الواجب.

❁ **الثانية**: تحقيقُ التوحيد المستحب.

❁ **أمَّا تحقيق التوحيد الواجب فإنه يكون**: بتصفيته، وتكميله.

أما تصفيته؛ فتكون باجتناب ثلاثة أمور:

-الشرك الأصغر.

-البدعة.

-الإصرار على المعصية.

قال حفيد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في حاشيته الملَقّبة بـ «قرة عيون الموحدين»:

(تحقيق التوحيد: تصفيتُه وتخليصُه من شوائب الشرك، والبدعة، والإصرار

على المعصية)، وكلامُهُ هذا في بيان تحقيق التوحيد الواجب؛ فهو يُصفّيه من هذه الأمور الثلاثة ، ويُكمِّلُهُ بفعل ما أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من الواجبات.

۞**أما تحقيق التوحيد المستحب فإنَّه يكون بتصفيته من أربعة أمور:**

-المكروهات.

-المشتَبِهات.

-فضول المباحات.

-التنزه عن الحاجة إلى المخلوقين.

وأمَّا تكميلُه: فبفعل المستحبات؛ وهذا المقام يحتاجُ إلى توضيح؛ وذلك لمسيس حاجة المسلم إليه.

ولاحظ -يا رعاك الله- أنَّ مَنْ أتى بتحقيق التوحيد أكملُ مِمَّنْ وَحَّدَ الله عَزَّوَجَلَّ. هناك توحيد، وهناك تحقيق التوحيد؛ **التوحيد** يأتي به كل مسلم، مَنْ أتى بأصل الدين فهذا هو الموحِّد، **لكنَّ تحقيقَ التوحيد** -ولاحظ أنَّ السياق في هذه الكلمة في مثل سياق المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان تحصيل فضل وثوابٍ وغاية- فتحقيق التوحيد هو ما ذكرت لك : بلوغ الغاية فيه ، وذلك بتصفيته وتكميله.

أمَّا تحقيق التوحيد الواجب فيكونُ: بفعل ما أمر الله عَزَّوَجَلَّ به؛ الواجبات الثابتة في الكتاب والسنة، فإنَّ من تكميل أصل التوحيد أن يأتيَ بها الإنسان: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ هذا هو التوحيد، ثم قال: ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ [فصلت:٦] ، فدلَّ هذا على أنّ مَنْ وحَّدَ الله جَلَّوَعَلَا فإنه يستلزم توحيدُه الاستقامةَ على شرع الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

ولا شك أنَّ مَنْ فَعَلَ ما أوجبَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فإنَّه يكون قد أتى بلازم التوحيد فاستحقَّ دخولَ الجنة، ومرَّ بنا قولُ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي خرّجهُ النسائيُّ وغيرُهُ بإسناد جيد، وهو قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ عَبَدَ اللهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَأَقَامَ الصَّلَاةَ، وَآتَى الزَّكَاةَ، وَصَامَ رَمَضَانَ، وَاجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ، فَلَهُ الْجَنَّةُ - أَوْ قال- دَخَلَ الْجَنَّةَ».

أَمَّا تصفيته ، فمن الأمور الثلاثة:

❁ **أولاً: الشرك الأصغر**؛ ولا نقول هاهنا : الشرك الأكبر ؛ لأنَّ الشركَ الأكبرَ مُنافٍ لأصل التوحيد، ونحن نتحدث عن درجةٍ أعلى، وهي تحقيق كمال التوحيد الواجب.

الشرك الأصغر أكبرُ وأعظمُ قادِحٍ في تحقيق التوحيد الواجب، والشركُ الأصغر بَحْرٌ لا ساحلَ له، وهو أمر مَخُوف ، قَلَّ في هذه الأمة مَنْ يَسْلَمُ منه، حتى إنَّ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خافه على أصحابه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وهم قِمَمُ أهل التوحيد، ففي حديث محمود بن لبيد عند أحمدَ وغيرِهِ بإسناد صحيح قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ»، فالشرك الأصغر أمرٌ مَخُوفٌ، وهو يتنوَّع وينقسم إلى صورٍ كثيرة، لكنْ يجمعُ ذلك أمران، **صور الشرك الأصغر لا تكاد تخرج عن أمرين:**

الأول: صَرْفُ نوعِ طاعةٍ لغير الله جَلَّ وَعَلَا؛ كقَصْدٍ مثل الرياء، أو محبّةٍ أو خوفٍ أو توكُّلٍ أو ما شاكل ذلك.

والثاني: نقصٌ في اعتقادِ تفرُّدِ الله عَزَّوَجَلَّ بالنَّفع والضر؛ وهذا ما يرجع إليه ما يتعلَّقُ بالتمائم والرُّقى الممنوعة وما إلى ذلك.

فالشاهد أنَّ الشركَ الأصغرَ قادحٌ في تحقيق التوحيد الواجب؛ لِما فيه من هذه الشوائب التي تُنْقِصُ التوحيد، وتَمْنَعُ من تمامه وكماله.

۞ **أمَّا القادح الثاني**: **فإنَّه البدعة**؛ والبدعة -كما قال أهل العلم- يُنبوع شر، ودهليز الكفر، وسبيلُ ظلمات، وفي حَشْوِها من السموم المضعِفَةِ للإيمان والتوحيد شيءٌ كثير.

البدعةُ أمرُها عظيم؛ لأنه يجتمع فيها أمور:

أولاً: أنَّ في البدعةِ مُشاقَّةً لله ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فالله يقول: ﴿**وَاتَّبِعُوهُ**﴾[الأعراف:١٥٨]، وقال: ﴿**فَاتَّبِعُونِي**﴾[آل عمران:٣١]، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي»، ويقول: «وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ»، فجاء المبتدِعُ وخالفَ كلَّ ذلك وانتهج غيرَ نَهْجِ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَحُقَّ في البدعة أن تكون مُشاقةً لله ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(٧٤).

ثم ثانيًا: البدعة اتباعٌ للهوى، والله تعالى يقول: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللهِ﴾[القصص:٥٠]. صاحب البدعة مُتَّبِعٌ هواهُ ولا بُدَّ، قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾[القصص:٥٠]. لا

(٧٤) وهذا كلّه نقصٌ في التوحيد؛ توحيد الله ﷻ بالأُلوهية، أو توحيد رسول الله ﷺ بالرسالة والاتّباع.

يمكن أن يكون الإنسانُ إلا أحدَ رجلين: إما مُتَّبِعـًا للنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ، فإنْ لم يَكُنْ؛ فإنه مُتَّبِعٌ لهواه ولابد.

وأمرٌ ثالث: وهو أنَّ المبتدِعَ نزَّلَ نفسَهُ منزلةَ المستدْرِكِ على الشريعة، أو الْمُتَّهِمِ للنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بعدم البلاغ المبين؛ كُلُّ مبتدع لسان حاله يقول: الشريعة ناقصة فأنا أُكْمِلُها، أو هي كاملة لكنَّ النبيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ما بَلَّغَ البلاغَ المبين ولا أتى بهذا الأمر الذي جِئْتُ به وهو من الشريعة، ولذا ما أحسن ما قال ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ: «كُلُّ مبتدع فإنه مُنْتَقِصٌ للنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وإنْ ظَنَّ أنَّه يُعَظِّمُه»(٧٥)، وأحسن من كلامه ما قال الإمام مالك رَحِمَهُٱللَّهُ(٧٦): «من ابتدع بدعةً يراها حسنة فقد زعم أن محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ خان الرسالة فإنَّ الله تعالى يقول: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾[المائدة:٣] فما لم يَكُنْ بالأمس دينـًا لا يكون اليوم دينـًا».

وإذا كان ذلك كذلك؛ تبيّنَ لك أنَّ البدعةَ قادحٌ في توحيد ربنا جَلَّوَعَلَا والاستجابةِ لأمره باتباع نَهْجِهِ ونَهْجِ نبيِّهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، كما أنَّها قادحٌ في توحيد الاتباع للنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

---

(٧٥) «وإنَّك لا تجد مبتدعًا قطّ إلا وهو ينتقص رسول الله ﷺ وإن زعم تعظيمه بهذه البدعة».

(٧٦) نقله عنه الشاطبي في «الاعتصام».

۞ أمَّا **المعصية** فإنَّ البَلِيَّةَ بها عظيمة ، وما أكثرَ الغفلةَ عن أثرها على التوحيد(٧٧).

المعصيةُ تجمع أموراً:

أولاً: فيها تقديمُ طاعةِ النَّفس والشيطان على طاعة الرحمن: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾[يس:٦٠](٧٨).

وثانيًا: المعصيةُ تَدُلُّ على نَقْصٍ في الخوف من الله جَلَّوَعَلَا، وإلّا لو كَملَ الخوفُ من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لَمَا عصى العاصي، والخوف من الله من التوحيد.

وأمرٌ ثالث: وهو أنَّ المعصيةَ قد يكون مُصاحِبًا لها نقصٌ في تصديقِ وَعيدِ الله جَلَّوَعَلَا ، وإلّا فلو كَمُلَ التصديقُ بوعيد الله سبحانه على هذه المعاصي وآثارِها لكان هذا حاجزًا بين الإنسان واجْتِراحِ محارم الله جَلَّوَعَلَا.

---

(٧٧) من المعلوم أنَّ المحبة أصل العبادة، والمحبة تستلْزم أن يحبَّ المحبُّ ما يحبُّه المحبوب، وأن يترك ما يبغض، ومن المعلوم بالاضْطرار: أنَّ المعاصي مبغوضةٌ مكروهةٌ لله ﷻ، ولذا كان الإصرار عليها نقصًا في التوحيد.

(٧٨) وهذا نقص في التوحيد، ولذا لا يسْلم من شَرَكِ الشيطان إلا المخلصون، حينما توعّد الشيطان بإغواء بني آدم أجمعين ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر:٣٩] استثنى المخلصين؛ ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر:٤٠]، والله ﷻ حينما ذكر يوسفَ ﷺ قال: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف:٢٤]، وفي قراءة متواترة: ﴿الْمُخْلِصِينَ﴾ ، ولذلك كلما كان الإنسان أكثرَ توحيدًا وإخلاصًا وإقبالًا على الله ﷻ ؛ كان أبعد عن الوقوع في المعاصي والموبقات، وكلّما نقص توحيده انكبَّ عليها واجترحها.

أضف إلى هذا أمرًا رابعـًا: وهو أنَّ المعصيةَ في الغالب يَشوبُها شيءٌ من التعلُّقِ بغير الله، والْتِفاتِ القلب لغير الله، ومحبّةٍ لغير الله، وهذا كلُّهُ مما يُضْعِفُ توحيدَ العبد(٧٩)، ولكنَّ ذلك لا يعني خروجَ الإنسان من الإسلام؛ وذلك لأنَّ محبةَ الله أعظم، بخلاف حال المشركين الذين قال الله فيهم: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّـهِ﴾[البقرة:١٦٥](٨٠). لكنَّ المَخُوفَ والْمَخْشِيَّ هنا إنما هو أنْ يتدرَّجَ الإنسانُ من صغيرٍ إلى كبيرٍ، حتى ربما أَخْرَجَتْهُ المعصيةُ من صغيرةٍ إلى كبيرةٍ، وربما أَوْقَعَتْهُ في الكفر بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولأجل هذا خافَ السلفُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ من المعاصي ووصفوها بأنها: «بَريدُ الكفر»(٨١).

---

(٧٩) الإصرار على المعصية يورث تعلّقًا للقلب بغير الله، ومحبةً لغير الله، ورجاءً لغير الله، وهذا لا شكَّ أنَّه نقص في توحيد الإنسان، هذا التعلّق بغير الله عَزَّ وَجَلَّ لا شكَّ أنه نقصٌ في الإقبال والقصْد والتوحيد لرب العالمين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولِذَا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «كلّ محبوبٍ لغير الله ومُطاعٍ لغير الله ففيه شوبٌ من العبادة».

(٨٠) وقوله تعالى: ﴿تَاللهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء:٩٧-٩٨]، ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام:١]، إلى غير ذلك من النُّصوص التي تدل على أنَّ المشركين قد عَظُمَ عندهم حبّ غير الله فكان كحبِّ الله أو أشدّ.

(٨١) معرفة هذا الأمر تُثير في النفس الوجل والخوف، فإنَّه يخشى أن يَتَعلّق قلبه بمعصيةٍ لله عَزَّ وَجَلَّ فتوقعه في المَهالك. في البخاري يقول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تَعِسَ عبد الدينار، والدرهم،

إذًا اجتنابُ هذه الأمور الثلاثة به مع الإتيان بالواجبات يتحقق كمال التوحيد الواجب(٨٢)، وما أحسن ما قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه التبيان: «الهدى التام يتضمنُ توحيدَ المطلوب، وتوحيدَ الطلب، وتوحيدَ الطريق الموصلة»؛ الهدى التام يتضمن توحيدَ المطلوب؛ وهذا يقدح فيه: «الشرك»، وتوحيدَ الطلب؛ وهذا يقدح فيه: «المعصية»، وتوحيدَ الطريق الموصلة؛ وهذا يقدح فيه: «البدعة»، والشيطان إنَّما يَنْصِبُ شِراكَهُ من خلال هذه الأمور الثلاثة(٨٣).

والخَميصة، والخَميلة» ؛ وذلك أنَّ كلّ محبة لغير الله مشغِلةٍ عن طاعة الله ففيها طرفٌ من العبودية والشرك الخفي، وهذا كلّه قادح في تحقيق التوحيد الواجب.

وهل هذا يعني أنَّ الإنسان حتى يحقّق التوحيد الواجب لابدَّ أن يكون معصومًا من الوقوع في الذنوب؟ الجواب: لا؛ فكلّ ابن آدم خطّاء، لكن أهل التوحيد الذي حقَّقوه إنما تقع منهم الذنوب على ندْرة، ثمَّ إنها إذا وقعت بادروا بالتوبة، ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف:٢٠١]، ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران:١٣٥]؛ فالموحِّد ليس هو الذي يكون على العِصمة، لكنه إذا تلوّث بادر بإزالة تلك الوصْمة، كما يقول أهل العلم.

(٨٢) هذه الأمور الثلاثة هي الشوائب والعوائق التي تحول دون تحقيق التوحيد الواجب، واجتنابها يقتضي ضدّها؛ فإذا اجتنب الشرك الأصغر، واجتنب البدعة، واجتنب المعاصي فإنه لابدَّ أن يكون متّصفًا بضدّ ذلك؛ من التوحيد، والإخلاص، وتجريد المتابعة لرسول الله ﷺ. ومَن حقَّقَ هذه الدرجة فقد حقَّقَ التوحيد الواجب عليه، وهو من أهل الجنَّة قطعًا؛ برحمة الله سُبْحَانَهُ.

(٨٣) وقال أيضًا في النُّونية:

إذًا هذا هو تحقيق التوحيد الواجب، وثَمَّةَ درجةٌ أرفع وأسمى، والواصل إليها عزيزٌ، أفرادٌ من الكُمَّل، من المخلَصين، هم الذين وصلوا إلى هذه الدرجة المنيفة الرفيعة ألا وهي: **تحقيقُ التوحيد المستحب**، وأعظمُ الناس تحقيقاً لهذا التوحيد: الأنبياء والمرسلون، وأعظمهم في ذلك الخليلان، وأعظمُ الخليلين في ذلك نبيُّنا الكريم محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

حقيقة هذه الدرجة: انْجِذابُ الروح إلى الله جَلَّوَعَلَا؛ بحيث يكون الله سبحانه في القلب أعظمَ من كُلِّ شيء، وبالتالي لا تَنْبَعِثُ الجوارحُ إلّا وِفْقَ ما يحبُّهُ اللهُ جَلَّوَعَلَا؛ إنْ أَحَبَّ أَحَبَّ لله، وإن أَبْغَضَ أَبْغَضَ لله، وإن أَعَطَى أَعطَى لله، وإن مَنَعَ مَنَعَ لله، وإنْ جَلَسَ جَلَسَ لله، وإن قَامَ قَامَ لله، فكُلُّ أموره الظاهرةِ والباطنةِ متعلّقةٌ بأمر الله جَلَّوَعَلَا، قد تحقَّقَ بقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾[النجم:٤٢]، فمنتهى القصد، ومنتهى الطلب، ومنتهى المحبة، ومنتهى الرجاء، ومنتهى الرغبة، ومنتهى الرهبة لله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

وهذا كلامٌ يَسْهُلُ التلفُّظُ به، لكنَّ القيامَ به على وَجْهِهِ أمرٌ لا يتيسّرُ إلا للموفَّقِينَ السعداء، -أسأل الله جل وعلا أن يبلِّغني وإياكم ذلك-.

المقصود أنَّ من حقَّقَ هذه الدرجة فهو من أولياء الله الصالحين الذين جاء فيهم حديث النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ عن ربِّه جَلَّوَعَلَا: «وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ،

فلِواحدٍ كُن واحدًا في واحدٍ　　　　أَعني طريقَ الحقِّ والإيمانِ

فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطُشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا».

والمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ عَقَدَ هذا الباب لِيَدُّلَ على أنَّ الفضلَ العظيمَ للتوحيد هو لِمَنْ كَمَّلَ التوحيدَ الواجب والمستحب؛ لأنَّ فيما أورد المؤلف -والمؤلف أورد في هذا الباب آيتين وحديثًا - أورد هذا الحديث وفيه ما يدلُّ على اتّصاف الواردين في الحديث بكمال التوحيد الواجب، وذلك في قوله: «لا يتطيّرون، وعلى ربهم يتوكلون»، وأيضًا ما يدل على تحقيقهِمُ التوحيدَ المستحب، وذلك في قوله: «لا يكتوون، ولا يسترقون».

تحقيق التوحيد المستحب يكون: بفعل المستحبات بعد الواجبات، ويكون بالكفِّ عن الأمور الأربعة -التي ذكرتها لك:

۞ **الأمر الأول: المكروهات**؛ وهي ما نهى عنه الشارع نهيًا غير جازم، ولا شك أنَّ المكروهات تَقْعُدُ بصاحِبِها عن السعي إلى الله جَلَّ وَعَلَا وإلى جنته، ولو لم يَكُنْ فيها إلا أنها تُضَيِّعُ العُمُرَ فيما لا يقرِّبُ إلى الله.

۞ **الأمر الثاني: الْمُشْتَبِهات**؛ وهي التي ليست بحرامٍ بَيِّنٍ ولا بحلالٍ بَيِّن، هي برزخٌ بين الأمرين، قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الْحَلاَلَ بَيِّنٌ وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ وَبَيْنَهُمَا أُمُورٌ مُشْتَبِهَاتٌ»، وهؤلاء الكُمَّلُ من عباد الله جَلَّ وَعَلَا لعظيم تعظيمِهِمْ لله وخوفِهِمْ منه يَدَعُونَ هذه الأمور التي يُخشى أن يكون فيها بأس، حتى لا يقعوا في شيء مما قد يُغْضِبُ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

۞ **أمَّا الأمر الثالث: فإنه فضولُ المباحات؛** وضابط فضول المباحات: هو كل مباحٍ لا ينفع في الدار الآخرة، بمعنى: أنه كُلُّ مباح لا يُسْتعان به على الطاعة.

والقاعدة عند أهل العلم: «أنَّ كلَّ مباحٍ لا يُستعان به على الطاعة فعَدَمُهُ خيرٌ من وجودِهِ»، لاشك أنَّ عدمَ هذه الأمور خيرٌ للإنسان، لأنَّ أقلَّ ما فيها أنَّها مُشْغِلَةٌ، وكان يمكن أن يُسْتَثْمَرَ هذا الوقت الذي ضاع فيها فيما يُقَرِّبُ إلى الله جَلَّ وَعَلَا، فإنَّ أهلَ هذا التوحيد يعلمون أنَّ هذه الدنيا سِباقٌ إلى الآخرة ومزرعةٌ للآخرة، فهم يَضِنّونَ بأنفسهم وأعمارهم وأوقاتِهِمْ عن أن يضيعَ منها شيء فيما لا ينفعُ عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهذا لا يعني أنهم يتركون المباحَ جُملة، كلا، إنما هم يأخذون المباح على أنَّه أباحَهُ اللهُ، ويستلِذّون بهذه المباحات أيضًا، **ولكن بأمرين:**

-بكونها مُقَرِّبَةً إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بحيثُ يمكن أن يُستعان بها على طاعة الله.

-وأيضا: بوجود النية الصالحة، فإنَّهم يتناولونها على نيةِ أنها تُعينُ على طاعة الله جَلَّ وَعَلَا، كما قال معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كما في الصحيحين: «أما أنا فأحتسبُ نَوْمتي كما أحتسب قَوْمتي»، فلا يوجد في حقِّ هؤلاء مباحٌ مستوي الطرفين؛ الأكل والشرب، والشراب الحُلو، والحديثُ الشَّيِّقُ مع صديقٍ وزوجةٍ وولد،

كلُّ ذلك يَنْوونَ فيه أنهم يُرَوِّحُونَ النفوسَ لأجل أن تستعِدَّ بعد ذلك لطاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

المقصود أن أصحاب هذه الدرجة العالية عندهم حرصٌ شديد على أوقاتهم فلا يُضيّعون شيئًا لا يوصِلُ إلى مقصودِهم العظيم؛ وهو أن يصلوا إلى رحمة الله وجنَّتِهِ.

۞ **الأمر الرابع: أنَّهم يتنزّهون عن سؤال المخلوقين**؛ يَسْتَغْنون بالله عن خَلْقِهِ، عندهم من التعظيم لله والذُّلِّ له ما يجعلُهُمْ يَأْنفون من أن يُرِيقُوا وجوهَهُمْ أو يَذِلّون لأحدٍ من المخلوقين، فلا يسألون إلا الله، مهما استطاعوا ومهما أمكنهم ذلك فإنَّهم لا يسألون النَّاس شيئًا. وفي صحيح مسلم وغيره من حديث عوف بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ذَكَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بايعهم وكانوا رهطًا، وكان فيما بايعهم: «ألا يسألوا الناس شيئًا»، وهذا فيه من تحقيق التوحيد ما لا يَخْفى على طالب العلم[٨٤]. فأهلُ هذه الدرجة أَحْرَصُ ما يكونون على الاستغناء بالله عن كُلِّ ما سواه.

---

(٨٤) وقال عليه الصلاة والسلام والحديث أصله عند البخاري وغيره، وفي رواية عند النسائي من حديث أبي سعيد ﵁: أنَّه أتى ليسأل النبي ﷺ شيئًا -يريد شيئًا من الدنيا- فأدرك النبي ﷺ وهو يخطب، وكان مِمَّا قال: «وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللهُ»، يقول أبو سعيد: فرجعتُ ولم أسأل النبي ﷺ شيئًا؛ استغنى بسؤال الله عن سؤال غيره. ويُستثنى من هذا -وأظنّ الكلام واضح- المقصود أن يُسأل شيءٌ من الدنيا، أمَّا

فمتى ما أتى الإنسان بالمستحبّات وكَفَّ عن هذه الأمور التي تَقْعُدُ به عن بلوغ الغاية التي يَسْعى إليها، فإنَّه يكون قد حَقَّقَ التوحيدَ المستحب، ومَنْ وفَّقَهُ الله جَلَّوَعَلَا إلى ذلك فليُبْشِرْ بكُلِّ خير؛ فإنَّ من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب ولا عذاب.

قال المؤلف رَحِمَهُٱللَّهُ: (**بَابٌ مَنْ حَقَّقَ التَّوْحِيدَ دَخَلَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ**)؛ أي: ولا عذاب. والحديث جاء في الصحيحين في حديث السبعين ألفًا الذي سيأتي، جاء فيه تارةً: «يدخلون الجنة بغير حساب»، وجاء فيه تارةً في بعض الروايات: «بغير حساب ولا عذاب»، ولا شك أنَّ الذي نجا من أن يكون مُحاسَبًا فإن هذا يستلزمُ نجاتَهُ من عذاب الله جَلَّوَعَلَا كما هو واضح.

وأورد المؤلف كما ذكرت لك آيتين وحديثًا تدلّان على هذا الفضل العظيم لمن حقق التوحيد، نسأل الله جَلَّوَعَلَا أن يجعلنا منهم.

قال رَحِمَهُٱللَّهُ: (**وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾** [النحل: ١٢٠]).

قوله تعالى عن إبراهيم عَلَيْهِٱلسَّلَامُ: ﴿**وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾؛ هذا دليلٌ على أن من ترك الشرك فإنه يكون بسبيلٍ إلى تحقيق التوحيد، وهذه حالُ إبراهيم عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، فحرِيٌّ بالمسلم أن يقتديَ به، ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ

سؤال العلم فلا شكَّ أنه غير داخل في ذلك، سؤال العلم لا يدخل في ذلك، بلْ هذا مرغوبٌ فيه ومطلوب.

إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾[النحل:١٢٣][85] ، ﴿قُلْ صَدَقَ اللهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾[آل عمران:٩٥]، ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾[الممتحنة:٤]. إذًا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ محلُّ الأسوة والقدوة لهذه الأمة، فإذا كان الله جَلَّ وَعَلَا وَصَفَهُ بأنَّه لم يَكُ من المشركين، كان على المسلم أن يقتديَ به عليه الصلاة والسلام في ذلك، ومَنْ فَعَلَ ذلك فإنه يكون قد خَطَى إلى تحقيق التوحيد.

قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾؛ حُذِفَتِ النون هاهنا والأصل: «ولم يكن من المشركين»، وذكر علماء اللغة أنَّ النون فيها شَبَهٌ من حرف العلة فناسَبَ أن تُحذَفَ بـ(لم) ، وذكروا أسباباً لشَبَهِها بحرف العلة؛ قالوا: خِفَّتُها، أو الغنةُ التي فيها، أو كثرةُ ورودِها على الألسنة، إلى غير ذلك مما ذكروا.

الشاهد أنَّ النون إذا كانت ساكنة في مثل هذا السياق فإنها تُحْذَف، أما إذا كانت متحرّكة فإنها لا تُحذف، ولذلك في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾[البينة:١] تلاحظ أنَّ النون ما حُذِفَت؛ لأنها متحرّكةٌ ليست ساكنة.

قال جَلَّ وَعَلَا عن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ؛ لم يكن من المشركين في كُلِّ شيء، كان مجانبًا لهم بكل أحواله؛ بقلبه، بلسانه، بجوارحه، ببدنه، لم يكن من المشركين في حالٍ من الأحوال.

---

(٨٥) والأمر لنبينا ﷺ أمرٌ لأمَّته.

ولاشك أن هذا واضح بيِّن في كتاب الله جَلَّوَعَلَا عن حال إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ وذلك أنَّه عالَنَ قَوْمَهُ بالبراءة منهم وبمعاداتهم في الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ﴾[الممتحنة:٤].

إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ اعتزل قومه لأجل الله؛ ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَأَدْعُو رَبِّي﴾ [مريم:٤٨] ، وهو الذي وَادَعَ قومه وتَرَكَهُمْ بعد أن رَمَوْهُ في النار فأنجاه الله من النار وكانت عليه برداً وسلاماً، هاجر إلى ربه جَلَّوَعَلَا وتركهم وما يعبدون من دون الله، وهذا من أعظم ما يكون من تحقيق التوحيد؛ أن يكون الإنسانُ نافراً من الشرك، ونافراً من أهل الشرك، ومبتعداً عن الشرك ومبتعداً عن أهل الشرك، وحاذراً من الشرك وحاذراً من مشابهة أهل الشرك، فيتحقَّقُ بقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[النحل:١٢٠]، وهذا من كمال تحقيق التوحيد.

قال رَحِمَهُ اللهُ : (**وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ﴾** [المؤمنون: ٥٩]) .

وصف الله جَلَّ وَعَلَا أهل الإيمان بصفات منها: أنهم بربهم لا يشركون، قال جَلَّ وَعَلَا في سورة «المؤمنون»: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ * أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾[المؤمنون:٥٧-٦١]. فمما وصف الله عَزَّوَجَلَّ عباده المؤمنين أنَّهم بربهم لا يشركون، لا يشركون البتة؛ لا قليلًا ولا كثيرًا، لا شركًا أكبر ولا شركًا أصغر، لا شركًا جليّا ولا شركًا خفيّا، لا يشركون بالله عَزَّوَجَلَّ البتة.

وإيراد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ لهذه الآية بعد سابِقَتِها من دِقَّةِ فَهْمِهِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ؛ وذلك أنَّ الموحِّدَ مُطالَبٌ باجتناب الشرك واجتنابِ أهل الشرك، مُطالَبٌ ببُغْضِ الشرك وببُغْضِ أهل الشرك، مُطالبٌ بالبراءة من الشرك وبالبراءة من أهل الشرك، مُطالَبٌ بأن يبتعدَ عن أعمال الشرك وأقوالِه وعقائِدِه، ومُطالَبٌ أيضًا بأن يجتنبَ مشابهةَ المشركين، فلابد من أن يحقِّقَ الإنسانُ الأمرَيْن: مُطالبٌ ألا يكون من المشركين، ومُطالَبٌ بأن لا يشركَ بربه جَلَّ وَعَلَا ، **فتحقيق التوحيد يتضمن هذين الأمرين:**

◉ **الأمر الأول:** ﴿ولَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

◉ **الأمر الثاني:** ﴿بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ﴾.

قال رَحِمَهُ اللهُ: (وَعَنْ حُصَيْنِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَٰنِ قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، فَقَالَ: أَيُّكُمْ رَأَى الكَوْكَبَ الَّذِي ٱنْقَضَّ البَارِحَةَ؟، فَقُلْتُ: أَنَا، ثُمَّ قُلْتُ: أَمَا إِنِّي لَمْ أَكُنْ فِي صَلَاةٍ؛ وَلَٰكِنِّي لُدِغْتُ، قَالَ: فَمَا صَنَعْتَ؟، قُلْتُ: ٱرْتَقَيْتُ، قَالَ: فَمَا حَمَلَكَ عَلَى ذَلِكَ؟، قُلْتُ: حَدِيثٌ حَدَّثَنَاهُ الشَّعْبِيُّ، قَالَ: وَمَا حَدَّثَكُمْ؟، قُلْتُ: حَدَّثَنَا عَنْ بُرَيْدَةَ ٱبْنِ الحُصَيْبِ؛ أَنَّهُ قَالَ: «لَا رُقْيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ»، قَالَ: قَدْ أَحْسَنَ مَنِ ٱنْتَهَى إِلَى مَا سَمِعَ؛ وَلَٰكِنْ حَدَّثَنَا ٱبْنُ عَبَّاسٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيَّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، إِذْ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمَّتِي، فَقِيلَ لِي: هَٰذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي: هَٰذِهِ أُمَّتُكَ، وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ»، ثُمَّ نَهَضَ فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ، فَخَاضَ النَّاسُ فِي أُولَئِكَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ صَحِبُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الإِسْلَامِ فَلَمْ يُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئًا، وَذَكَرُوا أَشْيَاءَ، فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَأَخْبَرُوهُ، فَقَالَ: «هُمُ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَكْتَوُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»، فَقَامَ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ؛ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ ٱدْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَقَالَ: «أَنْتَ مِنْهُمْ»، ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ آخَرُ، فَقَالَ: ٱدْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَقَالَ: «سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ».

هذا الحديث حديثٌ عظيم، وفيه مسائلُ وفوائدُ شتّى، خرّجه الشيخان في صحيحَيْهما في مواضع[٨٦]، وخرّجه غيرُهما أيضًا[٨٧]. هذا الحديث يرويه والسياق الذي ساقه المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هو سياق الإمام مسلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، لكنْ مع اختلافٍ يسيرٍ في بعض الألفاظ سيأتي التنبيهُ عليها[٨٨] [٨٩].

والإمام مسلم أخرج هذا الحديث من طريق سعيد بن منصور، عن هشيم، عن حصين بن عبدالرحمن، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وفيه: أنَّ حصينًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ - والصحيح أنه من التابعين، مُتوَفّى سنة ستٍّ وثلاثين ومائة

---

(٨٦) وقد جاء في «الصحيحين» بروايات متعدّدة من حديث ابن عباس، كما جاء مختصرًا من حديث عِمران.

(٨٧) كما جاء في غير الصحيحين من حديث ابن مسعود مختصرًا.

(٨٨) وذلكُم أنه روى عن هُشَيمٍ البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ ومسلم عن حُصين، عن سعيد بن جُبير، عن ابن عباس، وهذا اللَّفظ الذي أورده المُؤلّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هو لفظ مسلم، ذكره في «كتاب الإيمان»

(٨٩) هذه الرواية في مسلم قال: «هم الذين لا يرْقون، ولا يسْترْقون» ولم يذكر الاكْتواء، ففيها مخالفة عن هذه التي بين أيدينا من جهتين:

* إسقاط الاكْتواء، وهذه لم ينبّه عليها الشيخ سليمان.

* وزيادة في قوله: (يرْقون) ، وهذه نبَّه عليها الشيخ سليمان رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

المقصود: أنَّني لا أعلم لفظًا في الصحيحين كما أورده المؤلّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، لكنه الْتمس له الشيخ سليمان رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «التيسير» بأنَّه لمَّا رأى لفظة (لا يرْقون) معْلولةً -كما سيأتي- أبْدَلها بلفظٍ آخر ثابت في الصحيحين. سيأتي بعد قليل الكلام عن هذه اللَّفظة إن شاء الله.

-كان جالساً عند سعيد بن جبير، وهو من سادات التابعين، وهو مِنْ أَثْبَتِ أصحاب ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، قَتَلَهُ الحجاج سنةَ خمس وتسعين رَحِمَهُٱللَّهُ.

فقال سعيدٌ رَحِمَهُٱللَّهُ: «**أَيُّكُمْ رَأَى الْكَوْكَبَ الَّذِي انْقَضَّ الْبَارِحَةَ؟**»؛ وهذا فيه: أنَّ السلف رَحِمَهُمُٱللَّهُ كان لهم عنايةٌ بالتأمُّلِ في ملكوت الله جَلَّوَعَلَا وفيما في السماء من الآيات والعِظَات التي تُكْسِبُ الإيمان، والله جَلَّوَعَلَا وَصَفَ المتقين المؤمنين بأنهم يتفكرون في خلق السماوات والأرض. وهذا مما فَقَدَهُ كثيرٌ من الناس اليوم؛ مع غلبةِ هذه الحياة العصرية وانشغال الناس البالغ فاتَهُمْ هذا الأمرُ العظيم، وهو التأمّلُ والتفكّرُ في الآيات الكونية العلوية والسفلية.

فسأل سعيد رَحِمَهُٱللَّهُ: من رأى هذا الكوكب الذي انقضَّ ؟ فأجاب حصينٌ رَحِمَهُٱللَّهُ: «**أَنَا**».

قال رَحِمَهُٱللَّهُ: «**ثُمَّ قُلْتُ: أَمَا إِنِّي لَمْ أَكُنْ فِي صَلَاةٍ**»؛ الأمرُ حَصَلَ في الليل، وربما كان في وقتٍ متأخّر، وحصين يقول: أنا رأيته، ثم خَشِيَ أنْ يُظَنَّ فيه أنه كان يقوم الليل، فلعظيم إخلاصِهِ وحُبِّهِ أن لا يُحْمَدَ بما لم يفعل قال: (**أما إني لم أكن في صلاة**).

وهذا يُفيد الإخلاصَ العظيمَ الذي كان عليه السلف الصالح رَحِمَهُمُٱللَّهُ، فهم لا يحبّون أن يُنْسَبَ إليهم ما لم يفعلوا من الخير، وإنْ فعلوا خيراً حَرِصوا على كِتْمانِهِ، لا كالذي يحبُّ أن يُحمَدَ بما لم يفعل، أو أنَّه يُظْهِرَ للنَّاس أعمالَهُ الصالحة، وربما تكلَّمَ بالحديثِ الطويل حتى يَصِلَ إلى شيءٍ في نفسه وهو أن يُبَلِّغَ جُلساءَهُ بأنه فَعَلَ وفَعَلَ؛ كان يصلي، وتصدّق بكذا، وفعل كذا، وربما

يمشي بين الناس وبيده المِسْبَحة، يُظهِرُ للنَّاس أنه يُسبّحُ لله جَلَّوَعَلَا. شتّان بين حال السلف وحال الخَلَف، هذه كلمةٌ عظيمةٌ يَحْسُنُ بطالب العلم أن يستحضرَها دائمًا «أَمَا إِنِّي لَمْ أَكُنْ فِي صَلَاةٍ».

قال رَحِمَهُ اللهُ: «وَلَكِنِّي لُدِغْتُ»؛ هذا هو السبب الذي جعلني أستيقظ في هذه الساعة من الليل؛ لُدِغَ من عقرب أو نحوه.

قال رَحِمَهُ اللهُ: «قَالَ: فَمَا صَنَعْتَ؟ قُلْتُ: ٱرْتَقَيْتُ»؛ والذي في صحيح مسلم: «استرقيت»، وهذا هو المناسب لإيراد الحديث، و(الألف والسين والتاء) للطلب، يعني: طلبت مَنْ يَرْقيني، سألت أحداً أن يَرْقِيَني، والرُّقْية: هي القراءة على المريض، سيأتي الكلام فيها في بابٍ خاص إن شاء الله، وذِكرِ ما يتعلق بها من مسائل. الشاهد أنه طَلَبَ مَنْ يَرْقيه بسبب هذه اللَّدْغَةِ أو هذا السُّمِّ الذي أصابه.

قال رَحِمَهُ اللهُ: «قَالَ: فَمَا حَمَلَكَ عَلَى ذَلِكَ؟» ؛ هذا فيه: السؤالُ عن الحُجَّةِ، والْمُطالبة بالدليل. وهكذا كان السلف في كل خطوة، و كُلِّ حَرَكَةٍ وسَكَنَةٍ ، كانوا يحرصون على أن لا يفعلوا إلا بدليل، وشتّان بين مَنْ كان على نَهْجِهِمْ وطريقَتِهِمْ وبين مَنْ تكون أفعالُهُ كيفما اتفق، يفعل ما يحلو له وما تهواه نفسُه دون أن يكون واقفًا عند حَدِّ الدليل، وهذا هو الفارق بين أهل الاتباع وغيرهم، قال بعض السلف: «إنِ استطعت ألا تَحُكَّ رأسَكَ إلّا بأثرٍ فافعل»، في كُلِّ أمورك احرصْ على أن تكون ناهِجًا وفق حجّةٍ ودليلٍ صحيح.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ : «**قُلْتُ: حَدِيثٌ حَدَّثَنَاهُ الشَّعْبِيُّ، قَالَ: وَمَا حَدَّثَكُمْ؟ قُلْتُ: حَدَّثَنَا عَنْ بُرَيْدَةَ ٱبْنِ الحُصَيْبِ؛ أَنَّهُ قَالَ: «لَا رُقْيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ»**» يقول: عندي دليل وعندي حجّةٌ على ما فعلت، وهو أنني طلبت من يرقيني، وذلك أن الشعبي - والشعبي من سادات التابعين رَحِمَهُ ٱللَّهُ - حدَّث حُصَيْنًا بكلامٍ سَمِعَهُ من بُريدة بنِ الحُصَيْبِ - الصحابي الجليل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ- ، وهو أنّ بريدةَ قال: «**لا رُقْيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ**»، وهذا الكلام رُوِيَ مرفوعًا إلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وسيأتي الكلام عن ذلك إن شاء الله في محلِّهِ من الباب الذي عقده المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ للرُّقْية.

والمعنى في هذا الحديث باختصار، هو: أنه لا رُقْيَةَ أنفع من الرُّقْية في شأن العين، وفي شأن الْحُمَة. **والحُمَةُ هي:**

- ذوات السموم؛ كالحيّة والعقرب.
- أو السّمّ الذي يخرج من هذه الدواب.
- أو الإبرة التي تصيب.
- أو الحرارةُ والحمَّى التي تَنالَ مَنْ أُصِيبَ بهذا السّمّ.

على كل حال هي أقوال متقاربة في المعنى.

فأنفع وأحسن ما تكون الرُّقْيةُ في هاتين الحالتين:

- في حال: الإصابة بالعين.
- في حال: اللَّدْغ بشيء من هذه الدّواب السّامّة.

فأحسن ما يكون في العلاج هو الرقية.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «قَالَ: قَدْ أَحْسَنَ مَنِ انْتَهَى إِلَى مَا سَمِعَ»؛ هذه قاعدة حسنة «قد أحسن من انتهى إلى ما سمع»، وذلك يفيد أنّ مَن اجتهدَ في الوصول إلى الحق وعَمِلَ بدليل فإنه لا تَثْريبَ عليه، وذلك أنَّه هذا مَبْلَغُ اجتهادِهِ وهذه طاقَتُهُ، ولا يكلف الله نفساً إلا وُسْعَها، فهو عَمِلَ وفق دليلٍ بَلَغَهُ.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَلَٰكِنْ حَدَّثَنَا ٱبْنُ عَبَّاسٍ»؛ «ولكن» هنا سعيدٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أراد أنْ يبيّنَ لحصين أن ثمةَ درجةً أرفعَ، وأن هناك حالةً أولى مِمَّا فَعَلْتَ؛ وهي أنك طَلَبْتَ مَنْ يَرْقيك، أنك استرْقَيْت، وذلك ما حدَّث سعيدًا وأصحابَهُ ابنُ عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهْطُ»؛ قال ﷺ «عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ»، وجاء عند الترمذي أنَّ ذلك ليلةَ أُسْرِيَ به؛ ليلةَ أُسْرِيَ به صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عُرِضَ عليه الأمم، فكان فيما رأى صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهْطُ»؛ يعني جماعة عشرة فما دون أو أقل، «وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ»، «وَالنَّبِيَّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ».

وهذا نستفيد منه فائدتين:

◉ **الفائدة الأولى:** أنَّ النبيَّ مُرْسَلٌ كالرسول، والنبيَّ مبعوثٌ كالرسول، فمن هذه الجهة لا فرق بين النبي والرسول: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾[الحج:٥٢]، وذلك يدل على أن النبيَّ مُرسَلٌ وأنه مُطالَبٌ ومأمورٌ بالدعوة إلى الله جَلَّ وَعَلَا، وقد يُستجابُ له وقد لا يستجاب له، قد يستجيب الناس، وقد يكون الحالُ أنّ الاستجابةَ كبيرةٌ -كما سيأتي في شأن موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وكذلك

نبيِّنا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وقد لا تكون الاستجابةُ كبيرةً، حتى إنه قد يأتي النبي ومعه الرجل ومعه الرجلان ، أو ليس معه أحدٌ البتة(٩٠).

◉ وهذه هي **الفائدة الثانية**، وهي: أنَّ على الدعاة إلى الله جَلَّ وَعَلَا أنْ لا يغترّوا بالكثرة. وقد أشار إلى هذا المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في إحدى المسائل؛ لا ينبغي على الدعاة وطلّاب العلم أن يهتمّوا بشأن العدد والجماهير، فلا يلتفتوا إليها ولا يعملوا من أجلها، "واللهِ إذا حَضَرَ الناسُ دَعَوْتُ، وإذا كان الحاضرون قليل سَكَتُّ" هذا ليس من شأن الدعاة الصادقين، الصادقُ في دعوته إلى الله جَلَّ وَعَلَا هَمُّهُ أنْ يؤدِّيَ الواجب، وأما النتائج فأمرُها إلى الله.

وعليَّ أَنْ أَسْعَى، وَلَيْسَ عَليَّ إِدْرَاكُ النَّجاح

ليس عليك إدراك النجاح، وليس عليك إدراك الفلاح، الأمرُ إلى الله جَلَّ وَعَلَا، المطلوب أن تدعوَ إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وليس قلّةُ المستجيبين دليلاً على فشل الدعوة أو أنَّ الإنسانَ قد قَصَّرَ، هؤلاء أنبياءٌ كرام من أنبياء الله جَلَّ وَعَلَا، ومع ذلك ربما يأتي من الأنبياء مَنْ لَمْ يَسْتَجِبْ له أحدٌ البتة، والأمر لله جَلَّ وَعَلَا من قبلُ ومن بعدُ.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**إِذْ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمَّتِي، فَقِيلَ لِي: هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ**»؛ (**سَوَادٌ**) يعني: أشخاصٌ كُثُر، رآهم النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجاء في

---

(٩٠) بيان خطأ قول مَن قال: إنَّ النبي هو الذي أُوحي إليه ولم يُؤمرْ بالتبليغ، هذا ليس بصحيح، بلْ النبي كان مأمورًا بالتبليغ ولذلك كان يأتي ومعَه الرَّهْط.

الصحيح أنَّهم سَدُّوا الأُفُقَ، أو قال: «سوادٌ سَدَّ الأُفُقَ»، يعني: سواد كثير، فظنَّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّ هؤلاء أُمَّتُهُ.

قد يقول بعض الناس: وكيف يظنُّ ذلك وهو يعلم سِمَتَهُمْ وعلامَتُهُمْ وأنهم يأتون غُرّاً مُحَجَّلين يوم القيامة؟

أجاب أهل العلم -ومنهم الحافظ ابنُ حجر رَحِمَهُ اللهُ- أن ذلك لأنه كان قد رآهم عن بُعد، أمَّا إذا قَرُبُوا منه فإنه سوف يعلمُهُم، أو يعرفُهُم بسيماهم.

فقيل له: (هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ) عَلَيْهِ السَّلَامُ؛[٩١] وهذا يدلُّكُ على فضيلة قوم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأنه قبل أن ينحرفَ بنو إسرائيل استجاب لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ كثيرٌ من الناس آمنوا به ووحّدوا الله عَزَّ وَجَلَّ، واتّبعوا هذا النبيَّ الكريمَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال رَحِمَهُ اللهُ: «فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي: هَذِهِ أُمَّتُكَ»؛ نَظَرَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وإذا بسواد عظيم، وهذا السواد أعظم من الأول، وقد جاء في رواية عند البخاري لهذا الحديث أنه قيل له: (انظر هاهنا، فرأى سواداً عظيم، ثم قيل له: انظر هكذا وانظر هكذا، فكان يرى سواداً عظيماً)، تكرّرَ الأمرُ بالنَّظَرِ له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من عِدَّةِ جِهات، فدَلَّ هذا على أن أمةَ محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعظمُ من أمة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

---

(٩١) يعني: المستجيبين له، وليس قومه يعني قبيلته، وإنما الذي استجابوا له من بني إسرائيل.

وهذا ما أشار إليه المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله في المسائل إنَّ هذا الحديث فيه بيان: (فضيلة هذه الأمة بالكَمِّيَّةِ والكيفيّة).

-**أما في الكَمِّيَّةِ**: فإن عدد المستجيبين للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا شك أنه أعظم.

-**وأمَّا في الكَيْفِيَّة**: فلِأَنَّ في هؤلاء المؤمنين به صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ هو على درجةٍ عاليةٍ في التوحيد، حتى إن منهم هؤلاء السبعون ألفًا الذين سيأتي الكلام فيهم، وهم قد حققوا كمال التوحيد الواجب والمستحب.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ**»؛ هذا العدد لا شك أنه مقصود، وأنهم سبعون ألفًا كما قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إذ كلامُه حقٌّ وصدقٌ ولا ينطق عن الهوى صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

والعدد جاء في النُّصوص -في هذا المقام- على ثلاثة أضرب:

❁ **الضرب الأول**: أنَّهم سبعون ألفًا فقط يدخلون الجَنَّة بغير حساب ولا عذاب، وجاء في «الصحيحين»: أنَّ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لَيَدْخُلَنَّ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا، أَوْ سَبْعُمِئَةِ أَلْفٍ - شَكَّ فِي أَحَدِهِمَا - مُتَمَاسِكِينَ آخِذٌ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ حَتَّى يَدْخُلَ أَوَّلُهُمْ وَآخِرُهُمُ الْجَنَّةَ، وَوُجُوهُهُمْ عَلَى ضَوْءِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ**»، نسأل الله أن يجعلنا منهم. الشاهدُ أنَّ هؤلاء الذين نالوا هذا الفضلَ العظيمَ الذي بَشَّرَ به النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الحديث، عددُهُمْ سبعون ألفًا فقط.

❁ **الضرب الثاني**: تفضَّلَ الله جَلَّ وَعَلَا بزيادة هذا العدد، ففي مسند الإمام أحمدَ بسند جيد أنَّ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَصَفَهُمْ بأنهم سبعون ألفًا ومع كل ألف

سبعون ألفـًا، فيكون العدد قرابةَ الخمسة ملايين، وهذا فضل عظيم من الله جَلَّ وَعَلَا.

❁ **الضرب الثالث**: جاء فيه تفضُّلُ الله عَزَّوَجَلَّ بزيادةٍ أكثر؛ وذلك ما عند الترمذي بإسنادٍ لا بأس به أنَّ النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أخبر أنَّهم سبعون ألفًا ومع كل ألف سبعون ألفًا وثلاثُ حَثَياتٍ مِنْ حَثَيات ربنا، وفضلُ الله عظيم ،نسأل الله أنْ يَجْعَلَنا من هؤلاء الذين نالوا هذا الفضلَ العظيم.

قال رَحِمَهُٱللَّهُ : «**ثُمَّ نَهَضَ فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ، فَخَاضَ النَّاسُ فِي أُولَئِكَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ صَحِبُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الإِسْلَامِ فَلَمْ يُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئًا، وَذَكَرُوا أَشْيَاءَ**»؛ هذا يدلُّكُ على حِرْصِ أصحاب النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ على إشغال مجالسهم بما ينفع، ما كانت مجالس الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ في قيلٍ وقال، وفي كلامٍ قليلِ الفائدة أو عديمِ الفائدة؛ إنما كانوا يتحدثون فيما ينفعهم، وفي الأسباب التي تأخذ بهم إلى مراضي الله جَلَّ وَعَلَا.

النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أخبرَهُمْ بأن هناك سبعين ألفـًا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، ثم قامَ ولَمْ يبيِّنْ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ما صفتُهُمْ؟ وما السبب الذي لأجله كانوا كذلك؟

تَشَوَّفَتْ نفوسُ الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ إلى معرفة مَنْ هؤلاء، فتكلّموا رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ؛ وهذا يدلُّكَ على أنه يجوز الكلام بالاجتهاد لِمَنْ كان أهلاً له.

منهم من قال: « فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ صَحِبُوا رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ » ، لعلهم نحن معشر الصحابة، نحن صَحِبْنا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وآمنَّا به لَمّا كَفَرَ الناسُ به، وجاهدنا معه ونَصَرْنا النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلعلنا نحن.

وقال بعضهم: لعلهم أبناؤنا الذين وُلِدوا في الإسلام، أما نحن فقد أشركْنا بالله جَلَّ وَعَلَا ثم أسلمْنا، لكن «وَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الإِسْلَامِ فَلَمْ يُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئًا»، «وَذَكَرُوا أَشْيَاءَ» حتى خَرَجَ عليهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ : «فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَأَخْبَرُوهُ، فَقَالَ: «هُمُ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَكْتَوُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»»؛ خرج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليهم فسَأَلَهُمْ عن الحديث الذي كانوا يتحدّثونَهُ فأخبروه، فجاء الجوابُ الناجِعُ والبَلْسَمُ الشافي والعلمُ الصحيح من لَدُنْ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في شأن هؤلاء السبعين. هؤلاء السبعون ألفًا موصوفون بأربعِ صفات، قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «هُمُ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَكْتَوُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ».

أَقِفُ عند مسألةٍ ، ألا وهي: أنَّ هذا اللفظ الذي ذكره المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ ، هو -كما علمت- لفظُ مسلم، من طريق هشيم، عن حصين، عن سعيد، عن ابن عباس، ولكنِ الذي في مسلم ليس فيه: « هُمُ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ»، إنما فيه: «هم الذين لا يَرْقون»، وذلكَ دليلٌ على أنَّ المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ رأى أنَّ هذا اللَّفظَ معلول.

وحفيدُ المؤلف الشيخ سليمان رَحِمَهُ ٱللَّهُ اعتذر له بأنه لَمّا رأى هذا اللفظَ معلولاً -كما سيأتي إن شاء الله- اختار لفظًا واردًا في «صحيح البخاري»، وفي «صحيح مسلم» أيضـًا لكنْ من طريقٍ أخرى فأتى بهذا اللَّفْظِ ، وإلّا هذا السياق الذي ذكره المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن مسلم ليس فيه هذا اللفظ ، إنما فيه: «أنَّهم لا يرقون»، كما أنه أسقط في هذه الرواية الاكْتِواء «لا يكتوون»، فجَعَلَ فيه «لا يرقون» وأسقط فيه «لا يكتوون».

وبَحَثَ أهلُ العلم هذا اللفظ الذي جاء في هذه الطريق وهي قوله: «لا يَرْقون» ، والذي ذَكَرَهُ جَمْعٌ من المحقّقين ، ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وابن القيم، ومن المعاصرين الشيخ ناصر الألباني رحمةُ الله على الجميع : أنَّ هذا اللفظ «لا يرقون» معلول، وأنه شاذ، وأنه خطأٌ من الراوي ، ولم يقل النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ فيهم أنهم «لا يرقون»؛ فإن هذا اللفظ مردود من جهة الرواية ، ومردود أيضـًا من جهة المعنى.

❁ **أما من جهة الصناعة الحديثية:**

◉ **أولًا**: أنَّ هذا اللفظ لا يصح؛ وذلك أنَّ الحديث- كما ذكرتُ لك- رواه مسلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن سعيد بن منصور، عن هشيم، عن حصين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا. وتابَعَ سعيدًا - يعني روى عن هشيم هذا الحديث- خمسةٌ أو أكثرُ كُلُّهُمْ لا يذكرون كلمة «لا يرقون»، ما أحدَ ذَكَرَ هذا اللفظ إلا سعيدُ بنُ منصور رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

◉ **وثانيـًا**: أنه تابَعَ حُصَيْنًا في رواية هذا الحديث أربعةٌ أو أكثر، وكُلُّهُمْ لـم يذكر هذا اللفظ وهو: «لا يرقون».

◉ **ثالثًا**: أنَّ هذا الحديث جاء من روايةِ غير ابنِ عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، وليس فيـه «ولا يرقون»؛ وذلك أنَّه:

- في الصحيحين جاء من حديث ابن عباس ولـيس فيـه -كما عَلِمْـتَ- «لا يرقون».

- وجاء أيضـًا في الصحيحين من حـديث عمـران بـنِ حصـين رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وفيـه أنَّهم «**لَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَكْتَوُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِـمْ يَتَوَكَّلُونَ**»، لـيس فيـه «لا يرقون».

- كما أنَّه جاء عند أحمدَ والبخاريِّ في «الأدب المفـرد» وغيرِهمـا عـن ابـن مسـعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بإسـنادٍ جيـد، وأيضــًا لـيس فيـه «لا يرقـون»، إنَّمـا فيـه «لا يسترقون».

-وأيضًا جاء عند ابنِ حِبّان في «صحيحه» وعند غيرِه أيضـًا من حديث أبي هريرة بإسنادٍ صحيح وليس فيه «لا يرقون».

- كما جاء من حديث غيرِهِمْ أيضًا من أصحاب النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وكُلُّهـم لا يقول: «لا يرقون»، كُلُّهُمْ يقول: «لا يسترقون»، ما وقفتُ على حديث فيـه «لا يرقون» إلّا هذه الرواية.

-وكذلك عند الطبراني في «المعجم الكبير» من حديث عبيد الله بن حَزْر، عن شيخه علي بن يزيد الألهاني، عن القاسم أبي عبد الرحمن، عن أبي أمامة، عن خَبّاب بن الأرَتّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا ورحمةُ الله على الجميع فيه لفظ «لا يرقون».

ولكنْ لاشك أن هذا الحديث حديثٌ ضعيف أو ضعيفٌ جدًا، إذا وَجَدْتَ في الإسناد (عبيد الله) هذا، عن علي بن يزيد، عن القاسم أبي عبدالرحمن فاعلم أنَّ هذا الإسنادَ ضعيفٌ جدًا ، حتى قال ابنُ حبان: «إذا رأيت هؤلاء في إسنادٍ فاعلم أنَّ هذا الحديث مما عَمِلَتْهُ أيديهم»، هذا يدلُّكَ على أنه ضعيفٌ جدًا.

الشاهد: أنَّ هذا اللفظ الذي ذكرته لك لفظٌ غير ثابت، وأنَّ سعيدَ بنَ منصور، وإن كان ثقةً وإمامًا رَحِمَهُٱللَّهُ، ولكنَّه وَهِمَ وأخطأ، ومَنِ الذي لا يَهِمُ ومَنْ ذا الذي لا يخطئ!!

والصواب الذي لا شك فيه هو رواية الثقات الكُثُرُ في أحاديثَ كثيرةٍ عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كلُّها فيها أن هؤلاء الموصوفين بأنهم يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب «لا يسترقون»[92] ، وليس أنهم لا يرقون، **هذا من الجهة الحديثية.**

---

(٩٢) فبالنظر إلى هذه الروايات يُدرَكُ أنَّ ما حكم به شيخ الإسلام رَحِمَهُٱللَّهُ هو الصواب، وأنَّ هذه الرواية غير صحيحة، بلْ هي معْلولة، وإن كان الذي ذكرها سعيد بن منصور رَحِمَهُٱللَّهُ إمام ثبْت ثقة لا شكَّ فيه، لكن من الذي يسْلم من الوهْم والغلط! وهذا يدلّك أيضًا على غلط مَن غلَّط شيخ الإسلام رَحِمَهُٱللَّهُ في ذلك.

❁ **أمَّا من جهة المعنى**: فإنَّ هذا الحديث مخالِفٌ لأحاديثَ كثيرةٍ عن النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فإنه قد رَقَى، وقد رُقِيَ، وقد أَذِنَ في الرُّقْيةِ صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وقال في شَأْنِها: «مَنِ استطاع منكم أن ينفعَ أخاه فليفعل».

ثم إنَّه فارقٌ كبير بين الراقي والْمُسْتَرْقي؛ الراقي متوكِّلٌ على الله، محسنٌ الظنَّ بالله، تالٍ لكتاب الله، فلماذا يكون هناك ذمٌّ له من جهة أنه يفوتُهُ هذا الفضل!. أمَّا الْمُسْتَرْقي فإنه وَقَعَ منه طَرَفٌ من الذُّلِّ لغير الله حينما يطلب من غير الله، وربما يقع في نفسه شيء من الالتفات لغير الله.

إذًا شتّان بين الراقي والمستَرْقي، ولا يمكن التسوية بين هذين. وبالتالي: فالصواب أنَّ لفظ «لا يرقون» لفظٌ غير صحيح، والصواب: «لا يسترقون».

ما معنى «**لَا يَسْتَرْقُونَ**»؟ لا يطلبون الرقية من غيرهم، ومادة (استفعل) موضوعة غالبًا على معنى الطلب والاستدعاء، هذا هو الغالب في استعمال هذا البناء (استفعل)، أو كما يقولون: (الألف والسين والتاء: للطلب). إذًا استرقى يسترقي يعني: طلب مَنْ يَرْقيه، وبالتالي لا يتحدّثُ هذا الحديث عن الرقية، وأن يرقيَ الإنسان، وإنما أن يسترقيَ الإنسان، وبين الكلمتين فرق.

عندنا في هذا الباب أحوالٌ أربع:

◉ **أولًا**: أن يرقيَ الإنسانُ نفسَهُ.

◉ **ثانيًا**: أن يرقيَ الإنسانُ غيرَه.

◉ **ثالثًا**: أن يسترقيَ الإنسانُ لغيره.

◉ **رابعًا**: أن يسترقيَ الإنسانُ لنفسه.

أما أن يرقيَ الإنسان نفسَه أو أن يرقيَ غيرَهُ؛ فهذا الكلام فيه سيأتي إن شاء الله في باب ما جاء في الرُّقى والتمائم، وهو الباب الثامن إذا اعتبرنا المقدمة بابًا.

وفي الجملة رُقيةُ الإنسان نفسَهُ أو غيرَهُ تنقسم إلى قسمين من حيثُ الحُكْم:

❁ **القسم الأول**: الرقية المشروعة.

❁ **والقسم الثاني**: الرقية الممنوعة.

والرقية الممنوعة قد تكون شركًا أكبر، وقد تكون شركًا أصغر؛ على تفصيلٍ سيأتي في محلِّه -إن شاء الله-.

أما الرقية المشروعة، فهي:

- **أن يقرأ الإنسان على نفسه** بآياتِ القرآن أو أدعيةِ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو أيِّ دعاءٍ لله جَلَّ وَعَلَا يذكر فيه أسماءَ الله وصفاتِه؛ فإنّ هذا أمرٌ حَسَنٌ مشروع، وكان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَرْقي نفسَهُ كما في «الصحيحين» من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: «أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان إذا اشتكى رقى نفسَهُ ونَفَثَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

-**كذلك أن يرقيَ الإنسان غيرَهُ**، هذا أيضًا مشروع؛ ففي هذا الحديث أنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمّا مَرِضَ كانت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا تقرأ عليه ثم تمسحُ عليه بيده صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رجاءَ بَرَكَتِها. كذلك ثبت في «صحيح مسلم»: «أنَّ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرِضَ فجاءه جبريلُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فقال: يا محمد اشْتَكَيْتَ؟ قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: نعم، فقال جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: بسم الله أرقيك من كل شيءٍ يُؤْذيك، من كل ذي عينٍ أو نفسٍ حاسد، بسم الله أرقيك ، اللهُ يشفيك» ؛ فهذا فيه أنّ رُقيةَ

الإنسان لغيره أمرٌ حسنٌ جائز، بل لَمّا سُئِلَ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ذلك كما في مسلم قال: «من استطاع منكم أن ينفعَ أخاه فليفعل».

رقية الإنسان لنفسه توكّلٌ على الله واعتمادٌ عليه، وحُسْنُ ظنٍّ بالله، وتحقيقٌ للتوحيد؛ توحيدِ الربوبية، وتوحيدِ الألوهية، وتوحيدِ الأسماء والصفات. ورقية الإنسان لغيره فيها من تحقيق التوحيد ما فيها، وفيها أيضًا إحسانٌ إلى المسلم، وبذلُ معروفٍ له؛ فهذا لا شك أنه أمرٌ مشروع. إذًا رقيةُ الإنسان لنفسه، ورقيةُ الإنسان لغيره لا إشكالَ فيها.

-**أمَّا الأمر الثالث فهو: أن يسترقيَ الإنسانُ لغيره**؛ يعني: يطلبُ مَنْ يرقي غيرَه، لا يطلب مَنْ يَرْقيه هو، إنما يطلب مَنْ يَرْقي غيرَهُ، وهذا أيضًا أمرٌ جائزٌ بل حَسَن، وفَعَلَ هذا النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقد ثبت في «الصحيحين» من حديث أم سلمة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رأى في بيتِها جارية في وجهها سَفْعَةً -يعني: يظهرُ في وجهها تغيُّرٌ في اللون يدلُّ على عِلّةٍ بها- فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: استرقوا لها ، فإنَّ بها النَّظْرة» يعني: اطلبوا لها مَنْ يَرْقيها فإنَّ بها النَّظرة يعني: بها عين، فهاهنا أَمَرَهُمُ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يسترقوا لها.

كما أنه ثبت في الترمذي وأحمدَ وغيرِهما -والحديث أصلُهُ في مسلم- أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رأى ضَعْفًا في أبناء جعفر بنِ أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فقال لأمهم أسماءَ بنتِ عُمَيْسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «ما بال بني أخي ضارعين؟» يعني فيهم نُحْفٌ وفيهم ضَعْف، فقالت رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «إن العين تُسْرِعُ إليهم»، فأَمَرَها النبي

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن تسترقيَ لهم، يعني: أن تطلبَ مَن يرقيهم. فالشاهدُ أن استرقاء الإنسان لغيره أمرٌ جائز لا بأس به.

نأتي إلى موضع البحث وهو المقصود في هذا الحديث؛ وهو أن يسترقيَ الإنسانُ لنفسه، وهذا هو الذي مُدِحَ هؤلاء السبعون ألفًا بتَرْكِهِ، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**هُمُ الذين لَا يَسْتَرْقُونَ**» يعني: لا يطلبون مَنْ يَرْقيهم، إنمَّا إذا نزلت بهمُ النازلةُ فإنَّهم يَرْقون أنفسَهم، وإن جاءهم أحدٌ وَعَرَضَ عليهم أن يرقِيَهُمْ فقبولُهُمْ لذلك لا يُعَدُّ استرقاءً، يعني: إن جاء إنسان إليك وقال: أراك مريضًا وأريد أن أقرأَ عليك، فإذا سَمَحْت له بذلك فليس هذا من الاسترقاء، وهذا قد حَصَلَ من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَبِلَ أن يرقِيَهُ جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقَبِلَ أن ترقِيَهُ عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، ولكنْ هذا لم يَكُنْ عن طلب، فبَحْثُنا هو في الطلب.

قال بعض أهل العلم: إنَّ هؤلاء مُدِحوا بترك الرُّقْيةِ التي فيها استغاثةٌ بغير الله، أو ذِكْرٌ لأسماء الشياطين، أو باعتقادِ أنَّ الرقيةَ تنفعُ بذاتها، يعني كأنهم يقولون: إن الرقيةَ التي مُدِحَ هؤلاء بتركها هي الرقيةُ الممنوعة، هكذا قال كثيرٌ من أهل العلم.

والذي يظهر -والله تعالى أعلم- أنّ هذا التوجيهَ فيه نَظَرٌ؛ فإنّ ترك الرقية الممنوعة أمرٌ هو من شأن المسلمين جميعًا إلّا مَنْ ضَعُفَ إيمانُهُ وتوحيدُه؛ والحديث يدلُّ على أنَّ هؤلاء السبعين ألفًا لهم مِيزةً على غيرهم، وأن لهم خاصيّةً دلَّتْ على عظيم إيمانِهِمْ وعظيمِ توحيدِهِمْ، وأنهم من المحقّقين للتوحيد، فكيف يُقال بعد ذلك: إنهم إنما مُدِحوا على ترك الإشراك بالله

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ!! بَلِ الظاهرُ أنهم مُدِحوا على شيءٍ أرفعَ وأعظمَ من ذلك؛ يعني: أنهم تَرَكوا شيء يتنافى مع كمال التوكُّل، وليس مع أصل التوكّل.

ويدل على هذا أيضًا: أسلوبُ سعيدِ بنِ جبير رَحِمَهُ ٱللَّهُ مع حصين بنِ عبد الرحمن. فأولًا: لا يُظَنُّ أنَّ حصينًا قد ارتقى رقيةً شركيّةً حتى يقال: إنَّ سعيدًا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ورَحِمَهُ قد استدرك عليه؛ حصينٌ تابعيٌّ جليلٌ، ولا يُظَنُّ به أنَّه استرقى رقيةً شركية، هذا بعيد[٩٣]، ثم إنَّه لو فَعَلَ لم يكن سعيدٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ليتلطَّفَ مَعَهُ في الكلام بهذا الأسلوب فيقولَ له: «**قَدْ أَحْسَنَ مَنِ انْتَهَى إِلَى مَا سَمِعَ؛ وَلَكِنْ حَدَّثَنَا ابْنُ عَبَّاسٍ** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا...»، بل كان ينكر عليه ذلك بوضوح، لكنْ أسلوبُ سعيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ورَحِمَهُ يدل على أنَّه أراد أن يرشِدَهُ إلى ما هو أكملُ وأفضلُ، فدلَّ هذا على أنَّ حصينًا لم يكن قد وقع في رقية شركيّة.

فإذًا هذا الجواب فيه نظر، والظاهر والله تعالى أعلم أنَّ الرقيةَ التي ترك طلبَها هؤلاء السبعون ألفًا هي الرقية المشروعة لا الرقية الممنوعة.

وعليه: فإنَّ هذا الحديثَ يدلُّ على أنَّ هؤلاء السبعين ألفًا وُصِفُوا بترك طلب الرقية من غيرهم، إنَّما كانوا يرقون أنفسَهُم، أو إذا رُقُوا من غيرهم يكون

---

(٩٣) ومن لطِيف ما يُذكرُ عنه في هذا الباب: ما رواه أبو نُعيم في «الحِلية» عنه، وهذا كما قِيلَ: -الشيء بالشيء يُذكر-؛ أن سعيد بن جُبير رَحِمَهُ ٱللَّهُ لُدِغَ في يده فأقسمت عليه أمّه أن يسْترقي، يقول: «فأعطيتُ الراقي يدي التي لم تُلْدغ ولا أريد أن أحنِّث أمي»، فجمَعَ بين الأمرين: ابتعد عن الاسْترقاء؛ لأنَّه لم يجعله يرقيه في هذه اللّدغة، وفي المقابل برَّ بأمّه ولم يحنّثها. وأورد هذا أيضًا الذهبي في «السير» في ترجمة سعيد.

هذا عن غير طلب، أما أن يطلُبوا ذلك فهذا لم يكونوا يفعلونه؛ وذلك أنَّ في **الاسترقاء - يعني: في طلب الرقية من الغير- أمورًا:**

۞ **الأمر الأول**: أنَّ في الاسترقاء ذُلًّا للمخلوق، وهؤلاء أهلُ توحيدٍ عظيم، لا يَذِلّون لغير الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ (٩٤).

۞ **الأمر الثاني**: أنَّ طَلَبَ الرقية من الغير لا يَخْلوا غالبًا من نوع الْتِفاتٍ للقلب لغير الله جَلَّوَعَلَا - يعني للراقي-، وهؤلاء أهلُ اعتمادٍ تام، وقصدٍ كامل لله رب العالمين لا يَلْتَفِتون لسواه.

۞ **الأمر الثالث**: وهو أنَّ الاسترقاءَ فيه في الغالب سؤالٌ لمخلوقٍ بلا حاجة، والنبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حَثَّ على ترك سؤال الناس، وكَوْنُ الاسترقاء بلا حاجة غالبًا سَبَبُهُ: أنَّ رقية الإنسان نفسَهُ تتيسّرُ ولا تتعسّر، فَلِمَ يطلبُ الإنسانُ

---

(٩٤) مِمَّا يقرِّب فهْم هذه المسألة: كون النبي ﷺ يحثّ على ترك سؤال الناس، والاسْترقاء من هذا الباب فيه سؤال للناس، سؤال للغير، ومعَ ذلك تواتر عنه عليه الصلاة والسلام أنَّه طلب من غيره، وهذا أحاديثه كثير، أَمَا قال لعائشة: «ناوليني الخُمرة»! وهذا طلب، لكن ليس فيه تذلّل للمطلوب، ولذلك إذا طلب الإنسان من ابنه أو زوجه أو صديقه لا يكون فيه تذلّلٌ له، ولا يدخل هذا في النهي عن سؤال الإنسان غيره؛ لأنَّ الأمر متعلّق بعلّته وجودًا وعدمًا، فالسؤال المقصود بالنهي -النهي نَهْي كراهة تنزيه- والحثّ على ترْكه هو: الطلب والسؤال الذي فيه ذلٌّ للمسؤول، أَمَّا إذا عَرِيَ عن ذلك فإنه لا حرج فيه، وقد فعله أرفع وأشرف الخلق ﷺ وهو أكمل الناس توحيدًا على الإطلاق، فدلَّ هذا على أنه لا يدخل في السؤال المكروه.

من غيره أن يرقِيَهُ؟! وهذا في الأحوال الغالبة متيسّر، فما حاجته إلى أن يَعْمَدَ إلى غيره حتى يرقِيَه! بل لو رقى نفسَهُ كان هذا أقربَ للاستجابة؛ لأنَّ الغالب أنَّ المصاب يكون صادقًا في الرقية، ويكون فيه من الاضطرار ما ليس في الراقي غير المصاب، والله جَلَّوَعَلَا يقول: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾[النمل:٦٢].

إذًا هؤلاء فيما يظهر والله تعالى أعلم مُدِحوا بترك الاسترقاء، يعني: بطلب الرقية من الغير.

لكنْ يُشْكِلُ على هذا التقرير ما ثبت في الصحيحين من حديث عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا أنها قالت: «أَمَرَ رسولُ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ -أو هكذا جاءت الرواية بالشك- «أَمَرَني رسولُ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أن أسترْقِيَ من العين»، وفي رواية مسلم: «كان النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يأمرني أن أسترقِيَ من العين». إذًا هذا أمرٌ من النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لعائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا أن تسترقيَ ، فهل كان النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ آمِرًا لها بشيءٍ يؤدّي إلى تفويتِ هذه الفرصة العظيمة، وهي أن تكون من السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب؟

الأمر في الحقيقة يحتاج إلى نظر، فالذي يظهر والله تعالى أعلم أنه لم يكن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ليأمرَ عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا -وهي من أحب الناس إليه- بشيء يكون سببًا في فواتِ هذا الفضل العظيم. **إذًا كيف نوفِّقُ بين هذا الحديث وبين حديث (لا يسترقون)؟**

يمكن أن يقال في هذا أجوبةٌ عدّة:

۞ **أولًا**: قال بعض شُرّاح الحديث: إن قولها رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: «أَمَرني أن استرقيَ من العين» المراد بهذا الاسترقاء: ليس الرقيةَ التي هي القراءة، إنما المراد: طلبُ الاغتسال، ثم مُداواةُ مَنْ أُصيب بالعين بِغُسَالة العائن ، كما ثبت هذا في حديث النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

۞ **ثانيًّا**: أنَّ هذا الحديث مختصٌ بالعين فيكون ترك الاسترقاء عامّـًا في كل الأمراض، ويكون الاسترقاء من العين خاصًّا لِدلالة عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

۞ **ثالثًا**: يمكن أن يقال : إنَّ أَمْرَهُ لعائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أن تسترقيَ يعني لغيرها لا لنفسها، وهذا أمرٌ جائزٌ كما قد عَلِمْنا، ولكنْ هذا التوجيه بعيدٌ عن ظاهر الحديث.

۞ **رابعًا**: أن يقال : إنَّ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنَّما كان ذلك منه قبل أن يأْتِيَهُ الوحيُ من الله جَلَّ وَعَلَا بفضل هؤلاء السبعين ألفًا، وهذا أيضًا ليس بوجيه؛ لأن معرفةَ المتقدّم من المتأخّر ليس متيسّرًا.

۞ **خامسًا**: يمكن أن يقال: إن الاسترقاء هاهنا هو طلب الرقية لا طلب الراقي، يعني: كأنَّ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمَرَها في حال الإصابة بالعين أن تطلبَ علاج ذلك بالرقية، وليس أن تطلبَ غيرَها أن يَرْقِيَها، إنما كأنه يقول: عليكِ بالرقية؛ فالرقية هي الدواء الناجع لمرض العين.

۞ **سادسًا**: أن يُقال: إنَّ الرقيةَ من الغير إذا تعيَّنَتْ؛ بمعنى: أنَّه لم يُمْكِنْ أو تعذَّرَ أو تعسَّرَ أن يَرْقِيَ الإنسانُ نفسَهُ، وهذا قد يحصل، فإن من الناس مَنْ تصبح القراءة عليه أمرًا صعبًا، وهذا أمرٌ مُشاهد، فيطلب الإنسانُ من غيره أن يَرْقِيَهُ.

ويشترط في هذا : أن لا يكون قد التفت في قلبه إلى المخلوق، إنما هو معتمدٌ اعتماداً كلِّيًّا على الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فإذا تعيّنَتْ ولم يكن منه التفاتٌ إلى المخلوق فإنّ هذا الحديثَ يدلُّ على أنَّ الاسترقاءَ حينئذٍ لا بأس به، ولا يُفَوِّتُ هذه الفضيلة.

ويؤيِّدُ ذلك ما ثبت عند الترمذي وأحمدَ وغيرِهما بإسنادٍ صحيح أنَّ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «مَنِ اكتوى أو استرقى فقد بَرِئَ من التوكل»، وسيأتي معنا بعد قليل -إن شاء الله- أنَّ هذا الحديثَ معناهُ متعلِّقٌ بالكَيِّ إذا لم يتعيّنْ على توجيهٍ سيأتي، فيكون ما ذُكِرَ في الحديث وهو الاسترقاء مِثْلُهُ، والله تعالى أعلم.

على كل حال المقام مقام احتياط، وعلى المسلم إذا كان حريصًا على أن يفوزَ بهذا الفضل العظيم فينبغي عليه أن يتحفَّظَ من طلب الرقية من الغير ما استطاع إلى ذلك سبيلًا؛ حتى لا يفوتَهُ هذا الفضل العظيم، الأمر ليس بالأمر الهَيِّنِ الذي يقبل المجازفة، الأمر فيه دخول الجنة بغير حسابٍ ولا عذاب، أسأل الله جَلَّ وَعَلَا أن يجعلني وإياكم من هؤلاء.

الصفة الثانية: قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَلَا يَكْتَوُونَ**»، الكَيُّ : هو أن تُحمى حديدةٌ بالنَّار ثم توضع على العضو العليل ، فيكونُ الشفاءُ بإذن الله، **وأهلُ الطبِّ في الغالب يستعملون الكي في حالتين:**

◉ **الأولى**: في حَسْمِ نزيف؛ يعني أن يكون هناك عِرْقٌ جُرِحَ والدمُ يَنْزِفُ ، فإنَّ الكي ينفع في حَسْمِ هذا النزيف وإيقافِ هذا الدم.

◉ **الثانية**: أن يكون في الجسم أخلاطٌ باردة، موادٌّ ضارةٌ باردة، فإذا استَعْمَلَ الإنسان الكي فإن هذه الأخلاط تذهبُ ويُشْفَى الإنسانُ بإذن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

هنا النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَصَفَ هؤلاء الزُّمْرَةَ الطيبةَ بأنَّهم يتركون الكي، قال: «لا يكتوون»؛ فهل المراد أنَّهم لا يطلبون الكيَّ من غيرهم؟ أو أنهم في أنفسهم لا يستعملون الكي؟

ذهب بعضُ العلماء ومنهم حفيدُ المؤلف الشيخ سليمان في «التيسير» إلى أن «لا يكتوون» أي: لا يطلبون غيرَهُمْ أن يَكْوِيَهُمْ، فيكون على نسق «لا يسترقون».

ولكنَّ الذي يظهر والله أعلم أنّ هذا فيه نظر، وأنَّ الاكتواء شيء، والاستكواء شيءٌ آخر؛ في لسان العرب (اكتوى): استعمل الكي، و(استكوى): طَلَبَ من غيره أن يَكْوِيَهُ، وهذا الذي يظهر -والله تعالى أعلم- أنَّ الذي جاء نَفْيُهُ في هذا الحديث هو عَدَمُ الكيِّ مطلقًا، وليسَ خصوصَ أن يطلبَ الإنسانُ من غيره أن يَكْوِيَهُ(٩٥).

---

(٩٥) ابن قتيبة رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكر أنَّ الثناء على هؤلاء يتوجَّه إلى ترْك الكي قبل حصول الداء، قال: الكي عند العرب كان على حالتين:

الحالة الأولى: أن يكتوي الإنسان بسبب مرض ألَمَّ به ؛ قال هذا لا حرج به.

الحالة الثانية: أن يكتوي قبل نزول الداء؛ فيعرّض نفسه للتعذيب في شأن أمر غير متحقّق، وهذا فيه ضعْفٌ في التوكل على الله عَزَّ وَجَلَّ، وضعْفٌ في حُسْن الظنّ به. فوجَّه رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذلك بذلك.

وموضوع الكيِّ موضوعٌ طويلُ الذَّيْل، وفيه بحثٌ كثير، والأحاديث التي جاءت عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في شأنه جاءت على أنحاءٍ مختلفة:

❁**أولًا**: فعلُه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فإنَّ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَصَلَ منه أنْ كوى غيرَه، من ذلك:

-أنه كوى عبدالله بنَ حَرام الأنصاري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لَمّا أصيب يوم الأحزاب، والحديث في «مسلم».

-كذلك كوى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سعدَ بنَ معاذ في أَكْحَلِهِ لَمّا أصيب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وهذا في «الصحيح» أيضًا.

-كذلك النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أرسل طبيبًا إلى أُبَيِّ بنِ كعب فكواهُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، والحديث في «مسلم».

-كذلك النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كوى أسعدَ بنَ زُرارة من مرضٍ أصابَهُ يسمى الشوكة ، وهذا عند «الترمذي» بإسنادٍ صحيح.

-كذلك ثبت في «صحيح البخاري» عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «اكْتَوَيْتُ من ذات الْجَنْبِ والنبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيٌّ»، فالظاهر أنَّ هذا مما يَبْلُغُ النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وكان هذا بمَحْضرٍ من عدد من الصحابة، فهذا فعلُه وإقرارُه بل إرسالُه الطبيب صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليكوِي.

❁ **ثانيًا**: نجد في الأحاديث أنَّ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يحبُّ الاكتواء، كما في «الصحيحين» عنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «وأنا لا أحب أن أكْتَوِيَ».

۞ **ثالثًا**: كراهَتُهُ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ للكي؛ ومن ذلك قوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «وأنا أكره أن اكْتَوِيَ».

۞ **رابعًا**: نَهْيُهُ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ عن الكَيِّ، قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «وأنا أنهى أمتي عن الكي».

۞ **خامسًا**: وصفُهُ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ من اكتوى بالبراءة من التوكّل، قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «من اكتوى أو استرقى فقد برئ من التوكل».

۞ **سادسًا**: مَدْحُ النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ مَنْ تَرَكَ الاكتواء، وهذا كما في هذا الحديث الذي بين أيدينا.

والذي لا شك فيه أن أحاديث النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لا يمكن أن يكون بينها تعارض، والجمع هاهنا ممكنٌ ولله الحمد:

أولًا: كونُ النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ فَعَلَ ذلك أو أقرَّ؛ دليلٌ على أن الأصلَ في الكي الجوازُ.

ثانيًا: كونُهُ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لا يحبُّه أو أنه يكرهه، فهذا يدل على أنّ تَرْكَهُ أفضل، وعلى أنه مكروه وليس بمحرم.

ثالثًا: كونه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ينهى عنه؛ هذا له حالٌ مخصوصة، وكذلك كونه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يصِف مَنِ اكتوى بالبراءة من التوكل هذا له توجيهٌ خاص سيأتي.

رابعًا: وأما مدحُهُ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بترك الاكتواء؛ فهذا في حالِ عدمِ الاضطرار كما سيأتي إن شاء الله.

والتحقيقُ -والله أعلم- أنّ الكي له ثلاث أحوال عليها تتنزَّلُ تلك الأحاديث السابقة:

۞ **الحال الأولى: أن يكون محرّمًا**؛ ويدل على هذا الحُكْمِ نَهْيُهُ صَلَّاَللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ عن الكي، وكذلك وَصْفُهُ مَنِ اكتوى بأنه قد بَرِئَ من التوكل، وهذا محمولٌ على حالتَيْن: كلاهُما كان من شأن أهل الجاهلية؛ أهلُ الجاهلية كان لهم حَفاوة كبيرةٌ بالكي، وكانت لهم فيه عقائدُ، من ذلك: أنهم كانوا يعتقدون أنَّ الكيَّ يَحْسِمُ الداء بطَبْعِهِ لا بإذن الله جَلَّوَعَلَا، ولذا كانوا يُبادرون إليه ولو لم يُضْطَرّوا إليه، بل كانوا يعتقدون أنّ مَنِ اكتوى قبل أن يصابَ بالمرض فإنه لا يصيبُهُ مرضٌ البتة، ولا شك أن هذا كلَّهُ عقائدُ باطلةٌ نفاها الإسلام.

إذًا تحريم النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ **ووَصْفُهُ بالبراءة من التوكّل لَمَن اكتوى يتنزَّلُ على حالتين:**

◉ **الأولى**: مَنِ اكتوى قبل أنْ يَمْرَضَ، قبل أن يكون هناك سببٌ يقتضي الكيَّ كما كان شأنَ أهلِ الجاهلية.

◉ **الثانية**: أن يكون على ما يكون عليه اعتقادُ أهل الجاهلية في الكيّ، وأن الكيَّ يَحْسِمُ الداءَ بطَبْعِهِ لا بإذن الله جَلَّوَعَلَا.

إذًا هذه هي الحالة الأولى: وهي أن يكون الكي محرمًا.

۞ **الحال الثانية: أن يكون مكروهًا**؛ وذلك يكون بعد نزول البلاء، ويكون الشفاء به مَظْنونًا لا مُتَعَيّنًا، أن يكون بعد نزول الداء، يعني يكون هناك مرض، السبب وُجِدَ، ولكنْ كونُ هذا الفعل الذي هو الاكتواء سببًا للشفاء أمرٌ مظنونٌ

وليس أمرًا قطعيًا، يمكن أن يكون سببًا للشفاء، ففي مثل هذه الحال اللُّجوءُ إلى غيره من الأدوية أَوْلى، وبالتالي يكون استعمالُهُ أمرًا مكروهًا، **ووجه ذلك**:

◉ **أولًا**: أنَّ الكي فيه إيلامٌ للنفس.

◉ **وثانيًا**: فيه طَرَفٌ من التعذيب بالنَّار.

◉ **ثالثًا**: ربما يقعُ في النفس شيءٌ من تلك العقائد والأباطيل التي كانت في نفوس أهل الجاهلية بسَبَبِهِ.

◉ **رابعًا**: وهو أنَّ الاكتواءَ قد يترتَّبُ عليه شيءٌ بعد حصوله، وهذا يَحْصُلُ أحيانًا ، وهو أنه بعد استعمال الكي يكون هناك شيءٌ من الآلام التي تَطول، أو شيءٌ من القُروح، أو شيءٌ من الانتفاخ في الجلد الذي يُخْرِجُ صديدًا وما شاكَلَ ذلك، يعني قد يكون هناك آثارٌ سيِّئةٌ لهذا الكيّ ، والأمرُ ليس متعيِّنـًا، ويمكن أن يكونَ هناك أسبابٌ للشفاء سواه. إذًا هو في هذه الحالة مكروه.

❁ **الحال الثالثة: أن يكون ذلك جائزًا**؛ وهذا في حال ما إذا أصيبَ الإنسان بمرضٍ وتعيَّنَ الكيُّ سببًا للشفاء، وهذا لو تأمَّلْتَهُ وجدتَهُ ظاهرًا في الأحاديث التي فيها كيُّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهو مثلًا كَوَىَ سعدَ بنَ معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنْ جُرْحٍ يَنْزِفُ منه كان في أَكْحَلِهِ، ومعلومٌ أنَّ الدَّمَ لو استمرَّ بالنزول سيموت الإنسان؛ وهذا سببٌ متعيِّنٌ بإذن الله مقطوعٌ به أنه يكون بإذن الله سببـًا في كَفِّ الدم وقَطْعِ هذا النزيف، فأصبحَ الأمرُ هاهنا متعيِّنًا، وبالتالي فإنه لو استعملَ الإنسانُ الكيَّ في هذا الحال فإنه يكون قد فعل أمرًا جائزًا.

وبناءً عليه: فإننا نعود الآن إلى حديثِنا الذي بين أيدينا، على أيِّ شيء يتنزَّلُ قوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «لَا يَكْتَوُون»؟

الجواب: يتعيّنُ على أنَّهم لا يكتوون في حالِ كَوْنِ الكي مكروهـًا، وهي الحال التي يُصاب فيها الإنسان ولا يكون الكيُّ متعيِّنًا، بل يمكن أن يكون هناك أسبابٌ أخرى للشفاء؛ كعقاقير، أدوية، عسل، حجامة، إلى آخره، وليس يتعيّنُ أن يكون هاهنا العلاجُ بالكي.

أمَّا إذا تعيّنَ العلاج بالكي فالذي يظهر والله تعالى أعلم أنَّ هذا الأمرَ جائز، وأنه أيضًا لا يُضِيعُ فرصةَ لُحوقِ الإنسان بهذا الفضل العظيم، وهو أن يكون ممّن يدخل الجنة بغير حساب ولا عذاب، هذا الذي يظهرُ والله تعالى أعلم.

الصفة الثالثة: قال: صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ «وَلَا يَتَطَيَّرُونَ»؛ التطيُّر: يعني التشاؤم، وهذا الموضوع عَقَدَ المؤلف رَحِمَهُٱللَّهُ له بابًا خاصّـًا فنؤجِّلُ الكلام فيه إلى الموضع الذي خَصَّهُ به المؤلف رَحِمَهُٱللَّهُ.

الصفة الرابعة: قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»؛ لا شك أنّ التوكُّلَ هو الصفةُ الجامعةُ لكلِّ ما سبق كما أشار إلى هذا المؤلف رَحِمَهُٱللَّهُ في المسائل، تجدُ أن الصفةَ الجامعةَ بين هذه الأوصاف الثلاثة لهؤلاء المؤمنين الذين بلغوا هذه الدرجةَ العاليةَ هي أنه قد قام بهم توكّلٌ عظيمٌ على الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ فاستحقّوا أن يكونوا ممّن يدخلوا الجنة بغير حساب ولا عذاب.

والتوكّلُ هو: تركُ الاعتماد على الأسباب بعد بذل الأسباب. يجمعُ إذًا أمرين: بذلَ السبب، مع الاعتماد على الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ. أو هو كما قالوا: حركةٌ

بلا سكون، وسكونٌ بلا حركة؛ يعني: أن يكونَ الإنسانُ منه حركة واضطراب وعمل، لا يَدَعُ سببًا لتحصيل المقصود إلا بَذَلَهُ، ثم يكونُ منه سكون بلا اضطرابٍ ولا حركة، وهو سكونُ القلب واعتمادُهُ على الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

وعلى كلِّ حالٍ المؤلفُ رَحِمَهُٱللَّهُ خَصَّ التوكل أيضًا ببابٍ خاص فنؤجِّلُ الحديثَ عن التوكل إلى ذلك المقام.

الشاهدُ والخلاصة: أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ مَدَحَ هؤلاء بأنهم جَمَعوا ما به تحقَّقَ فيهم كمالُ التوحيد الواجب وذلك في قوله: «وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»، ومَدَحَهُمْ أيضًا بتحقيق ما به حقّقوا كمالَ التوحيد المستحبّ، وذلك في قوله: «لَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَكْتَوُونَ»؛ الاسترقاء جائز ، مَنْ فَعَلَهُ ما وقع في محرم، لكنْ تركُهُ أفضل، وهو دليلٌ على كمال التوحيد المستحب. والكيُّ إذا ظُنَّ فيه الشفاءُ أمرٌ جائز، لكنْ تَرْكُهُ أفضلُ، وهذا الترك من تحقيق كمال التوحيد المستحب. فَجَمَعَ هؤلاء بين الأمرين: حققوا كمالَ التوحيد الواجب، وارْتَقَوْا حتى حقّقوا كمالَ التوحيد المستحب.

بقيت مسألة قد يَبْحَثُها بعض الناس في هذا المقام وهي: أنَّهم يقولون: إن هذا الحديثَ دليلٌ على تَرْكِ اتِّخاذِ الأسباب اعتمادًا وتوكُّلاً على الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، هكذا قال بعضهم.

ولا شك أنَّ هذا غيرُ صحيح، ليس في هذا الحديث وجهٌ البتة لهذا الاستنباط، بل إنَّ اتخاذَ الأسباب أمرٌ كان يفعَلُهُ سيدُ المتوكلين صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، والأحاديث في هذا متواترة وكثيرةٌ في وقائعَ شتّى، بل كان هذا منه أَمْراً

صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. إذًا لا ينبغي أنْ يلتفتَ إنسانٌ إلى مثل هذا الاستنباطَ الباطل وهو أن يقال: إن على الإنسان أنْ يتركَ استعمالَ الأسباب ويُفَوِّضَ الأمور إلى الله جَلَّ وَعَلَا، بل إن الشريعة قد جاءت باتخاذ الأسباب، وتركُ الأسباب قَدْحٌ في الشريعة.

بعضُهُمْ ذَكَرَ أنّ مِنْ فوائد هذا الحديث أنَّ تركَ التداوي أفضل، كأنه أَخَذَ مِنْ تركِ الكيِّ والاسترقاء التعميمَ لجميع أنواع الأدوية، والصواب: أنَّ الحديثَ خاصٌّ بهذين الأمرين اللذَيْن جاء عليهما التنصيص، وهما: الكي والاسترقاء، وأمَّا التداوي فهذا شأنٌ آخر والبحث فيه طويلٌ عند أهل العلم، وعلى كلِّ حالٍ ليس هو من متعلَّقات هذا الحديث.

على كلِّ حال: خلاصةُ الراجح في موضوع التداوي؛ أن التداويَ له أحوال:

❁ **الحال الأولى: أن يكون التداوي واجبًا**: وذلك إذا كان تَرْكُهُ يؤدّي إلى الهلاك، إذا عُلِمَ أنَّ استعمالَ دواءٍ معيّنٍ سببٌ لتوقُّفِ الداء الذي يؤدّي إلى الموت، مثالُ ذلك: وجودُ مرض، لِيَكُنْ ورمًا ضارًا -نسأل الله السلامة والعافية- ولو استعمل الإنسان دواءً معيّنًا وهو الجراحة والاستئصال فإن هذا يكون دواءً قطعيًا بإذن الله جَلَّ وَعَلَا في إزالة هذا المرض والسلامةِ من الهلاك، ففي هذا الحالة نقول: يتعيّنُ الدواء، أصبح التداوي الآن سببًا متعيّنًا في الحفاظ على النفس، والحفاظ على النفس أمرٌ ضروريٌ في الشريعة.

❁ **الحال الثانية: أن يكون التداوي مظنونًا في حصول الشفاء، وفي هذه الحالة نقول: التداوي مستحبٌّ وليس واجبًا**؛ مَنْ كان يظن أنَّ استعمالَهُ لهذا

الدواء أو هذا العُقار أو هذا الشراب سببٌ للشفاء فإنه في هذه الحالة يكون أمرًا مستحبًّا، ويدل على هذا ما ثبت عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند أحمدَ وغيره بأسانيدَ عدةٍ من روايةِ عددٍ من أصحاب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه أَمَرَ بالتداوي فقال: «تداوَوْا عبادَ الله، ولا تتداوَوْا بحرام» وأقلُّ درجات الأمر أن يكون للاستحباب.

إذًا التداوي مطلقًا ليس له علاقةٌ بهذا الحديث، والله تعالى أعلم.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (**فَقَامَ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ؛ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَقَالَ: «أَنْتَ مِنْهُمْ»، ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ آخَرُ، فَقَالَ: ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَقَالَ: «سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ»**).

لَمّا حدَّث النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهذا الحديث سَمَتْ همّةُ عُكّاشةَ بنِ مِحْصَن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -الأكثر على أن عكّاشة بالتشديد، وقيل بالتسهيل- وهو صحابيٌ جليل من أفاضل الصحابة؛ لأنه كان بَدْرِيًّا، كان من أهل بدر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه، وأهلُ بدرٍ من أفاضل الصحابة. قال للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَا رَسُولَ اللهِ؛ ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَقَالَ: «أَنْتَ مِنْهُمْ»**» بَلَغَهُ بوحيٍ من الله جَلَّ وَعَلَا أنه منهم.

ولاحظ في هذا الحديث أنَّ الحديثَ يدلُّ على جواز طلب الدعاء، سؤالِ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يدعوَ اللهَ جَلَّ وَعَلَا، وهذا جائزٌ لا شك فيه في حياته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، أما بعد مماته فإن هذا لا شك أنه من الشرك بالله جَلَّ وَعَلَا؛ إذ جنسُ دعاءِ الأموات لا شك أنه شِرْكٌ بالله جَلَّ وَعَلَا.

وَدَعْوَةُ الْأَمْوَاتِ تُحْبِطُ الْعَمَلْ ... وَتَسْلَخُ الإِيْمَانَ؛ خَابَ مَنْ فَعَلْ

هنا قام صحابيٌّ آخر، وقال طالبًا المسألةَ نفسَها والدعاءَ نفسَه أن يدعوَ الله له أيضًا أن يكون منهم، فقال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ**».

هنا حَسَمَ النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ الباب، والظاهر والله تعالى أعلم أنّ جوابَهُ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ هاهنا ليس لأن هذا السائلَ لا يستحقُّ ذلك، وإنما خَشِيَ النبيُّ عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ أن يتسلسلَ الأمرُ، فيسألَ السؤالَ مَنْ ليس أهلاً له، فَحُسِمَ الأمرُ بهذا الجواب اللطيف، فكان فيه تحقيقٌ للمصلحة ومحافظةٌ على شعور هذا الصحابي، وهذا من عظيم أدب النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ولُطْفِهِ، وكيف لا يكون كذلك والله جَلَّوَعَلَا قد وَصَفَهُ بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[القلم:٤].

وفي هذا كما قال المؤلف رَحِمَهُٱللَّهُ في المسائل فيه: (استعمال المعاريض).

هذا والله تعالى أعلم.



قال المصنف رحمه الله:

٤- بَابُ

الـخَوْفِ مِنَ الشِّرْكِ

وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء:٤٨].

وَقَالَ الـخَلِيل عليه السلام: ﴿واجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم:٣٥].

وَفِي الحَدِيثِ: «أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ: الشِّرْكُ الأَصْغَرُ»، فَسُئِلَ عَنْهُ؟، فَقَالَ: «الرِّيَاءُ».

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَدْعُو للهِ نِدًّا؛ دَخَلَ النَّارَ». رَوَاهُ البُخَارِيُّ.

وَلِـمُسْلِمٍ عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ لَقِيَ اللهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ الـجَنَّةَ، وَمَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ».

❋ ❋ ❋ ❋

قال الشارح وفقه الله:

عقد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الباب؛ الذي وسمه بـ(**بَابُ الـخَوْفِ مِنَ الشِّرْكِ**)، والترتيبُ عند المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يدل على دقيق فهمه؛ فإنَّه بعد أن بَيَّن طرفًا من فضل التوحيد وفضل تحقيقه، عَقَدَ هذا الباب ليبيّن أنَّ من تحقيق التوحيد الخوف من الشرك، وأيضًا حتى يكون الموحِّدُ جامعًا بين الخوف والرجاء، فإنَّ الأدلة التي تدل على فضل التوحيد وفضل تحقيقه تُثمِر في النفس

الرجاء في الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وكان لابد أن يَضُمَّ الموحد إلى ذلك خوفه من الله، وباجتماع الخوف والرجاء يصح سير العبد إلى الله جَلَّ وَعَلَا، والمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «كشف الشبهات» بعد أن ذكر نبذةً في فضل التوحيد وخطر الشرك قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فإذا عرفت ذلك أكسبك هذا أمرين:**

الأول: أن تفرح بفضل الله عَزَّوَجَلَّ عليك بالتوحيد؛ ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾[يونس:٥٨].

الثاني: أن يَعظُم خوفك من الشرك؛ فإنك إذا علمتَ أن الإنسان قد يخرج من الإسلام بكلمة يقولها، فإنَّ هذا يُورِث في النفس الخوف العظيم من الله عَزَّوَجَلَّ).

هذا كلامه أو نحوه.

والمقصود أنَّ على المسلم أن يجمع بين الخوف والرجاء، ومن ذلك هذا المقام العظيم؛ مقام التوحيد، يرجو فضل الله جَلَّ وَعَلَا بالتوحيد وتثبيته عليه، كما أنه يخاف من الله، ويخاف من الشرك وإثمه[٩٦].

---

(٩٦) أيضًا عَقْدُ هذا الباب فيه ردٌّ على بعض أهل البدع القائلين بأنَّ أهل التوحيد لا يقعون في الشرك وأنَّهم منزَّهُون من ذلك، وهذا يقوله كثير من القُبوريّين؛ يقولون: نحن أهل إسلام وأهل إيمان وأهل توحيد، ومهْما دعونا غير الله وتوجَّهْنا إلى القبور والأموات فإنَّنا لا نكون مشركين؛ لأنَّ أهل التوحيد لا يقع منهم الشرك. وهذا الباب الذي عقده المؤلّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيه أبلغ ردٍّ عليهم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**بابُ الخَوْفِ مِنَ الشِّرْكِ**)؛ الخوف أسرعُ المطايا إلى الله جَلَّ وَعَلَا ، وهو مع المحبة والرجاء محركات القلوب إلى علَّام الغيوب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهما أصول الأعمال القلبية التي تجب على كل مسلمٍ ومسلمة.

والخوف: هو خاصيةُ أهل التذكُّر، ﴿سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى﴾[الأعلى:١٠]، الخوف ثمرة من ثمرات الهداية؛ ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾[الأعراف:١٥٤]، وأهل العلم هم أهل الخوف والخشية؛ ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[فاطر:٢٨]. الخوف من الله ثمرته عظيمة؛ ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾[الرحمن:٤٦]، ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾[إبراهيم:١٤]، فالخوف من الله من أعظم الأعمال الصالحة، والمقام لا يتسع للتفصيل في ذلك.

وقد عقد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بابًا في منتصف الكتاب؛ خصَّه بالكلام عن الخوف، ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[آل عمران:١٧٥] ؛ عقد على هذه الآية بابًا نُفصِّل فيه -إن شاء الله- ما يتعلق بموضوع الخوف، لكن الذي يُهِمّنا هاهنا هو أنَّ عبادة الخوف لها متعلقات عدة، انتبه لهذا.

الشيء الذي ينبغي أن تخاف منه يرجع إلى ما يأتي:

❁ **أولًا: الخوف من الله** عَزَّوَجَلَّ؛ وذلك أنَّ من صفات الله ما يقتضي خوف العبد منه، فإن الله جَلَّ وَعَلَا ﴿عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾[آل عمران:٤]، بأسه شديد، وعذابه أليم، ولا يُرد بأسه عن القوم المجرمين، الله جَلَّ وَعَلَا هو القهار، والله جَلَّ وَعَلَا هو الجبار، والله عَزَّوَجَلَّ ينتقم ممن حادّه وحادّ رسله؛ هذه صفات تقتضي الخوف من الله

جَلَّوَعَلَا، ولذا قال سبحانه عن الملائكة الكرام عليهم سلام الله: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾[النحل:٥٠] ، قال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾[الحشر:١٦]. هذا هو المتعلَّق الأول وهو الأصل لمن عداه[٩٧].

❁ **ثانيًا: الخوف من عذاب الله**؛ عذاب الله عظيم، وهو يُورِث في النفس دون شك الخوف منه، ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾[إبراهيم:١٤]، ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾[الإسراء:٥٧]، ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾[الرحمن:٤٦]؛ **قال أهل التفسير الآية تحتمل أمرين:**

◉ **الأول**: ولمن خاف مقامه بين يدي الله جَلَّوَعَلَا يوم القيامة، فإنه مقامٌ مخوف، جدٌّ مخوف.

◉ **الثاني**: ولمن خاف مقام الله جَلَّوَعَلَا عليه: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾[الرعد:٣٣]، إذِ الله عَزَّوَجَلَّ هو الشهيد، وهو الرقيب، وهو العليم، وهو المحيط سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، فيخاف الإنسان من قيام الله جَلَّوَعَلَا عليه، فهو الذي يعلم السر وأخفى.

إذًا يخاف الإنسان من عذاب الله جَلَّوَعَلَا، والله جَلَّوَعَلَا يقول عن عذاب النار: ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾[الزمر:١٦].

---

(٩٧) والله ﷻ قد أثنى على عباده بخوفهم منه ﷻ، وبيَّن أن هذه عبادة لكلّ المؤمنين، قال الله سبحانه: ﴿إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة:٢٨]، وقال عن الملائكة: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ [النحل:٥٠].

❁ **ثالثًا: الخوف من عدم قبول الحسنة**؛ قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾[المؤمنون:٦٠]، فسرها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالرجل يصوم ويصلي ويتصدق، ويخشى ألا يُقْبَلَ منه.

❁ **رابعًا: الخوفُ من إثم السيئة**؛ وهذا موضوعٌ عظيم،(٩٨) والآثار فيه عن السلف كثيرة، حتى قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فيما خرَّج البخاري: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ قَاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ»، انظر إلى هذا الخوف من إثم السيئة، تخيل أنَّ جبلًا عظيمًا فوق رأسك يا عبد الله وأنت قاعدٌ تحته، وتتوقع أن يسقط عليك في أي لحظة، كيف سيكون الخوف من ذلك آخذًا بِلُبِّك؟ قال: « وَإِنَّ الْفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ مَرَّ عَلَى أَنْفِهِ فَقَالَ بِهِ هَكَذَا » ؛ حرَّك يده جهة أنفه، لا يعتبر ذلك شيئًا ولا يلتفت إليه.

❁ **خامسًا: الخوف من الوقوع في السيئة مستقبلاً**؛ الإنسان لا يدري ما الذي سيكون عليه مآله؟ وما الذي سيُختم عليه به؟(٩٩) ولذلك كان من أعظم ما

---

(٩٨) وذلكُم بأن يخشى أن يكون واقعًا فيها وهو لا يعلم، أو يخشى من عذابها إن لم يقبل الله عَزَّ وَجَلَّ توبته، ولذلك علَّم النبي ﷺ أبا بكر كما في حديث معْقِل بن يَسار فيما خرَّجه البخاري في «الأدب المفرد» هذا الدعاء: «اللهمَّ إنّي أعوذ بك أن أُشركَ بك شيئًا وأنا أعلم، وأستغفرك لِمَا لا أعلم».

(٩٩) فإنَّ من المقامات الإيمانية: أن يخاف المؤمن أن يقع في الذنوب مستقبلًا، وهذا كما في دعاء إبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ وسيمرّ معَنا البحث فيه: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم:٣٥].

خافه الصالحون الخاتمة، لا يدرون ما هو العمل الذي يعملونه مُستقبلاً وربما كانت الخاتمة عليه، وأعظم ما يكون من ذلك؛ الخوف من الوقوع في الكفر والشرك والنفاق -عياذًا بالله-. علَّق البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «صحيحه» عن ابن أبي مليكة التابعي الجليل رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «أدركت ثلاثين من أصحاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كلهم يخشى النفاق على نفسه».

الخوف من الوقوع في السيئة، هو محل الكلام في هذا الباب، وأعظم ذلك الخوف من الوقوع في الشرك(١٠٠)، وكيف لا يكون الإنسان خائفًا من ذلك! وهذا الذنب العظيم، أكبر جريمة وقعت على وجه الأرض، **أخطر الأشياء على الإطلاق الشرك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهو:**

۞ **أولًا**: أعظم الذنوب.

۞ **وثانيًا**: عقوبته أعظم العقوبات.

أمَّا كونه أعظم الذنوب، فيدل على هذا: ما خرَّج الشيخان في «صحيحيهما» عن ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «سألت النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ؟» قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَنْ تَجْعَلَ للهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ»، وهذا من الأمور

---

(١٠٠) وأن يرتدَّ الإنسان وأن ينتكس ويرجع على عَقِبيه، كان سفيان الثوري يبكي في مرض موته ويقول: «أخشى أن أُسلبَ الإيمان قبل الموت»، وهذا لا شكَّ أنه من تمام تحقيق التوحيد، ومن كمال تعظيم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فكلّما عَظُمَت الهداية وكلّما عَظُمَت التقوى كلّما عَظُمَ الخوف من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والخوف من الوقوع في مساخطه.

المتفق عليها، بل المعلومة من الدين بالضرورة؛ أن الشرك والكفر بالله أعظم الذنوب على الإطلاق.

وقلت لك إن هذا الذنب **أعظم الذنوب وذلك لأمور**:

◉ **أولًا: أنَّ حقيقته انتقاص الله** جَلَّوَعَلَا؛ المشرك منتقصٌ لله جَلَّوَعَلَا بشركه، وذلك لأنَّه تجرأ فصرف خالصَ حق الله لغيره، وذلك لا يكون لمن عَظَّم الله، ما كان هذا إلا لأنه انتقص مقام ربه جَلَّوَعَلَا في نفسه، وانتفى عنده تعظيمُه لله، وفي حديث الحارث الأشعري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ الذي خرجه الترمذي وأحمد بإسناد صحيح، وفيه: أنَّ الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات يعمل بهنَّ ويأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن، جاء في الحديث قال: «أَوَّلُهُنَّ أَنْ تَعْبُدُوا اللهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَإِنَّ مَثَلَ مَنْ أَشْرَكَ بِاللهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اشْتَرَى عَبْدًا مِنْ خَالِصِ مَالِهِ بِذَهَبٍ أَوْ وَرِقٍ فَقَالَ : هَذِهِ دَارِي وَهَذَا عَمَلِي فَاعْمَلْ وَأَدِّ إِلَيَّ ، فَكَانَ يَعْمَلُ وَيُؤَدِّي إِلَى غَيْرِ سَيِّدِهِ، فَأَيُّكُمْ يَرْضَى أَنْ يَكُونَ عَبْدُهُ كَذَلِكَ ؟» ؛ هذا المشرك انتقص الله جَلَّوَعَلَا، وانتقص مقامه العظيم لمَّا أشرك بالله جَلَّوَعَلَا.

◉ **وثانيًا: الشرك أعظم معاندةٍ لله** سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ المشرك معاندٌ لله، الله خلقه لعبادته وتوحيده، فأتى المشرك بضد ذلك، وهذا معاندةٌ لله جَلَّ وَعَلَا، ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالأِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات:٥٦]، فاستحق المشرك أن يكون بغيضًا إلى الله جلَّ وعلا.

◉ **ثالثًا: الشرك أظلم الظلم**؛ ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[لقمان:١٣]، وحُقَّ للمشرك أن يكون كذلك، كيف لا يكون كذلك والمشرك قد سوى غير الله بالله،

﴿تَاللهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[الشعراء:٩٧-٩٨]، ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾[الأنعام:١]، ﴿يَعْدِلُونَ﴾: يعني يسوون غير الله بالله.

يالله العجب! أي ظلم أعظم من هذا الظلم! أرأيت لو أن إنسانًا عمد إلى أذكى الناس وأنبل الناس وأرفع الناس، فشبَّه به أقذر الناس وأقبح الناس وأغبى الناس وأحمقهم، أكان هذا ظلمًا منه أم لا؟ لا شك أنه أعظم الظلم، أن تسوي هذا بذاك، فكيف تسوي المخلوق الضعيف الذليل الحقير من كل وجه بالله العظيم من كل وجه؟!

يا لله العجب! أي جرأة هذه! وأي ظلم هذا! أن تجعل هذا المُشْرَك به مع الله جَلَّوَعَلَا في رتبة واحدة، كما أنَّ الله يُعْبد هذا المخلوق يُعْبد؛ ﴿تَاللهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[الشعراء:٩٧-٩٨].

◉ **ثم هو رابعًا: ضلالٌ محض**؛ وذلك أنَّ الشرك ذنبٌ لا يدعو إليه داعٍ ولا تحث إليه شهوة، إنَّما هو ضلالٌ محض، وإنما هو فسادٌ في القلب خالص، كل الذنوب يُحرِك إليها شهوة؛ الزنا، والخمر، والسرقة، تجد أنَّ هناك أسبابًا تدعو إليها وتحث عليها، ويشتري الإنسان من وراء ذلك لذةً ما يظنها تنفعه وإن كانت في الحقيقة تضره، لكن المهم أن هناك سببٌ يدعوا إلى هذا الذنب.

أمَّا الشرك فلا سبب يدعو إليه، إنما هو فسادٌ وضلالٌ محض في قلب المشرك، فالله جَلَّوَعَلَا فطر النَّاس على التوحيد، وأقام الحجج العظيمة على ذلك، وجعل اللذة والطمأنينة والسكينة والنعيم في الدنيا في التوحيد، ثم جاء المـُشرِك

وتركَ كلَّ ذلك وأشرك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. إذًا هو ضلال محض فاستحق أن يكون أعظم الذنوب.

أما كون عقوبته أعظم العقوبات؛ فإنَّ ذلك يظهر من وجوه:

◉ **أولاً: أنَّ هذا الذنب لا يغفره الله البتة؛** من مات على الشرك، فإن الله جَلَّ وَعَلَا قد حكم، وهو الذي لا يُرد القول لديه أنَّه لا يغفر هذا الشرك أبداً، ﴿إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾[النساء:٤٨]، لو تاب الإنسان من الشرك فإن الله يغفر له ذلك، قال الله عَزَّوَجَلَّ في مخاطبة النَّصارى المشركين، ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[المائدة:٧٤]، وقال جَلَّ وَعَلَا في المشركين في آيات عدة بيَّن سبحانه أنَّ هؤلاء المشركين لو تابوا إلى الله جَلَّ وَعَلَا فإن الله تعالى يتوب عليهم، ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾[الأنفال:٣٨]،في آياتٍ كثيرة في هذا المعنى. أمَّا إذا مات الإنسان على الشرك، فإنه لا أمل له في المغفرة، ولا أمل له في الرحمة، ﴿أُوْلَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي﴾[العنكبوت:٢٣].

◉ **ثانيًا: أن الشرك بالله** جَلَّ وَعَلَا **مُحبِطٌ لجميع الأعمال الصالحة؛** من مات مشركًا بالله فلا ينفعه شيء قدَّمه في دنياه عند الله البتة، ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[الأنعام:٨٨]، ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾[الزمر:٦٥]، ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾[الفرقان:٢٣].

◉ **ثالثًا: أن الشرك يُحَرِّم دخول الجنة ويُخَلِّد في النار**-نسأل الله السلامة والعافية- ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ

مِنْ أَنصَارٍ﴾[المائدة:٧٢]. ذنبٌ هذا شأنه، أفلا يكون مَخُوفـًا يا عباد الله؟ أفلا يخاف الإنسان أنَّه إن وقع في الشرك وخُتِم عليه به -نسأل الله السلامة والعافية- يبوء بهذه الخسارة العظيمة؛ ألا يقتضي هذا خوفًا ووجلاً في القلوب؟!

أرأيت إنسانـًا عاش سبعين أو ثمانين أو تسعين سنة، قضاها كلها في طاعة الله في تلاوةٍ وذكرٍ، وقيامٍ وصيام، وصدقةٍ وزكاة؟ ثم قبل وفاته بلحظات أشرك بالله؛ سجد لغير الله، أو دعا غير الله، قال لمقبورٍ في قبره "يا سيدي فلان المدد" دعا غير الله، فمات على ذلك، ما مآله؟

نصوص الكتاب والسنة متضافرة مع إجماع الأمة أنّ هذا مآله إلى النار خالدًا مُخلدًا فيها، ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾[المائدة:٧٢]، أيُّ زمن تتخيله في ذهنك، فإنَّ هذا المشرك سيكون في النار، وما بعده أيضًا إلى ما لا نهاية.

أرأيت هذا الذنب كيف كانت عقوبته بهذا العِظَم! إذًا على الإنسان أن يخاف، أن يوجل قلبه، أن يلجأ إلى الله جَلَّوَعَلَا مخافة أن يقع في هذا الذنب العظيم.

واعلم -يا رعاك الله- أنه إن كان الإنسان صادقًا في الخوف من الشرك؛ فإن هذا يستدعي أن يكون عالمـًا بالشرك، أنت لا يمكن أن تخاف مما تجهل، لا تخاف خوفًا حقيقيًا ليس مُدَّعًى ولا مصطنعًا إلا من شيء تعلمه وتعرفه، وكلَّما كنت أكثر معرفةً به ازداد خوفك منه (١٠١).

---

(١٠١) والمقصود أنَّ من تمام الهداية: أن تعرف الشر كما تعرف الخير، عرفتَ التوحيد وفضله فاسْتَمْسك به، وعليك أيضًا أن تعرف الشر؛ تعرف الشرك وتتعلَّم أنواعه وأقسامه

ثمَّ أن تلجأَ إلى الله ﷻ وتضرع إليه أن يقيَك منه، وأن يجانب بينك وبينه، ويباعد بينك وبين هذا الجُرْم العظيم. ولذلك كان أهل الهداية حريصين على معرفة الشر كحرصهم على معرفة الخير حتى يكونون أبعد ما يكونون عنه. وفي «الصحيحين» عن حذيفةَ رضي الله عنه قال: « كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنِ الْخَيْرِ ، وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي»، وهذا من الفقْه العظيم.

وفي الأثر الذي يذكره كثير من أهل العلم -كشيخ الإسلام وابن القيم في مواضع من كُتُبهم- عن عمرَ رضي الله عنه: «إنَّما تُنقضُ عُرَى الإسلام عُروةً عُروة لمن نشأ في الإسلام ولم يعرف الجاهلية»، وهذا الأثر لا يُعرف له مخْرج، لكن قريب منه ما خرَّجه الحاكم في مستدركه، وقال الذهبي: (صحيح) أنَّه قال: «قَدْ عَلِمْتُ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ مَتَى تَهْلِكُ الْعَرَبُ؛ إِذَا وَلِي أَمْرَهُمْ مَنْ لَمْ يَصْحَبِ الرَّسُولَ ﷺ ، وَلَمْ يُعَالِجْ أَمْرَ الْجَاهِلِيَّةِ» .

وإمام الدعوة رحمه الله يقول كما في «الدُّرر السَّنية» في المجلّد الأول: «إنَّما يعرف التوحيد مَن عرف الجاهلية»؛ مَن عرف الشرّ، مَن عرف الشرك، مَن عرف حال الجاهلية هو الذي يعرف الحقَّ والتوحيد على وجهه، ولذلك انتقد على أحد طلبة العلم أنَّه كتب مرة في رسالة له فقال: «اعلْم لا عُلِّمْتَ مكروهًا» ، يقول الإمام: هذا غلط ليس بصحيح، بل الذي ينبغي أن يعرف الإنسان الشرّ والباطل حتى يجتنبه، حتى يكون أبعد عنه، لاسيَّما وأنَّه كلَّما كان الإنسان بالباطل أعرف ورُزِقَ الهداية كان أعظم بُغضًا لِمَا يخالفه، وكان أعظم جهادًا في دفْعه، وأعظم بذلًا في حرْبه؛ هذا كما كان حال أصحاب رسول الله ﷺ ؛ عرفوا الشرّ وعرفوا الخير، ولمَّا هداهم الله ﷻ إليه -يعني إلى الخير- فإنَّهم بذلوا الغالي والرخيص في نشره وفي دفْع ضدّه. فعلى المسلم الصادق الحريص على دينه وعلى توحيده أن يعتني بهذا الأمر، فيعرف الشرك تفصيلًا، ويلجأ إلى الله ﷻ أن يرزقه الخوف منه، وأن يرزقه المباعدة بينه وبينه.

إذًا إذا أردت أن تبلغ هذه الدرجة التي بلغها الصالحون وهي الخوف من الشرك، فعليك أولًا أن تعرف ما هو الشرك؟ فتعرف أفراده وتعرف أصوله وتعرف دقائقه، وبالتالي ينبعث في قلبك الخوف من هذا الشرك، والخوف من الوقوع فيه، والخوف من إثمه وعقابه. أما الذي هو سادِر يمشي في هذه الحياة ولا يفرِّق بين خير وشر، وتوحيد وشرك، ونورٍ وظلمة، فإنَّه ما أسرع أن يقع في العطب، يمشي في طريق ليس به بصيرًا مع كثرة المـُهلِكات فيه، وكيف لا يكون كذلك؟ والله جَلَّ وَعَلَا أخبرنا عن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ * رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ﴾[إبراهيم:٣٥-٣٦].

إذًا هو أمرٌ مَخُوف لكثرة من وقع وكثرة من زل، فلا تأمن على نفسك أن تكون كهؤلاء. ولا يكون ذلك إلا بالعلم، ثم العمل، ثم الخوف، ثم اللجوء إلى الله جَلَّ وَعَلَا؛ تبتهل إلى الله بصدق أن يُجَنِّبك هذا الذنب العظيم.

وبه تعلم خطأ مَن يقول: إنَّ الإنسان ينبغي عليه أن يعلم الخير فقط وما عليه بالباطل، ولا يهتمّ بغيره، يعرف الحقَّ ويعمل به؛ هذا لا يكفي، ستدخل عليه الدواخل. وإمام الدعوة رَحِمَهُ اللَّهُ في «كشْف الشُّبهات» لمَّا أورد حديث «ذات أنواط» ذكر فائدة نفيسةً من ذلك فقال ما معناه: وفي هذا الحديث فائدة من جهة أنَّ المسلم بل العالِم قد يقع في أنواعٍ من الشرك دون أن يعْلَمها؛ فيفيد التعلّم والتحرّز، وأنَّ قول الجُهَّال: التوحيد فهمْناه من أعظم الجهل ومكائد الشيطان.

أعود فأقول: الخائف من الشرك؛ هو الذي يعلم حقيقته وتفاصيله، وهذا كان أكمل الناس فيه أصحاب النبي ﷺ؛ كانوا أعلم بالحق، وكانوا أعلم بالباطل، ولذا كانوا أقْومَ بالحق، وأبعد عن الباطل.

والتوحيد لا يقوم ساقه إلا على هذين الأمرين:

◉ **الأمر الأول**: أن تعلم التوحيد فتلتزمه.

◉ **الأمر الثاني**: أن تعلم الشرك فتجتنبه.

أما إذا قصّرت في واحدٍ منهما، فإنه سيدخل عليك من الخلل بحسب ذلك، وما أحسن ما يُروى عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «إنما تُنقَض عُرى الإسلام عروة عروة، لمن نشأ في الإسلام ولم يعرف الجاهلية»، الموفَّقون السعداء هم الذين يعلمون الحق بتفاصيله، ثم يُوفقون إلى التزامه، وهم أيضًا الذين يعلمون الباطل بتفاصيله، ثم يُوفقون إلى اجتنابه.

والمؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ لما نبَّه هذا التنبيه المهم، على ضرورة أن يخاف الإنسان من الشرك، كأنه قال لقارئ كتابه: دونك هذا الكتاب؛ ستجد فيه تفاصيل التوحيد، وستجد فيه أيضا تفاصيل الشرك، حتى تكون على علمٍ بما ترجو، وحتى تكون على علمٍ بما تخاف، فإن عملتَ بذلك بلَّغك الله ما ترجوه وأمَّنك مما تخاف.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**باب الخوف من الشرك**)[١٠٢]؛ **الشرك**: تسوية غير الله بالله فيما هو من خصائصه.

وينقسم بحسب موضوعه إلى:

◉ شرك في الربوبية.

◉ وشرك في الألوهية.

◉ وشرك في الأسماء والصفات.

كما أنه ينقسم بحسب حكمه إلى:

◉ شركٍ أكبر.

◉ وشرك أصغر. وسيأتي الكلام -إن شاء الله- عن الشرك الأصغر فيما يأتي.

إذًا هذا هو الشرك، وله تفاصيل، وله أحكام، وله أصول، وله دقائق، والكتاب الذي بين أيدينا سيبين ذلك لك جملة -إن شاء الله-.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾** [النساء:٤٨]).

هذه الآية آيةٌ عظيمة وردت في سورة النساء مرتين: ﴿إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا

(١٠٢) يعني: باب وجوب الحذر من الشرك ومن الوقوع فيه وفي وسائله وذرائعه.

عَظِيمًا﴾[النساء:٤٨]، ﴿إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالًا بَعِيدًا﴾[النساء:١١٦].

هذه الآية قال أهل العلم: هي أحكمُ آية في الشرك، وأخوف آية في الشرك، وأرجى آية في التوحيد .

-**أمَّا كونها أحكمَ آية في الشرك**: فإنها بيَّنت حكمًا فصلًا في شأن الشرك وأهله، وهو أن الله لا يغفر هذا الذنب، وصاحبه محكومٌ عليه بأن الله جَلَّوَعَلَا لا يغفر له، وبالتالي فهو الذي خسر كل شيء عند الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

-**وهي أخوف آية في الشرك**: لأنها تدل على هذا الأمر العظيم؛ وهو أن الشرك ذنب لا يغفره الله، وإذا لم يغفر الله هذا الشرك كانت الخسارة التامة على العبد، نسأل الله السلامة والعافية.

- وفيها أمرٌ ثالث **وهي أنها أرجى آية للتوحيد**؛ هكذا ذَكَرَ طائفةٌ من أهل العلم، نصَّوا على أن هذه الآية أرجى آية في كتاب الله، والباب به خلاف والمقام مقام اجتهاد، ما هي أرجى أية في كتاب الله؟ والذي اختاره طائفة من أهل العلم أنها هذه الآية، وذلك أن الله جَلَّوَعَلَا أعطى فيها الرجاء لأهل التوحيد وإن كانوا عصاةً وذلك في قوله: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ (١٠٣) .

---

(١٠٣) لكن المقصود أنَّ هذه الآية في غير التائب، أمَّا التائب من الشرك فمغفورٌ له، وأمَّا التائب فيما دون الشرك فمغفورٌ له أيضًا، بخلاف الآية الأخرى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر:٥٣] ؛

هذه الآية دلت على الأمر القطعي وهو: أن الشرك الأكبر لا يغفره الله البتة إلا لمن تاب منه، وذلك أمر معلومٌ بالضرورة من دين الله جَلَّوَعَلَا ، والكلام إنَّما يتعلق بالشرك الأكبر. ويبقى البحث بعد ذلك في الشرك الأصغر. الشرك الأصغر مضى طرفٌ من الحديث عنه في الدرس السابق، وقلنا إنه في الجملة يرجع إلى أمرين وذكرناهما.

الشاهد أن من مباحث هذه الآية: **هل الشرك الأصغر داخل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾؟ أم أنه ليس من مشمولات هذه الآية؟** هذا موضعٌ اختلف فيه أهل العلم.

۞ من أهل العلم مَن قال: إنَّ الشرك لا يُغفر مطلقًا؛ لا كبيرًا ولا صغيرًا، واستدلوا على هذا بأمور:

أولًا: بهذه الآية؛ فإن الله تعالى قال فيها: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾، قالوا: (أن) و(الفعل المضارع) مؤولان بمصدر، يعني: إن الله لا يغفر إشراكًا به، و(إشراكًا) هنا نكرةٌ في سياق نفي فتعم كل شرك. فدل هذا إذًا على أن الشرك لا يُغفر منه شيءٌ البتة. واستدلوا على هذا أيضًا بالحديث الذي سيأتي بالمعنى قريبًا

فتلك في التائب، ففيها الجزْم بمغفرة الذنوب، وأمَّا هذه ففي غير التائب، فهو تحت مشيئة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وهذه الآية فيها جمْعٌ بين الردّ على الوعيدية، والردّ على غُلاة المرجئة؛ ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾ ردٌّ على الوَعيدية، ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾ ردٌّ على غُلاة المرجئة الذين يقولون: إنَّ أهل التوحيد لا يُعذَّبون، لا ، بل هو تحت مشيئة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إن شاء عذبه وإن شاء غفر له.

إن شاء الله، «ومن لقيه يُشرك به شيئًا دخل النار»، ولاحظ أنه قال هاهنا «شيئًا» وهذا نكرة في سياق الشرط فتعمُ كل شرك، فيدخل في ذلك الشرك الأصغر.

ومُرادُ القائلين بهذا القول - إن الشرك الأصغر لا يُغفر- أنَّ الشرك الأصغر لابد من دخوله في الموازنة، يعني لابد أن يكون ضمن السيئات التي تكون في كفة السيئات، لا يكون من السيئات التي تُغفر ويُعفى عنها وبالتالي فلا تدخل في الموازنة؛ لأن هذا هو معنى السيئة المغفورة.

ما معنى «غُفِر ذنبه»؟ غفر الله هذه السيئة؟ المعنى: أنها مُحيت فلا تدخل في الوزن، وأما الذنب الذي لا يُغفر فهو الذي يدخل في الوزن.

إذًا مُراد هؤلاء العلماء أنه لا يُغفر؛ بمعنى: أنه لابد من دخوله في الموازنة، وبالتالي فإنَّ الإنسان إذا كان معه حسنات عظيمة أكثر من السيئات التي فيها الشرك الأصغر فإنه ينجو، وإلا فإنه فلابد أن يعذب؛ هذا مرادهم رَحِمَهُمُ اللَّهُ.

وهذا القول اختاره شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ ونصَّ عليه صراحةً في كتابه «تفسير آيات أشكلت»، ومال إليه ميلًا في «ردِّه على البكري»، وفي كتابه «قاعدة في المحبة»، واختار هذا جماعةٌ من علماء التوحيد، فظاهرُ نقل وموافقة الشيخ سليمان في «التيسير»، وكذلك الشيخ عبد الرحمن في «الفتح»[١٠٤]، وكذلك غيرهم من أهل العلم يدل على أنهم يختارون هذا القول.

(١٠٤) والشيخ ابن قاسم.

❁ أمَّا **القول الثاني**: فهو أن الشرك الأصغر حكمه حكم الكبائر، وبالتالي فإنه لا يدخل في مشمولات هذه الآية، إنَّما تكون هذه الآية متعلقةً بالشرك الأكبر.

قال هؤلاء العلماء: نظرنا فوجدنا أنَّ الشرك الأصغر أشبهُ بالكبائر منه بالشرك الأكبر في أحكام الدنيا والآخرة.

-أما في الدنيا: فإنه لا يُخرِج من الملة.

-وأما في الآخرة: فإنه لا يخلَّد في النَّار، ولا يحبِطُ جميع الأعمال.

وبالتالي فإنه يكون حكمه في حكم الكبائر.

قالوا: وأما الاستدلال بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾، قالوا إنَّ هذه النصوص الواردة في التحذير من الشرك، إنما تتعلق بالشرك الأكبر، فهذه الآية من جنس قول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾[المائدة:٧٢]، ومن جنس قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[الأنعام:٨٨] ، في كل الآيات التي جاءت في الشرك، فكما تقولون في هذه الآيات قولوا في هذه الآية أيضًا.

وعلى كل حال المسألة مُختَلفٌ فيها بين أهل العلم، وهذا القول مال إليه ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما يظهر لك في كتابه «الداء والدواء»، وفي «إغاثة اللهفان»،

وكذلك اختاره جماعةٌ من أهل العلم، وممن انتصر له الشيخ عبد الرحمن ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٠٥) في علماء آخرين.

الشاهد أن المسألة خلافية، والمقام مَخُوفٌ، وعلى الإنسان أن يخاف ويحذر، ﴿إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾.

بقيَ أن يُقال: إن قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ ينبغي أن يُفهم في ضوء النصوص الأخرى؛ بمعنى: كون العاصي الذي وقع فيما دون الشرك تحت مشيئة الله جَلَّوَعَلَا، هذا إنما هو بالنظر إلى كل عاصٍ من حيث ذاته، أما بالنظر إلى مجموع العصاة فإن أهل السنة والجماعة مُجمِعون على أنه لابد من دخول طائفةٌ من العصاة النار، حتى تتحقق النصوص القطعية المتواترة بدخول بعض الموحدين في النار كأحاديث الشفاعة وغيرها.

إذًا ﴿إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾ هذا متعلقٌ بكل فردٍ فرد، أما مجموع العصاة فإنه لابد من دخول طائفةٍ منهم النار، ويكون دخولهم دخولًا مؤقتًا، وليس دخولًا مؤبدًا (١٠٦).

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَقَالَ الخَلِيل عليه السلام: ﴿واجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم:٣٥]).

---

(١٠٥) وله في هذه فتْوى مطوّلة ومحرَّرة.

(١٠٦) وهذا ما نطقت به النُّصوص المتواترة؛ كأحاديث الشفاعة، وأنَّه يخرج من النار مَن كان في قلْبه مثقال ذرّة أو أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان

الخليل إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ [١٠٧] يلجأ إلى الله جَلَّ وَعَلَا في هذه الآية العظيمة أن يُجَنِّبه وبَنيه عبادة الأصنام[١٠٨]. أتدري من الذي دعا هذا الدعاء؟! إنه إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومن إبراهيم؟

(١٠٧) الخليل إبراهيم عليه السلام، وهو خليل الله ﴿وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء:١٢٥]، ونبينا صلى الله عليه وسلم أيضًا خليلُ الله: « إِنَّ اللهَ تَعَالَى قَدِ اتَّخَذَنِي خَلِيلاً كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً »، ولا يُعلمُ في النُّصوص تعلّق هذه الصفة إلا بهذين النبيّين الكريمين عليهما الصلاة والسلام، وهذا يدل على عِظَمِ مكانتهما ومنزلتهما.

والخُلَّة: هي خالص المحبَّة، فهي درجة أرفع من مجرّد المحبة، وهي صفة اختيارية ثابتة لله عَزَّ وَجَلَّ، والله عَزَّ وَجَلَّ قد دلَّت النُّصوص على أنه يتصف بالمحبة، ويتصف بالخُلَّة، ويتصف بالوُدّ ، فهو الوَدُود سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. (وَدُود) الصحيح أنَّها فَعِيلٌ بمعنى فاعل، وفَعيلٌ بمعنى مفعول، ودُود بمعنى: يَودّ، ووَدُود بمعنى: يُودّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .

(١٠٨) والأصنام كما أسند الطبري عن مجاهد: ما كان منحوتًا على صورة بشر. وغير الأصنام: الأوثان؛ قال: «ما كان منحوتًا على غير صورة بشر» ، وهذا ذكره كثيرٌ من أهل العلم.

-أن الصنم: ما كان مُصورًا على ما فيه حياة إنسان أو حيوان هذا يُسمَّى «صنم».

-أمَّا ما لم يكن مُصوراً؛ كالشجر والحجر، هذا يسمَّى «وثنًا».

-وإن كان قد يُطلق على الصنم وثنٌ، كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ عن إبراهيمَ وقومه كانوا عبدة أصنام: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثَانًا﴾ [العنكبوت:١٧]، وهذا يقوّي القول الثاني: أنَّ الأوثان أعمُّ من الأصنام؛ فكلّ صنمٍ وثنٌ، وليس كل وثنٍ صنما.

إبراهيم خليل الله، ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾[النجم:٣٧]، إبراهيم الذي ﴿جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[الصافات:٨٤]، إبراهيم الذي قال له ربه جَلَّوَعَلَا: ﴿أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[البقرة:١٣١]، إبراهيم هو الذي قال الله فيه: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾[البقرة:١٣٠]، إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الذي كَسَّر الأصنام، والذي طرح ابنه على الأرض وتلَّه للجبين ليذبحه بيده استجابةً لأمر الله، إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الذي أنكر على المشركين وهجرهم في الله، وهاجر في سبيل الله، إبراهيم إمام الموحدين وأبو الأنبياء صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومع ذلك يخاف على نفسه من الشرك! فماذا يقول من سواه؟!

وصدَق التابعي الجليل إبراهيم التيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما خرج الطبري في «تفسيره» قال: «ومن يأمن البلاء بعد خليل الله إبراهيم!» من يأمن هذا البلاء؟ وقال كلمة مثلها سفيان الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما عند ابن عبد البر قال: «ومن يأمن البلاء بعد إبراهيم!» ؛ إذا كان إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يخشى ويخاف من الوقوع في الشرك بالله جَلَّوَعَلَا، فكيف بغيره من الناس؟.

إذًا هذه الآية من أعظم ما يدل على أن الخوف من الشرك من المقامات الرفيعة لأهل التوحيد، وكلما كان الإنسان أعظم توحيدًا كان أخوف من الوقوع في الشرك.

وانظر -يا رعاك الله- إلى حرصه على بنيه، الحرص على أهم قضية وهي التوحيد، وأن يَسْلَمَوا من الشرك، وهكذا ينبغي لمن كان خائفًا على أبنائه

حريصًا على مصلحتهم أن يسعى في إنقاذهم من عذاب الله، قال: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ﴾ ؛ حريصٌ على أبنائه أن يسلموا من هذا البلاء، وليس كحال كثيرٍ من الناس، حرصهم على أبنائهم لا يتجاوز أمور الدنيا! حريصٌ على أن يأكلوا ويشربوا ويلبسوا، وأن يكون في جيوبهم المال، وأن يدرُسوا وأن يتعلموا، وهذا حسن لا بأس به، ولكن الأهم إنما هو أن يكونوا مستقيمين على طاعة الله، تجد الأب يغضب أنَّ ابنه تأخر عن المدرسة، لكنه لا يحرك ساكنًا إذا تأخر عن الصلاة، بل ربما لا يسأل صلى أو لم يصلِّ؟، لكن المهم أن يذهب إلى المدرسة ولا يغيب! تأمل كثيرًا في قوله تعالى: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾.

تأمل في قوله: ﴿وَاجْنُبْنِي﴾؛ إذًا عندنا تجنيب وعندنا اجتناب؛ أمَّا التجنيب: فهو فعل الله، وأما الاجتناب: فهو فعل العبد، ولا يكون الثاني إلا إذا كان الأول[١٠٩].

إذًا القضية قضية توفيق وقضية تفضُّلٍ ومنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والله لا تجتنب الشرك إلا إذا جنَّبك الله ذلك؛ فاحذر من أن تغتر أن تقول "أنا من الموحدين، أنا عندي شهادة علمية، أنا عندي درجة وظيفية، أنا ابن فلان، أنا ذو نسب، أنا ذو علم"، لا يا عبد الله انتبه! القضية ليست بالذكاء، وليست بالجاه، وليست

---

(١٠٩) لا يجتنب الشرك إلا من جنَّبه الله ذلك، فلا يغتر الإنسان بنفسه ولا بإيمانه ولا بتوحيده، بلْ يكون صادق الخوف والوَجَل واللَّجأ إلى الله ﷻ أن يجنَّبه عبادة الأصنام.

بالدراسة، القضية إنما هي بتجنيب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هو الذي يُجنِّبك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ إذًا الجأ إلى الله وأصْدُق مع الله حتى يوفقك إلى أن تجتنب الشرك.

قال: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾، ثم علل ذلك عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ﴾؛ يذكر عَلَيْهِ السَّلَامُ سبب الخوف من الشرك؛ وهو أنه شيء خطير لأنه منتشر، وكلما كان الداءُ منتشرًا كلما كان أخطر؟ لأنَّ الإصابة به الاحتمال بها أكبر، احتمال أن تُصاب لأنَّ الأمر خطير ومنتشر.

الناس اليوم إذا وقع وباءٌ في الأرض أصابهم المقيم المقعِد، استُنفِرت الجهود والطاقات، وتبذل الدول والأفراد والمنظمات الغالي والرخيص في سبيل دفع هذا الوباء، أليس كذلك؟ يعني انفلونزا الطيور، ولا انفلونزا الخنازير، ولا إيبولا، ولا هذا الوباء الذي ظهر قريبا حمى زيكا. تجد أن الناس ترتعد فرائصها خوفًا من نزول هذا الوباء بساحتها، أين هذه الأوبئة من أعظم وباء، وهو الشرك بالله جَلَّ وَعَلَا؟! الحرص على السلامة من هذه الأوبئة الدنيوية حسن، ولكن الحرص على السلامة من الوباء الأعظم أحسن وأولى وأوجب.

إذًا على الإنسان أن يحذر، وإذا كان الوقوع في الضلال -ضلال الشرك- كثيرًا قديمًا فاستحق أن يُخاف، فإنه لَعَمْرِي في هذا الزمان ينبغي أن يُخاف أكثر، وذلك أن الشُبَه التي تُحسِّن الشرك وتقرّبه إلى النفوس، أضحت أقرب من السابق بكثير، تُقذف على الناس من الفضاء، أو تصطادهم من خلال الشبكة؛ مواقع شبكية، وقنواتٌ فضائية، وكتبٌ، ومجلاتٌ، وإذاعات، ووسائل تواصل،

وحـدِّث ولا حـرج مـن سلسـلةٍ طويلـة تبـث وتقـذف الشـبه ،نسـأل الله السـلامة والعافية.

المقام والله في هذا الزمان عظيم، وصـدق النبـي ﷺ حينمـا قـال: «لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَعْبُدَ قَبَائِلُ مِنْ أُمَّتِي الأَوْثَـانَ»، والله إن هـذا كـلام صـادق قالـه رسول الله حقًا ﷺ، أمرٌ واقع وأضحى مشاهد بالعيان، نسأل الله السلامة والعافية.

صدق النبي ﷺ حينمـا قـال كمـا خـرج الإمـام مسـلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «بَـادِرُوا بِالأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ؛ يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا» إنـا لله وإنـا إليه راجعون «أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَـافِرًا»، مقـام خطيـر في خـلال سـاعات! خلال ساعات يمكن تأتي شبه تُقذف في النفس يقرأها في تويتر، أو في فيس بـوك، أو تصـل عـن طريـق الـواتس أب، أو يطَّلـع علـى حلقـة في برنـامج في الفضـائيات فتفعـل في قلبـه الأفاعيـل، وهـذا واللهِ نشـاهده يـا إخـواني مشـاهدة بالعيـان، ومـن يعرف الواقع يعرف شيئًا كثيرًا من ذلك وحرِّك ترَى.

المقام مقام مخوف جدًا، ينبغي على الإنسان أن يبتهل إلى الله بصدق، أن يثبِّتـه علـى الـدين والتوحيـد، وأن يجنِّبـه عبـادة الأصـنام، وأن يخـاف ويحـذر؛ إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يخاف من الشرك، الصحابة يخافون علـى أنفسـهم النفـاق الأكـبر، ومن الناس من يضع رِجلًا على رجل ويقول "هذا شيء بعيدٌ عني" ، سبحان الله العظيم!

في كتاب «كشف الشبهات» ذكر إمام التوحيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ فائدة لطيفة، قال إمام الدعوة رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند حديث ذات أنواط: «وفي هذا الحديث: أن المسلم بل العالِم قد يقع في أنواع من الشرك، وهو لا يعلمها، فيفيد التعلم والتحرز، وأنَّ قول الجُهَّال التوحيد فهمناه من أعظم الجهل ومكائد الشيطان».

نعم بعض الناس يقول: إيش التوحيد؟ التوحيد كله كلمتين، عشر دقائق تعرف التوحيد وينتهي الأمر، وبالتالي فلا حاجة إلى تكرار الكلام في هذه القضية.

ولذلك تجد هؤلاء باردين في هذا الموضوع، كأن الأمر ليس فيه خطورة، كأن الأمر لا يعنيه، مع أن المقام مقام عظيم جدًا والله، لأن الإنسان لو لقي الله بأي ذنب فهو على سبيل نجاة، والله إنك لو لقيت الله جَلَّ وَعَلَا ولم تقع في هذا الوباء العظيم فأنت ناجٍ قطعًا بتوفيق الله ورحمته، لأنَّ هذا وعد الله؛ «لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لاَ تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً»، وإن أصاب الإنسان ما أصابه قبل ذلك إن لم يعفُ الله عنه فمآله إلى الجنة، ومآله إلى السعادة، ومآله إلى رحمة الله جَلَّ وَعَلَا ، لكنَّ المصيبة كلَّ المصيبة أن يموت الإنسان على هذا الشرك، نسأل الله السلامة والعافية.

والعجيب أن شُبَه الشرك خطيرة، الشرك أوضح الأمور وأجلاها عند العالِم به، لكنه خفيٌّ ودقيق عند الجاهل الذي لا يبالي؛ ولذلك كم من الناس يصبح ويمسي وهو يصلي ويصوم ويردد «لا إله إلا الله»، ربما تكون له سبحة

فيها ألف حبة يسبِّح "لا إله إلا الله.. لا إله إلا الله.."، لكن «لا إله إلا الله» لا تُجاوز لسانه! يقع في ضدها في كل وقت وفي كل حين، ودونك هذه المشاهد، ودونك هذه القبور، ودونك هذه الأضرحة، ودونك هذه القصائد، ودونك أشياءُ كثيرة تدلك على أنَّ هذا الشرك واقعٌ ويقع من أناس يظنون أنفسهم على خير. فحذارِ يا عبد الله احذر! والجأ إلى الله بصدق.

﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ * رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ يعني على ملتي، وملته هي التي أمرنا الله بإتباعها، ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾[النحل:١٢٣]، ﴿قُلْ صَدَقَ اللهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾[آل عمران:٩٥]، ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾[البقرة:١٣٠]، ثم قال جَلَّوَعَلَا عنه: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

هنا بحث عند أهل العلم؛ قوله: ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قد يحصل إشكالٌ في فهمه من جهة أنَّه قد يُشعِر بأنَّ الشركَ قد يُغفر؛ ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، كأنه يدعو الله بأن يغفر له هذا الشرك، وقد علِمنا أن الله لا يغفر أن يُشرك به.

واختلف العلماء رَحِمَهُمُٱللَّهُ في توجيه هذه الآية:

❁ **منهم من قال:** إن مغفرة الشرك كانت واقعةً في الأمم السابقة. ولكنَّ هذا لا شك أنه غلط؛ فالشرك لا يُغفر في القديم ولا في الحديث، وكيف يُقال إنه

لا يُغفر لهذه الأمة التي هي خير الأمم وأفضلها عند الله، ويغفر لمن هو دونها! فهذا لا يمكن أن يقال به.

❁ **وقال بعض أهل العلم**: إنه قال هذا الدعاء عَلَيْهِ السَّلَامُ قبل أن يعلم أن الشرك لا يُغفر. وهذا أيضًا فيه من البُعد ما فيه.

❁ **التوجيه الثالث**: قالوا إن قوله ﴿**وَمَنْ عَصَانِي**﴾ فيما دون الشرك، ﴿**فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾.

❁ **والتوجيه الرابع**: وهو ﴿**وَمَنْ عَصَانِي**﴾ فأشرك ثم تاب ﴿**فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾.

❁ **و قريبٌ منه التوجيه الخامس**: ﴿**وَمَنْ عَصَانِي**﴾ فأشرك فارحمه يا الله؛ بأن توفقه للتوحيد، ثم اغفر له شركه، ﴿**فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾.

ويبقى أخيرًا سؤال؛ وهو: هل استُجيب لإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾؟

- أما في حقه: فنعم قطعًا.
- وأما في بنيه فهل استجيب فيهم هذا الدعاء أم لا؟

الذي يظهر والله أعلم أنه إن كان المراد ببنيه يعني من صلبه؛ فنعم، ما أشركوا بالله، بل جعلهم الله أنبياء ومرسلين.

أما إن كان المراد بنيه وبنيهم -يعني ذريته القريبين فما بعد- فاستجيب له في بعض، ولم يُستجب له في بعض[١١٠]، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا﴾ هو وإسحاق ﴿مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾[الصافات:١١٣]، والله جَلَّوَعَلَا أعلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وَفِي الحَدِيثِ: «أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ: الشِّرْكُ الأَصْغَرُ»، فَسُئِلَ عَنْهُ؟، فَقَالَ: «الرِّيَاءُ»**).

هذا حديث محمود بن لبيد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وهو حديثٌ حسن، حسَّنه الحافظ ابن حجر[١١١]، وجوَّد إسناده المنذري وغيره، وخرَّجه الإمام أحمد وغيره. وفيه: أنَّ الشرك الأصغر أخوف ما خافه النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ على أصحابه.

وإذا كان الشرك الأصغر مخوفًا على الصحابة الذين هم أعظم الناس إيمانًا وتوحيدًا، فإنَّ من بعدهم يخاف عليهم من الشرك الأصغر والأكبر؛ لأنَّهم لا يقارنون بالصحابة في الإيمان والتوحيد، ولأجل هذا أورد المؤلف رَحِمَهُٱللَّهُ هذا الحديث، الصحابةُ يُخاف عليهم الشركُ الأصغر، ونحن يُخاف علينا الأصغر والأكبر أيضًا.

ويشهد لهذا الحديث ما خرَّج الإمام أحمد وابن ماجه وغيرهما بإسناد لا بأس به، أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال لأصحابه: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنْ

---

(١١٠) فلا شكَّ أن الشرك قد وقع في الأمّة، والنبي ﷺ إنما بُعِثَ إلى العرب وهم من ذرية إسماعيل بن إبراهيمَ وهم على أعظم ما يكونون عبادةً للأصنام.

(١١١) في «بلوغ المرام».

الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ ؟» -المسيح الدجال أكبر فتنة منذ خلق الله آدم وإلى قيام الساعة، ومع ذلك هذا الأمر أخوف عند النبي صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ على الصحابة من المسيح الدجال- قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «الشِّرْكُ الْخَفِيُّ؛ أَنْ يَقُومَ الرَّجُلُ يُصَلِّي فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهُ لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ».

إذًا الرياء وصفه النبي صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بالشرك الأصغر، ووصفه بالشرك الخفي، ووصفه أيضا بشرك السرائر؛ وهذا يدلك على خطورته حتى خافه النبي صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ على الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ.

ولا شك أن الرياء أمر مخوف لقربه إلى النفوس، ولأن له ما يزيِّنه، ولأن له دقائق قد يغفل الإنسان عنها؛ النفوس مجبولة على حب المدح والثناء والرِفعة في أعين الناس، وهذا من الأمور التي يجب أن يجاهد الإنسان فيها نفسه[١١٢] .

---

(١١٢) وسبب ذلك: قُرْبه من ابن آدم، فالداعي إلى الشرك الأصغر عظيمٌ جدًّا في النفس؛ وذلكُم أنَّ النفوس فيها حبٌّ للمنزلة في قلوب الخلق، وفيها طلبٌ للرفعة عندهم، ولذلك يكثر تطلُّب الإنسان لتحسين صورته عند الناس رغبةً في حُسْن الثناء عليه، وهذا مَخُوفٌ حتى على الصالحين، بلْ حتى على أصحاب رسول الله ﷺ كان هذا مَخُوفًا عند رسول الله ﷺ، وهذا أمرٌ لا يكاد يسْلم منه أحد كما قال أهل العلم، أمرٌ في غاية الخُطورة وغاية ما يكون من الخفاء.

وعلى كل حال موضوع الرياء عقد المؤلف له بابًا خاصًا، ونؤجل كلام فيه إلى ذاك الوقت، لكن الذي يهمني هنا: أن تعرف الفروق بين الشرك الأكبر والشرك الأصغر.

الشرك الأكبر والأصغر؛ هذان الشركان بينهما فروق:

◉ **أولاً**: الشرك الأكبر محبطٌ لجميع الأعمال، وأما الشرك الأصغر كالرياء فمحبطٌ لما قارنه فقط من الأعمال.

◉ **ثانيا**: أن الشرك الأكبر يُخلّد صاحبه في النار -نسأل الله السلامة والعافية- والشرك الأصغر ليس كذلك.

◉ **ثالثًا**: أن الشرك الأكبر مُخرِجٌ من الملة، وأما الشرك الأصغر فلا يُخرج من الملة.

◉ **الأمر الرابع** مبني على الخلاف في هل يغفر الشرك الأصغر أم لا؟ فإذا قلنا إنه يغفر -أي أن حكمه كالكبائر- فيكون فرقًا رابعا، وإن قلنا إنه لا يغفر، فلا يكون هناك فرق بينه وبين الأكبر في هذا المقام، والله أعلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَدْعُو للهِ نِدًّا دَخَلَ النَّارَ»؛ رواه البخاري**).

حديث ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ خرجه الإمام البخاري في «صحيحه»، وفيه بَيَّنَ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّ من مات وهو يدعو من دون الله ندًا[113] -يعني مثيلًا وشريكًا

(١١٣) النِّدُّ كما قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «إغاثة اللَّهْفان»: المثْل والشِّبْه.

يدعوه كما يدعو الله- فإنَّه يدخل النار، ودخوله كما دلت الأدلة عليه دخولٌ مُؤبد، لا شك في ذلك ولا ريب.

وتتمة هذا الحديث، هي أن قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وأنا أقول من مات وهو لا يدعو من دون الله ندا دخل الجنة».

فابشر يا أيها الموحد، واحذر يا أيها الموحد؛ إن مت وأنت لا تدعو من دون الله أحدا، فأبشر بالخير؛ أنت موعودٌ بجنة أرحم الراحمين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، واحذر فإنك إن وقعت في الشرك -وأعظم الشرك دعاء غير الله- فاعلم أنَّ هذا يُخلِد صاحبه في النار، -نسأل الله السلامة والعافية- ، إذًا هذا مما يقتضي الخوف.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ : (**ولمسلم عن جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ لَقِيَ اللهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ»**) .

الشاهد من الحديث هو في قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَمَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ**» وهذا يؤيد ويؤكد الحديث السابق، ويؤيد ما سبق من الكلام، من أن الشرك مقتضٍ لأعظم عقوبة، وبالتالي كان حريًّا أن يُخاف من أهل التوحيد(١١٤).

---

(١١٤) وهذا الحديث تشهد له نصوص كثيرة؛ كحديث أبي ذرّ المتَّفق عليه، من قوله ﷺ أنَّ جبريل قال له: «بَشِّرْ أُمَّتَكَ؛ أَنَّهُ مَنْ مَاتَ لاَ يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ، قُلْتُ يَا جِبْرِيلُ وَإِنْ سَرَقَ وَإِنْ زَنَى؟ قَالَ نَعَمْ ، قَالَ : قُلْتُ وَإِنْ سَرَقَ وَإِنْ زَنَى؟ قَالَ نَعَمْ وَإِنْ شَرِبَ الْخَمْرَ»، هذه رواية في الصحيح.

أما شطره الأول فإن المراد: أن من مات لا يشرك بالله شيئًا مع إتيانه بالتوحيد، لأننا قلنا إنَّ عدم الشرك يستدعي وجود التوحيد، يعني: لا يشرك بالله شيئًا ويُوحِّد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وقد مر بنا توضيح ما المعنى الصواب في مثل هذا النص، مر بنا في الأدلة التي أوردها المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ لما تكلم عن فضل التوحيد؛ وقلنا إن من مات موحدًا لا يشرك بالله شيئًا فهو من أهل الجنة قطعًا برحمة الله سبحانه، ولكن قد يكون دخوله لها دخولًا أوليًا، وقد يكون دخولًا مآليًا بحسب مشيئة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.



وجاء أيضًا في «الصحيحين» عن ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّه قال: قال ﷺ: «مَن مات وهو يشرك بالله شيئًا دخل النار»، وقلتُ أنا -هذا من كلام ابن مسعود- «ومَن مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنَّة».

٥- بَابُ
الدُّعَاءِ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللّه

وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمَّا بَعَثَ مُعَاذًا إِلَى اليَمَنِ قَالَ لَهُ: «إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ شَهَادَةُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ -وَفِي رِوَايَةٍ: إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اللهَ- فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ؛ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ، فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ ٱفْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ، فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ». أَخْرَجَاهُ.

وَلَهُمَا عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ يَوْمَ خَيْبَرَ: «لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ، يَفْتَحُ اللهُ عَلَى يَدَيْهِ»، فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ لَيْلَتَهُمْ، أَيُّهُمْ يُعْطَاهَا، فَلَمَّا أَصْبَحُوا غَدَوْا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، كُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَاهَا، فَقَالَ: «أَيْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ؟»، فَقِيلَ: هُوَ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ، فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ فَأُتِيَ بِهِ، فَبَصَقَ فِي عَيْنَيْهِ وَدَعَا لَهُ؛ فَبَرَأَ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ، فَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ، فَقَالَ: «ٱنْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلَامِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللهِ تَعَالَى فِيهِ، فَوَاللهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ». «يَدُوكُونَ» أَيْ: يَخُوضُونَ.

❁ ❁ ❁ ❁

قال الشارح وفقه الله:

هذا بابٌ عظيمٌ عَقَدَه المُؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ لشحذِ الهمة لأجل الدعوة إلى التوحيد، ووضع هذا الباب في هذا الموضع من حِذْقِ الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ فإنَّه بعد أن بيَّن ما هو التوحيد؟ وما فضله؟ وما فضل تحقيقه؟ وأهميةَ الخوف من ضده، استعدَّت النُّفوس للقيام بالواجب عليها تجاه هذا التوحيد، وهو الدعوة إليه(١١٥)، فإنَّ الدعوة إلى التوحيد من آثار تحقيقه ومن شُكْرِ هذه النعمة.

الدعوة إلى التوحيد تجمعُ بين كونها أثرًا من آثار تحقيق التوحيد، وبين كونها بعضَ شكرِ الله جَلَّ وَعَلَا على هذه النِّعمة العظيمة.

❁ **أمَّا كون تحقيق التوحيد مُؤثرًا في النَّشاط والهمة في الدعوة إليه** فوجهه: أنَّ تحقيق التوحيد يقتضي اعتقادَ المسلم أنَّ الله جَلَّ وَعَلَا أهلٌ أن يُوحَّد فلا يُشرك به، وأن يُطاع فلا يُعصى، وأن يُذكَر فلا يُنسى، وأن يُشكر فلا يُكفر، ولأجل هذا فإنَّه يَعْظُمُ حق الله عَزَّوَجَلَّ في نفسه، ويفتدي بنفسه وماله وكلِّ ما يملك في سبيل أن يُوحد الله جَلَّ وَعَلَا في أرضه، وما أحسن ما قال زهير بن نُعيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ وخرَّج ذلك صاحبُ الحلية، قال: (وددتُ أن لحمي قُرِّض بالمقاريض، وأن الناس أطاعوا الله)، ليس عنده مانع أن تُقطَّعَ أجزاءه وأوصاله إذا كان في ذلك أن يطيع الناس

---

(١١٥) هذا التبويب بهذا الترتيب من أحسن ما يكون، فإنَّ من كمال تحقيق التوحيد أن يسعى الإنسان في الدعوة إليه، فإنَّه عرف عظمته وأهميته ووجوب بلاغه؛ لذلك فإنَّه ينشط في الدعوة إليه.

ربهم جَلَّوَعَلَا ولا يعصوه. هذه هي النُّفوس التي عرفت قدر التوحيد وحققته وعظّمت الله حق تعظيمه.

۞ ثم إنَّ الدعوة إلى التوحيد أيضًا من شكر الله جَلَّوَعَلَا على هذه النعمة ، وأيُّ نعمةٍ أعظم من نعمة التوحيد، الله جَلَّوَعَلَا يقول: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[الضحى:١١]، نعمةٌ عظيمة يجب أن يُحدِّث بها الإنسان، قال مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذه الآية: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾أي بالنبوة، يعني: بلِّغ ما أُرسلت به يا نبينا، فإنَّ هذا أداء نعمة الله جَلَّوَعَلَا عليك، والخطاب موجهٌ للنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، والحكم يعمُّه وأمتَه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ويقول جَلَّوَعَلَا: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾[التكاثر:٨]، وهذا التوحيد أعظم نعيم.

إذًا من كان مُوحِّدًا حقًا وصدقًا، فإنَّ قلبه مُعظِّم لله جَلَّوَعَلَا ونفسه مليئةٌ بالغَيْرة على دين الله جَلَّوَعَلَا وحقه أن يُنْتَهك، ولذا فإنَّه يسعى السعي الحثيث، في أن يفشو الخير وينتشر التوحيد ويندحر ضده، ألا وهو الشرك به وكذلك معصيته سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

الدعوة إلى الله من أعظم الواجبات، وتكرر في كتاب الله الأمر بها: ﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ﴾[القصص:٨٧]، ولاشك أنَّ الدعوة إلى الله جَلَّوَعَلَا فرض كفاية، يجب أن يكون في الأمة من ينهض بهذا الواجب، وأمَّا إذا قصَّر الجميع فالكل آثم، ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في «مجموع الفتاوى»: «وأعظم ما عُبِدَ الله به نصيحةُ خلقه». وشاهد هذا في سنَّة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قوله كما في «الصحيح»:

«الدِّينُ النَّصِيحَة»، فجمع النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الدين في هذه الكلمة وهي «النصيحة».

وإذا كانت الدعوة إلى الله جَلَّوَعَلَا في كل أبواب الخير شيئًا مطلوبًا ومأمورًا به، فلاشك أنها إذا تعلقت بأعظمِ الأمور وهو التوحيد كانت أهم وأوجب، ولذا كانت الدعوة إلى التوحيد أصلَ وأساسَ ولبَّ دعوات الأنبياء جميعًا عليهم الصلاة والسلام، فأعظم ما دعا الأنبياء إليه هو التوحيد، وأكبر ما دعا إليه الأنبياء هو التوحيد، وأول ما دعا إليه الأنبياء هو التوحيد، فالتوحيد هو الأول، التوحيد هو الأوْلى، التوحيد هو الأكبر، التوحيد هو الأعظم: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾[الأنبياء:٢٥]، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[النحل:٣٦].

ونبينا محمدٌ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أعظمُ الأنبياء والمرسلين قيامًا بهذا الواجب، ولذا كانت سبيله الدعوة إلى الله على بصيرة، ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾[يوسف:١٠٨] ؛ فمن كان صادقًا في اتباع النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فعليه أن ينحو منحاه، وأن ينهج سبيله، وأن يَجِدَّ فيما كان مُجِدًّا فيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وهو الدعوة إلى الله، لا سيما الدعوة إلى التوحيد، ولا سيما التحذير من ضده.

وإذا كانت الدعوة إلى التوحيد أمرًا متحتمًا لا خيار فيه في كل زمان وفي كل مكان، فإنها في هذا الزمان الذي نعيش فيه وهو آخر الزمان وهو زمان الغربة، لا

شك أنَّه في هذا الزمان آكد، ولا شك أنَّه في هذا الزمان أوجب؛ وذلك لعظيم الخلل الواقع في عالم المسلمين اليوم مع الأسف الشديد.

الحقُّ أنَّ الانحرافات العقدية قد ضربت بجذورها في عالم المسلمين اليوم مع الأسف الشديد، على أنَّ الدعوة إلى التوحيد لا ينبغي أن تكون مقصورةً في حقِّ من كان عنده خلل في التوحيد، بل حتى الموحدون ينبغي أن يُدْعَوْا إلى التوحيد، وأن يُذَكَّروا بالتوحيد ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ﴾[النساء:١٣٦]، وذلك لأنه من أسباب الثبات على التوحيد الدعوة إليه والتذكير به، وهذا مسلك النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ففي الصحيحين من حديث عبادة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: كنا مع النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مجلس فقال: «بايعوني على ألا تشركوا بالله شيئًا»، سبحان الله! أصحاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعظم الناس توحيدًا، وأقْوَمُهم بهذا الواجب، وأبعد النَّاس عن الشرك، ومع ذلك يبايعهم النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أن يوحِّدوا الله، وعلى أن لا يشركوا به شيئًا!

وفي «صحيح مسلم» من حديث أوس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «كنا مع النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تسعة أو ثمانية أو سبعة فقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ألا تبايعون رسول الله؟»، وكانوا حدثاء عهدٍ ببيعة، فقالوا: قد بايعناك يا رسول الله، فكرر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكرروا جوابهم، حتى بسطوا أيديهم وقالوا: قد بايعناك يا رسول الله، فعلى أي شيء نبايعك؟ قال: «على أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا وتقيموا الصلاة وتؤتوا الزكاة ...» إلى آخر الحديث.

الشاهد: أن الدعوة إلى التوحيد والنصيحة به والتذكير به ليست مقصورة على من كان عنده خلل في التوحيد، فكيف وكثير ممن ينتسب إلى الإسلام في بقاع شتى قد وقعوا في كثير من القوادح، بل النواقض في هذا التوحيد!! ومن كان بصيرًا بحال الناس، علِم صدق ما أقول.

كم هؤلاء الذين يشركون بالله جَلَّوَعَلَا بأنواع الشرك، كم الذين يذبحون لغير الله، يُسَمِّنُ ذبيحته السنة كلها؛ حتى إذا جاء موعد مولد الشيخ والسيد قَدَّمُه قربانًا في فعلٍ لا يفعله فيما يقربه إلى الله جَلَّوَعَلَا يوم العيد. كم الذين يدعون غير الله! يهتفون بأسماء أموات تقطَّعت أوصالهم وتحللت أجسامهم، وينسون الحي الذي لا يموت سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ!! يهتفون ويضْرعون ويصيحون بأسماء الأولياء والأنبياء والملائكة، كم الذين يهتفون فيقولون مخاطبين النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ:

ما سامني الدهر ضيمًا واستجرتُ به إلا ونلت جوارًا منه لم يُضم

كم الذين يقولون: "يا سيدي فلان المدد المدد، أغثني"، كثير مع الأسف الشديد، الميت الذي في قبره أعظم في قلبه من ربِّ العالمين، يُعظِّمه ويرجوه ويظنُّ فيه أحسن الظن، ويظن فيه ما لا يظنه في رب العالمين سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

ذكر صاحب تفسير المنار -في الجزء التاسع من تفسيره- أنَّه سمع امرأة تصيح تقول: "يا متبولي.. يا متبولي" تدعو وليًا من الأولياء، يقول فانتظرت حتى هدأ روعها ثم قلت لها: "لماذا تدعين متبولي، ولا تدعين رب العالمين؟"، فقالت بلهجتها العامية: "المتبولي ما يستناش"، المتبولي لا ينتظر،

يسارع إلى إجابة الدعاء، أما الله جَلَّوَعَلَا في ظنها!! انظر إلى هذا الظن، ظن السوْء الذي ظنَّتهُ بالله رب العالمين العظيم الملك، من بيده ملكوت كل شيء، الذي يجيب دعوة المضطر سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، هو الحي لا إله إلا هو، لكن قلب هذه وكثيرٌ من أمثالها مع الأسف الشديد، تعلق بالمخلوقين، بل تعلق بالأموات، إنَّا لله وإنا إليه راجعون!

كم في عالم المسلمين اليوم من يطوف بالقبور وينحني لها ويَذِلّ ويخضعُ ويسكن ويعْكُف، وإذا قيل له احلف بالله؛ فإنَّه يحلف بالله كاذبًا، لكن عند السيد وعند ضريحه لا يستطيع أن يحلف باسم السيد كاذبًا البتة؛ لعظمته في قلبه ولخشيته منه.

كم الذين يدّعون علم الغيب أو يسعون إلى معرفة الغيب؛ بقراءة فنجان، أو قراءة كف، أو ضربٍ للحصى، أو ما شاكل ذلك. كم الذين يذهبون إلى السحرة فيطلبون منهم أن يسحروا؛ لربط، أو لأذية، أو لصرف، أو لعطف. كم الذين يقعون في مَهْيعٍ خطير يُودِي بدينهم -والعياذُ بالله- حينما يستهزئون بدين الله أو يسبون الدين -والعياذ بالله-، أو يسخرون من شريعة وسنة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، أو يصفونه بصريح القول، أو برمزه بأنه دينٌ فيه ما فيه من الوحشية وفيه من الظلم، فيما يتعلق بالمرأة، أو فيما يتعلق بغيرها.

كم وكم أولئك الذين يعلِّقون التمائم أو يستعملون الرقى الشركية، كم الذين يحلفون بغير الله، كم الذين يتوسلون توسلًا بدعيًا، كم الذين يفعلون سلسلة طويلةً لا تنتهي من البدع العقدية والبدع العملية.

بل إنَّ الانكباب على المعاصي والإدمان على هذه الموبقات لا شك أنَّه من ضعف التوحيد، فلو عَظُمَ خوفُ الله، ولو عَظُمَ رجاءُ الله، ولو عَظُمَتْ محبةُ الله، ما حصل الإصرارُ على المعاصي.

إذًا من عرف الواقع أدرك أنَّ الدعوة إلى التوحيد في هذا الزمان من أهمِّ المهمات ومن أوجب الواجبات، فكيف إذا ضَمَّ إلى هذا أنَّ أسباب القدح والنَّقص والنَّقض للتوحيد أصبحت مع الأسف الشديد قريبةً من النَّاس، فقد أطبقت على النَّاس الأطباق، واصطادتهم الشبكة، وأصبحت أضداد التوحيد شيئًا قريبَ المأخذ، سريعًا إلى النَّاس مع الأسف الشديد؛ في داخل بيتوهم، بل وفي غرف نومهم، ربما يسمعُ الإنسان أو يرى أو يقرأ شيئًا يكون سببًا في انقلاب قلبه -عياذًا بالله-. ولقد والله تحقق قول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو الصادق المصدوق، فيما خرَّج الإمام مسلم رَحِمَهُ اللهُ: «بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِى كَافِرًا أَوْ يُمْسِى مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا» ؛ يصبح مسلمًا لكنَّه يشاهد أو يطالع مقطعًا أو يقرأ تغريدةً فيقع في قلبه شبهة لا تزول حتى تُرْدِيه -والعياذ بالله- .

فَمَعَ الأسف الشديد كثيرٌ من هذه الفضاءات التي أُتخِم بها الفضاء، لا شك أنَّها تبث شرًا كثيرًا؛ هذه قناة تخصَّصت في بث الإلحاد أو في تحسين نظرية التطور، وتلك قناة تخصَّصت في تحسين وتزيين التنصير ودين النَّصارى، وتلك قناة تخصَّصت في القدح في الشريعة بأساليبَ غايةٍ في الخبث والدهاء، وتلك قناة تخصَّصت في الشعوذة ، قناة يسمونها روحانية، يقوم عليها أناسٌ روحانيون -

كما يزعمون- يبيعون مع الأسف الشديد باتصالاتهم دينهم بَعَرَضٍ قليل مع الأسف الشديد، وناهيك عن قنوات كثيرة تدعوا إلى الانحلال الأخلاقي الذي قد يكون وسيلةً إلى الانحلال العقدي.

وأمَّا صفحات ومواقع الشبكة التي هي بالملايين ففيها خيرٌ قليل، وفيها شرٌ أكثر من ذلك بكثير، حدِّث ولا حرج عن تلك الصفحات التي تدعو إلى الشرك، والكفر، والإلحاد، والتنصير، والبدع، والخرافة، والطعن في أصحاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والطعن في سنة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وانسلاخ الإنسان من كل فضيلة -والعياذُ بالله-.

إذًا مع انتشار هذا الأمر الذي لم يكن موجودًا في السابق لا شك أنه أصبحت الدعوة إلى التوحيد أعظمَ وأوجب وأهم وأوْلى.

أضف إلى هذا نشاط ملل الكفر في السعي في إخراج الناس من دينهم أو تغيير دينهم في نفوسهم، هم يسعون إلى تحقيق أحد هذين:

-إمَّا أن يُخرِجوا الناس من دين الله جَلَّ وَعَلَا ويبذلون في هذا الغالي والرخيص، يسعون السعي الحثيث بكل طريق وبكل وسيلة، ليُخرجوا الناس من دين الله جَلَّ وَعَلَا.

-أو أن يغيِّروا مفاهيم الدين وعقائده وتصوراته في نفوس الناس، حتى ينسلخوا من الدين الحق الذي جاء به النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حتى يكون دينهم ذا عقيدةٍ باهتة، لا لون لها ولا رائحة ولا طعم. هذا الذي يسعون إليه ويجنِّدون الجنود ويمكرون المكر الكُبّار، والله جَلَّ وَعَلَا أسأله أن يوهن كيدهم.

أضف إلى هذا نشاطًا غير مسبوق لأهل البدع والضلال؛ أهل الخرافة وأهل الشرك وأهل محاربة السنَّة وأهلها، حتى أصبحوا يطؤون أماكن ما كان لهم فيها موطئ قدَم، تأثر بهم فئامٌ كُثُر مع الأسف الشديد، وأصبح لهم قنواتهم الفضائية، وجامعاتهم ومعاهدهم العلمية، ومراكزهم البحثية، ومصنفاتهم ومجلاتهم الورقية والإلكترونية، ودعاة وبعثات ومراكز ثقافية، ومكتبات عامة في أقطار شتى -مع الأسف الشديد- يسعون بأيديهم وأرجلهم لإخراج أهل الإسلام الصافي وأهل سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من هذا الحق الذي هم عليه، ونجحوا في أماكن ونجحوا مع أناس مع الأسف الشديد.

وأضف إلى هذا أمرًا أيضًا: وهو تقصيرٌ كبير من جماعاتٍ وأحزابٍ ومن أفراد، قَصَّرُوا كثيرًا في الدعوة إلى التوحيد، هذا إن سلِموا من الوقوع في ضّده أو من التهوين منه؛ فتجدهم يتحاشون الدعوة إلى التوحيد، حفاظًا -فيما يزعمون- على جمع الكلمة وعدم انصراف الناس، يحرصون على التجميع وعلى التكتيل، ولو كان هذا الاجتماع على غير ما يحب الله وعلى غير سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولذلك تجد بعض وسائل الإعلام التي تزعم أنَّها تدعوا إلى الإسلام؛ فضائيات متخصصة في بثِّ الفكر العقلاني الذي يُقدِّمُ العقل على النقل، أو فضائيات تُحسِّن الوثنية وتريدُ أن تعيد الناس إلى دين أبي لهب وأبي جهل؛ تعلقهم بالأموات، تزين لهم دعاء غير الله، والذبح والنذر لسواه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فإذا جمعتَ هذا كله؛ تبين لك -يا أيها الموحد- أنَّ المقام مقام عظيم وأن المهمة كُبْرى، وإنه لمن الخذلان أن يجلس الموحد -ولاسيما وإن كان من طلاب العلم- على طرف وهو يرى الخير والشر يصطرعان وتتنادى الأقران، ودين الله جَلَّوَعَلَا يُسْعَىَ فِي طَمْسِ أنواره - ﴿وَيَأْبَى اللهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ﴾ [التوبة:٣٢] - وهو جالس ما يتحرك، مع الأسف الشديد، فيه برودة قلب لا ينهض ولا يشمِّر ولا يغار على دين الله جَلَّوَعَلَا.

ولتعلم -يا عبد الله- أنك إلى الدعوة إلى التوحيد وإلى دين الله أحوج منها إليك، إذا كنت تظن أنك ستدعو لأن الدعوة بحاجة إليك، فالنصيحة أن تجلس ولا تصنع شيئًا، فدين الله منصور بك وبغيرك، نحن لا نشك في هذا البتة، دين الله عَزَّوَجَلَّ منصور، إنما عليك أن تدعو إلى الله لأنك أنت بحاجة إلى الدعوة، أنت بحاجة لأن تقوم بالواجب الملقى على عاتقك، أنت بحاجة إلى فضل الله عَزَّوَجَلَّ وثوابه.

فهذا كله يدعونا إلى أن نشمِّر عن ساعد الجدِّ في الدعوة إلى التوحيد، والواقع والله إنَّه لأكبر مما ذكرت بكثير، ولكن هذه النبذة لعلها أن تشحذَ الهمم.

وإذا كنت من دعاة التوحيد، فإني أوصيك بخمسة أمور، هي ميماتٌ خمس احفظها: أن تكون عليمًا، وأن تكون رحيمًا، وأن تكون حكيمًا، وأن تكون كريمًا، وأن تكون سليمًا، خمس ميمات للدعاة، انتبه لها.

۞ **أولًا: أن تكون عليمًا**؛ إذا أردتَ أن تكون داعيةً إلى التوحيد، فعليك أولًا أن تعرف التوحيد فإن فاقد الشيء لا يعطيه؛ كيف تدعو إلى التوحيد وأنت تجهله؟! كيف تحذِّر من الشرك وأنت لا تعرف تفاصيله؟! إذًا ابدأ بنفسك أيها الموفق، والله جَلَّوَعَلَا يقول: ﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[القصص:٨٧]، ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ﴾، ثم قال: ﴿إِلَيْهِ أَدْعُوا﴾[الرعد:٣٦].

إذًا أولًا يتحقق الإنسان ويتشبع بالتوحيد، ثم بعد ذلك ينقلب داعية إلى التوحيد، وذلك يعني أن يكون لك جُهْدٌ في التعلم والحفظ والقراءة والاستماع، وإذا كانت العلوم كلها شيئًا مهمًا لك يا طالب العلم فإنَّ علم التوحيد هو الأهم، وهو الأولى وهو الأعظم، حتى لو تخصصك الدراسي في غيره، فإن التوحيد شيء لا يقبل المنافسة، خصِّص له الوقت الأكبر، وخصِّص له المساحة الأهم في طريق دراستك وطلبك للعلم.

۞ **ثانيًا: أن تكون رحيمًا**؛ الرحمة أساس الدعوة ومنطلقها، الذي يدعوك لكي تدعو: أنَّ في قلبك رحمة؛ تريد أن الناس تُنْقَذ من عذاب الله، تريد أنَّ النَّاس تفوز برحمة الله، داعية التوحيد ينبغي أن يجعل نصب عينيه بل أن يجعل شعاره: «اللهم اهد دوسًا وائت بهم» حديثٌ في «الصحيحين»، لما أعرضت قبيلة دوس أول مرة، لما عُرِضَ التوحيد عليها أعرضت، فكان دعاء النبي صَلَّىَٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الرحيم: «اللهم اهد دوسًا وائت بهم».

إذًا هذه الرحمة هي التي ينبغي أن تكون في نفسك لكي تكون داعيةً موفقًا إلى التوحيد، ولأجل هذا فإن على الإنسان أن يترفَّق، ولمَّا بعث النبي ﷺ رَكْبَ التوحيد ودعاة التوحيد مُعاذًا وأبا موسى رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا إلى اليمن -كما سيأتي معنا في الباب- قال كما في «الصحيحين»: «بَشِّرَا ولا تُنَفِّرا»، رحمة في القلب تدعو إلى أن يترفق الإنسان وأن يكون حريصًا على أن تهتديَ القلوب.

ليست الدعوة هي شيئًا تحمله على ظهرك ثم غاية الأمر أن تلقيه عن ظهرك وتستريح! إنما هي شيء آخر، حرصٌ واهتمام ورغبة في أن يهدي الله جَلَّ وَعَلَا هذا المدعو، حتى ولو كان مُخالِفًا، بل حتى ولو كان كافرًا بالله، ينبغي على الإنسان أن يكون عنده رحمة ولأجل هذا يدعوه.

ومعلومٌ ما قرره أهل العلم من أنَّ نظر المسلم إلى المخالفين يكون بعينين:

❖ **الأولى**: ينظر بها النظر الشرعي، فيعامل المخالف بما يستحق من محبة أو بغض أو هجر أو زجر، وذلك أنَّ أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله.

❖ **أمَّا العين الأخرى**: فينظر بها النَّظر القَدَري، وبالتالي فإنَّه يرحمهم إذا رآهم كما قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ في آخر «الحموية» (إذا رآهم والحيرة تستولي على قلوبهم، أوتوا علومًا وما أوتوا فهوما، وأوتوا ذكاءً وما أوتوا زكاءً)، إذا رآهم على هذه الحال فإنه يرحمهم، ويسعى في استنقاذهم قدر استطاعته.

❁ **ثالثًا: أن يكون حكيمًا**؛ لابد من الحكمة ولا بد من الفقه في تفاصيل الدعوة، وهذا بابٌ واسع، من لم يكن حكيمًا في دعوته ربما أفسد أكثر مما

يُصلح؛ فعليك بالتؤدة والرفق والعقل، ما أحسنها وما أجملها تلك الدعوة الصدَّاعة بالحق التي تبيِّن الحق دون تردد ودون إعجام، ولكنها مع ذلك تتحلى بالعقل، تتحلى بالحكمة، وتتحلى بالرفق، «الرفق ما كان في شيء إلا زانه، وما نُزع من شأن إلا شانه»، من أعطي حظه من الرفق فقد أعطي حظه من الخير، ومن حُرم حظه من الرفق فقد حرم حظه من الخير. من الحكمة أن تكون دعوتك بأسلوب سهل، لا مُعَقد، ولغة مفهومة لا غامضة، وأسلوب مُحَبِّب لا منفِّر، أن تعرف أنواع المدعوين وبالتالي تُعامل كل صنف بما يناسبه.

لا تظن أنَّ الطريق مفروشٌ بالورود، وأنَّ الناس سيستقبلونك على أعناقهم إذا جئتهم داعية إلى التوحيد!! الأمر ليس كذلك، قد يكون هناك مشقة، وقد يكون هناك صعوبة، وقد يكون هناك معارضة، ستجد الصعب وستجد السهل، ستجد القريب وستجد البعيد، وستجد محب الخير وستجد المعاند، فأعطِ كل واحد من هؤلاء ما يستحق من الأسلوب والكلام المناسب.

من الحكمة أيضًا: أن تسلك أفضل سبيل يوصل إلى تحصيل الخير؛ فتنتقي أفضل العناوين، توزِّع أفضل ما يكون من الكتب، تنهج كل سبيل لا محذور شرعي فيه في سبيل إيصال الناس إلى الخير، تقتنص الفُرص، تقتنص الأوقات، تحرص على أن تعلِّم الناس التوحيد من كل طريق؛ من خلال القصص النبوي وقصص الأنبياء، من خلال السيرة، من خلال آثار السلف، من كل سبيل، وثق أنَّك إذا كان أمر التوحيد يشغل بالك أنك ستوفَّق: ﴿وَالَّذِينَ

جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[العنكبوت:٦٩]، **فعليك يا أيها** الداعية إلى التوحيد، أن تكون حكيمًا في دعوتك.

۞ **رابعًا: أن تكون كريمًا**؛ وذلك أنَّ الدعوة إنما ينهضُ بها رجال يتحملون المسؤولية ويعلمون عِظَمَهَا، ولأجل هذا فإنَّهم يسترخصون كلَّ شيء في سبيل القيام بها؛ يبذلون أموالهم، يبذلون جهدهم ووقتهم، يبذلون كل شيء في سبيل الدعوة إلى التوحيد. أما هذا الذي يعطي الدعوة فضول وقته وفضول اهتماماته، "إذا كنتُ فارغًا، إذا فرغت من الأولاد والعمل والبيت، هنا أتصدق على الدعوة وأعطيها النُتَف من الوقت والاهتمام والجهد!" مثل هذا فإنه إن أفاد فإن فائدته قليلة، الدعوة إلى التوحيد تستحق أن تبذل لها وأن تكون كريمًا في كل شيء؛ في وقتك، في جهدك، على سبيل راحتك، على سبيل أشياء في حياتك، بهذا تكون داعيةً إلى التوحيد حقًا، لابد أن تكون كريمًا.

۞ **وأخيرًا: أن تكون سليمًا، سليم القلب**:﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[الصافات:٨٤]، هذا إبراهيم عَلَيْهِالسَّلَامُ إمام الموحدين، داعية التوحيد عَلَيْهِالصَّلَاةُوَالسَّلَامُ، الذي أُمِرْتَ يا عبد الله باقتفاء سبيله؛ وذلك بأن تخلِص القصد والنية لله جَلَّوَعَلَا. سبحان الله! كيف يجتمع أن تكون داعيةً إلى التوحيد وأنت واقع في الشرك، مرائي! أمران عجيبان كيف يجتمعان؟

إن كنت داعية للتوحيد، ابدأ بتصفية النية وتحسين القصد، ادع إلى الله، لا إلى نفسك، ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللهِ ﴾[يوسف:١٠٨]، قف عندها كثيرًا و احذر من حظوظ النَّفس، واحذر من الحسد، المقصود أن يهتدي الناس، أن

يصل الخلق إلى الحق وليس أن يشار إليك بالبنان، وأنك إذا دخلت المجالس أُكرمت وصُدِّرت وأشير إليك بأنك الشيخ والداعية.

المقصود هو أن يهتدي الناس على يدك أو على يد أخيك، فإنك لا تبالي، المقصود أن تحصل الهداية، عُرفتَ أو لم تُعرف الأمر عندك سيان، بل أن تكون غير معروف أحب إليك، لا تحرص على الشهرة، ولا تحرص كما يقولون على الرصيد الجماهيري، أنت داعية إلى التوحيد، قلبك سليم، معلق بالله جَلَّوَعَلَا ترجو الله ولا ترجو سواه؛ بهذا تكون دعوتك مثمرة.

وبالتالي إذا كان قَلبُك سليمًا سَلِمَ من حظوظ النفس وشوائبها، فإنك ستكون جامعًا لا مُفرِّقًا، دعاة التوحيد يجب أن تتوحَّد كلمتهم على كلمة التوحيد، أما أن يتفرقوا فإنَّهم ينبغي أن يعلموا أن تفرُّقهم يعني قوة أعدائهم، وأنَّ تنازعهم يعني ضعف دعوتهم، وشاهد هذا في كتاب الله: ﴿وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾[الأنفال:٤٦]، لمَّا بعث النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ دعاة التوحيد إلى اليمن -معاذًا وأبا موسى- قال لهم: «تطاوعا ولا تختلفا»، الاختلاف شر، التنازع وفساد ذات البين إنَّها والله لحالقة؛ تحلق الدين لا الشعر.

إذًا على دعاة التوحيد أن يتقوا الله في الدعوة، وأن يتقوا الله في المسلمين.

إنَّ من أعجب الأشياء؛ أنه في ظل هذه السهام الكثيرة المريَّشة ضد التوحيد والسنة في هذا الزمان؛ أن نجد هذا التنازع الكبير وهذا الاختلاف العظيم بين الدعاة إلى التوحيد الذين هم متفقون في التوحيد وفي اتباع السنة وفي لزوم منهج السلف الصالح، لكنَّه مع الأسف نزاع مؤلم يدمي القلب، وإذا كان النزاع

والفرقة شيئًا ينبغي السعي في إزالته في الأحوال الحسنة المستقرة، فكيف بهذا الزمان؟! نحن أحوج ما نكون إلى أن تجتمع القلوب وتأتلف وتتعاون على الخير.

العدو على الأبواب وأنت تأخذ بتلابيب أخيك!! يا عبد الله اتق الله!، شبابنا وفتياتنا انتهشتهم هذه الفِرق وهذه التوجُّهات وأنت تتلاطم مع أخيك الذي هو معك!! الشباب ذهبوا إلى إلحاد، أو ذهبوا إلى غلو، صار الواحد منهم يقتل ابن عمه بعد أن يكفِّره بغير مكفِّر، ويفجِّر مسجدًا بيت الله، واستُبيحت دماء المسلمين، وأخذَت كثيرًا من الشباب هذه الأفكار إمَّا إلى انحلال وإما إلى غلو، ودعاة التوحيد يتصارعون!! عجبًا واللهِ، شيءٌ مؤلم.

واعلم -يا رعاك الله- أنَّ الخلافات التي تقع بين أهل السنة والجماعة أتباع السلف ينبغي أن يُنظر فيها إلى أمرين:

الأمر الأول: هل هذا الذي اختلفوا عليه يستحق أن يُختلف عليه أم لا؟ فإنَّ كثير من الخلافات مرجعها لا إلى خلافٍ في الحقيقة، بل هو إلى حظوظ نفس، أو إلى إيغار صدور من بعض الجهات الخارجية، أو قد تكون المسألة اجتهادية لا ينبغي أن يعنَّف فيها على مخالف. إذًا لابد من وزن المسألة الخلافية أولًا بميزان الكتاب والسنة ومنهج السلف وكلام أهل العلم الراسخين.

الأمر الثاني: إذا تُحُقق من أنَّ الخلاف كان في شيء خطأٍ محض فإنه ينبغي أن يُعلَم كيف التعامل مع المخالِف؛ فالتعامل مع المخالف ليس شيئًا واحدًا يُطرد مع كل مخالف، من كان كذلك فإنه سيقع في خطأ عظيم.

هذا الموضوع ينبغي أن يوزن أيضًا بميزان العلم وميزان الحكمة؛ فليس كل خلاف يستدعي الهجر والزجر والتحذير والتنفير، المسائل ينبغي أن يُنظر إليها بنظر آخر، ينبغي أن يُنظر إلى حجم المسألة، وإلى حجم الأثر المترتب عليها، وأيضًا إلى الزمان والمكان، رُبَّ مسألة يشدَّد فيها النكير على شخص في بلد أعلام السنة فيه ظاهرة، ولا يشدَّد على شخص في بلد السنة فيه غريبة.

كذلك يُنظر فيها إلى الشخص نفسه؛ أهو ممَّن لهم قدم صدق في السنة؟ أو هو من المعروفين باتباع سبيل أهل البدعة من طرائق المتكلمين أو الخرافين؟ هذا أيضًا ينبغي أن يُنظر فيه.

فشتان بين سنِّي أخطأ، وبين مبتدع أخطأ، ولا ينبغي أن يعامَل هذا وهذا على حدِّ السواء؛ فالسني سني وإن أخطأ في شيء يسير، والمبتدع مبتدع وإن أصاب في شيء يسير، كما أن العالِم عالم وإن جهِل شيئًا يسيرًا، كما أن الجاهل جاهلٌ وإن علِم شيئا يسيرًا. هذه من المسائل التي ينبغي أن يُلتفت إليها، ولذلك قد يقع بعض الناس من أهل العلم والفضل في خطأ عقدي، قد يقع في تأويلٍ للصفة -هذا واللهِ ليس أمرًا سهلًا- لكن تجد أهل العلم يحتملون لهذا العالم السني ما لا يحتملون لغيره من أهل البدع. ولذلك ابن خزيمة إمام الأئمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ وقع في خطأ، وهو أنه أَوَّلَ حديث الصورة، يقول أبو موسى المديني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أخطأ ابن خزيمة في حديث الصورة، ولا يؤخذ ذلك منه، ولا يُطعن عليه به»، نقله شيخ الإسلام في «بيان التأسيس».

وهذا منهج منضبط متوسط. لمَّا كان عالمًا من علماء أهل السنة ومعلوم تحريه في اتباع السنة وأخطأ هذا الخطأ؛ **أولًا** ينبغي أن لا يؤخذ عليه، بل يقال فلان أخطأ ولا يتابع عليه، لكن أيضًا لا يكون سببًا في إسقاطه، مع أن المسألة عظيمة تتعلق بصفة لله!!. فمثل هذا المسلك ينبغي أن يلاحظه دعاة التوحيد وأن يترفَّقوا وأن يزِنوا الأمور بميزان العلم وميزان الحكمة.

إذا كانوا كذلك، وإذا جمعوا إلى ذلك أيضًا يقينهم بأنهم على الحق: ﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ﴾[الحج:٦٧]؛ لابد أن يستيقن الداعية بأنه على الحق، إذا كنت على نهج الكتاب والسنة، فاعلم أن الله حق، وأن نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حق، وأن دين الله حق، ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلالُ﴾[يونس:٣٢]، إذًا أنت على الحق، استيقن بهذا لأنك كلما كنت أكثر يقينًا وأبعد عن الريب والتردد، كلما كنتَ أثبت في الدعوة، وكلما كانت نتائج دعوتك أعظم أثرًا.

ثم أن تكون صبورًا متحملًا، تصبر في سبيل الدعوة إلى الله ﷻ ولا تيأس ، إذا رأيت نشاط أعداء الله ليكن هذا سبيلا في أن تنشط لا أن تيأس، تصبر وتحتمل وتترقب نصر الله عَزَّوَجَلَّ وفتحه، وحينئذ تُثمر الدعوة، وبالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدين، ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة:٢٤].

هذه مقدمة دعا إليها هذا التبويب العظيم الذي بوّبه إمام الدعوة رَحِمَهُ اللَّهُ في هذا الموضع وهو « **بَابُ الدُّعَاءِ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لا إِلَـهَ إِلَّا اللهُ**»، ونحن بحاجة إلى أن نتواصى، وبحاجة إلى أن نتذاكر في هذا الأمر العظيم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (بَابُ الدُّعَاءِ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨]).

قوله « بَابُ الدُّعَاءِ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ »؛ الدعاء والدعوة مصدران للفعل دعا يدعو، والأصل في معنى الدعاء والدعوة: هو الطلب.

وهذا الباب بابٌ مهم ومحله محلٌ مناسب، والمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ اعتنى كثيرًا بهذا الباب حتى إنه كان أكثر الأبواب مسائل، أكثر بابٍ في كتاب التوحيد ذكر فيه المؤلف المسائل المستفادة منه هو هذا الباب، ذكر فيه ثلاثين مسألة مُستفادة .

والدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله هو الدعاء إلى التوحيد؛ وذلك أن معنى لا إله إلا الله هو توحيد الله، وهذا ما سيتبين من خلال الأدلة التي أوردها المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

أورد المؤلف في هذا الباب آية وحديثين، أما الآية فآية سورة يوسف: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ .

هذه الآية لأهل التفسير فيها قولان: أهي جملة واحدة أم جملتان؟

۞ بمعنى: هل الآية تُوصَل؟ ويكون المعنى: أنَّ سبيل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكذا من اتبعه هو الدعوة إلى الله على بصيرة: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾.

۞ أو أنَّ الآية جملتان؟

* ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ﴾.
* ثم تستأنف ﴿عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾.

وعلى كل حال القولان -كما لا يخفاك- متلازمان، وإن كان القول الأول لا شك أنَّه أوْلى؛ لأنَّه يجمع الأمرين، يجمع بين كون منهاج النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسبيله هو الدعوة إلى الله على بصيرة، وكذلك منهاج أتباعه، فجمع هذا القول بين الدعوة والبصيرة.

﴿قُلْ﴾ خطابٌ للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قل يا نبينا.

﴿ هَذِهِ سَبِيلِي﴾ السبيل هي: الطريق؛ يعني: هذه طريقي وهذا نهجي. وكلمة السبيل تُذكَّر وتؤنَّث؛ تؤنث كما في هذه الآية، وتُذَّكر كما في جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾[الأعراف:١٤٦]، وما قال لا يتخذوها سبيلا. وهذا فيه بيانُ أنَّ نهج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والصراط الذي جاء به من عند الله جَلَّوَعَلَا طريق واضح مستقيم يمكن لكل أحد أن يعرفه وأن يسلكه، هكذا منهج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طريق وصراط واضح لا اعوجاج فيه، ويمكن لكل أحد أن يسلكه ليس فيه أي تعقيد.

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي﴾ ما هي هذه السبيل؟ جاء بيانها: ﴿أَدْعُو إِلَى اللهِ﴾؛ فالدعوة إلى الله نهج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ولا شك أنَّ هذا أعظم ما يكون من الأعمال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾[فصلت:٣٣]، هذا نهج الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قبله، كلُّ الأنبياء كانوا يدعون إلى الله، وأعظم ما دعوا إليه التوحيد، كلهم صاح في قومه: ﴿اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾[المؤمنون:٣٢]، وأكملهم وأعظمهم بذلًا في ذلك هو النبي الكريم محمدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ منذ مفتتح الرسالة وإلى خاتمتها وفيما بين ذلك دعوةٌ جادَّةٌ إلى

التوحيد وإلى التحذير من ضده، في أول ظهوره عليه الصلاة والسلام بمكة قال لكفارها: «قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ تُفْلِحُوا»، وإلى آخر لحظات حياته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في آخر الكلمات التي نطق بها في هذه الحياة: «لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا» ، وفيما بين ذلك كان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدعو إلى التوحيد صباح مساء.

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾؛ وهذا فيه بيان أن اتّباع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حقًا وصدقًا يقتضي من المتَّبع أن يكون داعية إلى الله، هذا منهاج النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وبحسب اتباع الإنسان للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يكون نشاطه في الدعوة، وبحسب دعوته يكون التزامه بمنهج النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكلُّ إنسانٍ عليه أن يزن نفسه بهذا الميزان، إذا أردت أن تعرف مقدار اتباعك للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فزن نفسك بهذا الميزان، انظر كيف أنت في الدعوة إلى الله، فإن هذا نهج النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾؛ فإن كنت متبعًا له صدقًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فانهض إلى الدعوة إلى الله جَلَّ وَعَلَا.

قال: ﴿عَلَى بَصِيرَةٍ﴾، ذكر المفسرون في البصيرة أقوالا:

- منهم من قال: إنها الثبات واليقين.
- ومنهم من قال: إنها الحجة؛ أدعو إلى الله على حجة، على بينة.
- ومنهم من قال: إن البصيرة هي العلم.

- ومنهم من قال: إنَّ البصيرة أعلى العلم؛ وذلك أنَّه يكون نسبةُ المعلوم فيها للقلب كنسبة المرئي للبصر؛ بمعنى: البصيرة للقلب كالبصر للعين، كما أن قوة العين الإدراك، فإذا رأى الإنسان شيء أصبح شيئًا يقينيًا لأنه يراه بعينه، كذلك البصيرة؛ من بلغ إلى حد البصيرة كان المعلوم عنده على هذه الدرجة من اليقين كأنه مُبْصَر، ولاحظ التقارب بين البصر والبصيرة.

وهذه الأقوال متقاربة في المعنى؛ فالبصيرة العلم أو أعلى العلم وهي الحجة، ومن كان كذلك فلا شك أنه يكون على ثباتٍ وبصيرة.

ولاحظ حرف الاستعلاء هاهنا: ﴿عَلَى بَصِيرَةٍ﴾؛ وهذا فيه إشارة إلى التمكن في هذه البصيرة وأنَّ دعوة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكذا دعوة أصحابه وأتباعه دعوةٌ ليس فيها أيّ خلل، وليس فيها أيّ نقص، وليس فيها أيّ تردد، دعوةٌ قائمةٌ على ساق العلم والحجة، وأهلُها فيها على يقين وثبات ورسوخ.

ها هي دعوة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غضة طرية كما كانت في عهده صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يراها المصلحون ماثلة أمام أعينهم في سنة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأحاديثه التي هي بين أيدينا، وهي التي قام بها أتباع النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على مر العصور وإلى هذه الأيام وإلى هذه الأزمان، دعوة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ باقية وثابتة، وطريقها واضح لا لبس فيه ولا غموض، «لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي» طائفة واحدة ، إذًا الأمة فيها طوائف، لكن طائفة واحدة فازت بأنها كانت على ما كان عليه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، «لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ»، الحق المحض،

«أل» للاستغراق ، فالحق المحض الذي جاء به النبي صَلَّ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الذي عليه أتباع النبي صَلَّ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على مرِّ العصور.

ولاحظ -يا رعاك الله- في هذه الآية كيف جمعت بين شرطي قبول العمل: الإخلاص والمتابعة.

❁ **أما الإخلاص**: ففي قوله تعالى: ﴿**أَدْعُو إِلَى اللهِ**﴾ لا إلى نفسي، وهذا من الأمور العظيمة الأساسية في الدعوة والتي ينبغي أن يلحظها الداعية بعين الرعاية والاهتمام، ادعُ إلى الله لا تدعُ إلى نفسك، كثيرٌ من الناس يدعو -كما قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ في المسائل- لكنه يدعو إلى نفسه. الإخلاص أمره عظيم ويحتاج إليه الداعية أكثر من غيره، وذلك أنَّ دواخل ومداخل الرياء بالنسبة إلى الداعية أكثر من غيره، فيحتاجُ إلى مزيد عناية وتذكر وتذكير بهذا الباب العظيم.

قال بعض السلف: «أي أحمقٍ يقول إنه إذا اجتمع إليه عشرة نفر لا يحب أن يجوِّد كلامه لهم» ، اللهم سلِّم، المقامُ عظيم، والداعية إلى الله ينبغي أن يتنبه إلى هذا الأمر العظيم، أنه يدعو إلى الله لا إلى شيء آخر، يدعو إلى الله لا إلى نفسه، لا إلى دنيا يحصِّلها ويتكسَّب من وراء هذه الدعوة، الدعوة يُبذل فيها ويُبذل لها، وليس أنها بابٌ للتكسب والتأكُّل، كما يقع من بعض الناس مع الأسف الشديد. المقام يحتاج إلى تنبه .

ومن علامات صدق الإخلاص والخلل فيه: أن يَنْظُرَ الإنسان في حاله مع المدعوين؛ إن كان يتأثر بحسب عدد الحاضرين، فإذا قلَّ الحاضرون ترك الدعوة وإذا كثروا نشط، هذه علامة على أنَّ هناك خللًا، كذلك إذا كان غضبه إذا

ترك الناس ما يدعو أعظم مما يغضب إذا تركوا ما لم يدعُ إليه، وقد يكون أهم مما دعا إليه، هذه علامة على أنه كان يغضب لنفسه لا لدين الله جَلَّوَعَلَا.

إذًا هذا هو الأمر الأول: الإخلاص.

۞ **والأمر الثاني: المتابعة**، وذلك ما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿عَلَى بَصِيرَةٍ﴾، ليست المسألة مطلقة دون أي زمام يدعو الإنسان كما يحلو له، كلا، الدعوة الحقَّة ينبغي أن يترسم فيها أهلها نهج النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ، ولو فعلوا ذلك لعمَّ الخير في العالم، وما أحسن ما قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «الفوائد»: «ولو سلكوا الدعاة إلى الله المسلك الذي دعا اللهُ ورسوله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ به إليه لصلح العالَم صلاحًا لا فساد معه».

وأكثر ما يقع الخلل في مناهج الدعوة إنما هو بسبب التقصير في متابعة النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، والتقصير في الأسس والأولويات التي تقوم عليها الدعوة إلى الله جَلَّوَعَلَا، وأول الأولويات وأولى ما يُدعى إليه لا شك أنه توحيد الله جَلَّوَعَلَا، وهذا ما أعظم تقصير كثيرٍ من الدعاة فيه! ولذلك انظر حجم ما يلقى من الخطب والمحاضرات والدروس؛ ما نصيب التوحيد من ذلك في مجمل أحوال الدعاة؟! تجد أنَّ هناك نقصًا بيِّنًا في هذا المقام، مع أن هذا أحوج ما يكون الناس إليه، فالناس ملّت من القيل والقال، تريد كلام الله، تريد كلام رسوله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ تريد ما يذكِّرها بالله ويحثها على اتباع النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ، يعلِّمها حق الله، ويعلمها كيف تعبد الله، هذا الذي يحتاجه الناس.

ثم قال تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾؛ نبَّه المؤلف رَحِمَهُٱللَّهُ في المسائل إلى أن من حُسن التوحيد أن فيه تنزيه الله جَلَّوَعَلَا ، ومن قُبْحِ الشرك أن فيه مسبةً لله عَزَّوَجَلَّ.

﴿وَسُبْحَانَ اللهِ﴾؛ أنزه الله عن كل ما لا يليق به، ومن أعظم ذلك الشرك به سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ولذلك قال: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، فمن تنزيه الله أن يدَع الإنسان الشرك فلا يكون من المشركين بحال.

ولاحظ قوله هاهنا ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾؛ لستُ من المشركين في شيء البتة، لا في حال، ولا في قول، ولا في فعل، ولا في مخالطة ، ولا في تشبُّه ، لست من المشركين في شيء ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. إذًا هذا هو حقيقة التوحيد أن يكون الإنسان نائيًا بنفسه عن الشرك، وأن يكون نائيًا بنفسه عن أهل الشرك.

قال رَحِمَهُٱللَّهُ: (عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمَّا بَعَثَ مُعَاذًا إِلَى الْيَمَنِ قَالَ لَهُ: «إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ شَهَادَةُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ -وَفِي رِوَايَةٍ: إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اللهَ- فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ؛ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ، فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَٰلِكَ، فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ» أَخْرَجَاهُ).

هذا حديثُ ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وهو مخرج في «الصحيحين»، بل رواه الجماعة[١١٦]، وفيه بيان وصية النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمعاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حينما بعثه إلى اليمن، وكان هذا سنة عشرٍ من الهجرة على الصحيح، وقيل: سنة تسع، وقيل: سنة ثمان، ولكن الأقرب أنَّها سنة عشر، واتفقوا أنَّه لم يعُد إلى المدينة إلا بعد وفاة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعث معاذًا وبعث أيضًا أبا موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا إلى اليمن، لكن جعل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معاذاً على مخلاف ؛ وهو أعلى اليمن في صنعاء وما حولها، وأبا موسى جعله في مخلاف اليمن الأدنى في عدن وما حولها. وبعثهما النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُعلمين وولاةً وقضاةً، فكان من مهماتهم التعليم والدعوة، وأيضا من مهماتهم أنهم كانوا الولاة، ولاة الأمر، ومن مهماتهم أيضا أنَّهم كانوا قضاةً يقضون بين النَّاس.

لمَّا بعث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معاذًا -وهذه الوصية خصَّ بها معاذًا- وصَّاه بهذه الوصية العظيمة، وهذا يدل على أنَّ العالِم عليه أن يبصِّر طالب العلم وينصحه ويوصيه عند الحاجة، ويكشف له الأشياء التي يحتاج إلى معرفتها. وفي هذا أيضا: أهمية الدعوة إلى الله جَلَّ وَعَلَا، وأن من سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يبعث الدعاة إلى الآفاق، لا ينبغي أن يُحصر الحق في مكان معين، إنما ينبغي أن يفشو الخير وأن يكون الدِّين كله لله.

---

(١١٦) بلْ قد خرَّجه جماعة في قصة بعْث النبي ﷺ مُعاذًا إلى اليمن.

ولاحظ أنَّ النبي ﷺ بعث فقهاء، علماء، سادة، وهما: معاذ وأبا موسى رضي الله عنهما، وهذا يدل على أنَّ التصدُّر لمثل هذا الأمر العظيم ينبغي أن يكون لأهل العلم لا للجُهال.

بعث النبي ﷺ أبا موسى ومعاذًا وأمرهما معًا بوصايا، وخصَّ معاذًا بوصية، لما بعثهما- كما في «الصحيحين»- قال: «بشِّرا ولا تنفِّرا، ويسِّرا ولا تعسِّرا، وتطاوعا ولا تختلفا».

أما معاذًا رضي الله عنه فخصه بهذه الوصية، قال: **«إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب»**، اليمن دخلها دينا اليهودية والنصرانية؛ اليهودية على يدِ تُبَّع الأصغر، والنصرانية على يدِ الأحباش، فكثر فيها أتباع هذين الدينين، كان فيها مشركون لكن كَثُرَ فيها أهل الكتاب.

فقال النبي ﷺ: **«إنك تأتي قومـًا من أهل الكتاب»**، وفي رواية: **«إنك تأتي قومـًا أهلَ كتاب»** ؛ وهذا فيه بيان أهمية العلم بحال المدعوين، وإنَّ العلم في الدعوة يراد به أمران:

-يراد به العلم بالشريعة.

-ويراد به أيضا العلم بالمدعوِّين ومعرفة أحوالهم.

النبي ﷺ كأنَّه يقول له انتبه هؤلاء ليسوا كالمشركين الأميين، هؤلاء أهل كتب عندهم حجج، وعندهم أدلة يُدْلُونَ بها، عندهم شبهات، إذًا خذ للأمر أُهْبَتَهُ واستعد لذلك.

وهذا الذي ينبغي على الدعاة إلى الله جَلَّوَعَلَا، أن يتيقظوا وأن يتنبهوا وأن يُعِدُّوا العدة إذا خاضوا غمار الدعوة، فلربما احتاجوا إلى بيان باطل أو ردٍّ على مُبطل، فلابد أن يكونوا متسلحين بالعلم وبمعرفة كشف شبهات المبطلين؛ لأنَّ ضَعْفَ موقف الداعية إلى الحق يعني في نظر المدعوين ضعف الحق، وهذا لا ينبغي أن يكون، ولذا على طالب العلم أن يتنبه إلى هذا الأمر العظيم، لا يضع نفسه في موضعٍ يؤتى الإسلام من قِبله، وفي هذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من لم يناظر أهل البدع مناظرة تقطع دابرهم لم يكن أعطى الإسلام حقه ولا وفَّى بموجبه»، على الإنسان أن يتنبه وأن يأخذ من هذا درسًا **«إنك تأت قومًا من أهل الكتاب»** تنبَّه واستعد.

ثم قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **«فليكن أول ما تدعوهم إليه»** ؛ هذا فيه أن الدعوة فيها أولويات، فيها أهم، وفيها مهم، وفيها ما هو دون ذلك، إذًا هناك رقم واحد في الدعوة، هناك رقم اثنين في الدعوة، ولذلك ينبغي على الإنسان أن يسير في ذلك وفق هدي النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وأمره، وليس أنه يقدِّم في الدعوة ما يحلو له، بل عليه أن يسلك في ذلك هذا النهج السديد الذي بيَّنه النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

وهذا فيه الدعوة أيضا بالتدريج، وأنه لا ينبغي على الداعية أن يقذف بالعلم كله في جلسةٍ واحدة، أو أن يرميَ بالحق كله على الناس في مقامٍ واحد، لا ينبغي ذلك، بل ينبغي التدريج، وينبغي التأني، وينبغي أن يُؤخذ الأمر على الهون وعلى التدريج، ولذلك سيأتي المعنى في قوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **«فإن هم أطاعوك لذلك»** وفي رواية عند البخاري: «فإن هم أطاعوا لك بذلك» ؛ لاحظ أن (لك)

هنا مع أن (أطاع) تتعدى بنفسها! لكنها عُدِّيَتْ هنا بـ (اللام) لأنها تدل على معنى الانقياد، وأنه أصبح عندهم مطاوعة ولين، أصبحوا منقادين لك، أذعنوا وسلّموا إذًا انتقل معهم بعد إلى الأمر الثاني ثم الثالث، وهكذا.

وهذه الرواية التي بين أيدينا لا أعلمها في «الصحيحين»، قد جاء هذا الحديث في الصحيحين في روايات متعددة لكن هذا اللفظ أنا لا أعلمه: « فَلْيَكُنْ أَوَّلُ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» ، ولك أن تقول: «فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»، لكن هذا اللفظ لا أعلمه في الصحيحين، إنما الذي جاء في الصحيحين ثلاثة ألفاظ:

الأول: «فليكن أول ما تدعوهم إليه أن يوحِّدوا الله».

الثاني: «فليكن أول ما تدعوهم إلى عبادة الله عَزَّوَجَلَّ».

والرواية الثالثة: «فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله»، وفي رواية «فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله».

وأكثر الروايات في كتب السنة هي الثالثة. وهذا فيه أن السلف -إما الصحابي[117] أو التابعي أو من بعدهم-عَرَفُوا معنى التوحيد فعبَّروا عنه بمعناه.

إذًا عندنا ادعهم إلى:

- الشهادة.

-إلى أن يوحدوا الله.

-إلى عبادة الله.

---

(١١٧) وهو ابن عباس.

ثلاثة أشياء، وكلها بمعنًى واحد، لا شك أن النبي قال لفظًا منها، بقية الألفاظ بالمعنى، والسلف عبَّروا بمعنى اللفظ؛ وذلك أن شهادة أن لا إله إلا الله معناها هو التوحيد، وما هو التوحيد؟ عبادة الله وحده لا شريك له، فصارت الألفاظ راجعة إلى معنى واحد. وبهذا نستفيد تفسير شهادة أن لا إله إلا الله كما سيأتي معنا، ما هو معنى (لا إله إلا الله)؟ هو توحيد الله، يعني: عبادة الله وحده لا شريك له، وليس أنه لا خالق إلا الله، أو لا قادر على الاختراع إلا الله، هذا نص في حديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الشاهد: أن اللفظ الذي جاء به المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ لا أعلمه ثابتًا، لكنه أشار إلى رواية البخاري قال: «**وَفِي رِوَايَةٍ: إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اللهَ**»، وظهر لي بالتتبع أن المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ قد يورد بعض الأحاديث بالمعنى وكأنه كان يكتب في تلك اللحظة من حفظه، وهذا سيمر معنا في مواضع، وكان لحفيد المؤلف الشيخ سليمان رَحِمَهُ اللَّهُ عناية بتتبع هذه المواضع، ويبين الفروق بين ما أورد المؤلف وبين ما هو موجود في مصادر التخريج.

الشاهد أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمَره أن يكون الأول في مقام الدعوة هو توحيد الله، هو الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله، هو أن يعبدوا الله وحده لا شريك له.

ثم قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ** -أو قال: أطاعوا لك بذلك- **فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ**»؛ وهذا يدلك على أن

الواجب على المسلم هي الصلوات الخمس وصلاة الجمعة، وأن الوتر ليس بواجب على الصحيح؛ لأن بعْث معاذ رضي الله عنه كان متأخرًا.

قال: «فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ، فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ الله افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً» ؛ صدقة هنا هي: الزكاة. والصدقة تطلق في الشرع وفي لسان الفقهاء:

- على الواجبة؛ يعني الزكاة.
- وعلى صدقة التطوع.

والوارد هنا هو الواجب يعني الزكاة، على نحو قول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾[التوبة:١٠٣]، ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ﴾[التوبة:٦٠]، هذه كلها الزكاة.

قال: «تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ» ؛ وهذا يدل على أنَّ الكافر لا يُعطى من الزكاة، زكاة المال الواجبة لا يعطاها الكافر لهذا الحديث.

ثم قال: «فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ، فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ»؛ يعني: الأموال النفيسة عند أصحابها لا ينبغي عليك أن تأخذها في الزكاة، إلا إذا سمح صاحبها بها، إنَّما المطلوب أن يأخذ من أوسطها، فلا يجوز للوالي أو العامل أن يأخذ كرائم الأموال، ولا يجوز لصاحب المال أن يبذل أسوأ ماله، إنما الواجب أن يُعطى الأوسط من المال.

قال: «واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب» ؛ مقبولة لا تردُّ من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وهنا بحث عند أهل العلم وهو: السبب في اقتصار النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الصلاة والزكاة دون الصوم والحج.

-من أهل العلم من قال: إنه لم يذكر الصوم والحج لأنهما لم يفرضا بعد. ولكن هذا ضعيف؛ لأنَّ بعث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ متأخر في السنة العاشرة.

-وقيل: إنَّ الصوم لم يُذكر لأنه عبادةٌ خفية، وإنما نبه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى العبادة الظاهرة، والحج لا يجب على كل أحد. ولكن هذا فيه نظر أيضا فالزكاة قد تكون ظاهرة وقد تكون خفية، والحج كما أنه لا يجب على كل أحد فالزكاة أيضا لا تجب على كل أحد.

والأقرب -والله أعلم- جوابان:

- إما أن يقال: إن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اقتصر على أعظم الواجبات؛ وهو التوحيد، ثم الصلاة، ثم الزكاة؛ فهذه الثلاثة هي أعظم الواجبات، ولذلك كَثُر في النصوص التنصيص عليها فحسب، وذلك أن هذه الثلاثة من أذعن بها فإنه سيذعن لما سواها بالتأكيد، يعني الذي سَهُلَ عليه أن يأتي بالتوحيد وبشهادة أن لا إله إلا الله وأن يصلي وأن يزكي، فإنَّ ما وراء ذلك سيكون عليه سهلًا؛ وذلك أن التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله ثقيلة على أهل الشرك، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إذا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾[الصافات:٣٥]، والصلاة ثقيلة إلا على الخاشعين، والزكاة لا شك أنها أيضا ثقيلة؛ كون الإنسان يعمد إلى ماله الذي اكتسبه بعد تعب -والمال حبيبٌ عند أصحابه- ثم يبذله طواعية لغيره! هذا أمرٌ لا يسهل إلا على من يسر الله عَزَّوَجَلَّ ذلك عليه، فإذا أدى هذه الأمور فما بعدها فإنه سيكون سهلًا.

• **وقيل** -وهذا أيضًا جواب فيه وجاهة- : إن بعثة معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كانت في شهر ربيع الأول، وبينه وبين رمضان نحو خمسة أشهر، فلعله أراد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يُؤخر الكلام عن الصوم ثم الحج لأنَّه وراء رمضان، أراد أن يؤخره إلى الوقت الذي تكون نفوسهم قد أقبلت على الإسلام وحَسُن إسلامهم، من باب التدرج في الدعوة، والله تعالى أعلم.

الشاهد في هذا الحديث: أنَّ أول الواجبات في الدعوة إنما هو الدعوة إلى التوحيد وإلى شهادة أن لا إله إلا الله، وهذا هو بيت القصيد في إيراد المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ لهذا الحديث تحت هذا الباب. والله تعالى أعلم.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (**وَلَهُمَا عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ يَوْمَ خَيْبَرَ: «لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ، يَفْتَحُ اللهُ عَلَى يَدَيْهِ»، فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ لَيْلَتَهُمْ، أَيُّهُمْ يُعْطَاهَا، فَلَمَّا أَصْبَحُوا غَدَوْا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، كُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَاهَا، فَقَالَ: «أَيْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ؟»، فَقِيلَ: هُوَ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ، فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ فَأُتِيَ بِهِ، فَبَصَقَ فِي عَيْنَيْهِ وَدَعَا لَهُ؛ فَبَرَأَ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ، فَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ وَقَالَ: «انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلَامِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللهِ تَعَالَى فِيهِ، فَوَاللهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ». «يَدُوكُونَ» أَيْ: يَخُوضُونَ**).

هذا حديث سهل بن سعد بن مالك الأنصاري؛ صحابي جليل من صغار الصحابة وأبوه صحابيٌ أيضا، وهو مخرج في الصحيحين، وفيه بيان قصة إعطاء

النبي ﷺ الراية يوم خيبر لعليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو كما يقول أهل العلم من أصح الأحاديث في فضل علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه.

النبي ﷺ غزا خيبر سنة سبع على الصحيح، وقيل سنة ست، وامتد انتظارهم للفتح؛ فقد استعصت حصون خيبر على النبي ﷺ والمسلمين، انتظروا أكثر من عشرة أيام، وجاء عند أحمد وغيره أنَّ النبي ﷺ أعطى الراية أبا بكر، وكان معسكره دون حصون خيبر، فلمَّا ذهب عاد ولم يُفتح له، فأعطى الراية من غدٍ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ثم عاد فلم يُفتَح له.

ثم قال النبي ﷺ: «**لأعطين الراية غدًا رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله**»؛ الراية هي: العَلَم وذلك إذا كان منشورًا، العلم المنشور المفرود هذا يُسمى: «راية»، وكان من عادة العرب أن الراية تكون في الموضع الذي فيه القائد؛ لأجل أن ينحاز الناس إليه، وقد يحمله أمير الجيش وقد يحمله غيره، لكنَّ المهم أنه يكون في الموضع الذي يكون فيه القائد والأمير، هذا ما يتعلق بالراية. ويفرِّقون بين «الراية» و«اللواء»، اللواء هو: العلم الملوي، علم ولكنه ملوي مطوي [١١٨]. أما الراية فمنشور، وكانت راية النبي ﷺ سوداء، وكان لواءه أبيض.

---

(١١٨) وأهل اللُّغة كثيرٌ منهم يقول: بترادف «اللِّواء» و«الراية»، فالراية واللِّواء بمعنىً واحد، وبعضهم يُفرّق بينهما بأنَّ «الراية»: العَلَم المنشور، وأمَّا «اللِّواء»: العلَم الذي لُوِيَ، إمَّا لُوِيَ أعلاه أو لُوِيَ كلُّه، وبعضهم يذكر غير هذا الفرق.

الشاهد أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أخبر أنه سيعطي الراية غدًا «**رجلًا يحُّب اللهَ ورسولَه ويحبه اللهُ ورسولُه**»؛ وهذا فيه إثباتُ المحبة من طرفيها:

الله جَلَّوَعَلَا يحب كما أنه سبحانه يُحَب، ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾[المائدة:٥٤]، وهذا على خلاف طريقة أهل البدع، منهم من أنكر المحبة من طرفيها، فالله عندهم -ويا لله العجب من هذا القول الغريب العجيب!- الله عندهم لا يُحَب، إنَّما تُحب الجنَّة، يُحب ما فيها من الحور العين وأنواعِ الملاذ، أمَّا الله فلا يُحَب. إذًا ما قيمة هذه العبادة؟! محبة الله جَلَّوَعَلَا لبُّ العبادة ورأسها والمُحرك إليها، فأيُّ عبادة هذه إذا لم يكن هناك محبةٌ لله جَلَّوَعَلَا!!.

والطرف الآخر: أن يحب اللهُ عبادَه، والله جَلَّوَعَلَا يحب المؤمنين، وجاء التنصيص في القرآن والسنة على محبة أصنافٍ من المؤمنين؛ كالتوابين والمتطهرين، كذلك يحب الله جَلَّوَعَلَا أزمانًا، ويحب الله أمكنة، ويحب الله بقاعًا، من تتبع ذلك في النصوص ظهر له.

الشاهد أنَّ هذا فيه إثبات المحبة من الطرفين، الله عَزَّوَجَلَّ يحبُّ عباده، وعباده يحبونه، ولذلك كان اسمه «الودود»، والودود على الصحيح فعول بمعنى: فاعل، وفعول بمعنى: مفعول، وهو ودود بمعنى وادٌّ، وودود بمعنى مودود، وكلاهما حق.

قال: «**لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ، يَفْتَحُ اللهُ عَلَى يَدَيْهِ**»[١١٩] ؛ وهذا فيه علمٌ من أعلام النبوة، **وهذا الحديث فيه موطنان يدلان على ذلك:**

-**أولًا:** إخباره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّ الفتح سيكون غدًا ، وكان ما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

-**وثانيًا:** ما كان منه لعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حينما دعا له وبصق في عينه فبرئت عينه، وذلك علم من أعلام النبوة أيضًا -كما سيأتي الكلام عنه إن شاء الله-.

ثم إنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما أخبرهم بهذا الإنسان «**فباتوا يدوكون ليلتهم**»؛ يدكون: يخوضون ويتحدثون، وأصل الدوكة في اللغة: الاختلاف والخصومة، وهذا كنايةٌ عن أنَّ الأمر كان شغلًا شاغلًا كانوا يتحدثون ويخوضون فيه كثيرًا في تلك الليلة، حتى إنَّ حرصهم على هذا الأمر العظيم ، كل واحد كان حريصًا على أن يكون المقصود وأن يكون قد شهد له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأن الله يحبه وأنه يحب الله، هذه البشارة أنْستهم البشارة الأخرى وهي أنَّه سيكون غدًا الفتح، وهذا فيه حرص الصحابة على الخير، حرصهم على أن ينالوا المراتب العظيمة التي تقربهم إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: «**فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ لَيْلَتَهُمْ، أَيُّهُمْ يُعْطَاهَا، فَلَمَّا أَصْبَحُوا غَدَوْا عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَاهَا**»، حتى جاء عند البخاري أن

---

(١١٩) وهذا يدلك على أنَّ صِدْقَ الإيمان وأنَّ صِدْقَ محبة الله من أعظم أسباب النَّصر وتحقيق الفتوح، وأنَّ مَن قام بهذا الأمر فليبشر بالنصر والتمكين.

عمر صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «فتسوَّرت للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»؛ رفع نفسه لأجل أن يراه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[١٢٠] ، كذلك جاء عن بريدة صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «فتطاولت للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» حتى يراني لعلي أكون أنا المقصود.

أمَّا علي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلم يكن في ذلك الوقت معهم، علي ﷺ كان قد تأخر في المدينة فإنَّه كان مُصابًا في عينيه، ثم إنَّه قال: أأتخلف عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟! فحرك دابته ولحِقَ بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من تلك الليلة، وصل إلى خيبر حيث النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ولكنَّ الوجع منعه أن يغدو إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وهذا كما ذكر المؤلف في مسائل الباب فيه الإيمان بالقَدَر، حيث إنَّه لم يُعطاها الذي بادر وغدا إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأُعطيها الذي تأخر، ولا شك أنَّ علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كان عنده من الحرص ما عند بقية الصحابة لكن منعه الوجع.

فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَيْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ؟**» فأخبروه أنه «**يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ**»، [١٢١]كان به الرمد، الرمد: مرض معروف يصيب العين. فطلبه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

---

(١٢٠) وجاء في حديث مسلم من حديث أبي هريرة؛ أنَّ عمرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «فما حرصتُ على الإمارة إلا يومئذٍ» ؛ يريد أن يكون هو الذي بُشِّرَ بهذه البشارة العظيمة وهو أنَّه (**يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ**).

(١٢١) وجاء في مسلم: أنَّه كان أرْمد.

جاء عند مسلم أن سلمة بن الأكوع رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ جاء يقود علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وهذا يدل على أنه كان مصابًا بشدة، وكان يتألم حتى إنه ما استطاع أن يمشي وحده.
وفي هذا وقفة وهي: أنَّ الأولياء لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا ، فكيف يملكون لغيرهم؟ هؤلاء الذين يدعون عليًا رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ويدعون الحسن والحسين وفاطمة، ويدعون البدوي والعيدروس وغيرهم، ليتأملوا مثل هذا الحديث؛ علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ لو كان له من الأمر شيء لدفع عن نفسه، لكنه لا يملك لنفسه شيئـًا، فضلًا عن أن يملك لغيره أيضـًا، بل النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وأصحابه حصل لهم ما تعلمون في غزوة خيبر ما حصل من العطش وشدة الحال، فدل هذا على أن الأمر كله لله، وعلى أن الرغبة ينبغي أن تكون إلى الله لا إلى المخلوقين.

الشاهد أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أرسل إليه فجاء يُقاد حتى وقف بين يدي النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ، فما كان منه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إلا أن فعل أمرين: (**فَبَصَقَ فِي عَيْنَيْهِ وَدَعَا لَهُ**) ، وجاء في خارج الصحيحين أنه بصق في راحة يده ثم دلك بها عينيه؛ فبرئ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، **وهذا فيه أمران:**

أولًا: أنَّ النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كان مجابَ الدعوة.

وثانيًا: أنَّ النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كان مباركًا بركةً ذاتية يتعدى أثرها إلى الغير، ولكنَّ النبّي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إنَّما هو سبب البركة، لا أنَّه مانح البركة، فالبركة من الله، يدلُّ على هذا ما جاء في البخاري من حديث ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنَّ النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وأصحابه كانوا في سفر فقلَّ الماء، فاشتكوا إلى النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فقال: (اطلبوا لي شيئا من ماء)، فأتوا بإناء فيه شيءٌ من ماء، فوضع يده فيه وقرأ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يقول ابن مسعود: فلقد رأيت الماء يفور من بين أصابع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -آيةٌ من آيات الله- ثم قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «حَيَّ عَلَى الطَّهُورِ الْمُبَارَكِ، وَالْبَرَكَةُ مِنَ اللهِ»، هذه قاعدة مهمة لا يغفل عنها المسلم: «وَالْبَرَكَةُ مِنَ اللهِ» ليست مني، هذا فيه تعويد الصحابة على تحقيق التوحيد، التعلق بالله لا بغيره.

الشاهد أنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما كان منه ذلك برئ من هذا الوجع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حتى جاء في غير الصحيحين أنه ما أشتكى عينيه بعد ذلك، ببركة دعاء وبصاق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ثم إنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعطاه الراية،[١٢٢] جاء في الصحيحين أن عليّاً سأل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «أقاتلهم على أن يكونوا مثلنا؟»، أقاتلهم مع حذف همزة الاستفهام، يعني كأنه قال: أأقاتلهم على أن يكونوا مثلنا؟. هنا بيَّن له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأمر المطلوب

قال: «**انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ**» يعني: على هُونك، على تؤدة، لا حاجة إلى الاستعجال.

«**انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ**» يعني حتى تصل إلى ما دون حصونهم، والحِصْنُ الذي بدأ به وفُتح له رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ثم توالى فتح بقية الحصون -

---

(١٢٢) المقصود أنَّ إعطاء هذه الراية لعليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دليلٌ على أنَّه هو الأمير، وهو الذي سيفتح الله عَزَّ وَجَلَّ عليه، وثبتت في حقّه هذه الفضيلة العظيمة، وهذا كما يقول أهل العلم: من أصح ما ثبت في فضل عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه.

لأن خيبر كان فيها حصون بعضها وراء بعض- ذكر الحافظ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الحصن كان اسمه حصن (القَموص)، وبعضهم قال: إنه (حصن ناعم)، وعلى كل حال كلاهما من حصون خيبر [(١٢٣)] .

الشاهد أنَّ النبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: « **حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلَامِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللهِ تَعَالَى فِيهِ**»؛ هذا هو موضع الشاهد، ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم أيضًا بحق الله فيه وهو التوحيد، ومفتاح ذلك: شهادة أن لا إله إلا الله، فطابق الحديث الترجمة (**الدُّعَاءِ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**).

وفي هذا الحديث أيضًا شاهدٌ آخر وهو في قوله: «**فَوَاللهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا**» ففيه فضل الدعوة إلى التوحيد.

الشاهد أنَّ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: « **ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلَامِ**»، جاء أيضا عند مسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال له: « امْشِ وَلَا تَلْتَفِتْ حَتَّى يَفْتَحَ اللهُ عَلَيْكَ » ، يقول أبو هريرة: «فَسَارَ عَلِيٌّ شَيْئًا ثُمَّ وَقَفَ وَلَمْ يَلْتَفِتْ»، استجابة تامة للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ودقةٌ عجيبة في المتابعة، وقف ولم

(١٢٣) وقد حصل -كما تعلمون في السيرة- أن فتحَ الله ﷻ عليه أحد هذه الحصون وهو (حصن ناعم)، وقِيلَ إنَّ اسمه غيره، فتح الله ﷻ عليه هذا الحصن، ثمَّ توالى بعد ذلك فتْح بقية الحصون، وقُتِلَ مَن قُتل من اليهود، حتى صالَح النبي ﷺ أهل خيبر على أن يكونوا عُمَّالًا في الزراعة، ولهم شطْر ما تُخرِجُ الأرض، وللنبي ﷺ شطرُ ذلك.

يلتفت «فَصَرَخَ يَا رَسُولَ اللهِ عَلَى مَاذَا أُقَاتِلُ النَّاسَ؟» قال: «قَاتِلْهُمْ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ فَقَدْ مَنَعُوا مِنْكَ دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلاَّ بِحَقِّهَا» ، فهذا أيضا فيه شاهد لتبويب المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ (**بَابُ الدُّعَاءِ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**) وهذا ألصق بالتبويب، لأن فيه التنصيص على الشهادتين.

الشاهد أن في هذا فوائد:

من ذلك: قبول خبر الواحد؛ وهذه فائدة نأخذها من هذا الحديث ومن الحديث الذي قبله أيضا، وأن خبر الواحد إذا صح فإنَّه يفيد العلم والعمل؛ لأن الحجة قد قامت على أهل اليمن وعلى أهل خيبر بخبر واحد، وما الذي يترتب على هذا الخبر؟ يترتب عليه استباحة الدماء والأموال، بل يترتب عليه السعادة أو الشقاء، لو ردَّ أهل اليمن خبر معاذٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في مخلافه، أو خبر أبا موسى رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في مخلافه ثم ماتوا، ما مصيرهم؟ لا شك إنهم إلى النار خالدين مخلدين فيها، فكيف يقال بعد ذلك إنَّ هذا الأمر العظيم ترتب على أمر ظني!! لا يترتب مثل ذلك إلا على أمر قطعي، هذا أعظم الأمور، وكذلك الشأن في خبر علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ لأهل خيبر.

ثم فيه أيضا : دليلًا على مذهب أهل السنة والجماعة من أن أول الواجبات هو توحيد الله، وهو شهادة أن لا إله إلا الله؛ بخلاف مذاهب المتكلمين المبتدعة الذين قالوا إن أول واجب هو الشك، أو القصد إلى النظر، أو هو النظر، أو هو المعرفة، وكلها أقوال مخالفة للحق، لأن كون الإنسان يُطلب منه أن يشك وقد

بلغ درجة اليقين هذا من سفه العقل فضلًا عن أنه مخالف للشرع، وثانيًا: أن النظر والقصد إلى النظر والمعرفة التي يدور عليها كلامهم إنما تتعلق بتوحيد الربوبية، وهذا أمر الأصل فيه أنه فطري، ولذلك قالت الرسل لأممهم: ﴿أَفِي اللهِ شَكٌّ﴾[إبراهيم:١٠]،كيف يكون في وجود الله وفي ربوبيته شك؟ بل كيف يكون في إلهيته شك، وأنتم تقرون أنه الخالق الرازق المدبر سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؟!

قال: «**ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلَامِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللهِ تَعَالَى**»[١٢٤].

[١٢٥] «**فَوَاللهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا** -واللام على كل حال موطّئةٌ للقسم- **خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ**» ؛ هذا فيه أن الإسلام هداية الناس إليه أحب من قتالهم، بخلافِ ما يُروّج الأعداء عنه، القتال في الإسلام ليس مقصودًا لذاته، القتال في الإسلام مقصودٌ لغيره، لِم؟ لكي يهتديَ الناس، ولكي يكون الدين كله لله، ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾[البقرة:١٩٣]، هذا الذي جاء به الإسلام ، ليس الإسلام متشوِّقًا إلى سفك دماء الناس، كما يروِّجه أعداء الإسلام، حاشا وكلا . ولذلك انظر هنا كيف أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يوصي عليًّا رَضِيَٱللَّهُعَنْهُبأن يتلطف وأن يعتني بمقام الدعوة وأن يصبر، «**ادعهم إلى الإسلام،**

---

(١٢٤) الدعوة تكون إلى هذا الدين بأصوله وفروعه، ولكن ينبغي أن يسلُك الإنسان في ذلك مسلك التدريج كما مرَّ معنا في حديث معاذ.

(١٢٥) ثمَّ بيَّن النبي ﷺ له ما يُحفِّزهُ على أن ينشَطَ ويجتهد في الدعوة إلى الله ﷻ وفي بيان الحق فقال :

فلأنْ يهدي الله بك رجلا واحدًا خير لك من حمر النعم»، يعني احرص على هذا الفضل، وهذا لا يكون إلا بعناية وحرص واهتمام، فإنَّ استجاب النَّاسُ إلى التوحيد فالحمد لله، ما الحاجة إلى قتلهم؟ ما جاء الإسلام بهذا، بل حتى لو لم يستجيبوا لكنَّهم قبِلوا أن يكونوا تحت مظلة الإسلام ويدفعوا الجزية، فالإسلام يعصم دمائهم.

إذًا ليس الإسلام متشوفًا لسفك دماء الناس، القتال مرادٌ لغيره، ضرورة، إزالة العوائق، إماطة الأذى عن طريق الدين؛ هذا هو القتال في الإسلام، فمتى ما كان الطريق مفتوحًا والنَّاس مُقبلة فإنَّه لا حاجة حينئذٍ إلى هذا القتال، وكل كلامي يتعلق بجهاد الطلب.

قال: **«فَواللهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ»** ؛ فضيلة الدعوة إلى التوحيد، وأنَّ فوز الإنسان بهداية إنسانٍ واحد خيرٌ له من أن يكون له هذا المال العظيم الذي هو ثمين ومحبوب إلى النَّاس؛ حمر النعم يعني: الإبل الحمراء، وهذه كانت أَنفَسَ أموال العرب وأحبها إليهم.

و«النَّعم» و«الأنعام» بمعنًى واحد على الصحيح، قال بعضهم: النَّعم خاص بالإبل، والأنعام تشمل الأصناف الثلاثة؛ الإبل والبقر والغنم، لكنَّ الصحيح: أن النعم تشمل الأصناف الثلاثة أيضا كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾[المائدة:٩٥]، وهذا يشمل الأصناف الثلاثة[١٢٦].

---

(١٢٦) لكنَّ المقصود في هذا الحديث: الإبل خاصة، الإبل التي لونها أحمر وهذه أنفس من غيرها وأحبُ إلى أهلها.

فدل هذا على أنَّ من هدى الله عَزَّوَجَلَّ على يديه أحدًا، والهداية هنا هي هدايةُ التوفيق، «لَأَنْ يَهْدِيَ اللهُ» الأمر إلى الله. «بِكَ» أنت السبب، «رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ».



قال المصنف رحمه الله:

٦-بَابُ
تَفْسِيرِ التَّوْحِيدِ، وَشَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله

وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: ٥٧].

وَقَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ [الزخرف: ٢٦-٢٧].

وَقَوْلِهِ: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ﴾ [التوبة: ٣١].

وَقَوْلِهِ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وَفِي «الصَّحِيحِ» عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ، وَحِسَابُهُ عَلَى اللهِ عز وجل».

وَشَرْحُ هَذِهِ التَّرْجَمَةِ: مَا بَعْدَهَا مِنَ الأَبْوَابِ.

❊ ❊ ❊ ❊

قال الشارح وفقه الله:

يقول المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (بَابٌ تَفْسِيرِ التَّوْحِيدِ وَشهَادَةِ أَنْ لا إِلَهَ إلاَّ الله)، كأنِّي بالمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد أن بَوَّب الباب السابق، وهو في (بَابُ الدُّعَاءِ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله)، كأنِّي به يريد أن يقول: إنَّ الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله لابد أن تكون دعوةً فيها تفسير وفيها تفصيل وفيها بيان، لا يكفي أن تكون الدعوة لـ(لا إله إلا الله)، ولـ(توحيد الله) دعوةً مُجملة، فإنَّ الدعوة المُجملة في هذا المقام عديمة الفائدة أو قليلة الفائدة؛ فإنَّ الداعية إذا كان يصيح

في الناس فيقول: "عليكم بتوحيد الله، وقولوا: لا إله إلا الله"؛ لكنَّهم لا يعرفون معنى (لا إله إلا الله) ولا تفاصيلها؛ من أركانٍ وشروطٍ ونواقض، فإن انتفاعهم بهذه الدعوة إن كان فهو قليل، لذا لابد أن تكون دعوة أهل التوحيد دعوةً فيها تفصيل وفيها بيان، لتقوم الحجة على العباد، وهذا ما أراد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يُنبه عليه، ولذلك قال في خِتام هذا الباب: (**وَشَرْحُ هَذِهِ التَّرْجَمَةِ: مَا بَعْدَهَا مِنَ الأَبْوَابِ**)، فهذه افتتاحيةٌ تُبيّن لك أصل التوحيد، ثم بقية البيان يأتي في أبواب هذا الكتاب إن شاء الله.

ولاحظ أنَّ المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ عطف هاهُنا شهادة التوحيد على التوحيد، فقال: (**بَابُ تَفْسِيرِ التَّوْحِيدِ وَشهَادَةِ أَنْ لا إلَهَ إلاَّ اللّه**)، قال العلماء: هذا العطف من باب عطف الدالِّ على المدلول؛ فإنَّ (لا إله إلا الله) لها مدلول هو التوحيد، والتوحيد له ما يدل عليه، وهو (لا إله إلا الله)، فإذا أردت أن تعرف التوحيد فعليك أن تعرف ما يدل عليه؛ وهو لا إله إلا الله.

والتوحيد قد مَرَّ بنا تعريفه، وهذا الباب قد مضى بعض ما يتعلق به في الباب الأول أو في مقدمة الكتاب، ولكن المقام يستحق أن يُعاد ويُكرَّر فيه الكلام، فإنَّ كلَّ الموضوعات تقلُّ أهميتها وتتقاصر أهميتها أمام هذا الموضوع العظيم.

أقول إنَّ التوحيد قد مضى الكلام في تعريفه، فإنه: إفراد الله جَلَّ وَعَلَا بما يختص به. **والله جَلَّ وَعَلَا يختص بثلاثة أمور**: يختص بالربوبية، ويختص بالألوهية، ويختص بأسمائه وصفاته جَلَّ وَعَلَا؛ هذا هو التوحيد. وضده الشِّرك،

وقد يكون الشِّرك في الربوبية، وقد يكون في الألوهية -يعني العبادة-، وقد يكون في الأسماء والصفات.

و(لا إله إلا الله) دَلَّت على أنواع التوحيد الثلاثة:

-أما دلالتها على توحيد العبادة (يعني توحيد الألوهية) فبدلالة المُطابقة؛ دلالة المُطابقة: هي دلالة اللفظ على كامل المعنى، وتوحيد الألوهية : هو إفراد الله بالعبادة، والبراءة من عبادة كلِّ ما سواه، فمجموع الأمرين نفهمه من (لا إله إلا الله) بدلالة المُطابقة.

-وتدل (لا إله إلا الله) على توحيدي الربوبية والأسماء والصفات بدلالة اللزوم؛ فإن المعبود الحق لابدَّ أن يكون ربًا، والمعبود الحق لابدَّ أن يكون كاملًا في أسمائه وصفاته، فصارت (لا إله إلا الله) دالة بدلالة اللزوم على توحيدي الربوبية، والأسماء والصفات.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**بَابُ تَفْسِيرِ التَّوْحِيدِ**[١٢٧] **وَشَهَادَةِ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللّه**)؛ الشهادة في اللغة: إخبارٌ عن علمٍ، ويقين[١٢٨] .**هذه أمورٌ ثلاثة لا تكون الشهادةُ شهادةً إلا بها، وبيانها:**

❁ **أنَّه لابَدَ أولًا** من إخبار؛ لابد أن يُخبر الإنسان بلسانه عما يُكِنُّهُ قلبُه. إذًا لا ينفع الإنسان أن يعتقد معنى (لا إله إلا الله) دون أن ينطق بلسانه مع قدرته على النطق، فلو أنَّه اعتقد أنه لا معبود إلا الله، بل وفعل ما فعل من عبادة الله

---

(١٢٧) التفسيرُ هو: الكشف والتوضيح.

(١٢٨) والشهادة كما قال ابن فارس في «المُجْمل»: إخبارٌ عن علمٍ.

لكنه امتنع عن أن ينطق بـلا إله إلا الله مع عدم العذر، فإنه كافرٌ بإجماع المسلمين، وهذا من المعلوم بالضرورة من دين الله. إذًا لابد من نُطق، لابد من تلفظ، لابد من إخبار، لابد من أن يقول (لا إله إلا الله). إذًا إذا قال المسلم: "أشهد أن لا إله إلا الله" فإنه أولًا يُخْبِر.

❁ **وثانيًا**: لابد أن يكون إخباره عن علمٍ بما يشهد به، وهذا الذي يُعقل من كلمة الشهادة، أرأيت شاهدًا يشهد عند القاضي على شيءٍ يجهله، أتكون شهادته صحيحة؟ الجواب: لا، لابد أن يكون عالمًا بما يشهد به. إذًا لا بد من العلم بـ(لا إله إلا الله) حتى ينتفع بها، وحتى تكون شهادةً في حقه.

❁ **ثالثًا**: **لابد أيضًا من يقين**، لابد من قطع، لابد من ثبات، أما إذا قال لا إله إلا الله عالمًا بالمعنى؛ لكنه مُرتاب أو شاك أو متردد، فإنه ما أتى بالشهادة، فلابد إذًا حينما ينطق الإنسان بـلا إله إلا الله أن تكون شهادة.

إذًا ليست (لا إله إلا الله) كلمةٌ تُقال باللسان فحسب، ولا شيئًا يُعتقد بالقلب فقط؛ إنما هي عقيدةٌ في القلب، وكلمةٌ تُقال، ولها لوازم على الجوارح كما سيأتي.

إذًا الخلاصة: أنَّ قول المسلم (أشهد) يعني: أُخبر وأنطق بما أعلمُ وأتيقن.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**شَهَادَةِ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّه**)؛ هذه الكلمة العظيمة (لا إله إلا الله) أحسن الكلام، وأعذب الكلام، وأعظم الكلام.

(لا إله إلا الله) هي الكلمة الطيبة، وهي أحسن القول، وهي الحُسنى، وهي القول الثابت، هي التي خَلق الله الخَلْق من أجلها، وخَلق الجنة والنار من أجلها، وهي العاصمة للنفس والمال.

(لا إله إلا الله) بها تُؤخذ الصُحف بالأيْمَان أو الشمائل، وبها تَثْقُل الموازين أو تخِف، وهي التي أُسِّست من أجلها الملة، وهي التي لأجلها انقسم النَّاس إلى شقيٍ أو سعيد، وإلى مُقرَّبٍ أو طريد.

(لا إله إلا الله) هي الدِّين؛ أوله وآخره، وظاهره وباطنه، ولا يمكن أن يصل الإنسان إلى الله إلا إذا تعلق بهذا السبب، (لا إله إلا الله) هي السبب والحبل الذي من تمسك به وصل إلى الله عَزَّوَجَلَّ وإلى رحمته.

(لا إله إلا الله) هي مفتاح السعادة، وهي مفتاح دار السلام، وأسعد الناس بشفاعة النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من جاء بها صدقًا من قلبه.

إذًا كلمةٌ هذا قدرُها وهذه مكانتها حَريةٌ أن يُريها المسلم ما تستحق من العناية والاهتمام والمعرفة والدراسة والتأمل؛ فإن الخير كله في الدنيا والآخرة مُعلَّقٌ ومنوطٌ بالإتيان بها وتحقيقها والكف عما ينقضها، والمسلم مُطالَب أن يعلم هذه الكلمة بوجوب، هذا قدْرٌ لا يُعذر الإنسان فيه، ولا يُسامح فيه، بل يجب عليه أن يعرف هذه الكلمة، **وهذه المعرفة تتعلق بأربعةِ مباحث:**

❁ **المبحث الأول**: أن يعلم معناها.

❁ **والمبحث الثاني**: أركانها.

❁ **والمبحث الثالث**: شروطها.

❁ **والمبحث الرابع**: نواقضها.

هذه أربعةُ مباحث لابدَّ منها حتى تكون قد قمتَ بهذا الواجب عليك وهو أن تشهد أن لا إله إلا الله؛ لابدَّ من العلم بمعناها، ولابدَّ أن تعرف أركانها، ولابد أن تُحيط بشروطها، ولابد أيضًا أن تتعرف على نواقضها حتى تكون في منأىً عنها، فلا إله إلا الله لها شروط، ولها معنى، ولها أركان، ولها نواقض؛ كالطهارة وكالصلاة، لابد أن تعرف ما هي الصلاة وما هي الطهارة، ولابد أن تعرف أركان ذلك حتى تأتي به، لابد أيضًا أن تلتزم بهذه الشروط التي للطهارة والصلاة، وكذلك للا إله إلا الله، وأيضًا حتى تنتفع بطهارتك وصلاتك لابد أن تكف عن نواقضها، وهذا فرعٌ عن العلم بذلك.

أما معنى لا إله إلا الله فهذه الكلمة كما ترى مُشتملةٌ على أربعة أشياء:

◉ لا. ◉ إله. ◉ إلا. ◉ الله.

أَمَّا (لا) : فإنها حرف نفي، وهي التي تُعرف عند أهل اللغة بـ (لا النافية للجنس العاملة عمل إنَّ)، فهي و(إنَّ) ضدان؛ (لا) للنفي، و(إن) للإثبات، وحق النقيض أن يُخرَّج على حق نقيضه، فإذا كانت (إنَّ) لها اسمٌ ولها خبر، فـ(لا) أيضًا لها اسمٌ ولها خبر، ولذا نقول: لا النافية للجنس العاملة عمل إنَّ، تُسمى أيضًا عن اللُغويين بـ (لا التبرئة)؛ لأنها تُبرِّئ جنس اسمها من مضمون خبرها.

في قولنا (لا إله) هذا الأسلوب أبلغُ ما يكون من النفي، فتلاحظ أولًا أنه جيء بـ(لا)، وما جيء بـ(ما)؛ لأن (لا) أبلغ في النفي من (ما)، و(لا) هذه -كما قد علمت- هي العاملة عمل (إنَّ)، وليست العاملة عمل (ليس)، فـ(لا) التي

تعمل عمل (ليس) تنفي الوَحدة، تقول: لا أحدٌ في الدار، أو تقول: لا رجلٌ في الدار؛ لكن يمكن أن يكون هناك رجلان، أو ثلاثة؛ لأنَّها تنفي الوَحدة، أمَّا إذا قلت: لا رجل في الدار؛ لا واحد، ولا اثنين، ولا أكثر .

إذًا **أولًا**: جيء بـ(لا)، وما جيء بغيرها.

وثانيًا: أنَّ كلمة (إله) هنا مفردة، ما قيل: "لا آلهة إلا الله"؛ لأن نفي المفرد أبلغ في نفي الجنس، ثم إن النفي تسلط على (إله)، ومعلوم عند أهل اللغة والأصول أنَّ النكرة التي نُفيت أبلغ في العموم من النكرة التي هي في سياق النفي، فرقٌ بين الأمرين.

إذًا (لا) هذه حرف نفي، ونفيها نفي تنصيص، يعني: تدل بالتنصيص على نفي ما بعدها.

(لا إله) ؛ (إله): اسم (لا) وهو مبنيٌّ على الفتح في محل نصب. وكلمة (إله) في اللغة تعني: معبود، (إله) فِعَالْ بمعنى مفعول، كتاب بمعنى مكتوب، بساط بمعنى مبسوط، فراش بمعنى مفروش. إذًا (إله) بمعنى: مألوه، والعرب إنما تعرف من هذه الكلمة معنى العبادة؛ أله يألَه بمعنى: عَبَدَ يَعبُد، فـ(إله) إذًا بمعنى: معبود، وألَه بمعنى: عَبَدَ، وألوهية بمعنى: عُبودية أو عبادة.

لِلّه درُّ الغانيات المُدَّهِ ... سبَّحن واسترجعن من تألُّهِي

يعني: تَعَبُّدي.

إذًا (إله) تعني معبود، والأصل أنَّ هذه الكلمة لا تُجمع، لولا أنَّ الشياطين اجتالت المشركين فزينت لهم عبادة غير الله، وإلا فإنَّه لا أحد يستحق أن يكون إلهًا إلا الله؛ لكن مع الأسف الشديد عُبد غير الله، فصار هناك آلهة.

إذًا كل معبودٍ يصح تسميته لغةً إلهًا، ولكن قد يكون إلهًا بحق، وهذا لا يكون إلا في حق الله، وقد يكون إلهًا بباطل، وهذا كلُّ ما عُبِدَ سوى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ. ولا شك أنَّ المعبودات كثيرة؛ فالبشر قد عُبد، والشجر قد عُبد، والحجر قد عُبد، والشمس، والقمر، والكواكب، والحيوانات، أشياء كثيرة عُبدت، فهي آلهة، ولكنَّها آلهةٌ باطلة، وأما الإله الحق فهو الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

(لا إله إلا) ؛ (إلا): أداة استثناء، ولاحظ أنَّه جيء هنا بـ(لا)، و(إلا)، وهذا الأسلوب الذي فيه النفي والإثبات أبلغ أساليب الحصر؛ وذلك لإثبات العبادة لله وحده لا شريك له، ونفي العبادة عمَّا سواه.

هنا نحتاج إلى أن نعرف الخبر؛ لأننا قلنا إن (لا) تعمل عمل (إنَّ)، فلها اسمٌ ولها خبر، فما هو خبر (لا)؟ قال بعضهم: إنه اسم الجلالة (الله)، ولكن هذا غير صحيح، لأنَّ (لا) إنما تعمل في نكرة، واسم الجلالة (الله) أعرف المعارف.

وينبغي أن تعلم هُنا أنه يُكثر عند العرب نفي خبر (لا) إذا كان معلومًا عند السامع، أو دَلَّت قرينةٌ عليه، وهذا كثيرٌ في كلام العرب لاسيما عند أهل الحجاز، ولاسيما بعد (إلا) ، حتى إن من العرب كبني تميم والطائيّين كانوا يلتزمون

ذلك، وله نظائر في اللغة، بل في كتاب الله: ﴿قَالُوا لا ضَيْرَ﴾ [الشعراء:٥٠]، «لاَ ضَرَرَ وَلاَ ضِرَارَ»، «لَا عَدْوَى وَلَا طِيَرَةَ». لأجل هذا كان يقول ابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَشَاعَ فِي ذَا البَابِ إِسْقَاطُ الخَبَرْ   إِذَاَ المُرَادُ مَعْ سُقُوطِهِ ظَهَرْ

واجتهد النَّاس في معرفة الخبر هاهنا(١٢٩)؛ فمنهم من قدَّره بـ(موجود)، فقال: "لا إله موجودٌ إلا الله"، **ولا شك أنَّ هذا التقدير غيرُ صحيح؛ لأنَّه يترتب عليه أحد لازمين:**

◉ **الأول**: نفي حقيقةٍ لا تُجحد وهي: ألا يكون قد عُبد إلا الله، وهذا غير صحيح، فالواقع أنَّه عُبد غيرُ الله، قال جَلَّوَعَلَا عن الأنبياء: ﴿أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللهِ تُرِيدُونَ﴾ [الصافات:٨٦]، وأمَّا المشركون فكانوا يقولون كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ [ص:٥]، فلا يصح أن نقول إنه لم يُعبد إلا الله، بل عُبد غير الله، وإن كانت عبادة غير الله باطلة لكنها موجودة، والآلهة موجودة.

◉ **أمَّا اللازم الثاني**: فالوقوع في مذهب أهل الحُلول أو وَحْدة الوجود الذين يزعمون أنَّ كل ما عُبد فهو الله؛ إنَّما هو صورة وتجسيد لحقيقةٍ واحدة، فكل معبود هو في الحقيقة الله، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا، وهذا المَذْهب من أخبث مذاهب أهل الكفر. إذًا هذا التقدير غير صحيح.

---

(١٢٩) وبعضهم كالفخْري الرَّازي وتبعه على هذا جماعةٌ من المتكلّمين رأوا أنَّه لا حاجة إلى تقدير الخبر بلْ الخبر (إلا الله)، وهذا عند المحقّقين ليس بجيّد، وإنما الذي جرى عليه جُلُّ كلام العرب هو: تقدير الخبر.

بعضهم قدَّره بـ:(لنا)؛ "لا معبود لنا إلا الله"، وهذا أيضًا ليس بجيد لأنه يَفْهَمُ أحدٌ أن الإله لنا هو الله، ويجوز أن يكون لغيرنا إلهٌ آخر.

إذًا الحق الذي لا شك فيه هو أنَّ الخبر لـ(لا) هو: (حقٌ) أو (بحقٍ)؛ "لا معبود أو لا إله حقٌ"، ولك أن تُقدِّر بشبه جملة : "لا معبود بحقٍ إلا الله"، وهذا ما دل عليه قول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ [الحج:٦٢]، وإذا علمنا ذلك علمنا حينئذٍ معنى: (لا إله إلا الله)، أي أنه لا معبود حقٌ إلا الله.

وبقي اسم الجلالة (الله) ، واختلف العلماء في إعرابه اختلافًا طويلًا، وهل هو منصوب أو مرفوع؟ والصحيحُ: أنَّه مرفوع، والصحيحُ في إعرابه: أنَّه بدلٌ عن الضمير المستكنّ في خبر (لا) المحذوف، وهذا أسلم وأبعدُ عن الكُلفة في إعراب هذه الكلمة.

الشاهدُ أنَّ (لا إله إلا الله) معناها الذي دلت عليه دون شكٍ ولا ريب هو: أنه لا معبود حقٌ إلا الله، بمعنى: نفي العبادة عما سوى الله، وإثباتها لله وحده. انتبه لهذا الأمر؛ نفيُ العبادة عما سوى الله، وإثباتها لله وحده.

إذًا (لا إله إلا الله) دلت على أمرين: على نفي وإثبات؛ وهذان هما رُكناها.

إذًا أركان (لا إله إلا الله) اثنان:

- **النفي،**
- **والإثبات.**

نفي العبادة عما سوى الله، وإثباتها لله وحده، ولا توحيد إلا باجتماع الأمرين: لابد من تجريد، ولابد من تفريد، وباجتماعهما يكون التوحيد.

أمَّا تجريدٌ فقط، نفيٌ فقط يدل عليه (لا إله)، فإن هذا ليس بشيء فضلًا عن أن يكون توحيدًا؛ لأنَّه عدم، والعدم ليس بشيء، فلو كرر الإنسان "لا إله" ألف مرة هل يكون أتى بالتوحيد؟ الجواب: لا، فالتجريد وحده ليس توحيدًا.

والتفريد وحده ليس توحيدًا، لو قال الإنسان: "الله إله"، هل دخل في الإسلام؟ الجواب: لا، لأنَّ الإثبات المجرد لا يمنع المشاركة، يمكن أن يُقال: "الله إله"، ويمكن أن يكون معه غيره؛ فالله إله، وعيسى أيضًا إله بناءً على قولنا إن كلمة التوحيد هي إثباتٌ فقط. ولا شك أن هذا أبطَل الباطل.

إذًا لا يكون التوحيد إلا باجتماع الأمرين: تجريد وتفريد، لابد من نفيٍ ولابد من إثبات، لابد من تخلية ولابد من تحلية. سيمر معنا -إن شاء الله- حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده الذي هو معاوية بن حيدة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لما سأل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «بأي شيء بعثك الله إلينا؟» قال: «بالإسلام»، قال: «وما آية الإسلام؟» ما هو هذا الإسلام؟ قال: «أن تقول: أسلمت وجهيَ لله وتخليت»، هذا هو معنى لا إله إلا الله أن تقول: «أسلمت وجهي لله» وهذا هو: (إلا الله)، «وتخليت»؛ تخليت عن عبادة كل ما سوى الله عَزَّوَجَلَّ، والحديث حديثٌ حسن خرجه أحمد، والنسائي، وغيرهما.

إذًا لا توحيد إلا باجتماع الأمرين: الولاء والبراء، النفي والإثبات، التجريد والتفريد، أما أحدهما فقط فإنه لا يغني عن الإنسان شيئًا.

وقد يقول قائل: من أين لك أن هذا هو معنى (لا إله إلا الله)؟ لا معبود حقٌ إلا الله؛ نفي العبادة عما سوى الله، وإثباتها لله وحده؛ أين لك هذا المعنى؟

الجواب: أن هذا المعنى في كتاب الله وفي سنة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أظهرُ المعاني وأوضحُ المسائل؛ أوضح ما يكون من دلالاتِ القرآن هو هذا المعنى الذي دلت عليه (لا إله إلا الله).

من ذلك: قول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ ﴾ [الحج:٦٢]، هذه في الحج، وفي لقمان: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [لقمان:٣٠].

تأمل قول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ ثم قال: ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[الزخرف:٢٧-٢٨]، هذه الكلمة هي (لا إله إلا الله)، انظر كيف عبَّر عنها بمعناها، وذلك بقوله: ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ﴾؛ هذا (لا إله)، ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ ؛هذا (إلا الله).

تأمل في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا﴾ انظر هذا معنى (لا إله إلا الله) الذي بُعثت به كل الرسل ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[النحل:٣٦]، إثباتٌ ونفي.

قال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ﴾ ماذا؟ ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾[البقرة:٢٥٦] هي (لا إله إلا الله) نفيٌ وإثبات.

قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا﴾ هذا النفي، ثم قال: ﴿وَأَنَابُوا إِلَى اللهِ لَهُمُ الْبُشْرَى﴾[الزمر:١٧] ، إذًا هؤلاء الذين أتوا بالنفي، والإثبات هم الذين لهم البشرى ولهم الرحمة.

تأمل في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾[الكهف:١٦]، نفيٌ وإثبات.

تأمل في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ* أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ﴾[الشعراء:٧٥-٧٦] ماذا؟ ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي﴾[الشعراء:٧٧]، هذا النفي، هذا (لا إله)، ثم قال: ﴿إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾[الشعراء:٧٧]، هذا هو الإثبات، هو (إلا الله).

تأمل في قول الله جَلَّوَعَلَا في حق إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا﴾ ماذا؟ ﴿مُسْلِمًا﴾[آل عمران:٦٧]، نفيٌ وإثبات، لأن معنى ﴿حَنِيفًا﴾ هو: مائلًا عن الشرك، وهذا يقتضي نفيَ الشرك، والبراءة من كل معبودٍ سوى الله، ثم كان ﴿مُسْلِمًا﴾ مستسلمًا لله عَزَّوَجَلَّ وحده، وهذا هو الإثبات.

إذًا الأدلة كثيرة في كتاب الله جَلَّوَعَلَا دلت على أن التوحيد هو مجموع النفي والإثبات.

أمَّا في سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فكذلك أحاديث كثيرة، منها -ما ذكرته لك قبل قليل، وهو- حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فسَّر الإسلام بقوله: «أن تقول: أسلمت وجهي لله وتخليت»، هذا بمعنى قول: (لا إله إلا الله).

من ذلك أيضًا الحديث المشهور حديثُ «الصحيحين» حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «بُني الإسلام على خمس» ما هي؟ «شهادة أن لا إله إلا الله...» إلى آخر الحديث، جاء في رواية عند «مسلم»: «على أن يُعبد الله، ويُكفَر بما دونه»،

إذًا (يُعبد الله ويُكفر بما دونه) تفسيرٌ لقول (لا إله إلا الله). لا إله إلا الله تعني: أن يُعبد الله وأن يُكفر بما دونه، الحديث فسَّر الحديث.

من ذلك أيضًا : حديث وفد عبد القيس وهو مُخرج في «الصحيحين»؛ قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لوفد عبد القيس: «آمركم بالإيمان بالله وحده، أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: شهادة أن لا إله إلا الله»، جاء في رواية عند مسلم «آمركم بأربع: أن تعبدوا الله ولا تُشركوا به شيئًا» هذا هو معنى (لا إله إلا الله). (لا إله): «لا تُشركوا به شيئًا»، (إلا الله): «أن تعبدوا الله».

إذًا هذه هي حقيقة (لا إله إلا الله)، وهذا هو معنى (لا إله إلا الله)، إذا علمت ذلك علمتَ أنَّ هناك خطأً كبيرًا في فهم هذه الكلمة وقع فيه فئام من الناس. **والغالب -يارعاك الله- أن يكون الخطأ في فهم (لا إله إلا الله) راجعًا إلى الخطأ في فهم أمرين:**

❁ **الأول**: الخطأ في تفسير كلمة (إله)، وما أكثره! كثيرٌ من الناس إذا قيل له: ما معنى إله؟ قال: خالق، وبالتالي تكون (لا إله إلا الله): لا خالق إلا الله، بعض الناس تسألهم: ما معنى إله؟ يقول: الإله هو القادر على الاختراع، أو يقول: إنه المُستغني عمن سواه والمفتقر إليه كل ما عداه، وهذا في الحقيقة راجعٌ إلى معنى (رب) وليس إلى معنى (إله)، وبين الكلمتين بونٌ شاسع؛ (رب) على زِنةِ اسم الفاعل أصلها: رابٌّ، وحُذفت الألف تخفيفًا فصارت (رب) ، وأما (إله) فعلى زِنَةِ اسم المفعول، فكيف نجعل اسم الفاعل بمعنى اسم المفعول، أو يكون اسم المفعول بمعنى اسم الفاعل؟!

إذًا بين المعنيين فرقٌ كبير؛ فالخالق، والقادر على الاختراع، والمُستغني عمن سواه، هذه كلها معاني الربوبية، وليس هذا مدلولَ (لا إله إلا الله) بالمُطابقة، نعم الله هو الخالق؛ لكن نحن نبحث في معنى (لا إله إلا الله) الذي دَلَّت عليه المطابقة، وهذا ليس هو معنى (لا إله إلا الله) الذي دَلَّت عليه المطابقة.

إذًا يُخطئ كثيرٌ من الناس حينما يفهمون من (لا إله إلا الله): لا خالق إلا الله، لا رازق إلا الله، وهذا الخطأ في فهم كلمة أدَّى إلى خطأٍ عظيم مع الأسف الشديد، ذلك أن هؤلاء ظنوا أن من اعتقد هذه العقيدة فإنَّه لا يضره ما فعل إذا كان يعتقد أنه لا خالق إلا الله؛ ولو دعا غير الله، ولو ذَبَحَ لغير الله، ولو تقرب بالنذر والطواف لغير الله، ولو جعل بينه وبين الله وسائط يستغيث بهم، لِمَ؟ لأنه يكون في اعتقاده ماذا فعل؟ أتى بـ"لا إله إلا الله"، وهذه لا تقدح في "لا إله إلا الله".

ولذلك إذا جئت إلى بعض هؤلاء وقلت: هذا شرك بالله، يقول: كيف يكون شرك وأنا أقول (لا إله إلا الله)! فتقول: وما معنى لا إله إلا الله؟ يقول: أنا أقول "لا خالق إلا الله" أعتقد أنه لا خالق ولا مُدبر إلا الله. فيا لله العجب! كيف أنَّ المشركين الذين هم أبو جهل، وأبو لهب، وأضرابهما كانوا أعلم بـ"لا إله إلا الله" -أعني بمعناها- ممن ينطق بها، هذا في الحقيقة من العجائب!

عجيبٌ أن ينطق بـ(لا إله إلا الله) من يجهل معناها، وأن يعلم معناها من كان مستكبرًا عن (لا إله إلا الله)! لِمَ؟ لأن المشركين لما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

لهم: «قولوا لا إله إلا الله تُفلحوا»، ماذا قالوا؟ ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص:٥]، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ﴾ ماذا؟ ﴿يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات:٣٥]، مستحيل! كيف نترك اللات، والعُزى، ومَناة؟

السؤال: لماذا أجابوا بهذا الجواب؟ ولماذا كان هذا موقفهم؟

الجواب: لأنهم علموا أن معنى (لا إله إلا الله) هو عبادة الله وحده، والبراءة من عبادة كل ما سواه، ولذا في الصحيح لما جاء النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إلى أبي طالب وهو على فراش الموت، وقال له النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «يا عماه، قل: لا إله إلا الله، كلمة»، انظر كيف يسهِّلها ويخففها عليه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ «كلمة أحاج لك بها عند الله»، فماذا قال أبو جهل الذي كان قرين السوء وجالسًا عند رأسه؟ قال له: «أترغب عن ملة عبد المطلب؟». لِمَ قال له هذا؟ لأنه فَهِمَ أن (لا إله إلا الله) تعني البراءة من عبادة كل ما سوى الله.

ووالله لو أن النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ جاء إلى المشركين، وقال لهم: قولوا لا إله إلا الله، وإن لا إله إلا الله تعني: أنه لا خالق إلا الله أكانوا يستكبرون؟ أكانوا يعادون؟ أكانوا يقاتلون؟ الجواب: لا، لأن هذه العقيدة كانوا يعتقدونها قبل بعثة النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وشاهد هذا في كتاب الله: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾[الزخرف:٨٧]، ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾[لقمان:٢٥]، ﴿قُلْ لِمَنِ الأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ* سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾[المؤمنون:٨٣-٨٤]. إذًا هذه عقيدةٌ ما كانوا يجحدونها؛ إنما الذي كان محل

الخلاف بين النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ والمشركين إنما هو قضية العبادة وإفراد الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بها، والبراءة من عبادة كل ما سواه.

إذًا هذا هو الخطأ الفادح الأول: الجهل بمعنى: إله.

❁ **الأمر الثاني**: في تقدير الخبر؛ من النَّاس من زعم أنَّ تقدير الخبر هو: (موجود)، وليس (بحق)، وبالتالي فإنهم ما فهموا (لا إله إلا الله) فهمًا صحيحًا، فوقعوا في الخلل الذي يؤدي إليه ما ذكرت لك من اللازميْن السابقيْن.

إذًا تلخص لنا أنَّ المعنى الذي دلت عليه (لا إله إلا الله) ، وهو الذي بُعث به النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وهو الذي يكون لا غير توحيدًا، وما سواه فإعراضٌ عن التوحيد: هو أن المسلم عليه أن يعبد الله وأن يبرأ من عبادة ما سواه. فلو أن الإنسان عَبَد الله؛ لكنه ما كفر بما يُعبد من دون الله، لو أن إنسانًا قال: لا إله إلا الله، قال: أنا أعبد الله، لا أتوجه بالعبادة لغيره؛ لكنه إذا مر على أُناسٍ يسجدون لقبر أو صنم فقال: "أنا ليس لي علاقة بهم، واللهُ أعلم هم مُصيبون أم مُخطئون، قد يكونوا مُصيبين، وقد يكونوا مُخطئين"، هل انتفع بـلا إله إلا الله؟ الجواب: لا، لِمَ؟ ما حصل له الشطر الأول، وهو نفي العبادة عمَّا سوى الله، لابد من الكفر بما يُعبد من دون الله، قال جَلَّوَعَلَا: ﴿مَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ﴾ هنا يكون قد أتى بـ"لا إله إلا الله" ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾[البقرة:٢٥٦].

إذًا حذارِ من الجهل أو الخلل في فهم لا إله إلا الله، فإن الإنسان إذا حصل منه هذا الخلل في (لا إله إلا الله) فأي صلاحٍ يأتي منه؟ لا يُنتفع بـلا إله إلا الله وبثمراتها إلا من حَسُن فهمه لهذه الكلمة العظيمة، وهذا أمرٌ من الأهمية بمكان.

إذًا عندنا: (معنى لا إله إلا الله)، وعندنا (أركان لا إله إلا الله)، وقلنا هما: النفي والإثبات[١٣٠]، وعندنا: (شروط لـــ: لا إله إلا الله).

---

(١٣٠) وقد فصَّل إمام الدعوة رَحِمَهُ اللَّهُ أهمَّ الأمور التي تنفيها (لا إله إلا الله)، وأهمّ الأمور التي تثبتها (لا إله إلا الله)؛ فبيَّن أن أهمّ ذلك مِمَّا تنفيه (لا إله إلا الله) أربعةُ أمور: الأرباب، والآلهة، والأنداد، والطواغيت.

- الأرباب ؛ فسَّر رَحِمَهُ اللَّهُ هذه الكلمة بقوله: «الربُّ من أفْتاك بخلاف الحقّ فأطعته على ذلك مُصدِّقًا» ، وسيمرُّ معَنا -إن شاء الله- في تفسير آية التوبة.

- وأمَّا الأنداد؛ فما صرَفَك عن الحقّ من أهل أو ولد، واستدلَّ بقول الله ﷻ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنَدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ﴾ [البقرة:١٦٥]. الأهل والأولاد صرفوا العبد عن التعلُق بالله ﷻ؛ لأنَّ المحبَّة قد عَظُمَت حتى ضارعت محبة الله ﷻ في القلب بلْ قد تغلبها، فأصبح هؤلاء الأهل والأولاد وما شاكل ذلك أندادًا، لا إله إلا الله تنفي ذلك.

- والإله؛ قال «الإله: هو ما قصدتَه لجلب نفعٍ أو دفع ضرّ»، يعني: تقصد شيئًا ما؛ حجرًا أو شجرًا أو وليًا أو ملكًا أو غير ذلك تقصده بعبادة، ترجو من وراء ذلك نفعًا أو دفع ضرّ، ترجوه لشفاعةٍ، ترجوه لأن يُقرِّبك إلى الله ﷻ، ترجوه لأن تُحصِّلَ نفعًا دنيويًا، أن يجيرك من العذاب، إلى غير ذلك؛ هذا قد اتخذته إلهًا.

- أمَّا الطواغيت؛ فقال: «الطاغوت: من عُبِدَ وهو راضٍ أو ترشَّح للعبادة».

هذه الأمور الأربعة أهمُّ ما تنفيه لا إله إلا الله. أمَّا ما تُثبته أشار رحمه الله إلى أربعة أمور، ومعلومٌ أن كلّ دين الله أن كلّ الإسلام مِمَّا تُثبتهُ لا إله إلا الله، لكن أهم ذلك أربعة أمور: الأول: القصْد؛ قال: «كونُك ما تقصد إلا الله ﷻ»، لا تبتغي، لا يتعلّق قلبُك إلا بالله ﷻ.

الركن من ماهية الشيء، والشرط لابد منه في الشيء لكنه خارجٌ عن ماهيته، فالطهارة شرطٌ في الصلاة، فهل هي جزء من الصلاة؟ أو أمرٌ مطلوبٌ في الصلاة؟ ولكن حقيقتها ليست من ماهية الصلاة.

إذًا (لا إله إلا الله) لها شروط؛ يسميها أهل العلم (قيودًا)، يسمونها (شروطًا)، يسمونها (حقوقًا) -عبِّر عنها بما شئت-، والعلماء منهم من يُجمِلها، ومنهم من يُفصِّلها، وعلماء التوحيد اعتنوا كثيرًا ببيان شروط (لا إله إلا الله)(١٣١)، ومنهم حفيد المؤلف؛ الشيخ عبد الرحمن بن حسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ صاحب فتح المجيد، فإنه قد حررها، فبلغت سبعة شروط:

وبشروطٍ سَبْعَةٍ قَدْ قُيِّدت وفي نُصُوصِ الشرع حقـًا وَرَدَت
فإنَّه لم ينتفع قَائِلُها بالنُّطق إلا حيث يستكمِلـها

ثانيًا: المحبة والتعظيم كما قال الله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥].

ثالثًا: الخوف والرجاء ، وهذه الأمور هي أعظمُ أعمال القلوب.

رابعًا: البراءة من الشرك وأهله؛ واسْتدل بآية الممتحنة: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة:٤].

(١٣١) ومن أحسن من بسط الكلام عنها وجَلَّ ذلك بنظمٍ بديع: الشيخ سليمان بن سحْمان رحمه الله في داليته المعروفة المُسماة «أشعة الأنوار في ماتضمنته لا إله إلا الله من بعض الأسرار»، تكلَّم عن لا إله إلا الله ومعناها، وعن هذه الشروط، وبيَّن المُراد منها، ثم عطف على هذا بيان جملةٍ من نواقض الإسلام في نظمٍ نافع يزيد على عشرين ومائة من الأبيات.

العلمُ واليقينُ والقبولُ والانقيادُ فادرِ ما أقولُ
والصدقُ والإخلاصُ والمحبة وفَّقك اللهِ لِمَا أحبه

ونظمها آخر بقوله:

علمٌ يقينٌ وإخلاصٌ وصدقُكَ محبةٍ وانقيادٍ والقبولِ لها

لعلنا نمر عليها مرورًا سريعًا حتى يكمل الانتفاع بهذا الدرس -إن شاء الله-:

❁ **أولًا: العلم**؛ لابد بأن يعلم بمعناها هذا أمرٌ واجب حتمي، قال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللهِ وَأَنْ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾[هود:١٤]، يعني: اعلموا أن لا إله إلا هو، قال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ﴾[محمد:١٩]. إذًا هذا قدرٌ واجب، ولا ينتفع بلا إله إلا الله إلا من علم هذا المعنى. ولذا النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ رتَّب في الحديث الصحيح دخول الجنة لمن قال لا إله إلا الله، وهو يعلم ذلك «من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة».إذًا لابد من العلم، وإلا أصبح الإنسان متكلمًا بكلامٍ هو فيه كالهاذي، كالنائم الذي يتكلم في نومه، لأنه يتكلم بشيءٍ غير مفهوم، كالهاذي الذي يقرأ كلامًا أعجميًا لا يُدرك له معنى. إذًا لابد أن ينطق الإنسان بلا إله إلا الله مستصحبًا العلم بذلك، وبذلك ينتفع بها، وبذلك تكون شهادةً في حقه ، يكون صادقًا إذا قال: " أشهد أن لا إله إلا الله".

❁ **ثانيًا: اليقين**؛ لابد أن يكون مستيقنًا بالمعنى غير شاكٍ ولا مُرتاب، وفي هذا يقول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾[الحجرات:١٥]، قال النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لأبي هريرة رَضِيَاللَّهُعَنْهُ: «فمن لقيت وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله مُستيقنًا بها قلبه، فبشره بالجنة».

❁ **ثالثًا: الإخلاص**؛ ليس المقصود هنا أن يُخلص العبادة لله، فهذا ما دلت عليه (لا إله إلا الله) بدلالة التضمن؛ إنما المقصود أن يكون مُخلصًا في نُطقه بـ (لا إله إلا الله)، حينما يقول (لا إله إلا الله) يريد بها وجه الله، أما لو كان ينطق بها، وهو يريد شيئًا من الدنيا، يريد أن يصاحب المسلمين أو يتاجر معهم، فقال "لا إله إلا الله" ليَكسَب ثقتهم، فإنه لا ينتفع بـلا إله إلا الله.

إذًا لابد من الإخلاص في قول لا إله إلا الله، وهذا ما دلت عليه أدلةٌ كثيرة فيها اشتراط الإخلاص في قول لا إله إلا الله، ومنها ما سيأتي الكلام عنه إن شاء الله في قادم الكتاب.

❁ **رابعًا: الصدق**؛ والصدق: مواطأة اللسان للقلب، لابد أن يواطئ لسانه قلبه، ينطق بشيء مستقرٍ في قلبه، فلو أنه قال (لا إله إلا الله) بلسانه، وقلبه مُكذبٌ بذلك، فإنه لا ينتفع بـ (لا إله إلا الله) كحال المنافقين، فالله جَلَّوَعَلَا شهد أن المنافقين كاذبون؛ ﴿وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾[المنافقون:١] مع كونهم كانوا يقولون (لا إله إلا الله)، وكانوا يقولون (محمدٌ رسول الله) صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

لاحظ هنا أنَّ عندنا يقين، وإخلاص، وصدق؛ هذه كلمات متقاربة المعنى لكن بينها فوارق دقيقة انتبه لها؛ الإخلاص يقابله: الشرك، فينتقض هذا الشرط في حق من كان مُشركًا في قول (لا إله إلا الله). أما الصدق فإنه يقابل: الكذب، وهذا ينتقض في حق المنافقين؛ لأنهم كانوا يقولون شيئًا بلسانهم لا يواطئ قلوبهم. عندنا يقين؛ واليقين يقابل: الشك، وهذا حال طائفة من المنافقين، قال الله جَلَّوَعَلَا عنهم: ﴿وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾[التوبة:٤٥]. إذًا

الإخلاص يُنافي حال المُشركين، والصدق واليقين يُنافي حال المُنافقين، وبين هذه الأمور الثلاثة تلازم في الغالب.

۞ **خامسًا: المحبة**؛ لابد أن يحب (لا إله إلا الله) وما دلت عليه (لا إله إلا الله)، ورأس ذلك وأساسه محبة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ولذا فأي إيمان وأي توحيد لمن لم يحب الله جَلَّوَعَلَا!!. وهذا هو حال أهل الإيمان دون شك: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾[البقرة:١٦٥].

وهذه المحبة -كما علمت- لها أصل، وهو محبة الله، ولها فرع وهو محبة المؤمنين وموالاتهم، فإن هذا من فروع شرط المحبة. ويلزم من هذه المحبة أيضًا بُغض المشركين، فالله جَلَّوَعَلَا أمرنا بأن نأتسِيَ بإبراهيم والذين معه: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ﴾[الممتحنة:٤].

وما الدين إلا الحب والبغض والولاء ... كذاك البراء من كل غاو ومعتدِ

۞ **سادسًا: القَبول**؛ والقَبول: يعني أن يتلقى الأخبار بالتصديق، ويتلقى الأحكام بالالتزام، انتبه لهذا.

(لا إله إلا الله) تقتضي من المسلم حتى يكون أتى بها بحق أن يحصل منه القبول بأن يتلقى هذين الأمرين؛ والإسلام إنما يحتوي على أخبار، ويحتوي على أحكام، فالقابل -الذي أتى بالقبول- هو من تلقى الأخبار بالتصديق،

فمهما جاءه من أخبارٍ في كتاب الله وسُنة رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ تلقاها بالتصديق، ولو أنه كذَّب الله أو رسوله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في كلمة بل في حرف فإنه نقض (لا إله إلا الله). إذًا لابد من تلقي الأخبار بالتصديق.

ولابد من تلقي الأحكام بالالتزام، بمعنى: يجب أن يعتقد أنَّه مُلزَم، ومُخاطَب، ومُطالَب، وعليه أن يُذعن لأحكام الله جَلَّوَعَلَا، بمعنى: لو اعتقد أنَّه يسعه الخروج عن شريعة النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وحُكمه فإنه انتقض في حقه قول لا إله إلا الله، كل حُكمٍ من أحكام الله وأحكام رسوله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يجب أن يلتزم به، يجب أن يُذعن له، يجب أن يخضع له، يجب أن يلتزم به؛ بغض النظر عن الفعل، الفعل شيء، والالتزام شيءٌ آخر؛ الفعل محكوم بالاستطاعة، وقد يقصِّر الإنسان فيكون عاصيًا، أما الالتزام فإنه لا يُسامح فيه الإنسان. يجب أن يعتقد أنه مُخاطب ومُلزم، فلو أنه قال مثلًا: الحج حُكمٌ أوجبه الله، يقول: "أنا سأحج"، ويحج فعلًا، ويقول مع ذلك: "الحج ليس واجبًا علي، لست مُلزمًا، الحج عليكم أنتم، أنتم تحجون، أنا لا يلزمني أن أحج"، نقول: هذا انتقض في حقه شرط لا إله إلا الله.

في حكم الله؛ لو أنه اعتقد أنه ليس مُلزمًا بحكم الله، والله جَلَّوَعَلَا يقول: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾[الأنعام:٥٧]، وأنه يسعه أن يتحاكم إلى غير حكم الله، وأنه لا يجب عليه أن يتحاكم إلى حكم الله، فنقول: لا شك أن هذا نقضٌ منه لشرط القبول.

لاحظ أننا نُفرق بين مسألتين: بين قبول والتزام، وبين فعل وعمل؛ فالفعل والعمل له أحكام، لكننا نتكلم في قضيةٍ عقدية، وهي قضية القبول، والالتزام، والإذعان، والخضوع لحكم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

إذًا ما معنى القبول؟ يتلقى الأخبار بالتصديق، ويتلقى الأحكام بالالتزام.

❁ **سابعًا: الانقياد؛** ومعنى الانقياد: أنه لما قال (لا إله إلا الله) وأخلص في قولها وأحبها وقَبِل فصدَّق والتزم، بقي الآن أن يقوم بالفعل بما التزم به وصدَّق به، وهذا هو المراد بقول الله جَلَّوَعَلَا ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾[النساء:١٢٥]، فإسلام الوجه: هو الانقياد؛ أن ينقاد بالفعل لأحكام الله جَلَّوَعَلَا، **وهذا ينتقض في حق اثنين:**

الأول: من وقع في الشرك؛ لأن من وقع في الشرك ما عمل بـ(لا إله إلا الله)، وما انقاد لـ (لا إله إلا الله) . إذًا لابد أن يعمل بالتوحيد، لابد أن يقوم به التوحيد بالفعل، وبالتالي فإذا أشرك مع الله شركًا أكبر فإنه يكون لم يَنْقَد، ما حصل منه انقياد، وبالتالي انتقض شرط الانقياد في حق المشرك، وإن قال (لا إله إلا الله)، نقول: أنت قلت "لا إله إلا الله"؛ لكن انتقض عندك شرط، فلا إله إلا الله تعني: أن تعمل بها، وذلك بأن تجعل العبادة لله جَلَّوَعَلَا وحده، فلما جعلتَ مع الله غيره في العبادة، ما حصل منك انقياد، فانتقضت في حقك (لا إله إلا الله).

ثانيا: في حق من تولى وأعرض عن طاعة الله ورسوله صَلَّىٰللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ؛ الأول عَبَد الله وعَبَد غيره، والثاني ما عَبَد الله، وهذا حال المنافقين الذين قال الله عَزَّوَجَلَّ في حقهم: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ

ذَلِكَ﴾ قال الله: ﴿وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾[النور:٤٧]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هؤلاء أتوا بالقول؛ لكنهم تولوا عن العمل»، ما عملوا، وهذا أمرٌ بدهي، فما معنى التوحيد؟ أليس هو عبادة الله وحده؟ إذًا لابد من عبادة، فأي توحيدٍ لمن لم يعبد؟ وأي فائدة من إيمانه بالنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو لا يُطيعه!! والله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ﴾[النساء:٦٤].

ولاحظ أننا نتحدث عن الإعراض والتولي عن طاعة الله بالكلية، وليس الذي حصل منه طاعةٌ في الجملة؛ بمعنى: فعل وترك، أطاع وعصى، ليس هذا الذي نتحدث عنه؛ إنَّما نتحدث عن شخصٍ تولى عن طاعة الله عَزَّوَجَلَّ بالكلية، وما فعل شيئًا مما أوجبه الله جَلَّ وَعَلَا، وبالتالي ما حصل منه شرط الانقياد، هذا لم يُسلِم وجهه لله.

إذًا السؤال الآن: ما الفرق بين القبول، والانقياد؟

الجواب: القبول أصلٌ ثمرته الانقياد، على أنه لا يُجحد أنَّ بين المعنيين تقارُبًا، ولذا قد تجد من أهل العلم من يستعملُ كلمةً في معنى الأخرى؛ لكن بالتفصيل الذي ذكرته لك لعله يزول هذا الاشتباه (١٣٢).

---

(١٣٢) **ويحسُن أن يُذكر في الختام الكلام عن هذه الكلمة العظيمة بعض اللّطائف** التي تضمنتها هذه الكلمة العظيمة، قد أشار إلى هذه اللطائف الزّرْكَشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «معنى لا إله إلا الله»، وهو كتابٌ لا بأس به وإن كان فيه أخطاء من جهة نقل كلام بعض المتكلّمين، فليس الكتاب صالحًا محْضًا، إنما فيه فوائد وفيه لطائف، وفيه هِناتٌ أيضًا. ومِمَّن أشار

في هذا الباب أورد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أربع آيات وحديثًا فيها بيان التوحيد إما بمعناه أو ببيان ضدِّه، كما سيأتي -إن شاء الله-.

إلى هذه اللطائف أيضًا الشيخ ابن قاسم في حاشيته على كتاب التوحيد، أشاروا إلى بعضٍ، وبعضهم أشار إلى غيرها.

- ذكروا أنَّ هذه الكلمة جميع حروفها جوفية ليس فيها شيءٌ من الحروف الشفوية؛ وهذا يدلُّك على أن هذه الكلمة لا تنفع صاحبها إلا إذا خرجت من القلب.
- وفيها لطيفةٌ أيضًا: وهي أنَّ هذه الكلمة هي كلمة الإخلاص، ولذلك يمكن أن تنطقها مُخلِصًا، تذكُر الله ﷻ بها مُخلِصًا دون أن يشعر بك أحد، تستطيع أن تنطق بها وأنت مُطبِقٌ على أسنانك فلا يشعر بك أحد.
- أيضًا من اللّطائف: أنَّها -أعني هذه الكلمة- لا نَقْط فيها، قالوا: وهذا إشارةٌ إلى التجريد، وأنَّ صاحبها لا بد أن يُجرِّد العُبودية عمَّا سوى الله ﷻ .
- وبعضهم أشار إلى لطيفةٍ في هذا وهي: أنَّها تمحو النقاط والنُكات التي تكون في القلب من المعاصي والسيئات.
- أيضًا من لطائفها: أنها -كما سبق- مشتملة على قسمين: «لا إله»، و«إلا الله»؛ تُلاحظ معي أن الشطر الأول فيه نقص «لا إله»، و«إلا» واسم الله العظيم «الله» زائد. ألف ولام تنقص هُنا وتزيد هنا.
- كذلك أن الشطر الأول مُخفَّف، والشطر الثاني مُثقّل؛ وفي هذا إشارة إلى أن المنفي خفيف ولا قيمة له وناقص، وأمَّا الشطر المُتعلق بالإثبات فإن الله ﷻ أكمل وأتمُّ أمرًا.

هذه لطائف تُذكر من باب المُلَح وليست من عُقَد العلم، وإنمَّا تُذكر من باب المُلح.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: ٥٧]).

أما الآية الأولى هي: آية الإسراء، وهي قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ لكن إنَّما يستبين تفسيرها بذكر ما قبلها: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلا تَحْوِيلًا * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾.

بيَّن حفيد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه إنما يستبين الاستدلال بالآية بذكر ما قبلها.

والحقُ أن وجه الدلالة يتبين من هذه الآية ومما قبلها أيضًا، وعليه **فتفسير التوحيد يتبين من هاتين الآيتين من وجهين:**

❁ **أولاً**: في الآية التي أوردها وهي قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾؛ هذه الآية نزلت -كما في الصحيحين عن ابن مسعودٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ- في قومٍ من الإنس كانوا يعبدون قومًا من الجن، فأسلم الجن وبقي الإنس على عبادتهم.

الله جَلَّوَعَلَا في هذه الآية يقول للمشركين: ﴿ادْعُوا﴾ قل: يا نبينا للمشركين: ﴿ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾، والأمر هاهنا للتهديد والتوبيخ والتحدي.

﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ أي: أنكم زعمتموهم آلهة من دون الله جَلَّوَعَلَا، والواقع أنهم ﴿فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلا تَحْوِيلًا * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ يعني: الذين يدعونهم هؤلاء المشركون هم ﴿يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ

﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾، بمعنى: أنَّ الآية فيها إنكارٌ على الذين عبدوا من يعبُد الله، هؤلاء الذين تدعونهم من دون الله هم أنفسهم يدعون ويعبدون الله جَلَّوَعَلَا.

﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ يعني: أولئك الذين يدعونهم هم ﴿يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾، فالمعبودون الذين تعبدونهم هم في الحقيقة عابدون لله ﴿يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾، فكيف تعبدون من يعبد الله جَلَّوَعَلَا؟! كان الأجدر بكم أن تعبدوا من هو المعبود دون أن يكون عابدا؛ وهو الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، أما أن تعبدوا عابدًا لله! فهذا قبيحٌ في العقل، لو كان هؤلاء معبودين حقًا ما عبدوا غيرهم، فلما عبدوا غيرهم دلَّ هذا على أنهم لا يستحقون العبادة.

إذًا هذه الآية في ذمٍّ وبيان جهالة هؤلاء الذين يعبدون معبوداتٍ هي أنفسها تَعْبُد الله؛ كالذين يعبدون المسيح أو أمه، أو يعبدون الملائكة، أو يعبدون الجن المؤمنين، أو يعبدون الأولياء الصالحين، والواقع أنَّ هؤلاء الذين عبدوهم هم يعبدون الله جَلَّوَعَلَا، فكيف يتأتى ذلك يا أيها العقلاء؟! فدل هذا على بيان التوحيد ببيان ضده، وهو حال المشركين، فإن حال المشركين أنهم يعبدون مع الله غيره. **إذًا التوحيد هو أن يُعبد الله وحده.**

❁ **ووجهٌ آخر:** وهو في قوله: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾، وفي الآية كما تلاحظ تقديم المعمول على العامل، والمعمول هنا هو الجار والمجرور، وتقديم المعمول على العامل كما هو مقررٌ في علم البلاغة من أساليب القصر، يعني: قَصْر الحكم على هذا الذي قُدِّمَ دون غيره، فالله جَلَّوَعَلَا وصف هؤلاء المؤمنين الذين عُبدوا مع الله جَلَّوَعَلَا ﴿يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ

﴿الْوَسِيلَةَ﴾، ما قال: يبتغون الوسيلة إلى ربهم، كما هو الأصل، لكنَّه قدَّم الجار والمجرور ليدل على أن العبادة وابتغاء الوسيلة لا يكون إلا لله وحده لا شريك له؛ فهذا يدل على حقيقة التوحيد، وأن التوحيد هو عبادة الله وحده لا شريك له.

فهذان وجهان من هذه الآية التي ذكرها المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وأما الوجه الثاني: وهو الذي في الآية التي قبلها، فذلك ببيان التوحيد أيضًا من خلال معرفة ضده، قال جَلَّوَعَلَا: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلا تَحْوِيلًا﴾، وهذه الآية في كل معبودٍ سوى الله جَلَّوَعَلَا، كل معبودٍ سوى الله جَلَّوَعَلَا ينطبق عليه ما جاء في هذه الآية، ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلا تَحْوِيلًا﴾، كل معبود، كل أحد دون الله جَلَّوَعَلَا لا يملك كشف الضر ولا يملك تحويلا؛ لا يملك كشف الضر بمعنى: أنه لا يملك إزالته ومحوه، ولا يملك على الأقل أن يُحوّله من محلٍ إلى آخر، ومن شخصٍ إلى آخر، فهؤلاء الذين عُبدوا أعجزُ من أن ينفعوا عابديهم، فكيف يُعبَدون؟!

العابد إنما يطلب بعبادته حصول النفع وزوال الضر، فإذا كان الذي عبده لا يقدِّم له شيئًا، لا ينفعه، لا يملك له شيئًا، إذًا ما الفائدة من عبادته؟! وصدق الله إذ قال: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾[الأعراف: ١٩٧]، لا يستطيعون أن ينصروكم يا معشر العابدين، بل هم أنفسهم لا يستطيعون نصر أنفسهم، لا يملكون لأنفسهم شيئًا، وهذا ينطبق على كل أحد حتى الأنبياء، وحتى الأولياء، وحتى الملائكة، وحتى الجن، كلٌ لا

يملك أن يكشف الضر، ولا أن يتصرف في هذا الكون إلا بمشيئة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، أمَّا الله وحده فهو الذي يفعل ما يشاء، وهو الذي بيده ملكوت كل شيء، وهو الذي بيده التدبير، وهو الذي يملك أن ينفع أو يضر سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، وما سواه فعبادته ضلالةٌ في العقل.

رأيتُ مرةً في إحدى الدول قبراً أو ضريحًا أصابته صاعقةٌ من السماء، ضريح يزعمون أنه لولي من أولياء الله، يتوجهون إليه بالدعاء والنذر والطواف والذبح، ومن عجيب تقدير الله أنه وحده أصابته الصاعقة من السماء دون بقية بيوت القرية، حتى إني رأيت حجارة هذا الضريح متناثرة، فقلت للإخوة الذين كانوا معي: أما كان في هذا عبرة لهؤلاء الذين يعبدون هذا الولي!! أما كان في هذا الذي يرون عبرة أنه ما استطاع أن يدفع عن نفسه، فكيف يستطيع أن يدفع عنهم!! فقالوا: قد قلنا لأهل القرية ذلك، فكان جوابهم أن قالوا: "إن الولي رجلٌ رحيم قال: أنا أتحملها دونكم".

يا لله العجب!! انظر كيف تلبيس إبليس على هؤلاء المساكين، فقلت لهم: عجيبٌ شأن هذا الإله الضعيف، أما كان يستطيع أن يدفعها بالكلية بدل أن تنزل على أم رأسه؟! فإبليس له تزيين في حال هؤلاء المشركين، يزين لهم الشرك بالله وعبادة غير الله، نسأل الله السلامة والعافية.

إذًا يتبين التوحيد من معرفة ضده، وهو عبادة غير الله. إذًا الشرك: عبادة غير الله، وبذا يتبين أن التوحيد: عبادة الله وحده لا شريك له، فإنه على حدِّ ما قال المتنبي:

ونَذيمُهُمْ وبهِمْ عَرَفْنَا فَضْلَهُ   وبِضِدّها تَتَبَيّنُ الأشْياءُ

فإذا عرفت الشرك فإنك ستعرف التوحيد، كما أنك إذا عرفت التوحيد ستعرف الشرك؛ لأن هذين ضدان لا يجتمعان، فمتى ما وُجد التوحيد فإنه لا يكون الشرك، ويُعرف أنه ضده، إذا كان التوحيد عبادة الله؛ فالشرك عبادة غير الله مع الله، والعكس صحيح.

إذًا هذان وجهان في بيان التوحيد وتفسير التوحيد، وتفسير شهادة أن لا إله إلا الله من هذه الآية.

وهاهنا وقفة عند قول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿**أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ**﴾[الإسراء: ٥٧]؛ الوسيلة ذُكرت في القرآن في هذا الموضع في آية الإسراء، وفي آية المائدة أيضًا: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾[المائدة: ٣٥]، والوسيلة في اللغة بمعنى: القربى.

إِذَا غَفَلَ الوَاشُونَ عُدْنَا لِوَصْلِنَا   وَعَادَ التَّصَافِي بَيْنَنَا والوَسَائِلُ

يعني: التقارب أو القربة، أو ما يكون به التقرب.

فالوسيلة في اللغة هي: القربة؛ هي التي يُتوصل بها ويُتقرب بها إلى الشيء، وهي أخص من الوسيلة -كما يقول الراغب في مفرداته- لأنها تتضمن معنى الرغبة.

إذًا ما يُتوصل ويُتقرب به إلى الشيء هذا يسمى الوسيلة، والله جَلَّوَعَلَا يُتقرب إليه ويُتوصل إلى رحمته بطاعته سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، ولا طاعة إلا باتباع نبيه محمدٍ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ. إذًا تبين لنا أن قوله: ﴿**يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ**﴾[الإسراء:

٥٧]، وأن قوله: ﴿اتَّقُوا اللهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾[المائدة: ٣٥] يعني: الطاعة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وذكر ابن كثيرٍ في تفسيره عند آية المائدة أن هذا لا خلاف فيه بين المفسرين، فالوسيلة بمعنى: القربة.

وذكر بعضهم أن الوسيلة: هي الحاجة، وروي هذا عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لما سأله نافع بن الأزرق عن الوسيلة، قال: الحاجة، قال: فهل تعرف هذا العرب في لغتها؟ قال: أمَا سمعت قول عنترة:

إنَّ الرِّجالَ لهمْ إليْكِ وَسِيلَةٌ ... إنْ يَأْخُذوكِ تَكَحَّلي وتخضَّبِي

ويكلمها على سبيل التحذير والإنذار؛ لأنها كانت تلومه على عنايته بفرسه، فبين لها في أبياتٍ ذكرها أن عنايته بفرسه في سبيل دفع الأعداء، وإلا فلو لم يعتنِ بهذا الفرس لكان ذلك من أسباب تغلُّب الأعداء عليه، وبالتالي سوف يأسرونك يا أيتها الزوجة، وبالتالي سوف تكون لهم إليكِ حاجة، وليس أمامك إلا أن تتكحلي وتتخضبي.

ويمكن أن يقال: إن الحاجة يمكن أن يعود معناها في حق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- يعني في حق ابتغاء الوسيلة إلى الله- إلى معنى القربة؛ فإن طلب الحاجة -يعني الدعاء والسؤال لله جَلَّ وَعَلَا - هو من جملة القرب التي يُتقرب بها إلى الله جَلَّ وَعَلَا ، فالدعاء هو العبادة كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الشاهد أن هذا هو الصواب الذي لاشك فيه، أن الوسيلة في هاتين الآيتين هي التقرب إلى الله سبحانه بطاعته، وبالتالي فإن الذي يروِّج له عُبَّادُ القبور من

أن الوسيلة هي الشيخ أو الولي الذي يقربك إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فلا يمكن أن تسير إلى الله إلا بوسيلة؛ هي الشيخ، هي السيد، هي الولي، الذي تتوجه إليه برغبتك، ورهبتك، وخضوعك، وتعبُّدك، وهو يرفع هذه التعبدات وهذه الطلبات والحاجات إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. والواقع أنَّ هذا الاعتقاد هو اعتقاد المشركين الأولين سواء بسواء، هو اعتقاد أبي جهل وأبي لهب، هم الذين قال الله فيهم: ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ﴾[يونس: ١٨]، ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى﴾[الزمر: ٣].

إذًا من أبطل الباطل بل من التلاعب بكتاب الله أن تُفسَّرَ الوسيلة بهذا التفسير، فهذا تفسيرٌ باطل محدث، بل هذه الوسيلة هي الكفر الأكبر المخرج من الملة.

إذًا عليك -يا رعاك الله- أن تعلم أن الوسيلة والواسطة بين العبد وبين ربه نوعان:

◉ وسيلةٌ نفيها كفر. ◉ ووسيلةٌ إثباتها كفر.

أما الوسيلة التي نفيها كفر: فهي وسيلةُ وواسطةُ الرسول في تبليغ شرع الله جَلَّ وَعَلَا؛ فالرسول وسيلةٌ وواسطةٌ بين العباد وبين الله عَزَّ وَجَلَّ في تبليغ الشريعة، فلا يمكن أن يعلم العباد شريعة الله -ما يحبه الله وما يبغضه- إلا من طريق الرسول، وبالتالي فنفي هذه الواسطة كفر.

أمَّا النَّوع الثاني فإنَّها الواسطة التي إثباتها كفر: وهي التي كان عليها المشركون قديمًا، وعليها المشركون حديثًا، وهي اتخاذ معبودات يتقرب إليها الإنسان، وهي تُقرب الإنسان إلى الله جَلَّوَعَلَا؛ فهذا حقيقة ما عليه المشركون.

إذًا تنبَّه إلى هذه المسألة المهمة، وهي أنَّ الوسيلة التي أمر الله جَلَّوَعَلَا بابتغائها، وهي التي كان يطلبها الصالحون من عباد الله هي طاعة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

بعض الناس حمل الوسيلة هاهنا على دعاء الله جَلَّوَعَلَا مع التوسل إليه بالجاه، والحق، والأنبياء، والأولياء، بمعنى: أنَّه يسأل الله فيقول: "يا الله أعطني أو أسألك بجاه فلان، أو بحق فلان، أو بفلان"، وكذلك الإقسام على الله: "اللهم أُقسم عليك بفلان إلا ما أعطيتني". والصواب أن هذا معنىً مُحدَث ومبتدع، ولم يقُله في هذه الآية أصحاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا السلف الصالح.

والصواب أن هذا التوسل توسلٌ بدعي لا يجوز، ليس شركًا بالله لكنه توسلٌ بدعي؛ لعدم الدليل الشرعي عليه، هذه أدعية النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين أيدينا، وهذه أدعية أصحاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين أيدينا، وهذه أدعية التابعين وأتباعهم لا نجد فيها شيئًا من هذا التوسل، ولو كان هذا خيرًا لسبقونا إليه، والله تعالى أعلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وَقَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾** [الزخرف: ٢٦-٢٧]).

هذه الآية من أعظم وأبين ما يفسر كلمة التوحيد ، شهادةِ أن لا إله إلا الله، وذلك أن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بينَّ معنى (لا إله إلا الله) في هذه الآية، ألا وهي ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ [١٣٣] مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي﴾، يعني: إلا الذي خلقني وهو الله عَزَّوَجَلَّ.

فهذه الآية جمعت ركني (لا إله إلا الله) النفي والإثبات؛ أما النفي: فهو قوله ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾، فهذا يقابل في كلمة التوحيد (لا إله)، وقوله: ﴿إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ فإنه يقابل في كلمة التوحيد (إلا الله).

---

(١٣٣) ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ﴾ أصل البراءة التخلّي، وقد بيَّن الله ﷻ حقيقة هذه البراءة التي كان عليها إبراهيم ﷺ في آية المُمتحِنة: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ ما حقيقة ذلك؟ قال: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة:٤].

ولاحظ أن إبراهيمَ ﷺ قد تبرَّأ من المعبودين قبل التبرؤ من المعبودات، وهذا يدلّك على أنَّه لا يكون توحيد ولا يصح توحيدٌ حتى تحصل البراءة من كل معبودٍ سوى الله ﷻ مهما كان؛ إله أو ربًا أو طاغوتًا أو نِدًا، كلّ ما يُتوجَّهُ إليه بالعبادة فيجب أن يتبرأ الإنسان من ذلك، ويجب أن يبغضه، ويجب أن يكفر به.

وكذلك بالنسبة لهؤلاء العابدين، لكن محبةُ العابدين الذين عَبدوا غير الله إن كانت لأجل قيامهم بهذا الشرك فهذه المحبة شرك كفر، وإن كانت لأجل غير ذلك فإنها معصيةٌ ونقصٌ في التوحيد، ولا تنقض التوحيد. أمَّا محبةُ وتصحيحُ عبادة غير الله فإنَّ ذلك لا شك أنَّه كُفرٌ بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ .

إذًا عبَّر عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ عن (لا إله إلا الله) بمعناها، ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ [الزخرف:٢٨]، هي: لا إله إلا الله، فلم يزل في عقبه وذريته من يقول: لا إله إلا الله، ومن يعمل بلا إله إلا الله.

إذًا هذه الآية تفسيرٌ واضح لمعنى (لا إله إلا الله)، فدخلت في هذا الباب بوضوح (بَابُ تَفْسِيرِ التَّوْحِيدِ وَشَهَادَةِ أَنْ لا إِلَهَ إلاَّ الله).

وقد بينَّ الله جَلَّوَعَلَا في مواضع من القرآن أن هذا قد تكرر من إبراهيم عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، وهذا في مواضع من كتاب الله؛ من ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٧٥-٧٧]، النفي والإثبات، البراءة والولاء، التخلية والتحلية، وهذا كله قد مضى الحديث فيه ، وقلنا: إنَّه لا يكون الإنسان متشهدًا شهادة التوحيد ولا قائمًا بلا إله إلا الله إلا إذا جمع بين الأمرين: النفي والإثبات؛ نفي عبادة ما سوى الله، وإثبات العبادة لله وحده؛ لأنَّ النفي المجرد عدم، والعدم ليس بتوحيد، والإثبات المجرد لا يمنع المشاركة، وهذا ليس بتوحيد، فالتوحيد مجموع الأمرين: التجريد والتفريد بمجموعها يكون التوحيد.

قال رَحِمَهُ‌ٱللَّهُ: (وَقَوْلِهِ:﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ﴾ [التوبة: ٣١]).

هذه الآية فيها بيانٌ لمعنى (لا إله إلا الله) من جهة بيان أو معرفة ضدها.

.... وبِضِدّها تَتبَيّنُ الأشْياءُ

فإنَّ من الشرك أن يتخذ الإنسان غير الله جَلَّوَعَلَا ربًا، ومن ذلك أن يطيعه في التحليل والتحريم مُصدقًا مُعتقِدا، فإنَّ هذا هو الذي جاء في هذه الآية في حال أهل الكتاب، أنهم ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ﴾[التوبة: ٣١].

﴿أَحْبَارَهُمْ﴾ يعني: علماءهم، أحبار: جمع حَبر أو حِبر، يجوز فيها الفتح ويجوز فيها الكسر، فالأحبار: هم العلماء، والرهبان: هم العُبَّاد، اتخذوهم أربابًا من دون الله بأن حرَّموا لهم الحلال أو أحلوا لهم الحرام، فأطاعوهم في ذلك معتقدين مصدِّقين، بمعنى أنهم قالوا لهم: إن هذا الأمر الحلال حرام فاعتقدوه حرامًا، أو أنَّ الأمر الحرام الذي حرَّمه الله جعلوه لهم حلالاً فاعتقدوا أنه حلال، من كان حاله كذلك فإنه قد وقع في الشرك بالله جَلَّوَعَلَا، وهذه الحال تضاد التوحيد، وبالتالي من التوحيد أن يُعتقد تحليل ما أحل الله وتحريم ما حرم الله، فمن خالف في ذلك فإنه يكون قد اتخذ مع الله جَلَّوَعَلَا ربًا، وهذا هو الشرك الذي هو ضد التوحيد.

ولاحظ أنه قال في هذه الآية: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا﴾، ولم يقل هاهنا: (آلهة)، وكأنَّ ذلك والله أعلم لأن شرك الطاعة إلى منافاة توحيد الربوبية أقرب منه إلى منافاة توحيد الألوهية، والله تعالى أعلم.

وعلى كل حال هذه الآية بوّب لها المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بابًا خاصًا سيأتي معنا إن شاء الله في قادم الكتاب، ونفصِّل القول فيه بمشيئة الله جَلَّوَعَلَا . لكن باختصار تنبه هنا إلى الفرق بين مقامين يغلطُ بعض الناس في عدم التفريق بينهما، وقد بينَّ ذلك أهل العلم المحققون كشيخ الإسلام ابن تيمية وغيره.

وذلك أن مسألة التحليل والتحريم تنقسم إلى حالتين:

◉ **الأولى:** أن يَأمر عالمٌ أو عابد أو مُقَدَّم آخر بأن يعتقد الحرام حلالاً، يقول له: الخمر حلال، فيعتقد ذلك ويصدق كلامه وهو يعلم حكم الله، أو يحرِّم الحلال، يقول: الخبز حرام، فيوافقه على ذلك ويعتقد أن الخبز حرام، مع علمه أن الله جَلَّوَعَلَا أحله؛ فهذا لاشك أنه شركٌ بالله عَزَّوَجَلَّ، ويدخل في قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ﴾.

◉ **أمَّا الحالة الثانية فهي:** أن يوافقه في العمل لا في الاعتقاد، بمعنى: أن يأمره بفعلٍ محرم فيفعله، مع اعتقاده أنه محرم؛ أمَره بشرب الخمر، فشرب الخمر مطيعًا لهذا الآمر دون اعتقاد أن الخمر حلال، بل هو لازال يعتقد أنها حرام، أو منعه من حلال فامتنع مع اعتقاده أنه حلال، فمثل هذا يرجع إلى باب المعاصي لا إلى باب الشرك الأكبر.

تنبه إلى الفرق بين الأمر، والمقام فيه بسطٌ سيأتي في محله إن شاء الله.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وَقَوْلِهِ:﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ﴾** [البقرة: ١٦٥]).

هذه الآية في سورة البقرة فيها بيان تفسير التوحيد من جهتين أيضًا:

◉ **أمَّا الأولى:** بمعرفة ضد التوحيد وهو الشرك، وهو ما بينه سبحانه من حال هؤلاء المشركين الذين يحبون غير الله كحب الله، فمن أحب غير الله كحب الله فإنه يكون قد أشرك مع الله، وهذا ضدُّ التوحيد، فالتوحيد: هو محبة الله عَزَّوَجَلَّ دون محبة من سواه محبةً كمحبة الله ، هذا هو التوحيد.

وما سوى الله فإنه يُحَب لأجل الله، أو بإذن الله، هذا هو التوحيد: أن يحب ما سوى الله لأجل الله، أو بإذن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، يأذن ويبيح سبحانه هذه المحبة فتكون حينئذٍ محبةً صحيحة، وما سوى ذلك فإن هذه المحبة قد تكون معصية.

وقد تكون شركًا بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وذلك إذا كان الإنسان حاله كحال هؤلاء المشركين الذين أحبوا غير الله كمحبة الله، منزلة ربهم سبحانه في قلوبهم هي منزلة هذه الآلهة والمعبودات التي أحبوها، يحبونها كحب الله، فلاشك أن هذا شركٌ بالله به يتبين معنى التوحيد.

◉ **ووجهٌ ثانٍ في الآية**: وهو في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾[البقرة:١٦٥]، هذا هو التوحيد أن يكون الله في قلبك أحب إليك من كل شيء، هذا هو حال أهل التوحيد؛ أن يكون أعظم محبوبٍ إليهم هو الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وبهذا يتبين لنا تفسير التوحيد؛ فمحبة الله فردٌ من أفرادِ التوحيد به يتبين كيف يُوحِّدُ الله، بأن يكون الله في قلب الإنسان أحبَّ إليه من كل شيء ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾.

قال رَحِمَهُٱللَّهُ : (وَفِي «الصَّحِيحِ» عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ، وَحِسَابُهُ عَلَى اللهِ ﷻ»).

ختم المؤلف رَحِمَهُٱللَّهُ هذا الباب بإيراد هذا الحديث، قال: (وَفِي «الصَّحِيحِ»): يعني في صحيح مسلم، وهذا الحديث حديث أبي مالكٍ الأشجعي عن أبيه، هو تابعي يروي عن أبيه، ولم يروِ عن أبيه إلا هو، أبوه طارق بن أشيم الأشجعي صحابي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

يروي هذا الصحابي الجليل عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن: «مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ»[١٣٤] ، لاحظ هذا القيد المهم في قوله: «وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ»، يقول: لا إله إلا الله مع كفره بما يُعبد من دون الله، هنا يكون مسلمًا، لِمَ؟ لأنه قال: «حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ»، وهذا هو المسلم « وَحِسَابُهُ عَلَى اللهِ»؛ لأن قاعدة الشريعة معاملة الناس بالظاهر، فمن كان قائلاً: لا إله إلا الله، وكفر بما يُعبد من دون الله، فإنه يكون مسلمًا فيحرم ماله ودمه[١٣٥] . إذًا هذا قيدٌ مهم يبين لك حقيقة (لا إله إلا الله)، وأنه لا يكون التوحيد إلا بالكفر بما يُعبد من دون الله.

قد يقول قائل: قد مر بنا أن (لا إله إلا الله) ركنان: لا إله، وإلا الله، و(لا إله إلا الله) هذا ركن هو الكفر بما يُعبد من دون الله، فما وجه ذكره في الحديث مع

---

(١٣٤) «مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» وهذا كما مرَّ معنا مقيّد باليقين والإخلاص، إلى غير ذلك مِمَّا ورَدَ.

وجاء في مسند أحمد رواية لهذا الحديث: «مَن وحَّد الله وكفر بما يُعبدُ من دون الله»؛ وهذا إن كان قد تكرَّر الحديث من رسول الله ﷺ فهو يدلّك على أنَّ (لا إله إلا الله) معناها هو التوحيد، وأنَّ التوحيد هو مدلولُ (لا إله إلا الله)، وإن كان ذلك من بعض الرُّواة -يعني أنه يروي بالمعنى أحيانًا- فهذا يدلُّك على أنَّ هذا هو فَهْمُ السّلف؛ وهو أنَّ (لا إله إلا الله) معناها هو التوحيد، وأن التوحيد هو مدلولُ (لا إله إلا الله).

(١٣٥) وهذا لأن القاعدة المُتقررة في الشريعة: أنَّ المعاملة على الظاهر؛ يُعامَل الإنسان بحسب ما ظهر منه، فإن كان صادقًا في الباطن فهو مأجورٌ ومُثاب عند الله ﷻ ، وإن كان كاذبًا كحال المنافقين فالله ﷻ يتولَّى حسابه، أمَّا في الدنيا فالعمل على الظاهر.

أنه داخلٌ في الشطر الأول؟ فمن قال (لا إله إلا الله) لا يقول هذا حقًا وصدقًا إلا إذا كان قد كفر بما يُعبد من دون الله! فما الحاجة لقوله بعد ذلك: «وكفر بما يُعبد من دون الله»؟

الجواب عن ذلك: أن عطف قوله: «وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ» هذا من باب عطف الخاص على العام، وإلا فـ(كفر بما يُعبد من دون الله)، هذه الجملة هي هي (لا إله)، ولكنه عطفها على (لا إله إلا الله) للتأكيد. والأمر كما قال حفيد المؤلف الشيخ عبد الرحمن في حاشيته، قال: (المقام يستحق التأكيد)، لاشك أن المقام مقامٌ عظيم يستحق أن يؤكَّد هذا المعنى، لاسيما مع كثرة الغفلة عنه، لاسيما في هذه الأزمان المتأخرة، كثيرٌ من الناس يغفل عن هذا المعنى العظيم، وهو الذي لا يكون توحيد إلا بوجوده، وهو أن يكفر بما يُعبد من دون الله، ولذا ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في آخر مسألة ذكرها في آخر هذا الباب، قال في قوله: « وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ» : (وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ مَا يُبَيِّنُ مَعْنَى لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يَجْعَلِ التَّلَفُّظَ بِهَا عَاصِمًا لِلدَّمِ وَالْمَالِ، بَلْ وَلَا مَعْرِفَةَ مَعْنَاهَا مَعَ لَفْظِهَا، بَلْ وَلَا الْإِقْرَارَ بِذَلِكَ، بَلْ وَلَا كَوْنَهُ لَا يَدْعُوْ إِلَّا اللهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيْكَ لَهُ، بَلْ لَا يَحْرُمُ مَالُهُ وَدَمُهُ حَتَّى يُضِيْفَ إِلَى ذَلِكَ الْكُفْرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُوْنِ اللهِ، فَإِنْ شَكَّ أَوْ تَوَقَّفَ؛ لَمْ يَحْرُمْ مَالُهُ وَلَا دَمُهُ.

فَيَا لَهَا مِنْ مَسْأَلَةٍ مَا أَجَلَّهَا! وَيَا لَهُ مِنْ بَيَانٍ مَا أَوْضَحَهُ! وَحُجَّةٍ مَا أَقْطَعَهَا لِلْمُنَازِعِ!).

وصدق رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فإن هذا الأمر أمرٌ عظيم، كثيرٌ من الناس مع الأسف الشديد لا يتنبه له، لابد من الكفر بما يُعبد من دون الله، ولا يكون الإنسان موحدًا إلا بذلك، هذا كلام نبينا صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ليس عبثًا وليس لغوًا، لا يكون الإنسان مسلمًا إلا إذا عبد الله ومع ذلك كفر بما يُعبد من دون الله.

ولأجل هذا ذكر إمام الدعوة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في نواقض التوحيد: (من لم يُكفر المشركين، أو شك في كفرهم، أو صحح مذهبهم)، من قال: "إن اليهود والنصارى مؤمنون ناجون عند الله من أهل الجنة"، فهذا لاشك أنه ما كفر ما يُعبد من دون الله، من قال: "إن المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يجوز أن يكون إلهًا، أو على الأقل لا أدري ربما يكون إلهًا حقًا وربما لا يكون، ربما يستحق الإلهية وربما لا يكون"، هذا لا تنفعه (لا إله إلا الله)، لابد من الكفر بما يُعبد من دون الله، وإلا فإنه لا ينتفع بقول (لا إله إلا الله)، وإن كرر ذلك عدد الأنفاس.

تنبه إلى هذا القيد المهم وتدبره لأجل أن ينجو الإنسان، لابد من الجمع بين الأمرين: لابد من الولاء ولابد من البراء، لابد من التجريد ولابد من التفريد، لابد من أن يكفر الإنسان بما يُعبد من دون الله، لابد أن يعتقد بطلان عبادة غير الله، كل عبادةٍ لغير الله عَزَّ وَجَلَّ فهي باطلة، يجب أن يعتقد بطلانها، ويجب أن يكفر بها، ويجب أن يبغضها، ويجب أن يبغض أهلها، إلا أنَّ بُغض أهلها فيه تفصيل، فإنه لم يبغض أهلها بمعنى: أنه أحبهم لأجل أنهم يفعلون الشرك، فهذه المحبة شركٌ بالله. أما إذا أحبهم لسببٍ آخر؛ كدنيا ولذة يكتسبها

الإنسان منهم، فإن هذه المحبة معصية وليست شركًا، فتنبه إلى هذا المقام العظيم.

ثم إنَّ المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بينَّ أن شرح هذه الترجمة أنَّ بيان التوحيد وتفسير لا إله إلا الله ما سيأتي من أبواب؛ ستون بابًا ستأتيك كلها تفسيرٌ وتوضيحٌ وتفريعٌ لمعنى التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله، فاجمع همَّتك لفهم هذه الأبواب، ولفهم هذا الكتاب حتى تفوز بمعرفة التوحيد -إن شاء الله-.



قال المصنف رحمه الله:

٧- بَابٌ
مِنَ الشِّرْكِ لُبْسُ الحَلْقَةِ وَالخَيْطِ وَنَحْوِهِمَا؛ لِرَفْعِ البَلَاءِ أَوْ دَفْعِهِ

وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ﴾ [الزمر: ٣٨].

عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ؛ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى رَجُلًا فِي يَدِهِ حَلْقَةٌ مِنْ صُفْرٍ، فَقَالَ: «مَا هَذِهِ؟»، قَالَ: مِنَ الوَاهِنَةِ، فَقَالَ: «انْزِعْهَا؛ فَإِنَّهَا لَا تَزِيدُكَ إِلَّا وَهْنًا، فَإِنَّكَ لَوْ مِتَّ وَهِيَ عَلَيْكَ مَا أَفْلَحْتَ أَبَدًا». رَوَاهُ أَحْمَدُ بِسَنَدٍ لَا بَأْسَ بِهِ.

وَلَهُ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ مَرْفُوعًا: «مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً فَلَا أَتَمَّ اللهُ لَهُ، وَمَنْ تَعَلَّقَ وَدْعَةً فَلَا وَدَعَ اللهُ لَهُ».

وَفِي رِوَايَةٍ: «مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً فَقَدْ أَشْرَكَ».

وَلِابْنِ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ حُذَيْفَةَ؛ أَنَّهُ رَأَى رَجُلًا فِي يَدِهِ خَيْطٌ مِنَ الحُمَّى فَقَطَعَهُ، وَتَلَا قَوْلَهُ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦].

❊ ❊ ❊ ❊

قال الشارح وفقه الله:

إنَّ المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد أن قدَّم بتلك المقدمات العظيمة التي أفصحت عن حقيقة التوحيد وأهميته، والخوف من ضده، والحثِّ على الدعوة إليه؛ ناسب الآن أن ينتقل رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى بيان تفسير التوحيد وذِكر أفراده وأفراد ما يضادُّه.

والمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الباب شرع في تفصيل ما أجمله في الباب الماضي؛ الباب الماضي في (بَابٌ تَفْسِيرِ التَّوْحِيدِ وَشَهَادَةِ أَنْ لا إِلَهَ إلاَّ اللّه)، وشرع الآن في ذكر جزئيات هذا التفسير.

وبدأ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الباب وما بعده في تفسير التوحيد ببيان ضده؛ إذْ بضدها تتبين الأشياء، وهذا المناسبُ لكلمة التوحيد، فإن شطرها الأول في النفي، فناسب أن يبدأ في بيان معنى (لا إله إلا الله) ومعنى التوحيد ببيان ما يضاده أو يضاد كماله الواجب.

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (بَابٌ مِنَ الشِرْكِ)؛ (مِنَ) هنا تبعيضية؛ يعني: من أفراد الشرك، ومن أنواع الشرك[١٣٦].

(لُبْسُ الحَلْقَةِ)؛ الحلْقة: هي ما استدار من المعدن وغيره، ومنه يُقال للمجتمعين على ذكرٍ ونحوه إنهم في حلْقة. حلْقة بسكون اللام ويجوز فتحها، (حلْقة)، و(حلَقة).

قال: (وَالخَيْطِ)؛ الخيط معروف، ومراد الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ اللُّبْسُ الخاص الذي هو على صفةٍ معينة؛ وذلك بأن يكون بقصد رفع البلاء أو دفعه، هذا هو محل بحثنا في هذا الباب، ليس اللبس المطلق؛ إنَّما هذا اللبس الذي اقترن باعتقادٍ وقَصْد؛ ألا وهو: رفع البلاء أو دفع البلاء.

لِرَفْعِ البَلَاءِ أَوْ دَفْعِهِ

(١٣٦) إذِ الأصل في لُبس الحَلْقة والخيط لرفع البلاء أو دفعه أن يكون شركًا أصغر، وإذا ترقَّى في نفس المُعلِّق من السَّببية إلى التأثير المستقل كان شركًا أكبر.

(**لِرَفْعِ الـبَلَاءِ**): هـو بعـد نزولـه؛ فيلـبس هـذا الخـيط أو تلـك الحلقـة، والقصدُ أن يكون ذلك سببًا في إزالة البلاء بعد نزوله.

وأمَّا (**دَفْعِهِ**) فإنه يلبس الحلقة أو الخيط بقصد أن يكون ذلك سببًا في دفعه قبل نزوله.

إذًا رفع البلاء: ما كان بعد نزوله، ودفعه: ما كان قبل نزوله.

وما يلبسه المشركون أو أشباه المشركين من هذه الأمور؛ إنَّما يتنوع قصدهم في ذلك إلى هذين الأمرين:

❁ قد يلبسون شيئًا والقصد أن يكون سببًا في إزالة مرض أو سحر أو عين أو مس أو ما شاكل ذلك بعد أن يُصاب الإنسان.

❁ وقد يكون اللابس لذلك قصده أن لا يُصاب، هو سليم ويريد أن لا يُصاب بعين، أو لا يُصاب بمرض، أو لا يُصاب بسحر، أو ما شاكل ذلك، فهذا هو محل البحث في هذا الباب؛ أن يلبس الإنسان حلقةً أو خيطًا أو نحوهما، أيَّ شيء آخر ليس المقصود هو أن يكون من جنسٍ معين أو على هيئة معينة، أيُّ شيء من هذا الباب يلبسه الإنسان بهذا القصد، إما لرفع البلاء أو دفعه فإنه داخلٌ في هذا التبويب، وأنه من الشرك.

ولا شك أنَّ الواقع فيمن ينتسب إلى الإسلام -مع الأسف الشديد- مؤسفٌ في هذا الجانب، وللناس الذين هم متأثرون بهذه الوثنيات لهم فيها تفنن، ولهم فيها تنويع، ويتطور الأمر من مكان إلى آخر، ومن زمان إلى آخر:

-فمن الناس من لا يلبس حلقةً أو خيطًا؛ لكنَّه يعلِّق مثلًا حذوة الحصان -يعني نعل الحصان- على بابه أو على سيارته، والقصدُ أن يكون ذلك سببًا في دفع العين.

-أو تجده يعلق في سيارته صورة كف، أو صورة نعل صغيرة ، والقصد أن يكون ذلك سببًا لدفع أذى العين أو الحوادث أو ما شاكل ذلك.

-ولربما لبست المرأة ما يسمى بالعين الزرقاء التي تباع في المحلات على هيئة قلادة أو ما شاكلها، والقصد أن تكون سببًا في دفع أذى العين. أو تجده يُعلِّق ذلك على طفله.

-ومن النَّاس من يستخدم بعض الأعضاء من بعض الحيوانات لهذه القصود؛ تجد منهم من يضع رأس حمار أو رأس كلب في مزرعته ويقول: إنَّه يدفع أذى الجن. وبعضهم يعلِّق على طفله منقار غراب، أو كما يقولون: عين ثعلب، أو عين ابن آوى، أو قطعة جلد من ذئب؛ يضعها على ولده، أو يضعها في بيته، أو في دكانه؛ لأجل أن يكون ذلك سببًا في دفع البلاء.

-بعضهم يلبس خاتمـًا من عقيق ويزعم أنه يدفع عنه أذى السم لو أكل أو شرب شيء فيه سم فإن ذلك يدفع عنه.

إلى غير ذلك من صورٍ كثيرة كلها ترجع إلى معنىً واحد، وهو أنه شيء يُلْبس والقصد أن يكون سببًا في دفع البلاء قبل نزوله، أو رفعه بعد نزوله.

الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بيَّنَ حكم هذا اللُبس، وأنه من الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ. لا شك أن هذا اللبس من المحرمات باتفاق العلماء، **ويتفاوت ذلك التحريم بحسب الحال.**

❁ **قد يكون ذلك شركًا أصغر**؛ وذلك إذا اعتقد اللابس أنَّ هذا الذي لبسه مجرد سبب، وإلا فإنَّ الذي ينفع هو الله جَلَّوَعَلَا.

❁ أمَّا إذا عَظُمَ تعلق اللابس بما لبس حتى اعتقد الاستقلال بالتأثير في هذا الشيء الملبوس فإنه يكون ولا شك **شركًا أكبر**، وكونه شركًا أكبر ظاهر؛ فإنَّ من اعتقد أن غير الله عَزَّوَجَلَّ يملك نفعًا أو ضرًا استقلالًا عن مشيئة الله، فهذا من المعلوم بالضرورة أنه شركٌ أكبر في باب الربوبية(١٣٧).

أمَّا الحالة الأولى: وهو كون هذا اللُّبْس **شركًا أصغر**؛ فإنَّ النُّصوص قد جاءت به -أعني وصف هذا الأمر بأنَّه شرك- وسيمر معنا إن شاء الله: «مَنْ تَعَلَّق تَمِيمَةً فَقَدْ أَشْرَكَ»، وسيأتي في الباب القادم إن شاء الله قولهصَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «إِنَّ الرُّقَى وَالتَّمَائِمَ وَالتِّوَلَةَ شِرْكٌ».

أمَّا كونُ ذلك شركًا أصغر فمرجعِهُ إلى ثلاثةِ أمور:

---

(١٣٧) **وقد يقول قائل**: إنَّه إن اعتقد هذا الاعتقاد كفَر ولو لم يلبس؛ فما فائدة تعليق الحُكْم بأنَّه إذا لَبِسَ بهذا القصْد؟

فالجواب: أنَّ أهل العلم حينما يذكرون هذا الحُكم إنما يذكرونه بناءً على أنَّ الغالب هو أن لا يكون الاعتقاد إلا معَ اللُّبس، أمَّا مَن لا يلبس هذا الأمر فالغالب أنه لا يعتقد الاسْتقلال بالتأثير، لكن يلبس معَ الاعتقاد، فلأجل أنَّ هذا هو الغالب فإنهم يعلّقون الحُكم بهذا التقعيد، يعني بهذا التقرير، يقولون: إذا لَبِسَ بهذا القصْد، وإلا فلا شكَّ أنه لو اعتقد هذا الاعتقاد في شيءٍ من الأشياء فإنه يكفر بذلك وإن لم يلبس.

❁ **أولًا**: أنَّ من تعلق ذلك اعتقد سببًا لم يجعله الله سببًا لا شرعًا ولا قدرًا، **والقاعدة عند أهل العلم: أنَّ من اتخذ سببًا لم يجعله الله سببًا لا شرعًا ولا قدَرًا فقد أشرك الشرك الأصغر.**

الأسباب التي تؤدي إلى المقصود تنقسم إلى قسمين:

◉ **تنقسم إلى أسباب شرعية.**

◉ **وإلى أسباب قدرية.**

أمَّا الأسباب الشرعية: فهي التي دل الشرع على أنَّها نافعة، وذلك كالرقية بالقرآن مثلًا سببٌ لحصول الشفاء، دلَّ على هذا الشرع.

وقد يكون السبب سببًا قدريًا بأن يجعل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في شيءٍ ما أنَّه سبب موصل إلى شيء ما. مثال ذلك: شرب الماء سببٌ لحصول الري، أو الأكل سبب لدفع الجوع.

والمرجع والضابط في كون هذا سبب قدريًا هو التجربة الظاهرة، فالتجربة الظاهرة هي التي تضبِطُ ذلك، فمتى عُرف بالتجربة الظاهرة والتكرار أو بشهادة أهل الخبرة أن هذا الأمر سبب في كذا، فإنه يكون سببًا قدريًا ولا حرج في استعماله، كالأدوية مثلًا يثبت بالتكرار أو بشهادة أهل الخبرة وأهل الطب أن هذا الدواء نافع بإذن الله جَلَّوَعَلَا في علاج مرض الصدر، أو مرض البطن، أو ما شاكل ذلك، هذا سببٌ قدري لا حرج في استعماله **بشرط: أن يعتقد الإنسان أنَّه مجرد سبب والمعوَّل وتعليق القلب إنَّما هو على من بيده النفع والضر وهو الله** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فمن استعمل السبب على هذا الوجه -إذا كان سببًا شرعيًا أو قدريًا- مع اعتقاد أنَّه مجرد سبب يُفعل واعتماد القلب على الله هذا لا حرج فيه، وقد يكون هذا جائزًا، وقد يكون مستحبًا، وقد يكون واجبًا بحسب أحوال المسائل.

إذًا هذا الذي علَّق خيطًا من قماش، أو لَبِسَ إسورة من حديد أو نحاس، وقال "هذا سبب في دفع مرض، أو سبب في دفع عين، أو ما شاكل ذلك" نظرنا في هذا الأمر فوجدنا أنه لم يأتِ في الشريعة أن هذا سبب ينفع في ذاك؛ إذًا ليس سببًا شرعيًا.

ثم من حيث التجربة الظاهرة فإنَّه ليس هناك مناسبة بين خيط، ودفع أذى العين! أو أن يلبس الإنسان معدنًا مثلًا ويكون سببًا في دفع الحمى أو ما شاكل ذلك! ليس هناك دليلٌ واقعي حسي على أن هذا سببٌ في دفع ذاك، وبالتالي فهذا الذي لَبِسَ هذه الحِلَق أو هذه الخيوط اتخذ سببًا لم يجعله الله سببًا لا شرعًا ولا قدرًا، فيكون قد أشرك الشرك الأصغر.

۞ **أمَّا الأمر الثاني**: فهو أنَّ من لَبِسَ هذه الحِلق والخيوط فالغالب أنَّه حصل في قلبه تعلق بوجهٍ ما بهذه الخيوط، التفت قلبه إلى هذه الأمور التي علَّقها ولم يعتمد بقلبه ويتوكل بقلبه على الله جَلَّوَعَلَا، وهذا الالتفات وهذا التعلق وحصول نوعٍ من التوكل لا شك أنَّه شعبةٌ من شعب الشرك[١٣٨].

(١٣٨) **وقد يقول قائل**: إنَّ هذا الالْتفات قد يقع مِمَّن يستعمل الأسباب التي جُعِلَتْ شرعًا أو قدرًا أسبابًا؟!

۞ **وأمرٌ ثالث** يذكره غيرُ واحد من أهل العلم وهو: أنَّ لُبْسَ مثل هذه الأمور وسيلة إلى الوقوع في الشرك الأكبر، **والقاعدة التي ذكرها غير واحد من أهل العلم: أن وسائل الشرك الأكبر شركٌ أصغر**. وهذا أمر لا يُجحد ولا يُنْكَر ؛ أنَّ من علق مثل هذه الخيوط أو علق مثل هذه الحِلَق أو ما شاكلها فإنه يتدرج به الشيطان شيئًا فشيئًا حتى يصبح اعتماده وتوكله بالكامل على هذا الشيء الذي علَّقه، فيكون قد خطا معه الشيطان خطوات، والشيطان ليس له خطوة واحدة، إنما له خطوات، يمشي مع الإنسان في التلبيس والتسويل خطوةً خطوة، ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾[البقرة:٢٠٨].

إذًا لهذه الأوجه الثلاثة قال العلماء إنَّ الأصل في لبس التمائم التي هي من الخيوط والحلق ونحوها؛ أنَّ ذلك شرك أصغر، وقد يكون شركًا أكبر إذا عَظُم تعلق القلب بهذه المعلقات.

إذًا هذا هو تبويب المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهو بابٌ في غاية الأهمية؛ نظرًا لكثرة الأخطاء التي تقع من المنتسبين إلى الإسلام في هذا الباب، والله المستعان.

والجواب: أنَّ الغالب على مَن يستعمل الأسباب الشرعية أو الأسباب التي ثبتَتْ بالتجربة أنه لا يتعلّق قلبه بذلك، أرأيتَ الذي يأكل فإنَّه لا يتخذ الأكل إلا سببًا لزوال الجوع، والشراب يتخذه سببًا لزوال العطش، ولا يتعلق قلبه بذلك. أمَّا في شيء لم يثبت في الشرع ولا في التجربة أنَّ له أثرًا أو أنَّ له سببيّةً فالغالب أنه يقع في النفس تعلقٌ بهذا الأمر، وأنَّ له سلطانًا وأنَّ له قدرة، وهذا فيه نوع من التشريك.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ﴾ [الزمر: ٣٨] الآية).

هذه الآية في سورة الزمر فيها يخبر الله جَلَّ وَعَلَا عن اعتقاد المشركين، قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

هذه الآية آيةٌ عظيمة في بيان التوحيد وتوضيح الشرك، **وفيها أمران مهمان يدلان على بطلان الشرك:**

❁ **الأول**: ما أخبر الله جَلَّ وَعَلَا عن المشركين في اعتقادهم في آلهتهم التي يعبدونها مع الله جَلَّ وَعَلَا وهي أنَّها لا تملك شيئًا لا خَلْقًا ولا رَزْقًا ولا تدبيرًا، ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾. إذًا كانوا يعتقدون أنَّ الله وحده هو الخالق، وأنَّ الله وحده هو الرازق، وأن الله وحده هو المدبر، ومع ذلك ما نفعهم ذلك، ولم يكونوا بهذا الاعتقاد مسلمين، لِم؟ لأنهم أشركوا مع الله جَلَّ وَعَلَا في العبادة.

❁ **وأمرٌ آخر**: هو في بيان أن هذه الآلهة التي تعلقوا بها آلهةٌ لا تتصف بالكمال بل تتصف بالنقص، وإذا كانت كذلك كان التعلق بها ضلالًا في العقل كما كان ضلالًا في الشرع، ما الفائدة أن يُعبد ما لا يملك نفعًا ولا دفع ضرٍ عن عابده؟!

قل أرأيتم في حال هذه الآلهة التي تزعمونها مع الله جَلَّوَعَلَا إن أرادني الله بضر هل تستطيع هذه الآلهة أن تكشف هذا الضر؟ أن تدفع الشيء الذي أراده الله وشاءه؟ أو إذا كان الأمر بالعكس إن أراد الله جَلَّوَعَلَا أحدًا برحمة منه، هل تستطيع هذه الآلهة أن تمنع رحمة الله من النزول على هذا الإنسان؟ الجواب معلوم ولذلك سُكت عنه لوضوحه.

ثم بَيَّنَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ حال أهل التوحيد الذين يجعلون حسبهم هو الله، الله جَلَّوَعَلَا هو حسب المؤمنين؛ فهو كافيهم، وهو الذي يتوكل عليه المتوكلون، ولا يتوكلون على ما سواه جَلَّوَعَلَا.

والشاهد أنَّ هذه الآية فيها بيان بطلان الشرك والتعلق بغير الله جَلَّوَعَلَا في جلب نفعٍ أو دفع ضر، فيدخل في معناها ردُّ ما عليه هؤلاء المتعلقين أو المعلِّقين لهذه التمائم، فإنَّ الذي هم فيه ضلال وباطل وشعبة مما عليه أهل الشرك بالله جَلَّوَعَلَا.

وفي استدلال المؤلف بهذه الآية لطيفة وهي: أنَّ الله جَلَّوَعَلَا نفى أن تكون الآلهة التي يتعلق بها المشركون نافعةً لهم في جلب خير أو دفع ضر، وفي هذه الآلهة صالحون وملائكة وجن وأنبياء؛ فإذا نُفِيَ عن هؤلاء أن يكون شيءٌ منهم نافعًا أو دافعًا للضر فلأن يكون هذا مدفوعًا ومنفيًا عن جمادات لا تتحرك ولا تعقل ولا تصنع شيئًا كخيط أو حَلْقة؛ لا شك أن نفي ذلك عنها من باب أولى، فهذا استدلال لطيف من المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان أنَّ التعلق بهذه الأمور في جلب المنافع ودفع المضار أنَّه ضلالٌ، وأنه من حال أهل الشرك، والله تعالى أعلم.

بقيَ التنبيه على أنَّ هذه الآية كما هو ظاهرٌ من سياقها فيها بيان ضلال ما عليه المشركون الشرك الأكبر، فكيف يستدل المؤلف بها على ما الأصل فيه أنه شركٌ أصغر؟

والجواب عن هذا:

❁ **أولًا** : أنَّ تعليق هذه التمائم في بعض أحواله قد يكون شركًا أكبر.

❁ **وثانيًا**: أنَّ المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ جرى على قاعدة السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ ؛ فإنَّهم كانوا يستدلون بالآيات النازلة في الشرك الأكبر على ردِّ ما هو من الشرك الأصغر، كما سيأتي معنا -إن شاء الله- في أثر حذيفة، وكذلك ما جاء عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[البقرة:٢٢]؛ فسر ذلك ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا بأشياء هي من قبيل الشرك الأصغر.

فأهل العلم من السلف الصالح رحمة الله عليهم أجمعين يستدلون بما هو نازل في الشرك الأكبر على ردِّ الشرك الأصغر؛ فإنَّه إذا كان الشرك الأكبر مدفوعًا فليكن الشرك الأصغر الذي هو دونه مدفوعًا من باب أولى، والله تعالى أعلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ؛ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى رَجُلًا فِي يَدِهِ حَلْقَةٌ مِنْ صُفْرٍ، فَقَالَ: «مَا هَذِهِ؟»، قَالَ: مِنَ الوَاهِنَةِ، فَقَالَ: «انْزِعْهَا؛ فَإِنَّهَا لَا تَزِيدُكَ إِلَّا وَهْنًا، فَإِنَّكَ لَوْ مِتَّ وَهِيَ عَلَيْكَ مَا أَفْلَحْتَ أَبَدًا». رَوَاهُ أَحْمَدُ بِسَنَدٍ لَا بَأْسَ بِهِ).**

هذا الحديث حديثُ عمران رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فيه كلام من جهة ثبوته؛ فإنَّ هذا الحديث جاء من رواية الحسن البصري عن عمران بن حصين رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وأرضاه.

وهذه المسألة فيها كلام طويل عند أهل العلم فإنَّ العلماء مختلفون هل سمع الحسن من عمران؟

-أثبت هذا السماع طائفةٌ من أهل العلم؛ كالبزار، وابن حبان، وابن خزيمة، وكذلك الحاكم، وحكاه عن أكثر شيوخه.

-ويقابل هؤلاء أئمةٌ نُقّاد نفوا سماع الحسن من عمران؛ كابن المديني، وابن معين، وابن أبي حاتم، وغيرهم من أهل العلم.

على أنَّ رواية أحمد لهذا الحديث فيها قول الحسن: «أَخْبَرَنِي عِمْرَان بن حُصَيْن رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ»، ففي هذا ما يدل على أنَّه سمع هذا الحديث، والله تعالى أعلم.

وعلى كل حال هذا الحديث له شواهد تدل على ثبوته؛ له شاهد من حديث أبي أمامة بإسنادٍ فيه ضعف، وكذلك من حديث ثوبان وكلاهما عند الطبراني في «الكبير»، فالحديث -إن شاء الله- ثابتٌ عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، كما أنَّ ابن أبي شيبة وابن بطة وغيرهما رَوَيا هذا الحديث عن عمران موقوفًا عليه، والله تعالى أعلم.

الشاهد: « **أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى رَجُلًا فِي يَدِهِ حَلْقَةٌ مِنْ صُفْرٍ**»، وهذا الرجل المبهم في رواية أحمد جاء التصريح به عند الحاكم بأنَّه عمران نفسه، فصاحب القصة هو عمران الذي يرويها.

رأى النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ على هذا الرجل حَلْقةً من صُفر ، يبدو والله أعلم أنَّه هذا المعدن المسمى بالنُّحاس. رأى عليه هذه الحلْقة **(فَقَالَ: «مَا هَذِهِ؟»)** وهل كان النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في هذا السؤال مستفسرًا مستعلمًا؟ أو كان مُنكرًا؟ توجيهان

لأهل العلم. وجاء في رواية أحمد أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «وَيْحَكَ مَا هَذَا؟» فهذا يرجح أنَّه استفهامُ إنكار.

فبيّنَ الرجل أو عمران سبب هذا اللُبس وأنه « مِنَ الوَاهِنَةِ»؛ (الوَاهِنَةِ) هذه سببية، أو تعليلية؛ يعني: إنما لبستُ هذا الأمر لأجل دفع ألم أعاني منه أو مرض أصبت به، وهو الواهنة؛ قال أهل اللغة: (الواهنة: عِرْقٌ يصيب المنكب)؛ يعني ألم يُصاب به الإنسان في ذراعه، قالوا: وهو يصيب الرجل دون المرأة.

فالشاهد أنه لَبِسَ هذه الحلقة، كالإسورة من هذا المعدن؛ لأجل أن تكون سببًا في دفع هذا الألم، « فَقَالَ: «انْزِعْهَا؛ فَإِنَّهَا لَا تَزِيدُكَ إِلَّا وَهْنًا». وكيف يكون ذلك كذلك وهي لا تأثير لها؟

قال أهل العلم: إنَّ ذلك بأنَّه يُصاب بالوهن معاملةً بنقيض مقصوده؛ يعني أن من عقوبة أن يلبس الإنسان هذا الأمر المنكر أن الله جَلَّ وَعَلَا يزيده وهنًا، ويزيده أَلَمًا، ويزيده مرضًا، فلا هو بالذي انتفع، ولا هو بالذي حَفِظَ عليه دينه.

ثم قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « انْزِعْهَا»، وجاء في رواية: «انْبِذْهَا عَنْكَ»؛ والنبذ أشد من النزع؛ فيه قوة وفيه طرح، وهذا يدل على أن الأمر غايةٌ في القبح أن يلبس الإنسان مثل هذا الأمر، حتى إن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمره بالنزع الشديد، والطرح المباشر « انْبِذْهَا عَنْكَ».

«فَإِنَّكَ لَوْ مِتَّ وَهِيَ عَلَيْكَ مَا أَفْلَحْتَ أَبَدًا»؛ وهذا يدل على أنَّ لُبْس الحلقة ونحوها لهذا القصد -أعني رفع البلاء أو دفعه- أن هذا من الأمور المحرمة، بل ذلك شركٌ بالله كما دلت عليه النصوص الأخرى.

وقوله في هذا الحديث «مَا أَفْلَحْتَ أَبَدًا»؛ الظاهر والله أعلم أنَّه نفيٌ للفلاح المطلق، ليس نفيًا لمطلق الفلاح؛ يعني لا يفلح الفلاح التام ولا يكون من أهل الفلاح الكامل، وليس أنه نفيٌ لأصل الفلاح، فإن هذا إنَّما يُنفى عمن أشرك الشرك الأكبر.

وفي هذا الحديث أنَّ الرجل الصالح بل العالِم قد يقع في أخطاء، وميزة العالم والصالح على غيره أنه إذا نُبِّه تنبَّه. وفي هذا أيضًا ما يُحذِّرُ المغرورين الذين يظنون أنَّهم لانتسابهم إلى نسب شريف، أو لأنهم أبناء رجل صالح، أو أحد الأولياء أنهم بهذا يكونون فائزين وسعداء مهما فعلوا!! فإنَّ هذا مما يردُّه هذا الحديث، هذا صحابي ومع ذلك يقول له النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا الذي يقول، «وَمَنْ بَطَّأَ بِه عَمَله لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُه».

الشاهد أن في هذا الحديث بيان أنَّ لُبْسَ مثل هذه الأمور لا شك أن من المحرمات بل من الشرك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ويتعلق بهذا الحديث مسألةٌ معاصرة وهي: حكم لبس ما يسمى بـ: (إسورة الروماتيزم)؛ انتشر في بعض الأوقات، وأظنَّ هذا موجودًا إلى هذا الوقت، ما يباع في بعض الصيدليات إسورة من معدن يزعم بائعوها أو صانعوها أنها تنفع في علاج مرض الروماتيزم.

والقاعدة في هذا: أنَّ الشريعة لا يمكن أن تخالف العقل ولا يمكن أن تخالف الواقع، وعليه؛ فمتى ما ثبت بالتجربة الظاهرة المُحققة أنَّ هذا الأمر علاجٌ بالفعل لهذا المرض أو غيره فإنَّ الشريعة لا تمنع من ذلك، ولكن الشأن

هو في ثبوت أن تكون هذه الإسورة أو هذا السوار أنه بالفعل نافعٌ في ذلك، وهذا فيما أعلم لم يثبت حتى هذه اللحظة.

وقد صدرت فتوى للجنة الدائمة برئاسة سماحة الشيخ عبد العزيز ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ أن هذه الإسورة من الأمور المحرمة الشركية، وأنَّها شبيهة بما كان عليه المشركون، وما جاء في هذا الحديث وأمثاله. وأضعف الإيمان أنها وسيلةٌ للشرك، أو على الأقل أنَّها من الأمور المشتبهة التي ينبغي على من أراد أن يستبرئ في دينه وعرضه أن يدعها؛ لقول النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك».

ويجرُّنا هذا إلى أمرٍ آخر حدث مؤخرًا في السنوات القريبة، وهو ما يسمى بـ: (إسورة الطاقة)، أو (سوار الطاقة)، أو كما يقولون باللغة الإنجليزية((power plants)) ؛ هذه الإسورة اشتهرت عند الشباب والفتيات منذ سنوات قريبة، تراها من الجلد أو البلاستيك أو شيئًا من هذا القبيل ، ويزعمون أن من لبس هذه الإسورة أنها تعطيه توازنًا، وتسحب الذبذبات الكهربائية الزائدة، وما شاكل ذلك.

وأعود فأقول: إنْ ثَبَتَ بقول أهل الخبرة من الأطباء الثقات أن هذا الأمر صحيح وأنه فعلًا ينفع الإنسان، فإنه لا حرج أن يلبس ذلك المرأة؛ وأما الرجل لا يلبسها في يده كحال النساء حتى لا يكون متشبهًا؛ لكن يمكن أن يضعها في جيبه، أو ما شاكل ذلك.

لكن الذي أعلم أن هذا أيضًا لم يثبت ثبوتًا علميًا متحققًا إلى هذه اللحظة، بل تواردت الأخبار في وسائل الإعلام أن هذه الإسورة ظهر بطلان ما ادَّعاه منتجوها، وإنما كانت نوعًا من الكذب والتضليل الذي حصل بسببه نوعٌ من التضليل للناس؛ حيث ظنوا أن ذلك نافع طبيًا والواقع أنها كانت مجرد مكاسب تجارية لا أقل ولا أكثر.

على كل حال أعود فأقول: إن ثبت -ونتوقف حتى يثبت علميًا ذلك- وإلا فإنها تكون من جنس هذه التمائم، والله تعالى أعلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وَلَهُ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ مَرْفُوعًا: «مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً فَلَا أَتَمَّ اللهُ لَهُ، وَمَنْ تَعَلَّقَ وَدْعَةً فَلَا وَدَعَ اللهُ لَهُ». وَفِي رِوَايَةٍ: «مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً فَقَدْ أَشْرَكَ»**).

هذان حديثان عن عقبة بن عامر الجهني وهو من فضلاء الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وكلام المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ حينما قال: (**وَفِي رِوَايَةٍ**) يوهم أنه حديث واحد له روايتان، والواقع أنهما حديثان مستقلان؛ هذا حديث وذاك حديث وراويهما واحد[١٣٩].

أمَّا الأول: ما أخرجه أحمد وقال الهيثمي: (رجاله ثقات)؛ فيه أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً فَلَا أَتَمَّ اللهُ لَهُ**»؛ دعا النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على من علّق التميمة بأن لا يتم الله له أمره.

(١٣٩) وقد نبَّه على هذا حَفيد المؤلّف الشيخ سليمان رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «التيسير»

والتميمة ضابطها: كلُّ ما عُلِّق بقصد دفع البلاء أو رفعه، سواء كان ذلك خرزًا، أو كان خيطًا، أو كان ورقةً، أو كان جلدًا ، أيَّ شيءٍ كان[١٤٠]، والمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ سيزيد الأمر بسطًا في الباب القادم إن شاء الله.

الشاهد أنَّ كل شيء يُلْبَسُ بهذا القصد -بقصد دفع البلاء قبل نزوله، أو رفعه بعد نزوله، فإنه يسمى تميمة[١٤١] - دعا النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عليه أن لا يتم الله أمره. والمشركون سموا هذه المعلقات: تمائم؛ تلمّحوا من لفظها أنه يَتِمُّ لهم مقصودهم، من لبس ذلك فإنه يتم له مقصوده، فجاءت الشريعة بمخالفة هذا المعنى، ودعا النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من لَبِسَ ذلك أن لا يتم الله له أمره؛ لأنه ارتكب ما نهى الله عنه وما نهى عنه رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وهذا دليل على أن لبس هذه التمائم أمرٌ محرم.

وقال: « **وَمَنْ تَعَلَّقَ وَدْعَةً فَلَا وَدَعَ اللهُ لَهُ**»؛ **الودْعُ والودَعُ** : يجوز فيه الإسكان والفتح هو شيء يشبه الصدف يكون في البحر، سمي ودعًا: كأنَّ ذلك -والله أعلم- لأن البحر يلقيه على الساحل ويدَعه، وهو شيء مُجوّف يشبه نواة

---

(١٤٠) وبعض أهل العلم كما تجده في كثير من الشروح أو في كُتُب الغريب يخصّونه بأنواع من هذه التمائم، تجدهم يقولون: هي خَرَزات أو هي كَذا. والصواب: أنَّ كلّ ما عُلِّقَ هو تميمة من حيث الحُكْم، سواء أكَان من الخرز، أو كان من الخيوط، أو كان من الجلود، أو كان من الأوراق، أو كان من غير ذلك، وهذا له أنواعٌ لا تكاد تُحصَى.

(١٤١) وسمّيت التَّميمة «تميمة»: لأنَّ الذين استعملوها في الجاهلية يستبشرون بها ويزعمون أنَّه بها يتمُّ أمرهم، فكأنهم يتلمَّحون من اسمها حصول تمام مقصودهم.

التمر؛ ولكنَّه أكبر ومجوَّف، وهو معروف مما يلعب به النساء والأطفال، وكان أهل الجاهلية لهم فيه عقائد؛ يعلقونه على أطفالهم ودوابهم ويزعمون أن ذلك سبب في دفع أذى العين.

هنا دعا النبي ﷺ على من لبس ذلك بقوله: «فَلَا وَدَعَ اللهُ لَهُ»، أي: لا جعله الله في دعة وفي هناء وفي سكون، وذلك معاملةً بنقيض مقصوده، هو لبس ذلك الأمر؛ لكي يكون مرتاحًا ووادعًا وهانئًا، فدعا عليه النبي ﷺ أن يحصل له ضدُّ ما أراد؛ لأنه يستحق ذلك حيث ارتكب ما حرم الله جَلَّ وَعَلَا، لم يكن قلبه سليمًا، فيه شيء من هذه الوثنية وهذه التعلقات بغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فاستحق أن يدعو عليه النبي ﷺ.

والشاهد أنَّ في هذا الحديث ما يبين أن تعليق هذه الأمور بهذا القصد أمر محرم.

أما الحديث الثاني ففيه قصة وهي: أنَّه أقبَلَ إلى النبي ﷺ رهط كانوا تسعة، فبايع النبي ﷺ هؤلاء الرهط إلا واحدًا لم يبايعه، فقالوا: بايعه يا رسول الله، قال النبي ﷺ: «إنَّ عَلَيْهِ تَمِيمَةً»، فأدخل الرجل يده، فقطعها، فبايعه النبي ﷺ وقال: «مَنْ تَعَلَّق تَمِيمَةً فَقَدْ أَشْرَكَ».

وأكثر روايات الحديث (تعلق)، وعند الطبراني وغيره: (من علق)، وكلمة التعلق فيها زيادة في المعنى؛ لأن زيادة المبنى زيادةٌ في المعنى، كأن ذلك فيه إشارة إلى أنه تعليقٌ حسي مع تعليق قلبي، فهو علَّق هذه التميمة والقصد أن يكون ذلك سببًا في دفع البلاء والأذى عنه.

فبيّن النبي ﷺ في هذا الحديث -وهو حديث حسن إن شاء الله- باللفظ الصريح الواضح أنَّ تعليق التمائم من الشرك بالله جَلَّوَعَلَا، فهذا البيان ليس بعده بيان، وعلى من أراد نجاة نفسه أن يحذر من هذه الأمور، النبي ﷺ إنَّما بعثه الله جَلَّوَعَلَا لإزالة هذه الوثنيات وهذه التعلقات؛ أن يكون القلب صافيًا متعلقًا بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى. فمن كان على شيء من هذا الإرث الشركي، فليعلم أنه واقعٌ في أمر عظيم، -نسأل الله السلامة والعافية-.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وَلِابْنِ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ حُذَيْفَةَ؛ أَنَّهُ رَأَى رَجُلًا فِي يَدِهِ خَيْطٌ مِنَ الحُمَّى فَقَطَعَهُ، وَتَلَا قَوْلَهُ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾**[يوسف: ١٠٦]).

هذا الأثر أخرجه ابن أبي حاتم من طريق عاصمٍ الأحول، عن عَزْرة، عن حذيفة، وثبوته موقوف على ثبوت سماع عزرة، ولعله عزرة بن عبد الرحمن، إن ثبت سماعه من حذيفة فالأثر صحيح.

وقد جاء عن حذيفة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ شيء قريب من هذا الأثر، من ذلك: ما أخرج ابن أبي شيبة بإسناد صحيح، عن حذيفة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: أنه عاد مريضًا فتحسسه، فوجد في عضده خيطًا، فقطعه رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وقال: (لَوْ مت وهو عليك ما صلَّيتُ عليك)، وهذا من حذيفة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بيانٌ لأن هذا الأمر من المحرمات وفيه المبادرة إلى إنكار المنكر.

الشاهد: أن هذا الأثر الذي بين أيدينا -إن صح عن حذيفة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ- فيه أن حذيفة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عاد مريضًا فوجده قد علَّق هذا الخيط من الحمَّى؛ يعني بسبب

الحمى، أنه يدفع عنه هذا المرض، فقطعه رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وتلا قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾؛ يعني: أن هذا الإنسان قد وقع في شيء من الشرك -والعياذ بالله- . وفيه ما يشهد بالقاعدة السالفة، وهو: أن السلف كانوا يستدلون بالآيات النازلة في الشرك الأكبر على ما هو من الشرك الأصغر(١٤٢).

الشاهد أن هذا الأثر فيه أيضًا ما يؤكد ويؤيد أن تعليق التمائم بقصد دفع البلاء أو رفعه أنه من الشرك بالله جَلَّوَعَلَا.

وفي ذلك أيضًا الحرص على إنكار المنكر. يا أيها الإخوان المنكرات المتعلقة بجناب التوحيد أعظم من المنكرات المتعلقة بغير ذلك. ويا لله العجب! أن يكون عند بعض الناس همة في إنكار منكرات تتعلق بمحرمات ترجع إلى جنس الشهوات، وهذا أمرٌ حسن طيب؛ لكن ربما وجدت منهم شيئًا من البرود في المنكرات المتعلقة بجناب التوحيد! ولا شك أن هذا من الأخطاء، فإن جنس الشرك الأصغر أعظم من جنس الكبائر، وإذا كان في الإنسان غيرة على حرمات الله جَلَّوَعَلَا فينبغي أن تكون غيرته على هذا الجنس من الحرمات

---

(١٤٢) فسَّرها ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا بأنَّ من إيمانهم أنهم إذا قِيلَ لهم: مَن خلق السماوات؟ ومَن خلق الأرض؟ قالوا: الله؛ ومعَ ذلك يشركون به غيره. بمعنى: أنهم يؤمنون بالربوبيّة ويشركون في الأُلوهية.

والاسْتدلال بهذه الآية في هذا الأثر -إن صحَّ- هومن الجنس السابق وهو: أنَّ السّلف رحمهم الله كانوا يستدلون بالآيات الدالة على نفْي الشرك الأكبر على نفْي الشرك الأصغر؛ لأنَّ ذلك نفْي للشرك في الجُملة، إذا انتفى الأكبر انتفى الأصغر من باب أوْلى.

أعظم وأعظم، ربما لو بادر الإنسان إلى قطع تميمة من إنسان ليس له عليه سُلْطة أو لا يعرفه، ربما حصل من المفسدة ما حصل، وربما عاد الرجل فلبس ذلك، أو أكده بلبس شيء آخر زيادة عليه وعنادًا، لكن ما عذر الإنسان في أن يترك الإنكار بلسانه؟!

فالله الله بالجد، والحرص ، أولًا على إزالة هذا المنكر من القلب، ثم بالتي هي أحسن تزال من شخص الإنسان إذا كانت على عضده أو عنقه أو ما شاكل ذلك بالنصيحة، وبالكلمة الطيبة، وببيان الدليل على هذا الأمر ؛ يزول هذا المنكر إن شاء الله.

والغالب على النَّاس أنَّ فيها خيرًا، ولكن الكسل والتردد وربما التخوف من بعض الدعاة وطلبة العلم هو السبب الأهم في انتشار مثل هذه المنكرات في كثير من المجتمعات. فالحرص الحرص، والجد الجد يا طلاب العلم على إنكار هذه المنكرات؛ تمائم، أو حلف بغير الله، أو توسل بدعي، أو رقى شركية، وأعظم من ذلك ما كان من الشرك الأكبر؛ كدعاء غير الله، أو الذبح، أو النَّذر، أو ما شاكل ذلك.



٨-بَابُ

مَا جَاءَ فِي الرُّقَى وَالتَّمَائِمِ

فِي «الصَّحِيحِ» عَنْ أَبِي بَشِيرٍ الأَنْصَارِيِّ؛ أَنَّهُ كَانَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، فَأَرْسَلَ رَسُولًا: «أَلَّا يَبْقَيَنَّ فِي رَقَبَةِ بَعِيرٍ قِلَادَةٌ مِنْ وَتَرٍ - أَوْ: قِلَادَةٌ - إِلَّا قُطِعَتْ».

وَعَنِ ٱبْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ الرُّقَى وَالتَّمَائِمَ وَالتِّوَلَةَ شِرْكٌ». رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ.

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُكَيْمٍ مَرْفُوعًا: «مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وُكِلَ إِلَيْهِ». رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ.

وَالرُّقَى: هِيَ الَّتِي تُسَمَّى العَزَائِمَ، وَخَصَّ مِنْهُ الدَّلِيلُ مَا خَلَا مِنَ الشِّرْكِ؛ فَقَدْ رَخَّصَ فِيهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ العَيْنِ وَالحُمَةِ(١٤٣).

التَّمَائِمُ: شَيْءٌ يُعَلَّقُ عَلَى الأَوْلَادِ عَنِ العَيْنِ؛ لَكِنْ إِذَا كَانَ المُعَلَّقُ مِنَ القُرْآنِ فَرَخَّصَ فِيهِ بَعْضُ السَّلَفِ، وَبَعْضُهُمْ لَمْ يُرَخِّصْ فِيهِ، وَيَجْعَلْهُ مِنَ المَنْهِيِّ عَنْهُ؛ مِنْهُمُ ٱبْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وَالتِّوَلَةُ: شَيْءٌ يَصْنَعُونَهُ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ يُحَبِّبُ المَرْأَةَ إِلَى زَوْجِهَا، وَالرَّجُلَ إِلَى ٱمْرَأَتِهِ.

---

(١٤٣) كأنَّ المؤلّف رَحِمَهُ اللهُ -نلاحِظ في كلامه هذا وفي باب (مَن حقَّقَ التوحيد) في المسائل- كأنَّه يَميلُ رَحِمَهُ اللهُ إلى تخصيص الرقية بالعين والحُمة فقط ومنْع ما سِوى ذلك.

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُكَيْمٍ مَرْفُوعًا: «مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وُكِلَ إِلَيْهِ». رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ.

وَرَوَى الإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ رُوَيْفِعٍ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَا رُوَيْفِعُ؛ لَعَلَّ الحَيَاةَ سَتَطُولُ بِكَ؛ فَأَخْبِرِ النَّاسَ أَنَّ مَنْ عَقَدَ لِحْيَتَهُ، أَوْ تَقَلَّدَ وَتَرًا، أَوِ اسْتَنْجَى بِرَجِيعِ دَابَّةٍ أَوْ عَظْمٍ؛ فَإِنَّ مُحَمَّدًا بَرِيءٌ مِنْهُ».

وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: «مَنْ قَطَعَ تَمِيمَةً مِنْ إِنْسَانٍ؛ كَانَ كَعِدْلِ رَقَبَةٍ». رَوَاهُ وَكِيعٌ.

وَلَهُ عَنْ إِبْرَاهِيمَ: «كَانُوا يَكْرَهُونَ التَّمَائِمَ كُلَّهَا؛ مِنَ الْقُرْآنِ وَغَيْرِ الْقُرْآنِ».

❊ ❊ ❊ ❊

قال الشارح وفقه الله:

بعد أنْ أنهى المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ (بَابٌ مِنَ الشِّرْكِ لُبْسُ الْحَلْقَةِ وَالْخَيْطِ وَنَحْوِهِمَا؛ لِرَفْعِ الْبَلَاءِ أَوْ دَفْعِهِ)، عَقَّبَ على ذلك بهذا الباب، وهو: (بَابٌ مَا جَاءَ فِي الرُّقَى وَالتَّمَائِمِ). وهذا الترتيبُ حسنٌ، فإنَّ المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد أن بيَّن ما يضادُّ كمال التوحيد الواجب، أو ربما ضادَّ أصلَّ التوحيد في الباب السابق ناسب أن يعطف عليه بابًا فيه التفصيل؛ أتى أولًا بالأمر الواضح الذي يخالف التوحيد، ثم جاء بعد ذلك بالأعم، فقال: (بَابٌ مَا جَاءَ فِي الرُّقَى وَالتَّمَائِمِ)[١٤٤].

(١٤٤) فإنَّ الكلام عن التمائم أعمُّ من الكلام عن الحَلْقة والخيط، فهو بدأ بأمرٍ خاص ثمَّ جاء بعده بأمرٍ عام، فنبَّه على ما ينافي كمال التوحيد أو ينافي أصله قولًا واحدًا، ثمَّ نبَّه على

والتمائم: هي كلُّ ما يعلق بقصد رفع البلاء بعد نزوله أو دفعه قبل نزوله.

وكلمة التمائم هاهنا كلمةٌ عامة تشملُ كلَّ ما يُعَلق؛ سواءً كان ذلك مما اتُفق على تحريمه؛ كالحَلْقة والخيط، أو ما وقع فيه خلاف مما سيأتي الكلام فيه -إن شاء الله- أعني: تعليق التمائم من القرآن أو من الأدعية النبوية أو مما فيه ذكر الله. هذا نوع من التمائم لكنَّ الخلاف واقع فيه بين العلماء، فناسب أن يتطرق إليه المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الباب، **هذا أمر**.

والأمر الثاني: أنَّك تلحظ -يا رعاك الله- أنَّ **المؤلف جمع في هذا الباب بين الرقى والتمائم، وذلك لأمور**:

❁ **أولًا**: لأنَّ الرقى الممنوعة والتمائم الممنوعة بينهما شَبَهٌ من حيث الحكم والتفصيل -كما سيأتي إن شاء الله-.

❁ **ثانيًا**: أنَّ التمائم يحصل كثيرًا أن يجتمع معها رقية، من ذلك ما سيأتي معنا إن شاء الله في قول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **«إِنَّ الرُّقَى وَالتَّمَائِمَ وَالتِّوَلَةَ شِرْكٌ»**.

قصة هذا الحديث أنَّ عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ رأى في عنق زوجته خيطًا، فسألها عن ذلك فقالت: (خيطٌ رُقِيَ لي فيه)، فاجتمع أن كانت تميمة ورُقِيَ فيها أيضًا، فكثيرًا ما يحصل الجمع بين الأمرين.

ما يدخل في هذا المعنى وإلى ما لا يصل إلى هذا الأمر مِمَّا وقع فيه خلافٌ في نوع من أنواع التمائم.

❁ **أضف إلى هذا أمرًا ثالثًا** وهو: أن في النصوص الجمعُ بينها؛ كهذا الحديث وهو قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ الرُّقَى وَالتَّمَائِمَ وَالتِّوَلَةَ شِرْكٌ**»(١٤٥).

إذًا هذا الجمع في الكلام بين الرقى والتمائم في هذا الباب له وجهٌ كما رأيت.

والمؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ -كما أسلفت- لم يجزم بحكمٍ في هذا الموضوع كما فعل في الباب الماضي، إنما قال: «**بَابُ مَا جَاءَ فِي الرُّقَى وَالتَّمَائِمِ**»، وذلك لأنَّ المقام لا ينبغي فيه إطلاق الحكم، بل لابدَّ من التفصيل؛ فمن الرقى ما هو مشروع ومنها وما هو ممنوع، وكذلك التمائم منها ما هو شرك ومنها ما هو مُختلف فيه؛ بعضُ أهل العلم أباحه وبعضهم منعه، فناسب مع هذا التفصيل هذا الأسلوب الذي جاء به المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ وسبقه أئمةُ الحديث في تبويباتهم كما هو معلومٌ عند طلاب العلم.

الشاهد أنَّ المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ قال: (**بَابُ مَا جَاءَ فِي الرُّقَى وَالتَّمَائِمِ**).

الرقى: جمعُ رقية، وهي كما يُعرّفها العلماء: العوذة التي يُعوَّذُ بها، والمعنى: أنَّها ألفاظٌ وأقوالٌ تُقال وتُقرأ بقصد دفع البلاء قبل نزوله، أو رفعه بعد نزوله. هذه هي الرقية؛ حينما يقرأ الإنسان على نفسه أو على غيره -مريضا كان أو من باب التحصين- هذا يُسمى: رقية. والكلام فيها ينتظم مسائل من ذلك:

---

(١٤٥) أضف إلى هذا: أنَّ الجمْع بينهما جاء في حديثٍ واحد، كما سيأتي في حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولم يقل المؤلّف رَحِمَهُ اللَّهُ كما قال في الحَلْقة والخيط ونحوهما إنَّ ذلك من الشرك، لم يجزم بذلك لأنَّ الأمر فيه تفصيل في التمائم وفي الرقى كما سيأتي.

❁ **الأدلة الواردة فيها**: الناظر في موضوع الرقية يجد أن الأحاديث التي جاءت عن النبي ﷺ فيها على أنواع مختلفة:

◉ نجد من هذه الأحاديث أحاديث فيها وصف الرقى بأنَّها شرك كالحديث الماضي: «**إِنَّ الرُّقَى وَالتَّمَائِمَ وَالتِّوَلَةَ شِرْكٌ**».

◉ نجد أنَّ ﷺ قد نهى عن الرقى كما ثبت في «صحيح مسلم» أنَّ آل عمرو بن حزم جاءوا إلى النبي ﷺ فقالوا: «يا رسول الله إنه كانت لنا رقية من العقرب وإنَّك نهيت عن الرقى»؛ فهذا دليل على أن النبي ﷺ نهى عن الرقى وسيأتي الكلام عن هذا الحديث -إن شاء الله-.

◉ نجد أيضًا أن النبي ﷺ جاء عنه ما يدل على أن الرقية مكروهة كما مر معنا في باب من حقق التوحيد، ما جاء في رواية مسلم لحديث السبعين وفيه أنه قال: «لا يرقون».

◉ كما نجدُ أحاديث فيها تخصيص للرقية في شيء معين؛ كقول النبي ﷺ: «لا رقية إلا من عين أو حمة» وسيأتي معنا إن شاء الله في هذا الباب.

هذه أربعة أنواع من الأحاديث، يقابلها أنواع أخرى:

❁ فمن الأحاديث: أن النبي ﷺ كان يرقي، كان هو يفعل الرقية ﷺ؛ وهذا ثابت عنه في أحاديث كثيرة، من ذلك ما ثبت في الصحيحين من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن النبي ﷺ كان إذا عاد مريضا رقاه بقوله: «أذهب البأس رب الناس واشف أنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك شفاء لا يغادر سقما»؛ فهذا فيه أن النبي ﷺ فعَل الرقية، وهذا له نظائر عدة في السنة.

۞ نجد أيضًا أنَّ النبي ﷺ رُقِيَ؛ رقاه جبريل عليه السلام حينما نزل إليه فقال: «يا محمد اشتكيت؟ قال: «نعم»، قال: «بسم الله أرقيك، من كل شيء يؤذيك، من كل ذي نفس أو عينِ حاسد بسم الله أرقيك ، اللهُ يشفيك».

۞ نجد أنَّ النبي ﷺ أباح الرقية حتى تصِل إلى حدٍّ معين تكون فيه ممنوعة؛ وذلك كما جاء في حديث عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه أنه قال: «قلنا يا رسول الله إنه كانت لنا رقى نرقي بها في الجاهلية فماذا ترى؟» فقال النبي ﷺ: «اعرضوا علي رقاكم لا بأس بالرقى ما لم يكن فيها شرك» ، هاهنا النبي ﷺ أباح الرقى حتى تصل إلى هذا الحد؛ وهو أن يكون فيها شرك.

۞ نجد من النبي ﷺ الحثَّ والأمرَ على الرقية كما مر معنا في (باب من حقق التوحيد) حديث النبي ﷺ «استرقوا لها»، وكذلك حديث عائشة «كان يأمرني أن استرقي من العين»، كذلك ما جاء في حديث مسلم في حديث آل عمرو بن حزم لما قالوا : «يا رسول الله إنَّك نهيت عن الرقى وإنه كان عندنا رقى من العقرب»، فقال النبي ﷺ: «اعرضوا علي»، ثم قال: «لا أرى بأسا»، ثم قال ﷺ : «من استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل». كما ثبت أيضـًا في صحيح مسلم من حديث جابر رضي الله عنه قال كان لي خالٌ عنده رقية من العقرب فجاء إلى النبي ﷺ وقال: «يا رسول الله إنَّك نهيت عن الرقى، وإنني أرقي من العقرب»، فقال النبي ﷺ: «من استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل».

إذًا هذه أحاديث فيها تنوع في الدلالات، ونحن نقطع ونجزم أنه ليس بين أحاديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اختلافٌ في الحقيقة، **والجمع بين هذه الدلالات المختلفة سهل ميسور بحمد الله**:

-أما حديث «لا يرقون» ؛ فقد علمنا أنَّ هذا اللفظ لم يثبت عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وأنه لفظ شاذ أخطأ فيه -على الصحيح من كلام أهل العلم- شيخُ مسلم وهو سعيد بن منصور رَحِمَهُ اللَّهُ.

-وأمَّا وصف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الرقى بأنها شرك؛ فإن هذا منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لنوعٍ مخصوص من الرقية وهو ما كان فيه شرك.

-وأمَّا تخصيص النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الرقية بشيء معين وهو: «لا رقية إلا من عين أو حمة» ؛ فالصحيح في فَهْمِ هذا الحديث أنه لا رقية أنفع من الرقية من العين والحمة، والحمة: هي ذات السموم، كما سيأتي الكلام إن شاء الله في ذلك لاحقًا.

ومما يدل على ذلك: أن الأحاديث كثيرة عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفيها الرقية في غير هذين الأمرين، من ذلك ما جاء في صحيح مسلم من ترخيص النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الرقية من العين والحمة والنَّملة. والنملة: قروح تظهر في جانب الإنسان، فهاهنا لم يقتصر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على العين والحمة.

كذلك في الأحاديث المطلقة التي جاء فيها الرقية للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (كان إذا عاد مريضا)، (قال له جبريل اشتكيت؟) ، وليس في هذا

تخصيص لهذا النوع أو ذاك، فدلَّ ذلك على أنَّ أنفع الرقى ما كانت من العين والحمة.

-أمَّا إذنُ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الرقى فإنَّه دليلٌ على أن الرقية إذا لم تكن ممنوعة -مما سيأتي الكلام فيه إن شاء الله- فإنه لا بأس بها، كما مر معنا في حديث عوف بن مالك قال: «لا بأس بالرقى ما لم يكن فيها شرك»، بعض أهل العلم حمل حديث عوف وكذلك حديث آل عمرو بن حزم على أنَّ هذا نسخٌ منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لنهيه السابق، كما نحا إلى هذا الطحاوي وغيره من أهل العلم. والصواب: أن الجمع مقدَّم على النسخ، وأن هذا ليس نسخًا، إنما هذا منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيانٌ لنهيه، وأنه إنما نهى عن الرقية التي فيها شرك وليس نهيًا مطلقًا، إنما كان نهيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن شيء معين، وهذا الذي بيَّنه في هذه الأحاديث.

فيتلخص لنا أنَّ حكم الرقية فيه تفصيل؛ فتنقسم الرقية إلى قسمين:

-رقية ممنوعة.

-رقية مشروعة.

۞ **أما الرقية الممنوعة:** فإنَّها قد تكون شركًا أكبر ، وقد تكون شركًا أصغر.

۞ **أما كونها شركا أكبر** فإن هذا يكون:

-إذا اشتملت الرقية على استغاثةٍ أو استعاذةٍ بغير الله، كما يفعل الدجَّالون والمشعوذون وهؤلاء المشركون الذين يرقون برقى شركية يأخذونها عن شياطين الإنس أو عن شياطين الجن، في كتاب «شمس المعارف» أو غيره تجد

عندهم رقى شركية يستغيثون فيها بالجن، أو يستغيثون فيها بالأولياء، أو يستغيثون فيها بالأنبياء، كما يفعل بعضهم في رقية يسمونها «رقية أم الصبيان»، يزعمون أنها جنية مؤذية فيرقون منها برقية شركية يقولون:

نبي الهدَى ضاقتْ بي الحالُ في الوَرَى وأنتَ بما أمَّلتُ فيكَ جَديرُ

(نبي الهدى) خطاب لمن؟ للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ استغاثة شركية، فمثل هذه الرقية لاشك أنها شرك أكبر.

أو -وهو الأمر الثاني-: أن يعتقد أن التأثير في الرقية لغير الله جَلَّ وَعَلَا ، إما أن الرقية تنفع بنفسها ، أو أن النفع راجعٌ إلى الراقي فهو الذي يشفي وهو الذي ينفع وليس الله جَلَّ وَعَلَا ، ولا شك أن من اعتقد هذا فقد أشرك في الربوبية، حيث اعتقد أن مع الله من يشاركه في مِلك النفع والضر، وهذا لا شك أنه شرك أكبر.

۞ **القسم الثاني من الرقية الممنوعة**: أن تكون **شركًا أصغر**، وذلك:

-إما بأن تشتمل الرقية على ألفاظٍ غير مفهومة، ليست بكلام واضح وليست بشركٍ واضح، فيها همهمات وفيها كلمات غير معروفة المعنى، فهذا لا شك أنَّه شركٌ أصغر، اتخاذٌ لسبب ما جعله الله سببًا لا شرعًا ولا قدَرًا.

-**أو** أن يكون في الرقية إقسام بغير الله؛ بعض الرقاة إذا رقى فإنه يُقْسِمُ بمَلك أو حياة فلان أو نبي أو ولي، ولا شك أن الإقسام بغير الله جَلَّ وَعَلَا شرك؛ قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك»

-**أو وهو الأمر الثالث**: أن يكون في المرقي التفاتٌ بقلبه إلى الراقي وليس أن يكون معتمدًا بالكلية على الله جَلَّ وَعَلَا ؛ متى ما كان منه شيء من الاعتماد

والتوكل والالتفات إلى هذا الراقي ولم يعتقد أنه مجرد سبب؛ فلا شك أن هذا شعبةٌ من الشرك.

إذًا هذه الأحوال التي تكون فيها الرقية ممنوعة؛ قد يكون الحكم فيها أنها شركا أكبر، وقد يكون ذلك شركًا أصغر.

۞ **أما الرقية المشروعة**: فقد أجمع العلماء على أنَّ الرقية تكون مشروعة إذا اجتمع فيها ثلاثة أمور:

-**أولاً**: أن تكون بكلام الله، أو بأسمائه وصفاته، ولا شك أيضًا أن ما كان من أحاديث النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الثابتة عنه داخلٌ في ذلك أيضا؛ فيرقي الإنسان نفسه أو غيره بآيات من القرآن أو بدعاء الله جَلَّ وَعَلَا بأسمائه وصفاته، أو بالرقى النبوية التي جاءت عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ ومن أكثر تلك الرقى النبوية ورودًا في الحديث: هذه الرقية التي ذكرتها قبل قليل؛ «أذهب البأس رب الناس، واشف أنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقما».

-**ثانيًا**: أن تكون هذه الرقية بكلام عربي واضح، أو مما يُفهم من غيرها؛ إذا كان الراقي من غير أهل هذه اللغة فإنه لابد أن يرقي بكلام مفهوم في هذه اللغة، أما أن يأتي بكلام غير مفهوم في هذه اللغة أو يأتي بكلمات حروفها عربية ولكن غير معلومة المعنى؛ فلا شك أنه يُلحِق هذه الرقية بالممنوعة لا بالمشروعة.

-**الأمر الثالث**: أن يكون الاعتماد في الرقية على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ أن يعتقد كلٌّ من الراقي والمرقي أن الرقية مجردُ سبب، وأنَّ المعوَّل والتوكل على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

إذا اجتمعت هذه الأمور الثلاثة كانت الرقية مشروعةً بالإجماع.

وأمَّا عن حكم الرقية على وجه التفصيل: فإنَّ المقام فيه تفصيل بين أن يكون الحكم متعلقًا بالراقي، أو المرقي، أو المسترقي.

○ **أمَّا الراقي لنفسه أو لغيره في الرقية المشروعة** -والكلام إنما يتعلق بها- إذا كانت الرقية مشروعة فإنَّ حكم هذه الرقية بالنسبة للراقي لا شك أنه الاستحباب؛ فإنَّ رقية الإنسان لنفسه أو رقيته لغيره لا شك أنَّ فيها لجوءًا إلى الله وطلبًا من الله وتذللًا لله ورجاءً في الله وتوكلًا على الله، فالحقيقة أنها عبادةٌ يجتمع فيها أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات.

وإذا كانت الرقيةُ للغير كان فيها أمرٌ زائد وهو: نَفْعُ المسلمين وإفادتهم، وهذا ما حثَّ عليه النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: «من استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل». هذا الحكم في الرقية المشروعة بالنسبة للراقي.

○ **أمَّا بالنسبة للمرقي**؛ والمراد به: من طُلِبَ منه أن يُرْقَى من غيره فإنَّ ذلك في حقه جائز لا بأس به، لا بأس أن يقبَل أن يُرْقَى من غيره دون طلبٍ منه؛ كما رَقَى النبيَّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جبريل، وكما رقى النبيَّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

- **وأما بالنسبة للمسترقي**؛ وذلك بأن يطلب من غيره أن يرقيه، فهذا ما مضى الحديث فيه في (باب من حقق التوحيد دخل الجنة)، وقلنا الأصل في الاسترقاء أنه من الأمور التي ينبغي أن يحرص المسلم على تركها، وذلك لأنها قد تفوِّت عليه المنزلة العظيمة الرفيعة؛ وهي أن يكون من السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حسابٍ ولا عذاب، وذلك أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصف هؤلاء بأنهم «لا يسترقون»، ولا سيما إذا كان الإنسان قادرًا على أن يرقي نفسه، فما حاجته إلى أن يتذلل لغيره؟! بل ينبغي أن يلجأ إلى الله مباشرة، وكلام الله الذي يُرقى به يسير ولله الحمد، الله جَلَّ وَعَلَا يسَّره؛ فيستطيع الإنسان أن يرقي نفسه بنفسه.

إذًا هذا عن حكم الرقية.

وأنتقل إلى صفة الرقية: كيف تكون الرقية؟

الناظر في أحاديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يجد أن كيفية الرقية جاءت على أنواع:

- **أولًا**: أن تكون الرقية مع نفَثٍ أو تفلٍ، هذا نوع؛ تكون رقية يقرأ الإنسان ويصاحبه نفثٌ أو تفلٌ. النفث: إخراج الهواء مع شيء من الريق. وأما التفل أو البزاق أو البصاق: فإنه شيء أكثر. وكلا الأمرين ثابتٌ في السنة؛ أن يقرأ الإنسان بآيات أو بأدعية أو برقى نبوية ويجمع مع ذلك النفث أو التفل. ويدل على هذا أحاديث عدة عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، من ذلك: حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «كان إذا مرض أحدٌ من أهل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نفث عليه بالمعوذات»، والأحاديث في هذا كثيرة. والبصاق أو التفل أو البزاق هذا أيضًا

جاء في أحاديث عدة، من ذلك: حديث أبي سعيد الخدري في الصحيح، وفيه قصة الرجل الذي كان سيِّد قومه ولُدغ، فرقاه أحد أصحاب النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بالفاتحة، فكان كلما ختمها جمع ريقه فتفل على هذا المصاب حتى شفيَ بإذن الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ. إذًا أن تكون الرقية معها نفث أو تفل.

- **ثانيا**: أن تكون الرقية بلا نفث ولا تفل؛ مجرد قراءة دون أن يجتمع معها نفث أو تفل، وهذا جاء فيه أحاديث أيضا عدة عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ تدل على رقية بلا نفث، وذلك كما جاء في «الصحيحين» في روايات عدة لحديث عائشة أنه كان إذا عاد مريضا دعا له أو رقاه بهذه الرقية: «اذهب البأس رب الناس»، ولم تذكر عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا نفْثه. كذلك ما ثبت في الصحيح من حديث أنس أنَّه زار ثابتًا تلميذه وكان مريضًا فقال ألا أرقيك برقية النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ؟ فذكر هذه الرقية ولم يُذكر في الحديث النفث. كذلك جبريل عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ لم يأت في الحديث أنه نفَث؛ فدل هذا على أن هذا أيضا وجه صحيحٌ مشروع؛ إن رقى بنفث أو رقى بلا نفث فالأمر لا بأس به.

- **الصفة الثالثة**: أن يجمع الإنسان مع القراءة المسح على الموضع المصاب أو وضع اليد عليه؛ فإن عائشة رضي الله عنها كانت تُخبر (أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ إذا اشتكى رقى نفسه ومسح بيده)، فلمَّا اشتكى النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ كانت ترقيه ثم تمسحه بيد نفسه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ورَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا. كذلك ثبت في «صحيح مسلم» من حديث عثمان بن أبي العاص أنه قال يا رسول الله إني أشتكي مرضا منذ أسلمت، فأمره النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أن يضع يده على المكان المصاب ثم

يقول: «بسم الله ثلاثا» ثم يقول سبعًا «أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر»، فهذا الحديث فيه رقية مع وضع اليد على الموضع أو المكان المصاب أو الذي يتألم منه الإنسان.

•**صفةٌ رابعة**: وهي أن تكون الرقية على ماء يُنفث فيه ثم يُشرب أو يُغتسل أو يُغسل به، رقيه تُقرأ مع نفثٍ في ماء، ثم بعد ذلك يشربها الإنسان أو يغتسل منها أو يغسل نفسه بها. وجاء في هذا حديثان: أولهما عند «الطبراني» بإسنادٍ صحيح صححه الشيخ الألباني وغيره من أهل العلم من حديث علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يصلي فلُدغ من عقرب، فكان منه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد ذلك أن أتى بماء وملح فكان يقرأ على هذا الماء ويمسح من هذا الماء والملح». كذلك في «سنن أبي داوود» من حديث ثابت بن قيس بن شمَّاس: أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عاده رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وكان صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يرقيه بقوله: «أذهب البأس رب الناس عن ثابت ابن قيس ابن شمَّاس»، وكان صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد أخذ شيئا من تراب بطحان فوضعه في ماء فكان ينفث فيه ثم يمسح به ثابتًا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ. وأما الآثار عن السلف في الرقية على الماء فإنها كثيرة.

هذه أربعة أوجه في كيفية أو صفة الرقية.

وهاهنا يحسن التنبيه على أن هناك اجتهادات وربما كانت التجاوزات في حال الرقية المعاصرة مع الأسف الشديد، وهذا مما ينبغي أن يُنتبه وينبَّه إليه، **وذلك أن من الناس من يرقي فيأتي بأشياء جديدة وربما كانت محدثة.**

*بعض الناس مثلًا تجد أنه يرقي رقية جماعية، يجلس في مجلس مكتظ فيه العشرات وربما أكثر ثم يرقي هكذا الكل بهذه الرقية، وهذا أمر لا دليل عليه.

*بعضهم ربما رقى فنفث في خزانات الماء الكبيرة، وهذا أمر أيضًا لا دليل عليه.

*واليوم أصبحنا أيضا نسمع عن أناس يرقون من خلال المواقع في الإنترنت، يرقيك من خلال الأثير عبر الشبكة، "ادخل إلى موقعي وضع يدك على المكان الذي يؤلمك وافتح المقطع الذي فيه الرقية!"

ما الدليل على هذه الأمور؟ هذه أشياء تقع من بعض الرقاة.

كما أن هناك أخطاء تقع من بعض من يطلب هذه الرقية؛ وذلك أن بعض الناس مع الأسف يظن أن الرقية لابد أن تكون من شخص معيَّن أو من فئة معينة، ويغفل عن أنَّ رقية الإنسان لنفسه من أنفع ما يكون؛ وذلك أن الإنسان إذا رقى نفسه يكون عنده من الاضطرار وصدق اللجوء إلى الله جَلَّوَعَلَا ما ليس في الحال الأخرى وهي أن يكون مرقيًّا من غيره، فما الذي يمنعك أن ترقيَ نفسك بنفسك؟! أما التعلق برُقاةٍ وربما يكونون معيَّنين، وربما يقطع الإنسان مئات أو آلاف الأميال للوصول إليهم، ينتقل الإنسان من قُطر إلى قطر، بل ربما من دولة إلى دولة لأجل أن يصل إلى راقي معين، سبحان الله العظيم! أليست الرقية بكلام الله؟ أليس كلام الله موجود عندك أو على الأقل عند أناس في بلدك؟ ما الحاجة إلى أن تذهب إلى فلان أو فلان؟ الرقية تأثيرها يرجعُ إلى كلام الله جَلَّوَعَلَا، إلى الدعاء بأسماء الله وصفاته، وليس إلى ذاتِ هذا الشخص بأنه هو المؤثر،

وهو الذي يجلب النفع أو يدفع الضر ، فهذه التجاوزات مما ينبغي أن يتنبه له الإنسان.

أيضًا من الأخطاء الشائعة في هذا الباب : أن بعض الناس يستعمل الرقية على سبيل التجربة، يقول: "دعنا نجرِّب لن نخسر شيئا"، فهو يرقي نفسه أو يُرقَى من غيره وفي نفسه أن هذا ليس بالأمر النافع يقينًا، يعني ربما يكون جازمًا بحصول الانتفاع من حبة دواء أو من جرعة شراب، ولا تجد هذا اليقين في نفسه بكلام الله جَلَّوَعَلَا الذي أخبر سُبْحَانَهُوَتَعَالَى فيه: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ﴾[الإسراء:٨٢] .اعلم أنك لا تستشفي فتنتفع بالقرآن إلا إذا كان عندك يقين.

قال العلماء: إذ اجتمعت ثلاثة أمور فما أنفع هذه الرقية:

١-صدق الراقي.

٢- يقين المرقي.

٣- صحة المرقي به.

احرص على اجتماع هذه الأمور الثلاث؛ صدق الراقي، ويقين المرقي ، وصحة المرقي به.

تنبَّه -يارعاك الله- إلى أن الرقية كما يقول العلماء سيف، والسيف حتى ينفع لابد من اجتماع أمرين:

١. لابد أن يكون الضارب به قويًا.

٢. ولابد أن يكون المحل قابلًا.

لابد أن تكون اليد قوية؛ يقولون: «السيف بضاربه»، لو كان معك أمضى السيوف لكن اليد هزيلة ضعيفة، تكون قتَّالًا ضرَّابًا؟ لا، السيف ربما يسقط من يدك. فالأمر يحتاج إلى صدق ويقين.

ولابد أن أيضًا يكون المحل قابلًا؛ لو أخذت أقوى السيوف وكانت يدك أقوى الأيادي، ولكنَّك كنت تضرب في صخرة صماء هل يحصل شيء؟ لا؛ لأنَّ المحل غير قابل للقطع بالسيف.

إذًا لابد من صدقٍ في الراقي، ولابد من يقينٍ في المرقي، ولابد أن يكون السيف في أصله قويًّا، وهذا هو صحة المرقي به.

أورد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الباب أربعة أحاديث وأثرين عن تابعين.

أمَّا الحديث الأول فهو ما ذكره المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه (فِي «الصَّحِيحِ») ومراده في: الصحيحين.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فِي «الصَّحِيحِ» عَنْ أَبِي بَشِيرٍ الْأَنْصَارِيِّ؛ أَنَّهُ كَانَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، فَأَرْسَلَ رَسُولًا: «أَلَّا يَبْقَيَنَّ فِي رَقَبَةِ بَعِيرٍ قِلَادَةٌ مِنْ وَتَرٍ - أَوْ قِلَادَةٌ - إِلَّا قُطِعَتْ»).

(عن أبي بشيرٍ الأنصاري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ)؛ وأبو بشير على الصحيح لا يُعرف له اسمٌ من وجه ثابت[146]، وإنَّما هو معروف بكُنيته، وهو أنصاري، قيل: مازني، وقيل: إنَّه حارثي،[147] وقيل غير ذلك.

---

(١٤٦) قِيلَ: قَيس بن عُبيد كما قال ابن سعد ، لكن بعض المحقّقين كابن عبد البرّ في «الاستيعاب» بيَّن أنَّ هذا لا يصح، وأنه لا يُعرفُ له اسمٌ يصح.

الشاهد أن هذا الصحابي الجليل كان مع النبي ﷺ في بعض أسفاره، وقد ذكر الحافظ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه حَرِصَ على الوقوف على هذا السفر، فلم يقف في ذلك على شيء(١٤٨)، المهم أنَّه كان في سفرٍ مع النبي ﷺ، فأرسل عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ رسولًا من أصحابه لينادي في الناس، جاء في بعض الروايات في خارج الصحيحين أنه مولاه زيد بن حارثه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أرسل النبي ﷺ هذا الرسول لينذر الناس ويعلِّمهم وينبِّهم في شأنٍ مهم، ألا وهو:

«أَلَّا يَبْقَيَنَّ فِي رَقَبَةِ بَعِيرٍ قِلَادَةٌ مِنْ وَتَرٍ - أَوْ قِلَادَةٌ - إِلَّا قُطِعَتْ»؛

الأظهر والله وأعلم أن (أو) هاهنا شكٌ من الراوي، أقال النبي ﷺ (قلادة) هكذا مطلقة؟ أو قال (قلادة من وتر)؟ وجاء عند أبي داود: «قلادة من وتر ولا قلادة» بـ(الواو) وليس (أو).

والمقصود من ذلك أنَّ النبي ﷺ نهى عن تقليد البهائم -ومنها الإبل- أن تُقَلَّد الأوتار. الوتر: هو وتر القوس الذي يربط بين طرفيه الذي يدفع السهم، وكانت العرب تتخذ الأوتار من حبال، أو من عصب الشاء أو من غير ذلك، فإذا قَدُمَ واخلولق وأرادوا أن يستبدلوه فإنَّهم يقلدون به أنعامهم.

قال الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ عقيب إخراج الحديث: «أُرى ذلك من العين»، أي أنهم كانوا يقلدون الأوتار أو غيرها على دوابهم خشية العين. من عقائد أهل الجاهلية: أنهم كانوا يعتقدون أن تعليق الأوتار ونحوها على البهائم يقيها من

---

(١٤٧) قِيلَ: إنه ساعديٌّ.

(١٤٨) يقول ابن حجر: «بحثتُ فلم أقفْ على تعيين هذا السفر».

أذى العين، فنهى النبي ﷺ عن ذلك، وأمر بقطع هذه القلائد؛ وفي هذا دليلٌ على تحريم تعليق التمائم.

وهذا الحديث أصحُّ حديثٍ في النهي عن التمائم؛ لأنه مُخَرَّج في الصحيحين، وحُمْلُه على ما ذكر الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ هو الصحيح، وإن كان ذُكرت عللٌ أخرى لأمر النبي ﷺ بقطع الأوتار، لكنَّ الصحيح هو ما قاله الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ وتابعه عليه جماعةٌ من أهل العلم.

فالحديث إذًا دليلٌ على النهي عن تعليق التمائم. **والتمائم**: هي كل ما يُعلَّق بقصد دفع البلاء قبل نزوله، أو رفعه بعد نزوله. وهذا يتنوعُ إلى أشياء مختلفة؛ منها ما يكون خيطًا ، ومنها ما يكون قلادةً، ومنها ما يكون قطعة من حيوان، ومنها ما يكون شيئًا مكتوبًا، إلى غير ذلك.

المهم أنه كلُّ شيء يُعلَّق ويوضع وهذا القصد فيه -وهو أنه يكون بقصد دفع البلاء أو رفعه- فإنه حينئذٍ يُسمى «تميمة»، وتتنزل عليه الأحاديث الناهية عن ذلك، بل الواصفة له بأنه من الشرك.

وليس في الحديث النهي عن تقليد البهائم مُطلقًا، فلو أنه قلَّد الإنسان البهائم لسببٍ آخر فإن هذا لا بأس به، فالنبي ﷺ قد قلَّد الهدي الذي بعثه إلى مكة، وكانت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا كما ثبت عنها تفتل القلائد لهدي للنبي ﷺ، ثم كان يعلقها ﷺ على هذه البهائم التي كان يهديها إلى الحرم، ولم يكن ﷺ يُحرِّم على نفسه شيئًا بذلك.

الشاهد أن تقليد البهائم لغير هذا السبب هو غير داخل في هذا النهي؛ كتقليد الهدي ونحوه، يعني يُعلَّق عليه قلائد لِيُعلَم أنَّه هديٌ؛ هذا كان من عادة الناس أنهم كانوا يعلِّقون على الهدي أشياء من القلائد؛ لأجل أن يُعلَم أنَّ ذلك من الهدي، فهذا لا بأس به، إنما المنهي عنه في هذا الحديث هو أن يكون تعليق التمائم بقصد دفع البلاء أو رفعه.

وفي هذا الحديث من الفوائد: أنه يجب الإنذار، ويجب التبليغ، ويجب التعليم، لابدّ أن يكون في الناس من يبيّن الحق، وأن يصدعُوا فيهم، لابد أن يفشو الخير، لابد أن يُنهى عن الشر، حتى تقوم الحجة على الناس، النبي ﷺ ما ترك الناس على جهلهم بهذا الأمر العظيم، لاسيما وهو يتعلق بجناب التوحيد، إنَّما أرسل رسولًا وكلَّفه وأمَره أن يحذر الناس ويعلِّمهم وينبههم حتى لا يقعوا في هذا الأمر المخالف في شريعة النبي ﷺ. وهكذا السائرون على نهج النبي ﷺ عليهم أن يبادروا وأن يجدُّوا وأن يُشَمِروا في الدعوة والبيان والتحذير، حتى تقوم الحجة وحتى يقل الشر، نسأل الله الإعانة على ذلك.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ الرُّقَى وَالتَّمَائِمَ وَالتِّوَلَةَ شِرْكٌ» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ).

هذا الحديث أصلٌ في هذا الباب، وله قصة وهي: أن ابن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رأى في عنق زوجه زينب الثقفية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا خيطًا فسألها، قال: (ما هذا؟)؛ وهذا فيه:

الاستفسار قبل إنكار المنكر، لا تهْجُم على شيء تجهله، فتنكر شيئًا قد لا يكون منكرًا.

سأل ابن مسعود زوجه (ما هذا؟) فقالت: (خيطٌ رُقيَّ لي فيه)، كانت مصابةً بمرض يُصيبها بالحمى والحرارة، فلبست هذا الخيط الذي رُقيَ لها فيه، لأجل أن يدفع عنها ما نزل بها. وهذا يدلك على الاشتراك والعلاقة التي تقع أحيانًا أو كثيرًا بين التمائم والرقى؛ فهذا قد اجتمع فيه أنه تميمة ورُقي عليها أيضًا، فعند ذلك غضب ابن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وجاء في بعض الروايات أنَّه شمَّر عن ذراعيه وأخذ هذا الخيط فجذبه بعُنف حتى كادت تسقط على وجهها، وهذا يدلك على غضب ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لحرمات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، الأمر ليس هينًا، أن ينهى الله جَلَّ وَعَلَا ونبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن شيء ثم بعد ذلك يتعامل معه الإنسان ببرودٍ شديد!! لكن لاحظ أن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إنما فعل ذلك مع من؟ مع من هي من رعيته، أليس هو الولي عليها؟ فحينئذٍ مثلُ هذا من الزوج مع زوجه إذا كان أبلغ في بيان أنَّ هذا منكر فلا شك أن هذا من الحكمة.

المهم أن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مدَّ يده فقطع هذا المنكر، «من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده»، وهذا حيث تعلمون حين لا يكون هناك مفسدةٌ مترتبة على ذلك أعظم. وقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إن آل عبد الله لأغنياء عن الشرك»، هكذا بيوت أهل التوحيد، مثال على بيت من بيوت الموحدين الذين لهم عناية عظيمة بتحقيق التوحيد والحذر من الشرك ومن شعبه ومن ذرائعه. «**إن آل عبد الله لأغنياء عن**

الشرك»، يا ليتها تكون قاعدة نجعلها في بيوتنا، ونُشِيعها في أهالينا، إنا لأغنياء عن الشرك كبيره وصغيره.

ثم قال ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: سمعت النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**إن الرقى والتمائم والتولة شرك**»، فبيَّن لها رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ الحجة والدليل على هذا الإنكار، بل بين المسوِّغ الذي جعله يتناول هذا الشيء فيقطعه بيده؛ أن المسألة عظيمة، المسألة تتعلق بقضيةٍ شركية.

إذًا لا تساهل في هذا الأمر العظيم، قطع ذلك ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، ثم بيّن الحجة، وذلك أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إِنَّ الرُّقَى وَالتَّمَائِمَ وَالتِّوَلَةَ شِرْكٌ**».

هذا الحديث فيه ما يدل على حكم هذه الأمور الثلاثة وأنها من الشرك لكن تنبه إلى أن المقام فيه تفصيل.

أما قوله: « **إِنَّ الرُّقَى**» والحكم على ذلك بأنّه شِرك فقد مضى الكلام فيه، وقلنا إن هذا الحديث إنَّما يتناول الرُقى الممنوعة لا المشروعة، أما الرُقى المشروعة فإنها غير داخلة في هذا الحديث، فهذا الحديث فيه تنصيصٌ لا على الرُقى مطلقًا، إنما على رُقى مُقيدة، وهي الرُقى الشركية. ومر معنا أن الرقى الممنوعة قد تكون شركًا أكبر، وقد تكون شركًا أصغر، على تفصيل مضى.

ثانيًا: قال: «**وَالتَّمَائِمَ**»، ووصفها النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنها شرك، وقلنا إن ضابط التميمة هي: كل ما يعلق مع قصدٍ؛ وهو دفع البلاء أو رفع البلاء، وهذا جاء منهيًا عنه مطلقًا، ولم يأتِ تقييدٌ عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بإباحة تميمة دون أخرى.

إذًا هناك فرق بين الرُقى والتمائم، لابد أن تفرِّق بين الرُقى والتمائم:

-الرُقى: شيءٌ يُقال، شيءٌ يُقرأ، وأما التميمة: فإنَّه شيءٌ يُعلق ويوضع، إذًا هناك فرق بينهما.

-الرُقى فيها تفصيل، وأما التمائم فالنهي فيها لا تفصيل فيه عن النبي ﷺ.

ثالثًا: قال: «**وَالتِّوَلَةَ**»؛ التولة فسرها ابن مسعود رضي الله عنه كما عند ابن حبان والحاكم وغيرهما: «قالوا يا أبا عبد الرحمن هذه الرقى والتمائم، فما التولة؟ -التولة بكسر التاء-، قال رضي الله عنه: شيءٌ تصنعه النساء يتحبَّبن به إلى أزواجهن»، وهذا يا رعاكم الله ضربٌ من السحر -كما بَيَّن أبي عبيد وغيره- ضربٌ من السحر يُستعمل في التحبيب، كما سيأتي في كلام المؤلف رحمه الله «يحبب المرأة إلى زوجها، ويحبب الرجل إلى امرأته»، وهذا لاشك أنه شركٌ بالله جل وعلا، وسيأتي التفصيل فيه -إن شاء الله- في باب خاص بالسحر.

الشاهد أن هذا الحديث فيه بيان حكم هذه الأمور الثلاثة، الرُقى ومضى الكلام فيها، والتمائم، والتولة.

التمائم في غير القرآن، -وسيأتي الكلام في تمائم القرآن بعد قليل إن شاء الله الحكم فيها أنها تتراوح بين شركٍ أكبر وشرك أصغر. **قد تكون التميمة شركًا أكبر، وقد تكون التميمة شركًا أصغر.**

تكون التميمة شركًا أكبر في الأحوال الآتية:

أولًا: أن يعتقد مُقلدها ومُعلقها أنها تنفع وتضر بذاتها؛ هذا شركٌ أكبر في الربوبية.

۞ **ثانيًا**: أن تشتمل التميمة على شيءٍ من الاستغاثة بغير الله؛ من التمائم التي تعلَّق ما يكون فيها شيءٍ مكتوب، يكتبون في رقعة، في قطعة من الورق، في قطعة من الجلد كلامًا قد يكون فيه شرك، استغاثة بالأولياء، بالأنبياء، بالملائكة، بالجن، ثم يطوون ذلك ويخِيطونه في قطعة قماش أو جلد ويعلقونه على الأعناق، أو على العضد، أو على الساق، أو على البطن، أو يضعونه وضعًا في البيوت أو السيارات، فإن كانت التميمة مشتملة على استغاثة بغير الله، فهذا لا شك يجعل التميمة شركًا أكبر.

۞ **الحالة الثالثة**: أن تشتمل التميمة على شيءٍ من علم الحرف أو الطلسم، «علم الحرف والطلسم» هكذا يسمونه، ولاشك أنه من علوم الشياطين والمردة، شياطين الأنس، هو ضربٌ من الكهانة؛ حيث إنهم يعتقدون أن الحروف الهجائية -الألف والباء والتاء إلى آخره- والأرقام، علم الطلسم هو علم الأرقام، يعتقدون أن الأرقام -واحد واثنين وثلاثة إلى آخره- كل حرف منها أو كل رقم منها له خاصية، بحيث إنه لو رُكِّب تركيبًا معينًا فإنه يكون له اتصال بالأرواح العلوية أو بالكواكب أو بالنجوم، فيكون في هذا تأثيرٌ على مُجريات هذا الكون، على ما يقع في هذه الأرض، لذلك تجد أنهم يجعلون جداول، يجعلون في مربع رقم، ومربع ثاني رقم، بطرائق وحسابات معروفة عندهم وفيها كتب ومؤلفات، وقفتُ على شيءٍ منها، -أسأل الله أن يتلفها وأن يحرقها وأن يبعدها عن المسلمين- تجد أنهم يجعلون في جداول بحيث تقرأ بهذا الشكل على كيفية، وبهذا الشكل على كيفية، وبهذا الشكل على كيفية، إذا

رُكِّبت على الطريقة التي يزعمون فإنه يحصل بذلك ما يريدون؛ إذا كانوا يريدون نجاةً من فقر أو نجاةً من عدو أو سلامةً من جن أو نحو ذلك، فلكل شيءٍ من هذه المطالب كيفية وطريقة في جمع الأرقام أو في جمع الحروف، (باء) بعدها (تاء) بعدها (جيم) بعدها (واو)، وبالأسفل كذا، ثم بعد ذلك يزعمون أنك إذا علقتها فإنك تنال ما تطلب من الخير، أو يُدفع عنك ما تخاف من الشر.

لا شك أن تعليق هذه التمائم شرك بالله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن مُعلِّقها انتهج ما هو في حقيقته شرك، فإنَّ هذه العلوم علم الحرف أو علم الطلسم لا شك أنه شرك بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى؛ لأن فيه اعتقاد أن تصريف الكون يكون من غير الله جَلَّوَعَلَا، وهذا شركٌ أكبر في الربوبية.

إذًا عندنا ثلاث أحوال يكون فيها تعليق التميمة شركًا أكبر.

أما إذا لم يكن شيءٌ من ذلك؛ فإذا علق خرزة، علق العين الزرقاء التي تكلمنا عليها، علَّق مِنقار غراب، علَّق خيطًا ، علق أي شيء، لم يكن فيه استغاثة بغير الله ولا شيءٍ من علم الحرف والطلسم، وعلقها باعتقاد أنها مجرد سبب، والنفع والضر بيد الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، حينها يكون تعليق التميمة شركًا أصغر.

إذًا: بالتفصيل السابق، يتبين لنا معنى وصف النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ التمائم بأنها شرك.

هذا عن هذا الحديث، وسيأتي تعليقٌ من المؤلف رَحِمَهُٱللَّهُ عليه.

قال رَحِمَهُٱللَّهُ: (وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُكَيْمٍ مَرْفُوعًا: «مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وُكِلَ إِلَيْهِ» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ).

ما رويَّ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وُكِلَ إِلَيْهِ»، هذا الحديث حديث عبد الله بن عُكَيم الجهني(١٤٩)، والصحيح أنه من المخضرمين(١٥٠) الذين أدركوا زمان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لكنهم لم يلقوه، وهذا الذي رجَّحه جماعةٌ من الأئمة الكبار؛ كالبخاري، وأبي زُرعة، وابن أبي حاتم، وكثير من أهل العلم، والترمذي وغيرهم، كلهم نصوا على أنه مخضرم لم يدرك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فحينئذٍ فالحديث على هذا مُرسل، **هذا أولًا**.

وثانيًا: في إسناد الحديث رجلٌ ضعيف هو ابن أبي ليلى. وهذا المعنى جاء من حديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بإسناد آخر؛ جاء من طريق الحسن عن أبي هريرة، وجاء من طريق الحسن عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُرسلًا، كما جاء عند ابن أبي شيبة وغيره عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من قوله، كما جاء أيضًا عن غيرهم، فهذا الحديث بإسناده الذي بين أيدينا ضعيف، لكن جاء من طُرقٍ أخرى.

الشاهد أن هذا الحديث لو صح عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ففيه: بيان ثمرة تعليق التمائم، وذلك كما جاء في هذا الحديث، أن «مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وُكِلَ إِلَيْهِ»؛ من توكل على الله واعتمد عليه وأنزل حوائجه به فإن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى يتولاه؛ فيُيسر له كل عسير، ويقرب له كل بعيد، ولا يأتيه إلا الخير والفلاح والسعادة، لكن من غفل

---

(١٤٩) والمخرَّج عند أحمد والترمذي.

(١٥٠) الذين أدركوا الجاهلية والإسلام، ولم تصح لم رؤية للنبي ﷺ؛ وعليه فهذا الحديث مُرسَل؛ لأنَّ (عَبْدِ اللهِ بْنِ عُكَيْمٍ) ليس صحابيًا، ولم يشهد النبي ﷺ.

عن الله وأنزل حوائجه بغيره فإنَّ الله جَلَّوَعَلَا يخذله و يتخلى عنه ويكله إلى ما اعتمد عليه، فلا يناله حينئذٍ إلا الخيبة والخسران.

وهذا شأن من تعلق شيئًا فعلّقه بفعله، وتعلّق قلبه به؛ كحال هؤلاء المشركين وأشباههم حينما يعلقون خيوطًا أو يعلقون أصدافًا أو يعلقون حروزًا من هذه الأشياء التي سبق الحديث فيها؛ قلوبهم التفتت لغير الله واعتمدت على غيره. وهذا حالٌ عجيبة في الحقيقة، كيف يغفل الإنسان عن رب الأرض والسموات الذي بيده كل شيء! الذي أخبر سبحانه أن من يتوكل عليه فإنه سيكون حسبَه، ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾[الطلاق:٣] كافيه سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، يغفل عن ذلك كله ويعلق أمله في خيط! خيط لو فعلت به هكذا انقطع، لو نفخت فيه طار، أهذا يجلب لك الخير ويدفع عنك الضر! هذا والله من فساد العقل ومن فساد القلب.

إذًا هذا الحديث فيه أن من تعلق شيئًا وُكل إليه؛ يخذله الله ويتخلى عنه، فإذا تولاه هذا الشيء فلا شك أنه سيخرج صفر اليدين، بل المصيبة أنه سيخرج بعد أن يكون قد وقع في الشرك بالله جَلَّوَعَلَا.

«**مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وُكِلَ إِلَيْهِ**»؛ وهذا الحديث فيه قصة، وهي: أنَّ عبد الله ابن عُكَيم رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مرض، فزاره بعض الناس فعرضوا عليه أن يُعلق شيئًا، قالوا: لو علقت شيئًا، فقال رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ورحمه: «الموت أقرب من ذلك»، التوحيد عزيز عند أهله، قال: «الموت أقرب من ذلك»، كيف يمكن لي وأنا من أهل التوحيد أن أقع في شيء من الشرك؟!، لا أعلقُ قلبي ولا أجعل اعتمادي على الله، وإنما

على شيءٍ تافه أعلقه!! لا والله، الموت أقرب من ذلك، ثم قال: قال النبي ﷺ: «مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وُكِلَ إِلَيْهِ».

إذًا عندنا ثلاث أحاديث في التعليق، منها اثنان مرا بِنا في الباب السابق، وهذا هو الثالث، والاثنان السابقان حديثان صحيحان؛ الأول حديث عقبة بن عامر: «من تعلق تميمة فقد أشرك»، والثاني: «من تعلق تميمة فلا أتم الله له»، وهذا «مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وُكِلَ إِلَيْهِ»[١٥١].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (التَّمَائِمُ: شَيْءٌ يُعَلَّقُ عَلَى الأَوْلادِ عَنِ العَيْنِ؛ لكِنْ إِذَا كَانَ المُعَلَّقُ مِنَ القُرْآنِ فَرَخَّصَ فِيهِ بَعْضُ السَّلَفِ، وَبَعْضُهُمْ لَمْ يُرَخِّصْ فِيهِ، وَيَجْعَلْهُ مِنَ المَنْهِيِّ عَنْهُ؛ مِنْهُمُ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ[١٥٢]).

---

(١٥١) وهذا الحديث فيه إخبارٌ أو دعاءٌ -يعني: إمَّا أن يكون إخبارًا محْضًا، أو دعاء في صيغة جملة خبرية- بأن لا يتمَّ لمن علَّق شيئًا أمْره ومقصوده، وهو حقيقٌ وجديرٌ بذلك؛ لأنَّ قلبه الْتفت لغير الله ﷻ، وكان الواجب أن يكون اعتماده وتوكّله على الله ﷻ وحده.

(١٥٢) هذا يتعلّق بالنوع الثاني من أنواع التمائم؛ التمائم الممنوعة، والتمائم التي فيها خلاف، **عندنا في التمائم نوعان:**

١-تمائم ممنوعة؛ وهي التي سبقَت.

٢-وتمائم حصل فيها خلاف؛ وهي التمائم من القرآن، يعني: التي يُكتَبُ فيها شيءٌ من القرآن، سورة أو آية أو بضْع آيات، أو يُعلَّق المصحف كاملًا، وقصْد الإنسان بذلك: الاسْتشفاء أو دفْع العين وما شاكلَ ذلك. ويلْتحق بذلك أيضًا: ما كان من أدعيةٍ ثابتة في سُنَّة النبي ﷺ، كما تجده معلّقًا في بعض البيوت مثلًا من بعض الأدعية أو الأذكار، وقصْد معلّقِها هو أنها تدفع العين والأذى ونحو ذلك.

التميمة: شيء كان يعلق على الصبيان من العين، هذا في الغالب، وإلا قد يعلق الكبار أشياء عليهم، وقد يُعَلَقُ على الدواب كما سبق، وقد يكون هذا من العين، وهذا هو الغالب على أهل الجاهلية، وقد يكون لغيره أيضًا.

ثم عطف على هذا رَحِمَهُ ٱللَّهُ الكلام عن مسألة أخرى مهمة وهي: **حكم التميمة من القرآن**؛ يعني: أن يعلق الإنسان شيئًا فيه آيات أو فيه شيءٌ ويلتحق به شيءٌ فيه ذكر الله جلَّ وعلا، أو شيءٍ من الأدعية، أو يضع المصحف كله، كما يطبعون الآن مصاحف صغيرة، فربما وُضعت في علبة من الذهب أو الفضة فعُلقت على الأطفال، ربما كُتبت آية الكرسي في قلادة ذهبية أو فضية، ربما وضع الإنسان لوحة في بيته فيها الفاتحة أو (قل هو الله أحد) أو فيها (ما شاء الله تبارك الله)، أو فيها غير ذلك.

المهم أنَّ هذه مسألة أخرى تختلف عن الكلامٍ السابق، وهي التميمة أو إن شئت فقل: **المعلقات من القرآن، أو ما فيه شيء من القرآن، أو شيءٌ من الأدعية أو الأذكار؛ شيءٍ من هذا القبيل هل حكمه حكم التميمة السابقة أو يختلف؟**

نبهنا المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كلامه السابق أنَّ هذا موضع خلافٍ بين العلماء، بعض العلماء رخص فيه، وبعضهم منع منه، وذكر منهم ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، هذه المسألة مهمة ويكثر السؤال عنها، وتشتد الحاجة إلى معرفتها.

الواقع أنَّ العلماء مختلفون في هذه المسألة إلى ثلاثة أقوال:

القول الأول: فهو أنَّ تعليق هذه التمائم من القرآن أو ما فيه شيء من ذكر الله؛ أن ذلك جائزٌ قبل نزول البلاء وبعد نزول البلاء، وهذا القول رُويَ عن عبد

الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ورويَ عن بعض السلف؛ كسعيد بن المسيب وابن سيرين ومجاهد، ولكنَّ الأقرب أنه لم يصح عنهما، لكنَّه صح عن عطاء، وعن أبي جعفرٍ الباقر ؛ محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رَحِمَهُ اللَّهُ ورَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. الشاهد أنَّ هؤلاء ذهبوا إلى جواز ذلك، وابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ أورد هو وغيره من أهل العلم هذا قولًا لأهل العلم.

واستدل هؤلاء بعموم الأدلة التي فيها الاستشفاء بالقرآن: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ﴾[الإسراء:٨٢]، وهذا استشفاءٌ من القرآن فيكون داخلًا في الآية.

واستدلوا أيضًا بأثرٍ عن عبد الله بن عمر بن العاص، وهو أنه علّمه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دعاء الفزع، يعني: قد يصابُ الإنسان في نومه بشيء من الأشياء التي تُفزعه، قد يرى أشياء، وهذا يحصل لبعض الناس؛ علَّم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عبد الله بن عمرو بن العاص دعاء الفزع، وهو: «أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه، وعقابه، وشر عباده، ومن همزات الشياطين، وأن يحضرون»، خمسة أشياء احفظها وحفِّظها لأبنائك. هذا يقوله الإنسان إذا أوى إلى فراشه، إذا كان ممن يصاب بشيء يُفَزِّعُه في نومه فإنه يستحب في حقه أن يقول هذا إذا أوى في فراشه، قبل أن تنام اذكر هذا الذكر وادعُ بهذا الدعاء.

إلى هذا القدر هذا سنة ثابتة عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جاءت من حديث عمرو بن العاص، وجاءت من حديث غيره. لكن جاء بعد ذلك زيادة وهي: أن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كان يحفِّظها أبنائه البالغين، كان من بلغ من أبنائه حفَّظه إياها، ومن لم يبلغ كتبه في صكٍ -يعني كتبه في شيء في ورقةٍ أو نحوها- ثم علقها عليه، هذا

يفعله مع الصغار الذين لم يبلغوا. قال : «وأما من بلغ فيحفظه إياها، ومن لم يَبْلُغ يكتبه في صك فيعلقه عليه». قالوا: هذا دليل على إنه يجوز أن يعلق الإنسان التمائم مما فيه شيء من الأدعية والأذكار، ومن باب أولى ما كان فيه شيء من القرآن.

والواقع أن هذين الاستدلالين فيهما نظر.

أما الأول: فإن خير من فهم الآيات المتعلقة بالاستشفاء وطبَّقها؛ النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ، ولم يثبت عنه صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قط أنه قد علق شيء من القرآن البتة ؛ فدل هذا على أن هذا الفهم غير مراد.

ثانيًا: أثرُ عبد الله ابن عمرو رَضِيَاللَّهُعَنْهُمَا فيه نظرٌ من جهة الإسناد، ومن جهة المتن أيضًا.

-**أما الإسناد** فإنَّ الحديث مع ما بعده من الأثر جاء من طريقِ ابن إسحاق عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، الذي هو عبد الله بن عمرو، وعنعن في الإسناد ، وابن إسحاق مدلس وعنعن هاهنا، ففي الحديث ضعف، هذا الأثر عن ابن عمرو رضي الله عنهما يُحتاج في إثباته إلى إسنادٍ آخر، ولا أعلم له إسنادًا إلا هذا ،ففيه ضعف، **هذا أولًا**.

-**وثانيًا: من جهة المتن؛** الأثر ليس صريحًا في أنه علق ذلك لأجل دفع هذا البلاء، قال بعض أهل العلم: (ربما علقه لأجل التعليم)، لأجل أن يتهجى هؤلاء الصغار ويتَحفَّظونه، لأن هذا الأثر ليس فيه التعليق على الصغار والكبار، لو كان يريد التعليق ليكون دافعًا للأذى لعلق على الجميع، لكن هؤلاء كبار

حفظوا، وهؤلاء صغار لم يحفظوا، فعلقه عليهم من أجل أن يتهجوا هذا ويقرأوه قبل النوم ثم إذا ناموا يكونون قد أتوا به، أما الكبار فكانوا حفظة فما احتاجوا إلا ذلك. على كل حال هذا يبقى احتمالًا، ومع الاحتمال يبعد أو يسقط أو يضعف الاستدلال.

القول الثاني: في هذه المسألة هو أنه يجوز لُبْسُ هذه التمائم من القرآن أو نحوه بعد نزول البلاء لا قبله، رويَّ هذا عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا [(١٥٣)] وجاء عن بعض أهل العلم، ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في «زاد المعاد» أورد روايات عن الإمام أحمد تفيد ميله إلى هذا القول، يعني قبل نزول البلاء "ألبس التميمة من القرآن لأني أخاف أخشى أن ينزل بي شيء" يقولون لا يجوز. بعد البلاء أُصيب الإنسان بعين بسحر بمسٍ أي شيء هنا يجوز له أن يلبس، إذًا يجوز بعد البلاء لا قبله.

وهذا القول حكايته عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فيه نظر، فالأثر الذي استدلوا به جاء من طريق بُكير بن عبد الله بن الأشج عن القاسم بن محمد عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وبُكير لم يسمع من القاسم، فالأثر فيه انقطاع فلا يصح عنها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وهذا التفريق يردُّه عموم أدلة النهي عن التعليق، والله تعالى أعلم.

القول الثالث: هو النهي المطلق عن تعليق هذه التمائم، فلا يجوز ذلك لا قبل البلاء ولا بعده، وهذا قول ابن مسعود وابن عباس وعقبة بن عامر وحذيفة وعمران من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما أنه قول جماعة من التابعين؛ ومنهم

---

(١٥٣) رواه عنها: ابنُ عبد البرّ، والبيهقي، والحاكم، وغيرهم؛ أنَّها رخَّصت في ذلك بعد نزول البلاء لا قبله.

الحسن البصري، ومنهم أصحاب ابن مسعود؛ كعلقمة والأسود وعَبِيدة السلماني وغيرهم من أهل العلم كما سيأتي عن إبراهيم «كانوا يكرهون التمائم من القرآن ومن غير القرآن»، كما أنه قول جمهور أهل العلم.

وهذا القول هو الراجح إن شاء الله، **ويدل على رجحانه أمور**:

أولًا: عموم الأدلة الناهية عن التعليق مع عدم التفريق بين مُعلَّق ومُعلَّق.

ثانيًا: أن النبي ﷺ فرَّق في الحكم بين الرُّقى والتمائم؛ أما الرقى فقال في شأنها: «اعرضوا عليَّ رقاكم، لا بأس بالرقى ما لم يكن فيها شرك»، أما التمائم فلم يُفرِّق النبي ﷺ ، ما قال فيها "أعرضوا عليا تمائمكم، لا بأس بالتمائم فيها ذكر الله"، ما فعل هذا النبي ﷺ، فدل هذا على أن النهي عن التمائم نهيٌ مطلق لا تقييد فيه.

ثالثًا: الناظر في سنة النبي ﷺ يجد أنَّ النبي ﷺ ما جاء عنه قط في الأذكار أو الأدعية التي فيها جلبٌ أو دفعٌ أو التي تكون سبب لجلب أو دفع كتابة أو تعليق ، لكن تجد فيها: (من قال)، (من قرأ)؛ «من قرأ الآيتين من أخر سورة البقرة في ليلةٍ كفتاه»، من قال كذا وكذا كان له كذا وكذا، تأمل في الأحاديث ما استطعت منها ما تجد أن النبي ﷺ قال "من كتب" أو "من علق" ، مع أن هذا في الواقع أسهل وأبعد عن النسيان، أذكار النوم كان يمكن للإنسان أن يكتبها إذا كان هذا مشروعًا، لـمَ لا يرشد النبي ﷺ إلى ذلك! يكتبها ويجعلها بجواره، أو يتعلقها على صدره وينام، وبالتالي يسلم من مغبة نسيانها، كم من الناس ينام قبل أن يذكر الأذكار؟ كثير من الناس تنعُس عينه قبل

أن يذكر هذه الأذكار، وكان هذا أسهل، ومع ذلك النبي ﷺ ما جاء عنه قط؛ كان يعلق الأمر بالقراءة، بالذكر، بالتلاوة.

أمرٌ رابع: أنَّ هذا القول فيه عملٌ بقاعدة الشريعة التي هي سدُّ الذرائع؛ **وهذا من أوجهٍ عدة:**

أولًا: أن القول بإباحة التمائم من القرآن فتحٌ لذريعة اختلاط التمائم التي يزعمون أنها مشروعة مع التمائم الممنوعة؛ لأن الغالب أن هذه الأشياء تكون مغلقة، وبالتالي يختلط الأمر.

وبالتالي يجد المشركون فرصة ليروِّجوا على الناس التمائم الشركية، ويتقاعس أهل الخير عن إنكار هذا المنكر، الآن لو كانت التمائم كلها يمنع تعليقها لأُنكرت مباشرة، أما إذا كان الأمر فيه تفصيل فلربما رأى الإنسان على آخر شيئا من التميمة، يعلقه فيقول لعله تميمة من القرآن، فينتشر الشر.

كما أنَّ فيه إغلاقًا لباب الرقية يستغني الناس عن الرُقية، مع أن الرُقية سنة، النبي ﷺ رَقى ورُقي، وبتعليق هذه التمائم ربما يكتفي الناس عنها ويستغنون عنها.

وجهٌ رابع: أنَّ هذا القول هو الثابت عن الصحابة رضي الله عنهم، ولم يثبت عن غيرهم خلافه.

وجهٌ خامس: أنَّ هذا قول أكثر التابعين فمن بعدهم من أهل العلم.

أيضًا: أنَّ المنع من هذه التمائم فيه صيانةٌ لكلام الله واسم الله؛ لأنه لا يُؤمَن ابتذال هذه الأشياء، لا يؤمَن أن تُبتذل الآيات أو الأدعية، ولذلك جاء عن

إبراهيم النخعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «كانوا يكرهون التعويذة من القرآن ويقولون أن الصبيان يدخلون بها الخلاء»، لأنها تُعلَّق فمع الوقت يتساهل أو يُنسى فيدخلون بالقرآن أو بشيء من ما فيه ذكر الله دورات المياه والخلاء.

أيضًا: ربما يلبسها الإنسان فينام، وإذا به يجعلها تحته مثلًا، أو ربما علقها عليه وأصبح يتكلم بكلام مُحرم أو بلغو، أو نحو ذلك. المهم أن تعليق هذه الأشياء قد يكون فيه شيء من عدم احترام كلام الله، وما فيه اسم الله.

أخيرًا -وهو الأمر الثامن-: أن هذا القول أحوط، والاحتياط في هذه المسائل أولى.

إذًا الأولى بالإنسان والصحيح من كلام أهل العلم إن شاء الله أنه ليس للإنسان أن يعلق هذه الأشياء بسبب دفع البلاء عنه. بعض الناس تجده يضع مصحف في السيارة لا يقرأ فيه وربما تضربه الشمس حتى تتلف جلده، وهذا فيه شيء من عدم التقدير لكتاب الله، المهم أنه يضعه في آخر السيارة أو في مقدمتها أو ربما وضعه في درج السيارة ويريدُ بذلك أنه يُحفظ من العين أو الحوادث أو نحو ذلك؛ هذا لا شك أنه على الصحيح لا يجوز. كذلك تعليق هذه الآيات ونحوها على الأطفال فالأقرب أن ذلك -رعاكم الله- لا يجوز، والله تعالى أعلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وَالرُّقَى: هِيَ الَّتِي تُسَمَّى العَزَائِمَ، وَخَصَّ مِنْهُ الدَّلِيلُ مَا خَلَا مِنَ الشِّرْكِ؛ فَقَدْ رَخَّصَ فِيهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ العَيْنِ وَالحُمَةِ)**(١٥٤).

مضى الكلام في ذلك والنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما قلنا رخص قال: «لا رقية إلا من عين أو حمة»، وقلنا الحمة: هي ذوات السموم، وأن هذا على معنى أنه لا رقية أنفع من الرُقية في العين والحمة. ومضى الكلام تفصيلًا عن الرُقية.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وَالتِّوَلَةُ: شَيْءٌ يَصْنَعُونَهُ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ يُحَبِّبُ المَرْأَةَ إِلَى زَوْجِهَا، وَالرَّجُلَ إِلَى امْرَأَتِهِ)**.

مضى الكلام في ذلك.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وَرَوَى الإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ رُوَيْفِعٍ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَا رُوَيْفِعُ؛ لَعَلَّ الحَيَاةَ سَتَطُولُ بِكَ؛ فَأَخْبِرِ النَّاسَ أَنَّ مَنْ عَقَدَ لِحْيَتَهُ، أَوْ تَقَلَّدَ وَتَرًا، أَوِ اسْتَنْجَى بِرَجِيعِ دَابَّةٍ أَوْ عَظْمٍ؛ فَإِنَّ مُحَمَّدًا بَرِيءٌ مِنْهُ»)**.

هذا الحديث حديثٌ صحيحٌ إن شاء الله(١٥٥)، وفيه: أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لرويفعٍ الأنصاري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، «**لَعَلَّ الحَيَاةَ سَتَطُولُ بِكَ**»؛ وهذا علمٌ من أعلام نبوته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإنه قد طالت به الحياة، فإنه توفي سنة ستٍ وخمسين من الهجرة، وقيل: سنة ثلاثٍ وخمسين.

---

(١٥٤) كأنَّ المؤلّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ -نلاحِظ في كلامه هذا وفي باب (مَن حقَّق التوحيد) في المسائل- كأنَّه يَميلُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى تخصيص الرقية بالعين والحُمة فقط ومنْع ما سِوى ذلك.

(١٥٥) وفيه بحْثٌ أيضًا من جهة إسناده لكن الوقت يضيق عن الكلام- المقصود فيه: **النهي عن تعليق الوَتَر**، وقد مضى بيانُه؛ لأنَّ هذا من جملة التمائم المنهي عنها.

فأمره النبي ﷺ بالدعوة والبيان؛ «**فَأَخْبِرِ النَّاسَ**» وهذا واجب الدعاة، واجب ورَّاث الأنبياء أن يعلموا الناس وأن يخبروهم وأن يحذروهم كما سبق.

أمره النبي ﷺ أن يُحَذِرَ النَّاس من ثلاثة أشياء:

❁ **الأمر الأول**: عقد اللحية، «**أَنَّ مَنْ عَقَدَ لِحْيَتَهُ**» **واختلف العلماء في تفسير المراد بعقد اللحية:**

- قيل: أن يعقدها، يربط لحيته أو يفتلها تكبرًا[١٥٦]؛ وهذا كما ذكروا كان من عادة بعض أهل الجاهلية.
- وقيل: أنَّه من فِعل أهل التخنث فيهم.
- وقيل: أن هذا كانوا يفعلونه من أجل دفع العين. وهذا القول هو المناسب لبابنا.

❁ **ثانيًا**: «**أَوْ تَقَلَّدَ وَتَرًا**»، تقلد الأوتار مر بنا في تقليد الدواب والإبل في حديث أبي بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ السابق، وهذا يدل على أنهم قد كانوا يتقلدون هم، يعني الناس كانت أيضًا تتقلد الأوتار، وهذا قد مضى الحديث فيه، وأنهم كانوا يفعلون ذلك لأجل دفع أذى العين، هذا هو الشاهد من الحديث، وكذلك ما قبله على القول الثالث في تفسير عقد اللحية. إذًا تقليدُ الوتر الذي جاء النهي عنه

---

(١٥٦) فقد قِيلَ: إنَّ هذا كان يفعله العرب من باب الكِبْر والعُجْب بأنفسهم، ذكر هذا الخطَّابي وغيره. وبعض أهل العلم نظر في ذلك؛ إنَّ عقْد اللِّحية لا وجه بينه وبين العُجْب والكِبْر، لا مُناسبة، وبعضهم ذهب إلى أنَّ العقد هاهُنا إنما هو الفَتْلُ وليس العقد المعروف.

في هذا الحديث فيه دليل على النهي عن التمائم، وهذا هو الذي عقد لأجله المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الباب.

❁ **الأمر الثالث**: هو الاستنجاء برجيع الدواب وعظامهم؛ نهى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أحاديث عدة عن أن يستنجي الإنسان، يعني: أن يتطهر يستجمر بشيئين: بالعظام عظام الحيوانات، وكذلك بروث، بمخلفات الدواب؛ لأن عظام هذه الحيوانات التي نأكلها إذا ذُكر اسم الله عليها فإنها تكون طعام إخواننا من الجن، والرَّوْث هو: طعام دوابهم، فدلَّ هذا على أنه لا يجوز للإنسان أن يستنجي ويتطهر بهذين الأمرين، من فعل ذلك فإن محمدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بريء منه، وهذا دليلٌ على أن هذه الأمور السابقة محرمة، بل من الكبائر، لأن كل من جاء فيه وعيدٌ خاص فإنه يكون من الكبائر.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: «مَنْ قَطَعَ تَمِيمَةً مِنْ إِنْسَانٍ؛ كَانَ كَعِدْلِ رَقَبَةٍ». رَوَاهُ وَكِيعٌ).

هذا الأثر عن سعيد ابن جبير فيه نظر في إسناده ، فإنه جاء من طريق ليث بن أبي سُليم، وهو ضعيف(١٥٧).

وفيه: أن «مَنْ قَطَعَ تَمِيمَةً مِنْ إِنْسَانٍ؛ كَانَ كَعِدْلِ رَقَبَةٍ»، يعني: كأنما أعتق رقبةً في سبيل الله، يعني: ثوابه كثواب من أعتق رقبة لوجه الله.

---

(١٥٧) فيه بيان فضْل مَن قطع تميمة عن إنسان، وأنَّ له من الأجر كأنَّه أعتق رقبة. ومثْل هذا الأقرب من كلام أهل العلم أنه مُرسَل؛ لأنَّ مثْل هذا الأجر لا يُقالُ إلا عن توقيف، لكنَّه مُرسَل؛ لأنَّه من رواية تابعيّ وليس من كلام صحابي.

قال أهل العلم وجه العلاقة بين قطع التميمة وعتق الرقبة: أن من قطع تميمة من إنسان فإنه يكون قد فعل سببًا لعتق رقبته من النار، فكان من ثواب ذلك أنه كمثل من أعتق رقبةً في سبيل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ يعتق الله عَزَّوَجَلَّ لذلك رقبة هذا الإنسان من النار.

❁ ولكن هذا الأثر -كما علمت- ضعيف.

❁ **وثانيًا**: إن صح هو قول تابعي، وليس قول صحابي، وقول التابعي فيما لا مجال للاجتهاد فيه الصحيح أنه ليس له حكم الرفع، فإن هذا خاصٌّ بأصحاب النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

ومن لطيف ما يُذكر ما أخرج ابن أبي شيبة عن سعيد بن جبير رَحِمَهُٱللَّهُ أنه كان يطوف بالبيت فرأى رجلًا يطوف عليه خرزة علَّقها فقطعها رَحِمَهُٱللَّهُ، وهذا فيه إنكار السلف للمنكرات العقدية ومنها التمائم، ولكن كما سلف وكررتُ هذا حيث تُؤمن الفتنة، المهم أن تخرج من قلبه، وأن تُقطع علائق القلب بهذا الشيء، أما لو قطعتها فقط وهي لم تخرج من قلبه فإنه سيرجع ويلبس اثنتين! المهم أن تخرج من قلبه أولًا، ثم بعد ذلك برفق احرص على أن تزيلها منه، أو تجعله هو يقطعها.

قال رَحِمَهُٱللَّهُ: (**وَلَهُ عَنْ إِبْرَاهِيمَ: «كَانُوا يَكْرَهُونَ التَّمَائِمَ كُلَّهَا؛ مِنَ الْقُرْآنِ وَغَيْرِ الْقُرْآنِ»**). هذا -كما ما سبق- قاله إبراهيم النخعي رَحِمَهُٱللَّهُ، وقوله (**كَانُوا**): يريد أصحاب ابن مسعود. وهذه قاعدة عامة: إذا وجدت في كلام إبراهيم النخعي رَحِمَهُٱللَّهُ -وهذا يوجد في كلامه كثيرًا- كانوا كذا، كانوا كذا؛ فإن مراده

أصحاب ابن مسعود كما ذكرت لك؛ كعلقمة، والأسود، وعبِيدة السلماني، وغيرهم من التابعين رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ رحمةً واسعة، ففي هذا بيانٌ أن هذا القول وهو المنع من تمائم القرآن هو قول جماعةٍ من التابعين، بل هو قول الجمهور كما أسلفت.

والله تعالى أعلم.



٩-بَابُ مَنْ تَبَرَّكَ بِشَجَرَةٍ أَوْ حَجَرٍ وَنَحْوِهِمَا

وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى﴾ الآيات [النجم: ١٩-٢٣].

عَنْ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَى حُنَيْنٍ، وَنَحْنُ حُدَثَاءُ عَهْدٍ بِكُفْرٍ، وَلِلْمُشْرِكِينَ سِدْرَةٌ يَعْكُفُونَ عِنْدَهَا، وَيَنُوطُونَ بِهَا أَسْلِحَتَهُمْ، يُقَالُ لَهَا (ذَاتُ أَنْوَاطٍ)، فَمَرَرْنَا بِسِدْرَةٍ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ؛ اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «اللهُ أَكْبَرُ، إِنَّهَا السُّنَنُ، قُلْتُمْ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى: ﴿اجْعَل لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف:١٣٨]، لَتَرْكَبُنَّ سُنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ». رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ.



قال الشارح وفقه الله:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: (**بابُ من تبرك**) أو (**بابٌ من تبرك بشجرةٍ أو حجرٍ ونحوهما**)[١٥٨]؛ هذا بابٌ مهم والحاجة ماسةٌ إلى الإلمام بمسائله؛ لكثرة الأخطاء الواقعة في هذا الموضوع، ألا وهو: موضوع التبرك[١٥٩].

---

(١٥٨) قال المؤلّف رَحِمَهُ اللَّهُ: (**بَابُ مَن تَبَرَّكَ**)؛ «**مَن**» هنا ذكر كثير من الشرّاح أنها شرْطية، وجوابها محذوف؛ أي: فقد أشرك. ويمكن أن تكون «**مَن**» هنا أيضًا موصولة، وعليه فيكون المعنى: باب بيان حال مَن تبرَّك، يعني الذي تبرَّك (**بشجرة أو حجر ونحوهما**) يعني: من قبر ومشْهد وما شاكل ذلك.

(١٥٩) عقد المؤلّف رَحِمَهُ اللَّهُ هذا الباب للكلام عن قادح آخر من قوادح التوحيد ألا وهو: التبرّك.

التبرك: تفَعُّلٌ من البركة ، فهو يعني: طلبُ البركة.

وكلام أهل اللغة في معنى البركة يدور على أمرين: على كثرة الخير، ودوامه. إذًا التبرك: طلبُ كثرة الخير ودوامه(١٦٠).

والبركة شيءٌ يضعهُ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ويعطيه من يشاء، فالله عَزَّوَجَلَّ يبارك الشيء، ويبارك فيه، ويبارك له، ويبارك عليه، فالله جَلَّوَعَلَا هو المبارِك وحده، وما سواه مما شاء أن يجعله مباركًا فهو مبارَك، وما لم يجعله الله مباركًا فلا يمكن أن يكون مباركا(١٦١).

والله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ قد يجعل البركةَ في:

- أزمنة؛ كَليلة القدر: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾[الدخان:٣](١٦٢).

- وقد يجعل البركة في بقعة أو مكان من الأرض، ﴿فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ﴾[القصص:٣٠](١٦٣).

---

(١٦٠) ورجاء ذلك.

(١٦١) ومن المعلوم أنَّ البركة على هذا المعنى إنما تُطلبُ من الله سبحانه؛ لأنَّه المالك لها والواهب لها، فهي مثل العافية والنصرة وأمثال ذلك، فالشيء إنَّما يكون مباركًا بجعْل الله ﷻ له كذلك، ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم:٣١]. وفي الصلاة الإبراهيميّة: «اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد» ثمَّ قال: «وبارك على محمد»، فالله ﷻ هو الذي يبارك الشيء، ويبارك عليه، ويبارك فيه، ويبارك له.

(١٦٢) ومثل شهر رمضان؛ فهي أزمنة مباركة.

- وقد يجعل البركة في ذوات؛ كبيت الله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾[آل عمران:٩٦]، أو المطر، فالله جَلَّ وَعَلَا سماه ماءً مباركًا، أو المسلم فالنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إنَّ من الشجر لما بركته كبركة المسلم»(١٦٤). فهذه الذوات يجعلها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مباركة(١٦٥).

إذًا البركة يجعلها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيما يشاء من أزمنة، وأمكنة، وذوات، وهيئات، وغير ذلك. **والبركة في الجملة تنقسم إلى قسمين:**

***القسم الأول: بركة دينية** راجعة إلى الإيمان والطاعة والثواب وما إلى ذلك؛ فالكعبةُ مباركة بنصِّ القرآن(١٦٦)، وبركتها بركةٌ دينية؛ فإنَّ العبادة ثمَّة فيها من الأجر والفضل ما ليس في غير ذلك، كذلك المسجد النبوي مسجدٌ مبارك؛ الصلاة فيه لها من الأجر ما ليس في غير هذا من المساجد.

---

(١٦٣) **فمن الأمكنة:** المسجد الحرام مثلًا والمسجد النبوي؛ من جهة مضاعفة أجر الصلاة فيهما.

(١٦٤) إذًا في كلّ مسلم بركة بحسب إيمانه، وأعظم مَن فيه بركة من المسلمين: لا شكَّ أنه نبيّنا محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(١٦٥) -**وهيئات:** كالاجتماع على الطعام فيه بركة، كما أخبر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما خرَّجه أحمد وغيره: «اجتمعوا على طعامكم ولا تَتفرَّقُوا فيه يُبارك لكُم فيه».

(١٦٦) ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ [آل عمران:٩٦] ، فيحصل بعبادة الله عنده من الثواب وغُفران الذنوب شيءٌ عظيم.

*القسم الثاني: بركة دنيوية؛ كالمطر الله جَلَّ وَعَلَا جعله ماءً مباركًا، كذلك النبات جعله الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذاتًا مباركًا، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾[الأعراف:٩٦] يعني: المطر والنبات.

وقد يكون الشيء جامعًا بين الأمرين؛ كالقرآن فيه بركةٌ دينية من جهة ما يحصل لتاليه والمتدبر له؛ من الإيمان والرقي في سُلَّم العبودية مع تحصيله جزيل الثواب، وفيه أيضًا بركة دنيوية من جهة ما يحصل من الاستشفاء به(١٦٧)، ولذلك كان القرآن مباركًا، ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ﴾[ص:٢٩]. فالمسلم إذا طلب البركة من كتاب الله جَلَّ وَعَلَا فليستشعر هذين الأمرين.

وكلامُ الناس في البركة وفيما تُطلب فيه البركة وكيف تُطلب البركة كثيرٌ، **لكنَّ الذي عليه أهل السنة والجماعة أنَّ التبرك -يعني طلب البركة- ينقسم إلى قسمين:**

القسم الأول: التبرك مشروع.

القسم الثاني: التبرك ممنوع.

أما التبرك المشروع؛ فهو الذي جمع ثلاثةَ ضوابط:

أولًا: أن تُلتمس البركة مما ثبت شرعًا أنَّ فيه بركة؛ كون الشيء مُباركًا هذه قضية إنَّما تُعلَم من جهة الشرع(١٦٨)، فليس للإنسان أن يزعم أنَّ في هذا الشيء

---

(١٦٧) فإنَّه شفاء كما أخبر الله سبحانه: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ﴾ [الإسراء:٨٢].

(١٦٨) إذْ كون الشيء فيه بركة تُلْتمسُ هذه قضية غيبيّة لا تُعلمُ إلا من جهة الشرع.

بركةً تُلتَمس إلا وعلى هذا دليلٌ من الشارع، فلابد أن يثبُت في الشيء أنه مبارَك حتى يمكن أن يُتبرَّك به.

ثانيًا: أن يكون التبرك وِفق ما ورد في الشرع؛ كما أننا نطلب الدليل على كون الشيء فيه بركةٌ تُلتمس، كذلك علينا أن نطلب الدليل في الكيفية التي نلتمس فيها أو نلتمس بها البركة، فكلا الأمرين توقيفي(١٦٩)، قد يكون الشيء قد ثبت أنه مبارك، لكنَّ الكيفية التي تُفعل من بعض الناس ليس عليها دليل، وهذا مخالِفٌ للشرع، فعلى الإنسان أن يقف عند حد الشرع في الأمرين: في ثبوت أن هذا الشيء فيه بركة، وفي كيفية التماس هذه البركة.

ثالثًا: أن يكون التماس البركة على جهة السببية؛ بمعنى: أن يُعتَقَدَ أن البركة إنما يمنحها الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، إنما يعطيها الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، إنما يتفضل بها الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ، فهي كالعافية وكالنصر وأمثال ذلك، إنما يتفضل الله جَلَّوَعَلَا بها إذا شاء على مَن يشاء، فمن اعتقد أنَّ غير الله عَزَّوَجَلَّ هو الذي يعطي البركة فلا شك أنه اعتقد أنَّ غير الله يشارك الله فيما اختص به؛ ولذلك تجدُ في النصوص أنَّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ هو الذي يجعل الأشياء مباركة، قال عيسى عَلَيْهِٱلسَّلَامُ: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾[مريم:٣١]، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ﴾[الصافات:١١٣]، والمسلم في صلاته يقول: «اللهم صلِّ على

---

(١٦٩) ولذلك يتبرّك الإنسان مثلًا بليلة القدر لعلْمه أنَّ فيها بركة، لكن كيف يتبرّك؟ بالعمل الصالح؛ لأنَّ هذا هو الذي جاء في الشرع.

محمد» ثم يقول: «وبارك على محمد» أنت يا الله الذي تبارك «كما باركت» أنت يا الله «على إبراهيم». إذًا البركة من الله، لا من غيره.

ثبت في صحيح البخاري من حديث ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وجاء أيضًا نحو هذا الحديث من حديث جابر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، ويبدو والله أعلم أن القصة واحدة رواها ابن مسعود ورواها جابر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا؛ ذلكم أن الصحابة كانوا مع النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في سفر، فقلَّ الماء -أضحى الماء قليلا- فاشتكوا إلى النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فقال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «اطلبوا لي فضلةً من ماء»، فأتوا بماء قليل في إناء، فوضع النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يده في الإناء وقرأ، وإذا بالماء كما يقول ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يفور من بين أصابع النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فقال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «حيَّ على الطهور المبارك، والبركة من الله»؛ (حيَّ) يعني: هلمُّوا خذوا هذا الطهور المبارك، ولكنَّه نبههم قطعًا لذريعة الشرك وتحقيقًا للتوحيد، «حيَّ على الطهور المبارك» لكن احذروا لستُ أنا الذي أعطى البركة، «البركة من الله»؛ هذه قاعدة ينبغي أن يستمسك بها المسلم؛ البركة من الله لا من غيره.

إذًا ضابط البركة هو: أن تُلتمس البركة مما ورد شرعًا أن فيه بركة، بالكيفية التي وردت، على جهة السببية.

۞ **أما البركة الممنوعة**: فإنَّها ما فقدت واحد من الضوابط السابقة، وذلك:

أولًا: أن تُلتمس البركة مما لم يثبت شرعًا أن فيه بركة؛ يدَّعي بعض الناس في مكانٍ ما أو زمانٍ ما أو شيءٍ من الذوات أنَّ فيه بركة فيطلب التبرك بها؛

يتمسح يتبرك يلتمس نيل البركة من هذا الشيء، وإذا نظرت لم تجد دليلًا على أن هذا الشيء فيه بركة تُلْتَمس؛ إذًا هذا تبركٌ ممنوع.

مثال ذلك: بعض الناس إذا جاء إلى مثل هذه البقعة المباركة في هذا المسجد النبوي تجد أنه يتمسح بالأبواب أو بالسواري ويفعل هذا التماسًا للبركة، تجده يمسح ثم يمسح على جسده، يريد أن البركة تنال جسده؛ فنقول: يا عبد الله أين الدليل على أن في هذه السواري والأبواب بركةً تُلتمس؟ أفي هذا آية من القرآن؟ أو حديث عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ أفعل هذا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا المسجد أو في أبواب المسجد الحرام أو سواريه؟ أفعل هذا أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ أفعل هذا التابعون وأتباعهم؟ الجواب: لا، إذًا كان هذا تبركًا ممنوعا.

ثانيًا: أن تُلتمس البركة بكيفيةٍ لم ترِد؛ قد يكون الشيء مباركٌ لكنَّ الكيفية التي تُفعل ليس عليها دليل، وحينئذٍ نقول هذا التبرك ممنوع(١٧٠).

مثال ذلك: الكعبةُ بيتٌ مباركٌ بنص القرآن: ﴿لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾[آل عمران:٩٦]، ولكن ماذا عن التبرك بأستارها؟! نجد من الناس من يحرص أشد

(١٧٠) فمن الْتمس مثلًا بركة ليلة المولد، تعبَّد فيها رجاء البركة ورجاء كثرة الثواب؛ نقول: هذا تبرّك ممنوع؛ لأنَّ هذا المتبرِّك يفتقر إلى دليلٍ يُثبِتُ أنَّ هذه اللَّيلة فيها بركة.
ومن تبرَّك مثلًا بالسحور «تسحّروا فإنَّ في السُّحور بركة»، قال: أنا أتبرّك بالسحور من جهة مثلًا طرْد الجنّ من البيت، نقول: نعم السحور فيه بركة لكن ما هكذا جاء التماس البركة من هذا الشيء.

الحرص على أن يتمسح ويتبرك بستارة الكعبة، وبعض الناس ربما حَرِصَ أشدَّ الحرص على أن ينال شيئًا من قطع هذه الستارة ليستشفي بذلك؛ يغمسه في الماء ثم يتناوله أو يناوله المريض، يزعم أن فيه بركة تُنال من خلال هذه الكيفية، والسؤال: أين الدليل على هذه الكيفية؟! فإن التبرك فعلٌ يفتقر إلى دليل، ولم نجد حديثًا واحدًا عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه كان يتبرك بأستار الكعبة، وهكذا أصحاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قد يقول قائل: وماذا عن استلام الحجر الأسود؟ أو مسح الركن اليماني؟

الجواب: أننا نتكلم عن التبرك بأستار الكعبة **هذا أولًا**.

و**ثانيًا**: أن فِعلنا في الركن اليماني إنما نقتدي فيه بالنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولم يثبت أن فِعل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان لأن الركن اليماني فيه بركةٌ تُلتمس، كذلك الحجر الأسود نقتدي باستلامنا له بالنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «والله إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقبِّلك ما قبَّلتك»، وجاء في بعض الأحاديث وهي حسنة -إن شاء الله-: أن استلام الحجر الأسود سبب من أسباب التكفير. فإن كان المقصود بالتبرك أن ينال الإنسان سبب من أسباب التكفير فلا بأس، أما أن يكون شيئًا آخر فهذا يطالَب صاحبه بالدليل. إذًا الكيفية لابد أن يكون عليها دليل.

وهنا مسألة: بعض الناس ربما رأى رجلًا صالحًا أو يظنه صالحًا أو يكون له مكانة ومنزلة، تجد أنه يسلِّم عليه ويحرص على أن يتمسح به أو يمسح جلبابه، تجد من الناس من يفعل هذا! قد يسلم على شيخ، أو إمام الحرم أو ما

شاكل ذلك ويتمسح به إن استطاع، والسؤال لما تفعل هذا يا عبد الله؟ يقول: هذا رجلٌ صالح فأنا أتبركُ به. قلنا: ما الدليل؟ قال: الدليل أنه مسلم وكل مسلم فيه بركة في الصحيح «إن من الشجر لما بركته كبركة المسلم» ، إذًا كل مسلم فيه بركة، إذًا أنا التمس البركة مما ثبت شرعًا أنه فيه بركة. فنقول: أحسنت حين قلت إنَّ المسلم فيه بركة بنص الحديث، ولكن بقيَّ عليك أن تأتي بدليل على هذه الكيفية التي فعلت، كما تطلب الدليل في الأول اطلب الدليل في الثاني، بركةُ المسلم بركةٌ ذاتية غيرُ متعدية تتفاوت بحسب الإيمان؛ وكلما كان الإنسان أكثر إيمانًا كلما كانت بركته أعظم، لكن لم يأتِ في الدليل أن هذه البركة متعدية تَنال من مسح أو التصق بجسد هذا المسلم، ما جاء دليلٌ على هذا.

قال بعض الناس: بلى قد جاء الدليل، ألم تنظروا في الصحيحين وغيرهما من الأحاديث المتواترةِ أن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كانوا يتبركون بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بجسده، بشعره، بعرقه، ببصاقه، بنخامته، باللباس الذي لِبس، بالنعال التي انتعل، بالإناء الذي كان يشرب منه، إلى غير ذلك؟ قلنا: نعم، وهذا لا شك أنه أمرٌ مشروع، والأدلة عليه كثيرة، ونُشهِد الله أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَبارَكٌ صِفاتًا وأفعالًا، ومَبارَكٌ ذاتًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فللنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خاصية وهي أنه مباركٌ بركةً ذاتية متعدية؛ بحيث أنها تنال من مسَّه أو مس شيئًا لامسه أو لابسه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والأحاديث في هذا كثيرة، النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان إذا توضأ ازدحم الصحابة لنيل شيءٍ من وضوئه، إذا حلق

شعره يكاد الصحابة أن يتقاتلوا كلٌ يريد أن ينال من شعر النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وهذا لا شك أنه مشروع.

ولكن استدلال هذا المستدل بما فعل الصحابة مع النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ هو من أي أبواب الأدلة أو الاستدلال؟ بالقياس، يعني هؤلاء قاسوا غير النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من الصالحين على النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ. والسؤال: هل هذا القياس قياسٌ صحيح أو غير صحيح؟

أُعيدُ السؤال: هل يمكن أن نجعل غير النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بمثابة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حتى نقيس عليه؟ ما هو القياس؟ إلحاق فرعٍ بأصلٍ في علةٍ جامعة، لابد أن يشتركا أو يحصل اشتراك بين الفرع والأصل في العلة، فمن الذي هو كالنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في الصلاح والتقوى حتى يصح القياس؟!

يا لله العجب! من أُناس يزعمون أنهم يعظمون النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وهم يجعلونه كآحاد الناس! مثله مثل أي شخص آخر! نتمسح بالناس كما نتمسح بالنبي ولا فرق.

أما أهل السنةِ حقًا فعندهم من تعظيم النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ -هذا أولا- ، والوقوف عند حدود ما أنزل الله -هذا ثانيا- ما يجعلهم يقولون: هذا حكمٌ خاصٌ بالنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لا يشتركُ معه فيه غيره، وبالتالي كان هذا قِياسًا فاسدًا. ويدل على فساده: أنَّ إجماع الصحابة قد انعقد على أنَّ هذا الفعلَ خاصٌ بالنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ولا يشاركه فيه غيره.

أرأيت أحدًا من صغار الصحابة فَعَلَ هذا التبرك مع أحدٍ من كبار الصحابة؟ يعني هل رأيتَ من مثل عبد الله بن عمر وابن عباس أو غيرهما مع من فعل هذا مع أبي بكر وعمر وعثمان وعلي؟ كانوا إذا مشى مسحوا جسده، أو إذا توضأ أخذوا وضوئه فتمسحوا به؟ الجواب: لا؛ ولن تجد. إذًا هذا حكم خاص بالنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بإجماع الصحابة.

ثم أيضًا هو حكم خاص به بإجماع التابعين، فما كان أحد من التابعين قط يفعل هذا مع أحد من الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ، وهل تعلمون أحدًا في الأمة بعد نبيها صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أصلح من الصحابة؟ أهناك أحد يداني أبا بكر وعمر وعثمان وعلي وإخوانهم من الصحابة في التقوى؟ والله ما كان ولا يكون مثلهم -هذه عقيدتنا في الصحابة- ومع ذلك ما كان أحد يفعل ذلك[١٧١].

---

(١٧١) وهذا يدلّك على أنَّ ما في بعض الشروح من إثبات التبرّك بالصالحين وآثارهم أنَّ هذا غلط وأمرٌ مُحدَث، كما سيأتي البحث فيه. وقد وقع في هذا ابن حجر رَحِمَهُٱللَّهُ وعفا عنه في «الفتح» عند حديث عِتْبان بن مالك حينما طلب من النبي ﷺ أن يصلي في بيته، قرَّر هذه المسألة. ومثله النَّووي أيضًا حينما شرح حديث عِتْبان، وكذلك عند حديث: «أشْعِرْنها إيَّاه»، ولكنَّه أصاب في المجموع حينما أنكر ذلك، وذلك في الجزء الثامن من كتابه «المجموع» في الفقه أنكر هذا التبرّك المُبتدَع، فإنَّه أنكر على مَن يتمسّح بالبيت النبوي ويلصق بطنَه به وما شاكل ذلك، وقال: «إن كان الدافع لذلك إرادة الخير فإنَّ إرادة الخير لا تكون بمخالفة السُّنَّة» أو كلامًا قريبًا من ذلك، ولعلَّ هذا أن يكون آخر قولَيْه في هذه المسألة، والله عَزَّوَجَلَّ أعلم.

إذًا دل ما سبق على أن التبرك بالأشخاص أمرٌ خاص بالنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فلا يُفعل مع أحد من هذه الأمة قط(١٧٢).

ثالثًا: أن يُعتقد أنَّ البركة تُنال من غير الله؛ فمن اعتقد أن هذا الشيء مبارك وهو مبارك بالنص والكيفية ثابتة، لكنه يعتقد أن البركة إنما يعطيها هذا الشيء الذي تبرك به؛ فنقول هذا من الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ، لأن البركة -كما قد تعلَّمنا- من الله ولا تُمنح من غيره سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ .

إذًا التبرك الممنوع: التماس البركة مما لم يثبت شرعًا أن فيه بركة، أو بكيفية لم ترِد، أو باعتقاد أن البركة توهَب من غير الله.

والسؤال ما حكم التبرك الممنوع؟

الجواب: أن حكم التبرك الممنوع ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

---

(١٧٢) وهل هذا الأمر خاص بحياته عليه الصلاة والسلام؟ أو أنَّ الحُكْم باقٍ أيضًا بعد وفاته؟

الصواب: أنَّه باقٍ حتى بعد وفاته عليه الصلاة والسلام، وفي هذا آثار عديدة عن الصحابة والتابعين؛ فكانوا يتبرّكون بشيءٍ من شعره أو لِباسه الذي كان يلبسه وما شاكل ذلك.

وهل بقي شيءٌ يُعلمُ يقينًا أنه من آثاره عليه الصلاة والسلام في هذا العصر؟

الجواب: لا؛ فلا يُعلمُ أنَّ شيئًا من آثاره يُعلم قطعًا أنَّه من آثاره، وإنما الناس تدّعي أشياءً، والعبرة بثبوت ذلك بدليلٍ صحيح، وبالتالي فالبحث في هذه المسألة -كما يقول أهل العلم- بحثٌ نظري، أمَّا من جهة التطبيق الآن فإنَّه لا يُعلمُ على جهة اليقين شيءٌ من آثاره عليه الصلاة والسلام فيُتبرّكُ به.

❑ **القسم الأول**: أن يعتقد المُتبرِكُ أن ما تَبرك به يمنح البركة من ذاته؛ هو الذي يفيض بالبركة، وهو الذي يعطي البركة إذا شاء. مثال ذلك: ما يفعله بعض القبوريين حين يتمسحون بقبور الأولياء مع اعتقادهم أن الولي أو السيد هو الذي يعطي البركة. **ولو تأملت لوجدت هذا المثال فيه اجتماع الصور الممنوعة الثلاث**:

-**أولًا**: لم يأتِ في الدليل أن في القبور بركةً تلتمس، أي قبرٌ كان.

-**ثانيًا**: لم يرِد في الدليل أن التمسح أو تعفير الوجه أو الجسم بتراب القبر أو التمسح بسياج القبر أو بالحديد المحيط به أو بجدار وسور القبر والمشهد أن هذه الكيفية واردة، هذا شيءٌ لم يرد.

-**ثالثًا**: ما يعتقده كثيرٌ منهم من أن صاحب القبر هو الذي يمنح ويتفضل بالبركة.

إذًا اجتمعت هذه الظلمات الثلاث بعضها فوق بعض بهذه الصورة؛ فهذا لا شك أنه شركٌ أكبر.

❑ **القسم الثاني**: أن يُعتقد أنَّ لما تَبرك به أرواحٌ أو ما قد يقولون روحانيات، قد يتبرك بعضهم بشجرة أو بسارية أو حتى بقبر، ويزعم أنَّ لهذه الشجرة أو الحجر أو السارية أو القبر أن له أروحًا ترفع الحاجات إلى الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**، فنقول هذا أيضًا شركٌ أكبر من جنس شرك المشركين الأولين[١٧٣].

(١٧٣) ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى﴾ [الزمر:٣] ، من جنسِ شرْك المشركين.

❑ **القسم الثالث**: هي أن لا يَعتقد أن البركة تُعطى من غير الله ، وإنما هذا التبرك سبب، ولكن البركة تُمنح من الله، كأن يتبرك ببابٍ من أبواب المسجد أو سارية أو بشخصٍ صالح أو ما شاكل ذلك وهو يعتقد أنَّ البركة من الله وهذا مجرد سبب؛ فنقول هذا شركٌ أصغر؛ لأنَّه اتخذ سبب لم يجعله الله سبب لا شرعًا ولا قدرًا.

إذًا هذه خلاصةٌ مركزة في موضوع التبرك مشروعه وممنوعه.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى﴾ الآيات [النجم: ١٩-٢٣].

أورد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الباب آيةً وحديثًا، ثم عقَّب على هذا باستنباط مسائل كثيرة بلغت اثنتين وعشرين مسألة من المسائل المستفادة من هذا الباب.

أما الآية فآية النجم، والظاهر أنَّ المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ إنما أورد أوَّلها، وفي بعض الطبعات أكملوا الآيات، والظاهر أنَّ المؤلف إنما أراد أولها لأنه قال: «الآيات»، يعني أكمل الآيات.

يقول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى﴾؛ «أَفَرَأَيْتُمُ» يعني أخبروني عن هذه الأصنام الثلاثة التي هي أعظم الأصنام عند المشركين هل هذه الأصنام كانت تخلق وترزق وتدبر حتى يصح أن يُتعبَّد بها وأن يُتقرَّب إليها؟ والجواب معلومٌ عندهم ، فهذا مسلكٌ من مسالك بيان التوحيد ونقضِّ الشرك ؛ وهو بيان ضعف الآلهة ونقصها وعجزها ، وله نظائر كثيرة في النصوص.

وقال بعض أهل العلم: إنَّ هذه الآية متعلقةٌ بما قبلها: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ ثم قال: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى﴾، وهذا استفهامٌ استنكاري يتضمن التهكم بهم والسخرية بهم؛ محمد ﷺ لما عُرِج به إلى السماء رأى من آيات ربه الكبرى، فهل هذه الأصنام وأمثالها لها من الآيات كما لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حتى يصح أن تكون شريكةً مع الله عَزَّوَجَلَّ كما تعتقدون؟ والجواب: أيضًا معلوم، لا ، ليس لها من هذه الآيات الكبرى، إذًا عبادتها باطلة.

هذه الأصنام الثلاثة هي أشهرُ الأصنام عند العرب وأكبر الأصنام عند العرب(١٧٤).

«**اللات**» ؛ قيل إن هذه الكلمة مشتقة من اسم الجلالة (الله)، أو من اسمه سبحانه (الإله)، وقرأ الجمهور بالتسهيل ﴿**أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى**﴾.

وقيل: إنَّ اللات اسم فاعل من لتَّ يلتُّ، وهذا ما يشهد له رواية رُويس عن يعقوب الحضرمي، فإنه قرأ بالتشديد مع المد المُشبع ﴿**أفرأيتم اللآتَّ وَالْعُزَّى**﴾.

---

(١٧٤) ما جاء في هذه الآية من ذكرٍ لهذه الأصنام فيُقالُ فيه: إنما ذُكِرَتْ هذه الأصنام الثلاثة -والله أعلم- لأنَّها أشهر أصنام المشركين وأعظمها؛ «اللَّات»، و«العُزَّى»، و«مَناة».

ومن جهة السَّبق: فمَناةُ فيما يظهر -والله أعلم- هي الأسْبق، ثمَّ اللَّات، ثمَّ العُزَّى، كما أورد ذلك هشام بن محمد بن السَّائب الكلْبي في كتابه «الأصنام»، وذكر دليله على ذلك في هذا الكتاب.

● **أمَّا الأول**: فإنه دليل على أن المشركين كانوا يلحدون في أسماء الله، يشتقون من أسماء الله أسماءً لأصنامهم، قال بعض أهل العلم: أصلُ اشتقاقهم كان تسمية هذا الصنم باسم الجلالة (الله)، لكنَّ الله صرفهم عن ذلك حتى كان هذا اسمًا مُختصًا بالله عَزَّوَجَلَّ لم يتسمَّ به غيره، وهو اسم الجلالة (الله).

● **وعلى الثاني**: فهو يشير إلى سبب عبادة هذا الصنم؛ هذا الصنم أو الحجر أو الصخرة -على ما سيأتي بيانه- كان في الطائف وكانت العرب قاطبه تعظِّمه، لكن أكثر الناس تعظيمًا له هم ثقيف أهل الطائف، وأصل ذلك: أن رجلًا صالحًا كان يجلس على صخرة يلُتُّ عندها السويق للحاج وللفقراء، يلت يعني يخلط السويق، هذا الطعام الذي هو من الطحين يلته يعني يبلُّه بالماء أو بالزيت أو بالسمن حتى يساغ عند الأكل-كان يلتُ السويق فيُطعِم الناس، رجلٌ صالح، فلما مات أتى الشيطان الناسَ فسوَّل لهم تعظيمه، فما كان منهم إلا أن عظموا هذا القبر وعبدوه، ثم تطور الأمر حتى عبدوا الصخرة التي كان يجلس عليها، أو الصخرة التي كانت بجوار القبر -على ما يذكر أهل العلم-[١٧٥][١٧٦].

(١٧٥) و«اللَّات» كما ذكر أهل العلم: هو صخرة مربعة منقوشة في الطائف بجوار مسجد الطائف المعرف بـ (مسجد ابن عباس) فيما يُقال، وعلى هذه الصخرة بناءٌ، وعلى البناء أستار.

وقد يُقالُ: كيف نجمع بين هذا وبين قول مَن قال -كابن عباس فيما عند البخاري وغيره- «إنه الرجل الذي مات فعُبِدَ»، يعني: عُبِدَ قبرُه؟

فالشاهد في هذا الدليل على أن الصالحين عُبدوا، وعلى أنَّ الأحجار عُبدت، وكل ذلك لا فرق فيه في الحكم الشرعي، هذا شرك وهذا شرك.

قال تعالى: ﴿**أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى**﴾؛ «**العزى**» أيضًا مشتقة من (العزيز)، عزى أنثى الأعز، اشتقوا هذا الاسم على ما ذكر أهل العلم من (العزيز).

وهذا الصنم أو هذا الوثن كان أيضًا من أشهر الأصنام عند أهل الجاهلية، وكانت العرب قاطبة تعظمه، وأكثرهم تعظيمًا له قريش، وهو أقرب الأصنام من مكة، كان هذا الصنم قريبًا من السيل بين مكة والطائف(١٧٧).

- قيل: إنه كان شجرات ثلاث من شجر السَّمُر -شجر السمر شجر معروف- كان شجرات عظيمة وعليها بناء، بنوا عليها بناء فوق هذه الثلاث شجرات، وجعلوا على هذا البناء أقمشة وستائر ونحو ذلك.
- وقيل: إنه كان صنمًا وكانت هذه الشجرات في حريمه؛ كان له حرم ، من تعظيم المشركين لهذا الصنم جعلوا له حرمًا كحرم مكة، لا يصاد عنده ولا

فيُقالُ: الجمْع بين هذا وذَاك؛ أنَّ العبادة أصلًا كانت لقبر هذا الرجل، ثمَّ عُبِدَت الصخرة التي بجواره، فالأصل أنَّ المعبود هو هذا القبر -يعني: مَن قُبِرَ فيه- ثمَّ عُبِدَ ما بجواره وهو هذه الصخرة. وهذا الصنم كانت العرب جميعًا تعظّمه، لكنَّ أشدّهم تعظيمًا له هم ثقيف ومَن وَالاهَا.

(١٧٧) واختلفوا؛ بعضهم يقول: إنَّه ليس في هذا المكان هذا الصنم إنما على طريق العراق، حينما يخرج الإنسان من مكةَ مُصْعِدًا إلى العراق.

يُعضد شوكه، وكانت هذه الشجرات في حريم الصنم، ولأجل هذا عظموها لتعظيم هذا الصنم.

- وقيل: إنه تلِف الصنم فعُبدت هذه الأشجار.

الشاهد أنه مما قد عُبد الشجر ، ولم يفرِّق النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين قبر يُعبد أو بين حجر وشجر ، أوبين صنم؛ كله شركٌ بالله.

أما «**مناة**» فإنها كانت بالمشلَّل قُرْبَ قُدَيد، قديد بين مكة والمدينة وهي إلى المدينة أقرب، قريبة من الجحفة، يعني بينها وبين الجحفة حوالي ستا وعشرين ميلًا، وهي جهة البحر ، بينها وبين البحر حوالي خمسة أميال.

الشاهد أنَّ «مناةً» كانت صخرة على قول، وكانت صنمًا على قولٍ آخر، وهي أيضًا من الأصنام التي عظَّمتها العرب قاطبة، وأكثرهم تعظيمًا لهذا الصنم الأوس والخزرج؛ أهل المدينة[١٧٨].

الشاهد أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بيّن في هذه الآيات أنَّ هذه الأصنام أصنامٌ باطلة لا قيمة لها؛ ﴿**إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ**﴾ ليس لها قيمة وليس لها

---

(١٧٨) **وأمَّا «مَناة» ففي سبب تسميتها بذلك ثلاثة أقوال:**

القول الأول: أنَّ مناة مشتقّة من (المَنَّان)، كالعُزَّى واللَّات.

القول الثاني: سّميت بذلك لكثْرة ما يُمنى -يعني يراقُ- عندها من الدماء، مثل ما قِيلَ لمنى إنها (منى) لكثرة ما يراق فيها من الدماء.

القول الثالث: إنَّ «مَناة» أصلها (مناءة) من الأنواء؛ لأنهم كانوا يسْتقسمون بالأنواء هناك.

من الأمر شيء، مع ما وقعوا فيه من الظلم، مع ما وقعوا فيه من القسمة الجائرة، ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنْثَى * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾ .

كان أهل الجاهلية يعتقدون أن هذه الأصنام بنات لله -كما ذكر هذا ابن عطية وغيره من المفسرين- يعتقدون أنها بنات لله كما اعتقدوا في الملائكة أنها بنات الله. يا لله العجب! ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ [النحل:٥٧]. هم جعلوا لهم الأفضل وهم البنين، والله جعلوا نصيبه البنات!! البنات التي يحتقرونهنَّ ويأنفون مهنَّ وإذا أبقوهن، أبقوهن على هون، ﴿أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾[النحل:٥٩]، يعني: يدفنوا هذه البنت حية ويتخلص ويرتاح، فالبنات الإناث عند أهل الجاهلية كانت شيئًا محتقرًا، ثم هم يضيفون ذلك إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

أو -وهو توجيه ثانٍ في الآية- كانوا يعتقدون أن هذه الأصنام إناث، ومع ذلك جعلوها شريكةً مع الله. سبحان الله العظيم! الأصنام كانوا يعتقدونها إناثًا وهذا ظاهر في العزى ومناة، بل حتى اللات على القول بأنه اسم فاعل ، لكنه كان مؤنثًا عندهم، بدليل ما جاء في البخاري من حديث قصة الحديبية أن أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما قال عروة ابن مسعود: «إني أرى أناسًا سيفرُّون عنك» يخاطب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فغضب أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقال: «امصُص بظر اللات»؛ هذا دليل على أنهم كانوا يعتقدون أن اللات كانت أُنثى.

إذًا أولًا تعتقدون أن مع الله شريكًا، ثم هذا الشريك الذي جعلتموه مع الله هو أصلًا عندكم جنسه محتقر، ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾، ضيزى: يعني جائرة

غير عادلة. وهذا دليل على أن المشركين ما قدروا الله حق قدره، ولا عظموه حق تعظيمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

أعود على مناسبة الآية للباب: هو أن من جملة ما كان المشركين يفعلونه مع هذه الأصنام هو التبرك، كانوا يتبركون بهذه الأصنام بل بكل صنم، حتى ذكر أهل التاريخ أنَّه كان لكل واحد من العرب في بيته صنم أو أكثر، آخر شيء يفعله إذا أراد الخروج من بيته لسفر أو غيره أنه يتبرك ويتمسح به، وأول شيء يفعله إذا عاد إلى بيته أنه يتمسح ويتبرك به، وهكذا في الأصنام التي كانت في جوف الكعبة أو حول الكعبة وبلغت ثلاث مئة وستين صنمًا؛ كانوا يتمسحون ويتبركون بها، حتى كان يوم الفتح فكان يطعن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في صدور هذه الأصنام فتسقط، ثم أمر بها فأُخرجت من المسجد وأُحرقت.

الشاهد: أن من جملة أفعال المشركين التبرك بالأصنام والتبرك بالأوثان، فمن شابههم فإنه يكون قد وقع في فعلٍ من فعل الشرك.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: **(عَنْ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَى حُنَيْنٍ، وَنَحْنُ حُدَثَاءُ عَهْدٍ بِكُفْرٍ، وَلِلْمُشْرِكِينَ سِدْرَةٌ يَعْكُفُونَ عِنْدَهَا، وَيَنُوطُونَ بِهَا أَسْلِحَتَهُمْ، يُقَالُ لَهَا (ذَاتُ أَنْوَاطٍ)، فَمَرَرْنَا بِسِدْرَةٍ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ؛ اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «اللهُ أَكْبَرُ، إِنَّهَا السُّنَنُ، قُلْتُمْ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى: ﴿اجْعَل لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف:١٣٨]، لَتَرْكَبُنَّ سُنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ». رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ).**

هذا حديث أبي واقدٍ الليثي، وهو حديثٌ صحيح وصفه ابن القيم ﵁ في «إغاثة اللهفان» بالثبوت، وقال الترمذي: (حسنٌ صحيح)، وصححه ابن حبان وصححه الألباني وغيرهم من أهل العلم، فهو حديث صحيح مُخرَّج عند الترمذي، وأحمد، والنسائي في الكُبرى، وابن حبان، والطبراني، وغيرهم في كثير من كتب السنة.

حديث أبي واقد الليثي؛ (أبو واقد) اختلف في اسمه؛ فقيل:

-الحارث بن عوف(١٧٩).

- وقيل: الحارث بن مالك.

- وقيل: عوف بن الحارث، وهو من بني الليث من كِنانة(١٨٠).

واختُلف في إسلامه، قيل: إنه أسلم قديمًا، بل قيل: إنه كان من أهل بدر، والأقرب والله أعلم أن إسلامه متأخر وأنه من مُسلِمة الفتح، وهذا هو الذي رجحه الحافظ ﵀ في الإصابة(١٨١).

---

(١٧٩) واختار هذا الترمذي.

(١٨٠) ذكر هذه الأقوال ابن حجر في «الإصابة».

(١٨١) وذكر [ابن حجر] أنهم اختلفوا في وقت إسلامه، فنقل عن البخاري وعن ابن حبَّان وعن أبي أحمد الحاكم أنَّه من أهل بدر. وأبو عمرَ بن عبد البرّ أنكر ذلك، لكنَّه قال: «إنَّه قديم الإسلام»، ومثْله قال ابن سعد.

وذهبت طائفة من أهل العلم كأبي نُعيم والزُّهْري، وأسند هذا إلى سنان بن أبي سنان الدَّيلِي -كما قال الحافظ بإسنادٍ صحيح- أنَّه أسلم عام الفتح، قال ابن حجر: «وهذا هو

الشاهد أنَّ أبا واقدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يحكي لنا قصةً حصلت لهم مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مسيرهم إلى حُنين، وكان هذا عام الفتح سنة ثمانٍ للهجرة، وهو أنَّهم مرُّوا بسدرة؛ السدرة هي: شجرة النبق، وهي شجرة معروفة، وجاء عند أحمد وغيره «مروا بسدرة خضراء عظيمة».

«**وَلِلْمُشْرِكِينَ سِدْرَةٌ**»؛ أيام الجاهلية كان عند المشركين سدرة، شجرة عظيمة، لما مروا بهذه تذكَّروا تلك، كانوا يفعلون عندها ثلاثة أشياء كلها عبادة(١٨٢):

أولًا: العكوف عندها؛ يمكثون ويعكفون عندها تقربًا لها والتماسًا للبركة كما سيأتي، وهذا كان من أعمال المشركين ولذلك قال إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾[الأنبياء:٥٢] ، فهذا من فعل أهل الشرك.

ثانيًا: أنهم كانوا يعظِّمون هذه السدرة كتعظيم الله.

ثالثًا: أنهم كانوا يتبركون بها من وجهين:

الراجح»، ويدل عليه: هذا الحديث الذي بين أيدينا؛ لأنَّه لو كان قديم الإسلام لَكان هذا مشكِلًا، الحديث فيه: أنهم كانوا حُدثَاء عهْدٍ بجاهلية أو بكفْر، وجاء في رواية قال: «قلتُ: يا رسول الله؛ اجعل لنا ذَاتَ أنواط»، فالظاهر من ذلك: أنَّ أبا واقدٍ رضي الله عنه إنما كان حديث عهْدٍ بكفْر فلأجل هذا قال ذلك. وإيراده لهذه الجملة: (**ونحن حُدثَاء عهْدٍ بكفْر**) هو من جهة الاعتذار وبيان السبب لهذه المقولة التي صدرت.

(١٨٢) كما يقول شارح كتاب التوحيد الشيخ عبد الرحمن بن حسن رَحِمَهُ اللَّهُ.

الوجه الأول: أن البركة تنالهم إذا عكفوا عندها، تنزل عليهم البركات من هذه الشجرة.

والوجه الثاني: أنهم كانوا يُنيطون بها أسلحتهم؛ ينيطون: يعلقون، ولذلك كانت تسمى «ذات أنواط»، إذا وضعوا سيوفهم وبقية أسلحتهم عليها فإنها تكون أقوى وأمضى.

فحينئذٍ لمَّا مروا بهذه السدرة الخضراء العظيمة قالوا: (يَا رَسُولَ اللهِ؛ اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ - يعني للمشركين - ذَاتُ أَنْوَاطٍ)؛ وهذا يدلك على أنه ربما يكون في الرجل الصالح بل العالِم ما يخفى عليه من الحق ومن مسائل العلم؛ هؤلاء أصحاب النبي ﷺ وخارجون للجهاد في سبيل الله، ومع ذلك وقع منهم ما وقع مما أنكره النبي ﷺ.

وهذا يدلك أيضًا على أنَّ المنتقل من الباطل إلى الحق لا يُؤمَن أن يبقى في قلبه بقية من الباطل السابق؛ فينبغي أن يراعي الإنسان هذا في نفسه وفي غيره، ونبه إلى هذا المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ في مسائل الباب.

قالوا يا رسول الله: «اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ» ؛ انتبه إلى أن أبا واقد قال في الحديث «وَنَحْنُ حُدَثَاءُ عَهْدٍ بِكُفْرٍ» ، هذا يبين لك العذر الذي لأجله وقع منهم هذا القول، وإلا فكبار الصحابة ومتقدِّموهم ما وقع منهم هذا الأمر.

فقالوا: «اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ» ؛ اختلف العلماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ في الفعل الذي فعله هؤلاء الصحابة حينما طلبوا هذا الطلب ما حكمه؟

القول الأول: قال بعض أهل العلم: إن الصحابة تضمن كلامهم أن يسأل النبي ربه أن يجعل الشجرة مباركة حتى يعلِّقوا بها أسلحتهم، فهم طلبوا أن يسأل النبي ﷺ ربه فإذا جعلها الله مباركةٌ كانت مباركة، وهذا توجيهٌ مال إليه بعض أهل العلم ومنهم المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بعض أجوبته كما في «الدرر السنية»(١٨٣).

وقالت طائفة من أهل العلم: إن الذي وقعوا فيه هو من شُعب الشرك الأصغر، وكأنَّ المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يميل إلى هذا كما في هذا الكتاب، فإنه قد ذكر في مسائل الباب: أن الشرك منه كبيرٌ وصغير؛ لأنَّ الصحابة لم يرتدُّوا بسؤالهم هذا، فما كان فعله شركًا أكبر فطلبه شركٌ أصغر ، كأن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يميل إلى هذا في مسائل هذا الباب(١٨٤).

القول الثالث: أن الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ الذين طلبوا هذا الطلب وقع منهم شركٌ أكبر، وإنما لم يرتدُّوا ولم يكفروا للعذر الذي جاء في هذا الحديث، وهو كونهم حدثاء عهدٍ بجاهلية، ومال إلى هذا بعض أهل العلم ومنهم سماحة الشيخ ابن باز في تعليقه على «فتح المجيد»(١٨٥).

---

(١٨٣) وهذا -والله أعلم- فيه نظر من جهة التغليظ الذي حصل من النبي ﷺ، فقد أقسَمَ النبي ﷺ فقال: «**والذي نفسي بيده لقد قلتُم كما قال بنو إسرائيل لموسى: ﴿اجْعَل لَنَا إِلَهًا﴾**»، فالنبي ﷺ أقسم أنَّ المقالة شَبيهةٌ بالمَقَالة، وهذا لا يناسب ما قالوا.

(١٨٤) قال: «لأنَّهم طلبوا ولم يفعلوا».

(١٨٥) وهذا ما مَالَ إليه المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «كشْف الشُّبهات». لا شكَّ أنَّ هذا القول يقوّيه من جهة الحديث كون النبي ﷺ أقسم أنَّ هذه المَقَالة كمقالة بني إسرائيل، وبنو

الشاهد: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عظَّم الأمر وأغلظ في الجواب، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما ذكر المؤلف «**الله أكبر**»، هذه ليست رواية الترمذي، في رواية الترمذي قال: «**سبحان الله**»، أما عند أحمد وغيره جاء لفظ التكبير. وكلا الأمرين كان يفعله النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا استعظم أمرًا؛ كان يُعَظِّم الله وينزهه ؛ سبحانه ، وصلى الله على نبينا وسلم.

قال: «**سبحان الله**»، أو قال: «**الله أكبر قلتم كما قال بنوا إسرائيل لموسى اجعل لنا إله كما لهم آلهة!**» ثم قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لتركبن سُنن** -أوسَنَن يجوز لك الوجهان- **من كان قبلكم**»؛ هذا القدر من الحديث جاء معناه في الصحيحين من حديث أبي سعيد، وسيأتينا قريبًا إن شاء الله في (باب ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان)، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لتتبعن سَنن أو سُنن من كان قبلكم**».

الشاهد أنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عظَّم الأمر وأغلظ في الجواب، وقال إن هذا السؤال يضارِع سؤال بني إسرائيل لموسى: (اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة)؛ فدل هذا على أنَّ التبرك الممنوع من فِعل أهل الشرك، لأنَّ مما كان يفعله المشركون مع هذه السدرة أنهم كانوا يتبركون بها. وبالتالي فمن تبرك بشجرٍ أو حجرٍ أو

إسرائيل طلبوا أن يُجعلَ لهم إله، والإله: هو الذي يُعبدُ، والنبي ﷺ بيَّن إذًا أنَّ هذا الطلب هو طلبٌ لإلهٍ يُعبدُ من دون الله ﷻ، هذا ظاهر الحديث، وإنَّما لم يأمرْهم النبي ﷺ بتجديد الإسلام للعُذر الذي كان لهم وهو أنَّهم كانوا حُدثَاء عهْدٍ بكفْر، فالمُدَّة قريبة ولم يتبصَّروا بذلك، وإلا فكبار الصحابة وقدماء الصحابة لم يكونوا مِمَّن طلب هذا الطلب.

نحوهما من قبرٍ وبناءٍ وغير ذلك فإنه يكون قد وقع في الشرك، وقد يكون هذا الشرك شركًا أكبر وقد يكون شركًا أصغر بحسب الحال؛ على ما مضى تفصيله(١٨٦).

---

(١٨٦) **والشاهد من هذا الحديث**: إثبات أنَّ هذا التبرّك على ما كان يفعله أهل الجاهلية شركٌ بالله ﷻ . وبه تعْلم أنَّ ما هو حاصلٌ في كثير من بلاد المسلمين هو من أعظم الشرك بالله ﷷ؛ فإنه إذا كان تعليق أسلحة على شجرة رجاءً لبركتها هو اتخاذُ إلهٍ معَ الله، فكيف بما هو أعظم وأطم!! كالذي يحصل عند قبور كثير من الأولياء والصالحين من دعاءٍ واسْتغاثةٍ وذبحٍ وطواف، نَاهِيكَ عن التمسّح وطلب البركة! وهذا يدلّك على أنَّ الشرك الذي وقع عند المتأخّرين أعظم وأغلظ من الشرك الذي وقع عند المتقدّمين.

وهذا الحديث أيضًا فيه فائدة عظيمة وهي: خطر الشرك، وأنَّ الشيطان من أحرص ما يكون على إيقاعِ الناس فيه.

وأيضًا هذا الحديث يدلّك على أهمّية العناية بالتعليم؛ تعليم التوحيد وتعلّمه والعُكُوف عليه، كما قال إمام الدعوة في «كشْف الشُّبهات» في بيان ما يُستفادُ من هذا الحديث، قال: «فيفيد التعلّم والتحرّز، وأنَّ قول الجُهَّال "التوحيد فهمْناه" من أعظم الجهل ومكائد الشيطان» ، هذا الذي يريده الشيطان: أنَّ الناس ينصرفون عن التوحيد، عن تعلّمه ودراسته، فيسهل حينئذٍ دخول الشرّ والشرك إليهم؛ التوحيد سهل مفهوم، ليس هناك حاجة إلى أن نعتني به! نعم أصوله واضحة ومفهومة ومعلومة، لكن ثمَّة تفاصيل وثمَّة مسائل قد تخفى على بعض الصالحين، وقد تخفى على بعض الأفاضل، الصحابة معَ رسول الله عليه الصلاة والسلام، وسيُوفهم في أيديهم يريدون الجهاد والقتال، يبذلون



مُهَجَهُم في سبيل الله ﷻ ومعَ ذلك خَفِيَتْ عليهم هذه المسألة! فكيف بمن دونَهم في العلم والفضْل!!.

وفيه أيضًا: ما يتعلّق بحصول عَلَمٍ من أعلام نبوّته عليه الصلاة والسلام ألَا وهو: اتباع هذه الأُمَّة لسُنَنِ الأُمَم قبلها لا سيَّما اليهود والنصارى، وهذا سيأتي له -إن شاء الله- بحثٌ في الباب الذي ذكرتُه آنفًا.

١٠-بَابُ

مَا جَاءَ فِي الذَّبْحِ لِغَيْرِ اللهِ

وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام:١٦٢].

وَقَوْلِهِ: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [الكوثر:٢].

عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: حَدَّثَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: «لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ، لَعَنَ اللهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ، لَعَنَ اللهُ مَنْ آوَى مُحْدِثًا، لَعَنَ اللهُ مَنْ غَيَّرَ مَنَارَ الأَرْضِ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَعَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «دَخَلَ الجَنَّةَ رَجُلٌ فِي ذُبَابٍ، وَدَخَلَ النَّارَ رَجُلٌ فِي ذُبَابٍ»، قَالُوا: وَكَيْفَ ذَٰلِكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟، قَالَ: «مَرَّ رَجُلَانِ عَلَى قَوْمٍ لَهُمْ صَنَمٌ، لا يَجُوزُهُ أَحَدٌ حَتَّى يُقَرِّبَ لَهُ شَيْئًا، فَقَالُوا لِأَحَدِهِمَا: قَرِّبْ، قَالَ: لَيْسَ عِنْدِي شَيْءٌ أُقَرِّبُ، قَالُوا لَهُ: قَرِّبْ وَلَوْ ذُبَابًا، فَقَرَّبَ ذُبَابًا؛ فَخَلَّوْا سَبِيلَهُ؛ فَدَخَلَ النَّارَ، وَقَالُوا لِلْآخَرِ: قَرِّبْ، فَقَالَ: مَا كُنْتُ لِأُقَرِّبَ لِأَحَدٍ شَيْئًا دُونَ اللهِ، فَضَرَبُوا عُنُقَهُ؛ فَدَخَلَ الجَنَّةَ». رَوَاهُ أَحْمَدُ.



قال الشارح وفقه الله:

يقول المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**باب مَا جَاءَ فِي الذَّبْحِ لِغَيْرِ اللهِ**)، أي: من الوعيد؛ فإنَّ الذبحَ لغير الله من أفعال المشركين التي كانت لها عندهم حظوة ومكانة، فكانوا يُكثرون من الذبح لأوثانهم، وكانوا يعتبرون هذا من أحسن

الأعمال عندهم، بل ربما كان الفارق بين المتديّن وغيره هو هذا العمل؛ كونه يذبح ويُكثر من نحر الذبائح لأوثانهم.

والمشركون لهم ولعٌ شديدٌ بهذا، ومن قرأ في تاريخ الأمم السابقة وجدَ صدق ذلك، فإنَّهم كانوا ينوِّعون في أداء هذه العبادة لأوثانهم بأشكالٍ شتى وفي أزمنة متعددة، قد يخصُّون مواسم، وقد يخصون أحوالًا للذبح، ومن ذلك ما أبطلته الشريعة من العتائر، فالعتيرة: الذبيحةُ التي كانوا يذبحونها لأوثانهم في الشهر المعظم عندهم ألا وهو رجب، وكانوا إذا ذبحوا الذبيحة بين يدي الصنم ربما لطخوا رأسه أو شيئًا من جسده بدم هذه الذبيحة حتى تكون أكثرَ تقريبًا لهم عند هذا الوثن.

فالشاهدُ أنَّ الذبح لغير الله عبادة أثيرةٌ عند المشركين، فجاء الإسلام بالنَّهي عن هذا الذبح لغير الله، والأمر بأن يكون الذبح له وحده لا شريك له.

إذا كان الذبح لغير الله شركًا بالله، فإنَّ الذبح لله توحيدٌ وعبادة عظيمة يجتمع فيها التقرب إلى الله وتعظيمه وإظهارُ الافتقار إليه، والإنفاق في سبيل الله، وإحسان الظن به سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ فهي عبادةٌ عمليةٌ قلبية يجتمع فيها الإيمانُ الباطن والإيمانُ الظاهر، يتقرب الإنسان لله جَلَّوَعَلَا بذبح بهيمة الأنعام في العبادات المقررة شرعًا؛ كالهدي، والأضحية، والعقيقة، وكذلك في الفدية، أو في ذبح النَّذر، كل ذلك عبادة محبوبة لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فالله عَزَّوَجَلَّ يحبُّ أن يراق الدم تعظيمًا له وتقربًا إليه جَلَّوَعَلَا، ولذلك شرع ذلك في العبادات السابقة.

إذًا الذبحُ لله توحيد، والذبح لغيره شرك. الذبح لله شعيرة وعنوان وعلامة الموحدين، والذبح لغيره علامة وشعيرة المشركين.

والغالب أنَّ المشركين قديمًا وحديثًا تتنوع مقاصدُهم في الذبح إلى:

- تقرب.
- ورغبة.
- ورهبة.
- وتعظيم.

-قد يذبحون تقربًا إلى وثنهم؛ سواء كان صنمًا، أو شجرًا، أو كان وليًّا صالحًا أو نبيًّا.

-فإنهم يعتقدون أنهم إذا أراقوا الدم في سبيل هذا المعبود عندهم فإن هذا يرضيه، وبالتالي فإنه يرفع الحوائج إلى الله عَزَّوَجَلَّ. هو دين المشركين سواءً كانوا من المتقدمين أو كانوا من المتأخرين، وهذا الذي يفعلوه؛ يفعلوه رغبة.

-وقد يفعلوه رهبة؛ كأن يكونوا خائفين من جنٍّ يصيبونهم بأذى، فيذبحون دفعًا لشرهم، وهذا مما يقع فيه المشركون في القديم وفي الحديث أيضًا، ربما كان من هؤلاء من إذا ابتنى بيتًا جديدًا خاف من أذية الجن، فتجده يذبح إذا وضع أساسات البيت للجن، يُهِلُّ باسمهم ويقصدهم بالذبح، وربما لطخ أساسات البيت بهذا الدم، أو إذا انتهى البيت ذبح الذبيحة على عتبة الباب وجعل الدم يسيل عليها حتى يرضى هؤلاء الجن فيكفونه شرهم، ولربما إذا ذهبوا إلى أحد السحرة أو الدجالين المشعوذين يطلبون منهم حاجةً من

الحاجات أو يدفعوا عنهم سببًا من أسباب الضر -في زعمهم- أمروهم بذبح شاةٍ سوداء أو ديكٍ أسود للجن والشياطين فيفعلون، فيقعون في حمئة الشرك.

-وقد يكون هذا للتعظيم، الذبح تعظيمًا هذا مما يجب أن يخص الله عَزَّوَجَلَّ به، فإذا فُعِلَ في حق غيره كان هذا شركًا، من الناس من إذا أقبل زعيم أو رجل من الكبراء عليهم فإنهم إذا دنا منهم ذبحوا شيئًا من الإبل أو الشياه تزلفًا وتقربًا إليه وتعظيمًا له، وهذا لا شك أنه شرك بالله جَلَّوَعَلَا، تعظيمُ الله عَزَّوَجَلَّ بالذبح عبادة ، فصرف هذه العبادة لغيره شرك.

إذًا هذه بعض مقاصد المشركين في الذبح، والموحدون على منأى من ذلك وبُعْد. وتفصيل القول في الذبح ممَّا يَهُم المسلم حتى يكون على بينة من هذا الأمر العظيم.

الذبح في الجملة له أحوال:

❁ **الحال الأولى**: أن يكون الذبح باسم الله لله؛ يعني أن يُهِلَّ بسم الله عند الذبح، فيقول: بسم الله، ويقصد التقرب لله؛ وهذا لا شك أنه توحيد، اجتمع فيه العبادة والاستعانة، يتحقق المسلم بقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[الفاتحة:٥] ، وعند أبي داود وغيره أنَّ النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لمَّا نحر أضحيته قال: «بسم الله والله أكبر، اللهم هذا منك ولك»، فانظر كيف أنَّه جمع بين الذبح بسم الله، والتقرب إلى الله، (اللهم هذا منك ولك) أتقرب به لك يا الله.

إذًا الذبح باسم الله؛ وهذا لا بد منه إما على الشرطية أو الوجوب على خلاف بين أهل العلم، لقوله تعالى: ﴿وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ﴾[الأنعام:١٢١] ، ولقوله: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام:١١٨] ، وفي الصحيحين من حديث رافع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوه»، **فاشترط النبي** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **لحل الذبيحة أمرين:**

◉ **الأمر الأول: أن يُنهر الدم،** فلا تكون الذبيحة ميتة؛ بأن تُضرب على رأسها ، أو تصعق بالكهرباء، أو تغرَّق في بركة ماء، كل هذا يجعلها ميتة محرمة، لا بد من نهر الدم، لا بد أن يكون هناك ذبح.

◉ **الأمر الثاني:** قال: «وذُكر اسم الله عليه»؛ لا بد من قول: بسم الله، أما قول (الله أكبر) فهذا مستحب وليس بواجب.

الشاهد أنَّ هذا النوع الأول؛ أن يكون الذبح باسم الله يراد به التقرب إلى الله، يذبح باسم الله لله.

❁ **الحال الثانية:** أن يذبح باسم الله لغير الله؛ أن يقول عند الذبح (بسم الله) نعم ولكن القصد هو التقرب لغير الله، لولي، لصنم، لعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، للحسين، لفاطمة، لولي صالح، للجن، لأي أحد سوى الله جَلَّ وَعَلَا، فهذا لا شك أنه شرك أكبر في العبادة.

❁ **الحال الثالثة**: أن يذبح باسم غير الله لله، وهذا وإن كان صورةً ربما لا تقع لكن نذكرها تتمة للقسمة، أن يُسمي باسم عيسى أو باسم كوكب أو باسم جني والقصد أنه يتقرب إلى الله، فهذا أيضًا شرك أكبر، شركٌ في الاستعانة.

❁ **الحال الرابعة**: أن يذبح باسم غير الله لغير الله؛ أن يذبح ذاكرًا اسمًا غير الله جَلَّوَعَلَا والقصد أن يكون التقرب لغير الله أيضًا، وهذا ظلماتٌ بعضها فوق بعض، شركٌ في العبادة، وشرك في الاستعانة.

❁ **الحال الخامسة**: أن يذبح باسم الله لغرضٍ مشروع أو مباح؛ أن يذبح وليس القصد أن يتقرب إلى الله بإراقة الدم، إنَّما مقصوده أن يطعِم ضيفًا، أو أن يطعم أهله اللحم، أو أن يتصدق باللحم على الفقراء؛ فهذا جائزٌ أو مستحب أو ربما كان واجبًا بحسب الأحوال.

لكن ثمة فرقٌ بين هذه الحال والأربعة السابقة: ذلك أن الذبح في الأحوال السابقة كان إراقة الدم هو الشيء المقصود، واللحم تبَع، وأما في هذه الصورة الأخيرة فاللحم هو المقصود، والذبح تبَع، وبالتالي اكْتُفيَ بأنَّه يذكر اسم الله جَلَّوَعَلَا؛ لأنَّ ذكر اسم الله على الذبيحة يطيِّبُ اللحم ويزكيه، ويجعل فيه البركة، فالله جَلَّوَعَلَا بذكره تتنزَّل البركات جَلَّوَعَلَا.

إذًا إلى هذه الأقسام السابقة ينقسم الذبح.

وأود أن أنبه هاهنا إلى مسألة مهمة وهي : ضرورة أن يستشعر الإنسان هذه العبودية العظيمة التي يحبها الله جَلَّوَعَلَا إذا قام بذلك؛ بعض الناس إذا جاء العيد وأراد أن يضحي ربما كان جلُّ القصد والاهتمام إنَّما هو باللحم، وهذا لا

بأس به أن يتوسع الإنسان في هذا اليوم وأن يفرح بفضل الله جَلَّوَعَلَا عليه وبما منَّ عليه من هذه البهيمة، ولكن ثمة شيء أعظم إذا فاته فاته بابٌ عظيم من أبواب الإيمان، ألا وهو أن يستشعر أنه يُعَظِّمُ الله جَلَّوَعَلَا بهذا الذبح، هذا هو المقصود الأسمى في هذه العبادة، وهذا ما لا ينبغي أن يغفل عنه الإنسان.

الشاهد: أن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ عقد هذا الباب ليبيّن لنا أنَّ من أنواع الشرك الذبح لغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فمن أراد أن يسْلَم عند ربه جَلَّوَعَلَا وأن لا يكون من المشركين الذين هم من أصحاب النار الخالدين فيها فليحذر هذا العمل، وليكن ذبحه لله رب العالمين لا شريك له.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾** [الأنعام:١٦٢]. **وَقَوْلِهِ: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾** [الكوثر:٢]).

المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الباب أورد آيتين وحديثين؛ أما الآية الأولى والآية الثانية فهما متقاربتان في الدلالة على المقصود.

الأولى يقول الله جَلَّوَعَلَا فيها: **﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لا شَرِيكَ لَهُ﴾**[الأنعام:١٦١- ١٦٣].

والشاهد من الآية قوله تعالى: **﴿وَنُسُكِي﴾**، فالنسك هو الذبح على الصحيح، وهذا قول ابن عباس وسعيد بن جبير والضحاك وقتادة وجماعة من أهل العلم، ويشهد لذلك قول الله سبحانه: ﴿ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾[البقرة:١٩٦]، والنسك فسَّره النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بأنه ذبح شاة.

إذًا الآية دليل على أن الذبح عبادة يجب صرفها لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، **ووجه الدلالة من عدة أوجه:**

◉ **الوجه الأول:** قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ واللام للاستحقاق، إذًا الذبح لله لا يجوز أن يُصرف لغيره(١٨٧).

◉ **الوجه الثاني:** أن الله تعالى قرن بين الذبح والصلاة، والصلاة من أعظم العبادات، وبالتالي فالذبح كذلك عبادة لله جَلَّوَعَلَا.

◉ **الوجه الثالث:** وهو أنه قال سبحانه: ﴿ لا شَرِيكَ لَهُ ﴾ ، وبالتالي فلو تقرب بالذبح لغير الله فقد جعل مع الله شريكًا ووقع في الشرك.

إذًا هذه الآية تدل على أن الذبح لله توحيد، وأن الذبح لغير الله شرك، من فعله اتخذ مع الله جَلَّوَعَلَاشريكًا.

وقل مثل هذا في الآية الأخرى -آية الكوثر-: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾، **ووجه الدلالة على أن النحر والذبح عبادة وأن صرف ذلك لغير الله شرك، أيضًا من أوجه:**

◉ **الوجه الأول:** كونه قَرَنَ بين الصلاة والنحر.

◉ **الوجه الثاني:** أنه أمر بالنحر؛ فدل هذا على أنه عبادة محبوبة لله، قال: ﴿وَانْحَرْ﴾.

---

(١٨٧) فالذي يستحقّ هذه الأمور هو الله ﷻ، وهذا يدلّك على أنَّ هذا الذبح وما جاء معَه عبادات لا تستحقُّ إلا لله ﷻ.

◉ **الوجه الثالث**: أنه خصَّ هذا الأمر بالله، قال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ يعني: لربك، فدل هذا على أن النحر يجب أن يكون لله، ولا يجوز أن يكون لغيره، كما أن الصلاة وبقية العبادات يجب أن تكون لله ولا يجوز أن تكون لغيره(١٨٨).

إذًا دلت هذه الأدلة على أن الذبح عبادة، ومتى ما كانت عبادة كان صرفها لغير الله شركًا، وهذه قاعدة مضطردة تنبَّه لها، وهي: أنَّ كل ما ثبت أنه عبادة فإن صرفه لغير الله شرك.

الصلاة لله عبادة؟ نعم، إذًا ما حكم الصلاة لغير الله؟ شرك، ما الدليل؟ أن الصلاة عبادة فصرفها لغير الله شرك، إذًا هما أمران متقابلان، ﴿وَاعْبُدُوا اللهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾[النساء:٣٦]، متى ما ثبت أن العمل عبادة فإن صرفه لغير الله شرك، وهذه قاعدة مطَّردة.

فإذا قال لنا قائل: ما الدليل على أن الذبح لغير الله شرك؟

قلنا: أدلة؛ أبرزها أنَّه قد ثبت أنَّ الذبح عبادة، إذًا فصرف العبادة لغير الله شرك، كل ما ثبت أنه عبادة كان صرفه لغير الله شركًا، ناهيك عن أن الدليل كما سيأتي قد جاء صريحًا كما سيأتي معنا بعد قليل -إن شاء الله- في حديث طارق بن شهاب التصريح بأنَّ الذبح لغير الله شرك.

---

(١٨٨) أنَّ الله ﷻ بيَّن وجوب الإخلاص، أمرَ بالإخلاص في ذلك فقال: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾، وتقديم هذا اللَّفظ هنا يعني: انحر له ولا تنحر لغيره. والمقصود: أنَّ النحر عبادة عظيمة، وطاعة جليلة، وعليه فإنَّ صرْفها لغير الله شركٌ.

إذًا يتلخص لنا أن هاتين الآيتين دليلان صريحان على أن الذبح لله عبادة، وبالتالي فالذبح لغيره شرك، وهذا هو المقصود من إيراد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ لهما.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: حَدَّثَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: «لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ، لَعَنَ اللهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ، لَعَنَ اللهُ مَنْ آوَى مُحْدِثًا، لَعَنَ اللهُ مَنْ غَيَّرَ مَنَارَ الأَرْضِ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

هذا حديث علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ المخرَّجِ في صحيح مسلم وغيره، وفيه: بيان أربع ذنوب عظيمة متوعّد عليها بلعنة الله عَزَّوَجَلَّ، واللعن هو: الطرد والإبعاد عن رحمة الله، وهذا دليل على أنَّ هذه الذنوب الأربعة من الكبائر والموبقات، نسأل الله السلامة والعافية(١٨٩).

۞ **أول ذلك: الذبح لغير الله**، «لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ»، ووالله إنه لجدير وحقيق بلعنة الله عَزَّوَجَلَّ، حينما يعمد إلى عبادة اختص الله عَزَّوَجَلَّ بها فيصرفها لغيره، هذا ما ظنه برب العالمين حينما يعمد إلى حقه فيصرفه لغيره! هذا ما قدر الله حق قدره، لو كان الله في قلبه عظيمًا التعظيم الذي يليق به ما فعل ذلك.

إذًا هو جدير بلعنة الله سبحانه، وهذا هو الشاهد من إيراد الحديث. وجاء هذا اللفظ أيضًا من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا عند أحمد وغيره بإسناد

---

(١٨٩) والشاهد وَوَجْهُ المناسبة يتعلّق بالشطر الأول من الحديث؛ وهو لعْنُ مَن ذبح لغير الله، ولا شكَّ أنَّ هذا الأسلوب من دلائل النهي والتحريم، بلْ وأنَّه محرّمٌ غليظ، أو من الكبائر.

صحيح، بل قال ابن القيم: (على شرط البخاري) في حديث طويل وفيه: «لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ».

❁ **الأمر الثاني**: أن يلعن الإنسان والديه -نسأل الله العافية- إما بأن يلعن ذلك صريحًا، وهذا لا يفعله إلا من عتى وتمرد نسأل الله العافية، أو أنه يلعن أبا الرجل فيلعن ذاك أباه، فيكون متسببًا في ذلك.

❁ **الأمر الثالث**: «لَعَنَ اللهُ مَنْ آوَى مُحْدِثًا»؛ من أحدث حدَثًا لله عَزَّوَجَلَّ فيه حق ثم لجأ إلى إنسان ليحميه ويمنع قيام حق الله عَزَّوَجَلَّ عليه، فإن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد لعنه في هذا الحديث.

❁ **والأمر الأخير**: «لَعَنَ اللهُ مَنْ غَيَّرَ مَنَارَ الأَرْضِ»، هذه الحدود والعلامات التي تكون بين أرضك وأرض جارك، من تلاعب فيها بزيادة أو نقصان يُدْخِلُ حق غيره في حقه فإنه متوعَّد بلعنة الله عَزَّوَجَلَّ أيضًا.

وها هنا سؤال؛ قد يقول قائل: إنَّ قرْن الذبح لغير الله بأمور ليست شركية كالأمور السابقة فهي كبائر، ألا يدل على أن الذبح لغير الله مجرد كبيرة ولا يصِل إلى حد الشرك؟

والجواب: **أنَّ** اشتراك المنهيات في قدرٍ مشترك لا يدل على الاستواء في الحكم ، انتبه لهذه القاعدة ؛ اشتراك عدة أشياء في قدرٍ مشترك -هو التحريم، هو الذم، هو الوعيد- لا يدل على الاستواء في الحكم. فالأربعة المذكورة هاهنا اشتركت في هذا القدر وهو أن مَن فعل شيئًا من هذه الأمور الأربعة فإنه ملعون يلعنه الله جَلَّوَعَلَا ، لكن لا يدل ذلك على أن الحكم في الكل واحد، فاللعنة قد

تقع على كافر، والنصوص في هذا كثيرة، وقد تقع على عاصٍ، والنصوص في هذا كثيرة.

إذًا وقوع هذه المنكرات أو المحرمات في حديثٍ واحد لا يدل على الاستواء في الحكم. وخذ مثالاً على هذا لا أظن أنه يُختلف فيه: ما ثبت في الصحيحين بقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اجتنبوا السبع الموبقات»، أول شيء قال: «الشرك بالله»، ثانيًا: «السحر» ، ثم انظر في البقية: «قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، التولي يوم الزحف، أكل مال اليتيم، أكل الربا»؛ لاحظ معي، هذه الأمور تعتبر كبائر، والذي في الأول كان بالنص الشرك، ومع ذلك اشتركت في قدر مشترك هو أنها موبقة، كلها موبق، يوبق الإنسان -عياذًا بالله- في عذاب الله، ولكنَّ كون هذه موبقة وهذه موبقة لا يدل على الاشتراك، فالشرك يوبق صاحبه في عذاب الله، والكبيرة توبق صاحبها في عذاب الله، مع الاختلاف في قدرٍ مميز وفارقٍ بين هذا وهذا.

إذًا هذا باختصار ما يتعلق بحديث علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وَعَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «دَخَلَ الجَنَّةَ رَجُلٌ فِي ذُبَابٍ، وَدَخَلَ النَّارَ رَجُلٌ فِي ذُبَابٍ»، قَالُوا: وَكَيْفَ ذَٰلِكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟، قَالَ: «مَرَّ رَجُلَانِ عَلَى قَوْمٍ لَهُمْ صَنَمٌ، لَا يَجُوزُهُ أَحَدٌ حَتَّى يُقَرِّبَ لَهُ شَيْئًا، فَقَالُوا لِأَحَدِهِمَا: قَرِّبْ، قَالَ: لَيْسَ عِنْدِي شَيْءٌ أُقَرِّبُ، قَالُوا لَهُ: قَرِّبْ وَلَوْ ذُبَابًا، فَقَرَّبَ ذُبَابًا؛ فَخَلَّوْا سَبِيلَهُ؛ فَدَخَلَ النَّارَ، وَقَالُوا لِلْآخَرِ: قَرِّبْ، فَقَالَ: مَا كُنْتُ لِأُقَرِّبَ لِأَحَدٍ شَيْئًا دُونَ اللهِ، فَضَرَبُوا عُنُقَهُ؛ فَدَخَلَ الجَنَّةَ» رَوَاهُ أَحْمَدُ).**

هذا الحديث فيه كلامٌ من جهة رفعه كما فعل المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، المؤلف جعل هذا الحديث من حديث طارق بن شهاب يرفعه إلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم عزا ذلك إلى الإمام أحمد، ويبدو والله أعلم أنه قد تابع هذا ابن القيم في كتابه «الجواب الكافي»، أو «الداء والدواء»؛ وذلك أن ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ أورد هذا النص معزوًا إلى الإمام أحمد.

أولا: هو ليس في المسند الذي بين أيدينا(١٩٠)، هو عند أحمد في الزهد، وهل وقف ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ على نسخة فيها هذا الحديث مرفوع إلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ أو كان وهمًا منه، الله أعلم.

المقصود أن هذا الذي بين أيدينا هو عند أحمد في «الزهد»، ورواه غيره أيضًا وكل ذلك لم يكن مرفوعًا إلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنما كان مما حدَّث به طارق ابن شهاب عن سلمان الفارسي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ موقوفًا عليه من قوله. وهذا الذي عند أبي نُعيم في «الحلية» والبيهقي في «شعب الإيمان» وابن أبي شيبة في «المصنف»، وغيرهم من أهل العلم الذين خرَّجوا هذا الأثر، فالذي يظهر والله أعلم أنه موقوف على سلمان.

وعلى كل حال؛ حتى لو كان موقوفًا على سلمان فما فيه لا يقال إلا عن توقيف؛ لأن فيه أن أحدهما دخل الجنة والآخر دخل النار، وهذا أمرٌ غيبي لا يقوله الصحابي إلا عن توقيف. فالحديث سواء كان مرفوعًا أو موقوفًا فإن

---

(١٩٠) وفُتِّشَ في «المسند» وليس موجودًا فيه، كما قال غير واحد؛ كالشيخ سليمان وغيره.

حكمه حكم الرفع، وهو أثرٌ صحيح خرجه أحمد في «الزهد» وغيره بإسناد صحيح.

والمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ مشى على أنه مرفوع، أسقط ذكر سلمان، ونسَب الحديث إلى رواية طارق بن شهاب عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وطارق بن شهاب البجَلي اختلف العلماء فيه:

- فمنهم من قال: إن له رؤية ورواية عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.
- ومنهم من قال: إن له رؤية دون أن تكون له رواية، يعني ما سمع من النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شيئا.
- ومنهم من قال: إنه لا رؤية له ولا رواية.

والصحيح: أن له رؤية وليس له رواية. وثبت عنه بإسناد صحيح كما قال الحافظ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «الإصابة» قال: «رأيتُ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وغزوتُ في عهد أبي بكر»؛ فدل هذا على أن طارقًا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ من الصحابة لثبوت الرؤية له. وبالتالي إذا قُدِّر أن هذا الحديث مرفوع إلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما ذكر المؤلف فإنه يكون من مراسيل الصحابة، ومراسيل الصحابة مقبولةٌ على الراجح.

فهذا الحديث وإن كان مرفوعًا، إما أن يكون من مسموع طارق، أو يكون من مراسيل الصحابة، فهو على كل حال مرفوعٌ ومقبول.

الشاهد: أن هذا الحديث فيه قصة يخبر بها سلمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أو النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إن كان هذا مرفوعًا ، وهي أنه كان فيمن قبلنا رجلان مرَّا بقوم لهم صنم، وعندهم قاعدة وشرط: لا يمر أحد بهذه الطريق إلا إذا قرَّب شيئًا

لهذا الصنم، وهذا يدلك على عِظَمِ شأن الأصنام في نفوس المشركين، يعظمونها تعظيمًا عظيمًا، يريدون أن يُتقرب إليها بكل وسيلة وبكل طريق.

وهل كان هذان الرجلان مفترقين؟ يعني مرة جاء الأول وبعد ذلك جاء الثاني؟ أو جاء معًا؟ جاء عند البيهقي في الشعب أنهما كانا معًا.

فقالوا لهما: (قربا شيئًا)، فقالا: (ما كنا لنشرك بالله شيئًا)؛ وهذا يدلك على أنَّ الذبح لغير الله شرك.

قالوا: (قربا ما شئتما ولو ذبابًا)، فنظر أحدهما إلى آخره وقال لصاحبه - هكذا عند البيهقي-: (ما تقول؟ قال: ما كنت لأشرك بالله شيئًا)؛ التوحيد عزيز عند أهله، ما كنت لأشرك بالله شيئًا، مهما يكن لا يمكن أن أفعل الشرك، سبحان الله العظيم! هذا ذو إيمان عظيم، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبر أنَّ « ثلاثًا من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان» ومنها: «أن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار»، حينما قال ذلك قتلوه فدخل الجنة.

وأما الآخر؛ لما قالو له (قرب شيئًا ولو ذبابًا)، جاء عند البيهقي أنه قال بيده على وجهه ثم أخذ ذبابًا فرماه إلى الصنم، فمر، ثم مات بعد ذلك فدخل النار - نسأل الله السلامة والعافية-، وقع في الشرك.

وجاء عند ابن أبي شيبة أنهم لما قالوا له: قرب ولو ذبابًا، قال: (إيش ذبابة؟!) يعني استسهل الأمر، قال: الذبابة أمرها سهل، (إيش): يعني أي شيء؟! استسهال واستصغار للأمر، فأخذ هذه الذبابة ورماها إلى الصنم. اكتفى المشركون بهذا، ما أرادوا شيئًا أكثر من هذا؛ وهذا يدلك على أن المقصود عمل

القلب حتى عند المشركين، وإلا ما قيمة هذه الذبابة؟! لا تساوي شيئًا، يعني ما ذبح بعيرًا أو شاة، إنما فقط رمى هذه الذبابة هذه الحشرة الحقيرة التي هي من أتفه وأحقر الحشرات، ومع ذلك اكتفوا بهذا ورأوا أن هذا تعظيم وتقرب إلى هذا الصنم، فتركوه يمر، فما كان بعد ذلك إلا أن مات فدخل النار؛ لأنَّه أشرك بالله.

إذًا هذا يدلك على أنَّ الذبح لغير الله شرك، وأنَّ صاحبه متوعَّد بالنار، إذا كان هذا في ذباب لا قيمة له! فكيف بهؤلاء القبوريين الذين يستسمن أحدهم الذبيحة سنة كاملة وإذا قيل له في ذلك، قال: "هذه للسيد، هذه للشيخ، هذه للولي"، يسمِّنها ويطعمها ويعتني بها أكثر مما يعتني بالأضحية التي يتقرب بها إلى الله، ثم إذا جاء مولد السيد ذبحها مبتهجًا يتقرب بذلك إلى هذا الوثن الذي يعبده مع الله جَلَّوَعَلَا!! ما الفرق بين حال هذا وحال المشركين الأولين؟ والله لا فرق، بل ربما يكون حاله أعظم، واهتمامه بهذه الذبيحة أكثر.

إذًا الذبح لغير الله شرك، ومن وقع في هذا نقض توحيده، ولا فرق في ذلك بين أن يكون الإنسان راغبًا أو راهبًا أو خائفًا إلا أن يكون مكرهًا. نواقض الإسلام ليس فيها فرق بين الجادّ والهازل، ولا حتى الخائف، إلا أن يصل إلى درجة الإكراه، أن يكون مكرهًا، فالله جَلَّوَعَلَا خفف عن هذه الأمة ما استكرهوا عليه.

وها هنا مسألة قد تُستشكل في هذا الأثر أو في هذا الحديث؛ وهي أن الظاهر من حال هذا الرجل الذي دخل النار أنه كان مُكرهًا فكيف يدخل النار وهو مكره؟

الجواب عن هذا: في كلام أهل العلم، فيه أقوال وتوجيهات عدة منها:

❁ **الوجه الأول**: أن هذا الرجل كان كافرًا أصلًا وإنما حُرِم التوفيق للإسلام، وبالتالي يكون دخوله النار لأنه في الأصل كافر. لكن هذا ضعيف؛ لأنَّ الحديث جاء فيه أنه دخل النار في ذباب، قوله: (**فِي ذُبَابٍ**) تقوم مقام التعليل، يعني العلة في دخوله النار هي هذه الذبابة التي تقرب بها، ولو كان مشركًا أصلا ما قيل فيه دخل النار في ذبابة.

❁ **الوجه الثاني وهو قوي**: أن الإكراه على الكفر لم يكن فيه رخصةٌ في الأمم السابقة، إنما كان من الآصار التي رُفعت عن هذه الأمة، بمعنى: كان واجبًا على المسلمين في الأمم السابقة أن يصبروا ولا يقعوا في الشرك ولو ظاهرًا حتى لو كانوا سيُقتلون، إنما جاءت الرخصة لهذه الأمة؛ أن الإنسان يقول أو يفعل الكفر إذا كان مُكرهًا بشرط طمأنينة القلب، ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل:١٠٦]، وبالتالي فإن هذا الإنسان يكون قد وقع في الكفر، لم يكن عنده رخصة كان يجب أن يصبر على القتل، **ويشهد لهذا أمور:**

❖ **أولا**: ما جاء في سورة الكهف من قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾ ثم قال: ﴿وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾[الكهف:٢٠]، مع أنهم يمكن لو كان عندهم رخصة أن يعودوا إلى ملتهم في الظاهر وقلبهم مطمئن

بالإيمان، لكن الذي جاء في الآية أنهم لو عادوا إلى الملة بكل حال، فالنتيجة لن يفلحوا إذًا أبدًا.

❖ **ثانيًا**: يشهد لهذا أيضًا ما خرَّج ابن ماجة وغيره من طرقٍ عدة عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قال: «إنَّ الله تجاوز عن هذه الأمة الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»؛ الشاهد أنَّ في هذا تخصيص لهذه الأمة؛ أمة محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ. وهذا القول له وجاهة لا تخفى.

❖ **التوجيه الثالث**: أنَّ هذا الرجل الذي دخل النار لم يكن مُكرهًا أصلا، إنما قيل له قرِّب فقرَّب، بمعنى: إما أنه كان له مندوحة أن يرجع ولا يمر بالطريق وبالتالي يكتفي شرهم، ولا يقال: لِم الثاني أيضًا ما رجع؟ فيقال: هؤلاء القوم أخذتهم الحمية لدينهم؛ لأنه أظهر العِداء لما هم عليه، قال: (ما كنت لأقرب شيئًا لغير الله)، وجاء في بعض الروايات (فأبى) أظهر الإباء، أظهر العصيان، فقتلوه، أما ذاك كان يمكن أن يرجع فلا يكون مُكرهًا.

أو يقال: أنه قد انشرح صدره بالكفر -عياذًا بالله-، في البداية قال:(ما عندي شيء أقرب)، ثم لما سهَّلوا له الأمر، ويؤيد هذا ما جاء في الرواية الأخرى قال: (إيش ذبابة)، يعني المسألة سهلة، فأخذ هذه الذبابة فرماها إلى الصنم، فلم يكن مُكرهًا.

على كل حال ؛ التوجيهان الثاني والثالث هما الأقرب في توجيه هذا الأثر، والله تعالى أعلم.



١١- بَابُ
لاَ يُذْبَحُ للهِ بِمَكَانٍ يُذْبَحُ فِيهِ لِغَيْرِ اللهِ

وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ [التوبة: ١٠٨].

عَنْ ثَابِتِ بْنِ الضَّحَّاكِ رضي الله عنه قَالَ: نَذَرَ رَجُلٌ أَنْ يَنْحَرَ إِبِلًا بِبُوَانَةَ، فَسَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: «هَلْ كَانَ فِيهَا وَثَنٌ مِنْ أَوْثَانِ الجَاهِلِيَّةِ يُعْبَدُ؟»، قَالُوا: لَا، قَالَ: «فَهَلْ كَانَ فِيهَا عِيدٌ مِنْ أَعْيَادِهِمْ؟»، قَالُوا: لَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَوْفِ بِنَذْرِكَ؛ فَإِنَّهُ لَا وَفَاءَ لِنَذْرٍ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ، وَلَا فِيمَا لَا يَمْلِكُ ٱبْنُ آدَمَ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَإِسْنَادُهُ عَلَى شَرْطِهِمَا.



قال الشارح وفقه الله:

عقّب المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد الباب الماضي فيما جاء في الذبح لغير الله بهذا الباب الذي وسمه بقوله: (بابٌ: لا يُذْبَحُ للهِ فِي مِكانٍ يُذْبَحُ فِيْه لِغَيْرِهِ)، أو (لا يُذْبَحُ).

- يجوز أن تكون (لا) هاهنا نافية متضمنةً للنهي.
- ويجوز أن تكون ناهية (لا يَذبح)، يعني لا يجوز للمسلم أن يذبح لله في مكانٍ يُذبح فيه لغيره.

المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الباب الماضي نبه على المحرَّم قصدًا، ونبه عقيبه على المحرم وسيلةً، بمعنى: أنَّ الذبح لله في مكانٍ يذبح فيه لغيره وسيلةٌ للوقوع في الذبح لغير الله عَزَّوَجَلَّ، وبالتالي الشرك به سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ. فالأول هو المحرم على جهة القصد، والثاني محرمٌ لأنه وسيلةٌ للأول.

صورة هذه المسألة التي بيّن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ **أنَّها صورةٌ منهيةٌ عنها هي**: أن يذبح الموحد لله في مكانٍ يذبح فيه المشركون لآلهتهم، أو كان المشركون يذبحون فيه لآلهتهم.

إذًا متى ما كان في الماضي المشركون يذبحون لآلهتهم، أوثانهم، أصنامهم ثم زال ذلك فإنَّ الشريعة تمنع من أن يذبح فيه، ولو كان قد زال ما كان من مظاهر الشرك. وأشنع من ذلك وأفظع أن يُذبح لله في مكانٍ لا يزال المشركون يذبحون فيه لغير الله، ولا شك أن هذا الأمر محرم، والمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ استدل على التحريم بآيةٍ وحديث سيأتي الكلام عنهما -إن شاء الله-.

والشريعة في منعها لهذا الأمر كان ذلك منها لأسباب:

❁ **أولًا**: أنَّ الذبح لله في مكانٍ يذبح فيه المشركون لآلهتهم فيه إغراءٌ بالشرك بالله عَزَّوَجَلَّ، فإذا رأى الأغمار والجهّال مسلمًا يذبح في هذا المكان فإنَّ هذا قد يدعوهم إلى أن يفعلوا مثل فعله فيقعُوا في الشرك، حيث يظنون أنّ الذبح لهذا الصنم أمرٌ جائز، بدليل أن فلانًا المسلم يفعله؛ لأنَّ صورة الفعل واحدة بين ذبح المسلم لله وذبح المشرك للوثن، الصورة واحدة وإنما الاختلاف في النية والقصد، وهذا مما لا اطلاع عليه. إذًا صار الذبح لله في مكانٍ يذبح فيه لغيره ذريعةً لوقوع الشرك بالله جَلَّوَعَلَا؛ فكان منع ذلك متعينًا.

❁ **ثانيًا**: أنَّ الذبح لله في مكانٍ يُذبح فيه لغيره فتحٌ لذريعة الشر، والواجب سد ذرائع الشر، وذلك أنَّ الذبح لله في هذا المكان ربما يكون ذريعةً لأن يوسوس الشيطان للإنسان أنّ هذا الصنم الذي يُذبح له أو كان يُذبح له أهلٌ أن

يُتقرب لـه، ولا يخفـى أنَّ الشـيطان لـه خطـوات وأنَّ لـه وسـاوس في النفـوس، وبالتالي فينبغي الحذر من ذلك، وقد يوسوس الشيطان لما هـو دون ذلـك، وهـو اعتقاد أفضلية هذا المكان، وأنَّه من الأفضل أن يذبح الإنسـان في هـذا المكـان لله فيكون هذا فتحًا لذريعة البدعة. إذًا سدًا لذريعة الشرك أو البدعة منعت الشـريعة من الذبح لله في مكانٍ يُذبح فيه لغيره.

۞ **ثالثًـا**: أنّ الـذبح لله في مكـانٍ يـذبح فيـه لغيـره فيـه تعظيـمٌ لأمـاكن الكفـر وشعائر الكفر، وفيه شدٌ لظهور المشركين وتكثيرٌ لسـوادهم، ولا شـك أنَّ الـذي يجـب أن تُعَظَـم شـعائر الله: ﴿وَمَـنْ يُعَظِّـمْ شَـعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَـا مِـنْ تَقْـوَى الْقُلُـوبِ﴾[الحج:٣٢]. والواجـب أن يغـاظ الكفـار، لا أن تشـد ظهـورهم، ﴿وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ﴾[التوبة:١٢٠]، ولا شـك أن المشـركين إذا رأوا مسـلمًا يرتـاد هـذا المكـان الـذي اعتـادوا أن يـذبحوا فيـه لغيـر الله فيشـاركَهُم في صـورة الفعل، لا شك في هذا إعزازًا لهم، وهذا أمرٌ ينبغي تركه.

۞ **رابعًـا**: أن الـذبح لله في هـذا المكـان ربمـا يكـون سـببًا لإسـاءة الظـن بالمسـلم، فـإذا رآه الصـالحون ظنـوا أنـه يفعـل كالمشـركين، فيتقـرب لغيـر الله بالذبح، والواجب أن يدفع الإنسان عن نفسه الريبة.

۞ **خامسًـا**: أنَّ الـذبح في هـذا المكـان فيـه مشـابهةٌ للمشـركين في صـورة الفعل، وهذا أمرٌ في حد ذاته محرم ولـو لـم يقـترن بهذا نية ولا قصـد؛ لأنَّ النبـي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قـال: «مـن تشـبه بقـومٍ فهـو مـنهم»، ولا يخفـى كـل عاقـل أنَّ المشابهة في صورة الفعل ذريعـةٌ للمشـابهة في البـاطن، المشـابهة في الظـاهر ذريعـةٌ

للمشابهة في الباطن، فيتدرج الأمر شيئًا فشيئًا حتى يصل الأمر إلى أن يوافقهم في القصد، ولا شك أن أبواب الشر ينبغي إغلاقها؛ ولأجل هذا منعت الشريعة من مشابهة المشركين ولو في صورة الفعل أو الهيئة(١٩١).

الإيمان والتوحيد أمرٌ عظيمٌ عزيز، ولا يجوز للمسلم أن يجعل أعزَّ شيء عنده نهبًا ينتهبه كل طارق وكل وسيلة للشر، ولا شك أنَّ الفتن خطافة، والشُبَه مضلة، فلا ينبغي أن يعرض الإنسان نفسه للشر، بأن يأتيَ إلى هذا المكان الذي هو مظنة الشرك أو يُفعل فيه الشرك بالفعل، ثم يشابه المشركين في هذا الأمر، هذا أمرٌ ربما يوقِع في النفوس ما يوقع، وربما يجر الإنسان إلى شرٍ عظيم، والبعد عن المشركين لا سيما في أماكنٍ تعبداتهم لا شك أنه مقصدٌ شرعيّ، فإن الدخول عليهم ومخالطتهم ومشاركتهم ولو في الظاهر ربما تؤدي إلى شرٍ عظيم.

حدثني أحدهم أنه دخل معبدًا فيه صنمٌ عظيم لبوذا أراد أن يتفرج، وكان الصنم عظيمًا، والناس حوله يتعبدون ويعكفون، يقول: والله وقع في نفسي شيء، احتجت إلى أيامٍ عدة أدافع وأجاهد نفسي حتى يزول ما وقع في نفسي، وقع في نفسي شيءٌ من الرهبة والتعظيم لهذا الصنم الكبير.

---

(١٩١) **سادسًا**: أنَّ في هذا الفعْل تقويةً للمشركين، والمطلوب أن لا يُكثَّر سوادهم وأن لا تُشدّ ظهورهم، بلْ الواجب أن يغاظ الكفار والمشركون، ﴿وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ﴾ [التوبة:١٢٠]، وليس أن يُكثّرَ المسلم سوادَهم عياذًا بالله.

فلا ينبغي للإنسان أن يعرِّض إيمانه للفتنة؛ بل ينبغي أن ينأى وأن يبتعد، لا سيما في هذا الزمان الذي هو آخر الزمان حيث تشتد الفتن والشبهات، ينبغي على المسلم أن يحذر وأن ينأى بنفسه عن مواطن العطب.

إنَّ السلامة مِنْ سَلْمَى وَجَارَتِهَا   أَلَا تحُلَّ عَلَى حَالٍ بِوادِيهَا

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾** [التوبة:١٠٨])**.**

هذه الآية من سورة التوبة فيها نهي الله سبحانه نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الصلاة في مسجد الضرار، والنهي له نهيٌ لأمته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

أمَّا مسجد الضرار فإنه مسجدٌ مؤسسٌ على قصد الكفر والإضرار بالمسلمين، فهو مؤسسٌ على أساس رديءٍ خبيث، فنهى الله جَلَّ وَعَلَا نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الصلاة فيه، ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا﴾، هذا هو مسجد الضرار، وكان موقعه في جهة قباء، ولا يُعلم عينه -ولله الحمد-.

قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ ؛ ذلكم هو أبي عامرٍ المنافق الفاسق الذي هرب من المدينة ولحق بالشام، وأوصى أتباعه أن يبنوا هذا المسجد فيتحصن به، حتى إذا قدِم من الشام بالعدد والعتاد فإنهم يُغيرون على النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكانوا يترقبون مجيئه في هذا المسجد، ﴿وَإِرْصَادًا﴾ يعني ترقبًا ﴿لِمَنْ حَارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ﴾، وهم مع ذلك يتزينون بزينة الخير ويتحلَّون بذلك، وهو أنهم إن أرادوا إلا الحسنى، لكن ذلك لا يخفى على العليم الخبير سبحانه ﴿وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [التوبة:١٠٧]. ثم قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿**لا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً**

لَمَسْجِدٌ﴾، نهى الله جَلَّوَعَلَا نبيه صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عن القيام والصلاة والتعبد في هذا المسجد لما كان مؤسسًا على هذا الأغراض الخبيثة.

ووجه الدلالة من هذه الآية على ما البحث بصدده: أنّ القياس الصحيح يقتضي تحريم الذبح لله في مكانٍ يُذبح فيه لغيره؛ لأنَّ الله جَلَّوَعَلَا نهى نبيه صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عن الصلاة في مسجدٍ مؤسسٍ على الكفر والمحادة لله ورسوله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فكذلك الشأن في هذا المكان الذي أُعِدّ للكفر لا يجوز للمسلم أن يذبح وأن يتعبد فيه بالذبح لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

إذًا استدلال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان من جهة القياس، وهو قياسٌ صحيحٌ ظاهر[١٩٢]؛ فدلّ هذا على أنّه لا يجوز الذبح لله في مكانٍ يُذبح فيه لغيره.

وفي الآية من الفوائد: أنَّ العبرة بالحقائق دون الألفاظ؛ القوم زعموا أنَّ هذا مسجد، وسموه مسجدًا، وزعموا أنَّهم يتعبدون فيه لله، وأنهم إنما أرادوا الحسنى، لكن ذلك كله لا يؤثر في حقيقة الحال، فالعبرة بالحقائق لا بالألفاظ، فهو مسجد ضِرار وإن سموه مسجدًا أرادوا به الحسنى، فالمسلم مطالبٌ باليقظة والنظر في الحقائق والمعاني، وعدم الوقوف عند الألفاظ والمباني، والله أعلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**عَنْ ثَابِتِ بْنِ الضَّحَّاكِ رضي الله عنه قَالَ: نَذَرَ رَجُلٌ أَنْ يَنْحَرَ إِبِلًا بِبُوَانَةَ، فَسَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: «هَلْ كَانَ فِيهَا وَثَنٌ مِنْ أَوْثَانِ الجَاهِلِيَّةِ**

---

(١٩٢) ويدلّك على دقّة فهْم الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ، كما أنَّه لا يجوز أن يُتعبَّد في ذاك المسجد لأنَّه مُؤسَّسٌ على معصية، فكذلك لا يجوز أن يُذبحَ لله ويُتعبَّدُ له بالذبح في مكانٍ يُشرَكُ فيه بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

يُعْبَدُ؟»، قَالُوا: لَا، قَالَ: «فَهَلْ كَانَ فِيهَا عِيدٌ مِنْ أَعْيَادِهِمْ؟»، قَالُوا: لَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَوْفِ بِنَذْرِكَ؛ فَإِنَّهُ لَا وَفَاءَ لِنَذْرٍ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ، وَلَا فِيمَا لَا يَمْلِكُ ابْنُ آدَمَ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَإِسْنَادُهُ عَلَى شَرْطِهِمَا).

هذا الحديث الثاني حديث ثابت بن الضحاك الخزرجي الأنصاري؛ من فضلاء الصحابة ومن أهل بيعة الرضوان رضوان الله عليه، خرَّجَهُ أبو داود في سننه بإسنادٍ صحيح، كما قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ (إنه على شرط الشيخين)، وسبقه إلى هذا شيخ الإسلام ابن تيمية في الاقتضاء، قال: (إنه صحيحٌ على شرط الشيخين)، وصححه غير واحدٍ من أهل العلم.

وأبو داود رَحِمَهُ ٱللَّهُ أورد في سننه ثلاثة أحاديث في معنى هذا الحديث؛ هذا واحدٌ منها، والآخر حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أنَّ امرأة أتت النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فسألته سؤالين، الثاني منهما: أنها نذرت أن تنحر إبلًا بمكان كذا وكذا، كان للجاهلية، فقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لصنم؟» -يعني: كان يذبحون هناك لصنم؟- قالت: لا، قال: «لوثن؟» قالت: لا، فقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَوْفِ بِنَذْرِكَ».

والحديث الثالث: حديث ميمونة بنت كردم الثقفية؛ أن أباها في حجة الوداع سأل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «يا رسول الله: إني نذرت إن رزقني الله ولدًا ذكرًا أن أنحر كذا وكذا على رأس ثنيةٍ في بوانة»، والظاهر والله أعلم أنَّ ذِكْرَ بوانة هاهنا يدل على أن هذا الحديث وحديث ثابت قصةٌ واحدة، وقد يُحتمل

أن يكون هناك تعددٌ في القصة، يعني هذه قصةٌ أخرى، لكنَّ الأقرب والله أعلم أنهما قصةٌ واحدة.

الشاهد: أنه قال هذا إنه نذر أن ينحر كذا وكذا، قال الراوي: (أُراه قال: خمسين من الإبل أو الشاة في رأس ثنيةٍ ببوانة)، فسأله النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هَلْ كَانَ فِيهَا وَثَنٌ مِنْ أَوْثَانِ الجَاهِلِيَّةِ يُعْبَدُ؟»، وفي رواية بعدها لأبي داود قال: «أو عيدٌ من أعيادهم؟» فقال الرجل: لا، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَوْفِ بِنَذْرِكَ».

إذًا هذه ثلاثة أحاديث متواردةٌ على معنًى واحد؛ هو صريح في إثبات الحكم الذي عقد المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ بابًا من أجل إثباته، ألا وهو: تحريم الذبح لله في مكانٍ يذبح فيه لغيره.

ذلكم أنَّ هذا الرجل نذر أن ينحر إبلًا بموضعٍ معيَّن، وهذا يدل على جواز تخصيص النَّذر ذبحًا كان أو غيره بمكانٍ معين، نذر هذا الرجل أن ينحر إبلًا ببوانة.

-«بوانة» موضع قيل: إنَّه أسفل مكة دون يلملم التي هي ميقات أهل اليمن.

-وقيل: إن «بوانة» هضبة[193] بعد ينبع قريبةٌ من ساحل البحر.

أيًّا كان الأمر، هذا الرجل نذر أن ينحر هذه الإبل في هذا الموضع.

هنا توجه له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بسؤالين، وهذا يدل على أنَّ على المفتي أن يستفصل من المستفتي، فالمبادرة إلى الجواب مع وجود الإجمال أو الاحتمال

---

(١٩٣) أو منطقة مرتفعة.

ليست المسلك الرشيد، المسلك الرشيد هو أن يتبين الإنسان قبل أن يجيب، وأن يستفسر، وأن يستفصل حتى يجيب على بينة.

فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**هَلْ كَانَ فِيهَا وَثَنٌ مِنْ أَوْثَانِ الجَاهِلِيَّةِ يُعْبَدُ؟**»؛ الوثن: كل ما عُبِدَ مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كان هذا على صورةٍ آدمي أو حيوان أو لم يكن، على خلافٍ في ذلك، سيأتي تحقيقه -إن شاء الله- في محله.

سأل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أكان في الماضي وليس في الحاضر، لأنَّ الأمر فيما يبدو والله أعلم كان متأخرًا بعد أن زالت مظاهر الشرك، ودانت الجزيرة ومواضع شتى فيها للتوحيد، وذلك كان كما يدل على هذا حديث ميمونة السابق على أنه كان في حجة الوداع، إذًا الأمر كان قد زال، لا يوجد هناك الآن أصنام ولا أنصاب ولا أشجار تعبد من دون الله جَلَّ وَعَلَا، ومع ذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يسأله: هل كان في الماضي في أيام الجاهلية التي كانوا يعالنون فيها بالشرك؛ أكان فيها ثمة وثنًا يعبد من دون الله؟

فقالوا للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (**لَا**)؛ يعرفون المكان، عرفوا أنَّه لم يكن هناك وثن، وذلك أن المشركون من عاداتهم بل من عباداتهم الأثيرة عندهم أنهم كانوا يقربون القرابين وينسكون الذبائح ويتقربون بها ثمة بين يدي أصنامهم وأوثانهم، يتقربون بها إلى هذه الأصنام أو إلى الأشجار والأحجار التي يعبدونها، وربما لطخوا هذه الأصنام بدم هذه الذبائح والنسائك؛ فلأجل هذا قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: («**هَلْ كَانَ فِيهَا وَثَنٌ مِنْ أَوْثَانِ الجَاهِلِيَّةِ يُعْبَدُ؟**»، **قَالُوا: لَا**).

سأل السؤال الثاني؛ قال: «**فَهَلْ كَانَ فِيهَا عِيدٌ مِنْ أَعْيَادِهِمْ؟**»؛ ضابط العيد هو: اسمٌ للزمان الذي يكون فيه اجتماعٌ مع أعمال، وربما خُصَّ هذا بمكان معين، وربما لم يخص. اسمٌ للزمان الذي يعتاد يومٌ من أسبوع، أو يومٌ من شهر، أو يومٌ من سنة، يعاوَد على الناس، اسمٌ للزمان الذي يُعتاد فيكون فيها اجتماع، يحصل اجتماعٌ للناس اجتماعٌ عام مع وجود أعمال يعملونها، إمّا من جهة العادات، وإما من جهة العبادات، وقد يكون هذا مخصوصًا بمكان، وقد يكون أمرًا مطلقًا غير مخصوصٍ بمكان.

فكان أهلُ الجاهلية لهم أعيادٌ كثيرة، والناظر في كتب التاريخ يجد أنها قد حفِلت بذكر كثيرٍ من أعياد هؤلاء المشركين وما كانوا يفعلون من ذلك، وعلى رأس ما كانوا يفعلون في هذه الأعياد وهذه المجتمعات: أنهم كانوا يذبحون الذبائح فيتقربون بها إلى آلهتهم.

فقالوا: (**لا**)، ما كان ثمة عيدٌ من أعياد الجاهلية هناك.

هنا قال النبي ﷺ: «**أَوْفِ بِنَذْرِكَ**»، ثم عقَّب على هذا بقاعدةٍ عامة، فقال: «**أَوْفِ بِنَذْرِكَ؛ فَإِنَّهُ لَا وَفَاءَ لِنَذْرٍ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ، وَلَا فِيمَا لَا يَمْلِكُ ٱبْنُ آدَمَ**»؛ النذر ومباحثه ومسائله محل الكلام فيها إن شاء الله الباب القادم؛ لأنَّ الباب القادم في مسألة النذر إن شاء الله.

الشاهد: إنَّ النبي ﷺ بنى حكمه بالإذن بوفاء هذا النذر بجواب الناس له بأنه لم يكن هناك عيد ولم يكن هناك وثن، قال: «**أوفِ بنذرك**»، هذا

يدل على أنَّ الذبح لله؛ لأنَّ الرجل كان سيذبح لله نذر لله، فدلَّ هذا على أن الذبح لله في مكانٍ كان يذبح فيه لغيره أمرٌ محرم، **ووجه الدلالة من جهتين:**

❁ **الوجه الأول:** أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذكر الحكم عقيب الوصف وهذا مشعرٌ بالعلية -كما هو مقررٌ في أصول الفقه- **الوصف هاهنا خلو المكان من أمرين:**

❖**الأمر الأول:** أن يكون فيه وثنٌ من أوثانهم.

❖**الأمر الثاني:** أن يكون فيه عيدٌ من أعيادهم.

لما ذكر الوصف عقّب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بذكر الحكم وهو: «**أوفِ بنذرك**»، مشروعية الوفاء النذر إذا وُجد الوصف الذي هو خلو المكان من هذين الأمرين.

❁ **الوجه الثاني:** أنَّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذكر حكمًا عامًا بعد سبب، والسبب مندرجٌ في الحكم العام، إذا كان الحكم العام قد ورد على سببٍ معين فإنه مندرجٌ فيه قطعًا على ما هو مقررٌ في أصول الفقه، النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أي شيءٍ قال: «**فَإِنَّهُ لَا وَفَاءَ لِنَذْرٍ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ**»؟ لأي سببٍ قال هذا الكلام؟ لسبب السؤال عن الذبح في هذا المكان، فلما بيَّن له أنه لا يوجد فيه وثن ولا عيد، قال: إنه يجوز وفاء النذر هاهنا؛ لأنَّه ليس معصية؛ فدلَّ هذا على أن نذر الذبح في مكانٍ فيه وثن أو عيد معصية، قال: « **فَإِنَّهُ لَا وَفَاءَ لِنَذْرٍ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ**»، إذًا الذبح لله في مكانٍ يذبح فيه لغيره معصيةٌ لله، وهذا هو الذي يراد إثباته من إيراد هذا الحديث.

إذًا الخلاصة والشاهد: أن المسلم مطالبٌ بأن ينأى بنفسه عن مواطن الريبة، وعن أسباب حصول الشر، ومن أعظم ذلك أن يذبح الله في مكانٍ يذبح فيه لغيره.

وأنت -يا رعاك الله- إذا تأملت هذا الباب وما فيه، تبين لك أنَّ «قاعدة سد الذرائع» أصلٌ أصيل في الشريعة، لا سيما إذا تعلق الأمر بجناب التوحيد، فإنَّ الشريعة الإسلامية أسهل الشرائع وأيسرها في المعاملات، لكنَّها أشد الشرائع وأحزمها إذا تعلق الأمر بالشرك وذرائعه، ولذلك سدت الشريعة أبوابًا كثيرة يمكن على احتمال أن يوصَل إلى الشر من خلالها.

والمؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ عقد بابين -سيأتي الكلام فيهما إن شاء الله- عن هذه القاعدة العظيمة والمهمة، وهي «قاعدة سد الذرائع».

وإن مما يؤسف له أن كثيرًا من أعداء الحق في هذا الزمان، يكثرون من الطعن في هذه القاعدة العظيمة التي هي من محاسن الشريعة والله، يكثرون من الطعن فيها ومن التهوين من شأنها، يريدون أن تُفتح الذرائع والأسباب لحصول الشر؛ حتى يسهل الوقوع فيه، وحتى يكون الولوج إليه أمرًا يسيرًا، يكون هذا سببًا يتقوَّون به على إيصال الشر للناس، سواءً تعلق بعقائدهم، أو تعلق بأخلاقهم، أو تعلق بعبادتهم. فعلى المسلم لا سيما طالب العلم أن يتنبه إلى تتبُّع هذا المعنى العظيم في دلائل الشريعة في الكتاب والسُنة حتى يكون على علمٍ راسخ بهذا الأصل الأصيل.

بقيت **مسألةٌ أخيرة** وهي: هل يدخل في هذا الحكم الذي ذكرناه أن يذبح المسلم في المسالخ المعاصرة التي يرتادها الكفار فيذبحون فيها ذبائحهم؟ بمعنى: كثيرٌ من الدول في الغرب أو في الشرق تمنع أن يذبح الإنسان في أي مكان شاء؛ بل لا بد أن يكون الذبح في أماكن مخصوصة في مسالخ وعليها إشرافٌ طبي ونحو ذلك، وأظن هذا معلومًا، هذا المكان يذبح فيه في الغالب أهل البلد من الكفار، إذا كان هناك مسلم محتاج إلى أن يذبح فهل يجوز له أن يأتي إلى هذا المسلخ التي وضعته البلدية، ويأتيه الكفار فيذبحون؟

الجواب: أنَّ الغالب من أحوال هذه المسالخ أنه لا يكون فيها الذبح بقصد التقرب لغير الله، إنما هم يذبحون ليأكلون، لا ليتقربون إلى معبوداتهم، إذا كان كذلك فإن ذبح المسلم في هذا المكان لا بأس به، سواءٌ كان يذبح تقربًا لله؛ كأضحية، أو وفاءً للنذر، أو عقيقة، أو كان يذبح لأجل اللحم، كل ذلك لا بأس به إن شاء الله، إذا لم يكن هذا المكان قد أُعِدّ للشرك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أي للذبح لغيره.

والله تعالى أعلم.



قال المصنف رحمه الله:

١٢-بَابٌ

مِنَ الشِّرْكِ النَّذْرُ لِغَيْرِ اللهِ

وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ [الإنسان:٧].

وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللهَ يَعْلَمُهُ﴾ [البقرة:٢٧٠].

وَفِي «الصَّحِيحِ» عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللهَ فَلْيُطِعْهُ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اللهَ فَلَا يَعْصِهِ».



قال الشارح وفقه الله:

لا يزال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ يوالي ذكر الأبواب التي يعقدها لبيان ما يضاد التوحيد؛ فبيّن فيما مضى أنَّ التبرك والذبحَ لغير الله عَزَّوَجَلَّ أنَّه من جملة ما يضادُّ التوحيد، وجاء الآن ببيان أنَّ النذر لغير الله عَزَّوَجَلَّ من الشرك، و«مِنْ» هاهنا تبعيضية، يعني من أنواع الشرك الشركُ في النذر؛ فمن نذر لغير الله عَزَّوَجَلَّ فإنَّه يكون قد وقع في الشرك المنافي للتوحيد.

النذر في اللغة: قيل إنَّه من الإيجاب، أو الوعد، أو الإبلاغ فيما فيه تخويف(١٩٤).

---

(١٩٤) نذَر يَنْذِرُ من باب ضرَب، وعلى لغة من باب قتَل؛ نذَر ينذُرُ.

ومهما يكن فإن **النذر في الشرع**: هو إيجابُ المكلف على نفسه ما لم يجب شرعًا.

وإن شئت فقل: هو التزام قربةٍ لم تتعين، وإن كان هذا التعريف الثاني ليس بجامع.

والكلام في أنَّ النذر لغير الله شرك يُحتاج معه إلى التقديم ببيان شيءٍ من أحكام النذر حتى يكون الأمر واضحًا.

النذر -كما علمتَ- أن يوجب المرء على نفسه شيئًا لم يوجبه الله عليه، **وتختلف أحكامه باختلافِ أحوالٍ ذكرها الفقهاء** رَحِمَهُمُاللَّهُ **؛ من ذلك:**

❑ **أولًا: النذر المطلق**: وهو أن ينذُرَ الإنسان -وإن شئت فقل ينذِرُ الإنسان، لأنَّ نَذَرَ من باب ضَرَبَ ومن باب قَتَلَ؛ نَذَرَ ينذِرُ، ونَذَرَ ينذُرُ-؛ فمن نذر نذرًا مطلقًا لله بأن قال: "لله عليَّ نذرٌ"، أو "نذرٌ لله عليّ"، وما شاكل ذلك من هذه العبارات، فهذا يسمى عند أهل العلم نذرًا مطلقًا، والمقصود بأنه مطلق يعني لم يُسمَّ، لم يُذكر ما هو الشيء المنذور. **والحكم في هذا**: أنَّ فيه كفارة يمين، لما ثبت في صحيح مسلم عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنه قال: «كفارة النذر كفارة يمين».

❑ **الحال الثانية: نذر أمرٍ مباح**، إذا قال الإنسان: "لله عليّ أن أركب دابتي"، أو "نذرٌ عليّ أن أذهب إلى السوق"، وما شاكل ذلك من هذه الأمور المباحة، فإن أهل العلم يقولون: إنَّ المكلف الناذر مخيرٌ بين فعل ما نذر وبين أن يُكفِّر كفارة يمين.

❑ **الحال الثالثة: نذر المكروه**؛ إذا نذر الإنسان شيئًا مكروهًا كأن يقول مثلا: "نذرٌ عليّ أن أُطلِّق"، الطلاقُ الأصل فيه أنه مكروه، وقد يختلف الحكم فيه بحسب الحال، لكنَّ الأصل فيه أنَّه مكروه، قال أهل العلم: هو مخيَّر بين أن يفي أو يكفِّر كفارة يمين، والمستحب في حقه أن يكفّر ولا يأتي الفعل المكروه.

❑ **الحال الرابعة: أن يَنْذُرَ الإنسان شيئا محرمًا**؛ وذلك بأن يقول مثلا: "نذرٌ عليّ أن أسرق" أو "عليّ نذر أن أشرب خمرًا"، أو "لله عليّ أن أضرب فلانا" وهو لا يستحق الضرب، وأمثال ذلك من هذه الأمور المحرمة، فإنَّ هذا لا شك أنه محرمٌ ولا يجوز له أن يفيَ بهذا النذر بإجماع العلماء، بالإجماع الوفاء بهذا النذر محرم، وسيأتي الدليل عليه من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللهَ فَلْيُطِعْهُ».

❑ **الحال الخامسة: نذر الطاعة**؛ يسمى عند الفقهاء: «نذر التَّبَرُّر»، تبرُّر: يعني تقرب وتنسَّك، **وهذا النذر له حالتان:**

✓ **الأولى**: أن يكون نَذْرًا مُنَجَّزًا، والمقصود بكونه مُنَجَّزًا: يعني غير مُعلق، غير مقيد، لم يقيد بشيء، كأن يقول الإنسان: "لله عليّ أن أصلي ركعتين"، "نذرٌ عليّ أن أفعل عمرة" وما شاكل ذلك، والواجب في هذه الحال ولا شك أنه يجب عليه أن يفي بهذا النذر لقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللهَ فَلْيُطِعْهُ»، فمن نذر ما هو قربة، ما هو طاعة، أصبح في حقه أمرًا واجبًا وإن كان من قبل لم يكن واجبا.

وهذا في الجملة متفقٌ عليه، والجمهور على أنَّ أي طاعة تجب بالنذر. وذهب بعض أهل العلم إلى أنَّ ما كان أصله واجبًا فإنَّه يكون النذر موجبًا للوفاء به، وأما ما لم يكن أصله واجبًا فإنَّه لا يجب الوفاء به، ويُجْزئ فيه كفارةُ يمين؛ فلو نذر مثلا أن يعتكف فذهب هؤلاء العلماء -وهذا قولٌ مشهور عند الحنفية- أنه لا يلزمه الوفاء، والصواب مع الجمهور، وذلك لأن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يقيد الحكم في الحديث بشيء، وإنما قال: «من نذر أن يطيع الله فليطعه».

✓ **الثانية**: هي أن ينذر الإنسان نذرًا معلقًا، وإن شئت فقل: أن يُنْذُرَ نذر المجازاة، وهذا يقع كثيرا من الناس؛ وذلك أن يُعَلِقَ النذر بأمرٍ يرجو حصوله ويأمُل حصوله، كأن يقول: "لله عليّ إن نجحت في الامتحان أن أصوم ثلاثة أيام"، "نذرٌ عليّ إن شفى الله مريضي أن أتصدق بمائة ريال"، وما شاكل ذلك، هذا يسمى نذر المجازاة أو النذر المعلق.

والحكم في هذا: أنَّه متى ما حصل الأمر الذي عَلَّقَ عليه النَّذر فإنه يجب عليه أن يفيَ بهذه الطاعة، يجب عليه أن يفعل الشيء الذي نذره، وإذا لم يفعل فلا شك أنه عاصٍ لله عَزَّوَجَلَّ ، إلا إذا تعذر عليه ذلك فيكفيه أن يكفِّر كفارة يمين، إذا نذر هذا النذر ثم مَرِضَ مرضًا لا يُرجى بُرؤه وكان قد نذر صومًا مثلا، فنقول: يجزئه أن يكفر كفارة يمين لقول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كفارة النذر كفارة يمين».

إذًا هذا هو النذر، وهذه جملة أحكامه.

ويبقى بعد ذلك البحث في مسألة، وهي: أن النذر له جانبان:

❖ جانب انعقاد.

❖ وجانب وفاء.

أما الوفاء بالنذر فإن الحالات السابقة قد بيَّنَت حكمه، ومن ذلك أنَّه إذا نذر طاعةً لله عَزَّوَجَلَّ مُنَجَّزةً كانت أو معلقة فإنه يجب عليه أن يفيَ بذلك.

أما عن ابتداء النذر؛ يعني أن ينشئ الإنسان النذر، فما حكم ذلك؟

ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة ومن حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم أنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهى عن النذر وقال: «إنه لا يرُدُّ شيئًا، وإنما يُستخرج به من البخيل»، وفي رواية قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «إنه لا يأتي بخير، إنما يُستخرج به من البخيل»، وفي رواية ثالثة قال: «إنه لا يقدِّم شيئًا ولا يؤخِّر، وإنما يُستخرج به من البخيل»، هذه روايات ثلاث ثابتة في الصحيحين.

إذًا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهى عن النذر، وبالتالي فإنَّ إنشاء النذر أمرٌ منهيٌ عنه، وعامة أهل العلم على أنَّ النهي هاهنا للكراهة، فالنذر مكروهٌ كراهة تنزيه عند عامة أهل العلم، وبعض أهل الحديث حكَم بتحريمه، وبعضهم توقف، ومن ذلك ما في الاختيارات لشيخ الإسلام ابن تيمية فإنَّه توقف في حكم النذر، يعني هل هو محرمٌ أم لا؟ والأصل فيه كما يقول شيخ الإسلام وغيره أنه أمرٌ مكروه، بل ذكر شيخ الإسلام أنه لا يعلم نزاعًا في أنَّ إنشاء النذر أمرٌ مكروه؛ لنهي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.[١٩٥].

(١٩٥) وبعض أهل العلم يرى أنَّ النذر مُحرم الابتداء واجب الوفاء، وإلى هذا مَيلُ شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ. الجمهور على كراهة التنزيه، ومَيلُ شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ وبعض

وهنا مسألة وهي: ما هو الأمر المكروه في النذر؟ أهو المعلق والمنجز، أو هو المعلق فقط؟

قال بعض أهل العلم ومنهم ابن دقيق العيد: إنَّ الذي نهى عنه النبي ﷺ إنما هو النهي المعلق الذي يسمى نذر المجازاة، وأما النذر المطلق الذي ليس بمعلق بأن يقول: "لله عليّ أن أصوم أو أتصدق أو أصلي"، فهذا ليس داخلًا في النهي، إنما النهي مخصوصٌ بنذر المجازاة. **وعُلِّلَ هذا بأمور**:

❁ **أولًا**: أنَّ هذا النذر قد يصاحبه اعتقادُ أنَّ النَّذر سببٌ لجلب الخير أو دفع الضر، ولا شك أنَّ هذا منفيٌ بحديث النبي ﷺ، فالنذر ليس سببًا لا لجلبٍ ولا لدفعٍ، ألم يقل النبي ﷺ (إنَّه لا يرد شيئا)! ألم يقل النبي ﷺ (إنه لا يأتي بخير)! ألم يقل النبي ﷺ (إنَّه لا يُقدِّم شيئًا ولا يؤخر)! إذًا من اعتقد أنه سبب كما يفعله غالب من يفعل هذا النذر هو ما نذر إلا لأجل يريد أن يُقَّرِبَ الشيء الذي يرجوه، يظن أنه بهذا النذر يستجلب هذا الشيء، والنبي ﷺ بيّن أنه ليس بسبب لا لدفع شر ولا لجلب خير.

❁ **ثانيًا**: أنَّ هذا النَّذر فيه شوبٌ من سوء الظن بالله جَلَّوَعَلَا، ووجه ذلك: أن هذا النَّاذر حقيقة الأمر أنَّه اعتقد أن الله جَلَّوَعَلَا لا يمنُّ عليه بما يرجو إلا إذا وعد أن يتطوع لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى ، مع أنَّ شأن الله أعظم من ذلك، فالله أكرم الأكرمين، فهو

المحقّقين يقوّي أيضًا هذا القول من المعاصرين يرون أنَّ هذه القول فيه قوةٌ وَوَجَاهة لأن النبي ﷺ قد نهى عنه، كما في الصحيحين.

يتفضل ابتداءً سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ولا يُعلِّق فَضْلُهُ على أن يعِد العبدُ ربه أن يفعل له كذا وكذا.

❁ **ثالثًا**: أن في هذا النذر شوبًا من سوء الأدب مع الله عَزَّوَجَلَّ؛ كأن الناذر يقول: أنا لن أطيع حتى تعطيني يا الله كذا وكذا؛ كأن الناذر لسان حاله يقول هذا الأمر، ولا شك أنَّ هذا غير لائق في حق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

والأظهر والله أعلم أنَّ كلا النَّوعين مكروه، سواءً أكان نذر للطاعة نذر مجازاة أو نذرا منجزًا كلاهما مكروه. أما كراهة النذر المعلق فلِما علِمت آنفا.

وأمَّا المنَجَّز؛ فإنَّ كراهته من جهة أن الإنسان يُوجب على نفسه شيئًا لم يوجبه الله عَزَّوَجَلَّ عليه، ويُخشى أن لا يفيَ بما عاهد الله عليه، وكم الذين نذروا فلم يوفوا؟! ولا شك أنَّ هذا يُعَرِضُ الإنسان لذنبٍ عظيم، والله جَلَّوَعَلَا يقول: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَهُمْ مُعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾[التوبة:٧٥-٧٧]. إذًا لِمَ يورد الإنسان نفسه هذا المورد الخطِر؟ فترك النذر سواءً كان نذر مجازاة أو نذرًا حتى منجزًا، لا شك أنه هو الأسلم من الوقوع في هذه الورطة.

إذًا عندنا خمس حالاتٍ للنذر نضيف إليها حالة سادسة يذكرها الفقهاء، وفيها بحث طويل في كتب الفقه، ألا وهي:

❑ **نذر اللجج والخصومة**، وسميَّ بذلك: لأن هذا النذر سببه غالبا اللجج والخصومة، وهذا النذر يقول الفقهاء هو الذي ينشأ عن واحدٍ من أمور:

-إما حمل.

-وإما منع.

-وإما تصديق.

-وإما تكذيب.

❁ **الأمر الأول: أن يريد الناذر أن يحمل نفسه على شيء** فيقول مثلا: "إن لم أفعل كذا فإن لله عليّ أن أفعل كذا"، يعني: يريد أن يحمل نفسه على أن يترك أمرًا منكرًا يأتيه، أو أن يفعل شيئا مطلوبًا منه كأن يزور رحمًا له ولكن الدنيا تشغله، فيريد أن يحمل نفسه على ذلك، فيقوم بهذا النذر، يقول: "إن لم أفعل كذا، فلله عليّ كذا".

❁ **الأمر الثاني**: هو **أنه يريد أن يمنع نفسه من شيء**، فيقول: "إن فعلت كذا، فلله عليّ كذا".

❁ **الأمر الثالث: التصديق**؛ يريد أن يحمل الناس على تصديق كلامه، "إن لم يكن كلامي صحيحًا فنذر عليّ أن أتصدق بكذا".

❁ **الأمر الرابع: التكذيب**؛ يريد أن يكذِّب الناس شيئا سمعوه، فيقول مثلا: "إن كان ما يقول فلانٌ صحيحًا، فنذر عليّ أن أفعل كذا وكذا".

هذا النذر فيه بحث طويلٌ عند أهل العلم، والراجح -والله تعالى أعلم- أنَّ النَّاذر مخيرٌ بين فعل ما نذر وبين أن يكفر كفارة يمين، وفي هذا حديثٌ لكنَّ إسناده ضعيف، وفي هذا فتاوى لبعض أهل العلم، ومن جهة النظر أنَّ هذا النذر يجري مُجرى اليمين، فيكون له حكمه، والله تعالى أعلم.

مهما يكن من شيء؛ النذر بكل أحواله -سواءً كان مُنَجَزًا أو كان نذر مجازاة- فإنه لا يصدر إلا عن طاعةٍ لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، فالذي نذَر نذْر مجازاة هو وإن كان من جهةٍ أمرًا فيه كراهة، إلا أنه من جانبٍ آخر لا يفعله الإنسان إلا وهو يعتقد أن الله عَزَّوَجَلَّ قادرٌ على أن يبلِّغه ما يرجو، وإن نذر نذرًا منجزًا فإنه يتلمس السُّبل التي يظن أنَّها تقربه إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى. وهو في الأول والثاني لا يفعل ذلك إلا على ذلٍ لله سبحانه ورجاءٍ ومحبةٍ وخضوعٍ له سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، فكان النذر بكل أحواله طاعةً لله عَزَّوَجَلَّ؛ فلأجل هذا كان النذر عبادة لله عَزَّوَجَلَّ؛ إنشاؤه، والوفاء به.

ومتى ما كان طاعةً لله، كان صرفه لغير الله شركا وذلك لأن القاعدة المعلومة بالضرورة في دين الإسلام: «أن كل ما ثبت أنه عبادة فإن صرفه لغير الله شرك»، ﴿وَاعْبُدُوا اللهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾[النساء:٣٦]، ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾[يوسف:٤٠]، فالعبادة حقٌّ خالصٌ لله جَلَّوَعَلَا.

والمؤلف رَحِمَهُاللَّهُ أورد في هذا الباب آيتين وحديثًا تدل هذه الأدلة على أن النذر عبادةٌ لله عَزَّوَجَلَّ، وبالتالي تبيّن لنا الحكم إذًا وهو أن صرف هذه العبادة لغير الله شركٌ به سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

قال رَحِمَهُٱللَّهُ: **(وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ [الإنسان:٧])**.

هذه الآية الأولى؛ بيّن الله عَزَّوَجَلَّ فيها سبب نعيم أهل الجنة، ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾[الإنسان:٥-٦]، ما هو السبب الذي بلَّغهم هذا المنزل العظيم وهذا الفضل

الكبير؟ قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا * وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾[الإنسان:٧-٨].

إذًا ذكر الله جَلَّوَعَلَا أنَّ هؤلاء المنعّمين إنَّما بلغوا ما بلغوا بسبب طاعتهم لله عَزَّوَجَلَّ ، وماذا كانت الطاعة الأولى التي ذكرها الله عَزَّوَجَلَّ في هذا السياق؟ الوفاء بالنَّذر؛ فدل هذا على أنَّ النذر عبادةٌ لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى. وإذا ثبت أنَّ النذر عبادة كان صرف ذلك لغير الله شركًا (١٩٦).

ولاحظ كيف أنَّ النذر هاهنا قُرِن بعبادات عظيمة وهي: الخوف من الله عَزَّوَجَلَّ ، والإنفاق للمسكين واليتيم، والإنفاق على الأسير، وكل ذلك طاعات لله عَزَّوَجَلَّ، فالنذر إذًا طاعة لله، ومتى كان طاعة لله كان صرفه لغير الله شركًا.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا أَنفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللهَ يَعْلَمُهُ﴾ [البقرة:٢٧٠]).

هذه الآية كسابقتها في أن النذر عبادة، دلت كما دلت التي قبلها على أن النذر عبادة، وإذا كان النذر عبادة فإن النذر لغير الله شرك، هما أمران متقابلان، ما كان عبادةً لله فضده شركٌ بالله.

قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَا أَنفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللهَ يَعْلَمُهُ﴾ ؛ **وجه الدلالة من الآية:**

---

(١٩٦) ووجه مناسبة إيرادها في هذا الباب: هو أنَّ الله ﷻ أثنى ومدح من يوفي بنذره، وهذا دليلٌ على أن هذا الأمر محبوبٌ لله، فيكون عبادةً تُصرَفُ له وحده، وبناءً عليه فصرْفها لغيره شرك.

❑ **أولًا**: من جهة قَرْنِ النذر بالإنفاق، ولا شك أن الإنفاق في سبيل الله عبادة وطاعة، وبالتالي كان النذر أيضًا عبادةً وطاعة.

❑ **ثانيا**: قوله سبحانه ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾؛ ولازم ذلك المجازاة، يعني إذا كان الله عَزَّوَجَلَّ يعلم هذه الأعمال، فاللازم من هذا العلم أن يجازيَ عليه؛ فمن نذر لله عَزَّوَجَلَّ جازاه الله سبحانه من فضله، وإن نذر الإنسان لغير الله عَزَّوَجَلَّ فإنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يجازيه بعدله؛ لأنه يكون قد أشرك مع الله عَزَّوَجَلَّ فاستحق العقوبة، فدل هذا إذًا على أن النذر عبادة إن فُعلت لله عَزَّوَجَلَّ كانت توحيدًا ، وإن فُعلت لغيره كانت شركًا[١٩٧].

والنذر لغير الله شأن المشركين قديمًا وحديثًا، فكان المشركون قديمًا ينذِرون لأصنامهم، والمشركون حديثا أيضا ينذِرون لآلهتهم ومعبوداتهم وأوثانهم؛ وهذا جليٌّ واضح لمن عرف حال القبوريين المشركين الذين يحرصون أشد الحرص إن نزلت بهم النوازل أو طمحت نفوسهم إلى ما يرجون، فإنَّه أبلغ الأشياء عندهم في تحقيق ما يرجون أو دفع ما يخشون أنهم يَعْمَدُون إلى قبور الأولياء والصالحين؛ فينذرون لأصحابها ويتنادون فيما بينهم: "قبر فلان يقبل النذر"، "إذا كان عندك مريض أو أردت قضاء دين فليس عليك إلا أن تعمد إلى الولي الفلاني إلى سيدي فلان، اذهب إليه فإن قبره يقبل النذر،

(١٩٧) **ثالثًا**: من تعظيم الله ﷻ لشأن النذر، وهذا السياق بيِّنٌ فيه فإنه قد قال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾، فيدلّ على أنه عبادة.

وقل بقلبٍ خالص توجهتَ به لصاحب القبر، قل له: يا سيدي فلان نذر عليّ لك إن حصل كذا أن أُوقِد الشموع حول قبرك، أو أذبح شاةً سمينة لك".

وربما يجعله كما جعله المشركون الأولون سببًا للشفاعة والتقريب إلى الله، فيقول له: "يا سيدي فلان إن شفى الله مريضي فلك عليّ أن أفعل لك كذا وكذا"، يريد أن يكون بتقربه إليه سببًا في أن يشفع له عند الله، فيقضي الله له الحاجات كحال المشركين الأولين.

ولربما زاد بعضهم على ذلك فاعتقد أن الولي هو الذي يفعل؛ "إن قضيت لي كذا فنذرٌ لك عليّ أن آتي إلى قبرك من مكان بعيد مشيًا على الأقدام"، فهذا ولا شك لا يشك من شم للإسلام رائحة أنَّه شركٌ أكبر وأنه صرف خالص حق الله لغيره.

فحذارِ من هذا الأمر فإنك إن نذرت فالله يعلم نذرك وسيجازيك على فعلك، والله المستعان.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وَفِي «الصَّحِيحِ» عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللهَ فَلْيُطِعْهُ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اللهَ فَلَا يَعْصِهِ»)**.

قال: (**وَفِي الصَّحِيحِ**)؛ يعني: في صحيح البخاري، فقد تفرد بإخراجه البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا. وهذا الحديث أصلٌ في الباب: «**مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللهَ فَلْيُطِعْهُ**»؛ (**فَلْيُطِعْهُ**) هذه الصيغة تدل على وجوب الوفاء بالنذر إن كان المنذور طاعةً لله، وعليه؛ فمن نذر طاعة لله فإنَّه واجبٌ عليه أن يوفي بهذا النذر، وهذا من عجيب الأمور، يقول الخطابي في شرحه على صحيح البخاري

عن باب النذر: «إنه بابٌ غريب في العلم، وهو أن يكون الشيء منهيًا عنه، فإذا وقع وقع واجبًا»، وهذا فعلا شيء غريب في مسائل الشريعة أن ابتداء النذر منهيٌ عنه، والوفاء به واجب.

الشاهد: أنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أوجب في هذا الحديث على من نذر طاعةً لله عَزَّوَجَلَّ أن يوفيَ بها، وهذا دليلٌ على أنَّ الله يحب هذا الفعل؛ لأنَّ الأمر الشرعي في الشريعة لا يكون إلا لواجبٍ أو مستحب، وما العبادة إلا الواجبات والمستحبات. إذًا هذا دليلٌ على أن النذر عبادة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وبالتالي كان النذر لغير الله شركا.

وبالتالي حذارِ يا أيها المسلم ويا أيتها المسلمة، حذارِ من النذر، فكم من الناس من نذروا فلم يوفوا! تأتي أسئلة كثيرة أنَّ المرأة -وهذا كثيرٌ في النساء- أنها تنذُر إن أُصيب ابنها أنه إن شفاه الله عَزَّوَجَلَّ أن تصوم يومًا وتفطر يوما، وهذا شيء قد مر بي وسمعته من بعض السائلين، ثم إذا حصل الذي رجته وبدأت الصوم صبرت على هذا أسبوعًا أو أسبوعين، أو شهرًا أو شهرين، ثم قالت: الأمر أصبح عليّ صعبا! فيا أمة الله ويا عبد الله؛ ما الذي ألجأك إلى هذا الأمر الضيق، لِمَ؟ لِمَ تُلزم نفسك شيئا ما ألزمك الله عَزَّوَجَلَّ به؟

والحديث واضح وصريح: « **مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللهَ فَلْيُطِعْهُ** »، ليس هناك حل، متى كنت قادرًا على فعل الذي نذرته، أما مع العجز فلا يكلف الله نفسا إلا وسعها. والمسألة مسألة دين كل إنسانٍ أدرى بنفسه، والإنسان يُدَيَّنُ بينه وبين

الله جَلَّوَعَلَا إن كان يستطيع أو لا يستطيع، لكن متى كان الإنسان يستطيع الصوم وكان قد نذر الصوم فعليه أن يوفيَ بهذا النذر: « **مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللهَ فَلْيُطِعْهُ**».

إذًا كان الأولى بالإنسان ألا يقع في هذا الأمر الذي يحرجه، فهو إن فعل وجد في نفسه من الصعوبة والتعب ما وجد، وإن ترك ذلك وقع في معصية الله عَزَّوَجَلَّ، ولهذا خذ بوصية الرؤوف الرحيم بأمته صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الذي نهاك -يا عبد الله ويا أمة الله- عن النذر، وأخبرنا أنه لا يقدم شيئا ولا يؤخر شيئا.

قال: « **وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اللهَ فَلَا يَعْصِهِ** »، ليس لك يا عبد الله إن نذرت شيئا فيه معصية لله عَزَّوَجَلَّ أن تفعل، فالنذر أولًا للمعصية محرم، والوفاء به محرمٌ آخر؛ وبالتالي فلا يجوز بالإجماع أن يفي الإنسان بالمعصية التي نذرها، أو بالنذر الذي فيه معصية.

ويبقى بعد ذلك مسألةٌ محل بحثها في كتب الفقه وفي دروس الفقه وهي: هل يُلزمُ بكفارة؟ أو أنه يتوب إلى الله عَزَّوَجَلَّ من هذا النذر ولا يلزمه شيء؟ في المسألة قولان عند أهل العلم:

- والجمهور على أنه لا يلزمه شيء إلا أن يتوب إلى الله من ذلك، لأنه قال: «**وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اللهَ فَلَا يَعْصِهِ**»، ولم يزِد على هذا صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.
- والمشهور في مذهب الإمام أحمد واختاره جماعة من السلف، أنه يلزمه مع تركه الوفاء بالنذر أن يكفر كفارة يمين، لما جاء عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنه قال: «لا نذر في معصية، وكفارته كفارة يمين»؛ وهذا الحديث له طرق، وفيه بحث طويل من جهة ثبوته؛ ضعَّفه جمعٌ من أهل العلم، بل قال النووي: (اتفق

العلماء على ضعفه وعلى عدم الأخذ به)، لكنَّ كلامه فيه نظر، فمن أهل العلم من صحح هذا الحديث، هذا الحديث صححه الطحاوي، واحتج به الإمام أحمد، وصححه أيضًا غير واحدٍ، ومنهم الشيخ ناصر الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

على كل حال لا شك أنَّ الأحوط والأبرأ للذمة أنَّ الإنسان إن نذر معصية فالأحوط في حقه أن يكفِّر كفارة يمين.

والله تعالى أعلم.



قال المصنف رحمه الله:

١٣-بَابٌ

مِنَ الشِّرْكِ الاسْتِعَاذَةُ بِغَيْرِ اللهِ

وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦].

وَعَنْ خَوْلَةَ بِنْتِ حَكِيمٍ رضي الله عنهما قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا فَقَالَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ؛ لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْحَلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَٰلِكَ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.



قال الشارح وفقه الله:

عقد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بابًا جديدًا في بيان أحدِ الأعمال والعقائد التي تضادُّ التوحيد وبها يُعرف التوحيد، لن تعرف التوحيد حتى تعرف ما يضادُه. وهذا الذي جرى عليه المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ من النَّصيحة للمسلمين ومن محبة الخير لهم؛ أنه يبين ويبلِّغ ويفصِح عن حقيقة التوحيد وعمَّا يضاده، وهذا شأن المسلم ولاسيما العالِم أنَّه يحب الخير لنفسه ويحب الخير لإخوانه، ويسعى في أن ينجو، ويسعى أيضًا في أن ينجو إخوانه، فجزى الله المؤلف وإخوانه من العلماء عنا خير الجزاء.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ (**بابٌ من الشرك الاستعاذة بغير الله**)؛ الاستعاذة: طلب العوذ والعياذ. هما مصدران للفعل عاذ يعوذ، كما تقول: صام يصوم صومًا وصيامًا، كذلك عاذ يعوذ عوذًا وعياذًا، والألف والسين والتاء هي على الأصل الغالب للطلب.

فالاستعاذة: طلب العوذ أو طلب العياذ. والعوذ والعياذ هو: الالتجاءُ والتحصن والتحرز والاعتصام. وعليه فالاستعاذة: طلب التحرز والتحصن والالتجاء(١٩٨).

والأصل في هذا الباب أنَّ استعاذة المسلم إنما تكون بالله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ ؛ وذلك أنَّ الله سبحانه هو الذي بيده ملكوت كل شيء، وهو الذي يدبر كل شيء، وهو الذي على كل شيء قدير، وعليه؛ فهو القادر سبحانه على أن يُنجِّيَ الإنسان مما يخاف منه، فالله جَلَّوَعَلَا هو الرب الذي يربي العباد والذي يدبر شؤونهم، فلمن يكون اللجوء إن لم يكن إليه؟! والله عَزَّوَجَلَّ هو الملك والمالك لعباده جَلَّوَعَلَا، والعباد كلهم عبيدٌ مملوكون له، فإلى أين يهربون ويلجؤون إن لم يكن لمالكهم سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ!! كما أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ هو الإله الحق الذي يألهه العباد والذي يفتقرون إليه سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ من حيث كونه مولاهم ومحبوبهم ومعبودهم

---

(١٩٨) ويُقابل هذا العياذ أو العوذ: اللّياذ؛ العياذ يُستعمل في طلب دفع الشر، واللّياذ في طلب جلب الخير.

يامَن أَلوذُ به فيما أُؤَمّلُه ومَن أَعوذُ بِهِ فيما أُحاذرُه

فالعياذ في طلب دفع الشر، واللياذ في طلب جلب الخير.

جَلَّوَعَلَا ؛ هو الذي يرجونه، وهو الذي يطلبونه، وهو الذي يقصدونه، فبمن يلجؤون وإلى من يعوذون إذا لم يكن ذلك بإلههم سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ !! .

إذًا لما كان الله جَلَّوَعَلَا هو الرب، الإله، الملك جلَّ في علاه استحق أن يكون مَعَاذَ المسلمين، فالاستعاذة إذًا عبادةٌ يتقرب بها المسلم إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

ووجه كونها عبادة من جهتين:

❑ **أولاً**: من **جهة الأمر بها في كتاب الله جَلَّوَعَلَا وفي سنة نبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ**؛ ألم يقل الله سبحانه: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾[الفلق:١]، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾[الناس:١]، ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللهِ﴾[الأعراف:٢٠٠]، إلى غير ذلك من النصوص التي فيها الأمر بالاستعاذة بالله **جَلَّوَعَلَا**، وقد مر معنا في دروسٍ سابقة أن الأمر الشرعي يدل على أن المأمور عبادة؛ لأن الله **عَزَّوَجَلَّ** لا يأمر شرعًا إلا بما يحب، وما أحبه سبحانه ورضيهُ لعباده هو العبادة، أليست العبادةُ اسمًا جامعًا لكلِ ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال؟ إذًا الاستعاذة بالله عبادة.

❑ **وأمر ثانٍ: أن الاستعاذة هي طلب العوذ، والطلب هو الدعاء والاستغاثة،** وبالتالي فالاستعاذة نوعٌ من أنواع الدعاء، هكذا قرر علماء التوحيد؛ أن الاستعاذة نوع من أنواع الدعاء، **وذلك لأن الاستعاذة فيها طرفان:**

-**الأول**: الطلب؛ وهو الجهة الظاهرة، يكون في الاستعاذةِ سؤال وطلب ودعاء، ففيها جانبٌ ظاهر هو هذا الجانب.

-**الثاني**: جانب آخر باطن وهو لجوء القلب وركونه وطمأنينته بمن استعاذ، وهذا جانبٌ باطن.

الشاهد: أنَّ الاستعاذة فيها طلب وفيها سؤال وفيها دعاء؛ وعليه فأدلة الدعاء تشمل بعمومها الاستعاذة، وبالتالي فتكون الاستعاذة عبادةً لله جَلَّوَعَلَا. وعليه؛ فمتى ما كانت الاستعاذة عبادةً فإنَّ صرفها لغير الله شرك، وهذا الذي أراد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن ينبه في هذا الباب عليه، قال: (**من الشرك الاستعاذة بغيرِ الله تعالى**): «من» تبعيضية؛ من أنواع الشرك أن يستعيذ الإنسان بغير الله جَلَّوَعَلَا.

والمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أورد في هذا الباب آيةً وحديثًا يدلان على أنَّ الاستعاذةَ عبادة، وأنَّ التوجه بهذه العبادة لغير الله منكرٌ عظيم بل هو شركٌ بالله سبحانه .

لكن تنبه هنا يا رعاك الله إلى أنَّ علماء التوحيد يطلقون أن الاستعاذة بغير الله شرك؛ هذا في مقام الإطلاق والإجمال والتحذير. وأمَّا في مقام التفصيل والتحرير فإن هذا المقام فيه تفصيل، وذلك أن الاستعاذة بغير الله جَلَّوَعَلَا الأصل فيها أنها شركٌ أكبر، وقد تكونُ شركًا أصغر، وقد تكون جائزة.

أما كون الاستعاذة بغير الله شركًا أكبر فذلك يكون في الأحوال الآتية:

أولاً: أن تكونَ الاستعاذةُ الباطنةُ بغير الله ؛ اقترن بها الاستعاذة الظاهرة أو لم يقترن، متى ما كان المعوَّل في اللجوء والاعتصام والتحرز وركون القلب على غيرِ الله جَلَّ وَعَلَا كان هذا ولا شك شركًا أكبر (١٩٩).

ثانيًا: أن تكون الاستعاذةُ بالظاهر بميت سواءً اقترن بها التعلق القلبي أو لم يقترن، لو اقترن بها التعلق القلبي فإنَّ هذا ضلالٌ فوق ضلال، وشركٌ فوق شرك، فمتى ما استعاذ الإنسانُ بميت، جاء إلى قبر ميت وقال: "يا سيدي فلان أعوذ بك من العدو الفلاني، أو أعوذ بك من النار"، أو غير ذلك مما الميت قادرٌ عليه لو كان حيًا أو مما لا يقدر عليه، وذلك لأننا قد علِمنا أن الاستعاذةَ من جنس الدعاء وإن كان بينهما فارقٌ دقيق لعله يأتي التنبيهُ على ذلك إن شاء الله؛ الاستعاذةُ تجوزُ بصفةِ الله(٢٠٠)، وأما الدعاءُ فلا يجوزُ أن يتوجه إلى الصفة إنما يتوجه إلى الموصوف. الشاهد أن الاستعاذةَ ثانيًا إذا كانت بميت -ظاهرةً أو باطنة أو ظاهرةً فقط- فإنها شركٌ أكبر.

---

(١٩٩) وهذا مِمَّا يُنزَّل عليه قول المؤلّف رَحِمَهُ اللهُ (مِنَ الشِّرْكِ الاسْتِعَاذَةُ بِغَيْرِ اللهِ) ، ويُنزَّل عليه إطلاق كثير من أهل العلم: أن الاستعاذة بغير الله شرك.

(٢٠٠) كما في قوله ﷺ: «أعوذُ برضاكَ من سخطكَ»، وفي قوله في الحديث الآتي: «أعوذ بكلماتِ الله التَّامات».

ثالثًا: أن تكون الاستعاذة الظاهرة بغائب اقترن بها التعلق القلبي أو لم يقترن، كأن يقول إنسانٌ مخاطبًا وليًا بعيدًا عنه في بلدةٍ أخرى يقول: "يا سيدي فلان أنت معاذي، بك أعوذ"، فإن هذا لا شك أنه شركٌ أكبر.

رابعًا: أن تكون الاستعاذة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله؛ لو أتى إنسان ولو إلى شخصٍ حاضر فقال له: "أعذني من النار، أعوذ بك من النار"؛ فإن هذا لا شك أنه شركٌ أكبر؛ لأن الذي يُعَوِّذ الإنسان ويعيذه من النار إنما هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

إذًا هذه أحوالٌ أربع تكون فيها الاستعاذةُ شركًا أكبر:

-أن تكون الاستعاذة القلبية معلقة بغير الله.

-أو أن تكون معلقةً بميت.

-أو أن تكون معلقةً بغائب.

-أو أن تكون فيما لا يقدر عليه إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

القسم الثاني: أن تكون الاستعاذة شركًا أصغر؛ وهذا يكون في حالتين:

-**الأولى**: أن يقع التفاتٌ قلبيٌ عند الإنسان بغيرِ الله؛ نعم يعتمد على الله ويركن بقلبه إليه ويجعل محترزه الذي يحترز به هو جنابه جَلَّوَعَلَا، ولكن هناك شعبة من التعلق القلبي بغير الله؛ وهذا شركٌ أصغر.

-**الحال الثانية**: أن يكونَ في الاستعاذةِ تسويةُ غيرِ اللهِ باللهِ في اللفظ، كأن يقول: "أعوذ بالله وبك"، أو "أنت معاذي والله، أو الله معاذي وأنت" ونحو ذلك مما فيه تسويةٌ بين الله عَزَّوَجَلَّ والمخلوق في اللفظ؛ فهذا أيضًا شركٌ أصغر من جنس قول القائل: (ما شاء الله وشئت).

❁ **القسم الثالث: أن تكون الاستعاذة بغير الله جائزة**؛ وضابط ذلك: أن تكون الاستعاذة بالظاهر بحيٍ حاضرٍ قادر، انتبه لهذا الضابط فإنه يجمع أمورًا.

أن تكون الاستعاذة بالظاهر لا بالباطن؛ القلب معتمد على الله لا غير، إنما هناك طلبٌ تلفظٌ سؤالٌ في الظاهر فقط، تعوذٌ بالظاهر **بحيٍ** لا ميت، **حاضر** لا غائب، **قادر**: يعني ما تطلبه -ما ترجو أن يُعيذَك هذا المخلوقُ فيه- أن يكون شيئًا مما هو في مقدور البشر في الجملة، لا أن يكون فيما لا يقدر عليه إلا الله، فمتى اجتمعت هذه الأمور كانت الاستعاذة جائزة .

قد يقول قائل ما الدليل على ما ذكرت؟

الجواب: دلت أدلةٌ من السنة على جواز ما ذكرت، خذ منها:

أولاً: ما ثبت عند الإمام أحمد في المسند بسندٍ حسنٍ أن صفية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا **بعثت** طعامًا إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو في بيت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، تقول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا :«فأخذتني رِعدةٌ حتى استقلني أفْكَل»؛ يعني أصابتها رِعدة واضطراب من عظيم ما نابها من الغيرة، تقول: «فضربت الطعام فانكسرت القصعة، فنظر إليَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فعرفت في وجهه الغضب»، فقالت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «أعوذ برسول الله أن يلعنني اليوم». لو تأملت يا رعاك الله وجدت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا استعاذت بسؤال

ظاهر ، بحي وهو النبي ﷺ ، وهو حاضر عندها، وكان ذلك في أمرٍ يقدر عليه وهو ألا يلعنها، وهذا أمرٌ مقدور له ﷺ ، ولم ينكر عليها النبي ﷺ ذلك.

ثانيًا: ثبت في صحيح مسلم من حديث أبي مسعودٍ البدري رضي الله عنه: «أنه كان يضرب غلامًا له، فقال الغلام: «أعوذ بالله» فلم يزل يضربه، ثم قال وقد أبصر النبيَّ ﷺ -كما جاء مصرحًا به عند عبد الرزاق في المصنف- قال: «أعوذ برسول الله»، فتوقف أبو مسعود ، فقال النبي ﷺ: «لله أقدر عليك منك عليه». الشاهد أن هذا الغلام قال: «أعوذ برسول الله»، فدل ذلك على أن الاستعاذة بالمخلوق الحي القادر أنها أمرٌ جائز، وهذا الحديث إنما كان بمحضر النبي ﷺ -كما ذكرت لك- هذا الغلام رأى النبي ﷺ، وجاء عند مسلمٍ أيضًا أن النبي ﷺ كان ينادي أبا مسعود من خلفه ويقول: «اعلم أبا مسعود»، وأبو مسعود رضي الله عنه من شدة غضبه ما كان يسمع النبي ﷺ، فكرر عليه النبي ﷺ: «اعلم أبا مسعود»، فبالتالي هذا الرجل حينما قال: «أعوذ برسول الله» استعاذ بمن؟ برجلٍ حاضرٍ يراه.

ثالثًا: ما ثبت في صحيح مسلمٍ أيضًا أن المخزومية التي سرقت وجيء بها إلى النبي ﷺ، جاء عند مسلم: «فعاذت بأم سلمة رضي الله عنها»؛ أم سلمة مخزومية مثلها، فعاذت بها: يعني لجأت إليها، طلبت منها أن تشفع لها عند رسول الله ﷺ أن لا يقام عليها الحد، فقال النبي ﷺ: «والله لو كانت

فاطمة لقطعت يدها». الشاهد أن هذه المرأة ماذا فعلت؟! عاذت بأم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فعاذت بإنسان حي حاضر قادر.

رابعًا: ما ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذكر الفتن فقال: «ستكون فتنٌ القاعد فيها خير من القائم... » إلى أن قال: «فمن وجد معاذًا أو ملجًأ فليعذ به» يعني: ليتحصن وليحترز به.

هذه أدلة تدلك -يا رعاك الله- على أنَّ الاستعاذة متى ما كانت بحيٍ حاضرٍ قادر ولم يكن فيها تعلق قلبي أنها حينئذ تكون أمرًا جائزًا [٢٠١].

هذا تفصيل ما يتعلق بهذا الموضوع. والله تعالى أعلم.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (**وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾** [الجن: ٦]).

هذه الآيةُ من سورة الجِن فيها بيانُ شيءٍ مما كان الجِنُّ قبل إسلامهم يفعلونه مما هو مضادٌ للتوحيد؛ وذلك أنَّ هؤلاءِ النفر من الجِنّ لمَّا أسلموا عدَّدوا أشياء كانوا يقعون فيها قبل الإسلام، من ذلك أنهم قالوا: ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى

---

(٢٠١) بقي التنبيه على بعض الألفاظ المتعلّقة بهذا الموضوع؛ إذا قال الإنسان في حال كون الاستعاذة بالمخلوق جائزة: "أعوذ بالله ثم بك" كان كلامه صحيحًا، وإذا قال: "أعوذ بك"، كان كلامه أيضًا صحيحًا، وإذا قال:" أعوذ بالله وبك" نقول: هذا وقع في شرك الألْفاظ التي فيها تسوية بين الله وخلقه، وهذا من جُملة الشرك الأصغر، كقول: (ما شاء الله وشئت) وما شاكل ذلك مِمَّا سيأتي الكلام عنه لاحقًا في هذا الكتاب إن شاء الله، فينبغي أن يُلاحظ في هذا الباب هذه الأحكام وهذه التفصيلات.

جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلا وَلَدًا﴾[الجن:٣]، ومن ذلك أنهم قالوا: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللهِ شَطَطًا﴾[الجن:٤]، ومن ذلك: ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللهُ أَحَدًا﴾[الجن:٧]، ومن ذلك: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾[الجن:٦].

هذه الآية فيها قولان لأهل التفسير:

القول الأول: ﴿**فَزَادُوهُمْ**﴾: يعني زاد الجِنُّ الإنسَ رهقًا.

والقول الثاني: ﴿**فَزَادُوهُمْ رَهَقًا**﴾ أي: زاد الإنسُ الجِنَّ رهقًا.

والآية تحتمل المعنيين.

أما على الأول؛ وهو أنَّ الجِن زادت الإنس رهقًا، **فالرهق هاهنا فيه قولان:**

الأول: زادوهم خوفًا ورعبًا وذعرًا.

والثاني: زادوهم إثمًا، **ووجه ذلك:** أنَّ تفسير الآية كما رُويَّ عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما من السلف رضوان الله عليهم؛ أنَّه كان أهل الجاهلية من المشركين يستعيذون من الجِن فكان أحدهم إذا نزل في سفر بمكان قفر قال: "أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه"، فلما رأى الجِن أن الإنس يخافونهم ويتوجسون منهم زادوهم خوفًا ورعبًا، وهذا عقوبة يُعاقبهم الله ﷻ بها على شِركهم، سَّلط هؤلاء الجِن على هؤلاء المشركين فزادوهم خوفًا. أو أنهم زُيِّن لهم فعلهم فازدادوا وأوغلوا في الشِرك، فازدادوا إثمًا.

والتفسير الثاني: أن الإنس هم الذين زادوا الجِن رهقًا، ومعنى رهقًا هنا: يعني طغيانًا وتعاليًا؛ وذلك: أنهم رأوا أن الإنس يخافونهم ويرتعدون منهم، فزادهم هذا عُتوًا وتجبرًا وطغيانًا.

والآية -كما ذكرت- تحتمل المعنيين.

الشاهد أن هذه الآية دلَّتنا على أنَّ من فِعل المشركين الاستعاذةُ بغير الله، وذلك أنهم كانوا يستعيذون بغائب؛ وذلكم هو الجِن، فإن الجِن في حق الإنسان غائبون، لا يراهم ولا يدركهم الإنسان، وبالتالي فإن الاستعاذة بهم شركٌ بالله جَلَّوَعَلَا ، وهذا كان شأن أهل الجاهلية؛ فدلَّ هذا على أن ما قرره المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ صحيح، فالاستعاذة بغير الله شِرك.

ومن هذا ما يفعله بعض الذين قلَّ حظهم من الإيمان والتوحيد، أو عُدِموا هذا الحظ في هذا الزمان، فإنهم يستعيذون بالجن كثيرًا، يخافونهم إذا ساروا في الليل أو نزلوا مكانًا قفرًا أو حلُّوا بمنزلٍ جديد، فإنك تجدهم يستعيذون بالجِن، وربما لَبِسوا وألْبَسُوا شيئًا من التمائم التي تحتوي على استعاذاتٍ شِركية بهؤلاء الجِن، فهؤلاء فعلوا ما كان يفعله سلفهم من المشركين الأولين؛ أنهم كانوا يستعيذون بغير الله جَلَّوَعَلَا، فهذا مما ينبغي أن يحذَرَه المسلم.

وكون الجِني قد يستجِرُّ المسلم بشي، ربما لو دعاه أو استعاذه في شيء فحصل له مطلوبه، ربما أوقعه ذلك في فتنة، فظنَّ أن ذلك يحقق المطلوب، وأنه لو استعاذ الإنسان بغير الله، أو لجأ إلى غير الله، أو استغاث بغير الله أنَّ هذا جائز، بدليل أنه حصلت الفائدة وحصل المطلوب، ولا شك أنَّ هذا أمر باطل،

وعلى المسلم أن يتنبه، **فالقاعدة عند أهل العلم هي: أن حصول المقصود لا يدل على الجواز ولا المشروعية**؛ فقد يحصل الأمر من الشيء الذي يطلبه الإنسان بقدَر اللهجَلَّوَعَلَا وبقضائه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وإن كان السبب محذورًا، فحصول الشيء المطلوب لا يدل على أن السبب مشروع، فالإنسان قد يستعمل السحر فيحصل على مطلوبه، قد يسرق فيحصل على مطلوبه، قد يقتل فيحصل على مطلوبه، أفهذا دليل على أنَّ القتل والسرقة والسحر حلال؟ لا. إذًا حصول المطلوب لا يدل على الجواز والمشروعية، بل هذا من الفتنة التي يُعاقب الله عَزَّوَجَلَّ بها من تعلقت قلوبهم بغير الله عَزَّوَجَلَّ.

استمتاع الجِني بالإنسي، والعكس صحيح ثابت لا شك فيه، قالجَلَّوَعَلَا: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾[الأنعام:١٢٨]، استمتاع الجنيِّ بالإنسيّ هو: أنه يحصل له تعظيم، ويحصل له طلب وسؤال وتفخيم من شأنه من قِبل الإنسيّ، وهذا يستمتع به الجنيِّ. والعكس صحيح، يستمتع الإنسيّ بالجنيِّ، فالجِنيُّ قد يلبي للإنسي شيئًا من حاجته، وقد حقق له شيئًا من مطلوبه، ولكن هذا وذاك لا يدل على أنَّ هذا الأمرَ مشروع، فعلى الإنسان أن يتنبه لهذا الأمر، وكم ترِدُ هذه الشُبهة على بعض الجُهَّال، والمطلوب أن يكون عند الإنسان فِقهٌ في الشريعة، الواقعات ليست دليلًا على المشروعية، والله عَزَّوَجَلَّ أعلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وَعَنْ خَوْلَةَ بِنْتِ حَكِيمٍ** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا **قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ** ﷺ **يَقُولُ: «مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا فَقَالَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ؛ لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْحَلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَٰلِكَ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ**).

هذا حديثُ خَولة بنت حكيم السُلمية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، كانت فاضلةً صالحة، وكانت تحت عثمان بن مظعون رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، حدَّثَت عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذكرٍ أخبر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن «**من نزل منزلًا**»: يعني حلَّ بمكان، أيَ منزلٍ كان، فإن هذا الحديث يدل بعمومه على أنَّه إن نزل في مكانٍ في الحضر أو نزل في مكانٍ في السفر حصل له هذا الأمر، وهو أنه إذا قال: «**أَعُوذُ بِكَلِمات اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ**»، فإنه لا يضره شيء بإذن الله الكوني حتى يقوم من هذا المكان.

لكن تنبه أنَّه لابد أن يجتمع ويتواطأ القلبُ مع اللسان عند هذا الذكر، أما أن يقول الإنسان ذلك بلسانه وقلبه غافل، أو قلبه غير مستيقن، فلا شك أنه لا يحصل له المقصود. فإذا نزلتَ بمكان فعليك أن تحرص على هذا الذكر، وهو أن تقول: «**أَعُوذُ بِكَلِمات اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ**» (٢٠٢).

وهذا الذِكر جاء أيضًا عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أذكار المساء؛ جاء في صحيح مسلم، كما جاء في مسلمٍ أيضًا أن رجلًا من أصحاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبره أنَّه ما

---

(٢٠٢) يُشرع للإنسان أن يقول إذا نزل منزلًا هذا الدعاء، ومَن قال ذلك بصدقٍ ويقين وإخلاص فإن وعد الله عَزَّ وَجَلَّ لا يتخلّف، لن يضره شيءٌ، وإذا حصل وأصاب الإنسان شيء وقد قال هذا الدعاء فليرجع إلى نفسه، فإنَّ الخللَ إنما هو عائدٌ إليه، وأمَّا وعد الله عَزَّ وَجَلَّ فإنه لا يُخلَف.

نام ليلته، وذلك أن عقربًا لدغته، فقال له النبي ﷺ: «أَمَا إِنَّكَ لَوْ قُلْتَ حِينَ أَمْسَيْت أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، لَمْ يَضُرُّكَ شَيء»؛ يعني لم يضره شيءٌ من أذى هذه العقارب والحيات وأمثالها.

وجاء عند أحمد وغيره بإسناد صحيح أن النبي ﷺ قال: «مَن قَالَ حِينَ يُمسِي، أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، لَمْ يُصِيبْهُ حُمَة إلى أن يُصبِح»؛ حُمة يعني: لم يُصبه شيءٌ من ذوات السموم.

جاء في بعض الأحاديث هذا الذكر يقال مرة، وجاء في بعض الأحاديث هذا الذِكر ثلاث مرات؛ فيقولها الإنسان حين يُمسي ثلاث مرات. أما ذِكر النزول في مكان ما كما هو في هذا الحديث فإنما جاء ذكره مرةً واحدة.

الشاهد أنَّ النبي ﷺ بيَّن لنا أن الاستعاذة هاهنا إنما كانت بالله جَلَّ وَعَلَا وهذا هو التوحيد، وخلافه شِرك، المسلم يقول: (أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ)، والذي يُعيذك -يا عبد الله- من شر المخلوقات، إنما هو الله جَلَّ وَعَلَا؛ إذًا الإيمان يقتضي أن تستعيذ بهذا الرب العظيم القدير سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فإذا كان ذلك كذلك كان الاستعاذة بغير الله من شر ما خلق شِركًا بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

هذا الحديث فيه فوائد:

- **أولًا**: أنَّ الاستعاذةَ بصفات الله استعاذةٌ بالله في الحقيقة، كما قال هذا شيخ الإسلام وغيره؛ وذلك أنَّ هذه الصفات إنما تقوم بالله **جَلَّ وَعَلَا** ، فإذا ذُكرت في مقام الاستعاذة كان المقصود الاستعاذة بالله **جَلَّ وَعَلَا**.

وقد يُعَبَّر بالصفة والحكم عائدٌ للذات، يعني حينما يقول الإنسان "إنني أرجو وجه الله بهذا العمل"، أو "عليك أن ترجوَ وجه الله عَزَّوَجَلَّ" ما المقصود؟ أنك ترجو الله جَلَّوَعَلَا، لأن الله هو الموصوف بالوجه، كذلك إذا استعذت بكلمات الله فإنَّ الاستعاذة عادت في الحقيقة إلى الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّ الكلمات لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فالله عَزَّوَجَلَّ هو الذي يتكلم، والكلام من صفاته سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ (٢٠٣).

❑ **ثانيًّا: أن كلمات الله تنقسم إلى قسمين:**

١. كلمات شرعية.

٢. كلمات كونية.

---

(٢٠٣) وهذا الحديث فيه إثبات الاستعاذة بصفات الله ﷻ ، وهذا -كما أسلفت- أمرٌ مشروع، فجاء الاستعاذة بالكلمات، وجاء الاستعاذة برضا الله ﷻ من سخطه؛ «أعوذ برضاك من سخطك»، وجاء أيضًا الاستعاذة بغير ذلك من صفات الله ﷻ كما في الحديث الذي فيه ضعف «أعوذ بنور وجهك»، وغير ذلك مِمَّا جاء في الاستعاذة بصفات الله ﷻ. وهذا -كما أسلفت- أمرٌ جائز ومشروع، والأمر كما قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الاستعاذة بصفة الله استعاذة به في الحقيقة؛ فكون الإنسان يعتصم ويحترز بصفة لله ﷻ جعلَ فيها الحماية وشرَع الاحتماء بها هذا أمرٌ لا إشكال فيه بلا رَيب، بعكس الدعاء الذي فيه قصْدٌ وتوجهٌ إلى من يسمع ويُجيب ويَقدِر، وهذا لا يكون إلا الموصوف بالصفات وهو الله ﷻ وليس الصفة، وبالتالي فالقاعدة: أنَّ الاستعاذة بالصفة جائزة كالقسم، وأمَّا الدعاء فلا يكون إلا بالله ﷻ.

أما الشرعية: فمنها وحي الله عَزَّوَجَلَّ الذي يُنْزِله على أنبيائه ورسله، ومنه هذا القرآن، ومنه: التوراة، والإنجيل، والزبور، إلى غير ذلك.

وأما كلمات الله الكونية: فهي الكلمات التي بها سبحانه يخلق، وبها يُدبر، وبها يأمر كونًا، وبها ينهى كونًا، ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[النحل:٤٠].

وما كلمات الله في هذا الحديث؟ يعني ما الكلمات التي استعاذ بها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أهي كلماته الشرعية والكونية كما قالت طائفة؟ أو هي الكلمات الشرعية كما قالت طائفة؟ أو هي الكلمات الكونية كما قالت طائفة؟

الأقرب والله أعلم أنَّ ما استعاذ به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو كلمات الله الكونية، وهذا الذي حققه شيخُ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في مواضع من كتبه، وكذلك تلميذه ابن القيم في «شفاء العليل»؛ لأنَّ التأثير في الكونيات راجعٌ إلى كلمات الله الكونية، ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[النحل:٤٠]، فكل ما في هذا الكون فإنه خاضعٌ لتدبير الله عَزَّوَجَلَّ الذي يكون بكلماته الكونية، فكلمات الله الكونية هي التي لا يجاوزها بَرٌّ ولا فاجر، فهذا هو الأقرب والله تعالى أعلم.

قال: (**من قال: «أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ»**)؛ التامات: يعني الكاملات التي لا نقص فيهنَّ ولا عيب بوجهٍ من الوجوه، فكلام الله عَزَّوَجَلَّ كلامٌ كامل لا يعتريه نقص كما يعتري كلام الآدميين، إنما كلمات الله عَزَّوَجَلَّ هي الكلمات الكاملات من كل وجه، كما أنها هي الشافيات الكافيات.

(أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ)؛ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ: يعني من شر كل ما فيه شر مما خلق ؛ وذلك أنَّ المخلوقات فيها خيرٌ وشرٌ، إلا ما كان خيرًا محضًا؛ كالأنبياء والملائكة فإنهم لا شر فيهم، أما بقية الناس وبقية البشر فإن فيهم خيرًا وشرًا، وقد يزيد الخير، وقد يزيد الشر. وليس المقصود أعوذ بكلمات الله التامات من شر كل مخلوق، لوجود استثناء وهو أن من مخلوقات الله ما لا شر فيه.

أيضًا تنبه -رعاك الله- إلى أنَّ الشر هاهنا هو الراجع إلى مخلوق الله ومفعوله، لا إلى خلقه وفعله، وذلك أن الشر ليس إلى الله جَلَّوَعَلَا ، ليس إلى ذاته، وليس إلى صفاته، وليس إلى فعله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، إنما يكون الشر في مفعوله وفي مخلوقه.

إذًا تنبه -رعاك الله- إلى هذا الأمر الدقيق، فإبليس مثلًا شر، ومن الذي خلقه؟ الله جَلَّوَعَلَا. الشر رجع إلى مخلوق الله، ومفعوله المنفصل عنه، أما فعل الله الذي قام به الذي هو الصفة -صفة الخلق- فإنها خيرٌ محض، لا شر فيها بوجهٍ من الوجوه. خَلْقُ الله لإبليس خير، والمخلوق الذي هو إبليس شر؛ بمعنى: إبليس من حيث هو شر، وفيه شر، أما خلق الله عَزَّوَجَلَّ له فإن هذا خيرٌ محض ومصلحة كاملة، لأنه ترتب على وجود إبليس خير، فكان فعل الله عَزَّوَجَلَّ خيرًا ومحمودًا، فلما وُجد إبليس وُجد أشياءُ كثيرة مما يحبها الله جَلَّوَعَلَا ، وُجدت التوبة، وُجد الجهاد، وُجدت المجاهدة، وُجد شيءٌ كثير مما يحبه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ،

فكان إيجاد الله وخلق الله لإبليس خيرًا، وإن كان إبليس الذي هو المخلوق شرًا.

إذًا تنبه إلى هذه الإلماحة ومحلها مباحث القدر، لكن هذا فقط إيجازٌ يتعلق بهذه المسألة لمناسبة هذا الحديث لهذا الموضوع. إذًا الذي فيه الشر ليس هو صفة الله، وليس هو خلق الله الذي هو فِعله، إنما الشر في مفعوله ومخلوقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.



قال المصنف رحمه الله:

١٤-بَابٌ
مِنَ الشِّرْكِ أَنْ يَسْتَغِيثَ بِغَيْرِ اللهِ أَوْ يَدْعُوَ غَيْرَهُ

وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ * وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ [يونس: ١٠٦-١٠٧].

وَقَوْلِهِ: ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ﴾ [العنكبوت: ١٧] الآيَةَ.

وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [الأحقاف: ٥] الآيَتَيْنِ.

وَقَوْلِهِ: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل: ٦٢] الآيَةَ.

وَرَوَى الطَّبَرَانِيُّ بِإِسْنَادِهِ...؛ أَنَّهُ كَانَ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ مُنَافِقٌ يُؤْذِي الـمُؤْمِنِينَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: قُومُوا بِنَا نَسْتَغِيثُ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ هَٰذَا الـمُنَافِقِ؛ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّهُ لَا يُسْتَغَاثُ بِي، وَإِنَّمَا يُسْتَغَاثُ باللهِ ﷻ».



قال الشارح وفقه الله:

يقول المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**بَابٌ مِنَ الشِّرْكِ أَنْ يَسْتَغِيثَ بِغَيْرِ اللهِ أَوْ يَدْعُوَ غَيْرَهُ**)؛ هذا الباب بابٌ مهمٌ بل في غاية الأهمية، وذلك أنَّ هذا النوع من الشرك -وهو دعاءُ غير الله- أعظمُ شركٍ للمتقدمين وأكثر شركٍ للمتأخرين، بل

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنه أصل شرك العالم»(٢٠٤)، وصدق رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ولذلك نجد أن الأدلة التي جاءت في النهي عن دعاء غير الله أعظم بكثير من الأدلة التي نهت عن السجود لغير الله، أو الركوع لغير الله، أو الذبح لغير الله.

هذا النوع من الشرك فيه من الخطورة والانتشار والشُبَه ما فيه، حيث إنَّ من الناس من يتورع عن أن يذبح لغير الله، أو يسجد لغير الله، لكنَّه لا يتورع عن أن يدعو غير الله! شأن هذا الموضوع شأنٌ عظيم، وعلى طالب العلم بل على المسلم أن يعتنيَ به؛ لكثره الانحراف في هذا الموضوع، ولكثرة الشبَه التي يطرحها المشركون.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (مِنَ الشِّرْكِ)؛ «من» كما علمنا سابقًا تبعيضيه، يعني: من أنواع الشرك أن يستغيث بغير الله.

الاستغاثة: طلب الغوث؛ الألف والسين والتاء للطلب.

والغوث: هو إزالة الشدة، وبالتالي **فالاستغاثة: طلب إزالة الشدة.**

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أَوْ يَدْعُوَ غَيْرَهُ)؛ **الدعاء في اللغة: هو الطلب،** وخُص في العرف بطلب الأدنى من الأعلى.

أمرٌ معَ اسْتعلاء وضدّه دُعا   وفي التَّساوي فالْتماسٌ وقَعَا

(٢٠٤) وهذه القضية قضية إجماعيةٌ لا شكَّ فيها، وقد نقل الإجماع على ذلك كثير من أهل العلم من المذاهب الأربعة ومن غيرها؛ أن من جعل بينه وبين الله وسائط يدعوهم ويسألهم فقد كفر وخرج من ملّة الإسلام، وهذا من الإجماع المعلوم من دين الله بالضرورة.

فدعاء الأدنى للأعلى، أو طلب الأدنى من الأعلى، هذا في العرف يسمى: دعاءً.

والعلاقة بين الدعاء والاستغاثة: العموم والخصوص المطلق؛ فكل استغاثة دعاء، وليس كل دعاء استغاثة؛ ذلك: أن الاستغاثة دعاءٌ مخصوص وهو الدعاء من المكروب، من كان في كرب وشدة فإن دعاءه يسمى «استغاثة»، وأما «الدعاء» فقد يكون من مكروب وقد يكون من غيره.

إذًا هذه العلاقة بين الدعاء والاستغاثة، وبالتالي فإنَّ عطف المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ الدعاء على الاستغاثة هو من باب عطف العام على الخاص، كما جاء هذا في نحو قول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا واعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾[الحج:٧٧] (٢٠٥).

الدعاء تكاثرت الأدلة على وجوب إخلاصه لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَادْعُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[غافر:١٤]، وهذا هو ديدن وشأن أهل التوحيد: ﴿لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إذًا شَطَطًا﴾[الكهف:١٤]، إذا نزلت النوازل وادلهمَّت الخطوب على الموحد الصادق في إيمانه، فإنه لا يلجأ إلا لله العظيم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[الأنبياء:٨٣]، نادى ربه ما نادى غيره، ما نادى شجرًا، ولا حجرًا، ولا وليًا، ولا نبيًا، ولا ملكًا، ولا جنيًا، نادى

---

(٢٠٥) بيَّن المؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ من الشرك أن يُستغاث بغير الله وأن يُدعى غير الله عَزَّ وَجَلَّ، وهذه القضية هي مِمَّا لا شكَّ فيه ولا ريب، والإجماع القطعي من دين الله عَزَّ وَجَلَّ والدلائل المتكاثرة من الكتاب والسُّنَّة كلّها دالة على أنَّ دعاء غير الله شركٌ أكبر مخرِجٌ من الملّة، وإذا لم يكن دعاء غير الله شركًا فليس في الأرض شرك.

ربه، هذا هو التوحيد، بل هذا لبُّ التوحيد، هذا لبُّ العبادة، ومن توجَّه بهذه العبادة العظيمة التي هي أعظم العبادات وأفضلها لغير الله جَلَّوَعَلَا فإنَّه يكون قد وقع في الشرك العظيم، أشرك مع الله وكفر بالله، وإذا لم يكن هذا شركًا فليس على وجه الأرض، إذا لم يكن دعاء غير الله شركًا فليس على وجه الأرض شرك.

ولو تأملت -يا رعاك الله- كتاب الله وسنة نبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لوجدت الأدلة متضافرة على الأمر بدعاء الله وحده، وعلى النهي عن دعاء غيره، وعلى وصف دعاء غير الله بأنه ضلال، بل شرك وكفر، والأدلة في هذا بالعشرات، لا أقول هذا مبالغة، بل الأمر كما أقول وأكثر.

دل على ما ذكرتُ لك من الأمر بالدعاء لله وحده والنهي عن دعاء غيره ووصف دعاء غيره بالضلال والشرك والكفر مجموعاتٌ من الأدلة، خذ -يا رعاك الله- منها طرفًا:

أولًا: الأدلة التي فيها وصف دعاء غير الله بأنَّه شرك وكفر باللفظ الصريح الواضح.

ثانيًا: الأدلة التي فيها إثبات أن الدعاء عبادة، وإذا ثبت أنه عبادة كان صرفه لغير الله شركًا.

ثالثًا: الأدلة التي فيها وصف الدعاء بأنه من الدين، والدين والعبادة بمعنى، فصار صرفه لغير الله شركًا.

رابعًا: الأدلة التي فيها وصف دعاء غير الله بأنه ظلم، وهذا هو الظلم الأكبر: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[لقمان:١٣].

خامسًا: الأدلة التي فيها وصف دعاء غير الله بأنه شطط؛ مبالغة في الضلال والبطلان والكذب.

سادسًا: الأدلة التي فيها وصف دعاء غير الله بأنه ضلال.

سابعًا: الأدلة التي فيها التوعد بالهلاك والعذاب لمن دعا غير الله.

ثامنًا: الأدلة التي فيها الأمر بدعاء الله وحده.

تاسعًا: الأدلة التي فيها النهي عن دعاء غير الله.

عاشرًا: الأدلة التي فيها إثبات أن الله عَزَّوَجَلَّ هو الجدير بالدعاء، وهو الحقيق بالدعاء، وهو الذي لا يليق الدعاء بغيره.

عشرة أنواع من الأدلة تحت كل نوع ما شاء الله من الأدلة. دعونا نأخذها نوعًا نوعًا:

۞ أولًا: الأدلة التي فيها أن دعاء غير الله شرك وكفر.

تأمل -يا رعاك الله- واسمع بقلبٍ طالبٍ للحق يقول الله جَلَّوَعَلَا: **﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾**[المؤمنون:١١٧] إذًا من دعا غير الله عَزَّوَجَلَّ فإنه يكون قد كفر بنص كتاب الله.

تأمل قول الله جَلَّوَعَلَا: **﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾**[فاطر:١٣]،هذا الوصف ينطبق على من -يا أيها الكرام-؟ من الذي ينطبق عليه وصف: ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾؟ من الذي له الـمُلك الحقيقي، والذي

له المِلك الحقيقي؟ أليس هو الله عَزَّوَجَلَّ؟! إذًا هذا وصفٌ ينطبق على كل ما سوى الله جَلَّوَعَلَا، ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ * إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾[فاطر:١٣-١٤]. إذًا أشركتم مع الله إن دعوتم غيره.

تأمل قول الله جَلَّوَعَلَا : ﴿**لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ**﴾[الرعد:١٤]، تخيل إنسان واقف أمام الوادي يمد يديه، هل سيصل إلى الماء؟ يشرب؟ لو جلس مائة سنة لن ينتفع، ﴿**وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ**﴾ يعني لن ينتفع بهذا الدعاء، سبحان الله! ضلال وكفر وشرك مع عدم نفع!! ثم قال: ﴿**وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ**﴾، ما هو دعاء الكافرين؟ أهو دعاء الله وحده؟ أو دعاء غير الله مع الله؟ دعاء غير الله مع الله، وصَفَه الله بأنه دعاء المسلمين؟ وصفه بأنه دعاء المؤمنين؟ لا والله! وصفه بأنه دعاء الكافرين.

تأمل قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿**قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا**﴾[الجن:٢٠]، ما المقابل لأن يدعو الله وحده؟ أن يدعو معه غيره، وهذا ما وصفه الله بقوله ﴿**وَلا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا**﴾، إذًا هو شرك.

تأمل قول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿**فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ**﴾[العنكبوت:٦٥]، إذا ركبوا في السفينة وهاجت بهم وأصبحوا في كرب ما هو الدين الذي يُخلصه المشركون؟ بكل وضوح هو الدعاء، يدعون الله؛ يا الله يا الله فقط: ﴿**فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ**

﴿إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾[العنكبوت:٦٥]، يشركون في ماذا؟ في الذي أخلصوه قبل قليل وهو الدعاء، إذًا دعاء غير الله شرك(٢٠٦).

۞ **ثانيًا: أدلةٌ تدل على أن الدعاء عبادة**، وإذا ثبت أنَّ الدعاء عبادة كان صرفه لغير الله شركًا، وإلا فما هو الشرك! إذا لم يكن التوجه بالعبادة لغير الله هو الشرك ما هو الشرك؟!

تأمل قول الله جَلَّوَعَلَا عن إبراهيم عَلَيْهِالسَّلَامُ في سورة مريم: ﴿**وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ**﴾[مريم:٤٨]، في هذه الآية ثلاث مرات ذِكر للدعاء: ﴿**وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا**﴾، ثم في الآية الثانية ماذا قال؟ ﴿**فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ**﴾[مريم:٤٩]،إذًا هذه الآية تفسيرها الآية التي قبلها. ما هي العبادة؟ الدعاء، ما هو الدعاء؟ هو العبادة، آية تفسر الأخرى.

تأمل قول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿**وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ*وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ**﴾[الأحقاف:٦]، ما هي هذه العبادة؟ ما ذُكر قبل قليل وهو الدعاء. أخرج الترمذي والإمام أحمد من حديث النعمان ابن بشير رَضِيَاللَّهُعَنْهُ أنَّ النبي صَلَّىاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «الدعاء هو العبادة»، ثم تلا قول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿**وَقَالَ رَبُّكُمُ**

(٢٠٦) ومن ذلك قول الله ﷻ: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ * بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام:٤٠-٤١].

ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[غافر:٦٠]. والحديث حديث صحيح، صححه الترمذي والنووي والسخاوي والألباني(٢٠٧)، وقال ابن حجر: (إسناده جيد).

أترون لفظًا أصرح وأوضح من هذا الحديث فيه إثبات أن الدعاء عبادة؟ أيُّ لفظ أصرح من هذا اللفظ؟ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول بكلام عربي مبين: «**الدعاء هو العبادة**»، ليس (مخ العبادة) ،حديث أنس (مخ العبادة) فيه ابن لهيعة وهو ضعيف، لكن هذا أوضح وأدل، «**الدعاء هو العبادة**»؛ يعني أفضل أنواع العبادة، فسر هذا ما أخرجه الحاكم في إسناد حسن عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا موقوف عليه، قال: «أفضل العبادة هو الدعاء»، ثم تلا قول الله تعالى: ﴿**وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ**﴾ الآية.

إذًا ثبت عندنا بالدليل القطعي أن الدعاء عبادة، إذًا من دعا غير الله أشرك، قاعدة مضطردة في الشريعة .

۞ **ثالثًا: الأدلة التي فيه أن الدعاء من الدين أو أنه دين**؛ وهذا وجه الدلالة فيه كوجه الدلالة السابقة، فالدين والعبادة شيء واحد: ﴿**فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ**﴾[العنكبوت:٦٥]، يعني: مخلصين له الدعاء هذا الذي يخلصونه في السفينة، إذًا من صرف هذا الدين لغير الله فقد أشرك.

---

(٢٠٧) صحَّحَه الترمذي والحاكم والنووي والسخاوي والألباني، وجوَّد إسناده الحافظ ابن حجر وغيرهم من أهل العلم.

﴿﴾ **رابعًا: الأدلة التي فيها إثبات أن دعاء غير الله ظلم؛ ﴿وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾**[يونس:١٠٦]، الله أكبر، نهيٌّ من الله، لا تدعُ من دون الله من لا ينفعك ولا يضرك، والسؤال: هذا الوصف ينطبق على من؟

ما رأيكم في الأصنام ينطبق عليها؟ لا تنفع ولا تضر؟ نعم.

ما رأيكم في الأشجار والأحجار ينطبق عليها؟ نعم.

ما رأيكم بالأولياء والصالحين، والأنبياء، والملائكة والجن أينطبق عليها هذا الوصف أيضًا أم لا؟

إي والذي نفسي بيده ؛ لا أحد يملك النفع والضار إلا الله جَلَّوَعَلَا، ألم نسمع قول النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في حديث ابن عباس «واعلم» فعل أمر؛ اعلم يا عبد الله، هذا أمر مهم لابد من أن تعلمه؛ «وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ»، إذًا الأمر كله من الله وإلى الله. (اعلم أن الأمة) ليس صالحًا ولا وليًا ولا اثنان ، بل كل الأولياء، وكل الأنبياء وكل الصالحين، وكل الملائكة، وكل الجن، لو اجتمعوا على أن يوصِلوا لك شيئًا من النفع والله لا يستطيعون ، إلا إذا جعلهم الله مجرد سبب، واسطة، وسيلة فقط لإيصال النفع إليك، لكن النفع في الحقيقة إنما كان ممن يملكه وهو الله جَلَّوَعَلَا.

إذًا ﴿ولا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ﴾ حذار من ذلك، لأنك لو فعلت ذلك ما النتيجة؟ ﴿فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ، والظلم هاهنا بدلالة الأدلة الأخرى هو الظلم الأكبر، يعني الكفر؛ ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[لقمان:١٣](٢٠٨).

خامسًا: الأدلة التي فيها وصف دعاء غير الله بأنه شطط؛ ماذا قال مسلموا الجن؟ ﴿لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾[الكهف:١٤]، قال أهل العلم: أي قولًا بالغًا في الكذب والبطلان. هذا الدعاء لغير الله باطلٌ أشد البطلان، وكذبٌ أشد الكذب.

سادسًا: الأدلة التي فيها وصف دعاء غير الله بأنه ضلال؛ ﴿يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَا لا يَضُرُّهُ وَمَا لا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ﴾ ، انظر حكم الله العليم الحكيم الخبير سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ﴾ فقط الضلال؟ لا، بل و﴿الْبَعِيدُ﴾ أيضًا، ﴿ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ﴾[الحج:١٢]، ليس ضلالًا هينًا ولا ضلالًا قريبًا ولا ضلالًا يسيرًا، إنما والله ضلال بعيد، فجور عظيم، خيبة كبرى أن يدعو الإنسان غير الله، إنا لله وإنا إليه راجعون!

عجيبٌ شأن بعض الناس يلجأ إلى الأموات ويترك ربَّ الأرض والسموات، يا لله العجب! يدعو ميتًا ربما تقطعت أوصاله وتفتت عظامه لا يملك لنفسه شيئًا رهين قبره، ويَدَعُ من بيده ملكوت كل شيء! من يدبر الأمر

---

(٢٠٨) ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة:٢٥٤].

وهو على كل شيء قدير، يالله العجب! أي ضلال هذا، والله إنه لضلال وصدق الله «بعيد».

قال جَلَّوَعَلَا: ﴿**وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ**﴾[الأحقاف:٥]، الجواب: لا أحد، هذا أضل الضالين، وأظلم الظالمين، وأخبث الخبثاء، لا أحد أضل من هذا الإنسان الذي يَدَعُ دعاء الله وحده ويلجأ إلى غيره، ويستغيث بسواه، ويستجير باسم من عداه.

۞**سابعًا: الأدلة التي توعد الله فيها من دعا غيره بالعذابِ والهلاك؛** ﴿**فَلا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ**﴾[الشعراء:٢١٣]، حذارِ؛ الله يتوعدك بالعذاب. قال جَلَّوَعَلَا: ﴿**وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ**﴾[المؤمنون:١١٧]، الله العظيم الجبار الذي ينتقم من أعدائه ينتقم من المجرمين، يقول: حسابه عندي أنا سأتولاه. ما ظنك بهذا الحساب؟ ما نتيجته؟ هل هناك وعيد أشد من هذا الوعيد؟ حينما يقول الله العليم سبحانه: هذا حسابه عندي، إذًا يا ويله، ويا خسارته ويا خيبته.

قال النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فيما خرَّج الإمام البخاري من حديث ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «**من مات وهو يدعو من دون الله ندًا دخل النار**»؛ هذا كلام الذي لا ينطق عن الهوى صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ، هذا كلام الصادق المصدوق والله إنه لحق، من مات وهو يدعو من دون الله ندًا؛ النتيجة: دخل النار.

۞ **ثامنًا: الأدلة التي فيها الأمر من الله الذي يملكك والذي هو ربك وإلهك؛ يأمرك أن تدعوه ولا تدعو غيره،** قال جَلَّوَعَلَا: ﴿**قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلا**

أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾[الجن:٢٠]، ﴿**فَادْعُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ**﴾[غافر:١٤]، هذا أمر من الله قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما عند الترمذي بإسناد صحيح «**إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ**»؛ (اسأل) فعل أمر، إذًا يجب عليك إذا أردت السؤال أن تتوجه بالسؤال لمن؟ لله وحده، «**وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ**».

۞ **تاسعًا: الأدلة التي فيها النهي عن دعاء غير الله جل وعلا**؛ وهذه كثيرة مرت معنا طائفة منها: ﴿**فَلا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ**﴾[الشعراء:٢١٣]، ﴿**وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا**﴾[الجن:١٨]، في أدلة كثيرة، فيها نهي الله عن أن يُدعى معه غيره.

تأمل في قوله: ﴿**وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا**﴾؛ (أحدًا) نكرة في سياق النهي، والقاعدة عند الأصوليين: أن النكرة في سياق النهي تعم، وبالتالي كلمة «أحد» هاهنا المنفية يستثنى منها أحد؟ لا يستثنى منها أحد، ﴿**فَلا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا**﴾، جاءت الآية بإضافة بعد ذلك إلا الأولياء؟ جاءت إلا الأنبياء؟ إلا الجن والملائكة؟ لا والله، ﴿**فَلا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا**﴾؛ حكم فصل لا يقبل الاستثناء، عموم محفوظ شامل لكل الأفراد، والأفراد هنا: هم كلُّ من سوى الله جَلَّ وَعَلَا ، من صغير وكبير، من صالح وطالح، ومن إنس وجن، من حي وميت، كل أحد داخل في قوله تعالى: ﴿**فَلا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا**﴾.

۞ **عاشرًا: أدلة فيها إثبات أن الله هو الجدير بالدعاء، وهو الحقيق أن يُدعى**، لأنه وحده هو الذي يملك إجابة الدعاء، تأمل قول الله جَلَّ وَعَلَا : ﴿**أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ**﴾[النمل:٦٢]، بالله عليكم تعلمون أحدًا

سوى الله ينطبق عليه هذا الوصف؟ أتعلمون أحدًا يجيب المضطر إذا دعاءه ويكشف السوء؟! إذًا كيف يدعى غيره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؟! إذًا الله عَزَّوَجَلَّ هو الذي يستحق أن يُدعى لأنه هو الذي يقدر على الإجابة، وبالتالي فدعاء غيره لا فائدة منه؛ لأنه لا يملك الإجابة هو مملوك نفسه، هو بحاجة إلى أن يتولاه الله عَزَّوَجَلَّ فكيف يجيبك وكيف يكشف عنك السوء؟!

قال جل وعلا: ﴿**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ**﴾، «إني»: هو الله لا غيره، ﴿**أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ**﴾[البقرة:١٨٦]، إذًا الله جَلَّوَعَلَا هو القريب لكل من دعاه وهو القادر على الإجابة، إذًا لِمَ يروم بعض الناس أن يدعو غير الله؟ أيطلب من هو قريب مثل الله؟ مجيب مثل الله؟ أيوجد يا عباد الله؟ والله ما يوجد، هو الله وحده لا شريك له.

تأملتَ يا رعاك الله! هذا نزرٌ يسير من الأدلة التي جاءت في هذا الباب، وإلا لو تأملت كتاب الله وسنة نبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لوجدت مثلها وأضعافها، ولا أقول والله هذا مبالغة، تركت جملة من الأدلة سوى هذه رغبةً في الاختصار.

إذًا عشرةٌ كاملة -وربما أكثر أيضًا- من الأنواع كلها متظافرة على إثبات أن الدعاء حق لله من صرفه لغيره فقد اعتدى على حق الله، وقع في أمر عظيم، فإذا كان الأمر كذلك فإن هؤلاء الذين يلهجون بدعاء غير الله ظلموا أنفسهم، نصبوا العداء لأنفسهم ، إي والله إنه لعدو نفسه الذي يوقِع نفسه في هذه المهلكة ويعرِّض نفسه إلى حفرة سحيقة في النار.

احذر يا عبد الله ولا تغتر بكثرة المشركين الذين يزيِّنون الشرك بغير الله عَزَّوَجَلَّ في الدعاء، **فإن كل دليل يخالف هذا الأصل الأصيل لا يخلو أن يكون أحد أمرين**: إما دليل غير صحيح، وإما استدلال غير صحيح. مستحيل أن يوجد شيء يخالف هذا الأصل يخرج عن هذين:

إما دليل غير صحيح؛ يأتيك فيقول: لا بأس ادعُ غير الله لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «إذا أعيتكم الأمور فعليكم بأصحاب القبور»، هكذا يقولون، وهذا الكلام مكذوبٌ مفترى على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قبَّح الله من افتراه، والله ما قاله النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا يوجد في شيء من كتب الحديث.

أو تجد استدلالًا غير صحيح؛ يأتي يقول: كيف تنكر دعاء غير الله، والله جل وعلا يقول: ﴿**فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ**﴾[القصص:١٥] !

يا لله العجب! أنا أعجب من شأن الهوى، عجيبٌ شأن الهوى في الناس! تُترك عشرات الأدلة وربما أكثر من عشرات الأدلة ويُستمسك بشبهة استدلال ﴿**فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ**﴾!!

يا عبد الله؛ خف ربك اتقِ الله، أين هذه الآية مما نحن فيه؟! هذه الآية فيها طلبٌ من حيٍ حاضرٍ قادر، وليس هذا ما نبحث فيه، هذا استدلال في غير محل النزاع، نحن نتحدث عن أولئك الذين يدعون الأموات، الذين يهتفون باسم الغائبين، الذين يطلبون من غير الله ما لا يقدرُ عليه إلا الله، أين هذا من قوله: ﴿**فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ**﴾؟! أهذا هو الذي حصل فيه

الخلاف بين أهل التوحيد وأهل الشرك؟ لا والله، ما هو إلا إتباع الهوى، لكن ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللهِ شَيْئًا﴾[المائدة:٤١].

عجيب! والله إن تأمل الإنسان حال بعض الناس؛ ينتسبون إلى الإسلام ولربما عندهم سبحة طويلة يجلسون يقولون في اليوم مائة أو ألف "لا إله إلا الله.. لا إله إلا الله.. لا إله إلا الله"، لكنهم مع الأسف الشديد يقعون في دعاء غير الله عند الصغير وعند الكبير، عند الأمر المهم وغير المهم، ربما لو سقط كوب من يد أحدهم قال: "يا سيدي فلان"، وهذا والله كثير في كلامهم ونثرهم وشِعرهم، بل أعظم ما يكونون شركًا -وهذا حال المتأخرين- إذا نزلت النوازل.

وهذا يدلك حقًا وصدقًا على أن مشركي زماننا أغلظ شركًا من شرك الأولين، الأولون إذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين، ﴿وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[يونس:٢٢]، أما هؤلاء إذا نزلت النوازل ما يعرفون الله، يخلصون -إن صحت العبارة- الشرك، يعني: لا يقولون إلا الشرك.

مر معنا في دروس سابقة -إن كنتم تذكرون- ما وقع لأحد العلماء لما كان مع بعض الناس في سفينة فهاجت بهم فصاروا يصيحون "ادعوا غير الله، يا عمود الدين يا عمود الدين" فلما قال لهم: ادعوا الله همُّوا به حتى كادوا أن يلقوه من السفينة، كيف تقول لا ندعو إلا الله؟ انظر إلى تعظيمهم آلهتهم أكثر من تعظيم الله جَلَّ وَعَلَا!

تذكرون قصة المرأة التي ذكرها الشيخ رشيد رضا حينما كانت تقول: "يا متبولي.. يا متبولي"، قال: لِم لا تدعين الله؟ قالت: "لأن المتبولي لا ينتظر"؛ أو بعبارتها كما ذكرها الرشيد رضا: "المتبول ما يستناش!".

تذكر كلام الألوسي الذي ذكره في تفسيره حينما قال له أحد المعمَّمين: "إذا نزلت بك نازلة فإياك أن تدعو الله" -لا إله إلا الله ما أعظم هذه الكلمة- "إياك أن تدعو الله، فإن الله لا يبالي بك" ، والله يا إخواني في تفسير الألوسي اقرأوها "ولكن عليك بالأولياء فأدعهم، فإنهم يبادرون إلى إجابتك". والله إن هذا ما وقع فيه أبو جهل ولا أبو لهب، أبو جهل وأبو لهب كانوا يقولون: «هؤلاء شفعاؤنا عند الله»، «ما ندعوهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى»، «لبيك لا شريك لك إلا شريكًا هو لك تملكه وما ملك»، أما هؤلاء! لا والله.

شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الرد على البكري ذكر أن التتر لما هجموا على الشام؛ ما كان من هؤلاء الذي ما فهموا الإسلام إلا أن صاحوا: "يا خائفين من التتر لوذوا بقبر أبي عمر"، ليس بالله، لا، لوذوا بقبر أبي عمر، أو قالوا: "عوذوا بقبر أبي عمر ينجيكم من التتر" ، ولذلك حصلت الهزيمة، لكن لما عرفوا التوحيد انتصر المسلمون.

ذكر مرعي الحنبلي في «نزهة النواظر» أنَّ شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان مع الناصر قلاوون الحاكم في ذلك الزمان ، واشتد الأمر لما هجم التتار على المسلمين فصاح: "يا خالد ابن الوليد"، فنهره شيخ الإسلام وقال: «قل يا

مالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين»، يقول: ثم انتصر المسلمون، لما كان التوحيد رجعت القلوب إلى الله.

فيا أيها الإخوة؛ شأن هذا الشرك في الأمة والله كثير، كثير من الناس يقعون فيه، وواجبك يا عبد الله يا من بصَّرك الله بدينه، بتوحيده، بالحق الخالص؛ عليك أن تدعو الله وتبين، كثير من الناس يلهجون لأنه زُيِّن لهم هذا الباطل، هناك شياطين للإنس يزينون للناس هذا الشر والفساد، تجده يلهج، يطرب، يغنِّي ويتغنى، يقول مخاطبًا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

ما سامني الدهر ضيمًا واستجرتُ به إلا ونلت جوار منه لم يضَم

ليس لله إنما لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ!! في أي دهر أصيب بشيء من الضيم يجد أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الذي يجيبه وليس الله. بل وصل الأمر بهم إلى أن يطلبوا من غير الله تثقيل الموازين وغفران الذنوب!! إي والله، يقول أحدهم:

يا رسول الله يا بهجة في الحشر جاهًا ومقامًا

عد على عبد الرحيم الملتجي بحمى عزك يا غوث اليتامى

وأجرني عثرتي يا سيدي في اكتساب الذنب في خمسين عامًا

يطلب غفران الذنوب ممن؟ من النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كلام موجود ومبثوث ويحفظه الناس ويعتقدونه أيضًا.

والآخر يقول مُخاطبًا البدوي:

إني دعوتك يا أبا الفتيان من   خطبٍ أهاج القلب من حسراته

ما يعرف أحد يطلبه في كشف هذه الكربة.

ما لي سواك أرومه في كشفه   أو أرتجي إن ضقتُ من وثباته

عارٌ عليك إذا ترد خويدمًا   قصر الفؤاد عليك في حاجاته

ما يعرف إلا البدوي، الله لا يعرفه أبدًا، ولا يدعوه أبدًا!

وإلى المعاصرين؛ تجد من الناس من يلهج بأبيات مشهورة لمعاصرين لشعراء مشهورين، تجده يقول ويتغنى ويطرب مع أن فيها شركًا بالله عَزَّوَجَلَّ!! مساكين حق الله صرفوه لغيره، تجدهم ينشدون ، يخاطب النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ:

ما جِئتُ بابَكَ مادِحًا بَل داعِيًا   وَمِنَ المَديحِ تَضَرُّعٌ وَدُعاءُ

أَدعوكَ عَن قَومي الضِعافِ لِأَزمَةٍ   في مِثلِها يُلقى عَلَيكَ رَجاءُ

لا يُلقى على الله، يُلقى على من؟ يُلقى على غير الله، إنَّا لله وإنَّا لله راجعون!

فيا أيها الأحبة الأمر عظيم، والمقام خطير، والمسألة ليست متعلقة بدينار أو درهم أو شاة، أو بعير، إنما جنة أو نار، ﴿فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾[الشعراء:٢١٣]، ضع هذه الآية نصب عينيك .

ضابط الدعاء الشركي هو أحد ثلاث صور: [(٢٠٩)]

---

(٢٠٩) لا شكَّ أن ليس كلّ دعاء أو ليس كلّ طلب لغير الله يكون شركًا، بلْ المسألة منضبطة عند أهل العلم بثلاث صور:

١. أن يدعو ميتًا.

٢. أن يدعو حيًا غائبًا.

٣. أن يدعو حيًا حاضرًا فيما لا يقدر عليه إلا الله عَزَّوَجَلَّ.

ووجه كون هذه الصور شركًا:

أولا : أن التوجه بالدعاء في هذه الحالات الثلاث فيه صرف لبِّ العبادة لغير الله وهو الدعاء، وقد تبين لنا بالدليل القطعي أنه عبادة، ناهيك عمَّا يلتحق بذلك من أنواعٍ من العبوديات؛ كالرغبة، والرجاء، والقصد، والتوكل، والتذلل، والخضوع، وما إلى ذلك، كل ذلك يصحب دعاء الداعي فيصرفه إلى هذا

الصورة الأولى: دعاء الميت مُطلقًا، سواءً أكان عند قبره، أو كان بعيدًا عنه، سواءً أطلبه ما كان قادرًا عليه في حياته، أو ما لم يكن قادرًا عليه، وأوْلى من ذلك دعاء الأحجار والأشجار.

الصورة الثانية: دعاء الحي الغائب مطلقًا، سواءً أكان ذلك فيما هو قادر عليه لو كان حاضرًا أو لم يكن الأمر كذلك. ومن هذا الباب يدخل أيضًا دعاء الجنّ والملائكة، لأنهم في حكم الغائب بالنسبة للإنسان.

الصورة الثالثة: دعاء الحي الحاضر فيما لا يقدر عليه إلا الله ﷻ.

هذه الصور هي التي تجمع لك أطراف الشرك في الدعاء، وبناء عليه فيكون طلب أو سؤال شيء من حي حاضر قادر ليس من الشرك، وهذا له نصوص كثيرة ومنها الآية التي يستدل بها هؤلاء المشركون: ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾ [القصص:١٥] .

المدعو[٢١٠] ، وهذه ظلماتٌ بعضها فوق بعض، وهذا ينبهك إلى أنَّ الشرك بالله في الدعاء هو حقًا شركٌ به في الألوهية.

وأمرٌ ثانٍ: وهو أن الدعاء في الحالات السالفة فيه اعتقاد الداعي أن المدعو عنده سلطان غيبي، وعنده قدرةٌ فوق قدرة المخلوقين، وأنه يستطيع أن يوصل النفع أو يدفع الضر لمن يريد دون أن يكون ذلك بالأسباب المعهودة عند البشر، وهذا ما لا يكون إلا من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ، فعاد الشرك في الدعاء إلى الشرك في الربوبية أيضًا.

أضف إلى هذا أمرًا ثالثًا يتعلق بالصورة الأولى والثانية وهي: أن الداعي اعتقد أن عند المدعو سمعًا عامًا وعلمًا شاملًا، بحيث إنه يعلم حال هذا الداعي ويسمع دعاءه، وإلا لما دعاه من مكانٍ بعيد، ولما هتف باسمه مع البُعد، فهذا يدلك أيضًا على أن الشرك في الدعاء يتضمن الشرك في باب الأسماء والصفات.

إذًا يتبين لنا حقًا أن أعظم أنواع الشرك هو الشرك في الدعاء؛ لأنه يشتمل على أنواع الشرك الثلاثة: الشرك في الألوهية، والشرك في الربوبية، وكذلك الشرك في الأسماء والصفات.

ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الباب أربع آياتٍ وحديثًا.

---

(٢١٠) ناهِيكَ عن الثناء واعتقاد الجود والكرم في هذا المدعُو، وهذا كله منافٍ للتوحيد، أهل التوحيد كما قال الله ﷻ عنهم: ﴿إِنَّا إِلَى اللهِ رَاغِبُونَ﴾ [التوبة:٥٩] ، فرغبتهم وقصدهم وتوكلهم واعتمادهم وتذلّلهم وضراعتهم لله ﷻ وحده.

أما الآية الأولى فقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ * وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[يونس: ١٠٦-١٠٧][٢١١].

هذه الآية تدل على أن دعاء غير الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ شركٌ به جَلَّوَعَلَا، وذلك لأن فيها التصريح بأن الله جَلَّوَعَلَا بيده كل شيء، ويدل على هذا قوله: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾، فدل هذا على أن الدعاء حقٌّ لله عَزَّوَجَلَّ لا يجوز صرفه لغيره، وأن دعاء غيره سفَه؛ فإن الداعي لا يدعو إلا لأنه اعتقد أن المدعو ينفعه ويجلب له الخير ويدفع عنه الضر، وإلا لما دعاه، والله جَلَّوَعَلَا

(٢١١) **هذه الآية الأولى التي أوردها المؤلّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تشتمل على عدة فوائد:**

-أولًا: فيها النهي عن دعاء غير الله.

-وثانيًا: فيها فائدة مهمّة وهي النهي عن دعاء كل مدعُو، وذلك أنَّه قال: ﴿مَا لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ﴾، و﴿مَا﴾ هنا تقتضي العموم، وهذا الوصف ينطبق على كل ما سوى الله ﷻ، فإنه لا ينفع ولا يضر على الحقيقة إلا الله ﷻ، وإنما المخلوق إنما يكون سببًا لحصول النفع أو حصول الضر، أمَّا الذي بيده النفع والضر على الحقيقة فهو الله ﷻ. وبناءً عليه؛ فلا فرق بين أن يُدعى نبيٌّ أوليٌّ أو حجرٌ أو شجرٌ من دونِ الله، كلّ ذلك شرك بالله سبحانه، وظلمٌ أكبر مخرج من الملّة -والعياذ بالله-.

-أيضًا من فوائد هذه الآية: أنَّ فيها التنصيص على أن دعاء غير الله من الشرك: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣]، وكما قال ﷻ ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة:٢٥٤]، ﴿فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس:١٠٦] من نفس الجنس.

هو الذي بيده كل شيء، فالله سبحانه هو الذي يُنْعِمُ بالخير، وهو الذي يدفع الشر، وهو الذي يقدِّر الخير، وهو الذي يقدِّر الشر، ﴿**وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ**﴾، إذًا لأي شيءٍ يدعو الداعي غير الله؟ والله هو الذي قدَّر الشر، وهو أيضًا الذي يقدِر على أن يدفعه؛ فتعين إذًا أن يكون الدعاء لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا لغيره.

بهذا يتضح لك أن دعاء غير الله مهما كان المدعو صنمًا أو شجرًا أو حجرًا، أو نبيًا أو وليًا أو ملكًا، كلُّ أولئك دعائهم ضلال وانحراف، ولا ينفع الإنسان في شيء؛ لأنَّ الله جَلَّ وَعَلَا هو المتصرف بكل شيء، ولذلك دعوة غيره ضلال وسفه، قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ ، الدعاءُ الحق إنما هو لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ﴾[الرعد:١٤] ؛ فدلَّ هذا على أن من يدعو غير الله عَزَّ وَجَلَّ قد أفسد دينه وما استفاد شيئًا؛ لأنه يدعو دعاءً لا يعود عليه بالنفع، هذا الذي دعوته مع الله عَزَّ وَجَلَّ ليس بيده شيء، فما الفائدة إذًا أن تدعوه؟! الله جَلَّ وَعَلَا الأمر منه وإليه، وهو الذي بيده مقاليد كل شيء، وهو الذي يدبر الأمر جَلَّ وَعَلَا، وكل ما سواه فإنه لا ينفع ولا يضر، إنما قد تكون المخلوقات أسبابًا يسخرها الله في جلب الخير أو دفع الضر أو العكس، لكن ذلك يدل على أن هؤلاء إنما هم أسباب لا غير، وأن الأمر من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وحده.

والله جَلَّ وَعَلَا بين هذا المعنى في آياتٍ كثيرة، وكذا نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومر معنا قول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

«إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ » ليس نبيًا ولا وليًا، ولا أنبياء ولا أولياء، إنما الأمة جميعًا: « لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ ». إذًا الأمر من الله وإلى الله، فالتوجه له جَلَّوَعَلَا بالدعاء هو المتعين على كل مخلوق.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وَقَوْلِهِ: ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ﴾ [العنكبوت: ١٧]**)[٢١٢].

الآية الثانية قوله تعالى: **﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾**؛ **﴿فَابْتَغُوا﴾** فعل أمر، **والابتغاء**: يعني: أن يُلجأ ويُرجى ويُطلب الرزق، إنما ينبغي أن يكون هذا من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ. ومن الابتغاء الطلب بالدعاء، فيكون طلب الرزق وسؤاله إنما مرجعه إلى الله جَلَّوَعَلَا، **﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللهِ الرِّزْقَ﴾** ، ومعلوم أن أكثر دعاء الداعين إنما هو في شأن الرزق، بل جُلُّ دعاء المشركين الأولين إنما يتعلق بهذا الأمر، فإنهم كانوا يكفرون بالآخرة ولا يؤمنون بالبعث، ولذلك دعاؤهم الذي يتوجهون به لله ولغيره إنما يتعلق بالأمور الدنيوية.

---

(٢١٢) هذه الآية الثانية التي أوردها المؤلّف واردةٌ في سياق مُحاجة إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مع قومه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ [العنكبوت:١٧].

الشاهد أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يقول: ﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللهِ﴾؛ ولاحظ أنه قد قُدِّم هاهنا الظرف، وتقديم الظرف وحقه التأخير يفيد الحصر والاختصاص، كأنه قال: فابتغوا الرزق عند الله لا عند غيره،فالله جَلَّوَعَلَا هو الذي ينبغي أن يُتوجه إليه، وأن يُسأل، وأن يُطلب وحده لا شريك له.

﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللهِ الرِّزْقَ﴾ و«أل» هاهنا لما دخلت على هذه الكلمة المفردة وهي لغير العهد؛ أفادت العموم، فالمفرد المحلى بـ (أل) يفيد العموم، فالرزق أيًا كان هو عند الله جَلَّوَعَلَا ، صغيرًا كان أم كبيرًا، قليلًا كان أم كثيرًا، لا يجوز أن يُطلب إلا من الله جَلَّوَعَلَا، لأنَّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ هو الذي بيده الرزق، ومن الذي يرزق غير الله؟ ﴿وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾[النمل:٦٤]، هذا استفهامٌ إنكاري يفيد إنكار اعتقاد أن يكون الرزق عند غير الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ﴿وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾، فدل هذا على أنَّ الدعاء بالرزق يجب أن يكون لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لا لغيره، وإذا كان ذلك في شأن الرزق، فهو في غيره أيضًا؛ يعني أن لا يُطلب الدعاء إلا من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ؛ في أمور الدنيا أو في أمور الآخرة.

قال:﴿وَاعْبُدُوهُ﴾؛ ووجه العطف هاهنا -عطف العبادة على الابتغاء الذي يتضمن الدعاء- من باب عطف العام على الخاص؛ فإن الابتغاء والدعاء فردٌ من أفراد العبادة، فيكون من باب عطف العام على الخاص، وبالتالي لا ينبغي أن

يُستشكل كون الله جَلَّوَعَلَا ذَكَر العبادة بعد ابتغاء الرزق ؛ فإن هذا -كما ذكرت لك- من باب عطف العام على الخاص(٢١٣) .

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [الأحقاف: ٥] الآيَتَيْنِ).

هذه الآية من أعظم الآيات في الدلالة على أن دعاء غير الله سبحانه شرك، وأنه أمرٌ محرم منهي عنه(٢١٤) ، وأن الدعاء من حيث هو عبادة، **ويدل على هذا وجوه في الآية:**

أولًا: قوله تعالى ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوم ِالْقِيَامَةِ﴾، والاستفهام هاهنا استفهامٌ إنكاري(٢١٥) ، وذلك أدل على النفي من النفي المجرد، فإنَّ النفي المستفاد من الاستفهام الإنكاري مشوبٌ بنوعٍ من

---

(٢١٣) والتنبيه على الرزق هاهُنا هو بالنظر إلى أن كثيرًا من دعاء غير الله ﷻ إنمَّا هو لطلب الرزق، يعني طلب ما ينفع الإنسان في حياته، وهذا جُلُّ دعاء المشركين إنمَّا يدور حوله، معَ أنَّ الرزق إنمَّا هو بيد الله ﷻ، وأمَّا المشركون فليس بيدهم شيء من ذلك: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾؛ إذًا دعائهم وطلب الرزق منهم ما هو إلا سَفَهٌ في العقل.

(٢١٤) وبيان عظيم خطره وشدّة ضلال من فعله.

(٢١٥) وهذا الاستفهام في معنى النفي، يعني: لا أحد، ويقول أهل البلاغة: «إن النفي الذي يرِد في صيغة الاستفهام أبلغ من النفي المجرد»، فأبلغُ مِمَّا لو قِيلَ: لا أحد أضل مِمن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة.

التحدي، من ذا الذي يجرُؤ على أن يقول إن هناك أضل ممن يدعو غير الله، ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوم الْقِيَامَةِ﴾، إذًا هذه الآية تفيد أن أضل الناس هم الذين يدعون غير الله، هذا أعظم درجات الضلال؛ أن يتوجه الإنسان الدعاء وما يصحبه من العبوديات لغير الله جَلَّوَعَلَا ، إذًا هو أعظم أنواع الشرك.

ثانيًا: أن دعاء غير الله ضلال عظيم، بل لا أضل ممن يدعو غير الله؛ ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ ﴾.

ثالثًا: قوله ﴿مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوم الْقِيَامَةِ﴾؛ وهذا فيه ردٌّ على القبوريين الذين يزعمون أنَّ شرك الدعاء إنما هو ما توجه به صاحبه للأصنام والأحجار والأشجار فحسب، أما الأنبياء والصالحون فلا، هكذا يزعمون، هذا هو الشرك الذي كان من المشركين الأولين ولأجل هذا تتنزل الآيات والأدلة عليه.

وليس بصحيح أن عبادة المشركين الأولين إنما تعلقت بالأصنام فقط، بل الذين بُعث فيهم النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منهم من كان يعبدُ شجرًا، ومنهم من كان يعبد حجرًا، ومنهم من كان يعبد جنًا، ومنهم من كان يعبد نبيًا، ومنهم من كان يعبد صالحين، **هذا أولًا**.

وثانيًا: أنه قال هاهنا: ﴿مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ﴾، و «مَنْ» كما يقرر النحاة إنما تستعمل في العاقل، والأسلم أن تقول: فيمن يعلم، وبالتالي الأصنام لا يُقال في حقهم (مَن)، إنما يقال في حقهم (ما)، لكنه قال هاهنا «من» .

قال: ﴿مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَومِ الْقِيَامَةِ﴾؛ **وهذه قرينة أخرى**: جعل الأمر مُغَيًّا إلى يوم القيامة، حيث يبعث الناس يوم القيامة، وهذا يشير إلى أن هذه الآية إنما تعلقت بمن كان حيًا في الدنيا لكنَّه توفي ومات، فهي في شأن دعاء الأموات من الأنبياء والأولياء والصالحين: ﴿مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَومِ الْقِيَامَةِ﴾.

ثم قال: ﴿وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾، وهذه الكلمة (غافلون) إنما تناسب أن تقال في حق الناس والبشر، لا في حق الجمادات، أن يُقال في حقها هذه الشجرة غافلة أو هذا الصنم أو الحجر غافل! هذا لا يتأتى ولا يُعرف في أساليب العرب، إنما الغفلة تتعلق بالناس والأحياء، وهؤلاء الأموات هم في قبورهم أحياءٌ حياة خاصة، هي حياة برزخية ليست من جنس الحياة الدنيوية، لها حقيقةٌ الله أعلم بها، وهم في هذه الحياة غافلون عمن يدعوهم؛ لأنَّهم بين اشتغالٍ بنعيم القبر، أو اشتغالٍ بعذاب القبر فهم عن دعائهم غافلون.

ثم يوم القيامة يكون شأن؛ قال: ﴿ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾[٢١٦].

---

(٢١٦) وهذا إنما يتأتى من الأنبياء ومن الصالحين إذا بُعثوا يوم القيامة، فإنهم يتبرؤون من عابديهم ويكفرون بشركهم، كما قال الله ﷻ عن الملائكة: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ﴾ [سبأ:٤١]، وكما قال عيسى ﵇ ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة:١١٧]، فالصالحون والأنبياء والملائكة والجن من المسلمين كل أولئك سوف يتبرؤوا ويكفروا بعبادة العابدين.

أولًا: قوله ﴿بِعِبَادَتِهِمْ﴾ يدلك على أنَّ الدعاء عبادة، والقاعدة: أن ما ثبت أنه عبادة كان صرفه لغير الله شركًا. إذًا هذا دليلٌ آخر على أن دعاء غير الله شرك.

ثانيًّا: قوله ﴿وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ ؛ هذا يدلك على أن الدعاء في هذه الآية إنما تعلق بالأولياء والصالحين؛ لأنهم هم الذين يتأتى منهم أن يكفروا بعبادة من دعاهم، وبالتالي تعلقت الآية بدعاء الأولياء والصالحين، فأين في هؤلاء الذين يتوجهون إلى القبور وأهلها؟ أين فيهم عقولهم وأين فيهم قلوبهم حتى تعقل هذه البينة الواضحة؟

﴿وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ يعني: أن المدعوين هؤلاء الأولياء والصالحين يوم القيامة سوف يكفرون بهذه العبادة ويبرؤون إلى الله عَزَّوَجَلَّ منها ومن عابديها، ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾[فاطر:١٤]، ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾[مريم:٨١-٨٢]، فدل هذا على أن المدعوين سوف يكفرون بهذه العبادة، ويبرؤون إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى منها يوم القيامة.

والآية تحتمل معنى آخر، وهو قولٌ ثانٍ في الآية: أن هؤلاء الداعين سوف يبرؤون من عبادتهم يوم القيامة، ﴿وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ﴾ يعني: الداعين؛ كانوا بدعائهم هذا وبالعبادة التي توجهوا بها لغير الله وهي هاهنا الدعاء، سوف يكفرون بها ويبرؤون منها، وهذا منهم كذب حيث إنهم سيقولون يوم القيامة: ﴿وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ * انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا

يَفْتَرُونَ﴾[الأنعام:٢٣-٢٤]، فسيكذبون يوم القيامة ويتبرؤون من هذه العبادة.[٢١٧].

وإن كان الوجه الأول هو الأوْلى والأظهر في هذه الآية، والله جَلَّوَعَلَا أعلم.

الشاهد أن هذه الآية دليل صريح على أن الدعاء يجب أن يُصرف لله، وأن دعاء غير الله شركٌ به سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَقَوْلِهِ ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل: ٦٢]).

هذه الآية العظيمة ضمن آياتٍ عظيمات في سورة النمل، من أحسن الآيات وأعظمها في بيان التوحيد ونقض ضده؛[٢١٨] ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[النمل:٥٩][٢١٩].

يقول الله جَلَّوَعَلَا في هذه الآية: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللهِ﴾؛ انظر إلى هذا الاستفهام

---

(٢١٧) والآية يصح أن تُحمل على هذا وعلى هذا:

-﴿وَكَانُوا﴾ أي: العابدين.

-﴿وَكَانُوا﴾ أي: المعبودين.

(٢١٨) التي هي مفتتحة بقول الله ﷻ:

(٢١٩) وهذه الآيات من أعظم الأدلة على أن الله ﷻ هو الذي يجب أن يُوحَّد في العبادة دونما سواه، ووجه الدلالة من تلك الآيات: هو الاستدلال بتوحيد الربوبيّة على توحيد الألوهية.

الإنكاري: ﴿أَإِلَهٌ مَّعَ اللهِ﴾ ، ولاحظ أنَّ «إله» هاهنا نكرة في سياق الاستفهام الاستنكاري، فتعم كل إله، لا إله مع الله البتة ، مهما كان هذا الإله. والإله هو: المعبود، هذا الذي تعرفه العرب في لغتها، فلا معبود مع الله البتة، ولو كان نبيًا، ولو كان وليًا صالحًا، ولو كان من كان لا إله مع الله

﴿أَإِلَهٌ مَّعَ اللهِ﴾ ؛ أنتم تقرون بأن الله عَزَّوَجَلَّ هو الذي يجيب المضطر إذا دعاه، إذًا هذا يدل على أن هذا الدعاء لغير الله سفَهٌ وضلال، فلأي شيءٍ يُدْعى غير الله، وهو -أعني غير الله- لا يملك كشف هذا الضر لماذا يدعى مع الله؟!

﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ﴾[النمل:٦٢] لا أحد يجيب المضطر إذا دعاه البتة إلا الله، فهذا من خصائص الربوبية، والربوبية شيءٌ اختصَّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى به، لا يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء إلا هو سبحانه.

ولذلك تأمل معي في هذه الآيات: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا﴾[النمل:٥٩-٦٠]، ثم قال: ﴿أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾، ثم قال: ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ * أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾[النمل:٦١-٦٢].

لاحظ معي كيف أن الله جَلَّوَعَلَا جعل كونه يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء في السياق نفسه الذي بيَّن فيه أنه هو الذي خلق السماوات

والأرض، وأنه الذي ينزل من السماء ماءً، وأنه هو الذي يجعل الأرض قرارا ويجعل خلالها أنهارًا.. إلى آخره.

إذًا هذا يدل على أن كل ما ذُكر من هذا السياق هو من خصائص الربوبية.

فدل هذا على أنه لا يجوز أن يُجعل لغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ومن اعتقد أن غير الله جَلَّ وَعَلَا يكشف السوء ويجيب المضطر إذا دعاه على أي حال؛ لا شك أن من اعتقد ذلك فقد أشرك في الربوبية، كما أن من دعا غير الله عَزَّ وَجَلَّ فقد أشرك في الألوهية. وهذا دليلٌ بَيِّنٌ كما أسلفت على أن الشرك في الدعاء أعظم أنواع الشرك بالله جَلَّ وَعَلَا.

ويا لله العجب من أولئك القبوريين الذين يزعمون أن معبوديهم يقدرون على كل ما يقدر عليه الله، ويفعلون كل ما يفعله الله، هكذا ينصُّون في كتبهم، فلان من الأنبياء، أو من الأولياء يعلم ما يعلمه الله، ويقدر على ما يقدر عليه الله، ويفعل كل ما يفعله الله، لا فرق عند هؤلاء بين أن تتوجه بدعائك إلى الله أو أن تتوجه إلى غيره، بل إن حالهم يُفصح عن أنهم في الأمور السهلة يدعون الله، لكنهم في الشدائد والصعاب يدعون غير الله، فثقتهم بغير الله أعظم من ثقتهم بالله!!

وهذا يؤكد ما تكرر في دروس سالفة أن شرك المتأخرين أعظم وأغلظ من شرك المتقدمين؛ هؤلاء المتقدمون يخاطبهم الله عَزَّ وَجَلَّ ويلزمهم بما يعتقدون، هم كانوا يعتقدون -أبو جهل، وأبو لهب، وعتبة، وشيبة، وأمية، وأبيَّ- أن الله عَزَّ وَجَلَّ هو الذي يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء، ولذلك ذَكر هذا

الاستفهام التقريري: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ ، ثم يعود عليهم بهذا الاستفهام ﴿أَإِلَهٌ مَّعَ اللهِ﴾، فهذا يدلك على أنهم كانوا يعتقدون أن الذي يكشف السوء هو الله، ولذا كانوا يوحدون في الدعاء عند الشدائد، ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾[العنكبوت:٦٥].

أما المتأخرون فإنهم يُمَحِضُّونَ الشرك، بمعنى: أنهم لا يدعون الله البتة في الشدائد، إنما يدعون هؤلاء الأولياء الذين اعتقدوا فيهم وتوجهوا إليهم، يتوجهون لهم بالدعاء فقط، وينسون الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، فشركهم أغلظ من شرك المتقدمين، كما أن المتقدمين كان شركهم متعلقًا بموضوع الشفاعة، وأن يكون هذا المعبود مقرِّبًا لهذا العابد عند الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى ، لا أنه يرزق ولا أنه يخلق ولا أنه يدبر، كانوا يعتقدون أن هذه من خصائص الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى لا يشرَكه فيها غيره؛ فأين هذه الحال من حال هؤلاء المتأخرين الذين حالهم كما وصفتُ لك، قالوه بلسان حالهم بل بلسان مقالهم، إن هذا الولي وإن هذا النبي يعلم ما يعلمه الله، ويقدر على ما يقدر عليه الله، فشركهم أغلظ من وجوهٍ عدة -نسأل الله السلامة والعافية-.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وَرَوَى الطَّبَرَانِيُّ بِإِسْنَادِهِ؛ أَنَّهُ كَانَ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ مُنَافِقٌ يُؤْذِي الْمُؤْمِنِينَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: قُومُوا بِنَا نَسْتَغِيثُ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ هَذَا الْمُنَافِقِ؛ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : «إِنَّهُ لا يُسْتَغَاثُ بِي، وَإِنَّمَا يُسْتَغَاثُ باللهِ ﷻ»).**

هذا الحديث حديث عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أخرجه الطبراني وأحمد وغيرهما، وهو حديثٌ ضعيف؛ فإنَّه يدور على ابن لهيعة وهو ضعيف على قول جمهور أهل العلم، كما أن في بعض أسانيده جهالة، الراوي عن عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كما عند أحمد مجهول، فالحديث الظاهر والله أعلم أنَّه ضعيف ولا يصح عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولكن إيراد المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ **لهذا الحديث في كتابه جارٍ على جادَّة أهل العلم التي اتفقوا عليها، وهي أنهم يوردون على سبيل الاستشهاد والاعتضاد ما لا يصلح للاعتماد**؛ انتبه لهذه القاعدة، نقل شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في ردِّه على البكري المعروف بكتاب «الاستغاثة»، نص على أن العلماء يورِدون ما يصلح للاستشهاد والاعتضاد، لا ما يصلح للاعتماد، يوردونه على سبيل الاستشهاد والاعتضاد وإن كانوا لا يعتمدون عليه[٢٢٠].

وهذا الحديث أورده المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ بعد أن أورد أدلةً صريحة، والأدلة سوى ما ذكر كثيرة جدًا في الكتاب والسنة، فكان ذلك على سبيل الاعتضاد والاستشهاد، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ : «فما يورد على سبيل الاعتماد نوع،

---

(٢٢٠) وقد أشار إلى ذلك شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ حينما تعرَّض لهذا الحديث، وقد أفاض القول فيه في هذا الكتاب، في الطبعة القديمة تكلَّم عن هذا الحديث وردَّ على شبهات المردود عليه -وهو البكْري- حول هذا الحديث في أكثر من خمسين صفحة من الطبعة القديمة، وذكر فيه: أنَّ دلائل الكتاب والسنة تشهد لهذا الحديث.

وما يورد على سبيل الاستشهاد والاعتضاد نوعٌ آخر»[٢٢١]، فهذا فقط من باب تكثير الأدلة، وذِكر ما يشهد ويَعْضُد ما دلت عليه الأدلة الصحيحة الراسخة، لاسيما وأن هذا الحديث ضعفه يسير؛ ابن لهيعة ليس بشديد الضعف فضلًا عن أن يكون كذابًا، بل كان من أهل العلم، بل كان قاضيًا، لكن حصل له اختلاط، فمثل هذه الرواية التي يرويها لا شك أنها تؤيد وتعضُد ما قامت عليه الأدلة الراسخة في الدلالة على أن دعاء غير الله عَزَّوَجَلَّ شرك.

ولعل حرص المؤلف على إيراد هذا الحديث؛ لأن فيه ذكر كلمةٍ عزيزة في الأدلة وهي: «الاستغاثة»، وفي هذا الحديث فوائد أيضًا كما سيأتي الكلام على ذلك.

وعلى كل حال؛ تتبعُ كتاب التوحيد يدل على أن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ لم يبنِ بابًا على حديثٍ ضعيف قط، إنما -كما ذكرت في الدرس الأول أن- أحاديث هذا الكتاب أحاديثٌ جياد صحاح، إلا أحاديث معدودة نزَّه المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتابه عن حديثٍ موضوع أو متفق على ضعفه.

وأمرٌ آخر: أنه ما بنى كتابه على حديث ضعيف، إنما يورده على سبيل الاستشهاد والاعتضاد، وهذه -كما علِمت- جادةٌ مسلوكة، بل نقل شيخ

---

(٢٢١) قال: «إنَّ العلماء متفقون على أنَّه يُستشهدُ ويُعتضدُ في الدلائل بما لا يصح في الاعتماد من الأحاديث التي فيها ضعْفٌ لسوء حفظ في راوٍ من الرواة أو نحو ذلك، أو من أقوال الصحابة فمن بعدهم، أو حتى من الإسرائيليات، إذا كانت دلائل الكتاب والسُّنَّة الصحيحة تدل على ذلك».

الإسلام اتفاق العلماء عليها، وهي أنهم يوردون مثل هذه الأحاديث التي ضعْفها يسير من باب الاستشهاد، بل قد يورِدون ما ليس بحديث ضعيف، بل ما هو أقل من ذلك. وشيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ تكلم بكلامٍ طويل على هذا الحديث في أكثر من خمسين صفحة في كتابه «الرد على البكري».

الشاهد أنَّ هذا الحديث إن صح فيه أن بعض أصحاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وجاء في بعض الروايات أن القائل هو أبو بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «**قوموا بنا نستغيث برسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وذلك في شأن منافق كان يؤذي المؤمنين**» جاء في رواية ابن أبي حاتم في تفسيره أنه عبد الله بن أبيّ المنافق، فلما ذهبوا إلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لهم: «**إنه لا يستغاث بي إنما يُستغاث بالله**»، فأرشدهم النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى ترك الاستغاثة بالنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -يعني به- وأرشدهم إلى الاستغاثة بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وهذا الكلام منه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيه توجيهان عند أهل العلم:

◄ المؤلف **رَحِمَهُ ٱللَّهُ** وكبار شراح كتاب التوحيد على أنَّ قوله **صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: «**إنه لا يستغاث بي وإنما يستغاث بالله**» كان منه **صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** على سبيل الإرشاد إلى الأكمل، وإلى تحقيق مقام الأدب مع الله، وإلى سد ذريعة الشرك بالله، وإلا فطلبهم إنما كان بشيءٍ يقدر عليه النبي **صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، فهو حيٌّ قادر على أن يدفع أذى هذا المنافق بقتلٍ أو تعزيرٍ أو تأديب، فمع كونه قادرًا على ذلك لكنه أرشدهم إلى الأكمل والأفضل والقول المحقِّق لمقام الأدب مع الله،

وهو أنهم يستغيثون بالله جَلَّوَعَلَا ، يجعلون كل رغبتهم إلى الله: ﴿إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾[القلم:٣٢] (٢٢٢).

وبناء على هذا يتضح لنا وجه الجمع بين هذا الحديث إن صح، مع قول الله جَلَّوَعَلَا : ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾[القصص:١٥]، وكذلك ما ثبت في الصحيح من استغاثة الناس يوم القيامة بالأنبياء آدم فنوح إلى آخره؛ فتلك النصوص تدل على أنه يجوز الاستغاثة بالحي الحاضر القادر، وأنَّ ترك ذلك أكمل كما يفيده هذا الحديث إن صح (٢٢٣).

الوجه الثاني في توجيه الحديث: وهو ما نحى إليه شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٢٢٤)؛ هو أنهم استغاثوا بالنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في شيءٍ لم يكن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قادرًا على أن يجيبهم إليه، فبالتالي وجَّههم إلى أن يستغيثوا بالله جَلَّوَعَلَا، نبههم إلى أن لا يستغيثوا به ، إنما يجعلوا استغاثتهم بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وذلك:

---

(٢٢٢) وفيه فائدة مهمة وهي: أنَّه إذا كان الاستغاثة بالنبي ﷺ وهو حي حاضر قادر على أن يدفع أذى هذا المنافق بقتله أو حبسه أو نفيه أو غير ذلك، ومع ذلك أرشدهم النبي ﷺ إلى ترْك ذلك، فكيف بالاستغاثة به بعد موته! بل وكيف بالاستغاثة به فيما لا يقدر عليه إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كما يقع من غُلاة أولئك المشركين.

(٢٢٣) إذًا الآية فيها بيان الجواز، والحديث فيه إرشادٌ إلى الأوْلى وإلى الأكمل، وإلى الأكثر تعظيمًا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ

(٢٢٤) وهو الذي ارتضاه شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ وذكر أن ظاهر الحديث إن صح يُفيده.

- إمَّا لكونه كان مأمورًا أن يأخذ المنافقين بالظاهر ولم يتبين له خلاف ذلك.
- أو خشية من وقوع المفسدة: «لا يتحدث أن محمدًا يقتل أصحابه»، أو غير ذلك.

وبناءً على هذا ؛ فنهيهم عن الاستغاثة به صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ جارٍ على القاعدة التي سلفت وهي : أن الاستغاثة إنما يجب أن تكون بالله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ لا بغيره فيما لا يقدر عليه إلا الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ .

والله تعالى أعلم.

قال المصنف رحمه الله:

١٥-بَابُ

قَول الله تَعَالَى:
﴿أيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلاَ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾[الأعراف :١٩١])

وَقَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر:١٣].

وَفِي الصَّحِيحِ عَن أَنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: شُجَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلِيهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ أُحِدٍ وَكُسِرَتْ رَبَاعِيَّتُهُ، فَقَالَ: «كَيْفَ يُفْلِحَ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ» ؟ فَنَزَلَتْ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران:١٢٨].

وَفِيهِ عَنِ ابن عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ - إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ فِي الرَّكْعَةِ الأَخِيرَةِ مِنَ الفَجْرِ -: «اللَّهُمَّ الْعَنْ فُلَانًا وَفُلَانًا»، بَعْدَ مَا يَقُولُ: «سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، رَبَّنَا وَلَكَ الحَمْدُ»؛ فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران:١٢٨].

وَفِي رِوَايَةٍ: يَدْعُو عَلَى صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ، وَسُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو، وَالحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ؛ فَنَزَلَتْ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

وَفِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَامَ رَسُولَ اللهِ ﷺ حِينَ أُنْزِلَ عَلَيهِ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ [الشُّعراء: ٢١٤]، فَقَالَ: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ -أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا-؛ اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ؛ لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا، يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ المُطَّلِبِ؛ لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئًا، يَا صَفِيَّةُ - عَمَّةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ؛ سَلِينِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتِ، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا».

عقد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الباب بعد الكلام عن أنواعٍ مما يقدحُ في التوحيد أو ينقُضه، وأحسن ما شاء الله أن يحسن في هذا الترتيب؛ حيث إنَّ هذا الباب والذي بعده فيهما دِلالة شرعية عقلية على حُسْنِ التوحيد وقُبْحِ الشرك.

والأدلة على التوحيد وتحريم الشرك تنقسم إلى:

- **أدلة شرعية**(٢٢٥).
- **وأدلة شرعية عقلية.**

ومن المهم لطالب العلم في مقام الدعوة إلى الله جَلَّ وَعَلَا وبيان حقيقته والتحذير من ضده أن ينوع في الأدلة؛ فيسوق ألوانًا وأنواعًا من الاستدلالات، لعل الله جَلَّ وَعَلَا أن يجعل هذا سببًا في هداية من شاء الله هدايته، لربما كان نوعٌ منها هو المؤثر في السامع فتكون الهداية بإذن الله جَلَّ وَعَلَا.

الأدلة الشرعية العقلية كثيرة تضمنها كتاب الله وسنه رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

- منها الاستدلال على توحيد ربنا في العبادة من خلال تقرير توحيد الربوبية؛ بما أنَّه الرب، إذًا هو الإله(٢٢٦).

---

(٢٢٥) من النُّصوص؛ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [البقرة:٢١]، ﴿وَاعْبُدُوا اللهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء:٣٦].

(٢٢٦) وجُلُّ آيات الكتاب التي جاءت في توحيد الربوبيّة إنَّما سِيقَتْ لأجل أن تكون دليلًا على توحيد الأُلوهية، وهذا كثير:

كما في قول الله ﷻ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:٢١] إلى آخر السياق، فكان توحيد الربوبيّة دليلًا على توحيد الأُلوهية.

وكما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ * رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾ [الصافات: ٤-٥]، فهو إله واحد لأنَّه ربّ هذه الأشياء.

وكما في آيات (سورة النمل) تلك الآيات العظيمة: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ * أَمَّنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ * أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٩-٦٢] إلى آخر السياق.

فتلاحظ أنَّ هذه الأدلة الكثيرة فيها تقرير إفراد الله ﷻ بالعبادة لأنَّه المتفرّد بتوحيد الربوبيّة، فهو الخالق وحده، وهو الرازق وحده، وهو المُحيي وحده، وهو المعطي وحده، وهو المُميت وحده، وهو الذي يضرّ وحده.

وهذا القدر قد أقرَّ به ا لمشركون في الجُملة، كما سبق الحديث عن هذا سباقًا، فكانوا إذا سُئِلُوا عن شيءٍ من هذه الأنواع -أنواع أفعال الربوبيّة- ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ﴾، ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ إلى آخره، تجد جوابهم: هو إفراد الله ﴿لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾، ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [العنكبوت:٦٥]، ويتجهون إلى آلهة يعتقدون أنها مَمْلوكة لله ﷻ، كما في «صحيح مسلم» من حديث ابن عباس في ذكْر تلْبية المشركين؛ «لبّيك لا شريك لك، إلا شريكًا هو لك، تملكُه وما مَلك»؛ فهذا كلّه يدلّك على أنَّ المشركين كانوا يقرّون بهذا النوع، ولأجل هذا كَثُرَ في النُّصوص الاسْتدلال به على ما أنكروا وهو توحيد العبادة.

- ومن ذلك أيضًا: الاستدلال بكمال الله **جَلَّ وَعَلَا** ؛ بما أن الله له الكمال المطلق في أسماءه وصفاته، إذًا هو المستحق للعبادة وحده لا شريك له.
- ومن ذلك: ضرب الأمثال، وهي -أعني الأمثال- أقيسة عقلية تهدي الناظر فيها إلى الحق. والقرآن قد كثر فيه ضرب الأمثال على موضوع التوحيد وخطر الشرك.
- ومن ذلك أيضًا: الاستدلال بنقص معبودات المشركين وآلهتهم، وأنها ناقصة عاجزة لا تملك لنفسها -فضلًا عن غيرها- نفعًا ولا ضرًا؛ إذًا لا تستحق العبادة في بدائه العقول.

وهذا مسلكٌ مهم ينبغي أن يتنبه له الداعية إلى التوحيد، وهذا الذي أراد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ التنبيه عليه في هذا الباب؛ أنَّ كل ما يُعبد من دون الله جَلَّ وَعَلَا فإنه عاجزٌ ناقص فلأي شيء يُعبَد!! ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ﴾[النحل:١٧]، قال جل وعلا :﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ﴾[المائدة:٧٥]، هذه الجملة كافية في إسقاط الإشراك بعيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وأمه، يكفي أن تعلم يا أيها الإنسان أنهما كان يأكلان الطعام، وإذا كانا كذلك فهما محتاجان ، والمحتاج لا يكون إلهًا ولا يكون ربًا.

ومن ذلك قول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾[الحج:٧٣] ؛ الله يأمرنا، ويأمر جميع الناس بالاستماع إلى هذا المثل العظيم، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ

وَالْمَطْلُوبُ﴾ ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾[الحج:٧٣]؛ إي والله، ما قدروا الله حق قدره حينما عدلوا غير الله عَزَّوَجَلَّ ، وسوّوا غير الله مع الله، حينما ما أخلصوا العبادة لله فدعوا غيره ولجأوا لسواه، ما قدروا الله حق قدره، ولو قدروا الله حق قدره هؤلاء المشركون ما أشركوا مع الله غيره.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**باب قول الله تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلاَ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾** [الأعراف:١٩١]) (٢٢٧).

هذه آية عظيمة فيها بيان بطلان الشرك، وأن التعلق بغير الله عَزَّوَجَلَّ ضلالٌ وسفه، **انظر إلى حال كل من سوى الله** جَلَّوَعَلَا **تجده متصفًا بهذه الصفات الأربع:**

➢ **أولًا**: قال تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ ؛ وهذا وصف ينطبق على كل من سوى الله، كل ما سوى الله لا يملك أن يخلق، الخلق مفقود في حقه، ولو اجتمع معه كل من في الأرض لا يستطيعون أن يخلقوا شيئًا ، ولو كان حقيرًا، ولو كان ذبابة. إذًا من لا يخلق لا يستحق أن يُعبد.

➢ بل هم أنفسهم مخلوقون: ﴿مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ ؛ لاحظ أن الله **جَلَّوَعَلَا** قال أولًا: ﴿يَخْلُقُ﴾، وقال ثانيًا: ﴿يُخْلَقُونَ﴾،(٢٢٨) كأن الضمير في

---

(٢٢٧) بوَّب المؤلّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ على هذا الباب بالآية؛ لأنها أبلغ في الدِّلالة على ما قصد في هذا الباب.

(٢٢٨) تلاحظ أنَّه قال: ﴿يَخْلُقُ﴾ على الإفراد ، و﴿يُخْلَقُونَ﴾ على الجمع، قال أهل العلم: «إنَّ الضمير في قوله ﴿يَخْلُقُ﴾ عائدٌ إلى «ما» الموصلة باعتبار لفظها، و ﴿يُخْلَقُونَ﴾ الجمْع هنا إنما كان لأنَّ الضمير عائدٌ إلى «ما» باعتبار معناها، فإنَّ «ما» هنا

﴿يَخْلُقُ﴾ روعي فيه لفظ (ما)، وفي ﴿يُخْلَقُونَ﴾ روعي فيه معنى (ما). فـ(ما) هاهنا هي الموصولة؛ فتعم كل من ينطبق عليه الوصف المذكور بعدها.

➢ ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾، ولا شك أن معناها يدل على أفرادٍ كثيرين فناسب أن يقال: ﴿يُخْلَقُونَ﴾. هذا وصف ثانٍ يتصف به كل من سوى الله جَلَّوَعَلَا وكل ما سوى الله جَلَّوَعَلَا؛ وهو أن كل ما سوى الله مخلوق، فأيُّ عقل يدعو إلى عبادة مخلوق!! أليس من خلقه أولى بالعبادة؟!

➢ **الوصف الثالث**: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾ ؛ لا يستطيعون نصرًا لعابديهم فلأي شيء يُعبَدون؟! هؤلاء الذين يعبدون غير الله لا شك أنهم يطلبون تحصيل نفع ودفع ضر وإلا فما الفائدة من عبادتهم!! والله جَلَّوَعَلَا بيَّن هاهنا أنهم لا يستطيعون لهم نصرًا، ليس فقط لا ينصرونهم، بل لا يستطيعون. بل ربما قال قائل: إنهم قادرون على النصر لكنهم لا يريدون؛ فبين الله جَلَّوَعَلَا أنهم عاجزون أصلًا، فاقدون للقدرة أصلًا على أن ينصروا عابديهم ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾.

➢ **أما الصفة الرابعة** فهي أدلُّ على عجزهم وضعفهم، بل حتى هذه المعبودات لا تدفع عن نفسها شيئًا ولا تنصر نفسها فضلًا عن أن تنصر غيرها، فما أخسر صفقة عابديها .

لفظها مفرد لكنَّ معناها يشمل سائر الآلهة التي جُعِلَت معَ الله ﷻ وهي كثيرة» ، فهذا هو وجْه الإفراد والجمْع.

كل ما سوى الله جَلَّ وَعَلَا سواءً كان من الأصنام، أو الأشجار، أو الأحجار، أو الأموات، أو الأنبياء، أو الأولياء والصالحين كلُّ أولئك لا يستطيعون نصر أنفسهم، بل نصْرهم إنَّما هو من عند الله جَلَّ وَعَلَا لا غير ، ولذا سيد ولد آدم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمَّا احتاج النصر لجأ إلى الله جَلَّ وَعَلَا؛ ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾[الأنفال:٩]، النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما كان يوم بدر رفع يديه إلى ربه سبحانه - والحديث في مسلم وغيره- ودعا ربه دعاءً عظيمًا واستنصر ربه وقال: «اللهم انجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة فلن تُعبد في الأرض» صار يدعو دعاءً عظيمًا حتى إن رداءه سقط عن منكبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، حينها أنزل الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾[الأنفال:٩].

إذًا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو سيد الأنبياء بل سيد ولد آدم ومعه سادات الأولياء الذين هم أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لما احتاجوا النصر سألوا مَن يملكه وهو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فكيف بمن سِوَىَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ!!.

إذًا هذا دليلٌ بَيِّن على أن عبادة غير الله جَلَّ وَعَلَا عبادة باطلة في العقل كما أنها باطلة في الشرع.

ولاحظ قول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَيُشْرِكُونَ﴾ والآية تتناول أوليًا كفار قريش، والله جَلَّ وَعَلَا وصفهم بالشرك، وهذا دليلٌ على أنَّ عبادة غير الله جَلَّ وَعَلَا شرك به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأنَّ الشرك ليس محصورًا ولا مقصورًا على الشرك في الربوبية كما يزعمه عبَّاد القبور الذي يقولون: "إن من دعا غير الله، وإنَّ من صلى وسجد لغير الله، ومن ذبح وطاف لغير الله فهؤلاء ليسوا مشركين إن كانوا يعتقدون أنَّ المؤثر في الكون

هو الله وحده"، هؤلاء الذين وصفهم الله عَزَّوَجَلَّ بالشرك فقال في حقهم: ﴿أَيُشْرِكُونَ ﴾ كانوا يعتقدون أنَّ المؤثر في الكون هو الله، كانوا يعتقدون أنه إذا قيل لهم: ﴿وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ﴾[يونس:٣١] ، ومع ذلك وصفهم الله عَزَّوَجَلَّ بالشرك. إذًا عبادة غير الله عَزَّوَجَلَّ شرك.

ثانيًا: الآية تفيد فائدةً مهمة لطالب العلم وهي: أن كل ما سوى الله جَلَّوَعَلَا فعبادته باطلة، وليس الأمر محصورًا على الأصنام والأشجار والأحجار، كما يزعم هذا من يزعمه من عبَّاد القبور، لأن الله قال: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئًا﴾، و(ما) هي الموصولة التي تفيد العموم، فكلُّ ما ينطبق عليه الوصف المذكور بعدها داخلٌ في هذا الزجر والتقبيح؛ لأن الاستفهام هاهنا استفهام إنكاري يفيد تقبيح المشركين وتوبيخهم، كيف تعبدون من هذه حاله!

والحق أن هذا الوصف المذكور الذي أصحابه موصوفون بهذه الصفات الأربع؛ هذا الوصف ينطبق على كل من سوى الله جَلَّوَعَلَا؛ إذًا من عبد غير الله من الأصنام فعبادته باطلة، ومن عبد غير الله من الأولياء والأنبياء والصالحين، فعبادتهم باطلة، وإلا فليخبرني هؤلاء المشركون؛ أينطبق على هؤلاء الذين توجهوا إليهم وعظموهم هذا الوصف أم لا؟ أهم يخلُقون شيئًا؟ أليسوا مخلوقين؟ أليسوا عاجزين عن نصر أنفسهم فضلًا عن غيرهم؟! إذا كانوا كذلك؛ إذًا كل من جعلهم شركاء مع الله عَزَّوَجَلَّ فإنه يكون قد انطبق عليه الوصف في قوله تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ﴾ ، والله جَلَّوَعَلَا أعلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقوله ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر:١٣]).

الآية الثانية تأييدٌ وتأكيد على الدلالات السابقة وهي: الاستدلال على وجوب التوحيد وحُسنه، والنهي عن الشرك وتقبيحه من خلال بيان عجز كل معبود سوى الله جَلَّ وَعَلَا.

قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾[فاطر:١٣]، القطمير: القشرة أو اللفافة التي تُغلِّفُ النواة -نواة التمر-، هذه اللفافة إذا كنت أريد أن أبيعها لك بكم تشتريها؟ بلا شيء، لأنها من أحقر ما يكون، لا قيمة لها.

إذًا كل من عُبد سوى الله جَلَّ وَعَلَا لا يملك شيئًا في الحقيقة، حتى ولو كان هذا الشيء الحقير الذي لا قيمة له.

﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾[فاطر:١٣]، هذا كلام الله ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلًا﴾ ، كل ما عُبِدَ ومن عُبِدَ سوى الله جَلَّ وَعَلَا فإنه لا يملك شيئًا في الحقيقة، وبالتالي فإنه لا يستحق أن يُعبد، الذي يستحق أن يُعبد هو الذي له المِلك وله المُلك، أما من لا مِلك له فما فائدة من عبادته وماذا سيجني عابده؟! وهذا وصف ينطبق على كل ما سوى الله: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ﴾[سبأ:٢٢]، والله لا يملكون شيئًا ولو ذرة، ولو هذا الهباء الذي يسبح في الهواء والذي لا وزن له ولا قيمة له، لا أحد يملك شيئًا البتة.

وهذه الموجودات التي في أيدي الناس لا يظننَّ ظانًا أن من في يده يملكها حقيقةً، مِلْكُ هذا الإنسان لما في يديه من مال وعقار ولباس ودواب وغير ذلك مِلكٌ ناقص، هو أشبه بالعارية المؤداة، وإلا فالمالك الحقيقي هو الذي يحكم في هذا المال بحكمه الشرعي والقدري؛ وهو الله عَزَّوَجَلَّ.

فما عند الإنسان من أموال هو فيها محكومٌ بأمر الله الشرعي لا يجوز له أن يتصرف إلا في حدود ما أذِن الله له شرعًا، ولا يجوز له أن يتصرف في هذا المال كيفما شاء، وهو محكومٌ في هذا المال بأمر الله القدري، فالله جل وعلا إن شاء أن يسلبه منه في لحظة فعل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ثم هذا المال محدود ومؤقت، فكان فاقدًا له وسوف يكون فاقدًا له؛ إذا مات انتهت علاقته بهذه الأموال، فالذي يملك على الحقيقة كل شيء إنما هو الله سبحانه لا شريك له. إذًا ما أحرى كل مخلوق أن يعبد الذي بيده ملكوت كل شيء، والذي له المِلك كله، والذي له المُلك كله جَلَّوَعَلَا.

﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ ؛ ولاحظ أن هؤلاء الذين يُدعَون مع الله جَلَّوَعَلَا فاقدون في هذا السياق لثلاثة أمور تدعو العاقل إلى أن يتبين حقيقة الحال، وأن عبادتهم مع الله جَلَّوَعَلَا عبادةٌ باطلة.

- **أولًا**: أنهم ما يملكون من قطمير.
- **وثانيًا**: أنهم لا يسمعون ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾[فاطر:١٤]، لأنهم بين:

- أموات هم في شغل في نعيم أو هلاك.

- أو هم ملائكة مشغولون بطاعة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

○ **والوصف الثالث**: أنهم غير قادرين على الإجابة؛ لأنهم على فرض أن سمعوا لا يجيبون: ﴿وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾[فاطر:١٤]، لا ينبئك بحقائق الأمور إلا الخبيرُ بها العليم بكل شيء من المشاهَد والغائب وهو الله جَلَّوَعَلَا. أعطاك الله حقيقة الأمر فخذه وأنت مطمئن، هذا والله هو الحق، وهذه والله هي الحقيقة: ﴿وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾[فاطر:١٤]، هؤلاء حقًا لا يستحقون العبادة إنما يستحقها الله جَلَّوَعَلَا وحده.

قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ: (وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: شُجَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ أُحِدٍ وَكُسِرَتْ رَبَاعِيَّتُهُ، فَقَالَ: «كَيْفَ يُفْلِحَ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ» ؟ فَنَزَلَتْ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران:١٢٨].

استدل المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ ثالثًا بحديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال إنه (في الصحيح) وهو في البخاري معلقًا وفي مسلم موصولًا.

النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم أحد أصابه والمسلمين أمر عظيم، حتى إنَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شُجَّت جبهته(٢٢٩)، يعني: جُرح صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في جبهته، ونزل الدم على وجهه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكان يمسحه بيده.

وكسرت رباعيته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ الرباعية: السن التي بعد الثنية، الثنايا هي: الأسنان التي في الوسط. فللإنسان ثنيتان في الأعلى وفي الأسفل، واللذان في

---

(٢٢٩) الشَّجُ: هو الجُرح الذي يكون في الرأس والوجه.

جانب الثنيتين هما الرباعية، وجمعها رباعيات، فللإنسان أربع رباعيات؛ في الأعلى اثنتان، وفي الأسفل اثنتان. النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كسرت رباعيته السفلى بحيث أنه ذهب منها جزء وليس أنها قلعت بالكلية، إنما كسرت جزء من رباعيته بأبي هو وأمي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

وهذا الأمر العظيم والمصاب الجلل الذي نزل بالنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ **يفيد منه المسلم فوائد عدة:**

❖ **أولًا**: أن يعلم عظيم ما تحمله النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من مشاق في سبيل الدعوة إلى الله عَزَّوَجَلَّ وإبلاغ دين الله إلى الناس؛ فيزداد المسلم محبة لنبي الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

❖ **ويفيد ثانيًا**: اليقين بأن دين الله جَلَّوَعَلَا يحتاج إلى أن يُتحمَّل المصاب في سبيل إبلاغه إلى الناس، وأن الدعوة إلى الله جَلَّوَعَلَا يصيب أصحابها ما يصيبهم من الأذى والبلاء، فإذا علِموا أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وهو سيد ولد آدم وأحب الخلق إلى الله ومع ذلك أصابه ما أصابه! فإن السائرين على منهاجه ودربه والذين كان لهم الوراثة التامة للنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عليهم أن يجعلوا نبينا صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أسوةً وسلوةً لهم؛ يتأسون به فيصبرون ويتحملون المشاق ويتسلون بما أصابه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

❖ **وفي هذا أيضًا أمرٌ ثالثٌ مهم وهو**: تحقيق التوحيد ؛ أن يعلم المسلم أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عبدٌ لله جَلَّوَعَلَا وليس معبودًا، لو كان النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ربًا لما أصابه ما أصابه، ما كسرت ربَاعيته ولا شُج وجهه ولا سال

دمه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإنَّ الرب لا يكون هذا وصفه، إنما النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عبدٌ ورسول، وكفى بهذا شرفًا له؛ عبدٌ لا يُعبد ورسول لا يُكذّب بل يطاع ويتبع صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. إذًا إذا علم الإنسان مثل هذا الذي أصاب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنه سوف يتجنب الغلو فيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويُنزله المنزلة اللائقة به والتي جعلها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى له، وأما الغلو فيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنَّ هذا من طرائق غير المتبعين له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الشاهد: أنَّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصيب بما أصيب به يوم أحد فكان يمسح الدم عن وجهه ويقول: «**كيف يفلح قومًا أدموا نبيهم وهو يدعوهم إلى الله**»، فأنزل الله: ﴿**لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ**﴾[آل عمران:١٢٨]؛ كأن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لحقه شيء من عدم رجاء إيمانهم واليأسَ من إسلامهم؛ فقال هذا القول، فأنزل الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿**لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ**﴾[آل عمران:١٢٨].

﴿**لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ**﴾ لاحظ أن السياق نفيٌ وفيه نكرة (شيء)، والنكرة في سياق النفي تعم. إذًا ليس للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شيء، إنما هو رسول واجبه الدعوة إلى الله؛ أن ينذر، وأن يبشر، وأن يبلغ، أما ما عدا ذلك فالأمر كله لله، ﴿**لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ**﴾ لا الإثابة ولا العقوبة، ليس لك الهداية وليس لك الإضلال، ليس لك شيء من الأمر شيء مطلقًا، حتى الشفاعة لا يملكها النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ ﴿**قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا**﴾[الزمر:٤٤]، الشفاعة إنما هي لله عَزَّ وَجَلَّ لا غير، فدل هذا على أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا شفع يوم القيامة إنما يشفع بإذن الله، بل يشفع بأمر الله، هو مأمور أن يشفع يأمره الله أن يشفع، (وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ).

إذًا ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾ اللام هاهنا «لك» لامُ الـمِلك، فالنبي ﷺ لا يملك شيئًا، إنما الأمر كله لله عَزَّوَجَلَّ، وهذا من تأمله حقًا تبين له حقيقة التوحيد، وتبين له غربة الدين، وتبين له حال كثير من الناس الذين تعلقوا بالأولياء والأنبياء؛ إذا كان النبي ﷺ وهو هو أعظم الناس قدرًا وجاهًا ومنزلةً عند الله، ومع ذلك الله عَزَّوَجَلَّ يقول له: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾، فكيف بمن عداه!

ألا يتبصر هؤلاء الذين اعتقدوا أن النبي ﷺ وأن غيره من الأولياء والصالحين يملكون إجابة الدعاء وتنفيس الكروب وتفريج الهموم ومغفرة الذنوب وكلَّ ما يقدر عليه الله جَلَّوَعَلَا ؛ هذا الذي يعتقدونه، يعتقدون أن النبي ﷺ يملك لهم ويجيبهم إلى كل ما يطلبون، ولذلك تعلق دعائهم وتعلقت رغبتهم وتعلق رجائهم بالنبي ﷺ وبغيره.

مع أن النبي ﷺ نفسه هو الذي أمره الله أن يقول، وقال ﷺ: ﴿قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَدًا*قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾[الجن:٢٢]، يقول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[الأعراف:١٨٨]، هذا هو ﷺ نذيرٌ وبشيرٌ لقوم يؤمنون، أما أن يملك نفعًا أو يملك ضرًا فلا والله، هذا كلام الله، وهذا الذي أُمر النبي ﷺ أن يبلغه للناس، ليس الذي يملك نفعًا ولا ضرًا ولا هو بالذي يعلم الغيب، فكيف بهذا الذي يطرب وهو يردد:

فإن من جودك الدنيا وضرَّتها ومن علومك علم اللوح والقلم

لا إله إلا الله! ليس فقط يملك النفع والضر ولا يملك الدنيا فقط! بل حتى الآخرة (فإن من جودك الدنيا وضرتها)، والله يقول: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾، (ومن علومك) بعض علومك ، من للتبعيض، (ومن علومك علم اللوح والقلم)، لا إله إلا الله! والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾[الأعراف:١٨٨].

والله إن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يعلم الغيب، ومن حدَّثك أنه يعلم الغيب فقد كذب، ولو كان يعلم الغيب لما دعا على هؤلاء ، سيأتي معنا بعد قليل أنه دعا على أناس من كفار قريش بأسمائهم اللهم: العن فلانًا وفلانًا سيأتون معنا، مع أنهم أسلموا بعد ذلك، ولو كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعلم أنهم سيُسلِمون ما دعا عليهم هذا الدعاء، ما كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعلم الغيب.

في قصة آية التيمم ما الذي حصل؟ أليس فقدت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عقدها، فقام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمسلمون في الصحراء لا ماء عندهم ينتظرون ويبحثون، حتى اشتد الأمر على المسلمين وجاءوا يشتكون إلى أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وذهب أبو بكر إلى عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وعاتبها، وكان ما كان حتى أنزل الله آية التيمم، تقول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا -والحديث في الصحيحين- تقول: «فبعثنا البعير وإذا العقد تحته»، إذا كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعلم الغيب لِمَ ما أخبرهم "ابحثوا عن العقد تحت البعير" وانتهى الأمر!! لا يصيب المسلمين ما يصيبهم.

بل في قصة الإفك -وحديثها في الصحيحين- لما شاعت قالة السوء عن عائشة الطاهرة المطهرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، تكلم الناس في عرضها لما حصل ما حصل من تأخرٍ لها عن الجيش، وجاءت بعد أن بلغ النهار مبلغه إلى قرب الظهيرة، جاءت بعد أن وجدها صفوان بن المعطل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فحصل ما حصل وتولى كِبْرَ ذلك رأس النفاق عبد الله بن أبيّ، النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذهب إلى عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في بيت أبيها وقال لها: «يا عائشة إن كنتِ بريئة فسيبرؤكِ الله، وإن كنتِ أَلْمَمْتِ بذنبٍ فاستغفري الله فإن الله غفور رحيم»، أكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعلم الغيب؟! أكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستشير بعض أصحابه في هذه الحادثة العظيمة وهو يعلم الغيب؟! حتى إنه بعد أن قال ما قال نزل الوحي عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسُرَّ وضحك وبشَّر عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أكان يعلم الغيب فيفعل هذا!

لم يكن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعلم الغيب، فكيف يقول مسلم بعد ذلك (ومن علومك علم اللوح والقلم)!! يا لله العجب من أناس يتلون كلام الله جَلَّ وَعَلَا، أنا أعجب من هذا الإنسان الذي يعتقد أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو غيره من الأولياء يملك إجابة الداعيين، أتؤمن بأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صادق أم لا؟ يعني حينما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿**قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَدًا**﴾، أكان صادقًا وهو كذلك صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أم لا؟، فإن قال: لا، لم يكن صادقًا فقد كذَّبه فقد كفر بالله جَلَّ وَعَلَا، وإن قال: كان صادقا؛ إذًا لم تعبده؟ لم تتوجه إليه؟ أليس هذا إلا السفه وإلا الضلال المبين!

فعلى المسلم أن يتقي الله جَلَّوَعَلَا، أولئك الذين يتوجهون لغير الله سبحانه بالدعاء، والقصد، والرجاء، والإخبات، والتوكل، والاعتماد عليهم أن يتقوا الله جَلَّوَعَلَا؛ إذا كان النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ليس له من الأمر شيء، إذا كان النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لا يملك لأحد نفعًا ولا ضرًا؟! فكيف بغيره، كيف يصدِّق عاقل هذه السفاهات التي يهذي بها عبَّاد القبور:

الذي يقول أحدهم: (إذا أعياكم الأمر فعليكم بقبري) ؛ لا تحملوا همًا اطمئنوا مهما يصيبكم فعليكم بأن تلجأوا إلى قبري بعد موتي!

ويقول آخر: (إذا كان يوم القيامة نصبت خيمتي عند باب جهنم فأمنع دخول من دعاني)! هكذا يقولون، ووالله إنَّ هذا لمدوَّنٌ في كتبهم بأيديهم.

ويقول آخر: وقد كُتب هذا على لوح عند قبر في بعض البلدان يزعمون أنه قبرٌ لنبي لله اسمه (جرجيس)، ولا يُعلم بدليل صحيح أن هذا نبي، ولا يُعلم قبرٌ على وجه القطع أنه لنبي من الأنبياء سوى قبر نبينا صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، لا يوجد قبر على وجه الأرض يُعلم أنه ثابت قطعًا لنبي إلا قبر النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وكثير من العلماء على أن قبر الخليل في فلسطين هو قبره، لكن على وجه القطع واليقين ليس ثمة قبرٌ يُقطع به إلا هذا القبر لنبينا الكريم صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، تجدهم يكتبون أو هكذا كتبوا يقولون:

زر حضرةً مُلئت نورًا وتقديسًا ... واقصد نبي الهدى ذا المجد جرجيسا

ما زاره قاصدٌ يشكو ملمَّته إلا ... ونُفِسَ عنه الكرب تنفيسا

سبحان الله! أصبح مثله مثلُ الذي قال جلَّ في علاه: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾[النمل:٦٢]، والله إن حالهم هو ما وصف الله: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾[الأنعام:١] . ومن كانت هذه حاله والله إنه سينادي يوم القيامة لكن لا ينفعه الندم ﴿تَاللهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[الشعراء:٩٧-٩٨]، فليحذر المسلم فالأمر والله جلل، والأمر والله خطر ، على المسلم يقرأ كتاب الله جَلَّوَعَلَا ويتأمله ويُصدِّقه، هذا هو كلام الله جَلَّوَعَلَا: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾، أي دليل أوضح على قبح الشرك والتعلق بغير الله جَلَّوَعَلَا ولو كان في حق أشرف الخلق صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والمستعان.

قال رَحِمَهُ اللهُ: (وَفِيهِ عَنِ ابن عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ - إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ فِي الرَّكْعَةِ الأَخِيرَةِ مِنَ الفَجْرِ -: «اللَّهُمَّ الْعَنْ فُلَانًا وَفُلَانًا»، بَعْدَ مَا يَقُولُ: «سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، رَبَّنَا وَلَكَ الحَمْدُ»؛ فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران:١٢٨]. وَفِي رِوَايَةٍ: يَدْعُو عَلَى صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ، وَسُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو، وَالحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ؛ فَنَزَلَتْ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران:١٢٨]).

أورد بعد ذلك حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا وهو عند البخاري، أنَّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دعا بعد رفعه من الركوع ؛وهذا يُسمى «قنوت النوازل»، دعا على رهطٍ من كفار قريش كانوا رؤوس القوم يوم أحد، وكانوا من أعظمِ الأسباب لحصول ما حصل على المسلمين من المصيبة، وجاءت تسميتهم في الرواية الأخرى وهم ثلاثة: (صفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام) ؛ الحارث هذا

أخو أبي جهل، عمرو بن هشام المخزومي، ولهم رابعٌ أيضًا وكان من سادات القوم وهو أبو سفيان، وكلهم قد أسلموا بعد ذلك وحسُن إسلامهم.

لمَّا دعا النبي ﷺ عليهم باللعنة، **والدعاء باللعن: يعني طلب الطرد من رحمة الله** جَلَّ وَعَلَا، يسأل الله العبدُ أن يطرد هذا المدعو عليه عن رحمته فأنزل الله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾[آل عمران:١٢٨]، وهذا سببٌ ثان لنزول الآية التي سبق الكلام فيها.

والصحيح أنه يجوز تعدد أسباب النزول، فتكون الآية قد نزلت لهذين السببين، والأمران على كل حال متقاربان، الحادثة في الجملة حادثةٌ واحدة.

الشاهد: أن في هذا الحديث فوائد:

أولًا: أنَّ النبي ﷺ والمسلمون معه كانوا يلجئون إلى الله جَلَّوَعَلَا في شأن دفع أذى المشركين، ولو كان النبي ﷺ بيده كل شيء، وكان قادرًا على كل شيء كما يزعم القبوريون لما كان له حاجة بهذا القنوط، لكان قام على هؤلاء المشركين بقدرته الخارقة النافذة وانتهى الأمر، لكنه كان محتاجًا إلى الله جَلَّوَعَلَا، وكان مفتقرًا إلى الله، ولذلك لجأ إلى الله.

إذا كان هذا حال النبي ﷺ فكيف بغيره؟ وإذا كان هذا حاله ﷺ وهو حي فكيف يُلجأ إليه في طلب كشف الكروب بعد موته! أليس هذا دليلًا وبرهانًا كافيًّا لأصحاب العقول؟ النبي ﷺ والمسلمون معه ومع ذلك ما كان عندهم قدرة على حصول النَّصر، وعلى الانتقام من المشركين فلجئوا إلى

الله جَلَّوَعَلَا، فكيف بغيره صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ !! فكيف يُطلب هذا منه بعد موته صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ؟!.

ولاحظ هنا أيضًا أن هاهنا فائدة ثانية وهي: أنَّ النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ما كان يعلم الغيب، وبالتالي دعا على هؤلاء القوم بأن يلعنهم الله وأن يطردهم من رحمته، والذي سبق في علم الله جَلَّوَعَلَا أن هؤلاء الصناديد سيُسلِمون وسيحسن إسلامهم، فكان ذلك، هؤلاء الثلاثة جميعًا وأبو سفيان أيضًا جميعهم قد أسلم، وحسن إسلامهم، إذًا النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لا يعلم الغيب.

إذًا الآية واضحة صريحة تقطع جذور الشرك من القلب؛ ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾[آل عمران:١٢٨]، وإذا كان هذا في حق النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ففي حق غيره من باب أولى.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَفِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَامَ رَسُولَ اللهِ ﷺ حِينَ أُنْزِلَ عَلَيهِ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ [الشُّعراء: ٢١٤]، فَقَالَ: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ - أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا- اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا، يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ المُطَّلِبِ؛ لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئًا، يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ؛ سَلِينِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتِ، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا»).

هذا حديث عظيم وهو أيضًا من دلائل وبراهين التوحيد، حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مخرجٌ في الصحيحين، وفيه: أن النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ صعد على الصفا لما أَنْزَلَ

الله عليه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [٢٣٠]، ولاحظ أن الاستجابة كانت سريعة من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما تردد ولا تلكأ.

وإنذار العشيرة الأقربين من الحكمة في الدعوة، وهذا مما ينبغي أن يُلاحظ فيها؛ فإنَّ دعوة الأقربين واستجابتهم فيها قوةٌ للدعوة، فإنَّ الأبعدين إذا رأوا أنَّ الأقربين قد أسلموا اطمئنوا وأقبلوا، ولا شك أن أولى الناس بخيرك وبرِّك هم الأدنى إليك فالأدنى، هذه هي قاعدة الشريعة، أولى الناس ببر الإنسان وخيره هم الأدنى فالأدنى، وأيُّ خير وبر أعظم من السعي في الهداية والدعوة إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الصفا، وقال: «يا معشر قريش»، معشر: يعني جماعة، يا جماعة قريش. ينادي قبيلته ينادي جماعته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.[٢٣١].

---

(٢٣٠) وعشيرة الأنسان: جماعته، وقبيلته الذين هم أدنى إليه.

(٢٣١) وقريش: هم قبيلته ﷺ. وقريش تُطلقُ على ولد النضْر بن كِنانة، وقِيلَ: على ولد فِهْر بن مالِك بن النضْر بن كِنانة، على قولين. وسُمّيت قريشٌ قريشًا:

-إمَّا من التقرّش وهو التجمّع.

-أو التقرّش وهو التكسّب؛ فإنهم كانوا أهل تجارة.

-أو نسبةً إلى القِرْش وهو السمك العظيم المعروف في البحار، فإنه من أقوى الأسماك، وهكذا قبيلة قريش من أقوى العرب، كما عند البيهقي في «الدلائل» لمَّا سأل معاويةُ ابن عباس رضي الله عنهم عن قريش لِمَ سُمّيت بذلك؟ فأجابه: سُمّيت بالدّابة التي تسْكن البحر، فقال: هل في كلام العرب من شيءٍ في ذلك؟ فأنشده قول الشاعر:

وقريشٌ هي التي تسْكنُ البحرَ بها سُمّيتْ قريشٌ قريشا

«يا معشر قريش اشتروا أنفسكم» ؛ يعني: بالتوحيد، فإنه ثمن النجاة، إذا كنت تريد النجاة فاشترِها وثمنها التوحيد، وجاء في رواية في الصحيح: «أنقذوا أنفسكم من النار» ، وهذا لا يكون بشيء البتة إلا بتوحيد الله، واتّباع رسوله ﷺ(٢٣٢).

ثم إنَّ النبي ﷺ خصَّص؛ فنادى العباس، نادى عمه القريب الحبيب إليه، وهو الذي كان يحب النبي ﷺ ، حتى إنه كان حاضرًا على كفره يوم العقبة يستوثق لابن أخيه من الأنصار، كرر هذا الخطاب له: (اشترِ نفسك، يا عباس انقذ نفسك من عذاب الله، فإني وأنا رسول الله لا أملك لك من الله شيئا)، ولاحظ أيضًا هذه النكرة في سياق النفي؛ لا يملك شيئًا البتة وهو الصادق المصدوق ﷺ.

تأكل الغَثَّ والسَّمينا	ولا تتْرك فيه لِذي جناحَين ريشا
هكذا في البلادِ حيُ قريشٍ	يأكلون البلادَ أكلًا كَميشا

(٢٣٢) «لَا أُغْنِي عَنْكم مِنَ اللهِ شَيْئًا»؛ ولاحِظ أنَّ «شَيْئًا» نكرة في سياق النفي فتعمّ، فالنبي ﷺ لا يملك شيئًا ولا يغني عن هؤلاء شيئًا إلا ما شاء الله ﷻ ، له رحمٌ يبلّها بِبلالِها كما جاء في هذه الرواية، وما زاد على ذلك أن ينقذهم من عذاب الله، أن يدخلهم جنَّته، ما كان منه ﷺ ولا يكون، فلن يغني عن قومه شيئًا.

ثم خاطب عمته صفية التي هي أم الزبير ابن العوام، أيضًا خاطبها بأن تشتري نفسها وأن تنقذ نفسها من عذاب الله، والتعليل: أنه لا يملك لها من الله شيئًا.

ثم خاطب فاطمة سيدة نساء العالمين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ؛ الحبيبة القريبة إليه التي هي بضعة منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يخاطبها بهذا الخطاب «**اشتري نفسكِ لا أغني عنكِ من الله شيئًا، سليني من مالي ما شئتِ**»، المال يمكن أن يقدمه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لها أو لغيرها، لكن الذي لله لا يستطيع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يفعل فيه شيئًا، وهذا فيه دليلٌ على أن سؤال الحي الحاضر القادر جائز وليس من الشرك، وأن هذه حالة مستثناة، الأصل أن السؤال والطلب لا يكون إلا لله كما قد أخذنا وعلِمنا، لكن من رحمة الله أنه استثنيت هذه الحالة فكانت هذه هي صورة جائزة ؛ أن تسأل حيًا حاضرًا قادرًا، «سليني من مالي ما شئتِ لا أغني عنكِ من الله شيئًا».

إذًا إذا كان هذا من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو هو، فكيف بغيره!! وإذا كان هذا من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حق قرابته، فكيف بغيرهم؟ هؤلاء أقرب الناس إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، إلى ابنته التي هي من أحب الناس إليه، ومع ذلك يقول: «لا أملك لكِ من الله شيئًا»، فكيف بغيرهم من الناس؟ أليس أولى أن يكون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يملك لهم من الله شيئًا!.

إذًا على كل مسلم أن يعيَ هذا الأمر، وأيضًا على المغرورين أن يتنبهوا ؛ بعض الناس يصيبهم الغرور يقول: "أنا ابن أو من أحفاد الولي الفلاني، أو من آل بيت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ" فيظن أنه بهذا قد حصل على صك يدخل به الجنة وتُغفر

له الذنوب! انتبه يا عبد الله؛ هذا والنبي ﷺ يقول لفاطمة رضي الله عنها «لا أملك لكِ من الله شيئًا»، فكيف بك يا عبد الله؟ اتق الله وإياك من هذا الغرور، فهذا والله من تلبيس وتسويل الشيطان.

واعلم أن الولاَية الحقيقية والقرب الحقيقي من النبي ﷺ الذي ينفعك يوم القيامة إنما هو أن تكون متبعًا له ﷺ، في صحيح مسلم قال النبي ﷺ: «ألا إن آل أبي فلان ليسوا بأوليائي، إنما وليّي الله وصالح المؤمنين»، فإذا كنت تروم وتطلب أن يكون لك حظ من رسول الله ﷺ ونصيب من القرب منه في جنات النعيم فاعلم أنَّ هذا إنما يكون بجِدِّك واجتهادك في إتباعه ﷺ والتزام سنته، لا أن تكون مغترًا وراكنًا إلى سببٍ آخر من نسبٍ أو وجاهة أو غير ذلك.



قال المصنف رحمه الله:

١٦-بَابُ
قَوْلِ اللهِ تَعَالَى:
﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣].

فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِذَا قَضَى اللهُ الأَمْرَ فِي السَّمَاءِ ضَرَبَتِ الـمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ يَنْفُذُهُمْ ذَٰلِكَ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ؛ قَالُوا: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟، قَالُوا: الـحَقَّ؛

وَهُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ، فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُ السَّمْعِ، وَمُسْتَرِقُ السَّمْعِ هٰكَذَا بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ -وَصَفَهُ سُفْيَانُ بِكَفِّهِ، فَحَرَفَهَا وَبَدَّدَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ-، فَيَسْمَعُ الكَلِمَةَ فَيُلْقِيهَا إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، ثُمَّ يُلْقِيهَا الآخَرُ إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، حَتَّى يُلْقِيَهَا عَلَى لِسَانِ السَّاحِرِ أَوِ الكَاهِنِ، فَرُبَّمَا أَدْرَكَهُ الشِّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا، وَرُبَّمَا أَلْقَاهَا قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ، فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةَ كِذْبَةٍ، فَيُقَالُ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا: كَذَا وَكَذَا؟ فَيُصَدَّقُ بِتِلْكَ الكَلِمَةِ الَّتِي سُمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ».

وَعَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِذَا أَرَادَ اللهُ تَعَالَى أَنْ يُوحِيَ بِالأَمْرِ، تَكَلَّمَ بِالوَحْيِ، أَخَذَتِ السَّمَاوَاتِ مِنْهُ رَجْفَةٌ -أَوْ قَالَ: رِعْدَةٌ- شَدِيدَةٌ؛ خَوْفًا مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَإِذَا سَمِعَ ذٰلِكَ أَهْلُ السَّمَاوَاتِ صَعِقُوا وَخَرُّوا للهِ سُجَّدًا، فَيَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ جِبْرَائِيلُ، فَيُكَلِّمُهُ اللهُ مِنْ وَحْيِهِ بِمَا أَرَادَ، ثُمَّ يَمُرُّ جِبْرَائِيلُ عَلَى المَلَائِكَةِ، كُلَّمَا مَرَّ بِسَمَاءٍ سَأَلَهُ مَلَائِكَتُهَا: مَاذَا قَالَ رَبُّنَا يَا جِبْرَائِيلُ؟، فَيَقُولُ جِبْرَائِيلُ: قَالَ الحَقَّ؛ وَهُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ، فَيَقُولُونَ كُلُّهُمْ مِثْلَ مَا قَالَ جِبْرَائِيلُ، فَيَنْتَهِي جِبْرَائِيلُ بِالْوَحْيِ إِلَى حَيْثُ أَمَرَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ».

قال الشارح وفقه الله:

إن الإمام محمدًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ عقد هذا الباب عقِيب الباب السابق وهو قوله: «باب قول الله تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾[الأعراف:١٩١] »؛ ليبيّن بطلان عبادة الملائكة، كما تبين في الباب السابق بطلان عبادة الأولياء والأنبياء، فالباب السابق ساقه المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ لأجل بيان بطلان عبادة الأولياء

والأنبياء، وهذا الباب ساقه لأجل بيان بطلان عبادة الملائكة؛ وإذا ظهر بطلان عبادة الأولياء والأنبياء والملائكة فإنَّ ظهور بطلان عبادة من سواهم أظهر، وذلك لأنَّ الشبهة في هؤلاء أعظم، فإذا كان هؤلاء -وهم الذين لهم المكانةُ العلية والمنزلةُ الرفيعة- ليسوا أهلاً لأن يُعبدوا مع الله جَلَّوَعَلَا، فبطلان عبادة غيرهم أوضح وأظهر.

ولا تستهِن -يا رعاك الله- بسوْق الأدلة والبراهين على بطلان عبادة غير الله جَلَّوَعَلَا ، ولا تظنن أنَّ الفتنة بعبادة غير الله شيءٌ بعيد وشيء نادر وشيء لا يكاد يقع، الأمر بخلاف ذلك؛ فالفتنة بالشرك عظيمة، حتى إنَّ إبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو إمام الحنفاء دعا الله جَلَّوَعَلَا أن يجنِّبه عباده الأصنام ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾[إبراهيم:٣٥] ، فمن يأمن البلاء بعد إبراهيم؟!

ففتنة الشرك فتنة عظيمة حتى لو كانت لا بأنبياء ولا بأولياء ولا بجنٍّ ولا بملائكة، بل بأشجار وأحجار وأصنام! هي فتنة، والبلاء بها عظيم مع الأسف الشديد، في هذا العصر الذي نعيش فيه وهو الذي يسمى عصر التطور والتقدم، وهو جديرٌ بذلك في أمور الحياة المادية، ومع ذلك أمم من هذه الأمم التي يُزعم أنها متطورة تعبد الأصنام والأحجار، إلى هذا اليوم وهي تصنع الأصنام بأيديها ثم تخر لها ساجدة!! أناسٌ لا ينقصهم تعليمٌ مادي ولا شهادات، بل ربما تجدُ أحدهم حاصلاً على أعلى الشهادات ويتسنَّم أعلى المناصب ومع ذلك تجده راكعًا خاضعًا مستغيثًا بصنم! بحجر! كان هو أو غيره ينحته قبل قليل ثم اتخذه إلهًا وربًا.

فالبلية بالشرك عظيمة والفتنة بها كبيرة، وعلى المسلم الذي رزقه ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بفضله ومنته وحده، من رزقه حب الإسلام والانقياد لله بالتوحيد عليه أن يحمد لله، وأن يسعى في شكر هذه النعمة التي لا نعمة أعظم منها، وعليه أيضًا أن يسعى السعي الحثيث في الثبات على هذا التوحيد، ومن أسباب الثبات أن يخاف من الشرك، فخوفه دافعٌ له إلى أن يتعلم ومن ثمَّ أن يتحرَّز، وإلا فإنَّه إذا استهان في الأمر فما أقرب الخلل وما أقرب العطب، ثم إذا نظر إلى حال هؤلاء المشركين حمِد الله على ما أنعم الله عليه، وزاد خوفه من الله ووجله من الله، وزادت رغبته إلى الله أن يقيه هذا المصرع.

واجعل لوجهك مقلتين كلاهما   من خشية الرحمن باكيتان

لو شاء ربك كنت أيضًا مثلهم   فالقلب بين أصابع الرحمن

احمد الله يا أيها الموحد وأشكره، وانطرح بين يديه جَلَّ وَعَلَا وسله الثبات، وسله أن يثبتك على هذا التوحيد حتى تلقاه، وادعُ ربك بضراعة وبصدق أن يجنبك عبادة الأصنام، وأن يقيَك الشرك كله جليَّهُ وخفيه، سل ربك دائمًا "اللهم إني أعوذ بك من أن أشرك بك شيئًا وأنا أعلم وأستغفرك لما لا أعلم".

إذا وفقك الله فثبتَّ على التوحيد إلى أن غادرت روحك جسدك فهذه والله البشارة العظيمة، أبشر بالخير وأبشر بالسعادة، فمن لقيَ الله لا يشرك به شيئًا لقيه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالرحمة والمغفرة، حتى لو أنَّه أتى بقراب الأرض خطايا! هكذا أخبرنا الصادق المصدوق صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، لكنَّ البلية ولكنَّ المصيبة كل المصيبة أن يموت الإنسان وقد أشرك مع الله عَزَّ وَجَلَّ غيره، حذارِ يا عبد الله! لا تستهن بهذه

الأبواب، ولا تستهن بهذه النصوص، ولا تستهن بهذه الدلائل، بل تأملها وأَحْضِر قلبك عندها وافتح سمعك وعقلك لها، وأحسِن تدبرها وتأملها وأحفظها، لربما كانت سببًا للعصمة وسببًا للوقاية، والموفَّق من وفقه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**باب قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾** [سبأ: ٢٣]»؛ هذه الآية التي افتتح بها المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الباب.

وهذا الباب فيه آية وحديثان؛ هذه الآية وحديثان بعدها، حديث أبي هريرة وحديث النواس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، **وفيهما تنبيه على دليلين عقليين شرعيين هما من أحسن الأدلة وأقواها في بيان التوحيد ونقض الشرك:**

❖ **الأول**: الاستدلال على هذا المقام العظيم بعظمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأن الله جَلَّ جَلَالُهُ له الكمال المطلق وله العظمة الكاملة، وإذا كان كذلك كان حريًا أن يُعبدَ وحده لا شريك له، الله العظيم خضعت لعظمته كلُّ الأشياء ،حتى السماوات والأرض هذه الأجرام العظيمة كانت تخاف من الله جَلَّ وَعَلَا وتخضع له وتذعن له وتسبِّح له، حتى الملائكة ذلك الخلق العظيم الذي هو من أعظم خلق الله جَلَّ وَعَلَا، ومع ذلك هو خاضع لعظمة الله عَزَّ وَجَلَّ، كل هذا الخلق مع عظمته ومع مكانته ومع رفيع درجته ومع ذلك كلهم خاضعون لله جَلَّ وَعَلَا، النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما عند أبي داوود بإسناد صحيح من حديث جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أُذِن لي أن أُحدِّث عن ملكٍ من حملة العرش، ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام»، انظر إلى هذه العظمة التي تتحير عندها الألباب، هذا مَلَكٌ مخلوق من ملائكة الله جَلَّ وَعَلَا وهو بهذه العظمة الهائلة ومع ذلك هو خاضع لله، ذليل لله، يخاف من الله. فإذا كان ذلك كذلك فالله العلي الكبير هو الجدير بالعبادة وحده لا شريك له، وهذا واحدٌ من الأمرين العظيمين اللذين تضمنهما هذا الباب.

❖ **أما الثاني**: فهو الاستدلال على قُبْحِ الشرك بنقص كل من سوى الله جَلَّ وَعَلَا، فإذا كان كل من سوى الله ناقصًا عاجزًا لم يستحق أن يُعبد، وكان الذي يُخضع له ويُذعن له هو الحري بأن يُعبد وحده لا شريك له.

في هذه الآية وما بعدها من الحديثين: بيان أنَّ الملائكة لا تصلح أن تكون معبودة؛ لأنها تخاف، والذي يخاف لا يصلح أن يكون ربًا ولا إلهًا.

وفيما يأتي من الحديثين أنَّ الملائكة تُصعَق إذا تكلم الله عَزَّ وَجَلَّ بالوحي كما سيأتي، يأخذها صعق ورعدة وفزع عظيم، ومن كان كذلك لا يصلح أن يكون ربًا ولا يصلح أن يكون إلهًا، وبالتالي نَقْصُ هذه المخلوقات التي هي الملائكة دليلٌ على بطلان إشراكها مع الله، وإذا كانت هذه الملائكة مع عظيم خلقتها ورفيع منزلتها لا تصلح للعبادة فغيرها من باب أولى.

إذًا هما استدلالان في غاية الأهمية ينبغي أن يتنبه لهما المسلم حينما يقرأ في أدلة الكتاب والسنة.

➢ **الاستدلال الأول**: الاستدلال على توحيد الله بالعبادة بكونه العظيم الذي له الكمال المطلق من جميع الوجوه.

➢ **والاستدلال الثاني**: الاستدلال على بطلان الشرك بغير الله بكون كل ما سوى الله عاجزًا ناقصًا، وبالتالي يتجلى لنا حُسْنُ التوحيد وقبح الشرك.

قال جَلَّوَعَلَا: ﴿**حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ**﴾؛ فَهْمُ هذا الآية يتم بمعرفة ما قبلها.

قال الله جَلَّوَعَلَا وهذه الآية في سورة سبأ: ﴿**قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ * وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ**﴾[سبأ٢٢-٢٣]؛ هذه آيةٌ عظيمة من أعظم أدلة التوحيد، حتى إنَّ المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أشار في المسائل إلى ما ذكره أهل العلم؛ وهو أنَّ هذه الآية تقطع جذور شجرة الشرك من القلب، ولكن هذا لمن فتح الله عَزَّوَجَلَّ على قلبه ورُزِقَ حسن بصيرة يتدبر بها كلام الله.

﴿**قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ**﴾ ؛ هذا أمرُ تعجيز للمشركين، وفيه إقامة الحجة عليهم، ﴿**قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ**﴾ ادعوهم وانظروا في حالهم والشأن أنَّ كلَّ من دُعِيَ وعُبِدَ من دون الله إنما يُدعى لسبب، لا يَفعلُ هذا -أعني أن يَعبُدَ دون سببٍ- عاقلٌ، بل لا بد أن يكون عنده سببٌ يدعوه إلى أن يخص هذا الشيء بالعبادة، وهذا أمرٌ لا يكاد يخالفُ فيه عاقل، **وهذا السبب إن تأملته وجدته لا يخلو من واحدٍ من أربعة أسباب:**

ﷺ **إما أن يكون هذا المعبود المدعو له مِلك ومُلكٌ في هذا الكون،** فنفى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ذلك عن كل ما سواه: ﴿**قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ**﴾؛ كلُّ من تزعمونه إلهًا ومعبودًا مع الله ادعوه، ﴿**قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ**﴾ والنتيجة أنهم لا يملكون شيئًا حتى مثقال ذرة، هذا الهباء الذي يظهر في الهواء، إذا سلطت ضوء النافذة يظهر لك هباء، هذه هي الذرة الحبة من هذا الهباء، ﴿**لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ**﴾، ليس لهم أي سلطة ولا نفوذ أمر لا يملكون شيئًا البتة، ليس لهم سلطانٌ على شيء إطلاقًا، إنما المِلك والـملُك لله العظيم وحده لا شريك له، إذًا انتفى في حق هؤلاء أن يكون لهم المِلك والـملُك.

ﷺ قد يقول قائل: ربما لا يكون الواحد من هؤلاء المعبودات له مِلْكُ الاستبداد -يعني ملك الاستقلال- لكن ندعوه لأنَّ له شراكة في هذا الـمِلك، شريك مع الله عَزَّوَجَلَّ في الـمُلك، فنحن ندعوه لأجل ما له من شراكةٍ مع الله جَلَّوَعَلَا، فنفى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ذلك، **وهذا هو الأمر المنفي الثاني:** ﴿**وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ**﴾ ؛ كل ما يُعبد من دون الله ليس لهم شركٌ ولا أيُّ حدٍ ونصيبٍ من هذا الملكوت.

ﷺ قد يقول قائل: ربما يكون أحد هؤلاء ظهيرًا لله، معاونًا لله، وزيرًا لله، يستعين الله به، فلأجل ما له من هذه المكانة وهذا القدر وهذا الحق على الله أنا أعبده، فنفى الله عَزَّوَجَلَّ ذلك أيضًا فقال: ﴿**وَمَا لَهُ** ﴾ يعني: ما لله ﴿**مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ**﴾ يعني: معاون، الله عَزَّوَجَلَّ هو الغني وكل ما سواه فهو المفتقر إليه.

ﷺ إذًا ليس لهم مُلك، وليس لهم شراكة في الملك، وليس لهم أيضًا إعانةٌ لله عَزَّوَجَلَّ، ما بقيَ إلا أنه ربما يملكون الشفاعة، ربما يدلون على الله **عَزَّوَجَلَّ** كما يُدلي الشفيع المقرَّب من المشفوع عنده، فيتقدمون بين يدي المشفوع عنده كما يفعلون في الدنيا، لهم جاهٌ ومكانة عنده بحيث أنهم يؤثرون عليه، ويتقدمون بين يديه بالشفاعة متى شاءوا، ولا يملك المشفوع عنده ردهم؛ لما لهم من مكانةٍ في نفسه، فنفى الله **عَزَّوَجَلَّ** هذا الأمر أيضًا فماذا قال؟ ﴿**وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ * وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ**﴾ لِم؟ لأن الشفاعة مِلْكٌ خالص لله **سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ** وحده.

تأمل دومًا قول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿**قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا**﴾[الزمر:٤٤] من أولها إلى أخرها لمن؟ لله، (لام) الـمِلك والاستحقاق، الشفاعة لله وحده لا شريك له كلها، لا يمكن أن تكون شفاعة مملوكة مستحقة لغير الله جَلَّوَعَلَا، فهو الذي يملكها، وهو الذي يمنحها ويتفضل بها على من يشاء. إذًا كل من سوى الله جَلَّوَعَلَا ليس له نصيبٌ في الشفاعة، إنما الله هو الذي يتفضل عليه بما يملكه وهو الشفاعة، حتى إنَّ الشافع لا يعدو أن يكون مأمورًا بالشفاعة، ليس أنَّ له حقًا وجاهًا عند الله عَزَّوَجَلَّ بحيث أنه يتقدم بين يدي الله جَلَّوَعَلَا بالشفاعة لما له من إدلال ولما له من جاه ولما له من حظوة عند الله جَلَّوَعَلَا. حذارِ يا عبد الله هذا مفهوم مغلوط، أَكثَرَ الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه من نفي الشفاعة في الآخرة لأجل أن يزول هذا المعنى من قلبك.

الشفاعة التي يعهدها الناس في الدنيا منفية لا وجود لها، الشفاعة التي تكون يوم القيامة شأنٌ آخر، الشفاعة التي تكون يوم القيامة مِلك لله جَلَّ وَعَلَا هو الذي يملكها، ولا يجرؤ أحدٌ قط على أن يتقدم بين يدي الله عَزَّ وَجَلَّ بها حتى يأذن له الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، بل لا يجرؤ على أن يتكلم بين يدي الله عَزَّ وَجَلَّ أحدٌ إلا إذا أذِن له، بل إلا إذا أمره الله عَزَّ وَجَلَّ، حتى سيد الشفعاء صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي له النصيب الأوفر من الشفاعة والذي له المقام العظيم عند الله جَلَّ وَعَلَا، وهو نبينا محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومع ذلك فالله عَزَّ وَجَلَّ يأمره أن يشفع فيقول له: «اشفع» فعل أمر «تُشفَّع».

إذًا الشفاعة لله جَلَّ وَعَلَا، وكل من سواه لا يملك هذه الشفاعة ولا يجوز بحال أن تتعلق القلوب به لأجل هذه الشفاعة، إنما يجب أن يتعلق قلبك بمن يملك الشفاعة وهو الله جَلَّ وَعَلَا لا غير.

ثم قال الله عَزَّ وَجَلَّ بعد ذلك: ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾، **اختلف العلماء في المراد**: بمن فُزع عن قلوبهم؟

❑ **قالت طائفة من أهل العلم**: إن هؤلاء هم المشركون يُفزَّع عن قلوبهم يوم القيامة، قرأ الجمهور: ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾، وقرأ ابن عامر: ﴿حَتَّى إِذَا فَزَّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ يعني الله جَلَّ وَعَلَا؛ قرأ هو على البناء للمعلوم، وقرأ الجمهور على البناء للمجهول، والمراد أن الله عَزَّ وَجَلَّ هو الذي يُفَزِّع عن قلوبهم.

ومعنى ﴿فَزَّعَ﴾ هنا: يعني أزال الفزع. انتبه! في اللغة العربية الفعل إذا جاء على وزن «فَعَّلَ» فإنه يأتي على أحد ضربين:

١. إما أن يكون بمعنى: الإدخال في الشيء؛ كنحو قولك "عَلَّمَ" يعني: سعى في إدخال العلم في غيره علمَ.

٢. وقد تأتي بالعكس يعني: في إخراج شيء عن شيء، كما في هذه الآية؛ فَزَّعهُ يعني: أزال الفزع منه، جَزَّعه: أزال الجزع منه، مَرَّضَه: سعى في إزالة المرض عنه.

إذًا ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ﴾ يعني أُزيل، الله جَلَّوَعَلَا يزيل الفزع من قلوبهم، **والفزع هو: الخوف المفاجئ**، لما يصيبهم من الوجل والخوف العظيم في أهوال القيامة يصيبهم فزع ثم يزيله الله عَزَّوَجَلَّ عن قلوبهم فيقولون: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ فتجيب الملائكة: ﴿قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾.

❑ **القول الثاني**: أنَّ المراد بالذين يُفَزَّعُ عن قلوبهم هم الملائكة؛ وهذا الذي اختاره جماعة كبيرة من أهل العلم وهو اختيار ابن جرير، وابن كثير، وابن عطية، وظاهر تبويب البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في صحيحه، وهو الأنسب لسياق الآية، بل وهو الذي تعضده أدلة السنة كما سيأتي معنا في أدلة الباب، ومعلومٌ أنه إن أمكن تفسير القرآن بالسنة فلا ينبغي العدول عن ذلك.

إذًا الصحيحُ إن شاء الله أن الذين يُفَزَّعُ عن قلوبهم إنما هم الملائكة، وسيأتي تفصيل كيفية ذلك، وسيأتي سبب ذلك في شرح الحديثين القادمين إن شاء الله.

قال جَلَّوَعَلَا: ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾؛ إذًا الملائكة تخاف وتفزع وتوجل ، ومن كان هذا شأنه أيكون ربًا وإلهًا؟! الجواب: لا، **وهذا وجه**

الاستدلال من هذه الآية: أن الملائكة لا تصلح لأن تكون آلهة؛ لأنها تخاف وتفزع، ومن كان هذا شأنه لا يصلُح لأن يكون ربًا ومعبودًا.

قال جَلَّوَعَلَا: ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾، وذلك إذا تكلم الله عَزَّوَجَلَّ بالوحي فإنهم يسمعون صوتًا عظيمًا يكون له تأثيرٌ عظيمٌ في قلوبهم فيحصُل لهم فَزَعَ، ثم إنهم يَمُنُّ الله عَزَّوَجَلَّ عليهم بإزالة هذا الفزع، يُفزع عن قلوبهم فيقولون ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ فتقول طائفة من الملائكة لهم: ﴿قَالُوا الْحَقَّ﴾.

ولأهل العلم قولان في تفسير قوله تعالى ﴿قَالُوا الْحَقَّ﴾:

❖ **الأول**: أنَّ المراد أنهم يقولون «قال الله الحق»، يعني: كلمة (الحق) منصوبة على أنها مفعول به، أو أنها صفة؛ قالوا: «قال اللهُ القولَ الحقَّ». إذًا قالوا الحق: يعني: «قالوا: قال الله الحقَّ»، أو «قالوا: قال الله القول الحقَّ».

❖ **وأمَّا القول الثاني** وهو ما نحى إليه ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره فهو: أنهم يقولون ما أمرهم الله عَزَّوَجَلَّ بإبلاغه من الوحي دون زيادة أو نقصان، يقولون الحق، ويبلِّغون الحق، ويكونون أمناء على وحي الله عَزَّوَجَلَّ الذي يأمرهم أن يبلغونه، فهمنا هذا الوجه؟ ﴿قَالُوا الْحَقَّ﴾يعني: يقولون القول الحق، وليس أن الملائكة تقول القول الباطل، إنما يقولون: الحق.

ولكنَّ الأول أولى وهو المناسب لسياق الآية، لا سيما وأنَّ ظاهر قوله ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ أنَّه تابعٌ لـ ﴿قَالُوا الْحَقَّ﴾.

وعلى التفسير الثاني: يكون كَلامًا مستأنفًا، وهذا فيه من البُعْدِ ما لا يخفى، فالظاهر والله أعلم وهو الذي عليه أكثر المفسرين أنَّ ﴿قَالُوا الْحَقَّ﴾ يعني: قالوا: «قال الله الحق»، أو «قال الله القول الحق».

في هذه الآية من الفوائد: إثبات صفة القول لله عَزَّوَجَلَّ، وصفة العلو، وصفة الكِبر[٢٣٣] . أما القول: ففي قول الله جَلَّوَعَلَا ﴿**قالوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ**﴾؛ إذًا الله جَلَّوَعَلَا يقول. الله جَلَّوَعَلَا ثَبَتَ في القرآن والسنة أن من صفاته: القول، والكلام، والحديث، والمناداة، والمناجاة، وكلها بمعنى واحد في الجملة على فروقٍ دقيقة بين هذه الكلمات، لكن في الجملة المعنى واحد؛ فالله يقول، وله القول جَلَّوَعَلَا، يتصف بالقول، ويتصف بالكلام، ويتصف بالحديث، ويتصف بالمناداة، ويتصف بالمناجاة.

ومنهج أهل السنة والجماعة وهو الذي مضى عليه السلف الصالح: أنَّ الله جَلَّوَعَلَا يقول ما يشاء، ويتكلم بما يشاء إذا شاء كيف شاء سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وأنَّ كلامه بحرفٍ وصوت، وهذا الذي لا تعرف العرب في لغتها كلامًا سواه، لا يكون الكلام كلامًا إلا إذا كان بحرف وصوت، وسيأتي معنا ما يتعلق بإضافة الصوت إلى الله جَلَّوَعَلَا ضِمَنَ ما يُشرح من الحديث الذي سيمر معنا -إن شاء الله-.

(٢٣٣) وهذا كما نصَّ المؤلّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ والنسائي فيه: ردٌّ على الأشعرية المعطّلة.

وخالف في هذه الصفة من خالف من أهل البدع؛ طائفة نفت الكلام عن الله عَزَّوَجَلَّ ونفت القول عن الله عَزَّوَجَلَّ صراحةً، وطائفةٌ نفت الكلام عن الله عَزَّوَجَلَّ بمواربة.

- طائفة قالت: الله عَزَّوَجَلَّ لا يتكلم؛ إنما الكلامُ مفعولٌ مخلوق لله جَلَّوَعَلَا ، الله عَزَّوَجَلَّ يخلق شيئًا اسمه الكلام، مثل ما يخلق السماء والأرض والشجر والحجر كذلك يخلق الكلام. ولا شك أنَّ هذا من أعظم الباطل بل هذا من الكفر بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ، وقد أجمع السلف على كفر من قال بأن كلام الله جَلَّوَعَلَا مخلوق. ومن لطيف ما استدل به البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ من هذه الآية التي معنا ما بوّب به في صحيحه فقال: «باب قوله تعالى: ﴿**حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قالوا ماذا قَالَ رَبُّكُمْ**﴾[سبأ:٢٣] قال البخاري: ولم يقولوا ماذا خلق ربكم؟»(٢٣٤) .

- وأما الذين نفوا هذه الصفة بمواربة ولم يكونوا صرحاء صراحة الأولين، فهم الذين قالوا: إن كلام الله جَلَّوَعَلَا معنًى قائم بذات الله عَزَّوَجَلَّ ، وسموا هذا الكلام «الكلام النفسي» وأنه لا يتبعض ولا يتجزأ بل هو شيء واحد.

وهذا في الحقيقة إن تأملته لم تجده الكلام الذي هو حقًا صفةٌ لله جَلَّوَعَلَا بل هذا شيء آخر. وعاد قولهم إلى أن الكلام الذي هو بعض كلام الله الذي هو القرآن مخلوق، فالقرآن الذي بين دفتي المصحف كلام الله جَلَّوَعَلَا، نؤمن أن

---

(٢٣٤) فهذا فيه دليل على أنَّ القول ليس هو الخلْق، وأنَّ الله ﷻ يقول قولًا حقيقةً، ويتكلّم كلامًا حقيقيًا.

الله تكلم به وهو بعض كلام الله، وهؤلاء يعتقدون أنه مخلوق؛ لأنه عبارة عن كلام الله أو حكاية عن كلام الله. وعلى كل حال مذهبهم باطل، وهذه الآية فيها ردٌ عليهم كما قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في المسائل: (في الآية إثبات الصفات خلافًا للمعطلة)(٢٣٥).

(٢٣٥) وأمَّا الذين نفوا كلام الله ﷻ بمغالطة؛ فهم الأشاعرة والماتُريديّة؛ فإنهم زعموا إثبات الكلام لله ﷻ وعَدُّوا هذا من صفات المعاني لله تبارك وتعالى. تعلمون أن الأشاعرة يثبتون جُملةً من الصفات وينفون غيرها عن طريق التأويل، ما يثبتونه -وهذا الذي عليه المتأخّرون مِمَّن يعتمدُ على متن السنوسية ومن بعده وأيضًا من قبله وإلا فالخلاف عند الأشاعرة حاصل، لكن استقرَّ الأمر عند المتأخّرين على إثبات عشرين صفة- صفة الوجود وهي الصفة النفسية، والصفات السلْبية.

قِدمٌ بقاءٌ قائمٌ متوحدٌ ومخالفٌ، تمت صفات السلب

والصفات المعاني السبعة المعروفة:

له الحياةُ والكلام والبصر سمعٌ إرادةٌ وعلْمٌ واقتدر

ويثبتون بعد ذلك سبعة يسمّونها (الصفات المعنوية) وهي في الحقيقة تكرارٌ لصفات المعاني؛ كونه سميعًا، كونه بصيرًا، كونه عليمًا، كونه حيًّا، إلى آخره.

الواقع أنّهم في صفة الكلام لم يثبتوها وإن زعموا أنهم يثبتوها، الواقع أنهم أثبتوا شيئًا آخر ليس هو صفة الكلام الذي أثبته الله ﷻ لنفسه، هم يقولون: "لله ﷻ صفةُ الكلام وهو كلامٌ أَزليٌّ قديمٌ قائمٌ بذات الله ﷻ كما تقوم به الحياة والعلم والقدرة وأمثالُ ذلك". وهذا في الحقيقة ليس هو صفة الكلام، ولا يُعرفُ هذا في كلام أحدٍ قطّ، لا من أهل اللّغة ولا من

ثانيًا: في الآية إثبات صفة العلو لله جَلَّ وَعَلَا ؛ قال سبحانه: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾[سبأ:٢٣]. الله جَلَّ وَعَلَا اسمه: العلي، وصفته: العلو، والعلو في صفة الله جَلَّ وَعَلَا ثلاثة أنواع كلها حق وكلها ثابتة له.

أهل العلم، وحقيقة الأمر: أنَّهم أثبتوا شيئًا لا يُعقل، ولذلك هم أنفسهم عاجزون عن وضْع تعريف واضح للكلام المرسِل الذي زعموه.

والواقع أنَّ كلام الله ﷻ الذي هو القرآن لم يثبتوه كلامًا لله ﷻ، فأضحى الخلاف بينهم وبين المعتزلة خلافا لفظيا، وهذا قد نقله بعض أساطينهم؛ كالجرجاني والبِيجي وغيرهما؛ أنَّ الخلاف بينهم وبين المعتزلة في هذه المسألة خلاف لفظي؛ لأنَّ هذا القرآن الذي بين دفتَي المصحف عندهم ليس كلام الله، إنما هو عبارة عن كلام الله على ما تقول الأشعرية، أو حكاية عن كلام الله كما تقول الماتُريديّة، وليس هو كلام الله سبحانه، وإنَّما هو تعبيرٌ عن ذلك؛ عبَّر جبريل بهذه الألفاظ عن كلام الله النفسي، أو نبينا محمد ﷺ ، على خلافٍ بينهم في هذه المسألة.

فالخلاصة أنَّ هذه الآية وما يأتي من حديث أبي هريرة وحديث النَّواس أيضًا فيها ردٌّ على الأشعرية المعطّلة كما وصفهم المؤلّف رَحِمَهُ اللَّهُ في مسائل الباب.

والواقع أن بعض الناس يظن أنَّ الخلاف بين أهل السُّنَّة والأشاعرة منحصرٌ في باب الصفات، وهذا غلط؛ فالأشاعرة في بابِ الإيمان هم مرجئة، وفي باب القدر جبرية، وفي باب الصفات عندهم تجهّم، ولديهم مخالفات أيضًا في أبواب أخرى؛ لديهم مخالفات في باب النُّبوات، ولديهم مخالفات أيضًا في بعض مسائل اليوم الآخر، ولديهم أيضًا مخالفة عظيمة تتعلّق بمنهج الاسْتدلال والتلقّي، حيث إنَّ الأصل عندهم هو العقل، وأمَّا السمع فإنَّه تابعٌ للعقل، فإن وافقَه وإلا فإنَّه مرْدود.

وله العلو من الجهات جميعها ذاتًا وقهرًا مع علو الشان

➢ **له علو القدر والشأن** ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾[الإسراء:٤٣].

➢ **وله علو القهر**: فالله **جَلَّوَعَلَا** علا على كل شيء، يعني: قهر كل شيء، «علا» تأتي في اللغة بمعنى: قهرَ، كما قال سبحانه: ﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[المؤمنون:٩١].

➢ **وله علو الذات**: هو سبحانه عالم على كل شيء، وفوق كل شيء، وكل شيء فهو دون الله جل وعلا، الله عَزَّوَجَلَّ له العلو المطلق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

يا قومَنا والله إنَّ لقولنا ألفًا تدلُّ عليه بلْ ألْفانِ
عقلًا ونقلًا مع صريح الفطرة الأُولى وذَوق حلاوةِ القرآنِ
كلٌّ يدلُّ بأنَّه سبحانَه فوقَ السماءِ مباين الأكوانِ
أترونَ أنَّا تاركوا ذَا كلِّه لجعَاجِع التعطيل والهذيان

إذًا الله جَلَّوَعَلَا له صفة العلو الذاتي على كل شيء ، وقد ضلَّ في هذا طائفتان:

-**طائفة تقول**: الله ليس في مكان؛ لا داخل العالم ولا خارجه ولا فوقه ولا تحته ولا عن يمينه ولا عن شماله.. إلى آخر ما يذكرون.

-**وطائفة تقول**: الله في كل مكان.

وكلا الطائفتين ضلت الحق وتجنبت سواء السبيل، بل الأدلة التي لا شك فيها من جهة الشرع ومن جهة العقل ومن جهة الفطرة التي فطر الله الناس عليها كلها متضافرة على أن الله في العلو المطلق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الصفة الثالثة: صفة الكِبَر قال: ﴿**وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ**﴾ ؛ من أسمائه «الكبير»، الله جل وعلا له الكِبَر وله العظمة، بل هو أكبر من كل شيء وأعظم من كل شيء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وإذا كان الله عَزَّوَجَلَّ أكبر من كل شيء وجب أن يكون عند عابديه أكبر من كل شيء، ويجب أن تكون محبته في قلوبهم أكبر من كل محبة، ويجب أن يكون خوفه في قلوبهم أكبر من كل خوف، بهذا يتحققون بإيمانهم بصفة الكبر لله جَلَّ وَعَلَا.

الشاهد: أن هذه الآية ردٌ صريح على الذين ضلوا في شأن الملائكة فجعلوهم شركاء مع الله أو أنهم شفعاء عند الله جَلَّ وَعَلَا يملكون الشفاعة، وأنهم يشفعون بلا إذنه، رد الله جَلَّ وَعَلَا ذلك عليهم في هذه الآية وفي غيرها من الآيات، ولا يخفاك أن من المشركين من كان يعبد الملائكة، بل في هذه السورة نفسها في سورة سبأ يقول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ* قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾[سبأ:٤٠-٤١] ثم قال الله: ﴿فَالْيَوْمَ لا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلا ضَرًّا﴾[سبأ:٤٢]، الله جَلَّ وَعَلَا بيَّن أنه ليس يملك الملائكة نفعًا ولا ضرًا لعابديهم ولا من عبدوهم يملكون لهم نفعًا ولا ضرًا، لأن ذلك بيد الله سبحانه لا شريك له.

إذًا انتفى أن يكونوا شركاء مع الله جَلَّوَعَلَا في العبادة، وانتفى أيضًا أن يكونوا شفعاء مع الله؛ ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾[النجم:٢٦].

أخيرًا في قول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿**قَالُوا الْحَقَّ**﴾ ؛ يعني على الراجح: قالوا (قال الله الحق)، **والحق** اسم الله جَلَّوَعَلَا، والحق قول الله جَلَّوَعَلَا، ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ﴾[ص:٨٤]، ﴿وَاللهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾[الأنعام:١١٥].

والحق في قول الله عَزَّوَجَلَّ هو: الصدق في الأخبار والعدل في الأحكام، ﴿**وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا** ﴾[الأنعام:١١٥]. فالله جَلَّوَعَلَا لا يقول إلا الحق سواءً كان ذلك في القول الكوني أو في القول الشرعي، فالله جل وعلا يدبر هذا الكون بقوله ويخلق بقوله : ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[النحل:٤٠]، كما أنه يقول الحق سبحانه في قوله الشرعي ومنه وحيه الذي يُنْزِله على رُسله، ومن ذلك هذا القرآن الذي بين أيدينا: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾[الإسراء:١٠٥] (٢٣٦).

(٢٣٦) فهذه الآية فيها أبلغ ردٍّ على هؤلاء الذين تعلّقوا بالملائكة وعبدوهم لكونهم -في زعْمهم- بنات الله ﷻ، ويشفعون عنده كما يشفع الأقرباء لدى الملوك والسلاطين ويدلون عليهم، ويشفعون بدون رضاهم، ويملكون الشفاعة، وهذا كلّه باطل. الله ﷻ له الشفاعة جميعًا، والملائكة لا يمكن أن يسبقوا الله ﷻ بالقول ولا أن يشفعوا بين يدَيه حتى يأذن جلَّ وعلا. وتَتِمَّة توضيح أو بيان هذه الآية يظهر من خلال حديث أبي هريرة الآتي.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِذَا قَضَى اللهُ الأَمْرَ فِي السَّمَاءِ ضَرَبَتِ المَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خَضْعَانًا لِقَوْلِهِ كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ يَنْفُذُهُمْ ذَٰلِكَ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ؛ قَالُوا: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟، قَالُوا: الحَقَّ؛ وَهُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ، فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُ السَّمْعِ، وَمُسْتَرِقُ السَّمْعِ هٰكَذَا بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ -وَصَفَهُ سُفْيَانُ بِكَفِّهِ، فَحَرَفَهَا وَبَدَّدَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ-، فَيَسْمَعُ الكَلِمَةَ فَيُلْقِيهَا إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، ثُمَّ يُلْقِيهَا الآخَرُ إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، حَتَّى يُلْقِيَهَا عَلَى لِسَانِ السَّاحِرِ أَوِ الكَاهِنِ، فَرُبَّمَا أَدْرَكَهُ الشِّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا، وَرُبَّمَا أَلْقَاهَا قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ، فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةَ كِذْبَةٍ، فَيُقَالُ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا: كَذَا وَكَذَا؟ فَيُصَدَّقُ بِتِلْكَ الكَلِمَةِ الَّتِي سُمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ»).

أردف المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد ذلك حديث أبي هريرة فقال: (في الصحيح)، يعني في صحيح البخاري(٢٣٧)، عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خَضَعانًا – أو خُضعانًا**»، يجوز الوجهان، «خَضَعانًا»: يعني خضوعًا، و«خُضْعانًا»: يعني خاضعين لعظمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذا قضى الله الأمر في السماء**»؛ **قضاء الله** جَلَّ وَعَلَا دلت الأدلة على أنه ينقسم إلى قسمين:

- **القسم الأول**: قضاء كوني؛ ومنه قول الله **جَلَّ وَعَلَا**: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ [فصلت:١٢].

---

(٢٣٧) البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ أخرج هذا الحديث في غير موضع؛ مرَّةً بتمامه ومرَّة مختصِرًا.

➢ **والقسم الثاني**: قضاء شرعي؛ ومنه قوله تعالى ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾[الإسراء:٢٣].

وعدم التفريق بين النوعين يوقع في التباس، وربما في ضلال؛ وذلك أن ما قضاه الله جَلَّوَعَلَا كونـًا فإنه واقعٌ ولابد، كل ما قضاه الله جَلَّوَعَلَا كونـًا فلا يمكن إلا أن يقع. أما ما قضاه الله شرعـًا فقد يقع وقد لا يقع بحسب ما يشاء الله عَزَّوَجَلَّ، وذلك راجعٌ إلى حكمته تَبَارَكَوَتَعَالَى، فالله جَلَّوَعَلَا قد يشاء وقوع المقضي شرعـًا، وقد لا يشاء وقوعه، وذلك من حكمته تَبَارَكَوَتَعَالَى في هذا وفي هذا.

لو قلنا إنَّ القضاء في قوله تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾[الإسراء:٢٣] إنه هو القضاء الكوني لكان هذا ضلالاً مبينـًا، بل أدى هذا إلى الوقوع في الكفر بالله سبحانه؛ وذلك أن القضاء الكوني -وقد علمتَ أنه لابد من وقوع المقضي فيه- يقتضي أن لا يُعبد إلا الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، وعليه فكل ما عُبد فهو الله، ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾، وهذا هو مذهب أهل الحلول ووحدة الوجود، وهذا من أعظم الكفر بالله جَلَّوَعَلَا. إذًا لابد من مراعاة التفريق، وأن القضاء في كل مقام بحسبه.

إذا قضى الله عَزَّوَجَلَّ الأمر في السماء فإنَّ الملائكة تخضع لعظمة الله جَلَّوَعَلَا، ودلَّ هذا الحديث على وصف الملائكة بالخوف والخضوع من الله

جَلَّوَعَلَا، وعلى أن لهم أجنحة، وذلك مما دلت عليه أدلةٌ عدة في الكتاب والسنة.

أما ثبوت الأجنحة للملائكة فهذا ما دل عليه قول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ [فاطر:١]، وثبت في الصحيحين من حديث ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ «أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ رأى جبريل وله ستمائة جناح، سد الأفق»(٢٣٨).

أما ثبوت الخوف والخضوع من الملائكة لله جَلَّوَعَلَا فهذا من أظهر صفاتهم في الكتاب والسنة، والله جَلَّوَعَلَا وصفهم بأنهم ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل:٥](٢٣٩).

وهؤلاء الملائكة طائعون لله جَلَّوَعَلَا، هم عالم غيبي بالنسبة لنا، خلقهم الله جَلَّوَعَلَامن نور، ووفقهم لطاعته، حتى إنَّ أوقاتهم كلها مستغرقة في طاعة الله جَلَّوَعَلَا، ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [النحل:٥] ، طائعون دائبون؛ ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا

(٢٣٨) وفي هذه القطعة من الحديث أيضًا: إثبات سماع الملائكة، فهم متّصفون بالسَّمع، قد سمعوا كلام الله ﷻ.

(٢٣٩) ﴿وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء:٢٨]

خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾[الأنبياء:٢٦-٢٨][٢٤٠].

(٢٤٠) الملائكة مجبولون على طاعة الله سبحانه، وطاعتهم ليست كما يقول بعض أهل البدع "إنها طاعة قسْرية دون إرادة واختيار"، لا شكَّ أنَّ هذا باطل، بلْ هم يعبدون الله عن إرادةٍ واختيار، ولكنَّهم مجبولون على ذلك من الله ﷻ، هو الذي وفقهم وهو الذي هداهم، ولو لم تكن طاعتهم كذلك -يعني عن إرادة واختيار- لم يكن هناك وجهٌ لمدحهم والثناء عليهم لطاعته ﷻ، ﴿عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٨]، ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء:٢٠]، مثل هذا لو كان عن غير إرادة واختيار لم يكن محلًا للمدح.

كذلك في قوله جلَّ وعلا: ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء:٢٩] ولو كان لا يتأتَّى منهم هذا القول ويستحيل عليهم هذا القول لم يُمدَحوا على عدم قولهم، فدلَّ هذا على أنَّ طاعتهم واختيارهم إنما هي هداية من الله سبحانه، وأنهم معصومون بعِصمة الله تبارك وتعالى.

وهذا الذي عليه جماهير أهل العلم، بلِ الإجماع معقود عليه عند أهل السُّنَّة أنَّ الملائكة معصومون من السيئات والمعاصي؛ لأنَّ أوقاتهم كلّها مستغرَقَة في طاعة الله، ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء:٢٠]، ﴿وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾، فأخبر الله ﷻ عن الملائكة الموكّلين بالنار -يعني خزنة النار- بأنهم لا يعصون الله ما أمرهم. ولا فرق في الحقيقة من هذه الجهة بين خزنة النار وغيرهم، فدلَّ هذا على أنَّ الملائكة معصومون من السيئات والذنوب، وأنَّهم موفَّقون لطاعة الله تبارك وتعالى.

فالملائكة يتصفون بعبادةٍ عظيمة لله جَلَّوَعَلَا، ومن أجلى تلك العبادات: الخوف من الله سبحانه، حتى إنَّ النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ رأى جبريل ليلة ما أُسريَ به كالحلس البالي من خشية الله، الحلس يعني: كالحصير البالي من خشية الله جَلَّوَعَلَا، وهذا دليلٌ على عظمة خوفه من الله عَزَّوَجَلَّ.

والملائكة خلقٌ كثير لا يحصي عددهم إلا الله، ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾[المدثر:٣١]، والنبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أخبر كما في الصحيح عن البيت المعمور الذي رآه لما عُرج به إلى السماء، أخبر أن جبريل أخبره «أن هذا البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، فإذا خرجوا منه لم يعودوا إليه آخر ما عليهم»، لا يزور الواحد منهم هذا البيت فيتعبد فيه إلا مرة واحدة فقط، وفي كل يوم يدخله سبعون ألف ملك؛ وهذا يدلك أنَّ عددهم عددٌ عظيم جداً.

هؤلاء الملائكة الكرام مع عظيم خلقتهم وقوتهم ومع ذلك فإنهم يفزعون ويخضعون ويخافون، وبالتالي فإنهم لا يستحقون أن يُعْبَدُوا مع الله عَزَّوَجَلَّ.

قال: «**إِذَا قَضَى اللهُ الأَمْرَ فِي السَّمَاءِ ضَرَبَتِ المَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خَضْعَانًا لِقَوْلِهِ كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ**»؛ «كأنه سلسلة على صفوان» دل هذا الجزء من الحديث على إثبات كلام الله جَلَّوَعَلَا، فإن الله عَزَّوَجَلَّ يقضي بكلامه، كما تدل على هذا أدلة كثيرة، ومنها ما سيأتي في حديث النواس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

ويدل أيضـاً على ثبوت الصوت في كلام الله جَلَّوَعَلَا، وأن كلام الله بصوتٍ، وذلك أن هذا الحديث فيه أن الملائكة تضرب بأجنحتها خَضعانًا لعظمة الله

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأن الصوت الذي يبلغهم كسلسلة على صفوان ينفذهم ذلك، كما سيأتي في هذا الحديث، «ينفذهم»: يعني يأخذ بقلوبهم ويدخل إلى قلوبهم، فيصيبهم فزعٌ عظيم، فهذا فيه إثبات كلام الله جَلَّ وَعَلَا.

وثبوت الصوت في كلام الله دلت عليه أحاديث كثيرة، جاء في نحو أربعة عشر حديثاً عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الصحيح وفي غيره، فيها إثبات الصوت في كلام الله جَلَّ وَعَلَا. ومن ذلك: ما ثبت عند البخاري وغيره: «أن الله تعالى ينادي يوم القيامة بصوتٍ يسمعه من قرُب كمن بعُد: أنا الملك، أنا الديان»، كذلك ما ثبت في البخاري وغيره: «أن الله تعالى ينادي يوم القيامة بصوتٍ فيقول: يا آدم، أخرج بعث النار من ذريتك».

فالشاهد أنَّ هذا الحديث فيه إثبات الصوت في كلام الله جَلَّ وَعَلَا[(٢٤١)]، ويشهدُ لهذا ما علقه البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في صحيحه[(٢٤٢)] عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ورُويَ عنه مرفوعاً أيضاً كما عند أبي داود في سننه، لكنَّ الموقوف أصح كما قال الدارقطني في العلل، وإن كان موقوفاً فإنَّ له حكم المرفوع. الشاهدُ أنَّ ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «إذا قضى الله الأمر بالوحي سمعت الملائكة شيئاً، حتى إذا فُزِّع عن قلوبهم وسكن الصوت قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: الحق وهو

---

(٢٤١) ولا شكَّ أن هذا معلوم بداهةً، فالكلام لا يكون كلامًا بإطلاق إلا بالصوت، وهذا الذي لا تعرف العرب في لغتها غيره.

(٢٤٢) في «كتاب التوحيد».

العلي الكبير»؛ الشاهد: أنهم يسمعون شيئًا، ثم قال: «فإذا سكن الصوت»، فدل هذا على أن كلام الله جَلَّوَعَلَا بصوتٍ.

ولكن تنبه يا رعاك الله إلى أن كلام جَلَّوَعَلَا ليس ككلام المخلوقين، وأن صوت الله جَلَّوَعَلَا ليس كصوت المخلوقين، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[الشورى:١١]، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾[مريم:٦٥]، ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾[الإخلاص:٤]، ﴿فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ﴾[النحل:٧٤]، ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾[البقرة:٢٢]. فاللهجَلَّوَعَلَا يتصف بصفاتٍ اختص بها جَلَّوَعَلَا لا يماثل فيها المخلوقين، ونحن معشر المسلمين نؤمن بما جاء في الكتاب والسنة من صفات الله جَلَّوَعَلَا على ما يليق به سبحانه، مع اعتقادنا أنَّ صفاته لا تماثل صفات المخلوقين، كما أن ذاته جَلَّوَعَلَا لا تماثل ذوات المخلوقين.

وهنا مسألة تتعلق بهذا اللفظ: «**كأنه سلسلة على صفوان**»، ما معنى هذا الكلام؟ السلسلة معروفة: الحديدة التي يَربط بعضها ببعض دوائر صغيرة أو كبيرة بحسب حال هذه السلسلة. والصفوان: الحجر الصلد الأملس، ولجرِّ السلسلة من الحديد على الصخرة الملساء صوتٌ عظيم[٢٤٣]، ويَعْظُم كلما كانت هذه السلسلة كبيرة.

فالشاهد أن الحديث جاء فيه: «**كأنه سلسلة على صفوان**»، ليس المراد هاهنا أنَّ صوت الله يشبه أو مِثْلَ صوت هذه السلسلة، تعالى الله عن أن يشبهه

---

(٢٤٣)يأخذ بالقلوب

شيء من خلقه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[الشورى:١١]، إنما التشبيه هاهنا للسماع بالسماع، وليس المسموع بالمسموع، انتبه(٢٤٤).

هذا الحديث الشأن فيه كالشأن في حديث الرؤية الذي قال فيه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر»، ليس في هذا تشبيه المرئي بالمرئي، إنما فيه تشبيه الرؤية بالرؤية، يعني أنها رؤية واضحة كرؤية القمر؛ كذلك في هذا الحديث فيه تشبيه السماع بالسماع، وليس المسموع بالمسموع؛ يعني: أنَّ لكلام الله جَلَّ وَعَلَا صوت، وأنه يكون له صوت كما أن السلسلة على الصفوان لها صوت، أو أن الصوت يوقِع في قلوبهم ويأخذ قلوبهم كما يأخذ صوت السلسلة على الصفوان، ويشهد لهذا التوجيه ما جاء في تتمة الحديث: «**ينفذهم ذلك**»(٢٤٥).

---

(٢٤٤) وهذا الذي نصَّ عليه غير واحد من أهل العلم، منهم ابن قُدامة في رسالته «تحريم النظر في كُتب الكلام»، ونصَّ عليه غير ابن قُدامة رَحِمَهُ اللَّهُ وهو الصواب.

(٢٤٥)وهذه القَرينة تدلُّ على أنَّ المراد هو السماع، فإنه ينفذ فيهم ويقع في قلوبهم موقعًا عظيمًا، ويفزعون لذلك أشدّ الفزع، فهذا هو المقصود. ويدلُّ على هذا أيضًا: أثر ابن مسعود السابق؛ فإنه قال: «إذا تكلَّم الله بالوحي سمعت الملائكة شيئًا» ، فهم يسمعون شيئًا، ثمَّ قال: «إذا سكن الصوت وفُزِّعَ عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربُّكم» ، فهم لم يسمعوا الكلام حتى يُقال إن هذا تشبيه للمسموع بالمسموع؛ لأنهم لو سمعوا الكلام وأدركوا المعاني ما احتاجوا أن يسألوا ، لكنَّهم سمعوا صوتًا عظيمًا فَزِعُوا له، وكان وقْعُه في قلوبهم كوقع السلسلة على الصفوان.

فالشاهد أن هذا التوجيه يدلك على أن ليس المقصود بهذا الحديث تشبيه الصوت بالصوت، وإنما فيه تشبيه السماع بالسماع. وبالتالي فأهل السنة والجماعة يستفيدون من هذا الحديث إثبات الصوت لله جَلَّ وَعَلَا، ويخالفون في هذا المعطلة، والإمام أحمد -كما روى ابنه عبد الله في السُنَّة- أورد أثر ابن مسعود بلفظ قريب من لفظ البخاري وفيه: «أنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ يتكلم فيسمع الملائكة كسلسلة على صفوان»، قال الإمام أحمد : «هذا تنكره الجهمية»؛ أهل السنة وسط، يثبتون الصوت خلافـًا للمعطلة، ويعتقدون أن صوت الله جَلَّ وَعَلَا لا كصوت المخلوقين خلافـًا للممثلة، والله جَلَّ وَعَلَا أعلم(٢٤٦).

---

(٢٤٦) وقد حاول أهل التأويل صرْف دلالة هذا الحديث عن حقيقته وما لا يصح غيره إلى غيره. من ذلك: ما فعله البيهقي عفا الله عنَّا وعنه في الأسماء والصفات، فإنه قد أوَّل أنَّ هذا الصوت إنما هو صوت السماء، فإنه يحصل لها فزعٌ كما في حديث النَّواس، ويكون لها مثل هذا الصوت؛ كسلسلة على صفْوان، أو أنَّ هذا صوت أجنحة الملائكة، فيكون لها صوت كسلسلة على صفْوان، وعضد ما ذهب إليه في بعض الروايات الواردة في هذا الحديث.

والجواب أن يُقالَ: إنَّ هذه المحاولة لا تفيد شيئًا؛ فإنَّ ثبوت الصوت لله عَزَّ وَجَلَّ قد جاءت في نصوص كثيرة، وقد ثبت هذا في الأحاديث الصحاح نصًا بلفظ الصوت مضافًا لله عَزَّ وَجَلَّ في أكثر من أربعة عشر حديثًا، منها ما في الصحيحين، ومنها ما هو خارج الصحيحين كقوله: «إنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ ينادي يوم القيامة بصوت: أنا الملك، أنا الدّيان»، و«أنَّه ينادي بصوت: يا آدم أخرج بعث النار من ذريتك» فدلَّ هذا على أنَّ ثبوت الصوت لله عَزَّ وَجَلَّ ثابت لا شكَّ فيه.

قال: «يَنْفُذُهُمْ ذَلِكَ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ »؛

«ينفذهم ذلك» يعني: يأخذ بقلوبهم، ويصل إلى قلوبهم.

«حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ»؛ «حَتَّى إِذَا» تفيد في اللغة معنى «لمَّا»(٢٤٧)، إذا وجدت في اللغة «حَتَّى إِذَا»؛ ﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾[الأنبياء:٩٦]، فإن المعنى : لـمَّا؛ لما فتحت يأجوج ومأجوج، لما فُزِّعَ عن قلوبِهم. وقلنا إن معنى فَزَّع: زال الفزع، أزال الله جَلَّوَعَلَا الفزع عن قلوب الملائكة، والفزع كما قد علمنا هو: الخوف المفاجئ، فإنهم يقولون «مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟»(٢٤٨) .

وأمَّا الفرار من التشبيه وأنَّ الله ﷻ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ لا في ذاته ولا في صفاته فهذا لا شكَّ فيه ولا ريب، ولكنه لم يَفهم هو وغيره الحديث على وجهِه، فإنَّه ليس فيه تشبيهَ المسْموع بالمسْموع -يعني: أنَّ صوت الله يشبه صوت المخلوق- وإنما فيه تشبيه السماع بالسماع، وأنَّ الوقْع الذي يكون على القلوب يشبه هذا الذي يكون من وقْع صوت السلسلة على الصفْوان.

ويُقالُ أيضًا: إنه لو صحَّت تلك الروايات -على تسليم صحتها- وأنه يكون للسماع صوت كالسلسلة على الصفْوان وكذلك لأجنحة الملائكة فيُقالُ: هذا لا يعارض هذا الذي ثبت في شأن صوت كلام الله ﷻ، وأنه يكون له وقْعٌ كَهذا، وأنه يكون له سماع كهذا، فإنه يُقالُ: هذا ثابت وهذا ثابت، ولا تعارض ولله الحمد. هذا الذي يظهر في هذه المسألة. والله ﷻ أعلم.

(٢٤٧) هذا الأسلوب كأنَّه قِيلَ في غير القرآن: «لمَّا».

(٢٤٨) إذًا هم لا يملكون لأنفسهم شيئًا، وهم ضعاف أمام قوّة الله تبارك وتعالى، وأمام كمال الله ﷻ، وأمام عظمة الله جلَّ وعلا، إذًا لا يستحقّون أن يُعبدوا معَ الله.

ثم يجيب بعضهم بعضًا «**قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ**»، أو كما سيأتي في حديث النواس، وما سيأتي أيضًا من ذكر حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أن جبريل يقول: قال الحق وهو العلي الكبير، فتردد الملائكة ما قال، يقولون: قال الحق وهو العلي الكبير».

قال: «**فيسمعها مسترق السمع**»؛ «مسترق السمع» مفرد مضاف فيعم، يعني: مسترقو السمع من الجن؛ وذلك أنَّ الله جَلَّ وَعَلَا لحكمته شاء أن يكون للجن قدرةٌ على استراق السمع من السماء، هم لا يسترقون السمع من داخل السماء؛ لأنَّ السماء محفوظة لا ينفذون إليها، ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا﴾[الأنبياء:٣٢]، لكنَّهم يقعدون في مقاعد خاصة بهم دون السماء المبنية يسترِقون السمع، وذلك أنَّ الملائكة في السماء الدنيا إذا تحدثوا بما قضى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من أمره، فإنَّ هؤلاء الجن ربما وجدوا شيئًا من السماع أو حصل لهم شيء من السماع، فيلقونه إلى من تحتهم حتى يصل إلى الكاهن أو الساحر.

وفسر هذا سفيان رَحِمَهُ اللَّهُ -وهو سفيان بن عيينة أحد أئمة العلماء السابقين المتوفى سنة ثمان وتسعين ومائة- «**حرَّف يده وبدَّد بين أصابعه**»، وفي رواية البخاري الأخرى: «**نصب يده اليمنى وبدَّد بين أصابعه**» ما جعلها ملتصقة، وإنما جعلها مفرجة، فجعل الخنصر إلى جهة الأسفل وجعل الإبهام إلى جهة الأعلى، يعني أن بعضهم فوق بعض كما أن هذه الأصابع بعضها فوق بعض[٢٤٩].

---

(٢٤٩) وهذا من استعمال أسلوب حسنٍ في التعليم وهو البيان بالفعل.

فالجن بعضهم يكون فوق بعض، وبالتالي فإذا سمع من فوق شيئًا من الخبر ألقاه على الجني الذي تحته، والذي تحته يلقيه على من تحته وهكذا.

قال: «**فَيَسْمَعُ الكَلِمَةَ فَيُلْقِيهَا إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، ثُمَّ يُلْقِيهَا الآخَرُ إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، حَتَّى يُلْقِيَهَا عَلَى لِسَانِ السَّاحِرِ أَوِ الكَاهِنِ، فَرُبَّمَا أَدْرَكَهُ الشِّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا، وَرُبَّمَا أَلْقَاهَا قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ**»؛ كما علمت هؤلاء الجن يتراكبون فيكون بعضهم فوق بعض، ويلقي الأعلى على الأسفل ما سمعه حتى يوصلها الآخِر منهم إلى الساحر أو الكاهن، هكذا جاءت الرواية، وبين الساحر والكاهن فرق سنتحدث عنه إن شاء الله في وقته حينما نأتي إلى باب (ما جاء في السحر)، أو حينما نتكلم عن الكهان إن شاء الله.

وربما يشاء الله جَلَّوَعَلَا أن يصيب الجنيَ الشهابُ قبل أن يُلقى إلى هذا الساحر أو الكاهن، وربما ألقاها قبل أن يصيبه الشهاب، والشهاب هو: النيزك، جسمٌ أو شيء ناري ينفصل عن النجوم، تُرجَم به الشياطين، هؤلاء الجن يُرجَمون بهذه النيازك وهذه الشهب.

وأحوال استراق السمع وإصابتهم بهذه الشهب تنقسم إلى ثلاث:

❖ **الحال الأولى**: قبل بعثة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ كَثُرَ استراق الجن للسماع، وكان يصيبهم شيء من هذه الشهب.

❖ **والحال الثانية**: لما بُعث النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ لم يتمكن الجن من استراق السمع، وهذا من رحمة الله **جَلَّوَعَلَا** وحكمته؛ حتى لا يحصل اختلاط بين الوحي المنزل من الرحمن مع ما يوحيه الجني إلى الكهان، ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ

لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا﴾[الجن:٩]، ما تمكنوا من استراق السمع إبَّان البعثة المحمدية على صاحبها الصلاة والسلام.

❖ **الحال الثالثة**: بعد وفاة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ عاد إمكانُ استراق السمع إلى الجن، ولكن بأقل مما كان عليه الأمر في الجاهلية.

والمقصود أن الله جَلَّ وَعَلَا لحكمته مكَّن هؤلاء -وهو القادر على منعهم، لكن لله الحكمة- مَكَّن هؤلاء الجن من استراق السمع ومن نقل ما يصل إلى أسماعهم مما تلقيه أو يتذاكره الملائكة فيما بينهم من أمر الله جَلَّ وَعَلَا.

وقد دل الدليل على أنَّ الجن قد يسترقون السمع مما يقوله ملائكة السماء الدنيا، وقد يسترقون السمع بعد نزول الملائكة من السماء، يدل على هذا ما ثبت في البخاري من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها قالت: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن الملائكة تنزل في العنان -وهو السحاب- فتتذاكر ما قضى الله عَزَّ وَجَلَّ من الأمر في السماء، فتسمعه الجن، فتلقيه إلى أوليائهم من الكهان، فيكذبون ويزيدون عليه».

الشاهد: أن هذا دليل على أنهم قد يستمعون ويسترقون السمع لما يُذكر في السماء، وقد يكون ذلك بعد نزول الملائكة من السماء، لأنهم ينزلون في العنان، والسحاب ليس في السماء، وإنما دون السماء، ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾[البقرة:١٦٤].

قال: «فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةَ كِذْبَةٍ»؛ هل الذي يكذب هو مسترق السمع؟ هذا قول لأهل العلم. أو الذي يكذب الساحر أو الكاهن؟ هذا القول الثاني، ولعله

أقرب(٢٥٠)، أنه يكذب ويخلط هذا الذي بلغه من الخبر الصادق الذي سمعته الجن من الملائكة، يكذبون ويخلطون معه مائة كذبة.

«فَيُقَالُ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا: كَذَا وَكَذَا؟»؛ سبحان الله العظيم! انظر إلى هذا الأمر العجيب، وكيف أن النفوس فيها تعلق بالباطل عجيب! كيف أن الجهال يغترون بسبب هذه الكلمة الصادقة الواحدة، ولا يعتبرون بكذبات كثيرة قالها هذا الساحر أو الكاهن، ما التفتوا إليها وما تذكروها! ما تذكروا إلا الكلمة الصادقة التي قالها فوقع الأمر الذي ذُكر وكان صادقًا، مع أنه ذكر أشياء كثيرة، أضعاف أضعاف هذا الأمر الصادق، وتبين لهم أنه كان كاذبًا فيها، وما قالوا هو كاذب ولا التفتوا إليه، إنما اعتبروا فقط بهذه الكلمة الصادقة الواحدة، وما التفتوا إلى تلك الكذبات.

وهذا فيه: أن النفوس قد تتعلق بالباطل، وأن أهل العلم والعقل الراجح ينبغي عليهم أن يَزِنُوا الأمر بخلاف ذلك، وبالتالي نستفيد أنه لا ينبغي أن يُغتر بضالٍ مبتدع أو فرقة ضالة مبتدعة بسبب وجود شيء من الحق فيها، إذا كان عامة ما فيها انحراف عن جادة الحق وفيها شيء من حق، أو ربما أصاب هذا المتكلم مرة أو مرات، أو كان لهذه الفرقة موقف صحيح مرة أو مرات؛ لا ينبغي أن يُغتر بذلك، بل ينبغي أن يوزن حال الشخص أو الجماعة أو الفرقة في عموم أحوالها ثم يُنظر بعد ذلك إن كانت موافقة أو مخالفة، أمَّا لأجل موقفٍ واحد

---

(٢٥٠) وأكثر العلماء على هذا؛ أنَّ الذي يكذب معَ هذه الكلمة الحقّ التي اسْترقها المسْترق إنما هو الكاهن أو الساحر.

صحيح أو كلمة أصابوا فيها نجعل منهجهم صحيحـًا، لا شك أنَّ هذا ليس مسلكًا صحيحـًا.

وأنَّى يكون في الفرق الضالة أو في أهل البدع الضلال الخالص؟! لابد أن يكون عند كل فرقة من فرق أهل الضلال والبدع شيء من حق، ولابد أن يكون عند كل مبتدع ضال مخرِّف شيء من الحق، أما أن يكون حال الفرقة الضلال المحض بحيث لا يكون فيها شيءٌ من الحق، هذا لا يكون، لابدَّ أن يكون في كل طائفة -مسلمة أو غير مسلمة- ينتمي إليها أحد وأقبل إليها أحد من الناس، لابد أن يكون عندها طرف من الحق ولو قلَّ، وبسبب هذا الحق القليل تُقبِل الناس؛ لأن عندهم شيئـًا من اللبس، يلبسون الحق بالباطل، ولا شك أنَّ هذا لا ينبغي أن يكون مانعـًا من الحذر والتحذير، نعم، لا يُجحد الحق، ولا يُقال: إن الحق باطل، لكن أيضـًا ليس بسبب هذا الحق القليل أصبحت هذه الفرقة مُسلَّمة لا شية فيها، بل ينبغي أن توزن الأمور بميزان معتدل صحيح.

وتأمل فائدة ثانية -يا رعاك الله- وهي: ما يحصل لهؤلاء الجن وأوليائهم من الشدة العظيمة ومع ذلك هم صابرون عليها، يقتحمون الـمُهْلِكَات ويعرِّضون أنفسهم للهلكة بسبب أنهم يريدون أن يوفوا بما وعدوا أولياءهم عليه ويصْدُقون مع أوليائهم، وهم على باطل وهم على ضلال، ومع ذلك هم صابرون ومصابرون!! فأهلُّ الحق أولى أن يصبروا على حقهم وأن يتحملوا الشدائد في سبيل إبلاغه وإيصاله، هؤلاء ضالون وصبروا على ضلالهم، أهل الحق أولى أن يصبروا على حقهم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَعَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِذَا أَرَادَ اللهُ تَعَالَى أَنْ يُوحِيَ بِالأَمْرِ، تَكَلَّمَ بِالوَحْيِ، أَخَذَتِ السَّمَاوَاتِ مِنْهُ رَجْفَةٌ -أَوْ قَالَ: رِعْدَةٌ- شَدِيدَةٌ؛ خَوْفًا مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَإِذَا سَمِعَ ذَٰلِكَ أَهْلُ السَّمَاوَاتِ صَعِقُوا وَخَرُّوا للهِ سُجَّدًا، فَيَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ جِبْرَائِيلُ، فَيُكَلِّمُهُ اللهُ مِنْ وَحْيِهِ بِمَا أَرَادَ، ثُمَّ يَمُرُّ جِبْرَائِيلُ عَلَى المَلَائِكَةِ، كُلَّمَا مَرَّ بِسَمَاءٍ سَأَلَهُ مَلَائِكَتُهَا: مَاذَا قَالَ رَبُّنَا يَا جِبْرِائِيلُ؟، فَيَقُولُ جِبْرَائِيلُ: قَالَ الحَقَّ؛ وَهُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ، فَيَقُولُونَ كُلُّهُمْ مِثْلَ مَا قَالَ جِبْرَائِيلُ، فَيَنْتَهِي جِبْرَائِيلُ بِالْوَحْيِ إِلَى حَيْثُ أَمَرَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ»).

هذا حديث «النَّواس بن سَمعان»، ويجوز أن تقول «سِمعان»، يجوز في السين الفتح والكسر. والحديث الذي تسمع بَيَّضَ المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ لمخْرجه، يعني ما ذكر من أخرجه، وقد أخرجه جمعٌ من العلماء كابن أبي عاصم في «السُّنَّة»، والطبري في «تفسيره»، وأبو نعيم في «الحلية» وغيرهم من أهل العلم[٢٥١]. لكن التحقيق أنه ضعيف الإسناد، فإن في إسناده نُعيم بن حماد الخزاعي وهو ضعيف الرواية، وكذلك الوليد بن مسلم عنعن، وفي تدليسه بحثٌ معروف عند طلاب الحديث.

الشاهد أنَّ الحديث في ثبوته عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نظر، لكن يشهد لبعض ما جاء فيه أحاديث أخرى؛ كحديث أبي هريرة الذي مر معنا قبل قليل وهو عند البخاري، وكذلك يشهد لبعض ما جاء فيه حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا وهو في

(٢٥١) وقد أخرجه ابنُ خزيمةَ في صحيحه، وابنُ جرير، وابنُ أبي حاتم، وغيرهم من أهل العلم.

صحيح مسلم، وفيه أن النبي ﷺ أخبر: «أن الله تعالى إذا تكلم بالوحي سبَّح حملة العرش، فيسبح الذين يلونهم ثم الذين يلونهم حتى يسبِّح الملائكة جميعـًا، ثم تقول الملائكة الذين يلون حملة العرش لحملة العرش: ماذا قال ربنا؟ فيخبرونهم ثم يخبرون من بعدهم حتى يخبرون أهل السماء الدنيا، فتسمع الجن ذلك ثم تلقيه إلى أوليائهم ...» الحديث.

الشاهد أنَّ في الحديث ما يشهد لبعض ما جاء في حديث النواس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢٥٢].وعلى كل حال لعل المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ تابع ابن خزيمة في تصحيح هذا الحديث، فإنه أخرجه في كتاب «التوحيد» له، ولا يذكر في هذا الكتاب إلا ما صح عنده، والله أعلم.

قال : «**إِذَا أَرَادَ اللهُ تَعَالَى أَنْ يُوحِيَ بِالأَمْرِ تَكَلَّمَ بِالوَحْي**»؛[٢٥٣] هذا فيه فائدة وهي: أن الكلام صفةٌ فعلية متعلقة بمشيئة الله جَلَّ وَعَلَا[٢٥٤] ، لأنه قال: «**إذا أراد الله**»،

---

(٢٥٢) لكن بعض ألفاظه ليس لها شاهدٌ في هذا الحديث، فتكون موقوفة على ثبوت الإسناد، والإسناد كما علمت. بعض أهل العلم مشَّى إسناده وقال: إنه لا بأس به، لكن الظاهر أن فيه هذا الضعْف اليَسير.

(٢٥٣) الإرادة صفة لله ﷻ ، وتنقسم إلى:

١. إرادة كونية.

٢. وإرادة شرعية.

والفرق بين الإرادتين من عِدّة جهات، أهمّها جهتان: من جهة المتعلَّق، ومن جهة الوقوع.

حينما يريد الله عَزَّوَجَلَّ أن يوحي فإنه يوحي ويتكلم جَلَّوَعَلَا، وليس الأمر كما قال أهل البدع: "إن كلام الله جَلَّوَعَلَا شيء واحد قائم بذات الله" يعني من جنس الصفات الذاتية، كحياة الله، وعلم الله، الأمر ليس كذلك، بل الله جَلَّوَعَلَا يتكلم إذا شاء بما شاء كيف شاء، جل ربنا وعز[٢٥٥].

قال: «إِذَا أَرَادَ اللهُ تَعَالَى أَنْ يُوحِيَ بِالأَمْرِ، تَكَلَّمَ بِالوَحْيِ؛ أَخَذَ السَّمَاوَاتِ مِنْهُ رَجْفَةٌ -أَوْ قَالَ: رِعْدَةٌ- شَدِيدَةٌ؛ خَوْفًا مِنَ اللهِ»؛[٢٥٦] إذا أراد الله جَلَّوَعَلَا أن يوحي فإن السماوات يصيبها الخوف والفزع من الله. السماوات هذه المخلوقات السبع العظيمة التي هي من أعظم المخلوقات تخاف وتفزع من الله جَلَّوَعَلَا، حتى

➢ المتعلَّق في الإرادة الشرعية: ما يحبه الله ويرضاه؛ يعني المراد شرعًا ما يحبه الله ويرضاه، ولا يلزم هذا في المراد كونا، فقد يحبه وقد لا يحبه.

➢ والجهة الثانية جهة الوقوع؛ فما أراده الله كونًا واقعٌ لا محالة، وما أراده شرعًا قد يقع وقد لا يقع لِحكمة يعلمها الله ﷻ، فمثل قول الله سبحانه: ﴿إِنْ كَانَ اللهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود:٣٤] الإرادة هاهُنا كونية. وفي نحو قول الله ﷻ: ﴿وَاللهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء:٢٧] هذه إرادة شرعية.

والإرادة في الحديث إرادة كونية، وهي التي تكون مرادفة للمشيئة.

(٢٥٤) الإرادة التي هي من باب المشيئة سابقةٌ للكلام.

(٢٥٥) وهذا فيه أبلغ ردٍّ على الذين يجعلون الكلام صفةً أزليّة قديمة وهم الأشاعرة والماتُريديّة.

(٢٥٦) السماوات مفعول و «رَجْفَةٌ أَوْ قَالَ: رِعْدَةٌ» فاعل، وحصل هنا شكّ من الراوي فقال: «رَجْفَةٌ أَوْ قَالَ: رِعْدَةٌ».

أنه يصيبها رجفة، **الرجفة**: حركة واضطراب بانزعاج، **والرِعدة**: مثلها لكن أخف منها، فإذا كانت السماوات تخاف من الله جَلَّوَعَلَا، فكيف بنا يا بني آدم؟

وفي هذا فائدة؛ وهي: أن الجمادات قد جعل الله جَلَّوَعَلَا لها شعوراً به تتعبد لله جَلَّوَعَلَا(٢٥٧)، فالجمادات لها حياة تليق بها وتخصها، وهذا الذي قلنا إنه هو الشُعور ، ولأجل ذلك فهذه السماوات -كما في هذا الحديث- يصيبها الخوف والفزع والرجفة من الله جَلَّوَعَلَا، وقد أخبرنا الله جَلَّوَعَلَا أيضـًا أن السماوات تسبِّح لله: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾[الإسراء:٤٤]، وهذا له أدلة كثيرة، جمَع ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ طائفة منها، وكذلك البغوي في تفسيره؛ فالطعام سبَّح بين يدي النبيصَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ (٢٥٨) وسمعته الصحابة، سمعته سماعـًا حقيقيـًا، كذلك الحجر كان يسلِّمُ على النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، كذلك الجذع حَنَّ ، واستجاب أيضـًا لتهدئة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ له، «جبل أحد يحبنا ونحبه»، واستجاب لأمر النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ حينما قال له: «اسكن أحد»، في أدلة كثيرة تدل على هذا الأصل.

---

(٢٥٧) وليس كما يقول بعض الناس "إنَّ ذلك بلسان الحال"، ليس كذلك بلْ هذا حقيقة، الصحابة سمعوا تسبيح الطعام حقيقةً، فهذا الإحساس لا شكَّ فيه ولا ريب، وهذه الرجفة وهذا الشعور وهذا السَّماع للسماوات حقيقة، السماوات ما أصابتها من الرجفة إلا لأنَّها سمعت كلام الله جلَّ وعلا، وأصابها الخوف والخضوع له تبارك وتعالى.

(٢٥٨) سبَّح الطعام كما عند البخاري في حديث ابن مسعود .

قال: «فَإِذَا سَمِعَ ذَلِكَ أَهْلُ السَّمَاوَاتِ صَعِقُوا وَخَرُّوا للهِ سُجَّدًا»؛ هذا الحديث يدل على أنه يحصل -إن صح- للملائكة أمران:

١. أنهم يُصعقون؛ يعني: يُغشى عليهم.

٢. وأنهم أيضـًا يسجدون.

إذًا يخافون ويفزعون، وأيضـًا يُصعقون، وأيضـًا يسجدون. وهذه صفات لا يمكن أن يتصف بها الرب أو الإله، إذًا ليست مستحقة للعبادة.

وهذا الحديث فيه: أنهم يُصعقون ويسجدون، والله تعالى أعلم أي ذلك يكون قبل؟ فإن العطف بالواو لا يدل على الترتيب، بعض العلماء قال: إنهم يُصعقون ثم يفيقون ثم يسجدون، لكن هذا يحتاج إلى دليل، فالله أعلم كيف يكون الأمر.

قال: «فَيَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ جبريل»؛ جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ أول من يفيق وأول من يرفع رأسه، وهو أعظم الملائكة وسيد الملائكة. جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ معنى اسمه: عبد الله، والله جَلَّ وَعَلَا وصفه بصفات عظيمة: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾[التكوير:١٩]، هذا الوحي قوله من جهة الإبلاغ لا من جهة أنه هو الذي أنشأ هذا الكلام، فإن هذا الوحي كلام الله، تكلم به جَلَّ وَعَلَا ابتداءً، لكنه قوله إبلاغـًا: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾[التكوير:١٩-٢٠]، ثم قال: ﴿مُطَاعٍ ثَمَّ

أَمِينٍ﴾[التكوير:٢١]، فهو مطاعٌ وهو أيضـًا له التقدم على الملائكة، وهو أمين يبلغ كما أمر الله جَلَّوَعَلَا دون زيادة أو نقصان.

قال: «فَيَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ جبريل فيكلمه الله من وحيه بما أراد»؛ أول من يرفع رأسه جبريل؛ لأنه هو الملَك الموكل بالوحي، قبل بقية الملائكة يفيق جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ فيكلمه الله من وحيه بما أراد[٢٥٩]، وهذا أيضـًا يؤيد ما سبقت الإشارة إليه، وهو أن كلام الله جَلَّوَعَلَا صفة متعلقة بمشيئته.

قال: «ثُمَّ يَمُرُّ جَبْرَائِيلُ عَلَى الـمَلَائِكَةِ، كُلَّمَا مَرَّ بِسَمَاءٍ سَأَلَهُ مَلَائِكَتُهَا: مَاذَا قَالَ رَبُّنَا يَا جَبْرِائِيلُ؟، فَيَقُولُ جَبْرَائِيلُ: قَالَ الـحَقَّ وَهُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ، فَيَقُولُونَ كُلُّهُمْ مِثْلَ مَا قَالَ جَبْرَائِيلُ، فَيَنْتَهِي جَبْرَائِيلُ بِالْوَحْيِ إِلَى حَيْثُ أَمَرَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ»؛ في هذا أنَّ جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ ينزل بعد أن يسمع الوحي من الله جَلَّوَعَلَا ، وفي هذا ما يشهد لأن القرآن سمعه جبريل من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مباشرة ثم بلغه إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وليس أن جبريل كما يقول المخالفون لأهل السُنَّة "إنما تلقى هذا القرآن من اللوح المحفوظ"، ليس الأمر كذلك، وإنما سمع وحي الله -ومنه القرآن- من الله جَلَّوَعَلَا مباشرة.

الشاهد أنه ينزل بهذا الوحي، فكلما مر على سماء سأله ملائكتها: ماذا قال ربنا يا جبريل؟ فيجيب: قال الحق وهو العلي الكبير؛ فكلهم يردد هذه الكلمة،

---

(٢٥٩) وهذا فيه إثبات صفة الكلام لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

كل الملائكة يرددونها، كلهم يقولون: «قال الحق وهو العلي الكبير»، وهذا يقولون في مقام الثناء على ربهم تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ، وهذا دليل على عظيم إيمانهم وتعظيمهم للباري سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ، حتى ينزل جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ بالوحي حيث أمره الله فيبلِّغه الله من أمره الله عَزَّوَجَلَّ بإبلاغه.

الشاهد وأعود والعود أحمد إلى حيث بدأنا؛ وهو أن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أراد أن يثبت من خلال هذا الباب أن الملائكة ليسوا أهلاً للعبادة، كما أن الأولياء والصالحين والأنبياء ليسوا أهلاً للعبادة، وهذا ما دل عليه الباب الذي قبله، وإذا كان هؤلاء وهؤلاء ليسوا أهلاً للعبادة فغيرهم من باب أولى، والمستحق للعبادة هو الله عَزَّوَجَلَّ وحده لا شريك له، وهو عَزَّوَجَلَّ أعلم.



قال المصنف رحمه الله:

١٧-بَابُ الشَّفَاعَةِ

وَقَوْلِ اللهِ ﷻ: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ﴾ [الأنعام:٥١]

وقوله: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر:٤٤].

وَقَوْلِـهِ: ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ [البقرة:٢٥٥].

وَقَوْلِهِ: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النَّجم].

وَقَوْلِهِ: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ﴾ [سبأ:٢٢].

قَالَ أَبُو العَبَّاسِ: «نَفَى اللهُ عَمَّا سِوَاهُ كُلَّ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ الـمُشْرِكُونَ، فَنَفَى أَنْ يَكُونَ لِغَيْرِهِ مُلْكٌ، أَوْ قِسْطٌ مِنْهُ، أَوْ يَكُونَ عَوْنًا للهِ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الشَّفَاعَةُ؛ فَبَيَّنَ أَنَّهَا لَا تَنْفَعُ إِلَّا لِـمَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّبُّ؛ كَمَا قَالَ: ﴿وَلا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾. فَهَذِهِ الشَّفَاعَةُ الَّتِي يَظُنُّهَا الـمُشْرِكُونَ هِيَ مُنْتَفِيَةٌ يَوْمَ القِيَامَةِ؛ كَمَا نَفَاهَا القُرْآنُ، وَأَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهُ يَأْتِي فَيَسْجُدُ لِرَبِّهِ وَيَحْمَدُهُ -لَا يَبْدَأُ بِالشَّفَاعَةِ أَوَّلًا-؛ ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: «ارْفع رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ». وَقَالَ لَهُ أَبُو هُرَيْرَةَ: مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ؟، قَالَ: «مَنْ قَالَ: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ) خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ»، فَتِلْكَ الشَّفَاعَةُ لِأَهْلِ الإِخْلَاصِ بِإِذْنِ اللهِ، وَلَا تَكُونُ لِـمَنْ أَشْرَكَ بِاللهِ.

وَحَقِيقَتُهُ: أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ هُوَ الَّذِي يَتَفَضَّلُ عَلَى أَهْلِ الإِخْلَاصِ؛ فَيَغْفِرُ لَهُمْ بِوَاسِطَةِ دُعَاءِ مَنْ أَذِنَ لَهُ أَنْ يَشْفَعَ لِيُكْرِمَهُ، وَيَنَالَ الـمَقَامَ الـمَحْمُودَ.

فَالشَّفَاعَةُ الَّتِي نَفَاهَا القُرْآنُ مَا كَانَ فِيهَا شِرْكٌ، ولهذا أَثْبَتَ الشَّفَاعَةَ بِإِذْنِهِ فِي مَوَاضِعَ، وَقَدْ بَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهَا لَا تَكُونُ إِلَّا لِأَهْلِ التَّوْحِيدِ وَالإِخْلَاصِ».

انتهى كَلامُهُ.



قال الشارح وفقه الله:

عقد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الباب المهم وهو ما يتعلق بالشفاعة؛ وذلك لعظيم الحاجة إلى فقه هذا الموضوع، فإنَّ موضوع الشفاعة من الموضوعات التي جديرٌ بكل مسلم أن يفهمها الفهم الصحيح في ضوء الكتاب والسنة، فإنَّ الخلل في هذا المقام كان سببَ وقوع الشرك كثيرًا قديمًا وحديثًا، فإنَّ من أعظم أسباب شرك المشركين الأولين طلبَهم الشفاعة من آلهتم، قال جَلَّوَعَلَا عنهم: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ سبحانه وتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[يونس:١٨].

الشفاعة في اللغة: هي التوسط للغير في طلب خيرٍ أو دفع مضرة. وإن شئت فقل هي: سؤال الخير للغير.

وأصل هذه المادة يدل على الضم والاقتران؛ فكأن الشافعَ ضمَّ صوته وسُؤله إلى صاحب الحاجة فكانا شَفْعًا؛ أي: زوجًا في السؤال(٢٦٠).

والمراد بالشفاعة في هذا الباب وأمثاله: إنما هو الشفاعة الأخروية التي تكون يوم القيامة، وهي التي يسأل فيها الشفعاء جلب الخير أو دفع المضرة عن الموحدين يوم القيامة. هذه هي الشفاعة التي نبحث فيها في هذا الباب.

والشفاعة اختلف الناس فيها وانقسموا إلى ثلاث طوائف:

---

(٢٦٠) والغالبُ أنَّ الشفاعة إنَّما تكون من ذِي الرتبة العليّة لمن دونه؛ فيشفع ذُو المكانة لمن هو دونه.

۞ **فطائفة جفت**؛ فأنكرت بعض الشفاعة، وهم الوعيدية من الخوارج والمعتزلة.

۞ **وطائفة غلت** في موضوع الشفاعة؛ حتى أشركت بالله جَلَّوَعَلَا.

۞ **وطائفة توسطت**؛ وهم أهل الإسلام الصافي، هم أهل السنة والجماعة السلف الصالح وأتباعهم.

من تأمل أدلة الكتاب والسنة وجد أن الشفاعة وردت:

۞ تارة منفية؛ كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ﴾[البقرة:٢٥٤].

۞ وتارة جاءت مثبتة، والغالب أن تَرِد مثبتة في القرآن على سبيل الاستثناء، ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾[البقرة:٢٥٥]، ﴿وَلا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾[الأنبياء:٢٨]. كما سيأتي -إن شاء الله- فيما أَورد المؤلف.

وضابط الشفاعة المنفية يرجع إلى ما يأتي:

أولاً: الشفاعة التي يُظنُّ أن تكون بلا إذنٍ من الله.

ثانيًا: الشفاعة التي تُطلب للكفار.

ثالثًا: الشفاعة التي تُطلب من غير الله.

رابعًا: الشفاعة التي ظنَّها المشركون، وهي من جنس الشفاعة الدنيوية.

كلام أهل العلم في الشفاعة المنفية يدور على هذه الأمور الأربعة.

أما الشطر الثاني وهو **الشفاعة المثبتة** يعني التي تقع وتحصل وتكون يوم القيامة؛ **فضابطها: أنها الشفاعة التي تكون بعد إذن الله فيمن رضيَ عنه.**

إذًا متى اجتمع هذان الشرطان حصلت الشفاعة؛ أي كانت شفاعة مثبتة واقعة يوم القيامة؛ **شفاعةٌ تكون إذا:**

❁ أذِن الله عَزَّوَجَلَّ.

❁ وتكون فيمن رضيَ الله عَزَّوَجَلَّ عنه. والله لا يرضى إلا التوحيد وأهله، الله لا يرضى إلا عن الموحدين، أما الذين أشركوا مع الله جَلَّوَعَلَا فلا شفاعة فيهم، ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾[غافر:١٨]. الشفاعة في أهل التوحيد لا غير، ثبت في الحديث عن النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ -وله ألفاظ متعددة في الصحيحين وغيرهما- أن النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «لكل نبي دعوة مستجابة فتعجَّل كل نبي دعوته، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة، فهي نائلة إن شاء الله، من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئًا» .

إذًا الشفاعة والتوحيد أمران مقترنان؛ بمعنى: لا تكون شفاعةٌ إلا بالتوحيد، وأما الشرك فهو مانعٌ من الشفاعة، لا يمكن أن يجتمعا؛ أن يكون شرك وشفاعة هذا أمر لا يمكن أن يكون، حَكَمَ الله جَلَّوَعَلَا بذلك.

أما الشفعاء يوم القيامة فإنهم ثلاثة أصناف، جمَعَهم ما جاء في الصحيحين من حديث أبي سعيد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، والحديث حديث الشفاعة الطويل، وفيه: «أن الله تعالى يوم القيامة يقول: شفعت الملائكة، وشفع النبيون، وشفع المؤمنون وما بقيَ إلا رحمة أرحم الراحمين».

فهؤلاء الأصناف الثلاثة هما الشفعاء يوم القيامة:

❁ الملائكة.

❁ والأنبياء.

❁ والصالحون.

وأما الشفاعات الواقعة يوم القيامة -أعني الشفاعات المثبتة- **فقد درج كثير من أهل العلم على تقسيمها إلى قسمين:**

❁ **القسم الأول:** شفاعة خاصة أي بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يشركه فيها أحد بالإجماع.

❁ **القسم الثاني:** الشفاعة العامة، يعني: التي تكون له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولغيره من الشفعاء.

أما ما اختص به النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالإجماع:

الشفاعة الأولى: الشفاعة العظمى؛ وهي المقام المحمود على الصحيح؛ وذلك أن يشفع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند ربه أن يُفْصَل في القضاء بين العباد بعد أن يتأخر أولوا العزم وأبو البشر آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، حتى يقول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أنا لها» ، فينطلق فيستأذن على ربه ويخر له ساجدًا، ويتركه الله جَلَّ وَعَلَا ساجدًا ما شاء أن يتركه، ويفتح عليه بثناءٍ عليه ومحامد لم يكن يُحسنها صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حياته، ثم يقول الله جَلَّ وَعَلَا له: «يا محمد ارفع رأسك، وسل تُعطى، وقل يُسمع، واشفع تُشفع».

الشفاعة الثانية: الشفاعة في دخول أهل الجنة؛ وذلك أن أهل الجنة إذا خلصوا من الصراط أتوا إلى الجنة -وأسأل الله أن يجعلني إياكم منهم- فوجدوا

أبوابها مُغلقة، فلا تُفتح حتى يشفع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند ربه فيأذن الله عَزَّ وَجَلَّ بفتح أبواب الجنة فيدخلونها.

الشفاعة الثالثة: شفاعته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في عمِّه أبي طالب أن يخفف عنه العذاب؛ فقد ثبت في الصحيح أن العباس بن عبد المطلب قال للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يا رسول الله هل نفعت أبا طالب بشيء؟ فإنه كان يحوطك ويغضب لك». فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «نعم هو في ضحضاح من نار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار»، وهذه الشفاعة مستثناةٌ من شرط الرضا عن المشفوع فيه، ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾[القصص:٦٨].

أما الشفاعات التي تكون له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولغيره من الشفعاء؛ فمنها ما حصل فيه الخلاف، أهي خاصة بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ أم عامةٌ له ولغيره؟ لكن ميزة التي قبلها هي أنه مُجْمَعٌ على اختصاص النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بها، **وهذه الشفاعات الذي ثبت منها ما يأتي:**

❑ **أولًا: الشفاعة في دخول من لا حساب عليه الجنة؛** وذلك ما ثبت في حديث أبي سعيد وفي حديث غيره في الصحيحين أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما يسجد تحت العرش لربه، ويقول الله عَزَّ وَجَلَّ له ما سلف أن ذكرت، يقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أمتي، أمتي» فيقول الله جل وعلا: «يا محمد، أدخِل من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس في سائر الأبواب».

❑ **الشفاعة الثانية: الشفاعة في قومٍ دخلوا النار من أهل التوحيد أن يُخرَجوا منها**؛ وهذه الشفاعة ثابتةٌ للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما أنها ثابتةٌ لغيره.

-**أمَّا له** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **فيدل على ذلك أحاديث عدة**، ومنها ما ثبت في الصحيح من حديث عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «يَخرج قوم من النار بشفاعة محمدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيُدْخَلُون الجنة يُسمَّون الجهنَّميين».

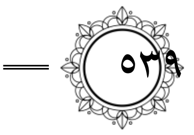
-**وأمَّا في حق غيره** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : فما جاء من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الصحيح وفيه: «أنَّ المؤمنين إذا خلصوا وكانوا من أهل الجنة يقولون: يا ربنا إخواننا كانوا يصلُّون معنا ويصومون معنا ويعملون معنا، فيَحدُّ الله جل وعلا لهم حدًا فيخرجونهم من النار». فهذا دليل على أن الشفاعة تكون للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتكون لغيره.

هذه الشفاعة هي معترك الخلاف بين أهل السنة والجماعة والوعيدية، إذ هي التي اشدت إنكار الوعيدية لها[٢٦١]، ولا شك أن الأدلة الصحيحة الثابتة الكثيرة تردُّ قولهم.

❑ **الشفاعة الثالثة: الشفاعة في قوم استحقوا النار أن لا يدخلوها**؛ وهذه الشفاعة توقف فيها بعض أهل العلم كابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ كما في «تهذيب السنن»، لكن الصحيح الذي لا شك فيه أنها ثابتة، بل ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ

---

(٢٦١) فإنَّ الوعيدية من الخوارج والمعتزلة ينكرونها، وأيضًا غُلاة المرجئة لا يثبتونها؛ لأنَّ غُلاة المرجئة عندهم لا عذاب على موحِّد، فكِلا الطائفتين تنكر هذه الشفاعة، والأدلة عليها متواترة.



أنَّ هذا النوع لم ينكره إلا أهل الوعيد، فكأنه يحكي إجماع أهل السنة عليها.

ويدل عليها دليلان:

➢ **أما الأول**: فما استدل به الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ في فتح الباري من رواية عند مسلم وفيها: أنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما ذكر أن الصراط يُضرب على متن جهنم قال: «فتحل الشفاعة، اللهم سلِّم سلِّم»، يُشير إلى أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يقولون في ذلك المقام «اللهم سلِّم سلِّم»، ولا شك أن هذا دعاءٌ يتضمن شفاعة في حق من يمر على الصراط، وفيهم من استوجب النار.

➢ **أما الدليل الثاني**: فعمومه قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي» وما جاء في معناه ، فإنه يدل بعمومه على أنَّ الشفاعة حاصلةٌ لأهل الكبائر، و(أهل الكبائر) هذا الكلام يتضمن من دخل النار ومن لم يدخلها بعد، والله جَلَّ وَعَلَا أعلم[٢٦٢].

هذا باختصارٍ ما يتعلق بالشفاعات الأخروية.

---

(٢٦٢) ويُذكرُ في كتب أهل العلم أيضًا: أنواع من الشفاعات الأخرى؛ كالشفاعة في أهل الأعراف الذين تساوَت حسناتهم وسيئاتهم، ولا أعلم دليلًا يصح في إثبات هذا النوع. كذلك شفاعته في رِفْعة قومٍ من أهل الجَّنة فيها، واستُدِلَّ على هذا النوع بما لا يدل دلالة صريحة عليه، والله تعالى أعلم.

وعودًا على ما أورد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الباب لأجله، وهو أنني ذكرت لك أن أكثر شرك المشركين في القديم والحديث إنما كان لأجل تعلقهم بالشفاعة[٢٦٣]؛ فصرفوا العبادة لغير الله لأجل ذلك، وهم كانوا إمَّا:

- يَصْرِفُونَ أنواع العبادات لهذه الآلهة التي يظنون فيها الشفاعة؛ فيذبحون وينذُرون ويسجدون لأجل أن تعطف عليهم، فتشفع لهم عند الله.

- أو أن يطلبوا الشفاعة منها مباشرة؛ فيسألون الأشجار والأحجار، ويسألون الأصنام والملائكة، ويسألون الأموات أن تشفع لهم عند الله، وهذا كان يقع فيه المشركون قديمًا من أهل الجاهلية ومن النصارى، فإن من قولهم الذي اتفق المسلمون على أنه من أعظم الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ أنهم كانوا يقولون: "يا والدة الإله اشفعي لنا عند الإله"، ينادون مريم عَلَيْهَاٱلسَّلَامُ، وهذا مما اتفق المسلمون على أنه شرك أكبر.

الشاهد: أنَّه لا فرق بين أن يُذبح لغير الله لأجل أن يشفع، أو أن يُدعى لأجل أن يشفع، هذه عبادة وهذه عبادة فمتى صُرفت هذه أو تلك لأجل تحصيل الشفاعة فإنَّ هذا شركٌ بالله جَلَّوَعَلَا ، وهو سبب لمنعها. ويا لله العجب! انظر إلى هذا الخذلان كيف أنَّهم قد عَظُمَ في نفوسهم طلبُ الشفاعة فطلبوها بسببٍ كان مانعًا لهم منها ، والموفق من وفقه الله.

---

(٢٦٣)ولتلْحَظ هنا أنَّ طلب المشركين من آلهتهم الشفاعة هي الشفاعة في الأمور الدنيوية، فإنهم لا يثبتون الآخرة، ينكرونها أشدَّ الإنكار، لكن شفاعتهم التي رغبوا فيها إلى الله ﷻ هي في الأمور الدنيوية، وليس في الشأن الأخروي.

قد يقول قائل: إنَّ هؤلاء المشركين قصدوا تعظيم الله فقالوا "إنَّ الله عظيم، ونحن مذنبون متلطخون بالمعاصي، فلا يناسب أن نسأل الله مباشرة، إنما نجعل بيننا وبينه واسطة يشفعون لنا عند الله"، قد يقول قائل: إن قصدهم حسن؛ فلأجل ماذا كانوا مشركون مخلدين في النار؟

والجواب عن هذا من وجهين:

۞ **الوجه الأول**: سلَّمنا جدلاً أنهم قصدوا تعظيم الله، لكنهم من وجه آخر وقعوا في مسبة الله وتنقُّص حقه وقدره، فاستحقوا العقوبة على ذلك.

۞ **والوجه الثاني** أن يقال: إنهم ما عظَّموا الله عَزَّوَجَلَّ، ليس صحيحًا أنهم عظموا الله، ولو عظموا الله وقدروه حق قدره ما صرفوا خالص حقه لغيره ولما أشركوا مع الله غيره، ولوحَّدوا الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، إنما هم شبَّهوا الله جَلَّوَعَلَا بملِكٍ من ملوك الدنيا يهابونه ويخافون ظلمه وسطوته فاتخذوا الشفعاء لأجل ذلك لا غير، وإلا فالواقع أن هؤلاء المشركين وقعوا في أمر عظيم؛ فقد تنقَّصوا عظمة الإلهية، وهضموا حق الربوبية، وأساءوا الظنَّ برب العالمين.

الواقع أنَّ المشركين الذين اتخذوا من دون الله شفعاء وقعوا في :

-هضم حق الربوبية.

- وانتقاص عظمة الإلهية.

- وأساءوا الظنَّ برب العالمين.

كان منهم سوء الظن بالله، وصدق الله في وصفهم: ﴿الظَّانِّينَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ

مَصِيرًا﴾[الفتح:٦]، ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[فصلت:٢٣]، كلا والله ما عَظَّمُوا الله بل أساءوا الظن بالله.

ويدلُ على ذلك أمورٌ تأملها -يا رعاك الله- فإنك تجدها حاصلة في هؤلاء المشركين أو تجد بعضها حاصلاً ولا بد، فهؤلاء المشركون:

۞ **أولاً**: ظنَّوا أن الله لا يرحم حتى يرفع إليه الشافع الحوائج، ولا يسمع الدعاء ولا يجيبُه حتى يرفع إليه الشافع ذلك؛ وذلك سوء ظن بالله جَلَّ وَعَلَا ، وانتقاصٌ لعظيم علم الله عَزَّوَجَلَّ وواسع سمعه وكبير رحمته.

۞ **ثانيًّا**: أنهم ظنوا أنَّ لهؤلاء الشفعاء حقًا على الله عَزَّوَجَلَّ، ولأجل هذا فإنه لا يمكن أن يُردَّ لهم طلب، لهم إدلالٌ على الله ولهم حقٌ على الله ولذلك لا يمكنه أن يخالف شفاعتهم؛ وهذا لا شك أنَّه مما يدل على أنهم ما عظَّموا الله عَزَّوَجَلَّ؛ إذ جعلوا لهؤلاء حقًا عليه استحقوه بأنفسهم، وأنهم يُدلون على الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى إدلالاً.

۞ **ثالثًا**: أنهم قد عَظُمَ في قلوبهم التعلق بهؤلاء الشفعاء ، حتى إنهم صرفوا لهم لبَّ الرجاء وعظيم الاعتماد والتوكل، حتى قال قائلهم:

إن لم تكن في معادي آخذًا بيدي　　فضلاً وإلا فقُل يا زلة القدم

عظم تعلقهم بهؤلاء الشفعاء! ولأجل هذا رجوهم وصرفوا لهم العبادة وتوكلوا وقصدوا هؤلاء دون الله جَلَّ وَعَلَا ، وهذا لا شك أنَّه من انتقاص حق الله جَلَّ وَعَلَا في ربوبيته وألوهيته.(٢٦٤)

---

(٢٦٤) رابعا: أنهم ظنُّوا أن هؤلاء الشفعاء مُعِينون لله ﷻ ، فهم يظاهرونه في تدبير الكون.

الحق الذي لا شك فيه: أنَّ الشفاعة لله جَلَّوَعَلَا مِلكًا واستحقاقًا، ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾[الزمر:٤٤]؛ **من تأمل هذه الآية زال من قلبه كل شبهه تتعلق بهذا الموضوع**. الأمر -يا رعاك الله- إنمَّا هو من الله وإلى الله، الأمر كله راجعٌ إلى الله؛ الله جَلَّوَعَلَا هو الذي أراد أن يرحم عبده، ولأجل هذا أَهَّلَ المشفوع له للسبب الذي يستحق به الشفاعة، وأَهَّلَ الشافع للسبب الذي كان به شافعًا، وحَرَّكَ قلب الشافع لأجل أن يشفع، وأذِن للشافع أن يشفع، بل أمَر الشافع أن يشفع، فقال له (اشفع تشفع)، ثم هو الذي تفضل بقبول الشفاعة. فعاد الأمر ابتداءً وانتهاءً إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ إذًا حقيقة الحال أنه شفع من نفسه إلى نفسه، حقيقة الحال ما أخبر الله أَهْلَ: ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾[الزمر:٤٤].

إذًا كل الإشكال كان عند هؤلاء راجعًا إلى قياسٍ فاسد، قاسوا الشفاعة الأخروية على الشفاعة الدنيوية، وهذا مَرْبَطُ الإشكال. وأنت إذا تأملت في النصوص وجدت السبب الذي كانت لأجله الشفاعة غالبًا منفية في القرآن، في نحو عشرين موضعًا تجد أنَّ الشفاعة منفية لِمَ؟ لأجل أن يزول عن القلوب أدنى توهم أنَّ الشفاعة التي تكون يوم القيامة عند الله هي من جنس هذه الشفاعة التي يَعْهَدُها الناس في الدنيا. الأمر ليس كذلك، انتبه! فهذا هو الفرقان بين الحق والباطل، بين التوحيد والشرك.

الشفاعة التي يعهدها الناس في الدنيا في الغالب ترجع إلى ضربين:

- **الضرب الأول: شفاعة وجاهة**؛ بمعنى: أن يشفع الوجيه ذو النفوذ عند ذي السلطان فيطلب منه أن يعفو عن مسيءٍ مثلاً، وتجد أن صاحب السلطان

قد يقبل مُرغمًا، ربما لا يريد أن يشفع عنده أحدٌ أصلاً في هذا الموضوع، فيشفع عنده على رغمٍ عنه. ثم قد يكون لا يريد أن يعفو عن هذا، لكنه يرضخ تحت وطأة هذه الشفاعة لأجل أنه محتاج إلى هذا الرجل صاحب الوجاهة والنفوذ، قد يكون تاجرًا غنيًا، قد يكون وزيرًا، قد يكون صاحب الجند.. فهو لا تتم مملكته إلا بأن يكون هؤلاء حوله، وأن تكون طاعتهم له؛ فلأجل خوفه من نفورهم يرضخ لشفاعتهم ويقبل شفاعته.

الضرب الثاني: شفاعة المحبة، أن يشفع الحبيب عند محبه، تجد أنه يشفع ابن السلطان أو زوجه أو صديقه عنده أن يعفو عن هذا المسيء، فتجد أنه يقبل بهذه الشفاعة ولو كان في الأصل لا يريد أن يعفو، لأنه لا يصبر عن جفوة حبيبه فيرضخ ويأذن. أو ربما تبين له ما كان غائبًا عنه، ربما أفصحوا له وأعلموه بأنه لا يستحق العقوبة، وبالتالي فإنه يقبل هذه الشفاعة؛ لأنه ظهر له الحق، أو ربما خوَّفوه بعواقب تترتب على إنفاذ العقوبة عليه؛ فيخاف ويقبل.

إذًا تجد أنَّ الشفاعة في الدنيا عند ذوي السلطان والملك وأصحاب الأمر يكتنفها: ضعفٌ في العلم، أو ضعف في القدرة، أو ضعف في السلطة ، لا بد أن يكون شيء من ذلك واقعًا ، فأنَّى يقاسُ ذلك بالشفاعة التي تكون عند الله جَلَّوَعَلَا؟!

أرأيت كيف أن هؤلاء وقعوا في تشبيهٍ خاطئ حينما ظنوا أن الشفاعة عند الله من هذا الجنس؟ فالله جَلَّوَعَلَا لا يريد أن يغفر لكنه بتأثير من الشافع يغفر، أصبح الشافع هو الذي يحرك الله جَلَّوَعَلَا لأجل أن يقبل -تعالى الله عن ذلك-،

وانظر كيف اقتضى هذا اعتقاد النقص في الله جَلَّوَعَلَا من جهة جعْله محتاجًا ، وجعْله غير غني مستغني عما سواه جَلَّوَعَلَا.

إذًا رعاك الله تنبه إلى الفروق بين الشفاعة الدنيوية والشفاعة الأخروية، أي إلى الفروق بين شفاعة المخلوق عند المخلوق، وبين شفاعة المخلوق عند الخالق سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، هذا من أهم ما ينبغي عليك يا أيها المسلم أن تفقهه.

➢ **الفارق الأول**: الشفاعة من المخلوق عند المخلوق لا تفتقر إلى المشفوع عنده بحال؛ لا من جهة أمره، ولا من جهة إذنه، ولا من جهة خلقه، والأمر في الشفاعة التي تكون عند الله ليس كذلك؛ فلا أحد يجرؤ على أن يشفع عند الله **جَلَّوَعَلَا** حتى يأذن الله له أن يتكلم ويشفع، قال سبحانه: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾[البقرة:٢٥٥]، الله عظيم من ذا الذي يجرؤ على أن يتكلم أو يشفع عند الله ما لم يأذن الله له أن يشفع ويتكلم؟ ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ ، تأمل كيف كان النفي هاهنا بصيغة الاستفهام؛ لأنه مشوب بنوعٍ من التحدي، من ذا الذي يجرؤ على أن يكون منه ذلك؟!

ثم الله جَلَّوَعَلَا ليس فقط يأذن بالشفاعة، بل الله جَلَّوَعَلَا هو الذي يأمر بها؛ وبالتالي لا يملك الشافعُ إلا أن يُجيب، أليس الله جَلَّوَعَلَا يقول يوم القيامة لسيد الشفعاء: «اشفع تُشفع»، إذًا كان النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كان مأمورًا لا يسعه إلا أن يستجيب لأمر ربه جَلَّوَعَلَا.

➢ **الفارق الثاني**: أنَّ الشفاعة من المخلوق إلى المخلوق تستلزم حاجة المشفوع عنده؛ إما من جهة أنه يطلب مرغوبًا أو أنه يترك مرهوبًا، لا تجد أن

المشفوع عنده يقبل الشفاعة إلا إذا كان يطلب شيئًا يحتاجه، إما أن يطلب ولاء الشافع، وإما أنه يدفع غضب أو هجران الشافع. إذًا تجد أن الشفاعة استلزمت حاجة المشفوع عنده. والله أجلُّ وأعظم من أن يكون كذلك، بل الله جَلَّوَعَلَا هو الغني سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، لا يكون ذلك ولا يُظن به ذلك.

➢ **الفارق الثالث**: أنَّ الشفاعة من المخلوق إلى المخلوق تتضمن افتقار المشفوع عنده، من جهة أن شفاعة الشافع حرَّكته إلى القبول، شفاعة المخلوق عند المخلوق هي التي حركته للقبول، أما الشفاعة عند الله فلا يُظنُّ فيها ذلك البتة، بل الأمر بالعكس؛ المشفوع عنده هو الذي حرك الشافع حتى يشفع. فانظر إلى الفرقان العظيم بين الرب وبين العبد، وبالتالي تعلم الخطأ العظيم الذين وقع فيه هؤلاء الذين لم يفرِّقوا بين الأمرين.

➢ **الفارق الرابع**: شفاعة الشافع في الدنيا -يعني شفاعة المخلوق عند المخلوق- شفاعة ندٍ أو شريك أو معين، أما الشفاعة عند الله فإنها شفاعة عبدٍ مأمور لا يملك من أمره شيء، ولا يقدر إلا أن يجيب، ففرق بين هذه وهذه.

➢ **الفارق الخامس**: الشفاعة من المخلوق عند المخلوق قد تقع على كُرهٍ من المشفوع عنده، يعني لا يريد ولا يسمح أن يُشفع عنده في هذا الموضوع، فرغمًا عنه يدخل عليه الشافع ذو الوجاهة، أو المحبوب عند المشفوع عنده فرغمًا عنه يتكلم ويشفع، والله **جَلَّوَعَلَا** يستحيل أن يُكرِهُ أحد الله لا مُكره له، بل هو القدير العظيم **سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ**.

➢ **الفارق السادس**: أن الشفاعة من المخلوق عند المخلوق يقبلها أو قد يقبلها المشفوع عنده على كُرْهٍ منه، والله جَلَّوَعَلَا لا يجوز أن يُظَنَّ فيه ذلك؛ لأنه لا مكره له جَلَّوَعَلَا، بمعنى أن المشفوع عنده من المخلوقين تجد أنه قد لا يملك من أمره إلا أن يرضخ ويقبل، -كما قلت لك سابقًا- فهو يقبل أو قد يقبل على كره منه، وأما الله جَلَّوَعَلَا فإنه لا يظن فيه ذلك إلا الظانون بالله ظن السوء.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وَقَوْلِ اللهِ** ﷻ: ﴿**وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ**﴾ [الأنعام:٥١]).

المؤلفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أوردَ في هذا الباب الأدلة التي تدل على هذا المعتقد الصحيح الذي يتعلق بالشفاعة من كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ثُّم ختم ذلك بكلامٍ حسنٍ لشيخِ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

الآية الأولى: قول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿**وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ**﴾؛ ﴿**وَأَنذِرْ بِهِ**﴾ الإنذار هو: الإعلامُ بأسباب المخافة، أو الإعلام بموضع المخافة، فهو إعلامٌ مخصوص ، والخطابُ لنبينا محمدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فالله جَلَّوَعَلَا يقول يا نبينا أنذر به؛ يعني بالقرآن -كما قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا وغيره- أنذر بالقرآن أهلَ الإيمان الذين علامتهم وسِمتهم: ﴿**يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ**﴾ ، وأيضا ﴿**لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ**﴾.

فقوله: ﴿**ليس لهم**﴾ «ليس» هاهنا في موضع النصب على أنَّها حال، والحال أنَّه ليس لهؤلاء المؤمنين الذين اتصفوا بالإيمان والخشية من الله

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، الحال أنَّهم موصوفون بهذا؛ وهو أنهم لا يتخذون من دون الله وليًا، ولا يتخذون من دون الله شفيعًا.

والقرآن أمر الله عَزَّ وَجَلَّ نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يُنْذَّرَ النَّاس كلهم به، ﴿وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا﴾[مريم:٩٧] ؛ فأهلُ الإيمان وأهل الكفر يُنْذَرُونَ بالقرآن، لكن تخصيص أهل الإيمان هاهنا: لأنهم الذين ينتفعون بهذا الإنذار، فالإنذار الذي ينفع هو إنذارُ أهل الإيمان الذين يخافون أن يُحشروا إلى ربهم، يخافون من الله عَزَّ وَجَلَّ ويخافون المقام بين يدي الله جَلَّ وَعَلَا، ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾[ق:٤٥]، هؤلاء أوْلى النَّاس بالإنذار، لأنهم أعظم الناس انتفاعًا بهذا الإنذار، فلا ينتفع بالقرآن من جهة ما فيه من الإنذار وما فيه من التبشير وما فيه من أنواع العلوم إلا المؤمنون حقًا الذين يتصفون بالخوف من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. ومن الخوف من الله: الخوف من البعث وما يكون بعده من الوقوف بين يدي الله جَلَّ وَعَلَا للحساب ثم للجزاء.

وهؤلاء وصْفهم أنَّهم لا يتخذون من دون الله وليًا يتوجهون إليه ويعبدونه ويخافونه ويرجونه، كما أنَّهم لا يتخذون من دون الله شفيعًا؛ يعني من دون إذنه وأمره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ؛ لأنهم يعلمون أنَّ الشفاعة مِلك لله جَلَّ وَعَلَا كما سيأتي معنا: ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾[الزمر:٤٤]، فلا تطمح نفوسهم إلى التعلق بهؤلاء الشفعاء من حيث إنهم يعتقدون أنهم يملكون الشفاعة فيشفعون بلا إذن من الله جل وعلا، ويترتب على هذا أنهم يُقصدون ويرجون ويُتوكل عليهم، ليس هذا شأن أهل الإيمان، هذا شأن أهل الشرك.

إذًا الشفيع اثنان:

١. شفيع من دون الله.

٢. شفيع من بعد إذن الله.

والفرق بينهما فرقٌ كبير، مر معنا الفرق بين الشفيع من دون الله، والشفيع من بعد إذنه، هو الفرق بين الند والشريك، وبين العبد المأمور من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الشفيعُ من دونه إنَّما يتخذه المشركون؛ فمن اعتقد أنَّ أحدًا يكون شفيعًا من دون الله فذلك لاشك أنه يكون من المشركين، أمَّا أهل الإيمان فإنهم يعتقدون أنه يكون شفيعٌ من بعد إذنه. إذًا الشفيع من دونه باطل، والشفيع من بعد إذنه ثابت، هذا الفرقان بين حقيقة التوحيد وحقيقة الشرك.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وقوله: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾** [الزمر:٤٤]).

هذه آيةٌ عظيمة، من تأملها وعَقِلَ معناها قطعت كلَّ أسباب الشرك عن نفسه؛ **﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾**، أول السياق قوله تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ شُفَعَاءَ﴾[الزمر:٤٣]، هذه حقيقة المشركين أنهم اتخذوا من دون الله شفعاء، ﴿قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلا يَعْقِلُونَ * قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[الزمر:٤٣-٤٤].

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ شُفَعَاءَ﴾، «أم» هاهنا للإضراب، يعني هي بمعنى «بل»، واستقراء مواضع «أم» في القرآن -يعني هذا الاستفهام في القرآن- يدل على أن هذا الاستفهام إنما يُساق في مقام الإنكار؛ يعني: هؤلاء اتخذوا من دون الله شفعاء، وهذا الذي لأجله أشركوا **﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ**

اللهِ﴾[يونس:١٨]، هذا الذي لأجله اتخذوا الأنداد مع الله جَلَّ وَعَلَا، ﴿أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلا يُنقِذُونِ﴾[يس:٢٣].

إذًا هم اتخذوا من دون الله شفعاء فأشركوهم مع الله جَلَّ وَعَلَا ، فاعتقدوا أنَّهم يشفعون من دون إذن الله جَلَّ وَعَلَا ، واعتقدوا أنهم يملكون هذه الشفاعة وأنَّ حقهم على الله عظيم، ولأجل هذا فإنَّ هذه الشفاعة لا تُرد، وهم المؤثِّرون على الله، هم الذين يحرِّكون إرادة الله لأجل تحقيق المطلوب أو دفع المرهوب.

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلا يَعْقِلُونَ﴾[٢٦٥] أفتتخذونهم وهذه حالهم!! الواقع أنَّهم لا يملكون شيئًا؛ لأن الشفاعة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، ألم تر إلى قوله بعد ذلك: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ .

ولاحظ أمرين في هذه الآية:

❖ أولاً: تقديم الخبر يفيد الحصر عند أهل البلاغة، فقال: ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ﴾، ولم يقل (قل الشفاعة لله)، وهذا يدلك على أن الشفاعة كلها لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى[٢٦٦].

---

(٢٦٥) ﴿قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا﴾ همزة الاستفهام إذا دخلت على واو العطف أفادت معنى التقرير؛ فهم لا يعلمون شيئًا ولا يعقلون.

(٢٦٦)تقديم الخبر هنا ﴿لِلَّهِ﴾ يدل على الحصْر، فالشفاعة كلها وجميعها لله تبارك وتعالى؛ وعليه فإنَّما تُطلب منه، ويكون طلبها من غيره سببًا لحرمانها؛ لأن طلبها من غير الله شرك، والله ﷻ يمنع ويَحْرِمُ المشرك من الشفاعة. ويالله العجب كيف أنَّ هؤلاء

❖ ثم تأمل **ثانيًا** في قوله: ﴿**جَمِيعًا**﴾ ؛ كيف أنَّ قوله ﴿**جَمِيعًا**﴾ أفادت استغراق مِلك الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** للشفاعة كلها، بحيث أنه لم يَشُذَّ عن هذا المِلك لله شيءٌ منها، من أولها إلى آخرها بجميع أنواعها وأصنافها هي مِلك لله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**.

ثم تأمل بعد ذلك ما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عقيبها: ﴿**لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾[الزمر:٤٤]، كما أن له سبحانه ملك السماوات والأرض؛ فكذلك هو الذي يملك الشفاعة، فاندرج في مِلْكِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الذي لا يَشْرَكُه فيه غيره هذه الشفاعة، لأن حقيقة الأمر أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى شفع من نفسه إلى نفسه ليرحم عبده، والشفاعة إكرام للشافع، وإلا فالله جَلَّ وَعَلَا هو الذي أراد من نفسه أن يرحم هذا العبد المشفوع فيه، وليس أنَّ الشافع هو الذي حرَّك إرادة الله وهو الذي أثَّر في الله، هذا لا يكون، الله هو الواحد، والله هو الوتر الذي لا يشفعه غيره، فالفضل منه وإليه وحده لا شريك له.

إذًا هذه آيةٌ عظيمة تأملها يا أيها المسلم، وأنا لك ضامن -بإذن الله سبحانه وتوفيقه- أنه يَخْرُج كل تعلق من قلبك بأحدٍ من المخلوقين لأجل رجاء الشفاعة.

تأمل كثيرًا هذا الموضع العظيم: ﴿**قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا**﴾، إذًا لا تطلب الشفاعة إلا ممن يملكها وهو الله سبحانه وحده لا شريك له.

المشركون كانوا على حرْصٍ عظيم على الشفاعة، فاتخذوا للحصول عليها السَّبب الذي يمنعهم منها!! ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد:٣٣].

قد يقول قائل: نحن نطلب الشفاعة من غير الله لأجل أنَّ الله تعالى مَلَكَهُم إياها؛ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإخوانه من الأنبياء وكذلك المؤمنون وكذلك الملائكة أليسوا يشفعون عند الله عَزَّوَجَلَّ يوم القيامة؟! والجواب: نعم. قالوا: إذًا نحن نطلب هذه الشفاعة ممن ملَّكهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إياها.

والجواب: أن هذه شبهة داحضة؛ وذلك أن الله جَلَّ وَعَلَا لم يُملِّك الشفاعة أحدًا، بل بيَّن لنا بيانًا واضح لا لبس فيه أن الشفاعة له وحده لا شريك له، وإنما يأذن الله لمن يشاء في موضعٍ معيَّن أن يشفع، وليس هذا من التمليك في شيء.

أرأيت إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا كان يوم القيامة وطُلبت منه الشفاعة، أفيقوم شافعًا عند الله جَلَّ وَعَلَا مباشرة؟ أم يقدِّم هذا بمقدمات؟ ثم بعد ذلك يأذن الله له بالشفاعة، بل يأمره الله جَلَّ وَعَلَا بالشفاعة، كيف يكون مالكًا وهو مأمور بأن يشفع؟! «اشفع تُشفع».

ثم تأمل -يا رعاك الله- كيف أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما قيل له: «اشفع تُشفع»، ولما حدَّ الله له حدًا من أهل النار فأخرجهم منها، ثم يعيد الكرَّة لأجل أن يشفع إلى الله عَزَّوَجَلَّ مرةً ثانية، أرأيت أنه أخذ الإذن الأول مطلقًا فقام بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ مرةً ثانية فشفع عند الله جَلَّ وَعَلَا ؟ الجواب: لا، مرة ثانية يثني على الله جَلَّ وَعَلَا ويسجد سجودا طويلا، ثم يرفع رأسه ثم يقول الله له «اشفع تشفع»، يتكرر هذا الأمر أربع مرات كما ثبت في الصحيحين.

إذًا هل يُقال بعد ذلك أن هذه الشفاعة مُمُلَّكَةٌ للشفعاء؟ الجوابُ: لا والله، إنَّما يأذن الله عَزَّوَجَلَّ بها في موضعٍ معيَّن وفي محلٍ مخصوص، والله جَلَّوَعَلَا يأذن حينئذ بل يأمر حينئذ بالشفاعة، إذًا لم يكن مالكًا لها.

ثم أرأيت في حال النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الآن وهو ميت؛ أيُطلب الشفاعة الآن مع أن الله سبحانه إنما يأذن له بها يوم القيامة! فما معنى أن تطلبه الشفاعة وهو في البرزخ؟ والله جَلَّوَعَلَا لم يأذن له بالشفاعة بالبرزخ، إنما يأذن له سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بذلك يوم القيامة. إذًا هذا الطلب باطل غير صحيح، إنما يأذن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بالشفاعة يوم القيامة.

وهاهنا مسألة مهمة ويكثر السؤال عنها وهي: ما حكم طلب الشفاعة من غير الله؟

هذه المسالة فيها تفصيل؛ وذلك أنَّ **الأحوال لا تخرج عن ثلاث:**

الحال الأولى: طلب الشفاعة من حيٍّ- يعني يأتي الإنسان إلى عبد صالح أو إلى النبي **صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ** لما كان حيًا فيطلب منه الشفاعة؛ **وهذه الحال فيها تفصيلٌ أيضا وذلك أن الأمر يتردد بين أمرين:**

❁ فإن كان السائل يعتقد أن المسؤول مالكٌ للشفاعة بحيث إنَّه يشفعُ متى شاء بلا إذنٍ من الله عَزَّوَجَلَّ وبلا أمرٍ من الله جَلَّوَعَلَا ، وأنَّ شفاعته هي المؤثرة والمحرِّكة لإرادة الله جَلَّوَعَلَا ، وأنَّ الله تعالى لا يملك إلا أن يستجيب لهذه الشفاعة، لِمَا لهذا الشافع من حق عليه، فهو له إدلالٌ على الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ من اعتقد هذا في أحدٍ وسأل الشفاعة على هذا الوجه فلا شك أنَّ هذا شركٌ أكبر.

❁ **الصورة الثانية**: أن يسأله الشفاعة؛ بمعنى أن يطلب من المسؤول أن يدعو الله عَزَّوَجَلَّ بأن يأذن له في الشفاعة، يعني: يسأل المشفوع له الشافع أن يدعو الله بأن يأذن له في أن يشفع فيه؛ فهذا لا بأس به، وهذا من جملة سؤال الحي ما يقدر عليه. هو ما اعتقد أن الشفاعة مِلك له، وأنه يشفع متى شاء بأي حال شاء دون إذنٍ من الله؛ كلا، إنما يسأله أن يسأل الله أن يأذن له في الشفاعة فيه.

وهذا الوجه لا حرج فيه، وقد جاء في مسند الإمام أحمد من حديث أبي موسى الأشعري، وجاء أيضًا من حديث عوف بن مالك، وجاء أيضًا من حديث أبي موسى ومعاذٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لما قال: «إن الله خيرني بين أن يدخل نصف أمتي الجنة وبين الشفاعة فاخترت الشفاعة» حينئذ قال له أبو موسى رَضِيَٱللَّهُعَنْهُومن معه: «قالوا يا رسول الله ادع الله أن يجعلنا ممن تشفع فيهم»، تلاحظ أنهم توجهوا إلى النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بطلب أن يدعو الله أن يشفع فيهم، يعني أن يجعلهم من الزمرة الذين يشفع فيهم النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ. وهذه الرواية تفسر الرواية الأخرى التي فيها أنهم قالوا: «ننشدك بالله والصحبة إلا جعلتنا ممن تشفع فيهم»، وأصحاب النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أجلُّ قَدْرًا من أن يعتقدوا أن الشفاعة مِلكٌ للنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، إنما تفسير هذه الرواية ما جاء في الرواية الأخرى، وكلُّ ما جاء في الأحاديث في سؤال الشفاعة إنما يرجع إلى هذا المعنى؛ وهو أن يُسأل النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أن يدعو الله عَزَّوَجَلَّ بأن يجعله شافعًا للسائل.

◤ **الحالة الثانية**: سؤال الميت الشفاعة؛ وهذا شرك أكبر، بأن يسأل الميت، كأن يدعو النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بعد موته، أو يدعو الأموات والصالحين فيقول:

"اشفعوا لنا عند الله"، "يا سيدي فلان أسألك الشفاعة"، "يا نبي الله الشفاعة"، **هذا لا شك أنه شرك أكبر وذلك راجعٌ إلى ما يأتي:**

❁ **أولاً**: أنَّ جنس الدعاء للأموات شركٌ أكبر، أي سؤال وأي طلب وأي دعاء يتوجه به الإنسان للميت هذا شرك أكبر، ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾[الأحقاف:٥-٦]، إذًا هم عبَدوهم، الدعاء هو العبادة: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾[فاطر:١٤].

❁ **ثانيًا**: أنَّ الميت لا يملك الشفاعة، لا يملك أن يشفع؛ لأنَّ الميت قد انقطع عمله بنصِّ حديث رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «إذا مات الإنسان -أو إذا مات ابن آدم- انقطع عمله إلا من ثلاث...» ، وسؤال الشفاعة هاهنا ليس منها، وبالتالي يكون هذا سؤالًا لما لا يقدر عليه الميت.

❁ **ثالثًا**: أنَّ الغالب على هؤلاء القبوريين المتعلقين بالأموات أنهم يعتقدون أنَّ الميت المسؤول مالكٌ للشفاعة، وأنَّ الشفاعة التي يطلبها هي من جنس الشفاعة الدنيوية، وقد أخذنا تفصيل القول في الفرق بين الشفاعة الدنيوية التي يعهدها الناس في الدنيا، والشفاعة الأخروية.

❁ **رابعًا**: أن الغالب على هؤلاء أيضا أنه يكونُ ويقومُ في قلوبهم من التوكل والاعتماد والرجاء والرغبة في الميت ما يدخلهم في بحورٍ من الشرك.

إذًا هذه أوجهٌ أربعةٌ تدلك على أن سؤال الشفاعة للأموات شركٌ أكبر.

الحال الثالثة: طلب الشفاعة يوم القيامة من الأنبياء، وقد ثبت في ((الصحيحين)) أن الناس إذا طال عليهم الكرب يقول بعضهم لبعض: "هلموا نستشفع إلى ربنا"، فيذهبون إلى آدم، فنوح، فإبراهيم، فموسى، فعيسى، والكلُّ يعتذر، والكلُّ يذكرُ ذنبًا له يستحي بسببه، إلا عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، والكل يقول: "إنَّ الله اليوم قد غضب غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله" حتى يصلون إلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيقول: «أنا لها».

وهذا السؤال والطلب ليس كما يَظنُّ أو كما يُلَبِّسُ بعض المشركين أن هذا لأنهم يعتقدون أن هؤلاء الأنبياء يملكون الشفاعة -حاشا وكلا- ، بل يوم القيامة يوم عظيم تتجلى فيه عظمة الله وملكوته وجبروته، فأنَّى للناس في ذلك المقام أن تتعلق قلوبهم بمخلوق! أو أن يعتقدوا أن الشفاعة ملك له! إنما قولهم: (ألا تشفع لنا عند ربك) المراد بذلك: أن تتقدم بين يدي الله جَلَّ وَعَلَا بالأسباب التي يأذن الله عَزَّ وَجَلَّ بعدها بالشفاعة، يسألون النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يتقدم بالأسباب التي يأذن الله عَزَّ وَجَلَّ له بعدها بالشفاعة، **وذلك أنك إذا تأملت ما جاء في أحاديث النبي** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **في شأن الشفاعة تجد الآتي:**

- **أولا:** تجد أنَّ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا قال: (أنا لها) ينطلق فيستأذن على ربه؛ وهذا من كمال العبودية والأدب، لا يباشر الدخول على ربه -والله أعلم كيف يكون ذلك- إنما يستأذن حتى يُؤذن له.

- **وثانيًا:** إذا وقف بين يدي الله **جَلَّ وَعَلَا** فإنه يحمد الله **جَلَّ وَعَلَا** بمحامد لا تحضره في الدنيا، إنما يفتح الله عليه بها في ذلك المقام.

- **وثالثًا**: ثم يخر ساجدًا لله جَلَّوَعَلَا ، ويدَعه الله عَزَّوَجَلَّ ساجدًا ما شاء الله.
- **رابعًا**: ثم في سجوده يثني على الله جَلَّوَعَلَا ثناءً ما فتحه الله عَزَّوَجَلَّ على أحدٍ من قبل.
- **خامسًا**: ثم يرفعُ رأسه بعد أن يقول الله له ذلك «يا محمد ارفع رأسك، وسل تعطه، واشفع تشفع»، هنا أيضا قبل أن يشفع، يثني على الله ويحمده بمحامد لم يكن يحصيها في الدنيا، قال: «ثم أشفعُ».

إذًا هناك خمسة أسباب مُقَدَمَةَ بين يدي شفاعته لربه سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، أَفَبَعْدَ هذا يقال إن النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مالك للشفاعة؟ أَفَبَعْدَ هذا يقال إن الناس تتعلق قلوبهم بالنبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من جهة أنه مالك للشفاعة أو أنه يأذن إذا شاء لا بعد إذن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى؟ كلا والله.

هذا مجموع ما جاء في أحاديث الشفاعة في الصحيحين، لَخْصتُ لك ما جاء في أحاديث النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من حديث أنس رَضِيَاللَّهُعَنْهُ ومن حديث أبي هريرة رَضِيَاللَّهُعَنْهُ. بعد كل هذا وبعد أن يقول الله له: «اشفع»، يحمد الله عَزَّوَجَلَّ أيضا بمحامد يفتحها عليه، قال صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «ثم أشفعُ»، (ثم) التي تدل على الترتيب مع المهلة.

إذًا هذا كله إذا تأملته -يا رعاك الله- وجدتَ حقيقة الفرقان بين التوحيد والشرك، وبين معتقد أهل التوحيد ومعتقد أهل الشرك، والله المستعان.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَقَوْلِهِ: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة:٢٥٥]).

قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ هذا بعض آية الكرسي التي هي أعظم آية في كتاب الله. و«مَنْ» هاهنا اسم استفهام يراد به النفي، وقد مر بنا أنَّ النفي إذا جاء بصيغة الاستفهام فإنَّه يكون مشوبًا بالتحدي، فهو أبلغ من النفي المجرد.

وبهذا يتضح لنا أن الأمر عظيم، وأن الله عَزَّوَجَلَّ أجلُّ وأعظمُ من أن يتقدم أحدٌ بين يديه بالشفاعة قبل أن يأذن سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، بل لا يملك أحدٌ أن يتكلم أصلًا، فضلا عن أن يشفع عند الله، ﴿يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾[هود:١٠٥]، فالشأن عظيم وعظمة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى شيءٌ لا يحيط به عقل أو خيال.

إذًا الله جَلَّوَعَلَا يتحدى الخلق عن أن يجرؤ أحدٌ أن يتقدم بين يديه شافعًا حتى يأذن سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، وهذا يؤكد لك أن الشفاعة مِلْكٌ لله سبحانه، فإذا كان أحدٌ لا يشفع حتى يأذن الله ويأمر، إذًا الشفاعة من الله جَلَّوَعَلَا وإلى الله، وإنما أراد سبحانه أن يكرِم الشافع بالشفاعة.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَقَوْلِهِ: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النَّجم]).

هذه الآية جمعت شرطي الشفاعة المثبتة التي تكون يوم القيامة، والشرطان هما:

❁ إذْن الله ﷻ للشافع أن يشفع.

❁ ورضاه عن المشفوع له(٢٦٧).

قال عَزَّوَجَلَّ : ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ﴾ ؛ «كم» هذه خبرية تفيدُ التكثير، يعني أنَّ ملائكة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى كثُر، ومع ذلك ومع ما هم عليه من جليلِ القدر والوصف ومع ذلك فإنَّهم لا يملكون أن يشفعوا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء منهم، ويرضى عن المشفوع له. وإذا كان هذا في حق الملائكة، وأنَّهم على جلالة قدرهم ورفيع منزلتهم ليس لهم من الأمر شيء، إنما هم مأذونٌ لهم مأمورون بالشفاعة إذا شاء الله؛ فكيف بغيرهم!!.

والمقام هاهنا يرجع إلى ضرورة استحضار ثلاثة أصول نبه عليها ابن القيمرَحِمَهُٱللَّهُ لمن أراد أن يضبط هذا الموضوع في ضوء الكتاب والسنة، قال رَحِمَهُٱللَّهُ هاهنا ثلاثة أصول:

- **أولاً**: أنَّه لا شفاعة إلا من بعد إذن الله.
- **وثانيًا**: أنَّه لا شفاعة إلا فيمن يرضى الله عنه.
- **وثالثًا**: أنه لا يرضى إلا توحيده واتباع رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

من فهِم هذه الأمور الثلاثة خرج من قلبه كل أدران الشرك بالله جَلَّوَعَلَا في جانب الشفاعة، وتعلَّقَ قلبه بالله جَلَّوَعَلَا وحده.

---

(٢٦٧) والله ﷻ إنما يرضى عن أهل التوحيد، كما في «صحيح مسلم» من قوله عليه الصلاة والسلام: «لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ، فَتعَجَّلَ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ، وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللهُ مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا»، فهذا دليلٌ على أنَّ أهل التوحيد هم الذين يرضى الله ﷻ عنهم.

السبب الذي يوصلك يا عبد الله إلى شفاعة النبي ﷺ وشفاعة الشفعاء، هو التوحيد الخالص، لاحظ أنَّ أبا هريرة رضي الله عنه وهو الصحابي الجليل الفقيه، سأل النبي ﷺ عن أسعد الناس بشفاعته، «يا رسول الله من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟» اسمع الجواب واعرف السبب، قال ﷺ: «أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصا من قلبه»، لم يقل النبي ﷺ أسعدهم من طلبني الشفاعة، أسعدهم من تعلق قلبه بي لنيل الشفاعة، كلا، السبب الموصل بعد توفيق الله جل وعلا إلى نيل الشفاعة هو التوحيد الخالص؛ أن يتعلق قلبك وأن تتعلق عبادتك بالله سبحانه وحده لا شريك له[٢٦٨].

قال رحمه الله: (وَقَوْلِهِ: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ﴾ الآيتين [سبأ:٢٢]).

هذه الآية وما بعدها مر الحديث عنهما **﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ * وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾**، وقلنا إن هذه الآية، قال العلماء: إنها تقطع جذور الشرك من القلب، **وذلك أنَّ كل تعلقٍ بغير الله إنما يرجع إلى واحد من هذه الأسباب الأربعة:**

❁ **أولًا**: أن يُعتقد في هذا المتعلَّق به أنه مالكٌ للسموات والأرض؛ وهذا منفي قطعًا، فالله هو الذي يملك السماوات والأرض.

---

(٢٦٨) فهذه الآية أصل عظيم في تقرير الحقّ في هذه المسألة.

❁ **ثانيًا**: أو أن يكون له شراكة مع الله عَزَّوَجَلَّ في الملك؛ وهذا منفيٌ أيضًا.

❁ **ثالثا**: أو أن يكون معينًا وظهيرًا لله سبحانه، وهذا منفيٌ أيضًا.

❁ **رابعًا**: فما بقيَ إلا أن يكون شافعًا، فيتعلق به المتعلق ويتقرب له المتقرب لأجل أن يشفع له عند الله جَلَّوَعَلَا، فبيّن سبحانه أن هذا منفيٌ أيضًا ﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾.

إذًا عاد الأمر كله إلى الله جَلَّوَعَلَا، **فحقيقة الحال**: أن الله شفع من نفسه إلى نفسه ليرحم عبده، وأراد أن يكرم الشافع.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**قَالَ أَبُو العَبَّاسِ**)؛ أبو العباس هو: أحمد بن عبد الحليم بن عبدالسلام ابن تيميه الحراني، الإمام العلَم الجليل، المتوفى سنة ٧٢٨ من هجرة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وهذا الكلام الذي يسوقه المؤلف كلامٌ مهم ذكره شيخ الإسلام رَحِمَهُٱللَّهُ في كتابه «الإيمان»[٢٦٩].

قال رَحِمَهُٱللَّهُ: «**نَفَى اللهُ عَمَّا سِوَاهُ كُلَّ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ الـمُشْرِكُونَ، فَنَفَى أَنْ يَكُونَ لِغَيْرِهِ مُلْكٌ، أَوْ قِسْطٌ مِنْهُ، أَوْ يَكُونَ عَوْنًا للهِ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الشَّفَاعَةُ؛ فَبَيَّنَ أَنَّهَا لَا تَنْفَعُ إِلَّا لِـمَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّبُّ؛ كَمَا قَالَ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾. فَهَذِهِ الشَّفَاعَةُ الَّتِي يَظُنُّهَا الـمُشْرِكُونَ هِيَ مُنْتَفِيَةٌ يَوْمَ القِيَامَةِ؛ كَمَا نَفَاهَا القُرْآنُ**»؛ قلنا إن الله جَلَّوَعَلَا قد أكثر في كتابه من نفي الشفاعة، والمراد: الشفاعة التي يعهدها الناس في الدنيا؛ هذه منفية، هذه لا يمكن أن تكون عند الله جَلَّوَعَلَا، من اعتقد

---

(٢٦٩) وهذا كلامٌ نفيسٌ عظيم، فيه تلْخيص مُركَّز لتقرير هذه المسألة، ولو عدت للكلام في باب الإيمان وأكملته -يعني قرأت ما بعده أيضًا- فإنَّك تجد فائدة كبيرة -إن شاء الله-.

هذه الشفاعة فإنه يكون قد هضم حق الربوبية، وانتقص عظمة الإلهية، وأساء الظنَّ برب العالمين سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

قال رَحِمَهُٱللَّهُ: «وَأَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهُ يَأْتِي فَيَسْجُدُ لِرَبِّهِ وَيَحْمَدُهُ -لَا يَبْدَأُ بِالشَّفَاعَةِ أَوَّلًا-؛ ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: (ارْفع رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ)»؛ يحمد قبل أن يسجد، ويحمد أثناء السجود، ويحمد بعد أن يرفع رأسه من السجود، كلُّ هذا ثابتٌ في «الصحيحين».

قال رَحِمَهُٱللَّهُ: «وَقَالَ لَهُ أَبُو هُرَيْرَةَ: مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ؟، قَالَ: «مَنْ قَالَ: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ) خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ»، فَتِلْكَ الشَّفَاعَةُ لِأَهْلِ الإِخْلَاصِ بِإِذْنِ اللهِ، وَلَا تَكُونُ لِـمَنْ أَشْرَكَ بِاللهِ»؛ ويا لله العجب! سبحان الله العظيم! ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾[الزمر:٣٦]، كيف أن هؤلاء تعلقت قلوبهم بالشفاعة تعلقًا عظيمًا، فاتخذوا السبب الذي حرمهم منها!! يطلبون الشفاعة بالسبب الذي يمنعهم منها، شيءٌ عجيب!.

قال رَحِمَهُٱللَّهُ: « وَحَقِيقَتُهُ: أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ هُوَ الَّذِي يَتَفَضَّلُ عَلَى أَهْلِ الإِخْلَاصِ؛ فَيَغْفِرُ لَهُمْ بِوَاسِطَةِ دُعَاءِ مَنْ أَذِنَ لَهُ أَنْ يَشْفَعَ لِيُكْرِمَهُ، وَيَنَالَ الـمَقَامَ الـمَحْمُودَ. فَالشَّفَاعَةُ الَّتِي نَفَاهَا القُرْآنُ مَا كَانَ فِيهَا شِرْكٌ، ولهذا أَثْبَتَ الشَّفَاعَةَ بِإِذْنِهِ فِي مَوَاضِعَ، وَقَدْ بَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهَا لَا تَكُونُ إِلَّا لِأَهْلِ التَّوْحِيدِ وَالإِخْلَاصِ. انتهى كَلامُهُ»؛ هذا كلام مهم ونفيس ولخصَّ لك الموضوع جملةً، حريٌّ أن تطالعه وأن تتأمله. وأوصيك إن كنت طالبا للفائدة أن ترجع إلى موضع مهم لابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ في «إغاثة اللهفان»، فإنه من أحسن المواضع في بيان الفرق

بـين الشـفاعة الثابتـة التـي دلَّ القـرآن عليهـا، والشـفاعة المنفيـة التـي اعتقـدها المشركون في آلهتهم، والله تعالى أعلم(٢٧٠).

---

(٢٧٠) الخلاصة: هي أنَّ كلام شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيه تلخيصٌ لِمَا سبق بيانه؛ وهو أن الشفاعة مِلْك لله، ولا يتقدَّم بها أحد، وإنما يعطيها الله عَزَّوَجَلَّ مَن يشاء، ويأْذن بها لمن يشاء، ويأمر بها من يشاء، إذا أرد الله عَزَّوَجَلَّ أن يرحم عباده الذين يُشفع فيهم.

وحقيقة الأمر -كما ذكر-: أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يريد أن يرحم هؤلاء المشفوع فيهم بواسطة هؤلاء الشفعاء، ويريد إكرام هؤلاء الشفعاء، وإلا فالأمر كله لله عَزَّوَجَلَّ، والله عَزَّوَجَلَّ غنيٌ عن ذلك كلِّه، ولا حاجة له إلى هذه الشفاعة ولا إلى هؤلاء الشفعاء، وإنما لحكمةٍ يعلمُها تبارك وتعالى؛ ولأجل إظهار شريف مكانة هؤلاء الشفعاء قدَّر سبحانه وشاء حصولَ هذه الشفاعة ، لا على الوجْه الذي ظنَّه المشركون.

وكلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ الشفاعة المنفية ما كان فيها شركٌ، إمَّا من جهة الطلب -يعني من جهة السؤال- بأن تُطلب من غير الله، أو من جهة من تكون له؛ فلا تكون الشفاعة لأهل الشرك، كِلا الأمرين مُنتفٍ ، وعليهما تتنزَّل النُّصوص التي جاءت في نفي الشفاعة في آيات كثيرة في كتاب الله، مع الضابطين الآخرين الذين ذكرتُهما في مفْتَتَح الكلام.

- فالشفاعة بلا إذْنه منفية.
- والشفاعة التي تُطلب من غيره منفية.
- والشفاعة في حقِّ المشركين منفية.
- والشفاعة التي يظنُّها هؤلاء المشركون لأجل جاهِهِم ومكانتهم عند الله عَزَّوَجَلَّ فيؤثرون على الله، ويكون لذلك أثرًا في حصول الشفاعة ولو لم يُرِد الله عَزَّوَجَلَّ هذه الرحمة فإن هذا كله منفيٌ في هذا النُّصوص المتكاثرة في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ.



قال المصنف رحمه الله:

١٨-بَابُ

قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ [القصص:٥٦].

فِي «الصَّحِيحِ» عَنِ ابْنِ الـمُسَيَّبِ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: لَـمَّا حَضَـرَتْ أَبَا طَالِبٍ الوَفَاةُ جَاءَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَعِنْدَهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ وَأَبُو جَهْلٍ، فَقَالَ لَهُ: «يَا عَمِّ؛ قُلْ: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ)، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ»، فَقَالَا لَهُ: أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الـمُطَّلِبِ؟! فَأَعَادَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ فَأَعَادَا.

فَكَانَ آخِرَ مَا قَالَ: هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الـمُطَّلِبِ، وَأَبَى أَنْ يَقُولَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَقَالَ النَّبِيّ ﷺ: «لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ، مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ».

فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة:١١٣].وَأَنْزَلَ اللهُ فِي أَبِي طَالِبٍ: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص:٥٦].



قال الشارح وفقه الله:

عَقَدَ المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الباب بعد أن بيَّن في الباب السابق أنَّ الشفاعة مِلْكٌ لله سبحانه فلا تُطلب إلا منه، بيّن هاهنا أنَّ الهداية مِلْكٌ لله جَلَّ وَعَلَا فلا تُطلب إلا منه، وإذا كان من المشركين من أشرك لأجل طلبِ الشفاعة فإنَّ منهم من أشرك لطلب هداية القلوب وغفران الذنوب من غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فالهداية إنَّما

يختص الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بها، وبالتالي فإنَّ من طلبها من غير الله فقد أشرك مع الله(٢٧١).

والمتأمل فيما جاء في شأن الهداية في كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يجد أنها جاءت على أربعة أنواع؛ فصَّلها ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه بدائع الفوائد:

❑ **النوع الأول: الهداية العامة**؛ أي أن الله سبحانه هدى كل مخلوقٍ لما ينفعه ولما هو مستعدٌ له؛ ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾[طه:٥٠]؛ فهو الذي هدى النحلة أن تتخذ من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ، وهو الذي هدى النملة لعملِها، وهو الذي هدى الطفل لأن يمسك الثدي ويمتص الحليب منه، وهو الذي هدى الزوجين للمعاشرة والتناسل، وهو الذي هدى اليد والرجل والعين والأذن لِما خلقها الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ** لأجله. إذًا هذه هي

---

(٢٧١) الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ أراد من عقد هذا الباب: الردَّ على القُبوريّين الذين يزعمون أنَّ للأنبياء والأولياء قُدرة على هداية القلوب ومغفرة الذنوب وتفريج الكُروب، ولذلك يتقرَّبون إليهم بأنواعٍ من العبادات رجاءَ هذا الأمر، فأراد الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ أن يبيّن أنَّ النبي عليه الصلاة والسلام -وهوَ هُوَ ذُو المكانة الرفيعة التي لا يُدَانِيه فيها أحدٌ من الخلق عليه الصلاة والسلام- ليس له من الأمر شيء، فإنَّه لا يتمكّن ولا يستطيع ولا يملِك أن يهدي مَن أحبَّ هدايته، وإذا كان هوَ عليه الصلاة والسلام لا يستطيع ذلك وهو حيٌّ فإنَّه لا يستطيع ذلك وهو ميتٌ من باب أوْلى، وإذا كان هو عليه الصلاة والسلام لا يستطيع ذلك فغيره من باب أوْلى.

الهداية العامة؛ هدى كلَّ مخلوقٍ لما ينفعه ولما هو مستعدٌ له، وهذه هدايةٌ يختص الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ** بها فلا يشركه فيها أحد.

❑ **النوع الثاني: هدايةُ الدلالة والبيان والإرشاد والتعريف**؛ وهذه الهداية بمعنى أن الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ** يدل ويبيّن ويرشد إلى طريق الحق وإلى الصراط المستقيم، وإلى توحيده، وإلى دين الإسلام، كما قال **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ**: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾[فصلت:١٧]، وهذه هي هداية الدلالة والإرشاد والبيان. وهذه الهداية كما أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يفعلها، كذلك أعطاها لمن شاء من خلقه؛ فالنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإخوانه من الأنبياء وكذا الدعاة والمصلحون كلهم يهدون هذه الهداية، ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾[الرعد:٧]، ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾[الأعراف:١٥٩]، ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[الشورى:٥٢].

❑ **النوع الثالث: هداية التوفيق والإلهام**؛ وهذه الهداية هي محور الحديث في هذا الباب، وهي المرادة في هذه الآية التي بوَّب المؤلف **رَحِمَهُ ٱللَّهُ** هذا الباب عليها. هذه الهداية بمعنى: هداية القلوب إلى الحق، وتوفيق النفوس إلى التزام توحيد الله وما بعث الله به رسله. هذه هدايةٌ خاصةٌ بالباري **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ** لا يشركه فيها أحد؛ الله جل وعلا وحده هو الذي يملك هذه الهداية وهو الذي يمنحها من يشاء، ﴿وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[النور:٤٦]. إذًا هذه الهداية ليست للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فضلًا عن أن تكون لغيره، ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهدِي مَنْ يَشَاءُ﴾[القصص:٥٦]. وهذا هو الموضوع الذي ضلَّ

بسبب طلبه من غير الله هؤلاء المشركون؛ حيث اعتقدوا أنَّ غير الله يملك الهداية، فطلبوها من هذه الآلهة التي اتخذوها مع الله **سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ**.

❑ **النوع الرابع**: **الهداية الأخروية**؛ هداية أهل الجنة إلى طريق الجنة، وهداية أهل النار إلى النار ، نسأل الله الجنة ونعوذ به من النار . يدل على هذه الهداية ما جاء في قوله **سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ**: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾[يونس:٩]، ويدل عليها أيضًا ما ثبت في البخاري من حديث أبي سعيدٍ الخدري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنَّ النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «إذا خلص المؤمنون من النار حُبسوا على قنطرةٍ بين الجنة والنار، فيُقص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم، حتى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا أُذن لهم بدخول الجنة»، ثم قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وهو موضع الشاهد: «فوالذي نفسي بيده إن أحدهم لأهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا»؛ هداه الله جَلَّوَعَلَا إلى أن يسلُك الطريق الذي يوصله إلى محل نعيمه ومستقره في جنات النعيم، كذلك الشأن في أهل النَّار- عافانا الله وإياكم منها ومن حال أهلها- قال **جَلَّوَعَلَا**: ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾[الصافات:٢٣].

إذًا هذه الأنواع الأربعة، هي التي دَّل استقراء القرآن على أنها أقسام وأنواع الهداية.

نعود إلى محور الحديث؛ وهو هداية التوفيق والإلهام؛ قلنا إن هذه الهداية هي حقٌ لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لا يشركه في هذا الحق غيره. **ومعتقد أهل السنة والجماعة في هذه الهداية يتلخص في أربعة أمور**:

➢ **الأمر الأول:** يعتقد أهل السنة والجماعة أنَّ الهداية حقٌ لله، فهو الذي يهبها من يشاء؛ الله جَلَّوَعَلَا هو الذي يشاء الهداية لعباده من شاء منهم لا سواه، ﴿وَاللهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلامِ وَيَهدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[يونس:٢٥]؛ فالهداية بيد الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى ، ولولا أنَّ الله هدى المهتدي ما كان ليهتدي، مهما فعل، ومهما تعلم، ومهما استعمل من رياضةٍ نفسية، ومهما سَهِرَ، ومهما جاع، لا يمكن أن يهتدي لولا أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى هداه؛ وبالتالي فمن اعتقد أنَّ غير الله جَلَّوَعَلَا يملك هذه الهداية فقد أشرك الشرك الأكبر، قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له»، وفي الصحيحين من حديث البراء رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يوم الأحزاب كان ينقل التراب وهو يرتجز بأبيات ابن رواحة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ:

واللّه لولا اللّه ما اهتدينا ولا تـصـــــدقنا ولا صلينا

إذًا الهداية –أعني هداية التوفيق– من فروع ربوبية الله سبحانه، فكما أن الله ليس له شريكٌ في الخلق والمُلك والرزق والتدبير، كذلك ليس له شريكٌ في الهداية، ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾[الشعراء:٧٨]، الهداية من الله وحده لا شريك له. تأمل في قول الله جَلَّوَعَلَا في سورة يونس: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾[يونس:٣٤]، كما أن الخلق لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى فلا أحد يُبْدع الخلق، أو يبدئ الخلق أو يعيده إلا الله، كذلك الهداية، ولذلك عقَّبَ هذه الآية بقوله: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّي﴾ يعني يهتدي

﴿إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[يونس:٣٥]. إذًا كما أن الخلق إنما هو شيءٌ اختص الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ به، كذلك الهداية شيءٌ اختص الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ به(٢٧٢).

➢ **الأمر الثاني**: أنَّ أهل السنة والجماعة يعتقدون أن الهداية محضُ فضلٍ من الله ونعمة؛ الله جَلَّوَعَلَا إذا هدى من هدى فإن ذلك راجعٌ إلى إنعامٍ وفضلٌ منه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لا شريك له، فليس للعبد حقٌ على الله، وليس للعبد حجةٌ على الله، بل لله الحجة البالغة على خلقه أجمعين، فليس الأمر راجعًا إلى معاوضة أو مقابلة قام العبد بشيء فكان حقًا على الله أن يهديَ هذا العبد مقابلةً ومعاوضة، كلا والله؛ الأمر محض فضلٍ من الكريم سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾[البقرة:١٠٥].

➢ **الأمر الثالث**: أنَّ هداية الله **جَلَّوَعَلَا**، وتفضله بهذه النعمة راجعٌ إلى علم الله وحكمته؛ فهو **جَلَّوَعَلَا** يعلم المحل اللائق بنعمته، فتقتضي حكمته وضع هذه النعمة في محلها اللائق بها، نعمة الله **جَلَّوَعَلَا** لا تتعارض مع علم الله وحكمته؛ إنما يعطي الله **عَزَّوَجَلَّ** هذه النعمة من عَلِمَ أنه أهلٌ لها وأنه يزكو بها، وإلا فليس الأمر راجعًا إلى محض مشيئة الله **سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ**، يخطئ خطأً كبيرًا من يظنُّ هذا الأمر؛ إنما الله **جَلَّوَعَلَا** يعلم من هو المناسب واللائق بهذه النعمة فيعطيه إياها وهذا هو حقيقة الحكمة، تأمل معي قول الله **جَلَّوَعَلَا**: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ

---

(٢٧٢) فلا تُطلبُ إلا منه تبارك وتعالى، ﴿مَنْ يَشَإِ اللهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام:٣٩]، ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ [الأنعام:١٢٢].

بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ ماذا ردَّ الله عليهم؟ ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾[الأنعام:٥٣]، إذًا الله سبحانه يعلم من يناسب أن يوضع فيه هذه النعمة، فيضع النعمة حيث تقتضي حكمته **سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ**.

هذه الأمور الثلاثة جمعها موضع في كتاب الله، تأمل قول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ هو سبحانه لا غيره، الأمر منه وحده لا شريك له:

-**أولا** : ﴿وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾[الحجرات:٧]. هذا هو الضابط الأول؛ الهداية إلى الله راجعةٌ إلى مشيئته.

-**ثانيًا**: قال سبحانه: ﴿فَضْلًا مِنَ اللهِ وَنِعْمَةً﴾[الحجرات:٨]؛ الأمر محض تفضلٍ وإنعامٍ من الله جَلَّوَعَلَا.

-**ثالثًا**: ثم قال: ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[الحجرات:٨] هذه المشيئة كانت مقترنة بعلم الله وحكمته؛ فالله جَلَّوَعَلَا إنما هدى عن علمٍ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وهذا هو ما تقتضيه الحكمة ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

➢ **الأمر الرابع**: أن أهل السنة يعتقدون أن تفضل الله **عَزَّوَجَلَّ** بالهداية له وجهان:

❖ **الوجه الأول**: أنه يبتدئ بالهداية من شاء(٢٧٣)؛ وهذا ما يمكن أن نسميه «الهداية الابتدائية»؛ يعني أن لله سبحانه لطيفةً يبتدئ بها من يشاء، ويوقعها في

---

(٢٧٣) أنَّه يبتدئ بالهداية مَن عَلِمَه أهلًا لها.

قلب من أحب، فتعود عليه بالهداية، ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾[الأنعام:١٢٢]. إذًا الله عَزَّوَجَلَّ يبتدئ بالهداية من يشاء، يكون الإنسان كافرًا وإذا بقلبه يهتدي إلى الحق، أو يكون مبتدعًا فيهتدي إلى السنة، أو يكون فاسقًا فيُهدى إلى الطاعة.

❖ **الوجه الثاني**: وهو الهداية اللاحقة؛ يعني أنَّ من فتح الله عَزَّوَجَلَّ على قلبه وقذف في قلبه النور والبصيرة فعمل الخير وأقبل على الهدى فإنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يجازيه على ذلك بأنه يهديه إلى حسنةٍ أخرى، فإذا عمل الثانية هداه إلى حسنةٍ ثالثة، وهكذا. إذًا هو الذي أنعم ابتداءً، ثم جازى بعد ذلك بنعمٍ متتالية؛ لأنَّ ربك شكور سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

تأمل في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾[محمد:١٧]، ﴿إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾[الأنفال:٢٩]، ﴿اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾[الأحزاب:٧٠- ٧١]، ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾[الليل:٥-٦] كانت النتيجة: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾[الليل:٧].

إذًا هذه الأمور الأربعة تنتظم معتقد أهل السنة والجماعة في موضوع الهداية(٢٧٤).

---

(٢٧٤) ويُقابل الهداية: الإضلال، **والإضلال أيضًا ترتيب الكلام فيه عند أهل السُّنَّة يتلخص في مسائل:**

❁ **أولًا**: أنَّ الإضلال إنما يكون بمشيئة الله ﷻ؛ فالله سبحانه لا يُعصى ولا يُكفر به إلا بمشيئته، فهو أعزُّ من أن يُعصى قسْرًا، والعباد أحْقر من ذلك، فلا يمكن أن تكون هناك مشيئة من الله ﷻ أن يهتدي العبد ويشاء هو أن يَضل فتغلب مشيئتُه مشيئةَ الله، تعالى الله عن ذلك، بل لم تقع الضلالة إلا بمشيئته تبارك وتعالى، قال سبحانه: ﴿مَنْ يَشَإِ اللهُ يُضْلِلْهُ﴾، ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ﴾ [النحل:٣٦].

❁**المسألة الثانية**: أنَّ حصول الإضلال إنما هو عقوبةٌ من الله ﷻ؛ لم تكن قضية الإضلال ظلمًا من الله ﷻ ،حاشا وكلَّا، وإنما الإضلال عقوبة منه ﷻ، عقوبة على أي شيء؟ عقوبة لكونهم ما فعلوا ما أُمِرُوا به، وعقوبة على ما صدر منهم على ما سيأتي. وبيان ذلك: أنَّ الله ﷻ أقام الحُجَّة، وقطع المعذرة، فأرسل الرُّسل وأنزل الكتب وأعطى العقول والأسماع والأبصار، ومكَّن من الهداية، ولم يَحُلْ بين العبد وبين سلوك طريق الاستقامة، قال سبحانه: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان:٣] ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد:١٠]. فالعبد هو الذي استحبَّ الضلالة على الهداية فأضلَّه الله، ومكَّنه من الطريق الذي أراد سلوكه، قال جلَّ وعلا: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ يعني: هداية الدّلالة ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾، [فصلت:١٧]، ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل:١١٨] هم الذين ظلموا أنفسهم فخلى الله ﷻ بينهم وبين أنفسهم، ونفوس البشر لا يصدر منها إلا الجهل والظلم، ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب:٧٢].

❁**المسألة الثالثة**: أنَّ حصول هذه العقوبة راجعٌ إلى عدل الله وحكمته؛ فإن عقوبة المستحقّ عدلٌ، ومنْع الهداية مِمَّن ليس أهلًا لها حكمةٌ، فالله ﷻ لا تَعارض بين رحمته وحكمته، فإنه يضع رحمته وفضله وإحسانه حيث تقتضي حكمته جلَّ وعلا، والذين أضلَّهم الله ليسوا أهلًا لذلك، ويكفيك للتحقّق من ذلك أن تَتأمَّل قول الله ﷻ في شأن

وعودًا على بدء، هذه الهداية -يا رعاك الله- إنما هي حقٌ لله عَزَّوَجَلَّ، لا يجوز أن يُعتقد البتة أن غير الله عَزَّوَجَلَّ يملكها أو يمنحها أو يعطيها من يشاء، الأمر راجعٌ إلى مشيئة الله جَلَّوَعَلَا وحده لا شريك له، فمن اعتقد أن غير الله يهدي فإنه قد وقع في هوةٍ سحيقةٍ من الشرك.

وهذا الذي وقع فيه من وقع من عُبّاد القبور من الغلاة في الأولياء والأنبياء والصالحين؛ فإنهم اعتقدوا فيهم أنهم يكشفون الكروب، ويهدون القلوب،

الكفار لمَّا عاينوا العذاب: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام:٢٨] ؛ إذًا هذه النفوس الخبيثة ليست أهلًا للهداية.

❁**المسألة الرابعة**: أنَّ هذه العقوبة راجعةٌ إلى أمرين:

-**الأمر الأول**: عقوبة على عدم فعْل الإيمان الذي أُمِرُوا به؛ لمَّا أُقيمَتْ عليهم الحُجَّة وبلغتْهم الدعوة ما قاموا بالشيء الذي وجب عليهم، إنَّ الذي حصل من الكفار إنما هو عدم فعْل الإيمان الذي وجب عليهم، كان يجب عليهم أن يؤمنوا لمَّا جاءهم الهُدى، قال الله عَجَلَّ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام:١١٠]، جاءتهم الحُجَّة وجاءهم النذير وجاءهم البلاغ لكنَّهم أبَوا، وما قاموا بالشيء الذي وجب عليهم فأضلهم الله، ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

-**الأمر الثاني الذي ترجع إليه العقوبة بالإضلال**: هو العقوبة على ما صدر منهم من كفْرٍ وضلالٍ وعصيان، قال جلَّ وعلا: ﴿وَاللهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا﴾ [النساء:٨٨]، ﴿ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [التوبة:١٢٧]، ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ [الليل: ٨-١٠].

هذا ملخَّص ما يتعلّق بهذه المسألة العظيمة وِفْقَ مقتضى قواعد أهل السُّنَّة والجماعة.

ويغفرون الذنوب؛ ولذلك كتُبهم وما أسموه بالمصنفات(٢٧٥) في الكرامات التي يزعمونها لأوليائهم طافحةٌ بهذا المعتقد مع الأسف الشديد، حتى إنك تجد أحدهم يذكر عن نفسه أنه يمكث المدد الطويلة وهو خائفٌ وجِل حريصٌ على قلبه، يخشى أن تكون منه واردة أو شاردة هنا وهناك، فيطَّلع على قلبه سيده ووليه وشيخه فيسلبه الإيمان. حتى إنهم يذكرون أشياء من المضحكات، بل والمبكيات أيضًا؛ قرأت في بعض كتبهم أنَّ أحد هؤلاء سافر، لم يكن في البلدة التي فيها شيخه وسيده، سافر، ثم إنه بدأ يفكر في بعض الأمور السيئة، يقول: فما راعني إلا وفردة نعلة شيخي تطير في الهواء حتى أصابتني، نعلة شيخه جاءته عبر الأثير حتى وصلت إليه وضربته، حتى يعود إلى رشده، يقول: فتبت ورجعت عما كنت أفكر فيه من هواجس قلبي.

نعم، هكذا يعتقدون أن للأولياء قدرة على الاطلاع على ما في القلوب، فشيخه وسيده هو الرقيب، وهو المحيط، وهو العليم بكل شيء، ولذلك يخاف ويصيبه الوجل الشديد بسبب ذلك.

ناهيك عما يعتقدون من أنَّ الهداية بيد الشيخ، يعطيها من يشاء ويسلبها ممن يشاء، فرجاؤهم وخوفهم في شأن الهداية متعلقٌ بهذا الشيخ وهذا الولي

---

(٢٧٥) وارجعْ إلى طبقات الصوفية للشعراني وأمثاله ستجد من هذه النَّماذج الشيء الكثير، حتى إنَّ هذا الرجل الشعراني في أحد كُتُبه وهو مُسمَّى بـ «الجواهر والدُّرر» ختمَ الكتاب بقوله: «فما كان منه من حقٍّ وصواب فمن نفحَاتِه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ»، مَن هو؟ شيخه أبو علي الخوَّاص، «وما كان فيه من خطأ فمن نفسي».

وهذا السيد، حتى إنهم قد يُلبِسونه الخرقة -هذا الثوب المقطع البالي- يُلبسوه إياه، أتدري لم؟ لأجل أنَّ هذا الثوب إذا لبسه فإنه تستقر فيه الهداية وتسكن، أما إذا نُزع فإنه يُنزع منه الإيمان، لذلك هو حريص على أن يلبس خرقة الشيخ. تجدُ أنه يعتقد أن شيخه هو الذي لو نظر إليه نظرة إكرام وإسعاد فإنه يسعد، بل بعضهم يعتقد أنه هو لو نظر إلى الشيخ اهتدى وكانت له السعادة التامة.

ذكر بعض من كتب في كراماتهم أن أحد هؤلاء السادة والأقطاب كان إذا نظر إلى شيء اهتدى مباشرة بدون تردد، حتى إنه مرةً خرج من خلوته فصادف أن مر أمام نظره كلبٌ، فنظر إليه، فما كان إلا أن اهتدى الكلب وصار إمامًا، وأصبحت الكلاب تتبعه -والله هذا كلامٌ مكتوب - بل أصبح الناس يأتون إليه لتُقضى حوائجهم منه، حتى إنهم ذكروا أنه لما مات بكت الكلاب وصاحت وناحت، حتى يقول هكذا "ألهم الله بعضهم فدفنه في قبر، فأصبحت الكلاب تأتي إلى هذا القبر وتعكف عنده". تعجب والله لا من عقول تكتب هذا الكلام؛ لكن من عقول تعتقد صحة هذا الكلام مع الأسف الشديد، ﴿**وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ**﴾[الرعد:٣٣].

فهذا عياذًا بالله من خذلان الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لهؤلاء، ليس الله عَزَّوَجَلَّ بظلامٍ للعبيد؛ بل هو العدل الذي لا يظلم تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، لكنهم أُتُو من أنفسهم، استحبوا العمى على الهدى، ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ تبيّن لهم الحق، وقامت عليهم الحجة، آتاهم الله العقول والأسماع والأبصار، أنزل الله عَزَّوَجَلَّ عليهم الكتاب، أرسل إليهم

الرسول؛ لكن ما الذي حصل؟ ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاستَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾[فصلت:١٧] هؤلاء كذلك.

أما الذي يوقفه الله عَزَّوَجَلَّ إلى أن يسلك الصراط المستقيم بأن يقطع العلائق بالخلائق، ويعلق قلبه بالخالق الرازق، إنه حينئذٍ يهتدي إلى الحق، إذا استمسك بحبل الإيمان والتوحيد والاتباع الصادق للنبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يهتدي، يجعل الله له فرقانًا، القوم أُتوا من جهة أنه لم يكن عندهم فرقان، والله جَلَّوَعَلَا يقول: ﴿إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾[الأنفال:٢٩]، هذا الفرقان هو الذي يكون به أنه تَفْرِقَ بين الحق والباطل؛ ترى الصواب فتلتزمه، وترى الباطل فتجتنبه، ﴿إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾؛ هؤلاء ما فَرَقُوا ولا فَرّقوا بين حق الله وحق المخلوق، وبين ما اختص الله به، وبين ما يكون له وللمخلوق، جعلوا الأمرين سواء:

الرب ربٌ والرسول فعبده ... حقًا وليس لنا إله ثاني

لله حقٌ لا يكون لغيره ... ولعبده حقٌ هما حقانِ

لا تجعلوا الحقين حقًا واحدًا ... من غير تمييزٍ ولا فرقان

هنا الإشكال، وهنا مكمن الخطأ والخلل؛ أنَّهم ما كان عندهم فرقان يميزون به بين ما اختص الله عَزَّوَجَلَّ به، وبين ما اختص به المخلوق، وأن هناك شيئًا يشترك فيه الخالق والمخلوق؛ كهداية الإرشاد وهداية البيان.

إذًا يا أيها الموحد: احمد الله، وسله مزيدًا من التوفيق، وسله أن يهديك إلى الحق، وأن يثبتك، فوالله إنَّه لمن أعظم النعم أن يهديك الله إلى الحق، وأن يجعل لك فرقانًا، ولذلك كان من أنفع الأدعية، بل من أوجب الأدعية عليك أن

تقول: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[الفاتحة:٦] ، هذه الكلمات العظيمات وهذا الدعاء القيم الذي يقوله المسلم أقل شيء سبع عشرة مرة في اليوم والليلة، عليه أن يحسن تأمله وتدبره، وأن يحضر قلبه عندما يتلفظ به.

﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، هذه الدعوة تتناول الهداية؛ هداية الدلالة، وهداية التوفيق أيضًا، تَجْأَرُ وتلجأ وترفع حاجتك إلى الله صادقًا من قلبك أن يوفقك إلى العلم بالحق والتزامه أيضًا؛ لابد من الأمرين، وإلا فعلمك بالحق فقط دون أن تعمل به لا ينفعك، بل هو حجةٌ عليك، فأنت بحاجة إلى الهداية دائمًا وأبدًا وفي كل وقت، حاجتك إلى الهداية مثل حاجتك إلى النفَس؛ كما أنك بحاجة إلى النفس والهواء في كل لحظة أنت بحاجةٍ إلى هدايةٍ من الله عَزَّوَجَلَّ في كل لحظة، ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

أنتَ بحاجة إلى أن تُهدى إلى الصراط المستقيم، وبحاجةٍ إلى أن تُهدى في الصراط المستقيم، بحاجةٍ إلى أن تهتديَ إلى الإسلام، ثم بحاجةٍ إلى أن تهتدي إلى تفاصيل الإسلام والعمل بهذه التفاصيل، ولذا كل خطوة في حياتك أنت بحاجةٍ فيها إلى هدايةٍ خاصة؛ أن تصلي الفريضة أنت بحاجة إلى أن يهديك الله عَزَّوَجَلَّ إلى ذلك، وكم من الناس ما شاء الله لهم هذه الهداية اختصك الله عَزَّوَجَلَّ بها، ثم صلاة السنة الراتبة بعدها، هذه لا يمكن أن تقوم بها إلا إذا كان من الله عَزَّوَجَلَّ هدايةٌ خاصةٌ بها. أرأيت كيف أنك في كل حركةٍ وسكنة بحاجةٍ إلى هدايةٍ خاصةٍ من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى. بعض الناس يقول: لِم ونحن -ولله الحمد- مسلمون ومصلون

ومهتدون ندعوا بهذا الدعاء ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[الفاتحة:٦]، ونكرر دائمًا هذه الدعوة!! ولذلك بعضهم يفسر ذلك بقوله: ثبتنا.

واعلم -يا رعاك الله- أن التثبيت هو بعض المعنى لا كله، وإلا :

- فأنت بحاجة إلى أن تهتديَ إلى معرفة تفاصيل الحق وتفاصيل ما يكون في الصراط المستقيم؛ لأن للإسلام وللحق تفاصيلُ كثيرة، وكثيرٌ من الناس يجهلها، فأنت بحاجة إلى أن يهديك الله عَزَّوَجَلَّ إلى العلم بها.
- ثم أنت بحاجةٍ إلى أن يهديك الله إلى إرادة هذه التفاصيل، وإلا فلو كان في قلبك كسل أو إعراض فإنك لن تلتزم بها.
- ثم أنت بحاجةٍ إلى إعانةٍ من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ على القيام بها.
- ثم أنت بحاجةٍ بعد ذلك إلى هدايةٍ من الله لأجل أن تَثْبُتَ على هذا الخير.
- ثم أنت بحاجةٍ إلى هدايةٍ من الله أن لا يضيع هذا الخير الذي فعلته بأن يُحبط بسبب سيئاتٍ تأتي منك بعد فِعلك هذا الخير.

أرأيت كم أنت بحاجةٍ إلى هذا الدعاء العظيم: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[الفاتحة:٦]!!.

يقول الله جَلَّوَعَلَا مخاطبًا نبيه محمدًا صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: ﴿إِنَّكَ لا تَهدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[القصص:٥٦]؛ إذا كان النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وهو هو سيد ولد آدم، وأرفع الناس درجةً عند الله، وأقربهم إليه جَلَّوَعَلَا،

أعلم الناس بالله وأشدهم له خشية، ومع ذلك لا يملك الهداية لأحد؛ لا يملكها لأحد وهو حي، فكيف يملكها وهو ميت؟! وإذا كان هو لا يملكها لأحد، فلا شك أن غيره من باب أولى.

بل انتفى في حقه ﷺ أمران، من اعتقد واستيقن بهما زال عنه كل تعلقٍ بالمخلوقين:

❖ **الأمر الأول**: أن يكون النبي ﷺ مالكًا للنفع والضُر، ومن ذلك الهداية، ﴿إِنَّكَ لا تَهدِي مَنْ أَحْبَبتَ﴾ ؛ وهذا ما بيَّنه الله جَلَّ وَعَلَا في آياتٍ كثيرة: ﴿قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَدًا﴾[الجن:٢١]، ﴿لَيْسَ عَلَيكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَهدِي مَنْ يَشَاءُ﴾[البقرة:٢٧٢]، ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصتَ﴾ لو اجتهدت ودعوت، وبلغت وهديت هداية الإرشاد ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾[يوسف: ١٠٣]، إذًا هو لا يملك ﷺ هذه الهداية، بل لا يملك لنفسه هو ﷺ فضلًا عن غيره ﴿قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيبَ لاستَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[الأعراف:١٨٨]، وظيفته ﷺ وواجبه أن يكون داعيةً إلى الله، رسولًا لله، مُبَلِغًا عن الله، لا أن يكون هاديًا ومُلهمًا للقلوب(٢٧٦).

❖ **الأمر الثاني**: انتفاء علمه ﷺ بالغيب، قال: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل:١٢٥] من يهتدي ومن لا يهتدي هذا من علم الغيب الذي

(٢٧٦) فالقدرة على الهداية منتفيةٌ في حقّه.

اختص الله عَزَّوَجَلَّ به، وليس للنبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من ذلك شيء، ولذلك يخطئ خطأً كبيرًا من يردد ويطرب:

فإن من جودك الدنيا وضرَّتها ومن علومك علم اللوح والقلم

اتق الله يا عبد الله، النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بيَّن الله عَزَّوَجَلَّ أنه لا يملك شيئًا حتى بعض أفراد الغيب، فضلًا عن أن يكون محيطًا بعلم الغيب كله، ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيبَ لاستَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾، أأنت تؤمن بهذه الآية أو لا تؤمن؟ إن كنت تؤمن بها سقط قولك واعتقادك، وإن كنت لا تؤمن بها ولا تصدق بها فقد كفرت -عياذًا بالله-.

◄ إذًا انتفى في حق النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ القدرة على الهداية، وانتفى في حقه علم الغيب، ومن ذلك العلم بالمهتدين. ولذلك تأمل معي سيأتي إن شاء الله الكلام عنه، النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لو كان يملك الهداية لكان أعطاها لعمه أبي طالب، تدري من عمه أبو طالب؟! عمه أبو طالب هو الذي أحاطه وربَّاه منذ أن كان عمره ثمانِ سنوات، وإلى بعد مرور ثمان سنواتٍ من البعثة أو أكثر وهو يحوطه وينتصر له ويغضب له، حتى إنه كان يُفَدِّيه بنفسه وماله وولده.

واللّهِ لن يَصلوا إليكَ بجمعِهمْ حتى أُوَسَّدَ فِي الترابِ دَفينا

عادى الناس كلهم لأجل النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ، ابتُلي وأُصيب بما أصيب من المصائب والنكبات، ودخل معه الشعب، وجاع معه أيضًا صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فلو كان النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يملك الهداية لأعطاه إياها. ولذلك كان النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يدعوه في كل وقت في حياته باستمرار إلى آخر لحظات حياته -كما سيأتي معنا إن شاء

الله- وهو يدعوه ويكرر عليه، ويتخذ الأساليب المتنوعة لذلك، ومع ذلك ما استطاع أن يهديه، فلما مات استغفر له، فلم يغفر الله له، بل نهاه الله عن أن يستغفر له، إذًا النبي ﷺ ليس له من شأن الهداية شيء.

والأمر الثاني: أنه انتفى في حقه علم الغيب؛ ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾، فلو كان النبي ﷺ يعلم الغيب لتوقف عن هذا الاجتهاد في دعوة أبي طالب إن كان يعلم ما في اللوح المحفوظ، إن كان يعلم أنه سبق في تقدير الله أن أبا طالب لن يهتدي، فما حاجته إلى هذا البذل وهذا الاجتهاد العظيم؟ إنما كان النبي ﷺ يؤمِّل ويرجو أن يهديه الله، وهذا دليلٌ أيضًا على أنه ليس له من الأمر شيء، وبالتالي تنقطع العلائق من الخلائق، وتتعلق بالواحد الخالق الرازق، هذا شأن الموحدين، هذا شأن الموفقين.

قال رحمه الله: (**فِي «الصَّحِيحِ» عَنِ ابْنِ الـمُسَيَّبِ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: لَـمَّا حَضَـرَتْ أَبَا طَالِبٍ الوَفَاةُ جَاءَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَعِنْدَهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ وَأَبُو جَهْلٍ، فَقَالَ لَهُ: «يَا عَمِّ؛ قُلْ: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ)، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ»، فَقَالَا لَهُ: أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الـمُطَّلِبِ؟! فَأَعَادَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ فَأَعَادَا. فَكَانَ آخِرَ مَا قَالَ: هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الـمُطَّلِبِ، وَأَبَى أَنْ يَقُولَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَقَالَ النَّبِيّ ﷺ: «لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ، مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ».فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ**

يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة:١١٣].وَأَنْزَلَ اللهُ فِي أَبِي طَالِبٍ: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص:٥٦]).

أورد هذا الحديث الذي يتضمن قصة مهمة فيها فائدةٌ وعبرةٌ لأولى الألباب.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ : (في الصحيح) ؛ يعني في الصحيحين[٢٧٧] .

(عن ابن المسيب): وهو الإمام الجلّيل سعيد ابن المسيب ابن حزنٍ المخزومي القرشي، سيدٌ من سادات التابعين وأحد أجلّاء التابعين أو أجلّهم، توفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ سنة أربع وتسعين على الصحيح[٢٧٨]، وكان أحد أفراد الدهر في العلم والعبادة، وكان معدودًا من الفقهاء السبعة، فقهاء أهل المدينة.

يحكي ويروي عن أبيه، وهو المسيب ابن حزن المخزومي، صحابيٌ من أهل الشجرة، وكذلك أبوه حزن المخزومي كان صحابي أيضا، إذًا سعيد تابعي وأبوه وجده صحابيان، يروي هذا الحديث عن أبيه والظاهر -والله تعالى أعلم- أنه كان حاضرًا إذ ذاك، هذا هو الظاهر وليس بالمقطوع به، لكنَّ الظاهر والله أعلم أنه يحكي شيئًا حضره، ومن قرائن ذلك: أنه مخزومي، وصاحبا القصة اللذان سيأتي ذكرهما وهما أبو جهل وعبد الله ابن أبي أمية أيضا كانا مخزوميين، فلعلهما كانوا في رفقة بعضهم وزاروا أبا طالب وهو على فراش المرض قبيل وفاته.

---

(٢٧٧)يعني في الكتاب الصحيح، يعني: الجنس.

(٢٧٨) قد أسلم وحَسُنَ إسلامه وقُتِلَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في (غزوة الطائف).

قال: (لَـمَّا حَضَـرَتْ أَبَا طَالِبٍ الوَفَاةُ)؛ أبو طالب عم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو الذي كان يحوطه ويغضب له، ولم يزل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مَنَعَة حتى توفي هذا العم الذي كان يرعاه منذ صغره، ومعلومٌ ما كان عليه أبو طالب من محبةٍ وشفقة على ابن أخيه، حتى إنَّه كان يغضب له، وكان يعادي قومه من أجله، وابتُلي بسبب هذه الوقفة مع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لكنَّ العجيب أنه ما آمن، كان ينهى قومه عن أذية النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفي نفس الوقت كان يترفع عن الدخول في الإسلام! حتى إنَّ بعض السلف قالوا إن قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾[الأنعام:٢٦]، نزلت في أبي طالب؛ فكان ينهى قومه عن أذية النبيصَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومع ذلك كان ينأى بنفسه عن الدخول في الإسلام.

والنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له أربعة أعمام، والعجيب أنَّ اثنين منهم أسلما، واثنان بقيا على الكفر وماتا على الكفر؛ أمَّا اللذان أسلما فحمزة والعباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وأما اللذان أبيَا الدخول في الإسلام فهما اللذان كان اسمهما معبَّدًا لغير الله، اللذان لم يكن اسمهما معبدًا لغير الله أسلما وهذا من العجيب، أما اللذان كان اسمهما معبَّدا لغير الله ما أسلما، فأبو طالب اسمه عبد مناف، وأبو لهب عمه الآخر كان اسمه عبد العزّى، وكلاهما ماتا على الكفر.

قال: « **لَـمَّا حَضَـرَتْ أَبَا طَالِبٍ الوَفَاةُ**» الذي يظهر -والله تعالى أعلم- أن المقصود ليس أنه بلغت روحه الحلقوم وأنه صار في السياق، وإنما المقصود أنه قد ظهرت علامات الوفاة، يعني دنا الأجل وقرب الأجل ، وهذا له علامات يعرفها الناس، بدليل أن القصة فيها حديثٌ وحوارٌ وكلامٌ وسماعٌ وأخذٌ وردٌّ،

ولو كان في حال النزع لكان في شغل عن هذا. إذًا الذي يظهر والله تعالى أعلم أن هذا إنما كان بمعنى قَرُبَ الأجل ودنا الأجل وبدت العلامات التي في الغالب يعقبُها الوفاة(٢٧٩).

---

(٢٧٩) هنا بحْثٌ عند أهل العلم هل حضور الوفاة هنا هو بُلوغُه النزْع؟ يعني وصل إلى المُعاينة، بلغتْ الروح الحلقوم، أم كان المقصود هو أنَّه حضرت علامات الوفاة؟ لأنَّه يتعلّق بذلك مسألة إسلام أبي طالب لو حصل، كون النبي عليه الصلاة والسلام كان يقول له: «يا عمِّ، قلْ كلمةً أُحاجُّ لك بها عند الله».

وإذا قلنا بالأول فاسْتُشْكِلَ هذا من جهة قول الله ﷻ: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ﴾ [النساء:١٨] فلا تنفع التوبة حنيئذٍ.

والأقرب -والله أعلم- أنَّ معنى قوله: (**لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الوَفَاةُ**) يعني: علامات الوفاة، ويؤيّد ذلك: أنَّه حصل أخْذٌ وردٌّ ومُحاجَّة بينه وبين الحاضرين، كان يسمع ويتكلَّم ويفهم، فهذا يدلُّ -والله أعلم- أنه لم يصل إلى حدّ المعاينة، لأنه لو كان كذلك لَكان في شغْل عن مثْل هذه المُحاجَّة.

وعلى كلّ حال لو قِيلَ بأنَّ المقصود بأنَّه قد حضرت الوفاة بمعنى أنه وصل إلى مرحلة النزْع؛ فإنه لو أسلم في تلك اللَّحظة لَنفعه ذلك بشفاعته عليه الصلاة والسلام، فيكون هذا أمرًا مخصوصًا به عليه الصلاة والسلام. ولا اسْتشكالَ في ذلك فإن النبي عليه الصلاة والسلام قد أخبر أنه يشفع في أبي طالب بعد وفاته مشركًا، وأنه يُخفَّفُ عنه العذاب في النار كما سيأتي بسبب ذلك، فلا يُسْتشْكلُ معَ هذا أن يُخصَّ بشفاعة بقبول إ سلامه في تلك اللَّحظة.

قال: (لَـمَّا حَضَـرَتْ أَبَا طَالِبٍ الوَفَاةُ جَاءَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَعِنْدَهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ وَأَبُو جَهْلٍ، فَقَالَ لَهُ: «يَا عَمِّ؛ قُلْ: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ)، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ»)؛ جاء النبي ﷺ إلى أبي طالب وهو مريض وعلى فراش الموت فوجد عنده هذين الرجلّين:

وجد أبا جهلٍ رأس الكفر، فرعون هذه الأمة الذي هو عمرو بن هشام المخزومي، وكان يُكْنى بأبي الحكم فكنّاه المسلمون بأبي جهل، وكان أشد الناس عداوة للنبي ﷺ، وهلك -كما تعلمون- في غزوة بدر.

أما الآخر فهو عبد الله بن أبى أمية المخزومي الذي هو أخو أم سلمة أم المؤمنين رضي الله عنها، وكان إبَّان هذه القصة كافرًا على دين قومه، لكنه بعد ذلك أسلم وحسن إسلامه رضي الله عنه وأرضاه، والله جل وعلا أراد به خيرًا، وهو إن كان في هذه القصة داعيةً إلى الكفر، ساعيًا إلى تثبيت أبي طالب على ملة الكفر، إلا أن الله جل وعلا منّ عليه بعد ذلك، فأسلم بل نال شرف صحبة النبي ﷺ.

لما حضر النبي ﷺ وكان عنده هذان الرجلان، ما وجد النبي ﷺ بُدًّا من أن يهتبل هذه الفرصة، الرجل الآن على فراش الموت فلابد إذًا من محاولة، ولعلها تكون الأخيرة في سبيل دعوة أبي طالب، كان النبي ﷺ دائما ودائبًا على دعوة عمه، ولما جاءه في هذه الحال ما فقد الأمل بل جدَّ في دعوته واستعمل أحسن الأساليب وأحكم الأساليب في الدعوة.

انظر أولًا كيف أستعطفه، واستثار شفقته فقال: «يا عم»، حتى يلين قلبه لما سيأتي الكلام فيه؛ لأنه يعلم مدى محبته للنبي ﷺ، فقدَّم بهذه

الكلمة التي عساها أن تُلَيِنَ قلبه، قال: « **يا عم قل لا إله إلا الله، كلمةً أحاج لك بها عند الله**»، ولك أن تقول: (كلمةٌ أحاج لك بها عند الله)، يعني: إمَّا أن تكون بدلًا من كلمة التوحيد، أو تكون خبرًا لمبتدأ محذوف هي كلمةٌ أحاج لك بها عند الله.

انظر ثانيًا كيف أنه سهَّل الأمر عليه وقال: هي «**كلمة**» قُلها تنتفع بها ليس الأمر عسيرًا وليس الأمر شاقًا، إنما هي كلمة. وهذا نستفيد منه درسا مهمًا في الدعوة إلى الله جَلَّوَعَلَا وهو: ضرورة التيسير على المدعوين . معشر الدعاة إلى الله: الله الله بسلوك هدي النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وهو التيسير والتسهيل لا التعسير، النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين»، قال النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لمعاذ وأبي موسى رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا : «يسرا ولا تعسرا».

إذًا هذا نهج ينبغي أن يراعيه الدعاة إلى الله جَلَّوَعَلَا؛ أن يبتغوا التيسير على المدعوين، وأن يسلكوا مسلك التسهيل والتحبيب، لعلّ الله عَزَّوَجَلَّ أن يُهديَ القلوب. أما التشديد والتنفير وربما لم يكن هذا مقصودًا لكن الأسلوب أحيانًا يكون دون قصد سببًا للتنفير عن الإسلام، حينما تأتي إلى هذا المدعو فتسرد عليه كل الأحكام الشرعية وتسرد عليه كل المطلوبات منه شرعًا وتقول له: "عليك أن تفعل كذا وكذا وكذا وكذا" وتسرد عليه قائمة طويلة من الأوامر ومن النواهي، فإن هذا مما سيجعل الأمر شاقا ثقيلًا عليه، إنما ابدأ بأُسِّ الأمر وأساسه وهو كلمة التوحيد، وسهِّل الأمر وخففه، وقل كما قال النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «هي كلمة قلها ينفعك الله عَزَّوَجَلَّ بها».

ثم انظر ثالثا كيف أن النبي ﷺ حثَّه ورغبه في أن يسلم بقوله: «**أحاج لك بها عند الله**»، هذا فيه دافع وفيه ما يُرَغِّبُ ويحث على الدخول في الإسلام. إذًا المرغبات والدوافع التي تقرب الإنسان إلى الحق وتدعوه إلى الدخول في دين الله الحق، هذا مما ينبغي أن لا يُغفِله الداعية إلى الله جلّ وعلا.

«**كلمةً أحاج لك بها عند الله**» يعني: أجعلها سببا لأشهد لك بها عند الله جَلَّ وَعَلَا كما جاء في رواية عند البخاري: «أشهد لك بها عند الله». إذًا سلك النبي ﷺ أحسن المسالك وأحكم المسالك، والتمس أفضل الوسائل في دعوة عمه أبي طالب.

واستفد هنا فائدة مهمة لا تفُتْك، وهي: أن النبي ﷺ أمره أن يقول (لا إله إلا الله) ؛ وهذا من الأمر المعلوم من الدين بالضرورة، وهو أنه لا إسلام إلا بقول لا إله إلا الله، فمن ادَّعى أنه قد آمن لكن أبى أن ينطق بلا إله إلا الله، ولا عذر له في عدم النطق -يعني هو سليم الحاسة يمكنه أن يتكلم، لكنه أبى أن ينطق بلا إله إلا الله- فإنه لا يمكن أن يكون مسلمًا إلا إذا نطق بلا إله إلا الله ، وهذا من الإجماع المعلوم بالضرورة عند أهل العلم.

إذًا لابد من التلفظ، لابد من النطق مع يقين واعتقاد وتصديق وإخلاص القلب، أما أن يكون إيمانٌ في القلب فقط فهذا لا ينفع صاحبه، بل لابد أن يصحب ذلك في ابتداء الإسلام وفي الدخول في الإسلام، لابد أن يصحب ذلك نطقٌ بهذه الكلمة.

وهاهنا سؤال وهو: كون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اقتصر على شهادة الوحدانية دون الشهادة بالرسالة للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟!

والجواب عن هذا وقد ذكرناه في دروس سابقة، وفي ما ذُكر سابقًا بيان أنَّ إحدى الشهادتين تتضمن الأخرى؛ فإن (لا إله إلا الله) تتضمن الشهادة للنبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالرسالة، وبيان ذلك أن لا إله إلا الله تعني: لا معبود حق إلا الله. إذًا هي اعتراف واعتقاد وعهدٌ على أن يعبد الإنسان الله جَلَّ وَعَلَا وحده لا شريك له، وبالتالي فلابدَّ من إيمانٍ بالنبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإلا فكيف يعبد ربه؟ لا يمكن أن تكون عبادة إلا من طريق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. إذًا تضمنت شهادة أن لا إله إلا الله شهادة أن محمد رسول الله.

ولاحظ أمرًا آخر وهو: أن أبا طالب لم يكن عنده تردد في شهادة أن محمد رسول الله، إنما الإشكال كل الإشكال كان في أنه أبى الشهادة الكبرى وهي شهادة أن لا إله إلا الله، أما كونه مصدقًا بأن النبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رسولٌ من عند الله فهذا مما لا يشك فيه أبو طالب، أليس هو الذي قال:

ودَعوتَني وعَلمْتُ أنَّكَ صادقٌ ... ولَقدْ صَدَقْتَ وكنتَ ثَمَّ أَمينا
ولَقدْ علِمتُ بِأنَّ دينَ محمدٍ ... من خيرِ أدْيانِ البَرِيّة دِينا
لولا المَلامَةُ أو حَذارُ مسبَّةٍ ... لوجدتَنِي سَمحًا بِذَاكَ مُبينا

إذًا ما كان عنده شك في الشهادة للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنه صادق وأنه رسول من عند الله حقا، لكن البلية كل البلية كانت في أنه أبى واستكبر من الشهادة لله جَلَّ وَعَلَا بالوحدانية، أبى أن يقول (لا إله إلا الله) كما سيأتي معنا.

إذًا هذا الذي قاله النبي ﷺ له، بذل جهده وجدَّ ﷺ في دعوة هذا الإنسان، ولم يكتفِ بدعوته السابقة، بل حرص إلى آخر لحظة أن يقدِّم الدعوة، وسعى السعي الحثيث أن يهتدي عمه. والدعاة إلى الله جَلَّوَعَلَا عليهم أن يكون عندهم هذا الحرص على هداية الناس، هذا من أهم سمات الدعاة الصادقين، أنهم حريصون أشد الحرص على هداية الخلق إلى الحق.

(**فقَالَا لَهُ: أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الـمُطَّلِبِ؟! فَأَعَادَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ فَأَعَادَا**)؛ سبحان الله العظيم! انظر شؤم الصحبة السيئة، «**قالا له: أترغب عن ملة عبد المطلب؟**» ذكّراه الحجة الملعونة التي كان كُفر غالب الأمم بسببها وهي: تعظيم الآباء والأجداد والأسلاف والكبراء، والحمية لهم وعدم الرغبة عن مسلكهم، الرغبة في عدم الخروج عن طريقتهم لِما لهم من مكانةٍ عظيمة في نفوسهم.

هذه حجة كثيرٍ من الكفار في كفرهم، فإنهم إذا قيل لهم ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ ماذا يكون جوابهم؟ ﴿قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾[البقرة:١٧٠]، هذا فقط هو احتجاجهم، إذا قيل لهم آمنوا بالله جَلَّوَعَلَا وصدِّقوا المرسلين تكون حجتهم في القديم والحديث وفي كل زمان ومكان: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾[الزخرف:٢٣].

هذا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ يسأل ويحاجُّ أباه وقومه: ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾[الأنبياء:٥٢]؟ماذا كان الجواب؟ ﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾[الأنبياء:٥٣]، هذا الدليل وهذه الحجة لا غير، ولكنها حجة داحضة لن تنفعهم

وسيندمون عليها أشد الندم وهم يتلظَّون في النار، نسأل الله السلامة والعافية، ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا﴾[الأحزاب:٦٧].

إذًا ذكّرا هذان الرجلّان أبا طالبٍ بهذه الحجة واكتفيا بها وما زادا عليها، لأنهم يعلمون عِظَمَ وقعها في نفسه، ولاحظ الأسلوب؛ كيف أنهما أيضًا سلكا أسلوبًا فيه إغراء وفيه سعيٌ إلى تثبيته على هذا الدين الذي هو عليه، « **أترغب عن ملة عبد المطلب**؟»، ولاحظ أنهما ما قالا له: أترغب عن ملتك؟ أترعب عن ملتنا؟ إنما ذكَّراه بأحب الناس إليه وهو أبوه، « **أترغب عن ملة عبد المطلب**؟»، ومعلومٌ مكانة عبد المطلب في نفس أبي طالب.

إذًا حتى أعداء الله حتى أعداء الحق عندهم سعيٌ وعندهم أساليب وعندهم همة في الدعوة إلى باطلهم، وهذا مما ينبغي ألا يغفله الدعاة إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، يعلمون المسالك والأساليب التي ينهجها أعداء الحق.

(**فَأَعَادَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ فَأَعَادَا**)؛ انظر حرص النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وانظر شفقته، وانظر إلى جِدِّه وهمته، أعاد النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الدعوة كررها، ما اكتفى بالدعوة السابقة وما قال: "إن اهتدى فلنفسه وإلا فإنه لا يضرني، قد قامت عليه الحجة"، نعم قامت عليه الحجة ولكن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عنده من الرحمة والشفقة ما جعله يكرر الدعوة ويعيد عليه مرة أخرى، ولكن صادم ذلك اجتهادٌ من أعداء الحق، فأعادا عليه مرة أخرى تلك الحجة، ذكَّراه مرة أخرى بما يجب عليه أن يبقي عليه وأن يثبت عليه وهو ملة عبد المطلب.

إذًا حتى أعداء الله جَلَّوَعَلَا عندهم نشاط، وعندهم اجتهادٌ حثيث، وعندهم إن صحَّت العبارة همٌ دعوي في دعوتهم إلى باطلهم، وهذا مما ينبغي أن يعتبر به أهل الحق، إذا كان أعداء الحق وأعداء الدين الحق عندهم نشاط وعندهم اجتهاد، وعندهم تفاني في الدعوة إلى باطلهم، فينبغي على أهل الحق أن يكون عندهم من النشاط ما هو أعظم وأكبر.

لاحظ هاهنا -يا رعاك الله -كيف أنَّ أبا طالب وأبا جهل وعبد الله ابن أبي أمية، لاحظ أن كلهم كان يعرف معنى (لا إله إلا الله)، عرف الجميع أن (لا إله إلا الله) ليست كلمةً تُقال باللسان لا يتبعها عمل وقبول وانقياد، عرفوا جميعًا أنَّ (لا إله إلا الله) لا تعني أنه لا خالق إلا الله ولا رازق إلا الله، كما يخطئ كثير من الناس مع الأسف الشديد اليوم في فَهْمِ هذه الكلمة، نعم فهِم هؤلاء كلمة التوحيد الفهم الصحيح، وقُبْحًا لمن كان أبو جهل وغيره من الكفار أعلم منه بـ (لا إله إلا الله).

إذًا كان الكفار يعلمون أن (لا إله إلا الله) تقتضي إفراد الله جَلَّوَعَلَا بالتوحيد والكفر بكل ما يُعبد من دون الله، والانخلاع عن كل دين سوى توحيد الله واتّباع نبيه محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ، كانوا يعلمون ذلك حقًا، لكن هذا العلم ما نفعهم؛ لأن العلم وحده والتصديق وحده لا ينفع صاحبه مالم يتبع ذلك قبولٌ وانقياد.

قال:(**فَكَانَ آخِرَ مَا قَالَ: هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الـمُطَّلِبِ، وَأَبَى أَنْ يَقُولَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**)؛ الظاهر والله أعلم أنه قال: (أنا على ملة عبد المطلب)، لكن عدَّل وغيَّر بعض الرواة اللفظ، وذلك كأنه كان منه استعظامًا أن يقول هذه الكلمة "أنا على

ملة عبد المطلب" ، قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ في الفتح: وهذا من التصرفات الحسنة.

وجاء عند الحاكم اللفظ على الأصل (قال: أنا على ملة عبد المطلب)، وجاء في رواية في الصحيح(٢٨٠) (قال: على ملة عبد المطلب)، على تقدير أنا على ملة عبد المطلب، وقال الحافظ رَحِمَهُ اللَّهُ في الفتح: وجاء في رواية مجاهد (أنا على ملة الأشياخ)، يريد أشياخ قريش من آبائه وأجداده وأسلافه.

الشاهد أن ختام الأمر كان بأن صرَّح أبو طالب بأنه باقٍ على دين قومه، رجَّح الباطل على الحق، رجَّح دين الشرك على دين التوحيد والإسلام، آخر المطاف أن قال هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول لا إله إلا الله، هذا هو كفر أبي طالب، كان كفر إباءٍ واستكبار.

الكفر –يا رعاك الله– أنواع:

–منه كفر تكذيب.

–ومنه كفر نفاق.

–ومنه كفر شك.

–ومنه كفر إباء واستكبار؛ وذلك أنَّه كان يعلم الحق لكنه أبى واستكبر وعاند عن قبوله.

وسببُ ذلك راجعٌ إلى أمرين:

---

(٢٨٠) عند البخاري: (على مِلَّة عبد المطلب) يعني: على إضمار (أنا). وجاء في رواية أخرى أيضًا: (على مِلَّة الأشياخ) يعني: على مِلَّة الأشياخ من قومه؛ آبائه وأجداده.

❖ **الأول**: الحمية لآبائه ودين قومه، فإن ذلك كما أسلفت لك الحمية لهم والتعظيم لهم والتقليد لهم، كانا أحب إليهم من الحق، وكانوا مستعدين لأن يتركوا كل شيء في سبيل الحفاظ عليه وهو تقليد الآباء والأسلاف، ولأجل هذا ثبت على هذا وقال هو على ملة عبد المطلب، أو على ملة الأشياخ.

❖ **السبب الثاني**: ما جاء مُصرحًا به في روايةٍ عند مسلم وهي: أنَّه قال للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (لولا أن تعيرني قريش فيقولون أسلم خَوَفَ الفزع لأقررتُ عينك بها). إذًا كان عنده سبب آخر دعاه إلى الكفر بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وهذا والله من أعجب الأشياء، أنه ما أراد أن يتكلم فيه الناس، أن ينالوا عرضه وأن يشوِّهوا سمعته وأن يعيِّروه، مع أنه كان يعلم أنه لم يبقَ له في هذه الحياة إلا لحظاتٌ معدودة، فإذا تكلموا فيك سيتكلمون فيك وقد غادرت هذه الحياة، فماذا يضرك ذلك! ومع ذلك كان حريصًا على ألا يعيِّره أحد، يقولون أسلم لأنه خائف؛ يخاف من عذاب الله ولأجلّ هذا أسلم. سبحان الله العظيم! وهل الخوف من عذاب الله شيءٌ يعيَّر به، أو يتخوَّف الإنسان من إبدائه؟ إن الخوف من عذاب الله عَزَّوَجَلَّ لا شك أنه من أرفع مقامات الإيمان، ومن سُلِبَ هذا الخوف فإنه سُلِبَ الإيمان والعياذ بالله، فلابد من الخوف من الله جَلَّوَعَلَا، ومن الخوف من الله: الخوف من عقابه وأليم عذابه.

الشاهدُ أنَّ أبا طالب عَلِمَ الحق يقينا ولكنه أبى وأستكبر أن يدخل في الإسلام، رفض، إلى آخر لحظة والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعيد عليه ويكرر الدعوة ولكنَّه

أبى واستكبر ورفض الدخول في الإسلام، **وهذا فيه دروسٌ وفوائد وحكم كثيرة:**

۞ **أولًا**: أن تعلم عظمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأن الأمر منه وإليه جَلَّ وَعَلَا، وأن الأمور كلها بيده جَلَّ وَعَلَا، فالقلوب والهداية إنما هي بيده تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وبالتالي من استيقن بهذا فإنه يخرج من قلبه كلُّ شرك بغيره، كل تعلق بالمخلوقين، الهداية من الله جَلَّ وَعَلَا، إذًا على الإنسان أن يلجأ إلى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ، حتى ولو كان الذي يدعو هو أعظم الدعاة، وحتى لو كان سَلَكَ أعظم السُبل وأفضلها وهو النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ومع ذلك لم يكن يملك الهداية، ولو كان يملكها لأعطاها لهذا الذي كان حريصًا جدًا على هدايته، لكن هذه القصة تفيدُك تحقيق التوحيد.

۞**ثانيًا**: أن تعلم أنَّ الإسلام والإيمان شيءٌ وراء التصديق، ليس هو تصديقًا فحسب، بل هو نُطْقٌ يتبعه انقيادٌ وقبولٌ لأحكام الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، ولذلك ما انتفع أبو طالب بتصديقه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

۞**ثالثًا**: أن تعلم خطر الصحبة السيئة، وأنها من أسباب الانحراف عن الحق فالصاحب السيء كنافخ الكير، سيصيبك الضرر منه ولابد .

ولا تصْحبِ الأرْدى فترْدى معَ الرَّدِي ....

فاحذر من كل صاحب سيئ، وعليك بصحبة أهل الحق وعليك بصحبة أهل الخير؛ فإن صحبتهم من أسباب الوصول إلى الحق.

وهذه القصة تدلنا على أنَّ الصحيح الذي لا شك فيه هو: أن أبا طالب خُتم له بخاتمة السوء، وكان خاتمة أمره أنَّه أبى وأستكبر الدخول في الإسلام؛ لأنَّه

جاء في آخر الحديث (أبي أن يقول لا إله إلا الله)، أبى أن ينصاع للحق بعد أن ظهر له[٢٨١].

وبالتالي يظهر لك خطأ الذين يزعمون أنَّ أبا طالب قد أسلم، هذا خطأ وباطل قطعًا، حتى أنَّ بعض الناس ألف في هذا بعض المؤلفات[٢٨٢]، وهذا كله عريٌّ عن الصواب، باطلٌ سندًا ومتنًا، معارِضٌ للكتاب والسنة، وذلك من هؤلاء وهذا الولع الشديد والحرص الأكيد على إثبات إسلام أبي طالب لأجل عظيم تعلقهم بالمخلوقين؛ فهم يعتقدون أن النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بيده الهداية، ولذلك إذا عورضوا بقصة أبي طالب يكِرُّون على هذا بمخالفة الحق الصريح، فيقولون "لا بل هو أسلم كان هذا في البداية ثم أسلم بعد ذلك" ، ولا شك أن هذا باطل قطعًا.

لو أسلم أبو طالب لما أنزل الله عَزَّوَجَلَّ في حقه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾[القصص:٥٦]، وبإجماع المفسرين أن هذه الآية نزلت في شأن أبي طالب.

---

(٢٨١) (فأبى أن يقولها)، تأكيدٌ من الراوي أنَّه ما آمن ولا أسلم ولا نطق بالشهادتين، وفي هذا ردٌّ على القائلين بإسلام أبي طالب. وقد جاء في بعض الكُتُب روايات لا تصح في أنه قالها قبل وفاته، وهذا باطلٌ لا شكَّ، سندًا ومتْنًا، ومخالفٌ لِمَا ثبت في الصحيح.

(٢٨٢) وللصوفية وَلَعٌ بتقرير هذا الأمر، حتى كتبَ أحدهم من المتأخّرين رسالة سمَّاها: «أسْنى المطالب في إسلام أبي طالب»، وسوّدها بتُرَّهَات، لا تصح عند أهل العلم.

- ولو كان أبو طالب قد أسلم لما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لاستغفرن لك ما لم أُنهَ عنك».

- ولو كان أبو طالب قد أسلم لما كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: وقد قال له العباس يسأل عن أخيه: « يا رسول الله هل نفعت أبا طالب بشيء، فإنه كان يحوطك ويغضب لك؟ قال: نعم هو في ضحضاح من النار»؛ (ضحضاح) يعني كناية عن مكان أهون من غيره في نار جهنم. الضحضاح هو: ما قلَّ من الماء حتى لا يكاد يبلغ الكعبين، كناية عن أنه في أهون مكان في النار التي يعذب فيه الكفار.

- ولو كان أبو طالب قد أسلم، لما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والحديث في الصحيح: «أهون أهل النار عذابا أبو طالب، ينتعل نعلين من نار يغلي منهما دماغه» نسأل الله السلامة والعافية، هو أهون أهل النار عذابًا، يعني من الكفار، ومع ذلك هذا عذابه -نسأل الله السلامة والعافية-.

إذًا هذه القرائن وغيرها كلها تدل على أن الحق الذي لا شك فيه أن أبا طالب لم يسلم، وأنه حقًا أبى أن يقول لا إله إلا الله[٢٨٣] .

قال: (فَقَالَ النَّبِيّ ﷺ: «لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ» فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾)؛ قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

---

(٢٨٣) ولله ﷻ في ذلك حِكمةٌ بالغة؛ فإنَّ عدم إسلامه فيه دليلٌ بيِّن على عظمة الله ﷻ، وكمال قدرته، وأنَّ غيره لا يملك ضرًّا ولا نفعًا، من دلائل التوحيد، وأنَّ الأمر له وإليه: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ﴾ [هود:١٢٣] جلَّ وعلا.

حينئذٍ: «**لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ**»، وهذا كان منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل أن يأتيه النَّهي من الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى عن أن يستغفر للمشركين، مع أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -كما يقول بعض العلماء- كأنه كان في نفسه شيء، مع أنه ما جاءه النهي، لكن كأنه كان في نفسه شيء أن يستغفر للمشركين، ولذلك قال: «**مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ**»، وبعد ذلك نزل قول الله جَلَّ وَعَلَا الناهي عن الاستغفار للمشركين: ﴿**مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ**﴾[التوبة:١١٣] (٢٨٤).

وهاهنا إشكالان:

❁ **الأول:** أن هذه الآية نزلت بسبب هذه القصة وقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيها، لكن يُشكل على هذا(٢٨٥) أن الآية من سورة التوبة وهي مدنية، وهذه القصة كانت بمكة فإنَّه بالإجماع مات أبو طالب بمكة، فكيف تكون هذه القصة سببًا لنزول هذه الآية؟!

والجواب عن ذلك بأحد أمرين:

---

(٢٨٤) ﴿مَا كَانَ﴾ قال أهل العلم: خبرٌ بمعنى النهي، فلا يجوز أن يُستغفرَ للمشركين، وإذا لم يجُز الاسْتغفار للمشركين فلا يجوز أيضًا موالاتهم.

(٢٨٥) الاستشكال: أنه جاء في الحديث: (فَأَنْزَلَ اللهُ) عقَّب بـ (الفاء) يعني هذا هو سبب نزول الآية، والآية في (التوبة) وهي مدنية، والقصة حصلت بمكةَ باتفاق، فإنَّ أبا طالب قد هلكَ بمكةَ باتفاق أهل العلم، ويَزيد الأمر اسْتشْكالًا: أنَّه قد ثبت أنَّ النبي عليه الصلاة والسلام لمَّا أراد أن يستغفر لأُمِّه نزلت هذه الآية؟

-إما بأن يقال: إن الآية تأخر نزولها عن سببها، وهذا لا مانع منه.

-أو يقال: أنه تعددت أسباب النزول وهذا له نظائر في القرآن.

الإشكال الثاني: أنَّ النهي قد جاء، مع أنه ثبت في الصحيحين من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «رأيت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحكى نبيًا ضربه قومه فأدموه، يمسح الدم عن وجهه وهو يقول :اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»، فكيف استغفر هذا النبي، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحكي هذا مقرِّرًا مع أنهم كانوا مشركين؟

والجواب عن هذا ظاهر وهو: أن النبي كان يدعو لقومه وهم أحياء بأن يتوبوا ثم تكون لهم المغفرة من الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، يعني: اغفر لقومي بعد أن يتوبوا، كأنه يقول: اهدهم للسبب الذي به تغفر لهم؛ والله سبحانه أعلم.

قال رحمه الله: (**وَأَنْزَلَ اللهُ فِي أَبِي طَالِبٍ: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾**)؛ وهذا بإجماع العلماء أن هذه الآية نزلت في شأن أبي طالب.

﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ يعني: من أحببت هدايته، على أحد قولي أهل العلم في الآية، فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان محبًا ولا شك لهداية أبي طالب، ولأجل هذا جدَّ واجتهد في دعوته إلى آخر لحظات حياة أبي طالب.

والقول الآخر: **﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾** يعني: من أحببته هو. وهذا واضح أيضًا لا إشكال فيه من جهة أن هذه محبةٌ طَبْعِية، والله جَلَّ وَعَلَا لا يكلف الإنسان فوق طاقته، فإن محبة الإنسان للمحسن إليه أو لأبيه وأمه وأخيه وعمه

ونحو ذلك، هذه محبة طبْعية ملازمةٌ للإنسان في فطرته، ولأجل هذا من الصعوبة بمكان أن يدفع الإنسان عن نفسه ذلك، فهذه محبة طبعية رُخِّصَ فيها ولم يشدَّد على الناس فيها، مع وجوب بغض هذا الكافر لأجل كفره. ولا إشكال في اجتماع المحبة والبغض من وجهين مختلفين، لا يُعذر الإنسان في أن يترك بغض الكفار لأنهم كفار، والله جَلَّوَعَلَا أمر و حث على ذلك ونهى عن محبتهم، ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ﴾[الممتحنة:١]، إذًا هذه محبة طبعية مرخص فيها (٢٨٦).

بقي الكلام في شأن أبي طالب في مسألة تتعلق به ومضى الإشارة إليها في باب الشفاعة، وهي: أن النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يشفع يوم القيامة في عمه أبي طالب أن يخفَّف عنه العذاب، وهذا مما قلنا إنه من الشفاعات التي اختص بها النبي محمد صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وهذه على الصحيح مستثناة من شرط الرضا عن المشفوع له، كما أشرنا إلى هذا سابقا، فالأصل أنه لا شفاعة في كافر: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾[غافر:١٩]، والأصل أيضًا أنه لا يخفف العذاب عن الكفار، ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ﴾[البقرة:٨٦] بل ليس لهم إلا زيادة في العذاب، ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾[النبأ:٣٠].

لكنَّ الشأن في أبي طالب على وجه الخصوص مختلف، فإن الله سبحانه قد شَفَّع فيه نبيه محمد صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فخُفِّفَ عنه العذاب -كما مر معنا في الحديث السابق-، «هو في ضحضاح من النار ولولا أنا -يعني لولا شفاعتي- لكان في

(٢٨٦)ولا مانع من اجتماع الأمرين.

الدرك الأسفل من النار»، وهذا يدلك على خطورة أن يعلم الإنسان الحق فينأى ويستكبر.

وبعضُ أهل العلم ذهب إلى أنَّ الكافر يمكن أن تكون فيه شفاعة لكن في التخفيف لا في الإخراج من النار، واحتجَّ هؤلاء بقصة أبي طالب وشفاعة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيه، ولكن هذا ليس بوجيه؛ وذلك أنه يستلزم هذا ثبوت الشفاعةِ في غير أبي طالب من الكفار وهذا مما لم يثبت فيه دليل، والقاعدة العامة -كما أسلفت -هي أن الكفار لا يخفف عنهم العذاب(٢٨٧).

بقيت مسألة وهي: هل ينتفع الكافر بشيء من حسناته؟

إنَّ هذه المسألة لها وجهان:

الوجه الأول: انتفاع الكافر بأعماله الصالحة في الدنيا.

والوجه الثاني: انتفاعه بها في الآخرة.

والمراد بالأعمال الصالحة: ما لا يفتقر إلى نية؛ كأن يطعم مسكينا، أو ينقذ غريقا، أو يغيث ملهوفا، وما شاكل ذلك.

---

(٢٨٧) الكافر لا تنفعه أعماله الصالحة التي عملها في الدنيا، لا في الإخراج من النار ولا في تخفيف العذاب، فالكفار القاعدة التي بيَّنها الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه في حقّهم: ﴿فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ﴾ [البقرة:٨٦]، ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبأ:٣٠]، وإنَّما أبو طالبٍ مخصوصٌ من ذلك بسبب شفاعة النبي عليه الصلاة والسلام ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص:٦٨].

❑ **هل ينتفع الكافر بهذا في الدنيا؟** الجواب نعم؛ ثبت في صحيح مسلم عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: « إِنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ مُؤْمِنًا حَسَنَةً يُعْطَى بِهَا فِي الدُّنْيَا وَيُجْزَى بِهَا فِي الآخِرَةِ»؛ أبشر يا أيها المسلم، الله يجازيك على حسناتك في الدنيا ويجازيك عليها أيضا في الآخرة، وكرم الله عَزَّوَجَلَّ لا حدَّ له، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد ذلك: « وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيُطْعَمُ بِحَسَنَاتِ مَا عَمِلَ بِهَا لِلَّهِ فِي الدُّنْيَا حَتَّى إِذَا أَفْضَى إِلَى الآخِرَةِ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَةٌ يُجْزَى بِهَا»، إذًا الكافر يجازى على العمل الصالح الذي يعمله في الدنيا، فالطعام والشراب والهواء والمال والولد والأمن وما شاكل ذلك هذا هو جزاؤه على أعماله الحسنة التي عملها في الدنيا، وبالتالي فإنه لا يحاسب على هذا القِسْط من هذه الحسنات الدنيوية في مقابل أعماله الصالحة؛ لأنَّ **الكافر** -كما تعلم- **يجازى ويحاسب ويعذب يوم القيامة على ثلاثة أمور**:

١. **على** كفره بالله.

٢. **وعلى** معاصيه التي دون الكفر.

٣. **وعلى** النَّعم التي ما قام بشكرها.

وذلك أن الله جَلَّ وَعَلَا ما أحلَّ للكافر النِّعم، هذا الأكل والشرب وهذه الخيرات يتناولها الكافر ويكون عليه حسابها يوم القيامة، قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[الأعراف:٣٢]، الله ما أحلها للكافر، أحلها فقط للمؤمنين، ولأجل هذا سوف يحاسب عليها الكافر يوم القيامة، لكن هذا القسط الذي قابل أعماله الحسنة لن يُجازى أو لن يُحاسب عليه.

❑ **أما في الآخرة**(٢٨٨) فالنَّص صريح -كما قد علمت- بأنه ليس له حسنة يجزى بها، ليس له أيُّ شيء يجازى عليه يوم القيامة، في صحيح مسلم من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنَّها سألت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن عبد الله ابن جدعان أحد رجال الجاهلية المشهورين فقالت: (يا رسول الله، ابنُ جدعان كانت له صدقات وعتاقات -يعني كان يتصدق على المساكين وكان يعتق الرقاب وكان له أعمال حسنة يفعلها- هل نفعه ذلك؟) فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا ينفعه»، انظر إلى هذا الحكم الجازم، لا ينفعه، ولو كان ينتفع بهذا أي انتفاع ولو في تخفيف العذاب لما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك، قال: «لا ينفعه؛ إنه لم يقل يومًا "رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين"»، يعني: أنه كان كافرا بالبعث، وبالتالي كان كافرا بالله جَلَّ وَعَلَا ، فلا ينفعه ما قدمه في الدنيا، والأدلة على هذا كثيرة: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[الأنعام:٨٨]، ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾[الفرقان:٢٣].

قال بعض العلماء: إنه يُنتفع بحسناته في التخفيف من عذاب النار في الآخرة، وهذا استدلوا عليه بأمرين: بقصة أبي طالب، وبقصة أبي لهب.

-**أما قصة أبي طالب** فقد اتضح لك أن تخفيف العذاب كان سببه ليس حسنته، وإنما شفاعة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فخرج حينئذ عن أن يكون دليلًا صحيحا.

---

(٢٨٨)فجمهور أهل العلم على أنَّ الكافر لا ينتفع بحسنة البتَّة، لا في الإخراج من النار، ولا في التخفيف من عذابها، بلْ حَكَى بعض أهل العلم كالقاضي عياض الإجماع على ذلك.

-**بقينا في قصة أبي لهب،** ما هي هذه القصة؟ في صحيح البخاري عن عروة ابن الزبير وهو أحد التابعين -ولاحظ هذا- قال: إن أبا لهب لما مات رآه بعض أهله فسأله عن حاله فقال: (بشر حِيبة، -يعني بشر حال- غير أني سُقيتُ في هذه وأشار إلى نقرة أو نقطة أسفل إبهامه، أو بين إبهامه وسبابته، قال: غير أني سقيت في هذه بعتقي ثويبة)؛ ثويبة: مولاة كانت له، لما جاءت إليه مبشرةً بولادة النبي ﷺ فرِحَ فأعتقها، يقول هذا كان سببًا؛ لأني سُقيت هذا الشيء النزر اليسير من الماء. فقال هؤلاء: هذا دليل على أنَّ العمل الصالح يخفف من العذاب، ورفع بعض الناس سقف الاستدلال إلى أن جعلوه دليلًا على إقامة الموالد، وهو دون شك أبعد وأبعد في الضعف.

هذا الاستدلال فيه نظر:

أولًا: من صاحب القصة الذي يرويها لنا؟ عروة ابن الزبير، إذًا هذا الكلام من قبيل المراسيل، فعروة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ورحمه، لم يدرك النبي ﷺ فضلًا عن أن يدرك أبا لهب.

ثانيًا: أن القصة بقضها وقضيضها ما هي إلا رؤية منامية، وباتفاق أهل العلم أنَّ الرؤيا المنامية لا تَثْبُتُ بها الأحكام، فكيف وهي معارِضة لما دل عليه الكتاب والسنة!!.

ثم إن الذي رأى قال: (رآه بعض أهله)؛ من الذي رأى؟ وكيف هو حاله؟ وما مدى ثقته وضبطه؟ هذا أيضًا مجهول، ما ندري من الذي رأى، بل لا ندري هل كان مسلما أو غير مسلم؟[٢٨٩].

إذًا اتضح لنا أن الاستدلال بهذه القصة استدلالٌ ضعيفٌ لا يصح، وأن القاعدة هي: أن الكافر لا ينتفع بشيء من أعماله الصالحة في الآخرة.

ختامًا أعود فأكرر ما بدأتُ الحديث به في هذا الباب، وهو: أن التعلق في شأن الهداية يجب أن يكون بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ، وأنَّه ليس لأحد من الخلق مهما علت منزلته بل حتى لو كان أشرف الخلق، لو كان سيد ولد آدم وهو النبي محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإنه ليس له من الأمر شيء: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾[البقرة:٢٧٢]، ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾[القصص:٥٦].

وكذلك ينبغي على الإنسان أن يتأمل في هذه القصة العجيبة فيعلم أن الذي ينفعه عند الله جَلَّ وَعَلَا الإيمان والتوحيد وصدق الاتباع للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنَّ النسب الشريف والقرب من الصالحين، بل القرب من النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا ينفع صاحبه ما

---

(٢٨٩) الأمر الرابع: سلَّمْنا جدلًا بأنَّ هذا الأمر قد حصل فإنه يكون مختصًا به عليه الصلاة والسلام؛ لأجل عِتْقه ثُويبة لمَّا بشَّرتْه بولادة النبي عليه الصلاة والسلام، أخبرتْه أنَّ عبد الله أخاه قد وُلِدَ له ولدٌ، ففرح بذلك واسْتبشر فأعتقها، فيكون هذا خاصًا بالنبي عليه الصلاة والسلام ولا يُعمّم. هذا الذي يظهر -والله عَزَّوَجَلَّ أعلم- في هذه المسألة.

لم يكن إيمانٌ وتوحيد، هذا أبو طالب من أقرب الناس إلى النبي ﷺ وما انتفع بهذه القرابة، فلا يغتر مغترٌّ[٢٩٠]. والله تعالى أعلم.

---

(٢٩٠) لا يغترّ أحدٌ بشيء يرجع إليه، بلْ ينبغي أن يجتهد في سلوك أسباب الهداية، وأن يوجَلَ قلبُه وأن يخاف، وأن يكون ضارعًا إلى الله ﷻ أن يهديه. فلا حول ولا قوَّة إلا بالله.

قال المصنف رحمه الله:

١٩-بابُ
مَا جَاءَ أَنَّ سَبَبَ كُفْرِ بَنِي آدَمَ وَتَرْكِهِمْ دِينَهُمْ هُوَ الْغُلُوُّ فِي الصَّالِحِينَ

وَقَوْلِ اللهِ ﷻ: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ [النساء:٥٦].

فِي الصَّحِيحِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً﴾ [نوح:٥٦].-؛ قَالَ: «هَذِهِ أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ؛ أَنِ انْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ فِيهَا أَنْصَابًا، وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ، فَفَعَلُوا، وَلَمْ تُعْبَدْ، حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَنُسِيَ الْعِلْمُ عُبِدَتْ».

وَقَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ: «قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ: لَمَّا مَاتُوا عَكَفُوا عَلَى قُبُورِهِمْ، ثُمَّ صَوَّرُوا تَمَاثِيلَهُمْ، ثُمَّ طَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَعَبَدُوهُمْ».

وَعَنْ عُمَرَ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ». أَخْرَجَاهُ.

وقَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الْغُلُوُّ».

ولِمُسْلِمٍ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ»، قَالَهَا ثَلَاثًا.



قال الشارح وفقه الله:

بعد أن بيَّن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ طائفةً من أعمال المشركين، عَقّب بذكرِ سببٍ هو الأهم بين أسباب الوقوع في هذا الشرك؛ ألا وهو الغلو في الصالحين.

ولاحظ أنَّ المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكر هاهنا ضمير الفصل (هُوَ) ؛ (**هو الغلو في الصالحين**) أنَّه سببُ شركِ بني آدم وسبب تركهم دينهم الذي هو الدين الحق الذي هو دين التوحيد.

قال: (**هُوَ الْغُلُوُّ فِي الصَّالِحِينَ**)؛ والغلو عامةً مذموم، وفي الصالحين أشدُّ كراهة.

الغلو في اللغة: تدور مادته على مجاوزة الحد، ومنه: غلا السعر؛ يعني تجاوز حدَّه.

والغلو في الاصطلاح الشرعي: هو مجاوزة الحدِّ الشرعي؛ يعني: مجاوزة ما أمر الله عَزَّوَجَلَّ به، وهذا عام يشملُ كل القضايا الشرعية؛ سواءً تعلقت بالعبادة، أو تعلقت بالاعتقاد، أو تعلقت بمعاملة الصالحين، فالغلو في العبادة يعني: التصلب والتشدد فيها بزيادةٍ على الحد الشرعي، أو ترك رخصة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أو الإثقال على النفس في النوافل حتى تمل، فإنَّ المُنبَتَّ لا ظهرًا أبقى ولا أرضًا قطع.

والغلو في الاعتقاد يكون بمجاوزة الحد الذي أمر الله جَلَّوَعَلَا به؛ فالغلو في إثبات الصفات يؤدي إلى الوقوع في التشبيه، والغلو في التنزيه يؤدي إلى الوقوع في التعطيل، والغلو في إثبات القَدَر يؤدي إلى القول بالجبر، وهكذا.

كذلك الغلو في الصالحين؛ مجاوزة الحد الشرعي في التعامل معهم يؤدي إلى الوقوع في معاطب وإلى الوقوع في أخطاءٍ عظيمة، وذلك برفعهم عن الحدِّ الذي أمر الله عَزَّوَجَلَّ وشرع؛ وهو محبتهم في الله وتقديرهم وتعظيمهم التعظيم

اللائق بهم. أما الزيادة على ذلك بأن يُرفعوا إلى مقام النبوة فيُعتقد عصمَتُهم، أو يُرفعُ قدرهم إلى درجة الألوهية فيُدعَون ويُعبدون مع الله، أو تُرفعُ درجتهم أكثر من ذلك فيُعتقد فيهم الربوبية، وأنَّ الخلق والرزق والتدبير يعود إليهم، فلا شك أنَّ هذا هو الشر المستطير والأساس العظيم الذي يُؤُدِي إلى عذاب الله عَزَّوَجَلَّ وأليم عقابه.

نبَّه المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ هاهنا على هذا السبب الأكثر شيوعًا في إيصاله إلى الشرك؛ وهو الغلو في الصالحين، وذلك أنَّ الشيطان يزينُ الشرك إلى الناس في قالب محبة الصالحين وتعظيمهم حتى يتوصل إلى الإيقاع بهم؛ فيعبدونهم من دون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

والغالبُ على المشركين هو هذا؛ أنَّهم غلو في الصالحين فعبدوهم، إما بعبادة قبورهم، أو بعبادة صورهم وتماثيلهم، فالغالب على الشرك أنه يكون بالتوجه والعبادة لقبر، هو قبرٌ يُعبد، أو صورةٌ وتمثالٌ يُعبد، هذا هو الغالبُ على الشرك. والسبب الذي أدَّى إلى هذا وذاك إنَّما هو الغلو في الصالحين، فمن نصيحة المؤلف لإخوانه المسلمين عقد هذا الباب؛ حتى يَحْذَر المسلم من هذا الطريق الذي يوصل إلى الضلال.

الذي أمر الله جَلَّوَعَلَا به أن يسلك الإنسان مسلك الوسطية والاعتدال، وإعطاء كل ذي حقٍ حقه، قال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَاستَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلا تَطْغَوْا﴾[هود:١١٢]، الطغيان قريبٌ في المعنى من الغلو، يعني مجاوزة الحد أيضًا، ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ﴾[الحاقة:١١]، تجاوز حده.

فالله جَلَّوَعَلَا أمر باستقامةٍ لا طغيان ولا غلو فيها، ولذلك تجد الأوامر في الشريعة وتجد النواهي في الشريعة كلها تحذر من الغلو ومن الطغيان ومن التعمق ومن التشدد؛ وذلك حتى يسْلم للمرء دينه، وحتى يكون مستقيمًا على أمر الله تَبَارَكَوَتَعَالَى وأمر رسوله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، المسلم مُطالب بأن يسلك المسلك الوسط بين طرفي الغلو والجفاء:

ولا تغل في شيءٍ من الأمر واقتصد   كلا طرفي قصد الأمور ذميمُ

وأعظم وأهم ما ينبغي ملاحظته في هذا الباب: هو ما أراد المؤلف رَحِمَهُ‌ٱللَّهُ التنبيه والتذكير به، وهو ما يتعلق بالغلو في الصالحين.

قال رَحِمَهُ‌ٱللَّهُ: (وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى : ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ ﴾ [النساء:١٧١]).

هذا أمرٌ من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى لأهل الكتاب أن لا يغلوا في دينهم، ويتضمن هذا نهيَ هذه الأمة أن تفعل فِعل أهل الكتاب، فإنَّ اليهود غلوا فقالوا: عزيرٌ ابن الله، والنصارى غلوا أيضًا فقالوا: المسيح ابن الله، فكان في هذه الآية تحذيرٌ لهذه الأمة أن تسلك ما سلكه مَن قبلها من الأمم -لاسيما اليهود والنصارى- من الغلو في النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ فيرفعوه فوق الدرجة التي وضعه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى فيها، وهي أنَّه عَبْدُ الله ورسوله، عبدٌ لا يُعبد، ورسولٌ لا يُكذَّب، بل يُطاع ويُتَّبع.

قال رَحِمَهُ‌ٱللَّهُ: (فِي الصَّحِيحِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ‌ٱللَّهُ‌عَنْهُمَا - فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً﴾ [نوح:٢٣].-؛ قَالَ: «هَذِهِ أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى

قَوْمِهِمْ؛ أَنِ انْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ فِيهَا أَنْصَابًا وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ، فَفَعَلُوا، وَلَمْ تُعْبَدْ، حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَنُسِيَ الْعِلْمُ عُبِدَتْ»).

هذا الأثر ذكره المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ معزوًا إلى الصحيح؛ يعني إلى صحيح البخاري، وهو أثر ابن عباسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا في تفسير قول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ ، وقد اختصر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أوله؛ فإن ابن عباسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا بَيَّن في أوله مآل هذه الأصنام بعد الطوفان وكيف وصلت إلى العرب؛ وذلك أن هذه الأصنام كانت في قوم نوح، وليس المقصود أنها كانت في الزمن الذي كان فيه نوح، بل إن نوحًا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بُعث بعد أن عُبِدت، وذلك بعد وفاة هؤلاء المذكورين، إنما المقصود أن هؤلاء هم قومه الذين يرجع إليهم[٢٩١] .

والمقصود أنَّ هذه الأصنام التي عبدها قوم نوح حملها الطوفان فيما حمل؛ فألقاها على ساحل جُدة، وسفَت عليها الرمال فغطتها، فجاء أساس الشر

(٢٩١)والناظر في الدلالات التاريخية يُدرك أنَّ هؤلاء الرجال الصالحين كانوا قبل الوقت الذي كان فيه نوحٌ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ولا تعارض؛ فإن قوله (إنهم كانوا من قوم نوح) لا يلزم منه المعاصرة، بل هم كانوا قبل نوحٍ –عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ– بمدَّة، وإنما بعث نوح –عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ– بعد أن حصلت عبادتهم، وهذا كان بعد مرور مدة، فإنه كما سيأتي الجيل الذي أدرك السبب الذي من أجله صوِّرت صورهم ونُصبت أصنامهم قد مَضَى، وتنسَّخ العلم ونسي، ثم جاء جيلٌ بعد ذلك جاهلٌ بحقيقة الحال فعبدها، فدلَّ هذا على أنهم لم يكونوا معاصرين لنوحٍ –عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ– وإنما كانوا قبله.

لعبادة الأصنام عند العرب، وهو عمرو بن لُحي الخزاعي الذي أخبر النبي ﷺ أنه رآه يجر قُصْبَه -يعني أمعاؤه- في جهنم -والعياذ بالله- وذلك أنه أولُ من غَيَّر دين إبراهيم في العرب، إذ كان له رئيٌ من الجن، فأمره أن يذهب إلى جدة هذه المدينة المعروفة على ساحل البحر، وأن يستثير هذه الأصنام ففعل، فحملها معه حتى إذا جاء موسم الحج أَمَر العرب بأخذ هذه الأصنام وعبادتها(٢٩٢)، وكان الرجل ذا مكانةٍ، كان مُطاعًا في العرب فأطاعوه(٢٩٣).

قال ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: صارت الأصنام التي كانت في قوم نوح إلى العرب(٢٩٤).

---

(٢٩٢) فأُخذت منه وقُبلت منه ، ثم تفاقم الأمر وعظم حتى كثرت الأصنام فصار لكل قبيلة صنمٌ وأكثر، بل صار في كل بيت صنمٌ وأكثر والعياذ بالله.

(٢٩٣) كان مُقدَّمًا بل كان مقدسًا عندهم؛ حتى إنه كان لا يأمر بأمرٍ إلا ابتُدِر عليه.. جاء في الروايات أنه أول من غيَّر تلبية التوحيد، بعد أن كان من زمن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ التلبية هي تلبية التوحيد (لبيك لا شريك لك) ، فزين له الشيطان أن يغيِّر ذلك فقال: "لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك".

(٢٩٤) ولا شك أن هناك مقدمات كانت عند العرب قبل ذلك؛ فذكر أهل التاريخ أن أكثر العرب لاسيما أهل مكة كانوا لشدة حبهم لمكة يحملون معهم إذا سافروا شيء من أحجارها ثم يطوفون به كما يطوفون بالكعبة، لكن الأمر لم يكن كما كان عليه الحال بعد دعوة عمرو بن لحي للعرب إلى عبادة الأصنام.

وأنت إذا قرأت في كتب التاريخ لاسيما ما كُتب في تاريخ مكة كما عند الأزرق وغيره، أو فيما كُتب في أديان العرب من تاريخهم ، أو ما بسط الكلام فيه عن الأصنام كالأصنام

➢ **أما** «**وَدٌّ**» -والجمهور قرأوا بفتح الواو، وقرأ نافع و أبو جعفر بضم الواو (وُد)- فكانت لكلبٍ بدُومة الجندل؛ دومة الجندل: مدينة على أطراف الشام مما يلي العراق، ولعلها هي المدينة التي في شمال المملكة في منطقة الجوف، كانت لكلب -قبيلة من قضاعة- هم الذين أخذوا هذا الصنم وذهبوا به إلى بلادهم وعبدوه هناك.

➢ **أما** «**سُواع**»؛ فذكر أنه كان لهُذيل، وذكر المؤرخون أنَّ محل هذا الصنم كان برُهاط، منطقة اسمها رُهاط، قيل: أنها كانت بينبع، وقيل: أنها كانت بديار هُذيل بالقرب من مكة، وهذا أقرب أنها كانت بديار هذيل قرب مكة؛ فعبدوا هذا الوثن مع الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ**، ووافقهم على هذا من والاهم من مُضر وغيرهم من القبائل.

➢ **أما** «**يغوث**»؛ فذكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه كان لمراد ثم لبني الغطيف؛ وبنو الغطيف من مُراد، لكن يبدو والله أعلم أن هذا الصنم كان معبودًا عند كل قبيلة مراد ثم اختص به بنو غطيف، وهؤلاء كانوا بمنطقة اسمها الجُرف أو الجوف أو الجَون باليمن، ثلاثة أقوال.

➢ **وأمَّا** «**يعوق**»؛ فإنه كان لهمْدان، وهمدان أيضًا في اليمن، ذكر المؤرخون أن هذا الصنم كان بقرية اسمها خَيْوَان، وأنها كانت على بُعد ليلتين من صنعاء للمُصْعِد إلى مكة.

للكلبي؛ تجد أن الأمر قد فشى وانتشر بشكل عظيم جدًّا عند هؤلاء. فهذا هو المبدأ لعبادة هذه الأصنام التي قد وقعت فيهم.

➢ **وأما «نسرٌ»**؛ فكانت لحِمير لآل ذي الكَلاع، آلُ ذي الكلاع من حمير، وكانت عندهم في ديارهم في اليمن.

إذًا هذه الأصنام ثلاثةٌ منها كانت في اليمن، وصنمٌ منها في شمال الجزيرة العربية، والأخير كان في الحجاز (٢٩٥) .

ثم بيّن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ما كان من شأنها، وما السبب الذي لأجله عُبدت مع الله جَلَّ وَعَلَا

قَالَ: «هَذِهِ أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ»؛ قلنا أن نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ ما أدركهم؛ إنما بُعث صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد أن عُبدوا، وذلك بعد موتهم بمدة، وهؤلاء أناسٌ صالحون، ولأجل ذلك ولج الشيطان إلى الناس من خلال تعظيمهم، العهد كان قريبًا، وكانت الناس إذ ذاك تعظِّم الآباء وتعظم الصالحين، فوصل إلى مبتغاه من خلال تزيين تعظيم هؤلاء الصالحين فوق القدر الشرعي.

كانوا **«رِجَالا صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ»** ؛ بعضهم قال –وهذا مذكورٌ في كتب التاريخ–: أن هؤلاء كانوا من بني آدم من صلبه. وبعضهم قال: من بني أبنائه، ولكن هذا بعيد. والصواب ما قاله ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، لاسيما وأنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (بين آدم ونوح عشرة قرون، كلها على شريعة الحق)، ما كان الشرك فاشيًا إلا

---

(٢٩٥) وهذه الرواية تبين أن هذه الأصنام التي كانت في العرب هي هي التي كانت في قوم نوح، بخلاف قول بعض أهل التاريخ الذين قالوا إنها أصنام أخرى لكنها سُميت على أسماء تلك الأصنام، ولا شك أن كلام ابن عباس مقدَّم ، لأن الوصف لشيء قديم والتوقيت هو الغالب.

لما خطط الشيطان هذا التخطيط، ووصل إلى مبتغاه من خلال عبادة الصالحين الذين كانوا في قوم نوح، هذا أول شركٍ كان على وجه الأرض.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « **فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ أَنِ انْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ فِيهَا أَنْصَابًا وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ**»؛ «لما هلكوا» يعني ماتوا «أوحى الشيطان إلى قومهم»؛ ما يلقيه الشيطان في قلب ابن آدم يُسمى إيحاءً، ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾[الأنعام:١٢١]. والشيطان -كما تعلمون- يجري من ابن آدم مُجرى الدم.

أوحى الشيطان إليهم قذف في قلوبهم هذه الخطة التي أحكم تخطيطها؛ وهي أن هؤلاء الآن قد ماتوا، وأنتم أصابتكم الحسرة واللوعة لفقدهم، ثم إنهم كانوا صالحين، ستُشغلكم الدنيا وتغفلون، فلأجل أن تتسلوا برؤيتهم، وتتعزوا برؤيتهم، ولا تشتاقون إليهم الشوق العظيم، يخفِّف عنكم ما تجدون أن تفعلوا الذي آمركم به.

وأمر ثانٍ وهو: أنكم تنشطون؛ إذا رأيتم هذه الأنصاب ورأيتم هذه الصور والتماثيل التي تجعلونها عليها فإن ذلك سيدعوكم إلى مزيد من النشاط، لأنكم ستتذكرونهم وتذكرون صلاحهم، فتجتهدون في طاعة الله جَلَّوَعَلَا، وهكذا زين لهم الشيطان هذا العمل القبيح .

وهذا يدلك على أن الباطل لا يروج على النَّاس إلا بأن يُذرَّ عليه شيءٌ من الحق، وهذا السبب الذي لأجله يغترُّ الجاهلون، وإلا فالعلماء ينفذون إلى الحقائق ويعرفون خبايا الأمور. أمَّا الجهال فيغترون بهذا الغطاء؛ غطاء من

الحق، أنتم تحبونهم ولأجل هذا لابد أن تتذكرونهم، كيف تنسونهم؟ وكيف تغفلون عنهم؟ إذًا لابد من أن تفعلوا هذا الشيء، وهذا أمرٌ لا بأس به، فاغتر الجهال وفعلوا هذا الفعل.

إذًا حذارِ من أن يغتر أحدٌ بشبهة حق تُروِّج الباطل، بل عليه أن يكون حكيمًا، وأن يعلم أنَّ كل باطل وأنَّ كل إحداث وأنَّ كل بدعة لابد أن يكون فيها شوبٌ من حق تؤدي إلى ترويجها وتؤدي إلى نَفَاقِها، لكنَّ هذا لا يجعلها حقًا؛ بل لا تزال باطلًا، وعلى الإنسان أن يحذر.

ثم أن نعلم أن للشيطان خطوات؛ الشيطان ليس له خطوة واحدة، الله جَلَّوَعَلَا يقول: ﴿وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾[الأنعام:١٤٢]، إذًا هو لا يصل إلى مبتغاه من خلال خطوة واحدة يأمرك مباشرة بعبادة غير الله، كلا؛ بل إنَّه نفذ إلى ذلك من خلال خطوات.

قَالَ: « فَفَعَلُوا فَلَمْ تُعْبَدْ، حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَنُسِيَ الْعِلْمُ عُبِدَتْ»؛ في ابتداء الأمر لم تُعبد هذه الأنصاب التي نصبوها. **والأنصاب هي**: الحجارة التي تُنصب فتتُخذ وثنًا يُعبد.

والذي وقع من هؤلاء هو عدة أمور، كما سيأتي أيضًا في كلام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أولًا: عكفوا على قبورهم.

ثانيًا: نصبوا هذه الحجارة عند قبورهم، وكأنه -والله أعلم- كانت قبورهم ومجالسهم متقاربة.

ثالثًا: أنهم نحتوا هذه الصخور على هيئة صور وتماثيل على هيئاتهم.

فاجتمع أن كانت هذه أنصابًا وصورًا وأوثانًا وأصنامًا أيضًا، فلما كان الحال في ابتداء الأمر ما حصل شيءٌ زائد على ما كانوا عليه، إنَّما كانوا يرون هذه الصور، فينشطون في عبادة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لكن لما هَلَكَ الجيل الأول الذين كانوا يعلمون حقيقة الحال، يعلمون السبب الذي لأجله نُصبت هذه الأنصاب في مجالسهم أو عند قبورهم، لما هلكوا وجاء جيلٌ جديد جاهل ما يعرف السبب، عند ذلك عُبدت.

وهذا يدلك على أنَّ فقد العلم في النَّاس وفي الأوطان مصيبةٌ ليس بعدها مصيبة، أساس الشر والبلاء أن يقلَّ العلم ويكثر الجهل. والعلم لا يقل بل لا يذهب إلا بموت العلماء، كما أخبر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ،كما في الصحيحين: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من صدور الناس، ولكن بقبض العلماء، حتى إذا لم يُبقِ عالمًا اتخذ الناس رؤوسًا جهالًا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا»[٢٩٦] ، الشاهد أن هؤلاء الجيل الأول لما هلك جاء جيلٌ جديد.

قال :(**ونُسخ العلم**)، وفي بعض روايات البخاري وبعض نسخ البخاري: (وتنسَّخ العلم) يعني ذهب العلم.

---

(٢٩٦)وهذا يدلُّك على عظيم الحاجة إلى العلم، وعظيم الحاجة إلى العلماء؛ وأن فقد العلم والعلماء في البلاد ثلمة عظيمة لا يسدَّها شيء، بل ذلك مؤذِنٌ بالخراب، والعياذ بالله.

وهل المقصود العلم بالشرع لاسيما التوحيد؟ بمعنى أنهم أصبحوا جهالًا بالتوحيد، ما عندهم علمٌ بالتوحيد وعلمٌ بحقيقة الشرك وبذرائع الشرك؟ أو أنه تنسخ العلم بسبب نَصْبِ هذه الأصنام والأنصاب؟ لا مانع من أن يكون حصل الأمران:

-نُسخ أو تنسخ العلم بسبب نصب هذه الأنصاب؛ جهلوا السبب، فلأجل هذا جاءهم الشيطان بعد ذلك وقال: إنما نُصبت هذه الأنصاب لأن هؤلاء كانوا مُعَظَّمين، كانوا يعبدونهم ويُرزقون بهم، ويستنزلون المطر بهم، وفي بعض الروايات أنهم قالوا: (ويطلبونهم الشفاعة)، كانوا يسألونهم الشفاعة، يشفعون لهم عند الله، وهذا يذكِّرنا بما أخذناه سابقًا من أن ابتغاء الشفاعة وطلبها من غير الله هو الغالب على شرك المشركين.

-وكما قلت يحتمل أيضًا هذا الكلام أن يكون قد نُسي العلم بالتوحيد؛ ذهب العلماء وانتشر الجهل، وما أصبح هناك من يُذكِّر بالتوحيد، وما أصبح هناك من يعلِّم الناس التوحيد.

وهكذا -يا أيها الكرام- الشرك والبدعة إنما تنتشر في الناس إذا قلَّ المعلم وقلَّ الموجه وقلَّ من يدعو إلى التوحيد ومن يُذكِر بالسُنَّة، إذا ما أصبح هناك تذكير الدروس والكلمات والمحاضرات والكتب، إذا كان الناس لا يسمعون التذكير بشأن التوحيد ومفردات هذا التوحيد، وكذلك ما هو ضده ومفرداته وذرائعه، فإنه حينئذٍ ينتشر الشر، وحينئذٍ تعود الأمور إلى حال الفساد بعد أن أصلحها الله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلا تُفسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعدَ إِصْلاحِهَا﴾[الأعراف:٥٦]، الله جَلَّوَعَلَا

إذا أصلح الأرض بالتوحيد وطاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فهذه نعمة يجب الحفاظ عليها، ويجب أن يُداوَم على الدعوة والتذكير ونشر العلم، لاسيما في قضايا التوحيد.

هذه البلاد في بعض نواحيها كان الناس على خيرٍ عظيم، وكانوا على عنايةٍ كبيرةٍ بالتوحيد، وما كان هناك مظاهر للشرك، وهذا -ولله الحمد- باقٍ إلى الآن، لكن كانت العناية مختلفة، كان الناس الجميع صغارًا وكبارًا، ذكورًا وإناثًا، طلاب علم وعوام، كانوا يُحفَظُّون الأصول الثلاثة كل يوم مرتين: بعد الفجر، وبين المغرب والعشاء، لابد، مراجعة ومذاكرة باستمرار كلما انتهوا عادوا إليها، الأصول الثلاثة، يعلمك التوحيد باستمرار تكون على ذُكْر بالتوحيد، تكون على ذُكر بنعمة الله عَزَّوَجَلَّ بالتوحيد، تكون على ذُكر بخطورة الشرك، وبوسائل الشيطان في إيصاله للناس؛ لكن هذا الأمر -مع الأسف الشديد- ضَعُفَ كثيرًا في الأجيال المتلاحقة بعد ذلك. المقصود أنَّ نشر العلم وبث العلم سدٌ مانعٌ بتوفيق الله جَلَّوَعَلَا من الوقوع فيما حرم الله، ولاسيما ما يتعلق بالشرك.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وَقَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ: «قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ: لَمَّا مَاتُوا عَكَفُوا عَلَى قُبُورِهِمْ، ثُمَّ صَوَّرُوا تَمَاثِيلَهُمْ، ثُمَّ طَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَعَبَدُوهُمْ»)**.

إذًا إما أنهم نصبوا تلك الأنصاب على مجالسهم التي كانوا يجلسونها، أو كان ذلك على قبورهم، وربما -كما قال بعض أهل العلم- كان هذا وهذا؛ يعني كان القبر والمجلس متقاربًا؛ فلأجل هذا تارةً يقال إنه نُصبت على مجالسهم، وتارةً يقال إنها نُصبت عند قبورهم، والمقصود واحد؛ فهؤلاء عكفوا على

قبورهم ونصبوا الأنصاب، وأيضًا نحَتوا هذه الحجارة على هيئة صورٍ لهم فعُبدت بعد ذلك[٢٩٧].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَعَنْ عُمَرَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ». أَخْرَجَاهُ).

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أخرجاه؛ مع أنه في البخاري وأحمد والدارمي وغيرهم، وليس في مسلم.

الشاهد أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نبَّه في هذا الحديث على أمرٍ عظيم؛ فقال: « لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ»[٢٩٨] والحديث في غاية الصحة في صحيح البخاري. فتأمل يا عبد الله، هذا نهيٌ من النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي هو الصادق المصدوق، الذي هو الرسول واجب الاتباع، هو صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهانا عن إطرائه[٢٩٩].

---

(٢٩٧) وهذا يدلك على عظيم فتنة القبور على الناس، وأنها أصل عبادة الأصنام، فأول ما حصل إنما هو التعلق بالقبور، ثم نُصبت بعد ذلك الأنصاب.

(٢٩٨)هذا الحديث عنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيه نهيٌ عن نوع من أنواع الغلو؛ فإن الإطراء أخصُّ من الغلو، لأنه غلو خاص، وهو الغلو في المدح، الغلو كما أسلفت عام يشمل كل شيء، لكنَّ الإطراء إنَّما هو الغلو في المدح، يعني مجاوزة الحد الشرعي في المدح.

(٢٩٩) وما ذلك إلا لأن هذه المبالغة وهذا الإطراء وهذا الغلو سببٌ لحصول الشرك، فإنه مع حصول هذا الإطراء يتنامى التعظيم في النفوس حتى يسهل الشرك عليها والعياذ بالله.

والإطراء: هو مجاوزة الحد في المدح؛ يعني كأنك تقول هو الغلو في المدح؛ لأن الغلو: هو مجاوزة الحد، هذا نهيٌ صريح بلفظٍ فصيح من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن إطرائه، عن أن تتجاوز الحد يا عبد الله في مدحه، لِمَ؟ لأن هذا ذريعةٌ إلى وقوع ما يكره الله، ألا وهو الشرك بالله جَلَّ وَعَلَا.

ولذلك وجدنا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ينبه على دقائق في هذا المقام، يأتيه من يقول: (يا خيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا)، وإذا بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يكره هذا القول فيقول: «قولوا بقولكم أو بعض قولكم ولا يستجرينكم الشيطان». آخر يقول: (ما شاء الله وشئت)، فيقول: «أجعلتني لله ندًا، قل ما شاء الله وحده». إذًا كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من حرصه وشفقته على أمته، ومن تعظيمه لربه حريصًا على أن يُبعد هذه الأمَّة عن كل أسباب الوقوع في الشرك، ومن ذلك الإطراء له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

حق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **أنه يُعظم التعظيم الشرعي**: بالقلب، واللسان، والجوارح. إذا أردت أن تعرف ذلك فاعلم :

- أن **تعظيمه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالقلب** هو: أن يُعتقد أنه رسول الله، وأن يُحب المحبةَ عظيمة التي لا يفوقه فيها أحد إلا ربُّ العزة **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**، فأعظمُ محبوبٍ عند المسلمين هو ربنا **جَلَّ وَعَلَا**، ثًّم نبيه محمدٌ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**.

- **باللسان**: أن لا تذكر هذا النبي الكريم **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** إلا بحفاوةٍ وتقديرٍ شرعي، وأن تصليَ عليه **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** كثيرًا، فإنَّك إذا عَمَّرت وقتك وعُمرك بالإكثار من الصلاة على النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** فزت فوزًا عظيمًا؛ زال همك، وغُفر ذنبك.

أمّا بالجوارح: فبالمسارعة إلى طاعة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، مهما طرق سمعك أمرٌ من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقل: سمعًا وطاعة، وإذا طرق سمعك نهيٌ من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فانتهِ مباشرة، هكذا كان الصادقون في تعظيم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهم أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثم من جاء بعدهم من السلف الصالح، هذا هو التعظيم الشرعي.

ويا لله العجب! من أناسٍ يزعمون أنهم يحبون ويعظمون رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهم يحادُّون الله ورسوله!! يفعلون نقيض ما يأمر الله ورسوله به، ويجترحون ما نهى عنه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(٣٠٠)، أي محبةٍ تلك يا عبد الله؟! يا من يَعْمَدُ إلى الذي نهى عنه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيفعله!

لو كان حبك صادقًا لأطعته إنَّ المحب لمن يحب مطيع

رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**لا تطروني**»، وهو يطري النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويرفع مدحه عن القدر الشرعي! حتى ربما نَسَبَ إليه ما يختص به الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من الصفات أو من الألوهية أو من الربوبية، وإذا نهيته ونبهته يقول: "أنت لا تحب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"، "أنت لا تعظِّم رسول الله

---

(٣٠٠) ولو قلَّبت بصرك في شيء من النماذج التي مُدِحَ بها عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لرأيت العجب العُجاب، انظر فيما يقوله البوصيري في ميميته وسماها (البُردة)، وهي التي تلهج بها كثير من الألسنة ويُتغنى بها ويتمايل السامع طربا لها، انظر ما حوَته من الإطراء الذي تنتفض منه قلوب أهل التوحيد.

ﷺ"[٣٠١]، أي الفريقين أحق بمحبة النبي ﷺ وموالاته؟ أهو الذي أطاع النبي ﷺ أم الذي عصاه؟ والله لو أن النبي ﷺ قال لنا: ادعوني، لدعوناه، بل لو قال لنا: اسجدوا لي لسجدنا له.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والله لو يرضى الرسول دعاءنا إياه بادرنا إلى الإذعان

والله لو يرضى الرسول سجودنا كنا نخر له إلى الأذقان

والله ما يرضيه منا غير إخلاصٍ وتحكيم لـذا القــرآن

هذا الذي يُرضي نبينا ﷺ، وهذا الذي أمر به، وهذا فرضٌ لمستحيل، ويجوز فرض المستحيل وبناء نتيجةٍ عليه: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ [الزخرف:٨١]. ما كان ولا يكون أن يـأمر النبي ﷺ بالشرك، إنما كان آمرًا بالتوحيد وإخلاص العبادة لله، وكان آمرًا بتحكيم القرآن والسنة.

لكن هذا الذي يغلو ويحاد الله ورسوله ويعارض الله في أوامره ويعارض رسول الله ﷺ في أوامره، ماذا يقال في حقه؟ ماذا يقول النبي ﷺ إذا كان أنكر قول: (يا خيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا)؟ ماذا كان ﷺ قائلًا لمن يقول:

---

(٣٠١) وكذبوا ، بل والله هم لم يعظموه التعظيم اللائق به، فأيُّ تعظيمٍ هذا الذي يقتضي أن يُردَّ حديثه وأن تترك أوامره!، سمعت من أحدهم مرة فذكرت له هذا الحديث، والحديث في الصحيح قال (لا تطروني)، قال أنتم لا تعرفون إلا هذا الحديث!! وهب أننا لا نعرف إلا هذا الحديث، والله إنه خير عظيم؛ حديث مَنْ هذا؟ حديث رسول الله ﷺ .

دعْ مَا ادَّعَتهُ النَّصَارٰى فِيْ نَبيِّهِمِ وَاحكُمْ بمَا شِئْت مَدحًا فِيْهِ وَاحتكِمِ

فقط اترك أن تقول النبي ابن الله، لكن بعد ذلك قل ما شئت، ولو نسبتَ إليه الربوبية، بل الألوهية، لا حرج عليك، أنت ممنوع فقط من أن تقول كما قالت النصارى إنه ابنٌ لله(٣٠٢).

دع ما ادعته النصارى في نبيهم واحكم بما شئت مدحاً فيه واحتكم

فإن فضل رسول الله ليس له قدر فيعـرِب عنه ناطـــقٍ بفـــم

إلى أن يقول:

لو ناسبت قدره آياته عظما أحيا اسمه حين يدعى دارس الرمم

إنا لله وإنا إليه راجعون. والله شيء ما قاله في حق الله جَلَّوَعَلَا، وانظر إلى سوء الأدب مع مقام ربنا سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ! الله ما أعطاه الآيات اللائقة بقدره، وإلا لو كان ذلك كذلك لكان إذا قيل محمد عند ميت لفز حيًا(٣٠٣).

إلى أن يقول:

---

(٣٠٢) وانسُبْ الى ذاتِهِ ما شئتَ مِن وانسُب الى قَدْرِهِ ما شئتَ مِن عِظَمِ
فَإِنَّ فَضْلَ رسُوْلِ اللهِ لَيْسَ لَه حدٌ فَيُعْرب عَنْهُ نَاطِقٌ بفَم

(٣٠٣) انظروا إلى سوء الأدب مع الله عَزَّوَجَلَّ! كل الآيات والبراهين والمعجزات التي أعطيها النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لم تكن مناسبة لقدره، ما المناسب لقدره؟ أنه إذا ذُكر اسمه؛ إذا ذكر اسم محمد عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ على ميتٍ قام من قبره! أحيا اسمُهُ حين يُدعَى دارِسَ الرِّمَمِ، الله المستعان. اسم الله عَزَّوَجَلَّ لو ذكر على الميت ما حصل هذا!! فانظر إلى الغلو الشنيع الذي حصل منه في حق النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ورفْعه إلى هذه الدرجة العظيمة

يا أكرمَ الخلْقِ مالي مَن ألوذُ به سواك عند حدوثِ الحادثِ العَمم

طُمِسَ على بصيرته، أصبح لا يعرف أحدًا يلوذ به عند حلول الحادث العمم، فأين الذي قال: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل:٦٢]؟ ما عرفته؟!

ثم يقول:

فإن من جودك الدنيا وضرَّتها ومن علومك علم اللوح والقلم [٣٠٤]

يعني: أنه يعلم اللوح المحفوظ، بل غلا بعضهم حتى جعل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعلم كل ما يعلمه الله. ذكر شيخ الإسلام في كتابه الاستغاثة عن بعض أهل زمانه أنه كان يقرر، بل صنف مصنفًا في أنَّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يعلم كل ما يعلمه الله، ويقدِر على كل ما يقدر عليه الله، وأنه يُستغاث به في كل ما يُستغاث به لله. أهذا استجابَ لأمر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا تطروني**»؟!

بل والله لم يستجب، **أولًا**.

وثانيًا: نقض الشهادتين: نقض لا إله إلا الله حينما عبد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع ربه جَلَّ وَعَلَا. ونقض شهادة أن محمدًا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. **كيف ذلك؟**

أولًا: أبى وعاند واستكبر عن أن يستجيب للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وثانيًا: أن هذه الشهادة لمحمدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنه رسول الله في حقيقة ما يعتقدون وقعَت على معدوم، كيف هذا؟ يعني هؤلاء كانوا يعتقدون أن من

---

(٣٠٤) ماذا أبقى من صور الشرك لم يودعها في هذه الأبيات؟! وانظر كثيرا من الناس تجدهم يطربون بهذه الأبيات يتغنون بها في الاحتفالات ، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

اسمه محمدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو رسول الله؛ لكن من هو هذا الذي يعتقدونه رسول الله؟ هو الذي يعلم الغيب وما في اللوح المحفوظ، ويملك الدنيا والآخرة، وهو الذي يفرج الهموم وينفِسُ الكروب، وهو الذي في قبره ينقذ الغريق ويطفئ الحريق، بل ويغفر الذنوب ويهدي القلوب، ويفعل كل ما يفعله الله.

هذه الشخصية بهذه الصفات هل لها وجود؟ لا وجود لها، إنما إن كنتم تريدون محمدًا بن عبد الله بن عبد المطلب الذي هو رسول الله حقًا -بأبي هو وأمي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فهذا ليس هو الذي وصفتم. هذا من هو؟ هو الذي قال لنا بلسانه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنما أنا عبدٌ فقولوا: عبد الله ورسوله**». هذا هو رسول الله، ومن اعتقد أنه رسول الله أتى بشهادة أن محمدًا رسول الله، لهذا وليس لذاك الموهوم الذي خلعوا عليه من الصفات ما أخرج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يكون هو الذي اعتقدوه رسولًا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

إذًا انظر كيف أخرجهم غلوُّهم في النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى هذا المنعطف الخطير، وهو أنهم نقضوا شهادتهم لهم بأنه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

أمَّا الغلو فيمن بعده؛ الأمر لم يقف عند حدِّ الغلو في النبي ﷺ، بل تسلسل عند كل صالح، بل ربما كان للطالح أيضًا، فأصبحوا يعظمون من يزعمونهم أولياء ومن يزعمونهم صالحين، وإن كانوا في الحقيقة خلاف ذلك.

قرأتُ في كتاب البداية والنهاية لابن كثير في ترجمة أحد المعظمين عند هؤلاء، والذي كان يعتقد وحدة الوجود، يعني أنه هو والله جَلَّ وَعَلَا شيءٌ واحد، بل هذا الكون كله هو الله، ذكر أنه بعض تلاميذه كان يحتفظ بشيءٍ من بوله

وعذرته يتبرك بها؛ يتبرك بالبول ولعله يتبخر بالعذرة. أرأيت غلوًا كهذا الغلو؟!
وهذا أمرٌ واقعي، ولا نتكلم عن شيءٍ خيالي بل والله واقع، والمدون في كتبهم والمطالِعُ لأحوالهم يجد هذا وأضعافه وأضعافه.

كم تجد في كتب هؤلاء من يقول: "من حج قبر فلان مراعيًا حقه عارفًا قدره كان له كأنما حج بيت الله مائة مرة" إذا حججت إلى هذا القبر، ولذلك تجد حرصهم على شد الرحال إلى قبور أوليائهم، ثم حدَّث ولا حرج عن ما يحصل من منكراتٍ عظيمة تنقض الشهادة لله عَزَّوَجَلَّ بأنه الإله الحق، بل بأنه الرب الحق سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فالمشتكى إلى الله(٣٠٥).

---

(٣٠٥) والخطب كما قلنا قد اتسع، فلم يكن الأمر خاصًّا به عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ بل تجاوز ذلك، حصل الغلو فيه وفي غيره عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ من الأولياء الصالحين، وانظر إلى أحوال العالم الإسلامي تجد عجبًا، تجد أنه في هذه الجزيرة قبل دعوة الإمام المجدد رَحِمَهُٱللَّهُ كانت هناك أو كان أشجار وقبور تُعبد من دون الله، كان قبر زيد بن الخطاب يُعبد من دون الله، وكانت أنواع من الأشجار والأوثان تعبد في الحجاز في جنوب الجزيرة وفي شرقها وفي شمالها.

بل عُبِدَ من لا ينتسب إلى الصلاح أصلًا؛ من أكبر الأوثان -إن لم يكن أكبرها- في مصر قبر البدوي، هذا الذي ليس له أصلٌ ولا فصلٌ، إن صح وجوده أصلًا، وقد ذكر السخاوي أنَّ الفضيلة التي تُعرف له أنه دخل المسجد يوم الجمعة فبال فيه ثم خرج ولم يصلِّ، هذه الفضيلة المعروفة له، وهو أكبر الأوثان في مصر.

وفي العراق عُبِدَ عبد القادر الجيلاني وهو حنبلي ذا زهد وعبادة، عبدوه وعظموه حتى صار إلهًا لهم والعياذ بالله. في الشام عبد ابن عربي أفجر الفجار، هذا الذي أتى بكفرٍ تشمئز منه

أساس الشر والبلاء هاهنا هو الغلو، هو مجاوزة الحد الشرعي، والمسلم واجبٌ عليه أن يتقي الله جَلَّوَعَلَا: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلا تَطْغَوْا﴾[هود:١١٢]. (٣٠٦)

ربما نفوس كفار العرب، في جنوب الجزيرة عُبد ابن علوان، في أنحاء متفرقة من العالم الإسلامي في غربه أبو الحسن الشاذلي، القطب، في أفريقيا التجاني، وحدث ولا حرج من سلسلة طويلة من هؤلاء الذين عُبدوا من الصالحين وغيرهم حتى جُعلوا آلهة تعبد دون الله عَزَّوَجَلَّ.

وإن يضاف إلى جانب آخر إلى جانب الرافضة المخذولة غلوهم في آل بيت النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فحدث ولا حرج، أتوا بشيء عظيم يصعب تصوره في الحقيقة من الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ، فإنهم قالوا "قبر فلان من أئمَّتهم زيارةٌ واحدة له خير من ستين حجَّة مع رسول الله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ"، في سلسلة طويلة من هذه الشركيَّات العظيمة التي فاقت دون شك ما كان عليه حال المشركين الأولين، والله المستعان.

(٣٠٦) على المسلم أن يتقي الله عَزَّوَجَلَّ، وأن يعلم أن المحبة الصادق للنبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ليس هذا شعارها، المحبة الصادقة تحبه بقلبك محبة عظيمة بحيث لا يكون في قلبك شيءٌ أحبَّ إليك منه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إلا الله عَزَّوَجَلَّ، وأن يتبع هذا شوقًا إلى رؤيته كما في صحيح مسلم من قوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «إنَّ مِنْ أَشَدِّ النَّاس حُبًّا لي قومٌ يَأْتُونَ مِنْ بَعْدِي مَا رَأَوْنِي وَدُّ لَوْ رَأَوْنِي بأَهْلِهِم ومالِهِم» لابد أن يكون برهان ودليل على هذه المحبة، برهانٌ صادق له عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ولا تقدِّم على قوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قولًا، أن تحاكم إليه، وأن تدافع عنه، وأن تُعظِّم أوامره ونواهيه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.ويا لله العجب من هذه المحبة ومن هذا التعظيم الذي لا يتجاوز هذه النماذج الممقوتة شرعًا مع

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (... **قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الْغُلُوُّ»**).

بَيَّضَ المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ لمخْرج هذا الحديث، والحديث عند النسائي وابن ماجه وغيرهما بإسنادٍ صحيح[٣٠٧].

«إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الْغُلُوُّ»؛ هذا نهيٌ من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الغلو، قال: « **إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ**» يعني احذروا الغلو، فإن الغلو أمرٌ محرم ومنكر يجب أن يجتنبه المسلم.

أنواع عظيمة من المخالفة له عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وهذا حال هؤلاء الغلاة فيه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بلا شك.

(٣٠٧) وجاءت قصته عند الإمام وغيره قصة الحديث أو سببه في شأن حصى الجمار، حينما حذر النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وقد أخذ هذه الجمار وقال (بمثل هذه فارموا) ،حذر من الغلو « **إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ**»، يعني لا يظن ظانٌّ أن كبر حجم الحصى زيادة في الطاعة، « **إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الْغُلُوُّ فِي الدِّينِ**» فهو من أعظم الهلاك والعياذ بالله. والأمر وإن كان جاء على سببٍ خاص فهو كما يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ يشمل سائر الأقوال والاعتقادات، يعني سائر ما يتعلق بأحكام الدين الغلو فيه ممقوت، وهو مجاوزة الحد. وإن كان أصل ذلك عبادة شرعية! لكن مجاوزة الحد أمرٌ ممقوت؛ حتى ولو كان الأمر متعلقًا بصلاة أو بصيام أو بغير ذلك، وإنكار النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ على من غلا في هذه العبادات التي هي من أحب العبادات إلى الله معلومٌ عندنا ؛ دلَّ هذا على أن مجاوزة الحدِّ الشرعي أمر ممقوت محرم بل من أسباب الهلاك، وأن النجاة في الاقتصاد؛ والاقتصاد في موافقة السنة.

ثم بَيَّن النبي ﷺ السبب الذي جعله يحذرنا هذا التحذير المؤكد؛ أنه كان السبب في هلاك من قبلنا. والعجيب أن أناسًا يقرؤون مثل هذا الكلام، بل ويتلون كتاب الله، وينظرون فيما كان من حال قوم نوحٍ وغيرهم، ويقرؤون في التفسير، ومع ذلك يصرون على ما هم عليه؛ فإنا لله وإنا إليه راجعون.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (**وَلِمُسْلِمٍ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ** رضي الله عنه **أَنَّ رَسُولَ اللهِ** ﷺ **قَالَ: «هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ»، قَالَهَا ثَلَاثًا**).

قال النبي ﷺ: «**هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ**»، ولاحظ أن النبي ﷺ كرر هذا الكلام ثلاث مرات؛[٣٠٨] حتى يرسخ المعنى في نفوس المؤمنين.

«**هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ**» ؛ **المتنطعون**: يعني المتعمقون؛ يعني الذين يبالغون في الأمور، فيكون في المعنى قريبًا من الغلو.

وذكر بعضهم أن التنطع: هو التقعر في الكلام، والإتيان بوحشي الكلام، أو بالتفاخر في الإعراب عند العوام والجُهال.

ولا مانع أن يكون المعنى شاملًا لهذا ولهذا؛ «**هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ**» يعني: أهل الغلو والمبالغة، وكذلك الذين يتشدقون ويتقعرون في كلامهم.

وهل هذا من النبي ﷺ دعاء أو إخبار؟

- إذا قلنا إنه دعاء؛ فواضح.

---

(٣٠٨) وهذا من عظيم حرصه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ على نصيحة أمته، ليتركوا هذا الأمر على وجه التنطع والمبالغة والتعمق.

- وإذا قلنا إنه إخبار؛ فإنه إخبارٌ يتضمن الدعاء، أو إن شئت فقل: هو دعاءٌ بصيغة الإخبار.

ولعل من أولى من يدخل في هذا الحديث أهل البدع الذين يتكلفون ما لم يؤمروا بالبحث فيه، الذين يتعمقون في أشياء ما كُلِّفوا بالخوض فيها؛ كأهل الكلام الذين يخوضون ويتعمقون في مباحث الصفات أو في مباحث القدر، أو في غيرها حتى خرجوا إلى مخالفة سَنَنِ السلف الصالح، ولا شك أن هذا كله مما نهى عنه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.(٣٠٩)

والله تعالى أعلم.



قال المصنف رحمه الله:

٢٠-بَابُ

(٣٠٩) فعلى الإنسان إذا أراد النجاة والبعد عن الهلكة أن لا يتكلف {وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ} [ص: ٨٦]، وإنما يقول إذا قال النص ويسكت إذا سكت النَّص؛ بهذا تحصل النَّجاة، ويحصل الأمان من الهلاك الذي أخبر به عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ولا سيما إذا تعلق الأمر بهذا الشأن العظيم ألا وهو الغلو والتعظيم والمبالغة في الحدِّ الشرعي فيما يتعلق بأصحاب القبور، يأتي معنا إن شاء الله في البابين القادمين مزيدُ بيانٍ لهذا الأمر، فالعناية بهذا الباب والبابين بعده قد حثَّ المؤلف رَحِمَهُ اللهُ على ذلك ونصح وبرَّ رَحِمَهُ اللهُ رحمة واسعة.

مَا جَاءَ مِنَ التَّغْلِيظِ فِيمَنْ عَبَدَ اللهَ عِنْدَ قَبْرِ رَجُلٍ صَالِحٍ فَكَيْفَ إِذَا عَبَدَهُ؟

فِي الصَّحِيحِ عَنْ عَائِشَةَ ﵂؛ أَنَّ أُمَّ سَلَمَةَ ذَكَرَتْ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ كَنِيسَةً رَأَتْهَا بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ، وَمَا فِيهَا مِنَ الصُّوَرِ، فَقَالَ: «أُولَئِكِ إِذَا مَاتَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ، أَوِ الْعَبْدُ الصَّالِحُ، بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرَ، أُولَئِكِ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللهِ». فَهَؤُلَاءِ جَمَعُوا بَيْنَ الفِتْنَتَيْنِ: فِتْنَةِ الْقُبُورِ، وَفِتْنَةِ التَّمَاثِيلِ.

وَلَهُمَا عَنْهَا، قَالَتْ: «لَمَّا نُزِلَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ طَفِقَ يَطْرَحُ خَمِيصَةً لَهُ عَلَى وَجْهِهِ، فَإِذَا اغْتَمَّ بِهَا كَشَفَهَا، فَقَالَ - وَهُوَ كَذَلِكَ -: «لَعَنَةُ اللهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»؛ يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا، وَلَوْلَا ذَلِكَ لأُبْرِزَ قَبْرُهُ، غَيْرَ أَنَّهُ خُشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا». أَخْرَجَاهُ.

وَلِمُسْلِمٍ عَنْ جُنْدَبِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسٍ، وَهُوَ يَقُولُ: «إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اللهِ أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ؛ فَإِنَّ اللهَ قَدِ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا، كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا؛ لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، أَلَا وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، فَإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ». فَقَدْ نَهَى عَنْهُ فِي آخِرِ حَيَاتِهِ، ثُمَّ إِنَّهُ لَعَنَ - وَهُوَ فِي السِّيَاقِ - مَنْ فَعَلَهُ، وَالصَّلَاةُ عِنْدَهَا مِنْ ذَلِكَ، وَإِنْ لَمْ يُبْنَ مَسْجِدٌ؛ وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهَا: «خُشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا»، فَإِنَّ الصَّحَابَةَ لَمْ يَكُونُوا لِيَبْنُوا حَوْلَ قَبْرِهِ مَسْجِدًا. وَكُلُّ مَوْضِعٍ قُصِدَتِ الصَّلَاةُ فِيهِ فَقَدِ اتُّخِذَ

مَسْجِدًا، بَلْ كُلُّ مَوْضِعٍ يُصَلَّى فِيهِ يُسَمَّى مَسْجِدًا، كَمَا قَالَ ﷺ: «جُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا».

وَلِأَحْمَدَ - بِسَنَدٍ جَيِّدٍ - عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه مَرْفُوعًا: «إِنَّ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ مَنْ تُدْرِكُهُمُ السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءٌ، وَالَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ». رَوَاهُ أَبُو حَاتِمٍ فِي صَحِيحِهِ.



قال الشارح وفقه الله:

بعد أن بيَّن المؤلف رحمه الله خطر الغلو في الصالحين على عقيدة المسلم، بيَّن في هذا الباب صورةً من أخطر صور الغلو تأثيرًا على الاعتقاد؛ وذلكم هو الغلو في قبور الصالحين[٣١٠]، فعقد لأجل التنبيه والتحذير هذا الباب والذي بعده

(٣١٠) بعد أن تكلم المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ وعقد الأبواب السابقة في بيان الشرك وأعظم أنواعه وأنَّ اتخاذ الأصنام آلهةً من دون الله عَزَّوَجَلَّ، وبيَّن أصل عبادة الأصنام ومنشأ ذلك في كثير من أحوالها ألا وهو جعْل الأصنام على صورة الأنبياء والصالحين؛ انتقل المؤلف بعد ذلك إلى سببٍ آخر من أسباب وقوع الشرك؛ ألا وهو الفتنة بالقبور وأهلها، فإنه إذا كان التعلق بالأصنام التي صوِّرت على صور الموتى فتنةً مضلة كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: {رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ}[إبراهيم:٣٦]، فإن الفتنة بالقبور مباشرة أعظم ولاشك، والواقع أكبر برهانٍ على ذلك، فإن فتنة كثير من الناس بالقبور كانت عظيمة.

والذي بعده أيضًا، وهذا منه نصيحة لإخوانه المسلمين، رحمه الله عليه وجزاه عنَّا خير الجزاء[٣١١].

قال رحمه الله: «**التغليظ في من عبد الله عند قبر رجل فكيف إذا عبده؟**»[٣١٢]؛

هذا التبويب يدلنا على فائدتين:

- **الأولى**: لزوم سد الذرائع إلى الشرك بالله جَلَّوَعَلَا؛ وذلك أنَّ التحذير والتشديد بل اللعنة قد ثبتت عن النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في من عَبَدَ الله عند قبر، وذلك لأنه ذريعة إلى الوقوع في الشرك[٣١٣].

---

(٣١١) وكلام المؤلف رَحِمَهُاللَّهُ هنا في هذا التبويب في غاية المناسبة ، ولشدة عنايته رَحِمَهُاللَّهُ بهذا الأمر العظيم فقد كرر الكلام فيه ونوَّعه وأتى فيه بأساليب مختلفة، كما تجده في هذا الباب والباب الذي يليه، ويدخل في ذلك في الجملة أيضًا الباب الذي بعده؛ فإنَّ الباب كله بابٌ واحد، وهذا من فقه الإمام رَحِمَهُاللَّهُ وحرصه على القيام بواجب النصيحة.

(٣١٢)تلاحظ أن المؤلف ؒ أشار في تبويب الباب إلى العبادة، مع أن الأحاديث التي أوردها تتعلق بالصلاة!! وذلك أن العلَّة واحدة، والحكم يدور مع علَّته وجودًا وعدمًا؛ إذا كان اتخاذ القبور مساجد بمعنى أنه يُتعبَّد لله عَزَّوَجَلَّ بالصلاة عليها وإليها وعندها؛ وكان هذا مستوجبًا لما سيأتي من الوعيد فإن من فعل غير ذلك من أنواع العبادة كان مستحقًّا لذلك أيضًا، لأن العلة في كلٍّ واحدة.

(٣١٣) فإنَّه قد أورد من الأحاديث ما يبيِّنُ أن هذا من أعظم المحرمات، وأنَّ من فعَله كان من شرار الخلق، وكان مستحقًّا للعنة الله عَزَّوَجَلَّ.

▪ **الثانية**: التحذير من الشرك من باب أولى؛ وذلكم أنَّه إذا كان قد ثبت هذا التغليظ في حق من عبد الله عند قبر، فكيف إذا توجه بالعبادة لصاحب القبر؟ لا شك أنَّ هذا أشد وأغلظ.

صورة المسألة: أن يتعبد إنسانٌ لله عند قبر رجلٍ صالح بأي نوعٍ من أنواع التعبد، وذلك رجاء حصول البركة له، أو لاعتقاد أفضلية هذا المكان، وأنه أفضل وأكثر أجرًا من غيره(٣١٤).

هذا هو محل البحث في هذا الباب؛ أن يَقْصُد الإنسان إلى أن يعبد الله عند قبر، وهذا قد جاء فيه الوعيد من لدن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

والنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -يا أيها الإخوة- جاء بدين الحنيفية، فقد قطع صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كل ذرائع الشرك وكل وسائله القولية والعملية، والناظر في سنة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدرك هذا بأدنى تأمل، فقد نهى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن أمورٍ دقيقة؛ لأنَّها ربما تُؤدي إلى حصول الشرك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. شريعة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أسهل الشرائع وأيسرها في المعاملات، لكنَّها أشد الشرائع في جانب حماية جناب التوحيد، وهذا ظاهرٌ لمن تأمل الكتاب والسنة.

وقد أورد المؤلف رَحِمَهُ اللهُ في هذا الباب أربعة أحاديث، كلُّها تدور على النهي عن اتخاذ القبور مساجد، وعن البناء على القبور؛ وهذان الأمران قد تكاثرت وتواترت بهما الأحاديث عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

---

(٣١٤)هذا القدر -كونه يتوجه إلى الله عَزَّ وَجَلَّ بالعبادة هنا- ليس كفرًا، وليس شركًا أكبر، ومع ذلك جاء التحذير فيه؛ لأنه وسيلةٌ وذريعة لما هو أعظم وأكبر.

ﷺ **الأمر الأول: النَّهي عن البناء على القبور، وهذا يشمل صورتين:**

الأولى: أن يُبنى على القبر مسجد، يُؤسس مسجدٌ فوق القبر فيكون القبر في داخله، في وسطه أو في طرفه.

الثانية: أن يُبنى على القبر قبة أو نحوها، وإن لم تُجعل مسجدًا .

فهذا كله مما نهت عنه الشريعة، بل نهت عما هو أقل من ذلك، وهو أن يُرفع القبر مجرد ارتفاع زائدًا عن المعتاد، قال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كما في صحيح مسلم: «ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ألا تدع صورة إلا طمستها ولا قبرا مُشرفا إلا سويته».

ﷺ**الشطر الثاني من النهي المتعلق بالقبور فهو**: النهي عن اتخاذ القبور مساجد، وهذا أكثر ورودًا وتصريحًا في الأحاديث.

واتخاذ القبور مساجد -هذا الذي نهى عنه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **- له صور:**

الصورة الأولى: أن يُصلى على القبر؛ بمعنى: أن يقوم الإنسان عند قبر فيصلي عليه ويسجد عليه، هذا اتخذه مسجدًا، سجد عليه فكان مسجدًا، موضع سجودٍ، ولا شك أن هذا أشدُّ وأخطر الصور، والغالب بل لا يكاد يُتصور أن يفعل هذا أحدٌ إلا وهو يعبد صاحب هذا القبر، لا أنه يعبد الله عند القبر، لكن نذكر هذه الصورة من باب البيان وحصر القسمة.

الصورة الثانية: أن يصليَ إلى القبر، بمعنى أن يجعل القبر في قبلته فيصلي إليه، وهذا أيضًا داخلٌ في معنى اتخاذ القبور مساجد الذي نهى عنه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا الذي فهمه السلف الصالح، ففي المصنف بإسناد صحيح عن

عمرو بن دينار التابعي الجليل رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه سُئل عن الصلاة عند القبور فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «بلغنا عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه لَعَنَ من اتخذ القبور مساجد»، فدل هذا على أنَّ هذا من مفهوم اتخاذ القبور مساجد عند السلف. وعلق البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في صحيحه ووصل ذلك ابن أبي شيبة وعبد الرزاق بإسناد صحيح، أن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ رأى أنسًا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يصلي إلى قبر، وكان أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ غافلًا لا يدري أنه قبر، فصاح به وناداه وهو يصلى: (القبرَ القبرَ)، حتى إن أنسًا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ظن أنه يريد القمر، يقول: (فرفعت بصري إلى السماء أظن أنه يقول القمر)؛ فقال: (إنما أقول القبر، لا تصلي إليه)[٣١٥]، فكان بعد ذلك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ إذا كان مع بعض أصحابه يأخذ بأيديهم فيتنحى عن القبور ثم يصلي.

إذًا الصلاة إلى القبور أمرٌ منهي عنه، وثبت هذا صريحًا في سنة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما في صحيح مسلم: «لا تصلوا إلى القبور ولا تجلسوا عليها»[٣١٦].

---

(٣١٥) فلم يسكت عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن الإنكار على هذا الفعل، بل وما انتظر حتى يفرغ من صلاته، والمظنون بأنسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه ما كان يعلم أن هذا قبر، أو غفل عن ذلك، ولم يتقصَّد أن يصلي إلى القبر اعتقادًا، ومع ذلك أرشد وأمر وأنكر عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عليه.

(٣١٦)فالصلاة إلى القبور -بمعنى أن تجعلها أمامك وفي قبلتك- أمرٌ محرمٌ لا يجوز، وهو من جملة اتخاذ القبور مساجد، وهو ذريعةٌ للشرك بالله عَزَّ وَجَلَّ، وتعظيم هذا القبر وصاحبه، والتوجه له بالعبادة.

الصـورة الثالثـة: أن يُصـلى عنـد القـبر؛ بمعنـى: أن يصـلى في المقـابر، في أفنائها، في داخل سورها، وفي محيطها، فإن هذا أيضًا داخل في مفهوم النهي عن اتخاذ القبور مساجد.

والصلاة في المقابر أيُّ صلاة كانت ذات ركوع وسجود -باستثناء صلاة الجنائز فإنها في المقابر جائزة- إنما نتحدث عن الصلاة المعهودة التي هي ذات ركوع وسجود هذه لا تجوز في المقابر بالإجماع، نقل الإجماع على هذا ابن حزم وشيخ الإسلام ابن تيمية وغيرهما من أهل العلم، ويدل على هذا قول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما خرَّجه الخمسة إلا النسائي بإسناد جيد عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «كل الأرض مسجد إلا المقبرة والحمَّام»(٣١٧) .

وتنبه -يا رعاك الله- إلى أنَّ **ضابط المقبرة هو: المكان المحاط الذي يوجد فيه قبرٌ فأكثر**، متى ما وُجد قبر واحد في هذا المكان كان مقبرة، وهذا هو الصحيح. أما قول من قال "إنه لا يكون مقبرة إلا بوجود ثلاثة قبور فأكثر" هذا قول لا دليل عليه، ثم إن العلة المحظورة المخوفة في القبور الثلاثة موجودة في القبر الواحد، فدل هذا على أن المكان إذا كان فيه قبر كان مقبرة، وكانت الصلاة فيه منهيًا عنها من لدن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

---

(٣١٧) وفي البخاري يقول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «اجْعَلُوا مِن صَلَاتِكُمْ في بُيُوتِكُمْ، ولَا تَتَّخِذُوهَا قُبُورًا»، ومعنى قوله: «لَا تَتَّخِذُوهَا قُبُورًا» يعني لا يُصلَّى فيها، وهذا بيِّنٌ في الدلالة على أن المعهود عند السامعين أن القبور يُمنع الصلاة فيها، وما ذلك إلا سدًّا لذريعة الشرك بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

الصورة الرابعة: هي أن يُبنى مسجدٌ على قبر؛ وهذه الصورة مشتركة بين اتخاذ القبور مساجد وبين البناء على القبور، بمعنى: أن يموت ميت فيُدفن في محل ثم يُبنى مسجد فوق هذا القبر، يُؤسس مسجد لأجل القبر، والغالب على أهل هذا الفعل أنَّهم يفعلون ذلك رجاء بركة القبر، وحتى تفيض الفِيوضات من هذا القبر على المصلين، فهذا أيضا يصدق عليه أنه اتخاذٌ من القبور مساجد؛ من فعل هذا اتخذ القبر مسجدًا فدخل في نهى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن اتخاذ القبور مساجد(٣١٨) ، وستمر بنا الأحاديث في هذا الباب إن شاء الله.

---

(٣١٨) وهذا لا شك أنه من الأمور المنكرة بل المحادة لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فإنه قد نهى في غير ما حديث عن البناء على القبور، وهذا من الأمور المعلومة قطعًا في الشريعة. ويا لله العجب من حال أناس يزعمون محبة رسول الله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ويتهمون غيرهم بالتقصير في محبته، ومع ذلك يضادون أوامره أعظم المضادة! أحاديث متكاثرة ومروية في أصح الكتب، في الصحيحين ثم ما بعدها من الكتب كلها متضافرة على معنى واحد؛ ومع ذلك يأتي في فئام من الناس ويزعمون جواز بناء المساجد على القبور وبناء القباب وأمثال ذلك، بل واستحباب ذلك، كما تجده عند بعضهم حينما ألَّف أحد متأخريهم «إحياء المقبور بأدلة استحباب بناء القباب والمساجد على القبور». يا لله العجب، انظر إلى المحادة والمضادة البيِّنة، ليس جواز بل استحباب أن تُبنى القباب والمساجد على القبور! ولا حول ولا قوة إلا بالله. فالفتنة بهذا الأمر لا شك أنها فتنة عظيمة، لوجود أمثال هؤلاء الذين يزيِّنون الباطل والمنكر ويجعلون مثل هذه المنكرات من الأمور السائغة بل المستحبة، والله المستعان.

الصورة الخامسة: أن يموت ميت فيُدفنَ في المسجد، لاحظ أن هذه الصورة عكس الصورة السابقة، الصورة السابقة هي أنَّ القبر متقدم ثم بُنيَ المسجد عليه، أما في هذه الصورة فالمتقدم المسجد، وأُدخل الميت فدُفن في داخل القبر، فهذا أيضًا من اتخاذ القبور مساجد.

والقاعدة الشرعية: أنهما اثنان لا يجتمعان مسجدٌ وقبر؛ هذه قاعدة مطردة في الشريعة، ومتى ما وجد أحدهما فالسابق هو الذي له الحكم، بمعنى لو كان الذي تقدم زمنًا هو القبر فالواجب إزالة المسجد وإبقاء القبر في محله؛ لأن الحكم للأسبق، ولو كان الذي تقدم هو المسجد لكان يجب نبش القبر وإخراجه من المسجد؛ لأنَّ الحكم للأسبق.

إذًا هذه صورٌ خمسٌ لمعنى قول النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك» وما جرى مُجرى هذا الحديث، وسيمُر بنا إن شاء الله طائفة منها، وهذه خلاصة أقوال المحققين من أهل العلم في هذا المقام.

أشير هاهنا إلى بعض ما قيل وبعض ما شُغِّبَ به على هذا الحكم الذي بيَّنه علماء أهل السنة والتوحيد.

⌫ **أولا**: قالوا إنَّ النهيَ عن الصلاة في المقابر وإليها إنَّما هو خشية ملابسة النجاسة، فإذا أُمِن وضُمن عدم ملابسة النجاسة فلا حرج أن يصلى الإنسان حينئذٍ في المقبرة أو إلى القبور؛ قالوا : العلة هي عدم ملابسة النجاسة.

والجواب عن هذا: أن هذه العلة غير صحيحة، بل العلة خوف ملابسة النجاسة المعنوية لا الحسية؛ نجاسة الشرك بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، وليس المقصود أنَّ هاهنا نجاسة ينبغي على الإنسان أن يتوقاها، وبالتالي فإذا جزم أنه بعيدٌ عن النجاسة فإنه لا حرج، لأن الحكم يدور مع علته وجودًا وعدما، ليس الأمر كذلك.

قالوا: إن هذا الميت يخرج منه صديد، وهذا الصديد نجس، وبالتالي فإنه قد يلامس الإنسان شيء منه إذا سجد أو ربما لامس ثيابه، فلأجل هذا نهت الشريعة عن الصلاة في المقابر.

والأمر ليس كذلك؛ أولا: لا دليل على أنَّ هذا الصديد نجس.

وثانيا: هل ما يخرج من الميت هو شبيهٌ بالفوَّار الذي يصعد إلى فوق أو ينزل إلى تحت؟ ينزل إلى تحت، إذًا إذا كان هناك نجاسة فإنها تكون في الأسفل لا في الأعلى، والإنسان إنما يلامس ويلابس التراب الأعلى.

قالوا: لعل هذه المقابر تُنبش، وبالتالي تخرج الأتربة التي في الداخل.

فيقال: هذه صورة نادرة، وحمل أحاديث النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ على الصور النادرة، أمرٌ لا ينبغي -كما هو مقررٌ في أصول الفقه-.

وثانيا: هذا النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ينهى عن اتخاذ قبور الأنبياء مساجد، ويلعن أهل الكتاب لفعلهم هذا، وقبور الأنبياء بالإجماع لا تُنبش، فلم توجد هذه العلة؛

وبالتالي زال ما ذكروه، إنَّما العلة سدُّ الذريعة إلى ملابسة وملامسة النجاسة المعنوية ؛ألا وهي نجاسة الشرك[٣١٩] .

أمَّا بالنسبة لبناء المساجد على القبور أو الدفن في المساجد -وهذا من مفهوم اتخاذ القبور مساجد- فإنَّ بعض النَّاس قد يُلَبِّس ببعض الشُّبه، ولابد لطالب العلم ولابد للموحِّد أن يعرف هذه الشبهة وكيف الجواب عليها حتى لا يلتبس عليه الأمر. **لَبَّسَ بعضهم بعدة أمور[٣٢٠] لكني أذكر أهم ذلك وهو شبهتان:**

---

(٣١٩) نقول: الأنبياء الأرض لا تأكل أجسادهم ، فلا تُنبش قبورهم. ثم من الذي قال: إن المصلي ولابد سيباشر ترابًا قد تلطخ أو اتصل بالصديد؟!. ثم يُقال أيضًا: لا يُسلَّم أن هذا الصديد نجس. ثم يُقال أيضًا: مسجده عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كان قبل بنائه مقبرة للمشركين، فنُبشت القبور، ولم يرد عنه ♀ أنه أمر بنقل التراب والمجيء بتراب جديد. ثم إن كل أحاديثه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ على هذه الصورة النادرة مما يبعُد في الفقه، بل الذي لا شك فيه ولا ريب أن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إنما نهى عن الصلاة في القبور لأجل هذا الأمر العظيم؛ ألا وهو سدُّ الذريعة إلى الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ. ويعضده الأحاديث الكثيرة في هذا الباب من النهي من اتخاذ القبور مساجد، ودعا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أن لَّا يجعل الله قبره وثنًا يُعبد، وأخبر أنه اشتدَّ غضب الله على قومٍ اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد.

(٣٢٠) زعمهم وجود قبورٍ في المسجد الحرام من قبور الأنبياء؛ قالوا والصلاة في المسجد الحرام مشروعة بالإجماع؛ إذًا لا حرج من الصلاة في المقابر أو في المساجد التي فيها قبور. ولا شك أن هذا أمرٌ باطل، ولا يحتاج المقام إلى جهدٍ في إبطاله، فإن هذا من الأمور المكذوبة التي لا يشك عالِمٌ ولا طالب علم في بطلانها، فلم يصح قط وجود قبورٍ مدفونة في المسجد الحرام لا للأنبياء ولا لغيرهم.

الأولى: شبهةٌ ادَّعوها في شأن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حيث قالوا: إنَّها كانت تصلي في بيتها وفيه ثلاثة قبور، وبالتالي كانت الصلاة في المكان الذي فيه قبور جائزة ولا حرج فيها.

والجواب عن هذا الذي قالوا: أنَّه غير صحيح بل هو نوع من التلبيس؛ فليس بصحيح ما ذكروا من أن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كانت تخالط القبور، بمعنى: تصحو وتنام وتأكل وتشرب وتجلس بين القبور، هذا ما لا يتصوره عاقل بل ولا يفعله عاقل، أن إنسانًا يعيش في وسط القبور(٣٢١) .

إنما الأمر هو أن القبور الثلاثة -قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقبر أبي بكر وعمر-، كانت منفصلة عن المكان الذي كانت فيه عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، ولذلك لمَّا دخل القاسم ابن محمد ابن أخت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عليها سألها أن تُريه قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكشفت السِترَ فأرته إياه؛ فدل هذا على أن قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصاحبيه إنما كان في مكان معزول عن محل عائشة الذي تجلس فيه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، والدليل ظاهر في أنها كشفت السِتْر فرأى القبر، والقاسم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ورحمه بالتأكيد كان يصل رحمه ويزور عمته مرات ومرات ومع ذلك ما رأى القبر حتى طلب في هذه المرة أن يشاهد

---

(٣٢١) فلم تكن حجرة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أو بيتها بهذه الصورة التي يصوِّرها هؤلاء ، بل كان بيت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بيتًا فيه متسع، فإنها أخبرت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كان يصلي في الحجرة ويفصل بين الشفع والوتر فتسمع تسليمه وهي في البيت. وجاء نحوه أيضًا عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وكان للنبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في بيت عائشة مَشْرُبة -وهي غرفة يُصعد إليها- كما هو ثابتٌ في الصحيح حينما آلى النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من نسائه.

القبر؛ فدل هذا على أنه مكانٌ معزول، ليس هو المكان الذي كانت فيه عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، ولذلك كانت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قبل دفن عمر إذا أرادت حاجة من المكان الذي فيه القبور دخلت وهي غير محجبة لأنها في بيتها، فلما دفن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ما كانت تدخل هذا المكان إلا وقد جمعت عليها ثيابها، وهذا من حيائها وأدبها وحشمتها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وهاهنا فائدة في فعل القاسم ابن محمد رَحِمَهُ اللَّهُ تدلك على أن السلف رَحِمَهُمُ اللَّهُ ما كانوا يأتون إلى قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيدعون ويصلُّون ويذكرون الله؛ إذ لو كان ذلك كذلك لكان القاسم قد رأى القبر وما احتاج إلى أن يطلب مشاهدة قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ما كان من شأنهم وما كان من سبيلهم أنهم كانوا يتوجهون إلى القبر ويعكفون عنده كما يفعل عبَّاد القبور.

ويؤكد ما سبق ما ثبت بالإسناد الصحيح في طبقات ابن سعد عن الإمام مالك ابن أنس رَحِمَهُ اللَّهُ الذي هو عالم هذه المدينة أنه قال: (قُسمت حجرة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا باثنين، فَقِسْمٌ كان فيه قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصاحبيه، وقِسْمٌ كانت فيه عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وبينهما جدار)؛ وضِعَ جدار بين المكان الذي كانت فيه عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا والقبور، وبالتالي فهو مكانٌ معزول، لا يمكن أن يقال إنه المكان الذي كانت تعيش فيه عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

هذه شبهةٌ أولى، واتضح لك بطلانها.

الشبهة الثانية التي زعموها: هي تلبيسهم بصورة قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا المسجد؛ قالوا: كيف تمنعون من أن تكون القبور في المساجد وهذا قبر النبي

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مسجده والصلاة فيه جائزة بالإجماع؛ وبالتالي فيجوز أن نقيس على هذه الصورة غيرها، فيجوز أن نبني القبور على المساجد، أو أن ندفن الأموات في المساجد.

والجواب عن هذا أن يقال: إنَّ هذا القائل إما أنه جاهل لم يفهم ما حصل ولا وجه ما حصل، أو أنه مُلبِّس يريد أن يلبِسَ الحق بالباطل. **بيان ذلك** يكون بذكر مقدمة ممهِّدة لمعرفة ما الذي حصل وكيف أصبح الوضع كما نراه اليوم؟

النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما توفي اختلف الصحابة في محل دفنه، فاتفقوا بعد مداولة ووجهات نظر على أن يُدفن في المكان الذي توفي فيه فرُفع الفراش وحفر في المكان الذي قُبِضَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيه، ودفن ثَمَّ، **وكان ذلك منهم لأمرين:**

الأمر الأول: ما حدَّثهم به أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كما ثبت من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عند الترمذي وأحمد بأسانيد يشد بعضها بعضا، وهو أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبر أنه: «ما من نبي يُقبض إلا دُفن حيث قُبض»؛ فاستجابوا لأمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ودفنوه في هذا المحل.

الأمر الثاني: أنهم خشوا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ إذا دفنوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في البقيع -يعني في العراء- أن يكون في هذا شُبْهة، فيتخذُ الجهال قبره مسجدًا، كما سيأتي معنا إن شاء الله في حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، (ولولا ذلك لأبرز قبره، غير أنه خَشي أو خُشي أن يتخذ مسجدًا).

إذًا لهاتين العلتين دُفن صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيث مات، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دُفن في حجرة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

استمر الأمر على هذا في عهد أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، ومعاوية، حتى جاء بعد ذلك عهد الوليد بن عبد الملك.

لاحظ أنه قد حصلت توسعتان: توسعة في عهد عمر، وتوسعة في عهد عثمان، وما حصل أي تغيير على هذا الواقع، لم يحصل أي لمس لحجرة عائشة أو حتى حجرة غيرها من أمهات المؤمنين، وكانت حجرات أمهات المؤمنين محيطةً بالمسجد إلا من الجهة الغربية، وإلا الباقي الجهة الجنوبية والجهة الشمالية والجهة الشرقية كان فيها حُجَر رسول الله ﷺ والتي كان فيها مَن فيها من أمهات المؤمنين.

حتى جاء الوليد بن عبد الملك فبنى جامع دمشق، ثم بدا له أن يوسع مسجد النبي ﷺ ؛ فأمر عامله على المدينة وهو عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يوسِّع مسجد النبي ﷺ على أن يتضمن ذلك هدم حُجِرَ أمهات المؤمنين وحصل -كما تُحدِّثُنا كتب التاريخ- حصل ما حصل من أخذٍ ورد ومداولات في هذا الشأن؛ إذ كانت رغبة فقهاء التابعين من أهل المدينة أن تبقي حُجَرُ أمهات المؤمنين على ما هي عليه، لكن أبى الوليد ذلك، حتى إنه لما هُدمت تلك الحجر -باستثناء حجرة عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا، فلها شأن خاص- ما رؤيَ يوم كان الناس فيه يبكون مثل ذلك اليوم(٣٢٢).

---

(٣٢٢) ولما حصل هذا الأمر لم يكن في المدينة أحدٌ من الصحابة الذين عاشوا مع النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وعرفوا هديه وتلقوا سنته، فآخر من مات في المدينة على المشهور

المقصود أنَّ هذا الأمر نُفِّذ؛ هُدمت الحجر المحيطة بالمسجد ووُسِّع المسجد من جميع الجهات لكنهم لم يخرجوا إلى الجهة الشرقية، حيث انتهى ما يتعلق بتوسعة المسجد من الجهة الشرقية إلى حد حجرة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا .

وما الذي حصل في حجرة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؟ حصل الآتي:

هدم عمر رَحِمَهُ اللَّهُ حجرة عائشة وبناها بناء محكمًا أقوى من الأول، ثم إنه ومن معه من أهل المدينة وعلمائها بنوا جدارًا مُخمَّسا بعد حجرة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وكان ابتداء التوسعة سنة إحدى وتسعين على الصحيح، وانتهى البناء سنة ثلاث وتسعين، يعني استمر البناء ثلاث سنوات، بنو هذه الحجرة ثم بنوا عليها جدارًا مخمَّسا، في هذه الجهة الشمالية كان الضلعان على شكلٍ مثلث، فهو جدار خماسي، الضلع المثلث في الجهة الشمالية، **وأرادوا بذلك أمرين:**

أولا: أن لا تُجعل صورة الحجرة كصورة الكعبة.

جابر ﷺ، وعلى الأشهر أن هذا كان سنة سبعٍ وثمانين، فالذي حصل لم يكن بمشورة الصحابة، ولم يكن عن إذنهم، ولم يكن برضًا منهم.

أما التابعون فالذي رُويَ عنهم إنكار ذلك؛ رُويَ عن سعيد بن المسيب، وعن عروة بن الزبير، وعن خبيب بن عبد الله بن الزبير إنكار هذا الأمر؛ وحتى لو لم يُروَ ذلك فلا يشك من عرف سيرتهم وهديهم أنهم ما كانوا ليسكتوا عن هذا الأمر؛ لأن فيه ذريعةً لحصول الأمر الذي تكاثر من النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ التحذير عنه، ولكن شاء الله وقدَّر حصول هذا الأمر.

وثانيا: حتى لا تكون صورة المصلي في الخلف صورة المصلي إلى القبر، الذي هو في داخل الحجرة؛ وبالتالي جُعل الأمر على هذه الصورة، واستمر الوضع على هذا الحال حتى جاء عهد الظاهر بيبرس سنة ستمائة وثمانية وستين فَوُضِعَ جدارٌ خشبي يسمي الدرابزين -هذه كلمة فارسية- ثم لما احترق المسجد بعد ذلك وُضِعَ الجدار المشجَّر الحديدي في عهد قايتباي أحد الحكام المماليك سنة ثمانمائة وستة وثمانين، وهذا الجدار الحديدي لعله هو الموجود، الذي يبدو والله أعلم أنه ما حصل تغييرٌ لهذا الحديد إلى هذا الوقت، هذا هو الحديد الذي تراه باللون الأخضر. إذًا هذا الحديد أحاط بحجرة عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وما خلفها أيضا، فما خلف الحجرة بعض حجرة فاطمة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، كل ذلك أدير عليه هذا الحديث المشاجر الذي تراه اليوم.

إذًا قبر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحيط بجدران ثلاثة:

١. جدار حجرة عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

٢. وجدار عمر المخمس، والذي يمكن أن ترى طرفًا منه من زاوية من هذا الجدار المخمس إذا كنت في الجهة الشرقية.

٣. ثم بعد ذلك هذا الجدار الحديدي.

وحصل ما أخبر به ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ:

ودعا بأن لا يجعل القبر الذي ... قد ضمَّه وثنا من الأوثان

فأجاب رب العالمين دعائه ... وأحاطه بثلاثة الجدران

هذه هي الجدران الثلاث(٣٢٣) .

إذًا بناء على كل ما سبق أعود إلى الشبهة السابقة فأقول: إنَّ قبر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليس في مسجده، إنما هو في بيت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، وبيت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا محلٌ مستقل عن المسجد، ليس جزءً من المسجد. **بيان ذلك**: أنَّ الذي حصل هو أن المسجد التصق بالبيت، أصبح أكثر اتصالًا به ولم يكن كذلك فيما مضى، يعني أصبح البيت ملتصقًا بالمسجد، بمعنى أن المسجد يحيط به من الجهات الثلاث باستثناء الجهة الشرقية، فنهاية المسجد تنتهي عندها حجرة عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا من تلك الجهة، وبالتالي فلا يكون قبر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالمسجد، وبالتالي فإنه تزول هذه الشبهة.

قد يقول قائل: ولكننا نرى بقعةً في الجهة الشرقية من القبر! هناك مسافة حدود ثلاث أو أربعة أمتار، وهذا يدل على أن القبر في المسجد.

الجواب عن هذا: أن تعلم أنه لم يكن لهذه البقعة وجود مدة اثني عشر قرنًا، ما كان لهذا المكان وجود، بمعنى كان المسجد ينتهي إلى حد جدار الحجرة الغربي ولم يكن في الجهة الشرقية شيء، حتى كانت التوسعة العثمانية التي كانت سنة ألف ومائتين وسبعة وسبعين، يعني هذا المكان عمره تقريبا مائة وستين سنة فقط، وأما ما قبل ذلك فإنه لم يكن لهذه البقعة وجود، إنما كان في

---

(٣٢٣) هذا إذا تمهَّد لك؛ فإنه لا يصح حينئذٍ أن يُقال: "إن وجود هذه الصورة انعقد الإجماع على جوازه"، لم يكن الأمر كذلك بل حصل إنكاره من ابتداء الأمر.

الجهة الشرقية كان هناك جدار حجرة عائشة ثم خلفه مباشرة جدار المسجد، ولم يكن هناك أي بقعة يمكن أن يتعبد فيها لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ثم نقول: وُجد هذا المكان ومع ذلك هذه الصورة لم تختل، لا يزال قبر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حجرة عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، وحجرة عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا مكان مستقل عن المسجد. **ووجه ذلك**: أن الأمر قد يشتبه على الناظر، لكن حقيقة الحال مختلفة؛ فالمسجد توسع حتى أحاط بالقبر من جميع الجهات لا أقل ولا أكثر، وهذا لا يُخرج البيت على أن يكون بيتا، وعن أن القبر لا يزال في البيت لا في المسجد.

أسهِّل لك تصور الأمر؛ أرأيت لو أن لإنسان أرضًا وبجواره أرضٌ لشخص، يعني زيد عنده أرض، وعمرو له أرض بجواره، ثم إن عمروًا اشترى الأراضي المحيطة بأرض زيد، فهل نقول إن أرض زيد أصبحت جزء من أرض عمرو؟ أو نقول أنها محاطة بها فقط؟ كذلك الأمر في قبر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ توسع المسجد فأحاط بحجرة عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا من جميع الجهات، وهذا لا يُخرج القبر عن أن يكون في بيت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا(٣٢٤) .(٣٢٥)

---

(٣٢٤) وأصبح بيته عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ داخلًا من حيث الصورة وإن لم يكن داخلًا من حيث الحكم، فبيته باقٍ على ما هو عليه، ولم يكن جزءًا من المسجد. بمعنى: لو تُصوِّر عدمُ وجود قبرٍ في البيت، يعني ليست القبور الثلاثة موجودة، وأمكن للإنسان أن يصلي في داخل هذا البيت فإنه لا يحصل على تضعيف الصلاة الحاصل للمسجد النبوي؛ لأن هذه

قد يقول قائل: وهل نقول بالتالي إنه يجوز إذا دُفن إنسان في حجرة ثم توسع المسجد أن تتكرر هذه الصورة؟ نقول: لا نوافق على هذا، لم؟

أولًا: لأنه لا يجوز أن يدفن أحد في مكان مبنيٍ أصلا؛ الواجب أن يدفَن الإنسان في المقابر كما هي السنة العملية للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومن بعده من أصحابه، فالأمة مجمِعة على ذلك، وبالتالي هذه الصورة لا يمكن تصورها. أمَّا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فله شأن خاص؛ وهو أنَّ الأنبياء يدفنون حيث يموتون، وحيث دُفن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا المكان جاز دفن غيره معه تبعًا، ولذلك دفن أبو بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في ذلك المكان. إذًا ليس لقول هؤلاء وجه من الصحة البتة .

أضف إلى هذا وجه ثاني: -وهذا وجهٌ مهم انتبه له- **كل مسجد فيه قبر لا يخلو من أحد أمرين**:

١. إما أن يكون المسجد بُنيَ من أجل القبر.

٢. أو يكون القبر أُدخل من أجل المسجد.

لابد من وجود أحد هذين الوصفين المؤثِّرين في الحكم، أما مسجد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلم يكن شيءٌ من ذلك فيه قط؛ لا المسجد بُني من أجل القبر، ولا

بقعةٌ مستقلة ليست من مسجد النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وإنما توسع المسجد فشمل ما حول البيت.

(٣٢٥) قد يقول قائل: فما إنكار السلف إذًا على هذا الذي حصل؟ الجواب: الإنكار كان لأنَّ الأمر سيفتح الذريعة وسيتحصَّل بسبب هذا لَبْسٌ على الناس، ولا شك أن هذه الأبواب ينبغي حسم الذريعة فيها.

القبر أدخل من أجل المسجد. إذًا أصبح حكم مسجد النبي ﷺ حكمًا خاصا لا يُقارن بغيره(٣٢٦).

أضف إلى هذا وجها ثالثًا: أنَّ الإجماع قد انعقد على صحة الصلاة في المسجد النبوي، والإجماع حجة مستقلة، فيستثنى من عموم النهي ويبقى ما عاداه على الأصل وهو النهي، لا سيما وأنَّ قبر النبي ﷺ توقيفي والمسجد توقيفي؛ قبر النبي ﷺ توقيفي لا يمكن العبث فيه بالإجماع، والمسجد توقيفي لا يمكن تغيير محله بالإجماع، وأما بقية المساجد فإن الأمر فيها ليس كذلك(٣٢٧) .

أضف إلى هذا وجهًا رابعًا: أنَّ دخول القبر في هذه الصورة التي تشتبه على بعض الناس كان تبعًا لا قصداً:

---

(٣٢٦) تنبَّه إلى هذا الأمر؛ لا القبر أُدخل من أجل المسجد ولأجل فضيلة المسجد أدخل القبر فيه، هذا لم يكن، والقبر لم يُبنَ عليه مسجدٌ، القبر موجودٌ قبل هذه التوسعة، والمسجد موجود قبل وجود هذا القبر، وهذان الأمران لا يتكرران أبدًا في غير هذه الصورة المتعلقة بمسجد النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. وبالتالي فكل صورةٍ غيرها تجدها إمَّا أنَّ القبر أُدخل من أجل المسجد وطلبًا لفضيلة المسجد، أو أن المسجد بُني لأجل القبر وعلى القبر، وهذان الأمران لا يتحققان، وهما وصفان مؤثران في الحكم، لا يتحققان في مسجده عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

(٣٢٧) ووجه ذلك: أنَّ المسجد محلُّهُ توقيفيٌ، قد بناه أشرف الخلق ♀ ، فلا يمكن لأحدٍ أن يغير هذا المحل التوقيفي، والقبر محلُّهُ توقيفيٌ، فإنَّ الأنبياء يُدفنون حيث يُقبضون، فلا يمكن بحال أن يُقال: يُنبش قبره عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ويُنقل إلى موضع آخر.

❖ **أولًا**: أدخلت الحجرة لا القبر، فدخل القبر تبعًا للحجرة وليس هو المقصود، المقصود إدخال الحجرة.

❖ **ثانيًا**: الحجرة دخلت تبعًا لبقية حجر أمهات المؤمنين، ولم تكن هي المقصودة بالذات، إنَّما كانت كبقية الحجر التي كانت بجوارها فدخل تبعًا لذلك.

❖ **ثالثًا**: أنَّ دخول هذه الحُجر أصلا ما كان لأجل إرادة القبر قط، إنما كان لأجل إرادة توسعة المسجد، وهذا بخلاف حال المساجد التي فيها قبور؛ فإن أصحابها ما فعلوا ذلك إلا لأجل القبر، إما إدخالًا له في المسجد، أو بناءً للمسجد عليه.

أضف إلى هذا وجهًا خامسًا: أنك إذا تأملت وجدت أن الذين حصل منهم هذا الفعل وكان هذا في عهد التابعين، ولم يكن في المدينة إذ ذاك أحد من أصحاب النبي ﷺ قط، ما كان في المدينة أحد من أصحاب النبي ﷺ الذين صحبوه وعرفه سنته، **هذا أولًا**.

وثانيًا: كان هؤلاء السلف رَحِمَهُمُ اللَّهُ يتوقَّون أشد التوقي أن يوسِّعوا المسجد من الجهة الشرقية، لم؟ كل ذلك خشية أن يصبح القبر في المسجد؛ ولذلك لماذا حصلت التوسعة أصلا؟ أليس لأجل التخفيف على المسلمين؟! طيب ما الذي يمنعهم من أن يتوسعوا شرقا؟! ما كان هناك شيء، كان بعد القبر -يعني بعد المسجد من تلك الجهة- كان مكان يسمي البلاط، كانوا يصلون فيه الجنائز. كان يمكن أن يضموه إلى المسجد فيستفيدوا من مسافة ويوسعوا على

المسلمين، لكنهم في جميع هذه العصور ما فعلوا ذلك، المسلمون كانوا يتوقَّون التوسعة شرقا، كل ذلك لمَ؟ لأجل أنهم لا يريدون أن يكون قبر النبي ﷺ داخل المسجد.

أضف إلى هذا وجهًا سادسًا وهو: هؤلاء يستدلون بفعل حدث بعد النبي ﷺ بثمانين عامًا، فأين فعله هو ﷺ؟! ألم تمُت خديجة، وابنه إبراهيم، وعمه حمزة، وأصحابه وأحبابه رضي الله عنهم أجمعين؟ أين دفْنه ﷺ للأموات في المساجد أو بناء المساجد على القبور في المدينة أو في مكة أو في غيرهما؟ لِمَ ما فعل النبي ﷺ ذلك؟ يا لله العجب! يدَعون الاستدلال بفعل النبي ﷺ ويحتجون بفعلٍ حصل بعد ثمانين سنة من وفاة النبي ﷺ.

أضف إلى هذا وجهًا سابعًا: أين فعل الصحابة وأين فعل السلف الصالح؟ هل ثبت عن صحابيٍ قط أنه قاس غير مسجد النبي ﷺ عليه فدفن قبرًا في مسجد؟ أو بنى مسجدا على قبر؟ أين فعلوا هذا؟ أين التابعون؟ لماذا لما كانوا يأتون إلى هذا المسجد ويزورونه ينقلون هذه الصورة في أماكنهم؟

ولم يثبت قط في عهد القرون الثلاثة المفضلة أن قبرًا أدخل في مسجد، أو أن مسجدًا بُني على قبر. هذا عمر بن عبد العزيز رحمه الله بعد أن انتهت التوسعة عُزل عن إمارة المدينة وعاد إلى الشام، وهو النبيل ذو الجاه والمال، لماذا ما نقل هذه الصورة فنفذها في الشام؟! ما فعل هذا رحمه الله ورضي الله عنه؛ فدل ذلك على أن الذي حصل في هذا المسجد شيءٌ لا يقاس عليه، وهذا مما قدره الله سبحانه وتعالى وشاءه، وبالتأكيد أن في ذلك حكمة بالغة لله سبحانه وتعالى.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فِي الصَّحِيْحِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا؛ أَنَّ أُمَّ سَلَمَةَ ذَكَرَتْ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ كَنِيسَةً رَأَتْهَا بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ وَمَا فِيهَا مِنَ الصُّوَرِ، فَقَالَ: «أُولَئِكِ إِذَا مَاتَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ، أَوِ الْعَبْدُ الصَّالِحُ، بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرَ، أُولَئِكِ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللهِ» فَهَؤُلَاءِ جَمَعُوا بَيْنَ الفِتْنَتَيْنِ: فِتْنَةِ الْقُبُورِ، وَفِتْنَةِ التَّمَاثِيلِ).

بدأ المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الباب بما ثبت في الصحيحين، قوله: «فِي الصَّحِيْحِ»؛ يعني: في الصحيحين عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، وهاهنا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لعله من حكمة الله أن الذي يروي هذا الحديث وأمثاله عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا؛ التي هي صاحبة الحجرة التي توفي فيها رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ودُفِنَ فيها»، فهي من أفقه الناس في هذا الباب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا وأرضاها.

حدَّثت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أنَّ أم سلمة؛ وهي: أم المؤمنين هند بنت أبي أمية المخزومي[٣٢٨]، حدَّثت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو مريض في فراش المرض، وكانت تسليه بمثل هذا الحديث، وجاء في الصحيحين عن عائشة أنَّ أم سلمة وأم حبيبة كلاهما كانتا تحدِّث رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهذا الحديث. إذاً عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا تارةً أسندت الحديث إلى أم سلمة، وتارة أسندت الحديث إلى أم سلمة وأم حبيبة.

ذكرتا أو ذكرت لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كنيسةً رأتها بأرض الحبشة، إذ إنها ممن هاجر إلى الحبشة، وهذه الكنيسة جاء في الصحيحين أن اسمها «مارية»

(٣٢٨) تزوجها النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بعد أبي سلمة.

بتخفيف الياء على اسم جارية رسول الله ﷺ، هذه الكنيسة رأتها الصحابيتان الجليلتان أم سلمة وأم حبيبة، فذكرتا لرسول الله ﷺ ما فيها من الصور، وفي بعض روايات الصحيحين ذكرتا من حسنها؛ يعني كانت الكنيسة ذات بناء حسن، وما فيها أيضًا من الصور(٣٢٩).

هاهنا أخبرنا النبي ﷺ أن «**أولئكِ**»؛ إذا كان الحديث موجهًا إلى أم سلمة فيكون الحديث هكذا «**أولئكِ**»، أما إذا كان الحديث عامًّا «أولئكَ».

«**أولئكِ كان إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح**(٣٣٠) **بنوا على قبره مسجدًا وصوروا فيه تلك الصور، أولئكِ شرار الخلق عند الله**»؛ **هذا الحديث فيه فائدة وهي**: أنَّ كل مكانٍ يُصلى فيه ويسجد فيه فإنه يسمى مسجدًا، فهو من التسمية اللغوية لا من التسمية الاصطلاحية؛ وذلك أن النبي ﷺ سمى تلك الكنائس التي يصلي فيها هؤلاء مسجدًا في هذا الحديث باعتبار أن المسجد هو ما يُسجَد فيه وما يُصلى فيه، وهذا ينطبق على الكنيسة وعلى غيرها مما يُصلى فيه.

الشاهد من الحديث أن النبي ﷺ وصف هؤلاء بأنهم شرار الخلق عند الله، ولم يعلل بهذا التعليل لكونهم عبدوا غير الله، إنما فقط لكونهم بنو على

---

(٣٢٩) فإن من شأن أهل الكتاب اليهود والنصارى بعد انحرافهم أن يصوِّروا صورًا لمعظِّميهم من أنبيائهم وصالحيهم، سواءً كانت صورًا مجسمة أو غير مجسمة، وتُعلق في تلك الكنائس، وهذا من تعظيمهم لهؤلاء المعظَّمين.

(٣٣٠) شكٌّ من الراوي.

قبور الأنبياء والصالحين المساجد، وصوَّروا كذلك تلك الصور، فإذا كانوا بهذين الفعلين شرار الخلق عند الله، فكيف إذا توجهوا لهؤلاء المقبورين بالعبادة!! لا شك أنَّ الأمر في شأنهم أشد وأشد.

ثم نقل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كلمة حسنة عن ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكرها في إغاثة اللهفان أن (**هؤلاء جمعوا بين فتنة القبور وفتنة التماثيل**)[٣٣١]. وجُلّ شرك العالم، جُل الشرك الذي يكون في هذه الأرض راجع إلى هذين الأمرين: الشرك إما بقبر يُعبد، أو بتمثال يُعبد. وأول شرك وقع في الأرض وما تسلسل بعده وإلى هذا اليوم كله راجع إلى هاتين الفتنتين: إما فتنة القبور، وإما فتنة الصور والتماثيل؛ فالصور سواء كانت مجسمة أو غير مجسمة فتنة عظيمة وذريعة ووسيلة إلى وقوع الشرك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولأجل هذا نهى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن التصوير، وبيَّن أن أشد الناس عذابًا يوم القيامة المصورون، وما ذلك إلا لأن هذا التصوير وسيلة وذريعة إلى وقوع الشرك كما حصل قديمًا وكما يحصل حديثًا[٣٣٢].

---

(٣٣١) هذا الكلام ذكر شُرَّاح كتاب التوحيد أنه من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وقريبٌ منه جدًّا قد وقفت عليه في «إغاثة الهفان» لابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(٣٣٢) «**هؤلاء جمعوا بين الأمرين**» وهما السببان العظيمان لحصول الشرك الأكبر؛ تعظيم القبور، وتصوير الصور والتماثيل، والتعلق بهما أعظم أسباب حصول الشرك، قد حصل هذا في أهل الكتاب الذين كان سبب هذا الحديث هم، ولا شك أن إخبار النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بهذا يتضمن التحذير لهذه الأمة أن تفعل فعلهم، ومن فعل فعلهم كان من شرار الخلق.

الشاهد أن هذا الحديث فيه دلالة على ما بوَّب عليه المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهو ما كان منه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من التغليظ على من عَبد الله عند قبر رجل صالح، فما بالك يا عبد الله إذا عُبد هذا الرجل الصالح!! فمن أعظم المنكرات اتخاذ هذه الوسائل التي تؤدي إلى الوقوع في الشرك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وَلَهُمَا**(٣٣٣) **عَنْهَا، قَالَتْ: «لَمَّا نُزِلَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ طَفِقَ يَطْرَحُ خَمِيصَةً لَهُ عَلَى وَجْهِهِ، فَإِذَا اغْتَمَّ بِهَا كَشَفَهَا، فَقَالَ – وَهُوَ كَذَلِكَ –: «لَعَنَةُ اللهُ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»؛ يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا، وَلَوْلَا ذَلِكَ لأُبْرِزَ قَبْرُهُ، غَيْرَ أَنَّهُ خُشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا». أَخْرَجَاهُ**).

هذا الحديث الثاني وهو أيضًا من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا ومُخرَّج أيضًا في الصحيحين، وفيه بيان ما جرى له صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -فداه أبي وأمي- من الشدة العظيمة التي لقيها صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في اللحظات الأخيرة من حياته، وما ذلك إلا لأن الأجر مضاعف له صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في تلك اللحظات يعالج أمرًا عظيمًا، حتى إنه ثبت عنه في الصحيح أنه كان يضع يده في إناء فيه ماء ثم يأخذ منه ويمسح وجهه ويقول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا إله إلا الله إن للموت لسكرات».

وفي هذا الحديث طفق صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -طفق بمعنى جعل- يطرح خميصة على وجهه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والخميصة: كساء مخطط له أعلام كان يطرحه على وجهه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من شدة ما يصيبه، ثم إذا اغتم كشفها صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فهو قد عالج أمرًا عظيمًا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وهذه اللحظات الحرجة التي هي آخر لحظات حياته

(٣٣٣) يعني للشيخين البخاري ومسلم.

المباركة ﷺ ما كفَّ فيها عن الدعوة إلى التوحيد، وعن التحذير من ضده، منذ أن بُعث ﷺ وإلى آخر لحظات حياته والشغل الشاغل له ﷺ بيانُ التوحيد والدعوة إليه، والتحذير من ضده، فاعتبروا يا معشر الدعاة إلى الله[٣٣٤].

لما كان في تلك اللحظات التي تصفها عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هذه الوصية وهذا التنبيه وهذا التحذير؛ حتى تحذر الأمة، لأنه خشي ﷺ أن يصيب هذه الأمة ما أصاب مَن قبلها، خشي أن يُتخذ قبره وثنًا يُعبد مع الله جَلَّ وَعَلَا، ففي مسند الإمام أحمد بسند صحيح أن النبي ﷺ دعا الله بهذا فقال: «اللهم لا تجعل قبري وثنًا، لعن الله قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد».

قال ﷺ في هذا الحديث: «**لعنة الله على اليهود والنصارى**»؛ اللعنة من الله: الطرد والإبعاد عن رحمة الله. ومن العباد الدعاء بذلك، فهم إذا دعوا على أحد باللعنة فالمراد أنهم يسألون الله أن يطرده عن رحمة الله.

والأَوْلى بالمسلم أن يتجنب لعنة المعيَّن الحي الذي لم يمت على الكفر، حتى ولو كان كافرًا في حياته، إلا ما تُحقق من موته كافرًا، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في الوصية الكبرى: أكثر أهل السنة يكرهون لعنة المعيَّن.

الشاهد أن النبي ﷺ إما أنه دعا على اليهود والنصارى، أو أخبر بلعنة الله عَزَّوَجَلَّ لهم، وهذا يدلك على أنهم وقعوا في أمر عظيم؛ فما هو؟ جاء التعليل منه

---

(٣٣٤) وهذا يدلك على عظيم قضية التوحيد، وأن الاهتمام بها من أوجب الواجبات، فمنذ أن افتتح عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ دعوته وهو يدعو إلى التوحيد ويحذر من ضده، وإلى ختام حياته المباركة عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ولا تزال هذه القضية الشغل الشاغل له.

ﷺ بعد ذلك فقال: «**اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»، إذًا هذه هي العلة التي لأجلها استحقوا لعنة الله جَلَّ وَعَلَا ، فمن وافقهم في هذه العلة كان له نصيبٌ من هذه اللعنة، فليحذر العاقل .

«**اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**» ؛ وهذا يدلك على أن اتخاذ القبور مساجد شأنه عظيم، بل هو من الكبائر، بل هو من أكبر الكبائر ومن أعظم الوسائل والذرائع الموصلة إلى الشرك بالله جَلَّ وَعَلَا.

ومضى معنا بيان ما هو المراد باتخاذ القبور مساجد؟ وقلنا إنه يشمل:

١- الصلاة عليها؛ على القبور ، أو الصلاة عليه؛ يعني القبر.

٢- الصلاة إليه؛ يجعله أمامه في قبلته.

٣- الصلاة عنده؛ وذلك يشمل الصلاة في المقابر، والنبي ﷺ قال: «اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم ولا تتخذوها مقابر»، ما معنى لا تتخذوها مقابر؟ يعني لا يصلى فيها، لِم؟ لأن الشأن في المقابر أنه لا يصلى فيها، وهذا كان مستقرًّا في أذهان المخاطبين؛ أصحاب النبي ﷺ.

٤- أن يُبنى مسجدٌ على قبر؛ يدفن الميت ثم ينشأ ويؤسس مسجدٌ فوقه وعليه.

٥- أن يُجعل القبر داخل المسجد.

هذه الصور كلها يشملها وصفُ اتخاذ القبور مساجد.

ثم بيَّنت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا السبب الذي دعا النبي ﷺ إلى أن يذكر هذا الكلام، فقالت: «يحذِّر ما صنعوا»، إذًا فلتحذر أمة محمد ﷺ، ولتأخذ بوصية النبي

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التي هي من أثمن الوصايا وأغلاها، فإنها من الوصايا الأخيرة له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «**يحذِّر ما صنعوا**».

قالت: «**وَلَوْلَا ذَلِكَ أُبْرِزَ قَبْرُهُ**»، أبرز: من الإبراز؛ يعني الظهور؛ يعني لولا هذه الخشية من أن يُتخذ قبره مسجدًا لكان قبره صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مثل بقية القبور، دفن في المقبرة، لكنه خَشَيَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو خُشِي؛ خَشِي هو، أو خُشِي يعني خَشي الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أن يُتخذ قبره مسجدًا، ولم يكن ليقع هذا في عهد أصحاب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لكنَّ ذلك غير مأمون بعد ذلك، وأنت إذا تأملت في أحوال الناس اليوم حمدت الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على أن حَفِظَ الله قبر نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلم يكن بارزًا، وإلا فخبرني كيف سيكون الحال؟!.

قالت رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «**غير أنه خُشي أو خَشي أن يُتخذ مسجدًا**»، وحصل أن كان دفن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بيته، **وهذا كما قلنا مُعللٌ بعلتين وهما:**

- الأولى: ما ثبت أنَّ الأنبياء يدفنون حيث يموتون.

-والثانية: ما يتعلقُ بسدِّ ذريعة الشرك[٣٣٥].

خَشي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكذلك أصحابه من أن يُتخذ قبره مسجدًا فدفن صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا المكان المحفوظ، في بيت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، فما أمكن أن يُخلَص إليه، ولم

---

(٣٣٥) وهو خشية أن يُتخذ مسجدًا.

يحصل ولله الحمد أن اتُّخذ قبره مسجدًا، ولم يكن قبره صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وثنًا(٣٣٦) ، كان محفوظًا في حياة عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، ثم بعد وفاتها أُغلق هذا المكان بالكلية، فما أمكن لأحد أن يصل إليه، وسدُّ الباب تمامًا، ثم بُنيت تلك الجدر ، ثلاثة جُدر تحيط بالقبر الشريف، فلا يمكن الوصول إلى قبر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ البتة، حفظ الله قبره صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(٣٣٧).

ودعا بأن لا يجعل القبر الذي	قد ضمه وثنا من الأوثان
فأجاب رب العالمين دعاءه	وأحاطه بثلاثة الجدران
حتى اغتدت أرجاؤه بدعائه	في عزة وحماية وصِيان

(٣٣٨) هذا ما كان منه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذه الوصية التي نقلتها لنا عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

---

(٣٣٦) وقد تحقق ما رغب فيه النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ، استجاب الله دعائه، حيث إنه دعا الله أن لا يجعل قبره وثن يُعبد، «اللهم لا تَجْعَلْ قبري وثنًا يُعْبَدُ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»، حمى الله عَزَّ وَجَلَّ قبره أن يكون وثنـًا يُعبد فلم يكن كذلك البتة.

(٣٣٧) **قد يقول قائل: قد تحصل أشياء من المنكرات العقدية؟**

الجواب: نعم، يحصل هذا في المسجد لا عند القبر؛ يعني القبر محفوظ ولم يُتخذ وثنا، ولم يحصل عنده شيء من هذه المنكرات، بل بين هذا الذي يفعل هذا الفعل وبين القبر حواجز متتالية، فلا يمكنه أبداً أن يخلص إلى قبره عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

(٣٣٨) لم يحصل قط أن قبر النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ اتُخذ مسجدًا فسجد عليه ساجد أو تمسح به متمسح أو غير ذلك مما يكون. ثم بعد ذلك في القرون المتأخرة كان هذا الجدار الرابع وهو الذي تراه الآن وهو هذا السياج المحيط بالبيت، تجد هذا الاهتمام البالغ في التصوُّن والحماية لقبره عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ سداً لذريعة الشرك. تلاحظ أنه لما حصلت التوسعة وما بعد ذلك اتُخذت هذه التدابير: هذا الجدار المسنم، ثم بعد ذلك الجدار الذي

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (**وَلِمُسْلِمٍ عَنْ جُنْدَبِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسٍ وَهُوَ يَقُولُ: «إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اللهِ أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ؛ فَإِنَّ اللهَ قَدِ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، أَلَا وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، فَإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ»**).

هذا حديث جندب بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مخرج في صحيح مسلم، **وفيه مسألتان**:

إحداهما: تتعلق بتوحيد الأسماء والصفات.

والأخرى: تتعلق بتوحيد الألوهية.

وبالتالي فهذا الحديث فيه ردٌّ على طائفتين ضالتين مخذولتين(٣٣٩) :

إحداهما: معطلة الصفات، والرد عليهم بإثبات صفات الله جَلَّ وَعَلَا ومنها ما ثبت في هذا الحديث من إثبات الخُلَّة لله جَلَّ وَعَلَا(٣٤٠) .

وراءه، ولاحظ أنه قد أُخذ جزءٌ من الروضة التي هي روضة من رياض الجنة حرصاً على سد ذريعة الشرك، اتُخذت مسافة من جدار بيت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا إلى هذا الجدار كان هذا جزءاً ولا شك من الروضة، ومع ذلك فُعل هذا وأُخذت قطعة من الروضة لأجل حماية قبره عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، فلا يُتخذ قبره مسجدا، ولا يُتخذ قبره وثنا.

(٣٣٩) أخرجهما كثير من أهل العلم من الثنتين والسبعين فرقة.

والشق الثاني من الحديث: فيه ردٌّ على طائفة مخذولة هي أول من أدخل الشرك والتعلق بالقبور في هذه الأمة وهم(٣٤١) سبابة الصحابة رضي الله عنهم، والردُّ عليهم بالشق الثاني، فإن دين هؤلاء هو البناء على القبور واتخاذها مساجد، هذا دأبهم وهذا ديدنهم.

يقول النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث مبينًا براءته من أن يكون قد اتخذ أحدًا من أصحابه خليلًا. الخليل: فعيلٌ كصديق، بمعنى مفاعِل، من الخلة، والخلة: أعلى درجات المحبة، سميت بذلك: لأنها تتخلل إلى حنايا القلب والجسد فلا تدع خَلْةً ولا فُرْجَةً في الجسم إلا دخلته، وفي هذا أنشد بشار بن بُرد:

قَد تَخَلَّلتَ مَسلَكَ الروحِ مِنّي ... وَلِذا سُمِّيَ الخَليلُ خَليلا

فأعلى درجات المحبة هي الخلة، والله جل وعلا اتخذ نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم خليلًا كما اتخذ نبيه إبراهيم خليلًا، وكذلك النبي صلى الله عليه وسلم اتخذ ربه خليلًا؛ فالخلة ثابتة في حق الله جل وعلا من الطرفين، هو اتخذ نبيه محمد صلى الله عليه وسلم خليلًا، وكذلك نبيه محمد صلى الله عليه وسلم اتخذ ربه خليلًا، ولذلك برئ أن يكون له أحدٌ من البشر خليلًا، فإن هذه الرتبة لا تقبل المشاركة.

---

(٣٤٠) ففي هذا الشق من الحديث وهو ثبوت الخُلة رداً على الجهمية وأذنابهم الذين أنكروها، وأول من أنكر ذلك الجعد، لأنه أنكر أن يكون الله عز وجل اتخذ إبراهيم خليلًا وموسى كليما، فيما تعلمون من حال هذا الرجل وبدعته التي انتشرت فيمن سار في ركبه.

(٣٤١) الرافضة.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يتصف بصفاته العلية على ما يليق به، ومن ذلك: صفة المحبة وما قرُب منها في المعنى، والثابت في النصوص لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: صفة المحبة، وصفة الود، وصفة الخلة.

فالله جَلَّ وَعَلَا متصف بالمحبة، فهو يُحِب كما أنه يُحَب، ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾[المائدة:٥٤](٣٤٢).

كذلك من صفاته الود(٣٤٣)، ومن أسمائه الودود، والصحيح: أن هذا الاسم يجمع بين كونه اسم فاعل واسم مفعول؛ فهو ودود يَوَدُّ، وودود يُوَدُّ، يُحِب ويود عباده، ويودُّه عباده.

وكذلك صفة الخلة لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، والذي نعلمه من النصوص أن هذه الصفة تعلقت باثنين فحسب، هذا ما ورد إلينا في النصوص، الخلة تعلقت بالخليلين:

---

(٣٤٢) وهذا الذي عليه أهل الحق أهل السنة والجماعة؛ أن الله عَزَّ وَجَلَّ يحِب كما أنه يُحب. والجهمية والمعتزلة وبعض الأشاعرة أنكروا المحبة من جهتيها، فالله عَزَّ وَجَلَّ عندهم لا يُحِب كما أنه لا يُحَب، إنما تتعلق محبة العبد بمخلوقاته، كمحبة ثوابه وإنعامه وجنته وما شاكل ذلك، أما هو فلا يُحَب عندهم -الله المستعان-. وذهب بعض الأشاعرة إلى ثبوت المحبة من أحد طرفيها؛ وهو محبة العباد لربهم لا العكس، فالله عندهم يُحَب ولا يُحِب، وأوَّلوا محبته عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بصنوفٍ من التأويلات: إما بالمدح والثناء، أو بالثواب، أو بالإرادة.

(٣٤٣) ثبت أيضاً في النصوص درجتان من درجات المحبة صفةً له جَلّ وَعَلَا وهي: الود والخلة، دون بقية الدرجات والمراتب للمحبة، المحبة معنى عام ولها مراتب، والثابتُ لله عَزَّ وَجَلَّ من ذلك هو الود وهو لب المحبة وخالصها.

بإبراهيم ومحمد صلى الله عليهما وسلم، الله جل وعلا اتخذ إبراهيم ومحمدًا عليهما الصلاة والسلام خليلين.

وهاهنا أنبه إلى أن بعض الناس يقول: "إبراهيم خليل الله، ومحمد حبيب الله"؛ وهذا غلط وفيه عدم إنزال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منزلته[٣٤٤]، وكأن إبراهيم على هذا أرفع درجة من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والصواب: أن إبراهيم خليل الله، وكذلك النبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خليل الله، والخلة -كما قد علمت- أرفع درجات المحبة.

وأنبه أيضًا إلى ضرورة لزوم النص ولزوم الأدب في هذا المقام:

-**أما لزوم النص**؛ فبأن لا يضاف إلى الله جَلَّ وَعَلَا من الصفات إلا ما ثبت، وبالتالي فلا يجوز أن يضاف إليه من درجات المحبة ما لم يثبت.

-**وهذا أيضًا الذي يقتضيه الأدب** حتى في شأن معاملة العبد لربه؛ فليس لأحد أن يضيف إلى الله درجة الصبابة، أو التتيم، أو العشق مثلًا لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، كذلك ليس لأحدٍ أن يعامل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بذلك، بعض الناس يقول: "أنا أعشق الله"، أو ربما تسمى (عاشق الله)، أو (عاشق إلهي)؛ هذا غلط ولا يجوز، بل على الإنسان أن يلزم مقام الأدب لاسيما وأنَّ إطلاق العشق في هذا المقام فيما يتعلق بالله جل وعلا باطل، ولا يجوز؛ لأن العشق محبةٌ مع شهوة، وهذا لا شك أنه يتنافى مع مقام العبودية، ومن قاله ما قدر الله حق قدره.

---

(٣٤٤) فمقام نبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ولا شك أرفع من إبراهيم ومن سائر الخلق.

إذًا في هذا الحديث إثبات هذه الصفة لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى على ما يليق به، على حد قول الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[الشورى:١١]، فالله يحب، والله يوَد، والله يتخذ خليلًا، ولكن هو في هذا لا يماثل المخلوقين، لله جَلَّ وَعَلَا من هذه الصفات ما يليق به، ونقطع أن ذلك لا يماثل صفات المخلوقين.

قال : «**وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا؛ لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا**»؛ وهذا فيه فضيلة أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فإنه لولا هذا المانع وهو كونه اتخذ ربه خليلًا لكان خليله من الناس أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهذا يدلك على أنَّ أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أحبُّ أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليه، ولا شك أنه جديرٌ بهذه الرتبة؛ وذلك لأنه أفضل البشر على الإطلاق بعد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فلولا هذا المانع الذي منع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لكان خليله من الصحابة أبا بكر.

قال: «**أَلَا وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، فَإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ**»؛ هذا هو الشق الثاني من الحديث، وفيه الردُّ على عبَّاد القبور.

«**ألا وإن من كان من قبلكم**» من الأمم ولاسيما ما كان من أهل الكتاب اليهود والنصارى، وهذا شأنهم قديمًا، وهذا أيضًا شأنهم حديثًا، فمن شأنهم قديمًا وحديثًا أنهم يدفنون في الكنائس والبِيَع وأماكن العبادة، إضافةً إلى وضع الصور المعلقة أو التماثيل المنصوبة لهؤلاء المعظمين، وذلك كله من أسباب لعنة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وغضبه.

خشي النبي ﷺ أن تسلك أمته هذا المسلك الذي كان فيمن قبلنا: «**كانوا يتخذون قبور أنبيائهم**»، وفي رواية: «**وصالحيهم مساجد**»، ثبت في مسلم: «وصالحيهم» أيضًا.

وهاهنا قال النبي ﷺ: «**ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك**»؛ ولاحظ -يارعاك الله -كيف استعمل النبي ﷺ هاهنا صيغتين من صيغ النهي، وهذا يدلك على أنه أمرٌ محرم مؤكد التحريم، كان يكفي أن يقول: «لا تتخذوا القبور مساجد»، لكنه أكدَّ بعد ذلك بصيغة أخرى فقال: «فإني أنهاكم عن ذلك»، وهذا النهي المؤكد فيه مزيد من حرصه وشفقته ﷺ ونصحه لهذه الأمة أن تقع في هذا المنكر العظيم وهو أن تتخذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد، والله المستعان.

«**فَقَدْ نَهَى عَنْهُ فِي آخِرِ حَيَاتِهِ، ثُمَّ إِنَّهُ لَعَنَ -وَهُوَ فِي السِّيَاقِ- مَنْ فَعَلَهُ، وَالصَّلَاةُ عِنْدَهَا مِنْ ذَلِكَ وَإِنْ لَمْ يُبْنَ مَسْجِدٌ**»؛ هذا الكلام ينقله الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتاب اقتضاء الصراط المستقيم، وبالمناسبة هذا الموضوع ما يتعلق بالقبور وما يكون عندها من البدع «اقتضاء الصراط المستقيم» بالإضافة إلى «إغاثة اللهفان» لابن القيم، هذان الكتابان من أحسن الكتب في بيان وتجلية هذا الموضوع.

ينبه شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى أن هذا الأمر كان موضع اهتمام النبي ﷺ، حتى إنه نبَّه عليه قبل أن يموت بخمس ليال، ثم لم يزل يؤكد ويكرر ذلك حتى وهو في السياق؛ يعني حتى وهو في لحظات النزع، كما مر معنا في

حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا «لما نُزِل برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»؛ يعني: لما نزل إليه ملك الموت؛ يعني كان في اللحظات الأخيرة في لحظات النزع، في لحظات خروج الروح، في هذه اللحظات الشديدة ومع ذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يؤكد على خطورة اتخاذ القبور مساجد، وأن هذا من أسباب لعنة الله جَلَّ وَعَلَا.

بل أضيف أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان ينهى عن هذا مبكرًا، ثم قبل موته بخمس، ثم في اللحظات الأخيرة من حياته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يعيد ويكرر ويؤكد، فأين قلوب وأين عقول هؤلاء الذين هم من أشدِّ النَّاس حرصًا على البناء على القبور عن هذه الأحاديث العظيمة!! حتى إن بعض هؤلاء المخذولين ألَّف كتابًا في استحباب البناء على القبور واتخاذها مساجد، إي والله! لم يكتفِ بالإباحة بل جعلها أمرًا مستحبًّا.

وماذا عن هذه الأحاديث التي بلغت حد التواتر، والتي أدرجت في الكتب المؤلفة في الحديث المتواتر؟ قال هذا وأمثاله من المخذولين: "إن كل هذه الأحاديث شاذة". أحاديث مخرجة في الصحيحين، وفي السنن، وفي المسانيد، وفي المصنفات، وفي المستخرجات، وفي كل كتب الحديث، وفي أعلى درجات الصحة، ومخرجة عن عددٍ من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كل تلك رُمي بها عرض الحائط وما التفت إليها!! وكما يقولون بجرة قلم: "حديث غير مقبول"، وما المعول عليه هنا ليس شيء إلا الأهواء فقط، الهوى هو الذي حكم على هذه الأحاديث بأنها شاذة لا يُعمَل بها، والله المستعان.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**وَالصَّلَاةُ عِنْدَهَا مِنْ ذَلِكَ، وَإِنْ لَمْ يُبْنَ مَسْجِدٌ؛ وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهَا: «خَشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا»، فَإِنَّ الصَّحَابَةَ لَمْ يَكُونُوا لِيَبْنُوا حَوْلَ قَبْرِهِ مَسْجِدًا. وَكُلُّ مَوْضِعٍ قُصِدَتِ الصَّلَاةُ فِيهِ فَقَدِ اتُّخِذَ مَسْجِدًا، بَلْ كُلُّ مَوْضِعٍ يُصَلَّى فِيهِ يُسَمَّى مَسْجِدًا، كَمَا قَالَ ﷺ: «جُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا**» ؛ هذا تنبيه لطيف نقله لنا الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يريد أن ينبه القارئ إلى أن معنى النهي عن اتخاذ القبور مساجد لا يختص فقط ببناء مسجد على قبر، بل حتى الصلاة على القبور وإليها وعندها داخلٌ في مفهوم اتخاذ القبور مساجد[٣٤٥].

وذكر لطيفةً هاهنا وهو: أنَّ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حينما وجَّه هذا الخطاب، وأول من يتوجه إليه هذا الخطاب هم أصحاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لا يُتصور في حق أصحاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يبنوا مسجدًا على قبره بجوار مسجده صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هذا أمرٌ بعيد تصوره؛ يعني: إذا كان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سيُدفن في بيت عائشة، فيبنى

---

(٣٤٥) قد يقول قائل: إن الصلاة عند القبور أو إليها لا يجعل ذلك مسجدا؟

الجواب: بينه الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو أن كل مكان يُصلى فيه ويُسجد فيه يصح تسميته مسجدا، ويشهد لهذا قوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «وجُعلتْ لي الأرضُ مسجدًا وطهورًا» يعني مكانًا للصلاة.

فدل هذا على أن اتخاذ القبور مساجد لا ينحصر فقط في البناء عليها وجعل مسجد على هذا القبر، وإنما يشمل أيضـًا أن يُصلى إلى القبور أو يُصلى عند القبور، وهذا الذي سياق الحديث يدل عليه، ومن باب أوْلى أن يُبنى مسجدٌ على هذا القبر فإنه أغلظ في التحريم ولا شك.

مسجد آخر بجوار مسجد النبي ﷺ، وليس بينهما مسافة، هذا أمر معقول؟! وإذا قدِّر فرضًا أن الصحابة ما كانوا يعلمون أنهم سيدفنونه في بيت عائشة وإنما في البقيع، أيضًا ليس إلا خطوات يسيرة بين المسجد والبقيع، فكون النبي ﷺ ينهاهم عن أن يتخذوا القبور مساجد، ولاسيما ما يتعلق بالأنبياء والصالحين فإن هذا لا يعني أن يكون تحذيره ﷺ لهم فيما يتعلق ببناء المسجد عليه فقط، نعم هذا داخل في مفهوم اتخاذ القبور مساجد وهو أشنع ما يكون، لكن أيضًا يشمل ذلك أن يصلى إليها أو عندها، وأشد من ذلك أن يصلى عليها.

وهذا يؤكده ما ذكرته في ابتداء حديثي وهو أن المسجد في اللغة: كل ما يُسْجَدُ فيه، ولذلك قال النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «جُعلت لي الأرض مسجدًا»، يعني محل سجود، فكل الأرض أي مكان تمشي فيه فهو مسجد، لكنه ﷺ استثنى كما عند الخمسة إلا النسائي بأسانيد جيدة استثنى المقبرة والحمَّام، قال: «كل الأرض مسجد إلا المقبرة والحمام»، هذان ليسا موضع سجود، وليسا موضع صلاة، وبالتالي فلا ينبغي أبدًا أن تظن أن نهيه ﷺ عن اتخاذ القبور مساجد لا يدخل فيه الصلاة عليها أو إليها أو عندها. هذا الذي أراد التنبيه عليه .

قال رَحِمَهُٱللَّهُ: (**وَلِأَحْمَدَ – بِسَنِدٍ جَيِّدٍ – عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ مَرْفُوعًا: «إِنَّ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ مَنْ تُدْرِكُهُمُ السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءٌ، وَالَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ». رَوَاهُ أَبُو حَاتِمٍ فِي صَحِيحِهِ**).

هذا آخر ما ختم به الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣٤٦]، ولم يزل جزاه الله خيرًا يعيد ويؤكد ويورد وينوِّع في الأحاديث التي مضمونها واحد ومؤداها واحد، ولكن تكثير الأحاديث وتكثير الأدلة في بيان التوحيد من الحكمة في الدعوة والعلم، ولذلك من أحسن ما يكون لطالب العلم والداعية إلى الله جَلَّوَعَلَا أن يكثِّر الأدلة وينوعها، لعل الله عَزَّوَجَلَّ أن يفتح لهذه الأدلة القلوب .

هذا الحديث الذي خرجه الإمام أحمد بسند جيد -كما قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ- **فيه بيان أن من شرار الخلق عند الله** جَلَّوَعَلَا **صنفين:**

الصنف الأول: الذين تُدْركهم الساعة وهم أحياء[٣٤٧]؛ وذلك أن هذا الصنف لا خير فيه البتة، فإن الله جَلَّوَعَلَا قبيل قيام الساعة يرسل ريحًا فتقبض روح كل مؤمن، ولا يبقى على وجه الأرض إلا الكفار، حتى أخبر النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عن ذاك الوقت وذاك الزمان أنه لا يبقى من يقول: (لا إله إلا الله)، لا يوجد من يوحد الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وجاء أيضًا أنه لا يوجد تذكير بالله ولا أمر بالمعروف ولا نهي عن المنكر، حتى لا يبقَ على وجه الأرض من يقول: اللهَ اللهَ، من يذكر بالله على النصب على الإغراء، لا أحد يذكِّر بالله، لا أحد يقول: اتقِ الله، لا يبقَى على وجه الأرض من يقول: الله الله.

---

(٣٤٦) لا يزال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يحشد النصوص تلو النصوص في التأكيد على هذا الأمر العظيم الذي صار غريبًا في أوساط كثيرٍ من الناس في هذه العصور المتأخرة.

(٣٤٧) يعني الذين تقوم عليهم الساعة الذين يُنفخ في الصور «وَهُمْ أَحْيَاءٌ» ، ولا شك أن هذا المعنى ظاهر وواضح ودلت عليه النصوص الأخرى.

إذًا هذا الصنف الأول وهو جدير بهذا الوصف أن يكون من شرار الخلق عند الله جَلَّوَعَلَا.

والصنف الثاني: الذين يتخذون القبور مساجد.

ولاحظ- يا رعاك الله- هذا القِران بين الصنفين[٣٤٨]، كأنَّ النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يَقْرِنُ بين نتيجة ووسيلة؛ النتيجة: الكفر، والوسيلة: اتخاذ القبور مساجد.

إذًا على المسلم أن يحذر، وأن يخاف، وأن يتنبه، فالشريعة شدَّدت وأكدت كثيرًا في موضوع القبور، وهذا معنى لا ينبغي أن يغيب عن بالك يا أيها المسلم.



(٣٤٨) وذلك يرشدك ويبين لك أن هذا الأمر أمر عظيم وأنه منكر فادح؛ أن تُتخذ القبور مساجد، والله المستعان.

قال المصنف رحمه الله:

٢١-بَابُ
مَا جَاءَ أَنَّ الغُلُوَّ فِي قُبُورِ الصَّالِحِينَ يُصَيِّرُهَا أَوْثَانًا تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ

رَوَى مَالِكٌ فِي «الموطأ»؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «اللَّهم لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ، اشْتَدَّ غَضَبُ اللهِ عَلَى قَوْمٍ اتخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ».

وَلِابْنِ جَرِيرٍ بِسَنَدِهِ عَنْ سُفْيَانَ، عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى﴾ [النجم:١٩]، قَالَ: «كَانَ يَلُتُّ لَهُمُ السَّوِيقَ فَمَاتَ؛ فَعَكَفُوا عَلَى قَبْرِهِ»، وَكَذَا قَالَ أَبُو الجَوْزَاءِ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: «كَانَ يَلُتُّ السَّوِيقَ لِلْحَاجِّ».

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: «لَعَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ زَائِرَاتِ القُبُورِ، وَالمُتَّخِذِينَ عَلَيْهَا المَسَاجِدَ وَالسُّرُجَ». رَوَاهُ أَهْلُ السُّنَنِ.



قال الشارح وفقه الله:

هذا بابٌ جديد من الأبواب التي يتابع المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ إيرادها في هذا الكتاب العظيم، والتي تتعلق بموضوعٍ غاية في الأهمية ألا وهو: الغلو في القبور. وهذا من الشيخ فيه أبلغُ نصيحةٍ لهذه الأمة، فإنَّ من أنصفَ وتأمَّلَ في أدلة الشرع وجد أنَّ الغلو في قبور الصالحين من أعظمِ المنافذِ التي تُؤدي إلى وقوع الشرك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولأجل هذا تكاثرت أحاديثُ النَّبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في النَّهي عن هذا الأمر العظيم، وسدِّ كلِّ ذريعةٍ تؤدي إلى الرتوع في هذا المرعى الوخيم.

وليت أنَّ الدعاة إلى الله جَلَّوَعَلَا يتبصرون ويتأملون في هذا المقام؛ فتكاثرُ الأحاديث عن النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في سدِّ الذرائع والنَّهي عن كل ما يُوصل إلى الشرك بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ حتى إلى آخر لحظات حياته صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في هذا عبرةٌ للدعاة وأيُّ عبرة، من جهة ضرورة العناية بما كان يعتني به النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وإعطاء ذلك الأولوية على ما سوى ذلك مما يُدعى إليه(٣٤٩) .

---

(٣٤٩) وهذا الذي يجب على المتّبعين لسُنَّة النبي عليه الصلاة والسلام؛ فيكون لهم همّة عالية في التنبيه على هذا الأمر، ولا يصيبهم داءُ البُرود أمام هذا الأمر العظيم، كما هو واقعٌ عند بعض المنتسِبين إلى الدعوة وحثِّ النَّاس على الخير؛ تجدهم يغفلون أو يتغافلون عن هذا الأمر العظيم، وتجد قائلهم يقول: تركْنا لكم شرك القبور وحاربنا شرك القصور؛ وهذا من جهْلِه بما جاء في كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ، فإنَّ ظنَّ هذا الظان أنَّ الشرك المتعلّق بالقبور من الأمور التي من فضول الوقت والجُهْد أن يُبذلَ فيها ذلك، هذا جاهلٌ بحقيقة الحال، النبي عليه الصلاة والسلام كان أشدّ ما يكون عِنايةً بهذا الأمر حتى إنه لم يُغفل التحذير والتنبيه على هذه القضية وهو في اللَّحظات الأخيرة من عمره عليه الصلاة والسلام.

وهذا الإنسان إضافة إلى جهْلِه بنصوص الشرع جاهلٌ بواقع هذه الأُمَّة والمنتسِبين إليها، إلا مَن رحمَ الله عَجَّلَ؛ فحدِّثْني كم النسبة بين هذين الشركين الذين يتحدّثُ عنهما مثل هذا القائل؟ لا شكَّ أنَّ البون شاسع، وأنَّ الواقعين في الفتنة بالقبور بلْ والواقعين في الشرك الصُّراح عندها آلاف مؤلَّفة، بلْ أكثر من ذلك.

فعلى الدعاة إلى الله عَجَّلَ أن يسيروا على هذه الخُطَى المباركة التي كان عليها هذا الإمام العظيم الشيخ محمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ اقتداءً بهديه عليه الصلاة والسلام، الدعاة المتبصّرون الذين

وإني لأعتقد جازمًا أنَّ من أسباب انتشار الشرك في هذه الأمة ضَعْفَ كثيرٍ من الدعاة في العناية بالدعوة إلى التوحيد والتحذيرِ من ضدِّه ؛ حيث انشغل كثيرٌ من الدعاة-مع الأسف-عن هذا الأمر العظيم بغيره مما هو أقلُ أهميةً منه، وهذا يحتاج منَّا معاشر طلاب العلم إلى التواصي فيما بيننا، كلُّ الأمور تتقاصر أمام التوحيد وما يمسُّ جنابه، لابد أن تكون هذه حقيقة ماثلةً أمام عينك يا أيها الداعية ويا طالب العلم، فاشحذ همتك واجتهد واحرص على ما كان يحرص عليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: (**باب ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يصيِّرها أوثانًا تعبد من دون الله** عَزَّوَجَلَّ)؛ وكلامه رَحِمَهُ اللَّهُ صحيح، فإنَّ الغلو في قبور الصالحين ربما صيَّرها؛ يعني جَعَلَهَا أوثانًا تُعْبَدُ من دون الله، وربما جعل هذا الغلو القبورَ وسيلة إلى أن تُعبد من دون الله، وكلا الأمرين واقع عند قبور الأولياء والأنبياء .

وذلك أن أنواع المنكرات التي تقع عند القبور:

-إما أن ترجع إلى ما هو شركٌ أكبر.

-وإما أن ترجع إلى ما هو دون ذلك.

من الناس من يغلو في قبور الصالحين فيجعلها محلاً لدعائه لأصحابها، يدعو أصحاب القبور، أو يَنْذُر لأصحاب القبور، أو يذبح لأصحاب القبور، أو

أُوتُوا فقهًا وتوفيقًا يُنْزِلون الأمور منازلها وِفْقَ ما جاء في كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ، فيعظِّم ما عظَّمه الله ورسوله عليه الصلاة والسلام، ويكون مشفقًا على ما أشفق عليه الصلاة والسلام على أُمَّته منه، ومن ذلك هذا الأمر الخطير.

يعظم أصحاب القبور تعظيمًا مثل تعظيم الله جَلَّوَعَلَا، وكلٌّ ذلك لا شك يجعل هذه القبور أوثانًا تعبد من دون الله.

وقد يكون الغلو في أمور دون ذلك؛ من المنكرات، والمحدثات، والكبائر، والشرك الأصغر، ومن ذلك: رفع القبور، والبناء عليها، وتجصيصها، وإنارتها، والكتابة عليها، أو عبادة الله جَلَّوَعَلَا عندها؛ كالصلاة عندها، أو الصدقة عندها، أو ما شاكل ذلك؛ لاعتقاد أن هذا المكان العبادة فيه لله أفضل، وكل هذا ولا شك ذريعة تُصَيِّر ويؤول الأمر في هذه القبور إلى أن تكون أوثانًا تُعبد من دون الله عَزَّوَجَلَّ.

ومضى الحديث في الفرق بين الأوثان الأصنام، وقلنا: إن التحقيق أن الأوثان أعم من الأصنام، وأن الأصنام أخص من الأوثان؛ وذلك أن الأصنام: هي ما نصب على صورة ما فيه حياة من إنسان أو حيوان. وأمَّا الوثن: فيعم ذلك وغيره، فالأصنام أوثان، وكذلك الأشجار والأحجار والأبنية التي تُعبد من دون الله عَزَّوَجَلَّ تسمى أوثانًا. ويدل على ذلك أن قوم إبراهيم كانوا يعبدون الأصنام، ومع ذلك قال في حقهم إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثَانًا ﴾[العنكبوت:١٧]، فدل هذا على أن الأصنام يطلق عليها أوثان، والأمر على كل حال في هذا يسير.

والمقصود أن هذا الباب ينبه فيه المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ القارئ إلى العناية بسدِّ الذريعة فيما يتعلق بالقبور، وأنَّ الواجب عدم الغلو فيها أو في أصحابها(٣٥٠).

والشريعة جاءت بالوسطية والاعتدال في كل شيء، ومن ذلك: التعامل مع الصالحين؛ فالواجب التوسط في ذلك وعدم الغلو أو الجفاء، إنما يُنْزَلُونَ منزلتهم اللائقة بهم، ويعامَلون بما يستحقون من التبجيل والاحترام والمحبة، وأما أن يُبَالَغ في ذلك حتى يُوصَل إلى أن يعطوا شعبةً من الألوهية، وأن يُقصدوا من دون الله عَزَّوَجَلَّ فهذا لا شك أنه من الغلو.

والغلو في الشريعة ممقوت ومضى الحديث في هذا، وما من أمْرٍ أمَرَ الله عَزَّوَجَلَّ به إلا كان للشيطانِ حرصٌ فيه من جهتين: إما من جهة الغلو فيه، أومن جهة التقصير عنه، ولا يبالي الشيطان بأيهما فاز من العبد. فعلى الإنسان أن يحذر، وأن يكون مرابطًا على ثغور جوارحه وقلبه حتى لا يقع منه إفراطٌ أو تفريط، أو غلو أو تقصير، لا سيما في هذه المسائل المهمة التي تمسُّ جناب التوحيد، والله تعالى أعلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (رَوَى مَالِكٌ فِي «الموطأ»؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «اللَّهُم لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ، اشْتَدَّ غَضَبُ اللهِ عَلَى قَوْمٍ اتخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»).

(٣٥٠) وبهذا يتضح أنَّ تبويب الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ شامل للأمرين؛ فالغُلوّ عند قبور الصالحين يصيّرها أوثانًا يعني: يجعل القبور أوثانًا تُعبدُ من دون الله ﷻ، أو يصيّرها بمعنى: أنَّه يقود ويؤدّي إلى أن تكون أوثانًا تُعبدُ من دون الله ﷻ، وعليه فالغُلوّ هاهُنا ذريعة ووَسيلة لكي يكون هذا القبر وثنًا معبودًا من دون الله ﷻ.

هذا الحديث أورده المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ معزوًا إلى موطأ الإمام مالك، والإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ روى هذا الحديث مرسلاً، فإنه أخرجه من طريق زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا إسناد رجاله ثقات، غير أنه مرسل؛ فعطاءٌ تابعي ثقة رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وأخرج البزار هذا الحديث بلفظ قريب من طريق زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ولفظه: «اللهم إنِّي أعوذ بك أن يُتخذ قبري وثنًا». **واختلف العلماء في ترجيح إحدى الروايتين على الأخرى**؛ منهم: من رجح الوصل، ومنهم من رجح الإرسال.

- يعني منهم من قال: إنَّ القول في الحديث روايةُ من أرسل؛ فيكون الحديث بهذا ضعيفًا.
- ومنهم من يقول: إن القول قول من وصل؛ لأن معه زيادة ثقة فهي مقبولة.

وعلى كل حال مهما رجحنا في هذا الحديث فإنَّ هذا الكلام ثابتٌ عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دون شك، فإنَّ هذا الكلام الذي جاء في هذا الحديث ثابتٌ عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من حديث أبي هريرة الذي خرجه الإمام أحمد وغيره بإسناد صحيح وفيه: «**اللهم لا تجعل قبري وثنًا**»، دون كلمة (**يُعْبَد**)، ومعلوم أن الوثن يُعبد.

الشاهد أنَّ هذا كان منه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دعاءً بأن يجنِّب الله قبره الذي سيؤول إلى ظنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيه؛ أن يكون وثنًا يُتوجه له بالعبادة، وأجاب الله عَزَّ وَجَلَّ دعاء نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فحُفظ قبره عن أن يكون وثنًا يُعبد من دون الله عَزَّ وَجَلَّ.

فأجاب رب العالمين دعاءَه   وأحاطه بثلاثة الجدران

حتى اغتدت أرجاؤه بدعائه　　　في عزة وحماية وصيان

وإنْ وقع شيء فإنه يقع في المسجد ولا يقع عند قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فبين من يُحْدِثْ وبين قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حواجز وجُدُر ،كما أخذنا هذا سابقًا.

وفي هذا الحديث فوائد:

- **أولاً**: أنَّ كل ما يتوجه إليه بالعبادة فإنه وثن.
- **ثانيًّا**: أنَّ وقوع الشرك في هذه الأمة أمرٌ ممكن، خلافًا لمن يقوله المتعلقون بالقبور الذين يزعمون أنَّ الشرك لا يمكن أن يقع في هذه الأمة. أرأيت دعاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ أكان في شيء مستحيل الوقوع؟ أو ممكن الوقوع؟ يعني حينما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اللهم لا تجعل قبري وثنًا**» أكان يدعو بشيء ممتنع أصلًا لا يمكن وقوعه؟ كالجمع مثلاً بين النقيضين؟ أو أنه أمر يمكن وقوعه؟ لا شك أنه كان يدعو في شيء يمكن وقوعه، ويسأل النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ربه أن لا يقع؛ وهذا يدلك على أنَّ الشرك ممكن الوقوع[٣٥١]، وبالتالي على الإنسان أن يحذر من الوقوع فيه.
- **ثالثًا**: أنَّ قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لو قُدِّرَ أنه عُبد من دون الله جَلَّ وَعَلَا كان اسمه وثنًا، وبالتالي تتنزَّل فيه النصوص التي جاءت في الأصنام والأوثان، وبالتالي يكون في هذا ردٌّ على القبوريين الذين يزعمون أن وصف الأوثان إنما يختص بما كان عليه أهل الجاهلية من هذه الأحجار والأشجار والأصنام

---

(٣٥١) فدلَّ هذا على بطلان قول مَن قال من أهل الخرافة والبدعة "إنَّ الشرك لا يقع في هذه الأُمَّة".

المنصوبة على هيئة ما فيه روح، وليس ذلك راجعًا إلى القبور؛ هذا الحديث ردٌ بليغٌ عليهم.

➢ **رابعًا**: أن قبر النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لو قدِّر أنه عُبد كان وثنًا، وبالتالي فكل قبرٍ سواه فإنه يشمله هذا الحكم، إذا كان قبر النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وهو هو عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ لو عُبد كان وثنًا، فكيف بقبور غيره صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من الناس؟ لا شك أنهم داخلون في الحكم، أو أن هذه القبور أولى بهذا الوصف، وهي أن تكون أوثانًا تعبد من دون الله(٣٥٢) . وهذا مع الأسف الشديد ما وقع في هذه الأمة في طول العالم الإسلامي وعرضه إلا ما رحم الله، أعني أنه اتُخذت قبور الأولياء والصالحين أوثانًا تُعبد من دون الله.

ومن يعرف واقع الناس يدرك حقيقة هذا الواقع المؤلم الذي يقع مع الأسف الشديد، وقد أحسن ابن القيم رَحِمَهُاللَّهُ في كتابه «إغاثة اللهفان» في وصف غلو هؤلاء في قبور الصالحين -وأنا أوصيك بالرجوع إلى هذا الكتاب العظيم فإنه من أحسن المواضع في بيان خطورة الغلو في قبور الصالحين- وصف رَحِمَهُاللَّهُ ما يقع من هؤلاء؛ وهو أنَّهم يبذلون الغالي والرخيص والنفيس في سبيل الحج إلى قبور الأولياء والصالحين وشدِّ الرحال إليها، يبذلون في ذلك ما لا يبذلونه في

---

(٣٥٢) إذا كان النبي عليه الصلاة والسلام، وهو الرسول بالتوحيد من ربه، وَتُوجِّهَ إلى قبره بالعبادة من دون الله ﷻ ، فإنَّ هذا يعني أنَّ سائر القبور في هذا الحُكم أيضًا إن لم يكن أوْلى، وبالتالي فيكون هذا الحديث مناسبًا لما بوَّب عليه المؤلّف رَحِمَهُاللَّهُ من أنَّ الغُلوّ في قبور الصالحين -أنبياء كانوا أو أولياء- يصيّرها أوثانًا من دون الله ﷻ.

الحجِّ إلى البيت العتيق، ويرجون من الثواب في ذلك ما لا يرجونه في حجِّ بيت الله سبحانه، فَيَغُذُّون السير ويواصلون المسير ليلاً نهار حتى إذا بدت أعلام قبر الصالح الذي يرجونه ويرومونه نزلوا عن دوابهم، تعظيمًا وتقديرًا لصاحبِ القبر، وسجدوا شكرًا لله على ما منَّ عليهم به من هذا الفضل، ثم ساروا بأدبٍ وربما جثَوا على ركابهم، ثم حبوا حبوًا حتى يصلوا إلى هذا القبر، فإذا قَرُبُوا منه صلّوا ركعتين تحيةً للقبر، ثم بعد ذلك حدِّث ولا حرج عما يقع من أمور عظيمة تتفتت لها أكباد أهل التوحيد(٣٥٣)؛ فهذا صائح، وهذا باكٍ، وهذا هاتف، وهذا داعٍ مستغيث، وهذا متمسح، وهذا مُرْتمٍ متلطخ بتراب القبر، أو متشبِّث بحيطانه وسُتُره، فإنا لله وإليه راجعون.

وهذا -يا أيها الأخوة- بلاء عظيم، ومن يعرف الواقع يدرك أنَّ الذي أقول ما هو إلا نقطة من بحر، كم الذين يشدون الرحال كل سنة إلى قبور الأولياء والصالحين؟ بل ربما إلى قبور الفُجَّار، بل ربما إلى قبورٍ متوهمة لا حقيقة لها ؛ يذهبون إليها بالآلاف المؤلفة ويدعون ويستغيثون، هذا يدعو "يا ابن علوان"، وهذا يدعو "يا سيدي عبد القادر"، وهذا يدعو "يا سيدي أحمد البدوي"، وهذا يدعو "يا سيدي المرسي أبو العباس"، وهذا يدعو الحسين، وهذا يدعو فاطمة، وهذا يدعو كذا، وهذا يدعو كذا.. أمرٌ عظيم وبلاءٌ كبير وقع فيه كثير من الناس، وهم مع الأسف الشديد يظنون أنهم يحسنون صنعًا، يقولون (لا إله إلا الله) صباح مساء، وهم ينقضونها صباح مساء، فالأمر في ذلك عظيم، ويحتاج ممن

---

(٣٥٣) أمور عظيمة لربَّما لو عُرِضَتْ على المشركين الأولين استعاذُوا بالله منها.

بصَّره الله جَلَّوَعَلَا أن يتقي الله وأن يبذل ما يستطيع في سبيل البيان والإبلاغ والدعوة والإنكار لهذا المنكر الفظيع، والله المستعان(٣٥٤).

---

(٣٥٤) انظر إلى ما يقع عند وثنٍ من أكبر أوثان هذا العصر، ألا وهو (قبر البدَوي)، اقرأ واسمعْ ما يُقالُ وما يحدث من هذه الأمور العظيمة التي تكون هناك؛ إذا جاءت صبيحة يوم الجمعة توافدَت عشرات الآلاف إلى عند قبره، ويكون ما يكون من البكاء والعَويل والهُتَافات والاسْتغاثات والتمسّحات التي هي أعظم مِمَّا كان يقع عند اللّات والعُزَّى، حتى إنَّ عندهم ثمَّة خشبة يعتقدون أنَّ النبي عليه الصلاة والسلام يصل إليها كلّ اثنين قيامًا بحقّ البدَوي، النبي عليه الصلاة والسلام هو الذي يذهب لزيارة وتعظيم البدَوي كلّ اثنين ويجلس عند هذه الخشبة، لذلك يتمسّحون ويتبرّكون بها. وتجد صادحهم وصائحهم يصيح بأنواع من الشرك العظيم، تجد قائلهم يقول:

رُحماكَ أرجو يا أبَا الفِتْيانِ في خَطْبٍ أَهاجَ القلبَ من حسَراتِهِ

يخاطب أحمد البدَوي بهذا !

مالي سِواكَ أَرومُه في كشْفِهِ أو أَرْتجِي إن ضقْتُ من وَثَباتِهِ

ليس له أحد يرومه في كشْفها هذه الكُربة سواه.

عارٌ عليكَ إذا تَردُّ خُويدِمًا قصرَ الفؤادَ عليكَ في حَاجاتِهِ

كيف وأنا قد قصرتُ الفؤاد عليك فلا أرجو سواك البتَّة! فلا إله إلا الله، أين هذا من: «لبّيك لا شريك لك، إلا شريكًا هو لك، تملِكُه وما ملكَ»؟! أين هذا من: ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ﴾ [يونس:١٨]؟! أين هذا من: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى﴾ [الزمر:٣]؟! بهذا تدرك صدْق ما قرَّره أَئِمَّة التوحيد من أنَّ شرك المتأخرين أغلظ وأعظم من شرك الأولين، ولا شكَّ أنَّ هذا حقيقةٌ وواقع لا ينكره إلا جاهل بهذا الواقع.

بقيَ أن نعلم أنَّ في هذا الحديث: إثبات صفة الغضب لله جَلَّوَعَلَا[٣٥٥]، «**اشتد غضب الله** جَلَّوَعَلَا» على هؤلاء الذين يغلون في القبور ويتخذونها مساجد، وقد مر بنا معنى اتخاذ القبور مساجد، هؤلاء لا يغضب الله عليهم فحسب، بل إنَّ الله جَلَّوَعَلَا يشتد غضبه عليهم، يغضب غضبًا عظيمًا، وهذا يدلك على أنَّ هذا الغلو وهذا الاتخاذ لهذه القبور مساجد من أعظم المنكرات ومن أشنع المحرمات التي يبغضها الباري سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

وأهل السنة والجماعة يقولون بما نطقت به الآيات والأحاديث من إثبات الصفات لله جَلَّوَعَلَا ، فالله يغضب كما أخبر، وكما أخبر عنه نبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ، وغضبه لائقٌ به، وكما أنه هو في ذاته ليس كمثله شيء، فكذلك هو في صفاته ليس كمثله شيء، فغضب الله عَزَّوَجَلَّ غضب لائق به، لا كغضب المخلوقين.

والمحرفة والمعطلة أوَّلوا هذه الصفة فقالوا: الغضب هاهنا بمعنى الانتقام، لا نثبت الغضب لله إنما نقول الغضب بمعنى الانتقام، والعجيب في شأنهم: أنهم فروا من شيء فوقعوا في مثله وما صنعوا شيئًا! يعني هم فروا من إثبات الغضب لله خوفًا من التشبيه، فوقعوا في التشبيه أيضًا؛ فإنه إذا كان المخلوق يغضب فالمخلوق أيضًا ينتقم، وإذا كانوا يزعمون أنهم لا يعرفون من يغضب إلا المخلوق، فإننا نقول تنزلًا معهم: ونحن لا نعرف من ينتقم إلا

---

(٣٥٥) والكلام عن الغضب على وِزَانِ الكلام عن صفة المحبَّة، فكِلاهما من الصفات الاختيارية لله عَزَّوَجَلَّ؛ الله يغضب إذا شاء غضبًا لا يماثل فيه غضب المخلوق على حدّ قوله جلَّ وعلا: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

المخلوق، فماذا صنعتم سوى أنكم انتهكتم حرمة الدليل؟ ثم إنَّ الدليل صريح في الفرق بين الغضب والانتقام، فالله جَلَّوَعَلَا يقول: ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾[الزخرف:٥٥]، والأسف هاهنا في هذه الآية بمعنى الغضب؛ فدل هذا على أن الأسف شيء -يعني الغضب-، والانتقام شيء آخر.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وَلابْنِ جَرِيرٍ بِسَنَدِهِ عَنْ سُفْيَانَ، عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى﴾ [النجم:١٩]، قَالَ: «كَانَ يَلُتُّ لَهُمُ السَّوِيقَ فَمَاتَ؛ فَعَكَفُوا عَلَى قَبْرِهِ»).**

هذا الأثر أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره من طريق سفيان الثوري، عن منصور بن المعتمر، عن مجاهد بن جبر الإمام المفسر الجليل الذي هو من أعلم الناس بتفسير كتاب الله جَلَّوَعَلَا ؛ فسَّر في هذا الأثر قول الله جَلَّوَعَلَا: **﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى﴾**[النجم:١٩].

فسَّر «اللات»: بأنَّه رجلٌ كان يلت السويق، وكما سيأتي معنا في أثر ابن عباس للحاج، هذا رجل صالح، وجاء عند أبي حاتم أنه كانت له بعض الكرامات، يعني كانت تظهر على أيديه أمور تدل على أنه رجل صالح، من ذلك أنه -أعني من صلاحه وأعماله الخيِّرة- أنه كان يُطْعِم الناس، كان يتصدق، وكان يكرم، كان يلتُ السويق، والسويق: طعام مصنوع من القمح أو الشعير المطحون، ولتُّه يعني: خلطه، اللت يعني: الخلط، يخلطونه بالسمن أو بالزيت أو الماء حتى يساغ في الأكل، كان يلت السويق، ولكنهم لما مات غلوا فيه وفي قبره حتى عُبد من دون الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

فأراد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن ينبه على أن الغلو في الصالحين وفي قبورهم يصيِّرها أوثانًا من دون الله، هذا هو الأصل من الوثن الذي هو اللات الذي كان في الطائف، وكان من أعظم الأصنام والأوثان عند العرب، الأصل فيه أنه رجل صالح مات فغلوا في قبره ثم غلو في الصخرة التي عند قبره حتى أصبح وثنًا عظيمًا -مع الأسف الشديد-،إذًا الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثانًا من دون الله.

ومجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ **جاء عنه في تفسير** ﴿**اللَّاتَ**﴾ **قولان**، وهذان القولان عليهما أهل العلم في تفسير هذه الكلمة.

الأول: أن «اللات» هو اسم فاعل، والأصل فيه اللآتُّ ثم خفف، وعلى التشديد مع المد المشبع، جاءت قراءة عشرية هي قراءة رويس عن يعقوب الحضرمي: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّآتَّ وَالْعُزَّى﴾[النجم:١٩]، لاتّ: يعني اسم فاعل من لتَ يلت، والجمهور قرأ بالتخفيف ، وعلى كلا القراءتين فالمراد أن اللاَّتُ أو اللآتَ هذا الأصل فيه الشدة، ثم خفف، هو ذاك الرجل الصالح الذي كان يلت السويق للحاج.

المعنى الثاني: وهو أيضًا قد جاء عن مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن هذا الاسم مشتق من اسم الجلالة الله أو الإله على خلاف بين أهل العلم؛ فيكون هذا من إلحادهم في أسماء الله: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ﴾[الأعراف:١٨٠]، ومن الإلحاد أن يُشتق للأصنام من أسماء الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ أسماء.

وبعض أهل العلم جمع بين الأمرين؛ فاللّاتُ الأصل، ثم اشتقوا من هذا الاسم- للمناسبة وللقُرب- اشتقوا له من اسم الله جَلَّوَعَلَا فحصل منهم الأمران، والله جَلَّوَعَلَا أعلم[٣٥٦].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَكَذَا قَالَ أَبُو الجَوْزَاءِ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: «كَانَ يَلُتُّ السَّوِيقَ لِلْحَاجِّ»).

هذا الأثر[٣٥٧] بمعنى السابق، عن أبي الجوزاء وهو أوس[٣٥٨] الرابعي، تابعي ثقة[٣٥٩] يروي عن ابن عباس معنى ما جاء في أثر مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «لَعَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ زَائِرَاتِ القُبُورِ، وَالمُتَّخِذِينَ عَلَيْهَا المَسَاجِدَ وَالسُّرُجَ» رَوَاهُ أَهْلُ السُّنَنِ).

هذا الحديث أخرجه الخمسة؛ أحمد وأصحاب السنن الأربعة وغيرهم.

---

(٣٥٦) ولا يبعد أن يُقالَ بما قال به بعض أهل العلم: أنَّ الأصل في الكلمة (اللّاتّ) يعني ذَاك الرجل الذي كان يلتّ السَّويق، فالصنم سُمّي بوصفه هو، ثمَّ إنَّهم اشتقّوا بعد ذلك له من اسم الله عَجَّلَ مبالغةً في تعظيمه، وهذا قد يُقالُ إنَّ فيه جمْعًا بين القولين في هذه المسألة.
و(**العَزَّى**) أيضًا مضى الكلام فيها وهي: السّمرات التي كانت بـ (نخلة)، وكانت تُعبدُ من دون الله عَجَّلَ، وهي من أعظم الأصنام في ذلك الوقت، وعرفنا القبائل التي كانت تُعظِّمُ هذه الأصنام.

(٣٥٧) عند البخاري.

(٣٥٨) بن عبدالله.

(٣٥٩) مشهور.

والحديث فيه النَّهي عن ثلاثة أمور:

الأمر الأول: نهيُ النساء عن زيارة القبور.

والأمر الثاني: النَّهي عن اتخاذ القبور مساجد.

والأمر الثالث: النَّهي عن إسراج القبور.

والأمر الثاني مضى الحديث فيه، وعلِمنا ما معنى اتخاذ القبور مساجد وما يدخل فيه، وأيضًا علِمنا بعض الشُّبَّه التي يتشبث بها أهل البدع، وعلِمنا الجواب عنها أيضًا (٣٦٠).

ولعلنا ذكرنا أو لو لم نذكر أن مما تشبثوا به: "أنَّ هذا المسجد النبوي المبارك كان في أصله -يعني في أرضه- قبور ثم بُنِيَ المسجد عليها، وبالتالي يجوز اتخاذ القبور مساجد"؛ هكذا قالوا، ولا شك أن هذا كلام باطل، أعني استدلالهم استدلال باطل، وذلك أن الذي ثبت في الصحيحين أن البقعة التي أُنشئ عليها مسجد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانت عبارة عن ثلاثة أشياء:

---

(٣٦٠) **وفي هذا الحديث أيضًا**: ردٌّ على زعْم القائلين بأنَّ النهي عن اتخاذ القبور مساجد إنما هو للنجاسة التي تكون عن طريق الصديد، فإذا نُبِشَتِ القبور فإنه تَتَنجَّس الأتربة في المقبرة، وبالتالي يكون المنع للنجاسة. وتبيَّن لنا في الدرس الفائت أنَّ هذا تعْليل عَليل. وهذا اللَّفظ فيه ردٌّ أيضًا؛ فإنَّ اقتران النهي عن إسْراج القبور معَ النهي عن اتخاذها مساجد فيه دليل على أنَّ ذلك لم يكن للنجاسة؛ لأنَّ النهي عن إسْراج القبور لم يكن لنجاسة، فكذلك الأمر الذي اقترن معَه لم يكن لنجاسة.

❏ **منها جزء** كان حائطًا يعني بستانًا لبني النجار، والنبي ﷺ ثامَنَهم وطلب منهم أن يحددوا سعرًا حتى يشتري منهم هذا البستان، لكنهم أبوا أن يأخذوا عليه أجرًا إلا من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

❏ **والجزء الثاني**: كان عبارة عن خِرَبْ، أمر النبي ﷺ فسويت بالأرض، وأما البستان فقُطعت نخله، ثم صُفَّت في قبلة المسجد.

❏ **والجزء الثالث**: كان عبارةً عن قبور المشركين؛ كان مقبرة قُبِرَ فيها مشركون، فأمر النبي ﷺ بالقبور فنبشت؛ يعني: استثيرت وأخرج ما فيها من رفات ثم سوِّيت بالأرض.

فهم صَدَقُوا أنَّ الأصل في هذا المكان أنه كان فيه قبور، ولكن النبي ﷺ ما بنى المسجد حتى نُبشت القبور، والقبر إذا نبش زال حكمه، والحكم يدور مع علته وجودًا وعدمًا، **فهذا هو الوجه الأول في الرد عليهم**؛ أن يقال: أن النبي ﷺ ما بنى المسجد حتى نبش القبور.

وبالتالي يكون الوجه الثاني في الرد عليهم هو أن يقال: أن هذا الحديث دليل عليكم لا لكم، أفرأيتم نبش النبي ﷺ للقبور ما الفائدة منه وما معناه؟ لو كان يجوز أن يتخَذ المسجد على القبور، إذًا يكون هذا فعلاً لغوًا لا فائدة منه، ولا شك أن النبي ﷺ يُصَانُ فعله عن ذلك، فدل هذا على أنه إنما أزال آثار هذه القبور؛ لأجل أنها علةٌ مانعة من بناء المسجد هناك.

وتشبث بعضهم أيضًا بشبهة أخرى وهي: أنَّهم قالوا إنه دلت السنة على جواز صلاة الجنازة على القبر، وبالتالي فتجوز الصلاة الأخرى، التي هي ذات الركوع والسجود بجامع أن الكلَّ صلاة.

ولا شك أن هذا من الفجور في الاستدلال أين هذه الصلاة من تلك؟ إنما منع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الصلاة المعهودة ذات الركوع والسجود؛ لأنها هي التي تكون ذريعة ويُتوصل بها إلى عبادة صاحب القبر، يكون ركوع ويكون خضوع ويكون سجود، وبالتالي تكون ذريعة لوقوع الشرك، أما صلاة الجنازة فليس فيها شيء من ذلك.

ثم إنَّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تكاثرت عنه وتواترت عنه الأحاديث في النهي عن اتخاذ القبور مساجد وعن الصلاة إليها، فما بال هؤلاء يضربون النصوص بعضها ببعض وليس أنهم يألفون ويوفقون بينها!! وهل هذا إلا فعل أصحاب الأهواء. فدل هذا على أن الصلاة ذات الركوع والسجود محرمة في المقابر وعلى القبور من باب أولى، يعني عند القبور وفي المقابر أو عليها من باب أولى، وأما صلاة الجنازة فإن العلة منتفية فيها فجازت للحاجة، والله تعالى أعلم.

أمَّا **الأمر الأول** الذي جاء في هذا الحديث وهو لعنة الزائرات للقبور[٣٦١]؛ فإن الحديث صريح في النَّهي عن زيارة النساء للقبور، «**لعن الله زَوَّارات القبور**»،

---

(٣٦١) وهذه مسألة البحث فيها طويل عند أهل العلم، وهي: حُكْم زيارة النساء للقبور، والذي يَترجَّح -والله عَجَّلَ أعلم- واختاره جماعة من أهل التحقيق: هو المنْع والتحريم لزيارة النساء مطلقًا.

أو «**لعن الله زائرات القبور**» ، وهذا المعنى جاء فيه الحديث عن النبي ﷺ من رواية ثلاثة من الصحابة: ابن عباس رضي الله عنهما كما في هذا الحديث، وأبي هريرة رضي الله عنه، وحسان بن ثابت رضي الله عنه، جاء الحديث من روايتهم الثلاثة بهذين اللفظين: «**لعن الله زَوارات –أو زُوارات– القبور**»، و«**لعن الله زائرات القبور**»(٣٦٢)؛ وهذا يدلك على أن هذا الفعل ليس محرمًا، بل كبيرةٌ من الكبائر، من الكبائر: زيارة النساء للقبور؛ وذلك لأننا قد علِمنا أنَّ حد الكبيرة ما تُوعد عليه بوعيد خاص من لعنة أو عذاب أو غضب من الله أو ما شاكل ذلك، وهذا الحديث جاء فيه اللعنة للزَوَّارات أو زُوَّارات أو زائرات القبور فدل هذا على أنه منكر ولا يجوز.

لكن اعتُرض على هذا الاستدلال بأمرين:

- **الأمر الأول**: أن الحديث فيه: «**لعن الله زَوَّارات القبور**»، وبالتالي هذا يدل على أن النهي إنما تعلق بالإكثار من زيارة القبور، أما التي تزور القبور أحيانًا فإنه لم يأتِ في حقها نهي، وبالتالي فيجوز.

والجواب عن هذا الإيراد من وجوه:

الوجه الأول: أن الحديث جاء بلفظ «زوارات»، وجاء بلفظ «زائرات»، وإعمال الدليل أولى من إهماله، أعني أن الجمع بين الروايتين أولى من ترجيح إحداهما على الأخرى، فإننا لو قلنا: إن الممنوع هو الزيارة مطلقًا فإننا نكون قد

---

(٣٦٢) «زائرات» في رواية ابْنِ عَبَّاسٍ، وفي رواية أبي هريرة وحسان رضي الله عن الجميع جاء: «زُوَّارَات» أو «زَوَّارات»، ولهذا الضبط أهمّية في مسألة الترجيح أو الكلام عن ما أورده القائلون بعدم التحريم.

جمعنا بين اللفظين؛ فتُنهى المرأة عن زيارة القبور، وإن أكثرت كان التحريم في حقها أشد. وهذا أولى من أن نقول: إن النهي إنما تعلق بالإكثار؛ لأننا في هذه الحالة سنلغِي لفظة: «زائرات القبور».

الوجه الثاني: قال بعض أهل العلم، وهذا توجيه حسن من شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن المبالغة هاهنا والتكثير تعلقت بالنساء لا بالزيارة، يعني تعلقت بالزائرات وليس بالزيارات، ويكون ما جاء في هذا الحديث على نَسَقِ ووزان ما جاء في قوله تعالى: ﴿ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الأَبْوَابُ ﴾[ص:٥٠]، وذلك أنَّ جنات عدن تفتح أبوابها مرة واحدة، لكن التكثير عائدٌ إلى الأبواب فقال: ﴿مُفَتَّحَةً﴾ وليس مفتوحة.

الوجه الثالث: أنَّ بعض أهل العلم -ومن أولئك السيوطي-ضبط هذا اللفظ بـ (زُوُارات)، وليس (زَوَرات)، و(زُوُرات): جمع زُوَّارة بمعنى: زائرة، وليس ذلك من صيغ المبالغة، إنما زُوَّارة بمعنى: زائرة، وبالتالي فيتحدُّ معنى (زُوَّرات) مع (زَائرات).

الوجه الرابع: يدلك على أنه لا يمكن حمل الحديث على معنى التكثير في الزيارة هو أن يقال: الحديث دل على أنَّ زيارة النساء -سواءً قلنا على قلة أو كثرة - منكرٌ عظيم بل يقتضي اللعنة، يعني المسألة ليست هينة، كبيرة من الكبائر، ولا تُعَلِّقُ الشريعة أمرًا منكرًا بهذه المثابة على شيء غير منضبط. بمعنى: ما هو الحد الفارق بين القلة والكثرة؟ حتى نقول للمرأة يجوز لكي أن تزوري كذا وكذا من المرات لأن هذا من القلة، ولا يجوز أن تزوري كذا وكذا

من المرات لأنَّ هذا من الكثرة، ما هو الحد حتى نعرف الحلال من الحرام، بل من الكبيرة؟ الجواب: أننا لا يمكن أن نضبط هذا الأمر، والناس في هذا تتفاوت آراؤهم؛ من الناس من يرى قد أن عشرة زيارات أو نحوها في السنة كثير، ومن الناس من يرى أن مائة أو ألف زيارة هي الكثير، وتسعمائة قليل، إذًا ما الذي يمكن أن نضبط به هذا الأمر المنكر؟ هذا من الأمر الذي يتعذر أن يُضبط بحسب آراء الناس، وبالتالي فلا يمكن أن نقول إن الشريعة قد علقت هذا الأمر العظيم على مثل هذا الشيء الذي لا ينضبط.

◄ **الأمر الثاني** الذي اعُترض به على منع النساء من زيارة القبور أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد قال: «كنت قد نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها، فإنها تذكركم الآخرة»، **قالوا: هذا الحديث فيه وجهان يدلان على جواز زيارة النساء للقبور:**

أما الأول: فهو في قوله: «فزوروها» فهذا الحديث ناسخٌ لنهي النساء عن زيارة القبور . **والجواب عن هذا بأن يقال:**

أولاً: ثبوت النسخ فرع عن معرفة التأريخ، يشترط العلماء للحكم بالنسخ معرفة التاريخ، فلابد أن يثبت عندنا بالدليل الصحيح أن قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فزوروها» متأخر، وقوله: «لعن الله زوارات القبور» متقدم؛ وهذا أمر متعسر، ما عندنا دليل يُعلِمنا بالمتقدم أو المتأخر، وما الذي يدرينا ربما يكون قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لعن الله زوارات القبور» هو المتأخر.

ثانيًا: أنَّ النظر الأصولي في هذين الحديثين يقتضي القول بأن النهي الخاص للنساء مقدمٌ على الإذن العام للرجال الذي دخل فيه النساء تغليبًا؛ النهي الخاص للنساء أقوى في الدلالة من دخولها في الدليل العام في قوله «فزوروها»، «فزوروها» خطاب موجه إلى الأصل للرجال ودخل النساء في ذلك تغليبًا، ولا شك أن دِلالة النص المتعلق بهن مُقدمةٌ على دلالة النص الذي دخلت فيه النساء تغليبًا، وبالتالي فإن ذلك يقتضي تقديم حديث: «لعن الله زوارات القبور» على قوله: «فزوروها».

ثالثًا: أن هذا الحديث استدل به أهل العلم على استحباب زيارة الرجال للقبور، ولو قلنا إنَّ النساء حكمهن حكم الرجال؛ لاقتضى هذا أن تكون الزيارة في حق النساء مستحبة، ولا قائل بهذا من الأئمة المعتبرين، لا أحد من العلماء يقول إنَّ الزيارة في حق النساء مستحبة، إنما غاية الأمر أن تكون عند هؤلاء إمَّا مباحة وإما مكروهة، أو على القول الصحيح محرمة، أما أن تكون مستحبة فهذا لا قائل به؛ وهذا يدلك على أنَّ هنَّ لا يدخلن في قوله: «فزوروها».

رابعًا: أنَّ السنة العملية من عهد أصحاب النبي ﷺ فما بعد هي أن زيارة القبور من شأن الرجال لا النساء، فما كان يُعهد أن النساء يزرن المقابر، وهذا يدلك على أن فقه السلف هو أن زيارة القبور من شأن الرجال لا من شأن النساء، بل أخرج ابن أبي شيبة عن عمر رَضِوَاللَّهُعَنْهُ قال: (وجدنا أضل النَّاس زائرات القبور)،فهذا يدلك على أنَّ السلف كانوا يرون أن زيارة النساء للقبور أمرٌ منكر.

خامسًا: أنَّ النظر في المقاصد الشرعية يدل على أن النساء لا يدخلن في هذا الحديث في قوله: «فزوروها»؛ وذلك أنَّ الشريعة جاءت بأمر النساء بالقرار في البيوت فكيف مع وجود الفتنة بهنَّ ومنهنَّ!!.

أما الفتنة بهنَّ: فإن خروج النساء لا شك أنَّ فيه فتنة للرجال، قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «المرأة عورة فإذا خرجت استشرفها الشيطان»، فلو أنّه أبيح للنساء أن يدخلن إلى المقابر التي هي محل الموعظة والتذكر والتفكر في مصير الإنسان، وإذا بالرجل يرى هذه المرأة تروح، وهذه المرأة تغدو، وهذه تمر بين يديه، وهذه ربما وقفت أمامه، وهذه ربما احتكت به إذا كانت المقبرة ضيقة، فبالله أي تَذكرٌ حينئذ وأي تفكر؟!

أما الفتنة منهنَّ: فمعلوم ما عليه النساء من الضعف وقلة الصبر في الغالب، فإذا دخلت المقبرة فشاهدت هاهنا قبر أبيها، وهاهنا قبر ابنها، وهناك قبر أخيها، وفي المكان الرابع قبر أمها، ما المظنون أن تفعل؟ إذا كان الرجل القوي ربما يتماسك وربما يكون منه شيء من البكاء، فكيف الحال بالنسبة للنساء؟ فحدِّث ولا حرج مما يكون منهن من صياحٍ وعويل، فدل هذا على أن هذه الحال بالنسبة للنساء أمر لا ينبغي أن يدخل في هذا الحديث.

وأعجبتني كلمة لابن الحاج المالكي في كتابه «المدخل» ذكر فيها في المجلد الأول من كتابه المدخل، ذكر أن الخلاف إنما يكون أو يتصور فيما مضى حينما كانت النساء على ما كنت عليه من الحشمة والحجاب والعفاف، أمَّا في هذا الزمان -ولاحظ أنه يتكلم عن عهده وتوفى سنة (٧٣٧) ليس في هذا

الزمن- يقول: (وأما في هذا الزمان فمعاذ الله أن يقول من عنده علم بل من عنده مروءة وغيرة على الدين إنَّ هذا جائز)، وما الذي نقوله نحن في هذا الزمان؟!

الوجه الثاني: من استدلالهم بالحديث هو قولهم: إنَّ قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فإنها تذكركم الآخرة»، حكمة تصلح للرجال والنساء يعني كما أن النساء بحاجة إلى تذكر الآخرة فالنساء أيضًا بحاجة على تذكر الآخرة.

قلنا: سلَّمنا بأن هذه حكمة تصلح للاثنين، ولكن عرَض هذه المصلحة مفسدة متحققة أو مظنونة، والقاعدة أنه إذا تعارضت مصلحة مع مفسدة فإنه تدرء المفسدة بترك المصلحة، فدرء المفاسد مقدم على جلب المصالح [٣٦٣]

الأمر الثالث والأخير في الحديث هو: النهي عن إسراج القبور؛ يعني وضع القناديل عليها، يعني وضح السرج، السرج: يعني القناديل، يكون النهي إذًا عن إضاءتها وعن إنارتها، وهذا لا شك أمر منكر؛ **لأنَّه يترتب عليه**:

أولاً: وقوع ذريعة إلى تعظيم صاحب القبر.

ثانيًا: أنه تحصل التوهمات وتحصل التهيئات، وربما تُنسج الأساطير مع وجود هذه الإضاءة، وربما يظهر شيء من الظل فَتَعْظُم الفتنة بالقبور حينئذ[٣٦٤].

---

(٣٦٣) والمقصود أنَّ نَهْيه عليه الصلاة والسلام هذا النهي البليغ بصيغة اللَّعْن من أقوى ما يكون في الدلالة على التحريم؛ تحريم زيارة النساء للقبور.

(٣٦٤) وهذا التعْليل -أعني كون ذلك سدًا لذريعة الشرك بالله ﷻ- أقوى من التعْليل بأنَّ هذا فيه إضاعةٌ للمال؛ فإنَّ إضاعة المال قد كَرِهَهَا الله ﷻ، لكن لم يردْ في ذلك أن يصل

أخيرًا الحكم على هذا الحديث : الحديث فيه كلام من جهة ثبوته، ومدار الخلاف على رجل في الإسناد هو أبو صالح، واخُتلف فيه:

- هل هو أبو صالح مولى أم هانئ وكان اسمه باذام أو باذان، وهذا أكثر أهل العلم على تضعيفه .

- أو هو أبو صالح ذكوان السمان الذي هو ثقة مشهور من رجال الصحيح.

اختلف أهل العلم في ذلك، منهم من رجح الأول وهم الأكثر، وعليه فالحديث عندهم ضعيف، ومنهم من رجح الثاني فالحديث عندهم ثابت.

وعلى كل حال الحديث حسَّنه وأثبته جماعة من أهل العلم ومنهم الترمذي، ومنهم البغوي، ومنهم ابن حبان صححه، وقال الحاكم: (حديث تداولَته الأئمة)، وكذلك أثبته شيخ الإسلام ابن تيمية، وكذلك ابن القيم، ومن المعاصرين الشيخ أحمد شاكر، وغيرهم من أهل العلم.

وعلى كل حال: **الحديث فيه -كما ذكرت لك- ثلاثة أمور؛ أمران منهما لهما شواهد فالمعنى صحيح لا شك فيه، وذلك:** النهي عن اتخاذ القبور مساجد، **و**نهي النساء عن زيارة القبور.

يبقى فقط **الأمر الثالث** وهو: النهي عن إسراج القبور، **وهذا لو قلنا بضعف الحديث يستدل عليه:**

الأمر إلى حدِّ اللَّعْن، فكون ذلك الأمر يُتوعَّدُ عليه باللَّعْن دليل على أنَّ الأمر فيه عظيم ويمسّ جَناب أمر عظيم ألَا وهو: جَناب التوحيد.

أولاً: أنَّه ذريعة إلى وقوع الشرك فيُنْهى عنه لأجل ذلك.

ثانيًا: يُنْهى عنه لأجل أنه أمر محدث وبدعة، إذ وُجد المقتضي لفعل ذلك بعهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وزال المانع ولم يفعل، فيكون فعله إحداثًا وابتداعا.

ثالثًا: فيه إضاعة للمال، والله جَلَّ وَعَلَا كَرِهَ لنا إضاعة المال.

والله عَزَّ وَجَلَّ أعلم.



قال المصنف رحمه الله:

٢٢-بَابُ
مَا جَاءَ فِي حِمَايَةِ الـمُصْطَفَى ﷺ جَنَابَ التَّوْحِيدِ، وَسَدِّهِ كُلَّ طَرِيقٍ يُوصِلُ إِلَى الشِّرْكِ

وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [التوبة:١٢٨] الآيَةَ.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا، وَلَا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ؛ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ، وَرُوَاتُهُ ثِقَاتٌ.

وَعَنْ عَلِيِّ بْنِ الـحُسَيْنِ؛ أَنَّهُ رَأَى رَجُلًا يَجِيءُ إِلَى فُرْجَةٍ كَانَتْ عِنْدَ قَبْرِ النَّبِيِّ ﷺ؛ فَيَدْخُلُ فِيهَا فَيَدْعُو؛ فَنَهَاهُ، وَقَالَ: أَلَا أُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا سَمِعْتُهُ مِنْ أَبِي، عَنْ جَدِّي، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا، وَلَا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا؛ فَإِنَّ تَسْلِيمَكُمْ يَبْلُغُنِي أَيْنَ كُنْتُمْ». رَوَاهُ فِي «الـمُخْتَارَةِ».



قال الشارح وفقه الله:

هـذا البـاب عقـده المؤلـف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تتـويجٌ وخلاصـةٌ للأبـواب القريبـة الماضية التي تعلقت بالقبور؛ فإنَّ الذي يجمعُ كلَّ الأدلة التي مرت وغيرها مِـمَّا يتعلقُ بأحكام الشرع في شأن القبور والاحتياط فيها؛ مرجعُ ذلك كلِّه إلى هذا الذي بَوَّبَ المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الباب عليه. وهذه قاعدةٌ من قواعدِ الشريعة

العظيمة؛ ألا وهي «قاعدةُ سدَّ الذرائع»، فالمعنى الذي يجمع ما مضى وغيره مما يُرجع إليه هو سدُّ الذرائع إلى الشرك.

وقد أحسن المؤلف ما شاء الله أن يُحسن في رصف حروف هذا الباب، مع انتقاء الأدلة على ما بوَّب عليه، والمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذو عنايةٍ فائقة بهذا الموضوع، ولذلك بوَّب بابين متشابهين، هذا الباب الذي بين أيدينا أحدها، والآخر هو الباب قبل الأخير في هذا الكتاب؛ حيثُ عَنْوَنَ له المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: «**باب ما جاء في حماية النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حمى التوحيد وسده طرق الشرك**»، فالمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يُبْدِئ ويعيد ويؤكد ويكرر هذا الأصل الأصيل في الشريعة لاسيما إذا تعلق بجناب التوحيد.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**باب ما جاء في حماية المصطفى صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ جناب التوحيد**»؛ **المصطفى**: هو المُصَفَّى من الشيء، وهو خلاصتُه وصفوته. والأصلُ في وصف النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بالمصطفى هو ما أخرج الإمام مسلم في صحيحه من حديثِ واثلة بن الأسقع رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنَّ النَّبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «إنَّ الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشًا من كنانة، واصطفى من قريشٍ بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»، فهو المصطفى صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وفي هذا يقول أبو طالب في أبياته الشهيرة كما في سيرة ابن هشام وغيرها:

إذا اجتمعت يومًا قريشٌ بمفخرٍ ... فعبدُ منافٍ سرُّها وصميمُها

وإن حصلت أشرافُ عبدِ منافِها ... ففي هاشم أشرافُها وقديمُها

وإن فخـرتْ يومًـا فـإنَّ محمـدًا هو المصطفى من سرِّها وكريمها

فالنبي الكريم محمد بن عبد الله هو المصطفى من العرب، وجنس العرب أفضل من غير هذا الجنس من أجناس البشر، إذًا هو صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المصطفى، وهو السيد الكريم، سيد ولد آدم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. هذا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان حريصًا على حماية جناب التوحيد.

وجناب الشيء: جانبه؛ يقال لفناء الدار (جنابها) لأنَّ هذا الجناب يحيط بالدار، ويكون حولها. إذًا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَمَى حِمَى التوحيد من جميع جوانبه، وسدَّ كل الذرائع التي تُكَدِّرُ صفوه سواءً كانت قولية أو عملية، كل ما يخدِش هذا التوحيد أو يُنقصه أو ينقضه فقد بيَّنه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ البيان التام.

وهذه القاعدةُ الأصيلة في الشريعة -وهي **قاعدة سدِّ الذرائع**- **المراد بها**: منع كل ما يُؤدي إلى المحظور وإن لم يكن في أصله محظورًا.

وهذا قد قامت عليه أدلة كثيرة في الكتاب والسنة، وشواهده فيهما من الكثرة بحيث يتعذر جمع ذلك، وقد أورد ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في كتابه «إعلام الموقعين» شواهد من هذه القاعدة في الكتاب والسنة تسعة وتسعين شاهدًا، والأدلة أكثر من هذا، ولكنَّه أراد أن يقف عند هذا العدد.

ومن دلائل هذه القاعدة قول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[الأنعام:١٠٨]؛ فقد نهى الله جَلَّ وَعَلَا عن سبِّ آلهة المشركين، وإن كان هذا في أصله ليس محظورًا لكن قد يكون طريقًا لوقوع المحظور؛ وهو أن يتجرأ هؤلاء على سبِّ الله جَلَّ وَعَلَا، فمنع الله جَلَّ وَعَلَا من هذا

السبِّ لآلهتهم. وقل مثل هذا في قول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا﴾[البقرة:١٠٤].

فالشاهد في هذا أن أدلة إثبات قاعدة سد الذرائع إلى الشر وما إليه كثيرة.

ومن فِقْهِ هذه القاعدة: أن تعلم أنَّه كلما كان الشيء أعظم تحريمًا كانت عناية الشريعة بسدِّ الذريعة إلى الوقوع فيه أعظم وأكثر[٣٦٥]، كلما كان المحرم أشنع كان سد الذرائع إليه أكثر وأعظم .

ولذلك تأمل معي مثلًا في جريمة الزنا؛ كيف أنها لما كانت من عظائم الجرائم في الشريعة تكاثرت الأدلة على سدِّ الأبواب والنوافذ التي توصل إلى هذه الجريمة، تجد الشريعة منعت من سفور المرأة، منعت من سفرها بلا محرم، منعت من الخلوة بالنساء أو الاختلاط بهنَّ أو الدخول عليهنَّ، في أوامرَ ونواهٍ شتى كلها تدور على هذا المعنى؛ وهو سد الذريعة إلى الوقوع في هذه الجريمة.

انظر مثلًا إلى وقوع التشاحن والتباغض بين المسلمين؛ كيف لـمَّا كان أمرًا عظيم الضرر وممنوعًا في الشريعة أشد المنع؛ سدت الشريعة الذريعة إليه في أبواب شتى، تتعلقُ بالبيوع، أو تتعلق بمسائل النكاح، أو ما يتعلق بمسائل اللهو، أو غير ذلك، كثيرٌ من أبواب الشريعة الممنوعة في شأن المعاملات والبيوع؛ إنَّما

(٣٦٥) حتى قال أهل العلم: «إنَّ الإسلام أشدُّ ما يكون في شأن التوحيد، والإبعاد عن الشرك، وأسهل ما يكون في العمل» ، في العمل والعبادة هي شريعة سمْحة سهلة، لكن ثمَّة تأكيد وتشديد على ما يتعلق بالشرك وذرائعه.

مُنعت لسدِّ الذريعة إلى هذا الأمر، ومن ذلك: بيع الرجل على بيع أخيه، وسومه على سوم أخيه، وكثير من مسائل الربا، ونهيُ المسلم على أن يخطِب على خطبة أخيه، كذلك نهي الشريعة عن بعض اللهو الذي يؤدي إلى حصول البغضاء والشحناء ؛كالنَّرد والشطرنج وما إلى ذلك. إذًا كلما كانت المعصية في الشريعة أعظم؛ كلما وَجَدَتَ أنَّ مساحةَ سد الذريعة إليه أكبر.

وإذا طبقنا هذا على ما يتعلق بالشرك الذي هو أكبر جريمة على وجه الأرض؛ وجدت أنَّ القاعدة ظاهرة جلية تمام الظهور والجلاء، تلاحظُ أنَّ الشريعة في سدِّ الذرائع إلى الشرك كبيره وصغيره قد جاءت عليها أدلةٌ كثيرة؛ أعني جاءت الأدلة بسد الذرائع إلى الشرك في نواحٍ كثيرة.

- خذ مثلًا ما يتعلق بالقبور؛ مرت معنا أدلة شتى في هذا الجانب؛ تجد أن الشريعة نهت عن اتخاذ القبور مساجد، نهت عن البناء على القبور، نهت عن أن تكون القبور مُشْرِفة -يعني مرتفعة- ، نهت عن تجصيص القبور، نهت عن إنارة القبور، نهت عن إرخاء الستور على القبور، نهت عن إضاءة القبور، عن الكتابة عليها، في أوامر كثيرة في الشريعة كلها لأجل سد الذريعة إلى الوقوع في الشرك.

- تأمل مثلا فيما يتعلق بجناب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ تجد نهي النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن إطرائه، كما مر معنا: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم»، تجد أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ينهى عن أن يُتخذ قبره عيدا، تجد أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ينكر على من قال: "ما شاء الله وشئت"، تجد النبي

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ما مضى من الكلام في حديث «إنه لا يستغاث بي؛ إنما يستغاث بالله»، تجد أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَرِهَ من أصحابه أن يقولوا في حقه: (يا خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا)، أو أنهم يصفونه بأنه (أفضلهم فضلًا، وأعظمهم طَوْلًا)، ويقول: «قولوا بقولكم أو بعض قولكم ولا يستجرينكم الشيطان».

➢ تجد الشريعة تنهى عن أشياء كثيرة؛ تنهى عن التصوير ، يخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن أشد الناس عذابًا المصورين. تجد أنَّ الشريعة جاءت بالنهي عن التشبه بالكفار، «من تشبه بقوم فهو منهم»، ولاحظ ما يندرج تحت هذا الباب.

➢ تجد أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ينهى عن الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها؛ لأجل سد الذريعة إلى مُشابهةِ المشركين التي هي ذريعة إلى الوقوع في الشرك بالله. حَدِثْنِي بالله أتجد أن هذا الأمر يكاد يخطر على بال المصلي عند طلوع الشمس أو عند غروبها أنه يَفْعَلُ الفعل الذي يفعله عُبَّاد الشمس أو عُبَّاد الشيطان! كثيرٌ من النَّاس لا يخطر ببالهم هذا الأمر، لكن مع ذلك جاءت الشريعة بالتشديد على هذا الأمر خشية الوقوع فيه ولو بعد أمد، لأن الشيطان ليس له خطوة واحدة ، الشيطان له خطوات.

ولذلك التساهل في ذريعة الشرك يؤدي إلى الوقوع فيه ولو بعد حين، مر معنا في تفسير قول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾[نوح:٢٣]؛ كيف وقع الشرك بهؤلاء الصالحين؟

أكان واقعًا في نفس الوقت أو بُعَيْدَهُ لما ماتوا؟ أو كان هذا بعد أمد طويل؛ بعد أن انتهى جيل من الناس!! (٣٦٦) إذًا لا ينبغي التساهل في هذا المقام.

وأنتَ إذا تأملت طريقة السلف الصالح وما مضى عليه الأئمة الأعلام من فقهاء الإسلام؛ وجدت عنايتهم الشديدة بهذه القاعدة الأصيلة، استفادوها وأحسنوا تعلمها من لدن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

هذا عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ -كما عند ابن سعد بإسناد صحيح كما قال الحافظ في الفتح- بلغه أن الناس تنتاب الشجرة التي بايع الصحابةُ تحتها رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فتوعدهم على ذلك، ثم إنه بعث إليها فقطعها. شجرة بويع تحتها النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجاء ذكرها في القرآن: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾[الفتح:١٨]؛ ومع ذلك عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يقوم بقطعها خشية الفتنة بها.

لما فتح المسلمون تُسْتر؛ أرسلوا إلى عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ -كما عند ابن أبي شيبة في المصنف- أرسلَ أبو موسى إلى عُمر أنهم وجدوا ميتًا في تابوت لم تأكله الأرض ولم تأكله الهوام، فأرسل إليه عمر أنه نبيٌ من الأنبياء، ويقال إنه دانيال،

---

(٣٦٦) يأتي قائل منهم اليوم ويقول: "سبحان الله نمنع التصوير لأجل ألا يقع الناس في الشرك! والناس الآن واعية ومتعلمة"، نقول: ياالله العجب! كيف دخل الشرك على الناس إلا من قِبلِ التصوير، ولم يكن هذا بعد يوم أو يومين أو سنة أو سنتين، كان بعد ذلك. والناس فيهم جهل بالتوحيد، بلْ لن تقوم الساعة حتى تُعبدَ الأصنام، وحتى تلْحق فئامٌ من أُمَّة محمد ﷺ بالمشركين.

وأَمَره أن يذهب هو وواحد معه فقط فيحفرون له قبرًا لا يعلمه أحد خشيةَ الفتنة به. والقصة جاءت في مغازي ابن إسحاق أنهم لما فتحوا تُسْتَر وجدوا هذه الجثة، فحفروا ثلاثة عشر قبرًا، ثم دفنوه في واحدٍ منها في الليل، ثم طمروا تلك القبور جميعًا حتى لا يُهتدَى إلى عين القبر. مع أنَّ هذا الكلام كان في عهد قوة التوحيد، في عهد أصحاب النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ والتابعين، ومع ذلك كانوا أهل حزم وجِدّ في سد أيِّ ذريعة توصل إلى الشرك.

إذًا على دعاة التوحيد وطلبة العلم السائرين على نهج النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وسبيل السلف الصالح أن يفقهوا هذه القاعدة وأن يعملوا بها؛ فإنَّ النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كان حريصا عليها أشد الحرص، في كل حياته وإلى آخر لحظات حياته، إلى اللحظات الأخيرة وهو يسدُّ كل ذريعةٍ توصل إلى الشرك، (لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد؛ يُحذر ما صنعوا).

ولا يَهولَنَّكَ يا طالب العلم ما يشغِّب به أعداء الحق وأهل الشر والفتن؛ حينما يشغِّبون على هذه القاعدة الأصيلة التي توارد جميع أطياف الضلال والانحراف من المتعلقين بالقبور أو الذين ينهجون نهج العلمانية أو العقلانية والتنوير أو غير ذلك، تراهم يتواردون على الطعن والقدح في هذه القاعدة وعلى ذمِّ أهل السنة؛ لعنايتهم بهذه القاعدة ويقولون: إنَّكم أسأتم الظنَّ بالمسلمين، وشددتم على المسلمين، وضيقتم الخناق على المسلمين، ومنعتموهم من مساحةٍ من الحلال لأجل سد الذريعة إلى الوقوع في الحرام. لا يهولنك يا طالب العلم ذلك؛ فدونك سنة رسول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وسيرته، اقرأ وتأمل وانظر

كيف كان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حريصًا أشد الحرص على سد أي ذريعة توصل إلى الشر.

والقوم ليس حرصهم على هدم هذه القاعدة وإضعاف العناية بها إلا لأجل أنها إذا انهدمت انفتح الباب عندهم إلى إيصال الشر والفساد والبدع بل والشرك إلى المسلمين، لأنَّ هذه القاعدة تحمي حِمى التوحيد، وتحول دون أن يُقرَبَ جناب التوحيد، فإذا انهدم هذا السور وهذا الجناب فما أسهل الوصول إلى التوحيد وتفكيك عراه، فإنَّ الراعي حول الحمى يوشك أن يقع فيه.

فالحرص الحرص يا طلبة العلم ويا معشر الدعاة على العناية بهذا الأمر العظيم، فإنَّ التوحيد والعقيدة الصحيحة أثمنُ ما يملكه الإنسان، فإذا فقده فقد خَسِرَ خسرانًا مبينًا. وأنت إذا كنت تملك جوهرة ثمينة قيمتها الألوف المؤلفة لا ترميها على قارعة الطريق أو تجعلها مبتذلة في كل مكان، بل تحافظ عليها وتجعلها في مكانٍ وثيق وأمين، خشية أن تذهب عنك؛ التوحيد والإيمان أعظم من كل جواهر الدنيا(٣٦٧)، فالله الله بالحرص والجد والعناية بالحفاظ على هذا التوحيد، والحيلولة دون كل ما يخدش فيه، والله المستعان.

---

(٣٦٧) فلأجل هذا نبّه المؤلّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد أحسن ما شاء الله أن يحسن في عقده هذا الباب العظيم وفي رصْف حروف هذا الباب المهمّ، فإن هذا الباب الذي عقده وهذا العنوان الذي وضعه لقاعدة عظيمة تُنبّه المسلم إلى أصل من الأصول الشريفة التي ينبغي أن لا تغيب عن أذهان أهل العلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة:١٢٨] الآيَةَ).

هذه الآية العظيمة التي جاءت في خاتمة سورة التوبة يمتن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيها على الناس ببعثة هذا النبي الكريم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولاشك أن بعثة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أعظم نِعَمِ الله على الناس جميعًا منذ بعثته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾[آل عمران:١٦٤]؛ نعمةٌ وأيُّ نعمة! ورحمةٌ وأيُّ رحمة! ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[الأنبياء:١٠٧]. النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعثه الله لغايةٍ عظيمة وحكمة بالغة؛ أن يكون سببًا في إخراج الناس من الظلمات إلى النور، ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾[إبراهيم:١]، فالنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعثته أعظم نعمة وأكبر رحمة امتن الله عَزَّوَجَلَّ بها على الناس.

يقول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ﴾؛ تعرفونه، تعرفون نسبه، وتعرفون حاله، وتعرفون خُلُقه، تعلمون يقينًا صدقه، وأنه لم يكن ليكذب على الله عَزَّوَجَلَّ. ولاشك أنَّ أحوال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من دلائل نبوته، والعقلاء يستدلون على صدِق المتكلم بحاله، فإذا كانت حاله وسمته وخُلقه تشهد بصدقه حكموا بذلك، والنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يكن شخصًا غريبًا على

الذين بُعِث فيهم، بل كانوا يعرفونه، وكانوا يُدركون مدى صدقه ﷺ حتى إنهم كانوا يلقبونه بالأمين.

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾(٣٦٨)؛ يشق عليه كثيرًا ﷺ الشيء الذي يُتعب المسلمين ويشق عليهم(٣٦٩)، لأنَّه ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾[التوبة:١٢٨]، **رؤوف**: كثير الرأفة، **رحيم**: كثير الرحمة ﷺ(٣٧٠)، وهذا يعلمه ويتيَقَّنه كلُّ من اطلع على طرفٍ من سنة النبي ﷺ، فأيُّ شفقة تلك الشفقةُ، وأي رحمةٍ تلك الرحمة التي كانت من النبي ﷺ تجاه أمته، لقد كان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ حريصًا أشد الحرص على هذه الأمة، بذل كل ما يستطيع في سبيل دعوتها وفي سبيل هدايتها،

---

(٣٦٨) أي يشتدّ عليه جدًا دخول العَنَت على المسلمين، وأعظم العَنَت: الشرك والكفر وما يؤدّي إلى ذلك، فهذا الأمر كان عظيمًا عند النبي عليه الصلاة والسلام.

(٣٦٩) أي يشتدّ عليه جدًا دخول العَنَت على المسلمين، وأعظم العَنَت: الشرك والكفر وما يؤدّي إلى ذلك.

(٣٧٠) وهذه الرأفة والرحمة دعتْه إلى أن يؤكّد على هذا الأمر وأن يشدّد فيه من أول بعثته عليه الصلاة والسلام وإلى اللَّحظات الأخيرة من حياته، «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»، تأكيد على مسألة التوحيد، وهذه هي الرأفة الحقيقة، وهذه هي الرحمة الحقيقة؛ أن تسعى في إبعاد من ترحمه ومن ترأف به عن عذاب الله ومساخطه، فكيف إذا كانت هذه المساخط تورد دار البوار وتُخلِّدُ فيها والعياذ بالله!.

حتى إنَّه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما ترك شيئًا يُقرِّب إلى الله إلا بيَّنه، ولا شيئًا يُباعد عن الله إلا حذر منه، برأفة ورحمة ولطف منه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

ما ألطف قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما في حديث أبي هريرة عند أبي داوود والنسائي وغيرهما: «إنما أنا لكم مثل الوالد أعلِّمكم»، أترى ألطف وأرحم وأحرص وأشفق من الوالد في التعليم؟! هذا النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يخبرنا أنه لنا مثل الوالد يعلِّمنا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولذلك ما ترك شيئا نحتاجه في أمور ديننا إلا بيَّنه لنا، في صحيح مسلم قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما بعث الله من نبي إلا كان حقًا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم، وأن يحذرهم من شر ما يعلمه لهم»؛ إذا كان هذا شأن كل نبي فكيف بسيد الأنبياء صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولذلك يقول أبو ذر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «ما تركنا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا وكلُّ طائر يقلِّب جناحيه في السماء قد آتانا منه علما»، كل طائر في السماء ما ترك النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيان حكمه بالنسبة لهذه الأمة، فالصغير والكبير والدقيق والجليل مما يحتاجه النَّاس بيّنه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعظم بيان، وكان ذلك منه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كل شيء، حتى كيف يقضي الإنسان حاجته؛ ولذلك ذلك اليهودي يسأل سَلمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: (علَّمكم نبيكم كل شيء حتى الخراءة؟) يعني: حتى كيف يقضي الإنسان حاجته؟ فيجيب سلمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أجل، ثم يذكر وصايا النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الوصايا المتتالية في هذا الشأن الدقيق جدا، حتى كيف يلبس الإنسان حذاءه، كيف يأكل وكيف يشرب، وكيف ينام، وكيف يقوم من نومه، كل ذلك بينه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ البيان الدقيق.

فإذا كان هذا منه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الأمور الدقيقة؛ فكيف بأشرف الأمور! وكيف بأهمِّ الأمور! وكيف بأعظم الأمور! ألا وهو ما يتعلق بتوحيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لا شك ولا ريب أنَّ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد بيَّن الأمر، وجلَّى المقام، وأقام الحجة، ما ترك شيئًا يقرِّب إلى الله عَزَّوَجَلَّ ويزيد المسلم توحيدًا لربه إلَّا بيَّنه، وما ترك شيئًا يخدش في هذا التوحيد أو يقدح في صفوه إلا بيَّنه وحذَّر منه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

إذًا أراد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن ينبه بإيراد هذه الآية على أنَّ من رحمته وحرصه ورأفته وشفقته بهذه الأمة صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سدَّ كل ذريعةٍ توصل إلى الشرك . وهذا مقدمة لما سيأتي بعد ذلك من الحديثين الذين أوردهما المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا، وَلَا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ؛ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ، وَرُوَاتُهُ ثِقَاتٌ**).

أورد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا الحديث كما ذكر المؤلف حديثٌ حسن، ورواته ثقات، وقال شيخ الإسلام وكذلك ابن القيم: (رواته ثقاتٌ مشاهير)، وذكر ابن عبد الهادي في «الصارم» أنَّ الحديث له طرق يرتقي بها إلى درجة الصحة .

هذا الحديث فيه ثلاث مسائل:

❁ **المسألة الأولى**: نهي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن جعل البيوت قبورا، **وهذا يُستفاد منه فائدتان:**

الفائدة الأولى: أنه ينبغي للمسلم أن يحرص على أن يعطر بيته بطاعة الله سبحانه؛ بالصلاة وتلاوة القرآن وما إلى ذلك من أنواع العبادة، ويشهد لذلك ما ثبت في الصحيحين من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم ولا تتخذوها قبورا»، بل أخبر النبي كما عند البخاري: «أن خير صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة». إذًا النوافل الأفضل أن يصليها المسلم في بيته، وليُبْشر بما يحصل له في بيته من الخير والبركة بسبب طاعة الله عَزَّ وَجَلَّ في هذا البيت. كذلك تلاوة القرآن أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبر كما في صحيح مسلم قال: «لا تجعلوا من بيوتكم مقابر، فإنَّ الشيطان يفر من البيت الذي تُقرأ فيه سورة البقرة».

ومع الأسف الشديد كثيرٌ من بيوت المسلمين تجد فيها من المشكلات والتباغض وأسباب الشحناء التي تقع بين أفراد الأسر بسبب قلة ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وقلة التعبد لله عَزَّ وَجَلَّ في البيوت، مع ما تحتويه هذه البيوت غالبًا من معاصٍ ومنكرات. فعلى المسلم أن يلاحظ هذا الأمر في نفسه، وفي غيره من أهل بيته، وهو أن يكون له حظٌ ونصيب من العبادة؛ من صلاة، من تلاوةٍ لكتاب الله، من ذكرٍ لله جَلَّ وَعَلَا في بيته، حتى يكون بيته مُنِيرًا، تتنزل عليه البركات والرحمات، ويفر منه الشيطان.

الفائدة الثانية: أنَّ الحديث أفاد أنَّ القبور والمقابر ليست محلًا للصلاة، فإنَّ هذا هو المستقر في أذهان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ولأجل هذا أمَرهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن لا يجعلوا بيوتهم قبورا، فإنهم يعلمون أنَّ القبور ليست محلًا للصلاة، فلا ينبغي تشبيه البيوت بها.

وهذه مسألة مضى الحديث فيها، وقلنا أنه لا يجوز الصلاة في المقابر أو عند القبور، وأن هذا ما صح عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النهي عنه، كما في هذا الحديث وكما في حديث ابن عمر السابق، وكما في قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كل الأرض مسجد إلا المقبرة والحمام»، وعلى هذا مضى السلف الصالح رَحِمَهُمُ اللَّهُ. وقد أورد ابن حزم في المحلى آثارًا عن أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في النَّهي عن الصلاة في المقابر أو عند القبور، فقد أورد الآثار عن عمر، وعلي، وابن عمر، وأنس، وابن عباس، وأبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وأرضاهم كلها فيها النهي عن ذلك، ومن يضاهي هؤلاء الأخيار في علمهم وتقواهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وأرضاهم؟

فلا يغرنَّك ولا يهولنَّك ما تجده في كلام بعض الفقهاء المتأخرين من الترخيص في ذلك، أو وصف هذا الفعل بأنه مكروه كراهة تنزيه؛ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حذَّر من هذا الأمر واحتاط فيه غاية الاحتياط، وهكذا السلف الصالح من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ و رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من الصحابة فمن بعدهم كان هذا الأمر مستقرًا في أذهانهم، ما كانوا يصلون في المقابر، ولا كانت محلًا للتعبد، وعلى كل حال كل كلامٍ لأحد من الناس فإنه معروض على الكتاب والسنة.

وكل إنسانٍ سوى ما استدركوا　　يؤخذ من كلامه ويتركُ

ما منا إلا رادٌّ ومردود عليه إلا صاحب ذاك القبر صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما قال الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

أما المسألة الثانية الواردة في هذا الحديث فهي: نهي النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن أن يُجعل قبره عيدا. **العيد** فيه معاودةٌ واعتياد، **وهو**: كل ما يُقصد ويُعتاد مجيئه من زمان أو مكان.

-أما الزمان؛ فما يعتاد تكرره من أوقات معينة؛ كالعيدين.

-وأما المكان؛ فما يعتاد المجيء عنده في أزمانٍ مخصوصة أو هيئاتٍ مخصوصة، لأجل التعبد هناك أو غيرِ ذلك.

ويدلُ على ذلك -ما مر بنا سابقًا- من حديث ثابت بن الضحاك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، حينما قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في شأن من نذر أن ينحر إبلا ببوانه، قال: «هل كان فيها عيد من أعيادهم»، ولأجل هذا من الأعياد المكانية عند المسلمين: منى، وعرفات، ومزدلفة، ومكة؛ هذه أعيادٌ مكانية للمسلمين، لأنهم يتتابونها ويعتادون المجيء إليها على هيئة مخصوصة، فيتعبدون لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هناك.

النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهى عن أن يُجعل قبره عيدًا، وهذا كما قرر علماء التوحيد يشمل صورًا منها:

الصورة الأولى: تَكْرَارُ المجيء لزيارة قبر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فإن هذا داخلٌ في اتخاذه عيدًا، وقد أورد إسماعيل الجهضمي القاضي المالكي في كتابه «المبسوط»، وهو كتابٌ حافل فيه روايات كثيرة عن الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ،

وبعضها ليس في الكتب التي نقلَت عن مالك، كـ«المدونة» لكنه كتابٌ مفقود، ولكن نُقلت عن هذا الكتاب نقولات في كتب المالكية وغيرهم، من ذلك هذا الأثر عن الإمام مالك وهو أثرٌ مهم، فيه أنه سُئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن أناس من أهل المدينة لم يرجعوا من سفر ولا يريدون سفرًا، يأتون إلى قبر النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كل يوم مرة أو مرتين فيسلِّمون على النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، سُئل الإمام مالك بن أنس رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن هؤلاء فقال: «ما أدركنا على هذا أهل الفقه عندنا في بلدنا، ولا يُصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها، أكره ذلك إلا لمن أراد سفر أو جاء من سفر»، وهذا أثر مهم عن الإمام مالك بن أنس إمام هذه البلدة الطيبة، مدينة رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وهو من أفقه الناس بما يتعلق من أحكامٍ تتعلق بقبر النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أو مسجده.

الصورة الثانية: أن يُعتاد المجيء إلى قبره صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ على هيئة مخصوصة وكيفية معهودة كما يفعله بعض الناس، فإنَّ لهم طُقوسًا يفعلونها عند قبر النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ويجتمعون عليها، ولا شك أنَّ هذا أمرٌ منكر، وداخلٌ في اتخاذِ قبر النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عيدا، وفي مصنف عبد الرزاق أنَّ الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ رأى أناسًا اجتمعوا عند قبر النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فنهاهم عن ذلك، وحدَّثهم بحديث النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «لا تجعلوا قبري عيدا».

الصورة الثالثة: قصد قبر النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لأجل الدعاء عنده؛ وهذا أيضًا داخل في معنى اتخاذ قبره عيدا، وهذا ما فهمه السلف الصالح رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ،

كما سيأتي معنا في أثر علي بن الحسين زين العابدين رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ فإنه رأى رجلًا يأتي إلى فرجة -يعني كوة أو شق- في جدار عند قبر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيدعو عنده، فنهاه رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن ذلك وحدَّثه بما حدثه به أبوه الحسين عن جده علي عن جده الأعلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفيما ذكر قريبٌ مما بين أيدينا، وفيه النهي عن اتخاذ قبره صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عيدًا. فهذا مما فهمه السلف في جعل قبره صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عيدًا.

الصورة الرابعة -وهو يفهم أيضا مما سبق- : شدُّ الرَحْلِ إلى قبر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بمعنى أن يسافر الإنسان والقصد أن يسافر الإنسان إلى المدينة، والقصد ليس زيارة المسجد وإنما زيارة قبره صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، والنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لا تشدوا الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى».

فهذه صورٌ أربع لمعنى قول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا تجعلوا قبري عيدًا»[(٣٧١)] [(٣٧٢)].

---

(٣٧١) والمقصود أن النبي عليه الصلاة والسلام نهى عن هذا الأمر، وأكَّد في عِدّة أحاديث على معناه؛ سدًا لذريعة الشرك، وإذا نُهِيَ عن هذا في قبره فغيره من القبور من باب أوْلى.

(٣٧٢) **وقد حرَّف بعضهم معنى الحديث وأوَّلوه بتأويل مسْتكره**، من ذلك: ما نقله السُّبْكي عن الزَّكي المُنذري أنَّه قال: «إنَّ معنى الحديث: الحثّ على الإكثار من زيارة قبره

عليه الصلاة والسلام، وألا يُهمَل ولا يُزارُ إلا في النادر كما هو حال العيد الذي لا يأتي في السَّنة إلى مرَّة».

وهذا في الحقيقة تأويلٌ بعيد مسْتكره، ولو كانت الشريعة تأتي في تقريرها للأحكام بمثل هذه الأساليب لكانت شريعةً مُلْغِزَة، تريد إضلال الناس لا هدايتهم. النبي عليه الصلاة والسلام يريد أنَّ الناس يكثرون المجيء إلى قبره فيقول لهم: «**وَلَا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا**» يا لله العجب! لو أراد النبي عليه الصلاة والسلام لبيَّنه بيانًا واضحًا، كما في نظائره: «تابِعُوا بين الحجّ والعمرة»، «بشّر المشائين في الظُّلم إلى المساجد»، «مَن غدا إلى المسجد أو راح أعدَّ الله له نُزُلًا من الجنَّة كلَّما غدا أو راح».. أساليب واضحة فيها الحثّ على التكرار والإكثار بدون أدنى لَبْس، فكيف وآخر الحديث ينقض هذا التأويل البعيد البغيض!! يريد النبي عليه الصلاة والسلام أن نكثر من المجيء إليه ثمَّ يقول: «**وَصَلُّوا عَلَيَّ؛ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ**»!! النبي عليه الصلاة والسلام -وكلّ مَن يفهم العربية يدرك هذا المعنى- أراد أن يبيّن لأُمَّته أنَّ ما يحصل له من سلام أمَّته عليه وصلاتهم عليه يبلغه ويحصل له في كلّ مكان فلا حاجة إلى انتياب قبره عليه الصلاة والسلام والإتيان إليه.

ثمَّ يُقالُ أيضًا: أين السّلف الصالح عن هذا الفضل العظيم الذي فهمه مَن قال هذا القول؟! أين تكرار مجيئهم إلى القبر؟ وأين عكوفهم عنده؟ وأين كثْرة زيارته؟ لا نجد شيئًا من ذلك البتَّة.

ابن عمرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا كان يأتي إلى قبر النبي عليه الصلاة والسلام إذا قَدِمَ من سفر ،كما سيأتي بعد قليل إن شاء الله، يقول عُبيد الله بن عمرَ بن حفْص الذي هو ابن ابنِ أخيه: «وما بلغنا عن أحد من أصحاب النبي ﷺ أنه فعل ذلك».

وهذا علي ابن الحسين -كما سيأتي بعد قليل إن شاء الله- الذي هو من أقرب الناس إلى النبي عليه الصلاة والسلام نسبًا، ومن أعظمهم تعظيمًا له عليه الصلاة والسلام وقيامًا

۞ **أما السلام على النبي** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **في قبره**؛ فإنَّ هذا مُرخصٌ فيه كما نصَّ عليه جمهور أهل العلم، ومنهم الإمام مالك، والإمام أحمد، وأبو داوود السجستاني، وابن حبيب من المالكية، وعامة أهل العلم.

ومما اسُتدل به عليه ما ثبت عن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أنَّه كان إذا قَدِم من سفر أو أراد سفرًا أتى عند قبر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يا أبا بكر، السلام عليك يا أبتِ» ثم ينصرف، وهذا أثر صحيح عنه، بل قال ابن عبد الهادي: (إنه مجمع على صحته عنه)، فهذا القدر لا بأس به؛ أن يأتي الإنسان متأدبًا دون صخب أو رفع صوت حيث قبر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثم يسلِّم هذا السلام المشروع ثم ينصرف، فلا وقوف طويلًا، ولا دعاء، ولا شيءٌ من هذا القبيل، هذا القدر لا بأس به كما نبه جمهور أهل العلم.

إذًا نستطيع أن نقول: **إنَّ إتيان قبر النبي** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **يكون على وجهين**: مشروع وغير مشروع.

بحقّه ومعَ ذلك ينهى رجلًا ينتاب فُرْجةً عند قبر النبي عليه الصلاة والسلام يدعو الله عندها. وهذا الحسن بن الحسن بن علي الذي هو ابن عمّه يفعل الشيء نفسه، كما سيأتي إن شاء الله. فأين فقْه السَّلف وأين حِرصهم على هذا الأمر!

فلا شكَّ أن هذا التأويل المذكور تأويلٌ باطل؛ تأْباه لغةُ العرب، وتأْباه النُّصوص، وتأْباه طريقة السّلف ومنهجُهم.

❖ **أما المشروع**: فهو أن يفعل الإنسان كما كان يفعل ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، وهو أنه إذا قدِم من سفر أو أراد سفر أتى إلى عند القبر فسلَّم السلام الذي ذكرته لك(٣٧٣).

---

(٣٧٣) وقد بنى جماعة من أهل العلم الترخيص في هذا الأمر على فعْله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ كالإمام أحمد، وقبله مالك، وأبو داوُد، وابن حَبيب، وغيرهم من أهل العلم، نصوا على أنَّه لابأس أن يأتي الإنسان إلى قبره ﷺ مسلِّمًا، ومُعتمدهم في هذا على هذا الأثر، وأيضًا على حديث عنه ﷺ مخرَّج عند أبي داوُد؛ أنَّ النبي عليه الصلاة والسلام قال: «ما من أحدٍ يسلّم عليَّ إلا ردَّ الله عليَّ روحي فأردّ عليه السلام».

فهذان هما أقوى ما يُستدلُّ بهما على هذه المسألة. وهذا الحديث فيه بحث حسَّنه بعض أهل العلم، ونازع في صحته آخرون؛ كابن عبد الهادي في «الصارم» فإنه قال: «ونُوزِعَ في دلالة هذا الحديث وفي ثبوته».

أمَّا من جهة المنازعة في دلالة الحديث: فإنَّ المسْتدلّين بهذا الحديث يذكرون أنَّ الحديث دليلٌ على أنَّ النبي عليه الصلاة والسلام يسمع سلام القريب فيردُّ عليه، وأمَّا البعيد فيُبلَّغُ سلامه، كما عند النسائي وغيره بإسنادٍ صحيحٍ عنه ﷺ أنه قال: «إنَّ لله ملائكة سيَّاحِين في الأرض يبلّغونني عن أمّتي السلام» ، فهو يُبلَّغُ سلام البعيد، ويسمع سلام القريب.

المنازِع في الاسْتدلال -من جهة الدلالة يعني- **يقول**: ليس في الحديث سماعه للسلام، وإنَّما فيه ردّ روحه لردّ السلام، وواضحٌ أنَّ ردّ الروح هنا هو ردٌّ خاص، وأنَّ روحه عليه الصلاة والسلام تُردُّ إليه بكيفية لا نعلمها، لكن نقطع أن الروح حينما تُردُّ إليه لا يكون حيًّا الحياة الدنيوية التي كان عليها قبل موته عليه الصلاة والسلام، وهذا بإجماع أهل العلم.

❖ وأمَّا **الممنوع فإنه يشمل صورًا:**

الصـورة الأولـى: أن يـأتيَ الإنسـان إلـى قـبر النبـي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لأجـل أن يدعوه ويستغيث به؛ وهذه هي الطامة الكبرى، هذه هي المصيبة العظمى.

ودعوة الأموات تبطل العمل وتسلخ الإيمان خاب من فعل

هـذا هـو الشـرك الأكـبر الـذي لا يغفـره الله عَزَّوَجَلَّ لأحـدٍ مـات عليـه. علـى الإنسان أن يحذر من ذلك، وهذا النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الذي يجيء هذا المسكين إلى عند قبره يستغيث به ويسأله؛ عـاش حياتـه صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ناهيًا ومحـذرًا عـن هذا الفعل القبيح، ووالله إنَّه ليكرهه، ووالله إنه لا يرضاه البتة عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ.

والله لو يرضى الرسول دعاءنا إياه بادرنا إلى الإذعانِ

والله لو يرضى الرسول سجودنا كنا نخر له إلى الأذقانِ

والله لا يرضيه منا غير إخلاصٍ وتحكيمٍ لذا القرآنِ

المقصود أنَّ المنازِع يقول: ليس في هذا الحديث أكثر من إثبات ردّ روحه لردّ السلام، أمَّا قضية السماع فهذه لم تردْ في الحديث ونبقى فيها على الأصل؛ وهي أنه يُبلَّغُ سلام البعيد، لا سيَّما وأنَّ هذا الحديث الآخر فيه عموم؛ «ما من أحد يُسلّم عليَّ» ولم يخُصّ ذلك بالبعيد.

على كلّ حال البحث في هذه المسألة يطول، ومن أهل العلم من اسْتدلَّ بهذا ومنهم مَن لم يسْتدل، لكن على كلّ حال فعْل ابن عمرَ دليلٌ على هذا الأمر، وهذا الحديث على البحث في دلالته، وعموم الأدلة التي جاءت عن النبي ﷺ في زيارة المقابر تشهد لذلك.

فيا من يدّعِي حُبَّ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليك بأن تفعل ما يحبه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وعليك أن تترك ما يكرهه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهذه العلامة الصادقة على أنك محب صادق لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الصورة الثانية: أن يأتي إلى حيث القبر لقصد الدعاء عنده، يأتي إلى المواجهة مثلًا ثم يقصُد أن يدعو الله هناك؛ لأنَّه يظن أنَّ هذا أدّعى وأقرب للإجابة ، وهذا كما ذكرته قبل قليل داخلٌ في مفهوم جعل قبره عيدًا.

إذًا لا شك أنه فعلٌ محدَث وفعلٌ مُبتدع، ويدل على ذلك أمران:

الأمر الأول: أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يثبت عنه قط أنَّه كان إذا أراد دعاءً أتى إلى أحد القبور فدعا، ولم يثبت عنه ذلك حثًا بقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولم يثبت عنه ذلك تقريرًا منه لفعل أحد، ولو كان هذا مشروعًا لفعَل، إذًا وُجد المقتضي وزال المانع ولم يفعل صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فدل هذا على أنه أمرٌ محدث مبتدع.

الأمر الثاني: إجماع السلف الصالح على عدم فعل هذا الأمر، ولو كان أمرًا مشروعًا لبادروا إليه، فأين أصحاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن هذا الفعل لو كان مشروعًا! وهم أحرص الناس إلى الخير، وأحرص الناس على أن يُستجاب دعاؤهم، وما فعلوا ذلك البتة، ما كانوا يقصُدون أن يأتوا عند قبر الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأجل الدعاء، وهو بين ظهرانيهم وعندهم وليس بينهم وبينه إلا خطوات، ما كانوا يفعلون هذا! بل عامتهم ما كانوا يأتون إلى القبر البتَّة، فعند عبد الرزاق في المصنف لما أورد أَثَرَ ابن عمر من طريق نافع عن ابن عمر أنه

كان إذا أراد سفرًا أو قَدِم من سفر أتى فسلَّم، عند هذا الأثر قال عبيدالله بن عمر بن حفص بن عمر بن الخطاب الذي هو ابنُ ابنِ أخي ابن عمر قال: «ما بلغنا عن أحد من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه فعل ذلك إلا ابن عمر» ، فإذًا ما كان أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يأتون إلى القبر فيدعون عنده. وأخرج القاضي إسماعيلُ في «المبسوط» عن مالكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: أنه كره من جاء مُسَلِمًا على النبي أن يقف فيدعو، وإنما يسلِّم فينصرف. إذًا الذي ينبغي على المسلم أن يفعله؛ وهو أن لا يقصد عند قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيدعو.

هذا هو **المشروع**، وهذا هو **الممنوع** في زيارة قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.[٣٧٤]

❁ **بقيت المسألة الثالثة**: وهو قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**صلوا علي فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم**»؛ وهذا منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تعليل لترك اتخاذ قبره عيدًا؛ بمعنى: الشيء الذي تطلبونه من صلاتكم عليَّ عند قبري حاصلٌ مع صلاتكم عليَّ مع البُعد، فلا حاجة لكم إذًا إلى اتخاذه عيدًا، «**وصلوا علي فإنَّ صلاتكم تبلغني حيث كنتم**»، وعند النسائي بإسناد صحيح أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إن لله ملائكة سياحين يبلغونني عن أمتي السلام».

---

(٣٧٤) **لكن أهل العلم يبحثون مسألة أدقّ من ذلك هنا** ، يعني عندنا مسألة الزيارة للقبر أو السلام، وعندنا مسألة السلام عليه من عند الحُجْرة ؛فإنه لا يُخلَصُ الآن إلى القبر، هل هي مشروعة أو لا؟ ذكر شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ في المسألة ثلاثة أقوال: يُشرع ، ولا يُشرع، ويُشرعُ للغريب لا لمن كان من أهل المدينة. والله عَزَّوَجَلَّ أعلم.

فإذًا حيثما كان الإنسان فصلى على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَلَغه ذلك صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعُرِضَ عليه ذلك صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما دل على هذا ما خرجَّ أبو داوود وغيره عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه ذكر يوم الجمعة وأخبر أنه من خير أيامكم، ثم قال: «فأكثروا علي فيه من الصلاة، فإن صلاتكم معروضة علي»، قالوا: يا رسول اللهِ وكيف تعرض عليك وقد أرمت –يريدون: **بَلِيْتَ**– قال: «إن الله حرَّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء».

الشاهد أنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبر أنَّ صلاة المؤمنين تُعْرَضُ عليه، وقد يكون هذا مُفسرًا بحديث الملائكة السياحين، وقد يكون شيء آخر فالله أعلم كيف يكون، لا علم لنا بتفاصيل أو كيفية عرض هذه الصلاة على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إن لم يكن ذلك إبلاغًا من الملائكة.

المقصود أنَّ الصلاة على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحصل المقصود منها بفعل ذلك ولو على البعد، فلا حاجة إذًا إلى أن يُتخَذَ قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عيدًا.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (**وَعَنْ عَلِيِّ بْنِ الحُسَيْنِ؛ أَنَّهُ رَأَى رَجُلًا يَجِيءُ إِلَى فُرْجَةٍ كَانَتْ عِنْدَ قَبْرِ النَّبِيِّ ﷺ؛ فَيَدْخُلُ فِيهَا فَيَدْعُو؛ فَنَهَاهُ، وَقَالَ: أَلَا أُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا سَمِعْتُهُ مِنْ أَبِي، عَنْ جَدِّي، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا، وَلَا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا؛ فَإِنَّ تَسْلِيمَكُمْ يَبْلُغُنِي أَيْنَ كُنْتُمْ». رَوَاهُ فِي «المُخْتَارَةِ»**).

هذا الأثر الذي يروي فيه علي بن الحسين عن أبيه عن جده عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنَّه يشتمل على ما اشتمل عليه الحديث السابق، إلا أن فيه أن

يبلغه السلام عليه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. الحديث الأول فيه: أنَّ الذي يبلغه الصلاة عليه. وهذا الحديث الثاني فيه: أنَّ الذي يبلغه السلام عليه.

وهذا الحديث حديثٌ حسنٌ أيضًا، وفيه أن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب وهو زين العابدين، وكان من سادة آل بيت النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حتى قال الزهري: «ما رأيتُ هاشميًا أفضل منه»، كان من أفاضل أهل بيت النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، رأى رجلًا يأتي إلى كوة أو فرجة في جدارٍ عند قبر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيجلس هناك فيدعو، فنهاه رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن ذلك، وحدَّثه بحديثٍ سمعه عن أبيه الحسين، عن جده علي، عن جده النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفيه الأمور التي سبق ذكرها.

والشاهد في هذا الأثر: أنَّ من فَهْمِ السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ للنهي عن اتخاذ القبر عيدا، النهي عن قصد قبر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للدعاء[٣٧٥].

---

(٣٧٥) **وما يفعله كثير من الناس اليوم مخالفٌ لهذا الهدي النبوي**، وربَّما وجدتَ في كثير من الكتب لا سيَّما إذا تعرَّضتْ لمسألة المناسك وما يكون بعد الحجّ وزيارة المدينة ومسجده عليه الصلاة والسلام والإتيان إلى قبره فإنهم ينصّون على الدعاء بعد السلام، **وهذا الأمر له أَوجه:**

-منها: أن يتوجَّه الإنسان إلى القبر فيدعو؛ وهذا ولا شكَّ مناقضٌ للنُّصوص الشرعية قطعًا، ولا يخالف في هذا أحدٌ من أهل العلم، فإذًا انضاف إلى ذلك سؤاله ﷺ أو طلب الشفاعة منه فهذه هي الطَّامّة الكبرى.

وجاء قريبٌ من هذا الأثر عن ابن عم زين العابدين، وهو الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، فقد أخرج القاضي إسماعيل في رسالته في «فضل الصلاة على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» وكذلك سعيد بن منصور، وغيرهما عنه: أنه كان يتعشى في بيت فاطمة -بيت فاطمة مجاور لحجرة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- فرأى سهيل بن أبي سهيل جاء إلى قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فدعاه وقال: هلمَّ إلى العشاء، فقال: لا أريده، قال: ما جاء بك إلى قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قال: جئت مُسَلِّمًا، فقال رَحِمَهُ اللَّهُ: إذا دخلت إلى المسجد فسلم عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم أخبره بحديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا تتخذوا قبري عيدا، لعنة الله على

-ووجْهٌ آخر يحصل من بعضهم: وهو أنَّه إذا سلَّم يتجه إلى جهة القبلة فيدعو، **وهذا الأمر فيه محذور من جهتين:**

الأولى: اعتقاد أنَّ الدعاء في هذا المكان له خاصية وله مِيزة وأنَّه أدعى للإجابة، وهذا -كما هو معلوم- لا يثبت إلا بدليل شرعي، ولا دليل على ذلك، إذًا هو إحْداث في دين الله.

الثانية: أنه مخالفٌ لهدي النبي عليه الصلاة والسلام، فلم يكنِ النبي عليه الصلاة والسلام إذا أراد أن يدعو أتى إلى قبر من القبور فدعا، وهكذا أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ قاطبة، لم يثبت عن واحدٍ منهم قطّ ولا عن أَئِمة السّلف من بعد ذلك؛ أنهم أتوا إلى قبره عليه الصلاة والسلام أو قبر غيره وخصُّوه بالدعاء، إذًا هذا الأمر لا شكَّ أنه أمرٌ مُحْدَثٌ مبتَدَع.

والعجيب أنَّ بعض من يقرّر ذلك يستدلّ بفعْل ابن عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وابن عمرَ لم يكن يقف فيدعو، إنما كان يسلّم فينصرف، فإن كنتَ فاعلًا فافْعل كما فعل.

اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد». فهذا الأثر فيه أيضًا أن الحسن بن الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان ينهي أيضًا عن اتخاذ قبر النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ عيدا[٣٧٦].

ومن حكمة الله جَلَّوَعَلَا أن تجد هذه الآثار البينة النافعة عن سادات أهل بيت النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ الذين هم أقرب النَّاس إلى النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ نسبًا، والذين هم من أعلم الناس بحقه، وأعظم الناس قيامًا بتعظيمه التعظيم الشرعي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فإذا كانوا هم مع قربهم من النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ينبهون وينهون عن اتخاذ قبره عيدًا، إذًا على غيرهم أن يتبع سبيل السلف الصالح الذي قامت شواهد سنة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ عليه.

بقي معنا أمرين أود التنبيه عليهما، وقد جاء في مسائل هذا الباب فيما ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

الأمر الأول: قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ (**المسألة الرابعة: نهيه عن زيارة قبره على وجه مخصوص، مع أن زيارته من أفضل الأعمال**).

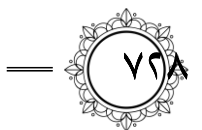
---

(٣٧٦) وهذا الحديث الذي ذكرتُه قبل قليل هو مُرسَل؛ لأنَّ الحسن ابن الحسن روايته عن النبي ﷺ مُرسَلة، لكنَّ المقصود هو الاسْتدلال بفعْله رَحِمَهُ ٱللَّهُ ورضي عنه، وأمَّا القطعة المرفوعة فإنها ثابتة في غير هذا الحديث كما سبق. وجاء أيضًا عنه في مصنّف عبد الرزاق: أنَّه رأى قومًا مجتمعين عند قبر النبي عليه الصلاة والسلام فنهاهُم عن ذلك، وحدَّثهم بحديثه عليه الصلاة والسلام: «لا تجعلوا قبري عيدًا»، كلّ ذلك من سدّ ذرائع الشرك، وحماية جَناب التوحيد. والله المستعان.

انظر إلى كلام الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن زيارة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أفضل الأعمال، وقارن هذا الكلام بما ينسجه عليه أهل الفتن والشر والبدع من أنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان لا يَقْدُر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حق قدره، أو أنه كان يحرِّم زيارة قبر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ!! فانظر كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ الواضح البين في أن زيارة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -يعني: زيارة قبره- من أفضل الأعمال، إنما الذي يُنهى عنه هو زيارة القبر على وجه مخصوص، وهو الوجه المبتدع الممنوع لا الوجه المشروع. فهذا شيء مما يبين لك أن كثيرًا مما يُنسج ويُدَّعى ويُلصق بالشيخ محمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ ودعوته، أو بعلماء التوحيد عمومًا، أن هذا من الأكاذيب الباطلة التي يُرَوِّج لها أهل الضلال لأجل صد الناس عن دعوة التوحيد، والله المستعان.

الأمر الثاني: قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**كونه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في البرزخ تُعرض عليه أعمال أمته في الصلاة والسلام عليه**).

هذه المسألة وهي عرض الصلاة والسلام على النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو في البرزخ ، ويدل على ذلك: ما ذكرته لك وهو حديث أبو داوود، وفيه أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «فإن صلاتكم معروضة علي» ، قالوا: يا رَسُول اللهِ وكيف تعرض عليك وقد أَرِمْت؟ قال: «إن الله حرَّم على الأرض أجساد الأنبياء»، وهذا الحديث صحيحٌ إن شاء الله، وإن كان أُعلَّ بأكثرِ من علة، ومن أوسع من تكلم عنه و دافع عن تصحيحه ابن القيم في جلاء الأفهام.



المقصود أن هذا الحديث فيه ثبوت عرض عملٍ خاص على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والله أعلم بكيفيته، قد يكون هو إبلاغه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك من قِبل الملائكة الموكلِّين بهذا الأمر، وقد يكون غير ذلك، والله أعلم بهذا الأمر كيف يكون.

✧ **وهذا يجرنا إلى التنبيه على مسألة ثانية** وهي: عرض الأعمال عمومًا صالحها وفاسدها على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا ما يتشبث به من يتوجهون إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند قبره أو بعيدًا عنه بالدعاء والاستغاثة.

يقولون: النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تُعرض الأعمال عليه، وبالتالي فنحن نسأله بأن يستغفر الله لنا، ويستدلون على هذا بحديثٍ أخرجه القاضي إسماعيل المالكي عن بكر بن عبدالله المزني، عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «تُحدِثون ويُحدَث لكم، وتُعرض أعمالكم عليّ، فما وجدت من خير حمدت الله، وما وجدتُ من شر استغفرت لكم»، قالوا: هذا الحديث فيه أن الأعمال عمومًا تُعرض على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيستغفر للمسيء، فنحن نسأله وهو في قبره الاستغفار والشفاعة(٣٧٧).

---

(٣٧٧) ولربَّما وجدتَهم ينزعون في الاسْتدلال على هذا الأمر بقول الله جلَّ وعلا: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة:١٠٥] . وهذا من أبعد الاسْتدلالات وأضعفها، فإنه لا علاقة البتَّة بين هذا وذَاك، فالآية الضمائر فيها تعود إلى المنافقين: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ [التوبة:٩٤] الخ، والسياق سياقُ تهديد وَوَعيد، فأين هذا من ذَاك!

والجواب عمَّا ذكروا من وجوه:

الوجه الأول: أن هذا الحديث ضعيف، فهو حديث مرسل، والمرسل من قسم الحديث الضعيف؛ فإنه مروي عن بكر بن عبد الله المزني(٣٧٨)، عن النبي صَلَّٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ، فهذا كما ترى ليس بمتصل، فهو ضعيف(٣٧٩) .

والوجه الثاني: أنَّ الذي دل الدليل الثابت عليه أن الأعمال تعرض على الله عَزَّوَجَلَّ، وليس على رسوله صَلَّٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، يدل على هذا ما خرَّج الإمام مسلم عن النبي صَلَّٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «أن الأعمال تعرض على الله جل وعلا كل إثنين وخميس».

الوجه الثالث: أنَّ الدليل قد دل على أن ذا العلم والخبرة بذنوب عباده هو العليم الخبير سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لا غيره: ﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾[الإسراء:١٧].

الوجه الرابع: أنَّ النبي وهو في حياته ما كان يعلم كل شيء، ومن ذلك ما كان عليه المنافقون: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾[التوبة:١٠١]، فأعيانهم وأعمالهم وهو حيٌّ كان يجهلها صَلَّٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فكيف يعلم كلَّ الأعمال من الأبرار والفجار وهو ميتٌ صَلَّٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ!!.

الوجه الخامس: أنَّ النبي صَلَّٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وهو في قبره نجزم أنه لا يعلمُ كل شيء، وذلك أنه قد مات وانقطعت حياته الدنيوية، وإنما هو في حياة برزخية الله

---

(٣٧٨) قد أخرجه إسماعيل القاضي بإسناده عن بكر بن عبد الله المُزَني، عن النبي ﷺ.

(٣٧٩) لا يُحتجُّ به.

سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أعلم بها، ولو كان يعلم ما تعمل أمته من بعده لكان محيطًا بعلم كل شيء من أعمال الناس، وهذا العلم الواسع الشامل لأعمال العباد هو مما اختصه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ به.

الوجه السادس: أنَّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ينادي يوم القيامة الرسل ويسألهم ماذا أُجبتم؟ فأي شيء يقولون؟ ﴿قَالُوا لا عِلْمَ لَنَا﴾[المائدة:١٠٩]، ولو كان النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يعلم وهو في البرزخ ما تعمل أمته لكان يعلم ما الذي أجيب به صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ. وكذلك عيسى عَلَيْهِٱلسَّلَامُ ماذا يقول لربه جَلَّوَعَلَا يوم القيامة؟ يقول: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ﴾[المائدة:١١٧]، إذًا الذي يعلم ذلك هو رب العباد سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ. كذلك النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كما في الصحيحين في حديث الحوض حينما يُذاد أناس من أمته فيقول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «أمتي أمتي»، فتقول الملائكة: «إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك»، ولو كان النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ على إطلاع على أعمال أمته لكان يعلم ما أحدثوا [٣٨٠].

الوجه السابع: أننا لو سلَّمنا صحة الحديث فإن ما يكون في البرزخ هو ما يرجع إلى الأمر الكوني لا إلى الأمر الشرعي، وبالتالي فإنَّ سؤال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وهو في قبره لا يُؤثر شيئًا، التأثير إنما يكون في الدنيا؛ لأنَّ ذلك

---

(٣٨٠) ثمَّ إنه معارض أيضًا لسِتْر الله ﷻ، كما في حديث النجوى: «أنا سترتُها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم»، فلو كانت معروضة على النبي عليه الصلاة والسلام لَكان الإنسان مفضوحًا في أعماله التي عملها في السّر ولم يكن مستورًا عليه.

راجعٌ إلى الأمر الشرعي، يعني لو سُئل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يدعو أو يستغفر لشُرع له بالأمر الشرعي أن يُجيب، لكن ما يكون في البرزخ هذا لا دليل على أنَّ الأمر الشرعي متعلقٌ به، إنما يتعلق به الأمر الكوني، وبالتالي أصبح هذا السؤال لا فائدة منه.

الوجه الثامن: أن يقال إنَّ الحديث إن صح فيه أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تعرض عليه الأعمال، وأما القَدْرُ الذي يستدِلُ من أجله هؤلاء بالحديث فهو السؤال والدعاء والاستشفاع، وهذا قدْرٌ ما دل عليه الدليل إن صح بوجهٍ من الوجوه، فأين الدليل في الحديث على أنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُشرع سؤاله الاستغفار؟ وأين حثُه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لو أخبر بهذا الحديث على أن نسأله أن يستغفر لنا؟ لم يكن شيءٌ من ذلك[٣٨١] .

الوجه التاسع: لو صح هذا الحديث فليُبشر الذي يسأل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنه لن يكون له في هذا الحديث نصيب، لأنه بسؤاله النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد موته يكون قد أشرك، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يستغفر للمشركين: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾[التوبة:١١٣]. [٣٨٢]

---

(٣٨١) وبالتالي فالاستدلال به لا محلَّ له.

(٣٨٢) [الوجه العاشر] وهو إطباق السّلف الصالح وإجماعهم على عدم سؤال النبي ﷺ أن يستغفر لهم أو أن يشفع لهم، وهم أحرص الناس على أسباب التكفير والمغفرة، ولو كان هذا الأمر مشروعًا لسابقوا إليه، ولا يستطيع هؤلاء أن يظفروا بأثرٍ واحد فقط ثابتٍ عن أحد من أهل القروب الثلاثة المفضَّلة

إذًا ليس من المشروع بحال أن يُدعى النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بأي دعاء كان، بل هذا من المنكر، بل هذا من الشرك بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ [٣٨٣].



(٣٨٣) **إذًا الخلاصة**: أنَّ مسألة عرْض الأعمال على النبي عليه الصلاة والسلام غير ثابتة، وكذلك عرْض الأعمال على الأقارب -أقارب الإنسان من الموتى- أيضًا جاءت فيه بعض الأحاديث والآثار ولم يصحّ منها شيء -فيما أعلم- إذًا هي قضية غير صحيحة، ولو صحَّت فلا وجه البتَّة للاسْتدلال بها على مسألة الشرك أو على مسألة التوسّل، اللهمَّ إلا الصلاة والسلام على النبي ﷺ، كما نصَّ على ذلك المؤلّف. إذًا؛ تُعرضُ الأعمال على النبي عليه الصلاة والسلام في الصلاة والسلام عليه خاصّة، وأمَّا سائر الأعمال فهذا ما لم يصح، وما بُنِيَ عليه لو صحَّ فلا وجه له.

قال المصنف رحمه الله:

٢٣-بَابُ

مَا جَاءَ أَنَّ بَعْضَ هَذِهِ الأُمَّةِ يَعْبُدُ الأَوْثَانَ

وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ [النِّساء:٥١].

وَقَوْلُهُ: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللهِ مَنْ لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ [المائدة:٦٠].

وَقَوْلُهُ: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾ [الكهف:٢١].

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: «فَمَنْ؟!». أَخْرَجَاهُ.

وَلِمُسْلِمٍ عَنْ ثَوْبَانَ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللهَ زَوَى لِيَ الأَرْضَ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا، وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ: الأَحْمَرَ وَالأَبْيَضَ، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ بِعَامَّةٍ، وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وَإِنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ، وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لَا أُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ

بِعَامَّةٍ، وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وَلَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا، حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا، وَيَسْبِيَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا».

وَرَوَاهُ الْبَرْقَانِيُّ فِي صَحِيحِهِ، وَزَادَ: «وَإِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ، وَإِذَا وَقَعَ عَلَيْهِمُ السَّيْفُ لَمْ يُرْفَعْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَلْحَقَ حَيٌّ مِنْ أُمَّتِي بِالْمُشْرِكِينَ، وَحَتَّى تَعْبُدَ فِئَامٌ مِنْ أُمَّتِي الأَوْثَانَ، وَإِنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي كَذَّابُونَ ثَلَاثُونَ كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، لَا نَبِيَّ بَعْدِي، وَلَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ مَنْصُورَةً، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى».



قال الشارح وفقه الله:

هذا الباب الذي عقده المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بابٌ يدلُ على فقهٍ من الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عظيم، وذلك أنَّه بعد أن أورد تلك الأبواب التي دلت على أنواعٍ من نواقض التوحيد وقوادحه، أراد أن يَرُدَّ على شبهة يثيرها عبَّاد القبور.

وداعية التوحيد ينبغي أن يعتني بإزالة الشُبَّه التي تحول دون وصول نور التوحيد، فإن الإنسان قد يتعجب حينما يرى كيف كانت أدلة التوحيد وما يبين الشرك ويحذِّر منه كيف أنها ظاهرة وكثيرة وواضحة في القرآن والسنة، ومع ذلك لا ينتفع بها كثيرٌ من الناس! هؤلاء تجدهم من قرَّاء القرآن بل ربما من حفَّاظه، ومن الذين ربما يقرؤون في كتب حديث النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فما بالهم لا

ينتفعون ولا يتعظون؟! والسبب في ذلك هو أنه قد حالت الشُبَّه بينهم وبين الانتفاع بما يقرؤون، هذه الشُبَه حاجز وحائل بينهم وبين الحق، ولذلك يقفون على مشارف الحق ولكنه لا يصل إليهم؛ لأن هذه الشبه تحول بينهم وبين هذا الحق، ولذا إذا كُسِرت هذه الحواجز وهذه الحوائل وصلهم الحق، وانتفعوا بأنوار الوحي التي بيَّنت التوحيد وجلَّت ضده.

إذًا لابد من بيان الشُّبه التي يتشبَّث بها الضالون ويلبِّس بها الملبسون، لابد من كشفها حتى ينتفع الناس بالحق، تجدهم يقرؤون آياتٍ وأحاديث كثيرة تحذِّر من الشرك، لكنهم لُبِّسَ عليهم فظنوا أن هذه النصوص لا تتناول الواقع الذي هم واقعون فيه، فإذا أُزيلت عنهم غياهِبُ هذه الشُّبه تبصَّروا وانتفعوا وزالت عنهم الغشاوة.

هذه شبهة بين أيدينا أراد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يكشف زيفها؛ وهي أنَّ من عبَّاد القبور ومن مزيِّني الشرك للأمة من يقول إن الشرك لا يقع في هذه الأمة، وبالتالي فإن كل ما يقع من الضالين من عبادة للأموات بالدعاء والذبح والنذر والطواف وما إلى ذلك هذا كله ليس شركًا وليس كفرًا؛ لأنَّ هذه الأمة لا يمكن أن يقع من أفرادها الكفر والشرك، فانظر كيف كانت هذه شبهة تحول بين فئام من الناس وبين الوصول إلى الحق. أراد الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن ينبِّه على هذا وأن يكسر هذا الحاجز الذي يحول بين الناس وبين الانتفاع بما يذكر من الآيات والأحاديث.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**باب ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان**)؛ الأوثان مر بنا تعريفها وقلنا إن الوثن: هو كل ما يعبد من دون الله، ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثَانًا﴾[العنكبوت:١٧]، وهذه الأوثان تتنوع؛ قد تكون أصنامًا، وقد تكون أحجارًا، وقد تكون أشجارًا، وقد تكون قبورًا، وقد تكون صلبانًا، فالنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمر عديًا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن يلقي عنه الصليب الذي كان يعلقه، وسماه وثنًا. إذًا بعض هذه الأمة سيعبد الأوثان.

والناس في هذا الموضوع طرفان ووسط:

- **طرفٌ يقول:** إنَّ الأمة كلها عبدت الأوثان وارتدت وكفرت بالله إلا نزرًا يسيرًا هم من يتبنى هذا القول فقط؛ وهؤلاء الخوارج الذين كفَّروا هذه الأمة قاطبة، أو كفَّروا هذه الأمة أكثرَها، وربما سلُّوا السيف على أمة محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. ولم تزل الأمة من قديم وإلى اليوم تتجرع الغُصص وتذوق الحنظل بسبب هذه الفئة الضالة التي جلبت الشرور العظيمة على هذه الأمة.
- **وطرف آخر يقول:** إن الشرك والكفر والردة لا تقع في هذه الأمة البتة، فمهما وقع فإنه ليس شركًا؛ وهؤلاء القبوريون، وهم الذين اعتنى المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالردِّ عليهم.
- **والوسط هم أهل الحق**، هم أهل التوحيد والسنة؛ الذين يقولون: إنَّ الشرك ممكن الوقوع من الناس، وأنَّ بعض هذه الأمة قد وقع في ذلك، وهذا ما دل عليه الدليل الشرعي والدليل الحسي الواقعي، كما سيأتي الكلام عن ذلك إن شاء الله.

عُبَّاد القبور يقولون إنَّ الشرك لا يقع في هذه الأمة، وتشبَّثوا في هذا بشُبه.

من أبرز تلك الشبه: حديثٌ خرجه الإمام مسلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في صحيحه وهو قول النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، ولكن بالتحريش بينهم»؛ أيس: يعني يئس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب، وجاء عند الترمذي بحذف كلمة (جزيرة العرب)؛ «إن الشيطان أيس أن يعبده المصلون»، هكذا.

قال هؤلاء: هذا حديث صحيح وصريح في أن الشرك لا يقع من هذه الأمة، وبالتالي هذه الأمور التي تُنْكِرونها ليست شركًا؛ لأن هؤلاء الذين تقع منهم هذه الأمور يشهدون أن لا إله إلا الله ويتَّبعون النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبالتالي فلا يمكن أن يقع منهم الشرك مهما فعلوا، متى ما دخل الإنسان في الإسلام فإنه لا يخرج منه البتة؛ هكذا يقولون.

والجواب عن هذه الشبهة من وجوهٍ كثيرة، منها:

أولًا: أنَّ الحديث ليس فيه إلا أن الشيطان قد أيس، وهل الشيطان معصوم؟ ليس بمعصوم[٣٨٤] ، وبالتالي فإنَّه أيس ولم يكن هذا الذي يئسَ منه أمرًا صحيحًا، إنما وقع في نفسه لما رأى الخير ينتشر والفتوحات الإسلامية ودخول الناس في دين الله أفواجًا وقع في نفسه اليأس من أن يعبده المصلون. ولا يلزم من هذا أن يكون الذي يئس منه أمرًا صحيحًا في الواقع، بل لو يئس الصالحون وليس الشيطان فلا يلزم أن يكون الشيء الذي يئسوا منه صحيحًا، ولذلك أخبر

(٣٨٤) وليس بعالمٍ للغيب.

الله عَزَّوَجَلَّ عن الرسل أنهم: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا﴾[يوسف:١١٠]، ماذا قال الله؟ ﴿جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾[يوسف:١١٠]، فلا يلزم من وقوع اليأس من الشيطان أن يكون هذا الذي يئس منه أمرًا ممتنعًا ، فهو لا يعلم الغيب وليس بمعصوم.

ثانيًا: أن يقال إن (أل) في قوله (المصلون) للاستغراق فتفيد العموم؛ وهذا يقتضي أنَّ المسلمين المصلين جميعًا لا يمكن أن يقعوا في الشرك. وهذا صحيح، فالله جَلَّوَعَلَا قد حفظ هذه الأمة من أن ترتد عن بكرة أبيها، هذا لا يقع ولن يقع إن شاء الله.

ثالثًا: أن يقال إن (أل) هاهنا عهدية، فالمقصود أن الشيطان أيس أن يعبده المصلون حقًا الذين قاموا بعبادة الله عَزَّوَجَلَّ ومنها الصلاة على وجهها الصحيح، والصلاة كما أخبر الله إذا أقيمت على وجهها الصحيح تنهى عن الفحشاء والمنكر، وأيُّ منكر أعظم من الشرك، ورأس أولئك أصحاب النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فهؤلاء الذين استمسكوا بالعلم والعمل على الوجه الصحيح، فإن الله جَلَّوَعَلَا يوفقهم بأن يثبتهم على التوحيد والسنة.

رابعًا: أنَّ هذا الذي ذكروا من أن الشرك لا يقع في هذه الأمة أمرٌ باطلٌ بنص حديث رسول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وأحاديث النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لا يمكن أن تتناقض وسيمر معنا إن شاء الله في هذا الباب بعض ما أخبر به النبي ﷺ من أن بعض هذه الأمة ستشرك بالله، وأنها ستعبد الأوثان، وأنها ستلحق بالمشركين، أحاديث صحيحة ثابتة في الصحيحين، وبالتالي لابد من الجمع بين النصوص،

القول بأن الأمة جميعًا لا يمكن أن يقع من كل فرد منها الشرك بالله، هذا أمرٌ لا يمكن أن يكون مدلول هذا الحديث وإلا تناقضت أحاديث النبي صَلَّٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

خامسًا: كيف يقال إن الشرك لا يقع من هذه الأمة أو على الأقل لا يقع في جزيرة العرب؛ وقد خرج المتنبئون الكذابون؛ كمسيلمة والأسود وغيرهما في وسط جزيرة العرب!! فهل يقولون إن هؤلاء ومن اتبعوهم ممن كانوا مسلمين أنهم ما كفروا ولا ارتدوا.

سادسًا: ماذا يقولون عن الذين كانوا مسلمين، ثم ارتدوا بعد موت النبي صَلَّٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وقاتلهم أبو بكر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ ومن معه من الصحابة؟ ماذا يقولون في هذه القبائل العربية التي كانت في جزيرة العرب وارتدت، والأخبار فيهم تطفح بها كتب الحديث من الصحاح والسنن والمسانيد وكتب التاريخ وغيرها؟ أفينكرون هذا كله فيقولون إن من دخل في الإسلام لا يمكن أن يخرج منه البتة مهما فعل!.

ثم يقال سابعًا: ماذا هم قائلون في أولئك الزنادقة الذين خرجوا في عهد أصحاب النبي صَلَّٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وما بعد ذلك العهد، كالذين خرجوا في وقت علي رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ فألَّهوه فحرَّقهم رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ بالنار، وخبرهم في البخاري وغيره، أأولئك يقولون فيهم إنهم لم يرتدوا عن الإسلام بذلك؟ وأولئك القرامطة الذين كانوا في شرق الجزيرة في البحرين كانت مملكتهم هناك، وبلغوا من فجورهم وكفرهم وإلحادهم أن غزوا بيت الله الحرام وأسالوا الدماء عند الكعبة، بل وقلعوا

الحجر الأسود وأخذوه معهم، أفيقال في هؤلاء الملاحدة إنهم لم يرتدوا؛ لأنهم كانوا في جزيرة العرب؟.

ثم يقال ثامنًا: عجيبٌ شأن هؤلاء في كونهم يزعمون أنهم يتَّبعون المذاهب الفقهية بل ويتعصبون لها، فماذا هم قائلون فيما حُشِيَت به كتب الفقه من باب حكم المرتد؟ كل كتب الفقه في جميع المذاهب الفقهية المعروفة قد دُوِّن فيها هذا الباب، «باب حد المرتد»، «باب حكم المرتد»، «باب الردة» عافاني الله وإياكم، والمرتد: هو الذي كان مسلمًا فوقع في ناقض من نواقض الإسلام، أكانوا يبوِّبون هذه الأبواب عبثًا؟!.

ثم يقال تاسعًا: عجيبٌ أمر هؤلاء قالوا إنَّ الشرك لا يمكن أن يقع ولا يمكن أن يرتد أحد من هذه الأمة ولاسيما من كان في جزيرة العرب، ثم نجد منهم من كفَّر أهل التوحيد، وكفَّر علماء التوحيد لما قاموا بالدعوة إلى التوحيد وبيَّنوا الشرك وحذَّروا منه، وإذا بفئامٍ من هؤلاء كفَّروا علماء التوحيد وكفَّروا أهل التوحيد وألَّفوا المؤلفات في ذلك، فأين هو قولكم حينما قلتم إنَّ الشرك لا يقع فيمن ينتسب في هذه الأمة؟

إذًا هذه الأجوبة وغيرها كثير كافيةٌ في بيان خطأ هذا الاستدلال وضلال هذا القول؛ بل الشركُ والكفرُ ممكن الوقوع، ولذلك خافه الصالحون على أنفسهم. إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وهو إمام الموحدين وأفضل البشر بعد نبينا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومع ذلك خاف على نفسه من الوقوع في الشرك فقال: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾[إبراهيم:٣٥]، فمن يأمن البلاء بعد إبراهيم؟

لكن حاشا وكلا أن يقال أن هذا واقعٌ من جميع الأمة، إنما يقع هذا من أناسٍ ما رفعوا رأسًا باتباع الكتاب والسنة واتبعوا أهواءهم، فضلُّوا عن الحق ووقعوا في ما دل الكتاب والسنة على أنه كفر بالله عَزَّوَجَلَّ، فهؤلاء قومٌ أرادوا الضلال فمكّنهم الله عَزَّوَجَلَّ منه، وقد بُيِّن لهم: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾[فصلت:١٧] (٣٨٥).

إذًا الحق الذي لا شك فيه: أن الكفر والشرك أمرٌ ممكن الوقوع، وأن من وقع فيه فإنه قد أوقع نفسه في الضلال ورمى نفسه في حفرةٍ من السعير والعياذ بالله، إلا أن يتداركه الله برحمته فيتوب ويثوب، وليس أن التكفير والحكم

---

(٣٨٥) كما استدل هؤلاء بما ثبت في صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنَّه قال: «إِني لست أخشى عليكم أن تشركوا بعدي...» الحديث.

والجواب عن ذلك: أنَّ هذا الخطاب موجَّهٌ لأصحاب النبي ﷺ ، فهم المعنيّون به، فلا يخشى عليه الصلاة والسلام عليهم أن يشركوا به الشرك الأكبر، وإن كان قد خَفِيَ عليهم الشرك الأصغر كما في حديثٍ آخر. إذًا هذا الخطاب إنما وُجِّهَ إلى أصحاب النبي ﷺ وهم المعنيّون به وليس عامة الأُمَّة، وإلا لتناقضت أحاديث رسول الله ﷺ، كما سيأتي في هذا الباب؛ فإن النبي ﷺ قد صحَّ عنه بأصح الأسانيد أنَّ الشرك سيقع في هذه الأُمَّة، وأحاديث النبي عليه الصلاة والسلام يجب أن يُجمعَ بينها وأن يُؤلَّف بينها. ووقوع الشرك من بعض الأُمَّة لا يقدح في خيريّتها في الجُملة، فهذه الأُمَّة في الجُملة خير الأُمَمِ، وهي الأُمَّة الوسط، الخيار العُدول كما بيَّن ذلك ربنا جلّ وعلا في كتابه. وأمَّا وقوع الشرك في بعضها فليس بقادح فيها، والأُمَّة لا تجتمع على ضلالة بحمد الله، والخير باقٍ فيها، ولا تزال طائفة منها على الحق منصورةً ظاهرة.

بالشرك أن هذا حِمًى مباحًا لكل أحد، إنما ما دل الدليل على أنه كفر بالله هو الذي يقال فيه ذلك.

الكفْرُ حقُ الله ثم رسوله ... بالنص يَثْبُتُ لا بقول فلانِ
من كان رب العالمين وعبده ... قد كفَّراه فذاك ذو الكفرانِ

إذًا «**باب ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبدُ الأوثان**»؛ هذه الأمة هي أمة الإجابة، وليس المقصود أمة الدعوة؛ فإن أمة الدعوة هذه التي تشمل كل من تناولتهم دعوة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليس هؤلاء هم المقصودين؛ لأن ذلك معلومٌ بالضرورة أن من لم يكن مستجيبًا للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أمة الدعوة فإنه من عبدة الأوثان، فإرادة هؤلاء من تحصيل الحاصل، إنما المراد أنَّ من أمة الإجابة الذين شهدوا بأن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من سيقع في الشرك وسيعبد الأوثان كما أخبر بهذا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وهذا الباب يورث المتأمل فيه الخوف والوجل والحذر والحرص حتى لا يكون من هؤلاء ، فإن المقام خطير، والخسارة في هذا الشأن خسارةٌ عظيمة، خسارة لا يمكن أن تُستدرك، والمعافى من عافاه الله، والموفق من وفقه الله.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾** [النِّساء:٥١]) .

هذه الآية الأولى التي أوردها المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الباب، ووجه إيرادها فيه: أن الله جَلَّ وَعَلَا أخبرنا أن اليهود الذين كفروا بالله عَزَّ وَجَلَّ عبدوا الجبت

والطاغوت، وأخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن هذه الأمة ستتبع سَنن من كان قبلها، وهم اليهود والنصارى كما سيأتي معنا إن شاء الله. إذًا إذا كان من اليهود من عبَد الأوثان ، ومن هذه الأمة من سيتبع سنن اليهود والنصارى؛ إذًا سيكون في هذه الأمة من يعبد الأوثان، وهذا استدلال صحيح، وإيراد المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ هذه الآية يدل على فقهٍ كان عليه رَحِمَهُ اللَّهُ.

قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ﴾ ؛ ما وصف هؤلاء الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب؟ أخبر الله عَزَّوَجَلَّ عنهم أنهم: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾. هذه الآية ثبت في مسند أحمد بإسنادٍ صحيح أنها نزلت في كعب بن الأشرف اليهودي الذي قال له كفار قريش: مَنْ على الهدى نحن أو محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فقال: "أنتم خير من محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"، فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾[الكوثر:٣]، وأنزل الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ﴾[النساء:٥١]. وجاء عند ابن أبي حاتم أنها نزلت في كعبٍ وأيضًا في حيي بن أخطب، وأن كليهما أجاب بأن هؤلاء الكفار من مشركي العرب أنهم خير من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه، فبين الله عَزَّوَجَلَّ بطلان هذا القول.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ﴾ ؛ انظر إلى الأسلوب الذي يدل على أنَّ حال هؤلاء حالٌ عجيبة، مع كونهم أوتوا نصيبًا من الكتاب، عندهم علم لكنهم ما انتفعوا به، وهذا يفيدك على أن العلم وحده ليس كافيًا في حصول الهداية ما لم يكن توفيقٌ من الله جَلَّ وَعَلَا.

ولذا مَنْ أتاه الله حظًا من العلم من طلبة العلم عليهم أن لا يغتروا، عليهم أن يلجؤوا إلى الله عَزَّوَجَلَّ بصدق أن يثبِّتهم وأن يوفقهم وأن يبصِّرهم بالحق ويعينهم على التزامه، وإلا فمجرد العلم أو الذكاء ليس بكافٍ.

هتف الذكاء وقال لست بنافعٍ إلا بتوفيقٍ من الوهاب

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ﴾، عجيب أمرهم حينما جاءهم العلم وهم اليهود، عندهم علم لكن ما عملوا به ولا انتفعوا به.

﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ ؛ أكثر كلام المفسرين يدور على أن الجبت: هو الساحر، أو الصنم، أو الكاهن. والناظر في كلام السلف رَحِمَهُمُ اللَّهُ في تفسير هذه الكلمة وغيرها يلحظ المسلك الذي يسلكه كثيرٌ من السلف؛ وهو أنهم يفسرون الكلمة بمثالٍ لها، لا أنهم يضعون حدًا جامعًا مانعًا، فكل ما يُعبَدُ من هذه المعبودات ويُصرف له حق الله جَلَّوَعَلَا ويُنسب له ما يختص به ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فإنه داخلٌ في كلمة الجبت، وإن كان الأصل في هذه الكلمة: أنها تطلق على ما لا خير فيه.

قال: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ ؛ (الطاغوت) أكثر السلف فسروا هذه الكلمة بأنها: الشيطان[٣٨٦] ، وجاء هذا عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كما في صحيح البخاري تعليقًا، ووصله غيره، وقال الحافظ رَحِمَهُ اللَّهُ بإسنادٍ قوي؛ قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (الجبت: السحر، والطاغوت: الشيطان)، وقال الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ: (الطاغوت كل ما عُبِدَ

---

(٣٨٦) ولا شكَّ أنَّه أعظم الطواغيت، وأنَّ كلّ عبادة للطاغوت إنما تشمل أوّل ما تشمل عبادة الشيطان؛ لأنه هو الدَّاعي إلى عبادة غير الله والمُزيّن لها.

من دون الله)، ومراده رَحِمَهُ ٱللَّهُ دون شك أنه كل ما عُبِدَ من دون الله وهو راضٍ، وذلك أن كل من عبد غير الله، فإنه يُقالُ في حقه إنه اتخذ طاغوتًا.

وأما من جهة المعبود؛ فلا يقال فيه إنه طاغوت إلا إذا كان راضيًا بذلك، أما إذا لم يكن راضيًا فإنه لا يقال في المعبود إنه طاغوت، وإلا فعيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ والصالحون قد عُبِدُوا من دون الله جَلَّوَعَلَا ولا يقال في حقهم إنهم طواغيت باتفاق أهل العلم.

إذًا هؤلاء يؤمنون بالجبت والطاغوت؛ ولعل أدق تعريفٍ للطاغوت هو تعريف الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أنه كل ما تجاوز به العبد حده من معبودٍ أو متبوعٍ أو مطاع؛ وذلك أنَّ أصل المادة في الطاغوت يرجع إلى الطغيان؛ وهو: مجاوزة الحد، ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ﴾[الحاقة:١١]، فالذي يتجاوز به العبد حدَّه هذا هو الطاغوت، سواء كان معبودًا وهذا يشمل كل من عُبِدَ من دون الله وهو راضٍ، أو ترشح للعبادة؛ لو دعا الناس إلى عبادة نفسه ولم يستجب له أحد فإنه طاغوتٌ أيضًا.

وكذلك قلنا هو الذي تجاوز به العبد حده من معبودٍ، أو متبوع كالعلماء ونحوهم، أو مطاع كالأمراء ونحوهم، فهؤلاء إن أحلُّوا ما حرم الله أو حرموا ما أحل الله فأُطيعوا على ذلك فإنهم يكونون طواغيت.

الشاهد أنَّ هؤلاء يؤمنون بالجبت والطاغوت، وأيضًا ﴿ **يقولون لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا**﴾ ؛ هؤلاء لأنهم اشتركوا مع المشركين في الكفر بالله وبرسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ صار المشركون أحبَّ إليهم وأقرب إليهم

وأهدى في نظرهم من النبي ﷺ وأصحابه، مع أن هؤلاء يعلمون أنه على الحق، يعرفونه ﷺ كما يعرفون أبناءهم، لكن الغشاوة غشاوة الهوى حالت بينهم وبين الاعتراف بذلك، نسأل الله السلامة والعافية.

﴿ ويقولون لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾، قال الله سبحانه: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾؛ وهذا شأن اليهود باءوا بغضب الله وباؤوا بلعنة الله، والله المستعان.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَقَوْلُهُ: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللهِ مَنْ لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ [المائدة:٦٠]).

هذه الآية الثانية التي استدل بها المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهي أيضًا في شأن أهل الكتاب الذين ذمُّوا النبي ﷺ وأصحابه وقالوا هم شر الناس، وقالوا أن دينهم هو شر الأديان. قال سبحانه: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ * قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللهِ مَنْ لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ إذًا أنتم يا أيها الذين تزعمون أننا نحن شر الناس وأن ديننا شر الأديان، أنتم أعظمُ شرًا وضلالًا وإفكًا، هؤلاء هم المقصودون في هذه الآية، هؤلاء اليهود الذين ذموا النبي ﷺ ونقموا منه ومن أصحابه أن آمنوا بالله وحده وآمنوا بالرسل وآمنوا بالكتب، أنَّ هؤلاء حينما وصفوهم بذلك الواقع يشهد أنهم شر مكانًا، بكَّتهم الله عَزَّوَجَلَّ ووبخهم على قولهم، عارٌ عليكم كيف تقولون هذا وأنتم موصوفون بهذه الصفات!.

﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللهِ﴾؛ مثوبة يعني: جزاءً، كلمة المثوبة أصل المادة فيها: ثاب يثوب، إذا رجع إلى الشيء فإنه يكون قد ثاب إليه؛ وهكذا الجزاء، جزاء العمل يعود على عامله.

والغالب أن كلمة المثوبة تَرِدُ في شأن جزاء الحسنات لكن قد ترد في جزاء السيئات ومن ذلك هذه الآية، **جازاهم الله** عَزَّوَجَلَّ **على إفكهم وبغيهم وضلالهم بالآتي:**

أولاً: ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللهُ﴾؛ باءوا بلعنة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، والأدلة في كتاب الله جَلَّوَعَلَا وسنة رسوله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كثيرةٌ في وصفهم باللعنة، وأن الله جَلَّوَعَلَا قد لعنهم.

ثانيًا: ﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾؛ باءوا بغضب من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

ثالثًا: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾؛ مسخ منهم من مسخ قردةً وخنازير، وهذا مسخٌ حقيقي، قلَبهم الله جَلَّوَعَلَا حقيقةً إلى قردة وخنازير، هؤلاء القوم المخصوصون الذين عناهم الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾[البقرة:٦٥]، جازاهم الله عَزَّوَجَلَّ على الإثم العظيم الذي وقعوا فيه وهو تحايلهم على محارم الله عَزَّوَجَلَّ؛ جازاهم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى على ذلك بأن جعلهم قردة وخنازير.

وهؤلاء الذين قلَبهم الله عَزَّوَجَلَّ إلى ذلك ليسوا جميع اليهود، إنما طائفة منهم هم الذين وقع منهم مقتضى ذلك، هذا أولاً.

وثانيًا: يخطئ بعض الناس حينما يظن أن القردة والخنازير الذين هم موجودون في هذه الدنيا، أن أولئك هم اليهود الذين قُلِبوا أو سلالتهم، وهذا غير

صحيح، هذا الفهم بيّن النبي أن الله عَزَّوَجَلَّ ما مسخ قومًا فجعل لهم ذرية، والقرود والخنازير كانوا موجودين من قبل، قبل هذا المسخ، لكن هؤلاء أناس قلَبَهم الله عَزَّوَجَلَّ عقوبةً على فعلهم وإفكهم إلى ذلك، روي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قلَبَ الشباب قردة وقلَبَ الشيوخ خنازير. فالشاهد أنَّ هؤلاء قومٌ مسخهم الله عَزَّوَجَلَّ ثم إنهم هلكوا وانقطعوا.

رابعًا: الشاهد في إيراد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه الآية، قال: ﴿وَعَبَدَ الطَّٰغُوتَ﴾ ؛ هذه الآية قرئت بقراءات كثيرة أنهاها أبو حيان في تفسيره (البحر المحيط) إلى نحوٍ من عشرين قراءة لكنها كلها شاذة إلا قراءتان؛ هما القراءة المتواترة قراءتان فقط.

- قرأ الجمهور: «وعَبَدَ الطاغوت»؛ فعل ومفعول، والفاعل محذوف يعني: هم؛ هم الذين عبدوا الطاغوت.
- وقرأ حمزة الكوفي أحد القرَّاء السبعة: «وعَبُدَ الطاغوتِ»؛ مضاف ومضاف إليه، (وعبُد) بضم الباء قيل: إن هذه الكلمة جمع عابد، وهو جمعٌ سماعيٌ قليل، الذي يأتي على هذا الوزن.

وقيل: إن (عَبُد) بمعنى عابد، وبالتالي فيكون عبُد الطاغوت: إما عبَّاد الطاغوت، أو عابدوا الطاغوت، أو عابد الطاغوت. إما أن تكون جمعًا وإما أن تكون كلمة مفردة؛ وعلى هذا فتكون هذه الكلمة معطوفة على القردة والخنازير.

وأما على **قراءة الجمهور** وهي أن هذه الكلمة فعلٌ (عبد) فإنها تكون معطوفة على الأفعال التي قبلها؛ ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ . لكنَّ الفرق أن الضمائر مختلفة، فالضمير في الأفعال الثلاثة السابقة ترجع إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وأما في هذا الفعل فإنه راجعٌ إلى هؤلاء اليهود الذين عبدوا الطاغوت. وإنما قال (عَبَدَ) ولم يقل (عَبُدَ) لمراعاة لفظ (مَنْ) الذي ذُكِر قبل ذلك.

الشاهد أن هذه الآية فيها أن من أهل الكتاب وهم اليهود من عبد الطاغوت، وأخبر النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أن من هذه الأمة مَنْ سيتَّبع أهل الكتاب. إذًا وقوع الشرك في هذه الأمة ممكن، والله عَزَّوَجَلَّ أعلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَقَوْلُهُ: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾ [الكهف:٢١]).

هذه الآية في سورة الكهف؛ ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ[٣٨٧] لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾ ؛ فيها أن مما كان في الأمم السابقة الذين أخبر النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ باتِّباعهم أنهم اتخذوا قبور الصالحين مساجد، والغالب أن هؤلاء من النصارى، كما يذكرهُ كثيرٌ من المفسرين، وأخبر النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أن هذه الأمة سيكون فيها من يتَّبع سَنَنَ من كان قبلنا، فهذا وجه إيراد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه الآية.

وهذه الآية يحسنُ الوقوف عندها من جهة أنَّ من الناس من يزعم أنها دليلٌ على جواز اتخاذ القبور مساجد، فيقولون: كيف تنكرون على الذين

---

(٣٨٧) والأقرب من كلام أهل التفسير: أنهم الأمراء وأهل النفوذ.

يتخذون القبور مساجد! إما بأن يبنوا مسجدًا على قبر أو يدفنوا ميتًا في مسجد؟ كيف تنكرون على ذلك وقد دل القرآن على جواز ذلك؟ ألم تسمعوا إلى قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾؟

ولا شك أنَّ هذا الاستدلال من أضعف الاستدلالات وأوهنها، يا لله العجب!! كيف تُقابَل الأحاديث المتواترة عن النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في النهي عن اتخاذ القبور مساجد، بمثل هذا الاستدلال الفاسد الكاسد!.

والجواب عن هذه الشبهة:

أولًا: أن هذه الآية ليس فيها إلا ذِكْرُ عزم طائفةٍ من الناس جاء وصفهم بأنهم الذين غلبوا على الأمر -يعني كانوا أهل النفوذ والسلطة- أنهم سيتخذون على قبور هؤلاء الفتية الصالحين مسجدًا ، ولا شيء أكثرُ من ذلك، ليس في الآية ما يدل على مدحِ هؤلاء ولا على الحث على أن نفعل مثل ما فعلوا، إنَّما فيها أنَّ هؤلاء أرادوا وعزموا على أن يتخذوا على قبورهم مسجدًا؛ وذلك أنهم رأوهم أناسًا صالحين وفُتِنوا بهم وبصلاحهم فأرادوا أن يتخذوا على قبورهم مسجدًا.

ومن أهل التفسير من قال: إن هؤلاء كانوا قومًا مشركين، **ومن أهل التفسير من قال:** أنهم لم يكونوا من المشركين بل كانوا قومًا مؤمنين. وعلى كلا القولين فإنه لا وجه للاستدلال.

-أما كونهم كانوا كافرين فالاستدلال ساقط من أصله.

-وأما إذا كانوا قومًا منتسبين إلى دين سماوي كالنصارى مثلاً؛ فإنه لا عصمة لأحدٍ بعد الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، عزموا على هذا وأخطأوا فيما قالوا، فماذا كان؟ أكان فيهم نبي يُحتج بفعله ويحتج بعزمه؟ لم يكن في ذلك شيء من هذا البتة، فدل هذا على أن هذا الاستدلال غير صحيح.

على أنَّ في الآية ما يُشْعِرُ أن هذا الفعل ليس صوابًا، لأن الله جَلَّوَعَلَا وصف هؤلاء بأنهم الذين غلبوا على أمرهم، لم يقل قال أهل العلم، لم يقل قال الصالحون، إنما قال: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ﴾، والحال والواقع أن الغالب على أهل النفوذ والسلطة أن يكونوا جُهالاً ، بل وأن تغلبهم الأهواء وتقع منهم الأخطاء، وبالتالي كيف يكون فعلهم أو عزمهم حجة؟! لاسيما وأنَّ في الآية ما يُشْعِرُ أنهم قالوا هذا القول على سبيل المراغمة للذين قالوا لما ماتوا أنهم يسدون عليهم الكهف وينتهي أمرهم، ﴿فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ ، هنا قال هؤلاء: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ ، كأنه كان على سبيل العناد والمراغمة لأولئك الذين طلبوا أنهم يدفنونهم في كهفهم ثم يبنون على كهفهم وينتهي أمرهم وتنتهي الفتنة بهم.

ثانيًا: اتفق أهل العلم على أن خير ما فُسِّر به كتاب الله عَزَّوَجَلَّ هو سنة رسوله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بعد الكتاب، هذا محل اتفاقٍ بين العلماء، فإذا كان في هذه الآية إجمال لا ندري ما التحقيق في شأن هؤلاء الذين غلبوا على أمرهم؟ أكانوا صالحين أم هم طالحون؟ أكان فعلهم صوابًا أم غير صواب؟ دعونا نرجع في هذا البيان إلى سنة النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

بحثنا ووجدنا أن الشيخين في صحيحيهما أخرجا من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، ومر بنا الحديث في أول حديثٍ قبل ثلاثة أبواب، «باب ما جاب من التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجلٍ صالح، فكيف إذا عبده»، مر بنا في هذا الحديث أن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حدَّثت عن أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها حدَّثت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن كنيسة رأتها بالحبشة، وفي رواية في الصحيحين أن الذي حدَّث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أم سلمة وأم حبيبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، حدثتا عن كنيسة رأتها أو رأتاها في الحبشة يقال لها (مارية) وما فيها من التصاوير وما كانت عليها من الحُسن، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: -واسمع يا رعاك الله-: «أولئك -أو أولئكِ- كانوا إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدًا وصوروا فيه تلك التصاوير».

السؤال الآن: وازنوا بين ما جاء في الآية وما جاء في الحديث؛ أليس هذا هو هذا؟! مات رجلٌ صالح فبُنِيَ على قبره مسجد، فالذي جاء في الحديث هو هو الذي جاء في الآية. ماذا كان موقف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من ذلك؟ قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أولئكَ -أو أولئكِ- شرارُ الخلق عند الله».

إذًا هذا الفعل الذي جاء في الآية، ما الحكم الذي دل عليه الحديث؟ جاء أنه صواب أو خطأ؟ جاء أنه خطأ، وجاء أنه باطل؛ وبالتالي فكيف يستدَل بعد ذلك بهذه الآية! والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد بيَّن الأمر وفصَّله، وأنَّ هؤلاء الذين يفعلون هذا الفعل وكانوا يفعلون هذا الفعل شرار الخلق عند الله!! فكيف إذا ضممنا إلى هذا الأحاديث التي هي بالعشرات في نهي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن البناء على

القبور أو عن اتخاذها مسجدًا؟ أفيقال بعد هذا إن هذه الآية دليلٌ على اتخاذ القبور مساجد؟ حاشا وكلا.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**عَنْ أَبِي سَعِيدٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: «فَمَنْ؟!». أَخْرَجَاهُ**).

أورد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ حديث أبي سعيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، والمؤلف عزا هذا الحديث بهذا اللفظ إلى الشيخين في صحيحيهما، وهذا اللفظ الذي أورده المؤلف ليس هو اللفظَ الذي أورده الشيخان، وإنَّما الحديث في الصحيحين بلفظ -كما من حديث أبي سعيد- قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب اتبعتموهم. قلنا: يا رسول الله، آليهود والنصارى؟ قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فمن؟**»

والحديث أورده المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بلفظ «**حذو القذة بالقذة**» وقفت عليه في مسند الإمام أحمد لكن من حديث شداد بن أوس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ليُحملنَّ شِرار هذه الأمة على سَنن من كان قبلهم حذو القذة بالقذة»، ولكن هذا اللفظ في إسناده شهر بن الحوشب، وهو كثير الأوهام كما تعلمون.

ولعل المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تابع في عزو هذا اللفظ إلى الشيخين؛ تابع شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «اقتضاء الصراط المستقيم»، فإن الذي يظهر لي والله أعلم أن المؤلف اقتطع هذا الباب من «اقتضاء الصراط المستقيم»، وظهر ذلك

من خلال تتبع ما في الاقتضاء مع ما في هذا الباب، من ذلك عزوه الحديث للصحيحين بهذا اللفظ وهو كذلك عنده شيخ الإسلام، وكذلك ما سيأتي من حديث ثوبان؛ أورده رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه بهذا اللفظ وزاد الزيادة التي عند البرقاني أيضًا باللفظ نفسه. فالذي يبدو والله أعلم أنَّ هذا الوهم في عزو اللفظ إنما جاء بكونه نقل بالواسطة، والله أعلم.

وعلى كل حال من أراد التحقق من الألفاظ في هذا الكتاب من حيث صحة اللفظ إلى المخَرِّج فعليه بكتاب حفيد المؤلف الذي هو التيسير؛ فإن الشيخ سليمان بن عبد الله رَحِمَهُ ٱللَّهُ صاحب «تيسير العزيز الحميد» كانت له عناية بتتبع ألفاظ كتاب التوحيد وبيان اللفظ الصحيح المنسوب إلى المخَرِّج من غيره(٣٨٨). وعلى كل حال لعل المؤلف كان ينقل بعض أبواب هذا الكتاب من بعض الكتب، ولربما كتب بعض الأحاديث من حفظه، ومن الذي يسْلم من الوهم والغلط!(٣٨٩).

المقصود: أن هذا الحديث الذي بين أيدينا حديثٌ صحيح ثابت عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، جاء عنه من رواية عددٍ من أصحاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو قد جاء كما رأيت من حديث أبي سعيد، وجاء أيضا عند البخاري عن حديث

(٣٨٨) ولا غَرُو الشيخ سليمان رحمه الله محدِّثٌ معروف.

(٣٨٩) وقد ظهر لي بالتتبّع أنَّ المؤلّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد كتب الكتاب أو بعضه مِن حفظه، ولذلك قد تُروى بعض أحاديث النبي ﷺ فيه بغير اللّفظ الذي يخرِّج منه، ومن الذي يسْلم من الوهْم أو الخطأ أو النسيان!

أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وفيه: أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لا تقوم الساعة حتى تتَّبع أمتي سَنن من كان قبلها»، قالوا: كفارس والروم؟ قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فمن الناس إلا أولئك؟» ، وهذا الحديث فيه ذكر فارس والروم، وفي الحديث الذي بين أيدينا ذكر اليهود والنصارى.

والجمع بينهما كما نقل الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الفتح من قول بعض أهل العلم: أن اتباع هذه الأمة في الدين أصولًا وفروعًا كان لليهود والنصارى، وفي شأن الحكم والسياسة كان لفارس والروم، والله تعالى أعلم.

أيضًا جاء هذا الحديث بلفظ قريب مما أورد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أو مما جاء في حديث أبي سعيد، جاء من رواية ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا كما عند الحاكم والبزار وغيرهما بإسنادٍ حسن وفيه زيادة، وهي قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**حتى لو كان من أحدهم أن ضاجع أمه بالطريق لكان من أمتي من يفعل ذلك**»، إلى هذه الدرجة أو إلى هذا الحد تكون المتابعة لهؤلاء، والله المستعان، كما جاء أيضًا من حديث غيرهم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وأرضاهم.

المقصود أنَّ هذا المعنى ثابت في روايات عدة عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو أصلٌ في إثبات ما أراد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ إثباته في هذا الباب، والرد على الشبهة التي أراد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ كشفها في هذا الباب، وهي شبهة القبوريين الذين يزعمون أن الشرك لا يقع في هذه الأمة. فهذا الحديث فيه إثبات أن هذه الأمة سيكون منها من يتبع اليهود والنصارى فيما ضلُّوا فيه، ومن ذلك لا شك ما يكون من اتباعهم في شأن الشرك بالله جَلَّ وَعَلَا.

وهذا الحديث من أعلام نبوة النبي ﷺ، حيث وقع ما قال عليه الصلاة والسلام، وأنت إذا سرّحت طرْفك في أحوال المسلمين في أمورهم المختلفة وجدتَ اتِّباع ما عليه أهل الكتاب والتشبه بهم في العقيدة من جهة الغلو في الصالحين، والبناء على القبور، واتخاذ الأحبار والرهبان أربابًا، ووقوع أنواع الشرك بالله سبحانه وتعالى، وتحريف الكلم عن مواضعه، وتعطيل صفات الله جل وعلا، في أمورٍ شتى يعلمها من يتتبَّع هذا الأمر(٣٩٠).

وإن نظرت إلى التشبه بهم في العبادات؛ وجدت أنه قد دخل على كثير من المسلمين الإحداث في الدين من قِبَلِ التشبه بهؤلاء الكفار.

وإذا نظرت إلى الأخلاق والعادات؛ فحدِّث ولا حرج، وليس عليك إلا أن تنظر في بيوتات المسلمين وطرقاتهم لتعْلم مقدار ما عليه كثير من المسلمين من التشبه باليهود والنصارى؛ في الملبس، والهيئة، والعادة، والكلام، وما إلى ذلك، والله المستعان، فحصل ما أخبر به النبي ﷺ، وكان كما قال.

أخبر النبي ﷺ في هذا الحديث بقوله: «لتتبعنَّ سَنن من كان قبلكم»،

ولاحظ كيف أن هذا الفعل أُكِّد بثلاثة مؤكدات:

أولًا: اليمين المقدَّرة.

ثانيًا: اللام.

---

(٣٩٠) وحصل أنواع من المعاصي منهم شابهَهُم فيها أُناس وفئام من المنتسِبين لهذه الأُمَّة، أكل الربا، وأكل السُّحْت، والحِيل، التَحايل على شرع الله تبارك وتعالى، أو تطبيق الحدود على الضعفاء دون الشرفاء.

ثالثًا: النون.

كل ذلك يدل على أن هذا واقع لا محالة من هذه الأمة.

والمقصود هو مجموعها لا جميعها -انتبه لهذا- مجموع الأمة سيكون منهم اتباع اليهود والنصارى، وليس أنها جميعًا من كل فرد من أفرادها سيقع ذلك، إنما في الجملة سيقع اتباع اليهود والنصارى منها.

قال: «**لتتبعن سنن من قبلكم**»، قرئ هذا اللفظ بالفتح والضم، (سَنن)، و(سُنن)، والأشهر الفتح؛ هذه الكلمة إذا قُرِأَت بالفتح فهي كلمة مفردة بمعنى الطريق، وإذا قرأت بالضم (سُنن) فهي جمع سنة، والسنة: هي السبيل والطريقة أيضًا، فهما معنيان متقاربان.

وأكد النبي ﷺ أن هذا الاتباع سيكون اتباعًا دقيقًا شبرًا بشر، وذراعًا بذراع، وفي اللفظ الذي بين أيدينا «**حذو القذة بالقذة**»؛ الحذو هو: القطع، والقذة هي: الريشة التي توضع في السهم، فكانوا إذا صنعوا وبرَوا السهام فإنهم يضعون ريشةً للنسر أو للصقر أو ما إلى ذلك، وهذه الريشة تكون سببًا في استقامة السهم إذا رُمي، كانوا يضعون قذتين؛ يعني كانوا يضعون ريشتين، ولا بد لباري السهم أن يجعل إحدى الريشتين مطابقةً للأخرى، وإلا فإنه ما انتفع، لا بد أن تكون إحدى الريشتين مثل الأخرى تمامًا، ولأجل هذا أطلقت العرب هذا المثل فقالوا: (حذو القذة بالقذة)، هذا يطلق على الشيئين يكونان متطابقين تمامًا.

إذًا أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه سيكون هناك مطابقةٌ تامة لما يقع من اليهود والنصارى في الجملة، وأخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّ هذا الاتّباع والتشبُّه والمطابقة لأحوالهم تصِل إلى الحد الذي لو قُدِّر فيه دخول أحدهم جُحر ضب لكان من هذه الأمة من يدخل جحر الضب كما فعلوا.

الضب: هو الحيوان الزاحف المعروف، وجحره: هو غاره، وهو شيء صغير لا يُتصور أن يدخله إنسان، لكن جرت عادة العرب على أن يذكروا الأمر المستحيل من جهة المبالغة، إذا أرادوا أن يبالغوا في حكاية شيء فإنهم يذكرون أمرًا مستحيلًا.

والمقصود أن هذه المشابهة والمتابعة تصل إلى الحد الذي ربما لا يتصور وقوعه، وجاء في حديث ابن عباس مرفوعًا: «حتى لو كان منهم من يضاجع أمه في الطريق لكان من هذه الأمة من يفعل ذلك»[٣٩١]، نسأل الله السلامة والعافية[٣٩٢].

---

(٣٩١) حسنه الشيخ ناصر رَحِمَهُ اللَّهُ وغفر له.

(٣٩٢) قال الصحابة وقد حصل لهم اسْتغراب بعد أن منَّ الله ﷻ على هذه الأُمَّة بهذا الهدى العظيم بكتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ ؛ تحصُل المشابهة ويحصل التعلّق باليهود والنصارى وهُم هُم؟! فقالوا: (**اليهودُ والنصارى؟**) بالضمّ على أنَّ ذلك خبر لمبتدأ محذوف، يعني: أَهم اليهودُ والنصارى. ويصح أن تقول: (**اليهودَ والنصارى؟**) ويكون ذلك على أنَّ اليهودَ والنصارى مفعولٌ به لفعْل محذوف؛ أتعني اليهودَ والنصارى؟ فقال ﷺ: «**فَمَنْ؟!**» وهذا استفهام بمعنى التقرير، يعني ومَن سِوى هؤلاء؟

إذًا هذا الأمر الذي أخبر به النبي ﷺ أمرٌ واقعيٌ حقيقي ليس خياليًا، وتأكد ذلك من حيث الواقع، فهو شاهدٌ على صحة ما أخبر به النبي ﷺ.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَلِمُسْلِمٍ عَنْ ثَوْبَانَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللهَ زَوَى لِيَ الأَرْضَ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا، وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ: الأَحْمَرَ وَالأَبْيَضَ، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ بِعَامَّةٍ، وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وَإِنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ، وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لَا أُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ بِعَامَّةٍ، وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وَلَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا، حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا، وَيَسْبِيَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا»).

قوله: «إِنَّ اللهَ زَوَى لِيَ الأَرْضَ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا»هذا الحديث حديث ثوبان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ، وهو كما قال المؤلف مخرج في صحيح الإمام مسلم، وفيه ذِكر آية من آيات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ التي خَصَّ بها النبي ﷺ.

وهذا الذي أخبر به النبي ﷺ خبرٌ في معنى النهي، إخباره ﷺ بهذا الذي سيقع ليس من باب التقرير، لكن من باب النهي والتحذير. فعلى المُريد نجاته أن يحذر من ذلك، فإنَّ أهل الإيمان يسألون الله تبارك وتعالى في كلّ صلاة عِدَّة مرات أن يهديهم صراط الذين أنعمَ عليهم؛ وهم النّبيّون والصّديقون والشهداء والصالحون، وأن يجنّبَهم مسْلك هؤلاء الكفار؛ المغضوب عليهم والضالّين؛ اليهود والنصارى. والله المستعان.

أخبر النبي الصادق المصدوق صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّ الله زوى لنبيه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الأرض، زوى: يعني جمع، والمعنى: أنَّه طوى له الأرض حتى أصبحت في نظره صغيرة فرأى مشارقها ومغاربها(٣٩٣)، وأخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّ مُلك هذه الأمة سيبلغ ما زُويَ له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منها، وكان ما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ وذلك أنَّ الإسلام توسع وانتشر -والحمد والمنة لله- في عهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم في عهد أصحابه، ثم في عهد التابعين فمن بعد، توسع الإسلام شرقًا وغربًا، ولاحظ أنَّ اتساع الإسلام كان بالنسبة للجزيرة -التي منها نشأ- كان من جهة المشرق ومن جهة المغرب أكثر مما كان من جهة الشمال والجنوب؛ لأنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبر بهذا؛ ذكر المشرق والمغرب، فكان كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(٣٩٤).

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ: الأَحْمَرَ وَالأَبْيَضَ**»؛ المقصود بالإعطاء: إعطاء أمته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأن حصول هذه الغنائم وهذه الكنوز إنما كان في عهد أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، في عهد عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولم يكن هذا في عهده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لكن ذكر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه أُعطيه، لأن الإعطاء كان لأمته التي هو قائدها وهو نبيها وهو سيدها، لا سيما وأن إعطاء الأمة هذه النعمة إنما كان بسببه هو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وببركة اتِّباعه والإيمان برسالته، فصحَّ أن يُضاف هذا الإعطاء إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

---

(٣٩٣) والله على كلّ شيءٍ قدير.

(٣٩٤) وهذا من أعلام نبوّته ﷺ، فقد حصل ما أخبر به عليه الصلاة والسلام.

أُعطيَ النبي ﷺ الكنزين: الأحمر والأبيض؛ يعني الذهب والفضة، والمراد: أنه نالت هذه الأمة الأموال والمكاسب والخيرات والغنائم التي كانت عند فارس والروم، والغالب على مال كسرى والفرس هو الفضة، وهذا هو الكنز الأبيض، والغالب على كنز الروم وقيصر هو الذهب، وهذا هو الكنز الأحمر.

قال ﷺ: «**وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ بِعَامَّةٍ**»؛ هذا سؤال من النبي الرؤوف الرحيم بهذه الأمة، سأل ربه جَلَّ وَعَلَا لهذه الأمة أن لا يهلكها بسنة بعامة، وكلمة (بعامة) جاءت في بعض نسخ كتاب التوحيد[٣٩٥] بهذا اللفظ بإثبات الباء، وجاءت في بعض النسخ بحذف الباء (بسنةٍ عامة)، وهكذا كان الأمر في الأصل، يعني في صحيح مسلم، فإن نُسَخَ صحيح مسلم جاء في بعضها (بسنة بعامة)، وجاء في بعضها (بسنة عامة)، وهكذا في بقية المصادر التي خرَّجت هذا الحديث، وعلى كل حال المعنى واحد، والباء كما يقول أهل اللغة هاهنا زائدة.

سأل النبي ﷺ ربه ألا يهلك هذه الأمة بسنة عامة؛ السَنَة: يعني الجدب وانقطاع المطر[٣٩٦]، سأل النبي ﷺ ألا يهلك هذه الأمة بالعطش، وسيأتي معنا أن الله جَلَّ وَعَلَا استجاب ذلك، وأنه لم يكن هناك -والحمد والمنة لله-

---

(٣٩٥) وهي نسخ خطّية.

(٣٩٦) و (عَامَّة) أي تعمُّ الأُمَّة فيحصل بسبب ذلك هلاكٌ عام للأُمَّة.

جدبٌ عام لجميع أقطار الأمة الإسلامية، إنما كان يكون جدبٌ في مكان ورخاء ومطرٌ في مكان آخر.

قال ﷺ: «**وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ**» السؤال الثاني أو الطلب الثاني الذي سأل النبي ﷺ ربه هو: أن لا يسلط عليهم عدوًا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، وسيأتي الكلام عن هذه القطعة فيما يأتي من الحديث إن شاء الله [٣٩٧].

«**وَإِنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ**»؛ أجاب الله عَزَّ وَجَلَّ نبيه ﷺ بما بيَّنه عليه الصلاة والسلام في هذا الحديث، وهو أن الله تعالى إذا قضى قضاءً فإنه لا يُرد.

هذا القضاء -يا رعاك الله- هو القضاء الكوني، والقضاء الكوني هو في معنى: المشيئة، فما قضى الله كونًا فإنه واقع ولا بد، ولا يمكن أن يُغالَب الله عَزَّ وَجَلَّ في قضائه الكوني، إذ من ذا الذي يغالِب الله من خلقه! فالله إذا قضى أمرًا وقع ولا بد، ومن هذا القضاء: ما جاء في كتاب الله جَلَّ وَعَلَا في سورة الإسراء: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾[الإسراء:٤]، فهذا قضاءٌ كوني، متى ما قضاه الله عَزَّ وَجَلَّ فإنه لا بد من وقوعه.

---

(٣٩٧) المعنى: أي يسْتبيح مجموعهم وأكثرهم، وهذا -كما سيأتي في تَتِمَّة الحديث- قد حمى الله عَزَّ وَجَلَّ هذه الأُمَّة بِبَركة دعاء النبي ﷺ حتى يقع الشيء الذي عُلِّق هذا الوعد به.

والمقضي كونًا قد يكون محبوبًا لله، وقد يكون مبغوضًا لله. فالإفساد الذي قضاه الله عَزَّوَجَلَّ في شأن بني إسرائيل مبغوض لله جل وعلا غير محبوب، لكنَّ الله جَلَّوَعَلَا قد يقضي ما لا يحب؛ لأنه يفضي إلى ما يحب.

إذًا المقضي كونًا ينقسم إلى قسمين:

- إما أن يكون محبوب لذاته لله **جَلَّوَعَلَا** .
- وإما أن يكون محبوبًا لغيره لله **جَلَّوَعَلَا**.

وثمة قضاءٌ آخر، هو: القضاء الشرعي، وهو في معنى: المحبة والإرادة الشرعية، ومن هذا الباب قول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٢٣]، فهذا القضاء لا يلزم وقوعه، قد يقع وقد لا يقع، لكنه محبوب لله عَزَّوَجَلَّ ولا بد.

إذًا القضاء الشرعي ملازمٌ للمحبة، والقضاء الكوني ملازمٌ للوقوع؛ ما قضاه الله كونًا لا بدَّ من وقوعه، سواءً كان محبوبا لله في ذاته أو غير محبوب. وما قضاه شرعًا فإنَّه محبوبٌ لله جَلَّوَعَلَا قطعًا، ولكن قد يقع وقد لا يقع، فلما قضى الله جَلَّوَعَلَا شرعًا أن لا يُعبد إلا إياه لم يكن هذا واقعًا من جميع الناس، من الناس من استجاب وهم الأقلون، ومن الناس من أعرض وهم الأكثرون؛ فدل هذا على أنَّ المقضي شرعًا قد يقع وقد لا يقع.

وهذا الذي بين أيدينا في الحديث هو القضاء الكوني؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيّن فيما أخبر عن ربه أنه عَزَّوَجَلَّ إذا قضى قضاءً فإنه لا يرد، وهذا هو القضاء الكوني(٣٩٨).

قال ﷺ: قال الله عَجَّلَ: «**وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لَا أُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ بِعَامَّةٍ**»؛ هذا من فضل الله وله الحمد والمنة، قضى الله قضاءً كونيًا لا يتخلَّف وهو أن هذه الأمة لا تُهلَك بالجدب والقحط وقلة المطر جميعًا، إنما قد يكون القحط في ديار دون ديار، وفي أماكن دون أخرى.

قال: «وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وَلَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا، حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا»؛ الأمر الأول الذي سأله النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ربه أجابه الله جَلَّوَعَلَا بلا قيْد.

---

(٣٩٨) ومن لم يفرّق بين النوعين فحملَ كلّ النُّصوص الواردة في القرآن على أحد النوعين فإنه يضل، تجد مثلًا أهل الإلْحاد من أهل الحُلول ووَحدة الوجود والاتّحاد يتذرّعون على كفرهم بمثل قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾، والله عَجَّلَ لا رادَّ لِمَا قضى. النتيجة: أنَّ كلّ ما عُبِدَ فهو الله؛ لأنَّ القضاء في زعمهم هو القضاء- في هذه الآية- هو القضاء الكوني، النتيجة لم يُعبدْ إلا الله، فمن عبَد الشجر والحجر والصنم الواقع أنه لم يعبد إلا الله، وهذا أعظم الكفر، إذًا ينبغي أن تَتنبَّهَ إلى هذا الفرقان العظيم بين هذا اللّفظ وأمثاله من النُّصوص التي جاءت منقسمة بالنُّصوص؛ فالقضاء هاهُنا قد يكون كونيًا، كما هو معَنا في هذا الحديث، الله عَجَّلَ إذا قضى قضاءً كونيًا فلا أحد يغالب الله، ولا أحد يمكن أن يردَّ قضاء الله تبارك وتعالى، وقد يكون قضاءً شرعيًا فيقع أو لا يقع، بحسب ما يشاء الله عَجَّلَ.

أما الثاني فكان الجواب جوابًا مقيدًا؛ وهو في شأن استئصال شأفة هذه الأمة، أجاب الله عَزَّوَجَلَّ نبيه ﷺ أنه لا يسلط على هذه الأمة عدوًا من خارجها؛ يعني من سوى أنفسها، من كفار خارجين عن هذه الأمة، لا يتسلطون على هذه الأمة فيستبيحون بيضتها. المقصود بالبيضة: يعني مجتمع المسلمين وموضع اجتماعهم وقوتهم، والعرب تقول: (بيضة الدار) لوسطها ومعظمها.

والمقصود بذلك أن الله جَلَّوَعَلَا وعد، ووعده لا يُخلف، أنه لا يسلط عدوًا على هذه الأمة من الخارج فيستبيح سلطانها ويقضي على موضع إمامتها وخلافتها وقوتها، إلا إذا وُجد أمرٌ.

قال: (حتى)، ولاحظ أنَّ (حتى) هنا هي للغاية؛ إذا بلغ الأمر أن بعض هذه الأمة قتل بعضًا، وسبى بعضها بعضا، حينئذٍ فإن الأمر مخوف، فلم يكن وعدٌ من الله جَلَّوَعَلَا لهذه الأمة، إن كان من هذه الأمة تسلط على بعضها أن لا يكون هناك تسلط من الكفار، بل يمكن أن يقع ذلك؛ أن يتسلط الكفار على المسلمين فيستبيحون بيضة الإسلام.

وهذا ما وقع مع الأسف الشديد في مراتٍ متكررة في التاريخ، ومن نظر في التاريخ عرف ذلك. ومن أشهر تلك الوقائع: ما حصل من تسلط التتار على المسلمين حينما غزوا بلاد المسلمين حتى وصلوا إلى بيضة الإسلام وعاصمة الإسلام بغداد، وحصل ما حصل من القتل العظيم، الذي كانت جثث المسلمين فيه كالتلال في بغداد، وحتى إن ميازيب بغداد -كما قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ- سالت دمًا في الأزقة، وكان ذلك سنة ست وخمسين وستمائة للهجرة. استمر تسلط

هؤلاء التتار على بغداد في أيام معدودة في حدود أربعين إلى ستين يومًا، بلغ قتلى المسلمين ألفي ألف قتيل، أي كما نقول بلساننا المعاصر مليوني قتيل، ولم يسْلم من ذلك كما يقول ابن كثير إلا أهل الذمة من اليهود والنصارى، أو من أمَّنَه الوزير ابن العلقمي الذي كان سبب دخول التتار على المسلمين.

الشاهد أنَّ هذه مقتلة عظيمة، لكن متى حصلت؟ لما فشا بين المسلمين الإحن البغضاء والفتن، وسُلَّت سيوف بعض المسلمين على بعض، حينئذ حصل الذي شاء الله عَزَّوَجَلَّ وقدَّره.

وهكذا حصل في بعض البلاد الأخرى؛ في الأندلس حصل على المسلمين ما حصل، حتى استولى الكفار على بلاد الأندلس، كذلك في الحروب الصليبية حصل على المسلمين ما حصل، وفي عصرنا الحديث استولى الكفار على بعض بلاد المسلمين في فلسطين وفي غيرها، في وقائع تدل وتشهد على أن **المسلمين نِيْطَ نصرهم بتحقق أمرين، لا نصر ولا عز لهم إلا باجتماعهما:**

أولًا: تحقيق التوحيد لله عَزَّوَجَلَّ والاتباع لرسوله صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ متى؟ ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾[النور:٥٥].

ثانيًا: حصول الاجتماع وعدم الفرقة والاختلاف، كما أخبر النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عن ربه في هذا الحديث، إذا اختلفوا وتقاطعوا وتقاتلوا فإنَّه لا وعد لهم بالنصرة

والعــزة والتمكــين، والله جَلَّوَعَلَا يقــول: ﴿وَلَا تَنَــازَعُوا فَتَفْشَــلُوا وَتَــذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾[الأنفال:٤٦]؛ تصبحون ضعفاء لا قيمة لكم بين الأمم، والله المستعان.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَرَوَاهُ الْبَرْقَانِيُّ فِي صَحِيحِهِ، وَزَادَ: «وَإِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ، وَإِذَا وَقَعَ عَلَيْهِمُ السَّيْفُ لَمْ يُرْفَعْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَلْحَقَ حَيٌّ مِنْ أُمَّتِي بِالْمُشْرِكِينَ، وَحَتَّى تَعْبُدَ فِئَامٌ مِنْ أُمَّتِي الأَوْثَانَ، وَإِنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي كَذَّابُونَ ثَلَاثُونَ كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، لَا نَبِيَّ بَعْدِي، وَلَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ مَنْصُورَةً، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى»).

«وَرَوَاهُ الْبَرْقَانِيُّ فِي صَحِيحِهِ»؛ البرقاني: هو تلميذ الدارقطني، وشيخ الخطيب البغدادي، توفي سنة خمسة وعشرين وأربعمائة، منسوبٌ إلى برقان، قرية من قرى الشرق في خوارزم.

وَزَادَ: «وَإِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ»؛ هذه الزيادة كما ذكرها المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أخرجها البرقاني في صحيحه، ولك أن تقول في مسنده، ولك أن تقوله في مستخرجه، وكل ذلك مستعملٌ عند أهل العلم، وهذا الكتاب في حد علمي مفقودٌ إلا قطعة يسيرة في أوراق معدودة وُجدت، والحديث كاملًا بما سبق وبهذه الزيادة خرجَّه إضافةً إلى البرقاني أبو داود في سننه، وكذلك الإمام أحمد في مسنده وغيرهما، فهي زيادةٌ صحيحة.

قال: «**وَإِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ**»، هذا من كلام النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، يخبر أنه يخاف على هذه الأمة الأئمة المضلين. **والأئمة المضلون**

هذا الوصف يشمل طائفتين: ضُلَّالَ الحكام، وضُلَّالَ العلماء، وما دخل الشر والشرك والبدعة على هذه الأمة إلا من خلال هاتين الطائفتين؛ من خلال الأئمة المضلين حكامًا أو علماء، والأمر كما قال ابن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهلْ أفسدَ الدّين إلا المُلوك وأحْبار سوءٍ ورُهْبانُها

فالحكام من أهل الشر والبدعة والشرك يحملون الناس على الضلال، كما حصل في عهد الإمام أحمد من فتنة خلق القرآن التي لا تخفاكم، ولها نظائر في التاريخ الإسلامي.

وأما العلماء علماء السوء، الأئمة المضلين؛ فهؤلاء أكثر، وتأثيرهم أعظم، هؤلاء الذين يزيِّنون الشر ويزيِّنون الضلال ويزيِّنون مخالفة الكتاب والسنة، ماذا يقول الإنسان عن تأثيرهم على الناس؟! لا سيما على الجهال والأغمار، هؤلاء يحسِّنون الشرك، هم الذين يقولون للناس إن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: "إذا أعيتكم الأمور فعليكم بالقبور"، هم الذين يقولون للناس: إنهم يعلمون الغيب، حتى إنهم يعلمون أهل الجنة من أهل النار، هم الذين يأمرونهم بالغلو في الصالحين، والبناء على القبور واتخاذها مساجد، هم الذين يحسِّنون لهم التبرك الممنوع، ولبس التمائم، وفعل البدع والمحدثات، هؤلاء هم أئمة الضلال.

والله جَلَّ وَعَلَا لحكمته جعل في الناس أئمة خير، وجعل في الناس أئمة شر، ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾[سورة السجده:٢٤]، هؤلاء أئمة الخير، وقال في الشق الآخر في فرعون وجنوده، ويشمل ذلك من على شاكلتهم: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾[القصص:٤١].

إذًا خاف النبي ﷺ على أمته الأئمة المضلين؛ لأن الشرور والمفاسد إنما تكون بتسلطهم وتزيينهم على هذه الأمة، والواقع أكبر شاهد؛ فهل للشرك والبدعة وأنواع الضلالات أن تنتشر بين الناس لولا هؤلاء الذين يخْطبون ويتكلمون ويكتبون ويدِّرسون وينشرون مع الأسف الشديد!! هؤلاء فسادهم عظيم، مع وجودهم وكثرتهم في كل زمان ومكان، لا كثرهم الله. هؤلاء محل خوف النبي ﷺ على هذه الأمة.

وجاء في مسند أحمد بإسناد قوي أن النبي ﷺ قال: «إنَّ أخوف ما أخاف على أمتي كل منافق عليم اللسان»، هذا من أخوف ما خافه النبي عليه الصلاة والسلام على هذه الأمة، منافق لكن المصيبة أنه عليم اللسان، يعني عنده لسان وعنده أسلوب وعنده وسيلة جذب للناس، فإذا تكلم وإذا خطب أثَّر، والمصيبة أن كثيرًا من المسلمين لا سيما في العصور المتأخرة جهال بدينهم، والجهال يخدعهم بريق الألفاظ، دون أن يغوصوا إلى الحقائق المعاني فيكشفون الحقيقة عن الزيف، وبالتالي يكثر التأثر بهم ويكثر الفساد بهم، والله المستعان.

قال ﷺ: **«وَإِذَا وَقَعَ عَلَيْهِمُ السَّيْفُ لَمْ يُرْفَعْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»**؛ صدق ﷺ ، وهذا الحديث -كما قال الشيخ سليمان في شرحه على كتاب التوحيد- كل قطعة منه دليل على شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ﷺ؛ وذلك لأن كل قطعة منه قد وقعت كما أخبر النبي عليه الصلاة والسلام.

أخبر النبي ﷺ أن السيف إذا وقع في هذه الأمة لم يُرفع إلى يوم القيامة؛ وكان ما أخبر به، لما سُلَّ السيف على هذه الأمة منذ عهد عثمان رضي الله عنه

لم يُرفع ولن يرفع إلى أن يشاء الله، وقتلى المسلمين بفعل من ينتسبون إلى الإسلام أكثر من قتلى المسلمين الذين قُتلوا بفعل غيرهم؛ فتأثير الخوارج والبغاة ومن تأول، أو القتال الذي حصل بسبب التغلب أو الحرص على السلطة بين المسلمين على مدار التاريخ شيء كثير جدًا، فالسيف إذا وقع على هذه الأمة من داخل هذه الأمة، وإذا وقع عليها من داخلها، تسلط الكفار كما مر بنا عليها من خارجها فلا يُرفع ذلك إلى يوم القيامة.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَلْحَقَ حَيٌّ مِنْ أُمَّتِي بِالْمُشْرِكِينَ، وَحَتَّى تَعْبُدَ فِئَامٌ مِنْ أُمَّتِي الأَوْثَانَ**» ؛ هذا هو موضع الشاهد من الحديث، ولأجله أورد المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ هذا الحديث بطوله في هذا الباب. أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه لن تقوم الساعة حتى يلحق حيٌ من أمته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالمشركين، وحتى يعبد فئامٌ من هذه الأمة الأصنام.

فئام: يعني مجموعة، والحي: هو القبيلة. وجاء عند أبي داود: «حتى تلحق قبائل من أمتي بالمشركين، وحتى تعبد فئام من أمتي الأصنام».

وما المقصود بقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بلحوق حي أو قبائل من هذه الأمة بالمشركين؟

- هل المراد أنهم يرتدَّون فيكونون قد لحقوا بالمشركين حكمًا، وهم في أماكنهم؟
- أو أن المقصود أنهم يلحقون بالمشركين واقعًا؛ فينتقلون إلى ديارهم ويسكنونها؟

- أو أنهم يجمعون بين هذا، وبين الردة عن دين الله جَلَّوَعَلَا؟

الأقرب والله أعلم هو أنهم يلحقون بهم ويسكنون ديارهم؛ لأن المعنى لو كان هو الأول وهو أنهم يرتدون لكان ما ذُكر بعده في معناه، فيكون شبيهًا بالتكرار، والتأسيس كما عند الأصوليين أولى من التأكيد، فذِكر معنًى جديد أولى من تأكيد معنى آخر ذُكر، وبالتالي فيكون هذا الحديث دليلًا على أن سُكنى بلاد الكفار أمرٌ مذمومٌ شرعًا إلا لمصلحة شرعية معتبرة.

الشاهد أن النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أخبر أن من هذه الأمة من سيقع في الشرك، سيعبد الأوثان والأصنام، وكان ما أخبر به صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فحدِّث ولا حرج عمن ينتسبون إلى الإسلام ويقولون لا إله إلا الله، وربما صلُّوا وصاموا وزكوا وحجوا، ولكنهم عند القبور وبعيدًا عنها يتوجهون إلى الأموات؛ يدعون ويستغيثون، وينذرون ويذبحون ويطوفون، فإنَّا لله وإنَّا لله راجعون.

وقع ما أخبر به صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ، ودونك تلك المشاهد، ودونك تلك القباب، ودونك تلك الأضرحة التي تعج بها بلاد المسلمين إلا ما قلَّ وما رحم الله سبحانه، فهذا من علامات النبوة صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حيث كان كما أخبر، وهذا ردٌّ بالغ على أولئك الذين ذكروا الشبهة السابقة؛ وهي أن الشرك لا يقع في هذه الأمة، وأن من دخل في الإسلام لا يرتد.

يا لله للعجب! ماذا نصنع بهذا الحديث؟ وأين هؤلاء عما ثبت في الصحيحين أيضًا عنه صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنه قال: «لا تقوم الساعة حتى تضطرب أَلَيات نساء دوس عند ذي الخلصة»، ونساء دوس -وهي قبيلة في جنوب الجزيرة

العربية- أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنها لن تقوم الساعة حتى تضطرب أليات‍هن -يعني أردافهن- عند ذلك الوثن الذي هو طاغية دوس، واسمه: ذو الخلَصة(٣٩٩).

أين هؤلاء عما جاء عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أحاديث كثيرة في ثبوت أن من هذه الأمة من سيكفر ويرتد، ألم يُخْرِّج الإمام مسلم في صحيحه عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلِم، يصبح الرجل مؤمنًا ويمسي كافراً، أو يمسي مؤمنًا ويصبح كافراً، يبيع دينه بعرَضٍ من الدنيا»، أين هم عن حديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو ثابت في الصحيحين لمَّا ذكر الدجال وأنه يجوب الأرض إلا المدينة فإن على أنقابها ملائكة يحرسونها، أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الحديث أنها «ترجف ثلاث رجفات»، فيخرج من المدينة التي هي أعظم المدائن والتي يرجع إليها ويأرز إليها الإيمان في آخر الزمان، قال: «فيخرج منها كل كافر ومنافق»، وهي المدينة، فماذا يُقال عن غيرها!!

(٣٩٩) وفي مسلم عن عائشة عنه ﷺ أنه قال: «لا يذهب اللَّيل والنهار حتى تُعبَدَ اللَّاتُ والعُزَّى»، يأتي بعد ذلك بعض الجهَلة أو بعض مَن طمسَ الله بصائرهم ويقولون: "الشرك لا يقع في الأُمَّة، ولا يمكن أحد ينتسب إلى الإسلام ويقول (لا إله إلا الله) ويقع في الشرك" !! أين هذا عن هذه النُّصوص الصريحة التي تدلُّ على أنَّ الشرك قد يقع، بلْ أنَّ أُناسًا كُثُر من هذه الأُمَّة وهم أُمَّة الإجابة الذين انتسبوا إلى هذا الدين سيقع منهم الشرك، فينقضون إيمانهم -والعياذ بالله-، «حتى تُعبدَ اللَّاتُ والعُزَّى» حقًّا وصدقًا، كما أخبر بذلك النبي ﷺ.

إذًا هذه الأدلة -وغيرها كثير- دليل على بطلان تلك الشبهة التي يروِّج لها عباد القبور.

وفي هذه الأحاديث أيضًا ما يُورث المسلم الخشية والخوف والوجل؛ فإن الشرك مَخُوُف، والنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبر أن الجنة أقرب إلى أحدنا من شراك نعله، والنار مثل ذلك، هذا دليل على أن الأسباب التي توصِل إلى الجنة سهلة ويسيرة، والأمر كذلك بالنسبة إلى النار، فعلى المسلم أن يحذر وأن يخاف، وأن يلجأ إلى الله جَلَّ وَعَلَا بالصدق أن يجنِّبه الشرك وعبادة غيره.

قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَإِنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي كَذَّابُونَ ثَلَاثُونَ كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ**» ؛سيكون كما أخبر النبي أناس يزعمون أنهم أنبياء، رؤوس أولئك هذا العدد الذي ذكره النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهم ثلاثون، وهذا العدد فيه أنه سيكون هناك دجالون ثلاثون كلهم يدعي أنه نبي، وليس في الحديث أنَّ كل من يدَّعون هذه الدعوى ثلاثون، إنما هؤلاء الثلاثون هم الأبرز والأشهر، أو الذين لهم أتْباع والله تعالى أعلم.

وهذا قد كان؛ فكم الذين على مدار التاريخ في القديم والحديث ادَّعوا النبوة، من مسيلمة الذي كان صاحب اليمامة، وأخوه الأسوَد العَنَسِي الذي كان في صنعاء، وإلى هذا العصر ككذَّاب قاديان؛ غلام أحمد القادياني في الهند وغيره الذين يدَّعون أنهم أنبياء بعد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

والأمر المقطوع المعلوم من الدين بالضرورة أن النبي محمد بن عبد الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خاتم الأنبياء والمرسلين، فلا نبي بعده، كما نطق بهذا الكتاب

وكما نطق بهذا حديث رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فمن أثبت نبوةً لأحدٍ بعد النبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهو كافرٌ بإجماع المسلمين؛ لأنه مكذِّب للقرآن ﴿وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾[الأحزاب:٤٠]، ومكذب لحديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي تكاثر عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أنه لا نبي بعده.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَلَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ مَنْصُورَةً، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى**» ؛ هذا ختام الحديث وفيه هذه البشارة من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ أن الخير باقٍ في الأمة، وأن الحق مستمر في هذه الأمة، ستبقى طائفة -والطائفة هي الجماعة من الناس- على الحق ظاهرة لا يضرها من خذلها ولا من خالفها حتى يأتي أمر الله، وأمر الله يأتي قبيل قيام الساعة؛ حيث يرسل الله عَزَّ وَجَلَّ ريحًا طيبة تأخذ أرواح المؤمنين، فلا يبقى على وجه الأرض إلا شرار الأرض.

هذه الطائفة التي ستبقى مستمسكةً بالحق هي التي قامت حقًا وصدقًا بتوحيد الله واتباع رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قالت بما قال به القرآن وبما قالت به سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، اتَّبعوا الكتاب والسنة في كل صغيرٍ وكبير، لم يقولوا ولم يعتقدوا ولم يعملوا إلا ما قام عليه برهان من الوحي؛ هؤلاء هم أهلُ السنة والجماعة، هم السلف الصالح وأتباعهم، هم أهل الحديث -يعني أهل السنة والجماعة- ليس المقصود بأهل الحديث الذين يشتغلون بعلم الحديث، إنما وصْف أهل الحديث هو مرادفٌ لوصف أهل السنة والجماعة الذين قام اعتقادهم وقامت عباداتهم على مقتضى سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، هؤلاء هم

أهـل الحـق الـذين سـيبقون ولـن يضـرهم مخالفـة المخـالفين، ولا خـذلان المخذِّلين.



قال المصنف رحمه الله:

٢٤-بَابُ
مَا جَاءَ فِي السِّحْرِ

وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ﴾ [البقرة:١٠٢]. وَقَوْلِه: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ [النساء:٥١].

قَالَ عُمَرُ: «الجِبتُ: السِّحْرُ، وَالطَّاغُوتُ: الشَّيْطَانُ». وَقَالَ جَابِرُ: «الطَّوَاغِيتُ: كُهَّانٌ كَانَ يَنْزِلُ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ، فِي كُلِّ حَيٍّ وَاحِدٌ».

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: «الشِّرْكُ بِاللهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ».

وَعَنْ جُنْدَبٍ مَرْفُوعًا: «حَدُّ السَّاحِرِ: ضَرْبُهُ بِالسَّيْفِ». رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وَقَالَ: «الصَّحِيحُ أَنَّهُ مَوْقُوفٌ».

وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ بَجَالَةَ بْنِ عَبَدَةَ قَالَ: كَتَبَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: أَنِ اقْتُلُوا كُلَّ سَاحِرٍ وَسَاحِرَةٍ، قَالَ: فَقَتَلْنَا ثَلَاثَ سَوَاحِرَ. وَصَحَّ عَنْ حَفْصَةَ رضي الله عنها أَنَّهَا أَمَرَتْ بِقَتْلِ جَارِيَةٍ لَهَا سَحَرَتْهَا، فَقُتِلَتْ. وَكَذَا صَحَّ عَنْ جُنْدَبٍ. قَالَ أَحْمَدُ: «عَنْ ثَلَاثَةٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ».



قال الشارح وفقه الله:

هذا البابُ من المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ استكمالٌ لما جرى عليه المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الكتاب من بيان نواقض وقوادح التوحيد.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**بابُ مَا جَاءَ فِي السِّحْرِ**)؛ **السحر في اللغة**: اختلف العلماء في تفسيره، وقد ذكروا أشياء في التعريف اللغوي لهذه الكلمة، من أشهر ما ذكروا: **أنَّ السحر هو**: ما خَفيَّ ولَطُف ودقّ سببه، ومنه سمي: (السَحَر) لأنّه تخفى فيه الأشياء؛ السَحَرُ: آخر الليل. وذكر بعض اللغويين أنَّ أصل هذه الكلمة في اللغة يرجع إلى صرف الشيء عن وجهه، وذكروا غير ذلك في كلام كثير عند أهل اللغة.

أمَّا في الاصطلاح: فالناظر في كلام أهل العلم في حدِّ السحر يجدُ أنهم اختلفوا إلى **ثلاث طرائق**:

- منهم من لم يعرِّف السحر؛ وذلك لكثرة أنواعه التي تدخل تحت هذا اللفظ، وليس بينها قدرٌ جامع مشترك، ولأجل هذا فإنَّ هؤلاء يذكرون أمثلةً للسحر ولا يحدُّونه بحد، ومن أولئك: الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الجزء الأول من كتابه «الأم» حيث إنه قال: (السحر: اسمٌ جامع لمعانٍ مختلفة). وهكذا استظهر غيره من أهل العلم ومن المتأخرين كالعلامة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله في كتابه «أضواء البيان».
- **المسلك الثاني**: هو ذكر تعريفٍ عامٍ للسحر؛ فمن هؤلاء من يقول: إنه مزاولة النفس الخبيثة لأقوالٍ و أفعالٍ تكون منها أمورٌ خارقة. ومنهم من يقول في تعريف السحر: إنه اجتلابُ معونة الشيطان بالتقرب إليه.

➢ **أمَّا المسلك الثالث:** فهو تعريفه بذكرِ أمثلةٍ له؛ فيُجعل التعريف بالمثال، ومن هؤلاء ابن قدامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في كتابه «الكافي»، وكما أيضـًا في كتابه «المغني» فإنه عرَّف السحر بأنه: عُقَدٌ ورُقى وعزائم تُؤثر في القلوب والأبدان، فتُمرِض وتَقتلُ وتُفرِّق بين الرجل وزوجه.

هذه مسالك أهل العلم في تعريف السحر.

ومن أهم ما ينبغي علينا أن نعرفه في موضوع السحر؛ هو حكم السحر، وهل هو حقيقة أم لا؟

أمَّا كون السحر له حقيقة؛ فإنَّ هذا مذهب أهل السُنة والجماعة، بل مذهب عامة الأمم، لم ينكروا في عمومهم أنَّ للسحر حقيقةً وأنّ له تأثيرًا حقيقيًّا، وذلك أنَّه بمعاونة الشياطين يكون بهذا السحر تأثيرٌ على المسحور بإمراضه؛ سواءً تعلق ذلك بعقله فربما أصاب عقله بأذى حتى ربما أوصله إلى حدِّ الجنون، وربما أصاب بدنه فأمرضه، وربما قتله، وربما آذاه في علاقاته من جهة نفسانية، فيكون بسببه وقوع الفرقة والبغضاء بين الزوجين، أو عدم القدرة على مباشرة الزوجة وما إلى ذلك. هذا هو الحق الذي لا شك فيه؛ أنَّ للسحر حقيقةً وأن له تأثيرًا حقيقيًّا، ولكنَّ ذلك إنما هو بإذن الله الكوني، ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾[البقرة:١٠٢] ، وهذا هو الإذن الكوني المرادف للمشيئة.

وخالف بعض الناس في ذلك؛ وهم المعتزلة، ووافقهم على هذا بعضهم؛ كـابن حزمٍ والجصَّاص الحنفي، ذهبوا إلى أنَّ السحر ليس إلا تخْيِيلاً للعين، يحصل تخييل للعين بحيث إنّها ترى الشيء على خلاف حقيقته.

والصواب الذي لا شك فيه هو قول عموم الناس من أهل السُنة وغيرهم، **ويدل على هذا أدلة كثيرة، منها :**

الدليل الأول: قول الله جَلَّوَعَلَا ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾[البقرة:١٠٢]؛ فدلت هذه الآية على أن السحر يكون بسببه أثَرٌ يُفرَّق به بين الرجل وأهله، وهذا دليلٌ على أنّ له تأثيراً حقيقيا.

الدليل الثاني: قول الله جَلَّوَعَلَا ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾[الفلق:٤]؛ والنّفاثات في العُقد: هنَّ السواحر اللائي يسحرن وينفُثن في العقد فيكون التأثير بإذن الله الكوني، ولولا أنّ للسحر حقيقةً وتأثيراً ما كانت الاستعاذة من السواحر.

الدليل الثالث: قول النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ المخرج في الصحيحين: «من تصبَّح بسبع تمراتٍ من عجوة العالية لم يصبه في ذلك اليوم سمٌّ ولا سحر»، وفي رواية: «لم يضره سُمٌّ ولا سحر»، ولاحظ أنَّ هذا الحديث فيه:

أولاً: حثٌ من الوقاية من ضرر السحر، فدل على أنَّ له ضرراً حقيقياً.

ثانياً: إثباتُ الضرر «لم يضره»، إذًا هو تأثيرٌ حقيقي.

ثالثاً: قرنه بالسُم، والسُم تأثيره تأثير حقيقي؛ فدل هذا على أنَّ للسحر حقيقة.

الدليل الرابع: ما ثبتَ أيضاً في الصحيحين من قصة سِحْرِ النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ فالنبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ سُحر ،ولعله يأتي معنا إن شاء الله الكلام في هذا على وجه التفصيل، غير أنّ سِحر النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كان في شيءٍ

مخصوص لم يُؤثر في عقله ولا في قلبه، وحاشاه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، إنَّما كان هذا السحر من جنس الأمراض التي تُصيب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وذلك جائزٌ في حقهم، والسِّحر الذي أصيب به النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تعلّق بشأنٍ خاص هو ما يتعلق أمر النساء؛ حيث كان يخُيَّل إليه أنَّه يأتي أهله والواقع أنّه ما أتاهم، حتى إنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فرَّج عنه ذلك ودله على موضع السحر وأنه كان في مُشطٍ ومشاطة في جُفِّ طلعةٍ ذكر في بئر ذي أروان، فلما استُخرج ذلك نَشِطَ النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعاد كما كان عليه من قبل؛ فدل هذا على أنَّ للسحر حقيقة.

أضف إلى هذا أمرًا خامسا: وهو الواقع المشاهد الذي لا ينكره إلا مكابر، فإنَّ النَّاس تعرف في أحوالها وفي أحوال الآخرين من أصيب بهذا السحر، فمنهم من رُبط عن أهله، ومنهم من وقع في نفسه بغضاءُ لأهله، ومنهم من أصابه أذىً في عقله، ولكن لمَّا استُخرج السحرُ وأُتلف عاد هذا الإنسانُ إلى ما كان عليه من عافية؛ فدل هذا على أنَّ الأمر حقيقيٌ ولا يمكن إنكاره، وصدق الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ حينما ذكر أنّ إنكار حقيقة السحر جهلٌ، قال: (إنكار حقيقة السحر جهلٌ) ؛ نعم الأمر كذلك، جهلٌ بأدلة الشرع، وجهلٌ بالواقع المحسوس، فالسحر إذًا حقيقة وله تأثير.

أما المخالفون فإنهم استدلوا عن هذا بما أخبر الله عَزَّوَجَلَّ به عن سحر سحرة فرعون، حيث قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾[الأعراف:١١٦] ، ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾[طه:٦٦]؛ قالوا فهذا دليل على أنَّ السحر ليس إلا تخييلاً للعين.

والجواب عن هذا أن يقال: نحن لا ننكر أن من السحر ما هو تخييل للعين، ولكن لا دليل في الآيتين وما جرى مَجْراهما على أنَّ السحر كله محصور في تخييل العين، إنما غاية الأمر أن في هذا الدليل وأمثاله ما يدل على أن سحر سحرة فرعون كان من هذا النوع، ولكن لا دليل على أن السحر كله من هذا النوع، سحرهم كان من هذا النوع ووراء ذلك نوع آخر لم يكن من صنْعتهم؛ وهو السحر الحقيقي المؤثر في العقول والأبدان.

ثم إنَّه يقال لهم أيضـًا: إذا أمكن أن يكون في السحر تأثيراً على العين، فما المانع أن يكون بسببه تأثيرٌ على غيره من أعضاء الإنسان؟ إذا أَثَّر السحر في العين فما المانع من أن يؤثر في القلب والعقل وبقية الأعضاء؟

إذًا الصحيح الذي لا شك فيه أن السحر منه ما هو حقيقة، ومنه ما هو تخييلٌ للعين، حيث يُؤَثِّرُ على البصر حتى ترى الشيء على غير وجهه.

أَمَّا حكم السحر: فالناظر في كلام أهل العلم يجد أن لهم مسلكين في المسألة:

١. **منهم** من يطلق أنَّ السحر كفرٌ بالله عَزَّوَجَلَّ؛ وهؤلاء جمهور أهل العلم.

٢. **ومسلكٌ** آخر لطائفة أخرى: هو أنهم يفصلون **فيقولون**:

-من السحر ما هو كفر؛ وهو ما كان بإعانة الشياطين.

-ومنه ما ليس بكفر، إنما هو فسوق ومعصية وظلم؛ وهو ما لم يكن بإعانة الشياطين. وممن نحى إلى هذا المنحى الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «الأم».

والذي يظهر -والله تعالى أعلم- أنَّه لا خلاف حقيقي بين القولين، ليس هناك خلاف حقيقي بين هذين المسلكين؛ فإن أهل العلم الذين أطلقوا أن السحر كفر بالله جَلَّوَعَلَا إنما مرادهم السحر الذي نطقت به الأدلة، وهو الذي يكون بإعانة الشياطين، ولا يريد هؤلاء الإطلاقات الأخرى التي تطلق على السحر وليست بإعانة الشياطين، فهم لا ينازعون أن هذه ليست كفراً، وإنما يعتبرون إطلاق السحر عليها من قبيل التجوّز.

وأمَّا الذين فصَّلوا فقالوا: من السحر ما هو كفر؛ وهو ما كان بإعانة الشياطين، ومنه ما يرجع إلى غير ذلك؛ كاستعمال الأدوية والعقاقير وخواص الأشياء من دُهاناتٍ وتدخيناتٍ وما إلى ذلك، ومنه ما يكون عن طريق ما يسمى بخفة اليد وما إلى ذلك، فهذه لا تدخل تحت حدِّ السحر.

أمَّا السحر بالمعنى الأول أو بالإطلاق الأصلي بما تعلق بإعانة الشياطين فإنّ ذلك كفر لا شك فيه، ويدل على هذا جملة من الأدلة:

الدليل الأول: قول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ [البقرة:١٠٢] إلى آخر السياق، **ووجه الدلالة من هذه الآية من وجوه** :

الوجه الأول: في قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ﴿**وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ**﴾؛ فإنَّ معنى ذلك كما قال أهل التفسير: إن الله جَلَّوَعَلَا ردّ على اليهود زعمهم وإفكَهم أن سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان يتعاطى السّحر، وبالتالي فيكون معنى الآية:

- وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ لأنه لم يتعاطى السحر؛ فدل على أن السحر كفر.

- أو وما سحر سليمان، وبالتالي ما كفر؛ فدل هذا على أن تعاطي السحر كفر بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ، وهذا واضح.

الوجه الثاني: في قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ﴿**وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ**﴾[البقرة:١٠٢] ؛ قال أهل الأصول: إنّ تعقيب الحكم بالوصف مُشعِرٌ بالعلِّية، يعني أن هذا الوصف المذكور هو علة الحكم، الله جَلَّوَعَلَا حكم على الشياطين بالكفر فما العلة؟ أنهم يُعلِّمون الناس السحر، ومعلومٌ بلا خفاء أن تعليم الشيء لا يكون كفرًا إلا إذا كان هذا الشيء كفراً؛ فدل هذا على أنّ السحر كفرٌ.

الوجه الثالث: في قول هاروت وماروت ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾[البقرة:١٠٢]؛ يعني يحذِّران من أراد تعلم السحر بأنّ من تعلَّم السحر فقد كفر، وهذا واضحٌ جلي في الآية، وقد ذكر ابن جرير بإسناده الصحيح عن ابن جُرَيج رَحِمَهُٱللَّهُ في هذه الآية أنه قال: «لا يجترئ على السحر إلا كافر».

الوجه الرابع: في قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾[البقرة:١٠٢] ؛ يعني: من استبدل الإيمان بالله ورسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بالسحر فإنه ليس له عند الله جَلَّوَعَلَا من خلاق، يعني من حظٍ ونصيب؛ وظاهر هذه الآية كفر من تعاطى السحر، لأنّ الكافر هو الذي ليس له عند الله عَزَّوَجَلَّ في الآخرة من حظٍ ولا نصيب(٤٠٠).

(٤٠٠) وهذا وعيدٌ يدل على أن السحر كفر.

الوجه الخامس: في قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ خَيْرٌ﴾[البقرة:١٠٣]، فإنّ هذا السياق يدل على أنّ هؤلاء كفروا؛ لأنّ من كان مؤمنـًا لا يُقال في حقه «ولو أنه أمن واتقى لكان خيرا له»، لأنه مؤمن أصلاً؛ فدل هذا على أن من تعاطى السحر كفر.

إذًا هذه -يا رعاك الله- وجوه خمسة؛ ثلاثة منها نصٌ في الحكم بأن تعاطي السحر كفر، ووجهان الظاهر من الآية فيهما أنَّ تعاطي السحر كفر.

أما الدليل الثاني: في قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿**وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى**﴾[طه:٦٩]، وهذه الآية سيأتي ما أراد المؤلف رَحِمَهُٱللَّهُ لها، وقد دلَّ الاستعمال الغالب في القرآن على أن نفي الفلاح إنما يُعلّق على ما هو كفرٌ. ويدل على هذا قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إنه لا يفلح الكافرون﴾ [المؤمنون:١١٧] ؛ فدل هذا على أنّ الذي يُحكم عليه بعدم الفلاح إنما هو الكافر. وكذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ * مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾[يونس:٦٩-٧٠] ؛ فدل هذا على أنّ غالبـًا ما جاء في القرآن من نفي الفلاح إنما تعلّق بالكفر والكافرين. فهذا وجهٌ صريح في أن تعاطي السحر كفر[٤٠١].

---

(٤٠١) ويؤيد أن نفي الفلاح هاهُنا هو دليل على الكفر ما سبق من الأوجه الماضية، لاسيّما وأن الله ﷻ قد أكد نفي الفلاح بتعميم الأمكنة، ﴿وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ حيث كان.

الدليل الثالث: هو ما ثبت في الصحيحين من قول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اجتنبوا السبع الموبقات: الشرك بالله، والسحر**»؛ فهذا -كما قال أهل العلم- دليلٌ على أنَّ السحر كفرٌ وشرك بالله؛ لأنّ هذا العطف «الشرك والسحر» هو من باب العطف الخاص على العام، والبخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ بوّب بابًا في صحيحه قال: «بابٌ من الموبقات الشرك والسحر»، وأورد تحته الحديث بهذا اللفظ «اجتنبوا الموبقات: الشرك بالله، والسحر» فقط، ولم يذكر ما عدا ذلك.

وهل كان هذا منه لأنها رواية عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهذا القدر؟ أو أنّ هذا اختصارٌ من المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ؟ استظهر الحافظ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن هذه الرواية اختصارٌ من البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ وأنه رأى أن القدر الذي هو مخرجٌ من الإسلام من هذه الأمور السبع إنما هو هذان الأمران: الشرك، والسحر.

الدليل الرابع: ما ثبت عن جمعٍ من الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ من قتل السحرة وسيأتي الكلام عن ذلك مفصلاً إن شاء الله. وأنت -يا رعاك الله- إذا نظرت وجدت أنَّ الساحر ليس بزانٍ ثيّب، وليس بقاتل نفس، فما بقيَ إلا أنه تاركٌ لدينه

ويؤيد هذا الحكم أيضًا ما ثبت عن ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّه قال: «من أتى كاهنًا أو ساحرًا أو عرافًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أُنزل على محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»، وهذا الأثر جوَّد إسناده المنذري والحافظ ابن حجر وقال: «ومثله لا يُقال بالرأي» وقال فيه ابن كثير: «إسناده صحيح».

ويكفي في هذا الحكم أن يُعلَم حقيقة السحر؛ فإذا كان السحر لا يكون إلا بالكفر بالله عَزَّ وَجَلَّ فهو بالضرورة كفر، وهذا بيِّن لا إشكال فيه.

مارقٌ منه، وهؤلاء الثلاثة هم الذين جاء الترخيص بقتلهم في الإسلام كما ثبت هذا عن النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في الصحيحين: «لا يحل من دم امرئ مسلم إلا بثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة»؛ فدل هذا على أن قتل الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ لهؤلاء السحرة دليل على أنّ السحر كفرٌ بالله عَزَّوَجَلَّ.

أضف إلى هذا أمرًا خامسًا: وهو واقع السحر. والذي لا يشك فيه أحد أن السحر الذي يكون عن تعاطي أو عن تعاون وإعانة الشياطين هو كفرٌ بالله جَلَّوَعَلَا ، هذا أمر لا يشك فيه من يعرف حال السحرة، **وبيانُ هذا بتقديم المقدمتين:**

❖ **الأولى**: أنّ السحر الذي هو سحر لا يكون إلا بإعانة الشياطين؛ حيث إنَّ بين نفس الساحر الخبيثة ونفس الشيطان الخبيثة توافقٌ يُنتِج عنه تضامًّا وتعاونًا.

❖ **المقدمة الثانية**: أنَّ الشياطين لا تُعين الساحر إلا إذا كفر بالله **عَزَّوَجَلَّ** ؛ حيث إنّ الشيطان لا أَرَبَ له في إعانة هذا الساحر إلا لتحقيق غايةٍ عنده يلتذُّ بها، وهي إغواء بني آدم، وهذا له مقابل هو أشبه -كما يقول شيخ الإسلام **رَحِمَهُٱللَّهُ**- أشبه بالرشوة، يدفع الساحر هذه الرشوة ليحصل على إعانة الشيطان له كما يدفع من يدفع من الظالمين رشوة لأحد ليقتل أو يؤذي أو يُمكِّن من فاحشة وما شاكل ذلك، هذه الرشوة هي الكفر بالله **عَزَّوَجَلَّ** .

وهذا الكفر قد يكون باعتقاد، وقد يكون بقول، وقد يكون بفعل:

❑ فإما أن يُؤمر الساحر من قِبل الشياطين باعتقاد أن لما يسمونه بالأرواح العلوية وهو الكواكب، أو للأرواح السفلية وهي الشياطين؛ أنَّ لها تأثيراً مستقلاً في مجريات هذا الكون(٤٠٢)، واعتقاد هذا كفر بالله عَزَّوَجَلَّ.

❑ أو بأن يكون هذا الكفر بالقول؛ بأن يؤمر الساحر بأن يستغيث بالجن والشياطين، أو أن يَسُب الله أو رسوله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أو الدِّين أو ما شاكل ذلك من هذه النواقض القولية.

❑ أو أن يكون كفره بفعل؛ كأن يؤمَر بإهانة المصحف، أو رميه في الحُش، أو كتابته بدم الحيض، أو بكتابته منكساً ، أو ما شاكل ذلك مما فيه إهانة لكتاب الله جَلَّوَعَلَا ، أو غير ذلك من أسباب الكفر الفعلية.

إذًا يتلخص لنا أنَّ السحر:

أولًا: لا يكون إلا عن طريق الشياطين.

وثانيًا: الشياطين لا تُعين الساحر إلا إذا كفر بالله جَلَّوَعَلَا ، فإذا كان ذلك كذلك كان السحر كفراً؛ لأنه لا يكون إلا بالكفر بالله عَزَّوَجَلَّ ، وهذا ظاهرٌ كما ترى.

---

(٤٠٢) والواقع أنَّ كل ذلك راجعٌ إلى الشياطين، فليس للكواكب أي علاقة بهذا الأمر إنما هو شيء يتوهَّمه السحرة، فلم يجعل الله ﷻ لهذه الكواكب تأثيرًا على شيء في هذه الأرض بحيث يحصل نفعٌ وإضرارٌ ذاتي منها. والمقصود أنَّ الساحر يشرك بالله تبارك وتعالى في اعتقاده فيعتقد أنَّ لهذه الشياطين أو للكواكب تأثيرًا مستقلًا دون الله ﷻ.

إذًا هذه أوجه وغيرها أيضـًا يدل على أنَّ السحر الذي هو عن طريق عامة الشياطين أنه كفرٌ بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ، وسيأتي في كلام المؤلف رَحِمَهُٱللَّهُ ما يبين الموضوع أكثر.

قال رَحِمَهُٱللَّهُ: (**وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ ﴾** [البقرة:١٠٢]).

هذه قطعة من آية البقرة وقد مضى الحديث فيها، والظاهر من هذه الآية هو أنَّ الساحر كافر، لأنه هو الذي ليس له عند الله في الآخرة من خلاق؛ يعني من حظ ونصيب[٤٠٣].

قال رَحِمَهُٱللَّهُ: (**وَقَوْلِه: ﴿ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ ﴾** [النساء:٥١] . **قَالَ عُمَرُ: «الجبتُ: السِّحْرُ، وَالطَّاغُوتُ: الشَّيْطَانُ». وَقَالَ جَابِرُ: «الطَّوَاغِيتُ: كُهَّانٌ كَانَ يَنْزِلُ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ، فِي كُلِّ حَيٍّ وَاحِدٌ»**).

هذه الآية مضى الكلام عنها وفيها بيان الله جَلَّوَعَلَا عن حال طائفة من اليهود؛ وهي أنهم يؤمنون بالجبت والطاغوت، وفسّر الجبت عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ كما علّق ذلك البخاري في صحيحه، ووصله عبد الرازق وغيره بإسنادٍ قوي كما قال الحافظ رَحِمَهُٱللَّهُ ، فسَّر الجبت بالسحر، وفسَّر الطاغوت بالشيطان، ونقل عن

(٤٠٣) هذه الآية في اليهود؛ ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا﴾ أي: الذين استبدلوا بالسحر عن الإيمان بالنبي ﷺ واتِّباعه ﴿مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ﴾ أي حظ ونصيب، وقد سبق أنَّه قد استُدل بهذه الآية على أن السحر كفر بالله تبارك وتعالى؛ وفي هذا أبلغ زاجرٍ ومحذرٍ عن هذا الفعل القبيح.

جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تفسير الطواغيت بالكهان.[٤٠٤] وسيأتي باب خاص بموضوع الكهان نتحدث فيه بالتفصيل -إن شاء الله- عن موضوع الكهان.

الشاهدُ أنَّ السلف رَحِمَهُمُ اللَّهُ جاء عنهم في روايات كثيرة تفسير الجبت بالسحر والساحر؛ ودل هذا على أنَّ تعاطي السحر من شأن اليهود لا من شأن المسلمين، فهذا دليلٌ أيضـًا على أنّ الساحر كفر بالله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن النصوص قد دلت على أنه من شأن الكافرين.

وما أخبر الله عَزَّوَجَلَّ به في هذه الآية من أنَّ اليهود يؤمنون بالسحر حقٌ لا مرية فيه؛ فإن أكثر الناس ولعـًا على الإطلاق بالسحر هم اليهود، وهذا معلومٌ من حالهم قديمـًا وحديثـًا؛ فإنّ للسحر مكانة عظيمة عندهم، ولهم في ذلك مؤلفات بلغت حد التقديس عند هؤلاء اليهود، ولم يزالوا يتعاطون هذا الأمر استفادوه من الأمم القديمة من الكِلدانيين والبابليِّين وقدماء المصريين، وزادوا عليه ما أوحى الشيطان إليهم حتى إنهم أصبحوا سادة هذا الباب، فأبرعُ وأكثر النَّاس اشتغالاً به هم اليهود -عليهم من الله ما يستحقون-، وتأثر بهم من تأثر من غيرهم حتى دخل فيه بعض المنتسبين إلى هذا الدين مع الأسف الشديد.

وحذارِ -يا أيها الفضلاء- حذارِ من المواقع والفضائيات التي تروِّج للسحر؛ فإنَّ هذه الوسائل الحديثة قرَّبت لكثير من الناس ما كان بعيداً، وهذا أمرٌ

---

(٤٠٤) وهذا ماضٍ على طريقة السلف في تعريف الشيء بمثالٍ له.

المقصود أن السحر من شأن اليهود فهم أكثر الناس ولوعًا به وحرصًا عليه ﴿ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾، وليس ذلك من شأن أهل الإسلام والتوحيد.

مؤسف، أصبح الوصول إلى السحرة من خلال هذه الوسائل أمرًا قريبًا جدًا ليس بين الإنسان وبينه إلا ضغطة زر كما يقولون، فكم هي المواقع التي هي بالآلاف وربما أكثر، تجده يكتب أو تجدها تكتب موقع الشيخة الروحانية فلانة، أو موقع الشيخ الروحاني فلان -وهو والله الشيخ الشيطاني وليس الروحاني- وتدخل إلى هذا الموقع ،وأسال الله أن لا تدخله، تجد أنه يذكر لك الخيارات: ماذا تريد؟ ماذا تريد أن نقدم لك من خدمات؟ تريد إعانةً على رزق؟ تريد محبة؟ تريد صرفـًا؟ تريد ربطـًا؟ تريد عطفـًا؟ اطلب وتمنى ونحن نحقق لك، ويضحكون على عقول السفهاء ويأكلون أموال النَّاس بالباطل.

وهنا تزلُّ أقدامٌ مع الأسف الشديد من ضعاف الإيمان وضعاف العقول، فهذا تجده قد أُغلق في وجهه بابٌ من أبواب العمل فيأتي يبحث عن مخرج عند هؤلاء السحرة، وتلك تخشى على زوجها أن يتزوج عليها فتلجأ إلى هؤلاء السحرة، وثالثة تريد أن تؤذي ضرَّتها فتلجأ أيضـًا إلى هؤلاء السحرة ، ورابع غبي يريد أن يحافظ على ابنته في زعمه فيلجأ إلى السحرة لأجل ربطها، وهكذا دواليك في أمور كثيرة يلجؤون فيها إلى السحرة، حتى إننا وجدنا بعض الأطفال والصبيان والفتيات من يدخل إلى هذه المواقع المشبوهة ويتعامل مع أهلها.

وقد يبدأ الأمر بحب استطلاع أو مِزاح ولكنه ينتهي بشر وبيل، وهذا أيضًا يقال في بعض القنوات الخبيثة التي تُروّج لهذا الإفك بل لهذا الكفر؛ فحذارِ أيها المسلم من الوقوع في هذا الأمر، فإنَّ الأمر في هذا والله عظيم، وقد ثبت عند أبي يعلى وغيره بإسناد صحيح كما قال الحافظ ابن كثير، وجيد كما قال المنذري

وابن حجر، عن ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنه قال: «من أتى كاهنًا أو ساحرًا أو عرافًا فسأله فصدقه؛ فقد كفر بما أنزل على محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ»، قال ابن حجر: (ومثله لا يقال بالرأي)، وأضف هذا إلى أدلة القول بأن السحر كفر.

الأمر ليس سهلاً ولا يسيراً والذي يتعاطى مثل هذه الأمور الرديئة فليعلم أنه يُعرض إيمانه إلى الزوال والعياذ بالله.

قال رَحِمَهُٱللَّهُ: (**عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: «الشِّرْكُ بِاللهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ»**).

هذا الحديث في الصحيحين ومضى الكلام فيه؛ «**اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ**»[٤٠٥]، لك أن تقول: «**الشركَ بالله والسحرَ**» على البدلية، ولك أن تقول: «**الشركُ بالله والسحرُ**» ؛ على أنّ الشرك خبرٌ لمبتدأ محذوف، هنَّ: الشركُ بالله بالسحر إلى آخره، ومضى الكلام في أنّ العطف في قوله: « **وَالسِّحْرُ**» هو من باب عطف الخاص على العام[٤٠٦].

---

(٤٠٥) الموبقات يعني: المهلكات.

(٤٠٦) فالسحر نوعٌ من أنواع الشرك بالله ﷻ. والمقصود أنَّ هذا الحديث فيه بيان شناعة شأن السحر، وأنه من الأمور العظيمة التي تُهلك الإنسان -والعياذ بالله- ، ففيه إنذارٌ وتحذير شديد عن هذا الفعل القبيح.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وَعَنْ جُنْدَبٍ مَرْفُوعًا: «حَدُّ السَّاحِرِ: ضَرْبُهُ بِالسَّيْفِ». رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وَقَالَ: «الصَّحِيحُ أَنَّهُ مَوْقُوفٌ»**).

هذا الحديث حديث جُندب، وهو جُندب بن كعب، وقيل ابن زهير ابن عبدالله الغامدي الأزدي، المعروف بجُندب الخير. ووهِم بعض الناس فظنه جُندب بن عبد الله البجلي، إنما هذا جُندب بن كعب، وقيل جندب بن زهير الأزدي، جندب الخير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ . روى عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حديثًا، والصحيح أن المرفوع إلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من هذا الحديث ضعيف، فإن فيه إسماعيل بن مسلم وهو ضعيف، وضعَّف الحديث مرفوعًا الإمام البخاري والترمذي وغيرهما من أهل العلم، والصحيح كما قال الترمذي، وكما قال الذهبي، وكما قال غيرهما الصحيح وقفه على جُندب.

ولهذا قصة وهي: أنه وقف على ساحرٍ يتعاطى بعض هذه المخاريق، فما كان منه إلا أن اخترط سيفه وقطع رقبة هذا الساحر وحدّث بهذا الحديث؛ «حد الساحر ضربة بالسيف» أو «حد الساحر ضربه بالسيف»، بهذا وبهذا قُرِأَ الحديث، يعني لك أن تقول: «حد الساحر ضربةٌ بالسيف»، ولك أن تقول: «ضَرْبُه بالسيف»[٤٠٧]، فهذا فيه أنَّ السحر كفرٌ بالله جَلَّ وَعَلَا؛ لأن الصحابي لم يكن ليجترئ على هذا إلا فيما هو رِدَّة.

---

(٤٠٧) فإذا كان السحر ليس عن طريق الشياطين -أي لم يكن كفرًا- فلا إشكال في كون حدّه هو القتل؛ لأنَّ الساحر الذي يؤذي، وقد يقتل، وقد يفرِّق بين المرء وزوجه، وقد

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ بَجَالَةَ بْنِ عَبَدَةَ قَالَ: كَتَبَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: أَنِ اقْتُلُوا كُلَّ سَاحِرٍ وَسَاحِرَةٍ، قَالَ: فَقَتَلْنَا ثَلَاثَ سَوَاحِرَ).

هذا الأثر عن عمررَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ نسبته إلى البخاري غير دقيقة(٤٠٨)، كتابة عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ إلى عمَّاله ثبتت في البخاري، ولكن اللفظ الذي في البخاري كتابته لهم أن يفرقوا بين المجوس ومحارمهم، فإنَّ أهل هذه الديانة كان أحدهم يتزوج امرأة من محارمه كأمه أو أخته- والعياذ بالله-، فأمر عمررَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عمّاله بالتفريق بين هؤلاء المجوس وبين محارمهم.

لكن جاء في غير البخاري بإسنادٍ صحيح عند أحمد وعبد الرزاق وغيرهما أنه كتب لهم أيضـًا «أَنِ اقْتُلُوا كُلَّ سَاحِرٍ وَسَاحِرَةٍ» ، قال بجالة بن عبَده -

---

يصيب الإنسان في بدنه بالوهن والمرض؛ هذا في حكم الصائل وفي حكم الباغي الذي يُدفعُ ضرره عن المجتمع بقتله.

أمَّا إذا كان السحر عن طريق الشياطين؛ فإنَّ الذي يوُجّه به قوله «حَدُّ السَّاحِرِ» أن يُقالَ: إن الحدّ هاهُنا ليس بمعنى الحدّ الاصطلاحي؛ لأن الحدّ الاصطلاحي إنما هو في شأن بعض الكبائر. ويترتب على ذلك أمور منها: أنَّ الحدود كفارات لأصحابها، لكن هذا في هذا الموضع غير مُراد، وإنما يكون الحدّ هاهُنا بمعنى العقوبة، يعني عقوبة الساحر ضربةٌ بالسيف؛ فيكون قتله عن الرِدّة، مُرتدٌ ويُقتل رِدةً، وهذا ظاهر فعل الصحابة رضي الله عنهم -كما سيأتي- والله أعلم.

(٤٠٨) والصواب أن هذا اللَّفظ ليس في البخاري إنما هو عند أحمد وأبي داوود، وعند ابن أبي شيبة أيضًا وغيرهم من أهل العلم، وليس في البخاري.

بتحريك الباء، تابعيٌّ كبير مشهور تميمي بصري- قال: «فقتلنا يومئذ ثلاثة سواحر»، وهذا أيضـًا فيه قتل السحرة، وفيه أيضـًا: أن هؤلاء السحرة كفار.

قال ابن قدامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٤٠٩) : «ومثل هذا الأثر اشتهر ولم يُنكر، فكان إجماعـًا» يعني من الصحابة، فكيف إذا انضم إلى هذا فعل غير عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ، مر معنا فعل جُندب الأزدي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وسيمر معنا أيضـًا غيرهما.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وَصَحَّ عَنْ حَفْصَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّهَا أَمَرَتْ بِقَتْلِ جَارِيَةٍ لَهَا سَحَرَتْهَا، فَقُتِلَتْ**).

هذا عند مالك في الموطأ بلاغـًا، ووصله عبدالرزّاق وغيره؛ وفيه أنّ حفصة بنت عمر أمَّ المؤمنين رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا أمرت بقتل ساحرةٍ سحرتها، كانت جارية لها، فهذا فيه أيضًا ما يؤيد ما ثبت عن عمر، وعن جندب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ(٤١٠).

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وَكَذَا صَحَّ عَنْ جُنْدَبٍ**).

كما مر معنا في الحديث السابق هو جندب الأزدي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**قَالَ أَحْمَدُ: «عَنْ ثَلَاثَةٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ»**).

يعني صح قتل السحرة عن ثلاثة من أصحاب النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ؛ وهم: عمر، وحفصة، وجُندب. وأضف إليهم ثلاثة أيضـًا: عثمان، وابن عمر، وقيس بن سعد ابن عباده رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ.

---

(٤٠٩) في «المُغني».

(٤١٠) وظاهر ذلك عدم استتابتهم أو استتابتهن سحرة أو سواحر، وإنما القتل يكون بلا استتابة.

عمر، وابنه، وابنته، وخليفته- يعني عثمان- هؤلاء أربعة، أضف إليهم جندبًا، وقيس بن سعد بن عبادة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ. هؤلاء ستة من أصحاب النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قالوا بقتل السحرة.

وهذه المسألة عند أهل العلم وهي حدُّ الساحر وهل يستتاب أم لا؟

مر معنا الحديث الذي فيه ضعف، والأثر عن جُندب بن كعب وعن عمر (اقتلوا كل ساحر وساحرة)، إضافة إلى أفعال الصحابة؛ فدّل هذا على أنَّ الواجب قَتْلُ السحرة.

وقوله: (حَدُّ السَّاحِرِ) فيه وجهان:

الوجه الأول: إذا كان السحر لم يصل إلى حد الكفر لكنه مؤذٍ؛ فإن هذا ينطبق عليه وصف الحد اصطلاحـًا، فالحد اصطلاحـًا: هو القتل على بعض المعاصي التي تثبت في عقوبتها القتل. ويترتب على هذا أمور: منها أن الحدود كفّاراتٌ لأصحابها، فإذا كان القتل للساحر حداً فهذا يكون فيما إذا كان السحر ليس كفرا، لكن يتعاطى الإنسان سببـًا من الأسباب المؤذية كبعض العقاقير والتدخينات والدُهانات المؤذية الخفية التي لا يعلمها إلا الأفراد من الناس من هؤلاء الخبثاء، فمثل هذا ينطبق عليه أنه حدٌ؛ لأنّ حكم هؤلاء المؤذين أنهم في حكم الصائل أو الباغي الذي لا يدفع شره عن المجتمع المسلم إلا بقتله، فصح أن ذلك القتل حدٌ.

أما إذا كان القتل عن رِدّةٍ، ومعلوم عند الفقهاء التفريق بين القتل حدًّا وبين القتل ردةً، فهذا حكم وهذا حكم؛ فإن كلمة «الحد» هاهنا التي مرت معنا

فالحديث أو الأثر لا يراد بها الاصطلاح المعروف عند الفقهاء، إنما يراد بكلمة الحد هاهنا العقوبة، يعني عقوبة الساحر ضربه أو ضربةٌ بالسيف.

فهذا هو الحق الذي لا شك فيه أنَّ الساحر الذي يتعاطى السحر الكفري، أو الذي يؤذي بسحره إن كان دون ذلك أنه يجب قتله كما وقع من أصحاب النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ و رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ.

ولا يُشكل على هذا ما أخرج البيهقي وغيره[٤١١] **عن عائشة** رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا **أنها قد سحرتها جاريةٌ لها فأمرت بها فباعتها ولم تقتلها، وتوجيه ذلك بأحد أمرين:**

-إما أن يقال أن سحر هذه الجارية لها لم يكن عن طريق الشياطين، فرأت أن تكون عقوبتها بأن تبيعها[٤١٢].

والوجه الثاني: أن يكون الأمر قد ترددت فيه رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا ، يعني لم يستبِن أمرها عند عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا هل كان عن طريق الاستعانة بالشياطين؟ أو إذا كان

---

(٤١١) وأحمد.

(٤١٢) ولو ثبت ذلك عندها ما كانت لتتركها دون أن تقتلها أو أن ترفع أمرها إلى الإمام ليقتلها. وهذا هو الأوفق، وهو الذي يتناسب مع الأدلة ومع آثار من سبق من الصحابة ﷺ ، وهو أن يُقال: إن هذا منها محمولٌ على أن سحر هذه الجارية إنما كان بغير الكفر -يعني عن طريق الأدوية والدهانات والتدخينات وما شاكل ذلك- أو أنه لم يتبيَّن لها ذلك، يعني لم يتبيَّن لها هل هو من هذا أو من هذا؟.

ذلك بخلاف ذلك؟ ومع الاحتمال ما كان منها لتوقِع ذلك، وقد ذكر نحوًا من هذا الكلام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «الأم»(٤١٣).

المسألة الأخيرة وبها أختم: هل يستتاب الساحر قبل قتله؟ أم لا يستتاب؟

القول الأول: أكثر العلماء على أنه لا يستتاب، لظاهر فعل أصحاب النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ و رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، فعمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: «اقتلوا كل ساحر وساحرة»، ونفّذ هذا الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ وكذلك التابعون كما جاء في أثر بجالة؛ قتلوا في ذلك اليوم ثلاث سواحر، وكذلك فعَل جُندب ، وكذلك فعَلت حفصةرَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ أجمعين، وكذلك غيرهم ممن ذكرت. فظاهر أحوالهم أنهم ما استتابوهم.

والقول الثاني: أنهم يستتابون، فإن تابوا قُبِلَ منهم، وأن لم يتوبوا قُتِلوا، وهذا ما مال إليه الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «الأم»(٤١٤).

والقول الثالث: أنَّ حكمهم حكم الزنادقة بحيث إنَّه يُرجع في أمرهم إلى رأي الحاكم الشرعي الذي يُراعي المصلحة الشرعية؛ فإن رأى أنَّ المصلحة الشرعية في قتله -يعني الساحر- قتله، وإلا استتابه؛ فإن تاب عفى عنه، وإن لم يتب قتله. والله تعالى أعلم.



---

(٤١٣) وبعض أهل العلم احتمل احتمالًا ثالثًا وهو: أن لا تكون الجارية هي التي فعلت السحر، وإنما أمَرت به، وجُهِلَ من هو الساحر، وهذا لم تر فيه عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا أنه مُوجبٌ لقتل تلك الجارية فاكتفت ببيعها. هذا الذي يظهر والله تعالى أعلم.

(٤١٤) وبعض أهل العلم.

قال المصنف رحمه الله:

٢٥-بَابُ

بَيَانِ شَيْءٍ مِنْ أَنْوَاعِ السِّحْرِ

قَالَ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جعْفَرٍ، حَدَّثَنَا عَوْفٌ، عَنْ حَيَّانُ بْنُ الْعَلَاءِ، حَدَّثَنَا قَطَنُ بْنُ قَبِيصَةَ، عَنْ أَبِيهِ؛ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الْعِيَافَةَ، وَالطَّرْقَ، وَالطِّيَرَةَ؛ مِنَ الْجِبْتِ».

قَالَ عَوْفٌ: «الْعِيَافَةُ: زَجْرُ الطَّيْرِ، وَالطَّرْقُ: الْخَطُّ يُخَطُّ بِالأَرْضِ».

وَالْجِبْتُ - قَالَ الْحَسَنُ-: «رَنَّةُ الشَّيْطَانِ».

إِسْنَادُهُ جَيِّدٌ، وَلِأَبِي دَاوُدَ وَالنَّسَائِيِّ وَابْنِ حِبَّانَ فِي «صَحِيحِهِ» الْمُسْنَدُ مِنْهُ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ النُّجُومِ فَقَدِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ السِّحْرِ؛ زَادَ مَا زَادَ».. رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ.

وَلِلنَّسَائِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ عَقَدَ عُقْدَةً ثُمَّ نَفَثَ فِيهَا فَقَدْ سَحَرَ، وَمَنْ سَحَرَ فَقَدْ أَشْرَكَ، وَمَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وُكِلَ إِلَيْهِ».

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «أَلَا هَلْ أُنَبِّئُكُمْ مَا الْعَضْهُ؟ هِيَ النَّمِيمَةُ؛ الْقَالَةُ بَيْنَ النَّاسِ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَلَهُمَا عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا».



قال الشارح وفقه الله:

بعد أن بين المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الباب الماضي السحر حكمًا وحقيقةً وحدًّا، ناسب أن يعقد هذا الباب الذي هو تفصيل لسابقه؛ «بيان شيء من أنواع السحر».

فإنَّه قد مر بنا بالباب السالف أنّ السحر اسمٌ عامٌ يضم أنواعًا مختلفة، يجمعها أمران:

الأول: أن فيها تأثيراً خفيًّا على النفوس.

والثاني: أنَّ فيها خداعـًا للنفوس.

فما فيه تأثير وما يكون تعاطيه بخفة وخداع هو الذي جعل أهل العلم يُطلقون على أنواعٍ شتى هذا الاسم؛ ألا وهو «السحر»، فمن السحر ما هو شرك بالله عَزَّوَجَلَّ، إذ لا يكون إلا بحصول الشرك، وهذا هو السحر إذا أُطلق بالحقيقة الشرعية الخاصة، وهناك أنواع أخرى تدخل في كلمة السحر بالمعنى العام لا بالحقيقة الخاصة التي يترتب عليها أمران: الحكم بالكفر، وإقامة الحد الشرعي. على ما مضى بيانه.

من تلك الأنواع التي تدخل بالمعنى العام: ما يرجع إلى استعمال بعض الأدوية وخواص الأشياء والتدخينات التي يُلَبِّس ويخدع بها أهل هذا الصنف، كالذين يطلون أنفسهم بأنواع من الدهانات ثم يدخلون النار فلا تؤثر فيهم؛ هذا يسمى سحرًا، لكنه ليس السحر بالمعنى الشرعي الخاص الذي قد تعلمناه.

هناك أيضـًا السحر الذي هو تخييل للعين، يعني يستعمل أصحاب هذا النوع طريقةً في إشغال أعين الناس وأبصارهم بشيءٍ ما ثم يفعلون بخَفاء شيئًا آخر.

ومن ذلك أيضا ما يسمى في عصرنا الحاضر بخِفة اليد؛ حركاتٌ وتصرفات يصنعونها بسرعة وذكاء يتدربون عليها ويكون لهم فيها نوع رياضة، ويطلق عليها وتسمى أيضًا سحراً.

إذًا هناك أصنافٌ شتى لما يُطلق عليه أنه سحر؛ منه ما يكون كفراً، ومنه لا يكون كذلك. وطالب العلم بحاجة إلى أن يعرف الفرق بين هذه الأنواع حتى يُنزِّل كلَّ نوعٍ منزلته، وحتى يُحْكَم على كل نوع بالحكم الشرعي المناسب له[٤١٥].

إنَّ بعض الناس ربما أطلق أو عمَّم فوقع بسببِ ذلك شيءٌ من الالتباس، بل التعدي على الشرع، والقرافي المالكي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «الفروق» عقد مسألةً أشار فيها إلى أهمية هذا الأمر وهو: التفريق بين أنواع السحر وإنزالُ كل نوعٍ منزلته الشرعية، وكان يشتكي من قلة من يعتني بهذا الأمر.

---

(٤١٥) وبناءً عليه؛ فإنه لا ينبغي أن يُطلق الحكم في الواقعة المُعيّنة أو على الشخص المُعيّن بأنَّه مواقعٌ للسحر، أو أنه يستحق الحدّ الذي مرَّ معنا في مضى وهو الضرب بالسيف، أقول لا ينبغي أن يُبادر إلى ذلك حتى يُعرف ما هو هذا السحر الذي وقع ؛ فإذا كان هو السحر الذي حكمه الشرك بالله تبارك وتعالى ترتَّب عليه ما ترتَّب من الحدّ السابق، وإلا فإن كل حالة لها حكمها الذي يخصها شرعًا.

وهذا الموضوع يرجعُ إلى أصل مُهم ينبغي على طالب العلم بل على المسلم أن يراعيه ألا وهو: ضرورة معرفة حدودِ ما أنزل الله، حدودُ ما أنزل الله على رسوله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ هذا معرفته من أهم المهمات ومن أنفع العلوم ومن أهم العلوم، والعالِم حقًا هو الذي يعرف حدودَ ما أنزل الله على رسوله بحيثُ إنّه لا يُخرِج شيئًا منها ولا يُدخل شيئًا فيها؛ لا يُخرج شيئًا هي منه منها، ولا يُدخل فيها شيئًا ليس منها فيها، فهذا من الأمور المهمة.

هذه الحدود التي جاءت في النصوص والتي يتعلق بها أحكام من جهة التحليل والتحريم ومن جهة المدح والذم لابد على المسلم أن يحيط علمًا بها، هذا هو العلم حقـًا، ومن ذلك هذا الذي بين أيدينا؛ ما هو السحر؟ ما أنواعه؟ ما الذي يترتب على كل نوع من أحكام؟ هذا الذي رام المؤلف رَحِمَهُٱللَّهُ بيانه في هذا الباب.

قال رَحِمَهُٱللَّهُ: (**قَالَ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ، حَدَّثَنَا عَوْفٌ، عَنْ حَيَّانُ بْنُ الْعَلَاءِ، حَدَّثَنَا قَطَنُ بْنُ قَبِيصَةَ، عَنْ أَبِيهِ؛ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الْعِيَافَةَ، وَالطَّرْقَ، وَالطِّيَرَةَ؛ مِنَ الْجِبْتِ»**).

هذا الحديث[٤١٦] الذي أورده المؤلف رَحِمَهُٱللَّهُ بهذا السياق شيء نادرٌ في كتاب التوحيد، من النادر أن يسوق المؤلف رَحِمَهُٱللَّهُ حديثًا بإسناده. وهذا الحديث فيه بحثٌ من جهة إسناده[٤١٧]؛ فإن فيه حيان بن العلاء، أبو العلاء فيه كلام يسير،

(٤١٦) الأول هو حديث قَبِيصَةَ ابن مُخارِق.

(٤١٧) وبعض أهل العلم ضعفه لأجل بعض اللّين الذي في أحد رواته.

والأقرب والله أعلم أن الحديث ثابت قد صححه المنذري، وحسَّنه شيخ الإسلام ابن تيمية والنووي، وجوَّد إسناده ابن مفلح، والشوكاني، وغيرهم من أهل العلم، والحديث أخرجه الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ وأبو داوود وغيرهما من أهل العلم.

(**قَالَ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ**)؛ وهو غُندر الإمام العلَم الثقة الثبت.

(**عن عوف**)؛ هو بن أبي جميلة البصري المعروف بعوف الأعرابي، وهو ثقة(٤١٨)، خرَّج له الجماعة.

(**عَنْ حَيَّانُ بْنُ الْعَلَاءِ**)؛ ويقال: ابن مخارِق أبو العلاء، وهذا الذي فيه الكلام يسير، وثّقه بعض أهل العلم وقالوا لا بأس به، وبعضهم ضعّفه.

يروي عن (**قطَن ابن قبيصة**) وهو تابعي صدوق.

(**وأبوه**) قبيصة ابن مخارق البصري صحابي جليل نزل البصرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وأرضاه.

هذا الحديث فيه بيان أنَّ من الجبت ثلاثة أمور: العِيافة، والطَّرق، والطِيرة.

أمَّا «الجبتُ» فمر بنا فيما مضى أنَّ الأصل في هذه الكلمة هو إطلاقها على ما لا خير فيه، وتنوعت كلمات السلف في تفسير هذه الكلمة بين أن يكون الجبت هو: الشيطان، أو السحر، أو الشرك، أو الأصنام، والمعنى المناسب منها لهذا الحديث هو أنّ الجبت: هو السحر. أمَّا هذه الأمور الثلاثة فهي من السحر كما أخبر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(٤١٨) من أتباع التابعين.

- و(مِن) هاهنا إما أن تكون تبعيضية؛ يعني: من أنواع السحر هذه الأمور الثلاثة.

- أو أنّ (مِن) هاهنا لابتداء الغاية ؛ يعني هذه الأمور منشؤها من السحر.

أما الأمر الأول: فهو (**العِيافة**)؛ والعِيافةُ: هي الزجر، تقول: "عِفت الطِّير أعِيفها عِيافةً" يعني زَجَرْتها، فهو زجر الطير(٤١٩).

وذلك أن العرب في الجاهلية كانوا أهل ولعٍ بالتطير، فكان أحدهم إذا خرج من داره يريد سفراً أو تجارةً أو ما إلى ذلك فإنه يتأمل طيراً في السماء وينظر في ممره، ويستدل بذلك على عاقبة ما هو مُقْدِمٌ عليه، فإذا لم يجد شيئا طائراً ووجد طائراً ساكنـًا في محله زجره؛ يعني: أثاره وطيّره حتى يطير، ثم بعد ذلك ينظر في ممر هذا الطير؛ فإن كان يمر من جهة الشمال إلى جهة اليمين بالنسبة لهذا الزاجر سمى ذلك الطائر (سانحـًا) واستبشر بذلك و اعتقد أن العاقبة حميدة، أما إذا طار هذا الطائر من جهة اليمين إلى جهة الشمال فإنه يسميه (بارحـًا) ويتشاءم بذلك، ويعتقد أن مآل الأمر الذي هو مقدم عليه الخيبة والخسران، فيرجع ولا يقدِم، هذا هو الذي أسماه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «العِيافة».

وبين العِيافة والطِيَرة -وهي التي جاءت في هذا الحديث أيضا- **عموم وخصوص من هذا الوجه، كل من الأمرين عامٌ من وجه وخاص من وجه.**

---

(٤١٩) المقصود بالزجر: أن يُصاح به حتى يُثار عن مكانه، وينبني على هذا:

-إمَّا التشاؤم أو التفاؤل بممرٍّ هذا الطير.

- أو زعْم معرفة المُغيَّب بسبب هذا الزجر.

أما العيافة فإنها أعم من الطيرة؛ من جهة أنَّه يكون بها تشاؤم وتفاؤل(٤٢٠) ، أما الطيرة فالغالب في استعمال هذه الكلمة أن تكون في التشاؤم(٤٢١) .

وفي مقابل ذلك فالطيرة أعم؛ فإن العيافة مختصة بالطيور، وأما الطيرة فإنها أعم من ذلك(٤٢٢) ، قد تكون بالطيور من جهة ممرها، من جهة ألوانها، من جهة أسمائها، من جهة أصواتها، وقد تكون بغير الطيور من حيوانات، وعاهات، وألوان، وأرقام، وأمكنة، وأزمنة إلى غير ذلك.

وباب الطيرة بابٌ سيأتينا عن قريب إن شاء الله، بعد بابين أو ثلاثة نتحدث فيه إن شاء الله بالتفصيل عن أحكام الطيرة، ولكن لمناسبة ما ذُكِر هاهنا فإن الطيرة أمرٌ محرم، وإذا عَظُمت في النفس حتى كانت سببًا للإقدام أو الإحجام فإنّها تكون شركـًا على ما سيأتي بيانه إن شاء الله.

إذًا هذه هي العيافة، وهذه هي الطيرة؛ **ووجه إطلاق السحر على هذين الأمرين**: هو ما فيهما من تأثير خفي على النفوس؛ فإن العِيافة والطِيرة كلاهما

---

(٤٢٠) وأيضًا يتعلق بها ادّعاء معرفة المُغيَّب.

(٤٢١) وأكثر ما يتطيّر أهل الجاهلية بأمرين: بالطير، أو بالوحش والحيوانات كالضباء؛ فيتطيرون ويتشاءمون بأسمائها، فإذا مرَّ العُقاب يتوهّمون أن عقابًا سينزل، إذا مر الغُراب يدَّعون أن غُربةً ستقع، وما شاكل ذلك، أو بممرّها أين تذهب، أو بأصواتها، وما شاكل ذلك، فهذا كله من التطُير الذي جاء النهي عنه.

(٤٢٢) أعمُّ من جهة ما يُتطيّر به؛ فقد يُتطيّر بالطير، وقد يُتطيّر بالوحش، وقد يُتطيّر بالأسماء، وقد يُتطيّر بالأبقار، وقد يُتطيّر بالأزمنة، وقد يُتطيّر بالأمكنة، إلى غير ذلك.

مؤثران على النفوس، بحيث يحصل انقباض أو انشراح أو إقدام أو إحجام، وكل ذلك من تأثير هذه الأمور التي لا أصل لها ولا حقيقة لها، فجامعت السحر من هذه الجهة؛ من جهة ما فيها من تأثير خفي على النفوس -وقد قلنا إن المعنى العام الذي ترجع إليه أنواع السحر هو ما في هذه الأنواع من تأثير خفي على النفوس، أو ما فيها من خِفة وخِداع- وبالتالي صحّ وصف العِيافة ووصف الطِيرة بأنها سحرٌ بالمعنى العام لا بالمعنى الخاص الذي وصفناه بأنه شرك أكبر مخرج من الملة، فهذا القدر لا يصل إلى هذا الحد.

❁ **أما الأمر الثالث**: فهو «الطَّرق»؛ **وللطَّرق تفسيران عند أهل العلم**:

أحدهما: ما أورد المؤلف مما سنقرأه إن شاء الله من كلام عوف رَحِمَهُ ٱللَّهُ من أنه الخَط في الأرض، إذًا هذا هو **التفسير الأول**؛ الطرق: هو الخط في الأرض، وسُمي الخط في الأرض طَرقـًا: لأنّ الذي يرسم أو يخط على الأرض كأنه يرسم فيها طُرقـًا، فسمي ذلك طرقا.

وصفة ذلك: أن أهل الجاهلية(٤٢٣) كانوا يأتون إلى الكهان والمشعوذين فيطلبون منهم أن يخطوا لهم، إذا أرادوا الإقدام على زواجٍ أو سفرٍ أو تجارةٍ أو

---

(٤٢٣) وهذه طريقة مشهورة عند العرب، وبعض القبائل لهم اختصاص بها، فإن هذه الأنواع كان لبعض القبائل اختصاصٌ بها واشتهار بها، كان أبناء هذه القبائل مشهورون بين سائر العرب بها ولذلك يرجع الآخرون إليهم، فالعيافة معروفة عند الجميع، لكن قبيلة مُعيَّنة مُختصة بها أكثر وهي قبيلة لِهْب؛ قبيلة من الأزد، وأمَّا (الطَّرْقُ) فإن قبيلة أسَد بن خزيمة كانت مشهورة بها أكثر من غيرها.

ما شاكل ذلك؛ طلبوا من هذا الكاهن أن يخط لهم في الأرض، فيأخذ عودًا ينكت به في الأرض أو بإصبعه بحيث أنه يرسم خطوطًا كثيرة على التراب لا يحيط بها العد، يرسمها هكذا بطريقة عشوائية، ثم يأتي بعد ذلك على مهل فيمسح خطين خطين، ثم يُنْظَرُ فيما بقي؛ فإن كان الذي يبقى خطان كان هذا علامة على النجاح، استبشر صاحب الشأن بهذا وأقدم واعتقد أن هذا إعلامٌ له بما في الغيب، وأما إن كان الذي يبقى فهو خط واحد فإنه يتشاءم بذلك، لأنه يراه علامة الخَيبة، ولأنه يستطلع بهذا إلى ما في الغيب، وأن الذي في الغيب هو أن يكون على الإنسان خسارة، وبالتالي فإنه يُحْجِم ولا يُقدم.

إذًا هذا نوعٌ من الكِهانة مما سيأتي الكلام فيه إن شاء الله على وجه التفصيل في الباب القادم (ما جاء في الكهان).

أما التفسير الثاني: فهو أنّ الطَّرَق: هو الضرب بالحصى؛ وذلك أن الطَّرَق في اللغة يطلق ويراد به الضرب، ومن ذلك سميت المطرقة -مطرقة الحداد أو مطرقة النجار- سميت مطرقة لأن بها الضرب، وهذا الذي قاله لبيد بن ربيعة:

لعمرك ما تدري الطَّوارق بالحصى ولا زاجرات الطير ما الله صانع

وروي هذا البيت: لعمرك ما تدري الضوارب بالحصى

وهذا البيت ذكر أمرين مما كان أهل الجاهلية يتعاطونه:

الأول: الضرب بالحصى.

والثاني: العِيافة -التي ذكرناها قبل قليل-.

الشاهد أن هيئة هذه الصورة وهي الضرب بالحصى أنه تُؤخذ حصيات -حجارة أو نحوها- ثم يُضرب عليها، وقد يُأخذ غير الحصى كالوَدع -الذي مر بنا سابقا- فيُضرب عليه، ثم يزعم هذا الكاهن المشعوذ الدجال بعد أن يتأمل في هذا الذي ضَرب عليه "سيكون كذا، أو لا يكون كذا، ستتزوج، وتنجح، ترسب، تسافر، تفيد من سفرك فائدة أو تخسر، أو يموت فلان" إلى غير ذلك.

إذًا على كلا التفسيرين الطَّرق نوع من الكِهانة فيه ادّعاء علم الغيب، وهذا لا شك أنه منكر عظيم -وسيأتي الكلام فيه على وجه التفصيل إن شاء الله، وظاهرٌ ما في هذا النوع من تأثير خفيٍ على النفوس، فصحَّ وصف ذلك بأنه من السحر.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**قَالَ عَوْفٌ: «الْعِيَافَةُ: زَجْرُ الطَّيْرِ، وَالطَّرْقُ: الْخَطُّ يُخَطُّ بِالأَرْضِ». وَالْجِبْتُ - قَالَ الْحَسَنُ-: «رَنَّةُ الشَّيْطَانِ». إِسْنَادُهُ جَيِّدٌ، وَلِأَبِي دَاوُدَ وَالنَّسَائِيِّ وَابْنِ حِبَّانَ فِي «صَحِيحِهِ» الْمُسْنَدُ مِنْهُ**).

(**قَالَ عَوْفٌ**)؛ هو ابن أبي جميلة العبدي الملقب بعوف الأعرابي، والإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ عقّب على روايته هذا الحديث بذكر هذا التفسير من عوفٍ الذي هو أحد رواة هذا الحديث.

«**وَالْجِبْتُ** -**قَالَ الْحَسَنُ** يعني البصري-: «**رَنَّةُ الشَّيْطَانِ**»؛ الجبت: رنة الشيطان. الرنة في اللغة: الصوت الحاد. فما المراد برنة الشيطان؟ لاحظ أن الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ يفسر الجبت بهذه الكلمة «**رنة الشيطان**».

أهل العلم أمام هذه الكلمة لهم ثلاثة مواقف:

الموقف الأول: أنَّهم يتوقفون في هذه الكلمة؛ كما فعل الحفيد الشارح الشيخ سليمان بن عبد الله في «التيسير»؛ فإنه لما ذكر هذه الكلمة في التيسير قال: (لم أقف فيها على كلام).

والموقف الثاني: أن بعض أهل العلم فسّروا هذه الكلمة بأمرين؛ فسّروا رنة الشيطان: بالنِّياحة، وبالغناء. وهذا جاء فيه بعض الآثار عن السلف لكن ليس في تفسير الجبت، إنما في رنة الشيطان، ذكروا أنّ من رَنة الشيطان نياحة النائحة أو الغناء(٤٢٤).

أما الأمر الثالث: فهو أن رنة الشيطان يعني: دعاؤه وتسويله؛ فهو يوسوس ويدعو ويملي لمن يطيعه حتى يعصي الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، **فعاد** الأمر إلى أنَّ الجبت هو: الشيطان. رَنته: يعني دعاؤه، ودعوته، وتسويله، ووسوسته وما إلى هذه المعاني.

والأقرب والله تعالى أعلم، بل هذا الذي لا أرى فيه غيره ولا أشك فيه أن هذه الكلمة «رنة» تصحيف، وأن الكلمة في أصلها إنه الشيطان؛ **لأنّ الحجة في هذا ظاهرة من ثلاثة وجوه:**

أولاً: أنَّ الذي في مسند الإمام أحمد والذي بين أيدينا منقول عن المسند، الذي في المسند (قال الحسن: الجبت إنَّه الشيطان)، أو (قال الحسن في الجبت إنه الشيطان)، وقد راجعت المسند في طبعات عدة ولم أجد فيه إلا هذه الكلمة (إنه الشيطان).

---

(٤٢٤) لكن هذا التوجيه فيه نظر، فما العلاقة بين صوت النائحة أو الغناء، وهذه الأمور الثلاثة المذكورة في هذا الحديث؟! لا وجه للعلاقة بين هذه الثلاثة وما ذُكِرَ.

وثانيـًا: أن الذي نقله الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن الإمام أحمد، فإنه ساق هذا الحديث بإسناده في تفسير سورة النساء، والذي ذكره (إنه الشيطان) وليس (رنة الشيطان)، ومعلوم أنَّ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ من أعظم الناس عناية بمسند الإمام أحمد، وقد راجعت تفسيره في طبعات مختلفة وكلها متفقة على (إنه الشيطان).

والأمر الثالث: أن هذا التفسير هو المعروف عن الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير الجبت، وهذا ما ذكره غير واحد من المفسرين عند تفسير كلمة الجبت، فالذي لا أشك فيه -والعلم عند الله تعالى- أن هذه الكلمة صُحِّفت من (إنه) إلى (رنة)، ومعلومٌ أنَّ كتابة الألف قد تأتي بصيغة رسمها قريبٌ من الراء، فلعله اشتبه الأمر ولا أدري على من؟ هل على المؤلف؟ أو على من نقل عنه المؤلف، فصار رنة الشيطان.

وعلى كل حال الأمر يسير؛ إن قلنا إنَّ الصواب (إنه الشيطان) أو (إنه رنة الشيطان) فالأمر راجع إلى الشيطان، والمعنى: أن الشيطان هو الذي يوسوس ويُسوِّل للنَّاس هذه الأمور من العيافة والطرق والطيرة، فالشيطان مبدأ ذلك، و(مِن) هاهنا لابتداء الغاية؛ هو منشأ ذلك هو مبدأه هو الذي يقذف هذه التصورات والتصديقات الباطلة في نفوس من استجاب له، والله تعالى أعلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وَلِأَبِي دَاوُدَ وَالنَّسَائِيِّ وَابْنِ حِبَّانَ فِي «صَحِيحِهِ» الْمُسْنَدُ مِنْهُ)**. يعني أنّ أبا داود ومن ذكر إنما رووا الحديث المرفوع القطعة المرفوعة إلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دون ما بعد ذلك وهو تفسير عوف أو الحسن رحمة الله عليهما.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ النُّجُومِ فَقَدِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ السِّحْرِ؛ زَادَ مَا زَادَ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ**).

هذا حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا حديث صحيح كما ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، وقد صححه شيخ الإسلام ابن تيمية، وكذلك النووي، وكذلك الذهبي في كتابه «الكبائر»، وغير هؤلاء، حديثٌ صحيح[٤٢٥] إن شاء الله.

وفيه: يُخبر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّ «**مَنِ اقْتَبَسَ**» يعني حصّل وتعّلم «**شُعْبَةً مِنَ النُّجُومِ**»؛ الشعبة: الجزء[٤٢٦]؛ يعني: من حصّل طرفًا من علم النجوم فقد حصّل طرفًا من السحر زاد ما زاد.

ومعنى قوله «**زَادَ مَا زَادَ**» : أنه كلما أوغل في تعلم هذا العلم –علم النجوم– فإنه يكون قد أوغل في السحر، كلما ازداد تعلمًا لهذا العلم ازداد في إثم السحر.

والمراد بهذا الحديث علم النجوم الذي هو علم التأثير لا علم التسيير، انتبه **علم النجوم قسمان: علم تأثير، وعلم تسيير**.

وسنتحدث عن هذا إن شاء الله على وجه التفصيل في باب قادم خاص بهذا الموضوع، لكن يقال على وجه الإيجاز؛ إن المراد هاهنا بعلم النجوم: يعني علم التأثير؛ **وعلم التأثير يرجع إلى أمرين**، وهذا الذي كان يتعاطاه من يتعاطاه من أهل الجاهلية من الكفار والمشركين والى هذا العصر.

---

(٤٢٥) ثابت.

(٤٢٦) «الإيمان بضع وسبعون شُعْبة» يعني جزء وقطعة.

الأول: هو الاستدلال بحركات الأفلاك والنجوم واجتماعها وافتراقها على المُغيبات.

والثاني: اعتقادُ تأثير الأفلاك في مجريات هذا الكون؛ يعني أنَّ لهذه الكواكب ولهذه النجوم ولهذه الأقمار تأثيراً وتدبيراً لهذا الكون[٤٢٧].

وكلا النوعين شركٌ بالله عَزَّوَجَلَّ وكفرٌ به.

ووجه إطلاق السحر على هذا النوع: هو ما فيه من تأثير خفي على النفوس، فإن أرباب هذا الصنف ومن يتعاطاه ومن ينساق له تتأثر نفوسهم به ويبنون عليه تفاصيل ومواقف وأمورًا كثيرة بناءً على هذا الذي وقر في نفوسهم، وهو لا شك شيء باطل لا حقيقة له[٤٢٨].

---

(٤٢٧) فيُستدل بهذه الحركة على ما سيقع في الأرض. أو -وهو أعظم- أن يُستدل بهذا أو أن يُعتقد من هذا التأثير على مُجريات ما يكون في الكون؛ بمعنى: أنَّ علم التأثير يُراد به الاستدلال بالأحوال الفلكية على الأحوال الأرضية بمعرفة المُغيَّبات؛ فسيكون في المستقبل كذا وكذا بناءً على طلوع نجمٍ أو اجتماعه مع آخر أو ما شاكل ذلك. وأعظم من ذلك ما يعتقده بعض جهلة المشركين من أن لهذه الحركة تأثيرًا، وأن لهذه النجوم والأفلاك قدرة وسيطرة وتأثيرًا على ما سيكون في الأرض فيحصل الضُر والنفع منها، وكل هذا ولا شكَّ شركٌ بالله تبارك وتعالى، وسيأتي تفصيله في محله إن شاء الله.

(٤٢٨) هذا الاعتقاد بأن للنجوم أثرًا على ما سيكون في الأرض ما هو إلا ضرْبٌ من التخييل لا حقيقة له، وكذلك السحر منه ما هو تخييل لا حقيقة له. فهذا وجه المُشابهة بين التنجيم والسحر.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وَلِلنَّسَائِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ: «مَنْ عَقَدَ عُقْدَةً ثُمَّ نَفَثَ فِيهَا فَقَدْ سَحَرَ، وَمَنْ سَحَرَ فَقَدْ أَشْرَكَ، وَمَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وُكِلَ إِلَيْهِ»**).

هذا الحديث فيه بحث من جهة ثبوته؛ فإن الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «ميزان الاعتدال» **أعله بعلتين:**

الأولى: أحد رواته فإنه ليّن، وهو عبَّاد بن ميسرة.

والعلة الثانية: الانقطاع؛ من جهة أن الجمهور يرون أن الحسن لم يسمع من أبي هريرة. والحديث جاء من طريق عبّاد، عن الحسن، عن أبي هريرة، وأظن أنه مضى الكلام في هذا الموضوع وعلِمنا أن الجمهور يرون أنّ الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ لم يسمع من أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، ولذلك ضعّف هذا الحديث الذهبي وغيره من أهل العلم، ومن المعاصرين الشيخ ناصر رحمة الله تعالى على الجميع.

وبعض أهل العلم حسّن هذا الحديث؛ فابن مفلح في «الآداب» نقل كلام الذهبي ثم قال: (كذا قال، ويتوجه أنّ الحديث حسن)؛ وذلك أن من أهل العلم من رأى أن الحسن قد سمع من أبي هريرة، ومن أهل العلم من قال: إن عبّاد بن ميسرة لا بأس به.

وعلى كل حال هذا الحديث فيه أمران:

الأول: ما يتعلق بالنفث في العقد، وهذا يشهد له كتاب الله: ﴿وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾[الفلق:٤]، وما جاء في تفسير هذه الآية من كلام كثير للسلف.

وأما الشق الثاني: في الحديث وهو: «**من تعلق شيء وكل إليه**» فيشهد له ما مر بنا من حديث عبد الله بن عُكَيْم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فهذا يتقوى بذاك، وذاك يتقوى بهذا.

على كل حال هذا الحديث فيه كما ذكرت أمران:

الأول: أن «**مَنْ عَقَدَ عُقْدَةً ثُمَّ نَفَثَ فِيهَا فَقَدْ سَحَرَ، وَمَنْ سَحَرَ فَقَدْ أَشْرَكَ**»؛ لاحظ معي أن هذا الحديث فيه التنصيص على النوع الذي هو سحرٌ بالحقيقة الشرعية الخاصة، هذا الحديث هو الحديث الوحيد من الأحاديث الخمسة الذي أوردها المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ في هذا الباب فيها ذكر هذا النوع الذي هو السحر بالحقيقة الشرعية الخاصة التي قلنا إن حكمها أنها كفرٌ وشرك؛ لأنها لا تكون إلا بالشرك بالله عَزَّوَجَلَّ.

وذلك: أن هذا النوع هو الذي يفشو ويكثر عند السحرة؛ كلبيد بن الأعصم وإخوانه من اليهود ومن سار على نهجهم من السحرة في القديم والحديث؛ وذلك أن هؤلاء السحرة يعقِدون خيوطًا يرومون بذلك عقد السحر وعدم انحلاله، ومع هذا العقد فإنهم يتلون رُقى وعزائم وتعويذات يتقربون بها للشياطين ويستعينون فيها بالشياطين، ويضيفون إلى هذا النّفث، وقلنا إن النفث مرتبةٌ بين النفخ والتفل، إخراج الهواء مع شيء من الريق.

وذلك كما ذكر أهل العلم أنَّ نفس الساحر نفس خبيثة، فإذا نفث خرج من نفثه هذا النفَس الخبيث وهذا الريق الخبيث الذي خرج من نفس خبيثة، فتكيّف ذلك واتفق واقترن مع روح الشيطان الخبيثة وتكيف ذلك بكيفية الله أعلم بها، فحصل بسبب ذلك أذىً للمسحور بإذن الله الكوني لا بإذن الله الشرعي. يجتمع

ويتوافق ويقترن ويتعاون روحٌ إنسية خبيثة مع روح شيطانية خبيثة في كيفية الله أعلم بها يَنتج منها حصول السحر وأذى المسحور. فهذا هو العقد الذي جاء في هذا الحديث، وهو المراد بقول الله ﷻ: ﴿ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾[الفلق:٤]، يعني: السواحر اللاتي يعقدن وينفثن في هذه العقد التي عقدنها.

والمقصود أنَّ هذا الحديث فيه بيان أن هذه كيفيةٌ للسحر الذي هو شرك، وهذا ظاهرٌ كما لا شك فيه «**من سَحَرَ فقد أشرك**»، وقد علِمنا الأوجه التي كان بسببها السحر شركًا بالله ﷻ أكبر[٤٢٩].

الثاني: أما قول النبي ﷺ: «**ومن تعلق شيء وكل إليه**»؛ فهذا حق لا مرية فيه، وذلك أن من تعلق قلبه وتعلقت جوارحه بالله جَلَّوَعَلَا فإن الله عَزَّوَجَلَّ كافيه، وإن الله عَزَّوَجَلَّ مغنيه، وإن الله عَزَّوَجَلَّ ناصره، ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾[الزمر:٣٦]، بلى والله، والله جَلَّوَعَلَا كافٍ كل من آوى إليه ولجأ إليه واعتصم به ووثِق به، الله عَزَّوَجَلَّ كافيه، والله عَزَّوَجَلَّ متوليه، ومن يضره إذا كان الله عَزَّوَجَلَّ هو الذي يتولاه!!

أما من تعلّق بغيره فليبشر بالخسارة والخيبة، فأي نجاح وفلاح لمن تخلى الله عَزَّوَجَلَّ عنه ووكله إلى غيره؟! فكيف إذا كان ذلك التعلق بالشرك وبأهل الشرك !! عافاني الله وإياكم من ذلك[٤٣٠].

---

(٤٢٩) فليس إذًا كل عقد يكون داخلًا في هذا الحديث، بل هو عقدٌ خاص يفعله السحرة، ويذكرون عزائم ورُقى شركية، ويتعاون معهم في هذا الشياطين، وينفثون نفثًا يكون له أثر باتحاده معَ هذه الأرواح الخبيثة -وهي الشياطين- فيحصل السحر بإذن الله تبارك وتعالى.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «أَلَا هَلْ أُنَبِّئُكُمْ مَا الْعَضْهُ؟ هِيَ النَّمِيمَةُ؛ الْقَالَةُ بَيْنَ النَّاسِ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ. وَلَهُمَا عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا»).

هذا الحديث الرابع في هذا الباب الذي عقده المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان شيء من أنواع السحر؛ هذا الحديث حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وخرّجه الإمام مسلم في صحيحه؛ سأل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابه سؤالًا، وهذا نهجٌ نبوي تكرر في جملة من الأحاديث، وذلك أن يستفتح عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كلامه بتوجيه سؤالٍ لأصحابه، ليستدعي اهتمامهم.

سأل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصحابة هل يدرون ما العَضَّهُ؟ **والعضه اختلف في ضبط هذه الكلمة:**

فقيل: إن هذه الكلمة بفتح العين وسكون الضاد (العَضْه) على وزان (الوَجْه).

وقيل: إنها بكسر العين وفتح الضاد (عِضَه) على وزان (زِنَه) و (عِدَه)(٤٣١).

والأول أشهر(٤٣٢).

---

(٤٣٠) أيُّ نجاح وأيّ فلاح لمن يتخلى الله عَزَّ وَجَلَّ ويكِله إلى هؤلاء الأرْجاس الأنجاس!!
ولا شكَّ أن هذا فيه أعظم تحذير للمسلم أن يتعلق قلبه بغير الله تبارك وتعالى، حتى ولو كان من أمورٍ مباحة، فكيف إذا تعلق الإنسان بالشرك وأهل الشرك، نسأل الله السلامة والعافية.

(٤٣١) وقال به جمْعٌ من اللغويين.

ثم أجاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابه عن هذا السؤال، وجاء هذا الحديث عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما عند البخاري في الأدب المفرد وفيه أنهم قالوا: «الله ورسوله أعلم»، أما في حديث ابن مسعود فإن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بادر بالجواب. فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في تفسير العَضْهِ: «**إنه النميمة**». ثم زاد الأمر بيانًا حيث بين هذه النميمة من جهة أثرها، فقال: «**الْقَالَةُ بَيْنَ النَّاسِ**». فالعضه بتفسير النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الحديث هو النميمة، **والنميمة: نقل الكلام بين الناس على جهة الإفساد**، وفسَّر بعضهم النميمة بأنها: إفشاء السر الذي يترتب على إفشائه اضطرابٌ وقطيعة.

وأصل العَضْهِ قيل: إنه الكذب والبهتان؛ وإنما سميت النميمة عَضْهًا لأنها لا تنفك غالبًا من كذب، الغالب أنَّ النَّمام يضيف إلى نقله وحديثه شيئًا من عنده، فسميت النميمة حينئذ بأنها العضه.

وقيل إن أصل العضه في اللغة: هو السحر، وقال ابن قتيبة في «تأويل مختلف الحديث»: (إنَّ قريشًا كانت تسمي السحر عضهًا)، وهذا ما جاء في كلام عكرمة رَحِمَهُ اللَّهُ عند تفسيره قول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾[الحجر:٩١]، قال: (كانت قريشٌ تسمي السحر عضينًا). ويشهد لهذا ما خرَّج الطحاوي في «مشكل الحديث» عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي هو راوي الحديث الذي بين أيدينا، قال: (كنا في الجاهلية نسمي السحر عضْهًا، وما أُراه فيكم اليوم إلا

---

(٤٣٢) عند أهل الحديث.

القالة). والقالة في كلامه وفي كلام النبي ﷺ الذي سبق يعني: الكلام الذي يقال ويُنْقل بين الناس ويحصل بسببه فتنه واضطراب، وهذا أثر من آثار النميمة.

وهذا هو الأقرب والله أعلم، وهو ظاهر صنيع المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ؛ فإن إيراده هذا الحديث ضمن «باب ما جاء في بيان شيء من أنواع السحر» دليلٌ على أنه يرجح أنَّ أصل العَضْهِ هو السحر، وهذا ما استظهره الشارح الحفيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٤٣٣).

ووجه الشبه بين السحر والنميمة من جهتين: من جهة الطريقة، ومن جهة الأثر.

أما الطريقة: فإن السحر -كما مر معنا -فيه خفاء، عُرِّفَ في اللغة: بأنه ما خفي ولطف ودق سببه؛ وكذلك النميمة، فإن الساعي بها يذهب في الغالب في خفية إلى من يَنُمُّ إليه، ثم يفشي له شيئًا كان ينبغي إخفاؤه(٤٣٤).

---

(٤٣٣) وعلى هذا يكون هذا الحديث شبيهًا في طريقة البيان والإيضاح بما ثبت في «صحيح مسلم» من قوله ﷺ: «أتدرون من المفلس؟» قالوا: المفلس من لا دينار له ولا درهم، قال: «الذي يأتي يوم القيامة وقد ضرب هذا وشتم هذا...» إلى آخر الحديث، فالنبي ﷺ لم يُرِد أنَّ من لا دينار له ولا درهم لا يُسمّى مفلسًا، لكنه أراد أن يبيِّن أنَّ من الإفلاس إفلاسُ الإنسان يوم القيامة من الحسنات. كذلك هُنا لم يُرِد النبي ﷺ أنَّ السحر ليس عضْهًا، وإنما أراد أن يبيِّن أنه يُشبِهه في طريقته وتأثيره النميمة.

(٤٣٤) من جهة أن السحر يحصل بمكْرٍ خفي، وكذلك النميمة إنما تكون بمكْرٍ خفي؛ فيأتي النمام إلى هذا خِفيةً وينقل له الكلام الذي سمعه من القائل، فيحصل بهذا قطيعةٌ ونزاعٌ وشحناء.

أما من جهة الأثر: فإنَّ السحر من أعظم آثاره التفريق بين الناس، والله جَلَّوَعَلَا قال في سحر هاروت وماروت: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾[البقرة:١٠٢]، وأما التفريق في النميمة فإنه أظهر ما يكون من الآثار، فإن أثر النميمة في التفريق شيءٌ لا يخفى على أحد، ولذلك وقع عند الطحاوي في مشكل الآثار في هذا الحديث أنه قال: «هي النميمة الفارقة بين الناس»، ووقع عن الدارمي في هذا الحديث أنه قال: «هي النميمة التي تفسد بين الناس»، وعند البخاري في الأدب المفرد بإسناد حسن -كما أسلفت- من حديث أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «هل تدرون ما العضه ؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: نقل الكلام من بعض الناس إلى بعض ليفسد بينهم».

إذًا هذا أثرٌ ظاهر كأثر السحر أو لعله أشد، وقد نقل ابن عبد البر في «بهجة المجالس» عن يحيى بن أبي كثير أنه قال: (يفسد النمام والكذاب في ساعة، ما لا يفسده الساحر في سنة) [٤٣٥]، ولا شك أن هذا من أظهر ما يكون وما يشاهده أجهل الناس وأعماهم، فهل وقعت المفاسد من جهة تَقْطُعِ الصلات وانقلابها إلى عدوات بسببٍ أكثر منه من النميمة؟! لا شك أنها من أعظم ما يكون أثرًا في التفريق بين الناس.

والنميمة لو لم يرِد في النصوص تحريمها لكان ما فيها من دنو أو دناءة وسقوط كافيًا للنفوس الشريفة وذوي المروءات كفًّا عنها، لو لم يكن في الشريعة ما يدل على تحريمها بل وأنها من الكبائر لكان ما فيها من دناءة كافيًا

---

(٤٣٥) وجاء في رواية عنه: «في شهر».

لأهل النفوس الحية صدًا عنها. وأيُّ قبحٍ وأيُّ دناءة وسقوط أعظم من أن يكون الإنسان رسولًا للشيطان يفرِّق بين الأحبة؟! لا شك أن هذا من أبغض ما يكون! وقد قالت العرب: (النميمة مرعى اللئام)، أصحاب النفوس اللئيمة الخسيسة هم الذين يحومون ويجولون في فناء النميمة، أما أهل النفوس الكبيرة، والأخلاق الرفيعة، فإنهم يرأبون بأنفسهم عن ذلك.

أقول: لو لم يرد في النصوص تحريمها لكان ما فيها من دناءة كافيًا في التنفير عنها؛ فكيف والأدلة قد تكاثرت على أن النميمة منكرٌ عظيم، وكبيرةٌ من كبائر الذنوب، وصاحبها مُتَوَعَّدٌ بعدم دخول الجنة! أليس النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد قال: «لا يدخل الجنة قتّات»؟ يعني نمام، وما حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا حين أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن صاحبي القبرين اللذين أخبر أنهما يعذبان فيه، قال: «أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة؛ وأما الآخر كان لا يستبرئ من بوله».

وهذا يدلك -يا رعاك الله- على أنَّ النميمة منكرٌ عظيم، ويكفي أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شبَّهه بالسحر، ولم يكن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يريد أنه لا سحر إلا النميمة؛ إنما هذا الحديث في أسلوبه وبيانه على وزان الحديث الآخر الذي خرَّجه الإمام مسلم في قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أتدرون من المفلس؟» قالوا: من لا دينار عنده ولا درهم، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن المفلس الذي يأتي يوم القيامة، وقد ضرب هذا، وشتم هذا...» إلى آخر الحديث، ليس مراد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن فاقد المال لا يعَدُّ مفلسًا؛ لكنه أراد أن يبين أن المفلس من الحسنات يوم القيامة أجدر وأولى أن يكون مفلسًا، كذلك في هذا الحديث أراد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يبين

أن النميمة تشبه السحر وتؤثر تأثيره، وكفى بهذا زاجرًا عنها؛ كون النبي ﷺ يشبِّهها بذلك فيه أبلغ زاجر عنها.

فعلى المسلم أن يتنبه إلى هذا الأمر العظيم، لا من جهة أن يكون نمامًا، ولا من جهة أن يكون سمّاعًا للنميمة، **فإن النميمة المذموم فيها اثنان: المبلِّغ، والمبلَّغ**؛ الناقل، والمستمع، **أما المبلِّغ** فقد علِمت ما فيه[٤٣٦]، **وأما المستمع** فإنه لا شك أنه مذموم، وقبيح، كيف يرخي سمعه لهذا الإنسان الذي ينقل السوء إليه، ويبثه ما يثير الحقد في قلبه وهو يسمع له منصتًا ومتقبِّلا؟ لا شك أن هذا أمرٌ لا يجوز شرعًا، والله جَلَّوَعَلَا قد نهى عن ذلك فقال سبحانه: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ* هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾[القلم:١٠-١١].

فلا ينبغي للمسلم أن يرخيَّ سمعه لهذا النمام الذي ينقل إليه، بل ينبغي عليه أن يزجره ويُذَكِرَهُ بالله وأن يقول له: اعلم يا هذا أنك بين أمرين:

-أن تبوء بإثم النميمة إن كنت صادقًا.

-أو تبوء بإثم النميمة والكذب والبهتان إن كنت كاذبًا فاتق الله وكُفّ.

لاسيما أن الغالب، أن من ينقل إليك لا يريد لك الخير، وقد قالت العرب: (مبلّغ السوء كباغيه).

وقال أبو العتاهية:

---

(٤٣٦) ويكفي النمام قُبحًا أن الصدق ممدوحٌ إلا منه، الصدق في كل الأحوال ممدوح إلا من هذا النمام فإنه يُعتبر الصدق منه مذمومًا، بلْ هو أقبح ما يكون إذا كان أكثر صدقًا؛ لأن المفسدة المترتبة على ذلك عظيمة.

من جعل النمام عينًا هلكَ　　　مُبْلِغُك الشر كباغيه لكَ

هذا الذي نمَّ لك لا يريد لك الخير، بل ربما سينُمُّ عليك، على الإنسان أن يتنبه إلى هذا الأمر العظيم.

واعلموا يا طلاب العلم أنَّ أقبح خُلُق يكون عليه طالب العلم هذا الخلق القبيح، وإننا مع الأسف الشديد نتذوق الثمار الـمُرة لهذه التصرفات الخسيسة في هذا الزمن مع الأسف الشديد؛ فهذه الفتن الصمّاء العمياء التي وقعت وتقع بين طلاب العلم والدعاة من أهل السنة ما كانت لتكون لولا وجود هؤلاء السعاة الذين هم سعاة بالشر ونقل الكلام، ولَعُهم وطربهم في أن يتنقَّلوا بين المجالس ينقلون الكلام من هذا إلى هذا، "يا فلان، يا شيخ، أما شعرت أن فلانًا قال فيك كذا وكذا، أما سمعت أنه قال في شريطك أو محاضرتك أو كتابك كذا وكذا" ، هدفه -لفساد قلبه- إيغار الصدور وإثارة الأحقاد، وأن يُشْعل أنوارَ الفتنة بين أهل الخير وطلبة العلم، وهذا واقع مؤسف مع الأسف الشديد.

والأغراض مختلفة؛ منهم من يريد أن يتزين عند من ينقل إليه؛ كأنه يقدِّم الولاء والطاعة ومهر المحبة إليه، حينما ينقل له ما يسمعه في مجالس غيره، وهو يعلم أن هذا لن يزيد الأمر إلا فتنة واضطرابًا وعداوة وشحناء، أو ربما كان يريد شيئًا في نفسه ليصفيَ حساباتٍ، أو يحقق مآرب، أو يقتصَّ فيما يظن من هذا الذي يَنُمُّ عليه.

وعلى كل حال مهما كان الغرض ومهما كان السبب، لا ينبغي لطالب العلم أن يقع في هذا المرتع الوخيم، وفي صحيح مسلم من حديث عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

حينما ذكر العهد الذي أخذه النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ على الصحابة، في رواية مسلم قال رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «أخذ علينا النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ العهد كما أخذ على النساء؛ ألا نشرك بالله شيئًا، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا من إملاق، ولا يَعْضَهُ بعضنا بعضًا».

ضع مثل هذا الحديث نصب عينك يا أيها المسلم وعلى الأخص يا طالب العلم؛ احفظ لسانك إلا عن الخير، إن لم تكن داعيةً إلى الألفة وإلى الأخوة واجتماع الكلمة على الخير والحق، فلا تكن سببًا للتفريق؛ فكم من صداقات، وكم من علاقات، وكم من محبات، وكم من أخوة صادقة قد تقطعت وانقلبت إلى عداوات وإلى شر عظيم بسبب هذا النقل وبسبب هذا السعي من هذه النفوس المريضة.

ويا لله العجب! انظر لهذه الكلمة من قول ربنا سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ قال: ﴿مَّشَّاء بِنَمِيمٍ﴾ [القلم:١١]، انظر إلى صيغة المبالغة! يعني هناك اجتهاد وسعي، يسعى سعيًا حثيثًا حتى يوصل وينقل الكلام، وكان في غنى عن ذلك والله لولا هذا المرض الذي في النفوس، هذا اللسان ينبغي أن يُحجَر، إلا عن ذكر الله وعن الكلام في الخير؛ قال النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في الحديث الصحيح: «من صمت نجا»؛ وأخبر النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عن أنه «لا يكُبُّ الناس على وجوههم -أو قال على مناخرهم- في النار إلى حصائد ألسنتهم».

تنبه يا عبد الله إلى ذلك واعلم أن الأمر عظيم، وأن دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم حرامٌ حرمة عظيمة كما أخبر النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في حجة

الوداع؛ فاتق الله في نفسك، واتق الله في إخوانك، واتق الله في الدعوة التي تتأثر تأثرًا سلبيًّا بسبب هذه التصرفات القبيحة، والله المستعان.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَلَهُمَا عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا»).

هذا حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وَوَهِم المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ حينما جعل الحديث عند الشيخين، إنما الحديث عن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا في البخاري. وأما في مسلم فإنه جاء من حديث عمار بن ياسر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فإن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبر عنه عمار، لما خطب فأوجز، فقيل له: يا أبا اليقظان إنك خطبتَ فأبلغتَ وأوجزت فهلّا تنفست! - يعني أبطأت وأطلتَ قليلًا- فقال: إني سمعت الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «إن طول صلاة المرء وقصر خطبته من مئنَّة فقهه، فأطيلوا الصلاة وأقصروا الخطبة، وإن من البيان سحرًا».

أما هذا الحديث الذي بين أيدينا أخرجه البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في صحيحه في موضعين وفيه أنه جاء إليه رجلان من المشرق فخطبا كل واحد خطبة وتكلم كلمة، فعجب الناس من بيانهما، فقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن من البيان لسحرًا»، أو قال: «إن بعض البيان سحرٌ».

وهذا الحديث فيه عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيان أن بعض البيان سحرٌ. **والبيان:** هو الفصاحة، وعُرِّفَ بأنه: إخراج المعنى من حيز الخفاء إلى حيز التجلي.

ووجه تسمية أو وصف بعض البيان بأنه سحرٌ: أنَّ البيان العالي والبلاغة والفصاحة تؤثر في النفوس تأثيرًا يشبه تأثير السحر، فإن البيان العالي ربما أظهر

الشيء على غير حقيقته، حتى يخيَّل للإنسان الأمر على غير وجهه، فالبيان قد يخرِج المحق في صورة المبطل، والمبطل في صورة المحق، وقد يجعل القبيح حسنًا، وقد يجعل الحسن قبيحًا، وهذا أمرٌ معلوم لا شك فيه، وفي هذا يقول ابن الرومي:

فِي زُخْرُفِ الْقَوْلِ ترجيحٌ لِبَاطِلِهِ ... وَالْحَقُّ قَدْ يَعْتَرِيهِ بعض تغييرِ
تَقُولُ هَذَا مُجَاجُ النَّحْلِ تَمْدَحُهُ ... وَإِنْ تعِب تَقُلْ: قَيْءُ الزَّنَابِيرِ
مَدْحًا وَذَمًّا وَمَا جَاوَزْتَ وَصْفَهُمَا ... سحر الْبَيَانِ يُرِي الظَّلْمَاءَ كَالنُّورِ

إذًا البيان فيه تأثيرٌ خفي وشديد على النفوس؛ فهذا وجه وصفه أو تشبيهه بالسحر.

واختلف العلماء هل هذا الحديث فيه ذم للبيان أو مدح له:

القول الأول: أكثر العلماء على أن هذا الحديث إنما سيق لمدح البيان، لا لذمه؛ ووجه ذلك: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى امتن على العباد بتعليمهم البيان فقال: ﴿الرَّحمنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾[الرحمن:١-٤]، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد كان حاز أعلى درجات الفصاحة والبلاغة والبيان، فإنه قد أوتي جوامع الكلم، ولا يخفاكم حديث العرباض رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وعظنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ موعظة بليغة، وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون» فكانت البلاغة والفصاحة والبيان طوع شفتي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إذًا هذا مدح وثناء على البيان.

وأما القول الثاني: فإنه يرى أن هذا الحديث إنما سيق مساق الذم؛ وذلك لما في البيان من تكلف، والتكلف مكروه في الجملة(٤٣٧)، ثم إن البيان قد يُستعمل في نصرة الباطل، وإخفاء الحق، وتعزيز الظالم، وهضم المظلوم، فكان هذا من النبي ﷺ ذمًا له. والإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ كأنه يميل إلى هذا فإنه قد أخرج هذا الحديث في موطئه تحت باب: (ما يُكره من الكلام إلا من ذكر الله)؛ ظاهر هذا أنه رأى أن هذا الحديث مسوقٌ مساق الذم.

والأظهر -والله تعالى أعلم- أن الحديث إنما فيه بيان الواقع؛ فالواقع أن البيان يؤثر تأثيرًا شبيهًا بتأثير السحر، أما كونه مذمومًا أو ممدوحًا فهذا يختلف باختلاف حال الـمُبَيِّن؛ ماذا أراد بكلامه وبيانه! هل أراد نصرة الحق ودفع الظلم وبيان السنة والخير؟ حينئذ يكون البيان ممدوحًا؛ لأنه أضحى حينئذ سلاحًا للخير، أو أراد خلاف ذلك! أراد أن يكون البيان سببًا لنصرة الباطل، وتقوية الظالم، وإخفاء الحق؟ فحينئذ يكون مذمومًا. وهذا كما ذكرت أظهر والله تعالى أعلم.

ولا يخفى أن البيان سلاحٌ ذو حدين -كما يقال- في قديم الزمان وحديثه، فالناس تعرف في واقعها ويعلم الناس في دنياهم كيف أن البيان والفصاحة كانت سببًا في نشر الخير، والإقبال على الهدى، والرجوع عن الغواية والاهتداء إلى الحق، من الناس -أعني من دعاة الحق- من آتاه الله فصاحة وبيانًا وبلاغة وقدرة على إيصال المعنى الحق بصورةٍ محببة للنفوس تُقْبِلُ على سماعها،

(٤٣٧) ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص:٨٦].

وهذا لا شك أنَّه إن وظَّف هذه النعمة التي آتاه الله إياها في الدعوة إلى الإسلام ونشر الخير، لا شك أنه حينئذ سيكون مفتاحًا للخير وبابًا من أبواب النور التي يشع منها إلى الناس.

والعكس صحيح؛ كم انتشر الشر والفساد والخرافة والكفر والإلحاد والمذاهب البدعية! انتشرت بسبب قدرة الدعاة على الفصاحة والبيان؛ وأنت تشاهد وتلاحظ هذا إلى اليوم كثير من دعاة الشر والبدع والضلال، أو المجون والفسق والمذاهب الردية، إنما يسلكون هذا المسلك ويمتطون هذا السلاح إلى قلوب الناس وإلى عقولهم؛ فيصوِّرون القبيح في صورٍ حسنة، وأكثر الناس أغمارٌ ليس عندهم إلا الوقوف عند زخارف القول، دون أن يغوصوا إلى الحقائق والأعماق ومرامي الكلام.

فالمقصود أنَّ إخبار النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن من البيان سحرًا دليل على أن هذا المقام مقام جلل وذو خطر، وينبغي أن يُتعامل معه بحذر، فليس كل متكلم يكون مصيبًا، وليس كل مُبَيِّن يكون مريدًا للحق، فينبغي للمستمع والمتلقي أن يعرف، وأن يكون على حيطة من أمره، وأن يأخذ بالثقة في أموره ولا يغامر، لا سيما في أهم القضايا والمسائل وهي قضية الدين.

أيضا على الدعاة إلى الحق أن يتنبهوا إلى هذا الأمر؛ فإن من أحسن وأقوى ما يستعينون به -بعد عون الله عَزَّوَجَلَّ وتوفيقه- حسن البيان والقدرة على الفصاحة، فإن الناس تُقبِل على من يستميل قلوبها، ويهز مشاعرها، ويُحسِن إيصال الكلام الذي يريده بأسلوب حسن أخّاذ، الدعاة إلى الحق لا ينبغي أن

يوصلوا حقهم في صورة مهزوزة، أشهى الطعام إن قدمته في إناء متسخ قبيح لا تُقبِل النفوس على الأكل، أليس كذلك؟ وأقبح الطعام أو أردؤه لو قُدِّمَ في صورةٍ حسنة؛ مزخرفًا ومحسَّنًا ومزينًا فإن النفوس قد تُقبل عليه مع أنه قد يكون ضارًا.

إذًا هذا من أحسن وأهم ما ينبغي أن يعتني به من أراد أن يكون داعية للحق إمامًا في الهدى.



قال المصنف رحمه الله:

٢٦-بَابُ
مَا جَاءَ فِي الْكُهَّانِ وَنَحْوِهِمْ

رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ بَعْضِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَتَى عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ فَصَدَّقَهُ؛ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ يَوْمًا».

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَتَى كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ؛ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ.

وَلِلْأَرْبَعَةِ وَالْحَاكِمِ- وَقَالَ: صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِهِمَا- عَن النبي: «مَنْ أَتَى عَرَّافًا أَوْ كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ؛ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ». وَلِأَبِي يَعْلَى بِسَنَدٍ جَيِّدٍ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ مِثْلُهُ مَوْقُوفًا.

وَعَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ ﷺ مَرْفُوعًا: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ تَطَيَّرَ أَوْ تُطُيِّرَ لَهُ، أَوْ تَكَهَّنَ أَوْ تُكُهِّنَ لَهُ، أَوْ سَحَرَ أَوْ سُحِرَ لَهُ، وَمَنْ أَتَى كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ؛ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ». رَوَاهُ الْبَزَّارُ بِإِسْنَادٍ جَيِّدٍ.

وَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي الْأَوْسَطِ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ؛ دُونَ قَوْلِهِ: «وَمَنْ أَتَى...» إلى آخره.

قال الْبَغَوِيُّ: «الْعَرَّافُ: الَّذِي يَدَّعِي مَعْرِفَةَ الْأُمُورِ بِمُقَدِّمَاتٍ يَسْتَدِلُّ بِهَا عَلَى الْمَسْرُوقِ وَمَكَانِ الضَّالَّةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ».

وَقِيلَ: هُوَ الْكَاهِنُ، وَالْكَاهِنُ هُوَ الَّذِي يُخْبِرُ عَنِ الْمُغَيَّبَاتِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ.

وَقِيلَ: الَّذِي يُخْبِرُ عَمَّا فِي الضَّمِيرِ.

وَقَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ: «الْعَرَّافُ: اسْمٌ لِلْكَاهِنِ وَالْمُنَجِّمِ وَالرَّمَّالِ وَنَحْوِهِمْ مِمَّنْ يَتَكَلَّمُ فِي مَعْرِفَةِ الْأُمُورِ بِهَذِهِ الطُّرُقِ».

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ -فِي قَوْمٍ يَكْتُبُونَ أَبَا جَادٍ، وَيَنْظُرُونَ فِي النُّجُومِ-: «مَا أَرَى مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ لَهُ عِنْدَ اللهِ مِنْ خَلَاقٍ».

قال الشارح وفقه الله:

بعد أن عقد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ البابين السالفين المتعلقين بالسحر وبعض أنواعه، ناسب أن يعطف عليهما هذا الباب المتعلق بالكُهَّان والكِهانة[٤٣٨].

الكُهَّان: جمع كاهن، وهذه الكلمة تُجمع على «كُهَّان» وعلى «كَهَنَة».

والكَهانة -ويجوز أن تقول الكِهانة- حدُّها الذي يجمع الصور التي تدخل

---

(٤٣٨) وهذا الباب عقده المؤلّف بعد أن ذكر ما يتعلق بالسحر وشيء من أنواعه؛ نظرًا للمشابهة والمقاربة بين السحر والكهانة، فإن بينهما قُرْبٌ من جهة الاستعانة بالشياطين، وكلاهما يستخدم الشياطين. ولعلكم تذكرون ما مرَّ معنا سابقًا من حديث أبي هريرة الثابت في «البخاري» وهو قوله ﷺ: «إذا قضى الله الأمر في السماء وضعت الملائكة أجنحتها خضَعانًا لِمَا يقول»، الشاهد في الحديث أنَّه قال: «فيُلقيها إلى من تحته، ثم يُلقيها الآخر إلى الساحر أو الكاهن»؛ فهذا دليل على أنَّ الشياطين لها ارتباط بالسحرة ولها ارتباط بالكُهَّان؛ فناسب إذًا أن يتكلم المؤلّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الباب بعد السحر عن الكُهَّان والكهانة.

تحتها هو: ادَّعاء علم الغيب؛ فكل ما يرجع إلى هذا المعنى فهو داخلٌ في معنى الكَهَانة.

وهذا له صور في القديم والحديث:

-مر معنا في الباب السالف من تلك الصور: ادعاء علم الغيب عن طريق زجر الطير، أو عن طريق الخط في الأرض، أو عن طريق ضرب الحصى.

-وقد يكون عن طريق ادَّعاء وصول هذا العلم -علم الغيب- عن طريق الجن.

-وقد يكون هذا عن طريق النظر في النجوم.

-وقد يكون هذا عن طريق ما يسمى بعلم الحرف والطلسم.

-وقد يكون هذا كما هو في عصرنا الحاضر عن طريق ما يُسمى البروج.

-وقد يكون هذا عن طريق ما يسمى قراءة الكف.

-وقد يكون هذا عن طريق ما يُسمى القراءة في الفنجان.

إلى غير ذلك من صورٍ كثيرة تختلف باختلاف الأزمان والأمكنة، لكَّنها ترجع إلى حقيقة واحدة ألا وهي: ادَّعاء علم الغيب.

وما يدَّعيه هؤلاء الدجَّالون الكهنة من الغيب الذي غاب عِلَّمه عن ابن آدم راجع في الجملة إلى ثلاثة أشياء:

الأمر الأول: أن يكون ما يَدَّعون من الغيب الذي يذكرون راجعًا إلى استراقِ السمع، وقد مر معنا ما يتعلق باستراقِ السمع في باب ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾[سبأ:٢٣]، وقلنا إنَّ الشياطين تترصد في السماء وقد تَسمَعُ كلمةً مما يقضيه الله عَزَّوَجَلَّ في السماء، يسمعونها من الملائكة الذين يتحدثون بها فيتناقلونها بينهم حتى تصل إلى الساحر أو الكاهن، كما جاء في حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عند البخاري.

والأمر الثاني: أن يكون ما يخبرون به عن هذه المغيبات راجعًا إلى ما يخبرهم به الجن من أمور غائبة عن النَّاس(٤٣٩)؛ كشيء ضائع أو متاع مسروق أو ما شاكل ذلك؛ وذلك أن الجن عندهم قدرة على الطيران والجوَلان والتقصي عن مثل هذه الأمور، فربما اطَّلعوا عن علم شيء من هذه الأشياء التي بإمكانهم أن يصلوا إلى علمها ثم يخبرون وليَّهم الكاهن.

أما الأمر الثالث: فهو أن يكون ما يخبرون به راجعًا إلى تخمين وحزْرٍ، يعني إلى كذبٍ لا حقيقة له وليس لهم سببٌ صحيح؛ وهذا هو الغالب عليهم، فالكهَّان المشعوذون العرافون الدجالون أهل الكذب دون شك: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ

---

(٤٣٩) مِمَّا للجن عليه قدرة.

كَـاذِبُونَ﴾[الشعراء:٢٢١-٢٢٣]، فهـم أهـل كـذب وأهـل إفـك وتـدجيل، حتـى الـذي يخبرون به مما يلتقطونـه عـن مسـترقي السـمع مـن الجـن يخلِطـون معـه الكـذب الكثير، فهم أهل كذبٍ ودَجَلٍ في الغالب.

وأما عن العلاقة بين السحر والكَهانة والفرق بين الساحر والكـاهن؛ فـإنَّ بـين السـحر والكَهانـة اجتماعًـا وافتراقًـا، يلتقـي السـاحر والكـاهن ويلتقـي السـحر والكهانة في شيء ويفترقان في شيء.

- **أمَّا التقائهما**: فإنهما يلتقيان من جهة الاستعانة بالجن والشـياطين، كمـا مـر معنـا في حديث أبي هريرة السالف: «حتى يلقيها إلى الساحر أو الكاهن».
- **أما اختلافهما**: فإنَّ الكاهن إنما يتعلق بـه إِخبـارٌ، وأمـا السـاحر فيتعلـق بـه تـأثيرٌ؛ الكهانة ترجع إلى إخبار، الكاهن يخبر "سـيكون كـذا، سـيموت فـلان، سـتنتهي الحياة سنة كذا وكذا"، يخبرون عن أشياء يراد العلم بها. أما السحر فشأنٌ آخـر؛ السحر فيه تأثير، فيه إيصال أذى لمسحور أو من يراد سحره، فيـه سـحر عطـف، جلب حبيب، أو صرف تبغيض، أو أذية لإنسان عـن طريـق الجـن، أو مـا شـاكل ذلك، إذًا السحر فيه تأثير، والكهانة فيها إخبار هذا الفرق بين الأمرين.

أمَّا حكم الكاهن: فهـو الـذي لا شـك فيـه ولا ريـب أنَّ الكـاهن الـذي يـدَّعي علم الغيب الذي استأثر الله عَزَّوَجَلَّ به فلا شك في أنَّه كافر، وهذا مما لا يجوز أن

يُختلف فيه، كاهنٌ يدَّعي أنه يعلم الغيب الذي أخبر الله أنه استأثر به لا شك أنه كافر بالله عَزَّوَجَلَّ. **وذلك:**

أولاً: أنه يدعي مشاركة الله عَزَّوَجَلَّ فيما يختص به، ﴿قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ﴾[النمل:٦٥]، ﴿لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[الكهف:٢٦]، إذًا الله عَزَّوَجَلَّ هو الذي استأثر بعلم الغيب، فكان هو وحده لا شريك له علام الغيوب.

وأمر آخر: أنه مُكَذِّبٌ لكتاب الله الذي أخبر باستئثار الله عَزَّوَجَلَّ بعلم الغيب.

إذًا كل من ادَّعى علم الغيب الذي استأثر الله عَزَّوَجَلَّ به بأي وسيلة كان ذلك فإنه يكون حينئذٍ كافرًا بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.(٤٤٠)

هذا باختصار ما يتعلق بموضوع الكهانة، وسيأتي أيضًا أبوابٌ هي من فروع هذا الموضوع تتعلق بالتنجيم وما إليه، وسيُزاد الكلام في ذلك في محله إن شاء الله.

---

(٤٤٠) **الجهة الثانية**: أنَّ هذا الإخبار من الجن وهذه الخدمة من الشياطين لهؤلاء الكُهَّان إنما تكون لأجل ما يتقرب به الكُهَّان إليهم، والشأن في هذا كالشأن فيما مضى من الكلام عن السحرة؛ فالشياطين إنما تخدم من يتقرب إليهم، فكلا الطرفين يستمتع بالآخر:﴿وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ﴾ [الأنعام:١٢٨].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ بَعْضِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَتَى عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ فَصَدَّقَهُ؛ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ يَوْمًا»).

هذا الحديث عزاه المؤلف -كما ترى- إلى الإمام مسلم، وهذا العزو ليس بصحيحٍ، بل إنَّ اللفظ الذي أخرجه الإمام مسلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في صحيحه مخالفٌ لهذا اللفظ الذي بين أيدينا من جهتين:

أولا: أنه ذكر «أربعين ليلة»، والذي في الكتاب عندنا «أربعين يومًا»، والأمر في هذا يسير. لكن الأمر المهم أن هذا الحديث فيه «**فسأله عن شيء فصدقه لم تقبل له صلاة أربعين يوما**»، وعزو الإمام لهذا الحديث إلى مسلم لعله تابَعَ فيه غيره من أهل العلم، فإن ابن الأثير في «جامع الأصول»، وكذلك النووي في «رياض الصالحين» وغيرهما، ذكروا هذا الحديث بهذا اللفظ معزوا إلى الإمام مسلم، فلعل المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تابع أحدًا من هؤلاء في هذا العزو[٤٤١].

---

(٤٤١) وعزو الشيخ محمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ لهذه الرواية إلى مسلم قد يكون جريًا على طريقة بعض أهل العلم، وهي: أنَّه إذا كان الحديث أصله في الصحيحين أو أحدهما فإنه يُعزى إليهما أو إلى أحدهما وإن كان ثمَّة اختلاف في الألفاظ.

أما الذي جاء في صحيح مسلم فهو قول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من أتى عرافًا فسأله عن شيء لم تُقبل له صلاة أربعين ليلة»، والعراف من جنس الكُهان، وسنتكلم عن الفرق بين الكاهن والعراف فيما يأتي إن شاء الله.

وهذا الحديث بهذا اللفظ جُمع فيه بين السؤال والتصديق، والصواب: أنَّ الحكم المذكور -وهو «لم تقبل له صلاة أربعين يوما»- هو اللفظ الصحيح المبني على السؤال، كما جاء في رواية الإمام مسلم.

أمَّا التصديق فقد جاء في حديث أبي هريرة وغيره مما سنتكلم عنه، وأورد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذلك في الحديث الثاني وما بعده فيه حكمٌ آخر: «من أتى عرافًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد» صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

إذًا الصحيح أنَّ الوعيد بعدم قبول الصلاة أربعين يومًا مترتب على مجرد مجيء الكاهن وسؤاله. وأمَّا مجيئه وسؤاله وتصديقه، فإنه يترتب عليه الوعيد الآخر وهو: «فقد كفر بما أنزل على محمد» صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وعلى كل حال المجيء إلى الكهان فيه ثلاث أحوال:

-مجيء اختبارٍ وامتحان.

-ومجيء اطّلاع.

-ومجيء تصديق.

وكل حالة لها حكمٌ:

الحال الأولى: مجيء اختبار وامتحان؛ فيأتي العالم إلى كاهن لكي يختبره ويمتحنه ويكشف حاله، فهذا لا بأس به وقد يتعين، وليس داخل في الحديث الذي بين أيدينا. ويشهد لهذا ما ثبت في الصحيحين من إتيان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ابن صياد وهو كاهن يهودي دجال، فقال له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إني خبَّأت لك خبيئًا، فقال: الدخ، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اخسأ فلن تعدُوا قدرك»، هذا ليس داخلاً فيما نحن فيه، إذًا هذا إتيان اختبار وامتحان.

الحال الثانية: إتيان اطلاع؛ يأتي إنسان إلى كاهن يريد أن يستطلع كما يقولون باللسان المعاصر حب استطلاع، يريد فقط يتفكَّه يضحك وما شاكل ذلك، ينظر ماذا عند هذا الكاهن دون أن يصدِّقه؛ فهذا الذي يتنزل عليه حديث مسلم «لم تقبل له صلاة أربعين يوما». إذًا هذا أمرٌ منكر ومحرم، وفاعله عاصٍ لله ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفي صحيح مسلم من حديث معاوية بن الحكم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «يا رسول الله إنا كنا نأتي في الجاهلية الكهان، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فلا تأتِهم»؛ نهى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن إتيان الكهان، ففاعل ذلك آثم بعصيانه الله ورسوله.

ثم يترتب عليه أيضًا وعيدٌ خاص وهو: أنَّه لا تقبل لـه صـلاة أربعين ليلـة أو أربعين يومًا كما عندنا هنا أو في بعض الروايات في خارج صحيح مسلم، ومعنى ذلك: أنه يجب على هذا الإنسان أن يصلي ومع ذلك لا ثواب لـه في صـلاته، ولا يطالَب بالإعادة بالإجماع، كما قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرح مسلم. إذًا يصلي ولا ثواب له في هذه الصلاة عقوبةً على ما اجترح من هذا الإثم؛ وهو أن يأتي إلى هؤلاء الكهان فيعرِّض نفسه للفتنة ويعرِّض إيمانه للنزول.

أما الحال الثالثة: فهو أن يأتي إلى هذا الكاهن فيسأله فيصدِّقه؛ فهذا الذي يتنزَّل عليه حديث النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «**فقد كفر بما أنزل على محمد**» صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومما أنزل على محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ﴾[النمل:٦٥].

إذًا هذا لم يصدِّق بل كفر وكذب بما أَنْزَل الله على رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الأدلة التي تدل على استئثار الله عَزَّوَجَلَّ بعلم الغيب.

قد يقول قائل: ماذا أنت قائلٌ فيما خرَّج الإمام أحمد في «المسند» من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**من أتى عرافًا فصدَّقة لم تُقبل له صلاة أربعين يومًا**»، هذا الحديث فيه ترتيب الوعيد على بطلان ثواب الصلاة أربعين يومًا على التصديق؛

وهذا يتنافى مع التقرير السابق. قلنا إن من صدَّق هذا فيه وعيدٌ آخر، وهو أنه «كفر بما أنزل على محمد» صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فماذا نصنع بهذه الرواية؟

الجواب عن هذا: أن الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ أخرج هذا الحديث عن يحيى بن سعيد، عن عبيد الله بن عمر، عن نافع، عن صفية بنت عبيد، عن بعض أزواج النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ هذا هو الإسناد، وبعض أزواج النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هنا -وكما أيضا في حديث مسلم السالف- الأظهر والله أعلم أن المراد حفصة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا كما بيَّن هذا بعض الحفاظ ومنهم أبو مسعود الدمشقي، وكذلك الحُميدي في «الجمع بين الصحيحين»، وأقر هذا ابن الأثير في «جامع الأصول».

المقصود أنك إذا نظرت إلى هذا الإسناد وجدت ظاهره الصحة، ولكن عند جمع الروايات تجد أنَّ هذا الحكم فيه نظر، وذلك:

أولاً: أنَّ الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ روى هذا الحديث عن يحيى بن سعيد، وقد روى هذا الحديث عن يحيى بن سعيد بهذا الإسناد جمعٌ من الثقات؛ منهم محمد بن المثنى كما عند مسلم، ومنهم صَدَقَةَ بن الفضل، ومنهم أبو بكر بن خلاد، ومنهم علي بن المديني، كل هؤلاء[٤٤٢] ذكروا هذا الحديث بدون لفظ «فصدَّقه».

(٤٤٢) أربعة ثقات.

ثانيًّا: أن عبد الله بن رجاء تابَعَ عبيد الله بن عمر في الرواية عن نافع بدون هذا اللفظ.

ثالثًا: أن الروايات الأخرى من غير حديث حفصة أو بعض أزواج النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيها عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ترتيب الكفر على من صدَّق، فقد جاء هذا من حديث أبي هريرة وسيمر معنا، ومن حديث عمران وسيمر معنا، وأيضا من حديث جابر، وأيضا من حديث عمر، وأيضا من حديث أنس، وأيضا من حديث واثلة وإن كان الإسناد في ذلك ضعيف أو ضعيفٌ جدًا، كما ثبت أيضًا من قول بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وسيأتي معنا؛ كل أولئك كان حديثهم مرتبًا على شيء واحد وهو: أن من صدَّق هذا العراف «فقد كفر بما أنزل على محمد» صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

رابعًا: أنه قد وقع عند الطبراني من حديث بن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا ترتيب الإتيان إلى العراف فقط أنه لم تُقبل له صلاة أربعين يومًا، وهذا يؤيد رواية مسلم. فأصبحت رواية حفصة ورواية أخيها ابن عمر كلاهما متفقان على أن من أتى

فسأل -مجرد سؤال، جاء مجرد إتيان لهذا الإنسان يستطلع- فإنه يعتبر قد باء بهذا الإثم وهو أنه «لا تقبل له صلاة أربعين يومًا». (٤٤٣)

الخلاصة: **أنَّ الصحيح والأقرب** -والله تعالى أعلم- **أن هاهنا وعيدين**:

الأول: على مجرد السؤال والاطلاع؛ وهو «لم تقبل له صلاة أربعين يوما أو أربعين ليلة» كما جاء في صحيح مسلم.

الوعيد الثاني: أن من صدَّق هذا الكاهن يتنزَّل عليه حديث «**فقد كفر بما أنزل على محمد**» صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

نأتي الآن إلى مسألة مهمة وهي: نريد تلخيص القول في حكم من يأتي إلى هذا الكاهن، **وما معنى قول النبي** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فقد كفر بما أنزل على محمد**» صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

---

(٤٤٣) إذًا هذه الرواية التي هي في «مسند أحمد» (**فَصَدَّقَهُ؛ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ يَوْمًا**) على كل حال فيها نظر. وعزو الشيخ محمد رَحِمَهُ اللَّهُ لهذه الرواية إلى مسلم قد يكون جريًا على طريقة بعض أهل العلم، وهي: أنَّه إذا كان الحديث أصله في الصحيحين أو أحدهما فإنه يُعزى إليهما أو إلى أحدهما وإن كان ثمَّة اختلاف في الألفاظ. ثمَّ إني وجدت ابن الأثير في «جامع الأصول» قد عزى هذا اللَّفظ إلى مسلم، وكذلك النووي في «رياض الصالحين» عزى هذا اللَّفظ إلى مسلم. أقول: ولعلَّ الشيخ محمد رَحِمَهُ اللَّهُ إنما نقل عن مسلم بالواسطة، بواسطة ابن الأثير أو النَّووي أو غيرهما من أهل العلم والله عَزَّ وَجَلَّ أعلم.

➢ **القول الأول**: ذكر جمعٌ من أهل العلم أنَّ الإتيان إلى الكاهن أو العراف وتصديقه كفرٌ أصغر، ورأى هؤلاء أنَّ الحديثَ حديثَ مسند الإمام أحمد عن بعض أزواج النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والذي فيه «**فسأله فصدَّقه**»، هذه الرواية مُقيِّدة للرواية المطلقة: «**من أتى عرافًا فسأله**»؛ هذه مطلقة ولها تقييدٌ في رواية «فصدَّقه»، وبالتالي فإن من أتى فصدق يبوء بوعيدين:

-أنه لا تُقبل له صلاة أربعين يومًا.

-وأيضا أنه يكفر الكفر الأصغر.

ولماذا قالوا إنه كافرٌ كفرًا أصغر؟

قالوا: لأنه لو كان كافرًا كفرًا أكبر لم يكن عدم قبول الصلاة محددًا بأربعين يومًا، بل كان لا يُقبل له صلاة مطلقًا حتى يتوب إلى الله جَلَّ وَعَلَا؛ فلأجل هذا قالوا إنَّ تصديق الكاهن كفرٌ أصغر.

➢ **القول الثاني**: هو أن تصديق الكاهن كفرٌ أكبر، ورأى هؤلاء أنَّ الروايات الصحيحة التي فيها لفظ التصديق إنما رُتِّبَ على ذلك فيها «**فقد كفر بما أنزل على محمد** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»، لا سيما وأن هذا هو المناسب لهذا اللفظ «**كفر بما أنزل على محمد**» صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ وذلك أن هذا الإنسان اعتقد أنَّ غير الله يشارك الله في علم الغيب، وهذا لا شك أنَّه كفرٌ أكبر.

➢ **قول ثالث** يُذكر في كتب أهل العلم: وهو التوقف؛ ويروى هذا عن بعض الأئمة(٤٤٤)، وهذا القول:

- إما أن يُحْمَلَ على أن القائل لا يدري أهو كفرٌ أكبر أو أصغر؛ وبالتالي لا ينبغي أن يُقال إنَّه قول ثالث؛ لأنه ليس عنده علم.

-أو يقال: إن قائل هذا القول أراد السكوت عن التفصيل والبيان ليكون أردع في النفوس، بل تحكي ما حكى النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ، فهو أوقع في النفوس عند العامة والناس، بدل أن تقول "هذا كفر أصغر" ربما يخفف هذا حِدَة الأمر في نفوس الناس، لكن أطلق ما جاءت به النصوص، وبالتالي فهذا راجعٌ إلى الحكمة في الدعوة، وليس قولاً ثالثًا.

والذي يظهر لي -والله تعالى أعلم- أن يقال: إنَّ القولين الأولين يرجعان إلى اتفاق؛ فإنَّ القائلين بأنَّ تصديق الكاهن كفرٌ أصغر أجزِم أنَّهم لا يريدون تصديقه في أنَّه يعلم الغيب الذي استأثر الله به، إنَّما أنَّ لدى هذا الـمُصدق شُبهة وهي: أنَّ هذا الكاهن أو العراف أخبرَ بما وصله عِلمه عن طريق الجن، وما أخبر به الجن سمعوه من الملائكة، وما سمعه الملائكة خرج عن حيِّز كونه

---

(٤٤٤) ذكروا أنه أشهر الروايات عن الإمام أحمد.

غيبًا، ما أصبح الآن غيبًا استأثر الله به؛ فبالتالي وجود هذه الشبهة تدرأ عن هذا المصدِّق الحكم بالكفر الأكبر.

وأما إذا كان هذا المصدِّق يُصَدِّق أن أحدًا غير الله يشارك الله في الذي استأثر به وهو علم الغيب مطلقًا؛ فهذا مما لا يُختلف في كفره، بل هذا من الأمر المعلوم بالضرورة أنه كفرٌ بالله جَلَّوَعَلَا، فكل من شارك الله عَزَّوَجَلَّ في صفةٍ اختص بها فهو كافرٌ كفرًا أكبر بالاتفاق.

فعاد الأمر إلى اتفاق بين القولين؛ فأصحاب القول الأول نظروا إلى شيء، وأصحاب القول الثاني نظروا إلى شيء آخر. والله تعالى أعلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَتَى كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ؛ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ**).

هذا الحديث حديث أبي هريرة؛ وهو صريحٌ في الحكم الذي ذكرته لك بأن من كفر هو الذي صدَّق هذا العرَّاف. والحديث كما ذكر الشيخ رواه أبو داود، بل رواه الخمسة أحمد والترمذي والنسائي في السنن الكبرى وابن ماجه وغيرهم[٤٤٥].

(٤٤٥) وفيه بحثٌ في إسناده.

والحديث جاء من رواية أبي تميمة الهجيمي عن أبي هريرة ولم يسمع منه، ولكن يشهد له الحديث الآتي وإن كان فيه أيضًا انقطاع فإنه جاء من طريق خِلَاس عن أبي هريرة وأيضا هذا فيه انقطاع، لكن كثرة المتابعات والشواهد لهذا الحديث يقطع الناظر فيها بأن هذا الحديث وهذا اللفظ ثابتٌ عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دون شك، وقد ذكرتُ لك طائفةً من هذه الروايات عن أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قبل قليل، فالحديث[٤٤٦] صحيحٌ إن شاء الله.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (**وَلِلأَرْبَعَةِ وَالْحَاكِمِ- وَقَالَ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِهِمَا- عَن... أن النبي قال: «مَنْ أَتَى عَرَّافًا أَوْ كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ؛ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ»**).

يبدو أن هذه تصرفات من بعض النساخ، والصواب أن النسخ القديمة من هذا الكتاب بيَّض المؤلف لاسم الراوي فقال: (عن...) وما ذكر من الراوي، وهو أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والحديث ليس عند الأربعة[٤٤٧]، ولعله أراد الذي قبله. والفرق بينه وبين الحديث السابق أن فيه إضافة «الكاهن».

---

(٤٤٦) فبمجموع ذلك يكون هذا الحديث ثابتًا متنُه، فهذا المتن لا شكَّ في ثبوته، الروايات في هذا متعددة.

(٤٤٧) والحديث أخرجه أحمد والحاكم، ولم يخرجه الأربعة بهذا اللَّفظ. الفرق بينه وبين سابقه في المتن أنَّ فيه: عرافًا أو كاهنا. والحديث قوَّاه الذهبي، وصححه العراقي، كذلك الشيخ سليمان بن عبد الله في «التيسير»، وغيرهم من أهل العلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَلِأَبِي يَعْلَى بِسَنَدٍ جَيِّدٍ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ مِثْلُهُ مَوْقُوفًا).

مر بنا هذا الأثر غير مرة، كررناه عدة مرات في الدروس السابقة، وفيه ذِكْرُ أيضا الساحر؛ ابن مسعود أضاف أيضًا الساحر. والأثر جيد[٤٤٨] كما قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيه إتيان الكاهن والعراف والساحر، فمن صدَّقهم فقد كفر بما أنزل على محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَعَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ ﷺ مَرْفُوعًا: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ تَطَيَّرَ أَوْ تُطُيِّرَ لَهُ، أَوْ تَكَهَّنَ أَوْ تُكُهِّنَ لَهُ، أَوْ سَحَرَ أَوْ سُحِرَ لَهُ، وَمَنْ أَتَى كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ» رَوَاهُ الْبَزَّارُ بِإِسْنَادٍ جَيِّدٍ).

هذا الحديث في شطره الثاني موافقٌ لما قبله، وأما الجديد فيه فهو شطره الأول؛ (مَنْ تَطَيَّرَ أَوْ تُطُيِّرَ لَهُ، أَوْ تَكَهَّنَ أَوْ تُكُهِّنَ لَهُ، أَوْ سَحَرَ أَوْ سُحِرَ لَهُ).

(تَكَهَّنَ) فعَلَ الكهانة، أما (تُكُهِّنَ لَهُ) يعني فُعِلت لأجله، يعني جاء إلى كاهن فسأله أو طلب منه أن يخبره بشيء غيبي، هذا الذي يقال فيه (تُكُهِّنَ لَهُ) [٤٤٩]، وكذلك في (تُطُيِّرَ لَهُ)، وكذلك في (سُحِرَ لَهُ)؛ يعني يطلب فعل هذه الأشياء.

---

(٤٤٨) كما قال الحافظ والمُنذري وغيرهما، وفيه إضافة أيضًا: (كاهنًا أو ساحرًا أو عرَّافًا)، وقُلت: إن هذا وإن كان موقوفًا فإن له حكم الرفع.

(٤٤٩) ولا فرق من جهة أن هذا الذي طلب هذا الطلب موافق على ذلك ويريده؛ فهو مستحق لهذه العقوبة، وهي قوله ﷺ: «لَيْسَ مِنَّا»

من فعل ذلك فإنه (لَيْسَ مِنَّا) ، هكذا أخبر النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وهذا وعيد، وترتيب مثل هذا الوعيد على معصية قرينةٌ على أن هذه المعصية كبيرةٌ من الكبائر(٤٥٠).

والأصل أن كلمة (لَيْسَ مِنَّا) يراد بها: ليس من المؤمنين الإيمان الواجب، انتبه، ليس بلازم أن يكون (ليس منا) يعني ليس مسلم أصلا، إنما (ليس منا) يعني ليس مؤمنًا الإيمان الواجب؛ وذلك أن الإيمان الواجب يقتضي فعل ما أمر الله به وترك ما نهى الله عنه.

وتنبه هنا إلى مسألة مهمة، وهي أنَّ هذا الحديث جمع ثلاث معاصٍ؛ الكهانة والسحر والتطير. وأنت تلحظ أن الحكم فيها مختلف؟ السحر مضى الكلام فيه، والكهانة هي التي نتكلم فيها، والطيرة سيأتي فيها بابٌ يفصل فيه إن شاء الله.

والطيرة لا تصل إلى حد السحر ولا تصل إلى حد الكَهانة، بل الأمر فيها دون ذلك؛ فإن من تطير -يعني تشاؤم- ولم يترتب على ذلك شيء فإن هذا أمر منكر ومحرم، فإن ترتب على هذا تركًا أو فعلاً فإن هذا يعتبر شركًا أصغر.

إذًا حكم كل واحد من هذه الأمور الثلاثة يختلف عن الآخر؛ فكيف جُمع بينها في حديث تضمن وعيدًا واحدًا؟

---

(٤٥٠) وهذ الصيغة معدودة عند أهل العلم من صِيغ الوعيد على الكبائر، إذا جاء الحديث فيه «لَيْسَ مِنَّا» فهذا معدود عند أهل العلم أنَّ هذا الشيء من الكبائر.

القاعدة يا رعاك الله -وتنبه إلى هذه القضية- في جملة من أحاديث الوعيد، **اجتماعُ أفعال متعددة تحت وعيدٍ واحد لا يدل على التساوي في الحكم الخاص،** بمعنى: قد يأتي الدليل جامعًا لأعمالٍ عدة تشترك في قدرٍ مشترك من الوعيد، لكنَّ هذا لا يعني استواء هذه الأعمال في الحكم الخاص.

أضربُ لك مثالاً: قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اجتنبوا السبع الموبقات» وذكر الشرك بالله والسحر، وهذان لهما حكمٌ خاص وهو الكفر، وذكر أشياء دون ذلك؛ ذكر (قذف المحصنات)، ذكر (التولي يوم الزحف)؛ السؤال: قذف المحصنات والتولي يوم الزحف هل هما في حكم الشرك والسحر؟ الجواب: لا؛ لكنَّ الكل يشترك في شيء واحد وهو أنَّ هذه الأمور موبقةٌ، وإن كان مقدار الإيباق يتفاوت.

إذًا بينها قدر مشترك وبينها قدر فارق.

قُل مثل هذا في الأحاديث التي بين أيدينا؛ كلها تشترك في أنَّ من وقع فيها لم يكن مؤمنًا الإيمان الواجب، ربما كان في بعض هذه الأمور المذكورة قدرٌ زائد على ذلك، وهو أن يصل إلى الشرك أو الكفر الأكبر.

إذًا كل واحدة من هذه الأمور لها حكمٌ خاص وإن اشتركت في أنها من الأمور المنكرة ، من الأمور المتوعد عليها[٤٥١]، والله أعلم.

---

(٤٥١) ولهذا لا يُسْتشكَل أن يُعطف على الطيرة الكهَانة والسحر مع البَون الشاسع بين تلك وهذين.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي الأَوْسَطِ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ؛ دُونَ قَوْلِهِ: «وَمَنْ أَتَى...» إلى آخره).

ورُوِيَ مرفوعًا إلى النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ. أما الموقوف على ابن عباس فالإسناد فيه جيد، وأما المرفوع فضعيفٌ أو ضعيفٌ جدًا.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قال الْبَغَوِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الْعَرَّافُ: الَّذِي يَدَّعِي مَعْرِفَةَ الأُمُورِ بِمُقَدِّمَاتٍ يَسْتَدِلُّ بِهَا عَلَى الْمَسْرُوقِ وَمَكَانِ الضَّالَّةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ».

وَقِيلَ: هُوَ الْكَاهِنُ، وَالْكَاهِنُ هُوَ الَّذِي يُخْبِرُ عَنِ الْمُغَيَّبَاتِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ.

وَقِيلَ: الَّذِي يُخْبِرُ عَمَّا فِي الضَّمِيرِ.

وَقَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ: «الْعَرَّافُ: اسْمٌ لِلْكَاهِنِ وَالْمُنَجِّمِ وَالرَّمَّالِ وَنَحْوِهِمْ مِمَّنْ يَتَكَلَّمُ فِي مَعْرِفَةِ الأُمُورِ بِهَذِهِ الطُّرُقِ».

الآن وصلنا إلى التفريق بين الكاهن والعراف، أو بين هاتين الكلمتين وغيرها كالمنجِّم والرمَّال وما إلى ذلك؛ في هذا الموضوع اختلاف طويل وكلام كثير، وأنت قد سمعت بعضه، **ويمكن أن نذكر مُحَصَّلة لهذا فنقول:**

إن العلماء مختلفون في هذه المسألة[٤٥٢]:

-فمنهم من يرى: أن الكاهن هو العراف وأن العراف هو الكاهن ولا فرق.

-ومنهم من يرى: كما ذكر أبو العباس تقي الدين رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن العراف أعم؛ كل من ادَّعى علم الغيب فهو عراف يدَّعي معرفة الغيب، ثم بعد ذلك هناك

---

(٤٥٢) والمسألة هذه طويلة وفيها بحث وخلاف طويل بين أهل العلم وأهل اللّغة.

تسميات مفصلة؛ من ذلك «الكاهن» الذي يدعي أن معرفة الغيب عن طريق مسترقي السمع، هناك «رمَّال» عن طريق الخط في الرمل إلى غير ذلك.

والأقرب والله تعالى أعلم أن يقال أنَّ كلمة «العراف» و«الكاهن» من الكلمات التي إذا اجتمعت افترقت وإذا افترقت اجتمعت.

إذا نظرت إلى مجال كلام أهل العلم واستعمالاتهم تصل إلى هذه النتيجة، أنَّ «العراف» و«الكاهن» إذا أطلق أحدهما دون الآخر فإنه يشمل الآخر، وإذا ذكرا معًا فإنهما يفترقان.

ولعل الأقرب في ذلك ما ذكر الراغب الأصفهاني في كتابه «الذريعة»؛ أن الكاهن: من يخبر عن الأمور المستقبلة، وأما العراف: فمن يخبر عن الأمور الماضية؛ الذي يقول "سيكون كذا وكذا، سيحصل كذا وكذا" هذا كاهن، وأما العراف فالذي يخبر عن أمرٍ ماضٍ، كالذي يخبر عن محل شيء مسروق، هذا في أمرٍ قد مضى وانقضى، سُرق وانتهى الأمر فهو يخبر عن شيء ماضٍ.

لعل هذا أقرب وأضبط ما يقال في هذا الأمر، والله أعلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ -فِي قَوْمٍ يَكْتُبُونَ أَبَا جَادٍ، وَيَنْظُرُونَ فِي النُّجُومِ-: «مَا أَرَى مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ لَهُ عِنْدَ اللهِ مِنْ خَلَاقٍ»).

هذا الأثر الذي ختم به المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الباب، أثر بن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا هذا خرَّجه عبد الرزاق في المصنف وغيره بإسناد ثابت عنه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ[٤٥٣]، وأخبر فيه أن

(٤٥٣) كما قال الحافظ في «الفتح»، ورُوِيَ مرفوعًا إلى النبي ﷺ بإسنادٍ ضعيف جدًا أو موضوع.

الذين يتعاطون ما يسمي بـ(أبي جاد) ليس لهم عند الله من خلاق، وهذا يؤيد أن من أتى هؤلاء الكهان والعرافين فصدَّقهم فقد كفر بما أنزل على محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كفرًا أكبرا، فإن هذا اللفظ إنما يستعمل غالبًا في هذا (ليس له عند الله من خلاق، أو ليس له من خلاق) يعني ليس له من حظ ونصيب عند الله جَلَّ وَعَلَا.

ومراده بـــ(أبي جاد): الحروف الأبجدية التي ترتيبها كما تعلمون (أبجد هوَّز حطّي كَلِمن سَعْفَص قَرَشَتْ ثخَذَ ضَغَظَ) .

استعمال هذه الحروف قد يكون ممنوعًا، أو قد يكون مشروعا أو جائزًا:

أما كونه ممنوعًا: فهو ما جاء في أثر ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ وذلك أن الكهان والعرافين يستعملون هذه الحروف فيما يسمونه بعلم الحرف أو علم الحروف، وذلك أنَّهم يدَّعون أنَّ كل حرف من هذه الحروف يقابله عددٌ من الأعداد، وهذه الأعداد لها خواصٌ واتصالٌ بالأفلاك والنجوم السماوية، وبالتالي فإنَّه إذا جاء أحد هؤلاء إنسان يسأل عن شيءٍ ما متى سيكون؟ "متى سيحصل كذا؟ متى سيموت فلان؟ متى سيولد قائد كذا؟ متى تنتهي الحياة؟" إلى آخره، فيأتون فيذكرون هذه الحروف بكميات، يعني يسألون عن الاسم مثلاً، يسألون عن اسمه أو نحو ذلك، يأخذون هذه الحروف ويجعلون مقابلها الأعداد المعلومة عندهم، فيجعلونها في جدول، ثم يقومون بطريقة حسابية، إما بطريقه مائلة أو بطريقة مستقيمة أو بطريقة معترضة، يقسمون ويطرحون ويجمعون بكيفية معلومة وفيها كُتب مؤلفة مع الأسف الشديد في هذا، ثم بعد ذلك يخْلُصون إلى

نتيجة، أنه سيكون كذا وكذا. ولا شك ولا ريب أن هذا من الكهانة المنكرة التي فيها ادِّعاء علم الغيب الذي استأثر الله عَزَّوَجَلَّ بعلمه، ولا شك أن هذا كفرٌ بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ. (٤٥٤).

أما الاستعمال الجائز: فهو استعمال هذه الحروف الأبجدية في نحو التقسيم أو ذكر الفقرات، يقال: ألف كذا، باء كذا، كما يستعمله الباحثون وطلاب العلم.

أو استعمال ذلك فيما يسمى «حساب الجُمَل»؛ وذلك أن كثيرًا من أهل العلم يستعمل هذه الطريقة إذا أراد أن يضبط تاريخًا أو يضبط شيء من الأشياء، كلمة أو نحوها يضبطها، أو جملة يضبطها بهذه الطريقة من أجل تسهيل الحفظ لا غير.

وطريقة حساب الجمل هي: أنهم يجعلون مقابل كل حرف من هذه الحروف الأبجدية رقمًا، ألف يقابلها واحد، باء يقابلها اثنان، وهكذا إلى عشرة، ثم الحرف الحادي عشر يكون عشرين ثم ثلاثين أربعين خمسين، المهم إلى أن ينتهي الأمر إلى الألْف، تنتهي كمية هذه الحروف عند الألف، ثم بعد ذلك يأتي من يريد -كما ترى في بعض النظم- يريد أن يؤرخ التاريخ الذي انتهى فيه هذا النظم أو عدد الأبيات، فيجعل الحروف التي في أوائل كلمات البيت أو كلمة

(٤٥٤) وأشهر الذين يتعاطون علم الحرف هم الرافضة؛ فالرافضة -قبَّحهم الله- لهم عناية كبيرة بهذا الأمر، ويفترون أشد الافتراء حينما ينسبون هذا إلى بعض آل بيت النبي ﷺ، وهم كذبه، وحاشاهم من ذلك.

منها بالذات الحروف يجمعها في كلمة معينة، فأنت إذا جعلت مقابلًا لكل حرف منها العدد الذي يقابلها فإنك تستخلص حينئذ هذا التاريخ.

على كل حال هي طريقة كانت مشهورة في السابق، وهي الآن قليلٌ من يستعملها، مثل هذا لا شك أنه جائز ولا بأس به[٤٥٥].

الخلاصة من هذا الدرس: أنَّ موضوع ادعاء علم الغيب والكَهَانة وما يرجع إليها بليةٌ كبرى في هذا العصر، لا سيما مع هذه الوسائل الحديثة في التواصل، فإنها قد قرَّبت البعيد مع الأسف الشديد، كثيرٌ من الشباب والفتيات يخوضون غمار هذه الأشياء التي تعود عليهم بالشر الوبيل، كم تلك المواقع التي يعج بها هذا النظام أو هذه الشبكة الإنترنت؛ "حظك معنا"، أو "حظك في برجك"، أو تلك المجلات التي في أخرها الأبراج يذكرون فيها ما يذكرون من سعود أو نحوس، "أنتَ مولود في أي برج؟ أنت في برج الجدي! إذًا ستفوز بجائزة مالية هذا الأسبوع، ستقابل صديقًا، ستفارق من تحب"[٤٥٦] إلى غير ذلك مع الأسف الشديد.

---

(٤٥٥) على كل حال مثل هذا الاستعمال لا شكَّ أنه غير مقصود ولا مراد لابن عباس ﭬ ولا لغيره من أهل العلم. وإخباره ﭬ أنه «**ليس له من خلاق**» ظاهر هذا أنه يرى كفر من يدّعي ذلك، ولا شكَّ أن هذا واضح؛ أن من يدّعي علم الغيب بهذه الأسباب الكاذبة لا شكَّ أنه كافر بالله ﷻ.

(٤٥٦) سبحان الله! ﴿قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ﴾ [النمل:٦٥]، ويُخشى على من ينظر في هذه البروج مجرّد نظر كما يقولون لحبّ

مواقع كثيرة انتشرت وفشت والوصل إليها من أسهل ما يكون؛ بضغطة زر، موقع الشيخ الروحاني فلان، موقع الشيخة الروحانية أم فلان؛ "ماذا تريد؟ بين يديك، اطلب وتمنى، تريد معرفة الغيب؟ تريد جلب حبيب؟ تريد تحصيل مال؟ ما عليك إلا أن تتواصل معنا ونحن نوصلك إلى ما تريد" ، أصبح هذا الأمر أمرًا كثيرًا وفاشيًا، ومن لا علم عنده ولا معرفة ومن ضعُف إيمانه يتساهل في مثل هذا الأمر.

على من شرح الله صدره ونوَّر بصيرته وآتاه علمًا أن يقوم بواجب النصيحة والبيان، وأن يبيِّن للناس ومن حوله من أسرة وقرابة، أنَّ هذا الأمر مجازفة وتلاعب بأغلى ما يملك الإنسان وهو دينه، فحذارِ يا عبد الله.

والله أعلم.



الاستطلاع يُخشى عليه أن يدخل في قوله ﷺ: «لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ يَوْمًا»، وعيد عظيم حَرِيٌّ أن يجعل الإنسان وجلًا خائفًا من مثل هذه التصرفات.

قال المصنف رحمه الله:

٢٧-بَابُ
مَا جَاءَ فِي النُّشْرَةِ

عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ سُئِلَ عَنِ النُّشْرَةِ، فَقَالَ: «هِيَ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ». رَوَاهُ أَحْمَدُ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ وَأَبُو دَاوُدَ، وَقَالَ: سُئِلَ أَحْمَدُ عَنْهَا؛ فَقَالَ: ابْنُ مَسْعُودٍ يَكْرَهُ هذا كُلَّهُ.

وَفِي الْبُخَارِيِّ عَنْ قَتَادَةَ؛ قُلْتُ لِابْنِ الْمُسَيَّبِ: رَجُلٌ بِهِ طِبٌّ أَوْ يُؤَخَّذُ عَنِ امْرَأَتِهِ؛ أَيُحَلُّ عَنْهُ أَوْ يُنَشَّرُ؟، قَالَ: «لَا بَأْسَ بِهِ، إِنَّمَا يُرِيدُونَ بِهِ الإِصْلَاحَ، فَأَمَّا مَا يَنْفَعُ فَلَمْ يُنْهَ عَنْهُ». انتهى.

وَرُوِيَ عَنِ الْحَسَنِ أَنَّهُ قَالَ: «لَا يَحُلُّ السِّحْرَ إِلَّا سَاحِرٌ».

قَالَ ابْنُ القَيِّمِ: «النُّشْرَةُ: حَلُّ السِّحْرِ عَنِ الْمَسْحُورِ، وَهِيَ نَوْعَانِ:

أَحَدُهُمَا: حَلٌّ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ، وَهُوَ الَّذِي مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ، وَعَلَيْهِ يُحْمَلُ قَوْلُ الْحَسَنِ، فَيَتَقَرَّبُ النَّاشِرُ وَالْمُنْتَشِرُ إِلَى الشَّيْطَانِ بِمَا يُحِبُّ؛ فَيُبْطِلُ عَمَلَهُ عَنِ الْمَسْحُورِ.

وَالثَّانِي: النُّشْرَةُ بِالرُّقْيَةِ، وَالتَّعَوُّذَاتِ، وَالدَّعَوَاتِ، وَالأَدْوِيَةِ الْمُبَاحَةِ؛ فَهَذَا جَائِزٌ».



هذا الباب «باب النُشرة»؛ وقد ناسب بعد أن تكلم المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن السحر وبعض أنواعه وما يقرُب منه وهو الكهانة؛ أن يعقد هذا الباب الذي جعل موضوعه «النُّشرة».

والنُّشرة: حلُّ السحر عن المسحور وعلاج من أصابه مسٌ أو جنون.

سُميت النشرة بذلك: لأنها تَنْشُر عن المصاب ما خامره من داء؛ يعني كأنها ترفع وتحُلُ ما عقده الساحر، فلأجل هذا سُميت نُشرةً.

والنُشرة فصل الخطاب فيها ما ذكره ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ من الكلام الذي سمعته وهو مدونٌ في كتابه «أعلام الموقعين»، وذلكم أن حكم النُشرة فيه تفصيل، الشخص الذي أُصيب -عافاني الله وإياكم من ذلك- بسحر أو مس أو جنون مداواته وعلاجه هو ما يُسمى بالنُشرة، **والحكم فيها فيه تفصيل**.

فالنشرة تنقسم إلى: نشرة ممنوعة، ونشرة غير ممنوعة.

أما غير الممنوعة فإنها تنقسم إلى قسمين:

- **القسم الأول: النشرة المستحبة**[٤٥٧]؛ وهي التي يكون فيها العلاج بآيات الكتاب وأذكار وأدعية النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وما فيه أسماء الله وصفاته، ومضى معنا ما يتعلق بالرقية الشرعية. ويدخل في هذا أيضًا ما جاء عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الأدوية الناجعة لهذه الأمور، فمن ذلك:

-التصبح بسبع تمرات عجوة، وجاء هذا الحديث في الصحيحين مطلقًا؛ «من تصبَّح بسبع تمرات عجوة لم يصبه في ذلك اليوم سمٌ ولا سحر»، وجاء عند مسلم: «من تصبَّح بسبع تمرات مما بين لابتيها» يعني من عجوة المدينة، اللابتان: الحرَّتان واقم والوبرة، يعني الشرقية والغربية. المقصود أن تكون من

---

(٤٥٧) وهي التي تكون بالرُقية الشرعية؛ كالمعوّذات، فإنَّ جبريل عليه السلام نزل بالمعوّذات يوم أن سُحِرَ النبي ﷺ ورَقَى بها النبي ﷺ وما كان السحر فيه.

عجوة المدينة فهذا أبلغ في الشفاء، أخبر النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنَّ «من تصبح» يعني أكل على الريق كما يقولون «لم يصبه في ذلك اليوم سمٌّ ولا سحر» .

-كذلك من هذه الأدوية النبوية: اغتسال من أُصيب بعين بغُسالة العائن، إذا عُلم العائن الذي أصاب بعينه إنسانًا فإنَّه يُؤمر بأن يغتسل وأن يغسل داخلة إزارهِ؛ يعني ملابسه التي لامست جسده -الملابس الداخلية- ثم إذا غُسلت غُسل بهذه الغسالة التي تبقى في الإناء يغتسل بها من أصيب بهذه العين، فإنه يبرأ إن شاء الله.

إذًا ما ثبت من أدوية شرعية فإنَّه يعتبر من النُشرة المستحبة.

➢ **أمَّا القسم الثاني وهو النشرة الجائزة** فيكون الاستطباب في شأن هذه الأدواء بشيء لم يرِد؛ **لكنَّ ضابطه**: أن يكون بما لا محذور فيه وأن يُعلم نفعه بالتجربة[٤٥٨] .

إذًا عندنا أمران: تُستعمل أدويةٌ لا محذور فيها، يعني ليس فيها محذور من جهة الشرع ، وثبت بالتجربة نفع ذلك؛ فهذا لا بأس به وهو من جنس الطب، والأصل في التطبب الجواز.

والغالب على هذا النوع أن يكون باغتسالٍ على هيئة مخصوصة كما عرَّف ذلك -أعني النُشرة- كثير من أهل العلم، من ذلك قول يحيى بن سعيد وقد خرجه ابن عبد البر في التمهيد: «ليس في نشرة الإنسان بما يُجمع من نبات

---

(٤٥٨) كأن تُخصَّصَ آياتٌ من القرآن، أو تُستعمل أدوية مباحة، وهذا الذي رخَّص فيه جمع من السلف كما سيأتي بعد قليل إن شاء الله.

وطِيبٍ فيغتسل به من بأس»، كذلك عرَّف النشرة القاضي عياض في المشارق وكذلك الحافظ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مقدمة الفتح بأن النشرة: (تطبُّبٌ باغتسال على هيئة مخصوصة عُلمت بالتجربة)، فمثل هذا لا بأس به وسيأتي إن شاء الله ذكر أمثله له.

أقول الغالب على النُشرة الجائزة أن تكون من هذا الجنس، وإذا تأملت في كلام كثير من العلماء وجدته يدور على هذا المعنى، ولأجل هذا الاشتراك الحاصل في معنى النُشرة حصل الالتباس في شأن النُشرة، فظن من ظن أنَّ النشرة هي بكل حال في كلام العلماء حل السحر بسحرٍ مثله(٤٥٩)، فأجازوا حل السحر بسحر، ولا شك أن هذا منكر ومحرم بل شديد التحريم ولا يجوز بحال(٤٦٠).

وهذه مسألة كثُر فيها اللبس والخوض من بعض المعاصرين، وبعضهم حمل لواء القول بجواز هذا الأمر، وهو أن يُلجأ إلى ساحر لأجل أن يفك السحر بسحر آخر، هذه مسألة فيها التباس وفيها خلطٌ وخبطٌ كثير.

ولا شك أنَّ اللجوء إلى السحرة لأجل أن يسحروا سحرًا يفك سحرًا قبله لا شك أن هذا منكرٌ عظيم فلا يجوز، ويدل على هذا أمور انتبه لها:

---

(٤٥٩) بالتقرُب إلى الشياطين وبالتعاويذ الشركية وما إلى ذلك.

(٤٦٠) وهي الرُقية الممنوعة.

أولاً: ما بين أيدينا من هذا الحديث الذي هو حديث جابر رضي الله عنه **أن النبي** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **سُئل عن النشرة**[٤٦١] التي هي حل السحر **فقال**: «**هو من عمل الشيطان**» هكذا في رواية أبي داوود، وعند أحمد «من عمل الشيطان»؛ هو من عمل الشيطان: يعني هذا الفعل وهو حل السحر بمثله من عمل الشيطان؛ ولا شك أن في هذا تحذيرًا بليغًا وتنصيصًا على التحريم، وأن حل السحر بسحر مثله أمرٌ منكر ولا يجوز شرعًا. وهذا الحديث الذي بين أيدينا حديثٌ صحيح، جوَّد إسناده ابن مفلح وحسَّنه الحافظ، وهو أعلى من الحسن كما نص على هذا الشيخ ناصر رَحِمَهُ اللَّهُ في السلسلة، واستدرك على الحافظ قال: (بل هو صحيح، رجاله رجال الصحيحين إلا عقيل بن معقل وهو رجلٌ ثقة)، فالحديث صحيح ثابت عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ثانيًا: أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال -وهذا قد مر بنا في حديث عمران في الباب الفائت- قال: «**ليس منا من تكهن أو تُكهن له، أو سحر أو سُحر له**»؛ وهذا الحديث كما قد علمتَ حديث حسن جيد خرجه البزار والطبراني وغيرهما،

(٤٦١) و(ال) في (**النُّشْرَةِ**) عهدية، أي هي النُّشْرة المعْهودة لدى المشركين والتي كان فيها اللّجوء إلى السحرة .

والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا قال في أمرٍ (ليس منا من فعله) هذا دليل على أنه محرمٌ بالغ التحريم[٤٦٢].

ثالثًا: أنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد قال: «**إن الرُقى والتمائم والتولة شركٌ**»؛ وهذا الحديث قد مر بنا قبل أبواب وعلِمنا أنَّ مراد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله «إن الرقى شرك»: يعني الرقى الشركية[٤٦٣]، ولا شك أن هذه النُشرة السحرية هي من جنس الرقى الشركية أو مقيسةٌ عليها، فهي بكل حال داخلة في هذا الحديث.

رابعًا: قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اجتنبوا السبع الموبقات: الشرك بالله، والسحر**» إلى آخر الحديث؛ هاهنا أمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ باجتناب السحر مطلقًا، ولم يفصِّل بين حال وحال، لم يقل إلا في حال فك السحر إنما أمر باجتنابٍ مطلق، فوجب على الإنسان أن يستجيب لأمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

---

(٤٦٢) فالنبي ﷺ بيَّن في هذا الحديث أنَّ السحر فعلًا له أو سحَر وكذلك أن يُسحَر من أجل الإنسان كلّ ذلك أمر محرم، ولم يستثنِ النبي ﷺ سحرًا دون سحر أو حالًا دون حال، فدلَّ على أن حلّ السحر بمثله محرم لا يجوز.

(٤٦٣) قال عليه الصلاة والسلام كما في مسلم: «اعرضوا عليَّ رُقاكُم؛ لا بأس بالرُقى ما لم يكن فيها شركٌ»

خامسًا: ما ثبت عن ابن مسعود ومر بنا غير مرة من قوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**من أتى عرافًا أو ساحرًا أو كاهنًا فسأله فصدقه بما يقول فقد كفر بما أُنزل على محمد** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»، وقلنا إنَّه أثرٌ له حكم الرفع، فمثله لا يقال باجتهاد[٤٦٤].

سادسًا: ما ثبت عن جمعٍ من الصحابة فمن بعدهم من النَّهي عن هذه النُشرة، ومن ذلك ما قد سمعت قبل قليل من كراهة ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لذلك، وأنتَ خبير بأن مصطلح الكراهة الغالب في استعمال السلف أن يراد به التحريم، كذلك ثبت في مصنف عبد الرزاق عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه سُئل عن النشرة فقال: «**هي من عمل الشيطان**»، حدَّثَ من قوله بما حدّثَ به من روايته، فهو روايته ورأيه أيضًا. كما ثبت أيضًا عند أبي شيبه بإسناد صحيح عن إبراهيم النخعي قال: «كانوا -والمراد أصحاب ابن مسعود- يكرهون الرقى والتمائم والنَّشْر»[٤٦٥]. فهذا كله مما يؤيد ويعضد القول بأن هذه النُشرة السحرية منكر ولا يجوز، ومن ذلك أيضًا الأثر الذي عن الحسن وقد سمعته «لا يحل السحر إلا ساحر»، كذلك سئُل كما في المصنف عن النشُرة فقال: «**هي من السحر**» أو قال

---

(٤٦٤)ولم يستثنِ ابن مسعود رضي الله عنه من ذلك كون الإنسان يأتي فيسأل هذا الساحر لأجل أن يفكّ السحر.

(٤٦٥)فهؤلاء أصحاب ابن مسعود أئمةٌ أعلام أجلاء كانوا يكرهون النَّشْر، وقطعًا لم يريدوا أن يتنشَّر الإنسان بآيات الكتاب وبالرُقى الشرعية؛ فإنَّ هذا غير داخل ولا يُظنّ فيهم البتَّة.

«**هي سحر**»، كذلك ما ثبت من الكراهة عن الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ كذلك ما جاء عن مجاهد وغيرهم من السلف رحمه الله تعالى عليهم.

سابعًا: أن الله تعالى قد نهى عن الجلوس في المجالس التي فيها كفرٌ ومنكر، ولا شك أن مجالس السحرة هي من أوائل ما يدخل في ذلك، ألم يقل الله جل وعلا: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾[النساء:١٤٠]، فلا شك أن حضور الإنسان مجلس السحرة منكرٌ من أصله، حتى لو حضره غير طالب ولا سائل(٤٦٦).

ثامنًا: أنَّ القول بجواز حل السحر بسحر مثله، نقل الإجماع على المنع منه شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما هو في الجزء التاسع عشر في حدود صحيفة إحدى وستين من مجموع الفتاوى، حيث قال: «إنَّ المسلمين وإن اختلفوا في التداوي بالمحرمات كالميتة والخنزير، إلا أنَّهم لا يتنازعون في أنه لا يجوز التداوي بالشرك والكفر»، والسحر ولا شك أنَّه شرك وكفر؛ فدل هذا على أنَّ هذا الأمر منكر لا يجوز بالإجماع الذي نقله شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

تاسعًا أن يقال: إنَّ القول بجواز فك السحر بفعل ساحر أنه يتناقض مع ما مر بنا من إجماع الصحابة على قتل كل ساحر وساحرة، مر بنا أنَّ هذا قول ستة

---

(٤٦٦) فدلَّ هذا على أن قُربان مجالس السحرة أمرٌ منكرٌ لا يجوز.

من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ورَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ولم يأتِ عن غيرهم ما يخالف قولهم، وبعث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى عُمَّاله «أن اقتلوا كل ساحر وساحرة»، فكيف يا ترى سيُقال "اقتلوا كل ساحر" ثم يُقال اذهبوا إلى السحرة فسلوهم أن يفكوا عن المحتاجين والمصابين والمتضررين السحر!! أليس هذا تناقضًا؟ القول بجواز ذلك يقتضي الإبقاء على السحرة أو الإبقاء على بعضهم ضرورةً، وإلا كيف يمكن اللجوء إليهم؟! فدل هذا على أن هذا القول منكر ولا يجوز، لمناقضته ما ثبت بالإجماع بفعل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وقولهم.

عاشرًا أن يُقال: إنَّ هذا القول ذريعة لبقاء السحر وانتشاره(٤٦٧)؛ فإنَّه إذا عُرف ساحر يتعامل بالسحر ويتمتم بالعزائم والرقى الشركية ويستغيث بالجن والشياطين، إذا أُمسك لأجل أن يقام فيه حدُّ الله فإنه سيقول: "مهلاً، انتظروا -هداكم الله- أنا ساحر طيب، أنا ساحر أقوم بوظيفة جليلة وهي أني أساعد المحتاجين، فليس لكم أن تتناولوني بضرر، بل ينبغي أن تكرموني"، ربما يُطالب بأن يُجرى له مرتبٌ شهري بل وأن تُفتح المعاهد له يدرِّس فيها هذا العمل الجليل، وتحت هذه المظلة يمُرر ما شاء من هذه الشعوذات وهذه المنكرات العظمى، فلا شك أن هذا القول يترتب عليه ما يترتب من مفاسد ، وسد الذرائع أصلٌ شرعي قامت عليه دلائل كثيرة في الكتاب والسنة.

---

(٤٦٧) فسيَجِد السحرة متنفسًا تحت هذا القول، وسيكون لهم غطاءً لأجل أن يتمادوا في باطلهم، وحُجتهم واضحة: "نحن نعم نتعامل بالسحر ولكنَّا نريد الخير، ولكننا نحلّ السحر عن المسحورين".

هذه عشرة كاملة تدلك على أن القول بجواز حل السحر بسحر مثله منكر ومحرم ولا يجوز بحال. فإياك أن تغتر بمن ينادي بخلاف ذلك.

قد يقول قائل: وما الذي استدل به من أجاز هذا من أدلة؟

فالجواب على هذا أن يقال: إن أقوى ما اسُتدل به على هذا القول أمران:

- **أولًا:** الضرورة؛ قالوا إنَّ حل السحر بمثله منكر ومحرم ونتفق معكم على ذلك، ولكن الضرورة تُلجئنا إليه ماذا نصنع؟ هو كأكل الميتة، الميتة محرمة ويجوز عند الاضطرار تناولها، قول كلمة الكفر أمرٌ محرم وعند الضرورة يجوز النطق بها، فلنجعل ذهابنا إلى السحرة واستعانتنا بعملهم من هذا الجنس، تدعو إليه الضرورة، والضرورات تبيح المحظورات.

- **الاستدلال الثاني:** بأثر سعيد بن المسيب رَحِمَهُ ٱللَّهُ وقد سمعته وهو أنه قد سُئل عن الرجل به طب، طب يعني سحر، كلمة طب من الأضداد، فالداء طب والدواء طب، كأن العرب تفاءلوا من هذا اللفظ بحصول الشفاء بعد وقوعه. المهم أنه سُئل عن رجل به طب أي سحر أو يُؤَخَّذ عن امرأته -يعني يُحبس عن إتيانها وجماعها- فهل يحل عنه أو يُنَشَّر؟ فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا بأس بذلك إنما يريدون به الإصلاح أو النفع» أو كما قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ. وهذا الأثر قد علقه الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ ووصله غيره كابن عبد البر في التمهيد بإسناد صحيح، وجاء عند ابن عبد البر بلفظ قريب: «سُئل عن الرجل به سحر أو يؤَخَّذ عن امرأته فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنما نُهيَ عما يضر، وأما ما ينفع فلم يُنهَ عنه»، قالوا: هذا سعيد بن المسيب تابعيٌ فقيهٌ جليل قال بجواز هذا الأمر، إذًا هذا دليل على الجواز.

والجواب عن هذين الاستدلالين فيما يأتي:

ﮱ أولاً: الجواب عن الاستدلال بالضرورة(٤٦٨) :

الوجه الأول نقول: إنه لا يُسلَّم أن كل إصابة بالسحر تقتضي الاضطرار، بخلاف حال الجائع الذي لو لم يأكل لتحقق هلاكه، لكن يمكن أن يكون مسحورًا وكثيرٌ من الناس -نسأل الله السلامة والعافية لنا ولهم- أصيبوا بسحر نالهم فيه ما نالهم من مشقة ولكنهم أحياء ويعيشون، إذًا أصبح هاهنا قياس مع الفارق.

الوجه الثاني أن يُقال: لا يُسَلَّم بصحة هذا القياس؛ أن نقيس النُشرة على أكل الميتة لِمَ؟ لأنَّ العلماء متفقون على أنه متى ما أمكن الاستغناء بالحلال عن الحرام في دفع الضرورة فلا يجوز حينئذٍ اللجوء إلى الحرام، أرأيت إنسان أوشك على الهلاك فوجد لحمين، أحد اللحميين ميتة والآخر لحم مذكًى، أيجوز أن يقول أحد أنه يجوز أن يأكل من الميتة؛ لأنه مضطر؟ لا يجوز، لِمَ؟ لوجود مندوحة عن الحرام وهو الحلال.

والسؤال: هل يوجد مندوحة من الحلال في شفاء هذا المريض بهذا الداء العضال؟ الجواب: أي والله الجواب في قول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ﴾[الإسراء:٨٢]، في التعاويذ والرقى النبوية، في اللجوء إلى الله ﷻ بصدق، في ذلك مندوحة عن هذا الأمر المنكر، وفي النقل السابق الذي

(٤٦٨) فإنَّه منقوض من أوجه .

ذكرته لك عن شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ كلمة لطيفة قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقد أغنى الله المؤمنين بما أنزل عليهم عن الشرك وأهله).

إنما المصيبة عند كثير من الناس من الاستعجال أو ضعف اليقين، وإلا لو كان اليقين عند الرقية بكتاب الله يقينًا صادقًا كاملاً فليبشر الإنسان بالشفاء فإن وعد الله لا يتخلف، لكنَّ المصيبة أن من الناس من يرقي بالقرآن نفسه أو غيره على سبيل التجربة "دعنا نجرب لعله ينفع" ، أو وهو متردد، عنده ثقة ويقين بحبة الدواء أو بما هو منكر كتميمة شركية أو تعازيم تأتيه من السحرة، أكثر من ثقته ويقينه بكلام الله جَلَّ وَعَلَا، ومن هاهنا يؤتى الإنسان. الرقية بكتاب الله بالأدعية الثابتة الرقية الشرعية -كما قد علمنا سابقًا- سيف، والسيف بضاربه، سيفٌ ماضٍ قوي؛ ولكن إذا كان اليد التي تحمل هذا السيف ضعيفة أيقتل هذا السيف ويصيب؟ لا.

إذًا لا بد من صدق الراقي، ويقين المرقي، وصحة المرقي به؛ إن اجتمعت هذه الأمور الثلاثة فبإذن الله الشفاء حاصل -انتبه لها- صدق الراقي، ويقين المرقي، وصحة المرقي به.

إذًا نحن لا نُسلِّم بأن الاضطرار وأحكامه شيء يمكن تنزيله على هذه الصورة لوجود المخرج الشرعي.

الوجه الثالث: أن يُقال إنَّ الذهاب إلى السحرة لأجل أن يعقدوا سحرًا يحُل سحرًا آخر، مفسدةٌ متحققَة في سبيل مصلحة موهومة، وهذا بخلاف حال من كاد أو يكاد أن يموت من الجوع، فإنَّ أخذه وتناوله من الميتة يتحقق به بإذن

الله دفع الاضطرار، وليس كذلك هذه الصورة التي بين أيدينا؛ الإتيان إلى السحرة والتعامل معهم مفسدة متحققة فيها انتهاك للأدلة السالفة، هذا أمرٌ مُحقق، أما الثمرة والمصلحة فإنها موهومة، لِمَ؟ من الذي يضمن أن فعل هذا الساحر لا بد وأن يأتي بنتيجة نافعة؟! السحرة متفاوتون، ربما يحاول هذا الساحر أن يحُل هذا السحر ولكنه لا يصنع شيئًا ولا يفعل ذلك؛ لأن سحر الساحر الآخر أقوى منه وشيطانه أقوى من شيطانه، وبالتالي فإنه لا يمكنه أن يصنع شيئًا، وكم جرَّب هؤلاء الذين ضَعُف إيمانهم فذهبوا إلى هؤلاء، كم جربوا وما انتفعوا. إذًا هي مصلحة متوهمة وليست متحققة.

الوجه الرابع: يُسأل هذا الذي يجيز حل السحر بسحر آخر؛ أأنت ضامنٌ أن هذا الساحر الذي لجأت إليه سوف يسعى في نفعك؟ أفيه من التقوى والصلاح والصدق ما يجعلك تثق به؟ أليسوا أهل فجور وكذب؟ أليسوا ممن تتنزل عليهم الشياطين؟ فهم أفَّاكون كذابون، ما يدريك يا عبد الله؛ ربما يماطلك يريد أن يتطاول الزمان وهو ما يصنع شيئًا لأجل أن يأكل مالك، وهم أكلة للمال بالباطل، وما يدريك لعله يسعى في حل هذا السحر وفي نفس الوقت يعقد سحرًا آخر حتى تكون على ارتباط به دائم. إذًا أين هذا من تناول الإنسان لميتة يتحقق بهذا الأكل بإذن الله عَزَّوَجَلَّ دفع المفسدة.

الوجه الخامس يتعلق بالنطق بكلمة الكفر: هل أُبيح النطق بكلمة الكفر مطلقًا أو بقيد؟ انظر ماذا قال الله عَزَّوَجَلَّ في هذا الشأن: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾[النحل:١٠٦]، لا بد ويجب أن يكون

قلب هذا الإنسان الذي نطق بكلمة الكفر يدفع عن نفسه القتل، أن يكون قلبه مطمئنًا بالإيمان. **والسؤال**: هل هذا الأمر متحقق في ذهاب الإنسان إلى الساحر ليحل عنه السحر؟! **الجواب**: أن الواقع يُنبئ أن الذهاب إليه مما يضعضع الإيمان وربما يزيله، يأتيه هذا المسكين المسحور وهو محطمُ القلب مكسور الفؤاد مهزول النفس، يسأله ويستلطفه أن يدفع عنه هذا الأذى الذي أصابه، فيكلمه الساحر باستعلاء ويزين له أنه سيحل عنه فعلا وسيفعل وسيفعل، وربما أمره بالشرك بالله عَزَّوَجَلَّ فأطاعه، وما أكثر أولئك! ذهبوا إلى هؤلاء السحرة فأمَروهم أن يذبحوا خروفًا أسود أو ديكًا أسود، وربما أمَرَه بل شدد عليه ألا يُذكر اسم الله عند الذبح، بل ربما أمره أن يذكر اسم جنٍّ من الجن أو شيطانًا من الشياطين، فانظر كيف كان الذهاب إليهم ذريعةً إلى فقد الإيمان، فانتفى أو يكاد هاهنا الشرط الذي بيَّنه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في حال الاضطرار: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾[النحل:١٠٦].

إذًا هذه أوجه خمسة تبين لك أن القول بقياس هذه المسألة على حالة الاضطرار من حيث جواز الأكل من الميتة أو نطق كلمة الكفر، أن هذا قياس ليس بصحيح.

❁ أما الاستدلال بأثر سعيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ فإنه أضعف وأضعف، ويتبين لك هذا من وجوه:

الوجه الأول: أن أثر سعيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ -مع جلالة قدره- ليس بحجة في نفسه؛ هو قول عالمٍ من العلماء وإمام من الأئمة، نعم، ولكنه ليس بحجة[٤٦٩]، وكلام أهل العلم يُستدل له وليس يُستدل به[٤٧٠].

الوجه الثاني: كلامه في نفسه ليس بحجة، فكيف وقد عارضه من هو مثله وفي مرتبته؟! إذا قال المبيح: قال سعيد؛ قلنا: قال الحسن؛ رجل في مقابل رجل، وعالم في مقابل عالم، إذًا لماذا كلامه حجة وليس كلام المانع حجة؟

الوجه الثالث: كلامه ليس بحجة وعارضه من هو مثله بل من هو أكثر منه، كما ذكرت لك قبل قليل، هذا الحسن وهذا مجاهد وهذا أحمد وهؤلاء أصحاب ابن مسعود، بل هذا ابن مسعود وهذا جابر وغيرهم كثير، فهم أكثر منه، واحد يقابله جمعٌ فقولهم أقرب للصواب ولا شك.

---

(٤٦٩) فهبْ أن سعيدًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ ورضي عنه أباح النشْرة السحرية، فإن كلامه في حدّ ذاته ليس بحُجَّة حتى تحتجَّ به.

(٤٧٠)وأضعف من ذلك ما يقوله بعض هؤلاء المُبيحين: "يكفينا أن المسألة خلافية، ولا إنكار في مسائل الخلاف"، وهذا قولٌ باطل بإطلاقه، أفي هذا آية من كتاب الله؟ أو حديث عن رسول الله ﷺ أن المسألة إذا وقع فيها خلاف لا يجوز الإنكار فيها! أنّى هذا وقد قال الله ﷻ: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللهِ﴾ [الشورى:١٠]، ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء:٥٩]، فهذه القاعدة التي تُطلق ليست صحيحة على إطلاقها قطعًا.

الوجه الرابع: أن يُقال ليس كلامه حجة فكيف وقد عارضه من هو مثله، بل أكثر منه، بل من هو أفضل منه! هؤلاء أصحاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ابن مسعود وجابر ينهون عن هذا الأمر ويقولون من عمل الشيطان ويكرهونه، فكيف يكون كلامه حجة؟

الوجه الخامس: أن كلام سعيد في نفسه ليس بحجة وعارضه من هو مثله أو أكثر منه أو أفضل منه، فكيف وقد عارض سنة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟! أيكون حجةً بعد ذلك؟[(٤٧١)]

الوجه السادس: [(٤٧٢)] أنه ما جاء عن سعيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ حرفٌ واحد في أنه أراد النُشرة بفعل ساحر، ما أراد النشرة السحرية، ومن قال بخلاف ذلك فعليه الدليل، يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما عند ابن عبد البر: (إنما نهى عما يضر وأما ما ينفع فلم يُنهَ عنه)، والسؤال: هل السحر يضر أم لا يضر؟ أيضر أديان الناس، أيضر إيمانهم أم لا؟ أي والله يضر. إذًا ليس داخلاً في كلام سعيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ قطعًا.

---

(٤٧١) وقد مرَّت بك النُّصوص التي تدل على أنَّ هذا الكلام غير صحيح، والواجب أن ينصاع المسلم إلى النُّصوص، النبي ﷺ ينهى عن السحر بكل أوجهه، ويأمر باجتنابه بكل حال، ويتوعَّد على هذا بأنَّ من سُحِرَ له ليس منا، ويُبيّن أن هذا من عمل الشيطان، ندَعُ كل هذا ونأخذ بكلام سعيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ؟! هذا لا يقوله أهل العلم قط.

(٤٧٢)كلّ ما مضى إنَّما هو على تسليم أنَّ سعيدًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ أراد النُّشْرة السحرية، معَ أنَّه لم يثبت عنه حرفٌ واحد يدل على أنه أراد هذا النوع من النُّشْرة.

الوجه السابع: أن يُقال أضعف الإيمان أنَّ كلام سعيد يحتمل؛ يحتمل أنه أراد النُشرة الجائزة، ويُحتمل أنه أراد الُنشرة السحرية، ومع الاحتمال يبطل الاستدلال.

الوجه الثامن: وهو أن يُقال إنَّ حمل كلام سعيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ على أنه أراد النشرة الجائزة أولى، **لِم؟ لأمرين**:

الأمر الأول: لأنَّ هذا ما يقتضيه إحسان الظن به رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، وإذا كان إحسان الظن بآحاد المؤمنين شيئًا مطلوبًا فكيف بهذا الإمام الجليل؟ وكل من عرف حال السلف فإنه يقطع بأنهم من أبعد ما يكونون عن أن يبيحوا هذا النوع من المنكر الذي يترتب عليه مفاسد لا تُحصى(٤٧٣) .

والأمر الثاني: أن حمل كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ على ما يوافق كلام غيره من السلف أولى من حمله على ما يخالف كلامهم، وقد ذكرتُ لك أن النُشرة عند جمع من السلف يراد بها التطبب بما لا محذور فيه مما ثبت بالتجربة نفعه، والغالب أنه يدور على الاغتسال بهيئةٍ مخصوصة.

من أمثلة ذلك: ما جاء عن ليث بن أبي سُليم رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه وصف في علاج السحر أن يُؤتى بماء فيقرأ عليه آيات السحر، نحو قوله تعالى: ﴿قَالَ مُوسَى مَا

(٤٧٣)ومن عرف حال السّلف لاسيَّما من كان منهم مُقدَّمًا في العلم والعمل كسعيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ يستبعد أشدّ الاستبعاد أن يُبيح لمسلمٍ أن يلجأ إلى ساحر ليأمره أن يكفر بالله لأجل أن يفكّ عنه السحر.

جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللهَ سَيُبْطِلُهُ﴾[يونس:٨١] إلى غير ذلك، ثم ينفث بهذه الآيات في الماء ثم يشرب منه ويغتسل؛ فإنه ينتفع بذلك إن شاء الله.

أو يكون بما قال الشعبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ لا بأس بالنشرة العربية، ووصف هذا رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأنه يخرج إلى عِضَاه -يعني شجر له شوك صغير- فيأخذ من ذات اليمين ويأخذ من ذات الشمال من كل الشجر ثم يضعه في إناء ويصبُّ فيه الماء ويقرأ عليه ثم يغتسل منه، فإنه ينفع في فك السحر.

كذلك ما جاء عن وهب بن منبه رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه أمر بأن يؤخذ سبع ورقات من السدر فتدق بين حجرين ثم يصب عليها الماء في إناء ثم يُقرأ عليه، ثم يغتسل ويشرب منه فإنه نافع في فك السحر، ولا سيما في رجل يُؤخَّذ عن امرأته.

بل جاء في كتاب الطب النبوي للمستغفري كما نقل هذا الحافظ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «الفتح» عن أحد العلماء وهو نصوح بن واصل رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه فسر النُشرة في كلام سعيد، سُئل عن هذه النشرة ماذا أراد سعيد؟ فانظر كيف فسَّر هذا الشيخ العالم الراوي هذه النُشرة، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أن يخرج إلى البساتين فيأخذ من ورده شيئًا، ثم يضعه في إناء ماء ثم يغليه أو يغلي هذا الماء تحت النار، حتى إذا فتر اغتسل منه وشرب، فإنه ينفع في فك أو في حل السحر).

هل ترى أن العلماء فهموا من أثر سعيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يذهب الإنسان إلى ساحر ليكفُر الساحر بالله وليتمتم بالعزائم الشركية لكي يستغيث بالشياطين لأجل أن يفك عنه السحر؟ أفهموا هذا؟ لا والله ما فهموا هذا[(٤٧٤)] [(٤٧٥)].

إذًا الصحيح الذي لا شك فيه: أن حل السحر بسحر مثله أمر منكر، ولا يجوز. والله تعالى أعلم.



(٤٧٤) فحمْل أثر سعيد على ما يوافق مراد السّلف بالنُّشْرة هو المُتعيّن.

(٤٧٥) **الوجه التاسع** الذي يدلك على أن سعيدًا رَحَمَهُ اللهُ لم يرد النُّشْرة السحرية: هو أن الأثر عنه لم يُقيَّد بالضرورة؛ يُسأل عن النُّشْرة رجل به طب -يعني سحر- وهذه كلمة من الأضداد، دواء الداء طب، والداء نفسه كالسحر طب، وهذا مما قاله العرب تفاؤلًا، كالذي سمّوه سليمًا، والصحراء سمَّيت مفازة وأمثال ذلك. المقصود (رجل به طب أو يُؤخَّذ عن امرأته، أو يُحل عنه أو يُنشَّر؟ قال: «لا بأس بذلك»)، ولم يُقيَّد هذا بالضرورة. وباتفاق القائلين بالجواز أن إباحة اللّجوء إلى السحرة لفكّ السحر ليس مُطلقًا وإنما هو مُقيَّد بالضرورة. فلاحِظ الآن سعيدٌ رَحَمَهُ اللهُ لم يُقيِّد الجواز بالضرورة، ولو أراد النُّشْرة السحرية لقيَّد ذلك بالضرورة كقول المُجيزين، فإنه لا يقول أحدٌ عاقل ، لا أقول من السلف بل أقول عاقل لا يقول بجواز الذهاب إلى السحرة لحل السحر مُطلقًا دون ضرورة، حتى على قول المُجيزين، فدلَّ هذا على أنَّه رَحَمَهُ اللهُ لم يُرد النُّشْرة السحرية لكونه لم يُقيِّد ذلك بالضرورة كما هو قول المُجيزين.

قال المصنف رحمه الله:

٢٨-بَابُ
مَا جَاءَ فِي التَّطَيُّرِ

وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:١٣١]. وَقَوْلُه: ﴿قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾ [يس:١٩] الآيَةَ.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَا عَدْوَى، وَلَا طِيَرَةَ، وَلَا هَامَةَ، وَلَا صَفَرَ». أَخْرَجَاهُ. زَادَ مُسْلِمٌ: «وَلَا نَوْءَ، وَلَا غُولَ».

وَلَهُمَا عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا عَدْوَى، وَلَا طِيَرَةَ، وَيُعْجِبُنِي الْفَأْلُ» قَالُوا: وَمَا الْفَأْلُ؟ قَالَ: «الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ».

وَلِأَبِي دَاوُدَ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: ذُكِرَتِ الطِّيَرَةُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «أَحْسَنُهَا: الْفَأْلُ، وَلَا تَرُدُّ مُسْلِمًا، فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ مَا يَكْرَهُ؛ فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ لَا يَأْتِي بِالْحَسَنَاتِ إِلَّا أَنْتَ، وَلَا يَدْفَعُ السَّيِّئَاتِ إِلَّا أَنْتَ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ».

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ مَرْفُوعًا: «الطِّيَرَةُ شِرْكٌ، الطِّيَرَةُ شِرْكٌ، وَمَا مِنَّا إِلَّا؛ وَلَكِنَّ اللهَ يُذْهِبُهُ بِالتَّوَكُّلِ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ، وَجَعَلَ آخِرَهُ مِنْ قَوْلِ ابْنِ مَسْعُودٍ.

وَلِأَحْمَدَ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَمْرٍو: «مَنْ رَدَّتْهُ الطِّيَرَةُ عَنْ حَاجَتِهِ؛ فَقَدْ أَشْرَكَ»، قَالُوا: فَمَا كَفَّارَةُ ذَلِكَ؟ قَالَ: «أَنْ يَقُولَ: اللَّهُمَّ لَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُكَ، وَلَا طَيْرَ إِلَّا

طَيْرُكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ».وَلَهُ مِنْ حَدِيثِ الْفَضْلِ بْنِ الْعَبَّاسِ ﵁: «إِنَّمَا الطِّيَرَةُ مَا أَمْضَاكَ أَوْ رَدَّكَ».



قال الشارح وفقه الله:

إنَّ المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد أن تكلم عن السحر وبعض أنواعه وعطف على ذلك ما يقرب منها وما يتعلق بحله، رجع إلى شيء أشار إليه في باب بيان بعض أنواع السحر وهو ما مر بنا من إخبار النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «أن العيافة والطيرة والطرق من الجبت»، وبيَّنا أن الطيرة تُشبه السحر من جهة تأثيرها على النفوس، هذا أوان الكلام عن الطيرة[٤٧٦].

الطيرة: هي التشاؤم[٤٧٧]، ومعنى ذلك: ظنٌ سيءٌ يقوم بالقلب ناشئٌ عن سببٍ متوهمٍ لا حقيقة له. هذه هي الطيرة وهذا هو التشاؤم.

المتطير يتوقع السوء بسببٍ لم يجعله الله سببا، فهو إذا رأى شيئًا أو سَمِعَ أو لاحظ شيئًا ما يتعلق بمكان أو زمان أو غير ذلك توقع السوء، والله جَلَّ وَعَلَا ما

---

(٤٧٦) وكذلك العيافة نوعٌ من الطّيرة فإنّها زجْرٌ للطير يترتّب عليه تشاؤمٌ أو تفاؤل. والمقصود أنَّ ثمَّة تشابهًا أو تقاربًا أو علاقة بين موضوع الطّيرة وموضوع السحر، ولعلَّ هذا كان هو السبب الذي جعل المؤلّف ﵀ يعقد هذا الباب في هذا الموضع. **ومناسبة الباب لكتاب التوحيد** هي: أن الطّيرة منافية لكمال التوحيد الواجب.

(٤٧٧) **والطَّيرة عرَّفها ابن الأثير** ﵀ بأنّها: التشاؤم بالشيء؛ المقصود بالتشاؤم: أن يخاف الإنسان بسبب شيء يسمعه أو شيء يراه يخاف أن لا يحصل له مقصده أو أن ينزل به مكروه، فالطَّيْرة إذًا هي التشاؤم إمَّا بمسموع أو بمرئي أو بزمان أو بمكان أو نحو ذلك.

ربط بين هذا الشيء الذي توجَّس منه وبين ما توقعه، إنَّما هو شيءٌ يقع في نفسه لا حقيقة له، فلم يجعل الله عَزَّوَجَلَّ ما يكون من سُعُودٍ أو نحوس راجعًا إلى هذه التوهمات التي يوسوس بها الشيطان ويقذفها في قلب ضعيف الإيمان.

والأصل في تسمية الطيرة يرجع إلى ما كان عليه العرب؛ فإنهم كانوا أهل ولعٍ شديد بالتشاؤم من أشياء كثيرة ولا سيما من الطير، كانوا يتشاءمون من الطير:

-من أسمائها؛ فإذا مر غراب قالوا وقعت غربة، وإذا مر عُقاب قالوا تحصل عقوبة.

-أو بألوانها؛ فإذا شاهدوا طائرًا أسودًا تشاءموا.

-أو بحركاتها وممرها؛ كما مر معنا ذلك في الزجر، وقلنا إن العيافة: زجر الطير وإثارته عن مكانه ثم تأمُّل حركته بعد ذلك، فإن جاء من جهة اليمن كان سانحًا، وإن جاء من جهة الشمال كان بارحًا، وإن جاء من جهة الأمام كان نطيحًا، وإن جاء من الخلف كان قعيدًا. فربما تشاءموا ببعض هذه الأحوال وتيمَّنوا أو سرُّوا بها، وتفاءلوا ببعضها، وربما كان العكس عند بعضهم، لكن الغالب أنهم كانوا يتشاءمون من البارح ويتفاءلون بالسانح.

-وربما تشاءموا أيضًا بأصواتها؛ فإذا سمع أحدهم صوت الغراب، أو صوت البومة فإنه يتشاءم.

-وربما تشاءم بنوعها؛ فإذا نزلت بقربه هامة أو بومة أو وقعت على بيته قال إنها نعَتْ إلى نفسي وقرُب أجلي، فضاقت نفسه بذلك(٤٧٨).

المهم أنَّ هذا شيء كثير عندهم وعند جميع الأمم، فمُقِل ومُكثر، والله جَلَّوَعَلَا قد أخبرنا في كتابه عن حال بعض الأمم من جهة تطيرهم كما سيمر معنا إن شاء الله، بل قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن الله ما حكى التطير إلا عن أعداء الرسل»، ما جاء التطير منسوبًا إلى أحدٍ في القرآن إلا عن أعداء الرسل، كما أخبر الله جَلَّوَعَلَا مما سيأتي في قوم فرعون، أو في ﴿أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾[يس:١٣] ، وكذلك في شأن ثمود حينما قالوا لصالح: ﴿اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ﴾[النمل:٤٧]، كذلك أهل الجاهلية حينما قالوا للنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ:

---

(٤٧٨) كما أنهم كانوا يتطيّرون بأشياء أخرى؛ ببعض الحيوانات الأخرى أو ببعض الأسماء أو برؤية بعض العَاهات وما شاكل ذلك، ولم يزل هذا الأمر في الناس إلى اليوم، فعند اليهود والنصارى وغيرهم من ملل الكفار تعلّق كبير بالتطيّر، وكذلك في كثير من المنتسِبين إلى الإسلام؛ فلدَى الرافضة مثلًا تطيّر من الرقم عشرة، يتطيّرون ويتشاءمون منه وهذا من جهلهم وضعف توحيدهم وإيمانهم. وكذلك لدى كثير من جُهَّال المسلمين تطيّر في أشياء كثيرة، فتجد أحدهم إذا خرج من بيته صباحًا فرأى حادث سير أو رأى صاحب عَاهة تجده يغتم في قلبه ويتضايق أشدّ الضيق وربَّما رجع وقال "هذا يوم نحْس، هذا يوم لا خير فيه"، وبعضهم يتطيّر مثلًا من تشبيك الأصابع أثناء إجراء عقد النكاح فيتوهّم أنَّ هذا سببٌ في حصول المشاكل بين الزوجين، وبعضهم يتشاءم من أيام مُعيَّنة، وبعضهم يتشاءم من أشهر مُعيَّنة إلى غير ذلك في سلسلة طويلة تتفاوت بحسب الأمكنة وتتفاوت بحسب الأزمنة.

﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾ [النساء:٧٨]. **إذًا هذه أربعة مواضع في القرآن فيها نسبة التطير إلى أعداء الرسل.**

أما أهل الإيمان وأهل التوحيد الصادق والذين تمسكوا بالعروة الوثقى وعَظُم توكلهم على العظيم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فإنهم أبعد ما يكونون عن الوقوع في هذه الرعونات، فإن أهل التوحيد أهل إحسان للظن بالله العظيم واعتمادٍ وثقة به جَلَّ وَعَلَا. ولذلك مر معنا في حديث السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب من صفات أهل الإيمان والتوحيد أنهم كانوا «لا يتطيرون».

ولذلك جاءت الشريعة بالتشديد في شأن التطير، وهذا أمر ظاهر لمن تأمل الكتاب والسنة، مر معنا قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ليس منا من تكهن أو تُكهن له، أو تتطير أو تُطُيِّر له»، يتطير يكون منه التشاؤم، أو يُتطير له.

تذكرون أنه قد مر بنا حينما تكلمنا عن العيافة أن بعض القبائل كان لهم مزيد عناية واختصاصٍ بها، فبعض الناس يذهب إليهم -إلى هؤلاء الذين لهم معرفة يسمون العرافين- ويطلب منه أن يتطير له، أن يثير الطير ثم بعد ذلك يعطيه النتيجة، ويُعقِب بعد ذلك قراره يسافر أو لا يسافر يتزوج أو لا يتزوج يتاجر أم لا.

وهذا مما أنكرته الشريعة، وبينت تحريمه، وفي صحيح مسلم لما سأل معاوية بن الحكم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: إن منا أناس كانوا يتطيرون! قال: «ذلك شيء يجدونه في نفوسهم، فلا يصدنهم» يعني: هذا شيء لا يتجاوز

أن يكون توهمًا في النفس لا حقيقة له في الخارج ولا تأثير له في الأشياء، فلا ينبغي أن يسترسل الإنسان معه[(٤٧٩)] .

- التطير باب إلى الشرك وسنتحدث عن ذلك إن شاء الله في محله.
- التطير سوء ظن بالله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ**.
- التطير ضعفٌ في التوكل.
- التطير تسلطٌ من الشيطان على ابن آدم.
- التطير رعونةٌ وسُخف لا حقيقة له.
- التطير هموم وأحزان؛ صاحب التطير الذي استولى هذا الأمر على نفسه كئيبٌ كسيف البال، مهمومٌ حزِنٌ باستمرار، دائمًا تجده يتأمل في الأشياء ويتوقع السوء من أي شيء، لو رأى ذا عاهة تشاءم ورجع إلى بيته، يمشي في طريقه فيشاهد حادث السير فيقول: هذا يوم نحس، يعطيه إنسان ياسمين فيقول: يأس ومينٌ، يسمع شيئًا لا يعجبه فيتطير، يرى شيئًا لا يعجبه يتطير، يصاب برفيف للعين أو طنين للأذن فيتشاءم.. وهكذا هو في هموم وأحزان باستمرار.

---

(٤٧٩) فهذا كلّه من الأوهام التي يزينها الشيطان في نفوس بني آدم، والواجب على المسلم أن يعظم توكله واعتماده على الله ﷻ، فيعلم أن الخير كله بيده، وأنَّه قادرٌ على أن يعطي الخير وقادرٌ على أن يمنعه، وما هذه الأشياء إلا من رُعونات النفوس التي يربأ عنها أهل التوحيد الكامل.

ومن عجيب هذا الشأن؛ أن من استولى التطير والتشاؤم على قلبه تجد أن الشرور أسرع إليه من السيل إلى منحدره، سبحان الله العظيم! الذي يستولي عليه التشاؤم ما أكثر ما يقع عليه هذا السوء الذي كان يتوجس منه.

بخلاف أهل الإيمان الكامل الذين لا يلتفتون إلى هذه الأمور ولا يُلقون لها بالاً ؛ يمضون بعزم وثبات وثقة بالله جَلَّوَعَلَا لا يلتفتون إلى هذه الترهات، تجد أنهم سالِمون بتوفيق الله عَزَّوَجَلَّ من ذلك، وهذا له سبب وهو ما أخبر الله عَزَّوَجَلَّ به في الحديث القدسي: «أنا عند ظن عبدي بي، فليظن بي ما شاء» ، المؤمن ظن بالله أحسن الظن وأعتمد ووثق وتوكل وفوض إليه فأعقبه ذلك أن نجَّاه الله عَزَّوَجَلَّ من المكاره وآتاه الله السعادة والطمأنينة. أما ذاك الذي أساء الظن بالله وضعُف توكله عليه جازاه الله من جنس سوء ظنه: ﴿جَزَاءً وِفَاقًا﴾[النبأ:٢٦].

فعلى المسلم أن يقطع هذه الوساوس عن نفسه، وأن لا يمُكِّن لها طريقًا إلى قلبه، وليحرص على أن يعالج ما وقع منه نفسه أولًا بأول، فإن منع المبادي أولى من قطع التمادي، وهكذا كان السلف الصالح رَحِمَهُمُٱللَّهُ يحرصون على أن يقطعوا أي وسيلة لتسلل هذه السخافات والوساوس إلى النفوس؛ ذكر عكرمة مولى ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ورحمه: أن ابن عباس كان جالسًا فمر غرابٌ يصيح، فقال أحد الحاضرين: «خيرٌ خير»، فالتفت إليه وقال: «لا خير ولا شر»؛ ما علاقة الخير والشر بمرور هذا الطائر أو صوته؟!

وكذلك طاووس عليه رحمة الله كان في سفر فمر طائر يصيح، فقال: «خير، قال: وأي خير في ذلك؟ لا تصاحبني»، أعطاه درسًا عمليًا على ترك الالتفات إلى هذه الأمور.

فالمسلم محسنٌ الظن بالله، سعيد قدر استطاعته في هذه الحياة لا يلتفت إلى هذه المنغصات التي لا حقيقة لها والتي ما جعلها الله عَزَّوَجَلَّ لها علاقة بنزول المكاره، لماذا يُغِم الإنسان نفسه؟ ولماذا يفقد الثقة وحسن الظن بالله جَلَّوَعَلَا؟ والله المستعان.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾** [الأعراف:١٣١]).

هذه الآية في شأن قوم فرعون[٤٨٠]، قال جَلَّوَعَلَا: ﴿**وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ* فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ**﴾؛ يعني نحن الجديرون الحقيقون بها نحن أهلها، نحن نستحق هذا الأمر، والمراد: الحسنة الدنيوية؛ من مطر، وخصب، ونبات الزرع وما إلى ذلك.

---

(٤٨٠) هذه الآية جاءت في سياق الردّ على قوم فرعون الذين أخبر الله ﷻ عنهم أنهم إذا جاءتهم السيئة يعني: قِلّة المطر وقِلّة المال وما شاكل ذلك، سيئة دنيوية ﴿يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾ يقولون: إنما أُصبنا بسبب موسى ومن معه من المؤمنين، فردَّ الله ﷻ عليهم في ذلك فقال: ﴿**أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ**﴾؛ لا يعلمون أن الخير كل الخير فيما جاء به موسى من عند الله ﷻ، فاتِّباعه هو الذي يحصل لهم به الخير في الدنيا والآخرة.

﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ ؛ لا يعلمون أن موسى وأهل الإيمان معه لا علاقة لهم بهذا الذي أصابهم، بل الخير كل الخير فيما جاء به الرسل عليهم الصلاة والسلام موسى وإخوانه، ولو عقِل هؤلاء وعلِموا لأدركوا هذا يقينًا، ﴿لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾.

والله جَلَّوَعَلَا بيَّن هنا أن ﴿طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللهِ﴾ ؛ وفي هذه الآية كلام كثير عند أهل التفسير، والأقرب -والله تعالى أعلم- أن المعنى: أن هذا الذي أصابهم وتشاءموا بسببه راجعٌ إلى تقدير الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ الذي عاقبهم بسبب كفرهم وإعراضهم عن الله، ما أصابهم مما تشاءموا به ونسبوه ظلمًا وزورًا إلى موسى ومن معه هذا في الحقيقة بتقدير الله عَزَّوَجَلَّ ، وكان عقوبة منه سبحانه على بغي هؤلاء الكفار وصدهم عن سبيل الله جَلَّوَعَلَا .

فهذا الأقرب في معنى قوله تعالى: ﴿أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللهِ﴾ ، وكأن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أراد من إيراد هذه الآية أن يبين أن التطير ليس من شأن أهل التوحيد، إنما هو من شأن أهل الشرك، فعلى المسلم أن يحذر من ذلك.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وَقَوْلِهِ:** ﴿قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾[يس:١٩] **الآيَةَ**).

كذلك هذه الآية بيّن الله عَزَّوَجَلَّ فيها ردَّ الرسل الذين أرسلهم الله عَزَّوَجَلَّ إلى أهل القرية الذين ذكَرهم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في سورة يس: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾[يس:١٣] إلى أن قال جل وعلا: ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ* قَالُوا طَائِرُكُمْ

مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُم بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾[يس١٨:١٩] ؛ أئن ذكرتم تتطيرون؟ إذا ذكَّرناكم بالله جَلَّوَعَلَا ودعوناكم وبلَّغناكم أمر الله ونهيه قلتم إنكم تتطيرون؟ ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾.

وقول الرسل عليهم الصلاة والسلام: ﴿طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾ هو من باب القِصَاصِ في الكلام، لمَّا نسبوا الطيرة إليهم تشاءم القوم بهم ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾، ردوا عليهم وقالوا: إنه لا علاقة لنا بما وقع في نفوسكم نحن بُراء من ذلك، فالواقع أن هذا الذي أصابكم راجع إليكم؛ ﴿ طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾ هو شيء في نفوسكم كان ثمرةً لكفركم وإعراضكم عن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، أما نحن فلا علاقة لنا به ، وليس لكم أن تنسبوا هذا إلينا، قالوا ﴿ قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾(٤٨١) .

قال رَحِمَهُاللَّهُ: **(وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ** رضي الله عنه **؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ** ﷺ **قَالَ: «لَا عَدْوَى، وَلَا طِيَرَةَ، وَلَا هَامَةَ، وَلَا صَفَرَ» أَخْرَجَاهُ. زَادَ مُسْلِمٌ: «وَلَا نَوْءَ، وَلَا غُولَ»)**.

هذا الحديث حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مخرَّج في الصحيحين، وأنبِّه هنا على ما جاء في آخر كلام المؤلف من أن مسلمًا رَحِمَهُٱللَّهُ زاد في صحيحه: «**ولا نوء ولا غول**»؛ وهذا إن أراد به المؤلف رَحِمَهُٱللَّهُ أن هاتين الكلمتين وردتا في مسلم -بغض النظر عن كون ذلك كان في حديث واحد أو سياق واحد أو لم يكن- فالكلام صحيح، فهذا اللفظ من كلام النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وارد في صحيح مسلم.

---

(٤٨١) وهذا أيضًا الشاهد فيه ما سبق من أن التطيّر هو من شأن الكفار والمشركين،لا من شأن أهل التوحيد.

أما إن كان المراد أن مسلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ أورد هذا النص بهذا اللفظ في حديثٍ عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هكذا فهذا ليس بصحيح؛ وذلك أن الذي في مسلم زيادة في رواية أبي هريرة وهي قوله: «**ولا نوء ولا صفر**»، وجاء من حديث جابر أيضًا عند مسلم أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**ولا غول ولا صفر**».

إذًا عندنا روايتان: أبي هريرة زاد في رواية عند مسلم: «ولا نوء ولا صفر» وجابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ -وهذا حديث آخر ولكن المعنى واحد- قال: «ولا غولَ ولا صفر». **فتحصل من هذا**: أن نفي النوء ونفي الغول ثابتٌ عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في صحيح مسلم، ولكنه في حديثين مفرَّقين وليس بهذا السياق.

ولعل السبب راجع إلى وهم حصل أو انتقال للبصر إلى التبويب الذي بوَّبه النووي، والمشهور أن هذا التبويب الذي بين أيدينا لصحيح مسلم إنما هو من صنع النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، لعله انتقل النظر إلى التبويب، فظُنَّ أن هذا لفظ الحديث، فإن التبويب الذي جاء قبيل هذا الحديث فيه (باب لا عدوى، ولا طيرة، ولا هامة، ولا صفر ولا نوء ولا غول)، فلعله سبق النظر إلى التبويب، فظن أن هذه زيادةٌ في الحديث، وإنما هذه قطعة من التبويب، أقول لعل السبب هو ذلك والله عَزَّوَجَلَّ أعلم.

الخلاصة: أن هذا من كلام النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ نفي النوء ونفي الغول.

هذا حديث عظيم فيه تنصيصٌ على أمور بعضها راجعٌ إلى ما نحن فيه وهو باب التطير .

قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا عَدْوَى**»؛ العدوى: انتقال المرض من المريض إلى الصحيح[٤٨٢].

- وقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هاهنا «**لَا عَدْوَى**» هل أراد به نفي العدوى من أصلها؟

- أو أراد نفي ما كان يعتقده أهل الجاهلية من أن المرض أو بعض أنواعه تنتقل بنفسها باستقلال عن مشيئة الله؟

التحقيق والجمع بين النصوص يرجح الثاني؛ يعني لم يكن هذا من النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نفيًا عن أنَّ هناك أسبابًا تؤدي إلى انتقال المرض هي العدوى، ينتقل المرض بسبب هذا السبب وهو مخالطة المريض، فالعدوى واقعة من جهة التسبُّب لا العدوى التي كان يعتقدها أهل الجاهلية من أن المرض ينتقل بذاته دون مشيئة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وذلك أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الذي قال هذا الحديث، وهو أيضًا الذي قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فِرَّ من المجذوم فرارَكَ من الأسد»، والحديث صحيح علَّقه البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في صحيحه ووصله غيره. فالنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمر بالابتعاد عن المجذوم، المجذوم: الذي أُصيب بالجذام؛ وهو مرض يصيب الإنسان فيؤدي إلى تآكل أعضائه -نسأل الله السلامة والعافية-، وهذا ربما انتقل بسبب المخالطة ، فأمَر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالابتعاد عن ذلك.

---

(٤٨٢) فيُقال: أعدى فلانٌ فلانا.

كذلك ثبت عنه في الصحيح صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لا يُورد ممرض على مُصِح»، ما معنى هذا الكلام؟ يعني أن صاحب الإبل المريضة لا يُورد إبله؛ لا يدخلها في إبل مُصح، يعني مَنْ إبله صحيحة سليمة ما فيها مرض، من ابتُلي بأن كان في إبله مرض ليس له أن يأتي بها فيُدخلها في إبل إنسانٍ إبلُه صحيحة؛ لأجل أن لا يكون هذا سببًا في أن تصاب الإبل الصحيحة .

كذلك النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهى من كان في بلدٍ وقع فيه طاعون أن يخرج منه، أو إذا كان خارجًا عنه أن يدخل إليه.

هذه النصوص وغيرها تدل على أن العدوى تقع ولكن بمشيئة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، يعني هي سبب من جملة الأسباب، ليس أن المرض ينتقل بذاته، إنما ذلك بمشيئة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ، والله جَلَّ وَعَلَا جعل للأشياء أسبابًا؛ القرب أو الوقوع في النار يؤدي إلى حصول الإحراق، إذًا القُرب كان سبب للإحراق. تناول السم سببٌ للمرض أو الموت والهلاك، هذا مجرد سبب، والله جَلَّ وَعَلَا ربط الأشياء بأسبابها، ربط حصول الحرق أو حصول الهلاك بأسباب. كذلك الشأن في هذه الأمراض بعضها جعل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لها أسبابًا للانتقال؛ الخُلْطة، أو الملاصقة والمجاورة، أو نقل الدم مثلاً، أو الريق أو إلى ما شاكل ذلك، أو كان ذلك بالمعاشرة بين الرجل والمرأة كما هو واقع في شأن الأمراض العصرية -نسأل الله السلامة والعافية منها- .

المهم أن هذا أمر واقع لا يمكن إنكاره ولا يمكن أن تأتي الشريعة بما يخالف الواقع، خذ هذه حقيقة مُسَلَّمة؛ لا يمكن أن تأتي الشريعة بما يخالف

الواقع، والطب والواقع والمشاهدة كلها تشهد بأن هناك أنواعًا من الأمراض بالمخالطة تنتقل، ولكنَّ انتقالها كان بمشيئة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

إذًا أهل الإيمان يجمعون بين الأمرين: بين إثبات مشيئة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وإثبات الأشياء التي جعلها الله أسبابًا.

وبالتالي تبين لنا أن قول النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا عدوى**» ليس إنكارًا أو نفيًا لوجود العدوى أصلاً، إنما هو نفيٌ لما كان يعتقده أهل الجاهلية في هذا الشأن(٤٨٣).

قد يقول قائل: وماذا أنت قائلٌ فيما ثبت عن بعض الصحابة كعمر(٤٨٤) وابنه وسلمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من أنهم أكلوا مع مجذومين(٤٨٥)؟

---

(٤٨٣) والمقصود أنَّ هذا هو الذي يتعيَّن الجمع بين النُّصوص به؛ وهو أنه لا عدوى مؤثرة بنفسها، معلومٌ عندكم أنَّ (لا) هُنا هي النافية للجنس، وتحتاج إلى خبر، والخبر هنا محذوف، تقديره: لا عدوى مؤثرة بنفسها؛ أي كما كان اعتقاد أهل الجاهلية.

ويُنبه هنا إلى أنَّ اتخاذ الأسباب التي تدرأُ عن الإنسان الشر ليس منافيًا للتوكل، بل هذا من التوكل، حقيقة التوكل -كما قال أهل العلم وكما سيأتي البحث فيه إن شاء الله- ترك الاعتماد على الأسباب بعد بذْل الأسباب؛ فكون الإنسان يتخذ الأسباب التي تدرأ عنه الشر ليس هذا من ضعْف الاعتماد على الله أو التوكل عليه، قد كان سيد المتوكّلين ﷺ يتخذُ الأسباب؛ فكان يلبس الدرع، ويضع المِغْفر، ويفعل أشياء كثيرة من الأسباب التي تدفع عنه الشر، فلأجل هذا أمَر بأن لا يُورَد مُمْرَض على مُصِح، وفي الحديث الآخر حديث أبي هريرة: «فِر من المجذوم فرارك من الأسد»، وهذا كله من اتخاذ الأسباب، والله ﷻ قادر على أن يصيبَ الإنسان بهذا المرض ولو لم يخالط هذا المريض.

الجواب عن هذا أن يُقال: إنَّ الخلطة بهؤلاء المصابين سبب؛ ولكنَّ السبب قد يكون له مانع، كل سبب يقابله مانع، إن وُجد المانع فإنَّ أثر السبب يزول أو يضعف ، يعني هناك أمراض لها أسباب، ويمكن أيضًا أن يكون لها مانع؛ مَصْل يأخذه الإنسان أو ما يسمونه تطعيم أو علاج أو جرعة أو ما إلى ذلك هذا يعتبر مانع لتأثير هذا السبب.

التوكل على الله عَزَّوَجَلَّ إذا عَظُم في النفس كان أحد الموانع من وقوع هذا المرض وانتقاله.

وبالتالي ففِعل هؤلاء الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ يُوجّه على أنه كان في الخلطة تحقيق مصلحةٍ رأوها مع عظيم توكلهم واعتمادهم على الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ فَبَطَلَ أو ضعف تأثير السبب. إذًا على هذا يوجه هذا الأمر، مَن عظم توكله على الله وكان في خلطته لهذا المريض مصلحة شرعيه معتبرة فإن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ من رحمته قد يعافيه من تأثير هذا السبب، وقد يُصابُ إذا شاء الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ذلك، وهذا من قدَر الله جَلَّوَعَلَا.

وبالتالي أضحى عندنا في الشريعة مسلكان:

- **مسلك الأخذ بالأسباب** وهذا ما دل عليه حديث: «فرَّ من المجذوم فرارك من الأسد» وإلى آخره.

---

(٤٨٤) كما عند عبد الرزاق وغيره.

(٤٨٥) المجذوم: هو الذي أصيب بمرض تتآكل منه أعضاؤه -والعياذ بالله-.

▪ **وهناك مسلك آخر**: وهو أن يسلكُ الإنسان مسلك التوكل والاعتماد على الله عَزَّوَجَلَّ ، ويقتحم هذا الأمر معتمدًا على الله عَزَّوَجَلَّ لتحقيق هذه المصلحة؛ وهذا يرجى له أن لا يصاب.

قد يكون بعض هؤلاء المرضى يحتاج إلى زوجة تخالطه وخادمٍ يخدمه وممرضٍ يمرِّضه، فمثل هؤلاء في بقائهم بالقرب من صاحب هذا المرض تحقيق مصلحة في حصول شفائه أو بقاء حياته أو تخفيف ألمه، ومثل هؤلاء إذا توكلوا على الله عَزَّوَجَلَّ واعتمدوا عليه وفوَّضوا الأمر إليه فيرجى إن شاء الله أن لا يصيبهم شيء من هذا الأثر.

ثم قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ولا طيرة**» وهذا الذي هو محل البحث هاهنا. ومناسبة إيراد هذا الحديث بل مناسبته إيراد هذا الباب: هو ما في التطير من منافاة التوحيد الواجب، على ما سيأتي تفصيله إن شاء الله في الكلام عن آخر هذا الباب.

وهل قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هنا: «لا طيرة»، (لا) هاهنا للنهي؟ أو للنفي؟

اختلف العلماء في ذلك، والأقرب والله أعلم أن (**لا**) هنا للنفي، وهذا أبلغ من أن تكون للنهي؛ لأنها تتضمن النهي وزيادة، هذه الزيادة هي الدِلالة على أن هذا أمرٌ لا حقيقة له ولا تأثير له، وبالتالي أصبح أبلغ من أن تكون (لا) للنهي[٤٨٦].

---

(٤٨٦) لم يُرِد عليه الصلاة والسلام أن الطّيرة لا تكون ولا تحصل، بل هي حاصلةٌ وتقع كثيرًا، إنما المقصود أنه لا طيرة مؤثرة، بل هي أمر توهّمي يتوهّمه الإنسان في نفسه، فلا

قال ﷺ: «**ولا هامة**»؛ **الهامة اختلفوا في تفسيرها إلى قولين:**

➢ **الأول**: أن الهامة طيرٌ من طير الليل، وبعضهم نصَّ على أنها البومة، البومة: طائر معروف كان أهل الجاهلية يتشاءمون بها، فإذا نزلت بالقرب من الإنسان أو على سطح بيته قالوا: نعَتْ إليَّ نفسي، تشاءموا بذلك بأن الموت قد قرب، فنفى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ذلك؛ وعليه فيكون نهيه أو نفيه للهامة من باب عطف الخاص على العام، الخاص «**لا هامة**»، والعام «**ولا طيرة**»؛ يعني ذكر صورة خاصة ذكر صورة خاصة وهي الهامة.

➢ **التفسير الثاني**: أن الهامة نفيها نفيٌ لاعتقادٍ جاهلي كان عليه الكفار سابقًا، وهو أن الميت إذا قُتِل بغير حق يقولون إن هناك طائرًا يطير حول قبره، وربما قالوا إنه يخرج من عظامه يُصبح طائرًا يطوف ويدور على قبره ويقول: اسقوني، اسقوني؛ حتى يُأخذ بثأره، ثم بعد ذلك يذهب وينصرف. هذه الخرافة كان يعتقدها أهل الجاهلية كأن مرادهم من بثها وإشاعتها حثَّ أهله على الأخذ بثأره[٤٨٧]، بيَّن النبي ﷺ أن هذه خرافة لا حقيقة لها، وبالتالي كان هذا موضوعًا آخر بعيدًا عن موضوع الطيرة.

قال: «**ولا صفر**» **أيضًا اختلف العلماء في تفسير صفر هاهنا إلى قولين:**

توجد طيرة مؤثرة، فرؤية الإنسان لما يكره ليس سببًا في نزول المكروه عليه، هذا مراده ﷺ في قوله: «**لَا طِيَرَةَ**».

(٤٨٧) وقد يسمّون هذا الطائر «الصدى».

❑ **الأول**: أن صفر داءٌ يصيب البطن،[٤٨٨] وهذا ما نَصَّ عليه البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ فإنه قال: «باب لا صفر وهو داء يصيب البطن»، وكأن الأمر -والله تعالى أعلم- أن أهل الجاهلية كانوا يعتقدون أن هذا المرض ينتقل بنفسه، ولذلك كانوا يرون أنه شديد العدوى حتى كانوا يصِفونه بأنه أعدى من الجرَب؛ فبالتالي يكون هذا نفيًا لأمرٍ خاص بعد أمر عام وهو (لا عدوى). إذًا أصبح قوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «لا هامة» راجعًا إلى «لا طيرة» ، وأصبح قوله «لا صفر» راجعًا إلى «لا عدوى».

❑ **أما التفسير الثاني**: فهو أنَّ صفر هو الشهر المعروف شهر صفر؛ ثاني الأشهر الهجرية.

واختلفوا بعد ذلك في هذا النفي الوارد في الحديث إلى قولين:

الأول: أن النفي إنما كان لتشاؤم أهل الجاهلية من شهر صفر؛ فكانوا يتشاءمون من أزمنة ومنها شهر صفر[٤٨٩]، فبين النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أن هذا أمرٌ متوهم لا حقيقة له، عقيدةٌ جاهلية لا حقيقة لها، فعاد نفيه لصفر إلى نفيه للطيرة.

أما التفسير الثاني على أن صفر هو الشهر المعروف؛ ما يرجع إلى النسيء الذي كان يستعمله أهل الجاهلية وهو الذي جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾[التوبة:٣٧]، وذلك أنهم كانوا يؤخرون -النسيء يعني التأخير- كانوا يؤخرون شهر محرم إلى شهر صفر، لأجل الغزو، إذا أرادوا أن يغزو في

---

(٤٨٨) وهذا ما ذكره غير واحد من السلف.

(٤٨٩) كما كانوا يتشاءمون في شأن النكاح خاصة في شهر شوال.

شهر محرم وهو عندهم شهر محرم معظم لا يجوز القتال فيه، قالوا نجعل شهر محرم في وقت شهر صفر، وبالتالي يجوز لنا أن نغزو في هذا الوقت، وهذا من التلاعب الذي كان عليه أهل الجاهلية، وبالتالي يكون النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد نفى هذا التصرف في هذا الحديث. هكذا قيل، وهذا التوجيه فيه من البعد ما فيه[٤٩٠] .

كأن الأقرب والله تعالى أعلم أن هذا راجعٌ إما على تشاؤمهم في شهر صفر، أو أن يكون هو المرض الذي ذكره غير واحد من أهل العلم ومنهم البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

أما الزيادة فيها قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ولا نوء**»؛ والنوء فيه كلام يختص بباب خاص نتكلم عنه إن شاء الله تعالى على وجه التفصيل في محله إن شاء الله.

أما «**الغول**» فالغول على ما ذكروا: نوعٌ من أنواع الجن والشياطين. وبعضهم يقول هي سحرة الشياطين. وسميت بذلك: لأنها تتغول للمسافرين، يعني: تتراءى لهم وتضلُّهم عن الطريق، وربما أهلكتهم.

- وهل مراد النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نفي حقيقة الغول؟
- أو أراد نفي تأثير الغول؟ يعني نفي وجود شيء اسمه الغول من الشياطين؟

---

(٤٩٠) تفسير وتوجيه هذا الحديث عليه فيه بُعد؛ فإن بقية الأمور التي نُفيت في هذا الحديث إنما تدور على الطّيرة أو على العدوى، وهذا موضوع آخر بعيد فحمْل الحديث عليه فيه ما فيه.

- أو نفي هذا التأثير الذي كانوا يعتقدونه من أن هذه الشياطين تتراءى لهم وتضلهم عن الطريق الصحيح وربما كانت سببًا في موتهم؟

الثاني هو الأقرب، والله تعالى أعلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وَلَهُمَا عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا عَدْوَى، وَلَا طِيَرَةَ، وَيُعْجِبُنِي الفَأْلُ»، قَالُوا: وَمَا الفَأْلُ؟، قَالَ: «الكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ»**).

هذا الحديث الذي بين أيدينا وهو مخرج في الصحيحين **فيه ذكر ثلاثة أمور:**

١. **العدوى.**

٢. **الطيرة.**

٣. **الفأل.**

أما الأوَّلان فجاء الحديث بنفيهما، وأما الثالث فقد جاء الحديث بإثباته.

وقد مر بنا الكلام عن العدوى والطيرة، وعلِمنا أن نفي النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للعدوى لا يراد به نفي انتقال المرض بقدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ومشيئته، إنما المراد نفي ما كان يعتقده أهل الجاهلية من أنَّ من الأمراض ما ينتقل بذاته.

ويؤيد هذا المعنى ما ثبت في الصحيحين من أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمَّا حدَّث بحديث «لا عدوى»، قال له إعرابي: يا رسول الله هذه الإبل تكون على الرمل كالظباء -يعني جيده ونشيطة- فيُجرِبُ منها جملٌ فلا تلبث أن تُجْرِّبَ جميعـًا، فماذا كان جواب النبيﷺ ؟ قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فمن أعدى الأول؟» .

لاحظ أن النبيﷺ لم ينفِ أن الجمل الأول قد تسبب في جَرَبِ البقية، إنَّما بيَّن

النبي ﷺ أنَّ ما وقع إنما كان بتقدير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فجرب الأول كان بتقدير الله، وجرب البقية كان بتقدير الله، وإن كان البقية قد أصيبوا بسببٍ معلوم؛ وهو الجمل الأول، وأما الأول فقد يكون له سبب معلوم وقد لا يكون له سبب معلوم. المهم أن النبي ﷺ في هذا الحديث لم ينفِ وجود العدوى، إنما بين أن ذلك واقعٌ بمشيئة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وأما قوله: «لا طيرة» فمر بنا أن الطيرة: التشاؤم، وهذا النفي من النبي ﷺ نهيٌ وزيادة -كما قد علِمنا- ففيه النهي عن التطير، وبيان أنَّ ظن تأثير هذا الذي تُطير به في وقوع النحس والسوء أمرٌ غير صحيح. ومضى الكلام في هذا الأمر على وجه التفصيل.

لكن بقيَ هاهنا التنبيه على ما قد يُظن أنه معارضٌ لهذا الحديث؛ ألا وهو قول النبي ﷺ: «الشؤم في ثلاثة»، وفي رواية: «إن كان الشؤم في شيء ففي ثلاثة: المرأة، والدار، والفرس»، وفي رواية: «الدابة».

ولاحظ أن هذا الحديث مخرَّج في الصحيحين من حديث ابن عمر ومن حديث سهل بن سعد، كما جاء أيضًا في كتب السنة من حديث أبي هريرة ومن حديث جابر، إذًا رواه أربعة من أصحاب النبي ﷺ عنه، وبالتالي فإن إنكار من أنكره كعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا اجتهادٌ منها، فإنها أنكرت على أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تحديثه بهذا الحديث على إنه من كلام النبي ﷺ إقراراً، إنما بيَّنت أو ظنت أن النبي ﷺ إنما قال هذا الحديث حكايةً عن حال الكفار؛ أنه هكذا كان يقع في نفوسهم، ولم يُرِد تقرير أنَّ الشؤم في هذه الأمور

الثلاثة، ولكنَّ ذلك غير صحيح؛ لا يمكن أن يخطِّأ هؤلاء الصحابة الأجلاء. إذًا الحديث ثابت عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على جهة الإثبات.

واختلف أهل العلم في توجيه هذا الحديث، ولا يخرُج ما قيل في التوجيه عن رأيين:

الرأي الأول: القول بالنسخ.

والثاني: القول بالجمع.

➢ **أما القول بالنسخ**: فقال بعضهم إن حديث: «لا عدوى ولا طيرة» ناسخٌ لحديث «إنما الشؤم في ثلاثة»، وبعضهم عكَس. ولا شك أن القول بالجمع مقدمٌ على القول بالنسخ؛ بل القول بالنسخ قولٌ ضعيف لا ينبغي أن يُلتفت إليه، وذلك أنه قد ثبت في الصحيحين من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لا عدوى ولا طيرة، والشؤم في ثلاثة»، إذًا لا يمكن أن يكون الحديث حديثاً واحداً وفيه ناسخ ومنسوخ، إذًا القول بالنسخ ضعيف بالمرة.

➢ **يبقى القول بالجمع**[٤٩١]؛ وقد قيلت أقوال عدة، الأقوى والأقرب والله تعالى أعلم أن يقال: هذا الحديث يتحدث ويتكلم عن الشؤم لا التشاؤم؛ **عندنا أمران:**

-عندنا تشاؤم؛ هو الطيرة؛ وهو ما نفاه الحديث أولاً.

---

(٤٩١) والأقرب -والله أعلم- أن مسلك الجمع أرجح؛ فمتى ما أمكن الجمع فهو مقدَّمٌ على الترجيح وعلى إلغاء بعض النصوص، إذا أمكن إعمالها جميعًا فهو أولى من الإلغاء لبعضها.

-وعندنا شيء آخر وهو الشؤم؛ وهذا ما جاء إثباته.

إذًا لا يمكن أن يكون الشؤم هو التشاؤم؛ لأنه لا يمكن أن يُثبت ما نُفي، لا يمكن أن يقول النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «لا طيرة» يعني لا تشاؤم ثم يثبت التشاؤم! هذا غير وارد.

إذًا النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يتحدث عن الشؤم؛ والشؤم في كتب اللغة هو الشر. إذًا النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول الشر في ثلاثة أمور[٤٩٢].

ومعنى هذا الحديث: أن الله جَلَّوَعَلَا جعل للخير أسبابًا، وجعل للشر أسبابًا؛ ومن أهم أسباب الشر التي تلحق الإنسان هذه الأمور الثلاثة، والحديث جاء على سبيل ذِكْرِ الغالب، وإلا فالشر قد يكون بمقارنة غير هذه الأمور الثلاثة؛ لكن الغالب أن يناله البلاء والشر والمصائب من قِبل هذه الأمور الثلاثة، لأنه لا ينفك عنها غالبًا؛ لا ينفك الإنسان غالبًا عن زوجةٍ يأوي إليها، ودارٍ يسكنها، ودابةٍ يستخدمها؛ فقد يُبتلى الإنسان بكدرٍ في حياته من قبل هذه الأمور الثلاثة التي هي من أقرب ما يكون إليه، فيبتلى الإنسان بامرأةٍ سيئة الخلق

---

(٤٩٢) **والصحيح في كلام أهل العلم في توجيه هذا الحديث:** هو ما اختاره ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ وجماعة من المحققين؛ وهو أنَّ إخباره ﷺ بأن الشؤم في هذه الأمور الثلاثة هو إخبارٌ بأسبابٍ يحصل الشؤم باقترانها معها، بمعنى أن هذه الأمور الثلاثة أسبابٌ قد يحصل على الإنسان شؤمٌ -يعني ضيق ونكدٌ- بسبب مقاربتها، وهذا أمرٌ لا يُجحد، فإنه قد يُبتلى الإنسان بشيء يخالطه كزوجة أو دار أو دابة فيحصل له بسبب هذه المخالطة لهذا الشيء مصائب.

تكدِّر عليه حياته وتنغِّص عليه معيشته، أو يبتلى بدار ضيقة يضيق صدره بسببها، أو أن له جيرانـًا سيئين فيضيق صدره أيضا ويتكدر حاله، أو يبتلى بدابة عسِرة أو كثيرة الأعطاب والأمراض. إذًا غالب ما يرِد على الإنسان إنما هذه الأمور الثلاثة وقد يبتلى بغيرها؛ قد يبتلى بابنٍ عاق تناله أنواع الشرور بسببه، لكن في الغالب أنه يناله من هذه الأمور الثلاثة.

إذًا الحديث يتحدث عن الشؤم؛ بيّنَ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن هذه أسبابٌ ثلاثة لوصول الشر إلى الإنسان بمقارنتها؛ وهذا لا إشكال فيه ولا تعارض بينه وبين الطيرة أو التشاؤم التي جاء نفيها في الشطر الأول من الحديث[٤٩٣] .

نأتي الآن إلى الأمر الثالث الوارد في الحديث وهو: «الفأل».

الفأل: هو الاستبشار بمسموعٍ أو مرئي؛ يعني أن يحصل على الإنسان استبشارٌ وفرحٌ وسرورٌ ورجاءٌ بسبب كلمة يسمعها أو شيء يراه، يدخله الأمل والرجاء بسبب ذلك.

فهذا لونٌ والطيرة لونٌ آخر، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَصَل بين الأمرين لما بينهما من التمايز؛ الطيرة والتفاؤل يجتمعان في التأثير على النفس، ولكن بينهما بونٌ شاسع، فالنبي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فرّق بينهما لأن بين هذا وهذا فارق، كما

(٤٩٣)فليس المقصود نفي حصول الشر بسبب مخالطة هذه الأمور، وإنما الممنوع أن يُعتقد أن هذه الأمور يحصل التشاؤم بها ذاتيًا دون تقدير من الله تبارك وتعالى، وبهذا يُوفَّق بين نفيه ﷺ للطّيرة وإخباره عليه الصلاة والسلام بأن الشؤم في هذه الأمور الثلاثة.

فرَّق النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين الرقية المشروعة والرقية الممنوعة في نظائر كثيرة في الشريعة.

إذًا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نفى وحذَّر من الطيرة؛ وأثبت التفاؤل، بل بيّن أن هذا أمر مستحب، لأنه يُعجب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا شك أنَّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يُعجَب إلا بأمرٍ حسن.

والحديث جاء في الصحيحين من أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وجاء أيضًا من حديث أبي هريرة؛ في حديث أنس الذي بين أيدينا أخبر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بإعجابه بالفأل؛ وفي حديث أبي هريرة بيَّن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن خير الطيرة الفأل؛ قال: «**وخيرها الفأل**»، لـمَّا سئل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الفأل فسَّره بمثال له؛ وهو: الكلمة الصالحة يسمعها الإنسان؛ وهذه الكلمة وُصفت في الصحيحين في مجموع الروايات: بالكلمة الطيبة، والكلمة الصالحة، والكلمة الحسنة. والمعنى متقارب؛ يعني أن يسمع الإنسان كلمة حسنة طيبة فينشرح صدره لذلك ويستبشر؛ كأن يكون يريد سفراً فيسمع من ينادي: "يا راشد"، أو يكون مريضًا فيسمع من ينادي: "يا سالم"؛ فيبتهج بذلك يستبشر ويتفاءل ؛ فهذا هو ما جاء في الحديث عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

هذا الحديث الذي فيه إعجاب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالفأل فيه إبانةٌ عن غريزة جعلها الله عَزَّ وَجَلَّ في النفوس. الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جبل النفوس البشرية على محبة أشياء؛ فهي تحب رؤية المناظر الأنيقة والرياض النضِرة والألوان الحسنة، تستلذ بالمطعوم الطيب، وتبتهج بالرائحة الطيبة وما إلى ذلك؛ فهذا من هذا

الجنس، كون الإنسان يسمع كلمة حسنة فيستبشر بها؛ هذا مما يُدخل عليه الفرح والسرور والنشاط ولا يضره في إيمانه بشيء، لا يتأثر إيمانه وتوحيده بذلك؛ فمثل هذا أمر حسن، بل هذا هو الكمال، وهذه هي حال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ فإن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كان له أكمل الأحوال البشرية صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

إذًا الفأل لا يعدو أن يكون استبشاراً وانشراح صدرٍ وتفاؤلًا وإمداداً للأمل بسبب شيء يسمعه أو شيء يراه، وهذا له شواهد كثيرة في سنة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ومن ذلك:

ما ثبت في صحيح البخاري في قصة الحديبية؛ أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لما أقبل سهيل بن عمرو ليفاوض النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في الصُلح؛ قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «سهل عليكم من أمركم»؛ من أين أخذ النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ هذا التفاؤل؟ من اسم الرجل؛ أقبل رجلٌ اسمه سهيل فقال: «سهل عليكم من أمركم»؛ فهذا لا يعدو أن يكون فرحًا واستبشارًا تغدو النفس على إثره أكثر نشاطـًا وجديَّة في الأمور، وبالتالي فإنها تُقبِل على شأنها من أمر الدين أو من أمر الدنيا وهي منشرحة النفس.

ولاشك أن الإنسان لا يمكن أن يؤدي الحقوق التي عليه لله أو للخلق أو للنفس إلا وهو منشرح النفس إلا وهو طيب الخاطر، أما المغبون و المتكدر والمتضايق والذي نفسيته سيئة كما يقال فإنه في الغالب لا يعبد الله عَزَّوَجَلَّ على الوجه الأكمل، ولا يؤدي الحقوق الواجبة عليه على أحسن حال.

إذًا الشريعة تدعو إلى أن يكون الإنسان منشرح الخاطر دائمـًا؛ ومن تلك الأسباب أن يتعاطى الأشياء التي تؤدي إلى حصول هذه الحالة الحسنة؛ ولذلك النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يتفاءل بالكلمة الطيبة، كان النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يحب الحلواء والعسل، كان النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يحب الرائحة الحسنة وكان أطيب الناس ريحـًا صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وكان يحب الشراب الحلو البارد.

إذًا كل هذه أسباب تؤدي إلى راحةٍ للنفس ونشاطٍ للخاطر؛ وبالتالي فإنه لا حرج في تعاطيها، بشرط أن يقف الأمر عند هذا الحد؛ بمعنى: مشروعية الفأل لا تتجاوز هذا القدر؛ وهو أن يحصل عرَضـًا سماع أو رؤية ما تبتهج وتستبشر به النفس؛ فينشرح صدره وخاطره لذلك ويُؤمِّلُ الخير ويحسن الظن في الله جَلَّوَعَلَا. أما أن يكون هذا الذي تفاءل به هو الذي يعتمد عليه في الإقدام أو عدمه؛ فهذا يجعل الفأل من جنس الطيرة؛ انتبه لهذا.

- فرقٌ بين إنسان خرج من بيته فسمع كلمة حسنة فاستبشر وقال: "إن شاء الله هذا يوم خير"، سمع كلمة بشارة، فوز، طِيب إلى آخره فاستبشر ومضى في عمله، وهو ماضٍ عليه أصلاً؛ لكنه انشرح لذلك وأكمل عمله؛ هذا أمرٌ حسن لا حرج فيه.

- **الحالة الثانية**: أن يخرج الإنسان وهو يترقب، يريد أن يرى مثلاً طائراً ذا لون حسن، أو طائراً يمضي من جهة اليمين، وفي نفسه أنه إن رأى هذا الشيء الذي يستبشر به وإلا رجع، وما عمل الذي أراد؛ هذا نقول: وقع فيما هو من جنس الطيرة الممنوعة، ولذلك سيأتي معنا في آخر الباب «**إنما الطيرة ما أمضاك**

أو ردك»؛ الذي يدفعك إلى الشيء أو الذي يحجزك عن الشيء هذا حد الطيرة الممنوعة. ولذلك قد علمنا من شأن العيافة أن أهل الجاهلية كانوا يستثيرون الطير؛ فإن طار إلى جهة اليمين وسموه سانحًا فإنهم يبنون على هذا المضي، وإلا قعدوا وما عملوا.

إذًا هذا يدلك على أن التفاؤل لو زاد عن حده فأصبح هو الذي يعتمد عليه الإنسان في مضيه في الأمر فإنه قد يكون وقع في أمر محذور، لو خرج إنسان مثلاً من بيته وقال إن كانت الإشارات كلها خضراء فإنني سوف أسافر، فإن كانت حمراء رجعت؛ نقول هذا أمر منكرٌ ومحرم ولا يجوز.

هذا إذًا ما كان من النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من بيانه أنَّ خير هذه المؤثرات هو الفأل؛ يعني: ما يستبشر به الإنسان من قول أو مرئى -شيء يراه-، وبيَّن الحديث في بعض الروايات أن هذا مما كان يعجب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. والله أعلم.

قال رَحِمَهُ اللهُ: (**وَلِأَبِي دَاوُدَ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: ذُكِرَتِ الطِّيَرَةُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «أَحْسَنُهَا الفَأْلُ، وَلَا تَرُدُّ مُسْلِمًا، فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ مَا يَكْرَهُ فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ لَا يَأْتِي بِالحَسَنَاتِ إِلَّا أَنْتَ، وَلَا يَدْفَعُ السَّيِّئَاتِ إِلَّا أَنْتَ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ»**).

هذا الحديث فيه بحث من جهة ثبوته من جهتين:

أولاً: أنَّ نسبة هذا الحديث إلى عقبة بن عامر وهم، وقد وقع في هذا الوهم بعض من تقدم الشيخ محمدًا رَحِمَهُ اللَّهُ؛ كالنووي وابن القيم وغيرهما.

والصواب: أن الحديث من حديث عروة بن عامر قيل القرشي، وقيل الجهني، وقد اختُلف في صحبته؛ كثير من أهل العلم رأوا أنه تابعي ولا يصح له صحبة، ونص على هذا المزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وجماعة من أنه لم يثبت له صحبة من وجهٍ يصح. وبعض أهل العلم أثبت له الصحبة. وبعضهم توقف في ذلك.

إذًا على القول في ثبوت صحته فالحديث متصل، وعلى القول بأنه تابعي فالحديث مرسل. هذا أولا.

ثانيا: الحديث في إسناده حبيب بن أبي ثابت؛ وهو على كونه ثقةً جليلاً، كثير التدليس والإرسال؛ وقد نص الحافظ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «التهذيب» على أن روايته عن عروة بن عامر الظاهر أنها منقطعة؛ يعني لم يسمع عن عروة بن عامر.

فالحديث إذًا في ثبوته نظر، لكن الشيخ صححه، وتقدمه أيضا في هذا التصحيح النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «رياض الصالحين»، وغير واحدٍ من أهل العلم(٤٩٤).

---

(٤٩٤) فالحديث إذًا في ثبوته عن النبي ﷺ نظر، وعلى فرض ثبوته فإنَّ النبي ﷺ قد ذُكِرت الطّيرة في مجلسه فقال عليه الصلاة والسلام: «**أَحْسَنُهَا: الفَأْلُ**»؛ جاء عن النبي ﷺ «الفَأْل أحسن الطّيرة»، إمَّا باعتبار إطلاق الطّيرة بإطلاقٍ عام فيدخل فيه الطّيرة بشكل خاص وهو ما يتشاءم به، أو الفَأْل؛ المقصود أنه الأشياء التي تؤثر في النفوس، فأحسن هذين النوعين: الفَأْل، وكان يعجبه ﷺ.

وعلى كل حال؛ الحديث فيه التنبيه على أنَّ الطيرة أمرٌ منفي وأنَّها لا تردُ مُسلمـًا، والنهي والنفي والتحذير من الطيرة أمرٌ قد تكاثرت فيه الأحاديث في الصحيحين وغيرهما .

وكونها لا ترد مسلمـًا فيه إشارة إلى أن حال أهل الشرك على خلاف ذلك، ويشهد لهذا المعنى ما ثبت في صحيح مسلم من حديث معاوية بن الحكَم رضي الله عنه للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ومنا أناس يتطيرون»، قال: «ذلك شيء يجدونه في أنفسهم فلا يصدنهم -أو قال- فلا يصدنكم»، فالشاهد أن هذا مثل هذا [٤٩٥] .

ويبقى فقط ما يتعلق بالشطر الأخير من الحديث وهو أن مما يدفع به الإنسان عن نفسه هذا الدعاء: (**اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت**...)إلى آخره[٤٩٦]، والحسنة والسيئة هنا هي الحسنة الدنيوية والسيئة الدنيوية؛ يعني لا

أو قوله ﷺ: «**أَحْسَنُهَا الفَأْلُ**» هو للتشابه فقط وإلا فليست من جنس الطَّيْرة، إنما هو أمر يحصل فيه تشابه بين الطّيرة والفَأْل، وإلا فالفارق عظيم بين الطّيرة التي هي بمعنى التشاؤم والفَأْل.

(٤٩٥) فأهل الإيمان مطلوبٌ منهم إذا رأوا أو سمعوا شيئًا مكروهًا فوقع في نفسهم شيء أن يمضوا فيما قصدوه ولا يلتفتوا لهذا الأمر فإنه لا يضرهم.

(٤٩٦) أرشد الحديث إلى ذِكرٍ يُقالُ -إن صح الحديث- فيه كمال التوكل والاعتماد على الله ﷻ واعتقاد أن الخير إنما يكون بتقديره، وكذلك الشر يكون بتقديره ﷻ. والشر -كما تعلمون- يُضاف إلى مفعول الله ﷻ لا إلى فعله، ويُضاف إلى مقدور الله ﷻ ومقضيه لا إلى قضائه الذي هو فعله؛ فقضاء الله ﷻ الذي هو فعله ليس فيه شر البتَّة، (والشر ليس إليك)، إنما يكون في المقضي، وإنما يكون في المفعول، فيكون في قضاء هذا الشيء وهو

يأتي بالخير ولا يدفع الشر إلا أنت يا الله، فكان الملاذ والمفْزع إلى تحقيق توحيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. وهكذا الإنسان لا يدفع عن نفسه وساوس الشيطان إلا إذا اعتصم بحبلٍ وثيق من الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ وتوحيده.

أقول: إنَّ كون هذا الذكر مما يحافظ عليه الإنسان إن وقع في نفسه شيء من ذلك موقوف على ثبوت الحديث عن النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ. والله تعالى أعلم.

قال المصنف رَحِمَهُٱللَّهُ: **(وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ مَرْفُوعًا: «الطِّيَرَةُ شِرْكٌ، الطِّيَرَةُ شِرْكٌ، وَمَا مِنَّا إِلَّا؛ وَلَـٰكِنَّ اللهَ يُذْهِبُهُ بِالتَّوَكُّلِ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ، وَجَعَلَ آخِرَهُ مِنْ قَوْلِ ٱبْنِ مَسْعُودٍ)**.

هذا الحديث حديث ابن مسعود مرفوعـًا إلى النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**الطيرة شرك، الطيرة شرك**»، هذا القدر ثابت عن النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ، وفيه بيانُ حكم الطيرة؛ وهذا موضعُ يحتاج إلى تفصيل فانتبه.

الطيرة لها أحوال، وكل حال لها حكمها:

فأولًا: من تطير بشيء لاعتقاده أن هذا الذي تطير به هو الذي يعطي الخير أو يعطي الشر بذاته؛ فهذا شرك أكبر، مشاركةٌ لله عَزَّوَجَلَّ في ربوبيته.

ثانيًا: من تطير بشيء لاعتقاده أنه سبب لنزول الشر؛ مجرد سبب وإلا فالأمر راجعٌ إلى الله عَزَّوَجَلَّ وتقديره؛ فهذا شرك أصغر.

مذموم وشر خيرٌ لغيره لا خير لذاته، وهذا وجه كون قضائه خيرًا وإن كان المقضي شرًا. وهذه مسألة ترجع إلى باب القدر.

الحال الثانية أنه يتطير ويبني على هذا التطير رجوعه عن العمل ورده عنه، هذا الذي أردت قوله إنه شرك أصغر؛ إذا بنى على هذا التطير أنه ترَك العمل وما أقبل فإنه يكون قد وقع في الشرك الأصغر؛ وهذا الذي يؤيده ما سيمر معنا إن شاء الله؛ (إنما الطيرة ما أمضاك أو ردك).

وعلى هاتين الحالتين يتنزل قول النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ : «**الطِّيَرَةُ شِرْكٌ**». أما كون هذه الحال الثانية شركًا أصغر؛ فذلك أن هذا المتطير اعتقد أن هذا الشيء سببًا والواقع أن الله جَلَّوَعَلَا لم يجعله سببًا في نزول البلاء، **والقاعدة**: (أن من اتخذ واعتقد سببًا لم يجعله الله سببًا لا شرعًا ولا قدراً فإنه قد يكون أشرك الشرك الأصغر).

والحال الثالثة: أن يتطير ولكنه يمضي في عمله؛ تنقبض نفسه ويضيق صدره ويبقى متوجسًا منتظرًا أنَّ مكروهًا ينزل به؛ فهذا محرم، لأنه سوء ظن بالله جَلَّوَعَلَا وقبولٌ لوساوس الشيطان، ولا شك أن هذا أمر لا يجوز.

الحال الرابعة: أن يقع في نفسه خاطر ولكنه يدفعه بتوكله على الله عَزَّوَجَلَّ وإحسان ظنه به؛ فهذا قدرٌ معفو عنه؛ وهذا الذي جاء فيه: «**وما منا إلا**»؛ يعني الغالب أن كل أحد يعتريه هذا الخاطر، يقع في نفسه شيء وقد خرج من بيته فرأى ذا عاهة أو رأى حادثًا أو منظراً قبيحًا؛ وقع في نفسه شيء من الضيق ثم دفعه متوكلا على الله عَجَّلَ فزال الذي في نفسه ومضى إلى عمله، فهذا لا يضره إن شاء الله؛ «إنَّ الله تجاوز عن أمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم أو تعمل».

إذا عندنا في حكم الطيرة أربع أحوال:

➢ قد تكون الطيرة شركـًا أكبر.

➢ وقد تكون الطيرة شركـًا أصغر؛ إذا كف عن العمل وما كان ينوي القيام به بسببها.

➢ وقد تكون أمراً محرمـًا.

➢ وقد تكون أمراً جائزاً على التفصيل الذي سمعت.

بقيَ البحث في الشطر الأخير من الحديث: «وما منا إلا ولكن الله يذهبه بالتوكل».

هذا القدر اختلف الحفاظ في كونه كلام من قول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو هو مدرجٌ ؛ يعني من قول ابن مسعود.

▪ وقد ذهب كثير من أهل العلم أو أكثرهم إلى أن هذا القدر مدرج؛ والترمذي رَحِمَهُ اللهُ في «جامعه» وكذلك في «العلل الكبير»؛ حكى عن شيخه الإمام البخاري، والبخاري حكى عن شيخه سليمان بن حرب أن هذه اللفظة مدرجة من قول ابن مسعود[٤٩٧]. «وما منا إلا»؛ يعني: وما منا إلا من يعتريه ذلك، وسكت ابن مسعود عن بيان الأمر وحذفه لعِلم السامعين به، واتكالاً على

(٤٩٧) وهذا ما رجَّحه جمع من أهلم العلم؛ كالبيهقي، والمنذري، وعبد الحق الإشْبيلي، والحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ أيضًا يميل إلى هذا، وكذلك ابن القيم، وغيرهم من أهل العلم الذين رجَّحوا أن هذا اللَّفظ مُدرج وليس من كلام النبي ﷺ.

معرفته له «وما منا إلا». وحذْف ما يعلمُ جائز. وفيه أيضا أدب لطيف وهو عدم التصريح بما يقبُح[٤٩٨].

- وذهبت طائفة من أهل العلم إلى أن هذا القدر أيضا مرفوع إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مثل الذي تقدمه؛ وهذا ما اختاره ابن القطان الفاسي وتابعه عليه من المعاصرين الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ؛ إذ إنه صحح أن هذه اللفظة مرفوعة إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[٤٩٩].

والأقرب هو الأول، بل نص الحافظ رَحِمَهُ اللَّهُ في «النكت» على أن القول بإدراج هذه اللفظة أمرٌ متعين. فالمهم أن الأقرب والأصح أن هذا ليس من كلام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما وصف الطيرة بأنها شرك ليس من المقبول أن يقال إنه يقول إنه يقع في هذا الأمر؛ حاشاه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فإنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبعدُ الناس عن التطير، وأكمل الناس إيمانًا وتوكلاً و إحسانًا للظن بالله عَزَّوَجَلَّ ، ومن عداه لا يخلو من وقوع شيء في نفسه ولكنه يُدفَع بتوفيق الله عَزَّوَجَلَّ وبالاعتصام به جَلَّوَعَلَا.

---

(٤٩٨) **وأغرب بعض أهل العلم في حمل الحديث على معنًى بعيد**، كما هو الحال عند أبي العباس القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ في «المفهِم» فإنه وجه الحديث بتوجيه آخر يخالف لما عليه عامة أهل العلم، وهو أن قوله (**وَمَا مِنَّا إِلَّا**) أي: الذي يتطَّيْر ليس على سُنَّتنا إلَّا إن ترك هذا الذي تطَيَّر به فإنه يكون على سُنَّتنا. وهذا التوجيه فيه من البعد ما لا يخفى، والله أعلم.

(٤٩٩) وأمَّا الحديث في قوله ﷺ: «**الطِّيَرَةُ شِـرْكٌ**»؛ فهو حديثٌ ثابت حسَّنه المنذري، وصحَّحه جمْع من أهل العلم ومنهم الشيخ ناصر رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَلِأَحْمَدَ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَمْرٍو: «مَنْ رَدَّتْهُ الطِّيَرَةُ عَنْ حَاجَتِهِ؛ فَقَدْ أَشْرَكَ»، قَالُوا: فَمَا كَفَّارَةُ ذَلِكَ؟، قَالَ: «أَنْ يَقُولَ: اللَّهُمَّ لَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُكَ، وَلَا طَيْرَ إِلَّا طَيْرُكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ»).

هذا الحديث يؤيد الضابط السابق الذي ذكرناه؛ أنَّ من ردَّته الطيرة عن حاجته فقد أشرك؛ على التفصيل الذي مر معنا.

وهذا الحديث فيه بحث أيضًا من جهة ثبوته؛ فإن في إسناده ابن لهيعة وفيه كلام معروف. لكن هذا الحديث جاء من رواية ابن وهب عنه، وكذلك من رواية عبد الله بن يزيد المقرئ عنه، وطائفة من أهل العلم تقوِّي ما رواه العبادلة عنه، يعني تقوي الإسناد الذي فيه ابن لهيعة وقد روى عنه العبادلة: عبد الله بن وهب، وعبد الله بن يزيد المقرئ، وعبد الله بن المبارك، إضافة إلى جماعة من الرواة، ولأجل هذا صحَّح هذا الحديث غير واحد من أهل العلم ومنهم الشيخ الألباني رحمة الله تعالى على الجميع.

الشاهد أن الحديث فيه بيان ضابط كون الطيرة شرك، وأيضا فيه ذكر كفارة من يقع في هذا الأمر؛ من وقع في هذا الأمر وأراد أن يُكفِّر أو أن يدفع ما في نفسه فليدعُ بهذا الدعاء: (**اللهم لا خير إلا خيرك ولا طير إلا طيرك**)؛ يعني لا يأتي الخير إلا من قِبلك يا الله، كما أن الطير الذي يتطير به كثير من الناس ما هو إلا مخلوق من مخلوقاتك يا الله. إذًا هو لا يملك جلب خير أو لا يملك جلب شر؛ إنما الأمر كله إليك يا الله ولا إله غيرك.

فجمع هذا الدعاء والذكر بين إثبات التوحيد العلمي وبين إثبات التوحيد العملي؛ بين إثبات المعرفة والإثبات؛ وإثبات توحيد القصد والطلب، وهذا -كما أسلفنا- خير ما يلجأ إليه الإنسان إذا ما أصابه الشيطان بهذه الوساوس التي لا حقيقة لها. والله أعلم.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: (**وَلَهُ مِنْ حَدِيثِ الفَضْلِ بْنِ العَبَّاسِ رضي الله عنهما: «إِنَّمَا الطِّيَرَةُ مَا أَمْضَاكَ أَوْ رَدَّكَ»**)[٥٠٠].

هذا الحديث قال فيه (**وَلَهُ**)؛ يعني الإمام أحمد في «المسند» من حديث الفضل بن العباس عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . والحديث ذكر الشارح الحفيد الشيخ سليمان رَحِمَهُ اللَّهُ في التيسير أنه وجد بخط المصنف تعليقًا على هذا الحديث أنه قال: إن في إسناده رجلاً مُختلفًا فيه، كما أن فيه انقطاعًا، يعني **ذكر أنَّ الحديث قد أُعِلَ بعلتين:**

الأولى: أن في إسناده رجلاً مختلفًا في توثيقه؛ وهو محمد بن عبد الله بن عُلاثة، وهذا الرجل قد ضعَّفه طائفة من أهل العلم، ووثقه طائفة، والحافظ رَحِمَهُ اللَّهُ قال في التقريب: إنه صدوق يخطئ.

أما العلة الثانية: فهي الانقطاع؛ لأن محمد بن عبد الله بن عُلاثة روى هذا الحديث عن مَسلمة بن عبد الله الجهني عن الفضل بن العباس، والصحيح أنه

(٥٠٠) هذا كذلك يؤكد الضابط السابق؛ إنما الطَّيْرة الشركية ما أمضاك أو رَدك؛ إذا كان يترتب على هذه الطّيرة أن تمضي أو تترك فهذه هي الطَّيرة الشركية.

لم يسمع منه، لم يسمع مسلمة من الفضل، وبالتالي فإن الحديث فيه انقطاع، لكن يشهد له الحديث الذي قبله؛ فإنه يدور في المعنى نفسه.

والله تعالى أعلم.



قال المصنف رحمه الله:

٢٩-بَابُ
مَا جَاءَ فِي التَّنْجِيمِ

قَالَ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ: «قَالَ قَتَادَةُ: خَلَقَ اللهُ هَذِهِ النُّجُومَ لِثَلَاثٍ: زِينَةً لِلسَّمَاءِ، وَرُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ، وَعَلَامَاتٍ يُهْتَدَى بِهَا، فَمَنْ تَأَوَّلَ فِيهَا غَيْرَ ذَلِكَ أَخْطَأَ، وَأَضَاعَ نَصِيبَهُ، وَتَكَلَّفَ مَا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ» انْتَهَى.

وَكَرِهَ قَتَادَةُ تَعَلُّمَ مَنَازِلِ الْقَمَرِ، وَلَمْ يُرَخِّصِ ابْنُ عُيَيْنَةَ فِيهِ. ذَكَرَهُ حَرْبٌ عَنْهُمَا. وَرَخَّصَ فِي تَعَلُّمِ الْمَنَازِلِ أَحْمَدُ وَإِسْحَاقُ.

وَعَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «ثَلَاثَةٌ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ: مُدْمِنُ الْخَمْرِ، وَقَاطِعُ الرَّحِمِ، وَمُصَدِّقٌ بِالسِّحْرِ» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَابْنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ.

قال الشارح وفقه الله:

قال رحمه الله : (**بَابُ مَا جَاءَ فِي التَّنْجِيمِ**)؛ أي: من الذم والوعيد.

والتنجيم: مصدرٌ للفعل نَجَّم يُنجِّم[٥٠١]. والتنجيم يطلق على تعاطي علم النجوم المذموم؛ وذلك أنَّ علم النجوم منه ما هو مذموم، ومنه ما هو غير مذموم.

وهذا الباب الذي عقده المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يتعلق ببيان حكم هذا التنجيم الذي صار علَمًا على القسم المذموم من علم النجوم.

---

(٥٠١) وقد عرَّفه شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: «هو الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية».

والـمُنَجِّمُ هو: من يتعاطى التنجيم، وهو من جِنْسِ الكهان والعرافين.(٥٠٢)

---

(٥٠٢) ولا شكَّ أن التنجيم من الأمور التي عمَّت بها البلية وطمَّت، وأصبحت شيئًا رائجًا في العصر الحديث كما كانت كذلك في العصر السابق، فثمَّة أُناس قد تخصَّصوا في هذه الأمور التي ذكرْتُ لكم -لا سيَّما ما يتعلق بالاستدلال على المستقبلات بالنجوم- هذا الأمر قد فشى وانتشر مع الأسف الشديد.

ومن أمثلته: ما تطالعه في بعض المجلات الساقطة التي تضع ما يسمونه بالبروج، قد يقولون: "حظك والبروج" أو يقولون: "حظك اليوم"، وأمثال ذلك، ويزعمون أن الشخص الذي وُلِدَ في البرج الفلاني -في برج الجدي أو في برج الحوت أو في برج الثور وما شاكل ذلك- يقولون: هذا سيحصل له في خلال هذا الأسبوع كذا وكذا؛ سيتعرف على صديق جديد، وننصحه بأن لا يدخل في معاملة تجارية لأنه سيخسر، وأمثال ذلك من هذه الادّعاءات الغيبية الباطلة.

ولا شكَّ أنَّ هذا من ادّعاء علم الغيب الذي من صدَّق به فقد اعتقد أنَّ غير الله ﷻ يعلم الغيب، وهذا ولا شكَّ أمرٌ عظيم. فينبغي على الإنسان أن يُحذِّر ويُنبِه، ويجب أن تُحارَب مثل هذه المجلات، بعض أهل الغيرة يشتد إنكاره على ما تحتويه هذه المجلات من صور محرمة لا تجوز، مع غفلته على احتوائها ما هو أشدُّ منها؛ وهو هذه الشركيات التي من صدَّق بها فقد بخَس حظه وأضاع نصيبه من الإيمان. فواجبٌ على أهل العلم وطلبته التحذير من ذلك والتنبيه، وأن الذي يقرأ مثل هذه الأمور ويصدِّق بها قد عرَّض إيمانه للزوال.

كذلك انتشرت صناعةُ التنجيم عن طريق وسائل الإعلام؛ فثمَّة قنوات متخصصة في هذا الأمر، ويزعم أربابها أنهم ينظرون في النجوم ويعرفون من خلال ذلك الأمور المستقبلة، وقد يوجد من الأغمار والجُهال من يتعلق بمثل هذه التُرَّهات.

وتأصيلاً للموضوع يقال: **إنَّ علم النجوم ينقسم إلى قسمين**: علم تأثير، وعلم تسيير.

- **فأمَّا علم التأثير فإنه ينقسم إلى نوعين**: تأثير عملي، وتأثير علمي. وبيان ذلك فيما يأتي:

- **علم التأثير العملي**: هو اعتقاد أنَّ للنجوم والكواكب العلوية تدبيرًا لهذا الكون. أو هي كما يقول أرباب هذه الصناعة: ما يكون على وجه الأرض من مجرياتٍ وأحداث إنما هي انفعالٌ لفعل النجوم والكواكب، وهذا دين الصابئة المشركين الذين بُعِث إليهم إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ،[٥٠٣] ولم يزالوا موجودين إلى هذا العصر، توجد قلةٌ في بعض البلدان من هؤلاء الصابئة الذين يعتقدون أنَّ النجوم والكواكب مدبراتٌ لشؤون هذا الكون مع الله جَلَّ وَعَلَا، فكما أنَّ الله يدبر شؤون الكون كذلك هذه الكواكب. ويتبع هذا إشراكهم بها مع الله في العبادة؛ حيث إنَّهم يرجونها ويخافونها ويتقربون إليها بأنواع العبادات.

كذلك هناك مواقع في الشبكة العالمية متخصصة في هذا الأمر؛ هناك كتب تُطبع وتُباع؛ (حظك معك) وأمثال ذلك من هذه الكتب تُباع ومع الأسف تُشترى من قِبل بعض المسلمين، يقرأون وينظرون ورُبما يتعلقون.

كذلك هناك معاهد متخصصة يسمونها "معاهد الروحانيين" يتعلمون فيها صناعة التنجيم. المقصود أن هذا كله من البلاء الذي عمَّ، ويحتاج من أهل التوحيد أن ينشطوا في البيان والتحذير؛ فإنه ما أقلَّ من ينكر هذا الأمر، وما أقل من يحذر عنه. والله المستعان.

(٥٠٣) وكان تعلقهم بالنجوم سببًا من أسباب عبادة الأصنام.

وأصل عبادة الأصنام بعضه راجعٌ إلى ذلك، فالأصنام إنَّما هي تماثيل يتذكر بها العابدون معبوداتهم السماوية أو الأرضية؛ الأرضية: يعني ما يعبدونه من الأولياء والصالحين؛ ينصِبون أنصابًا ويجعلون أصنامًا تُمثل هؤلاء الصالحين. كذلك بالنسبة للمعبودات السماوية: يجعلون هياكل وأبنية وبيوتًا يصورون فيها صورًا لهذه الكواكب والنجوم، أو يجعلون لها صنمًا فيتقربون إلى هذا الصنم لأنه يُمثل الكوكب، وهم يعتقدون أيضًا أنَّ روحانيات هذا الكوكب وهي الشياطين في الحقيقة ربما خاطبتهم ولبَّت رغباتهم، فجمَع هذا الشرك بين الشرك في الربوبية، والشرك في الألوهية.

❑ **النوع الثاني: علم التأثير العلمي**؛ وذلك يرجع إلى استدلال أصحاب هذا الدجل بحركات النجوم والكواكب واقترانها وافتراقها على الحوادث المستقبلة الغيبية، يعني يزعمون أنَّ ظهور هذه النجوم والكواكب أو خفاءها أو اقترانها أو افتراقها أو سيرها في الأفلاك، أنَّ هذا به تُعرَف أمور الغيب، فإذا ظهر النجم الفلاني فإنَّ هذا يدل على أنَّ ملِكًا سيموت، أو عظيمًا سيولد، أو أنَّه ستقوم حرب، أو ستحصل هزيمة، أو ما شاكل ذلك. فهذا علم تأثيرٍ علمي يرجع إلى الاستدلال بشأن أمور الغيب التي لم تقع، ويُستدل على وقوعها بحركة النجوم وما إلى ذلك.

ولا شك أنَّ هذين النوعين شركٌ بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

-**أمَّا الأول**: فشركٌ ظاهرٌ في الربوبية؛ فالله عَزَّوَجَلَّ هو الذي يدبر الأمر، وهو الملِك السيد المتصرف في شؤون هذا الكون وحده لا شريك له.

-**وأمَّا الثاني**: فإنه على الصحيح إشراكٌ مع الله عَزَّوَجَلَّ في علم الغيب؛ فالله جَلَّوَعَلَا عنده علم الغيب، ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النحل: ٦٥]، وفي صحيح البخاري من حديث ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «مفاتح الغيب خمسٌ لا يعلمهن إلا الله؛ لا يعلم أحدٌ ما في غدٍ إلا الله» إلى آخر الحديث.

إذًا كل من زعم أن غدًا سيكون كذا من أمور الغيب، أو الأسبوع القادم، أو الشهر القادم، أو خلال هذه السنة سيحصل كذا وكذا من الأمور المستقبلة، فإنه بهذا ادَّعى مشاركته مع الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في علم الغيب، والله جَلَّوَعَلَا تفرد بعلم الغيب.

إذًا هذان النوعان لا شك أنَّهما شركٌ أكبر، وقد جمعهما شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُٱللَّهُ كما في المجلد الخامس والثلاثين من مجموع الفتاوى، عرَّف علم النجوم بما يجمع هذين النوعين، قال: «علم النجوم هو الاستدلال على الحوادث الأرضية بالأفلاك السماوية، وتمزيج الأفلاك السماوية بالحوادث الأرضية»، قال هذا أو كلمة قريبة منها، والمراد -كما ذكرت لك- ما يزعمه هؤلاء من أنَّ ما يكون على ظهر هذه الأرض وما يكون في هذا الكون إنما هو انفعالٌ لفعل هذه الكواكب.

- **ثمة قسمٌ ثالث يرجع إلى التأثير العلمي** لكنه ليس شركًا أكبر، إنما هو شركٌ أصغر؛ وهو ما يزعمه أرباب هذا الدجل من أن الأمور التي وقعت كان

وقوعها بسبب تأثيرٍ من هذه الكواكب وهذه البروج وهذه النجوم، على أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الفاعل حقيقةً لكن هذه أسباب.

وما يذكرونه في هذا الباب إنما هو وهميات، ما جعل الله عَزَّوَجَلَّ هذه الكواكب أسبابًا لحصول هذه الأمور، كما يزعمون مثلاً أنَّ الذي يولد في البرج الفلاني يكون هادئًا بتأثيرٍ أو بسببٍ من هذا البرج، والله جَلَّوَعَلَا هو الذي جعله كذلك، والذي يولد في البرج الفلاني يكون انفعاليًا أو غضوبًا، والذي يولد في البرج الفلاني تكون حالته كذا وكذا، فهؤلاء جعلوا سببًا لأمرٍ لم يجعله الله عَزَّوَجَلَّ سببًا لا من جهة الشرع ولا من جهة القدر، فكان هذا شركًا أصغر كما مر معنا غير مرة.

لاحظ رعاك الله أن علماء الإسلام لا ينفون أن يكون شيءٌ من هذه النجوم والشمس والقمر وما إلى ذلك أن يكون لها سببٌ ما على شيءٍ مما يكون على وجه الأرض، هذا قدرٌ لا ينكره أهل العلم، والشريعة لا يمكن أن تنكر شيئًا واقعًا، انتبه لهذه القاعدة جيدًا ؛ «الشريعة لا يمكن أن تنكر أمرًا واقعًا»، وبالتالي ربما يجعل الله عَزَّوَجَلَّ شيئًا مما يكون في الأجرام السماوية يجعله سببًا لشيءٍ يقع على وجه الأرض. فالشمس مثلاً سببٌ لكثيرٍ من الأمور التي تقع على وجه الأرض؛ من جهة ما يتعلق بإنضاج الثمار، من جهة ما يتعلق بحصول انتفاع بهذا الضوء، أو الحرارة للكائنات الحية، أو ما شاكل ذلك. أو من جهة مثلاً أن يكون هناك سببٌ من القمر في حصول المد والجزر. وقد يكون سببًا شرعيًا، كما أخبر النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عن الشمس والقمر: «إنهما لا ينخسفان لموت أحدٍ ولا

لحياته، ولكن الله عَزَّوَجَلَّ يخوِّف بهما عباده»، فهما إذًا سبب لحصول التخويف، سببٌ لحصول الخوف من العباد.

وإذا كان الأمر كذلك فهذا القدر لا شك أنه ليس داخلاً فيما نتحدث فيه، نحن نتحدث عن جعل هذه الأجرام السماوية سببًا لشيءٍ والحقيقة أنه ليس سببًا، إنما هو شيءٌ يتوهمه هؤلاء في عقولهم، أمَّا ما جعله الله عَزَّوَجَلَّ سببًا فنحن لا ننكر ذلك، ولا يعدُّ اعتباره سببًا قادحًا في التوحيد، مع أننا نعامل هذا السبب معاملة بقية الأسباب؛ فأهل السنة والجماعة في نظرتهم إلى الأسباب يعتقدون أنه لا يوجد سببٌ يستقل بالأمور، بل لابد من اجتماع أسباب، ولابد من زوال المانع، وكل ذلك يكون بتقديرٍ من الله عَزَّوَجَلَّ.

إذًا هذه ثلاثة أحوالٍ لعلم النجوم المذموم، في حالتين منها يكون الحكم أن تعاطي هذا العلم شركٌ أكبر، وفي حالة منها يكون تعاطي هذا العلم شركًا أصغر.

وعلى كل حال توارَد وتكاثر عن أهل العلم -بل هم مجمعون على هذا- أن هذا العلم علمٌ مذموم، ما يزعمونه من علم النجوم الذي هو علم التأثير لا شك أنه مذمومٌ بإجماع أهل العلم، وفي هذا يقول القحطاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في نونيته:

علم النجوم وعلم شرع محمدٍ	في قلب عبدٍ ليس يجتمعان
ألها دليل سعادة أو شقوةٍ	لا والذي برأ الورى وبراني
من قال بالتأثير فهو معطلٌ	للشرع منتحلٌ لقولٍ ثانِ

فالله جَلَّوَعَلَا ما جعل هذه الكواكب أسبابًا مؤثرة في تدبير هذا الكون، ومن شواهد هذا قول النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: قال الله جَلَّوَعَلَا على أثر مطر نزل «قال الله عَزَّوَجَلَّ: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمنٌ بي كافرٌ بالكوكب، وأما من قال: مُطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافرٌ بي مؤمنٌ بالكوكب»، وسيأتي الحديث عن هذا قريبًا في الباب القادم إن شاء الله.

وكذلك فيما يتعلق بالاستدلال بما يكون في السماء على ما يكون في الأرض من أمور الغيب لا شك أن هذا دجل، بدليل ما كان يعتقده أهل الجاهلية من أن الشمس أو القمر إذا خُسفتا أو كُسفتا فإنَّ ذلك يدل على أن عظيمًا يولد أو أن عظيمًا سيموت، فبينَّ النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بطلان هذا الوهم وقال: «إنَّ الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا ينخسفان لموت أحدٍ ولا لحياته»، فدل هذا على أن ما يزعمون من هذا التأثير العلمي أنّ هذا باطلٌ لا شك في بطلانه.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: **(قَالَ البُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ»: قَالَ قَتَادَةُ: «خَلَقَ اللهُ هذه النُّجُومَ لِثَلَاثٍ: زِينَةً لِلسَّمَاءِ، وَرُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ، وَعَلَامَاتٍ يُهْتَدَى بِهَا، فَمَنْ تَأَوَّلَ فِيهَا غَيْرَ ذَلِكَ أَخْطَأَ، وَأَضَاعَ نَصِيبَهُ، وَتَكَلَّفَ مَا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ» انْتَهَى)**.

هذه كلمةٌ حسنة من قتادة بن دعامة السدوسي التابعي الجليل الثقة الثبت رَحِمَهُ اللَّهُ، والمتوفى سنة ثمان عشر ومائة، أو سبعة عشر ومائة عليه رحمة الله(٥٠٤).

---

(٥٠٤) هذا الأثر كما ترى علقه البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيحه»، ووصله غيره؛ كعبد الرزاق، وعبْد بن حُميد وغيرهم بإسناد صحيح عن قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ. والمؤلّف رَحِمَهُ اللَّهُ ذكر طرفًا من الأثر، وإلا فهو أطول من هذا.

هذه كلمة حسنة تلقاها أهل العلم عنه بالقبول(٥٠٥)؛ فالنُّجوم من الحكم التي ظهر لنا في شأنها هذه الأمور الثلاثة، هذا ما ظهر لنا من خلال كتاب الله جَلَّوَعَلَا، وقد يكون لها حِكَمٌ الله أعلم بها، لكن ما ظهر لنا في القرآن والسنة من شأنها راجعٌ إلى هذه الأمور الثلاثة، كما قال القحطاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

إنَّ النجوم على ثلاثة أضرُبٍ ... فاسمع مقال الناقد الدِهقان

بعض النجوم خلقن زينة للسما ... كالدر فوق ترائب النسوان

وكواكبٌ تهدي المسافر في السرى ... ورجوم كل مثابرٍ شيطان

إذًا هذه ثلاث حِكم، **هذا ما يجب أن يعتقده أهل الإسلام في النجوم**.

- أولاً: أنها زينةٌ للسماء.
- وثانيًا: أنها رجومٌ للشياطين، والمقصود بهذا -كما سبق أن درسنا هذا الأمر- أنه ينفصل عن النجوم الشهب التي يُرمى بها سُرّاق أو مسترقوا السمع من الجن.

وقد جمع الله عَزَّوَجَلَّ هاتين الحكمتين في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾[الملك: ٥]. إذًا هاتان حكمتان جمعتهما هذه الآية.

(٥٠٥) (**فالله ﷻ خلق النجوم لثلاث**)؛ «اللام» لام التعليل، و«ثلاث» يعني ثلاث حِكَم.

●وأما الحكمة الثالثة: فبينها الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في قوله: ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦][٥٠٦] . [٥٠٧]

فهذا الذي يجب أن يعتقده الإنسان في هذه النجوم، فمن جاوز ذلك إلى ما وراءه مما يتعلق بتفاصيل علم النجوم من جهة التأثير كما فصلناه، فلاشك أنه قد أخطأ وضل السبيل، وتكلف شيئًا لم يحِط به علمًا بل أضاع نصيبه، لأنَّه أضاع عمره في شيءٍ لا ينفع، بل في شيءٍ قد يضره في دينه.

---

(٥٠٦) المقصود أنَّ الله ﷻ جعل النجوم يُهتدى بها في ظلمات البر والبحر؛ فتُعلم بها الأمكنة والاتجاهات، وهذا من رحمة الله تبارك وتعالى، فالناس في حال كونهم يركبون البحر في السابق إذا أظلمت عليهم الدنيا فليس عندهم من سبب يتعرَّفون به على الاتجاهات إلا النجوم، وكذلك في كون الإنسان يمشي في البرّ؛ إذا أظلمت الدنيا فإنه لا يستطيع أن يستدل بما يكون على وجه الأرض -لا سيَّما في السابق- فيستدل عن طريق هذه النجوم على وجهته.

(٥٠٧) وقوله جلَّ وعلا: ﴿وَعَلامَاتٍ﴾ هل المقصود هي النجوم نفسها يعني هي العلامات؟ أو المقصود أن العلامات هنا هي العلامات الأرضية؟ ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ فتكون النجوم هي العلامات السماوية.

قوله: ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ واضح فيه الاستدلال، لكن في قوله: ﴿وَعَلامَاتٍ﴾ هل مقصود بها النجوم أيضًا؟ أو المقصود أنها تابعة لما قبلها؟ ﴿وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَعَلامَاتٍ﴾؟ فهي العلامات الأرضية كالجبال والهضاب والتلال وما شاكل ذلك، فهي علامات أرضية يُستدل بها على الطرق وعلى الأمكنة، قولان لأهل التفسير في الآية.

هذا العلم الذي يزعمون علم التأثير لـو سلَّمنا جدلنا أنَّه لا مفسدة تترتب عليه، لكن في الواقع أنَّه لا فائدةَ تُرجى من وراءه، ليس هناك أي ثمرة من وراء هذا العلم، إذا علم الإنسان فيما يزعم أن سقوط النجم الفلاني أو ظهوره سببٌ في حصول كذا وكذا، فكان ماذا؟ أيستطيع أن يصنع شيئًا بعد هذا؟ الجواب: لا.

بقية العلوم فيها فائدة، إذا تعلم الإنسان علم الطب كان هذا سببًا في حصول الشفاء، إذا تعلم علم الحساب مثلاً فإنه يستطيع أن يقسم التركات ويستفيد من هذا في أمور حياته، لكن إذا علِم أنه سيكون كذا وكذا فما الثمرة؟ أيستطيع أن يقلب الموت إلى حياة مديدة؟ أيستطيع أن يقلب الهزيمة إلى نصر؟ أيستطيع أن يقلب العداوة إلى صداقة؟ أيستطيع أن يفعل شيئًا؟ الجواب: لا، إنما هو صاغر ومحكومٌ بقدر الله جَلَّوَعَلَا.

لكنَّ المصيبة كل المصيبة أنه صار يخاف زُحل، والمسلمون يخافون ربَّ زُحل، وصار يرجو المشتري، والمسلمون يرجون رب المشتري، صار يخضع للشمس، والمسلمون يخضعون لرب الشمس، هذا إن سلمنا أن هذا العلم له حقيقة وله أثرٌ من صواب، لكن الحقيقة أن هذا كله كذبٌ ودجل ولا حقيقة له.

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية جَلَّوَعَلَا أنه تكلم مع بعض هؤلاء المنجمين، فأقسم له بالله أحدهم أنَّهم يكذبون مائة كذبة في سبيل أن يصدُق كلمةٌ واحدة قالوها، والناس -كما قد تعلمنا هذا في دروسٌ سابقة- يتشبَّثون بهذه الكلمة الصادقة؛ لأجل ما في النفوس من اتّباعٍ للهوى، وتسلُّطٍ من الشيطان على هؤلاء الجهال الأغمار مع الأسف الشديد.

المقصود أن هذه العلوم الفاسدة الكاسدة التي ترجع إلى تعاطي الكهانة، أو الضرب، والطرق، أو الزجر، أو التنجيم، أو ما إلى ذلك كل ذلك من أوهام يتخيلونها أو يخيلونها ويوحونها إلى الجهال، فيتبعونهم على هذا الباطل، وهذا كل مصادمٌ لشرع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

علم النجوم وعلم شرع محمدٍ ... في قلب عبدٍ ليس يجتمعان

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: (**وَكَرِهَ قَتَادَةُ تَعَلُّمَ مَنَازِلِ القَمَرِ، وَلَمْ يُرَخِّصِ ابْنُ عُيَيْنَةَ فِيهِ. ذَكَرَهُ حَرْبٌ عَنْهُمَا. وَرَخَّصَ فِي تَعَلُّمِ الـمَنَازِلِ أَحْمَدُ وَإِسْحَاقُ**).

هذه المسألة راجعة إلى القسم الثاني، كل ما سبق كان يتعلق بالقسم الأول وهو علم التأثير، هذا الذي ذكره رَحِمَهُ اللَّهُ من تعلم منازل القمر وأنه رخص فيه أحمد وإسحاق، وكذلك هذا منصوص مجاهد وإبراهيم النخعي وغيرهم، بل هذا قول جمهور أهل العلم[٥٠٨] أنه لا حرج في تعلم ذلك، وقد يكون هذا مشروعًا من جهة الاستحباب، وقد يكون هذا واجبًا في بعض الأحوال على ما سيأتي تفصيله إن شاء الله.

علم التسيير: هو معرفة حركات النجوم والكواكب ومواقعها للانتفاع بذلك؛ إما بمعرفة مكانٍ أو معرفة زمان، يعني فائدة علم التسيير الذي هو أحد

(٥٠٨) ذكر ابن رجب أن هذا هو مذهب جمهور أهل العلم.

شقي علم النجوم -وهذا ليس مذمومًا بل هو مباح، وقد يكون مشروعًا- **فائدته ترجع إما إلى معرفة زمان، وإما إلى معرفة مكان.**

أما معرفة الزمان؛ فإن أهل الشأن والمعرفة بهذا الأمر يستدلون بظهور القمر في منزلٍ معين على أنَّ الفصل الفلاني فصل الشتاء أو فصل الخريف قد دخل، يستدلون بحركة الشمس وأنها إذا كانت في البرج الفلاني فإنَّ الفصل الفلاني قد دخل؛ وبالتالي فإنهم يبنون على هذا مصالح ترجع إليهم، كأن يكون هذا الوقت هو الذي يُزرَع في النبات الفلاني ويحصد فيه النبات الفلاني، ولا يزرع فيه النبات الفلاني لأن المطر سينزل فيفسد، أو أن المطر لن ينزل كما جرت عادة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في كونه.

وقد يكون هذا استدلالاً على ما كان؛ كأن يستدل بالنجوم على الاتجاهات، فإذا عرف الإنسان مثلاً أن النجم المسمى بالقطب أنه يكون في جهة الشمال، فإنه إذا وضعه أمامه فإنه سيتجه إلى جهة الشمال.

والناس في السابق لاسيما العرب كان لهم عناية فائقة بهذا العلم، وهذا أمرٌ شائع في جميع الأمم، لكنَّ العرب كانت حاجتهم إلى ذلك عظيمة، لأنهم يعيشون في صحاري يحتاجون فيها إلى الاستدلال على الاتجاهات وإلا تاهوا، فكان لهم عناية بهذا العلم وهو علم التسيير. كذلك حينما يُبحِر الإنسان فإنه في السابق لا يجد وسيلة يهتدي بها في ظلمات البحر إلا من خلال معرفته بهذه النجوم، فيعرف الاتجاهات.

وبالتالي فالاستدلال بهذه النجوم على زمانٍ أو مكان هذا أمرٌ قال جمهور أهل العلم بأنه جائزٌ ولا حرج فيه(٥٠٩).

وأما الذين ذموا ذلك، ونقل هذا -أعني عدم الترخيص في تعلم منازل القمر- عن قتادة وعن سفيان بن عيينة، وهذا فيما يظهر والله أعلم **يمكن أن يُخَرَّج على أحد وجهين:**

الأول: أنهم أرادوا ما يرجع إلى علم التأثير، لا إلى علم التسيير(٥١٠).

والثاني: أنهم أرادوا الانشغال بذلك عما هو أولى منه (٥١١).

---

(٥٠٩) ومن أولئك من ذكر المؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهما: أحمد وإسحاق، وكذلك نص على هذا مجاهد والنَّخعي وغيرهم من أهل العلم، ذكر ابن رجب أن هذا هو مذهب جمهور أهل العلم. **ولا شكَّ أن الصواب** أن هذا الأمر جائز؛ وذلك أن الله ﷻ قد امتنَّ على عباده بهذه المنازل التي يُتعلم منها المقادير؛ مقادير الأزمنة والحساب، ﴿لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾، وهذا الامتنان دليل على أن هذا الأمر جائز ولا حرج فيه، وبالتالي فتَعلُّم منازل القمر للانتفاع من ذلك في مصالح الدنيا أو الدين جائز لا حرج فيه.

(٥١٠) وقد يمكن أن يُحمل كلام من كرِه ذلك من السَّلف على تعلم ما لا فائدة فيه، يتعلم الإنسان شيئًا لا ينتفع منه ولا يستفيد منه في مصلحة دينية ولا دنيوية.

(٥١١) ومن المعلوم أن انشغال الإنسان بالمفضول عن الفاضل مكروه، وبخْسٌ في حقه، ونقصٌ في منزلته، وهذا من مداخل الشيطان على ابن آدم، إذا لم يستطع أن يصرفه عن الحق إلى الباطل فإنه يصرفه عن الفاضل إلى المفضول، فقد يكون كراهة من كرِه هذا الأمر من السَّلف محمولة على ذلك، والله ﷻ أعلم.

هذا القدر من العلم فيه قسطٌ مفيد، وفيه تدقيقٌ كثير وتفاصيل شتى لا حاجة بها، كثيرة التعب كما يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ قليلة الفائدة، والانشغال بها قد يضيع الوقت على الإنسان في استثماره فيما هو أولى منه، ولا شك أن انشغال الإنسان بالمفضول عن الفاضل بخسٌ في الحظ والخير، ولذلك من أساليب الشيطان في شأن الذي لا يستطيع أن يضله عن الحق إلى الضلال فإنه ربما أشغله بالمفضول عن الفاضل.

المقصود أن هذا القدر المقطوع والصواب فيه: أنه لا حرج على تعلم الإنسان معرفة ما يتعلق بالكواكب والنجوم لأجل أن ينتفع بذلك في أمر دينه أو أمر دنياه.

وربما يكون هذا الأمر مشروعًا إما استحبابًا أو وجوبًا؛ بمعنى لو قُدِّرَ أن إنسانًا لن يستطيع أن يعرف القبلة إلا من خلال استدلاله عليها بالأجرام السماوية، فأصبح علمه بذلك واجبًا؛ لأن «ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب»، كذلك مثلاً فيما يتعلق بمعرفة الزوال فإن هذا لابد منه، فإذا قدِّر أنه لا يعرف دخول وقت الظهر إلا بمعرفة الزوال صار العلم بذلك في حقه واجبًا، وإن كان هذا في هذه الأزمنة المتأخرة أصبح قليل الفائدة مع وجود هذه الأجهزة الحديثة.

ذكَر هنا أنَّ قتادة وابن عيينة لم يرخِّصا في تعلم منازل القمر، وأن أحمد وإسحاق بل الجمهور أجازوا ذلك.

منازل القمر: هي المواقع التي ينزلها القمر كل ليلة؛ وذلك أن القمر عند أهل علم التسيير له ثمانيةٌ وعشرون منزلًا تظهر للناظر من فوق سطح الأرض إذا نظر إلى القمر فإنه تظهر له هذه المنازل، كل ليلة ينزل منزلًا منها، هذه التي تسمى «منازل القمر»، وفي الليلتين الأخيرتين التي هي التاسعة والعشرين والثلاثين لا يظهر فيها الضوء غالبًا، لأن ما تراه إنما هو المساحة المنيرة من ظهر القمر والتي تكون إذا انعكس عليها ضياء الشمس.

وذلك أنَّ القمر يدور ويسير حول الأرض خلال الشهر، إذا قدَّرنا أن الدائرة وهو يسير في دائرة أشبه بالبيضاوية، وليس بدائرة محكمة، إنما هو أشبه بالدائرة البيضاوية كما يقول أهل الفلك، الدائرة ٣٦٠ درجة، فإذا قسمناها على ٣٠ فإنه يصبح اثنا عشر درجة، كل يومٍ يمشي القمر هذا المقدار المحدد، هذا المقدار المحدد يُسَامِت من السماء نجمًا أو مجموعة نجوم، يسامت من السماء كأنه أصبح نازلاً عند هذه النجوم، ولاشك أنها فوقه بكثير، لكن الناظر إليها يرى أنه أصبح في مسامتة هذه النجم كأنه نزل عندها، وفي اليوم التالي ينتقل فيصبح مسامتًا إلى مجموعة من النجوم أخرى، هذه هي التي تسمى «منازل القمر».

والعرب سموا هذه المنازل الهنعة، والهقعة، وسعد السعود، وسعد الذابح، وسعد بلع، وسعد الأخبية، والدَبران، والثريا، إلى آخر ما ذكروا من الثمانية والعشرين منزلاً؛ هذه هي المقصودة بمنازل القمر، فكل ليلةٍ للقمر منزلٌ ينزله، يعني موقعٌ من السماء أثناء سيره يكون فيه مسامتًا لمجموعة من

النجوم التي تسمى النجوم الثوابت، وهذه يتصورون أشكالاً لها، يرسمونها على شكل أشكال، يعني يربطون بينها بخطوط وهمية في عقولهم فيصبح شكلها على شكلٍ معين.

كذلك الشأن فيما ذكرناه غير مرة في البروج، **البروج هي**: المواقع التي تنزلها الشمس خلال السنة، الشأن فيها كمنازل القمر، لكن في حق الشمس تسمى عند أهل الفلك تسمى «بروجًا»، وفي حق القمر تسمى «منازل»، وهذه هي البروج الاثنا عشر، وكل ثلاثة بروجٌ منها تمثل فصلاً من الفصول الأربعة، وهي التي جُمعت في قول الناظم:

حمَل الثور جوزة السرطان ... ورعى الليث سنبل الميزان

ورمت عقرب بقوسٍ جديًا ... فملا الدلو بركة الحيتان

إذا حفظت هذين البيتين فإنك تستطيع معرفة فصول السنة؛ فالبداية تكون بالحمل، «حمل الثور جوزة»، هذه الثلاثة هي الربيع، وبعد الربيع ينتقل إلى الصيف، وبعد الصيف ينتقل إلى الخريف، وبعد الخريف ينتقل إلى الشتاء، وهكذا دواليك، يسير الأمر بانتظام إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وهذا في الحقيقة الباب من أخذ منه طرفًا فإنه يزيده إيمانًا ويقينًا بالله العظيم، وبصفاته جل وعلا: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾[يونس: ٥]، هذا كله من الحق الذي خلق الله عَزَّوَجَلَّ السماوات وما فيها والأرض وما فيها من أجله

، وكذلك في قوله جل وعلا في سورة يس، ومنازل القمر جاءت في القرآن في موضعين: في سورة يونس، وفي سورة يس: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾[يس: ٣٩]؛ العرجون: هو العِذْق، عذق النخل الذي يحمل الشماريخ، والشماريخ يكون عليها الرطب، سبحان الله إذا قدُم وكبر -يعني تقدم به الوقت- فإنه ينحني، والهلال إذا وصل إلى الليلة المؤخرة أو آخر ظهور له قبل أن يولد من جديد، فإنه يشبه العرجون القديم.

ولاحظ هذه الدقة في هذه الكلمة، «العرجون» ينحني باتجاه النخلة، كذلك الهلال سبحان الله العظيم طرفاه المنيران يتجهان جهة الأرض، بعكس الهلال الوليد فإن طرفاه تكون على غير اتجاه الأرض، وهذا أدق ما يكون في الجملة حينما قال: ﴿حَتَّى عَادَ﴾ رجع ﴿كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾.

المقصود أن إحاطة الإنسان بشيءٍ من هذا العلم أنه أمرٌ حسن، وقد ذكر شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «شرح العمدة» عن الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه أجاز تعلم منازل القمر، بل أخبر عن نفسه أنه تعلَّم ذلك من أهل مكة، وكان الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ له عناية بمثل هذا الأمر، وعلى كل حال أَخْذ طرف من هذا العلم يفيد الإنسان دون شك. والله تعالى أعلم.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وَعَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «ثَلَاثَةٌ لَا يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ: مُدْمِنُ الخَمْرِ، وَقَاطِعُ الرَّحِمِ، وَمُصَدِّقٌ بِالسِّحْرِ» رَوَاهُ أَحْمَدُ وابنُ حِبَّانَ فِي «صَحِيحِهِ»**).

هذا الحديث حديث أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقد خرجه الإمام أحمد وابن حبان وغيرهما، وفيه بحثٌ أيضًا من جهة ثبوته؛ ففيه رجل اسمه أبو حُريز، عبد الله بن الحسين، وهذا فيه كلام، قال فيه الذهبي في الميزان: «فيه شيءٌ»، وقال الحافظ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «صدوقٌ يخطئ»، والحديث له شاهد عند أحمد من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، ولكن فيه أيضًا علة وهي أنه من طريق العوفي.

وعلى كل حال هذا الحديث حسنه جماعةٌ من أهل العلم[٥١٢]، والشيخ الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ أورده في صحيح الترغيب.

المقصود أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبر إن صح الحديث أنه لا يدخل الجنة هؤلاء الثلاثة:

الأول: «مُدْمِنُ الخَمْرِ»، مدمنٌ: يعني مستمرٌ ولا ينفك عن شرب الخمر أبدًا، هذا هو المدمن، فهو مستمرٌ على شربها حتى وفاته، لم يتب إلى الله عَزَّ وَجَلَّ منها.

والثاني: «قَاطِعُ الرَّحِمِ»، يعني قرابته.

والثالث: «مُصَدِّقٌ بِالسِّحْرِ»[٥١٣]، وهذا وجه إيراد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، هذا هو الشاهد من هذا الحديث، ولأجله أورد هذا الحديث في الباب.

وجه ذلك: أن التنجيم شعبةٌ من شعب السحر، ولعلكم تذكرون ما مر بنا من قول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من اقتبس شعبةً من النجوم فقد اقتبس شعبةً من

---

(٥١٢) كالمنذري وغيره.

(٥١٣) هؤلاء الثلاثة جاء الوعيد عليهم بأنَّهم لا يدخلون الجنَّة.

السحر، زاد ما زاد»، هذا الذي قصد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ من إيراد هذا الحديث في هذا الباب.

فلاشك أن علم التنجيم -إن صحت تسميته علمًا- أنَّ هذا داخلٌ في السحر من الوجه الذي ذكرناه سابقًا؛ من جهة أن السحر ما خفي ولطُف ودق سببه، وفيه تأثيرٌ خفيٌ على النفوس، وهذا الشأن أيضًا في التنجيم، وهو من جهة أخرى داخلٌ في حكم الكهانة، والكهانة والسحر حكمهما متقاربٌ إلى حد كبير، كما مر بنا تفصيل ذلك(٥١٤).

لكن قول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هنا إن صح «مصدقٌ بالسحر»، لابد من التفصيل فيه:

من صدَّق أن للسحر تأثيرًا بإذن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فلا شك أنَّه ليس داخلاً في هذا الحديث، مر بنا أن للسحر تأثيرٌ بإذن الله الكوني، وهذا ما أثبته الله عَزَّ وَجَلَّ في كتابه: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾[البقرة: ١٠٢].

إذًا ما المقصود بهذا الحديث؟ الذي يظهر والله تعالى أعلم أنه يراد به أحد أمرين:

---

(٥١٤) ولذلك سُمّي سحرًا؛ لأنه شبيهٌ به أو يدخل في معناه العام. **وإدخال المؤلّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الباب في كتاب التوحيد مناسبته:** أن علم التنجيم قد يكون منافيًا لأصل التوحيد وقد يكون منافيًا لكماله.

الأمر الأول: أن يكون المراد بالسحر هاهنا هو التنجيم، فيكون قد تُوعد بعدم دخول الجنة من صدَّق المنجم في ادعائه علم الغيب، أو أنَّ لهذه الأجرام السماوية تدبيرًا لهذا الكون.

والأمر الثاني أن يقال: إن السحر هو السحرُ بحقيقته العرفية التي تعلمناها والتي فيها معاونة من الشياطين؛ فمن صدَّق بهذا السحر تصديقًا يؤدي إلى إشراكٍ مع الله عَزَّوَجَلَّ، كأن يعتقد هذا المصدق والمتعاطي للسحر والمؤمن به أن الشيطان له مشاركةٌ مع الله عَزَّوَجَلَّ في ربوبيته، أو في أسمائه وصفاته، أو أن لهذا الساحر مشاركةٌ مع الله عَزَّوَجَلَّ فيما يختص به من الربوبية والصفات، فلا شك أنه داخلٌ في هذا الذم. إذًا لابد من التفصيل في هذا الجزء من الحديث، وهو قوله: «ومصدقٌ بالسحر».

لكن لنا وقفة هنا مع هذا الحديث وأمثاله:

أولاً: مر بنا سابقًا قاعدة وهي «دخول أمور عدة تحت وعيدٍ واحد لا يدل على استوائها في الحكم»، مر بنا قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اجتنبوا السبع الموبقات»؛ ذكر الشرك، وذكر قذف المحصنات، وهل هما سواء؟ بين هذا وهذا قدرٌ مشترك، وهو أن هذا موبق وهذا موبق مع قدرٍ مميِّز فارق بين هذا وهذا، فهذا شركٌ وهذا معصية. كذلك الشأن هنا -إن قلنا بصحة هذا الحديث- فلا شك أن إدمان الخمر وقطيعة الرحم من المعاصي، أما تصديق السحر على القدر الذي وصفته لك قبل قليل فلا شك أن هذا شرك، لكن اجتمع الكلُّ تحت حدٍ معين وهو قوله: «لا يدخل الجنة»، هذا وعيد وهو: «لا يدخل الجنة».

نأتي الآن إلى الوقفة الثانية: ما معنى هذا الحديث؟ تكرر هذا اللفظ في أحاديث عدة عن النبي ﷺ: «لا يدخل الجنة قاطع»، «لا يدخل الجنة قتات»، عندنا هذا الحديث الذي بين أيدينا، فما المراد بعدم الدخول؟

هذا الحديث وأمثاله من أحاديث الوعيد **لابد من أن يعلم الإنسان في شأنها أمرين** انتبه لما أقول:

أولاً: ما معنى الدليل؟ وما معنى الوعيد الذي جاء فيه؟

وثانيًا: ضمُّ هذا الحديث إلى غيره من الأحاديث والنصوص بحيث يُفهم فهمًا واحدًا معها.

أُفصِّل هذا:

أولاً: لابد أن تعرف ما مراد النبي ﷺ بوعيده؛ عندنا هذا الحديث: «**لا يدخل الجنة**»، لا يدخل الجنة وعيدٌ توجَّه به النبي ﷺ في هذا الحديث إلى قدرٍ هو معصية، وإلى قدرٍ هو شرك، ولا يمكن أن يستوي هذا وهذا.

الذي ذهب إليه بعض أهل العلم: أن هذا الحديث محمولٌ على شأن المستحل؛ الذي يستحل إدمان الخمر، الذي يستحل قطيعة الرحم، فلا يدخل الجنة دخولاً مطلقًا.

ولا شك أنَّ هذا التوجيه توجيهٌ ضعيف، وقد أنكره الإمام أحمد وغيره من أهل العلم؛ وذلك أن الاستحلال من حيث هو كفر، فأصبح قوله: «**مدمنُ خمرٍ**» لغوًا لا أثرَ له في الحكم، بمعنى لو استحل الخمر ولم يشرب منها قطرةً ما حكمه؟ حكمه أنَّه كافر، ولا يلزم كل من كان مدمنًا للخمر أن يكون مستحلاً.

كذلك من استحل قطيعة الرحم ولم يقطع رحمه فإنه يكفر بذلك، على كل حال هذا التوجيه ليس بوجيه(٥١٥).

أما التوجيه الصحيح: فالقول بأن المنفي في هذا الحديث في حق القاطع وفي حق مدمن الخمر وفي حق القتات وما إلى ذلك، المراد بذلك نفي الدخول المطلق لا نفي مطلق الدخول.

إذًا نفي دخول الجنة إن جاء في الأحاديث وعيدًا على معاصٍ فالمراد: نفي الدخول المطلق، وإن جاء في وعيدٍ في حق كفار فالمراد: مطلق الدخول.

مثلاً في قول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾[الأعراف: ٤٠].

ما المراد بعدم الدخول هنا؟ مطلق الدخول. **ما الفرق؟**

الدخول المطلق: يعني الدخول الكامل، يعني من أول وهلة دون أن يسبَق هذا بعذاب .

أما مطلق الدخول: يعني عدم الدخول أبدًا، لا يدخل أبدا ولا يلج هذه الجنة أبدًا، هذا في حق الكافر، وأما العاصي فإنه متوعدٌ بعدم الدخول مع أول

---

(٥١٥) بعض أهل العلم يرى السكوت عن تفسير هذا الحديث وأمثاله، يقول: "يُمرُّ كما جاء دون تفسير"، وهذا ينبغي أن يُعلم أنه ليس مذهبًا بمعنى ليس المقصود أن يبقى الإنسان غير عالم بمعنى ما يخبر به النبي ﷺ ، إنما هو مسلكٌ في التحذير، فإن السكوت وإطلاق الكلام كما جاء عن النبي ﷺ أبلغ في النفوس وأقوى في التحذير.

الداخلين، وإذا لم يكن مع أول الداخلين أين سيكون؟ إذًا هذا وعيدٌ بدخول النار؛ لأنه إذا لم يدخل الجنة سيكون في النار.

ومعتقد أهل السنة: أن العصاة دخولهم النار دخولٌ مؤقت لا دخولٌ مؤبد، يدخلون النار دخولاً إلى مدة يشاءها الله ثم يُخرجون منها.

إذًا المنفي هنا الدخول المطلق لا مطلق الدخول. وفي قوله تعالى: ﴿وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾، المنفي مطلق الدخول، يعني لا يدخلونها أبدا، فإنَّ الله عَزَّوَجَلَّ حرم الجنة إلا على نفسٍ مؤمنة، حرمها على هؤلاء الكفار(٥١٦) .

هذا الأمر الذي لابد أن تفهمه **أولاً**.

الأمر الثاني: ضمُّ هذا الحديث إلى غيره، فتُفهَمُ النصوص كنصٍ واحد(٥١٧) ؛ بمعنى: فهِمنا الآن أن المراد من هذا الحديث أنه متوعدٌ بدخول النار دخولاً

---

(٥١٦) إذًا ينبغي أن تنظر وأن تتنبَّه إذا مرَّت بك مثل هذه النُّصوص ما الأمر الممنوع أو ما هو الأمر المحرم الذي ورد في هذا الحديث؟ إن كان معصيةً من المعاصي فنفي الدخول هاهنا هو نفي للدخول المطلق لا لمطلق الدخول. وإن كان كفرًا فإنه يكون نفيًا لمطلق الدخول.وعليه؛ فنفي دخول مُدْمن الخمر وقاطع الرحم ليس هو نفيًا لمطلق الدخول، بل للدخول المطلق، فهو وعيدٌ بأنه سيدخل النَّار ثمَّ بعد ذلك يُخرج كما تدل عليه النُّصوص الأخرى.

(٥١٧) وهذا أمرٌ مهم وأصل أصيل عند أهل السُّنَّة والجماعة، ألا وهو أنهم يفهمون النُّصوص كنصٍ واحد، بمعنى أنهم يجمعون ويؤلفون بين النُّصوص ، ولا يفهمون نصًا ويدعون آخر، بل هم يأخذون بالكتاب والسُّنَّة جميعًا فيجمعون بين الأدلة ويؤلفون بينها ويخرجون بعد ذلك بحكم مستفادٍ من جميع النُّصوص.

مؤقتًا، وعدم دخول الجنة الدخول المطلق، لكن هل هذا ضربة لازب؟ واجبٌ أن يكون هذا في حق كل واحدٍ يقع في هذا الأمر؟ الجواب: أننا حتى نحكم على هذا الأمر لابد أن نجمع بين الأدلة ونُؤلف بينها.

فلما نظرنا في الكتاب والسنة وجدنا أن نصوص الوعيد في حق العصاة مطلقا لها أدلةٌ مقيدة، فنفهم هذا الحديث على أنه حديثٌ مطلق وله تقيدٌ في الشرع، ما هو هذا التقيد؟ التقيد قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾[النساء: ٤٨]، فأصبح هذا الوعيد يمكن أن تجعل بجواره قوله: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ ، لأن هذا حق وهذا حق، والحق لا يمكن أن يتناقض. إذًا لا يدخل الجنة إلا أن يشاء الله عَزَّوَجَلَّ.

من أين فهمنا لا يدخل الجنة؟ من الحديث. ومن أين أتينا بـ (إلا أن يشاء الله)؟ من قوله: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ .

طيب لو لم يشأ الله العفو عن هذا العاصي وأراد تعذيبه، فما المراد بهذا الوعيد؟ هل سيخلد في النار خلودًا مؤبدًا؟ الجواب: أن النفي هنا نفيٌ للدخول المطلق، لا لمطلق الدخول(٥١٨)، وهذا معروفٌ في مجاري كلام العرب، فإنهم قد ينفون الشيء لانتفاء شيءٍ مهمٍ فيه، انتبه إلى هذا.

---

(٥١٨) إذًا كلّ وعيدٍ جاء في النُّصوص يجب أن تستحضر في ذهنك هذه القاعدة فيه؛ من فعل كذا دخل النَّار ، تقول مباشرة: إلا أن يشاء الله، لِمَ؟ لأن الله ﷻ قال: ﴿إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾. وهذه القاعدة مفيدة ونافعة وتُريح من فهمها واستوعبها في فهم كثير من النُّصوص التي تُستشكل، فإن النُّصوص -كما أسلفت- يجب

العرب قد ينفون الشيء لانتفاء شيءٍ مهمٍ فيه؛ أضرب لك مثلاً: في شأن الرجل الذي قتل تسعة وتسعين نفسًا ثم ختمها بقتل ذاك العابد فأصبحوا مائة، لما نزلت ملائكة العذاب ماذا قالت حينما اختصمت مع ملائكة الرحمة؟ قالت: «ما عمل خيرًا قط»، والسؤال هل الملائكة تكذب؟ لا، لا يمكن أن تخبر بخلاف الواقع، لا يمكن أن تكذب، والواقع أن هذا الرجل عمل عملاً صالحًا. أليست الهجرة إلى البلاد التي فيها الصالحون عملاً صالحًا؟ الجواب: نعم. إذًا كيف يوجه هذا النفي «ما عمل خيرًا قط»؟ يُحمل على الغالب؛ لأنه قد انتفى شيءٌ مهم من الواجبات ما فعله، فصح النفي على هذه الصيغة «ما عمل خيرًا قط»، والواقع أنه عمل بعض الخير، أراد الخير، أراد التوبة، وسعى إليها.

أن تكون مجموعةً إلى بعضها ومؤلفة إلى بعضها، فليس بين النُّصوص تناقض، وليس بين النُّصوص تنافر، بل إن النُّصوص مؤلَّفة بينها وبين بعضها وكلها خارجة من مشكاة واحدة، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢].

فالذي جاء في النص الأول حق، والذي جاء في النص الثاني حق، لكن القضية أن الأمر يحتاج إلى من يكون من أهل العلم فيجمع ويؤلف، فليس ورود الحديث مطلقًا وورود نصٍ آخر مُقيَّدًا لهذا المطلق، أو ورود حديث عام وورود نصٍ آخر خاص يدل على أن هذا الأمر متعارض، كلا؛ هذا دليل على ضعف علم هذا الإنسان أو ضعف قصْده. أمَّا أهل العلم والإيمان الذين حسُنت مقاصدهم وصحت علومهم فإنَّهم يعلمون أن هذه النُّصوص لا يمكن أن تتعارض بل إنها يمكن أن يؤلَّف بينها بما هو بيّن وواضح ولله الحمد ولا تكلُّف فيه. فحينما قال النبي ﷺ: «لا يدخل الجنَّة» يعلم أن الذين يسمعون هذا الكلام من أهل الإيمان يعلمون قول الله جلّ وعلا: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾.

فدل هذا على أنَّ هذا أسلوبٌ مستعملٌ عند العرب، وتنزيل كلام ربنا جَلَّوَعَلَا ورسوله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في محله هو الفقه، ولأجل الإخلال بهذا ضلَّ من ضل من الفرق، وهدى الله عَزَّوَجَلَّ أهل السنة إلى الحق المحض(٥١٩).

لما أخذت الخوارج والوعيدية طرفًا من النصوص وأعرضوا عن طرف ضلوا، وهكذا لما أخذت المرجئة طرفًا وضلت عن طرف ضلت(٥٢٠)، لكنَّ أهل السنة والجماعة -ولله الحمد والمنة- هداهم الله عَزَّوَجَلَّ للجمع والتأليف بين النصوص، فآمنوا بها جميعًا وقالوا بها كلها، وبذلك حازوا السعادة والتوفيق وإصابة الحق ولله الحمد(٥٢١).

والله أعلم.



قال المصنف رحمه الله:

---

(٥١٩) **إذًا تستطيع أن تجعل هذه قاعدة،** «كل نصوص الوعيد مُقيَّدة بقوله تبارك وتعالى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾».

(٥٢٠) الذين ما فهموا هذه القاعدة ضربوا نصوص الشرع بعضها ببعض؛ فتخبطوا وانحرفوا كالخوارج، أخذوا طائفة من النُّصوص استعملوا نصوص الوعيد ولم يضموا إليها النُّصوص التي قيَّدتها وبيَّنتها فلذلك ضلوا. كذلك الشأن في أهل الإرْجاء فإنهم قد أخذوا بنصوص الوعد دون أن يضموا لها النُّصوص الأخرى التي تدل على تقييد هذه النُّصوص، وبالتالي انحرفوا.

(٥٢١) والحق هُدًى بين ضلالتين؛ وهو ما هدى الله ﷻ أهل السُّنَّة والجماعة إليه.

٣٠-بَابُ

مَا جَاءَ فِي الِاسْتِسْقَاءِ بِالأَنْوَاءِ

وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة:٨٢].

وَعَنْ أَبِي مَالِكٍ الأَشْعَرِيِّ ﵁ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ لَا يَتْرُكُونَهُنَّ: الْفَخْرُ بِالأَحْسَابِ، وَالطَّعْنُ فِي الأَنْسَابِ، وَالِاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ، وَالنِّيَاحَةُ»، وَقَالَ: «النَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِهَا؛ تُقَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطِرَانٍ، وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَلَهُمَا عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ ﵁ قَالَ: صَلَّى لَنَا رَسُولُ اللهِ صَلَاةَ الصُّبْحِ بِالْحُدَيْبِيَةِ، عَلَى إِثْرِ سَمَاءٍ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ، فَقَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟» قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ؛ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا؛ فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ».

وَلَهُمَا مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ مَعْنَاهُ، وَفِيهِ: قَالَ بَعْضُهُمْ: لَقَدْ صَدَقَ نَوْءُ كَذَا وَكَذَا؛ فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَاتِ: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة:٧٥-٨٢].



قال الشارح وفقه الله:

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**بَابُ مَا جَاءَ فِي الاِسْتِسْقَاءِ بِالأَنْوَاءِ**)؛ وهذا الباب الخاتِم للأبواب المتتالية المتقاربة في موضوعها، والتي تناول فيها المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما يتعلق بالسحر والكهانةِ وما يُشبهُ ذلكَ في تأثيره على ما مضى بيانه .

قال: (**الاِسْتِسْقَاءِ بِالأَنْوَاءِ**)؛ **الاستسقاء** المراد به هنا: نسبةُ السُقيا -يعني نسبةُ إنزال المطر- إلى الأنواء.

والأنواءُ: جمعُ نوء، مصدرٌ للفعلِ ناء ينوء، من ذلك قول الله جَلَّوَعَلَا -أعني في هذا الفعل- ﴿لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ﴾[القصص:٧٦]، ومن ذلك ما جاء في الصحيح من قصةِ وفاة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «كُلما أراد أن ينوء» يعني أن ينهض، فَنَاءَ: ينهضُ ويقوم، ناء ينوء: يعني ينهض ويقوم. وقيل: إن هذه كلمة من الأضداد، فتقال على جهةِ النهوض، وتُقال على عكسها.

والمرادُ بالأنواء: هو سقوطُ النَّجمِ وغروبهُ.

وتوضيح ذلك: أن الأنجم أو النجوم التي تكون في السماء إذا غاب نجمٌ منها -وغيابه يكون في الفجر- إذا غاب من جهة المغربِ فإنه يظهرُ في تلك الساعة نجمٌ آخر عند الفجر من جهة المشرق يسمى «رقيبَهُ»، كأنه يراقبه، حتى إذا غرب فإنه يظهر ويُشرق ويصعد، فكانت العرب تَنسِبُ نزول المطر إلى هذا الأمر وهو غروب النجم من جهة المغرب وظهور النجم الآخر الذي هو رقيبه من جهة المشرق، يقولون إنَّ هذا يُنسَبُ إليه إنزال المطر.

وهذا الأمر يتكرر كل ثلاثة عشرَ يوما. تذكرون منازل القمر التي تكلمنا عنها، هذه المنازل للقمر تنزلها الشمس أيضا، ولكنَّ الشمس تمكث في المنزلة

الواحدة ثلاثة عشر يوما تقريبا بعكس القمر الذي يمر بهذه المنزلة في اليوم، أما الشمس فتنزل هذا المنزل ثلاثة عشرَ يومًا، في كل ثلاثة عشر يومًا فإنه يغيبُ نجمٌ ويظهر آخر، فمثلا يقولون: إذا غرب النَثرة أو النُثرة ظهر رقيبه؛ وهو سعد الذابح، يعرفون هذا من خلال المطالعة ومن خلال المشاهدة.

المقصود أنَّ أهل الجاهلية كانوا ينسبون السقيا التي تكون لهم إلى هذه الأنواء، فإذا نزل المطر قالوا: سُقينا بنوء كذا وكذا، أو صدَق نوء كذا وكذا ، فهذا الذي أراد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ عقد هذا الباب لبيان ذمه وفساده؛ قال: (**بَابُ مَا جَاءَ فِي الِاسْتِسْقَاءِ بِالأَنْوَاءِ**) يعني من الذم والنَّهي عن هذا الأمر[٥٢٢].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾** [الواقعة:٨٢]).

هذه الآية سيأتي ذكرها ضمن حديث قادم، وأؤجل الكلام إلى ذلك الموضع إن شاء الله. وهذا شيء نادر في كتاب التوحيد! أن يكرر المؤلف دليلًا في الباب نفسه هذا شيء نادر، ومن ذلك هذا الموضع في هذا الباب.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وَعَنْ أَبِي مَالِكٍ الأَشْعَرِيِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الجَاهِلِيَّةِ لَا يَتْرُكُونَهُنَّ: الفَخْرُ بِالأَحْسَابِ، وَالطَّعْنُ فِي الأَنْسَابِ، وَالاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ، وَالنِّيَاحَةُ»، وَقَالَ: «النَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِهَا؛ تُقَامُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطِرَانٍ، وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ**).

---

(٥٢٢) المقصود أن إمام الدعوة رَحِمَهُ ٱللَّهُ بوَّب هذا الباب بعد أن بوَّب في سابقه على التنجيم؛ لأن الاستسقاء بالأنواء نوعٌ من أنواع التنجيم، فالباب السابق عام وهذا خاص.

هذا حديث أبي مالك الأشعري، وفي الصحابة ثلاثة يُكنون بهذه الكنية، وهذا أحدهم وهو الحارث بنُ الحارث الأشعري، وعلامته أنه تفرد بالرواية عنه أبو سلَّامَ الحبشي.

هذا الصحابي يروي عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّ ثمةَ أربع خصال لا تدَعُها هذه الأمة التي هي أمة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، والمراد أمة الإجابة بكل تأكيد(٥٢٣) ، هذه الخصال وصفها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنها من أمر الجاهلية.

والجاهلية نوعان: جاهلية مطلقة، وجاهلية نسبية.

-**أما الجاهلية المطلقة**: فإنها الحال التي كان عليها الناس قبل بعثة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وانتهت ببعثته، وسميت تلك الفترة بالجاهلية: لأنَّ السائد في ذلك الوقت في الناس هو الجهلُ، وأعظم الجهل الذي كانوا فيه جهلهم بالله عَزَّوَجَلَّ وبحقوقه على عباده.

-**أمَّا الجاهلية النسبية**: فإنها تكون بعد بعثة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مكانٍ دون مكان، وزمان دون زمان، وأشخاصٍ دون أشخاص(٥٢٤)، والمراد بذلك: بقاء شيء من خلال الجاهلية وخصالها؛ فإذا كانت الجاهلية المطلقة قد انتهت فإنه قد بقت بقية من أخلاقها وخلالها وخصالها.

---

(٥٢٣) الاستسقاء بالأنواء على اعتقاد أنَّ هذه الأنواء هي السبب في إنزال المطر أمرٌ باقٍ في هذه الأمة كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم، ولذا كان شيئًا جديرًا بأن يُنبَّه عنه ويُحذَّرُ، وأن يُذكر ما جاء فيه من الوعيد.

(٥٢٤) كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي ذر لمَّا عيَّر بلال رضي الله عنه بأمه: «إنك امرؤٌ فيك جاهلية».

أخبر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن هذه الخصال باقيةٌ في الأمة، والمراد: أنها باقية في مجموعها لا في جميعها، ليس المراد أن هذه الخصال واقعة من كل فردٍ فرد من هذه الأمة بحيث يكون ذلك واقعا من جميعها، المراد أن هذه الخصال واقعةٌ في مجموع الأمة يعني موجودة في الأمة في الجملة، يوجد في الأمة من فيه هذه الخصال، وقد يقل هذا في وقت أو مكان وقد يكثر.

هذه الخصال وصفها النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما ترى بأنَّها (**من أمر الجاهلية**)، ولاشك أنَّ هذا الوصف وصف ذم ومعيب، كل ما كان منسوبًا وموصوفًا بالجاهلية فلاشك أنه مذموم ومعيب، ومن ذلك قول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى﴾ [الأحزاب:٣٣]. إذًا هذا منه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تنفيرٌ عن الوقوع في هذه الخصال.

الخصلة الأولى: الفخر بالأحساب

والأحساب جمع حسب، والحسب هو: الشرفُ الثابت للآباء، والمراد أنْ يتشرف الإنسان ويفخر على غيره بتعداد ما كان عليه آباؤه وأجداده من المفاخر والشرف والسؤدد، فيفخر على الناس ويتعالى عليهم بهذا الأمر.

ولا شك أن هذا أمر مذموم، إذا كان الإنسان مذمومًا بفخره بعمله فكيف بفخره بعمل غيره؟ لا شك أنه أولى بالذم، وهذا أمرٌ قد نهت عنه الشريعة؛ قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما خرَّجه أبو داود والترمذي وأحمد بسند حسن، قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إنَّ الله قد أذهب عنكم عبِّية الجاهلية وفخرها بالأحساب، مؤمن تقي أو فاجر شقي، الناس لآدم وآدم من تراب، لينتهين أقوامٌ عن فخرهم

بالأنساب أو ليكونُن أهون على الله من الجعلان»؛ الجِعلان: جمع جُعَلْ، وهو: حشرة قذرة تشبه الخنفساء.

هؤلاء الذين يفخرون على الناس بأحسابهم وأنسابهم، ويغفلون عن أن الناس مشتركون في أصلهم، كلهم لآدم وآدم من تراب:

الناس من جهة التمثيل أكفاءُ أبوهم آدم والأم حواء
فإن يكن نسب يفاخرون به من بعد ذا فالطين والماءُ

لينتهين هؤلاء أو ليكونن أهون على الله عَزَّوَجَلَّ، يعني يكونون بهذه منزلة وهذا القدر الحضيض النازل السافل الذي يكونون فيه مشَبهين بهؤلاء الجِعلان.

كذلك أخرج الإمام مسلم رَحِمَهُٱللَّهُ من حديث عياض بن حمار المجاشعي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنه قال: «إن الله قد أوحى إليَّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحدٌ على أحد ولا يبغي أحدٌ على أحد»، هكذا حال المسلم أن يكون متواضعا ليِّنًا هيِّنا، بل أن يكون ذليلا لإخوانه المسلمين كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾[المائدة:٥٤]، لا أن يكون شامخًا بأنفه متعاليا بنسبه وحسبه وأصله وفصله، فإنَّ هذا من سخف العقل، ناهيك عما فيه من ضعف الإيمان.

أما الأمر الثاني: الطعن في الأنساب

والطعن في الأنساب فُسِرَ بأمرين:

-**الأول**: أنه القدح فيها من جهة ثبوتها، يعني أن يُشكَّك في أنساب الناس، بأن يقال: فلان ليس بصحيح أنه ينتسب للقبيلة الفلانية، أو أن الأسرة الفلانية في نسبتها إلى القبيلة شك، فهذا طعن في أنساب الناس.

والأمر الثاني: هو القدحُ والعيبُ والذمُ لأنساب الناس وقبائلهم وأُسرهم وعوائلهم؛ بأن يُقال آل فلان فيهم كذا وكذا، والقبيلة الفلانية معيبةٌ بكذا وكذا من الصفات الذميمة. كلُّ ذلك داخل في الطعن في الأنساب، ولا شك أن هذا الأمر فيه ما فيه من البغي، وفيه ما فيه من الغيبة، وفيه ما فيه من إثارة الأحقاد، والواجب أن يكون المسلمون متعاونين متحابين متآلفين[٥٢٥] .

الأمر الثالث: الاستسقاء بالنجوم، والمراد بذلك -كما ذكرت لك- نسبة نزول المطر إلى الأنواء.

وهذا الأمر -أعني نسبة نزول المطر إلى الأنواء- له حالتان:

الحالة الأولى: يكون الحكم فيها الكفر الأكبر؛ وذلك إذا نُسب نزول المطر إلى الأنواء على جهة الإيجاد والفعل؛ بمعنى أن يعتقَد حينما يقول القائل "مطرنا بنوء كذا" أن الذي أنزل هذا المطر إنما هو هذا النوء أو هذا النجم لا ربنا سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ. ولا شك أن هذا شرك أكبر، وهذا ما وقع فيه طوائف من المشركين ، وقد ذكرنا هذا سابقا وقلنا إن الصابئة كانت تعتقدُ أن الكواكب والنجوم مدبرة لهذا العالم وأن ما يكون منها إنما هو انفعال لفعل هذه الكواكب، يعني ما يكون من الكائنات التي تكون في هذا الكون إنما هو انفعالٌ لفعلها. لا شك أن هذا شرك أكبر في الربوبية.

---

(٥٢٥) ولا شكَّ أن هذا أيضًا من الأمور المذمومة؛ سواءً كان الأول أو الثاني، كله طعنٌ في الأنساب وكله مذموم وكله من خصال الجاهلية.

الحالة الثانية: أن يُنسب هذا الفعل -أعني نزول المطر- إلى الأنواء لا على أنَّها المُوجِدة ولا على أنها الخالقة ولا على أنها الفاعلة، إنما يكون ذلك على جهة السببية(٥٢٦). وهذا هو الذي كان عليه أهل الجاهلية الذين بقيت هذه الخصلة من خصالهم في هذه الأمة.

وذلك أنَّ الغالب على المشركين -مشركي العرب قريش وغيرها- أنَّهم كانوا يعتقدون أن الله عَزَّوَجَلَّ هو المنزل للمطر: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾[العنكبوت:٦٣]، فدل هذا على أنهم كانوا يعتقدون أن الله هو الذي يُنْزِلُ المطر جَلَّوَعَلَا بقوته وحوله، فدل هذا على أن هذه الخصلة التي تبقى هي هذه النسبة التي فيها ما فيها من الشرك

---

(٥٢٦) وهذا كفرٌ أصغر، **ووجه ذلك أمران:**

الأول: أنَّ الله ﷻ لم يجعل النجوم والأنواء سببًا لنزول المطر؛ وليتَ من أثبت هذا فإنه قد أثبت سببًا لم يجعله الله سببًا لا شرعًا ولا قدرًا.

والأمر الثاني: أنَّ فيه نسبة النعمة لغير الله تبارك وتعالى، وهذا من كفر النعمة، والواجب أن تُنسب النِعم إلى المُنعِم بها؛ وهو الله تبارك وتعالى.

وهل المقصود في هذا الحديث الأول أو الثاني؟

الأقرب -والله أعلم- أنَّه الثاني؛ لأن النبي ﷺ أخبر أن هذه الخصلة باقية في هذه الأُمَّة، والذي يقع من المنتسبين إلى الإسلام إنما هو الثاني دون الأول، الأول لا يكاد يقع من المنتسِبين إلى الإسلام إلا شذوذًا من بعضهم، لكن الذي يقع كثيرًا ولم يزل إلى اليوم وسيبقى في هذه الأُمَّة إنما هو النوع الثاني، لذا فالأقرب أن المقصود بالحديث إنما هو النسبة السببية إلى النجوم لا نسبة الإيجاد.

الخفي وهو نسبة النعم إلى غير الله عَزَّوَجَلَّ على ما سيأتي بيانه إن شاء الله في الحديث القادم إن شاء الله.

❁ **أما الأمر الرابع فهو: النياحة**، والنياحة: رفع الصوت بندب الميت، والغالب أن يتبع ذلك قول ما لا يحل وفعل ما لا يحل، وتوعد النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النائحة التي تنوح بهذا الوعيد، وإن كانت النياحة مذمومة ومنهيًّا عنها في حق المرأة وفي حق الرجل، لكن لما كانت النياحة في الغالب إنَّما تكون من النساء أخبر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث بهذا اللفظ قال: «النائحة التي ماتت قبل أن تتوب».

وهذا الحديث فيه: أن الكبائر تُكفَّر بالتوبة، وهذا موضع إجماعٍ من أهل العلم(٥٢٧)؛ أنَّ من وقع في كبيرة فتاب إلى الله عَزَّوَجَلَّ منها فإن الله يغفر له ذلك، كذلك إذا وقع في صغيرة من باب أولى، بل كذلك إذا وقع في كفرٍ أكبر فتاب إلى الله عَزَّوَجَلَّ منه فإن الله عَزَّوَجَلَّ يكفِّر عنه ذلك؛ ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾[الأنفال:٣٨]، ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[المائدة:٧٤]، فدل هذا على أنَّ كل الذنوب صغيرها وكبيرها تكفَّر بالتوبة إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. (٥٢٨)

---

(٥٢٧) ؛ لأنه قال: (**إِذَا لَمْ تَتُبْ**)؛ دلَّ هذا على أن الكبائر بل والذنوب والمعاصي عمومًا، بلْ وحتى الكفر إذا تاب منه صاحبه فإنه يكون الحال كأن لم يكن هناك ذنب، يغفره الله تبارك وتعالى.

(٥٢٨) **وهل تُكفَّر الكبائر بغير التوبة؟ يعني بالعمل الصالح؟**

أخبر النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بهذا الوعيد الأكيد الذي يدلك على أنَّ النياحة ذنبٌ عظيم وهو أنَّ الله جَلَّوَعَلَا يجعل سربالًا لها القطران. القطران: مادة تُستخلص من بعض الأشجار ثم تُغلى ثم يطلى ويدهن بها الإبل.

والسربال هو: القميص أو الثوب كما أخبر الله جَلَّوَعَلَا: ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ﴾[النحل:٨١]، هذه المادة مادة شديدة الاشتعال، يعني إذا أُشعل فيها النار فإنها تكون شديدة التوهج والعياذ بالله. وظاهر الحديث -والله أعلم- أنَّ هذا العذاب التي تُعذب النائحة به هو أنها تُطلى بالقطران حتى يكون كالثوب لها، والله عَزَّوَجَلَّ أعلم كيف يكون الأمر.

كذلك يُجعل لها درعٌ من الجرب. والجرب: مرض يصيب الإنسان بحكة شديدة، والدرع: نوعٌ من الثياب وهو من قُمص النساء، فهذا لا شك أنه وعيد يدل على أن النياحة من الذنوب العظيمة -عافاني الله وإياكم من ذلك-.

المسألة فيها بحث وتفصيل، والوقت لا يُساعد على ذلك، لكن الخلاصة أنه قد تُكفَّر الكبائر بالأعمال الصالحة إذا عظُم الإخلاص واليقين في القلب، ويدل على هذا ما ثبت في «الصحيح» من حديث البغِي من بني إسرائيل التي سقت كلبًا فغفر الله ﷻ لها؛ فظاهر الحديث أن مغفرة الذنب إنما كانت بهذا العمل الصالح، ووصفها بأنها (بغِي) دليلٌ على أنها من أهل الكبائر بل ومستمرة على هذا الأمر، فغفر الله ﷻ لها ذلك؛ لأنها قامت بهذا العمل مع صدق ويقين وإخلاص عظيم، وقع في قلبها شيء عظيم. إذًا الأصل أن الكبائر إنما تُكفر بالتوبة، وقد تُكفَّر بالعمل الصالح إذا عظُم في القلب اليقين والإخلاص، والله ﷻأعلم.

المقصود من هذا الشاهد من الحديث إخبار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن هذه الخصلة وهي الاستسقاء بالنجوم خصلةٌ كانت في الجاهلية وباقية في هذه الأمة وستبقى في هذه الأمة، والله المستعان.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَلَهُمَا عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: صَلَّى لَنَا رَسُولُ اللهِ صَلَاةَ الصُّبْحِ بِالْحُدَيْبِيَةِ عَلَى إِثْرِ سَمَاءٍ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟»، قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ؛ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا؛ فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ»).

هذا الحديث حديث زيد بن خالد الجهني المدني الصحابي المشهور رضي الله عنه وأرضاه حديث جليل وهو أصلٌ في هذا الباب، أخبر فيه أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صلى لهم صلاة الفجر، المقصود: صلى بهم، وأتى بقوله «لهم»: لأن المصلي إذا كان إمامًا فإنه يصلي لنفسه ويصلي لمن خلفه أيضا[٥٢٩] .

---

(٥٢٩) يقول: (صَلَّى لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ صَلَاةَ الصُّبْحِ بِالْحُدَيْبِيَةِ) أو الحُديبيَّة وجهان: تسهيل، وتشديد. صلَّى عليه الصلاة والسلام بالصحابة صلاة الصبح بالحديبية، وهي منطقة قريبة من مكة، بعضها الحِلّ وبعضها في الحرم، تسمّى الآن: بـ«الشُميسي».

قال: (عَلَى إِثْرِ سَمَاءٍ) والمراد بالسماء هاهنا المطر، وسمي المطر سماءً على عادة العرب في تسمية الشيء باسم ما يكون مجاورًا له أو سببًا له؛ وذلك أنَّ المطر ينزل من السماء، يعني من العلو(٥٣٠).

وكان هذا المطر في الليل، فلمَّا أصبح النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصلى بهم انصرف فقابلهم بوجهه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وقال لهم: «هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟» ؛ لا شك أنهم لا يعلمون لأنهم لا يُوحى إليهم، لكن هذا فيه أسلوبٌ حسن في التعليم وهو طرح السؤال على المتعلم لأجل تشويقه واستثارة انتباهه.

«قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ»؛ وهكذا المسلم لا ينبغي له أن يتكلف ما لا علم له به، فوضوا العلم إلى من يعلمه، «قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ».

فأخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بما قاله الله جَلَّ وَعَلَا، قال: «أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي»؛ لاحظ معي أن هذا الحديث فيه إثبات أن صفة الكلام لله جل وعلا صفة فعلية اختيارية(٥٣١)، وذلك أن ظاهر الحديث أنَّ الله تكلم بهذا الكلام بعد نزول المطر وحصول كلام العباد الذي به انقسموا إلى مؤمن وكافر. بخلاف قول أهل البدع الذين قالوا إن صفة الكلام صفة ذاتية قائمةٌ بالذات قديمة قِدم الذات، لا شك بأن هذا قول باطل، بل الله يتكلم إذا شاء بما شاء كيف شاء جَلَّ وَعَلَا.

---

(٥٣٠) والمطر يُطلق عليه سماء لأنه نازل من جهة العُلوّ، وكل ما علا فهو سماء.

(٥٣١) فهو يقول إذا شاء متى شاء تبارك وتعالى.

قال الله جَلَّوَعَلَا -وهذا القدر أو هذه القطعة من الحديث حديثٌ قدسي من كلام الله جَلَّوَعَلَا، تكلم الله به حقيقةً، وأخبرنا بهذا الصادق المصدوق عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ .

«أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ»؛ **الناس على إثر هذا المطر انقسموا إلى فريقين،** عباد الله -وكل الناس عباد الله- أصبحوا على إثر هذا المطر قسمين:

١. **قسم مؤمن** هو الذي نسب النعمة إلى الله **جَلَّوَعَلَا**.

٢. **وقسمٌ كافر** وهو الذي جحد نعمة الله **جَلَّوَعَلَا** ونسبها إلى غيره.

قال: «فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ(٥٣٢)؛ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا؛ فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ».

إذًا هذا الحديث فيه أنَّ من الإيمان نسبة النعم إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وشكره عليها. والنعم كلها -صغيرها وكبيرها ظاهرها وباطنها- إنما هي من فضل الله عَزَّوَجَلَّ على العباد، ﴿وَمَا بِكُم مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ﴾[النحل:٥٣]، ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ﴾ لا نعمة غيره ﴿لا تُحْصُوهَا﴾[إبراهيم:٣٤].

أما الذي كان من الموصوفين بالكفر: فهو أنهم نسبوا هذا الفضل ونسبوا هذه النعمة إلى غير الله جَلَّوَعَلَا، نسبوها إلى هذه الأنواء وإلى هذه النجوم والكواكب فاستحقوا أن يوصفوا بوصف الكفر.

والسؤال هنا: هل الكفر في الحديث كفرٌ أكبر؟ أو هو كفر أصغر؟

---

(٥٣٢) وفي هذا إثبات صفة الرحمة والفضل لله تبارك وتعالى على ما يليق به جلَّ وعلا.

قال بعض أهل العلم: إنه يشمل الأكبر والأصغر؛ فمن قال هذا القول على أن النوء هو الذي أنزل المطر فذلك في حقه كفرٌ أكبر. وأما من كان يعتقد أن الله عَزَّوَجَلَّ هو المُنزل للمطر ولكنه في قوله فقط نسب ذلك إلى النوء فهذا كفرٌ أصغر.

وقال بعض أهل العلم: بل هذا الحديث إنَّما تعلق بالكفر الأصغر، فالوارد في الحديث إنما هو ما كان كفرًا أصغر فقط(٥٣٣)، ولا يدخل في هذا الحديث ما إذا كانت النسبة نسبة إيجاد، نعم لا شك أنه كفرٌ أكبر لكنه ليس المراد في الحديث.

وهذا الأقرب والله تعالى أعلم؛ وذلك لأنَّ النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أخبر أن هذا القول -كما في الحديث الذي مر بنا قريبًا- أخبر أن هذا سيكون باقيًّا في الأمة، ولاشك أن أمة محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إنَّما يقع فيها غالبًا ما هو من هذا الجنس، أمَّا ما كان من الشرك الأكبر والكفر الأكبر فإن هذا إن وقع فإنما يكون شاذًا -أعني في نسبة المطر إلى النجوم- وأما الذي يقع كثيرًا فهو ما كان من هذا الجنس الذي هو شركُ وكفر أصغر.

ناهيك عن أن لفظ الحديث لا يساعدُ على أنَّ المراد هو الكفر الأكبر؛ وذلك أن الحديث مساقه مساق نسبة النعمة لا الإيجاد، بدليل: أن الأولين ماذا قالوا؟ هل قالوا أمطرنا الله؟ أنزل الله علينا؟ إنما قالوا: (مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ)، والآخِرون هل قالوا أمطرنا النوء؟ أنزل علينا النوء؟ لا، إنما قالوا:

---

(٥٣٣) يعني من قال (بِنَوْءِ كَذَا) الباء هنا للسببية فقط، مع اعتقاد أن الله ﷻ هو الذي أنزل هذا المطر، فيكون كفرًا أصغر.

(مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا). فدل هذا على أن المقام مقام نسبة للنعمة وليس مقام ذكرِ الموجِد. فدل أن هذا الحديث إنما تعلق بهذه الصورة [٥٣٤].

ولاشك أن نسبة النعم إلى غير الله عَزَّوَجَلَّ أنَّ هذا من الكفر الأصغر والشرك الخفي في الألفاظ، وهذا ما سنفصِّله إن شاء الله عند الكلام عن باب قول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾[النحل:٨٣]. لا شك أن من جنس جحد نعمة الله سبحانه أن لا تُنسب النعم إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وإنما تنسب إلى غيره ولو بمجرد القول، كما قال بعض السلف في تفسير الآية السالفة: "كان البحر هادئا، وكان الملاح حاذقا"، وما شاكل ذلك من هذه الألفاظ التي تكثر في كلام الناس مع الأسف الشديد.

الواجب أن تُنسب النعم إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى بالقلب وباللسان وبالجوارح، أما نسبتها إلى غير الله عَزَّوَجَلَّ فإن هذا لا شك أنه من جحود نعمة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، فإذا انضاف إلى هذا أنَّ ما نُسب إليه ليس بسبب أصلًا كان هذا سببا إضافيًا لكونه شركًا أصغر؛ لأنه اعتقد سببا ما لم يجعله الله سببا لا شرعا ولا قدرا.

وهذا الحديث فيه تنبيه على أمر مهم ينبغي أن نستفيده ألا وهو: قول الإنسان -مجرد قول- "مطرنا بمطر كذا وكذا" مع اعتقاده أن الله عَزَّوَجَلَّ هو المنزل للمطر بقوته وبمشيئته جَلَّوَعَلَا ومع ذلك جاء وصف هذا القائل بأنَّه كافر، فكيف يكون الحال في شأن من استغاث بغير الله وصرف لب العبادة لغيره؟

---

(٥٣٤) وهذا الحديث يتعلق بمن قال هذا القول على جهة السببية فقد وقع في الكفر يعني الكفر الأصغر.

أرأيتم لو أن هذا الإنسان قال: "يا أيتها الأنواء أغيثيني" ما رأيكم أيكون كافرا؟ إذا كان مجرد قوله "مطرنا بنوء كذا" كفرا؛ إذا قال "يا أيتها الأنواء أغيثيني"، "المدد المدد"، ما رأيكم؟ أليس هذا أولى بالكفر؟ وماذا لو قال: "يا سيدي فلان يا صاحب القبر أغثني"، أليس هذا كفرًا؟ ما الفرق؟! لا فرق بين الصيغة الأولى والصيغة الثانية.

فأين عقول القبوريين؟ أين هم عن هذا الوحي والنور المحمدي الذي جاء به النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من عند ربه؟ مجرد قول فيه نسبة نعمة إلى غير الله لم يقم فيها الإنسان بواجب الأدب مع الله عَزَّوَجَلَّ، كان واجب الأدب يقتضي منه أن ينسب النعمة إلى الله ﷻ فلم يفعل ونسبها إلى غيره بلفظه فقط؛ فوصفه الله عَزَّوَجَلَّ بأنه كافر ونقل هذا إلينا النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكيف بالذي صرف العبادة لغير الله أصلا؟! لا شك بأنه أولى بهذا الوصف، بل إن كفره كفرٌ أكبر وليس كفرًا أصغر.

هناك وجه آخر أيضا يؤيد أن المقام يتعلق بنسبة النعم وشكرها وليس إيجادها وهو ما سيأتي في سبب نزول قول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿**وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ**﴾[الواقعة:٨٢]، والذي سيأتي إن شاء الله معنا في أثر ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا؛ فإنَّ فيه أن الناس بعد أن نزل مطر قال الله عَزَّوَجَلَّ: «أصبح عبادي شاكر وكافر»؛ فلاحظ أنه هنا ذكر الشكر فدل هذا على أن المقام مقام الشكر وليس مقام نسبة الإيجاد، والله ﷻ أعلم.

قال رَحِمَهُ اللهُ: (وَلَهُمَا مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ مَعْنَاهُ، وَفِيهِ: قَالَ بَعْضُهُمْ: لَقَدْ صَدَقَ نَوْءُ كَذَا وَكَذَا؛ فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَاتِ: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ * تَنزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ * وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة:٧٥-٨٢]).

هذا الأثر نسبه المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ إلى الشيخين، والصحيح أنَّه ليس في البخاري وإنما في مسلم فقط، وفيه بيان سبب نزول هذه الآيات من سورة الواقعة. وذلك أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ لما نزل مطر انقسم الناس؛ قال بعضهم "مطرنا بفضل الله"، وقال آخرون: "صدق نوء كذا"، قال الله عَزَّوَجَلَّ: «أصبح من عبادي شاكر وكافر»، فنزلت هذه الآيات.

وتفسير هذه الآيات يطول به المقام، وقد جرت عادتنا على أننا نعلق على ما يتعلق بالباب فقط، **ويهمنا هنا أن نعرف تفسير آيتين من هذه الآيات.**

الأولى: قول الله تعالى ﴿**فلا أقسم بمواقع النجوم**﴾[الواقعة:٧٥]؛ اختلف العلماء اختلافًا طويلا في هذه الصلة ﴿**لا أقسم**﴾ ، وهذا قد تكرر كثيرًا في القرآن، والأقرب والله أعلم أن «لا» هاهنا صفةٌ تفيد التوكيد، والتوكيد هاهنا هو بالتكرار؛ فإن هذه اللفظة «لا» تقوم مقام تكرار الكلام، كأنه قال في غير القرآن:

أقسم بمواقع النجوم.. أقسم بمواقع النجوم، ولا شك أن التكرار يفيد التوكيد، لعل هذا أقرب ما يقال في ذلك[٥٣٥] .

﴿فلا أقسم بمواقع النجوم﴾[الواقعة:٧٥]؛ اختلف المفسرون في مواقع النجوم إلى أقوال:

فمنهم من قال: أن مواقع النجوم انتثارها يوم القيامة.

وقيل: إن مواقع النجوم منازلها ؛ على ما مضى شرحه وبيانه.

وقيل: إن مواقع النجوم عَنَىَ الله بذلك مطالعها ومغاربها.

الشاهد أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أقسم بمواقع النجوم؛ وهذا هو التفسير الأقرب أن النجوم هي نجوم السماء، وهذا الذي عليه أكثر المفسرين، بل هذا هو القول الصحيح الذي لاشك فيه لِدِلالة سبب النزول.

وقال بعض أهل العلم: إن النجوم هاهنا نجوم القرآن، والمراد بنجوم القرآن: آجال نزوله. تعلمون أن القرآن ما نزل على النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ دفعةً واحدة، إنما نزل مُنَجَمًا، فرقه الله عَزَّوَجَلَّ لحكمة بالغة ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ﴾[الإسراء:١٠٦]، فأقسم الله عَزَّوَجَلَّ بنجوم القرآن، يعني آجال نزوله، فإنه نزل شيء بعد شيء، وهذا له حكمةٌ بالغة أرادها الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وأحبها.

---

(٥٣٥) وبعض أهل العلم ذهب إلى أن (لا) هنا نفي لما ادّعاه المشركون في كتاب الله ﷻ أنه شعر وأنه كهَانة إلى غير ذلك؛ فجاء النفي لذلك، (فَلا) يعني هذا تعلق بقوله، ثمَّ استُأْنِفَ القسم ﴿أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾. والأول أقرب ولا شكَّ.

المقصود أن القول الأول هو الأقرب. **وبالتالي فمواقع النجوم** إما أن يقال إنها منازلها، وإما أن يقال إنها مطالعها ومغاربها -وهذا هو الأقرب- ، وقيل إن ذلك انتثارها يوم القيامة.

والله عَزَّوَجَلَّ له أن يقسم بما يشاء من خلقه، وإقسامه بشيء من خلقه فيه من تفخيم وتعظيم هذا المخلوق. أما المخلوق فهو ليس له إلا أن يقسم إلا بالله جَلَّوَعَلَا، وهذا -أعني القسم والحلف بغير الله جَلَّوَعَلَا- منكر يجب على المسلم أن يتوب إلى الله منه، وأن ينكره من غيره؛ لأنه من الشرك، إذا قال: "وحياتك"، إذا قال: "والكعبة"، إذا قال: "والنبي"، لا شك أن هذا من المنكر الذي يجب أن يتقي الله المسلم في نفسه وأن يتوب إلى الله عَزَّوَجَلَّ منه، قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «من كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت»، قال عليه الصلاة والسلام: «من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك».

- **أما الآية الثانية التي تهمنا هنا** فهي آخر السياق الذي أراد المؤلف رَحِمَهُٱللَّهُ الاستدلال به وهو ما مر بنا في أول الباب: ﴿**وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون**﴾ [الواقعة:٨٢].

اختلف المفسرون في تفسير قول الله جَلَّوَعَلَا ﴿**رزقكم**﴾:

فقيل: إن الرزق ههنا هو القرآن؛ لأنه فضلٌ من الله ونعمة. وهذا إذا فسرنا النجوم أولًا بنجوم القرآن.

والقول الثاني: هو أن الرزق هو ما يتفضل الله به عَزَّوَجَلَّ به، ومن ذلك المطر؛ وهو ما يشهد له سبب نزول الآية.

ومعنى قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون﴾[الواقعة:٨٢] **اختلف العلماء في هذه الكلمة؛ هل المراد بالرزق ههنا الشكر ؟ أو أن هاهنا حذفًا؟**

قال بعض أهل العلم: إن ههنا حذفًا وهو المضاف؛ وتجعلون شكر رزقكم أنكم تكذبون، وأكثر المفسرين على هذا.

وقيل: إنَّ الرزق هاهنا لا حاجة لإضمار شيء قبله، إنما هو (تجعلون رزقكم) يعني: تجعلون الرزق الذي رزقتموه منسوبًا إلى غير الله جَلَّوَعَلَا ؛ هذا المراد بقوله: ﴿أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾؛ فدل هذا على أن نسبة المطر إلى الأنواء نسبةٌ كاذبة وافتراء ليس بصادق، إنما الصدق والحق والإيمان أن تنسب الرزق وتنسب الأمطار إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

وقيل: إنَّ الرزق هاهنا هو الحظ والنصيب، وهذا الذي قاله الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ تجعلون حظكم ونصيبكم من نعمة الله عَزَّوَجَلَّ ورزقه أنكم تكذبون بها فتنسبونها إلى غيره. (٥٣٦)

---

(٥٣٦) والمقصود: أن هؤلاء المشركين لمَّا أنزل الله ﷻ هذا المطر أو أنزل الله ﷻ القرآن -على الاختلاف في تفسير الآية- جعلوا شكر رزقهم أنهم كذَّبوا، إمَّا بأن نسبوا هذه النعمة لغير الله ﷻ ، والقول الصدق والحق أن تُنسب إلى جلَّ وعلا، أو جعلوا شكر الله ﷻ على نعمة إنزال القرآن أنهم كذَّبوا، أو جعلوا حظهم ونصيبهم من هذه النعمة العظيمة هي التكذيب بهذا القرآن، وبئس الحظ والنصيب أن يكون نصيب الإنسان وحظه من كتاب الله ﷻأنه يُكذِّب به.

والخلاصة أيها الكرام: أنَّ الواجب في شأن الأمطار كما هو الواجب في غيرها من نعم الله جَلَّوَعَلَا أن تنسب إلى الله سبحانه، وأن يُشكر هو وحده عليها، وهذا مع الأسف الشديد قد وقع في خلافه كثير من الناس.

اليوم تسمع على ألسن كثير من الناس نسبة المطر إلى المرتفعات الجوية والمنخفضات الجوية والكتل الباردة وما شاكل ذلك، ولا تكاد تسمع نسبة ذلك إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى! وهذا لا شك أنه داخل في هذا المعنى الذي نتحدث عنه، لا تجوز هذه النسبة، الواجب أن تنسب النعم إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

ولا إشكال في أن يقال أن ذلك راجعٌ إلى سبب، فالشريعة كما ذكرنا لا تعارض أمرا واقعًا، والله عَزَّوَجَلَّ قد يخلق الأشياء بأسبابها، لكنَّ المهم والـمُقَدَّم هو أنه يجب أن تنسب هذه النعم أولًا إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.[٥٣٧]

---

(٥٣٧) وعلى كل حال الذي يهمّنا أو الذي يختص بهذا الموضوع في (**بَابُ مَا جَاءَ فِي الاِسْتِسْقَاءِ بِالأنواء**) هو هذا المعنى الذي ذكرت؛ وهو أن نسبة النجوم أو نسبة المطر إلى النجوم والأنواء نسبةٌ كاذبة، سمَّاها الله ﷻ: كذبًا، فهذا الاعتقاد الذي يُعتقد الآن من بعض الناس وأن هذه الأمطار إنما تنزل بسبب أن النجم الفلاني قد طلع أو أن النجم الفلاني قد غرب هذا أمر توهّمي باطل لا حقيقة له. قدر مرَّ معنا فيما مضى قوله ﷺ: «ولا نْوء»، فنفى النبي ﷺ هذا الاعتقاد الذي كان منتشرًا في الجاهلية والذي أيضًا يقع في هذه الأمة -يعني من بعض أُمَّة محمد ﷺ- وسيبقى هذا الأمر كما أخبر عليه الصلاة والسلام.

بقيت مسألة أخيرة: وهي حكم من قال "مطرنا بنوء كذا" ومراده في نوء كذا؟ بمعنى أنه يريد أن يذكر الظرفية أن يذكر الظرف الذي كان فيه نزول المطر، هل يجوز أن يقول هذا أم لا؟

الباء قد تأتي ظرفية، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿**وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ**﴾[الصافات:١٣٧-١٣٨]، يعني وفي الليل، فالباء قد تأتي ظرفية؛ فمن هاهنا قال بعض أهل العلم -وهذا نص الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه الأم- أن القائل لو قال: "مطرنا بنوء كذا" وأراد في نوء كذا، قال: (إن هذا ليس بكفر وغيره من الكلام أحبُّ إلي)، يرى رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن هذا اللفظ ليس داخلا فيما جاء في الأدلة من الذم والتحذير ووصف هذا بأنه كفر، لكنه يرى أن استعمال غير ذلك من الألفاظ أولى وأحرى.

والتحقيق في هذه المسألة والله تعالى أعلم أن يقال: إنَّ اللفظ بقرائن الأحوال إذا دلَّ على احتمال هذا اللفظ لهذا المعنى فإنه لا شك أنه لا يكون كفرًا. إذا دل اللفظ مع قرائن الأحوال على أن هذه النسبة نسبة ظرفية -يعني أن الباء للظرفية- فإنه هذا لا شك لا يكون كفرًا، ولكن مع ذلك ينبغي أن يُوجه القائل إلى ترك استعمال اللفظ الذي فيه إيهام، فنقول له: إذا قال "مطرنا بنوء كذا" ماذا تريد؟ قال أريد أننا مطرنا في نوء كذا، يعني مطرنا في الوقت الذي ناء فيه هذا النجم أو ظهر فيه هذا النجم، أنا فقط أقول إن هذا هو الوقت الذي مطرنا فيه. فنقول: لا بأس، المعنى الذي أردته صحيح، لكن الأولى بك أن تتكلم بلفظ ليس فيه أدنى التباس، فقل: مطرنا في نوء كذا وينتهي الإشكال.

وهذه **قاعدة** ؛ أن الألفاظ التي تستعمل استعمالا باطلًا وقد تستعمل استعمالا صحيحًا ينبغي النصيحة والتوجيه بترك استعمالها أخذًا بالثقة وعملا بالاحتياط، قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك».

الخلاصة التي نريد أن نصل إليها: أن نسبة الأمطار إلى الأنواء والكواكب والنجوم وما إلى ذلك تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

- **القسم الأول**: أن تكون النسبة نسبة إيجاد؛ فهذا لا شك أنَّه كفرٌ أكبر.
- **القسم الثاني**: أن تكون النسبة نسبة نعمة إلى غير الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ**، والباء باء السببية؛ فهذا كفرٌ أصغر وشرك خفي على ما جاء في الأدلة، طبعًا إذا اعتقد أن الله **عَزَّوَجَلَّ** هو الذي أنزل المطر.
- **القسم الثالث**: أن يكون مراده الظرف؛ يعني أن تكون الباء هاهنا ظرفية؛ فنقول إن هذا ليس بكفر أكبر ولا أصغر، لكن الأولى استعمال اللفظ الذي لا لبس فيه، فقل: "مطرنا في نوء كذا وكذا".

والله عَجَّلَ أعلم.



قال المصنف رحمه الله:

٣١-بَابُ

قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾[البقرة:١٦٥] الآيَةَ.

وَقَوْلُه: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة:٢٤] الآيَةَ.

عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ» أَخْرَجَاهُ.

وَلَهُمَا عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا للهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ؛ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ». وَفِي رِوَايَةٍ: «لَا يَجِدُ أَحَدٌ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ حَتَّى ...» إِلَى آخِرِهِ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: «مَنْ أَحَبَّ فِي اللهِ، وَأَبْغَضَ فِي اللهِ، وَوَالَى فِي اللهِ، وَعَادَى فِي اللهِ؛ فَإِنَّمَا تُنَالُ وِلَايَةُ اللهِ بِذَلِكَ، وَلَنْ يَجِدَ عَبْدٌ طَعْمَ الإِيمَانِ - وَإِنْ كَثُرَتْ صَلَاتُهُ وَصَوْمُهُ - حَتَّى يَكُونَ كَذَلِكَ، وَقَدْ صَارَتْ عَامَّةُ مُؤَاخَاةِ النَّاسِ عَلَى أَمْرِ الدُّنْيَا، وَذَلِكَ لَا يُجْدِي عَلَى أَهْلِهِ شَيْئًا» رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾ قَالَ: «الْمَوَدَّةُ».



قال الشارح وفقه الله:

إنّ المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ انتقل من هذا الباب إلى الكلام عن أهم العبادات القلبية التي لا يكون التوحيد إلا بها، وبدأ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالكلام عن عبودية المحبة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والمحبةُ لا تُعَرَّفُ بأكثر من لفظها؛ لأنَّ المعاني الكلية معلومةٌ بالبداهة ولا يزيدها التعريف إلا غموضًا.

محبة الله عَزَّوَجَلَّ هي لب العبودية، وروح الإيمان، وساق شجرة الإسلام، وأعلى مراتب الإحسان، وهي أساس كل خير، وكل نعيم في الدنيا والآخرة فهو من ثمرات هذه المحبة، محبة الله جَلَّ وَعَلَا حقيقة العبادة(٥٣٨)، فإنّ الإله هو المعبود عن محبةٍ وخضوعٍ وتعظيم؛ أَلِه يألَه أُلوهةً وإلهية بمعنى: عَبَدَ وذَلَّ وخَضَع محبةً وتعظيمًا، فالدين كله راجعٌ إلى هذا الأصل العظيم ألا وهو محبة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وإذا فهمت هذا؛ فهمت السبب الذي لأجله قال خليل الرحمن عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لما أفل الكوكب: ﴿قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ﴾[الأنعام:٧٦]، لم يقل لا أعبد، أو لا أخاف، أو لا أرجو الآفلين، قال ﴿لا أُحِبُّ الآفِلِينَ﴾ لأنّ المحبة هي لب العبودية، ولما أفل الكوكب كان هذا دليلاً على أنه ليس ربًا، وبالتالي لا يكون إلهًا ولا معبودًا، فهو لا يستحق أن يُعبد، وبالتالي قال: ﴿لا أُحِبُّ الآفِلِينَ﴾.

---

(٥٣٨) وهي المحركة لطاعة الله تبارك وتعالى، بل أصل العبادة هي المحبة، فالعبد يأْلَهُ الله جلَّ وعلا، فهو إلهه أي مألوهه، وأَلِه إلهةً: أي خضع محبةً وذلًا وتعظيمًا. فالمحبة إذًا هي الأصل، وعنها نشأت سائر أنواع العبوديات قلْبيةً أو بدنية.

وهذا المقام العظيم كان نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يسأل الله ربه أن يبلِّغه إياه، فكان من دعائه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «اللهم إني أسألك حبك، وحب من يحبك، وحب العمل الذي يقربني إلى حبك».

والمحبة في الجملة من حيث هي تنقسم إلى قسمين: محبة مشتركة، ومحبة خاصة.

أما المحبة المشتركة فيمكن أن نجعلها في ثلاثة أقسام:

- **القسم الأول: المحبة الطبيعية**؛ وهي محبة ما يميل إليه الإنسان بحكم الطبع من مطعومٍ أو مشروبٍ أو زوجٍ أو ما شاكل ذلك، وهذا أمرٌ لا محظور فيه، وقد كان النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** يحب الحلواء والعسل، ويحب الشراب الحلو البارد، ويحب الدُّبَّاء، ويحب من الثياب ما كان أبيضًا، وقال **عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ**: «حُبِّب إليَّ من دنياكم الطِّيب والنساء».
- **والقسم الثاني: محبة الإجلال والإشفاق**؛ محبة الإجلال كمحبة الولد لوالده، ومحبة الإشفاق كمحبة الوالد لولده.
- **والقسم الثالث: محبة الأنس والمناسبة**؛ وذلك كمحبة الإنسان لأُلّفٍ يألفه وزميل يزامله في دارٍ أو عملٍ أو سفرٍ أو ما شاكل ذلك.

هذه المحبة المشتركة يعتورها الأحكام التكليفية الثلاثة: الاستحباب والإباحة والتحريم.

أما كونها مباحة فإنّ ذلك مشروطٌ بثلاثة شروط:

-**الشرط الأول**: أن تكون هذه المحبة مأذونا بها شرعًا؛ بمعنى أن يكون هذا المحبوب قد أذن الله وأباح محبته، وبالتالي فإنّ ما حرم الله عَزَّوَجَلَّ لا تجوز محبته؛ كمحبة الخمر ومحبة الخنزير ومحبة الفاحشة وما إلى ذلك.

-**الشرط الثاني**: أن لا تكون هذه المحبة مشغلةً عمَّا يحبه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، يجب أن يكون الله عَزَّوَجَلَّ وما يحبه الله عَزَّوَجَلَّ هو المُقدَّم، وبالتالي فهذه المحبوبات والتي يهواها الإنسان لا يجوز أن تبْلُغ إلى أن تُشغل الإنسان عن محبوب الله جَلَّوَعَلَا.

-**الشرط الثالث**: أن لا تبلغ هذه المحبة إلى أن تكون مساويةً لمحبة الله ورسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ فإن الذي يجب -كما سيأتي بيانه إن شاء الله- أن يكون الله ورسوله أحبَّ إلى المرء من كل ما سواهما.

إذًا هذه هي المحبة المشتركة، وهذا الحكم حين يكون الإباحة.

أما إذا كانت هذه المحبة غير مأذونٍ فيها، أو أشغلت عما يحبه الله، أو بالغ الإنسان فيها حتى وصلت إلى أن تكون في مصافِّ محبة الله ورسوله، فإنها حينئذ تنتقل إلى أن تكون محبة محرمة.

أمَّا إذا استعمل الإنسان هذه المحبوبات وطوَّعها لأجل أن تكون سببًا لنيل محبة الله جل وعلا، فأحبها لأنَّها تُبلِّغه إلى محبة الله؛ كانت في حقه مستحبة. إذا كان يحب الطعام لأجل أنه سوف يقوى به جسده ليقوى على طاعة الله جل وعلا؛ كانت هذه المحبة في حقه مستحبة، وهكذا.

إذًا هذا هو القسم الأول وهو المحبة المشتركة.

أمَّا القسم الثاني: فهو المحبة الخاصة؛ هذه المحبة هي محبة العبودية. محبة العبودية: هي المحبة التي تقتضي تمام الذل والخضوع وكمال الطاعة والإيثار على الغير، هذه المحبة اختص الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بها، ولا يجوز أن تُصرف لغيره، ولا يجوز أن يشْرَكه فيها غيره، ولذا قلنا هذه هي المحبة الخاصة، يعني التي يختص الله عَزَّوَجَلَّ بها، وهي التي أراد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بيانها والكلام عنها حينما عقد هذا الباب. وهذا هو لبُّ العبودية كما ذكرت لك وأساس الدين، وما أُسِّست عليه هذه الملَة والدِّين كله إنما هو مرادٌ لتحقيق هذه المحبة لله سبحانه لا شريك له فيها(٥٣٩) .

هذه المحبة ضلَ فيها أناس أخطأوا فيما يتعلق بمحبة الله جَلَّوَعَلَا:

❖ **ممن أخطأ في هذا الباب**: أناسٌ نفوها(٥٤٠)؛ كبعض ضُلَّال المتكلمين الذين نفوا أن يحِبَّ العبدُ ربه جَلَّوَعَلَا، وقالوا إنما تكون المحبة

---

(٥٣٩) ومن فقَد هذه المحبة فإنه لا إيمان له ولا إسلام البتَّة.

(٥٤٠) فطوائف من أهل البدع كالجهمية وبعض الأشاعرة نفوا أن يكون اللهُ ﷻ محبوبًا، وإنما المحبة في زعمهم تتعلق بثوابه بجنَّته بنعَمه وما إلى ذلك، وأوَّلوا بهذه التأويلات المُستكرهة كل النُّصوص التي جاء فيها التنصيص على أن الله ﷻ محبوبٌ من عباده. فهؤلاء قد حُرِمُوا بضلالهم وبدعتهم وانحرافهم حُرِمُوا أعظم لذَّةٍ يشعر بها المؤمن في الدنيا، ويالله العجب أيّ عبودية هذه التي لا يحب فيها العبد معبوده!

وبهذه المناسبة أشير إلى أن الناس في هذا المقام على ثلاثة أنحاء:

للثواب أو النعمة التي يمنُّ الله عَزَّوَجَلَّ بها، أمَّا أن يكون هو سبحانه محبوبًا من عبده فإنَّ هذا لا يصح، وهذا كان منهم لضلالٍ في عقولهم وقسوةٍ في قلوبهم. يا لله العجب! كيف حُرم هؤلاء أعظم ما جاء به هذا الدين وأعظم لذةٍ يلتذ بها المؤمن! فإنَّ القلوب لا تطمئن إلا بمحبة الله في الدنيا، ولا تقرُّ أعينها إلا برؤية الله عَزَّوَجَلَّ في الآخرة.

❖ **ممن ضلَّ في هذا الباب أيضًا**: أُناسٌ أخرجتهم رعونتهم وعدم انضباطهم بضوابط الشرع، أخرجتهم إلى دعاوى تُنافي الأدب مع الله عَزَّوَجَلَّ، بل تُنافي مقام العبودية؛ فإن من ضُلَّال أهل البدع(٥٤١) من كان يزعم أنَّه لأنه يحب الله عَزَّوَجَلَّ فالله عَزَّوَجَلَّ يحبه، وبالتالي فإنَّه تنحل عنه التكاليف، وبالتالي فإنه لا تضره

❖ **منهم من أثبت المحبة من طرفيها**، وهم أهل السُّنَّة والجماعة؛ فالله ﷻ عند أهل السنَّة يُحِب ويُحَب، ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة:٥٤] وهذا هو الحق الذي دلَّت عليه نصوص الكتاب والسُّنَّة.

❖ **وصنفٌ من النَّاس من نفوا المحبة من طرفيها**؛ فالله عندهم -وتعالى عمَّا يقولون- لا يُحِب ولايُحَب، وهؤلاء هم الجهمية وبعض الأشاعرة.

❖ **والصنف الثالث من أثبت المحبة من طرف ونفاها من طرف آخر**؛ فأثبت محبة العبد لله ونفى محبة الله جلَّ وعلا، وهؤلاء هم كثيرٌ من الأشاعرة. ولا شكَّ أنَّ هذا المذهب باطل وضلال، وإن كان المذهب الذي قبله أشدَّ ضلالًا وانحرافًا.

(٥٤١) بعض ضُلَّال الصوفية الذين ادَّعوا في المحبة دعاوى أخرجتهم إلى رعونةٍ تنافي العبودية، فإنَّ منهم من زعم أنه لمحبته الله جلَّ وعلا فلا تضره الذنوب، أو أنه مهما فعل فإنَّه غير متوعَّد بعقاب، ولا شكَّ أن هذا ضلال وانحراف.

الذنوب لأنه يحب الله وكان حبيبًا لله، وهؤلاء فيهم شَبهٌ من أهل الكتاب الذين قالوا ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾.

❖ **أما الصنف الثالث**(٥٤٢) **فهم الذين جاء ذكرهم في هذه الآية**: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ﴾[البقرة:١٦٥]، هؤلاء هم الذين أشركوا مع الله عَزَّوَجَلَّ في هذه المحبة الخاصة، هؤلاء الذين أحبوا معبوداتهم كحب الله جَلَّوَعَلَا، بل ربما أحبوهم أعظمُ من محبة الله.

ولا شك أنّ هذا حال المشركين أجمعين قديمًا وحديثًا؛ فإنَّهم ما توجهوا بالعبادة لمعبوداتهم إلا لأنَّ هذه المعبودات أضحت في قلوبهم في مصافِّ ربنا جَلَّوَعَلَا من حيث المحبة، ولذلك فإنَّهم تمسكوا بهذه المعبودات أشد التمسك! حتى إنهم هانَ عليهم أن تُضرب رقابهم وأن تُسال دمائهم في سبيل تمسكهم بعبوديتهم لهذه المعبودات.

ومن علامات أنَّ هؤلاء أشركوا في هذه المحبة مع الله جل وعلا، بل ربما غلبت هذه المحبة التي صرفوها للمعبودات محبة الله: أنَّك تجد أحدهم يغار على حرمة من يعبد أعظمَ مما يغار على حرمة الله جَلَّوَعَلَا، بل ربما انتفض وأجلب بخيله وَرَجِلِه إذا تعدى أحدٌ على جناب السيد أو الولي الذي يعبده، بينما تراه لا يُحرِّك ساكنًا إذا انتُهكت محارم الله جَلَّوَعَلَا.

---

(٥٤٢) ضلوا من جهة الإشراك؛ وهؤلاء هم الذين بوَّب المؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالآية التي تعنيهم، هؤلاء هم الذين أشركوا مع الله ﷻ في محبة العبودية، وهؤلاء هم كل المشركين بالله جلَّ وعلا.

من علامات هذه الشَركِة في المحبة، بل ربما تُقدَّم محبة الأولياء والمعبودين عند هؤلاء على محبة الله: أنك تجد أحدهم يسهل عليه أن يحلف بالله كاذبًا، لكنَّه لا يجرؤ على أن يحلف بمعبوده كاذبًا، وهذا دليل على أنّ هذه المحبة قد بلغت في قلبه مبلغًا عظيمًا حتى وقعوا في صميم الشرك -والعياذ بالله- بسبب ذلك.

إذًا هؤلاء الذين أُريد بيان حالهم في هذا الباب(٥٤٣).

قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ﴾ هؤلاء هم المشركون طائفة من البشر ضلوا الطريق، عموا عن الهدى، فكان من شأنهم أنهم يجعلون لله أندادًا؛ يعني مثلاء ونظراء، يحبونهم كحب الله.

اختلف أهل التفسير في هذه الآية ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ﴾:

---

(٥٤٣) كما أنَّ طوائف مِمَّن تعلقت قلوبهم بمحبوبات من المخلوقين وقعوا في هذا الشرك وإن لم تكن صورة الشرك ظاهرة، فكثيرٌ مِمَّن ابتُلي بالعشق ومحبة الصور خرج إلى حدّ الإشراك بالله تبارك وتعالى، وتعلقت المحبة محبة التعبد لهذا المحبوب عنده، ولو تصفَّحت في شِعْر كثير من الشعراء لوجدت هذا النَّوع أو ما يقرب منه، من ذلك قول امرئ القيس في معلقته المشهورة: «قِفا نبكي» قال:

أفاطِمَ مَهْلاً بَعْضَ هَذَا التَّدَلُّلِ ... وإِنْ كُنْتِ قَدْ أزْمَعْتِ صَرْمِي فَأَجْمِلِي

أَغَـرَّكِ مِـنِّي أنَّ حُـبَّـكِ قَـاتِـلِـي ... وأنَّكِ مَـهْـمَا تَـأْمُرِي الـقَلْبَ يَفْعَلِ

صرف حبه كله الحب الذي يقتضي كمال الخضوع وتمام الطاعة لمحبوبه هذا، فأضاع حظه من محبة الله تبارك وتعالى وخرج إلى الإشراك بالله ﷻ، ولهذا نماذج كثيرة في حال هؤلاء.

الوجه الأول: منهم من قال: هؤلاء المشركون يحبون آلهتهم كما يحبون الله، محبة آلهتهم في نفوسهم تُضارع محبة الله.

والوجه الثاني: أنَّ هؤلاء المشركين يحبون آلهتهم كحب المؤمنين لله.

والوجه الأول أولى ولا شك(٥٤٤).

ثم قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ **كذلك اختلف العلماء في هذا القدر من الآية،** واختلافهم هاهنا مبنيٌ على اختلافهم في الشطر الأول(٥٤٥).

-**والصوابُ أنّ معنى الآية**: وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ من محبة المشركين لله، وهذا هو الأقرب.

-وقيل: وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ من محبة المشركين لآلهتهم(٥٤٦).

والصواب كما ذكرت لك الأول.

---

(٥٤٤) فهؤلاء كانوا يحبون الله ولكنهم أشركوا مع الله ﷻ في هذه المحبة.

(٥٤٥) وهذه أيضًا فيها قولان مترتبان على القولين السابقين.

(٥٤٦) وهذا فيه بُعْد، فإن صدر الآية: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ﴾ فأثبت أولًا على التفسير الثاني أن محبة المشركين لأندادهم كمحبة الله، والكاف هاهنا تقتضي المساواة، ثمَّ قال بعد ذلك: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ من محبة المشركين لأندادهم، فصار في هذا الجزء من الآية إثبات أنَّ محبة المشركين أضعف من محبة المؤمنين لله، وهذا يتنافرُ مع المعنى الأول .

ولذلك الصحيح هو التفسير الأول؛ ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ﴾ يعني: يحبون أندادهم كما يحبون الله ﷻ، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ من محبة هؤلاء المشركين لله.

إذًا هؤلاء المشركون يحبون الله، وبالتالي فإنهم تصدر منهم عبودياتٌ لله جَلَّوَعَلَا، لا يظنّن ظانٌ أن المشركين الذين بُعث النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فيهم وقاتلهم وكفَّرهم، لا يظنَّن ظانٌ أنهم ما كانوا يعرفون الله أو أنهم ما كانوا يعبدونه، كلا، بل كانوا يصلون، وكانوا يحجُون، وكانوا يتصدقون، وكانوا يطوفون، وكانوا يذبحون، كانوا يتقربون إلى الله عَزَّوَجَلَّ بأنواع القُرب، ولكن كان شِركهم من جهة أنَّهم أحبوا غير الله كمحبة الله، ساووا بين الله عَزَّوَجَلَّ ومعبوداتهم، لا والله ما ساووهم بالخلق والرزق والتدبير، إنما ساووهم في المحبة والإجلال والخوف والتعظيم، ولذلك يقولون يوم القيامة: ﴿تَاللهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[الشعراء:٩٧-٩٨]، هكذا يخاطبون معبوداتهم التي أشركوها مع الله جَلَّوَعَلَا.

إذًا هؤلاء المشركين كانوا يحبون الله جَلَّوَعَلَا لكن هذه المحبة ما نفعتهم، لم؟ لإشراكهم، ولذلك سِيّان في الحكم أن لا يحب الإنسان الله جَلَّوَعَلَا ، أو أن يحبه ويحب غيره معه كمحبته، كل ذلك لا ينفع الإنسان، وكل ذلك كفرٌ بالله جَلَّوَعَلَا.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾؛ كيف لا يكون ذلك ومحبة المؤمنين محبة خالصة. أما محبة المشركين فإنها محبة مدخولة، ولذلك فإنّ المعبودات والآلهة أخذت حصةً من هذه المحبة فكانت ضعيفة، أما محبة أهل الإيمان فإنها

محبة كاملة توجهت إلى محبوبٍ واحد وهو الله جَلَّوَعَلَا، فكانت المحبة الخالصة أقوى من المحبة المشتركة ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ (٥٤٧).

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَقَوْلُه: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ١٦٥] الآيَة).

المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أورد في هذا الباب آيتين، وحديثين مرفوعين كلاهما من حديث أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وأورد أثرين عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا:

الآية الأولى آيةُ البقرة وسَبَقَ الحديثُ عنها.

أما الآية الثانية فهي آية التوبة: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ يعني حصَّلتموها واكتسبتموها ﴿وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا﴾ ثمانية أشياء ذكرها الله جَلَّوَعَلَا؛ لأنها أحب ما يكون للإنسان، ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

هذه الآية نزلت في حق أناسٍ من المسلمين أسلموا ولم يهاجروا؛ لأجل تعلقهم بواحدٍ أو أكثر من هذه الأمور الثمانية المذكورة، فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ هذه الآية في عتابهم: ﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ﴾، لما لم يُقدِّموا ما يحبه الله عَزَّوَجَلَّ على ما تحبه أنفسهم وما تهواه قلوبهم أتاهم هذا الوعيد، ﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّى

---

(٥٤٧) وكما أسلفت هذه المحبة حقٌّ خالص لله تبارك وتعالى؛ فمن صرف لغير الله جلَّ وعلا فقد وقع في الشرك الأكبر وصار له نصيبٌ من هذه الآية.

يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ﴾ يعني انتظروا عقوبة الله عَزَّوَجَلَّ التي تحل بكم؛ دلَّ هذا على أنّ المحبة لا تكون صادقة إلا إذا كان عليها برهان.

هذه الآية مِحنة كما كانت الآية الأخرى التي هي شقيقتها محنة، هذه الآية نظير الآية الأخرى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾[آل عمران:٣١]، إذًا هذان برهانان على صدق المحبة لله جَلَّوَعَلَا، من كان مدَّعيًا لمحبة الله فإنه مطالب بأن يأتي بالدليل عليها. **والدليل أمران:**

الأول: تقديم ما يحبه الله جَلَّوَعَلَا على ما تحبه نفسه ويهواه قلبه.

والدليل الثاني: صِدق الاتّباع للنبي محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

أما محبةٌ تخلوا من هذين فإنها دعوى لا ترقى لأن تكون محبةً صادقة؛ إن كنتم تحبون الله إذًا لابد من موافقة الله ﷻ فيما يحب؛ وهذا الذي يدركه العقلاء جميعًا، الناس لا تعرف محبةً إلا يتبعها طاعة للمحبوب وموافقةٌ له، وإلا فإنها غير مقبولة.

تعصي الإله وأنت تزعم حبه ... هذا لعمري في القياس بديعُ
لو كان حبك صادقا لأطعته ... إنّ المحب لمن يحب مطيعُ

ومن لو نهانيَ من حبه ... عن الماء عطشان لم أشرب

قالت لطيف خيالٍ زارني ومضى ... بالله صفه ولا تنقص ولا تزِد
فقال: خلفته لو مات من ظمأٍ ... وقلت قف عن ورود الماء لم يرِد

قالت: صدقت الوفا في الحب شيمته ... يا برد ذاك الذي قالت على كبدي

الناس لا تعرف المحبة إلا وعليها دليل وبرهان؛ وهو موافقة المحبوب وطاعته، وإلا فإنها محبة كاذبة، أو محبة مدخولةٌ ضعيفة(٥٤٨) .

إذًا علامة الحب الصادق لله جَلَّ وَعَلَا : طاعة الله وطاعة رسوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وبالتالي من كان دائمـًا وأبداً في كل مقام يُقَدِّمُ ما تهواه نفسه على ما يحبه الله، دائمًا إذا تعارَض عنده الأمران قدَّم محبة ما يحب على محبة ما يحب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهذا لا يكون مسلمًا، هذا يكون مشركًا.

أما الذي يكون تارةً وتارة؛ تارةً يقدم ما يحبه الله، وتارةً يقدِّم ما تحبه نفسه فهذا يكون عاصيًا. أمَّا المؤمن كامل الإيمان الذي أتى بالقدر الواجب الذي لا

(٥٤٨) ولا شكَّ أن عندنا أمرين: عندنا وسيلة، وعندنا هدف، لا شكَّ أنَّ محبة الله عَزَّ وَجَلَّ في ذاتها هدف وغاية، ولكنها بنظر آخر وسيلة لهدفٍ أو لغايةٍ عظيمة وهي أن يحبك الله تبارك وتعالى؛ فلن تنال محبة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لك إلا بأن تحبه كمال المحبة، فليس الشأن -كما قال أهل العلم- أن تُحب، إنما الشأن أن تُحَبّ، فإذا أحبك الله تمَّت سعادتك وكمُل فوزك، وحصل لك الخير الذي لا شر ولا تعاسة معه، والله عَزَّ وَجَلَّ إنما يحب العبد إذا كان محبًا له محبة صادقة، وقد علمنا أن المحبة الصادقة هي التي تقتضي الطاعة، تقتضي موافقة المحبوب، قال الله عَزَّ وَجَلَّ في الحديث القدسي: «وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيء أحب إلي مِمَّا افترضتُه عليه ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه»؛ صدقت المحبة لله جلَّ وعلا فانبعثت الجوارح وانبعث القلب بالطاعة؛ فحصلت حينئذ محبة الله جلَّ وعلا للعبد. فهذا الذي ينبغي أن يُشمِّر الصادقون في حبهم لله عَزَّ وَجَلَّ إليه؛ وهو أنهم يبذلون غاية جهدهم في سبيل موافقة ما يحب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وطاعته جلَّ وعلا.

تبرأ الذمة إلا به، فهو الذي يقدِّم دائمًا ما يحبه الله جَلَّ وَعَلَا على ما تحبه نفسه عند التعارض؛ هذا ما بيَّنته هذه الآية.

هذه الآية ليست تنفي محبة الإنسان لهذه الأمور محبة طبيعية، إنَّما تنهى وتأمر المؤمن بأن ينأى بنفسه عن أن يكون مُقَدِّمًا لما يحب على ما يحبه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يجب أن يكون المُقَدَّمُ دائمًا ما يحبه الله وليس ما يحبه الإنسان.

ولذلك المحبة من حيث أحكامها تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

١. محبة نافعة.

٢. ومحبة ضارة.

٣. ومحبة بين هذين.

أما المحبة النافعة فتنقسم إلى ما يأتي:

- أولاً: محبة الله.
- وثانيًا: المحبة في الله.
- وثالثًا: محبة ما يحبه الله وما يقرِّب إلى محبة الله.

هذه المحبة النافعة.

أما المحبة الضارة فإنها:

- أولا: المحبة مع الله.
- وثانيا: محبة ما يبغضه الله.
- وثالثًا: المحبة التي تُشْغِّلُ عمَّا يحبه الله.

إذًا لـو تأملـت محـاب النـاس النافعـة والضـارة لوجـدتها تـدور علـى هـذه المحابّ الستة. أما التي بين هذين النوعين فهي المحبة الجائزة المباحة، وهي التي مضى الحديث فيها وقلنا إنَّها المحبة المشتركة؛ فهذه الأصل فيها -كما ذكرنا- الجواز، وقد تكون مستحبة وقد تكون محرمة على ما مضى بيانه، والله عَزَّوَجَلَّ أعلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**عَنْ أَنَسٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ» أَخْرَجَاهُ**).

هذا حديث أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ والمخرّج في الصحيحين، وجاء معناه أيضا عند البخاري من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده».

هـذا الحـديث دليـلٌ علـى وجـوب محبـة النبـي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، أي: علـى وجـوب أن تعظـم محبـة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حتـى تكـون أعظـم المحـابِّ على الإطلاق إلا محبة الله، ولا يكون الإنسان مُحققًا للإيمان الواجب إلا بذلك، فإنّ نفي الإيمان في أمرٍ دليلٌ على أنّ متعلقهُ من الأمر الواجب، وبالتالي فإنّ التقصير في ذلك أمرٌ محرم، لا يُنفى الإيمان إلا في تـرك شـيءٍ واجـب؛ «**لا يـؤمن أحـدكم حتـى أكـون أحـب إليـه مـن والـده وولـده والنـاس أجمعـين**»، ولاحـظ أنـه قـال: «**أحب**»؛ إذًا المحبة ما يحبه الإنسان طبعًا أمر جائز مأذون فيه، بشرط أن يكون دون محبة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

وهاهنا سؤال: هذا الباب معقودٌ للكلام عن محبة الله، فما بال الشيخ قد أتى بحديثٍ يتعلق بمحبة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

والجواب: أنّ في هذا نكتتين:

الأولى: للدلالة على أن محبة الله عَزَّوَجَلَّ تقتضي محبة ما يحب، ومن ذلك محبة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، لأنّ الله يحبه عليه الصلاة والسلام، بل إنّ الله جل وعلا قد اتخذه خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا، والخلة أرفع من أصل المحبة، أرفع وأعلى درجات المحبة هي الخلة، وهذه التي اختص الله جَلَّ وَعَلَا بها الخليلين إبراهيم ومحمد صلى الله عليهما وسلَّم .

ونكتة ثانية: أنه إذا كانت محبة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يجب أن تعظم في القلب إلى هذا القدر؛ أن يكون هو عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أعظم في القلب محبةً من أعظم المحبوبات التي هي محبة الوالد والولد والنَّاس أجمعين، فكيف بمحبة الله جَلَّ وَعَلَا؟ يجب أن تكون في القلب أعظم من ذلك وأعظم. إذًا هذا فيه من دِلالة التنبيه على ضرورة تعظيم محبة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في النفوس.

إذًا النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واجبٌ على أمته أن يكون أعظمَ محبوب من البشر على الإطلاق، حتى أن يكون أحبَّ من الوالد الذي هو سبب الحياة، ومن الولد الذي هو قطعةٌ من الفؤاد، ومن النَّاس أجمعين، بل حتى أن يكون أحبَّ إليه من

نفسه التي بين جنبيه، وهذا ما جاء دخوله في قوله: «**والناس أجمعين**»[٥٤٩]؛ فالناس عموم، وأجمعين عموم، ويدخل في ذلك نفسه التي بين جنبيه .

وهذا ما جاء التنصيص عليه في صحيح البخاري من حديث عبدالله بن هشام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «كنا مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو آخذٌ بيد عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال عمر: والله يا رسول الله لأنتَ أحبُّ إلى من كل أحدٍ إلا من نفسي، قال: والذي نفسي بيده -انظر إلى هذا القسم من لدن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك. قال: فوالله لأنت الآن أحبُّ إلى من نفسي. قال: الآن يا عمر» يعني: الآن بلغت درجة الإيمان الواجب.

إذًا هكذا يجب أن يكون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قلوب المؤمنين أجمعين، والشأن كما ذكرتُ لك سابقا أن يكون على المحبة دليل وبرهان.

- **ومن علامات محبة النبي** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : الشوق إلى لقائه ورؤيته، ومر بنا ما جاء في صحيح مسلم قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنَّ من أشد الناس حبًا لي قوم يأتون من بعدي ما رأوني، ودُّوا لو رأوني بأهلهم ومالهم».

- **من علامات محبة النبي** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : المسارعة إلى طاعته والدقة في اتّباعه.

---

(٥٤٩) (**وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**) فيه عمومٌ من جهتين: في قوله (**النَّاسِ**)فـ «ال» هنا للاستغراق، وفيه تأكيد (**أَجْمَعِينَ**)

- **من علامات محبة النبي** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : تقديم سنته وحديثه وأمره على كل ذوق وعرف وعادة وعقل وهوى.

- **مـن علامـات محبـة النبـي** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أن تُطَّـرح الآراء أمـام حكمه وقوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ(٥٥٠) .

- **من علامات محبة النبي** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : الوقوف عند سنته وعدم الزيادة عليها وعدم الإحداث في شريعته.

- **من علامات محبة النبي** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : الدفاع عنه، والسعي في نشر سنته عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

- **من علامات محبة النبي** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :كثرة الصلاة والسلام عليه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ؛ فإن من أحب شيئا أكثر من ذكره.

هذه نبذةٌ تتعلق بمحبة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا كما علِمنا فرع عن محبة ربنا جَلَّ وَعَلَا.

- كيف لا يُحبُّ النبي **صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** هذه المحبة العظيمة! والله جل وعلا يحبه أعظم محبة؟

- كيف لا يُحب النبي **صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** وقد أمرنا الله بمحبته كما في هذا الحديث!

- كيف لا يُحب النبي **صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** وهو الذي أحسن إلينا بفضل الله **جَلَّ وَعَلَا** أعظم إحسان! ﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ

---

(٥٥٠) التسليم التام لسنَّته ﷺ ، وعدم معارضتها بعقلٍ أو عادةٍ أو ذوقٍ أو مذهب.

أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾[آل عمران:١٦٤].

كيف لا يُحب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو الذي قد جمع الكمال البشري في خَلقه وخُلقه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ فإنّ له الكمال في سجاياه وفي خلاله وفي صفاته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، والنفوس السوية مجبولة على حب الكمال.

إذًا لهذا وغيره يجب وجوبًا أن يُحب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعظم محبةٍ يتصورها الإنسان؛ إلا محبة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فإنها يجب أن تكون في القلوب أعظم.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (**وَلَهُمَا عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا للهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ؛ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ»**).

(**وَلَهُمَا**) يعني للشيخين البخاري ومسلم، (**عَنْهُ**) يعني عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

هذا حديثٌ عظيم فيه بيان كيف تحقيق المحبة الصادقة، قال أهل العلم: (المحبة الصادقة التي تكون لله جَلَّ وَعَلَا لا تتم إلا بتكميلها، وتفريعها، ودفع ضدها).

انتبه ؛ لا تُحَصِّل في قلبك المحبة التي أمر الله عَزَّ وَجَلَّ بها والتي هي قدرٌ واجب لا يكون الإيمان الواجب إلا به؛ إلا باكتمال هذه الأمور الثلاثة وهي التي جاء التنصيص عليها في الحديث.

أولا: تكميلها؛ بمعنى: «أن يكون الله ورسوله أحب إلى المرء مما سواهما»، ولاحظ أنه قال: (**مِمَّا سِوَاهُمَا**) ليفيد التعميم[٥٥١]، فيجب أن يكون الله ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحب إليه من كل شيء على الإطلاق، كما مضى بيانه.

ثانيا: تفريعها؛ بمعنى أن يأتي بما يتفرَّع ويلزم على محبة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ومن ذلك المحبة في الله ولله ولأجل الله، وهذا ما جاء التنصيص عليه في الحديث «**وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا للهِ**».

انتبه ؛ فثمة فروق من لم يتنبه إليها فإنه سيقع في خطأ عظيم. **فَرْقٌ بين محبة الله أصلاً، والمحبة له فرعًا، والمحبة معه شركًا.**

كثير من الناس مع الأسف الشديد خلطوا بين هذه الأمور فأخطأوا خطئًا عظيما، هذه المحبة التي جاءت في الأمر الثاني في هذا الحديث؛ المحبة لأجل الله عَزَّوَجَلَّ وفي الله جَلَّوَعَلَا، وهذه المحبة فرع عن محبة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ،لأننا كما قلنا إنَّ المحبة الصادقة تستلزم موافقة المحبوب، والله جَلَّوَعَلَا يحب عباده المؤمنين، فمن يحبه عليه أن يحب هؤلاء المؤمنين؛ الله يحب الأنبياء، ويحب الملائكة، والله عَزَّوَجَلَّ يحب من كان مستقيمًا على طاعته، يحب التوابين، يحب

---

(٥٥١) فأتى هنا بـ(أفعل التفضيل)، وهذا دليل على أن محبة الإنسان للأشياء التي أذن الله ﷻ بمحبتها ليست مذمومة، فثمَّة أشياء يحبها المؤمن، لكن لا يجوز أن تكون هذه المحبوبات أعظم في نفسه من محبة الله تبارك وتعالى، الواجب أن تكون محبة الله ورسوله أعظم

المتطهرين، يحب الذين يقاتلون في سبيله صفًا، إلى آخر ما جاء في النصوص. محبتك الصادقة لله تقتضى أن توافق الله فيما يحب.

والمحبة في الله جَلَّوَعَلَا لها شأن وأي شأن، في صحيح مسلم عن النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «أنّ الله تعالى ينادي يوم القيامة: أين المتحابين في جلالي، اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي». في الصحيحين ذكر النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ شأن السبعة الذين يظلهم الله عَجَّلَ في ظله، ومنهم «رجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه»، قال الله جَلَّوَعَلَا في الحديث القدسي الصحيح: «وجبت محبتي للمتحابين فيَّ، والمتآخين فيَّ، والمتباذلين فيَّ، والمتجالسين فيَّ». المحبة في الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: أن يحب الإنسان أخاه لا لأمر دنيوي، لا لغرض مادي، إنما يحبه لأنه مستقيم على طاعة الله، فهو يحب فيه طاعته لله جَلَّوَعَلَا، وهذا دليل على صدق المحبة لله جَلَّوَعَلَا.

الأمر الثالث: دفع الضد؛ وهذا ما جاء التنصيص عليه في قوله : عَلَيْهِالصَّلَاةُوَالسَّلَامُ«**وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ؛ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ**»[٥٥٢]؛ سِيّان عند المحب الصادق بين الكفر والوقوع في النار، كما أنه يكره هذا يكره هذا، كما أنه يمتنع عن هذا أشد الامتناع يمتنع عن هذا أشد

---

(٥٥٢) وهذا القدر من الحديث يدل على البراء من الكفار ووجوب بغضهم، لأن من أبغض خصلةً أبغض المتصف بها، فإذا كان هذا الإنسان يبغض الكفر ويكره الكفر؛ من لوازم ذلك أن يكره من اتصف بهذه الخصلة البشعة وهي الكفر بالله تبارك وتعالى، فكان في هذا إثباتًا لعبودية البغض في الله تبارك وتعالى.

الامتناع ؛ لِمَ؟ لأنّ المحب الصادق الذي أخلص محبته لله وأعظمَ محبته لله أنارَ الله عَزَّوَجَلَّ قلبه بالإيمان؛ فانكشفت أمامَه محاسن الإسلام، وانكشفت أمامَه قبائح ضده وهو الشرك والكفر، ولذلك فإنَّه كان أعظم ما يكون بُغضًا للكفر، وإذا كان مُبغضًا للكفر والشرك أبغض من قام به الكفر والشرك، فإنَّ من أبغض شيئًا أبغض من اتصف به.

إذًا أن يبغض الكفر ويبغض الكافرين، وهذا من صميم لوازم محبة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، لا يمكن أن يكون الإنسان مُحبًا لمحبوبه ولعدوِّه معًا، لا تتأتّى هذه المسألة.

إذا صافى صديقك من تعادي   فقد عاداك، وانقطع الكلام

إذًا الأمر كما قال ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ:

أتحب أعداء الحبيب وتدَّعي   حبا له! ما ذاك في الإمكان

لا يتأتى ذلك، إن كنت صادقا في محبة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فمن لوازم ذلك أن تكون مُبغضًا لضد ما يحبه الله جَلَّوَعَلَا، وأن تكون موافقًا لمحبوبك فيما يبغضه. الله يبغض الكفر والكافرين إذًا عليك أن تكون موافقًا لربك سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فيما يبغض، وهذا من أهم المهمات، أن توجِّه محبتك وبغضك في ضوء ما يحب الله عَزَّوَجَلَّ ويبغض، بل الله جَلَّوَعَلَا ما أعطاك هذا الشعور -شعور المحبة الذي جعله في قلبك وقذفه في جبلَّتك- إلا لأجل أن تحب ما يحب، كذلك الشأن في البغض، ما جعل فيك هذا الشعور إلا لأجل أن تُبغض ما يُبغض.

إذًا المحبة في الله عَزَّوَجَلَّ والبغض في الله عَزَّوَجَلَّ، هذا من صميم لوازم محبة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَفِي رِوَايَةٍ: «لَا يَجِدُ أَحَدٌ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ حَتَّى ...» إِلَى آخِرِهِ).

هذه الرواية عند البخاري فحسب وفيها النفي المذكور، لكنه أبلغ من الرواية التي قبلها؛ لأن النفي في هذه الرواية كان من طريق المنطوق، والنفي فيما قبلها كان من طريق المفهوم، والمنطوق لا شك أنه أقوى من المفهوم(٥٥٣).

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «مَنْ أَحَبَّ فِي اللهِ، وَأَبْغَضَ فِي اللهِ، وَوَالَى فِي اللهِ، وَعَادَى فِي اللهِ؛ فَإِنَّمَا تُنَالُ وِلَايَةُ اللهِ بِذَلِكَ، وَلَنْ يَجِدَ عَبْدٌ طَعْمَ الإِيمَانِ - وَإِنْ كَثُرَتْ صَلَاتُهُ وَصَوْمُهُ - حَتَّى يَكُونَ كَذَلِكَ، وَقَدْ صَارَتْ عَامَّةُ مُؤَاخَاةِ النَّاسِ عَلَى أَمْرِ الدُّنْيَا، وَذَلِكَ لَا يُجْدِي عَلَى أَهْلِهِ شَيْئًا» رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ).

هذا الأثر حسن الكلام، جزل الألفاظ، لطيف المعنى، لكنَّه ضعيف الإسناد؛ ففي إسناده ليث ابن أبي سليم وهو ضعيف، لكن معناه صحيح لا شك

---

(٥٥٣) المقصود أن النبي ﷺ أخبر عن ثلاث خصال: (ثَلَاثٌ): أي ثلاث خصال، من حصَّل هذه الخصال (وَجَدَ بِهِنَّ) يعني بسببهن (حلاوة الإيمان)، وحلاوة الإيمان حلاوة حقيقة، لا كما يقول بعضهم إنها مجاز، بلْ هي حلاوة حقيقة، ولكن لا يشعر بها كل أحد، إنما يشعر بها من وصل إليها، فللقلْب حلاوةٌ يُحِسُ بها كما أن للسان حلاوة يُحِسُ بها. هذه الحلاوة للإيمان يجدها منَ حصَّل هذه الخصال الثلاث.

فيه[٥٥٤]. وقد جاء عند أبي داوود بإسناد حسن إن شاء الله قول النبي ﷺ: «من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله؛ فقد استكمل الإيمان»؛ فهذا الأثر في معنى هذا الحديث.

والمقصود أنَّ من التفريع على محبة الله جَلَّ وَعَلَا أن يحب الإنسان في الله، وأن يبغض في الله .

وما الدين إلا الحب والبغض والولا   كذاك البرا من كل غاو ومعتدي

والنصوص التي جاءت في التنصيص على وجوب هذا الأمر كثيرة لا تخفى. ومن فقه ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -وهذا ما أشار إليه المؤلف في المسائل- فيه معرفة الصحابي بالواقع. صاحب رسول الله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يعرف واقعه، لأنه يعيش فيه، ولأنه ينظر إلى أحواله نظر المستبصر، ذكَر في آخر هذا الأثر أنه (**قَدْ صَارَتْ عَامَّةُ مُؤَاخَاةِ النَّاسِ عَلَى أَمْرِ الدُّنْيَا، وَذَلِكَ لَا يُجْدِي عَلَى أَهْلِهِ شَيْئًا**)؛ يعني لا ينفع أهله شيئا مع الأسف الشديد.

هذه المحبة التي تُبنى على غير الرباط الوثيق الذي هو المحبة في الله ولله لا تجدى على أهلها ولا تنفعهم شيئا، بل إنها تكون عليهم وبالاً عظيماً، ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾[الزخرف:٦٧] ؛ فدل هذا على أن كل محبة لم تُبنَ على هذا الأصل الأصيل العظيم فإنها لا تنفع صاحبها شيئا، ولأجل هذا على المسلم أن يتبصر، وأن يتنبه، وأن يعيد النظر في علاقاته وصداقاته ومزاملاته ومرافقاته لكي تبنى على أساس صحيح ينفع الإنسان في

(٥٥٤) ويشهد له ما سبق.

الدنيا وينفع الإنسان في الآخرة، لا أنفع من المحبة في الله، ولا أضر من المحبة في غير الله.

ولاحظ -يا رعاك الله- كيف يصف ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا الحال في وقته، وهذا يقارن فيه بين ما عاشه في آخر حياته، وبين ما كان عليه الأمر في عهد الخلفاء الراشدين، فضلاً عما كان عليه الأمر في عهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، سبحان الله! (**وقد صارت عامة مؤاخاة الناس في أمر الدنيا**) في ذلك الوقت، فكيف لو أدرك زماننا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ! ماذا تظنون أنه يقول؟! فإنا لله وإنا إليه راجعون. إذا كانت عامة مؤاخاة الناس في هذا الزمان النيِّر الصالح، فإن الأمر قد ازداد سوءاً مع الأسف الشديد في هذا الزمان المتأخر، (**صَارَتْ عَامَّةُ مُؤَاخَاةِ النَّاسِ عَلَى أَمْرِ الدُّنْيَا، وَذَلِكَ لَا يُجْدِي عَلَى أَهْلِهِ شَيْئًا**)، الله المستعان.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: (**وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ قَالَ: «الْمَوَدَّةُ»**).

هذه الآية في سورة البقرة: **﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾**[البقرة:١٦٦]؛ الأسباب فسرها ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وكذلك جاء هذا التفسير عن مجاهد وقتادة: أنها المودات.

وقيل إن الأسباب هاهنا: هي الأعمال، أو القرابات.

والأقرب -والله تعالى أعلم- أنّ المودة تفسير بالمثال، وإلا فالمعنى أعم، كما قال ابن قتيبة رَحِمَهُ اللَّهُ إنّ كل ما ذكر في تفسيرٌ هذه الآية صحيح. والمعنى الجامع: أنه تقطعت كلُّ أسباب العلاقات؛ فإنّ العلاقات بين الناس لا شك أنها

لا تُبنى إلا بأسباب، قد تكون لمحبة، قد تكون لمصالح، قد تكون لقرابة، قد تكون لزمالة في عمل، وما إلى ذلك.

الشاهد أن الله جَلَّوَعَلَا بيّن في هذه الآية أن المودَّات والصِلات التي كانت بين الناس ولم تُبنَ على المحبة في الله عَزَّوَجَلَّ ولأجله سبحانه فإنها سوف تتقطع يوم القيامة وتضمحل وتتلاشى، بل تنقلب إلى عداوة(٥٥٥)، وهذا ما بينه الله جَلَّوَعَلَا في قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿الأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾[الزخرف:٦٧].



(٥٥٥) وهذه المَوَدَّةُ هي: المودة الشركية أو المَوَدَّةُ في معصية الله ﷻ ؛ فكِلا هاتين المودتين سوف تتقطع وتضْمحل يوم القيامة ولن تُجدي على أصحابها شيئًا.

قال المصنف رحمه الله:

٣٢-بَابُ

قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٧٥] الآيَةَ.

وَقَوْلِه: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾[التوبة:١٨] .

وقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللهِ﴾ [العنكبوت:١٠] .

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ مَرْفُوعًا: «إِنَّ مِنْ ضَعْفِ الْيَقِينِ أَنْ تُرْضِيَ النَّاسَ بِسَخَطِ اللهِ، وَأَنْ تَحْمَدَهُمْ عَلَى رِزْقِ اللهِ، وَأَنْ تَذُمَّهُمْ عَلَى مَا لَمْ يُؤْتِكَ اللهُ، إِنَّ رِزْقَ اللهِ لَا يَجُرُّهُ حِرْصُ حَرِيصٍ، وَلَا يَرُدُّهُ كَرَاهِيةُ كَارِهٍ».

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنِ الْتَمَسَ رِضَا اللهِ بِسَخَطِ النَّاسِ؛ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَى عَنْهُ النَّاسَ، وَمَنِ الْتَمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللهِ؛ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَسْخَطَ عَلَيْهِ النَّاسَ». رَوَاهُ ابْنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ.



لا يزال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يوالي في الأبواب التي عقدها ببيان بعض العبادات القلبية التي هي من عِماد الإيمان ومن صميم العلم بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ مضى الكلام عن عبادة المحبة، وعطف الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عليها بعبادة الخوف من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الخوفُ من الله سبحانه عبادةٌ عظيمة، وركنٌ من أركان الإيمان القلبي(٥٥٦)، وركيزةٌ في سير العبد إلى ربه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وقد أمر الله جَلَّوَعَلَا بخوفه؛ أن يخافه عباده، كما قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾[آل عمران:١٧٥]، ﴿فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾[النحل:٥١]، وأثنى الله جَلَّوَعَلَا على القائمين بهذه العبادة: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾[الرحمن:٤٦]، ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾[الأعراف:١٥٤] . والخوف من الله سبحانه شأنه عظيمٌ عند أهل الإيمان(٥٥٧).

والخوف ينقسم إلى ثلاثة أقسام: مشروع، وممنوع، ومباح.

أمَّا الخوف المشروع: فهو الخوف من الله **سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ**؛ هذا الخوف خوفُ إجلالٍ وتعظيم، فالله **سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ** متصفٌ بصفاتٍ يقتضي العلمُ بها الخوف العظيم منه **جَلَّوَعَلَا**، فالله متصفٌ بالعزة، والقدرة، والقوة، والجبروت، والغضب، والبُغض، والانتقام، وأمثال هذه من الصفات، وكلها إذا تأملت وجدت أنها تورث في القلب خوفًا عظيمًا من العظيم **جَلَّوَعَلَا**(٥٥٨) .

---

(٥٥٦) وهي من أعلى مراتب الإيمان، بل هي من صميم العلم بالله ﷻ.

(٥٥٧) والخوف من الله ﷻ هو من أصول الإيمان، فلا إيمان لمن لا خوف له، ولذا قال الله ﷻ في الآية التي بين أيدينا: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾؛ فدلّت الآية على أنَّ علامة وجود الإيمان الخوف، وأنَّ علامة ترحّله من القلب زوال الخوف.

(٥٥٨) وهكذا أهل الإيمان، قال سبحانه عن الملائكة: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ [النحل:٥٠] ، وقال جلَّ وعلا: ﴿إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الحشر:١٦]، وقال

وأعظمُ سببٍ للخوف من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ هو العلم به، والقاعدة في هذا الباب: أنه كلما عَظُم العلم بالله سبحانه فإنه يَعْظُم الخوف منه، كلما كان الإنسان أكثر علمًا بالله سبحانه -بأسمائه وصفاته ونعوت جلاله- فإنه سيكون أكثر خوفًا من الله جَلَّوَعَلَا، ولذلك قال ابن مسعودٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «كفى بخشية الله علمًا»، ونادى أحد السائلين الشعبي رَحِمَهُٱللَّهُ، فقال: (أفتني أيها العالم، فقال: إن العالم من يخاف الله)، وشاهد هذا في كتاب الله، قول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[فاطر:٢٨] .

ولذا كان نبينا صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ جامعًا بين كمال العلم بالله عَزَّوَجَلَّ وشدة الخوف منه سبحانه، ففي الصحيحين قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «فَوَاللهِ لأَنَا أَعْلَمُهُمْ بِاللهِ وَأَشَدُّهُمْ لَهُ خَشْيَةً»، وفي السُنة لابن أبي عاصم، والطبراني وغيرهما أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «مررتُ ليلة أُسري بي بجبريلَ كالحلس البالي من خشية الله»، جبريل المَلَك المُعظَّم الذي أتاه الله ﷻ من عِظَم الخلقة الشيء العظيم، ومع ذلك كان بسبب خشيته من الله جَلَّوَعَلَا المبنية على علمه بالله سبحانه، قال: «كالحلس البالي من خشية الله»؛ الحلس: هذا الكساء الرقيق الذي يوضع على ظهر الدابة ويوضع عليه السَرْج. فكلما كان الإنسان أعلم بالله سبحانه؛ كلما كان أعظم خشية له جَلَّوَعَلَا.

سبحانه: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم:١٤]، وقال سبحانه: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾ [ق:٣٣] ، وقال سبحانه: ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف:١٥٤].

ومن أسباب الخوف أيضًا من الجليل العظيم سبحانه: علم الإنسان بل يقينه بوعيد الله جَلَّوَعَلَا؛ فإن الله سبحانه قد ذكر في كتابه وهكذا نبيه صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قد ذكروا أنواعًا من الوعيد الذي يطير له فؤاد المؤمن به، ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾[الزمر:١٦]، كيف لا يخاف المؤمن وهذا الوعيد ماثلٌ بين عينيه في كتاب الله، ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا * وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾[المزمل: ١٢-١٣] (٥٥٩) .

ومن أسباب الخوف أيضًا: عِلم الإنسان بتقصيره في جنب الله جَلَّوَعَلَا؛ فإن العبد مهما ظنَّ في نفسه الظنون وأنه قد فعل وفعل، فإنه في جانب حق الله عليه لا شك أنه مُقَصِّرٌ تقصيرًا عظيمًا، بل لو أن الله جَلَّوَعَلَا حاسبنا على الواجبات التي قمنا بها لكُنا جديرين بالعقاب، لأننا ما وفَّيناها حقها من كمال الإخلاص، وصدق المراقبة، وتحسينها وفق هدي النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ على الوجه المطلوب، فكيف إذا انضاف إلى هذا ذنوبٌ وآثامٌ عِظام؟! فكيف إذا انضاف إلى هذا تقصيرٌ عظيم في أداء شكر الله جَلَّوَعَلَا على نعمه؟! إذًا لا مُعَوَّل إلا على رحمة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

ومن أسباب الخوف من الله سبحانه: الآيات التي يخوِّف الله جَلَّوَعَلَا بها عباده؛ آياتٌ حسية يراها النَّاس يخوف الله بها من أراد بهم خيرًا، ﴿وَمَا نُرْسِلُ

---

(٥٥٩) من بواعث وأسباب الخوف المشروع: مطالعة نصوص الوعيد والتصديق بها، وكلّما عظُم يقين الإنسان وإيمانه بما دلَّت عليه النُّصوص من وعيد الله ﷻ وما يكون في الآخرة من الجحيم والنَّكال كان هذا من أعظم البواعث على حصول الخوف والرهبة

بِالآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾[الإسراء:٥٩]، وفي الصحيحين قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، يخوف الله بهما عباده».

إذًا هذه نبذةٌ من أسباب الخوف من الله جَلَّ وَعَلَا، ويتبعُ هذا الخوف تفاصيل راجعةٌ إلى هذا الأصل، **من تلك التفاصيل التي هي من أنواع الخوف المتفرعة عن الخوف من الله جَلَّ وَعَلَا:**

أولاً: الخوف من إثم السيئة؛ فإنَّ الإنسان يخشى تبعات ما اجترحته يداه، يخاف من هذا الإثم الذي تحمَّله فوق ظهره، وفي الترمذي وأحمد وغيرهما أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عاد شابًا من الأنصار وهو في سياق الموت، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كيف تجدك؟» فقال: والله يا رسول الله إني لأرجو الله وأخاف ذنوبي، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما اجتمعا في قلب المؤمن في هذا الموطن إلا أتاه الله ما يرجو، وأمَّنه مما يخاف».

ثانيًا: الخوف من الوقوع في السيئة؛ إما حالًا والمرء جاهل، أو مستقبلًا؛ ولذا فإن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علَّم صِديق الأمة دعاءً جليلًا، علَّمه أن يدعو الله سبحانه بهذا الدعاء: «اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك شيئًا وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم»، قال ابن أبي مُليكة التابعي الجليل -كما علَّقه الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في صحيحه- قال: (أدركت ثلاثين من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كلهم يخشى النفاق على نفسه).

ثالثًا: الخوف من عدم قبول الحسنة؛ أهل الإيمان الصادق يعملون ويجتهدون ويبذلون قُصارى ما يستطيعون، ومع ذلك فإنَّ قلوبهم تَرْجُف خوفًا

من الله جَلَّوَعَلَا أن لا تُقبل حسناتهم وأن تُرد في وجوههم، هذا الخوف ليس ناشئًا من سوء ظنٍ بالله، حاشا، إنَّما ذلك لخوف التقصير في أداء الحسنة، وهذا ما جاء في قول الله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾[المؤمنون:٦٠]، فسر هذا النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بالرجل يصلي ويصوم ويتصدق ويخشى أن لا يُقبل منه.

رابعًا: الخوف من سوء الخاتمة؛ وهذا الخوف قَصَمَ ظهور الصالحين، فلا شيء كان يعظُم في نفوس المؤمنين من أمورٍ مستقبلة مثل سوء الخاتمة، وأن يحور الإنسان بعد كَوْره، وأن ينقلب على عقبيه –والعياذ بالله– في آخر لحظات حياته. هذا موضعٌ جليل يخشى الإنسان أن يُخذَل في تلك اللحظات الحاسمة التي يُختم له بها(٥٦٠) .

ومثل هذا الخوف –يا أيها الإخوان– إنما هو منزلةٌ مصاحِبة للمؤمن، ليس هو منزلةً مؤقتة تكون في بُرهة وفي وقتٍ من الأوقات ثم تنقضي! كلا، الخوف من الله وما يتبع هذا الخوف يجب أن يكون منزلةً مصاحبةً للمؤمن من أول حياته إلى آخرها، هذا إذا أراد أن يسْلم عند الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ .

---

(٥٦٠) خامسا : الخوف من عذاب الآخرة، والله ﷻ قد توعد أهل العصيان بعذاب أليم وعذاب شديد، ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا * وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ [المزمل:١٢-١٣]، وهذا مِمَّا يورث في قلوب أهل الإيمان الخوف من عذاب الآخرة، ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾، فدلّ على أن أهل الإيمان يخافون من عذاب الله، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ﴾ [هود:١٠٣].

هذا هو الخوف المشروع، هذا هو العبادة التي يحبها الله جَلَّوَعَلَا.

واعلم -يا عبد الله- أنَّ هذا الخوف منضبطٌ عند أهل العلم بضابط، فلا يكون الخوف مشروعًا إلا به؛ ألا وهو: أن ينضم إليه الرجاء في الله، وإلا فإن الخوف المجرد ليس عبادة، بل هذا ولوجٌ إلى دهليزٍ مظلم، ألا وهو القنوط من رحمة الله جَلَّوَعَلَا، ﴿إِنَّهُ لا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الكَافِرُونَ﴾[يوسف:٨٧]، ﴿وَمَنْ يَقنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾[الحجر:٥٦]، إنما يكون الخوف عبادةً صحيحةً مُثابًا عليها متى ما اجتمع إليها الرجاء، أمَّا خوفٌ مجرد فإنه لا ينفع صاحبه، وأما رجاءٌ مجرد فإنه لا ينفع صاحبه، إنما ينتفع الإنسان بخوفٍ مشوبٍ برجاء، ورجاءٍ مشوبٍ بخوف.

وهذا ما دلت عليه أدلة كثيرة؛ من ذلك ما أثنى الله عَزَّوَجَلَّ به على عباده المؤمنين: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾[الإسراء:٥٧]، بل هذا مُقتضى ما أخبرنا به الله جَلَّوَعَلَاعن نفسه في آيات كتابه: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ﴾[الحجر:٤٩، ٥٠]، ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ﴾[غافر:٣].

إذًا لو تأملت في جملةٍ من النصوص وجدت أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يجمع في وصف نفسه بين ما يقتضي اقتران العبادتين، إذًا لا بد أن يكون خوف الإنسان خوفًا مشوبًا ومقترنًا برجاءٍ من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ؛ بحيث لو قُدِّر أنَّه قيل إن كل الناس سيدخلون الجنة إلا واحدًا لخاف أن يكون هو، ولو قُدِّر أن يقال إنَّ كل

الناس سيدخلون النار إلا واحدًا لرجى أن يكون هو. إذًا لا بد من خوفٍ مع رجاء، ولابد من رجاءٍ مع خوف.

وهذا الموضوع موضوعٌ طويل، ويحتاج إلى تفصيل، لكن بما أننا وصلنا إليه فلابد من إثارة مسألةٍ يذكرها أهل العلم في هذا المقام؛ ألا وهي: **مسألة تغليب أحد العبادتين على الأخرى، أو أن يكون الأمران متساويان**. هذا موضع بحثٍ طويلٍ عند أهل العلم:

- **فمن أهل العلم من رجح**: أن يكون الخوف أغلب في القلب من الرجاء مطلقًا.
- **ومنهم من رجح**: أن يكون الرجاء في القلب هو الأغلب مطلقًا.
- **ومنهم من فصَّل**؛ فرجح أن يكون الخوف هو الغالب في حال الصحة والسعة، وأما في حال المرض أو الشعور بدنو الموت فيُغَلَّب الرجاء على الخوف.
- **ومنهم من قال**: المشروع أن يتساوى الأمران دائمًا وفي كل وقت.

وهذا هو الأقرب[٥٦١]، المشروع أن يكون الخوف والرجاء سواءً؛ وفي هذا يقول مطرف بن عبد الله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (لو وُزن خوف المؤمن ورجاؤه لكانا سواءً، لا يزيد أحدهما على الآخر).

---

(٥٦١) وهذا الذي اختاره جماعة من أهل العلم والتحقيق؛ كالإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ وشيخ الإسلام ابن تيمية وغيرهما من أهل العلم. **وهذا الذي تدل عليه النُّصوص**؛ النُّصوص قد دلَّت على أنَّ المشروع أن يقترن الخوف والرجاء دون ذكر تغليب أحدهما على الآخر؛

ويشهد لهذا ما سبق من الأدلة، لاسيما ما جاء في حديث الشاب الذي قال للنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وهو في سياق الموت، قال: «والله إني لأرجو الله وأخاف ذنوبي»، فدل هذا على أن هذا الرجل جمع في ذلك الموضع الذي هو عند دنو الأجل جمع بين الخوف والرجاء وكانا سواءً، وأقره النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ على ذلك؛ بل إنه ذكر الوعد الذي سمعت: «لا يجتمعان في قلبٍ مؤمن في هذا الموضع إلا آتاه الله ما يرجو، وأَمَنَّه مما يخاف»[٥٦٢].

لاسيما وأن غلبة أحد الأمرين على الآخر لا يُؤْمن معه الوقوع في أحد محظورين:

١. إما الأمن من مكر الله؛ وهذا إذا غلب الرجاء.

٢. وإما القنوط من رحمة الله؛ وهذا إذا غلب الخوف.

لكن لاحظ -يا رعاك الله- أمرًا ألا وهو: أن المشروع للمؤمن أنَّه إذا علِم من نفسه تَسَاهُلًا وعدم انضباطٍ بحدود الشريعة وعدم حرصٍ وجِدّ على أداء ما

من ذلك قول الله جلَّ وعلا: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الأعراف:٥٦]، ويقول جلَّ وعلا: ﴿يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر:٩]، كما أنه يذكر من أسمائه وصفاته ما يوجب حصول الأمرين معًا في القلب دون تغليب أحدهما على الآخر كقوله جلَّ وعلا: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ﴾ [الحجر:٤٩-٥٠].

(٥٦٢) فلم يقل الشاب عن حاله أنه غلَّب أحد الجانبين على الآخر، ولم يرشد إلى هذا النبي ﷺ، فدل هذا على أنَّ الاعتدال في كل الأحوال هو المشروع.

فرض الله جَلَّوَعَلَا فإنه ينبغي حينئذٍ أن يضرب نِيَاطَ قلبه بسياط الخوف. وإذا علم منها قنوطًا ويأسًا فينبغي أن يدمن النظر في الأدلة التي تدل على سعة رحمة أرحم الراحمين. إذًا هذا علاجٌ مؤقت إلى أن يستقيم الحال ويستقيم السير إلى الله جَلَّوَعَلَا بجناحي الخوف والرجاء، والله أعلم(٥٦٣).

هذا هو النوع الأول؛ ألا وهو الخوف المحمود.

◄ **أما النوع الثاني: فإنه الخوف الممنوع؛ والخوف الممنوع على درجتين:**

الأولى: هي الخوف الشركي.

والثانية: الخوف الذي هو معصية.

إذًا تارةً يكون الخوف الممنوع شركًا أكبر، وتارةً يكون معصيةً لله سبحانه.

أما ضابط الشرك الأكبر المتعلق بالخوف: فإنه خوف السر من غير الله.

انتبه؛ خوف السر متى ما تعلق بغير الله سبحانه فإن هذا ولا شك شركٌ أكبر.

---

(٥٦٣) لذا فالقصد والطريق الأرشد والأسلم هو أن يجاهد الإنسان نفسه على أن يعتدل في قلبه الخوف والرجاء، ولا يصل إلى هذه الحال إلا إذا جاهد نفسه مجاهدة عظيمة، حتى إنه لو قِيلَ: إن رجلًا واحدًا سيدخل النَّار وبقية الناس إلى الجنَّة يخاف أن يكون هو، ولو قِيلَ: إن رجلًا واحدًا هو الذي سيدخل الجنَّة والبقية إلى النار لرجا أن يكون هو. وهذا الذي نصَّ عليه جماعة من السَّلف، من ذلك قول مُطرِّف ابن عبد الله التابعي الجليل رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «لو وُزِنَ خوف المؤمن ورجاؤه لوُجدا سواءً لا يزيد أحدهما على صاحبه»، وهكذا جاء عن غيره في آثار شتَّى.

خوف السر هو: أن يخاف الإنسان من غير الله أن يصيبه بسوء من غير مباشرة؛ يعني: أن يخشى من غير الله أن يصيبه بضرر بدون سببٍ ظاهر، **وهذا لا شك أنه إشراكٌ مع الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في الألوهية وفي الربوبية.**

- **إشراكٌ مع الله عَزَّوَجَلَّ في الألوهية؛** لأنه صَرْفُ عبادةٍ واجبةٍ لله جَلَّوَعَلَا لغيره(٥٦٤).

-**أما كونه شركًا في الربوبية؛** فإنَّ الذي وقع في نفسه هذا الاعتقاد لا شك أنه صرف ما اختص الله عَزَّوَجَلَّ به لغيره، فالله جَلَّوَعَلَا هو الذي يفعل ما يشاء، وهو مالك المُلك، وهو مُدبر كل شيء، متى ما اعتقد الإنسان أن غير الله سبحانه يمكن أن يُوقِعَ ما يشاء بأمرٍ خفي وسلطانٍ غيبي دون سببٍ ظاهر معروفٍ بين النَّاس وما هو معهودٌ من المخلوقين، إنما عن طريق هذا الأمر الخفي السري - ولأجله سُميَ خوف السر- فإنه يستطيع أن يفعل ما يشاء حتى إنه يستطيع أن يَطَّلع على ما في القلب فيُضِلُّ صاحب هذا القلب، أو أنه يمنع عنه الولد، أو أنه يقطع عنه المطر، أو أنه يُنزِل عليه صاعقةً من السماء، كلُّ ذلك لا شك أنَّه بدون سببٍ معهود، وبالتالي كان شيئًا لا يقدر عليه إلا الله؛ فمن اعتقده في غيره فقد أشرك مع الله عَزَّوَجَلَّ.

وهذا النوع من الشرك واقعٌ قديمًا وحديثًا:

أما في القديم: فمن ذلك ما أخبر الله عَزَّوَجَلَّ عن طوائف من المشركين الذين كانوا يعتقدون هذا في آلهتهم، ومن ذلك قول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ

---

(٥٦٤) ﴿فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٧٥]

بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾[هود:٥٤]، قالوه لهودٍ عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ ، هؤلاء اعتقدوا في معبوداتهم أنها تُنزل المكروه مع البُعد ومن غير مباشرة وبغير سببٍ ظاهر.

كذلك الحال في المشركين المعاصرين في هذه الأزمنة المتأخرة: حيث إنهم يعتقدون في معبوداتهم التي اتخذوها مع الله جَلَّوَعَلَا من صالحين وسادات وأولياء وأنبياء؛ يتوجهون إليهم في قبورهم ومقاماتهم، يخافونهم خوفًا عظيمًا، وتَوْجَلُ قلوبهم منهم وجلًا كبيرًا، مع أنهم في قبورهم! وبينهم وبين هذا الخائف قدرٌ كبيرٌ من التراب! مرهونون في محبسهم هذا، ومع ذلك فإنه يخاف منهم! حتى إنه حريص على أن يحافظ على خلجات قلبه، يخشى أن يلتفت القلب يمينًا أو شمالًا فيَطَّلِعَ السيد والولي عليه فيسلبه الإيمان. هكذا يعتقدون مع الأسف الشديد.

وذكر الشارح الحفيد الشيخ سليمان في التيسير قصةً عن هؤلاء القبوريين، وهي أنَّ شخصًا استدان مبالغ ضخمة من التجار، وهو وهم كلهم على هذا الاعتقاد، ثم إنه ماطلهم ولم يعطهم حقهم، فلما أرادوا أن يهمُّوا به، ما كان منه إلا أن لجأ إلى قبرٍ معروف في مدينةٍ ذكرها، فلما استعاذ بالقبر وصاحبه توقفوا وما استطاع منهم أحدٌ أن يخطو خطوةً واحدةً تجاهه؛ لماذا؟ لخوفهم من صاحب القبر أن يُنْزِّلَ بهم سوءًا.

إذًا هذا لا شك أنه شركٌ أكبر، والشرك: هو اعتقاد مشاركٍ لله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ فيما اختص به جَلَّوَعَلَا. وهؤلاء قد وقعوا في هذا، بل ربما زاد خوفهم من غير الله على خوفهم من الله، ربما تجد أحدهم لو ذُكِّر بعذاب الله وأخذه الشديد ربما

تساهل ولم يرعوي وأكمل طريقه في الغي والظلم، لكن إذا ذُكِّر ببأس الشيخ وشدة السيد الولي فإنه يخاف ويرتعد، لو قيل له "احلف بالله شديد العقاب سبحانه" فإنه يمكن أن يحلف كاذبًا؛ لكن لو قيل له "احلف بالشيخ" فإن قواه تخر ولا يستطيع أن يكمل الحلف؛ لعظيم خوفه من هذا الولي.

فلا شك أن هذا شرك ما وصل إليه كفار قريش، كفار قريش كانت أقصى أيْمانِهم أن يحلفوا بالله، أما هؤلاء فلا يثق الناس بأيمانهم إلا إذا كانت بغير الله، مما يعظِّمون من هذه المعبودات -مع الأسف الشديد- لأنهم لا يجرؤون خوفًا من أصحابها على أن يحلفوا كاذبين.

أما النوع الذي يندرج تحت هذا القسم وهو الخوف الممنوع، فهو الخوف الذي هو معصية. الخوف الذي هو معصية: هو كل خوفٍ منع مما أوجب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. إذا كان الخوف من غير الله جَلَّ وَعَلَا أدَّى إلى ترك واجب أو فعل محرم، فإن هذا لا شك أنه معصية؛ كأن يترك الإنسان الجهاد خوفًا من أعداء الله إذا وجب عليه، أو يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذا وجب عليه خوفًا من الناس، أو أنه يُشارك غيره في معصية الله خوفًا منهم؛ لا شك أنَّ هذا من الخوف الممنوع الذي يوقع صاحبه في معصية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، بل ربما كان هذا نوعًا من الشرك الخفي؛[٥٦٥] حيث إنه قَدَّم ما يرضاه غير الله على ما

---

(٥٦٥) وقال علماؤنا علماء التوحيد: إنَّ هذا النوع فيه طرف من الشرك، وفيه شرك خفي، وفي شرك أصغر؛ لأنه آثر رِضَا المخلوق على رِضَا الله ﷻ ، وهذا طرف من الشرك. والمشهود لأهل الإيمان والتوحيد أن يكون خوفهم من الله ﷻ.

يرضاه الله جَلَّوَعَلَا، وهذا من جنس الشرك الخفي. هذا أمرٌ قد عمت به البلوى – مع الأسف الشديد–، ونسأل الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أن يعفو وأن يغفر.

وخذ هذه قاعدةً يا رعاك الله: كلما عَظُم خوفك من الله جَلَّوَعَلَا قلَّ خوفك من غيره، كما أنك كلما عَظُمت محبتك لله قلت المحبوبات عندك، كما أنك كلما عَظُم رجاؤك في الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ قلَّ رجاؤك في غيره.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ –كما في المجلد الثامن والعشرين من مجموع الفتاوى– قال: (إن الخوف من غير الله لا يكون إلا من مرضٍ في القلب)، تأمل هذا؛ الخوف من غير الله لا يكون إلا من مرضٍ في القلب، ثم نقل عن الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه شكا إليه رجلٌ خوفه من أحد الولاة، فقال له كلمةً عظيمة، قال له: «لو صَححت لم تخف أحدًا»، يعني لو صح قلبك وقويَ إيمانك لن تخف من أحدٍ دون الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، لكن هذا الخوف الذي وقع في قلبك إنما هو ثمرةٌ لضعف الإيمان.

وقد جرت عادة الله جَلَّوَعَلَا في خلقه أنه لا يخاف أحدٌ أحدًا خوفًا غير شرعي إلا سُلِّط عليه، ولا يحبُّ أحدٌ أحدًا حبًا غير شرعي إلا عُذِّب به، ولا يرجو أحدٌ أحدًا رجاءً غير شرعي إلا خُذِل من قِبله. هذه عادةٌ جارية الواقع المُشاهد فيها أكبر دليلٍ على صحتها.

المسلم واجبٌ عليه أن يعظم خوفه من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وإذا كان كذلك لا شك أنه لم يُقَدِّم على خوفه من الله عَزَّوَجَلَّ خوف أحد. وما أحسن ما قال الفُضيل بن عياض الإمام الجليل رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال كلمةً عظيمة تُكتب بماء العين،

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من عرف الناس استراح»؛ من عرف الناس فعلِم أنهم لا ينفعون ولا يضرون استراح؛ فلم يحمل لهم همًا، ولا كان في قلبه من خوفهم كقدر قُلامة ظفر، لأنهم لا يضرون، الأمر كله لله. كذلك إذا علم أنهم لا ينفعون لم يتزين لهم، ولم يرائِهم، ولم يُسَمِّع لأجلهم، ولم يتذلل لهم؛ لأنهم لا ينفعون، الأمر كله لله جَلَّ وَعَلَا، وفي حديث ابن عباسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيءٍ قد كتبه الله لك، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيءٍ قد كتبه الله عليك»، القضية انتهت، محسومة، «رفعت الأقلام، وجفت الصحف»، إذًا لأي شيءٍ يحمل الإنسان همًا لهذه المخلوقات؟! المؤمن الصادق لسان حاله كما قال الشاعر:

ألا ليت الذي بيني وبينك عامر ... وبيني وبين العالمين خراب

إذا صح منك الود فالكل هين ... وكل الذي فوق التراب تراب

هذا عن الخوف الممنوع.

◄ **أما عن الخوف المباح -وهو القسم الثالث-** فإنه: الخوف الطبيعي الذي تقتضيه الجبلة الإنسانية؛ كخوف الإنسان من سَبُع يعدو عليه، أو خوف الإنسان من عدوٍ صائل، أو خوف الإنسان من حيةٍ أو عقربٍ، أو ما شاكل ذلك، فإن هذا القدر قدرٌ معفوٌ عنه وليس داخلًا لا في الخوف المشروع ولا في خوف الممنوع، ولا تبعات على الإنسان فيه، ولا يغُض ذلك من قدره.

ألم يقل الله جَلَّوَعَلَا في حق الكليم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص:٢١] مع أن أنبياء الله جَلَّوَعَلَا وصفهم الله جَلَّوَعَلَا بقوله: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللهِ وَيَخشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللهَ﴾[الأحزاب:٣٩]، فكيف بموسى الذي هو من أولي العزم من الرسل؟ فدل هذا على أن هذا الخوف ليس داخلًا فيما تكلمنا عنه من الخوف الممنوع، وأن هذا القدر لا حرج فيه، ولا لائمة على الإنسان فيه.

نعود إلى الآية التي بوَّب المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ هذا الباب عليها(٥٦٦) .

قال: (باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾[آل عمران:١٧٥])، وتتمة الآية: ﴿فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[آل عمران:١٧٥].

ولاحظ يا رعاك الله أن الله جَلَّوَعَلَا علق ثبوت الإيمان على الخوف من الله جَلَّوَعَلَا، وهذا عند أهل العلم محمولٌ على حالتين:

الحال الأولى: أن يكون الإيمان هو أصله؛ يعني: إن كنتم مؤمنين أصلًا، وهذا المنهي عنه هو الخوف الشركي الذي هو خوف السر، ﴿فَلا تَخَافُوهُمْ﴾ خوف السر ﴿وَخَافُونِ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ، يعني إن كنتم مسلمين ولستم كفارًا؛ فيُشترط في صحة الإيمان التخلي عن خوف السر.

---

(٥٦٦) وتبويب المؤلّف رَحِمَهُ اللَّهُ لهذا الباب وإدخاله في كتاب التوحيد مناسبته ظاهرة؛ فإنَّ الخوف من الله توحيد، والخوف من غير الله كخوف الله هو من الشرك، وقد يكون شركًا أصغر

والحال الثانية: أن يكون الإيمان في قوله: ﴿إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ هو الإيمان الواجب، وإن شئت فقل: أن يكون كمال الإيمان الواجب؛ وهذا يكون إذا قلنا به فإن المنهي عنه في قوله: ﴿فَلا تَخَافُوهُمْ﴾ يعني الخوف الذي هو معصية، وليس الخوف الذي هو شرك.

إذًا هكذا يُفهم قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

وقد اختلف المفسرون رَحِمَهُمُ اللَّهُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ إلى قولين:

القول الأول أنَّ معنى الآية: إنما ذلكم الشيطان يخوفكم أولياءه(٥٦٧)؛ يعني يخوفكم من أوليائه، ومعلومٌ أن الشيطان جعل الله عَزَّوَجَلَّ له قُدرةً على أن يوسوس في صدور الناس، وكل ابن آدم معه قرينٌ من الجن، وبالتالي فإن من شأن هؤلاء الشياطين أنهم يوسوسون في قلوب المؤمنين وصدورهم أن يخافوا أولياءهم.

ولا شك أن هذه الوسوسة لا تؤثر إلا فيمن كان ضعيف الإيمان، أما من كان قويَّ الإيمان فإنَّ هذه الوسوسة لا تُؤثر فيهم شيئًا، ولا يبالي أهل الإيمان القوي بهذا التخويف شيئًا؛ ولذلك انظر -يا رعاك الله- إلى حال أنبياء الله ورسله، لما كان أولياء الشياطين -الذين هم شياطين الإنس- كانوا يخوفون الأنبياء من معبوداتهم وآلهتهم، ماذا كان ردُّهم؟ هذا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول:

---

(٥٦٧) وبعضهم يقول: يخوفكم بأوليائه، وبعضهم يقول: يخوفكم من أوليائه، والأمر في هذا قريب؛ فيكون المعنى كقوله جلَّ وعلا: ﴿لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ﴾ [غافر:١٥].

﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ﴾[الأنعام:٨٠] ، لما خوَّفوه بآلهتهم صارحهم وعالنهم بأنه لا يبالي ولا يخاف من هذه المعبودات، كذلك الحال مع المشركين في عهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حينما قال الله عَزَّوَجَلَّ في شأنهم: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾[الزمر:٣٦]، ومع ذلك فإن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يبالِ بهم لعظيم خوفه من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

والقول الأول هو قول جماهير أهل العلم[٥٦٨]، وهو المروي عن ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ومجاهد[٥٦٩] وكثيرٍ من أهل العلم.

أما القول الثاني[٥٧٠]: فهو ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ يعني: يُوقِع الإخافة في قلوب من يكون وليًا له، وبالتالي فإنَّ مفهوم هذه الآية أنَّه لا سلطان له في إخافة أقوياء الإيمان، إنمَّا ذلكم الشيطان يُوقع الخوف في قلوب من يُذعن للشيطان ويسوس قياده له وينصاع له فيكون وليًا له. أما أهل الإيمان فإنه لا سلطان عليهم، وبالتالي فإنه لا يخوِّف -يعني الشيطان- أهل الإيمان؛ لأن الله حكم أنه لا سلطان له على الذين آمنوا.

لكنَّ القول الأول -كما ذكرت لك- هو الأقرب، وهو الذي عليه جماهير أهل العلم.

---

(٥٦٨) بل نصَّ بعضهم على أنَّه قول جميعهم؛ ولكنَّ هذا ليس بدقيق، بل القول الثاني مروي أيضًا عن بعض أهل العلم.

(٥٦٩) وسعيد ابن جُبير، وعكرمة، وغيرهم من أهل العلم.

(٥٧٠) وهو مرْوي عن الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ.

والمقصود أنَّ هذه الآية قد دلت على وجوب الخوف من الله سبحانه ؛ فإن الله تعالى نهى عن الخوف من غيره، وأمر بالخوف منه وحده لا شريك له، ﴿فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾(٥٧١) .

كما أن الآية قد دلت على أن الخوف من غير الله جَلَّ وَعَلَا إنما يصاحب القلوب المريضة التي تستجيب للشيطان، أما أهل الإيمان الصادق فإنهم لا يبالون بهذا التخويف من الشياطين وأوليائهم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وَقَوْله** : ﴿ **إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللهَ** ﴾ [التوبة:١٨] **الآيَةَ**).

أورد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ آية التوبة وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللهَ﴾، والشاهد الذي لأجله أورد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه الآية هي قوله: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللهَ﴾؛ وهذا الأسلوب أبلغُ أساليب القصر، أعني ما جاء في هذا الشطر من الآية وهو

---

(٥٧١) فلا تخافوا هؤلاء الأولياء الخوف الشركي إن كنتم مؤمنين، أو فلا تخافوا هؤلاء الأولياء خوفًا يبعث على ترْك ما أوجب الله ﷻ فلا تكونون مؤمنين الإيمان الواجب. وعليه فنفي الإيمان الذي تُضِمّن في قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ قد يكون نفيًا لأصل الإيمان؛ إذا كان خوفًا شركيًا، وقد يكون للإيمان الواجب أو لكمال الإيمان الواجب؛ إذا كان هذا الخوف معصيةً أو شركًا أصغر.

النفي والإثبات، قال: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾، والمعنى: أنه جعل خشيته لله عَزَّوَجَلَّ خالصة، لم يخشَ أحداً البتة إلا الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ(٥٧٢).

وقد علِمنا الفرق بين الخوف والخشية، وقلنا أن الأقرب أن الخشية أخص من الخوف، فبينهما عموم وخصوص، **ومن أشهر ما ذُكِر في الفرق**:

أن الخشية خوفٌ مقرون بعلم وتعظيم؛ بعلمٍ بالمخوف وتعظيم له، أما متى كان خوفًا مع جهل بالمخوف أو مع عدم تعظيمه وإنَّما مع احتقاره مثلاً فإن هذا لا يعد خشية.

وقال بعض أهل العلم: إنَّ الخشية أبلغ الخوف؛ فهي أخص من هذه الجهة، يعني أعلى درجات الخوف يسمى خشية. (٥٧٣)

فمهما يكن من شيء فالخشية ترجع في الجملة إلى معنى الخوف، فالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أثنى في هذه الآية على الذين حققوا الخشية لله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، بل إنهم أخلصوا هذه الخشية له جَلَّوَعَلَا. ولاحظ كيف كان الاقتران في هذه الآية بين

---

(٥٧٢) فالخشية التي هي عبادة لا يجوز صرفها إلا لله ﷻ ، وهذا حال أهل الإيمان الذين أثنى الله ﷻ عليهم بهذه الصفات العظيمة.

(٥٧٣) وبعض أهل العلم يقول: إن الخوف يتطلع فيه الخائف إلى الضرر نفسه، وأمَّا الخشية فإنَّ من يخشى يتطلع إلى من يوقِع الضرر، فالتفاته إلى من يوقع الضرر، وأمَّا الخوف فالنظر فيه إلى نفس الضرر.

وعلى كل حال الأمر في ذلك قريب، لكن ظاهر من كلام أهل العلم أن الخشية أخصُّ من مطلق الخوف.

الخشية والعمل، وهذا يدلك على أن الأعمال الصالحة يُؤثر بعضها في بعض، بين الأعمال الصالحة تصادقٌ وتلازم، لاسيما إذا تعلق الأمر بالعبادات القلبية، وعلى الأخص ما يتعلق بعبادة الخوف؛ فإنَّ ذلك يقترن -إن كان خوفًا شرعيًا- مع العمل الصالح، والله جَلَّوَعَلَا قرن في صفات هؤلاء المؤمنين الذين هم أهلٌ لأنَّ يعمروا مساجد الله بين عملهم الصالح وخشيتهم لله تَبَارَكَوَتَعَالَى، فهم آمنوا بالله واليوم الآخر وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، كذلك الأمر في اقتران الخوف بالعلم، الخوف يقترن بالعمل كما قد علمت، كما أنه يقترن بالعلم، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾[الأعراف:١٥٤].

وعلمنا الفرق بين الخوف والرهبة؛ فالرهبة خوف مقرون بتحرُّز وهرب، وكل ما يُخاف فإنه يُهرَب منه، إلا الله سبحانه فإنه إذا خافه العبد هرب إليه جَلَّوَعَلَا، قال سبحانه: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللهِ﴾[الذاريات:٥٠]. كذلك قول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى﴾[الأعلى:١٠]. إذًا الخوف مقرون بالعمل، كما أن الخوف مقرون بالعلم، ومرَّ بنا ما يدل على هذا صريحًا في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[فاطر:٢٨] .

وهذه الآية آية عظيمة وفيها مباحث شتى، قال جل وعلا: ﴿**إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ**﴾؛ (إنما) أداة من أدوات الحصر، والمعنى: أن الذين هم أهلٌ لعمارة مساجد الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى هم هؤلاء، ليس المقصود أنه لا يعمر مساجد الله إلا هؤلاء، إنما المقصود: أن الذين هم أهل لعمارة المساجد هؤلاء، لأن عمارتهم

تنفعهم، وأما الذين لم يتصفوا بالصفات الخمس الواردة في الآية فإنهم ليسوا أهلاً لعمارة المساجد، وإن عمروها فهي ليست عمارةً حقيقية، لأنهم لا ينتفعون بها.

وعمارة المساجد وبيوت الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ

- قال بعض أهل التفسير: إنها عمارة حسية.
- وقال بعضهم: إنها العمارة معنوية.
- وقالت طائفة ثالثة: إنها تشمل الأمرين، وهذا أقرب؛ العمارة الحسية بابتنائها وإصلاحها وتشييدها، كذلك العمارة المعنوية التي هي بالجلوس فيها وذكر الله سبحانه والصلاة وتلاوة القرآن، فإن هذه هي العمارة المعنوية للمساجد ولا شك أن العمارة المعنوية أولى من العمارة الحسية. والآية الأقرب والله أعلم أنها تشمل الأمرين.

مَن هؤلاء الذين هم أهل لعمارة المساجد؟

هؤلاء الذين حصلوا هذه الصفات الخمس:

(آمنوا بالله واليوم الآخر)؛ لاحظ أنه لم يُذكر الإيمان برسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، كذلك لم يُذكر الإيمان بالملائكة والكتب والرسل، وذلك لما قد مر بنا في دروس سالفة من أن أركان الإيمان بل جميع ما يندرج في هذا الدين فإنه مُتضمَّنٌ في الإيمان بالله، ولذلك إذا أُفرد فإنه يشمل في المعنى جميع ما يدخل في هذا الدين؛ أصولاً وفروعاً، أركاناً وعبادات، وقد يُفرَد بعض ذلك لأجل فائدة أو تحقيق مصلحة أو لحكمة يعلمها الله جَلَّ وَعَلَا.

هاهنا ضُمَّ إلى الإيمان بالله الإيمان باليوم الآخر؛ وهذا كثير في القرآن، كثير ما يُقرن بين الإيمان بالله واليوم الآخر؛ وذلك أن الإيمان باليوم الآخر باعثٌ عظيم على العمل الصالح، فإنَّ تذكر الإنسان يوم الجزاء والحساب، تذكُّره الدار الآخرة التي فيها المأوى نعيمًا أو عذابًا، تذكره ذلك دافعٌ وحاثٌ له على أن يستقيم على شرع الله والإيمان بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

وذكر بعد ذلك الصلاة والزكاة قال: ﴿وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ﴾؛ وذلك لأن هاتين العبادتين أعظم العبادات، والغالب أن من سمحت نفسه بأدائهما الغالب أنه لغيرهما أطوع، يؤدي غيرهما، إنما من قَصَّر في هذين فالغالب أنه يقصِّر فيما سواهما.

ثم ذكر الخشية، وهذا هو موضع الشاهد في هذه الآية التي أوردها المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٥٧٤) .

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وَقَوْله**: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللهِ﴾ [العنكبوت:١٠] **الآيَةَ**).

---

(٥٧٤) والمقصود أن الإنسان كلما عَظُمَ إيمانه وخوفه من الله ﷻ قلَّت المخوفات، وضعفت الخشية في قلبه من غير الله ﷻ، ولذلك أنظر إلى حال الرُسُل يقول الله ﷻ: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللهَ﴾ [الأحزاب:٣٩]، فأهل الإيمان الحق من الملائكة والأنبياء والرُسُل وكُمَّل المؤمنين تقِلّ المخوفات في نفسهم جدًا، حتى إنهم لا يخشون إلا الله ﷻ.

هذه آية العنكبوت يذكر الله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ فيها طائفة من الناس؛ حتى نكون على بينة من حالهم، وأن نحذر أن نكون مثلهم(٥٧٥).

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللهِ﴾؛ ﴿فِي اللهِ﴾ هذا الحرف «في» يفيد معنى السببية، يعني بسبب الإيمان بالله، لأجل الإيمان بالله.

﴿فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللهِ﴾.

والمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال **(الآية)** يعني: أكمل الآية.

﴿وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ * وَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾[العنكبوت:١٠-١١]؛ هذه الآية في حق أناس كان فيهم نفاق، وذلك أنهم كانوا بمكة فأسلموا لكن فُتنوا بالكفار، مسَّهم شيء من الأذى والابتلاء بسبب هؤلاء الكفار، هاهنا وقعوا في امتحان، أضحى عندهم شيء من المعارضة والمقارنة بين أذية هؤلاء؛ يُفتن من قبل هؤلاء المشركين، أوذي في الله ناله شيء من الأذى يزيد أو ينقص، ثم قارن هذا بعذاب الله عَزَّوَجَلَّ الذي ينتظره إن أعرض عن الله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ؛ فكان من هؤلاء أنهم قدَّموا خشيتهم من الناس على خشيتهم من الله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، فخسروا خسارةً لا ربح بعدها.

أوذوا بسبب إيمانهم بالله فقدَّموا خوفهم وخشيتهم من المخلوقين على خشيتهم من الخالق، فكان أن دفعوا عذاب ساعة بعذاب الأبد، نسأل الله

(٥٧٥) هذه الآية في شأن من ضَعُفَ خوفه من الله ﷻ وعَظُم خوفه من غيره حتى إنَّه آثر تقديم ما يخافه من غير الله على ما يخافه من عذاب الله.

السلامة والعافية. لكن هؤلاء ما أظهروا كفرهم وردَّتهم للمؤمنين، كانوا يداهنون أهل الإيمان، لكن حقيقة الحال أنهم ركنوا إلى الكافرين؛ ولذلك إذا قضى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى بنصر المؤمنين فإنهم يأتون إلى المؤمنين ويقولون إنا معكم نريد أن نصيب مما تصيبون من نتائج هذا الظفر؛ كالغنيمة ونحوها. فبيّن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى أن هؤلاء وإن خفي حالهم على المخلوقين فإنه لا يخفى على الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى؛ ﴿أَوَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ .

ثم حكم الله جَلَّوَعَلَا بأنه قدر هذا الأمر حتى يعلم علم الظهور، عِلم أهل الإيمان الذين إذا ابتلوا ثبتوا، وعِلم ظهور حال المنافقين الذين لما ابتُلوا ما ثبتوا، نكصوا على أعقابهم.

﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ ؛ هذا العلم يا رعاك الله الذي جاء في هذه الآية وهو الذي يأتي في نظائر لها في القرآن المراد به ليس العلم القديم، إنما هو علم الظهور، وذلك أن الله عَزَّوَجَلَّ علم الأشياء بعلمه القديم الذي هو صفة ذاتية لا تنفك عن الذات، علِم الله كل شيء أزلًا وأبداً. وهناك علمٌ آخر؛ وهو علم الله عَزَّوَجَلَّ بالشيء وقت حصوله. إذاً الله ﷻ يعلم الشيء قبل حصوله، ويعلم الشيء إذا حصل. والثواب والعقاب يتعلق بأي العلمين؟ بالثاني؛ الله جَلَّوَعَلَا لا يعاقب أحدًا على العلم القديم، إنما يعاقب على علم الظهور، هذا العلم الذي يتجدد.

المقصود أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى بيَّن في هذه الآية حال هؤلاء وحالهم يشبه ما جاء في الآية الأخرى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ﴾؛ على حرف:

يعني على طرف، ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ﴾ والنتيجة: ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ﴾[الحج:١١]، نسأل الله السلامة والعافية.

الله جَلَّوَعَلَا من حكمته أنه يبتلي أهل الإيمان، في هذه السورة التي نحن فيها -سورة العنكبوت- قدَّم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى بمقدمة عظيمة ينبغي للمسلم أن يقف أمامها متأملاً، قال سبحانه: ﴿الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾[العنكبوت:١-٣] حكمة من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى أنه يبتلي أهل الإيمان، حتى يميز الله الخبيث من الطيب .

والناس يختلفون في هذا الابتلاء بحسب ما يشاءه الله تَبَارَكَوَتَعَالَى؛ من الناس من تكون فتنته فتنة عظيمة، ومن الناس من تكون فتنته دون ذلك، ربما إذا أسلم الإنسان بعد كفر فُتن وأوذي وابتلي بأهله بأصدقائه بأناس من ذوي الجاه والمنصب، لأجل أن يردُّونه، يرهبونه أو يرغّبونه، ربما ابتُلي بشيء من الأذى في جسده أو الأذى في عِرضه، تشاع عنه قالة السوء، ربما ابتلي بأقلَّ من ذلك كسخرية واستهزاء، وهاهنا يمتاز أهل الإيمان الصادق من الكاذبين(٥٧٦).

---

(٥٧٦) ولا شك أن كل من آمن بعد الكفر يناله حظ من الابتلاء، لم يأتِ أحد بمثل ما أوتيت به -كما يقول ورقة رَضِوَاللَّهُعَنْهُ- إلا أُوذي أو إلا عُودِي. فلابدَّ من الأذية ولا بدَّ من الابتلاء، ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت:٢]، لابدَّ من حصول الابتلاء والفتنة، لكن قد يعظُم ذلك وقد يخف.

أهل الإيمان الصادق كما مر معنا غير مرة: «وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار»؛ لا يمكن أن يرجع إلى الظلام وقد نوَّر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قلبه، هنيئـًا لأهل الصدق، هنيئـًا لأهل الإيمان الصادق.

وأما أولئك الذين في قلوبهم مرض وغش ودغل فإنهم لا يثبتون عند الامتحان(٥٧٧)، وهكذا الشأن فيمن استقام على طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، ربما يكون الإنسان سادراً في غيِّه واقعًا في معاصي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فيمُن الله عَزَّوَجَلَّ عليه بأن يسلك طريق الاستقامة، وهاهنا قد يُبتلى وقد يفتن وقد يؤذى من أهله، من زوجه، من أولاده، من أصدقائه، وحينئذ يكون في وسط هذا الامتحان، فإما أن ينجح فيفوز برضا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وإما أن يعود إلى ما كان عليه -عياذاً بالله- من معصية الله، وحينئذ يكون قد فشل في هذا الامتحان.

إذًا المؤمن الصادق هو الذي خشية الله ﷻ في قلبه أعظم من كل خشية.

قد مر بنا أن تجريد التوحيد يقتضي أن تقلَّ المخوفات في قلب العبد، وأن يوحَّد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالخوف، كلما عظُم إيمانك وتوحيدك كلما قلَّت المخوفات في قلبك، ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللهَ﴾[الأحزاب:٣٩]. هكذا ينبغي أن يكون أهل الإيمان؛ فإن نالهم مسٌّ من أذى أو شيء من العذاب بسبب إيمانهم فالواجب حينئذ الثبات. هذه حقيقة الإيمان، وهذا هو حقيقة التوحيد، قال جَلَّوَعَلَا: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللهُ أَحَقُّ أَنْ

---

(٥٧٧) إذا نزلت به المحنة لم يصبر، نظرًا لقلة خوفه من الله ﷻ وعظيم خوفه من غيره؛ فيرتد والعياذ بالله.

تَخْشَوْهُ﴾[التوبة:١٣]، أين توحيدك؟ أين إيمانك؟ إذا كنت تخشى المخلوق أكثر من الخالق.

ومن حكمة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أن هذا الابتلاء غالبًا ابتلاء مؤقت يزول بعد حين، لكنه يحتاج إلى شيء من الصبر ثم يأتي الفرج، الله جَلَّوَعَلَا قرن الفرج بالصبر، امتحان يصبر عليه الإنسان ما شاء الله عَزَّوَجَلَّ أن يصبر، ثم تكون العاقبة خيراً كثيراً. إذًا الأمر كما قال الإمام أحمد رَحِمَهُٱللَّهُ: «لو صححت لم تخف أحداً»؛ لو كان إيمانك وتوحيدك صحيحًا وقلبك سليمًا فإنك لا تلتفت إلى أحد من المخلوقين، ولا تبالي بهم، إنَّما حصول خوف من غير الله جَلَّوَعَلَا علامةٌ وأمارة على مرضٍ في القلب.

ولاحظ أننا نتحدث عن الخوف الممنوع بكل ما سبق وما سيأتي كلامنا عن الخوف الممنوع. **أمَّا الخوف المباح** الذي تقتضيه الجبلة وهو ما أسميناه بالخوف الطبيعي فإن هذا غير داخل فيما نتحدث فيه، كلامنا عن الخوف الممنوع الذي لا تقتضيه الجبلة، إنما يخاف الإنسان خوفًا يؤدي به إلى الوقوع في الشرك، أو إلى الوقوع في المعصية، على ما مضى تفصيله، والله المستعان.

قال رَحِمَهُٱللَّهُ: (**وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ مَرْفُوعًا: «إِنَّ مِنْ ضَعْفِ الْيَقِينِ أَنْ تُرْضِيَ النَّاسَ بِسَخَطِ اللهِ، وَأَنْ تَحْمَدَهُمْ عَلَى رِزْقِ اللهِ، وَأَنْ تَذُمَّهُمْ عَلَى مَا لَمْ يُؤْتِكَ اللهُ، إِنَّ رِزْقَ اللهِ لَا يَجُرُّهُ حِرْصُ حَرِيصٍ، وَلَا يَرُدُّهُ كَرَاهِيَةُ كَارِهٍ»**).

هذا الحديث حديثٌ صحيحُ المعنى لكنَّه ضعيف الإسناد، وفيه لطيفة.

قال: (**إن من ضَعف اليقين**)؛ ويصح أن تقول (إن من ضُعف اليقين) على لغة تميم. واليقين أعلى درجات الإيمان، وهذا اليقين واجب على المسلم، ومر بنا حينما تكلمنا في دروس قديمة فيما يتعلق بشروط لا إله إلا الله.

واليقين الواجب على المسلم: اليقين المتعلق بأمر الله، واليقين المتعلق بوعد الله، واليقين المتعلق بقدَر الله.

- **اليقين المتعلق بأمر الله**؛ أن يكون يقين بأن أمر الله عَزَّوَجَلَّ حق.
- **واليقين المتعلق بوعد الله**؛ يقين يقتضي اعتقاد أن وعد الله صدق.
- **واليقين المتعلق بقدر الله** عَزَّوَجَلَّ ؛ يقتضي اعتقاد أن قدَر الله عَزَّوَجَلَّ عدل.

إذًا من علامات وأمارات ضعف هذا اليقين ما جاء في هذا الحديث، من ذلك:

أولا: أن يُرضي الإنسان الناس بسخط الله ، وهذا سنتحدث عنه بعد قليل إن شاء الله في الدليل القادم.

أما الثاني: فهو أن يحمد العبد المخلوق على رزق الله.

والثالثة: أن يذمَّ المخلوق على ما لم يؤته الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

وهذه لطيفة مهمة ينبغي أن يلحظها الراغب في تحقيق التوحيد؛ كيف أن لا يحمد الإنسان من وصله الخير والرزق من قِبَله؟ الجواب: أن المقصود بهذا الكلام هو أن يكون التفات القلب ومشاهدة النعمة وملاحظة الفضل كل ذلك متعلقٌ بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى؛ وذلك أن النعمة حقيقةً إنما هي من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، قال

جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ﴾[النحل:٥٣]، ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ﴾ من ماذا؟ ﴿مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ﴾[الإسراء:٢٠] ؛ إذًا الذي خلق هذا الرزق هو الله، والذي مَنَّ بهذا الرزق هو الله، والذي حرَّك قلب هذا المخلوق فأوصل لك هذا الرزق هو الله عَزَّوَجَلَّ(٥٧٨)، إذًا الأمر في الحقيقة من الله وإلى الله .

إذًا ماذا عن المخلوق الذي جاءني الرزق من طريقه؟ هو في الحقيقة سبب ووسيلة لا غير، حقه عليك المكافأة والشكر، أما المكافأة فلقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما في الصحيح: «من صنع إليكم معروفـًا فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئوه فادعوا له حتى تظنوا أنكم قد كافأتموه»، والشكر في قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا يشكر الله من لا يشكر الناس».

إذًا المخلوق حظه وحقه ونصيبه لا يتجاوز هذا الأمر(٥٧٩) . أما أن يكون هناك التفاتٌ من القلب إلى المخلوق واعتقاد أن المنة له وأن الإنعام من قِبله وأنه هو الذي طوَّقه بالفضل؛ هذا لا شك أنه من ضعف اليقين والإيمان، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال كما في الصحيحين: «إنما أنا قاسمٌ، والله يعطي»، وفي رواية عند البخاري «الله المعطي وأنا قاسم»، النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقسم، يعطي بأمر الله عَزَّوَجَلَّ ما منّ الله به وأعطى، لا أقل ولا أكثر.

---

(٥٧٨) ولولا ذلك لم يعطِ، فرجع الأمر إلى أنَّ الله جَلَّ جَلَالُهُ هو الأول والآخر، وأن الأمر كله إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

(٥٧٩) أهل الإيمان لعظيم إيمانهم ويقينهم بربوبية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وأنه هو النافع الذي بيده النفع والضر والعطاء والمنع؛ فإنَّ مشاهدة قلوبهم إنما هي لعطائه ومَنّة سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا إلى غيره.

إذًا الحمد الحقيقي المطلق والمنة المطلقة والفضل المطلق ممن كان؟ أمِن المخلوق أم من الخالق؟ أرأيت لو جاءك هدية من قِبل رجل غني أو أمير وأرسله مع سائقه أو خادمه ماذا تصنع؟ أتقول لهذا الخادم: "يا أيها الخادم إن إحسانك قد أغرقني وإني لا أستطيع مكافأتك على هذه المنة العظيمة التي قدمتها إلي!" أهكذا يقال؟ لا ، غاية الأمر أن يقال له جزاك الله خيرا، أشكرك على ما فعلت، ولكن اعتقاد هذا الإنسان أن الذي أوصل إليه الخير إنما هو صاحب هذه الهدية.

هذا مثال يبين لك أن المخلوق لا يتجاوز حال هذا الخادم، وأن المنعِم الحقيقي إنما هو الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ فهو الذي أعطى، ولذلك الحمد التام والشكر الكامل واعتقاد المنة والتفضل يجب أن يتوجه به العبد إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

وإذا كان ذلك كذلك حصل الأمر الآخر؛ وهو أنه لا يغضب إذا منعه مخلوقٌ شيئًا من الرزق، لأن المانع في الحقيقة هو الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، عدم وصول الرزق كان قدَراً من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ. إذًا ما الفائدة أن يغضب الإنسان على مخلوق؟ يعني أنا أطلبك شيئًا من الرزق شيئًا من المال فتمتنع أو تعتذر، فأصبُّ كما يقولون جام غضبي عليك وأسب وأشتم وأغضب وأزمجر، على ماذا؟! هو في الحقيقة ليس منه شيء، الأمر إنما كان من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ (٥٨٠) .

---

(٥٨٠) فلا فائدة إذًا من أن تذمّ المخلوقين على شيء لم يسُقه الله ﷻ إليك، ولِذا لو اجتمع أهل الأرض كلهم على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله جلَّ وعلا

إذًا من كان يعتقد حقيقةً وصدقًا اعتقادًا كاملاً أن الله ﷻ هو الرزاق، وأن الله ﷻ هو الذي يقدِّر الأقوات؛ فإنه حينئذ لا يغضب من مخلوق لم ينله خير من قِبله، لأنه لا يتجاوز أن يكون مجرد وسيلة أو سبب أو واسطة، والأمر كله راجعٌ إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولذلك رِزق الله عَزَّوَجَلَّ لن يوصِله إليك أو يسرع به إليك حرصك، والعكس صحيح، الأمر كله إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

لا يعني هذا أن لا يبذل الإنسان السبب في الرزق أو في طلب الرزق، لكن الذي ينبغي أن يكون أثناء طلبه لهذا الرزق وبذله هذا السبب قد تعلق قلبه بالمُنْعِم الأول؛ الله عَزَّوَجَلَّ هو الأول والآخر، فالأمر كله منه وإليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولذلك سيأتي معنا في الباب القادم أن التوكل قد عُرِّف بأنه: حركة بلا سكون وسكون بلا حركة. يبذل الإنسان حركة وجهداً يبذله بلا تقاعس ولا تكاسل، ولكن مع هذا فإنَّ قلبه ساكن مطمئن معلق بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يضطرب، يعلم أن الأمر كله لله جَلَّ وَعَلَا. على أن الإنسان قد يرزق ببذل كثير، وقد يُرزق ببذل قليل، وقد يرزق بلا سبب منه، أليس كذلك؟ ربما يموت قريبٌ فيرث هذا الإنسان، هل بذل سببًا؟ ما بذل سببًا، ما كان منه شيء، ومع ذلك ساق الله عَزَّوَجَلَّ إليه هذا الرزق.

إذًا الذي يجب والذي يتعين على كل مسلم أن يكون قلبه معلقًا بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

لك. فرزق الله ﷻ له يُعجِّل به حرصك، ولن يؤخره عنك تقصيرك، سيصلك شئتَ أم أبيت.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنِ الْتَمَسَ رِضَا اللهِ بِسَخَطِ النَّاسِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَى عَنْهُ النَّاسَ، وَمَنِ الْتَمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللهِ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَسْخَطَ عَلَيْهِ النَّاسَ». رَوَاهُ ابْنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ).

هذا الحديث حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حديثٌ حسنٌ لا بأس به إن شاء الله، وخرَّجه ابن حبان في صحيحه، وهو عند غيره كالترمذي وغيره ولكن بألفاظ مقاربة(٥٨١).

المقصود أن هذا الحديث فيه بيان قاعدةٍ جعلها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بقدَره، وهي المعاملة بنقيض المقصود الفاسد؛ بمعنى: أن من التمس رضا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بسخط الناس فإنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يجازيه على ذلك بأن يرضى عنه، وأن يُرضي عنه الناس، وهذا جزاءٌ على عمله الصالح.

أما المعاملة بنقيض المقصود الفاسد ففي حال العكس؛ وهو أن يرضي الناس بسخط الله. (الباء) هاهنا باء معاوضة، يعني كأنه يشتري رضا الله عَزَّوَجَلَّ برضا الناس، أو العكس يشتري رضا الناس بسخط الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وبئست

(٥٨١) وهذا الحديث أيضًا فيه بحث من جهة ثبوته، وبعض أهل العلم رجح الموقوف على عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا على المرفوع، وبعضهم رجح المرفوع وصححه مرفوعًا كالشيخ ناصر رَحِمَهُ اللَّهُ وغيره من أهل العلم. وأمَّا المعنى فلا شكَّ في صحته؛ أنَّ من أرضى الله جَلَّ وَعَلَا بسخط الناس فإن الله جَلَّ وَعَلَا يُثيبه على ذلك برضاه عنه، ويُثيبه على ذلك أيضًا بأن يُرضي الخلق عليه، والعكس صحيح.

الصفقة حينئذ؛ من فعل هذا، من قدَّم ما يتعلق بسخط المخلوق على سخط الخالق جل وعلا فإنه سيبوء بخسران وإثم، ويكون واقعًا في عظيمة من العظائم، ثم إنه لن يحصُل على ما كان يلتمس ويطلب. (التمس) يعني: طلب، هو كان يطلب وجوه الناس ورضاهم لا يسخطوا عليه، لكن النتيجة أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ سيجعل قلوبهم ساخطةً عليه، وذلك عقوبة منه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ على ما صدر منه من تقديم محاب المخلوقين على محاب الله، ورضا المخلوقين على رضا الخالق سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

المسلم الصادق الذي كَمُل توحيده وإيمانه هو الذي لا تأخذه في الله لومة لائم، هو الذي الله عَزَّوَجَلَّ في قلبه أعظم من كل شيء وأكبر من كل شيء، ورضاه عنده أهم من رضا كل أحد؛ يعتقد أن الله جَلَّوَعَلَا هو الذي مدحه زين وذمه شين، ولذلك فإنه لا يبالي بالمخلوقين إذا تعارض ما يحبه الله مع ما يحبه المخلوق، أو ما يسخطه الله مع ما يسخطه المخلوق، دائمًا -ولا تردد عنده في ذلك - عنده تقديم ما يحبه الله على ما يحبه المخلوق، لا يمالئ ولا يداهن في شيء يبغضه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

وضعيف الإيمان من قلَّ حظه من خوف الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ هو الذي يداهن في هذا الأمر، ربما وافق من يقع في معصية الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لأجل أن يدفع سخطه عنه، بل ربما شاركه فيما هو عليه من المعصية لأجل ذلك، وهذا يُبْشر بأن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ سيقلب قلوب الخلق عليه شاء أم أبى، سيعاقب بنقيض قصده، فلا

هو بالذي استفاد ما يتعلق برضا المخلوقين، ولا هو الذي فاز برضا الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

وإنَّ من المؤسف أنَّ حال كثير من الناس لاسيما في هذه الأعصار المتأخرة أنهم -مع الأسف الشديد- يداهنون في دين الله جَلَّوَعَلَا ولا يبالون الوقوع في مساخط ربنا جَلَّوَعَلَا في سبيل أن يدفعوا عن أنفسهم سخط المخلوقين ولأجل أن يُقبل المخلوقون عليهم. ربما تجد من يسكت عن الأمر بالمعروف أو النهي عن المنكر وهو يعتقده معروفًا أو منكراً، وذلك لئلا يحرك ساكن الناس.

ربما يذهب إلى المسجد ويرى من الناس من هو جالس لا يصلي في المسجد وقد أقيمت الصلاة، لا يتكلم بحرف واحد فيذكِّر ويأمر وينهى، لِمَ يا ترى هذا الأمر؟ الجواب: أنه التمس رضا الناس، لكن مع الأسف الشديد بسخط الله جَلَّوَعَلَا، مع أنه لو قُدِّر أنه ناله شيء من الأذى فإن الواجب عليه أن يصبر كما مر بنا آنفًا، والغالب أن من يقوم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويسلك في هذا المسلك الصحيح -بمعنى أن يكون أمره بالمعروف بمعروف، ونهيه عن المنكر بمعروف- الغالب أن من يفعل ذلك لا يناله شيء، وإن ناله شيء فالغالب أنه لا يتجاوز كلمة، ربما يسمع كلمة، لكنه يربأ بنفسه في ظنه عن أن يُؤذى في الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ولو بكلمة، وربما مع هذا باء بسخط الله عَزَّوَجَلَّ.

فهذا من الأمر المشكل والمحزن في الحقيقة يا أيها الإخوان، ما انتشرت كثيراً من المنكرات في عالم المسلمين ولا حصل تقصير في أداء الواجبات إلا

بأسباب ومن أعظمها عدم مراعاة هذا الأمر، وهو تقديم رضا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على رضا المخلوقين.

وإذا كان هذا مما يخاطَب به كل مسلم، فالدعاة إلى الله وطلبة العلم مطلوب منهم هذا الأمر أكثر من غيرهم؛ عليهم أن يجردوا التوحيد لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأن يقدِّموا رضا الله عَزَّوَجَلَّ على رضا المخلوقين، وأن لا يداهنوا في دين الله سبحانه، وأن لا يمالئوا من كان واقعاً في معصية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ دون أمرٍ ونهيٍ وبيانٍ وتبليغ؛ هذا من المهمات يا طلاب العلم، بل إننا مع الأسف الشديد ربما رأينا من يخالط ويداهن وربما يشارك فيما يعتقد أنه باطل وأنه ظلم لعباد الله عَزَّوَجَلَّ ! لأجل أن يكسب وجوه الناس، ولأجل أن لا يذمه فلان وفلان، وهذا في الحقيقة مرجعه إلى ضعف التوحيد.

القاعدة التي قلناها: أن كل من عظم خوف الله عَزَّوَجَلَّ في قلبه فإنه تقلُّ المخوفات في قلبه، بل إنه لا يخشى إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ، ولو غضب أهل الأرض جميعاً فإنه لا يبالي.

فليتك تحلو والحياة مريرةٌ ... وليتك ترضى والأنام غضاب(٥٨٢)

هكذا لسان حال المؤمن الموحد الذي كمُل خوفه وخشيته من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ (٥٨٣) .

---

(٥٨٢) وليتَ الذي بيني وبينك ... وبيني وبين العاملين خرابُ
إذا صحَّ منك الوُدُّ فالكلُّ هَيِّن ... وكلُّ الذي فوق الترابِ ترابُ



(٥٨٣) فالله الله يا معشر الدُعاة ويا معشر طلاب العلم بأن يُجرِّد الإنسان التوحيد في قلبه، ويُصلِح ما يقع في القلب من فساد ومن تعلقٍ بالمخلوق، ومن خوفٍ منه أو خوف من انقلاب رضاه سخطًا، وليعلم أن الذي ينفع ويضر هو الله ﷻ على الحقيقة.

قال المصنف رحمه الله:

٣٣-بَابُ

قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿ وَعَلَى اللهِّ فَتَوَكَّلُوا إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾

[المائدة:٢٣]

وَقَوْلُه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[الأنفال:٢].

وَقَوْلُه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[الأنفال:٦٤]

وَقَوْلُه: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾[الطلاق:٣]

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: «حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيْل؛ قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ حِينَ قَالُوا: إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ، فَزَادَهُمْ إِيْمَانًا وَقَالُوْا: حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيْل» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَالنَّسَائِيُّ.



قال الشارح وفقه الله:

هذا الباب قد عقده المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ للكلام عن عبودية التوكل لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والتوكل مقام عظيم من مقامات الدِّين، بل هو نصف الدِّين، فالدِّين عبادةٌ وتوكل، ﴿ فاعبده وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾[هود:١٢٣]، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[هود:٨٨]، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[الفاتحة:٥]، والمتوكلون أحباب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران:١٥٩] . والتوكل شرط الإيمان

وشرط الإسلام: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾[يونس:٨٤] (٥٨٤).

والتوكل على الله أوسع مقامات الدين من حيث أهلُها؛ وذلك أنّ التوكل يكون من كل أحد؛ من المسلم ومن الكافر، ومن أهل السماوات ومن أهل الأرض، ومن الإنس ومن الجن، حتى الحيوانات والطيور، كلُّ مخلوق فإنه يتأتى منه التوكل على الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ .

كما أنّ التوكل على الله من أوسع المقامات الإيمانية من حيثُ تعلقُ هذا المقام بصفات الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ؛ عبوديةُ التوكل لها تعلق بصفات كثيرة ونعوتٍ جليلة للباري سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فلها تعلق بصفة العلم، والقوة، والقدرة، والمشيئة، والرحمة، والرأفة، والمحبة، وغيرها من صفات الله جل وعلا.

إنها عبادةٌ جليلة القدر إذا خلا منها القلب ترَحَّل عنه الإيمان، وإن ضعف فيه ضعف الإيمان، التوكل على الله عَزَّوَجَلَّ له شأنٌ وأيُّ شأن.

وحقيقة التوكل أنها مركبةٌ من شيئين:

١. من اعتماد وتفويض إلى الله **سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ**.

٢. ومن بذل للسبب.

---

(٥٨٤) وأهل هذا المقام هم خُلّص مسلمين وكُمّلُ المؤمنين، كما جاء معَنا في حديث السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنَّة بغير حساب ولا عذاب قال عليه الصلاة والسلام: «وعلى ربهم يتوكلون».

التوكل الحق إنما يكون مجموعـًا من هذين الأمرين: أمرٍ على الجوارح، وأمرٍ يتعلق بالقلب؛ أما الذي على الجوارح فهو بذل السبب، وأما الذي على القلب فإنه الاعتماد والتفويض إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. وإذا أردنا أن نفصِّل هذا المقام أكثر فإننا نقول:

إنّ التوكل على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ينبني على ثلاثة أشياء:

❖ **الأول**: تحقيق توحيد المعرفة والإثبات؛ هذا التوحيد العلمي الذي يشمل توحيدي الربوبية والأسماء والصفات، لا يمكن أن يكون هناك توكل لمن هو فاقدٌ لهذا التوحيد، أول أساسٍ في قيام هذه العبودية تحقيق هذا التوحيد، إفراد الله جَلَّ وَعَلَا في ربوبيته وفي أسمائه وصفاته، لا يمكن أن يكون متوكلًا إلا من كان معتقدًا بأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الرب المالك السيد المتصرف المدبر الذي له الخلق والرزق والتدبير، وأيضا أنَّه المتصف بصفات الجمال جَلَّ وَعَلَا.

ولذلك نقل الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن شيخه ابن تيمية قوله: (إنَّ ثلاثة لا يتأتى منهم التوكل: الفيلسوف، والقدري النافي، والجهمي المعطِّل)، وأنى يتأتى التوكل من فيلسوفٍ يعتقد أنّ الله جَلَّ وَعَلَا لا يعلم الجزئيات، إنما يعلم الأمور كليةً؟! وأنى يتأتى التوكل من قدريٍّ يعتقد بأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يعلم الأشياء حتى تقع؟! وأنى يتأتى التوكل من قدري يعتقد أنه يقع في هذا الكون ما لا يشاءه الله؟! وأنى يتأتى التوكل من جهميٍّ يعتقد أنّ الله تعالى مُعَطَّلٌ عن صفات الكمال؟!

إذًا هذا هو الأساس الأول الذي ينبني عليه صرح التوكل على الله جَلَّ وَعَلَا.

❖ **الأمر الثاني**: بذل السبب؛ والسبب لابدَّ أن يكون سببًا مشروعا، لابد أن لا يكون سبب ممنوعًا، بمعنى: بذل المستطاع في تحقيق المراد في ضوء ما أباحته الشريعة؛ هذا هو السبب المشروع، هذا هو السبب الذي هو الركن الثاني من أركان التوكل، لابد في تحقيق التوكل من بذل السبب.

وهاهنا يخطأ كثيرون حينما يظنون أن هناك تنافرًا بين التوكل وبذل السبب، لا شك أن هذا خطأ كبير؛ فإن حكمة الله جَلَّوَعَلَا وشرعه وقدره اقتضت ربط الأشياء بأسبابها، وبالتالي فإنّ بذل السبب في تحقيق المراد لا شك أنه مما دلت عليه الشريعة ومما أبانته سنة النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، ألم تسمع إلى قول النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «لو أنَّكم توكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصًا وتروح بطانًا»؛ تذهب في الصباح الباكر وهي جائعة، ثم تعود بعد ذلك وقد شبعت.

ألم ترَ أن الله أوحى لمريم وهزي إليك الجذع يسَّاقط الرطب
ولو شاء أن يُحنيه من غير هزها إليها ولكن كل شيء له سبب

إذًا من حكمة الله عَزَّوَجَلَّ وشرعه وقدَره أن ربط الأشياء بأسبابها، ولذا كان سيد المتوكلين صَلَّاَللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ الذي قد بلَغ الغاية في التوكل والاعتماد على الله سُبۡحَانَهُوَتَعَالَىٰ كان يبذل السبب بلا تقصير، أليس هو الذي لبِس صَلَّاَللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يوم أحد درعين؟، أليس هو الذي اتخذ السبب المعلوم يوم الخندق؟، أليس هو الذي اتخذ السبب المعلوم يوم بدر؟، أليس هو الذي اتخذ دليلًا لما خرج للهجرة؟، أليس هو الذي كان يرصد قوت أهله لسنة؟، أليس هو الذي إذا أراد

السفر أعدَّ الزاد عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؟، أكان هذا قدحًا في توكله؟ حاشا وكلا صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ. إذًا هذا موضعٌ ينبغي التنبه له وهو أن السبب من حقيقة التوكل، لا أنه شيء منافٍ للتوكل.

ولكن تنبَّه هنا إلى أن المتوكل في شأن السبب لابد أن يجمع بين اتصال وانفصال؛ أما الاتصال فاتصال الجوارح بالسبب، وانفصال القلب عن ذلك، بمعنى: أن التوكل فيه بذلٌ للسبب من جهة الجوارح، يبذل ويعمل ويجد ويكدح بلا أي تقصير أو فتور، أما القلب فإنَّه غير ملتفت للسبب، القلب معلق بالمُسبِب سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ. إذًا هذا أمر لا بد من التنبه له.

ولذا نقل الحافظ بن حجر رَحِمَهُٱللَّهُ في الجزء الرابع من فتح الباري عن بعضهم أنه عَرَّفَ التوكل بأنه: «قطع النظر إلى الأسباب بعد بذل الأسباب»، والعلامة ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ في المدارج نقل عن بعضهم[٥٨٥] تعريف التوكل بأنه: «اضطراب بلا سكون وسكون بلا اضطراب»، والمعنى: أنه اضطرابٌ بالجوارح؛ بمعنى أنّ التوكل يقتضي حركة دؤوبًا وجدًّا واجتهادًا بالجوارح، ومع ذلك القلب ساكن لا يضطرب؛ لأنه واثق بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، لا يلتفت إلى الأسباب، حسْب الأسباب أن لا تتجاوز هذا القدر، وهي أن تكون أسبابا مبذولةً بالجوارح دون أن يكون هناك التفات من القلب إليها.

❖ **الركن الثالث** الذي ينبني عليه التوكل: هو عمل القلب، ولذلك عرَّف الإمام أحمد **رَحِمَهُٱللَّهُ** التوكل بأنه: «عمل القلب»، وهذا العمل مركبٌ من اعتمادٍ

---

(٥٨٥) عن الخراز.

وتفويضٍ إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ مع ثقة وحسن ظن به جَلَّوَعَلَا. لا بد من أن يكون المتوكل -إن شاء أن يكون متوكلاً صادق التوكل- أن يكون محسنًا للظن بالله جَلَّوَعَلَا، معتقداً أن خيرة الله له خيرٌ من خيرته لنفسه، وأن تدبير الله له خيرٌ من تدبيره لنفسه.

فوِّض الأمر إليه هو أولى بك منك

هذا هو المتوكل.

وهذا المقام سهل بالكلام، لكن تحقيقه أمر يحتاج إلى مجاهدة، فرقٌ بين من يتصور التوكل، وبين من يقوم به التوكل، من يعرف أن يكون عليه أن يثق بالله هذا سهل ومتيسر والكل حاصل منه ذلك، لكن العبرة والشأن إنما هو بأن يقوم ذلك الاعتماد والثقة والتفويض حقيقةً بالقلب، والمحك والامتحان عند الشدائد؛ حقيقة التوكل الذي عماده وركنه الأعظم عمل القلب إنما تظهر هذه الحقيقة عند الشدائد، عند الامتحانات العصيبة التي يمر الإنسان بها في هذه الحياة، هاهنا يظهر الحال على وجه الحقيقة، إن كان حقا متوكلا معتمداً على الله عَزَّوَجَلَّ أم أنها كانت دعاوى يدَّعيها، والله المستعان.

هذا المقام قد أخطأ فيه طوائف من الناس، التوكل على الله زلَّ في شأنه أقوام، وضلوا الطريق وتجاوزوا الصواب.

- **الصنف الأول**: الذين أشركوا في توكلهم على الله الشرك الأكبر؛ قومٌ قد أخطأوا خطئًا عظيمـاً في شأن التوكل حينما جعلوا مع الله غيره متوكَلاً عليه،

وحدُّ ذلك وضابطه هو ما يأتي، **ضابط التوكل الشركي الذي من قام به أنه يكون قد أشرك مع الله ﷻ الشرك الأكبر هو:**

أولًا: أن يتوكل على الأموات مطلقـًا.

وثانيا: أن يتوكل على الغائبين مطلقـًا.

وثالثا: أن يتوكل على حاضرٍ حي فيما لا يقدر عليه إلا الله.

إذًا من وقع في واحد من هذه الصور فقد أشرك مع الله عَزَّوَجَلَّ الشرك الأكبر.

ولذلك أولئك الذين تعلقت قلوبهم بالقبور والأضرحة والأولياء، الذين عَظُمَ اعتمادهم وتوكلهم عليها فاشركوها مع الله عَزَّوَجَلَّ ؛ هؤلاء ينبغي أن يستيقظوا من غفلتهم، هذا الشيء الذين هم واقعون فيه لا شك أنه يوردهم دار البوار- عافاني الله وإياكم من ذلك-.

هؤلاء تجد أحدهم معتمدًا ومتوكلًا على الإله المعبود الذي يتوجه إليه بالعبادة ومن ذلك يتوكل عليه، ولذلك تجدهم يصيحون: "يا سيدي فلان أنا متوكل عليك"، "يا ابن علوان على الله وعليك، أنا فوضت الأمر لله وإليك"، انظر كيف جعله شريك مع الله عَزَّوَجَلَّ بهذا الاعتماد والتفويض! نسأل الله السلامة والعافية، وهذا لا شك أنه أمرٌ عظيم، هذا الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله عَزَّوَجَلَّ. حذارِ يا عبد الله من أن تقع فيه فتخسر الدنيا والآخرة.

❑ **الصنف الثاني** الذي أخطأ في هذا الباب هو الذي وقع في الشرك الأصغر؛ وذلك بأن يكون وقع منه نوع التفاتٍ واعتماد بقلبه على مخلوقٍ فيما يقدر

عليه، هذه شعبة من الشرك، هذا نوع من الشرك الخفي. هو لم يتوكل على ميت، ولم يتوكل على غائب، ولم يتوكل على حي فيما لا يقدر عليه غير الله، إنما عنده توكل على الله عَزَّوَجَلَّ ومع ذلك وقع في نفسه شيء من الاعتماد والالتفات لمخلوق، فهذه شعبةٌ من الشرك ونوع من الشرك الأصغر.

وهذا -والله المستعان- شيء يكثر ويقع فيه كثير من الناس شعروا أو لم يشعروا، كثير من الناس في شأن الرزق تجد عنده التفاتًا في قلبه إلى الوظيفة إلى الراتب الذي يأتيه، أو يكون قد احتمى بأحد بشأن دفع أذىً من ظالم أو نحو ذلك، تجد عنده شيء من الالتفات إليه، وقلنا إنّ التوكل عمل القلب، فلا بد إذًا من أن يكون القلب قد أخلص توكله واعتماده على الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بحيث لا يكون منه التفات إلى غيره، وهذا المقام يحتاج من المسلم أن ينظر فيه إلى نفسه، وأن يتأمل حاله، وأن يُنَقِّبَ في قلبه لعله واقع في ذلك وهو لا يشعر.

❑ **الصنف الثالث**: ما يقع من بعض الناس حينما يتركون بذل الأسباب، وظنهم أنهم بهذا يكونون متوكلين؛ وقد علِمنا قبل قليل أنّ هذا غلط، وأنّ هذا ليس من التوكل الشرعي، بل إنّ هذا مخالف لسنة الله الشرعية وسنته الكونية وحكمته جَلَّوَعَلَا، كما أنه مخالف لهدي النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وهدي أصحابه، الميزان الذي ينبغي أن توزن به الأحوال إنما هو سنة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ثم سنة أصحابه، ونحن نعلم قطعًا ويقينًا أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وأصحابه كانوا أعظم المتوكلين، ومع ذلك فإنهم كانوا يبذلون السبب.

والحقيقة أننا نقول إنّ هذا غلط من بعض الناس حينما يزعمون أنهم يتركون الأسباب، والواقع أننا نتحدث عن الشيء الذي يذكرونه ويزعمونه، وإلا فالحقيقة لا يمكن لأحد أن يتخلى عن الأسباب، حتى إنّ ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُفي المدراج ذكر أن ترك الأسباب مطلقًا أمرا مستحيلٌ عقلاً وشرعـًا وحسـًا؛ في العقل والشرع وفي الحس يستحيل أن يدَع الإنسان الأسباب بالكلية، إنما هي دعوى يدّعيها الناس ووهْم هم يقعون فيه، يظنون أنهم تركوا الأسباب لأجل اعتمادهم على الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، والواقع أنهم لا يمكن أن يدَعوا الأسباب، بل التوكل نفسه سبب من الأسباب، التوكل من أعظم الأسباب في تحقيق المطلوب والهرب من المرهوب، ولذلك كيف يدَّعي إنسان أنه متوكل مع تركه الأسباب؟! هذا أمرٌ لا يمكن أن يقع.

وقد ذكر ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في المدارج في الجزء الثاني عن بعض هؤلاء المتواكلين الذين يظنون أنهم متوكلون، ذكر عن أحدهم قصة وهي: وأنه كان يسافر في الفيافي والقفار ولا يأخذ معه زاداً بدعوى أنه متوكل، ولكن من عجيب أمره أنه كان يحمل معه خيطًا وإبرة ورِكوة -ركوة يعني إناء صغير- فقيل له في ذلك كيف تزعم أنك تعتمد على الله ولا تأخذ بالأسباب وتحضر معك هذه الأمور؟ فقال: "هذا لا يقدح بالتوكل، فإني لا أملك إلا ثوبـًا واحداً وربما انشق وبالتالي تظهر عورتي إذا صليت، فأنا بحاجة إلى إبرة وخيط لكي أخيط الثوب، وأنا بحاجة إلى هذه الركوة لأجل أن أتوضأ"، فانظر كيف أن هذا الإنسان قد تناقض، وأنه وإن ادَّعى أنه تارك للأسباب، فإنه في الحقيقة لم يستطع أن يتخلى

عن الأسباب، بل سفره وذهابه لابد أنه كان يطلب فيه شيئا، وهذا الذهاب في حد ذاته بذل للسبب.

ذكر بعضهم أنّ أحد هؤلاء المتواكلين توهم أنَّ التوكل يكون بترك بذل السبب، وكان هذا الإنسان يقطن في أحد الأربطة التي يسكنها الفقراء، وكان أهل الخير يأتون بالطعام كل يوم ويدورون على الغرف وطعمون أهلها ما تيسر، فهذا الإنسان أغلق بابه وقال: "أنا متوكل على الله ورزقي سيأتيني دون بذلٍ للسبب"، ففعل هذا ومر أصحاب الطعام اليوم الأول ورأوا الباب مغلقًا فظنوا أن الرجل غير موجود فذهبوا ، وبقي الرجل يومه بلا طعام، فجاء اليوم الثاني والباب مغلق، مر القوم والباب مغلق فمروا، ظنوا أنّ الرجل غير موجود، فزاد جوع الرجل، فلما كان اليوم الثالث وقد بلغ الرجل منتهى الجوع شعر بقدومهم سمع صوتهم قادمون فكان أن تنحنح، ففطن هؤلاء إلى أنه موجود فدخلوا عليه وأطعموه، فقيل له بعد ذلك كيف وجدت الرزق؟ أيُحتاج معه لبذل السبب؟ قال: لا بد من بذل السبب ولو بالنحنحة.

هذا الحقيقة يكذب على نفسه من يزعم أنه متوكل على الله عَزَّوَجَلَّ وقد ترك بذل السبب المشروع، **وعندنا قيدٌ مهم هاهنا وهو لا بد أن يكون السبب مشروعًا**، وإلا فالذين يرومون تحصيل أغراضهم بأسبابٍ غير مشروعة هل يقال في حقهم أنهم متوكلون؟ حاشا وكلا، الذي يريد أن يحصل على الغنى من طريق السرقة أو الرشوة أو الربا أيقال في حقه أنه متوكل؟ لا شك أنه ليس متوكل، بل

هذا أتى بضد التوكل، التوكل على الله جَلَّوَعَلَا عبادة، وهذا الذي وقع فيه معصية بل كبيرة.

❑ **الصنف الرابع**: هو حال من يقصُرون التوكل على أدنى الأشياء ويفوتهم التوكل على الله في عظائم الأمور؛ وهذا أيضًا من الأخطاء الشائعة، بعض الناس إذا سمع كلمة التوكل ظن أنّ القضية مقصورة على شيء معين، وهو التوكل على الله عَزَّوَجَلَّ في شأن الرزق، في شأن الدراسة، في شأن الزواج، وكثير من هذه الأمور، وهذا حسنٌ طيب، ولكن الخطأ هاهنا هو أنه يغفل على أنّ التوكل على الله عَزَّوَجَلَّ فيما هو أهم من هذه الأمور أولى وأشرف وأعظم ؛ التوكل على الله عَزَّوَجَلَّ في عبادته جَلَّوَعَلَا لا شك أنَّه أعظم، ولذلك أحوج النَّاس إلى التوكل عُبَّاد الله سبحانه، الصائم الذي يريد أن يصوم، والمصلي الذي يريد أن يصلي، والقائم الذي يريد أن يقوم، والداعية الذي يريد أن يدعو، والمحتسب الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وطالب العلم الذي يريد أن يطلب العلم؛ هؤلاء مطالبون بالتوكل على الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في هذه الأمر أعظم من غيرهم.

ولذلك أنبياء الله جَلَّوَعَلَا كانوا أعظم الناس على التوكل بشأن الدعوة والبلاغ والبيان، وقالوا: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾[إبراهيم:١٢]، ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾[النمل:٧٩]؛ هكذا يُخاطب نبينا جَلَّوَعَلَا ويأمر نبيه محمدًا صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، أنت على الحق المبين فتوكل على الله وادعُ إلى الله.

شتان من توكل على الله ﷻ في هداية قلبه وهداية الخلق، ومن يتوكل على الله عَزَّوَجَلَّ في شأن رغيف، هذا توكل وهذا توكل وكله خير، ولكن شتان بين التوكلين.

إذًا هذا من المقامات التي يُحتاج التي يُذكَّر في شأنها، وهي أنّ التوكل على الله عَزَّوَجَلَّ في شأن الهداية والإيمان والتوحيد والثبات على الدين هذا من أهم الأمور، وإنَّه ليقطع الغرور وتعلق القلب بغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

❑ **الصنف الخامس**: ما يقع من بعض الناس من أخطاءٍ لفظية، فإن صادفت شيئـًا يقعُ في القلب كان هذا خطئا إلى خطأ، أمَّا إن لم يكن شيء واقع في القلب لكنَّه عرَض على اللسان فقط فهذا خطأ، وينبغي على هؤلاء أن يتنبهوا لذلك، من ذلك: أن بعض الناس يقول: يا فلان الأمر عليك، أو: على الله وعليك، ويريد أنَّه وكَّله في الأمر، لا يريد أنه يعتمد في قلبه ويفوض الأمر إليه كما هو يفوضه إلى الله، إنما هو أخطأ في هذه التسوية بين الله **عَزَّوَجَلَّ** والمخلوق في اللفظ، فهذا من الأمور التي ينبغي التنبه لها، وسيأتي إن شاء الله بابٌ خاص في شأن هذا النوع من الشرك الخفي في الألفاظ.

وبالتالي يحسن أن نقف وقفه مع قول الإنسان: (أنا متوكل عليك) عندنا هاهنا ألفاظ:

- **أولًا**: قول الإنسان "أنا متوكل عليك".
- **ثانيا**: قول الإنسان "أنا متوكل على الله ثم عليك".
- **ثالثا**: قول الإنسان "أنا متوكل على الله وعليك".

عندنا ثلاث ألفاظ، أمَّا اللفظ الثالث، وهو قول الإنسان: "أنا متوكل على الله وعليك"، لا شك أنه لا تجوز هذه التسوية، وسنتكلم عن هذا إن شاء الله بالتفصيل في الباب الخاص بذلك.

نأتي الآن في اللفظين الأولين: قول الإنسان: "أنا متوكل على الله ثم عليك"، أو أنَّه يقول"أنا متوكل عليك"؛ بعض أهل العلم رخص في ذلك من جهة أنّ المتكلم يريدُ التوكيل لا التوكل، يعني في لسان العامة هو لا يريد التفويض القلبي والاعتماد بفؤاده، إنَّما يريد فقط أنَّه وكَّله في هذا الشأن، لكنَّ الصواب أنَّ هذا اللفظ خطأ وإن كان لم يخطئ بقلبه، لكن مجرد هذا اللفظ لا يجوز، ويجب أن يُنهى عنه؛ لأنَّ التوكل عبادة، ولا يجوز للإنسان أن يتوجه بالعبادة ولو لفظًا لغير الله جَلَّوَعَلَا.

ولذلك نقول لهذا الإنسان قُل: أنا متوكل على الله ووكلتك، أو: أنا أوكِّلك. التوكيل شيء والتوكل شيء آخر؛ التوكيل: إقامة الإنسان غيره مقامه في شيء من الأشياء، يعني ينيب الإنسان غيره أن ينفِّذ شيء ما؛ هذا هو التوكيل، أما التوكل فشيء آخر، التوكل -كما علمنا- عبادة لله عَزَّوَجَلَّ ، والعبادة لا يجوز أن تُصرف لغير الله عَزَّوَجَلَّ ولو بمجرد اللفظ.

ولذلك هذا من الأمور التي ينبغي أن ينبه عليها الناس، إن قال أنا قصدي حسن، نقول الحمد لله أنَّ قصدك حسن، ولكن يبقى أن تُصوِّب اللفظ الذي أنت عليه، وبذلك ينتشر الخير ويقل الشر.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (قول الله تعالى ﴿وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة:٢٣])

هذه الآية مقولٌ للرجلين اللَّذين هما من الذين يخافون وأنعم الله عليهما، وكانا من قوم موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وسياق الآية أنَّ موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قال لقومه: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾[المائدة:٢١]. فكان جواب بني إسرائيل قالوا: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾[المائدة:٢٢] ؛ هنا قال رجلانِ من بني إسرائيل من قوم موسى من المؤمنين، ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ ، وصفهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالخوف منه جَلَّ وَعَلَا، وهذا هو الأقرب في أقوال أهل التفسير، ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمَا﴾ أنعم الله عليهما بالتوفيق وبقول كلمة الحق في ذلك الموضع: ﴿قَالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[المائدة:٢٣].

هذه الآية وجدت إن تأملت فيها فوائد:

أولاً: فيها الدليل على وجوب التوكل، ووجوب إخلاص التوكل على الله، وذلك من وجهين:

الوجه الأول: من تقديم الجار والمجرور، ﴿وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، ومعلومٌ في لغة العرب أنّ تقديم المعمول الذي هو هنا الجار والمجرور يفيد الحصر[٥٨٦]، أي معنى الآية: فتوكلوا على الله لا غيره.

والوجه الثاني: أنّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بين في هذه الآية أنّ تحقيق التوكل شرط في الإيمان، قال: ﴿إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، لاحظ (إن) هنا الشرطية، وجواب الشرط محذوف للعلم به؛ إن كنتم مؤمنين فتوكلوا عليه. فهذه الآية دليل صريح على وجوب التوكل على الله سبحانه، وإخلاص هذا التوكل له جَلَّوَعَلَا.

❁ **ثانيًا**: الجمع بين بذل السبب وتفويض الأمر إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ والاعتماد عليه؛ ألم تر إلى أنَّ الآية كان فيها أولا حث على بذل السبب: ﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ﴾، ثم كان الاعتماد على الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا﴾، ابذلوا ما تستطيعون بحزم وعزم، ومن ثم يكون الاعتماد والتفويض إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وهذا يؤكد ما ذكرناه سابقًا من أنّ بذل السبب والتوكل أمران مقترنان لا متنافران.

والآية فيها مباحث كثيرة، ولكن الشاهد في هذا الموضع: بيان أنّ التوكل على الله عَزَّوَجَلَّ عبادة واجبة، ونظير هذه الآية قول الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَعَلَى اللهِ

---

(٥٨٦) والقصر.

﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾[التوبة:٥١]، فإنّ فيها إيجاب التوكل على الله عَزَّوَجَلَّ، وحصر وقصر هذا التوكل على الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ(٥٨٧).

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[الأنفال:٢] الآية).

هذه الآية في مطلع سورة الأنفال ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾،هذا هو موضع الشاهد من الآية؛ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وصف المؤمنين حقًا بهذه الصفات الخمس العظيمة: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾، والحكم بعد ذلك من العلي العظيم سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ كان: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾[الأنفال:٤].

الشاهد أنّ من صفات أهل الإيمان حقًا الذين حققوا الإيمان: أنهم يتوكلون على الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾، فدل هذا على فضيلة

---

(٥٨٧) ويُشبه هذا الآية الأخرى التي في يونس: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ [يونس:٨٤]، والذي ينظر في النُّصوص يجد أن الأمر بالتوكل كثير في كتاب الله ﷻ، ودلالة ذلك ظاهرة في وجوب إخلاص هذه العبادة لله جلَّ وعلا.

عبودية التوكل لله سبحانه. وأيضا على وجوب الإخلاص في التوكل، ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾، أي: يتوكلون عليه لا على غيره(٥٨٨).

وبالتالي فإنَّه لا يجوز بحال أن يتوكل الإنسان على غير الله سبحانه، كما أنه لا يجوز له أن يصلي لغير الله، كما أنه لا يجوز له أن يسجد لغير الله، كما أنه لا يجوز أن يطوف بمحلٍ إلا لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، والطواف لا يكون عبادةً إلا إذا كان ببيت الله.

الشاهد: أنّ التوكل عبادة شأنها شأن بقية العبادات التي يجب إخلاصها لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، ولا يجوز الإشراك فيها مع الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، ﴿وَاعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾[النساء:٣٦].

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وَقَوْلُه**: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ﴾[الأنفال:٦٤]).

هذه الآية اختلف المفسرون فيها؛ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ خطاب للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ قال بعض أهل التفسير:

وهذا القول الأول: حسبك الله وحسبك المؤمنون؛ وهذا قول بعض أهل التفسير وقلة من المتقدمين.

القول الثاني: يا أيها النبي حسبك الله وحسب المؤمنين؛ يعني: الله حسبك وحسب المؤمنين.

---

(٥٨٨) ولاحِظ هنا أيضًا أنَّه قد جاء تقديم المعمول بإفادة الحصر؛ ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ لا على غيره.

وهذا القول الثاني قول أكثر أهل التفسير، وهو الصواب الذي لا شك فيه(٥٨٩)؛ يا أيها النبي حسبك الله وحسب المؤمنين اللهُ، فالله جل وعلا حسب نبيه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وكذلك هو حسب أصحابه. الحسب هو: الكفاية والنصرة، فالله سُبۡحَانَهُوَتَعَالَىٰ حسب نبيه والمؤمنون يعني: هو كافيهم وهو ناصرهم سُبۡحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

وقلنا إن هذا هو الصواب الذي لا شك فيه لدلالة الأدلة على ذلك؛ قال الله سُبۡحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾[الأنفال:٦٢]؛ هذه الآية على وزان الآية التي بين أيدينا، ففيها لما ذُكر الحسب قصْره على الله عَزَّوَجَلَّ ؛ فإن حسبك الله، لكن لما جيء إلى التأييد فإنّ التأييدَ يكون من الله عَزَّوَجَلَّ بنصره، وكذلك يكون من المؤمنين يسخِّرهم الله سُبۡحَانَهُوَتَعَالَىٰ فيكونون مؤيدين للنبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قال: ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾.

إذًا هذه الآية تدل على أنّ الحسب إنما هو شيء مقصورٌ ومحصورٌ على الله سُبۡحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ولا يجوز أن يكون حَسْبًا إلا هو جَلَّوَعَلَا.

وقل مثل هذا في قول الله سُبۡحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ سَيُؤْتِينَا اللهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة:٥٩]، لما ذُكر الحسب قُصِرَ على الله سُبۡحَانَهُوَتَعَالَىٰ ، أما الإيتاء فإن الله ﷻ يؤتي من فضله، وكذلك النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يؤتي في حياته؛

---

(٥٨٩) وأمَّا القول الأول فخطأ بيِّن؛ وذلك أن الحسْب (بسكون السين) هو الكفاية والنُّصرة. والله ﷻ هو الذي انفرد بكونه حسْبا، فكما أنَّ التوكل لا يكون إلا عليه فكذلك لا يكون حسْبٌ سواه.

فهو يؤتي العلم ويؤتي الخير ويؤتي المال قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾[الحشر:٧]، فدلَّ هذا على أنّ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يؤتي، وإيتاؤه يليق به، والله عَجَلَّ يؤتي وإيتاؤه يليق به، أما الحسب فما قال ربنا عَزَّوَجَلَّ: (وقالوا حسبنا الله ورسوله)، إنما كان الحسب مختصـاً بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وهذا الذي يقوله المسلمون كافة في الكلمة العظيمة كلمة الاعتماد والتفويض التي سيأتي الحديث عنها إن شاء الله، يقول فيها المسلمون كافة: «حسبنا والله ونعم الوكيل»، لا يقولون: (حسبنا الله ورسوله)، لا يقولون: (حسبنا الله والمؤمنون)، إنما يقولون: حسبنا الله فقط(٥٩٠)، ولا يُشركون مع الله عَزَّوَجَلَّ غيره في هذه الكلمة، فدل هذا على أنه لا يجوز أن يكون حسبٌ لأحد إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

هذه الآية الشاهد من إيرادها في كتاب التوحيد، بل في هذا الباب المتعلق بالتوكل: أنه لما كان الله عَزَّوَجَلَّ وحده حسبَ المؤمنين، وجَب أن يُتوكل عليه وحده، لو كان يجوز أن يكون غيره حسبًا لجاز أن يُتوكل عليه، لكن لما كان الحسب مقصورًا ومختصًا بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وجب بناءً على ذلك أن يكون التوكل على الله عَزَّوَجَلَّ.

إذًا هذه الآية دليل على وجوب إفراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالتوكل.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وَقَوْلُه: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾**[الطلاق:٣]).

---

(٥٩٠) الله عَجَلَّ وحده الكافي، قال جلَّ وعلا: ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر:٣٦].

كذلك الأمر في هذه الآية ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ يعني: كافيه وناصره. وهذه الآية فيها بيان الثمرة والغاية التي تكون من التوكل على الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ؛ فإنّ من توكل على الله فليبشر أن الله عَزَّوَجَلَّ كافيه وناصره، فماذا يريد بعد ذلك؟

وإذا كان الله عَزَّوَجَلَّ هو المتولي أمرك، إذا كان الله عَزَّوَجَلَّ كافيك وناصرك، إذا كان الله عَزَّوَجَلَّ هو حسبك فلن يضرك شيء ولو أنك كنت في وسط السباع المفترسات، بل لو كادك أهل الأرض والسموات، لن يضرك ذلك شيئًا؛ لأنّ القوي القدير الغني سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ هو الذي يتولاك، وهو الذي ينصرك، وهو الذي بيده ملكوت كل شيء، وكل شيء ففي قبضة يده وفي سلطانه وتحت تدبيره، فأي شيء يُخيفك وأي شيء يتسلط عليك بالأذى! والله عَزَّوَجَلَّ هو الذي يتولى أمرك.

أرأيت لو أنّ رجلاً قال له ملك من الملوك: "أنت في كفالتي، وأنت تحت رعايتي، فامضِ ولا تبالي بأحد"، كيف يكون حاله؟ سيكون مطمئنًا مرتاحًا لا يبالي بأحد، هذا وهو ملكٌ في حقيقته مملوك! مملوك لله جَلَّوَعَلَا ولا يستطيع أن يدبر شيئًا إلا بمشيئة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ، فكيف إذا كان العبدُ الله عَزَّوَجَلَّ هو الذي يتولى أمره وهو الذي حسبٌ له سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ!! فلا شك أن حاله سيكون حال المطمئن الساكن الذي لا يخاف أحداً ولا يبالي في الحق أحداً، لأن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ إن كان حسبك فإنه جَلَّوَعَلَا سيتولى أمرك، وسيكفيك كل ما يسوءك.

لكن الشرط هو أن تكون قد حققت التوكل على الله عَزَّوَجَلَّ ومن هنا يؤتى من يؤتى.

قد يقول بعض الناس: من أين أُتيت وأنا قد توكلت على الله عَزَّوَجَلَّ ؛ لكن سُلط عليَّ؟ الجواب: راجع نفسك، ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾[آل عمران:١٦٥]، ونحن نُشهد الله عَزَّوَجَلَّ على أنّ ما أخبرنا به حق وصدق: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثًا﴾[النساء:٨٧]، فمن توكل على الله عَزَّوَجَلَّ فهو حسبه قطعـًا لا شك في ذلك ولا ريب، لكنَّ الإشكال إنما هو في تقصير الإنسان في تحقيق الشرط، شرط أن يكون ربنا سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ حسبَ عبده أن يكون محققـًا للتوكل.

والتوكل -كما قلت لك في الدرس السابق- التوكل حقيقته وقيامه بالقلب شيء، وتصور معناه شيءٌ آخر، كثير من الناس يعلم ما هو التوكل ويمكن أن يشرحه ويفسره ويتكلم فيه الساعات، لكن هذا الشيء وكونه يقوم بالتوكل حقيقةً فيكون معتمدًا ومفوّضًا وواثقـًا بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ومحسنـًا الظن به جَلَّوَعَلَا، هذا أمرٌ لا يُوفق إليه إلا الخُلَّص من عباد الله، كما مر بنا في حديث السبعين ألفـًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، قال عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «وعلى ربهم يتوكلون»؛ هذا مقام لا يبلغ الدرجة العليا منه حقيقةً إلا كُمَّل المؤمنين، إلا الذين حققوا التوحيد الواجب وارتقوا إلى تحقيق التوحيد المستحب، والله المستعان.

قال رَحِمَهُٱللَّهُ: (**عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قَالَ: «حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ؛ قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ ﷺ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ حِينَ قَالُوا: إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا**

لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ، فَزَادَهُمْ إِيْمَانًا، وَقَالُوْا: حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيْل» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَالنَّسَائِيُّ).

هذا الأثر عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا مخرَّج في صحيح البخاري وغيره، وهو يبين فضيلة هذه الكلمة العظيمة، وأن أعظم الناس توكلاً على الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وهما الخليلان عليهما الصلاة والسلام -إبراهيم ومحمد- أنَّهما قالا هذه الكلمة وقت الشدة، فكان من الله عَزَّوَجَلَّ الفرج.

قال رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: (**حسبنا الله ونعم الوكيل**)؛ هذه الكلمة العظيمة التي يلهج بها أهل الإيمان، وشأنها وقت الشدائد عجيب، وأثرها لا يعلمه إلا من قالها بصدق و رأى أثرها بتوفيق الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ هذه الكلمة قالها إبراهيم عَلَيْهِٱلسَّلَامُ حين أُلقيَ في النار، وجاء في رواية عند البخاري، عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أنها كانت آخر كلمة تكلم بها قبل أن يقذف في النار، قال: «حسبنا الله ونعم الوكيل»، فكان أن جاء الفرج من عند الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾[الأنبياء:٦٩].

كذلك الحال في خليل الله محمدٍ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حينما قال النَّاس: **﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾**[آل عمران:١٧٣]، وذلك أنَّ النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وأصحابه معه كانوا في طريق عودتهم بعد أحد وقد أصابهم ما أصابهم في هذه المعركة مما تعلمون، كانوا في طريقهم عائدين إلى المدينة، فبلغهم خبر وهو أن المشركين أرادوا أن يعودوا إليهم ليستأصلوا شأفة المسلمين، وما كان من النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وأصحابه إلا أن قالوا: **﴿حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾**، ثم إنهم تقدموا

لأجل أنهم يريدوا أن يلاقوا هؤلاء المشركين، حتى وصلوا إلى حمراء الأسد؛ هذا المكان القريب من المدينة من الجهة الجنوبية، فلما بلغ المشركين ذلك قذف الله عَزَّوَجَلَّ الرعب في قلوبهم فانصرفوا راجعين إلى مكة، وسلَّم الله المؤمنين من هذا الأمر، وانقلبوا بنعمة من الله وفضل.

فالشاهد أنّ هذه الكلمة كلمة عظيمة فيها تحقيق التوحيد لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ فيها تحقيق التوحيد العلمي وفيها تحقيق التوحيد العملي، فيها تحقيق توحيد المعرفة والإثبات وفيها تحقيق توحيد القصد والطلب.

والتوكل عبادةٌ تَقْرِنُ وتمزج بين الأمرين، فيها -كما قد تعلمنا - أنّ الركن الأول الذي يقوم عليه بناء التوكل تحقيق التوحيد العلمي، أو توحيد المعرفة والإثبات الذي يجمع توحيدي الربوبية والأسماء والصفات، ولذلك لو تأملت مثلا في قول الله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ﴾[الفرقان:٥٨]، فانظر كيف أنّ التوكل كان على هذا الرب العظيم الذي هذا وصفه أنه حي لا يموت؛ ولذلك كلما عَظُمَ هذا التوحيد في قلبك كان التوكل عندك عظيمـًا، والعكس بالعكس.

ثم في هذه العبادة تحقيقٌ لتوحيد الألوهية، يعني توحيد العبودية؛ وذلك بأن يقوم بقلب الإنسان من حسن الظن بالله جَلَّوَعَلَا والثقة به والتفويض والاعتماد عليه، وهذه عبادة جليلة كما ترى، فهذا هو التوحيد العملي؛ فاقترن الأمران بهذه العبادة، عبادة التوكل، ولذلك قلنا إنّ هذه العبادة إنما يقوم بها المحققون، لا يقوم بها على وجهها الكامل إلا المحققون بالإيمان.

وهذه الكلمة تشتمل على جزأين: «حسبنا الله»، «ونعم الوكيل».

الشطر الأول: «**حسبنا الله**» يعني: كافينا وناصرنا؛ إقرارٌ بأنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الذي بيده الكفاية والنصرة جَلَّ وَعَلَا.

والشطر الثاني: «**ونعم الوكيل**»؛ ولاحظ أنّ مخصوص (نِعْمَ) محذوف، للعلم به؛ ونعم الوكيل هو، ونعم الوكيل اللهُ، فالله نعم الوكيل جَلَّ وَعَلَا. والوكيل هو من إليه التفويض.

ولاحظ معي أنّ هذه الكلمة «**ونعم الوكيل**» فيها بيانٌ أنّ الله عَزَّ وَجَلَّ وكيل عباده، فالتوكيل يكون إليه، وهذا شيء آخر. كنَّا نتكلم قبل قليل عن التوكل عليه، والآن نتكلم عن التوكيل إليه، وكلاهما ثابتٌ في حق الله جَلَّ وَعَلَا ، كلا الأمرين ثابت: التوكل والتوكيل. **ولاحظ الفرق الدقيق بين الأمرين:**

التوكل الأصل في معناه: الاعتماد.

والتوكيل الأصل في معناه من جهة اللغة هو: التفويض.

وإن كان الأمران مقترنين في حق الله عَزَّ وَجَلَّ ؛ فالله جَلَّ وَعَلَا إليه التفويض وعليه الاعتماد، أما في حق المخلوق فالأمر مختلف.

أما التوكل فإنه لا يصح أن يكون متعلقاً بالمخلوق -على ما فهمنا هذا في درس أمس- لأنَّ حقيقة التوكل والركن الأعظم في التوكل إنما هو الاعتماد القلبي، وهذا لا يجوز أن يتوجه به العبد إلا لمولاه جَلَّ وَعَلَا.

أما التوكيل فإنه مختلف؛ التوكيل تفويض، ولذلك يُفوَّض المخلوق فيما يليق به، كما أن الله عَزَّ وَجَلَّ يُفوَّض إليه ما يليق به، ولذلك جاءت النصوص بصحة توكيل المخلوق، وعدم التوكل على المخلوق، **انتبه إلى الفرق:**

التوكيل جائز، قلنا التوكيل تفويض، يعني أن يفوض أحد غيره في أن يقوم مقامه، يفوض إنسان غيره في أن يقوم مقامه في أمر من الأمور، وهذا أمر سائغ، النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكّل علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن يذبح بقية هدْيِه، النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكل عروة بن الجعد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في شراء شاة في القصة المعروفة. إذًا هذا التفويض لا إشكال فيه، وليس فيه أي شائبة أو قدح في التوحيد، بل الغالب أو مما يكثر أن يكون الموكِّلُ أرفع درجة من الموكَّل ، وبالتالي فإنه لا إشكال في أن يُوكل المخلوق.

أمَّا في حق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ؛ فإن الله عَزَّ وَجَلَّ يوَكَّلُ بمعنى: يُفَوَضُ إليه كل شيء، فالتوكيل إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بمعنى التفويض هو: تفويض العاجز من كل وجه، الفقير من كل وجه إلى القدير العظيم الغني الذي له الغنى المطلق. فتوكيل العبد لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تفويضٌ لأمره كله، لأنه يعلم أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أعلم بما يصلحه وأقدر على إصلاح شأنه، فخيرة الله له خير من خيرته لنفسه، ومشيئة الله عَزَّ وَجَلَّ له خيرٌ من مشيئته لنفسه.

ولو أردنا أن نقرِّب فهم هذا الأمر في شأن التفويض؛ تفويض العبد لمولاه جَلَّ وَعَلَا وعلا، تأمَّل معي في حال طفلٍ صغير في أرض مخافة مع أبيه، كيف سيكون حاله من جهة تفويض أمره إلى أبيه؟ المقام مقام خوف، والمكان مكانٌ مُخيف، وهذا الطفل معه أبوه، كيف ترون هذا الطفل يصنع؟ أليس يفوض أمره إلى أبيه ويلقي المقاليد كلها إليه؟ نعم؛ لأنه يعلم أنّ أباه لو تخلى عنه الآن ضاع وهلك، يعلم أنّ أباه أعلم بالمصلحة، يعلم أنّ أباه قادرٌ على أن يحميَه، يعلم أن

أباه يحبه ويريد له الخير ولا يمكن أن يخذله، ولذلك تجده متمسكـًا به مطيعـًا له، مهما وجَّهه توجه.

هذا مجرد شيء يقرب لك الصورة، والأمر بين المخلوق وخالقه أعظم من ذلك بكثير؛ المؤمن حقًا حينما يُوكل أمره لربه، ويُفوض شؤونه إليه جَلَّوَعَلَا حاله أعظم بما لا مقارنة مع حال الطفل مع أبيه. إذًا هذا الأمر المهم الذي ينبغي أن يلاحظه من أراد أن يكون من أهل التوحيد والتفريد.

ولاحظ معي أيضا أنّ أمر التوكيل ثابت من الجهتين؛ فالله عَزَّوَجَلَّ مُوَكِّلٌ، والله عَزَّوَجَلَّ مُوَكَّلٌ، العبد يوكِّل الله جَلَّوَعَلَا، والله جَلَّوَعَلَا يوكِّل عبده، كلا الأمرين ثابت، ولكن ليس التوكيل كالتوكيل، ولا الموكَّل كالموكِّل؛ **توكيل العبد لربه:** هو تحقيق للربوبية وقيام بالعبودية، **أما توكيل الله عَزَّوَجَلَّ لعبده** وهذا حق وثابت، قال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾[الأنعام:٨٩]، إذًا الله عَزَّوَجَلَّ يوكِّل عبده أو عباده، لاحظت هذا؟ توكيل الله عَزَّوَجَلَّ لعبده هذا توكيل أَمْرٍ وتعبيدٍ وإحسانٍ وإكرامٍ واجتباء. إذًا شتان بين التوكيل والتوكيل، ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ يعني: أقمناهم وكلَّفناهم وأمرناهم بأن يقيموا شريعة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في أرضه وبين عباده.

إذًا هذا يختلف عن توكيل العبد لربه؛ توكيل العبد لربه توكيلٌ فيه ذل وافتقار وتعبد لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، أمَّا بالنسبة لتوكيل الله عَزَّوَجَلَّ لعبده الأمر فيه مختلف ، الله عَزَّوَجَلَّ هو الغني، توكيله لعبده لا عن حاجة منه، وحاشا، الله عَزَّوَجَلَّ هو الغني المستغني عن كل ما سواه، وكل شيء فمفتقر إليه **جَلَّوَعَلَا** ، الأمر يا

رعاك الله مختلف ، إنما توكيل الله عَزَّوَجَلَّ لعبده إنما هو أمر وتكليف(٥٩١)، ولذلك جاءت النصوص في هذا كما سمعت، وكما أيضا ثبت في صحيح البخاري أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قال: «إن الله وكَّل بالرحم ملَكـًا، فيقول الملك: يا رب نطفة، يا رب علقة، يا رب مضغة» إلى آخر الحديث. الشاهد أنّ الله عَزَّوَجَلَّ يُوكِّل عبده، ولكنه توكيلٌ مختلف.

إذًا علِمنا بهذا أنّ التوكيل ثابت من الجهتين؛ فالله عَزَّوَجَلَّ يوَكِّل، والله عَزَّوَجَلَّ يوَكَّل، الله عَزَّوَجَلَّ يوكِّل عبده ، وكذلك العبد يوكِّل ربه، ولكن هناك فرق بين التوكيل والتوكيل، وبين الموكَّل والموكِّل.

الشاهد أنّ هذه الكلمة كلمةٌ يتمثل فيها تحقيق عبادة التوكل على الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ ؛ حينما يقول الإنسان : «حسبنا الله ونعم الوكيل»، كلمة يعبِّر بها الإنسان عن اعتماده وتوكله على ربه جَلَّوَعَلَا، وهذه كلمة كما قد علِمنا كلمةٌ يشرع قولها في الشدائد، وهي من أبواب الفرج التي لا ينبغي أن يُغفلها المسلم، وله في رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أسوة حسنة، وله في الخليل إبراهيم عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ أسوة حسنة، في كل أمر شديد من أمر الدنيا أهل الإيمان على لسانهم تجري هذه الكلمة، ويكون لها أثر ووقْع في قلوبهم أيضا.

تذكرون في قصة الثلاثة الذين تكلموا في المهد -الحديث مطوَّل عند مسلم، وهذا الشاهد جاء مختصراً عند البخاري- وفيه قصة ذلك الطفل الذي

---

(٥٩١) أمَّا الله ﷻ فليس بحاجة إلى أحد، بل هذا منه ﷻ إحسان منه للخلق، ورحمة منه بالخلق، وإلا فهو الغني عن جميع خلقه ﷻ.

كان يرضع من ثدي أمه، فمرت تلك الفتاة التي كانوا يضربونها ويقولون سرقتِ وزنيتِ، وهي لا تزيد على أن تقول: «حسبي الله ونعم الوكيل».

إذًا هذا مما لا ينبغي أن لا يغفله المظلوم وليُبشر بفرج الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، إن ظُلِمت فأجعل هجِّراك «حسبي الله ونعم الوكيل»، بل حتى إذا أهمك أمر الآخرة فإنّ مما يخفف الأمر ويعين يعين الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ على تخفيف هذا الأمر على عبده أن يقول الإنسان حتى في شدائد الآخرة: «حسبنا الله ونعم الوكيل»، شاهد هذا ما خرجه الترمذي في جامعه والإمام أحمد بإسناد صحيح من رواية عدد من أصحاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «وكيف أنعَم وقد التقم صاحب القرن القرن، وأحنى جبهته ينتظر الإذن، متى يُأمر بالنفخ فينفخ»؛ صاحب القرن -يعني صاحب الصور وهو إسرافيل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ- التقم الصور الذي هو القرن وينتظر الإذن متى يؤمر من الله عَزَّوَجَلَّ بالنفخ فينفخ. فاشتد الأمر على أصحاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقالوا: كيف نقول يا رسول الله؟ قال: «قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا».



قال المصنف رحمه الله:

٣٤-بَابُ

قَوْلِ اللهِ تَعَالَى:

﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٩] الآيَةَ.

وَقَوْلُه: ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّون﴾[الحجر:٥٦].

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ سُئِلَ عَنِ الْكَبَائِرِ؛ فَقَالَ: «الشِّرْكُ بِاللهِ، وَالْيَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ، وَالأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللهِ».

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: «أَكْبَرُ الْكَبَائِرِ: الإِشْرَاكُ بِاللهِ، وَالأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللهِ، وَالْقُنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ، وَالْيَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ». رَوَاهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ.



قال الشارح وفقه الله:

هذا البابُ الذي بوَّب عليه المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾، **بَوبَ المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ هذا الباب لعلاج** مرضين قد يعرِضَان للقلوب:

المرضُ الأول: الأمن من مكر الله؛ وهذا ما قدَّم المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ الدليل عليه في هذه الآية.

أمَّا المرض الثاني: فهو القنوط من رحمة الله؛ ودليله سيأتي إن شاء الله في الآية التي تأتي بعد هذه الآية.

ومعلومٌ أنَّ كلا هذين المرضين ينتجان عن عدمٍ أو ضعفٍ للخوفِ والرجاء؛ فإنَّ الأمن من مكر الله ثمرةٌ لعدم أو ضعف الخوف من الله، والقنوط من رحمة الله ثمرة لعدم أو ضعف الرجاء في الله.

الخوف من الله مضى الحديث فيه، وبقي الكلام عن الرجاء.

الرجاءُ: هو ملاحظةُ سعة الرحيم سبحانه، والطمعُ في فضله جَلَّوَعَلَا، وحسن الظن به. **وقد جاء في الأدلة ثلاثة ألفاظ تدل على هذا المعنى**:

اللفظ الأول: الرجاء؛ ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾[الإسراء:٥٧]، في أدلة كثيرة.

واللفظ الثاني: هو الطمع؛ ﴿وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ [المائدة:٨٤].

واللفظ الثالث: الرغبة: ﴿إِنَّا إِلَى اللهِ رَاغِبُونَ﴾[التوبة:٥٩]، ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾[الأنبياء:٩٠].

هذه ثلاثة ألفاظ متقاربة تدل على معنى الرجاء في الجملة.

أما عن الأسباب التي تدعوا القلب إلى أن يرجو الله جَلَّوَعَلَا ؛ **فذلك سببان**:

السبب الأول: حسنُ التعبدِ لله جَلَّوَعَلَا بأسمائه التي تدل على معاني الرحمة والكرم والمحبة، والأمر كما قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أكثر أسماء الله تعالى تدعو القلب إلى محبة الله ؛ فالله جَلَّوَعَلَا هو الرحمن، الرحيم، الرؤوف، الكريم، البر، الودود، جل في علاه، تأمل العبد وتعبُّده بهذه الأسماء يكسِبُ القلب الرجاء في

ربنا جَلَّ وَعَلَا، وفي صحيح مسلم يقول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولأتى بقومٍ يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم».

إذًا مغفرة الله عَزَّوَجَلَّ ورحمته شيءٌ عظيم لا يحيط به فكر، ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾[الأحزاب:٤٧]، قال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «ما أعطي أحد عطاءً خير من حسن ظنه بربه»، كيف لا! والنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول كما في الصحيحين: «أنا عند ظن عبدي بي»، وزاد أحمد وابن حبان: «فليظن بي ما شاء»؛ ظُنَّ بربك يا عبد الله ما تعتقد أنه أهلٌ له، وستجد ربك جَلَّ وَعَلَا مجيبًا لما ترجو. وما أحسن ما قال سفيان الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ وقد عظُم رجاءه في ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قال: «لو خُيِّرت بين أن يحاسبني أبي أو يحاسبني ربي لاخترت ربي؛ ربي خيرٌ لي من أبي» وصدق.

إذًا هذا سببٌ أول يدعو القلب إلى رجاء العظيم الرحيم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

أما السبب الثاني: فإنه مطالعة نصوص وأدلة الرحمة والمغفرة التي كثر ورودها في الكتاب والسنة، قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[الزمر:٥٣][٥٩٢].

---

(٥٩٢) مطالعة نصوص الوعد والتصديق بها؛ فإن الله ﷻ قد وعد المؤمنين وهو أصْدق مَن وعد جلَّ وعلا، وعدهم بفضل عظيم، ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾[الأحزاب:٤٧]؛ فمن حقَّق الإيمان والتصديق بهذه النُّصوص فإنَّ هذا ولا شكَّ سيُكسِبه في قلبه عبودية الرجاء.

وباجتماع هذين السببين وحسن تأمل الإنسان فيهما فإنه يصل بتوفيق الله جَلَّ وَعَلَا إلى تحقيق هذه العبودية. يبقى أن ننظر في متعلق الرجاء؛ ما الذي يرجوه الإنسان؟

الرجاء متعلق بأمرين:

الأول: رجاءٌ قبول الحسنة والإثابة عليها؛ يرجو الإنسان أنّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى يقبل حسناته ويثيبه عليها، وهذا ما دلت عليه أدلة كثيرة(٥٩٣)، ومنها أدلةٌ تحث العباد على أن يلاحظوا ذلك الأمر، ألم تر إلى قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذه العبادة العظيمة التي نحن فيها -والشيء بالشيء يذكر- قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غُفر له ما تقدم من ذنبه»، «من قام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه»، «من قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه»؛ الاحتساب هاهنا هو الذي نتحدث عنه، وهو رجاء قبول الحسنة والإثابة عليها(٥٩٤).

---

(٥٩٣) ﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ﴾ [فاطر:٢٩].

(٥٩٤) وأعظم ما يرجوه الإنسان من الثواب على الإيمان والطاعة: رؤية الله جلَّ وعلا، وهذا قد بينه الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ [الكهف:١١٠].

الثاني: رجاء مغفرة السيئة والعفو عنها؛ وذلك من أدلته قول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾[الشعراء:٨٢] (٥٩٥)، فالمسلم الصادق في إيمانه يطمع أن يمنَّ جَلَّوَعَلَا عليه بأن يتجاوز عن سيئاته ويعفو عن زلاته.

إذًا هذا هو الرجاء الشرعي، ولكن تنبه يا رعاك الله إلى أنّ **الرجاء الشرعي لا يكون كذلك إلا باجتماع أمرين لن يكون الراجي راجيًا إلا حققهما:**

أما الأول: أن يكون رجاؤه مشوبًا بالخوف؛ وهذه المسألة تكلمنا عنها سابقًا وقلنا إن الرجاء والخوف من المختلفات التي تجتمع في القلب، بل لابد من اجتماعها في القلب، لابد أن يجمع الإنسان الرجاء إلى الخوف حتى يكون سيره إلى الله جَلَّوَعَلَا سيرًا صحيحًا، وإلا فإنَّ هذا السير يكون مُعتلًا، وسيميلُ الإنسان إلى جانبٍ من جانبي العطب والخلل؛ إما القنوط وإما الأمن من مكر الله.

إذًا لابد من اجتماع الأمرين: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾[الأنبياء:٩٠]. ولو تأملت في الأدلة لوجدتها تدل على هذا الأمر؛ حتى في أدلة الرجاء الخاصة، وحتى في أدلة الخوف الخاصة.

---

(٥٩٥) منها قوله جلَّ وعلا: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر:٥٣].. وقال جلَّ وعلا في الحديث القدسي: «يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرتُ لك على ما كان منك ولا أُبالي، يا ابن آدم لو بلغتَ ذنوبك عنانَ السماء ثمَّ اسْتغفرتني غفرتُ لك».

تأمل معي مثلًا: قول الله جَلَّوَعَلَا عن إبراهيم عَلَيْهِالسَّلَامُ ، لاحظ كيف كان الجزم في ابتداء الأشياء أو الأفعال التي ذكرها وأضافها إلى ربه جَلَّوَعَلَا: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾[الشعراء:٧٨-٨٠] ؛ لاحظ كيف كان الجزم في هذه الأفعال، لكن لما كان المقام الآتي متعلقًا بالرجاء لاحظ كيف أنه كان رجاءً مشُوبـًا بالخوف قال: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾[الشعراء:٨٢].

في مقابل هذا تأمل في قول الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في وصف المؤمن الصادق قال: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾[ق:٣٣]، لاحظ كيف أنه علق الخشية باسم الله «الرحمن»، وهذا يدلك على أن المطلوب يكون خوفًا ممزوجًا برجاء، فأنت تخافُ رحمانًا عظيم الرحمة سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

إذًا المطلوب أن يجمع الإنسان بين الخوف والرجاء في كل أحواله؛ في المسرة وفي حال الشدة، في حال الصحة وفي حال المرض، في حال الذنب وفي حال الطاعة، في كل أحواله ينبغي أن يكون جامعًا بين الخوف والرجاء، وهذا هو حالُ المتقين من عباد الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ. هذا الأمر الأول الذي ينضبط به الرجاء فيكون رجاءً شرعيًا.

أما الأمر الثاني: فهو أن يكون الرجاء مقترنًا بالعمل؛ وهذا موضعٌ يغلط فيه كثيرٌ من الناس، فهم يغلطون أو يخلِطون بين الرجاء والإرجاء؛ الرجاء الشرعي

الذي يكون عبوديةً حقيقية يقوم بها المؤمن هو الرجاءُ الذي يقترن به العمل الصالح، وما عدا ذلك فإنَّه أماني لا تغني عن الإنسان شيئًا في مقام الرجاء(٥٩٦).

ولذلك تأمل في قول الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللهِ﴾[البقرة:٢١٨]؛ يعني أولئك الذين يستحقون أن يكونوا راجين وليس غيرهم، مَن الذي حقًا يمكن أن يوصف بأنه راجٍ لله عَزَّوَجَلَّ ؟ الذي قام بالأعمال الصالحة؛ الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك وأولئك فقط هم الذين يرجون رحمة الله جَلَّوَعَلَا . قال سبحانه: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[الكهف:١١٠]، هذا هو الرجاء الشرعي وما سواه -كما قلنا- فإنه أماني وأوهام.

إذًا هذا هو مقام الرجاء؛ وإذا جمع الإنسان بين المقامين وكانا مستويين في قلبه، وكانت المحبة غالبة عليهما، بذلك يكون قلبه قلبًا حيًا قائمًا بالمصالح التي أمرها الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ بها.

نأتي الآن إلى الآية التي أوردها المؤلف رَحِمَهُٱللَّهُ ونتكلم عن المرض الأول الذي يعتل به القلب؛ وهو مرض الأمن من مكر الله جَلَّوَعَلَا .

قال سبحانه: **﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾** والمعنى: أَفَهُم حالهم أنهم مصرون على معصية الله جَلَّوَعَلَا ثم إنَّهم يأمنون مكر

---

(٥٩٦) وفي هذا يقول ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ: «أجمع العارفون على أنَّ الرجاء لا يكون رجاءً شرعيًا إلا بالعمل».

الله جَلَّوَعَلَا! ﴿فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ الذين خسروا أنفسهم وفاتهم حظهم من رحمة الله جَلَّوَعَلَا(٥٩٧) .

ابتداء السياق قول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ * أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ * أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾؛ الأمن من مكر الله جَلَّوَعَلَا دليلٌ على انعدام أو ضعف الخوف من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، ولذلك أن أهل الإيمان الصادق عندهم خوفٌ من مكر الله جَلَّوَعَلَا(٥٩٨) ، **وهذا الخوف سببه أحد أمرين**: إما استرسالٌ، وإما عُجبٌ، وكلاهما من البلاء.

الأول: استرسالٌ في المعصية؛ فيغفل الإنسان عن ربه جَلَّوَعَلَا فيأمن من مكر الله.

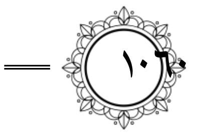
والجانب الأخر: جانب العُجب؛ أن يُعجب الإنسان بعبادته وقيامه بالطاعة، فيغتر، فيُوكَل إلى نفسه والعياذ بالله، فيكون آمنًا من مكر الله، ومن وكله الله سبحانه إلى نفسه فقد مُكِرَ به عياذًا بالله.

والمؤمنون المتقون يخافون من هذا المقام خوفًا عظيما، وذلك الخوف يرجع إلى أحوال وصور:

---

(٥٩٧) **والمكرُ بالكفار**: هو إيقاعُ العذاب بهم على حين غرّةٍ منهم في الدنيا وكذلك إيقاعُ العذاب عليهم في الآخرة.

(٥٩٨) ولا يأمنه من المُنتسبين إلى الإسلام إلا ضعافِ الإيمان وضعاف التوحيد.



فهم **أولا**: يخافون أعظم الخوف من أن يكون ذنبهم ومعصيتهم لله جَلَّوَعَلَا سببًا في أن ينسوا الله جَلَّوَعَلَا فينساهم، والله جَلَّوَعَلَا توعد من نسيه أن ينساه، ومن نسيه الله قطع توفيقه عنه وخذله والعياذ بالله ووكله إلى نفسه؛ ومن كان كذلك كانت له الخسارة وكانت حاله إلى بوار.

ثانيًا: يخاف المؤمن المتقي أن يكون بسببِ ذنبه ومعصيته قد مُكر به من جهة أن يُبتلى فلا يصبر، فيُفتن والعياذ بالله.

ثالثًا: أن تأتيه النُذُرُ وأن تأتيه العِبَر فلا يتعظ، ولا يكون قلبه حيًا متيقظًا، بالتالي فإنه يخذَل والعياذ بالله بعد أن يستدرج، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾[الأنعام:٤٢]، جاءتهم العبر، جاءتهم النذر لعل وعسى أن يحصل منهم تضرع إلى الله جَلَّوَعَلَا ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾، ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ * فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام:٤٤-٤٥] . من قامت عليه الحجة وبلغته النِّذارة والبِشارة وجاءته العبر فلم يتعظ فإنه يُخشى أن يمكر الله عَزَّوَجَلَّ به.

إذًا هذا المكر من الله جَلَّوَعَلَا بعبده مُسَبَّبٌ عن المعصية والسيئة، وأعظمُ من ذلك أن يكون مُسَببًا عن الكفر بالله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ .

والمكرُ تعريفه: هو الإيقاع بالخصم بكيفية خفية[٥٩٩].

---

(٥٩٩) «إيصال الشيء إلى الغير بطريقٍ خَفي»، كما قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ. وقال بعضهم: «هو الإيقاعُ بالخصم من حيث لا يشعر».

واعلم -يارعاك الله- أنَّ **المكر منقسمٌ إلى قسمين**: مكرٌ ممدوح، ومكرٌ مذموم.

أما المكر الممدوح: فإنه المكر بمن يستحق.

وأما المكر المذموم: فهو المكر بمن لا يستحق.

- إن كان إيقاع المكر بمن يستحق؛ كان مكرًا ممدوحًا .
- وإن كان إيقاع المكر بمن لا يستحق؛ كان مكرًا مذمومًا.

والله جَلَّوَعَلَا يتصف من القسمين بالممدوح ويُنزه عن المذموم.

المكر المذموم الذي يكون فيه إيقاعٌ بالخصم بكيفية خفية، إن كان بمن لا يستحق كان متضمنًا كذبًا أو ظلمًا أو كان متضمنًا كليهما، والله جَلَّوَعَلَا يُنزه عن ذلك، الله سبحانه بكماله منزه عن كل نقصٍ وعيب جَلَّوَعَلَا.

أمَّا المكرُ بمن يستحق فهذا المكر مكرٌ يلاحظ فيه أنه مدح؛ لأن هذا المكر اجتمع فيه ثلاثة أمور:

أولًا: اجتمع فيه الدِلالة على عدل الله جَلَّوَعَلَا ، والعدلُ ممدوح؛ لأن مكر الله جَلَّوَعَلَا بمن يستحق المكر عقوبة، وإيقاع العقوبة في محلِّها مدح . إذًا هذا مكرٌ ممدوحٌ من الله جَلَّوَعَلَا.

ثانيًا: هذا المكر الممدوح الذي كان بمن يستحق دليلٌ على قدرة الله، حيث إنَّه جَلَّوَعَلَا يفعل ما يشاء سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ولا رادَّ لأمره، فالله على كل شيءٍ قدير، وهذا مدحٌ في حق الله جَلَّوَعَلَا.

وثالثًا: أنّ في هذا المكر دليلًا على حكمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ، فالله له الحكمة البالغة، بحيث أنه قابل مكر الماكرين بمثله بل بما هو أعظم منه، وهذه حكمة، ولذلك الله جَلَّ وَعَلَا أخبر عن نفسه بأنه خَيْرُ الْمَاكِرِينَ؛ ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾[الأنفال:٣٠]، ﴿قُلِ اللهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾[يونس:٢١].

قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ﴾[الرعد:٤٢]؛ لاحظ هذه الآية العظيمة التي فيها تسلية للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمؤمنين، يقول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ يعني الذين قبل كفار قريش، كفار قريش أرادوا المكر بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ألم يقل الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾[الأنفال:٣٠]، إذًا كانوا يمكرون بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا﴾؛ ما أعظم هذه الآية! كيف أنها تعطي المؤمنين طمأنينة وسكينة ورجاء في الله جَلَّ وَعَلَا.

وجه ذلك: أنّ الله تعالى أخبر أن الله له المكر جميعًا، وبالتالي فإنّ مكر غيره كالعدم، المكر الذي يقع هو مكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ، أما مكر هؤلاء فإنه لا يقع ولا ينفع، والله جَلَّ وَعَلَا يجعله مُضمحلًا، لِم؟ جاء الجواب قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾؛ وبالتالي إنه سيستدرجهم ويوقعهم من حيث لا يشعرون.ولذلك تأمل في قوله الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ﴾[النحل:٢٦]، هذا من حكمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ .

إذًا مكر الله جَلَّوَعَلَا صفة مدحٍ وصفة كمال، لأنه واقعٌ بمن يستحق، هذا المكر واقعٍ من الله جَلَّوَعَلَا بمن يستحق، ولذا أهل السنة والجماعة يثبتون هذه الصفة كما وردت، بمعنى: تضاف هذه الصفة إلى الله جَلَّوَعَلَا مقيدة بما ورد؛ الذي ورد أن الله عَزَّوَجَلَّ يمكرُ بمن يستحق، كالذين يمكرون بدين الله وبأوليائه سُبْحَانَهُوَتَعَالَى ، وهذا أحسن المكر وهذا صفة كمال لله جَلَّوَعَلَا. أما إطلاق أنّ المكر صفة لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى هكذا دون تقيد، لا شك أنه مخالفٌ للنصوص، وفيه إيهام نسبة ما لا يجوز، فهذه الصفة صفةٌ مقيدة تُضاف لله عَزَّوَجَلَّ كما وردت، ولا يُشتق منها اسمٌ لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

وهذا الموضع موضعُ اختلاف بين أهل السنة والجماعة ومخالفيهم؛ حيث إنّ أهل البدع أبَوا إضافة هذه الصفة لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى كما أخبر، وشأنها شأنُ بقية الصفات التي من هذا الجنس، يعني الصفات المنقسمة التي يضاف إلى الله عَزَّوَجَلَّ منها الممدوح لا المذموم، ومن ذلك كما معنا المكر، ومن ذلك الكيد، ومن ذلك الاستهزاء، ومن ذلك الخداع، وما إلى هذه الصفات، هذه الصفات تضاف إلى الله عَزَّوَجَلَّ كما وردت .

أما المخالفون فإنهم لا يثبتونها لله جَلَّوَعَلَا، وإنما تقرأ في بعض الكتب التي أُلفت على هذا النهج تجد أنهم إذا جاءوا إلى هذه الصفات يقولون من باب المشاكلة(٦٠٠)، يعني أنها لا تضاف حقيقة إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى. ولا شك أن هذا باطل.

---

(٦٠٠) وأحيانًا يقولون: "على سبيل المُقابلة".

وموضوع المشاكلة كما مر معنا في دروسٌ ماضية هذا مبحث من مباحث علم البديع من علوم البلاغة، وهو: أن يُسمى الشيء بلفظ غيره لوقوعه في محله حقيقةً أو تقديراً[٦٠١]، فالله جَلَّوَعَلَا لا يمكر عند هؤلاء، لكن جُعل هذا من باب المجاز، وكان هذا على سبيل المشاكلة.

المقصود أنّ هذا لا شك أنه مسلكٌ مخالف لمسلك أهل السنة والجماعة، والصواب إثبات هذه الصفة لله جَلَّوَعَلَا كما وردت[٦٠٢].

إذًا الله جَلَّوَعَلَا يمكرُ بمن يستحق سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ؛ ومن ذلك مكره بالكفار الذين يعاندون الحق ويعادون دين الله، ويمكرون برسوله، ويمكرون بأوليائه؛ الله عَزَّوَجَلَّ يمكر بهم فيوقع بهم ويوصل إليهم العقوبة من حيث لا يشعرون، ﴿وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ﴾[النحل:٢٦].

(٦٠١) من أمثلته قول الشاعر:

قالوا اقتِرحْ شيئًا نجدْ لكَ طبخَهُ   قلتُ: اطبخُوا لي جُبَّةً وقميصا

هو بحاجة إلى جُبَّة وقميص وليس إلى طعام، لكن لمَّا ذكروا الطبخ ذكرَ هذا الشيء لأنه مذكور وفي صحبته فقال: (اطبخُوا لي جُبَّةً وقميصا).

(٦٠٢) المقصود أنَّ استعمال هذا الأمر في هذه الصفة وأمثالها -كالكيد والخِداع والاسْتهزاء- هذا كلّه من التأويلات المُنكَرة التي ينبغي أن يتنبَّه لها طالب العلم. بلْ نقول: الله ﷻ متصف بهذه الصفة على الحقيقة، شأنها في ذلك شأنُ سائر صفات الله جلَّ وعلا الثابتة له، ولكن -كما أسلفتُ- نثبتها كما وردت، وهي قد وردت مقيَّدة لا مطلقة، فلا نطلقها ولا نشتقّ منها لله جلَّ وعلا اسمًا.

وهذا القدر لابد أن يكون في قلب كل إنسان؛ فإنه يخشى أن يمكر الله عَزَّوَجَلَّ به، لا من جهة أنّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لا يحب عباده المؤمنين ولا يكرمهم ولا يتفضل عليهم، كلا؛ إنما ذلك مما يُخشى أن يكون عقوبةً على الذنوبِ والمعاصي؛ فالذنوب والمعاصي لها آثار، ويُخشى أن يكون من آثارها أن يمكر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بمن يسترسل في هذه المعاصي ولا يبادر بالتوبة إلى الله عَزَّوَجَلَّ على ما وصفنا قبل قليل.

ربما يقع الإنسان في معصية وينظر في نفسه فلا يرى عقوبة معجلة، فيدعوه هذا إلى الاغترار ويدعوه هذا إلى الاسترسال، يظنُ أنَّ تأخر العقوبة ربما كان من عدم تأثير السيئة وأنَّها عديمة الأثر، وغفل هذا المسكين عن أنّ الذنب مُؤثرٌ ولابد، لكن لحكمة الله جَلَّوَعَلَا قد تتقدم العقوبة وقد تتأخر العقوبة، فمن المكر

بالعاصي أنه يسترسلُ في المعصية اتكالًا على عدم رؤية العقوبة(٦٠٣)، وهذا من أهم ما ينبغي على المسلم أن يتنبه له، وما أكثر الغفلة عنه(٦٠٤).

أود أن أنبه هاهنا إلى مسألة مهمة، وهي أنّ بعض الناس إذا وصل إلى هذا المقام فإنه قد يتكلم عن مكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الذي يُضاف إليه بكلامٍ قد لا يكون فيه مراعاة مقام الأدب مع الله عَزَّوَجَلَّ، ولا يقدُر المتكلم الله جل وعلا حق قدره، بعض الناس إذا وصل إلى هذا المكر حذّر من مكر الله عَزَّوَجَلَّ بالعبد، وأن الله عَزَّوَجَلَّ قد يوقع بالإنسان بلا سبب.

وقد يستدل على هذا فيقول: الله جَلَّوَعَلَا يقول: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾[الأنفال:٢٤]، بل ربما يستدل بقول النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «إنَّ العبد ليعمل بعمل أهل الجنة حتى يكون بينه وبينها ما إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل

---

(٦٠٣) ومكر الله ﷻ الذي يخافه المؤمن هو :

-أنه يخشى أن يسْترسل في الذنوب فتتأخَّر العقوبات عليه فيسْتأنس بها، وبالتالي يسْترسل ويتمادَى ثمَّ يأخذه الله ﷻ على حين غِرّةٍ منه.

-أو أنه يغفل عن الله ﷻ وعن ذكره جلَّ وعلا فينساه الله جلَّ وعلا، فالله ﷻ مَن نسيه ونسيَ ذكره فإنه ينساه ﷻ﴿جَزَاءً وِفَاقًا﴾ [النبأ:٢٦]، فيخلّي بينه وبين نفسه، ويقطع توثيقه عنه، وهذا ولا شكَّ هالكٌ والعياذ بالله.

-أو يخاف أن يُبتلَى فلا يصبر فيقع في الفتنة، وهذا من مكره ﷻ.

(٦٠٤) فشأن أهل الإيمان أنهم متيقّظون وخائفون من مكر الله وغير آمنين من ذلك، وهذا كلّه دليلٌ على قوة إيمانهم وعظيمِ توحيدهم، فهم لم يزالوا خائفين أن تكون ذنوبهم وسيئاتهم وغفلتهم سببًا للمكر بهم.

بعمل أهل النَّار فيدخلها»، ولذلك تجد الذي يُخطئ في فهم هذه الأدلة ويقع في قلبه هذا الظن يعامِل ربه معاملةَ من يريد أن يوقع بعباده ولا يريدُ أن يهديه ويبيِّن له، وهذا لا شك أنه من ضعف الإيمان بالله، ومن ضعف تعظيم الله.

اعلم يا عبد الله أن الله جَلَّ وَعَلَا هو البَر الرحيم الكريم الشكور، إياك أن تظن أن ربك جَلَّ وَعَلَا إذا أقبلتَ إليه أعرض عنك، إياك أن تظن أنك إن عملت الحسنة جازاك عليها بأن وجَّهك إلى السيئة، إياك أن تظن أنّ الله عَزَّوَجَلَّ يجازيك على إيمانك وحسناتك بأن ينقلك من المسجد إلى الكنيسة، أو من الإسلام إلى الردة! إياك أن تظن هذا في ربك.

الله جَلَّ وَعَلَا أخبر وهو جَلَّ وَعَلَا الذي لا يُخلَفُ وعده أخبرنا أنَّ من أقبل إلى الله عَزَّوَجَلَّ أقبل الله إليه، ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾[محمد:١٧]، ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾[الليل:٥-٧]، هذا هو الكريم، وهذا هو الرحيم، وهذا هو الشكور جَلَّ وَعَلَا ؛ يشكرُ حسنة عبادته فيثيبه عليها بحسنةٍ بعدها(٦٠٥) .

ماذا عن هذه الأدلة التي سمعناها؛ ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾[الأنفال:٢٤]؟ اعلم -يا عبد الله- أن هذا إنما هو بسببٍ من الإنسان، فيكونُ ذلك عقوبةً من الله جَلَّ وَعَلَا ، وليس أنّ الإنسان يُقبل على الله بالعمل الصالح

---

(٦٠٥) إذًا لا يظنَّنَّ الظانّ حينما يُتحدَّثُ عن موضوع المكر وأنَّ الله عَجَلَّ يمكر أن هذا يكون في ضمنِهِ ظُلمٌ للعبد! حاشا وكلَّا، الذي يعمل الحسنات لا يخاف من ربه ﴿ظُلْمًا وَلا هَضْمًا﴾ ولا ﴿بَخْسًا وَلا رَهَقًا﴾ ، بلْ يطمئن ويعلم أنه يعبد ربًا رحيمًا وكريمًا سُبْحَانَهُ .

فيجازيه الله على ذلك بأن يحول بينه وبين الهداية، حاشا وكلا، هذا لا يجوز أن يقال في حق الله.

بعض الناس ربما إذا تكلم في هذا الأمر -والمسألة لها خلفية عقدية ترجع إلى عدم تعليل هؤلاء أفعال الله جَلَّوَعَلَا بالحكمة البالغة- عند طائفة من أهل البدع الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يجوز أن يفعل كل شيء، ولذلك يجيزون أن الله جَلَّوَعَلَا يُنعِّم في أعلى الجنان ألدَّ أعدائه، ويعذِبُ في أسفل سافلين أحب أوليائه إليه، ولا فرق بين هذا وهذا سوى أنه أراد هذا ولم يُرد هذا!

أما أهل السنة والجماعة فإنهم يقولون: إن الله قادرٌ على كل شيء، الله على هذا قدير، ولكنَّه لا يفعله لأنه لا يليق بموجب أسمائه وصفاته، لا يليق بكماله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فهو لا يفعله لأنه يتنافى وحكمته.

أما إزاغته سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ والحيلولة بين الإنسان والإيمان فبسببٍ من الإنسان، ولذلك تأمل معي قول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿**فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ**﴾[الصف:٥]، ﴿**وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى* وكَذَّبَ بِالْحُسْنَى* فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى**﴾[الليل:٨-١٠]، ﴿**ثُمَّ انْصَرَفُوا**﴾ جاءتك العقوبة الآن هذا هو المكر، قال جَلَّوَعَلَا : ﴿**صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُمْ**﴾[التوبة:١٢٧](٦٠٦) ، ليس أنهم أقبلوا إلى الطاعة والخير والإيمان وعبادة

---

(٦٠٦) وقال جلَّ وعلا: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ * فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ انظر إلى المكر هنا ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ * فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ

الله فصرف الله قلوبهم، حاشا وكلا، إنما لأنهم انصرفوا عن طاعة الله عَزَّوَجَلَّ فالله سبحانه مكر بهم فأوقع هذا الانصراف في القلوب فخُذلوا والعياذ بالله.

أما حديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **الذي سقته قبل قليل**، فأحاديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يفسر بعضها بعضًا ويُبَيِّن بعضها بعضًا، والواجب الجمع والتأليف بينها، وليس أن تأخذ طرفًا وتترك آخر؛ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيَّنَ هذا في حديثٍ آخر، ففي الصحيحين من حديث سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إنَّ الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النَّار**»؛ إذًا ضع خطًا عند كلمة «**فيما يبدو للناس**».

إذًا ذاك الذي يعمل بعمل أهل الجنة حتى لا يكون بينه وبينها إلا ذراع هذا عمله مغشوش في قلبه خبيئة سوء، عنده رياء، كان يعمل العمل الصالح فيما يبدو للناس، إذًا كان يُظهر شيئًا ويخفي شيئًا آخر فمثل هذا حريٌ أن يُمكر به والعياذ بالله. أما الصادق في طاعة الله عَزَّوَجَلَّ فلا يكون ذلك أبدًا منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، لأنه أخبر بهذا وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يُخْلِفُ الميعاد؛ ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾[الليل:٥-٧].

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (**وَقَوْلُه: ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّون﴾**[الحجر:٥٦]).

المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ وقد أورد الدليل الذي يعالج أحد خللي القلوب، حيث أورد الدليل على النهي والذم للأمن من مكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في إيراده قول الله جَلَّ وَعَلَا

ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٢-٤٥].إذًا؛ الله عَزَّوَجَلَّ إنما يُوقع وإنما يمكر بمن يستحقّ ذلك.

﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾[الأعراف:٩٩]، وقد علِمنا أنّ الأمن من مكر الله هو: عدم الخوف من استدراج الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى وابتلاءه دون أن يشعر الإنسان.

والخلل الثاني: هو القنوط من رحمة الله؛ وهذا الذي أورد عليه المؤلف رَحِمَهُاللَّهُ قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾؛ وذلك أنّ الواجب على المسلم -كما تكرر معنا غير مرة- أن يجمع بين الخوف والرجاء في قلبه باعتدال، بحيث لا يطغى أحدهما على الآخر حتى يستقيم سيره إلى الله جَلَّوَعَلَا، الواجب أن يُرجى اللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى رجاءً مشوبًا بخوف، وأن يُخاف خوفًا مشوبًا برجاء، فالله جَلَّوَعَلَا هو المرجو مع شديد انتقامه، وهو المخوف مع سَعَةِ رحمته، ولذا فإنه لم يؤمِّن الصالحين ولم يقنِّط المسرفين.

الداء الثاني: هو **القنوط من رحمة الله** جَلَّوَعَلَا [٦٠٧]، وهو الذي جاء ذمه والتنفير منه في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾؛ هذه الآية فيها قصة وهي حلول ضيف إبراهيم عَلَيْهِالسَّلَامُ عليه وهم الملائكة الكرام، حينما نبأنا الله عَزَّوَجَلَّ عن خبر ضيف إبراهيم، وأنَّهم بشَّروه بغلام عليم وهو إسحاق عَلَيْهِالسَّلَامُ ، هنا قال إبراهيم عَلَيْهِالسَّلَامُ: ﴿أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾[الحجر:٥٤]، لاحظ أنَّه جاء الاستفهام مرتين، وهذا الاستفهام ليس لاستبعاد أو إنكار أن يكون الله عَزَّوَجَلَّ برحمته قد قدَّر الإنعام على إبراهيم بهذا الولد على كِبره، فإنه يعلم من قدرة الله عَزَّوَجَلَّ ورحمته ما هو أعظم من ذلك، لكنَّ هذا الاستفهام كان مسوقًا مساق

(٦٠٧) **القُنوط في اللّغة**: هو قطْع الطمع عن الشيء.

التعجب، تعجب أنه مع كبر سنه وسن زوجه، فإن الله سبحانه قدَّر أن يكون له الولد.

فهاهنا الملائكة عليهم السلام قالوا: ﴿بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ﴾[الحجر:٥٥]، نبهوا إلى أنَّ الواجب أن لا يقنط الإنسان من رحمة الله جَلَّوَعَلَا، فأجاب إبراهيم عَلَيْهِالسَّلَامُ ببيان أنه لم ولا يقنط من رحمة الله جَلَّوَعَلَا ، فقال: ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾؛ فهذا دليل على أنّ القنوط من رحمة الله جَلَّوَعَلَا ليس من شأن أهل الإيمان والتقوى، إنما هو من شأن من زلَّ وضل وانحرف عن الطريق المستقيم.

ذلك أنّ القنوط من رحمة الله جَلَّوَعَلَا فيه ارتكاب ما نهى الله عنه، فإنّ الله جَلَّوَعَلَا قد قال: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾[الزمر:٥٣]. أيضًا القنوط من رحمة الله جَلَّوَعَلَا يتضمن الجهل بالله وسوء الظن به، **الجهل بالله وسوء الظن به جاء هنا من جهتين:**

الأولى: من جهة اعتقاد ضعف قدرة الله عَزَّوَجَلَّ عن تحقيق المرجو أو دفع المرهوب، وإلا لو اعتقد الإنسان أنّ الله على كل شيء قدير، وأن قدرته كاملة جَلَّوَعَلَا فلا يُعْجزه شيء، إذًا لأي شيء يقنط؟! ولأي شيء ييأس؟!

والأمر الثاني: أنه وقع في اعتقادِ تحجير رحمة الله عَزَّوَجَلَّ وأن رحمة الله سبحانه أضعف من أن يحقق الله عَزَّوَجَلَّ بها مرجوه أو يدفع ما يخاف منه.

فلأجل هذا كان القنوط من رحمة الله جَلَّوَعَلَا شأن الضالين لا شأن المؤمنين(٦٠٨)، الواجب أن يعظم في قلب المسلم الرجاء في الله، والطمع فيما عنده، وحسن الظن به جَلَّوَعَلَا .

كيف لا يكون ذلك وقد علم العبد أنَّ ربه هو الرحمن الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء، هو الذي قال: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾[الأعراف:١٥٦] !!

كيف يقنط المؤمن من رحمة ربه، وهو الذي من أسمائه اللطيف والبر والكريم والشكور والودود جَلَّوَعَلَا!!

كيف يقنط من رحمة ربه من علِم أنه جل في علاه خلق مائة رحمة، وجعل منها تسعة وتسعين يوم القيامة!!

كيف يقنط من رحمة ربه من علم أن رحمته جَلَّوَعَلَا غلبت غضبه!!

كيف يقنط من رحمة ربه من قال: (أنا عند ظن عبدي بي، فليظنّ بي ما شاء)!!

كيف يقنط من رحمة ربه من قال: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾[الزمر:٥٣]!!

---

(٦٠٨) ولا شكَّ أن هذا ذنب عظيم، كما معَنا في هذه الآية: ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر:٥٦]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّهُ لا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الكَافِرُونَ﴾ [يوسف:٨٧].

كيف يقنط من رحمة ربه من وعد بأن يكفِّر الزلات وأن يعظم الأجور ويرفع الدرجات!!

كيف يقنط من رحمة ربه من يعبد هذا الكريم العظيم الذي قال: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾[الأحزاب:٤٧]!!

هذا ابن مسعود رضي الله عنه يقول: «ليغفرنّ الله يوم القيامة مغفرةً ما خطرت على قلب بشر». إذًا كيف يقطع الإنسان طمعه ورجائه في هذا الإله الرحيم الكريم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى!!

إذًا على المسلم أن يتق الله وأن يتأدب مع الله، وأن يَقدر الله عَزَّوَجَلَّ حق قدره، وأن يحذر من سوء الظن بالله جَلَّوَعَلَا ، لكن حذارِ من الاغترار ومن الاسترسال، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «أجمع العارفون على أنّ الرجاء الشرعي لا يكون إلا مع العمل»، إذًا رجاءٌ بلا عمل هو غرور وأماني، وأما من كان جادًّا وصادقًا في رجاء الله جَلَّوَعَلَا فهو من شمر عن ساعد الجد في طاعة المولى سبحانه والبُعد عن معاصيه، ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللهِ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[البقرة:٢١٨]، ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[الكهف:١١٠](٦٠٩).

---

(٦٠٩) **والسبب المؤدِّي إلى القُنوط من رحمة الله جلَّ وعلا:**

- **أولًا**: الإسراف في المعاصي؛ حينما يسْترسل الإنسان ويتمادَى في المعاصي يستولي على قلبه أنَّه قد انقطع عنه السبب الذي يرحمه الله عَجَّلَ به فيقنط وييئس من رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ سُئِلَ عَنِ الْكَبَائِرِ؛ فَقَالَ: «الشِّرْكُ بِاللهِ، وَالْيَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ، وَالأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللهِ»).

هذا الحديث خرَّجه البزار والطبراني وغيرهما، وفيه بحثٌ من جهة ثبوته، من جهة أنَّ في إسناده رجلًا هو شبيب بن بِشر، الحديث من طريق شبيب بن بشر عن عكرمة عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وشبيبٌ هذا مُختَلف فيه، وثَّقه ابن معين، وقال أبو حاتم: «إنه لين الحديث»، وقال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في التقريب: «صدوقٌ يخطئ». وعلى كل حال الحديث قال فيه الهيثمي: «رجاله

➢ **السبب الثاني**: المبالغة في الخوف معَ ضعْف الرجاء، فيبالغ في الخوف حتى يعتقد أنَّ الله سبحانه لا يرحمه ولا يغفر له.

فهذان سببان يوقعان الإنسان في القُنوط من رحمة الله جلَّ وعلا، كما أنَّ مقابل ذلك مُسبَّبٌ عن أسباب، أعني: **الأمْن من مكر الله، فإن سبب ذلك راجع إلى**:

- أن يسْترسل الإنسان في المعاصي، ويصرّ على السيئات حتى يضمحِلَّ الخوف في قلبه فيأمن من مكر الله.
- وسببٌ آخر: هو أن يغترَّ بنفسه وبطاعته وعبادته فيتَّكِل على ذلك ويضعف عنده الأمن من مكر الله جلَّ وعلا.

ولا شكَّ أنَّ علاج ذلك هو بأضداد هذه الأسباب؛ يعالج كلَّ سببٍ بضدّه حتى يسْلم من هذه الآفة.

وأعود وأُكرِّر: إنَّ السلامة من هاتين الآفتين إنما تكون بتوفيق الله جلَّ وعلا بعد أن يستقيم سير الإنسان عند الله جلَّ وعلا جامعًا بين الخوف والرجاء باعتدال؛ يخاف خوفًا مشوبًا بالرجاء، ويرجوا رجاءً مشوبـًا بالخوف. والله عَزَّ وَجَلَّ أعلم.

موثقون»، وحسنه الزين العراقي في كتابه المغني، وكذلك الشارح الحفيد الشيخ سليمان رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وأما الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره فإنه نظر في إسناده وقال: «فيه نظر»، والأقرب أنه موقوف على ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا. وعلى كل حال إذا ثبت رفعه إلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو كان موقوفًا فهو في كل حال له حكم الرفع إلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

هذا الحديث فيه ذكر ثلاث كبائر:

الشرك الذي هو أكبر الكبائر على الإطلاق، وكيف لا يكون ذلك كذلك والشرك بالله سبحانه تنقُّصٌ من عظمةِ الربوبية، وهضمٌ لحق الألوهية، وسوء ظن برب العالمين جَلَّ وَعَلَا! ولذلك كان أعظم ذنب، وأكبر جريمة على وجه الأرض على الإطلاق.

أما الكبيرة الثانية والثالثة فهي ما نحن فيه: «الأمنُ من مكر الله»، و«اليأس من روح الله»؛ رَوح الله: الرَوح بفتح الراء: هو التفريج والتنفيس من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويكون من الإنسان يأس، واليأس قطع الرجاء وانعدامه، ينعدم الرجاء في هذا الإنسان من فرج الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مع أنه قريب، فرج الله جَلَّ وَعَلَا قريب لكن الإنسان يعجل، وهو في معنى القنوط من رحمة الله، اليأس من روح الله بمعنى القنوط من رحمة الله على ما سنفصله إن شاء الله قريبًا.

وليس من جديد في هذا الحديث إلا ذكر الكبائر، وموضوع الكبائر أظن أننا أخذنا طرفًا منه في دروس سابقة، ولكن لا مانع من التذكير بأهم معالمه.

عندنا في موضوع الكبائر لابد من ملاحظة أربعة أمور:

✍ **الأول: هل الذنوب تنقسم إلى كبائر وصغائر؟**

الجواب: نعم؛ دل على هذا الكتاب والسنة والإجماع، ويكفي في الدلالة على هذا قوله تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾[النساء:٣١]، فالسيئات هاهنا يتعين أن تكون هي الصغائر؛ لأنه ذكر الكبائر قبلها. الشاهد أن الذنوب تنقسم إلى كبيرٍ وإلى صغير[٦١٠].

✍ **والأمر الثاني هو: هل الضابط للكبيرة هو الحد أو العد؟** يعني هل تنضبط الكبائر بالحد فهي محدودة؟ أو بالعد فهي معدودة؟ ولاحظ أننا نتحدث عن الكبائر، وذلك لأنه إذا استبان لنا ما الكبيرة استبان لنا بالتالي ما الصغيرة، لأنّ الصغيرة هي ما كان دون الكبيرة.

قال بعض أهل العلم: إنّ الكبائر منضبطةٌ بالعد واختلفوا، قيل: الكبائر ثلاث، وقيل: أربع، وقيل: سبع، وقيل: هي سبعون، وقيل: هي سبعمائة، وقيل غير ذلك، وهذا مسلك ضعيف.

والصواب: أنّ الكبيرة منضبطةٌ بالحد. وما جاء في بعض الأدلة من ذكر أشياء كما تبين الأدلة في هذا الحديث أنها ثلاثة وفي غيرها غير ذلك؛ هذا

---

(٦١٠) نقل الإجماع عليه غير واحد؛ كابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ. وبيَّن شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّ الجهْمية ينكرون تقسيمَ الذنوب إلى كبائر وصغائر، ومِمَّن وقع في هذا أيضًا: طائفة من الأشاعرة، وبعض الناس يظنُّ أنَّ الخلاف في هذه المسألة معهم لفظيٌّ، وهذا ليس بجيّد، بل الصواب: أنَّ الخلاف معهم في هذه المسألة معنوي، ويترتَّب عليه أثر، وليس هذا موطن تحقيق هذه المسألة.

محمول عند أهل العلم على أن أجوبة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانت مناسبةً لمقتضى الحال، أجاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ضوء المناسِب للحال الذي كان يُجيب أو يتحدث فيه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

المسألة الثالثة وهي: ما ضابط أو ما حد الكبيرة؟

اختلف العلماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ هاهنا اختلافًا طويلًا جدًا، والأقرب والله تعالى أعلم أن يقال: **إنَّ الكبيرة كل ذنب توعد الله** عَزَّوَجَلَّ **عليه بوعيد خاص**، ومرادنا بقولنا «وعيد خاص»: هو أن يتوعد الله عَزَّوَجَلَّ على ذنبٍ ما بنار أو عذاب أو لعنة أو دخول أو حرمان من جنة، أو الوصف بأنّ الفاعل ليس منا، وما شاكل ذلك؛ هذه نماذج للوعيد الخاص، أما ما لم يرد فيه وعيد خاص فإنه يكون من الصغائر لا من الكبائر.

وهذا الضابط هو أقرب ما يمكن أن يقال وهو الذي اختاره وقال معناه جمعٌ من المحققين من أهل العلم؛ كابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا ، والإمام أحمد، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وغيرهم من أهل العلم رضي الله عنهم ورحمهم. إذًا هذا أقرب ما يمكن بأنه ضابط الكبيرة.

المسألة الرابعة: هل يقترن بالصغيرة ما يصيِّرها كبيرة؟

الجواب: نعم؛ نص على هذا أهل العلم الذنب الصغير قد يقترن به ما يرفعه، ويعظمه حتى يُلحقه بالكبائر؛ وذلك:

- **أولاً**: بأن يقترن بالصغيرة لا مبالاة بها؛ أن يقترفها الإنسان دون أن يبالي، ودون أن يكترث، فيكون متساهلًا إبَّان فعله لها.

• **ثانيًا**: المجاهرة بها؛ والمجاهرة بها أمر عظيم بل قد تكون المجاهرة من حيث هي ذنبًا أعظم من الذنب نفسه.

• **ثالثًا**: الإصرار عليها؛ الإصرار على السيئة يصيِّرها إلى أن تكون كبيرة، وقد أخرج اللالكائي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغيره وإسناده(٦١١) قال عنه ابن مفلح صحيح عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: «لا صغيرة مع الإصرار»، الإصرار على الذنب بمعنى المداومة وعدم الترك، الترك الذي يصحبه توبة إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ منه، إنما يدمن المعصية ويداوم على المعصية ؛هذا هو الإصرار، وهذا يُصيّر الصغيرة كبيرة، بالتالي على المسلم حتى ينجو من هذه الورطة أن يحذر أشد الحذر من أن يكون مُصرًا على صغيرة، وإنما إن زلت قدمه عليه أن يبادر إلى التوبة إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مما اجترحته يداه.

إذًا هذه نبذة عن الكبائر، والمقصود أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو ابن عباس على الخلاف في الحكم على الحديث جاء في هذا الحديث أو الأثر التنصيص على أن الأمن من مكر الله، والقنوط أو اليأس من روح الله أن هذا من الكبائر، وكفى بهذا تحذيرًا وتنفيرًا من هذين الذنبين العظيمين.

---

(٦١١) وصحَّه ابن مفلح وغيره، عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في الكبائر: «هي إلى السبعمائة أقرب منها إلى السبعين، غير أنَّه لا كبيرة معَ استغفار، ولا صغيرة معَ إصرار»، ورُوِيَ هذا المعنى أيضًا عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، ولا يُعرفُ له مخالف من الصحابة، وهذا هو القول المعروف عند أهل العلم وعليه جماهيرهم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: «أَكْبَرُ الْكَبَائِرِ: الإِشْرَاكُ بِاللهِ، وَالأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللهِ، وَالْقُنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ، وَالْيَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ» رَوَاهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ).

هذا أثر ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أخرجه عبد الرزاق وابن جرير في تفسيره، وقال فيه الحافظ ابن كثير في تفسيره: «إنه صحيح إلى ابن مسعود بلا شك». وفيه التنصيص على أنّ من الكبائر هذه الأمور الأربعة: الشرك، والأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله.

والجديد في هذا الأثر هو أنه جاء فيه ذكرُ لفظين متقاربين: القنوط واليأس؛ فما وجه إيراد هاتين الكلمتين في هذا الأثر؟

لأهل العلم هاهنا اجتهادات في التفريق بين القنوط واليأس:

➢ **من أهل العلم من ذهب** مثل ابن الأثير في كتابه «النهاية»، وكذلك العسكري في فروقه، وغيرهما من أهل العلم؛ ذهبوا إلى أن بين اللفظين عمومًا وخصوصًا؛ فإنّ القنوط: أشدُّ اليأس، وبالتالي فبينهما عمومٌ وخصوص، فكلُّ قنوطٍ يأس، وليس كل يأس قنوطًا[٦١٢].

(٦١٢) واستدركَ الشيخ سليمان بن عبد الله في «التيسير» على هذا القول اسْتدراكًا، فقال: «إنَّ ظاهر القرآن أنَّ اليأس أشدّ؛ لأن الله جلَّ وعلا وصف باليأس الكافرين، ووصف بالقُنوط الضالّين، ولا شكَّ أنَّ الكُفْرَ أشد من مجرّد الضلال».

➢ **وبعض أهل العلم رأى** أن بين اللفظين تباينٌ، العلاقة بينهما التباين؛ فالقنوط: هو استبعاد حصول المرجو، وأمّا اليأس: فاستبعاد زوال المكروه[(٦١٣)]

.

وعلى كل حال مهما يكن من شيء فلا شك أنّ اللفظين متقاربان، وقد يوضع الشيء محل الشيء إذا كان قريبًا منه كما قال أهل العلم. المقصود أنّ القنوط من رحمة الله واليأس من روح الله ذنبٌ ينبغي بل يجب على كل مسلم أن يتناءى وأن يتباعد عنه. وليعلم أنَّ هذا القنوط من رحمة الله قد يكون متعلقًا بأمر الآخرة، وقد يكون متعلقًا بأمر الدنيا.

أما فيما يتعلق بأمر الآخرة؛ فإن سبب هذا القنوط راجعٌ إلى أحد أمرين:

الأول: الاسترسال في المعاصي والغرق في بحارها المظلمة، وبالتالي فينتاب من كانت هذه حاله -نسأل الله السلامة والعافية- شعورٌ باليأس الشديد، وأنه لا أمل له، ولا سبيل للنجاة له، وهذا موضع ينشط فيه إبليس فيصوِّر لهذا الإنسان بأن نيل رحمة الله عَزَّوَجَلَّ شيءٌ بعيدٌ عنه، معنى هو متلطخٌ به، ومع ما عليه قلبه من إدمان للمعاصي واقتراف المحرمات، إذًا ليستمر في هذه المعاصي وليأخذ حقه من الاستمتاع -إن صح أن هذا استمتاع، وإلا فالحق أنه وبالا

---

(٦١٣) **وطائفة ثالثة رأتْ** أنَّ هذا شيء وهذا شيء؛ إذا اجتمعا، والبحث كلّه في هذا ، في حال اجتماع هذين اللَّفظين في سياقٍ واحد، وأمَّا إذا ذُكِرَ هذا على حِدة وهذا على حِدة فالأمر في ذلك يسير، فيُستعمل هذا محل هذا.

عليه- ثم بعد ذلك ينتظره المآل الوخيم عند الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ. إذًا الاسترسال في المعاصي قد يكون سببًا للوقوع في القنوط من رحمة الله جَلَّوَعَلَا.

الأمر الثاني: المبالغة في الخوف وطغيانه على الرجاء؛ بمعنى أن يكون عند الإنسان خوفٌ لكنَّه مبالغًا فيه، في مقابل أنَّ رجاءه في الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ضعيفٌ أو منعدم، وبالتالي فإنَّه يقع في القنوط من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ ولابد.

وبالتالي علاج هذه المشكلة هو بأن يداوي الإنسان نفسه بأضداد ما وقع فيه، فإذا كان الغالب عليه الخوف من الله عَزَّوَجَلَّ حتى وصل إلى حدِّ القنوط ينبغي عليه أن يُروِّح عن نفسه بالنظر إلى سعة رحمة أرحم الراحمين جَلَّوَعَلَا ، وبالتالي يستقيم سيره، إذا كان انقطاع طمعه في مغفرة الله عَزَّوَجَلَّ بسبب ما وقع فيه من المعاصي فلينظر إلى الأدلة التي تدل على أن الله غفور رحيم، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾[الرعد:٦]، الله جَلَّوَعَلَا لا يتعاظمه ذنب، ولا يمكن أن يُعتقد فيه جَلَّوَعَلَا أنّ الذنب لعظمه فهو أكبر من قدرة الله على مغفرته، هذا ظنٌ لا يجوز أن يكون من مسلم. إذًا معالجة الأدواء إنما تكون باتخاذ الأسباب التي هي ضدٌ لها، وكل إنسان ينبغي أن يكون طبيب نفسه.

أما الشقُّ الآخر من القنوط فهو ما يتعلق بأمر الدنيا؛ وكم من الناس من هو واقعٌ في ذلك مع الأسف الشديد، تجد أنه يُبتلى باليأس في شأن معاشه بسبب أنه حاول مرةً واثنتين وربما ثلاث مرات أو أربعًا، فوجد الأبواب في وجهه مغلقة، تجد أنه ينكسر، ويضمحل تفاؤله، ويصابُ بهذا القنوط، ويجلس في همٍّ وغم،

ويقول لا سبيل لطلوع الفجر، ولا سبيل لانقضاء هذه الحال البائسة إلى فجرٍ مُشرق مُبشر بالخير، وهذا لا شك أنه أيضًا من سوء الظن بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

يا رب نازلة يضيق بها الفتى ذرعا وعند الله منها المخرج
ضاقت فلما استحكمت حلقاتها فرجت وكان يظنها لا تُفرج

إذًا على الإنسان أن يعظم رجائه في الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويعظم تعظيمه له جَلَّ وَعَلَا ، وأنه لا يعجزه شيء، وأنه الذي على كل شيء قدير، وأنه لا يتعاظمه شيء، وأنه الذي إذا شاء شيئًا فإنما يقول له كن فيكون، لكن على الإنسان أن يُلِّحَ بالسؤال، الله عَزَّوَجَلَّ يحب من عبده هذا الإلحاح بالسؤال، وليعلم أنّ خيرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ له خيرٌ من خيرته لنفسه.

أيضا من هذه الجوانب التي لابد من التعريج عليها التي هي من ضمن صور اليأس والقنوط: ما يُصاب به بعض الناس حينما ينظر إلى تكالب الأعداء على أمة الإسلام، وما هو واقع على المسلمين من ويلات ومصائب، فإنه قد يتسلل إلى نفوس البعض شيءٌ من اليأس والقنوط واستبعاد انتصار هذه الأمة ورجوعها إلى عزها ومجدها التليد، وهذا أيضا لا شك أنه قنوطٌ ممقوت، يجب أن يُستبعد تمامًا من النفوس المؤمنة.

الشريعة ربَّت أتباعها على التفاؤل وعلى الأمل وعلى الرجاء، وهذا ما نطقت به أدلة كثيرة في كتاب الله، وسنة رسوله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، الله عَزَّوَجَلَّ قد وعد، والله لا يخلف الميعاد، فقال: ﴿وَأَنَّ اللهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾[الأنفال:١٨]، ﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾[النحل:١٢٨].

إذًا لا ينبغي أبدا أن يتسلل اليأس إلى القلوب المؤمنة أو الشك في وعد الله عَزَّوَجَلَّ ، إنما ذلك ينبغي أن يكون دافعًا إلى مزيدًا من النشاط والجد في إصلاح الخلل الذي وقع في هذه النفوس المؤمنة، والذي لأجله ولأجله فقط تأخر النصر وتأخر التقدم لهذه الأمة، وإلا فلو رجعت هذه الأمة إلى سابق تمسكها بدينها لرجعت إلى سابق عزها دون شك، ولأصبحت متبوعةً لا تابعة، لأصبحت أعز الأمم وأرفعها قدراً وأعزها شأنا، لكنها ابتليت بما ابتليت به بسبب هذا البعد عن الاستقامة على طاعة الله والاستجابة لأمره وأمر رسوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ومع ذلك فالله عَزَّوَجَلَّ فضله أوسع ورحمته أكبر ، ولا ينبغي للإنسان إلا أن يصبر ويجِد ويجتهد.

كذلك الدعاة إلى الله طلبة العلم لا ينبغي عليهم البتة أن يصيبهم اليأس والقنوط والتشاؤم في مستقبل الدعوة ومستقبل إقبال الناس على الخير، بل ينبغي أن يكونوا دائمًا متفائلين، ودائما مؤمِّلين للخير، وأنّ الخير قادم، وأنّ الفضل من الله عَزَّوَجَلَّ مقبل، وبالتالي فإنه يدعوهم إلى أن يجدُّوا ويجتهدوا في دعوة الناس، والصبر على ما يلاقون في سبيل دعوتهم، وليبشروا أنّ لهم حظًا من معية الله عَزَّوَجَلَّ الخاصة التي تقتضي النصر منه جَلَّوَعَلَا والتأييد.

قال جَلَّوَعَلَا لدعاة التوحيد العظماء اللذان هما موسى وهارون عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾[طه:٤٦]، هذه معية خاصة تقتضي نصرًا من الله عَزَّوَجَلَّ وتأييدًا وتوفيقًا، وبالتالي فمن كان الله عَزَّوَجَلَّ معه فإنه لا يخذَل، ولا ينبغي أبدًا أيضًا أن

يصاب الدعاة والمصلحون بيأس من الخير ومن إقبال الناس؛ هذا كله من تسويل الشيطان ومن وسوسته في صدور الناس، الواجب أن يُدفع ذلك بضده.

والله تعالى أعلم.



قال المصنف رحمه الله:

٣٥-بَابٌ

مِنَ الإِيمَانِ بِاللّهِ الصَّبْرُ عَلَى أَقْدَارِ اللّهِ

وَقَولُ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[التغابن:١١].

قَالَ عَلْقَمَةُ: «هُوَ الرَّجُلُ تُصِيبُهُ الْمُصِيبَةُ فَيَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللهِ؛ فَيَرْضَى وَيُسَلِّمُ».

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «اثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ».

وَلَهُمَا عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ مَرْفُوعًا: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ ضَرَبَ الْخُدُودَ، وَشَقَّ الْجُيُوبَ، وَدَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ».

وَعَنْ أَنَسٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدِهِ الْخَيْرَ؛ عَجَّلَ لَهُ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا، وَإِذَا أَرَادَ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ؛ أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ حَتَّى يُوافِيَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ عِظَمَ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ، وَإِنَّ اللهَ تَعَالَى إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ؛ فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ». حَسَّنَهُ التِّرْمِذِيُّ.



قال الشارح وفقه الله:

لا يزال الشيخ الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ يوالي في تبويب الأبواب التي تشتمل على العبوديات التي يقوم عليها ساق الإيمان(٦١٤)، ومن ذلك هذا الباب الذي بين أيدينا، وهو الذي يتعلق بالصبر على أقدار الله المؤلمة، وذلك أنّ الصبر له من الإسلام محلٌ جليل، حتى ذكر بعض السلف أنَّ الصبر من الإسلام بمنزلة الرأس إلى الجسد.

الصبر في اللغة هو: الحبس.

وفي الشرع هو: الصبر على المأمور، والصبر عن المحظور، والصبر على المقدور.

إذًا حقيقته في المعنى والاصطلاح الشرعي ترجع إلى هذه الأمور الثلاثة: صبرٌ على المأمور، وصبرٌ على المحذور، وصبرٌ على المقدور. وتفصيل ذلك **أنَّ الصبر ينقسم إلى هذه الأقسام الثلاثة:**

- **الأول**: الصبر على طاعة الله سبحانه، سواءً كانت هذه الطاعة واجبة أو مستحبة؛ فإنَّه لا قيام بالطاعة ما لم يكن ثمة صبر.
- **النوع الثاني**: الصبر عن معصية الله سبحانه؛ فما لم يحبس الإنسان نفسه ويحجزها عن مقارفة الإثم، وعن الانهماك فيما حرم الله **جَلَّ وَعَلَا**، فإنه لم ينفك عن الوقوع فيها، لاسيما مع قوة الداعي إليها.

(٦١٤) التي بها يتحقق أصل الدين والتوحيد وكماله.

❑ **النوع الثالث**: الصبر على أقدار الله المؤلمة؛ وهذا هو موضع البحث في هذا الباب، وما أورده المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ من أدلة إنما تختص بهذا النوع وهو الصبر على أقدار الله المؤلمة.

والصبر من حيث هو بأجزائه الثلاثة له في الإسلام شأن وأيُّ شأن؛ الصبر خلُقٌ كريم، إنما تستقيم حياة الإنسان ودينه وحُسن مآله بهذا الصبر، قال عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «وجدنا خير عيشنا بالصبر»، وقال بعض السلف: «لو كان الصبر رجلًا لكان رجلا كريمًا».

كيف لا يكون ذلك كذلك وأهل الصبر هم أهل معية الله عَزَّوَجَلَّ! ﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[البقرة:١٥٣]، فهنيئًا للصابرين الذين خصهم الله جَلَّوَعَلَا بمعيته الخاصة، والتي مقتضاها نصره وإعانته وتأييده، فمن كان الله معه فما الذي فاته.

وأهل الصبر أيضًا هم أهل المعونة؛ جاءتهم أعظم معونة من الله جَلَّوَعَلَا ، قال سبحانه: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ﴾[البقرة:٤٥][٦١٥] .

الصبر خير ما يعطاه الإنسان في هذه الدنيا، قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كما ثبت عنه: «وما أعطي عبدٌ عطاءً خيرًا ولا أوسع من الصبر»، والحديث في الصحيحين.

الصبر هو الذي يقود الإنسان إلى أن يكون من أهل البِشارة والفلاح والفوز؛ ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾[البقرة:١٥٥][٦١٦]، الصبر مآله الجنة؛ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا

---

(٦١٥) أهل الصبر هم أهل الإيمان الكامل، ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل:٤٢] .

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ* الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[العنكبوت:٥٩-٥٨]؛ لا جنة إلا بالصبر، ولذا تقول الملائكة يوم القيامة لأهل الجنة: ﴿سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾[الرعد:٢٤].

ويكفي الصبر فضلًا أنّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يقول في ذلك اليوم العظيم: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾[المؤمنون:١١١]، يكفي والله فضلًا وشرفًا لهذه العبودية هذا الفضل من العظيم سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

إذا كان الصبر بهذه المثابة فلا شك ولا ريب أنه من أهم الأمور ومن أعظم العبادات، وقد أجمع المسلمون على أنّ الصبر بأنواعه الثلاثة أمرٌ واجب، والصبر -كما علِمت- عبادة، وبالتالي لا يكون عبادة إلا إذا كان لأجل وجه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، تلك الثمرات العظيمة للصبر إنما ينالها المخلصون في صبرهم: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾[الرعد:٢٢]، هؤلاء هم من يفوزون بما سبق.

واعلم يا عبد الله أنّ الصبر لا يكون إلا بمعونة من الله جَلَّوَعَلَا ، ولذا من ظنَّ أنه يمكن أن يصبر دون أن يصبِّره الله عَزَّوَجَلَّ فإنه واهم، ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللهِ﴾[النحل:١٢٧]، لكن بذل جهده وحاول واستعان بالله فإن الله عَزَّوَجَلَّ سيجعله ينال هذه الرتبة المنيفة، قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كما في الصحيحين: «ومن يتصبَّر يصبِّره الله» . لا تظنن أنّ الصبر مرتبة لا يمكن الوصول إليها، بل إنَّها أمر متيسر

(٦١٦) وقد قال ﷺ: «والصبر ضياء» كما في «مسلم».

لمن يسَّر الله عَزَّوَجَلَّ عليه، عليك أن تُخلِص ثم أن تجتهد وتحاول، وأبشر فإن الله عَزَّوَجَلَّ سيبلِّغك هذه المرتبة.

الصبر كما قد علمت ينقسم إلى الأقسام الثلاثة التي سمعت، **واختلف العلماء في هذه الأقسام أيها أفضل؟**

والأقرب -والله تعالى أعلم- أنّ الصبر على الطاعة والصبر عن المعصية أعظم وأفضل من الصبر على الأقدار المؤلمة؛ ذلك أنّ الصبر على الطاعة وعلى المعصية صبرٌ اختياري، أما الصبر على أقدار الله المؤلمة فإنه صبرٌ اضطراري، بمعنى أنّ الإنسان لا مندوحة عنده إلا أن يصبر، فهو مضطرٌ إلى هذا الصبر، فإما أن يصبر طاعةً لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فيفوز بالأجر، أو أنه سيتحمل ما يأتيه، ولا شيء في يديه ليدفع هذا القدر المؤلم.

إذًا الصبر على الطاعة وعلى المعصية أفضل. لكن يبقى بعد ذلك أي النوعين أفضل من الآخر؟ **هل الصبر على الطاعة أفضل من الصبر عن المعصية؟ أم الصبر عن المعصية أفضل من الصبر على الطاعة؟**

❖ **قال بعض أهل العلم**: إنَّ الصبر عن المعصية هو الأفضل؛ ذلك أن الداعي إلى المعصية أعظم، حيث إن الداعي إلى المعصية هو الشهوة والهوى، وبالتالي فإن الإنسان يحتاج إلى مجاهدة عظيمة حتى يصبر عن المعصية، ولذلك قال أهل العلم: «لا يصبر عن المعاصي إلا الصدِّيقون»، أمَّا ترك الطاعة فإنما يدعو إليه الكسل والبطالة، ولا شك أنّ الهوى والشهوة أعظم تأثيرًا في

النفس من الكسل والبطالة؛ فكان الصبر عن المعصية أعظم من الصبر على الطاعة.

❖ **وقالت طائفة من أهل العلم**: بل الصبر على الطاعة أعظم من الصبر عن المعصية، ذلك أنّ جنس فعل الطاعة أفضلُ من جنس ترك المعصية، فلما كان ذلك كذلك كانت الوسيلة المؤدية إلى الأعظم أعظم، وبالتالي كانَ الصبر على الطاعة أفضل من الصبر عن المعصية.

والتحقيق في هذا هو ما حرره ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «طريق الهجرتين» وهو التفصيل؛ فالصبر على الطاعة العظيمة أعظمُ من الصبر عن المعصية الصغيرة، كما أنّ الصبر عن المعصية الكبيرة أعظم وأفضل من الصبر على الطاعة الصغيرة؛ صبرُ الإنسان على أداء الصلاة، والجهاد في سبيل الله، وصوم رمضان، والحج، لا شك أنه أفضل من الصبر عن معصيةٍ صغيرة، كما أنّ صبر الإنسان عن مواقعة كبيرة من كبائر الإثم والفواحش أفضل من صبره على أداء صلاة الضحى أو قيام الليل مثلًا. هذا هو التحقيق في هذه المسألة، والله تعالى أعلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وَقَوْلُه تَعَالَى**: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[التغابن:١١]).

هذه الآية أول ما استدل به المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وإنما يستبين الاستدلال بمعرفة ما قبلها، قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ﴾؛ المصيبة: كلُّ ما يؤلم، سواء تعلق بأمر حسي أو أمر معنوي؛ ففقْد الولد، وحصول الجدب، ونزول المرض، أو السحر، أو العين، كل ذلك من المصائب.

قال جَلَّوَعَلَا: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾؛ إذن الله هاهنا هو الإذن الكوني.

والإذن ينقسم كما جاء في النصوص -يعني باستقراء النصوص- **إلى قسمين**: إذن شرعي، وإذن كوني.

- **أمَّا الإذن الشرعي**: فهو الذي جاء في نحو قول الله **جَلَّوَعَلَا**: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلالًا قُلْ آللهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ﴾[يونس:٥٩]، هذا هو الإذن الشرعي، وهو مقتضٍ لمحبة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى للأمر المأذون فيه.

- **أمَّا الإذن القدري**: فهو الذي جاء في هذه الآية وأمثالها، كقوله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾[البقرة:١٠٢].

والإذن هو الإرادة، بينهما تقارب كبير بالمعنى، والإذن الشرعي قريب في المعنى من الإرادة الشرعية، والإذن الكوني قريب في المعنى من الإرادة الكونية، وقد سبق أن تكلمنا عن الإرادة بقسميهما.

قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾؛ إِذْنُ الله: يعني إرادته الكونية ومشيئته، لا يقع شيءٌ في هذا الكون إلا إذا شاءه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، الله جَلَّوَعَلَا له الحكمة البالغة فيما يقدِّره من المصائب.

إذًا كل مصيبة تقع ينبغي على الإنسان أن يعلم أن الله جَلَّوَعَلَا قد شاءها، ومشيئته لها مسبوقةٌ بكتابته لها في اللوح المحفوظ، وعِلمه جَلَّوَعَلَا لها بعلمه السابق الذي هو صفةٌ ذاتية ملازمة للذات.

إذًا كل المصائب فالله عَزَّوَجَلَّ هو الذي قدَّرها وشاءها، إذًا ليس لك يدٌ في دفعها يا عبد الله، إنما شأنك وإنما واجبك وإنما وظيفتك هي فيما يتعلق بك، وهي في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ . سيأتي معنا في كلام علقمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ (هُوَ الرَّجُلُ تُصِيبُهُ الْمُصِيبَةُ فَيَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللهِ؛ فَيَرْضَى وَيُسَلِّمُ)، يعني أنه إذا نزلت هذه المصيبة علم الإنسان أنها من الله، وهذه الكلمة «علم أنها من الله» تترجم عن الإيمان بالقدر.

إذًا ما جاء في هذه الآية من قوله جل وعلا: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ﴾ هو من العام الذي أريد به بعض أفراده، يعني لم يُرَد جميع أفراد وأجزاء وشعب الإيمان، إنما أريد ركن من أركانه وشعبة من شُعبه ألا وهي: الإيمان بالقدر؛ من حقق الإيمان بالقدر فإن الله عَزَّوَجَلَّ يهدي قلبه، ثمرة ذلك أن الله عَزَّوَجَلَّ يهديه ويثبِّته ويطمئن قلبه جزاءً على هذه الحسنة. وبذلك نعلم أن جزاء الحسنة الحسنةُ بعدها، والله جَلَّوَعَلَا كريم شكور يثيب على الحسنة بحسنة أخرى.

إذًا من كان منه الإيمان بالقدر، والإيمان بالقدر يقتضي إيمانَ العبد بعلم الله عَزَّوَجَلَّ ،وكتابته لكل ما يجري في هذا الكون في اللوح المحفوظ، ومشيئته لكل شيء من الذوات ومن الأفعال ومن الصفات، ثم خلقه جَلَّوَعَلَا لكل شيء،

﴿اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر:٦٢]. إذًا متى ما حقق الإنسان الإيمان بالقدر -يعني الإيمان بهذه الأمور الأربعة- فإنّ الله جل وعلا يرزقه الهداية.

قال: (فَيَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللهِ؛ فَيَرْضَى وَيُسَلِّمُ)؛ يرزقه الله عَزَّوَجَلَّ الرضا بالقدر، وهذه درجة أرفع من درجة الصبر، وستتكلم عنها لاحقًا إن شاء الله، ويرزقه التسليم. قال: (فَيَرْضَى وَيُسَلِّمُ)، يعني أنه يستسلم لله جَلَّوَعَلَا فلا ينازعه في أقداره، وهذه حقيقة المسلم الذي استسلم لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى وسلِم لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

إذًا وعَد الله ذاك العبد الطائع الذي آمن بالله جَلَّوَعَلَا أولا، وحقق الإيمان بالقدر ثانيًا ؛ أن يرزقه الطمأنينة والهداية، وذلك متضمن أن يكون راضيًا مسلِّمًا لأقدار الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

وقال بعض أهل العلم أن معنى قوله: ﴿يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ يدل على ما هو أعم من هذا المعنى الخاص الذي هو الرضا والتسليم؛ يعني أنه يدل على حصول الهداية التامة للعبد، فكان من ثمرات الرضا والصبر والتسليم أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى يوفق العبد لأن يكون مهتديًا، يعني مستقيما على طاعة الله جَلَّوَعَلَا.

إذًا من أسباب الهداية ومن أسباب الثبات عليها: صبر الإنسان ورضاه بأقدار الله جَلَّوَعَلَا، والعكس بالعكس، من سخط فله من الله السخط، ولازم ذلك حصول البلاء والخذلان، والعياذ بالله[٦١٧].

---

(٦١٧) وجاء في غير المتواتر العشرة كلهم على هذه القراءة: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾، وفي غير المتواتر رُوي عن أبي بكر الصديق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنَّه قرأ الآية: «ومن يؤمن بالله يَهَدأ قلبُه» بمعنى: أنَّه يطمئن ويسكن إذا آمن بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «اثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ»).

هذا الحديث الذي خرَّجه الإمام مسلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في صحيحه[٦١٨]؛ فيه بيان خصلتين مذمومتين، وصفهما النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ بأنهما من خصال الكفر، والمعنى: أنهما خصلتان تقومان في الناس وتوجدان منهم[٦١٩]، وحكم هاتين الخصلتين أنهما من الكفر، والكفر المراد هاهنا: هو الكفر الأصغر لا الأكبر. والأدلة ينبغي أن يُجمع بينها وأن يُؤلف بينها، لا أن يؤخذ بدليل ويُعرَض عن غيره من الأدلة. والجمع بين الأدلة يقتضي أن هاتين الخصلتين هما من الكفر الأصغر لا الأكبر.

والأدلة متواردة متكاثرة على انقسام الكفر إلى أكبر وإلى أصغر، كما أنَّ الإسلام له شعب فإنَّ الكفر له شعب، وبالتالي لا يلزم من وجود شعبةٍ أو أكثر

ومن الإيمان بالله ولا شكَّ: الإيمان بالقضاء والقدر، فمن يؤمن بقدر الله ﷻ -بمعنى أنَّه يعلم أن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن- فإنَّ الله ﷻ يجازيه على ذلك بأن يهدي قلبه لليقين، فيعلم أن ذلك من قدر الله ﷻ فيرضى ويُسلِّم، وفي معناه أيضًا ما جاء عن بعض السَّلف: يهده للاسترجاع، أي لقول: (إنا لله وإنا إليه راجعون)، أو يُهدى إلى ما هو أعمّ من ذلك وهي حصول الهداية التامة، والاستقامة على سنة رسول الله ﷺ.

(٦١٨) هذا الحديث المُخرج في «مسلم» يُبيّن وجوب الصبر، وأنَّ ضدّه أمرٌ محرم وقادح من القوادح في كمال التوحيد الواجب.

(٦١٩) «اثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمَا كُفْرٌ»؛ بِهِمَا: يعني منهما.

من شعب الكفر أن يكون الإنسان كافرًا بالله عَزَّوَجَلَّ، يعني قام به حقيقة الكفر الذي هو الخروج من الإسلام، كما أنه لا يلزم من وجود شعبة أو أكثر من شعب الإيمان أن يكون الإنسان مؤمنًا ما لم يقم به أصل الإيمان.

بمعنى: دلت الأدلة على أن من شعب الإيمان إماطة الأذى عن الطريق؛ هل إذا أماط كافر الأذى عن الطريق أصبح الآن مؤمنا؟ لا، لِم؟ لأنه ما قام به أصل الإيمان، كذلك الحال في شعب الكفر وأجزائه لا يلزم من وجودها في الإنسان أن يكون كافرًا بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ الكفر الأكبر، كأن يكون ممن وقع فيه شيء من هذه الخصال من هاتين الخصلتين؛ لأنه لم يقم به حقيقة الكفر، يعني لم يقم به الكفر الأكبر.

هاتان الخصلتان المهمتان اللتان حذَّر النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من وجودهما في هذه الأمة:

الأولى منهما: الطعن في الأنساب، وقد مر بنا الكلام عن هذا الأمر، وقلنا أن الطعن بالأنساب قد يكون بنفيها، وقد يكون بعيبها.

-**قد يكون بنفيها؛** كالذين يطعنون في أنساب الناس التي ثبتت لهم واشتهرت عنهم، فلان ليس من القبيلة الفلانية، والأسرة الفلانية لا تنتمي إلى الفخذ الفلاني، وكل ذلك من البغي على عباد الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

-**أو أن يكون ذلك بعيبها؛** بأن يشتغل الناس بعيب الناس في قبائلها وأنسابها، القبيلة الفلانية فيها كذا وكذا، والعائلة الفلانية موصوفة بكذا وكذا،

يشتغل الإنسان بعيب الناس في أنسابها، هذا أمرٌ قبيح مذموم، بل كبيرة من كبائر الذنوب، بل خصلة من خصال الكفر -عفاني الله وإياكم من ذلك-.

أما الخصلة الثانية فهي المناسِبة والشاهد من إيراد هذا الحديث في هذا الباب؛ قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**والنياحة على الميت**».

النياحة على الميت: رفع الصوت بتعداد شمائل الميت وخصاله على جهة التسخط، كأن يقول أو تقول: واعضداه، واكاسياه، وا كذا، وا كذا.. هذا هو النياحة، وهو أمر قبيح عظيم القبح؛ لأنه يشتمل على قلة الأدب مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وعدم الرضا والصبر على أقداره المؤلمة(٦٢٠)، وقد مر بنا قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المخرج عند مسلم: «النائحة التي لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها قميص من قطران ودرع من جرب»، وهذه حال بئيسة تدل على أن هذا الذنب ذنبٌ عظيم.

وهذا مع الأسف الشديد من خصال الجاهلية التي لا تزال باقيةً في هذه الأمة مع الأسف الشديد، فإنّ النياحة كانت من ديدن أهل الجاهلية وكانت من الأمور المشتهرة عندهم؛ كانوا ينوحون -لا سيما النساء- على الموتى، ويُضيفون إلى هذا الدعاء بالويل والثبور، وهذا كله من ضعف الإيمان أو من عدم الإيمان -نسأل الله السلامة والعافية- .

لكن أنبه هاهنا فيما يتعلق بالنياحة على الميت، أنبه إلى تنبيهين:

---

(٦٢٠) وهذا إنما كان كفرًا لأنه يتضمَّن عدم الصبر وهو قدرٌ واجب، وأيضًا فيه عدم رضا بقدر الله سبحانه وقضائه، وهذا ولا شكَّ نقص عظيم في الإيمان والتوحيد.

الأول: أنَّه ليس من النياحة البكاء المجرد؛ بكاء الإنسان بدمع عينه إذا تجرد من نياحةٍ ورفع صوتٍ وقول ما لا يحل وتسخطٍ في القلب، إذا عري من ذلك هذا القدر لا بأس به، بل قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ إنه أمر حسن، والدليل على هذا : أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما مات ابنه إبراهيم قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «إنّ القلب ليحزن، وإن العين لتدمع، ولا نقول إلا ما يُرضي ربنا، وإنا على فراقك يا إبراهيم لمحزنون»، وفي الصحيحين لما كان ابن بنت النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يجود بنفسه رُفع إلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وروحه تقعقع كأنها في شن، تردد ترددًا عظيمًا، فما كان من النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا أن دمعت عينه، فقال له سعد بن عبادة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «ما هذا يا رسول الله؟» فقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هذه رحمة يجعلها الله في قلب من شاء من عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء». إذًا هذا القدر لا بأس به، وليس من النياحة بشيء.

الأمر الثاني: أنّ ذِكر كلماتٍ تتعلق بالميت إذا اجتمع فيها أمران؛ أن تكون صادقة، وأن لا يكون فيها رفع بالصوت، وأنت خبير بأنه بالتأكيد لا يجتمع مع هذا تسخط قدر الله جَلَّ وَعَلَا ، فإنّ مثل هذا لا بأس به إن شاء الله، ونصَّ على هذا جمعٌ من المحققين من أهل العلم كالإمام أحمد وغيره.

بمعنى: أنه لو قال إنسان في حق ميت كلمات صادقة على سبيل الشوق، والحزن على هذا الميت لا على سبيل التسخط على هذا القدر، فإنّ هذا القدْر ليس من النياحة، ويدل على هذا ما ثبت عند البخاري من أن فاطمة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا لما توفي النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: «يا أبتاه أجاب ربًا دعاه، يا أبتاه من جنة

الفردوس مأواه، يا أبتاه إلى جبريل ننعاه»، وفي مسند الإمام أحمد بسند حسن أن أبا بكر ﷺ لما توفي النبي ﷺ وكان خارج المدينة، فلما وصلها دخل على النبي ﷺ فكشف عن وجهه الشريف، ووضع فمه بين عينيه، يعني قبَّله، وقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وانبياه، واخليلاه، واصفياه»، إذًا هذا القدر ليس داخلًا في النياحة على الميت، والله تعالى أعلم.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (**وَلَهُمَا عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ مَرْفُوعًا: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ ضَرَبَ الْخُدُودَ، وَشَقَّ الْجُيُوبَ، وَدَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ»**).

هذا الحديث مُخرجٌ في الصحيحين من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ.

قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**لَيْسَ مِنَّا**»؛ ليس منا بمعنى: ليس من المؤمنين الإيمان الواجب، وهذا اللفظ على التحقيق من الألفاظ التي إذا جاءت في سياق دل هذا على أن المذكور فيه كبيرةٌ من الكبائر كما حقق هذا شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ وغيره من أهل العلم، يعني ما جاء في الأحاديث فيه (ليس منا من فعل كذا) فاعلم أنّ هذا الفعل كبيرة من الكبائر. إذًا هذا الحديث الذي بين أيدينا فيه ذِكر ثلاث كبائر من كبائر الذنوب.

قال النبي ﷺ: « **لَيْسَ مِنَّا مَنْ ضَرَبَ الْخُدُودَ** »؛ والمراد بذلك كما هو واضح يعني في حال نزول المصيبة، فإن من الناس -نسأل الله العافية والسلامة- من إذا نزلت بهم مصيبة فقَد صوابه وصار يضرب نفسه ويخدش

جلده، وهذا لا شك دليل على ضعف إيمانه بالقدر، ودليلٌ على قلة تسليمه لأمر الله ﷻ الكوني، فهذا لا شك أنه أمر منكر ولا يجوز.

ومثله أيضا الخصلة الثانية: «وَشَقَّ الْجُيُوبَ»؛ الجيب: فتحة الثوب من أعلاه وهي التي يدخل منها الرأس، يعني الجيب الذي إذا لبست الثوب يدخل رأسك منه[٦٢١].

هكذا يفعله ضعاف الإيمان بالقدر؛ إذا نزلت المصيبة ابتلوا بموت حبيب، أو سرقة مال، أو احتراق بيت، أو نزول أي مصيبة من المصائب، تجدهم يشقِّقون ثيابهم من اللوعة والأسى التي أصيبوا بها. ولو أنهم حققوا الإيمان بالقدر والصبر على أقدار الله المؤلمة لما كان منهم ذلك.

وهذا من الأمور التي ينبغي التواصي فيها؛ فإن المصيبة من الله عَزَّوَجَلَّ شأنها شأن النار التي تصهر المعدن، فإما أن يظهر التِّبْر والذهب الخالص، وإما أن يظهر الزيف، المصيبة إذا نزلت وقدَّرها الله جَلَّوَعَلَا إما أن يرتفع الإنسان إذا كان ممن يصبر على أقدار الله، وإمَّا والعياذ بالله ربما خُسِف به فنزل إلى أسفل السافلين، حتى ربما يصدر منه ما يكون سببًا لكفره بالله جَلَّوَعَلَا، وإذا لم يصل

---

(٦٢١) وشقُّ الجيوب ولطْم الخدود من الأمور المنكرة الدالة على ضعف الصبر أو عدمه، وعليه فهو من ضعف التوحيد وضعف الإيمان.

ويدخل في هذا المعنى كل الأفعال التي تدل على التسخط وضعف الإيمان بالقدر؛ كحلق الرأس وتكسير الآنية مثلًا وما شاكل ذلك مِمَّا يفعله من قلَّ صبره إذا نزلت به المصيبة عياذًا بالله، فكل هذا من الأفعال المحرمة بل من كبائر الذنوب.

إلى هذه الدرجة، فمنهم من يصل إلى درجة قريبة منها، ربما طعن في حكمة الله وفي قدره وفي عدله، قد تجد من الناس من إذا نزلت بهم المصيبة: "يا رب لم فعلتَ هذا؟ يا رب ماذا فعلتُ حتى تنزل بي هذه المصيبة!" إنا لله وإنا إليه راجعون، كيف يجرأ عبدٌ على أن يخاطب مولاه بهذا الخطاب.

هذا لا شك أنَّه أمرٌ عظيم، وما أكثر ما يقع هذا لاسيما النساء، يُذكر أنّ امرأة توفي ولدها، فكانت بعد ذلك تلبس على رأسها شيئا مثل الغطاء، لا تريد أن تنظر إلى السماء، تقول -عياذًا بالله- "ما وجدت إلا ابني!" نسأل الله السلامة والعافية، ومن الناس من يقول مثل هذا أو نحوه أو قريبا منه.

إذًا هذا كله لا شك أنه أمر عظيم، ومُنكر كبير يجب أن يتوب صاحبه إلى الله عَزَّوَجَلَّ منه. والمخرج من هذا أن يحقق عبودية الصبر على أقدار الله المؤلمة.

ومما يعينك يا عبد الله على تحقيق ذلك شهود أمور:

الأمر الأول: أن تشهد فضل الله عَزَّوَجَلَّ عليك بهذه المصيبة، فإنها سببٌ لتكفير سيئاتك، وأعظم بهذا فضلًا وأجرًا، ربما لو أُوتيت كل النعم ثم قارنت ذلك بتكفير سيئة واحدة -لو كنت تعقل- كان تكفير هذه السيئة أفضل وأعظم عندك إن كنت تعقل، ولذلك لما توفي العباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أصاب ابنه عبد الله -الصحابي الجليل ابن عباس- أصابه همّ عظيم حتى إنّ الناس ما استطاعت أن تتقدم إليه وتعزيه، حتى وقف عليه أعرابي فأنشده أبياتًا كان منها قوله:

خيرٌ من العباس أجرك بعده ... والله خير منك للعباس

فاستعاده ابن عباس، قال أعِد، قال:

خيرٌ من العباس أجرك بعده والله خير منك للعباس

فسُرِّي عنه رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وأقبل الناس أفواجًا يعزونه.

الأمر الثاني: شهود الإنسان سبب المعصية، وأنها ما كانت لتقع لولا أن ذنبًا حصل من الإنسان، ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾[الشورى:٣٠]، ولاحظ هذا العموم في الآية فإنه يشمل كل مصيبة سواء كانت جليلة أو حقيرة.

الأمر الثالث: أن تشاهد فيها قدَر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وأنّ ما قدَّره الله عَزَّوَجَلَّ نافذٌ شئت أم أبيت، لذا إن لم تسلِّم اختيارًا أسلمت أو سلَّمت اضطراراً، يعني الأمر قد نزل وانتهى، وبالتالي لا تزد همًا إلى همِّك، فإنك لن تصنع شيئًا إذا أصابك ما أصابك من نفور، وأصابك ما أصابك من اعتراضٍ على قدر الله عَزَّوَجَلَّ ،كل ذلك لن يقدِّر شيئا، فالذي حكَم هو الله المدبر سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

و**الأمر الرابع**: أن تشاهد في هذا الأمر حكمة الله عَزَّوَجَلَّ ورحمته؛ فإن الله عَزَّوَجَلَّ له في تقدير الأمور حكمة ورحمة، لكن هذا لا نعلمه ويؤمن به إلا أهل الإيقان، قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[المائدة:٥٠]. إذًا أهل الإيمان عندهم أن قدر الله عَزَّوَجَلَّ عليهم -يعني حكمه شرعًا كان أو قدرًا- هو أحسن ما يكون وأحسن ما يقع، إذًا أنت لا تدري يا عبد الله عقبى هذه المصيبة، لعل الله عَزَّوَجَلَّ أن يخلفك خيرًا كثيرًا من ورائها.

لعل عتْبك محمودٌ عواقبه وربما صحة الأجساد بالعِلل

أما الأمر الثالث في هذا الحديث فهو «**وَدَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ**»؛ سياق الحديث قرينةٌ تدل على أن المراد بدعوى الجاهلية هنا إنما هي النياحة، وذلك أنّ النياحة كما أسلفت كانت مما يتميز به أهل الجاهلية[٦٢٢]، لأنهم أهل جاهلية، فسمى ذلك النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «دعوى الجاهلية»، لأنهم كانوا ينوحون رجالًا ونساءً على موتاهم.

وقال بعض أهل العلم: إنّ دعوى الجاهلية تشمل هذا وما هو أعم منه؛ فكل دعوى للجاهلية فإنها داخلةٌ في مضمون هذا الحديث ومعناه؛ ومن ذلك:

- أن يكون ثمة اعتزاء بأمورٍ ما أنزل الله عَزَّوَجَلَّ بها من سلطان، كاعتزاءٍ وتعصبٍ لطائفةٍ أو بلدٍ أو نسبٍ أو ما شاكل ذلك، والنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما اشتجر بعض من الحيَّين الكريمين الأنصار والمهاجرين فقال رجل هاهنا: «يا للأنصار»، وقال رجل هاهنا: «يا للمهاجرين»، النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اطلع عليهم وقال: «أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم»! إذًا كل اعتزاء وتعصب إلى فئة أو طائفة لا شك أنه داخل في ذلك.

-ومن هذا دعوى وتعصب بعض المتمسِكة وبعض طلبة العلم وبعض الدعاة من حيث تعصبهم إلى حزب من الأحزاب أو جماعة من الجماعات، حتى إنهم يبنون الولاء والبراءة على الانتماء إلى هذا الحزب أو ذاك.

---

(٦٢٢) إضافةً إلى الدعاء بالويل والثبور، كان يحصل منهم الأمران: النياحة التي عرفْتها سابقًا، وكذلك الدعاء بالويل والثبور، وهذا ما يقع من كثير من الناس إذا نزلت بهم المصيبة لا سيَّما النساء؛ نظرًا لضعف الصبر وقلة الاحتمال عندهنَّ.

-من ذلك أيضًا: ما يقع فيه بعض الناس من التعصب إلى عالم من العلماء أو شيخ من الأشياخ، حتى إنَّه يجعله محور الولاء والبراء، وميزانًا للقرب من الحق أو البُعد عنه، يدور على ما دار عليه هذا العالم أو الشيخ، وبالتالي فإنه يقبل الآخرين أو يردَّهم بحسب قربهم من هذا الشيخ أو بُعده عنه.

ولا شك أنَّ هذا كله تعصبٌ مذمومٌ قبيحٌ يجب على المسلم أن يتوب إلى الله عَزَّوَجَلَّ، الرَجُل الوحيد الذي يجب أن يكون الولاء والبراء عليه اسمه «محمد بن عبد الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ »هذا هو نبينا ورسولنا وسيدنا عليه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، هذا الذي يجب أن يكون هو الميزان الذي يوزن به الناس، من كان إلى سنته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أقرب فهذا الذي ينبغي أن يكون إلينا أقرب، ومن كان من سنته أبعد هذا الذي ينبغي أن يكون عنَّا أبعد[٦٢٣].

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدِهِ الْخَيْرَ عَجَّلَ لَهُ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا، وَإِذَا أَرَادَ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ حَتَّى يُوافِى بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»).

---

(٦٢٣) هذا الذي ذهب إليه طائفة، وتعميم فائدة الحديث ما أمكن هو الأحسن يعني ما أمكن أن تكن فائدة الحديث أكثر فهذا أوْلى من قصره على بعض المعنى، والله تعالى أعلم.

حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خرجه الترمذي وحسَّنه، وصححه الطحاوي وغيره من أهل العلم(٦٢٤). وهذا الحديث فيه بيان أنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَعل هذه الدنيا محلًا لتكفير سيئات المسلم؛ ذلكم أنّ الله جَلَّ وَعَلَا من رحمته ولطفه بعباده جعل الأسباب التي تُكَفَّر بها السيئات واقعة في الدور الثلاثة: في الدنيا، وفي البرزخ، ويوم القيامة.

والأسباب التي تُكفَّر بها الذنوب والسيئات في الدنيا عدة:

-أعظمها توحيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

-ثم التوبة إلى الله.

-وكذلك الاستغفار.

-وكذلك الأعمال الصالحة، ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾[هود:١١٤].

-كذلك الحدود المقدَّرة شرعًا فإنها كفارة للأسباب التي أوجبتها.

-ومنها أيضًا المصائب الدنيوية، وهذا هو محل الحديث في هذا الباب.

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى «**إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدِهِ الْخَيْرَ**»، الله جَلَّ وَعَلَا من صفاته الإرادة، وقد علمنا سابقًا أنّ الإرادة في صفات الله عَزَّ وَجَلَّ نوعان:

١. إرادة شرعية؛ وهذه تقتضي المحبة.

٢. إرادة كونية؛ وهي في معنى المشيئة.

---

(٦٢٤) هذا الحديث يخبر فيه النبي ﷺ بفائدة حصول المصائب على المسلم، وأن من أراد الله عَزَّ وَجَلَّ به خيرًا عجَّل له العقوبة في الدنيا بنزول المصائب والمحن عليه. الله عَزَّ وَجَلَّ من حكمته أنَّه يبتلي أولياءه بالمحن والمصائب.

والإرادة في هذا الحديث هي من النوع الثاني، أراد جَلَّوَعَلَا إرادةً كونية[٦٢٥].

(**إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدِهِ الْخَيْرَ عَجَّلَ لَهُ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا**)؛ ذلكم أن الناس لا يخلون من ذنوب، والذنوب مُؤثرةٌ ولابد، ولو لم يكن من تأثيرها إلا اسوداد القلب وإلا ضياع العمر، وكان الذي ينبغي أن يُستغل هذا العمر والوقت في طاعة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ. إذًا الذنوب والسيئات مؤثرة ولابد، هذه الذنوب والسيئات تُسجَّل على ابن آدم وتُكتب عليه سيئاتٍ وذنوبًا.

فإذا أراد الله بعبده الخير فإنه يصب عليه البلاء ويُذيقه من المصائب حتى تكون هذه المصائب سببًا لتكفير السيئات؛ كالثوب الذي يصاب بالأوساخ فيُغسل تارة بعد تارة حتى يبقى نظيفًا، كذلك المسلم من رحمة الله جَلَّوَعَلَا أنه جعل هذه المصائب التي تصيبه مكفرات للسيئات التي يجترحها. ولا شك ولا ريب أنّ هذه المصائب إن تأمل الإنسان فيها وجد أنها تشتمل على فوائد وحِكم ومنافع لابن آدم لو عقل لشكر الله جَلَّوَعَلَا عليها، ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾[البقرة:٢١٦] ، ﴿فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[النساء:١٩].

وهذه النعمة التي تنال الإنسان بسبب المصائب في الدنيا ترجع إلى أمور عدة:

---

(٦٢٥) وتعرفها من جهة الحصول؛ فما وقع وحصل فهو مرادٌ لله ﷻ كونًا؛ لأن هذه الإرادة هي المُراد فهي المشيئة، وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، الله ﷻ لا رادَّ لقضائه وإرادته الكونية ﷻ.

أولًا: أنّ هذه المصائب سببٌ لتكفير السيئات، وذلكم أنّ الأدلة قد تواترت وتكاثرت وأجمع العلماء على أنّ المصائب الدنيوية سببٌ لتكفير السيئات، ومن الأدلة على ذلك: ما ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «ما يصيب المسلم من همٍّ ولا حزن ولا نصب ولا وصب ولا غمٍّ ولا أذى إلا كفَّر الله عَزَّ وَجَلَّ من خطاياه، قال حتى الشوكة يشاكها» إلى هذه الدرجة، هذا الألم اليسير الذي يُصاحبُ هذا الأمر وهو أن يُشاك الإنسان بشوكة، فإن الله جَلَّ وَعَلَا يجعل ذلك سببًا لتكفير السيئات.

ولـمَّا نزل قول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾[النساء:١٢٣]، بلغ ذلك من المسلمين مبلغًا عظيمًا، شق عليهم الأمر كثيرًا، كما ذكر أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ والحديث مخرَّج في صحيح مسلم، فبلغ ذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال لهم: «سدِّدوا وقاربوا، واعلموا أنه لا يصيب المسلم نصبٌ ولا مصيبة، حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله عنه بها من خطاياه».

إذًا هذا أمر قطعي دلت عليه الأدلة الشرعية الكثيرة؛ أنّ المصائب الدنيوية مهما دقَّت فإنها سببٌ لتكفير السيئات، وهذه السيئات على قول جمهور أهل العلم هي الصغائر، يعني أنّ ما تكفره المصائب الدنيوية إنما هو الصغائر لا الكبائر، أما الكبائر فإنها تحتاج في تكفيرها إلى التوبة، ثم إنّ تكفير هذه المصائب للسيئات يتفاوت ويختلف بحسب عظمها أو خفتها؛ كلما عظمت المصيبة كانت أكثر تكفيرًا للسيئات، وكلما خفَّت كانت دون ذلك.

المقصود أنّ كلَّ مؤلمٍ يصيب الإنسان في الدنيا سواءً تعلق بأمر حسي أو أمر معنوي فإنه سببٌ لتكفير السيئات قطعًا، كما دلت على ذلك الأدلة الكثيرة، وبالتالي لا ينبغي للإنسان أن يُغْفِلَ التفاتهُ إلى هذا الأمر العظيم الذي يجعل هذه المحنة منحة، فالله جَلَّوَعَلَا قدّر المصائب ليطهِّر بها من المعائب، وهذه نعمة وأي نعمة، ولذلك كان الصالحون يتفقدون أنفسهم ويعودون باللائمة عليها إذا طال عليهم وقتٌ لم يصبهم فيه أذى، يعني لم ينالهم شيء من المرض، لم ينزل بهم شيء مؤذٍ.. فإنهم يبدؤون يتفقدون أنفسهم، يخشون أنهم لبُغض الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أخّر عنهم هذه الأسباب التي يكفَّر بها عن الخطايا، فإذا نزل بهم شيء من ذلك اطمأنوا وسكنوا، (**إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدِهِ الْخَيْرَ عَجَّلَ لَهُ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا**) حتى إذا لقيَ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وإذا بسيئاته قد كُفِّرت. هذا هو الأمر الأول

فكيف إذا أضفت إليه أمرًا ثانيا من فوائد هذه المصائب الدنيوية: وهو أنّ المصيبة الدنيوية سببٌ للصبر، والصبر أجره عند الله عظيم، قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[الزمر:١٠]، قال بعض السلف: كالماء المنهمر، ثواب عظيم لا يقدر قدره إلا الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، فإذا صبر المسلم على هذه المصيبة كانت هذه فائدةً كبرى له، وهي تحصيل هذا الأجر العظيم، قال سبحانه: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾[البقرة: ١٥٥-١٥٧]؛ ثلاث فوائد وجوائز

ينالها الصابرون، كل واحدة منها خير من الدنيا وما فيها، إذًا كم في أعطاف المصائب من نِعَم جزيلةٍ من المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فكيف إذا أضفت إلى ذلك أمرًا ثالثًا: وهو أنّ المصائب التي تصيب الإنسان ويعلم الإنسان أنها مُسَبَّبة عن الذنوب والمعاصي، لأنّ المسلم في نظره إلى هذه المصائب يرى أنها مُسببة عن الذنوب والمعاصي، ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾[الشورى:٣٠]، وهذا الدليل دليل عام كما ذكرت لكم، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذا دليل عام يشمل كل المصائب دقيقها وجليلها»، أيُّ مصيبة تقع فليعلم الإنسان أنه إنما أُتي من سيئاته، فإذا أدرك ذلك وأيقنه بادر إلى التوبة إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والتوبة أمر محبوبٌ إلى الله جَلَّ وَعَلَا، وأهلها أهل محبته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أيضا، ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾[البقرة:٢٢٢]، فصارت المصيبة سببًا لحصول هذا الأمر العظيم وهو التوبة إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، قال سبحانه: ﴿لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[الروم:٤١]؛ يؤبون يعودون إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالتوبة النصوح، فكان في أعطاب المصيبة هذه الفائدة الكبيرة.

فكيف إذا أضفت إلى هذا فائدة رابعة: وهي حصول الاستكانة لله جَلَّ وَعَلَا والذل والخضوع؛ وهذا أمرٌ محبوبٌ لله جَلَّ وَعَلَا ، وهو من حِكم تقدير المصائب، قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾[المؤمنون:٧٦]، الله جَلَّ وَعَلَا يحبُّ من عبده إذا نزلت به النازلة أن يرجع إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالخضوع والتذلل له تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، يترك الكبر والغرور ومشاهدة النفس ومطالعة إحسانه، يترك كل ذلك ليعود عبدًا ذليلًا لمولاه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فكيف إذا أضفت إلى هذا أمرًا خامسًا محبوبًا إلى الله جَلَّوَعَلَا : وهو الدعاء والتضرع والأنين والابتهال إلى الله جَلَّوَعَلَا، وكل ذلك ولاشك عبادات جليلة لها من الثواب الشيء العظيم، ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾؛ ذمَّ الله هؤلاء على هذا ، بخلاف حال أهل الإيمان فإنهم يرجعون إلى الله جَلَّوَعَلَا بالتضرع والدعاء والسؤال والاخبات، وهذا كله من الله عَزَّوَجَلَّ بالمحل العظيم، الله سبحانه يحب من عبده أن يدعوه، وأن يسأله، وأن يتضرع إليه، وأن ينطرح بين يديه، وكل ذلك كان من أسبابه هذه المصائب الدنيوية.

إذًا أنت إذا تجوَّلت بذهنك وعقلك في هذه الأمور وغيرها من النعم التي يقدِّرها الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ مصاحبةً لنزول المصائب علِمت أنّ تقدير الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ خير، وأنه إذا قدَّر على عبده شيئًا منها فإنه أراد به خيرًا، وذلك أمرٌ يختص بالمؤمن الذي هو قائم بحق الإيمان والعبودية لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، أما غيره فإنّ المصيبة قد تكون سببًا يُخسَف به في شأنه -كما قلنا هذا في درس أمس- وهو أن المصيبة كالنار، النار التي توقد تحت المعدن فيخرج إما التِّبر الخالص وإما الزغل والغبش الذي يُطَّرح ويرمى.

المصيبة إما أن ترفع صاحبها وإما أن تنزل بصاحبها؛ ذلك أنّ من الناس من إذا أصابته المصيبة وقع في الأمر الذي يبغضه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ؛ ربما وقع في صغيرة، وربما وقع في كبيرة، وربما وقع في كفر بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ والعياذ به: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ﴾[الحج:١١]، نسأل الله السلامة والعافية.

المصيبة قد تنزل بالإنسان فتكون سببًا لأن يُعاقر المعصية، من الناس من إذا ابتُلي بهموم وغموم دعاه شيطانه وسولت له نفسه أن يخرج عن ذلك بأن يعاقر الشراب المحرم، أو يتناول المخدرات، ويقول: أنا أهرب من هذه الهموم وهذه الغموم، إذًا صارت هذه المصيبة في حقه شرًا -عياذًا بالله-.

وبعض الناس إذا نزلت به المصيبة ربما وقع في أمر عظيم من اعتراضٍ على قدر الله جَلَّوَعَلَا وسوء أدب في معاملته، وهذا مما يؤسف له، يقول: "يا رب ماذا صنعت حتى تفعل بي هذا؟" أو تجد بعض الناس إذا رأوا مصابًا يقولون: "فلان ما يستأهل" هذه كلمة قبيحة ومنكرة، اتق الله يا عبدالله، فإن هذه الكلمة لازمها أن الله عَزَّوَجَلَّ أصابه بشيء لا يستحقه فكان ظالـمًا -تعالى الله عن ذلك- الله جَلَّوَعَلَا لا يظلم أحدًا، الله جَلَّوَعَلَا حرَّم الظلم على نفسه، وجعله بين العباد محرمًا.

من الناس من إذا نزلت به المصيبة وقع في فتنة أعظم من كل ذلك! وهي أنه -والعياذ بالله- قد يلجأ للدعاء والتضرع لغير الله سبحانه، فيدعو الأموات وأصحاب القبور، يزعم أنه يفر من المصيبة بذلك، وهو لا يدري أنه وقع في أعظم مصيبة على الإطلاق، تجده يفزع إلى الأموات (يا سيدي) ينادي صاحب القبر "المدد المدد أنا في ورطة لا ينقذني إلا أنت"، وهذا من أعظم ما تُنتجه هذه المصائب في حق من لم يرد الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ به خيرًا، تجده يشرك بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فيكون حاله أسوأ من حال مشركي قريش الذين كانوا في الشدائد وعند الملمات والمهمات يخلصون الدعاء لله جَلَّوَعَلَا ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ

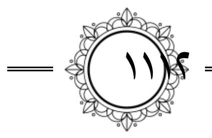
لَهُ الدِّينَ﴾[العنكبوت:٦٥]، لكن متى انتهى ذلك رجعوا إلى شركهم ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾[العنكبوت:٦٥]، أما هؤلاء المتأخرون الذين فحُش شركهم -والعياذ بالله- حتى زاد على حال الأولين، تجده لا يعرف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عند الشدة، تجده أعظم ما يكون شركًا عند المصيبة، ربما تجده ينشد، يخاطب النبي ﷺ وهو ميت ﷺ:

ما مسَّني الدهر ضيمًا واستجرتُ به إلا ونلت جوارًا منه لم يُضَمّ

ما عرف دعاء الله ولا اللجوء إلى الله، إنما لجأ لغيره، وهذه مصيبة كبرى ربما تكون من أسباب هذا الأمر وهو وقوع المصائب.

إذًا تلك الثمرات إنما هي مما يختص به المسلم، وأما من عداه فإن المصائب في حقه ربما لا تزيده إلا ارتكاسًا وخذلانًا -والعياذ بالله-.

أما الكافر الأصلي فإنّ المصائب التي تنزل به فإنه لا ينتفع بها في تكفير السيئات، إنما هذا الأمر مختص بالمسلم، ولذلك لو رجعت إلى كل الأحاديث التي تتعلق بهذا الموضوع -وفي الصحيحين منها جملة، وفي غير الصحيحين من الكتب بقيتها- كلها تجدها معلقةً بالمسلم أو المؤمن، أما الكافر فإنها عقوبةٌ يعجِّلها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الدنيا، ولذلك أخبر النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنّ الله جَلَّ وَعَلَا إذا أراد بعبده شرًا أمسك عليه بذنبه، لم يعطه هذه النعم ولم يكفِّر عنه من خطاياه بسبب ذنبه، يعني بسبب ما اجترحته يداه من الذنوب والسيئات والكفر والإعراض حتى يوافي بذلك يوم القيامة، هو يوافي بهذه الذنوب يوم القيامة، يجدها كاملة ويعاقب عليها كاملة -عياذًا بالله-.



والكافر في الآخرة يجازى على ثلاثة أصناف:

أولا: على كفره بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ثانيا: يـجازى على سيئاته التي هي دون الكفر؛ سواء كانت تركًا لواجب أو فعلًا لمحرم، السيئات من حيث هي تنقسم إلى قسمين: قد تكون تركًا لواجب بلا عذر، وقد تكون فعلًا لمحرم. والكافر إذا لقي الله جَلَّ وَعَلَا جازاه وعاقبه على كل واجب أوجبه لم يأتِ به هذا الكافر، كل صلاة يمضي وقتها ولم يصلِّها سيحاسب عليها، كل يوم من رمضان مرَّ ولم يصُم فإنه سيجازى عليه، وكذلك كل شربة خمر، أو كذبة، أو غيبة، أو نظرة، أو سرقة، أو زنا -والعياذ بالله- كل ذلك سيجازى عليه، وبَيَّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في ذلك وهو أنّ الإنسان الكافر -عياذًا بالله- سيجازى يوم القيامة على كفره وعلى ما دونه، ﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ*وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ*وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ*وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾[المدثر:٤٣]،إذًا هو يجازى على الكفر ويجازى على ما دونه أيضًا.

أما الصنف الثالث: فهو أنه يعاقب على عدم شكر الله عَزَّوَجَلَّ على النعم؛ هذه النعم الدنيوية -الماء، والطعام، والهواء، والأمن، والرخاء، والولد والمال وإلى آخر ذلك- هذه النعم الدنيوية إنما أباحها الله عَزَّوَجَلَّ لأهل الإسلام؛ لأنَّهم بتوحيدهم لله عَزَّوَجَلَّ يقومون بشكرها، أمَّا الكافر فإنها لم تُبَح له، لذلك تأمل في قول الله عَزَّوَجَلَّ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾[الأعراف:٣٢]، حلال للذين آمنوا، أما غير الذين آمنوا ليست حلالًا لهم، وإن كانوا يشتركوا، الكل يتناولها في الدنيا، لكن في الآخرة ﴿خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ، ستكون لأهل الإيمان فقط،

الكافر لن ينعَّم بها الكفار في الآخرة، إذًا هذه النعم سوف يجازى عليها هذا الكافر أيضًا لأنه لم يقم بشكرها، وأعظم شكرٍ لها توحيد الله عَزَّوَجَلَّ والإيمان به وبرسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

إذًا من أراد الله عَزَّوَجَلَّ به شرًا أمسك عنه ولم يُنزل به هذه المصائب، وبالتالي لا تحصل له تلك الفوائد -ومنها تكفير السيئات- حتى يلقى الله عَزَّوَجَلَّ فيجازيه على هذه السيئات كاملة موفورة(٦٢٦).

وهنا مسألة: وهي قوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **«وإذا أراد الله بعبده شرًا»**؛ الله عَزَّوَجَلَّ قد يريد بعبده الشر كما جاء في هذا الحديث، ولكن تنبه -يا رعاك الله- الشر إنما يضاف إلى مفعول الله لا إلى فعله؛ فعل الله الذي يقوم به سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ هذا لا شر فيه البتة، بل كله خير، قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «والشر ليس إليك»، الشر لا يُنسب إلى ذاته، ولا يُنسب إلى صفاته، ولا يُنسب إلى أفعاله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، إنما يكون الشر في المفعول، في المقدَّر، في المخلوق، وهو شرٌ أراده الله عَزَّوَجَلَّ لغيره لا لذاته، الله لا يريد الشر لذاته، يعني لكونه شرًا قدره؟ لا، لكن قَدَّرَ هذا الأمر الذي هو شر لأنه يترتب عليه خيرٌ يحبه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، إذًا هو مرادٌ لغيره لا لذاته، الشر الذي يقدره الله عَزَّوَجَلَّ كله ليس شرًا محضًا، إنما هو شر من وجه وخيرٌ من وجه، والله عَزَّوَجَلَّ إنما قدَّره لأجل هذا الخير الذي فيه، فيكون تقديره

(٦٢٦) **ومن مباحث الحديث أيضًا**: إثبات صفة الإمساك لله جلَّ وعلا، وهي صفة اختيارية، والله ﷻ يُمسِك عن الشيء إذا شاء لحكمةٍ يعلمها سبحانه وتعالى.

سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ له يريد به هذا الخير، إذًا هو مرادٌ لغيره لا لذاته. وهذا مبحثٌ يرجع إلى باب (الصفات والقدر) ، وتفصيله في ذلك المحل كما تعلمون.

قال رَحِمَهُٱللَّهُ: (**وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ عِظَمَ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ، وَإِنَّ اللهَ تَعَالَى إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ؛ فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ» حَسَّنَهُ التِّرمِذِيُّ**).

لك أن تقول: « **فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَخَطْ**»، ولك أن تقول: «**وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ**»؛ هذا الحديث خرجه أيضًا الترمذي، وحسنه أيضًا الترمذي، ورواه أيضًا عن أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، لكنه أيضًا حديث مستقل ليس تابعًا للحديث السابق.

هذا الحديث فيه إخبارُ النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ (**إِنَّ عِظَمَ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ**)، ولك أن تقول: «عِظم»، ولك أن تقول: «عُظم».

(إنّ عُظم الجزاء، أو إنّ عِظم الجزاء مع عظم البلاء). هذه القطعة من الحديث تجرنا إلى الحديث عن موضوع يتعلق بالمصائب وثمراتها ونتائجها[٦٢٧].

---

(٦٢٧) أُنبّهُ إلى أن: **المسلم يلاحظ في المصيبة أمرين**:

الأمر الأول: أنَّ المصيبة جزاء السيئة، قال جلَّ وعلا: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى:٣٠]، يعلم المسلم ويوقن بأنَّ المصيبة ما هي إلا جزاءٌ عن سيئة، يعني أن هذه المصيبة إنما كانت بسبب ذنب ومعصية حصلت من الإنسان.

هل هذا الحديث يفيد أنّ الإنسان يثاب على المصيبة إضافةً إلى كونها سببًا لتكفير السيئة؛ هل يثاب الإنسان على المصيبة أم لا؟

هذا الموضوع التحقيق فيه أنّ **المصائب (الأمور المؤذية المؤلمة أو النوازل التي تنزل بالإنسان) تنقسم إلى قسمين:**

أولًا: أمورٌ مؤذية أو مصائب هي نتيجة لعملٍ صالح؛ يعني أن تكون مُسبَّبة عن عمل صالح، وهذه يثاب عليها الإنسان دون شك: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾[التوبة:١٢٠]، إذًا بَيَّن الله عَزَّوَجَلَّ أن ما ينشأ عن الأعمال الصالحة من أمورٍ مؤذية فإن الإنسان يثاب على ذلك: ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَا لا يَرْجُونَ﴾[النساء:١٠٤] وهو الثواب.

الأمر الثاني: أن المصيبة كفَّارة؛ وهذا عليه نصوصٌ كثيرة، من ذلك ما ثبت في «الصحيحين» من قوله عليه الصلاة والسلام: «ما يصيب المسلمَ من نَصبٍ ولا وصَبٍ ولا هَمٍ ولا حزنٍ ولا أذى إلَّا كفَّر الله به عن خطاياه، حتى الشوكة يُشاكها»، وفي هذا المعنى أحاديث جمَّة في «الصحيحين».

فالشاهد أن التكفير حاصلٌ بنزول المصائب، ولا شكَّ أن هذا التكفير يتفاوت بحسب عِظَمِ المصيبة وخِفتها، والجمهور -كما لا يخفاكم- على أن هذا التكفير إنما هو للصغائر دون الكبائر.

إذًا ما ينال الإنسان من تعب ومشقة بسبب صيامه، أو بسبب وضوئه في الليلة الباردة، أو بسبب ذهابه في شدة الحر إلى بيوت الله، أو ما يلقاه المجاهد في سبيل الله إلى غير ذلك من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى غير ذلك من الأعمال الصالحة، هذه يثاب عليها الإنسان قطعًا؛ إذا كان مخلصًا لله.

القسم الثاني: المصائب والمؤذيات التي ليس للإنسان يدٌ فيها؛ هذا هو محل البحث الذي نريد أن نبحث فيه الآن، كأن يصاب الإنسان بفقد ولد أو حبيب، أو يصاب بمرض، أو عين، أو يصاب بحريق بيت، أو فقد مال أو خسارة تجارة، إلى آخر ذلك.

نحن اتفقنا قبل قليل على أن هذه المصائب سببٌ للتكفير، لكن نريد الآن **هل هي مع ذلك ترفعُ الدرجات وتنيلُ الإنسان المثوبات أم لا؟** هذا الموضوع هو محل اختلاف بين أهل العلم، **واختلف العلماء فيه إلى قولين**:

القول الأول: أنَّ المصائب الدنيوية ليست سببًا للثواب، إنَّما تكون -يعني المصائب- من حيث هي سببًا لتكفير السيئات، لكن أن يكون ذلك أيضًا سببًا للثواب هذا لا يكون، إنَّما لو صبر الإنسان يثاب على الصبر لا على المصيبة، قالوا: قاعدة الشرع قد دلت على أنَّ الثواب لا يكون إلا على أمرٍ وجودي، بمعنى لا يكون إلا عن عملٍ صالحٍ فعَله الإنسان أو توّلد من فعله أو كان هو السبب له، أمَّا أمرٌ لا يدَ للإنسان فيه لا سبب للإثابة لأجله! [٦٢٨] وهذا القول

---

(٦٢٨)وقالوا أيضًا: أن النُّصوص قد دلَّت على أن المصائب مكفرات، وكذلك دلَّت على أن المصائب مُسبَّبَة عن الذنوب؛ فلا تكون سببًا للثواب.

اختاره جماعة من أهل العلم ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ وتلميذه ابن القيم، ورُوي معنى ذلك عن أبي عبيدة بن الجراح رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وقال الحافظ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيما روي عنه: إسناده جيد كما في الفتح، وروي أيضًا عن غيره من الصحابة.

إذًا هذا هو القول الأول وهو أنه لا ثواب على المصيبة.

والقول الثاني: وهو أنّ المصائب سبب للثواب؛ إذًا إذا نزلت المصيبة فإنه يكون بسببها الآتي؛ أولًا: سبب للتكفير، ثانيًا: سبب للثواب، إن صبر أثيب ثوابًا ثانيًا. إذًا من حيث نزول المصيبة من حيث هو هذا سبب مقتضٍ للثواب.

وهذا القول نسبه النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرحه على مسلم إلى جماهير العلماء. وجاء عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن المريض يثاب على مرضه فكأنه يميل إلى هذا القول رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وأرضاه.

واستدل هؤلاء في هذا الحديث الذي بين أيدينا « **إِنَّ عِظَمَ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ**». واستدلوا أيضًا بما خرج الإمام مسلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أنّ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لا يصيب المسلم مصيبة حتى الشوكة يشاكها إلا كفَّر الله عنه بها خطيئة ورفعه بها درجة»؛ تلاحظ أن العطف بالواو هاهنا يقتضي أنّ المصيبة ترتب عليها الأمران: التكفير، والثواب.

لكن يُكدِّر على هذا ما جاء في رواية أخرى عند مسلم فيها العطف بـ(أو)، «كفَّر الله عنه بها خطيئة أو رفعه بها درجة»، وهذا محل بحث طويل عند أهل العلم؛ هل هذا شكٌّ من الراوي؟ يعني حصل عنده شك، أقال النبي

صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ الأول أو قال الثاني، أو كان من النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ من قوله أراد به التنويع؟ بمعنى أن تكون المصيبة سببًا لتكفير الخطايا لمن عنده ذنوب، فإن لم تصادف هذه المصيبة ذنبًا كانت سببًا لرفع الدرجة؟

على كل حال الذي يظهر لي -والله تعالى أعلم- أنَّ المصيبة إذا نزلت بالإنسان يكون حال صاحبها واحدًا من اثنين:

- إما أن يكون صابرًا.
- وإما أن يكون جازعًا ساخطًا.

➢ فإن كان صابرًا؛ فهذا محل اتفاق أنه صار مثابًا، لأنه صابر فيكون الثواب حاصلًا له لكن بسبب الأمر الوجودي الذي بدر منه وهو الصبر، وهذا لا خلاف فيه.

➢ أما إذا كان جازعًا ساخطًا؛ فإنه لا يمكن أن يقال إنه مع هذه الحال يكون مُثابًا، بل الدليل قد دل على أنه يكون آثمًا، سمعت قبل قليل قول النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «ومن سخط» أقال صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: فله الثواب؟ أو قال: «فله السخط»؟ قال: «فله السخط» ، إذًا لا يمكن أن يكون ساخطًا ومثابًا في نفس الوقت.

وبالتالي يمكن أن تُقرَّر المسألة في هذه الصورة وهي: أنّ الثواب إنما يتعلق على الأمر الوجودي المصاحب للمصيبة وهو الصبر. والخلاف إنما يظهر ويتحقق إذا تصورنا حالة هي وسط بين الصبر والجزع، وهذا مما يصعب في الحقيقة تصوره، أن يكون هناك حالة فيها الإنسان لا صابر ولا جازع، فهذا

في الحقيقة إن تُصُوِّر فإنَّه يكون محل الخلاف، من أهل العلم من قال يُثاب، ومن أهل العلم من قال إنه لا يُثاب. وإن كان والذي يبدو لي -والله أعلم- أن تصور ذلك فيه ما فيه، وأنّ المصيبة في الغالب لا تخلو من هاتين الحالتين، والله تعالى أعلم.

أخبر النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في هذا الحديث أنَّ «عِظَمَ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ»، والنبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أخبر كما في الصحيح: «من يرد الله به خيرًا يُصِب منه»، ولذلك كان أعظم الناس مصيبة وابتلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، سُئل النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ -كما عند أحمد وغيره بإسناد صحيح- من أعظم الناس بلاءً؟ قال: «الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يُبتلى المرء على قدر إيمانه، فمن كان في إيمانه صُلبًا شُدد عليه، ومن في إيمانه ضعيفًا خُفِّف عليه»، أو كما قال صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

إذًا عِظم الجزاء مع عظم البلاء، وكلما ارتفعت درجة الإنسان كلما كانت المصيبة في حقه أعظم، حتى إنّ المصطفى صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ كان يوعك كما يوعك الرجلان، تقول عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا كما في الصحيحين: «ما رأيت أحدًا اشتد به الوجع كما اشتد برسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ»، وذلك لأنَّه أعظم الخَلق منزلة ومكانة عند ربه؛ فلذلك عظم بلاءه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ليعظم أجره عند ربه عَزَّوَجَلَّ[(٦٢٩)].

(٦٢٩) وهذا دليل على أن الإنسان كلما ازداد بلاؤه كان هذا دليلًا على ارتفاع مكانته ودرجته عند الله ﷻ إن كان من أهل الإيمان. والمقصود أن الله ﷻ يبتلي أولياءه ويبتلي

والله جَلَّ وَعَلَا إذا أراد بعباده خيرًا ابتلاهم، ثم تكون النتيجة بعد ذلك: أنّ «من رضيَّ فله الرضا، ومن سخط فله السخط»، وجزاءه يكون وفاقًا، أهل الرضا الذين رضوا عن الله عَزَّوَجَلَّ في تقديره، فإن الله جَلَّ وَعَلَا يرضى عنهم، والذي يسخط ربه جَلَّ وَعَلَا في تقديره فإن الله عَزَّوَجَلَّ يسخط عليه. والرضا والسخط من الله جَلَّ وَعَلَا صفتان فعليتان، فالله جَلَّ وَعَلَا يرضى إذا شاء ويسخط إذا شاء عَزَّوَجَلَّ [(٦٣٠)] .

وهذا الموضع من الحديث يجرنا أيضًا للكلام عن مسألة الرضا بالقدر، وهذه مسألة مهمة، **هل الرضا واجب؟ أو ليس بواجب؟**

عندنا درجتان: صبر ، ورضا[(٦٣١)] .

أحبابه بالمحن والمصائب لتحصل الأمور التي يحبها ﷻ؛ من سماع شكواهم ودعائهم، ومن تضرعهم ومن استكانتهم، ومن توبتهم، ومن صبرهم ورضاهم وتسليمهم لله ﷻ.

(٦٣٠) ومضى الكلام عن الرضا فيما سبق. والسخط قريب في المعنى من الكراهة، وهذا قد ثبت إضافته إلى الله ﷻ صفةً في نصوص شتَّى، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾ [محمد:٢٨]، في نصوص كثيرة في الكتاب والسُنَّة.

(٦٣١) المؤمن في حال المصيبة له أحوال:

أولًا: الصبر؛ وهذا قدر واجب، فيحبس نفسه عن الجزع، ويحبس لسانه عن التشكّي والسخط، ويحبس جوارحه عن فعل ما لا يجوز؛ كاللّطم والشقّ والحلق وما إلى ذلك.

وثمَّة قدر أرفع وهو الرضا؛ وهذا كان يسأله النبي ﷺ ربه، كما في حديث عمار: «وأسألك الرضا بعد القضاء».

-هناك درجة أرفع كما يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ هي: درجة الشكر؛ أن ينتج عن المصيبة شكر الله عَزَّوَجَلَّ والفرح بها، وهذه لعباد الله عَزَّوَجَلَّ الأخيار المتقين، كما قال عمر بن عبدالعزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ و رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «أصبحت وما لي في سرور إلا في مواضع القضاء والقدر».

دعونا الآن نتحدث عن الدرجة الثانية، قلنا الصبر واجب، الدرجة الثانية هي درجة الرضا أرفع من الصبر، أهي واجبة أم لا؟

انتبه إلى أنّ الرضا له طرفان:

الطرف الأول: الرضا عن قدر الله عَزَّوَجَلَّ القائم به سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ؛ يعني تقديره الذي هو فعله، وهذا واجب بالاتفاق، يجب على كل إنسان أن يرضى عن فعل الله، عن تقدير الله، ولا يسخط فِعله جَلَّوَعَلَا ولا يعترض على فعله جَلَّوَعَلَا ، بل يعتقد أنَّ في تقدير الله عَزَّوَجَلَّ الخير كل الخير، وأنّ فيه الحكمة كل الحكمة.

أمَّا الطرف الثاني فهو محل البحث وهو: الرضا بالمقدور، الرضا بالمصيبة؛ يعني نزلت به مصيبة، فقَد ماله، سُرق بيته، هل رضاه بهذا الذي نزل به أمر واجب أم لا؟

◄ قبل أن نسترسل، ما الفرق بين الصبر والرضا؟

قال العلماء كعمر بن عبدالعزيز وابن المبارك وغيرهما من أهل العلم الفرق بينهما: أنّ **الراضي** لا يتمنى تغيير الحال التي هو عليها. وأما **الصابر** فإنه بخلاف ذلك.

الصابر حبس نفسه -قلنا الصبر هو الحبس- حبس قلبه عن اعتقاد ما لا يحل، وحبس لسانه عن قول ما لا يحل، وحبس جوارحه عن فعل ما لا يحل، لكنه يتمنى أن هذه المصيبة تزول. أما **الراضي** فإنه لا يتمنى زوال الأمر الذي قدَّره الله عَزَّوَجَلَّ له.

قد يقول قائل: هل في هذا منافاة للأمر الجبلي وهو الشعور بالألم؟

الجواب: لا؛ لا يعني هذا أن الراضي لا يشعر بالألم، لأنه بشر وإنسان، ولكن كما قال العلماء: (كم من أجسادٍ محشورة بالألم وقلوبٍ محشورة بالرضا)، يمكن أن يجتمع الأمران، يكون في جسده متألمًا ولكن قلبه راضٍ وساكن ومطمئن.

هذا القدْر الذي هو الرضا بالمقدور، هل هو واجب أم لا؟

-**ذهب بعض أهل العلم** إلى أنه واجب؛ كابن عقيل الحنبلي وغيره من أهل العلم، واستدلوا بهذا الحديث، (**فمن رضيَ فله الرضا، ومن سخط فله السخط**).

- **وذهبت طائفة من أهل العلم** إلى أنه مستحب وليس بواجب، الواجب الصبر يحبس نفسه عما لا يحل، أما أن يرضى بالمصيبة فهذه الدرجة أعلى وأرفع فهي مستحبة لا واجبة، لأنه لم يأت في الدلة دليل على إيجابها، إنما جاء الثناء والمدح بمن قام بها.

وهذا ما اختاره شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم وجماعة من أهل العلم، وهذا هو فيما يظهر الأقرب. وإلا لو قيل بإيجاب الرضا لكان في هذا تكليفًا بأمر

عظيم يشق على أكثر الناس، وبالتالي فيكون الأظهر والله تعالى أعلم أنّ الرضا بالمقدور أمرٌ مستحب، ومن جاهد نفسه فوصل إليه فليبشر بالخير الجزيل ونيل رضا الله عَزَّوَجَلَّ.

وبالتالي فإنَّ هذا الحديث بناءً على هذا القول يُوجَّه إلى أنَّ الرضا والسخط الذي تعلق بتقدير الله لا بالمقدور، يعني من رضيَ بتقدير الله وفِعله فله الرضا، ومن سخط ذلك فله السخط.



قال المصنف رحمه الله:

٣٦-بَابُ
مَا جَاءَ فِي الرِّيَاءِ

وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[الكهف:١١٠]. الآيَةَ.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا: «قَالَ اللهُ تَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ مَعِي فِيهِ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ مَرْفُوعًا: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنَ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ؟». قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «الشِّرْكُ الْخَفِيُّ؛ يَقُومُ الرَّجُلُ فَيُصَلِّي فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهُ؛ لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ». رَوَاهُ أَحْمَدُ.



قال الشارح وفقه الله:

هذا بابٌ عقده المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ للكلامِ عن الرياء. والرياءُ: مصدر راءَى يُرائي رياءً ومُراءاةً. والمرادُ به: أن يعمل الإنسانُ العمل الذي لله لغيرهِ؛ أي أن يتقرب الإنسان بالعمل لله سبحانه ولغيرهِ، فالمرائي أراد بعملهِ غير وجه الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ خالصًا، إنَّما أراد تحصيل مدح النَّاس وثنائهم وبُلوغَ الرئاسةِ والتصدُّرِّ فيهم.

والرياءُ داءٌ عُضال، وهو من أعظم غوائل النَّفس ومكائدها الباطنة، والبليةُ بهِ عظيمة، والكلام فيه له شأن، وقد تكاثر في الأدلة التنبيه والتحذير فيما يخصه، والأمر بضده ألا وهو الإخلاص.

والرياءُ ينقسم إلى قسمين:

- **القسمُ الأول**: هو الرياء الأكبر؛ وهذا رياءُ المنافقين، وهو الرياء الذي يقعُ في الأعمال كُلها في أصلِّ الدين وفي فرعهِ، وهو الذي جاء في قول الله **سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ**: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ﴾[النساء:١٤٢]، وهذا لا شك أنَّه شركٌ أكبر.

- **القسمُ الثاني**: هو الرياء الأصغر(٦٣٢)؛ وهو الذي يقعُ من المسلم في بعض الأعمال، فيريدُ بها وجه الله عَزَّوَجَلَّ ويريد بها أيضًا أن يتصنَّع للخلق وأن يُحمد ويُثنى عليه، وهذا ليس بشركٍ أكبر وإنَّما هو شركٌ أصغر، على ما سيأتي تفصيله إن شاء الله.

---

(٦٣٢) وهو الذي عقد المؤلّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ الكلام عنه.

وقد كان ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذا دقةٍ حينما عبَّر عن هذا النوع بقولهِ: (يسير الرياء)، وذلك أنَّ الرياء الكامل هو رياء المنافقين، أمَّا الذي قد يقع من المسلم فإنه يسيرٌ منه وطرفٌ منه.

الرياءُ -كما سبق أن ذكرت- **البَليةُ به عظيمة والخطر في شأنهِ عظيم، ويظهرُ هذا من وجوه:**

-**أولًا**: أنَّه قد جاء في النَّصوص وصفُ هذا الأمر بأنَّه من الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ، وأعظِم بهذا خطورةً وتحذيرًا، فقد سمَّاه النبي ﷺ «الشرك الخفي»، كما سيأتي معنا في حديث أبي سعيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وسماه النبي ﷺ بـ«شرك السرائر»، كما في حديثِ محمودَ بن لبيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وسماه النبي ﷺ بـ«الشرك الأصغر»، كما في حديث شداد بن أوس، وكذلك في حديث محمود بن لبيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا وكلاهما عند الطبراني.

إذًا هو الشرك الخفي، هو الشرك الأصغر، هو شرك السرائر؛ وبالتالي الأمرُ فيه عظيم، فإنَّ وصفه بأنه شرك مؤذنٌ بأنه أكبر من غيره من الكبائر.

الأمر الثاني: أنَّ الرياء محبطٌ للأعمال؛ وهذا الحكم في الجملة وإن كان سيأتي إن شاء الله تفصيل لذلك، وذلك أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ شَرَطَ في قبول الأعمال والإثابة عليها الإخلاص له جَلَّ وَعَلَا، فالإخلاصُ والرياء ضدانِ لا يجتمعان، متى وُجدَ الرياء زال الإخلاص، وبالتالي كانت الأعمال حَابطةً عياذا بالله.

شرطُ قبول السعي أن يجتمعَا ... فيه إصابة وإخلاص معا

فالعاملُ الذي يعمل وقد خالط عمله الرياء فإنَّه ما استفاد شيئا، ولذلك قال بعض السلف: (قُل من لا يُخلِص لا يتعب) ؛ فإن عمله وتعبه لا فائدة منه، إن

أردت أن تُحَصِّل ثمراتِ عملك فعليك بالإخلاص لله ﷻ، أن تُريد به وجهه لا سواه. وإذا كان ذلك كذلك تبين لك أيضًا خطر الرياء.

أضف إلى هذا أمرًا ثالثًا وهو: صعوبة التخلص من الرياء؛ فإنَّ الرياء دافعه دافعٌ قوي، إذ إنَّ الذي يحُثُ ويدفع إليه شهوةٌ خفية كامنةٌ في النفوس ألا وهي: حبُ المدحِ والرئاسة، ولذلك فإن الرياءَ يعرِضُ للصالحين، للعلماء، للعُبَّاد، ولا يكاد يسلمُ منه إلا الصدِّيقون، فمسالكه خفية وطَرائقه دقيقة، له أشكالٌ وله ألوان، رُبما تتصور من إنسان في صورٍ حسنة وفي حقيقتها السُم الزُعاف(٦٣٣).

إذًا هذه الأوجه وغيرها تدل على أن الرياء ذو خطر عظيم، وأنَّ على المسلم أن يكون حذرًا أشد الحذر منه، والله المستعان(٦٣٤).

---

(٦٣٣) ويكفي الرياء أيضًا خطورةً وذمًّا كون أول من تُسعر بهم النار يوم القيامة -عياذًا بالله- هم المراؤون؛ هذا مجاهد، وهذا متعلم، وهذا متصدق.. أعمالٌ صالحة هي من أشرف الأعمال أو أشرفها ومعَ ذلك أصحابها كانوا أول من تُسعَّرُ بهم النَّار، كما أخبر بذلك عليه الصلاة والسلام في المُخرَّج عند مسلم، فدلَّ هذا على أنَّ الرياء شأنه عظيم جِدُّ عظيم.

(٦٣٤)والنُّصوص المتكاثرة قد دلَّت على أن الإخلاص شرط قبول العمل معَ المتابعة، بحصول طرفٍ من الرياء ينتفي هذا الشرط، تُردُّ الأعمال على صاحبها ولا ينتفع منها بشيء، ويا ليتَ أن الأمر يقف عند هذا الحد، بل إنه آثم ومتعرض للعقوبة -عياذًا بالله- ، ولأجل هذا قال بعض أهل العلم: «قُل لمن لا يُخْلِص؛ لا يتعب»، لِمَ؟ لأنَّ أعماله هباء. فعقْدُ المؤلّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الباب فيه التنبيه والتحذير عن هذا الخطر العظيم الذي يعصف بأعمال المسلم فيجعلها هباءا، والله المستعان.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾**[الكهف:١١٠] **الآيَةَ**).

هذه الآية آيةٌ عظيمة فيها الأمر بالإخلاص لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهذا يتضمنُ أو يستلزمُ ترك الرياء.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾؛ المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أورد شطر الآية وأراد منك أن تُكملها وما بعدها؛ ليستبين لك وجه الشاهد. وجه الشاهد: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾.

ووجه الدلالة هاهنا من جهتين:

الوجه الأول: في قوله سبحانه ﴿ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾؛ فإن العمل الصالح هو المُقيد بالسُنة الخالصُ من الرياء، وبالتالي فإن هذه الآية فيها زجرٌ وتحذير من الرياء، لا يكون العملُ صالحًا إلا باجتماع هذين الأصلين، وإن شئت فقُل اجتماع هَذين الركنين ألَا وهما: الإخلاص لله والمتابعة لرسولهِ ﷺ.

والوجه الثاني: تأكيدٌ لما قبله، وهو في قولهِ تعالى: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ ، والرياء -كما قد سمعت- شرك بالله. إذًا الآية فيها النهي عن الرياء، وكل دليل جاء فيه النهي عن الشرك فإنه يتضمن النهي عن الرياء.

فِي هذهِ الآية فوائد:

قال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ ؛ إذًا النبي ﷺ بشرٌ لا يختلف عن البشر ولا يتميز عن البشر من جهة كونهِ بشرًا، من هذه الجهة لا فرق بين النبي ﷺ وغيره، ومن خالف في ذلك فقد كذَّب صريح الآية: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾، إنما الفرق في قولهِ تعالى: ﴿ يُوحَى إِلَيَّ﴾ ، الفرق أنه ﷺ نبيٌ ورسول، وبالتالي ليس له من الربوبية شيء، وليس له من الإلهية شيء، وليس له من خصائص الإله العظيم سبحانه شيء.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾، الإله: هو المعبود؛ معبودكم يجب أن يكون واحدًا؛ وهو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ﴾؛ هذه الآية استدل بها السلف رحمهم الله على رؤية الله ﷻ الآخرة، وربنا سبحانه يُرى في الآخرة في موضعين: في عَرصات القيامة ، وفي جنات الخلد. أسأل الله جل وعلا ألَّا يحرمنا رؤيته.

﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾(٦٣٥) ؛ لاحظ أنه لَمَا جاء النهي عن الشرك عُلِّق ذلك بصفة الربوبية، قال:

---

(٦٣٥) هذا هو الشاهد الذي من أجله أورد الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه الآية في هذا الباب، ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ فليجتنب الشرك كلَّه؛ ومن ذلك الرياء، ولهذا فسَّر سعيد بن جبير رَحِمَهُ ٱللَّهُ قوله سبحانه: ﴿وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ قال: لا يُرائي بعبادة ربه أحدًا. ولا شكَّ أن هذا هو العمل النافع، هو العمل الذي ينتفع به صاحبه؛ أن يكون عملًا صالحًا لا يشرك به مع الله جلَّ وعلا أحدًا، فهو عملٌ صالح قد اتُّبِّعَت فيه السُنَّة، وخلَص من الرياء والشرك

﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ﴾ ؛ وهذا فيه دليلٌ على منهج ومسلك أهل السُنة في أدلة التوحيد، وذلك أن الربوبية دليلٌ على الألوهية، كأنه قال لأنه ربكم وجب أن تعبُدوه وحده ولا تُشركوا به شيئا.

ثُم لاحظ الفائدة الأخيرة وما أحسنها وما ألطفها! وذلك في قولهِ جل وعلا: ﴿وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾؛ كلمة (أحدا) هنا نكرة في سياق النهي، وقد تعلَّمنا في أصول الفقه أن النكرة في سياق النهي تُفيدُ العموم، وبالتالي في هذه الآية النهي عن الإشراك مع الله ﷻ بأي أحد[٦٣٦] .

وبالتالي كان فيها ردًا على أهل الشرك الحديثين والقدماء، الذين زعموا أنَّ الشرك إنما هو ما كان فيه التقرب إلى الأصنام والأوثان، بمعنى: أنك إذا جئت ونهيتهم عن الإشراك في العبادة مع الله ﷻ واستدللت عليهم بما جاء في الكتاب والسُنة قالوا: "نعم هذه الآيات نزلت في كفار قريش وأمثالهم، وهم كانوا يتقربون إلى هُبل ومناة واللات. إذاً هذه أصنام من تقرب إليها أشرك، لكن نحن لا نفعل ذلك! نحن نتقرب إلى النبي والولي، وبالتالي لا تتنزلُ علينا هذه الأدلة". هذه الآية ردٌ صريحٌ واضحٌ عليهم؛ الله ﷻ نهى عن أن يشرك معه أيُ

كله. فالعمل الصالح إذاً هو: المقيَّد بالسُنَّة الخالص من الرياء؛ هذا هو الذي ينفع، وضدَّه هباء لا نفع فيه.

(٦٣٦) فهي في هذا نظيرة الآية الأخرى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة:٢١]؛ فلما كان هو الرب جلَّ وعلا وجب أن يكون هو المألوه وحده ﷻ.

أحد؛ إنسًا كان أم جنا، وليًا كان أم نبيًا، حجرًا كان أم شجرا، أي أحد فإنه داخل في قوله تعالى: ﴿وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا: «قَالَ اللهُ تَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ مَعِي فِيهِ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

هذا الحديث الذي خرَّجه الإمام مسلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في صحيحهِ، حديثٌ قدسي يرويه نبينا ﷺ عن ربه، والحديث القدسي كالقرآن من جهة أن لفظه ومعناه من الله ﷻ، كما أنَّ القرآن تكلم الله به حقيقةً، فكذلك الحديث القدسي تكلم الله به حقيقةً، فلا فرق بين القرآن والحديث القدسي من هذه الجهة.

إنَّما الفروق بينهما من جهات أخرى:

فأولًا: الفرق بينهما من جهة التعبد؛ القرآن مُتعبد بتلاوته بخلاف الحديث القدسي.

ثانيًا: القرآن مُتحدًى بهِ، تحدى الله ﷻ به الخلائق، وأما الحديث القدسي فلم يكن في شأنهِ ذلك.

الأمر الثالث: من جهة الأجر ومن جهة الثواب؛ فإن في تلاوة القرآن ما ليس في قراءة الحديث القدسي، وبالتالي فإنَّهما يفترقان من هذه الجهة.

إلى فروقٍ أخرى بين القرآن والحديث القدسي[٦٣٧].

(٦٣٧) أنَّ الحديث القدسي تجوز روايته بالمعنى، بخلاف القرآن.

الشاهد: أنَّ النبي ﷺ يروي عن ربهِ ﷻ هذا الحديث العظيم الذي ينبغي أن يضعه كل مسلم نصب عينيه، قال سبحانه: « **أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ مَعِي فِيهِ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**»؛ الله ﷻ لغناه التام ولكماله المطلق لا يقبلُ أن يُشرَكَ معه أحد، فإما أن تكون العبادةُ له خالصة، وإلا فإن الله ﷻ يردُّ العمل ويحبط ثوابه ولا يقبل منه شيئًا.

« **أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ**» ؛ لاحظ أن "أفعل التفضيل" هاهنا ليست على بابها(٦٣٨)؛ فليس لشركاء الله الذين يزعمهم المشركون غنًى، إنما هذا للدِلالة على غنى الله ﷻ المطلق، على حدِّ قول الله سبحانه: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا﴾[الفرقان:٢٤]، مع أن أهل النار ليس معهم ولا لهم خير(٦٣٩) .

الشاهد: أن الله ﷻ أخبر أنه أغنى الشركاء عن الشرك، فمن عِمَل عملًا صالحًا مما يُتقرب به إلى الله لكنه أشرك معه غيره فإنَّ الله جل وعلا يتخلى عن هذا العمل؛ قال: «**تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**»؛ يترك الله جل وعلا العامل والعمل، وبالتالي فإنَّ هذا الدليل صريحٌ في حبوطِ العمل الذي دخله الرياء، وجاء عند أحمد في روايتهِ لهذا الحديث: «فأنا منه بريء وهو للذي أشرك»؛ يعني هو للذي أشرك؛ إذًا ليذهب إليه وليطلب منه ثوابًا، أما ربنا الغني ﷻ فإنه لا يُثيبُ على عملٍ مشوب قُصد به هو سبحانه وغيره.

---

(٦٣٨)لأنَّ أفعل التفضيل قد تُستعمل وليس ثمَّة قدرٌ مشترك يُقارن فيه بين طرفين، كقول الله جلَّ وعلا: ﴿آللَّهُ خَيْرٌ﴾ [النمل:٥٩].

(٦٣٩)والله ﷻ له الغنى المطلق ﷻ، ومن أسمائه «الغني».

وهذا من المواضع المهمة التي تحتاج إلى تنبُّه، **وذلك أن أحوال الرياء من حيث اقتضاء الحبوط للثواب وعدم ذلك ترجع إلى ما يأتي:**

النوع الأول: الرياء المحض؛ وهو الذي لا قصد للإنسان فيه للدار الآخرة، يعني لا يريد وجه الله بالعمل ولا يريد تحصيل الثواب الأخروي، إنما أراد الرياء فقط، قصد التصنُّع للمخلوق فقط، قام يصلي مثلًا لأجل أن يُحمد ويُمدح ويُثنى عليه لا غير، لا التفات عنده لنيل الثواب من الله ﷻ ، وهذا معلومٌ بالضرورة أنه عملٌ حابط.

وهل يُتصور وقوع ذلك من مسلم؟ أو أن هذا لا يكون إلا من مشركٍ منافق؟

بعض أهل العلم كابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذهب إلى أن هذا العمل يمكن أن يُتصور وقوعه من مسلم في الأعمال التي تظهر؛ كالحج والصدقة والزكاة وما إلى ذلك، لكن لا يُتصور وقوعه من مسلم في الأعمال التي فيها خفاء؛ كالصيام أو صلاة الإنسان في جوف بيته وما إلى ذلك. المقصود أن هذا النوع من الأعمال حابطٌ قطعًا(٦٤٠) .

النَّوع الثاني: هو الرياء اللاحق بأصل العمل(٦٤١)؛ بمعنى: قام بالعمل أصلًا ودافعه إرادة وجه الله ومُراءة الخلق؛ قام يصلي ويريد أن يُثاب وأن يؤدي

---

(٦٤٠)وعلى كل حال هذا النوع في غاية الخطر على صاحبه، وهو ولا شكَّ ذريعة لوقوع الرياء الأكبر والنفاق الأكبر.

(٦٤١) أن يشارك الرياء القصْد الأُخروي في أصل العمل.

الفريضة التي أوجبها الله عليه، ويريد أيضًا مع هذا أن يُحمد ويُثنى عليه ويراه الناس ويُشيرون إليه بالأصابع فيقولون عابد، هذا القصد كان مقارنًا لأصل العمل، يعني ما ابتدأه إلا وهو يريد هذين الأمرين، قلنا هذا يسمى الرياء اللاحق بأصل العمل. وهذا النوع من الأعمال حابطٌ بلا شك، بل قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ إنَّه لا يعلم عن السلف خلافًا في ذلك[٦٤٢].

وإن كان بعض المتأخرين قد خالف في هذا ولكنهم محجوجون؛ محجوجون بالإجماع المتقدم، ومحجوجون بالأدلة الصريحة الواضحة. من ذلك: هذا الحديث الذي بين أيدينا أَلَم يقل الله ﷻ: «من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه»[٦٤٣]. وأضف إلى هذا ما خرَّج النسائي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في سُننه بإسناد جيد كما قال بن رجب « أن رجلًا جاء إلى الرسول ﷺ وقال يا رسول الله الرجل يريد الغزو للأجر والذِكرِ ما له؟» يعني ما الذي يحصِّله؟ هو يريد الغزو والقصد أمران؛ ما هما؟ أجر وذكر؛ ذِكر يعني أن يذكره الناس فيثنون عليه ويحمدونه. فقال النبي ﷺ : «لا شيء له»، فأعاد الرجل السؤال، فأعاد النبي ﷺ الجواب، فكرر السؤال ثالثًا فأجاب النبي ﷺ ثالثا بقوله: «إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصًا واُبتغي به وجهه»؛ هذه قاعدةٌ رصينة تنسحب على

---

(٦٤٢) وقال أبو العباس ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «الاختيارات»: «ولا ثواب على عمل مشوب إجماعًا».

(٦٤٣) وجاء عند أحمد وابن ماجة رواية لهذا الحديث: «فأنا منه برئ وهو للذي عَمِلَ»، فدلَّ هذا على أن هذا العمل حابط.

جميع الأعمال ، وهي التي لا ينبغي لمسلم أن يغفِلها: «إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصًا وأُبتغي به وجهه»[٦٤٤].

والسؤال: هذا العمل الذي صاحبه الرياء في أصلهِ أكان خالصًا؟ لم يكن خالصًا، وبالتالي فإنَّه غيرُ مقبول، أي أنَّه حابط لا ثواب فيه، ويا ليت أن العمل الذي دخل فيه الرياء يكون حابطًا فحسب، إنَّما هناك عقوبةٌ عظيمةٌ تترتب على الشرك بالله ﷻ، الذي علِمنا أنه شركٌ أصغر. إذًا هذا النوع حابط أيضًا بلا شك.

النوع الثالث: هو الرياء الطارئ؛ بمعنى أنه ابتدأ العبادة وهو مخلصٌ فيها لله، ثم طرأ عليه واردُ الرياء، **وهذه الحالة لها صورتان**:

الصورة الأولى: أن يكون هذا الوارد خاطرًا فدفَعَه فذهب؛ قام يصلي ثم تنبه إلى أن هناك إنسان يحبه أو يقدِّره أو يطمع فيه ينظرُ إليه، فبدأ يحسِّن الصلاة وبدأ يُطبِّق السُنة كاملة في ذلك، ثم إنه تنبَّه وتعوَّذ من الشيطان وترك هذا الالتفات والتصنع للمخلوق؛ فإن هذا لا يضره بلا شك، خاطرٌ ورد فدفعه، لا يضره إن شاء الله.

الصورة الثانية: أن يطرأ فيسترسل معه العامل؛ يعني إذا طرأ عليه في أثناء العمل بقيَ معه إلى انتهائه[٦٤٥] ، **هذا موضعٌ اختلف فيه العلماء**:

---

(٦٤٤) **ويدل على هذا أيضًا**: سائر النُّصوص التي دلَّت على أن الإخلاص شرط قبول العمل، فالرياء والإخلاص ضدَّان لا يجتمعان، فمتى ما كان رياء لم يكن إخلاص، ولهذا قال بعض السَّلف –وأخرجه ابن نُعيم في «الحِلية» عن يوسف بن أسباط رَحِمَهُ ٱللَّهُ – قال: «إن الله لا يقبل من العمل ما كان فيه مثقال ذرة من رياء».

-**من العلماء من قال**: إن هذا الرياء الطارئ لا يضر في قبول العمل[٦٤٦] ؛ لأن ابتداءه كان لله خالصًا[٦٤٧] .

-**وقالت طائفة من أهل العلم**: إن هذه الصورة يكون فاعلُها ارتكب معصية غير أن العمل ثبت ثوابه له، لأن العبرة بالأصل[٦٤٨] .

-**والقول الثالث**: أنَّه حابطٌ أيضًا، مثله مثل الصورة التي قبلها[٦٤٩] .

وهذا القول هو الأقرب والله تعالى أعلم؛ وذلك لأن الأدلة التي سبقت لم تفرِّق في ورود الرياء على العمل بين ما كان في أصلهِ وبين ما كان طارئًا عليه، «إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصًا، وابتغي به وجهه»، هل هذا العمل الذي خالطه الرياء في وسطه واستمر إلى نهايته هل هو خالصٌ لله؟ الجواب لا، وبالتالي فإنَّه يكون حابطًا أيضًا[٦٥٠] .

---

(٦٤٥) كأن يدخل إلى الصلاة مُخلصًا وفي أثناء ذلك يتنبه إلى أنَّ شخصًا ما ينظر إليه فيُزيّن صلاته؛ يُطيلها ويظهر الخشوع فيها ويجتهد في تطبيق السُنَّة فيها؛ لأجل أن يُرى، لأجل أن يُمدح من هذا الذي ينظر إليه.

(٦٤٦) وإنما ينقص الأجر.

(٦٤٧) فلا تُؤثر النية الطارئة في بُطلانه.

(٦٤٨) هذا الإنسان يُثاب على القدر الذي أخلص فيه فحسب، وأمَّا بقية العمل فمردود.

(٦٤٩)لأنه يرتبط أوله بآخره، واستدل أصحاب هذا القول بالأدلة السابقة التي دلَّت على أن العمل لا يُقبل إلا إذا كان خالصًا وابْتُغِيَ به وجهُ الله ﷻ لا شريك له.

(٦٥٠)وعلى كل حال الأمر في هذه المسألة مخوف جدًا.

لكن تنبه هنا إلى من أهل العلم كابن جرير الطبري وغيره من أهل العلم قالوا: **إنَّ محل الخلاف ومحل البحث هاهنا هو في عملٍ يرتبط أوله بآخرهِ، أما ما كان مما لا يرتبط أوله بآخره؛ فإنَّه لا يَرِدُ فيه الخلاف**، ما معنى هذا الكلام؟

يعني: الخلاف إنَّما نتصورهُ في عمل واحد له ابتداء وانتهاء؛ كالصلاة كالصوم يرائي في صيام اليوم والعمل لا يكون صيامًا إلا من أول اليوم إلى آخرهِ فيه إمساك، الصلاة من التكبير إلى التسليم، الحج منذ أن يُحرم إلى أن يطوف طواف الوداع.أما الأعمال التي لا يرتبط أولها بآخرها؛ كقراءة القرآن، فإنَّ كُل آية بمثابة العبادة المستقلة، الذكر، التسبيح، كلُّ تسبيحة بمثابة العبادة المستقلة، وبالتالي ما مضى والإنسانُ مخلصٌ فيه فإنه مُثابٌ عليه، وما ورد عليه الرياء فما بعد فإنه يكون قد راءى فيه، وبالتالي فهو حابط. فتنبه إلى محل الخلاف أو محل البحث في هذه المسألة.

الصورة الرابعة والأخيرة هي في الرياءِ اللاحق بعد العمل[٦٥١]؛ بمعنى: قام الإنسان بالعمل مخلصًا ثُم حصلَ الرياءُ بعد ذلك، وهل هذا متصور؟ هل يُمكن

(٦٥١) وهذه الحالة يحتاج أن يُنبَّه فيها إلى أن **ظهور العمل الذي أخلص فيه صاحبه بعد انقضائه له صورتان:**

الصورة الأولى: أن يظهر دون إظهارٍ من صاحبه؛ بمعنى لا يكون ظهوره للناس بعد انقضائه بسببٍ من صاحبه، إنما لسبب أو لآخر علم الناس أن فلانًا قد عمل كذا وكذا من العمل الصالح، ولا يكون منه قَصْدٌ أو حركةٌ لذلك، فيُمدح ويُثنى عليه. وهذه الصورة إن فرح صاحبها واستبشر بفضل الله جلَّ وعلا عليه، ولأنَّ الله ﷻ قد أظهر الحسن من عمله

أن يرائي الإنسان بعملٍ قد مَضَىَ وانتهى؟ الجواب: نعم، كأن يقوم الليل ثم أنه إذا أصبح تحدَّث بما عمل، "البارحة الله المستعان الواحد قام وصلى ما كتب الله له"، والمراد أن يُعجب الناس به وأن يُصدَّر في المجالس وأن تكون له الكلمة؛ لأنه إنسان عابد. والغالب أن مثل هذا نيته في الأصل مدخولة، لكن لنتصور ولنَقُل إنه كان مخلصًا.

هذه الصورة من أهل العلم من قال إنها من الرياء، ومنهم من قال إنها لا تدخل في مسائل الرياء بل هذه **من مسائل السمعة**، وإن شئت فقُل التَسميع.

وستر عن الناس قبيحه، ويرجو أن يكون الأمر كذلك في الآخرة؛ فمثل هذا لابأس به، بل قد وصف ذلك النبي ﷺ كما في «مسلم» بأنَّه «عاجل بُشرى المسلم».

أمَّا الصورة الثانية فهي: أن يُظهِر العامل عمله الذي مضى وانقضى على الإخلاص؛ **وهذا أيضًا له صورتان:**

-**الأولى**: أن يكون مراده أن يُقتدى به وأن يُؤتسى به؛ فيُخبِر أنه فعل كذا وكذا قصده ونيته -والله ﷻ وحده العالم بذلك- هو أن السامعين يقتدون به، فمثل هذا قصدٌ حسن ولابأس به، وصاحبه مأجور، وإن كان المقام مقامًا مَخُوفًا أيضًا، فما أكثر ما يظن العامل أنَّه إنما أراد حث الآخرين وإذا بنيَّته تتقلَّب شعر أو لم يشعُر، والنية سريعة التقلب، على الإنسان أن يوغِل في هذه المسألة برفق وأن لا يتوسع فيها.

-**الصورة الثانية**: أن يُظهِر العامل عمله الذي مضى وانقضى رغبةً في أن يعظُم في أعيُنيهُم، وأن يقوموا بخدمته، وأن يُصدَّر في المجالس وما شاكل ذلك؛ هذه الصورة أطلق عليها بعض أهل العلم أنها رياء، ووصفها طائفة أخرى بأنها من التسميع أو السُمعة ولا تُسمّى رياء.

واختلف العلماء في التفريق بين الرياء والتسميع ، و في الصحيحين قال النبي ﷺ: «من راءى راءى الله به، ومن سمَّع سمع الله به»، وعند ابن حبان عن أنس رضي الله عنه بإسناد صحيح أن النبي ﷺ كان في دعائهِ -والدعاء طويل- قال: «وأعوذ بك من السُمعةِ والرياء». إذًا عندنا أمران: شيء اسمه «**سمعة**»، وشيء اسمه «**رياء**».

السمعة أو التسميع أكثر من رأيته فرَّق بينهما ويبدو لي والله أعلم أنه هو الفارق الصحيح: أنَّ الرياء يكون مقارنًا للعمل؛ وهذا ظاهر من اللفظ؛ هو يعمل ويريد أن يُرى عمله، رياء فيهِ رُؤية، أما السُمعة أو التسميع: فإنَّها ما كان لاحقًا بعد العمل؛ لأنَّ الأمر الآن لا يعدو أن يكون سماعًا بالعمل، يعني يُسمِّع خبر العمل، فهو يتحدث بالعمل بعد ذلك لأجل أن يُحمد ويُثنى عليه، وهذا يقع مع الأسف الشديد كثيرًا من الناس لا يصبر أو لا يُطيق أن يصبر على كتم عملٍ في السابق، ولذلك تجدهُ يتفننُ في الحديث حتى يصل إلى أن يتكلم عن عملٍ عمله سابقًا(٦٥٢) .

المقصود سواءً سمَّينا هذه الصورة «رياءً» أو «تسميعًا» ما حكمها؟

اختلف العلماءُ أيضًا في هذه المسألة:

---

(٦٥٢) **طائفة من أهل العلم ترى** أن الرياء والسمعة بمعنى واحد، ولكن الرياء متعلقٌ بما يُرى، والسمعة متعلقةٌ بما يُسمع، حينما يصلي لأجل أن يُرى هذا رياء، وإذا تلا القرآن أو خطب أو درَّس أو ذكر فالذكر المشروع فهذا مسموع وهذه سُمعة.

- **منهم من قال**: إنَّ هذا الأمر ليس محبطًا للعمل؛ لأنَّ الدليل قد جاء على أن الرياء هو المحبط؛ وهذا ليس برياء، إنما هذه معصية يُعاقب عليها، أما العمل فالثواب ثابتٌ فيه.

-**وقال بعض أهل العلم**: إنَّ هذا العلم حابطٌ أيضًا؛ لأن حكمهُ حُكم الرياء ولا فرق بينه وبين الرياء، والله جل وعلا لا يقبلُ من العمل إلا ما كان خالصًا.

-**وقال بعضُ أهل العلم**: إن المقام مخوفٌ محتمل؛ يعني يُخشى على مَن سَمّع أن يكون عملهُ حابطًا.

والذي يبدو -والله تعالى أعلى وأعلم- من خلال التأمل في قول النبي ﷺ (ومن سَمعَ سمعَ الله به) أنَّ هذا هو وعيد، والمراد بأن يُسَمعَ الله به: أنه يفضحهُ على رؤوس الأشهاد يوم القيامة، نسأل الله السلامة والعافية. ومثلُ هذا لا يتناسب أن يكون معه إثابةٌ على العمل، عملٌ كان سببًا لأن يُسَمَّعَ بصاحبهِ يوم القيامة لا يتناسب معه أن يكون معه ثواب. فالذي يبدو والله أعلم أنَّ هذا التسميع يوصل العمل إلى حدِّ الحبوط، ولا يُستغرب أن يكون شيء متأخر مُحبطًا لشيء متقدم، فإنَّ الردة المُتأخرة محبطه للأعمال المُتَقدمة إذا قارنت الموت، كذلك المعاصي والسيئات؛ دلت الأدلة على أنها مُؤثرة إحباطًا أو إضعافًا للثواب بالنسبة للحسنات المتقدمة عليها. إذًا لا يبعُد أن يكون التسميع مؤثرًا في حبوط العمل الذي تقدم من الإنسان.

إذًا هذه هي الأحوال الأربع التي تتعلق بحبوط الأعمال بالرياء، وإن شئت فقُل بالرياء والتسميع.

والصورة الرابعة أنبهك فيها ونفسي إلى ثلاث تنبيهات:

التنبيه الأول: أنَّ عِلَم الإنسان بهذا الحكم يحفزهُ إلى أن ينظُر إلى عمله الصالح كرأس مال ينبغي أن يحافظ عليه الإنسان، وهذا قَلَّ من يلتفت ويتنبَّهُ إليه، بمعنى أنَّ عملك الصالح ينبغي أن تحافظ عليهِ أعظم من حفاظك على جوهرةٍ ثمينة تمتلكُها، هذه أعمالٌ صالحة قمت بها لله ﷻ حافظ عليها، أُحافظ عليها من ماذا؟ من أن يَرِدَ عليها ما يُحبطها أو يُبطلها أو يُنقصُ ثوابها، وهذا يشتملُ على أمرين: **أولًا** التَسميع، **وثانيًا** المعاصي والسيئات؛ وذلك بأنَّ صبر الإنسان على العمل الصالح بعد فعلِه، وهذا من أدق أنواع الصبرِ على الطاعة؛ أن يصبر الإنسان على الطاعة بعد فعلها، بأن يصبر على كتمانِها وعدم إشهارها، وأيضًا يصبر نفسه على أن لا يقعُ في معصية تكون سببًا في حبوطِ عمله أو نقصان أجره.

التنبيهُ الثاني: الصورة الرابعة لا يتعلقُ بها صورةٌ أخرى، وهي أن يَظْهَر العملُ دون إظهار؛ بمعنى رُبما عمل الإنسان العمل الصالح وهو مخلصٌ لله جل وعلا لكن بغير فعلٍ منه ولا إرادةٍ منه ظهر العملُ للناس، صورتنا التي نبحثُ فيها قبل قليل تتعلقُ بعملٍ أظهره هو للناس وسُمّعَ هو للنَّاس، ومثلُ هذا أراد به تحصيل الثناء والمدح.

أمَّا إذا كان ذلك بغير فعلٍ منه؛ اطَّلع عليه إنسان أثناء أداءه للعمل، شاهده وهو يتصدق أو لاحظه وهو يقوم الليل فاشتهر الخبر فبلغه ذلك، هذا وإن فرح به فإنَّه لا يضره إذا كان فرحهُ بظهورِ فضل الله ﷻ وكتمان عملهِ السيء، فهو

يرجو أنَّ الله ﷻ يُعامله بذلك في الآخرة، يكتُم ويستر عليه أعماله السيئة ولا يظهر إلا عمله الصالح، وقد جاء في صحيح مسلم سؤال النبي ﷺ عن هذه الصورة، وهي أنه سئل ﷺ عن الرجل يعمل العمل فيُحمد عليه؟ قال النبي ﷺ: «تلك عاجلُ بشرى المؤمن».

التنبيه الثالث: وهو أن بعض الناس يقول أنا أُظهر عملي الصالح الذي قد عَمِلته لأجل أن يُقتدى بي فيه؛ هل هذا يدخل في مسائل الرياء والتسميع أو لا يدخل؟

الذي يظهر والله أعلم أن ذلك ليس من مسائل الرياء والتسميع ولا يَردُ هذا أصلًا، يعني: يقول "أنا أخبرت الناس بأن والله حصل كذا وكذا مني لأجل أريد أن أَحَفِزَهُم وأدفعهم لكي يعملوا"، وربما يعمل أمامهم لأجل ذلك؛ فهذا فيما يبدو والله أعلم أنه ليس من مسائل الرياء، ولكنَّ المقامُ مقام مَخُوف، فأوصيك يا رعاك الله بأن توغل في هذا الموضوع برفق، فإنَّ القلب يتقلَّب، والنيةُ تتغيرُ في الدقيقة الواحدة بل في اللحظةِ الواحدة، رُبما يبدأُ الإنسانُ هذا الإظهار وهو لا يريد من الناس مدحًا وثناءً ، إنَّما يُريد تحفيزهم ودعوتهم إليه، لكن رُبما يُسرع إليه تغيرٌ في النية، فالمقام على كل حال مَخوف، وكل إنسان حَجيجُ وطبيبُ نفسه.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ مَرْفُوعًا: «أَلا أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنَ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ؟». قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «الشِّرْكُ الْخَفِيُّ؛ يَقُومُ الرَّجُلُ فَيُصَلِّي فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهُ؛ لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ» رَوَاهُ أَحْمَدُ).

هذا الحديث(٦٥٣) فيه تسمية النبي ﷺ الرياء بـ«الشرك الخفي»، وفي الحديثِ أن النبي ﷺ خاف الرياء على كُمَّلِ المؤمنين وهم أصحابه، فماذا يُقال عمَّن بعدهم؟ أو ماذا يُقال عن أهل هذه العصور المُتأخرة التي ضَعُف فيها الإيمان وضَعُف فيها التوحيد! والله المستعان.

لا شك أن المَخوف علينا معشر أهل هذه الأزمان الشرك الأصغر والشرك الأكبر أيضًا، كلاهما والله مَخُوف. المقصود أن أمرًا يخافه النبي ﷺ على أصحابه الذين هم أكمل الناس إيمانًا وتوحيدًا لحريٌ أن يخافه الإنسان على نفسه(٦٥٤).

---

(٦٥٣) حديث أَبِي سَعِيدٍ هذا وهو حديث حسن جيد.

(٦٥٤) وفي هذا عبرة للمسلم وعظة أن يخاف ويحذر من حصول الرياء؛ فإن الرياء -كما قال بعض السلف- (الرياء أقرب ما يكون مَمَّن هو آمنٌ منه)؛ يعني من يأمن الرياء هو أقرب الناس إليه، والذي يخاف منه ويحذره حريٌ أن ينجو منه.

أخبر النبي ﷺ في هذا الحديث بأن الرياء هو الشرك الخفي، وكما سبق سمَّاه عليه الصلاة والسلام -كما في حديث محمود ابن لبيد- «شرك السرائر»، وسمَّاه أيضًا في حديث محمود ابن لبيد «الشرك الأصغر»، وكذلك جاء عن شدَّاد بن أوس بإسناد ثابت قال:

ولاحظ أن النبي ﷺ ذكر أن الرياء أخوف عنده عليهم من المسيح الدجال.

أتدري من المسيح الدجال؟! إنَّه أعظم فتنة خلقها الله ﷻ منذ خلق آدم إلى قيام الساعة، هذا الفتنة العظيمة الذي كان النبي ﷺ يستعيذُ بالله ﷻ منه ويعلِّم أصحابه أن يستعيذُ بالله منه داخل الصلاة وخارجها، بل كان يُعلِّمهم ذلك كما يُعلمهم السورة من القرآن[٦٥٥].

المسيح الذي سُمي بالمسيح: إمَّا لأنَّه يمسح الأرض خلال أربعين يومًا يجوبها كلها. أو أنَّه ممسوح العين اليُمنى كما أخبر النبي ﷺ في شأنه.

وهو أيضًا دجال؛ من الدجل، وهو الكذب والتدليس.

فهو جمع هذين الوصفين: «مسيحٌ» «دجال»، هذه الفتنة العظيمة التي يجعلها الله ﷻ علامةً من العلامات الكبرى للقيامة، ومع خطرها وعظيم الخوف منها ومع ذلك فالرياء أخوف عند النبي ﷺ منه؛ لأنه ذو مسالك دقيقة

«»كنا نعُد الرياء على عهد رسول الله ﷺ الشرك الأصغر)، فكونه يوصف بهذه الأوصاف بأنه: «الشرك الخفي» وأنه «الشرك الأصغر» وأنه «شرك السرائر» دليلٌ على عظيم خطره. سمَّاه النبي ﷺ «الشرك الخفي» نظرًا لخفائه، فهو غير ظاهر، وإنما هو أمر باطن لا يطَّلع عليه إلا الله جلّ وعلا، وهو أيضًا قد يخفى على صاحبه؛ بمعنى أن الرياء لدقّة مسالكه ووعورة طرائقه قد يخفى على من هو واقعٌ فيه، ولذلك لا يتنبه له ولا يتيقَّظ لدقائقه إلا الصدِّيقون كما يقول أهل العلم، فهو في غاية الخفاء، والداعي إليه شديدٌ وعظيم.

(٦٥٥) المسيح الدجال: مسيح الضلالة، الذي ما خلق الله خلقًا أكبر منه مُنْذُ خَلَق آدم وإلى قيام الساعة كما جاء في «صحيح مسلم» عنه عليه الصلاة والسلام.

خفية رُبما تخفى هذه المسالك على الإنسان نفسهِ، ولو تكلمنا عن مسالك الرياء الخفية لطال الأمر، لكن على الإنسان أن يُحاسب نفسهُ محاسبة الشريك الشحيح في هذا المقام؛ وذلك أنَّ الأمر والله عظيم، الإنسان في عبادته يُعامِل الإله والرب الغني تبارك وتعالى الذي لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا ليس فيه أي شائبةٍ في قصد غيرهِ.

فَسَّر النبي ﷺ الشرك الخفي بمثالٍ له، هو لا ينحصر في هذا المثال لكنه مثالٌ شائع، وإلا فبقية الأعمال على هذا المنوال.

«وهو أن يقوم الرجل فيصلي فيُزين صلاته لما يرى من نظر الرجل»؛ يقوم يُصلي وإذا بإنسانٍ يَعْظُم في عينه ويريد هو أن يَعْظُم في عينه فيُحَسِّن الصلاة، يقرأ قراءة حسنة بصوت حسن، ورُبما يتخشع، ورُبما حاول أن يبكي، ورُبما أطال الركوع أو السجود، المقصود أنه يُزين هذه الصلاة لا لشيء إلا لأجل أن يُثني عليه هذا الإنسان ويمدحهُ.

ولو أن الإنسان عَقِل لرأى أن هذا الأمر لا فائدة منه، ثم ماذا؟! سَل نفسك هذا السؤال، مدحك وأثنى عليك ثُم ماذا؟! ما هي النتيجة؟ ما هي الثمرة وراء ذلك؟ الحقيقة لا شيء، الذي مدْحه زين وذمه شين هو الله ﷻ، الذي بيدهِ أن يُثيبك هو الله جل وعلا، الذي بيدهِ النفع على الحقيقة هو الله جل وعلا ، هؤلاء الخلق جميعًا ليس منهم شيء ولا إليهم شيء، كل الذي فوق التراب تُراب، ولذلك تذكر تلك الكلمة الثمينة التي قالها الفُضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (من عرف الناس استراح)؛ لم يتصنع لهم، ولم يقصدهم بشيء، ولم يلتفت إليهم،

ولم يراءهم، ولم يُسمع لهم؛ لأنهم في الحقيقة لا يُقدِّمون ولا يؤخرون، ولا ينفعون ولا يضرون، «واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك»، الموضوع ينبغي أن يُنظر إليه إن كان الإنسان يُريد الخير لنفسه من هذه الجهة(٦٥٦) .



(٦٥٦) فعلى الإنسان بلْ على المسلم الصادق أن يحذر هذا الأمر، وأن يخافه، وأن يفتش في نفسه؛ لعلَّه أن يكون قد وقع في بحارٍ منه وهو لا يشعر.

قال المصنف رحمه الله:

٣٧-بَابُ
مِنَ الشِّرْكِ إِرَادَةُ الإِنْسَانِ بِعَمَلِهِ الدُّنْيَا

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[هود:١٥-١٦] الآيَتَيْنِ.

فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ، تَعِسَ عَبْدُ الْخَمِيصَةِ، تَعِسَ عَبْدُ الْخَمِيلَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ، طُوبَى لِعَبْدٍ آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ، أَشْعَثَ رَأْسُهُ، مُغْبَرَّةٍ قَدَمَاهُ، إِنْ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ، وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ، إِنِ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ، وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ».

قال الشارح وفقه الله:

يقول المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (بَابٌ مِنَ الشِّرْكِ إِرَادَةُ الإِنْسَانِ بِعَمَلِهِ الدُّنْيَا)؛ مِنَ الشِّرْكِ: يعني من أبعاضه ومن أنواعه.

والشرك والعمل هاهنا يراد بهما شيءٌ خاص؛ شركٌ خاص وعملٌ خاص:

- **أمَّا الشرك** فإنه الشرك الأصغر؛ هذا هو لبُ ما يتعلق بالموضوع من الشرك، فالذي يرِد على المسلم من هذا الموضوع وهو «إرادة الإنسان بعمله الدنيا» إنما هو متعلقٌ بأحد نوعي الشرك؛ وهو الشرك الأصغر.

▪ **كذلك العمل** هنا هو العمل الأخروي؛ يعني العمل الصالح الذي يراد به وجه الله ﷻ والدار الآخرة؛ فهذا هو المقصود، أمَّا العمل الدنيوي الذي ليس من أعمال البر، ليس من الحسنات، ليس من الصالحات، فإنَّه لا حرج على الإنسان أن يقصُد به الدنيا؛ كأن يتاجر أو يزرع أو يصنع أو يفعلَ ما شاكل ذلك فإن هذا لا حرج بأن يكون قصد الإنسان فيه الدنيا.

إذًا بحثنا هو في العمل الأخروي؛ العمل الصالح؛ «**من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا**».

والفرق بين هذا الباب وما قبله؛ تذكرون أن الباب السابق كان في الرياء، الفرق بين الموضوعين: هو أن هذا الذي بين أيدينا الآن يريد صاحبُ هذه الإرادة -إرادة الدنيا- يريد نيل شيء من حطامها بالعمل الصالح، أمَّا المرائي فإنه لا يريد شيئًا من الدنيا إنما قصده معلقٌ بثناء الناس ومدحهم وأن يعظُم في أعينهم، سواءً جاءهُ شيء من نعيم الدنيا أو لم يأته، هو لا يلتفت إلى هذا، هو يريد أن يراه الناس فتكونَ له في قلوبهم مكانة ومنزلة وينال المدح والثناء.

أما الذي نتحدث عنه الآن فهو لا يهتم لكلام الناس؛ لا يريد منهم ثناءً ولا مدحًا ولا تقدمًا في قلوبهم، إنما يريد شيئًا من الدنيا؛ أن يُحصِّل مالاً، أن يحصِّل وظيفة، أو أن يترقى في المراتب الدنيوية وما شاكل ذلك.

وإن كان الأمران يشتركان في أنهما من موارد الشرك الأصغر، ومن أسباب الحبوط والخسران، عافاني الله وإياكم من ذلك.

«إرادة الإنسان بعمله الصالح الدنيا»؛ هذه المسألة تتفرع إلى حالتين:

الحالة الأولى: تمحضُ الإرادة الدنيوية؛ بمعنى أن يعمل الإنسان العمل الصالح ولا قصد ولا التفات في قلبه البتة إلى نيل ثوابِ الله ورضاه أو نيل شيء من الثواب الأخروي، إنَّما يريد فقط نيل شيءٍ من الدنيا؛ يصلي أو يصوم أو يحج ولا التفات عنده ولا إرادة له إلى نيل شيءٍ من الدنيا. وهذا لا شك أنه عملٌ حابط وأن هذا القصد لا يكاد يصدر من مسلم؛ وبالتالي من كان لا يريد بالعمل الصالح إلا الدنيا فعمله حابط مردود عليه ولا شك. **دل على هذا** (٦٥٧):

- ما بين أيدينا الآية الأولى التي ستأتي معنا إن شاء الله وهي آية هود: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُون * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآَخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[هود:١٥-١٦].

- كذلك آية الشورى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾[الشورى:٢٠].

- وكذلك آية الإسراء: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾[الإسراء:١٨-١٩].

---

(٦٥٧) ويدل عليه جميع النُّصوص التي دلَّت على وجوب الإخلاص؛ ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة:٥]، وأمثال ذلك من النُّصوص.

هذه ثلاثُ آيات يؤيدُ بعضها بعض ويصدِّقُ بعضها بعضا، تدل على أن من كان قصده الدنيا ولها يعمل فإنَّه ليس له في الآخرة من نصيب، ومن كان يريد الآخرة ولها يعمل فإن عمله مقبول، وهو مثابٌ من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

➢ بقيت آية رابعة، والشيء بالشيء يذكر؛ وهي آية النساء: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾[النساء:١٣٤]، **هل هذه الآية على نَسَقِ الآيات الثلاث السابقة أم لا؟**

اختلف المفسرون رحمهم الله في ذلك:

القول الأول: أنها تدل على ما دلت عليه الآيات السابقة؛ من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة.

والقول الثاني: أنها لا تدل على ما دلت عليه الآيات السابقة، وإنما هذه الآية فيها تنبيهٌ وتحذير لقاصر الهمة الذي همَّته الدنيا ولا يطمح إلى ما فوقها، نبَّهته هذه الآية إلى أنه ينبغي أن يكون عالي الهمة فيطلب خيري الدنيا والآخرة؛ وذلك أنَّ الدنيا والآخرة بيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وهو قادرٌ على أن يعطيهما معًا؛ فينبغي للإنسان أن تكون عنده همة لنيل الدنيا، وعنده أيضًا همة لنيل الآخرة؛ حتى يكون من الرابحين لا من الخاسرين. وهذا القول اختاره ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ولعله الأقرب في تفسير الآية(٦٥٨).

(٦٥٨) ومِمَّا يدل على هذا الحكم أيضًا: قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما خرجه الإمام أحمد وغيره: «بشِّر هذه الأمَّة بالسناء والرِفعة، والنصر والتمكين، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن

عودًا على بدأ؛ اتضح لنا أن من كان مراده الخالص في العمل الصالح إنما هو الدنيا فلا شك في أن عمله حابطٌ مردود؛ وهذا مما لا ينبغي أن يُختلف فيه.

أمَّا الحال الثانية: فهي حالة تشريك النيتين؛ النية الدنيوية والنية الأخروية، فما حكم ذلك؟

قبل أن أسترسل أنبه إلى أننا نتحدث عن نية دينية ونية دنيوية، وبالتالي فليس داخلاً في هذا نيتان صالحتان؛ بمعنى من عمل عملاً من الأعمال الصالحة يريد به أكثر من نية صالحة فهذا ليس من موضوعنا الذي نبحث فيه، وهذا بابٌ عزيزٌ شريف لا يقصده إلا صادق الطلب عالي الهمة غزير العلم؛ وهو أن يدخل إلى عمل صالح فينوي فيه نيتين فأكثر وبالتالي يخرج بعبادتين فأكثر؛ كأن يذهب مثلاً إلى المسجد ونيته أن يصلي صلاة الجماعة، ونيته أيضًا أنَّه إذا جلس استغفرت له الملائكة؛ ونيته أيضا أنه يغض طرْفه عن النظر في الحرام ويكفُّ آذاه عن النَّاس ويحفظ لسانه عن الوقوع في الغيبة؛ لاحظ أن هذه ثلاث نيات، وربما ينوي الإنسان أكثر من ذلك؛ فيكون هذا الذكي في عمل الآخرة قد خرج من عبادةٍ واحدة بعبادات شتى. كذلك أن ينوي الصوم -فرضًا كان أو نفلاً -وينويَ مع ذلك حصول العفاف، وكبح جماح شهوته، وهي التي أرشد إليها النبي ﷺ في قوله: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن

له في الآخرة نصيب»، ودِلالة هذا الحديث ظاهرة على أنَّ من كانت همته منصرفة إلى الدنيا وجعل الدين وسيلة فإنَّ عمله حابط وليس له ثوابٌ يُجازى به في الآخرة.

لـم يسـتطع فعليـه بالصـوم فإنـه لـه وجـاء». المقصـود أنَّ هـذا لـيس داخـلًا في موضوعنا.

نحن نتحدث عن إنسان يريدُ عبادةً فينوي فيها نيتين:

١. نية بإرادة وجه الله ﷻ والدار الآخرة.

٢. ونية يريد بها نيل شيء من حطام الدنيا.

اختلف العلماء رحمهم الله في هذه الحال:

➢ **فمنهم من قال**: إن ورود أدنى نيةٍ أو طرفٍ من إرادة دنيوية في عمل صالح يُبْطِلُ العمل الصالح بالكلية، وابن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ مال أو انتصر إلى هذا في كتابه «المحلى»، حتى إنه ذكر أن من توضأ ونوى بوضوئه العبادة والتبرد فإنه لا يجوز له أن يصلي بهذا الوضوء، لأنه وضوء باطل. واستدل على هذا بقول الله ﷻ ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾[البينة:٥]، فلمَّا كان هذا الإنسان نيته غير خالصة فإنَّ عبادته حابطة.

طيب وماذا لو أنه توضأ فأراد العبادة وأراد تعليم غيره أيصح أن يصلي بهذا الوضوء أم لا؟ قال: نعم يصح؛ لأن قصد تعليم الناس أمرٌ أُمِر به شرعًا وبالتالي فإنه لا حرج عليه في ذلك.

➢ **والقول الثاني**: أن تشريك نيةٍ دنيوية مع نية أخروية لا يؤثر في العمل إثابةً أو إنقاصًا أو إحباطًا؛ وانتصر لهذا القرافي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في جماعةٍ من أهل العلم.

واستدل أصحابُ هذا القول بأنَّ الشريعة قد رخصت بنية نية دنيوية في عمل صالح، ولا فرق بين أن تكون هذه النية الدنيوية تابعةً أو متبوعة، غالبةً أو

قاصرة؛ ومن تلك الأدلة قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾[البقرة:١٩٨]، هذه الآية في شأن التجارة في الحج، يعني أن يحج الإنسان ونيته تحصيل العبادة وأيضا أن يتاجر أثناء الحج، الله جل وعلا قال: ﴿ليس عليكم جناح﴾.

قال أيضا من تلك الأدلة قول النبي ﷺ: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم»، قال وهذه نية غير نية العبادة. وهذا الاستدلال في هذا الدليل الثاني فيه نظر؛ فإن نية الإعفاف نية مأمورٌ بها وليس نية دنيوية.

على كل حال هذا هو القول الثاني في هذه المسألة.

➢ **القول الثالث** وهو ما ذهب إليه أكثر أهل العلم: وهو النظر في النية؛ فإن كانت النية الدينية هي الباعثة الغالبة فإنَّ العمل صحيحٌ مقبول، انتبه! لا بد أن تكون النية الدنيوية تابعةً لا متبوعة، وأن تكون غير غالبة، ويجب أن تكون النية الدينية هي الباعثة؛ يعني هي التي تدفع للعمل الصالح، وهي أيضا الغالبة، هي القصد الأكبر لا القصد الأصغر. متى ما كانت النية الدينية هي الباعثة الغالبة المتبوعة لا التابعة؛ فبالتالي فإنَّ هذا لا يؤثر، لأن العبرة -كما تقول القاعدة- بالغالب والنادر لا حكم له.

والتحقيق في المسألة هو أن يقال: إن الأحوال في هذا الباب ليست على نمطٍ واحد بل فيها تفصيل؛ وذلك يظهر في الأحوال الآتية ولعل هذا هو الصواب في هذه المسألة، والله سبحانه وتعالى أعلم.

لكن قبل أن نسترسل لا بد أن **نستصحب في هذا الباب أصلاً مُحْكماً في الشريعة** دلت عليه أدلة كثيرة؛ وهي: أن الإخلاص أساسُ قبول العمل الصالح؛ وأن القبول وعدمه مرتبطٌ بوجود هذه النية الخالصة وجوداً وعدماً؛ فالله ﷻ يقول: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[البينة:٥]، والنبي ﷺ يقول: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل أمرئ ما نوى؛ فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله؛ ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه»، ومر بنا تلك القاعدة النبوية العظيمة وهي قول النبي ﷺ: «إنَّ الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصًا وابتُغيَ به وجهه».

إذًا استحضر هذا قبل أن نتكلم عن هذه الأحوال الآتية:

الحال في تشريك النيتين ترجع إلى ما يأتي:

❑ **الحال الأولى**: قصدُ ما هو من ضرورات العمل؛ بمعنى أنه حاصلٌ قُصِدَ أو لم يُقصد، مثال ذلك: أن يتوضأ وهو يريد العبادة والتنظف أو التبرد، التنظف أو التبرد حاصلٌ شئت أم أبيت، فمثل هذا لا يضر ولا يؤثر في الثواب لا إحباطًا ولا إنقاصًا، فإنَّ لا ضرر في أن تُقصَد العبادةُ بما هي عليه، أن تُقصد بضرورتها؛ مثلُ هذا لا ضرر فيه ولا حرج فيه، كذلك مثلا أن ينوي الإنسان الصوم وحصول الحمية يريد أن يحتمي أو أن يخفف وزنه، هذا حاصلٌ إذا صمت شئت أو لم تشأ؛ وبالتالي فإن هذا لا يؤثر إن شاء الله.

هذه هي الحالة الأولى؛ وبها يظهر ضعف قول ابن حزم ومن معه؛ إنَّ قصد التبرد مع الوضوء مبطلٌ العمل الصالح.

لكن هنا مسألة: ما الأفضل أن ينوي الإنسان العمل الصالح هاتين النيتين أو ينوي النية التعبدية فقط؟ لا شك أن قصد النية التعبدية وحدها أفضل، لكنَّ بحثنا يتعلق بالرد والحبوط؛ أما الرد والحبوط فإن قصد ما هو من ضرورات العمل وما هو كائنٌ حاصلٌ ولا بد لا يؤثر.

❑ **الحال الثانية**: قَصَدُ ما أَذِن الشرع في قصده تصريحًا أو تلميحًا؛ بمعنى إذا كانت الشريعة أذِنت في قصد شيء دنيوي في العمل الصالح فإن هذا لا يؤثر في الثواب من جهة الرد أو الحبوط.

مثال ذلك: قول الله ﷻ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾[البقرة:١٩٨]؛ كون الإنسان يحج وهو يريد في سيره إلى الحج نيل رضا الله ﷻ، ومع ذلك يريد التجارة، أَخَذ معه بضاعة ويريد أثناء تنقله بين المشاعر وفي تلك العرصات المباركة أن يتاجر، الشريعة هاهنا أباحت له ذلك، وبالتالي فمن ضرورة إباحة ذلك أن لا يكون هذا مُؤثراً على العمل من جهة الحبوط أو الرد.

خذ مثلًا آخر قال النبي ﷺ : «من قتل قتيلاً فله سَلَبُه»؛ بمعنى أنه في الجهاد الشرعي إذا قتَل إنسانٌ قتيلًا من أعداء الله فإنه يجوز له أن يأخذ سَلبه؛ وهو ما عليه؛ سلاحه وما هو عليه ، لاحظ أنَّ النبي ﷺ قال هذا الحديث يوم حُنين ، وبالتالي فمن ضرورة ذلك أن الصحابة سوف يقصدون هذا الأمر، بل ما قال النبي ﷺ هذا القول إلا لأجل أن يقصد الصحابة ذلك فيكونَ دافعًا وباعثًا لهم

على مزيد من الجد والاجتهاد في قتال أعداء الله، ولذلك لما سمع أبو طلحة الأنصاري رضي الله عنه ذلك قتل عشرين من الكفار فأخذ أسلابهم[٦٥٩] .

إذًا قَصدُ ما هو مشروع به شرعًا؛ هذا لا يؤثر رداً أو إحباطًا للعمل الصالح. وبالتالي يتضح لنا أن ما استدل به القرافي ومن معه الذين قالوا بالقول الثاني؛ أنه أمر مخصوص، استدلوا بشيء جاءت الأدلة الشرعية على جواز قصده، لكنَّ البحث فيما لم يأتِ دليل على قصده، فتعميم الحكم على جميع الأحوال فيه نظر.

❑ **الحال الثالثة**: قصد أمرٍ دنيوي لم يأتِ في الشريعة الإذن به؛ وهذه الحال هي الحال التي عمَّت بها البلوى ويُحتاج إلى التذكير والمذاكرة في شأنها؛ وهي: أن يقصُد الإنسان في عمله الصالح نيل شيئًا من حطام الدنيا والشريعة لم تأتِ بالإذن في شأنه، مثال ذلك: أن يحج ويريد التكسب بحجِّه وليس في حجه.

عندنا فرق بين مسألتين: أن تحج وتريد التكسب في الحج؛ يعني أثناءه، بأن تتاجر مع كونك حاجًا، هذا قلنا أذِن الشرع فيه، إنما بحثنا الآن أن يتكسب

---

(٦٥٩) ومن ذلك أيضًا ما خرجه مسلم في «الصحيح» من قوله ﷺ: «من خير معاش الناس رجلٌ مُمسِك بعنان فرسه في سبيل الله»؛ فمن ضرورات العلم بهذا الحديث أن يُقصَد تحصيل الغنيمة في الجهاد، فمثل هذا لا حرج فيه، والشرع قد أذن في قصده. وهكذا في نظائر؛ مثل أن يقصد الإنسان بصلة رحمه فعل الأمر الذي أوجبه الله عليه وهو صلة الرحم، وأيضًا كونه يُبسَط له في رزقه ويُنسأ له في أثره، ونحو ذلك مِمَّا جاء في هذه النُّصوص.

بالحج؛ كأن يحج عن غيره والقصد مع القصد الأخروي؛ القصد أن يأخذ دراهم على هذا الحج، أو أن يتعلم العلم الشرعي والقصد نيل الشهادة أو نيل المكافأة التي تعطى في الجامعة، أو أن يؤمَّ والقصد نيل المكافأة التي تُدفع للإمام أو نيل المسكن الذي يُعطاه، وهكذا الشأن في الآذان، إلى غير ذلك من الصور الكثيرة، **فما حكم ذلك؟**

الذي يظهر والله تعالى أعلم : أنَّ الأدلة الشرعية المحكمة قد دلت دلالة صريحة على أن الإخلاص شرط قبول العمل الصالح، وإرادة الدنيا قادحةٌ في هذا الإخلاص، فهي مؤثرةٌ في هذا العمل إما بإحباط الثواب وإما بإنقاصه؛ بحسب دخول هذه النية الدنيوية في العمل.

ونقل شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في المجلد السادس والعشرين من مجموع الفتاوى عن الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّه قال: «لا أعلم أحدًا كان يحج عن غيره بشيء، وليس الارتزاق بأعمال البر من شأن الصالحين»؛ وذلك أنَّ العمل الصالح يجب أن يكون القصد فيه إرادة وجه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا غير، وبإرادة الدنيا مع العمل يكون الإنسان قد أخلَّ بهذا الشرط؛ فهذا من الأمور التي تحتاج أن يتنبه لها المسلم.

واسترسل شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد هذه الكلمة إلى الكلام عن مسألة الحج، وقال: وعليه فإن الذي ينبغي للإنسان أن يحج عن غيره بقصدين:

الأول: أنه يستعين بهذا المال على الوصول إلى تلك البقاع المشرفة؛ يحجُ عن غيره ومراده أن يصل إلى مكة، وأن يُشْبِعَ نهمة نفسه من رؤية الكعبة والطواف بها والدعاء يوم عرفة إلى غير ذلك.

أو -**وهذا القصد الثاني**-: أنه يريد أن يبرِّئ ذمة أخيه المسلم الذي يكون عليه حجٌ واجب بأصل الشرع أو بالنذر، فهو يريد أن يبرِّئ ذمة أخيه المسلم، قال: هكذا ينبغي للإنسان أن يحج عن غيره.

أقول إنَّ الأدلة الشرعية قد جاء فيها جملة تشهد لهذا القول؛ من ذلك:

- قول النبي ﷺ كما عند أحمد: «واتخذ مؤذنًا لا يؤخذ على أذانه أجرا».

- كذلك قول النبي ﷺ: «اقرؤوا القرآن، ولا تغلوا فيه، ولا تجفوا عنه، ولا تأكلوا به، ولا تتكاثروا به».

- كذلك قول النبي ﷺ: «من تقلَّد قوسًا على تعليم القرآن قلَّده الله به قوسًا من النار يوم القيامة».

- كذلك قول النبي ﷺ: «من تعلَّم علمًا مما يُبتغي به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضا من الدنيا؛ لم يرَح رائحة الجنة يوم القيامة».

إلى غير ذلك من هذه الأدلة التي تشهد لهذا القول وأن الأعمال الصالحة يجب أن يكون القصد فيها خالصًا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

❑ **الحال الرابعة**: وهي قصد نيل شيء من الدنيا ليكون وسيلةً لأداء العمل الصالح؛ وهذا مَخْرَجٌ في شأن الحالة السابقة، ولا يحتاج المسلم معه إلا أن

يصحِّح نيته. بمعنى: أنه ينوي ويأخذ شيئًا من الدنيا لتكون الدنيا وسيلةً لتحصيل العمل الصالح.

فرقٌ شاسع بين من كانت الدنيا قصدَه والدين وسيلته، وبين من يكون الدين قصده والدنيا وسيلته؛ **الحال السابقة -التي هي الحالة الثالثة-** ما الذي كان مقصودًا؟ الدنيا، وما الوسيلة؟ الدين. توظف إمامًا أو مؤذنًا لأجل المال، أراد تحصيل المال، **أما هنا** فهو أراد الدين، أراد العمل الصالح، وأخذ الدنيا لتكون وسيلةً له لأداء هذا العمل الصالح؛ فهو توظف إمامًا وأخذ المسكن لأجل أن يكون المسكن معينًا له على أداء الإمامة على أكمل وجه، بحيث يكون قريبًا من المسجد، أخذ المكافأة ليتفرغ لأن يؤدي هذه الإمامة؛ أخذ مكافأة طلب العلم أو الأرزاق التي تُفرض لطلاب العلم لأجل أن يستعين بهذا المال على الطلب فيتفرغ له، لأنه لو ذهب إلى السوق كي يعمل فإنه لا يطلب العلم أو لن يتفرغ تفرغًا كاملًا. إذًا كانت الدنيا وسيلة لتحصيل الدين؛ ومثلُ هذا لا حرج فيه.

وهنا قاعدة لطيفة ذكرها شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في الاختيارات قال: «والمشروع أن يأخذ الإنسان ليحج، لا أن يحج ليأخذ»، وعمِّم هذا في جميع المسائل؛ أن يؤخذ ليؤم وليس أن يؤم ليأخذ، أن يأخذ ليطلب العلم وليس أنه يطلب العلم ليأخذ، فإنَّ من أخذ ليطلب فإن هذا لا حرج عليه فيه، أما من طلب ليأخذ**!** قال شيخ الإسلام: «فإن هذا الأشبه أنه ليس له في الآخرة من نصيب».

إذًا هذه خلاصة لموضوع إرادة الإنسان بعمله الصالح الدنيا، وبها أرجو أن يكون الموضوع قد تحرر في نظرك والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أعلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾[هود:١٥-١٦] الآيَتَيْنِ).

«**الآيتين**»: يعني أكمل الآيتين ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

هذه الآية مضى ما يتعلق بها وبقي فيها مسألتان:

المسائلة الأولى: أن أهل العلم اختلفوا في هذه الآية نازلة فيمن؟

-**القول الأول**: أنها نازلة في الكفار؛ من كان يريد الحياة وزينتها فأولئك هم الكفار .

-**وقالت طائفة من أهل العلم**: أنهم أهل القبلة.

-**القول الثالث** وعليه الأكثر: أنها عامة في جميع الناس الكفار وأهل القبلة.

وإذا قلنا أنها عامة أو في أهل القبلة فالاستدلال بها في شأن إرادة الإنسان الدنيا بعمله الصالح ظاهرة؛ هذا لا إشكال فيه.

وأما على القول بأنه في شأن الكفار، فإنَّ ذلك أيضًا ظاهر؛ وذلك أنَّ الكفار زُين في أعينهم شأن الحياة الدنيا؛ قال ﷻ: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾[البقرة:٢١٢]. (٦٦٠)

وإن قلنا بهذا فإنَّ الاستدلال بها في شأن المسلم أيضًا مستقيم؛ وذلك أنَّ من شابه الكفار في خصلةٍ من خصالهم ناله شيءٌ من الذمِّ الوارد في حقهم؛ وبالتالي فتكون الآية دليلًا على ما يتعلق بالمسلم أيضًا، والله تعالى أعلم.

أما المسألة الثانية: فهي ما جاء عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن هذه الآية نسختها آية الإسراء: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾[الإسراء:١٨]، قال: آية الإسراء هذه ناسخة لآية هود التي معنا.

ومراد ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بالنسخ هاهنا ليس النسخ الاصطلاحي المعروف عند المتأخرين، لعلكم تذكرون في دروس أصول الفقه أننا أخذنا أنَّ مصطلح النَّسخ عند المتقدمين أعمُّ من النَّسخ عند المتأخرين؛ فإنَّهم -أعني المتقدمين- يريدون بالنسخ الاصطلاحي كل ما يرِد على الدليل من مخصِّص أو مقيِّد، سواءً كان النسخ عندهم للآية يعني لحكمها بالكلية، أو كان لبعض حكمها الذي هو تقييدٌ أو تخصيص، هذا كله عندهم داخل في معنى النَّسخ .

(٦٦٠) ومهْما يكن من شيء؛ فحتى ولو كانت هذه الآية في الكفار فلا شكَّ أن من شاركهم في بعض أعمالهم كان له نصيبٌ منها.

ومرادُ ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا هذا ؛ يعني أنَّ آية الإسراء مخصِّصة لآية هود، تأمل معي؛ في آية هود الله ﷻ أخبر أنه يعطي الدنيا من قصدها، ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ﴾، تريد الدنيا الله سيعطيك الدنيا ولكن ليس ثمة أجر أخروي، لكن في آية الإسراء تخصيصٌ لهذا؛ وذلك أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أرجع ذلك الإعطاء إلى مشيئته، قال: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ﴾ يعني الدنيا ﴿عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لمن نريد ﴾، إذًا ليس هذا حاصلاً لكل أحد ، بل هذا راجع أيضا إلى مشيئة الله، قد يعطي الله ﷻ مريد الدنيا وقد لا يعطيه، انتبهتم لهذا! ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا﴾ وانتهى؟ لا ﴿عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لمن نريد﴾ إذًا المسألة راجعة إلى مشيئة الله ، فقد يعطي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مريد الدنيا وقد لا يعطيه، وبالتالي فإنه لا الدنيا استفاد ولا الآخرة استفاد، نسأل الله السلامة والعافية.

فالأمر إذًا راجعٌ إلى مشيئة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، ومشيئته مقترنة بحكمته جل وعلا .

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ، تَعِسَ عَبْدُ الْخَمِيصَةِ، تَعِسَ عَبْدُ الْخَمِيلَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ، طُوبَى لِعَبْدٍ آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ، أَشْعَثَ رَأْسُهُ، مُغْبَرَّةٍ قَدَمَاهُ، إِنْ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ، وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ، إِنِ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ، وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ»).

هذا الحديث خرَّجه الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في صحيحه.

وفي هذا الحديث فوائد منها: أن الإنسان قد يكون عبدًا للدنيا(٦٦١) وهذه العبودية قد تصلُّ إلى حد الشرك الأكبر، وقد تكون شركًا أصغر:

⧼ **أمَّا كونها شركًا أصغر** ففي حق المسلم الذي معه أصل التوحيد ولكن دخلت عليه شعبة من شعب الشرك، وذلك يرجع إلى ما جاء في الحديث؛ يعني الضابط إلى حصول هذا الشرك الأصغر ما جاء في الحديث « **إن أعطي منها** - يعني من الدنيا- **رضي، وإن لم يعطَ سخط**». إذًا من كانت الدنيا ترضيه أو تسخطه فإن فيه شعبةً من شعب التعبد أو العبودية للدنيا؛ قد يكون عبداً لأثمانها، وقد يكون عبداً لأثاثها، وهذا من عجيب الأشياء أن يكون الإنسان عبداً لثوبه! وذلك أن النبي ﷺ قال: «تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم» هذه أثمان وقد تكون من الأثاث، «تعس عبد الخميصة تعس عبد الخميلة»؛ **الخميصة**: كساء عند العرب لونه أحمر أو أسود مخطط له أعلام معروف عندهم، **والخميلة**: هي القطيفة سواءً كانت ثوبًا أو كانت فراشًا يُجلس عليه؛ وذلك أنه إذا كانت الدنيا إن جاءته رضي، وإن لم تأته سخط على ربه وقدَره، فهذا -والعياذ بالله- صار عبداً للدنيا .

---

(٦٦١) وعِلة عبوديته لهذه الدنيا: هي أنَّه إن أُعطِي من الدنيا رضي، وإن لم يُعطَ سخط؛ رضي وحصل له السرور في حال العطاء وفي حال المنح، وأمَّا إذا قُدِر عليه وأمَّا إذا مُنِع فإنه يسخط على ربه ويسخط على قدره، فهذه حال العبد بهذه الأمور وواقعٌ في رقّها. ووجه ذلك: أنَّه يرضيه وجودها ويُسخِطه فقدُها، وهذا نوعٌ من العبودية.

وأما كونها شركًا أكبر فإنها تكون كذلك في حق الكفار؛ وذلك أننا قد علِمنا كما سبق أن الله ﷻ قد شاء أن تكون الدنيا مزيَّنة في نظرهم وفي قلوبهم، ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾[البقرة:٢١٢]، قال الله ﷻ في شأن المنافقين: ﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾[التوبة:٥٨]، فهذا هو حال هؤلاء الكفار الذين شركهم بالدنيا شركٌ أكبر؛ تعلق قلوبهم بها تعلقٌ عظيم، حتى أنها أصبحت مزاحِمةً لمحبة الله ﷻ وإرادة طاعته، فمثل هؤلاء لا شك أن هذه العبودية في حقهم شركٌ أكبر؛ أما المسلم فقد يكون واقعًا في شرك أصغر ، وربما كان كثير من الناس كذلك -نسأل الله السلامة والعافية-.

قال النبي ﷺ : «تعِسَ» ويجوز لك أن تقول: (تَعَسَ)؛ تَعس: يعني ناله التعاسة، والتعاسة: الشقاء والهلاك، والنبي ﷺ يدعو على من كانت هذه حاله، من كان من أهل هذه الأصناف الذين تعبَّدت قلوبهم للدنيا دعا عليه النبي ﷺ بالتعاسة والشقاء، ودعا عليه بعد ذلك دعوة اشتملت على ثلاثة أشياء: «**تعس، وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش**» .

(**تعس**) نالته التعاسة.

و(**انتكس**) الانتكاس: الرجوع بعد الخير إلى الشر، وبعد الهدى إلى الضلال، ويتضمن ذلك اضطراب الأمور عليه.

قال: (**وإذا شيك فلا انتقش**)؛ والمعنى أنه إذا نزلت عليه البلايا والمصائب لم تزُل، تستمر معه وتتفاقم في حقه. ومثَّلَ لهذا عليه الصلاة والسلام بأنه «إذا شيك» يعني إذا أصابته شوكة «فلا انتقش» يعني فلا خرجت هذه الشوكة، لأن

الإنسان إذا أصيب بالشوكة فإنه ينتقش، يعني يسعى في إزالة هذه الشوكة بالمنقاش؛ المنقاش: هو الآلة التي يستعملها الإنسان في إزالة الشوكة إذا دخلت في الجسم، «إذا شيك فلا انتقش» يستمر عليه البلاء، والاضطراب، والألم -نسأل الله السلامة والعافية-[٦٦٢].

هذه حال من كانت الدنيا هي المقصود والغاية والتي يسعى لها لا غير، وعلامة ذلك: أنه يرضيه عن ربه وجودها ، ويسخطه على ربه وقدَره فقْدُها[٦٦٣]

.

ثم أبان النبي ﷺ الصورة المقابلة لذلك وهي صورة المخلص لله ﷻ (طوبى)؛ طوبى قيل هي: الجنة، وقيل: هي شجرة في الجنة، والأقرب والله أعلم هي أعم من ذلك، ذلك أن طوبى مؤنث أطيب. إذًا هو إخبارٌ أو دعاء من النبي ﷺ أن من كانت حاله كما أخبر أن تناله أطيب الأحوال وأطيب الأشياء.

(طوبى لعبدٍ)؛ هذا العبد مخلص لله ﷻ لا يريد إلا وجهه؛ ولذلك فإنه يخرج في سبيل الله ﷻ مجاهدًا الجهاد الشرعي الذي فيه نصرةٌ للدين وفيه قمعٌ لأعدائه، وليس الجهاد البدعي الذي قصده ورايته غير شرعية ، والذي فيه سلٌّ

---

(٦٦٢) دعا عليه النبي عليه الصلاة والسلام ألَّا يُوفق، وأن يجازى بحرمانه من مقصوده

(٦٦٣) والمقصود أن هذا الحديث فيه تحذيرٌ بالغ من أن تكون الدنيا هي المقصودة للمسلم، ويشتدّ هذا ويعظُم إذا كانت هي المنوية بالأعمال الصالحة، وهذا هو الذي بوَّب عليه الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الباب.

السيف على أمة محمد ﷺ ، والذي ينتفع به أعداء الله لا أولياء الله، بل هؤلاء قد يكونون عذابًا على المسلمين.

المقصود هو الجهاد الشرعي الذي تتحقق فيه الشروط الشرعية ويحصل به المقصد الشرعي؛ وهذا الإنسان يريد وجه الله ﷻ حتى إنه لا التفات له إلى نفسه وحاله ورفعة مكانته؛ حاله أنه ساعٍ في رضا الله ﷻ ولذلك أنه لا يهتم بنفسه:

-رأسه وشعره أشعث غير مهذب غير مرتب.

-وقدمه مغبرة؛ دليل على أنه مجتهد في طاعة الله ﷻ والاجتهاد في نيل مرضاته ﷻ .

-ولا يبالي في أي مكان كان؛ إن طُلب منه أن يكون في الحراسة استجاب، لأنه يريد طاعة الله ﷻ وطاعته في طاعة الأمير الشرعي، وإن كان في الساقة -يعني في آخر الجيش، مؤخرة الجيش تسمى الساقة- كان في الساقة ولا يبالي في أن يكون في المتصدِّرين وفي إِمْرَةِ الكتائب أو ما شاكل ذلك.

-وهو مع ذلك غير معروف خفي؛ من الأتقياء الأخفياء ، حتى إنه لا يعرفه أحد، لو طلب الإذن من الكبراء والأمراء لم يأذنوا له، لأنَّه لا يُلتفت إليه؛ ولو شفع في شأن أحد فإنه لا يشفَّع أيضًا لأنه غير معروف، وهذا كله من علامات تحقيق الإخلاص.

هذه صورة مقابلة للصورة السابقة التي فقَد أهلها الإخلاص لله ﷻ وقصده والسعي إلى مرضاته جل وعلا وحده لا شريك له.



قال المصنف رحمه الله:

٣٨-بَابُ
مَنْ أَطَاعَ الْعُلَمَاءَ وَالأُمَرَاءَ فِي تَحْرِيمِ مَا أَحَلَّ اللّهُ أَوْ تَحْلِيلِ مَا حَرَّمَهُ؛
فَقَدِ اتَّخَذَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللّهِ

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «يُوشِكُ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْكُمْ حِجَارَةٌ مِنَ السَّمَاءِ، أَقُولُ: قَالَ رَسُولُ ﷺ، وَتَقُولُونَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَر!».

وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ: «عَجِبْتُ لِقَوْمٍ عَرَفُوا الإِسْنَادَ وَصِحَّتَهُ؛ يَذْهَبُونَ إِلَى رَأْيِ سُفْيَانَ، وَاللهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[النور:٦٣]، أَتَدْرِي مَا الْفِتْنَةُ؟ الْفِتْنَةُ الشِّرْكُ؛ لَعَلَّهُ إِذَا رَدَّ بَعْضَ قَوْلِهِ أَنْ يَقَعَ فِي قَلْبِهِ شَيْءٌ مِنَ الزَّيْغِ فَيَهْلِك».

عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ﴾[التوبة: ٣١] الآيَةَ، قَالَ: فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّا لَسْنَا نَعْبُدُهُمْ، قَالَ: «أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللهُ فَتُحَرِّمُونَهُ، وَيُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَتُحِلُّونَهُ؟»، فَقُلْتُ: بَلَى، قَالَ: «فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ». رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَحَسَّنَهُ.



قال الشارح وفقه الله:

إنَّ الإمام محمدًا رَحِمَهُ اللَّهُ بَوَّبَ هذا البابَ الذي وسمه بقوله: (بَابُ مَنْ أَطَاعَ الْعُلَمَاءَ وَالأُمَرَاءَ فِي تَحْرِيمِ مَا أَحَلَّ اللهُ أَوْ تَحْلِيلِ مَا حَرَّمَهُ؛ فَقَدِ اتَّخَذَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ)؛ هذا الباب عقده الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ لأجل بيان أنَّ من لوازم

التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله أن تكون الطاعةُ كلُّها لله سبحانه، وأن تكون طاعة غيره مُنْدرجةً في طاعته ﷻ.

وقد ذكر -كما ترى- أداة شرط وفعله وجوابه؛ (من أطاع العلماء والأمراء أو غيرهم)، وما ذكر الشيخ هاهنا إنَّما هو على سبيل التمثيل؛ لأنَّ أكثر ما يقع الخلل في هذا الباب -أعني في باب الطاعة- إنما هو من جهة المخالفة في طاعة العلماء أو في طاعة الأمراء، ولو أطاع غيرهم أيضًا في هذا الشأن وهو في تحريم ما أحل الله أو في تحليل ما حرم الله، فجواب الشرط: (**فَقَدِ اتَّخَذَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ**)، وقد نزع في هذا التبويب إلى الآية الآتية مع حديث عدي ﵁ وأرضاه.

وإنَّ مما لا شك فيه أنَّ طاعة الله ورسوله ﷺ أوجب الواجبات على المسلم، والله تبارك وتعالى عبادته هي طاعته، وطاعته هي عبادته، لا فرق في معاملة العبد لربه بين الطاعة والعبادة، بخلاف معاملة غيره فإنَّ الأمر فيه تفصيل؛ فإن الطاعة أوسع من العبادة على ما يأتي بيانه إن شاء الله، أمَّا في حق ربنا ﷻ وما يعامل العبد به ربه فإنَّ الطاعة والعبادة أمران مترادفان، فالطاعة هي العبادة والعبادة هي الطاعة.

والدين إنَّما هو طاعة الله ورسوله ﷺ ، والأمر بطاعة الله ورسوله ﷺ في كتاب الله في عشرات المواضع، وكذلك الشأن في أحاديث النبي ﷺ. إذًا الواجب لمن أراد أن يكون محققًا توحيده أن تكون طاعته الكاملة لله ورسوله ﷺ ، وغيرهما إنَّما يطاع في طاعة الله جل وعلا.

والمقصرون والمخالفون في بعض الطاعة أصناف:

➢ **منهم**: أهل البدع والكلام الذين قصَّروا في طاعة الله ورسوله ﷺ حيث إنَّهم اعتمدوا قواعد زعموها عقلية، وهذياناتٍ وفلسفاتٍ منطقية قدَّموها على كلام الله ورسوله ﷺ؛ فخرجوا إلى أنواعٍ من البدع وتعطيل صفات الله سبحانه وتعالى (٦٦٤).

➢ **ثانيًا**: المتعصبون للمذاهب الفقهية؛ فإن البلية بالتعصب للمذاهب الفقهية بليةٌ كبرى عمَّت وطمَّت، فإنَّ من الناس من يتعصب لمذهبه ولإمامه بحيث إنه لو تُليت عليه الآيات والأحاديث المخالفة لما كان عليه هذا الإمام أو ما تقرر في مذهبه فإنك لا تجد منه انقيادًا للحق، إنما يركب الصعب والذلول لأجل أن يتأوَّل أو يُضعِّف أسانيد أو دِلالات هذه

---

(٦٦٤) وما أحسن ما قاله ابن القيم رحمه رَحِمَهُ اللَّهُ في «الصواعق المرسلة» حينما أورد الأثر الذي أورده المؤلّف في هذا الباب عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا «**يُوشِكُ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْكُمْ حِجَارَةٌ مِنَ السَّمَاءِ، أَقُولُ قَالَ رَسُولُ ﷺ، وَتَقُولُونَ قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ!**»؛ قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «رحم الله ابن عباس، فكيف لو رأى أقوامًا يقدّمون على قول الله ورسوله ﷺ أقوال أرسطو، وأفلاطون، وابن سيناء، والفرابي، وجهْم بن صفوان، وبشْر المَريسي، وأبي الهُذيل العلَّاف، وأضرابهم»، وصدق رَحِمَهُ اللَّهُ فإنَّ حقيقة مذهب هؤلاء إنما هو تقديم أقوال هؤلاء، وإذا كان ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قد نعى وشدَّد وأغلظ على من قدَّم قول الشيخين الذين هما -كما قال أهل العلم- من الإسلام بمنزلة السمع والبصر، ومعَ ذلك شدَّد هذا التشديد على من عارض قوله ﷺ بقولهما، فكيف بمن عارض أقواله ﷺ بأقوال هؤلاء الملاحدة الضلال.

النصوص، والمهم أن يسْلم المذهب وأن يسْلم قول الإمام[٦٦٥] ، وهذا لا شك أنه قدحٌ عظيم في شأن التوحيد من جهة طاعة الله ورسوله ﷺ.

- **الصنف الثالث**: وهم أتباع المشايخ والطرق والأحزاب والجماعات الذين جعلوا لهم إمامًا لا يتقدمون عن قوله ولا يتأخرون، لسان حالهم يقول: إنَّه معصوم وإنَّ الحق يدور مع قوله وموقفه، ولذلك فإنهم عنه لا يتزحزحون حتى لو قامت الأدلة والبراهين على خطأ هؤلاء، وهذه بليةٌ قديمة حديثة، شاهدُ هذا الخلل في الطاعة: ما تراه من أحوال بعض هذه الجماعات والأحزاب والطرق التي بُيِّنت لها أخطاؤها بالدليل والبرهان منذ عشرات السنين ولا تزال مصرَّة على السير على النهج الذي وضعه الإمام والقائد والزعيم، وهذا لا شك أنَّه خلل كبيرٌ في باب الطاعة.

- **صنفٌ رابع** من المقصرين بل من أصحاب التقصير الشديد في باب الطاعة: وهم أهل السياسات الجائرة والعلمنة الفاجرة الذين يُقدِّمون أقوال البشر وقوانينهم على كلام رسول الله ﷺ؛ فتجد من فلتات كلامهم وكتاباتهم إرادةٌ إلى التحاكم إلى الطاغوت، وقد أُمِرُوا أن يكفروا به، وتجدُ في أعطاف ما يقولون ما يُنبئ عن خبيئة نفوسهم وهي أنهم ينظرون إلى الشريعة الإسلامية بأنها شريعة قاصرة عن أن تستوعب أحكام السياسة أو الاقتصاد أو الأسرة، يرمونها تصريحًا أو تلميحًا بأنها لا تستطيع أن تواكب ما عليه هذا

---

(٦٦٥) وهم الذين لا حقَّ عندهم إلا ما قال إمامهم، ولِذا تُوزن النُّصوص على ميزان أقوال الأئمَّة عندهم.

العصر، ولذلك يغرسون في نفوس الأغمار والناشئة بأنَّ شأن الشريعة الإسلامية إنما هو أن تنظم علاقة الإنسان بربه ﷿ فحسب، أما شؤون الحياة والمعاش فإنه لا علاقة للشريعة بها.

ولا شك أن هذا ظلمٌ وجورٌ وبهتان على الشريعة؛ فإن هذه الشريعة الإسلامية المحمدية لا شك أنها شريعةٌ جاءت منظمة لعلاقة الإنسان بربه، وعلاقة الإنسان بنفسه، وعلاقة الإنسان بغيره، وعلاقة الإنسان بالحياة. انظر إلى أطول آيةٍ في كتاب الله! في أي شأنٍ كانت؟ أليست آية المداينة، أليس هذا شأنٌ من شؤون المال والاقتصاد!. إذًا شريعة النبي ﷺ التي أنزلها الله ﷿ عليه جاءت كاملةً منظِّمةً لكل الشؤون على الإطلاق، لم تدَع شيئًا من الأشياء على هذا الإطلاق وبهذا العموم إلا وقد نظمته تنظيمًا بديعًا يعود بالسعادة على الفرد وعلى المجتمعات؛ من تنظيم سياسة الدول، وإلى كيف يلبس الإنسان حذاءه، مرورًا بأحكام العبادة والنكاح والطلاق والصناعة والزراعة وكلِ شؤون الحياة. إذًا من الجور العظيم زعمُ أن هذه الشريعة قاصرة عن أن تنظم أمور معاش الناس.

هؤلاء وغيرهم كانوا مقصرين في شأن طاعة الله ورسوله ﷺ، ومقدمين طاعة غيرهما على طاعتهما، ولا شك أنَّ هذا خللٌ عظيم، قد يكون فسقًا وقد يكون كفرًا بحسب حال هذا المخالف. وما سيأتي إن شاء الله من الكلام عن الأدلة التي أوردها المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ والآثار ما يبين هذا الباب بجلاءٍ إن شاء الله.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «يُوشِكُ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْكُمْ حِجَارَةٌ مِنَ السَّمَاءِ، أَقُولُ: قَالَ رَسُولُ ﷺ، وَتَقُولُونَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَر!»).

هذا أثرٌ لطيف اللفظ حسنُ المعنى[٦٦٦]، وإن كان لم يوقف على إسناد له بهذا اللفظ، وإن كان قد نقله جمع من أهل العلم، وكأن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تابع في ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ فإنه ذكره بما يقرُب من أربعة مواضع في «مجموع الفتاوى»، وكذلك ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «الطرق الحكمية» وفي «زاد المعاد» و«الصواعق المرسلة» وفي «إعلام الموقعين».

المقصود أن هذا اللفظ مشهور في كتب أهل العلم، وإن كان لم يوقف له على إسناد، وما زُعِمَ من وجود إسنادٍ له هذا فيما أعلم وهم، ذكر بعض الفضلاء أن له إسنادًا في مجموع الفتاوى في المجلد السادس والعشرين لابن تيمية، ولكن هذا وهم[٦٦٧]، هذا الإسناد كان لأثرٍ لابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا[٦٦٨].

---

(٦٦٦) فيه بيان خطورة معارضة كلام الله ورسوله ﷺ بكلام غيرهما مهما عَلَتْ منزلته ومهما ارتفعت مكانته. وهذا الأثر فيه أيضًا التشديد والإغلاظ على من خالف السُّنَّة بعد أن استبانت له؛ فينبغي أن يعامَل بما يستحقه من التشديد والإغلاظ، لأنه أهلٌ لذلك، فشأن المخالف للسُّنَّة شأنٌ عظيم.

(٦٦٧) فإنَّ شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ إنما ساق الإسناد لأثر آخر، وهو أثر ابن عمر.

(٦٦٨) ففي المجلد السادس والعشرين في صحيفة (٥٠) أورد رَحِمَهُ ٱللَّهُ إسنادًا عن الإمام أحمد، قال: «حدَّثنا عبد الرزاق، عن معْمر، عن الزهري، عن سالم، عن ابن عمر»، وهذا الأثر قريبٌ من هذا الموضوع الذي تكلم فيه ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا؛ وهو في شأن المتعة، إذ

وجاء لابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا لفظٌ قريب مما بين أيدينا، وذلك ما خرجه ابن عبد البر رَحِمَهُٱللَّهُ في «جامع بيان العلم وفضله» من قوله ﷺ: «أراهم سيهلكون، أقول قال رسول الله ﷺ: ويقولون نهى أبو بكر وعمر»، كما أخرج أثرًا قريبًا أيضًا من هذا في نفس الموضع(٦٦٩)؛ فهما أثران أحدهما صحيح والآخر فيه ضعف في إسناده شريك بن عبد الله وهو ضعيف.

المقصود أن هذا الأثر ربما يكون إسناده موجودًا في بعض الكتب التي لم تصل إلينا(٦٧٠)، فالله أعلم.

سُئِلَ عنها رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وعن أبيه، فبيّن أنها سُنَّة النبي عليه الصلاة والسلام، فذُكِرَ له إنك تخالفُ أباك، فبين لهم أنهم فهموا كلام عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ خطأ، ثمَّ أكْثروا عليه فقال: «أفكتاب الله عَزَّوَجَلَّ نقدّم أو قول عمر؟!» هذا هو الأثر وإسناده محفوظ وموجود في المسند، وإن كان الذي في المسند بهذا الإسناد متنٌ أخصر من هذا، وثمَّة في المسند بإسناد آخر متن قريب من هذا الذي أورده الشيخ أبي العباس ابن تيمية رَحِمَهُٱللَّهُ. ثمَّ قال بعد ذلك: (وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ) وأورد أثر ابْن عَبَّاسٍ، فيبدوا أنَّ الوهْم قد جاء من هنا؛ إذْ ظن أن هذا الإسناد لكلا الأثرين، وهذا ليس بصحيح، فأثر ابن عمرَ هو الذي تعلق به الإسناد الماضي، وأمَّا أثر ابن عباس فلا علاقة له بهذا الإسناد. ولذلك شيخ الإسلام رَحِمَهُٱللَّهُ أورد هذا الإسناد ومتن أثر ابن عمر في كتابه «شرح العُمدة»، ولم يورد أثر ابن عباس؛ مِمَّا يدل على أنه ما أراد أن يذكر الإسناد لأثر ابن عباس، وإنما لأثر ابن عمر رضي الله تعالى عن الجميع.

(٦٦٩) قال: «أمَا يوشك أن يعذبوا؛ أحدّثهم عن رسول الله، ويحدثون عن أبي بكر وعمرَ!»، أو لفظًا قريبًا من هذا.

(٦٧٠) ولا سيَّما أن الأئمَّة الكبار كشيخ الإسلام وابن القيم قد اعتنوا بهذا الأثر وأكثروا

المقصود أن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا إنما قال هذا القول في شأن مسألة التمتع في الحج، ولسنا بصدد البحث في هذه المسألة، لكننا مع هذا الأثر الذي يدلُّ على وجوب أن يُقدَّمَ قول الله ورسوله ﷺ على قول أي أحد، حتى لو كان في منزلة علية، حتى لو كان قول أبي بكر وعمر، ومعلومٌ أنَّ منزلتهما عند المسلمين بمنزلة السمع والبصر، ومع ذلك شدد النكيرَ رضي الله عنه على من قدَّم قولهما على قول الله ورسوله ﷺ.

وفي هذا أن من المشروع أن يُغلَّظ على من عارض كلام الله ورسوله ﷺ بكلام أي أحد مهما علت منزلته، هذا هو الحق الذي يجب أن يكون، يجب أن يُحفظ للنصوص الشرعية وللآيات والأحاديث قدرهما ومكانتهما بحيثُ لا يجوز أن يتجرأ عليهما أحد.

وفي الأثر أن من عارض ولم يُقبِل ولم يُذعن لكلام الله ورسوله ﷺ فإنه متوعد بعذاب يصيبه، وهذا ما أخبرنا به جل وعلا: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[النور:٦٣]، كلُّ من عارض كلام الله ورسوله ﷺ واستكبر ولم يَنْقَد فليبشر بالعذاب المعجل قبل العذاب المؤجل إلا أن يتوب إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. في صحيح مسلم أن النبي ﷺ كان يأكل ومعه رَجَلٌ وقد كان يأكل بشماله، قال له: «كل بيمينك، قال: لا أستطيع، قال لاستطعتَ، ما منعُه إلا الكبر»، يقول الراوي: «فما رفع يده بعد ذلك إلى فيه»، يعني: شُلَّت يده، بسبب أنه استكبر عن طاعة الرسول ﷺ.

من إيراده.

إذًا حذارِ من أن يتردد أو يتأخر إنسان في طاعة الله ورسوله ﷺ، فإنه يوشك أن يعاجله الله ﷻ بالعقوبة، وهذا مما ينبغي أن يأخذه المسلم على محمل الجد وأن يتنبه له غاية التنبه، لا يجوز بحال أن يُعارَض كلام رسول الله ﷺ، وأولى من ذلك أن يُعارض كلام الله ﷻ بكلام أيِّ أحد كائنًا من كان، حتى لو كان إمامًا يشار إليه أو عالمًا أو رجلاً صالحًا تقيًا؛ لأن النبي ﷺ هو إمام كل مسلم وهو الذي سيسألُ عنه كل أحد عليه الصلاة والسلام.

كل إنسان سيُسأل عن هذا النبي الكريم ﷺ في موضعين عظيمين:

-في القبر؛ حينما يقال للميت ماذا كنت تقول في هذا الرجل الذي بُعِثَ فيكم؟

وفي الموضع الثاني: في عرصات القيامة، ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾[القصص:٦٥]، الرسول المرسل إلينا اسمه محمد بن عبد الله ﷺ.

إذًا على كل إنسان أن يعد جوابًا لهذا السؤال، كان مقبلاً على طاعة الله ورسوله ﷺ ؟أم أنه مقصرٌ؟ أم أنه مدبر معرض؟(٦٧١) والله المستعان.

---

(٦٧١) أم كان يجعل أقوال الأئمة معيارًا وميزانًا توزن بها أقوال الرسول ﷺ فإن وافقتها فحي هلًا، وإلا فإنَّه يُركبُ الصعب والذَّلول في تأويلها والإعراضِ عنها!! حتى قال قائل هؤلاء المجانبين لطريقِ الحقِّ والرشاد -وهو الطاعة والاتباع- قال قائلهم: (كلُّ حديث يخالف مذهبنا فهو إما منسوخ أو مؤوّل أو ضعيف)؛ هكذا تُردُّ السُّنَن، وهكذا تُعارض الأقوال المحكمة عن رسول الله ﷺ بهذه السهولة وهذا اليُسر لدى كثيرٍ من الذين اتبعوا أهوائهم. ولا شكَّ أنَّ هذا اتباعٌ للهوى، فإنه ليس ثمَّة إلا طريقان: إمَّا طاعة الرسول ﷺ ،

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ: «عَجِبْتُ لِقَوْمٍ عَرَفُوا الإِسْنَادَ وَصِحَّتَهُ؛ يَذْهَبُونَ إِلَى رَأْيِ سُفْيَانَ، وَاللهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾[النور:٦٣] الآية ، أَتَدْرِي مَا الْفِتْنَةُ؟ الْفِتْنَةُ الشِّرْكُ؛ لَعَلَّهُ إِذَا رَدَّ بَعْضَ قَوْلِهِ أَنْ يَقَعَ فِي قَلْبِهِ شَيْءٌ مِنَ الزَّيْغِ فَيَهْلِكَ»).

هذا الأثر العظيم عن الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ رواه عنه تلميذه الفضل بن ضياء، وكذلك تلميذه أبو طالب؛ كلاهما رويا هذا الأثر عن الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٦٧٢)، وهو يرسم لنا منهجًا واجبًا على كل من استطاع الوصول إلى الحق، فإنه لا يجوز له أن يقلِّد في خلافه.

يقول: (عَجِبْتُ لِقَوْمٍ عَرَفُوا الإِسْنَادَ وَصِحَّتَهُ)؛ هذا في شأن من هو متأهل لمعرفة الحق والصواب بحيث إنه يمكن أن ينظر في الأحاديث وفي أسانيدها وفي عللها، وبالتالي فهو يمكن أن يتحقق من الحق وأن يصل إليه من كتاب الله ومن سنة رسوله ﷺ ، كيف يدَع هذا ويذهب إلى أقوال العلماء!

ومَثّل بإمامٍ جليل من أئمة المسلمين المقدمين؛ وهو سفيان الثوري **رَحِمَهُ ٱللَّهُ** المتوفى سنة إحدى وستين ومائة ، وكان إمامًا جليلاً وله مذهب متبوع وله طلاب، ومع ذلك يقول: كيف لإنسانٍ يمكنه أن يعرف الحق، كيف لا يسعى إلى الوصول إلى الحق، ويدع ذلك اتباعًا قول فلان أو فلان من أهل العلم!! وإذا كان هذا في حق هؤلاء الأئمة الأجلاء فكيف فيمن ترك الكتاب والسنة

أو اتباع الهوى، ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [القصص:٥٠].

(٦٧٢) في مسائلهما.

واستعاض عنهما بأقوال أهل بدع أو الضلال!! أو ربما من الكفار أو الملاحدة!!.

وأعجبتني كلمة لابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «الصواعق» تعليقًا على كلمة ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا التي سمعتها آنفًا، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «رضي الله عن ابن عباس ورحمه؛ فكيف لو رأى الخلف الذين نعرفهم وهم يتركون كلام الله ورسوله ﷺ ويأخذون بقول أرسطو وأفلاطون وابن سينا والفارابي والجهم بن صفوان وبشر المريسي، وأبي الهذيل العلاف»؛ إذا كان الذي يترك الحق يترك نور الوحي من الكتاب والسنة إلى قول الصحابة وأهل العلم والأئمة مذمومًا؛ فكيف بمن ترك هذه الأدلة إلى قول غيرهم من الضالين، لا شك أنه أحق بالذم.

ثم بيّن رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الدليل على وجوب اتباع الحق هو ما جاء في كتاب الله ﷻ ومنه قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ ولاحظ هنا أن الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ فسر الفتنة بالشرك، وهذا أحد أقوالٍ ثلاثة **من أقوال أهل التفسير في هذه الآية**:

- منهم من فسر الفتنة: بالضلالة.
- ومنهم من فسر الفتنة: بالابتلاء في الدنيا.
- ومنهم من فسر الفتنة: بالشرك، وهو قول السدي ومقاتل، واختاره كما ترى الإمام أحمد رحمة الله تعالى على الجميع.

الشاهد أن من أعرض عن كلام الله ورسوله ﷺ وتقّصّد إلى مخالفته والاستكبار عن اتباعه فإنه متوعد بهذا الوعيد الشديد؛ أن تصيبه فتنة أو يصيبه عذاب أليم.

ولاحظ هاهنا، أن الفعل ﴿يُخَالِفُونَ﴾ مع أنه يتعدى بنفسه، الأصل أن يقال «فليحذر الذين يخالفون أمره»، لكنه عدّى الفعل هاهنا بحرف (عن) ؛وذلك لأن الفعل هاهنا أُشرِبَ معنى الإعراض، فكأنه قال: فليحذر الذين يعرضون عن أمر النبي ﷺ أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم.

إذًا ليست كلُّ مخالفة هي ما نتحدث عنه ولو كانت عن خطأ أو اجتهاد، إنما الحديث عن خطأٍ ناتجٍ عن إعراضٍ واستكبار، هذا الذي يدور عليه هذا الوعيد الشديد.

وفي هذا الأثر: أنَّ على المسلم أن يجتهد في الوصول إلى الحق ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وأن يبذل جهده في أن يصل إليه. ولا يعني هذا أن لا يستعين بأقوال أهل العلم وأن يرجع إلى فتاويهم وأن يسألهم، بل هذا هو الواجب عليه إن كان لا يستطيع الوصول إلى الحكم باجتهادٍ منه، إذا كان ضعيف العلم واجبه أن يسأل أهل العلم، لأنَّ الله ﷻ أمرنا بذلك[٦٧٣] ، وكذلك أمرنا رسوله

---

(٦٧٣) لقول الله جلَّ وعلا: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٤٣]

ﷺ: «هلا سألوا إذ لم يعلموا إنما شفاء العيِّ السؤال»[٦٧٤] ، وبالتالي فمن كان جاهلاً فإنه يسأل أهل العلم ويعمل بمقتضى قولهم، لكن دون أن يَنْصِبَ له شيخًا أو عالمًا لا يتجاوز قوله.

هناك فرقٌ بين التعلم وبين التعبد؛ العلماء وسيلة للتعلم، أما التعبد فإنه يرجع إلى مقام الألوهية، يتعبد الإنسان لله ﷻ، والتعبد هذا إنما يكون بكلام الله ورسوله ﷺ ، أقوال العلماء ومذاهبهم لا يستغني عنها الإنسان للوصول إلى الحق؛ بمعنى هذه المذاهب والفتاوى والأقوال إنما هي بمثابة النجم الذي يستدل به الإنسان على القبلة، فإذا عاين الإنسان الكعبة هل يحتاج أن ينظر إلى النجم؟ لا يفعل هذا عاقل.

إذًا من وقف على الحق ووصله الدليل من الكتاب والسنة، فإنه لا يحتاج ثمة أن يرجع إلى كلام أحد، المهم أن يتحقق من صحة الدليل ومن صحة الاستدلال، أن تكون آية أو يكون حديثًا صحيحًا، ثم أن يتحقق من المعنى بأن لا يفهم المعنى فهمًا خاطئًا، ثم بعد ذلك فليشدَّ يده بهذا الدليل ولا يبالي بأحد ولو خالف في ذلك أهل المشرق والمغرب. وإن كان الدليل ولله الحمد من الكتاب والسنة منصورًا، ولا يمكن أن لا يكون ثمة قائل بهذا الدليل من أهل

---

(٦٧٤)وهذا الذي يسأل مَن يثق في دينه وعلمه تبرأُ ذمّته بذلك إذا أخذ بقوله، ولو أخطأ هذا المفتي فإنَّما الإثم على ذاك إن قصَّر هو في الفتوى، قال عليه الصلاة والسلام: «مَنْ أُفْتِيَ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَإِنَما إِثْمُهُ عَلَى مَنْ أَفْتَاهُ».

العلم، هذا مستحيل، لابد أن يكون قد قيل بهذا القول وإن كان يعلمه من يعلمه أو يجهله من يجهله[٦٧٥] .

لكن قد يقول قائل: وماذا يفعل مَنْ سأل وبحث وتبين له أن في المسألة خلافًا، وما أكثر المسائل الخلافية، ماذا أصنع؟ يقول هذا الإنسان: أنا ليس عندي حصيلة علمية أتمكن بها من الترجيح بين الأقوال والوصول إلى مراد الله ورسوله ﷺ، هذا شيخٌ يقول حلال وهذا شيخٌ يقول حرام، هذا يقول إنه واجب وذاك يقول إنه ليس بواجب، إذًا كيف أصنع؟

نقول الواجب عليك الآتي:

أولاً: أن يكون قصدك الوصول إلى الحق؛ جرِّد قصدك ورغبتك في الوصول إلى الحق وأبشر بالخير فإنك ستهتدي إلى الحق، ألم يقل الله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ لا يَهْدِيهِمُ اللهُ﴾[النحل:١٠٤]، مفهوم المخالفة: من آمن بالله ورسوله ﷺ وبالآيات والأحاديث وأذعن إلى الحق فليبشر بأن الله ﷻ سيهديه إلى الحق.

---

(٦٧٥) ومعَ ذلك يُحفظُ لأهل العلم مكانتهم ومنزلتهم، ويذبُّ عن أعراضهم، ويعتقد فيهم أنهم بين أجرٍ وأجرين؛ هذا الذي ينبغي في هذا المقام المهمّ، أن يجمع الإنسان بين الأمرين: بين تجريد الاتباع وتقديم قول النبي ﷺ على قول كلّ أحد، وبين حفظ مكانة أهل العلم وإنزالهم منزلتهم اللائقة بهم وتقدير كلامهم والاستفادة منه والرجوع إليه، فكلام أهل العلم يستفاد منه في المعرفة، في التعلم، في الاستنباط، لكنَّ الواجب أن يكون الاتباع والأخذ والتعبد بكلام الله وكلام رسوله ﷺ.

ثانيًا: عليه أن يبذل ما يستطيع في معرفة الحق.

ثالثًا: فإن كان لا يستطيع فعليه أن يراجع من يثق في دينه وعلمه فيسأله.

فإن اختلف العلماء عليه : فعليه **رابعًا**: أن يرجح بين المختلفين بالأعلمية أو بالتقوى والورع، وهذا لا يحتاج لأن يكون الإنسان عالمًا حتى يميز بين عالمٍ وعالم، أو أن هذا أعلم من هذا، أرأيت أحوال الناس كيف أنهم يميزون بين الأطباء، إذا مرض الإنسان -طفلٌ مثلاً- فإنه يحرص على أن يعرضه على أفضل الأطباء، وتجد أنه بالتسامع بقرائن الأحوال، يدرك أن هذا الطبيب أفضل، وهذا لا يحتاج أن يكون الإنسان طبيبًا حتى يدركه، كذلك الشأن في باب العلم.

فإن قال: حتى هذه لا أستطيعها والكل عندي سواء؟ نقول وهو **الخامس** اذهب إلى من تثق بدينه وعلمه من العلماء أو طلاب العلم وقل له رجح لي بين هذه الأقوال وخذ بقوله، وبذلك تكون قد عملت بقول الله ﷻ: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾[النحل:٤٣]، (هلا سألوا إذ لم يعلموا؟) .

وبذلك يصل الإنسان بتوفيق الله ﷻ إلى الحق، والله أعلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ** رضي الله عنه **أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ** ﷺ **يَقْرَأُ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ﴾**[التوبة: ٣١]**الآيَة، قَالَ: فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّا لَسْنَا نَعْبُدُهُمْ، قَالَ: «أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللهُ فَتُحَرِّمُونَهُ، وَيُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَتُحِلُّونَهُ؟»، فَقُلْتُ: بَلَى، قَالَ: «فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَحَسَّنَهُ)**.

هذا حديث عدي بن حاتم ﷺ ، وهو الذي انتزع منه المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ التبويب على هذا الباب، والحديث خرَّجه الإمام أحمد والترمذي، والمؤلف ذكر أن الترمذي قد حسّنه، والواقع أنه حسنه(٦٧٦) ولكن عَقّب عليه بأن فيه غطيف بن أعْيُن، وذكر ما يدل على ضعفه، وهذا الرجل فيه ضعف، ضعَّفه الدارقطني والحافظ ابن حجر وغيرهما، كثير من أهل العلم على ضعفه.

وهذا الحديث من جهة الثبوت فيه بحثٌ طويل واختلافٌ طويل بين أهل العلم؛ منهم من ضعَّفه، ومنهم من حسَّنه، ومن أولئك شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتاب «الإيمان»، وغيرهم إلى العلماء المعاصرين منهم(٦٧٧) من حسَّن هذا الحديث.

وقد جاء عن حذيفة ﷺ تفسيرٌ لهذه الآية قريبٌ من هذا الحديث الذي بين أيدينا، خرج ذلك ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره.

وهذا الحديث إن صح عن رسول الله ﷺ فإنه يبين لنا مسألةً مهمة تتعلق بموضوع الطاعة في شأن التحليل والتحريم، وهذا الباب ينبغي أن يُحْكِّمَهُ المسلم وعلى الأخص أن يُحْكِمَهُ طالب العلم لأنه من المزالق، أعني أن من لم يُحْكِم هذا الباب وفق منهج أهل العلم الأثبات وطريقة أهل السنة والجماعة

---

(٦٧٦) قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «حسنٌ غريب» وذكر أنَّ فيه راويين؛ أحدهما: اسمه عبد السلام، والآخر: غُطيف بن أعْين .

(٦٧٧) الشيخ الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مجموع طرقه.

ربما أخطأ وضل، بل ربما وقع في التكفير بغير حق، كما وقع فيه مَنْ وقع مِمنْ لم يلزموا طريقة أهل السنة والجماعة في تناول هذه المسألة.

أذكر أن أحدهم وهو ممن له كتابات مشهورة بين بعض الناس(٦٧٨) ذكر "أن النساء اللائي يتبعن الموضة -أو ما يسمى المودة- أنهن كافرات بالله ﷻ مشركات، لأنهن أطعن الكفار"، وهذا لا شك أنه خطأٌ كبير، وخللٌ كبيرٌ أيضًا في فهم منهج أهل السنة والجماعة، وهذا تكفيرٌ لا يجوز، وذلك أن الخلل هاهنا جاء من عدم التفريق بين الطاعة والعبادة؛ الطاعة والعبادة إذا تعلقت بحق الله ﷻ، فإننا كما قد علمنا أنهما كلمتان مترادفتان. أما في حق غيره سبحانه فإن الأمر يختلف، الطاعة أوسع من العبادة، فليس كل طاعةٍ عبادة، وهذا المقام فيه تفصيل فانتبه له.

مسألة الطاعة ومتى تكون شركًا ومتى لا تكون شركًا، فيها التفصيل الآتي:

الطاعة قد تتعلق بالاعتقاد، وقد تتعلق بالعمل.

إذًا عندنا هاهنا حالتان:

الحالة الأولى: الطاعة في الاعتقاد؛ وهذه الحالة تتفرع إلى ثلاث صور:

الصورة الأولى: فهي أن يطيع الإنسانُ من جهة الاعتقاد؛ بأنْ يعتقد أن غير الله ﷻ يسوغ له أن يحلِّل أو يحرِّم برأيه وهواه وبالتالي فهو يطاع على ذلك،

---

(٦٧٨) تجده في كتاب مشهور ومتداول ولا تكاد تخلوا منه كثيرٌ من المكتبات، وهو كتاب «في ظلال القرآن»، أذكر أنه أورد شيئًا يتعلق بهذه المسألة في سورة هود.

ولا شك أن هذا شركٌ بالله ﷻ؛ وذلك أن التحليل والتحريم حقٌ لله ﷻ لا يجوز أن يشاركه فيه غيره، كما قال ذلك ربنا ﷻ: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾[التوبة:٣١]، ولاحظ هاهنا أن هؤلاء النصارى الذين جاءت فيهم هذه الآية قد اختلف الحال عندهم بين ما يتعلق بعيسى عليه السلام وبين ما يتعلق بأحبارهم ورهبانهم.

الأحبار: يعني العلماء؛ واحد الأحبار: الحَبْرُ، ويجوز كسر ذلك «حِبْرٌ»، لكن الأكثر على الفتح «حَبْر» يعني عالم، الأحبار: هم العلماء.

والرهبان: هم العباد [٦٧٩].

وهناك اتخاذٌ لعيسى ﷺ ربًا

[٦٨٠] - اتخاذ عيسى ﷺ ربًا كان باعتقاد الربوبية فيه، والتقرب إليه بالإلهية.

-أمَّا في حق الرهبان والأحبار: فإنما كان اتخاذهم أربابًا من جهة طاعتهم في التحليل والتحريم؛ حيث إنهم يحللون ما حرم الله أو يحرمون ما أحل الله، وهذا هو الشرك وهو الذي كانوا به متخذين الأحبار والرهبان أربابًا . ولذلك جاءت في رواية عند ابن جرير لأثر حذيفة رضي الله عنه لما جاء إلى تفسير هذه الآية، قال: «والله إنهم ما صلُّوا لهم ولا صاموا لهم، ولكنهم كانوا يحرمون لهم الحلال

---

(٦٧٩) الرهبان: جمْع راهب وهو العابد.

(٦٨٠) وثمَّةَ فرقٌ بين اتخاذهم الأحبار والرهبان، واتخاذهم عيسى ﷺأربابًا.

فيحرمونه، ويحلون لهم الحرام فيستحلونه، هذا هو الذي كانوا به أربابًا مع الله ﷻ». [٦٨١]

إذًا من اعتقد هذا الاعتقاد وأن أحدًا يجوز أن يشارك الله ﷻ في حق التحليل والتحريم، فلا شك أنه قد اتخذه ربًا مع الله ﷻ، وهذا شركٌ أكبر.

الصورة الثانية: أن يطيع غير الله ﷻ في تحليل ما حرم الله أو تحريم ما أحل الله اعتقادًا، يطيعه من جهة الاعتقاد؛ بمعنى أن يقول له في شيء حرمه الله إنه حلال فيعتقده حلالاً، أو يقول له في شيء أحله الله إنه حرام فيعتقده حرامًا؛ فهذا أطاع في شأن التحليل والتحريم من جهة الاعتقاد.

وهذا يحصل من طائفة القبورية الذين غلوا في مشايخهم الذين اتخذوهم أربابًا بل اتخذوهم أيضًا آلهة[٦٨٢]، فإنهم يعتقدون أن الشيء الذي يقول فيه هذا

---

(٦٨١) بيّن النبي ﷺ الحدّ الضابط لهذا الشرك الذي مفاده اتخاذ أولئك الأحبار والرهبان أربابًا من دون الله؛ وذلك أنهم كانوا يُحرمون عليهم الحلال فيحرمونه، ويحلُّون لهم الحرام فيحلونه، طاعتهم في ذلك إنما هي اتخاذٌ لأولئك الأحبار والرهبان أربابًا من دون الله. وهذا الذي قصده الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الباب حيث ذكر على مِنوال ما جاء في الآية «من أطاع العلماء والأمراء» كما كان في بني إسرائيل مَن يطيع الأحبار والرهبان، وهذا وذاك إنما هو على سبيل التمثيل، وإلا فلو أطاع المرء غير العالم والعابد والأمير في تحليل ما حرَّم الله أو العكس فهو متخذٌ لذلك ربًا معَ الله ﷻ. وقد فسَّر إمام الدعوة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بعض أجوبته، كما في «الدرر السّنية» الأرباب بقوله: «من أفتاك بمخالفة الحقّ فأطعْته مصدِّقًا»، وكلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ هو الحق وهو الصواب، ويحتاج المقام في هذه المسألة إلى تفصيل وبيان.

الشيخ إنه حرام فهو حرام وإن كان الله أحله، وما قال فيه الشيخ إنه حلال فإنه حلال وإن كان الله ﷻ حرمه، ولا شك أنَّ هذا شركٌ أكبر لله ﷻ. لو أن هذا الشيخ قال لمريده "إن الخبز حرام" -مع أن الله أحله- فاعتقد التلميذ والمريد أن الخبز حرام، نقول: قد اتخذ هذا ربًا مع الله فأشرك. أو قال له "إن الخمر حلال"، وهو يعلم أن الله ﷻ قد حرمها، فاعتقد أن الخمر حلال بناء على طاعته لهذا الشيخ، فيكون قد اتخذه ربًا مع الله فأشرك.

ويدل على هذا الحكم قول الله ﷻ: ﴿وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾[الأنعام:١٢١] ؛ قال أهل العلم: إن أطعتم هؤلاء المشركين في تحليل ما حرم الله ﷻ فإنكم حينئذٍ تكونون مشركين.

والآية على المشهور في سبب نزولها تتعلق في قول المشركين "إنَّ الميتة حلال؛ لأنها في زعمهم قد قتلها الله ﷻ، فهي أولى بالحلِّية مما يقتله الإنسان، كيف تجعلون الـمُذّكى والمذبوح حلالاً، والميتة حرامًا! مع أنَّ الله ﷻ هو الذي قتلها، إذًا هي أولى أن تكون حلالاً" مع أن الله ﷻ قد بين في كتابه أن هذه حرام،

---

(٦٨٢) حتى إنهم أعطوا الحقّ لهؤلاء في أنْ يحلّلوا ويحرموا على أنفسهم أو على غيرهم؛ على أنفسهم: كما يزعم بعض أولئك الضالين أنه قد وصل إلى مرحلة اليقين، وبالتالي ارتفعت عنه التكاليف فأصبح الحرام في حقه حلال. أو يُحرم على غيره متذرّعًا ببعض الشّبه: كقوله "حدَّثني قلبي عن ربي"، أو "جاءني في الكشْف كذا وكذا"، هذه شبهٌ داحضة بلا خلاف عند أهل العلم.

فبيّن سبحانه في هذه الآية أن من أطاع المشركين في ذلك -والخطاب موجه للصحابة- ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾، فدل ذلك على أن اعتقاد تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرم الله ﷻ لا شك أنَّ هذا شرك أكبر.

الصورة الثالثة: هي اعتقاد أنَّ غير الله ﷻ يجوز أن يُطاع في معصية الله، فلو أمر أحدٌ أحدًا بمعصية الله -كأن يأمر سلطان أو متنفذٌ غيره بمعصية الله ﷻ- فيعتقد أنه يجوز أن يطيعه على ذلك، فهو يعمل هذا الأمر المحرم وهو يعتقد أنه يجوز أن يفعله طاعةً لهذا الآمر، وهذا لا شك أنه أيضًا شرك أكبر(٦٨٣) .

إذًا الطاعة إن تعلقت بالأمرِ اعتقادي في هذه الصور الثلاث لا شك أنها شرك أكبر.

أما من جهة العمل فإن هذه الحال تتفرع إلى صورتين:

➢ **الصورة الأولى**: أن يُؤْمر الإنسان بالشرك فيفعل الشرك يطيع في الفعل الشركي؛ فيكون مشركًا، قال له العالم أو قال له الأمير أو قال له ذو النفوذ: "اسجدُ للصنم، أو ادعو الأموات" ففعل، الآن أطاع من جهة العمل، فعَل الشرك فيكون بهذا مشركًا.

➢ **الصورة الثانية**: أن يطيع في فعل معصية؛ وهذه معصية. كأن يقول له: "اسرق، أو اشرب الخمر" فيطيع، وهو يعتقد أن هذا حرام، لكنه يطيعه لا من

---

(٦٨٣) وكذَّب قول النبي عليه الصلاة والسلام: «إِنَّما الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ، على المرءِ المسلم السمع والطاعة فيما أحبَّ وكَره، ما لم يُؤمر بمعصية، فإذا أُمِرَ بالمعصيةٍ فلا سمع ولا طاعة».

جهة الاعتقاد وإنما من جهة العمل، أُمِرَ أن يعصي فعصى مع اعتقاده أنه عاصٍ ومع اعتقاده أن هذه الطاعة لا تجوز، لكنه يرجو بره، أو يزعم أنه يكتفي شره مثلاً، ولا يكون بهذا معذورًا ، فهذه الحالة تكون معصية(٦٨٤).

إذًا لابد من النظر في هذا الموضوع بهذا التفصيل، وإن لم يكن مفصلاً لهذا فإنه يكون قد وقع في الخطأ.

هذا الحديث أخبر فيه النبي ﷺ أن طاعة العلماء الذين هم الأحبار أو العبَّاد وقد يكون ذلك في غيرهم أيضًا كما ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في التبويب، ربما يكون أميرًا وربما يكون غير هؤلاء، لا شك أنَّ من أطاعهم في ذلك من جهة تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرم الله، لا شك أنَّ هذا يكون شركًا على التفصيل الذي سبق(٦٨٥).

---

(٦٨٤) **يبقى فقط التنبيه على أنه إذا كان لا يعلم أنَّ هذه معصية** وأطاع من يحبه أو يعظمه عليها؛ فإنَّه معذورٌ لأنه يجهل هذا الأمر. وثمة كلام حسن وتفصيل دقيق لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتاب «الإيمان» فليُرجع إليه فإنه كلام طيب في هذه المسألة في حدود الصفحة السبعين أو نحوها من النسخة المودَعة في مجموع الفتاوى. والله أعلم.

(٦٨٥) **يبقى التنبيه على أنَّ هذا النَّص الذي جاء عن النبي عليه الصلاة والسلام قد دلَّت عليه دلائل أُخر:**

- منها: قول الله ﷻ ﴿وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام:١٢١]؛ بيَّن أهل العلم أنَّ الطاعة هنا هي في التحليل والتحريم، وعلى وجه الخصوص في شأن تحليل الميتة، إذْ إنَّ هذه الآية على المشهور في نزولها عند أهل العلم نزلت حينما جادل

وبذلك يتبين لنا أن الواجب على المسلم أن يخلص طاعته لله ورسوله ﷺ من جهة التحليل والتحريم ومن جهة العمل أيضًا، فإنه بذلك يسلم من الشرك ويسلم من الفسق، ويحقق توحيده لله ﷻ. (٦٨٦)

المشركون النبي ﷺ والمسلمين في شأن الميتة، يقولون: "تجعلون الحلال ما تقتلونه، والحرام ما يقتله الله!" زعموا أنَّ هذا أوْلى أن يكون حلالًا، الذي يموت حتْف نفسه، الميتة أوْلا أن تكون حلالًا. وهذا من أفسد الأقيسة على وجه الأرض؛ أن تقاس الميتة على المذكّاة هذا قياسٌ فاسد ولا شكَّ في ذلك. فنبَّه ربّنا جلَّ وعلا وبيّن أنَّ طاعة هؤلاء المشركين في جعْل هذه الميتة حلالًا شركٌ بالله ﷻ، فمن أطاعهم على ذلك فهو مشرك، ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾.

-كما يشهد لحديث عدي رضي الله عنه أثر حذيفة رضي الله عنه الذي أخرجه الطبري في تفسيره عند هذه الآية (آية التوبة): ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ﴾، قِيلَ له: أعَبَدوهم؟ قال رضي الله عنه: «لا، ولكنهم حرَّموا لهم الحلال فحرموه، وأحلوا لهم الحرام فأحلوه»، وهذا يوافق التفسير الذي جاء في هذا الحديث.

(٦٨٦) **بقي أيضًا تنبيهٌ أخير** يتعلق بأنَّ الآية قد جاء فيها لفظُ الرب، ﴿**اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا**﴾، وجواب عدي رضي الله عنه إن صح الحديث هو أنه قال: «ما عبدناهم»، فَفَهِمَ من اتخاذ الرب العبادة؛ **فهل هذا يعني أنَّ الرّب والإله** -الإله: هو المعبود- **هل هما بمعنى واحد؟** عدي رضي الله عنه من العرب وفهْمه للغة العرب حُجَّة.

الجواب عن ذلك هو أحد أمرين:

الواجب على المسلم أن يكون مذعنا موطنًا نفسه على الاستجابة السريعة العجْلى لأمر الله ورسوله ﷺ، وأن يحذر أشد الحذر من معارضة أمر الله ورسوله ﷺ بأي نوع من أنواع المعارضة، لا يعارض الآيات والأحاديث لا بقول شيخ، ولا بعُرف، ولا بعادة، ولا بأحوال الزمان، ولا بغير ذلك من الأعذار الواهية، إنما يكون مستجيبًا ومقبِلاً، فهذا من علامات الإيمان وهذا هو المحك الذي يظهر به المؤمن الصادق من غيره، الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ حدَّث مرة بحديث عن رسول الله ﷺ فقال له أحد جلسائه: أتقول بهذا الحديث؟ فغضب الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وقال له: «أتراني خرجت من كنيسة؟ أترى في وسطي زُنارًا -يعني علامة كانت معروفة في أهل الكتاب في ذلك الزمان- حتى أروي عن رسول الله ﷺ حديثًا ولا آخذ به؟! بلى، على الرأس وعلى العين».

- **إمَّا أن يقال** كما قال إمام الدعوة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن لفظ «الرب» و«الإله» من الألفاظ التي إذا اجتمعت افترقت وإذا افترقت اجتمعت؛ فإذا جاء لفظ الرب وحده أو الإله وحده، فإنه يتضمّن معنى الرب أو الإله، يعني الرب يتضمن معنى الإله، والإله يتضمن معنى الرب.
- أو يكون وهذا الجواب الثاني: أنَّ الذي فهمه عديٌ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ -ولستُ بحاجة إلى التنبيه على أنَّه كان إذ ذاك مشركًا، ولذلك قال: ما عبدناهم- يكون الذي فهمه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ من باب اللّزوم، فيلزم من اتخاذهم أربابًا عبادتهم، وإن كانت الربوبية متعلقةً بالطاعة بالتحليل والتحريم، أو متعلقةً بالخلق والرزق وما إلى ذلك، فكل ذلك اتخاذٌ للمرْهوب ربًا، لكن يلزم من ذلك من باب اللّزوم أن يُعبد هذا الرب، فإذا كان ربًا فإنه يُعبد لأن بيده نفعًا وضرًا في زعْم من اتخذه ربًا.

هذا هو الاتباع الصادق لهؤلاء الأئمة، يخطئ من يظن أنه يتَّبع الإمام حينما يأخذ بقوله المخالف للحق من الكتاب والسنة، الإمام ربما يكون معذورًا، وليس أحد معصومًا وليس أحد قد أحاط بكل حديث رسول الله ﷺ، العالم مهما كان رفيع الدرجة في العلم لابد أن يفوته شيء من حديث رسول الله ﷺ، وبالتالي فإنه إذا قال قولاً خالف فيه الحق فجاء هذا التابع لهذا الإمام أو من ينتسب إليه أو من يتقلَّد مذهبه، فخالف الإمام واتبع الحق هو في الحقيقة متبعٌ للإمام لا مخالف له، نعم هو خالفه في جزئية، لكنَّه وافقه في القاعدة العامة، وهذا أقرب إلى الاتِّباع.

الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال كلمة عظيمة تُكتب بماء العين، قال: «أجمع المسلمون على أن من استبانت له سنة رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدَعها لأحد كائنًا من كان»، هذا إجماع قطعي، وإن كان قد قاله الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ فهو لسان حال جميع الأئمة من الأئمة الأربعة وغيرهم. أما هذا الذي يقول "أنا أتبع هذا الإمام ولا أخرج عن قوله أبدًا، أختار واحد من الأئمة الأربعة مثلاً وبالتالي فإنني لا يمكن أن أخرج عن قوله أبدًا" ، لا شك أن هذا أمر مُحدثٌ في دين الله، وليس عليه أثارة من علم، وليس عليه دليل من الكتاب والسنة.

إنما الذي يجب أن يكون مبتغاك وأن يكون قصدك هو طاعة الله ورسوله ﷺ ، وكل ما سوى ذلك فإنه يكون مطرحًا أمام كلام الله ورسوله ﷺ ، وهذا إجماع الأئمة الأربعة بل إجماع الأئمة جميعًا، وفي هذا يقول الناظم:

وقــول أعــلام الهــدى لا يُعمــلُ بقولنـــا بـــدون نـــصٍ يُقبـــلُ

فيـــه دليـــل الأخْـــذ بالحـــديث وذاكَ في القـــــديمِ والحـــــديثِ
قـــال (أبـــو حنيفـــةَ) الإمـــامُ لا ينبغـــي لمـــن لـــه إســـلامُ
أخْـــذًا بـــأقوالي حتـــى تُعرضَـــا علـى الكتـاب والحـديث المرْتضـى
و(مالـــكٌ) إمـــام دار الهجـــرة قـال وقـد أشـار نحـو الحُجْـرة
كـــلّ كـــلام منـــه ذُو قبـــولِ ومنـــه مـــردودٌ سِـــوى الرســـولِ
و(الشـــافعي) قـــال: إن رأيـــتُمُ قـــولي مخالفًـــا لِمَـــا رويـــتمُ
مـن الحـديث فاضـربوا الجـدارا بقـــولي المخـــالف الآثـــارا
و(أحمـــد) قـــال لهـــم لاتكتبـــوا مـا قلتـه بـل أصـل ذاك فـاطلبوا
فاسـمعْ مَقـالات الهـداة الأربعـه واعمـــل بهـــا فـــإنَّ فيهـــا منفعـــة
لقمْعِهـــا لكـــلّ ذِي تعصـــب والمنصـــفون يكْتفـــون بـــالنبي



قال المصنف رحمه الله:

٣٩-بَابُ

قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ [النساء:٦٠-٦٢] الآيات

وقوله : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ [البقرة:١١] .

وقوله : ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف:٥٦] .

وقوله : ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة:٥٠]

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ».

قَالَ النَّوَوِيُّ: «حَدِيثٌ صَحِيحٌ، رَوَيْنَاهُ فِي كِتَابِ الْحُجَّةِ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ».

وَقَالَ الشَّعْبِيُّ: كَانَ بَيْنَ رَجُلٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَرَجُلٍ مِنَ الْيَهُودِ خُصُومَةٌ، فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: نَتَحَاكَمُ إِلَى مُحَمَّدٍ؛ عَرَفَ أَنَّهُ لَا يَأْخُذُ الرِّشْوَةَ، وَقَالَ الْمُنَافِقُ: نَتَحَاكَمُ إِلَى الْيَهُودِ؛ لِعِلْمِهِ أَنَّهُمْ يَأْخُذُونَ الرِّشْوَةَ، فَاتَّفَقَا أَنْ يَأْتِيَا كَاهِنًا فِي جُهَيْنَةَ؛ فَيَتَحَاكَمَا إِلَيْهِ؛ فَنَزَلَتْ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا

أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾ [النساء:٦٠] الآيَةَ.

وَقِيلَ: نَزَلَتْ فِي رَجُلَيْنِ اخْتَصَمَا، فَقَالَ أَحَدُهُمْ: نَتَرَافَعُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَقَالَ الآخَرُ: إِلَى كَعْبِ بْنِ الأَشْرَفِ، ثُمَّ تَرَافَعَا إِلَى عُمَرَ، فَذَكَرَ لَهُ أَحَدُهُمَا الْقِصَّةَ، فَقَالَ لِلَّذِي لَمْ يَرْضَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ: أَكَذَلِكَ؟ قَالَ: نَعَمْ؛ فَضَرَبَهُ بِالسَّيْفِ فَقَتَلَه.



قال الشارح وفقه الله:

هذا الباب الذي عقده المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد الباب الذي سبقه كان منه ترتيبٌ حسن من المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ؛ حيث إنَّ بين البابين علاقة، وذلك أن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أراد أن يبين حقيقة الكفر بالطاغوت. والطاغوت- كما مر بنا في دروسٍ سابقة- أصحُّ تعريف له هو تعريف ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(كل ما تجاوز به العبد حده، من معبودٍ أو متبوعٍ أو مطاع).**

أمَّا المعبود؛ فمضى الكلام عما يتعلق به في الأبواب المتقدمة.

وأما المتبوع والمطاع؛ فأراد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن ينبه إلى ما يتعلق بهما في هذين البابين؛ وذلك أن تجاوز العبد بأحدٍ حدَّه يكون اتخاذًا للطاغوت من هذه الجهات الثلاثة:

١. أن يجعله معبودًا.

٢. أو متبوعًا.

٣. أو مطاعًا تجاوز به الحد الواجب شرعًا.

وكل واحدٍ من هذه الأمور الثلاثة فيه تفصيل، هذا تعريفٌ عام لكن ثمة تفصيل.

- **أما المعبود**؛ فلا شك أن كل عبادة لغير الله فهي تجاوزٌ للحد، لكن علِمنا أن **إطلاق وصف الطاغوت على المعبود لا يكون إلا في حالتين**:

▪ **الأولى**: حالة الرضا بالعبادة؛ يُعبد وهو راضٍ.

▪ **والحالة الثانية**: حالة الترشُّح؛ يترشح للعبادة ويرى أنه أهل لها وإن لم يُعبد، ففي هذه الحالة نقول إن هذا طاغوت. أيضًا في حالة ما إذا كان المعبود ليس له إرادة كالأشجار والأحجار والأصنام، فإنما تسمى طواغيت.

▪ **أمَّا الحالة الثالثة**: فهو أن يُعبد المعبود دون الله ﷻ وهو غير راضٍ؛ كعيسى والملائكة والجن المسلمين والأولياء الصالحين وما إلى ذلك، فهذا لا يسمى المعبود في هذه الحال طاغوتًا، إنما يقال إن العابد اتخذ طاغوتًا مع الله، أما المعبود فلا يسمى طاغوتًا في هذه الحال.

إذًا المعبود له ثلاثة أحوال: اثنتان منها يطلق على المعبود فيها أنه طاغوت، والحال الثالثة لا يقال فيها عن المعبود إنه طاغوت.

- **أمَّا المتبوع**: فإنه العالم الذي يُتْبَعُ قوله.
- **وأمَّا المطاع**: فإنَّه الأمير وذو السلطان الذي يُطاع أمره.

وإنما يكون هذا وذاك طاغوتين فيما إذا تعلق الأمر بتحليل ما حرم الله أو تحريم ما أحل الله على الوجه الذي علمته في الباب السابق، أو من جهة تنزيل أمره وقوله منزلة الكتاب والسنة في إرجاع مسائل التنازع إلى هذه الأقوال.

إذًا هاتان حالتان يكون فيها المتبوع أو المطاع طاغوتًا:

- إذا أحل ما حرم الله أو حرم ما أحل الله.
- **أو** جعل قوله وحكمه مرجوعًا إليه بمنزلة الكتاب والسنة الذين يحكم بهما وواجبٌ أن يحكم بهما ، على تفصيل في هذا إن شاء الله سيأتي.

إذًا هذا الباب أراد المؤلف به أن يبين أنَّ تحكيم شرع الله ﷻ توحيد، وأن تحكيم غير شرع الله إما أن يكون ناقضًا لهذا التوحيد أو قادحًا في هذا التوحيد؛ وبالتالي واجبٌ على جميع المسلمين أن يجعلوا شرع الله الذي جاء في الكتاب والسنة هو المرجع عند التنازع وهو الذي يجب أن يُحكم به؛ وذلك أن الله ﷻ كما أنه المعبود ﷻ الحق، كذلك هو الذي يجب أن يكون حُكمه نافذًا في خلقه؛ كما أن حكمه الكوني نافذ، فكذلك يجب أن يكون حكمه الشرعي نافذًا.

الله ﷻ هو الحكَم وإليه الحُكم، كما قال النبي ﷺ فيما خرج أبو داود وغيره: «إن الله هو الحَكَم وإليه الحُكْم»؛ فالحُكم يجب أن يكون إلى الله ﷻ ولا يجب أن يكون لغيره حكمٌ، ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾[الأنعام:٥٧]، ﴿أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِي حَكَمًا﴾[الأنعام:١١٤]،﴿أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾[التين:٨]. إذًا الحُكم يجب أن يكون لله كما أن الطاعة -وقد علِمنا ذلك- يجب أن تكون لله ﷻ.

الله ﷻ أنزل هذا القرآن لا لغرض التعبد والتدبر فحسب، هذا من مقاصد القرآن ولا شك، لكن ليس الأمر مقصورًا على ذلك، بل يجبُ أن يكون أيضًا المرجع عند التنازع، يجب أن يكون هو الـمُحَكَّم مع سنة النبي ﷺ، ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ**﴾ لمَ؟ ﴿ **لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ**﴾[النساء:١٠٥].

إذًا يجب أن يكون التحكيم لكتاب الله ولسنة رسوله ﷺ؛ هذه قضيةٌ من صميم العقيدة الإسلامية يجب أن يعتقدها كل مسلم؛ الحكم لله، والطاعة لله، وعلى جميع الخلق أن يلتزموا حُكم الله ورسوله ﷺ ، وإلا فإنهم يكونون على شفا هلَكة، من لم يلتزم حكم الله ورسوله ﷺ فإنه يكون قد ضلَّ ضلالاً بعيدًا، كما هو الشأن في هذه الآية التي معنا.

وأنبِّه هنا إلى أنَّ مفهوم تحكيم شرع الله ﷻ أوسع مما يظنه بعض الناس؛ بعض الناس يظن أن تحكيم الشريعة أو أن حاكمية الشريعة مخصوصةٌ بمسائل فضّ النزاعات ، وهذا من حاكمية الشريعة وليس هو حاكمية الشريعة؛ بمعنى: كما يجب أن يكون الشرع هو الـمُحَكَّمُ في جرائم المجرمين وسرقة السارقين، كذلك يجب أن يكون شرعُ الله ﷻ هو المُحَكَّم في هُتاف الهاتفين والمستغيثين بالأموات، والناذرين للقبور، والطائفين بالأضرحة، يجب أن يكون حكم الله ﷻ يجب أن يكون الكتاب والسنة مُحَكَمًا فيما تنازع الناس فيه في مسائل الأسماء والصفات(٦٨٧) ، فإنَّ من الناس من اتخذ طواغيت استعاضوا بها عن الكتاب والسنة، أرجَعوا هذه المسائل الجليلة إليها، أرجعوا إلى قواعد زعموها عقلية وسفساطات زعموها منطقية، وهذيانات زعموها فلسفية، وتركوا كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وراءهم ظِهرِيًّا.

---

(٦٨٧) فقضية التوحيد أول ما ينبغي أن يُتنبَّه لها ويُشار إليها في قضية تحكيم الشرع، قال جلَّ وعلا: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾[يوسف:٤٠]، أول قضية ينبغي أن تدخل في تحكيم الشرع توحيد الله تبارك وتعالى.

يجب أن يكون شرع الله، يجب أن يكون كلام الله وكلام رسوله ﷺ هو الـمُحْكَّم في العبادة، فيجب أن يُعبد الله بما شرع الله ورسوله ﷺ ، لا أن يُحَكِّم الإنسان أحدًا من الخلق سوى رسول الله ﷺ فيجعل قوله هو الذي يجب الرجوع إليه ولو استبان له كلام الله ورسوله ﷺ ومراد الله ورسوله ﷺ فإنه لا يبالي، بل المرجع إلى قول الإمام وقول المذهب فحسب، وما سوى ذلك ولو كان آية أو حديثًا فإنه لا يلتفت إلى ذلك! هذا كله من ترك تحكيم الشريعة.

إذًا تحكيم الشريعة مفهومٌ أوسع مما يظنه بعض الناس، يجب أن يُحَكَّمَ شرع الله ﷻ في كل قضيةٍ جلَّت أو دقَّت(٦٨٨).

---

(٦٨٨) وهذا ما قصَّر فيه من قصَّر من الذين يرفعون لواء الدعوة إلى الحاكمية، فزلُّوا هذه الزلَّة الشنيعة، فلم يُبالوا بما يقع فيه النَّاس من شركٍ بالله تبارك وتعالى ومن تحكيم الفلسفة والمنطق وغير ذلك من الأوضاع المُتلقاة من الوثنيين والصابئة والمجوس في عقائد المسلمين. وقد أشار إلى هذا شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ في أوائل «الحموية» ، حيث ذكر أنَّ من النَّاس من يجعل له طواغيت يتحاكم إليهم دون كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ في مسائل الصفات وغيرها، ﴿يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾ ، وإذا عُوتبُوا على ذلك يقولون: ﴿إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾[النساء:٦٢]، توفيقًا بين الدلائل النقلية والدلائل العقلية، أمَّا أن يكون المرجوع إليه الدلالات النقلية فحسب هذا عندهم غير صحيح وغير ممكن؛ لأنَّ الدلائل النقلية إن كانت أحاديث آحاد فهي مردودة غير مقبولة جُملة وتفصيلًا في باب الاعتقاد، وإن كانت أحاديث متواترة أو آيات من كتاب الله

هذه الآية التي معنا من سورة النساء -وهي التي عَنوَنَ بها المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الباب- في سياق يدور معناه على قضية التحكيم والطاعة.

تأمل معي -يارعاك الله- فإنها آياتٌ عظيمة يجب أن يعيها كل مسلم ومسلمة، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾[النساء:٥٩]؛ لاحظ معي هنا كيف أن الفعل ﴿أَطِيعُوا﴾ تكرر في أمر الله وفي أمر رسوله ﷺ؛ وهذا يفيد أنَّ حُكم النبي ﷺ واجب الطاعة استقلالاً. بمعنى: ما جاء الأمر فيه من الكتاب والسنة فعلى الرأس وعلى العين، وما جاء الأمر فيه من الكتاب فحسب فعلى الرأس وعلى العين، وما جاء الأمر فيه من السنة فقط فعلى الرأس وعلى العين، فلا فرق عندنا معشر المسلمين بين أن يثبت الحكم بآيةٍ وحديث، أو آيةٍ أو حديث، كل ذلك مقبول وكل ذلك واجب الطاعة والاتباع.

بخلاف قول بعض الضالين الذين يزعمون أنهم قرآنيون والحق أنهم كافرون بالقرآن مكذبون لكتاب الله، حينما يزعمون أنهم لا يأخذون إلا بالقرآن، وأما ما انفرد به شيء من سنة النبي ﷺ فإنه لا يُلتفت إليه ولا يُرجع إليه! ولا شك أن هذا المذهب مُكذبٌ لكتاب الله وكُفرٌ بالكتاب والسنة.

فهي ظواهر نقلية لا تفيد اليقين، فلا يمكن أن يُستفادَ منها القطع، فلا يُرجع إليها في باب الاعتقاد. فأين تحكيم شرع الله ﷻ في هذا الباب! والله المستعان.

ثم قال: ﴿وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ ولاحظ هاهنا أنه لم يُعَد الفعل ﴿أَطِيعُوا﴾ ، ذلك أن -والتحقيق في هذه الآية- «أولي الأمر» هذه الكلمة تجمع صنفين: الأمراء، والعلماء.

قال: ﴿وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ ولم يُعِد الأمر ﴿أَطِيعُوا﴾ ؛ ليبين لك أن طاعة أولي الأمر ليست طاعةً مستقلة، بل يجب أن تكون تابعة للكتاب والسنة، وبالتالي فكل حُكم لولي أميرًا أو سلطانًا أو عالمًا فإنه لا يُقبل إذا كان مضادًا للكتاب والسنة، قال النبي ﷺ: «إنما الطاعة في المعروف»؛ فطاعة أولياء الأمر لا يجوز أن تكون نافذة في معصية الله ﷻ، قال النبي ﷺ: «على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره ما لم يؤمر بالمعصية، فإن أُمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة».

﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ﴾؛ إذًا هذا هو الذي يجب من كل مؤمن بالله ورسوله ﷺ ؛ أن يرد التنازع ومواضع التنازع وأحوال التنازع إلى الكتاب والسنة. وقد أجمع العلماء على أن الرد إلى الله: هو الرد إلى كتابه، وأن الرد إلى رسوله ﷺ بعد وفاته: هو الرد إلى سنته. هذه هي زبدة الإيمان، وحقيقته في هذا الباب؛ أن يكون الـمُحَكَّمُ وأن يكون المرجع في مواضع التنازع إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، في كل قضية صغيرة أو كبيرة.

وإننا لنُشهد الله على أن كل أمر من الأمور؛ سواءً تعلق بأمر الدين أو الدنيا، سواء تعلق بكبار المسائل أو صغارها، سواء تعلق بأمور الاقتصاد أو الحدود أو أحوال الأسرة وأحكامها، وما شاكل ذلك كل ذلك له حكمٌ في الكتاب والسنة

قطعًا، إما أن يكون فيه حكمٌ في دليل خاص، أو يكون له حكمٌ في دليل عام، أو يكون له حكمه راجعًا إلى قاعدة شرعية أو مقصد شرعي.

مستحيل -وهذا مما يجب أن يُجزم به- يستحيل أن يكون شيء من الأشياء خاليًا عن حكم الله ورسوله ﷺ ، هذا من أبعد المُحالات، كلُّ المسائل والقضايا والأمور والنزاعات وغير النزاعات لله ولرسوله ﷺ فيها حكم، والشريعة تستوعب هذه الأمور مهما استجدَّت المستجدات، لكن طبيبُ ذلك العالم الرباني الذي يعرف كيف يُنَزِّلُ المسائل على أدلتها بحيث يُحْسِنُ تحقيق المناط، والبلية حينما يتولى ذلك من ليس لذلك أهلاً.

قال تعالى: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾؛ ما أعظم هذه الجملة، لأنها دلت على أن هذا التحكيم شرطٌ في الإيمان، وقد علمتم أن الشرط: ما يلزم من عدمه العدم. إذًا من لم يلتزم حاكمية الله، وردَّ التنازع إلى الله والرسول ﷺ فإنه يكون قد انطبق عليه هذا الحكم؛ لم يكن مؤمنًا بالله واليوم الآخر، لم يكن مؤمنًا بالله ورسوله ﷺ.

قال سبحانه: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾، ثم جاء موضع الشاهد: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ

يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالًا بَعِيدًا﴾[النساء:٦٠] (٦٨٩).

لاحظ هذا الأسلوب الحسن، قال: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾ هذا في اللغة يسمى: «أسلوب تعجيب»، أعجب بمن هذه حاله، انظر إلى هؤلاء: ﴿يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾؛ الزعم كلمةٌ من مثلّث اللغة، يقال: زَعْمٌ وزُعْمٌ وزِعْمٌ، الأكثر زَعمٌ.

-**الزعم في اللغة قد يأتي** -وهذا الأكثر- بمعنى القولُ الكاذب؛ "هذا زَعمٌ" أو "زَعْمَ فلان" يعني: هذا كذب، ومنه قول الله ﷻ: ﴿فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ﴾[الأنعام:١٣٦]، ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ﴾[الأنعام:١٣٦]، يعني: بكذبهم وإفكهم، هذا هو الأكثر.

-**وقد يستعمل فيما هو أرفع شأنًا من هذا**، وهو في القول الذي تحوم حوله الشكوك؛ أمر مشكوك فيه، يقال زعم فلان كذا، هو لم يجزم بكذبه، لكن الأمر مشكوك فيه.

-**وقد يستعمل هذا الكلم فيما هو أرفع من ذلك**، وهو القول الذي تحال فيه العهدة إلى قائله، وهذا واقعٌ أيضًا في كلام أهل اللغة، وقد أكثر سيبويه رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «الكتاب» من هذه الجملة، فهو يقول: "زعم الخليل كذا، زعم

---

(٦٨٩) يقول الله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾؛ الخطاب موجَّه إلى النبي ﷺ، والقرينة في ذلك ظاهرة؛ ﴿آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾، فالخطاب له عليه الصلاة والسلام، ولا شكَّ أن الخطاب له خطابٌ لأُمَّته عليه الصلاة والسلام.

الخليل كذا"، فهو يريد أنه قولٌ ليس أنه قول ليس كذبًا ، إنما هو قول يحيل عهدته على قائله.

-**وقد يستعمل فيما هو أرفع من ذلك**، وهو القول الحق؛ ويشهد لهذا ما جاء في صحيح مسلم من قصة الأعرابي الذي جاء للنبي ﷺ وكان فيما قال: «إنه أتانا رسولك فزعم أنك تزعم أن الله أرسلك»، هذا قول الرسول أن النبي ﷺ يزعم أن الله أرسله، فهذا الزعم قولٌ حق(٦٩٠)، قد تستعمل هذه الكلمة في القول الحق.

الشاهد أن هذا القول الذي نسبه الله ﷻ إلى هؤلاء المنافقين، وطائفة من المفسرين نقلوا الإجماع على أن المقصود في هذه الآية إنما هم المنافقون(٦٩١) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾، والزَعْمُ ههنا هو: القول الكاذب هم يقولون قولًا لم يسبقوا فيه .

﴿يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾؛ ومعلومٌ أن الإيمان بالكتب من أركان الإيمان، وأن من كذَّب بكتابٍ واحد مما أنزل الله ﷻ فلا شك أنه كافرٌ بالله ﷻ غير مسلم.

---

(٦٩٠) ومن هذا قول أُمية ابن الصلْت: «وإني أدين لكم أنكم سيُنجِزُكم ربكم ما زعم».

(٦٩١) فإنهم يدَّعون كذبًا وزورًا أنهم يؤمنون بما أنزل على النبي ﷺ، وما أنزل على النبي ﷺ هو القرآن والسُنَّة، ﴿وَأَنزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [النساء:١١٣] يعني: السنَّة.

وميزة ما أنزل الله على نبيه ﷺ على بقية الكتب إنما هو الاتباع. أما بقية الكتب فيؤمن بها ويُصدق بها لكن لا يُعمل بها ولا تُتبَّع، الاتباع والعمل أمرٌ خاص بما أنزل على النبي ﷺ، وهذا في حقنا معشر أمة محمد ﷺ.

قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾؛ انتبه هاهنا إلى هذه الكلمة المهمة « يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ »؛

الطاغوت في مجال التنازع هو: كل ما جُعِل عديلاً للكتاب والسنة؛ بمعنى أنه ينزَّل منزلة الكتاب والسنة في الرجوع إليه ووجوب الإذعان إلى حُكمه. ما كان كذلك فهو طاغوت، سواء سُمِي قانونًا أو دستورًا أو سوالف بادية أو ما شاكل ذلك؛ كلُّ ما نُزِّلَ منزلة القرآن والسنة في وجوب الرجوع إليه أصبح بمثابة القرآن والسنة، مُنزَّلٌ منزلة القرآن والسنة فإنه طاغوت، وهؤلاء يريدون أن يتحاكموا إلى هذا الطاغوت لا إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ [(٦٩٢)]. وسيأتي معنا إن شاء الله في آخر الباب ذكر سببين أوردهما المؤلف في نزول هذه الآية.

---

(٦٩٢) وهذه المسألة من البلايا العظيمة التي نزلت بساحة المسلمين مُنْذُ عقود من الزمان، حيث أُزيحَ شرعُ الله ﷻ من أن يكون حكمًا بين الناس، واخترع الناس وارتضوا زُبالات أذْهان الكفار، ونصبوا ذلك حَكَمًا يُغني في زعْمهم عن حكم الله تبارك وتعالى. وهذه القضية من الأمور التي ينبغي أن يُنبَّه الناس إليها؛ فكثيرٌ من الناس رُبما تحاكم إلى غير شرع الله ﷻ ولا يجد في نفسه أدنى غضاضة من ذلك، فإنه يظن أنَّ الشرع إنما هو عبادة؛ صلاة في مسجد، وأداءٌ للزكاة، وصيام لرمضان، وحج للبيت فحسْب، وأمَّا أن يُحكَّم شَرعُ الله ﷻ في الخصومات والمنازعات التجارية، أو في أحكام الأسرة، أو في

أعود فأقول إن قوله: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ يدلك على أنَّ كفرهم راجعٌ إلى عدم التزام الحكم أو التحاكم إلى الكتاب والسنة، انتبه هذه مسألة مهمة.

إذًا القوم -أعني المنافقين- كان الخلل عندهم أنهم يريدون؛ عندهم رغبةٌ وعندهم انشراح صدرٍ، وهذا يدل دِلالةً بينة على أنَّهم لم يلتزموا حكم الله ورسوله ﷺ، وعدمُ التزام حكم الكتاب والسنة يثمرُ التحاكمَ إلى غير الكتاب والسنة. **وهذا أوان تفصيل هذه المسألة.**

التحاكم -ولاحظ أنني أقول «التحاكم»- هذه مسألة تختلف عن مسألة الحكم، إذًا عندنا مسألتان: «مسألة تحاكم»، و«مسألة حُكم»، نحن نبحث الآن في «**التحاكم**» **هذه المسألة لها أحوال ثلاث:**

الحال الأولى: هي عدم التزام الكتاب والسنة؛ بمعنى تحاكمٌ إلى غير الكتاب والسنة مع عدم التزام الكتاب والسنة، **وهذا له صور:**

○ **منها**: أنه يتحاكم إلى غير الكتاب والسنة لأنه يستكبر ويأنف من التحاكم إلى الكتاب والسنة، وهذا عدم التزامٍ بحكم الكتاب والسنة -نحن مر بنا في دروس سابقة معنا كلمة الالتزام التي يذكرها أهل العلم في مثل هذا الموضع، الالتزام: هو أن يعتقد الإنسان أنه مخاطب وملزم وواجب، يعتقد أنه واجب عليه وأنَّ عليه أن يفعل، بغض النظر أقام بهذا بالفعل أو لم يقم، المهم أن هذه

قضايا الحدود وما إليها؛ فإنَّه يعتقد أنَّ الشرع يقصر عن ذلك وليس هذا مجاله، فلاشك أن الأمر في هذا الباب في غاية الخطورة، كما سيأتي معنا في هذه الآية العظيمة.

قضية عقَدية، يعتقد أنه ملزم وواجب عليه ومخاطب بكذا وكذا- هذا لا يلتزم التحاكم إلى الكتاب والسنة؛ حيث إنه يرى أنه أكبر وأرفع من أن يرجع إلى الكتاب والسنة.

○ أو أنه يعتقد أن الشريعة لا تعطيه حقه.

○ أو يعتقد أن الشريعة قاصرة عن أن تحكم في مثل هذه المسائل، هذه القضايا يقول من مسائل المنازعات التجارية لا للشريعة ولهذه المسائل، فهو يترك التحاكم إلى الكتاب والسنة؛ لأنه يرى أن الشريعة قاصرة عن ذلك، الشريعة مسؤولة أو شأنها أن تتعلق أو أن تتكلم عن أحكام الصلاة والصيام، أما أن تكون حاكمة بين الناس فيما يتنازعون فيه فهذا ليس شأنها؛ هذا من عدم التزام التحاكم إلى الكتاب والسنة.

○ أو يتحاكم إلى غير الكتاب والسنة وهو يعتقد أنه أحسن من التحاكم إلى الكتاب والسنة؛ "يمكن ولا بأس لا يجوز أن تحاكم إلى الكتاب والسنة لكن الأحسن والأفضل هو أن نرجع إلى زبالات الأذهان، إلى قانون من قوانين الكفار، هذا أفضل وأحسن".

○ **ومن ذلك** أيضًا وهو لا يبعد عن الأول وهو في حكمه أن يقول: "الرجوع إلى الكتاب والسنة أحسن وتحكيمهما أفضل، ولكن يجوز أن نتحاكم إلى غيرهما لا مانع، ما المشكلة!"

كل ذلك من عدم التزام التحاكم إلى الكتاب والسنة ولا شك أن هذا كفرٌ بالله جل وعلا، وفي هذه المسائل يتنزل قوله ﷻ: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ

فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾[المائدة:٤٤]. هذه المسائل جميعًا يجب أن يكون الحكم فيها لله ﷻ: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللهِ﴾[الشورى:١٠].

الحالة الثانية: أن يكون ملتزمًا بالتحاكم إلى الكتاب والسنة ولكنه يتحاكم إلى غيرهما لشهوةٍ أو لسببٍ أو لآخر؛ يعتقد وجوب ولزوم أن يتحاكم إلى الكتاب والسنة، لكنه يتحاكم إلى القوانين الوضعية مثلاً لأنه يرى أنها سوف تحكم له بأكثر مما تحكم له به الشريعة، فطمحت نفسه إلى هذا العرَض الزائل من الدنيا، مع اعتقاده أنه عاصٍ لله ﷻ وأنه يخالف الواجب عليه.

فنقول هذا له حكم غيره من العصاة، هذه المعصية كغيرها من المعاصي وإن كانت كبيرةً وعظيمةً وضلالاً مبينًا، لكنها لا تصل إلى حد الكفر بالله جل وعلا؛ لأنَّ مناط التفكير في مسائل التحاكم يعودُ إلى عدم التزام التحاكم للكتاب والسنة، انتبه هذا منزلق ربما يخطئ فيه من يخطئ فيقع في هوَّة التكفير بغير وجه حق، تنبه إلى هذا الأمر.

الحال الثالثة: حالة الاضطرار؛ وذلك كأن يكون مسلمٌ يسكن بلدًا من بلاد الكفار، ولا حكم للشريعة هناك، ولا محكمة شرعية ثمَّة، اعُتدي عليه، أُخِذَ ماله، سرقت سيارته، ماذا يفعل؟ أيترك حقه يذهب هكذا أمام نظره؟ أو ربما اعتُدِي عليه بالضرب، يترك الناس تعتدي وهو لا يحرك ساكنًا؟ لا شك أن الشريعة لا تأتي بهذا، هذه حالة اضطرار، ومثل هذه الحالة أفتى علماؤنا بجواز الرجوع إلى المحاكم التي تحكم بالقوانين **ولكن بشروط**:

❑ **أولاً**: أن يكون الضرر محققًا، يعني ليست القضية قضية أوهام أو توقعات أو تصورات، إنما هناك أمرٌ واقعيٌ محقق، فمثل هذا وقع على الإنسان في شأنه ضرر، وقاعدة الشريعة: «الضرر يُزال».

❑ **ثانيًا**: أن لا يوجد حلٌ لهذا الإشكال إلا الرجوع إلى هذه المحاكم؛ لا يوجد محكمة شرعية، لا يوجد مجالس للتحاكم في الجالية المسلمة ويكون حكمها مُلْزِمًا، بعض البلاد ربما يوجد فيها شيء من ذلك، يوجد مجالس للتحكيم، يتحاكم المتخاصمان من المسلمين إلى هذه المجالس ويُحكَم فيها بمقتضى الشريعة، فمثل هذا واجبٌ أن يَرجِع إليه ولا يجوز أن يَرجِع إلى الأحكام الوضعية.

❑ **الأمر الثالث**: أن يأخذ حقه الذي جعلته له الشريعة فقط؛ لو أن في مقتضى قانونٍ ما يُحكَم بأن تأخذ يا أيها المظلوم أكثر من حقك، ولو أنه رُجِعَ في هذا إلى الشريعة لأخذت حقك فقط، هذا القدر الزائد لا يجوز لك أخذه، يجب أن تأخذ حقك فقط، وبالتالي كان الرجوع إلى هذه المحكمة لإرادة الحصول على حكم الشرع، ولكنك رجعت إليها لأنه لا سبيل لك إلى غيرها، فأنت مضطر.

فمثل هذه الحال باجتماع هذه الشروط الثلاثة فإنه يجوز إعمالاً لقواعد الضرورة في الشريعة الرجوع أو التحاكم إلى غير شرع الله ﷻ. ولكن عند التحقيق عاد الأمر إلى أخذ ما تحكم به الشريعة.

قال ﷻ: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾؛ نعم، أُمِرْنا أن نكفر بالطاغوت، ألم يقل الله ﷻ: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾[البقرة:٢٥٦]! إذًا لا توحيد ولا إسلام ولا إيمان ممن لم يجمع بين الأمرين؛ لو آمن بالله فقط لا ينفعه، بل لابد أن يضم إلى ذلك الكفر بالطاغوت(٦٩٣)، وهذا هو شطر كلمة التوحيد التي هي أساس الإسلام ومفتاح الإيمان، وذلك أن (لا إله) هي التي تترجم عن الكفر بالطاغوت، كما قد أخذنا هذا في الدروس السابقة (٦٩٤) .

---

(٦٩٣) والمقصود بالطاغوت هاهُنا: هو كلُّ حكم مخالف للشرع؛ سُمّي «قانونًا»! سُمّي «دستورًا»! سُمّي «عُرفًا»! فمهْما سُمّيَ فحقيقة الأمر أنَّه طاغوتٌ من الطواغيت. ولذلك عدَّ علماء التوحيد من رؤوس الطواغيت: من يحكُم بغير شرع الله، ونصُّوا أيضًا على الحاكم الجائر المُغيِّر لشرع الله.

(٦٩٤)قال تعالى: ﴿وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾ يعني: والحال أنهم قد أُمِروُا أن يكفروا به؛ فهذا دليل على وجوب الكفر بالطاغوت، وعلى أن تحكيم غير شرع الله ﷻ أمرٌ محرمٌ غاية التحريم

قال: ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالًا بَعِيدًا﴾؛ ليس الأمر هيّنًا، وليست المخالفة مخالفة قريبة، بلْ الأمر عظيم جدًا، إنَّه منازعةٌ لله ﷻ في حقه، فهو إذًا ضلال بعيد. وهذا مِمَّا سوَّل به إبليس وجنوده لأوليائهم، هم الذين زيَّنوا له ذلك وأوحوا إليهم ذلك حتى وقعوا فيه، نسأل الله السلامة والعافية. ومن شياطين الإنس من يُزيّن ذلك أيضًا للناس، يريدون من النَّاس أن يضلوا ضلالًا بعيدا، وهم يزعمون الإصلاح.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾؛ ولاحظ أنَّ هذه الجملة تدل على أن بلية المنافقين رجعت إلى قضية الالتزام القلبي، لماذا؟ عندنا قرينتان:

القرينة الأولى: في قوله تعالى: ﴿رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾، والصدُّ: إعراضٌ يشوبه في الغالب استكبار ، صدَّ عن كذا : يعني أعرض عنه، في الغالب أن يكون هذا الإعراض مع شيء من الاستكبار، فالقوم أوتوا من جهة أمرٍ قلبي عقدي.

والقرينة الثانية: قوله تعالى بعد ذلك: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾، إذًا الأمر رجع إلى أمر في القلب، وليس راجعًا إلى أمرٍ في العمل، إنما هو إلى أمر في القلب.

﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾؛ سبحان الله!! كل أحد يمكن أن يدَّعي أنه مصلح وأنه يريد الخير ويريد الإحسان ويريد الإصلاح، حتى المنافقون أساس الشر والبلاء ﴿إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾، حتى إبليس ألم يقل الله ﷻ عنه: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾[الأعراف:٢١]، سبحان الله العظيم!! حتى فرعون أكبر الطغاة على الإطلاق يقول: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر:٢٩].

إذًا ليس كل من ادَّعى أنه مصلح وأنه يريد الخير يكون صادقًا، فشر الناس ادّعوا هذا. إذًا العبرة أن يعرض القول على المحك والميزان الذي توزن به الأشياء والأقوال؛ وهو كلام الله ورسوله ﷺ.

والشرع ميزان الأمور كلها وشاهدٌ لفرعها وأصلها

﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا * وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ﴾؛ هذه حقيقة الإيمان بالرسول ﷺ، أن يكون مطاعًا وأن يكون متبَعًا وأن يكون محكَّمًا.

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّابًا رَحِيمًا * فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ﴾؛ رجعنا مرة أخرى إلى قضية التحاكم إلى شرع الله، ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾؛ نفى الله ﴿ومن أصدق من الله قيلاً﴾[النساء:١٢٢]، نفى الله الإيمان عمَّن لم يتحاكم إلى الرسول ﷺ ويرجع إلى الرسول ﷺ، بل والله هذا لا يكفي ﴿حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ﴾، يزول من قلبهم كل تلوُّن وكل تردد وكل حرج من حكم الله ورسوله ﷺ ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ويذعنوا إذعانًا؛ هذه حقيقة الإيمان، هذه حقيقة الطاعة، هذا هو محكٌ وامتحانٌ للمؤمنين.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾[البقرة:١١]).

هذا إخبارٌ من الله ﷻ عن المنافقين؛ إذْ لا يزال الحديث متعلقًا بهم، وقد علمتَ أنَّ الآية السابقة ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ نزلت في المنافقين بالاتفاق، وهذه

الآية أيضًا في المنافقين، قال الله ﷻ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ * يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾[البقرة:٨-١١].

ووجه إيراد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه الآية في هذا الباب: هو أن من الإفساد في الأرض تركَ تحكيمِ شرع الله ﷻ وتحكيمَ غيره، هذا من الإفساد في الأرض وهذا دأبُ المنافقين، فإنَّهم أبعد النَّاس عن تحكيم شرع الله، وأقرب الناس إلى تحكيم غير شرع الله.

قال الله ﷻ: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ**﴾؛ كأن هذا الخطاب وكأن هذه نصيحة توجَّه بها بعضُ أصحاب هؤلاء المنافقين أو أقربائهم المؤمنين رغبةً في دعوتهم إلى الحق رجاء إيمانهم.

﴿**لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ**﴾؛ الإفسادُ هو: السعي في الفساد، إفساد: يعني أن يسعى الإنسان في فساد شيء، والغالب أو يقع كثيرًا أن يكون الإفساد واقعًا على شيءٍ صالحٍ في الأصل، يقال إنَّه أفسده، يعني صيَّره فاسدًا بعد أن كان صالحًا.

والفساد: هو كل ما فيه ضرر وقد يكون شيئًا حسيًا، وقد يكون شيئًا معنويًا.

ولا شك أنَّ الفساد الحسي ثمرةٌ للفساد المعنوي، والفساد هاهنا: هو الفساد المعنوي؛ وذلك أنَّ أعظم الفساد هو معصية الله ﷻ ومحادة أمره وعدم الاستجابة لدعوته، أيُّ فساد أعظم من هذا الفساد! أن يفعل الإنسان ضد

الحكمة التي لأجلها خُلِق، ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات:٥٦]، فجاء هذا المخذول بضدِّ ما أُمِرَ به فكان فعله فسادًا. والمنافقون لا شك أنهم مفسدون، أفسدوا أنفسهم ويسعون في إفساد غيرهم، فهم مفسدون بكل حال.

﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ**﴾ ؛ ولاحظ أنه لم يُعَيَّنْ هذا الشيء الذي أفسدوا فيه؛ وذلك لأن فروع الفساد التي تكون من المنافقين كثيرة جدًا حتى كأنهم حازوها جميعًا، ولذلك جاءت الآية بهذا الإطلاق: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ﴾، وأقبح ما يكون الإفساد حينما يعود -كما قلت قبل قليل- على شيء صالح، والله ﷻ جعل هذه الأرض صالحة، خلقها أول مرة ﷻ صالحةً مباركة، قال ﷻ: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾[فصلت:١٠]، الله جل وعلا جعلها أرضًا صالحة، أرضًا مباركة، فجاءها الإنسان الذي لم يستجب لله ﷻ بما يفسدها.

وأول الإفساد هو الإفساد المعنوي بمعصية الله ﷻ، فيتبعه على ذلك ثمرته وهو الفساد الحسي، وذلك ثمرة للفساد المعنوي، ألم يقل الله ﷻ: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[الروم:٤١]. إذًا الله ﷻ قدّر بإرادته الكونية أن يكون الفساد الحسي في الأرض ثمرةً للفساد المعنوي، كل ما يذوقه ويلمسه الناس ويشْكون منه من فساد في الأرض؛ كارتفاع درجة حرارة الأرض أو ما يسمى بالاحتباس الحراري، قلة نزول الأمطار، قلة الغذاء في بعض الأماكن، الرياح العاصفة،

الأعاصير، البراكين، إلى غير ذلك من هذه الأمور التي يشتكيها الناس من صور الفساد في الأرض كلُّها راجعة إلى هذا السبب؛ وهو الفساد المعنوي بعصيان الله ﷻ وتنكُّب الطريق الذي دعا إليه أنبياؤه ﷺ. والله ﷻ مع ذلك يلطف بعباده ويمهلهم ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ﴾[فاطر:٤٥]، الله ﷻ من لطفه ومن رحمته يلطف بعباده ويمهلهم لعلهم يعودون إلى رشدهم.

الشاهد أن هؤلاء الناصحين توجهوا بالنصيحة إلى هؤلاء المنافقين: ﴿لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ﴾، ماذا كان الجواب؟

كان الجواب بالنقض: ﴿قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ ؛ وهذا من عجيب الأمر في حال هؤلاء المنافقين، يا لله العجب!! فسادهم لا يخفى على ذي لُب، وإذا بهم يحكون ويخبرون عن أنفسهم أنهم على الضد تمامًا! بل نلاحظ أنهم أتوا بالجملة الاسمية التي تفيد معنى الدوام، لم يخبروا عن أنفسهم بأنهم مصلحون، كما كان كلام الناصحين لهم، ﴿لا تُفْسِدُوا﴾ كانت الجملة فعلية، لكنهم أجابوا بجملة اسمية يخبرون عن أنفسهم بأننا مصلحون دائمًا، في طول حياتنا وفي طول أمرنا وعرضه نحن مصلحون.

ولاحظ أيضًا ما بلغوا فيه من المكابرة حينما أتوا بهذا الحرف الذي يفيد القصر ﴿قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾، يعني قصروا أنفسهم على الإصلاح، "لا شأن لنا ولا شيء عندنا سوى أننا نصلح". يا لله العجب! وهذا ضد حالهم

بالضبط، هم في حقيقة الأمر يفسدون ومع ذلك يدَّعون أنهم يصلحون، سبحان الله العظيم! مع أن فسادهم لا يخفى على أحد .

وجاء الرد من كتاب ربنا سبحانه عليهم: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[البقرة:١٢]، ولاحظ كيف أن القصر هاهنا جاء أقوى من القصر الذي زعموه لأنفسهم، ألا وهو بتعريف ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾، فهذا التعريف يفيد قصرًا أقوى من القصر الذي زعموه لأنفسهم، يعني أنهم هم المفسدون في الحقيقة.

ولاحظ كيف أنه أُكِّد هذا القصر بضمير الفصل ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾، (هم) هنا ضمير فصل يفيد معنى التأكيد، فكان الجواب أو الرد على كلامهم بالنقض أيضًا، يعني أخبر الله ﷻ أن حالهم على ضد ما كانوا يزعمون.

إذًا نستفيد من هذه الآية: أن أهل النفاق دأبهم وديدنهم وشأنهم هو الإفساد في الأرض، ودعواهم الإصلاح، الإصلاح ضدُ الإفساد، يعني السعي في صلاحِ الأشياء؛ فهم يزعمون أنَّهم دائبون على الإصلاح، هم يصلحون أنفسهم، يصلحون غيرهم، يصلحون الأرض، مع أن الواقع هو أن هؤلاء واقعون في ضد ذلك.

وبهذا أيضًا يتأكد لنا ما ذكرناه وهو: أنَّ أهل النفاق بل أنَّ كل مبطِل يمكن أن يَدَّعي لنفسه الإصلاح، كما قلنا عن إبليس وعن فرعون، وعن المنافقين في قولهم السابق، وقلنا قولهم هذا يدل على هذه القاعدة التي ذكرتها لك: يزعمون

أنهم يريدون إحسانًا وتوفيقًا، هكذا ينسبون إلى أنفسهم، "نحن لا نريد إلا الخير، لا نريد إلا إحسانًا وتوفيقًا"، وهنا يقولون: "إنما نحن مصلحون".

إذًا القاعدة التي يجب أن يتنبه لها المسلم هي: أنَّ كل مُبْطِّلٍ لا يتمكن من ترويج باطله إلا بإخراجه مُزخرفًا مُموَّهًا مُحَسَّنًا وبالتالي يغتر به الأغمار، وإلا فلو خرج به على صورته الحقيقية لو جاء بالباطل كما هو فإنَّ النُّفوس لا تُقبِل عليه، لأن الباطل المجرد أمرٌ مخالفٌ للفطرة، ولذلك نفوسُ أكثر النَّاس تعرِض عنه، إذًا كيف يصنع هؤلاء؟ تجدهم ماذا يفعلون؟ يزخرفونه ويزينونه ويلونونه حتى يخرج في صورة حسنة بهيجة، والجاهل لا تجد عنده إلا أنه يغتر بالظواهر، لا ينفذ إلى الحقائق، تجد أنَّه يقف عند حدود هذه الزخارف فيغتر بها وينصاع وينساق إلى ما يُدْعى إليه.

والغالب أنَّ أهل الباطل يضيفون إلى هذا شيء آخر، وهو: أنهم يخرجون الحق في صورة قبيحة، فقل لي بربك كيف ستكون النتيجة حينما يُظْهَر الباطل في صورة حسنة، ويقابل هذا أن يُظْهَر الحق في صورة قبيحة، ويُظْهَر أهل الحق أيضًا في صورة قبيحة؟!

هذا هو حال أهل النفاق دائمًا تجدهم يسعون في إخراج الحق في صورة كريهة، يقدحون في أمر الله ﷻ من جهة أنه معارِض للحكمة، يقدحون في قدَر الله ﷻ من جهة أنه معارض للعدل، يقدحون في خبر الله ﷻ من جهة أنه معارضٌ للعقل، وهكذا دواليك، في طريقهم في الإفساد يخرجون الحق مشوهًا في مقابل أنهم يخرجون الباطل مموَّهًا مزخرفًا. وشاهد هذا في كتاب الله: قول

الله ﷻ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ ماذا؟﴿زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام:١١٢].

إذًا: الوسيلة التي يسعى بجد واجتهاد شياطين الإنس والجن في ترويج الباطل بها : هو زخرف القول، يخرجون الباطل في صورة حسنة جميلة، وفي المقابل يخرجون الحق في صورة سيئة، باطلهم ومن هذا الباب إعراضهم عن تحكيم الله ﷻ، يقولون "نحن في زمن التطور، نحن في زمن التطوير، نحن في زمن التنوير، نحن في زمن التجديد.. إذًا لابد أن نواكب العصر" هذا الذي يفعلون مع الأسف الشديد.

قَالُوا رُقِيًا، فَقُلْنَا لِلْحَضِيضِ نَعَم ... تُفْضُونَ مِنْهُ إِلَى سِجِّينٍ مُؤْتَصَدُ
عَصْرِيَّةٌ عَصَرَتْ خُبْثًا فَحَاصِلُهَا ... سُمٌ نَقِيْعٌ وَيَا أَغْمَارُ فَازْدَرِدُوا
مَوتًا، وَسَمَّوهُ تَجْدِيدَ الْحَيَاةِ فَيَا ... لَيْتَ الدُّعَاةَ لَهَا بِالرَّمْسِ قَدْ لُحِدُوا

يزعمون أنهم أهل التطوير والتجديد! وهذا لا يتناسب معهم أن يُرجع إلى الخلف، هؤلاء الذين يدعون إلى تحكيم الشريعة والوقوف عند حدود الله يزعمونهم أو يرسمونهم أو يصورونهم بأنهم ظلاميون يريدون إرجاعنا إلى العصور الوسطى أو العصور الحجرية، ونحن في هذا الوقت المتقدم في هذا الزمان المتطور؛ هكذا يصنعون في شأن تحكيم شرع الله ﷻ، تحكيم أمر الله سبحانه وأمر رسوله ﷺ، إذًا هذا دأبهم قديمًا ودأبهم أيضًا حديثًا.

إذًا هذا هو فيما يبدو والله أعلم سبب إيراد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه الآية في هذا الباب والله تعالى أعلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وقوله : ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾** [الأعراف:٥٦]).

هذه الآية قريبة في المعنى من الآية السابقة، وفيها النهي عن الإفساد في الأرض بعد إصلاحها.

﴿وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا﴾، وعلِمنا أن هذا الفساد يشمل:

-الفساد الحسي بالظلم، بالتعدي على الناس، بإفساد مصالح الأرض وخيراتها.

-والنوع الثاني وهو الأهم وهو الأصل وهو الأساسُ لما قبله: وهو الإفساد فيها بمعصية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالكفر، بالشرك بالله عَزَّ وَجَلَّ، بمعاقرة المنكرات، وفعل الفواحش والكبائر، كل ذلك من الإفساد في الأرض.

ويذكِّرهم ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في هذه الآية بأن الأرض قد أصلحها عَزَّ وَجَلَّ فلماذا يعودون عليها بالفساد وهي صالحة؟! وهذا فيه تأنيب لهم كيف يسعون إلى شيء سليم وصالح فيفسدونه؛ هذا دليل على إمعانهم في الشر، إنما يعمدون إلى شيء صالح فيفسدونه، وهذا مما نهى ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عنه.

ووجه الشاهد من إيراد هذه الآية: كما سبق؛ أن من الإفساد في الأرض الإعراضَ عن تحكيم شرع الله عَزَّ وَجَلَّ، وأن يُنَزَّل غير شرع الله منزلته، وأن يُسَوَّى

بينه وبينه، وأسوأ منه أن يُفَضَّلَ على شرع الله ﷻ؛ كل ذلك ولا شك من الإفساد في الأرض.

ويا لله العجب!! كيف يدعُ هؤلاء الذين بخسوا أنفسهم حظها من الخير، كيف يدعون العذب النمير ويدعون الصافي الزلال والخير المحض، ويستبدلون به زبالات أذهان واجتهاداتٍ باطلة خاسرة، يستعيضون بهذه القوانين وهذه الدساتير عن شرع الله ﷻ الذي هو الخير كله، والذي هو الحق كله!

الله ﷻ هو الذي خلق الخلق، إذًا هو الذي يعلم ما يصلحهم، ولذلك أنزل ﷻ في كتبه وأرسل رسله ببيان ما يُحافظ على صلاح هذه الأرض لكي تبقى صالحة مباركة كما خلقها الله ﷻ، لكن هؤلاء مع الأسف الشديد أتوا بضد ذلك؛ إذا كان الله ﷻ هو الخالق، إذًا هو العالم بما يصلح الناس، إذًا في أحكامه ما يصلح حال هذه الأرض. لا تستقيم أحوال الناس إلا بالاستقامة على شرع من خلق الناس وخلق هذه الأرض التي يعيشون فيها، ولو لم يكن إلا أنَّ الشواهد الواقعية الحسية التي تدل على أن شرع الله ﷻ هو الذي تصلح به أحوال الناس، لو لم يكن إلا هذا ردًا على هؤلاء المنافقين الذين يُعرضون عن تحكيم الله ﷻ، لو لم يكن إلا ذلك لكفى به ردًا عليهم.

ونحن نرى ونقرأ ونشاهد في هذا العصر كيف أن بعض بلاد الكفر أصبحت تتلمس الاستفادة من بعض الأنظمة الشرعية في شأن المصرفية الإسلامية مثلاً بعد أن ذاقوا ويلات النظام الربوي وكيف عاد عليهم بالفساد العريض، أصبحوا الآن يتلمَّسون في بعض جهاتهم الاستفادة من الأنظمة

الإسلامية في شأن الاقتصاد والمال، لعِلمهم أنَّ هذا الذي تصلُح به أحوال الناس، ولا شك أن كل منصِف نظر في أحكام شرع الله ﷻ لا يملك إلا بالإذعان والإقرار بأنَّ هذا هو الحق المحض، وأن أحوال الناس لا تستقيم إلا به.

إن جئت إلى أحكام الأسرة، إن جئت إلى أحكام الاقتصاد، إن جئت إلى سياسة البلاد، إن جئت إلى ما يتعلق بالحدود وما إليها، إلى غير ذلك من أحكام الشريعة العامة الشاملة لكل شيء، والله لا يجد المنصف من غير المسلمين إلا أن يذعن بأن هذا هو الحق، وأنه لا يمكن إلا أن يكون شرعًا منزلاً من الخالق العليم الخبير الحكيم ﷻ.

مرة كنت أُحدِّثُ أحد الكفار في مجلس ضمَّني به في بعض البلاد، كنت أحدثه عن شيءٍ من نظام الإسلام وجمال الإسلام وروعة الإسلام وحسن الإسلام، وذكرت بعض الأمثلة التفصيلية وكان هذا الرجل عاقلاً أخرج ورقة وقلم وصار يكتب معي ما أقول، يقول أريد أن أفكر وأتدبر في هذا الشيء الذي تتكلم فيه، وأثناء كلامي توقف ونظر إليَّ وقال: "كل هذا الخير عندكم وتقصرونه على أنفسكم"، أُعجِب وأُدهِش بهذا التنظيم البديع الدقيق في ديننا، كيف تقصرونه على أنفسكم دون أن تشيعوه ودون أن تدعون ودون أن تبلِّغون ذلك؟ كل هذا الخير عندكم وتقصرونه على أنفسكم؟

فالمقصود أن هذا الذي قاله هو لسان حال أو مقال كثير من هؤلاء الذين هم خارج الدائرة الإسلامية إن لم يغلب عليهم هواهم، وإلا فإن الحق أبلج،

واضح كالشمس المشرقة، هذا الدين ظهور الحق فيه كظهور الشمس في رابعة النهار، لا يمكن لإنسانٍ أن يتجاهل ذلك أو أن يخبر بخلاف ظهور هذا الحق فيه إلا إذا غُلِبَ على هواه مع الأسف الشديد والله المستعان.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقوله: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة:٥٠] الآيَةَ).

هذه الآية أخبر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيها باستفهامٍ إنكاري، يخاطب فيها بهذا الاستفهام الإنكاري هؤلاء المنافقين وأضرابهم: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾؛ **الجاهلية**: هي كل ما خالف الإسلام؛ لأن مبنى ذلك على الجهل، أما الإسلام والحق والدين الذي أنزله الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فإنه قد أنزله الله عَزَّ وَجَلَّ بعلمٍ كما أخبر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ﴿أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ [النساء:١٦٦] .

إذًا دين الله عَزَّ وَجَلَّ مبنيٌ على العلم، فكلُّ ما عارضه وكلُّ ما خالفه حقيقته جهلٌ محض؛ ولذلك أخبر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنَّ حُكْمَ غيره هو حكم الجاهلية، وهذا حقٌ لا ريب فيه، كل ما كان خلاف شرع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فإنَّه حكمٌ جاهلي، والعاقل لا شك أنَّه لا يطلب الجهل، لا يطلب الظلام، لا يريد الظلم، إنما يطلب العلم ويطلب النور ويطلب الحق، فإذا كان يريده فليس أمامه إلا أن يستجيب لحكم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ يعني يريدون.

ثم بين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن حكمه هو أحسن الأحكام: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا﴾، لكن هذا لا يدركه ولا يقر به إلا الذين يوقنون، الذين بلغوا الدرجة العظيمة من الإيمان، عند هؤلاء حكم الله عَزَّ وَجَلَّ أحسن الأحكام.

وهذه الآية تعم الحكمين القدري والشرعي، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا﴾ يعني قدرًا وشرعًا.

لا شك أن كل ما يقدره الله ﷻ من أحكامه القدرية لا شك أنه أحسن ما يمكن أن يقع، والله ﷻ قدَّره لعلمه أن الحكمة فيه، تقدير الله وفعله وخلقه مقرونٌ بالحكمة، الله ﷻ يفعل بإرادته ومشيئته المقترنة بالحكمة، ولذلك أهل الإيقان يعلمون ذلك، فعندهم كل شيء قدَّره وحكم به سبحانه قدرًا وكونًا فإنه أحسن ما يمكن أن يقع، لو أصاب الإنسان حادث فإنه يحمد الله ﷻ عليه؛ لأنه في ظنه وعقيدته أنه أحسن ما يمكن أن يقع عليه في هذه اللحظة، هكذا عقيدته كل مسلم بلغ درجة الإيقان.

كذلك الشأن في الأحكام الشرعية عند أهل الإيقان والإيمان الصادق حُكم الله الشرعي أحسن الأحكام.

إذًا الله ﷻ لا حكم أحسن من حكمه، كما قال الله ﷻ: ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾[التين:٨].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ».**

قَالَ النَّوَوِيُّ: «حَدِيثٌ صَحِيحٌ، رَوَيْنَاهُ فِي كِتَابِ الْحُجَّةِ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ»).

هذا الحديث فيه بحثٌ وكلامٌ طويل من جهة ثبوته عن النبي ﷺ، وقد صححه كما سمعت النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ فإنه قال: (إنه حديث صحيح روِّيناه في

كتاب الحجة بإسناد صحيح) (٦٩٥)، والحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «فتح الباري» أورد هذا الحديث لكن من طريق أبي هريرة لا من طريق عبد الله بن عمرو، وقال: (رجاله ثقات)، ونقل تصحيح النووي ولم يتعقبه.

وفي مقابل هؤلاء طائفة من أهل العلم ضعَّفوا هذا الحديث ولم يثبتوا إسناده للنبي ﷺ؛ كابن عساكر قال في هذا الحديث: (إنه غريب).

ومن أحسن من رأيته تكلم عن إسناده من جهة ثبوته وعدمه ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «جامع العلوم والحكم»؛ فإنه تعقب النووي في تصحيحه وقال: (إن تصحيحه بعيد)، وذلك أن الإسناد فيه نُعيم بن حماد الخزاعي وهو على جلالة قدره بالعلم والسنة إلا إنه ضعيف الرواية، وكذلك اضطرب في هذا الإسناد - يعني في روايته لهذا الحديث- مع وجود أيضًا انقطاع في الإسناد، ولذلك ضعَّفه، وضعَّفه غير واحد من أهل العلم (٦٩٦).

على كل حال إن ثبت هذا الحديث عن النبي ﷺ أو لم يثبت فالمعنى صحيح ولا يُستشكل، فإنَّ هذا الحديث في معناه يدل على ما دل عليه قوله

---

(٦٩٥) كما صحَّحه غيره من أهل العلم، فقد وصفه ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالثبوت، وصحَّحه من المعاصرين الشيخ أحمد شاكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(٦٩٦) البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ أورده بصيغة التمريض في جزء رفع اليدين في الصلاة، قال: «ويُذْكر عن النبي ﷺ أنَّه قال» وذكره، وهذا قد يُشعِر بعدم ثبوته عنده.

وضعَّفه غير واحد أيضًا من المعاصرين؛ كالشيخ ناصر رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغيرهم من أهل العلم رحمهم الله أجمعين.

تعالى: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[النساء:٦٥].

«لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ» ؛ المقصود: أنه يجب أن يحب ما أُمِر به من كلام الله وكلام رسوله ﷺ. أوامر الكتاب والسنة يجب على المسلم الذي يريد أن يكون مؤمنًا الإيمان الواجب -وقد علمت أن هذا النفي "لا يؤمن أحدكم"، أو "لا يؤمن من فعل كذا" أخذنا في دروس سابقة أنه يدل على أن فاعل ما ذُكِر قد نقص إيمانه الواجب- فهو لا يؤمن الإيمان الواجب، وليس المقصود أنه لا يؤمن أصلاً يعني هو فاقدٌ لأصل الإيمان، إنما هذا قدحٌ في قدرٍ أرفع وأعلى من أصل الإيمان وهو الإيمان الواجب(٦٩٧) .

وقلنا إنَّ الذي اختاره جماعة من المحققين، ومنه شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن ورود هذا اللفظ دليلٌ على أن موضوعه -يعني ما جاء فيه هذا الذم بقوله «لا يؤمن»- دليلٌ على أن هذا المذكور من الكبائر، فهو من العلامات التي يُعرف به أو تُعرف بها الكبيرة من الصغيرة(٦٩٨) .

المقصود أنَّ الواجب على كل مسلم أن يحب أمر الله وأمر رسوله ﷺ ويقبِلُ على ذلك ويسلِّم تسليمًا.

(٦٩٧)إنما معنى الحديث: أنَّه لا يؤمن الإيمان الواجب إلَّا إذا أحب ما أُمِر، وأبغض ما نُهِي عنه.

(٦٩٨)قال: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ» أي: لا يؤمن الإيمان الواجب الذي تبرأ به الذّمة.

ولا يستشكل أيضًا قوله في الحديث «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ» ، فكلمة الهوى هاهنا لا تشكل؛ لأن الأصل في كلمة الهوى أصلاً هو الميل، "هوي كذا" فهو يهوى؛ يعني مال. وإن كان الغالب في الاستعمال أن يكون مذمومًا، الغالب أنه إذا ذُكِرَ الهوى أن يكون في معنىً مذموم، ولذلك ما جاء الهوى في كتاب الله ﷻ قط إلا مذمومًا.

لكن قد يرد في بعض الأحاديث والآثار الهوى في هذا المعنى؛ وهو بمعنى المحبة أو بمعنى الميل، ومن ذلك هذا الحديث الذي بين أيدينا.

ومن ذلك أيضًا قول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كما في «صحيح البخاري» لما نزل قول الله ﷻ: ﴿تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ﴾[الأحزاب:٥١]، قالت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تخاطب النبي ﷺ: «ما أرى ربك إلا يسارع في هواك»، ومعنى كلامها: أنها ترى أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يكرم نبيه ﷺ بأن يمن عليه ويمنحه ويعطيه ما يحب ﷺ، فتلاحظ أن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا استعملت هاهنا هذه الكلمة وقطعًا أنها لا تريد المعنى المذموم، لأن النبي ﷺ لا شك أنه يُجّلُ عن نسبة المعنى المذموم إليه، إنما المراد الميل، المراد المحبة.

وقل مثل هذا في قول عمر رضي الله عنه في شأن أسارى بدر لما اختار النبي ﷺ ومال إلى قول أبي بكر رضي الله عنه فيهم؛ وهو أنه لا يقتلهم بخلاف قول عمر رضي الله عنه، قال رضي الله عنه:(فهويَ النبي ﷺ ما قال أبو بكرٍ ولم يهوَ ما قلت)، ما معنى هذا؟ يعني أنه مال وأحب أو رغب في قول أبي بكر رضي الله عنه ولم يحب ما قلته.

إذًا الهوى هاهنا ليس هو المعنى المذموم الذي جاء ذمه في كتاب الله ﷻ، ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾[القصص:٥٠][699].

إذًا الواجب على كل مسلم أن يحب أمر الله ورسوله ﷺ، وأن يحب حكم الله ورسوله ﷺ، بخلاف حال المنافقين الذين إذا دُعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم فإنهم يعرِضون، يصدُّون صدودًا، لا يحبون حكم الله ورسوله ﷺ، فهذا من القدْر الواجب الذي لا يسامح فيه الإنسان؛ لابد أن يحب أمر الله، ولابد أن يحب حكم الله ﷻ، حتى لو كان يشعر أن فيه عليه مشقة، ربما تكون بعض أحكام الله ﷻ فيها شيء من المشقة، لكنَّها مشقة محتملة، كأن يتوضأ الإنسان مثلاً في جو بارد، تجد أن فيه بعض المشقة عليه، فلا يمتنع وجودُ الشعور بهذه المشقة مع محبة هذا الذي أمر الله ﷻ، لاسيما إذا استشعر المسلم أن له في هذه المشقة التي يجدها مزيد من الأجر من الله ﷻ[700].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وَقَالَ الشَّعْبِيُّ: كَانَ بَيْنَ رَجُلٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَرَجُلٍ مِنَ الْيَهُودِ خُصُومَةٌ، فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: نَتَحَاكَمُ إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ عَرَفَ أَنَّهُ لَا يَأْخُذُ الرِّشْوَةَ، وَقَالَ**

(٦٩٩) وقال سبحانه: ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾ [النازعات:٤٠]، وأمثال ذلك من النُّصوص.

(٧٠٠) **بقي وجهُ المناسبة بين هذا الحديث وهذا الباب**: وذلك أنَّ من الإيمان الواجب أن يُحبَّ شرع الله ﷻ، وأن يُتَّبع، وأن يُحاكم إليه – كما سبق-.

الْمُنَافِقُ: نَتَحَاكَمُ إِلَى الْيَهُودِ؛ لِعِلْمِهِ أَنَّهُمْ يَأْخُذُونَ الرِّشْوَةَ، فَاتَّفَقَا أَنْ يَأْتِيَا كَاهِنًا فِي جُهَيْنَةَ؛ فَيَتَحَاكَمَا إِلَيْهِ؛ فَنَزَلَتْ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾ [النساء:٦٠] الآيَةَ).

أورد المصنف في هذا الموضع في آخر الباب هذا الأثر في سبب نزول الآية التي صدَّر بها الباب، ولا أدري سببَ هذا التأخير! -تأخير إيراد سبب النزول للآية التي قدَّمها- المقصود أنَّ المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أورد هذا السبب، وسببًا بعضه أيضًا، وإن كان المذكور في كتب التفسير أكثر من ذلك، يعني لو نظرت في كتب التفسير لوجدت أربعة أو خمسة من أسباب نزول هذه الآية، ومنها ما ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

هذا الأثر أثرٌ مرسل، لأنَّ الذي يرويه لنا هو الشعبي وهو تابعي؛ عامر بن شراحيل الشعبي الحميري، تابعي جليل، الذي لقي جمًّا غفيرًا من أصحاب النبي ﷺ، حتى أنَّه ذكر عن نفسه أنَّه لقي أكثر من خمسمائة من أصحاب النبي ﷺ، ومع ذلك فإنَّه ما لقيَ النبي ﷺ ؛ فالأثرُ مرسل، وعلى كل حال صح السبب أو لم يصح فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

في هذا الأثر فوائد:

أولاً: أن تعلم أن المنافق أسوأ حالاً من اليهودي؛ ألم تر إلى أن اليهودي رَغِبَ في تحكيم النبي ﷺ وأما المنافق فلم يرغب، تلاحظ أن اليهودي علم أن النبي ﷺ لا يأخذ الرشوة، والرشوة من مثلث الكلام لك أن تقول «رِشوة» و«رَشوة» و«رُشوة»، والأشهر بالكسر، وفي مقابل ذلك المنافق أعرض ولم يُرد ذلك، حتى إنهم تحاكموا إلى كاهنٍ في قبيلة جُهينة.

والفائدة الثانية: أن الكهان عند العرب كانوا يرجعون إليهم لغرضين:

الأول: لما يزعمون أنهم يريدون معرفة الغيب؛ لأَنَّ الكاهن -كما قد علمنا- هو الذي يخبر أو يزعم الإخبار بالأمور المستقبلة.

والأمر الثاني من وظائفهم التي يمارسونها: أنهم كانوا يحْكمون بين الناس، يتحاكمون إليهم ويُذعنون إلى حكمهم.

الفائدة الثالثة، وهي مهمة: أن الدنيا قد تجر إلى الكفر؛ لاحظ كيف أن هذا الإنسان لأجل رغبته في تحصيل حطام دنيوي ما رَغِبَ أن يحتكم إلى النبي ﷺ، لأنه يعلم أنه مبطِل وأنه يفوته هذا الحظ من الدنيا، ولذلك لما أعرض عن تحكيم رسول الله ﷺ باء بالخسران، ونزل فيه هذه الآية العظيمة، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾[النساء:٦٠]، إذًا هو كاذب ليس بمؤمن. فالدنيا أمرها خطير ربما لو استرسل الإنسان معها وأفل معها ولم يُزِّمَ نفسه بالاستجابة والاحتكام لأمر الله ورسوله ﷺ ربما هذا الهوى يهوي به والعياذ بالله في أودية سحيقةٍ من الضلال والخسران- نسأل الله السلامة والعافية-.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وَقِيلَ: نَزَلَتْ فِي رَجُلَيْنِ اخْتَصَمَا، فَقَالَ أَحَدُهُمْ: نَتَرَافَعُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَقَالَ الآخَرُ: إِلَى كَعْبِ بْنِ الأَشْرَفِ، ثُمَّ تَرَافَعَا إِلَى عُمَرَ، فَذَكَرَ لَهُ أَحَدُهُمَا الْقِصَّةَ، فَقَالَ لِلَّذِي لَمْ يَرْضَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ: أَكَذَلِكَ؟ قَالَ: نَعَمْ؛ فَضَرَبَهُ بِالسَّيْفِ فقتَله**).

هذا سببٌ آخر لنزول هذه الآية التي معنا، وهذا السبب سببٌ مشهور في كتب العلماء، والروايات فيه عدة، ولا يخلو شيء منها من مقال، وإن كان بعض أهل العلم ومنهم الشارح الحفيد الشيخ سليمان رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكر أن شُهرة القصة تغني عن إسنادها(٧٠١).

المقصود أنَّ هذا الأثر إن صح فيه(٧٠٢) أيضًا ما يدل على أن الاحتكام إلى غير شرع الله ﷻ هو شأن المنافقين كما دلت عليه الآية، وأنَّ من الإيمان الواجب ومن التوحيد اللازم أن يُحتكم إلى أمر الله ورسوله ﷺ.

هذان رجلان اختصما، قال أحدهما: نحتكم إلى رسول الله ﷺ، والآخر قال: نحتكم إلى كعب بن الأشرف؛ وهو اليهودي المعروف الذي هو من أشراف بني النضير من يهود المدينة.

---

(٧٠١) وفي الواقع أنَّ هذا الأثر قد رُوِيَ من طرقٍ عِدّة لا تخلوا جميعًا من مقال، ومن أحسنها حالًا أثرٌ رُوِيَ من طريق ابن لهيعَة، وشيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «الصارم» كأنه يميل إلى نوع تقوية له مع أثر جاء بمعناه مجاهد، لكن هذا الأثر الذي هو من أحسنها حالًا إنَّما جاء في سبب نزول الآية التي بعدها: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء:٦٥]. وعلى كل حال؛ إن صحَّ هذا الأثر فالعبرة بعموم اللّفظ لا بخصوص السبب.

(٧٠٢) أنَّ إرادة التحاكم إلى غير شرع الله ﷻ شركٌ وكفرٌ وردّةٌ عن دين الله، وأنَّ صاحبها يستحق القتل.

فيبدو أن الأخذ والإعطاء بينهما توصل إلى أن يحتكما إلى عمر ﵁، فلما مَثَلَا بين يديه، كان أن حدَّثاه بما حصل منهما، فقال للذي أبى أن يحتكم إلى النبي ﷺ: هو كذلك؟ أراد أن يتحقق منه، فلما أكد له أنه قد فعل؛ ما كان منه إلا أن سل سيفه وضرب به عنقه، وذلك يدلك على أن هذا الرجل:

- إما أن يكون منافقًا أظهر نفاقه، والأصل في المنافق الذي يستر نفاقه أنه يُحكَم عليه بالظاهر، "لا يتحدث الناس أن محمدًا ﷺ يقتل أصحابه"، فإن أظهر كفره فإنه يعامل بما يقتضيه هذا الإظهار.

-وإن كان مسلمًا فإنه يكون قد ارتد بالإعراض والصدود عن تحكيم النبي ﷺ؛ ففعله يدل على أنَّه كان مستكبرًا عن حكم النبي ﷺ.

وبقيت مسألة ربما تُستشكل وهي: أن المعلوم المتقرر في الشريعة أن إقامة الحدود من شأن الإمام، ولكننا نلحظ هاهنا إن صحت القصة أن عمر ﵁ هو الذي تولى قتل هذا الرجل.

وتباينت وجهات نظر أهل العلم في توجيه هذه القصة، والذي يلوح لي والله تعالى أعلم: أنَّ عمر ﵁ كان وزيرًا للنبي ﷺ ، وكان من أقرب الناس إليه، بل لا يفوقه في القرب من النبي ﷺ إلا أبو بكر، فهو من أعلم الناس بما يرضاه النبي ﷺ أو لا يرضاه، فكأنه ﵁ قد علِم أن النبي ﷺ يرضى منه هذا الفعل، فنزَّل علْمه برضاه منزلة رضاه بالفعل، وكان منه ذلك ﵁ ، إن صحت القصة ، وفي القصة كلامٌ من جهة ثبوتها.



قال المصنف رحمه الله:

٤٠-بَابُ
مَنْ جَحَدَ شَيْئًا مِنَ الأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ

وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾[الرَّعد:٣٠] الآيَةَ.

وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ؛ قَالَ عَلِيٌّ: «حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ، أَتُرِيدُونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللهُ وَرَسُولُهُ؟!».

وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ، عَنْ مَعْمَرٍ، عَنِ ابْنِ طَاوُسٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ؛ أَنَّهُ رَأَى رَجُلًا انْتَفَضَ لَمَّا سَمِعَ حَدِيثًا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي الصِّفَاتِ؛ اسْتِنْكَارًا لِذَلِكَ، فَقَالَ: «مَا فَرَقُ هَؤُلَاءِ؟ يَجِدُونَ رِقَّةً عِنْدَ مُحْكَمِهِ، وَيَهْلِكُونَ عِنْدَ مُتَشَابِهِهِ».

وَلَمَّا سَمِعَتْ قُرَيْشٌ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ أَنْكَرُوا ذَلِكَ، فَأَنْزَلَ اللهُ فِيهِمْ: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾



قال الشارح وفقه الله:

هذا الباب الذي بين أيدينا في «**من جحد شيئًا من الأسماء والصفات**»؛ يعني من أسماء الله ﷻ وصفاته(٧٠٣)، هذا الباب من الأبواب القليلة التي تناولت موضوع الأسماء والصفات في كتاب التوحيد؛ معنا هذا الباب، وسيأتي إن شاء الله معنا أيضًا بابان قادمان .

---

(٧٠٣) باب الأسماء والصفات من أعظم مطالب الدين، وأشرف علوم الأوّلين والآخرين، ولا إيمان ولا توحيد إلا بتحقيقه.

وكأنَّ المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ رأى أنَّ موضوع الأسماء والصفات قد كُتِبَ فيه مؤلفاتٌ كثيرة من العهد الأول، منذ القرون الأولى ولم يزل يُكتب فيه إلى وقت المؤلف، لكنَّ الشيء الذي تشتدُّ الحاجة إلى التأليف فيه هو موضوع توحيد العبادة، ولأجل هذا جعل جُلَّ الأبواب متناولةً هذا الموضوع.

«**من جحد شيئًا من أسماء الله ﷻ وصفاته**»؛ يعني ما جاء في ذلك من الذمِّ والتحذير؛ لأنَّ هذا المسلك مما يُنْقَضُ به التوحيد، أو ينقُص به التوحيد؛ فإنَّ جحد الأسماء والصفات قد يكون مما ينتقض به الإيمان والتوحيد، وقد يكون دون ذلك، لكنَّه لا شك مما يخدش في التوحيد، ومما يقدح في كماله الواجب.

وقبل الكلام عن جحد الأسماء والصفات لا بد من التمهيد لذلك بذكر مقدمة تبين منهج أهل السنة والجماعة في هذا الباب العظيم؛ أعني باب أسماء الله ﷻ وصفاته.

والكلام في هذا يمكن أن نجعله في أسس متتالية:

- **أمَّا الأساس الأول**: فهو أنَّ أهل السنة والجماعة يعتقدون ثبوت ما أثبت الله لنفسه وما أثبته له رسوله ﷺ من الأسماء والصفات؛ هذا هو المسلك الرشيد، هذا هو المنهج الحق، هذا هو النَّور بين ظلمات تارةً تأخذُ جانب الغلو والتعطيل، وتارةً تأخذُ جانب الغلو الآخر والتمثيل.

أمَّا هذا المسلك الذي سلكه أهل السنة والجماعة، فإنه مسلك متوسط جمع الحق كله وجمع الخير كله؛ أهل السنة والجماعة يعتقدون أنَّ ما جاء في الكتاب والسنة من أسماء الله ﷻ وصفاته فإنَّه ثابت له حقيقةً، لماذا؟ لأنَّ ما جاء

في الكتاب والسنة هو الحق الذي لا ريب فيه، والله ﷻ بيَّن أنَّ هذا الكتاب حق، وأن ما فيه حق، وكذلك سنة رسول الله ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى حقٌّ لا ريب فيه ولا شك فيه، ولا يعتوره خطأٌ بحال من الأحوال.

إذًا متى ما ثبت أنَّ الله سبحانه وتعالى قد ثَبَتَ له شيءٌ من الأسماء والصفات فإنه يجب علينا أن نعتقد ذلك، والله ﷻ ما أخبرنا بهذا إلا لأجل أن نعتقده، وإلا فما فائدة الإخبار به؟! إذًا فنحن نعتقد بثبوت ما جاء في الكتاب والسنة من أسماء الله وصفاته.

ولاحظ هنا أن أهل السنة والجماعة لا يفرِّقون فيما ثبت بين الكتاب والسنة؛ ما ثبت في الكتاب والسنة من الأسماء والصفات فمقبولٌ يجب اعتقاده، وما ثبت في الكتاب فقط فمقبول يجب اعتقاده، وما ثبت في السنة فقط فإنه أيضًا مقبول يجب اعتقاده، لا يُفرِّق أهل السنة والجماعة بين الأدلة من حيث الأخذ بها، فالأدلة القطعية قد دلت على أن الكتاب حجة وعلى أن سنه النبي ﷺ أيضًا حجة، ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾[الحشر:٧].

وفي سِنَّة النبي ﷺ ؛ أهل السنة والجماعة أيضًا لا يفرِّقون بين الأحاديث، العبرة عندهم: ثبوتُ الدليل، ثبوتُ الحديث، ثبوتُ السنة، أمَّا أن نشترط شيئًا زائدًا على ذلك! كأن تكون السنةُ متواترة، وإلا فإننا لا نقبلها في باب الأسماء والصفات؛ لا شك أنَّ هذا مسلكٌ خاطئ مخالف لما كان عليه الصحابة والتابعون وأتباعهم.

ليست العبرة عندنا تواتر الحديث، العبرة عندنا ثبوت الحديث، متى ما ثبت الحديث ولو من طريقٍ آحاد فإنه مقبول عند أهل السنة والجماعة ولا شك، لأن الأدلة لم تدل على إثبات هذا الشرط، الله ﷻ يقول: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر:٧]؛ إذًا متى ثبت عندنا أن هذا نص قاله رسول الله ﷺ إذًا لا يجوز للإنسان أن يتردد في قبول هذا الحديث عن النبي ﷺ.

أمَّا المسلك الذي يقول: "نحن لا نقبل من الحديث في باب الأسماء والصفات إلا ما جاءنا من طريق المتواتر وإلا فإننا لا نقبله"؛ هذا مسلك مبتَدع لا دليل عليه من الكتاب والسنة، وليس عليه أثرٌ من فعل السلف الصالح، إذًا هو مردودٌ ولا عبرة به.

أهل السنة والجماعة يثبتون -يعني يعتقدون ثبوت- ما جاء في الكتاب والسنة من صفات الله جل وعلا، إذا أثبت الله لنفسه اسمًا اعتقدنا أن هذا اسم الله وسمَّينا الله به، إذا سمى الله نفسه بالرحمن، والرحيم، والكريم، والعليم، ليس لنا إلا أن نتلقى هذا بالقبول، ونعتقد أن هذا اسمٌ ثابت لله ﷻ، هو الذي سمى به نفسه، ليس الخلق هم الذين سموا الله تعالى-حاشا وكلا- ، بل هذه أسماء لله سمى هو بها نفسه، ولذلك في حديث الهم، يقول النبي ﷺ: «أسألك بكل اسم هو لك، سمَّيتَ به نفسك». إذًا أسماء الله هي أسماء له بتسميته إياها ، يعني هو الذي سمى نفسه بها، لا أن الخلق هم الذين أنشأوا تسمية الله سبحانه وتعالى بها.

هكذا الشأن أيضًا في صفات الله سبحانه وتعالى؛ نعتقد أنَّ كل صفةٍ جاءت في الكتاب والسنة فإن الله ﷻ متصفٌ بها حقيقةً، إذا أخبرنا الله ﷻ أنه يحب، وأنه يبغض،

وأنه يغضب، وأنه يرضى، وأنه استوى على العرش، وأن له وجهًا وأن له يدين، وأن له قدمًا، يجب علينا أن نعتقد ذلك، هذا شيء أخبرنا الله به، هذا شيء أخبرنا به النبي ﷺ. إذًا ليس لنا إلا أن نقول: على الرأس وعلى العين، نعتقد موجب ذلك دون تردد.

وإذا كان ذلك كذلك، فإنه سيتضح لنا أنَّ **هذا الإثبات الذي أثبته أهل السنة والجماعة هدى بين ضلالتين:**

- **ضلالةٌ اتجهت جهة التمثيل**؛ فجعلت ما يثبُت لله ﷻ من الصفات من جنس ما يثبت للمخلوقين.
- وطائفة أخرى هي التي نحَت نحو **التعطيل**، فقالت: إنَّ ما ثبت في الكتاب والسنة من صفات الله ﷻ ليس من حقيقته، الله لا يتصف به حقيقة، طيب؛ إذًا ما هذا الذي جاء في النصوص؟ قالوا: هذا مجازات، استعارات، كنايات، سمِّها ما شئت ولكن لا تقُل إن الله يتصف بها حقيقة. وهذا الجانب هو الذي أراد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنْ يتحدث عنه في هذا الباب، هؤلاء الذين جحدوا أسماء الله وصفاته.

أهل السنة والجماعة وسط بين الطائفتين، قال ﷻ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[الشورى:١١]؛لا حظ أنَّ هذه الآية أمُّ الباب، انتبه! هذه الآية العظيمة هي أمُّ الباب في الأسماء والصفات، بمعنى كل كلام أهل السنة والجماعة تقريبًا في هذا الباب -باب الأسماء والصفات- يدور على هذه الآية:

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾[الشورى:١١]؛ لاحظ أنها تشتمل على شقين:

- **الشق الأول:** ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، ردٌ على أهل التمثيل.
- **والشق الثاني:** ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾؛ ردٌ على أهل الجحد والتعطيل.

إذًا أهل السنة والجماعة كانوا في اعتقادهم وسطًا، يثبتون أن الله ﷻ متصفٌ بالصفة لا كاتصاف المخلوق. ولذلك لخص لنا هذا المنهج المجانب لهاتين الطائفتين المنحرفتين عن الحق الإمام نعيم بن حماد الخزامي رَحِمَهُ ٱللَّهُ حينما قال -وهذه كلمة عظيمة تلقاها عنه أهل السنة والجماعة بالقبول- يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**من شبَّه الله بخلقه فقد كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه**». إذًا هذا هو المنهج الوسط، وهذا أثرٌ عظيم وأثرٌ حسن ثابت عنه، قال عنه الذهبي: (رويناه بأصح إسناد).

فهذا المنهج يبين لك أن أهل السنة والجماعة طريقهم اختطُّوه بين هاتين الطائفتين المنحرفتين.

➘ **الأساس الثاني**: أهل السنة والجماعة يعلمون معاني نصوص الصفات في ضوء لغة العرب. إذًا متى ما أخبرنا الله عن نفسه بثبوت صفةٍ له فإن أهل السنة والجماعة يعلمون معنى هذه الصفة في ضوء لغة العرب؛ لماذا؟ لأنَّ الله ﷻ أنزل هذا الكتاب لأجل أن يُتدبر: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾[ص:٢٩]، ولم يقل الله ﷻ إلا آيات الصفات، إذًا كل القرآن مما يجب أن

يتدبره المسلم، حتى نصوص الصفات؟! نعم، حتى نصوص الصفات يجب على الإنسان أن يتدبرها وأن يعلم معناها.

فإذا أخبرنا الله ﷻ بأنه على العرش استوى، نحن هنا بين أمرين:

-**إمَّا أن نقول**: إنَّ كلمة (استوى) كلمة غامضة، مجهولة المعنى، مَثَلُهَا مثل الطلاسم والألغاز والكلام الأعجمي الذي لا يُعلم له معنى ولا يُدرك له فائدة.

-**أو أن نقول**: إنَّ هذه الكلمة (استوى) كلمة عربية ولها مفهوم في لغة العرب، فنحن نفهم هذه الكلمة في ضوء لغة العرب، فـ(استوى) عند العرب، (استوى على): علا على الشيء وارتفع عليه، ولذلك يقول الله ﷻ: ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾[الزخرف:١٣]، قال عن سفينة نوح: ﴿وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾[هود:٤٤]، أي شخص يفهم لغة العرب سيفهم أن قوله: ﴿وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ أنها علت وارتفعت على الجبل المسمى الجودي.

إذًا أي المسلكين هو المسلك الصحيح؟

- أن نقول: إن نصوص الصفات الواردة في الكتاب والسنة كلامٌ لا معنى له، أنزله الله فقط من أجل أن نتعبد له بتلاوته، أما أن نفهم فلا؟
- أو نقول إنها من جملة آيات القرآن التي يجب أن تدخل تحت قوله تعالى: ﴿لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾[ص:٢٩]، وتدخل تحت الذم في قول الله ﷻ: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾[المؤمنون:٦٨].

ما رأيكم أي المسلكين هو المسلك الصحيح؟ لا شك أنه المسلك الثاني.

دعونا ننظر ماذا كان يفعل أصحاب النبي ﷺ، بل دعونا ننظر ماذا حثنا النبي ﷺ؟

-نظرنا فتَّشنا في سنة النبي ﷺ وجدنا أنه يقول: «وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم» لاحظ معي، ما معنى يتدارسونه؟ يعني يحاولون أن يفهمون وأن يتدبروا معانيه.

- نظرنا في فعل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وفعل التابعين مع الصحابة وجدنا مجاهدًا التابعي الجليل رَحِمَهُ اللَّهُ تلميذ ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يقول: «عَرَضتُ القرآن على ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ثلاث عرضات، أَقِفُه عند كل آية منه» يعني من القرآن. السؤال الآن: أقال مجاهد رَحِمَهُ اللَّهُ: إنني أقفه عند كل آية إلا آيات الصفات؟ ما قال هذا؛ إذًا كان رَحِمَهُ اللَّهُ يسأل ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن آيات الصفات كما يسأله عن غيرها من آيات الصفات، لم يقل: كنا إذا مررنا بآيات الصفات أغلقنا أعيننا وأسماعنا وقلوبنا عن أن نتدبر معناها.

لم يقل هذا كما هو الحال عند طائفة من أهل البدع الذين يقولون إن آيات الصفات مجهولةُ المعنى؛ أنزلها الله في القرآن ولكن لا يعلم معناها إلا هو. فإذا قال: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾[طه:٥]، إذا قال سبحانه عن نفسه: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾[المائدة:٥٤]، إذا قال: ﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ﴾[المائدة:١١٩]؛ إذا قال: ﴿وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾[الفتح:٦]؛ إذا قال إن له يدين، إذا قال إن له وجهًا، إذا قال إن له كلَّ هذه الصفات؛ فإن هذه الآيات آياتٌ مجهولة المعنى لا نفهمها ولا نعقلها.

لا شك أن هذه دعوى باطلة، ولوازمها لوازم خطيرة، إذْ يستطيع كل إنسان حينئذ أن يقول: إن غير آيات الصفات أيضًا مجهولة المعنى، لماذا آيات الصفات فقط هي المجهولة؟ حتى غيرها، يعني ممكن أن يأتينا شخص فيقول: حتى قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ﴾[البقرة:١١٠] مجهول المعنى، ﴿كُتِّبَ عليكم الصيَّام﴾ مجهول المعنى، هذا كلام فقط نتلوه نكسب به أجر لا نفهم له معنى! لا شك أن هذا يقوِّض الشريعة بالكلية، هذا يسقط دين الله ﷻ بالكلية، لذلك كان هذا القول قولاً غايةً في البطلان، ولوازمه ذاتُ خطر عظيم.

إذًا أهل السنة والجماعة يدركون معاني نصوص الصفات في ضوء لغة العرب، لكن القدْرُ الذي يفهمونه من الصفة هو معناها في أصل اللغة، دون أن يعلموا كيفية الصفة، وهناك فرقٌ بين الأمرين. وهذا هو الأساس الثالث الذي معنا.

الأساس الثالث: أهل السنة والجماعة يَحْذَرُون في هذا الباب -باب الأسماء والصفات- من التكييف والتمثيل. إذًا أهل السنة والجماعة يرون أن هناك محذورين يجب اجتنابهما وتركهما والابتعاد عنهما أشدَّ ما يكون الابتعاد؛ لا يجوز بحال حينما نثبِتُ لله ﷻ الصفة أن نبالغ ونغلو حتى نصل إلى حد التكييف والتشبيه.

ما هو التكييف؟ وما هو التشبيه؟

التكييف: هو حكاية الكيفية؛ يعني الكُنْه والحقيقة. نحن إذا ذكرنا صفةً من الصفات قد نفسرها ببيان كيفيتها، نقول مثلًا: نزل فلانٌ بالدرج، أو نزل

بالمصعد، أو نزل من الجبل، لاحظ الآن هذه صفة، أنا أصفه الآن بالنزول، وربما أزيد فأقول: نزل بسرعة، ننزل ببطء، كلمة "بسرعة" هذه ما هي؟ هذا هو التكييف؛ حكاية الكيفية، فأنا أذكر حقيقة وأذكر كُنْهًا.

حينما أقول: إن الإنسان يستوي على الدابة، يستوي على الجمل، أو الخيل بكيفية معينة، يستوي على السيارة بكيفية معينة، يستوي على الباخرة بكيفية معينة؛ أصِف هذه الكيفية وأحكيها. أنا الآن جمعتُ بين ذكر الصفة والتكييف.

من أين لي أن أعرف الكيفية؟ كيف عرفتها؟ من خلال مشاهدتها؛ لأني أشاهد الإنسان وهو يستوي على دابة أو باخرة، فإنني حينئذ أستطيع أن أحكي هذه الكيفية، وإذا كنتُ ما رأيته بعينه هذا الذي أحكي عنه لكنني أستطيع أيضًا أن أحكي الكيفية من خلال معرفة كيف استوى من هو مثله، يعني أنا رأيت مثيله، رأيت نظيره، فقِسْتُ هذا على هذا، وبالتالي فإنني أستطيع أن أذكر وأحكي الكيفية.

لو انعدم عندي هذان الأمران؛ لو لم أرى إنسانًا يستوي على دابة، أو لم أر هذا الشخص المعين الذي أريد أن أصفه، لكن لم أرى أيضًا مثيلًا له يستوي على دابة، أسألكم: هل أستطيع أن أحكي الكيفية؟ لا يمكن، لماذا؟ لانعدام الوسيلة.

يبقى عندي شيء ثالث: ممكن أن شخصًا رأى فيفسر لي، يعلِّمني، يخبرني، يقول: استواء الإنسان على الدابة هو أن يجلس بكيفية معينة، وتكون رجله نازلة، يبدأ يحكي لي كيفيته.

إذًا هذه ثلاث طرق، **لا تستطيع أن تتكلم بعلم عن شيء غائب عنك إلا إذا وُجِدَ عندك واحد من هذه الطرق:**

١. أن ترى الشيء.

٢. أن ترى مثيلًا له.

٣. أن يأتيك عنه خبرٌ صادق.

ليس هناك طريق رابعة. السؤال الآن:

﴿ **هل رأينا الله** ﷻ؟ ما رأينا الله؛ قال النبي ﷺ كما في صحيح مسلم: «تعلَّموا أنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا»؛ رؤية الله ﷻ بالنسبة للناس، تكون في الآخرة في موضعين: عرصات القيامة، وفي جنات عدن ، أسأل الله أن يجعلني وإياكم من أهل هذه الرؤية.

﴿ **هل رأينا مثيلًا لله حتى نقيس؟** تعالى الله عن ذلك! ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[الشورى:١١]، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾[مريم:٦٥]، ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾[الإخلاص:٤]، ﴿فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ﴾[النحل:٧٤]، ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾[البقرة:٢٢].

﴿ **إذًا ما بقي عندنا إلا الوسيلة الثالثة، أجاءنا خبر عن النبي ﷺ بحكاية كيفية الصفة؟** لا، النبي ﷺ كان يخبرنا بالصفة من حيث الثبوت لا من حيث الكيفية،

هل لما تلا علينا النبي ﷺ -يعني على أصحابه- ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾[طه:٥] قال إن هذا الاستواء بكيفية كذا وكذا؟ لا، إنما اكتفى النبي ﷺ بإخبار الأمة أن ربه ﷻ استوى. كذلك النبي ﷺ حينما حدَّث أصحابه كثيرًا في عشرات المرات، حدَّثهم أن الله إذا بقيَ ثلث الليل الآخر فإنه ينزل إلى سماء الدنيا، قال: «ينزل» واكتفى، أزاد على هذا حكاية الكيفية؟ لم يفعل النبي ﷺ.

إذًا أي كلمة منا في تكييف صفة لله ﷻ فإنها بالتالي هل ستكون كلامًا بغير علم، والله ﷻ نهى أشدَّ النهي عن أن نقول عليه بغير علم، ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾[الأعراف:٣٣] إذًا القول على الله بغير علم لا شك أنَّه مُنْكَرٌ عظيم.

إذًا لا يجوز للمسلم أن يتحدث عن كيفية اتصاف الله سبحانه وتعالى بالصفة؛ لأنه ما رأى الله ﷻ ، ولم يرى مثيلًا له، ولم يأت خبر لا في الكتاب ولا في السنة عن كيفية ثبوت هذه الصفة.

إذًا أهل السنة والجماعة اعتقادهم: ثبوت الصفة دون تكييف الصفة، فهم يحذرون من حكاية الكيفية، وينفون علمهم بها. نحن لا نعلم كيفية صفات الله سبحانه وتعالى ، ولذلك الذين يخوضون في هذا الباب لا شك أنهم قد أخطأوا خطأ عظيمًا.

أخرج اللالكائي في كتابه «السنة» عن الإمام المحدث الجليل عبد الرحمن بن مهدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه بلغه عن رجل أنه يخوض في شيء من التكييف والتشبيه فدعاه؛ فلما أقبل عليه بدأ يتكلم معه إن الله كذا وكذا، فقال له: قف يا بني! دعنا

أولاً نتكلم عن المخلوق ثم نتكلم عن الخالق، (قد أخبرنا النبي ﷺ عن جبريل عليه السلام أن له ستمائة جناح سد بها الأفق، قد علمتُ جناحين فركّب لي ثالثًا، ولن أسألك عن خمسمائة وسبعة وتسعين جناحًا). يقول: جبريل عليه السلام له ستمائة جناح، قال: أنا أعقل شيئًا له جناحان أتصور، لكن شيء له ثلاثة أجنحة هذا ما أدري كيف شكله كيف سيكون؟ أين سيكون الجناح الثالث؟ ولن أسترسل معك فأقول وأين الرابع، والخامس، والسادس، والمائة، والستمائة، سأعفيك، فقط أخبرني أين الجناح الثالث سيكون؟ كيف هيئته؟ فقال الرجل: "لئن جهلنا صفة المخلوق، فنحن بكيفية صفة الخالق أجهل" ، أدرك الرجل خطأه وتراجع عن ذلك.

إذا كان مخلوق -وجبريل عليه السلام مخلوق من مخلوقات الله- ومع ذلك نحن نجهل كيفية صفته وكُنه ذلك وحقيقته وهيئته على وجه التحديد، نحن لا ندرك ذلك، فكيف نروم أن نطلب علم كيفية صفة الخالق سبحانه وتعالى! هذا شيء لا يمكننا الوصول له، ولذلك هؤلاء الذين يثقون بعقولهم كثيرًا فيرفعونها عن حدها إلى درجة أنها تخوض في شيء من أمور الغيب أخطأوا خطأً كبيرًا.

الغيب: ما غاب عنا، والعقل ليس عنده قدرة أصلًا على الوصول إليه، إذًا يجب أن نعرف أنَّ العقل له حدٌّ، فخوضه فيما فوق حده خطأ. وبالتالي فالعقل يقول: "إن العقل ليس له في مسائل الغيب دخول"، العقل هو الذي أخبرنا أن العقل ليس له في مسائل الغيب دخول، لأنه شيء فوق إدراكه.

أخرج ابن بطة في «الإبانة» أن رجلًا جاء إلى ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا جاء بابن له وقال إن الفكرة قد أتعبته والحيرة قد غلبت عليه، يعني عنده ابن مسكين يفكر تفكير أبعد من حدود العقل، يخوض في مسائل الغيب حتى وقع في هوَّةٍ عظيمة من الحيرة، والشك، والوسوسة؛ فطلب منه أن ينصح هذا الابن. قال ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا : «تعال يا ابن أخي، وأخبرني ما هذا السواد الذي تراه هناك؟» قال: فلان. قال: «أحسنت؛ فما هو السواد الذي وراءه؟» قال: لا أدري. قال رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «فكما جعل الله لعيون الأبصار حدًا محدودًا من دونها حجابٌ مستور، فكذلك جعل لبصائر القلوب حدًّا محدودًا من دونها حجابٌ مستور».

الغيب شيء لا يستطيع العقل أن يخوض فيه لأنه فوق إدراكه، ونحن هناك أشياء قريبة جدا منَّا، كانت دليلًا وبرهانًا علينا وحجة قائمة علينا في أننا عاجزون، وصدق فينا قول الله ﷻ: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[الإسراء:٨٥].

هل فينا أرواح؟ فيك أنت وأنت وأنا فينا روح؟ هي أقرب شيء إلينا، أليس كذلك؟ وبها نكون أحياء وبانتزاعها نكون أموات، والسؤال: حدد لي كيفيتها. ما هيئتها؟ ما لونها، ما مادتها؟ ما طولها؟ ما عرضها؟ هل تستطيع أن تخوض في شيء من هذا؟ وهي أقرب شيء إليك، فإذا كنا عاجزين عن إدراك هذا الشيء الذي هو مخالط لنا وحالٌّ في أجسادنا، فكيف نروم أن نعرف كيفية صفات الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ !! لا شك أن هذا مسلك خاطئ.

﴿ **المحظور الثاني: التمثيل أو التشبيه**؛ التمثيل والتشبيه كلمتان متقاربتان، وإن شئت فقل: متطابقتان أحيانًا ومتقاربتان أحيانًا؛ يعني من الكلمات التي إذا اجتمعت افترقت، وإذا افترقت اجتمعت.

التمثيل: هو الذي جاء نفيه في النصوص في آيتين: في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[الشورى:١١]؛ وفي قوله تعالى: ﴿فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ﴾[النحل:٧٤].

أما التشبيه جاء في لسان السلف، من عهد ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وإلى هذا العصر ولم يزل أهل السنة والجماعة ينفون التشبيه، وسمعتَ قبل قليل القاعدة الذهبية التي قالها نعيم بن حماد رَحِمَهُ اللَّهُ: «من شبَّه الله بخلقه فقد كفر»، ثم قال: «ليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه».

التمثيل: هو أن نقول إنَّ صفة الله كصفة المخلوق؛ الله ينزل كنزول المخلوق، والله يستوي كاستواء المخلوق، ولله وجهٌ يشبه وجه المخلوق. لا شك أن هذا مسلك باطل وخاطئ، وتكذيبٌ لكتاب الله، وأجمع المسلمون على أن من مثّلَ صفات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بصفات خلقه فإنه قد كفر؛ كذَّب قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[الشورى:١١] ، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾[مريم:٦٥]،﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾[الإخلاص:٤]،﴿فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ﴾[النحل:٧٤]،﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾[البقرة:٢٢].وغيرها من الآيات التي دلت على ذلك.

إذًا كلا هذين المحذورين يجبُ على المسلم أن يجتنبهما، بل أن يقطع الطمع، أن ييأس من الوصول إلى ذلك، الله عَزَّ وَجَلَّ لا يحاط به، ﴿وَلا يُحِيطُونَ بِهِ

عِلْمًا﴾[طه:١١٠]، الله ﷻ أعظم وأكبر من أن يحاط به علمًا؛ لأنه الكبير الواسع العظيم ﷻ.

الأساس الثالث: أنَّ أهل السنة والجماعة يجتنبون التعطيل والتحريف.

التعطيل: هو النَّفي؛ أن يقول الإنسان إن الله ﷻ لا يستوي على العرش، إن الله ﷻ لا ينزل إلى السماء الدنيا، إن الله ﷻ لا يأتي ولا يجيء يوم القيامة لفصل القضاء، هذا يسمى «تعطيل»، يسمى «نفيًا».

والتحريف وسيلة التعطيل، يعني لا يوجد أحد من المنتسبين إلى الملة ينفي نفيًا صريحًا صفة ثابتة في القرآن أو في سنةٍ متواترة، ربما ينفي شيئًا جاء في حديث آحاد للخطأ في المنهج كما ذكرت قبل قليل وهو أنه يقول: لا نقبل في باب الأسماء والصفات إلا حديثًا متواتراً، وبالتالي فإن حديث الآحاد في هذا الباب غير مقبول، وهذا منهج خاطئ كما قد علِمنا.

ولذلك ربما يقول من هؤلاء المعطلة قائل: إن هذه الصفة ننفيها عن الله ﷻ لعدم ثبوتها؛ فهي عنده في زعمه ثابتة في حديث لا يقبل في باب الاعتقاد، يعني في حديث آحاد. أما في آية أو حديث متواتر فلا يجرؤ أحد منتسب للإسلام أن ينفي ذلك، لأنه سيكفر مباشرة، لأنه يكذِّب الله ورسوله ﷺ.

إنما عامة التعطيل يكون بوسيلة؛ بمركب يركبه الإنسان فيصل به إلى التعطيل، هذا المركب اسمه «التحريف»، وإن شئت فقل اسمه «التأويل»، يعني:

صرف اللفظ عن ظاهره إلى معنى آخر بقرينة تُزعم، يزعمون أن هناك قرينة دلت على هذا الصرف.

وبالتالي هذا الذي عطل الصفة تجده يأتي إلى قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾؛ الآية صحيحة في ثبوت استواء الله ﷻ على العرش، فيقول: الله لا يستوي، نحن ننزه الله ﷻ عن هذه الصفة ، سبحان الله! طيب هذه الآية التي بين أيدينا ما معناها؟ يقول: هذه الآية مؤولةٌ، لها معنى آخر خلاف ظاهرها، وهذا المعنى هو (استولى)، ليس استوى بمعنى استوى، لا ، استوى هنا بمعنى: استولى.

قال النبي ﷺ ، والحديث في الصحيحين وبروايات كثيرة بلغت العشرات عن عشرات من أصحاب النبي ﷺ إثبات صفة النزول لله تبارك وتعالى: «إن الله -تعالى- ينزل إذا بقي ثلث الليل إلى السماء الدنيا فيقول...» الحديث. يقول: إن الله تعالى لا ينزل. طيب هذا الحديث ما معناه؟! يقول: "الذي ينزل أمره وليس هو"، أو "الذي ينزل ملك من ملائكته وليس هو". هذا المسلك اسمه مسلك «التحريف» أو «التأويل»، وهو في حقيقته يؤول إلى التعطيل؛ لأنَّ الله أثبت شيئًا هو نفاه، وأثبت صاحبنا هذا شيئًا آخر، ليس هو الشيء الذي أثبته الله ﷻ لنفسه، وبالتالي فإنه يكون قد أخطأ حينما أوّلَ هذه الصفة.

والسؤال الآن: لماذا يَعْمَدُ بعض النَّاس إلى هذا التأويل أو التحريف؟ لماذا لا يثبت الشيء الذي أثبته الله لنفسه؟

الجواب: لأن عنده شبهة تقول: إن هذه الصفة على ظاهرها تفيد التشبيه، تشبيه الله ﷻ بالمخلوق، وبالتالي أنا لا يمكن أن أشبِّه الله بخلقه، فلاحتمال التشبيه أو لأن الظاهر من الآية هو التشبيه أنا مضطر تنزيهًا لله ﷻ أن أؤول أو أحرِّف هذه الآية حتى تستقيم لي قاعدة أنَّ الله تعالى ليس كمثله شيء.

والعجيب أننا نجد أن النبي ﷺ لما تلا على الأمة قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ هل وقف وقفة وقال للصحابة: انتبهوا إياكم أن تعتقدوا أن الله يستوي حقيقةً؛ فإنكم إن حملتم الآية على ظاهرها تكونون قد شبهتم؛ هذه الآية لها معنى آخر، هل وقفتم على شيء يثبُت أن النبي ﷺ قال هذا؟ لا ولن تجدوا، لو بحثتم من اليوم إلى مائة سنة.

السؤال الثاني: هل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لما تلقوا هذه الآية من النبي ﷺ ونقلوها للتابعين حينما كانوا يدرِّسونهم ويعلِّمونهم، حينما كان ابن عباس يعلِّم مجاهد أقال له: انتبه، أنت تقرأ قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾[طه:٥]؛ ولكن احذر أن تعتقد أن الله يستوي حقيقة، فإنك لو اعتقدت ذلك شبهت الله بخلقه؟! أفعل هذا ابن عباس؟! أفعل هذا واحد من الصحابة؟ الجواب لا.

السؤال ثالث: التابعون فعلوا هذا مع أتباع التابعين؟ ما فعلوا هذا.

الذين من بعدهم حتى انخرمت تلك القرون النيرة الفاضلة ؛ هل ثبت عن واحد منهم فقط أنه حذر الأمة من أن تقع في هوَّة التشبيه؟ والتشبيه ما حكمه؟

كفر، «من شبَّه الله تعالى بخلقه فقد كفر». ما وجدنا النبي ﷺ، ولا الصحابة، ولا التابعين، ولا أتباع التابعين، ولا أئمة الهدى من بعدهم، فعلوا هذا.

إذًا ألا يدل ذلك على أن هذا مسلك خاطئ؟ ولو كان هذا مسلكًا صحيحًا لكانوا أولى به! هل نحن أغيَر على كتاب الله منهم؟ هل نحن أعلم بالله منهم؟ هل نحن أفقه بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ منهم؟ إذًا لا شك أن هذا المسلك مسلك باطل.

تكلمنا عن بعض الأسس التي قام عليها معتقد أهل السنة والجماعة في باب أسماء الله وصفاته، وذلك تمهيدٌ للباب الذي بين أيدينا وهو: «**من جحد شيئًا من الأسماء والصفات**».

وقفنا عند الكلام عن أنَّ **أهل السنة والجماعة يحذرون في شأن صفات الله ﷻ من التعطيل والتحريف**، وفهمنا ما المراد بالتعطيل؟ وما المراد بالتحريف؟

وهذا الموضوع من الأهمية بمكان، فإن المسلم قد يطالع شيئًا من الكتب في التفسير أو في غيره، فيقع عنده شيء من الالتباس حينما يرى أنَّ صفات الله ﷻ قد تُأول وتُحرَّف عن ظاهرها، وهذا المسلك لا شك أنَّه مسلك خاطئ.

فالله جل وعلا خاطبنا في هذا الكتاب الكريم، وهكذا نبيه ﷺ في سنته الغراء، كان الخطاب خطابًا مفهومًا معلومًا في لغة العرب، ولأجل هذا أُمرنا بتعقُّل القرآن، الله ﷻ بين علة جعله عربيًا لأجل أن يُعقل: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[يوسف:٢]، والأصل أنَّ الخطاب على ظاهره حتى يرِدَ دليل على خلاف

ذلك، لا سيما في شأن من يريد بالـمُخَاطَبِ الخير والإبانة والهداية، والله ﷻ بيَّن هذا في القران فقال: ﴿يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾[النساء:٢٦]. إذًا الله ﷻ، أراد بنا الخير وأراد لنا البيان والهداية، ولأجل هذا لا بد أن يكون الخطاب خطابًا واضحًا ومعلومًا ومفهومًا، ولا بد أن يكون أيضًا على ظاهره، وإذا كان الخطاب على خلاف ظاهره، وظاهره يفيدُ ضدَّ ما يدلُ عليه ظاهره فإن هذا من التعمية ومن الإلغاز، بل ومن الإضلال، هذه مُسَلَّمة لا ينبغي أن يـُختلف فيها.

إذًا الواجب على المسلم إذا سمعَ آيةً أو حديثًا فيهما شيءٌ من ذكر صفات الله؛ الواجب أن يعتقد أنَّ الله تعالى متصفٌ بهذه الصفة حقيقةً على ظاهرها، وهذا الذي أراد الله ﷻ منا أن نعتقده، فإذا سمعنا مثلًا قول الله ﷻ: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾[طه:٥] فإن الواجب علينا أن نعتقد أن الله ﷻ بعد خلق السماوات والأرض استوى على العرش، والاستواء معلوم في لغة العرب؛ ألا وهو العلو والارتفاع على الشيء، (استوى على): يعني علا وارتفع على الشيء.

وهذا القدر هو الذي يجب علينا أن نثبته وأن نقف عنده، أمَّا لو زاد الإنسان على ذلك فقال: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ نحن نثبت ذلك لكن كيف استوى؟ انتبه إلى أن هذا السؤال محذور، قد علمنا في الأساس السابق أن المسلم عليه أن يحذر من التكييف و التمثيل أو والتشبيه.

وقد سُئل الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا السؤال، قيل له: ﴿**الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**﴾، كيف استوى؟ فأطرق رَحِمَهُ ٱللَّهُ وعلاه الرحضاء؛ يعني العرق، وذلك لعظمة هذا السؤال، ما كان يظن أن أحد يجرؤ على طرح مثل هذا السؤال في حق الله عَزَّ وَجَلَّ، ثم رفع رأسه وقال: «الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة».

«**الاستواء غيرُ مجهول**»؛ يعني معلوم في لغة العرب ما هو.

«**والكيف غير معقول**» بالنسبة لنا؛ لأننا ما رأينا الله جل وعلا، ولا رأينا كيف يستوي حتى نُحَدِّث أو حتى نحكي هذه الكيفية.

«**والإيمان باستواء الله واجب**»، لأن الله عَزَّ وَجَلَّ أخبرنا بذلك، وتصديق الله فيما قال حتمٌ لازم.

«**والسؤال عن الكيف بدعة**»، وهذا ميزانٌ عامٌ في جميع صفات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فلو قال قائلٌ كيف وجه الله؟ وكيف يد الله؟ وكيف غضب الله؟ لقلنا في ذلك كُلِّه ما قال الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ في صفة الاستواء.

هنا قال لنا قائل: نحن مضطرون إلى أن نحمل هذه الصفات على خلاف ظاهرها، يعني إذا ورد علينا قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾[طه:٥] أو ﴿وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾[الفتح:٦] أو ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾[المائدة:٥٤]، إلى أمثال ذلك من الصفات نحن مضطرون إلى أن نحملها على خلاف ظاهرها.

قلنا: ولِم كان هذا الاضطرار؟ قال: لأن ظاهر هذه الصفات يقتضي التشبيه، والله منزهٌ عن مشابهة خلقه، إذًا يتعين علينا أن نؤوِّل هذه الصفات ونحملها على خلاف ظاهرها تحقيقًا لتنزيه الله ﷻ عن مشابهة المخلوقين.

انتبه؛ هذه الشبهة هي أساس البلاء وهي أساس الشر، حينما يظن إنسانٌ أن في كتاب الله ما يُوهم ظاهره خلاف الحق، بل ما يُوهم ظاهره الكفر بالله ﷻ، لأن التشبيه قد علمنا أنه كفر، «من شبَّه الله بخلقه فقد كفر». إذًا كتاب الله جل وعلا الذي أنزله هدى ونورًا مُبِينًا وبشرى للمسلمين، صار سببًا لإضلالهم؛ لأن كثيرًا من آياته ظاهرها الضلال بل ظاهرها الكفر. وهذه قاعدة ومقدمة في غاية الخطورة، مخطئ خطأ عظيمًا من ظن أن ظاهر نصوص الصفات يقتضي التشبيه.

التشبيه مرضٌ يقع في النَّفوس التي لم تُعظم الله ﷻ حق التعظيم، النفوس التي لم تَقْدُر الله ﷻ قدره، وإلا فلا يمكن البتة أن يُخبر الله عن نفسه بما ظاهره الباطل، ولا يمكن أن يكون النبي ﷺ مُخبرًا عن ربه بما ظاهره الباطل، هذا أمرٌ مستحيل ولا يقوله من يستوعب لوازم ما يقول وهو مسلم.

إذًا من الخطأ البيِّن هذا الأمر؛ يجب أن تجزم ببطلان هذه المقالة السيئة؛ لا يوجد شيء البتة في الكتاب والسنة ظاهره التشبيه. وأنَّى يكون ذلك! وهذه الصفاتُ مضافةً إلى العظيم ﷻ، والصفة تناسب الموصوف، هذا أمرٌ يدركه جميع العقلاء، وإذا كان الموصوف وهو الله ﷻ ليس كخلقه ﷻ، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ

شَيْءٌ﴾[الشورى:١١]، إذًا لا بد أن تكون صفاته ليست كصفات المخلوقين، وهذا أمرٌ مُسَلَمٌ وواضح في النصوص في الكتاب والسنة.

وإني لأعجب أشد العجب أن يقول قائل: إن ظاهر نصوص الصفات تقضي التشبيه!! يا عبدالله! هذه صفة مضافة إلى الله، فكيف تقتضي التشبيه! انظر إلى عظمة الله ﷻ، وإلى عظمة صفاته ﷻ، فكيف تجرؤ بعد ذلك أن تقول إن ظاهر النص الذي جاء فيه هذه الصفة أنها توهم التشبيه!.

خذ مثلاً: حينما يقول قائل -وقد قيل من بعض الذين أخطئوا في هذا الباب- قالوا: إن إثبات اليد لله ﷻ يقتضي التشبيه؛ لأن اليد لا تُعقل إلا في المخلوقين، فنحن ننزه الله ﷻ عن هذه الصفات. طيب ماذا نصنع في هذه النصوص التي فيها إثبات اليد لله ﷻ، كقوله تعالى: ﴿يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾[الفتح:١٠]؟! قالوا: الأمر سهل، ما علينا إلا أن نركب مركبًا ذلولًا سهلًا يسمى «التأويل»، نؤول هذه الصفة وانتهى الإشكال، نقول: اليد تعني القدرة، أو اليد تعني النعمة، أَوِّل بما شئت والباب مفتوح، وقل ما شئت، واعبث بما شئت فالأمر سهل، المهم أن لا تثبت لله صفة اليد، لم؟ لأن اليد إذا أضفتها لله أوهمت المشابهة بالمخلوق.

سبحان الله العظيم! أيُّ تشبيه هذا لمن عَظَّمَ الله ﷻ -هذا أولا- وآمن بالنصوص في الكتاب والسنة كما نزلت!.

▪ اليد التي أضافها الله إلى نفسه يدٌ تليق به لا كأيدي المخلوقين، ثم إنها موصوفةٌ في النصوص بصفات تقطع عروق التشبيه من القلب، ألم ترَ إلى أن الله

ﻋﺰﻭﺟﻞ وصف هذه اليد التي أضيفت إليه بصفاتٍ لا يمكن أن يكون شيء من المخلوقين متصفٌ بما يقرُب منها، ألم يقل الله ﺗﺒﺎﺭﻙ ﻭﺗﻌﺎﻟﻰ: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾[الزمر:٦٧]، بالله عليكم! أريتم يدًا في المخلوقين تقبض الأرض أو تطوي السماوات؟ إذًا كيف يجرؤ الإنسان فيقول: إننا إذا أضفنا اليد إلى الله ﻋﺰﻭﺟﻞ وقع عندنا لبس، أن تكون يد الله تشبه يد المخلوقين؟ أيقول هذا من يدرك ما يقول؟! أيقول هذا من عظَّم الله حق تعظيمه؟!.

- ثم إننا نقول أيضًا: حينما تقول نحن لا نعقل في الشاهد من له يدٌ إلا وهو مخلوق، فنقول لك إذًا ماذا نصنع بهذه الآية؟ تقول: نؤولها نقول يد الله يعني: قدرة الله، فنقول: أنت ما صنعت شيئًا أنت خرجتَ مما تزعم أنه تشبيه إلى ما يلزمك فيه التشبيه، لأنك إذا قلت إن اليد لا نعقلها إلا في مخلوق، فإننا نقول: والإرادة لا نعقلها إلا في مخلوق!. إذًا أنت لم تصنع شيئًا سوى أنك عبثت بالنصوص وحرفتها عن وجهها، وإلا فما تقوله في اليد لازمٌ عليك في الإرادة. فإن قال لنا: لا، لا يلزمني، لأني أقول إنَّ الإرادة لائقة بالله لا كإرادة المخلوقين، فماذا نقول حينها؟ وكذلك اليد التي نثبتها لله لائقةٌ به لا كأيدِ المخلوقين. إذًا لا حاجة إلى أن تُحرِّف الكلم عن مواضعه، آمِن بما أخبرك الله به وتنتهي القضية، سلِّم وأذعِن وسيهديك الله للحق كما قلنا القاعدة البينة : «آمن تهتدِ»، ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآَيَاتِ اللهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللهُ﴾[النحل:١٠٤]، مفهوم المخالفة: أن الذين يؤمنون بآيات الله يهديهم الله.

إذًا الحق يا أيها الإخوة أنَّ الجدل هاهنا ليس جدلًا عقليا، الإشكال أن هناك نقصٌ في الإيمان، القضية ليست جدلية، القضية قضية إيمانية، ولذلك تأمل قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ﴾[غافر:٥٦]، إذًا لا بد من إعادة هؤلاء المخطئين إلى الإيمان بالله والتعظيم له ﷻ.

- ثم إننا نقول أيضًا: إذا كان ظاهر نصوص الصفات يقتضي التشبيه؛ فإن لازم ذلك أن يكون الله ﷻ مدح نفسه بما ظاهره الذم. التشبيه أو ما يقتضي التشبيه ذم أو مدح في حق الله؟ حينما تكون الصفة المضافة إلى الله تقضي مشابهته للمخلوقين، أهذا في حقه مدح أم ذم؟ هذا أعظم الذم.

مقتضى كلام هؤلاء أن الله أراد أن يمدح نفسه بأن له إرادة، فذمَّ نفسه ليمدحها، فهِمتم هذا اللازم المهم؟ من المهم أن تفهمه، لازم كلام جميع المؤولة: أن الله ﷻ ذم نفسه ليمدحها، أراد أن يمدح نفسه ويثني على نفسه بأن له إرادة فذكر ما ظاهره الذم وما يفهم منه الناس الذم وما يفهم منه الناس النقص في حقه؛ لأجل أن يمدح نفسه!!، هذا وهو الذي لا أحد أحب إليه المدح منه ﷻ، قال النبي ﷻ: «لا أحد أحب إليه المدح من الله» ولذلك أثنى على نفسه.

وهل هذا يفعله من هو أجهل الجاهلين أن يمدح نفسه بذمِّها؟ فكيف بالحكيم العليم ﷻ! كيف تقولون هذا؟ هذا لا يمكن أن يرِد ولا يمكن أن يقوله أحد، بل الله ﷻ أثنى على نفسه بما ظاهره المدح والثناء، كل صفات الله فهي

صفات عُلا بالغةٌ في العلو والحُسن غايته، ومن قال خلاف ذلك فقد ظن بالله ظن السوء، وظن السوء أمره خطير -سيأتي الكلام فيه لاحقًا إن شاء الله-.

▪ ثم إننا نقول أيضًا لو كان ظاهر نصوص الصفات يقتضي التشبيه، والتشبيه نقصٌ وعيبٌ في حق الله ﷻ، نسألك يا أيها القائل بهذا سؤالًا، فنقول:

هل كان النبي ﷺ يعلم أن الحق فيما أولتم إليه أم لم يكن يعلم؟ يعني أكان النبي ﷺ حينما بَلَّغَ الأمة قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾[طه:٥] يعلم أن معنى «استوى»: استولى أم لم يكن يعلم؟ ما عندهم إلا واحد من اثنين: إما يعلم، أو لا يعلم. فإذا قال إنه لا يعلم وأنتم علمتم، إذًا أنتم أصبحتم أعلم بالله من رسوله ﷺ، وهذا تكذيب لقوله عليه الصلاة «أنا أعلمكم بالله وأشدكم له خشية»، والحديث في البخاري. إذًا لا مناص لكم من أن تقولوا: إنَّه كان يعلم. إذًا هذه واحدة، خذها عندك وأمسكها لا تذهب.

نطرح سؤالًا ثانيًا: فنقول أكان النبي بليغًا فصيحًا قادرًا على البيان والإيضاح بأن يخبر الناس فيقول: يا معشر الناس يا معشر المسلمين انتبهوا، إنَّ قوله تعالى ﴿**الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**﴾ بمعنى: استولى. عنده قدرة على أن يُفْصح أو ليس عنده قدرة؟!

إن قلت يا أيها المؤول: إنه ليس عنده قدرة بل كان عيِّيًا -وحاشاه- فهذا قدح في حكمه الله أولًا، حيث أرسل رسولًا لا يستطيع أن يبلِّغ ولا يستطيع أن يُفْصِح ولا يستطيع أن يبيِّن، ولا شك أن هذا أمرٌ خطير، ولا يقول به المسلم.

ثم ثانيًا هو قدح في النبي ﷺ، فقد اتهمه بالعجز عن البيان، وبالتالي فما فائدة إرساله؟ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾[إبراهيم:٤]، ونحن نشهد أن النبي ﷺ أبلغ الناس، وأفصح من نطق بالضاد، وأعظم الناس قدرة على البيان، كيف وهو الذي أُوتيَّ جوامع الكلم ﷺ!.

إذًا لا مناص للمؤول من أن يقول إنه كان قادرًا على أن يُفصح ويُبيِّن. إذًا هذه ثانية أمسكها عندك.

نطرح سؤال ثالثًا فنقول للمؤول: ماذا تقول؟ أكان النبي ﷺ حريصًا على هدايتنا، يريد بنا الخير ويريد لنا الفلاح أم لا؟

إن قلت: لا، ما يريد بنا الخير ولا يريد لنا الهداية، فإنك تكون قد وقعت في حفرة عميقة من الضلال؛ لأنك تكون قد كذبت قول الله ﷻ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾[التوبة:١٢٨].

إذًا لا مناص من أن يقول إنه كان حريصًا علينا، رحيمًا بنا، يريد بنا الهداية.

إذًا اجتمع في النبي ﷺ ثلاثة أمور مُسَلَّمَة لا شك فيها:

١. أنه كان أعلم الخلق بالله.

٢. وأفصح الخلق.

٣. وأحرص الناس على هداية الناس.

والسؤال الآن: مع اجتماع هذه الأمور الثلاثة ما الذي منع النبي من أن يقول في الصفات ما قلتم يا معشر المؤولة؟! إنَّ كل عاقلٍ منصف لا يجد إلا أن

يُذعن بأنه يستحيل مع وجود هذه الأمور الثلاثة أن يسكت النبي ﷺ عن البيان بأن هذه الآيات على خلاف ظاهرها. وهذا ما لخصَّه ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أبيات حسنة في نونيته يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فسل المعطل عن ثلاث مسائل   تقضي على التعطيل بالبطلان

التعطيل في باب الصفات الذي وسيلته التأويل؛ هذه الثلاثة أسئلة تقضي عليه.

ماذا تقول أكان يعرف ربه   هذا الرسول حقيقة العرفان

أم لا وهل حاز البلاغة كلها   فاللفظ والمعنى له طوعان

أم لا وهل كانت نصيحته لنا   كل النصيحة ليس بالخوان

فإذا انتهت هذي الثلاثة فيه   كاملةٍ مبرأة من النقصان

فلأي شيء عاش فينا كاتمًا   للنفي والتعطيل في الأزمان

بل مفصحا بالضد منه حقيقة   الإفصاح موضحة بكل بيان

ولأي شيء لم يصرّح بالذي   صرحتمُ في ربنا الرحمن

ألعجزه عن ذاك؟ أم تقصيره   في النصح؟ أم لخفاء هذا الشان

حاشاه بل ذا وصفكم يا أمة   التعطيل لا المبعوث بالقرآن

صلى الله عليه وسلم

إذًا الخلاصة التي أريد أن أصل إليها: أن تأويل نصوص الصفات وحملها على خلاف ظاهرها مسلكٌ خاطئ باطل، بل الواجب أن نؤمن ونعتقد اتصاف الله بما أخبر به على ما يليق به دون أن نكيف ذلك، مع اعتقادنا أن هذه

النصوص تليق بالله ﷻ لا تشبه المخلوقين على حدِّ قوله ﷻ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[الشورى:١١].

فإن قال لنا قائل: أنا لا يزال في نفسي شيء حينما أضيف إلى الله ﷻ اليد أو الوجه أو القدم؟ وما جاء في السنة، أو أضيف إلى الله المحبة أو الغضب أو البغض كما جاء في القرآن، أجد في نفسي حرجًا من ذلك، فإن إثبات ذلك لربنا سبحانه وتعالى يجعله مثل المخلوقين عنده صفة مثل ما عند المخلوقين.

نقول: لو تأملت فيما سبق لزال عنك الإشكال. ومع ذلك تنبه يا رعاك الله إلى جواب آخر لعله يفتح هذا الأمر المغلق عليك، ألا وهو: أن تعلم أن وجود قدرٍ مشترك في الصفة لا يعني المشابهة والتماثل، **وجود قدرٍ مشترك من الصفة بين الشيئين لا يعني أنهما متشابهان**. أضرب لك مِثالًا:

حينما أقول كلمة رأس؛ انتبه كلمة رأس هذه يمكنني أن أضيفها إلى الإنسان فأقول: رأسُ إنسانٍ، أصبحت صفة له حقيقية أم لا؟ حقيقية.

رأس الفيل، صفة حقيقية في الفيل أم لا؟ نعم.

رأس النملة، صفة حقيقية في النملة أم لا؟ نعم.

رأس الجبل، صفة حقيقية في الجبل؟ نعم.

رأس الإبرة؟ صفة حقيقية في الإبرة؟ نعم.

إذًا عندنا كم رأس الآن؟ عندنا خمس رؤوس، رأس إنسان، وفيل، ونملة، وجبل، وإبرة.

أسألكم سؤالا: هل الرؤوس هاهنا متماثلة باعتبار أن الصفة واحدة أضيفت إلى ذوات مختلفة؟ واقتضى هذا المشابهة، أيقول هذا عاقل! أيقول عاقل: إن رأس الجبل مثل رأس الإبرة، مئة بالمائة سواء، لأنَّ هنا رأس وهنا رأس أيقول هذا عاقل؟ أيقول عاقل إن رأس الفيل ما شاء الله كأنه رأس نملة، أيقول هذا عاقل؟ طيب ألم تشترك هذه الذوات في صفة واحدة؟ قلنا انتبه: **الاشتراك حصل في قدر مشترك مع وجود قدر فارق،** والذي يفهم هذه القضية يزول عنه كل إشكال.

عندنا أمران: «قدرٌ مشترك» و«قدرٌ فارِق»، الذي بين هذه الذوات من الصفة قدرٌ مشترك؛ رأس ورأس ورأس، لكنَّ الحقيقة والكنَّه والكيفية قدرٌ فارق مميِّز، كل ذات تميزت بصفة تختلف عن الصفة الأخرى، ولذلك لمَّا اشتركت في صفة ما تماثلت. وإذا كان هذا حاصلًا بين المخلوقات فلأن يكون ذلك حاصلًا بين المخلوق والخالق من باب أولى.

أعيد: إذا كان مخلوق ومخلوق اشتركا في صفةٍ واحدة ومع ذلك ما حصل التشابه، فلأْن يكون هذا بين الخالق والمخلوق من باب أولى.

يعني هذا الذي أشكل عليه الأمر؛ هل يسمح أن نقول له ألك وجه؟ سيقول: بالتأكيد. فنقول: إذًا ما شاء الله وجهك مثل وجه القرد، أيقبل؟ أليس لك وجه وللقرد وجه؟ إذًا بينكما تماثل، يقبل؟ لا يقبل، يقول لك: لا ينبغي لك أن تقول هذا، وجهي لا يشبه وجه القرد؛ لا أسمح لك! لأن وجهي يليق بي

والقرد وجهه يليق به. نقول: إذا كان ذلك بينك وبين القرد وكلاكما مخلوق، فكيف بين المخلوق والخالق!!

كيف تقول إذا أثبتنا وجه لله ﷻ، كما قال ﷻ هو سبحانه وتعالى قال هذا ليس نحن الذين أضفنا هذه الصفة، ألم يقل الله: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن:٢٧]، إذًا لله وجه أم لا؟ هو أضاف إلى نفسه، فكيف تقول إننا إذا أضفنا الوجه لله ﷻ نكون قد شبَّهنا، ثم أنَّى يكون ذلك يا عبد الله؟! ووجه الله وجهٌ عظيم موصوف بالجلال والإكرام!!، كيف تقول هذا والله ﷻ حجابه النور لو كشفه لأحرقت سُبُحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه!!، كيف تقول هذا ولله ﷻ وجهٌ له نور وبهاء، وهل للمخلوق شيء من ذلك!

إذًا أعيد فأقول-واحفظ هذه القاعدة-: «**وجود قدر مشترك في الصفة بين ذاتين ليس هو التمثيل الممنوع**». متى يكون التمثيل الممنوع؟ حينما يكون الاشتراك في القدر الفارق. يعني في الكيفية والكنَّه والحقيقة.

فإن قال قائل: وجه الله كوجه المخلوق؟ نقول هنا أنت مثَّلت، أنت شبهت، والتشبيه منكرٌ عظيم بل كفر بالله، لكن حينما يقول: لله وجه يليق به وللمخلوق وجه يليق به، فإنه يكون بريئًا من التشبيه والتمثيل. إذًا هذا من الأمر المهم الذي ينبغي على كل مسلم أن يُذعن له، وأن يعتقده في حق صفات الله سبحانه وتعالى.

وبذلك إن شاء الله تزولُ هذه الإشكالات التي تَرِدُ على موضوع الأسماء والصفات، وقد أحسن ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ حينما قرَّر في طريق الهجرتين ما يتعلق

بهذه القاعدة المهمة، وهي: فهم قاعدة القدر المشترك والقدر الفارق، قال: «هذه عُقدة الناس فمن حلها فما بعدها أيسر منها»، الذي يفهم هذا الموضوع المهم وهو قدر مشترك ووجود قدر فارق يزول عنده الإشكال.

ولذلك تأمل معي قول الله ﷻ: ﴿شَهِدَ اللهُ﴾ هذه صفة لله وهي الشهادة ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ﴾[آل عمران:١٨]؛ الله ﷻ في هذه الآية أثبت الشهادة لثلاثة: لذاته العلية جل وعلا، وللملائكة، ولأولي العلم.

الآن دعنا في الملائكة وأولي العلم؛ هل شهادة الملائكة وأولي العلم متفقة في الحقيقة والكنَّه والكيفية؟ أو مختلفة بحيث الذوات؟ أولوا العلم يشهدون شهادة تناسب ذواتهم، والملائكة يشهدون شهادةً تناسب ذواتهم، وذات الملائكة ليست مشابهة لذوات أولي العلم. إذًا حصل قدر مشترك هو كلمة (شهادة)، وحصل قدر فارق وهو: الحقيقة والكنه والكيفية.

إذا كان هذا ثابتًا بين مخلوقين، فلأن يكون هذا ثابتًا بين المخلوقين والخالق من باب أولى. إذًا الله ﷻ أثبت هنا قدرًا مشترك مع ثبوت القدر الفارق، فلله شهادةٌ تليق به لا كشهادة المخلوقين، لم؟ لأن الله قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[الشورى:١١]،﴿هل تعلم له سميا﴾ ، ﴿ولم يكن له كفوًا أحد﴾[الإخلاص:٤]. ثبوت القدر المشترك لم يكن منا، الله جل وعلا هو الذي أثبته.

تأمل مثلا قول الله: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾[غافر:٣٥] ؛ الله ﷻ أضاف هاهنا الصفة الواحدة إلى ذاتين إلى ذاته العلية له جل وعلا، وللذين

آمنوا وهي صفة المقت، المقت: أشد البعد. فالله ﷻ يمقت، والذين آمنوا أيضًا يمقتون، من الذي أثبت هذا؟ الله الذي أثبت هذا، أنه يمقت، والمخلوقون يمقتون، هل كان هذا تمثيلًا، أيقول هذا مسلم؟ ومع ذلك نحن نعتقد ونثبت أن مقت الله لا كمقت الذين آمنوا، لله مقتٌ يليق به، وللمخلوق مقتٌ يليق به.

خذ مثلًا ثالثا: قال جل وعلا: ﴿وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص:٧٧].إذًا الله ﷻ يحسن، والمخلوق يحسن، هناك قدرٌ مشترك في أصل الصفة وهي الإحسان، مع ثبوت قدر فارق؛ فإحسان الله ﷻ يليق به لا كإحسان المخلوقين، وللمخلوقين إحسان يليق بهم لا كإحسان الله جل وعلا. وبذلك أثبتنا الصفات ونزهنا الله عن مشابهة المخلوقين.

إذًا منهج أهل السنة والجماعة: إثباتٌ لا يُبالَغ فيه حتى يصل إلى درجة التكييف والتمثيل، وتنزيهٌ لا يبالَغ فيه حتى يصل إلى درجة التعطيل والتحريف، إنَّما هو منهج وسط يُلَخِصُه قول الله ﷻ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[الشورى:١١].

لاحظ أن قاعدة القدر المشترك والقدر الفارق موجودة في هذه الآية :

﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾ دلت على ثبوت القدر الفارق.

﴿**وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾ دلت على ثبوت القدر المشترك.

ولحكمةٍ يعلمها الله -وقد تكون ما أقول- إن الله أضاف إلى نفسه في هذا الموضوع صفتين لا يكاد يخلو منهما حي؛ السمع والبصر، مع أن السمع ليس كالسمع، ولا البصر كالبصر، ولا السميع كالسميع، ولا البصير كالبصير. لله

سمع وبصر، وللمخلوق سمع وبصر، الله قال هاهنا: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، وهو الذي قال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾[الإنسان:٢]. إذًا ثبتت الصفة له ﷻ، وثبتت الصفة للمخلوق، مع أن الله ليس كمثله شيء.

لعل هذا القدر يكفي بهذه المقدمة التي توضح منهج أهل السنة والجماعة على رسم الإيجاز، والفرق بين وسطية أهل السنة والجماعة في هذا الباب وانحراف كلا الطائفتين الغاليتين؛ التي غلت إحداهما في جانب الإثبات فشبَّهت وكيَّفت، والتي غلت في جانب التنزيه فعطلت وحرَّفت، وهدى الله ﷻ السلف الصالح من الصحابة والتابعين وأتباعهم فمن بعدهم إلى هذا الزمان، وأهل السنة والجماعة ولله الحمد على هذا الصراط المستقيم الذي دلت عليه آيات الكتاب وأحاديث الرسول ﷺ.

لا نزال في هذا الباب الذي عقده المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في موضوع الأسماء والصفات، وقلتُ **إنَّ الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ خص هذا الموضوع في كتابه في ثلاثة أبواب:**

- هذا الباب الذي بين أيدينا.
- وباب قول الله تعالى: **﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾** [الأعراف:١٨٠].
- وباب قول الله تعالى: **﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾**[الزمر:٦٧].

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ : «**بابٌ من جحد شيء من الأسماء والصفات**»؛ أي ما حكمه؟ والمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ كثيرًا في تبويبه كثيرًا على نهج الإمام البخاري

رَحِمَهُ ٱللَّهُ في صحيحه، وأنت خبيرٌ بأن مثل هذا التبويب الذي بين أيدينا قد أكثر منه البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الصحيح.

لا شك أن من جحد شيء من أسماء الله وصفاته -أي عطَّلها وأنكرها- لاشك أنه يكون كافرًا بالله ﷻ، هذا هو الحكمُ من حيثُ الأصل؛ ذلك أنَّ جحد شيءٍ من أسماء الله وصفاته هو في حقيقته تكذيبٌ للكتاب والسنة، وهذا كفرٌ باتفاق العلماء، ومرَّ بنا غير مرة قول نُعيم بن حماد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من شبَّه الله بخلقه فقد كفر، ومن جحد ما وصف به نفسه فقد كفر»[٧٠٤].

وجحد أسماء الله وصفاته إرثٌ من إرث المشركين، وبئس الإرث وبئس المُورِّث؛ ذلك أن جحد شيء من الأسماء والصفات هو في حقيقته من ظن السوء بالله ﷻ، وهذا ما كان عليه أهل الشرك، ولذلك الله ﷻ توعدهم على ذلك بوعيد شديد قال سبحانه: ﴿**وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ**﴾ لاحظ هذا الوعيد: ﴿**عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا**﴾[الفتح:٦]، هذه التهديدات الأربعة مما يطير له قلبُ المؤمن خوفًا وفرَقًا، من ظن بالله هذا الظن -ظن الجاهلية وظن السوء- فإنه مُتَوَعَدٌ بهذا الوعيد الأكيد من ربنا ﷻ.

ومما يدلك على أنَّ جَحْدَ شيء من أسماء الله وصفاته هو من هذا الظن، ظن السوء بالله قوله ﷻ: ﴿**وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ * وَذَلِكُمْ**

(٧٠٤) وهذا الأثر مروي عنه بأصحّ الأسانيد، كما عند الذهبي في العلو وغيره.

ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾[فصلت:٢٢-٢٣]، فدل هذا على أنَّ هؤلاء المشركين الذين جحدوا علم الله ﷻ بما يعملون، دلت الآية على أن هذا من الظن السيئ الذي أرداهم، فدلَّ هذا على أن جحد شيءٍ من الأسماء والصفات هو من هذا الظن الذي ورِثْته الفرق الضالة عن هؤلاء المشركين(٧٠٥).

والفِرَقُ التي انحرفت في هذا الباب كثيرة ومتفاوتة، ظلماتٌ بعضها فوق بعض:

❑ **منها**(٧٠٦): من جحد جميع الأسماء والصفات ولم يثبِت لله شيئًا إلا الوجود بشرط الإطلاق. ومعلومٌ عند جميع العقلاء أن الوجود المطلق ليس إلا في الأذهان، وليس في الحقائق والأعيان، فهم في حقيقتهم جاحدون لله ﷻ بالكلية، ولذلك أجمع العلماء على كفر هؤلاء، ولذا لم يشفع لهم شيء من شبهاتهم، وبالتأكيد عندهم شبهات لكنَّها شبهات داحضة، لا ترقى لأن تدفع عنهم تكفيرهم(٧٠٧).

---

(٧٠٥) إذًا جحْد شيء من أسماء الله وصفاته هو من ظنِّ السَّوء، وذلك جُرْمٌ شنيع، بلْ كفرٌ بالله ﷻ. وهذا الذنْب العظيم قد وقع فيه فئامٌ مِمَّن ينتسبون إلى الإسلام، وسَلَفُهُم في ذلك الكفار من قبل، كما مرَّ معَنا في الآيةِ السابقة، ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ﴾ [فصلت:٢٢]، وكما سيأتي معَنا ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ [الرعد:٣٠]، ﴿قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ﴾ [الفرقان:٦٠].

(٧٠٦) أشدُّهم جُرْماً وشناعة: الجهمية.

(٧٠٧) وقد أطبقت كُتُب العقائد على أنَّ الجهمية ينكرون سائر الأسماء والصفات لله

❑ **ومن أولئك من كان أقل شرًا**[٧٠٨]؛ فجحد صفات الله وأثبت أسماء جوفاء لا معانيَ تحتها، أثبتوا أسماء، فالله عندهم سميع لكن بلا سمع، بصير بلا بصر، عليم بلا علم، وهكذا.

❑ **ودون هؤلاء وأخفُّ منهم شرًا**[٧٠٩]: من أثبت الأسماء وبعض الصفات، وجحد بعضًا أو كثيرًا منها، وهم في هذا بين مُقِلٍّ ومُكثر.[٧١٠]

المقصود أن جحد شيء من أسماء الله وصفاته لا شك أنه منكر عظيم وذنب كبير يجب على كل مسلم أن يحذر منه. الواجب أن يتلقى الإنسان ما جاء في الكتاب والسنة التي من أسماء الله وصفاته بالقبول والتسليم والمحبة، وأن

وعلا، ولا يثبتون له أيَّ شيء إلا الوجود بشرط الإطلاق، فهو وجود الذهْن لا غير عندهم، ولذلك هم كفار باتفاق المسلمين.

(٧٠٨) المعتزلة الذين هم نُفاةٌ للصفات مثبتةٌ لأسماء جامدة مفرَّغة من معانيها لا تدل على النعوت الجليلة التي اشتملت عليها تلك الأسماء.

(٧٠٩) الأشاعرة والمَاتُريدية الذين أثبتوا بعض الصفات وأنكروا أكثرها، ومركبُهم في ذلك مركب التأويل.

(٧١٠) ولهؤلاء المبتدعة شُبهات كما هو شأن سائر المبطِلين، وأعظم تلك الشُّبه التي أوقعتهم في هذا الجهل القبيح إنما هو دعْواهم حصول التشبيه بالمخلوق إن أُثْبِتَ لله ﷻ الأسماء والصفات، ولاشكَّ أن هذا من الشُّبه الدَّاحضة الباطلة بصريح المنقول والمعقول.

يتقرب إلى الله ﷻ بالتعبُّدِّ بهذه الأسماء، هذا من المهمات ومن الواجبات التي تلزم كل مسلم ومسلمة، والله المستعان.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ ﴾**[الرَّعد:٣٠] **الآيَةَ**).

أورد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه الآية ليبيّن أن من صنيع المشركين أنهم يكفرون باسم الله «الرحمن» ، وهذا منهم من جملة كفرهم، من جملة كفر المشركين إنكارهم اسم الله «الرحمن»، فدل هذا على أن من جحد شيئًا من أسماء الله وصفاته فإنه يكون كافرًا بذلك متابعًا للمشركين.

والواقع أنَّ هذه الآية اختلف أهل العلم فيها؛ هل المشركون كفروا بالاسم أو بالمسمى؟ هل كان كفرهم باسم الله الذي هو «الرحمن»، أو كان كفرهم بالله الذي من أسمائه الرحمن؟

➢ قالت طائفة بما قال به إمام الدعوة المؤلف **رَحِمَهُ ٱللَّهُ** ، وظاهرٌ أن المؤلف ما أورد هذه الآية هاهنا إلا وهو يُرجح أن كفر المشركين إنما هو بالاسم، وليس المراد أنَّهم يكفرون بالمسمى.

➢ وذهبت طائفة من أهل العلم إلى أنَّ الكفر هاهنا كان كفرًا بالمسمى؛ وهو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يعني: وهم يكفرون بالله، ومعلوم بالضرورة أن المشركين في عهد النبي ﷺ كافرون بالله.

ويبقى بعد ذلك السبب في ذكر هذا الاسم بالذات وهو اسم «الرحمن»:

مما تلمسه بعضُ أهل العلم في حكمة ذلك: أنَّ المشركين كفروا بالله عَزَّ وَجَلَّ وببعثة النبي ﷺ وبآيات الله التي أُنزلت على النبي ﷺ، ولا شك أنَّ إنزال القرآن

وبعثة النبي ﷺ من رحمة الرحمن ﷻ؛ فهم قابلوا هذه الرحمة بالكفران، فناسب أن يؤتى هاهنا باسمه تعالى «الرحمن».

ومهما يكن من شيء فالذي يظهر والله تعالى أعلم أنَّ القول الثاني أقرب؛ وذلك أننا إذا نظرنا إلى سياق الآية وجدناه يؤيدُ هذا القول، قال سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾، ثم قال تعالى بعد ذلك: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾[الرعد:٣٠].

لاحظ أنَّ الشأن في التعقيب على مقالة هؤلاء -التي هي الكفر بالرحمن- كان بإثبات التوحيد: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي﴾ ، وهذه مُقدمةٌ مُلْزِّمةٌ لهم؛ لأنَّهم لا ينكرون ربوبيةَ الله ﷻ في الجملة، فألزمهم بهذا على المدلول، كان هذا دليلًا على مدلول وهو: أن الله لا إله إلا هو، ﴿ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، ثم أتى بنوعين رفيعين من أنواع العبادة وهما: التوكل والتوبة.

ولاحظ أيضًا كيف أنَّه جيء هاهنا بأسلوب القصر؛ وذلك أنَّ تقديم الجار والمجرور يفيدُ الحصرَ والقصرَ، في كلا الجملتين: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾، ﴿وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ ؛ يعني: أتوكل عليه لا على غيره، وأتوب إليه لا إلى غيره، فدل هذا على أن المقام رجع إلى الشأن الذي ينكره هؤلاء وهو الألوهية، وليس الأسماء والصفات.

إذًا الأقرب والله أعلم أنَّ قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ﴾ ثم قال: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾؛ فقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ حالٌ من قوله: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ﴾؛ يعني: أرسلناك والحال أنهم يكفرون بالرحمن.

وعلى كل حال؛ مهما قلنا في شأن الترجيح هاهنا فإن مما لا شك فيه أن مشركي قريش كان يكفرون باسم «الرحمن»، سواء رجحنا أن هذه الآية يراد فيها الكفر بالاسم، أو الكفر بالمسمى؛ فإن مما لا شك فيه أن المشركين كانوا يكفرون باسم الله «الرحمن».

يدل على هذا دلالة صريحة قول الله ﷻ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ﴾[الفرقان٦٠] ؛لاحظ أنهم قالوا هاهنا: ﴿وَمَا الرَّحْمَٰنُ﴾ وما قالوا (ومن الرحمن)؟ فدل هذا على أنهم لا ينكرون الله ﷻ، وإلا لقالوا (ومن الرحمن؟)، لكنَّ إنكارهم رجع إلى الاسم، فلذلك قالوا: ﴿وَمَا الرَّحْمَٰنُ﴾، فدل هذا على أنهم ينكرون اسم الله «الرحمن».

يدل على هذا أيضًا: ما ثبت عند «البخاري» في قصة الحديبية والحديث طويل وفيه أن سهيل ابن عمرو لما كان يعاقد النبي ﷺ على الصلح، قال النبي ﷺ للكاتب -وهو علي ﷺ-: «اكتب باسم الله الرحمن الرحيم» عند البخاري قال سهيل: «والله لا أدري ما الرحمن، ولكن اكتب باسمك اللهم»؛ تلاحظ أنه أنكر وهو على دين قومه اسم الله «الرحمن»، فدل هذا على أنهم كافرون باسم الله «الرحمن».

◄ والسؤال هاهنا: هل إنكارهم هذا الاسم عن جهلٍ أو عن تجاهل؟

قال بعض أهل العلم: كان هذا الإنكار منهم عن جهلٍ واختلفوا:

-**قال بعضهم**: أنهم أنكروا الاسم؛ لأنهم لا يعرفونه لأنه اسم عبرانيٌّ لا عربي، ليس من الأسماء العربية إنما هو عبراني. وهذا القول ضعيف جدًا، بل هذا الاسم الجليل اسمٌ عربيٌّ لا شك فيه، وصيغة «فعلان» في اللغة تدل على التعظيم والامتلاء(٧١١)، فالرحمن عظيم الرحمة وكثير الرحمة ، فالاسم عربي لا شك فيه، والقوم عرب ويعرفون معنى هذا الاسم.

-**وقال بعضهم**: إنما أنكروه؛ لأنهم ما كانوا يعرفون هذا الاسم لله، إنما سمعوا به لما تكلم به النبي ﷺ، وأما قبل ذلك فهم لا يعرفونه. وهذا أيضا ضعيف، بل هذا الاسم كان معروفًا عند أهل الجاهلية ومشهورٌ عندهم أيضا وموجودٌ في نثرهم وفي شعرهم. وفي الشعر المشهور المنسوب إلى حاتم الطائي:

كُلــوا اليــومَ مِــن رِزْقِ الإلــه ... سَيَأْتِيكُمُ الـرَّحْمَنُ بِـرِزْقِكُمْ غَـدًا

ونُسب هذا البيت إلى غيره.

كذلك في البيت المشهور من الأبيات الجاهلية:

أَلَا ضَرَبَتْ تِلكَ الفتاة هَجِينَهَا ... أَلَا قطَعَ الرَّحْمَنُ رَبِّي يَمِينَهَا

(٧١١) وهذا البناء (فعلان) في اللّغة يدلُّ على المبالغة، رحمان: أي كثير الرحمة وعظيم الرحمة، كما يُقال للشيء: ملآن وشبعان لِما كان عظيم الامتلاء وعظيم الشبع.

إذًا كانوا يعرفوا اسم «الرحمن»، والشواهد على هذا كثيرة. إذًا غير صحيح أن يقال أن «الرحمن» اسمٌ مجهول عندهم ما عرفوه إلا من طريق النبي ﷺ ولذا أنكروه.

-**وقال بعضهم**: إنما أنكروه لأن القوم ما كانوا يعرفون الرحمن إلا مسيلمة الكذاب؛ لأنه -قبحه الله- تسمى بـ(رحمان اليمامة)، ولأجل هذا أنكروه، أنكروا أن يكون هذا اسم لله لأن المعروف والمشهور اسمٌ لذاك الكذاب. وهذا أيضا ضعيف؛ لأن القوم سمعوا هذا الاسم وعرفوه قبل أن يخرج مسيلمة بمُدد متطاولة، فكيف يقال إنهم اشتبه عليهم الأمر فظنوا أن الرحمن إنما هو مسيلمة! هذا لا شك أيضا أنه غير صحيح.

والصواب والله تعالى أعلم: أن هذا الإنكار منهم كان عن تجاهلٍ لا عن جهل، وكان عن تعنتٍ منهم وعناد، والله ﷻ أعلم [(٧١٢)].

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ قَالَ عَلِيٌّ** رضي الله عنه: «**حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ، أَتُرِيدُونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللهُ وَرَسُولُهُ؟!**»).

(٧١٢) ولاحِظ معي أنَّ القوم أنكروا الاسم فقط فكفروا، معَ كونهم يعتقدون أن الله ﷻ موصوف بالرحمة، فكيف بمن ينكرُ صفة الرحمة لله ﷻ!! وإنكار هذه الصفة لاشكَّ أنه أعظم من إنكار الاسم، فإذا كان إنكار الاسم فقط كفرًا، فكيف بمن ينكر هذه الصفة، ويزعم أن الله ﷻ لا يتصف بذلك! ويؤوِّل ما جاء في النُّصوص في هذا الباب بتأويلات مسْتكرهة.

هذا الأثرُ عن علي رضي الله عنه أثرٌ فيه توجيه يحتاجه الدعاة إلى الله وطلاب العلم، وجاء في لفظ عند البخاري: «**أتحبون أن يكذب الله ورسوله**» وجاء في خارج الصحيح: «**حدِّثوا الناس بما يعرفون ودعوا ما يُنكرون**» (٧١٣).

هذا الأثر تذرَّع به بعض الناس للقول بأن أحاديث الصفات لا ينبغي تحديث العامة بها؛ يقول هؤلاء: أحاديث الصفات -يعني الأحاديث التي ورد فيها صفات الله عز وجل- لا ينبغي تحديث العامة بها؛ لأن علي رضي الله عنه يقول: (حدِّثوا الناس بما يعقلون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله).

ولا شك أن هذا غير صحيح، وليس هذا مراد علي رضي الله عنه، ولو سلَّمنا جدلًا بأنه مراده، فماذا سنصنع إذًا بآيات الصفات! وهي التي تُتلى على الناس آناء الليل وأطراف النهار؟ هل سنقول للأئمة كفوا عن قراءة الآيات التي فيها شيءٌ من صفات الله عز وجل ؟ وكتابُ الله سبحانه وتعالى مليء من ذِكر هذه الصفات، هذا مما لا يمكن أن يقول به أحد.

فدل هذا على أن هذا المسلك غير صحيح، بل أحاديثُ الصفات وآياتُ الصفات مما ينبغي بثه ومما ينبغي نشره ومما ينبغي أن يُوصَل إلى الأسماعِ والقلوب، فإنَّ بذلك تحقيق التوحيد وتعظيم الإيمان في النَّفوس، لا شيء يُوصل إلى الله عز وجل مثلُ طريق أسمائه وصفاته، أعظمُ طريقٍ يوصل إلى الله عز وجل

---

(٧١٣) **وجه إيراد المؤلْف** رحمه الله **هذا الأثر في هذا الباب**: إنما هو بيان أنَّ من أسباب جحْد الأسماء والصفات أن يُحَدَّث من لا يحتمل عقله ما يُحَدَّثُ به من الأسماء والصفات فيكون سببًا لجحْده.

هذه الطريق، صاحب هذه الطريق حيزت له السعادة وهو مستلقٍ على فراشه، الذي يصل إلى الله ﷻ من خلال التعبد والتأمل في أسماء الله وصفاته فليبشر بكل الخير، حيزت له السعادة من أطرافها.

إذًا ما الذي أراده علي ﷺ؟

أراد ﷺ أنَّه ينبغي على من يحدِّث الناس أن يسلك معهم مسلك الحكمة في باب الصفات وفي غير باب الصفات؛ بمعنى أنَّه يخاطبهم بالخطاب الذي يفهمون، لا ينبغي أن يُهْجَمَ عليهم بالمسائلِ هجومًا وهي تحتاج إلى ذكرِ مُقدمات ممهِّدات، تحتاج إلى تأصيل مُسبق، تحتاج إلى أن تُشرح شرحًا مُسْهَّلًا، تحتاج إلى أن يُجتنب فيها بعض الدقائق التي تناسب طلاب العلم ولا تناسب العامة.

هذا كله وغيره يرجع إلى شيء واحد مجموع في كلمة واحدة وهي «الحكمة»، لابد لطالب العلم ولابد للداعية لله ﷻ من سلوك مسلك الحكمة في إيصال الخطاب الشرعي، تعلق بالصفات، أو تعلق بالأحكام، أو تعلق بالأخلاق أو تعلق بغير ذلك، لابد أن يتكلم بخطاب مفهوم، وأن ينبه إلى الشيء الذي يحتاجه الناس ويهمِّهم، ليس كلُّ مسألة تصلح أن تُطرح على كل أحد، ولذلك في مقدمة «مسلم» عن ابن مسعود ﷺ وهي كلمة عظيمة تضارع هذه الكلمة وينبغي أن تضم إليها وأن لا تغيب الكلمتان عن ذهنِ طالب العلم الداعية إلى الله: قال ﷺ -أعني ابن مسعود-: «إنك ما حدثت قوم حديث لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة».

إذًا ما قد يفعله بعض الناس من أنهم يرمون المسائل رميًا كيفما اتفقت على أسماع النَّاس دون تبصُّرٍ في أحوالهم، هل هذا مما يليق أن يُطرح عليهم بهذا الأسلوب؟ أو ينبغي أن يُتريَّث ويُقَدَّمَ قبله بما هو أهم، ثم أنْ يؤصَّل الموضوع بذكر مقدمات حتى يستوعبوا المراد، حتى لا تختلَّ عليهم الأمور؟

معلوم أن الناس أعداء ما جهلوا:

أتانا أن سهلا ذم جهلا   علومًا ليس يعلمهن سهل

علومًا لو دراها ما قلاها   ولكن الرضا بالجهل سهل

الإنسان ما أسهل ما يدفع ما لا يعلم، ولذلك العامة ربما يقعون في شيء من جحد أمورٍ ثابتة في الشريعة لأنها وصلتهم بطريقة فيها رعونة وعدم مراعاة للمصلحة، لاسيما في الأماكن والأزمان التي تضعف فيها أنوار السنة ويكثر فيها الجهل بالشريعة[٧١٤] . إذًا هاهنا يتعين على الداعية إلى الله ﷻ أن يسلك المسلك الشرعي الحكيم في الكلام عن الأمور[٧١٥] .

---

(٧١٤) والعامة ليس لهم من الفقْه والإدراك والأصول ما يجعلهم يردُّون مثل هذه المسائل إليها فتسْتَبين، لِذا يُستعمل معهم الأسلوب المناسب، ويحدَّثون بالشيء الذي يَلِيقُ بفهْمهم.

(٧١٥) وعلى هذا تتوجه الآثار التي رُوِيَت عن بعض السَّلف في كراهة التحديث ببعض الأحاديث، وتفصيل ذلك أنَّ المتلقِّي إن كان من أهل الأهواء والانحراف فلا يضر إبلاغه ما يَزيده نفورًا، لم يكن الصحابة وقبلهم رسول الله ﷺ يتركون إبلاغ النُّصوص التي ينكرها المشركون، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا

العلم في الجملة ينقسم إلى أمور: أمور محكمات واضحات، وإلى مسائل دقيقة.

- **المحكمات الواضحات** ؛ لا إشكال فيها ولله الحمد.
- **أمَّا الدقائق**؛ فإنها تنقسم إلى قسمين: دقائق تهم العامة، ودقائق لا تهمهم.

➢ **الدقائق التي لا تهمُّهم**: كالتفاريع المتعلقة بالردود على المخالفين وهم ليسوا أهلا للخوض في هذا الباب مثلا، فمثل هذه لا ينبغي أن يُشغَلوا بها، إنما يعطون تصورات عامة حتى يعرفوا الحق والباطل، ويلتزموا الحق ويجتنبوا الباطل.

➢ **أما الدقائق التي تهمُّهم** ولاسيما إذا كان الشر قريبًا منهم وهم بحاجة أن يحذروا، فمثل هذه ينبغي أن تصل إليهم ولكن بالأسلوب الحكيم وبالطريقة التي يفهمونها، فالعلم الذي يصل إلى الصغير لا ينبغي أن يكون في أسلوبه كالذي يصل إلى الكبير، كذلك الذي يصل إلى العالم أو طالب العلم ليس كالذي يصل إلى العامة، وهكذا.

إذًا على الإنسان الذي يروم أن يكون مُبلِّغًا لشرع الله ﷷ أن يسلك هذه الطريق الحكيمة في إيصال وسائل العلم، والله تعالى أعلم.

وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ [الفرقان:٦٠]. فالمبطل لا يلتَفَتُ إليه، ولا تُترك مهمّةُ إبلاغ الدين إليه لهواه، أمَّا العامة فإنه يُقالُ في حقهم: المسائل إمَّا أن تكون واضحةً جليّة، وإمَّا أن تكون من الدقائق.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ، عَنْ مَعْمَرٍ، عَنِ ابْنِ طَاوُسٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ؛ أَنَّهُ رَأَى رَجُلًا انْتَفَضَ لَمَّا سَمِعَ حَدِيثًا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي الصِّفَاتِ؛ اسْتِنْكَارًا لِذَلِكَ، فَقَالَ: «مَا فَرَقُ هَؤُلَاءِ؟ يَجِدُونَ رِقَّةً عِنْدَ مُحْكَمِهِ، وَيَهْلِكُونَ عِنْدَ مُتَشَابِهِهِ»).

إيراد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الأثر عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا بعد أثر علي رضي الله عنه من أحسن ما يكون؛ فإنك إن جمعتَ بين الأثرين اتضح لك أن ما يشغِّب به بعض الناس من التهويل من التحديث بأحاديث الصفات ليس صحيحًا، هذا ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا وهو حَبر الأمة كان يحدِّث بأحاديث الصفات، وهذا الأثر كما ترى في غاية الصحة، إسناده في غاية الصحة ولم يكن يتوقى تحديث الناس بصفات الله عَزَّ وَجَلَّ الواردة في سنة النبي ﷺ.

حدَّث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا مرةً بحديثٍ جاء فيه ذكر شيء من الصفات، فكأن هذا الحديث قد استشكله هذا الرجل فارتعد، لأنه أصابه شيءٌ من الفزع والإشكال لسماع هذا الحديث.

هاهنا قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا «ما فَرَقُ هؤلاء؟» هذه الكلمة المشهور فيها (فَرَقُ) يعني: ما الذي أفزع هؤلاء؟ وما الذي أخاف هؤلاء؟ وبعضهم يذكرُ هذه الكلمة بضبطٍ آخر «ما فرَّقَ هؤلاء؟» أو «ما فَرَقَ هؤلاء؟» كلاهما بمعنى واحد.

-الضبط الأول : ما فَرَقُ هؤلاء[٧١٦].

-والضبط الثاني: ما فَرَّقَ هؤلاء ، أو ما فَرَقَ هؤلاء[٧١٧]؛ يعني: ما فرَّقوا بين الحق والباطل فاختلطت عليهم الأمور، والموفَّق هو الذي يكون عنده فرقان: ﴿إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾[الأنفال:٢٩]، يَفرِقُ بين الحق والباطل، يبصِر الهدى واضحًا جليا، ويبصِر الضلال واضحًا جليا.

إذًا هذا ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا يقول: «مَا فَرَقُ هَؤُلَاءِ؟ يَجِدُونَ رِقَّةً عِنْدَ مُحْكَمِهِ، وَيَهْلِكُونَ عِنْدَ مُتَشَابِهِهِ»[٧١٨] [٧١٩].

---

(٧١٦) يعني: إما أن يكون السياق في سياق استفهام إنكاري «مَا فَرَقُ هَؤُلَاءِ؟»؛ يعني ما سبب خوفهم وانزعاجهم من التحديث بنصوص الصفات، لِمَ؟ وهي من الحق الذي ينبغي أن يَزيد الإيمان. هذا الوجه هو الأشهر.

(٧١٧) إخبار ، يعني هؤلاء عندهم خلْط بين الحق والباطل ولم يفرِّقوا بينهما.

(٧١٨) وهذه الحال مُنكَرة لا تَليقُ بالمسلم، الواجب أن يُؤمَن بكل، وأن يسلَّم بكل، سواءٌ اتضح عند المتلقِّي أو اشتبه عليه.

(٧١٩) **وبعض أهل البدع استنبط من هذا الأثر**: أنَّ ابن عباس رَضَِٱللَّهُعَنْهُمَا يجعل نصوص الصفات من المتشابه، « وَيَهْلِكُونَ عِنْدَ مُتَشَابِهِهِ»، ذكر هذا لمَّا حدَّث بنصٍ من نصوص الصفات.

وهذا القول باطلٌ ليس بصحيح؛ فلم يكن ابنُ عباس رَضَِٱللَّهُعَنْهُمَا ولا أحدٌ من السلف قاطبة بلْ ولا أحدٌ من علماء المسلمين الثقات، مَن يعتقد أنَّ نصوص الصفات من المتشابه الذي لا يُعلمُ معناه، وهو ما يُسمَّى «المتشابه المطلق» ، إنما هذا قول أهل البدع. وتوضيح ذلك يكون بفهْم مسألة الإحكام والتشابه في كتاب الله ﷻ.

هذه المسألة مهمة، وهي مسألة الإحكام والتشابه.

أولا ينبغي علينا أن نعلم أنَّ **النصوص قد جاءت في الإحكام والتشابه على أنحاءٍ مختلفة:**

◄ **فجاء أولاً: أنَّ القرآن كُلَّهُ متشابه** ؛ كما قال ﷻ: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا﴾[الزمر:٢٣] ؛ القرآن كله متشابه، والمعنى: أنه يشبه بعضه بعضا، ويُصَدِّقُ بعضه بعضا، ليس فيه اختلافٌ أو تنافرٌ أو اضطراب أو تناقض.

◄ **أيضًا الكتاب كُلَّهُ محكم،** كما قال ﷻ: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾[هود:١]، والإحكام هاهنا بمعنى: الإتقان، فهو كتابٌ متقن لفظًا ومعنًى(٧٢٠) .

◄ **والقرآن منه مُحكم ومنه مُتشابه،** (٧٢١) وهذا هو محور حديثنا الآن كما أخبر الله ﷻ بذلك في سورة آل عمران: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾[آل عمران:٧].

-**فالإحكام:** بمعنى الوضوح، والمحكم: بمعنى الواضح، وهذا عامة القرآن لعامة الناس(٧٢٢) .

-**ومنه متشابه،** والتشابه هاهنا بمعنى: الغموض، يعني: هناك أشياء يغمض فَهْمُ معناها ويخفى فَهْمُ معناها.

---

(٧٢٠)يشبه بعضه بعضًا، ويصدِّق بعضه بعضًا، لا تتنافر أحكامه وأخباره، ولا تتناقض ولا تضطرب.

(٧٢١) وهو أمرٌ نسبي.

(٧٢٢) الذين يفهمون العربية إذا قرأوا القرآن فعامته معلوم وواضح.

ولكن انتبه إلى أن التشابه هاهنا تشابهٌ نسبي وليس تشابها مطلقا؛ بمعنى أنه يمكن أن يكون في القرآن شيء يخفى معناه على بعض الناس في بعض الأحوال، وليس فيه شيء يخفى على كل الناس في كل الأحوال، هذا غير موجود في القرآن ولا يمكن أن يوجد في القرآن، لِم؟ لأن الله ﷻ أمَر بتدبر كتابه وذم من لم يتدبر كتابه، ألم يقل الله ﷻ: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾[ص:٢٩]؟ ألم يذم الله من لم يتدبر القرآن: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[محمد:٢٤]؟

إذًا لا يمكن أن يكون في القرآن شيء غامض مطلقا، بمعنى خفي ما أحد يعرف معناه، هذا مستحيل؛ إنما ممكن كلمة أو آية أنا أجهلها لقلة علمي، ولكن يمكن أن أسأل العلماء أو أقرأ في الكتب فأعلم المعنى. إذًا هو تشابهٌ بالنسبة لبعض الناس في بعض الأحوال.

والواجب على المسلم أن يؤمن بالقرآن كله؛ ما فهمه وما جهله، أن يُسَلِّمَ بالآيات جميعًا؛ ما كان منها محكما عنده أو وقع عنده شيء من الاشتباه، ولا يجوز بحال أن يكون وقوع شيءٍ من الإشكال أو شيءٍ من الخفاء بالنسبة له في شيء من معاني القرآن سببًا لنفوره من الحق، أو طعنه في القرآن، أو وقوع ريبٍ في قلبه؛ هذا مسلكٌ باطل، هذا مسلك الضالين المنحرفين الذين في قلوبهم زيغ كما قال ﷻ عنهم في سورة آل عمران(٧٢٣) .

(٧٢٣) وطريقة أهل الإيمان أنَّهم يؤمنون بكتاب الله ﷻ كلّه، ما علموا معناه وما لم يعلموا، ما فهموا معناه فالحمد لله، وإلا فإنهم يؤمنون إيمانًا مُجملًا وإن جهلوا المعنى،

إذًا كلُّ ما جاء في القرآن يجبُ عليك التسليمُ به والقبول به، فهمت معناه أو لم تفهم معناه. وثق أنك إذا آمنت وسلَّمت فسيفتح الله ﷻ على قلبك ما أُغلق، ستفهم معنى ما جهِلت، لكن إذا سلَّمت وأقبلتَ برغبةٍ ومحبة في معرفة الحق الله ﷻ سيفتح عليك.

إذًا ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يُنْكِر على هذا الذي يقبَل ويجد رقةً في قلبه وإقبالًا على الحق إذا سمع شيء يفهمه، ولكن إذا جاءه شيء يشكل عليه أو لم يفهمه لضعف علمه هو، أنه ربما أثار عنده شيء من الإشكال والريب! فهذا ما لا ينبغي أن يكون عليه حال المسلم.

هنا أريد أن أقف وقفة؛ ربما يقول لي قائل: أنت الآن تدَّعي أنه ليس في القرآن شيء مجهول مطلقا، مجهول المعنى، ولاحظ أنا أتكلم عن المعاني ولا أتكلم عن الكيفيات، الكيفيات بالنسبة لمسائل الغيب مجهولة عندنا قطعًا ، الغيب الذي تعلق بصفات الله ﷻ أو تعلق بأمور الآخرة، كيف صفة الله ﷻ؟ وكيف هي أحوال اليوم الآخر؟ هذه بالنسبة لنا مجهولة، نحن لا نتحدث عن

ويردُّون المتشابه إلى المحكم، ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران:٧]، وبمراجعة أهل العلم يتضح لهم الأمر، وينكشف هذا الاشتباه. وأمَّا ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾ [آل عمران:٧]؛ أهل البدع تذرَّعوا من هذه القضية إلى دعوى التفويض.

هذا ، نحن نتحدث عن المعاني، وأنا أقول وأكرر ليس في القرآن شيء مجهول المعنى مطلقًا(٧٢٤).

🙵 **فإن قال لي قائل**: كيف لك أن تقول هذا وعندنا آيات كثيرة تسمى «**الحروف المقطعة**» في أوائل بعض السور ، ولا أحد يدرك معناها، فهي من المتشابه المطلق، أليس في القرآن (ألم)، (حم)، (كهيعص)؟ فسِّر لي هذه الكلمات حتى تكون قاعدتك قاعدة صحيحة.

والجواب عن هذا أن يقال: نحن نتحدث عن الكلام، وكل عاقل يدرك أنَّ المعنى إنَّما يُطلب للكلام لا للحروف، لا يوجد عاقلٌ يقول ما معنى هذا الحرف؟ لا في اللغة العربية ولا في غيرها، إذا قال قائل ما معنى (ألم)؟ فمباشرة سأقول له: وما معنى (ب ت ث ج ح خ) ؟ أنا مستعد أن أعطي جائزة كبرى لمن يخبرني معنى (ب) ، هل يستطيع أحد؟ أو أن المعنى يُطلب للكلام المؤلف من هذه الحروف؟ الكلمات المؤلفة من الحروف هي التي يطلب لها معنى، أمَّا الحروف من حيث هي لا أحد يقول لها معنى لا (أ) ولا (A) ولا (B) ولا أي شيء في أي لغة أليس كذلك؟

---

(٧٢٤) **من جهة المعنى فلا تشابه مطلقًا في القرآن قطعًا. أما من جهة الحقائق والكيفيات؛** نعم، هناك تشابه، بمعنى أشياء لا تُعْلمُ حقائقها ولا كيفاتها لكنَّ معناها معلوم، فحقائق وكيفيته وصفات الله تبارك وتعالى أمر متشابهٌ مطلقًا، يعني: مجهول بالنسبة لنا، لكن كلامنا السابق إنما هو المعنى، أمَّا المعاني فهي معلومة قطعًا من حيثُ لغة العرب.

هل هذه الآيات نحن نقرأها على أنها كلمات أو حروف؟ يعني هل نحن نقرأ (كهيعص) (حم) (ألم) ؟ أو نقرأها (ألم)؟ نحن نقرأها حروف، لو كنا نقرأها كلمة (كَهَيْعَص) لكان الإيراد واردًا علينا، لكن هذا ليس بالصحيح. إذًا هذه حروف، والحروف لا يُطلب لها معنى، إنما نحن نتحدث عن الكلام الذي يطلب العاقل له معنى، هذا لا شيء في القرآن مجهول المعنى مطلقا، لا آيات الصفات -كما تقول المفوضة - ولا غيرها[٧٢٥] .

هذا المسلك مسلك باطل غير صحيح وهو أن يقال: إنَّ نصوص الصفات من المتشابه الذي هو متشابه مطلق لا أحد يدرك معناها. نحن نقرأ: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾، نغمض أعيننا وعقولنا عن أن تتفكر في معنى (استوى)، هذه كلمة مثل الألغاز التي لا ندري ما فيها؛ هذا لا شك أنه باطلٌ غير صحيح، بل نصوص الصفات معانيها معلومة في أصل الوضع اللغوي، وكان أصحاب النبي ﷺ إذا سمعوا صفات الله ﷻ لم يقفوا عندها، ولم يقولوا عندها هذه مجهولة ونسلِّم، والله أعلم بمراده، ويمشون، أو يقعون في شيءٍ من الارتباك أو

---

(٧٢٥) فالحروف لا يُطلبُ لها معنى، إذًا هي خارجة عن موضوعنا الذي نبحث فيه، والقاعدة مُسلَّمة لا إشكال فيها؛ «لا يوجد في القرآن كلام لا يُعلم معناه البتَّة».

يبقى البحث بعد ذلك: الحكمة من وجود هذه الحروف في القرآن، فيُقال: هذا موضوع آخر، معناها شيء، والحكمة من ورودها في القرآن شيء آخر، وهذا موضع اجتهادٍ لأهل العلم، فالبحث هاهُنا بحث آخر، إذًا لا إشكال في هذا الأمر، والحمد لله.

القول إنها موهمة للتشبيه- كما قلنا في تفصيل هذا - كل هذا من المسالك الباطلة لا شك(٧٢٦).

هؤلاء الذين يقولون بمذهب التفويض ويزعمون أن هذه الآيات مجهولة المعنى، لماذا يقولون هذا؟ يقولون: لأنَّ ظاهرها يفيد التشبيه، وبالتالي لها مرادٌ خلافُ الظاهر، ولكن نحن لا ندري ما هو؟ ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾، لم يستوي حقيقة؟ طيب ما معنى هذه الكلمة؟ يقولون: الله أعلم ما ندري وهذا ليس بصحيح. لماذا أنتم هربتم من إثباتها؟ قالوا لأنها توهم التشبيه.

---

(٧٢٦) أهل البدع تذرَّعوا من هذه القضية إلى دعوى التفويض، وهي بدعةٌ شنيعة ومنكر عظيم ذهبت إليه طوائف من أهل البدع، فأكثر المتأخرين من الأشاعرة هم على هذا المذهب، على مذهب التفويض.

وحقيقة هذا المذهب مبنية على أمرين:

- **الأول**: اعتقاد أنَّ ظاهر نصوص الصفات غير مراد؛ يعني القطع بأن هذه النُّصوص ليست على ظاهرها.
- **الأمر الثاني**: تفويض العلم بمعنى هذه النُّصوص؛ وعليه فإذا سمعوا أنَّ الله ﷻ يضحك أو يعجب أو يغضب أو يرحم أو يحب، فإنهم يقولون: نحن نقطع أن الله ﷻ لا يُحِب، كما هو معلوم من هذه الكلمة، وأنه لا يغضب، وأنه لا يبغض، إلى غير ذلك. ما هو المعنى المراد؟ يقولون: الله أعلم، لكن هذا المعنى الظاهر الذي يتبادر إلى الذهْن غير مراد قطعًا.

وهذا المذهب من شرّ مذاهب أهل البدع، كما بيَّن أهل العلم، والردُّ عليه إلى وقتٍ طويل.

وقلنا: أن هذا باطل، بل من أبطل الباطل. أصحاب النبي ﷺ تلي عليهم القرآن من أوله إلى آخره، وسمعوا حديث النبي ﷺ من أوله إلى آخره، وما استشكل واحد منهم قط، وعددهم أكثر من مائة ألف صحابي، ولا واحد استشكل آية أو حديثًا جاء فيه شيء من الصفات، ولا يمكن لإنسان أن يقول خلاف هذا، وإن قال خلاف هذا قلنا هات الدليل، ولن يستطيع.

كانوا يسمعون من النبي ﷺ وهو يخبرهم «أن الله ينزل إلى السماء إذا بقي ثلث الليل الآخر»، وما قال أحد قط يا رسول الله هذا الحديث مُشْكِّل، هذا يوهم التشبيه، سمعتم شيء من هذا من أحد الصحابة؟ حاشا وكلا، بل والله كان إيمانهم يزداد، ويَعْظُم تعظيمهم لله ﷻ بسماع هذه النصوص.

في مسند أحمد من حديث أبي رزين العقيلي، والحديث فيه بحث وحسنه بعض أهل العلم، لـمَّا قال النبي ﷺ: «ضحك ربنا من قنوط عبده وقُرب غِيَره» غيره: يعني تغييره للأحوال وتفريجه للهموم، الحديث فيه إثبات صفة الضحك لله ﷻ، ماذا كان موقف الصحابة لما سمعوا هذا الحديث، قال أبو رزين العقيلي رضي الله عنه: «أوَ يضحك ربنا؟» قال النبي ﷺ: «نعم» ، قال: «لا عدمنا من رب يضحك خيرا» ، نبشر بالخير إذا كان ربنا متصف بهذه الصفة، فهذا والله يزيدنا رجاء فيه سبحانه وتعالى.

انظر إلى القلوب المؤمنة لما وصلها شيء من صفات الله ﷻ كيف أنها زكت وزاد إيمانها. إذًا المشكلة راجعة إلى القلوب، هناك قلوب فيها مرض؛

هي التي تستشكل وهي التي يقع فيها التشبيه أو زعم التشبيه، أما القلوب المؤمنة فهي مُسَلَّمَة من هذه الأدران، والله المستعان.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وَلَمَّا سَمِعَتْ قُرَيْشٌ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ أَنْكَرُوا ذَلِكَ، فَأَنْزَلَ اللهُ فِيهِمْ: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾**).

هذا الأثر الذي فيه ذِكر سببِ نزول الآية التي صدَّر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أدلة الباب بها جاءت من روايات متعددة[٧٢٧]، وهي موجودة بكثرة في كتب التفسير، ولكن لم أقف على إسنادٍ صحيحٍ موصولٍ لها، ولكنَّه على كل حال أثرٌ مشهور في كتب التفسير، وذِكْرُ هذا السبب على وجه الخصوص مما يحتاج أن يُوقف عنده حتى يثبُت هذا ثبوتًا قطعيًا. لكن على كل حال؛ كون المشركين أنكروا اسم الله «الرحمن» هذا مما لا شك فيه[٧٢٨].

وكون هذه الآية في الدِلالة على أنَّ المشركين كافرون بالرحمن على الخلاف، هل الكفر راجعٌ إلى الاسم أو المسمى؟ هذا مما أيضًا لا شك فيه.

---

(٧٢٧) ولكنَّها مراسيل.

(٧٢٨) وكون رسول المشركين وهو سُهيل بن عمرو أنكر هذا الاسم يوم الحديبية؛ هذا لا إشكالَ فيه، لكنَّ البحث هنا هو أن تكون هذه الآية نزلت لهذا السبب، هذا ما يُحتاج أن يُوقَفَ فيه على نصٍّ واضحٍ قاطع.

لكن بحثنا فقط في سبب النزول هل يثبت هذا السبب أو لا؟ هذا موقوف على أن يثبت ذلك بإسنادٍ صحيح(٧٢٩).

(٧٢٩) **ومِمَّا قد يُضعِف أن تكون هذه الآية نزلة في هذا السبب**: أنَّ سورة الرعد عند أهل العلم مكّية، ومعلومٌ أنَّ هذه القصة حصلت بعد الهجرة، هذا الذي يظهر في هذا، وعلى كلٍ سواءً صحَّ أنَّ هذا السبب أو لم يصح العبرة بحقيقة حال هؤلاء المشركين، وهذا لاشكَّ فيه كما تقدم، والله ﷻ أعزُّ وأعلم.

قال المصنف رحمه الله:

٤١-بَابُ

قَوْلِ اللهِ تَعَالَى:

﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ [النحل:٨٣] الآيَةَ

قَالَ مُجَاهِدٌ مَا مَعْنَاهُ: «هُوَ قَوْلُ الرَّجُلِ: هَذَا مَالِي وَرِثْتُهُ عَنْ آبَائِي».

وَقَالَ عَوْنُ بْنُ عَبْدِ اللهِ: «يَقُولُونَ: لَوْلَا فُلَانٌ لَمْ يَكُنْ كَذَا».

وَقَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ: «يَقُولُونَ: هَذَا بِشَفَاعَةِ آلِهَتِنَا».

وَقَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ - بَعْدَ حَدِيثِ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الَّذِي فِيهِ؛ أَنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ: «أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ...» الْحَدِيثَ؛ وَقَدْ تَقَدَّمَ-: «وَهَذَا كَثِيرٌ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ يَذُمُّ سُبْحَانَهُ مَنْ يُضِيفُ إِنْعَامَهُ إِلَى غَيْرِهِ، وَيُشْرِكُ بِهِ».

قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: «هُوَ كَقَوْلِهِمْ: كَانَتِ الرِّيحُ طَيِّبَةً، وَالْمَلَّاحُ حَاذِقًا، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ جَارٍ عَلَى أَلْسِنَةِ كَثِيرٍ».



قال الشارح وفقه الله:

انتقل المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى أبوابٍ ذات موضوعٍ جديد(٧٣٠) يتعلقُ بالألفاظ التي تخدش في كمال التوحيد الواجب، واجتنابها من تحقيق كمال التوحيد الواجب.

---

(٧٣٠) خُلاصتها التحذير من الألفاظ الشركية الخفية التي تقدح بجناب الرُبوبيّة.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (باب قول الله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾) ؛ الله ﷻ بيَّن في هذه الآية أنَّ المشركين كانوا يعرفون نعمة الله ومع ذلك فإنهم ينكرونها. **والأصلُّ في هذا الباب:**

- أنَّ من أنكر أن تكون النعم من الله سبحانه؛ فإنَّ هذا شركٌ أكبر.
- وأمَّا من اعتقد أنَّ النِّعم إنَّما هي من الله ﷻ ولكن حصل في قلبه نوعُ التفاتٍ لغيره في نسبة التفضل بالنِّعم لغيره، وصاحبَ هذا ألفاظٌ تفيد هذا المعنى؛ فهذا من جنس الشرك الأصغر. هذا هو الأصل في هذا الباب.

﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ ؛ اختلف المفسرون في تفسير (النِّعمة) في الآية، والأقوال تعود إلى قولين رئيسَين:

القول الأول: تفسير من فسَّر «النعمة» بالنعم الدنيوية، ومعلومٌ عندكم وقد مر بنا في درس أصول الفقه أنَّ المفرد المضاف يَعُم، فقوله تعالى هنا ﴿نِعْمَةَ اللهِ﴾: يعني أنواع نعمه، وهذه الآية على وِزَان قوله تعالى: **﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوهَا﴾**[إبراهيم:٣٤]، والنعم الدنيوية: هذه النعم التي يتقلب فيها النَّاس في هذه الحياة من المآكل والمشارب والمساكن وما إلى ذلك.

ولكن قد يرد هاهنا سؤال وهو: أنَّ القرآن قد دل على أنَّ المشركين معترفون بأن هذه النعم إنَّما هي نازلةٌ من الله ﷻ وبتقديره، فكيف وُصِفُوا بأنهم ينكرونها؟ ألم يقل الله ﷻ في شأنهم: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾[العنكبوت:٦٣]، وأمثالُ ذلك من الآيات

الدالة على أنهم كانوا يعترفون بأنَّ النعم إنما هي بتقدير الله ﷻ، فكيف إذًا كانوا منكرين لها؟

الجواب عن هذا: أن المفسرين فسَّروا قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ يُنكِرُونَهَا**﴾ بتفسيراتٍ عدة، أشهرها ما يأتي:

-**أولًا**: أن إنكارهم لها هي أنهم يقولون في شأنها: "لولا فلانٌ لما حصل لنا كذا وكذا" ويذكرون هذه النعم؛ فهذا نوع إنكارٍ لها.

-**والتفسير الثاني**: أنهم كانوا يقولون فيما خوَّلهم الله ﷻ إياه من الأموال والنعم: "هذه أموالنا ورثناها عن آبائنا، فهي لنا من طريف وتالد"، وأمثال ذلك من هذه الكلمات التي كانت تَنُمُّ عن أنهم ينسِبون التفضل بالنعم لغير الله ﷻ، فعدُّ هذا إنكارًا منهم.

-**وقيل وهو تفسير ثالث**: إن إنكارهم لها هو قولهم "إن هذه النعم كانت بشفاعة آلهتنا"، وهذا أيضًا فيه نسبة النعم لغير الله ﷻ، بل هذا القول منهم أخبث من سابقيْه؛ لأنَّ فيه إضافةً إلى ذلك ما كانوا عليه من شرك الشفاعة؛ شفاعة الآلهة التي كانوا يعتقدونها فيها، وهذا كما مرَّ بنا اعتقادٌ شركي هو أصلُ وأكثرُ ما وقع فيه المشركون الأولون.

-**وقيل**: إنَّ إنكارهم لنعمة الله ﷻ هو أنهم لا يستعملونها في طاعة الله ﷻ، فُعُدَّ هذا في حقهم إنكارًا لها.

-**وقيل وهو الخامس**: إنَّ إنكارهم لها هو أنهم يعترفون بنسبة التفضل بها إلى الله في الشدة، وينكرون ذلك في الرخاء.

هذه أشهر الأقوال التي قيلت في قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ يُنكِرُونَهَا**﴾، والأقوال الثلاثة الأولى هي الأشهر، وهي التي أورد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ من كلام السلف ما يدل عليها، وهو السبب الذي لأجله أورد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه الآية[٧٣١] .

مهما يكن من شيء؛ **لا شك ولا ريب أنَّ نِعَمَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يجب أن يقابلها المسلم بثلاث أشياء:**

➢ **أولاً**: الاعتراف القلبي بأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو المتفضل بها وحده لا شريك له؛ مهما أتى للإنسان من نِعَمٍ كانت بأسبابٍ من المخلوقين فإنَّ هذا لا يعني شيئًا من جهة أن المتفضل بالنعمة إنما هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولذلك كان **ركن الشُكْرِ الأول هو**: الاعتراف والإيمان والتصديق التام بأن هذه النعم تفضلٌ من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وحده.

وهذا أمرٌ يقيني لا يجوز للمسلم أن يتردد فيه، ولذلك ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ﴾[النحل:٥٣]؛ كلُّ النعم إنما هي من تفضل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، حتى ما كان منها واصلاً عن طريق أحدِ المخلوقين، وذلك لا يُخْرِجُ هذه النعمة أن تكون متفضَّلاً بها من قِبَل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولذلك يقول الله عَزَّ وَجَلَّ مذكرًا لنا بهذا المعنى: ﴿وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾[النور:٣٣]، إذًا المال مال الله، والفضل منه وحده، والعبد ما هو إلا قاسم، كما قال النبي ﷺ الحديث في الصحيحين: «إنما أنا قاسمٌ والله يعطي» وفي رواية: «إن الله هو المعطي وأنا قاسم»، فالله عَزَّ وَجَلَّ هو

(٧٣١) ولا شكَّ أن هذه الآية وإن كانت في المشركين إلا أنَّ من شاركهم في بعض أفعالهم وصفاتهم فلا شكَّ في أن له نصيبًا من الذمِّ الوارد فيها.

المعطي على الحقيقة، والمخلوق ما هو إلا سبب في وصول هذه النعمة، وهذا ما عبَّر عنه النبي ﷺ بقوله: «وأنا قاسم».

ولعلكم تذكرون ما مر بنا في دروسٍ سابقة من أن التفات القلب لا يجوز أن يكون للمخلوق فيه حظٌ، تحقيق التوحيد يقتضي أن يكون القلب بالكلية متوجِّهًا في شأن النعم إلى المُنْعِم بها على الحقيقة وهو الله ﷻ، إنما حق المخلوق وحظه من أخيه هو أن يُشكَر عليها، «لا يشكر الله من لا يشكر الناس»، هذا القدر فحسب، ومكافأته على هذه النعمة حتى تزول المنة، وحتى يتفرد العبد بأن يكون عبدًا ذليلاً خاضعًا لله ﷻ وحده.

يعني من تحقيق التوحيد أن الإنسان يكافئ من ناله شيء من النعمة من قِبله حتى لا يلتفت إليه بقلبه، وحتى يكون التفاته بالكامل إلى الله ﷻ.

➢ **والركن الثاني والواجب الثاني** في شأن الشكر: أن يتحدث الإنسان بها وأن ينسبها إلى المنعم بها لفظًا؛ وهذا أحد الأقوال التي فسر بها قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[الضحى:١١]. وبالتالي: الواجب على من أنعم الله ﷻ عليه بشيءٍ من النعم أن يذكر هذا بلسانه بأن هذا من فضل الله ﷻ ويحمد الله ﷻ على ذلك، وبالتالي فإنه إذا سكت عن ذلك كان مذمومًا، فكيف إذا نسب ذلك بلسانه إلى غير الله؟ كيف إذا نسب التفضل بالنعمة لغير الله ﷻ؟ إذا كان مذمومًا في حال كونه كاتمًا وساكتًا وغير مبيِّنٍ شيء بلسانه في شأن هذه النعمة، فكيف إذا كان قد نسب التفضل بهذه النعمة لغير الله جل وعلا؟! لا شك أنه يكون أحق بالذنب .

وهذا الذي أراد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن ينبه عليه؛ فإنَّ نسبة التفضل بالنعمة لغير الله عَزَّ وَجَلَّ يقدح في تحقيق التوحيد الواجب في شأن توحيد الربوبية، وضَعْفُ شكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليها بأن لا تُنسب لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالكلية ضعفٌ في تحقيق كمال التوحيد الواجب في شأن توحيد الألوهية.

➢ **الواجب الثالث في شأن النعم**: أنّ تُستعمل في طاعة الله عَزَّ وَجَلَّ، إذا كان الله عَزَّ وَجَلَّ هو الذي أنعم والنعمةُ مِلْكُه عَزَّ وَجَلَّ، فإنَّ كل إنسان يُدْرِكُ بالفطرة أن الواجب أن لا يُبارَز الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالمعصية في هذه النعمة على وجه الخصوص، إنْ شئت أن تعصي الله عَزَّ وَجَلَّ بنعمة من النعم فاصنع ذلك في نعمة لم تكن مُسداةً إليك من قبل الله عَزَّ وَجَلَّ، أما أن يُنْزِلَ الله النعمة عليك وشرُّك فيها يصعد إليه!! هذا ما أقبحه من العبد.

إذًا هذه أمور ثلاثة ينبغي أن يلاحظها من أراد تحقيق التوحيد:

١. أن يكون اعترافه بالكامل في قلبه بنسبةِ هذه النعمة والتفضل بها إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

٢. ثم أنْ يلهج لسانه بهذه النسبة، مع حمده وشكره عَزَّ وَجَلَّ عليها.

٣. ثم أنْ يسخِّرها ويستعملها في طاعة الله عَزَّ وَجَلَّ.

متى ما حقق الإنسان هذه الأمور الثلاثة فليبشر بالخير، فإنَّه قد قام بالأمر الواجب عليه في شأن نعم الله جل وعلا.

تتمة الكلام على الآية هو في قوله ﷻ: ﴿ وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ ؛ استُشكل في هذه الآية أن المشركين جميعًا كفار، فكيف يقال هاهنا: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾؟!

اختلف المفسرون في توجيه هذا الجزء من الآية إلى أقوال لكن أظهر ذلك ما يأتي:

❖ **أولاً**: أن يقال إنَّ قوله تعالى هاهنا ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ إنَّما هو بمعنى: أكثرهم الجاحدون، وهذا ما ذهب إليه طائفةٌ من المفسرين من أنَّ الكفر هاهنا يراد به الجحد، وهذا يجعل الآية على نحو قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[النمل:١٤]، والجحْدُ ضد النفاق، كفر الجحد: هو أن يكون اللسان مكذبًا والقلب مصدِّقًا، والنفاق على العكس؛ اللسان مصدق والقلب مكذب. فكُفر الجحود: كفرُ من يعلم صحة الإسلام وصِدْقَ النبي ﷺ ولكنه يأبى الانقياد، فيكون كفره كفر الجحود.

وبالتالي: أفادتنا هذه الآية أنَّ أكثر المشركين كان كفرهم عن جحود لا عن تكذيب، وأفادتنا أنَّ بعضهم كان كفره كفر تكذيب.

ما هو كفر التكذيب؟ هو: أن يكون باطنًا وظاهرًا مكذبًا، يكون مكذبًا بباطنه وظاهره -يعني بقلبه ولسانه- بعضهم هكذا لكن أكثرهم كفرهم كفر جحود، يعلمون في قلوبهم صحة رسالة النبي ﷺ ولكنَّهم يأبَون قَبُول ذلك.

ولا شك أن هذا واقع، والسيرة فيها شواهد على هذا عدة تدل على أن صناديد الكفار في عهد النبي ﷺ لم يكونوا يكذِّبونه، وكيف يكونوا ذلك وهم

الذين يعرفونه، ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ﴾[يونس:١٦]، كانوا يعرفون صدق النبي ﷺ وأنَّه ما كان يكذب على الناس، فكيف يكذب على رب الناس؟! لكن أهواء النفوس التي كانت غالبةً عليهم حالت بينهم وبين اتِّباعه عليه الصلاة والسلام.

❖ **والقول الثاني**: هو أنَّ الله ﷻ قد علِم أن من هؤلاء المشركين من سيُسْلم، ولكن أكثرهم سيثْبُتون على هذا الشرك والكفر فقال: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾؛ يعني سيثبتون ويستمرون على هذا الكفر، فبالتالي بعض هؤلاء ،ولا شك أنَّ من المشركين من أسلم وكان من خيار المؤمنين، يعني من أصحاب النبي ﷺ، وكثيرٌ من هؤلاء الذين أبُوا من أول وهلة ماتوا على الكفر واستمروا على هذا الكفر، فحق فيهم قوله تعالى: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾.

هذان أقوى ما قيل في هذه الآية [٧٣٢] وبعض أهل العلم ورويَ عن الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ قوله تعالى ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ يعني: أن كلهم كافرون، ففسر قوله ﴿وَأَكْثَرُهُمُ﴾ بقوله: كلهم. ولكن القولين الأولين أولى وأقرب وأظهر والله أعلم.

بقيَ عندنا القول الثاني في تفسير النعمة؛ النعمة القول الثاني في تفسيرها: أنها النعمة الدينية؛ وهي بعثة النبي ﷺ.

---

(٧٣٢) وقِيلَت أقوال دون ذلك، منها: أن المقصود من قامت عليه من الكبار العقلاء دون الصغار والمجانين.

إذًا تحصَّل لنا أنَّ النعمة في قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللهِ﴾ قيل: أنها النعمة الدنيوية، وقيل: أنها النعمة الدينية التي هي بعثة النبي ﷺ، ولاشك أن ذلك من أعظم النعم التي أنعم الله ﷻ بها على أهل الأرض، ﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا﴾ [آل عمران:١٦٤] الآية، وهذا القول رجحه طائفةٌ من أهل التفسير المحققين ومنهم شيخ المفسرين ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

والسؤال الآن: المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى أي القولين ينحى؟ إيراد هذه الآية في هذا الباب يدل على أنه يميل إلى أي الرأيين؟

يدل على أنه يميل إلى الرأي الأول، كما سيمر معنا إن شاء الله في الآثار التي أوردها، والله تعالى أعلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (قَالَ مُجَاهِدٌ مَا مَعْنَاهُ: «هُوَ قَوْلُ الرَّجُلِ: هَذَا مَالِي وَرِثْتُهُ عَنْ آبَائِي»).

هذا أحد التفسيرات التي قيلت وقد ذكرتها لك قبل قليل، حينما يقول الإنسان: "هذا مالي ورثته عن آبائي"، لاحظ أنَّ المقام هاهنا مقام نسبة التفضل بالنعمة لغير الله، هذا هو المذموم وهذا هو المعدود من إنكار النعمة، أمَّا إذا كان إخبارًا مجردًا كأن يقول إنسان لآخر من أين جاءك هذا المال؟ يقول: "هذا ورثته عن آبائي"، السياق يدل هاهنا على أن قوله لم يكن من باب نسبة التفضل

بالنعمة لغير الله ﷻ[٧٣٣]. إذًا المذموم في هذه الجملة هو ما كان راجعًا إلى هذا الضابط واحفظه، **الضابط هاهنا هو: نسبة التفضل بالنعمة لغير الله ﷻ**[٧٣٤].

لاحظ أنَّ هذا الضابط يربط لك جميع الأمثلة التي تُذكر، والسلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ كان كثيرٌ من تفسيرهم تفسيرًا بالمثال، يفسِّرون الآية بمثالٍ لها، وهذه الأقوال لا تعني أن هذا هو فقط تفسير الآية من جميع الوجوه، إنما هذا مثالٌ مما يدخل في هذه الآية.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وَقَالَ عَوْنُ بْنُ عَبْدِ اللهِ: «يَقُولُونَ: لَوْلَا فُلَانٌ لَمْ يَكُنْ كَذَا»**).

هذا تفسير عون التابعي الجليل رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يقول الإنسان: "**لولا فلان لم يكن كذا**"، "لولا أن فلانًا أعطاني لكانت حالتي حالة"، "لولا أنَّ السائق كان ماهرًا لوقع الحادث".

---

(٧٣٣) وكما قال أيضًا قارون: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص:٧٨]، فمثل هذا السياق مُشعِرٌ بأنَّ القائل يَنسب الإنعام والتفضل بهذه النِّعم لغير الله.

(٧٣٤) ولا شكَّ أن هذا قادح في كمال التوحيد الواجب، فإن كمال التوحيد الواجب يقتضي الاعتراف القلبي والاعتراف اللّساني بالنِّعم لله تبارك وتعالى، قال سبحانه: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ﴾ [النحل:٥٣]، ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ﴾ [الإسراء:٢٠]، قال عليه الصلاة والسلام كما في «الصحيحين»: «إنما أنا قاسم والله يُعطي»، فالنِّعم كلها من الله ﷻ، فالإقرار القلبي بها واجب، والتحدُّث بها ونسبتها إلى الله تبارك وتعالى أيضًا واجب، قال سبحانه: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى:١١]، على أحد الأقوال في تفسير هذه الآية.

تلاحظ أن (لولا) في اللغة العربية تفيد امتناع الشيء لوجود غيره، والسياق يدل على أن المتكلم بذلك أراد نسبة التفضل بالنعمة لغير الله، وسيأتي لنا أمثلة إن شاء الله في أثر ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في مستقبل الدرس -لعلنا نتكلم عن هذا إن شاء الله في الباب القادم- ، تجد أن الأمثلة التي يذكرها أهل العلم عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فمن بعده إنما تدور على هذا الضابط؛ وهو نسبة التفضل بالنعم لغير الله عَزَّ وَجَلَّ، وبالتالي لا يجوز للإنسان أن يقول هذا اللفظ: "لولا فلان لكان كذا وكذا، أو لما حصل كذا"، هذا لا شك أنه أمرٌ لا يجوز في مقام نسبة التفضل بالنعمة لغير الله، بل هذا من الشرك الخفي كما سيأتي في كلام ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وبهذا نعلم أنه متى ما كان هذا اللفظ على غير هذا البساط وعلى غير هذا السياق فإنه لا حرج فيه، فإذا كان لبيان سبب مجرد أو لإخبارٍ محضٍ فإنه لا حرج فيه.

يدل على هذا: ما ثبت في «الصحيحين» من قول النبي ﷺ «لَوْلَا بَنُو إِسْرَائِيلَ لَمْ يَخْنَزِ اللَّحْمُ وَلَوْلَا حَوَّاءُ لَمْ تَخُنْ أُنْثَى زَوْجَهَا» .

يدل على هذا أيضًا: قول النبي ﷺ كما في «الصحيحين» أيضًا قال لعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «لولا أنَّ قومك حديثو عهد بجاهلية لهدمت الكعبة ولبنيتها على قواعد إبراهيم، ولجعلتُ لها بابين»، إذًا أراد النبي ﷺ أن يبين السبب المانع من هذا الفعل، فهذا خارجٌ عن محل البحث، نحن نبحث في سياق معين، ما هو؟

نسبة التفضل بالنعمة لغير الله، وأنت إذا تأملت في هذين المثالين تجدُّ أنه ليس داخلًا في ذلك.

وهكذا ما يجري في كلام الناس مما لا يرد عليه هذا المعنى الذي ذكرته لك قبل قليل؛ كأن يقول إنسان مثلاً: "لولا أن ينقُدَني الناس لفعلت كذا، ولردَدتُ على فلان"؛ "لولا أن يظن بي سوء، أو لولا أن يظن بي كذا وكذا لفعلتُ كذا"، هذا بيانٌ لسببٍ مجرد، مثل هذا لا حرج فيه إن شاء الله.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَقَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ: «يَقُولُونَ: هَذَا بِشَفَاعَةِ آلِهَتِنَا»).

وهذا كما ذكرت لك أخبث مما قبله؛ لأنه يجمع بين أمرين:

-يجمع نسبة التفضل بنعمة لغير الله.

-مع الشرك في الشفاعة الذي كان عليه المشركون الأولون.

ومر بنا الكلام في الشفاعة التي كان عليها المشركون على وجه التفصيل.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَقَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ - بَعْدَ حَدِيثِ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الَّذِي فِيهِ؛ أَنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ: «أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ...» الْحَدِيثَ؛ وَقَدْ تَقَدَّمَ-: «وَهَذَا كَثِيرٌ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ يَذُمُّ سُبْحَانَهُ مَنْ يُضِيفُ إِنْعَامَهُ إِلَى غَيْرِهِ وَيُشْرِكُ بِهِ»

قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: «هُوَ كَقَوْلِهِمْ: كَانَتِ الرِّيحُ طَيِّبَةً، وَالْمَلَّاحُ حَاذِقًا، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ جَارٍ عَلَى أَلْسِنَةٍ كَثِيرٍ»).

الله المستعان، صدق رَحِمَهُ ٱللَّهُ ؛ هذا جارٍ على ألسنة كثير، ومر بنا شيء من الكلام عن هذا المعنى الذي يتعلق بالحديث الوارد هاهنا، وهو حديث زيد بن

خالد المخرج في الصحيحين، ومر بنا قريبًا بـ(باب ما جاء في الاستسقاء بالأنواء) ، وقلنا إنَّ قول القائل: "مطرنا بنوء كذا وكذا"؛ هذه النسبة إن كانت نسبة إيجاد وفِعل -يعني أن هذا النوء هو الذي أمطرنا بفعله ومشيئته استقلالًا- فهذا لا شك أنه شرك أكبر، وإن كان على قبيل السببية أنه سبب فهذا شركٌ أصغر؛ لأن ذلك لم يجعله الله ﷻ سببًا لا شرعًا ولا قدرًا.

المقصود أنَّ أبا العباس ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ نبَّه هاهنا على أن هذا الباب بابٌ واسع؛ وهو نسبة التفضل بالنعم لغير الله ﷻ، وأن الشريعة قد استقرت على ذمِّ من يفعل ذلك، مذمومٌ مكروهٌ من قام بهذا الفعل القبيح، وهو أن ينسب النعمة لغير الله ﷻ.

ثم ذكر لنا مثالاً على ما يقع ويقع جنسه كثيرًا ، مثل ما يقول الإنسان أنه قد خرج سالمًا من الأمواج المتلاطمة التي كادت أن تغرق السفينة "كانت الريح طيبة"، "هدأت الريح فنجونا"، أو "كان الملاح حاذقًا"، "كان السائق جيدًا"، "كان قائد الطائرة حاذقًا فنجونا"؛ أعاد ما يتعلق بهذه النعمة وهي السلامة إلى هذا المخلوق، وهذا لا ينبغي أن يكون من عبدٍ عرف حقيقةً أن النعم إنما هي من الله ﷻ، وما هؤلاء الخلق جميعًا إلا أسباب.

وقد علِمنا أنه لا يوجد سببٌ مستقل، لا يوجد شيءٌ واحد من الأسباب ينتج شيئًا، بل لا بد لهذه الأسباب من معاونة، يعني لابد لهذا السبب من سببٍ آخر فأكثر يكون معينًا له، ولابد من ارتفاع الموانع جميعًا ، وكل ذلك بتيسير الله

ﷻ وتقديره. إذًا كيف للإنسان بعد ذلك أن يشكر ويحمد ويعترف بالنعمة لهذه الأسباب ناسيًا فضل المنعم المعطي وهو الله ﷻ! لا شك أن هذا قبيحٌ جدًا.

ذكرتُ لك مثالاً في السابق؛ وهو أن المخلوق ينبغي أن يعامل معاملة الوسيلة فقط، ذكرت لك مثالاً الكل يدرك أن فاعله لا شك أنه قد جانَبَ الصواب، إذا جاءتك هدية غالية من شخص مسؤول -أمير أو وزير أو تاجر كبير هدية غالية- وأرسلها مع سائقه، دَّق عليك الباب وقال تفضل هذه من فلان؛ السائق ما دوره هنا؟ مجرد وسيلة فقط مُوصِل لهذا، ساعي يسعى في إيصال هذا الأمر، غاية الأمر أن تشكره "جزاك الله خيرا، شكرًا"، أما أن تقول لهذا السائق: "أنا عاجزًا عن شكرك، أنت أحسنت إليَّ إحسانًا عظيمًا لا أستطيع له وفاء، أنت كذا أنت كذا" هل يفعل هذا عاقل؟ من الذي أعطاك؟ من الذي منحك؟ أليس ذاك الشخص الكبير؟ وهذا مجرد سائق وسيلة تشكره وينتهي الأمر، لكن شكرك الفعلي ينبغي أن تتوجه به إلى ذاك المعطي(٧٣٥).

هذا مثالٌ يُقرب لك ما نريد أن نتكلم فيه؛ المنعِم الحقيقي هو الله ﷻ، والذي أعطاك حتى هذا التاجر ما هو في الحقيقة إلا وسيلة: ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ﴾ مَن؟ ﴿عَطَاءِ رَبِّكَ﴾[الإسراء:٢٠]، النعمة من الله، إنَّ الله هو

(٧٣٥) وإذا كان كِتمان النِّعم وعدم التحدُّث بتفضل المخلوق على مثله على جهة السببية يُعدُّ هذا من عدم الشكر، فكيف في حق الخالق تبارك وتعالى! فإنه قد قال عليه الصلاة والسلام: «مَنْ أُبْلِيَ فَذَكَر فَقَدْ شَكَرَ، ومن كَتَمَ فقد كَفَرَ»؛ أُبْلِيَ: يعني أُحْسِن إليه، وإذا كان هذا في حق المخلوق فكيف بحق الخالق تبارك وتعالى!

المعطي، هذه الحقيقة التي يجب أن تستقر في قلب الموحد إن أراد أن يكون موحدًا حقًا.

في ختام هذا الباب يلوح لي أن نستفيد فائدتين مهمتين من هذا الباب:

❑ **الفائدةُ الأولى**: هي أن نعلم أنَّ التوحيد أصفى شيءٍ على الإطلاق، ولذلك يؤثر فيه ويشوِّش عليه أدَّنى شيء، مثاله مثال مرآةٍ صافية جدًا أدنى شيء يؤثر فيها، لو وضعت عليها إصبعك ماذا يحصل؟ يتشوش الأمر، صفاؤها يتأثر؛ التوحيد أصفى منها، ولذلك يشوش عليه أدَّنى مؤثر، هذه حقيقة يجب أن نعيَها يا أهل التوحيد.

ولذلك واجب المسلم هو أن يرابط على الثغور التي يؤتى توحيده منها، هذا واجبك في هذه الحياة؛ أن ترابط على ثغر القلب، وأن ترابط على ثغر اللسان، وأن ترابط على ثغر النظر، وأن ترابط على ثغر السمع، من هاهنا يؤتى توحيدك. ولذلك انظر! مجرد ألفاظ تُقال مع اعترافِ القلب بأنَّ الله ﷻ هو المنعم، ومع ذلك كان هذا من جنس الشرك الخفي؛ "لولا فلان، ولولا فلان" مجردُ لفظٍ يقوله لكن لا تستهِن به، هذا مؤثر، هذه نقطة سوداء تُؤثر في التوحيد.

ولذلك حريٌ بمن أراد أن يكون من أهل التوحيد المحققين أن يتنبه إلى هذا الأمر المهم، التوحيد صافٍ جدًا، وكلما كان الشيء صافيًا تأثر بأدنى شيء، وتشوش بأدنى شيء، تنبه إلى هذا الملحظ المهم.

❑ **الملحظ الثاني**: وهو أننا نجد السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ يشدِّدون -وكلامهم بالطبع مبنيٌ على أدلة الكتاب والسنة- يشدِّدون في مثل هذه الألفاظ إلى درجة أن قول

الإنسان: "هذا مالي ورثته عن آبائي"، يقولون: هذا غلط، هذا خطأ، هذا أمرٌ لا ينبغي للإنسان أن يقوله. إذا قال: "كانت الريح طيبة، وكان الملاح حاذقًا"، ومع ذلك يقولون: انتبه هذا يقدح في كمال التوحيد الواجب.

السؤال الآن: بالله عليك إذا كان هذا الشأن في مثل هذه الألفاظ التي قد لا يراها كثيرًا من الناس شيئًا، فكيف بمن يشرك بالله ﷻ؟ كيف بمن يصيح صباح مساء ينادي: "يا سيدي فلان المدد المدد"، "يا رسول الله أغثني".

يا أكرم الخلق مالي من ألوذ به   سواك عند حلول الحادث العمم

بالله عليكم قارنوا بين هذه الألفاظ التي ذكر العلماء أنها تخدش في كمال التوحيد الواجب، فكيف حال هذه الألفاظ إذًا حينما يقع الإنسان في هذه الألفاظ الشنيعة؟! أليس هذا أولى وأجدر بأن يشدد عليه؟!

سيأتي معنا في أثر بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[البقرة:٢٢]، يقول: الأنداد مثل هذه الألفاظ: "لولا كليبة فلان لأتانا اللصوص"، "لولا البط لكان كذا"؛ "لولا البط لكان كذا" جعله من الشرك بالله ﷻ!! هذا ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، والأثر إسناده جيد كما سيأتي معنا إن شاء الله، فكيف لو سمع ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مثل هذه الألفاظ التي تقال: "يا سيدة نفيسة أنا في حسَبِك"، "يا سيدي عبد القادر من لي سواك"، "يا ابن علوان على الله وعليك"!! بالله عليكم أليست هذه الألفاظ تهدم التوحيد من أصله؟ وتنسف الإيمان من أسِّه؟ أي وربي، هي كذلك.

فمثل هذا الأمر ينبغي أن نتنبه إليه، وقد جرى في عادة السلف -وسنتكلم عن هذا إن شاء الله- أنَّهم يفسرون أدلة الشرك التي نزلت في الشرك الأكبر بما هو من صور الشرك الأصغر؛ تنبيهًا بالأدنى على الأعلى.

إذًا؛ إذا علِمنا خطورة هذه الألفاظ التي سنعتبرها قطعًا يسيرة إذا ما قارناها بتلك الطوام الكبرى، إذا كانت مثلُ هذه الألفاظ حريةً بالحذر فتلك أولى وأجدر بأن تُحْذَرَ ممن أراد نجاة نفسه.



قال المصنف رحمه الله:

٤٢-بَابُ

قَوْلِ اللهِ تَعَالَى:

﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٢٢]

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي الآيَةِ: «الأَنْدَادُ؛ هُوَ الشِّرْكُ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ عَلَى صَفَاةٍ سَوْدَاءَ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ، وَهُوَ أَنْ تَقُولَ: وَاللهِ وَحَيَاتِكِ يَا فُلَانَةُ، وَحَيَاتِي، وَتَقُولَ: لَوْلَا كُلَيْبَةُ هَذَا لَأَتَانَا اللُّصُوصُ، وَلَوْلَا الْبَطُّ فِي الدَّارِ لَأَتَى اللُّصُوصُ، وَقَوْلُ الرَّجُلِ لِصَاحِبِهِ: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ، وَقَوْلُ الرَّجُلِ: لَوْلَا اللهُ وَفُلَانٌ، لَا تَجْعَلْ فِيهَا فُلَانًا، هَذَا كُلُّهُ بِهِ شِرْكٌ» رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.

وَعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَحَسَّنَهُ، وَصَحَّحَهُ الْحَاكِمُ.

وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: «لَأَنْ أَحْلِفَ بِاللهِ كَاذِبًا؛ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَحْلِفَ بِغَيْرِهِ صَادِقًا».

وَعَنْ حُذَيْفَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَا تَقُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ وَشَاءَ فُلَانٌ، وَلَكِنْ قُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ شَاءَ فُلَانٌ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ.

وَجَاءَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ أَنَّهُ يَكْرَهُ أَنْ يَقُولَ الرَّجُلُ: (أَعُوذُ بِاللهِ وَبِكَ)، وَيَجُوزُ أَنْ يَقُولَ: (بِاللهِ ثُمَّ بِكَ)، قَالَ: وَيَقُولُ: (لَوْلَا اللهُ ثُمَّ فُلَانٌ)، وَلَا تَقُولُوا: (لَوْلَا اللهُ وَفُلَانٌ).



هذا البابُ الذي عَنوَنَ المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ له بهذه الآية من سورة البقرة؛ ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[البقرة:٢٢]، هي تكميلٌ للباب السابق، وفي هذا الباب تنبيهٌ أيضًا على بعض الألفاظ التي تقدحُ في كمال التوحيد الواجب.

وقد أورد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه الآية ليُعقب عليها بأثرِ ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا في تفسير الأنداد(٧٣٦)، وأنَّه يَشمَلُ فيما يشمل ما يرجعُ إلى الشرك الأصغر، **ووجه ذلك**: أنَّ قوله تعالى: ﴿أَندَادًا﴾ نكرةٌ في سياق النَّهي ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾، والقاعدة الأصولية: «أن النكرة في سياق النهي تفيد العموم»، فالله ﷻ نهى عن التنديد عمومًا؛ التنديد الأكبر والتنديد الأصغر، بمعنى: نهى عن اتخاذ الأنداد فيما يرجعُ إلى الشرك الأكبر، ونهى عن اتخاذ الأنداد فيما يرجعُ إلى الشرك الأصغر.

وابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا -كما سيأتي إن شاء الله- فسَّر في هذه الرواية «الأنداد» بما يرجعُ إلى الشرك الأصغر، وهذا -كما قد علمت - جارٍ على قاعدة السلف في تفسير ما جاء في الشرك الأكبر يُنَزَّل ويُفسَّر بما يرجع إلى الشرك الأصغر، وهذا -كما قد علمت- من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى، بمعنى أنه إذا كان

(٧٣٦) والأندادُ: جمع نِد ، وهو العَديل، والمثيل، سواء أكان موافقًا أو مخالفًا. وهذه الآية جُمِعَ فيها النِدّ بيانًا لسَفَه عقول المشركين، فإذا كان الله ﷻ يمتنع أن يكون له نِدٌّ واحد فكيف يُتخذُ معه أندادًا ؛ ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

الشرك الأصغر منهيًا عنه وداخلًا في عموم الأدلة الناهية الذَامة عن الشرك، فمن باب أولى أن تكون تلك الأدلة ناهيةً ذَامةً للشرك الأكبر(٧٣٧).

هذه الآية من فوائدها مع ما قبلها: بيانُ معنى «لا إله إلا الله»، وأنَّه النفي والإثبات، التخلية والتحلية، التجريد والتفريد.

يقول الله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(٧٣٨) [البقرة:٢١ -٢٢]؛ فقوله: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ هو في معنى «إلا الله»، وقوله: ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ هو في معنى «لا إله»؛ فَشَمِلَ ذلك النفي والإثبات(٧٣٩) الذي دل عليهما -أعني النفي والإثبات- كلمة التوحيد «لا إله إلا الله»(٧٤٠).

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي الآيَةِ: «الأَنْدَادُ: هُوَ الشِّرْكُ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ عَلَى صَفَاةٍ سَوْدَاءَ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ، وَهُوَ أَنْ تَقُولَ: وَاللهِ وَحَيَاتِكِ يَا فُلَانَةُ،**

---

(٧٣٧) وذلك صحيح ومتجّه بالنظر إلى العموم الذي جاء في هذه الآية.

(٧٣٨) قوله: ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ في موضع نصب حال، أي: والحال أنكم تعلمون، والمراد: فلا تجعلوا لله أندادًا في الأُلوهية وأنتم تعلمون تفرده بالرُبوبيّة.

(٧٣٩) مشتملة على الإثبات والنفي، على التجريد والتفريد، على التخلية والتحلية.

(٧٤٠) وإيراد الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لهذه الآية في هذا الباب لِيُبيّن أنَّ من التنديد -يعني من اتخاذ الأنداد معَ الله ﷻ- ما يكون في الشرك الأصغر الذي هو من شرك الألفاظ، فيكون اجتنابه من كمال التوحيد الواجب، كما سيأتي في تفسير ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

وَحَيَاتِي، وَتَقُولَ: لَوْلَا كُلَيْبَةُ هَذَا لَأَتَانَا اللُّصُوصُ، وَلَوْلَا الْبَطُّ فِي الدَّارِ لَأَتَى اللُّصُوصُ، وَقَوْلُ الرَّجُلِ لِصَاحِبِهِ: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ، وَقَوْلُ الرَّجُلِ: لَوْلَا اللهُ وَفُلَانٌ، لَا تَجْعَلْ فِيهَا فُلَانًا، هَذَا كُلُّهُ بِهِ شِرْكٌ» رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ).

هنا أثرُ ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا -وقد خرَّجه ابن أبي حاتم بإسنادٍ جيد كما قال الشارح الشيخ سليمان رَحِمَهُٱللَّهُ- يُبيِّن لنا أن الشرك ينبغي أن يُحذر، ومن أسباب ذلك كونه شيئًا خفيًا، وكون الشرك في هذه الأمة خفيًّا ثبت عن النبي ﷺ في أحاديث عدة[٧٤١] عند أحمد والحاكم من رواية غير واحدٍ من أصحاب النبي ﷺ؛ وذلك أنَّ له أنواعًا وألوانًا، ويكونُ في القلب، ويكون في اللسان، ويكون في الجوارح، فهو إذًا أمرٌ في غاية الدقة فكان حريًّا أن يحذره المسلم.

أخبر ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أنَّ الشرك أخفى من هذا المثال العجيب؛ النملةُ إذا سارت على رملٍ ناعم لا يكاد يُلحَظ أثرها، فكيف إذا مشت على صخرةٍ صماء؟ فكيف إذ كانت سوداء؟ فكيف إذا كان ذلك في ظلمة الليل؟ إذًا الأمر في غاية الخفاء. وشركٌ هذا شأنه كيفَ النجاةُ منه!! إلا بتوفيق من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ، أسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يُعيذني وإياكم من الشرك صغيره وكبيره، خفيه وجليِّه.

---

(٧٤١) منها الصحيح ومنها الحسن، من حديث أبي بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، ومن حديث عائشة، ومن حديث أبي موسى، وأيضًا من حديث أبي هريرة في «مسند أحمد»، «والحاكم» وغيرهما.

إذًا هذا الوصف ثابتٌ أيضًا بالأحاديث النبوية

المقصود أنَّ ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بيَّن أنَّ الشرك شيءٌ خفي حتى إنه يأتي في ألفاظٍ يكثر ذكرها على الألسن، وكثيرٌ ممن ينطق بها لا يتنبه إلى ما هي محشوةٌ فيه من الشرور والذم والنهي.

ومن ذلك قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (**وَهُوَ أَنْ تَقُولَ: وَاللهِ وَحَيَاتِكِ يَا فُلَانَةُ، وَحَيَاتِي**) .

الحلف بغير الله كالحلف بالحياة[٧٤٢]، أن يقول الإنسان: وحياتَك، وحياتِك، هذا لا شك أنه من الشرك على ما سيأتي تفصيله بعد قليل إن شاء الله.

ومن ذلك قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (**وَتَقُولَ: لَوْلَا كُلَيْبَةُ هَذَا لأَتَانَا اللُّصُوصُ، وَلَوْلَا الْبَطُّ فِي الدَّارِ لأَتَى اللُّصُوصُ**).

الذي بخط الشيخ كما قال الشارح (كُليبة)، والذي عند أبي حاتم (كلبة)، ولا أدري لماذا اختار المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ لفظة (كُليبة). المقصود أن المثال فيه (لولا كلبة أو كُليبة فلان لأتانا اللصوص، ولولا البط في الدار لأتانا اللصوص)؛ لأنَّ البط وكذلك الكلب وما إلى ذلك من هذه الحيوانات إذا دخل الغريب فإنها تُصدر أصواتًا فيتنبه الناس، وهذا راجعٌ إلى ما سبق الكلام عنه من أنَّ نسبة التفضل بالنعمة لغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هذا من الشرك الخفي الذي جاء النهي عنه، وقد سبق الحديث في ذلك[٧٤٣].

---

(٧٤٢) هذا مثال ونوع من هذا التنديد المنهي عنه.

(٧٤٣) المقصود أنَّ استعمال «لَوْلَا»، وَ(لَوْلَا) تفيد امتناع الشيء لوجود غيره، فلولا وجود كُلَيْبَةُ أو وجود البَطُّ ما أتانا أو ما أتى اللُّصُوصُ؛ فامتنع مَجيء اللُّصوص لوجود

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وَقَوْلُ الرَّجُلِ لِصَاحِبِهِ: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ**).

قول: ما شاء الله وشئت؛ عقد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ له بابًا خاصًا، وسنتكلم عنه إن شاء الله في محله، وهو من جملة شرك الألفاظ التي نبه عليها ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وَقَوْلُ الرَّجُلِ: لَوْلَا اللهُ وَفُلَانٌ**) .

هذا لفظٌ آخر يتعلق بـ «لولا»، **عندنا في "لولا" محذوران:**

- **الأول**: أن يقول الإنسان: "لولا فلانٌ لحصل كذا، أو لولا فلانٌ ما حصل كذا"، وذلك على سبيل نسبة النعمة لغير الله جل وعلا، سواءٌ كان ذلك في جلب منفعة أو في دفع مضرة، ومضى الحديث في ذلك(٧٤٤).

الكلبة أو لوجود البطِّ، وهذا راجعٌ إلى التقرير الماضي؛ وهو أنَّ هذا اللّفظ فيه نسبةُ الإنعام والتفضّل لغير الله تبارك وتعالى، وفي حَشْو هذا ما فيه من تعلق القلب بغير الله ﷻ، وهذا ولا شكَّ قادحٌ في كمال التوحيد الواجب.

إذًا هذا من أنواع الشرك الخفي الذي يجب أن يتجنبه المسلم إذا أراد أن يَكْمُلَ له توحيدُه.

(٧٤٤) **وأُنبِّهُ هنا** إلى التأكيد على الضابط السابق؛ وعليه فاستعمال (لولا كذا لكان كذا إن لم يكن لهذا الغرض فإنَّه جائز لا إشكال فيه، وأذكرُ على هذا بعض الأمثلة:

- من ذلك: ما ثبت في «الصحيحين» من قوله عليه الصلاة والسلام: «لَوْلَا اليَهُودُ لَمْ يَخْنَزِ اللَّحْمُ، وَلَوْلَا حَوَّاءُ لَمْ تَخُنْ أُنْثَى زَوْجَهَا»،فهذا إخبارٌ محْضٌ فلا يُشكِل على ما نحن فيه.

- ومن ذلك أيضًا: ما ثبت في «الصحيح» من قوله عليه الصلاة والسلام: «لَوْلَا أَنَّ قَوْمَكِ حَدِيثُو عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ، لَهَدَمْتُ الْكَعْبَةَ وَلَجَعَلْتُ لَهَا بَابَيْنِ..» إلى آخر ما جاء في الحديث، فهذا أيضًا إخبار محْض.

-ومن ذلك أيضًا: ما ثبت في «الصحيحين» من حديث العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حينما قال: يا رسول الله هل نفعتَ أبا طالب بشيء، فإنَّه كان يحوطك ويغضب لك؟ فقال: «نَعَم، هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ النَارِ، وَلَوْلاَ أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرَكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ»، وهذا الحديث التوجيه الصحيح له هو: أنَّ قوله ﷺ «وَلَوْلاَ أَنَا» أي: ولولا شفاعتي، فمن المعلوم أنَّ النبي ﷺ لم يُخرجْه إلى ضحْضاح من النار بقوَّته وحوله، وإنما الأمر أنها شفاعةٌ تفضَّل الله عَزَّ وَجَلَّ بها على النبي محمد ﷺ.

إذًا نحن نقطع أنه إنما كان جعْله في الضحْضاح بسبب الشفاعة، إذًا قوله «لَوْلاَ أَنَا» أي: لولا شفاعتي، ومن المعلوم أنَّ الشفاعة الأمرُ كله فيها إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، فهي من الله وإليه، ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر:٤٤]، فهو الذي يأذن بها ابتداءً، بل هو الذي يأمر بها؛ «قُمْ يَا مُحَمّد وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ»، وهي إلى الله عَزَّ وَجَلَّ انتهاءً، هو الذي يقبل هذه الشفاعة، إذًا رجعَ الأمر إلى الله تبارك وتعالى؛ «لولا أن الله يسَّرني للشفاعة وقبِلها مني لكان في ضحضاح من النَّار.

ويدلُّك على هذا التوجيه أيضًا: ما جاء في «رواية مسلم» لهذا الحديث، مسلم أخرجه باللَّفظ السابق وبهذا اللَّفظ الآتي أيضًا، قال: «وجدتُه في غمَرات من النَّار فأخْرجتُه إلى ضحْضاحٍ من النَّار»، فهلِ النبي ﷺ أخرجه بمحْض أمرٍ راجع إليه؟ أو كان ذلك إنَّما هو بسبب الشفاعة؟ الجواب: أنَّه كان بسبب الشفاعة، إذًا رَجَعَ الأمر إلى أنَّها نعمة من الله تبارك وتعالى، وليس الأمر فيه نسبةُ للنِّعمة والتفضل بها إلى النبي ﷺ، فلم يُشكل هذا الحديث إذًا على هذا التقرير.

▪ **وعندنا محذورٌ آخر**: وهو أن يقول الإنسان: "لولا الله وفلان لكان كذا وكذا"؛ هذا الأمر لا شك أنه لا يجوز، بل فيه من التنديد والتشريك ما فيه، وذلك أنَّ (الواو) في لغة العرب تدل على: التشريك والتسوية، ولا شك أنَّ هذا أمرٌ لا يجوز؛ أن يكون الله ﷻ والمخلوق في سياقٍ يدل على التسوية بينهما فهذا تشريكٌ وتنديدٌ لا يجوز؛ مجرد هذا اللفظ لا شك أنَّه من الشرك الأصغر. أمَّا إذا قام في القلب اعتقاد هذه التسوية فهنا قد وقع هذا المتكلم الذي قصد هذه التسوية في هوَّةٍ سحيقة كانت من الشرك الأكبر لا من الشرك الأصغر.

إذًا لا يجوز أن يقول الإنسانُ: "لولا الله وفلان"، لكن يجوز أن يقول: "لولا الله ثم فلان"، وذلك: أنَّ «ثم» تفيد الترتيب مع المهلة، وهذا يجعل العبد في رتبةٍ دون رتبة الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فيكون تابعًا لذكر ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في هذا السياق.

وبذلك يتضحُ الفرق الواضح بين: (الواو)، و(ثم)؛ استعمال (الواو) في هذا السياق لا يجوز، لكن استعمال (ثَّم) لا بأس به، أن يقول الإنسان: "لولا الله ثم فلان" هذا لا بأس به، "لولا الله ثم جودة السيارة"، أو "لولا الله ثم حِذق السائق لكان كذا وكذا" هذا أمرٌ لا بأس به ولا يضر قائله، وإن كان الأكمل أن يقول الإنسان: "لولا الله وحده".

إذًا عندنا في هذا المعنى درجتان: درجة كمالٍ، ودرجة جواز.

- أما درجة الكمال فأن يقول الإنسان: "لولا الله" وحده.
- ودرجة الجواز أن يقول: "لولا الله ثم فلان".
- وأما "لولا الله وفلان" فإنَّ هذا ممنوع.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وَقَوْلُ الرَّجُلِ: لَوْلَا اللهُ وَفُلَانٌ، لَا تَجْعَلْ فِيهَا فُلَانًا**).

الذي بخط المؤلف كما ذكر الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ (لا تجعل فيها فلانٌ)، والذي عند أبي حاتم (لا تجعل فيها فلانًا)، والرفع هنا -على ما ذكر المؤلف- على الحكاية، والمعنى على كل حال واضح وهو: أنك لا تجعلْ فيها فلانًا، أولا تجعل فيها فلانٌ؛ لا تذكر هذه الكلمة حتى يكون كلامك قد وافق المعنى الأكمل الذي فيه تحقيق التوحيد، وهو أن تفوِّض وتنسب الفضل لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وحده.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**هَذَا كُلُّهُ بِهِ شِرْكٌ» رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ**).

(**هذا كله به شرك**) يعني بقائله، وهذا يدلك على أنَّ القول من حيث هو شركٌ بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ولو لم يَقْصُد القائل. وبذلك يتضح خطأ الذين يقولون: نحن نتلفظ بهذه الألفاظ ولكننا لا نقصُد، فنقول: لو كنتم تقصُدون التسوية لكنتم وقعتم في شيءٍ أشنع وأكبر من مجرد شرك الألفاظ الذي هو من الشرك الأصغر.

مجرد هذا التلفظ أمرٌ لا يجوز، والواجب على الإنسان أن يضبط كلامه حتى يكون موافقًا للشرع، وليس أنه يسترسل في الكلام الباطل ثم يتذرَّع بعد ذلك بأنه ما قصَد، والنبي ﷺ في جميع الأدلة التي كان ينهى فيها عن ألفاظٍ ما، كل تلك الألفاظ كان فيها النبي ﷺ ينهى عنها نهيًا مطلقًا دون أن يكون مستفسرًا عن قصد القائل، دون أن يقول: أنت ماذا تقصد؟ إن كنت تقصد كذا؛ فنعم، وإن كنت تقصد كذا؛ فلا.

إذًا على الإنسان أن يتنبه وأن يُلاحظ كلماته وأن يُلاحظ ألفاظه؛ حتى تكون موافقةً لشرع الله ﷻ، وبهذا يكون قد حقق التوحيد الواجب عليه. والله أعلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَحَسَّنَهُ، وَصَحَّحَهُ الْحَاكِمُ).

هذا الحديث نسبه المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى رواية عمر رضي الله عنه؛ وهذا وهمٌ، إنما من رواية ابن الفاروق الذي هو عبد الله بن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

والحديث كما قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ حسنه الترمذي، وصححه الحاكم، وصححه جمعٌ من أهل العلم؛ كابن حبان، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيم، وكذلك المنذري، وكذلك العراقي(٧٤٥)، وكذلك الصنعاني، وكذلك الشوكاني، وإلى المعاصرين كالشيخ ابن باز، وأحمد شاكر، والألباني، وغيرهم من أهل العلم، فهو حديثٌ صحيحٌ لا شك فيه.

والألفاظ التي جاءت في كتب الحديث المتعلقة بهذا الحديث ترجع إلى أربعة ألفاظ:

- ❑ اللفظ الأول: «فقد كفر أو أشرك»؛ كما هي رواية الترمذي، والأقرب والله أعلم أن الشك هاهنا من الراوي.

---

(٧٤٥) وابن الملقن.

❑ اللفظ الثاني: «فقد كفر وأشرك» وقد نصَّ الشُراح على أنه جاء في بعض الأصول للترمذي بالعطف بالواو «فقد كفر وأشرك»، وهكذا جاء عند أحمد وغيره.

❑ -واللفظ الثالث: «فقد كفر» كما عند الحاكم وغيره.

❑ -واللفظ الرابع: «فقد أشرك»، وهذا أكثر الألفاظ، أكثر من خرَّج هذا الحديث خرَّجه بهذا اللفظ: «من حلف بغير الله فقد أشرك».

والمقصود: أن الحلف بغير الله ﷻ لا شك أنه منكرٌ عظيم ومحرمٌ بالإجماع، كما نقل الإجماع على ذلك ابن بن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وذكر شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ إجماع الصحابة على المنع منه. ولا شك أنه كذلك بل هو أعظم من ذلك.

-فإنَّه قد ثبت أنه من الشرك بالله ﷻ كما نصَّ عليه هذا الحديث: «من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك»، أو «فقد أشرك»، أو «فقد كفر»، أو «فقد كفر وأشرك».

-كذلك جاء النص على ذلك؛ في حديث قتيلة الجُهنية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا -وسيأتي معنا إن شاء الله في قادم الأبواب- وهو أنَّ يهوديًا أتى إلى النبي ﷺ فقال: «إنكم تشركون تقولون: والكعبة»، والنبي ﷺ أقره على ذلك، ونهى عليه الصلاة والسلام عن هذا القول، وأمرهم بأن يقولوا: "وربَّ الكعبة".

-ودليلٌ ثالثٌ على ذلك: وهو أثر ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا الذي مر بنا منذ قليل، ومثله لا يُقال بالرأي.

فهذه أدلةٌ ثلاثٌ تدل على أن الحلف بغير الله ﷻ شركٌ.

وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن الحلف بغير الله ﷻ شركٌ أكبر، متى ما قال: والنبي، وحياتك، والأمانة، فإنه يكون قد أشرك الشرك الأكبر.

لكن جمهور أهل العلم على أن الشرك هاهنا شركٌ أصغر، ويدل على هذا أمور منها:

➢ أثر ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا الذي مر بنا قريبًا، فإنه رضي الله عنه قد جعل الحلف بغير الله في جملة أشياء الحكم فيها أنها من الشرك الأصغر؛ فدل هذا على أنها ليست من الشرك الأكبر.

➢ أضف إلى هذا: أن الحلف بغير الله قد جرى على لسان بعض كبار بعض الصحابة قبل أن ينهاهم النبي ﷺ عن ذلك، ومنهم عمر رضي الله عنه، ويبعُد جدًا أن يكون الذي قد جرى على لسانهم راجعًا إلى الشرك الأكبر.

➢ وأضف إلى هذا أمرًا ثالثًا: أن النبي ﷺ لم يُرتِّب على هذا القول ما يُرتَّب على الشرك الأكبر.

فالأقرب -والله تعالى أعلم- أنه شركٌ أصغر، اللهم إلا إذا كان المحلوف به الذي هو غير الله ﷻ قد عَظُمَ في قلب الحالف كتعظيم الله ﷻ أو أشد، إذا كان الحالف حينما حلف بغير الله سبحانه وتعالى قد بلغ تعظيمه في قلبه كتعظيم الله أو أشد فلا شك أن هذا شركٌ أكبر بلا خلاف، كما يقع ذلك كثيرٍ من القبوريين الذين يَسْهُلُ عليهم كثيرًا أن يحلفوا بالله كاذبين، لكنهم لا يجرؤون البتة على أن يحلفوا بغير الله ﷻ كاذبين، ترتعد فرائصهم إذا قيل لهم احلفوا على كذا، وهم يعلمون من

حالهم أنهم كاذبون، لا يجرؤون على ذلك؛ خوفًا من سطوة وعقاب هذا المحلوف به، لكنْ أن يحلفوا بالله ﷻ كاذبين! ما أسهل ذلك على أنفسهم.

وقد حدثني -وقد ذكرت هذه القصة غير مرة لأدلك على أن هذا الأمر واقع ليس خياليًا- حدثني أحد الذين تاب إلى الله ﷻ- وأسأل الله أن يقبل توبته- تاب من الركون والاتِّباع لبعض الفرق الضالة، وكان شيخًا في قبيلته يقول: إذا أتاني المتخاصمان فتتوجه اليمين على الـمُدَّعى عليه، وأنا أعرف أنه كاذب، ولو طلبتُ منه أن يحلف بالله لأعطاني ما شئت من الأيمان، لكني كنتُ آخذ بيده فأذهبُ إلى مرقد السيد فلان أو السيد فلان، إلى قبره وأقول: احلف هنا على أنك صادق، يقول: والله لا يستطيع أن يتكلم بحرفٍ واحد، ويقرُّ بالحق لصاحبه.

وإذا لم يكن هذا عين الشرك الأكبر؟ فماذا هو الشرك؟ بل إنَّ كثيرًا من المشركين الأولين كان جَهْدُ أيمانهم وأعظم أيمانهم إذا حلفوا: بالله ﷻ ، في المهمات والعظائم يحلفون بالله ﷻ، وهؤلاء يَسْهُلُ عندهم أن يحلفوا بالله كاذبين!! لكنهم لا يجرؤون أن يحلفوا بغيره كاذبين؛ لأنَّ هذا المحلوف به عندهم شأنه عظيم. المقصود أنَّ من بلغ به الحال إلى هذه الدرجة، فلا شك أنه يكون قد وقع في الشرك الأكبر.

وبذلك يتضح لك الخطأُ الكبير الذي وقع فيه من زعم أنَّ الحلف بغير الله مكروهٌ كراهة تنزيه؛ يا لله العجب! شيءٌ يصفه النبي ﷺ بأنه شركٌ، ثم يُقال إنه مكروهٌ كراهة تنزيه!! هذا لا يتأتى في الشريعة البتة، لا يُمكن أن يكون الشيء

موصوفًا بالشرك ويكون حكمه الكراهة التنزيهية، هذا أمرٌ باطل لا شك في ذلك ولا ريب، إنما الذي لا شك فيه ولا ريب أنَّ هذا القول خاطئ.

وقد استدل من قال بذلك ببعض الأدلة أشهرها قولهم: إنَّ النبي ﷺ جرى على لسانه الحلف بغير الله، ولا يمكن أن يقع الشرك في كلامه، فتعين أن يكون هذا الحديث دالًا على أنَّ تلك الأدلة الناهية حكمها الكراهة أو دالةً على الكراهة التنزيهية.

- **وأشهر ما استدلوا به**: حديث طلحة بن عبيد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رجلًا أعرابيًا جاء إلى النبي ﷺ يسأل عن الإسلام، فقال له النبي ﷺ: «خمسُ صلوتٍ في اليوم والليلة» قال: هل عليَّ غيرها؟ قال: «لا». ثم الصيام والزكاة إلى آخره، ثم قال الرجل: «والله لا أزيد على هذا ولا أنقص»، فلما ولى قال النبي ﷺ -على هذه الرواية التي يستدلون بها-: «أفلح وأبيه إن صدق»، والمقام مهم ويحتاج إلى أن نبسط القول فيه بعض الشيء.

هذا الحديث الاستدلال به غير صحيح ، بيان ذلك:

أن العلماء مختلفون في توجيه هذه الرواية، وهذه الرواية في صحيح مسلم، والحديث مخرَّجٌ في الصحيحين من حديث طلحة رضي الله عنه، غير أن هذا اللفظ قد تفرد بإخراجه مسلٌم دون البخاري.

- قال بعض أهل العلم إنَّ اللفظ في أصله: (أفلح والله إن صدق)، وإنما حصل تصحيف[٧٤٦].

---

(٧٤٦) من «والله» إلى «وأبيه».

وهذا القول لا شك أنه قولٌ خاطئ(٧٤٧)، وإلا لو فُتح باب ادِّعاء التصحيف لما أمكن الوثوق بشيءٍ من السنة.(٧٤٨)

- قال بعض أهل العلم –وهذا قول ثانٍ– إن قول النبي ﷺ «وأبيه»، إنما جرى على لسانه لا على سبيل الحلف واليمين، وإنما أراد تأكيد الكلام(٧٤٩).

وهذا القول أيضًا غير صحيح(٧٥٠)؛ لأنَّ اليمين يُراد بها تأكيد الكلام، إذًا ليس هناك فارقٌ بين أن يكون قول النبي ﷺ على سبيل اليمين أو على سبيل تأكيد

---

(٧٤٧) ومثل هذا بعيد، ولو فُتِحَ بابُ الاحتمالات هذا بلا دليل لتسلَّط المغرّضون على نصوص الشريعة ولعبوا فيها بأهوائهم.

(٧٤٨) وبعضهم قالوا: إن الكلام على تقدير محذوف؛ أي: «أفلح وربِّ أبيه إن صدق»؛ ومثل هذا أيضًا بعيد، لأن الإضمار خلاف الأصل، ثمَّ هو يفتقر إلى دليل، وليس ثمَّة دليل.

(٧٤٩) كما يقولون: (حَلْقَى) و(عَقْرَى)، وكما يقولون كما جاء في الحديث: «ترِبَت يداك»، «ثَكِلتَكَ أُمُّك»، وما إلى ذلك مِمَّا لا يُراد من اللَّفظ فيه ما هو متبادر.

(٧٥٠) وهذا القول –وإن كان قد يظهر بادي الرأي شيء من القوة فيه– إلا أنَّ فيه نظرًا، فإنَّ الأحاديث التي جاءت في النهي عن الحلف بغير الله ليس فيها تفريقٌ بين ما أريد به التعظيم وما أريد به مجرد التأكيد، لاسيَّما وأنَّ الحلف وإن كان متضمّنًا تعظيم الله ﷻ إلا أنَّ مساقه مساق التأكيد للكلام، إنَّما غرض الحالف أن يؤكد كلامه، وأن يجعل السامع يتيقن من حديثه.

ثمَّ إننا لو نظرنا في الأحاديث الواردة عن النبي ﷺ نجد فيها التأكيد على الحلف بالآباء على وجه الخصوص؛ نظرًا لكثرة دورانه على أَلْسنة أهل الجاهلية، فإنَّه قد ثبت في

الكلام. ثم إنَّ النهي الذي جاء عن النبي ﷺ لم يفرِّق بين يمينٍ يُراد بها التأكيد أو لا يُراد بها التأكيد؛ فهذا القول في الحقيقة فيه نظر.

- قولٌ ثالث ذهب إلى أن هذا الحديث منسوخ، والناسخ له الأدلة الناهيةُ عن الحلف بغير الله ﷻ.

وهذا قولٌ وجيه، وقد أخطأ من ضعَّفه، بعضهم ضعَّفه للجهل بالتاريخ، لا ندري ما الحديث المتقدم وما الحديث المتأخر؟ لكن هذا ليس بوجيه؛ لأنَّ إدراك المتقدم من المتأخر ميسورٌ لمن تأمل أدَّنى تأمل.

الواقع أنَّ الحلف بغير الله ﷻ كان سائدًا في الناس، يدل على هذا ما ثبت في الصحيحين من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: «كانت قريشٌ تحلف بآبائها، فقال النبي ﷺ: لا تحلفوا بآبائكم»، وفي الصحيحين أيضًا من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي ﷺ أدرك عمر وهو في ركبٍ يحلف بأبيه فقال له النبي ﷺ: «ألا إنَّ الله ينهاكم على أن تحلفوا بآبائكم، من كان حالفًا فليحف بالله أو ليصمت».

«الصحيحين» من حديث ابن عُمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «أدركَ النبي ﷺ أبي -يعني عمر- وهو في رَكْبٍ يحلف بأبيه يعني يقول: "وأبي وأبي"، فقال عليه الصلاة والسلام: «ألا إنَّ الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، من كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت»، وثبت أيضًا في «الصحيحين» من حديث ابن عُمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ أنَّه قال: «وكانت قريش يحلفون بآبائهم، فقال النبي ﷺ: لا تحلفوا بآبائكم»، فنهيه عليه الصلاة والسلام عام، ليس فيه تفريقٌ بين هذا وذاك.

إذًا الحلف بغير الله كان شيئًا موجودًا، وبالتالي النهي عنه ناقلٌ عن الأصل، الأدلة التي فيها أنهم كانوا يحلفون بغير الله هذه باقية على الأصل، والأدلة التي فيها النهي عن ذلك ناقلةٌ عن الأصل، وبالتالي فتكون هي المتأخرة الناهية؛ لأنَّ الناقل عن الأصل هو المتأخر، والباقي على الأصل هو المتقدم(٧٥١)، وهذا واضح بأدنى تأمل.

▪ **القول الرابع**: هو أنَّ هذا اللفظ شاذٌ ضعيف.

وهذا أقوى الأقوال في توجيه هذا اللفظ، وانتبه! الحديث جاء -كما أخبرتك- في الصحيحين من طريق أبي سهيل بن مالك عن أبيه عن طلحة بن عبيد الله، الحديث واحد والقصة واحدة والطريق واحدة، أبو سهيل روى عنه هذا الحديث الإمام مالك بن أنس، وإسماعيل بن جعفر، كم راوي عن أبي سهيل؟ اثنان؛ مالك بن أنس، وإسماعيل بن جعفر.

مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ أخرج هذا الحديث كما في الصحيحين وفيه قوله: ﷺ «أفلح إن صدق» وليس فيه: «وأبيه» والحديث في الصحيحين.

نأتي إلى رواية إسماعيل؛ إسماعيل رَحِمَهُ ٱللَّهُ روى هذا الحديث بلفظين:

---

(٧٥١) لأنَّ الأحاديث التي دلَّت على الأصل إنَّما هي مُؤكِّدة، والأحاديث التي نقلت عن الأصل فيها زيادةُ علمٍ، إذًا هي مُؤسِّسة، والقاعدة: التأسيس أوْلى من التأكيد. إذًا اتضح بعد ذلك أن الأحاديث التي جاء فيها جواز الحلف بغير الله ﷻ ومنها الحديث الذي بين أيدينا إنَّما كان قبل النهي.

- الأول وهو عند البخاري: قال: «أفلح إن صدق أو دخل الجنة إن صدق»، بهذا الشك منه رَحِمَهُ ٱللَّهُ، هذا في البخاري.

-الثاني في مسلم: «أفلح وأبيه إن صدق أو دخل الجنة وأبيه إن صدق»، ولاحظ أن مسلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ قدَّم رواية مالك التي ليس فيها لفظ أبيه، ثم أتبعها برواية إسماعيل.

إذًا تلخص لنا أن الحديث بلفظ «أفلح إن صدق» جاء من رواية اثنين، والحديث بلفظ «أفلح وأبيه إن صدق» جاء من رواية واحد -رواية: «أفلح إن صدق» جاءت من رواية مالك وإسماعيل بن جعفر، إذًا هما اثنان. وأما رواية «أفلح وأبيه إن صدق» فجاءت في رواية إسماعيل فقط- ولا شك أن الرواية التي يرويها اثنان مقدمةٌ على الرواية التي يرويها واحد، لا سيما والحديث واحد والقصة واحدة والواقعة واحدة والطريق واحدة.

إذًا النبي ﷺ قال أحد اللفظين قطعًا، يعني لا مجال أن نقول إن القصة متعددة، الرجل جاء وتكلم بهذا الكلام وذهب، النبي ﷺ قال أحد اللفظين.

والسؤال: أي الروايتان أرجح؟

لا شك أن رواية مالك وإسماعيل أرجح، يدل على هذا أمور:

أولًا: توارد عليها اثنان.

ثانيًا: مالك أوثق وأثبت من إسماعيل.

ثالثًا: إسماعيل حصل عنده تردد بخلاف مالك(٧٥٢)، مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ ضبط الرواية، ولذلك رواها بالجزم، ضبط فجزم، أما إسماعيل فإنه حصل عنده تردد؛ مرةً قال: «أفلح إن صدق أو دخل الجنة إن صدق»، ومرةً قال: «أفلح وأبيه إن صدق أو دخل الجنة وأبيه إن صدق»، بخلاف مالك كل رواياته واحدة في الصحيحين وغيرهما؛ ولذلك كل من روى عن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما اختلف عنده اللفظ، وقد رواه جمعٌ من الأئمة الحُفاظ كعبد الرحمن ابن مهدي والشافعي وغيرهما، كلهم على روايةٍ واحدة وهي: «**أفلح إن صدق**».

فإذا جمعت هذه القرائن تبيَّن لك أنَّ لفظ «وأبيه» شاذٌ معلول لا يصح عن النبي ﷺ، ومن دقة الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّه تجنب إخراج هذه اللفظة، ومسلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ إنما ذكرها تابعةً للفظ الأول. إذًا الناظر بمقتضى قواعد علم الحديث يجزم أن لفظ وأبيه في كلام النبي ﷺ هاهنا شاذٌ غير صحيح.

وجاء هذا اللفظ أيضًا: «وأبيه» فيما يروى عن النبي ﷺ في حديثين أيضًا كلاهما شاذٌ أيضًا، وخالف فيهما الراوي رواية من هو أوثق، وقد بسطت هذا في دروسٍ ماضية، وأدَع ذلك نظرًا لضيق الوقت (٧٥٣).

---

(٧٥٢) فدلَّ على أنَّ روايته أرجح، وهذا هو الأقرب لهذه اللَّفظة، وهو ما اختاره ابن عبد البرّ، وجماعة من أهل العلم.

(٧٥٣) **واستدلوا أيضًا بحديثين آخرين** كلاهما من حديث أبي هريرة، ومخرَّجان أيضًا في «مسلم»:

المقصود أنَّه لم يثبت في كلام النبي ﷺ -ولله الحمد- أنه حلف بغير الله، أما ما وقع في كلام أصحاب النبي ﷺ من حلفٍ بغير الله؛ فإنَّ النبي ﷺ نهاهم عن ذلك

أولهما: حديثٌ فيه سؤال أحد الصحابة للنبي ﷺ عن أحقّ النَّاس بحُسن صحابته؟ فقال: «أُمُّك ثمَّ أُمُّك... » إلى آخر الحديث، جاء في رواية عند مسلم أنَّه قال: «**نعم لتُنبأنَّ وأَبيك؛ أُمُّك**.. » إلى آخره، ففيه الحلف أيضًا بأبي هذا الرجل.

وهذا اللَّفظ أيضًا شاذّ؛ فإنَّه قد تفرَّد بروايته شريك بن عبد الله، وخالف في ذلك روايةَ جماعةٍ من الحُفاظ الذين رووا هذا الحديث دون هذا اللَّفظ، ومنهم أئمةٌ كبار؛ كسفيان بن عُيينة وابن المبارك وغيرهم من الحُفاظ. بل شريك رَحِمَهُ ٱللَّهُ روى هذا الحديث بدون هذا اللَّفظ أيضًا، فتبيَّن إذًا أن هذه اللَّفظة مرجوحة شاذة غيرُ صحيحة، ومثل شريك معروفٌ كلام أهل العلم فيه.

وكذلك الشأن في اللَّفظ الثالث وهو ما جاء أيضًا في حديث أبي هريرة عند مسلم حينما جاءه رجل فسأله عن الصدقة: أي الصدقة أفضل؟ فقال: «**أَمَا وَأَبِيكَ لَتُنَبَّأَنَّهُ؛ أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ تَخْشَى الْفَقْرَ**.. » .

وهذا اللَّفظ أيضًا قد تفرَّد به محمد بن فُضيل، وخالف في ذلك رواية الثقات الذين منهم مَن هو أحفظ منه؛ كسفيانَ ابن عُيينة وجرير وغيرهم من أهل العلم، أربعة من الحفاظ أحفظُ منه خالفوه في هذا اللَّفظ؛ فروايتهم أرجح.

فانتهوا، وكل ما يُروى عن الصحابة في ذلك[٧٥٤] فهو محجوجٌ بنهى النبي ﷺ، ثم إنه يُقال فيه إنه كان قبل نهي النبي ﷺ، لأنه كان أمرًا فاشيًا شائعًا في الناس[٧٥٥] .

إذًا هذا هو الصحيح الذي لا شك فيه؛ أن الحلف بغير الله منكرٌ لا يجوز[٧٥٦] ، فعلى المسلم أن يتقي الله ﷻ، قال ﷺ كما في الصحيحين: «من كان حالفًا فليحف بالله أو ليصمت». حذار يا عبد الله!! أن يجري على لسانك الحلف بغير الله، حتى لو كنت حالفًا بالنبي ﷺ! فإنه هو ﷺ الذي كان ينهانا عن ذلك، ولا يجوز لمسلمٍ أن يتقصَّد عصيان النبي ﷺ، فكيف إذا كان كلامه يوقعه في الشرك والكفر بقول الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى ﷺ.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: «لَأَنْ أَحْلِفَ بِاللهِ كَاذِبًا؛ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَحْلِفَ بِغَيْرِهِ صَادِقًا»**).

---

(٧٥٤) كما جاء عن عمرَ، وكما جاء عن سعد بن أبي وقاص وغيرهم.

(٧٥٥) ورُوِيَ أيضًا عن أبي بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ولكن الإسناد إليه فيه انقطاع كما قال الحافظ ابن حجر، أنَّه حلف أيضًا في قصة طويلة في شأن سارق والوقت يضيق عن ذكرها، المهمّ أن الإسناد فيه انقطاع فلم يصح ذلك أبي بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، ورويت القصة بلفظ آخر ليس فيه هذا الحلف.

(٧٥٦) وقد حَكى ابن عبد البرّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ -كما في «التمهيد» في الجزء الرابع عشر- الإجماع على عدم جوازه، وشيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ لمَّا ذكر هذه المسألة نسب التحريم إلى جمهور العلماء ثمَّ قال: «وحُكِيَ الإجماعُ فيه عن الصحابة» ، ولا شكَّ أن الأمر كذلك، والأحاديث في ذلك -أعني في النهي عن الحلف بغير الله- بلغتْ مبلغ التواتر المعنوي.

أثر ابن مسعود رضي الله عنه (٧٥٧) أثرٌ عظيم يؤكد ما ذكرته لك سابقًا من أنَّ الحلف بغير الله منكرٌ غليظ التحريم، بل من الشرك بالله عز وجل. وهذه الكلمة عن ابن مسعود رضي الله عنه جاء نحوها من كلام ابن عباس، ومن كلام ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ومن كلام الشعبي رَحِمَهُ اللَّهُ، كما نقل هذا الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ في «الفتح».

والمقصود أن ابن مسعود رضي الله عنه ذكر أنه أن يحلف بالله كاذبًا أحب إليه من أن يحلف بغيره صادقًا؛ لاحظ هنا أن استعمال «أفعل التفضيل» هو في استعمالها فيما ليس محبوبًا من الجانبين، فلا هذا ولا ذاك عنده محبوب، إنما هذا لبيان أن أحد الأمرين أشنع وأشد من الآخر.

ولاحظ أيضًا أن ابن مسعود رضي الله عنه حينما يحدثنا بهذا الكلام يستحضر خطورة وشناعة الحلف بالله كاذبًا، فهو الذي روى عن النبي صلى الله عليه وسلم ما في الصحيح من قوله صلى الله عليه وسلم: «من حلف على يمين يقتطع بها مال مسلمٍ هو فيه كاذبٌ لقي الله وهو عليه غضبان»؛ إذًا هو يستحضر أنَّ الحلف بالله كاذبًا منكرٌ عظيم، ومع ذلك يقول: هو أهون من الحلف بغير الله صادقًا؛ قال العلماء: لأنَّ سيئة الشرك أعظم من سيئة الكذب، ولأنَّ حسنة التوحيد أعظم من حسنة الصدق.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (**وَعَنْ حُذَيْفَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «لَا تَقُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ وَشَاءَ فُلَانٌ، وَلَكِنْ قُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ شَاءَ فُلَانٌ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ**).

---

(٧٥٧) قال الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ عنه إنَّ إسناده على شرط الشيخين، ذكر هذا في «الإرواء».

هذا كما سبق التنبيه عليه، وسيأتي إن شاء الله الكلام عن ذلك في بابٍ خاص نفصل فيه القول بإذن الله.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَجَاءَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أَنَّهُ يَكْرَهُ أنْ يَقُوْلَ الرَّجُلُ: (أَعُوذُ بِاللهِ وَبِكَ)، وَيَجُوزُ أَنْ يَقُولَ: (بِاللهِ ثُمَّ بِكَ)).

الاستعاذة بالله وبغيره مضى الكلام فيها في بابٍ سابق، وعلِمنا أن **الاستعاذة لها وجهان**: وجهٌ يتعلق بالقلب، ووجهٌ يتعلق بالجوارح.

-**أما ما تعلق بالقلب**: فإنه لا يجوز أن يكون لغير الله ﷻ، يجب أن تكون الاستعاذة بالله ﷻ وحده.

-**أما ما كان بغير القلب** : فإنه يجوز أن يكون بحيٍ حاضرٍ قادر.

وقلنا عليه يتنزل ما جاء في السنة كقوله ﷺ عن الفتن: «فمن وجد معاذًا فليعُذ به»، دل هذا على أن الاستعاذة هنا من باب الاستجارة وطلب ما يدفع الشر عن الإنسان، وهذا جائزٌ إذا تعلق بحيٍ حاضرٍ قادر، إذا تعلق بالناس أو بالبشر فلا بُد أن تكون الاستعاذة بحيٍ حاضرٍ قادر. وبالتالي أثر النخعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يؤكد الفرق عند السلف بين العطف «بالواو»، والعطف بـ «ثم» على ما مضى الكلام فيه فيما سبق[٧٥٨] .

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (قَالَ: وَيَقُولُ: (لَوْلَا اللهُ ثُمَّ فُلَانٌ)، وَلاَ تَقُولُوا: (لَوْلَا اللهُ وَفُلَانٌ)).

---

(٧٥٨) وعلى هذا لا بأس من قول الإنسان: (أعوذ بالله ثمَّ بك) ، أمَّا (أعوذ بالله وبك) فهذا فيه تسْوية وتشريك وتنديد.

كما مضى؛ يجوز أن تقول: "لولا الله ثم فلان"، ولا يجوز أن تقول: "لولا الله وفلان".

وبهذا ينتهي الكلام عن هذا الباب.



قال المصنف رحمه الله:

٤٣-بَابُ
مَا جَاءَ فِيمَنْ لَمْ يَقْنَعْ بِالحَلِفِ بِاللّهِ

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، مَنْ حَلَفَ بِاللهِ فَلْيَصْدُقْ، وَمَنْ حُلِفَ لَهُ بِاللهِ فَلْيَرْضَ، وَمَنْ لَمْ يَرْضَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ» رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ بِسَنَدٍ حَسَنٍ.



قال الشارح وفقه الله:

هذا الباب وبعض ما تقدم وجملة مما سيأتي؛ كلُّ تلك الأبواب قائمةٌ على الحث والتأكيد على تحقيق التوحيد، وعلى البُعد عن كل ما يخدِّشُ فيه أو يُنقِص من كماله. التوحيد أصفى شيء وأنزه شيء ولذلك يؤثر فيه أدنى خادش، فهو كأبيض ثوب يُؤثر فيه أدنى شيء، والمسلم مُطالبٌ أن يحرص على سلامةِ توحيده وعلى سلامة قلبه، فإنَّ هذا الذي سلِمَ له قلبه هو الذي ينجو عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[الشعراء:٨٨-٨٩]، والقلب السليم: هو الذي أَسلَمَ وسَلَّمَ واستسلم وسَلِّمَ؛ سَلِمَ من غير الله عَزَّ وَجَلَّ ولم يكن فيه مشارك له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بوجه من الوجوه.

إذًا من المهم على كل مسلم يريد نجاة نفسه أن يحرص على أن يرابط على ثغور قلبه وجوارحه، وأن يحرص على مجانبة كل ما يؤثر في توحيده؛ سواء كان ذلك مما يقدح في كمال التوحيد الواجب، أو في كمال التوحيد المستحب، ومن باب أولى ما ينقُض التوحيد من أصله.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**بابُ ما جاء فيمن لم يقنع بالحلف بالله**)؛ يقنع: بمعنى يرضى، من قَنِعَ قنَعًا وقناعةً، من باب تَعِبَ؛ فهو يقنع بمعنى يرضى؛ وذلك أن من لم يقنع ويرضى بالحلف بالله ﷻ فإنه قد جاء فيه ذمٌ ووعيد، كما سيأتي معنا في هذا الحديث. وهذا الباب عقده المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ وأورد تحته دليلاً واحدًا، وهذا قد تكرر من المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بعض الأبواب.

والمقصودُ أنَّ الموحد؛ الله ﷻ في قلبه أعظم شيء، ولذا فإنَّه إذا حُلِف له بالله فإنه من تعظيمه لهذا المحلوف يرضى بهذا الحَلِفَ ويُجِل اسم الله ﷻ ويعظِّم اسمه ﷻ إذا ذُكر له، ولذلك فأنه يرضى ويقنع إذا حُلف له بالله ﷻ.

يشهد لهذا ما ثبت في الصحيحين النبي ﷺ يذكر أن المسيح عيسى عليه السلام رأى رجلا يسرق، فقال له «سرقت؟» قال: كلا والله الذي لا إله إلا هو، فقال عيسى عليه السلام: «آمنت بالله وكذَّبتُ عيني» وعند مسلم «وكذَّبتُ نفسي».

هذا الحديث فيه أنَّ المسيح عليه السلام كان الله ﷻ في قلبه عظيمًا، حتى إنه لما دار الأمر بين ثبوت تهمة السرقة على هذا الإنسان بدليل مشاهدة العين وبين نفيِ هذه التهمة والدليل الحلف بالله؛ رجَّح ﷺ ما دل عليه تعظيم الله ﷻ وهو الحلف به ﷻ ، وعاد بالتهمة على عينه وعلى ظنِّه، ولعله قام في قلبه عليه السلام أنَّ هذا الرجل لعله أخذ مالًا له فيه حق، أو لعله لم يكن يريد السرقة إنَّما أخذ متاعًا يقلِّبه وليس بقصد أنه يستأثر به ويستولي عليه.

المقصود أن عيسى عليه السلام -وهو من أئمة أهل التوحيد العظام، بل هو أحد أولي العزم من الرسل عليهم الصلاة والسلام صفوة البشر- كان الله ﷻ في قلبه

عظيمًا ، حتى إنه قال هذه الكلمة التي تدل على تعظيمه لله «آمنت بالله وكذبتُ عيني».

إذًا المطلوب من المسلم أن يعظم ربه ﷻ ، ومن ذلك أنه إذا حُلِّفَ له بالله فإن عليه أن يرضى، وسيأتي معنا إن شاء الله تفسير المراد بالرضا إذا حُلف له.

قال رَحِمَهُ اللهُ: (**عَنِ ٱبْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، مَنْ حَلَفَ باللهِ فَلْيَصْدُقْ، وَمَنْ حُلِفَ لَهُ باللهِ فَلْيَرْضَ، وَمَنْ لَمْ يَرْضَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ» رَوَاهُ ٱبْنُ مَاجَهْ بِسَنَدٍ حَسَنٍ**).

هذا الحديث خرَّجه ابن ماجه كما ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، لكن الذي في ابن ماجه: «**ومن لم يرضَ بالله فليس من الله**». إنما قوله: «**وَمَنْ لَمْ يَرْضَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ**» هذا عند البيهقي في «السنن الكبرى» ، وجاء عنده أيضًا رواية أخرى موضحة وهي: «**ومن حُلف له بالله فلم يرضَ فليس من الله**»، والمعنى على كل حال واحد.

هذا الحديث حديثٌ ثابتٌ عن النبي ﷺ ؛حسَّنه المؤلف كما رأيت، وجوَّد إسناده الحفيد الشارح، وقال البوصِيري: رجاله ثقات، وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «إرشاد الفقيه»: إنَّ إسناده جيدٌ قوي، وكذلك حسَّنه العراقي وابن حجر، وصححه أكثر من واحد من المعاصرين ومنهم المشايخ: ابن باز، والألباني، وأحمد شاكر رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ، فالحديث حديث ثابت.

هذا الحديث اشتمل على أربع كلمات:

- أولا: قال النبي ﷺ: «**لَا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ**»؛ وسبب هذا الحديث أن النبي ﷺ سمع رجل يحلف بأبيه فقال ﷺ هذا الحديث الذي بين أيدينا، قال: أولاً «**لا تحلفوا بآبائكم**»؛ والنهي عن الحلف بالآباء جاء كثيرًا في السنة:

-ومر معنا في دروس سابقة قول النبي ﷺ الثابت في الصحيحين: «ألا إنَّ الله ينهاكم عن أن تحلفوا بآبائكم، من كان حالفـًا فليحلف بالله أو ليصمت».

-كما ثبت أيضًا في الصحيحين من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: كانت قريشٌ تحلف بآبائها، فقال النبي ﷺ «لا تحلفوا بآبائكم».

-وثبت في صحيح مسلم من حديث عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لا تحلفوا بآبائكم ولا بالطواغي»، الطواغي: جمع طاغية .

-كما أخرج ابن أبي شيبة من طريق عكرمة عن عمر رضي الله عنه أنه قال: كنت أحدِّثُ قومـًا فقلت: لا وأبي، فإذا بصوتٍ يقول: «لا تحلف بأبيك»، فألتفت فإذا النبي ﷺ يقول: لو حلف بالمسيح لهلك، والمسيح خيرٌ من آبائكم»، قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: (هذا مرسلٌ يتقوَّى بشواهده).

المقصود أنَّ أحاديث نهيه ﷺ عن الحلف بالآباء أحاديث كثيرة عنه ﷺ .

وهذه الأحاديث لا مفهوم لها عند أهل العلم، يعني: هذه الأحاديث ليس لها مفهوم مخالفة؛ فلا تدل على أنَّ النهي إنما يتعلق بالحلف بالآباء بحسب، وهذا يعني أنه يجوز أن يُحلف بغيرهم؛ ليس الأمر كذلك، إنما هذا كان منه ﷺ جريًا على الغالب، فإن الغالب من حلِف أهل الجاهلية أنه كان بآبائهم، لعظمتهم في أنفسهم كما مر معنا قبل قليل من قول ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : «كانت قريش تحلف

بآبائها»، وإلا فإن النبي ﷺ قد نهى بالحلف بغير الآباء أيضًا؛ فإنه قد نهى عن الحلف بالكعبة، كما سيأتي معنا أن شاء الله في حديث قتيلة رضي الله عنها كما سيأتي في الباب القادم، كما أن النبي ﷺ قال: «ليس منا من حلف بالأمانة» وهذا حديث صحيح خرجه أحمد وغيره.

وكذلك النبي ﷺ نهى نهيًا عامًا وأمَر أمرًا عامًا؛ أما النهي العام فقوله ﷺ: «من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك»، وجاء عند عبد الرزاق من حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أيضا قال: «من حلف بشيء دون الله فقد أشرك». كذلك جاء الأمر منه ﷺ عامًا فقال عليه الصلاة والسلام: «من كان حالفـًا فليحلف بالله أو ليصمت»، هذا أمرٌ عام لكل حالف أن يحلف بالله فحسب، فإن لم يكن حالفًا بالله فإنه يجب عليه أن يصمت، وهذا دليلٌ على أنه لا يجوز الحلف بغير الله ﷻ.

والحلف بغير الله مضى الكلام فيه وبيان حكمه، وأنه على التحقيق -كما قال ذلك جمهور أهل العلم- أنَّ الأصل فيه أنه شركٌ أصغر، وقد يكون شرك أكبر إذا عَظُمَ هذا المحلوف به في قلب الحالف حتى كان مساويًا لعظمة الله ﷻ في قلبه، فإنه حينئذٍ يكون شركًا أكبر.

والواجب أن يُنْكَر هذا المنكر، ولا يجوز للإنسان أن يسكت عن إنكار هذا المنكر المنتشر وهو الحلف بغير الله ﷻ، ويكون المسلم في ذلك متأسيًّا برسول الله ﷺ، فإن النبي ﷺ ما سكت عن إنكار هذا المنكر، ولك يا عبد الله في رسول الله أسوةٌ حسنة.

النبي ﷺ لما سَمِع من حَلَف بأبيه وهو عمر رضي الله عنه نهاه ﷺ عن ذلك ،كذلك ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كما عند الترمذي سمع رجلًا يحلف بالكعبة فقال: «لا تحلف بالكعبة»، بل جاء في رواية عنه أنه قال: «ويحك لا تحلف بالكعبة، فإني سمعت رسول ﷺ يقول: من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك».

ومن لطيف ما يذكر هنا: ما أخرج أبو نعيم في «الحلية» عن نُعيم بن جرير الأسلمي التابعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٧٥٩] أنه سمع رجلًا يحلف بالأمانة، رجل يقول: والأمانة. فبكى رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقال له بعض من معه: ما يبكيك؟ قال: (أما سمعت هذا الرجل يحلف بالأمانة؟ ولأنْ تُحَكَّ أحشائي حتى تدمى خير عندي من أن يُحلف بالأمانة)[٧٦٠].

المقصود أنَّ على الموحد أن يعظم الله عَزَّ وَجَلَّ ، وأن يغار على حرمات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ومن ذلك: أن لا يرضيه أن يحلف بغير الله عَزَّ وَجَلَّ، وعليه أن يسعى جَهده في أن ينكر هذا المنكر ممن يقع فيه، والله المستعان.

◄ قال عليه الصلاة والسلام «**لَا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ**» ثم قال **وهذه الجملة الثانية**: «**مَنْ حَلَفَ بِاللهِ فَلْيَصْدُقْ**»؛ الصدق واجبٌ في كل الأحوال، فكيف إذا كان الكلام مقرونًا بالحلف بالله!! والكذبُ محرمٌ في كل الأحوال، فكيف إذا كان مقرونًا بكلام فيه ذكر اسم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

---

(٧٥٩) أورد أثرين له بهذا المعنى: «سَمِعَ رَجُلًا يَحْلِفُ بِالْأَمَانَةِ فبكى وبكى، فقال له: من معك؟ أَوَ هذا مما يُنهى عنه؟ قال: نعم، كان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ينهى عنه أشدَّ النهي.

(٧٦٠) وهكذا كان السَّلف عندهم تعظيمٌ لحرمات الله، لاسيَّما ما تعلق بجَناب التوحيد.

من كان حالفًا بالله ﷻ فواجبٌ عليه أن يكون صادقًا في حلفه. وإنَّ من المنكرات العِظَام أن يحلف الإنسان بالله ﷻ كاذبًا، هذا منكرٌ عظيم وإثمٌ بالغ، حتى إنَّ هذه اليمين يمينٌ غموس -نسأل الله السلامة والعافية- يمين غموس تغمس صاحبها في الإثم ثم في النار -عافاني الله وإياكم-، وقد ثبت في البخاري وغيره أن النبي ﷺ قال: «الكبائر: الشرك بالله، وعقوق الوالدين، والقتل، واليمين الغموس».

وضابط اليمين الغموس: أن يحلف الإنسان كاذبًا عامدًا. من حَلَفَ بالله وهو كاذب وهو يعلم أنه كاذب فليبشر بأنه وقع في هذا الإثم العظيم، وهو أنه وقع في هذه اليمين التي تدع البلاد بلاقِع. إثمها عظيم والله، وأشد ما يكون ذلك إذا كان يُقتَطع بهذا اليمين مال مسلم، ثبت في الصحيحين أن النبي ﷺ قال: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينِ صَبْرٍ، يَقْتَطِعُ بِهَا مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ هُوَ فِيهَا فَاجِرٌ، لَقِيَ اللهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ» .

هذا الذي يَحلِفُ على شيء مضى أنه كان كذا وكذا، "والله أنه كان كذا وكذا" وهو كاذب في ذلك؛ لأجل أن يعتذر، أو لأجل أن يتملَّق، أو لأجل أن يقتطع حق غيره؛ فإنه يكون قد وقع في هذا الإثم العظيم، ومن ذلك إنه يلقى الله ﷻ وهو عليه غضبان، نسأل الله السلامة والعافية.

إذًا هذا القدر من الحديث وهذه الجملة من الحديث تدل على أمرين:

١. على وجوب الصدق عند الحلف بالله.

٢. وعلى حرمة الكذب أشد التحريم إذا حُلف به ﷻ كذبا.

أمَّا الجملة الثالثة فهي موضعُ الشاهد من هذا الحديث وهي: قوله ﷺ: «وَمَنْ حُلِفَ لَهُ بِاللهِ فَلْيَرْضَ».

هذا الحديث محمولٌ عند أهل العلم على ثلاثة محامل:

➢ **المحمل الأول**: هو في الأيْمان في الدعاوى؛ فإنه إذا توجهت اليمينُ على الـمُدَّعَى عليه فحلف فإن على الـمُدَّعِي أن يرضى؛ لأنَّ هذا حُكم الله. الأصل في الدعاوى قول النبي ﷺ: «شاهداك أو يمينه»، كما جاء في حديث الأشعث بن قيس رضي الله عنه في الصحيحين لما كانت بينه وبين رجل خصومه، فقال النبي ﷺ: «شاهداك أو يمينه».

فإذا توجهت اليمينُ حيثُ لم يكن عند الـمُدَّعِي بينة؛ فتوجهت اليمين على الـمُدَّعَى عليه فَحَلَفَ، فما الذي يتوجبُ على الـمُدَّعِي؟ أنْ يرضى بذلك؛ لأنَّ هذا حُكم الله وليس له أن يَعْتَرِضَ على ذلك، وإن كان يعتقد في نفسه أن الحق له، لكنَّ الحكم الشرعي الدنيوي هو أنَّ عليه أن يرضى بذلك، وإن كان له حق فإنَّ الله سبحانه وتعالى سيستوفيه له؛ إمَّا في الدنيا وإلا في الآخرة.

إذاً هذا هو المحمل الأول؛ وهو أن يكون قوله ﷺ: «ومن حُلف له بالله فليرضَ» أي: في الأيمان في الدعاوى؛ وهذا المحمل محملٌ صحيح، وذهب إليه طائفةٌ من أهل العلم ومنهم المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فإن الشارح الحفيد الشيخ سليمان رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكر في «التيسير» أنه قد حُدِّثَ أن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ حمل الحديث على هذا المعنى.

➢ **أمَّا المحمل الثاني** فهو: أن من حُلف له بالله فليرض، ولا يجوز له أن يطلب الحلف بغيره. إذا حُلِفَ للإنسان بالله فإنَّ الواجب عليه أن يكتفي بذلك، ولا يجوز له بحال أن يطلب أن يُحْلَف له بغيره، كما قد يقع ذلك ممن لم يعظم الله حق تعظيمه ولم يقدره حق قدره؛ إذا كان له حق يمين على صاحبه أو على خصمه فحلف له بالله فإنه يقول: "لا، لا أقبل"، لابد عنده حتى تشفى غلَّته وحتى ترضى نفسه لابد أن يُحلف بأسياده وبطواغيته، عندها يرضى، أما إذا حُلِف له بالله فإنَّ هذا لا يكفيه، لابد أن تحلف بالسيد ولابد أن تحلف بالشيخ ولابد أن تحلف بهذا الذي يُشْركه مع الله ﷻ، بل ربما كان تعظيمه في قلبه أكثر من تعظيم الله. وهذا محمل صحيح أيضًا قال به بعض أهل العلم من حُلِفَ له بالله فعليه أن يرضى وأن يكتفي، ولا يجوز له أن يطلب الحلف بغيره ﷻ.

➢ **المحمل الثالث** -وهو الذي قد يتبادر عند أكثر من يطلع على الحديث- وهو: أن من حُلِفَ له بالله -حلف له أخوه بالله- فإنَّ عليه أن يرضى إذا تيقن صدقَه، أو ترجح له صدقُه، أو لم يتبين له كذبه.

عندنا ثلاث أحوال يجب وجوبًا على الإنسان إذا حُلِّفَ له بالله فيها أن يرضى وأن يصدق، وهي:

١. أن يتيقن من صدق الحالف إذا حلف له لأي سبب كان؛ كأن يعتذر له مثلاً، أو يخبره بشيء هو فيه متشكك، فحلف له بالله أنه قد كان، وهو يتيقن صدقه، فواجبٌ عليه أن يرضى وأن يصدق.

٢. أو إذا غلب على ظنه صدقُه؛ ترجح في نظره صدقه، فواجب عليه أيضًا أن يصدِّق.

٣. أو إذا لم يتبن له كذبه؛ ما عنده قرينة فضلًا أن يكون عنده دليل على أنَّ هذا الحالف قد كَذَبَ في حلفه، حينئذ عليه أن يُصَدِّق هذا الحالف، وهذا من تعظيم الله ﷻ، وفيه ما لا يخفاك أيضًا ما فيه من إحسان الظن بالمسلم، وفي هذا من المصالح العظيمة ما لا يخفى، وإحسانُ الظن بالمسلمين هذه من الأمور التي أضحت غريبةً عند كثير من الناس بل حتى عند بعض طلاب العلم، والله المستعان.

وبالتالي فإننا نفهم حينئذٍ أنَّه إذا لم تكن هذه الأمور الثلاثة فإنه لا يجب على الإنسان أن يرضى بهذا الحلف ولا أن يصدِّقه، وذلك في حالِ ما:

-إذا تيقن كَذِبَ هذا الحالف.

- أو غلب على ظنه كذبه.

-أو قامت عنده قرينة على أنه كاذب في حلفه؛ كأن يكون ممن عُرِفَ وعُهِدَ عليه الكذب؛ فحينئذٍ لا يلزمُه ولا يجب عليه أن يصدِّقه.

ويشهد لهذا التفصيل الحديثُ نفسه، ألم تر أنه قد قال ﷺ: «من حلف بالله فليصدُق، ومن حُلف له بالله فليرض» ؛ فكأنه ﷺ قال: من حلف فصَدَق فأنه يجب الرضا بحلفه وتصديق حلِفه. هذا الذي يبدو في توجيه هذا الحديث على هذا المحمل.

وكلُّ هذه المحامل الثلاثة صحيحة، وإذا أمكن حمل النص على أكثر من معنى هو فيها صحيح فإن حملها على ذلك هو الذي ينبغي أن يكون، والله تعالى أعلم.

الجملة الرابعة: قال ﷺ: «وَمَنْ لَمْ يَرْضَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ»، وعلى رواية البيهقي أو ما أورده المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن لم يرض فليس من الله»، وعلى الرواية الثالثة: «ومن حُلف له بالله فلم يرض فليس من الله»؛ هذا دليلٌ على وجوب الرضا بالحلف بالله وعلى تصديق الحالف، وأنَّ مخالفة ذلك معصيةٌ بل كبيرة من الكبائر؛ لأن ضابط الكبيرة منطبقٌ هاهنا، فهذا وعيدٌ خاص أنَّ من لم يرض بهذا الحلف بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فليس من الله.

هذه الجملة تُستعمل عند العرب بمعنى التبرِّي، يعني أن يتبرأ إنسان من شيء أو من أحد فإنه يستعمل مثل هذه العبارة:

إذا حاوَلْتَ في أسَدٍ فُجوراً فإني لستُ منكَ ولستَ مني

كما قال النابغة الذبياني، ومراده بأسد هاهنا: يعني قبيلة أسد فإنه كان يدافع عنها.

إذا حاوَلْتَ في أسَدٍ فُجوراً فإني لستُ منكَ ولستَ مني

يعني: أنا برئ منك، وأنت برئ مني.

والمعنى: أن من فعل هذا الفعل وهو عدم الرضا بالحلف بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فإن الله عَزَّ وَجَلَّ برئٌ منه؛ وهذا يدلك على أنَّ من وقع في ذلك فقد وقع في إثم عظيم.

إذًا الخلاصةُ التي نصلُّ إليها هي:

- أنَّ الحلف بالله ﷻ يجب أن يكون فيه الإنسان صادقًا، ولا يجوز أن يحلف بغيره.
- وأنَّ من حُلِفَ له بالله فمن تعظيم الله ومن إقدار الله أن يرضى الإنسان بهذا الحلف، ومن لم يرض فإنه مُتوعدٌ بهذا الوعيد.



قال المصنف رحمه الله:

٤٤-بَابُ
قَوْلِ (مَا شَاءَ اللّه وَشِئْتَ)

عَنْ قُتَيْلَةَ: (أَنَّ يَهُودِيًّا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: إِنَّكُمْ تُشْرِكُونَ، تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ، وَتَقُولُونَ: وَالْكَعْبَةِ، فَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَرَادُوا أَنْ يَحْلِفُوا أَنْ يَقُولُوا: وَرَبِّ الْكَعْبَةِ، وَأَنْ يَقُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ شِئْتَ). رَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَصَحَّحَهُ.

وَلَهُ أَيْضًا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ؛ أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ، فَقَالَ: «أَجَعَلْتَنِي للهِ نِدًّا؟! مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ».

وَلِابْنِ مَاجَهْ، عَنِ الطُّفَيْلِ - أَخِي عَائِشَةَ لِأُمِّهَا - قَالَ: رَأَيْتُ كَأَنِّي أَتَيْتُ عَلَى نَفَرٍ مِنَ الْيَهُودِ، قُلْتُ: إِنَّكُمْ لَأَنْتُمُ الْقَوْمُ لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ، قَالُوا: وَإِنَّكُمْ لَأَنْتُمُ الْقَوْمُ لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ، ثُمَّ مَرَرْتُ بِنَفَرٍ مِنَ النَّصَارَى، فَقُلْتُ: إِنَّكُمْ لَأَنْتُمُ الْقَوْمُ لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ، قَالُوا: وَإِنَّكُمْ لَأَنْتُمُ الْقَوْمُ لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ، فَلَمَّا أَصْبَحْتُ أَخْبَرْتُ بِهَا مَنْ أَخْبَرْتُ، ثُمَّ أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ: «هَلْ أَخْبَرْتَ بِهَا أَحَدًا؟»، قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّ طُفَيْلًا رَأَى رُؤْيَا أَخْبَرَ بِهَا مَنْ أَخْبَرَ مِنْكُمْ، وَإِنَّكُمْ قُلْتُمْ كَلِمَةً كَانَ يَمْنَعُنِي كَذَا وَكَذَا أَنْ أَنْهَاكُمْ عَنْهَا، فَلَا تَقُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ، وَلَكِنْ قُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ».



هذا (**بابُ قول ما شاء الله وشئت**)؛ أي: ما حكم ذلك؟ هل هو من الشرك الأصغر أو هو من الشرك الأكبر؟

أمَّا كون ذلك شركًا فهذا ما دلت عليه الأدلة ومنها ما سيأتي فيما أورد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ من الأدلة الثلاث الأحاديث التي أوردها في هذا الباب رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

والظاهر والله أعلم أن هذا القول قولٌ يرجع حكمه إلى الشرك الأصغر، لِما يدل عليه حديث الطفيل الآتي إن شاء الله؛ كون النبي ﷺ كان يمنعه الحياء من إنكار هذا اللفظ دليلٌ على أنَّ هذا ليس من الشرك الأكبر، إذ يَبْعُد أن يكون هذا القول شركًا أكبر ثم لا ينكره النبي ﷺ من أول وهلة.

أمَّا في حال ما إذا عَظُمَ في قلبِ المتكلم هذا الذي سوَّى بينه وبين الله ﷻ في المشيئة، كان في نفسه مُعَظمًا كتعظيم الله فلا شك أنَّ هذا من الشرك الأكبر.

والمحذور هاهنا هو في العطف بين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ والمخلوق بحرف (الواو) التي تقتضي التشريك والتسوية، ولا شك أنَّ هذا نوعُ تنديد، لا يجوز للمسلم أن يجعل

- في مقام التفويض والاعتماد والتعلق.
- أو في مقام التعظيم.

أن يجعل ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ والمخلوق في سياق يوهم التسوية والمشاركة؛ فلأجل هذا نهت الشريعة عن استعمال هذا اللفظ وعن التكلم به وهو أن يقول: الإنسان "ما شاء الله وشاء فلان"، أو أن يقول: "ما شاء الله وشئت".

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**عَنْ قُتَيْلَةَ: أَنَّ يَهُودِيًّا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: إِنَّكُمْ تُشْرِكُونَ؛ تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ، وَتَقُولُونَ: وَالكَعْبَةِ، فَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَرَادُوا أَنْ يَحْلِفُوا أَنْ يَقُولُوا: وَرَبِّ الكَعْبَةِ، وَأَنْ يَقُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ شِئْتَ. رَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَصَحَّحَهُ**).

هذا الحديث حديث قتيلة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا ؛ وهي قتيلة بنت صيفي الجُهنية، قال أبو عمر ابن عبد البر إنَّها من المهاجرات الأُوَل، وقيل: إنها أنصارية، قال ابن سعد: «ولا يُعرف لها إلا هذا الحديث».

هذه الصحابية الجليلة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا روت لنا (**أَنَّ يَهُودِيًّا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: إِنَّكُمْ تُشْرِكُونَ**)؛ ولاحظ هاهنا أنَّ النبي ﷺ أقرَّه على أنَّ هذا الذي زعم أنه واقعٌ في بعض المسلمين شرك، ولم ينكره النبي ﷺ ؛ فدَّل هذا على أنَّ الذي ذكره هذا اليهودي من الشرك.

ذكر جملتين مما كان يقوله بعض المسلمين:

الأول: الحلف بغير الله، حيث إن من المسلمين من كان يقول: "والكعبة"، وهذا ما مضى الحديث فيه، فكان من النبي ﷺ أن أمَرهم إذا أرادوا أن يحلفوا أن يحلفوا بالله فيقولون "ورب الكعبة" ،وهذا مضى الكلام فيه مفصلا فيما سبق.

أما الجملة الثانية فهي موضع الشاهد من هذا الحديث، وهي: أن من المسلمين من كان يقول: "ما شاء الله وشئت"، فأقر النبي ﷺ على أن هذه الجملة شرك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وبالتالي: أمر النبي ﷺ أن يقول القائل عند هذا السياق الذي يُراد فيه إثبات المشيئة لله ﷻ وللمخلوق، أن يكون العطف بـ (ثم) ، فيقول القائل: "ما شاء الله ثم شئت"؛ وذلك أنه إذا لم يكن عطفٌ بـ(الواو) فلم يكن هناك مساواة ولم يكن هناك تشريك، وذلك أنَّ (ثم) في اللغة تقتضي الترتيب مع المهلة، وبالتالي انتفى المحذور وانتفى المحظور، فجاز للإنسان أن يقول: "ما شاء الله ثم شئت".

ولاحظ يا رعاك الله أن هذا المقام فيه ثلاث مراحل:

١/ مرحلة محرمة.

٢/ مرحلة جائزة.

٣/ مرحلة فاضلة فيها الكمال.

أما المحرم الممنوع: فهو التشريك أو العطف بـ(الواو)؛ كأن يقول الإنسان: "ما شاء الله وشاء فلان"، أو "ما شاء الله وشئت"؛ هذا الذي جاء النص على أنه من الشرك بالله ﷻ ، فهو إذًا ممنوع[٧٦١].

---

(٧٦١) ولاشكَّ أنَّ هذا من الجملة الألفاظ الشركية التي تجري على الألْسن، وجاء الشرع بالنهي عنها، والنهي عنها معَ ثبوت المشيئة للمخلوق فيه تنبيهٌ على ما يماثل هذا اللَّفظ أو يكون أشنع منه، كما يقع من ألفاظ كثير من الناس قديمًا وحديثًا؛ كالذي يقول: (أنا بالله وبك)، (وما لي إلا الله وأنت)، (وأنا متوكلٌ على الله وعليك)، (وهذا من بركات الله وبركاتك)، ويقول: (الله لي في السماء وأنت لي في الأرض)، وأمثال هذه الألفاظ التي هي أشدُّ خطورة من هذا اللَّفظ الذي نهى عنه النبي ﷺ. إذًا على المسلم أن يحذر من ذلك وأن يتنبَّه له.

أما الدرجة الجائزة: فهي العطف بـ (ثم)؛ فهذه جائزة كما دل على هذا: هذا الحديث الذي بين أيدينا، وكما دل عليه أيضا حديث حذيفة رضي الله عنه وقد مر بنا في الباب الذي قبل السابق، وهو باب قول الله تعال: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[البقرة:٢٢]، مر بنا حديث حذيفة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا ما شاء الله ثم شاء فلان» خرَّجه أبو داوود بإسنادٍ صحيح. فهذان الحديثان يدلان على هذه الدرجة الجائزة؛ وهي أن يعطف الإنسان بـ (ثم) التي تقتضي الترتيب مع المهلة، وبالتالي ينتفي التشريك وتنتفي المساواة.

أمَّا درجة الكمال، الدرجة الفاضلة: أن يفوض الإنسان المشيئة لله عز وجل وحده، فيقولُ: "ما شاء الله وحده"؛ وهذا ما دل عليه حديث الطفيل الآتي، ودل عليه أيضا حديث ابن عباس رضي الله عنهما الآتي.

إذًا عندنا حديثان دلا على الدرجة الجائزة، وحديثان دلا على الدرجة الفاضلة؛ فإن شاء الإنسان أن يعطف بـ (ثم) فالأمر جائز، والأكمل والأفضل أن يجعل المشيئة لله سبحانه وتعالى وحده فيقولُ: "ما شاء الله وحده".

حديثُ قتيلةَ رضي الله عنها كما ذكر المؤلف خرجَّه النسائي رحمه الله ، وهو حديثٌ صحيح صححه النسائي كما نقل الحافظ في «الفتح»، وصححه الحافظ أيضًا كما في «الإصابة»، وصححه غيرُ واحدٍ من المتقدمين والمتأخرين، فهو حديثُ صحيحٌ ثابت، **وفيه فوائد:**

❑ **أولاً**: أنَّ معرفة الحق لا تستلزم اتباعه، وأنَّ معرفة الإيمان لا تستلزم الإيمان؛ العلم لا يستلزم العمل استلزام العلة للمعلول، العلم سبب، والسبب لا يستلزم المسبَّب؛ لِم؟ لأن ثمت موانع تمنع من تأثير الأسباب، وبالتالي ليس كل من كان عالمًا بالحق كان عاملًا بالحق.

ولذا تأمل هاهنا كيف أنَّ اليهود علموا هذه المسألة الدقيقة، لكنَّ هذا العلم ما نفعهم! فإنهم واقعون في فظائع كبيرة؛ كافرون بالله، مُكذِّبُون لرسل الله، ناسبون الولد لله، يحرِّفون كتاب الله، مع هذه الفظائع كلها يعرفون هذه المسألة الدقيقة إذا ما قارناها بتلك المسائل الكبار. ومن شواهد ذلك أيضا: قول الله ﷻ عن أهل الكتاب؛ أخبر الله ﷻ عن اليهود أنَّهم يعرفون نبينا ﷺ كما يعرفون أبنائهم، فهل استلزمت هذه المعرفة اتِّباعهم النبي ﷺ؟ الجواب: لا.

إذًا العلم لا يستلزم العمل ولا اتباع الحق استلزام العلة للمعلول، إنما العلم سبب، والسبب قد يؤدي إلى حصول المُسَبَّب وقد يكون ثمة مانع. ولذلك كم من الناس من يعلم كثيرًا من الحق لكنَّه لا يعمل به، بل كم من أهل العلم الذين يعملون بضدِّ ما علموا، والله المستعان.

❑ **من فوائد هذا الحديث أيضًا**: أنَّ من اليهود من عَلِمَ أو عَرَفَ الشرك الأصغر، وممن يَدَّعِي الإسلام من لم يعرف الشرك الأكبر! والله المستعان. هؤلاء يهود عرفوا هذه المسألة الدقيقة وهي من الشرك الأصغر، وإن مما يُؤْسَفُ له أن من المنتسبين إلى الإسلام من لم يعرف الشرك الأكبر، وحرِّك ترى.

❑ **من فوائد هذا الحديث أيضًا:** معرفة أنَّ الإنسان قد يكون له فَهْمٌ ثاقب إذا كان له هوى، وهذا ما نبَّه عليه المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مسائل الكتاب، قال: «فهم الإنسان إذا كان له هوى». هؤلاء اليهود ومنهم هذا اليهودي لما كان مراده انتقاصَ المسلمين وعيبهم قَلَّبَ وفتَّش بنظرٍ دقيق حتى وجد هذا العيب؛ وهو أنَّ من المسلمين من يقول: "والكعبة" أو "ما شاء الله وشئت"؛ فدَّلَ هذا على أنَّ صاحب الهوى قد يكون عنده فَهْمٌ دقيق ونظرٌ ثاقبٌ للأمور، وبالتالي فإنه لا يُنْكَرُ حينئذ في أعداء الله ﷻ من يأتي بمسائل دقيقة وأمور ملفتة، لأنهم أصحاب أهواء يبحثون ويجدّون في النظر، فربما أتوا بكلام صوابٍ مفيد.

❑ **وفي هذا أيضًا فائدةٌ رابعة:** أنَّه قد يكون العدو البغيض سببًا لخيرٍ كثير؛ هذا الانتقاص وهذا العيب الذي كان من هذا اليهودي كان سببًا لحصولُ خيرٍ عظيم، وهو أن تنبه المسلمون لهذه المسألة، وبالتالي فربما يُقَدِّرُ الله ﷻ حصول الخير من طريقٍ مكروه.

رب أمر تتقيه جرَّ أمرًا تشتهيه

❑ **وثمة فائدةٌ خامسةٌ أيضًا:** أن الحق يجب قبوله ممن جاء به، فلا يكون ضَلَالُ المتكلم بالحق مانعًا من قبول الحق، المسلم ينبغي أن يكون رائده الحق وأن يكون مطلوبه الصواب، وبالتالي فإنه إذا وقف عليه من أي طريق كان –من طريق أهل الحق أو من طريق أهل الباطل– فلا ينبغي أن يأنف من قبوله، ولا ينبغي أن يستكبر من اتِّباعه. هذا الحق الذي قاله هذا اليهودي وصل إلى

المسلمين من طريق ألدِّ أعدائهم وهم اليهود، ومع ذلك فإن النبي ﷺ قد قَبِلَ الحق وأمرهم بإتباعه.

وبالتالي فينبغي على الإنسان أن يُصْلِحَ سريرة نفسه، وأن يجرِّد القبول للحق في نفسه، وأن يكون مطلوبَهُ دائمًا، دائمًا يسعى إلى الحق، وينظر إلى الحق بغضِّ النظر عن الطريق الذي يصل إليه الحق من خلاله، وما أحسن تلك الوصية التي أوصى بها ابن مسعود رضي الله عنه كما خرج ذلك أبو نعيم وغيره حينما جاء إليه رضي الله عنه رجل يستوصيه، فقال رضي الله عنه: «اعبد الله ولا تشرك به شيئا، وزُل مع القرآن حيث زال، ومن جاءك بالحق فأقبل منه وإن كان بعيدًا بغيضا، ومن جاءك بالباطل فأردد عليه وإن كان حبيبًا قريبًا».

وأنبه في هذا المقام والشيء بالشيء يذكر، إلى أنه قد يستدل في هذا المقام بحديث مروي عن النبي ﷺ وهو أنَّه قال: «**الحكمة ضالة المؤمن، حيثما وجدها فهو أحق بها**»؛ وهذا الكلام كلام حسن وصحيح، إلا أن هذا الحديث لا يثبت عن النبي ﷺ، فقد خرَّجه الترمذي وغيره من إسناد ضعيف، بل ضعيف جدًا، فيه إبراهيم بن الفضل وهو متروك.

على كل حال على المسلم أن يكون مُنصفًا طالبًا للحق كما دل على هذا هذا الحديث، والله تعالى أعلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وَلَهُ أَيْضًا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ، فَقَالَ: «أَجَعَلْتَنِي للهِ نِدًّا؟!، مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ»**).

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وَلَهُ)** أي للنسائي، أن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا حدث: «أن رجلا قال للنبي ﷺ ما شاء الله وشئت. فقال ﷺ: أجعلتني لله ندا؟ ما شاء الله وحده»؛ هذا الحديث حديثٌ صحيح صححه ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ في «المدارج»، ووصفه في «الجواب الكافي» بالثبوت، وحسَّنه العراقي وصححه[٧٦٢] من المتأخرين جمعٌ من أهل العلم.

وهذا اللفظ الذي بين أيدينا لا أعلمه في سنن النسائي، إنما الذي في الكبرى: «أجعلتني لله عِدلا»، وهكذا وهو في مسند الإمام أحمد، أما لفظ (ندا) فهذا جاء عند البخاري في الأدب المفرد بإسنادٍ صحيح، قال النبي ﷺ «جعلت لله ندًا».

المقصود أن النبي ﷺ جاء عنه في هذا الحديث لفظان:

- «أجعلتني لله عدلًا».
- «جعلت لله ندًا».

وهذا تفسيرٌ نبوي لقول الله سبحانه: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾[البقرة:٢٢]، ويدلنا على أن التنديد قد يكون شركًا أكبر، وقد يكون شركا أصغر؛ فهذا اللفظ التي بين أيدينا تنديدٌ أصغر، نوع تنديد لا يبلغ إلى التنديد الكامل الذي هو الشرك الأكبر كالاستغاثة بغير الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

(٧٦٢) وصحَّحه الشيخ ناصر.

والمقصود أن هذا الحديث فيه إرشاد النبي ﷺ إلى الدرجة الكاملة الفاضلة، وهي أن يقول الإنسان: "ما شاء الله وحده"، وذلك يدل على كمال التفويض والاعتماد والتوكل على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقد يقول قائل: النبي ﷺ أنكر هاهنا وفي حديث قتيلة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا وفي حديث الطفيل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ هذه التسوية بالواو، يعني العطف بهذا الحرف؛ فماذا نقول في بعض النصوص التي فيها العطف بالواو: ﴿وَأَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ﴾[آل عمران:١٣٢]، ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾[النساء:١٤]، ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ﴾[النساء:٥٩]، ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ [لقمان:١٤]؛ هذه نصوص وأمثالها كثير، فيها العطف بحرف (الواو) بين الله والمخلوق، **فكيف نجمع بين النصوص التي بين أيدينا وهذه النصوص؟**

قال بعض أهل العلم: إنَّ هذه الأحاديث التي بين أيدينا ناسخةٌ للأدلة التي فيها العطف بـ(الواو)، وهذا ما نحا إليه الطحاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «شرح مشكل الآثار»، لكن هذا التوجيه فيه ما فيه.

والصواب والله تعالى أعلم أن يقال: إن ثمة فرقًا بين مقامين: بين مقام الأمر والنهي، ومقام التفويض والاعتماد والتعلق القلبي، أو مقام التعظيم.

- فما كان السياق متعلقًا بالتفويض والاعتماد والتوكل فالواجب أن لا يكون العطف بـ(الواو)، وكذا الأمر إذا كان المقام مقام تعظيم.

• أما في مقام الأمر والنهي فلا حرج؛ فالله ﷻ أمر بطاعته وطاعة رسوله ﷺ، والله ﷻ أمر بالشكر له والشكر للوالدين، وهذا بالتالي جاز فيه العطف بـ(الواو)، والله تعالى أعلم.

من فوائد هذا الحديث:

➢ أنْ نعلم أن هذه الألفاظ التي فيها التسوية والتشريك بين الله ﷻ والمخلوق في المقام الذي علِمت وهو مقام التفويض والاعتماد والتعلق، أو مقام التعظيم؛ أنَّ هذا لا يجوز، وهذا مع الأسف الشديد ما وقع ويقع فيه كثير من الناس، ربما وقعوا في هذا القول أو في مثله أو في ما هو أشد منه؛ كقول بعضهم: "ما لي إلا الله وأنت"، "وأنا متوكل على الله وعليك"، "وأنا في حسْب الله وحسْبك"، أو "مالي إلا الله في السماء وأنت في الأرض"، وأمثال هذه الألفاظ التي هي مثل اللفظ الذي بين أيدينا في الكراهة والنكارة أو أشد. أو يكون اللفظ من ألفاظ التعظيم، كقول بعضهم: "بسم الله والوطن"، أو "بسم الله والشعب"، وأمثال هذه الألفاظ، لا شك أن هذا كله مما لا يجوز للمسلم أن يقع فيه. هذه فائدة.

➢ **وفائدةٌ ثانية وهي**: ما علمناه من هذا الحديث وأضرابه من حرص النبي ﷺ على حماية حمى التوحيد، وإبعاده أمته عن كل ما يخدش أو يؤثر في توحيدهم، وأن قاعدة سد الذرائع من القواعد الشرعية التي ينبغي إعمالها من الدعاة وطلاب العلم.

➢ **وفائدةٌ ثالثة**: وهي أنَّ حسن النية والقصد لا يمنع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبذل النصيحة.

➘ فإن من الناس من إذا نُبِّه على هذه الألفاظ ونحوها قال: "أنا نيتي طيبة وقصدي حسن"، فلماذا تنكرون عليّ أو تنكرون على غيري؟ الناس نيَّتها طيبة ولا يريدون تعظيم المخلوق كتعظيم الله.

والجواب عن هذا أن يقال: تأمل يا رعاك الله فيه هذا الحديث، أتظن أن الصحابي الذي قال هذه الكلمة جعل النبي ﷺ مساويًا لله في التعظيم؟ يعني حينما قال الصحابي "ما شاء الله وشئت" أكانت التسوية والتشريك عنده في اللفظ؟ أو كان هذا معنى قائما في قلبه؟ كان معظما للنبي ﷺ كتعظيم الله! ما هو ظننا بأصحاب النبي ﷺ؟ لا شك أن المظنون بالصحابة أن تعظيم الله ﷻ في قلوبهم أكبر من كل شيء، وبالتالي فإنَّ هذا الصحابي إنما وقع في خطأ لفظي، شَرَّكَ في القول ونيته حسنة وقصده طيب، بل نيته خيرٌ من نيات المتكلمين في هذا العصر، ومع ذلك أترك النبي ﷺ النصيحة؟ أترك النبي ﷺ الإنكار؟! إذًا لا ينبغي أن يكون حسن القصد حاجزًا دون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

➢ **وثمت فائدة رابعةٌ أيضًا**: ما نبه المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن قول: "ما شاء الله وشئت" باللفظ فقط عدَّه النبي ﷺ تنديدًا، فقال: «أجعلتني لله ندًا؟» .قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فكيف بمن قال:

يَـا أَكْـرَمَ الخَلْـقِ مَـالَي مَـنْ أَلُـوذُ بِـهِ ... سِـوَاكَ عِنْـدَ حُلُـولِ الحَـادِثِ
فَـإِنَّ مِـنْ جُـودِكَ الـدُّنْيَا وَضُـرَّتَهَا ... وَمِـنْ عُلُومِـكَ عِلْـمَ اللَّـوْح

وَلَنْ يَضِيقَ رَسولَ الله جاهُكَ بي　　　إذا الكريمُ تَحَلَّى باسْمِ مُنْتَقِم

بالله ماذا كان الظن بالنبي ﷺ لو سمع مثل هذه الكلمات؟ ماذا كان قوله أو ما يُظن أنه يقوله ﷺ لو سمع البوصيري أيضا في «همزيته» وهو يخاطب النبي ﷺ يقول:

هَــذِهِ عِلَّتِـــي وَأَنْـــتَ طَبِيبِـــي　　　لَـيْسَ يَخْفَـى عَلَيْـكَ فِـي الْقَلْـبِ دَاءُ

ماذا كان ﷺ نظنُ أنه يقول في حق من قال في مخاطبته ﷺ(٧٦٣):

---

(٧٦٣)فبالله ماذا تتخيّلون لو أنَّ النبي ﷺ سَمِعَ أنواع الغُلوّ التي تصل إلى حدّ الشرك الأكبر الفظيع الذي يخاطَبُ به عليه الصلاة والسلام بعد وفاته؟ بالله ماذا كان قائلًا لو سمع البصيري وهو يقول في حقه:

لَوْ نَاسَبَتْ قَدْرَهُ آيَاتُهُ عِظَمًا　　　أَحْيَا اسْمُهُ حِيْنَ يُدْعَى دَارِسَ الرِّمَمِ

بلْ كيف لو سمع ما هو أشنع وأفظع، كقول البُرعي –عامله الله بما يستحق– حينما قال:

يا رَسول اللَه يا ذا الفضل يا　　　بَهْجَةً فِي الْحَشْرِ جَاهًا وَمقَامَا

عُدْ عَلَى عَبْدِالرَّحِيمِ المُلْتَجِي　　　بِهِمَا عِزِّكَ يَا غَوْثَ اليَتَامَى

وَأَقِلْنِي عَثْرَتِي يَا سَيِّدِي　　　فِي اكْتِسَابِ الذَّنْبِ فِي خَمْسِينَ عَامَا

ماذا تُرى النبي ﷺ قائلًا لو سمعه وهو يقول في قصديته الأخرى:

يَا سَيّدِي يَا رَسُولَ اللهِ يَا أَمَلِي　　　يا مَوْئِلي يا مَلاذِي يومَ يَلقَاني

إنا لله وإنا إليه راجعون. يقول:

هَبْني بِجاهِكَ ما قَدَّمتُ مِن زَلَلٍ　　　جُودًا ورَجِّحْ بفَضلٍ منك ميزاني

واسْمَعْ دُعَائِيَ وَاكْشِفْ مَا يُسَاوِرُنِي　　　..

ويقول:

وَأَزِلْ مَا فِي خَاطِرِي مِنْ أَحْزَانِي　　　..

وَأَقِلْنِـــي عَثْرَتِـــي يَـــا سَـــيِّدِي فِي اكْتِسَابِ الذَّنْبِ فِي خَمْسِينَ عَامَا

ماذا كان يقول النبي ﷺ في أمثال هذه الألفاظ وهذه الأبيات وهذه الجمل التي إذا ما قيست بكلمة "ما شاء الله وشئت" وجدت أنه لا يمكن أن تُقاس! ولا يمكن أن يقارن الفحش والشرك بين هذه الألفاظ وبين هذه الجملة.

إذًا على المسلمين أن يعرفوا التوحيد، وأن يعظموا الله، وأن يتنبهوا إلى المحذورات الشرعية؛ النبي ﷺ يغضب وينكر لفظًا قيل بالكلام فقط "ما شاء الله وشئت"؛ فيقول النبي ﷺ: «أجعلتني لله عِدلا؟ جعلت لله ندا؟ بل ما شاء الله وحده».

وهذا اللفظ جاء -كما عندنا في نسخة المؤلف-: «ما شاء الله وحده»، وجاء أيضا: «بل ما شاء الله وحده»، وجاء أيضا: «قل ما شاء الله وحده».

إلى أن يقول:

فَأَنْتَ أَرْجَى مَن يُرْجَى إِجَابَتُهُ عِنْدِي وَإِنْ بَعُدت داري وَأَوْطَانِي

بالله ماذا أبقى هذا الإنسان؟ ماذا أبقى هذا المشرك لدينه وتوحيده؟ لا ربوبية، ولا ألوهية ولا أسماء ولا صفات؛ كلُّ ذلك جعله لغير الله تبارك وتعالى.

أنَّى هذا من قول أولئك الأولين: ﴿هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ﴾، (لبيكَ لا شريك لك إلا شريكًا هو لك، تملكُه وما مَلَك)!! ومثل هذا ترى كثيرًا مِمَّن يدَّعي الإسلام يترنَّم به ويبتهج ويطرب وهو يتغنَّى به -عياذًا بالله- . إذا كان هذا اللَّفظ الصغير اليسير أمام ذاك الشرك الفظيع الخطير، يقول فيه النبي ﷺ ما سمعتَ، فكيف بهذا الشرك!!.

والمقصود أنَّ هذا اللَّفظ من الأمورِ المُنكَرة التي يجب أن يُبادَر بإنكارها هي وأمثالها مما يَجري ألْسن كثيرين، نسأل الله السلامةَ والعافية.

➢ **وهذا فيه فائدةٌ سادسة:** وهي أنه إذا ما أُغلق باب الحرام ينبغي فَتُح باب الحلال؛ إذا ما نبه الداعية إلى الله على أمرٍ مُنْكر فإن من المستحسن والذي ينبغي مهما أمكن أن يُبيّن المخرَج، النبي ﷺ بيّن أن هذا اللفظ منكر، ومع ذلك عطف ﷺ بيان اللفظ الصواب والمخرج من هذا الخطأ، وهو أن يقول الإنسان: (ما شاء الله وحده). وهكذا ينبغي أن تكون سيرة الدعاة إلى الله ﷻ ما أمكن إلى ذلك السبيل، وهو أنَّهم إذا نهوا عنه شيء فتحوا الأبواب المباحة أو المسنونة المستحبة، والله ﷻ أعلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَلِابْنِ مَاجَهْ عَنِ الطُّفَيْلِ -أَخِي عَائِشَةَ لِأُمِّهَا- قَالَ: رَأَيْتُ كَأَنِّي أَتَيْتُ عَلَى نَفَرٍ مِنَ اليَهُودِ، قُلْتُ: إِنَّكُمْ لَأَنْتُمُ القَوْمُ لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ، قَالُوا: وَإِنَّكُمْ لَأَنْتُمُ القَوْمُ لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ، ثُمَّ مَرَرْتُ بِنَفَرٍ مِنَ النَّصَارَى، فَقُلْتُ: إِنَّكُمْ لَأَنْتُمُ القَوْمُ لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: المَسِيحُ ابْنُ اللهِ، قَالُوا: وَإِنَّكُمْ لَأَنْتُمُ القَوْمُ لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ، فَلَمَّا أَصْبَحْتُ أَخْبَرْتُ بِهَا مَنْ أَخْبَرْتُ، ثُمَّ أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ: «هَلْ أَخْبَرْتَ بِهَا أَحَدًا؟»، قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّ طُفَيْلًا رَأَى رُؤْيَا أَخْبَرَ بِهَا مَنْ أَخْبَرَ مِنْكُمْ، وَإِنَّكُمْ قُلْتُمْ كَلِمَةً كَانَ يَمْنَعُنِي كَذَا وَكَذَا أَنْ أَنْهَاكُمْ عَنْهَا، فَلَا تَقُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ، وَلَكِنْ قُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ»).

هذا الحديث حديث الطفيل بن سخبرة الأزدي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وهو أخو عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا لأمها، وأمهما أم رومان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا وهو أكبر منها، وأكبر من أخيها عبد

الرحمن رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وهذا الصحابي كما قال البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (لا يُعرف له إلا هذا الحديث).

فمعنا إذًا في هذا الباب صحابيان جليلان رويا حديثًا واحدًا هو الحديث الذي بين أيدينا؛ قتيلة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، والطفيل بن سخبرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وهذا الحديث عزاه المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى ابن ماجه، وهذا المقام يحتاج إلى شيء من التوضيح؛ وذلك أن الذي في ابن ماجه أنه أخرج الحديث من طريق سفيان بن عيينة، عن عبد الملك بن عمير، عن ربعي بن حِراش، عن حذيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بلفظٍ نحو هذا بين أيدينا، ثم قال: (وبنحوه عن الطفيل) ولم يسق هذا اللفظ الذي بين أيدينا، فنِسْبته إذًا إلى ابن ماجة بهذا الإطلاق فيها نظر.

إنما قريبٌ من هذا اللفظ جدًا ما أخرج الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن الطفيل بلفظ قريب مما بين أيدينا. والحديث كما قد سمعت رواه سفيان ابن عيينة، عن عبد الملك بن عمير، عن ربعي ابن حراش، عن حذيفة.

وخالف في ذلك جمعٌ من الحفاظ؛ فأبو عوانة وكذلك حماد بن سلمة وكذلك شعبة روى هؤلاء الحفاظ الثقات الثلاثة، هذا الحديث عن عبد الملك بن عمير، عن ربعي، عن الطفيل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، ورواية هؤلاء لا شك أنها أثبت وأرجح، وهذا ما رجح الحفاظ، ومنهم البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في التاريخ الكبير؛ فالحديث حديث الطفيل لا حديث حذيفة، وإنما حصل وهمٌ من سفيان رَحِمَهُ ٱللَّهُ في نسبته إلى حذيفة رضيَ الله تعالى عن الجميع.

المقصود: أن هذا الحديث حديثٌ صحيح، بل قال البوصيري في «الزوائد» إنه على شرط مسلم، وصححه وغيره من أهل العلم.

وفيه ذِكر رؤية منامية رآها الطفيل رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ، ثم لما استيقظ حدَّث بها من حدَّث أهله، ثم ذهب إلى النبي ﷺ وحدَّثه بها، فكان أن خطب النبي ﷺ ونبَّه إلى ما قد سمعت. ففي هذا الحديث الدلالة التي سبقت في حديث ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا ؛ وذلك أن الأكمل والأولى والأفضل أن يقول الإنسان في هذا المقام: (ما شاء الله وحده)، وهذا هو الأكمل، ويجوز قول: (ما شاء الله، ثم شاء محمد)، أو (ثم شاء فلان أو ثم ما شئت).

وبقيت مسألة واحدة في هذا الحديث: وهو قول النبي ﷺ: «**كان يمنعني كذا وكذا**»، وجاء في بعض روايات الحديث توضيح هذا المبهم[٧٦٤]، وهو: أنه كان يمنعه الحياء ﷺ من إنكارها، ومعلومٌ من كان عليه النبي ﷺ من الحياء العظيم، حتى إنَّه كان أشدَّ حياءً من العذراء في خدرها.

وقد يقول قائل: كيف يترك النبي ﷺ إنكار المنكر حياءً من الناس؟

والجواب عن ذلك أن يُقال: إنَّ النبي ﷺ كَرِهَ هذا اللفظ الذي أَلِفَهُ هؤلاء الناس، ولكنه لم يوحَ إليه فيه شيء[٧٦٥]، ثَّم بسبب ما كان من هذه الرؤيا أوحيَ

---

(٧٦٤) وجاء في رواية التصريح بالسبب، ألا وهو الحياءُ منهم؛ قال: «كان يمنعُني الحياءُ منكم» .

(٧٦٥) وهذا يدلُّك على أنَّ هذا اللَّفظ من جنس الشرك الخفي الأصغر، لا الأكبر، وإلا فإنه كان يُنكرُه عليه الصلاة والسلام أوَّل وهْلة لو كان من الأكبر.

إلى النبي ﷺ فكان منه البلاغ والإنكار. هذا الذي يبدو في توجيه هذا الحديث، والله تعالى أعلم.



قال المصنف رحمه الله:

٤٥-بَابُ
مَنْ سَبَّ الدَّهْرَ فَقَدْ آذَى اللّه

وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية:٢٤] الآيَةَ.

فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «قَالَ اللهُ تَعَالَى: يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ يَسُبُّ الدَّهْرَ، وَأَنَا الدَّهْرُ؛ أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ». وَفِي رِوَايَةٍ: «لَا تَسُبُّوا الدَّهْرَ؛ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الدَّهْرُ».

قال الشارح وفقه الله:

لا يزالُ المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يوالي عَقْدَ الأبواب التي فيها التنبيه والتحذيرُ عمَّا يقدحُ في كمال التوحيد الواجب؛ ومن ذلك ما يتعلقُ بسب الدهر الذي يكون قادحًا في كمال التوحيد، وقد يكونُ ناقضًا لأصل التوحيد.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (بَابُ مَنْ سَبَّ الدَّهْرَ فَقَدْ آذَى اللهَ)؛ الله عَزَّ وَجَلَّ قد يؤذيه عباده لكنهم لا يضرونه دل على هذا الكتاب والسنة.

أما فيما يتعلق بالأذى؛ فمن ذلك قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾[الأحزاب:٥٧]، وقال النبي ﷺ كما في الصحيحين: «من لِكعب بن الأشرف، فإنه قد آذى الله ورسوله»، كما ثبت أيضًا في الصحيحين قول النبي ﷺ: «لا أحد أصبرُ على أذىً سمعه من الله، ينسبون له الولد وهو يرزقهم ويعافيهم»؛ فالأذى قد يكون من المخلوقِ بحق الخالق عَزَّ وَجَلَّ

ولكنه ليس كأذى المخلوقِ للمخلوقِ، فالله أعز شأنًا وأرفع قدرًا، وليس كمثله شيء، وإذا كان ثمة أذى من المخلوقِ في حق الخالق فإن هذا ليس في حقه نقصًا، فإن الله ﷻ يتنزه عن كل نقص، والله أعلم بكيفية هذا الأذى.

أما الضرر؛ فإنه لا ينال الله ولا يلحقه سبحانه وتعالى، الضرر أشد وقعًا وأعظم أثرًا من الأذى؛ الأذى يستعمل فيما يخِف: ﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى﴾[آل عمران:١١١]، الضرر لا يقع على الله، والعباد لا يضرون الله قال ﷻ: ﴿إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئًا﴾[آل عمران:١٧٦]، وكذلك قال النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه ﷻ: «يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني»، والحديث في صحيح مسلم.

إذًا العباد قد يؤذون الله، ومن ذلك سب الدهر؛ لأنه في حقيقته راجعٌ إلى من يدبره ويقلبه وهو الله ﷻ. أما الضرر فإنه لا يكون في حقه سبحانه وتعالى.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**بابُ مَنْ سَبَّ الدَّهْرَ**)؛ السب معروف؛ هو: الشتمُ والعيبُ والتنقيص، وهو درجاتٌ متفاوتة ولكل درجةٍ حكمها.

والدهرُ يطلق -على الصحيح- على أمرين:

أولًا: يطلق الدهر على الأبد.

والمعنى الثاني: هو عمر الزمان أو الوقت الطويل.

إذًا عمر الدنيا يعني من مبدئها إلى منتهاها هذا يسمى «الدهر»، والمدة من هذا الوقت الطويل الذي هو من مبدأ الدنيا إلى منتهاها يسمى أيضا «دهرًا»، يعني يطلق على الزمان الطويل، ويدل على هذا قول الله سبحانه وتعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى

الإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ﴾[الإنسان:١]، قَالَ النبي ﷺ: «لو أحسنت إلى إحداهن الدهر ثم رأت منك ما تكره قالت: ما رأيت منك خيرًا قط».

المقصود أن الدهر يطلق على الأبد، كما يطلقُ على عمر هذه الدنيا، عمر هذا العالم.

ويطلق أيضا على المدة من الزمان، لكنَّ العرب لا يستعملون ذلك إلا فيما طال فيه الوقت، ما قَصُر لا يُستعمل في حقه إنه «دهر»، فإنهم يقولون مثلًا: "نزلنا ها هنا دهرًا" والمراد: وقتًا طويلًا.

وهذا هو المقصود بعقد هذا الباب؛ وهو ما يتعلق بالزمن سواء تعلق بعمر الدنيا، أو تعلق بالمدة المعينة من هذا الزمن فإن ذلك كله داخل في معنى الدهر.

والباب على كل حال يشمل المدة الطويلة والقصيرة، فلو سب الإنسان ساعة أو يومًا فإنه داخل في حكم هذا الباب الذي نتحدث عنه.

وفي الجملة ما يرجع إلى هذا الموضوع من حيث الحكم يمكن أن يُقسَّمَ إلى عدة أقسام:

- **أولًا**: أنه يُسبَّ الدهر على أنَّه الفاعل المؤثر المدبر، يُسَّبُ الدهر على أنه هو الذي يفعل وهو الذي يؤثر؛ وهذا لا شك أنه شركٌ أكبر(٧٦٦).
- **ثانيًا**: أن يسب الدهر والمراد من يدبره وهو الله ﷻ ؛ يعني يسب إنسانٌ الدهر وهو يستحضر أن ما يقع عليه من الشدائد والمحن التي كرهها والتي سب الدهر والزمان لأجلها، يستحضرُ أن هذا السب يريد به من فعل ذلك وهو الله

---

(٧٦٦) وهذا هو الذي وقع من بعض المشركين والدَّهرية.

ﷻ؛ ولا شك أنَّ سب الله ﷻ كفرٌ باتفاق المسلمين، وهذا من المعلوم من الدين بالضرورة.

❁ **ثالثًا**: سبُ الدهر باعتباره ظرفًا ووعاءً حصل فيه ما يكره الإنسان؛ وهذا الذي يقع كثيرًا من الناس، لا يريد من دبره، ولا يريد أنه يتصرف ويدبر بنفسه، إنما سبَّه لأنه زمانٌ وقع عليه فيه ما يكره، فهذا محرمٌ وليس بشرك.

❁ **ويمكن أن نقول** -تتمةً للقسمة- **ثمة قسمٌ رابع وهو**: الإخبار المحضُّ بشدةٍ في الزمن، بحيث لا يدل الكلام على عيبٍ وتنقيصٍ وسب، أو على تلوُّمٍ وقدحٍ في القدَر، فإذا أخبر الإنسان عن شدة في الزمان فقال: "كان ذلك اليوم عليَّ شديدًا" فإن هذا ليس فيه شيء، هذا قدْرٌ جائز وهذا قد جاء في كتاب الله في غير ما موضع، قال ﷻ: ﴿فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ﴾[فصلت:١٦]، ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ﴾[القمر:١٩]، ﴿وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾[هود:٧٧]، كذلك قال ﷻ: ﴿سَبْعٌ شِدَادٌ﴾[يوسف:٤٨]. فدَّل هذا على أن الإخبار عن شدةٍ في الوقت أو في الزمان نالت الإنسان فيخبُر به إخبارًا محضًا أن هذا القدر جائزٌ لا بأس فيه(٧٦٧) كما دل على ذلك الأدلة التي سبقت.

إذًا الأحكام المتعلقة في هذا الباب تعود إلى هذه الأحوال الأربع؛ منها حالان يكون الحكم فيهما الشرك والكفر، وحالٌ الحكم فيها التحريم، ورابعةٌ يكون الحكم فيها الجواز.

---

(٧٦٧) ولا يدخل في السَّب، وإنما ذكرتُه تتميمًا للقسمة.

وهذا الموضوع من الموضوعات التي ينبغي التنبه في شأنها؛ وذلك لكثرة الخطأ وكثرة الغفلة عن مراعاةِ هذا المقام العظيم الذي يتعلق بتحقيق الأدب من المخلوق للخالقﷻ؛ مراعاة الأدب مع الله ﷻ تقضي أن يتحفظ الإنسان في كلامه، لأنه قد يقول قولًا يعودُ حكمه إلى ربنا ﷻ، يعني يلزم من هذا الكلام أن تعود المسبة أو يعود القدحُ إلى ربنا ﷻ، ولا شك أن هذا من نقص التوحيد، ومن ضعف الإيمان بالله ﷻ.

قال المصنف رحمه الله: (**وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾** [الجاثية:٢٤] **الآيَةَ**).

هذه الآية في سورة الجاثية فيها كلام طويل لأهل التفسير؛ **﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾**، **في هذه الآية أخبر الله ﷻ عن أمرين يعتقدهما طائفة من المشركين:**

- **الأمر الأول**: هو نفي البعث، واعتقاد أن لا بعث ولا حشر ولا جزاء؛ وهذا معتقدُ عامة المشركين وهو الذي دلَّ عليه قوله تعالى: **﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾**؛ إذًا ما ثمة شيء وراء ذلك، ما هي إلا أرحام تدفع، وأرضٌ تبلع، وليس وراء ذلك شيء، لا حشرٌ ولا بعثٌ ولا حسابٌ ولا جزاء.

وهذا -كما ذكرت لك- معتقد عامة المشركين، بل هذا الأمر كان أعظم ما تشدَّد فيه المشركون بعد قضية التوحيد، أعظم ما أنكره المشركون مما جاء به النبي ﷺ بعد التوحيد هو أمر البعث، قال ﷻ عنهم: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ

لا يَبْعَثُ اللهُ مَنْ يَمُوتُ﴾[النحل:٣٨]، ﴿وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾ [السجدة:١٠]. إذًا كان القوم يتشددون جدًا في نفي وإنكار البعث، فإذا مات الإنسان لا شيء وراء ذلك، ينتهي ويضمحل ويضلُ في الأرض ولا شيء بعد.

إذًا المعتقد هو المعتقد العام السائد لدى المشركين، وإن كانت بعض أشعار العرب وبعض منثور قولهم قد جاء فيه ما يشهد أن قلة من المشركين كانت تعتقد بثبوت البعث، لكنَّ العامة -كما ذكرت لك- هم على هذا المعتقد وهو ما جاء في هذه القطعة من الآية(٧٦٨).

➢ **أمَّا الأمر الثاني**: هو قول الله ﷻ: ﴿**وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ**﴾(٧٦٩) ؛ هذا البيان من الله ﷻ عن حال هذه الطائفة من المشركين فيها إشارةٌ إلى معتقد الدهرية من المشركين.

---

(٧٦٨) **﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ لأهل التفسير كلام طويل في تقديم الموت عن الحياة هنا:**

- قِيلَ إن المقصود: نموت نحن ويحيا غيرنا.

-أو نموت نحن ونحيا بحياة أبنائنا.

- أو نموت ونحيا بذكرنا الطيب.

- أو أنَّه حصل تقديمٌ وتأخير؛ يعني نحيا ونموت، ومثل هذا يقع في كلام العرب أن يحصل تقديم وتأخير، فـ«الواو» لا تقتضي الترتيب.

(٧٦٩) فهذا منهم إنكارٌ لكون الله ﷻ هو المُهلِكَ المُميتَ لهم.

الدهرية: هم القائلون بقِدَم العالم ونفي الصانع ﷻ ، يسمى هؤلاء بـ«الدهرية»، وهذا كان معتقدَ طائفة من المشركين، وطوائف من الفلاسفة وأضرابهم، يُقال عن هؤلاء إنهم «دَهرية»، بعض الناس يقولون أنهم «الدُّهرية» بضم الدال، وهو نسبةٌ سماعيةٌ عند هؤلاء على غير قياس.

والأقرب والله أعلم: أنَّ القول بالدهر يسمى أهله «دَهرية»، وأما «الدُّهرية» فجمع الدُّهري وهو الذي طعن في السن، الكبير في السن الذي مضى عليه دهرٌ طويل فإنه يقال في حقه أو يوصف بأنه «دُهرِي».

مهما يكن من شيء سواء كان اللفظ «دَهرية» أو «دُهرية» فإن هؤلاء الدَّهرية -كما ذكرت لك- **هم القائلون بقدم العالم ونفي الصانع، وهم طوائف ولهم أقوال شتى**:

- من هؤلاء: من كان يعتقد بثبوت الخالق ﷻ لكنهم يسندون التأثير والتدبير في الإحياء والإماتة وجميع ما يكون في هذا الكون إلى الكواكب وحركات الأفلاك.
- طائفة أخرى: تعتقد بأن الله ﷻ خلق هذا الكون بما فيه، لكنه فَنِيَ بعد ذلك – تعالى الله على قولهم– فأصبح هذا الكون يسيِّر نفسه ويدبِّر نفسه.
- والقول الثالث: قول الذين ينفون وجود الله ﷻ بالكلية، وهؤلاء قولهم يضارع قول ملاحدة هذا الزمان.

كل أولئك يسمَّون عند أهل العلم الدَّهرية، وهو لفظٌ مولَّدٌ على كل حال.

المقصود أن العرب في الجاهلية وهم الذين تنزلت هذه الآية في حقهم كان منهم من يعتقد بعقيدتين من عقائد الدهرية:

١. منهم: من كان يعتقد بنفي وجود الله ﷻ بالكلية؛ وهؤلاء قلة قليلة منهم.

٢. وطائفة أخرى: كانت تعتقد بوجود الله لكنها تنسب ما يتعلق بالإحياء والإماتة وغير ذلك من التصرف في هذا الكون إلى غير الله ﷻ؛ إلى الدهر، إلى حركات الأفلاك، إلى النجوم والكواكب.

هذه بعض أقول هؤلاء الذي جاء في حقهم قوله تعالى: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾[الجاثية:٢٤]؛ فهؤلاء لاشك أنهم مشركون، وشركهم راجع إلى توحيد الربوبية، كما أنهم أضافوا إلى هذا الشرك في توحيد الألوهية .

إذًا قوله ﷻ: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ دالٌ على ثبوت هذا المعتقد عند هؤلاء. ولا شك أنَّ هذا المعتقد كان له أثرٌ في كثير من أهل الجاهلية، وإن لم يكونوا قائلين بالقول الذي قاله هؤلاء الدهرية بتمامه، إنما كان له قولٌ في غيرهم[٧٧٠].

---

(٧٧٠) وقد نصَّ على هذا كثيرٌ من علماء الإسلام، لو رجعت إلى تفاسير أهل العلم في هذه الآية كـ «تفسير ابن جرير» وغيره من أهل العلم، أو من الكتب المُصنَّفة التي تكلمت عن تاريخ العرب واعتقاداتهم في الجاهلية تجد أصناف ما هم قائلون به.

ولا شكَّ أنه من تأمَّل في هذا الباب وجد أن كثيرًا منهم يعتقدون فعلًا أنَّ للدَّهر تأثيرًا، ولذلك يُسْنِدون إليه الأشياء في أشعارهم وفي منثور قولهم، فيقولون: (نالته يد الدَّهر)،

ولذلك إذا تصفحت كثير من كلام أهل الجاهلية في أشعارهم وفي خطبهم وفي غير ذلك تجد أنَّهم يجعلون شيئًا من التأثير للدهر وللأيام وللزمان، تجد أنهم يقولون: "عبثَتْ به يد الدهر"، "وفعَل به الدهر كذا وكذا"، وهذا كله من فروع معتقدِ أولئك الدهرية.

هاهنا سؤال؛ وهو قد يقول قائل: ما علاقة هذه الآية بهذا الباب؟ يعني لماذا أورد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه الآية في هذا الباب مع أنَّ الباب متعلق بسب الدهر! والآية ليس لها تطرقٌ إلى هذا المعنى، الآية فيها إثبات التأثير، وهذا إلى جانب التعظيم أقربُ منه إلى جانب السب، **إذًا لماذا أورد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه الآية؟**

والجواب: أنَّ إيراد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ لهذا الآية من فقهه ودقيق نظره؛ وذلك لأنَّ هذه الآية مقدَمَةٌ مُمهدةٌ لِفَهْمِ الحديث الذي سيأتي بعدها، يعني سيأتي معنا في الحديث ما يتعلق بسب الدهر، والقوم ما سبوا الدهر إلا لوجود اعتقادِ التأثير من الدهر فيما يكون، فلأجل هذا سبُّوا الدهر. إذًا سبهم للدهر قد يكون راجعًا إلى اعتقاد تأثير الدهر، وهو ما دل عليه هذه الآية التي معنا، والله تعالى أعلم.

و(عَبَثَ به الدَّهر)، و(فتك به الدَّهر)، وأمثال ذلك كثير، كانوا يعتقدون هذا الأمر، وهذا من فروع هذا الاعتقاد ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَفِي «الصَّحِيحِ» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «قَالَ اللهُ تَعَالَى: يُؤْذِينِي ٱبْنُ آدَمَ، يَسُبُّ الدَّهْرَ، وَأَنَا الدَّهْرُ: أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ». وَفِي رِوَايَةٍ: «لَا تَسُبُّوا الدَّهْرَ؛ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الدَّهْرُ»).

هذا الحديث نسبه المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى الصحيح، والمراد جنس الصحيح ، والحديث في الصحيحين بروايات متعددة، كما جاء في غير الصحيحين.

وهذا الحديث -حديث أبي هريرة- كما ترى أورده المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بصيغتين:

١. صيغة الحديث القدسي، وهذه رواية.

٢. وصيغة حديثٍ نبوي؛ وهو قول النبي ﷺ: «لا تسبوا الدهر، فإن الله هو الدهر».

ولاحظ أن الحديث الأول -الحديث القدسي الذي أورده المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ- فيه إثبات الأذية في حق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بسبِّ الدهر ، يدل على هذا قوله في الحديث: «يؤذيني ابن آدم» ، وهذا ما جعله المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تبويبه نتيجةً لسب الدهر.

قال جل وعلا: «يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر وأنا الدهرُ أقلب الليل والنهار»؛ معنى هذا الحديث: إخبار الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن أنه يؤذيه ابن آدم، ذاك الذي يسب الدهر ويسب الزمان ويسب الوقت، لأنه ناله فيه ما يكره؛ نزلت عليه محن، ونزلت عليه مصائب وشدائد، فلأجل هذا فإنه يسب الوقت والزمان الذي ناله فيه ما ناله.

هذا السب للدهر هو في حقيقته ليس راجعًا إلى الوقت، لأن الوقت ظرفٌ وعاءٌ عَرَضٌ ليس منه تصرف وليس منه تأثير، إنَّما عاد السب في الحقيقة إلى من أوقع هذه الأشياء وقدَّرها، إلى الفاعل الحقيقي وهو الله ﷻ، فعاد السب إذًا إلى من صرَّف الدهر؛ ولا شك أن هذا من المنكر العظيم الذي وقع فيه طوائف من الناس قديمًا وحديثًا.

إذًا السب في حقيقته راجعٌ إلى الله ﷻ؛ لأنه هو الذي أوقع هذه الأشياء التي دفعت هذا الذي سب الدهر إلى سب الدهر. هذا كمثلِ رجلٌ حكم عليه قاضٍ بما يكره، فقال: "لعنة الله على من قضى بهذا القضاء"، وكان الواقع أنَّ هذا كان قضاء النبي ﷺ، والقاضي الذي حكم ما هو إلا مُبَلِّغٍ لقضاء النبي ﷺ، فكان الأمرُ في حقيقة الحال عَوْدُ اللعن على الذي قضى بهذا، وهو رسول الله ﷺ، وإن كان القائل بذلك لا يقصد ذلك ولا يريده، لكن هذه هي الحقيقة.

إذا كان ذلك كذلك في هذا المثل، مع أنَّ القاضي كان له نوع تأثيرٍ وهو الإبلاغ، فكيف بالزمن والوقت الذي ليس له أي تأثيرٌ على الإطلاق؟!

إذًا عاد هذا السب للزمن في حقيقته إلى من تَصرَّف وقدَّر وأمَر أمرًا كونيًا بوقوع المصاعب والشدائد، «**يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر وأنا الدهرُ، أقلب الليل والنهار**».

إذًا معنى قول النبي ﷺ: «**وأنا الدهر**» يعني: أنا مدبر الدهر، ليس هذا من التأويل في شيء، هذا كلامٌ مفسَّر، فسَّره من تكلم به، وهو الله ﷻ. الله ﷻ أخبر أنه الدهر؛ لأنَّ هذا هو اللفظ الذي يريده ويعْنيه هؤلاء المشركون، هم سبوا

الدهر لوقوع المحنة فيه، فأراد الله ﷻ أن يبيّن لهم أن السب عائدٌ إليه؛ لأنه هو الذي دبَّر هذا الدهر، وهو الذي قلَّب هذا الدهر، وهو الذي تصرَّف في هذا الدهر.

الله ﷻ من حكمته قد يوقع ما يشاء من المصائب في هذه الدنيا لحكمةٍ يعلمها سبحانه وتعالى، ومن الحِكم التي جعل الله سبحانه وتعالى تقدير هذه المحن راجعًا إليها: هو أن يحصل للعباد تذكرٌ وتفكرٌ وعودةٌ إليه سبحانه وتعالى وتوبةٌ وأوبة، قال ﷻ: ﴿وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ﴾ يعني بالنعم ﴿وَالسَّيِّئَاتِ﴾ يعني الشدائد ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف:١٦٨]؛ يرجعون إلى الله ﷻ يرجعون عن غيهم إلى سبيل الرشد، ﴿فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[الأنعام:٤٣].

إذًا من حَكم إيجاد هذه المصائب في هذه الدنيا حصول التذكر، لكن هؤلاء الذين ما كَمُلَ إيمانهم ولا عظُم تعظيمهم لله سبحانه وتعالى ما لجأوا إلى الله ولا رجعوا إلى الله، إنما ذهبوا يسبون الدهر ويطعنون فيه ويعيبونه، فكانت حقيقة الحال عَوْدُ ذلك الطعن إلى من دَبَّر وصرَّف وهو الله سبحانه وتعالى. وهذا ما لا يشك فيه مسلم أن الله ﷻ هو المدبر، وأن الله ﷻ هو الذي يقلِّبُ الليل والنهار، ﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾[المؤمنون:٨٠].

إذًا كان الواجب أن يراعى مقام الأدب مع الله ﷻ، وأن يبادر الإنسان بالتوبة إلى الله حتى يرفع الله سبحانه وتعالى هذا البلاء عمن أصابه.

وهذا -كما ذكرت لك- شائعٌ واقعٌ في عالم الناس في القديم والحديث إلا من رحم الله، فإن نظرتَ في أحوال العرب في الجاهلية وجدتَ من هذا الشيء

الكثير، وإن نظرتَ إلى حال الناس في ظلال هذا الدين وفى المنتسبين إلى هذا الإسلام وجدت مع الأسف الشديد شيئًا من ذلك واقعًا في كلام الناس، لا سيما في الأوقات الشديدة وعند نزول المصائب.

كم تجدُ في كلام الناس الذمَّ والعيبَ للزمان! يقولون: "هذا زمنٌ غدار"، "هذا زمن أغبر"، "هذا وقتٌ جائر"، و"هذا زمنٌ أسود"(٧٧١) ، وربما وجدت منهم من يلعن اليوم الذي تزوج فيه، أو اليوم الذي لقي فيه فلانًا، إلى غير ذلك مما يكون في كلام الناس.

وإذا فتَّشت في الأشعار فحدِّث ولا حرج أيضـًا، تزخر كتب الأدب مع الأسف الشديد بطائفة كثيرة مما يرجع إلى هذا المعنى، ومن ذلك قول المتنبي مثلًا:

قُبحًا لِوجْهِكَ يَا زَمَانُ فَإِنَّهُ ... وَجْـهٌ لَـهُ فِـي كُـلِّ قُـبْحٍ بُرْقُـع

وما بعد هذا أيضا من الأبيات كلها في ذم الزمان والقدح فيه إلى غير ذلك.

ومن ذلك أيضـًا قول أخر:

يَا دَهْرُ وَيْحَكَ مَا أَبْقَيتَ لِي ... وَأَنْتَ وَالِدُ سُوْءٍ تَأْكُلُ الوَلَدَ

إلى غير ذلك مما يكون فيه كلام الناس مع الأسف الشديد.

وعلى كل حال هذا الذي يسبُ الدهر لا يخلو من أمرين:

- أولا: أن يكون واقعًا في الشرك والكفر.

---

(٧٧١) و(هذا دَهرٌ وقِح).

○ أو يكون واقعًا في السب المنكرِ المحرم. [٧٧٢]

■ **أما كونه واقعٌ في الشرك بالله** سبحانه وتعالى : فعند اعتقاد أنَّ الزمان والوقت والدهر هو الذي تصرَّف وهو الذي أثر بمشيئته باستقلالٍ عن مشيئة الله عز وجل؛ وهذا لا يشك مسلمٌ أنه شركٌ أكبر. أو أن يكون سبَّ الدهر وهو يستحضرُ ويريد سب مدبره وهو الله عز وجل ؛ فهذا أيضـًا بالإجماع أنه كفرٌ بالله سبحانه وتعالى.

■ **وقد يكون واقعًا في منكر وكبيرة من كبائر الذنوب** حينما يسبُ الزمان والوقت وهو لا يريد مدبره وهو الله سبحانه وتعالى؛ فهذا منكرٌ ومحرمٌ ولا يجوز، ناهيك عن كونه -أعني هذا السابَّ- في حقيقة حاله وقع في سُخْف ووقع في حُمْق، وذلك أنه سب من لا يستحق السب، هذا مجرد عرَض، مجرد وعاء، مجرد ظرف، فلأي شيء يُسب هذا الوقت؟! فدل هذا على أن سبه لازمه وقوع السب على الله جل وعلا المصرف لهذا الزمان.

بقيت عندنا مسألة يتطرق إليها أهل العلم في هذا المقام؛ وهي مسألة تسمية الله سبحانه وتعالى بالدهر؛ فإنَّ طائفة من أهل العلم ذهبوا إلى أنَّ من أسماء الله عز وجل «الدهر»، وهذا ما ذهب إليه نعيمٌ بن حماد الخزاعي رحمه الله وطائفة من أهل العلم[٧٧٣] ،ومن أولئك أيضـًا ابن حزم الظاهري على الجميع رحمة الله، هؤلاء ذهبوا إلى أنَّ الله جل وعلا يسمى بالدهر.

---

(٧٧٢) وكِلا الحالين يَقعان من المشركين الأولين، أمَّا المسلمون فإنه إنما يقع منهم بلْ ويقع كثيرًا الحال الثانية.

(٧٧٣) ونسبه شيخ الإسلام إلى طائفة من أهل الحديث والصوفية.

والصحيح الذي عليه جماهير أهل العلم أن الله ﷻ لا يسمى إلا بما سمى به نفسه أو سماه به رسوله ﷺ ، والدهر ليس من هذه الأسماء، الأسماء توقفيه والدهر ليس منها.

لكنَّ هؤلاء يقولون: دليلنا على ذلك هذا الحديث الذي بين أيدينا، وهو قول الله ﷻ: «**وأنا الدهر**»، وكذلك قول النبي ﷺ: «**فإن الله هو الدهر**»؛ إذًا هذا دليلٌ صريح على ثبوت هذا الاسم لله ﷻ، هكذا قالوا[٧٧٤] .

والجواب عن هذا: أن بعض أهل العلم ذهبوا إلى أن القراءة الصحيحة للحديث القدسي هي: «**وأنا الدهرَ أقلِّب الليل والنهار**»، ليس «**أنا الدهرُ**» إنما: «**وأنا الدهرَ أقلب الليل والنهار**»، يعني أنا خلال هذا الزمن هو الذي أقلب الليل والنهار، فكان الدهرُ برواية الفتح صار ظرف زمانٍ وليس خبر. وهذا ما حكاه الخطابي عن أبي بكر بن أبي داود الأصبهاني.

ولكنَّ هذا القول ضعيف ليس بوجيه، فإننا إذا قلنا تسليمًا بصحة ذلك في الحديث القدسي، فماذا نحن فاعلون في الرواية الأخرى التي معنا وهي قول النبي ﷺ: «**فإن الله هو الدهر**».

إذًا الصحيح أن قراءة الحديث هي: «**وأنا الدهرُ**»، «**فإن الله هو الدهر**».

---

(٧٧٤)فهذا لا يُعرف عن أحد من المسلمين، لكن بعض الملاحدة يتذرَّعون بهذا الحديث، كما حَكَى أبو عبيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «غريبه» مناظرة أنه مع بعض الملاحدة في ذلك، وأنَّه قال: الحديث يقول: «أنا الدَّهر».

والذي لا شك فيه أن الحديث له هذا التوجيه الذي علمناه قبل قليل؛ وهو أنَّ قول النبي ﷺ «وأنا الدهر» يعني وأنا مدبر الدهر، وأنا مقلب الدهر. **وأما زعمهم إنَّ الدهر هو اسمٌ من أسماء الله ﷻ كما في هذا الحديث، فهذا مردود من عدة أوجه:**

❁ **أولًا**: سياق الحديث يأبى أن يكون الدهر اسمًا لله ﷻ؛ وذلك أن الحديث فيه أن ابن آدم ماذا يصنع؟ يسبُ الدهر؛ والواقع أن الناس قديمًا وحديثًا لا يسبون الدهر، يعني لا يسبون الله ﷻ باسم الدهر، المشركون ما كانوا يسبون الله ﷻ صراحةً، وهكذا الناس بعد مجيء الإسلام لا يسبون الله ﷻ، لا يسبونه مطلقًا، هذا في عمومهم إلا من شذَّ ممن كفر بالله ﷻ وارتد فسب الله ﷻ، لكن حتى هؤلاء لا يسبونه بهذا الاسم، أليس كذلك؟ ربما يسبُ أحدهم الله ﷻ فيلعن الرب مثلًا -تعالى الله ﷻ عما يقول الظالمون علوا كبيرا-، لكن المقصود سب هذا الاسم الذي هو اسم لله ويراد به إيقاع السب على الله ﷻ هذا ما كان ولا يكون، لا يقع من الناس، فدل هذا على أنه ليس المراد أن الناس كانوا يسبون الدهر الذي هو اسمٌ لله، لم يكونوا يسبون الله باسمه الدهر.

❁ **ثانيًا**: أنَّ الدهر لو كان اسمًا لله ﷻ لكان المشركون مصيبين في قولهم: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾؛ لأن المعنى حينئذ سيكون: وما يهلكنا إلا الله. وهذا عكس المراد. الآية باتفاق أهل العلم مسوقةٌ مساق الإنكار عليهم، إذًا قولهم

هذا بالإجماع منكر، قولهم ﴿**وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ**﴾ منكر وباطل، ولكن إذا قلنا الدهر اسمٌ لله كان كلام حقا صحيحا، وهذا خلاف إجماع أهل العلم(٧٧٥).

﴿ **وأمرٌ ثالث**: وهو أن الدهر إذا نظرت إليه وجدته اسمًا جامدًا لا يتضمن حُسْنًا، فضلًا على أن يكون من أحسن الأسماء والمعاني، ومعلومٌ أن الله ﷻ أسماؤه حسنى بالغةٌ في الحسن الغاية، وهذا اسمٌ ليس منها، لا يتضمن مجرد حسن فضلًا أن يكون متضمنًا لأحسن المعاني.

إذًا هذه أوجهٌ ثلاثةٌ تدل على أن الدهر ليس اسمًا لله ﷯.

ولاحظ هنا ملحظًا مهمًا نسيت أن أنبه عليه في ابتداء هذا الكلام عن هذه المسألة، وهي: أن الذين قالوا إن الدهر اسمٌ لله -ومنهم ما قد علمت- هؤلاء لا يريدون بالدهر الزمان والوقت، إنما يريدون بالدهر معنى القديم الأزلي، انتبه لهذا.

لا أحد -كما يقول شيخ الإسلام كما في المجلد الثاني من مجموع الفتاوى- بإجماع المسلمين لا أحد يسمي الله ﷯ بالزمان، وهذا معلومٌ بطلانه بصريح العقل كما قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

هؤلاء الذين قالوا إن الله اسمه (الدهر) أرادوا بكلمة الدهر معنى القديم الأزلي. ونحن نوافق على المعنى إن كان يُراد به أن الله ﷯ هو الأول الذي ليس

---

(٧٧٥) **ثمَّ يُقال**: لو كان الكلام المذكور صحيحًا لكان المُقلَّب هو المُقلِّب، لأن الدَّهر إنما هو اللَّيل والنَّهار، فكيف يكون هو الدَّهر سبحانه، مع أنَّه يُقلِّب اللَّيل والنَّهار؟! فهو الدَّهر يُقلِّب الدهر! لا يمكن أن يُراد هذا أبدًا، لا يكون المُقلَّب هو المُقلِّب.

قبله شيء، وهو الآخر الذي ليس بعده شيء، إن كان المراد هذا فنحن نوافق على المعنى لكننا نقول إن هذا الاسم لا يجوز إثباته لله ﷻ وإن كان المعنى المراد صحيحًا.

إذًا الذين اثبتوا هذا الاسم لم يكونوا يريدون أنه الوقت والزمان، إنما كانوا يريدون به هذا المعنى الذي قد علِمت.

وقد يقول قائل: إن هذا الحديث يُوهم أنَّ الوقت والزمان هو الله ﷻ، وهذا وهمٌ وتوهمٌ قد يوسوس به الشيطان في نفوس بعض الناس.

ولكن هذا باطل بالنظر إلى الحديث نفسه؛ وذلك أنك إذا تأملت وجدت أنَّ المقلَّب لا يمكن أن يكون هو المقلِّب، لا يمكن أن يكون المفعول به هو الفاعل، أنت إذا نظرت وجدت النبي ﷺ يحكي عن ربه جل وعلا أنه قال: «**يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر وأنا الدهرُ أقلِّب الليل والنهار**»، والدهر ليس إلا الليل والنهار. إذًا الله ﷻ يقلب هذا الدهر فكيف يكون هو الدهر؟! يعني لا يمكن أن يكون المقلِّبُ هو المقلَّب، ولا يكون المقلَّبُ هو المقلِّب، فالله ﷻ هو الذي يقلِّب الدهر، وإنما معنى قوله ﷻ: «**وأنا الدهر**» يعني أنا مدبِّر ومقلِّب الدهر.



قال المصنف رحمه الله:

٤٦-بَابُ
التَّسَمِّي بِقَاضِي القُضَاةِ وَنَحْوِهِ

فِي «الصَّحِيحِ» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَخْنَعَ ٱسْمٍ عِنْدَ اللهِ: رَجُلٌ تَسَمَّى مَلِكَ الأَمْلاكِ، لَا مَالِكَ إِلَّا اللهُ». قَالَ سُفْيَانُ: مِثْلُ شَاهَانْ شَاهْ.

وَفِي رِوَايَةٍ: «أَغْيَظُ رَجُلٍ عَلَى اللهِ يَوْمَ القِيَامَةِ وَأَخْبَثُهُ».

قَوْلُهُ: «أَخْنَعَ» يَعْنِي: أَوْضَعَ.

قال الشارح وفقه الله:

هذا الباب قد عقده المؤلفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ للكلام عن حكم التسمي بـ(قاضي القضاة) ونحو هذه التسمية مما سيأتي التمثيل عليه إن شاء الله.

والمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ لم يورد دليلًا على حكم هذه التسمية على وجهِ الخصوص، إنَّما أورد دليلًا يدل على منع التسمية بـ (ملك الأملاك).

ووجه إيراده لهذا الدليل: هو أن هذا الحديث عن النبي ﷺ يُقاس على الحكم الذي ورد فيه؛ وهو المنع من التسمية بـ(ملك الأملاك)، يُقاس عليه ما يدور في فلك هذه التسمية مما فيه غاية التعاظم، ومما فيه كذبٌ وكبر، ومنه التسمية بـ(قاضي القضاة). قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تحفة المودود: (إنَّ هذا محض القياس)، يعني إنَّ هذا قياسٌ صحيح، وكلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ وقياس المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ قياسٌ صحيح لا شك فيه.

المقصود أن من كمال تحقيق التوحيد البعدُ عن التسميات التي فيها تمام الكمال وكمال التعظيم، وفيها من التعالي والتعاظم والتكبر ما فيها؛ فهذا التسمي فيه مشاركة لله ﷻ فيما يختص به، فكان ذلك أمرًا ممنوعًا في الشريعة، وكان ترك ذلك من تحقيق التوحيد الواجب، والله تعالى أعلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**فِي «الصَّحِيحِ» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَخْنَعَ اسْمٍ عِنْدَ اللهِ: رَجُلٌ تَسَمَّى مَلِكَ الأَمْلَاكِ، لَا مَالِكَ إِلَّا اللهُ»**).

هذا الحديث (**في الصحيح**) يعني في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ، والحديث جاء في الصحيحين بروايات وكذلك جاء في غيرهما.

وفيه: أن النبي ﷺ أخبر أن (**أخنع اسم عند الله**)؛ أخنع: بمعنى أوضع وأذل، والخانع: هو الذليل الصاغر، فأخنع وأذل وأحقر اسم عند الله ﷻ هو (ملك الأملاك)، ومن تسمى بذلك لا شك أنه سيكون ذليلا عند الله[٧٧٦] . يعني إذا كان هذا الاسم ذليلًا عند الله، فمن تسمى به فإنه سيكون كذلك عند الله ﷻ يوم القيامة، ولربما عاجله الله بشيء من ذلك في الدنيا.

التسمي بملك الأملاك أمرٌ ذليل، أراد صاحبه التعاظم والتعالي والتكبر، فعامله الله بنقيض مقصوده، فكان ذليلًا عنده يوم القيامة، وربما ناله شيء من إثم هذا الذنب في الدنيا قبل الآخرة.

---

(٧٧٦) والله ﷻ يحبُّ من الأسماء ما فيه خضوع وذلٌّ له، انظر هنا هذا الاسم أخْنع الأسماء، وأحب الأسماء إلى الله: عبد الله، وعبد الرحمن.

أورد ابن كثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه البداية والنهاية في حوادث سنة ثلاثين وأربعمائة عند الكلام عن آخر خلفاء بني بويه وكان اسمه العزيز، وتسمى بـ(ملك الأملاك) أو (ملك الملوك)، قال ابن كثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن بني بويه لما عتوا وتجبَّروا وتسموا بملك الأملاك- يعني تسمى الخليفة منهم بملك الأملاك- فإن الله سبحانه قطع ملكهم وأذلهم بعد عزهم، وأعطى ملكهم غيرهم». فهذه عقوبة لمن تسمى بهذه التسمية التي فيها تعاظم وفيها تكبر على الخلق.

«**إِنَّ أَخْنَعَ اسْمٍ عِنْدَ اللهِ: رَجُلٌ تَسَمَّى مَلِكَ الأَمْلاكِ**»؛ تسمى: يعني سمَّى نفسه، كذلك الحكم إذا سُمِّيَ فَرَضِي، إذا سماه غيره فرضي، ويدل عليه رواية مسلم، وقد أشار إليها المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ (رجلٌ كان يسمَى ملك الأملاك)، فهو إذا تسمَى، وكذلك إذا سُمي فرضي فالحكم واحد.

(**تسمَى ملك الأملاك**)، الأملاك جمع ملِك كملوك، ملِك يجمع على أملاك ويجمع على ملوك، فهذا تسمى بـ(ملك الأملاك)، والله ﷻ هو ملك الملوك، ومالك الممالك، هو الملك الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال النبي ﷺ في تمام الحديث «**لا مالك إلا الله**»، ولاحظ أن الحديث في شطره الأول كان فيه لفظ «المَلِك»، وفي شطره الثاني كان فيه لفظ «المالِك»؛ فالمالِك من المِلك، والمِلك من المُلك.

والفرق بين المَلِك والمالك كما قرره ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بدائع الفوائد: أنَّ المالك يتصرف بفعله، وأمَّا المَلِك فيتصرف بفعله وأمره. والله ﷻ هو المَلِك وهو المالك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

بعض أهل العلم ذكر عند رواية مسلم ، **فعند مسلم روايتان:**

- (لا ملِك إلا الله).

-و (لا مالك إلا الله).

بعضهم ذكر أن رواية (لا ملك إلا الله) لعلها: لا مالك إلا الله، فتكون طريقة رسمها بوضع ألف صغيرة عند اللام بعد الميم، يعني لا مالك إلا الله؛ وهذا وإن كان أمرًا محتملًا إلا أنه لا حاجة إليه، فالأمران ثابتان لله ﷻ ؛ فهو الـمَلِك، وهو المالك ﷻ، وعلى ذلك جاءت القراءتان المتواترتان في سورة الفاتحة، ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾[الفاتحة:٤]، ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾[الفاتحة:٤].

والمقصود أن الـمُلْكَ الحقيقي والـمِلْكَ الحقيقي إنَّما هو لله ﷻ، وأمَّا ما سواه من المخلوقين فإنَّ الـمِلْكَ والـمُلْكَ في حقهم إضافيٌّ ناقص، أمَّا الـمُلْكَ والـمِلْكَ الحقيقي الكامل فإنَّه لله ﷻ؛ فالله له ما في السماوات والأرض، هو المالك لذلك على الحقيقة، كذلك هو الـمَلِكَ على الحقيقة ﷻ، ولذلك فإنّه تبارك وتعالى ينادى يوم القيامة: ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ﴾[غافر:١٦] ، ثم يجيب نفسه قائلاً: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾[غافر:١٦]، فالله ﷻ له الـمُلْكَ وهو الذي يعطي الـمُلْكَ من يشاء وينزعه ممن يشاء ﷻ.

إذًا هذا الذي تسمَى بملك الأملاك قد وقع:

- أولًا: في كذب عظيم.

- وثانيًا: قد وقع في كبرٍ وتعاظم ليس أهلًا له ولا يستحقه، وكان بهذا مشاركًا لله ﷻ فيما يختصُّ به، وبالتالي فإنه يكون قد وقع في هذا الذنب العظيم، وهو أنه قد تسمى بأخنع وأذل وأخنى اسم لله ﷻ.

والذي يُستفاد من هذا الحديث:

أنَّ كل اسم كان فيه أحد أمرين؛ الأول: أن يكون فيه تعظيمٌ مبالغٌ فيه، أو أن يكون الاسم متضمنًا تكبرًا وتعاليًا على الخلق؛ فإن ذلك مما يُنهى عنه ويكون مُحرمًا شديد التحريم.

وبالتالي: فالأمر لا يقتصر على هذا الاسم فحسب، بل كل ما كان في معناه ويجرى مُجراه فإنّ له الحكم نفسه، ولذلك سيأتي معنا قولُ سفيان بن عيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في حَمْلِهِ هذا الحديث على نحو قولهم: (شاهان شاه)، يعني ملِك الملوك، كذلك قولهم: (سلطان السلاطين)، و(أحكم الحاكمين)، والله ﷻ هو أحكم الحاكمين.

ومن ذلك أيضًا ما بوَّب عليه المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو قولهم: (قاضي القضاة)، وأخبث منه قولهم: (أقضى القضاة)؛ فهذان اللفظان القياس الصحيح من هذا الحديث يقتضي المنع من هذه التسمية، فلا يجوز أن يُسمى أحدٌ (قاضي القضاة)[٧٧٧].

---

(٧٧٧) فهذه الألفاظ فيها مبالغة وفيها تعالي وفيها تكبّر؛ فلأجل ذلك مَنَعَ منها أهل العلم.

وهذه التسمية قد وقعت في كثير من البلدان وكثير من الأزمنة، وكانت منتشرة عند البلاد المشرقية، أما البلاد المغربية فإنها كانت في عافيةٍ من هذه التسمية، كان يُسمى كبير القضاة: (قاضي الجماعة)، أما عند المشرقيين فكثر فيهم التسمية بـ(قاضي القضاة).

ولا شك أن التسمية بـ(قاضي القضاة) أسهل وأخف من التسمية بـ(ملك الملوك) أو (ملك الأملاك)، لكنَّها أيضًا ممنوعةٌ قياسًا على المنع الذي جاء في هذا الحديث، لما في ذلك من دِلالة هذا الاسم على تعاظمٍ وتكبرٍ لا يليق بالمخلوق، فإنَّ (قاضي القضاة) هو الذي يحكمُ ولا معقب لحكمه، والذي يحكم وهو خير الفاصلين ﷻ، ولذلك كانت تسمية أحد من الناس بهذه التسمية لا شك أنها ممنوعةٌ محرمةٌ على الصحيح من كلام أهل العلم.

والأقوال في التسمية بقاضي القضاة ثلاثة: التحريم، والكراهة، والإباحة.

والصحيح إن شاء الله القول بالمنع والتحريم، وهو اختيار جماعة من أهل العلم، وهو الذي اختاره المؤلف كما ترى وبوَّب عليه هذا الباب[٧٧٨].

---

(٧٧٨) والأقرب -والله أعلم- هو التحريم؛ حمايةً وصيانةً لجَناب التوحيد، وتحقيقًا للتعظيم والتقديس لله تبارك وتعالى، فمثل هذه الألفاظ التي فيها مبالغة وتعالي وتعظيم لا تصلح إلا لله تبارك وتعالى؛ الله سبحانه هو قاضي القُضاة الذي لا قضاء أعظم من قضائه، ولا حُكْم فوق حكمه، هو سبحانه الذي لا مُعقِّب لحُكْمه تبارك وتعالى.

وإن كان قد يقول قائل: إنَّ المراد قاضي قضاة الدنيا، أو قاضي القضاة المسلمين.

أما الذين أباحوا هذه التسمية فإنهم استدلوا بقول النبي ﷺ: «وأقضاهم علي».

هذا الحديث عند ابن ماجة وغيره واختُلف فيه؛ فبعض أهل العلم حكم عليه بأنه صحيحٌ موصول، وبعضهم حكم عليه بأنه مرسلٌ ضعيف، والأقرب والله تعالى أعلم أنه صحيحٌ موصول، وفيه: أنَّ النبي ﷺ قال: «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدهم في دين الله عمر، وأعظمهم حياءً عثمان، وأقضاهم علي» ؛ قالوا: هذا دليلٌ على جواز التسمية بقاضي القضاة.

والذي يظهر والله أعلم أن هذا الاستدلال فيه نظر[٧٧٩] ؛ فشتان بين اللفظين، بين لفظ (أقضى القضاة) أو (قاضي القضاة)، وبين لفظ (أقضاهم علي)؛ فإن لفظ (قاضي القضاة) فيه عموم، وقد مر معنا أن الجمع المحلى بـ (أل) يفيد العموم، فهو قاضي عموم القضاة، وأمَّا (أقضاهم علي) فإن هذا التفضيل

فيُقال: إنَّ النظر هاهُنا لا إلى القصد، وإلا فلو قصد المتكلم أن هذا يُضارِع الله ويشارك الله في ما يختص به كان مشركًا شركًا أكبر، إنما بحْثُنا في رعاية الألفاظ، إنما بحثُنا في التصوُّن في إطلاق الإطلاقات التي قد تُوهِم المعنى الباطل، وهذا له نظائر كثيرة في الشرع، ومرَّ بنا بعضها سابقًا، فالأقرب -والله أعلم- هو المنع.

(٧٧٩) وهذا لا دِلالة فيه؛ لأنَّ التفضيل هاهُنا لم يكن مُطْلَقًا، ليس كقاضي القضاة هكذا بإطلاق، وإنَّما التفضيل كان محصورًا في طائفة معيَّنة، علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أقضى الصحابة، أعلمهم بالقضاء، أقدرهم على القضاء. وأين هذا من قول: (قاضي القضاة)!!

محصور في فئة معينة وهم أصحاب النبي ﷺ، فهو أحسنهم وأعلمهم بالقضاء، وهذا لا إشكال فيه ولا حرج فيه.

ونستفيد منه: أنَّ التفضيل إذا تعلق بفئة معينة أو مكان مخصوص فإن هذا لا حرج فيه؛ بمعنى إذا قيل "فلانٌ قاضي المدينة"، أو "قاضي قضاة المدينة"، "قاضي قضاة المملكة"، فإنَّ هذا لا حرج فيه[٧٨٠]، إذا كان هو رئيس القضاة وكبير القضاة، وقيل في حقه إنه قاضي قضاة مكة أو المدينة، فإن الذي يظهر والله تعالى أعلم أنه لا حرج في ذلك، ولو قيل فيه إنه "رئيس أو كبير القضاة" فإن هذا أحوط وأولى والله تعالى أعلم.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (**قَالَ سُفْيَانُ: مِثْلُ شَاهَانْ شَاهْ**).

(**سفيان**) هو ابن عيينة.

و(**شاهان شاه**) لفظٌ فارسي ومعناه: مِلك الملوك أو سلطان السلاطين. وعادة أهل هذه اللغة أنهم يقدمون المضاف إليه على المضاف، فـ(شاه): ملك و(شاهان): ملوك، لكن قُدِّم على عادتهم المضاف إليه.

كذلك غير هذا اللفظ كمثل لفظ «الإخشيد»، الإخشيد في لغة أهل فَرْغَانة بمعنى: ملك الملوك أيضًا.

---

(٧٨٠) لأنَّه أمرٌ مُقيَّد، وأمَّا إذا أُطلِق حصل الإيْهام المحذور.

ومراد سفيان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: التنبيه على أنَّ المنع لا يختص بهذا اللفظ، بل كل ما اتصل به في المعنى ووُجد فيه ما وُجد في لفظ (ملك الأملاك) من هذا التعالي والتعاظم والتكبر والكذب فإنه يأخذ حكمه أيضًا.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَفِي رِوَايَةٍ: «أَغْيَظُ رَجُلٍ عَلَى اللهِ يَوْمَ القِيَامَةِ وَأَخْبَثُهُ»).

هذه الرواية عند مسلم؛ (أغيظ رجل على الله وأخبثه وأغيظه على الله)، يعني عاد لفظ (أغيظه) أيضًا في رواية مسلم، والمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما ذكر هذا اللفظ، عاد فقال: (وأغيظه على الله).

والألفاظ الواردة في هذا الحديث إذا جمعتها من كتب السنة يتلخص لك منها: أن النبي ﷺ قال في هذا اللفظ:

- إنه (أخنع) لفظ.
- وإنه (أخبث) لفظ.
- وإنه (أخنى) لفظ. أخنى: يعني أفحش.
- كذلك جاء إنه (أغيظ).
- كذلك جاء إنه (أكره).

هذه خمسة ألفاظ جاءت عن النبي ﷺ في هذا الحديث، وكلها تتواردُ على تأكيد المنع وتشديد التحريم على التسمي بهذا اللفظ.

ويعجبُ الإنسان من وقوع الخلاف في التسمي بمثل هذه التسمية مع ثبوت هذا الحديث الصحيح الصريح في المنع من ذلك!! ذكر ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في حوادث سنة ٤٢٩ أن أحد ملوك بني بويه تسمى بـ(شاهان شاه الأعظم)؛ (ملك الملوك)، فوقع شيء من الإشكال عند العامة فاستُفتي الفقهاء، فأفتى بعض الفقهاء كما نقل هذا ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ بجواز ذلك، وأن هذا يمكن أن يُحمل على أنه ملِك ملوك الأرض ومثل هذا لا بأس به. وذكر أن من أهل العلم من منع ذلك وتشدد فيه، ومنهم الماوردي الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ثم عقّب على ذلك بأنه الصحيح لثبوت الحديث في ذلك.

والمقصود أنَّ نهى النبي ﷺ نهيٌ عام ليس فيه تفصيل، ليس فيه أنه إذا أُريد ملك ملوك الأرض فإنه يجوز، على أنَّ هذا اللفظ في نفسه كذب، لا يمكن لأحد أن يكون ملكًا لا هذا الملِك ولا غيره، أن يكون ملكًا لملوك أهل الأرض جميعًا وينفذ أمره في الأرض جميعًا؛ فالمنع من ذلك هو الصحيح الذي لا شك فيه لثبوت هذا المنع في حديث النبي ﷺ والله تعالى أعلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**قَوْلُهُ: «أَخْنَعَ»؛ يَعْنِي: أَوْضَعَ**).

والإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ عقب إخراجه هذا الحديث المُسند ذكر أنه سأل أبا عمرٍ الشيباني عن قوله (أخنع) فقال: أوضع.



قال المصنف رحمه الله:

٤٧-بَابُ

احْتِرَامِ أَسْمَاءِ اللهِ تَعَالَى، وَتَغْيِيرِ الاِسْمِ لأَجْلِ ذَلِكَ

عَنْ أَبِي شُرَيْحٍ: أَنَّهُ كَانَ يُكْنَى أَبَا الحَكَمِ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ اللهَ هُوَ الحَكَمُ، وَإِلَيْهِ الحُكْمُ»، فَقَالَ: إِنَّ قَوْمِي إِذَا اخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ أَتَوْنِي فَحَكَمْتُ بَيْنَهُمْ، فَرَضِيَ كِلَا الفَرِيقَيْنِ، فَقَالَ: «مَا أَحْسَنَ هَذَا!، فَمَا لَكَ مِنَ الوَلَدِ؟»، قُلْتُ: شُرَيْحٌ، وَمُسْلِمٌ، وَعَبْدُ اللهِ، قَالَ: «فَمَنْ أَكْبَرُهُمْ؟»، قُلْتُ: شُرَيْحٌ، قَالَ: «فَأَنْتَ أَبُو شُرَيْحٍ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَغَيْرُهُ.

قال الشارح وفقه الله:

(بَابُ احْتِرَامِ أَسْمَاءِ اللهِ تَعَالَى، وَتَغْيِيرِ الاِسْمِ لأَجْلِ ذَلِكَ)؛ هذا بابٌ ثانٍ قريبٌ في الحكمة التي يرمى المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ إليها من خلاله من الباب الماضي، وهو ضرورة مراعاة الألفاظ والتصوُّن في الإطلاق الذي يُوهمُ الباطل ويوهم ما لا يجوز، وربما كان فيه مُشاركةٌ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيما يختص به من غاية التعاظم والتعظيم، والله عَزَّ وَجَلَّ هو العظيم، والله عَزَّ وَجَلَّ هو المتكبر الذي لا يليق ذلك إلا به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

(احْتِرَامِ أَسْمَاءِ اللهِ) يعني تعظيمها، وتعظيم أسماء الله من تعظيم الله، وإذا كان تعظيم أسماء الله يقتضي تغيير الأسماء التي تتنافى وذلك؛ فإنَّ تعظيم أسماء الله وتعظيم الله يقتضي أن لا يُسمى بذلك ابتداءً، أن لا يُسمى بأي اسمٍ يتنافى

وتعظيمَ الله أو تعظيمَ أسمائه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولكن إن حصل ووقع فإنَّ تعظيم الله عَزَّ وَجَلَّ وتعظيم أسمائه يقتضي تغيير الأسماء لأجل ذلك؛ يعني لأجل تعظيم أسماء الله.

ووجه المناسبة بين إيراد هذا المؤلف وكتاب التوحيد: هو أن تغيير الأسماء لأجل تعظيم ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا شك أن ذلك من تحقيق التوحيد ومن كمال الأدب مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فالله هو العظيم، والله هو المُستحق للتعظيم، وكلامه يجب تعظيمه، وأسمائه يجب تعظيمها؛ وهذا من الأمر المعلوم من الدين بالضرورة، ولا يُخالِفُ في ذلك أحد من العقلاء أنه يجب أنه يُعظَّم الله وأن يُعظَّم كلامه وأن تُعظَّم أسمائه وصفاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**عَنْ أَبِي شُرَيْحٍ أَنَّهُ كَانَ يُكْنَى أَبَا الحَكَمِ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ اللهَ هُوَ الحَكَمُ، وَإِلَيْهِ الحُكْمُ»، فَقَالَ: إِنَّ قَوْمِي إِذَا اخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ أَتَوْنِي فَحَكَمْتُ بَيْنَهُمْ، فَرَضِيَ كِلَا الفَرِيقَيْنِ، فَقَالَ: «مَا أَحْسَنَ هَذَا!، فَمَا لَكَ مِنَ الوَلَدِ؟»، قُلْتُ: شُرَيْحٌ، وَمُسْلِمٌ، وَعَبْدُ اللهِ، قَالَ: «فَمَنْ أَكْبَرُهُمْ؟»، قُلْتُ: شُرَيْحٌ، قَالَ: «فَأَنْتَ أَبُو شُرَيْحٍ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَغَيْرُهُ**).

هذا حديث جيد صحيح؛ جوَّد إسناده ابن مفلح، وصححه الشيخ الألباني وغيرهما من أهل العلم، وخرَّجه أبو داوود -كما قد علمت- والنسائي وابن حِبان والبخاري في الأدب المفرد وغيرهم ممن أخرج هذا الحديث.

وفيه أن أبا شُريح ؛ واسمه هانئُ ابن يزيد، قيل الكندي، وقيل الخزاعي، وقيل غير ذلك. صحابيٌّ جليل وَفَدَ على النبي ﷺ مع قومه، فسمع النبي ﷺ

أصحابه يُكْنُونه بأبي الحكم -يكنونه ويُكْنَى أفصح من يُكنَّى- كانوا يُكْنُونه « **أَبَا الـحَكَمِ**»، فدعاه النبي ﷺ وقال: « **إِنَّ اللهَ هُوَ الـحَكَمُ، وَإِلَيْهِ الـحُكْمُ**».

وهذا الحديث يدل على أنَّ من أسماء الله ﷻ «الحكم»، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِي حَكَمًا﴾[الأنعام:١١٤]، فـ«الحَكم» من أسماء الله ﷻ.

والأصح -والله أعلم- أنَّ «الحَكم» أبلغ من «الحاكم»، **واختُلف في الفرق بين اللفظين:**

- فقيل: إن «الحَكَم» هو الذي لا يُرد حكمه، بخلاف «الحاكم».
- وقيل: إن «الحَكم» هو الذي يتخصص في الحكم؛ يعني الذي يحكم باستمرار ويُقصَدُ في الحكم دائمًا، بخلاف الذي يحكم مرةً أو مرتين أو نحو ذلك فهذا يُسمى «حاكمًا»، ذكر هذا الراغب في «المفردات».
- وقيل: إن «الحَكم» هو الذي يحكم بالحق، وأما «الحاكم» فهو الذي يحكم بالحق وبغيره.

والمقصود أن النبي ﷺ أثبت هذا الاسم لله ﷻ، « **إِنَّ اللهَ هُوَ الـحَكَمُ، وَإِلَيْهِ الـحُكْمُ**»؛ الحُكم لله ﷻ، قال سبحانه: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾[الأنعام:٥٧]، ﴿لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[القصص:٨٨]، ﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾[غافر:١٢]، فالحُكم لله تبارك وتعالى.

وحكم الله سبحانه نوعان:

١. حكمٌ شرعي.
٢. حكمٌ كوني.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «النونية»:

وَالحُكْمُ حُكْمَانِ: كَونِيٌّ وَشَرْعِيٌّ ... وَلا يَتَلازَمَانِ وَمَا هُمَا سِيَّانِ

يعني لا تلازم بين ثبوت الحكم الكوني والحكم الشرعي، وبالتالي قد يجتمع الحكمان، وقد يوجد الحكم الكوني دون الشرعي، وقد يوجد الحكم الشرعي دون الكوني، وهذا الأمر أظن أنني قد تكلمت عنه في دروس سابقة.

المقصود: أنَّ الحكم على الحقيقة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهذا ما أثبته النبي ﷺ في هذا الحديث؛ فلمَّا قال هذا النبي ﷺ قال: «فلِمَ كُنِيت بأبي الحكم؟») وهذا من لفظ الحديث عند أبي داوود والنسائي وغيره ولكن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ لم يُورد ذلك في هذا الحديث.

الشاهد: أن النبي ﷺ سأله عن سبب هذا الأمر؛ لم كُنِيَ بهذه الكنية؟ والكنية في اللغة هي: ما صُدِّر بأبٍ أو أم، وهذا مما تميز به العرب عن غيرهم من الأمم، والكنية الأصل فيها: أن يُراد التكريم والتمليح.

أُكنيه حين أناديه لأكرمه ... ولا أُلقّبه، والسوءة اللقب

وقال بعض السلف في قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿**فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا**﴾[طه:٤٤]، يعني: كنِّياه، يعني: اذكرا يا موسى ويا هارون له كنيته.

المقصود أن التكنية من تكريم الإنسان أن يُكْنَى، سواءً كان له ابن أو لم يكن له ابن، حتى الصغار فإنهم لا حرج ولا بأس أن تكون لهم كنية.

ويمكن للإنسان أن يتكنى بابنه، ويمكن أن يتكنى بغير ابنه أيضًا؛ فهذا أبوبكر وهذا أبو حفص وهذا أبو ذر وغيرهم من أصحاب النبي ﷺ تكنوا بغير أسماء أبنائهم.

ويمكن أن يُكْنى الإنسان بشيء يلابسه أو يكون له به صلة بأي وجه من الوجوه، ومن ذلك: أبو هريرة، ومن ذلك: تكنية النبي ﷺ لعلي رضي الله عنه بأبي تراب.

المقصود أن النبي ﷺ سأله عن سبب هذه الكنية فقال له السبب؛ وهو: أن قومه كانوا إذا اختلفوا رجعوا إليه وكان مرضيًا عندهم، فيحكم بينهم ويُصلح بينهم فيرضى كل فريق.

فقال النبي ﷺ: « **مَا أَحْسَنَ هَٰذَا!**»؛ ما هو الذي حسَّنه النبي ﷺ ؟ أهو الحكم أم الكنية؟

الذي يظهر والله تعالى أعلم أن النبي ﷺ حسَّن فعله وهو الحكم والإصلاح ودرء الخلاف بين الناس، والذي يظهر أيضًا أن هذا الذي كان يحكم به أبو شريح رضي الله عنه إنَّما هو حكم الإسلام، وأن هذا كان منه بعد الإسلام، وليس أنه كان يحكم بأحكام الجاهلية، قال الشارح الحفيد الشيخ سليمان رَحِمَهُ ٱللَّهُ في التيسير: «لا يُظنُّ بأن النبي ﷺ حسَّن الحكم بأحكام الجاهلية»، وهذا ظاهرٌ لا لبس فيه بحمد الله.

المقصود أن النبي ﷺ قال: «ما أحسن هذا»، ثم سأله **ما له من الولد**؟! (٧٨١)، فأجابه بأن عنده «**شريحًا، ومسلمًا، وعبد الله**»، والظاهر والله أعلم أنه ليس عنده إلا هؤلاء.

فسأله النبي ﷺ عن أكبرهم؟ فأجاب بأنه شريح، فَكَنَاهُ النبي ﷺ بأبي شريح، وذلك أنَّ الأكبر هو الأولى بالتكريم، وهذا يفاد منه: بأن الإنسان إذا أراد أن يتكنى بأبنائه فالأولى أن يقدِّم الأكبر منهم، وإن تكنى بغير ذلك جاز والحمد لله.

وكون النبي ﷺ يسأل أبا شريح عن أكبرهم فيه فائدة أصولية لُغوية؛ وهي: أنَّ الواو لا تقتضي الترتيب، لأنَّ الواو لو كانت تقتضي الترتيب لما سأله النبي ﷺ عن أكبرهم، فلمَّا سأله عن أكبرهم دلَّ هذا على أنَّ الواو لا تقتضي الترتيب، والله تعالى أعلم.

ثم في ختام الحديث كما في بعض روايات الحديث أن أبا شريح لما هَمَّ -وكذلك قومه- بالرجوع سأل النبي ﷺ عن عمل يدخله الجنة، فأجابه النبي ﷺ بأنه: «لين الكلام، وبذل السلام، وإطعام الطعام»، فمن أراد الجنة فعليه بوصية النبي ﷺ.

المقصود: أنَّ الحديث دل على أن من احترام أسماء الله ﷻ تغيير الأسماء لأجل هذا الاحترام ولأجل هذا التعظيم(٧٨٢). وهذا الموضع فيه إشكال ويحتاج إلى حل؛ وهو: **لِمَ النبي ﷺ غير هذه التسمية؟**

---

(٧٨١) والولد يشمل الذكر والأنثى، والذي يظهر أنه ما كان عنده إلا هؤلاء الثلاثة الذكور.

قال بعض أهل العلم: لأنَّ «الحَكم» من أسماء الله ولا يجوز التسمي بأسماء الله. **ومسألة التسمي بأسماء الله التحقيق أن فيها تفصيلًا**:

فأسماء الله جل وعلا منها ما يجوز التسمي به، ومنها ما لا يجوز التسمي به. **والضابط في ذلك**: النظر في الاسم وما يدل عليه من المعنى.

❑ **فما كان من الأسماء معناه لا يصح أن يطلق إلا على الله** لم يجز للمخلوق أن يتسمى به، من ذلك اسمه تعالى العظيم «الله»، ومن ذلك «الرحمن»، ومن ذلك «الخالق»،و«الخلَّاق، والمهيمن، والأحد، والصمد، والقيوم، والأول، والآخر»، إلى غير ذلك من هذه الأسماء التي إذا نظرتَ إلى معناها تجد أنه لا يصح أن يطلق هذا الاسم على غيره ﷻ(٧٨٣).

❑ **أمَّا ما كان من الأسماء معناه يدل على معنىً كليّ يتفاوت أفراده**؛ فإنه يجوز أن يطلق على الخالق ويجوز أن يطلق على المخلوق، ولكلٍّ ما يليق به.

---

(٧٨٢) ويبقى البحث بعد ذلك في **وجه المناسبة بين الحديث والباب**، قال أهل العلم: وجه المناسبة أن النبي ﷺ احترامًا لاسم الله ﷻ نهى عن التسمية بالحكم، أو أن يُكنى أبا الحكم، وغيَّر ذلك إلى أبي شُريح، وذلك لأن (الحَكَم) اسمٌ لله تبارك وتعالى.

(٧٨٣) فكانت في حق غيره ممنوعة لا تجوز.

دل على هذا أن الله ﷻ تسمى بالسميع البصير، وكذلك قال سبحانه: ﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾[الإنسان:٢][٧٨٤].

حتى إذا أضيفت الألف واللام لا حرج؛ ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ﴾[يوسف:٥١]، فالعزة معنىً كليّ يتفاوت أفراده، فلله ﷻ عزةٌ تليق به وتختص به، وللمخلوق عزةٌ تليق به وتختص به، وبذلك لا حرج في إطلاق كلمة «العزيز» على المخلوق.

نأتي الآن إلى اسم «الحكم»؛ هل هو مما يصح أن يطلق على المخلوق أو لا يصح أن يطلق على المخلوق؟[٧٨٥]

➢ نظرنا فوجدنا أن الله ﷻ قال: ﴿فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا﴾[النساء:٣٥]، نجد أن هذه الآية فيها إطلاق الحكَم على المخلوق؛ فدل هذا

---

(٧٨٤) العزيز ﴿قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ﴾ [يوسف:٥١]، الرحيم ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨]، وأمثال ذلك. فالنظر إلى الاسم من حيث معناه هو الفيصل في هذه المسألة.

(٧٨٥) لِم غيَّر النبي ﷺ كُنيَته؟ من أهل العلم من قال: إن ذلك راجع إلى أن الحَكَم اسم لله تبارك وتعالى فغُيِّر لأجل ذلك، لم يُطلق على المخلوق لأجل ذلك. لكن هذا يرد عليه وارد؛ وهو أن الله ﷻ أطلق هذه التسمية على المخلوق فقال جلَّ وعلا: ﴿فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا﴾ [النساء:٣٥].

على أن تخريج فعل النبي ﷺ على هذا الأمر وهو المنع من التسمية بأسماء الله لا يصح؛ لأنَّ الله ﷻ بيَّن في كتابه صحة إطلاق هذا اللفظ على المخلوق[٧٨٦].

➢ أضيف إلى هذا الوجه -وهو كون هذا الاسم أو هذا الإطلاق جاء في كتاب الله- كذلك في سنة النبي ﷺ الإقرارية أو التقريرية[٧٨٧]، فابن الأثير في «أُسْد الغابة» أورد من أصحاب النبي ﷺ من اسمه «الحكَم» ثلاثة وعشرين كلهم اسمهم (الحكم)، والنبي ﷺ يَبْعُدُ أن يكون غير مطَّلع على هذه الأسماء، هؤلاء أصحابه فكيف يُقال إنه لا يعرف أسماء أصحابه؟ كذلك أورد تسعةً من

---

(٧٨٦) قالت طائفة من أهل العلم: إن المنع من التسمية هنا نظرًا لكونه لُوحِظَ المعنى في التسمية، لمَّا لُوحِظَ المعنى في التسمية مُنِع من هذه التسمية، أمَّا إذا كانت الأسماء مُرْتَجَلَة لم يُلْحظ المعنى حين التسمية فإنه يجوز؛ يجوز أن يُسمّى رحيمًا، وقد لا يكون رحيمًا، ويجوز أن يُسمّى بكونه حكيمًا، وقد يكون من أجهل الناس وأحمقهم وما إلى ذلك، فهذه أسماء مرتجلة.

لكن هذا أيضًا يَرِدُ عليه : أن من أُطلِق عليه في الآية حَكَمًا لوحظ فيه المعنى، فلا يُطلق عليه أنه حَكَم إلا لكونه يَحْكم، ولا فرْق فيما يبدو بين كون هذا الإطلاق هنا على أنَّه صفة، وفيما سبق على أنَّه اسم، من هذه الناحية لا فرق؛ فما يختصُّ الله ﷻ به من الأسماء السابقة لا يجوز إطلاقه على المخلوق لا على أنَّه اسم ملازم ولا على أنَّه صفة.

(٧٨٧) **والذي يُشكِل أكثر في هذا الباب**: أنك لو راجعت كُتُب تراجم الصحابة لوجدت عددًا من الصحابة أسمائهم «الحَكَم».

الصحابة اسم كل واحد منهم «الحكيم» أو «حكيم»، فدل هذا على أن تخريج هذا الذي جاء في هذا الحديث على هذه المسائلة تخريج بعيد.

➢ قال بعض أهل العلم: لعل النبي ﷺ إنما كان ذلك منه لأن النظر إلى الكنية وليس إلى الاسم، لأن أبا شريح كانت كنيته «أبا الحكم»(٧٨٨)، وهذه الكنية قد تُوهِم معنًى باطلًا؛ وهو ثبوت المولودية في حق الله ﷻ، أي أن يكون له أبٌ - تعالى الله عن ذلك- والله سبحانه يقول: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾[الإخلاص:٣].

ولكن هذا أيضًا بعيد؛ وذلك لأن من أصحاب النبي ﷺ من كانت كنيته أبا الحكم وما غيَّر ذلك النبي ﷺ. أورد الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الطبقة الأولى في كتابه الإصابة ثلاثةً من الصحابة كلهم يُكْنى بـ«أبي الحكم»، وأورد ستةً كانوا يُكْنون بـ«أبي حكيم»، ويبعُد أن يكون النبي ﷺ لا يعلم كنيتهم، أو أن لا يكون قد بلغ هؤلاء الصحابة أن النبي ﷺ غيَّر كنية هانئ ابن يزيد؛ لأنَّ مثل هذه القصة العادة إنها تنتشر، فإما أن يغير الصحابة هذه الكنية، أو أن يرجعوا إلى النبي ﷺ فيستفتونه.

---

(٧٨٨) بمعنى أنَّه لمَّا كانت الكُنية راجعة إلى اسم لله ﷻ فقِيلَ «أبو الحكم»؛ مُنِع من ذلك دفْعًا لتوهُّم الوالدية أو المولودية عن الله تبارك وتعالى، حتى لا يتوهَّم أن أبا الحكم تعني: أبا الله؛ تعالى الله عن ذلك ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص:٣].

والذي يظهر لي -والعلم عند الله تعالى- أن هذا الحديث يدل على أن الأولى والأكمل والأحسن والأفضل ترك التكني بهذه الكنية،(٧٨٩) وأما فعل الصحابة والذي يظهر لنا من إقرار النبي ﷺ على ذلك فإنه دليلٌ على الجواز، والله تعالى أعلم.



(٧٨٩) فيكون حكم هذه التسمية مكروهًا، ووجود من في الصحابة بهذا الاسم وهذ الكُنية دون تغيير دليلٌ على الجواز، لكن الأكمل والأفضل تغيير ذلك، وهو ما أرشد إليه حديث أبي الشُريح رضي الله عنه، لا سيَّما وأنَّ ملاحَظة المعنى تقوّي هذا الجانب؛ يعني كونه إنما كُني بسبب هذه القصة مِمَّا يقوي المنع، فملاحظة المعنى في هذه الكُنية مِمَّا يقوي المنع في هذا الجانب، والله عز وجل أعلم.

قال المصنف رحمه الله:

٤٨-بَابُ

مَنْ هَزَلَ بِشَيْءٍ فِيهِ ذِكْرُ اللهِ أَوِ القُرْآنِ أَوِ الرَّسُوْلِ

وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ [التوبة:٦٥] الآيَةَ.

عن ابنِ عُمَرَ ومحمدِ بنِ كعبٍ وزيدِ بنِ أسلمَ وقَتَادةَ- دَخَلَ حَدِيْثُ بَعْضِهِم فِي بَعْضٍ- أَنَّهُ قالَ رجُلٌ فِي غَزْوَةِ تبوك: «مَا رَأَيْنا مِثْلَ قُرَّائِنا هَؤلاءِ أرغبَ بُطونًا، ولا أَكْذَبَ أَلْسُنًا، ولا أجْبَنَ عندَ اللِّقاءِ» يَعني الرَّسُولَ ﷺ وأَصْحَابَهُ القُرَّاءَ، فقالَ له عَوْفُ بنُ مالكٍ: «كَذَبْتَ؛ ولَكِنَّكَ مُنَافِقٌ، لأُخْبِرَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ»، فَذَهبَ عوْفٌ إلى رَسُولِ اللهِ ﷺ لِيُخْبِرَهُ فَوجَدَ القُرْآنَ قَدْ سَبَقَهُ، فَجَاءَ ذَلَكَ الرَّجُلُ إلى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَقَدْ ارْتَحَلَ وَرَكِبَ ناقَتَهُ، فقالَ: يا رَسُولَ اللهِ! إِنَّما كُنَّا نَخُوضُ ونَلْعَبُ ونَتَحَدَّثُ حَدِيثَ الرَّكْبِ نَقْطَعُ بِهِ عَناء الطَّرِيقِ، قَالَ ابْنُ عُمَرَ: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ متعلِّقًا بِنِسْعَةِ ناقَةِ رَسولِ اللهِ ﷺ، وإِنَّ الحِجَارةَ تَنْكُبُ رِجْلَيْهِ، وَهُوَ يَقُولُ: إِنَّما كُنَّا نَخُوضُ ونَلْعَبُ، فيقولُ لَهُ رسولُ اللهِ ﷺ: ﴿ أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ۞ لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة:٦٥-٦٦] مَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ، ومَا يَزِيْدُهُ عَلَيْهِ.



قال الشارح وفقه الله:

إنَّ دين الله ﷻ مبناه على تعظيمِ الله ﷻ وإجلالِه وإكرامِه، فإنّه ﷻ ذو الجلال والإكرام، المستحقُ لأن يُجِلَّه عبادُه ويكرموه بعبادته وتوحيده والتأله له ﷻ،

وهذا من الأمر المعلوم من الدين بالضرورة؛ أنه يجب تعظيم الله ﷻ، وأن يجب إجلاله، قال سبحانه: ﴿مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾[نوح:١٣]، قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ومجاهد وغيرهما من السلف: أي عَظَمة، يعني مالكم لا تعظمون الله ؟

وقال سبحانه في سياق الإنكار على المشركين: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾[الأنعام:٩١]، فالله ﷻ أهلٌ أن يعظَّم وأن يُجَل تبارك وتعالى بأقصى ما يكون من الإجلال والتعظيم؛ وهذا من الأمر المستقر حتى عند المشركين الذين عبدوا مع الله غيره، وما وحدُّوا الله، هم ما قدروه حق قدره لأنهم جعلوا معه شركاء، لكنَّ هؤلاء المشركين كان عندهم من تعظيم الله وإجلاله ما يمنعهم عن أن يقعوا في انتقاصه و الاستخفاف به صراحةً، وهذا كثيرٌ منثورٌ في كلامهم كما قال شاعرهم:

اسْتَأْثَرَ اللهُ بِالحَمْدِ وَالوَفَاءِ وَوَلَّى المَلاَمَةَ الرُّجَلَ

وهكذا درج المسلمون على أنهم يعظمون الله ﷻ ، بل إنَّهم يراعون الأدب مع الله ﷻ في أمور دقيقة، قال عون بن عبدالله رَحِمَهُ اللَّهُ: «لِيُعظِّم أحدكم ربه أن يذكره في كل كلامه حتى يقول: أخزى الله الكلب، وفعل الله به كذا وكذا»، يرى رَحِمَهُ اللَّهُ أن من الأدب أن لا يُذكر هذا الاسم العظيم في هذا المقام، المقام الذي يُذكر فيه الكلب.

وكذلك الأمر في حق النبي ﷺ واجب تعظيمه التعظيم الشرعي، وواجبٌ تعزيره ﷺ، قال سبحانه: ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾[الفتح:٩].

وقد أجمع المسلمون قاطبة على أنَّ من خالف موجِبَ التعظيم فنال مقام الإلهية أو الربوبية أو مقام الرسالة بشيءٍ من الانتقاص، سواءً أكان هذا سبًا أو استهزاءً، فإنَّه كافر بالله العظيم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

هذا إجماعٌ ضروري؛ كلُّ من سب الله، أو شتمه، أو سخر بالله، أو بشيء من أسماءه وصفاته، أو بشيء من سنة النبي ﷺ، أو بذاته، أو بشيء من أحاديثه، أو بشيء من أحكامه، أو بشيء من أمور الآخرة، أو بملَك من الملائكة، أو بأحد من الرسل عليهم الصلاة والسلام، بل حتى من سخر بالمؤمنين لأجل إيمانهم، أن هذا كافرٌ بالله عَزَّ وَجَلَّ.

-فإن كان مسلمًا فقد ارتد، وكفره أضحى أعظم من الكفر الأصلي(٧٩٠) .

- ومن كان كافرًا أصليًا فإنه بهذا يزيد غلوًا في الكفر وعتوًا وتجبرًا، وينتقض عهده إن كان مُعاهدًا للمسلمين. هذا أمرٌ مجمعٌ عليه من المسلمين.

وهذا الباب الذي عقده المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أراد به التنبيه والتذكير والتحذير في شأنٍ مهم وعظيم يتعلق بناقضٍ من نواقض الدين ألا وهو: ما يكون من العبد من

(٧٩٠) فمن وقع في شيء من ذلك فإنه يكون قد نقض دينه وإيمانه وإسلامه، فلا يجتمع قط إيمانٌ بالله ورسوله ﷺ معَ الطعن والانتقاص والاستهزاء -وأشدُّ من ذلك السبُّ- في قلب المؤمن البتَّة.

قولٍ أو فعل يتضمن انتقاصًا لحق الله ﷻ، وهذا الانتقاص يتفرَّع إلى السخرية والاستهزاء أو إلى السب والشتم، وهذا أخبثُ وأشدُّ نكارة(٧٩١).

ولاحظ -يا رعاك الله- أن أهل العلم في هذا المقام يقرنون الكلام بين السب والشتم، والسخرية والاستهزاء، والعلة الجامعة بين هذا وهذا: هو وجود الاستخفاف والانتقاص لجناب الربوبية أو لجناب الرسالة أو للشريعة.

إذًا أجمع المسلمون على أن من سب الله أو استهزأ به أو برسوله ﷺ أو بشيء مما جاء به فإن هذا كافر بالله ﷻ. والمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في رسالته المشهورة التي جمع فيها أشهر نواقض الدين، نصَّ في الناقض السادس على أن من استهزأ بشيء من دين الرسول ﷺ أو ثوابه أو عقابه كفر، والدليل قوله تعالى: ﴿**وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ**﴾[التوبة:٦٥]، ثُمَّ ذكر في خِتام هذه النواقض أن جميع هذه النواقض لا فرق فيها بين الهازل والجاد والخائف إلا المُكره.

إذًا هذا مقامٌ عظيم يجب على المسلم أن يتنبه له، فسبُّ الله ﷻ أو الاستهزاء به أو برسوله ﷺ أو بدينه هذا ناقض من نواقض التوحيد وكفرٌ غليظ(٧٩٢)

---

(٧٩١) لأجل هذا عقد المؤلّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الباب ليبيّن أنَّ من وقع في ذلك فقد نقض إيمانه، وأن هذا الاسْتخفاف والانتقاص مُنافٍ لأصل الإيمان والتوحيد.

(٧٩٢) وهذه القضية قضيةٌ إجماعيةٌ ضرورية، فإنه بالإجماع المعلوم بالاضْطرار كفْرُ من استهزأ بالله أو برسوله ﷺ، أو بأي رسولٍ من الرسل، أو بأي ملكٍ من الملائكة، أو بالقرآن، أو بحديث رسول الله ﷺ، أو بأي سنةٍ من سُنَنه، أو بأي حكمٍ من أحكامٍ شرعه،

-نسأل الله السلامة والعافية- والأدلة على ذلك كثيرة، والمقام أوضح من أن يُستدل عليه، لكن تكثير الأدلة وتكثير إيرادها مما يبيِّن الأمر ويزيدُ الإنسان يقينًا بشأن هذا الأمر العظيم. الأدلة على ما ذكرت لك كثيرة، منها:

أولًا: أدلة القرآن الكريم، وأدلة القرآن يمكن أن نجعلها في قسمين:

- **أولًا**: أدلة صريحة على أن السخرية والاستهزاء والسب، أو أيَّ شيء يُشعر بالغضِّ والاحتقار والانتقاص من جناب الربوبية والألوهية أو الرسالة أو الشريعة أن هذا كفرٌ بالله ﷻ مستوجبٌ الخلود في النار.

- **ومن ذلك** وهو أصرح ما في الباب : ما أورد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد هذه الترجمة، وهو قول الله ﷻ:﴿**وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ**﴾[التوبة:٦٥-٦٦]، فهذا نصٌّ صريح(٧٩٣) على أن الاستهزاء بالله ورسوله ﷺ كفرٌ بالله ﷻ ، وأن من وقع في ذلك بعد إيمانه، فقد صار مرتدًا.

- **ومن ذلك أيضًا وهو الدليل الثاني**: ما سبق هذه الآية في سورة التوبة بأربع آيات، وهو قول الله ﷺ: ﴿**وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ**﴾[التوبة:٦١]، (هو أذن) كلمة سخرية، ينتقصون النبي ﷺ فيقولون إنه يُرخي سمعه لكل أحد، ويستمع لكل أحد، ﴿**هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ**

كل ذلك رِدّةٌ صريحةٌ عن دين الله ﷻ ، وقد نقل الإجماع على ذلك جماعاتٌ من أهل العلم من جميع المذاهب كلهم ينصّون على هذا الحكم العظيم.

(٧٩٣) لا يقبل التأويل البتَّة.

﴿وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[التوبة:٦١]، ثم قال بعد آية: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾[التوبة:٦٣]، حكَم الله ﷻ على أن من آذى رسول الله ﷺ أو احتقره أو انتقصه بأنَّ له النار خالدًا فيها والعذاب الأليم والخزي العظيم، وإذا ثبت هذا في حق رسول الله ﷺ، فلأن يثبت في حق ربنا ﷻ من باب أولى.

- **ومن ذلك أيضًا وهو الدليل الثالث:** قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾[الأحزاب:٥٧]،(٧٩٤) وأيُّ أذيةٍ أعظم من السخرية والاستهزاء أو السب والشتم! وقد نص شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ على أن القرآن ما جاء فيه أن العذاب المهين قد أُعد إلا للكافرين؛ فدل هذا على أن من استهزأ بالله جل وعلا أو برسوله ﷺ فإنه كافرٌ بالله.

- **والدليل الرابع:** قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾[الحجرات:٢]، في هذه الآية أمَر الله سبحانه المؤمنين أن لا يرفعوا أصواتهم فوق صوت النبي ﷺ، إذا كانوا بحضرته واجبٌ عليهم أن يغضوا أصواتهم، وأن لا يخاطبوه المخاطبة المعتادة التي تكون فيما بينهم، بل واجبٌ عليهم أن يراعوا في حقه مقام الأدب والتوقير، وإلا فإن هذا مؤذِنٌ بأن أعمالهم تُحبط وتزول، ومعلومٌ أن الحبوط العام الكلي لا يكون إلا بالكفر بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فإذا

---

(٧٩٤) وهذا الوعيد لم يأتِ في الشرع قطّ على معصية من المعاصي، فدلَّ هذا على أنَّ من وقع في ذلك -في أذيّة الله ورسوله ﷺ- فهو كافرٌ بالله سبحانه.

كان مجرد رفع الصوت على صوت رسول الله ﷺ أو مخاطبته بالخطاب الاعتيادي أن هذا قد يوصل صاحبه إلى الكفر بالله ﷻ، فكيف بالسب الصريح والاستهزاء والانتقاص! أليس أولى وأجدر بهذا الحكم؟.

🙼 **أما القسم الثاني من أدلة القرآن:** فهي الأدلة التي دلت على أن الاستهزاء والسخرية بالرسل والمؤمنين لأجل إيمانهم إنما هو شأن الكافرين لا شأن المسلمين، فمن وافقهم في شيء من ذلك كان حكمه حكمهم.

من ذلك: قول الله ﷻ: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ**﴾[المطففين:٢٩-٣٠].

ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿**وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ**﴾[هود:٣٨]، هؤلاء قوم نوح سخروا من نوح عليه السلام ومن المؤمنين.

ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿**إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِين * فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ**﴾[المؤمنون:١٠٩-١١٠].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون**﴾[الأنعام:١٠].

إذًا هذا الشأن إنما هو شأن الكفار وإنما هو فعل الكفار لا فعل المسلمين.

🙼 **الدليل الثاني:** سنة النبي ﷺ، والأدلة في هذا عدة:

- من ذلك ما خرج أبو داود في سننه، والنسائي في سننه بإسناد قال فيه الحافظ في «البلوغ» رجاله ثقات، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: أن رجلًا

أعمى كان له أم ولد تخدمه وكانت به رفيقة، كان له منها ولد لكنها كانت تقع في النبي ﷺ وتشتمه، وينهاها ولا تنتهي، حتى إذا ما كانت ليلة، شتمت النبي ﷺ، فما كان منه إلا أن أخذ معولًا -يعني كالسيف الصغير- فوضعه في بطنها وضغط عليها حتى قتلها، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فأخبره هذا الرجل بما كان منها، فأهدر النبي ﷺ دمها.

هذه المرأة، إمَّا أن تكون مسلمة، وإما أن تكون كافرة أصلية؛ يعني يهودية أو نصرانية.

-فإن كانت مسلمة في السابق، فإنها بهذا تكون قد ارتدت، فكان دمها مباحًا.

-وإما أن تكون كافرة أصلية؛ فيكون كفرها قد زاد وبلغ الغاية، وانتقض عهدها بذلك[٧٩٥] .

■ وقُل مثل هذا في **الدليل الثاني** وهو ما جاء عند أبي داود أيضًا بإسناد جوَّده شيخ الإسلام في «الصارم» من حديث علي رضي الله عنه أن يهودية كانت تقع في النبي ﷺ، فقام إليها رجل فخنقها حتى ماتت، فأهدر النبي ﷺ دمها[٧٩٦] .

■**ومن تلك الأدلة أيضًا وهو الدليل الثالث**: ما ثبت في الصحيحين- وأظن أنه قد مر بنا قريبًا- من أن النبي ﷺ قال: «من لكعب بن الأشرف، فإنه قد آذى الله ورسوله»؛ هذا الرجل يهوديٌ كان منه أنواع من الكفر، كان يهوديًا ألَّب على

---

(٧٩٥) وهذا بالإجماع أنَّ من كان مستأمنًا في بلاد المسلمين فوقع في شيءٍ من هذا الباب فإنه ينتقِضُ عهدُه.

(٧٩٦) وإذا كان هذا في حق يهودية لم تدخل في الإسلام، فكيف بمسلم يدَّعي الإسلام ويدَّعي أنه يعظّم الله، ويدَّعي أنهُ مستسْلم لله جلَّ وعلا! لا يمكن أن يتأتَّى هذا قط.

المسلمين، ذهب إلى مكة فحسَّن دين المشركين وذمَّ دين النبي ﷺ، ومع ذلك فإن النبي ﷺ بعد كل هذا ما حث على قتله، لكنه لمَّا هجا رسول الله ﷺ ووقع فيه، حث النبي ﷺ على قتله، فانتدب لقتله محمد بن مسلمة وجماعة من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فقتلوه[٧٩٧]. فدل هذا على أن السخرية والنيل من رسول الله ﷺ أعظم ما يكون من الكفر، وبالتالي ينتقض عهد الكتابي به.

- **وقُل مثل هذا في الحديث الرابع**، وهو ما أخرج الشيخان أيضا من حديث أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ دخل مكة وعلى رأسه المغفر، فلما وضعه جاءه رجلٌ فقال: إن ابن خطل متعلق بأستار الكعبة، فقال النبي ﷺ: (اقتله)، وفي رواية مسلم: (اقتلوه)، فقتلوه وهو متعلق بأستار الكعبة. ابن خطل كان مسلمًا فارتد، وقتل خادمًا مسلمًا كان يخدمه، وهجا النبي ﷺ، بل كان له قينتان تغنِّيان بهجاء النبي ﷺ.

لاحظ هنا أن علة قتله لم تكن الردة ؛ لأن المرتد كما هو معلوم في الشريعة يستتاب، أليس كذلك؟ **هذا أولًا**.

ثانيًا: كونه قتل الرجل المسلم، هذا حكمه في الشريعة، أن يُسلَّم لأولياء القتيل وهم معروفون؛ (بنو خزاعة)، فإن شاءوا أن يقتلوه، وإن شاءوا أن يأخذوا منه الدية، وإن شاءوا أن يعفوا، لكن النبي ﷺ أمر بقتله، مع أنه كان عائذًا بالحرم،

---

(٧٩٧) فدلَّ هذا على أن الوقيعة في رسول الله ﷺ كفْرٌ مستقل مقتضٍ للقتل، بلْ هو أعظم من الكفر الأصلي الذي كان عليه وهو يهوديًا فلم يقتله النبي ﷺ عليه، لكن لمَّا وقع في النوع الآخر من الكفر الذي هو أشدّ حثَّ ﷺ على قتله؛ عقوبةً على هذا كفر البليغ.

متعلقًا بأستار الكعبة، ما رفع سلاحًا على النبي ﷺ؛ فدل هذا على أنَّ قتله مع وجود هذه الحال التي كان عليها، لأنه قد وقع في كفر عظيم وهو أنه كان يهجو رسول الله ﷺ[٧٩٨].

◄ **أمَّا الدليل الثالث**: فإجماع المسلين قاطبة، وخذ ما شئت من كتب الفقه واقرأ فيها، فإنك تجد التنصيص على هذا في جميع كتب الفقه، إذا فتحت باب الردة وجدت التنصيص على أن من سب الله أو رسوله، أو استهزأ بالله أو رسوله، أو بشيء من دينه أو ثوابه أو عقابه، فإنه يكون كافرًا حلال الدم، وأن الواجب على ولي أمر المسلمين أن يستتيبه، فإن تاب وإلا قتله، اللهم إلا في حق النبي ﷺ فالذي ذهب إليه جماعة من المحققين -كشيخ الإسلام ابن تيمية وغيره- أنه يقتل بلا استتابة، وهذا قول له حظ من النظر، كما بسط هذا رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «الصارم المسلول على شاتم الرسول» ﷺ.

ولو تأملت في كتب الفقه لوجدت أنهم ينصون على أشياء ربما يستسهلها بعض الناس في هذا الزمان، هم يذكرون أشياء وفي بعض ما ذكروا ما فيه نظر وبحث، لكن المقصود أنهم كانوا يدققون كثيرًا في هذا الأمر العظيم، حتى إنك تجدهم يقولون: من قال "فلانٌ أقصر من إنَّا أعطيناك الكوثر" قالوا: كَفَرَ بالله؛

---

(٧٩٨) وهكذا في نصوص عِدَّة جمْعُها والكلام فيها مِمَّا يَعسُر، وقد أفاض أهل العلم في بيان ذلك، ومن أحسن من تكلَّم في هذا شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «الصارم المسلول على شاتم الرسول» ﷺ.

لأن كلامه فيه انتقاص لهذه السورة، حتى وجدناهم يقولون: "من قال قصعة ثريد خير من العلم" يقولون: كفر، حتى وجدناهم يقولون: من قال "مسيجد" أو "مصيحف" يقولون: كفر؛ لأنَّ هذا فيه شيء من التحقير لبيت الله أو لكلام الله.

انظر إلى هذه الدقة وإلى هذه الدرجة كانوا رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ يدققون في مثل هذه المسائل، وكما ذكرت لك هذا المقام لا يُسلَّمُ بكل ما حُكم فيه، لكنه يدلك على أن المقام عظيم، فكيف بهم لو رأوا ما يُقال أو يُكتب أو يُنشر في هذا الزمان! فإن من الناس ممن أجرموا وهان عليهم دينهم وخفَّ عندهم تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ أو انعدم يقعون في أمور فظيعة- نسأل الله السلامة والعافية-.

ربما تسمع أو تقرأ عمن يسخر باللحية التي هي سنة رسول الله ﷺ، فتجد أنه يقول عن صاحبها "إنه ذَقَنُ التيس"، أو تجده يسخر بالحجاب الذي يأمر به شرع الله عَزَّوَجَلَّ فتجده يقول "خيمةٌ متحركة"، أو تجد من يسخر بمن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويحث على الصلاة، فتجدهم يقولون: "شركة صلُّوا"، هذه أمور عظيمة يا أيها الإخوة، وحرك ترى، انظر إلى أنواع من السخرية والاستهزاء بحدود الله عَزَّوَجَلَّ ،أو بما حرم الله جل وعلا، أو بما بَيَّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في كتابه أو في سنة رسوله ﷺ.

إذًا المقام يا أيها الإخوة مقام عظيم، والنبي ﷺ أخبر «أن الرجل ربما يتكلم بالكلمة -كلمة واحدة- لا يلقي لها بالًا يهوي بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب»، أخبر النبي ﷺ أن «أكثر ما يورد الناس النار الفمُّ والفرج». إذًا على

المسلم الذي يريد نجاة نفسه أن يتصوَّن وأن يتنبَّه، وأن يمسك عليه لسانه فإنه والله قد يورده الموارد .

🡿 **أما الدليل الرابع**: فإنه من النظر؛ فإنَّ النظر الصحيح لكل من شدا طرفًا من العلم بالشريعة يُدْرك أنه لا يمكن البتة أن يجتمع تعظيم الله سبحانه والاستسلام له مع الاستهانة به أو برسوله أو بدينه ﷺ ،مستحيل، لا يجتمعان إيمان بالله وتعظيم له ﷻ مع هذه السخرية والاستهزاء أو الانتقاص، وأعظم من ذلك سب الله أو رسوله ﷺ.

إذًا هذا مما لا يمكن للإنسان أن يخالف فيه إذا أمعن النظر في قواعد الشريعة وأصولها، لا سيما في باب الإيمان، وذلك أنَّ الإيمان مركبٌ من أربعة أشياء: من قول القلب، وقول اللسان، ومن عمل القلب، ومن عمل الجوارح. ولا شك ولا ريب أن هذا الانتقاص والاستخفاف من جناب الربوبية والألوهية أو الرسالة أو الشريعة منافٍ لعمل القلب قطعًا، لا يمكن أن يَجتمعَ عمل القلب الذي يتضمن محبة الله وتعظيمه والخوف منه مع هذا الأمر. وربما أيضًا -وهو كثير أو الغالب- أن لا يجتمع حتى مع قول القلب، وهو تصديقه وإيقانه إن كان يصدِّق بالله وبصفاته ونعوت جلاله، وبالنبي ﷺ، فإن الغالب أن هذا التصديق يمنعه من الوقوع فيما يناقض ذلك.

نأتي الآن إلى تنبيهات مُهْماتٍ تتعلق بهذا الموضوع:

❖ **أولًا**: أنَّ الضابط في السب أو الاستهزاء هو العرف؛ فما عُدَّ في العرف سبًا أو استهزاءً فإنه سبٌ واستهزاء في هذا المقام، وبالتالي يكون الحكم في ذلك

بمقتضى ما يحكم به العُرف، وهذا المقام لا شك أنَّ الأمر فيه متفاوت باختلاف الأزمنة وباختلاف الأمكنة، فما عُدَّ في مكانٍ استهزاءً قد لا يُعد في مكان آخر كذلك، ما عدُّ في زمان سبًا قد لا يكون في وقت آخر سبًا، إذًا لابد من مراعاة هذا الأمر.

وهذا المقام فيه تفاوتٌ عظيم، ليست الكلمات أو ما يرجع إلى الاستهزاء والسخرية وما إلى ذلك ليست درجة واحدة، فمنها ما هو استهزاءٌ صريح أو سب صريح، وبالتالي فإنه يُحكم بمقتضى هذا ولا يُقبل أي دعوى بخلاف ذلك، ما كان من سبٍ صريح أو استهزاء صريح بمقتضى العرف العام المطَّرِد فإن هذا مما لا يقبل فيه الدَّعوى بخلافه، لو ادَّعى "أني ما أردت، ما قصدت" لا يُلتفت إلى هذا.

وثمة عبارات وجُمل وكلمات يتردد فيها النظر، تحتمل أن تكون استهزاء وتحتمل أن لا تكون كذلك؛ ومثل هذا المرجح فيه النية والقصد، فمتى ما كنت النية والقصد متجهةً إلى السخرية والاستهزاء كان الحكم بمقتضى ذلك، ومتى ما ادَّعى القائل بأنه يقصد ذلك فإنه ليكون كذلك. إذًا هذا المقام يحتاج الناظر فيه أن يتريث وألا يعجل.

❖ **الأمر الثاني** وهو من المهمات أيضًا: أنَّ من الناس من يُرْجِع الحكم في هذا الباب إلى الاستحلال، فيقول: من سب الله مستحلًا أو استهزأ بالنبي ﷺ مستحلًا، فإنه يكون بذلك كافرًا. إذًا مناط الحكم عند هؤلاء -وهؤلاء طائفة كبيرة من المتكلمين- مناط الحكم عندهم ليس راجعًا إلى الاستهزاء

والسخرية أو السب، وإنما إلى الاستحلال. ولاشك أنَّ هذا تأصيلٌ باطل وقولٌ مخالف لإجماع السلف.

الذي عليه أهل السنة والجماعة بل الذي عليه دلالات الكتاب والسنة: أنَّ السبَّ أو السخرية من حيث هي مكفِّرٌ ناقضٌ سببٌ للكفر بحدِّ ذاتها، بغض النظر عن حال القائل.

لا فرق عند أهل السنة بين أن يكون الساب أو الساخر معتقدًا للتحريم، أو مستحلًا، أو ذاهلًا عن اعتقاده؛ هو في غفلة، هل هو معتقد التحريم أو الاستحلال؟ هو في تلك اللحظة كان ذاهلًا عن ذلك! لا فرق عند أهل السنة والجماعة، بمجرد خروج هذه الكلمة الآثمة من فمه يكون قد كفر بالله ﷻ، لأن هذا هو الذي دل عليه القرآن صريحًا، قال جل وعلا: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾[التوبة:٦٥]. إذًا الحكم تعلق بالاستهزاء، قال ﷻ بعدها: ﴿لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾[التوبة:٦٦]، لم يقل الله ﷻ (كفرتم لأنكم استحللتم السخرية والاستهزاء بالله ورسوله وبالإيمان)؛ فدل هذا على أن الحكم متعلق بمجرد الاستهزاء؛ كفرتم لأنكم استهزأتم وليس لأنكم استحللتم.

وهذا القول عند النظر باطلٌ قطعًا، لأننا لو طردنا قولهم هذا فإننا يصح حينئذ أن نقول "إن من كذب أو اغتاب فقد كفر" والمراد: أنه إن استحل ذلك، وهذا لا يقول به عالم.

إجماع المسلمين على أن من استهزأ كفر، يقولون من استهزأ كفر، من سب كفر، هؤلاء يؤوِّلون هذه الجملة بالاستحلال، يلزمهم إذًا أن نقول من كذب أو اغتاب أو زنا كفر، والمراد لو استحل وهذا لا يقول به عالِم.

إذًا المسلمون متفقون على التفريق بين الاستهزاء والسب وبين المعاصي إذا استثنينا الوعيدية، المعاصي كالكذب والغيبة والسخرية هذه لها حكم آخر، لها حكم المعصية، فلا نقول في مثل هذا إنَّ الحكم معلقٌ باستحلال السخرية والاستهزاء.

الاستحلال ناقضٌ مستقل، بمعنى: من اعتقد حِلَّ وجواز سب الله ﷻ فإنه يكفر ولو لم ينطق بحرف واحد في سب الله ﷻ، فالحكم إذًا معلقٌ بالكلام من حيث هو، بالسب من حيث هو، بالاستهزاء من حيث هو. وأما خلاف ذلك فلا شك أنَّ هذا من أقوال أهل البدع.

هذه المسألة مخرجة عند هؤلاء على قولهم بـ(الإرجاء) في باب الإيمان؛ وذلك أن هؤلاء يحصرون الكفر في الجهل والتكذيب، وسبب ذلك: أن الإيمان عندهم هو التصديق فحسب.

إذًا إذا كان الإيمان هو التصديق والكفر ضده، كان الكفرُ الجهلَ والتكذيب، وبالتالي فإنك تجدهم يُحيلون ويرجعون جميع نواقض الدين إلى هذا الأمر؛ وهو ما يتعلق بالتكذيب، ما يتعلق بالجهل، ولا يجعلون الكفر كما دلت عليه أدلة الكتاب والسنة راجعًا إلى الأنواع الأربعة كما دل على هذا

إجماع السلف، وهو أنَّ الكفر يكون بالقول، ويكون بالفعل، ويكون بالاعتقاد، ويكون بالشك.

-هكذا أجمع أهل السنة والجماعة أنَّ الكفر يكون بالقول؛ فمن سب أو استهزأ بالله ﷻ فإنه يكفر بمجرد قوله، من دعا غير الله فإنه يكفر بمجرد دعاءه.

-ويكون بالفعل؛ فمن قتل نبيًا أو لطمه، أو بال على مصحف أو رماه مستخفًا به وهو يعلم أنه مصحف، أو سجد لقبر أو صنم فإنه يكفر بمجرد هذا الفعل.

-كذلك بالاعتقاد؛ من اعتقد مشاركة غير الله ﷻ له فيما يختص به كالإحياء والإماتة أو استحقاق العبودية، فلاشك أنه يكفر بمجرد هذا الاعتقاد.

-أو يكون شاكًا شكًا مخرجًا من الملة؛ كأن يشك هل النبي ﷺ نبي صادق أم لا؟ الأمر عنده محتمل، فإن هذا لا شك أنه كفرٌ به.

إذًا أهل السنة والجماعة يعتقدون أنَّ مناط التكفير في مسألة السب والاستهزاء والسخرية إنما هي بالقول من حيث هو، أو بالفعل إنْ دل على ذلك، إذا كان إخراج اللسان أو الغمز بالعين أو حركةٌ باليد، والمساق والسياق يتعلق بشيء يرجع إلى جناب الألوهية أو الربوبية أو الرسالة، يعني فعَل هذا سخرية واستهزاءً فإن هذا هو مناط التكفير، وبه يكون كافرًا.

أمَّا إحالة ذلك إلى القلب في جميع هذه الأحوال، فهذا قول أهل الإرجاء، الله ﷻ قال: ﴿وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ﴾[التوبة:٧٤]. إذًا بمجرد الكلمة كفروا، قال ﷻ: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ﴾[المائدة:٧٣]،

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾[المائدة:١٧]، ما قال الله ﷻ (لقد كفر الذين اعتقدوا أن الله ثالث ثلاثة)، إذًا الكفر كان متعلقًا بالقول.

ويكفي أن تتأمل في آية من القرآن يتضح لك المقام جليًا، وهو قوله تعالى: **﴿مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾**[النحل:١٠٦].

لاحظ معي هذه الآية تتناول الكفر بالظاهر؛ يعني بقول كفري أو بفعل كفري، لم تتعرض للكفر الباطن، حكمت بالكفر بمجرد القول الظاهر أو الفعل الظاهر، يعني من فعل الكفر أو قال الكفر فقد كفر، يُحكم في الشريعة عليه بالكفر[٧٩٩] .

---

(٧٩٩) وأيضًا يقول أهل السُنَّة والجماعة: «ثمَّة تلازم بين الظاهر والباطن»؛ بمعنى لم يصدر هذا الفعل الكفري إلا لعدم الإيمان القلبي، وإلا لو كان ثمَّة إيمانٌ قلبي لَحجزه عن ذلك. ولذا اجتمع في حق هذا الفعل الكفري وهذا القول الكفري اجتمعت به الأمران: اجتمعت فيه أنَّ هذا القلبي من حيث هو كفرٌ وتتعلق به الأحكام، وأيضًا أن هذا الظاهر دليل على أن القلب خالٍ من الإيمان بالله ﷻ إذْ لو وُجد ذلك لحجزه عن الوقوع في هذا الكفر.

أمَّا المخالفون فالفعل عندهم من حيث هو لا يتعلق به الحكم، ولذلك قد يجتمع عندهم أنَّ يَكفر أو أن يفعل الفعل الكفري الذي ليس هو كفر، والإيمان الباطن ؛لأنَّ الأَمارة قد تصيب وقد تخطئ، وهذا الفعل أو القول الظاهر إنما هو مجرد أَمارةٍ على ما في الباطن، ولذلك نحن نُجري الأحكام الدنيوية عليه؛ لأنه لا سبيل لنا إلى معرفة ما في باطنه، وهذا مخالفٌ لما دلَّت عليه النُّصوص.

ما الدليل على هذا؟ الدليل إنما استثني هذا المُكره، ولا إكراه على ما في القلب، الإكراه إنما يُتصور في الأمر الظاهر، في القول يُكْره على أن يتكلم بكلمة الكفر، يُكره على أن يفعل الكفر، أما أن يُكره على أن يعتقد الكفر هذا لا يتصور ولا يمكن، لا يمكن لأحدٍ أن يُكْره أحدًا على أن يعتقد بوجود شريكٍ مع الله ﷻ مثلًا، هذا لا يمكن أن يتصور، يمكن أن يكذب عليه بلسانه لكن أن يعتقد هذا بقلبه؛ لأنه مكره هذا لا يتصور.

لا إكراه على ما في القلب، وبالتالي فإن هذه الآية قد حكمت على القول وعلى الفعل إذا كان مناقضًا للدين بأنه كفر؛ لأنَّ الله ﷻ قال: ﴿**مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ**﴾، واستثناء المكره دليل على الكفر ، فإنه كافر.

إذًا حذار يا أيها الأخوة من هذا الأمر وهو الوقوع في مزلق الإرجاء، فإن أبواب هذا المذهب مع الأسف الشديد قد كثُرت وفُتحت على الناس في هذا الزمان في بعض ما يُكتب وبعض ما يُقال ويُنشر من أقوالٍ تخالف مذهب السلف، لم تؤصَّل على مذهب أهل السنة والجماعة في باب الإيمان، إنما كان فيها تأثر بمذاهب أهل الإرجاء، فعلى الإنسان أن يضبط هذه المسائل في ضوء معتقد أهل السنة والجماعة.

❖ **الأمر الأخير الذي أحب التنبيه عليه وهو التنبيه الثالث**: وهو ما يتعلق بأمر يُسأل عنه كثيرًا ؛ وهو أن بعض الناس يقول: من سب الله أو الدين –عياذًا بالله– حال الغضب، يقول يغضب فيسب الله ﷻ أو يسب الدين أو يسب الملة أو يسب القرآن –العياذ بالله– فهل هذا بهذا معذور؟

والجواب أن يقال: إن هذا المأثوم هذا المجرم الذي لم يجد شيئًا يخفف به حرة قلبه إلا جناب ربنا ﷻ فيسبه حتى يستريح ويخفف ما به، أيُّ تعظيم وأيُّ إيمان عند هذا الإنسان!! لاشك ولاريب أن من نطق بكلمة الكفر من سبٍ وسخرية واستهزاء -سبَّ شيئًا من دين الله ﷻ وهو يعلم أنه من دين الله، أو سخر بشيء من دين الله وهو يعلم أنه من دين الله- أنه بمجرد هذا يكون كافرًا بالله ﷻ، متى ما كان قلم التكليف جاريًا عليه، إذا كان مكلفًا فإنه لاشك مُؤاخذٌ بذلك، وليس مجرد الغضب عُذرًا له أو دارئًا عنه هذا الحكم، اللهم إلا في حالة واحدة وهي أن يبلغ به الغضب إلى درجة يرتفع عنها التكليف، إذا وصل إلى درجة يكون فيها؛ كالسكران أو كالهاذي أو كالنائم يتكلم في نومه، الذي سُئل أين أنت في أرض أو سماء لم يجد ما يجيب! أغلق عليه الباب البتة، فمثل هذا قد يقال أن له عذرًا.

أما ما عدا ذلك من أنواع الغضب المعدودة التي تقع في الناس فإن هذا ليس عذرًا لهذا الإنسان، على كل مسلم أن يتقي الله ﷻ ، وكذلك على طلبة العلم بل على كل مسلم أن يكون عنده غيرةٌ على محارم الله ﷻ، وبالتالي فإنه ينهض بواجب الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتنبيه والتحذير.

بعض الناس يقول مع الأسف في بعض الأماكن في قريتي في بلدي مثل هذا الأمر قد عمت به البلوى فماذا أصنع؟ يترك الإنكار ويترك النصيحة ويترك النهي عن هذا الفعل الشنيع لأنه قد كثُر، يا لله العجب؛ متى كان انتشار المنكر عذرًا في عدم إنكاره! بل هذا مما ينبغي أن يكون سببًا لمضاعفة الجهد في النهي

والإنكار حتى يزول هذا المنكر الفاشي، المنكر إذا انتشر آذَنَ بنزول العذاب العام.

احذر يا عبدالله من ذلك، وقم بهذا الواجب ونبِّه وحذِّر وأغلظ إذا كان المقام يستحق الإغلاظ، والحكمة وضع الشيء في موضعه.

ووضع الندى في موضع السيف بالعلا

مضرٌ كوضع السيف في موضع الندى

ربما تقتضي المصلحة الإغلاق، وربما تقتضي المصلحة لين القول، وعليك أن تضع كلًا في موضعه المناسب له.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**مَنْ هَزَلَ بِشَيْءٍ فِيهِ ذِكْرُ اللهِ أَوِ الْقُرْآنِ أَوِ الرَّسُولِ ﷺ**)؛ يعني أنَّ حُكمه كونه كافرًا، من فعَل هذا فهو كافِر، وهذا ناقضٌ من نواقض التوحيد.

قال: (**هَزَلَ**)؛ الهَزلُ: ضدُّ الجِد وهو بمعنى المِزاح[٨٠٠]، والمُراد به في هذا المقام إذا ذُكِر الهزل بكتاب الله أو بسُنَّة رسوله ﷺ فإنَّ هذا الهزل يتضمن الانتقاص والاستخفاف، وبالتالي كان في معنى والاستهزاء والسخرية. هذا هو الأمرُ العظيم الذي يَرُدُّ الإنسان -عياذًا بالله- إلى الكُفر إنْ كان مُسلمًا، أو يجعلَهُ يزداد كُفرًا وغُلوًّا إنْ كان كافرًا أصليًا.

(٨٠٠) والمراد به هنا: المزاح وما يجري مُجراه؛ كلام فيه غضٌ من قدره ﷺ، أو اسْتخفاف بحقّ الله جلَّ وعلا على سبيل الضحك وعلى سبيل التفكه وعلى سبيل المزاح بشيء فيه ذكْر الله ﷻ أو شرعه ودينه.

وقُلت لك سابقًا إنَّ الحُكم عند أهل العلم واحد؛ الاستهزاءُ والسبّ، والسبُّ لا شك أنَّه أشنع من الاستهزاء؛ فمن هزل واستهزأ بشيءٍ من ذِكر الله، يعني كان المهزولُ به شيئًا من ذِكر الله ﷻ، وأعظمُ من ذلك أن يكون الهَزلُ مُتعلِّقًا بجناب الربوبية، أو بكتاب الله ﷻ الذي هو كلام الله، أو بجناب الرسالة، أو ما تفرَّع عن ذلك من أي شيءٍ يتعلَّق بالدِّين أو بأمور الغيب أو الآخرة أو الملائكة أو الرُسُل، كلُّ ذلك حُكمه عند أهل العلم واحد.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**أو الرسول**)؛ الأقرب أنَّ (أل) هاهنا عهدية، فهو الرسول محمد ﷺ ، وغيره في حُكمه لاشتراك غيره من الرُسُل مع النبيّ ﷺ في هذا الوَصف وهو الرسالة. أو تكون (أل) هاهنا للاستغراق، فيشمل ذلك كل رسول.

والمقصود أنَّ الحُكم واحد مهما جعلتَ (أل) في كلمة الرسول، فأيُّ هزلٍ بأحدٍ من رُسُل الله ﷷ فإنَّه يُعد ناقضًا من نواقض الدين.

واستدلّ المؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ على ذلك بآية سورة التوبة: ﴿**وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ**﴾[التوبة:٦٥]، ويسبق هذه الآية قوله ﷻ: ﴿**يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا**﴾، الأمر هاهنا أمرٌ من جهة اللفظ، والمعنى هو التهديد، ﴿ **قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ**﴾[التوبة:٦٤]، ثم قال ﷻ: ﴿**وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ**﴾ والخطاب مُوجهٌ إلى النبي ﷺ ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾[التوبة:٦٥] إلى آخر الآية، وسيأتي الكلام عنها إن شاء الله في بيان سبب النزول.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (عن ابنِ عُمَرَ، ومحمدِ بنِ كعبٍ، وزيدِ بنِ أسلمَ، وقَتادةَ- دَخَلَ حَدِيْثُ بَعْضِهِم فِي بَعْضٍ-...).

ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ سبب النزول لهذه الآية رواه جمعٌ من أهل العِلم، أوردَ منه المؤلِّفرَحِمَهُ ٱللَّهُ [٨٠١] رواية صحابيٍ وثلاثةٍ من التابعين[٨٠٢]؛ أمَّا الصحابيُّ فهو ابن عُمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، وأمَّا التابعون فهم زيد بن أسلم ومحمد بن كعب القُرَظي وقتادة بن دعامة رَحِمَهُمُٱللَّهُ. ورواية ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا رواية جيدة ثابتة[٨٠٣]، وتتقوَّى بمراسيل التابعين.

والمؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بيَّن أنَّه ساق الروايات مضمومةً بعضها إلى بعض، يعني ضمَّ روايات هؤلاء رضي الله عنهم ورحمهم بعضها إلى بعض؛ قال: (دَخَلَ حَدِيْثُ بَعْضِهِم فِي بَعْضٍ)، فهو دمج وجمَع بين الروايات وساقها مساقًا واحدًا. ويبدو والله أعلم أنَّه قد تابَع بهذا شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه «الصارِم المَسلول»، فإنَّه ذكَر الجملة نفسها وساق ما ساق المؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هاهنا.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أَنَّهُ قالَ رجُلٌ في غَزْوَةِ تَبوك: مَا رَأَيْنا مِثْلَ قُرَّائِنا هَؤلاءِ أرغَبَ بُطونًا، ولا أَكْذَبَ أَلْسُنًا، ولا أَجْبَنَ عندَ اللِّقاءِ).

قال ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: إنَّ رجلاً في غزوة تبوك، في مَسير النبي ﷺ إلى غزوة تبوك حصلت هذه القصة؛ وهي أنَّ رجُلاً في جماعةٍ من أصحابه كان مُتكلِّمًا

(٨٠١) في كتابه عن أربعةٍ من الرُّواة.

(٨٠٢) ورواية التابعين لاشكَّ أنها مرسَلة.

(٨٠٣) لابأس بها إسنادها حسن.

واحدًا، وكان البقية راضين بما يقول، فكان حُكمهم واحدًا؛ ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾[التوبة:٦٥] .

وهذا يدُلُّك على خطورة حضور مجالس المُنكر، وأنَّ مجالس المُنكر الحاضر فيها آثمٌ مالم يُنكِر، لاسيما إذا كان المجلس مجلسًا يُتكلَّم فيه بالكُفر بالله ﷻ ، والله ﷻ يقول: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ ﴾[النساء:١٤٠]. فدلَّ هذا على إنَّ من رَضِيَّ بهذا الحديث وتابع وسكت فإنَّ حُكمه حُكم المُتكلِّم.

وقد جاء في بعض روايات سبب نزول هذه الآية أنَّ المُتكلم كان واحدًا وكان البقيَّة يضحكون، يوافقون ويُتابعون على ذلك. وجاء في بعض الروايات أنَّ هذا الرجل المُتكلِّم اسمه وديعة بن ثابت كان أحد المُنافقين، وقيل غيره.

قال: (مَا رَأَيْنا مِثْلَ قُرَّائِنا هَؤلاءِ)؛ القُرَّاء في لسان السَلَف لفظٌ يُطلَق على العُلماء الذين جمعوا بين تلاوة القرآن والعلم بأحكامه، ويُريد أصحابَ النبي ﷺ معه؛ يعني يريد النبي ﷺ وأصحابه.

قال ساخرًا منهم مستهزئا بهم: « مَا رَأَيْنا مِثْلَ قُرَّائِنا هَؤلاءِ أرغَبَ بُطونًا» يعني أوسع بطونًا إشارةً إلى أنَّهم يتَّصفون بكثرة الأكل فلا همَّ لهم إلا بطونهم.

«ولا أكذَّب ألسُنًا»؛ يعني أنهم يكذبون في الحديث.

« ولا أَجْبَنَ عِنْدَ اللِّقاءِ »؛ يعني أنهم يتصفون بالجُبن عند لقاء العدو ولا يثبُتون عند اشتداد المعارك.

ولا شك أنَّ هؤلاء المُنافقين وصَفوا النبيﷺ وأصحابه بصفاتهم هم أنفسهِم، لا شك أنَّ هذه صفات المُنافقين، فالأمر على ما قيل "رمتني بدائها وانسلَّت". هم أجدر وأحقّ بهذه الصفات الذي ذكروها، وحاشا النبي ﷺ وحاشا أصحابه أن يكونوا مُتصفين بهذه الصفات المَذكورة.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**فقالَ له عَوْفُ بنُ مالكٍ: كَذَبْتَ؛ ولَكِنَّكَ مُنَافِقٌ، لأُخْبِرَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ...**).

قال عوف بن مالك يعني الأشجعي رضي الله عنه وكان يسمع هذا الحديث: «**كذبتَ ولكنك مُنافق**»؛ **في هذا فائدتان:**

- **أولاً**: أنَّ الكذب يجب أن يُردَّ على صاحبه مباشرة، هذا مقامٌ لا يصلُح فيه التريُّث، كلامٌ باطل وكذبٌ وافتراء يجب أن يُردَّ على صاحبه من حينه.

- **وثانيًا**: الإغلاظ عند قيام المصلحة؛ يعني المقام هاهنا تقتضي المصلحة فيه الإغلاظ في القول، هذا كلامٌ خطير، هذا وقوعٌ في النبي ﷺ وفي أصحابه، فلا يُناسب حينئذٍ أن يتناول المُنكِرُ هذا المُنكَر بأطراف أصابعه، يتساهل ويتلطَّف! كلا، المقام يقتضي أن يُغْلَظَ في العبارة ويُشدَّد في النكير.

قال: «**ولكنك مُنافق**»، ثم أخبره أنَّه سيرفع هذا الأمر إلى النبي ﷺ، قال: «**لأُخبِرنَّ رسول الله ﷺ**»؛ وفي هذا فائدة، وهي أنَّ رَفع الحديث وإبلاغ الأخبار إلى ولي الأمر إذا كان فيه درءُ مَفسدةٍ عن الإسلام والمُسلمين، وكان يتضمَّن

النصيحة لله ورسوله ولأئمة المسلمين وعامَّتهم فإنَّه ليس من النميمة وليس من الغيبة[٨٠٤].

وهذا ما نبَّه عليه المؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في المسألة الثالثة من مسائل الباب حيث قال: «الفرق بين النميمة والنصيحة لله ورسوله ﷺ»؛ فمتى ما كان ثمَّة ما يتهدَّد المُجتمع المُسلم وما يُمكن أن يُوقِع المكروه للمُسلمين فإنَّ رفع ذلك إلى الحاكم المُسلم ووليِّ الأمر الذي يستطيع إنكار هذا المُنكَر لا شك أنَّه ليس أمرًا مذمومًا، بل هو أمرٌ ممدوح ومن النصيحة المأمور بها.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**فَذَهبَ عوْفٌ إلى رَسُولِ اللهِ ﷺ لِيُخْبِرَهُ، فَوجَدَ القُرْآنَ قَدْ سَبَقَهُ**).

ذهب عوفٌ رضي الله عنه إلى النبي ﷺ ليُخبره بما كان، فوجد أنَّ الوحي قد سبقه، نزَلَت عليه هذه الآية التي سمعتَ من سورة التوبة.

وهذا فيه فائدتان:

أولاً: أن نعلم ثبوت صفات العلم، والسمع، والبصر، والكلام لله سبحانه وتعالى.

ثانيًا: أنَّ هذا من دلائل نبوَّة النبي ﷺ؛ فإنَّه رسول الله حقًا، وإلَّا كيف له أن يعلم الشيء الذي غاب عنه! لولا أنَّه يُوحى إليه من ربِّ العباد سبحانه وتعالى.

---

(٨٠٤) ففرْقٌ بين النصيحة لله ورسوله ﷺ وأئمة المسلمين وعامّتهم، وبين النميمة التي القصْد منها الإفساد والوقيعة بين النفس.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فَجَاءَ ذَلَكَ الرَّجُلُ إِلى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَقَدْ ارْتَحَلَ وَرَكِبَ ناقَتَهُ، فقالَ: يا رَسُولَ اللهِ! إنَّما كُنَّا نَخُوضُ ونَلْعَبُ ونَتَحَدَّثُ حَدِيثَ الرَّكْبِ، نَقْطَعُ بِهِ عَنَّا الطَّرِيقِ).

جاء هذا الرجُل، والأكثر في كتب التفسير أنَّه وديعة بن ثابت، وقيل: إنَّه عبد الله بن أُبيّ؛ لكن ذلك غلط ليس بصحيح، لأنَّ عبد الله بن أُبيّ قد تخلَّف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك.

جاء هذا الرجُل ليعتذر إلى رسول الله ﷺ ويُخبره في اعتذاره أنَّ هذا الكلام الذي بلَغه لم يكونوا يقولونه على سبيل القصد[٨٠٥] أو الكراهة، إنَّما هو حديثٌ من حديث الركب، يخوضون ويتكلمون بحديث المُسافر؛ ومعلومٌ أنَّ المُسافر يُحب أن يتكلَّم بكلامٍ فيه فُسحة، فيه شيءٌ من المَرَح، فيه شيءٌ من المزاح، فيقول: "هذا الكلام إنَّما كنا نقوله على سبيل المِزاح"، أو كما نقول بلساننا المُعاصر: "كانوا يُوسِّعون صدورهم بهذا الكلام". فهذا هو ما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾[التوبة:٦٥].

ولاحِظ- يارعاك الله- أنَّ الله ﷻ ما أكذَبهُم في قولهم هذا ولا في اعتذارهم هذا، نعم؛ كانوا يقولونه على سبيل الخوض واللعب، **ولكن هذا فيه فائدتان:**

أولاً: أنَّه لا فَرقَ في هذا الباب -باب السبِّ والاستهزاء- بين من يكون منه ذلك على سبيل الحقد والكراهة لرسول الله ﷺ وللإسلام، أو كان ذلك على سبيل اللعب وعلى سبيل المِزاح، لا فرق الحُكم في ذلك واحد.

---

(٨٠٥) لم يكن عن قصْد، ولم يكن هذا عن ترصّد، ولم يكن عن اعتمادٍ قلبي.

ثانيًا: نستفيد قاعدة مهمة وهي: أنَّه لا فرق في باب الكُفر بين الجاد والهازِل؛ سواء قال أو فَعَل الكُفر على سبيل الجدية أو على سبيل اللعب وعلى سبيل المزاح، كلُّ ذلك الحُكم فيه واحد.

ونبَّه شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في آخر نواقض الإسلام على تنبيهٍ غاية في الأهمية حينما قال: «ولا فرق في جميع هذه النواقض بين الهازِل والجاد والخائف، إلا المُكرَه»؛ إذًا كلُّ من وقع في هذه النواقض التي تُردِي صاحبها وتُخرجه عن دائرة الإسلام لا فرق في ذلك بين أن يكون مُتكلِّمًا أو فاعلاً على سبيل المِزاح واللعب، أو أن يكون قاصدًا مُحققًا لما يقولُ ولما يفعل، الحُكم في ذلك واحدٌ عند أهل العلم والدليل على ذلك هذه الآية التي بين أيدينا.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**قَالَ ابْنُ عُمَر: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ متعلِّقًا بِنِسْعَةِ ناقَةِ رَسولِ اللهِ ﷺ**).

يعني: الزمام الذي يُزم هذه الناقة متعلِّقٌ بها مُتشبِّثٌ بها يُريد أن يلتفت إليه النبي ﷺ ويقبَل منه، وكل ذلك والنبي ﷺ لا يُبالي به ولا يزيده على أن يتلو عليه الآية.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (... **وإِنَّ الحِجَارةَ تَنْكُبُ رِجْلَيْهِ** ...).

الحجارة تنكب رجليه: يعني تُصيبها وتُدميها وهو لا يُبالي بذلك، هو مشغولٌ بالأهم وهو أنَّه يُريد أن يقبل منه النبي ﷺ اعتذاره.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (... وَهُوَ يَقُولُ: إِنَّما كُنَّا نَخُوضُ ونَلْعَبُ، فيقولُ لَهُ رسولُ اللهِ ﷺ: ﴿أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾، مَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ، ومَا يَزِيْدُهُ عَلَيْهِ).

امتثل النبي ﷺ أمر ربِّه حيث إنَّ الله ﷻ أمَره أن يقول هذا القول: ﴿أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾؛ هذه آيةٌ عظيمة وأصلٌ مهم في هذا الباب، ينبغي على كل مُسلم أن يكون له عبرةٌ منها وأن يقف أمامها مُتأملاً حاذرًا.

قال ﷻ: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾؛ هكذا اعتذروا، وهذا العُذر صحيح في نفسه، هم هذا الذي كان منهم وما أكْذَبَهم الله ﷻ في ذلك، ومع ذلك كان عُذرًا غير مقبول.

﴿لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾؛ لاحِظ أنَّ هذا الاستفهام إنَّما كان على سبيل التقريع والتوبيخ؛ ﴿أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾.

ولاحظ أيضًا أنَّ الله ﷻ ذكَر عنهم أنَّهم استهزأوا بالله ﷻ، مع أنَّ المَرويَّ في سبب النزول لم يكُن فيه أنَّهم استهزأوا بالذاتِ العليَّة ولا أيضًا بالقرآن! **ووجه ذلك:**

- أنهم إنَّما ذكَر الله ﷻ هذا في حقهم من باب اللزوم، يعني لما استهزأوا بالرسول ﷺ فإنَّ لازم ذلك أن يكونوا مُستهزئين بالله العظيم ﷻ؛ إذْ يلزمُ من الاستهزاء بالرسول الاستهزاءُ بالمُرسِل. **هذا أولا**.

- **وثانيًا**: يلزم من الاستهزاء بالرسول الاستهزاء بما أُرسل به؛ وهو آيات الله ﷻ، فصحَّ إذًا أنَّهم كانوا مُستهزئين بالله، وأيضًا بآياته، وأيضًا كانوا مُستهزئين برسول الله ﷺ.

﴿قُلْ أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لا تَعْتَذِرُوا﴾؛ الله ﷻ أخبرهم بأنَّ هذا الاعتذار لا حاجة إليه، لأنَّه لا ينفع، فهو اعتذارٌ مرفوضٌ غير مقبول.

﴿لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾؛ أكدَّ الله ﷻ أنَّ القوم كفروا بوقوعهم فيما وقعوا فيه.

﴿قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾؛ الله ﷻ على ما جرت عليه كثيرٌ من آيات القرآن جمَع بين التهديد والترغيب، بين ما يقتضي الخوف وبين ما يقتضي الرجاء. بيَّن ﷻ أنَّ ثمة مجالاً للتوبة على من كان صادقًا مع الله ﷻ راجعًا إلى الله سُبحانه، وبالتالي فمن زلَّت به القدم فوقع في هذا المُنكر الشنيع فإنَّ عليه أن يُبادر إلى التوبة إلى الله ﷻ، والله يقبل توبة التائبين.

وقد اشتهر في كتب التفسير أنَّ من تاب الله ﷻ عليه من هؤلاء النفر الخائضين كان مخشيَّ ابن حميِّر، كان رجُلاً من جملة المُنافقين لكن الله ﷻ تاب عليه اسمه على الأقرب مخشيُّ بن حُميِّر الأشجعي، فإنَّ هذا الرجُل كان معهم.

وذكرت بعض الروايات أنَّه ما تكلَّم لكنَّه كان يضحك. وذكرت بعض الروايات أنَّه كان ينهاهم عن بعض ما يخوضون فيه، ثم إنَّ الله ﷻ وفَّقه فمنَّ

عليه بالتوبة فتاب إلى الله ﷻ وغيَّر اسمه إلى عبد الرحمن، وقُتل فيما نرجو شهيدًا في معركة اليمامة، هكذا نصَّت كُتب تراجم أصحاب النبي ﷺ.

والمقصود: أن قوله ﷻ ﴿ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ ﴾يعني: بأن يُوفقوا إلى التوبة فيعفو الله ﷻ عمن وقع في هذا الإثم، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له. وكان على هذه الرواية هو هذا الرجل الوحيد.

وبهذا نستفيد فائدةً لغوية وهي: أنَّ الطائفة تُطلق على الرجُل الواحد؛ ﴿ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً ﴾، ثمة طائفة أخبر الله ﷻ بأنَّهم لن يُوفَّقوا إلى التوبة، وذلك إضلالاً منه سُبحانه؛ لأنهم كانوا مُستحقين لذلك، ﴿ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾[التوبة:٦٦].

هاتان الآيتان العظيمتان في هذه السورة فيها عبرةٌ عظيمة وفيها ما يقتضي الوجل والخوف من الرتوع في هذا المرعى الوخيم. حذار يا عبد الله من أن تحوم حول هذا الحمى؛ وهو أن يكون ثمَّة مزاح أو لعب أو كما يقولون بلسان اليوم "النُكت"؛ نُنكِّت ونُوسع الصدر ونمزح، ويكون هذا المِزاح اشتمل على ذِكْر شيءٍ من آيات القرآن أو حديث رسول الله ﷺ.

حذار يا عبد الله امزح فيما شئت وقل ما شئت لكن كُن على حذر من أن تتناول أو تُعرِّض بشيءٍ مما يرجع إلى هذا الدين، شيءٌ يتعلَّق بالآيات أو بالأحاديث أو جناب النبي ﷺ، حذارِ فإنَّ ذلك مؤذنٌ بخُسران عظيم. والله ﷻ يقول: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾[الكوثر:٣]، الأبتر: مقطوعُ الخير؛ يحكم الله ﷻ على أنَّ من يقِع في النبي ﷺ ، وعلِمنا أنَّه لا فرق في هذا الباب بين أن يكون

الإنسان جادًا أو مازحًا، قاصدًا للطعن عن حقد وكراهة أو لم يكُن قاصدًا، لا فرق في هذا الباب البتَّة، إنَّ من كان كذلك قطَع الله سبحانه كما حكم ﷻ عنه الخير، وإذا قُطِع عن الإنسان الخير فماذا يكون حظه؟ إلا الخيبة، وإلا الحرمان، وإلا الخسارة، وإلا غضب الجبَّار ﷻ.

ومثل هذا الذي يتساهل ويتسامح بمثل هذا الأمر ما أسرع أن يقع في ذلك، ما أسرع أن يقع في المحظور، ومن حامَ حول الحِما يوشك أن يرتع فيه.

هذا تنبيه وأخصُّ به بعض طلاب العلم الذين رُبَّما تساهلوا وتسامحوا حينما يُمازحون أقرانهم بذِكْر شيءٍ من الآيات أو الأحاديث وتنزيلها على غير محلِّها على سبيل المِزاح وعلى سبيل اللعب وعلى سبيل الضحك، هذا والله أمرٌ خطير ينبغي أن يُحذر[٨٠٦] .

---

(٨٠٦) ومن هذا أيضًا: ما نصَّ عليه كثير من العلماء من الطعن في العلماء؛ فإنَّ الطعن في العلماء والقدح فيهم إن نال العلم الذي معهم والدين الذي هُم عليه فهذا لاشكَّ أنهُ كفْر ورده. أمَّا إن تعلق بأشخاصهم وذواتهم وطرائق تفكيرهم مثلًا، فهذا له حكْم أمثاله من المعاصي، لكن الواقع -مع الأسف الشديد- أنَّ الطعن إنما هو للدين الذي يحملون ، ويُوصَف هذا الذي يَسيرون عليه من النهْج من الرجوع إلى الكتاب والسُنَّة وتقديم ذلك على كل مصلحة وكل عقل وذوق ومراعاةٍ للأعراف وما إلى ذلك يُوصَف بالرجعية، ويُوصَف بالظلامية وما إلى ذلك، وهذا كما قِيلَ: مُنزلق خطير، قد يُودي بصاحبه في جهنم -والعياذ بالله-.

كذلك ما يفعله بعض الشباب من الخوض أو ذكْر بعض النكات التي تتضمَّن بعض الأحكام الشرعية، يقولون: "نحن نمزج ونُنكِّت"، ويكون في ذلك تعرُّض لشيءٍ من أحكام الشريعة، تعرُّضٌ لشيءٍ يتعلَّق باللحى، شيءٌ يتعلَّق بتقصير الثياب، شيءٌ يتعلَّق بحجاب المرأة، شيءٌ يتعلَّق بتعدُّد الزوجات، شيءٌ يتعلَّق بولاية الرجُل على المرأة، شيءٌ يتعلَّق بالحدود(٨٠٧) ، إلى غير ذلك هذا لاشك أنَّه أمر خطير ، بل هو والله أمرٌ غاية في الخطورة، وما أجدر صاحب ذلك أن يُعجِّل الله عليه العقوبة في الدنيا قبل الآخرة -نسأل الله السلامة والعافية- إن لم يتُب إلى الله جلَّ وعلا(٨٠٨) .

---

(٨٠٧) كمْ تلك الأقلام المسمومة التي تتندَّر باللّحى، وتقصير الثياب، وحجاب المرأة، وتعدّد الزوجات، وقِوامة الرجل على المرأة وما شاكل ذلك! يستهزؤون ويتندَّرون ويطعنون بأسلوب رمْزي تارة بأسلوب صريح تارات، وهكذا في قنواتهم وهكذا في مواقعهم، ولاشكَّ أنَّ هذا يسْتوجب من أهل الإيمان وطلبة العلم أن ينهضوا بواجب الجهاد في سبيل الله ﷻ؛ جهاد القلم، وجهاد اللّسان والحُجَّة، ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣].

(٨٠٨) فالأمر يحتاج إلى توجيه، ويحتاج إلى بيان، ويحتاج إلى تعظيم، ويحتاج إلى تضخيم في نفوس الناس أنَّ هذا الأمر في غاية الخطورة، ليس هذا مجال لَعِب، وليس مجال سخرية، وليس مجال استهزاء ونكت، جَناب الشرع وجَناب السُنَّة وجنابُ كتاب الله ﷻ يجب أن يُحفظ، ويجب أن يُرفع، ويجب أن يُنزَّهَ عن أن يُنالَ بأدنى تعريض وبأدنى غمْز ولمْز.

ويحضُرني في هذا قصةٌ لعَّل فيها عبرة وهي: ما ذكر الشيخ المحدِّث أحمد شاكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «كلمة الحق» ذكَر قصة عاصرها وهي: أنَّ رجلاً خطَب بحضرة السلطان -سلطان مصر في ذاك الزمان- فأراد أن يتملَّق له، فقال كلمةً ما قامت له قائمةٌ بعدها -نسأل الله السلامة والعافية-، كان هذا السُلطان عن قريبٍ من يوم الجُمعة قد كرَّم أحد الأدباء العميان- أديبٌ أعمى كرَّمه السُلطان- فأراد هذا الخطيب أن يتملَّق له، فقال في خطبته: «ولما جاءه الأعمى ما عبَس في وجهه وما تولَّى»؛ ولاحِظ ما في هذا الكلام من تعريضٍ برسول الله ﷺ. فلما انتهت الصلاة قام والد الشيخ أحمد -وهو الشيخ محمد شاكر وهو من أهل العلم، وكان إذْ ذاك وكيل الأزهر- فقال: "يا أيُّها الناس أعيدوا صلاتكم فإنَّ إمامكم قد كفَر".

لاحظ أن هذا الحُكم قد صدَر من هذا الشيخ لمجرَّد التعريض برسول الله ﷺ! يقول الشيخ أحمد شاكر: وأقسم بالله أنِّي رأيت هذا الرجُل بعد بضع سنين وكان ذا جاهٍ وحظوة، كان رجلاً متعاليًا مُنتفخًا، أُقسم بالله أنِّي قد رأيته على باب أحد المساجد يتلقَّى نِعَال المُصلِّين وعليه من الذلة والصغار ما الله به عليم، صدَق الله: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾[الكوثر:٣].

إذًا هذا المقام حريٌ أن يُلاحظه الإنسان وأن يكون مجانبًا له تمام المُجانبة، مُبتعِدًا عنه تمام الابتعاد، لا يحوم حوله البتَّة، في مقام الهزل والمزاح تجنب تجنب أيَّ شيء له مساس بذات ربنا عَجَّلَ أو نبيِّنا ﷺ أو شيئًا من هذا الدين.

وعودًا على هذه الآية، ثمَّة مسألة مهمة تتعلَّق بها وهي: هؤلاء الذين كان منهم من نزلت فيهم هذه الآية هل كانوا منافقين؟ أم كانوا مؤمنين عندهم إيمان ضعيف ثم ارتدُّوا بسبب هذه المقالة؟

- ذهب بعض أهل العلم إلى أنَّهم كانوا مؤمنين عندهم إيمان ضعيف ثم ارتدُّوا بما كان منهم، واستدلُّوا على هذا بقوله ﷻ: ﴿ **قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ**﴾[التوبة:٦٦]، إذًا كانوا مؤمنين قبل أن يكون منهم ما كان. وهذا ما نصَّ عليه المؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «كشف الشبهات»، ويُفهَم ذلك من بعض كلام شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ الذي دوَّنه في كتابه «الإيمان»[٨٠٩].
- وعامَّة أهل العلم على القول الأول وهو أنَّ هؤلاء إنَّما كانوا مُنافقين.

والذي لا شك فيه عندي أنَّ هذا هو القوْل الصحيح أنَّ الذين كان منهم ما كان كانوا مُنافقين أصلاً. **ويدلُّ على هذا أوجه عدَّة:**

أولاً: أنَّ سياق الآية وسباقها يدلُّ على ذلك؛ هذه الآية التي بين أيدينا: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ﴾[التوبة:٦٥]، ما الذي سبقها؟ سبقها قول الله ﷻ: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ﴾[التوبة:٦٤]. إذًا الله ﷻ بيَّن هاهنا أن الكلام إنَّما كان عن المنافقين

---

(٨٠٩) واستظهر قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ وقوَّى قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ -أعني شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ - في أنَّ الله ﷻ قال: ﴿**قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ**﴾ ؛ فأثبت لهم إيمانًا قبل أن يقولوا ما قالوا، ولو كانوا منافقين لا يتأتَّى أن يُقالَ في حقهم: ﴿بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ ، إنما هم كانوا كفَّارًا من الأصل. وهذا القول له من الوجاهة والقوة ما له.

صراحةً، ثم قال: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ ﴾ ، إذًا الكلام قطعًا إنَّما تعلَّق بهؤلاء المنافقين، سألتَ من؟ المنافقين الذين ذُكروا قبل ذلك والذين هدَّدهم الله ﷻ بقوله: ﴿ قُلِ اسْتَهْزِئُوا ﴾[التوبة:٦٤]، فدلَّ هذا على أنَّهم هم المَقصودون.

ثم الآية التي بعد آية: ﴿ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾[التوبة:٦٦]، قال ﷻ: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[التوبة:٦٧]؛ فما قبل الآية وما بعدها دليلٌ صريح على أنَّ هؤلاء كانوا مُنافقين .

ثانيًا: هذه الآية من سورة التوبة سورة براءة، وهي في كُلِّها مُتعلِّقة بهؤلاء المُنافقين وصفاتهم، ولذلك تأمَّلها من أولها إلى آخرها تجد أنَّ الله ﷻ يذكر من صفاتهم الشيء الكثير؛ ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلا تَفْتِنِّي ﴾[التوبة:٤٩]، ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ ﴾[التوبة:٥٨]، إلى أن جئنا إلى الآية التي مرَّت بنا: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ ﴾[التوبة:٦١]، إلى أن قال ﷻ: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ﴾[التوبة:٦٥]. فهذه السورة في مُجملها إنَّما تتعلَّق عن المنافقين وصفاتهم وما يصدُر منهم.

وثالثًا: قول الصحابيِّ الجليل عوف بن مالك رضي الله عنه«**ولكنَّك مُنافقٌ**»؛ هذا أيضًا نصٌ على أنَّ هذا القائل كان مُنافقًا، ولو كان خلاف ذلك لقال: لقد كفرت، أو يا كافر، أو قد ارتددت، لكنَّه قال: «ولكنَّك مُنافقٌ»، ومعلومٌ أنَّ أصحاب النبيِّ ﷺ كانوا يعلمون بعض المُنافقين بصفاتهم، قال ﷻ:

﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾[محمد:٣٠]. فالمُنافق قد يُعلم، نعم جميعهم ليسوا معلومين، لكن طائفةً منهم كانوا معلومين لأصحاب النبيِّ ﷺ بأقوالهم وغمزاتهم ولمزاتهم وحركاتهم وسكناتهم كانت تدُلُّ على أنَّهم كانوا منافقين، ولذلك في صحيح مسلم قول عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ولقد رأيتنا وما يتخلَّف عنها -يعني صلاة الجماعة- إلا مُنافق معلوم النفاق». إذًا كانوا يعلمون أحوال المُنافقين. ظهَر لعوف رضي الله عنه ما اقتضى لأن يصفه بهذا الوصف.

رابعًا: أنَّا قد علمنا من كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ أنَّ السخرية والاستهزاء إنَّما هي شأنُ المُنافقين، هذا ديدنهم وهذه صنعتهم أنَّهم يسخرون ويستهزئون، بدليل ما قبل هذه الآية بآيتين وهي قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾[التوبة:٦١]، كذلك قول الله عَزَّ وَجَلَّ عنهم في سورة البقرة: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾[البقرة:١٤]، فالاستهزاء ديدنهم والاستهزاء شأنهم. (٨١٠)

هذه الأوجه وغيرها تدلُّ على أنَّ هؤلاء الخائضين القائلين ما قالوا في حقيقة الحال كانوا منافقين.

---

(٨١٠) ويدل على هذا : ما جاء في أسباب نزول هذه الآية؛ فإنك لو راجعتَ رُوِيَ ست روايات أو أكثر كلها فيها التنصيص على أنَّ القائل أو أن الذين خاضوا كانوا منافقين، ما وقفتُ على أثرٍ واحد أنَّ الذين خاضوا لم يكونوا من المنافقين، أو جاء إبهام حُكْمهم أو وصفهم، كلّه كان فيه: قال المنافق، أو خاض قال المنافقون: كذا وكذا، فدلَّ هذا على أنهم كانوا منافقين.

ويبقى بعد ذلك السؤال وهو: ما توجيه قول الله ﷻ: ﴿ **قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ** ﴾[التوبة:٦٦]؟

توجيه ذلك على ما ذكر كثيرٌ من أهل العلم هو: أنَّ هؤلاء المنافقين معلومٌ أنَّه كان محكومًا لهم بحُكم الإيمان ظاهرًا، كانوا مؤمنين حُكْمًا، كانوا مُسلمين حُكْمًا؛ فلمَّا كان منهم ما كان كانوا كافرين حُكمًا كما كانوا كافرين حقيقةً.

بمعنى: الله ﷻ بيَّن في هذه الآية ﴿ **قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ** ﴾؛ قد كفرتم حُكمًا بعد الإيمان الذي كان محكومًا لكم به، كانوا في السابق مؤمنين حُكمًا كُفَّارًا حقيقة، فصاروا الآن كفَّارًا حُكمًا وحقيقة. كانوا في السابق مؤمنين حُكمًا يعني في أحكام الإسلام الظاهرة تجري عليهم أحكام المُسلمين، لكن في حقيقة الحال هم كُفَّار. إذًا كانوا مؤمنين حُكمًا كُفَّارًا حقيقة، فصاروا بعد أن أظهروا هذا القول كُفَّارًا حُكمًا وحقيقةً. هذا توجيه قول الله ﷻ: ﴿ **قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ** ﴾[التوبة:٦٦][٨١١].

(٨١١) وبكل حال: سواء أَقلْنا إنَّ الآية نزلت في قومٍ كان عندهم إيمان ضعيف فارتدُّوا، أو إنها نزلت في حقّ المنافقين؛ فالحكْم لا يختلف، الآية نصٌّ صريح على أن الاستهزاء بالله ورسوله ﷺ وما يلْتحق بذلك ويتفرَّع عنه من شريعةٍ وقرآنٍ ودِين وملائكة ورُسُل وما إلى ذلك؛ أنهُ كفْر بالله جلَّ وعلا، فإن كان صادرًا عن مسلم فقد ارتدَّ، وإن كان صادرًا عن منافق فقد أظهر كفْره وصار حكْمه الكفر الصريح والرِدّة الصريحة، وكلٌ يُسْتتاب، فإن تاب وإلا فإنه يُقتل بالإجماع.

ويتفرَّع على هذا أيضًا سؤال وهو: أنَّ أهل العلم مُجمِعون على وجوب إقامة حد الردَّة على من سخِر واستهزأ أو سبَّ الله ﷻ أو رسوله ﷺ أو دينه، ولكننا نجد أن النبيَّ ﷺ ما أقام الحدَّ على هؤلاء؟!.

والجواب عن ذلك: أنَّ النبيَّ ﷺ كان يرعى مصلحة الإسلام، وكان يسعى في تأليف الناس على الدين لا التنفير عنه، ويدلُّ على هذا قول النبي ﷺ: «لا يتحدَّث الناس أنَّ مُحمدًا يقتل أصحابه»، لو شاع في قبائل العرب وغيرهم أنَّ هؤلاء -وظاهر حالهم أنَّهم من جُملة أصحابه- أنَّه قد قتلهم كان هذا مُنفِّرًا أعظم التنفير عن الرسول ﷺ وعن الاستجابة لدعوته، فراعى ﷺ هذا الأمر في هذا المقام.

إضافةً إلى هذا: ذكَر شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ هذه الواقعة كانت إبَّان أمر الله ﷻ بنبيِّه ﷺ بأن يُعرِض عن المُنافقين، ثم بعد ذلك جاء الأمر بالإغلاظ عليهم؛ ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾[التوبة:٧٣]، ﴿مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا﴾[الأحزاب:٦١]، فكان هذا سابقًا على هذا الأمر.

ومهما يكن من شيء؛ فالمُحرَّر في هذا المقال كما بيَّن ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «زاد المعاد» أنَّ مراعاة هذا الأمر خاص بالنبيِّ ﷺ، أمَّا بعد حياته ﷺ فلا يملك أحدٌ أن يتنازل عن حق الإسلام أو حقِّ رسول الله ﷺ في إقامة الحد.

بعد وفاة النبي ﷺ صار من الواجب عند القدرة لإمام المُسلمين أن يُقيم الحد على هؤلاء بعد الاستتابة؛ يُأْمرُ الواقع في هذا الجُرم بالتوبة إلى الله ﷻ، فإن

تاب قُبل منه على الصحيح من قولي أهل العلم في هذه المسألة، وهي مسألة السابّ ومسألة المُستهزئ(٨١٢) .

اللهم إلا مسألةً خاصة وهي السب أو الاستهزاء إذا نال جناب النبي ﷺ ؛ فالذي رجحه شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ وجماعةٌ من المُحققين أن هذا السابّ لو تاب إلى الله ﷻ فإنَّ توبته تنفعه فيما بينه وبين الله، أمَّا في الحُكم الدنيوي فإنَّه لابد من إقامة الحد عليه، وذلك أنَّ لا أحَد يملُك التنازُل عن حق النبي ﷺ، يعني في حياته ﷺ تنازَل هو عن حقِّه إذْ كان يملُك ذلك، لكن بعد وفاة النبي ﷺ من الذي يملك أن يتنازَل عن حقِّ النبيِّ ﷺ؟! وهذا القول من القوَّة بمكان، والله تعالى أعلم.



قال المصنف رحمه الله:

٤٩-بَابُ
مَا جَاءَ فِي قَوْلِ اللّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾ [فصلت:٥٠] الآيَةَ

---

(٨١٢) والأقرب -والله تعالى أعلم- في شأن من سبَّ أو استهزأ بالله جلَّ وعلا أنه يُسْتتاب، فإن تاب وإلا فإنه يُقتل. وأمَّا في حقّ النبي ﷺ فالخلاف بين أهل العلم في هذه المسألة قوي، والذي حققه شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ من تابَ بعد سبّه النبي ﷺ أو الطعن فيه فإن توبته تُقبل بينه وبين الله جلَّ وعلا، وأمَّا من حيث حكْم قتله فإنه يُقتل بكل حال، يعني يُقتل تاب أو لم يتبْ، لكن توبته تنفعه عند الله ﷻ؛ لأنَّ حقَّ النبي ﷺ ليس لأحدٍ أن يتنازل عنه، وهذا القول فيه من القوة ما فيه.

قَالَ مُجَاهِدٌ: «هٰذَا بِعَمَلِي، وَأَنَا مَحْقُوقٌ بِهِ».

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «يُرِيدُ مِنْ عِنْدِي».

وَقَوْلِهِ: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص: ٧٨]، قَالَ قَتَادَةُ: «عَلَى عِلْمٍ مِنِّي بِوُجُوهِ الْمَكَاسِبِ»، وَقَالَ آخَرُونَ: «عَلَى عِلْمٍ مِنَ اللهِ أَنِّي لَهُ أَهْلٌ»، وَهٰذَا مَعْنَى قَوْلِ مُجَاهِدٍ: «أُوتِيتُهُ عَلَى شَرَفٍ».

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه؛ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ يَقُوْلُ: «إِنَّ ثَلَاثَةً مِنْ بَنِي إِسْرَائِيْلَ: أَبْرَصَ وَأَقْرَعَ وَأَعْمَى، فَأَرَادَ اللهُ أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مَلَكًا، فَأَتَى الأَبْرَصَ، فَقَالَ: فَأَيُّ شَيءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: لَونٌ حَسَنٌ، وَجِلْدٌ حَسَنٌ، وَيَذْهبُ عَنِّي الَّذي قَدْ قَذِرَنِي النَّاسُ بِهِ، قَالَ: فَمَسَحَهُ، فَذَهَبَ عَنْهُ قَذَرُهُ؛ فَأُعطِيَ لَوْنًا حَسَنًا، وَجِلْدًا حَسَنًا، قال: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الإِبِلَ أَوِ البَقَر - شَكَّ إِسْحَاقُ - فَأُعْطِيَ نَاقَةً عُشَرَاءَ، فَقَالَ: بَارَكَ اللهُ لَكَ فِيْهَا.

قَالَ: فَأَتَى الأَقْرَعَ، فَقَالَ: أَيُّ شيءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: شَعَرٌ حَسَنٌ، وَيَذْهَبُ عَنِّي الَّذي قَدْ قَذِرنِي النَّاسُ بِهِ، فَمَسَحهُ، فَذَهبَ عنْهُ، وَأُعطِيَ شَعرًا حَسَنًا، قَالَ: فَأيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِليْكَ؟ قَالَ: البَقَرُ أَوِ الإِبلُ، فأُعطِيَ بقَرةً حامِلًا، قَالَ: بَارَكَ اللهُ لَكَ فِيْهَا.

فَأَتَى الأَعْمَى، فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: أن يَرُدَّ اللهُ إِلَيَّ بَصَرِي؛ فَأُبْصِرَ بِهِ النَّاسَ، فَمَسَحَهُ، فَرَدَّ اللهُ إِلَيْهِ بَصَرَهُ، قَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ، قَالَ: الغَنَم، فأُعطِيَ شاةً والِدًا.

فأَنْتَجَ هَذَانِ وَوَلَّد هَذَا، فَكَانَ لِهَذَا وَادٍ مِنَ الإِبِلِ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ البَقَرِ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ الغَنَمِ. قَالَ: ثُمَّ إِنَّه أَتَى الأَبْرَصَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ، فَقَالَ: رَجُلٌ مِسْكينٌ، وَابْنُ سَبيلٍ، قَدِ انقطَعَتْ بِيَ الْحِبَالُ فِي سَفَرِي هَذَا؛ فَلَا بلَاغَ لِيَ اليَوْمَ إِلَّا بِاللهِ ثُمَّ بكَ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي أَعْطَاكَ اللَّونَ الْحَسَنَ، وَالْجِلْدَ الْحسَنَ، وَالْمَالَ؛ بَعِيْرًا أَتبلَّغُ بِهِ فِي سَفَرِي، فقَالَ: الْحُقُوْقُ كَثِيْرَةٌ، فقَالَ لَهُ: كَأَنِّي أَعْرِفُكَ! أَلَمْ تَكُنْ أَبْرَصَ يَقْذَرُكَ النَّاسُ، فَقِيْرًا فَأَعطاكَ اللهُ الْمَالَ؟ فقَالَ: إِنَّمَا وَرِثْتُ هَذَا الْمَالَ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ، قَالَ: إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا؛ فَصَيَّرَكَ اللهُ إِلَى مَا كُنْتَ.

قَالَ: وَأَتى الأَقْرَعَ فِي صُوْرَتِهِ وَهَيْئَتِهِ، فقَالَ لَهُ مِثْلَ مَا قَالَ لِهَذَا، وَرَدَّ عَلَيْهِ مِثْلَ مَا رَدَّ عَلَيْهِ هَذَا، فقَالَ لَهُ: إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَيَّرَكَ اللهُ إِلَى مَا كُنْتَ.

قَالَ: وَأَتَى الأَعْمَى فِي صُوْرَتِهِ وَهَيْئَتِهِ، فَقَالَ: رَجُلٌ مِسْكِيْنٌ، وَابْنُ سَبِيْلٍ، قَدِ انْقَطَعَتْ بِيَ الْحِبَالُ فِي سَفَرِي؛ فَلَا بَلَاغَ لِيَ اليَوْمَ إِلَّا بِاللهِ ثُمَّ بِكَ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ شَاةً أَتَبلَّغُ بِهَا فِي سَفَرِي، فقَالَ: قَدْ كُنْتُ أَعْمَى فَرَدَّ اللهُ إِلَيَّ بَصَرِي؛ فَخُذْ مَا شِئْتَ، وَدَعْ مَا شِئْتَ؛ فَوَاللهِ لَا أَجْهَدُكَ اليَوْمَ بِشَيءٍ أَخَذْتَهُ للهِ.

فقَالَ: أَمْسِكْ مَالَكَ، فَإِنَّمَا ابْتُلِيْتُمْ فَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنْكَ، وَسَخِطَ عَلَى صَاحِبَيْكَ». أَخْرَجَاهُ.



قال الشارح وفقه الله:

هذا البابُ قد عقده المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ لبيان أنَّ من التوحيد الواجب على كل مسلم القيامَ بشكرِ الله ﷻ، وشكرُ الله مقامٌ من مقاماتِ الإيمان العظيمة، بل هو

زبدةُ الإيمان، قال ﷻ: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيل إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾[الإنسان: ٣]؛ فقابل الله ﷻ بين الشكر والكفر؛ فالمؤمن حقـًا وصدقـًا هو القائم بشكر الله ﷻ.

وشكر ﷻ الله حقيقةٌ مركبةٌ من ثلاثة أركان:

الركن الأول: الاعتراف الباطنُ بنعمة الله ﷻ، وأنّها منه بمحضِ التفضّل، وهذا مما لا يجوزُ لمسلمٍ أن يشك فيه، قال ﷻ: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ﴾[النحل:٥٣]، ﴿ كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ﴾[الإسراء: ٢٠]، ﴿وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللهِ الَّذِي آتَاكُمْ ﴾[النور: ٣٣] ، قال ربنا ﷻ في الحديث القدسي المخرج عند مسلمٍ في صحيحه، قال ﷻ: «يا عبادي كلكم جائعٌ إلا من أطعمته؛ فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي كلكم عارٍ إلا من كسوته؛ فاستكسوني أكسكم». إذاً هذا هو الركن الأول: الاعتراف والإقرار بالقلب أن النعم إنما هي من الله ﷻ، والعبد ليس منه شيء ولا إليه شيء، ولا يستحق على ربه شيئا.

الركن الثاني: القول باللسان؛ الاعتراف والإقرار باللسان، وهذا يتضمن أمرين:

أولا: الإقرار باللسان بأنَّ النعمة من الله ﷻ قال سبحانه: ﴿**وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ**﴾[الضحى:١١]، وفي حديث سيد الاستغفار: «أبوء بنعمتك علي»؛ يعنى أقر وأعترف.

ثانيا: الحمد والشكر والثناء؛ وهذا أدلته لا تحصى؛ فيُحمد الله ويُشكر ويُثنى عليه بإنعامه على عباده بالنعم التي لا حد لها ولا حصر.

الركن الثالث: العمل بها فيما أذِن الله، وذلك لقول الله سبحانه: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا﴾[سبأ: ١٣]؛ فيعمل الإنسان بالنعمة في حدود ما أمر الله ﷻ به؛ فإن كان المقام مقام طاعةٍ واجبةٍ أو مستحبة فإن الشكر هاهنا يكون بأداء هذا الذى أمر ﷻ. وإن كان المقامُ ليس كذلك؛ فالواجب أن تصرف النعمة في حدود ما أباح الله ﷻ.

إذًا النعم لا يجوز التصرف فيها وفق هوى الإنسان، إنَّما وفق إذن الله ﷻ الشرعي، وهذا المقام يتفرع إلى ما يكون واجبًا ، وإلى ما يكون مستحبًا، وإلى ما يكون مباحًا. أما القدر الذي لابد منه؛ فهو أن لا يصرفها في معصية الله ﷻ.

ومن قام بهذه الأركان الثلاثة أورثه ذلك ثمراتٍ عظيمة، **ومن أعظمها ثمراتٌ ثلاث**:

أولًا: أنه يورثه ذلك محبة الله ﷻ؛ لأنه أقر وأيقن وأعتقد أن النعمة إنما منشؤها ومصدرها إنما مسديها هو الله تبارك وتعالى، والنفوس مجبولةٌ على حب من أنعم إليها، فكيف بمن كلُّ النعم إنما هي منه ﷻ؟!

وثانيًا: السلامةُ من كفر النعمة، وكفر النعمة لا شك أنه قادح في كمال التوحيد الواجب، وربما كان ذريعةً إلى الوقوع في نقض أصل التوحيد.

والأمر الثالث: أن يسْلم من الكبر والغرور والإعجاب بالنفس؛ وهذا ولا شك من الواجبات التي القيام بها من كمال التوحيد الواجب.

إذًا أراد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ التنبيه على هذا الأمر العظيم الذي لابدَ لكل موحد أن يلاحظه ويرعاه، وهذا الباب تكميلٌ وتتميمٌ لما مضى الكلام فيه قبل

ثمانيـة أو تسـعة أبـواب؛ في (بـاب قـول الله ﷻ: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾[النحل:٨٣])[٨١٣].

هذا الباب أورد فيه المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾[فصلت:٥٠]؛ مطلع السياق يقول فيه ﷻ: ﴿لَّا يَسْأَمُ الْإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ﴾[فصلت:٤٩].

﴿لَّا يَسْأَمُ﴾ يعني لا يمل،﴿مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ﴾يعني من طلب الخير؛ والخير هاهنا: هو الأمر النافع في الدنيا، وكل إنسانٍ مجبول على طلب ما ينفعه ويلائمه.

و﴿الْإِنسَانُ﴾ هاهنا هل هو اسم جنس، فيعم جميع الناس باعتباره مفردًا محلى بـ(أل)؛ فيفيد العموم؟ أو أنَّه من العام الذي أريد به الخصوص؛ فإنه يخصُّ طائفة من البشر وهم الكفار؟

والذى يبدو -والله تعالى أعلم- أنَّ الثاني أقرب؛ فالإنسان هنا: هو الكافر، ﴿لا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ﴾ يعني الكافر؛ بدليل ما سيأتي في هذه الآية مما يدلُّ على أنَّ هذا الإنسان ليس مؤمنًا بالله ﷻ، قال سبحانه: ﴿لا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ * وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾[فصلت:٤٩-٥٠]؛ هذا دليلٌ على أن الإنسان هنا ليس مسلمًا؛ إنَّما هو الكافر، ولا شك أنَّ هذا حال عامة الكفار، ومن تشبَّه بهم من المسلمين كان له حظٌ ونصيبٌ من الذمِّ والتقبيح.

---

(٨١٣) بوَّب المؤلّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الباب ليبيّن وجهًا من الأوجه التي تدلُّ على عدم أداء شكر الله ﷻ على نعمه، وأنَّ هذا نوع من كفْر النعمة المنافي لكمال التوحيد الواجب.

هذه الآية، اختلف المفسرون في تفسير قول الله ﷻ فيها: ﴿ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِي﴾[فصلت:٥٠]:

❑ من أهل العلم من قال: إنَّ معنى قوله ﴿هَـٰذَا لِي﴾ يعني: هذا لقدرتي وقوتي وحذقي ومعرفتي بطرق المكاسب وما إلى ذلك. وممن نحى إلى ذلك ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كما أورد المؤلف مما سنقرأه بعد قليل إن شاء الله؛ فيقول :"هذا من عندي"، يعني هذا راجعٌ إلي؛ ففات هذا المخذول أن ينسب النعمة إلى المنعِم بها وإلى مسديها وهو الله ﷻ، هذا قد كفر نعمة الله ﷻ حيث إنه ما اعترف ولا أقر بأنَّ النعمة إنما هي من الله ﷻ، هو الذي تفضل بها ابتداءً[٨١٤].

❑ والقول الثاني: هو أنَّ قوله تعالى: ﴿لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِي﴾ يعني: أنا محقوقٌ به، يعني جديرٌ به، وهذا ما أورده المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ أيضا؛ يعني: أنَّ هذا بسبب أن لي حقاً على الله ﷻ؛ فأنا جديرٌ بهذه النعمة، كأنه يرى أنَّ له حقاً واجباً على ربه[٨١٥]، وفي هذا من الغرور والطغيان وسوء الأدب مع الله ﷻ ما لا يخفى.

❑ والقول الثالث: أن قوله ﴿ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِي﴾، اللام هاهنا للمِلْك؛ كأنه يقول: هذا المال مالٌ لي ثابتٌ دائماً أبداً لي ولذريتي من بعدي، ونسيَ أن كل ما على وجه الأرض إنما هو ملك لله ﷻ؛ ففي قول هذا الإنسان ما فيه من الفخر والبغي ونسيان نعمة الله ﷻ.

---

(٨١٤) فنسب النعمة إلى نفسه ولم ينسبْها إلى المُنعِم بها جلَّ وعلا.

(٨١٥) فـ«اللام» هنا للاستحقاق؛ ﴿لِي﴾.

ويجمع هذه الأقوال -على أيِّ وجهٍ منها تَصَرَفَ التفسير- يجمع ذلك أن قائل ذلك كافر بنعمة الله ﷻ، لم يقم بشكر الله ﷻ، فاته الاعتراف الباطن والاعتراف الظاهر، وهذا ولا شك قادحٌ من قوادح التوحيد[٨١٦]، ولربما صار ذريعةً إلى أن يصل الإنسان إلى نقْضِ التوحيد-عفانا الله وإياكم من ذلك -[٨١٧].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**قال مجاهد: "هذا بعملي، وأنا محقوق به"**)؛ يعني جديرٌ به.

(**وقال ابن عباس: "يريد من عندي"**)؛ هذا القول الأول الذي سبق.

(**وقوله: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾**[القصص:٧٨]**؛ قال قتادة: "على علم مني بوجوه المكاسب"، وقال آخرون: "على علم من الله أني له أهل"، وهذا معنى قول مجاهد: "أوتيته على شرف"**).

هذه الآية الثانية التي أوردها المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، والباب قد أورد فيه المؤلف آيتين، وحديثًا طويلاً.

هذه الآية بيَّن الله ﷻ فيها حال قارون، ومعلومٌ من قارون؟ ذاك الذى كان من قوم موسى، قال ﷻ: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾[القصص:٧٦]، هذا الرجل آتاه الله من نعمه الدنيوية الشيء الكثير، ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ﴾[القصص:٧٦]؛ هذا الرجل قامت عليه الحجة نُصح وحُذِّر وأُنذر، وقال له قومه: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ

---

(٨١٦) يتنافى وكمال التوحيد الواجب.

(٨١٧) فإنَّ الله سبحانه إذا أنْعمَ على عبده نعمة وجب عليه أن يشكرها.

اللهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ * وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾[القصص٧٦-٧٧]. كان الجواب منه بعدَ كلِّ ما مضى: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾[القصص:٧٨].

ما معنى قوله ﴿أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾؟

اختلف المفسرون في هذا إلى قولين، والقولان مبنيان على تفسير العلم، هل هو راجع إلى علم العبد الذي هو قارون، أو هو راجع إلى علم الله ﷻ؟

❖ **قال بعض أهل التفسير**: العلم هاهنا أراد به علمه هو؛ يعني قارون، يعني أنا إنما بلغتُ ما بلغت لأن عندي علمًا بالتجارة وطرق الكسب؛ فأنا ذكي وعندي خبرة ومعرفة؛ فما وصل إليَّ إنما كان بسبب هذا العلم الذي عندي(٨١٨)؛ فهو جاحدٌ إذًا لنعمة الله ﷻعليه؛ أعاد النعمة إلى نفسه، ونسي الإقرار والاعتراف بها ونسبتها إلى الله.

❖ **والقول الثاني**: أنَّ العلم راجعٌ إلى علم الله ﷻ، وعليه فيكون معنى الآية: قال إنما أوتيته على علم من الله بأني مستحقٌ لذلك؛ فالله يعلم أني استحق هذا المال، فهو يرى لنفسه على ربه حقًا واجبًا(٨١٩) .

(٨١٨) وكأنَّ ذلك شيءٌ خاص به، عندي ليس عند غيري.

(٨١٩) وفي هذا من الكِبْر والعُتو والترفُّع ما لا يخفى.

وهذا وذاك يدلان على أن هذا الرجل لم يكن شاكرًا نعمة الله، ولم يكن مقراً ومعترفاً بباطنه ولا بظاهره، ولا عاملاً فيها بطاعة الله ﷻ، فهو كافرٌ بنعمة الله ﷻ(٨٢٠) .

وهذه الآية نظير قول الله ﷻ: ﴿**فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ**﴾، لكنَّ هذا المسكين الجاحد نسيَ أن هذه فتنة من الله ﷻ قال سبحانه: ﴿ **بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**﴾[الزمر:٤٩]؛ أكثر الناس لا يعلمون أنَّ التفضل بالإنعام، إنَّما هو ابتلاء واختبار وامتحان؛ فالله ﷻ يبتلى عباده بالسراء كما أنَّه يبتليهم بالضراء: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء:٣٥]، قال ﷻ: ﴿أَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾[الفجر:١٥]. **ولاحظ كيف أنَّ هذا الإنسان الذي خلا قلبه من تحقيق الشكر لله ﷻ وقع في أمرين:**

---

(٨٢٠) وعلى كل حال؛ كِلا الأمرين وكِلا التوجيهين يتنافيان مع الواجب على المسلم تجاه نعم الله سبحانه، المسلم إذا أنعم الله عليه بنعمة فإنَّه يرى أنَّ هذه النعمة محْض فضل الله عليه، وهو لا يستحق على الله شيئًا، فليس منه شيء ولا إليه شيء، ولذلك سليمان عليه السلام قال وهو يبيّن اعتقاده في نعمة الله عليه: ﴿قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل:٤٠]، وأخبر الله عن المؤمن: ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ [الأحقاف:١٥]، فهو إنما يلاحِظ في النِّعمة ويشاهد فيها نعمة الله وفضله لا غير، أمَّا هو فلا يرى نفسه أهلًا لشيء، إنَّما هو فضل الله سبحانه لا غير.

أولًا: ﴿ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾؛ ظن أن الله ﷻ تفضل عليه بشيء يستحقه، وما ذلَّ واعترف بأن هذا محض تفضلٍ من الله ﷻ، ظن أن له كرامةً على الله ومنزلةً عنده؛ فهذا كان سبب إكرامه من الله ﷻ.

والأمر الثاني: أنه ظنَّ أن النعمة الدنيوية دليلٌ على المكانة والمنزلة عند الله ﷻ، وكم يخطئ في هذا المقام من الناس! كم من الناس من يظن أنَّ الإنعام الدنيوي دليل محبة الله للعبد؛ فما أُعطى من أُعطى من النعم إلا لأنه محبوب عند الله مرضيٌّ عنه[(٨٢١)] .

وهذا ولا شك ليس بصحيح؛ فالدنيا يعطيها الله ﷻ من يحب، ومن لا يحب. كما ثبت عن ابن مسعودٍ رضي الله عنه عند البخاري في الأدب المفرد وغيره وروي مرفوعا عند رسول الله ﷺ قال: «إنَّ المال يعطيه الله من يحب ومن لا يحب»، وفى رواية «إنَّ الدنيا يعطيها الله من يحب ومن لا يحب».

يبتلي الله ﷻ المؤمن والكافر بأن يعطيهم من هذه النعم ابتلاءً وامتحانـًا؛ لكن البصير الموفق هو الذي يفوز في الامتحان، فيقوم بهذه الأركان الثلاثة للشكر فيكون من الفائزين، وإلا فإنه يكون من المحرومين.

وفى هذا العصر من الناس من سقط هذه السقطة؛ تجد أنه إذا نظر إلى حال الكفار وما عندهم من تطورٍ في العمران وتقدمٍ تقني، أو ما آتاهم الله ﷻ من

---

(٨٢١) جعل الدنيا هي المعْيار، فهو يَقيس بها، فمن رزقه الله من نِعم الدنيا من الصِحة والمال والولد والجاه والمُلك وما إلى ذلك فإنه يرى هذا علامةً على أنَّ الله يحبه، وعلى أنَّه مرضيٌ عنه عند الله سبحانه.

الأمطار والمناظر الحسنة وما إلى ذلك؛ تجد أنه ربما وسوس له الشيطان فبدأ يتشكك، هل يعقل أنهم على باطل وهم في هذه النعم يرفلون؟![٨٢٢] ونسيَ هذا الأمر المهم وهو أنَّ النعمة ابتلاء وامتحانٌ من الله ﷻ .

ولذلك هذا قارون، هذا الذى طغى وبغى وأفسد، وهو من أبغض العباد إلى الله ﷻ، ومع ذلك فالله أتاه نعمة ما آتاها أحدًا من الناس؛ فدل هذا على أنَّ النعم الدنيوية ليست معياراً وليست مقياسًا على الخيرية والفضيلة والمنزلة عند الله ﷻ.

المقصود أنَّ الله ﷻ لما قصَّ لنا قصة قارون كان ذلك لأجل أن نأخذ العبرة والعظة، وأنَّ حال الكافر مجانبٌ لحال المسلم؛ الكافر كافرٌ بنعمة الله ﷻ، أمَّا المسلم فإنه معترفٌ مقرٌ شاكرٌ لنعمة الله ﷻ.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّهُ سِمَعَ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ يَقُوْلُ: «إِنَّ ثَلَاثَةً مِنْ بَنِي إِسْرَائِيْلَ: أَبْرَصَ وَأَقْرَعَ وَأَعْمَى، فَأَرَادَ اللهُ أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ...).

---

(٨٢٢) ويبدأ يتسلَّل إليه شيء من وساوس الشيطان أنهم على حق، ولولا أنهم على حق ما أنعم الله عليهم بهذه النِّعم، وهذا ولا شكَّ تلبيسٌ من الشيطان. ولذلك ذكر الله في الآية القريبة من الآية التي معنا في سورة الزمر: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٤٩]، الحقيقة والواقع أن القضية ما هي إلا فتنة، وكما قال الله عن سليمان ﷺ: ﴿لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل:٤٠].

هـذا الحـديث حـديثٌ طويـلٌ عظـيم خرَّجـه الشـيخان البخـاري ومسـلم في صحيحيهما، والحـديث فيـه قصـة كانـت في بنـي إسـرائيل قصـها علينـا النبـي ﷺ، والواجب في القصص الذي جاء في الكتاب والسنة أمران:

أولًا: التصـديق بـذلك؛ بمـا أن الـذي أخبرنـا بهـذا رسـول اللهﷺ؛ فالواجـب الاعتقاد الجازم والتصديق التام بأن هذه القصة قد حصلت، ولـو أقسـم المسـلم على ذلك فإنه لا يحنث أن هذه القصة قد وقعت؛ لأنَّ هذا مـن حقيقـة شـهادة أن لا إله إلا الله وأنَّ محمد رسول الله، تصديقُ النبي ﷺ فيما أخبر به.

الأمـر الثـاني: أخـذُ العظـة والعـبرة، الانتفـاع مـن هـذه القصـة ومـا فيهـا مـن الفائدة؛ لم يكن إخبارُ النبي ﷺ بهذه القصة على سبيل التفكـه والتنـدر، إنمـا كـان ذلك لكي نستفيد منها، ونغترف من العبر والـدروس التـي اشـتملت هـذه القصـة وغيرها عليها.

هذه القصة حصلت في بني إسرائيل، وإسرائيل: لقبٌ ليعقـوب بـن إسـحاق بن إبراهيم عليهم الصلاة والسـلام. وهـذه الكلمـة مركبـة مـن جـزأين: (إسـرا) و (ئيـل)؛ و(إسـرا) بمعنـى: صـفي، و(ئيـل) وكـل مـا جـاء علـى هـذا النسـق (ئيـل) جبرائيـل، وميكائيـل، وإسـرائيل؛ فإنـه في اللغـة العبريـة أو العبرانيـة بمعنـى: الله؛ فإسرائيل بمعنى: صفي الله؛ اصطفاه الله ﷻ.

وهذه القصة حصلت في بني إسرائيل يعني في بعـض ذريتـه، والحـديث فيـه أن الله ﷻ أراد أن يبتلـى هـؤلاء الثلاثـة، ثلاثـة أشـخاص ابـتلاهم الله ﷻ بـثلاث مصائب وعاهات:

-أحدهم كان أقرع، والأقرع: الذي لا شعر في رأسه.

-والثاني أبرص، والأبرص: هو الذي أصيب بالبرص؛ وهو بياضٌ في الجلد مستقبحٌ مستقذر.

-والثالث أعمى فقَد بصره.

ومع ذلك مع ابتلائهم الأول ابتلاهم الله ﷻ بابتلاء آخر عن طريق مَلَكَ من الملائكة التي أرسلهم الله ﷻ إلى هؤلاء الثلاثة.

(**فَأَرَادَ اللهُ أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ**)؛ الإرادة هاهنا هي الإرادة الكونية بمعنى: شاء.

وهاهنا وقفة وبحث في هذه الكلمة، وذلك أن الرواية وقعت في موضع في صحيح البخاري لفظ: (بدا لله أن يبتليهم)، وهذا الموضع استُشكل؛ لأنه قد يُفهم منه إثبات البداءة أو البداء على الله، والبداء والبداءة بمعنى: أن يظهر ما كان خافيًا غير معلوم، ولا شك أن هذا معتقد باطل، بل هو كفر بالله ﷻ، هذه عقيدةٌ كفرية كان يعتقدها اليهود، وتلقاها من تلقاها من أهل البدع عنهم.

المقصود أنَّ هذا الموضع استُشكل، وتوجيهات أهل العلم لهذا الإشكال ترجع إلى ما يأتي:

أولًا: قال بعض أهل العلم إنَّ رسم هذه الكلمة (بدا) خطأ، والصواب: (بَدَأَ) بالهمزة المفتوحة، وهذا ما اختاره القاضي عياض، وخَطَّأَ من جعل اللفظة (بدا)، وكذلك الخطابي، وذكر القاضي عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قد ضبط هذه اللفظة عن متقني شيوخه بالهمزة المفتوحة (بدأ)؛ يعني: ابتدأ الله ابتلائهم.

التوجيه الثاني: أن معنى (بدا): يعني قضى، ويكون بمعنى القضاء الكوني؛ الذي هو قريبٌ في المعنى من الإرادة الكونية.

التوجيه الثالث: أنَّ معنى قوله (بدا): يعني أراد.

التوجيه الرابع: يعني أنه سبق في علم الله، فأراد أن يُظهر ذلك العلم في الناس.

والذي يظهر -والله تعالى أعلم- أنه لا حاجة لكل هذا؛ فهذا اللفظ على الصحيح خطأ، حصل وهمٌ وخطأ من الراوي. **وبيان ذلك على وجه من الإيجاز**: أنَّ هذا الحديث مخرجه واحد ليس له إلا طريقٌ واحدة، وذلك من طريق همام، عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة، عن عبد الرحمن بن أبي عمرة، عن أبي هريرة، لا يوجد للحديث إلا هذه الطريق.

عن همام روى هذا الحديث ثلاثة من الرواة:

الأول: هو شيبان بن فروخ، وهذه رواية مسلم، والمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ اعتمد رواية مسلم.

وثانيًا: رواية عمرو بن حفص.

والثالثة: رواية عبد الله بن رجاء.

أما شيبان وعمرو بن حفص فإنهما رويَا الحديث بلفظ: (أراد الله)، وأما عبد الله بن رجاء فإنه رواه بلفظ: (بدا لله)، هذا اللفظ عند البخاري، والبخاري أخرجه من طريق عمرو بن حفص، ومن طريق عبد الله بن رجاء؛ أخرجه من

رواية عمرو بن حفص [٨٢٣] معلقـًا في (باب لا يقول ما شاء الله وشئت)، لكنَّه ما ساق الحديث كاملا، خرجه معلقـًا، و قال في حديث الأقرع والأبرص والأعمى؛ (أراد الله أن يبتليهم)، ذكر فقط إلى هذا القدر، ولكنَّه في (كتاب أحاديث الأنبياء) أخرجه من طريق أحمد بن إسحاق، عن عمرو بن حفص، عن همام إلى آخره، ثم حوَّل الإسناد إلى رواية عبد الله بن رجاء، وساق بعد ذلك لفظ عبد الله بن رجاء.

الخلاصة: الآن عندنا لفظان؛ لفظٌ اتفق عليه ثقتان ما هو؟ (أراد الله أن يبتليهم)، ولفظٌ تفرد به عبد الله بن رجاء، والحديث واحد، والنبي ﷺ تكلم قطعـًا بلفظٍ واحدٍ من هذين [٨٢٤] ، وإذا لجأنا إلى الترجيح -وهو المتحتم هاهنا- فإننا نرجح رواية الثقتين على رواية الثقة [٨٢٥]، لاسيما وأن عبد الله بن رجاء في حفظه شيء، قال الحافظ في التقريب: (صدوق يهِم قليلا)، وقال ابن معين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (إنه كثير التصحيف). فهذا مما يجعل النفس تطمئن إلى أن

(٨٢٣) قال عمْرو بن عاصم، عن همَّام إلى آخره، لكنه ساق الإسناد في كتاب «الأنبياء»، ثمَّ تحول إلى إسناد آخر وهو إسناد عبد الله بن رجاء عن همَّام به، ووقع في هذه الرواية «بدا لله أن يبتليهم».

(٨٢٤) والآخر يكون تصرُّفًا من بعض الرُّواة أو خطأ من بعض الرُّواة.

(٨٢٥) والذي يظهر -والله أعلم- أنَّ رواية عبد الله ابن رجاء مرجوحة، وأن رواية الثقتين: عمْرو بن عاصم وشيبان بن فرُوخ؛ هي الصواب، وذلك لأنهما اثنان ثقتان وهو واحد، فهما رَوَيَا حديث: «أراد»، وهو روى حديث: «بدا»، وروايتهما أرجح ولا شكَّ.

المحفوظ إنما هو: (أراد) وليس (بدا)، وأنَّ (بدا) لفظٌ وقع فيه خطأ، واللائمة في ذلك تعود إلى عبد الله بن رجاء رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وهذا الموضع لم أرى تحقيقاً فيه كما رأيته عند الشيخ الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في السلسة الصحيحة، من سبق كانوا يذكرون لفظ الرجاء؛ "لعله حصل تغيير من أحد الرواة"؛ حتى جاء الشيخ الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في السلسلة الصحيحة عند حديث ثلاث آلاف وخمسمائة واثنين وعشرين من السلسة الصحيحة؛ فحقق تحقيقًا نفيسًا في هذا المقام، ورجح الذي ذكرته لك. فالمجزوم به هو أن هذا اللفظ خطأ، وأنَّ الصواب: (أراد الله أن يبتليهم).

«**إن ثلاثة من بني إسرائيل أبرص وأقرع وأعمى فأراد الله أن يبتليهم**»؛ أراد الله أن يبتليهم: يعني يمتحنهم ويختبرهم، وهؤلاء الثلاثة لما أراد الله أن يبتليهم أرسل إليهم ملكـًا؛ فخاطب كلَّ واحدٍ على حدة ووجَّه إليه ما يأتي من أسئلة.

«**فبعث إليهم ملكًا، فأتى الأبرص فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: قال: لون حسن وجلد حسن، ويذهب عني الذي قد قذرني الناس به. قال: فمسحه فذهب عنه قذره، فأعطي لونًا حسنا وجلدًا حسنا...**»؛ هذا الأول وهو الأبرص[٨٢٦]؛ كان طلبه وكانت أمنيته أن يُذهب الله عنه هذا اللون القبيح، وأن يعطيه الله لونًا حسنًا وجلداً حسنـًا؛ فمسح عليه هذا الـمَلَكَ فكان أن أبدله الله ﷻ جلداً حسنـًا ولونا حسنًا[٨٢٧] ، وكان مسح الملك سببـًا في حصول هذه النعمة،

---

(٨٢٦) الأبْرص: المصاب بداء البرص.

(٨٢٧) هذا بإذن الله سبحانه الكوني.

وإلا فإن الأمر إلى الله ﷻ، والله قادرٌ على أن يعطيه هذه النعمة دون سبب، لكنَّ حكمة الله ﷻ اقتضت ذلك؛ فهذا يدل على عظيم قدرة الله ﷻ، والله على كل شيء قدير.

«**قال: فأي المال أحب إليك؟ قال الإبل، أو البقر؛ شك إسحاق**»؛ الذي يظهر -والله أعلم- أن الأول وهو الأبرص طلب الإبل، أحب المال إليه الإبل، وإسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة رَحِمَهُ ٱللَّهُ من ورعه شك؛ فذكر اللفظين، إما قال الإبل وإما قال البقر، لكن سياق الحديث يدل على أن طلبه كان الإبل؛ لأن الـمَلَكَ -كما سيأتي- رجع إليهم بعد ذلك، وسأل هذا الرجل أن يعطيه ناقةً يتبلغ بها؛ فدل هذا على أن ماله إذ ذاك الإبل .

«**فأعطي ناقة عشراء؛ فقال: بارك الله لك فيها**»؛ الناقة العشراء: هي الحامل التي بلغت الشهر العاشر، وهذه كانت معدودةً عندهم من أنفس الأموال.

«**قال: فأتى الأقرع قال: أي شيء أحب إليك؟ قال: شعر حسن، ويذهب عني الذي قد قذرني الناس به**»؛ يبدو -والله أعلم- أنهم كانوا في ذاك الوقت لا يلبسون العمائم، إنما كانت رؤوسهم مكشوفة، فكان يؤذيه أن لا يكون على رأسه شعر، وربما كانوا يتعممون لكن يظهر شيء من الشعر وهذا هو الأمر المستحسن عندهم، وهو فاقد له، فأحب أن يزول عنه هذا النقص.

«**فمسحه؛ فذهب عنه وأعطي شعر حسن، فقال أي المال أحب إليك؟ قال البقر، أو الإبل، أعطي بقرة حاملا، قال: بارك الله لك فيها**»؛ قوله: (بارك الله لك فيها) يحتمل أن يكون إخباراً من الملك، أن الله ﷻ قد جعل هذه الناقة أو تلك

البقرة ناقةً أو بقرةً مباركة. ويحتمل الكلام أن يكون دعاءً، دعا أن يبارك الله ﷻ لك فيها، واستجاب الله ﷻ هذا الدعاء ابتلاءً وامتحانًا.

«**فأتى الأعمى فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال أن يرد الله إليَّ بصري؛ فأبصر به الناس؛ فمسحه فرد الله إليه بصره، قال: فأي المال أحب إليك؟ قال الغنم؛ فأعطى شاة والدا، وأُنتج هذان وولَّد هذا**»؛ أُعطيَ شاة والداً؛ الأمر يحتمل أن تكون قريبة الولادة؛ يعني هي حامل وقريبة الولادة، واللغة فيها أنَّ الشيء إذا قَرُبَ من الشيء فإنَّه يُعطى حكمه، وربما كانت شاةً معها ولدها، حديثة الولادة، لكن إذا قارنَّا السياق؛ الناقة العشراء والبقرة الحامل يبدو -والله أعلم- أنها كانت شاة قريبة الولادة، والله تعالى أعلم.

«**وأُنتج هذان وولَّد هذا**»؛ أُنتج هذان، وبعضهم يضبطه (**أَنتَجَ هذان، وولَّد هذا**)، الناتج للإبل والبقر كالقابلة للبشر، الناتج: يعني الذي يقوم على توليد البهيمة؛ فكان أن ولّد أو قام على توليد الناقة والبقرة، وكذلك ولّد الأخير هذه الشاة الذي عنده، كلٌ قام على توليد ما عنده، يعني أن الله ﷻرزق كل واحد من هؤلاء الثلاثة ذرية لهذه البهائم؛ فأصبح عنده قطيع كبير.

«**فكان لهذا وادٍ من الإبل، ولهذا وادٍ من البقر، ولهذا وادٍ من الغنم**»؛ سبحان الله أبدل الله ﷻ حالهم من الفقر والمسكنة إلى هذا الغنى؛ كل واحد عنده ما يملأ الوادي من الإبل، أو من البقر، أو من الغنم .

«**قال: ثم أنه أتى الأبرص في صورته وهيئته**»؛ في صورته وهيئته: يعني في صورة الأبرص؛ جاء إليه في الصورة والهيئة التي كان عليها هذا الرجل سابقًا،

وذلك لتذكيره وتنبيهه وإغرائه ليجيب ويبذل واجب الله سبحانه وتعالى عليه، جاء إليه في صورته الجسمية، وفي هيئته يعني: في لباسه وشكله الخارجي.

«**قال: ثم أنه أتى الأبرص في صورته وهيئته فقال: رجلٌ مسكين، قد انقطعت بي الحبال في سفري...**»؛ رجلٌ مسكين، رجل خبر لمبتدأ محذوف؛ أنا رجلٌ مسكين، وصف نفسه بأنه ليس عنده ما يكفيه، وانقطعت به الحبال؛ يعني الأسباب، والحبل في اللغة: هو السبب؛ ليس عنده سببٌ لكي يصل به إلى مطلوبه لأنه مسكين، وبعض الرواة روى هذا اللفظ (انقطعت بيَ الحيال) جمع حيلة، والأكثر على (الحبال).

«**قد انقطعت بي الحبال في سفري؛ فلا بلغ لي اليوم إلا بالله ثم بك**»؛ «**إلا بالله ثم بك**» انظر إلى التوحيد، هذا هو التوحيد؛ التوحيد: أن لا تجعل الخالق والمخلوق في السياق على مقامٍ واحد؛ فالـمَلَكَ والملائكة قائمةٌ بتوحيد الله عز وجل، وهم من أعظم الخلق إيماناً وتوحيداً؛ ما قال الملك (أنا بالله وبك)؛ إنما قال: (أنا بالله، ثم بك)؛ فهذا مما يؤكد ويدل على ما سبق الحديث فيه؛ أنه في مقام نسبة النعمة يجب أن لا يُقْرَنَ الخالق والمخلوق ويُعطف بحرف الواو الذي يفيد التسوية، إنما يكون العطف بـ (ثم) التي تفيد الترتيب والمهلة.

«**أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال بعيراً أتبلغ به في سفري**»؛ ما قال (أسألك بالله)، إنما أتى بهذا اللفظ لكي يذكره بنعمة الله عز وجل، وليغريه بالإجابة .

«**قال: الحقوق كثيرة**»؛ قال الحقوق كثيرة؛ اعتذر بعذر كاذب، كما يعتذر كثير من الناس إذا وجبت عليهم حقوق الله ﷻ بأن هذا المال الذى عندهم يعتوره كثير من الحقوق، وبالتالي فإنه لا يستطيع أن يعطيك؛ يعني يقول لهذا الملك: أنا لا استطيع أن أعطيك لأنك لست وحدك الذي تطلب، عندي التزامات كثيرة. ورفض أن يعطيَ الحق الواجب عليه، ولا شك أنَّ الذي يجب عليه أن يجيب هذا المسكين، إذا انقطع هذا المسكين وابن السبيل وليس له أحد يقف معه فإنه يتعين على هذا المسؤول أن يجيبه وأن يعطيه، هذا من حق الله ﷻ في هذا المال، لكنه بخِل ورفض أن يؤدي حق الله سبحانه وتعالى عليه؛ وقع في البخل، فالكذب؛ فكفر نعمة الله سبحانه وتعالى كما سيأتي .

«**فقال له: كأني أعرفك. ألم تكن أبرص يقذرك الناس، فقيراً فأعطاك الله ﷻ المال؟!**»؛ ذكَّره بأمرين:

الأول: أنه كان أبرص، وهذا لم ينكره، وليس عنده وسيلة لإنكاره أصلا.

أما **الأمر الثاني**: فأنه كان فقيرًا ثم أغناه الله سبحانه وتعالى؛ فهذه هي التي كفر نعمة الله سبحانه وتعالى فيها.

«**فقال: إنما ورثت هذا المال كابراً عن كابر**»؛ ما قال هذه نعمة الله، كنت فقيراً؛ فأغناني الله وأنعم عليَّ؛ إنَّما أعاد الأمر إلى نفسه كما قال ﷻ: ﴿لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾[فصلت:٥٠]، قال: (ورثته كابراً عن كابر)، النصب هاهنا بنزع الخافض، أصلُ الكلام: ورثته عن كابرٍ عن كابر؛ فنُصب بنزع الخافض؛ يعني: ورثته عن أبي، وأبي عن جدي، وهكذا، ولا شك أنَّ هذا من عدم شكر الله سبحانه وتعالى؛ كما قال

ﷻ: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾[النحل:٨٣]، مرّ بنا قول مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ (أن يقول: هذا مالي ورثته عن آبائي)؛ فهذا جعله الله ﷻ من إنكار نعمة الله ﷻ.

«**فقال: إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت**»؛ هذا نستفيد منه مشروعية الدعاء المشروط، ما دعا عليه دعاءً مطلقًا، إنَّما علق الأمر، إن كنت كاذبًا فصيرك الله إلى ما كنت، ولعل الله ﷻ استجاب ذلك، لم يأتِ في ختام الحديث، ما الذي آل إليه أمر الأبرص والأقرع، لكن لعل الأمر -والله تعالى أعلم- أنه قد أُستجيب للمَلك؛ لأنه في الحقيقة كان كاذبًا.

«**قال: فأتى الأقرع في صورته، فقال له مثل ما قال لهذا، ورد عليه مثل ما ردَّ عليه هذا؛ فقال إن كنت كاذبا؛ فصيرك الله إلى ما كنت**»؛ سقط هذان في الامتحان ما نجحا، ابتلاهما الله ﷻ لكنَّ النتيجة أنَّهما فشلا وما نجحا. وأما الثالث فهو الذي ثبَّته الله ﷻ؛ فرضيَ الله ﷻ عنه، كانت نتيجة امتحانه أن سُدِّد وفاز برضى الله ﷻ.

قال: «**وأتى الأعمى في صورته، وهيئته؛ فقال، رجلٌ مسكين، وبن سبيل؛ قد انقطعت بي الحبال في سفري؛ فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك. أسألك بالله الذي رد عليك بصرك، شاة أتبلغ بها في سفري؛ فقال: قد كنت أعمى فرد الله إلى بصري؛ فخذ ما شئت ودع ما شئت؛ فوالله لا أجهدك اليوم بشيء أخذته لله**»؛ سبحان الله! هذا الرجل صاحب إيمان؛ قام بشكر الله ﷻ؛ فكان منه أن اعترف، كان منه الاعتراف أولاً بقلبه ثم بلسانه، اعترافه بقلبه كان لأن لسانه اعترف، والألسنة مغاريف القلوب؛ فاعترف بلسان وبقلبه أنه إنما أنعم عليه بهذه النعمة

هو الله ﷻ؛ رد عليه بصره بعد أن كان أعمى، وكذلك أعطاه هذا المال وقد كان مسكينا.

ثم قام بالأمر الثالث وهو: أنه أدى شكر الله ﷻ عملاً، ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا﴾[سبأ: ١٣]؛ أدى الحق الذي أوجبه الله ﷻ عليه؛ فقال لهذا الرجل: (**خذ ما شئت، فوالله لا أجهدك**) يعني لا أشق عليك ولا أمنعك (**أن تأخذ شيئًا لله**) وانظر أيضًا إلى التوحيد وانظر أيضًا إلى الإخلاص؛ أنه لا يجهده لأجل الله، لوجه الله ﷻ، ليس لأجل الثناء، وليس لأجل المدح، وليس لأجل الرياء، إنَّما كان لأجل الله ﷻ.

وجاء في رواية عند البخاري: (فإني لا أحمدك) وليس (لا أجهدك)، والمعنى: أنني لا أحمدك ولا أشكرك إن تركت شيئًا تحتاج إليه. وهذا دليلٌ على كرم هذا الرجل، وفي هذا ما يدلك على فضيلة الكرم وقبح البخل.

ما الذي أدى بالأقرع والأبرص إلى أن وقعا فيما وقعا فيه من الكذب وكفران نعمة الله ﷻ؟ إنما كان ذلك بسبب البخل، أما هذا الرجل فكان كريمًا فأدَّى ما أوجب الله ﷻ عليه وقام بشكر الله ﷻ.

والحديث فيه فوائد كثيرة:

- **من ذلك**: أن ذكر الغير بما يقبُح ليس من الغيبة إذا لم يُسَمَّ الشخص، إذا لم يسمَّ الفاعل لا يعد ذلك غيبة؛ لأجل هذا هؤلاء الثلاثة ما ذكرت أسمائهم.
- **وفي هذا أيضًا**: ثبوت الإرث في الأمم السابقة، قال: (ورثته كابراً عن كابر).

➢ **كذلك فيه**: فضيلة الرفق بالضعفاء، وأن هذا من أسباب حلول رضى الله ﷻ.

➢ **وفي هذا أيضًا**: خطر وقبح البخل، وأنه يؤدى إلى مفاسد؛ لأنه بخل كذب، ولأنه بخل كفر نعمة الله سبحانه، ولأنه بخل ما أدى الحق الواجب عليه.

➢ **وفي هذا الحديث من الفوائد أيضًا**: أنَّ الدعاء المشروط جائز، وهذا ينفع الإنسان في المواضع التي يحصل عنده فيها شك؛ فاستحقاق هذا المدعو له هذا الدعاء -سواءً كان دعاء له، أو دعاء عليه- فإن من المشروع حينئذٍ في حال الشك أن يدعو الإنسان ويشترط في دعائه؛ حتى يكون دعائه دعاءً صحيحا.

«**فقال: أمسك مالك؛ فإنما ابتُلِيتم؛ فقد رضي الله عنك، وسخط على صاحبيك**»[٨٢٨]؛ (وسخط على صاحبيك)، يبدو -والله أعلم-أن قصة الأقرع والأبرص اشتهرت؛ لذلك قال: (صاحبيك)، وهذا فيه فائدة لغوية: أن الصحبة تطلق في اللغة على أدنى ملابسة وأدنى مقارنة؛ لأنَّ هؤلاء الثلاثة فيما يبدو - والله أعلم- إنما اشتركوا في الامتحان، ومع ذلك أثبت الصحبة، فالصحبة في اللغة تطلق على أدنى ملابسة، كما قال النبي ﷺ أيضًا: «أنتن صواحب يوسف»؛ فأدنى ملابسة يصح في اللغة أن يكون معها إطلاق لفظ الصحبة.

والخلاصة التي نصل إليها: وجوب أن يشكر الإنسان نعمة الله ﷻ، وضرورة الحذر من كفران نعمة الله ﷻ؛ إما بعدم الاعتراف القلبي، أو عدم

---

(٨٢٨) وفي هذا إثبات صفتَي الرضا والسَّخط على ما يَليقُ بالله ﷻ.

الاعتراف باللسان، أو بعدم القيام بما أوجب الله ﷻ أو أذن في هذه النعمة، وكلُّ شيء بحسبه؛ فالمال له شكرٌ، والجاه له شكرٌ، والعلم له شكرٌ، وغير ذلك، كلُّ نعمة من الله ﷻ فلها شكرٌ بحسبها، والموفق الذي يقوم بشكر الله سبحانه على كل نعمة أنعم الله ﷻ بها عليه.



قال المصنف رحمه الله:

٥٠-بَابُ

قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ [الأعراف:١٩٠] الآيَةَ

قَالَ ابْنُ حَزْمٍ: «اتَّفَقُوا عَلَى تَحْرِيمِ كُلِّ اسْمٍ مُعَبَّدٍ لِغَيْرِ اللهِ؛ كَعَبْدِ عَمْرٍو، وَعَبْدِ الْكَعْبَةِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ؛ حَاشَا عَبْدَ الْمُطَّلِبِ».

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي الآيَةِ قَالَ: «لَمَّا تَغَشَّاهَا آدَمُ حَمَلَتْ، فَأَتَاهُمَا إِبْلِيسُ، فَقَالَ: إِنِّي صَاحِبُكُمَا الَّذِي أَخْرَجْتُكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ؛ لَتُطِيعُنِّي أَوْ لَأَجْعَلَنَّ لَهُ قَرْنَيْ أَيِّلٍ، فَيَخْرُجَ مِنْ بَطْنِكِ فَيَشُقَّهُ، وَلَأَفْعَلَنَّ وَلَأَفْعَلَنَّ؛ يُخَوِّفُهُمَا، سَمِّيَاهُ عَبْدَ الْحَارِثِ، فَأَبَيَا أَنْ يُطِيعَاهُ، فَخَرَجَ مَيِّتًا، ثُمَّ حَمَلَتْ فَأَتَاهُمَا، فَقَالَ مِثْلَ قَوْلِهِ؛ فَأَبَيَا أَنْ يُطِيعَاهُ، فَخَرَجَ مَيِّتًا، ثُمَّ حَمَلَتْ فَأَتَاهُمَا فَذَكَرَ لَهُمَا، فَأَدْرَكَهُمَا حُبُّ الْوَلَدِ، فَسَمَّيَاهُ عَبْدَ الْحَارِثِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾» رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.

وَلَهُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ قَتَادَةَ قَالَ: «شُرَكَاءَ فِي طَاعَتِهِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي عِبَادَتِهِ».

وَلَهُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا﴾ قَالَ: «أَشْفَقَا أَنْ لَا يَكُونَ إِنْسَانًا». وَذَكَرَ مَعْنَاهُ عَنِ الْحَسَنِ، وَسَعِيدٍ، وَغَيْرِهِمَا.



قال الشارح وفقه الله:

لا يزال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يوالي ذكر الأبواب التي تحث على تكميل التوحيد، وتحذِّر من كل ما يقدح فيه، والأبواب الماضية وهذا وما بعدها تجد أنَّها تدور على بيان قوادح التوحيد التي تَرْجِعُ إلى نقصٍ أو عدمٍ في شكر الله ﷻ، أو إلى نقصٍ أو عدمٍ في تعظيم الله ﷻ، ومن ذلك هذا الباب الذي بين أيدينا، والذي ينبه فيه المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ على أن من قوادح التوحيد ومما ينافي كماله الواجب، وقد يكون منافيًا لأصل التوحيد تعبيد الأسماء لغير الله ﷻ، وهذه الآية التي بوَّب عليها المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الباب سيأتي الكلام عنها مفصلًا إن شاء الله.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (قال ابن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اتفقوا على تحريم كل اسم معبد لغير الله كعبد عمرو، وعبد الكعبة، وما أشبه ذلك؛ حاشا عبد المطلب»).

هذا الإجماع الذي نقله ابن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «مراتب الإجماع» لا شك أنه إجماع صحيح؛ فإن العلماء متفقون على تحريم كل اسمٍ معبَّد لغير الله، كعبد عمرو، وعبد الكعبة، وعبد شمس، وغير ذلك مما كَثُر قديمًا ويكثر حديثًا.

وذلك أنَّ ساق الشريعة قائمة على تعبيد الخلق لله ﷻ، فالخلق جميعًا عبيدٌ لله ﷻ، كل الخلق عبيد لله ﷻ، فإما أن يكونوا عبيد لله ﷻ عبودية الاضطرار، يعني أنَّهم عبيدٌ لمالكهم وسيدهم وخالقهم ومدَّبر شأنهم والمتصرف فيهم بما يشاء؛ وهو الله ﷻ كما قال ﷻ: ﴿إِنْ كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي

الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾[مريم:٩٣]، فجميع الخلق مؤمنهم وكافرهم هم عبيدٌ لله ﷻ هذه العبودية التي هي عبودية الاضطرار.

والمؤمنون المسلمون جمعوا إلى هذه العبودية عبوديةً أخرى؛ وهي عبودية الاختيار، وكلُّ الخلق إذا كانوا كذلك فواجبٌ أن لا يُعَبَّدُوا إلا لله ﷻ(٨٢٩)، فإن من الخضوع والذل والعبودية لله ﷻ أن تُعبَّد الأسماءُ له تبارك وتعالى وخلاف ذلك نوعٌ من الشرك مع الله ﷻ(٨٣٠).

ولا شك أنَّ مجرد التعبيد لغير الله في الاسم شركٌ أصغر، فإذا جُمع إلى ذلك اعتقادُ أنَّ غير الله ﷻ يستحق ما يستحقه الله ﷻ من العبادة فهذا لا شك أنه قد ارتقى إلى الطامة العظمى وهي الشرك الأكبر.

وهذا النوع من الشرك وهو تعبيد الأسماء لغير الله شيءٌ كان فاشيًا قديمًا، فأهل الجاهلية كانوا يُعَبِّدون كثيرًا لغير الله؛ تجد من أسمائهم: عبد الكعبة،

---

(٨٢٩) فكيف يتسمَّى أو يُسمِّي هذا المولود عبدًا لغير الله ﷻمن المخلوقات! وما ذاك إلا من خللٍ في التوحيد؛ فكان شركًا، كما قال الله سبحانه: ﴿جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاء فِيمَا آتَاهُمَا﴾ [الأعراف:١٩٠].

(٨٣٠) فتعْبيده لغير الله -تسميته عبد كذا وكذا- لا شكَّ أن ذلك محتوٍ على طرفٍ من الشرك في الرُبوبيّة، ومن الشرك في الأُلوهية أيضًا، ولذلك كان أمرًا محرمًا وشنيعًا أن يُعبَّد مسلمٌ هو عبد لله سبحانه.

وعبد الشمس، وعبد الدار، وعبد اللات، وعبد مناة، وعبد هُبل، وعبد العزى[٨٣١]، إلى غير ذلك من هذه التسميات الشركية الكثيرة.

كذلك الشأن في أهل الأديان الأخرى؛ كالنصارى إذْ ينتشرُ فيهم التعبيد للمسيح، فتجدهم يسمون عبد المسيح، وفِرَقُ الضلال لا سيما من كان من المنتسبين إلى قطبي الضلال الذين هم عبَّاد القبور، سواء كانوا من الغلاة في آل البيت، أو كانوا من الغلاة في الأولياء والصالحين[٨٣٢]؛ هؤلاء على إرثٍ من إرث الجاهلية، ولذلك يكثر عندهم التعبيد في الأسماء لغير الله، فتجد من هؤلاء من يسمي أو يتسمى بعبد الحسين، وعبد الحسن، وعبد الزهراء، وعبد الرضا،[٨٣٣] وما شاكل ذلك.

وفي الطرف المقابل تجد أيضا التسمية على هذه الشاكلة؛ تجد عبد السيد ومرادهم بالسيد يعني: الولي وليس الله ﷻ، ويسمون عبد الرسول، ويسمون عبد النبي، ويسمون غلام محمد، يسمون عبد الأمير ومرادهم أمير المؤمنين علي ﷺ، إلى غير ذلك من هذه التسميات، وكلها ولا شك باطلة في الشريعة، ومحرمةٌ أشد التحريم، بل إنها نوع من الشرك بالله ﷻ[٨٣٤].

---

(٨٣١) وعبد عمرو وعبد الحجر.

(٨٣٢) لا سيَّما في قُطبيَ الضلال -الرافضة، والصوفية-.

(٨٣٣) وعبد الزهراء، وعبد العلي، وغلام علي.

(٨٣٤) وما ذاك إلا من الخلَلِ العظيم الذي هم واقعون فيه ، بل إن كل من يعتقد أن تسمية ابنه بعبد الولي الفلاني، أو عبد النبي الفلاني؛ هذا من شكْر نعمة هذا الولي، لأنه يعتقد أنه

ولذلك من تأمل سيرة النبي ﷺ في أصحابه؛ تجد أنه كان يغيِّر الأسماء المعبدة لغير الله، اقرأ في طبقات الصحابة تجد من ذلك الشيء الكثير، وعامة ما كان يغيِّر ﷺ الأسماء إليه كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ اسما عبد الله وعبد الرحمن؛ لأن أحب الأسماء إلى الله ﷻ عبد الله وعبد الرحمن.

ومن ذلك ما أورد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ كعبد عمرو وعبد الكعبة، وفي «الإصابة» لابن حجر أربعةٌ من الصحابة أو نحو هذا العدد كانت أسمائهم (عبد الكعبة) قبل مجيء الإسلام، فغيّر ذلك النبي ﷺ، وجميع هذه الأسماء غيرها النبي ﷺ إلى عبد الرحمن، ومن أولئك عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

المقصود أنَّ هذه قاعدة الشريعة وهذه سنة النبي ﷺ؛ وذلك أن لا يُعَبَّدَ إلا لله ﷻ ولو بمجرد التسمية، أمَّا إذا كان قد خالج ذلك وخالطه اعتقادُ تعظيمٍ لهذا المسمى به، فهذه هوَّة سحيقة من الشرك الأكبر -عافاني الله وإياكم- من ذلك.

بقيت وقفةٌ مع قول ابن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**حاشا عبد المطلب**)، فليس مراده أنَّ التسمية بعبد المطلب جائزة، إنَّما مراده أنَّ هذا الاسم قد وقع فيه خلافٌ على وجه الخصوص.

وصدق الخلاف واقع في هذا الاسم. لكنَّ الصواب الذي لا شك فيه أنَّه من جنس بقية الأسماء الـمُعَبَّدَةَ لغير الله، فلا تجوز التسمية بعبد المطلب كما لا تجوز التسمية بعبد الدار أو عبد الشمس أو عبد اللات.

هو الذي أنعم عليه بهذا الابن، وهو الذي أسْداه إليه، فيشكره على هذه النِّعمة بأن يُعبِّد هذا الابن له، فهذا شركٌ أكبر ليس بعده شرك.

واحتج القائلون بجواز ذلك: بأن النبي ﷺ أقرَّ هذا الاسم فإنه ﷺ كما في حديث البراء في الصحيحين قال يوم حنين: «أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب»، قالوا فهذا إقرارٌ من النبي ﷺ بجواز هذه التسمية؛ حيثُ سمَّى نفسه بابن عبد المطلب، إذًا تجوز التسميةُ بعبد المطلب.

وثنّوا باستدلال ثانٍ وهو: إقرار النبي ﷺ تسميةَ عبد المطلب بن الحارث بهذا الاسم (عبد المطلب بن ربيعه بن الحارث بن عبد المطلب)؛ قالوا عدم تغيير النبي ﷺ هذا الاسم دليل على جواز التسمية به.

وهذا الذي ذُكر غير صحيح بل هو غلط، واستدلالٌ لا يصح.

◄ **أما الاستدلال بقول النبي ﷺ** ؛ فإن النبي ﷺ كان هاهنا حاكيًا لا مُنشئًا، والحكاية لا تقتضي الإقرار؛ بمعنى أن هذا اسمه ﷺ وهذا الذي يُعرف به في قبائل العرب، وهذا شأنٌ لا يستطيع تغيره، هذا اسمٌ مشهور عند العرب كافة، فلم يكن في قدرة النبي ﷺ أن يغير ذلك، فهو إذًا حكى واقعًا لا يمكن تغييره، وحاشا أن يكون النبي ﷺ منشئًا اسمًا جديدًا أو مُقرًا لاسمٍ يمكن تغييره من هذا الجنس.

وأضف إلى هذا وجهًا آخر، وهو أنَّ هذا الاسم في أصله -يعني فيما يتعلق باسم جد النبي ﷺ- فالعبودية المذكورة هاهنا ليست عبودية الخضوع، ليست العبادة المعروفة شرعًا، إنَما هذه يرادُ بها في أصل التسمية عبودية الرق، حيث أنه ينبغي التفريق بين الأمرين؛ فرقٌ بين التسمية باسم مُعَبَّدٍ لغير الله ﷻ لأنَّ ذلك فيه نوع خضوع لغير الله ﷻ الذي هو من العبودية الاصطلاحية الشرعية، وبين

الوصف بالعبودية التي ترجع إلى الرق، فيجوز أن تقول: "فلانٌ عبدُ فلان" ؛ يعني أنه غلامه أنه رقيقٌ له.

والأصل في التسمية على ما ذكرت كتب التاريخ في شأن (عبد المطلب) الذي هو جد النبي ﷺ : أن عمه المطلب ابن عبد مناف، الذي هو أخو هاشم ذهب إلى المدينة وأخذه من أخواله ثم عاد به إلى مكة وكان مُرْدِفًا له خلفه على دابته، فلما دخلوا إلى مكة كان على هيئةٍ رثة، ما كان عنده وقت لكي يذهب فينظفه ويكسوه، فكان على هيئة رثه، فسألوا هذا المطلب عن هذا الغلام الذي معه، فقال: «هذا عَبْدٌ لي»، استحى أن يقول أنه ابن أخي، فأشتهر بعد ذلك بأنه عبد المطلب. فالأصل في التسمية لم تكن تعبيدًا على نسبة العبودية لغير الله، إنما كان ذلك على وصف الرق.

فإذا جمعتَ هذين الوجهين تبين لك أن هذا الاستدلال غير صحيح.

ثم إنَّك لتعجب من الاستدلال بقول النبي ﷺ: «أنا ابن عبد المطلب» على جواز التعبيد بهذا الاسم! مع أنه قد تكلم النبي ﷺ بغير ذلك أيضًا، فإذا جاز هذا جاز هذا، وإذا مُنع من هذا ينبغي أن يُمنع هذا!! فإنه في الصحيحين تكلم النبي ﷺ باسم عبد مناف فإنه قال ﷺ كما في حديث أبي هريرة في الصحيحين لما صاح في قريش قال: «يا معشر قريش، يا بني عبد مناف» ، وفي رواية عند مسلم لهذا الحديث: «يا بني عبد شمس»، كما ثبت في الصحيحين أيضًا أن النبي ﷺ قال: «خير دور الأنصار: بنو النجار، ثم بنو عبد الأشهل». إذًا لماذا خُصَّ اسم ابن عبد المطلب من بين هذه التسميات؟!

والصحيحُ الذي لا شك فيه: أن النبي ﷺ كان في نطقه بهذه الأسماء يحكي الشيء الواقع الذي أصبح معروفًا ومُشتهرًا فلا يمكن تغييره، والله تعالى أعلم.

إذًا يتلخص لنا أن هذا الاستدلال الأول استدلالٌ غير صحيح.

وبقيَ الاستدلال الثاني وهو: كون النبي ﷺ أقر التسمية بعبد المطلب بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، وهذا قد ذكره ابن عبد البر في كتابه «الاستيعاب»، لكن ما ذكر فيه نظر واستدرك عليه ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «الإصابة»، وذكر أن الزبير ابن بكار -وهو من أعلم الناس بنسب قريش ورجالها- ذكر أن اسم هذا الصحابي إنما هو (المطلب) وليس (عبد المطلب). فالصواب أنَّ اسمه (المطلب ابن ربيعة) وليس (عبد المطلب)، وبالتالي لم يكن أحد من أصحاب النبي ﷺ له اسمٌ معبَّد لغير الله ﷻ والله ﷻ أعلم[٨٣٥].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي الآيَةِ قَالَ: «لَمَّا تَغَشَّاهَا آدَمُ حَمَلَتْ، فَأَتَاهُمَا إِبْلِيسُ فَقَالَ: إِنِّي صَاحِبُكُمَا الَّذِي أَخْرَجْتُكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ؛ لَتُطِيعُنِّي أَوْ لَأَجْعَلَنَّ لَهُ قَرْنَيْ أَيِّلٍ فَيَخْرُجَ مِنْ بَطْنِكِ فَيَشُقَّهُ، وَلَأَفْعَلَنَّ وَلَأَفْعَلَنَّ؛ يُخَوِّفُهُمَا، سَمِّيَاهُ عَبْدَ الْحَارِثِ، فَأَبَيَا أَنْ يُطِيعَاهُ، فَخَرَجَ مَيِّتًا، ثُمَّ حَمَلَتْ فَأَتَاهُمَا، فَقَالَ مِثْلَ قَوْلِهِ؛ فَأَبَيَا أَنْ يُطِيعَاهُ، فَخَرَجَ مَيِّتًا، ثُمَّ حَمَلَتْ فَأَتَاهُمَا فَذَكَرَ لَهُمَا، فَأَدْرَكَهُمَا حُبُّ**

(٨٣٥) **والخلاصة**: أنَّ اسم عبد المطلب كغيره لا يجوز التسمية به قطّ، والله سبحانه أعلم.

الْوَلَدِ، فَسَمَّيَاهُ عَبْدَ الْحَارِثِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاء فِيمَا آتَاهُمَا﴾[الأعراف:١٨٩]». رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ).

هذا الأثر عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا فيه تفسير قول الله ﷻ: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحـًا جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[الأعراف:١٩٠]؛ وبناء على هذا التفسير فإنَّ من الشرك بالله ﷻ تسمية الأولاد بأسماءٍ مُعَبَّدَةٍ لغير الله، كما جاء في هذا الأثر، حيثُ جاء فيه أنَّ آدم وحواء عَلَيْهِمَاٱلسَّلَامُ سميَّا ابنهما عبد الحارث، و(الحارث) على ما ذكروا اسمٌ لإبليس فكان المعنى أنَّه عبدُ إبليس، فجعل الله ﷻ ذلك شركًا، قال: ﴿جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾.

وهذه الآية فيها بحثٌ طويل من جهة كون هذه الآية يراد بها آدم وحواء عَلَيْهِمَاٱلسَّلَامُ، أو لا يراد ذلك. **والخلاف في ذلك يرجع إلى قولين:**

أمَّا القول الأول: فإن المعْنِيَّ في قوله ﷻ: ﴿جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ إنما هو آدم وحواء عَلَيْهِمَاٱلسَّلَامُ حيث سميا ابنهما (عبد الحارث). وهذا القول ذهب إليه كثيرٌ من أهل العلم، بل نُسِبَ إلى جمهور أهل العلم، بل حكى ابن جرير رَحِمَهُٱللَّهُ الإجماع عليه.

والقول الثاني: أنَّ هذه الآية لا تدلُ على وقوع آدم وحواء عَلَيْهِمَاٱلسَّلَامُ في الشرك، بل قوله تعالى: ﴿جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ لا يراد بذلك آدم وحواء عَلَيْهِمَاٱلسَّلَامُ، وإنما يراد من ذلك من كان مشركًا من ذريتهما.

استدلال القول الأول كان بحديثٍ، وآثار، وإجماع:

أمَّا الحديث: فهو حديث سمرة بن جندب مرفوعًا إلى النبي ﷺ، وهذا الحديث في معنى هذا الأثر الذي بين أيدينا، قريبٌ منه في المعنى، وخلاصته: أنَّ آدم وحواء عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ سميَا ابنهما بعبد الحارث. لكنَّ هذا الحديث حديثٌ ضعيف، لا يصحُّ عن رسول الله ﷺ، خرجه الإمام أحمد والترمذي والطبري وغيرهم من طريق عمر بن إبراهيم العبدي، عن قتادة، عن الحسن البصري، عن سمرة عن النبي ﷺ، وهذا الإسناد إسنادٌ ضعيف وفيه عِللٌ عدة:

أولًا: هو من رواية عمرَ ابن إبراهيم العبدي عن قتادة، وروايته عن قتادة ضعيفة مضطربة، يروي عنه مناكير، ولذلك ما رواه عن قتادة غير مقبول كما نصَّ على ذلك الحفاظ.

وعلةٌ أخرى: وهي أن الحديث جاء من رواية الحسن عن سمرة، وفي سماع الحسن من سمرة خلافٌ مشهور.

- هذا عدا أنه قد عنعن في هذا الإسناد -أعني الحسن- وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ كثير التدليس.

أضف إلى هذا أمرًا رابعًا: وهو أن الأسانيد الصحيحة قد جاءت عن الحسن البصري، كما قال ابن كثير في تفسير الآية بغير ذلك، وهو أنها في ذرية آدم وحواء المشركين، ولو كان عند الحسن شيء ثابت في ذلك عن رسول الله ﷺ ما كان ليعدل عنه.

أضف إلى هذا أيضا علةً خامسة: وهو أن هذا الحديث اختُلف في رفعه ووقفه على سمرة.

فهذه العلل تدل على أنَّ هذ الحديث قطعًا لا يصح عن رسول الله ﷺ.

❁ **أما الأثار**: فَرُوِيَ معنى هذا الحديث عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كما بين أيدينا في هذا الأثر. وَرُوِيَ أيضا عن أُبي ابن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في إحدى طرق هذا الأثر عن ابن عباس، أن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا روى ذلك عن أُبي ابن كعب.

وعلى كل حال المروي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في ثلاث روايات أو نحوها لا أعلمه يصح عنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٨٣٦]، كذلك الحال في أثر أُبي ابن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وأحسنها حال أثر سمرة ابن جندب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، واحتمل ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره أن يكون المروي من ذلك عن الصحابة مُتلقى من قِبَلِ أهل الكتاب، **هذا عن الآثار**.

❁ **أمَّا عن الإجماع المذكور**[٨٣٧]: فإنه إجماع غير مُسَلَّم؛ وذلك أن ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ القاعدة عنده أنَّه يجعل قول الأكثر إجماعًا، يعني ليس الإجماع عنده قولَ جميع المجتهدين أو قول جميع العلماء، وكان لا يعتبر بمخالفة الواحد أو الاثنين في الإجماع، ولا شك أنَّ هذا مخالف لقول جمهور الأصوليين من أنّ الحجة في إطباق جميع العلماء المعتبرين. وكيف يصح الإجماع من أهل العلم وثمة رواية أخرى عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أخرجها ابن أبي حاتم أيضا الذي

---

(٨٣٦) وإن كان بعضهم قد قوَّى هذا الأثر، لا سيَّما وقد رُوِيَ عن ابن عباس ما يخالف ذلك كما أخرج ذلك ابن أبي حاتم أيضًا.

(٨٣٧) فقد نقله ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره، قال: «بإجماع حُجَّة من أهل التفسير أن المراد بالآية آدم وحواء».

روى الأثر الأول روى أيضا عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا خلافه، وأن الآية ليست في آدم وحواء عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ وإنما في ذريتهما!!.

أضف إلى هذا أن هذا ثابتٌ عن الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ إضافةً إلى جماعة من المفسرين سيأتي ذكرهم عند القول الثاني.

فالذي يبدو والله تعالى أعلم أنَّ هذا الإجماع غير صحيح.

ثم يبقي النظر بعد ذلك في الآية وكونها تدل حقيقةً على أنَّها في آدم وحواء عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ أم لا؟

الذي يظهر والله تعالى أعلم أنَّ ذلك غير صحيح لأوجه كثيرة منها:

- ❑ أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قد انعقد الإجماع على أنَّهم معصومون من الكبائر -كما حكى ذلك المجد ابن تيمية وغيره- فكيف بالشرك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى[(٨٣٨)].

وهاهنا انفصل أصحاب القول الأول عن هذا بقولهم: إنَّ الذي وقع فيه آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لم يكن شرك العبادة إنما كان شرك الطاعة، وبعضهم يقول إنَّه شرك التسمية[(٨٣٩)].

---

(٨٣٨) ولا يمكن أن يُقال: إن مِمَّا أُطلِق عليه وصْف الشرك يمكن أن يكون صغيرة، أنَّى يكون ذلك! وما مستند هذا القول، وقواعد التوحيد كلها تأبى ذلك، لا يمكن أن يوصَف فعل بأنه شرك ويكون حُكْمه بأنه صغيرة، حتى لو قيل إنه شرك في الطاعة، حتى لو قِيلَ إنه شرك في التسمية، يبقى شركًا وحُكْمه حكم الكبائر، وهذا مِمَّا يُنزَّه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام عنه.

وعلى كل حال مهما يكن من شيء؛ حتى لو لم يكن شرك العبادة، حتى لو لم يكن شركًا أكبر، فإنَّ الأنبياء معصومون من الشرك الأصغر، وإذا كانوا معصومين من الكبائر فكيف بالشرك الأصغر الذي جنسه أعظم من جنس الكبائر!! فإن هذا مما لا يمكن القول به.

قال بعضهم انفصالًا عن هذا الإيراد أيضا: إنَّ الذي سمَّى هذه التسمية إنما هو حواء، وأمَّا آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ فإنه لم يسمِّ ذلك خروجًا من هذا الإيراد، والجواب عن هذا:

-**أنَّه** جواب غير صحيح، وذلك لأن الله ﷻ قال: ﴿**جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ**﴾.

-**ثانيًا**: أن هذه الآية المروي فيها والذي هو العمدة عند أصحاب هذا القول، ليس فيه أن الذي سمى هو حواء فقط، إنما كانت التسمية من الاثنين.

-**أضف إلى هذا وجهًا ثالثًا**: وهو أنه لو سُلِّمَ بأن حواء عليها السلام هي التي سمت فإن آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ كان مقرًا لها، وبالتالي فإنه لا يصح إذًا هذا الجواب.

فهذا هو الوجه الأول الذي يدل على أنه لا يصح حمل الآية على آدم وحواء.

❑ **ثانيًا**: أن يقال إن الذنب الذي وقع هاهنا من آدم **عَلَيْهِ السَّلَامُ** إما أن يكون قد تاب منه أو أنه لم يتب منه، لا يخلو الأمر من هاتين الحالتين:

---

(٨٣٩)إذًا على القول بأن الآية يُراد بها آدم وحواء؛ فإنهم يعتبرون أن هذا من جنس الذنوب التي تَجوز على الأنبياء، فتكون هذه القضية كأكله عليه السلام من الشجرة.

-فأما إن قيل أنه لم يتب من ذلك؛ فلا شك أنَّه قول عظيم لا يمكن أن يقول به أحد، وذلك أنَّ اتفاق العلماء على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام معصومون من الإقرار على الذنوب، فكيف يقال إنهم أو إنهما أو إنه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لم يتب من الشرك بالله ﷻ؟! فهذا لا يمكن أن يقال به.

-أمَّا إن قيل أنه قد تاب من ذلك، فإنه يقال حينئذٍ يَبعُد في حكمة الله ﷻ أن يُذكر الذنب في حق النبي ولا تُذكر التوبة، واعتبر في هذا ما جاء في قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، بل اعتبر في هذا ما جاء في آدم عليه السلام على وجه الخصوص، فقد قال جل وعلا لما بيَّن ما وقع فيه آدم عليه السلام من أكل الشجرة قال: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾[البقرة:٣٧]، ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾[طه:١٢١]. إذًا إذا ذُكر في القرآن شيء مما وقع من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فإنه يُذكر التوبة ولابد، وهاهنا لم يذكر.

❑ **ووجهٌ ثالث**: وهو أنَّ آدم عليه السلام ثبت الحديث في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه يعتذر يوم القيامة عن الشفاعة العظمى بذِكر ذنبه، فإنه إذا أتاه الناس يطلبون منه الشفاعة إلى الله ﷻ يقول: «إن الله قد غضب غضبًا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله، وإن الله نهاني عن أكل الشجرة فعصيته، نفسي نفسي»؛ قال العلماء: ولو أنَّه عليه السلام قد وقع منه هذا الذنب لكان أجدَر بالذكر، لأن ذنب الشرك أعظم من ذنب أكل الشجرة.

❑ **ووجهٌ رابع**: أنَّ هذه الآية لو كانت في آدم ﷺ وحواء، لورد في ذلك ذكرُ إبليس وأنَّه أغواهم كما جاء ذلك في الآيات الأخرى في شأن الأكل من الشجرة، وهذا لم يحصل هنا أيضا.

❑ **أضف إلى هذا وجهًا خامسًا**: وهو أنَّ المتأمل في العادة الجارية في ذكر قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يجد أن المطرد هو التصريح بأسماء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، حين ذِكرهم أو حين بيان قصصهم فإنك تجد التصريح بذكر أسمائهم، وهاهنا ليس شيء من ذلك، ما ذُكر اسم آدم ولا ذُكر اسم حواء عليهما الصلاة والسلام.

❑ **أضف إلى هذا وجه سادسًا**: وهو الذي يرجع إلى سياق الآيات التي ذُكر فيها هذا الاستدلال، فإن الله تعالى قد قال في سورة الأعراف: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[الأعراف:١٨٩-١٩٠] ؛ تأمل في الوجه السادس وهو في قول الله ﷻ: ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾، ولو كان المراد إشراك آدم وحواء بإبليس في التسمية لقال: جعلا له شريكًا وليس (شركاء)[٨٤٠].

---

(٨٤٠) إنما هذا يناسِب حال المشركين الذين أشركوا مع الله ﷻ شركاء شتَّى.

❑ **أضف إلى هذا وجهًا سابعًا:** وهو قول الله ﷻ: ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، ولو كان المراد آدم وحواء لقال: فتعالى الله عما يشركان.

❑ **أضف إلى هذا وجهًا ثامنًا** وهو أن الله تعالى قال: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾[الأعراف:١٩١]، ولو كان المراد الشرك بإبليس في التسمية لقال: أيشركون من لا يخلق شيئًا وهم يُخلقون، لأن الأصل في (ما) أن تقال في حق غير العاقل، وأن تكون (من) في حق العاقل، ومن ذلك إبليس[٨٤١].

❑ **أضف إلى هذا وجهًا تاسعًا مهمًا:** وهو أن المتأمل في سياق الآيات يقطع أنه لا يمكن أن يراد بها آدم وحواء؛ ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُون * وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾[الأعراف:١٩١-١٩٣]، أترى أن هذه الآيات يراد بها آدم وحواء؟! هذا لا يمكن أن يقال به، بل الناظر في هذه الآيات والمعتبر بما سواها من الآيات يجد أن السياق يتعلق بالمشركين[٨٤٢]، وليس بآدم وحواء.

❑ **أضف إلى هذا وجهًا عاشرًا:** وهو في المروي -كالذي بين أيدينا- تجد أن في هذا الذي بين أيدينا ما لا يمكن التسليم به، أترى إبليس يأتي إليهما فيقول: «أنا صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنة»، أهذا كلام من يريد الإغواء

---

(٨٤١) فالأقرب أنَّه يُراد بها الأصنام، أمَّا لو أُريدَ إبليس لقِيلَ: «من»؛ لأنه يعقل.

(٨٤٢) الذين وصفهم الله ﷻ بنظير ذلك في آيات أخرى.

ومن يريد الإغراء؟ لأنه لو قال ذلك فإنهما سيتذكران أنَّ الاستجابة له إنما تؤدي إلى الشر، كما حصل في شأن أكل الشجرة.

❑ **أضف إلى هذا الوجه الحادي عشر وهو:** أنَّ من البُعد بمكان أن يصدِّق آدم وحواء أن إبليس عنده قدرة على أن يُخْرِجَ في رأس هذا الجنين قرنًا كقرن الأيِّل -الأيِّل الذي هو من جنس الوعول- هذا كلام لا يمكن أن يصدِّق به أحد، ثم من الذي يخلق ومن الذي يكوِّن هذا الجنين في البطن، أليس هو الله ﷻ؟ إذا كان إبليس أنه هو الذي يصنع ذلك وصَدَّقا ذلك كان هذا منهما شركًا أكبر.

فهذا مما يدلك على أن هذا المروي لا يمكن التسليم به ولا يمكن أن يكون صحيحًا وأن المراد آدم وحواء عليهما الصلاة والسلام.

الذي يظهر -والله تعالى أعلم- أن القول الثاني، وأن المراد بهذه الآية ليس آدم وحواء، يعني في قوله: ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ أن هذا هو الصواب، وإن كان لقول الجمهور هيبة ورهبة، إلا أنَّ الأوجه السابقة بمجموعها تدل على ضعف هذا القول، وأن الصواب مع القول الآخر، وهو الذي رُوِيَ عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في الرواية الثانية، وكذلك هو قول الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ، واختاره جماعة من العلماء المحققين والمفسرين المعروفين كابن القيم وابن كثير وكذلك القرطبي(٨٤٣)، وكذلك ابن حزم، وكذلك من المتأخرين الشيخ الأمين

---

(٨٤٣) ومنهم من المفسرين ابن العربي، ومنهم أيضًا الرَّازي.

الشنقيطي، وكذلك الشيخ العثيمين، وغيرهم من أهل العلم رحمة الله تعالى على الجميع.

هذا القول الذي يبدو والله تعالى أعلم أنه هو الأقرب. **وأصحاب هذا القول افترقوا إلى فريقين:**

-**منهم من قال**: إنَّ مطلع الآية أريد بها آدم وحواء؛ ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾، هذا في آدم وحواء، ثم بعد ذلك حصل انتقال؛ انتقالٌ من الشخص إلى الجنس؛ من الشخص إلى جنس البشر، ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ «من» هنا فما بعد يراد بذلك جنس البشر، ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ يعني جامعها ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللهَ رَبَّهُمَا﴾ [الأعراف:١٨٩] إلى آخره، فيكون المراد بمن أشرك: هم المشركون من ذرية آدم عليه الصلاة والسلام، وهذا أسلوبٌ معروف وله نظائر في القرآن، ولولا ضيق الوقت لذكرت لكم نماذج على ذلك من القرآن.

-**والفريق الثاني قالوا**: إن هذه الآيات ليس لها علاقة بآدم وحواء لا من قريب ولا من بعيد؛ ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾؛ «خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ»: يعني من جنس واحد ومن أصل واحد، «وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا»: يعني من هذا الجنس، لم يكن خَلْقُ

الزوجات من جنسٍ آخر، إنما كان من الجنس نفسه حتى يحصل السكن إلى آخر ما جاء في السياق(٨٤٤).

وعلى كل حال؛ المقصود هو أن قوله تعالى: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ﴾ عند الفريقين لا يدل على إرادة آدم وحواء عليهما الصلاة والسلام.

مهما يكن من شيء؛ سواء قلنا بأن هذه الآية في آدم وحواء أو ليست في ذلك، فإنَّ العبرة بعموم اللفظ، وهذه هي الفائدة التي نريد أن نقطفها، وهي أنَّ من الشرك بالله ﷻ تسميةَ الأولاد بأسماءٍ مُعْبَّدةٍ لغيره ﷻ، لا شك أن هذا منكر ولا شك أن هذا محرم ولا يجوز. وفُسِّرَ قوله تعالى: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾[الإسراء:٦٤] كما جاء عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا وغيره تفسير ذلك أيضا بتسمية الأبناء بأسماءَ معبَّدة لغير الله ﷻ.

وعلى كل حال؛ الإشراك بالله ﷻ أو جعْل نصيبٍ من الأولاد لغير الله ﷻ والإشراك به في ذلك هذا له أوجه، من ذلك ما مر معنا من تسمية الأبناء بأسماءٍ مُعْبَّدةٍ لغير الله؛ فإن كان مجرد تسمية دون اعتقاد كان شركًا أصغر، وإن ضُمَّ إلى هذا اعتقاد قلبي بتعظيم هذا الذي سُمي باسمه، أو عُبِّد له فلا شك أن هذا شرك أكبر.

---

(٨٤٤) والأقرب -والله أعلم- القول الثاني؛ إمَّا إن يُقال: إن ابتداء الآية في ذلك ثمَّ حصل انتقال، أو أن يُقال: إن الآية ليس لها تعرّض أصلًا لذكر آدم وحواء، والمرفوع بذلك إلى النبي ﷺ قد علمتَ ما فيه، والموقوف على ابن عباس أو أُبَيّ عرفتَ أيضًا ضعْفه، وأنَّه قد رُوِيَ عن ابن عباس ما يخالف ذلك، والله ﷻ أعلم.

وثمة -كما ذكرت لك- أنواع أخرى هي أفحش وأعظم، من ذلك:

-اعتقاد بعض الآباء أن هذا الولد إنما هو نعمة أسداها هذا السيد أو هذا الولي، أو هذا النبي، ولذلك فهو يجعله شريكًا مع الله ﷻ في إيتاء هذا الولد، كما يكونُ من عبَّاد القبور، تجد أن أحدهم يصيح عند المشهد كما يقولون أو عند القبر، "يا سيدي فلان أريد الولد، يا سيدي فلان أريد الولد"، تأتي الزوجة تصيح تنادي أنها تريد الولد، فأنظر لنا يا سيد بعين الرأفة وعين الرحمة، فإذا رُزِقَا بالابن اعتقدا أنه إنما كان نعمة أنعم بها هذا الولي المقبور، وهذا ولا شك شرك أكبر ليس بعده شرك.

-من ذلك أيضا مما يدخل في قول الله ﷻ: ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ﴾ [الأعراف:١٩٠]، الإشراك مع الله ﷻ في شان التبرك، تجد أنه عند من ضعُف عنده التوحيد، أو عُدِمَ عنده التوحيد تجد أنه أو تجد أنها تأتي بابنها بعد أن يولد إلى قبر الولي في زيارةٍ لابد منها حتى تفيض عليه بركات السيد، وهذا يفعله كثير من هؤلاء -عياذا بالله- لابد بعد الولادة من حمل هذا الطفل والإتيان به إلى قبر الولي حتى يناله من بركات هذا الولي(٨٤٥)، فهذا لا شك أنه شركٌ بالله ﷻ: ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾.

(٨٤٥) وكان هذا يقع هنا في فترات جهْل سابقة، أنَّه بعد أن تَلِدَ الأم فإنها تحمل مولودها وتذهبُ إلى قبر النبي ﷺ، هذه الزيارة لابدَّ منها، لِمَ؟ حتى ينال هذا المولود من بركات النبي ﷺ.

-أضف إلى هذا أيضًا أن منهم من يَفْحُش عنده الأمر أكثر وأكثر حتى إنَّه يجعل نذرًا عليه أن يكون هذا الابن خادمًا للسيد أو خادمًا للشيخ، أو خادمًا لقبر الولي، وأنه نذره لله ﷻ لكي يكون عبدًا طائعًا وخادمًا وسادنًا لهذا القبر الذي يُشرك مع الله ﷻ به(٨٤٦).

فهذه أوجه وغيرها يفسَّر بها وداخلةٌ فيما تدل عليه هذه الآية التي بين أيدينا وهي قول الله سبحانه: ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾.



قال المصنف رحمه الله:

٥١-بَابُ

قَوْلِ اللهِ تَعَالَى:﴿وَلِلّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا

---

(٨٤٦) ومن أنواع ذلك وأوجُهه: ما ذكر المؤلّف رحمه الله فيما ذكر عن ابن حزم وهو: أن يُعبَّد الأولاد بأسماء لغير الله، هذا أيضًا داخل في قوله: ﴿جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاء فِيمَا آتَاهُمَا﴾، ويسمّى -كما سبق- عبد النبي، أو عبد الرسول، أو عبد الحسين، أو عبد الزهراء، أو ما إلى ذلك.

وكل هذا لا شكَّ أنَّه منافٍ لأصل التوحيد أو لكماله:

-فإن كان يعتقد حقيقة العبودية وأن هذا ربُّه وإلهُه وأنَّه عبدٌ له؛ فهذا شرك أكبر لا شكَّ فيه.

-أمَّا إن كان لمجرَّد التسمية -كما يزعم البعض- مجرَّد التسمية فقط ولا تُقصدُ حقيقتها؛ فهذا شركٌ أصغر. والله ﷻ أعلم.

الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ [الأعراف:١٨٠]

ذَكَرَ ابنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾: «يُشْرِكُونَ».

وَعَنْهُ: «سَمَّوُا اللَّاتَ مِنَ الإِلَهِ، وَالعُزَّى مِنَ العَزِيزِ».

وَعَنِ الأَعْمَشِ: «يُدْخِلُونَ فِيهَا مَا لَيْسَ مِنْهَا».

قال الشارح وفقه الله:

هذا بابٌ عقده المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ للكلام عن موضوعٍ من الموضوعات المهمة التي الخلل فيها يؤدي إلى قدحٍ في التوحيد الواجب أو نقْضٍ لأصل التوحيد، وهو ما يتعلق بالإلحاد في أسماء الله ﷻ[٨٤٧]. **والإلحاد سيأتي بيانه، وهو درجات**: منه ما يقدح في كمال التوحيد الواجب، ومنه ما ينقُضُ أصل التوحيد.

وكتاب التوحيد الذي نتدارسه في هذه المجالس قد خصَّه المؤلف في غالب أبوابه للكلام عن توحيد القصد والطلب، ولكنه حلَّى كتابه ببعض الأبواب التي تتعلق بتوحيد المعرفة والإثبات.

من ذلك هذا الباب الذي بين أيدينا، ومن ذلك بابٌ مر بنا سابقًا وهو: (باب من جحد شيئًا من أسماء الله وصفاته)، كذلك تناول البحث في توحيد المعرفة والإثبات بعضًا مما يتعلق بأبواب أخرى كما عقده المؤلف (في حكم التسمي بقاضي القضاة)، كذلك ما سيأتي من الكلام عن إثبات الوجه لله ﷻ والسؤال بوجهه سبحانه، وكذلك ما ختم به المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الكتاب وهو

(٨٤٧) تنبيهًا على الحقِّ الواجب لله جلَّ وعلا في أسمائه.

الباب الذي عقده للكلام عن قوله تعالى: ﴿**وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ**﴾[الأنعام: ٩١]، إلى غير ذلك من الأبواب التي تناولت هذا النوع من نوعي التوحيد.

ويمكن أن يُقال أيضًا: إنَّ هذا الباب له تعلقٌ بتوحيد القصد والطلب؛ يعني بتوحيد العبادة أيضًا، وهذا تنبيهٌ لطيف أشار إليه حفيد المؤلف وتلميذه الشيخ عبد الرحمن بن حسن في كتابه «قرة عيون الموحدين» الذي شرح فيه هذا الكتاب شرحًا وجيزًا، حيث أشار إلى أن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أراد التنبيه على غَلَطِ الذين يتوسلون إلى الله ﷻ في دعائهم بالذوات، وأنَّ الذي ينبغي أن يُتوسل إلى الله ﷻ بأسمائه وصفاته.

بعض الناس يخطئون حينما يقعون في أمر محدث مبتدع وهو التوسل إلى الله ﷻ بالمخلوقين بذواتهم أو بجاههم، فيقول : "اللهم إني أسألك بجاه فلان، وبحق فلان، وأسألك بفلان"؛ وهذا أمرٌ مُحدث ليس عليه دليل من الكتاب والسنة، والذي ينبغي للمسلم أن يتوسل إلى الله ﷻ بهذا التوسل العظيم الذي لا توسل أعظم منه، وهو التوسل إلى الله ﷻ بأسمائه وصفاته ونعوت جلاله وجماله.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**باب قول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾**)؛ أسماء الله جل وعلا حسنى، وهذا ما نصَّ عليه كتاب الله ﷻ في أربعة مواضع:

١/ في هذه الآية التي بين أيدينا آية الأعراف.

٢/ وكذلك في آية الإسراء: ﴿**قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى**﴾[الإسراء:١١٠].

٣/ كذلك الموضع الثالث في سورة (طه): ﴿ **اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى** ﴾[طه:٨].

٤/ والموضع الأخير في سورة الحشر في قول الله ﷻ: ﴿**هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى**﴾[الحشر:٢٤].

أسماء الله ﷻ حسنى، كلمة «حسنى» مؤنث كلمة «أحسن» وهي أفعل تفضيل من «حَسَنَة»، كما أن كلمة «أحسن» أفعل تفضيل من كلمة «حَسَنَ».

و «**الحسنى**»: يعني البالغة في الحسن المُنتهى، فأسماء الله ﷻ بالغةٌ في الحسن المنتهى، فلا حُسن فوق حُسن أسماء الله ﷻ.

وبلوغ الغاية في الحسن في أسماء الله ﷻ يرجع إلى ثلاثة أمور:

أولًا: أنها دالة على أعظم وأقدس مُسَمَّى وهو الله ﷻ؛ لما كانت هذه أسماءه، لما كانت هذه الأعلام الدالة عليه ﷻ لا شك أنها بذلك تكون أحسن الأسماء على الإطلاق.

والأمر الثاني: أنَّ أسماء الله ﷻ تتضمن أحسن المعاني وأعظم النعوت، فصفات الله ﷻ ضُمِّنت في أسمائه سبحانه، إذْ كلُّ اسمٍ قد دل وتضمن صفةً من صفات الله تبارك وتعالى، وهذه المعاني والصفات أعظم ما يكون من المعاني، أعظم ما دلت عليه الأسماء من المعاني هي أسماء الله ﷻ. إذًا كانت أسماء الله حُسْنَى لأنها دالةٌ على أعظم مُسمًّى، ولأنها مُتضمنةٌ لأحسن المعاني.

أضف إلى هذا أمرًا ثالثًا: وهي أنها منزهة عن كل عيب وسوء ونقص، فاستحقت بذلك أن تكون أسماء حسنى.

قال ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾، إذًا هي شيءُ يختص به الله ﷻ، ألم تـر إلى (حـرف الـلام) هاهنـا الـذي يـدل عـلى الاسـتحقاق؛ فهـي مُسْـتحقة لله ﷻ لا يشرَكُه فيها غيره، أسماء الله ﷻ بما دلت عليه من هـذه المعـاني العظيمـة لا شـك أنها أمر تفرد الله ﷻ به، فلا يجوز أن يشاركه في هذا الكمال أحدٌ البتة.

قال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾، هذا بابٌ عظيم وهـو بـاب التأمـل في حُسْنِ أسماء الله ﷻ، وهذا المقام كلما تأمـل فيـه الإنسـان ظهـر لـه مـن حسـن أسماء الله ﷻ ما لـم يكن يعلم.

وحُسن أسماء الله ﷻ يظهر من وجوه كثيرة من ذلك:

❁ الحسن الذي يظهر من الأسماء بالنظر إلى كل اسم منها على حـدة؛ فكـل اسمٍ منها إن تأملته وجدتَ أنه يدلُّ على أحسن المعاني وأعظمهـا[٨٤٨]، واعتـبر في ذلك أي اسمٍ يمر بك في كتاب الله أو في سنة رسوله ﷺ؛ تجد أن ما اشـتمل عليـه من المعاني شيءٌ عظيم يفوق الوصف .

❁ ويظهرُ حُسْنِ أسماء الله ﷻ أيضًـا **مـن وجـه ثـانٍ** وهـو: بـالنظر إلـى أن مـن أسماء الله ما يدل على أكثرَ مـن معنـى وكلهـا بالغـةُ في الحسـن غايتـه، وهـذا أمـر عجيب! أن يكون الاسم الواحد يدل عـلى معنيين أو عـلى ثلاثـة معـانٍ أو عـلى أربعة معانٍ، كلُها حق وكلهـا غايـة في الحسـن، وانظـر في هـذا وتأمـل في اسـم الله (الودود)، وتأمـل في اسـم الله (العزيـز)، وتأمـل في اسـم الله (الحكيـم) وتأمـل في

(٨٤٨) ولا يتطرق إليه العيب والنقص والشر البتَّة، والله ﷻ الشرُّ ليس إليه؛ ليس إلى ذاته، ولا إلى أسمائه، ولا إلى صفاته، جلَّ بنا وتعالى وتقدَّس.

اسم الله (الجبار) إلى غير ذلك من أسماء الله ﷻ. بل إن منها ما هو جامعٌ لكل معاني الربوبية والألوهية؛ كما تجده في قوله في الاسم العظيم (الله)، كيف كان مشتملًا على كل معاني الربوبية والألوهية وكل نعوت الجلال والجمال.

❁ أيضًا يظهر حُسْنِ أسماء الله ﷻ **من وجه ثالث**: وهو بالنظر إلى اقتران بعضها ببعض، وهذا قد جاء في كتاب الله ﷻ كثيرًا، كذلك في أحاديث كثيرة عن رسول الله ﷺ. وأنت إذا تأملت وجدت أن كل اسمٍ منها هو أحسن الأسماء، دالٌ على أحسن المعاني، فإذا ضممت أحدَ هذه الأسماء إلى الآخر ظهرَ لك حُسْنٌ فوق الحسن. واعتبر في هذا إلى الاقتران مثلًا إلى اسميه تعالى (الغفور والرحيم) أو (العزيز والحكيم) أو (الأول والآخر) أو (الظاهر والباطن)، وهذه بالذات لها شأن أخص، ويظهر الكمال وغاية الحسن فيها من وجهٍ أظهر؛ وهي الأسماء التي يُطلق عليها بعض أهل العلم بـ«الأسماء المزدوجة»[٨٤٩] .

❁ أضف إلى هذا **وجهًا رابعًا** في حُسْنِ أسماء الله ﷻ وهي: أنك لا تجد فيها ترادفًا مطلقا؛ ليس في أسماء الله ما يدل الواحد منه على ما يدل عليه الآخر من جميع الوجوه، إنما تجد بعض الأسماء أعمَّ من بعض، أو تجد بعض الأسماء أخص من بعض؛ وذلك مما يزداد معه يقينك بحُسن أسماء الله ﷻ، فتجد أن اسمه (الخالق) يدل على معنى عام، واسمه (البارئ) يدل على معنى أخص.

---

(٨٤٩) يُطلِقُ عليها أهل العلم: «الأسماء المقترنة»، ويُطلقون على طرف منها: «الأسماء المزدوجة».

وقُل مثل هذا في أسماء عدة من أسماء الله ﷻ ، والمقام يحتاج إلى وقت أوسع لتفصيل مثل هذه المباحث.

المقصود من الأمر الذي يجب على كل مسلم أن يعتقد به وأن يصل إلى سويداء قلبه: اعتقاد أن أسماء الله ﷻ حسنى بالغةٌ في الحسن الغاية، ومن اعتقد ذلك استفاد فوائد شتى.

من تلك الفوائد التي نستفيدها باعتقادنا بكون أسماء الله ﷻحسنى ما يأتي:

أولًا: اعتقاد أنها توقيفية؛ ومعنى قولنا أنها توقيفية: يعنى أنَّه لا يُسمى الله ﷻ إلا بما سمى به نفسه أو سماه به رسوله ﷺ، لا يُتجاوز في هذا الباب القرآن والحديث، يجب أن يقف الإنسان في تسمية ربه ﷻ عند حدود ما ورد في القرآن الكريم أو في السنة النبوية. وهذا بيّنٌ ظاهر من كون أسماء الله حُسْنَى؛ فإن العقل لا يستقل بالوصول إلى أحسن المعاني، وبالتالي فإنه يقف عند حدود ما جاء في الكتاب والسنة.

وبالتالي يظهر لك خطأ من قال من المتكلمين "إنَّ أسماء الله ﷻ يمكن أن تثبت له عن طريق الاجتهاد"[٨٥٠]؛ يعني أن ينظر الإنسان في معنىً حسن دل عليه اسمٌ من الأسماء وبالتالي يجوز أن يُطلق على الله تبارك وتعالى.

---

(٨٥٠) الذين قالوا: إن الله ﷻ يُسمّى بمسمّيات المدح عن طريق الاجتهاد، كما هو مذهب المعتزلة، ووافقهم عليه بعض الأشاعرة كالبَاقِلاني وغيره، والبحث في مذهب الباقِلاني في هذه المسألة فيه دِقَّة وتفصيل ولكن هذا هو المشهور عنه. لا شكَّ أن هذا غلط، ومن أصْرح ما يدلُّ على غلطه: قوله عليه الصلاة والسلام في حديث الهَمِّ: «أسأَلُكَ

وهذا لا شك أنه مذهب باطل، ويردُّه ما أخبر الله ﷻ عن نفسه بأنَّ له الأسماء الحسنى، وأنَّى للعقل للعاجز الضعيف أن يصل إلى هذه الرتبة العلية! حيث يضيف إلى ربه ﷻ اسمًا يليق به ويليق بعظمته ويليق بكماله!!

أنَّى يكون ذلك ونبينا الكريم ﷺ الذي هو أعلم الخلق بالله يقول: «لا أُحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»! فإذا كان أعلم الخلق به عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لا يحيط ثناءً لله وعليه مع أنه أعلم الخلق به، ومعلوم أن الله جَلَّ وَعَلَا إنما يُثنى عليه بأسمائه وصفاته، فإذا كان لا يُحصي ثناء عليه، إذًا لا يُمكن للعباد أن يصلوا إلى معرفة ما يليق بالله جَلَّ وَعَلَا من الأسماء والصفات، وحسبهم أن يقفوا عند حدود ما جاء في القرآن والسنة.

أضف إلى هذا ما جاء في مسند الإمام أحمد من حديث ابن مسعود ﷺ في الحديث المعروف عند أهل العلم بحديث دعاء الهم، وهو قوله ﷺ: «**أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك**» فالحديث صريحٌ بكون أسماء الله جَلَّ وَعَلَا من تسميته هو جَلَّ وَعَلَا لنفسه، لا من تسمية الخلق له.

أضف إلى هذا: أن تسمية الله بما لم يسمِّ به نفسه يشملها قوله ﷻ: ﴿**وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾[البقرة:١٦٩]، ﴿**ولا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ**﴾[الإسراء:٣٦]، وقوله تعالى: ﴿**وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا**﴾[طه:١١٠]؛كل تلك الأدلة

بكلِّ اسمٍ سمَّيتَ بِه نفسَك»، فالحديث صريح في أنَّ تسمية الله تبارك وتعالى ليست راجعةً إلى العباد، بل الله تبارك وتعالى هو الذي يُسمّي نفسه.

زاجرةٌ على أن يخوض الإنسان في تسمية الله جَلَّوَعَلَا بما لم يرد في الكتاب والسنة.

هذه فائدة أولى نستفيدها من معرفتنا أن أسماء الله حُسنى.

والفائدة الثانية: أن نعلم أن أسماء الله جَلَّوَعَلَا مشتقة، لا جامدة كما يقوله من يقوله من المتكلمين، بل كل اسم من أسماء الله جَلَّوَعَلَا فإنه يدل على معنى ويدل على صفةٍ جليلة، بل هي أحسن ما يكون من الصفات والمعاني؛ وذلك أن الله جَلَّوَعَلَا لم يتسمى بـ(العزيز) إلا لأنه مُتصف بصفة العزة، ولم يتسمى بـ(القوي) إلا لأنه مُتصف بصفة القوة، وهكذا دواليك. إذًا أسماء الله جَلَّوَعَلَا كل اسم منها يتضمن ويشتمل على معنى وعلى صفة، وهذا مما يوجب أن يعتقد في أسماء الله جَلَّوَعَلَا.

أضف إلى هذا أمرًا ثالثًا: وهو أننا نستفيد من معرفتنا بأن أسماء الله حُسنى دعاءه بها؛ دعاء العبادة ودعاء المسألة. أما دعاء العبادة وذلك مما رتب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على كون أسماء الله حسنى، قال: ﴿**وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا**﴾[الأعراف:١٨٠]، رتب على كون أسماء الله عَزَّوَجَلَّ حسنى؛ دعاءه بها. إذًا لما كانت حُسْنَى كان ينبغي أن يكون دعاءه بها .

أعود فأقول؛ أن دعاء الله عَزَّوَجَلَّ بأسمائه يرجع إلى نوعين من الدعاء: دعاء العبادة، ودعاء المسألة.

أما دعاء المسألة: فهو الدعاء المعروف الذي يتبادر المراد منه عند سماع هذه الكلمة أولًا وهو: النداء والطلب والسؤال. فإذا دعوت الله ﷻ فادعُه بأسمائه الحسنى ﷻ، فهذا أحسن ما يكون وأبلغُ ما يكون من دعاء المسألة.

وثمة دعاء العبادة: وهو أنْ تتعبد لله ﷻ بأسمائه؛ وهذا بابٌ عظيم حَسْبُ الواحد منا إذا تكلم فيه أن يشير إليه إشارة، وإلا فإنَّ هذا بابٌ عظيم لا يلجُ إليه إلا الموفقون السعداء، والسير إلى الله جَلَّوَعَلَا كما يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «طريق الهجرتين»: «السير إلى الله من طريق الأسماء والصفات شأنه عجب وفتحه عجب، وصاحبه قد حيزت له السعادة وهو مستلقٍ على فراشه، غير متعبٍ ولا مشدود، ولا مشتَّت عن سكنه، ولا مُبعد عن وطنه».

نعم الطريق إلى الله ﷻ من خلال التأمل والتدبر والتعبد بأسماء الله ﷻ وصفاته أمرٌ عظيم لا يصل إليه إلا الموفقون من أهل العلم والعمل، أولئك الذين يتعبدون لله جَلَّوَعَلَا بكل اسمٍ له، ومعلوم أنَّ كلَّ اسم من أسماء الله له عبودية تخصه، فالتعبد لله ﷻ باسمه (الغفور) يختلف عن التعبد لله ﷻ باسمه (الشكور)، يختلف عن التعبد لله ﷻ باسمه (العزيز).

وهذا الباب يحتاج المسلم أن يتأمل فيه تأملًا عظيمًا، وهو باب للسبْق والمسارعة، ومن كان حريصًا على سعادة نفسه فليحرص عليه، ولا يمكن أن تصل إليه حتى يوفقك الله ﷻ للتأمل فيما يمكنك من معرفة معاني أسماء الله جَلَّوَعَلَا، وبالتالي تشمِّر عن ساعد الجد في التعبد لله ﷻ بهذه الأسماء.

فمن علِم أن الله ﷻ (شكور) فإنه يتعبد لله ﷻ بعبودية الرجاء، حيث يرجو ربه ﷻ ولا يخاف منه ظلمًا ولا هضما، إذا عمل العمل الصالح فإنه يرجو الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أن يُثيبه عليه، وإذا عمل السيئة فتاب إلى الله فإنه يرجو الله ﷻ أن يتوب عليه ويغفر له زلته.

من تعبَّد لله ﷻ باسمه (القوي) فإنه يعتصم بحبله ويلوذ به، يثق بقوته ﷻ ويحسن التوكل عليه؛ لأنه يعلم أن الله هو القوي الذي له القوة التي لا تضاهى، فالله جَلَّوَعَلَا قويٌ لا يُغلَب، وبالتالي فإنه يثق بالله ﷻ ويحسن التوكل عليه. وهكذا في بقية أسماء الله جل وعلا. إذًا هذا بعض ما نُفيده من معرفة قولنا أن أسماء الله حُسنى.

أضف إلى هذا أمرًا رابعًا وهو: تنزيه أسماء الله جَلَّوَعَلَا عن أن يلحقها أي نقص أو عيب؛ مهما تأملت في أسماء الله وصفاته فإنك تجدها أسماءً كاملة من جميع الوجوه، لا يمكن أن يلحقها أي نقص أو عيب البتة.

قال جَلَّوَعَلَا: ﴿**وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا**﴾؛ قوله تعالى: ﴿**فَادْعُوهُ بِهَا**﴾ يشتمل على معنيين:

الأول: أن قوله ﴿**فَادْعُوهُ**﴾ من الدعوة بمعنى التسمية، من قولهم: "دعوته زيدًا" يعني: سميته زيدًا، فيكون معنى قوله ﴿**فَادْعُوهُ بِهَا**﴾ يعني: سمّوه بها.

والمعنى الثاني: فادعوه من الدعاء الذي هو -كما قد علمت- مشتملٌ على دعاء العبادة ودعاء المسألة.

وكلاهما مما يدل عليه قوله تعالى: ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾؛ يجب أن يُسمَّى الله بهذه الأسماء ويُعتقدَ أنها أعلام دالة عليه، كما أنه ﷻ يُدعى بهذه الأسماء دعاء العبادة ودعاء المسألة، وأضاف إلى هذا ابن القيم في المدارج نوعًا ثالثًا وهو: دعاء الثناء، والذي يبدو والله أعلم أنه داخل في دعاء العبادة.

قالﷻ: ﴿ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾؛ «ذَرُوا» فعل أمر.

- وهذه الآية -أعني قوله: ﴿ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾- جمهور أهل العلم على أنها آية محكمة.

- وذهب ابن زيد في بعض المفسرين[٨٥١] إلى أنها آيةٌ منسوخة؛ فإنه فَهِمَ من قوله تعالى: ﴿ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ تَرْكُ التعرض لهؤلاء الذين يُلحدون في أسماء الله جَلَّوَعَلَا، وبالتالي تكون آيةً منسوخة بآيات القتال والجهاد.

والصواب: أن الآية محكمة كما على ذلك جماهير أهل العلم.

وقوله ﷻ: ﴿ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ فيه فائدتان:

الأولى: تنبيه للمسلمين.

والثانية: تحذيرٌ وتهديد ووعيد للكافرين اللذين يُلحدون في أسماء الله جَلَّوَعَلَا.

---

(٨٥١) كابن زيد رَحِمَهُ اللَّهُ إلى أن المقصود بقوله: ﴿وَذَرُوا﴾ أي: اتركوهم وأعرضوا عنهم. وعلى هذا هي عنده منسوخة بآيات القتال.

فإنَّ هذا الأسلوب في لغة العرب يُفيد معنى التهديد والتوعد، على نحو قول ربنا جَلَّوَعَلَا: ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا﴾[الحجر:٣]، ﴿ قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾[الأنعام:٩١][٨٥٢] ، فهذا أسلوب يتضمن معنى التهديد[٨٥٣]، فإنهم ينتظرهم عذابٌ وقارعةٌ من الله جَلَّوَعَلَا.

والأمر الثاني: تحذير المسلمين من أن يكون حالهم كحال هؤلاء الملحدين في أسماء الله جَلَّوَعَلَا ، فينبغي على الإنسان أن يُجانب هذه الحال، وأن لا يكون كهؤلاء، لئلا يصيبه ما أصابهم.

قال سبحانه: ﴿ **وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ**﴾؛ قرأ جمهور أهل العلم (**يُلْحِدُونَ**) من (أَلْحَدَ، يُلحِد)، وقرأ حمزة رَحِمَهُ ٱللَّهُ بـ(**يَلْحَدون**) بفتح الياء من (لحَدَ، يلْحَدُ)، والقراءتان معناهما واحد لا فرق بينهما من جهة المعنى.

والأصل في اللغة أن الإلحاد هو: الميل عن القصد، ومن ذلك اللحد في القبر؛ لأنه مائل إلى شق القبر عن وسطه.

والإلحاد في أسماء الله هو كما قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «المدارج» : العدول بها عن الصواب فيها. هذا تعريفٌ وجيز رشيق لمعنى الإلحاد في أسماء الله.

---

(٨٥٢) كما قال جلَّ وعلا: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ [المدثر:١١] .

(٨٥٣) فهذا خرج مخْرج التهديد، اتركوهم تربّصًا وانتظارًا لعقوبة الله تبارك وتعالى عليهم، ولا يعني هذا عدم نُصحِهم وأمرهم ونهيهم وإرشادهم، وإنما المقصود بذلك أن يُجتنَب ما هم عليه، كما أنَّ فيه تهديدًا لهم.

الله جَلَّ وَعَلَا يحذرنا في هذه الآية من حال هؤلاء الذين ضلوا الصراط المستقيم فألحدوا في أسماء الله. **وإذا تأملت في كتاب الله وجدت النهي عن الإلحاد في أمرين:**

١. وجدت النهي عن الإلحاد في **أسماء الله**؛ كما في هذه الآية.

٢. ووجدت النهي عن الإلحاد في **آيات الله**، كما في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾[فصلت:٤٠].

وآيات الله نوعان:

-**آياتٌ شرعية**: هي الآيات التي أنزلها الله عَزَّ وَجَلَّ على رُسله، ومن ذلك القرآن الكريم الذي بين أيدينا. والإلحاد في الآيات الشرعية يكون بأمرين: بتكذيبها، وبتحريفها.

-**والنوع الثاني الآيات الكونية**: فكل ما تراه ببصرك من مخلوقات الله جَلَّ وَعَلَا فإنها آيات دالة على وجوده وربوبيته وألوهيته ووحدانيته، وهذه الآيات الإلحاد فيها يكون: بنسبتها لغير الله، أو اعتقاد أنَّ له فيها مُشاركًا أو مَعاونا.

نعود إلى الأول لأنه هو محل كلامنا وبحثنا هنا، وهو: **الإلحاد في أسماء الله**؛ جَلَّ وَعَلَا قلنا هو: **العدول بها عن الصواب فيها.**

أسماء الله عَزَّ وَجَلَّ يجب أن يُعتقد فيها الحق الذي أوجبه الله عَزَّ وَجَلَّ والذي جاء في شريعة نبينا محمد ﷺ، ومن ذلك تسمية الله عَزَّ وَجَلَّ بما سمى به نفسه، مع اعتقاد تضمُن هذه الأسماء المعاني التي بلغت الغاية في الحسن، واجتناب كلِّ ما

يُخالف ذلك، ما يُخالف ذلك: هو الإلحاد في أسماء الله. إذًا هي كلمةٌ جامعة لكل ما يُخالف الحق في باب أسماء الله وصفاته.

أعيد؛ «الإلحاد في أسماء الله» كلمةٌ جامعة لكل ما يُخالف الحق في باب الأسماء والصفات، **وهذا له أوجه كثيرة**، من ذلك ما قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في النونية:

وحقيقةُ الإلْحاد فيها المَيلُ ... بالإشراكِ والتعطيلِ والنُّكْرانِ

فالملْحدونَ إذًا ثلاثُ طوائفٍ ... فعَليهُم غضبٌ من الرَّحمنِ

أولًا: الإلحاد بالإشراك؛ هذا إلحاد الإشراك أو إلحاد التشريك؛ وهو أن يُعتقد تشريك غير الله ﷻ معه فيها، ومن ذلك ما كان من المشركين الأوليين الذين سمَّوا طواغيتهم وأصنامهم بأسماء الله جَلَّ وَعَلَا، اشتقوا لها أسماءً من أسماء الله جَلَّ وَعَلَا ،كما فعلوا في تسمية صنمهم العظيم (اللات) لكونهم اشتقوا له هذا الاسم من اسمه سبحانه (**الله**)، أو من اسمه سبحانه (**الإله**) على خلاف بين أهل العلم، كذلك اشتقوا (العزى) من (**العزيز**)، واشتقوا (مناة) من (**المنان**)[٨٥٤]، إذًا هذا إلحاد بالإشراك مع الله ﷻ فيها.

ومن ذلك أيضًا: ما يكون من غلاة القبوريين الذين قد يسمون سادتهم وآلهتهم وطواغيتهم بأسماء الله جَلَّ وَعَلَا، بل إنهم قد يعتقدون أن المعاني والصفات التي تضمنتها هذه الأسماء يشارك هذا فيها الله ﷻ، قد تجد منهم من يُسمي إلهه بـ(القدير)، ويعتقد أن له قدرةً كقدرة الله ﷻ، أو يسميه بـ(الرحيم)

---

(٨٥٤) وهذا مرويٌّ عن جماعة من السَّلف في تفسير الإلْحاد في أسماء الله.

ويعتقد أن له رحمة كرحمة الله ﷻ. إذًا هؤلاء لا شك أن إلحادهم وشركهم أعظم من إلحاد وشرك الأولين(٨٥٥).

النوع الثاني: إلحاد النكران؛ بمعنى إنكارُ هذه الأسماء من أصلها، ونفي تسمية الله ﷻ بها(٨٥٦)؛ ومن ذلك ما وقع من المشركين الأولين في اسم الله (الرحمن): ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ﴾[الفرقان:٦٠] ، كما مر بنا ذلك سابقًا.

ومن ذلك أيضًا: ما وقع فيه من المنتسبين إلى هذه الملة ؛ الجهمية اللذين نفوا أسماء الله ﷻ واعتقدوا أن الله ﷻ لا يتسمَّى بهذه الأسماء لأنه يشارك المخلوق فيها الله جَلَّوَعَلَا، فنفوا أسماء الله ﷻ وأوَّلوها بمخلوقاتٍ منفصلة عن الله جَلَّوَعَلَا.

النوع الثالث: التعطيل؛ والتعطيل في أسماء الله جَلَّوَعَلَا نوعان:

-**أولًا**: تفريغ وتعطيل الأسماء عن معانيها، واعتقاد أنها أسماءٌ جامدة لا تدل على معاني، فالشأن فيها كالشأن في أسماء المخلوقين، ربما يُسمى بـ(صالح) من ليس صالحًا، وربما يُسمى بـ (سعيد) من ليس سعيدًا. وهذا لا شك أنه من الأمر الباطل المخالف لإجماع السلف، فأسماء الله -كما قد

---

(٨٥٥) ويدخل في ذلك أيضًا -بلْ هؤلاء أخبث من الأولين- أهل الاتِّحاد الذين جعلوا كلَّ اسم في كل شيء في الدنيا اسمًا لله تبارك وتعالى، وذلك مبنيٌ على قولهم: "إن كل شيء هو الله"، تعالى الله عن قولهم عُلوًا كبيرًا.

(٨٥٦) لأن الواجب إثباتها.

علمنا- متضمنة لمعانٍ عظيمة هي أحسن ما يكون من المعاني، وهذا الذي يُعبِّر عنه أهل العلم بأنها أسماءٌ مشتقة.

-**وثمة صنفٌ آخر من الملحدين إلحاد التعطيل**: اللذين أوّلوا ما دلت عليه الأسماء من المعاني؛ هؤلاء أيضًا معطلة، كما تجد في كثير من المتكلمين إذا جاءوا مثلًا إلى اسم الله (الرحمن) أوّلوا صفة الرحمة، أو جاءوا إلى اسمه تعالى (الودود) أوّلوا صفة الود، وهكذا في الأسماء التي تدل على صفات لا يُثبتونها لله جَلَّوَعَلَا(٨٥٧)، وبالتالي فإنهم ينفون معناها وهذا إلحاد تعطيل.

إذا عندنا الآن ثلاثة أنواع من الإلحاد وهي:

١/ إلحاد الإشراك

٢/ والنكران

٣/ والتعطيل

النوع الرابع: تسمية الله ﷻ بما لم يسمِّ به نفسه(٨٥٨)، فكيف إذا كان ذلك نقصًا لا يليق بالله! كما فعلت اليهود -عليهم من الله ما يستحقون- حينما قالوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾[آل عمران:١٨١].

إذًا الله جَلَّوَعَلَا لا يجوز أن يُسمَّى بما لم يسمي به نفسه(٨٥٩)، وهذا وقع فيه كثير من الناس من مختلف الطوائف، هؤلاء كما قد علمت، وكذلك النصارى

---

(٨٥٧) وهذا مذهب من عطَّل أسماء الله عن معانيها وصفاتها وجعلها جامدةً لا تدلُّ على معنى، كحال المعتزلة وأضرابهم من أهل الكلام.

(٨٥٨) وهو: إدخال ما ليس منها فيها.

مثلًا سموا الله ﷻ (أبًا)، الفلاسفة سموه (العلة الفاعلة) أو (العلة الأولى)، وانظر إلى سوء الأدب مع الله جَلَّوَعَلَا أيقال في حق الله إنه علة! ، تعالى الله عما يقول الملحدون علوًا كبيرا.

ومن ذلك أيضًا: ما يقع في لسان بعض العوام حينما يُسمُّون الله جَلَّوَعَلَا بما لم يسمِّ به نفسه، وقد يتضمن ذلك ما يتضمن من نسبة النقص إلى الله جَلَّوَعَلَا ، أو إثبات شيء من الصفات لم تثبُت له، تجد من العامة مثلًا من يدعو فيقول: (يا أبا المكارم، يا أبيض الوجه، يا ديهور، يا ديهار، يا برهان، يا سبحان) في قائمة طويلة من هذه التسميات التي لم ترِد في كتاب ولم ترد في سنة، وقد علمنا أن أسماء الله جَلَّوَعَلَا توقيفية، فليس للإنسان أن يُضيف إلى الله جَلَّوَعَلَا ما لم يُضِف إلى نفسه وما لم يُثبِت إلى نفسه تَبَارَكَوَتَعَالَى.

النوع الخامس الذي هو وجه أيضًا من أوجه الإلحاد في أسماء الله جَلَّوَعَلَا: إلحاد التشبيه، إلحاد المشبهة الذين جعلوا أسماء الله جَلَّوَعَلَا دالةً على صفاتٍ يشابه فيها الله جَلَّوَعَلَا المخلوقين؛ فإذا كان اسم الله جَلَّوَعَلَا (الرحيم) يدل على صفة الرحمة، فرحمته من جنس رحمة المخلوقين، وإذا كان الله جَلَّوَعَلَا اسمه (العزيز) فعزته من جنس عزة المخلوقين، وقل مثل هذا في بقية الأسماء، ولا شك أن هذا إلحاد، ميلٌ عن الحق الواجب في أسماء الله جَلَّوَعَلَا .

---

(٨٥٩) فالله ﷻ إنما يُسمَّى بما سمَّى به نفسه، فلا يُتجاوزُ القرآن والحديث في هذا الباب، فتسْمية الله بما لم يُسمِّ به نفسه داخلٌ في الإلْحاد في أسمائه، لأنه مَيلٌ عن الواجب فيها، الواجب: الوقوف عن الوارد في النَّص منها، فالزيادة على ذلك إلْحادٌ فيها.

النوع السادس: إلحاد أهل الاتحاد؛ وهؤلاء أخبث هؤلاء الملحدين، وهؤلاء أضلُّ الملحدين، الذين جعلوا كل أسماءٍ في السماوات أو في الأرض فهي لله ﷻ، لأنَّهم يعتقدون أن الله جَلَّوَعَلَا هو كل شيء في السماوات وفي الأرض، حتى قال زعيمهم ابن عربي -عليه من الله ما يستحق-: "إن الله تعالى يتسمى بكل اسم ممدوح عقلًا وشرعًا وعرفًا، وبكل اسم مذموم شرعًا وعقلًا وعرفًا"، تعالى الله عما يقول هؤلاء الملحدون علوًا كبيرا.

إذًا هذه خلاصة كلام أهل العلم في أوجه الإلحاد في أسماء الله جَلَّوَعَلَا. وخلاصة ذلك: أن كل انحراف عن الحق وعن الصراط المستقيم في باب أسماء الله وصفاته فإنه راجعٌ في الحقيقة إلى الإلحاد في أسماء الله جَلَّوَعَلَا، والله ﷻ أعلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**ذكر ابن أبي حاتم عن ابن عباس: ﴿يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾: يشركون**).

هذا الذي أورده الملف رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهمٌ منه أو سبْقُ قلم؛ فإن هذا التفسير الذي سمعت ليس لابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا إنما هو لقتادة، أخرج ذلك ابن أبي حاتم وكذلك ابن جرير وغيرهم من أهل العلم. تفسير الإلحاد بالإشراك هذا من تفسير قتادة وليس من تفسير ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا[٨٦٠]، وهذا ما نبه عليه الشارح الحفيد الشيخ سليمان رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «التيسير».

(٨٦٠) وإنما ابن عباس رُوِيَ عنه في هذه الآية أنَّه قال: «يُكذبون». وهذا راجع أيضًا إلى الإلْحاد كما مضى. فالإشراك فيها إلحاد، والتكذيب بها إلحادٌ أيضًا.

مضى الكلام عن معنى الإلحاد على هذا الوجه.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وعنه: (سمَّوا اللات من الإله والعزَّى من العزيز)**).

هذا الذي يرجع أيضًا إلى الإلحاد بالإشراك، ومن ذلك تسميةُ آلهة المشركين بأسماء الله جَلَّوَعَلَا واشتقاقُ أسماء لها من أسماء الله جَلَّوَعَلَا ، وهذا مما أطبق عليه المفسرون في تفسير الإلحاد في أسماء الله جَلَّوَعَلَا ، وهو كما ترى مَرْوِيٌّ عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا ،لكنه مَرْوِّيٌّ من طريق العوفيين، وهو مسلسلٌ بالضعفاء، لكن عامة أهل العلم إذا جاءوا إلى تفسير الإلحاد في أسماء الله فمِن أول ما يذكرون هذا النوع من الإلحاد في أسماء الله جَلَّوَعَلَا.

جاء ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا تفسير الإلحاد بالتكذيب، وهذا أيضًا نوعٌ من أنواع الإلحاد، كما أخرج ذلك ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وعن الأعمش: (يُدخِلون فيها ما ليس منها)**).

يعني: يسمون الله جَلَّوَعَلَا بما لم يُسمِّ به نفسه كما علمت وكما سمعت[٨٦١].

وهذا الباب أُعيد وأؤكد على أنه ينبغي أن يُتنبه على ذلك، وينبغي أن يُنبه الناس والعامة والأدباء والصحفيين إلى مراعاة هذا الأمر؛ فإن من الناس من ربما قال أو كتب فنسب إلى الله ﷻ ما ليس منه، ربما تجد بعض الكتَّاب المعاصرين أو الصحفيين -هذا مما قد يمر على بعضكم- أنه إذا تكلم عن الله ﷻ أنه يقول: "إنه مهندس الكون"؛ انظر إلى ما في هذه الكلمة من عدم مراعاة

(٨٦١) هذا أيضًا نوع من الإلْحاد في أسمائه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

مقام الأدب مع الله ﷿، أيُقال في حق الله إنه مهندس! هذا مما تمجُّه الأسماع وترفضه القلوب المؤمنة.

إذًا الله جَلَّوَعَلَا يجب أن يُسمى بما سمى به نفسه، ويكفيك يا عبد الله، أتريد أن تُحَصِّل أسماءً أعظم مما سمى الله بها نفسه! هذا لا كان ولا يكون؛ إذًا قف عند حد ما ورَد ولا تزد على ذلك، ولا تُدْخِل في أسماء الله جَلَّوَعَلَا ما ليس منها.



قال المصنف رحمه الله:

٥٢-بَابُ
لَا يُقَالُ السَّلَامُ عَلَى اللّهِ

فِي «الصَّحِيْحِ» عَنِ ابْنِ مَسْعُوْدٍ ﵁ قَالَ: كُنَّا إِذَا كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي الصَّلَاةِ؛ قُلْنَا: السَّلَامُ عَلَى اللهِ مِنْ عِبَادِهِ، السَّلَامُ عَلَى فُلَانٍ وَفُلَانٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا تَقُوْلُوْا: السَّلَامُ عَلَى اللهِ؛ فَإِنَّ اللهَ هُوَ السَّلَامُ».



قال الشارح وفقه الله:

يقول المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**بَابٌ لَا يُقَالُ: السَّلَامُ عَلَى اللهِ**»، **ومناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد**: أنَّ من كمال التوحيد الواجب تركَ استعمالِ هذا اللفظ الذي لا يجوز أن يقال في حقه سبحانه، وكون الإنسان يُسلِّمُ على الله فيقول: "السلام على الله" هذا قولٌ لا يجوز، وتركه من تحقيق الأدبِ مع الله ﷻ.

وهذا الباب أيضًا مناسبٌ للباب الذي سبقه؛ من جهة أن فيه التنصيص على أن من أسماء الله جَلَّ وَعَلَا «السلام»، والباب الذي قد مضى متعلق بأسماء الله جَلَّ وَعَلَا[٨٦٢].

قال: رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**فِي «الصَّحِيْحِ» عَنِ ابْنِ مَسْعُوْدٍ ﷺ قَالَ: كُنَّا إِذَا كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي الصَّلَاةِ؛ قُلْنَا: السَّلَامُ عَلَى اللهِ مِنْ عِبَادِهِ، السَّلَامُ عَلَى فُلَانٍ وَفُلَانٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا تَقُوْلُوْا: السَّلَامُ عَلَى اللهِ؛ فَإِنَّ اللهَ هُوَ السَّلَامُ»**).

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**في الصحيح**»؛[٨٦٣] يعني في الصحيحين، والحديث خرَّجه الإمامان البخاري ومسلم في مواضع في الصحيحين.

وفيه أن ابن مسعود ﷺ أخبر أن أصحاب النبي ﷺ و رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ «**كانوا إذا كانوا مع النبي ﷺ في الصلاة**»، وجاء توضيح ذلك في بعض الروايات يعني إذا جلسوا في التشهد؛ فهذا هو الموضع الذي كانوا يقولون فيه هذا القول.

كانوا يقولون: (**السلام على الله من عباده، السلام على فلان**)[٨٦٤]. وجاء في روايةٍ في الصحيحين أنهم كانوا يقولون: (**السلام على الله من قِبل عبادِه، السلام**

---

(٨٦٢) وهذا الباب مناسبٌ أيضًا للباب الذي قبله؛ لأنَّه متعلق بالصفات وذاك متعلقٌ بالأسماء.

(٨٦٣) يعني: الجنس

(٨٦٤) فمحل هذا القول إنَّما كان إذا جلسوا في التشهد، وهذا قد كان قبل أن يعلِّمه النبي ﷺ التشهد المشروع، كما جاء في روايةٍ عند أحمد: «كنَّا إذا جلسنا في التشهد لا ندري ما

على جبريل وميكائيل)[٨٦٥]. وفي روايةٍ في خارج الصحيحين **(أنهم كانوا يُعَدِّدُون من الملائكة)**، فهذا توضيحٌ للمبهم في قوله في هذه الرواية «**السلام على فلان**».

وكأن أصحاب النبي ﷺ لمَّا لم يكن عندهم علمٌ بالشيء الذي يقولونه في هذا الموضع -إذْ لم يكن قد علَّمهم النبي ﷺ ماذا يقولون في هذا الموضع، ولعل هذا لحكمةٍ أرادها النبي ﷺ- فلم يكونوا يعلمون ماذا يقولون في هذا الموضع؛ كما جاء مصرَّحًا في رواية عند الإمام أحمد بإسناد صحيح، أنهم ما كانوا يعلمون ماذا يقولون؟ فاجتهدوا رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ فقالوا: «**السلام على الله من عباده، السلام على فلانٍ وفلان**». يعني: كانوا يعددون من الملائكة عَلَيْهِمُٱلسَّلَامُ.

فكأنهم رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ لما رأوا أنَّ الصلاة مناجاةٌ بين العبد وبين ربه رأوا أنَّه لا يناسبُ أن تُتْرَكَ الصلاة إلا بعد تحية الله ﷻ، وتحية خواص عباده، والدعاء لأنفسهم، والسلام على من حضرهم من الإنس والملائكة؛ اجتهدوا فقالوا هذا القول، وهو أنهم كانوا: يسلِّمون على الله ويسلِّمون على خواص عباد الله، فبين لهم النبي ﷺ أنَّ هذا أمرٌ لا يجوز.

التفتَ إليهم النبي ﷺ بعد أن فرغوا من الصلاة -كما دلَّ على هذا بعض الروايات وهي مُفَسِّرةٌ لبعضها- بعد أن فرغوا من الصلاة قال لهم النبي ﷺ: «لا

نقول»، فهذا الذي قالوه اجتهادٌ منهم ﷺ؛ حتى علَّمهم النبي ﷺ التشهد المعروف؛ «التحيات لله...» إلى آخره.

(٨٦٥) وفي رواية في «الصحيحين»: من (قِبَل عباده)، «**السلام على فلان وفلان**»، وفي رواية أيضًا في «الصحيح»: (السلام على جبريل، وميكائيل، وفلان وفلان).

تقولوا السلام على الله من عباده، فإن الله هو السلام» ؛ نهاهم وبيَّن لهم علة النهي، أمَّا النهيُّ فعن قول هذا القول وهو: «السلام على الله»، والعلة: «أن الله هو السلام»، فإذا كان ذلك كذلك لم يجز أن يقول القائل : (السلام على الله).

ووجه ذلك يرجع إلى أمور ، سبب نهيه ﷺ عن هذا القول يرجع إلى ما يأتي:

أولًا: أنَّ هذا القول (السلام على الله) يُوهِمُ إمكانَ لحوق الآفاتِ بالله جَلَّوَعَلَا. وجه ذلك: أنَّ السلام يتضمن الدعاء بالسلامة، وهذا إنما يُمكنُ أن يُقال في حق من يمكن لحوقُ الآفاتِ والنقصِ والعيب به، فيناسب أن يُدْعَى له بالسلامة من ذلك، ولا شك أنَّ الله جَلَّوَعَلَا هو القدوس السلام المنزه عن كل عيبٍ ونقص، فكان النَّهي عن قول (السلام على الله) لأجل دفع هذا التوهم.

وأمرٌ آخر: أن الدعاء لشيءٍ ما يُوهم حاجته وافتقاره، والله جَلَّوَعَلَا هو الغني عن كل أحد، الله جَلَّوَعَلَا مستغنٍ عن كل ما سواه، مفتقرٌ إليه كل ما عداه، إنما يُدْعَى لمن يُحتاج إلى أن يُنفَعَ وأن يُدْفَعَ عنه الضرر، والله جَلَّوَعَلَا لا شك أنه سالمٌ من ذلك، قال سبحانه في الحديث القدسي المخرَّج في صحيح مسلم: «يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني»، فدل هذا على أن الله جَلَّوَعَلَا لا يجوز أن يُدْعى له. ويا لله العجب! كيف يُدعى له وهو المدعو؟! وكيف يُطلب له وهو المطلوب؟! فدل هذا على أنه لفظٌ لا يجوز استعماله في حقه تعالى.

وأمرٌ ثالث: وهو أن «السلام» اسم لله جَلَّوَعَلَا ، فكان قول (السلام على الله) لا وجه له، ولا يليق أن يقال في حقه؛ لأنه أضحى الكلام بمعنى: الله على الله، وهذا لا شك أنه لا وجه له، ولا يليق أن يقال في حقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فاتضح بهذه الأوجه الثلاثة أنَّه لا يجوز أن يُسَلَّمَ على الله جَلَّوَعَلَا، فالقول (السلام على الله) لاشك أنه أمرٌ لا يجوز، وبعض الناس -وقد سمعت ذلك من أحدهم- يقول إذا انتهى من صلاته يقول: "اللهم أنت السلام ومنك السلام وإليك السلام" ؛ هذه الجملة الأخيرة لاشك أنَّها أمرٌ منكر ولا يجوز أن يقال.

قول الإنسان: "إليك السلام" هذا مخالفٌ لنهي النبي ﷺ: «لا تقولوا السلام على الله». ثم إنَّ فيه زيادةً على الوارد، ولا ينبغي للإنسان أن يتخطى إلى الوارد إلى غيره، فلماذا لا يقف الإنسان عند حدود ما ورد عن النبي ﷺ ! فهو قد بين لنا أنَّ المشروع هو أن يقول الإنسان بعد الصلاة: «اللهم أنت السلام ومنك السلام»، فلماذا يرومُ بعض الناس أن يزيدوا على هدى النبي ﷺ! وكان الاقتداء بالنبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ داعيًا لهم إلى أن يقفوا عند حدود ما بيَّن دون زيادةٍ على ذلك.

إذًا لا يجوز أن يقول إنسانٌ (السلام على الله)، وجه ذلك: أن الله هو السلام.

وهذا الاسم اسم ثابت لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى بنص هذا الحديث، وكذلك ما ثبت في الصحيح من قوله ﷺ: «اللهم أنت السلام»، ناهيك عن ما جاء في كتاب الله

جَلَّ وَعَلَا في آخر الحشر: ﴿السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ﴾[الحشر:٢٣]. فهذا اسمٌ من الأسماء الحسنى الجليلة الثابتة لربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ومعنى هذا الاسم يرجع إلى أمرين، يتضمن كل واحدٍ منهما شيئين:

المعنى الأول: أنَّ الله تعالى هو المنزه عن كل عيب ونقص، والمنزه في كماله عن أن يكون له مماثل.

إذًا تنزيه الله جَلَّ وَعَلَا يكون عن أمرين:

١-عن كل نقصٍ وعيب وجميع ما لا يليق به.

٢-وكذلك ينزه في كماله عن أن يكون له مماثل جلَّ ربنا وعز.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهو السلام على الحقيقة سالم من كل تمثيلٍ ومن نقصان

فهذا البيت جمع هذين المعنيين، ولاشك أن تنزيه الله عَزَّ وَجَلَّ أمرٌ واجبٌ على جميع العباد، يجب أن ينزه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وقد أخذنا في دروس الأسماء والصفات ما يتعلق بهذا الباب على وجه التفصيل، وعلِمنا قاعدة أهل السُنة والجماعة وأن التنزيه المجمل يدلُ على عموم كمال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهذا الاسمُ دالٌ على هذا التنزيه المجمل، كما أنَّ نصوصًا كثيرة جاءت بالدِلالة على التنزيه المفصَّل. والمقصود أن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ سلامٌ منزَّهٌ عن كل ما لا يليق به.

-فهو جَلَّ وَعَلَا سلامٌ من الصاحبةِ، والولدِ، والمثيلِ، والشريكِ، والمعاون.

-سلامٌ في أفعاله عن أن يلحقها كل ما يضادُ الحكمةَ منه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

-الله جَلَّوَعَلَا سلامٌ في صفاته فلا يلحقه نقصٌ وعيبٌ البتة، بل كل صفةٍ من صفات الله جَلَّوَعَلَا على انفرادها هو فيها سلامٌ من كلِّ ما يضاد كمال معناها.

-الله جَلَّوَعَلَا سلامٌ في حياته من كل ما يضادُّ ذلك؛ من سنةٍ أو نومٍ أو موت.

-بل سبحانه سلامُ في علمه، سلامٌ من أن يعزُب عن علمه شيء أو أن يلحقه نسيانًا أو جهل.

-هو سلامٌ في قدرته تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، سلامٌ من كل لغوبٍ أو تعب، هو سلامٌ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في قدرته وقيوميته من أن يلحقه أدنى نقصٍ في ذلك.

-سلامٌ في سمعه وبصره من أن يلحقه أدنى ما يضاد ذلك من صمم أو بكم.

-سلامٌ في ربوبيته من كل مشاركٍ أو ظهيرٍ أو معينٍ أو شفيعٍ من دون إذنه.

-سلامُ في ألوهيته من كل مشارك له في العبادة؛ جلَّ ربنا وعز.

-إذًا الله جَلَّوَعَلَا هو السلام في كل شيء، حتى إن كلامه جَلَّوَعَلَا سلام، سلامٌ من كل تناقض، سلامُ من الكذب ومن الظلم ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾[الأنعام:١١٥].

إذًا كل ما يرجعُ إلى الله جَلَّوَعَلَا ؛ما يرجع إلى ذاته، ما يرجع إلى صفاته، ما يرجع إلى أفعاله هو فيه جلَّ ربنا وعز قدوسٌ سلام، **هذا هو المعنى الأول**.

والمعنى الثاني: أنه ذو السلامِ، فهو السلام وأنه ذو السلام، وهذا يرجع إلى معنيين:

-**الأول**: أنه يُسلِّم أولياءه.

-**والثاني**: أنه يُسلِّم على عباده.

الله جَلَّ وَعَلَا يسلم من شاء من أوليائه من أن يلحقهم مكروه إذا شاء سُبْحَانَهُ، كذلك هو الذي يُسَلِّمُ على من يشاء من عباده، فهو يسلِّم على المرسلين، قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾[الصافات:١٨١] ، في سورة الصافات تجد أن ربنا جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿سَلامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾[الصافات:٧٩]، ﴿سَلامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾[الصافات:١٠٩]، ﴿سَلامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ﴾[الصافات:١٢٠]، ﴿سَلامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ﴾[الصافات:١٣٠]، كذلك الله جَلَّ وَعَلَا يُسَلِّمُ على أهل الجنة: ﴿سَلامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾[يس:٥٨]، وهو الصحيح من تفسير قوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ﴾[الأحزاب:٤٤] ؛الصحيح في هذه الآية أن السلام منه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فهو الذي يُسَلِّمُ على عباده، وليس أنَّ عباده يسلِّمون عليه، فهذا ما جاء الدليل على نفيه في هذا الحديث الذي بين أيدينا.

إذًا الله جَلَّ وَعَلَا هو السلام ومنه السلام؛ يسلِّم من يشاء، ويسلِّم على من يشاء. إذًا هذا ما يرجع إليه معنى اسمه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ (السلام).

والنبي ﷺ بعد أن بيَّن لهم هذا؛ أرشدهم إلى الشيء اللائق الذي ينبغي أن يُقال، فأخبرهم النبي ﷺ إلى المشروع في حقهم في هذا الموضع، وهذا ما لم يورده المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الحديث اختصارًا ، قال: «**فإذا صلى أحدكم**» يعني صلى حتى وصل إلى موضع التشهد «**فليقل التحيات لله والصلوات**» إلى آخر التشهد المعروف.

إذًا المقام مقام ثناءٍ على الله ﷻ وليس مقام سلامٍ على الله، الذي يليق بالله ﷻ أن يُثْنَى عليه وليس أن يُسلَّم عليه، السلام يكون في حق المخلوق، ولذلك المسلم في صلاته يقول: «التحيات الله».

ولاحظ أن "أل" هنا في «التحيات» للاستغراق، ولاحظ زيادةً في الاستغراق أنه جاء اللفظ مجموعًا ليدل على أن جميع التحيات إنما يستحقها ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

والتحيات جمع تحية، والتحية تضم معنى العظمة، والملك، والبقاء، والسلامة من الآفات؛ جميع هذه المعاني يجمعها قول «التحيات لله»، فهذه المعاني يستحقها الله ﷻ ، ثابتةٌ له ثبوتًا ذاتيًا، ليس أنه اكتسبها بعد أن لم تكن له، حاشا وكلا، بل هذه أمورٌ ثابتةٌ لله تبارك وتعالى ثبوتًا ذاتيًا.

أما المخلوق فإنه يُسَلَّمُ عليه، ولذلك يُسَلَّمُ على النبي ﷺ، أرشدهم النبي ﷺ إلى اللفظ المناسب اللائق بالله جَلَّ وَعَلَا وهو الثناء عليه. ثم أن يُعمَّ بالسلام لجميع العباد بعد أن يُخصَّ النبي ﷺ؛ «السلام عليك أيها النبي»، وذلك لعظيم حق النبي ﷺ على جميع المصلين؛ فإنهم ما صلوا ولا عرفوا الله ولا اهتدوا إلى دين الله إلا من طريق هذا النبي الكريم محمدٍ ﷺ ، فكان من حقه أن يُسَلَّمَ عليه.

ثم بعد ذلك يُسَلِّمُ المصلي على جميع عباد الله الصالحين، أخبر النبي ﷺقال في الحديث: «**فإنكم إذا قلتم ذلك أصبتم كل عبدٍ صالحٍ في السموات والأرض**»؛ أصبتم بدعائكم بقولكم (السلام عليكم)، النبي ﷺ ما أنكر عليهم السلام على جبريل وعلى ميكائيل أو على الملائكة، كلا، إنما أرشدهم إلى ما

هو أفضل وما هو أعظم لأجرهِم، وما هو أنفع أثرًا، وهو أن يُعَمَّ في السلام، فإذا قال المسلم: «**السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين**» أصابت دعوته كل عبدٍ صالحٍ في السموات والأرض ،كأنه سلَّم على جبريل وميكائيل وإسرافيل وخزنة الجنة، وخزنة النار، كأنه سلَّم على نوحٍ وآدم وإبراهيم وموسى وعيسى، كأنه سلم على حواريي عيسى، وعلى أصحاب موسى ونوح، وعلى أصحاب النبي ﷺ، كأنه سلَّم على كل الصالحين من الملائكة والإنس والجن.

وهذا من المعاني التي ينبغي أن يستحضرها المصلي إذا صلَّى في صلاته، فهذا من تحقيق الإيمان بهذا الحديث، فالنبي ﷺ أخبرنا أن قول المسلم (**السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين**) يفيد هذه الفائدة العظيمة؛ وهي أنك تدعوا لكلِ عبدٍ صالح في السموات والأرض فيناله بركة ونفع هذا الدعاء.

إذًا هذا الحديث نستفيد منه فوائد:

أولًا: ضرورة مراعاة مقام الأدب مع الله **جَلَّوَعَلَا**، يجب أن يعلم الإنسان أنه عبدٌ، وأن ربه تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ هو العظيم الذي يستحق كل تعظيم، إذًا ينبغي إذا تكلم في شيءٍ يتعلق به ﷻ في مقام الإخبار، في مقام المناجاة، في مقام الدعاء، في مقام الثناء يجب عليه أن يتخير ألفاظه، وأن يتجنب كل ما يُوهم ما لا يليق بالله وعظمته تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، ومن ذلك هذا اللفظُ وأمثاله.

وكان من فقه خديجة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا أنها لما سَلَّمَ عليها ربنا جَلَّوَعَلَا ، في «الصحيحين» أن جبريل عَلَيْهِٱلسَّلَامُ جاء إلى النبي ﷺ وأخبره أن خديجة قادمةٌ إليه ومعها طعام، قال: «فَإِذَا هِيَ أَتَتْكَ فَاقْرَأْ عَلَيْهَا السَّلَامَ مِنْ رَبِّهَا وَمِنِّي»، إلى هذا

القدر ما ثبت في الصحيحين، جاء في رواية النسائي في السُنن الكبرى أنها لما قال لها النبي ﷺ ذلك ،ولاحظ أدب جبريل مع النبي ﷺ حيث إنه ما سلَّم عليها مباشرة احترامًا وتأدبًا مع النبي ﷺ، جعل النبي ﷺ واسطةً في تبليغ سلامه هو .

فلما قال لها النبي ﷺ ذلك قالت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: «هو السلام وعلى جبريل السلام»، وجاء عند الطبراني في رواية هذا الحديث أنها قالت: «الله السلام ومنه السلام وعلى جبريل السلام»، عرفت لكلٍ حقه؛ حق الله ﷻ الثناء، وحق جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الدعاء والتسليم(٨٦٦) ، فلم تخلط بين الأمرين، وهذا من الفقه العظيم ومن تحقيقِ العبودية والأدب مع الله جَلَّ وَعَلَا.

وآفةُ كثير من المسلمين اليوم عدم التمييز والفرقان بين المقامين وبين الحقين، بين مقام ربنا جَلَّ وَعَلَا ومقام خلقه، بين ما يستحقه الخالق وما يستحقه المخلوق.

لله حقٌ لا يكون لغيره ولعبده حقٌ هما حقان

لا تجعل الحقَّين حقًا واحد من غير تمييزٍ ولا فرقان

كثير من الناس مع الأسف يخلطون فيجعلون حق الله جَلَّ وَعَلَا للمخلوق؛ فيعظمون المخلوق كتعظيم الله، أو يصرفون له نوعًا من العبادة لغير الله، وهذا

---

(٨٦٦) فإنه عبدٌ مخلوق فيمكن أن يُسلَّم عليه، فقالت: «وعلى جبريل السلام» ردت عليه السلام. وهذا ما لم ينكرْه النبي ﷺ على الصحابة حينما كانوا يسلِّمون على الملائكة، وإنَّما أرشدهم إلى ما هو أعمُّ وما هو أعظم أجرًا لهم؛ بأن يُسلِّموا على عباد الله الصالحين، وأخبر أنهم إذا قالوا ذلك أصابت كل عبدٍ في السماء والأرض.

لاشك أنه آفةٌ عظيمة ، لا خطأ أعظم من هذا، الخطأ وهو عدم التمييز بين الحقين، وعدم التفريق بين المقامين.

المقصود أنَّ هذا كان من فقه خديجة رَضِيَٱللَّهُعَنهَا وأدبها مع الله سُبْحَانَهُ.

الفائدة الثانية: أن المشروع للمسلم المبادرة إلى إنكار المنكر إذا وصل إليه؛ النبي ﷺ لما سمع أصحابه يقولون هذا خلفه؛ نما هذا إلى سمعه عليه الصلاة والسلام فما انتظر وإنما ألتفت إليهم بعد أن فرغ من صلاته ونهاهم عن هذا المنكر وقال: (**لا تقولوا السلام على الله**) ، وهذا أمر واجبُ وأولى الناس بالعناية به طلاب العلم والدعاة إلى الله **جَلَّوَعَلَا** ، وهذا من تحقيق الولاية بين المسلمين؛ ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾[التوبة:٧١]، ما حقيقة هذه الولاية؟ أول ما ذكر الله ﷻ ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[التوبة:٧١].

والفائدةُ الثالثة: أن حُسن القصد لا يمنع الإنكار؛ نحن نقطع ونجزم ونعتقد أن أصحاب النبي ﷺ ما دار بخَلَدهم قط شيء من هذه المعاني التي تلزم من قول "السلام على الله"، أليس كذلك! وإلا فجزمًا ما كانوا ليقولون هذا اللفظ، لكنهم أرادوا تعظيم الله ﷻ وأرادوا تحية الله ﷻ لكنهم أخطأوا في اللفظ، إذًا كانوا أهل قصد حسن ونية طيبة، ومع ذلك فإن النبي ﷺ أنكر عليهم، ما قال لهم النبي ﷺ بما أن نيتكم طيبة وقصدكم حسن فلا بأس ولا مانع واستمروا على ما أنتم عليه. إذًا حُسن القصد ما يمنع الإنكار، حُسن القصد ينفع في درء العقوبة والتأثيم بين العبد وبين الله جَلَّوَعَلَا، لكن كون هذا الفعل منكرًا أو كون

هذا اللفظ منكرًا لا يكون ذلك ممنوع الإنكار لأجل أن الفاعل أو القائل أراد أمرًا حسنًا أو قصدًا طيبًا.

❁ **وفائدةٌ رابعة وهي**: أنَّ المشروع للداعية أن يرشد إلى الخير إذا نهى عن الشر قدر الإمكان؛ مهما استطعتَ فاحرص إذا أغلقت بابًا من الشر على الناس أن تفتح لهم بابًا إلى الخير، إذا نهيتهم عن المنكر أرشِدهم إلى معروف ما أمكنك إلى هذا سبيلًا، ولذلك النبي ﷺ لما بيّن لهم أن هذا اللفظ الذي كانوا يقولونه وهو «**السلام على الله**» لا يجوز أرشدهم إلى ما يجوز وإلى ما يُشرع ؛ وهو أن يقول المسلم «التحيات لله». إذًا مهما استطعت ومهما أمكنك أن ترشد الناس إلى الخير بعد أن تنهاهم عن الشر فافعل.

❁ **الفائدةُ الخامسة**: وهي في معنى قول المسلم «السلام عليك، أو السلام عليكم» ؛ إذا حيَّا المسلم أخاه فقال: «السلام عليكم»، ماذا يريد؟

هذا الموضع اختلفَ فيه العلماء إلى عدة تفسيراتٍ ومعانٍ:

- **الأول**: أنَّهم قالوا معنى قول المسلم «السلام عليكم» يعني: اسمه تعالى (السلام) عليكم، يعني: أن بركة اسم ذكر الله الذي هو (السلام) تتنزل عليكم؛ وعليه فيكون هذا اللفظُ تبركًا وذكرًا ودعاءً[٨٦٧] .

---

(٨٦٧) فحينما يتبرك الإنسان بذكر اسم الله جلَّ وعلا -وأسماؤه تحِل بذكرها البركة- من آثار ذلك: أن يَسْلم الإنسان من الآفات والشرور.

• **والمعنى الثاني**: أنَّ قول المسلم (السلام عليكم) يتضمن الدعاء؛ يعني: أدعو الله أن يسلِّمكم، كأنَّه يقول: سلَّمكم الله، فيكون دعاءً من المسلم لأخيه بأن يسلِّمه الله؛ أدعو السلام أن يسلِّمكم.

• **والمعنى الثالث**: أن يكون إخبارًا، يخبرُ المسلم أخاهُ بأنه يَسْلَمُ من شره فلا يؤذيه، إخبارٌ يتضمن التطمين، إذا مر الإنسان بأخيه فإنه يخبره بأن هو ليس منه تجاهَ أخيه إلا السلام، و«السلام» مصدرٌ بمعنى السلامة، قال **جَلَّوَعَلَا**: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾[الأنعام:١٢٧]. والأقرب والله تعالى أعلم في قوله: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلامِ﴾ أنها دار السلامة من جميع الآفات، هذا أقرب ما يقال في تفسير الآية.

إذًا إذا قال المسلم «السلام عليكم» ؛ يعني يخبر أن أخاه منه في سلامة فلا يناله منه أذى، وبالتالي يجيبه أخوه المسلم بذلك. وهذا أقربُ ما يفسر به قول الله جَلَّوَعَلَا في إخباره سبحانه عن قصة الملائكة عن إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في سورة هود وفي سورة الذاريات: ﴿فَقَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ﴾[الذاريات:٢٥] يعني: أنت منا في سلامةٍ ، فأجابهم بأنهم منه كذلك في سلامة.

والأقرب والله تعالى أعلم أن جميع هذه المعاني يمكن أن تكون صحيحة، وهي جميعًا مما ينبغي أن يلاحظها المسلم ويقصدها عند سلامه على إخوانه.

❁ **وثمةَ فوائد عدة** منها ما يرجع إلى مسائل فقهية، منها مثلًا: أنَّ كلام الجاهل في الصلاة لا يبطلها، ويدل على هذا أدلة وهو الصحيح من كلام أهل العلم، فهاهنا أصحاب النبي ﷺ تكلموا بكلامٍ تبيّن لنا أنه لا يجوز، لأجل نهي النبي ﷺ؛ كانوا يقولون (السلام على الله) فنهاهم النبي ﷺ وقال: (لا تقولوا

السلام على الله) ومع ذلك لم يأمرهم النبي ﷺ بإعادة الصلاة، فدل هذا على أن كلام الجاهل لا يُبطل الصلاة.



قال المصنف رحمه الله:

٥٣-بَابُ
قَولِ (اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إنْ شِئْتَ)

في الصَّحِيْحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ، اللَّهُمَّ ارْحَمنِي إِنْ شِئْتَ، لِيَعْزِمِ الْمَسْأَلَةَ؛ فإِنَّ اللهَ لَا مُكْرِهَ لَهُ».

وَلِمُسْلِمٍ: «وَلْيُعَظِّمِ الرَّغْبَةَ؛ فَإِنَّ اللهَ لا يَتَعَاظَمُهُ شَيْءٌ أَعْطَاهُ».

قال الشارح وفقه الله:

لا يزال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يوالي تبويب الأبواب التي تنبه المسلم على اجتناب الألفاظ التي تتنافى وتحقيقَ التوحيد(٨٦٨)؛ مرَّ بنا قريبًا النّهي عن قول: (السلام على الله)، ومرت بنا مباحث من قبل، وسيأتي -إن شاء الله- مباحث أخرى كلُها تحثُ المسلم على ضرورةِ أن يراعيَ الأدب مع الله جَلَّوَعَلَا واجتنابَ كل ما ينافي تحقيق التوحيد، ومن ذلك قول الداعي: (اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت)، وما إلى هذه الألفاظ.

فإنَّ تعليق الدعاء بالمشيئة مما نهى عنه النبي ﷺ، وذلك يرجع إلى أمور:

- **أولًا**: أن التعليق بالمشيئة يوهم أنَّ الداعي كالمستغني عن ربه، فكأنَّه يقول: اللهم أعطني إن شئت، يعني وإن شئت فلا تعطني فإن الأمر ليس بذاك المهم. ولا شك أن هذا دالٌ على فتور الرغبة وضَعْفِ الطلب عند السائل،

(٨٦٨) هذا الباب الشأن فيه كالشأن في الأبواب الأخرى التي ينبِّه فيها المؤلّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ على وجوب مراعاة الأدب مع الله في الألفاظ.

وهذا مما يتنافى وحالَ الاضطرار والفقر والإلحاح التي ينبغي أن يكون عليها المسلم في دعائه، فإنَّ الاضطرار روح الدعاء، قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾[النمل:٦٣]. المسلم إذا دعا ربه ينبغي أن يُظهِر غاية الحاجة وتمام الافتقار إلى ربه ﷻ(٨٦٩) ، وتعليق الدعاء بالمشيئة يُشعر بخلاف ذلك.

➢ **أما الأمر الثاني**: فهو أنَّ تعليق الدعاء بالمشيئة إنما يتأتى في خطاب من يمكن أن يُكْرَهَ على الشيء؛ بمعنى: الخطاب الذي فيه تعليقٌ بالمشيئة يوهم أنَّ المخاطَب يمكن أن يأتي بالأمر عن مشيئته ويمكن أن يأتيَّ بالأمر إكراهًا، فقول الداعي: (اللهم اغفر لي إن شئت) يوهم أنَّه يقول: يا رب أنا أسألك ولا أريد أن أكرهك، فإنْ شئت أن تعطيني بإرادةٍ منك ومشيئة وإلا فلا إكراه مني. وهذا ما جاء التنبيه عليه فيما سيمر بنا إن شاء الله، (**فإن الله لا مكره له**)، والتعليق بالمشيئة يُوهم ذلك، فجاء عن النبي ﷺ النهي عن ذلك.

➢ **وأمرٌ ثالث** وهو: أن التعليق بالمشيئة في الدعاء يوهم أن الداعي يستعظم ما سأل على ربه، فكأنه يهوِّن الأمر ويقول: يا ربي أنا دعوتك فإن شئت أجب؛ كأنه يسأل سؤالاً بشيء عظيم، فربما لم يشأ الله ﷻ أن يعطيه لأجل أنَّه عظيم، فهو يهوِّن الأمر ويسهِّله، كمثل إنسانٍ يسأل آخر شيئًا عظيمًا كأنْ يسأله مبلغًا ضخمًا من المال، فهو يُسْهِّلُ الأمر ويهوِّن عليه ويقول: أعطني إن شئت، حتى يسهل عليه الاعتذار إذا لم يعطه. وهذا المحذور هو ما جاء التنبيه عليه في قوله

---

(٨٦٩) أمَّا إذا قال: (اللهم اغفر لي إن شئت) فكأنه يقول: إن شئت فأجب وإن شئت فلا تُجِب فإنَّ الأمر لا يهمّني.

عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في الحديث الذي سيأتي «**وَلْيُعَظِّمِ الرَّغْبَةَ؛ فَإِنَّ اللهَ لا يَتَعَاظَمُهُ شَيْءٌ أَعْطَاهُ**»، فلا حاجة لك أن تعلق ذلك بالمشيئة، فمهما سألت ربك فإن خزائنه سبحانه ملئى، وهو الكريم جلَّ في علاه(٨٧٠).

➢ **الأمر الرابع**: هو أنَّ تعليق هذا الدعاء بالمشيئة لا حاجة له بل لا وجه له، فمن المعلوم المتيَقَّن أن الله تعالى إنما يجيب وإنما يفعل إذا شاء، قال سبحانه: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ﴾[الأنعام:٤١]. فالله يفعل بمشيئته، وعليه فتعليق الدعاء بالمشيئة تحصيل حاصل.

إذًا هذه أوجهٌ أربعةٌ تدلك على أنَّ من المحذور في الدعاء أن يُعلق الإنسان دعاءه على المشيئة(٨٧١)، وإنما المطلوب من المسلم أن يدعو دعاءً يجزم فيه ويعزم فيه ويقطع فيه، وبهذا يتحقق إحسان ظنه بربه ﷻ.

وهذا الأمرُ مما ينبغي أن يتنبَّه له وأن يُنبَّه عليه، فإن كثيرًا من الناس يغفلون عن هذا الأمر! ذلك أنهم ربما إذا دعوا علَّقوا دعائهم بالمشيئة تجد أحدهم

---

(٨٧٠) وجاء الحثُّ على أن يُعظِّم الإنسان المسألة وأن يُعظِّم الرغبة، فالله ﷻ لو اجتمع الخلائق أجمعون؛ أولهم وآخرهم إنسهم وجنّهم لو اجتمعوا في صعيد واحد فسأل كل إنسان مسألته واجتهد في أن يسأل كل شيء يريده ويرغب فيه، فأعطى الله كل إنسان مسألته؛ ما نقص هذا في مُلْك الله شيئًا، كما جاء هذا في حديث مسلم.

(٨٧١) حتى ولو لم يكن قاصدًا لشيء من ذلك، فإن ترْك اللفظ المُوهِم من الأمور المطلوبة من المسلم.

يقول: "الله يجزيك خير إن شاء الله"، "الله يبارك فيك إن شاء الله"، وهذا مما ينبغي أن يجتنب ؛ لأن النبي ﷺ نهى عن ذلك، والله تعالى أعلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ، اللَّهُمَّ ارْحَمنِي إِنْ شِئْتَ، لِيَعْزِمِ الْمَسْأَلَةَ؛ فإِنَّ اللهَ لَا مُكْرِهَ لَهُ»، وَلِمُسْلِمٍ: «وَلْيُعَظِّمِ الرَّغْبَةَ؛ فَإِنَّ اللهَ لا يَتَعَاظَمُهُ شَيْءٌ أَعْطَاهُ»).

هذا حديث النبي ﷺ الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه، وقد خرجه صاحبا الصحيحين البخاري ومسلم[٨٧٢] .

يقول النبي ﷺ ناهيًا نهيًا مؤكدًا: «لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ، اللَّهُمَّ ارْحَمنِي إِنْ شِئْتَ »؛ ولا حظ أن هذا الدعاء إنما جاء في هذا الحديث على سبيل التمثيل؛ يعني ليس المنهي عنه التعليق بالمشيئة في سؤال المغفرة أو الرحمة فحسب، إنما كان هذا على سبيل التمثيل، وبالتالي فكل دعاءٍ يُنهى صاحبه عن أن يعلقه بالمشيئة، سواء كان ذلك دعاءً بالرحمة أو دعاءً بالمغفرة أو في غير ذلك، **وبيّن النبي ﷺ علتين لهذا النهي**:

- الأولى في قوله ﷺ: «لِيَعْزِمِ الْمَسْأَلَةَ؛ فإِنَّ اللهَ لَا مُكْرِهَ لَهُ».
- والثاني في الرواية التي عند مسلم وهي: «وَلْيُعَظِّمِ الرَّغْبَةَ؛ فَإِنَّ اللهَ لا يَتَعَاظَمُهُ شَيْءٌ أَعْطَاهُ».

(٨٧٢) والحديث كما ذكر الشيخ في «الصحيح» يعني: في الجنس، في «الصحيحين» عنه ﷺ.

قال ﷺ « **لِيَعْزِمِ الْمَسْأَلَةَ**»؛ نهى النبي ﷺ عن الخطأ ووجَّه إلى الصواب، وهذا مما ينبغي أن يأتسيَ به الدعاة إلى الله جَلَّوَعَلَا . المنهيَّ عنه: أن تدعو وأن تعلق دعائك بالمشيئة، والمطلوب: أن تدعو دعاء فيه عزمٌ، قال: « **لِيَعْزِمِ الْمَسْأَلَةَ**».

والأصل في معنى العزم في اللغة: هو الجد، ومنه أولو العزم من الرسل، والمراد: أنه يدعو دعاءً فيه جزمٌ بالسؤال، وفيه قطعٌ بلا ترددٍ ولا تعليقٍ بالمشيئة، وبهذا كما أسلفت يتحقق إحسان ظنه بربه جَلَّوَعَلَا، وفي سنن الترمذي بإسناد صحيح أن النبي ﷺ قال: «ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة»، فالمطلوب من المسلم أن يدعو دعاءً فيه جزم وفيه إعظام الرغبة في الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في الرواية الأخرى: « **وَلْيُعَظِّمِ الرَّغْبَةَ**» .

- تعظيم الرغبة قيل: إنه أن يعظم في مسئوله -يعني في مطلوبه- طلبته ينبغي أن تكون عظيمة فلا يستثقل الإكثار، ولا يستصعب شيئًا يدعو به الله **جَلَّوَعَلَا**، فإنَّك مهما أكثرت فما عند الله أكثر، ومهما طلبت فإن خزائن الله ملئ، ويده سبحانه سحَّاء الليل والنهار ينفق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بجوده وكرمه **جَلَّوَعَلَا**، فلا يتعاظم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى شيءٌ أعطاه.

فالمطلوب أن يسأل الإنسان ولْيُكثر من سؤاله، وليعظِّم مسؤوله ومطلوبه من ربه تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، ولا يقتصر أو يتخوف من أن يكون سأل شيئًا عظيمًا، كلا! بل إحسان ظنك بربك جَلَّوَعَلَا ورغبتك فيما عنده تكون بأن تعظِّم المطلوب من الله جَلَّوَعَلَا.

أرأيت لو أن إنسانًا بذل الأسباب حتى وقف أمام ملك من ملوك الدنيا، فقال له: سل ما حاجتك؟ فسأله أن يعطيه قرشًا واحدًا، فما ظنكم بهذا الرجل؟ أليس سؤاله هذا دليلاً على سُخف عقله؟ وألا يستحق المقت من الملك ومن الحاضرين؟ أنت تأتي إلى ملك ثم تسأله قرشًا واحدًا!! كان ينبغي عليك أن تسأل سؤالاً يليق بحال المسؤول؟ فكيف إذا كان السؤال موجهًا إلى ملك الملوك إلى أكرم الأكرمين ﷻ! إلى الذي لا يتعاظمه شيء سبحانه، إلى الذي قال كما في الحديث القدسي المخرج عند مسلم -وقد مر بنا في عدة مواضع- وهذا حديثٌ عظيم بل هو كتاب في الاعتقاد، قال ﷺ فيما يرويه عن ربه جَلَّوَعَلَا: «يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم وقفوا في صعيد واحد، فسألوني فأعطيت كل واحد منكم مسألته ما نقص ذلك من ملكي شيئًا إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل في البحر»؛ المخيط الإبرة مادتها صقيلة ولذلك لا يكاد أن يتعلق بها شيء من الماء، هذا مثالٌ تقريبي على أن ما ينفقه ﷻ وما يُسبغ به من النعم على عباده لا يُنْقِصُ شيئًا من خزائنه الملئى تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ.

ولذلك ادعُ ربك وأكثر من الدعاء وسل ما شئت، فإن الله تعالى هو الكريم الجواد الذي لا يرد من سأله تبارك وتعالى.

والسائل فائز بكل حال، ذلك أن نتيجة الدعاء واحدة من ثلاثة أشياء:

-إما أن يجيبك الله ﷻ إلى سؤلك.

- وإما أن يدَّخر لك ذلك إلى يوم تلقاه.

- وإما أن يدفع عنك من الشر بمقدار ما سألت.

إذًا أنت حصلت الخير في سؤالك، ودعائك بكل حال.

- هذا أحد وجهي التفسير عند أهل العلم لقوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «وَلْيُعَظِّمِ الرَّغْبَةَ».

- والمعنى الآخر الذي ذُكر: هو أن الرغبة هي الحرص والإلحاح، يعني ليكن دعاؤك ذا حرص عظيم وذا إلحاح وذا قطعٍ وجزم.

وهذا المعنى صحيح لكن الأقرب إلى الدلالة عليه هو قوله ﷺ: «لِيَعْزِمِ الْمَسْأَلَةَ». أما المعنى الأول فهو المناسب أو هو الأقرب أو هو الأنسب لقوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «وَلْيُعَظِّمِ الرَّغْبَةَ»، لأنه قال بعد ذلك: «فَإِنَّ اللهَ لا يَتَعَاظَمُهُ شَيْءٌ أَعْطَاهُ».

إذًا الخلاصة التي نستفيدها من هذا الباب: هو أنَّ من الأمر المحذور الذي ينبغي أن يجتنبه المسلم أن يعلق دعائه بالمشيئة، وهذا ما دل عليه هذا الحديث الذي بين أيدينا، وظاهره التحريم؛ يعني يحرم على المسلم أن يعلق الدعاء بالمشيئة.

-وهذا ما اختاره غير واحد من أهل العلم كابن عبد البر وغيره من العلماء.

-وذهبت طائفة من أهل العلم إلى أن النهي هاهنا على سبيل الكراهة؛ قالوا دليلنا على ذلك: أن هذا النهي قد ورد عليه صارف، ومعلومٌ أن النهي إذا ورد عليه صارف فإنه يُحمل على ما دل عليه هذا الصارف، قالوا: والصارف الذي صرف هذا النهي عن التحريم ما جاء في دعاء الاستخارة الذي رواه جابر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن النبي ﷺ وأخرجه الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في صحيحه، وفي هذا الدعاء

أن النبي ﷺ قال: «اللهم إن كنت تعلم أن في هذا الأمر خيرًا لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري -أو قال: في عاجل أمري وآجله- فيسِّره لي واقدره لي ثم بارك لي فيه».

الشاهد أنه علق الدعاء هاهنا بالعلم فقال: (إن كنت تعلم)؛ فدل هذا على جواز تعليق الدعاء بالمشيئة، فيكون النهي في الحديث الذي بين أيدينا مصروفًا إلى الكراهة، وهذا ما اختاره النووي، وتابعه عليه ابن حجر، وغيرهما من أهل العلم.

والذي يظهر والله تعالى أعلم أنَّ هذا الاستدلال فيه نظر، وأنَّ هذا الحديث لا يردُ على الحديث الذي بين أيدينا، وذلك أنَّ حديث الاستخارة فيه التعليق بالعلم، والذي بين أيدينا فيه التعليق بالمشيئة، وشتان ما بين الأمرين؛ المسلم يعلق دعاءه في دعاء الاستخارة على علم الله جَلَّ وَعَلَا؛ لأنه لا يدري هل الخير فيما يرغب وما هو مقبلٌ عليه أم لا؟ ولأجل هذا فإنه علق ذلك بعلم العليم ﷻ، فهو الذي يعلم إن كان في هذا الأمر خير أو ليس فيه خير، فشتان بين هذا وبين هذا.

الخلاصة: أن هذا الحديث الذي بين أيدينا في شيء، وحديث الاستخارة في شيء آخر؛ حديث الاستخارة تعليقٌ على العلم، والتعليق على العلم لا يتأتى فيه شيء من تلك العلل التي مرت معنا.

قد يقول قائل: وماذا أنت قائلٌ في ما جاء في صحيح البخاري أيضًا من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ النبي ﷺ كان إذا عاد مريضًا قال: «**لا بأس طهورٌ إن شاء الله**»؛ قالوا هذا أيضًا تعليقٌ بالمشيئة.

والجواب عن هذا أن يقال: أصح ما يفسر به هذا الحديث أن ما في هذا الحديث إخبارٌ على سبيل التفاؤل والبشارة، ليس من قبيل الدعاء إنما هو من قبيل الإخبار على سبيل التفاؤل والبشارة. يعني هذا الذي يقوله عائد المريض إخبار، يقول: أرجو أن يكون هذا الذي أنت فيه يؤول إلى أن يكون طهورًا لك، يطهرك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يجعله كفارة تتطهر بها من الذنوب والمعاصي، إذًا هو إخبار عن أمر مستقبلي على سبيل التفاؤل والبشارة(٨٧٣) ، يستبشر بأن يكون هذا سببًا لتكفير سيئاتك، ولكي تتطهر من ذنوبك، وهذا تعليقه بالمشيئة لا بأس به .

والأصل أنَّ التعليق بالمشيئة فيه أحوال وتفصيل: تارة يكون أمرًا حسنًا، وتارة يكون أمرًا قبيحًا.

- **يكون أمرًا قبيحًا**: في حال الدعاء؛ كما في الحديث الذي بين أيدينا، وهو أن يدعو الإنسان فيعلق دعاءه بالمشيئة.

كذلك أيضًا في شأن الأمور التي وقعت وحصلت؛ فإن طائفة من الناس وهذا كان من طريقة بعض أهل البدع أنهم يعلقون كل شيء على سبيل المشيئة فيقول: "أكلت إن شاء الله"، "زرت فلانًا إن شاء الله"، وهذا في الحقيقة لا وجه

---

(٨٧٣) فالتعليق بالمشيئة هنا ليس تعليقًا لدعاءٍ بالمشيئة، وإنما هو تعليق للخبر بالمشيئة على جهة الرجاء والتفاؤل.

له؛ لأننا نعلم أنَّ الله قد شاء، فالأمر أصبحَ معلومًا عندنا أن الله قد شاء هذا الأمر، وما الدليلُ على ذلك؟ كونه وقع، فكل شيء وقع فإنه لم يقع إلا لأن الله شاءه، وبالتالي فتعليق هذا الأمر الذي قد وقع وانقضى بالمشيئة أمرٌ لا وجه له، كأنَّ شيئًا آخر سيكون متعلقًا بالمشيئة!! هذا لا وجه له ولا محل له، ولا ينبغي للمسلم أنه يخبر عن الأمور الواقعة الحاصلة بإخبارٍ يعلقه بمشيئة الله ﷻ، لأنَّ الأمر قد شاءه الله ﷻ وانقضى فلماذا هذا التعليق؟!

أمَّا عند الإخبار عن الأمور المستقبلة **فإنه يحسن التعليق بالمشيئة**، وهذا ما فُسِّر به قوله تعالى: ﴿وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا* إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ﴾[الكهف:٢٣-٢٤]، فإذا كنت تريد فعل شيء أو تتوقع حصول شيء فإنك تعلقه بمشيئة الله ﷻ.

إذًا هذا الذي بين أيدينا في هذا الحديث، وهذا الذي أفدناه من هذا الباب، وهذا الموضع يناسب أن ينبِّه فيه الإنسان على آداب الدعاء، فإن دعاء الله ﷻ له آداب، وقد مر بنا في أعطاف الدروس الماضية الإشارة إلى شيء من ذلك، ومعلوم عند كل مسلم أهمية الدعاء وشأنه العظيم؛ فالدعاء لب العبادة، الدعاء هو العبادة، الدعاء أكرم شيء على الله ﷻ، الدعاء عبادة تظهرُ فيها أنواعٌ من العبوديات؛ كالرغبة والرهبة، الرجاء والخوف، الثقة والتوكل، تحقيقُ توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات.

إذًا إذا كان هذا حال الدعاء إذًا ينبغي على الإنسان أن يحرص عليه، وأن يُكْثِرَ منه، وأن يراعي آداب الدعاء.

والآداب تنقسم إلى: آداب عدمية، وإلى آداب ثبوتية.

۞ **الآداب العدمية**: هي ما ينبغي أن يجتنبه الإنسان في دعائه.

- وأعظم ذلك: أن يجتنب الشرك بالله ﷻ؛ فهذا أهم الآداب وأعظم الواجبات في الدعاء، وهو اجتناب الشرك في الدعاء، فيكون دعاؤه خالصًا لله جَلَّ وَعَلَا يدعو الله لا غير، أما دعاء غيره، أما سؤال الأموات أو المقبورين فإن هذا هو الجرم الأعظم.

ودعوة الأموات تبطل العمل　　　وتسلخ الإيمان خاب من فعل

- أيضًا من الآداب العدمية: أن لا يعتدي الإنسان في دعائه، فهذا مما نهت عنه الشريعة، والاعتداء في الدعاء: هو أن يسأل الإنسان ما لا يليق به قدرًا أو شرعًا؛ كأن يسأل الإنسان أن يكون نبيًا، أو يسأل أن يؤتيه الله ملكًا لا ينبغي لأحد من الناس، أو ما شاكل ذلك؛ هذا كله من الاعتداء الذي لا ينبغي أن يفعله الإنسان في دعاءه.

۞ **ومن آداب الدعاء الثبوتية**: أن يحرص الإنسان على أن يتوسل إلى الله ﷻ في دعائه بالتوسل المشروع الذي تكون الإجابة معه أقرب.

-ومن ذلك وهو أعظم ما يكون من أنواع التوسل: التوسل إلى الله جَلَّ وَعَلَا بأسمائه وصفاته، ومن المطلوب من المسلم أن يراعي في هذا المقام أن يتوسل بالاسم الذي يناسب المقام الذي يدعو لأجله هذا الداعي.

-ومن ذلك أيضًا أن يتوسل إلى الله ﷻ بافتقاره إليه وحاجته إليه.

-وكذلك بإيمانه وعمله الصالح: ﴿**رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ**﴾[آل عمران:٥٣].

كذلك من آداب الدعاء الثبوتية: أن يحرص الإنسان أن يقدِّم ما بين يديه دعائه الثناء والتعظيم لله ﷻ.

كذلك الصلاة على النبي ﷺ؛ فالدعاء معلق بين السماء والأرض حتى يصلى على النبي ﷺ.

ومن آداب الدعاء أيضًا: أن يحرص على اقتناص الفرص التي يكون فيها الدعاء مجابًا فيما أخبرنا به النبي ﷺ، يحرص على أن يدعو في الوقت الذي يكون الدعاء فيه مجابًا، أو في مكان الذي كان النبي ﷺ يدعو فيه، فإن هذا أدعى وأحرى وأقرب للإجابة.

وبمناسبة قرب الحج، فيحسُن التنبيه على المواضع التي كان النبي ﷺ يدعو فيها في حجه، يعني من السنة أن تحرص على الدعاء في هذه المواضع، **وهذه المواضع في الحج ستة مواضع**:

أولاً: في عرفة يوم عرفة، فخير الدعاء دعاء يوم عرفة.

ثانيًا: في المزدلفة ليلة المزدلفة، يعني في ليلة العيد.

وثالثًا: على الصفا.

ورابعًا: على المروة.

وخامسًا: بعد الجمرة الصغرى في أيام التشريق.

وسادسًا: بعد الجمرة الوسطى في أيام التشريق.

*وبعد الجمرة الكبرى في أيام التشريق هذه ما ثبت عن النبي ﷺ أنه دعا عندها، والمطلوب من المسلم أن يفعل كما فعل ﷺ؛ «خذوا عني مناسككم».

إذًا هذه من المواضع التي ينبغي أن يحرص المسلم على أن يصيب من فضل الله ﷻ فيها ولا يعجل، يعني يعجبُ الإنسان من الشخص الذي يتعنى ويتكلف فيأتي إلى الحج ولكنَّه مع الأسف تجده دائمًا يلهث، دائمًا تجده مسرعًا كأنَّ شيئًا يلاحقه، لا يتأنى ولا يتروى ولا يعطي كل عبادة حقها مما ورد في سنة النبي ﷺ، وهذا في الحقيقة مما يعجب الإنسان له! بما أنك أتيت ورُمتَ التعرض بفضل الله ﷻ بأداء هذه العبادة الجليلة، فالذي ينبغي أن تحرص عليه هو أن تؤديَ الحج قدر الإمكان على وجه الكمال بالقدر الذي يُمَكِّنُك الله ﷻ منه.

اعطِ كل أمر حقه لا تعجل سيما في دعاء الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فذكر الله ودعاؤه هذا مقصود أعظم في الحج، «إنما جعل الطواف بالبيت، والسعي بين الصفا والمروة، ورمي الجمار من أجل إقامة ذكر الله» كما قال النبي ﷺ. فلا ينبغي أن تخليَّ لسانك من الذكر والدعاء في كل وقت وفي كل حين، ولا سيما في المواضع التي جاء فيها النَّصُ عن رسول الله ﷺ قولاً أو فعلاً، ولا سيما وأنت مسافر، والمسافر مجاب الدعاء، ولا سيما وأنت حاج، وقد جاء عند ابن ماجه وغيره أنَّ النبي ﷺ قال: «والحجاج والعمار وفد الله، إن دعوه أجابهم، وإن سألوه أعطاهم»، نسأل الله ﷻ من فضله.

فائدة أخيرة وهي: أنَّ بعض الناس قد يقول: أنا إذا دعوت فقلت إن شاء الله لا أقصد شيئًا من تلك الأشياء التي ذكرتها، فهل ينبغي عليّ أن اجتنب التعليق بالمشيئة وأنا غير قاصد؟ ما رأيكم؟

مرَّ بنا غير مرة التنبيه على هذا، ومن ذلك ما كان في درس أمس، وهو أن حسن القصد لا يمنع الإنكار؛ الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ لما قالوا: «السلام على الله من عباده» في التشهد ، أتظنون أنهم كانوا يقصُدون شيئًا من تلك المفاسد المترتبة على هذا القول؟ الجواب: لا، كان قصدهم حسنًا. ما أجابوا النبي ﷺ لما قال لهم: (لا تقولوا السلام على الله من عباده)؟ ما قالوا يا رسول الله ولكنَّ قصدنا حسن، ولا أجابهم النبي ﷺ بما أن قصدكم حسن فلا بأس، وأبقوا على ما أنتم عليه .

إذًا نستفيد من هذا قاعدة مهمة دل على معناها جملة من الأحاديث، وهي: «**أن اجتناب اللفظ الموهِم مطلوبٌ ولو لم يقصده المسلم**»؛ يعني لو لم يقصد المسلم هذا المعنى السيئ بما أن اللفظ موهمٌ فينبغي اجتنابه.



قال المصنف رحمه الله:

٥٤-بَابُ
لا يَقُوْلُ: (عَبْدِي وَأَمَتِي)

في الصَّحيحِ عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: أَطْعِمْ رَبَّكَ، وضِّئْ ربَّكَ، وَلْيَقُلْ: سَيِّدِي وَمَوْلايَ، وَلا يَقُلْ أَحَدُكُم: عَبدِي وَأَمَتِي، وَلْيَقُلْ: فَتَايَ وفَتَاتِي وَغُلَامِي».

قال الشارح وفقه الله:

هذا الباب أيضًا يحثُ فيه المؤلف على تحقيق التوحيد؛ وذلك بتركِ استعمال هذا اللفظ الذي هو (عبدي وأمتي)، وكذلك ما سيأتي التنصيص عليه في الحديث[٨٧٤]، وكلُّ ذلك مما ينبغي أن يراعيه الموحِّد حتى يكمُل توحيده، فلا يقول: (**عبدي وأمتي**).

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**في الصَّحيحِ عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: أَطْعِمْ رَبَّكَ، وضِّئْ ربَّكَ، وَلْيَقُلْ: سَيِّدِي وَمَوْلايَ**).

[٨٧٥] **هذا هو التوجيه الأول في الحديث، وقد اشتمل على توجيهين:**

الأول: نهيه ﷺ أن يقول الإنسان: «**أَطْعِمْ رَبَّكَ، وضِّئْ ربَّكَ**»، والرواية في الصحيحين فيها زيادة جملة ثالثة وهي: «**اسقِ ربك**»؛ نهى عن هذا النبي وأرشد

---

(٨٧٤) فإنَ هذا الترْك فيه أدبٌ معَ جَناب الرُبوبيَّة، وفيه أيضًا حمايةٌ لجَناب توحيد الأُلوهية.

(٨٧٥) (في الصَّحيحِ) يعني: في «الصحيحين».

بعد ذلك إلى الجائز، لما بيّن الممنوع بيّن المسموح به؛ وهو أن يقول (سَيِّدِي وَمَوْلايَ).

-وقوله ﷺ: « لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: أَطْعِمْ رَبَّكَ»؛ يعني أن يقول الإنسان لرقيق غيره: (أطعم ربك) يعني أطعم سيدك.

-وقد يجوز أن يكون المراد: أن يقول السيد معظمـًا نفسه متعاليًا مخبرًا عن نفسه بأسلوب الغائب، فيقول: (أَطْعِمْ رَبَّكَ) يريد نفسه.

هذا وهذا محتمل؛ ويفيد ذلك النهي عن أن يقول الإنسان عن نفسه إنه رب فلان؛ يعني سيد العبد الرقيق، أو أن يقول غيره عنه، مخاطبـًا هذا الرقيق بأن يتناول شيئـًا مما يحتاجه سيده(٨٧٦).

ولاحظ أيضًا أنَّ الأسلوب اختلف في الجملة الثانية(٨٧٧)، قال: «وليقل سَيِّدِي وَمَوْلايَ »، فأصبح الكلام الآن للعبد، لنفس الرقيق؛ قال العلماء: وهذا يدل من طريق الأولى على أنَّ العبد منهيٌّ عن أن يقول (ربي)، وهذا ما جاء به مصرحـًا في رواية مسلم: «ولا يقل ربي، وليقل سيدي ومولاي»(٨٧٨).

---

(٨٧٦) ومثلُ هذا لفظٌ لا يَليقُ ولا يناسب أن يقوله المسلم في حقِ من تحت يدِه، فوجْه هذا النَّهي: النهي عن التطاول والأمر بالتواضع.

(٨٧٧) وتلاحِظُ هنا أنَّ النهي جاء بلفظ الخطاب، وأنَّ الإرشاد جاء بلفظ المتكلِّم.

(٨٧٨) أنَّه إذا نُهِيَ الغير عن هذا القول فالعبدُ من جهة أوْلى أن يقول: (ربي).

إذًا المنهي ثلاثة: السيد نفسه، أو غيره، أو العبد الرقيق؛ كل أولئك جاء النهي من لدن رسول الله ﷺ عن أن يستعملوا لفظ (الرب) مضافًا إلى السيد(٨٧٩) .

وهذا يجرُّنا إلى **حكم استعمال لفظ (الربّ) في حق المخلوق، وهذا المقام فيه تفصيل**:

أولًا: أن تكون كلمة الرب محلاةً بـأل، **(الرب)** هكذا بالإطلاق؛ فهذا اللفظ لا يجوز أن يطلق إلا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فالله ﷻ هو الرب. ويدل على هذا ما في صحيح مسلم من قوله ﷺ: «أما الركوع فعظموا فيه الرب». وكلمة (الرب) بالألف واللام لم تأتِ في القرآن، لكن جاءت في سنة النبي ﷺ في هذا الحديث. إذاً هذه هي الحالة الأولى أن تكون كلمة (الرب) محلاةً بـأل بإطلاق هكذا (الرب) فهذه لا تجوز أن تقال إلا في حق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ثانيًا: أن تضاف كلمة **(الرب)** إلى ما لا يعقل، مثل: المتاع ومثل الدابة؛ هذه الصورة لا حرج في إطلاقها على المخلوق، بأن يقول قائلٌ: "فلانٌ رب هذا المتاع، أو فلان رب الناقة". ودل على هذا قوله ﷺ الثابت في الصحيح في شأن ضالة الإبل لما سُئِل عنها عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -والحديث في الصحيحين- قال: «ما لك ولها! معها حذائها وسقائها، ترِد الماء وترعى الشجر حتى يلقاها ربها»؛ يعني سيدها مالكها، فدل هذا على أن إضافة كلمة (الرب) إلى ما لا يعقل من المخلوقين جائزة.

---

(٨٧٩) والصواب في هذا الباب أن يُقال: إنَّ النَّهي الذي جاء في هذا الحديث هو عن أن يكون هناك مواجهةٌ بهذا اللَّفظ، أمَّا إذا لم يكن في ذلك مواجهة فالأمر في ذلك يختلف.

ثالثًا: أن تضاف كلمة (الرب) إلى من يعقل؛ يعني إلى الناس دون أن تكون محلاة بأل، فهل يجوز أن يقول إنسان "فلان رب فلان" أي سيده أو مالكه إذا كان رقيقًا أم لا(٨٨٠) ؟

---

(٨٨٠) هذا فيه بحث وخلاف طويل بين أهل العلم:

-**فمن أهل العلم**: من رأى جواز ذلك، أخذًا بقوله ﷻ: ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ [يوسف:٤٢]، وكذلك على قولِ كثير من المفسّرين في تفسير قول الله جلَّ وعلا: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ [يوسف:٢٣]، وأمثالُ ذلك من هذه النُّصوص.

-**ورأت طائفة من أهل العلم**: المنْعَ من ذلك، ووجَّهوا هذه النُّصوص بأنَّها من شرع مَن قبلَنا، وشرع مَن قبلَنا ليس شرعًا لنا إذا جاء شرعنا بخلافه، وهاهُنا قد جاء النهي عن ذلك في هذا الحديث؛ وهو نهْيه ﷺ عن أن يقول القائل: (أطعم ربك، واسقِ ربك، ووضئ ربك)، وأمثال ذلك من هذه الألفاظ.

-**وطائفة من أهل العلم**: رأتْ أن النهي الذي جاء في حديث الباب محمولٌ على الكراهة، والصارف تلك النُّصوص التي أسلَفَت.

- **وطائفة من أهل العلم**: رأت أنَّه يجوز استعمال هذا اللَّفظ إلا إذا أضحى لفظًا شائعًا؛ يعني إذا ذُكِر على نُدْرة فجائز أخذًا بالنُّصوص المُبيحة، وإذا استُعمل عادة فلا يجوز أخذًا بالنهي الوارد.

ومهْما يكن من شيء؛ فالذي يظهر -والله أعلم- أن هذا اللَّفظ لا يجوز استعماله في حق المتكلم أو المُخاطَب إذا كان العبد حاضرًا؛ كأن يقول العبد مثلًا: (هذا ربي) ، أو إذا كان حاضرًا في أن يُقال (أطعم ربك) أخذًا بهذا الحديث. **وأمَّا إذا كان ذلك بخلاف هذا الأمر** كأن يكون في حال الغيبة أو بأن يقول قائل: (فلان رب فلان) ؛ فإذا كان سياق الكلام

بين يدينا هذا الحديث الذي فيه نهيه ﷺ، وهو حديثٌ كما ترى صحيح ثابت في الصحيحين: «لا يقل أحدكم أطعم ربك»، إذًا هذا نهي منه ﷺ.

ولكن قد يُستشكل معه ما جاء في كتاب الله في قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ حيث أنه قال للذي ظن أنه ناجٍ منهما -يعني من الفتيين اللذين كانا معه في السجن- قال: ﴿**اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ**﴾[يوسف:٤٢] يعني: أراد اذكرني عند سيدك يعني الملك. كذلك لما جاءه بعد ذلك ﴿ **قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ** ﴾[يوسف:٥٠]، يعني إلى سيدك، **فكيف يمكن أن نجمع بين الدليلين؛ الحديث والآية؟**

قال بعض أهل العلم: إن هذه الآية صارفةٌ للنهي الوارد في الحديث عن التحريم إلى الكراهة؛ فيجوز أن يقول الإنسان عن رقيقٍ "إنَّ فلانًا ربه"، أو "خذ كذا لربك"، وما شاكل ذلك، ولكنَّ هذا اللفظ مكروه للنهي الوارد في ذلك، فيكون هذا الحديث دالاً على الكراهة التنزيهية.

وقال بعض أهل العلم: إن هذا اللفظ كان جائزًا في شرع من قبلنا، في شريعة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو نبيٌ ورسولٌ كريم كان يجوز ذلك، لكنَّ شرعنا أتى بالنهي عنه، فيكون هذا من شرع من قبلنا، والقاعدة: «أن شرع من قبلنا إذا جاء النهي عنه في شرعنا لا يكون شرعًا لنا»، وبالتالي: فيكون هذا مما حُرِّم في الشريعة كما حُرمت أشياء عدة في هذه الشريعة سداً لذريعة الشرك. ومن تتبع ما

يتضح منه أنَّه أراد الرِّق وأن هذا المولى والسيد له، وليس أنَّه الرب المتصرّف في شأنه والذي له صفات الرُبوبيَّة؛ فإن هذا -والله أعلم- مِمَّا قد يُقال بجوازه أخذًا بما جاء في قوله تَعَالَى قال: ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ [يوسف:٤٢].

جاء في هذا الشريعة وقارنها بما وصل إلينا علمه من الشرائع السابقة علِم يقينًا أنَّ شريعة النبي قد حذَّرت من ذرائع الشرك أكثر مما كان في الشرائع السابقة[٨٨١] .

هذا الجواب فيه من القوة ما فيه واختاره جمع من أهل العلم ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره من أهل العلم، **لكنَّ الإشكال فيما يظهر باقٍ**:

وذلك أنه إذا أمكن أن يقال هذا في حق هذه الآية، فماذا يُقال فيما ثبت في الصحيحين في حديث أبي هريرة ﵁ في قصة مجيء جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى النبي ﷺ حيث أنه لما سئل عن علامات الساعة قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أن تلد الأمَةُ ربَّها»، أو قال: «إذا رأيت الأمة تلد ربَّها»، هكذا جاءت الرواية في الصحيحين من حديث أبي هريرة ﵁،

والرواية المشهورة للحديث عند مسلم في حديث عمر ﵁ قال: «أن تلد الأمة ربَّتها»؛ **وهذا يُستشكل أيضا ولكن الاستشكال هنا أخف**، لأن التأنيث في قوله: «ربتها» قد يُقال إنه يزول معه الالتباس، فإن الرب ﷻ لا يجوز أن يظن فيه ذلك، ولا يقال في حقه ذلك، أعني أن يكون الكلام بصيغة التأنيث ، فالالتباس هاهنا غير ظاهر.

---

(٨٨١)**وأمَّا القول بأن هذا من شرع مَن قبلَنا** ؛ فينبغي أن يُلاحَظَ فيه أنَّ القائل في هذا القول إنما هو نبيٌ ورسول كريم، والأنبياء والرسل لا شكَّ أنَّهم مِمَّن يحتاطون غاية الاحتياط في مراعاة الألفاظ التي تتنافى ومقام الأدب معَ الله، أو أن يكون فيها شيءٌ من الخدْش في التوحيد، والله ﷿ أعلم.

لكن الرواية الأخرى وهي كما ترى في الصحيحين قال: «أن تلد الأمة ربها»، أو «إذا رأيت الأمة تلد ربَّها»، فهذا لفظٌ صريح في إطلاق كلمة (الرب) على العبد.

قال بعض أهل العلم: يمكن أن يُجمع بين هذا وذاك بأن المنهي عنه هو الإكثار من استعمال هذا اللفظ في حق السيد، أما إذا كان ذلك على ندرة فإنه يجوز أخذاً بما ثبت في حديث أبي هريرة ﵁، وهذا فيه ما فيه، فإنَّ المقام مقام نهي، فما هو الضابط الذي يضبط الكثرة من القلة أو الندرة!

ومهما يكن من شيء فالذي يظهر -والله تعالى أعلم- أن ما جاء في هذا الحديث من النهي عن استعمال كلمة (الرب) في حق السيد أن النهي في ذلك للكراهة، وهذا ما ذهب إليه جمهور أهل العلم، بل حكى بعضهم الإجماع عليه.

وقول من قال: (إنه يُفَرَقُ بين أسلوب الخطاب وأسلوب الغيبَّة) فيه فيما يبدو لي والله أعلم ما فيه؛ وذلك أنه إذا كان النهي راجعًا إلى سد ذريعة الشرك، فلا يظهر لي والله أعلم فرقٌ بين أسلوب الخطاب «ربَّكَ» وبين أسلوب الغيبة «**أن تلد الأمة ربها**»، فإذا كان هذا موهمـًا لمعنًى لا يجوز فذلك أيضا موهمٌ لمعنى لا يجوز، والله تعالى أعلم.

قال ﷺ: «**وليقل سيدي ومولاي**»(٨٨٢) يعني الرقيق ينبغي أن يستبدل كلمة (ربي) بكلمة (سيدي ومولاي).

---

(٨٨٢) أرشد النبي ﷺ بعد أن نهى عن هذا اللَّفظ إلى استعمال اللفظ المباح.

وهاهنا بحثٌ في إطلاق كلمة (السيد) على المخلوق؛ فالصحيح الذي لا شك فيه أنه يجوز أن يُطلق على المخلوق إنه سيد، ويدل على هذا الكتاب والسنه في أدلة عدة:

-فقال تعالى عن يحى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا ﴾[آل عمران:٣٩].

-وقال تعالى أيضًا في قصة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ﴾[يوسف:٢٥].

-كذلك قال النبي ﷺ عن نفسه: «إنه سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر»،

-كذلك قال ﷺ عن أبي بكر وعمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «إنهما سيدا كهول أهل الجنة».

-كذلك قال عن الحسن والحسين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «إنهما سيدا شباب أهل الجنة».

-كذلك قال النبي ﷺ في حق سعد بن معاذ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ سيد الأوس: «قوموا إلى سيدكم».

-كذلك قال النبي ﷺ في حق سعد بن عبادة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ سيد الخزرج: «ألا تسمعون إلى ما يقول سيدكم».

-كذلك قال ﷺ لبني سلِمة: «من سيدكم؟».

فهذه نصوص كثيرة وغيرها كثير أيضا دالة على جواز أن يُقال في حق المخلوق إنه سيد، ولكن ذلك مشروطٌ بأمرين:

أولًا: أن لا يكون الذي قيل في حقه هذا اللفظ فاسقًا[٨٨٣]؛ يدل على هذا ما خرَّج الإمام البخاري في كتابه الأدب المفرد بإسناد صحيح أن النبي ﷺ قال: «لا تقولوا للمنافق سيد، فإنه إن يك سيداً فقد أغضبتم ربكم»، وجاء عند الإمام أحمد بسند صحيح قال: «لا تقولوا للفاسق سيدَنا أو سيدُنا، فإنه إن يك سيدكم فقد أغضبتم ربكم».

ثانيًا: أن لا يكون اللفظ مشعِرًا بشيء من الغلو؛ إذا كان اللفظ مشعِرًا أو السياق دالاً على شيء من الغلو في هذا الذي قيل في حقة إنه سيد فينبغي أن يمنع ذلك. دل على هذا ما ثبت عند أبي داود وأحمد بإسناد صحيح من حديث عبد الله بن الشخّير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن بني عامر لما جاءوا إلى النبي في عام الوفود قالوا: (أنت سيدنا)، فقال النبي: «السيد الله» .

بعض أهل العلم أخذ من هذا الحديث النهي عن إطلاق السيد على غير الله، قالوا: هذا الحديثُ ناسخٌ للأدلة التي أباحت إطلاق كلمة (السيد) على المخلوق، لم؟ لأنه حديث متأخر؛ فإنه كان في عام الوفود في السنة التاسعة للهجرة، فيكون متأخراً ناسخـًا للأدلة التي دلت على الجواز.

لكنَّ هذا الاستدلال غير صحيح؛ وذلك أن شرط ثبوت النسخ معرفة التاريخ، وما الذي يُدري هذا القائل لعلَّ بعض تلك النصوص كان بعد السنة التاسعة، فثمة مدةٌ طويلة يمكن أن يكون قد قال فيها النبي ﷺ شيئًا من تلك الأحاديث . إذًا القول بالنسخ حينئذ غير صحيح.

---

(٨٨٣) أن يكون الموصوف بهذا الوصْف مستحقًا لذلك.

والصواب في توجيه الحديث: أنَّ النبي لحَظَ في هذا الكلام شيئًا من الغلو. يدل على هذا ما جاء عند النسائي في الكبرى من حديث أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وجاء عند غيره أيضًا أن هؤلاء قالوا: (يا سيدنا وابن سيدنا، وخيرنا وابن خيرنا)، فقال النبي: «قولوا بقولكم، أو بعض قولكم، ولا يستجرينكم الشيطان».

تلاحظ أن النبي ﷺ حسم الباب وسد الذريعة لأن اللفظ كان فيه إشعارٌ بشيء من المبالغة في المدح والغلو في حقهﷺ، والمقام مقامٌ تقتضي المصلحة فيه ذلك، إذ العام عام وفود، وكثير من الذين حضروا إلى النبي في ذلك العام كانوا حدثاء عهد بالإسلام، يعني أسلموا حديثًا، فكان من المصلحة أن ينهى النبيﷺ عن المبالغة في مدحه سداً لذريعة الشرك.

ويؤيد هذا: أنَّ الحديث الذي قلته قريبا حديث أنس ﷺ فيه أنهم قالوا: «يا خيرنا وابن خيرنا» وهذا اللفظ ليس مما يُنهى عنه، لا بأس أن يقول إنسان لآخر: إنك خيرنا، لكن المنهي عنه هو المبالغة في المدح؛ ولذلك نبَّه النبي ﷺ هذا التنبيه، وسيأتي الحديث عن هذا الحديث لاحقا على وجه التفصيل إن شاء الله.

إذاً الصحيح الذي لا شك فيه أنه يجوز إطلاق لفظ السيد على المخلوق بالشرطين السابقين.

قال ﷺ: «**وليقل سيدي ومولاي**»؛ «المولى» كلمة جاءت في النصوص ولغة العرب على معانٍ كثيرة، أوصلها ابن الأثير في كتابه النهاية إلى ستة عشر معنى، منها:

- أنها تطلق على الرب.

-ومنها أنها تطلق على السيد.

-ومنها أنها تطلق على المالك.

- ومنها أنها تطلق على الناصر.

- ومنها أنها تطلق على الأخ.

- ومنها أنها تطلق على المعتِق.

- ومنها أنها تطلق على المعتَق.

إلى آخر ما ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وينبغي أن تُنَزَّل هذه الكلمة في كل سياق بحسبه، وبالتالي نستفيد أنه يجوز إطلاق لفظ المولى على المخلوق، ولاحظ -يا رعاك الله- أن هذا الإطلاق جائزٌ ما لم يكن في اللفظ ما يُشعِر أن المولى هاهنا ليس المولى المطلق الذي يستحق هذا اللفظ بكماله، فهذا لا يكون إلا في حق الله ﷻ، قال ﷻ: ﴿فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلاهُ﴾[التحريم:٤]،كذلك في صحيح البخاري في قصة أحد، لما قال أبو سفيان رضي الله عنه -وكان إذ ذاك كافراً- قال: (اعلُ هبل)، قال ﷺ: «الله أعلى وأجل»، أمرهم النبي ﷺ أن يجيبوه بذلك، ثم قال: (لنا العزى، ولا عزى لكم)، فأمرهم النبي أن يجيبوه بقولهم: «الله مولانا ولا مولى لكم».

إذًا المولى بالإطلاق على ما يقتضيه اللفظ من التمام والكمال لا يطلق إلا في حق الله ﷻ. أما إذا لم يكن الأمر على هذا السياق فإنَّه يجوز أن يطلق على المخلوق، وأدلة هذا لا تكاد تحصى[٨٨٤] .

بقيَ التنبيه على أنه جاء لفظٌ في هذا الحديث عند الإمام مسلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في روايةٍ انفرد بها عن البخاري، قال: «**ولا يقل مولاي، فإن مولاكم الله**»؛ هذا اللفظ يخالفُ الحديث الذي بين أيدينا مما اتفق عليه الشيخان، ذلك أنَّ ما اتفق عليه الشيخان فيه الحث على استبدال كلمة (ربِّي) بكلمة (سيدي ومولاي)، فالحديث دليل على جواز إطلاق كلمة (المولى) على المخلوق، وهذا اللفظ يعارض ذلك، قال: «ولا يقل مولاي فإنَّ الله مولاكم».

والصحيحُ أن هذا اللفظ شاذ؛ اختُلف فيه على الأعمش رَحِمَهُ ٱللَّهُ، والصحيح أن إقحام هذا اللفظ غلط، الصحيح عدم ثبوت هذا اللفظ في حديث النبي ﷺ . هذا مما ينبغي أن يُنبه عليه.

كذلك جاء في روايةٍ عند مسلم تنبيهٌ على ما يتعلق بالعلة التي لأجلها يُكره استعمال كلمة (ربِّي) في حق الرقيق أو في حق العبد ؛ وذلك أنَّ هذا اللفظ الذي نهى عنه النبي ﷺ «أطعم ربك، أسقي ربك، وضئ ربك» فيه شيءٌ من التطاول وفيه شيءٌ التعالي، وفيه شيء من الإذلال لهذا الرقيق، ولذلك بوّب الإمام البخاري في صحيحه على هذا الحديث في إحدى رواياته، أورد الحديث تحت

---

(٨٨٤) وهذا اللَّفظ يُستعمل في حق الله ﷻ على ما يَليقُ به، ويُستعمل في حق المخلوق على ما يَليقُ به، كما في الآية السابقة.

باب: «التطاول على الرقيق» ؛ فدل هذا على أن التطاول والتعالي على عباد الله حتى لو كانوا رقيقا أن هذا من الخلق المذموم الذي نهى عنه شرعنا الحنيف، والله أعلم.

قالﷺ: (**وَلَا يَقُلْ أَحَدُكُم: عَبدِي وَأَمَتي، وَلْيَقُلْ: فَتَايَ وفَتَاتِي وَغُلَامِي**).

هذا الشطر الثاني من الحديث[٨٨٥] ، وفيه نهيه ﷺ عن أن يقول الإنسان في حق رقيقه (عبدي)، أو إذا كانت أنثى (أمتي)، وأرشد إلى استعمال اللفظ الجائز، وهو أن يقول: (فتاي، أو فتاتي، أو غلامي)[٨٨٦].

وجاء تعليل ذلك في رواية عن مسلم فيها زيادة من كلامه ﷺ ، وهو قوله: «**فإنكم كلكم عبيد الله، وإناثكم إماء الله**»، فهذا اللفظ مُشْعِرٌ بتعالٍ وتطاولٍ على المخلوق، وفيه أيضًا ما فيه من ذريعة الوقوع في الشرك.

والذي يظهر أن هذا اللفظ أيضًا فيه تفصيل؛ فإن الله قال في كتابه: ﴿وَأَنكِحُوا الأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾[النور:٣٢]، كذلك قال ﷺ كما في الصحيح «ليس على المسلم في عبده وفرسه صدقة».

-فدل هذا على أن تكلُّمَ الإنسان بلفظ العبد مضافًا إليه يقول: «**عبدي**» أن هذا مما يُنْهَي عنه.

---

(٨٨٥) هذا هو اللَّفظ الشاهد من الباب الذي عقد المؤلّف الباب لأجله.

(٨٨٦) وهذا -كما سبق- فيه مراعاةٌ للأدب مع الله ﷻ، وفيه نهيٌ عن التطاول والكِبْر، وأمرٌ بالتواضع والخضوع.

-أما إذا كان بلفظ الغيبة أو بلفظ الخطاب دون أن يكون بلفظ المتكلم الذي يعود فيه الضمير في العبودية إليه -يعني في عبودية هذا الرقيق إليه- فالذي يظهر والله أعلم أن هذا جائز، إذا كان السياق غيرَ مشعرٍ بالعبودية التي هي ذلٌّ وخضوع، وإنما السياق يدل على عبودية الرق، فهذا يجوز أخذًا بقوله تعالى: ﴿**عِبَادِكُمْ**﴾[النور:٣٢]، وأخذا بقول النبي ﷺ: «**عبده**»، والله أعلم.



قال المصنف رحمه الله:

٥٥-بَابُ
لَا يُرَدُّ مَنْ سَأَلَ بِاللّه

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنِ اسْتَعَاذَ بِاللهِ فَأَعِيذُوهُ، وَمَنْ سَأَلَ بِاللهِ فَأَعْطُوهُ، وَمَنْ دَعَاكُمْ فَأَجِيبُوهُ، وَمَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُوهُ فَادْعُوا لَهُ، حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ.



قال الشارح وفقه الله:

(بَابٌ لَا يُرَدُّ مَنْ سَأَلَ بِاللهِ)؛ هذا بابٌ أيضـًا ساقه المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ للحث على تحقيق التوحيد، وتعظيم الله عَزَّ وَجَلَّ، ومراعاة الأدب معه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فمن ذلك أن لا يُردَّ من سأل بالله جل وعلا[(٨٨٧)]، كما سيأتي معنا في هذا الحديث، والحديث فيه توجيهات أربعة نأخذها واحدةً واحدة إن شاء الله.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنِ اسْتَعَاذَ بِاللهِ فَأَعِيذُوهُ، وَمَنْ سَأَلَ بِاللهِ فَأَعْطُوهُ، وَمَنْ دَعَاكُمْ فَأَجِيبُوهُ، وَمَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُوهُ فَادْعُوا لَهُ، حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ).

---

(٨٨٧) لأنَّ السائل إذا سأل بالله فقد سأل بعظيم، ومن تعظيم هذا العظيم جلَّ وعلا أن يُجابَ هذا السائل إلى سُؤْله.

قوله: (مَنِ اسْتَعَاذَ بِاللهِ فَأَعِيذُوهُ)؛ هذا هو التوجيه الأول، والحديث حديث ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا عند النسائي وأحمد وغيرهما بإسناد صحيح.

جاء التوجيه الأول بأمر منه ﷺ وهو: أن (مَنِ اسْتَعَاذَ بِاللهِ فَأَعِيذُوهُ)؛ الاستعاذة: هي طلب العوذ، أو طلب العياذ. فمن استعاذ بالله ﷻ فإنه يجب أن يُعاذ؛ إذا قال إنسانٌ لآخر: "أعوذ بالله منك"، أو "أعوذ بالله أن تفعل لي كذا وكذا" إذا أراد أن يهمَّ به أو أن يبطش به ؛ فإن يجب حينئذٍ أن يُعاذ؛ وذلك لأمر النبي ﷺ بذلك: «من استعاذ بالله فأعيذوه»، وثبت في البخاري أنَّ النبيﷺ لما عقد على المرأة الجونية ودخل عليها عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ ، قالت: (أعوذ بالله منك)، فقال النبي ﷺ: «قد عُذتِ بعظيم»، وفي رواية عند البخاري: «قد عذت بمَعاذٍ، الحقي بأهلك»، أعاذها ﷺ ، لما استعاذت بالله منه أعاذها عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ ؛ وهذا من تعظيم العظيم سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

لكن يُلحظ هنا أن هذا الحكم لا ينسحب فيما إذا كانت الاستعاذة تتعارض مع أداء حق الله ﷻ؛ مثال ذلك: أن يستعيذ إنسانٌ بالله ﷻ في إقامة حدٍ عليه، أو تعزيرٍ شرعي عليه، أو في مطالبته بحقٍ ثابت عليه، فإنه حينئذٍ لا يُعاذ. إنَّما الشأن في أمر النبي ﷺ في إعاذة من استعاذ بالله ﷻ ما لم يتعارض ذلك مع أداء حق الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

قوله: (وَمَنْ سَأَلَ بِاللهِ فَأَعْطُوهُ)؛ هذا موضع الشاهد الذي بوَّبَ عليه المؤلف رَحِمَهُٱللَّهُ هذا الباب، يعني أورد الحديث لأجل هذا الشاهد.

قال: «وَمَنْ سَأَلَ بِاللهِ فَأَعْطُوهُ»؛ قال: "أسألك بالله أو أسألكم بالله أن تعطوني كذا وكذا"، هذا السائل سأل بعظيم، ومن تعظيم الله ﷻ أن يجاب إلى ذلك، وهذا من كمال تحقيق التوحيد، ومن كمال مراعاة جناب الربوبية والألوهية، وملاحظة الأدب في التعبد لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى. إذا سأل إنسانٌ بالله جَلَّ وَعَلَا فإنه يُجاب إلى ما سأل، لكن في ضوء التفصيل الذي سيأتي.

فالأحوال في شأن المسألة بالله جَلَّ وَعَلَا ترجع إلى ما يأتي:

- **أولًا**: أن يسأل إنسان بالله شيئًا له فيه حق؛ كأن يسأل شخصًا له عنده دين أو حق، أو يسأل حقه من بيت المال مثلًا، فيقول: "يا فلان أعطني بالله"؛ فلا شك حينئذٍ أنَّ وجوب أداء حقه قد تأكد بالوجوب الأصلي وبسؤاله بالله تعالى. إذا جاء إنسانٌ إلى آخر له عنده حق له عند دين قال: "يا فلان أسألك بالله أن تعطيني ديني" فإنه يجب عليه أن يجيبه إلى ذلك، وهذا واجبٌ متأكد، تأكد بسؤاله بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

- **الحالة الثانية**: أن يسأل سائلٌ بالله شيئًا فيه إثم أو قطيعة رحم؛ فهنا لا يجوز أن يُجاب إلى ذلك، والإثم على السائل حيث إنه استسهل أن يسأل بالاسم العظيم لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى في شأن أمرٍ محرم. إذا قال قائل لآخر: "يا فلان بالله عليك أعطني كأس خمر، أو أحضر لي دخانًا أشربه" فإنه لا يجوز له أن يُجيبه إلى ذلك[٨٨٨]، والإثم حينئذ على السائل وليس على المسؤول.

---

[٨٨٨] لأن سؤاله في أصله غير جائز.

➢ **الحالة الثالثة**: أن يسأل سائلٌ بالله غيره سؤالًا تكون إجابته فيها ضررٌ أو مشقة عليه؛ كأن يسأله شيئا يحتاجه، يقول: "أسألك بالله أن تعطيني بيتك"، "أسألك بالله أن تعطيني سيارتك"؛ فإذا كانت إجابته إلى ذلك تضره أو تشق عليه فإنه لا يلزمه أن يجيبه إلى ذلك؛ لأنَّ قاعدة الشريعة: «لا ضرر ولا ضرار».

➢ **الحالة الرابعة**: أن يسأل سائلٌ غيره بالله في شأن شيء غير محرم ولا يضره أن يجيبه إليه ولا يشق عليه ذلك؛ فإنه حينئذ أمَر النبي ﷺ أن يجيبه إليه، وهذا من تعظيم الله.

وجمهور أهل العلم على أن الأمر هاهنا للاستحباب، ونقل بعضهم الإجماع عليه، والله أعلم.

قوله ﷺ: (وَمَنْ دَعَاكُمْ فَأَجِيبُوهُ)؛ إذا دعا المسلم إخوانه إلى وليمة فإن النبي ﷺ حث في هذا الحديث على إجابة الدعوة، وكان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يفعل ذلك؛ كان إذا دُعِيَ إلى وليمة ولو قلَّت أجاب، بل إنه نهى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عن ترك إجابة الدعوة، ففي صحيح مسلم، قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «من دُعي فلم يُجب فقد عصى الله ورسوله».

وهل الأمر والنهي في هذا الحديث متعلقٌ بوليمة العرس خاصةً؟ أم بأي وليمة كانت؟ هذا موضع خلافٍ بين الفقهاء، والجمهور على التخصيص في النهي والأمر بوليمة العرس. ومحل تحقيق هذه المسألة في كتب الفقه، والله أعلم.

قوله ﷺ: (وَمَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُوهُ فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تُرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ)؛ هذا التوجيه الرابع من رسول الله ﷺ.

قال: (وَمَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ)؛ أمر النبي هاهنا بالمكافأة على صنيعة المعروف، من صنع إليك ما فيه خير ومعروف وأمرٍ نافع وصالحٍ لك فالنبي ﷺ حثَّ على أن يكافأ على ذلك؛ فيعطى شيئًا مقابل إحسانه ومعروفه.

فإن لم يجد الإنسان شيئًا فالمشروع في حقه أن يدعو له دعاءً يشعُر أنه بلغ مقابلة ذلك المعروف، أصبح مكافئًا لهذا المعروف.

وأحسن وأبلغُ ما يُدعى به قول: (جزاك الله خيرًا)، يدل على هذا ما ثبت عند الترمذي بإسناد صحيح أنَّ النبي قال: «من صُنِعَ إليه معروفٌ فقال لفاعله جزاك الله خيراً فقد أبلغ في الثناء».

وهذا الشطر من الحديث فيه فائدة لطيفة في التوحيد؛ قال العلماء: المكافأة على المعروف من تحقيق التوحيد، انتبه هذه قاعدة نافعة تنبَّه لها يا أيها الموحِّد.

«المكافأة على المعروف من تحقيق التوحيد»؛ وذلك أنَّ المكافأة على معروف المخلوق تَكْسِرُ الذّلَّ الذي حصل بوصول المعروف من قِبَلِه، فيتخلَّصُ بذلك من هذا الذُّل؛ فيشعر الموحِّد بأنه لا منَّة لمخلوقٍ عليه، بل المنة لله ﷻ وحده.

وهذا من تحقيق العبودية لله ﷻ ومن كمال تحقيق التوحيد؛ أن تحرص وأن تسعى دائمًا على أن لا يكون عليك منةٌ لمخلوق، ولا يكون هناك ذلٌ منك أو شيءٌ من الخضوع ولو قلّ لمخلوق، إنَّما احرِص على أن يكون ذُلُّك

وخضوعك لله ﷻ لا غير[٨٨٩]؛ ولذلك فأنت إذا قابلتَ هذا المعروف بالمكافأة زالَ هذا الشعور، وأصبحت مكافئًا للذي صنعَ ذلك المعروف إليك.

أسأل الله ﷻ أن يرزقني وإياكم تحقيق التوحيد، إن ربنا لسميع الدعاء.

(٨٨٩) فإذا ما قدَّم إليك آخر معروفًا وأهدى إليه هدية فإن من المشروع في حقك ومِمَّا حثَّت عليه الشريعة أن تبادره بالمكافأة؛ ملاحَظةً لهذا الأمر الدقيق، فإن لم يَجد الإنسان ما يكافئ به فليُعوّض عن ذلك بالاجتهاد له في الدعاء حتى يشعُر من نفسه أنَّه قد كافأه على ما قدَّم إليه من معروفٍ وإحسان.

قال المصنف رحمه الله:

٥٦-بَابُ
لَا يُسْأَلُ بِوَجْهِ اللهِ إِلَّا الْجَنَّةُ

عَنْ جَابِرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا يُسْأَلُ بِوَجْهِ اللهِ إِلَّا الْجَنَّةُ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ.



قال الشارح وفقه الله:

هذا بابٌ عقده المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ لبيان أنَّه لا يجوز أن يُسأل بوجه الله إلا الجنة، وأورد تحته حديثًا واحدًا وهو ما خرّج أبو داود رَحِمَهُ ٱللَّهُ عنه ﷺ أنَّه قال: «لَا يُسْأَلُ بِوَجْهِ اللهِ إِلَّا الْجَنَّةُ»، وهذا الحديث قُرِئ بالنفي، وبالنهي، وبالبناء للمجهول، وبالبناء للمعلوم: «لا يُسألُ»، «لا يُسألْ»، «لا يَسألُ»، «لا يَسأَلْ».

والحديث فيه بحث من جهة ثبوته؛ فإن مدار الحديث على راوٍ اسمه (سليمان بن معاذ)، ويقال: (سليمان بن قرم بن معاذ)، وهذا الرجل وثَّقه بعض أهل العلم؛ ومنهم الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ فإنه مالَ إلى توثيقه.

وجماعة من أهل العلم ضعَّفوه؛ فابن معين قال: (ليس بشيء)، وكذلك ضعفه النسائي وأبو حاتم، وقال الحافظ ابن حجر: (سيء الحفظ) .والأقرب والله تعالى أعلم أن الحديث ضعيف، وأن هذا الراوي ليس بقوي الحفظ.

وإن كان الحديث قد قوّاه بعض أهل العلم[٨٩٠]، ومنهم الضياء المقدسي فإنه أورده في كتابه «المختارة»، وهذا يدل على أنه حديث قوي عنده.

---

(٨٩٠) وهكذا المنذري وغيرهم من أهل العلم.

في حين أنه ضعَّف هذا الحديث جماعةٌ من أهل العلم، ومنهم عبد الحق الإشبيلي، وابن القطان الفاسي، وكذلك الشارح الحفيد الشيخ سليمان رَحِمَهُ ٱللَّهُ مالَ إلى ضعف الحديث، كذلك الشيخ الألباني، وكذلك الشيخ ابن باز -رحمة الله تعالى على الجميع- مالوا إلى ضعف هذا الحديث، الأقرب والله أعلم أن الحديث ضعيف[٨٩١].

ومما يستأنس به في الدِلالة على عدم ثبوت هذا النهي عن النبي ﷺ: ما خرَّج الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في صحيحه أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿ **قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ** ﴾ قال ﷺ: «أعوذ بوجهك»، قال: ﴿**أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ**﴾، قال: «أعوذ بوجهك» قال: ﴿ **أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ**﴾[الأنعام:٦٥]، قال: «هذا أهون أو أيسر».

فالشاهد: أنك تلحظ أن هذا الحديث فيه استعاذة أن النبي ﷺ بوجه الله في شأن عذابٍ دنيوي[٨٩٢]، فالظاهر والله أعلم أن هذا النهي الوارد في هذا الحديث ليس بصحيح[٨٩٣].

---

(٨٩١) ثمَّ إنَّه على فرض ثبوته لأهل العلم هنا بحث: هل يختص هذا النهي أن يُسأل اللهُ بوجهه إلَّا الجنَّة؟ هل هذا مختصٌ بالتوسّل بصفة الوجه، أو يَعمُّ التوسل بسائر الصفات؟ والأقرب -إن صح الحديث- الوقوف مع النص، وأن هذا خاصٌ بالسؤال بوجه الله جلَّ وعلا فحسْب.

(٨٩٢) وهو أن يَنزل على المسلمين عذابٌ من فوقهم أو من تحت أرجلهم؛ فهذا مِمَّا يقوي القول بأنَّ ما جاء في هذا الباب فيه نظر من جهة ثبوته.

وعلى فرض صحته، **فإنَّ هذا الحديث يدل على أمرين:**

- **أولًا:** على أنه لا يجوز أن يُسأل الله ﷻ بوجهه إلا الجنة، قال أهل العلم: أو ما هو لازمٌ لها كالنجاة من النار؛ وذلك أن سؤال الله ﷻ إنما هو سؤالٌ عظيم، فكيف إذا توسل الإنسان إلى ربه في هذا السؤال بهذه الصفة العظيمة وهي وجه الله العظيم سبحانه! فلا يناسب أن يُسأل الله ﷻ هذا السؤال إلا فيما هو أرفع المطالب وأشرف الرغائب؛ ألا وهو جنةُ عدن.
- **والأمر الثاني الذي يدل عليه الحديث:** أنه لا يجوز أن يُسأل العبدُ بوجه الله؛ يعني لا يجوز أن تقول لإنسانٍ: "أسألك بوجه الله أن تعطيني كذا وكذا"؛ وذلك أنه لما كان السؤال بوجه الله مخصوصًا بسؤال الجنة، والعبد لا يملك الجنة، دلَّ هذا على أنه لا يجوز أن يُسأل العبدُ بوجه الله ﷻ.

فإن صح الحديث فإنَّه يدل على هذين الأمرين[٨٩٤].

وقد جاء عند الطبراني بإسناد حسَّنه بعض أهل العلم ومنهم الشيخ الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ وضعَّفه آخرون، وهو أنَّه ﷺ قال: «**ملعونٌ من سأل بوجه الله، وملعونٌ**

(٨٩٣)وعلى كلّ حال؛ كل ما جاء في النهي عن السؤال بوجه الله إلَّا الجنَّة فيه نظر ويحتاج إلى مَزيد تحرير وتأمُّل

(٨٩٤) وبعض أهل العلم يقصُر معنى الحديث على أحد الوجهين ويرجِّح أحد الوجهين على الآخر، والأقرب أنه إن صح يشمل ويحتمل الأمرين.

من سُئِل بوجه الله فلم يعطِ سائله، أو فمنع سائله»(٨٩٥) ؛ فهذا يشهد للمعنى الثاني، وهو أنه لا يجوز أن يُسأل العبد بوجه الله.

قال: «**ملعون من سأل بوجه الله**»؛ لأنه إذا سأل العبدَ بوجه الله ﷻ فإنَّه يسأله في شيء حقير من أمر الدنيا؛ وهذا لا يجوز أن يُتوسل إليه بهذه الصفة العظيمة.

وأما المسؤول فإنَّ اللعنة هاهنا -إنْ صح الحديث- إنما تتوجه في شأن أن يُسأل هذا الإنسان شيئًا للسائل فيه حق فيمتنع، أو يُسأَلَ شيئًا لا يشق عليه إجابته فيمتنع؛ وهذا كما فصَّلناه عند بحث مسألة السؤال بالله ﷻ.

والله تعالى أعلم.



---

(٨٩٥) ولكن هذا الحديث فيه نظرٌ أيضًا من جهة إسناده، وقد ضعَّفه ابن منْدة وغيره من أهل العلم، ومنهم من حسَّنه كالعراقي، وأيضًا الشيخ الألباني رحمة الله على الجميع.

قال المصنف رحمه الله:

٥٧-بَابُ
مَا جَاءَ فِي اللَّوْ

وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ [آل عمران:١٥٤] الآيَةَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ [آل عمران:١٦٨] الآيَةَ.

فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَلَا تَعْجَزَنَّ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا لَكَانَ كَذَا وَكَذَا؛ وَلَكِنْ قُلْ: قَدَّرَ اللهُ، وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ».



قال الشارح وفقه الله:

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**بَاب مَا جَاءَ فِي اللَّوْ**)؛ «اللَّوْ» يعني هذا اللفظ الذي هو (لو).

و(لو) حرفٌ من حروف المعاني، **وقد جاءت في اللغة على أنحاء:**

- منها: **لو الامتناعية** التي تدل على امتناع الشيء لامتناع غيره[٨٩٦]، ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا﴾[الأنبياء:٢٢]؛ امتنع فساد السماوات والأرض لامتناع وجود آلهة مع الله ﷻ.

---

(٨٩٦) ولذا يسمونها مثلا (حرف امتناع لامتناع)؛ "لو زرتني لأكرمتُك"، امتنع الإكرام لامتناع الزيارة. وهذا هو المقصود بالبحث فيه في هذا الباب.

-**وتأتي ثانيًا بمعنى: إن الشرطية**، ومن ذلك قول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ﴾[النساء:٩](٨٩٧).

-**وتأتي ثالثًا بمعنى: أن المصدرية**؛ ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾[القلم:٩].

-**وتأتي رابعًا: للتقليل**، قال ﷺ: «التمس ولو خاتمًا من حديد»(٨٩٨).

-**وتأتي خامسًا: للحضِّ**؛ فتقول: "لو فعلت كذا يا فلان" أو "لو نزلت عندنا لأكرمناك"(٨٩٩).

-**وتأتي سادسًا للتمني**؛ ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[الشعراء:١٠٢].

إذًا هذه من أحوال لو التي تأتي في اللغة.

تلاحظ معي هنا أنَّ المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أدخل (أل) على حرف، ومعلوم أنَّ (أل) لا تدخل على الحروف إنَّما تدخل على الأسماء.

بالجر والتنوين والنَّداء وأل ... ومسندٍ للاسم تمييزٌ حصل

فما وجه هذا الفعل؟

الجواب: أنَّ المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ نزَّل هذا الحرف هاهنا منزلة الاسم؛ لأنه أراد: باب ما جاء في هذا اللفظ الذي هو لو، وفِعْله هذا قد سبقه إليه غيره من أهل العلم، ومنهم الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في صحيحه؛ فإنه بوَّب بابًا قال فيه: (باب ما يجوز من اللو)، ولعلك تذكر الإشارة التي سبقت من أن المؤلف

---

(٨٩٧) ﴿وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ [البقرة:٢٢١].
(٨٩٨) «فاتقوا النَّار ولو بشقِّ تمرة».
(٨٩٩) (لو زُرتنا).

رَحِمَهُ ٱللَّهُ متأثرٌ بالإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ ومعتنٍ بصحيحه، ومن ذلك هذه الإشارة التي ذكرتُها لك.

المقصود أنَّ المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أراد أن يبّين أن (لو) تأتي في الشريعة منقسمةً فيجوز استعمالها أحيانًا، ولا يجوز استعمالها أحيانًا، ولذلك جعل الباب مُبْهَمًا؛ قال: «**باب ما جاء في اللو**»، فتارة يكون استعمالها صحيحًا، وتارة لا يكون صحيحًا.

وإن كان ما أورده من الأدلة -قد أورد آيتين وحديثًا- يدل على أنه أراد التنبيه على ما يتعلق بجانب الاعتقاد بجانب التوحيد؛ وذلك أنَّ الاستعمال الخاطئ لهذا الحرف وهو (لو) قد يكون قادحًا في كمال التوحيد الواجب، فكان مما يجب الامتناع عنه.

(لو) جاءت في نصوص في محمل النهي؛ ومن ذلك ما أورد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ من قوله ﷺ الثابت في صحيح مسلم: «فإن أصابك شيء فلا تقل لو كان كذا لكان كذا وكذا»، فهذا دليل على أن استعمال (لو) هاهنا منهي عنه.

في حين أننا نجد في أدلة أخرى في الكتاب والسنة استعمالها وأن ذلك جائزٌ لا حرج فيه؛ ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾[النساء:٦٦].

والبخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ لما بوب الباب سالف الذكر أورد تحته ثمانية أو تسعة أحاديث تدل على جواز استعمال (لو)، **ومما جاء في سنة النبي ﷺ من ذلك:**

-قوله ﷺ كما في الصحيحين: «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك مع كل صلاة»، أو قال: «عند كل صلاة».

-ومن ذلك قوله ﷺ: «لولا أن قومكِ حديثٌ عهدهم بجاهلية لهدمت الكعبة ولبنيتها على قواعد إبراهيم».

-ومن ذلك قوله ﷺ: «لو كنت راجمًا أحدًا بغير بينة لرجمتُ هذه»، وأشار إلى الملاعنة.

-ومن ذلك أيضًا قوله ﷺ: «إنه لوقتها» لما أخَّر صلاة العشاء «لولا أن أشق على أمتي»[٩٠٠].

إلى غير ذلك من الأحاديث الكثيرة التي جاءت عن النبي ﷺ وفيها استعمال (لو). **فكيف الجمع بين ما جاء دالًّا على النهي عن استعمال (لو)، وما دل على جواز استعمال (لو)؟**

اختلف العلماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ في هذا المقام:

- **منهم من قال**: إن النهي الوارد يدل على كراهة هذا الاستعمال فقط؛ وذلك أن الأدلة المبيحة صارفةٌ للنهي عن التحريم إلى الكراهة.
- **ومنهم من قال**: إن النهي إنما تعلق بقول القائل إذا لم يُضمر ذِكر مشيئة الله ﷻ، ويكون الجواز باعتبار أنَّه أضمر ذكر مشيئة الله ﷻ؛ يعني إن كان يقول: "لو كان كذا بمشيئة الله، أو إن شاء الله"[٩٠١] أضمر هذا في نفسه فإن الكلام صحيح وجائز، وإن لم يفعل كان الكلام محرمًا.

---

(٩٠٠) وقال: «لو استقبلتُ من أمْري ما استدبرتُ لَمَا سُقتُ الهدْي.. »إلى آخره.

(٩٠١) أو (بإذن الله)، وأمَّا النهي فإنه واردٌ على حال كون المتكلم بـ «لَو» لم يُضمِر ذلك، وإنما اعتقد أن الأمر حاصلٌ ولا بدَّ دون مشيئة الله ﷻ، فكلُّ النُّصوص التي جاء فيها ذكر «لَو» إنما يقع في اعتقاد المتكلم أن ذلك إنما كان بمشيئة الله، والنهي عمَّا خلا عن ذلك.

- **ومن أهل العلم من قال:** إنَّ (لو) لا يجوز استعمالها في الأمور الماضية، ويجوز استعمالها في الأمور المستقبلة[٩٠٢].

والتحقيقُ في هذا المقام أن يقال: إنَّ (لو) لها أحوالٌ يكون استعمالها فيها جائزًا، وأحوالٌ يكون استعمالها فيها غير جائز.

أما الأحوال التي تكون لو فيها غير جائزة:

أولًا: أن يكون في استعمالها اعتراضًا على الشرع.

ثانيًا: أن يكون في استعمالها اعتراضٌ على القدر.

ويشهد لهذين ما أورد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ من آيتي سورة آل عمران: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾[آل عمران:١٦٨]، ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾[آل عمران:١٥٤]؛ هذا كان من قول المنافقين في غزوة أحد، وكلامهم يتضمن الاعتراض على شرع الله ﷻ وعلى قدره؛ يقولون لإخوانهم في النسب الذين قدّر الله ﷻ عليهم أن يُقتلوا شهداء في أحد، لو أطاعونا فجلسوا فلم يجاهدوا مع رسول الله ﷺ -وقد أمرهم الشرع بذلك- لو أطاعونا في ترك الجهاد ما قُتلوا، إذًا القتل الذي حصل عليهم إنما كان بفعل هذا الأمر الذي كانت المصلحة في خلافه؛ فكان قولهم متضمنًا الاعتراض على الشرع. كما أنه يتضمن الاعتراض على القدر؛ كأنهم يظنون أنه إذا فعل الإنسان شيئًا من الأشياء فإنه بذلك يدفع قدر الله سبحانه وتعالى ؛ ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ ، رد الله ﷻ عليهم ذلك

(٩٠٢) في أقوال أخرى ذكرها أهل العلم.

قال: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾[آل عمران:١٥٤].

إذًا إذا قدَّر الله ﷻ شيئًا فإنه لا يمكن لأحد أن يدفع تقدير الله ﷻ، إذا كان الله كاتبًا على أحد أن يموت فسواءً جلس في بيته أو خرج فإنه سيموت، في الآية الأخرى: ﴿قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[آل عمران:١٦٨]؛ إن كان كلامكم صادقًا بأنَّ فعل الإنسان الذي يفعله يكون دارئا عنه الموت لكان مقتضى هذا ألا تموتوا أنتم، أليس كذلك؟! لأنهم جلسوا وما خرجوا مع رسول الله ﷺ، ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾[آل عمران:١٦٨]، لكن هل يستطيعون إذا فعلوا هذا أن يدفعوا عن أنفسهم الموت؟! فدل هذا على أن قولهم كان متضمنًا أمرين مذمومين: الاعتراض على الشرع، والاعتراض على القدر.

الحالة الثالثة التي يكون فيها استعمال لو ممنوعًا: أن يكون سياقها سياق تندُّمٌ وتحسُّر، ومن ذلك ما جاء في الحديث الذي سيأتي الكلام عنه -إن شاء الله- وهو قوله ﷺ: «فإن أصابك شيء فلا تقل لو كان كذا لكان كذا وكذا»؛ هذا السياق سياق ندم وسياق تحسُّر، ولا شك أن الندم والتحسر ولومُ الإنسان نفسه على الأشياء التي لم تحصل له لا شك أنه سيلقيه إلى وادي الضرر؛ لأن هذا الندم ولأن هذا الحزن يُضعف القلب ويضفي عليه الفتور في النشاط في الطاعة وفِعل ما ينبغي أن يفعل، وفي أعطاف ذلك ما فيه من سوء الظن بالله ﷻ والقدح في قدَره، فهذا كله لا شك أنه أمرٌ مذموم في الشريعة، والذي جر إليه: هذا الندم الذي قاد إليه هذا الكلام: "لو فعلت كذا لكان كذا وكذا".

الحالة الرابعة: أن يكون في استعمال لو احتجاجًا بالقدر على المعاصي؛ كما قال المشركون: ﴿لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾[الأنعام:١٤٨]، ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم﴾ [الزخرف:٢٠]. إذًا هذا من استدلال هؤلاء المشركين بالقدر على معصية الله ﷻ، ولا شك أنَّ هذا مسلكٌ مذموم، فالقدر يُستدل به على المصائب لا على المعائب.

الأمر الخامس: أن يكون استعمال (لو) هذا المذموم فيه شيء من عدم الاكتراث بقدر الله ﷻ أو بشرعه، أو التهوين من شيء من ذلك؛ متى كان في استعمال (لو) شيء من ذلك مما يدل على عدم المبالاة وعلى عدم الاكتراث بشيء من أمر الله ﷻ ومن قدره فإنه لا شك أنه يكون بذلك ممنوعًا[٩٠٣].

أما الحال الأخرى التي تكون فيها لو جائزة:

- فإنها تكون جائزة إذا كان فيها تمني للخير[٩٠٤].
- أو كان المقام مقام تعليمٍ للعلم والخير[٩٠٥].[٩٠٦]

---

(٩٠٣) **وتكون ممنوعة خامسًا**: إذا كانت تتضمَّن تمنِّي الشر والمعاصي؛ كما جاء في «الصحيح» عن النبي ﷺ في ذكْر الرجل الذي تمنَّى أن يكون له مالُ فيفعل مثل ما فعل فلان الذي أنفق ماله في معصية الله، فقال: «لو كان لي مثل مال فلان لفعلت مثل ما فعل».

(٩٠٤) والرغبة فيه.

(٩٠٥) تعليم الحق والإرشاد إلى الخير.

(٩٠٦) وأنت إذا تأمَّلت النُّصوص الماضية وغيرها كثير في الكتاب والسُنَّة لوجدت ذلك لا يخرج عن هذين الأمرين؛ ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾

إذًا يجوز استعمال (لو) إذا كان المقام مقام تمنٍّ للخير، ولذلك تجد النبي ﷺ يقول: «لو استقبلتُ من أمري ما استدبرت؛ لما سقتُ الهدي، ولجعلتها عمرة، ولأحللتُ معكم».

أو تجد أن المقام يكون مقام تعليمٍ للخير وتعليمٍ للعلم، قال النبي ﷺ: «لولا أن أشق على أمتي»، «لولا أن قومكِ حديثٌ عهدهم بجاهلية أو حديثٌ عهدهم بكفر».

إذًا متى ما كانت لو جارية في أحد هذين السياقين فإنه يجوز حينئذ استعمالها ولا تكون داخلة في النهي الوارد في حديث صحيح مسلم كما مر بيان ذلك، وكما يظهر لك لو تأملت في أحاديث النبي ﷺ التي سمعتَ طرفا منها، والله تعالى أعلم[٩٠٧].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقول الله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾[آل عمران:١٥٤] الآية).

[النساء:٦٦]، إلى غير ذلك مِمَّا جاء، وقد سمعت بعض الأحاديث الثابتة عن النبي ﷺ في الصحيحين وغيرهما.

(٩٠٧) إذًا **مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد**: من جهة أن مِمَّا تُستعمل فيه «لو» ما يكون متضمنًا لِما يقدح في تحقيق كمال التوحيد الواجب، فلأجل هذا وجب اجتناب هذا الاستعمال، كما أرشد إلى هذا النبي ﷺ.

كما مر معنا هذه الآية في قول المنافقين، والمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أراد أن ينبِّه المسلم في إيراده هذه الآية وما بعدها إلى أن استعمال (لو) المذموم من شأن المنافقين[٩٠٨]، ولا ينبغِي للمسلم أن يتشبه بهم. فقولهم هاهنا يتضمن اعتراضًا على الشرع الذي هو الأمر بالجهاد في سبيل الله ﷻ، وأنه مجلبة للهموم والأضرار والأحزان، ويتضمن كذلك اعتراضهم على قدر الله ﷻ.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقوله: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾[آل عمران:١٦٨]).

كذلك هذا القول من قول المنافقين ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾؛ يعني الذين حضوا إخوانهم في النسب من المؤمنين على أن لا يجاهدوا وأن يرجعوا مع من رجع إبَّان غزوة أحد، فكان قولهم أيضًا متضمنًا للاعتراض على شرع الله ﷻ وعلى قدره، فكان استعمالًا مذمومًا.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَلَا تَعْجَزَنَّ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ:

---

(٩٠٨) ولا شكَّ أن هذا من شأن المنافقين -أعني ما جاء من استعمال «لو» على محمل الاعتراض على شرع الله وقدَره- هو دَيدَنُ المنافقين وشأنهم، كما ذمَّهم الله ﷻ على ذلك في الآيتين الآتيتين، فهذا مِمَّا يجب أن يترفَّع عنه المُوحِّد، وأن ينأى بنفسه عنه، وأن يجتنبه غاية الاجتناب، فإنَّه قادح في تحقيق كمال التوحيد الواجب.

لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا لَكَانَ كَذَا وَكَذَا؛ وَلَكِنْ قُلْ: قَدَّرَ اللهُ، وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ»).

«**في الصحيح**»؛ يعني في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ، والمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ اختصر أول الحديث وأورد الشاهد منه فحسب، وأوله قوله ﷺ: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍ خير»، ثم قال: «**احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَلَا تَعْجَزْ**»، هكذا وقفتُ على الرواية في صحيح مسلم في أكثر من نسخة وكذلك في مختصره، والمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أورده بلفظ (**تَعْجَزَنَّ**)، فالله أعلم ربما يكون وقف على شيء من نسخ مسلم ثبت الحديث فيها هكذا.

المقصود أن هذا الحديث فيه تنبيه على أمور ثلاثة مهمة:

أولًا: الحث على الحرص؛ والحرص: هو بذل الأسباب الجائزة الممكنة؛ إذًا من ترك استعمال الأسباب المحرمة لا يقال إنه لم يحرص، ومن ترك ما لا قدرة له عليه وما كان خارجًا عن طاقته لا يقال إنه لم يحرص. إذًا الحرص هو أن تبذل المستطاع في حدود ما أبيح.

وثانيًا: أن تجعل همتك في حرصك على ما ينفعك في أمر دينك وأمر دنياك؛ وذلك أن من الناس من يكون عنده حرصٌ ونشاطٌ وبذل، لكنَّه لا يوفَّق إلى ما ينفعه، تجد حرصه في الشيء الذي يضره؛ إما في العاجلة، وإما في الآجلة، وهذا من قلة التوفيق، ومن الخذلان والحرمان.

✧ **والأمر الثالث**: أن يستعين الإنسان بالله ﷻ؛ وهذا هو أساس التوفيق، فإذا لم يكن عون من الله ﷻ للعبد فليس له إلا الخيبة والحرمان.

إذا لم يكن عَوْنٌ من الله للفتى فأَوَّلُ ما يجني عليه اجتهادُهُ

ينبغي على الإنسان أن يستعين بالله، والألف والسين والتاء للطلب؛ يعني أن يسأل الله، أن يطلب من الله العون، وقد ثبت في حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا من دعاء النبي ﷺ: «ربِّ أعني ولا تُعِن عليَّ».

إذًا هذه ثلاثة أمور سعادة العبد في اجتماعها:

أولًا: أن يكون ذا حرصٍ تاركًا للعجز وتاركًا للكسل وتاركًا للمهانة، ومجانبًا للدَعَة والراحة عند الأمور المهمة.

وثانيًا: أن يكون هذا الحرص موجَّهًا إلى الشيء الذي ينفع الإنسان في دينه ودنياه، لا أن يكون حرصه فيما يعود عليه بالضرر في دينه ودنياه (٩٠٩).

ومِلاكُ ذلك بالأمر الثالث(٩١٠): أن يكون عند الإنسان استعانةٌ بالله ﷻ؛ طلبٌ لتوفيقه، طلبٌ لمدِّ العبد برحمةٍ منه ﷻ، وهذا لا شك أنَّه به يتحقق

---

(٩٠٩) وسعادة الإنسان في أن يحرص، وأن يكون حرصه على ما ينفع، فلابدَّ لسعادة الإنسان في دينه ودنياه أن يكون عنده الأمران: أن يكون عنده حرص، وأن يوجِّه هذا الحرص إلى ما ينفعه في دينه ودنياه.

(٩١٠) وباجتماع هذين الأمرين -الحرص على ما ينفع، والاستعانة بالله- يتحقق التوكل؛ فإنَّنا قد علمنا أن حقيقة التوكل مُركبةٌ من هذين الأمرين: من بذل الأسباب، ومن

التوكل على الله ﷻ، فإننا قد علِمنا أنَّ التوكل حقيقةٌ مركبة من بذلِ السبب مع التفويض لله ﷻ ومع الثقة بالله ﷻ.

إذًا من اجتمع في حقه هذه الأمور الثلاثة فليبشر بالخير، فإنه يفوز بالتوفيق والسعادة.

قال ﷺ: «**ولا تعجَز**» ولك أن تقول: «ولا تعْجِز»[٩١١]، والرواية على ما أورده المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيها تأكيد بذكر النون «**ولا تعجزن**» زيادة في التأكيد.

وليس مراد النبي ﷺ بالعجز هاهنا ما يرجع إلى معنى انتفاء القدرة، كأن يصاب الإنسان بمانعٍ يمنعه من بذل الأسباب، كأن يصاب بشلل يمنعه من الحركة مثلًا، ليس المقصود أن يُنهى الإنسان عن هذا العجز الذي يكون فيه امتناعٌ لبذل الأسباب، فالشريعة لا تأتي بتكليف ما لا يُطاق. إنما المراد بالعجز هاهنا ما يرجع إلى معنى الكسل وترك النشاط والجهد وبذل الأسباب، وما يرجع إلى الدعة والركون إلى المهانة؛ فمثلُ هذا هو الذي نهى عنه النبي ﷺ في قوله: «**ولا تعجز**»[٩١٢].

الاعتماد على مسبِّبها جلَّ وعلا، والنبي ﷺ أمرَ بهذين الأمرين: (احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ باللهِ).

(٩١١) بالفتح والكسر.

(٩١٢) والمقصود بالعجز: هو التقصير في فعل الأسباب الممكنة؛ فإن من الغَبْن ومن الخسارة أن يكون حال الإنسان حال المتعاجِز الذي يُقصِّر في فعل الأسباب التي ينتج عنها حصول الخير عليه في دينه ودنياه.

قال ﷺ: « **وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا لَكَانَ كَذَا وَكَذَا؛ وَلَكِنْ قُلْ: قَدَّرَ اللهُ، وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ**»(٩١٣)؛ **إذا كان العبد مستقبلًا أمرًا** فإن الذي ينبغي عليه أن يجعل همته منصرفةً إلى تحقيق هذه الأمور الثلاثة: الحرص على ما ينفع مع الاستعانة بالله ﷻ.

أما في الأمر الذي فرَط وحصل وقُضي وكان على خلاف ما يُؤمِّل الإنسان، أصاب الإنسان شيءٌ كدَّر خاطره لم يكن مؤملًا عنده، **هو في هذه الحالة بين أمرين:**

١. إما أن يركن إلى (لو) التي تقوده إلى مرتعٍ وخيم وهو الحزن والأسف واليأس والبؤس؛ وهذا هو الذي يريد الشيطان أن يظفر من العبد به، يريد أن يقوده إلى هذا المكان حتى إنه إذا كان ذا بؤس وذا يأسٍ وأسفٍ وحزن فإنه سوف يترك النشاط في طاعة الله ﷻ، والشريعة حريصةٌ على أن تكون يا عبد الله سعيدًا نشيطًا مقبِلًا على الخير قوي القلب، لأنك إن كنت كذلك عبدتَ الله ﷻ على الوجه المرضي، كن سعيدًا حتى تعبد الله كما ينبغي(٩١٤).

---

(٩١٣) **(إن أصابك شيء)** غُلِبْتَ على الأمر ونزل بك ما تكره **(فلا تقل: لو كان كذا لكان كذا وكذا)** فإن (لو) تُلْقي بالإنسان إلى مواضع الضرر كما قال عليه الصلاة والسلام. «**ولكن قُلْ: قدَر الله ومَا شاء فعل**»؛ يعني هذا قدر الله، وبعضهم يقول: «قدَّر الله وما شاء فعل».

(٩١٤) والله ﷻ يريد من عباده أن يكونوا أهل انشراحٍ في صدورهم وسعادةٍ في قلوبهم؛ لأن الإنسان إذا كان كذلك نشِطَ للعبادة وتوجَّه لِمَا هو مأمورٌ به.بخلاف حال اليائس

أما إذا ركنت إلى (لو) حين يصيبك الشيء الذي تكره ترجع باللائمة على نفسك أو على غيرك فتقول: "لو فعلت كذا لما كان كذا"، "ولو أني فعلت كذا كان كذا وكذا"؛ هذا كله لا فائدة منه بل هو حُمْقٌ في العقل وضعفٌ في الفكر، لأنه لا يعود عليك بشيء فائت ، إنما هو تضييع للزمان، كما فاتك الأمر الأول سيفوتك خيرٌ قادم وأنت باقٍ في حال الفوت والحسرة.

أضف إلى هذا ما يقع فيه الإنسان من هذا الحزن واليأس الذي قد يجر إلى سوء الظن بالله ﷻ أو القدح في قدر الله جَلَّوَعَلَا.

إذًا المطلوب من المسلم أن يدَع هذا الأمر، أن يدع التأسف على ما مضى واستعمال كلمة (لو) في هذا المقام. وهذا مع الأسف الشديد مما يقع من كثير من الناس إذا نزل بهم من شيء يكرهونه تبدأ (لو) عندهم في العمل، تجد أحدهم يقول:" لو أني ما خرجت في هذا اليوم ما أصابني الحادث"، أو تجد الأب يقول لابنه:" يا ابني لو سمعت كلامي ما صار عليك كذا وكذا"، وهذا لا شك أنه أمرٌ مخالفٌ للواجب على العبد، ليس من الأمر المرضي شرعًا أن تقول هذا القول؛ لأنه لا فائدة منه، ولأنه يقود إلى الشر.

البائس الذي شأنه الندم والتحسر على ما مضى؛ فإن هذا لا يكاد يتوجه إلى خيرٍ غالبًا، معَ في حاله من ضعْف العقل والحُمق؛ وذلك أن التحسر على الأمر الذي نفذ لا ينفع الإنسان شيئًا، ولن يردَّ أمرًا فارضًا، وإنما هو غمٌّ للإنسان في وقته الحالي أيضًا، فكما فات عليه الأمر الذي رغبه فيما مضى يفوته بحسب ما أضاع من وقته يفوته من الخير الذي هو متمكنٌ من الوصول إليه. إذًا كانت «لو» تفتح عمل الشيطان.

علل النبي ﷺ الأمر بقوله عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: « **فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ**»، وما هو عمل الشيطان؟ **عمل الشيطان أمران:**

❖ **أولًا**: الاعتراض على الله ﷻ؛ وذلك أن العبد في قوله: "لو كان كذا لكان كذا وكذا" لا يخلو من اعتراضٍ على قدر الله ﷻ، وإبراز عدم رضاه عما قضاه ﷻ. كذلك الحال من إبليس فإنه قد عارض الله ﷻ في أمره، أليس هو الذي قال: ﴿أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾[الإسراء:٦١]،﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾[ص:٧٦]، فالعبد الذي يستعمل هذه الكلمة في هذا السياق يكون قد عمِل عمَل الشيطان وهو الاعتراض على الله ﷻ، يعترض عليه في قدَره كما اعترض الشيطان على الله ﷻ في أمره.

❖ **الأمر الثاني**: هو أنه في استعماله هذه الكلمة في هذا السياق يقع في الحزن، والإحزانُ من عمل الشيطان، من وظيفة الشيطان إحزان عباد الله ﷻ، ألم يقل الله ﷻ: ﴿ إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ﴾ لمَ؟ ﴿لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾[المجادلة:١٠]، **إذًا** من عمل الشيطان الإحزان، كذلك (لو) من عملها أنها توقع العبد في الحزن؛ فتحقق قول النبي ﷺ: « **فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ**».

قال بعض العقلاء[٩١٥]: «إذا نزل بك أمر مهم فأنظر: فإن كان لك فيه حيلة فلا تعجز، وإن لم يكن لك فيه حيلة فلا تجزع». هكذا ينبغي على الإنسان أن يقابل هذا الأمر الذي نزل به.

قلت قبل قليل؛ **أنه إذا نزل به الأمر المكروه هو بين نظرين:**

---

(٩١٥) ابن المُقفَّع.

١. أن يذهب إلى (لو) وما يتبعها من مفاسد.

٢. أو أن يلاحظ القدر ومشيئة الله النافذة، فإن قدر الله ﷻ نافذ شاء الإنسان أم أبى ؛ إذًا لا حاجة له إلى التأسف وإلى هذا الحزن، بل إن الذي ينبغي أن يرضى الإنسان بقدر الله ﷻ . إذا لاحظ أن مشيئة الله ﷻ نافذة وأن له الحكمة فيما يقدر وفيما يخلق ﷻ أدَّاه ذلك إلى طمأنينة وإلى سكينة، وربما ارتقى إلى درجةٍ عليا وهي الرضا بقدر الله ﷻ ، وهذا ما عليه الكُمَّلُ من عباد الله الذين يستيقنون بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[المائدة:٥٠][٩١٦].

---

(٩١٦) **إذًا الخلاصة**: أن المسلم في حال وقوع الشيء الذي يكرهه مأمورٌ بملاحَظة قدرة الله ﷻ ومشيئة النافذة، لِذا كان مأمورًا بأن يستحضر هذا في نفسه (**قدَر الله وما شاء فعل**) ؛ فإن هذا مِمَّا يُكسِبه الطمأنينة والسكينة وحُسن الظنّ بالله ﷻ، لأنَّ الله إنما يُقدِّر الخير لعبده المؤمن، وتقدير الله لكَ -يا عبد الله- خيرٌ من تقديرك لنفسك، واختيار الله لك خيرٌ من اختيارك لنفسك.

قال المصنف رحمه الله:

٥٨-بَابُ
النَّهْيِ عَنْ سَبِّ الرِّيح

عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَسُبُّوا الرِّيحَ؛ فَإِذَا رَأَيْتُمْ مَا تَكْرَهُونَ فَقُولُوا: اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ هَذِهِ الرِّيحِ، وَخَيْرِ مَا فِيهَا، وَخَيْرِ مَا أُمِرَتْ بِهِ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ هَذِهِ الرِّيحِ، وَشَرِّ مَا فِيهَا، وَشَرِّ مَا أُمِرَتْ بِهِ». صَحَّحَهُ التِّرْمِذِيُّ.



قال الشارح وفقه الله:

هذا الباب عقده المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ للتنبيه على النَّهي عن سب الريح، والريح -والأكثر في لغة العرب تأنيثها- جندٌ من جنودِ الله ﷻ مُصرَّفةٌ ومُدبَّرةٌ ومأمورةٌ من الله ﷻ؛ الله جَلَّ وَعَلَا يصرَّفها إذا شاء كيف شاء، فسبُّها وذمها -إضافةً إلى ما فيه من ضعف العقل [٩١٧]- يستلزمُ سبَّ مسخِّرها ومدبِّرها وهو الله ﷻ، لأجل ذلك كان ترك ذلك من تحقيق التوحيد الواجب.

ولو أنَّ إنسانًا خطر في باله حين سبِّ الريح خطر في باله سبُّ من دبّرها فلا شك أن هذه ردة صريحة، لكن الغالب أن من يفعل ذلك لا يستحضر هذا الأمر، لكن كون هذا مُستلزمًا لسبِّها كافٍ في النَّهي والزجر عن سب الريح، فيكون الشأن في هذا الباب كالشأنِ في سب الدهر، وقد مر بنا تفصيل الكلام في ذلك، والله تعالى أعلم.

---

(٩١٧) حيث وجَّه السبَّ إلى من لا يستحق.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَسُبُّوا الرِّيحَ؛ فَإِذَا رَأَيْتُمْ مَا تَكْرَهُونَ فَقُولُوا: اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ هَذِهِ الرِّيحِ، وَخَيْرِ مَا فِيهَا، وَخَيْرِ مَا أُمِرَتْ بِهِ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ هَذِهِ الرِّيحِ، وَشَرِّ مَا فِيهَا، وَشَرِّ مَا أُمِرَتْ بِهِ» صَحَّحَهُ التِّرْمِذِيُّ).

حديث أُبَيٍّ هذا قال فيه الترمذي: (حسن صحيح)[٩١٨]، وهو كما قال حديث صحيحٌ ثابتٌ عن النبي ﷺ، وله شاهدٌ من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا في صحيح مسلم وهو: أنَّ النبي ﷺ كان إذا عصفت الريح قال: «اللهم إني أسألك من خيرها، وخير ما أرسلت به وخير ما فيها، وأعوذ بك من شرها وشر ما أُرسلت به وشر ما فيها» أو كما قال النبي ﷺ.

وهذا الحديث يشتمل على أمرين:

➢ **الأول**: النَّهي عن سب الريح، وعلة ذلك ما قد علمت؛ وهو أن سبها يستلزم سب مرسلها؛ لأنه ليس منها شيء، لا يصدر عنها الفعل أو الشيء لذاتها، إنما هي مرسلة مسخرة مأمورة، وبالتالي استلزم سبُّها سبّ من أرسلها؛ فلأجل ذلك جاء النهي عن النبي ﷺ عن سبها.

➢ **الأمر الثاني**: الإرشاد إلى المشروع[٩١٩]؛ كما قد علمنا ومر بنا هذا مراراً، وهو أن النبي ﷺ في كثيرٍ من الأمور إذا أغلق الباب الممنوع فتح الباب المباح، بيَّن

---

(٩١٨) وصحَّحه غيره رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ.

(٩١٩) أرشد النبي ﷺ على عادته في التوجيه إلى الصواب بعد النَّهي عن الخطأ إلى ما يُشرع للمسلم.

للناس ما هو مشروع فقال: (إِذَا رَأَيْتُمْ مَا تَكْرَهُونَ)؛ إذا كانت الريح فيها أذية أو حملت برداً شديداً أو حملت حراً شديداً أو كانت قويةً قلعت الأشجار والأبواب وما إلى ذلك، شرع لنا أن نقول هذا الدعاء.

وبالتالي فإننا نعلم أن الريح على نوعين:

١. **ريح خفيفة معتادة غير مؤذية**؛ فهذه لا يشرع أن يقول الإنسان عندها شيء.

٢. **وريح عاصف، ريح قوية مؤذية**، لحديث عائشة قالت: (كان إذا عصفت الريح)، وفي هذا الحديث الذي بين أيدينا قال: (إذا رأيتم ما تكرهون)؛ فإذا كانت الريح قوية ومخيفة فهذه هي التي يشرع فيها أن يدعو الإنسان بهذا الدعاء؛ وهو أن يسأل الإنسان الله جَلَّوَعَلَا من خيرها .

ولاحظ أن هذا الحديث أضيف فيه الخير والشر إلى الريح؛ وهذه إضافة سببية لا إضافة استقلالية؛ يعني ليست الريح تتضمن من ذاتها الخير والشر، إنما هي سببٌ، يجعلها الله سبباً للخير ويجعلها الله سبباً للشر.

الله جَلَّوَعَلَا قد يجعل الريح سبباً للخير، كما قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾ [الحجر:٢٢]، وقال سبحانه: وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾ [الروم:٤٦]. قد تكون سبباً للنصر، قال الله جَلَّوَعَلَا : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾ [الأحزاب:٩]، قال ﷺ: «نُصِرتُ بالصبا، وأُهلِكتْ عادٌ بالدَّبُور»؛ (الصبا) على وزن عصا، و(الدبور) على وزن رسول، الصبا: ريح تهب من جهة المشرق، والدبور: ريحٌ تهب من جهة

المغرب. المقصود أنَّ الريح قد تكون سببًا للخير وهذا ما يسأله الإنسان ربه تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، أن يجعل هذه الريح سببًا لحصول الخير له ولغيره.

وقد تكون سببًا للشر؛ الله جَلَّوَعَلَا قال: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ [الذاريات:٤١]، وقال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾[فصلت:١٦]، فهذه الريح قد تكون سببًا للشر وقد تكون سببًا للبلاء، فيسأل الله أن يصرف عنه هذا الشر، أن لا تكون هذه الريح سببًا لشر يناله.

إذًا هذا الذي سأله النبي ﷺ ربه وهذا الذي أرشد أمته إليه؛ أن يسأل الإنسان ربَّه من خير هذه الريح وخير ما فيها؛ يعني ما يترتب على وجودها، فإنه قد يترتب على وجودها وينتج عن مجيئها وهبوبها خير، أو ينتج ضد ذلك؛ فيسأل الله أن يعطيه ثمار هذه الريح الخيِّرة، وأن يصرف عنه ما كان بضد ذلك(٩٢٠).

---

(٩٢٠) **وهذا السؤال الذي أخبر به النبي ﷺ تضمن ثلاثة أمور:**

الأول: إضافة الخير والشر لها؛ (**خير هذه الريح وشرها**)، وهذه الإضافة إضافة سببية لا إضافة استقلالية.

والأمر الثاني: أنَّها ظرفٌ أيضًا للخير والشر؛ ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأحقاف:٢٤]، (**خير ما أُرسِلت به، وشر ما أُرسِلت به**).

الأمر الثالث: أنَّها مأمورة (وما أُمِرَت به)، ولا شكَّ أن الرياح مأمورة من ربها وخالقها أمرًا حقيقيًا ، قد جعل الله ﷻ فيها إدراكًا لهذا الأمر، ولا شكَّ أنها مُطيعة لله ﷻ لا تعصيه. وهذا

قال: (وخير ما أرسلت به)، وجاء في بعض الروايات: (وَخَيْرِ مَا أُمِرَتْ بِهِ)، وهذا يدلك على أن الريح مأمورة من الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، تستمع الأمر وتستجيب الأمر لله جَلَّوَعَلَا، هي تؤمر من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فتستجيب طائعةً لله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، وهكذا كل ما في السموات والأرض فإنه مطيع لله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ.

وإذا كانت الريح مطيعةً لأمر من سخرها الله عَزَّوَجَلَّ له من المخلوقين، فكيف بالنسبة لمسخرها وخالقها ومدبرها!! فالله جَلَّوَعَلَا أخبر أنه سخر الرياح لسليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قال: ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾[ص:٣٦]، فهي تستجيب لأمر سليمان بتسخير الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فكيف باستجابتها لأمره هو تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ!!.

إذًا الريح تُرسل وتؤمر وتُسخر من الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، وهو جَلَّوَعَلَا يسخرها ويدبرها كيف يشاء، هي جندٌ من جنوده مطيعةٌ له سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ولذلك يسأل الإنسانَ ربه جَلَّوَعَلَا من خير ما أرسلت به ومن خير ما أمرت به، ويستعيذ بالله أن يصرف عنه شر ما أمرت به. إذًا هذا هو الذي يُشرع للمسلم في شأن الريح.

والخلاصة: أنَّ على الإنسان أن يتحفظ من كل ما يقدح أو ما يستلزم القدح في توحيده، ومن ذلك أن يسب الريح؛ فإن هذا كما قد علِمت مما قد يستلزم سبَّ مرسلها. والله تعالى أعلم.



الشأن في كل ما خلق الله عَزَّوَجَلَّ، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ في السماوات والأرض: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت:١١].

قال المصنف رحمه الله:

٥٩-بَابُ

قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ الآيَةَ

[آل عمران:١٥٤].

وَقَوْلُه: ﴿ الظَّانِّينَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ [الفتح:٦] الآيَةَ.

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي الآيَةِ الأُولى: «فُسِّرَ هَذَا الظَّنُّ بِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَا يَنْصُرُ رَسُولَهُ، وَأَنَّ أَمْرَهُ سَيَضْمَحِلُّ، وَفُسِّرَ بِأَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ بِقَدَرِ اللهِ وَحِكْمَتِهِ، فَفُسِّرَ بِإِنْكَارِ الْحِكْمَةِ وَإِنْكَارِ الْقَدَرِ، وَإِنْكَارِ أَنْ يُتِمَّ أَمْرَ رَسُولِهِ، وَأَنْ يُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ.

وَهَذَا هُوَ ظَنُّ السَّوْءِ، الَّذِي ظَنَّ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُشْرِكُونَ فِي سُورَةِ الْفَتْحِ، وَإِنَّمَا كَانَ هَذَا ظَنَّ السَّوْءِ؛ لِأَنَّهُ ظَنُّ غَيْرِ مَا يَلِيقُ بِهِ سُبْحَانَهُ، وَمَا يَلِيقُ بِحِكْمَتِهِ وَحَمْدِهِ وَوَعْدِهِ الصَّادِقِ.

فَمَنْ ظَنَّ أَنَّهُ يُدِيلُ الْبَاطِلَ عَلَى الْحَقِّ إِدَالَةً مُسْتَقِرَّةً يَضْمَحِلُّ مَعَهَا الْحَقُّ، أَوْ أَنْكَرَ أَنْ يَكُونَ مَا جَرَى: بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، أَوْ أَنْكَرَ أَنْ يَكُونَ قَدَّرَهُ لِحِكْمَةٍ بَالِغَةٍ يَسْتَحِقُّ عَلَيْهَا الْحَمْدَ، بَلْ زَعَمَ أَنَّ ذَلِكَ لِمَشِيئَةٍ مُجَرَّدَةٍ، فَذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا، فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ. وَأَكْثَرُ النَّاسِ يَظُنُّونَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ فِيمَا يَخْتَصُّ بِهِمْ، وَفِيمَا يَفْعَلُهُ بِغَيْرِهِمْ، وَلَا يَسْلَمُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا مَنْ عَرَفَ اللهَ وَأَسْمَاءَهُ وَصِفَاتِهِ، وَمُوجِبَ حِكْمَتِهِ وَحَمْدِهِ.

فَلْيَعْتَنِ اللَّبِيبُ النَّاصِحُ لِنَفْسِهِ بِهَذَا، وَلْيَتُبْ إِلَى اللهِ، وَيَسْتَغْفِرْهُ مِنْ ظَنِّهِ بِرَبِّهِ ظَنَّ السَّوْءِ. وَلَوْ فَتَّشْتَ مَنْ فَتَّشْتَ؛ لَرَأَيْتَ عِنْدَهُ تَعَنُّتًا عَلَى الْقَدَرِ وَمَلَامَةً لَهُ، وَأَنَّهُ كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ كَذَا وَكَذَا، فَمُسْتَقِلٌّ وَمُسْتَكْثِرٌ، وَفَتِّشْ نَفْسَكَ هَلْ أَنْتَ سَالِمٌ؟

فَإِنْ تَنْجُ مِنْهَا تَنْجُ مِنْ ذِي عَظِيمَةٍ ... وَإِلَّا فَإِنِّي لَا إِخَالُكَ نَاجِيًا».



قال الشارح وفقه الله:

هاتان آيتان عظيمتان أوردهما المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الباب؛ للدِلالة على وجوب حسن الظن بالله جَلَّ وَعَلَا[٩٢١]، وعلى النهي المؤكد عن إساءة الظن بالله جَلَّ وَعَلَا.

فآية آل عمران الأولى مر بنا طرفٌ من الحديث عن الآية التي بعدها في الباب الذي قبل هذا الباب الماضي، وفيه أنَّ من حال المنافقين أنهم يظنون بالله غير الحق، ووصف هذا الظن بأنه ظنُّ الجاهلية.

---

(٩٢١) وأنَّ هذا من حقيقة التوحيد .

وفي الآية الثانية، في آية الفتح بيَّن الله ﷻ النهي المؤكد عن ظن السوء بالله جَلَّوَعَلَا. وظن السوء وظن غير الحق بالله جَلَّوَعَلَا شيء واحد؛ هو ظن الجاهلية، وهو شأن المشركين والمنافقين كما دلت على هذا آية الفتح، ﴿الظَّانِّينَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾[الفتح:٦].

ولاحظ أنَّه قد جاءت كلمة السوء مرتين في آية الفتح؛ ﴿الظَّانِّينَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ واتفاق القراء العشرة على فتح السين في قوله ﴿السَّوْءِ﴾، وأما الكلمة التي بعدها: ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ فالجمهور أيضاً على فتح السين، وقرأ بعض القراء وهو ابن كثير وأبو عامر بضمِّها، ولا شك أن الأكثر في اللغة والأشهر في اللغة هو فتح السين.

والمقصود: أنَّ ظن السوء وأن ظن غير الحق في الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ هو ظن الجاهلية، وضابطه: أن يُظن بالله ﷻ خلافُ ما يليق به. هذا هو ظن الجاهلية، هذا هو ظن السوء بالله ﷻ، هذا هو أن يُظنَّ بالله غير الحق.

الضابط: أن يُظن بالله ﷻ خلافُ ما يليق به؛ الله ﷻ ما يليق به يليق بربوبيته وألوهيته ومقتضى أسماءه وصفاته، الذي يليق به كل خير وكل إحسان وكل كمال؛ فمن ظن في الله ﷻ خلاف ذلك فإنه يكون قد ظن بالله ﷻ ظن السوء[٩٢٢]، فشابه حال المشركين وحال المنافقين. وهذا بابٌ واسع يدخل تحته أنواعٌ كثيرة جداً مما يقع في الناس قديماً وحديثاً.

---

(٩٢٢) ولا شكَّ أن هذا محرمٌ وقادحٌ في كمال التوحيد الواجب، وقد يكون قادحًا في أصل التوحيد وناقضًا له .

كلام المفسرين عن هاتين الآيتين متقارب، لو رجعت إلى كلامِ المفسرين في آية آل عمران وآية الفتح لوجدت أنَّ كلامهم متقارب، تجد أنه قد فُسِّر ظن غير الحق أو ظن السوء بالله ﷻ: أنَّ الله ﷻ يجعل دين النبي ﷺ مضمحلاً وأنه لا ينصر نبيه ﷺ، تجد أنهم يفسرون أيضًا بإنكار القدر، أو إنكار حكمة الله ﷻ، أو إنكار البعث، وكلَّ ذلك لا شك أنه داخل في ظن غير الحق في الله ﷻ أو ظن السوء به سبحانه وتعالى.

لكن لا شك أنَّ عموم اللفظ وعموم ما يدخل في مضمون هذا المعنى لا شك أنه أوسع من ذلك بكثير، ولأجل ذلك أورد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ كلامًا حسنًا نفيسًا اختصره من كلام ابن القيم وهو أطول في كتابه «زاد المعاد»، وهذا ما سنقرأ مختصره ثم نعود إلى أصله فنقرأه إن شاء الله.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي الآيَةِ الأُولى: فُسِّرَ هَذَا الظَّنُّ بِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَا يَنْصُرُ رَسُولَهُ، وَأَنَّ أَمْرَهُ سَيَضْمَحِلُّ، وَفُسِّرَ بِأَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ بِقَدَرِ اللهِ وَحِكْمَتِهِ، فَفُسِّرَ بِإِنْكَارِ الْحِكْمَةِ، وَإِنْكَارِ الْقَدَرِ، وَإِنْكَارِ أَنْ يُتِمَّ أَمْرَ رَسُولِهِ وَأَنْ يُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ. وَهَذَا هُوَ ظَنُّ السَّوْءِ، الَّذِي ظَنَّ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُشْرِكُونَ فِي سُورَةِ الْفَتْحِ، وَإِنَّمَا كَانَ هَذَا ظَنَّ السَّوْءِ؛ لِأَنَّهُ ظَنُّ غَيْرِ مَا يَلِيقُ بِهِ سُبْحَانَهُ، وَمَا يَلِيقُ بِحِكْمَتِهِ وَحَمْدِهِ وَوَعْدِهِ الصَّادِقِ.

فَمَنْ ظَنَّ أَنَّهُ يُدِيلُ الْبَاطِلَ عَلَى الْحَقِّ إِدَالَةً مُسْتَقِرَّةً يَضْمَحِلُّ مَعَهَا الْحَقُّ، أَوْ أَنْكَرَ أَنْ يَكُونَ مَا جَرَى بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، أَوْ أَنْكَرَ أَنْ يَكُونَ قَدَّرَهُ لِحِكْمَةٍ بَالِغَةٍ

يَسْتَحِقُّ عَلَيْهَا الْحَمْدَ، بَلْ زَعَمَ أَنَّ ذَلِكَ لِمَشِيئَةٍ مُجَرَّدَةٍ، فَذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا، فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ).

ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ كلامه في كتابه «زاد المعاد» وهو في الجزء الثالث ضمن الفوائد التي ساقها مما يستفاد من سورة أُحُد، كلامه في ذلك طويل والمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ إنما اختصر هذا الكلام وأتى ببعضه، ورأيت من المناسب أن نقرأ كلام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ كاملاً فإنه من أحسن الكلام في تفسير هاتين الآيتين، بل لعلك لا تظفر بتفسيرٍ كهذا التفسير في غير هذا الكتاب[٩٢٣].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَقَدْ فُسِّرَ هَذَا الظَّنّ الّذِي لَا يَلِيقُ بِاَللّهِ بِأَنّهُ سُبْحَانَهُ لَا يَنْصُرُ رَسُولَهُ وَأَنّ أَمْرَهُ سَيَضْمَحِلّ وَأَنّهُ يُسْلِمُهُ لِلْقَتْلِ، وَقَدْ فُسّرَ بِظَنّهِمْ أَنّ مَا أَصَابَهُمْ لَمْ يَكُنْ بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ وَلَا حِكْمَةَ لَهُ فِيهِ، فَفُسّرَ بِإِنْكَارِ الْحِكْمَةِ، وَإِنْكَارِ الْقَدَرِ، وَإِنْكَارِ أَنْ يُتِمّ أَمْرَ رَسُولِهِ وَيُظْهِرَهُ عَلَى الدّينِ كُلّهِ[٩٢٤]؛ وَهَذَا هُوَ ظَنُّ السَّوْءِ الَّذِي ظَنَّ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُشْرِكُونَ به سبحانه وتعالى فِي سُورَةِ الفَتْحِ حيث يقول: ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ

---

(٩٢٣) فإن في طيَّات كلامه من الفوائد والدُّرر والنفائس ما يُحرَصُ عليه.

(٩٢٤) أكثر كلام المفسّرين يدور على هذه الأمور الثلاثة، ولكن الأمر بالنظر إلى حقيقة المعنى أوسع من ذلك.

وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح:٦] [٩٢٥]. وَإِنَّمَا كَانَ هَذَا ظَنَّ السَّوْءِ وَظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ الْمَنْسُوبَ إِلَى أَهْلِ الْجَهْلِ وَظَنَّ غَيْرِ الْحَقِّ لِأَنَّهُ ظَنّ غَيْرِ مَا يَلِيقُ بِأَسْمَائِهِ الْحُسْنَى وَصِفَاتِهِ الْعُلْيَا وَذَاتِهِ الْمُبَرَّأَةِ مِنْ كُلِّ عَيْبٍ وَسُوءٍ، بِخِلَافِ مَا يَلِيقُ بِحِكْمَتِهِ وَحَمْدِهِ وَتَفَرُّدِهِ بِالرُّبُوبِيَّةِ وَالْإِلَهِيَّةِ وَمَا يَلِيقُ بِوَعْدِهِ الصَّادِقِ الَّذِي لَا يُخْلِفُهُ، وَبِكَلِمَتِهِ الَّتِي سَبَقَتْ لِرُسُلِهِ أَنَّهُ يَنْصُرُهُمْ وَلَا يَخْذُلُهُمْ، وَلِجُنْدِهِ بِأَنَّهُمْ هُمُ الْغَالِبُونَ فَمَنْ ظَنَّ بِأَنَّهُ لَا يَنْصُرُ رَسُولَهُ وَلَا يُتِمّ أَمْرَهُ وَلَا يُؤَيِّدُهُ وَيُؤَيِّدُ حِزْبَهُ وَيُعْلِيهِمْ وَيُظْفِرُهُمْ بِأَعْدَائِهِ وَيُظْهِرُهُمْ عَلَيْهِمْ وَأَنَّهُ لَا يَنْصُرُ دِينَهُ وَكِتَابَهُ، وَأَنَّهُ يُدِيلُ الشِّرْكَ عَلَى التَّوْحِيدِ وَالْبَاطِلَ عَلَى الْحَقِّ إِدَالَةً مُسْتَقِرَّةً يَضْمَحِلّ مَعَهَا التَّوْحِيدُ وَالْحَقّ اضْمِحْلَالًا لَا يَقُومُ بَعْدَهُ أَبَدًا؛ فَقَدْ ظَنَّ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ وَنَسَبَهُ إِلَى خِلَافِ مَا يَلِيقُ بِكَمَالِهِ وَجَلَالِهِ وَصِفَاتِهِ وَنُعُوتِهِ).

لا شك أن هذا من ظن السوء، وهذا مما يجب أن يحذره المسلم، وكم يُداخِل هذا الظنُّ نفوس أناس وأناس! يظنون أن الحق لن ينتصر، وأن جند الله ﷻ لن تكون لهم الغلبة؛ وهذا من أبطل الباطل، ومن ظنَّه في الله ﷻ فقد ظن به ظن السوء، الله جَلَّوَعَلَا قد وعد -ووعده لا يُخلَف- أنَّ العاقبة للمتقين ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾[غافر:٥١]، ﴿وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾[الصافات:١٧٣]، لكن لابد من حصول الابتلاء والامتحان،

---

(٩٢٥) في اللّغة يجوز أن تقول: (سَوْء) و (سُوء)، لكن بالفتح أشهر وأكثر، حتى إن بعض أهل اللّغة يقول: لا يكاد يوجد سُوء، وهذا ما جاء به القرآن: ﴿ظَنَّ السَّوْءِ﴾.

وتقدُّم هذا النصر أو تأخره أمرٌ راجع إلى حكمة الله جَلَّوَعَلَا وليس للإنسان أن يستعجل، لكن كون الحق منصورًا هذا أمرٌ قطعي لا شك فيه.

والحق منصور وممتحنٌ فلا تعجب فهذه سنة الرحمنِ

الامتحان لابد من حصوله، لكن لابد أن تكون العاقبة للمتقين.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فَإِنّ حَمْدَهُ وَعِزّتَهُ وَحِكْمَتَهُ وَإِلَهِيّتَهُ تَأْبَى ذَلِكَ، وَتَأْبَى أَنْ يُذَلّ حِزْبُهُ وَجُنْدُهُ وَأَنْ تَكُونَ النّصْرَةُ الْمُسْتَقِرّةُ وَالظّفَرُ الدّائِمُ لِأَعْدَائِهِ الْمُشْرِكِينَ بِهِ الْعَادِلِينَ بِهِ، فَمَنْ ظَنّ بِهِ ذَلِكَ فَمَا عَرَفَهُ وَلَا عَرَفَ أَسَمَاءَهُ وَلَا عَرَفَ صِفَاتِهِ وَكَمَالَهُ. وَكَذَلِكَ مَنْ أَنْكَرَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ فَمَا عَرَفَهُ وَلَا عَرَفَ رُبُوبِيّتَهُ وَمُلْكَهُ وَعَظَمَتَهُ. وَكَذَلِكَ مَنْ أَنْكَرَ أَنْ يَكُونَ قَدّرَ مَا قَدّرَهُ مِنْ ذَلِكَ وَغَيْرِهِ لِحِكْمَةٍ بَالِغَةٍ وَغَايَةٍ مَحْمُودَةٍ يَسْتَحِقُّ الْحَمْدَ عَلَيْهَا، وَأَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا صَدَرَ عَنْ مَشِيئَةٍ مُجَرّدَةٍ عَنْ حِكْمَةٍ وَغَايَةٍ مَطْلُوبَةٍ هِيَ أَحَبّ إلَيْهِ مِنْ فَوْتِهَا، وَأَنّ تِلْكَ الْأَسْبَابَ الْمَكْرُوهَةَ الْمُفْضِيَةَ إلَيْهَا لَا يَخْرُجُ تَقْدِيرُهَا عَنْ الْحِكْمَةِ لِإِفْضَائِهَا إلَى مَا يُحِبّ وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُوهَةً لَهُ؛ فَمَا قَدّرَهَا سُدًى وَلَا أَنْشَأَهَا عَبَثًا وَلَا خَلَقَهَا بَاطِلًا ﴿ذَلِكَ ظَنّ الّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النّارِ﴾ [ص:٢٧] . وَأَكْثَرُ النّاسِ يَظُنّونَ بِاللّهِ غَيْرَ الْحَقّ ظَنّ السّوْءِ فِيمَا يَخْتَصّ بِهِمْ وَفِيمَا يَفْعَلُهُ بِغَيْرِهِمْ، وَلَا يَسْلَمُ عَنْ ذَلِكَ إلّا مَنْ عَرَفَ اللّهَ وَعَرَفَ أَسْمَاءَهُ وَصِفَاتِهِ وَعَرَفَ مُوجِبَ حَمْدِهِ وَحِكْمَتِهِ، فَمَنْ قَنَطَ مِنْ رَحْمَتِهِ وَأَيِسَ مِنْ رُوحِهِ فَقَدْ ظَنّ بِهِ ظَنّ السّوْءِ، وَمَنْ جَوّزَ عَلَيْهِ أَنْ يُعَذّبَ أَوْلِيَاءَهُ مَعَ إحْسَانِهِمْ وَإِخْلَاصِهِمْ وَيُسَوّيَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَعْدَائِهِ فَقَدْ ظَنّ بِهِ ظَنّ السّوْءِ. وَمَنْ ظَنّ بِهِ أَنْ يَتْرُكَ خَلْقَهُ سُدًى مُعَطّلِينَ عَنْ الْأَمْرِ وَالنّهْيِ وَلَا

يُرْسِلَ إِلَيْهِمْ رُسُلَهُ وَلَا يُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كُتُبَهُ بَلْ يَتْرُكُهُمْ هَمَلًا كَالْأَنْعَامِ فَقَدْ ظَنَّ بِهِ ظَنَّ السَّوْءِ. وَمَنْ ظَنَّ أَنَّهُ لَنْ يَجْمَعَ عَبِيدَهُ بَعْدَ مَوْتِهِمْ لِلثَّوَابِ وَالْعِقَابِ فِي دَارٍ يُجَازِي الْمُحْسِنَ فِيهَا بِإِحْسَانِهِ وَالْمُسِيءَ بِإِسَاءَتِهِ، وَيُبَيِّنَ لِخَلْقِهِ حَقِيقَةَ مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَيُظْهِرَ لِلْعَالَمِينَ كُلِّهِمْ صِدْقَهُ وَصِدْقَ رُسُلِهِ وَأَنَّ أَعْدَاءَهُ كَانُوا هُمُ الْكَاذِبِينَ فَقَدْ ظَنَّ بِهِ ظَنَّ السَّوْءِ).

لا شك أن كل من أنكر الحكمة والتعليل في أفعال الله ﷻ فقد ظن به ظن السوء، وهؤلاء كثيرٌ من المتكلمين الذين ينكرون الحكمة في أفعال الله ﷻ عندهم أن الله سبحانه إنما يخلق وإنما يفعل وإنما يقدِّر لمشيئةٍ محضة، لا أنَّ ثمة حكمة من وراء ذلك يحبها الله ﷻ ويريدها.

ولا شك أن هذا من أبطل الباطل ومن ظن خلاف ما يليق بالله ﷻ، حتى إن هؤلاء جوَّزوا في النظر أن يعذِّب الله أحب أولياءه إليه، وأن ينعِّم في أعلى جنة الخلد ألد أعداءه! لا فرق عندهم بين هذا وهذا، بين أن يكون أبو جهل في أعلى جنات الخلد أو في أسفل سافلين، أو أن يكون أبو بكر ﭬ في أعلى جنات الخلد أو في أسفل سافلين، لا فرق بين هذا وهذا إنما فقط كونه أخبر وشاء أن هذا يكون وهذا لا يكون، أما أن يكون هذا غير لائقٍ بحكمة الله ﷻ وأن هذا لا يمكن أن يكون بالنظر إلى ما يقتضيه كماله ﷻ هذا لا التفات عندهم إليه.

نعم بالنسبة إلى قدرة الله؛ الله على كل شيء قدير، لكن الله ﷻ يفعل ما يفعل ويقدِّر ما يقدِّر بالمشيئة المقترنة بالحكمة، هذا الفرق بين أهل السنة

والجماعة ومخالفيهم، وأدلة إثبات الحكمة في أفعال الله ﷻ كثيرة جدًا تبلغ المئات بل تبلغ الألوف.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَمَنْ ظَنّ أَنّهُ يُضيّعُ عَلَيْهِ عَمَلَهُ الصّالِحَ الّذِي عَمِلَهُ خَالِصًا لِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ عَلَى امْتِثَالِ أَمْرِهِ وَيُبْطِلُهُ عَلَيْهِ بِلَا سَبَبٍ مِنْ الْعَبْدِ، أَوْ أَنّهُ يُعَاقِبُهُ بِمَا لَا صُنْعَ فِيهِ وَلَا اخْتِيَارَ لَهُ وَلَا قُدْرَةَ وَلَا إرَادَةَ فِي حُصُولِهِ بَلْ يُعَاقِبُهُ عَلَى فِعْلِهِ هُوَ سُبْحَانَهُ بِهِ، أَوْ ظَنّ بِهِ أَنّهُ يَجُوزُ عَلَيْهِ أَنْ يُؤَيّدَ أَعْدَاءَهُ الْكَاذِبِينَ عَلَيْهِ بِالْمُعْجِزَاتِ الّتِي يُؤَيّدُ بِهَا أَنْبِيَاءَهُ وَرُسُلَهُ وَيُجْرِيهَا عَلَى أَيْدِيهِمْ يُضِلّونَ بِهَا عِبَادَهُ وَأَنّهُ يَحْسُنُ مِنْهُ كُلّ شَيْءٍ حَتّى تَعْذِيبُ مَنْ أَفْنَى عُمْرَهُ فِي طَاعَتِهِ فَيُخَلّدُهُ فِي الْجَحِيمِ أَسْفَلَ السّافِلِينَ، وَيُنَعّمُ مَنْ اسْتَنْفَدَ عُمُرَهُ فِي عَدَاوَتِهِ وَعَدَاوَةِ رُسُلِهِ وَدِينِهِ فَيَرْفَعُهُ إلَى أَعْلَى عِلّيّينَ، وَكِلَا الْأَمْرَيْنِ عِنْدَهُ فِي الْحُسْنِ سَوَاءٌ وَلَا يُعْرَفُ امْتِنَاعُ أَحَدِهِمَا وَوُقُوعُ الْآخَرِ إلّا بِخَبَرٍ صَادِقٍ، وَإِلّا فَالْعَقْلُ لَا يَقْضِي بِقُبْحِ أَحَدِهِمَا وَحُسْنِ الْآخَرِ فَقَدْ ظَنّ بِهِ ظَنّ السّوْءِ).

هذه مسألة التحسين والتقبيح العقلي، والناس فيها طرفان ووسط:

- أُناسٌ نفوا أن يكون للعقل إدراكٌ لحُسِنِ الأشياء أو قُبحها.
- وأُناسٌ غلوا في هذا الأمر حتى جعلوا تحسين العقل أو تقبيحه هو الذي يقتضي الإثابة أو التأثيم.
- والمسلك الوسط هو العدل في هذا الأمر؛ وهو أن العقل قد يدرك حُسن الأشياء وقبحها ولكن الإثابة والتأثيم إنما هي مرتبطة بالشرع لا بالقدَر، الله ﷻ

إنَّما يأمر وإنما ينهى وإنما تترتب الإثابة والتأثيم على أمره ﷻ لا على ما يمليه العقل.

وكثير من الأقوال الباطلة التي قالها المتكلمون مبنيةٌ على هذا الأصل؛ وهو نفي التحسين والتقبيح العقلي؛ عندهم لا فرق بين الصدق والكذب، لا فرق بين النكاح والسفاح، كلاهما في حكم العقل سواء، الفرق أنَّ الشرع أمر بهذا ونهى عن هذا فقط(٩٢٦). أما أهل السنة والجماعة فإنهم يقولون: إن في الصدق حُسناً تدركه العقول، وإن في الكذب قُبحاً تدركه العقول، وإن كان التأثيم أو الإثابة إنما تنبني على ما أمر الله ﷻ لا على ما أدركته العقول. المقصود أن هذا أيضاً راجع إلى نفي الحكمة في أفعال الله ﷻ.

(٩٢٦) وذلك لأن الأشياء في ظنّهم لا حُسْن فيها ولا قُبْح، وأنَّ قَدَرَ الله ﷻ ومشيئته لا تُراعى فيها الحكمة، وإنما الأمر راجعٌ إلى المشيئة المحْضة، بخلاف قول أهل السُنَّة الذين يقولون: إن الأمور راجعة إلى مشيئة الله المقرونة بحكمته، فهذا فارق مهم بين قول أهل السُنَّة والجماعة وقول هؤلاء المتكلمين. أمَّا بالنسبة لتعذيب أوليائه وتنعيم الكفار؛ فهذا مُمكنٌ على قدرة الله ﷻ، فالله على كل شيء قدير، ولكنه ممتنع بالنظر إلى حكمة الله جلَّ وعلا، فهذا لا يليق بحكمة الله ﷻ، أمَّا عندهم هذا الأمر جائزٌ عقلًا، لكنه لا يقع لأن الله ﷻ أخبر أنَّه لا ينعم فقط، وإلا فهو من حيث العقل والنظر جائز. وقولهم هذا راجعٌ إلى نفي التعليل في أفعال الله ﷻ، والأدلة في الكتاب والسُنَّة من الكثرة بحيث يصعب حصرها، وقد ذكرت لكم غير مرَّة أن ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكر في «شفاء العليل» أنَّ ارتباط أمر الله الشرعي وخلْقَه وفِعله بالحكمة والعِلَّة يَزيد على أكثر من عشرة آلاف موضع.

على كل حال من خلال ما سمعت وما ستسمع **يمكن أن نستخلص قاعدة مهمة**، وهي: أنه لا تكاد تجد مبتدعًا إلا وعنده حظٌّ من سوء الظن بالله ﷻ، فمُقِلٌ ومكثر، لا تكاد تجدُّ مبتدعًا إلا وهو واقع في هذا الأمر؛ وهو أنه ظنَّ بالله ﷻ خلاف ما يليق به. ولذلك فتش في أقوالهم سواءً تعلقت بباب الصفات، أو تعلقت بباب القدر، أو تعلقت بباب النبوات، أو تعلقت بباب الصحابة، أو تعلقت بباب الإيمان؛ تجدُّ أنَّ هذه الأقوال المخالفة للحقِّ لابد وأن يكون فيها طرَفٌ من هذا الأمر المذموم وهو أن يُظن بالله غير الحق، أن يظن بالله خلاف ما تقتضيه أسماؤه وصفاته ونعوت جلاله وجماله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَمَنْ ظَنّ بِهِ أَنّهُ أَخْبَرَ عَنْ نَفْسِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ بِمَا ظَاهِرُهُ بَاطِلٌ وَتَشْبِيهٌ وَتَمْثِيلٌ، وَتَرَكَ الْحَقّ لَمْ يُخْبِرْ بِهِ وَإِنّمَا رَمَزَ إلَيْهِ رُمُوزًا بَعِيدَةً وَأَشَارَ إلَيْهِ إشَارَاتٍ مُلْغِزَةً لَمْ يُصَرّحْ بِهِ وَصَرّحَ دَائِمًا بِالتّشْبِيهِ وَالتّمْثِيلِ وَالْبَاطِلِ، وَأَرَادَ مِنْ خَلْقِهِ ان يُتْعِبُوا أَذْهَانَهُمْ وَقُوَاهُمْ وَأَفْكَارَهُمْ فِي تَحْرِيفِ كَلَامِهِ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَتَأْوِيلِهِ عَلَى غَيْرِ تَأْوِيلِهِ، وَيَتَطَلّبُوا لَهُ وُجُوهَ الِاحْتِمَالَاتِ الْمُسْتَكْرَهَةِ وَالتّأْوِيلَاتِ الّتِي هِيَ بِالْأَلْغَازِ وَالْأَحَاجِي أَشْبَهُ مِنْهَا بِالْكَشْفِ وَالْبَيَانِ، وَأَحَالَهُمْ فِي مَعْرِفَةِ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ عَلَى عُقُولِهِمْ وَآرَائِهِمْ لَا عَلَى كِتَابِهِ، بَلْ أَرَادَ مِنْهُمْ أَنْ لَا يَحْمِلُوا كَلَامَهُ عَلَى مَا يَعْرِفُونَ مِنْ خِطَابِهِمْ وَلُغَتِهِمْ مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَى أَنْ يُصَرّحَ لَهُمْ بِالْحَقّ الّذِي يَنْبَغِي التّصْرِيحُ بِهِ وَيُرِيحَهُمْ مِنْ الْأَلْفَاظِ الّتِي تُوقِعُهُمْ فِي اعْتِقَادِ الْبَاطِلِ فَلَمْ يَفْعَلْ بَلْ سَلَكَ بِهِمْ خِلَافَ طَرِيقِ الْهُدَى وَالْبَيَانِ؛ فَقَدْ ظَنّ بِهِ ظَنّ السّوْءِ).

سبحان الله! هذا من البلاء العظيم الذي فشا وانتشر مع الأسف الشديد، كم تجد من قائلين وكم تجد في كتب من يقول في بعض آيات الصفات: "هذه آية من الآيات الموهمة للتشبيه".

يا لله العجب!! حاشا كتاب ربنا أن يكون فيه شيء موهمٌ للتشبيه، أي موهمٌ للكفر والضلال، الله ﷻ إنَّما أنزل كتابه لكي يكون سبب الهداية لا لكي يكون سبب الشقاء، قال جَلَّوَعَلَا: ﴿طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾[طه:١-٢]، لكنَّ هؤلاء جعلوا كتاب الله ﷻ سبباً للشقاء، فالله يخبر ﷻ ليس في آية ولا آيتين ولا ثلاث، بل عشرات بل مئات الآيات يخبر فيها بما ظاهره الضلال والتشبيه! يعني بما ظاهرها الكفر بالله ﷻ ،وهو الذي يأمر بتلاوة كتابة: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ﴾[العنكبوت:٤٥]؛ وهذا الأمر يتناول الصغير والكبير، والعالِم والجاهل، والذكر والأنثى، والمتعلم والأعرابي، ومع ذلك الله ﷻ يأمر الناس جميعاً أن يتلوا كتاباً ظاهره يقودهم إلى الضلال يقودهم إلى الكفر!!

فإذا قرأوا مثلاً قول الله ﷻ: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾[المائدة:٥٤]، إذا قرأ قول الله ﷻ: ﴿وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾[الفتح:٦]، إذا قرأ: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾[طه:٥]، إذا قرأ: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾[الفجر:٢٢]، تجد هؤلاء يظنون أنَّ هذه الآيات ظاهرها تشبيه الله ﷻ بخلقه. إذًا كان لازم قولهم أن يكون هذا القرآن كتاب إِشْقاء لا كتاب هداية، وهذا مخالفٌ لصريح كتاب الله ﷻ ، هذا من اعتقده في كتاب الله ﷻ فقد وقع في الكفر به سبحانه.

حاشا كتابَ الله أن يكون فيه شيء مُوهمٌ للضلال، بل هو مبيِّن غاية البيـان ، بل هو مبينٌ لكل شيء، جعله الله ﷻ ﴿تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل:٨٩] .

نعم؛ هذه الآيات موهمةٌ للتشبيه عند القلوب المريضة الوسخة التي فيها أصلاً درَن التشبيه، هذه التي زادها هذا القرآن عمًى على عماها[٩٢٧]، أما القلوب السليمة القلوب النظيفة القلوب التي عظّمت الله ﷻ وأحسنت الظن به فإنها لا يمكن أن تظن في كتابة وفي كلامه أن فيه شيء موهمًا للتشبيه.

هذه مسألة مهمة -يا أيها الإخوان- لانتشار البلاء بها، وهي أن يُقال: أن في القرآن آيات موهمة للتشبيه؛ هذا أساس من أسس البلاء وأسس الضلال، يجب الحذر من ذلك، بل كتاب الله ﷻ كله هدى، وكله نور، وكله بيان، وكله تبيان، ولا يمكن أن يكون فيه شيء مسببٌ أو يقود إلى الضلال. أين يذهب قوله ﷻ: ﴿يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ﴾[النساء:٢٦]؟ أين يذهب وصف كتاب الله ﷻ بأنه هدى وبأنه نور وبأنه بيان وتبيان إلى آخره؟[٩٢٨]

---

(٩٢٧) وإلا لو صحت قلوبهم، لو عَظُمَ الإيمان في قلوبهم، لو قَدرُوا الله حقَّ قدْره ما قالوا هذا ولا تفوَّهوا به، لو قَدرُوا الله حقَّ قدْره لَعلِموا أن هذه النُّصوص تُوجِب تعظيم الله، وتُوجِب محبة الله، وتُوجِب الخوف منه.

(٩٢٨) أنَّى تكون نصوص الكتاب في أكثر آياته مُوهِمة للتشْبيه، كم في كتاب الله من آية تدل على عُلو الله، وكم في كتاب الله من آية تدل على محبته، وعلى بُغضِه، وعلى غضبه وعلى مجيئه وإتيانه، وعلى أن له عينًا، وعلى أن له وجهًا! في نصوص كثيرة. إذًا هذا

إن هذا المعتقد الذي انبنى على هذا الأصل لا شك أنه انبنى على سوء ظن بالله ﷻ، وأضف إلى هذا أنه انبنى على سوء ظنٍّ برسول الله ﷺ، هذا النبي الكريم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ هو الذي تلا علينا كلام الله، هو الذي بلّغ هذا القرآن للأمة، كان يتلو عليهم صباح مساء آيات الصفات، بل هو عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يخبرهم بالأحاديث، يخبرهم (أن الله تعالى ينزل إذا بقي ثلث الليل الآخر إلى سماء الدنيا)، يخبرهم (أن الله ﷻ يضحك)، يخبرهم (أن الله ﷻ يقرب إذا شاء)، يخبرهم أن الله له وجه وأن له يداً وأن له ساقاً وأن له قدماً وأن له أصابع، يخبرهم بكل هذه الأحاديث ويتلو عليهم كل هذه الآيات ولا مرة واحدة قال لهم: "استمعوا أنا أخبركم بآيات وأحدثكم بأحاديث ظاهرها الضلال والكفر والتشبيه، إياكم أن تحملوا هذه الأحاديث على ظاهرها، بل يجب أن تبحثوا لها عن مخارج وتأويلات على خلاف ظاهرها"، أقال هذا رسول الله ﷺ ولو مرة

القرآن سبب للإضلال لا سببٌ للهداية، وسببٌ للانحراف لا سببٌ للتقوى، لم يكن الكتاب إذًا هداية ولا نورًا ولا بشرى للمسلمين، إنما كتاب ألغاز وكتاب تعجيز وكتابٌ لو قرأه الإنسان واعتقد ما فيه على ظاهر فإنه سيوصله إلى الكفر ولابدَّ، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

هذا ما يصرّحون به تارةً بألسنتهم وتارةً بلسان حالهم، وهذا ولا شكَّ من أعظم ما يكون من البهْتان والكذب والافتراء، ليس في نصوص الكتاب وليس في كلام الله ولا كلام رسوله ﷺ شيء البتَّة يفيد ظاهره التشْبيه، حاشا وكلا، إنما هذا الظهور للتشْبيه إنما في عقولهم الفاسدة وقلوبهم المريضة لا غير، والله المستعان.

واحدة؟ لا والذي نفسي بيده ما قال هذا ، لا في حديث صحيح ولا ضعيف ولا موضوع.

ثم أصحاب النبي ﷺ تلقوا هذه الأحاديث وتلقوا هذه الآيات وبلَّغوها للتابعين، ثم لم يحذِّروهم ولو مرة واحدة فيقولون لهم: "انتبهوا ثمة آيات موهمة للتشبيه، حذار من حملها على ظاهرها(٩٢٩) ". هكذا التابعون لما نقلوا هذا إلى أتباع التابعين.

ثم جاء بعدهم فئام زعموا أن ثمة آيات وأحاديث، بل أكثر صفات الله ﷻ التي جاءت في النصوص صفاتٌ لو حملتها على ظاهرها أوهمت التشبيه(٩٣٠)، أصحاب النبي ﷺ ما استشكل أحد منهم قط حديثًا واحداً أو آيةً واحدة من آيات الصفات، ما قال أحد منهم "يا رسول الله كيف تقول إن الله ينزل؟ وكيف

---

(٩٢٩) بلْ هذه الأحاديث لها تأويلات مخالفة، اجتهدوا وكُدُّوا أذْهانكم وابذلُوا الجهد في الوصول إليها، وقد تصلون وقد لا تصلون، أو قد يكون لها معنى خلاف ما يقتضيه ظاهرها، إذًا عليكم أن تُغلقوا عقولكم وقلوبكم عن التفكير فيها، اتلوها فقط من باب البركة لا غير.

(٩٣٠) هذا يدلك على أن القوم ما قَدرُوا الله ﷻ حقَّ قدْره، وعلى أنهم أيضًا ما قَدرُوا رسول الله ﷺ حقَّ قدْره. أنَّى يكون هذا حاله عليه الصلاة والسلام في إخباره بالضلال - في زعْمهم- مع عدم تنبيهِهِم وتحذيرهم ولو مرَّة واحدة!! هلْ هذا حال من هو حريص على أُمَّته؟ هل هذا حال من هو رحيم وشفيق بأُمَّته عليه الصلاة والسلام؟ في زعْمهم ومقتضى كلامهم ولازم قولهم: لا، وبهذا اتضحَ لك أنَّ هذا من أبطل الباطل، وفيه إلصاق ما لا يَليق بنبينا ﷺ وإن كانوا يزعمون تعظيمه.

تقول إن الله يضحك؟" أليس هذا موهما للتشبيه؟ إنما أصحاب النبي ﷺ لسلامة قلوبهم ولتعظيمهم الله ﷻ وإحسانهم الظن به ما ظنوا بالله إلا كل خير وإلا كل كمال، ولذلك لما سمع أحدهم قوله ﷺ: «**يضحك ربنا**» قال: أوَ يضحك ربنا؟ **قال**: «**نعم**»، قال: (لا عدمنا من رب يضحك خيرًا)، أظَنَّ هذا الصحابي بالله ﷻ غير الحق؟ أو ظن به الحق وظن به الكمال وظن به الإحسان؟

إذًا هذا أصلٌ مهم ينبغي أن تتنبه له؛ وهو أن كتاب الله كله بما اشتمل عليه من آيات الصفات وغيرها لا شك أنه جميعًا ليس فيه شيء يؤدي إلى الضلال، إلا عند القلوب التي غَرِقَتْ في أوحال الانصراف عن الحق؛ هؤلاء نعم ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت:٤٤]، هؤلاء يزيدهم ضلال على ضلالهم، أما القلوب التي سَلَّمت لله ﷻ كانت قلوبًا سليمة سَلِمَت لله وسَلَّمَت لله فهذه لا يمكن أن تظن في الله أو في كلامه هذا الظن.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فَإِنَّهُ إِنْ قَالَ إِنَّهُ غَيْرُ قَادِرٍ عَلَى التَّعْبِيرِ عَنْ الْحَقِّ بِاللَّفْظِ الصَّرِيحِ الَّذِي عَبَّرَ بِهِ هُوَ وَسَلَفُهُ فَقَدْ ظَنَّ بِقُدْرَتِهِ الْعَجْزَ، وَإِنْ قَالَ إِنَّهُ قَادِرٌ وَلَمْ يُبَيِّنْ وَعَدَلَ عَنْ الْبَيَانِ وَعَنْ التَّصْرِيحِ بِالْحَقِّ إِلَى مَا يُوهِمُ بَلْ يُوقِعُ فِي الْبَاطِلِ الْمُحَالِ وَالِاعْتِقَادِ الْفَاسِدِ فَقَدْ ظَنَّ بِحِكْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ ظَنَّ السَّوْءِ، وَظَنَّ أَنَّهُ هُوَ وَسَلَفُهُ عَبَّرُوا عَنْ الْحَقِّ بِصَرِيحِهِ دُونَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنَّ الْهُدَى وَالْحَقَّ فِي كَلَامِهِمْ وَعِبَارَاتِهِمْ، وَأَمَّا كَلَامُ اللَّهِ فَإِنَّمَا يُؤْخَذُ مِنْ ظَاهِرِهِ التَّشْبِيهُ وَالتَّمْثِيلُ وَالضَّلَالُ وَظَاهِرُ كَلَامِ الْمُتَهَوِّكِينَ الْحَيَارَى هُوَ الْهُدَى وَالْحق، وَهَذَا مِنْ أَسْوَأِ الظَّنِّ بِاللهِ،

فَكُلُّ هَؤُلَاءِ مِنَ الظَّانِّينَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ وَمِنْ الظَّانِّينَ بِهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ. وَمَنْ ظَنَّ بِهِ أَنْ يَكُونَ فِي مُلْكِهِ مَا لا يَشَاءُ وَلَا يَقْدِرُ عَلَى إِيجَادِهِ وَتَكْوِينِهِ فَقَدْ ظَنَّ بِهِ ظَنَّ السَّوْءِ[٩٣١]. وَمَنْ ظَنَّ بِهِ أَنَّهُ كَانَ مُعَطَّلًا مِنْ الْأَزَلِ إِلَى الْأَبَدِ عَنْ أَنْ يَفْعَلَ وَلَا يُوصَفُ حِينَئِذٍ بِالْقُدْرَةِ عَلَى الْفِعْلِ ثُمَّ صَارَ قَادِرًا عَلَيْهِ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ قَادِرًا[٩٣٢] فَقَدْ ظَنَّ بِهِ ظَنَّ السَّوْءِ).

أهل السنة والجماعة يعتقدون أنَّ الله لم يزل فاعلاً ولم يزل خالقًا، وليس أنه كان معطلاً عن الفعل والخلق ثم بدأ في الخلق والفعل؛ فهذا يستلزم نسبة النقص لله ﷻ، وهذا موضوع أظن أنه سبق الكلام فيه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَمَنْ ظَنَّ بِهِ أَنَّهُ لا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يَعْلَمُ الْمَوْجُودَاتِ وَلَا عَدَدَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا النُّجُومِ وَلَا بَنِي آدَمَ وَحَرَكَاتِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ وَلَا يَعْلَمُ شَيْئًا مِنْ الْمَوْجُودَاتِ فِي الْأَعْيَانِ فَقَدْ ظَنَّ بِهِ ظَنَّ السَّوْءِ. وَمَنْ ظَنَّ أَنَّهُ لا سَمْعَ لَهُ وَلَا بَصَرَ وَلَا عِلْمَ لَهُ وَلَا إِرَادَةَ وَلَا كَلَامَ يَقُولُ بِهِ وَأَنَّهُ لَمْ يُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْ الْخَلْقِ وَلَا يَتَكَلَّمُ أَبَدًا وَلَا قَالَ وَلَا يَقُولُ وَلَا لَهُ أَمْرٌ وَلَا نَهْيٌ يَقُومُ بِهِ فَقَدْ

---

(٩٣١) هؤلاء القدرية.

(٩٣٢) أو أنَّه أيضًا قادر ولم يفعل هذا أيضًا من ظن السَّوء، من ظن أنَّه من الأزل -يعني من لا بداية- لم يفعل، ثمَّ بدأ بالفعل من وقت مُعيَّن؛ هذا يعني أنَّه مضت عليه مرَّت الدهور الطويلة التي لا بداية لها دون فِعل، فأيُّ انتقاص لله ﷻ كهذا الانتقاص! وأيُّ تعطيل لله عن كماله كهذا التعطيل!!.

ظَنّ بِهِ ظَنّ السّوْءِ[٩٣٣]. وَمَنْ ظَنّ بِهِ أَنّهُ فَوْقَ سَمَاوَاتِهِ عَلَى عَرْشِهِ بَائِنًا مِنْ خَلْقِهِ، وَأَنّ نِسْبَةَ ذَاتِهِ تَعَالَى إلَى عَرْشِهِ كَنِسْبَتِهَا إلَى أَسْفَلِ السّافِلِينَ. وَإِلَى الْأَمْكِنَةِ الّتِي يُرْغَبُ عَنْ ذِكْرِهَا وَأَنّهُ أَسْفَلُ كَمَا أَنّهُ أَعْلَى فَقَدْ ظَنّ بِهِ أَقْبَحَ الظّنّ وَأَسْوَأَهُ. وَمَنْ ظَنّ بِهِ أَنّهُ لَيْسَ يُحِبّ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ وَيُحِبّ الْفَسَادَ كَمَا يُحِبّ الْإِيمَانَ وَالْبِرّ وَالطّاعَةَ وَالْإِصْلَاحَ فَقَدْ ظَنّ بِهِ ظَنّ السّوْءِ[٩٣٤]. وَمَنْ ظَنّ بِهِ أَنّهُ لَا يُحِبّ وَلَا يَرْضَى وَلَا يَغْضَبُ وَلَا يَسْخَطُ وَلَا يُوَالِي وَلَا يُعَادِي، وَلَا يَقْرُبُ مِنْ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ وَلَا يَقْرُبُ مِنْهُ أَحَدٌ، وَأَنّ ذَوَاتَ الشّيَاطِينِ فِي الْقُرْبِ مِنْ ذَاتِهِ كَذَوَاتِ الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرّبِينَ وَأَوْلِيَائِهِ الْمُفْلِحِينَ؛ فَقَدْ ظَنّ بِهِ ظَنّ السّوْءِ. وَمَنْ ظَنّ أَنّهُ يُسَوّي بَيْنَ الْمُتَضَادّيْنِ أَوْ يُفَرّقُ بَيْنَ الْمُتَسَاوِيَيْنِ مِنْ كُلّ وَجْهٍ أَوْ يُحْبِطُ طَاعَاتِ الْعُمْرِ الْمَدِيدِ الْخَالِصَةِ الصّوَابِ بِكَبِيرَةٍ وَاحِدَةٍ تَكُونُ بَعْدَهَا فَيُخَلّدُ فَاعِلُ تِلْكَ الطّاعَاتِ فِي النّارِ أَبَدَ الْآبِدِينَ بِتِلْكَ الْكَبِيرَةِ وَيُحْبِطُ بِهَا جَمِيعَ طَاعَاتِهِ وَيُخَلّدُهُ فِي الْعَذَابِ كَمَا يُخَلّدُ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ وَقَدْ اسْتَنْفَدَ سَاعَاتِ عُمْرِهِ فِي مَسَاخِطِهِ وَمُعَادَاةِ رُسُلِهِ وَدِينِهِ فَقَدْ ظَنّ بِهِ ظَنّ السّوْءِ[٩٣٥].

وَبِالْجُمْلَةِ؛ فَمَنْ ظَنّ بِهِ خِلَافَ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ وَوَصَفَهُ بِهِ رُسُلُهُ، أَوْ عَطّلَ حَقَائِقَ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ وَوَصَفَتْهُ بِهِ رُسُلُهُ؛ فَقَدْ ظَنّ بِهِ ظَنّ السّوْءِ).

---

(٩٣٣) هؤلاء الجهْمية.

(٩٣٤) لأنَّ الحب والبُغْض عندهم ليس إلا الإرادة. إذًا كانت النتيجة أنَّه كما يحب الإيمان فإنه يحب الفساد، لأن الكل إنما هو إرادة الإنعام أو إرادة الانتقام.

(٩٣٥) هؤلاء هم الوَعيدية.

هذا هو الضابط الذي يرجع إليه الكلام المتفرق الذي ذكره[٩٣٦].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَمَنْ ظَنّ أَنّ لَهُ وَلَدًا أَوْ شَرِيكًا، أَوْ أَنّ أَحَدًا يَشْفَعُ عِنْدَهُ بِدُونِ إِذْنِهِ، أَوْ أَنّ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَلْقِهِ وَسَائِطَ يَرْفَعُونَ حَوَائِجَهُمْ إِلَيْه، أَوْ أَنّهُ نَصَبَ لِعِبَادِهِ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ يَتَقَرّبُونَ بِهِمْ إِلَيْهِ وَيَتَوَسّلُونَ بِهِمْ إِلَيْهِ وَيَجْعَلُونَهُمْ وَسَائِطَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ فَيَدْعُونَهُمْ وَيُحِبّونَهُمْ كَحُبّهِ وَيَخَافُونَهُمْ وَيَرْجُونَهُمْ؛ فَقَدْ ظَنّ بِهِ أَقْبَحَ الظّنّ وَأَسْوَأَهُ. وَمَنْ ظَنّ بِهِ أَنّهُ يُنَالُ مَا عِنْدَهُ بِمَعْصِيَتِهِ وَمُخَالَفَتِهِ كَمَا يُنَالُهُ بِطَاعَتِهِ وَالتّقَرّبِ إِلَيْهِ فَقَدْ ظَنّ بِهِ خِلَافَ حِكْمَتِهِ وَخِلَافَ مُوجَبِ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَهُوَ مِنْ ظَنّ السّوْءِ. وَمَنْ ظَنّ بِهِ أَنّهُ إِذَا تَرَكَ لِأَجْلِهِ شَيْئًا لَمْ يُعَوّضْهُ خَيْرًا مِنْهُ أَوْ مَنْ فَعَلَ لِأَجْلِهِ شَيْئًا لَمْ يُعْطِهِ أَفْضَلَ مِنْهُ فَقَدْ ظَنّ بِهِ ظَنّ السّوْءِ. وَمَنْ ظَنّ بِهِ أَنّهُ يَغْضَبُ عَلَى عَبْدِهِ وَيُعَاقِبُهُ وَيَحْرِمُهُ بِغَيْرِ جُرْمٍ وَلَا سَبَبٍ مِن الْعَبْدِ إِلّا بِمُجَرّدِ الْمَشِيئَةِ وَمَحْضِ الْإِرَادَةِ فَقَدْ ظَنّ بِهِ ظَنّ السّوْءِ. وَمَنْ ظَنّ بِهِ أَنّهُ إِذَا صَدَقَهُ فِي الرّغْبَةِ وَالرّهْبَةِ وَتَضَرّعَ إِلَيْهِ وَسَأَلَهُ وَاسْتَعَانَ بِهِ وَتَوَكّلَ عَلَيْهِ أَنّهُ يُخَيّبُهُ وَلَا يُعْطِيهِ مَا سَأَلَهُ فَقَدْ ظَنّ بِهِ ظَنّ السّوْءِ وَظَنّ بِهِ خِلَافَ مَا هُوَ أَهْلُهُ. وَمَنْ ظَنّ بِهِ أَنّهُ يُثِيبُهُ إِذَا عَصَاهُ بِمَا يُثِيبُهُ بِهِ إِذَا أَطَاعَهُ وَسَأَلَهُ ذَلِكَ فِي دُعَائِهِ فَقَدْ ظَنّ بِهِ خِلَافَ مَا تَقْتَضِيهِ حِكْمَتُهُ وَحَمْدُهُ وَخِلَافَ مَا هُوَ أَهْلُهُ وَمَا لَا يَفْعَلُهُ. وَمَنْ ظَنّ بِهِ أَنّهُ إِذَا أَغْضَبَهُ وَأَسْخَطَهُ وَأَوْضَعَ فِي مَعَاصِيهِ ثُمّ اتّخَذَ مِنْ دُونِهِ وَلِيّا وَدَعَا مَنْ دُونِهِ مَلَكًا أَوْ بَشَرًا حَيّا أَوْ مَيّتًا يَرْجُو بِذَلِكَ أَنْ يَنْفَعَهُ عِنْدَ رَبّهِ وَيُخَلّصُهُ مِنْ عَذَابِهِ فَقَدْ ظَنّ بِهِ ظَنّ السّوْءِ وَذَلِكَ زِيَادَةٌ فِي بُعْدِهِ مِنْ اللّهِ وَفِي عَذَابِهِ. وَمَنْ ظَنّ بِهِ أَنّهُ يُسَلّطُ عَلَى رَسُولِهِ مُحَمّدٍ ﷺ

---

(٩٣٦) هذا ضابط مهمّ.

أَعْدَاءَهُ تَسْلِيطًا مُسْتَقِرًّا دَائِمًا فِي حَيَاتِهِ وَفِي مَمَاتِهِ وَابْتَلَاهُ بِهِمْ لَا يُفَارِقُونَهُ فَلَمَّا مَاتَ اسْتَبَدُّوا بِالْأَمْرِ دُونَ وَصِيِّهِ وَظَلَمُوا أَهْلَ بَيْتِهِ وَسَلَبُوهُمْ حَقَّهُمْ وَأَذَلُّوهُمْ وَكَانَتْ الْعِزَّةُ وَالْغَلَبَةُ وَالْقَهْرُ لِأَعْدَائِهِ وَأَعْدَائِهِمْ دَائِمًا مِنْ غَيْرِ جُرْمٍ وَلَا ذَنْبٍ لِأَوْلِيَائِهِ وَأَهْلِ الْحَقِّ وَهُوَ يَرَى قَهْرَهُمْ لَهُمْ وَغَصْبَهُمْ إِيَّاهُمْ حَقَّهُمْ وَتَبْدِيلَهُمْ دِينَ نَبِيِّهِمْ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى نُصْرَةِ أَوْلِيَائِهِ وَحِزْبِهِ وَجُنْدِهِ وَلَا يَنْصُرُهُمْ وَلَا يُدِيلُهُمْ بَلْ يُدِيلُ أَعْدَاءَهُمْ عَلَيْهِمْ أَبَدًا، أَوْ أَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ بَلْ حَصَلَ هَذَا بِغَيْرِ قُدْرَتِهِ وَلَا مَشِيئَتِهِ ثُمَّ جَعَلَ الْمُبَدِّلِينَ لِدِينِهِ مُضَاجِعِيهِ فِي حُفْرَتِهِ تُسَلِّمُ أُمَّتُهُ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ كُلَّ وَقْتٍ كَمَا تَظُنُّهُ الرَّافِضَةُ فَقَدْ ظَنَّ بِهِ أَقْبَحَ الظَّنِّ وَأَسْوَأَهُ، سَوَاءٌ قَالُوا إِنَّهُ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَنْصُرَهُمْ وَيَجْعَلَ لَهُمْ الدَّوْلَةَ وَالظَّفَرَ، أَوْ أَنَّهُ غَيْرُ قَادِرٍ عَلَى ذَلِكَ؛ فَهُمْ قَادِحُونَ فِي قُدْرَتِهِ أَوْ فِي حِكْمَتِهِ وَحَمْدِهِ، وَذَلِكَ مِنْ ظَنِّ السَّوْءِ بِهِ).

يعني: قول الرافضة جميعًا لا يمكن أن يقوم إلا على القول بالقدَر، ولذلك هم متابعون في باب الصفات والقدر للمعتزلة، لا يمكن أن يستقيم لهم قول إلا على قول القدرية، والقدرية عندهم أنَّ أفعال العباد خارجةٌ عن مشيئة الله ﷻ وخلقه، ولذلك هذا الذي وقع من اغتصاب الخلافة أو ما ظنوا أو ما زعموا أنه ظلمٌ لآل بيت النبي ﷺ فهذا بناء على القول بالقدَر خارجٌ عن مشيئة الله ﷻ[٩٣٧].

(٩٣٧) لا يتأتَّى مذهب الرافضة وأكاذيبهم إلا إذا انتحَلوا في باب القدر وباب الصفات مذهب المعتزلة، ما يمكن تستقيم أصولهم ولا ترُوج أكاذيبهم إلا إذا انتحلُوا مذهب

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَلَا رَيْبَ أَنّ الرّبّ الّذِي فَعَلَ هَذَا بَغِيضٌ إلَى مَنْ ظَنّ بِهِ ذَلِكَ غَيْرَ مَحْمُودٍ عِنْدَهَمْ، وَكَانَ الْوَاجِبُ أَنْ يَفْعَلَ خِلَافَ ذَلِكَ، لَكِنْ رَفَوْا هَذَا الظّنّ الْفَاسِدَ بِخَرْقٍ أَعْظَمَ مِنْهُ وَاسْتَجَارُوا مِنَ الرّمْضَاءِ بِالنّارِ فَقَالُوا : لَمْ يَكُنْ هَذَا بِمَشِيئَةِ اللّهِ وَلَا لَهُ قُدْرَةٌ عَلَى دَفْعِهِ وَنَصْرِ أَوْلِيَائِهِ فَإِنّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى أَفْعَالِ عِبَادِهِ وَلَا هِيَ دَاخِلَةٌ تَحْتَ قُدْرَتِهِ، فَظَنّوا بِهِ ظَنّ إخْوَانِهِمْ الْمَجُوسِ وَالثّنَوِيّةِ بِرَبّهِمْ.

وَكُلّ مُبْطِلٍ وَكَافِرٍ وَمُبْتَدِعٍ مَقْهُورٍ مُسْتَذَلّ فَهُوَ يَظُنّ بِرَبّهِ هَذَا الظّنّ وَأَنّهُ أَوْلَى بِالنّصْرِ وَالظّفَرِ وَالْعُلُوّ مِنْ خُصُومِهِ، فَأَكْثَرُ الْخَلْقِ بَلْ كُلّهُمْ إلّا مَنْ شَاءَ اللّهُ يَظُنّونَ بِاَللّهِ غَيْرَ الْحَقّ ظَنّ السّوْءِ، فَإِنّ غَالِبَ بَنِي آدَمَ يَعْتَقِدُ أَنّهُ مَبْخُوسُ الْحَقّ نَاقِصُ الْحَظّ وَأَنّهُ يَسْتَحِقّ فَوْقَ مَا أَعْطَاهُ اللّهُ، وَلِسَانُ حَالِهِ يَقُولُ: "ظَلَمَنِي رَبّي وَمَنَعَنِي مَا أَسْتَحِقّهُ"، وَنَفْسُهُ تَشْهَدُ عَلَيْهِ بِذَلِكَ وَهُوَ بِلِسَانِهِ يُنْكِرُهُ وَلَا يَتَجَاسَرُ عَلَى التّصْرِيحِ بِهِ. وَمَنْ فَتّشَ نَفْسَهُ وَتَغَلْغَلَ فِي مَعْرِفَةِ دَفَائِنِهَا وَطَوَايَاهَا رَأَى ذَلِكَ فِيهَا كَامِنًا كُمُونَ النّارِ فِي الزّنَادِ، فَاقْدَحْ زِنَادَ مَنْ شِئْتَ يُنْبِئْك شَرَارُهُ عَمّا فِي زِنَادِهِ).

هذا كلامٌ مهمٌ وينبغي أن يقف عنده الإنسان مليـًا؛ وهو أنَّ أكثر الخلق كما ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يظنون أنَّ ما وقع أو يقع عليهم إنما هو ظلم في حقهم[٩٣٨]، فلسان

المعتزلة؛ ولذلك تجدهم في باب الصفات وباب القدر على مذهب أهل الاعتزال؛ لأنه على أصول هؤلاء تمشي وترُوج هذه المعتقدات التي يعتقدونها.

(٩٣٨) والواقع أكبر شاهدٍ عليه؛ فأكثر الناس يتجَلْجَلُ في صدورهم ويقولون بلسان حالهم: "ظلمْتَني يا رب، إذْ قدرُك ظالم وحكمتُك قاصرة، ورأيي أجوَد"، هذا حال أكثر الناس إلا من بصَّره الله ﷻ ورحِمه.

حالهم لا مقالهم "ظلمْتني يا رب وفعلتَ بي خلاف الحكمة ولم تعطني ما أستحق" ، هذا حالُ كثير من الناس، وإذا أردت أن تعرف مِصداق ذلك فاقدح زنادهم عند المصائب وانظر إلى الأقوال التي تقال(٩٣٩).

كم من الناس إذا ما نزلت به المصيبة قال: "يا رب لم فعلت بي هذا؟ يا رب ماذا فعلت حتى تصنع بي هذا؟"، أو تجد أنه يقول "فلان ما يستاهل"، نسمع هذا كثيرًا ، فلان الذي أصيب بحادث أو بمرض يقولون "فلان ما يستاهل".

أو تجد أنه تجري على ألسنتهم أمثال داخلة في هذا الذي نتكلم عنه، كم من النَّاس تجد أنه يقول مثلاً: "يعطي الحلق لمن لا آذان له"، هذا داخل في هذا الأمر، ماذا تريد؟ تريد أنَّ الله ﷻ فعل خلاف ما تقتضيه الحكمة، يعني كان ينبغي أن أُعطى أنا لكن الله أعطى هذا المال وهذا الخير لمن لا يستحق ولمن لا يليق به النعمة، يعطي الحلق لمن لا آذان له(٩٤٠).

كل ذلك دليل على خطورة هذا الأمر، ولو فتش الإنسان في نفسه ربما وجد شيئًا كامنـًا من ذلك، ولا يسْلم إلا من أحسن الظن بالله ﷻ؛ هذا باب إيمانيٌّ علميٌّ ينبغي أن يراجعه الإنسان كثيراً ويفتش في نفسه كثيراً. سوء الظن بالله ﷻ له أوجه كثيرة، وخطره عظيم، ودواخله كثيرة، ويتزين ويتشكل في صورٍ

---

(٩٣٩) تسمع في أقوال الناس ما يدلُّك على هذا الشرح العظيم في الاعتقاد!.

(٩٤٠) وما هذا إلا نقطة من بحر ما يقع في كلام الناس وفي أمثالهم وفي أحوالهم، وفتِّش تَرى كما قال الشيخ.

كثيرة، ينبغي على الإنسان أن يكون فقيهًا وأن يحاسب نفسه محاسبة قوية، محاسبة الشحيح حتى يسْلَم من هذا الأمر.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَلَوْ فَتّشْت مَنْ فَتّشْته لَرَأَيْت عِنْدَهُ تَعَتّبًا عَلَى الْقَدَرِ وَمَلَامَةً لَهُ وَاقْتِرَاحًا عَلَيْهِ خِلَافَ مَا جَرَى بِهِ، وَأَنّهُ كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ كَذَا وَكَذَا فَمُسْتَقِلّ وَمُسْتَكْثِرٌ، وَفَتّشْ نَفْسَك هَلْ أَنْتَ سَالِمٌ مِنْ ذَلِك؟

فَإِنْ تَنْجُ مِنْهَا تَنْجُ مِنْ ذِي عَظِيمَةٍ ... وَإِلّا فَإِنِّي لَا إخالُكَ نَاجِيًا [(٩٤١)]

فَلْيَعْتَنِ اللّبِيبُ النّاصِحُ لِنَفْسِهِ بِهَذَا الْمَوْضِعِ، وَلْيَتُبْ إلَى اللّهِ تَعَالَى وَلِيَسْتَغْفِرْهُ كُلّ وَقْتٍ مِنْ ظَنّهِ بِرَبّهِ ظَنّ السّوْءِ، وَلْيَظُنّ السّوءَ بِنَفْسِهِ الّتِي هِيَ مَأْوَى كُلّ سُوءٍ وَمَنْبَعُ كُلّ شَرّ الْمُرَكّبَةُ عَلَى الْجَهْلِ وَالظّلْمِ، فَهِيَ أَوْلَى بِظَنّ السّوءِ مِنْ أَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ وَأَعْدَلِ الْعَادِلِينَ وَأَرْحَمِ الرّاحِمِينَ؛ الْغَنِيّ الْحَمِيدِ الّذِي لَهُ الْغِنَى التّامّ وَالْحَمْدُ التّامّ وَالْحِكْمَةُ التّامّةُ، الْمُنَزّهُ عَنْ كُلّ سُوءٍ فِي ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ وَأَسْمَائِهِ؛ فَذَاتُهُ لَهَا الْكَمَالُ الْمُطْلَقُ مِنْ كُلّ وَجْهٍ، وَصِفَاتُهُ كَذَلِكَ، وَأَفْعَالُهُ كَذَلِكَ كُلّهَا حِكْمَةٌ وَمَصْلَحَةٌ وَرَحْمَةٌ وَعَدْلٌ، وَأَسْمَاؤُهُ كُلّهَا حُسْنَى.

فَلَا تَظنن بِرَبّك ظَنّ سَوْءٍ ... فَإِنّ اللّهَ أَوْلَى بِالْجَمِيلِ

وَلَا تَظنن بِنَفْسِك قَطّ خَيْرًا ... وَكَيْفَ بِظَالِمٍ جَانٍ جَهُولِ

وَقُلْ يَا نَفْسُ مَأْوَى كُلّ سُوءٍ ... أَيُرْجَى الْخَيْرُ مِنْ مَيْتٍ بَخِيلِ

---

(٩٤١) هذا البيت نُسِبَ إلى الفرزْدق ونُسِب إلى غيره؛ نُسِبَ إلى الأسود بن سريع رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ شاعر له صُحْبة، وقِيلَ إن الفرزْدق أخذه منه، ونُسِبَ إلى شاعر اسمُه: عَسْعَس التميمي، ونُسِبَ إلى غيرهم.

وَظُنّ بِنَفْسِكَ السّوء تَجِدْهَا كَذَاكَ وَخَيْرُهَا كَالْمُسْتَحِيلِ

وَمَا بِكَ مِنْ تُقًى فِيهَا وَخَيْرٍ فَتِلْكَ مَوَاهِبُ الرّبّ الْجَلِيلِ

وَلَيْسَ بِهَا وَلَا مِنْهَا وَلَكِنْ مِنْ الرّحْمَنِ فَاشْكُرْ لِلدّلِيلِ).



قال المصنف رحمه الله:

٦٠-بَابُ
مَا جَاءَ فِي مُنْكِرِي القَدَرِ

وَقَالَ ابنُ عُمَرَ: وَالَّذِي نَفْسُ ابْنِ عُمَرَ بِيَدِهِ، لَوْ كَانَ لِأَحَدِهِم مِثْلُ أُحُدٍ ذَهَبًا، ثُمَّ أَنْفَقَهُ فِي سَبيلِ اللهِ؛ مَا قَبِلَهُ اللهُ مِنْهُ، حتَّى يُؤمِنَ بِالقَدَرِ، ثمَّ استَدلَّ بِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «الْإِيْمَانُ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَاليَومِ الآخِرِ، وَتُؤمِنَ بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ؛ أَنَّه قَالَ لِابْنِهِ: يا بُنيَّ؛ إِنَّكَ لَنْ تجِدَ طَعْمَ الْإِيْمَانِ حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أخْطأَكَ لَمْ يكُنْ لِيُصِيبَكَ، سَمِعْتُ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ يَقُوْلُ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ القَلَمُ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ، فَقَالَ: رَبِّ! وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُوْمَ السَّاعَةُ»، يا بُنَيَّ سَمِعْتُ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ يقولُ: «مَنْ مَاتَ عَلَى غَيْرِ هَذَا فَلَيْسَ مِنِّي».

وَفِي رِوَايَةٍ لِأَحْمَدَ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ تَعَالَى القَلَمُ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ، فَجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ».

وَفِي رِوَايَةٍ لِابْنِ وَهْبٍ: قَالَ رَسُوْلُ اللهُ ﷺ: «فَمَنْ لَمْ يُؤمِنْ بالقَدَرِ خَيرِهِ وشرِّهِ؛ أَحْرَقَهُ اللهُ بالنَّارِ».

وَفِي الْمُسْنَدِ وَالسُّنَنِ عَنِ ابْنِ الدَّيْلَمِيِّ؛ قَالَ: أَتَيْتُ أُبَيَّ بنَ كعْبٍ، فَقُلْتُ: فِي نَفْسِي شَيْءٌ مِنَ القَدَرِ، فَحَدِّثْنِي بِشَيءٍ لَعَلَّ اللهُ يُذْهِبُهُ مِنْ قَلْبي، فَقَالَ: «لَوْ أنفَقْتَ مِثَلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، مَا قَبِلَهُ اللهُ مِنْكَ؛ حَتَّى تُؤمِنَ بِالقَدَرِ، وَتَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيْبَكَ، وَلوْ مِتَّ عَلَى غَيْرِ هَذَا لَكُنْتَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، قَالَ: فَأَتَيْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ مَسْعُودٍ، وَحُذَيفةَ بْنَ الْيَمَانِ، وَزَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ؛ فَكُلُّهُمْ حَدَّثَنِي بِمِثْلِ ذَلِكَ عَنِ النَّبيِّ ﷺ» حَدِيثٌ صَحِيْحٌ رَواهُ الحَاكِمُ فِي صَحِيحِهِ.



قال الشارح وفقه الله:

بعد أن بيَّن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ قبح وسوء حال من ظنَّ ظن السوء بالله جَلَّ وَعَلَا أعقبَ هذا بالكلام عن القدر وما جاء في منكريه من الذمِّ والعيب[٩٤٢]؛ ليبيّن أنَّ من سوء الظن بالله ﷻ إنكار القدر[٩٤٣].

الإيمان بالقدر ركنٌ من أركان الإيمان، وأصلٌ من أصول التوحيد[٩٤٤].

وتحقيق الإيمان بالقدر يثمر ثمراتٍ يانعةً عظيمة، من ذلك:

---

(٩٤٢) لبيان بُطلان مذهب القدرية النُّفاة.

(٩٤٣) **ووجه دخول هذا الباب في كتاب التوحيد**: كون الإقرار بالقدر والإيمان به؛ به يتحقق أصل الإيمان والتوحيد.

(٩٤٤) التي لا يتحقق إلا به.

﴿ **أنه يثمر أولًا: تحقيق التوحيد**؛ فإنَّ القدر من فروع توحيد الربوبية، لأنَّ الإيمان بالقدر يتضمن إفراد الله ﷻ بالخلق والإعطاء والمنعِ وما إلى ذلك، ومن حقق توحيد الربوبية فإنَّه إن وفقه الله قادَهُ إلى تحقيق توحيد الألوهية.

﴿ **ويثمر ثانيًا: تحقيقَ الهداية وذوقَ طعم الإيمان**؛ فإنَّ من آمن بالقدر أدّاه هذا إلى هدايةِ القلب وإلى ذوقِ طعم الإيمان كما سيأتي معنا، قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾[التغابن:١١]. قال علقمة رَحِمَهُٱللَّهُ: «هو الرجل تصيبُه المصيبة فيعلم أنَّها من الله فيرضى ويسلِّم»؛ أي: فينالُ الهداية.

﴿ **وتحقيق الإيمان بالقدر يثمر ثالثًا: تحقيق الإخلاص لله جَلَّوَعَلَا**؛ فإنَّ من آمن أنَّ كلَّ شيء بقدر وأنَّ الناس لا ينفعون ولا يضرون وأنه لن يصيب الإنسان إلا ما كتب الله له؛ أدّاه هذا إلى أن يَقْصُد وجه الله، ولا يلتفت إلى مخلوق لطلبِ مِدْحَةٍ أو ثناء.

﴿ **ويثمر رابعًا: تحقيق التوكل على الله**؛ وذلك أن كل شيء بيده، وهو سبحانه مُقَدِّرُ الأشياء، ولا تكون إلا فيما جرى في علم الله ﷻ وكتابته ومشيئته وخلقه، فإذا كان ذلك كذلك فلأي شيء يعتمُد قلبه على غير الله؟!.

﴿ **ويثمرُ ذلك خامسًا: تحقيقَ الخوف من الله**؛ وذلك أنَّ من عَلِمَ أنَّ كل شيء مكتوب، كتب الله كل شيء حتى الهداية والضلال، حتى مقعد الإنسان من الجنَّة أو من النار؛ في «الصحيحين» أخبر النبي ﷺ أنَّه «ما من مخلوق إلا وقد كُتب مقعده إما من الجنة وإما من النار»، فإذا كان ذلك كذلك خاف الإنسان ووجِلَ قلبه، لأنَّه لا يدرِي ما الذي كُتب في حقه فيما كَتب الله ﷻ،

ولذلك ما أقضّ مضاجع الصالحين شيئًا كشأن الخاتمة وما كتب الله فيها على العبد.

ﮃ **ويثمرُ ذلك سادسًا: تحقيق الصبر**؛ والصبر نصف الإيمان، فإنَّ من علِم أنَّ كل شيء يصيب الإنسان فهو مكتوبٌ عليه أدّاه ذلك إلى الصبر وحبس النَّفسِ عن الجزع، وترك النَّدم ولوم النَّفس والجزع، فإنَّ ذلك شيءٌ لا فائدة منه، فما قدَّر الله ﷻ فإنه كائن شاء الإنسان أم أبى، ولن يُغني حذَرٌ عن قدَر.

ﮃ **ويثمرُ ذلك سابعًا: تحقيقَ القناعة وغنى النَّفس والسلامة من الحسد**؛ فلأي شيء يتطلع الإنسان إلى ما في أيدى الناس! ولأي شيء يحسدُهم على ما أعطاهم الله ﷻ من نعمه! وكل شيء فهو بتقدير الله ﷻ ، فمن علم ذلك قَنِعَ، وكان غنيَّ النفس سليمًا من آفة الحسد.

ألا قُل لمن كان لي حاسدًا أتدري على من أسأتَ الأدب
أسأت على الله في حكمه لأنك لم ترضَ لي ما وهب

هذه بعض ثمرات الإيمان بالقدر.

الإيمان بالقدر ركن من أركان الإيمان كما قد علمت، ودليل ذلك ما جاء في حديث النبي ﷺ الذي هو حديث جبريل المشهور -وسيأتي الكلام فيه قريبًا إن شاء الله- ففيه قد عدّ النبي ﷺ الإيمان بالقدر من أركان الإيمان، وبيّن الله جَلَّوَعَلَا في غير ما آية أن القدر شيء ثابت، ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾[القمر:٤٩].

وأصول ومعاقد باب القدر عند أهل السنة والجماعة مرجعها إلى ثلاثة أصول، هذه لبُّ باب القدر وأهم مسائله:

الأصل الأول: أنَّ أهل السنة والجماعة يعتقدون أنَّ كل ما يقع في هذا الكون من الأعيان والأفعال فإنَّه راجعٌ إلى علم الله، وكتابته، ومشيئته، وخلقه.

هذه الأمور الأربعة هي التي يسميها أهل العلم مراتب القدر(٩٤٥)، وهي التي أطبق عليها الرسل وأتباعهم(٩٤٦).

علمٌ كتابة مولانا مشيئتُه ... وخلْقُهُ وهو إيجادٌ وتكوينُ

-فكل شيءٍ كائن فإنَّه قد سَبَقَ في علم الله الذي وسَعَ علمه كل شيء، ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾[غافر:٧].

-ثم إنَّ الله ﷻ كتب ما سبق في علمه أنه واقع كتب ذلك في اللوح المحفوظ، ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾[يس:١٢]، هذا هو اللوح المحفوظ، محفوظٌ عن التبديل والزيادة والنقصان.

-ثم إنَّه لم يقع شيئًا إلا لأن الله ﷻ قد شاءه؛ فالمشيئة هي الموجبة للأشياء على الحقيقة، وكل شيء واقعٌ فإنه لم يقع إلا عقيب مشيئة الله ﷻ، ولو شاء الله ألا يقع فإنه لن يقع، «ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن».

-ثم أخيرًا الخلق؛ فكل شيء مخلوق لله ﷻ، ليس ثمة موجود إلا الخالق والمخلوق، والخالق واحدٌ هو الله جَلَّوَعَلَا، فما عداه فهو مخلوق، ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[الزمر:٦٢]، ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾[الفرقان:٢].

---

(٩٤٥) وعلى كل مرتبة من هذه المراتب أدلةٌ لا تُحصى في الكتاب والسُنَّة.

(٩٤٦) وأجمع عليها أهل السُنَّة والجماعة.

إذًا الأمر كما قال أبو حازم سلَمة بن دينار رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنَّ الله علِم قبل أن يكتب، وكتب قبل أن يخلق، فمضى الخلق على علمه وكتابته»؛ فكل شيء في هذا الكون لم يكن أُنُفًا ولم يكن مُبتدَئًا، حاشا وكلا، بل إنه واقع وِفْقَ تقدير الله ﷻ، وهذا التقدير راجع كما قد علمت إلى هذه المراتب الأربع: عِلْمِ الله، وكتابته، ومشيئته، وخلقه.

◄ **الأصل الثاني**: أنَّ أهل السنة والجماعة لا تعارض عندهم بين إثبات مشيئة الله لأفعال العباد وخلقه لها، وبين إثبات مشيئة العباد وأفعالهم[٩٤٧].

تنبه -يارعاك الله- إلى أنَّ هاهنا أربعة أمور يثبتها جميعًا أهل السنة والجماعة:

أولًا: أنَّ كل ما يقع من أفعال العباد وتصرفاتهم وحركاتهم وسكناتهم فإنَّ هذا واقع بمشيئة الله ﷻ، حتى إنَّ مشيئتهم مرتبطة بمشيئة الله، ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[التكوير:٢٩]

ثم يثبتون ثانيًا: أن أفعال العباد مخلوقةٌ لله جَلَّوَعَلَا .

أوَ ليسَ قد قامَ الدَّليلُ بأنَّ ... أفْعال العبادِ خَليقةُ الرحمنِ
من ألْفِ وجهٍ أو قريب الألْف ... يُحصيها الذي يُعنى بهذا الشَّان

(٩٤٧) بمعنى أنَّه يجمع أهل السُنَّة والجماعة بين الإيمان بأن للعبد مشيئة وأن له فعلًا حقيقةً، وبين كون مشيئته مرْبوطةً بمشيئة الله جلَّ وعلا وأنَّ الله سبحانه هو خالقه وخالق مشيئته وخالق فعْله، وعلى هذا أيضًا أدلةٌ لا تُحصى.

فأفعال العباد مخلوقةٌ كما أن أعيانهم وذواتهم مخلوقة، والله جَلَّ وَعَلَا من حكمته أنه قد يخلق بلا واسطة ، وقد يخلق بواسطة؛ خلق آدم والجنَّة والنَّار وغير ذلك بلا واسطة، وخلق حواء وخلق المطر وخلق النبات وخلق البشر بتوسط أسباب، مع غناه ﷻ عن هذا التوسط وعن تلك الأسباب، لكنها حكمة الله، والله حكيم عليم. ومن ذلك: أفعال العباد؛ فالله ﷻ خلقها بواسطة العباد، فهي داخلةٌ تحت عموم قول الله ﷻ: ﴿اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[الزمر:٦٢].

الأمر الثالث: إثباتُ مشيئة العبد؛ فالعبد له مشيئة له إرادةٌ بها يفعل، ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾[التكوير:٢٨]، ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾[البقرة:٢٢٣]. وإثباتُ هذا أمرٌ ضروري، فكل إنسان يعلمُ من نفسه أنَّ له مشيئة، وأنَّه يفعل وفق مشيئة.

الأمر الرابع: إثباتُ أفعال العباد وأنَّها قائمةٌ بهم حقيقة؛ فالعبد هو الذي فعل، العبد هو الذي قام، والعبد هو الذي قعد، والعبد هو الذي صلّى، والعبد هو الذي أذنب؛ ولذلك فإنه يتحمل مسؤولية فعله، ويكون جزاؤه على فعله من عدل الله ﷻ، ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾[البقرة:٢٨٦]، ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[النمل:٩٠].

إذًا هذه أمور أربعة يثبتها أهل السنة والجماعة، ولا يعتقدون أن ثمة تعارضًا بينها.

الأصل الثالث: أن الهداية والإضلال بيد الله جَلَّ وَعَلَا ؛ فالله ﷻ يهدي من يشاء نعمةً منه وفضلا، ويضل من يشاء حكمةً منه وعدلا، قال سبحانه: ﴿وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ

وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُون * فَضْلًا مِنَ اللهِ وَنِعْمَةً وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[الحجرات:٧-٨][٩٤٨].

هذه الأصول الكبار يحتاج بسط الكلام فيها إلى وقت واسع، لكنَّ المهم عندي هو الإحاطة بها الآن إجمالًا. نأتي الآن إلى ما بوّب عليه المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الباب؛ قال: (بَابُ مَا جَاءَ فِي مُنْكِرِي القَدَرِ).

المنحرفون في هذا الباب الذين تجاوزوا الصراط المستقيم إما إلى إفراط أو تفريط يجمعهم مسلكان أو فرقتان:

- **المسلك الأول**: مسلك الجبرية.
- **والمسلك الثاني**: مسلك القدرية.

-**الجبرية**[٩٤٩]: غلوا في إثبات قدر الله ﷻ حتى نفوا مشيئة العبد وقدرته وفعله، وهؤلاء درجتان: درجة غالية[٩٥٠]، ودرجة مقتصدة[٩٥١]؛ ولا كلام لنا فيهم لأنهم ليسوا المقصودين في هذا الباب.

---

(٩٤٨) وهذه المسألة أيضًا -أعني مسألة الهداية والإضلال- عليها كذلك أدلةٌ لا تحصى من الكتاب والسُّنَّة.

(٩٤٩) يُطلقُ عليها أحيانًا في لسان السَّلف: «القدرية» أيضًا، لكونهم خاضوا في القدر الباطل.

(٩٥٠) **يُمثِّل الغُلاة**: «الجهمية»؛ وهم الذين نفوا أن يكون للعبد قدرةٌ أو فعل، فلا يُنسَبُ إلى العبد عندهم شيء، إنما الفاعل حقيقةً هو الله ﷻ، وأمَّا العبد فمفعولٌ به، وإضافة الفعل إليه إضافةٌ مَجازيةٌ كما يزعمون، فهو كالريشة في مَهَبِّ الريح.

---

(٩٥١) هم «الأشاعرة»؛ وسبب حشْرهم وإدخالهم في مذهب «الجبْرية»: هو أنهم يعتقدون أنَّ للعبد قدرة غير مؤثرة في الفعل، وهذا ما أسْمُوه بـ«الكسْب»، وهي المسألة المشهورة (مسألة كسْب الأشعري)، وهي من المسائل التي أضحكوا العقلاء عليهم فيها، فإن مسألة الكسْب الذي قالوا به لا يتضح حقيقة معناه على وجه الدِقَّة وأن يُفرَّق بين الكسْب الذي قالوا به وبين الفعل الحقيقي، وهذا ما صرَّح به كبار أئمَّتهم؛ كالرَّازي مثلًا وغيره، حتى قال الصنعاني: «إن الكسْب عنْقاء المعاني، يُعرف لفظه لا معناه».

والخلاصة أنَّهم قد صرَّحوا كما صرَّح البَيجُوري في «شرح الجوهرة» أنَّ العبد مُختار ظاهرًا مجبورٌ باطنًا، العبد عندهم مُختار ظاهرًا مجبورٌ باطنًا، فله قدرة ولكن لا أثر لها في حصول الفعل، إذًا فوجودها كعدمها، والخلاصة: أن العبد عندهم مجبور لا يفعل بمشيئته ولا يفعل بقدرته، إنما هو مفعول به.

وهؤلاء «الجبْرية» وهم «القدرية المشركية» بأنهم ورثوا مذهب المشركين: ﴿لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا﴾ [الأنعام:١٤٨]، وهذا المذهب عندهم المنحرف أدَّى إلى انحرافات أخرى:

-منها اعتقادهم أن الله ﷻ ظالم، وإن لم يصرّحوا بذلك لكن هذا الذي يتجَلْجَلُ في صدورهم؛ لأنهم يرون أنه يفعل المعاصي ويُعذَّب عليها وما هو إلا مجبورٌ على ذلك، فاعتقدوا في الله ﷻ ما يُنزَّه عنه، وأساءوا الظنَّ به سبحانه.

-ووصل الانحراف ببعضهم إلى أنهم سَوَّوا بين الأشياء قبيحها وحسنها، واعتقدوا أن جميع ما يصدر منهم طاعة لكونه موافقًا لمشيئة الله جلَّ وعلا، حتى عدُّوا الكبائر والفواحش طاعات، حتى قال أحد زنادقتهم:

أصبحتُ مُنفعلاً لِمَا يختَارُهُ   منِّي فَفِعْلي كلُّه طاعاتُ

-**أما المسلك الثاني أو الطائفة الثانية فإنهم القدرية**(٩٥٢)؛ القدرية: هم نفاة القدر، وهذا الإطلاق جاء على خلاف الغالب، الغالب أنَّ الفرقة يضاف إليها المقالة التي تثبتها لا التي تنفيها، لكن قد يقع خلاف ذلك، ومن ذلك هذه التسمية القدرية، فإنَّ هؤلاء سموا بالقدرية لأنهم نفاة القدر، **وهؤلاء على درجتين:**

١-**غلاتهم ومتقدموهم**: نفوا علم الله ﷻ وكتابته؛ وبالتالي يكونون نافين لمشيئته وخلقه، وهؤلاء نبتت نابتتهم في أواخر عهد الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بعد انقراض عهد الخلفاء الراشدين بل وعهد معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، نشأوا في الفترة التي كانت فيها الفتنة بين ابن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وبني أمية، نشأت في البصرة وكان أول

وهذا المذهب كفرٌ مُبين، ولا شكَّ أن من كان منهم عنده دِيانة كالمتوسطة والأشاعرة مُبرؤُون من هذا المذهب، وإنما هذا مذهب الغُلاة الذين ذهبوا إلى هذا المذهب وركبوا هذه الموجة كالاتحادية والجهْمية وغيرهم.

وعلى كل حال الكلام في هذا يطول، لكن ظواهر النُّصوص كلها دالة على بطلان مذهبهم، فلِلْعبد مشيئة؛ ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ [التكوير:٢٨]، ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ [البقرة:٢٢٣]، وله فعل حقيقةً؛ ولأجل ذلك استحقَّ الثواب والعقاب؛ ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة:٢٨٦]، ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٧].

وهذا ما يدل عليه العقل الصريح الذي لا يَرتاب فيه أحد، فإنَّ كل أحد يعلم بالاضْطرار أنَّه إنما يفعل عن مشيئة له واختيار، ويفرِّق بين حركة المختار وحركة المرْتعش، وهذا من الأمور التي إنكارها ظاهر البطلان، ولا يُخاطَب المُنكِر لذلك لأنه يجحد الضروريات.

(٩٥٢) وهي محل البحث في هذا الباب.

من قال بهذا القول رجل اسمه: مَعْبَد الجهني. وهؤلاء قد أجمع السلف الصالح على كفرهم، وكلُّ أدلة الكتاب والسنة تَرَدُّ مذهب هذه الفئة الضالة الذين نفوا علم الله ﷻ (٩٥٣) وجعلوا الأمور أُنُفًا؛ يعني مستأنفة جديدة لا يعلم الله الأشياء حتى تقع، فإذا وقعت علِمها الله، فضلًا عن أن يكون قد كتبها، أو أن تكون واقعة بمشيئته، أو أنه هو الذي خلقها، وهذا معلومٌ كفرُ قائله بالاضطرار من دين الله ﷻ . وهذه الفرقة قد تلاشت واضمحلت، فلا يُعرف في الفرق المعروفة المشتهرة من يقول بهذه المقالة(٩٥٤).

٢-**أما الفرقة أو المرتبة الثانية من هؤلاء القدرية فهم: مقتصدوهم** (٩٥٥): الذين أثبتوا علم الله القديم وكتابته في لوح محفوظ؛ لكنَّهم أنكروا عموم المشيئة وعموم الخلق. وما معنى ذلك؟

معنى ذلك: أنهم أخرجوا أفعال العباد عن أن تكون داخلةً تحت مشيئة الله ﷻ ، أو أن يكون الله خَالِقًا لأفعال العباد. عندهم أن الله ﷻ شاء الأشياء باستثناء أفعال العباد، وعندهم أنَّ الله خلق الأشياء باستثناء أفعال العباد(٩٥٦)؛ وهؤلاء هم المعتزلة ومن لفَّ لفهم.

---

(٩٥٣) علْم الله ﷻ القديم.

(٩٥٤) وأدلة الكتاب والسُنَّة طافحة بِرَدِّ ضلالهم وانحرافهم.

(٩٥٥) وعليها متأخِّروهم، ويمثِّلها من الفِرق المعروفة «المعتزلة» ومن سار في رِكابها كالرافضة والزيدية.

(٩٥٦) وكذلك أنكروا أن تكون الهداية والإضلال إليه جلَّ وعلا.

وكـلًّا الطـائفتين يطلـق عليهمـا «القدريـة» علـى تفـاوتٍ في الحكـم عليهمـا، وذلك أنَّ أهل العلـم أجمعـوا علـى كُفْـرِ الفرقـة الأولـى، بخـلاف الفرقـة الثانيـة. وكلاهما يسمى «القدرية المجوسية». وأدلة بطلان قولهم كثيرة جدًا ، حتـى ابـن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «تهذيب السنن» أشار إلى أنـه تصـفح أدلـة الكتـاب والسـنة الرادة على مذهب القدرية المجوسية فوجد أنها تزيد على خمسـمائة دليـل كلهـا شـاهدة بـبطلان مـذهب هـؤلاء القدريـة. ومجمـع انحـرافهم راجـع إلـى ثـلاث مسائل.

لبُّ وخلاصة انحرافهم ترجع إلى ثلاثة مسائل:

الأمر الأول: أنَّهم أنكروا أن تكون أفعال العباد واقعةً بمشيئة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى[٩٥٧].

والأمر الثاني: أنَّهم أنكروا أن تكون أفعال العباد مخلوقةً لله عَزَّوَجَلَّ[٩٥٨].

---

(٩٥٧) ومشيئتهم في زعْمهم مستقلةٌ عن مشيئة الله جلَّ وعلا. وسببُ هذا الانحراف عندهم: اعتقادهم التسْوية بين المشيئة والإرادة وبين المحبة، فكل ما شاءهُ الله وأراده فقد أحبه بزعمهم.

والمقدمة الثانية: أن المعاصي غير محبوبة لله جلَّ وعلا.

والمقدمة الثالثة: المعاصي واقعة من العباد.

النتيجة: أن تكون المعاصي غير داخلة في مشيئة الله سبحانه وتعالى، وإذا كان بعض أفعال العباد وهي المعاصي لا تدخل في مشيئة الله فجميعها إذًا لا تدخل في مشيئة الله.

(٩٥٨) يعني إنكارهم أن يكون الله خالق لأفعال العباد، فأفعال العباد عندهم مُحدَثةٌ من قِبلهم وغير داخلة في مشيئة الله تَعَالَى، ولأجل هذا سُمُّوا: «القدرية المجوسية» كما سيأتي التنبيه على ذلك إن شاء الله.

والأمر الثالث: أنكروا أن تكون الهداية والإضلال بيد الله ﷻ(٩٥٩)؛ عندهم ليس ثمة شيءٌ أعان الله به المؤمنين وهدى به قلوبهم وخصهم به فكانوا به مؤمنين، إنما الشيء الذي هُديَ به المؤمنون هو الشيء الذي هُديَ به الكفار، فهو لا يتجاوز هداية الدلالة والإرشاد، أما أن يكون الله ﷻ قد خصَّ المؤمنين بشيء زائد هو هداية قلوبهم فإن هذا عندهم باطل.

ويكفي في الردِّ عليهم قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾[الحجرات:٧](٩٦٠)، والأدلة في

---

(٩٥٩) فعندهم لم يهدِ الله المطيع ولم يُضِل الله العاصي، وإنما جميع ما دلَّ على الهداية والإضلال في الكتاب والسُنَّة فإنه مُؤوَّلٌ عندهم على معنى الأمر والنهي والتكليف لا غير.

(٩٦٠) ﴿ فَضْلًا مِنَ اللهِ وَنِعْمَةً وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحجرات: ٨]...

ويكفي أن تتأمَّل قول الله جلَّ وعلا: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ * وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير:٢٨-٢٩]. وبهذا يتضح لك انحرافهم في مسألة إخراج أفعال العباد عن أن تكون داخلة تحت مشيئة الله، وكذلك انحرافهم في باب الهداية.

أمَّا مسألة خلْق أفعال العباد فيدلُ على بطلانها قول الله جلَّ وعلا: ﴿اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد:١٦]، وهذا عموم لم يخرجْ منه شيء ولم يُخصَّ بحال، وأهل السُنَّة والجماعة يَجمعون بين كون أفعال العباد صادرة منهم عن قدرة لهم وعن مشيئة فيهم، وبين كون الله ﷻ خالقًا لها.

ويُسهِّل لك فهْم هذه المسألة: أن تعلم أن الله ﷻ يخلق تارةً بلا واسطة، كما خلق آدم وكما خلق الجنَّة والنَّار وما إلى ذلك، وتارةً يخلق بواسطة معَ عدم احتياجه سبحانه لهذه الواسطة، ولكن هذا ما اقتضتْه حكمته سبحانه، فإنه خلَق الناس بواسطة والدِيهم، وخلق

إثبات هذا بالعشرات. هؤلاء هم منكروا القدر، وحكمهم كما قد علمت أن الغلاة منهم المنكرين لعلم الله ﷻ وكتابته هؤلاء كفار بإجماع السلف.

المطر بواسطة السحاب، ومن هذا الباب أفعال العباد، فإن الله جلَّ وعلا خلقها بواسطة العباد، ولا يُسْتشكل حينئذٍ أن يُجمع بين الأمرين وهما: كون الفعل صادر حقيقة من العبد وأنَّه فعْله وأنَّه كسبه ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة:٢٨٦]، وكونه مخلوقًا لله ﷻ.

وأسباب الضلال عندهم -كما علمتَ- راجعٌ ذلك إلى أمور؛ منها: كونهم ما فرقوا بين الإرادة والمحبة وجعلوها شيئًا واحدًا ، فلم يفرقوا بين إرادة كونية وإرادة شرعية، كما أنهم لم يفرقوا بين الفعل والمفعول؛ ولذلك في مسألة خلْق أفعال العباد قالوا: (لو كان الله خالقًا لأفعال العباد لكان متصفًا بذلك، فيكون متصفًا بالكفْر والمعاصي وما إليه، والله يُنزَّه عن ذلك).

وهذا ضلال منهم وانحراف، فإن من يتصف بذلك إنما هو من قامت به هذه الأشياء لا مَن خلقها في غيره، فالقوم لم يفرِّقوا بين الفعل والمفعول، وبين الخلق والمخلوق، ففِعل الله وخلْق الله صفةٌ قائمة به، و أمَّا أفعال العباد فمفعولةٌ مخلوقة منفصلةٌ عنه.

وحتى يتضح الأمر تأمَّل في عمل النجار مثلًا؛ ففِعْله هو الضرب والطرق والنشر وما إلى ذلك، ومفعوله هذا الكرسي أو تلك الطاولة وما إلى ذلك، إذًا فرقٌ بين الفعل والمفعول، والله ﷻ لا يتصف بهذه المنكرات الواقعة في العباد لأنه خالقٌ لها وليس فاعلًا لها.

وإلزامًا لهم يُقال: عندكم أنَّ الله ﷻ هو الخالق للروائح الكريهة والأعيان القبيحة ومع ذلك لم يكن متصفًا عندكم بها، فالشأن في أفعال العباد كالشأن في ذلك سواء بسواء.

أما من عداهم من الطائفة التي هم دونهم؛ فالأصل في هذه الفرقة أنها فرقةٌ ضالةٌ مُبتدِعة، إلا في حق من قامت عليه الحجة بعينه فإنه لا شك أن من كذَّب دليلًا واحدًا من الكتاب والسنة وقامت على صاحبة الحجة فلا شك في كفره، فكيف بعشرات أو مئات الأدلة التي يُكّذَّبُ بها هذا الإنسان في حقيقة الحال!.

الخلاصة أن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بين في الأدلة التي ساقها في هذا الباب الرد على هؤلاء الذين أنكروا قدر الله جَلَّ وَعَلَا، والله تعالى أعلم.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَقَالَ ابنُ عُمَرَ: «وَالَّذِي نَفْسُ ابْنِ عُمَرَ بِيَدِهِ، لَوْ كَانَ لَأَحَدِهِم مِثْلُ أُحُدٍ ذَهَبًا ثُمَّ أَنْفَقَهُ فِي سَبيلِ اللهِ مَا قَبِلَهُ اللهُ مِنْهُ حتَّى يُؤمِنَ بِالقَدَرِ»، ثمَّ استَدلَّ بِقَوْلِ النَّبيِّ ﷺ: «الْإِيْمَانُ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَاليَومِ الآخِرِ، وَتُؤمِنَ بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

قوله: (وَقَالَ ابنُ عُمَرَ: «وَالَّذِي نَفْسُ ابْنِ عُمَرَ بِيَدِهِ، لَوْ كَانَ لَأَحَدِهِم مِثْلُ أُحُدٍ ذَهَبًا ثُمَّ أَنْفَقَهُ فِي سَبيلِ اللهِ مَا قَبِلَهُ اللهُ مِنْهُ حتَّى يُؤمِنَ بِالقَدَرِ»)؛ هذه قطعة من حديث ابن عمر الذي رواه عن أبيه عن النبي ﷺ، وقد خرجه الإمام مسلم في صحيحه، وهو أول حديثٍ في كتاب الإيمان، بل هو أول حديث في صحيح مسلم.

وفيه[٩٦١] أن يحيى بن يعمر وحُميد بن عبد الرحمن الحميري ترافقا حاجَّين أو معتمرين، وأرادا أن يسألا أحدًا من أصحاب النبي ﷺ عن المقالة التي ظهرت

(٩٦١) وسبب ما حدَّث به ابن عُمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

قِبَلهم في البصرة؛ وهي مقالة معبد الجهني وأتباعه الذين كانوا يقولون: إن الأمر أُنُف؛ يعني لم يسبق الأمر في علم الله ﷻ ولم يكتب الله ﷻ شيئا، إنَّما يعلم الله الأشياء بعد وقوعها. فَوُفِّقَ لهم عبد الله بن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا وهو داخلٌ إلى المسجد، فاكتنفاه ثم تكلم يحيى بن يعمر رَحِمَهُٱللَّهُ وبيّن له أن أناسًا قِبلهم يقرأون القرآن ويتقفرون العلم - يتقفرون العلم: يعني يتتبعون العلم- وهذا يدلك على أنه ليس كل من طلب العلم وقرأ القرآن يكون على الصراط المستقيم، بل إذا لم يهد الله ﷻ طالب العلم إلى سلوك الصراط السوي فإنَّه قد يجني عليه علمُه، وقد يضل عياذًا بالله.

إذا لم يكن عونٌ من الله للفتى ... فأول ما يجني عليه اجتهاده

العلم عند أهل العلم سببٌ للهداية، وليس أنَّه ملزومٌ للهداية انتبه لهذا.

العلم ليس الهداية مرتبة عليه ترتُّب العلة للمعلول، كلا، العلم سبب، ولكنَّ السبب بحاجة إلى أسباب أخرى، لا يوجد سببٌ يستقل بوجود المسَبَّبَ، بل لابد من وجود أسبابٍ أخرى، ولابد أيضًا من زوال المانع، ولابد من هداية من الله ﷻ؛ ولذا كم ممن كان عنده علمٌ فضلَّ عن الصراط المستقيم ،عافاني الله وإياكم من ذلك.

المهم أنَّ ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا لما حدّثاه بخبر هؤلاء القوم القدرية بيّن براءته ﷺ منهم، وقال: «إذا لقيت هؤلاء فأخبرهم أني بريء منهم وهم مني براء، والذي يحلف به عبد الله بن عمر» أقسم بالله، هكذا الرواية في مسلم، والمؤلف رَحِمَهُٱللَّهُ كأنه ساقها بالمعنى(**وَالَّذِي نَفْسُ ابْنِ عُمَرَ بِيَدِهِ**)، ليست هذه رواية مسلم، نصُّ

صحيح مسلم: «**والذي يحلف به عبد الله بن عمر، لو كان لأحدهم مثل أحدا ذهبا فأنفقه في سبيل الله لم يُقبل منه حتى يؤمن بالقدر خيره وشره**».

شاهد هذا في كتاب الله: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَبِرَسُولِهِ﴾[التوبة:٥٤]. فهو أثبت هاهنا كفرهم، لأن عدم قبول أعمالهم ونفقاتهم إنما كان بسبب كفرهم بالله ﷻ، ولاشك في أنَّ من قال بهذا القول فنفى قدَر الله ﷻ لاشك في كفره بالإجماع.

وهذه البراءة وهذا الذم الذي جاء عن ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قد جاء عن غيره أيضا من أصحاب النبي ﷺ الذين أدركوا هذه المقالة، ومن أولئك ابن عباس، ومن أولئك جابر بن عبد الله، ومن أولئك واثلة بن الأصقع رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ أجمعين[٩٦٢].

المقصود أنَّ ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا عقَّبَ على هذا بأنْ حدَّث هذين بما حدَّثه به أبوه عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا من قصة إتيان جبريل عَلَيْهِٱلسَّلَامُ للنبي ﷺ وما جرى في هذا الحديث من بيان الإسلام والإيمان والإحسان، والشاهد من ذلك: أن النبي ﷺ عدَّ من أركان الإيمان: الإيمان بالقدر، والله تعالى أعلم.

قال المصنف رَحِمَهُٱللَّهُ: (**وَعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ** رضي الله عنه **أَنَّه قَالَ لِابْنِهِ: يَا بُنَيَّ؛ إِنَّكَ لَنْ تجِدَ طَعْمَ الْإِيْمَانِ حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يكُنْ لِيُصِيبَكَ، سَمِعْتُ رَسُوْلَ اللهِ** ﷺ **يَقُوْلُ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمُ، فَقَالَ**

(٩٦٢) كما نقل هذا شيخ الإسلام رَحِمَهُٱللَّهُ.

لَهُ: اكْتُبْ، فَقَالَ: رَبِّ! وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُوْمَ السَّاعَةُ»، يا بُنَيَّ سَمِعْتُ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ يقولُ: «مَنْ مَاتَ عَلَى غَيْرِ هَذَا فَلَيْسَ مِنِّي»).

هذا الحديث الثاني الذي أورده المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ وفيه وصيةُ عبادة بن الصامت رضي الله عنه لابنه، واسم ابنه «الوليد» كما جاء مصرحًا به في رواية الترمذي.

وهذا الحديث بيَّض المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند نهايته كأنه أراد أن يعزوه فلم يتيسر له، وهذا اللفظ الذي بين أيدينا عند أبي داود بسننه، ورواه بنحوه الترمذي وغيره.

وفيه وصية عبادة رضي الله عنه لابنه، وهكذا كانت عادة السلف الصالح؛ أنَّهم يتخولون أولادهم بالوصية والنَّصيحة، لا أنهم يتركون لهم الحبل على الغارب، يغفلون عنهم انشغالًا بالدنيا ولا يدرون في أيِّ وادٍ يهيم أولادهم، إنما كانوا يعتنون بهم بالنصح والبيان والتوجيه، لاسيما في أهم الأمور وهو أمرُ الدِّين والتوحيد والاعتقاد.

ربما تجد من الناس من ينصح ولده لكنَّ نصحه لا يتجاوز أمر الدنيا؛ ينصحه في شأن الدراسة، ينصحه في شأن العمل، ينصحه في شأن اكتساب المال، لكن أن تكون النصيحة متعلقة بأهم الأمور على الإطلاق وهو شأن الدِّين! فإن هذا قليلٌ ما يتنبه له مع الأسف الشديد.

وقد جاء في رواية الترمذي أنَّ عطاء بن أبي رباح سأل الوليد بنَ عبادة عن آخر وصية له أوصاك بها قبل الموت، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنه دعاني -يعني عبادة

ﷺ- فقال: يا بني أوصيك أن تؤمن بالله وبالقدر خيره وشره، فإنك إن لم تفعل أدخلك الله النار»؛ هذه كانت آخر وصية أوصى بها عبادة ابنه رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ و رَحِمَهُمُٱللَّهُ.

المقصود أنَّ هذا مما ينبغي أن يُستفاد منه في هذا الأثر.

قال ﷺ في هذا الحديث: «**لن تذوق طعم الإيمان حتى تؤمن بالقدر**»؛ وهذا فيه فائدة: وهي أن للإيمان طعمًا، وهذا الطعم حقيقيٌ يذوقه من يبلغُ هذه الدرجة وهي تحقيق الإيمان، كما أنَّ للأكل طعمًا حقيقيًا يذوقه من يأكل، كذلك للإيمان طعمٌ حقيقيٌ يذوقه ويشعر به من يبلغ إلى تحقيق الإيمان؛ وذلك بأن يؤمن بالقدر خيره وشره[٩٦٣].

قوله: (يَا بُنَيَّ إِنَّكَ لَنْ تجِدَ طَعْمَ الْإِيْمَانِ حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أخطأَكَ لَمْ يكُنْ لِيُصِيبَكَ)؛ هذا فيه إثبات القدر، من آمن بالقدر عَلِمَ هذا العلم، وأن الشيء الذي أصابه من سرور أو ضدِّه فإنه لا يمكن أن يتخلَّف قدر الله ﷻ، ما أراد الله ﷻ وقوعه فسيقع شئت أم أبيت، لا يمكن أن يُخْطِئ صاحبه، كذلك العكس الشيء الذي لم يقدِّره الله لك الذي وصل إلى غيرك، ولم يصل إليك، يجب أن تعلم أنه لن يصل إليك مهما فعلت.

---

(٩٦٣) **وكيفية الإيمان بالقدر**: تكون بأن يعتقد أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا﴾ [التوبة:٥١]، فكل شيء راجع إلى قدَر الله ﷻ، فما من حركة وما من سكون، وما من صفة ولا فعل ولا عين إلا وهو راجع إلى قدر الله جلَّ وعلا، فقد عَلِمَه الله وكتبه في اللَّوح المحفوظ، وشاء حصوله وخلق ذلك.

إذًا عليك أن تركن إلى الرضا والتسليم والإذعان، وتترك الحسرة والندم ولوم النفس فإن هذا لا فائدة منه، كل شيء بقدر الله ﷻ، قال النبي ﷺ كما في صحيح مسلم: «كل شيء بقدر حتى العجْز والكَيْس»، أو قال «الكيس والعجز»، كل شيء حتى الذكاء والحنكة والتدبير بقدر الله، كذلك العجز والتقصير والحمق أو قلة الذكاء وقلة التدبير هو أيضًا بقدر الله ﷻ.

إذًا ما على الإنسان إلا أن يبذل الأسباب ثم بعد ذلك يفوِّض الأمر إلى الله ﷻ . وليعلم أن تدبير الله خيرٌ من تدبيره، وأن خيرة الله خيرٌ من خيرته لنفسه.

فَوّضِ الأمر إليه هو أولى بكَ منكَ

قوله: (سَمِعْتُ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ يَقُوْلُ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ القَلَمُ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ، فَقَالَ: رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُوْمَ السَّاعَةُ).

هذا الحديث فيه مسألتان:

❑ **الأولى**: ما سبقت الإشارة إليه من أن للإيمان طعمًا يُذاق، ولن يذوق طعم الإيمان إلا من حقق الإيمان بالقدر؛ الذي يعلمُ أنَّ ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، فيؤمنُ بقول الله تعالى: ﴿لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا﴾[التوبة:٥١]، فهو يعلم ويوقن بأنَّ كل شيء يقع في هذا الكون فإنَّه مُقَدَّرٌ من الله سبحانه، قد سَبَقَ القضاء به في علم الله وكتابته ومشيئته وخلقه. ومن كان كذلك فإنَّه سيطمئن وترتاح نفسه ويدَع التلوم والتحسر؛ لأنه يعلم أنَّ قدَر الله ﷻ لا مفر منه، وأن قدَر الله كله خيرٌ لعبده، فعند ذلك يجد لهذا التسليم ولهذا الإيمان حلاوةً يذوقها بقلبه.

❑ **أما المسألة الثانية**: وهي ما أخبر به ﷺ عن النبي ﷺ من قوله: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ القَلَمُ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ**»؛ هذا الحديث فيه إثبات المرتبة الثانية من مراتب القدر وهي الكتابة، فالكتابة كانت بالقلم الأول الذي خلقه الله **جَلَّوَعَلَا** وأجرى به المقادير، وكان ذلك قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، كما ثبت هذا في صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمر بن العاص رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أن النبي ﷺ قال: «كتب الله مقادير كل شيء قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، قال وعرشه على الماء».

وهذا الحديث فيه مسألةٌ جديرة بالتنبيه عليها؛ وهي قوله ﷺ: «**إن أولَ ما خلق الله القلمَ**»، أو «**أولُ ما خلق الله القلمُ**»، هل هذه القطعة من الحديث جملة أو جملتان؟ قُرأَ الحديث بكليهما.

قُرِأَ على أنه جملة «**أولَ ما خلق الله القلمَ فقال له اكتب**» بفتح «أول» وبفتح «القلم»؛ وعليه فيكون إعراب (أول): أنها ظرف زمان، يعني: أنه عند ابتداء خلق القلم قال الله ﷻ له أكتب، **هذا هو التوجيه الأول**.

والتوجيه الثاني: أن هذه القطعة من الحديث جملتان، ويُنطقُ الحديث بناءً على ذلك بضمِّ كلمة «أول» وبضم كلمة «القلم»: «أولُ ما خلق الله القلمُ»، ثم ما بعده جملةٌ جديدة مستأنفة؛ فتكون هذه الكلمة مبتدأ وخبرها (القلم)؛ «**أولُ**» مبتدأ، والخبر «**القلم**».

والأقرب -والله تعالى أعلم- **هو الأول**؛ وهذا ما اختاره جماعةٌ من المحققين. يعني أن النبي ﷺ أخبر أنه عند ابتداء خلق القلم قال الله ﷻ له: «**اكتب**»، فكتب كل شيء إلى قيام الساعة.

وعلى التقدير الثاني وهو أنهما جملتان وأنَّ الجملة الأولى مبتدأٌ وخبر؛ فليس المراد من قول النبي ﷺ «**أولُ ما خلق الله القلم**» أنَّ القلمَ هو أول المخلوقات على الإطلاق، إنَّما الأولية هاهنا أوليةٌ نسبية، بمعنى أنَّ أولَ مخلوق من هذا العالم المشهود الذي خلقه الله في ستة أيام وهو العالم الذي نعلمه؛ أول ما خلق الله ﷻ منه كان القلم، وذلك لأنَّه سببُ إيجاد هذا العالم، فتقدير المخلوقات متقدمٌ على خلق المخلوقات، فالتقديرُ سابقٌ لخلق السماوات والأرض، فلأجل هذا أخبر النبي ﷺ أنَّه أولُ المخلوقات.

وليس قَطْعًا يراد من هذا الحديث أنَّه أول المخلوقات على الإطلاق؛ فإن المقطوع به أنَّ الله ﷻ لم يزلْ خالقًا، لم يكن معطلاً عن الفعل والخلق ثم ابتدأ هذا الكمال، بل لم يزل الله ﷻ فعَّالاً، ولم يزل الله ﷻ خالقًا، ولم يزل الله ﷻ ربًا، ولم يزل الله ﷻ إلهًا.

وهاهنا يبحث أهل العلم مسألة أولية الخلق بين القلم والعرش؛ يعني أي هذين المخلوقين خُلِقَ قبل الآخر؟ اختلف السلف والعلماء في هذه المسألة إلى قولين:

- **من أهل العلم من قال**: إنَّ القلم أسبق خلقًا من العرش، واختار هذا جماعة من أهل العلم ومنهم ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

▪ **والقول الثاني**: وهو الذي عليه جمهور السلف -كما نقل هذا شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في المجلد الثامن عشر من «مجموع الفتاوى»- أن العرش والماء مخلوقان قبل القلم. ويدل على هذا:

-أن الحديث الذي بين أيدينا وهو حديث عبادة ﷺ فيه بيانُ أنَّ الكتابة - أعنى كتابة المقادير- كانت عقيب خلق القلم؛ فإن النبي ﷺ أخبر أنه «**أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب**»، فلاحظ التعقيب هاهنا بالفاء، فيدل على أنه عقيب خلق القلم كانت الكتابة.

-وحديث عبد الله بن عمرو بن العاص في صحيح مسلم أخبر فيه النبي ﷺ بـ «أن الله كتب مقادير كل شيء قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة وعرشه على الماء»، إذاً كان العرش والماء موجودان قبل حصول هذه الكتابة، وبالتالي فيكون العرش والماء موجودان قبل خلق القلم.

-ويشهد لهذا أيضاً ما ثبت في صحيح البخاري من حديث عمران بن حصين ﷺ أن النبي ﷺ قال: «كان الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء، ثم خلق السماوات والأرض وكتب مقادير كل شيء»؛ لاحظ معي أنَّ العطف هاهنا كان بـ (ثُمَّ) التي تدل على الترتيب والمهلة، فكان خلقُ السماوات والأرض وكتابة المقادير بعد وجود العرش والماء؛ فدل هذا على أنَّ العرش والماء متقدمان وجوداً على القلم.

وفي هذا يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَالنَّاسُ مُخْتَلِفُونَ فِي الْقَلَمِ الَّذِي ... كُتِبَ الْقَضَاءُ بِهِ مِنَ الدَّيَّانِ

هَلْ كَانَ قَبْلَ الْعَرْشِ أَوْ هُوَ بَعْدَهُ؟ قَوْلَانِ عِنْدَ أَبِي الْعَلَا الْهَمَذَانِي
وَالْحَقُّ أَنَّ الْعَرْشَ قَبْلُ؛ لِأَنَّهُ قَبْلَ الْكِتَابَةِ كَانَ ذَا أَرْكَانِ

لكن لاحظ -يا رعاك الله- أنَّ المسألة هاهنا البحث فيها يتعلق بأولية الخلق بين هذين المخلوقين وليس في الأولية المطلقة؛ فإنَّ الذي عليه أهل السنة والجماعة، وهو الذي لا يشك فيه من نظر في النصوص وعَرَفَ عظمة الله ﷻ: أن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لم يزل خالقًا، فكلُّ مخلوق فالله ﷻ قد خلق قبله مخلوقًا، والعوالِم التي خلقها الله ﷻ لا حصر لها، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[النحل:٨]، فكل مخلوق خلق الله تعالى قبله مخلوقًا، والذي قبله خلق الله قبله مخلوقًا وهكذا، فلم يزل الله ﷻ خالقًا في الأزل، كما أنه لم يزل خالقًا في الأبد، فإن كل مخلوق خلقه الله ﷻ فإنه سيخلق بعده مخلوقًا، وهكذا سيستمر الأمر إلى ما لا نهاية من جهة الأبد، كذلك الأمر ثابت في الأزل كما قال ابن القيم رحمه الله في النونية:

بل كل فرد فهو مسبوق بفرد قبله أبداً بلا حُسبان
ونظير هذا كل فرد فهو ملحو ق بفردٍ بعده حكمان

كلا الحكمين ثابتان: التسلسل في الخلق من جهة الأزل يعني من جهة الماضي، والتسلسل في الخلق من جهة الأبد يعني من جهة المستقبل، والذي يلزم أحد الأمرين لازمٌ للآخر ولابد. وعلى كل حال المسألة فيها بحثٌ ليس هذا موضع تفصيله.

إذًا الخلاصة التي نريد أن نصل إليها: ثبوت مرتبةٍ من مراتب القدر، هذا ما نستفيده من حديث عبادة ﷺ الذي بين أيدينا؛ وهو أن الله ﷻ كتب كل شيء مما هو كائنٌ قبل خلق السماوات والأرض وإلى قيام الساعة. وظاهر الحديث -كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ- أن الكتابة كانت إلى هذا الحد؛ إلى قيام الساعة، ولم تكن الكتابة لما بعد ذلك، والله تعالى أعلم.

قوله: (**يا بُنَيَّ سَمِعْتُ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ يقولُ: «مَنْ مَاتَ عَلَى غَيْرِ هَـذَا فَلَيْسَ مِنِّي»**) ؛ من مات على غير هذا فكان مكذبـًا للقدر -مكذبـًا لعلم الله السابق أو كتابته أو مشيئته أو خلقه أو مكذبًا لهذه جميعـًا- فلا شك أنه ليس من النبي ﷺ، ليس من دينه وليس من ملته، فإن من أنكر القدر إنكاراً صريحاً لا شك في أنه ليس من الإسلام في شيء.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وَفِي رِوَايَةٍ لِأَحْمَدَ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ تَعَالَى القَلَمُ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ، فَجَرَى فِي تِلَكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ». وَفِي رِوَايَةٍ لِابْنِ وَهْبٍ: قَالَ رَسُوْلُ اللهُ ﷺ: «فَمَنْ لَمْ يُؤمِنْ بالقَدَرِ خيرِهِ وشرِّهِ أحْرَقَهُ اللهُ بالنَّارِ»**).

قال: (**وفي رواية لابن وهب**)؛ وابن وهبٍ: هو الإمام العالم الجليل عبد الله بن وهب المصري، المتوفى سنة سبعة وتسعين ومائة، وهذه الرواية موجودة في كتابه «القدر»، فإنه أفرد باب القدر بكتاب مطبوع وفيه: أن «**مَنْ لَمْ يُؤمِنْ بالقَدَرِ**

خَيرِهِ وشرِّهِ أَحْرَقَهُ اللهُ بالنَّارِ»؛ ولا شك أن من كذَّب بالقدر فهو كافر بالله ﷻ، وقد توعد الله الكفار بالنار.

وهذه الرواية فيها مسألة: وهي إثبات الخير والشر في المقدَّرات، يعني فيما يقدِّره الله ﷻ؛ مسألة الشر مسألةٌ تحتاجُ إلى تفصيل.

اعلم -يا رعاك الله- أن هذا الموضوع منضبطٌ عند أهل السنة والجماعة بضابطين انتبه لهما:

الضابط الأول: أنَّ الشر يضاف إلى مقدور الله ومفعوله ومخلوقه، لا إلى خلق الله وفِعله؛ الله ﷻ لا يُضاف الشر إليه، لا إلى ذاته ولا إلى أسمائه ولا إلى صفاته، أليس النبي ﷺ قد قال كما في صحيح مسلم: «والشر ليس إليك»، ليس الشر إلى الله ﷻ البتة، بل فعله كلُّه خير، وما يضاف إلى الله ﷻ كله خير؛ صفاته كلها خير، وأسماؤه كلها خير، الشر لا يضاف إلى الله ﷻ البتة.

إنما يُضاف الشر إلى المقدور المخلوق، لا إلى الخالق ﷻ؛ وذلك أنَّ المعلوم عند جميع العقلاء أن الله ﷻ إذا خلق شيئًا في شيء عاد حكم هذا الشيء إلى المخلوق لا إليه ﷻ، لأنَّ الصفة تتبع الذات التي وصِفَت بهذه الصفة، فإذا كان الله ﷻ خالقًا للأشياء ومنها ما يكونُ شراً أو يكون قبيحًا لم يعد حكمُ هذا الوصف إلى الله ﷻ، إذا خَلَقَ الله ما رائحته قبيحة أو إذا خلق الله ما شكله قبيح عادَ حكمُ القبح على ما قام به هذا القبح وليس إلى الله ﷻ. فالمخلوق هو الذي يُوصفُ بالشر يُوصَفُ بالقبح، ويتنزه الله تعالى عن ذلك؛

وذلك أنَّ خَلْقَ الله ﷻ لهذا القبيح خير، **وجه ذلك**: أنَّه يترتبُ على وجوده حكمة ومصلحة وجودها خيرٌ من عدمها، ولأجل هذا خَلَقَ الله ﷻ هذا الشر.

مع ملاحظة أن يراعيَ الإنسان الأدب مع الله ﷻ فلا يضيف إليه سبحانه وتعالى أيضًا الخلق للشر على جهة الإفراد، لا يقول قائل مثلا: "الله خالق الكلاب، والقردة، وخالق الكفر والمعاصي" هكذا دون وجود حكمة في هذا الكلام، إنما يُدخل هذا الشر في عموم قوله ﷻ مثلاً: ﴿اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[الزمر:٦٢].

المقصود: أن الله ﷻ إذا خلق شيئًا فيه شرٌ فإن إيجاد هذا الشيء حكمةٌ ومصلحةٌ وخيرٌ محض؛ لأنه يترتب عليه خير عظيم.

أُقَرِّبُ إليك المسألة: كلُّ العقلاءِ يدركون أن الأشياء منها ما يراد لذاته ومنها ما يراد لغيره. ما معنى يراد لغيره؟ لو أن ابنًا لرجل أصيب بمرض، أصيب مثلاً في رجله -عافاني الله وإياكم- بمرض يسري في جسده، ولو لم يُستأصل هذا العضو فإن المرض سيسري؛ يعني كأن يصاب والعياذ بالله بـ"غرغرينا" كما يقولون في الرِّجل، لو لم تقطع الرِّجل فإن هذا المرض ماذا سيحصل له؟ سيستمر حتى يموت هذا الإنسان. هذا هو المعروف عند الطب، ولأجل هذا ربما تجد الأب المحب المشفق يأخذ ابنه بنفسه ويذهب به إلى الطبيب ويعاونه على مسك ابنه لأجل أن يقطع هذا الطبيب رجله. أليس كذلك؟

والسؤال: هل هذا الأب غيرُ محبٍّ لابنه لا يريد له الخير؟ بل يحبه كل الحب، والدليل أنه حريص على مصلحته. قد يقول قائل: إذًا كيف يذهب به ويعينه على قطع رجله؟ الجواب: أن قطع الرِّجل هاهنا ليس مقصوداً لذاته، إنما

هو مقصودٌ لغيره، لو لم تُقطع الرجل فإن المرض سيسري ويكون التلف في تقدير الله ﷻ، إذًا ارتكاب هذه المفسدة كان في حقيقة الحال مصلحة وكان هو الحكمة وكان هو الخير. إذًا قد يُقْصَدُ الشيء لغيره؛ يعني لا لذاته إنما لما يترتب على وجوده. هذه الصورة تقرب لك المسألة التي بين أيدينا ولله المثل الأعلى.

فالله ﷻ إذا قدّر حصول ما يكره، فإنما قدّره لأنه يترتب عليه ما يحب. إذا قدّر الله ﷻ خلق إبليس، إذا قدّر الله وجود المعاصي وجود الكفر، فإنه يترتب على وجود هذا الذي يكرهه ما يحبه الله ﷻ، فلأجل هذا أوجد الله ﷻ هذه المخلوقات التي فيها شر.

وإذا أردت أن تتوسع في فَهْمِ هذه المسألة فارجع إلى ما دوَّنه ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه العظيم «مفتاح دار السعادة»، فإنَّه تكلم عن هذه المسألة بكلام نفيس، بل أشار في أحد المواضع إلى الفوائد العظيمة التي يمكن أن تُلْتمس لخلق الله ﷻ للمعاصي؛ لمَّا خلق الله المعاصي وُجدت التوبة التي يحبها الله ﷻ، لمَّا خلق الله المعاصي كان ما يحبه الله ﷻ من مغفرة الذنوب، لما وُجدت المعاصي وُجدت عبودية المجاهدة التي يحبها الله ﷻ. ذكر ابن القيم ما يزيد على ثلاثين فائدة لتقدير الله ﷻ للمعاصي.

إذًا إذا نظرنا إلى فَعْلِ الله القائم به ﷻ؛ فإن ما يقدِّرهُ ﷻ خيرٌ محض وحكمةٌ محضة ومصلحةٌ محضة.

﴿ أما الضابط الثاني: فهو أن الشر يضاف إلى المخلوق المقدَّر، ومع ذلك لا يوجد فيما يخلقه الله ﷻ ما هو شرٌ محض، بل لابد أن يكون هذا الذي خلقه الله ﷻ وفيه شر الشر فيه نسبيٌ جزئيٌ وليس شرًا محضـًا؛ لابـد أن يكـون في وجـوده خير ويترتب على وجوده خير، أما أن يكـون شـراً مـن جميـع الوجـوه ولا فائـدة تترتب على وجوده فإنه لـيس في المخلوقـات شـيء مـن ذلـك، لـم يخلـق الله ﷻ شراً محضًا.

انتبه لهذا الضابط المقرر عنـد أهـل السـنة والجماعـة ولـه شـواهد مـن الأدلـة كثيرة؛ لا يوجد ما هو شرٌ محضٌ، بل ما فيه شر فإن الذي فيه شر الشـر فيـه نسـبي جزئي، يعني ليس شراً محضـًا، ليس شراً كمـا يقولـون مائـة بالمائـة، بـل لابـد أن يكون فيه شر وخير، ولأجل هـذا خلقـه الله ﷻ، أمـا شـرٌ كامـل شـرٌ محـض فهـذا عدم وهو غير موجود، وليس في خلق الله ﷻ شيء منه.

إذًا فَهْمُنَا لهذا الأمر يتضح بـه معنـى مـا جـاء في هـذه الروايـة وهـو «**الإيمـان بالقدر خيره وشره**»؛ قد يقدِّر الله ﷻ ما فيه شر، ولكنَّ هذا الشر شر في المخلـوق المقدَّر وليس راجعـًا إلـى فِعـل الله الـذي يقـوم بـه، وهـذا الشـر أيضـًا لـيس شـراً محضـًا، بل إنما هو شر من وجه وفيه خيـر مـن وجـه مـن حيـث إنـه يترتـب علـى وجوده ما هو خير[٩٦٤]. والله تعالى أعلم[٩٦٥].

---

(٩٦٤) قوله (فَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ)؛ نسبة الخير والشر هنا إنما هي نسبةٌ إلى ما يقع وبالنسبة إلى المقدَّر وبالنسبة إلى المَقْضي؛ فإنه يكون خيرًا ويكون شرًا. أمَّا القدر الذي هو التقدير الذي هو فعْل الله سبحانه فإنه خير كلُّه ولا شر فيه البتَّة، والشر ليس إليه.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَفِي الْمُسْنَدِ وَالسُّنَنِ عَنِ ابْنِ الدَّيْلَمِيِّ؛ قَالَ: أَتَيْتُ أُبَيَّ بنَ كعْبٍ، فَقُلْتُ: فِي نَفْسِي شَيْءٌ مِنَ القَدَرِ، فَحَدِّثْنِي بِشَيءٍ لَعَلَّ اللهُ يُذْهِبُهُ مِنْ قَلْبي، فَقَالَ: «لَوْ أنفَقْتَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، مَا قَبِلَهُ اللهُ مِنْكَ؛ حَتَّى تُؤمِنَ بِالقَدَرِ، وَتَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيْبَكَ، وَلَوْ مِتَّ عَلَى غَيْرِ هَذَا لَكُنْتَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، قَالَ: فَأَتَيْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ مَسْعُودٍ وَحُذَيفةَ بْنَ الْيَمَانِ وَزَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ فَكُلُّهُمْ حَدَّثَنِي بِمِثْلِ ذَلِكَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ» حَدِيثٌ صَحِيْحٌ رَوَاهُ الحَاكِمُ فِي صَحِيحِهِ).

هذا الحديث كما ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ خرجَّه الإمام أحمد في «مسنده»، وكذلك هو في السنن؛ في سنن أبي داود وابن ماجة، وهو كذلك عند الحاكم وغيرهم ممن أخرجوا هذا الحديث، وهو حديث صحيح.

ويُتصورُ ذلك بأن يُعلم أنَّ الله ﷻ قدَّر الخير وقدَّر الشر وله في ذلك حِكمة؛ أمَّا الخير فواضح لا إشكال فيه، وأمَّا الشر فإن الله ﷻ إنما قدَّره لِمَا يترتَّب عليه من المصالح التي يحبها الله ﷻ.

إذًا الخير مرادٌ لغيره، إذا قدَّر الله الخير من العباد من الصلاة التي تقع من العباد والصدْق وما إلى ذلك فهذه أمور مرادة لذاتها، الله ﷻ يحبها لذاته. وأمَّا إذا قُدِرت الشرور من المعاصي والمنكرات وإبليس والكفار وما إلى ذلك؛ فإنَّ ذلك إنما كان لأن الله ﷻ يحب ما يترتَّب على وجود هذه الشرور، وبذلك تعلم أنه ما من شيء يُقدَّر إلا والله ﷻ يحبه إمَّا لذاته وإمَّا لغيره على هذا التفصيل.

(٩٦٥) قال: (أَحْرَقَهُ اللهُ بِالنَّارِ)؛ وهذا حق؛ لأن مَن لا يؤمن بالقدر فإنه كافر، والله ﷻ قد توعَّد الكفار بالعذاب في النَّار.

وفيه أنَّ ابن الديلمي -وابن الديلمي هو: عبد الله بن فيروز الديلمي أحد كبار التابعين رَحِمَهُ ٱللَّهُ- أنه وقع في نفسه شيءٌ يتعلق بالقدر، فرجع في إلى أبيّ بن كعب رضي الله عنه وطلب منه أن يحدثه بشيء لعل الله عَزَّ وَجَلَّ أن يُذْهِبَ هذه الشبهة من قلبه بسببه، فأخبره بما دلت عليه الأدلة والآثار السابقة من وجوب الإيمان بالقدر، وأنَّ هذا الإيمان بالقدر به تكون حقيقةُ الإيمان، وأنَّ لم يكن كذلك فإنه ليس بمسلم.

ولا جديد في هذا الحديث إلا ما أشار المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في المسائل إليه وهو: أنَّ عادة السلف إزالة الشبهة بسؤال العلماء؛ وهذا تنبيهٌ مهم ودرسٌ ما أحوجنا إليه في هذا الوقت وفي هذا الزمان.

الشبهة من علاجها: الرجوعُ إلى أهل العلم، وهكذا فعل ابن الديلمي لمّا وقع في نفسه شيء من الشبهة في شأن القدر، وما أكثر الشبه ولاسيما في باب القدر، فرجع رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى أُبيّ بن كعب، وإلى عبد الله بن مسعود، وإلى حذيفة بن اليمان، وإلى زيد بن ثابت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، وكلهم يحدِّثُ بما حدَّثَ به الآخر، وكلهم يرفع ذلك إلى النبي ﷺ، كما جاء هذا في رواية ابن ماجه، أما الرواية التي بين أيدينا فإنَّ الذي تحدَّث به أُبيٌّ وابن مسعود وحذيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ إنما هو من قولهم، والمرفوع إنما كان فيما رواه زيدٌ عن رسول الله ﷺ.

وفي رواية ابن ماجه أن أبيَّ رضي الله عنه لما أجابه قال: (ولا عليك أن تأتي أخي عبد الله بن مسعود) ثم أتى إلى عبد الله بن مسعود فأجابه بمثل جواب أُبيّ، فقال:

(ولا عليك أن تأتي أخي حذيفة بن اليمان) ، ثم لما جاء وحدثه بمثل حديث صاحبيه قال: (ولا عليك أن تأتي أخي زيد بن ثابت).

المقصود أن هاهنا تنبيهًا مهمًا يتعلق بموضوع الشبه ومنهج التعامل معها؛ هذا الزمان الذي نعيشه من سماته البارزة أنَّه زمن الشبهات، شبهاتٌ تتقاذف على المسلمين صِغارًا وكبارًا، ذُكورًا وإناثًا، تتناول كل شيء، شُبَهٌ تتعلق بصحة الإسلام، شُبَهٌ تتعلق بسنة النبي ﷺ، شُبَهٌ تتعلق بالقرآن، شُبَهٌ تتعلق بتوحيد الله ﷻ، شُبَهٌ تتعلق بباب الصفات، شُبَهٌ تتعلق بباب القدر، شُبَهٌ تتعلق بأحكام الإسلام، شُبَهٌ تتعلق بوجود الباري ﷻ. إذًا شُبُهَاتٌ تقذف على الناس وتهبط عليهم من الفضاء، أو تصطادهم من خلال الشبكة حتى أنها لا تكاد أن تدع بيتًا إلا دخلته. ولأجل هذا يجد طالب العلم والداعية إلى الله ﷻ إشكالًا عند كثير من الناس، يسألون عن شبه وردت عليهم ما رأيك فيمن يقول كذا؟ وكيف نجيب عن كذا وكذا؟ ربما كانت مسائلُ كبار.

إذًا كيف ينبغي أن يتعامل المسلم مع الشُبَهْ إذا وردت عليه؟

تنبه -يا رعاك الله- إلى وصايا ثلاث تتعلق بموضوع الشبهات والتعامل معها، فإنَّ الأخذ بها فيه عصمةٌ من الوقوع في حَمْئَةِ الشُبهات بتوفيق الله ﷻ.

أولا قبل أن أذكر الوصايا؛ الشبهة أمرٌ فيه التباس، يعني هي باطلٍ يلبسُ لباس الحق، ولأجل هذا فإنها تروج على قليلِي العلم، الشبهة باطل يلبس لباس الحق؛ تتبهرج وتتزخرف وتتحسَّن في أعين من كان جاهلاً، أما العالم الذي آتاه الله ﷻ البصيرة في الدِّين فإنه ينظر إليها بنظرٍ ثاقب بما يفتح الله ﷻ عليه من

العلم فيعرفها على حقيقتها، تتعرى أمامه ولا ينخدع بها، إنما الإشكال في ورودِها على جاهل ليس بثابت القدم في العلم. **إذًا كيف ينبغي على الإنسان أن يتعامل معها؟**

أولًا: المطلوبُ من كل مسلم أن يَنْأَى بنفسه عن الشبهات؛ عليك يا عبد الله أن تهرب منها، وإياك أن تتساهل معها، أو أن ترخيَ سمعك لها؛ فإنَّ هذا هو الموت الأحمر، هاهنا الخطورة كل الخطورة؛ اعلم يا عبد الله أن الشبهة خَطَّافة وأن القلوب ضعيفة، وكم من الناس من سقط في وحل الضلال بسبب أنَّه تساهل مع الشبهات، الشبهة مشكلةٌ كبرى، الشبهة تشبه الورم، تعرفون الورم؟ -أسأل الله أن يعافيني وإياكم والمسلمين- الورم لا تجد أنه يبدأ شيئًا كبيرًا إنما هو يبدأ شيئًا صغيراً، ثم إنه لايزال يكبر ويفشو حتى ربما إذا وصل إلى مرحلة متأخرة ربما تجد الطبيب يقول: "لا أستطيع أن أصنع لك شيئًا أصبح هذا الورم منتشراً في الجسد"؛ كذلك الشبهة تبدأ نقطةً في القلب، ثم إنها لا تزال تكبر وتتوسع حتى ربما أظلم القلب بسببها، وأنا أعرف وربما أنتم تعرفون من ضلَّ وانحرف ربما ارتدَّ عن دين الله ﷻ بسبب شُبْهَةٍ واحدة.

إذًا المسألة ينبغي أن يكون فيها الحزم، ينبغي أن يكون فيها الجدية، لا ينبغي للإنسان أن يتساهل يقول: "أنا الحمد لله مسلم وولدت مسلمًا وأسرتي مسلمة لا يمكن أن أتأثر"، حذارِ يا عبد الله إياك من هذه المصيدة، إياك من هذه الأحبولة التي يصطاد بها إبليس، مشكلة كبرى ولاسيما عند الشباب ما يسمى بـ«حب الاستطلاع»، لماذا ما الذي يمنعني أن أطالع هذه القناة؟ ربما تكون قناةً

تقذف بشبَه التنصير، أو تقذف بالشبه التي تطعن في دين الإسلام، أو تطعن في بعض مسائل الدين؛ فيقول: "أنا أستمع، هذه حرية، هذه ثقافة، هذه رغبة في أن أطالع الشيء الجديد، لماذا نتحجَّر؟!" وإذا به لا يخرج من هذه المطالعة إلا وقد أظلم قلبه، وربما كان ذلك سبباً لانحرافه.

كذلك تجده يدخل إلى مواقع، إلى معرفات، إلى حسابات، إلى مدوَّنات في الشبكة، ويُبحر ويطالع؛ وإذا بقلبه يتحمل من السموم تلوّ السموم التي تضعف إيمانه وتوحيده وهو لا يشعر، والنتيجة بعد ذلك: أنَّك تجده يقع في قلق عظيم وشك كبير، بل ربما يكون وصل إلى أن يكون على حافة بين الإيمان والكفر، إن تداركه الله ﷻ فإنه يَلْطُف به ويعيده إلى حظيرة الإسلام، وإلا فإنه قد يتردى في حفرة من حفر الكفر.

وأنا أتحدث يا أخواني عن أمر واقع وليس عن أمر خيالي، ينبغي على الإنسان أن يأخذ هذا الأمر على محمل الجد، وأن يأتمر بأوامر الله ﷻ، ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾[الأنعام:٦٨]، قال جَلَّوَعَلَا في سورة آل عمران عن هذا الكتاب العظيم، ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾[آل عمران:٧]؛ هاهنا حدَّث النبي ﷺ بحديث عظيم ينبغي أن نضعه نصب أعيننا، قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «فإذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمَّى الله فاحذروهم»؛ حذارِ من هؤلاء.

إنَّ السلامة من سلمى وجارتها ألا تحُلَّ على حال بواديها

ابتعد واهرب وأنجُ بنفسك عند شعورك بأن هاهنا خطر وهاهنا شبه تُقذف، تطعن في المسلَّمات والمحكمات وأصول الدين التي تعتقدها، إذًا عليك **أولاً** أن تبتعد.

الوصية الثانية: إذا قدَّر الله ﷻ ورود الشبهة عليك؛ وصلتك الشبهة دون بحثٍ وتَطَلُّبٍ منك، قدَّر الله ورودها عليك، قرأتها في رسالة واتس ، أو قرأتها في تغريدة، أو شاهدتها في قناة من القنوات، فإن عليك أن تتعامل معها تعاملك مع المرض المعدي الخطير؛ بمعنى إياك من التساهل وإياك من التمادي وإياك من التكاسل، عليك أن تسعى مباشرة بعلاجها، هي أشبه الأشياء بالمرض الذي يحتاج أن تبادره بالعلاج قبل أن يستفحل.

والعلاج إنما هو عند العلماء الربانيين، العلاج عند أطباء القلوب العلماء الراسخين، فعليك أن تَطْلُبَ ذلك عند أهل العلم، وأقول الراسخين؛ فإن من الناس إذا وقعت الشبهة في قلبه يبادر إلى حلِّها وعلاجها في غير مظنة ذلك، تجد أنه إذا جاءته الشبهة تتعلق بأمر عظيم يتعلق بوجود الله أو صحة القرآن أو صحة رسالة النبي ﷺ، ليس أمامه غير أن يكتب في جوجل! هذا واقع أو لا؟ يظن أن هذا هو العلاج أن أكتب في محرك البحث "جوجل" وأبحث، والله أعلم إلى أي موقع سوف يصل في بحثه، ربما يقع أو يصل إلى موقع مفيد ونافع وناصح، وربما يكون الأمر بخلاف ذلك، بل ربما يصل إلى موقعٍ يزيده شكًا واشتباهًا.

إذًا الشبهة ليس علاجها في الشبكة عند الجاهل بمواقعها، ليس عند ضِعافِ المثقفين والكُتَّاب وأمثال ذلك، العلاج ينبغي أن يكون عند العلماء الراسخين(٩٦٦).

هذه الأمثلة التي بين أيدينا شواهد كافية ولله الحمد؛ هذا عبد الله بن الديلمي لما وقع في نفسه شيء إلى أين ذهب؟ أولاً سكت؟! كتم؟! ترك الأمر على ما هو عليه ولعله يفشو في قلبه ويستمر؟! أنه بادر إلى كشف ذلك؟ بادر إلى كشف ذلك وذهب إلى العلماء، ذهب إلى أبي ومسعود وابن حذيفة وزيد بن ثابت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ.

في القصة التي مرت معنا أول هذا الباب؛ حميد بن عبد الرحمن الحميري ويحيى بن يعمر ماذا فعلوا عندما ورد عليهم شبهة تتعلق بمقالة القدرية؟ ذهبوا ورحلوا من العراق إلى مكة حاجين أو معتمرين، ولأجل أيضًا أن يصلوا إلى أحد من أصحاب النبي ﷺ فيكشف لهم حقيقة الحال، وجدوا عبد الله بن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا فسألاه عن ذلك.

أيضًا في حديث عبادة في رواية الترمذي؛ أن عبد الواحد بن سُلَيْم وقع عنده شيء من الإشكال في مسألة القدر، وصله قول القدرية فذهب لعطاء بن أبي

(٩٦٦) وهكذا ينبغي على طلاب العلم أن يكون رجوعُهم في المُهمَّات وفي المشكلات وفي النوازل إلى أهل العلم الرَّاسخين، لا إلى أشْباه العلماء ولا إلى المتكلّمين والمثقفين والمفكّرين ومن إلى هؤلاء، بلْ ينبغي أن يكون الرجوع إلى أهل العلم الرَّاسخين، ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء:٨٣].

رباح إمام أهل مكة رَحِمَهُ ٱللَّهُ وسأله عن هذا، فقال اقرأ من سورة الزخرف، فقرأ حتى بلغ قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[الزخرف:٤]؛ فبَيّن له أن هذا هو الذكر -يعني اللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه كل شيء- وفيه أن فرعون من أهل النار، وفيه كذا وفيه كذا، ثم حدّثه بما حدثه به الوليد بن عبادة بن الصامت في الحديث الذي بين أيدينا والرواية التي معنا رواية أبي داود.

المقصود أن العلماء لم يزالوا حريصين على كشف الشبه عند العلماء الراسخين؛ إذا ورد عليك شيء من ذلك فعليك أن تبادر إلى علاجه عند الأطباء الناصحين، أطباء القلوب؛ وهم العلماء الراسخون.

الأمر الثالث: عليك -يارعاك الله- أن تعتصم بالمحكمات؛ والشبهة تبقى شبهة، أبقِ الشبهة في محلها وضعها في مكانها اللائق واعتصم بالمحكمات، عليك أن تتنبه إلى هذه القاعدة المهمة: «محكمات الدين وأصوله ومسائله الواضحة الراسخة التي عليها أدلة الكتاب والسنة ينبغي أن تكون راسخة في قلبك رسوخ الجبال»، لا ينبغي أبدًا أن تجعلها ضعيفة مهزوزة بحيث أن أدنى هبة ريح تؤدي إلى أن تكون شاكًا مرتابًا؛ كلا يا عبد الله، تمسك دائمًا بالمحكمات، الأصول المحكمة؛ وهي الحق الذي أنزله الله على نبيه محمد ﷺ ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾[الإسراء:١٠٥]، وبذلك تصْغُر الشبهة في عينك وتضمحل، وتضع هذه الشبه حينئذ في محلها اللائق بها.

الشبهة تبقى شبهة، لكن لا ينبغي أن تهزك وأن تجعلك مرتابًا، ولذلك تنبه إلى هذا التنبيه اللطيف في قوله ﷻ: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ

تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾[آل عمران:٥٩-٦٠]، الممترين: يعني الشاكين.

تنبه هنا إلى أن الله ﷻ بين زيف شبهة النصارى الذين شبَّهوا ولبَّسوا بخلق عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فإن عيسى كلمةُ الله -يعني: بالكلمة كان، قال له كن فيكون- هم لبَّسُوا بهذه الشبهة، وأن اللاهوت نزل في الناسوت وأن فيه شيئًا من الإلهية بسبب طريقة خلقه، فبيّن الله ﷻ المحكم في هذا الباب، وأن خلْق عيسى هو كخلق آدم ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾[آل عمران:٥٩]، ثم بين الله ﷻ أن هذا الحق ينبغي أن يكون راسخًا لا يقبل التشكيك: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾[آل عمران:٦٠].

هذه مسألة مهمة ، وأوصيك بالرجوع إلى الجواب المجمل الذي أورده إمام الدعوة رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «كشف الشبهات» فإنه في غاية الأهمية لكل طالب علم، بل لكل مسلم؛ وهو أنه إذا ابْتُليَ بمن يورد عليه الشبه من أهل الشرك والبدع فعليه أن يبيّن له أن العبادة لله ﷻ، وأن الله ﷻ هو المعبود، وأن كل عبادةٍ تُصرف لغيره فهو شرك، أما هذا الذي تحدثني به فأنا لا أعرفه ولا يضرني أن لا أعرف كشفه، إنما الحق هو هذا الذي أعلمه.

إذًا إذا وردت عليك شبهة لا تستطيع ردها، وربما لن تستطيع أن ترد كل شبهة، إنما عليك أن تعتصم بالمحكم عندك، والشبهة ضعها في محلها لا تؤثر فيك، إن لم تستطع جوابها اليوم غدًا أو بعد غد، وربما بعد سنة وربما بعد عشر سنوات، المهم أن لا تكون مؤثرة على إيمانك على المحكمات ، ضعها في

قلبك راسخة رسوخ الجبال التي لا تقبل أن تهتز، عندها بإذن الله ﷻ تكون حريًا بالتوفيق للهداية.

أمَّا الذي يكون قلبه مثل الإسفنجة يَتَشَرَّبُ كل شيء ويتقبل كل شيء، هذا الذي تجده دائمًا مرتابًا حائراً شَكَّاكًا لا يستقر له قرار، الذي ينبغي أن تتناول هذه الشُبَه وأن تنظر إليها أن تجعل قلبك مثل الزجاج، الذي يرى الشُبْهَةَ بصفائه، لكنَّه يطردها بصلابته، لا يقبل دخولها على قلبه.

إذًا عندنا قلبان:

- قلبٌ من زجاج يرى الشبهة ويعرف الباطل ولكنه لا يتسرب إليه.

-وقلبٌ مثل الإسفنجة يتشرَّب كل ما يرد إليه، عنده استعداد لأن يأخذ بكل قول وأن يتشكك وأن يذهب كل مذهب، اليوم في قول، وغداً على قول، وبعد غد على مذهب وهكذا ، كل ما جاءه شخص ألحن بحجته من شخص فإنك تجده يذهب معه، يأخذ بيده ويقود معه قود النعاج، مثل هذا تجده شاكًا مرتابًا حائراً مضطربًا، وربما والعياذ بالله يعود القهقرى. وهكذا ينبغي على المسلم أن يتنبه إلى هذا الأمر العظيم.

إذًا هذه وصايا ثلاث ينبغي أن نتنبه إليها في شأن الشبهات.



قال المصنف رحمه الله:

٦١-بَابُ
مَا جَاءَ فِي الْمُصَوِّرِينَ

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ: «قَالَ اللهُ تَعَالَى: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي، فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا حَبَّةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا شَعِيرَةً». أَخْرَجَاهُ.

وَلَهُمَا عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؛ أَنَّ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ قَالَ: «أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ: الَّذِينَ يُضَاهِئُونَ بِخَلْقِ اللهِ».

وَلَهُمَا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: سَمِعْتُ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «كُلُّ مُصَوِّرٍ فِي النَّارِ؛ يُجْعَلُ لَهُ بِكُلِّ صُورَةٍ صَوَّرَهَا نَفْسٌ يُعَذَّبُ بِهَا فِي جَهَنَّمَ».

وَلَهُمَا عَنْهُ مَرْفُوعًا: «مَنْ صَوَّرَ صُوْرَةً فِي الدُّنْيَا؛ كُلِّفَ أَنْ يَنْفُخَ فِيهَا الرُّوحَ، وَلَيْسَ بِنَافِخٍ».

وَلِمُسْلِمٍ عَنْ أَبِي الْهَيَّاجِ؛ قَالَ: قَالَ لِي عَلِيٌّ: «أَلَا أَبْعَثُكَ عَلَى مَا بَعَثَنِي عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ؟: «أَنْ لَا تَدَعَ صُورَةً إِلَّا طَمَسْتَهَا، وَلَا قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوَّيْتَهُ».



قال الشارح وفقه الله:

قال الإمام المجدد عليه رحمة الله: (بَاب مَا جَاءَ فِي الْمُصَوِّرِينَ)؛ يعني من الذمِّ والوعيد. وأحاديث النبي ﷺ متكاثرةٌ في تحريم التصوير وذمِّ من فعله، وهذه الأحاديث ثابتةٌ في الصحيحين وغيرهما عن جملةٍ من أصحاب النبي ﷺ؛ ومن ذلك ما أورد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الباب، فقد أورد خمسة أحاديث كلَّها في

الصحيحين خلا الحديث الأخير فإنه في «مسلم»، والحديث الأول من هذه الأحاديث حديثٌ قدسي.

ومناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد من جهتين:

➢ **أولًا**: أنَّ التصوير مضاهاةٌ لخلق الله، كما سيأتي في الحديث الأول إن شاء الله؛ ولا شك أن هذا يتنافى وتحقيقَ التوحيد، فإن الله **جَلَّ وَعَلَا** هو المصوِّر، «المصوِّر» اسمه، والتصوير فِعله، ﴿هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾[الحشر:٢٤]، قال ﷻ: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾[آل عمران:٦]، وقال ﷻ: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾[غافر:٦٤]؛ فالله **جَلَّ وَعَلَا** هو المصور الذي أبدع صور مخلوقاته وفق ما اقتضته حكمته(٩٦٧). فالذي يتشبَّه بالمِصوِّر **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** لا شك أنه أتى بما يتنافى وتحقيق التوحيد، على اختلاف الحكم في المصوِّر كما سيأتي الكلام عنه إن شاء الله.

➢ **والوجه الثاني**: أنَّ التصوير من أعظم أسباب وقوع الشرك(٩٦٨)، فلا يخفى عليكم -يا أيها الإخوة- أنَّ أول شرك وقع في الأرض -وهو شرك قوم نوح- إنما كان بسبب التصوير؛ فهما فتنتان أعظم ما وقع من الشرك وأكثر ما وقع من الشرك كان بسببهما: فتنةُ التصوير، وفتنةُ القبور.

وتذكرون ما مر بنا هنا في هذا الكتاب لمَّا حدثت أم سلمة وأم حبيبة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا** حدثتا رسول الله ﷺ بما رأتا من كنيسةٍ كانتا قد رأتها كل واحدةٌ منهما

---

(٩٦٧) ولذلك لا يجوز بحال أن يُضاهى الله ﷻ في فعْله تبارك وتعالى.

(٩٦٨) وهذا من الأمور التي يجب أن تُنكر.

فحدَّثنا رسول الله ﷺ بما رأوا فيها من حُسنٍ وتصاوير، فقال النبي ﷺ: «أولئكِ كان إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدا وصوَّروا فيه تلك التصاوير، أولئكِ شرار الخلق عند الله»؛ فدل هذا على أن الفتنة بالتصوير فتنة عظيمة ربما أدّت إلى وقوع الشرك بالله ﷻ.

قد يقول قائل: إن هذا الأمر كان موجودًا في السابق، أما اليوم في هذا الزمان في عصر التقدم والتكنولوجيا هل يُتصور وقوع الشرك بسبب الصور؟!

والجواب: أن هذا قول من يجهل سنة الله الشرعية والكونية والواقع الذي يعيشه؛ فإن الله ﷻ هو العليم بكل ما يكون، وهو الحكيم في شرعه وخلقه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وقد نهانا عن التصوير -كما سيأتي جملةٌ أدلة من جملةِ ذلك- فكان الواجب الانصياع إلى ذلك.

ثم إن واقع الناس يشهد بأن التصوير لا يزال فتنة عظيمة لكثير من الناس، أفلا يرى هؤلاء أولئك النصارى الذين يركعون ويسجدون لصور المسيح، أو ما يزعمون أنه صورة المسيح أو صورة أمه! أفلا يرون أولئك البوذيين أو الهندوس أو غيرهم من أضراب المشركين والكفار الذين يتقربون ويتعبَّدون لصورٍ منصوبة أو صورٍ مرقومة!

ثم إنَّ النبي ﷺ قد أخبر كما في الصحيحين وغيرهما في أحاديث عدة بوقوع الشرك في أخر هذه الأمة، أخبر النبي ﷺ: «أنه لن تقوم الساعة حتى يلحق فئامٌ من هذه الأمة بالمشركين، وحتى تُعبد الأصنام وحتى تُعبد اللات والعزى»، فكيف يُستكثَر بعد ذلك النهيُ عن التصوير وأنه ذريعة لوقوع الشرك -عافاني الله

وإياكم-، لا سيما ما كان من صور المعظمين التي تُنصب والتي تُعلق والتي تُجعل لها الأماكن الرفيعة والعالية في صور المجالس وغيرها، لا شك أنَّ هذا منكر وذريعة أوضح لوقوع الشرك، عافاني الله وإياكم من ذلك(٩٦٩).

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (عن أبي هريرة رضي الله عنه قَالَ: قال رسول ﷺ: «قَالَ الله تعالى: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي، فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا حَبَّةً، أَوْ شَعِيرَةً» أخرجاه).

هذا حديثٌ مُخَرجٌ في الصحيحين، **وسبب تحديث أبو هريرة رضي الله عنه به**: أنه دخل دارًا في المدينة فرأى في أعلاها رجلاً يصوِّر، رأى مصورًا يصور كأنه والله أعلم كان رجلًا ينحت أو ينقش صورًا في الجدران، فما كان منه رضي الله عنه إلا أن حدّث بما حدثه به رسوله ﷺ عن ربه جَلَّ وَعَلَا .

قال: «**مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي**»؛ لا شك أن الاستفهام هاهنا استفهامٌ إنكاري، والمعنى: لا أحد أشد ظلمًا من هذا الذي يذهب يريد أن يتشبه بخلق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ، يريد أن يتشّبه بفعل الله عَزَّ وَجَلَّ ؛كما أن الله عَزَّ وَجَلَّ يخلق فهو يريد أيضًا أن يخلق.

ولا شك أن هذا ذنب عظيم ومنكر كبير، ولذلك جاء هذا الأمر الذي هو من أمر التعجيز في قول ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: «**فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً، أَوْ فلِيَخْلُقُوا حَبَّةً، أَوْ شَعِيرَةً**»؛ الذرة: النملة الصغيرة؛ هل يستطيع هؤلاء أن يخلقوا هذه الذرة التي هي من

(٩٦٩) المقصود: أنَّ الصور -ولا سيَّما صور المُعظَّمين- شأنها عظيم وخطرها كبير، ويجب عند الإمكان إنكارها.

أصغر مخلوقات الله ﷻ ؟ بل هل يستطيعون أن يخلقوا حبة حنطة أو حبة شعيرة؟! لا شك أنهم لا يستطيعون ذلك.

وهذا الأمر أمر تعجيز يتضمن التوبيخ للفاعل لهذا الأمر، أمر تعجيزٍ ليس أمر تكليف على نحو قوله ﷻ: ﴿فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾[الرحمن:٣٣]، ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾[الإسراء:٥٠]، ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾[الطور:٣٤]، هذا أمر تعجيزٍ يتضمن التوبيخ لمن فعل هذا الأمر(٩٧٠).

وهذا الحديث من جهة قصته ومن جهة فَهْم الصحابي وهو أبو هريرة ﵁ يُستفاد منه: أن من التصوير المحرم ما ليس له ظل؛ لأن الظاهر والله أعلم أن هذا المصور إنما كان يرسم على حيطان هذا البيت ما فيه روح، فاستدل أبو هريرة ﵁ بهذا الحديث الذي يدل على تحريم التصوير.

والأحاديث التي جاءت في ذم التصوير والوعيد عليه جاءت على أنواع من الوعيد:

- فهذا الحديث الذي بين أيدينا يدل على أنَّ هذا الذي يفعل هذا الفعل أظلم الناس.

---

(٩٧٠) وهذا يدل على أنَّ فعلهم منكرٌ عظيم، وعلى أنهم يطلبون ما لا يمكن أن يقع، ولذلك تحدَّاهم أن يخلقوا ما هو من أصغر الحيوانات؛ الذرة صغيرة النمل، بل تنزَّل معهم حتى تحدَّاهم أن يخلقوا حبةً من حِنْطة أو شعير، وإنَّهم غير مستطيعين لذلك. وهذا يدلك على أنَّ التصوير أمْر محرم، وقد يكون كفرًا بالله جلَّ وعلا، وقد يكون كبيرة من الكبائر، على ما سيأتي تفصيله إن شاء الله.

- كذلك جاء عن النبي ﷺ **-وهو أمر ثانٍ-** أن: «أشد الناس عذابًا يوم القيامة المصورون».
- **كذلك جاء ثالثًا من وعيد التصوير**: أنَّ الله ﷻ يأمر المصوِّر أن ينفخ الروح فيما صوَّر من ذوات الأرواح وليس بنافخٍ، ويقال لهؤلاء المصورين أحيوا ما خلقتم.
- **وجاء رابعًا أيضًا** أن الله جَلَّوَعَلَا يجعل في كل صورة صورها المصور روحًا ونفسًا فيعذَّب بها كما يشاء ﷻ.
- وجاء أيضًا **-وهذا أمرٌ خامس-** أنه يعذب حتى ينفخ فيها الروح وليس بنافخٍ أبدا، ثبت في صحيح البخاري من حديث ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أن النبي ﷺ قال: «من صوَّر صورة جعل الله يوم القيامة لها نفسًا فيعذَّب بها حتى ينفخ فيها، وليس بنافخٍ أبدًا».

إذًا هذه أحاديث تقتضي عند كل مسلم الخوف والوجل من الوقوع في هذا الذنب العظيم ، عافاني الله وإياكم من ذلك.

قال رَحِمَهُٱللَّهُ: **(ولهما عن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا أنَّ رسول الله ﷺ قال: «أشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ القيامةِ: الَّذينَ يُضاهُونَ بِخَلقِ الله»)**.

هذا حديث عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا ، وهو ثابت في الصحيحين وله روايات عدة، كما أنه جاء في غير الصحيحين.

وقصة هذا الحديث: أنَّ النبي ﷺ أراد الدخول على بيت عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا ، وجاء في بعض الروايات أنه قدِم من سفر؛ فإذا بباب الحجرة عليه قِرام -القرام:

مثل الستارة؛ قماش يُستر به- وعلى هذا القرام تصاوير، وجاء في بعض الروايات أنَّ هذه التصاوير كانت لأحصنة لها أجنحة، فأبى النبي ﷺ الدخول، فسألت عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا ماذا أذنبْت؟ فأخبرها النبي ﷺ بهذا الحديث؛ إذْ إنَّ «أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا عِند اللهِ يَوْمَ القيامةِ الَّذينَ يُضاهُونَ بِخَلقِ اللهِ».

ومعنى قوله «يضاهون»: يعني يشابهون، المضاهاة: هي المشابهة، هؤلاء الذين يضاهون -وقُرئ أيضًا بالهمز «يضاهئون»- لا شك أنهم وقعوا في إثمٍ عظيم، حتى إنهم كانوا كما أخبر النبي ﷺ وهو الصادق المصدوق كانوا أشد الناس عذابًا يوم القيامة.

وهل الممنوع في التصوير المشابهةُ أم قصد المشابهة؟

١. يعني هل الذي جاء ذمُّه والوعيد عليه في هذا الحديث هو أن يصوِّر الإنسان فيكونُ قد وقع في تصويره المضاهاة شاء أم أبى؟

٢. أو أنَّ المقصود النهي عن قصد المشابهة، وبالتالي من صور ولم يقصُد أن يضاهي خلق الله ﷻ فإنه ليس داخلًا في هذا الوعيد؟

الذي يظهر والله تعالى أعلم هو الأول، وأن الحكم يدور مع علته وجودًا وعدمًا؛ فالمشابهةُ تحصل بمجرد التصوير، وأما قصد المشابهة فهذا ينفصل عنه حكمُ المصوِّر؛ فمن قصد أنْ يكون مشابهًا لله ﷻ في فعله فلا شك أن هذا كفرٌ بالله ﷻ. أما من لم يَقْصُد فإنَّه لا يكفر بذلك، لكن هذا الإنسان قد وقع في إثم

عظيم وكبيرة من الكبائر، إذ إنَّ التصوير ينطبق عليه وصف الكبيرة كما تدل على هذا مجموع الأحاديث الواردة في هذا الباب(٩٧١).

وعليه فيكون قول النبي ﷺ: «**أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا عِند اللهِ يَوْمَ القيامةِ الَّذينَ يُضاهُونَ بِخَلقِ اللهِ**» على بابه من جهة ما تدل عليه أفعل التفضيل «أشد»؛ إذا كان الإنسان قاصدًا للمضاهاة فلا شك أنَّ هذا الإنسان أضحى كافرًا، ولا شك أن أشد الناس عذابًا هم الكفار.

أما إذا لم يكن ثمة قصدٍ إنَّما وقع تصويرٌ فقط، فإن قوله ﷺ «**أشد الناس عذابًا**» يوجه بأحد توجيهين:

❖ إما بأنه أشد الناس من جنس من فعَل ما فعل، يعني من جنس الفسَّاق؛ فهو يدل على أنه من أكبر الكبائر.

❖ أو أن تكون «من» هاهنا مقدَّرة، فهو من أشد الناس عذابًا. وهذا الجواب يُفيدك في مواضع كثيرة في أحاديث النبي ﷺ التي جاء فيها أفعل التفضيل سواء فيما يتعلق بفضائل الأعمال أو في مراتب السيئات، أو فيما يتعلق بالعذاب يوم القيامة، فإنَّ من سَنَنِ كلام العرب أنهم يطلقون أفعل التفضيل والمعنى مقدَّرٌ

---

(٩٧١) فنوع المضاهاة وطَرَفَ المضاهاة هنا لا يُشترطُ فيه القَصْد، فنوع المضاهاة حاصل وإن لم يقصد، فاستحقَّ بذلك أن يكون معصيةً عظيمة.

فيه (من) ؛ فهو من أشد الناس، أو من أفضل الأعمال، أو من كذا، وهذا له شواهد في لغة العرب كثيرة[٩٧٢].

المقصود: أن هذا الحديث يدلك على تحريم التصوير، ويدلك أيضًا على أن من التصوير الممنوع ما لا ظل له[٩٧٣] وهذه مسألةٌ ينبغي التنبه لها.

-**فإن التصوير قد يكون تصويرًا لشيءٍ له ظل**؛ بمعنى أن يكون على هيئة التمثال، تنصب هذه الصورة على هيئة التمثال، يصور الإنسانُ إنسانًا أو حيوانًا فيكون على هيئة تمثالٍ أو على هيئة صنمٍ أو ما شاكل ذلك. ولا شك أنَّ هذا

---

(٩٧٢) ويدلك على أنَّ الحديث يُتَوَعَّدُ به أيضًا أصحاب المعاصي من المسلمين المصوِّرين: سبب الحديث؛ وهو أن النبي ﷺ لمَّا أراد الدخول على بيت عائشة وجدَ ذلك السِّتر الذي عليه تصاوير فحدَّث النبي ﷺ بهذا الحديث تحذيرًا لعائشة رضي الله عنها، والروايات في هذه القصة متعددة في «الصحيحين» وغيرهما. وفي بعض الروايات أنه أمرَ ﷺ عائشة رضي الله عنها أن تُمزِّق هذا السِّتر؛ فدلَّ هذا على أنَّ هذا الوعيد يتناول المصور ولو لم يَقْصُد المضاهاة.

كما أنَّ هذا الحديث بسببه يدلك على أن استعمال الصور محرمٌ أيضًا كما أنَّ التصوير محرم؛ وذلك أن عائشة رضي الله عنها لم تكن هي التي صورت هذه التصاوير وإنَّما استعملتْها وإنما نصبتها، فغضب النبي ﷺ من ذلك وذكر هذا الوعيد الشديد على استعمالها.

(٩٧٣) لا فرق بين هذا وذاك في التحريم، ويدلُّ على ذلك: القصة التي ذكرتُها سابقًا؛ حيث أنكر النبي ﷺ التصوير المنقوش على ستارة على قماش، ولم يكن ذلك شيئًا منصوبًا له ظِل كالتماثيل؛ فدلَّ هذا على عموم التحريم في هذا وذاك. وفي المسألة أدلَّةٌ أخرى تدل عليه.

محرمٌ بإجماع العلماء، لا شك أنَّ الصور التي تُنصب أو التي لها ظل هذه محرمةٌ بإجماع العلماء.

-**النوع الثاني**: **الصور المنسوجة أو المرقومة** أو التي صُنعت باليد أو التي لُوِّنت باليد؛ كالتي تُكتب أو ترقم على الأوراق أو على الأقمشة أو على الحيطان وما شاكلَ ذلك؛ فهذه الصور لا شك أنَّها محرمةٌ في قول جماهير أهل العلم.

✍ **وذهب قلةٌ من أهل العلم** إلى أن هذا النوع من الصور ليس بمحرم، إنما الذي يُحرَّم هو ما كان على هيئة التماثيل؛ يعني المنصوبة التي لها ظل.

ولا شك أن هذا القول قوْل غيرُ صحيح، وأصحابه محجوجون بما ثبت عن النبي ﷺ .

-فبين أيدينا هذا الحديث الذي أنكر فيه النبي ﷺ صورةً كانت منسوجةً ومنقوشةً في قماش، فلم تكن على هيئة على هيئة التماثيل، فدل هذا على أن الصورة التي لا ظل لها داخلةٌ في نهي النبي ﷺ.

-ويدل على هذا أيضًا: ما ثبت من حديث أبي هريرة الذي سبق معنا قبل قليل؛ فإن أبا هريرة ﷺ أنكر فيما يظهر والله تعالى أعلم صورة كانت تُرسم على الحائط.

-كذلك النبي ﷺ أنكر بيده وبلسانه الصور التي كانت مرسومةً على جدار الكعبة من الداخل، وقد أخرج الطيالسي من حديث أسامة ﷺ أنَّه قال: «دخلتُ

على رسول الله ﷺ الكعبة، فأمر بدلو من ماء فأتيته به، فجعل يمحوها ويقول: «قاتل الله قومًا يصورون ما لا يخلقون» قال الحافظ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (إسناده جيد).

فهذه الأحاديثُ وأيضًا غيرها يدل على أنَّ ما لا ظل له من الصور التي تُرسم باليد داخلةٌ في حكم التصوير الممنوع.

قد يقول قائل: فماذا أنت مجيبٌ عن قوله ﷺ: «إلا رقمًا في ثوب»؟ فإن هذا قد يُفهم منه إباحة الصور التي تكون منسوجة أو لا ظل لها.

والجواب عن هذا أن يُقال:

- **أولًا**: إن أحاديث رسول الله ﷺ ينبغي أن يُجمع بينه وأن يُؤلف بينها، لا أن يُضرب بعضها ببعض.

- **وثانيًا**: هذا الحديث لم يأتِ في سياق الأدلة التي دلت على تحريم التصوير، ليس سياق الحديث في تحريم التصوير -تنبه إلى هذا الملحظ فإنه مهم- إنما جاء هذا في سياق بيان أنَّ الملائكة لا تدخل بيتًا فيه صورة، فالحديث كما عند الشيخين في صحيحيهما قال رسول الله ﷺ: «لا تدخل الملائكة بيتًا فيه كلب ولا صورة إلا رقمًا في ثوب»؛ فالحديث ليس في التصوير لكنه في استعمال التصوير، يعني في وجود صورةٍ تمنع دخول الملائكة البيوت، هذا أمرٌ ينبغي أن يُلاحظ.

- **نأتي ثالثًا**: ما معنى قول الرسول ﷺ: «**إلا رقمًا في ثوب**»؟ في ضوء الأحاديث الأخرى وبالجمع بين الأحاديث يتضح لنا أن النبي ﷺ لا يمكن أن

تتناقض أحاديثه؛ فحديث عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا صريحٌ في منع التصوير الذي ليس له ظل، أو الذي كان منسوجًا في قماش؛ فدل هذا على أنَّه ممنوع.

أمَّا هذا الحديث الذي بين أيدينا والذي أورد من أورد على تحريم تصوير ما كان باليد أورد هذا الحديث فالجواب عنه يُخرَجُ على أحد وجهين:

١- إما أن يُقال إنَّ المراد بذلك الصور المهانة التي تُداس فلا قيمةَ لها، فهذه لا يُمنع استعمالها ولا تمنعُ دخول الملائكة، ليس هذا إباحةً لتصويرها لكن ما كان منها من هذا القبيل فلا مانعَ من استعماله ولا يكون مانعًا من دخول الملائكة .

٢-وثانيًا أن يُقال: إن قوله ﷺ «**إلا رقمًا في ثوب**» يعني: الصورة التي ليست من ذوات الأرواح، ما كان من الصور -وهذا كان معروفًا وموجودا عند العرب- أنهم كانوا يصورون على الأقمشة صور الأشجار ونحوها فهذا ليس بممنوع، استثناه النبي ﷺ فالملائكة لا تمتنع من دخول بيت فيه صورة ليست من ذوات الأرواح، هذا نقوله للجمع بين الأدلة، لا نضرب حديث رسول الله ﷺ بعضها ببعض.

إذًا الخلاصة التي نخلُص منها هي: أنَّ المحرم من الصور ما كان مُجسمًا، أو ما كان مرسومًا باليد على ورقٍ أو حائط أو قماش أو ما شاكل ذلك.

نأتي الآن إلى نوع ثالث عُرِف في العصر الحديث وهو: الصور الآلية، أو الصور التي تكون بآلة الكاميرا، أو ما يسمى بالصور الفتوغرافية؛ هذه الصور وقع فيها خلافٌ بين العُلماء المُعاصرين لم تكن بالتأكيد معلومةً عند القدماء،

إنما هي الأمور التي أُحْدِثت في هذا العصر، فهل تلحق بالصور التي تُصنع باليد أو التي تنقش وتلون باليد؟ أو يكون لها حُكمٌ آخر؟

اختلف العلماء المعاصرون في هذه المسألة إلى قولين، والأقرب عندي والله تعالى أعلم أنَّ هذه تسمى صور فتكون داخلة في عموم نهي النبي ﷺ. لكن لا شك أنَّ الخلاف الحاصل فيها يجعل إنكارها يختلف عن إنكار ما اتُفق عليه، أو ما جاء النص الواضح في تحريمه.

وإني أنصحك -يا رعاك الله- أن تدَع هذه الصور، اللهم إلا ما دعت إليه الضرورة أو الحاجة، فإنَّ الحاجة قد تدعو إلى أن يتصور الإنسان لبطاقة أو لرخصة قيادة أو لجواز سفر أو ما شاكل ذلك، أو لبعض الدواعي الأمنية، فإنَ مثل هذا الأمر لا شك أنَّ قاعدة رفع الحرج في الشريعة تدل على أنه أمرٌ مباح إن شاء الله في حق من اضطُر إلى ذلك أو كان مُحتاجًا إليه. والقاعدة عند الفقهاء: (إنَّ الحاجة العامة تُنَزَلُ منزلة الضرورة).

أما ما عدا ذلك فالنصيحة لك -يا رعاك الله- أن لا تتصور، لا سيما مع سهولة التصوير في هذه السنوات المتأخرة من خلال هذه الكاميرات الموجودة في الجوالات؛ أقول: نبيك ﷺ يقول: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك»، وخير دينك الورع، والسلامة لا يعدلها شيء، ولو لم تتصور هذه الصور التي يدَّعونها للذكرى وما شاكل ذلك فالله ﷻ لن يُحاسبك يوم القيامة، لكن لو تصورتها فربما -والله تعالى أعلم، العلم عنده سبحانه- ربما تُحاسب وربما تُسأل عن

ذلك، فعليك بأن تسلك مسلك الورع، وتدَع هذه التصاوير ما أمكنك إلى ذلك سبيلا.

أعلمُ أنَّ الأمر في هذا العصر أصبح مُشكلًا جِدًا وأصبحت هذه الصور تُلاحق الإنسان شاء أم أبى في كل مكانٍ يذهب إليه، لكن عليه أن يدفع عن نفسه ما فيه شبهة ما استطاع إلى ذلك سبيلًا، والله تعالى أعلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وَلَهُمَا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: سَمِعْتُ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «كُلُّ مُصَوِّرٍ فِي النَّارِ؛ يُجْعَلُ لَهُ بِكُلِّ صُورَةٍ صَوَّرَهَا نَفْسٌ يُعَذَّبُ بِهَا فِي جَهَنَّمَ»**).

هذا من الأحاديث الدالة على وعيد المصورين؛ فإنَّ الله جَلَّوَعَلَا يجعل لكل صورة صورها هذا الإنسان نفسًا يجعل الله ﷻ فيها روحًا فتكون سببًا لتعذيبه، يُعذب بها بكيفيةٍ الله –تعالى– أعلم بها.

وهذا الحديث مما يُستدل به على أن الممنوع من التصوير هو للشيء الذي فيه روح، أما ما لا روح فيه فلا بأس بتصويرهِ[٩٧٤]؛ وذلك أن هذا الحديث يدل على أنَّ الممنوع تصوير ما يُمكن أن يكون فيه نفسٌ، يعني ما يمكن أن يكون فيه روحٌ، كذلك الحديثُ الذي مرَّ معنا وهو أنَّه «يؤمر بنفخ الروح فيما صور وليس بنافخ»، هذا إنما يتأتى في الصورة التي هي في أصلها كان فيها روح، وبالتالي ما لا روح فيه جاز تصويره، وهذا هو الذي عليه جماهير أهل العلم.

(٩٧٤) لأنَّ ما لا روح فيه لا نفْس فيه.

﴿ **وذهب قلة من أهل العلم** إلى تحريم تصوير كل ما خلق الله ﷻ؛ فيحرم تصوير الإنسان، ويحرم تصوير الحيوان، ويحرم تصوير الشجر والجبال والبحر وما إلى ذلك.

وهذا وجهٌ ذكره بعض الشافعية لكنَّه غير صحيح، ويدل عليه ما جاء عند الترمذي وأبي داود من أن جبريل عليه السلام جاء إلى بيت النبي ﷺ فامتنع من الدخول ثم بين للنبي ﷺ علة ذلك:

فأولًا: كان عند الباب تمثالٌ.

وثانيًا: كان على السِّتر نقشُ صور.

وثالثًا: كان ثمتَ كلبٌ في البيت.

فامتنع جبريل عليه السلام من ذلك ثم قال للنبي ﷺ: «مُر بالتمثال فليُقطع رأسه حتى يكون كهيئة الشجرة»، لاحظ أن إخبار جبريل عليه السلام بأنه لما أصبح التمثال كهيئة شجرة فإن هذا أخرجه عن كونه صورةً، دل هذا على أن الصورة الممنوعة ما كان فيه روح.

ويدل على هذا أيضًا: ما ثبت عند البخاري من أن رجلًا جاء إلى ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فقال: (إني رجل أعمل بيديَّ وأصنعُ هذه التصاوير)، فقال له: ألا أحدِّثُكَ حديثًا سمعته من رسول الله ﷺ، سمعته ﷺ يقول: «من صوَّر صورة جعل الله لها نفسًا يُعذب به حتى ينفُخ فيها الروح، وليس بنافخ أبدًا»، وإذا بالرجل يربو، ربا واصفرَّ وجهه فقال له: (ويحك فإن أبيت فعليك بهذا الشجر؛

كلِّ ما لا روح فيه)؛ (كلِّ ما لا روح فيه) هذا بدلٌ من قوله: (فعليك بهذا الشجر)، فدل هذا على أنَّ تصوير ما لا روح فيه أمرٌ جائز لا مانع منه.

وذهب مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى أن الممنوع من التصوير: هو تصوير ما فيه روح أو الشجر الذي له ثمر؛ التصوير الممنوع عند مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ تصوير ماله روح كالإنسان وبهيمة وبقية الحيوانات، أو تصوير الشجر المثمر، أما الشجر الذي لا ثمر له فإنه يجوز تصويره عنده رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وكأنه نزع في هذا إلى حديث رسول الله ﷺ -على ما ذكر بعض الشراح في توجيه قوله- إلى قوله ﷺ في الحديث القدسي الذي مرَّ بنا قبل قليل قال: «فليخلقوا ذرة أو فليخلقوا حبة أو فليخلقوا شعيرة»؛ كأنه يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الذرة دليل على تحريم ما له روح، والحبة والشعيرة دليل على تحريم الشجر الذي له ثمر.

وهذا القول لا أعلم أحد سبقه إليه، ولا أعلم أحدًا تابعه عليه، ولا شك أنَّ هذا غير صحيح كما تدل على هذا الأحاديث التي ذكرتها لك قبل قليل، والله تعالى أعلم[٩٧٥].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَلَهُمَا عَنْهُ مَرْفُوعًا: «مَنْ صَوَّرَ صُورَةً فِي الدُّنْيَا؛ كُلِّفَ أَنْ يَنْفُخَ فِيهَا الرُّوحَ، وَلَيْسَ بِنَافِخٍ»).

---

(٩٧٥) **ولكنَّ الصحيح** هو الأول، ويؤيّده أيضًا ما رَوَى البخاري عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا حينما سأله ذاك المصور، فكان فيما قال: «فإن أبيتَ فعليك بهذا الشجر»، فهذا يدلُّ على أن الممنوع إنَّما هو ما كان تصويرٌ لذوات الأرواح والله ﷻ أعلم.

هذا أيضًا يدل كما أسلفت لك على أن المحرم من الصور هو الصور التي لها روح دون ما ليس لها روح؛ لأن هذا الحديث إنما يتنزلُ على هذا الجنس، والله تعالى أعلم(٩٧٦).

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وَلِمُسْلِمٍ عَنْ أَبِي الْهَيَّاجِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قَالَ: قَالَ لِي عَلِيٌّ: «أَلَا أَبْعَثُكَ عَلَى مَا بَعَثَنِي عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ؟: «أَنْ لَا تَدَعَ صُورَةً إِلَّا طَمَسْتَهَا، وَلَا قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوَّيْتَهُ»**).

هذا الحديث الأخير في هذا الباب، وفيه أنَّ عليًا ﵁ قال لأبي الهياج -وهو حيان بن حصين الأسدي الكوفي، أحدُ التابعين رَحِمَهُ ٱللَّهُ- قال: (**ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ «ألا تدع صورة إلا طمستها»**)؛ الطمس: هو المحو والإزالة، هذا أمر النبي ﷺ لعلي ﵁، وهذا من الأوامر التي ينبغي أن يعتني أهل التوحيد بها(٩٧٧)؛ على أهل التوحيد أن يعتنوا بهذا الأمر العظيم من لدن رسول الله ﷺ فيحرصوا على طمس الصور عند الإمكان والاستطاعة.

---

(٩٧٦) وكون المصوِّر يُكلَّفُ بذلك وليس بنافخ دليلٌ على العذاب الأليم الذي يكون عليه -والعياذ بالله- في النَّار؛ كونه يكلَّفُ بشيء لا قِبلَ له به ولا قدرة له عليه، نسأل الله السلامة والعافية.

(٩٧٧) وأن يكون حرصهم على ما كان عليه حرص النبي ﷺ وأصحابه، وهو قطع الذرائع الموصلة إلى الشرك.

والبلية بهذا الأمر قد عظمت(٩٧٨) فينبغي على الإنسان أن يحرص على عدم إدخال هذه الصور إلى بيته، أو عدم نصبها في بيته، فكثير من بيوت المسلمين للأسف الشديد إذا دخلْتها وجدت فيها تلك التماثيل، تمثالٌ لطائر أو تمثالٌ لفيل أو تمثالٌ لزرافة ينصبه في مجالسه هنا وهناك، وهو فرحان وجذلان، ويظن أنه قد أتى بأمر حسن. أو تجد تلك التصاوير المعلقة على الحيطان، وهي من الأسباب التي تمنع دخول الملائكةِ البيت؛ ولا شك أن دخول الملائكة إلى البيوت يصحبه دخول الخير والرحمة.

ويسأل كثيرٌ من الناس عن سبب وقوع المشاكل في البيوت ما فيها من ضيق للصدور أو خلافات أو ما شاكل ذلك، وربما غفل كثيرٌ من الناس عن هذا السبب؛ وهو أن هذه البيوت أصبحت مأوًى للشياطين لا تدخلها الملائكة بسبب هذه الصور، الذي ينبغي أن تكون بيوت المسلمين بيوتًا طيبة مستقيمة على شرع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ؛ ومن ذلك أن تُبعَد عنها هذه الصور ولا تبقى فيها.

وكان النبي ﷺ حرِيصًا على ذلك؛ بوّب الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في صحيحه: (بابِ نقضِ الصور)، ثم أورد حديث النبي ﷺ: «أنه لم يكن يدع شيئًا في بيته فيه تصاليبٌ إلا نقضه»؛ التصاليب: الشيء الذي على هيئة صليب. وذكر الشُّراح رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ أنَّ إيراد هذا الحديث تحت هذا الباب يدلُ على أن الصور ذات

---

(٩٧٨) وهذا من الأمور التي أَضْحَتْ غريبةً في هذا الزمان المتأخِّر، فقلَّ من ينكر الصور، وقلَّ من ينكر التصوير، بلْ قلَّ من لا يتصور، فضلًا عن أن ينكر ذلك أو أن يقوم بالفعل بطمْس الصور.

الأرواح لها هذا الحكم؛ فإن وجود الصليب من أسباب عبادته كما يفعل النصارى، وكذلك الصور من أسباب وقوع الشرك فلها هذا الحكم؛ وهذا من فقه البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وجاءت رواية: (أنه لم يكن يدع شيء من التصاوير إلا نقضه)، لكن رواية الأكثر (أنه لم يكن يدع شيئًا فيه تصاليبُ إلا نقضه)؛ هذا كان يفعله النبي ﷺ بيده وهذا مما كان يأمر به عليه الصلاة والسلام. إذًا مهما استطاع الأنسان فعليه أن يأتمر بأمر النبي ﷺ.

الأمر الثاني قال: «**ولا تدع قبرًا مشرفًا إلا سويته**»؛ القبر المشرف: يعني القبر العالي الذي ارتفع ترابه زيادة عما أذنت به الشريعة، فالشريعة أَذِنت برفع القبر عن مستوى الأرض رفعًا يسيرا، شبرًا أو نحوه حتى يتميز أنه قبرٌ فلا يُوطأ ولا يُقعَد عليه؛ وبالتالي رفع هذه القبور عن هذا المستوى المعتاد أمرٌ محرم في الشريعة.

أمر النبي ﷺ من رأى ذلك بتسوية القبور، ومعنى تسوية القبور هنا معنى قوله «**إلا سويته**»: يعني جعلته مساويًا للقبور المأذون بها في الشريعة[٩٧٩]؛ المأذون به في الشريعة: أن تكون القبور مرتفعة ارتفاعًا يسيرًا، وأن تكون مسنمةً كما جاء ذلك في الأحاديث العدة عن رسول الله ﷺ.

(٩٧٩) ليس المقصود أن يكون على الأرض سواءً بسواء، وإنما يُسوَّى ويُساوى بغيره من القبور التي جُعِلَت على الطريقة الشرعية.

ولاحظ -يا رعاك الله- أنَّه إذا كان مجرد ارتفاع تراب القبر زيادةً عن المعتاد المعروف في سنة رسول الله ﷺ وعمل المسلمين أمرًا محرمًا واجبَ الإنكار، فكيف بالبناءِ على القبور؟! كيف بجعل هذه القبور مرتفعةً موضُوعًا عليها اللَّبِنْ أو الحجارة أو الرخام أو ربما نُصب عليها قبة أو ما شاكل ذلك!! لا شك أن هذا منكر أشد واجب الإنكار على من استطاع إنكار ذلك.



قال المصنف رحمه الله:

٦٢-بَابُ
مَا جَاءَ فِي كَثْرَةِ الْحَلِفِ

وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ [المائدة:٨٩].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «الْحَلِفُ مَنْفَقَةٌ لِلسِّلْعَةِ، مَمْحَقَةٌ لِلْكَسْبِ». أَخْرَجَاهُ.

وَعَنْ سَلْمَانَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: أُشَيْمِطٌ زَانٍ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ، وَرَجُلٌ جَعَلَ اللهَ بِضَاعَتَهُ؛ لَا يَشْتَرِي إِلَّا بِيَمِينِهِ، وَلَا يَبِيعُ إِلَّا بِيَمِينِهِ». رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ.

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «خَيْرُ أُمَّتِي قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ- قَالَ عِمْرَانُ: فَلَا أَدْرِي أَذَكَرَ بَعْدَ قَرْنِهِ

مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا!-، ثُمَّ إِنَّ بَعْدَكُمْ قَوْمًا يَشْهَدُوْنَ وَلَا يُسْتَشْهَدُوْنَ، وَيَخُونُوْنَ وَلَا يُؤْتَمَنُوْنَ، وَيَنْذُرُوْنَ وَلَا يُوفُوْنَ، وَيَظْهَرُ فِيهِمُ السِّمَنُ».

وَفِيهِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ، وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ». قَالَ إِبْرَاهِيمُ: «كَانُوا يَضْرِبُونَنَا عَلَى الشَّهَادَةِ وَالْعَهْدِ وَنَحْنُ صِغَارٌ».



قال الشارح وفقه الله:

هذا الباب قد عقده المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ للتنبيه على أمرٍ ترْكه من تحقيق كمال التوحيد؛ ألا وهو كثرة الحلف بالله سبحانه وتعالى؛ الله جَلَّ وَعَلَا عظيم، واسمه عظيم، ومن تعظيم العظيم أن لا يُبتذل اسمه، ولا يُكثَر من الحلف به[٩٨٠].

وضابط كثرة الحلف يرجع إلى أن تكون اليمين لم تدْعُ إليها حاجة أو مصلحة راجحة، ضابط كثرة اليمين -هذا الشيء المذموم- هو: أن تكون اليمين لم تدعُ إليها حاجة ولا تقتضيها مصلحةٌ راجحة.

«**اليمين**»، «**الحلف**»، «**القسم**» هذه كلماتٌ بمعنًى واحد؛ **والمراد بالحلف** معلوم[٩٨١]: تأكيد الكلام بذكر اسم الله عَزَّ وَجَلَّ على وجهٍ مخصوص، هذا هو الحلف الشرعي، هذه هي اليمين الشرعية.

---

(٩٨٠) فلأجل هذا نبَّه المؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الباب على ضرورة أن يُراعي المُوحِّد هذا الأمر، فإن كثرة الحلف من ضعف تعظيم العبد لله سبحانه وتعالى.

ينبغي على المسلم أن يلاحظ في يمينه ثلاثة أمور:

أولًا: أن يكون حَلِفُه بالله جَلَّوَعَلَا؛ والله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى من حقه على عبده أن لا يُحلَف إلا به، والنبي ﷺ قال -كما مر معنا في دروس سابقة-: «من كان حالفـًا فليحلف بالله أو ليصمت»، [٩٨٢]كما صح عنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنه قال: «من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك».

الأمر الثاني: أنَّه إذا حلف بالله فعليه أن يكون صادقًا في حلفه؛ فإنَّ الحلف بالله عَزَّوَجَلَّ أمرٌ عظيم، ومن المنكر الكبير أن يُذكَر اسم الله عَزَّوَجَلَّ على أمرٍ كاذب، والنبي ﷺ مر معنا أنه قال: «من كان حالفـًا بالله فليصدق»، كما أنَّه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال كما عند البخاري: «الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، واليمين الغموس»، وقلنا إن اليمين الغموس: هي الكاذبة الفاجرة كالتي يحلف بها الإنسان فيقتطع بها مال أخيه المسلم؛ يعني أنه يحلف بالله عَزَّوَجَلَّ كاذبـًا عالمـًا عامدًا لأجل مصلحةٍ يرجوها أو مفسدة يدفعها عن نفسه لم تبلغ حدَّ الاضطرار[٩٨٣].

---

(٩٨١) وهو تأكيد المتكلم كلامه بذكْرٍ مُعظّم على صيغة مخصوصة بأحد حروف القَسَم: (الواو، والباء، والتاء).

(٩٨٢) والحلف بغيره سبحانه شرك.

(٩٨٣) فإنه قد أورد نفسه الموارد ووقع في كبيرةٍ عظيمة، بل وقع في اليمين الغموس التي تغْمسه في الإثم وفي النَّار -عياذًا بالله-.

الأمر الثالث(٩٨٤): أن لا يُكثرَ من الحلف، وهذا هو محل بحثنا في هذا الباب.

إذًا عندنا ثلاثة أمور على المسلم أن يراعيها في مسألة الحلف:

الأول: أن يحلف بالله، ولا يجوز أن يحلف بغيره.

وثانيًا: أن يحلف بالله صادقًا.

والأمر الثالث: أن لا يُكثر من الحلف.

وذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ من أدلة الكتاب والسُنَّة ما يشهد لهذا الباب الذي عقده، وهو ما جاء في كثرة الحلف من الذم والعيب، والله تعالى أعلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وقول الله تعالى: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾**[المائدة:٨٩]).

هذه الآية للمفسرين فيها ثلاثة أقوال:

الأول: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾؛ يعني لا تحلفوا، أو أقلُّوا من الحلف. لا ينبغي أن تبتذل يمينك فتحلف على الصغير والكبير فيما يُهم وفيما لا يُهم، بل ينبغي أن يكون شأن اليمين في نفسك عظيمًا، بحيث إنك لا تحلف إلا على ما يستحق الحلف، فيكون هذا معنى قوله تعالى: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾[المائدة:٨٩].

المعنى الثاني الذي ذهب إليه بعض المفسرين: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ من الحنث، والحنث: هو نكث اليمين ونقضها وعدم الوفاء بموجبها؛ فإذا حلف

---

(٩٨٤) وهو من كمال التوحيد: حفْظ اليمين وعدم ابْتذالها والإكثار منها. والضابط لذلك: هو أن يحفظ اليمين لغير حاجة أو مصلحة راجحة، فهذا مِمَّا ينبغي أن يتنبَّه من رام تحقيق التوحيد.

الإنسان على يمين فينبغي عليه أن يبقى على موجبها وأن يفيَ بموجبها؛ وهذا مقيَّدٌ بما إذا لم تظهر المصلحة في خلاف ذلك[٩٨٥]، فإن النبي ﷺ قد قال كما في الصحيحين: «والله إني إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا كفَّرتُ عن يميني وأتيت الذي هو خير»[٩٨٦].

المعنى الثالث: ﴿**وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ**﴾ فلا تتركوها بلا تكفير إذا حنثتم[٩٨٧]؛ ويشهد لهذا سياق الآية، فإن الله ﷻ قال: ﴿**ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ**﴾، فإذا حَنِثَ الإنسان فإن عليه أن يبادر إلى الكفارة، ولا يفعل كما يفعل بعض الناس حينما يُقسِمُ الأقسام ويحلف يمينه على أشياء كثيرة، ثم إنَّه لا يبالي -حينما يحْنث فيخالف مقتضى يمينه- لا يبالي بكفارة هذا اليمين، وربما مرت عليه الأيام فنسيَ ذلك وتعلق هذا الحكم في ذمته، بل ينبغي على الإنسان إذا حنث في يمينه أن يبادر إلى تكفير هذه اليمين.

والله جَلَّوَعَلَا قد بيّن لنا كفارة اليمين فقال ﷻ: ﴿فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ﴾[المائدة:٨٩].

---

(٩٨٥) فإنه حينئذٍ يُستحب الحِنْث.

(٩٨٦) «إِنِّي وَاللهِ إِنْ شَاءَ اللهُ لَا أَحْلِفُ عَلَى يَمِينٍ فَأَرَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا إِلَّا كَفَّرْتُ عَنْ يَمِينِي وَأَتَيْتُ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَوْ أَتَيْتُ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ وَكَفَّرْتُ عَنْ يَمِينِي».

(٩٨٧) فيكون نهيًا عن إهمال التكفير لليمين التي حلفَ فيها الحالف.

إذًا المعنى الذي تراه مناسبًا لتبويب المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ وإيراده هذه الآية في هذا الباب هو لا شك المعنى الأول؛ ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ يعني: أقلُّوا من الحلف ولا تكثروا من الحلف[٩٨٨]، والله تعالى أعلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ** ﷺ **يَقُولُ: «الْحَلِفُ مَنْفَقَةٌ لِلسِّلْعَةِ، مَمْحَقَةٌ لِلْكَسْبِ» أَخْرَجَاهُ**).

هذا حديث مخُرَّج في الصحيحين، قال فيه النبي ﷺ: «**الْحَلِفُ مَنْفَقَةٌ لِلسِّلْعَةِ، مَمْحَقَةٌ لِلْكَسْبِ**»؛ ومعنى قوله ﷺ «منفقة»[٩٨٩]: يعني سببٌ لرواج السلع؛ وذلك أن الإنسان البائع إذا حلف على هذه السلعة بأنه إنما اشتراها بكذا وكذا، أو أنها ذات جودة؛ "والله إنها جيدة وتصلح لكذا وكذا"، فإن هذا مما يُقنِع المشتري بالشراء، فربما اشترى دون تردد، فهو مما ينفِّق السلعة ويسبِّبُ رواج بيعها؛ لكن ما الفائدة إذا كان ذلك سببًا لمحق الكسب ونزع البركة؟! ما الفائدة أن يكون عند الإنسان مالٌ كسبه من تجارته لكنه منزوع البركة لا ينتفع به! نسأل الله السلامة والعافية، والسبب ما جاء في هذا الحديث وهو: أن اليمين «**مَنْفَقَةٌ لِلسِّلْعَةِ، مَمْحَقَةٌ لِلْكَسْبِ**».

وهل المراد من هذا الحديث: اليمين الصادقة أم اليمين الكاذبة؟

الحديث يحتمل الأمْرَين:

---

(٩٨٨) فتُحفَظ اليمين عن أن تُبتذل وأن يُكثر منها الحالف تعظيمًا لله ﷻ.

(٩٨٩) من النَّفاق؛ يعني الرَّواج.

قيل: إن قوله ﷺ «**الحَلِف مَنْفَقَةٌ لِلسِّلْعَةِ**» يعني الحلف الكاذب، ويشهد لهذا ما جاء في روايةٍ عند الإمام أحمد قال فيها النبي ﷺ: «اليمين الكاذبة منفقة للسلعة، ممحقة للكسب». ولا شك أنَّ اليمين الكاذبة سببٌ للبوار وسبب للشر، فإن الذي يحلف بالله ﷻ كاذبًا قد وقع في ظلمات بعضها فوق بعض:

فهو أولاً: قد كذب، والكذب من حيث هو محرم في الشريعة.

وثانيًا: أنه ما عظَّم اسم الله ﷻ التعظيم اللائق به.

والأمر الثالث: أنه قد وقع في اليمين الغموس التي تغمس في الإثم ثم في النار، عافاني الله وإياكم من ذلك.

ثم إذا كان هذا هو المراد فإن الاستدلال بهذا الحديث على ما بوب عليه المؤلف استدلالٌ مستقيم، **ووجه ذلك**: أنَّ كثرة الحلف صادقًا تقودك إلى الحلف كاذبًا وهذا أمرٌ معلوم بالمشاهدة؛ الإنسان الذي يَسْهُل عنده أن يحلف وهو صادق لكنه يكثر من ذلك، فإنه يرتاض لسانه الحلف وتعتاد نفسه على هذا اليمين، وبالتالي ربما يقع في الحلف الكاذب.

إذًا يكون هذا الحديث ناهيًا عن الإكثار من الحلف بالله ﷻ ولو صادقًا، من باب أنه وسيلةٌ إلى الوقوع في الحلف بالله ﷻ كاذبًا(٩٩٠).

والاحتمال الثاني في هذا الحديث، وهو قويٌ أيضًا: أن المراد: الإكثار من الحلف صادقًا؛ في شأن البيع والشراء لا ينبغي عليك يا عبد الله أن تكثر من الحلف، **ويشهد لهذا المعنى**: ما ثبت عند الإمام مسلم في صحيحه من حديث

(٩٩٠) ويكون إيراد الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ لهذا الحديث من باب النَّهي عن الوسائل.

أبي قتادة ﵁ عن النبي ﷺ أنه قال: «إياكم وكثرة الحلف في البيع؛ فإنه يُنَفِّقُ ثم يمحق»؛ يعني أنه سببٌ للرواج وسببٌ للنَفَاقَ، يعني السلعة تمشي في السوق وتُباع والناس تُقبل على شرائها، ولكن هذا لا فائدة منه لأنه يمحق البركة من هذا الكسب الذي يكسبه الإنسان من هذا البيع.

والحديث فيما يبدو -والله تعالى أعلم- يشمل الأمرين؛ يكون فيه النهي عن هذين الأمرين: عن أن يحلف الإنسان على السلعة كاذبـًا، أو أنه يُكثر من الحلف بالله ﷻ على هذه السلعة ولو كان صادقـًا.

ولا شك أنَّ الأول أشد إثمـًا وأعظم جرمـًا؛ ويدل على هذا: ما خرج الإمام مسلم في صحيحه من حديث أبي ذر ﵁ أن النبي ﷺ قال: «ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم: المسبل -يعني ثوبه-، والمنَّان، والمُنَفِّقُ سلعته بالحلف الكاذب»، فهو لا الذي استفاد في الدنيا؛ فكسبه ممحوق البركة، ولا هو بالذي نجا في الآخرة؛ فإنه مُتوعَّدٌ بهذا الوعيد الشديد الذي جاء في هذا الحديث، من نَفَّقَ سلعته بالحلف الكاذب فإنه مُتوعَّد بهذا الذي قاله ﷺ.

إذًا على المسلم أن يحذر أشد الحذر من الوقوع في هذا الأمر أو في الآخر؛ وهو أن يُكْثِرَ من الحلف في البيع. وهو وإن كان شيئـًا مخصوصـًا بقضية البيع إلا أنه ولا شك يدل على ذم هذه الحال مطلقـًا، وإن كان في هذا الأمر على وجه الخصوص الأمر أشد كراهة؛ الإكثار من الحلف أمرٌ مكروهٌ مذمومٌ مطلقـًا، وهو في باب البيع والشراء أشد كراهةً وذمـًا، والله تعالى أعلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَعَنْ سَلْمَانَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: أُشَيْمِطٌ زَانٍ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ، وَرَجُلٌ جَعَلَ اللهَ بِضَاعَتَهُ؛ لَا يَشْتَرِي إِلَّا بِيَمِينِهِ، وَلَا يَبِيعُ إِلَّا بِيَمِينِهِ» رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ).

هذا الحديث حديث صحيح كما قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وفيه هذا الوعيد الذي جاء في شأن هؤلاء الثلاثة؛ وهو أنَّ الله ﷻ قد توعدهم بهذا الوعيد في الآخرة.

أولهم: «أُشَيْمِطٌ زَانٍ» نسأل الله السلامة والعافية؛ الأشيمط: كبير السن، فدواعي الشهوة عنده ضعيفة، ومع ذلك فإنه زانٍ واقعٌ في هذه الفاحشة الكبيرة نسأل الله السلامة والعافية.

ولا شك أن الزنا من حيث هو أمرٌ قبيح ومنكر وكبيرة، ولكنه إذا كان من كبير السن فلا شك أنه أشد جرمًا وأعظم إثمًا. والقاعدة: (أنه كلما قلَّ الداعي إلى المعصية كان إثمها أعظم)؛ هذا لا يعني أن للشاب عذرٌ في الوقوع في الزنا، بل الشاب إذا وقع في الزنا لا شك أنه وقع في كبيرة وإثمه عند الله عظيم، لكنَّ الشيخ كبيرَ السن لا شك أن إثمه عند الله ﷻ أعظم، لم؟ لأن الداعي الدافع إلى وقوعه في هذه المعصية ضعيف، فدل هذا على خبثٍ في نفسه أدّاه إلى الوقوع في هذه المعصية، على أنَّ نفسه قد استولى عليها الشيطان واتباع الهوى فوقع في هذه المعصية مع ضعف ما يدعوه إلى الوقوع فيها.

كذلك الشأن في الذنب الآخر وهو: الاستكبار مع الفقر؛ قال ﷺ: «وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ»؛ العائل هو: الفقير، فقيرٌ ومع ذلك يتكبر على خلق الله ﷻ! الكِبْرُ قبيح

من الغني، فكيف هو من الفقير؟! فلا شك أنه في حق الفقير أشدُّ إثمًا وأعظم فداحة، والسبب أنه لا داعي يدعوه إلى أن يتكبر على الخلق، فكان إثمه عند الله ﷻ أعظم.

والثالث[٩٩١] قال فيه النبي ﷺ: «وَرَجُلٌ جَعَلَ اللهَ بِضَاعَتَهُ»، هذه الكلمة فسرها النبي ﷺ عقيب هذه الجملة مباشرة، فلا تحتاج إلى أن يجتهد إنسانٌ في تفسيرها، وجه كونه جعل اللهَ بضاعته: أي أنه «لَا يَشْتَرِي إِلاَّ بِيَمِينِهِ، وَلَا يَبِيعُ إِلَّا بِيَمِينِهِ»، أصبح الحلف بالله ﷻ على لسانه أمراً يسابق كلامه، ولا يبالي فيه ولا يبالي به، ويبذله بكل حال، ولا شك أن هذا أمر مذموم.

وهل المراد بأنه لا يشتري إلا بيمين صادقة؟ أو أنه لا يشتري إلا بيمين كاذبة؟

[٩٩٢] إن نظرنا إلى حديث أبي ذر ﷺ السابق فإننا نجد أن الوعيد يشبه الوعيد[٩٩٣]، فيكون هذا مما يقوي القول بأن حديث الطبراني هذا يراد به أنه لا يشتري إلا بيمينٍ كاذبة ولا يبيع إلا بيمينٍ كاذبة[٩٩٤].

---

(٩٩١) الشاهد من الحديث.

(٩٩٢) الذي يظهر -والله أعلم- في توجيه الحالف أنَّه لا يَشتري ولا يبيعُ إلا باليمين الكاذبة.

(٩٩٣) (والمُنفِّقُ سلعته بالحلف الكاذب).

(٩٩٤) وعليه فيكون النهي عن ذلك -كما سبق- نهيًا عن الوسائل المؤدية إلى هذا الخطر العظيم.

ﮱ ويحتمل أن يكون المراد: الإكثار من الحلف ولو كان هذا بالصدق، لكن لا شك أنه لو كان هذا كاذبًا فإن إثمه عند الله ﷻ أعظم، إذ إثم الكذب لاسيما مع ذكر اسم الله ﷻ أعظم من مجرد الإكثار من الحلف بالله ﷻ صادقًا، والله تعالى أعلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ** ﷺ **قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ** ﷺ: «**خَيْرُ أُمَّتِي قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ- قَالَ عِمْرَانُ: فَلَا أَدْرِي أَذَكَرَ بَعْدَ قَرْنِهِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا!-، ثُمَّ إِنَّ بَعْدَكُمْ قَوْمًا يَشْهَدُوْنَ وَلَا يُسْتَشْهَدُوْنَ، وَيَخُونُوْنَ وَلَا يُؤْتَمَنُوْنَ، وَيَنْذُرُوْنَ وَلَا يُوفُوْنَ، وَيَظْهَرُ فِيهِمُ السِّمَنُ**»).

هذا الحديث قال فيه المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**في الصحيح**» يعني في جنس الصحيح، فهو في الصحيحين.

والشاهد من الحديث: أن النبي ﷺ أخبر على سبيل الذم عن شأن أناسٍ يأتون بعد القرون الثلاثة المفضلة، وذكر أربع صفاتٍ لهم، الشاهد من الحديث فيها قوله ﷺ: «**يَشْهَدُوْنَ وَلَا يُسْتَشْهَدُوْنَ**».

قد يقول قائل: أين وجه الشاهد من الحديث المناسب للباب؟ فليس في الحديث شيء يناسب الإكثار من الحلف.

والجواب عن هذا أن أعيد فأقول: إن الشاهد هو قوله ﷺ «**يَشْهَدُوْنَ وَلَا يُسْتَشْهَدُوْنَ**»؛ **ووجه ذلك**: إما بأن يكون بإيراد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الحديث

لأجل التمهيد للحديث الذي بعده، أو أن يكون مراده رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ هؤلاء الذين يشهدون ولا يُستشهدون يخلطون شهادتهم بالحلف.

وهذا ما حمل عليه الحديثَ بعض السلف ومنهم النخعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فإنه فسَّر الحديث -كما نقل أبو العباس القرطبي في «المُفْهِم»- قال: (رويَ عن النخعي أن قوله: يشهدون يعني: أنهم يحلفون)، **ووجه ذلك**: أن يقول الإنسان في شهادته: "أشهد بالله أنه كذا وكذا، كان كذا وكذا"، فهذه الشهادة تتضمن أيضًا الحلف، فيكون حال هؤلاء أنهم يجمعون بين الشهادة والحلف، فيكون هذا في حقهم أمراً مذموماً(٩٩٥).

ونبقى هنا عند قوله ﷺ في شأن هؤلاء أنهم « **يَشْهَدُوْنَ وَلَا يُسْتَشْهَدُوْنَ**»، نتكلم عن مسألة الحلف في الحديث القادم في حديث ابن مسعود، لكن نقف مع **قوله: « يَشْهَدُوْنَ وَلَا يُسْتَشْهَدُوْنَ»، ما معنى قوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ذلك؟**

اختلف العلماء في توجيه هذا الحديث:

- **فمنهم من قال**: إنهم يشهدون فيما لم يشهدوا، يشهدون في الشيء الذي لم يشهدوه، فمعنى قوله «**يُسْتَشْهَدُوْنَ**» يعني: لم يكن منهم تحمُّلٌ للشهادة، بمعنى أنهم يشهدون بلا علمٍ فتكون شهادتهم شهادة زور، وهذا ما نقله

---

(٩٩٥) أما قوله ﷺ: (**يَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ**)؛ فيمكن أن يُستنبطَ منه المقصود بأن يكون غالب حال هؤلاء، كما يدلُّ عليه الحديث الآتي أنَّهم يخلِطون ويقرنون شهادتهم باليمين.

الترمذي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن بعض أهل العلم. إذًا «يَشْهَدُوْنَ وَلَا يُسْتَشْهَدُوْنَ» يعني: يشهدون بلا علم، يشهدون بما لم يشهدوا.

➢ **والمعنى الثاني**: أنهم يشهدون دون طلبٍ منهم؛ فيكون الأمر راجعًا للأداء لا للتحمل، يتقدمون يبادرون من أنفسهم فيشهدون دون أن يطلب منهم صاحب الحق أو الحاكم القاضي، دون أن يطلب منهم ذلك[٩٩٦]؛ وهذا مدعاة للشُبهة في حق هذا الإنسان، لماذا يبادر إلى الشهادة؟ لعل عنده هوى إما مع المشهود له أو على المشهود عليه؛ فكان من الأمر المذموم مبادرةُ الإنسان بالشهادة إذا لم يحصل استدعاءٌ وطلب منه أن يشهد، متى ما طُلب للشهادة فواجب عليه أن يجيب إلى ذلك كما قال ﷻ: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ﴾ [البقرة:٢٨٣].

لكن قد يقول قائل: فماذا نصنع بما خرج الإمام مسلم في «صحيحه» من حديث زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه أنَّ النبي ﷺ قال: «ألا أخبركم بخير الشهداء؟ الذي يؤتي الشهادة قبل أن يُسألها»؟

هذا موضع افترق فيه أهل العلم إلى أقوال ومذاهب في التوفيق بين حديث عمران، وبين حديث زيد بن خالد رضي الله عنه:

⬋ من أهل العلم من سلك مسلك الترجيح:

---

(٩٩٦) وهذا يدلُّ على عدم مبالاتهم، وعلى تسارعهم في هذا الأمر العظيم الذي ينبغي أن يُتحرَّص ويُتحرَّز فيه؛ وهو الشهادة.

▪ منهم من رجَّح حديث زيد بن خالد، قال هذا من حديث أهل المدينة، وحديث عمران من حديث أهل العراق، فنقدِّم حديث أهل المدينة لأنهم أعلم بالسُنَّة.

▪ وقال آخرون: بل نرجح حديث عمران؛ لأنه مُخرَّجٌ في الصحيحين، أما حديث زيد بن خالد فانفرد به مسلم.

ولا شك أن هذا المسلك وهو مسلك الترجيح مسلك ضعيف لإمكان الجمع، ولا شك أن الجمع مقدمٌ على الترجيح.

➹ **أما الجمع بين هذين الحديثين فإنه متيسر بحمد الله**؛ فالأصل هو أن لا يشهد الإنسان إلا إذا استُشهد، إلا في حالتين، وعليهما يتنزل حديث زيد بن خالد رضي الله عنه[٩٩٧]:

• **الأول**: في حال الاضطرار إلى شهادته[٩٩٨]؛ بمعنى أنه لو لم يشهد فإن الحق سيذهب عن صاحب الحق، بمعنى قد يكون لإنسانٍ على آخر حق لكنه لا يجد دليلاً عليه أو يكون قد نسيه، فيذهب الحق عليه إلا إذا شهد هذا الشاهد.

مثال ذلك: أن يقرَّ إنسان لآخر بدين، وسمع المحادثة شخص عن غير قصد، كان جالساً في المجلس، ثم إن هذا المدين قد جحد، وليس عند الدائن حجة ولا دليل ولا شاهد، وسيذهب الحق عليه لو لم يشهد هذا الشاهد، فإن

---

(٩٩٧) فإن هذا الحديث توجيهُهُ أحد أمرين.

(٩٩٨) أنَّه يُعطي الشهادة دون أن يُستشهَدَ لتعيُّنها عليه بسبب ضياع الحق إن لم يشهد.

هذا الإنسان يتعين في حقه أن يتقدم بالشهادة، لأنه لو لم يشهد فإن الحق سيضيع عن صاحبه، فيكون داخلاً في حديث زيد بن خالد رضي الله عنه.

- **الأمر الثاني**: أن يكون هذا في حقوق الله عز وجل الخالصة أو التي فيها شائبةٌ لحق الله[٩٩٩]؛ أعيد: هذا الحديث يتعلق بما إذا كان هذا في حقوق الله عز وجل الخالصة أو ما كان فيه شائبة لحق الله عز وجل.

وجه ذلك: أن حقوق الله عز وجل يجب أن يُقام بها، فإذا كانت الشهادة مُتَعَلقة بحق الله عز وجل كأن تكون شهادةً في مسألة حسبة، أو أن يكون الأمر فيه شائبةٌ لحق الله؛ كالشهادة في شأن الأوقاف، أو في الوصايا العامة، أو في العتاق، أو ما شاكل ذلك؛ فإن الإنسان عليه أن يبادر بالشهادة ولو لم يُسألها؛ وبالتالي فيكون حديث عمران في شأن الحقوق الآدمية الخالصة، وحديث زيد بن خالد في شأن حقوق الله سبحانه وتعالى، وبهذا يمكن الجمع بين الحديثين، والله تعالى أعلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وَفِيهِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ، وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ»**).

هذا هو موضع الشاهد من الحديث، وهو ثابتٌ في الصحيحين عن النبي ﷺ من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وفيه ذم هؤلاء الذين يأتون بعد القرون المفضلة.

---

(٩٩٩) أنَّه يَشهد وإن لم يُستشهدْ في حقوق الله التي لا مُطالِب بها، فعليه أن يبادر بالشهادة وإن لم يُطلَب.

والاستشهاد بهذا الحديث أوضح من الاستشهاد بالحديث السابق؛ إذ هؤلاء تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ أو تسبق يَمِينُهُ شَهَادَتَهُ(١٠٠٠). **ومعنى ذلك**: أن هؤلاء القوم لا يبالون بشأن اليمين ولا بشأن الشهادة، حتى إنَّهم من كثرة ما يبذلونهما يكاد أن يكون الأمر فيهما كالشأن في المتسابقَيْن، فهذا يسبق هذا، يعني يمينه يبذلها سريعًا، وشهادته يبذلها سريعًا.

وهذا من قلة الاكتراث بعظيم المقام؛ فإنَّ مقام الحلف بالله ﷻ مقام عظيم، كما أن مقام الشهادة مقامٌ عظيم، والإنسان مسؤولٌ عن شهادته. وهذه اللامبالاة تدل على ضَعْفِ تعظيم الله ﷻ، وعلى ضَعْفِ الخوف من الله ﷻ، ينبغي على الإنسان أن يتحفظ أشد التحفظ فيما يتعلق باليمين وما يتعلق بالشهادة إن رام أن يكون من محققي الإيمان والتوحيد.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**قَالَ إِبْرَاهِيمُ: «كَانُوا يَضْرِبُونَنَا عَلَى الشَّهَادَةِ وَالْعَهْدِ وَنَحْنُ صِغَارٌ»**).

هذا ليس أثراً منفصلاً، هذا تابعٌ للحديث السابق؛ فإبراهيم النخعي رواه عن عبِيدة عن ابن مسعود، ذكر الحديث الذي سمعت، ثم عَقّبَ على روايته لهذا الحديث بقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**كَانُوا يَضْرِبُونَنَا عَلَى الشَّهَادَةِ وَالْعَهْدِ**).

(١٠٠٠) وذلك محمول: إمَّا على أن أحدهم لا يَشهد إلا بيمينٍ وإن لم يُطلبْ لذلك، أو يُطلب اليمين منه لعدم الثقة به. أو أن يكون المقصود أنهم لا يبالون بالأمرين: لا بالشهادة، ولا باليمين، فكان الحال في هذين الأمرين كالمتسابقَين، لا يبالون لا بيمين فيكثرون منها، ولا بالشهادة فيَشهدون وإن لم يُستشَهدُوا.

إبراهيم النخعي تابعيٌ جليل يحكي عن حال السلف وعن تربيتهم، والرواية جاءت عند مسلم: (كانوا ينهوننا ونحن صغار عن العهد والشهادات).

الشاهد من هذا الأثر: أنَّ السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ كانوا يربون أبناءهم على تعظيم هذه الأمور[١٠٠١]:

الأمر الأول: في شأن الشهادة؛ إمَّا من جهة التحمُّل، بمعنى أن لا يحرص الإنسان على تحمل الشهادة ولا يقبل أن يُستشهَد مخافة أن لا يؤديَّ الحق، فالإنسان عرضةٌ للنسيان وعرضةٌ للغلط والخطأ، وربما ضاع الحق بسبب خطئك في الشهادة، فمهما أمكنك أن تبتعد عن تحمل الشهادة فافعل، اجعل ذمتك خالية عن ذلك فإنه أسلم لدينك، ما لم يتعين الأمر في حقك.

إذًا هذا ما يحمل عليه قوله :« **كَانُوا يَضْرِبُونَنَا عَلَى الشَّهَادَةِ**».

الأمر الثاني: كانوا يضربوننا على الشهادة كَذِبًا؛ يعني أن لا يبالي الإنسان فيشهد كذبًا، ولا شك أن هذا أمرٌ منكر ومحرم كما تعلمون.

الأمر الثالث الذي حمل عليه بعض أهل العلم قوله «الشهادة» هنا: اليمين؛ ولعل المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أراد هذا المعنى. بعض العلماء قال -وهذا مما نحى إليه الطحاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ- ذكر أن اليمين قد يطلق عليها الشهادة، ونزع في هذا إلى

(١٠٠١) حال السَّلف كيف كانت تربيتهم لأبنائهم؟ كانوا يُضرَبون على الشهادة والعهْد؛ بأن لا يُسارع الإنسان في تحمّلها لعِظَمِ الأمر فيها، أو لا يشهد شهادة الزور، أو لا يشهد دون أن يُستشْهَد. وكذلك العهْد أن لا يعاهِد مَخافة أن ينقض عهْده، أو أنَّه ينقض عهْده.

قوله تعالى: ﴿فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ﴾[النور:٦]. المقصود أن هذا القول مما يُستأنس به في إيراد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الأثر، وربما أورده لأجل أنه تابعٌ لرواية الحديث.

بقي توجيهٌ رابع: وهو ما ذكر بعض أهل العلم من أن مراده رَحِمَهُ ٱللَّهُ الشهادة على الأمر الغيبي كالجنة والنار؛ يُشهَد لفلان أنه من أهل الجنة أو لفلان بأنه من أهل النار، كما يفعل بعض المتسرعين أو بعض الطوائف من أهل الأهواء. ولا شك أنه لا يجوز للإنسان أن يشهد على معيَّنٍ بأنه من أهل الجنة والنار من أهل القبلة ما لم يكن فيه نصٌ عن رسول الله ﷺ . وإن كان هذا التوجيه فيما يظهر -والله تعالى أعلم- بعيد نظراً لقوله بعده: «والعهد»، فلا مناسبة بين هذا وهذا.

أما «**العهد**»: فهو أن يتحمل الإنسان شيئًا في ذمته يعاهد عليه ويعاقد عليه، فكان السلف ينهون أبناءهم عن أن يعاهد الإنسان على شيء، والسبب: أنه يُخشى أن يُنقض عهده أو يَنقض عهده، ولا شك أن هذا أمرٌ مذموم، والله جَلَّ وَعَلَا قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾[المائدة:١].

فخشيةً من مَغِبَّةِ الوقوع في هذا الأمر كان السلف ينهون أبناءهم عن عدم المبالاة وإعطاء العهود والعقود، فلربما ترتب على هذا أن تتحمل ذممهم ما لا طاقةَ لهم به فيقعون في المحذور.

بعض أهل العلم قالوا: إنَّ «العهد» ها هنا هي اليمين، وهذا ما مال إليه ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في مقدمة «فتح الباري»، قال: «الظاهر، والله أعلم، أنه أراد

بالعهد ها هنا اليمين»، وذكر أن من معاني العهد في اللغة: اليمين. هذا قولٌ -إنْ صحَّ- فإنه يكون شاهدًا لإيراد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الأثر في هذا الباب.

مما يُستفاد من هذا الأثر: أن تلحظ الجدية في التربية التي كان عليها السلف الصالح؛ لم يكونوا يتركون أبناءهم سبهللا يقولون ويفعلون كما يشاءون، بل كانوا يربونهم على الحزم، على معالي الأمور، على ترك ما قد يؤدي إلى وقوعهم في أمرٍ مذموم، ولذلك ربما وجدت شيئًا من القسوة، إبراهيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: « **كَانُوا يَضْرِبُونَنَا** »، وهذا على حد قول الشاعر:

فَقَسا لِيَزدَجِروا وَمَن يَكُ حازِمًا فَليَقسُ أَحيانًا عَلَى يَرحَمُ

ينبغي على الإنسان في أبنائه -أعني في تربيتهم- أن يجمع بين الترغيب والترهيب، وأن يكون حازمًا في المواضع التي تقتضي ذلك ولو أدّى هذا إلى الضرب ، بخلاف ما يُروَّجُ له في بعض أساليب التربية الحديثة من المطالبة بإلغاء الضرب بالكلية؛ هذا الأمر غير صحيح ومخالف للشرع أيضًا؛ فإن الضرب في محله بشروطه لا شك أنه أمر جائز، بل ربما كان أمراً متعيّنًا؛ ومن ذلك ما أخبر به نبينا ﷺ من اللجوء إلى الضرب في شأن الصلاة متى ما قصَّر الطفل فيها إذا بلغ سن العاشرة، قال: «واضربوهم عليها لعشر»، فدل هذا على أن الضرب في محله بشروطه أمر جائز وربما يكون متعينًا. والمطلوب أن يراعي الإنسان الحكمة ومراعاة الشرع في هذا المقام.

- فينبغي **أولاً**: أن لا يكون الضرب على كل شيء، على كل صغير وكبير، أو في حال ما إذا لم يخطئ الطفل خطئًا يستحق ذلك.

﴿ **الأمر الثاني**: لابد أن يكون الطفل قد بلغ المبلغ الذي يناسبه أن يُضرَب، أما الطفل الصغير الذي لا يعي ما الضرب أو لم ضُرب، فلا شك أن ضربه ظلمٌ له، وسيُعاقَب الإنسان على ذلك.

﴿ **الأمر الثالث**: أن يكون ضربه ضربًا غير مبرح؛ يعني لا يكون ضربًا شديداً يوقع الأذى ويوقع الضرر على هذا الطفل، كما يفعل بعض من قسى قلبه وظلمت نفسه، فيضربون ضربًا كأنهم فيه منتقمون لا أنهم مؤدِّبون؛ فرقٌ بين الضرب الذي هو ضرب انتقام وتشفِّي، والضرب الذي هو ضرب تأديب؛ ضرب التأديب ليس المقصود فيه تعذيب الجسد، إنما هو رسالة يُراد لها أن تصل إلى هذا المضروب، وهو أنه قد وقع في أمرٍ لا يليق به أن يقع فيه، فيكون ضربًا يؤنِّب نفسه، وليس أنَّه يؤثر على جسده.



قال المصنف رحمه الله:

٦٣-بَابُ
مَا جَاءَ فِي ذِمَّةِ اللهِ وَذِمَّةِ نَبِيِّهِ

وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [النحل:٩١] الآيَةَ.

وَعَنْ بُرَيْدَةَ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا أَمَّرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ أَوْصَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى اللهِ، وَبِمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ خَيْرًا، فَقَالَ: «اغْزُوا بِسْمِ اللهِ، قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ مَنْ كَفَرَ بِاللهِ، اغْزُوا وَلَا تَغُلُّوا، وَلَا تَغْدِرُوا، وَلَا تُمَثِّلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا، وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ -أَوْ: خِلَالٍ- فَأَيَّتَهُنَّ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، وَكُفَّ عَنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلَامِ، فَإِنْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ، وَأَخْبِرْهُم أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ، وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ، فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا؛ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ، يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللهِ تَعَالَى، وَلَا يَكُونُ لَهُمْ فِي الْغَنِيمَةِ وَالْفَيْءِ شَيْءٌ؛ إِلَّا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْأَلْهُمُ الْجِزْيَةَ، فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَقَاتِلْهُمْ، وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ؛ فَلَا تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ، وَلَكِنِ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ، فَإِنَّكُمْ إِنْ تُخْفِرُوا ذِمَمَكُمْ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكُمْ؛ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ، وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى

حُكْمِ اللهِ؛ فَلَا تُنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِ اللهِ، وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِكَ؛ فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَتُصِيبُ حُكْمَ اللهِ فِيهِمْ أَمْ لَا؟» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.



قال الشارح وفقه الله:

هذا البابُ من سلسلةِ الأبواب التي عقدها المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ لينصحَ أهل التوحيدِ والإيمان بتركِ كل ما يقدحُ في تحقيق التوحيد، ومن ذلك الألفاظ التي ترْكُها من كمال التوحيد، والقول بها من ضَعْفِ تعظيم الله ﷻ وتوحيده؛ ومن ذلك: إخفار ذمة الله وذمة نبيه ﷺ(١٠٠٢).

الذمة: هي العهد والميثاق، ولأجل هذا قيل عن أهل الكتاب إنهم «أهل الذمة» إذا كانوا في بلاد المسلمين، ومن ذلك قول الشاعر النجاشي الحارثي يهجو قبيلةً:

قُبَيِّلَةٌ لَا يَغْدِرُونَ بِذِمَّةٍ وَلَا يَظْلِمُونَ النَّاسَ حَبَّةَ خَرْدَلِ

ولا شك أنَّ إعظام الله ﷻ يقتضي أنْ تُعظَّم ذمته؛ فالميثاقُ والعهد الذي أُخِذ بالله ﷻ وعلى ذمة الله وعلى ذمة رسوله ﷺ يجب أن يُوفى به تحقيقًا

(١٠٠٢) فعهد الله وعهد نبيه ﷺ عهْدٌ عظيم، ونقض هذا العهْد من ضعْف تعظيم الله ﷻ، ودليلٌ على ضعْف التوحيد، فنبَّه المؤلّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ على خطورة إخْفار ذلك ونقضِه، وأنَّ من تعظيم الله ﷻ أن يُصانَ هذا العهْد.

للتوحيد الواجب، وإخفار ذلك -يعني نقضه- لاشك أنه من ضعف تعظيم الله ﷻ ومن وَهَنٍ في توحيد العبد لا ينبغي أن يقع فيه المسلم.

وأورد رَحِمَهُ ٱللَّهُ الدليل الذي يدل على هذا من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وقوله: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾**[النحل:٩١] **الآية**).

هذا أمرٌ من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قال: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾؛ إذا أعطيتم عهد الله؛ بأن قال إنسانٌ لآخر: "لك عهدُ الله أن أؤمِّنك على نفسك فلا أوذيك، أو أن أكون معك صادقًا، أو أن أحفظ سرك" وما شاكل ذلك؛ فإنَّه يجِب وجوبًا أن يفي الإنسان بهذا العهد والميثاق الغليظ؛ لأنَّه عهد الله ﷻ، وإخفاره منكرٌ عظيم، حتى إنَّه لا كفارة له إلا التوبة، وذلك لعظمته، ليس الشأن فيه شأنًا هينًا بحيث إنه يمكن أن يُكفَّر بكفارة كما هي كفارة اليمين مثلًا؛ كلا، هذا الذنب لا كفارة له عند أهل العلم، وذلك لأنَّه أمرٌ عظيمٌ وكبيرةٌ من كبائر الذنوب، فلا تُكَفَّر إلا بالتوبة إلى الله ﷻ.

قال ﷻ في هذه الآية: ﴿وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾؛ مر بنا ما يتعلق بالأيمان في الدرس الماضي، وهذه الأيمان التي أمر الله ﷻ بحفظها وعدم نقضها: هي الأيمانُ الداخلة في العهود والمواثيق(١٠٠٣)، وليست الأيمانَ التي

(١٠٠٣) بأن تُؤمِّن إنسانًا مثلًا على نفسه أو على ماله، أو تتعاهدَا على أن تصْدُقَه وأن تكون أَمينًا معه وأن تبيِّن له الحقيقة وما شاكل ذلك فإنَّ نقْض ذلك وإخْفاره أمرٌ عظيم ومنكرٌ جسيم، ودليلٌ على ضعْف تعظيم الله ﷻ.

تتعلق بالحثِّ أو المنع؛ فإنَّ هذه يجوز عدمُ الإبرار بها، بل يُستحب إذا ظهرت المصلحة في ذلك.

أعيد: قوله تعالى ﴿وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ يعني: إذا أقسم الإنسانُ بالله ﷻ في عهد أو عقدٍ عقده فواجبٌ عليه أن يفيَ بذلك ولا ينقض يمينه. أما الأيمان والأقسام التي تتعلق بحث النفس أو منعها من أمرٍ من الأمور فإن هذه يجوز للإنسان أن لا يفيَ بها؛ يجوز أن ينقض هذه اليمين ولا يفي بها مع لزوم الكفارة في حقه، في تفاصيلَ عند الفقهاء، بل كما ذكرنا في الدرس الماضي إن هذا مما يستحب متى ما ظهرت المصلحة في ذلك، وقد مر معنا ما ثبت في الصحيحين من قول النبي ﷺ: «والله إنِّي إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرًا منها إلا كفرت عن يميني وأتيت الذي هو خير».

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (عن بريدة رضي الله عنه قال: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا أَمَّرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ أَوْصَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى اللهِ، وَبِمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ خَيْرًا، فَقَالَ: «اغْزُوا بِسْمِ اللهِ فِي سبيل الله، قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ مَنْ كَفَرَ بِاللهِ، اغْزُوا وَلَا تَغُلُّوا، وَلَا تَغْدِرُوا، وَلَا تُمَثِّلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا، وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ أَوْ خِلَالٍ فَأَيَّتَهُنَّ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلَامِ، فَإِنْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ وَأَخْبِرْهُم أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ، فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ، يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللهِ تَعَالَى، وَلَا يَكُونُ لَهُمْ فِي الْغَنِيمَةِ وَالْفَيْءِ

شَيْءٌ إِلَّا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْأَلْهُمُ الْجِزْيَةَ، فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَقَاتِلْهُمْ. وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ؛ فَلَا تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ وَلَكِنِ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ، فَإِنَّكُمْ إِنْ تُخْفِرُوا ذِمَمَكُمْ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكُمْ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ، وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللهِ فَلَا تُنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِ اللهِ وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِكَ؛ فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَتُصِيبُ حُكْمَ اللهِ فِيهِمْ أَمْ لَا؟»رواه مسلم.

هذا الحديث حديث بريدة بن الحصيب الأسلمي ﵁، وقد خرجه الإمام مسلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «صحيحه»، وهو حديث طويل وفيه مباحث شتى الشاهد منها قول النبي ﷺ: « وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ».

الخِطابُ كان من جملة وصيةٍ كان النبي ﷺ يوصي بها أمير الجيش أو السرية، السرية: قطعة من الجيش؛ قيل تبلغ من المائة إلى الأربعمائة، وقيل من المائة إلى الخمس مائة، قيل من الخمسة إلى الثلاث مائة.

المقصود: أن النبي ﷺ كان يوصي أمير هذه السرية أو ذاك الجيش بهذه الوصية العظيمة، ومن ذلك قال: «وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ؛ فَلَا تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ ﷺ»؛ بمعنى أنهم وافقوا على أن يستسلموا بشرط أن يأمنوا على أنفسهم بجعل ذمة الله ونبيه ﷺ لهم في ذلك؛ تجعلون لهم يا معشر المسلمين ذمة الله ورسوله ﷺ مثلًا أن لا يُعتدى عليهم، أن يُحفظوا في أموالهم؛ إلى غير ذلك.

هاهنا أمَر النبي ﷺ أن لا يجعل الأمير لهم ذمة الله وذمة نبيه ﷺ، إنما يُنزِلونهم على ذمتهم وذمة أصحابهم، والسبب ذكره النبي ﷺ قال: « **فَإِنَّكُمْ إِنْ تُخْفِرُوا ذِمَمَكُمْ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكُمْ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ**»؛ الشأن أن ذمة الله وذمة رسوله ﷺ أمرها عظيمٌ وواجبٌ الوفاء بها، والمقام فيه جيش، وربما كان من سوادهم أو من جُهَّالهم من وقع في إخفار ذلك العهد، فيكون قد وقع أمر عظيم وهو إخفار ذمة الله وذمة نبيه ﷺ؛ مع ما في ذلك من إساءة سمعة الإسلام والمسلمين.

فالأهون إذًا أن يُلْتَزَمَ لهم بذمة المسلمين؛ بذمة أمير الجيش أو أهل هذا الجيش، أما أن يُلْتَزَمَ لهم بذمة الله ونبيه ﷺ فهذا أمرٌ محفوفٌ بالخطر، وقد يترتب عليه مفسدةٌ عظمى؛ ألا وهي إخفار ذمة الله ونقض ذمة الله وذمة نبيه ﷺ.

هذا من تحقيق التوحيد؛ تعليمٌ من نبينا ﷺ لنا معشر المسلمين على تعظيم الله ﷻ، وعلى تحقيق التوحيد له تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ؛ ومن ذلك أن يُعظَّم كل ما يرجع إلى ربنا ﷻ؛ ومن ذلك الذمة والميثاق والله تعالى أعلم.

من فوائد هذا الحديث: أن العلماء استنبطوا منه قاعدةً مهمة من قواعد الشرع وهي: «**احتمال أدنى المفسدتين في سبيل دفع أعلاهما**»؛ يُرشِدُ إلى هذا قوله ﷺ: « **فَإِنَّكُمْ إِنْ تُخْفِرُوا ذِمَمَكُمْ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكُمْ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ**»[١٠٠٤]؛ وهذه قاعدةٌ صحيحة يدل عليها أدلةٌ كثيرةٌ في الشريعةِ.

(١٠٠٤) فكِلا الأمرين مفْسدة؛ إخْفار العهْد على كل حال مفْسدة، ولكن الوقوع في المفْسدة الأهْون أهْون من وقوع المفْسدة الأعظم.

فإن تزاحم عدد المصالح يُقدَّم الأعلى من المصالح

وضده تزاحم المفاسد يُرتكب الأدنى من المفاسد

والله تعالى أعلم.



قال المصنف رحمه الله:

٦٤-بَابُ

مَا جَاءَ فِي الإِقْسَامِ عَلَى اللّهِ

عَنْ جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ: «قَالَ رَجُلٌ: وَاللهِ لَا يَغْفِرُ اللهُ لِفُلَانٍ، فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لَا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ؟ إِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ، وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ الْقَائِلَ رَجُلٌ عَابِدٌ، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: «تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَوْبَقَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ».



قال الشارح وفقه الله:

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (بَاب مَا جَاءَ فِي الإِقْسَامِ عَلَى اللهِ)[١٠٠٥]؛ **الإقسام على الله له أحوالٌ ترجع إلى ثلاث:**

الأولى: أن يقسم على الله ﷻ في شأن خبرٍ من خبر الله أو خبر رسوله ﷺ، كأن يقول مثلًا: والله ليُدخلن الله المؤمنين الجنة، والله ليُعذبن الله الكفار في النار، والله لتكونن العاقبة للمتقين، إلى غير ذلك مما جاء الدليل عليه في الكتاب والسنة؛ فهذا الإقسام لا حرج فيه.

القسم الثاني: الإقسام على الله الذي ينشأ عن عظيم الإيمان به، وكمال حسن الظن به تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ؛ ويدل على هذا أدلة عدة في الصحيحين وغيرهما، من ذلك:

(١٠٠٥) قال المؤلّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا التبْويب المُنبئُ عن النَّهي عن الإقسام على الله ﷻ.

ما ثبت في الصحيحين من حديث أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: أن الربيِّع بنت النضر كسرت ثنية -يعني سن- جارية من الأنصار، فاشتكوا إلى النبي ﷺ ،فأرادوهم على الصلح -أي الأرش- فأبوا إلا القصاص، فقال أنس بن النضر أخو الربيع: (يا رسول الله؛ أتكسر ثنية الربيع! والله لا تسكر ثنية الربيع)، وفي رواية في البخاري قال: (والذي بعثك بالحق لا تكسر ثنية الربيع)، فقال: «يا أنس كتاب الله القصاص»، ثم إن أهل تلك الجارية رضوا بالأرش وقبلوه، عند ذلك قال النبي ﷺ: «إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره» هذا لفظ البخاري، وعند مسلم أن من أقسم على الله إنما كانت أمُّ الربيع وليس أنس بن النضر.

ويدل على هذا أيضا: ما ثبت في الصحيحين من حديث حارثة بن وهب ﷺ أن النبي ﷺ قال: «ألا أدلكم على أهل الجنة؟ كل ضعيف يُتضعف لو أقسم على الله لأبره».

ويدل على ذلك أيضا: ما ثبت في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «رُب أشعث مدفوعٍ بالأبواب؛ لو أقسم على الله لأبره».

ويدل على هذا أيضًا: ما ثبت في صحيح مسلم أن النبي ﷺ أخبر كما في قصة عمر ﷺ وهي مشهورة قال: يَقْدُمُ عليكم مع أمداد اليمن أويس بن عامر- **يعني القرني- وأخبر** عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ أنه كان به برص فذهب عنه إلا موضع درهم، وأنه كان له والدةٌ هو بها بَرٌ، قال: «لو أقسم على الله لأبره».

وأيضًا جاء عند الترمذي بإسناد حسن إن شاء الله أن النبي ﷺ قال: «كم من أشعث أغبر ذو طمرين لا يؤبه له، لو أقسم على الله لأبره، منهم البراء بن مالك»، الذي هو أخو أنس بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

إذًا هذه أدلة تدل على أن هؤلاء الصالحين المؤمنين لو أقسموا على الله ﷻ لأبر قسمهم، والمعنى: أن الله ﷻ يجيبهم إلى ما أقسموا، ولا يُحنِّثهم في يمينهم لكرامتهم على الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، كأن يقول مثلًا: "والله لا يكون كذا" مما قد يقدِّره الله ﷻ في المستقبل أو لا يُقدِّره، أو يقول: "أقسمت عليك؛ أي ربي، أن يكون كذا وكذا"، فإن هذا من الأمر الذي يرتقي إليه الكُمَّل من المؤمنين، كما جاء في هذه النصوص وغيرها.

لكن هذا الباب ينبغي أن يتنبه المؤمن إلى أنه مرتبةٌ مَنِيفة لا يرتقي إليها إلا الكُمَّل، وأما من كان دونهم فلا ينبغي أن يقتحم هذا الباب، ورحم الله امرئًا عرف قدر نفسه. هذا المقام مقامٌ ناشئٌ عن حسن ظنٍ بالغٍ بالله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ؛ يظن أن الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ سوف يقع منه ما سوف يكون منه تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، وسوف يُقدِّر سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ الشيء الذي أَحبه ورغب إليه، لأنه يُحسن الظن بالله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ ويعلم أن الله على كل شيء قدير، فهو يرجو الله أن يُجيبه إلى هذا الشأن الذي أقسم على الله ﷻ في شأنه، وبالتالي فهذا القِسم من أهله لا حرج فيه.

◄ **يبقى القسم الثالث** وهو الموضوع الذي عقد المؤلف **رَحِمَهُٱللَّهُ** هذا الباب لأجله، وهو الإقسام على الله الذي ينشأ من:

- سوء ظنٍ بالله[١٠٠٦].

- أو عدوانٍ على الخلق.

-أو إعجابٍ بالنفس واحتقارٍ للغير.

فلا شك أنَّ هذا من ضعف التوحيد[١٠٠٧]، وتركه من تحقيق كمال التوحيد الواجب، على الإنسان أن يحذر من هذا الأمر كما دلَّ على ذلك الأدلة التي جاءت عن النبي ﷺ ومن ذلك ما ستسمعه في ما أورد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١٠٠٨].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**عَنْ جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللهِ** رضي الله عنه **قَالَ: قَالَ رَسُوْلُ اللهِ** ﷺ: **«قَالَ رَجُلٌ: وَاللهِ لَا يَغْفِرُ اللهُ لِفُلَانٍ، فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لَا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ؟ إِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ، وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ**).

حديث جندب بن عبد الله البجلي رضي الله عنه مُخرَّجٌ في «صحيح مسلم»[١٠٠٩]، وفيه أن رجلًا قال في شأن رجلٍ آخر: (**وَاللهِ لَا يَغْفِرُ اللهُ لِفُلَانٍ**) ؛ وقع في هذا الأمر المذموم الخطر؛ وهو أن أقسم على الله عَزَّ وَجَلَّ أنه لا يكون كذا، أو أنه لا يفعل تَبَارَكَ وَتَعَالَى كذا، فكانت هذه الكلمة سببًا لمقت الله عَزَّ وَجَلَّ له، وسببًا لحبوط عمله -

---

(١٠٠٦) أو حُكْم عليه.

(١٠٠٧) وهذا قادحٌ في كمال التوحيد الواجب، وقد يكون ناقضًا لأصل التوحيد.

(١٠٠٨) والمقصود أن المؤلّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ لا يزال يُبوّب الأبواب ويعقدها في التنبيه على الألفاظ التي يتعيّن تركها صيانةً للتوحيد مِمَّا يخدْشه.

(١٠٠٩) فيه دليلٌ على ما عقد عليه المؤلّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الباب.

نسأل الله السلامة والعافية- إذ قال الله ﷻ: « مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ»؛ يتألى: يعني يُقسم ويحلف، الأَلِيَّةُ هي: اليمين أو القسم أو الحلف ،كما قال كُثير عزة:

قليلُ الألايا حافظٌ ليمينهِ فإن سَبَقَتْ مِنْهُ الأَلِيَّةُ بَرَّتِ

قوله: «مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لَا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ؟ إِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ، وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ»؛ فهذا دليلٌ على أنَّ الإقسام على الله ﷻ كهذه الحال التي كانت من هذا الإنسان لا شك أنها ذنبٌ عظيم.

وجاء عند أبي داوود في سننه من حديث أبي هريرة ﷺ قصةٌ قريبةٌ من هذه أيضا؛ وهي في شأن رجلين من بني إسرائيل كانا متآخين، أحدهما كان يذنب، رجل عاصٍ، والآخر: قال النبي ﷺ كان مُجتهدٌ بالعبادة، فكان العابد إذا رأى ذاك المقصر يقع في الذنب ينصحه ويقول له: أَقْصِر، كُفّ، لا تفعل، وذاك الرجل يقول: "خلِّ عني، خلني وربي"، فرآه مرة على ذنب استعظمه فقال: أقْصِر، قال: "خلِّني وربي أبُعثت علي رقيبا؟" فقال عندها -وبئس ما قال-: (والله لا يغفر الله لك، أو: لا يدخلك الجنة أبدًا)، فبعث الله ﷻ فقبض روحهما، ثم جمعهما عنده تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، اجتمعا عند رب العالمين جَلَّ وَعَلَا، فقال ﷻ لهذا المذنب: «ادخل الجنة برحمتي»، وقال لهذا العابد الذي تألَّى على الله ﷻ قال: «أكنتَ بي عالما؟ أم كنتَ على ما في يديَّ قادرا، ثم قال ﷻ : خذوه إلى النار»، عند ذلك قال أبو هريرة ﷺ : «قال كلمة أوبقت دنياه وآخرته» نسأل الله السلامة والعافية.

وفي مصنف عبد الرزاق بإسنادٍ رجاله ثقات من حديث ابن مسعود ﵁ موقوفًا: أن رجلًا كان يصلي، فلما سجد جاء رجل فوضع قدمه على عنقه، فلما انصرف قال: (وضعت قدمك على عنقي وأنا ساجد، والله لا يغفر الله لك أبدا)، قال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ : «فأدخله الله النار».

إذًا- يا أيها الأخوة- هذا المقام مقامٌ عظيم ينبغي على الإنسان أن يحفظ فيه لسانه، وأن يحذر أن يقع في هذه الهوة العظيمة ، وهي أن يُقسِّمَ على الله ﷿ إقسامًا ناشئًا عن سوء ظنٍ بالله ﷿، أو تحكمٍ في فعله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، أو اعتقاد أن الله تعالى لا يقدِر على أن يغفر هذا الذنب فإنَّ رحمته تقصر و تضعُف عن ذلك؛ من كان منه ذلك فلا شك أنه واقعٌ في ذنب عظيم.

تبقى عندنا مسألة: وهي في قول النبي ﷺ: «**قد غفرت له وأحبطت عملك**».

ما هذا الحبوط؟ أهو الحبوط الكلي؟ أم الحبوط الجزئي؟

المتقرر عند أهل السنة والجماعة أن الحبوط قسمان:

١. **حبوط كلي**: أي تبطل حسنات الإنسان، أن يزول جميع ثوابه على أعماله بالكلية؛ وهذا لا يكون إلا بالكفر بالله ﷻ: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[الأنعام:٨٨].

٢. **والحبوط الجزئي**: هو بطلان بعض الثواب لا جميعه؛ وهذا يكون بفعل المعاصي التي هي دون الكفر، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى﴾[البقرة:٢٦٤] ، ويدل على ذلك أيضًا قوله

تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾[محمد:٣٣] ؛قال بعض أهل التفسير: يعني بالمعاصي. ويدل على ذلك جملة من النصوص الأخرى[١٠١٠].

المقصود أن الوارد في ذلك الحديث هل هو من الأول أو من الثاني؟

اختلف أهل العلم في توجيه هذا الحديث:

- **منهم من قال**: إن هذا القائل كان منه عملٌ آخر[١٠١١] هو ناقضٌ من نواقض الإسلام؛ كان السبب في حبوط عمله.
- **وقال آخرون**: إن هذا الإنسان كان قائلًا هذه الكلمة يعني مُقسِما على الله ﷻ متحكمًا في علمه مستحلًا لذلك؛ وهذا كفر ، فحبط عمله لاستحلاله.
- **وقيل**: إن هذا كان حكم هذه الكلمة في شرع من قبلنا[١٠١٢].

وهذه التوجيهات بادية الضعف والتكلف. **والتحقيق في هذا المقام** إن شاء الله أن يقال: **إن هذا الرجل كان بين أمرين:**

- إما أن يكون قوله هذا «**والله لا يغفر الله لفلان**» ناشئًا عن اعتقاد أن له مكانة عند ربه ومزية وفضيلة بحيث إنَّه يحكم على الله ﷻ، فالله ﷻ يفعل ما

(١٠١٠) ومن ذلك أيضًا قوله ﷺ: «من ترَك صلاة العصر فقد حَبِطَ عملُه»، إن قِيل بأنَّ ترْك صلاة واحدة لا يكفر به صاحبه. إلى غير ذلك من الأدلة، وفي الباب آثارٌ عن الصحابة فمن بعدهم من السَّلف الصالح.

(١٠١١) مصاحِب لهذا القول اقتضى كفره.

(١٠١٢) يعني أنَّه يكفر ويُحبط عمله في شرع من قبلنا لا في شرعنا.

يأمر به؛ ولاشك إن كان الأمر كذلك فيكون هذا الإنسان قد كفر بالله ﷻ، وبالتالي يكون حبوط عمله حبوطًا كليًا.

۞ **والاحتمال الثاني**: أن يكون هذا الإنسان قد قال هذا القول عن طرفٍ من سوء الظن بالله ﷻ، أو إعجابٍ بنفسه واحتقارٍ لهذا الذي قال فيه ما قال. وبالتالي فيكون قد وقع في ذنب عظيم ولا يصل ذلك لحد الكفر؛ وعليه فيكون حبوطه حبوطًا جزئيا.

ويبقى النظر في قوله في الحديث: «**وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ**»؛ الذي يظهر -والله تعالى أعلم- أنَّ المراد هنا مطلقُ العمل، لا العمل المطلق، وقد عرفنا في دروس سابقة الفرق بين الجملتين؛ فهذا قد أحبط الله ﷻ عنه جملةً من أعماله.

-قد يكون الذي أُحبط أعمال الجوارح، فإن الذي قرره طائفةٌ من أهل العلم ومنهم ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «فتح الباري»؛ قرر أنَّ العمل إذا أطلق في النصوص فإنه ينصرف إلى أعمال الجوارح.

-وربما الأمر يحتمل أن الذي أُحبط هو العمل الذي أُعجب به هذا الإنسان، والله تعالى أعلم.

من فوائد هذا الحديث: أن نعلم خطر اللسان؛ فاللسان شأنه عظيم.

إنَّ اللسان صغيرٌ جِرمه وله   جُرمٌ كبيرٌ كمَا قد قيل في المثلِ

«هل يكب الناس على وجوههم أو قال عليه الصلاة والسلام على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم»؛ هذه كلمة قالها هذا الإنسان فأوبقت دنياه

وأخراه -عافاني الله وإياكم من ذلك- ، الأمر خطِر ؛ ربَّ كلمة يقولها العبد لا يلقي لها بالًا يهوي بها في النار أبعد ما بين المشرق إلى المغرب، على الإنسان أن يحترس في كلامه وأن يتنبه لألفاظه، فلعله يقول الكلمة التي تكون سببًا في تعاسته -عافاني الله وإياكم من ذلك-.

أيضًا من فوائد هذا الحديث: أن نعلم أن النبي ﷺ صادقٌ حين قال: «الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله، والنار مثل ذلك»؛ يعني أن أسباب دخول الجنة أو النار قريبة، ربما يدخل الإنسان الجنة بسببٍ لا يظن أنه يُبْلِغه ما بلغ، والشأن في الطرَف الآخر كذلك. وهذا مَثَلٌ تضربه العرب إلى قرب الشيء، يقال: "هذا أقرب إليك من شِراك نعلك"؛ يعني الأمر قريب جدا، فأسباب الجنة والنار أسبابٌ قريبة ، ومن ذلك هذه الكلمة التي قالها الإنسان فأوجبت سخط الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عليه.

ومن ذلك أيضًا: أن نعلم خطر الغضب؛ الغضب يجمع الشر، على الإنسان أن يتنبه ويتحفَّظ؛ هذا الإنسان قال كلمة في لحظة غضب فأوردته هذا المورد العظيم.

ومن تلك الفوائد أيضًا: أن نعلم صحةَ معتقد أهل السنة والجماعة في شأن أهل الكبائر في شأن العصاة؛ وأنهم تحت مشيئة الله تبارك وتعالى إن شاء عذبهم، وإن شاء عفى عنهم. هذا إنسان يذنب ويرتكب المعاصي ويُناصح ولا يستجيب، ومع ذلك فإن الله **تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ** غفر له وأدخله الجنة، الله عَزَّوَجَلَّ ذو رحمةٍ واسعة، لا ينبغي على الإنسان أن يُحجِّر رحمة الله **تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ**، ولا أن يسيء

الظن بالله جَلَّ وَعَلَا، الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى وسعت رحمته كل شيء، ﴿وإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرةٍ لِلنَّاسِ عَلَىَ ظُلْمِهِمْ وإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد:٦]، على الإنسان أن يتنبه لهذا الأمر العظيم فلا يقع في ما وقع فيه أهل الوعيد من القنوط أو التقنيط من رحمة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

- **ومن تلك الفوائد أيضًا**: درسٌ مهم ينبغي أن يتنبه له الدعاة إلى الله وأهل الحسبة والآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر؛ حذارِ أن يظنوا -لما كانوا في موقع التوجيه والنصح- أنهم أرفعُ من غيرهم وأنَّ من سواهم مُحتقَر، وكذلك أن يحذروا من الألفاظ التي تُقنِّط الناس من رحمة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، أو تجعلهم يسيئون الظن، أو تجعلهم ييأسون، وبالتالي فإنهم يعبُّون من المعاصي عبًا. لا ينبغي ذلك بل يجب أن يُجمع الأمر بين الترغيب والترهيب، وأن يُبيَّن للناس سعة رحمة الله ﷻ إلا أنَّها قريبٌ من المحسنين، فينبغي على الإنسان أن يُحسن حتى يكون قريبًا من رحمة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

هذه جملةٌ من الفوائد التي جاءت في هذا الحديث، والله تعالى أعلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ** رضي الله عنه: **أَنَّ الْقَائِلَ رَجُلٌ عَابِدٌ، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: «تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَوْبَقَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ»**).

نسأل الله السلامة والعافية، كأن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يميل إلى أن القصتين واحدة؛ ما جاء في حديث جندب وما جاء في حديث أبي هريرة قصةٌ واحدة(١٠١٣)، والأمر على كل حال مُحتمِل، لكن ليس الأمر مقطوعًا به.

وذلك أنَّ خاتمة ما جاء في هذا الحديث الذي في الباب أنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ قال: «**قد غفرتُ له وأحبطتُ عملك**»، وأما الذي جاء في ختام القصة التي جاءت في حديث أبي هريرة عند أبي داوود وأحمد وغيرهما فيه أنَّ الله ﷻ أدخل هذا الجنة، وأدخل ذاك النار ، والله تعالى أعلم.



(١٠١٣) وقد يكون هذا شخصًا آخر؛ لأنَّ الذي جاء في حديث أبي هريرة أنَّ الله ﷻ أمرَ بهذا القائل أن يُذهَبَ به إلى النَّار، وذاك إلى الجنَّة، فالوعد والوعيد هاهُنا مختلف وإن كانت المحصلة واحدة.

قال المصنف رحمه الله:

٦٥-بَابٌ
لَا يُسْتَشْفَعُ بِاللّهِ عَلَى خَلْقِهِ

عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ قَالَ: جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ نُهِكَتِ الْأَنْفُسُ، وَجَاعَ الْعِيَالُ، وَهَلَكَتِ الْأَمْوَالُ، فَاسْتَسْقِ لَنَا رَبَّكَ، فَإِنَّا نَسْتَشْفِعُ بِاللهِ عَلَيْكَ، وَبِكَ عَلَى اللهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «سُبْحَانَ اللهِ!، سُبْحَانَ اللهِ! »، فَمَا زَالَ يُسَبِّحُ حَتَّى عُرِفَ ذَلِكَ فِي وُجُوهِ أَصْحَابِهِ، ثُمَّ قَالَ: «وَيْحَكَ أَتَدْرِي مَا اللهُ؟ إِنَّ شَأْنَ اللهِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ، إِنَّهُ لَا يُسْتَشْفَعُ بِاللهِ عَلَى أَحَدٍ ...» وَذَكَرَ الْحَدِيثَ. رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ.



هذا البابُ عقده المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ للدلالة على عدم جواز أن يُستَشْفع بالله على أحدٍ من خلقه(١٠١٤).

والخلق هنا في معنى السياق بمعنى المخلوق، وهذا واردٌ في جملة من النصوص، منها قول الله ﷻ: ﴿هَذَا خَلْقُ اللهِ﴾[لقمان:١١]؛ يعني هذا مخلوقه ﷻ.

(١٠١٤) وفي هذا الباب تنبيه على وجوب تعظيم الله سبحانه، وأنَّ على المسلم أن يقْدُرَه قدره تبارك وتعالى، كما فيه التنبيه على اجتناب الألفاظ التي تخْدش في كمال تعظيم الله جلَّ وعلا، وتقدح في كمال التوحيد الواجب، وهي الألفاظ التي فيها تنقص لله تبارك وتعالى وهضْمٌ لجَناب ربوبيَّته جلَّ وعلا.

وفي سياقٍ آخر قد يُفَرَّقُ بين الخلق والمخلوق؛ فالخلقُ: فِعلُ الله تعالى القائم به، وأما المخلوق: فإنَّه المفعول المنفصلُ عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ومرادُ المؤلفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ التنبيه على أنَّه لا يجوز أن يجعل العبد ربه وإلهه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ شفيعًا له عند أحد من الخلق، لا يُستشفع بالله على أحدٍ من خلقه؛ وذلك أن شأن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أعظم، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يجوز أن يكون شفيعًا للمرء عند أحدٍ من الخلق، وعلة ذلك سيأتي الكلام عنها قريبًا إن شاء الله(١٠١٥).

وهذا الباب أورد فيه المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ حديثا واحدًا هو حديث جبير بن مُطعِم عن النبي ﷺ، وهذا الحديث خرَّجه أبو داودَ في «سننه»، والإمام أحمد في «الرد على الجهمية»، والبخاري في «التاريخ»، وغيرهم ممن خرج هذا الحديث، **وفيه بحثٌ طويلٌ من جهة إسناده:**

- **فإن طائفةً من أهل العلم ضعفت هذا الحديث،** وقد استغربه ابن كثير **رَحِمَهُ ٱللَّهُ** في تفسيره، وكذلك فعَل الذهبيُ في كتابه «العلو»، وإن كان قد قال في

(١٠١٥) (**لا يُسْتَشْفَعُ بِاللهِ عَلَى خَلْقِهِ**)؛ المراد بذلك: أن لا يُجعل اللهُ شفيعًا للانتفاعِ من أحدِ الخلق، بمعنى أن يكون اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وسيلةً للعبد إلى غيره؛ وذلك أنَّ شأن الله أعظم، الله جلَّ وعلا هو الذي يُشفعُ إليه وليس يُسْتشفعُ به إلى غيره، الله عَزَّ وَجَلَّ هو ذُو الطَّول، هو الغني، هو مَلك المُلوك، هو الذي بيده ملكوت كل شيء وهو يُجير ولا يُجار عليه، فكيف يجعله العبد شافعًا له عند أحدٍ من الخلق، والعادة جارية بأنَّ الشافع دون المشفوع إليه في المكانة والمنزلة، حق الله عَزَّ وَجَلَّ أعظم وشأن الله أكبر من أن يكون كذلك.

كتابه «العرش»: خرجه أبو داود بإسنادٍ حسنٍ عنده، كذلك ألَّف ابن عساكر رسالةً في تضعيف هذا الحديث، **وأُعِلَ هذا الحديث بِعلتين**:

الأولى: أن في الإسناد ابن إسحاق وهو مدلسٌ وقد عنعن ولم يصرح بالتحديث.

والعلة الأخرى: أن الحديث جاء من رواية جُبيرٍ بن محمد بن جبيرٍ بن مُطعِم بن عَدِي، عن أبيه، عن جده، وجبيرٌ هذا فيه كلام، وقد وصفه الحافظ **رَحِمَهُ ٱللَّهُ** في «التقريب» بأنه مقبول، ولم يُتابع على هذا الحديث.

➘ **طائفة أخرى من أهل العلم قَوَّت هذا الحديث**، ومنهم: ابن منده فإنه قد صححه، وكذلك قال فيه ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في «مختصر الصواعق»: خرجه أبو داود بإسناد حسن عنده، وكذلك فعل الذهبي في كتابه «العرش»، وكذلك قال في نونيته -أعني ابن القيم-:

واذكُر حديثًا لابن إسحاق الرضا ذاك الصدوق الحافظُ الرباني

ثم أورد عدة أبيات في بيانِ معنى الحديث، ثم قال:

لله ما لقِيَ ابن إسحاق من الجهمي إذ يرميه بالعدوانِ

وانتقد ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ من ضعَّف هذا الحديث وانتصر لتقويته كما في «مختصر السُنَن»، وكذلك فعل شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ فإنه مالَ إلى تقويته كما في «مجموع الفتاوى»، وانتقد في «بيان تلبيس الجهمية» في المجلد الثالث انتقد من ضَعّف هذا الحديث.

ومهما يكن من شيء فالحديث إن سُلِّمَ بضعفه فإن معناه الصحيح لا شك فيه؛ قال شيخنا ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الحديثُ فيه بعض الضعفِ إلا أن معناه صحيح»، وهذا حق، فإن معنى هذا الحديث صحيح لا شك فيه، بل ذكر شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «بيان تلبيس الجهمية» أنه ما في هذا الحديث من شيء إلا وله شاهد، يعني لم يدل على معنى إلا وله شاهدٌ يدل عليه من غير هذا الحديث.

وهذا الحديث اختصره المؤلف **رَحِمَهُ ٱللَّهُ** بمعناه، فهو لم يلتزم بنصِّ ما أورد أبو داود في سننه، كما أنه اختصر آخرهُ كما سيأتي التنبيه عليه إن شاء الله، والله تعالى أعلم.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ قَالَ: جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ نُهِكَتِ الأَنْفُسُ، وَجَاعَ العِيَالُ، وَهَلَكَتِ الأَمْوَالُ، فَاسْتَسْقِ لَنَا رَبَّكَ، فَإِنَّا نَسْتَشْفِعُ باللهِ عَلَيْكَ، وَبِكَ عَلَى اللهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «سُبْحَانَ اللهِ!، سُبْحَانَ اللهِ!»، فَمَا زَالَ يُسَبِّحُ حَتَّى عُرِفَ ذَلِكَ فِي وُجُوهِ أَصْحَابِهِ، ثُمَّ قَالَ: «وَيْحَكَ أَتَدْرِي مَا اللهُ؟!؛ إِنَّ شَأْنَ اللهِ أَعْظَمُ مِنْ ذَٰلِكَ، إِنَّهُ لَا يُسْتَشْفَعُ بِاللهِ عَلَى أَحَدٍ...»، وَذَكَرَ الحَدِيثَ. رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ)؛ جُبَيْرُ بن مُطعِم هو القرشي من أشراف قريش، أسلم عام الفتح رضي الله عنه وأرضاه.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(جَاءَ أَعْرَابِيٌّإِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ نُـهِكَتِ الأَنْفُسُ، وَجَاعَ العِيَالُ، وَهَلَكَتِ الأَمْوَالُ)**؛ نُهكِت الأنفس: يعني ضعُفت وهزلت، والسبب قلة الأمطار، والأموال أصابها ما أصابها من الهلاك، والعيال أصابهم ما أصابهم من الجوع؛ فقدَّم هذه المقدمة بين يدي طلبه، وهذا يدلك على أن من المُستحسن أن يُقدِّم الإنسان بين يدي طلبه ما يَعْطِفُ قلبَ المسؤول إلى الجواب، فهو قدَّم هذه المقدمة حتى يلين قلب النبي ﷺ فيجيبه إلى سُؤلِه.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(فَاسْتَسْقِ لَنَا رَبَّكَ)**؛ استسقِ: يعني اطلب السقية من الله، فهو يريد أن يدعو الله رسولُ الله ﷺ بإنزال المطر، ولا شك أنَّ هذا من الأمر الذي وقع متعددًا في حياة النبي ﷺ ؛ فإنَّهم كانوا يستسقون به عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وذلك رجاء بركته وإجابة دعائه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

ومعلوم تلك القصة التي خرَّجها البخاري ومسلم في الصحيحين من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حينما دخل رجلٌ المسجد والنبي ﷺ يخطب الجمعة، فأخبره أن الأموال قد هلكت وأن العيال قد جاعوا فادعُ الله أن يغيثنا، فرفع النبي ﷺ يديه وقال: «اللهم اسقنا ، اللهم اسقنا»؛ فأخبر رضي الله عنه أنهم سقوا إلى الجمعة الثانية، حتى دعا النبي ﷺ بسؤال من هذا الرجل أو من غيره أن يصرف هذا المطر عنهم، والحديث مشهور عندكم.

وقد أخرج الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في صحيحه عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: «ربما تذكرتُ قول الشاعر ورسول الله ﷺ يستسقي، فما ينزل من منبره حتى يجيش كلُّ منبر

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثِمالَ اليتامى عصمة للأرامل

وهذا من شعر أبي طالب. المقصود أنَّ النبي ﷺ كان أصحابه يستسقون به في حياته؛ يعني يسألونه ويطلبونه أن يدعوا الله ﷻ لهم بإنزال المطر.

وأمَّا بعد وفاته عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فما كانوا يفعلون ذلك، إنَّما كانوا يطلبون من الصالحين ولا سيما من قرابة النبي ﷺ كما فعل عمر رضي الله عنه، إذ في البخاري أن عمر رضي الله عنه قال: «اللهم إنا كنا نتوسل إليك برسولك وإنا نتوسل إليك بعم رسولك» يعني بالعباس، فما كان من العباس رضي الله عنه إلا أن دعا الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لهم، وكذلك فعَل معاوية رضي الله عنه مع يزيد بن الأسود؛ فإنه استسقى به وكان رجلا صالحًا. والمقصود أن الاستسقاء بالصالحين بعد وفاة النبي ﷺ أمرٌ مشروع دأَب عليه السلف الصالح.

أما الاستسقاء بالنبي ﷺ بعد وفاته فلا شك أن هذا أمرٌ ممنوعٌ وبدعة محدثة لا تجوز(١٠١٦)، ويدل على ذلك إجماع الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ عن الإعراض عن هذا الأمر مع وجود المقتضي إليه، فإنه لو كان هذا الأمر جائزًا لما عدل عمر رضي الله عنه ومعه السابقون من المهاجرين والأنصار وبقية الصحابة ما عدلوا عن الاستسقاء بالنبي ﷺ أو الإتيان إلى قبره وهو بين ظهرانيهم، فيسألونه وهو في قبره عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ هذا السؤال أو غيره، إنما عدلوا عن ذلك بأن استسقوا

(١٠١٦) بل هو شرك، فإن جنس الطلب من الأموات شرك، ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر:١٤].

بالعباس -يعني بدعائه- وذلك لصلاحه ﷺ إضافةً إلى قربه من رسول الله ﷺ في النسب، والله تعالى أعلم.

قوله: (فَإِنَّا نَسْتَشْفِعُ باللهِ عَلَيْكَ، وَبِكَ عَلَى اللهِ)؛ هذه الجملة فيها أمران: أحدهما صحيح لم ينكره النبي ﷺ، والآخر أنكره النبي ﷺ.

❁ **فأمَّا الاستشفاع بالنبي ﷺ على ربه**؛ فإن هذا لم ينكره النبي ﷺ، ومعنى ذلك: أنهم يطلبون من النبي ﷺ أن يكون شفيعًا لهم عند الله بدعائه وبسؤاله، وليس بذاته، كانوا يستشفعون بالنبي ﷺ بالدعاء لا بالذات. يعني أنَّ الاستشفاع في كلام النبي ﷺ -**وانتبه إلى هذه القاعدة**- الاستشفاع بالنبي ﷺ أو بغيره في كلام النبي ﷺ أو في كلام الصحابة: إنما هو استشفاعٌ بالدعاء وبالسؤال لا بالذات.

يدل على هذا: أن النبي ﷺ أنكر الاستشفاع بالله على النبي ﷺ، لو كان الأمرُ أنه يُطلبُ من المخلوق بالله ﷻ أن يجيب -وهذا معنى الاستشفاع بالله على المخلوق- لكان هذا أمرًا جائزًا لا حرج فيه، لكنَّ الاستشفاع يتضمن السؤال والطلب، ولأجل هذا أنكره النبي ﷺ كما سيأتي، فالله تَبَارَكَ وَتَعَالَى لا يسأل المخلوق، فدل هذا على أن الاستشفاع يتضمن السؤال والطلب. فمعنى قولهم: (نستشفع بك على الله) يعني: بالسؤال بالدعاء بالطلب، وليس بذات النبي ﷺ، بدلالة الجملة التي بعدها وإنكار النبي ﷺ ذلك.

إذًا كون ذاك الأعرابي يسأل النبي ﷺ أن يستسقي لهم، ويذكر سببًا يجعل النبي ﷺ يجيبه إلى سؤله وهو أنه يستشفع بالنبي ﷺ على ربه -بمعنى أن يطلب أن يكون النبي ﷺ شفيعًا عند الله ﷻ فيدعو لهم حتى يجيبهم الله ﷻ إلى هذا السؤل- هذا أمرٌ ما أنكره النبي ﷺ، وهذا جائزٌ لا إشكال فيه.

وكم جاء في الأحاديث من سؤال الصحابة الدعاء من النبي ﷺ كثير من الأحاديث، جاء فيها أنهم كانوا يسألون رسول الله ﷺ الدعاء لهم أو الدعاء لذرّياتهم كما فعلت أم أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وكما فعل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ حين كانوا يأتون بأولادهم إلى رسول الله ﷺ فيدعو لهم ويُبَرِّك عليهم.

المقصود أن هذا القدر قدر لا ينكره أحد، ولو أنكره أحد فلا شك أنه يكون قد ضل ضلالًا بعيدا، سؤال النبي ﷺ أن يدعو الله ﷻ للسائل أو لغيره هذا قدرٌ لا يجوز إنكاره. المقصود أنَّ هذا القدر لا حرج فيه[١٠١٧] .

إنما الإشكال في الجملة التي بعدها، قال: (وَبِكَ عَلَى الله) في رواية أبي داود في الأصل يعني في السنن التقديم، تقديم هذه الجملة على تلك مع أنها مروية أيضا بالمعنى، وأظن أنني نبهت على أن شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ في تأليفه لهذا الكتاب ربما كان قد كتبه من حِفظه، ولذلك توجد اختلافات بين المصدر

(١٠١٧) وهذا كما لا يخفاك خاصٌ بحياته عليه الصلاة والسلام، وأمَّا بعد مماته فلا شكَّ أنَّ هذا الطلب ممنوعٌ بل هو شرك، فإن جنس الطلب من الأموات شرك، ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر:١٤].

الذي خرّج الحديث وبين ما أورد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ كثيرا في هذا الكتاب، أو أن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان ينقل بالواسطة، والواسطة كانت تكتب الحديث بالمعنى، والأمر على كل حال يسير.

نأتي الآن إلى الجملة الثانية، وهي أن هذا الأعرابي استشفع بالله على النبي ﷺ أنه يجعل الله عَزَّ وَجَلَّ شفيعًا له عند النبي ﷺ حتى يرضى وحتى يجيبه إلى مطلوبه؛ وهذا القدر أنكره النبي ﷺ، وذلك أن شأن الله عَزَّ وَجَلَّ أعظم، لا شك ولا ريب أن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لا يجوز أن يجعله الإنسان وسيلة له عند غيره، فيشفع له عند غيره.

وسبب هذا المنع راجعٌ إلى أمور:

أولًا: ما قدَّمتُ لك من أن الشفاعة تتضمن السؤال والطلب، وذلك أن حقيقة الشفاعة أن الشافع يسأل المشفوع إليه أن ينفع أو يلبي حاجة المشفوع له، وبالتالي فيكون الله عَزَّ وَجَلَّ هاهنا سائلا. ولا يجوز أن يعتقد هذا، فالله عَزَّ وَجَلَّ هو المسؤول، الله عَزَّ وَجَلَّ هو الذي يُدعى، الله عَزَّ وَجَلَّ هو الذي يُطلب، الله عَزَّ وَجَلَّ هو الذي تصمد إليه الخلائق في حوائجها، فكيف يجوز أن يقال: إن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يسأل المخلوق حاجة لمخلوق آخر؟! لا شك أن هذا منكرٌ من القول لا يجوز.

الأمر الثاني: أن حقيقة الشفاعة انضمام الشافع إلى المشفوع له، بعد أن كان صاحب الحاجة واحدا فردا أصبحا شفعًا، فشفع كل واحدٍ منهما الآخر، ولا شك أن الله عَزَّ وَجَلَّ لا يشفع أحدا ولا يشفعه أحد، بل هو الواحد الأحد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الأمر الثالث: أن الغالب أن تكون منزلة الشافع دون منزلة المشفوع عنده؛ ولا شك أن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ هو العلي، له علو القدر وله علو المنزلة، كما أن له علو الذات سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ملك الملوك، قيوم السماوات والأرضين، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الذي يجير ولا يجار عليه، كل من في السماوات والأرض عبدٌ ذليل لله عَزَّ وَجَلَّ، فكيف يُجعل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ شافعا عند غيره؟ المعتاد أن يكون الشافع دون المشفوع له، يشفع الوزير عند السلطان، فأيهما أعلى منزلة؟ المشفوع عنده أو الشافع؟ لا شك أنه المشفوع عنده، وهذا ما لا يجوز أن يكون.

وأمرٌ رابع: وهو أن الشفاعة قد تقتضي شيئًا من التذلل من الشافع عند المشفوع له، وهذا أيضا ما لا يجوز أن يعتقد في حق الله **تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ**.

وأمرٌ خامس: وهو أن الشأن في الشفاعة أن تكون الحاجة بيد المشفوع عنده أو بيد الشفيع، من الذي يملك قضاء الحاجة؟ المشفوع عنده وليس الشفيع، وإلا فلو كان الأمر بيد الشفيع ما احتاج إلى الشفاعة، أليس كذلك؟ وكيف يجوز أن تكون الحاجة مدبرةً وبيد غير الله **تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ** !!وهو الذي بيده ملكوت كل شيء **جَلَّ وَعَلَا** .

إذًا هذه أوجهٌ خمسة تدلك على أنه لا يجوز بحال أن يجعل الله **تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ** شافعًا للمخلوق عند غيره، وهذا ما يقع فيه بعض الناس الذين لم يقدروا الله حق قدره، والذين عظَّموا غيره كتعظيمه أو أشد، كما حكى شيخ الإسلام **رَحِمَهُ ٱللَّهُ** في «مجموع الفتاوى» في المجلد الأول عن بعض الشعراء وهو يخاطب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد وفاته، فيقول:

شفيعي إليك الله لا رب غيره   وليس إلى ردَّ الشفيع سبيلُ

يعني هو يجعل الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ شفيعه، فجمع ضغثا إلى إبالة، جعل سؤاله وحاجته إلى رسول الله ﷺ لا إلى الله، وزيادةً على ذلك جعل الله شفيعًا له إلى رسول الله ﷺ، ولا شك أنَّ هذا منكرٌ من القول وزور، وضلال مبين.

قد يقول قائل: وماذا عن سؤال المخلوق بالله ﷻ؟

مر معنا أنه لا حرج في أن يسأل العبد المخلوق بالله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ إذا كان المقام يناسب هذا السؤال الجليل، فهل يرد على هذا ما ذكرناه في مسألة الاستشفاع بالله ﷻ على المخلوق؟

الجواب: لا، ما ذكرناه من هذه اللوازم الفاسدة في شأن الاستشفاع بالله على المخلوق لا يلزم منها شيءٌ في شأن سؤال المخلوق بالله ﷻ.

ثم حقيقة سؤال المخلوق بالله: هو تذكيره بأن لله ﷻ حقا عظيمًا عليك يا أيها المسؤول، ولأجل هذا أنا أسألك بهذا الإله العظيم الذي له عليك هذا الحق أن تجيبني إلى سؤلي، وبالتالي كان هذا أمرًا لا حرج فيه ولا يلزمه شيء من تلك اللوازم، لا يلزم من سؤال المخلوق بالله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ أن يكون الله سائلًا أو تكون منزلته دون منزلة المسؤول، إلى غير ذلك ممن ذكرناه في مسألة الشفاعة، فافترق الأمران، والله تعالى أعلم.

قوله: (فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «سُبْحَانَ اللهِ!، سُبْحَانَ اللهِ!»)[(١٠١٨)]؛ قال النبي ﷺ حينها «سُبْحَانَ اللهِ، سُبْحَانَ اللهِ»، سبحان: اسم مصدر منصوبٌ على أنه مفعولٌ مطلق، والعرب ما نطقت بهذه الكلمة غالبًا إلا منصوبةً مضافة، والتقدير: أسبِّح الله سبحانًا، ما ذُكر المصدر هنا، المصدر هنا التسبيح، لكن ذُكر اسم المصدر، والمعنى: أنزّه الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ.

والنبي ﷺ دلت أحاديث كثيرة أنه إذا كان استعظم شيئا -سواء كان محبوبًا أو مبغوضًا- سبَّح أو كبَّر. تذكرون ما مر بنا من الأبواب الأولى من هذا الكتاب من الدليل على هذا الأمر؛ حديث ذات أنواط فإنَّ النبي ﷺ في رواية الترمذي قال: «سبحان الله، قلتم والذي نفسي بيده كما قال بنو إسرائيل لموسى» إلى آخره، وفي رواية الإمام أحمد قال: «الله أكبر»، وهذا له شواهد كثيرة في «الصحيحين» وغيرهما.

لما انفلت أبو هريرة عن النبي ﷺ لأنه لم يكن متوضئًا، ولم يكن يريد أن يسلِّم على النبي ﷺ وهو على غير وضوء، ثم توضأ، ثم أتى النبي ﷺ فأخبره، فقال النبي ﷺ: «سبحان الله! إن المؤمن لا ينجس».

كذلك مثلا ما ثبت في الصحيحين من إخبار النبي ﷺ عن أحد الأشخاص ممن كان يقاتل مع النبي ﷺ أخبره أنه من أهل النار، ثم لما نظروا في حاله بعد أن جُرِح وإذا به قد قتل نفسه، فلما أُخبر النبي ﷺ بذلك قال: «الله أكبر» هذا أمر قد

(١٠١٨) فغضب النبي ﷺ ، وعُرِفَ هذا في وجهه، وأدرك هذا أصحابه ﷺ، وسبَّح وكرَّر التسبيح قال: «سُبْحَانَ اللهِ!، سُبْحَانَ اللهِ!».

استعظمه وهو أمر محبوب إلى النبي ﷺ؛ لأن فيه الدلالة على صدقه، «الله أكبر، أشهد أني عبد الله ورسوله»، والشواهد على كل حال كثيرة.

إذًا مما يشرع للمسلم إذا استعظم شيئًا أن يسبح أو يكبر، سواء كان هذا الأمر الذي استعظمه أمرًا محبوبًا إليه، أو كان أمرا مبغوضًا إليه.

قوله (فَمَا زَالَ يُسَبِّحُ حَتَّى عُرِفَ ذَٰلِكَ فِي وُجُوهِ أَصْحَابِهِ)؛ انظر إلى حب أصحاب محمدٍ محمدًا ﷺ ورَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، كيف كانوا يحبونه، وكيف كانوا يجلونه؟، وكيف كانوا يتأثرون بما يتأثر به عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ. النبي ﷺ تأثر واستعظم مما كان يقوله هذا الأعرابي، فكان التأثير باديًا لائحًا على وجوه أصحاب النبي ﷺ، وهذا دليلٌ على عظيم محبتهم وإجلالهم له عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

في الصحيحين من هجرة النبي ﷺ لما أتى أبو بكر رضي الله عنه إلى النبي ﷺ باللبن الذي وضع فيه شيئًا من الماء، قدّمه إلى النبي ﷺ وقال: اشرب يا رسول الله، لاحظ هذه النكتة في كلام أبي بكر رضي الله عنه قال: «فشرب ﷺ حتى رضيت»؛ النبي ﷺ يشرب وأبو بكر يرضى! هكذا تكون المحبة لرسول الله ﷺ.

الشاهد أن النبي ﷺ تأثر من هذه المقالة، حتى إن أصحابه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ تأثروا من تأثره ﷺ ورَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ.

قوله: (ثُمَّ قَالَ: «وَيْحَكَ أَتَدْرِي مَا اللهُ؟»)؛ كلمة «ويح» كلمة توجع، وتتضمن أحيانا معنى التحذير، فكأنه وقع في خطأ يستحق أن يتوجع له المتوجع. قال: «**ويحك**»؛ وهذا يدلك على أن المقالة الفاسدة وأن الخطأ يرد

من حيث كونه خطئا بغضِّ النظر عن قصد القائل أو الفاعل، فنحن لا نشك أن قصد هذا الأعرابي كان قصدًا حسنًا، ومع ذلك فإن النبي ﷺ لم يمنعه ذلك من أن يرد هذه المقالة الخاطئة.

قوله: (**إِنَّ شَأْنَ اللهِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ، إِنَّهُ لَا يُسْتَشْفَعُ بِاللهِ عَلَى أَحَدٍ**»)؛ في رواية أبي داود «من خلقه» ، فيها هذه الزيادة: «لا يستشفع بالله على أحد من خلقه»، والسبب في ذلك أن هذا يتنافى وتعظيم الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ [(١٠١٩)].

فالفائدة التي نستفيدها من هذا الحديث: وجوب تعظيم الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، ووجوب ترك كل لفظٍ يتنافى وهذا التعظيم، أو يهضم جناب ربوبية الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ. الموحِّد الذي يروم تحقيق توحيده -كما كررنا مرارا، وكما نصَحَنا وبين لنا المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ - يجب عليه أن يراعي هذا المقام، وهو تعظيم الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ومراعاة كلامه، فلا يقع في شيء يتنافى وكمال التوحيد الواجب، ومن ذلك أنه يجعل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ شفيعا له عند أحد من المخلوقين، والعلة في ذلك قد علِمتها.

(١٠١٩)**وأُنبِّهُ هنا إلى الفرق بين أنْ يُستشفعَ بالله سبحانه على خلقه، وبَين أن يُسأل الخلق بالله جلَّ وعلا**؛ فإنَّ السؤال بالله -كما مرَّ معنا- ليس فيه بَأسٌ إذا كان المقام يُناسب ذلك؛ وذلك أنَّ السؤال بالله يقتضي أنَّ الله حقًّا عظيمًا على هذا المسؤول، ولِذا طلب به وسأل به جلَّ وعلا. ولم يكن في هذا ما في الاستشفاع بالله على الخلق، فإن الشفاعة -كما ذكرتُ لك-تقتضي غالبًا أن يكون المشفوع عنده أرفع درجة من الشافع، الشفاعة تقتضي نوعًا من الخضوع للمشفوع عنده، وهذا لا يَليقُ بالله جلَّ وعلا، فشأْن الله أعظم من ذلك.

وتتمة الحديث عند أبي داود هي أن النبي ﷺ قال: «**ويحك!، إن شأن الله أعظم، إن عرشه فوق سماواته هكذا -وأشار بأصابعه عليه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ على هيئة القبة**»؛ يعني أن العرش مقبب، هذه هيئته وهذا ما دل عليه أدلة أخرى في الصحيحين وغيرهما. قال: «**إن عرشه فوق سماواته هكذا، وقال بيده هكذا كهيئة القبة، وإنه ليئط به أطيط الرحْل بالراكب**».

وذكر أبو داود رواية أخرى عن محمد بن بشار أنه قال في حديثه: «**والله فوق عرشه، والعرش فوق سماواته**»، وهذا القدر أيضا مما تواترت به الأدلة من الكتاب والسنة، أن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فوق خلقه مستوٍ على عرشه، وهذا المعنى قد دلت عليه أنواع من الدلائل في أدلة لا تكاد أن تُحصى إلا بصعوبةٍ بالغة.

يا قومنا والله إن لقولنا ... ألفًا يدل عليه بل ألفان
عقلًا ونقلًا مع صريح الفطرة ... الأولى وذوق حلاوة القرآن
كلٌّ يدل بأنه سبحانه ... فوق السماء مباينُ الأكوانِ
أترون أنّا تاركو كله ... لجعاجع التعطيل والهذيانِ



قال المصنف رحمه الله:

٦٦-بَابُ
مَا جَاءَ فِي حِمَايَةَ الْمُصْطَفَى ﷺ حِمَى التَّوْحِيدِ، وَسَدِّهِ طُرُقَ الشِّرْكِ

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الشِّخِّيرِ رضي الله عنه قَالَ: انْطَلَقْتُ فِي وَفْدِ بَنِي عَامِرٍ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقُلْنَا: أَنْتَ سَيِّدُنَا، فَقَالَ: «السَّيِّدُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى»، قُلْنَا: وَأَفْضَلُنَا فَضْلًا وَأَعْظَمُنَا طَوْلًا، فَقَالَ: «قُولُوا بِقَوْلِكُمْ، أَوْ بَعْضِ قَوْلِكُمْ، وَلَا يَسْتَجْرِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ.

وَعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه أَنَّ نَاسًا قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، يَا خَيْرَنَا، وَابْنَ خَيْرِنَا، وَسَيِّدَنَا، وَابْنَ سَيِّدِنَا، فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ؛ قُولُوا بِقَوْلِكُمْ، وَلَا يَسْتَهْوِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ، أَنَا مُحَمَّدٌ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، مَا أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي الَّتِي أَنْزَلَنِيَ اللهُ عز وجل» رَوَاهُ النَّسَائِيُّ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ.



قال الشارح وفقه الله:

هذا الباب الذي عنوَن له المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: (بَابُ مَا جَاءَ فِي حِمَايَةَ الْمُصْطَفَى ﷺ حِمَى التَّوْحِيدِ، وَسَدِّهِ طُرُقَ الشِّرْكِ)، يذكِّرُنا بالباب الذي عقده المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في وسط الكتاب تقريبًا؛ في الباب الحادي والعشرين، فإنَّه أورد بابًا شبيهًا بهذا الباب، فقال: (باب مَا جَاءَ فِي حِمَايَةِ الْمُصْطَفَى ﷺ جَنَابَ التَّوْحِيدِ، وَسَدِّهِ كُلَّ طَرِيقٍ يُوصِلُ إِلَى الشِّرْكِ)، وأورد -كما تذكرون- في ذاك الباب آيةً وحديثين؛ أورد قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ﴾[التوبة:

١٢٨]، كما أورد حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تجعلوا بيوتكم قبورا، ولا تجعلوا قبري عيدا»، والحديث الثاني: حديث علي بن الحسين عن أبيه عن جدِّه رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ أن النبي ﷺ قال: «لا تتخذوا قبري عيدا» الحديث.

فهل هذا من المؤلف رَحِمَهُٱللَّهُ تأكيدٌ على هذا المعنى الذي يروم التنبيه عليه[١٠٢٠]؛ وهو ضرورة العناية بسدِّ الذريعة إلى كلِّ ما يؤدي إلى القدح في كمال التوحيد الواجب، لاسيما والمقامُ مقامٌ عظيم، والخطبُ فيه جلل[١٠٢١]؟.

أو أنَّه أراد رَحِمَهُٱللَّهُ التنبيه في الباب السابق على الحذر من ذرائع الشرك الفعلية ورأسها التعلق بالقبور، وأراد في هذا الباب التنبيه على الحذر من ذرائع الشرك القولية[١٠٢٢] ورأسها الغلو في الصالحين، وأعظم الصالحين وأصلحهم هو رسول الله ﷺ ؟.

الأمر يحتمل هذا ويحتمل ذاك، وإن كان الثاني لعله أقرب. مهما يكن من شيء فلا شك أنَّ قاعدة سد الذريعة إلى الشر وسد أبواب الفساد قاعدةٌ مقررة في الشريعة دلَّ عليها أدلةٌ كثيرة من الكتاب والسنة وآثار الصحابة، وأحيلك في

(١٠٢٠) لأنَّ المقام يقتضي مَزيد التأكيد والتكرار لكي يترسَّخ هذا المعنى في نفوس قارئ هذا الكتاب.

(١٠٢١) والخطر في الغفْلة عنه كبير.

(١٠٢٢) وأهمُّها وأعظمها الألفاظ التي تتعلق بمدح المُعظَّمين وعلى رأسهم نبينا محمد ﷺ.

معرفة قدر هذا الباب إلى ما دوَّن ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «إعلام الموقعين»، حيث ذكر ما لا مزيد عليه في تقعيد هذه القاعدة والاستدلال عليها؛ حيث أورد من أدلة الشرع التي تدل على هذه القاعدة «قاعدة سد الذرائع» تسعةً وتسعين دليلاً، والمتأمل في موارد الشريعة يدرك أن الأدلة أكثر من ذلك.

وإذا تأملتَ هذا الباب -أعني ما جاء في الشريعة من سد الذريعة إلى الشر- وجدتَ أن الشريعة لاحظت أنه كلَّما كان المحرم أعظم كانت الذريعة المسدودة للوصول إلى هذا الشر أكثر، كلما كان المحرم أعظم وأشنع في الشريعة وجدتَ أن الشريعة تعتني بسد الذريعة أكثر.

ولذا انظر إلى فاحشة الزنا -عافاني الله وإياك منها- تجد أن الشريعة أغلقت منافذها من طرقٍ شتى؛ تجد الشريعة نهت عن سفر المرأة بلا محرم، وعن الخلوة بالنساء، وعن الدخول على النساء، وقال النبي ﷺ: «الحمو الموت»، نهت الشريعة المرأة عن إبداء زينتها، بل أن تضرب برجلها ليُعلم ما تخفيه من زينتها، في أدلةٍ كثيرة ومباحث شتى تتعلق بهذا الباب نظرًا إلى أن هذه الفاحشة فاحشةٌ كبرى، إذًا سدُّ الذريعة الموصلة إليها له عنايةٌ أكبر في الشريعة.

خذ مثلاً ما يتعلق بوقوع الشحناء والعداوة والإِحَن بين المسلمين؛ كيف تجد أن الشريعة سدَّت أبواب هذا الأمر من طرقٍ شتى؛ نهى النبي ﷺ عن أن يبيع الرجل على بيع أخيه، أو أن يخطب على خطبة أخيه في أمورٍ شتى، حتى إن كثيرًا من البيوع والمعاملات المالية تجد أن الحكمة إذا تأملت راجعةٌ فيها إلى ما

يتعلق بسد الذريعة إلى وقوع العداوة بين المؤمنين، حتى إن الشريعة اعتنت بأدق المسائل، حتى إنها نهت عن أن يتناجى اثنان دون ثالث.

إذًا؛ إذا تأملت هذا في مسائل الشريعة الـمُنْكَرة المحرمة التي أدت الشريعة بالتحذير منها في هذه الأبواب وغيرها، في مسائل الربا، في غيرها من المسائل، وجدت أنه كلما كان المنكر أعظم كانت عناية الشريعة بسد الذريعة إليه أكبر(١٠٢٣).

وإذا كان ذلك كذلك في تلك الأبواب، فكيف سيكون الحال في شأن الشرك الذي هو أعظم ذنبٍ على الإطلاق!! أعظم ذنبٍ على الإطلاق أن يُشرك مع الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ غيره. لاشك ولا ريب أن الشريعة اعتنت بسد كل المنافذ التي توصل إلى الشرك، سواءً كان أكبر أو كان أصغر.

ولذلك مر معنا في الأبواب التي درسناها- ونحن نشارف على ختم هذا الكتاب، أسأل الله عَزَّ وَجَلَّ أن ييسر إتمامه بعونه وتوفيقه- تجد أنه مرت بنا مسائل شتى فيها تنبيه الشريعة على أدنى ما يخدش في توحيد المسلم، على إغلاق كل بابٍ يوصل إلى الشر ويوصل إلى الشرك -عافاني الله وإياكم من ذلك-.

(١٠٢٣)كلما كان المحرم أشنع وأفظع كلما كان الاحتياط أكثر، وكانت قاعدة سدّ الذرائع في هذا المحرم أجلَى وأوضح.

والمؤلف -عليه رحمة الله وجزاه الله عنا خيرًا- اعتنى بذلك كثيرًا في هذا الباب[١٠٢٤]، وهذا لائحٌ لك إذا تأملته بابًا بابًا؛ تجده كان ناصحًا، كان مُجَرِّدًا للشفقة والحرص إلى إخوانه المؤمنين، منبِّهًا على كل ما يخدش أو يقدح في توحيد العبد المسلم، سواء رجع هذا إلى فعلٍ أو رجع هذا إلى قول.

وهذا الباب -أعني حماية جناب التوحيد وسد الذريعة إليه- بابٌ قد أضحى مع الأسف الشديد في العصور المتأخرة غريبًا مع الأسف الشديد، تجدُ أنَّ السهام تُرَيَّشُ عليه كثيرًا من أهل الأهواء والبدع، لأنَّهم يعلمون أنهم إذا نجحوا في إسقاط هذه الحماية وهذا الاحتياط الذي راعته الشريعة في باب الشرك فإنه سيسهُل إدخال البدع والمنكرات والشركيات على المسلمين.

إذًا على أهل التوحيد أن يجرِّدوا العناية بهذا الموضوع العظيم؛ وهو سد الذرائع إلى الشرك، وقطع أسباب الشر والفساد والفتنة، أن يأخذوا بما جاءت الشريعة بالدِلالة عليه، أن يأتوا بما سار على هذا السلف الصالح.

في «البدع» لابن وضاح لما ذكر أن عمر ﵁ قطع الشجرة التي بويع تحتها رسول الله ﷺ وكان الناس يتنابونها فيصلُّون عندها قطعها ﵁، وجاء في هذا الكتاب أنه خاف عليهم الفتنة.

(١٠٢٤) وما هذه الأبواب المتعاقبة التي عقدها المؤلّف رَحِمَهُ اللَّهُ إلا تنبيهٌ على هذا الأمر العظيم، ولذلك كان هذا الكتاب أعظمُ الكتب المؤلَّفة بعد كتاب الله جلَّ وعلا وسُنَّة نبيه ﷺ في بيان هذه الذرائع القولية والفعلية.

لاحظ -يا رعاك الله- أنَّ هذه القصة وقعت في الصدر الأول، من الذي كان ينتاب هذا المكان؟ كان أولئك التابعين، أولئك الذين يتربون على أيدي أصحاب النبي ﷺ، ولم تدخل بعد على المسلمين مداخل الشرك، لم تُفتح على الناس بعد أبواب الضلالات والبدع التي عَمَّت وطمَّت القرون المتأخرة، ومع ذلك كان الحزم وكان الاحتياط وكانت الجدية في العناية بأمر التوحيد، ولو وقع هذا اليوم من أحدٍ من الناس لقامت عليه الدنيا ولم تقعد! لكن انظر إلى ما كان عليه السلف الصالح ورأسهم أصحاب رسول الله ﷺ من فقهٍ عميق دلت عليه الشريعة في أدلةٍ لا تكاد تحصى. التوحيد هو المصلحةُ الكبرى التي ينبغي أن تُراعى، كلُّ مصلحةٍ يتوهمها مُتوهمٌ فإنها مُطَّرِحة أمام مصلحة صفاء التوحيد ونقاء الإيمان.

إذًا هذا موضوعٌ ذو شجون، على طلبة العلم أن يكونوا معتنين به غاية العناية؛ لأنه من الأمر المهم الذي قلَّ الاهتمام به مع الأسف الشديد في هذه العصور المتأخرة، والله المستعان.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الشِّخِّيرِ رضي الله عنه قَالَ: انْطَلَقْتُ فِي وَفْدِ بَنِي عَامِرٍ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقُلْنَا: (أَنْتَ سَيِّدُنَا)، فَقَالَ: «السَّيِّدُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى»، قُلْنَا: (وَأَفْضَلُنَا فَضْلًا، وَأَعْظَمُنَا طَوْلًا)، فَقَالَ: «قُولُوا بِقَوْلِكُمْ، أَوْ بَعْضِ قَوْلِكُمْ، وَلَا يَسْتَجْرِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ).

هذا الحديث كما ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أخرجه أبو داود والنسائي وأحمد والبخاري في «الأدب المفرد»، وغيرهم من أهل العلم، وهو حديثٌ ثابتٌ لاشك فيه، وقد قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «الفتح»: (إنَّ رجاله ثقات، وصحَّحه غير واحد).

في هذا الحديث يحكي لنا عبد الله بن الشخير العامري رضي الله عنه، وهو من بني عامر بن صعصعة تلك القبيلة العدنانية المشهورة، وعبد الله رضي الله عنه من مُسلِمة الفتح، وهو والد مُطَرِّف بن عبد الله بن الشخير التابعي المشهور، وهو الذي يروي هذا الحديث عن أبيه.

فيه أنَّه ذكر أن قومه الذين هم بنو عامر أتوا رسول الله ﷺ، والظاهر والله أعلم أن هذا كان عام الوفود في السنة التاسعة من الهجرة، أتوا رسول الله ﷺ فقام متكلمهم يتكلم بين يدي رسول الله ﷺ[١٠٢٥]، فقال: (**أنت سيدنا**)، وجاء في رواية أخرى أنه قال: (**أنت سيد قريش**)، عندها قال النبي ﷺ: «**السيد الله**».

مسألة «السيد» وحكم إطلاق هذه الكلمة على المخلوق مرت بنا سابقًا وتكلمنا عنها بالتفصيل في (بابٌ لا يقول عبدي وأمتي)؛ فيه قوله ﷺ: «وليقل سيدي ومولاي»، تكلمنا عن هذا الموضوع ولا حاجة إلى إعادة التفصيل فيه، وقلنا: **إن الصحيح جواز إطلاق هذا اللفظ على المخلوق بشرطين:**

الأول: أمانُ المفسدة.

والشرط الثاني: أن يكون من أُطلق عليه هذا اللفظ مُستحقًا لذلك.

(١٠٢٥)مادحًا النبي ﷺ.

وارجع إلى تفصيل هذا الموضوع في ذلك الباب.

المقصود أن النبي ﷺ لما قالوا له: (أنت سيدنا)[١٠٢٦]، قال: «السيد الله»؛ هذه الكلمة من النبي ﷺ مرجعها إلى ما يأتي:

❖ **أولاً**: إلى تواضع النبي ﷺ ؛ حيث إنه كان يكره أن يواجه بالمدح، وجاء في السنة أدلةٌ شتى في كراهة مواجهة الإنسان بالمدح[١٠٢٧].

❖ **ثانيًا**: كان هذا منه ﷺ أدبًا مع ربه جَلَّوَعَلَا[١٠٢٨]، يعني كأنه يقول لهم: اجعلوا هذا المدح لمن هو أولى به وهو الله تَبَارَكَوَتَعَالَى، فالسيادة المطلقة إنما هي لله جَلَّوَعَلَا .

(١٠٢٦)النبي ﷺ لا شكَّ أنَّه سيّد المسلمين، وسُؤْدُدُه ﷺ إنما كان بنبوّته ورسالته عليه الصلاة والسلام، ولِمَا أوجب الله من طاعته والاهتداء بهديه ﷺ، ولذا كان سُؤْدُدُه وكانت سيادته أعظم من سيادة غيره عليه الصلاة والسلام من الناس؛ لأن سيادة الناس إنما تكون باجتماع الخصال المحمودة فيهم، ولنبينا ﷺ من ذلك القِدح المُعلَّى، بل له ما لا يجتمع معه أحد فيه من هذه الأُمَّة.

(١٠٢٧) وما ذاك إلا لأن المدح في الوجه سببٌ لإعجاب الممدوح بنفسه، ولا شكَّ أن مَن وقع في نفسه العُجْب فإنه يقع أو قد يقع في مهْلكة، ومقام العبودية الحقة لا يحصل مِمَّن أُعجِب بنفسه ورأى نفسه إنَّما ذلك يكون لأهل الخشوع وأهل الخضوع وأهل الإزْراء عن النَّفس. إنَّما المُوحِّد المُحقِّق من لا يرى نفسه شيئًا، ولا يُعجبُ بنفسه البتَّة، بل لا يزالُ مُشنِّعًا على نفسه، مستشعرًا تقصيره في حقِّ الله تبارك وتعالى، معتقدًا أنَّه ليس منه شيء ولا إليه شيء، ولا يَرى إلا أفضال الله تَتْرى عليه؛ فمِن هنا كان منه ﷺ التحذير من المدح في الوجه، والله ﷻ أعلم.

❖ **والأمر الثالث**: أراد النبي ﷺ التنبيه والتحذير وسدَّ أبواب الشر؛ وذلك أنَّ الغلو فيه ﷺ وفي الصالحين لاشك أنَّه من أعظم أسباب وقوع الشرك، بل لم تُغيَّر أديان الأنبياء بشيءٍ مثل الغلو في الصالحين، والعام -كما قد علمت- عام الوفود، وفي الحضور كثيرٌ ممن هم حُدثاء عهدٍ بجاهلية، فأراد النبي ﷺ أن يسد أبواب الشر والفتنة، فقطع دابر التعلقِ بالمخلوقين ووقوع الغلو فيهم؛ فوجههم وأرشدهم إلى أن يجعلوا مدحهم وثناءهم هذا إلى من هو أولى بكل مدحٍ وثناء، إلى من لا أحد أحب إليه المدح منه جَلَّوَعَلَا ؛ وهو الله ﷻ.

إذًا لعل هذه الحِكم الثلاثة هي التي لأجلها أرشدهم النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بهذا الإرشاد، فقال لهم: «**السيد الله**».

فقالوا: (**وَأَفْضَلُنَا فَضْلًا، وَأَعْظَمُنَا طَوْلًا**)؛ الطول: هو الغنى، قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾[النساء: ٢٥] يعني الغنى، قال الله جَلَّوَعَلَا في شأن المنافقين: ﴿اسْتَأْذَنَكَ أُوْلُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ﴾[التوبة:٨٦]، ولاشك أن الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ هو ذو الطول، قال جَلَّوَعَلَا: ﴿غَافِرِ

(١٠٢٨)وهذا ملْحظٌ لطيفٌ في أدب النبي ﷺ مع ربه؛ هو سيّد الصحابة بل سيّد الأُمَّة ولا شكَّ عليه الصلاة والسلام، بل سيّد ولد آدم كما أخبر بذلك هو عليه الصلاة والسلام، لكن تعظيمه لربه ﷻ جعله يحوِّل هذا المدح والثناء إلى من هو أوْلى به؛ وهو الله جلَّ وعلا، فالله ﷻ هو السيّد المُطلَق الذي له النُّعوت الجليلة والصفات الجميلة تبارك وتعالى.

الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ﴾[غافر:٣]، فالله جَلَّوَعَلَا له الغنى المطلق وله العظمة التامة تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ.

حينما قال القائل هذا القول في حق النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، قال حينها صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «قُولُوا بِقَوْلِكُمْ، أَوْ بَعْضِ قَوْلِكُمْ، وَلَا يَسْتَجْرِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ»[١٠٢٩]، اختلف الشراح في توجيه هذه الجملة من كلام النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

والذي يظهر والله تعالى أعلم أن هذه الجملة منه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ اشتملت على: إباحةٍ، وإرشادٍ، وتحذير.

➢ **أما الإباحة**: فإنها في قوله ﷺ: «قُولُوا بِقَوْلِكُمْ»، فالظاهر والله تعالى أعلم أن هذا منه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إذنٌ بهذا الذي قالوه؛ فإنه لاشك ولا ريب أنَّ النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أفضلُهم بل أفضلُ الناس على الإطلاق عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، وهذا أمرٌ لاشك فيه ولا ريب، ولم ينكرِ النبي ﷺ إنكارًا تامًا هذا القول، وتعلمون أنه كان هديه عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ أنه كان يردُّ الخطأ ولا يسمح به، ومرَّ بين يدينا قريبًا رده صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ على من قال: (فإنا نستشفع بالله عليك)، مر بنا أيضًا رده صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قول من قال: (ما شاء الله وشئت)، بعبارة واضحة قال: «أجعلتني لله ندًا». إذًا كان هذا منه عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ إذنًا بمدحه والثناء عليه بما هو حق،

(١٠٢٩)جاء في بعض الروايات: «لا يسْتهوينَّكُمُ الشيطان».

ولاشك أن هذا الذي ذكروه حقٌ لاشك فيه(١٠٣٠)؛ فأفضلية النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ومنزلته العالية أمرٌ لا يشكُ فيه مسلم.

➢ أما الإرشاد: فكان منه صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في قوله « أَوْ بَعْضِ قَوْلِكُمْ»(١٠٣١)، يعني كأنه يقول لهم: لو أنكم تخففتم وأنقصتم من هذا المدح لكان هذا أولى؛ أراد النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بهذا أن يرشدهم إلى أن ترك المدح في الوجه أوْلى بالمسلم، وذلك لأنه قد يترتب على مواجهة الممدوح بالمدح مفاسد، وهذا منه صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ توجيهٌ وتربيةٌ للأمة بأن لا تُواجه الإنسان بالمدح، لما يُدخله عليه ذلك من العُجب، ولاشك أن العُجب يتنافى مع مراتب التوحيد العالية، المؤمن الموحد الذي حقق توحيده لا يرى نفسه بعين الإعجاب، إنما يرى نفسه بعين الإزراء، لا يرى إلا فضل الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ عليه تترا، أما نفسه فإنه لا يراها شيئًا، فليس منها شيء وليس إليها شيء.

➢ أما التحذير: فجاء في قوله عَلَيْهِالصَّلَاةُوَالسَّلَامُ: « وَلَا يَسْتَجْرِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ»؛ معنى قوله: «لا يستجرينكم»: يعني لا يجعلنكم جرِيًّا له، الجريُّ في اللغة: يعني الوكيل أو الرسول. فالمراد أنه لا يتخذكم الشيطان وكيلاً عنه فتتكلمون بالباطل على ألسنتكم، الباطل الذي يريده الشيطان يجريه على ألسنتكم فتنوبون منابه وتقومون مقامه. إذًا في هذا تحذيرٌ من الوقوع في حبائل الشيطان،

(١٠٣٠)فدلَّ هذا على أن قولهم لم يكن منكرًا، والذي يظهر-والله أعلم-أن قوله: (قُولُوا بِقَوْلِكُمْ) يعني: لا بأس بقولهم.

(١٠٣١) وهذا إرشادٌ منه ﷺ إلى الاقتصاد في المدح وعدم المبالغة فيه.

ومنها ومن أعظم أسباب وقوع الشر الذي يحبه الشيطان الغلو في الصالحين، حذارِ من أن تبالغوا في المدح والثناء حتى تقعوا في الغلو المفضي إلى الشر الوبيل، وكما ذكرت لك فإن الغلو في الصالحين أول أسباب وقوع الشرك وأعظم أسباب وقوع الشرك[١٠٣٢].

وأنت إذا تأملت -يا رعاك الله- هذه الجملة من النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وجدت أنه حقًا عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ كان رحيمًا، كان شفيقًا، كان حريصًا علينا عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، هذا منه غاية الرحمة وغاية الشفقة أن حذَّر أمته من الوقوع في هذا السبب المردي الذي يوقع في أعظم جريمة على الإطلاق وهو الشرك بالله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ.

كره منهم النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أن يبالغوا في مدحه، حتى في مثل هذه الكلمات مع أنَّهم ما قالوا إلا حقًا، ومع ذلك النبي ﷺ ينبههم ويحذرهم أن يبالغوا، ومر معنا فيما مضى قوله عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «لا تطروني كما أطرت المسيح ابن مريم، إنما أنا عبدٌ فقولوا: عبد الله ورسوله»[١٠٣٣].

(١٠٣٢) وما وقع كثيرٌ من الناس في الشرك إلا من عدم ملاحَظتهم لهذا الأمر، فالمَمَادح -لا سيَّما المَمَادح النبوية شعرًا كانت أو نثرًا- قد اشتملت على شيء كثير وشيء عظيم من أنواع الغُلو الذي قد يوصل إلى الشرك الأكبر عياذاً بالله، وقد مرَّ معنا في الدروس الفائتة طرفٌ ونماذجٌ لهذه المبالغات.

(١٠٣٣) ومن ذلك قال عليه الصلاة والسلام كما عند مسلم في «الصحيح» لَمَّا قِيلَ له: (يا خير البرية) قال: «ذاك إبراهيم»؛ ولا شكَّ ولا ريب أن النبي ﷺ هو أفضل وهو خير

كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حريصًا على سدِّ أبواب الشر، أن تقع فتنةٌ بتعظيمه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ولو بأدق ما يكون، في الترمذي من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «ما كان أحدٌ أحب إلينا من رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان إذا قدِم لم نقم إليه لما نعلم من كراهيته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لذلك»؛ حتى مجرد القيام لمقلاته والسلام عليه كان النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يكره ذلك منهم، فما كانوا يفعلونه.

فكيف لو سمع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما يقع من غلوٍ عظيم فيه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في كثيرٍ من كلام الغلاة المنثور والمنظوم!! إذا كان النبي ﷺ يقول لهم: «**قولوا بقولكم أو بعض قولكم، ولا يستجرينكم الشيطان**»، وهم ما زادوا على أن يقولوا: (**يا خيرنا وابن خيرنا**)، كما سيأتي معنا، أو أنهم قالوا: (**أنت أفضلنا فضلاً وأعظمنا طولاً**).

الناس، وأفضل من إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، هو سيّد ولد آدم ولا فخْر، لكن هذا القول إنما قاله ﷺ تواضعًا منه وبُعدًا منه عن الرغبة في المدح.

ولاحِظ في هذا الحديث أن قوله عليه الصلاة والسلام -أعني في قوله: «ذاك إبراهيم»- إنَّما انصرف إلى اللّفظ لا إلى المعنى على التحقيق، بمعنى أن النبي عليه الصلاة والسلام لم يكن ليخبر بخلاف الواقع ولو كان على سبيل التواضع، لكن هذا إنما كان من حيث اللّفظ، يعني كأنه يُرشد أصحابه إلى أن يوجِّهوا اللّفظ إلى أبيه إبراهيم، تواضعًا منه ﷺ وعدم رغبةٍ منه على أن يفخر على خليل الرحمن أبيه إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وإلا فمكانة النبي ﷺ أعظم، فاجعلوا هذا اللّفظ واجعلوا هذا الوصف واجعلوا هذا المدح لإبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولا شكَّ أن إبراهيم خيرُ البرية بعد محمد ﷺ.

كيف لو سمع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذاك القائل الذي يقول:

لو ناسبت قدره آياته عظما ... أحيا اسمه حين يدعى دارس الرمم

أو قوله:

فإن من جودك الدنيا وضرتها ... ومن علومك علم اللوح والقلم

أو قوله في همزيته:

هذه عِلتي وأنت طبيبي ... ليس يخفى عليك في القلب داء

كيف لو سمع ذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من هؤلاء الغلاة بل هؤلاء الجفاة الذين جفوا شريعة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسنته واطَّرحوها ظهريا!! هؤلاء لا يرضيهم أن يقول الإنسان عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إنه عبد الله ورسوله كما سيأتي معنا، مع أن هذا مما حث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليه كما سيأتي بيانه، لا يرضيهم إلا أن يبالغ الإنسان في مدح النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى يرفعه إلى مرتبة الألوهية، بل إلى مرتبة الربوبية.

إذًا هذا توجيهٌ، وهذا نصحٌ، وهذا تنبيهٌ، وهذا سدٌّ من النبي ﷺ لذريعة الشرك، وحمايةٌ منه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لحمى التوحيد، والله تعالى أعلم.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (**وَعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه أَنَّ نَاسًا قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، يَا خَيْرَنَا، وَابْنَ خَيْرِنَا، وَسَيِّدَنَا، وَابْنَ سَيِّدِنَا، فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا بِقَوْلِكُمْ، وَلَا يَسْتَهْوِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ، أَنَا مُحَمَّدٌ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، مَا أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي الَّتِي أَنْزَلَنِي اللهُ عَزَّ وَجَلَّ» رَوَاهُ النَّسَائِيُّ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ**).

حتى حديث عبد الله بن الشخير جاءت فيه رواية عند أحمد «**ولا يستهوينكم**»، فهي موافقة أيضًا لهذه الرواية التي بين أيدينا، التي هي رواية حديث أنسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ. وهذا الحديث خرجه النسائي في الكبرى والإمام أحمد وغيرهما من أهل العلم، وهو كما ذكر حديثٌ جيد، بل قال ابن عبد الهادي في «الصارم» إنه على شرط مسلم.

وهذا الحديث الذي بين أيدينا قريبٌ في المعنى من الحديث السابق؛ وفيه: أن أناسًا أتوا إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: (**يا خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا**)؛ لا شك ولا ريب أن النبي ﷺ خيرهم بل خير النَّاس على الإطلاق، فهو خير الناس وصفًا وحالاً ونسبًا ﷺ(١٠٣٤)؛ في صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشًا من كنانة، واصطفى من قريشٌ بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»؛ فهذا مما لا شك فيه ولا ريب، وهو سيدهم وسيد الناس عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، وهو الذي قال هذا عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، فهو سيد ولد أدم ولا فخر، هذا قاله ﷺ.

وكذلك قومه وأهله ونسبه خير نسب، وقبيلته لا شك أنها خير القبائل عند المسلمين سوى من شذَّ من شُذاذ أهل البدع، وإلا فأهل العلم على أن أفضل القبائل قبيلة النبي ﷺ وهي قبيلة قريش. فلاشك أن النبي ﷺ ابنٌ لخير الناس من جهة النسب، من جهة النسب نسبه ﷺ وآباءه وأجداده وقبيلته لاشك أنها خير

(١٠٣٤) ولكنه مع ذلك أرشدهم إلى عدم المغالاة؛ لأنَّ مثل هذه المَمَادح ومثل هذه الألفاظ قد توصل إلى ما لا يجوز اعتقاده فيه ﷺ.

قبيلة وأحسن قبيلة، والأمر في ذلك كما جاء في حديث واثله الذي ذكرته لك قبل قليل: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل» إلى آخر كلامه عَلَيْهِ‌ٱلصَّلَاةُ‌وَٱلسَّلَامُ.

وما أحسن ما قال أبو طالب في هذا المعنى:

إذا اجْتَمَعتْ يومـًا قُريشٌ لِمفْخرٍ	فعبـدُ مَنـافٍ سِـرُّها وصَـمِيمُها
وإنْ حُصِّلَتْ أشرافُ عبدِ مَنافِها	فَفـي هاشـمٍ أَشْـرافُها وقَـديمُها
وإنْ فَخـرتْ يومـًا فـإنَّ محمَّـدًا	هوَ المُصْطفى مَن سِرُّها وكريمها

المقصود أن النبي ﷺ لما سمع هذا الكلام وهو حق من حيث هو -هذا كلامٌ حقٌ بلا شك- ومع ذلك النبي ﷺ، ومع ذلك الرؤوف الرحيم بأمته عَلَيْهِ‌ٱلصَّلَاةُ‌وَٱلسَّلَامُ نبَّههم وحذَّرهم، فقال: «**يا أيها الناس قولوا بقولكم، ولا يستهوينكم الشيطان**»؛ لا يوقعنكم الشيطان في مهاويه وفي حبائله.

«**إنما أنا محمدٌ عبد الله ورسوله**»(١٠٣٥)؛ هذان الوصفان للنبي ﷺ أفضل ما وُصف به عَلَيْهِ‌ٱلصَّلَاةُ‌وَٱلسَّلَامُ، بل هما أفضل درجةً يصلها بشر؛ أن تحقق فيه العبودية الخاصة لله تَبَارَكَ‌وَتَعَالَىٰ، وأن يكون رسولاً لله جَلَّ‌وَعَلَا، وهكذا كان النبي ﷺ أفضل عبدٍ لله، وأفضل رسولٌ لله عَلَيْهِ‌ٱلصَّلَاةُ‌وَٱلسَّلَامُ.

وهذا الوصف منه عَلَيْهِ‌ٱلصَّلَاةُ‌وَٱلسَّلَامُ وهو الذي أرشد أمته إليه أن يقولوا:

«عبد الله ورسوله» فيه فائدتان:

(١٠٣٥)سمَّى نفسه ﷺ ثمَّ وصفها بأعظم وصفين يتصف بهما إنسان، ألَا وهما: وصف العبودية الخاصة، ووصف الرسالة.

❑ **الأولى**: أنه كما كان هذا الوصف أفضل وصفٍ وُصف به النبي ﷺ، فكذلك هو أسلم وصفٍ وصف به النبي ﷺ؛ وذلك أنك إذا تأملتَ وجدت أن هذا الوصف الذي فيه المدح العظيم له عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لا ترتب عليه مفسدة ولا يفضي إلى شرٍ وفسادٍ على الإطلاق، بخلاف ما قد يكون من غيره من المدائح ومن الأوصاف(١٠٣٦)، ولذلك إذا تأملتَ تحقق عندك باليقين أن أصحاب النبي ﷺ أعظم الناس محبةً وإجلالاً له **عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ**، ومع ذلك كيف كانوا يخاطبونه **عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ**؟ تأمل كتب السنة كيف تجد أنهم إذا خاطبوا النبي ﷺ قالوا: (يا رسول الله)، قالوا: (يا نبي الله)، وبيقين نحن نعلم أنهم ما كانوا يتركون الوصف الأفضل والوصف الأحق والأجدر الذي ينبغي أن يوصف به النبي ﷺ(١٠٣٧).

(١٠٣٦) ولذلك في وصْف السيادة قال في الحديث السابق: «إنما السيّد الله»؛ خشي أن يقع في نفوسهم أنَّ السيادة المطلقة تكون له ﷺ، والعام -كما علمتَ- في أغلب الحال إنما هو سَنَة الوفود، وفي الحاضرين كثيرٌ مِمَّن كانوا حديثي عهْدٍ بجاهلية، فكان منه ﷺ ذلك من قبيل سدّ الذريعة إلى الغُلو فيه المُفضِي إلى الشرك بالله تبارك وتعالى. أمَّا الوصف بالعبودية والرسالة فإنه أعظم في المدح وأعظم في الثناء، ولا يُخشى منه محذور يوصل إلى الغُلو والشرك بالله ﷻ بسببه.

(١٠٣٧)وهذا يدلك على ضلال أهل الغُلو والانحراف، فإنك إذا وصْفتَ عبد الله ورسوله محمدًا ﷺ بهذا الوصف لم يقنعوا، ورأوا أنك لم تعطِ النبي ﷺ حقه، وإنما كأنك تُنزِلُ من قدره وقيمته عليه الصلاة والسلام، وهذا من جهْلهم.

❑ **والفائدة الثانية**: أن قوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**عبد الله ورسوله**» فيه ردٌ على طائفتي الضلال: فيه ردٌ على الغلاة، وفيه ردٌ على الجفاة.

-أما قوله: «**عبد الله**»: ففيه ردٌ على الغلاة الذين غلوا في النبي ﷺ فرفعوه إلى درجة الألوهية بل إلى درجة الربوبية، الرد على هؤلاء أن يُقال: إنه عبد الله، فهو عبدٌ لا يُعبد عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

-وأما الجفاة الذين طعنوا في النبي ﷺ ووصفوه بالشعر، ووصفوه بالكذب، ووصفوه بالسحر، وكفروا به ﷺ، فالرد عليهم في قوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**ورسوله**» فهو رسولٌ لا يُكَذَّبُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

ثم نبه النبي ﷺ إلى أنه لا يحب أن يُرفع فوق المنزلة التي أنزله الله ﷻ؛ وذلك لكمال توحيده وكمال أدبه مع الله جَلَّ وَعَلَا. هذا درسٌ للمسلمين، درسٌ لأهل التوحيد والإيمان؛ أن عليهم أن يراعوا مقام الأدب مع الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وأن يحرصوا على التواضع، وأن يتجافوا عن مقام العُجب بالنفس، فإن العُجب -كما ذكرت لك- يتنافى مع كمال التوحيد. الموحد المحقق هو الذي لا يُعجب بنفسه، هو الذي لا يخطئ طريق الذل والعبودية لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

الخلاصة التي نريد أن نصل إليها من هذا الباب: هي أنَّ الشريعة اعتنت وراعت باب سد الذرائع إلى الشرك، وحمَت حمى التوحيد، ومنعَت كل أسباب وقوع القوادح في التوحيد، وأدلة هذا كما ذكرت لك كثيرةٌ لا تكاد تحصى، ولاسيما ما يتعلق بالألفاظ التي تؤدي إلى الوقوع في الغلو، فإن الغلو

مَدْرَجَةٌ إلى وقوع العبد في الشرك، أسأل الله جل وعلا أن يعيذني وإياكم من الشرك كله صغيره وكبيره.



قال المصنف رحمه الله:

٦٧-بَابُ

مَا جَاءَ فِي قَوْلِ اللّهِ تَعَالَى:

﴿وَمَا قَدَرُوا اللّهَّ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّموَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر:٦٧].

عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: جَاءَ حِبْرٌ مِنَ الأَحْبَارِ إِلَى رَسُوْلِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّا نَجِدُ أَنَّ اللهَ يَجْعَلُ السَّمَاوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْأَرَضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْمَاءَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الْخَلْقِ عَلَى إِصْبَعٍ، فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ تَصْدِيقًا لِقَوْلِ الْحِبْرِ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الزمر:٦٧] الآيَةَ.

وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ: «وَالْجِبَالَ وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ، ثُمَّ يَهُزُّهُنَّ فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا اللهُ».

وَفِي رِوَايَةٍ لِلْبُخَارِيِّ: «يَجْعَلُ السَّمَوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْمَاءَ وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الْخَلْقِ عَلَى إِصْبَعٍ» أَخْرَجَاهُ.

وَلِمُسْلِمٍ عَنِ ابْنِ عُمَرَ مَرْفُوعًا: «يَطْوِي اللهُ السَّمَاوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ الْيُمْنَى، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟ ثُمَّ

يَطْوِي الْأَرَضِينَ السَّبْعَ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِشِمَالِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟».

وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: «مَا السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرَضُونَ السَّبْعُ فِي كَفِّ الرَّحْمَنِ؛ إِلَّا كَخَرْدَلَةٍ فِي يَدِ أَحَدِكُمْ».

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنِي يُونُسُ، أَنْبَأَنَا ابْنُ وَهْبٍ، قَالَ: قَالَ ابْنُ زَيْدٍ: حَدَّثَنِي أَبِي قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا السَّمَوَاتُ السَّبْعُ فِي الْكُرْسِيِّ؛ إِلَّا كَدَرَاهِمَ سَبْعَةٍ أُلْقِيَتْ فِي تُرْسٍ».

وَقَالَ: قَالَ أَبُو ذَرٍّ ﷺ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا الْكُرْسِيُّ فِي الْعَرْشِ إِلَّا كَحَلْقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ، أُلْقِيَتْ بَيْنَ ظَهْرَيْ فَلَاةٍ مِنَ الأَرْضِ».

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: «بَيْنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَالَّتِي تَلِيهَا خَمْسُمِائَةِ عَامٍ، وَبَيْنَ كُلِّ سَمَاءٍ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ، وَبَيْنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَالْكُرْسِيِّ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ، وَبَيْنَ الْكُرْسِيِّ وَالْمَاءِ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ، وَالْعَرْشُ فَوْقَ الْمَاءِ، وَاللهُ فَوْقَ الْعَرْشِ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِكُمْ» أَخْرَجَهُ ابْنُ مَهْدِيٍّ عَنْ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ، عَنْ عَاصِمٍ، عَنْ زِرٍّ، عَنْ عَبْدِ اللهِ. وَرَوَاهُ بِنَحْوِهِ الْمَسْعُودِيُّ عَنْ عَاصِمٍ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ، عَنْ عَبْدِ اللهِ؛ قَالَهُ الْحَافِظُ الذَّهَبِيُّ رَحِمَهُ اللهُ. قَالَ: «وَلَهُ طُرُقٌ».

وَعَنِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «هَلْ تَدْرُونَ كَمْ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ؟»، قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «بَيْنَهُمَا مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ، وَبَيْنَ كُلِّ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ، وَكِثَفُ كُلِّ سَمَاءٍ مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ، وَبَيْنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَالْعَرْشِ بَحْرٌ بَيْنَ أَسْفَلِهِ وَأَعْلَاهُ كَمَا بَيْنَ

السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، وَاللهُ تَعَالَى فَوْقَ ذَلِكَ، وَلَيْسَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِ بَنِي آدَمَ». أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ وَغَيْرُهُ.

قال الشارح وفقه الله:

هذا الباب بَوَّب عليه المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بآية الزُمر: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾[الزمر:٦٧]، وقد أحسن ما شاء الله أن يُحسن في اختيارِ هذا التبويب، وجعْلهِ آخر بابٍ من أبواب هذا الكتاب العظيم، حتى إنه صار كالتَّاج على مَفْرقِ هذا الكتاب(١٠٣٨).

(١٠٣٨) فإنَّ القارئ والدارس لهذا الكتاب إذا وصل إلى هذا الباب يكون قد تعلم شيئًا عظيمًا من حق الله تبارك وتعالى عليه، ووجوب الإذْعان وتحقيق العبودية والتألُّه له تبارك وتعالى، فكان هذا الباب كالتاج على ناصيةِ هذا الكتاب، يُذكِّرُ به المؤلّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ القارئ ضرورة أن يكون مستحضرًا هذا الأمر العظيم؛ وهو أنَّ الله ﷻ له الصفات الجليلة والنُّعوت العظيمة، وأنَّه الغني من كل وجه، وأنَّه الكبير، وأنَّه الواسع القدير تبارك وتعالى، وأنَّ كل شيء في قبضة الله وتحت سلطانه وقهره، وأنَّ ناصية العباد جميعًا بيده يصرِّفها كيف يشاء تبارك وتعالى. هذه الخلاصة المستفادَة من هذا الكتاب.

وإذا تحقق من ذلك فإنه سيُشمِّر عن ساعد الجِد في التعبد لله تبارك وتعالى، وفي البُعْد عن الشرك به جلَّ وعلا في دقيق الأمر وجليِّه. **كما أنَّ في ذلك فائدة أخرى**؛ وهي أنَّه بعد أن تبيَّن حقيقة التوحيد وقوادحه ونواقضه جاء بما يؤكِّد ما مضى من الدليل البيّن والبرهان الواضح على وجوب توحيد الله جلَّ وعلا، وذلك أنَّ ثبوت الصفات العظيمة الجليلة لله تبارك وتعالى من أعظم الدلائل والبراهين على وجوب توحيده ﷻ في العبادة؛ وهذ مسلك

﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾؛ أنكر الله ﷻ على الكفار والمشركين كونهم ما قدروه حق قدره في ثلاث آياتٍ في كتاب الله:

١- في سورة الأنعام في قول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾[الأنعام:٩١].

٢-وفي آية الحج: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ * مَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[الحج:٧٣-٧٤].

٣-والآيةُ الثالثة: هذه الآية التي بين أيدينا؛ فجميع الكفار والمشركين الذين جحدوا رسالات الله إلى أنبيائه ووحيه الذي أنزله عليهم، والذين أشركوا مع الله ﷻ غيره لا شك أنهم ما قدروا الله حق قدره؛ فالله جَلَّوَعَلَا قدره عظيم وحقه على عباده عظيم، وهؤلاء الكفار والمشركون لو أنهم قدروا الله حق قدرهِ ما وقعوا في هذا الظلم العظيم، حيث إنهم وضعوا أنفسهم في غير الموضع الذي يليق بهم وما قاموا بحق الله تَبَارَكَوَتَعَالَى، حقهم أن يكونوا عبيدًا لله، وحق الله أن يكون ربهم وإلههم ومعبودهم وحده لا شريك له، لكنهم ما قدروه حق قدره، ولذا سوَّوه بغيره جَلَّوَعَلَا.

قرآني معلوم ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم:٦٥]، إذا لم يكن له سميّ ولم يكن له كفْء ولم يكن له مثيل جلَّ وعلا كان حريًا أن يُعبدَ، وكان حريًا أن يُتوجه إليه وحده تبارك وتعالى.

ويا لله العجب! كيف يُسوَّى المخلوق الضعيفُ الفقيرُ بالإله العظيم الذي هو غنيٌّ من كل وجه، والذي له الكمال المطلق؛ الواسع القدير العزيز الحميد المجيد تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

يا لله العجب! كيف تُخْتل هذه العقول! وكيف تنصرفُ عن الحق المُبين! لكنهم سيستبينون الأمر يوم القيامة حينما يقولون: ﴿تَاللهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[الشعراء:٩٧-٩٨]، نعم هذه هي الحقيقة أنهم كانوا في ضلالٍ مبين، حينما سووا غير الله مع الله.

أرأيت لو أن إنسانًا أتى إلى جوهرٍ ثمين هو أغلى الجواهر على الإطلاق، ثم وضعه في إناءٍ مع بعرة بعير وقال: "انظروا هذان الأمران متماثلان متشابهان، ما أحسنهما"، ما رأيكم؟! أيكونُ ذا عقل من يفعل هذا الفعل، حينما يُسوي الدُرَّ النفيس بالبعر الخسيس؟ يجعلهما على قدم المساواة ويقول إنهما مثل بعض ويُشبهان بعض، وكلاهما لهما قدر! أهذا يفعله عاقل؟

فكيف بالله العظيم الذي يُسوِّيه هؤلاء المشركون بمخلوقاتٍ ذليلة فقيرة معبودةٍ لله ﷻ: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾[الأنعام:١]؛ عدلوا غير الله ﷻ به، فما أضل عقولهم، وما أرذل تفكيرهم، وما أعظم انحرافهم.

﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾؛ لو أنهم عرفوا الله ﷻ وعظمته حق المعرفة ما وقعوا في هذا الأمر العظيم والمنكر الفادح، سبحان الله العظيم! يتركون عبادة المولى جَلَّوَعَلَا وحده لا شريك له ويتوجهون إلى عبادة أشجار وأحجار، إلى عبادة قرود، بل إلى عبادة فِروج، إلى عبادة أموات، تاركين رب الأرض

والسماوات، سبحان الله العظيم! كيف لهؤلاء أن ينصرفوا عن هذا الحق المبين، حيث يُسوون غير الله ﷻ مع الله.

إذًا هذا الباب نبَّه فيه المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ على أن الله ﷻ لعظمتهِ فيجب أن يُوحَّد بالعبادة، فكان هذا الباب دالًا على أنواع التوحيد الثلاثة؛ دلّ على توحيد الربوبية والأسماء والصفات بدلالة المطابقة، ودلّ على توحيد الأُلوهية بدلالة اللزوم.

فإن الله جَلَّ وَعَلَا لَما كان له العظمة التامة ولما كان له الكمال المطلق وجب أن يُوحَّد بالعبادة، وأن لا يُشرك معه غيره، كما قال ﷻ: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾[مريم:٦٥].

لما كان هو الربَّ الخالق المدبر المتصرف، ولما كان لا سميَّ له ولا ندَّ ولا كُفء، كان واجبًا إذًا أن يكونّ المعبود وحده لا شريك له، ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾[مريم:٦٥]، فتوحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات؛ ثبوت العظمة لله ﷻ ثبوت الصفات الجليلة والنعوت الجميلة له ﷻ من أعظم الأدلة على توحيده تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بالعبادة، أنه يجب أن يكون المعبود وحده فلا يُشرك معه غيره.

وأنت -يا أيُها القارئ الدارسُ لهذا الكتاب- لمَّا مرّ بك حظٌ طيب من مسائل وأدلة توحيد العبادة، عرفت شيئًا عن حق الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ على عباده، ناسب أن يُتوَّجَ هذا ببيان عظمة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ التي تحقق لك التوحيد الذي مرَّت بك معرفته، الله يستحقُ جَلَّ وَعَلَا صدقًا أن يكون المعبود وحده، وأن كل

صرف لهذه العبادة وإن دق لغيرِه جَلَّوَعَلَا فإنه ضلالٌ مبين دون شك ، يعرف هذا من قَدر الله حق قدرِه.

قال ﷻ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[الزمر:٦٧] ؛ الله ﷻ يُنكر على الكفار والمشركين الذين كفروا به وأشركوا معه غيره ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾(١٠٣٩) ، والشأن أنَّ ﴿وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾(١٠٤٠) ، الأرض كلها بما فيها بمائها وأشجارها وبحارها وجبالها بكل ما فيها فإنها تكون يوم القيامة في قبضة الله تبارك وتعالى.

﴿وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾؛ القبضةُ: يعني ما يُقبضُ باليد هذه في اللغة، والله جَلَّوَعَلَا سيقبضُ الأرضين يوم القيامة بإحدى يديه تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، كما سيأتي معنا إن شاء الله فيما أورد المؤلف من الأدلة.

فلعظمة الله ﷻ كل هذه الأرض بما فيها ليست بشيء أمام هذه العظمة، حتى إنها تكون بهذا القدر الحقير، حتى إنَّ الله جَلَّوَعَلَا يقبضُها ﷻ بيده.

(١٠٣٩) إذْ لو قدَرُوه حق قدره تبارك وتعالى لَمَا أشركوا به، فلضَعْف تعظيمهم لله سبحانه جعلوا مع الله آلهةً أخرى.

(١٠٤٠) ثمَّ بيَّن طرفًا من عظمته ومن كبريائه تبارك وتعالى، وذلك ببيان ما يكون منه جلَّ وعلا مِن الأمر العظيم يوم القيامة.

﴿وَالسَّموَاتُ﴾ تكون ﴿ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾؛ الطي: ضد النشر، كما قال سبحانه: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾[الأنبياء:١٠٤] [١٠٤١]؛ الصحيح في تفسير الآية: أن السجل يعني الصحيفة، وأن الكُتب يعني المكتوبات يعني جنس ما يُكتب، كما تطوي الصحيفة ما يُكتبُ فيها؛ فهي بهذه الدرجة من الصغر والحقارة أمام عظمة البارئ ﷻ حتى إنه يطويها جَلَّوَعَلَا، يكون ذلك بيمينه سبحانه جل في علاه.

﴿وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّموَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ ثم عقّب على هذا بأن نزّهَ نفسه وسبَّحها فقال: ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [١٠٤٢] .

إذًا هؤلاء لما أشركوا مع الله وهو الذي اتصف بهذه الصفات العظيمة كانوا غير مُعظمين له حق التعظيم، ولم يكونوا قد قدَروه حق قدرهِ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ؛ فنزه نفسه عن قولهم الذي كانوا فيه مشركين مع الله ﷻ.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: جَاءَ حَبْرٌ مِنَ الأَحْبَارِ إِلَى رَسُوْلِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّا نَجِدُ أَنَّ اللهَ يَجْعَلُ السَّمَاوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْأَرْضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْمَاءَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ

(١٠٤١) يطويها الله سبحانه، ويأخذها بيمينه، على عظمتها وعلى كِبرها هي والأرض ولكنَّها كَلا شيء أمام عظمة الله.

(١٠٤٢) إذا كان الله ﷻ كذلك فإن حقَّه أن يُوحَّد، وأن الشرك به مِمَّا يجب أن يُنزَّه ﷻ عنه.

الْخَلْقِ عَلَى إِصْبَعٍ، فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ حتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ؛ تَصْدِيقًا لِقَوْلِ الْحِبْرِ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الزمر:٦٧] الآيَة).

هذا الحديثُ ثابتٌ في الصحيحين، يروي لنا فيه ابن مسعود رضي الله عنه قصةً جرت أمامه وهي: أن حبرًا من اليهود -«الحَبرُ» ولك أن تقول «الحِبرُ»، يجوز فيها فتح الحاء وكسرُها، وهو العالِم من علماء اليهود- هذا العَالِمُ أتى النبي ﷺ فقال: (**يَا مُحَمَّدُ**) وفي رواية: يا أبا القاسم (**إِنَّا نَجِدُ**) يعني في كُتبنا، يعني في التوراة؛ وهذا يدُلك على أن كُتب الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى اشتملت على إثبات الصفات لله جَلَّ وَعَلَا، وأن ما فيها يؤيد ويشهد لِما جاء في كتاب الله وسُنة رسولهِ ﷺ، كما سيستبينُ لك في آخر الحديث.

ذكر هذا الحَبرُ أنهم يجدون في كُتبهم: (**أَنَّ اللهَ يَجْعَلُ السَّمَاوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ**)، وجاء في رواية في الصحيحين: (إنه يُمسك السماوات على إصبع)، وجاءت روايةٌ ثالثة وهي: (يضع). إذًا عندنا ثلاث كلمات في هذا الحديث ثابتةٌ في الصحيحين: «يُمسك» و «يَجعلُ»، و «يضعُ».

(يمسك أو يضع أو **يَجْعَلُ السَّمَاوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْأَرْضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْمَاءَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالثَّرَى** -يعني التراب- **عَلَى إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الْخَلْقِ عَلَى إِصْبَعٍ**)؛ سائر الخلق: يعني بقية الخلق، بقية المخلوقات يجعلُها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أو يمسكها أو يضعها على إصبع. **وهذا فيه فائدتان:**

الأولى: بيان عظمة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ حتى إنها أمام عظمة الله ﷻ شيءٌ قليلٌ صغيرٌ حقير كَلا شيء.

والأمر الثاني: إثباتُ صفة الأصابع لله جَلَّ وَعَلَا؛ والأصابع مُفردُها «إِصبع»، وهذه الكلمة جاء لها ضبطٌ متعددٌ في لغة العرب أوصل ذلك الضبط بعض علماء اللغة إلى عشرة، لكنَّ الأفصح والله تعالى أعلم «إِصبَع» بِكسر الهمز وفتح الباء.

المقصود أن هذا الحديث دلّ على ثبوت هذه الصفةِ الذاتية لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فالله سُبْحَانَهُ متصفٌ بالأصابع، ولا شك ولا ريب أن أصابع الله ﷻ كذاتهِ، ليس هو فيها مشابهًا ولا مماثلًا للمخلوقين، كما أن ذاته لا تُماثل المخلوقين فكذلك صفاته ومنها الأصابع لا تُماثل صفات وأصابع المخلوقين، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[الشورى:١١]، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾[مريم:٦٥]، ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾[الإخلاص:٤].

إذًا نحن كما هو الشأن في بقية الصفات الله ﷻ الواردة في الكتاب والسُنة؛ كالوجه، واليدين، والساق، والقدم، والرحمة، والغضب، والاستواء إلى غير ذلك مما ثبت لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ نُثبتهُ على ما وَرَد ونعتقدُ أن الله ﷻ لا يُماثل في هذه الصفات المخلوقين، وبالتالي فإنَّ مَن رَامَ أن يبحث أو يُنَقِّرَ عن كيفية اتصاف الله ﷻ بهذه الصفة فإنه يكون قد خاض خوضًا باطلًا، كما أننا لا نعلم كيفية ذات الله ﷻ فإننا أيضًا لا نعلمُ كيفية أصابع الله ﷻ ولا بقية صفاتهِ العليّة سُبْحَانَهُ، فالكيفُ بالنسبة لنا مجهول.

إذًا هذا الحديث دل على إثبات الصفات لله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، والنبي ﷺ لما سمع هذه المقالة أَقرَّ ثبوتَ الصفات لله جَلَّوَعَلَا، ولم يقُل كما يقول المُحرِّفون للكلم عن مواضعه: إنَّك يا أيها الحَبْرُ مُجسِّم، أو إنك يا أيها الحَبْرُ مُمثلٍ مُشبِّه، أو إنك حَشويٌّ ضال ، إنما أقره النبي ﷺ على ما قال.

يدُل على هذا ما جاء في ختام هذا الحديث وهو أن النبي ﷺ ضَحِكَ حتى بدت نواجذه، ثم تلا قول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾[الزمر:٦٧].

ويُفسر لنا من هو من أعلم أصحابه بهِ ومن أخصهم به، ومن أعلم الصحابة، ومن أعلمهم وأفهمهم لكتاب الله، وهو ابن مسعود رضي الله عنه فسر لنا هذا الضحك بأنه كان عن تصديقٍ لهذا الحبر فيما قال، وأن هذه المقالة يشهدُ لها في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[الزمر:٦٧]، فهذه الآية تَشْهَدُ لِمَا ذكر هذا الحبر؛ الحبر قد ذكر الحق وما جاء في كتابهم التوراة، في هذه الجملة التي ذكرها هذا الحبر لا شك أنها حق، صدّق بهذا النبي ﷺ، وبالتالي فإنَّ هذه الصفات تكون ثابتةً بإقرار النبي ﷺ وتصديقهِ لمقالة الحبر.

وإنَّ من العجب العُجاب ما قاله أهل الكلام والبدع الذين حرَّفوا الصفات حينما زعموا أن ضحك النبي ﷺ هاهنا إنما كان عن إنكارٍ لمقالة هذا اليهودي. ويا لله العجب! كيف يضحك النبي ﷺ وقد قيل في الله بغير علم، وشُبهَ الله بخلقهِ على زعمهم! أهذا المقام مقام ضحك؟ أم مقام غضب لله عَزَّوَجَلَّ؟

تأمل -يا رعاك الله- فِعل النبي ﷺ فيما مر بنا قريبًا حين قال ذاك الأعرابي (فإنا نستشفع بالله عليك)، غضب النبي ﷺ حتى عُرف ذلك في وجوه أصحابه، وصار يقول: «سبحان الله، سبحان الله»، يُنزه الله لم يزل يُسبح الله ﷻ من هذه المقالة، ويقول له: «ويحك أتدري ما الله؟ ويحك أتدري ما الله؟».

إذًا لما يتكلم المتكلم بالباطل في حق الله ﷻ، أنجد رسول الله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يضحك؟ ألم يكن هديه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أنه يغضب إذا انتهكت محارم الله؟ أهذا مكانٌ يُناسب الضحك حتى يقولوا إن النبي ﷺ قد ضحك إنكارًا لهذه المقالة! سبحان الله العظيم! انظر كيف تفعل الأهواء بأصحابها، صارت النصوص عند هؤلاء بمنزلة الصائل الذي يُدفَع بأي شيء كان، كيفما اتفق يُدفع في صدور النصوص التي تخالف أهوائهم مع الأسف الشديد.

إذًا لا شك أن هذه المقالة مقالةٌ باطلة، أعني تحريفهم لدلالةِ هذا الحديث على ثبوت هذه الصفات لله ﷻ، وهي أن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يضع وأنه يُمسك وأنه يجعل، وأن له أصابع، وأنه يهُز كما سيأتي ذلك في الرواية القادمة إن شاء الله، أن هذه الصفات ثابتةٌ لله ﷻ، صدّق بهذا رسول الله ﷺ وضحك واستشهد بالآية(١٠٤٣).

إذًا عندنا أوجه تدل على بطلان هذا القول:

(١٠٤٣) فالحديث ظاهر بل نصٌ في إقرار النبي ﷺ على ما قال هذا اليهودي.

أولًا: كون النبي ﷺ قد ضحك من هذه المقالة(١٠٤٤)؛ وهذا لا يمكن أن يكون على سبيل الإنكار في هذا المقام العظيم، وهو مقام الكلام في الله ﷿ بغير علم، أن يُتكلَّم في الله ﷻ بالباطل، بل هذا هو مقام الغضب لله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، مقام التسبيح كما جاء في حديث الأعرابي الذي سبق(١٠٤٥).

ثانيًا: كونه ﷺ استشهد بالآية التي معنا ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾، فهذا مما يُؤيد أن هذا اليهودي قد قال الحق، والنبي ﷺ فرح بالحق، لا سيما وقد جرى على لسان من هو من ألد أعدائه(١٠٤٦).

والأمر الثالث: كون الصحابي الجليل ﵁ يقول: «**تصديقًا لقول الحَبر**»؛ أرأيتم كيف وصل الحال بهؤلاء المبتدعة حتى زعموا أنهم أَفْهَمُ لكلام رسول الله ﷺ ولحالهِ من أصحابه، بل من علماء أصحابه كابن مسعود ﵁؟ ابن مسعود العَالِم الحبرُ البحرُ الجليل، صاحب رسول الله ﷺ، والذي هو حاضر يُشاهد الرسول ﷺ، فَفَهِمَ أن ضحكه واستشهاده كان تصديقًا لقول الحبر، وهم يقولون:

(١٠٤٤) والمخالفون للحق يقولون: إنما ضحك ﷺ لأنَّ هذا الكلام في غاية الباطل.

(١٠٤٥) لأن حق الله جلَّ وعلا عظيم، ويجب أن يُغضبَ حينما تُنتهك محارم الله ﷻ وحينما يُقال في الله بغير الحق وبغير علم.

(١٠٤٦) تلاوة النبي ﷺ هي أيضًا إقرارٌ منه ﷺ لِمَا ثبت في هذا الحديث؛ من أن الله يضع ما سبق على أصابعه تبارك وتعالى، فكيف يَستشهد بالآية التي تدل على ما قال ذاك الحَبر وهو مُنْكِرٌ له!.

"لا، إنَّما كان هذا إنكارًا لمقالتِهِ"، أهُم أفهم لكلام رسول الله ﷺ أم الصحابة يا أولي الألباب؟

إذًا كون الصحابي قد فهِم هذا دليلٌ على أن هذا هو الحق الذي لا شك فيه، ولذلك التابعون العلماء الأجلاء الذين تلقوا هذا الحديث من لدن ابن مسعود رضي الله عنه قد وافقوه على هذا وما أنكروه، وهكذا اتباع التابعين الذين تلقوا ذلك عن التابعين، وهلُمَّ جرا من علماء المسلمين الميامين الذين قدروا الله حق قدره فما وقع في قلوبهم لوثة التشبيه.

والأمر الرابع: لو كان الأمر كما زعموا لاستُشكل هذا المقام جدًا، لأن القاعدة عند العلماء بالإجماع «أنه لا يجوز تأخير البيان عن وقت الحاجة»، وأنتم تزعمون أن المقام مقامٌ مُلْتَبِس، بدليل أنكم رميتم ابن مسعود رضي الله عنه بأنه ضلَّ في الفهم وأخطأ الحكم، إذا كان صحابيٌ جليلٌ بهذا القدر وهو على زعمكم ما فَهِمَ المراد، ومع ذلك فإن النبي ﷺ سكت عن البيان؛ فاتهمتم النبي ﷺ بأنه ما قام بالأمر الواجب الذي أوجبه الله عليه؛ وهو أنه يُبيّنُ للأمة الذي تحتاج إليه، لا سيما والمقام أهم المقامات على الإطلاق، فإن المطالب الإلهية التي تتعلق بالله عز وجل وبصفاته وبحقوقهِ على عبادة لا شك أنَّها أهم المطالب على الإطلاق.

إذًا هذه أوجهٌ أربعة تدلك على أن مقالة هؤلاء المحرفين مقالةٌ باطلة[١٠٤٧]، وهي من جنس ما يقوله هؤلاء المؤوّلَة المحرِّفة في بقية صفات الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ،

(١٠٤٧) ما قاله المتكلِّمون من الأشاعرة وغيرهم في تأويل صفة الأصابع يطول الحديث عنه، وكله كلامٌ بِلا هدى، وقولٌ على الله عز وجل بِلا علم، وجُرْأَة منهم على الله سبحانه وتعالى.

حينما يضربون فيها كيفما شاءوا بآرائهم وأهوائهم فيصرفونها عن حقائقها اللائقة بالله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، والحق أنهم ما صنعوا شيئًا، فإن كل شيء أوَّلوا إليه هم ملزمون فيه بنحو ما فروا منه، فالحقيقة أن القوم ما زادوا على أن انتهكوا حرمة الكتابِ والسُّنة، والله المستعان.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ: «وَالْجِبَالَ وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ، ثُمَّ يَهُزُّهُنَّ فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا اللهُ»).

هذه الرواية نسبها المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى مسلم، وفيها زيادتان:

- إثبات صفة الهز، وأن الله ﷻ يَهُز ذلك يوم القيامة، الذي قبضه تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ من السماوات والأرض فإنه يهُزهُ ﷻ يوم القيامة[١٠٤٨].

- وفيها أيضًا أن الله ﷻ يقول حينئذ: (أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا اللهُ)؛ وهذه الرواية راجعتُ فيها «صحيحَ مسلم» في أكثر من طبعة في حديث ابن مسعود وقد رواه في أول «كتاب صفات المنافقين»، ووجدتُ الرواية «**أنا الملك، أنا الملك**»، فلعل المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ وقف على نسخة أخرى فيها: (أنا الملك، أنا الله)، فالله أعلم كيف هو الحال. وقد وجدت البغوي في «السنة» أوفي «شرح السُنة» نسب هذه الرواية بهذا اللفظ (أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا اللهُ) إلى مسلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، بل في «مشكاة المصابيح» أورد هذا الحديث بهذا اللفظ: (أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا اللهُ) وجعله حديثًا

(١٠٤٨) فهذه صفةٌ فعلية ثابتة لله تبارك وتعالى على ما يَليقُ به.

متفقًا عليه، مع أن هذا ليس بصحيح، الانفراد الذي حصل إن ثبت فهو ليس في «البخاري» وإنما هو في «مسلم» رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وعلى كل حال؛ هذا الحديث حديث ابن مسعود الذي جاء فيه ما سمعت من ثبوت هذه الصفات وما يكون من القبض والطي وما يكون من كلام الله تبارك وتعالى حيث أنه يقول: (أنا الملك) ، جاء هذا في حديث ابن مسعود في «الصحيحين»، وجاء هذا أيضًا من حديث ابن عمر في «صحيح مسلم»، وسيأتي في كلام المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، كما جاء أيضًا في رواية أبي هريرة في «الصحيحين».

والروايات التي وقفت عليها فيها ما يأتي:

- أولًا: حديث ابن مسعود؛ فالذي وقفت عليه في الصحيحين، أن الله تعالى يقول: (أنا الملك)، وفي رواية أخرى يقول: (أنا الملك، أنا الملك)، وإن صحت هذه الرواية التي بين أيدينا (أنا الملكُ، أنا الله).

- أما حديث أبي هريرة ﷺ ففيه أن الله تعالى يقول: (أنا الملك، أين ملوك الأرض؟).

- وحديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا فيه روايتان؛ في رواية يقول: (أنا الملك) موافقةً لحديث ابن مسعود. وفي رواية يقول: (أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟) وسيأتي معنا هذا إن شاء الله.

المقصود أن الله تعالى ينادي يوم القيامة فيقول: (أنا الملك)؛ كما دل على هذا كتاب الله ﷻ: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾[غافر:١٦]، ثم يُجيب نفسه جَلَّ وَعَلَا فيقول: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾[غافر:١٦]؛ في ذلك اليوم يتجلى مُلك الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وينفرد

ﷻ بالملك الذي لا يُشاركه فيه أحدٌ البته. في الدنيا يكون في الناس ملوك لهم ملك جزئي ناقص، أما في الآخرة فلا أحد يملك شيئًا البته، إنما يكون المُلك كله لله الواحد القهار[1049]، ولذلك وصف الله ﷻ نفسه بذلك في كتابهِ فقال: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾[الفاتحة:٤]، قال: ﴿مَلِكِ يوم الدين﴾[الفاتحة:٤].

والروايات الأخرى -كما سيأتي معنا- فيها كما في حديث ابن عمر يقول: «أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟»، ولا شك أن هذا من الاستفهامِ الإنكارِي الذي يُرادُ به النفيُ؛ فإن الله جَلَّوَعَلَا يتفرد بالملك، وأما هؤلاء الجبارون المتكبرون في الدنيا فإن الله ﷻ يجعلهم في أحقر حال، فإن المتكبرين يُحشرون كأمثال الذر. سبحان الله العظيم! إنسان ضخم متكبرٌ متعالي يجعله اللهﷻ في صورة النملة الصغيرة، واللهِ إن هذا لحق لأن النبي ﷺ قد قاله، قال: «يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر، يطؤهم الناس» أو قال: «يغشاهم الذل من كل مكان»، نسأل الله السلامة والعافية.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وَفِي رِوَايَةٍ لِلْبُخَارِيِّ: «يَجْعَلُ السَّمَوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْمَاءَ وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الْخَلْقِ عَلَى إِصْبَعٍ» أَخْرَجَاهُ**).

هذه الروايات التي جاء فيها اختلافٌ في الألفاظ فيما يتعلق بما يضع الله ﷻ على أصابعه، محمَلُها والله تعالى أعلم إلى اختلاف الرواةِ في البسط أو

(١٠٤٩) ولا شكَّ أن انفراده بالمُلْك تبارك وتعالى أجلَى ما يكون في ذاك اليوم.

الاختصار؛ يعني منهم من يختصر في روايته، ومنهم من يُتم روايته، والله تعالى أعلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَلِمُسْلِمٍ عَنِ ابْنِ عُمَرَ مَرْفُوعًا: «يَطْوِي اللهُ السَّمَاوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ الْيُمْنَى، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟ ثُمَّ يَطْوِي الْأَرْضِينَ السَّبْعَ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِشِمَالِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟»).

حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا هذا قريبٌ في معناه مما مضى معنا في حديث ابن مسعود(١٠٥٠)، لكن في هذا الحديث **بحثٌ خاص، وهو ما يتعلق بثبوت لفظ الشمال ليد الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الأخرى.**

مما لا شك فيه ولا ريب أن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ متصفٌ باليدين، ومما لا شك فيه ولا ريب أن إحدى اليدين توصف باليمين، ومما لا شك فيه ولا ريب أن كِلا يدي ربنا جَلَّ وَعَلَا يمينٌ في الخير والبركة، فليست اليد الأخرى يدًا ناقصة كما هو المعروف والمعتاد عند الناس من أن اليد الأخرى ناقصةٌ بالنسبة لليمين.

ويبقى بعد ذلك البحث في وصف اليد الأخرى بأنها شمال؛ فهل هذا ثابتٌ عن النبي ﷺ كما هو بين أيدينا في هذه الرواية؟ أو أن هذا اللفظ غير ثابت؟

(١٠٥٠) فيه ما يدلُّ على ما سبق الحديث عنه من بيانِ عظمة الله تبارك وتعالى، وأنَّه الكبير وأنَّه الواسع وأنَّه الغني ﷻ. وفيه إثبات اليدين لله جلَّ وعلا، وهما صفتان ذاتيتان لله سبحانه.

المسألة فيها بحثٌ طويل عند أهل العلم، وأظن أنني تكلمت عن هذا في درس ماضي، لكنَّ الخلاصة أن أهل العلم مختلفون في إثبات وصف الشمال لليد الأخرى.

-فممن أثبت ذلك: عثمان بن سعيد الدارمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في نقضه على بِشر وطائفةٌ من أهل العلم، واستدلوا على هذا بهذا الحديث؛ حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا الذي في صحيح مسلم، وقد سمعتَ لفظه.

-وطائفةٌ من أهل العلم أَبَوْا وصف اليد الأخرى بالشمال لعدم ثبوت هذا اللفظ عندهم عن رسول الله ﷺ، وإنَّما يكتفون بالقول إنَّ إحدى يديه يمين والأخرى هي اليد الأخرى، ويقفون عند هذا، وممن انتصر لهذا ابن خزيمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «صحيحه» وطائفةٌ من أهل العلم.

والبحث هاهنا راجع إلى هذه الرواية التي بين أيدينا؛ فإنها جاءت من رواية عمر بن حمزة، عن سالم بن عبد الله، عن أبيه عبد الله بن عمر. لكنَّ هذه الرواية قد خالف فيها عمر بن حمزة رواية ثقتين ثبْتين في ابن عمر؛ وهما: نافع عن ابن عمر، وخالف رواية عُبيد الله بن مُقسِم عن ابن عمر.

إذًا عندنا عُمر بن حمزة عن سالم خالف رواية نافع عن ابن عمر ورواية عُبيد الله بن مُقسم عن ابن عمر(١٠٥١)؛ ولا شك أن الصناعة الحديثية تقتضي ترجيح رواية نافع وعُبيد الله بن مُقسم على رواية عمر بن حمزة، فمثل عمر لا

(١٠٥١) فإنهما وصفا اليد الأخرى باليد الأخرى، «ويأخذ الأرض بيده الأخرى»؛ وروايتهما مقدَّمة فتكون هذه اللَّفظة شاذَّة. وأيَّدوا ذلك بقوله ﷺ: «وكِلتا يديه يمين».

يُحتمـل تفـردهُ في مثـل هـذه الروايـة، لا سـيما مـع مخالفـة هـذين الثقتـين الجليلين[١٠٥٢].

فالأقرب والله تعالى أعلم: أنَّ هذا اللفظ شاذٌ غير صحيح، وأنَّ الصحيح أن يُقال كما في الرواية الأخرى لهذا الحديث «اليد الأخرى»، وهذا ما تشهدُ له روايات أو أحاديث أخرى عن النبي ﷺ[١٠٥٣].

والبحث كما قد علمت بحث في ثبوت حديث، فإن ثبت فعلى الرأس وعلى العين لا مانع يمنع من القول بهِ البتة، لكن العبرة فقط في مسألة الثبوت؛ إن ثبت قُلنا به[١٠٥٤]، وإن لم يثبُت لم نقُل به، ولعل هذا القول -أعني عدم الثبوت- أرجح، والله تعالى أعلم.

(١٠٥٢) ومن هؤلاء المُضعِّفين لهذه الرواية والنافين لوصف اليد الأخرى بـ«الشمال» ابن خُزيمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما بحث هذا في كتابه «التوحيد»، وكثير من أهل العلم غيره.

(١٠٥٣) أصحاب القول الأول رأوا أن هذا اللَّفظ غير شاذ، وأنَّه يمكن الجمع بين الروايتين وهي زيادةٌ من ثقة مقبولة، فهي يده الأخرى وتوصف بالشمال، وأيَّدوا ذلك بحديثٍ جاء في «مسند أحمد» فيه وصْف اليد الأخرى باليسار، واليسار والشمال بمعنى واحد. وحملوا قوله ﷺ «كِلتا يديه يمين» أي: بالفضل والبركة، فإن من المستقر في نفوس الناس وأعرافهم أن الشمال أقلُّ رُتبةً من اليمين، فحتى لا يُتوَهَّم النقص في يد الله جلَّ وعلا الأخرى قال: «كِلتا يديه يمين».

(١٠٥٤) وهذا ما نحى إليه المؤلّف الشيخ محمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ حيث اختار هذه الرواية المصرِّحة بهذا اللَّفظ، ونصَّ على هذا أيضًا في مسائل الباب، والله عَزَّ وَجَلَّ أعلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: «مَا السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُونَ السَّبْعُ فِي كَفِّ الرَّحْمَنِ إِلَّا كَخَرْدَلَةٍ فِي يَدِ أَحَدِكُمْ»).

هذا الأثر عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا فيه بيان عظمة الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، وأن نسبة المخلوقات إلى الله عَزَّوَجَلَّ كلا شيء، فالسماوات والأرض وهذا الملكوت وهذا الكون كله لا يساوي شيئًا، فهو كحبة خردل أو كخردلة في الكف؛ الخردلة: نبتة صغيرةٌ أو حبةُ نباتٍ صغيرة يُضرب المثل بها في الصغر، فهي شيء صغير جدًا بالنسبة لعظمة الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ.

وهذا الأثر رواه ابن جرير عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا ، ومثله لا يُقال بالرأي؛ فله حكم الرفع.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنِي يُونُسُ، أَنْبَأَنَا ابْنُ وَهْبٍ قَالَ: قَالَ ابْنُ زَيْدٍ: حَدَّثَنِي أَبِي قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا السَّمَوَاتُ السَّبْعُ فِي الْكُرْسِيِّ؛ إِلَّا كَدَرَاهِمَ سَبْعَةٍ أُلْقِيَتْ فِي تُرْسٍ»).

الحديث كما ترى مُرسل، لأنه من رواية ابن زيد الذي هو عبد الرحمن عن أبيه زيد بن أسلم؛ وهو تابعي يروي عن النبي ﷺ ، فالحديث مرسل، والمرسل من قسم الحديث الضعيف.

ومعنى هذا الحديث إن ثبت عن النبي ﷺ: إثباتُ أن الله عَزَّوَجَلَّ عظيمٌ جدًا، حتى إن بعض مخلوقاته أكبر من بعض بما لا مناسبة بين هذا وهذا، قال: «مَا

السَّمَوَاتُ السَّبْعُ فِي الْكُرْسِيِّ» ما السماوات والأرض بالنسبة لكرسي ربنا جل وعلا، والكرسي: موضع قدمي الله ﷻ(١٠٥٥) **«إِلَّا كَدَرَاهِمَ سَبْعَةٍ أُلْقِيَتْ فِي تُرْسٍ»** .

-قيل إنَّ التُرس: هو القطعة من الحديد أو الفولاذ أو الجلد التي يَتقي بها المقاتِل ضربات السيوف في المعارك.

-وقيل إنَّ التُرس: القاع المنبسطةُ من الأرض؛ وهذا لعله أقرب لمناسبة الرواية التي تأتي بعده.

المقصود أنَّ هذا الحديث إن ثبت دالٌ على عظمة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وأن هذا الملكوت كُله الذي فيه السماوات السبع والأرضين السبع شيءٌ صغير أمام كرسي الله ﷻ، فكيف بالعرش! فكيف بالله العظيم ﷻ الذي هو أكبر من كل شيء، وأعظم من كل شيء! فهو الواسع الكبير ﷻ.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وَقَالَ: قَالَ أَبُو ذَرٍّ رضي الله عنه: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا الْكُرْسِيُّ فِي الْعَرْشِ إِلَّا كَحَلْقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ أُلْقِيَتْ بَيْنَ ظَهْرَيْ فَلَاةٍ مِنَ الأَرْضِ»)**.

هذا الحديث حديث أبي ذر رضي الله عنه خرَّجه ابن حِبان في صحيحه بإسناد صحيح، وفيه بيان عظمة الله ﷻ ؛من جهة النظر أن النسبة بين الكرسي والعرش -والكُرسي كما قد علمت قبل قليل موضع قدمي الله ﷻ، والعرش هو ذاك المخلوق الذي اختصه الله ﷻ باستوائه عليه- فالكرسي صغيرٌ ضئيلٌ بالنسبة لعظمة العرش، حتى إنه كَحَلَقَةَ من حديد أُلقيت في فلاة، الفلاة: هي الصحراء،

(١٠٥٥) كما قال ذلك أصحاب النبي ﷺ كابن عباس وغيره.

تأمل -يا رعاك الله- ما النسبة بين حلقة من حديد، وصحراءٍ واسعة شاسعة؟ ما النسبة بين هذه وهذه؟ كلاشيء، فكيف بالنسبة بين عظمة الله ﷻ وبقية المخلوقات؛ العرش وما دونه! لا شك أن الله أعظم وأعظم وأكبر وأكبر.

إذًا هذا الحديث يدلك على عظيم عظمة الله ﷻ وكبره ﷻ.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: «بَيْنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَالَّتِي تَلِيهَا خَمْسُمِائَةِ عَامٍ، وَبَيْنَ كُلِّ سَمَاءٍ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ، وَبَيْنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَالْكُرْسِيِّ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ، وَبَيْنَ الْكُرْسِيِّ وَالْمَاءِ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ، وَالْعَرْشُ فَوْقَ الْمَاءِ، وَاللهُ فَوْقَ الْعَرْشِ، لا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِكُمْ»**).

سبحان الله العظيم! هذا الأثر عن ابن مسعود أثرٌ صحيح، وقد صححه الذهبي وغيره من أهل العلم، وفيه تحقيق معنى اسمين جليلين لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وهما: «الظاهر» و«الباطن»، فالله هو الظاهر الذي فوق كل شيء، وهو الباطن الذي لا يخفى عليه شيء[١٠٥٦].

أخبر ابن مسعود رضي الله عنه -وهذا الأثرُ يتعلق بأمر غيبي فله حكم الرفع كما لا يخفى عليك- وفيه أنَّ بين كل سماء -يعني بين الأرض إلى السماء الدنيا- مسيرة خمسمائة عام، وبين كل سماء والتي فوقها مسيرة خمسمائة عام، وبين السماء السابعة والكرسي مسيرة خمسمائة عام، وكِثَفِ الماء الذي العرش فوقه مسيرة خمسمائة عام.

(١٠٥٦) وهذا فيه إثبات صفة الفوقية الذاتية، وإثبات صفة الاستواء على العرش.

إذًا هذا يدلك على علوٍ عظيم لله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ؛ فالله ﷻ له العلو المطلق تبارك وتعالى، فهو فوق العرش مستوٍ عليه، ثبت بهذا الأثر صفةَ العلو لله ﷻ، والاستواء على العرش، ومع كل هذا فالله جَلَّوَعَلَا لا تخفى عليه خافية؛ لا من أعمال العباد الظاهرة ولا من أعمالهم الباطنة، الله ﷻ يعلم السر وأخفى من السر، ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾[طه:٧]، فأخفى من السر:

- إما أن يكون السر هو: ما تحدثت به حديثًا خفيًا لغيرك.
- أو هو الذي أخفيته في نفسك.

فإن كان الأول فالله يعلمه ويعلم ما لم تتحدث به بعد، وأما إن كان الثاني فالله يعلم ما في قلبك وما الذي لم تفكر فيه وستفكر فيه فيما بعد.

إذًا الله ﷻ بكل شيءٍ عليم، لا تخفى عليه خافية تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ.

قال رَحِمَهُٱللَّهُ: (**أَخْرَجَهُ ابْنُ مَهْدِيٍّ عَنْ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ، عَنْ عَاصِمٍ، عَنْ زِرٍّ، عَنْ عَبْدِ اللهِ. وَرَوَاهُ بِنَحْوِهِ الْمَسْعُودِيُّ، عَنْ عَاصِمٍ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ، عَنْ عَبْدِ اللهِ؛ قَالَهُ الْحَافِظُ الذَّهَبِيُّ** رَحِمَهُٱللَّهُ، **قَالَ: «وَلَهُ طُرُقٌ»**).

وصححه أيضًا.

قال رَحِمَهُٱللَّهُ: (**وَعَنِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ** رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، **قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ** ﷺ: **«هَلْ تَدْرُونَ كَمْ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ؟»، قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «بَيْنَهُمَا مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ، وَبَيْنَ كُلِّ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ، وَكِثَفُ**

كُلِّ سَمَاءٍ مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ، وَبَيْنَ السَّمَاءِ اَلسَّابِعَةِ وَالْعَرْشِ بَحْرٌ بَيْنَ أَسْفَلِهِ وَأَعْلاهُ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، وَاللهُ تَعَالَى فَوْقَ ذَلِكَ، وَلَيْسَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِ بَنِي آدَمَ» أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ وَغَيْرُهُ).

هذا هو الحديث الخاتِم لهذا الكتاب؛ حديث العباس ﷺ وقد خرَّجه أبو داود والترمذي وابن ماجة وأحمد وغيرهم من أهل العلم، وفيه بحثٌ عند أهل العلم من جهة ثبوته؛ فبعض أهل العلم ضعَّفه، وبعض أهل العلم أثبته؛ ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ فإنه قد حسنه كما في «الواسطية»، وجوّد إسناده الحافظ ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في «مختصر الصواعق».

والذي لا شك فيه ولا ريب أنَّ هذا القدر الذي بين أيدينا قد دلت عليه الدلائل والشواهد، فهذا المعنى ثابت لا شك فيه بأدلةٍ أخرى، لكنَّ القدر الذي يتوقف في ثبوتهِ على ثبوت هذا الحديث ما جاء عند أبي داود من تتمةٍ لهذا الحديث.

المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ اختصر هذا الحديث، وهو عند أبي داود بأطول من هذا وفيهِ أنَّ العرش علا أوعالٍ ثمانية[١٠٥٧]، هذا القدر من الحديث هو موضع الإشكال في ثبوت هذا الحديث[١٠٥٨]، أعني إنه إن ثبت الحديث أثبتنا ذلك الأمر الغيبي، وإن لم يثبت الحديث لم نثبت هذا المعنى.

(١٠٥٧) وهو الحديث المشهور المعلوم عندكم بأنه «حديث الأوعال».

(١٠٥٨) طائفة من أهل العلم ضعفوا هذا الحديث، وطائفة من أهل العلم قد صححوه، والحقيقة أنَّه من حيث النظر إلى موضع الشاهد ليس فيه جديد، بل الحديث السابق بل

والمعنى الذي دل عليه هذا الحديث هو ما سبق الكلام فيه؛ وهو اجتماع هاتين الصفتين لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ؛ الظهور والبطون، فالله ﷻ هو الظاهر وهو الباطن، هو العلي الأعلى الذي له علو الذات المطلق تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فهو فوق كل شيء على الإطلاق، وكل شيءٍ فدونه وتحته، ومع ذلك فالله لا تخفى عليه خافية؛ يسمع كل صوت، ويرى كل شيء، ويعلم كل شيء[١٠٥٩].

إذًا إذا كان ذلك كذلك كان حريًا أن يُعبَد، وكان حريًا أن يُتوجَّه له بالتأله، وكان من الظلم العظيم أن يُتوجه بالعبادة لغير الله ﷻ: ﴿آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[النمل:٥٩].

قارنوا يا أيها النَّاس بين صفة الله ﷻ التي دلت الدلائلُ على أنَّها أعظم ما يكون حيث له الكمال المطلق تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ، وبين غيرِه مما يُشرك معه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[النمل:٥٩] ؛لا شك ولا ريب أنَّ الله ﷻ خير، ولا شك ولا ريب أن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ هو المستحق للعبادة؛ وهذا هو التوحيد الذي هو حق الله على العبيد.

إلى هنا انتهى الكلام عن هذا الكتاب؛ الذي أسأل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أن يجعل المذاكرة فيه في ميزان المتكلم وفي ميزان السامع، أسأله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في ختام

الأدلة من الكتاب والسُنَّة متضافرة على إثبات ما جاء فيه، لكن يبقى فقط الشيء الذي تفرَّد به وهو: الأوعال الثمانية التي تحمل العرش، فإن ثبوت ذلك واعتقاده مبني على ثبوت هذا الحديث، والله ﷻ أعلم.

(١٠٥٩) ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر:٧] .

درسنا أن يرزقنا تحقيق التوحيد، وأن يرزقنا تعظيمه ومحبته وإجلاله والخوف منه، وأسأله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ أن يُثبِّتنا على التوحيد، ونعوذ به أن يردنا على أعقابنا، نعوذ به من الحَور بعد الكَور، رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا، اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك، ويا مصرف القلوب والأبصار صرف قلوبنا على طاعتك.

والوصية يا أيها الأخوة وقد مَنَّ الله ﷻ علينا بأن طوَّفنا في أنحاء هذا الكتاب، وعِشنا مع مباحث ودلائل تتعلق بهذا التوحيد؛ الوصية هي المداومة على مُدَارسة التوحيد والبحث والتأمل والقراءة والدراسة، لا ينبغي أن تنقطع صلة طالب العلم بكتب التوحيد، ولا سيما لهذا الكتاب الذي كما قد رأيت إنما هو آيةٌ وحديثٌ وأثر، كلُّ ذلك يتعلق بأعظم موضوع وهو حق الله ﷻ على العبيد الذي ما خلقنا الله ﷻ إلا من أجله.

وهذه المُدَرَاسه تُعين الإنسان على الثبات على هذا التوحيد؛ فإن الغفلة حاصلة، والشيطان له وساوس، والشُّبَه كثيرةٌ خطافة، والتسلح بالعلم -بعلم التوحيد- من أسباب الثبات بعون الله ﷻ وتوفيقه على هذا التوحيد.

فالله الله بالحرص على تعلم التوحيد[١٠٦٠] ثم العمل؛ التوحيد لابد أن يكون له أثرٌ في قلبك وأثرٌ في جوارحك، لابد أن يكون هدفك في الحياة السعي إلى

(١٠٦٠) وأن نجتهد ما استطعنا، وأن نحرص على أن نتعلم علمًا مؤصَّلًا يكون ثمرته الدعوة الصادقة إلى هذا التوحيد، والله ﷻ قَسَمَ الأعمال كما قَسَمَ الأرزاق، وكُلٌ منَّا يُحسِن وسيلةً أو أكثر يتمكن بها من الدعوة إلى هذا التوحيد. فإيَّاك أن يتسلَّل إليك اليأس،

تحقيق التوحيد، وأبشر بالخير؛ فكل ثمرة طيبة يانعة من خيري الدنيا والآخرة فإنها ثمرةٌ لتحقيق التوحيد، فاحرص على أن تُصيب من هذا الخير بنصيبٍ وافر.

ثم بعد ذلك إذا مَنَّ الله ﷻ عليك بالعلم -علم التوحيد- والقيام بهذا الذي علمت يبقى عليك واجبُ الدعوة إلى هذا التوحيد[١٠٦١]؛ المقام ليس مقام تَرَفٍ

وإيَّاك أن يتسلَّل إليك شيء من تلبيس الشيطان، وإياك أن يفُتَّ في عضدك انصراف الناس أو انشغال كثيرٍ من الدعاة والجماعات عن هذا التوحيد، بلْ هذا مِمَّا ينبغي أن يشحذَ الهِمَمَ ويقدح الزِّناد في أنفسنا حتى نجتهد ونعمل.

(١٠٦١) الدعوة إلى التوحيد-يا أيُّها الأحبة- مطلب مُلِحّ وواجبٌ مُتعيّن على كل أحد، وفي كل وقت، لا سيَّما في هذا الزمان المتأخر الذي نعيشه، فمتى يتعلم الناس التوحيد ومتى يتعرَّفوا على التوحيد إذا كسلْنا، وإذا تباطأْنا، وإذا ركنَّا إلى الدَّعة والراحة؟! لنتقِ الله -يا إخواني- في أنفسنا، ولنبذلْ غاية الجُهْد في الدعوة إلى التوحيد وفي بيانه وفي الحث عليه، وفي بيان نواقضه، ووالله إنَّ هذا لَمِن أعظم النِّعم عليك، أنت يا عبد الله بذلك تسْلك مسْلك الأنبياء، ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللهِ﴾ [يوسف:١٠٨]، يا من تدَّعي اتباع النبي ﷺ هذه سبيله فأين التشْمير؟ سبيله الدعوة إليه تبارك وتعالى، والدعوة رأسها وأشرفها وأهمها: الدعوة إلى التوحيد، ﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [القصص:٨٧].

التصاق والتئام وَوَحدة بين الدعوة والتوحيد، فمن يقوم بهذا الحق -يا أهل التوحيد- سِوى أهل التوحيد! كلٌّ يدعوا الآن وكلٌّ ينشر وكلٌّ يكتب وكلٌّ يتكلم داعيًا إلى عقيدته وداعيًا إلى ضلاله، أيجوز في مقابل ذلك أن نسكت وأن نركن؟ وأن يتواضع الإنسان مِنَّا تواضعًا باردًا، فيقول: "أنا لا أعرف أنا لا أُحسن"، والله إنا القليل الذي علمتَه من التوحيد

وتفضل، إنما هو مقامٌ متعينٌ وحتمٌ لازم على كل موحد، الدعوة إلى التوحيد أمرٌ واجب يا أهل التوحيد، وهو من أداء حق التوحيد، والله جَلَّ وَعَلَا سيسألنا عن النعيم، ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾[التكاثر:٨]، فأيُ نعيمٍ أعظم من توحيد الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ!! والله تَعَالَىٰ يقول: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[الضحى:١١]، قال بعض أهل التفسير: بالنبوة، وأعظم ما أرسل الله به الرسل هو التوحيد؛ فعلينا أن نتحدث عن التوحيد وأن نتكلم عنه وأن ندعوا إليه وأن نأمر به قدر استطاعتنا.

وعلينا أن نتحلى حينئذٍ بما أوصى به النبي ﷺ، رَكْبَ دُعاة التوحيد الذين بعثهم دُعاة إلى توحيد الله عَزَّ وَجَلَّ حينما بعث معاذًا وأبا موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا إلى اليمن قال: «تطاوعا ولا تختلفا وبشرا ولا تُنفرا»؛ ما أحوجنا حين دعوتنا إلى التوحيد إلى مراعاة وملاحظة هذه الوصية العظيمة أن نكون مُبشرين لَبِقِين، نُحسنُ الكلام عن التوحيد، ونحسن إيصال التوحيد إلى الناس بالأسلوب الحسن والكلمة الطيبة، أن نكون مُبشرين وأن لا نكون مُنفرين. ثم أنْ نتطاوع ولا نختلف. إن من أعظم أسباب قوة دعوة التوحيد اتفاق أهلها وعدم اختلافهم، إن اختلاف دعاة التوحيد واختلاف أهل التوحيد يعني ضعف دعوتهم ويعني قوة أعدائهم.

يا أهل التوحيد هذا الزمان كل أحدٌ فيه يتكلم، وكل أحدٍ فيه يدعو، أعداء الرُسل وأعداء التوحيد لهم منابرُ كثيرة ينفذون من خلالها إلى النَّاس، لهم

فيه خير كثير فيه بركة، لو أنك قدَّمت لو أنك بذلْتَ لحصل الخير الكثير بتوفيق الله سبحانه.

قنوات، ولهم مواقع، ولهم كُتب، ولهم دورات، ولهم معاهد، ولهم جامعات، ولهم مراكز، ولهم إذاعات، ولهم مجلات، ولهم صحف، وهل يليق بعد كل هذا والشر ينتشر، وشياطين الإنس يجتالون النَّاس عن عقيدة التوحيد وعن منهج أهل السُنة والجماعة حقًا، ونحن فيما بيننا نتلاسن ونتهارش ونختلف ونتباغض ونتدابر! أيليق هذا؟

الناس تتعاطى السحر، تعلق التمائم، تُمارس البدع، تلجأ إلى القبور، تشُد الرحال إليها، تحج إليها، تكفر بالله ﷻ حيث تنذُر إليها وتطوف بها، ونحن نختلف فيما بيننا ونتهارش فيما بيننا! ونحن جميعًا على نهجٍ واحد وعلى طريقٍ واحد، طريق السُنة والتوحيد؛ أهذا يليق يا أهل التوحيد؟ أيليقُ بالموحد أن يرى محارم الله تُنتهك وهو بارد لا يُحرك ساكنا؟ أين أثر التوحيد على نفسك؟(١٠٦٢)

التوحيد يقتضي -يا رعاك الله- أن يكون في قلبك تعظيمٌ لله، فأنت تعتقدُ أن الله حقُّه أن يُذكر فلا يُنسى، وأن يُشكر فلا يُكفر، وأن يُوحد فلا يُشرَك به،

(١٠٦٢) إني لأجزِم -وأظنكم جميعًا تتفقون معي- على أنَّه ما كان لهذه المنكرات العقدية أن تفشوا في المجتمعات المسلمة إلا بسبب تقصيرنا نحن معشر طلاب العلم، المجتمعات المسلمة تَعجُّ بالمنكرات العقدية الفادِحة، فكيف يهنأ طالب العلم وكيف يستلذُّ بعيشه وهو يرى محارم الله تُنتهك.

ولذلك كل مصيبةٌ عندك أهون من أن يُعصى اللهُ ﷻ في أرضه، لا سيما فيما يتعلق بجناب التوحيد[١٠٦٣].

شأنُ الموحِّد شأنٌ عجيبٌ إحساسه مرهف؛ المبتدع يبتدع وهو يتألم لابتداعه، والعاصي يعصي وهو يبكي من أجله، ذاك يضحك بمعصيته ويضحك بشركه ويضحك ببدعته، والموحد يبكي لأجله، ذاك يُفسد ومُهِمَّة الموحد أن يُصلح؛ هذه حقيقة تحقيق التوحيد يا إخواني[١٠٦٤]، وهذا هو أثر التوحيد على السلوك وعلى الأخلاق. [١٠٦٥]

(١٠٦٣) ولذلك قال بعض السَّلف: «وددتُ أن لحمي قُرِضَ بالمقاريض وأن الناس ما عصوا الله».

(١٠٦٤) مَن وصل إليها فليعم أنَّه وصل إلى خير عظيم، ونِعمة كبرى لا تُماثلها نعمة.

(١٠٦٥) ووصيتي لنفسي أولًا -وأنا الأحْوج إلى هذه الوصية- ثمَّ لأخواني؛ أن نحرص وأن نبذل وأن نجتهد، وأن نسعى إلى أن تكون دعوتنا دعوة حكيمة، دعوة تُقبِل عليها النفوس؛ فإنَّ النبي ﷺ أوصى دعاة التوحيد كما في «الصحيح» «بشِّرا ولا تُنفِّرا»، الدعوة تحتاج إلى لباقة، تحتاج إلى حُسْن تعامل، تحتاج إلى حكمة ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[البقرة:٢٦٩] لا سيَّما في الدعوة إلى التوحيد، تحتاج إلى أن تجعل هذا الموضوع نَصْبَ عينيك وفي بؤْرة وأُسّ اهتماماتِك، وبذلك تُثمر. أمَّا لو جعلْنا التوحيد والاهتمام به وتعلَّمه وتعليمه والدعوة إليه من فضول الأشياء عندنا ومن الأمور كما يُقال الثانوية؛ فدعوتنا إن نفعت ستكون ضعيفة، ستكون قاصرة، لكن لو كان هذا الموضوع هو الذي يسيطر على تفكيرنا فإننا سنجد الطريق إلى الكلام عن التوحيد، ولو تكلمنا عن أي شيء . سبحان الله! كيف يُوفَّقُ بعض الناس الذين تشرَّبُوا من حُبِّ التوحيد ومن الاهتمام

الله الله بالجد والاجتهاد والعمل وبذل الوسع في الدعوة إلى التوحيد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصيحة، نحن في زمن غربة قلَّ العلم وقلَّ العلماء، وانتشرت الأهواء، فلا ينبغي لمن بصّره الله وأنار قلبه وبصيرته أن ينثوي وأن ينطوي وهو يرى حرمات الله ﷻ تُنتهك وهو لا يُحرك ساكنًا.(١٠٦٦)

به حتَّى إنك لتجد أحد هؤلاء يتكلم عن التوحيد ويدعو إليه ولو كان حديثه عن الطهارة، ولو كان حديثه عن الأخلاق، ولو كان حديثه عن الاقتصاد، يجد المدخل الذي يدخل منه إلى الدعوة إلى التوحيد؛ وهذا أعتقد أنَّه لا يتيسر إلا لمن جاهد نفسه وعكف على مثل هذا الكتاب بالنظر والدراسة والتأمُّل، وانطرح بين يدي الله ﷻ أن يوفِّقه أن يكون من المحقِّقين للتوحيد ومن الداعين إلى التوحيد.

الحديث كما يُقال ذو شجون، ولعل في هذه التذكرة ما يكون سببًا لأن نَنشط وأن نجِدَّ وأن نجتهد في تعلم التوحيد وتعليمه.

(١٠٦٦) وأُنبِّهُ ختامًا إلى أنَّ هذا الكتاب حريٌ أن يُعاد النَّظر فيه، وأن تُكرَّر دراسته، ولا تظننَّ أنك انتهيت منه ولا حاجة للرجوع إليه؛ لا قراءة، ولا حفظًا، ولا مراجعة، ولا دراسة؛ كلا بلْ لم يزلْ علماؤنا يكرِّرون النظر في كتاب التوحيد ويتأمَّلونه ويعيدون قراءته مرةً بعد أخرى؛ لأن النفوس بحاجة، ولأن الشيطان حريص، قد ينسى الإنسان وقد يركن، وهو بحاجة إلى أن يُكرَّر عليه دائمًا هذا الأمر.

أدركتُ الشيخ العلامة ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ ويُقرأ عليه هذا الكتاب في الأسبوع الواحد عِدَّة مرات، بل أدركتُه يُقرأ عليه في الدرس الواحد وطريقته أن تُقرأ عليه كُتُب عِدَّة في المجلس الواحد؛ يُقرأ عليه كتاب التوحيد أكثر من مرَّة، مرَّة مع شرح، ومرَّة مجردًا عن الشرح. أيُّ اهتمام هذا! ولذلك انظر إلى طريقة الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذا تكلم لا يمكن أن يُخْلِي كلمة، لا

أسأل الله جل وعلا أن يُعينني وإياكم على طاعتهِ ومرضاته، وأن يُسدد أقوالنا وأعمالنا، وأن يرزقنا الإخلاص والسداد والهداية والقبول، إنَّ ربنا لسميع الدعاء.

وصلى الله على نبينا محمد وآلهِ وأصحابه أجمعين.



يمكن أن يُخْلِي نصيحة أو موعظة ولو قَصُرت عن التنبيه على التوحيد، أو الإشارة إلى شيء من مسائله.

أسئلة نهاية الدرس

بتأريخ: [١٢/ ٤/ ١٤٣٧]

السُّؤَال: إذا أراد أن يحفظ الطالب كتاب التوحيد، فهل يحفظ أحاديث الكتاب بألْفاظها، أم بالألْفاظ من كُتب السُّنن؟

الجَوَاب: لا، احفظ كتاب التوحيد على ما هو عليه، والمؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ -الذي يظهر والله أعلم- أنه كتَب هذا الكتاب أو بعضه من حِفظه، ولذلك وقع في بعض الأحاديث التي أوردها ذكْر الحديث بمعْناه، ولكن المعنى إذا اختلف اختلافًا يسيرًا من المحدِّث به والعالِم بمعْناه فالأمر في ذلك يسير، لكن احفظ الكتاب بألْفاظ مؤلِّفه وتنبَّه إلى هذه الدقائق، ومن أحسن مَن نبَّه إليها: الشيخ سيلمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب؛ حفيد المؤلف الذي هو أول مَن شرح «كتاب التوحيد»، وكتابه أهمُّ شرْح على كتاب التوحيد، وهو: «تيسير العزيز الحميد»، وكان له عناية خاصة بتَتَبُّع هذه الملحوظات على الأحاديث التي أوردها الشيخ رحمه الله، فاحفظ كتاب التوحيد على ما هو عليه، وتنبَّه إلى هذه الملْحوظات من خلال كتاب التَّيسير.

السُّؤَال: ما هو أفضل شرح لكتاب التوحيد؟

الجَوَاب: شروح كتاب التوحيد كثيرة، ولكن لا شكَّ أن أُمَّ الشروح -إن صحَّ التعبير- وهو الذي عوَّل عليه كلُّ مَن جاء بعده: «تيسير العزيز الحميد» ؛ هذا أفضل الشروح، وأهمّ الشروح، وأَوْعَب الشروح. وإذا كنت تريد شرحًا

وَجيزًا تقتصر عليه فمن وِجْهة نظري أن حاشية كتاب التوحيد للشيخ عبد الرحمن بن قاسم هو أفضل الشروح الوَجيزة.

السُّؤَال: ما هو توحيد المعرفة والإثبات؟

الجَوَاب: هو توحيد الرُّبوبية وتوحيد الأسماء والصفات، القسْمة الثُّنائية هي هي القسْمة الثلاثية مع اختلاف في الألْفاظ فقط؛ توحيد المعرفة والإثبات: هو توحيد الرُّبوبية وتوحيد الأسماء والصفات، وتوحيد القصْد والطَّلب: هو توحيد الأُلوهية.

السُّؤَال: توحيد الحاكمية هل هو نوع رابع؟

الجَوَاب: توحيد الحاكمية لا يخرج عن توحِيدَي الرُّبوبية والألوهية، فإن كان المراد أن الله جلَّ وعلا له الحُكْم فإن هذا راجع إلى توحيد الرُّبوبية وأن من صفاته ﷻ أن له الحكْم، وأنه الحكيم بمعنى الحاكم، وإن أُريد تطبيق حكْم الله ﷻ فهذا من العبادة، فهو من توحيد الأُلوهية.

السُّؤَال: حول إِقْلال الشيخ من الكلام عن توحيد الأسماء والصفات في كتابه؟

الجَوَاب: أنا ذكرتُ في الدرس أن المؤلَّفات في توحيد الأسماء والصفات والرَّد على المخالفين فيها كثيرة جدًا، مُنْذُ عصْر مبكر وإلى عصْر المؤلف

رَحِمَهُ ٱللَّهُ والعلماء يؤلِّفون في هذا الباب؛ لأن الخلاف في توحيد الأسماء والصفات في الأُمَّة قديم، أمَّا توحيد الأُلوهية فإلى القرْن الرابع لم تكن هناك مَظاهر للمخالفات العقَديَة، لم ينتشر الشرك إلا في القرن الرابع، أما قبل ذلك فعامة الناس على عقيدة التوحيد -أعْني توحيد الأُلوهية- ، ومع ذلك فالمؤلَّفات في توحيد الأُلوهية كانت قليلة، يعني كان هناك نزْر يَسير، ابن رجب مثلًا كتب في شرح كلمة الإخلاص، ولكن موضوع مخْصوص وليس كتابًا عامًا، المَقْرِيزي في القرْن التاسع عنده «تجريد التوحيد المُفيد» ولكن أيضًا كتابه لم يدخل إلى التفاصيل بتعمُّق، كما أنه كتابٌ منتَخَب من كلام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ وما كادَ أن يخرج عنه، أمَّا كتاب مفصَّل وواسِع وشامل كَكِتاب التوحيد للشيخ محمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ فهذا شيء ما سُبق إليه.

۞۞۞

[فضْل التوحيد وما يكفِّر من الذنوب]

بتأريخ: [١٤/ ٤/ ١٤٣٧]

السُّؤَال: ما ذكرْتموه في الدرس الماضي من التفريق في النظر إلى الطاغوت من جهة المعْبود، ومن جهة العابد؟

الجَوَاب: قلنا إن الشَّأْن في الطاغوت أن يُنظر فيه من جهتين:

*من جهة العابِد؛ كلُّ مَن عبد غير الله فإنه يُقال في حقه إنه عبَد الطاغوت، فكلُّ ما عُبد من دون الله من هذه الجهة فهو طاغوت، يُقال: هذا عبَد الطاغوت،

وإن كان عبَد شجرًا، أو عبَد بوذا، أو عبَد عيسى، أو عبَد فاطمة رضي الله عنها؛ كلُّ هؤلاء نقول في حقهم إنهم عبدوا يعني هذا المشرك عبَد الطاغوت.

*أما إذا نظرنا إلى المعبودِين -كان الضوء الآن مُسلَّطًا على العابدين- فإن المقام فيه تفصيل بحسب الأحوال الثلاثة التي ذكرتُها لك؛ فلا يُقال في كل معبود إنه طاغوت، إنما المقام فيه تفصيل:

-إن كان ممَّن لا إرادة له فهذا طاغوت.

-أو كان له إرادة وهو راضٍ وقابِل فإنه طاغوت.

-أما إن كان كارِهًا لذلك وحالُه تدلُّ على ذلك فإنه لا يُقال في حقه إنه طاغوت.

السُّؤَال: ما هو الشرح الصحيح لقول النبي ﷺ: «لَمْ يَعْمَلُوا خَيْرًا قَطّ»؟

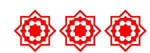
الجَوَاب: «لَمْ يَعْمَلُوا خَيْرًا قَطّ» زائدًا على أصل الإيمان، وإلَّا لا شكَّ أنهم أتوا بـ(لا إله إلا الله) ولابدَّ أنهم أتَوا بعملٍ قلْبي، وبالتالي فلابدَّ أن يكونوا أيضًا أتَوا بشيء من عمل الجوارح. إذًا: الجمع بين النُصوص -أُعيد وأُكرِّر- أنه أصْلٌ أَصيل في منهج أهل السنة والجماعة في الاسْتدلال والتلقِّي، لابد من ضمِّ النصوص بعضها إلى بعض.

أو يُقال كما قال ابن خُزيمة رَحِمَهُ اللَّهُ: إن النفي هاهنا جارٍ على طريقة العرب في أنهم ينفُون الشيء لانتِفاء القدْر الواجب فيه، بدليل حديث الرجل الذي قتَل تسعة وتسْعين نفسًا، فملائكة العذاب قالت: إنه ما عمل خيرًا قطّ، والملائكة لا

تكذب، لكن كلامهم جارٍ على هذا السِّياق، مع أن الرجل قد أتى بخَير، الرجل أراد الخير ورَغِب في التوبة ورحل وهاجر في سبيل الله، فكيف يُقال: إنه ما أتى بشيءٍ البَتَّة! لكن لمَّا كان قد وقع في ذنوبٍ عظيمة وترَك واجباتٍ جسِيمة فإنه صحَّ في حقه أن يُقال: إنه ما عمل خيرًا قطّ.

السُّؤَال: عن مُطلق الإيمان، والإيمان المطلق؟

الجَوَاب: مُطلق الشيء: أصْله أو أيّ قدْر منه، والشيء المُطلَق: هو الشيء الكامل، والتفْريق بين هذا وهذا من الأشياء المهمَّة التي يحتاجها طالب العلم، فمَن فهم هذا التفريق سهُل عليه التوفيق بين كثير من النصوص التي قد يظنّ إنسان أن فيها شيئًا من الاختلاف أو التعارض، فمثلًا: مُطلق الإيمان: هو أصل الإيمان، والإيمان المطلق: هو الإيمان الكامل. والله تعالى أعلم.



[قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]]

بتأريخ: [١٣/ ٤/ ١٤٣٧]

السُّؤَال: إذا عبَّر العلماء عن الغاية والحكمة أو العلَّة، إذا عبَّروا بشيء من هذه الكلمات فكلها ترجع إلى معنى واحد؛ هل يمكن أن تتخلف حكمة الله عن فعْله؟

الجَوَاب: حكْمة الله جل وعلا مرْجعها إلى الإرادة الشرعية له ﷻ؛ وقد يقع المراد وقد لا يقع، لكنه لابدَّ أن يكون محْبوبًا لله، أما الإرادة الشرعية فهي التي لابدَّ من وُقوع المراد فيها ولا يمكن أن يتخلَّف وقوعه، ولكن قد يكون محبوبًا لله، وقد يكون مبغوضًا لله، وقد يكون لا محبوبًا ولا مبغوضًا؛ مثل الأعْيان التي لا دليل على أن الله يحبها، أو الأفعال التي لا دليل على أن الله يحبها.

مسألة إيلام الأطفال والحيوانات ونحو ذلك مسألة الكلام فيها طويل وكثير، ولكن تنبَّه إلى أن الحكمة قد تكون راجعةً إلى المُؤْلَم نفسه -يعني الشيء الذي وقع عليه الألَم- وقد تكون الحكمة لغيره، وهذا يفتح لك باب التبصُّر في هذه المسألة. وعلى كل حال مِن أحسَن مَن تكلم عنها: ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في «مفتاح دار السعادة».

السُّؤَال: «ما تجاوَز به العبدُ حدَّه من معْبود»، كيف تكون المُجاوزة في العبادة؟

الجَوَاب: كل عبادة لغير الله ﷻ فهي مُجاوَزَة، يعني ليس هناك تفصيل في العبادة، التفصيل في الاتِّباع والطاعة، أما في العبادة فكل ما تُقُرِّبَ به لغير الله ﷻ فهو مُجاوَزَة للحدّ، وبالتالي فتكون هذه عبادةً طاغوتية.

السُّؤَال: الميّت إذا عُبد، هل يُعتبر طاغوتًا؟

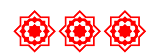
الجَوَاب: قلنا هذا فيه تفصيل؛ فإذا كان راضيًا بذلك قبل أن يموت فلا شكَّ أنه طاغوت، أما إذا كان في حياته رافضًا لذلك أو عُبد بعد موته فإنه لا يُسمى طاغوتًا من جهة كونه معبْودًا، إنما عابده يُقال إنه اتَّخذ طاغوتًا.

السُّؤَال: لمَّا قلنا إن الشخص إما أن يكون موحِّدًا أو مُشركًا، يسأل عمَّن أشرك الشرك الأصغر؟

الجَوَاب: في غالب الإطلاقات التي تُطلق إذا قارَنا بين التوحيد والشرك تنبّه إلى أن المراد: الشرك الأكبر، أظنُّ أنَّني لا أحتاج إلى التَّنبيه على هذا مرَّة أخرى.

السُّؤَال: ما الفرق بين المشرك والكافر؟

الجَوَاب: في ذلك بحْث طويل عند أهل العلم، لكن الغالب أن يكون الكفرُ أعمّ من الشرك.



[باب: مَن حقَّق التوحيد دخل الجنة بغير حساب]

بتأريخ: [٢٠/ ٤/ ١٤٣٧]

السُّؤَال: عن سؤال الناس، هل يوجد سؤال للناس لا ينافي تحقيق التوحيد؟

الجَوَاب: أنَّ الحكمة في الحثِّ على ترْك سؤال الناس ظاهرة، وهي حُصول الذلّ للمسؤول؛ وعليه فمتى لم يحصل الذّلّ في سؤال المسؤول فإنه لابأس بذلك، بمعنى سؤال الإنسان شيئًا أو طلَب الإنسان شيئًا من ابنه، أو من زوجه أو من صديقه أو ما شاكَل ذلك، هذا أمْر لا يحصل به ذُلّ، وبالتالي فإنه ليس داخلًا في هذا الحديث، ولذلك النبي ﷺ ثبت عنه في أحاديث عدَّة أنه كان يطلب؛ طلب من عائشة رضي الله عنها، وطلب من غيرها أشياء، فدلَّ هذا على أن السؤال الذي جاء الحث على ترْكه إنما هو سؤالٌ فيه شيء من الذُّل للمخلوق، ومتى انتفى ذلك فإنه لا حرَج إن شاء الله.

طبعًا لا يدخل في ذلك -وأظن هذا واضح- لا يدخل في ذلك سؤال العلم باتِّفاق العلم، سؤال العلم هذا شيء آخر، إنما الذي جاء الحث على ترْكه إنما هو سؤال شيء من الدنيا.

السُّؤَال: ما اسْتعمال المَعاريض الذي جاء في الحديث ؟

الجَوَاب: هو في جواب النبي ﷺ: «سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ»، ما قال له النبي ﷺ "أنا لن أدعو لك"، أو "أنت مثلًا لا تسْتحق ذلك"، إنما أجابه بما يُفيد هذا المعنى ولكن بأُسْلُوب لَطيف فيه تعريض، قال: «سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ».

السُّؤَال: عن شخص كان يسْترقي ثم ترَك الاسْترقاء راجيًا الثواب من الله وأن يكون ممَّن يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب؟

الجَوَاب: الذي يظهر -والله أعلم- أن مَن ترك ذلك وعزَم على ألَّا يَعود إليه أنه يُرجَى له أن يكون من أهل السبعين ألْفًا، يشْهد لهذا: ما ثبت في "صحيح مسلم" من قول عِمران بن حُصين ﷺ أنه كان يُسلَّم عليه -يعني من قِبل الملائكة، سبحان الله! يسمع تسْليم الملائكة عليه، والأثر في مسلم- يقول: فاكْتَوَيتُ فانقطع ذلك، فلما تركتُ ذلك -يعني الكَيّ- رجعوا إلى السلام عليَّ. فالذي يظهر -والله أعلم- أن مَن ترَك الاسْترقاء وعزم على أن لَّا يعود إليه لأجل أن يحصِّل هذا الفضل فيُرجى إن شاء الله أن يفوز بهذا الفضل.

تحقيق التوحيد المستحب، وتحقيق كمال التوحيد المستحب، وكذلك التوحيد الواجب، وكمال التوحيد الواجب، عبارات بالمعنى نفسه.

السُّؤَال: ما رأْيكم بحفْظ قصيدة ابن أبي زيد القَيرواني في العقيدة؟

الجَوَاب: لا أعلم له قصيدة في العقيدة، إنما له مقدِّمة، بلْ له مقدِّمتان: مقدِّمة لكتابه "الجامع"، ومقدِّمة لكتابه "الرسالة"، ومقدمة الجامع هي

الأَوْعَب والأكثر، ومقدمة الرسالة هي الأشهر، نُظِمَتْ هذه المقدمة نظَمَها غير واحد، ومنهم: ابن مشرَّف، حفْظها لابأس به، جيّد، المتن على عقيدة أهل السنة والجماعة.

السُّؤَال: عن حكْم طلب العلاج من الطبيب؟

الجَوَاب: قلنا أن هذا لابأس به، ليس داخلًا في حديث السبعين ألْفًا.

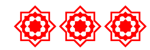
السُّؤَال: يسأل عن مسألة يكثر البحث فيها واسْتشكالها وهي: وُرود بعض الأحاديث في كتاب التوحيد وقد ضعَّفها بعض العلماء؟

الجَوَاب: أولًا ينبغي أن تعلم -يا رعاك الله- أنه لا يوجد حديثٌ في كتاب التوحيد موضوع، ولا يوجد أيضًا حديثٌ مُجمَعٌ على ضعْفه، هذا أمر لا يوجد؛ بل لابدَّ أن يكون في كل حديث جاء في هذا الكتاب أن يكون هناك مَن صحَّحه أو حسَّنه من أهل العلم.

وعلى كل حال هناك بحث في أحاديث يَسيرة، المؤلِّف رَحِمَهُ اللَّهُ أكثر من نصف أحاديثه في "الصحيحين" أو أحدهما، كان له عناية رَحِمَهُ اللَّهُ بـ"الصحيحين"، والشطْر الآخر الذي هو أقلّ من النصف هذا فيه أحاديث يسيرة وقَع فيها بحْث؛ من أهل العلم مَن ضعَّفها، ومن أهل العلم مَن حسَّنها أو صحَّحها، وبالتالي المؤلِّف رَحِمَهُ اللَّهُ اجتهد أو قلَّد مَن صحَّح أو حسَّن هذه الأحاديث. هذا شيء.

الشيء الآخر: لا يُوجد باب بنى عليه المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ على حديثٍ ضعيف، إنما يورد المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ حديثًا فيه كلام لأجل أن يُسْتَأْنَس به، إضافةً إلى ما في

هذا الباب من أدلة صحيحة من حديث النبي ﷺ أو من آيات القرآن. فهذا من الأمور التي ينبغي أن تتنبَّه لها، وينبغي أن يُربِع الإنسان على نفسه في مثل هذه المسائل.



[باب: الخوف من الشرك]

بتأريخ: [٢١/ ٤/ ١٤٣٧]

السُّؤَال: ذكرنا الخوف من قَبول الحسنة، أَلَا يكون الإنسان بهذا الخوف شاكًّا في اسْتجابة الله لعمله؟

الجَوَاب: كلَّا؛ الخوف -بارك الله فيك- من عدم قبول الحسنة ليس راجعًا إلى الشكّ في رحمة الله وفضْله ووعْده، إنما هو راجع إلى خوف الإنسان أن يُعاقَب على سيئته، فيكون عدم قبول الحسنة جزاءً على وُقوعه في سيئةٍ سبقَت ذلك. الله جل وعلا أكْرَمُ الأكْرَمِين وأرْحم الراحمين سبحانه، ولكنَّ رحمته تقَع حيث تقتضي حكْمته؛ وعليه فإن الله جل وعلا قد يُجازي على السيئة بعدم قبول حسنة، وهذا هو الذي يخافه الإنسان.

كذلك الشَّأْن في الخوف من الوقوع في السيئة أو الخوف في الخاتمة السيئة ليس راجعًا إلى أن الله جل وعلا يُجازي الإنسان على إحسانه بأن يوقعه في الضلال والشرك ويخذله جزاءً على إحْسانه، هذا لا يظنه في الله إلا مَن يظن به ظَنّ السَّوء؛ أما أهل الإيمان فإنهم يخافون أن يُؤْتَوا من قِبل أنفسهم، وأن يُجازَوا على أعمالهم .هذه مسألة مهمَّة.

يعني: بعض الناس يعامل ربَّه كما يعامل مَن يخشى أنه يمكُر به بلا سبب وأنه يسعى للإيقاع به، ولذلك هو يعمل الصالح ويخشى أن يُجازيه الله على هذا الصالح بأن يقلِّب قلْبه وأن يصرفه عن الهداية، ليس الأمر كذلك؛ الله رحيم، والله غفور، والله شكُور، فإذا عملت الحسنة فالله يُجازيك على ذلك بأن يوفِّقك

إلى حسنة أخرى، وليس أنه يخذلك، ولذلك قال جلَّ وعلا: ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى﴾ [الليل:٩] هنا الله يجازيه على ذلك بالخُذْلان ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ [الليل:١٠].قال جلَّ وعلا: ﴿ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [التوبة:١٢٧]، وقال: ﴿وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ﴾ بأي سبب؟ ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾[النساء:٨٨].

إذًا: الإنسان يُؤاخذ ويُجازَى على سيئاته؛ وهذا الذي يخافه الإنسان، لا أنَّ الله يُجازيه على إحسانه وتوحيده بأن يصرفه عن الحق ويوقعه في سيئ العمل، كلا؛ إنَّما المَخُوف هو أن يُجازى على تقصيره، على ترْكه للواجبات، على فعْله للمحرمات، يخشى أنه يُجازَى على ذلك بالخُذْلان. نسأل الله السلامة والعافية.

السُّؤَال: هل من الممكن القول في أمْره ﷺ لعائشة بالاسْترقاء أنها كانت حائضًا؟

الجَوَاب: لا محلّ له، على أنه لا دليل صحيح يدلُّ على أن الحائض ممنوعة من تلاوة القرآن، نعم هي لا تُباشر مَسّ المصحف، لكن التلاوة ليس هناك حديثٌ صحيح فيها، ثم إنها يمكن إذا قلنا بها أن تؤخر ذلك إلى ما بعد الحيض.

السُّؤَال: هل الشرك الأصغر قد يقْترِنُ به شيء يصل به إلى الشرك الأكبر؟

الجَوَاب: نعم، ربما يترقَّى الأمر ويفحُش ما يتعلق بالشرك الأصغر حتى يُصبح شركًا أكبر، يعني بعض أفراد الشرك الأصغر ربما يفْحُش الأمر فيها ويعْظُم حتى يصل إلى الشرك الأكبر، ومن ذلك مثلًا الرياء؛ قد يكون الرياء شركًا أصغر ولكن قد يفْحُش حتى يصل إلى الشرك الأكبر، فيكون كَرِياء المنافقين الذين قال الله جل وعلا عنهم: ﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ﴾ [النساء:١٤٢]، هذا رياءٌ يدخل في الشرك الأكبر. كذلك الحلف بغير الله الأصل فيه أنه شرك أصغر، لكن ربما يترقَّى حتى يصل إلى الشرك الأكبر؛ إذا كان تعظيم المحلُوف وصل في قلْبه إلى مثل تعظيم الله.

السُّؤَال: **إذا قصَّر الشخص في ترْبية ولده، فأصبح ولدُه على شرٍّ كبير، فهل يلْحق الأبَ من الإثم مثل إثْم ولده؟**

الجَوَاب: على كل حال، مثل إثْم ولده الذي فعله وهو لم يكن سببًا مباشرًا في وقوع هذا الإثم؛ لا، لكن أن يكون مؤاخذًا على تقصيره في تربيته فلا شكَّ أن هذا تقصير يُخشى عليه من العقوبة. فعلى الإنسان أن يتوب إلى الله جل وعلا من هذا التقصير، ويسعى قدْر اسْتطاعته في إصلاح ما فات.

السُّؤَال: **لدَيّ صديق تعلم الفلْسفة حتى أصبح شاكًا في وجود الله، وأصبح مغرِقًا في المعاصي، كيف أنصحه؟**

الجَوَاب: هذا بلاء عَمَّ وطَمَّ، ومثل هذا الشخص الذي تصِف كثيرٌ -مع الأسف الشَّديد- في شباب المسلمين وفي فتيات المسلمين اليوم، ومَن خَبر الواقع يُدرك أن هذا واقع لا تضْخيم فيه. فعلى كل حال الكلام في هذا يطول، لكن الذي يهمُّني هو أنَّني أنصحك هو أن لَّا تخوض مع هذا الإنسان في جدال لسْت مُؤَهَّلًا له، أنا أعرف مَن زلَّت به القدَم فوقع في الإلْحاد بسبب أنه كان يناصح ملْحدِين؛ دخل في بعض مواقعهم وقد ظنَّ في نفسه أنه الفارس المغْوار وأنه طالب العلم الراسخ، فدخل معه في نقاشات ليس مُؤَهَّلًا لها، وإذا بالشُّبَه بدل أن تتكسَّر على يدَيه وإذا بها تدخل إلى سُويدَاء قلْبه، فكانت سببًا في انحرافه.

فالسلامة -كما قال السلف- لا يعْدِلُها شيء، لا تغامر بإيمانك، إذا كنت لسْت مُؤَهَّلًا إلى نقاش معه فلا تخُضْ معه في نقاش، ولو أراد أن يناقشك ارْفُض ذلك. دينك وتوحيدك أغلى ما تملِك؛ فلا تعرِّضه للذهاب، إنما انصَحْه بشكل عام، وذكِّرْه بالله وذكره بالموت وما بعده، أو أهدِه شيئًا من الكتب، أو أجلِسْه مع شخصٍ متمكِّن في هذا الباب حتى يناصحه، المهم ابذل السَّبب الذي لا يؤدي إلى وقوع مفسَدة تتعلق بك.

وهذا أنصح به إخواني جميعًا؛ أن لَّا يغَامروا في هذا الأمر العظيم؛ لأنَّنا اليوم أمام مشكلة كبرى، أصبحت الشُّبَه قريبة جدًا، حتى لبُيوت الصالحين بلْ حتى لبُيوت العلماء، أصبحت مهَدَّدة، حقًا حصوننا مهَدَّدة من داخلها، الآن أصْغر طفل تجد عنده حساب في وسائل التواصل الاجتماعي، طفل صغير في

الابْتدائي عنده حساب، وبالتالي يمكن أن يقرأ أي شيء، وهذه المواقع وهذه الوسائل في الحقيقة مُتخَمَة -وأنا أعني ما أقول- مُتخَمَة بالشُّبَه التي تهُزُّ الإيمان هزًّا بالنسْبة للأغمار والذين علْمهم ضَحْل وثقافتهم ضعيفة. فالأمر خطير جدّ خطير يا إخواني، ولذلك لابد من الترْشيد كما يقولون: الترْشيد الثقافي، لابدَّ من الملاحظة، لابدَّ من المتابعة، لا تترُك الحبل على غارِبه، لا تجعل ابنك لا تجعل بنتك تقرأ أي شيء، ما يُدريك!

مرَّ بي شاب طالب علْم هنا في المدينة، وكان يحضر عندي درسًا في كتاب التوحيد -وأظن أنَّني ذكرتُ هذه القصة فيما مضى- وكان يصلي معنا هنا في الحرم، ويحضر معي في مسجد قريب هنا قديمًا قبل عدَّة سنوات درسًا في كتاب التوحيد، ويدرس في كلية الشريعة، أمسَكَنِي مرَّة وقال: والله أنا لا أدري هل أنا أعْبث أو ألْعب، هل هناك شيء وراء هذه الحياة، هل هناك ربّ أعبده؟ انظر! والله يصلي معنا في الحرم ويحضر الدرس ويدرس في كلية الشريعة، وقلْبه يغْلِي من الشُّبَه، قلتُ: من أين أُتيت؟ قال: وأنا في الثانوي قرأتُ كتابًا في الإلْحاد وإذا بالشُّبه ما خرجت من قلبي إلى هذه اللحظة، وهو كان في السنة الثانية أو الثالثة، وأرجو الآن أن الله ﷻ قد أذْهب ما به.

أنا أقول لكم يا إخواني: هذا الموضوع -موضوع اللَّادِينية والإلْحاد وهذه الزَّندَقَة المنتشرة- شُبَهها أغْبى الشُّبه وأتْفع الشُّبه، ومع ذلك هي أخطر الشُّبه؛ أتْفه الشُّبه للعالِم بها، والذي آتاه الله ﷻ رُسوخًا في العلم وخبرة بهذه المَقالات، لكنها في المقابل أخطر الشُّبه للجُهَّال، وما أكثر الجهل.

فحذار يا إخوان من المغامرة في هذا الأمر العظيم، تابع، انظر، فتِّش، راقب أبناءَك، راقب أهل بيتك، ما أكثر الذين يقعُون في أخطار عظيمة جدًا من الأبناء بلْ من بيوت الصالحين -كما أسلفْتُ- وآباؤهم وأهليهم في غفْلة عنهم، والابن يسْتمر في الضلال ويرْتقي إلى أُمور عظيمة، ومَن معه في البيت لا يدرُون عنه شيئًا.



[باب: الدعاء إلى (شهادة أن لا إله إلا الله)]

بتأريخ: [٢٦/ ٤/ ١٤٣٧]

السُّؤَال: هل الجاهل يُعذَر في مسائل التوحيد؟

الجَوَاب: هذا سؤال لا ينبغي أن يُطلق فيه الجواب لا بنفْي ولا بإثبات؛ قد يكون الجهل عُذرًا، وقد لا يكون عُذرًا، والمسألة أكبر من أن يُجاب عنها في هذه العُجالَة.

السُّؤَال: هل يجوز الحلف بالنبي ﷺ ؟

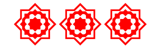
الجَوَاب: لو ثبت عن النبي ﷺ أنه حلف وأقسَم بنفسه أو بأحدٍ من الأنبياء لقُلنا على الرأس وعلى العين، ينبغي أن نتبَع النبي ﷺ في ذلك، لكنَّا فتَّشْنا في السنة ونظرنا فما وجدْنا النبي ﷺ هو، وكذلك لم نجد أحدًا من أصحابه رضوان الله عليهم وصلى الله على نبينا وسلم، لم نجدْهم أقسموا بالنبي ﷺ البَتَّة، فماذا نصْنع حينئذٍ؟ أَنَتَّبِع النبي ﷺ وأصحابه، أم نخالفهم؟! هذا واحد.

وثانيًا: لما فتَّشْنا ونظرنا في هذا الموضوع؛ وجدنا النبي ﷺ ينهانا عن أن نحلف بغير الله، ويأمرنا بأن نحلف بالله فقط، قال النبي ﷺ: «مَن كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ أَوْ لِيَصْمُتْ». ماذا نقول لو أن النبي ﷺواجهنا بهذا الكلام؟ لو قال لك: يا فلان، إذا كنت حالفًا فاحلف بالله أو اصْمُت؛ ما الذي يَسَعُك؟ والله لا يَسَعُك إلا أن تسْتجيب وتقول: سمعًا وطاعة.

وجدنا النبي ﷺ يقول: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ»؛ إذًا على الإنسان الذي يحلف بغير الله أيّ شيء سِوى الله جلَّ وعلا عليه أن يتذكَّر هذا الحديث عن النبي ﷺ.

السُّؤَال: مَن كان قصْده من الدعوة بعد أن يُفيد الناس بالدعوة أن يُذكر بالخير بعْد وفاته، وأن يُترحَّم عليه مع العلم أن الإنسان يحتاج إلى الدعاء بعد الموت؟

الجَوَاب: هذا لابأس به، وليس قادِحًا في التوحيد، بلْ هذا من ثمرات الدعوة، ومن فضل الله جل وعلا أن الله سبحانه يُيسِّر له مَن يدعو له ومَن يسْتغفر له بعد موته، هذا من أعظم النِّعَم التي يُوفَّق إليها الإنسان بعد موته؛ أن الله يسخِّر له مثل هؤلاء، فهذا من الأمر الطيب الذي لا يقدَح في الإخلاص.



[باب: الدعاء إلى (شهادة أن لا إله إلا الله)]

بتأريخ: [٢٧/ ٤/ ١٤٣٧]

السُّؤَال: دعوة المظلوم الكافر لا تُرَدُّ أيضًا؟

الجَوَاب: الذي يظهر -والله أعلم- أن الحديث لم يخصِّص، فأيُّ مظلوم ولو كان كافرًا فإن دعْوته على سبيل الإجابة؛ وذلك أن الله جل وعلا كما يُجيب دعوة المسلم يُجيب دعوة الكافر، فإن إجابة الدعاء -كما يقول العلماء- من فروع الرُّبوبية، والله جل وعلا رُبوبيته عامة.

السُّؤَال: مَن هُم أهل خيبر في ذلك الوقت؟

الجَوَاب: هم اليهود، فاليهود هم سكان خيبر، وكان في خاتمة الأمر أن هؤلاء اليهود حصلت أمور، لكن آلَ الأمر إلى أن النبي ﷺ صالحَهم على أن يكون نصْف خراج خيبر لهم، ونصف خراج خيبر للمسلمين.

السُّؤَال: بعض الناس إذا أصابهم شيء يقول: النَّجدة، هل في هذه الكلمة بأْس؟

الجَوَاب: والله الأمر يحتاج إلى النظر في قصْد القائل؛ إن كان مقصوده أنه يطلب النَّجدة ممَّن حوله وممَّن يسْمعه فهذا لابأس به، هذا على نحو قوله تعالى: ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾ [القصص:١٥]،

النَّجدة طلب النجد، يعني أطلب النَّجدة، أعِينُونِي. أما إن كان أراد التوجُّه إلى الأولياء أو الأموات أو الملائكة أو الجن فهذا من الشرك، فالمقام يحتاج إلى تفصيل.

السُّؤَال: في دعوة غير المسلمين، هذه المسائل التي تُثار: الحجاب، تعدُّد الزوجات، حدّ الرِّدَّة، وما شاكل ذلك، هل تُطرَح على الكفار في ابْتداء الدعوة؟

الجَوَاب: هذا في الحقيقة ليس من الفقْه، إنما عليك أن تسْلك السبيل الذي بيَّنه النبي ﷺ، احرص في كلامك مع هؤلاء على أن تُسلِّط الضوء على قضية التوحيد أولًا، ودَعْك ولا تُجَر إلى نقاش حول هذه الأمور، لو حاول هذا الإنسان أن يجرّك، قل له: دَعْ هذا الأمر وأخبرني برأيك في هذا الأمر؛ وهو التوحيد، فإذا أذْعَن وسلَّم انتقل معه بعد ذلك إلى قضية العبادة، فإن أذْعَن وسلَّم ناقش حينئذٍ مثل هذه الشُّبَه، ولكن تحتاج إلى أن تتسلَّح لها بفقْه وانتباه.

يعني مرَّ بي بعض الناس عندهم خلْط عجيب في هذا الباب!! تخيلوا بعض الدعاء -مع الأسف الشَّديد- يأتي إلى الكافر أول مرَّة، يقول: انتبهْ مطلوب منك أن تترك الخمر، ومطلوب منك تترك النساء، ومطلوب من زوجتك أن تتحجب وأن تغطي وجَهها أيضًا، وغير ذلك من هذه الأمور التي من المسلمين من فُسَّاقهم مَن يفرِّط فيها، فكيف تطلب ابتداءً قبل بيان التوحيد ذلك؟! بلْ بعضهم

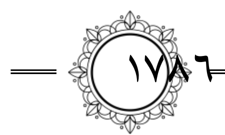
كان يقول للكافر: انتبه، أنا أنصحك، إذا أسلمت ثم ارْتَدَدت فإن رقبتك سوف تُجَزّ، فأنا أنصحك أن تتريَّث وتفكر.

يعني هذا الإنسان لا يدري هل هو يدعو إلى الإسلام أو يدعو ضدّ الإسلام، لأن مثل هذه الكلمة لو جاءت لهذا الكافر ماذا سيفعل؟ سوف يُعيد النظر كثيرًا قبل أن يخطوا هذه الخُطوة. فالدعوة إلى الله تحتاج إلى بيان، تحتاج إلى تسْهيل الأمر، وتحْبيب، وأنك ستفوز برضا الله، ستحصل على راحة وطمأْنينة، وأمثال ذلك من هذا الكلام المقرب، لأن ألْف شيطان في تلك اللحظة يسعى إلى إبعاده عن هذا الحق الذي أنت تدعوه إليه، فلا ينبغي لك أن تخوض في مثل هذه المسائل في مثل ذلك الوقت.

السُّؤَال: هنا مسألة الجهاد وهل ما كان من الأمر بالكفِّ حينما كان النبي ﷺ في مكةَ، نُسِخَ أم لا؟

الجَوَاب: التحقيق في ذلك -ولشيخ الإسلام موضع نفيس في تحقيق المقام في هذا الأمر في كتابه "الصارم المسْلول"- وهو أن الأمر بالكفّ وعدم القتال لم يُنسَخ، إنما هو راجعٌ إلى حال المسلمين؛ فمتى ما كان في المسلمين قوة أخذوا بآيات القتال والسيف، ومتى ما كان في المسلمين ضعْف أخذا بآيات الكفّ والصفْح. وهذا في الحقيقة فقْهٌ مَتِين، ولا يسَع الناسَ غير ذلك.





[تفسير التوحيد، وشهادة أن لا إله إلا الله]

بتأريخ: [٢٨/ ٤/ ١٤٣٧]

السُّؤَال: ما هو القدْر الواجب الذي نُبلِّغ كافرًا -العبارة غير واضحة- حتى يدخل في الإسلام؟

الجَوَاب: مَن فهم (لا إله إلا الله) فهْمًا مُجمَلًا، نفسِّره لهذا الكافر تفسيرًا يُدركه، نُبسِّط له الأمر، وهو أن تعبد الله، ولا تعبد غير الله، وأن كل دِين سِوى دين الإسلام باطل، وأن كل معبود سوى الله جل وعلا باطل. لو فهم هذا القدر ونطَق معه بلا إله إلا الله فإنه يكون قد دخل في الإسلام، ثم بعد ذلك يُفسَّر ويُفصَّل له بقية أحكام الإسلام.

مَن كان يسْتطيع النطق بالشهادتين باللغة العربية فهذا القدر لابد منه، «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ»، لكن مَن لم يكن قادرًا على نُطْقها فإنه يُهجَّى، نقول له: انطق معي «لا» فيقول: لا، «إله» إله، «إلَّا» إلَّا .. وهكذا، وهذا الذي يُفعل مع مَن لا يعرف اللغة العربية. فإن وصل الأمر به إلى الحد حتى التهجّي غير قادر عليه -وهذا ربما يكون بعيدًا- فإنَّنا نفسّرها له، فينطق بمعناها بلُغته، وذلك لمحَل الضرورة.

السُّؤَال: هل يصح أن نقول: إن عيسى والحسن والحسين آلهة باطلة؟

الجَوَاب: نعم في حقِّ مَن عبَدهم، مَن عبد عيسى فنقول: هذا في حقك إلهٌ باطل، ومَن عبد الحسن والحسين نقول له: هؤلاء في حقك آلة باطلة.

السُّؤَال: يسأل عن الشَّك الذي يُرِدُ على الإنسان؟

الجَوَاب: فرْق -يا أيها الإخوة- بين الشك الطارئ والشك المستقر؛ قد يَرِدُ على المسلم شكٌّ طارئ، قد يَرِدُ على الإنسان خاطر من الخواطر الرَّديئة، فيقع في قلبه شيء يتعلق بالله جل وعلا بوجوده، لكنه طارئ غير مستقر فيزول، وهذا يرد، وربما يَرد على الصالحين، بل ربما على أصلح الصالحين؛ وهذا لا يضر الإنسان، «إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا، مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَتَكَلَّمْ»، إذا لم يتجاوز حدّ الخاطر والوارد ودفَعَه الإنسان بإيمانه فإنه لا يضره إن شاء الله.

إنما حديثنا السابق يتعلق بحال المنافقين الذين شكُّهم شكٌّ مستقر، الوضع عنده مستقر، يمكن أن يكون الله هو الإله الحق، ويمكن أن يكون غير حق، ويمكن أن يكون معه إلهٌ حق، يكون عنده شك ورَيب مستمر، ولذلك الله جل وعلا قال فيهم: ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة:٤٥] الأمر فيه اسْتمرار، وفيه استقرار في حقهم.

بالنسبة للكفار والمشركين لابدَّ حتى يدخلوا في الإسلام من أن يجمعوا بين الشهادتين، ولا تنفع إحداهما دون الأخرى، فلو أنه قال (لا إله إلا الله) بشروطها وأركانها ولَوازمها، ولكنه أبَى من شهادة (أن محمدًا رسول الله)، فإنَّنا نقول: لم ينتفع بـ لا إله إلا الله، فإن (لا إله إلا الله) لا تنفع إلا بقرينتها، فهما شهادتان متلازمتان لا تنفكّ إحداهما عن الأخرى. بلْ إنه في الحقيقة ما أتى بـ لا

إله إلا الله. الذي ما أتى بمحمد رسول الله ﷺ ما أتى بـ لا إله إلا الله؛ لأنه كيف سينقاد، كيف سيعبُد الله دون أن يلْتزم بشريعة محمد ﷺ؟ إذًا لا يمكن أن يكون الإنسان قد أتى بـ لا إله إلا الله حقًا إلا وقد أتى معها (بمحمد رسول الله ﷺ) ولابد.

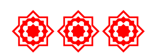
وهذا إن فهمته فهمْتَ سرّ الاقْتصار على لا إله إلا الله فقط في كثير من النصوص، فإنها في الحقيقة تسْتلزم أو تتضمن (محمد رسول الله)، ولذلك مَن أقرَّ بالعبادة لله وكفَر بالنبي ﷺ فهو كافر، ومَن أقرَّ للنبي ﷺ بالرسالة، وكفَر بلا إله إلا الله فهو كافر، ولا فرْق عند المسلمين في ذلك.

السُّؤَال: المؤلَّف الذي يفصِّل في معنى لا إله إلا الله؟

الجَوَاب: مؤلَّفات -ولله الحمد- في معنى لا إله إلا الله كثيرة، وكثير من العلماء وطلبة العلم قد كتبوا في ذلك.

السُّؤَال: هل هناك فرْقٌ بين «لا معبود حقٌّ إلا الله»، وبين «لا معبود حقٌّ في الوجود إلا الله»؟

الجَوَاب: كلمة «في الوجود» هنا زائدة لا تؤثر، فمَن قال: (لا معبود حقٌّ في الوجود إلا الله) نقول كلامه صحيح، ومن قال (لا معبود حقٌّ إلا الله) نقول: هذا هو أيضًا صحيح. والله أعلم.



[تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله]

بتأريخ: [٣/ ٥/ ١٤٣٧]

السُّؤَال: ذكرتُم في الدرس الماضي أن من الضروري عند الكلام عن لا إله إلا الله أن نعرف أربعة أمور: معنها، وأركانها، وشروطها، ونواقضها، يقول: ما تكلمتم عن نواقضها؟

الجَوَاب: الحقيقة أنا تركتُ الكلام عن نواقضها لأن الكلام فيها يطول؛ نواقض لا إله إلا الله كثيرة، أوصلها بعض أهل العلم إلى أربعمائة ناقض، تتفرَّع إلى: أقوال، وأعمال، واعْتقادات، وشكّ؛ هذه أربعة أصناف ترجع إليها أفراد هذه النواقض، ولكن تفاصيل هذا الكتاب وتضاعيف هذا الكتاب فيها بيان جملة من نواقض لا إله إلا الله.

السُّؤَال: النظر إلى الحرام أحيانًا يحبه بعض الناس؛ لأنهم لا يسْتطيعون ترْك ذلك، فهل هذا داخل في الشرك؟

الجَوَاب: لا، ليس الأمر كذلك، الوقوع في المعصية من المسلم ليس شركًا بالله جل وعلا؛ لأن أصل محبة الله ﷻ قائم في القلب، ولأن هذا الواقع في المعصية يصدِّق أن الله سبحانه قد حرمها، وأيضًا أنه يخاف من عقوبتها، وأيضًا أنه يرجو من الله العفوَ عنها أو التوفيق إلى التوبة منها، وكل ذلك يدل على ثبات الإيمان في قلبه، وأنَّ فعْله ليس من الشرك، فتنبَّه إلى الفرق بين وقوع المسلم في المعصية، ووقع غيره فيها؛ فوُقوع المسلم في المعصية لا يُخرجه عن أن يكون

عاصيًا فاسقًا إذا فعل كبيرة أو داوَم على صغيرة، أما المشرك فإنه يفعل المعصية على خلاف ذلك، إما أنه لا يصدّق أن الله حرَّمها، أو أنه لا يخاف من عقوبة الله ﷻعليها، أو أنه لا يرجو أن الله يعفو عنها أو أن يوفقه للتوبة منها.

السُّؤَال: ما الضابط في الأسماء التي لا يُسمى بها إلا الله جلَّ وعلا، وفي الأسماء التي يُسمى بها الله جل وعلا؟

الجَوَاب: الضابط في ذلك هو النظر في المعنى؛ فالمعنى الذي لا يَلِيق إلا بالله ولا يسْتحقه إلا الله فإنه لا يجوز أن يُسمى به غيره، وأما ما سِوى ذلك فإنه يجوز أن يُسمى به غيره ؛ لا على كمال المعنى إنما على ما يَلِيق بالمخلوق.

وسأل بالذات عن (العَزيز)؟

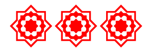
والجواب عن ذلك: أن العزيز يجوز أن يُسمى به المخلوق، قال جل وعلا: ﴿قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ﴾ [يوسف:٥١] ، فدل هذا على أن تسْمية الإنسان بالعزيز لا حرج فيها.

السُّؤَال: هل الساحر يُسْتَتَاب؟

الجَوَاب: هذه المسألة حصل فيها خلافٌ طويل بين أهل العلم، والذي يظهر -والله تعالى أعلم- أنه يُرجع في ذلك إلى الحاكم المجتهد المسلم؛ فهو ينظر إلى المصلحة وعدمها، ويقدِّر بعد ذلك هل يُسْتَتَاب أو يُقتل بلا اسْتتابة.

السُّؤَال: عن تكفير بعض الفِرَق التي هي مخالفة؟

الجَوَاب: أنَّ مَن وقع في ضلالاتٍ وبِدع تُوصل إلى حد الشرك بالله جل وعلا فإنه يكون قد أشرك مع الله ﷻ؛ مَن اعتقد أن لغير الله التحليل أو التحريم، أو اعتقد أن غير الله يُدعى أو يُذبح له أو يُنذر له فإن هذا شرك أكبر، متى ما كانت هذه عقيدة هذه الفِرْقة فإن هذا كفْرٌ بالله ﷻ، فالضابط: النظر إلى حال هذه الفرقة أو حال هؤلاء الأشخاص؛ إذا كانوا يقعُون في بدع دون الشرك فإنهم لا يُكفَّرُون، أما إذا وقعوا في الشرك الأكبر وفي الكفر الأكبر فإن هذا دليلٌ على كفْرهم، ويُنظَر بعد ذلك يُطلق الحكم بكفْرهم إطلاقًا، وأما تعْيين فلان أو فلان فإنه موقوف على ثبوت الشروط، وانتفاء الموانع. والله أعلم.



[باب: من الشرك لبس الحلقة والخيط ونحوهما]

بتأريخ: [٤/ ٥/ ١٤٣٧]

السُّؤَال: عندنا في البلاد بعض الناس إذا وجد قرْن ماعز كبير يجعله في زاوية بيته ليَراه الناس، ويجعله دِعاية وذكرى، فما الحكم في ذلك؟

الجَوَاب: إن كان هذا هو المقصود فقط فهذا فعل ليس داخلًا في موضوعنا، ليس هذا من جنس التمائم والتعلُّقات الشركية.

السُّؤَال: لو رجل لبِس لكن لا بقصْد فيه الدفْع أو الرفع، فقط كذا لبسها؟

الجَوَاب: هذه مسألة جيدة، وهي: هذه الأمور التي تُعلَّق بهذا القصد ما الحكم لو أن الإنسان علقها لا بقصْد أن تكون تميمة دافعة أو رافعة؟ الجواب عن هذا فيه تفصيل؛ هذه المعلقات تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: ما يكثر لُبْسُه بهذا القصد، حتى إن المتبادر لمن رأى ذلك يقول: فلان يلبسها على هذا القصد، مثل: حذْوة الحصان، أو هذه العين الزرقاء، أو ما شاكل ذلك هذه كثُر لبسها بهذا القصْد؛ وبالتالي فلا يجوز أن يلْبسها الإنسان ولو كان للزينة، وذلك سدًّا لذريعة الشرك، ومنْعًا لانتشار المنكر والباطل.

القسم الثاني: أما إذا كان يقِلُّ اسْتعمال مثل هذه المعلقات بهذه القصد فإنه لا حرج على الإنسان أن يعلقها أو يلْبسها إذا كانت في أصلها أمرًا مباحًا. مثال ذلك: خاتم فيه فصٌّ من عقيق، بعض الناس قد يلبسه بقصد أن يكون سببًا في دفْع أذى السّم، لكن هذا قليل، أو على الأقل في مجتمعات هو فيها قليل، فإذا كان ذلك كذلك فإنه لا يُمنع الإنسان من لُبْس خاتم من هذا الجنس؛ لأنه شيء نادر أن يُلبس بهذا القصْد.

السُّؤَال: بالنسبة لعلاج العين؟

الجَوَاب : علاج العين جاء في السنة ما يُبيِّن ذلك أنه يكون بأمرين:

أولًا: بالاغْتسال بغُسَالَة العائن إذا عُلِم.

ثانيًا: بالرقية الشرعية بكلام الله جل وعلا، أو بالأذكار النبوية، أو بالأدعية التي فيها اسْتغاثة بالله بأسمائه وصفاته؛ كل ذلك نافعٌ إن شاء الله في دفْع أذى العين.

السُّؤَال: لو وضع الإنسان على أطراف بيته أو مزْرعته ملْحًا بقصْد دفْع العين؟

الجَوَاب: هو من هذا الجنس، ما العلاقة بين الملح والجن أو العين؟! هذا أيضًا داخلٌ في جنس اتخاذ التمائم.

السُّؤَال: بعض الناس يخرِّب منظر سيارته الجديدة من أجل العين والحسد، هل هذا من الشرك أم لا؟

الجَوَاب: هذا الموضوع فيه تفْريق بين الفعل والترْك؛ بمعنى لو أن الإنسان ترَك تنظيف السيارة -ترَكها على حالها- فإن هذا لابأس به، أما أن يتخذ أشياء يفعل أشياء لأجل أن يدفع أذى العين فإن هذا لا ينبغي. كذلك فيما يتعلق بالأطفال الصغار كون الإنسان يتركهم على هيئتهم -خاصة في الأطفال الذين فيهم جمال- يخشى من أنه إذا خرج بهم فإنه ربما أصاب أحدهم العين، فإنه إذا ترَكه على هيئته ولم يزيّنه ولم يحسّنه ولم يُلْبسه اللباس الحسن فإن هذا ممَّا يُرجى إن شاء الله أنه لا يضر؛ لأن هذا ترْك وليس بفعل، والله أعلم.

السُّؤَال: إذا أصاب أحدًا جُرْحٌ في إصبعه فربطه بخيط؟

الجَوَاب: ليس هذا هو المقصود؛ إذا كان يلبس أو يضع خيطًا أو يضع قماشًا أو يضع شيئًا من هذا القَبيل لأجل أن لَّا يحصل نزِيف للدم هذا ليس من موضوعنا، ولابأس بذلك.

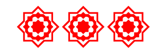
السُّؤَال: مَن قال: دَعَونا الوليَّ الفلاني، ولكما ندعوه يُعطينا؟

الجَوَاب: تنبَّه -يا عبد الله- فإن حصول المقصود ليس دليلًا على الإباحة -انتبهْ لهذه القاعدة- حصول المقصود ليس دليلًا على الإباحة، ما الذي يُدريك أن حصول مطلوبك كان من الشيخ!! أَعِنْدَك بُرْهان على هذا من ربك؟ أَجاءَ دليل على هذا في الكتاب والسنة؟ إنما هذا -بارك الله فيك- قد وافَق قدَر الله ﷻ، وما يُدريك لأنك خالفت أمْر الله جل وعلا ووقعْت في الشرك فالله ﷻيسْتدرِجُك من حيث لا تعلم؛ فاحذر وتنبَّه يا عبد الله، كونك دعَوت غير الله فوقع ما تُريد هذا ابتلاءٌ وامتحان عظيم من الله جل وعلا؛ ليَعْلَم إيمانك به أو عدم إيمانك به ﷻ، حذارِ من هذا الأمر؛ فإنه مَزْلَق خطير، حصول المطلوب كان بأمر الله ﷻ وقَدَره، ولعلَّه اسْتدراج لك، فانتبهْ.

السُّؤَال: عما انتشر في الآونة الأخيرة ممَّا يُسمى بعلم الطاقة، والطاقة الإيجابية، والسلْبية، وما شاكل ذلك؟

الجَوَاب: كل هذه هي -أَيُّها الإخوة- عقائد وثَنية وفدَت على المسلمين بأشكالٍ جديدة وأنواعٍ مختلفة؛ يقولون: إن في الإنسان طاقة يسْتطيع بها أن يفعل كل شيء، وكل شيء تُريده فإن طاقتك الداخلية تسْتطيع تحصيلها لك، أو أن

عقلك الباطن لو أنه توجَّه إلى شيءْ ما فإنه يسْتطيع أن يجذب لك كل ما تُريد. وكل هذه وثَنيّات وفلْسفات شرْكية ورَدَتْ على المسلمين لكن بألْبِسَة جديدة؛ بهذا الذي يزْعمون أنه علْم طاقة أو علْم برمجة عصبية أو ما شاكل ذلك، فحذارِ من هذا الأمر الوافد الخطير الذي تأثَّر به كثير من المسلمين، وهذا الموضوع موضوعٌ حَرِيٌّ بالبيان والتفصيل، ولعلَّه -إن شاء الله- يأتي وقتٌ مناسب نتكلم عنه بأبسط من هذا، والله أعلم.



[باب: ما جاء في الرُّقى والتمائم]

بتأريخ: [٥/ ٥/ ١٤٣٧]

السُّؤَال: هل يجوز فتْح مراكز للرقية بالقرآن، وأخْذ أموال على ذلك؟

الجَوَاب: أنا أرى أن مثل هذا الأمر أتمنَّى أن يُعرض على المجامع الفقْهية أو هيئة كبار العلماء لصُدور فتوى فيه، لكن أُشير فقط إشارة إلى أنَّ أخْذ المال على الرقية؛ الصحيح أنه لابأس به، لأن الرقية فيها جانب الاسْتشفاء والمعالَجة، والأصل في هذا أنه يجوز أخْذ المال عليه. لكني لا أنصحك بالتفرُّغ للرقية، ما يفعله بعض طلاب العلم من التفرغ للرقية، وأن يكون معروفًا عند الناس ومشهورًا بذلك بلْ ربما يصبح لا شُغل له إلا ذلك! يفتح له عيادة أو مكانًا أو شقة ونحو ذلك ويجلس للناس، والناس تتوافَد إليه زُرافات وَوُحْدانًا، إن أردت نُصْحِي لا تفعل؛ فإن هذا يتضمن أمورًا:

أولًا: أن هذا فيما أعلم أمرٌ مُحدَث لم يكن عليه السلف الصالح، لا أعلم أحدًا من السلف كان متفرغًا للرقية، بحيث لا يُعرف إلا بها.

ثانيًا: أن هذا يفتح عليك بابًا من نزَغات الشيطان ومداخله من عدَّة أوجه؛ ربما يأتيك العُجْب، ترى الناس يقفون ببابك الوقت الطويل ينتظرون منك أنت بالذَّات دعوة أو قراءة، فربما يُداخلك ما يُداخلك من وسواس الشيطان من أنك رجل صالح؛ فمَن وقع في نفسه ذلك، وأنه اغترَّ بنفسه فإنه يكون على شفا هَلَكَة.

أضف إلى هذا ما ربما أن يكون من فتْنة النساء، وهذا قد حصل كثيرًا مع بعض مَن تفرَّغ لهذا، ولا شكَّ أني لا أُعَمِّم لكن أقول: هذا قد حصل، وأن بعض

الناس الذين تفرغوا لهذا، ومعلوم أن أكثر مَن يطلب هذه الرقية هُنَّ النساء، ربما حصل شيء من الفتنة بذلك.

وأضفْ إلى هذا أمرًا ثالثًا: وهو أن مَن تفرغ لهذا الأمر فلْيعلم أنه لن يجد إذا فُتح الباب مجالًا لأَن يشتغل بالدعوة، أو طلب العلم، أو التعليم، ولا شكَّ أن هذه الأمور أوْلى.

وأمْرٌ رابع: أن في هذا أيضًا تعليقًا للناس بالأشخاص لا سيما في هذا الزمان المتأخر الذي ضعُفت فيه العناية بالتوحيد، وكثُر -مع الأسَف الشَّديد- التعلق بالأسباب المادية، لماذا لا نُوجِّه الناس إلى أن يرقُوا أنفسهم، نُوجِّه كل إنسان يُسمَع إليه الآخرين إلى أن يرقُوا أنفسهم، وأن يتوجَّهوا إلى الله جل وعلا بالرقية، ولا حاجة إلى أن يتنقَّلُوا من فلان إلا فلان، ولْيُبشر بأن الله جل وعلا يُجيب الدعاء، الله ﷻرحيم وكريم ﷻ، وسيَشْفيك لكن عليك بالصبر، ربما ابتلاك ليَمتحنك، فعليك بأن تصبر ولا تعجل، «يُسْتجاب لأحدكم إذا دعا ما لم يَعْجل، يقول: دَعوْتُ فلم يُستَجَبْ لي» ، هذه النصيحة في هذا الأمر، والله تعالى أعلم.

السُّؤَال: **هل يجوز للرجل أن يظن أن به عَينًا إذا شعَر بشيء فيُرْقي نفسه؟**

الجَوَاب: على كل حال رُقْيتك لنفسك لا يُشترط فيها أن تشعُر بشيء، حتى إذا أردت تحصين نفسك لابأس، ويَشهد لهذا ما كان يفعله النبي ﷺ؛ حيث كان يقرأ على نفسه إذا أوَى إلى فراشه بالمعوّذات وينفُث ويمسح ما اسْتطاع من

جسده. وإذا كنت تشعُر بشيء في نفسك فلربما كان هذا عينًا، وربما لا يكون، فالرقية نافعة بكل حال.

لكنَّنِي أنصح أيضًا: أنه لا ينبغي للإنسان أن يسْترسِل في موضوع العين؛ بعض الناس أصبح عنده شيء من الهَوَس، في كل شيء يقول: هذه عين، ربما لو عطَس قال: هذه عين، أو كحَّ مرَّةً قال: هذه عين، هذا مما لا ينبغي الاسْترسال فيه. على كل حال ربما يكون الإنسان قد أُصيب بشيء، وربما يكون في إيمانه قوة أو في جسده قوة فلا يظهر أثر، وربما يكون هناك أثر، والنفوس -مع الأسف الشَّديد- كثيرًا ما تحمل الحسَد، ربما يُصاب الإنسان بشيء، لكنِّي أقول: لا ينبغي أن تسْترسل كثيرًا مع هذا الأمر، وارْق نفسك، وحصِّن نفسك بالأذكار الشريعة، واحرِص على الأذكار عند النوم، والأذكار في الصباح والمساء، وفي المواضع التي جاءت فيها أدلة السنة، وأبشر بالخير.

السُّؤَال: هل يُقال إن النفْث والتَّفْل خاص بالنبي ﷺ؟

الجَوَاب: لا، بدليل حديث أبي سعيد الخُدْري في قصة رُقية سيد القوم الذي لُدِغَ، لم يكن الراقي هو النبي ﷺ، وليس هذا خاصًا بالنبي ﷺوإن كان لا شكَّ أن رْقية النبي ﷺورِيقه وبصاقه لا شكَّ أنه فيه بركة، ﷺ، فإنه مبارَك ذاتًا وصفاتًا.

السُّؤَال: هل حديث عَوف يدل على عدم اشتراط أن تكون الرقية من القرآن؟

الجَوَاب: نعم يدل على ذلك، والنبي ﷺجعل الحدَّ الذي إذا وصلتْه الرقية كان محرمة هو أن يكون فيها شرك، وما عدا ذلك فالصواب أنه جائز، يرقي بالقرآن أو يرْقي بالسنة، النبي ﷺرقَى بأدعية ليست من القرآن، فلو رقى الإنسان بهذه الأدعية النبوية أو بالقرآن فهذا أفضل ما يكون في الرقية ولا شكَّ، وإن رقى بأدعية، دعا الله ﷻ والْتَجَأَ إلى الله جل وعلا أن يشْفيه ولو بكلام ليس بوارد في القرآن والسنة، كما جاء في حديث آل عمْرو بن حزْم أو حديث عوف؛ لأن تلك الرُّقى كانت كلامًا ليس مسْتفادًا من الشرع؛ لأنهم كانوا يعلمونها من الجاهلية، فمتى لم يكن فيها محذور فإنها جائزة إن شاء الله، والله أعلم.



[باب: ما جاء في الرُّقى والتمائم]

بتأريخ: [١٢/ ٥/ ١٤٣٧]

السُّؤَال: مَن كانت لدَيه طيور غالية، يُلبسونها خواتم في رجلها لكي يعرفونها؟

الجَوَاب: ليس هذا من التمائم ولا يدخل فيما ذكرنا، إذا كانت هذه الحِلَق أو هذه الخواتم لا تؤذي الطير، فلا بأس بذلك إن شاء الله.

السُّؤَال: تعْليق القلائد بقصْد الحصول على الحُظوظ الحسنة، هل هو داخل في اتخاذ التمائم؟

الجَوَاب: نعم، لا شكَّ في ذلك.

السُّؤَال: عند المرض يسْتعمل الرقية وماء زمْزَم والحبة السوداء، ولا يسْتعمل الدواء الذي يُباع في صيدلية؟

الجَوَاب: أن أنصحُك أن تجمع بين الأمرين؛ اجمع بين الأدوية التي جاءت في السنة، وأيضًا الأدوية التي يصفها لك الطبيب، والحمد لله، يحصل المقصود بهذا وهذا إن شاء الله.

السُّؤَال: عن كتابة القرآن بشيء مُباح كزَعْفَران ونحوه، ثمَّ حلُّه في ماء وشُرْبه؟

الجَوَاب: رخَّص فيه بعض العلماء، وأنا عندي في ذلك توقُّف. والله أعلم.

السُّؤَال: عن كتابة (تبارك الله)، أو (اللهم بارك) أو نحو ذلك على السيارة؟

الجَوَاب:إذا كان يعلّقها ليُذكِّر مَن رأى السيارة بذكر الله أو التبْريك هذا ليس من تعليق التمائم، وليس فيما نبحَث فيه.

السُّؤَال: عن تعليق التمائم والقصْد هو التعليق لا المُعَلَّق، بمعنى: يُعلِّق القرآن ولكن قلْبه ملْتفت إلى الخيط أو الجلد وليس إلى القرآن؟

الجَوَاب: الوضْع هنا مختلف، نحن بحْثنا السابق هو فيما إذا كان القصْد قد تعلَّق بكلام الله، هذا الذي قلنا فيه إنه لا يجوز، لكن لا يُقال فيه: إنه شرك، لا أكبر ولا أصغر. لكن إن كان القصد والالْتفات هو إلى الخيط أو القطعة من الجلد أو القماش؛ فإنه حينئذٍ يكون من الشرك الأصغر. إذا الْتَفَت إلى التعليق لا المُعَلَّق من القرآن فإنه يكون راجعًا إلى التمائم السابقة. والله أعلم.



[باب: مَن تبرَّك بشجر أو حجر ونحوهما]

بتأريخ: [١٧/ ٥/ ١٤٣٧]

السُّؤَال: ما حكم التبرك بما ثبت عن النبي ﷺ؟ وما حكم التبرك بتراب المدينة النبوية؟

الجَوَاب: أمَّا لو ثبت لنا اليوم شيء من آثار النبي ﷺ من شعر أو ثوب أو شيء من هذا القَبيل لصَحَّ لنا ولَجَازَ لنا أن نتبرك به، ولكن أنَّى يكون هذا!! أين الدليل على أن شيئًا معيَّنًا هو من آثار النبي ﷺ بعد مُضِي ألف وأربعمائة سَنة أو أكثر، ربما يدَّعي مَن يدَّعي من الناس أن عنده شيئًا من آثار النبي ﷺ، ولكن هَيهَات أن يثبت هذا، نحتاج إلى إسناد متصل من اليوم إلى عهد النبي ﷺ أن هذا الشيء بعَينه من آثار النبي ﷺ، ودُون ثبوت هذا فيما يدَّعُون خَرْطُ قَتَاد. أما تراب المدينة فإنه لم يأتِ دليلٌ على التبرُّك به، ولو كان خيرًا لأرْشَد إليه النبي ﷺ، ولو كان خيرًا لَسَبَقَنا إليه أصحاب النبي ﷺ.

السُّؤَال: عن التبرُّك بماء زمزم؟

الجَوَاب: ماء زمزم يُتبرَّك بشُرْبه، ماء جعل الله ﷻ فيه خيرًا زائدًا على أمثاله من المياه، ماءٌ مبارك، ولكن ذلك بأن يشرب الإنسان منه فيحصل له به فائدة من جهة الطعام، أو فائدة من جهة الاسْتشفاء، فإن هذا الماء طعام طُعْم وشفاء سُقْم بإذن الله.

في قول أُسيد بن حُضير: «ما هذه بأوَّل بَرَكتكم يا آل أبي بكر» ما يدل على ما دلَّ عليه حديث النبي ﷺ: «إنَّ من الشَّجر لَمَا برَكَتُه كَبرَكَةِ المسلم» ؛ فالمسلم فيه بركة، وهذا القول يؤيِّد ذلك، لكنها بركةٌ ذاتية لا تحصل بالتمسُّح، لا تحصل بالالْتصاق كما يُفعل مع النبي ﷺ، إنما هي بركة تخْتص به، وقد تنال غيره من جهة العلم، من جهة الفائدة، من جهة النصيحة، من جهة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أما أن تكون أجزاؤه أو عرَقه أو بصاقه أو شيء من هذا فيه بركة يلْتمسها الآخرون فهذا كما قلنا لا دليل عليه.

السُّؤَال: عما ذكر بعض العلماء في مسألة التبرُّك بالصالحين وأن المسألة خلافية؟

الجَوَاب: ينبغي على طالب العلم أن يفرِّق بين أمرين: بين أن تكون المسألة متفقًا عليها بين أهل السنة، وأخطأ عالِم أو أكثر، وبين أن تكون المسألة خلافية بين أهل العلم؛ ثَمَّة أشياء متقرِّرة عند أهل السنة، والإجماع منعقدٌ عليها، ثم يُخالف أحد العلماء في هذه المسألة، سواء تعلَّقت بمسائل الصفات، أو بمثل هذه الفروع فُروع مسائل توحيد الألوهية، أو ما شاكل ذلك، فلا ينبغي أن يختلَّ عندك الأصل. الأصل أن هذا هو منهج أهل السنة، وفلان أخطأ، أما إذا كانت المسألة فيها خلاف بين أهل السنة والجماعة في الأصل، والخلاف معْتبَرٌ بينهم، وقرَّر أهل السنة أن المسألة خلافية ولم يَنعقد الإجماع عليها، فإنها حينئذ مسألة خلافية يُقال فيها صواب وخطأ بحسب الدليل.

الأنبياء عليهم الصلاة والسلام حكْمهم في هذا كما قال أهل العلم في مسألة التبرك كالنبي ﷺ، فيجوز التبرك بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام، كما جاز التبرك بالنبي ﷺ.

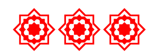
السُّؤَال: كبار الصحابة لم يُنقلْ أنهم تبرَّكوا بالنبي ﷺ؟

الجَوَاب: ليس بصحيح، كبار الصحابة وصغارهم كانوا يتبرَّكون بالنبي ﷺ، وهذه أُمُّ سلمة رضي الله عنها، ومَن هي! من فُضْليات الصحابيات، ومع لك لما تبرَّك الصحابة بفضْل طَهُوره ﷺكانت تقول لهم: «أفضِلوا لأُمِّكم» ، فليس بصحيح أن التبرك بالنبي ﷺ كان فعْل صغار الصحابة.

السُّؤَال: عن التبرُّك بتُراب القُبور ؟

الجَوَاب: التبرُّك بتُراب القُبور لا شك أنه تبرك ممنوع، حتى لو كان قبر صالح بل حتى لو كان قبر نبي، بدليل فعْل الصحابة ﷺ، أَلَمْ ترَوا إلى أنهم ﷺكانوا في حياته ﷺ يتبرَّكون بذاته، أو بما انفصل عنه، أو بما لابَسَه، لكنهم ما فعلوا هذا قط بتُراب قبره ﷺ، بلْ هذه عائشة رضي الله عنها؛ لم يكن بينها وبين قبر النبي ﷺ إلا سِتار -ثم أصبح جدارًا، لكن كان سِتارًا- ويمكن أن تدخل

فتأخذ شيئًا من تراب قبره ﷺ، لكنها لم تفعل هذا؛ فدلَّ هذا على أن التبرك بقُبور الأنبياء ليس بمشروع، ولو كان مشروعًا لفعَلَه الصحابة ولَنُقِلَ إلينا. والله أعلم.



[باب: ما جاء في الذبح لغير الله]

بتأريخ: [١٨/ ٥/ ١٤٣٧]

السُّؤَال: بالنسبة للذبح أمام الرجل كرَمًا؟

الجَوَاب: هناك فرْق بين صورتين:

الأُولى: أن يذبح تقرُّبًا للرجل وتعظيمًا له؛ هذا شرك.

أما ما يكون في بعض الأنحاء أو القبائل، وذلك أنهم ينحرون أمامه حتى يرونه أن هذه الذبيحة يعني جديدة أو طازجة، أو أنهم ذبحوها إكْرامًا له ولم يأتوا له بشيء بائت مثلًا؛ مثل هذا لابأس به، أو الأحْرى أن يُقال: إن مثل هذا ليس من الشرك، ويختلف بعد ذلك حكْمه بحسب قصْد مَن فعل، لكن هذه الصورة ليست شركًا. بعض القبائل تذبح أمام الإنسان حتى تُجبره على النزول والدخول، خلاص الذبيحة ذُبحت، يعني يرَون أن هذا فيه مَزيد إكْرام للضيف، إذا أقبل الضيف من بعيد ذبحوا الذبيحة حتى لا يكون هناك مجال لكَي يعتذر، مثل هذا ليس من الشرك.

السُّؤَال: يسأل عن الدجاج الذي يأتي من الخارج؟

الجَوَاب: أنه إذا كان من الخارج ذُبح بالطريقة الشرعية بأن يكون الذابح مسلمًا أو كتابيًا، يعني يهوديًا أو نصرانيًا، إذًا الذابح لابدَّ أن يكون واحدًا من هذه الأصناف الثلاثة: إما من أهل الإسلام، أو من أهل اليهودية، أو من أهل النصْرانية؛ لقوله تعالى: ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ﴾ [المائدة:٥].

والأمر الثاني: لابد أن يكون هناك الطريقة الشرعية في الذبح؛ إذًا لابد أن يكون الذابح مسلمًا أو كتابيًا، ولابد أن يكون الذبح وفْق الطريقة الشرعية، لابد أن يكون نهْرًا للدَّم، لابد أن يكون ذبحًا، أما التغْطيس في الماء ثم يموت أو يموت طائفة من هذا الدجاج فإنه يختلط حينئذٍ الحلال بالحرام، فيجب الكف عن الجميع، أو يكون بالصَّعْق الكهربائي، أو بالضرب على الرأس بالمطرقة، أو ما شاكل ذلك، فهذا كله لا شكَّ أنه لا يُحِل هذه الذبيحة.

ونأتي بعد ذلك إلى مسألة التسْمية؛ فلابد من التسمية، لم تأْتِ الشريعة بالتسهيل على الكافر والتشْديد على المسلم، فذبائح أهل الكتاب جائزة إذا ذبحوها وفْق الطريقة الشرعية، إذا وافقت الطريقة الشرعية عندنا فإن ذبيحتهم حينئذٍ جائزة.

السُّؤَال: إذا أرادوا الاسْتسْقاء، أخذوا ثورًا، وطافوا به على القرية ويذْبحونه عند رجل مقبور، يقولون إنه وَلِيٌّ، ويُسمّون الله عند ذبح الثور، ما حكم ذلك؟

الجَوَاب: شرْك بالله جل وعلا، تقرَّبوا بهذا الذبح لهذا المقبور، وهذا كان يفعله المشركون الأوَّلون، مَن قرأ في التاريخ في أحوال المشركين يرى أنهم كانوا يفعلون مثل ذلك، كانوا يأْتون عند قبر الميت فيذْبحون ناقةً عليه، يتقرَّبُون إلى المقبور، وهذه الحال مثل تلْك الحال.

السُّؤَال: إذا رجع أحدُ المغْتربين إلى الوطن، أهْلُه يذبحون ذبيحة فرحًا بقُدومه ويصْنعون وليمة؟

الجَوَاب: لابأس، هذا في الصورة الخامسة التي مرَّت بنا، وهي: أن يذبح باسم الله لغرضٍ مباح أو مشروع. كون الإنسان يذبح يُريد أن يكرم ضيفًا أو يُكرم قريبًا له زائرًا، أو لأجل فقط أن يتوسعوا ليأكلوا اللحم ويَبتهجُوا؛ هذا كله مما أباحه الله وأحلَّه، لابأس بذلك إن شاء الله.

السُّؤَال: بعض الناس إذا اسْتعصى عليه بناء بيته ذبح ديكًا أو شاة لله حتى يَتيسر أمره؟

الجَوَاب: المسألة فيها تفصيل؛ إن كان المقصود أنه يذبح فيتصدق يكون عملًا صالحًا يتصدق باللحم، يعني لم يأتِ في الشريعة الذبح عبادة لابد أن تقف عند حدود الشريعة، لابد من إخلاص ومتابعة، فالذبح الذي هو إراقة الدم هذه عبادة يوقف فيها عند حد الوارد، لكن إن كان المقصود أنه يذبح لأجل أن يتصدق حتى ييسّر الله له هذا الأمر العسير، فإن التقرب إلى الله ﷻ بأي عبادة والقصد بذلك التقرب إلى الله أن الله يرضى ويُيَسِّر العسير هذا لابأس به. لكن أنا أقول: إن مثل مَن يفعل هذا ينبغي أن يتنبَّه، ربما يأمره إنسان أن يذبح، والمقصود أن يكون هناك الذبح للجني، يُسوِّل له بطريقة أو بأخرى أو يُزيّن له

ذلك ولو أنه يقول: اذكر اسم الله لكن حتى يذهب عنك الشر أو يذهب عنك الأرواح أو شيء من هذا القَبيل، فيكون هذا من باب الذبح لغير الله ﷻ.

السُّؤَال: عن الذبح للشخص المُعظَّم المحترم تحت قدَمَيه؟

الجَوَاب: كما مضى في التفصيل السابق.

السُّؤَال: عن الذبح للعقيقة والإكرام وغير ذلك؟

الجَوَاب: الذي لابد منه أن تقول : (بسم الله) حينما تذبح، وإن زدت على هذا: (الله أكبر) فهو أحسن وأفضل. والله أعلم.



[باب: لا يُذبح لله بمكان يُذبح فيه لغير الله]

بتأريخ: [١٩/ ٥/ ١٤٣٧]

السُّؤَال: هل يجوز الصلاة في المسجد الذي كان كنيسة مع أنه كان يُعبَد فيه الأوثان؟

الجَوَاب: نعم، لابأس بذلك، وليست الصلاة في هذا المكان ممَّا يُورَد على البحث الذي كنَّا نبحث فيه، وذلِكُم أن صورة الفعلَين بين ما يُفعل في المسجد وما كان يُفعل في الكنيسة مختلف، صلاة المسلم لها هيئة وكيفية متميّزة عن صلاة النصارى في كنائسهم، ولأجل هذا فإنه لا يحصل هذا اللَّبْس الذي يَرِدُ على مسألة الذبح، فإن مسألة الذبح الصورة فيها واحدة، أما الصلاة فالأمر فيها مختلف متمايَز. والله أعلم.

السُّؤَال: هل يجوز شراء كنيسة قديمة وجعْلها مسجدًا للمسلمين؟

الجَوَاب: نعم.

السُّؤَال: عن تهنئة الكفار ؟

الجَوَاب: تهنئة الكفار فيها تفصيل: إن كان المقصود تهنئتهم في أعيادهم فإن هذا على الصحيح من كلام أهل العلم لا يجوزن بل نُقل الإجماع على المنع، ومَن أراد تفصيل ذلك فعليه بكتاب «أحكام أهل الذمة» لابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ.

أما إن كان لغير ذلك، بأن يكون قد رُزق مولودًا مثلًا، أو حصل على أمر دنيوي فيه فائدة لا معصية فيها فإنه لا بأس أن يقول له كلمة، كأن يقول: أسأل الله أن يجعل هذا الولد صالحًا، أو أن يجعل فيه الخير، وما شاكل ذلك من هذه الألفاظ التي لا محذور فيها.

السُّؤَال: بالنسبة للحم الذي يُذبح لله في مكان يُذبح فيه لغيره؟

الجَوَاب: الفعل محرم، لكن الذبيحة من حيث هي، اللحم من حيث هو حلال، لكن فعْل هذا الإنسان نقول وقَع في فعل محرم.

السُّؤَال: عن المقصود بالعيد في هذا الحديث؟

الجَوَاب: المقصود بالعيد: هو أنهم يجتمعون في زمنٍ معتاد في هذا المكان كما قلنا، أنه يحصل اجتماع في زمن معتاد يفعلون أفعالًا، وقد يقرنون هذا بمكان معيّن إنما يجتمعون في هذا المكان، وقد يكون الأمر عامًا، يعني يحصل فرح أو ابْتهاج في أمكان متعدِّدة أو حيث ما كان الإنسان دون تخصيص مكان معين، لكن الذي جاء في هذا الحديث هو أن يجتمع الناس في هذا المكان في وقت معتاد، فيُمارسون في هذا المكان طقوسًا وأعمالًا يعْتادونها، فإن هذا هو العيد في هذا الحديث.

السُّؤَال: هل هَدَمَ النبي ﷺ وأصحابه مسجد الضرار؟

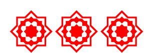
الجَوَاب: جاءت الروايات المتعددة أن النبي ﷺفعل ذلك، جاء من حديث ابن عباس وغيره وأورد هذا أصحاب السير، أن النبي ﷺفي مَقْدَمِه من غزوة تبوك قبل أن يصل إلى المدينة أرسل بعض الصحابة فأتوا إلى هذا المسجد فهدمُوه وحرّقوه، وذلك لأنه حريّ بالهدْم الحرق؛ لأنه مؤسَّسٌ على غير طاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

السُّؤَال: **ما حكم الاسْتماع إلى القبوريِّين والرافضة لمعرفة شُبَهِهم وتعلّمها؟**

الجَوَاب: والله لا أنصحك بذلك، لا ينبغي عليك أن تُرْخي سمعك للشُّبه، ولا تعوِّد قلبك أن يُداخله هذه الشُّبه المُوردة للشُّكوك والرَّيب، وكم من إنسان ظنَّ من نفسه القوة ورَفيع درجة العلم، ثم اسْتمع إلى شُبهة أو شُبهتَين ففعلَت في قلْبه الأفاعيل، النصيحة لك أن تنأَى بسمعك وبقلْبك عن الالْتفات إلى شُبَه المخالفين، اللهم إلا في حالة خاصة: أن يكون عالِمًا، أو طالب علْم من أهل الرسوخ والتمكُّن؛ يسْتمع لهذا لأجل أن يردّ عليه، لأجل أن يفضح هذا الفساد ويحذِّر منه، هذا لابأس به، لا يمكن أن تردّ على المخالفين، وهذا بابٌ من أبواب الجهاد في سبيل الله، الرَّد على أهل الشرك والكفر هذا لا يكون إلا إذا كنت تعلم ما يقولون.

سؤال عن الحكم بالعادات والسَّواليف التي عند بعض القبائل، يتحاكَمُون إليها عند حصول خصومة أو مشكلة أو خطأ من أحد الأشخاص على آخر، يحتكِمُون إلى عادات، وإلى أعراف وإلى سُلُوم

الجَوَاب: لا شكَّ أن هذا من الأمر المنكر، ومن التحاكم إلى غير شريعة الله، الواجب أن يكون الانصِياع إلى حكم الشريعة، فما حكَمَت به الشريعة هو الذي لا يجوز الإلْزام بغيره، أما هذه العادات والسُّلُوم وإلْزام الناس بها لا شك أن هذا من الحكم بغير ما أنزل الله، وهو منكر عظيم، والله أعلم.



[باب: من الشرك النذر لغير الله]

بتأريخ: [٢٤/ ٥/ ١٤٣٧]

السُّؤَال: إذا كان من سبب نعيم في الجنة الوفاء النذر، فيكون النذر عبادة لها فضْل؟

الجَوَاب: نحن قلنا إن المدح جاء لا على إنشاء النذر، وإنما على الوفاء بالنذر.

السُّؤَال: مَن قال (لله عليَّ إن كذبتُ أن أصوم يومًا) فما حكمه؟

الجَوَاب: إن كان مراده أن يمنع نفسه من الكذب فهو مخيَّر بين الصوم أو أن يكفر كفارة يمين.

السُّؤَال: عليَّ نُذور وأيمان كثيرة، منها ما كان طاعة ومنها ما كان على معصية، والآن لا أدري كم هي؟

الجَوَاب: عليك -بارك الله فيك- أن تجتهد في معرفة الشيء الذي عليك، وأن تفعل الشيء الذي غلَب على ظنك أنه وقع منك، وإن كان هناك شيء من التردُّد فاسلك مسْلك الاحتياط حتى تبرأ ذمَّتُك، إن قلت: والله عليَّ خمسة أو عشرة من النذور ولكن لا أتذكر ما الذي نذرتُه، فنقول: كل واحد من هذه كفِّر عليه كفارة يَمين؛ لقول النبي ﷺ: «كَفَّارَةُ النَّذْرِ كَفَّارَةُ الْيَمِينِ»، وكذلك بالنسبة للأَيمان التي حلفتها وحَنَثْتَ فيها، إن كنت حَنَثْت فيها فاجتهد في تقدير هذا

الذي حصل منك، هل حَنَثْت في عشرة أو عشرين من الأيمان، ثم كفِّر بحسب ذلك، فإن تردَّدت هي عشرة أو عشرون فلو أخذْت مسْلَك الاحْتياط فهذا أبْرَأ لذمتك.

السُّؤَال: ما علاج كثْرة التلفُّظ بالنذر؟

الجَوَاب: علاج ذلك أن يجاهد الإنسان نفسه أن لَّا يقَع في هذا الأمر، خُذْ نفسك بأن لَّا تتلفَّظ بهذه الكلمة، عوِّد لسانك ذلك، وكلما همَّت نفسك بعقد نذر كُفّها عن ذلك، وأوصِ مَن حولك من الأهل والأصدقاء أن يردّوك إذا همَمْت بذلك وبدا منك شيء من الكلام الذي يُشعِر بذلك أن يكفُّوك، شيئًا فشيئًا ستَتْرُك هذه العادة.

السُّؤَال: شخص يقول: إن أنجزْتُ هذا العمل عليَّ أن أذبح لله ذبيحة، والقصد أن يذبح له على سبيل الإكرام؟

الجَوَاب: فرْقٌ بين أن يكون القصد التقرب لله ﷻ، كأن يقول: (إن حصل كذا لله عليَّ أن أذبح ذبيحة) وقصْده أن أتصدق بها على الفقراء، هذه طاعة ويجب عليه أن يُوفي بها، أما إن كان القصد أنه يذبح ذبيحة يُولِمُ عليها لأجل

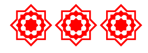
الفرح والسرور، ويأتي الأصدقاء والأقرباء ويفرحون ونحو ذلك، فنقول: هذا أمْرٌ مباح، إن شئْت فَفِ به، وإن شئْتَ فكفِّر كفارة يمين.

السُّؤَال: صورة النذر لغير الله؟

الجَوَاب: أن ينذر لغير الله، يعقد النذر لغير الله، أو يجعل الوفاء بالنذر لغير الله؛ كلاهما شرك بالله ﷻ؛ كالذي قلتُ قبل قليل، يعني يأتي إلى صاحب القبر فيقول: "يا سيدي فلان، لك عليَّ كذا وكذا"، هذا أنشأ النذر لأجل فلان، أو "إن قضى الله حاجتي فلك عليَّ كذا وكذا، أو نذْر لك كذا وكذا"، ومن جهة الوفاء أن يأتي بالذبيحة فيذبحها عند القبر، أو يشتري زيتًا يتقرَّب به إلى صاحب القبر فيُضيء الشُّموع كما يفعلون، كل هذا نذر لغير الله ﷻ.

السُّؤَال: مَن نذَر ألَّا يحضر زواجًا؟

الجَوَاب: أنت مخيَّر بين ألَّا تحضر، أو أن تحضر وتكفِّر كفارة يمين.



[باب: من الشرك الاستعاذة بغير الله]

بتأريخ: [٢٥/ ٥/ ١٤٣٧]

السُّؤَال: عن قول: (ما شاء الله وشِئْت)؟

الجَوَاب: هذا فيه بابٌ خاص، سنفصِّل فيه القول إن شاء الله.

السُّؤَال: بعضهم يُضيفون في شرط الاستعاذة الجائزة شرطًا رابعًا وهو: أن يعتقد أنه سبب؟

الجَوَاب: هذا الذي قلْناه؛ قلنا أولًا: أن تكون الاستعاذة في الظاهر، يعني يلْتمس أن يكون هذا الشيء سببًا لعصْمته من هذا الشر في الظاهر، وهذا هو شأْن الأسباب، وأما إذا كان اعتصامه ورُكونه بقلْبه فهذا تجاوز قدْر السبب.

السُّؤَال: كان في بلدنا إذا وصل الصبي سورة الجن يذبح الذبيحة، يقولون: لو لم يذبح الصبي أصابه الجنون؟

الجَوَاب: نوع من الدَّجل والخُرافة التي ليس عليها أثارة من ميراث النبي ﷺ الذي بين أيدينا، النبي ﷺلما وصل هذه السورة في قراءته لها أو حينما نزَلَت عليه فتَلَاهَا على الصحابة أَأَمَرهم بذلك؟ أَفَعَلَ هو ﷺذلك؟ لا شكَّ أن هذا أمْر منكر، ولا يجوز.

السُّؤَال: التمثيل والتفريق بين كلمات الله الكونية وكلماته الشرعية؟

الجَوَاب: قلنا الكلمات الشرعية منها هذا الوحي الذي أوحاه الله إلى الرسل عليهم الصلاة والسلام، فالقرآن و (الحمد لله رب العالمين) و(قل هو الله أحد) هذا من كلام الله الشرعي، أما كلامه الكوني فهو الذي يتعلق بالتدبير، حينما يقول الله ﷻللشيء كُنْ فيكون هذا من كلامه الكوني.

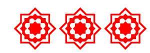
السُّؤَال: ضعُفت همَّتي في طلب العلم، فهل من نصيحة لعلَّها تكون خيرًا لي؟

الجَوَاب: النفوس لها إقبال وإدبار، وكلنا يَعرِض له هذا الأمر، لكن ممَّا يُعينك -يا رعاك الله- على شحْذ الهمَّة في طلب العلم: اسْتحضارُك دائمًا أن الحياة قصيرة وأنك عن قريب سوف تُغادرها، ربما بعد ساعة أو أقل أو أكثر، ربما اليوم أو غدًا أو بعد غَد سوف تغادرها، فأنت في حياة مؤقَّتة ولا تدري متى ستنتهي هذه الحياة، فاعمل لنفسك، واعمل لأَنْ يكون لك عند الله ﷻ في الدار الآخرة المنزل العظيم، ومن أعظم الأعمال الصالحة هذا العلم الشرعي، ويكفيك شرَفًا وفخْرًا أن يكون لك حظٌّ من وراثة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فهذا العلم إِرْث النبي ﷺ، والعلماء ورَثة الأنبياء، فأيُّ خير وأيُّ حظٍّ اصْطفاك الله ﷻ له! فإذا وُفِّقت إلى العلم، وسَمَتْ نفسك إلى طلبه فإيَّاك أن تكفر هذه النعمة، اشكرْها بالجِدّ والبذْل والاجتهاد.

ثم عليك أن تداوي نفسك، وأنت طبيبها، أنت تعرف مواطن العِلل في نفسك، تنبَّه إلى مواطن العطَب التي تُضعِف همَّتك؛ أُهِيَ صديق؟ صاحب؟ رفيق؟ جار؟ يكون سببًا في نزول همتك، وإبعادك عن الحفظ والقراءة وحضور مجالس العلم؛ إذا تخلَّص منه، أَهُوَ سبب من الأسباب المادية؛ جهاز من الأجهزة؟ أو شبكة؟ أو مواقع؟ أو حسابات؟ أو ما يُسمونه مجموعات؟ أو ما شاكل ذلك، تخلَّص منها، كُن حازِمًا، اجعل قاعدتك في الحياة الجدِّية والحزْم، خُذ الأمور بقوة. أو أن سبب ذلك راجع إلى انشغالك بالدنيا والْتفاتك إليها،

فهذا يحتاج إلى أن تذكِّر نفسك بأن الحياة شأْنها يسير، وأنها لا تسْتحق أن يصرف الإنسان جُلَّ الهمَّة القصد إليها، الحياة إن صفا فِكْر الإنسان وبصره ونظر إليها نظرًا معقولًا صحيحًا وَجَد أن أمرها سهلٌ والله، يعني كسْر خبز وشرْبة ماء يعيش بها الإنسان، أليس كذلك؟ وما زاد على ذلك فهو تَرَف وفضْلَة.

والحياة أنصحُك -يا طالب العلم- أن تجعلها كما مثَّل شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ شأْنها: أنها بمنزلة -يعني هذه الحياة وبَهارجها وأموالها- هي بمنزلة الخلاء -دورة المياه- لا غنى عنها، ومع ذلك لا يتعلق بها القلب، بلْ يكتفي منها بقدر الحاجة، مُكْثه فيها وعلاقته بها إنما هي بقدر الحاجة، لا تجد إنسان قلْبه منشرح لأنه سيدخل دورة المياه، ومع ذلك هو لا يسْتطيع أن يسْتغني عنها، لكن يحتاجها حاجةً مادية في وقت معين وبالقدْر اللازم، ويُسارع إلى ترْكها بعد ذلك، إن استطعت أن تنظر إلى الحياة بهذا القدْر فأبشر بالخير، ستُوفَّق في العلم، وستُوفَّق في العمل برحمة الله عَزَّ وَجَلَّ وإعانته.



[باب: من الشرك أن يسْتغيث بغير الله أو يدعو غيره]

بتأريخ: [٢٦/ ٥/ ١٤٣٧]

السُّؤَال: عندنا في بلادنا يقولون إذا سقط ولَد أو غيره "يا عليّاه، يا محمَّداه"؟!

الجَوَاب: هذا استغاثة، شرك بالله ﷻ، والواجب -يا رعاك الله- أن تقوم بالدعوة وأن تُبين الحق، ومن أحسن الأشياء في الدعوة مع أُناس عندهم انصراف وعندهم جُفُول أن تعلِّقهم بالله جل وعلا. الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ابْتداء دعوته كان ضعيفًا، وما كان عنده من القوة أن يُجابه الناس بكل صَرامَة، فكان يأْتيهم بأسلوب حسَن، يمكن للعقل الذي فيه رُشْد أو شيء من رُشْد أن يستيقظ، كان يأتي للذين يعبدون زيد بن الخطاب عند قبره -كان له قبر في نجد يُعبد من دون الله؛ يُدعَى ويُطاف به ويُنذر له ويُذبح- كان يأتيهم فيقف عليهم ويقول: "الله خيرٌ من زيد" ويمشي، هذه الجملة أَيَسْتطيع أحدٌ من البشر أن ينكرها؟! لكنها في الحقيقة كافية في أن يسْتيقظ الإنسان الغافل، الله خير من زيد، إذًا لِمَ لا تدعوه؟ تدرَّج مع هؤلاء حتى يهديهم الله ﷻعلى يديك.

السُّؤَال: عن ضابط الأمر بالمعروف؛ هل كل واحد يسْتطيع أن يأمر بيده؟

الجَوَاب: النبي ﷺبين هذا بيانًا واضحًا، قال: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ ..» إذًا عندك حالتان: عندك حالة اسْتطاعة، وعدم استطاعة؛

فإن كنت تسْتطيع التغيير باليد بشرط أن يزول المنكر ولا يترتَّب عليه منكر مثله أو أكثر، أو على الأَقَلّ يخفّ هذا المنكر ولا يترتب عليه منكر فأكثر، يعني مثل هذا المنكر فأكثر، إن كان ذلك كذلك فاستعِن بالله، ولا أحد يمنعك من إنكار ذلك باليد. ما اسْتطعت فلا أقلّ من أن تُنكر بلسانك مع الاسْتطاعة، فإن كانت حتى الموعظة باللسان والتذكير باللسان لا تتمكَّن منه وربما يوقع عليك ضررًا فالله ﷻ من رحمته خفَّف عن هذه الأمة فأنكرْه بقلبك.

السُّؤَال: يقول قائل: **"دَعَوتُ الله فلم يُستجبْ لي"؟**

الجَوَاب: انتبه يا عبدالله، الله قريب يُجيب دعْوة الدَّاعِ إذا دعاه، ثِقْ أن الله ﷻ سيُجيبك قطعًا، ولكن الله يعلم وأنتم لا تعلمون، أنت ستسْتفيد من هذا الدعاء قطعًا، سيسْتجيب الله ﷻ لك بواحدٍ من ثلاثة أمور:

١. إما أن يُعطيك مطلوبك.

٢. وإما أن يُثيبك على هذا الدعاء بقدْر ما دعَوت.

٣. وإما أن يدفَع عنك من الشر مثله.

أنت مستفيد بكلِّ حال، لكن الإنسان ظُلوم وجَهُول، ربما يظن أن هذا الأمر فيه خير له، والله يعلم أن فيه شرًا له، لذلك خِيرة الله لك خيرٌ من خِيرتك لنفسك، فوِّض الأمر إليه، هو أوْلى بك منك. والله أعلم.



[باب: من الشرك أن يسْتغيث بغير الله أو يدعو غيره]

بتأريخ: [١٦/ ٦/ ١٤٣٧]

السُّؤَال: ما هي الأمور التي تدل على أن الفعل عبادة؟

الجَوَاب: كل ما علمْنا أن الله ﷻ يحبه وشرَعَه لنا فهو عبادة، إذا رأيت هذين القيدَين فاعلم أن هذا الشيء عبادة، العبادة: اسم جامع لكل ما يُحبه الله ويَرْضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، فما يُحبه الله وما يرْضاه -يعني يشرعه لنا- فإنه عبادة.

السُّؤَال: طلَب الدعاء من الميت هل هو شرك أكبر أم بدعة؟

الجَوَاب: تكرَّر السؤال مرَّات، وقلنا: الصحيح أنه شرك أكبر.

السُّؤَال: هل توجد حالة يكون فيها دعاء غير الله شركًا أصغر؟

الجَوَاب: إذا دعا حيًّا حاضرًا قادرًا لكن مع نوع الْتفات القلب إليه، فهذه قد تكون شُعبة من شعب الشرك.

السُّؤَال: كيف نردُّ على مَن يقول: إنه لا يدعو لكن يطلب من الصالحين أن يدعو له؟

الجَوَاب: إن كان يطلب هذا الطلب من حيٍّ حاضر فهذا لابأس به، وهذا ليس داخلًا في موضوعنا، أما إن كان يسأل ميتًا فهذا دعاء وسؤال وطلب، وتكرَّر معنا أن القاعدة أن جنس السؤال والطلب والدعاء للميت شركٌ أكبر.

السُّؤَال: هل اعْتقاد عُبَّاد القبور في الأولياء ما اعْتقدوه في الله كان بسبب اعتقادهم بالوحْدة أو بالحُلول؟

الجَوَاب: ليس بلازم، ليس كل هؤلاء يعتقدون هذه العقيدة، وليس ضرْبة لازِب اعتقاد المشرك بالوحْدة أو بالحُلول.

السُّؤَال: هل يجوز تسْمية البنات برَحيمة، عزيزة، لطيفة، ناجحة؟

الجَوَاب: لا يظهر لي بأْس في هذه التسْميات، والله ﷻ أعلم.

السُّؤَال: أنا أُريد أن أصوم رمضان هذه السنة، لكن زوجتي تقول لي: ألَّا أصوم، فما توجيهك؟

الجَوَاب: لعلَّ السائل عنده شيء ما اتضح، أو لعلَّه يُريد أنه مريض وزوجته تنصحه بأن لَّا يصوم، الحقيقة السؤال فيه غُموض، لكن إن كنت -يا رعاك الله- صحيحًا ومدَّ الله ﷻ لك في الأجل وكنت إذ ذاك صحيحًا فلا يجوز لك أن تسْتجيب لأي أحد يدعوك إلى أن لا تُطيع الله، فمَن قال لك لا تصُم، قُلْ له: قال الله لي صُمْ، فماذا أصنع أسْتجيب لك أو أسْتجيب لله؟.

أما إن كان ذلك لأجل مرض عندك فالأمر في ذلك واسع إن شاء الله؛ وذلك أنك إذا كنت مريضًا، وهذا الصوم يؤخر شفاءَك أو يَزيد مرضك فالله جلَّ وعلا جعل لك رُخصة، فأفطر ثم اقضِ ما أفطرتَه بعد أن تُشفى بإذن الله ﷻ. فعلى كل حال صُمْ إن كنت قادرًا ولا تلْتفت لأحد، وأفطر إذا كنت مريضًا، واقْضِ بعد ذلك.

السُّؤَال: عن الصلاة خلْف المتوسِّل بالأولياء؟

الجَوَاب: فرْق بين الاستغاثة والتوسل، الدعاء والاسْتغاثة سؤال للشيء، والتوسل سؤال به، ففَرْق بين الأمرين: دعاء غير الله والاستغاثة بغير الله شرك أكبر، وأما التوسل في الدعاء فهذا بدعة وليس شركًا، يعني إذا قال: اللهم، الآن هو يدعو الله، قال: "اللهم بحقِّ فلان افعل لي كذا وكذا، أو بجاه فلان أعطني كذا وكذا"، نقول: هذا الدعاء ليس شركًا إنما هو بدعة، لأن هذا القول بدعة لم يَرد عن النبي ﷺ ولا عن أصحابه، ولو كان خيرًا لَسَبَقُونا إليه، لا سيما وهو ذريعة إلى وقوع هذا الداعي في الشرك.

أما إن كان سؤال السائل ومُراده بالتوسل يعني الدعاء لغير الله أو الاستغاثة بغير الله؛ فليس لك أن تصلي خلْف مَن يفعل ذلك، مَن يقع في الشرك الأكبر لا تصلِّ خلْفه، أما إذا كان يدعو الله لكن يقع في هذه البدعة وهي التوسل أو غيرها من البدع غير المكفِّرة فإن الصلاة خلْفه جائزة، وإن وجدت مَن هو مستقيمٌ على

السنة فصلِّ خلْفه فهو أوْلى، واحرص على أن تدعو وتُبين لهذا الإمام، لعلَّ الله ﷻ أن يهديَه، والله أعلم.



[باب: قول الله تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الأعراف:١٩١]]

بتأريخ: [١٧/ ٦/ ١٤٣٧]

السُّؤَال: هذا يقول عن رَجل رآه أو يُرى بأنه يدُوس المصحف برِجله؟

الجَوَاب: مَن وطئ المصحف برِجله، أو داسَه برِجله، أو رَماه في الحُشّ، أو في دورة المياه وهو يعلم أنه كتاب الله جل وعلا؛ فإن هذا لا شكَّ أنه قد كفر بالله بمجرد هذا الفعل، وهذا إجماعٌ من أهل العلم.

السُّؤَال: هل يجوز الدعاء أو اللعن على معيَّن؟

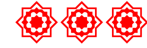
الجَوَاب: أما الدعاء على معيَّن؛ فإن كان مستحقًا للدعاء فنَعَم يجوز. وأما اللعن على معيَّن؛ فمحل خلاف بين أهل العلم، وأكثر أهل العلم على عدَم لعْن المعين، لا تلْعن معيَّنًا، وإنما الْعَن بالوصف؛ لعْنة الله على الظالمين، أو اللهم الْعن الكفار أو الفاجرين أو نحو ذلك، والأحوط هو هذا أن لَّا تلْعن معيَّنًا.

السُّؤَال: ما الراجح في مسألة سماع الأموات للأحياء؟

الجَوَاب: الصواب -بارك الله فيك- أن الأموات لا يسْمعون إلا ما اسْتثناه الدليل.

السُّؤَال: **يسأل عن التلْقيح الصناعي؟**

الجَوَاب: وهذه مسألة من المسائل المعاصرة ووقع فيها خلاف طويل بين العلماء المعاصرين، هل يجوز التلْقيح الصناعي أم لا؟ والأمر يحتاج إلى فتوى خاصة؛ لأن الأمر فيه خُطورة، يعني المسألة قد يكون فيها لعب بالأنساب، وقد يكون فيها نقْل ماء رجل إلى غير أهله، فالمسألة ليست سهلة، وهذه المسألة لها صور في المسْتشفيات وفي المراكز الطبية، لها أحوال ولها صور، وهناك طريقة تختلف عن طريقة، فأنصح هذا السائل أن يكتب الطريقة التي يُريد أن يسْتعملها لأجل هذا التلْقيح ثم يرفع بها إلى اللجنة الدائمة للإفْتاء، ويأْتيه الجواب إن شاء الله عليها. والله أعلم.



[باب: قول الله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ [سبأ:٢٣]]

بتأريخ: [١٨/ ٦/ ١٤٣٧]

السُّؤَال: في قول الله جلَّ وعلا: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الأعراف:١٩١] أَلَيس فيه دلالة على التركيز والبَدْء في الدعوة بتوحيد الربوبية وأن الخَلَل بدأ منه؟

الجَوَاب: الصواب أن هذه الآية وأكثر آيات توحيد الربوبية في القرآن إنما سِيقَت لأجل أن تكون دليلًا على توحيد الأُلوهية؛ لِمَ؟ لأن المشركين الذين نزل القرآن مخاطِبًا وموبِّخًا ومُقرِّعًا لهم إنما كانوا لا يُشركون في الربوبية، كان إشراكهم في الأُلوهية، فالله جل وعلا يُعيدهم إلى عقولهم، ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾؟ هم يعلمون هذا ويقرّون به، ولذلك هذا اسْتفهام إنكاري، وهم يقرون به ولا يخالفون فيه، ولذلك وقعوا في هذا التناقض الذي ينبغي أن يأْنفُوا منه، كيف يعبدون ما يعلمون أنه لا يخلق بلْ هو مخلوق!!

ومع ذلك فإنَّني أقول: إن الدعوة إلى توحيد الربوبية تكون بحسب الحاجة؛ فإذا كان الناس في زمن أو في مكان عندهم خَلَل في توحيد الربوبية فلا شكَّ أنه ينبغي البدْء به قبل الكلام في توحيد الأُلوهية، ومن ذلك هذا الزمان الذي نَعيش فيه، فمع طغْيان وقوة التيار الإلْحادي الذي يغزو العالم -مع الأسف الشديد- فنحن بحاجة إلى أن نُعطي قدرًا من الاهْتمام لتقرير توحيد الربوبية، فإذا تقرَّر انتقلنا منه إلى تقرير توحيد الأُلوهية.

السُّؤَال: يسأل عن حديث «اهْتَزَّ عَرْشُ الرَّحْمَنِ لِمَوْتِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ»؛ هل هو حقيقي أو قياسي؟

الجَوَاب: لا أفْهم معنى قياسي، لكن لا شكَّ أنه حقيقي، وخُذْها قاعدة: ينبغي عليك أن تأخذ أدلَّة الكتاب والسنة على ظاهرها؛ فهو اهْتزَّ اهْتزازًا حقيقيًا لموت سعد، وكيف يكون ذلك؟ الله أعلم، نحن لا نعلم كيف العرش أصلًا حتى نعلم كيف يهْتزّ.

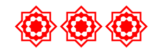
السُّؤَال: رجل تزوج بمال أو بمهْر حرام، وتصرَّف بمالٍ أو بحال حرام، وذلك قبل اسْتقامته، فهل نكاح صحيح؟

الجَوَاب: النكاح صحيح إن شاء الله، لكن عليك التوبة إلى الله من هذا الفعل، وهذا المال الحرام عليك أن تُخرج نظِيره لمن كان صاحبه إن كان معروفًا عندك، وإذا تُوفي سلِّمه لورثته، وإن فات الأمر وما أمكنك أن تصل إليه فتصدّق به بنية التخلّص منه بنيةٍ عن صاحبه.

السُّؤَال: دخل بِرجلي بعض الخشب الصغير ولم يخرج، هل هناك أدعية لهذا الأمر صحيحة؟

الجَوَاب: أسأل الله ﷻأن يشْفيك وأن يعافيك، لكن لا أعلم يعني دعاء في هذه الحالة خاصة، لكن أدعية الرقية التي كانت يرْقي بها النبي ﷺ، وأكثر ما كان يرقي النبي ﷺ بقوله: «أَذْهِبِ البَاسَ رَبَّ النَّاسِ، اشْفِ وَأَنْتَ الشَّافِي، لاَ شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ، شِفَاءً لاَ يُغَادِرُ سَقَمًا»، احرص على أن ترْقي نفسك به، وأكثر من

الدعاء أن يعافيك الله، وابذل الأسباب من طريق الطب، وأسأل الله ﷻ أن يعافيك. والله أعلم.



[باب: قول الله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ [سبأ:٢٣]]

بتأريخ: [٢٣/ ٦/ ١٤٣٧]

السُّؤَال: هل ما نراه من الشُّهب الآن في السماء ممَّا يُضرَب به مسْترقو السمع؟

الجَوَاب: نعم، منه ممَّا تراه ما يُضرَب به مسْترقو السمع، بدليل أن حديث ابن عباس الذي ذكرتُه آنفًا إنما أخبر به النبي ﷺ لما كان مع أصحابه فرأوا شهابًا، فقال لهم: (ماذا كنتم تقولون عن هذا في الجاهلية؟) قالوا: كنا نقول مات اليوم عظيم، أو يولَد اليوم عظيم، فأخبرهم النبي ﷺأن الأمر ليس كذلك، ثمَّ حدَّثهم بما ذكرتُ لك، وأن هؤلاء الجنّ يُلْقون إلى مَن تحتهم، وربما أصابه قبل أن يُبلِغ وليَّه من الإنس الشهابُ، وربما لم يُصبْه. الشاهد: أن ممَّا نرى من هذه الشُّهب لا شكَّ أنه ما يُرْمَى به هؤلاء المسترقُون.

بعض الأسئلة فيها دُخول في تفاصل ليس لنا أن نخوض فيها، وإنما حسْب الإنسان أن يقول بما جاء به النصُّ ويسكُت عمَّا سوى ذلك، أما تفاصيل مقاعد الجن، وأين تكون بالضبط؟ هذه الأمور لو كان فيها ما يُفيد لَبيَّنه لنا النبي ﷺ.

السُّؤَال: كيف يسْتعين طالب العلم على الإخلاص في طلَبه للعلم؟

الجَوَاب: هذا سؤال عظيم، والمتكلِّم والسامع بحاجة إلى أن يتذكَّر هذا الأمر باستمرار، وأن يراجع نفسه فيه باستمرار. وحقيقة الإخلاص أن يسْتوي

عندك مادِحُك وذامُّك، ولا يمكن أن يحقِّق الإخلاص إلَّا مَن عظُم قدْرُ الله ﷻ في نفسه، بحيث إنه يراه جل وعلا أهلًا لأنْ يتوجَّه إليه بالعبادة، وأن الخلق لا يُساوون شيئًا ولا يستحقون أمام عظمة الله جل وعلا أن يتوجَّه إليهم العبد بالعابدة. إذًا كلما كانت محققًا للتوحيد كلما كنت أعظم إخلاصًا، من هنا ابدأ، من هنا من التوحيد، من تحقيق التوحيد، وذلك بشِقَيه: العلمي والعملي، يعني توحيد الرُّبوبية وتوحيد الأسماء والصفات، وكذلك توحيد الأُلوهية والعبادة، حقِّق التوحيد وبالتالي ستصِل إلى الإخلاص.

السُّؤَال: أرى في بعض الطلاب تثْقيل في السلام عليكم، ما هو السلام الذي تُفضِّلُون أن يُسلَّم عليكم به؟

الجَوَاب: الذي أُفضِّل أن تُسَلِّم عليَّ بالسُّنة: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

السُّؤَال: ما معنى قول الفقهاء: في المسألة خلاف صوري؟

الجَوَاب: الخلاف الصوري عادةً ما يُستعمل في الخلاف اللفظي، يعني في الخلاف الذي لا ثمرةَ له، متى ما كان الخلاف لا ثمرةَ له عُدَّ خلافًا لفْظيًا أو خلافًا صُوريًا، والله أعلم.



[باب: الشفاعة]

بتأريخ: [٢٤/ ٦/ ١٤٣٧]

السُّؤَال: هل يصح أن يُقال: اللهم أدخلنا الجنة بشفاعة النبي ﷺ؟

الجَوَاب: نعم، أنت سألت هاهنا مَن يملك الشفاعة، إذًا هناك فرْق بين سؤالَين: سؤالٍ حق وسؤالٍ باطل؛ السؤال الحق أن تقول: اللهمَّ شفِّع فيَّ نبيك ﷺ، والسؤال الباطل أن يذهب الإنسان عند قبره ﷺأو بعيدًا عنه أو عند قبر غيره من الأولياء أو بعيدً عن قبورهم، فيقول: أسألك الشفاعة عند الله، أو اشفعْ لي عند الله.

السُّؤَال: عن سبب توقُّف ابن القيم في شفاعة قوم استحقوا النار ألَّا يدخلوها؟

الجَوَاب: ذكَر رَحِمَهُ اللَّهُ أنه لم يقفْ فيها على دليل، لكن الصحيح ثُبوت الدليل فيها.

السُّؤَال: ذكرتُم أن الناس في الشفاعة ثلاث طوائف: قوم توسَّطوا، وقوم أنكروا، ومَن الثالثة؟

الجَوَاب: قلنا إن الثالثة هم الذين غَلَوا، فأشركوا مع الله ﷻ لأجل طلب الشفاعة.

السُّؤَال: **بعض الناس يطلب الشفاعة من النبي ﷺ بعد موته، فيقول: يا رسول الله اشفع لي يوم القيامة؟**

الجَوَاب: قلنا هذا القول قولٌ ضالٌّ باطل، وسنتكلم عن ذلك إن شاء الله في درس غَد.

السُّؤَال: **بعض الناس يقول: هم شُفعاء عند الله، والله أعطاهم كرَمَهم أو شيء من هذا؟**

الجَوَاب: على كل حال سنتكلم أيضًا عن هذا إن شاء الله، ويردّ ذلك كله قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر:٤٤].

السُّؤَال: **نريد إعادة أقسام الشفاعة المنفية؟**

الجَوَاب: قلنا ضابط الشفاعة المنفية ترجع إلى صور:

أولًا: الشفاعة التي تُطلب من غير الله.

ثانيًا: الشفاعة التي تُطلب للكفار.

ثالثًا: الشفاعة التي ظنَّها المشركون؛ وهي التي من جنس الشفاعة الدنيوية.

رابعًا: الشفاعة التي تكون بلا إذْن من الله، أو التي يُظن أنها تكون بلا إذْن من الله.

السُّؤَال: نزَل بِي غَمٌّ عظيم ومَلَلٌ في طلب العلم، حتى إني تركتُ مجالس العلم أيامًا وفاتَتني صلاة الجماعة أيامًا، حاولتُ أن أرجع إلى الجادة ولكن كلما نجحتُ في المحاولة سقطتُ مرَّة أخرى، أرجو النصيحة؟

الجَوَاب: أسأل الله ﷻ أن يثبِّتك على طاعته، وأن يُعينك على القيام بأمره؛ كل طالب علْم بل كل مسلم تأتيه شِرَة وتأتيه فَتْرَة، لكن ينبغي عليه أن يأخذ نفسه في حال الفترة بأن لَّا يترك الأمر الواجب، وصلاة الجماعة ليس لك أن تتركها -يا عبد الله- لأنك سَئمت من طلب العلم، هذا لا شكَّ أنه خطأ، فعليك أن تتوب إلى الله ﷻمن ذلك.

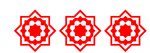
ثم عليك أن تسُوس نفسك؛ خُذ نفسك على أنها مريضة تُعالجها وأنت طبيبها الذي تعرف مكامِن العِلل فيها، وأول سبب في العلاج هو أنك تذهب إلى الأماكن التي من خلالها أُتيت فتَسُدّ تلك الثغرات، هذه الفترة وهذه السَّآمة إنما كانت لأسباب، أسبابها شيء تراه وتُطالعه، أو شيء تسْمعه، أو أُناس تجالسهم، المهم أن هذه الأسباب عليك أن تتبَّعَها ثم بعد ذلك أن تُجانبها، وأن تكون حازمًا في التعامل معها.

ثم بعد ذلك عليك أن تُشجِّع نفسك وتحثّها بأنواع التشْجيع والتحفيز، ليكن بجِوارك كتابٌ في الحث على طلب العلم، يضم الآثار والنُّقولات عن أهل العلم في الحثِّ على العلم وفضل المثابَرة عليه، كلما وجدت من نفسك ضعْفًا اقرأ في هذا الأمر.

أيضًا أَلْزِم نفسك بصُحْبَة مَن هم أقوى منك في طلب العلم، فإنك إذا خالطتهم وماشَيتهم كان هذا دافعًا لك إلى مَزيدٍ من الجهد ومَزيد من البذْل، تُذْكَى في نفسك نار الحماس في طلب العلم بصُحبة الجادّين في طلب العلم، والعكس بالعكس، فاطلب هؤلاء وهم موجودون ولله الحمد، وجالسْهم وخالطهم وتجد الخير الكثير إن شاء الله.

أخيرًا: اعلم أن قلْبك بين إصبعَين من أصابع الله جل وعلا يقلِّبه الله كيف يشاء، فالْجَأ إلى ربك، وسَلْ ربك، واطلبه بصدق، قُمْ آخر الليل وصلِّ واسجُد وادْعُ وابكِ، اطلب الله ﷻ، فهو كريم ﷻ، وهو رحيم، سَلْه أن يثبِّت قلبك وأن يُعيدك وأن يَزيدك من فضله، وثِقْ أن ربك فضْله عظيم، فأحسِن بربك الظنّ، قال الله جل وعلا في الحديث القدسي: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، فَلْيَظُنَّ بِي مَا شَاءَ».

والله تعالى أعلم.



[باب: الشفاعة]

بتأريخ: [١/ ٧/ ١٤٣٧]

السُّؤَال: ندعو الناس في بلادنا إلى التوحيد، أحيانًا نحتاج إلى أن نذكر لهم بعض أسماء الله الحسنى بلُغتنا المحلّية ليفهموا ما نقول؟

الجَوَاب: لا حرج أن تُتَرْجِم معنى اسم الله جل وعلا، وهؤلاء الذين تُخبرهم يفهمون أنك تُترجم لهم ما جاء في الكتاب والسنة وهو بلُغة عربية، فتَرجمة معاني أسماء الله الحسنى وكذلك معاني الصفات باللغات المختلفة لا حرج فيه، بل قد يكون أمرًا متعينًا.

السُّؤَال: عن الشفاعة لأهل المدينة؟

الجَوَاب: الشفاعة لأهل المدينة نوعٌ من الشفاعات الجزئية التي تكون للنبي ﷺ، مَن مات في المدينة أخبر النبي ﷺ أنه يكون شفيعًا أو شهيدًا له يوم القيامة.

السُّؤَال: إذا كان المشركون لا يؤمنون بالبعث، فأيَّ شفاعة يطلبون؟

الجَوَاب: يطلبون الشفاعة في الأمور الدنيوية، لهم طلب ولهم سؤال كثير، ولهم مطالب في أمور الدنيا؛ كالرِّزْق والولد والنصر وما إليه، فكانوا يطلبون من آلهتهم الشفاعة لهم عند الله لأجل تحصيل هذه المآرب الدنيوية، أو دفْع المكارة الدنيوية.

السُّؤَال: هل صحيح أن نعتقد أن رسول الله ﷺ حيٌّ في قبره كما كان في حياته؟

الجَوَاب: لا يجوز لك أن تعْتقد أن النبي ﷺ حيٌّ في قبره كما كان في حياته، هذا اعتقاد باطل وغلط ولا يجوز، إنما النبي ﷺحيٌّ حياة برْزخية، الله تعالى أعلم بها، ولا يجوز أن يُعتقد أنها حياة من جنس هذه الحياة الدنيوية، ولو كان ذلك كذلك لكانت هذه الأمة أُمَّة كافرة مرْتدَّة مُنذ عهْد أصحاب النبي ﷺوإلى اليوم؛ وذلك أن وضْع النبي ﷺوهو حيٌّ حياة دنيوية في التراب إهانة عظيمة، أليس كذلك؟ أرأَيت لو أن إنسانًا تجرأ فوضع على رأس النبي ﷺ ترابًا، مجرَّد وضْع تراب، أَلَا يكفر بهذا؛لأنه أهانه ﷺ؟ الجواب: بلى، فكيف بوضْعه في حفْرة ثم يُهال التراب عليه، وهو حيّ ﷺ!! فالصحابة يكونون مرْتدين بهذا، وكل الأمة مرْتدَّة بهذا؛ لأنها رضيَت بترْك النبي ﷺوهو حي في قبره، هذا لا شكَّ أنه إهانة عظيمة وكفْر بالله.

فاتَّضح لنا -بارك الله فيكم- أن حياة النبي ﷺ في قبره حياة برْزَخِيَّة، الله أعلم بها، كذلك حياة الشهداء حياة برْزخية الله أعلم بها، كذلك حياة كل الناس مسلمهم وكافرهم، كل الناس تكون لهم حياة في قبورهم، لكنها حياة خاصة، يتنَعَّمُون أو يُعذَّبُون بحسب ما يشاء الله جل وعلا، وليس هذا من جنس الحياة الدنيوية، والله تعالى أعلم.



[باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص:٥٦]]

بتأريخ: [٢/ ٧/ ١٤٣٧]

السُّؤَال: قلتُم إن هداية الإلْهام مختصَّة بالله وحده، ومَن اعتقد أن غيره مشارك له فيها فقد أشرك الشرك الأكبر، ما هو وجه كونه مشركًا شركًا أكبر؟

الجَوَاب: لو اعتقد إنسان أن غير الله ﷻ يخلق أو يرْزق أو يُحيي أو يُميت؛ ما حكْمه؟ مشرك شركًا أكبر؛ لأن حقيقة الشرك ما هي؟ أن يُجعل مع الله ﷻمشاركٌ فيما يختص به، فكما قلت في شأْن الخلق والرَّزق والتدبير قُلْ أيضًا في شأن هداية التوفيق.

السُّؤَال: بعض الناس إذا نُصِح بأمرٍ فيه خير كالصلاة، يقول: الله لم يهدِني بعْد، فإذا هداني فسَأُصلي، ويقول: ﴿وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾؟

الجَوَاب: هذا السؤال متعلق بموضوع الإضلال، وموضوع الإضلال موضوع واسع، والوقت ضاق عن أن نتكلَّم عنه بعد الكلام عن موضوع الهداية.

هذا الإنسان أو غيره ممَّن ضلَّ عن الحق في أصل الدين أو في فرْعه فإنه أُتي من جهة أن إضلال الله ﷻ له عقوبة، عقوبة لترْك ما أمر الله ﷻ به، وعقوبة على فعْل ما نهى الله جل وعلا عنه. أهل السنة يعتقدون أن الإضْلال عقوبة، وإيقاع العقوبة في محلها عدْلٌ، والعدل محمود غير مذْموم؛ فهذا الذي ضلَّ عن الحق أضلَّه الله ﷻلأنه عاقبَه على ما صدَر منه، قال جل وعلا: ﴿وَاللهُ أَرْكَسَهُمْ﴾ بأيِّ

سبب؟﴿بِمَا كَسَبُوا﴾،وقال: ﴿ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [التوبة:١٢٧]، وقال: ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ [الليل:٨- ١٠].

فتُب إلى الله يا عبد الله، ودَعْ عنك الإعراض عن أمْر الله ﷻ وأبشر بالخير، الله شكُور، إيَّاك أن تظن أن الله جل وعلا يُجازيك على إقبالك على الخير بأن يصرف قلْبك، بعض الناس ربما توهَّم هذا التوهُّم الذي فيه شيء من سُوء الظن بالله جل وعلا، وهو أن الإنسان إذا أقبل على الله فإن الله يُجازيه على ذلك بأن يصْرف قلْبه عن الهدى؛ ليس الأمر كذلك، بلِ الله ﷻ شَكُور، إذا أقبل عبده إليه فإنه يُقبل عليه، و«مَنْ تَقَرَّبَ إِلَى اللهِ شِبْرًا تَقَرَّبَ اللهُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيْهِ ذِرَاعًا تَقَرَّبَ إِلَيْهِ بَاعًا، وَمَنْ أَتَاهُ يَمْشِي أَتَاهُ اللهُ هَرْوَلَةً» جلَّ وعلا، إذًا الله ﷻكرَمه عظيم وفضْله واسع جل وعلا. فأنت يا هذا إنما أُوتيت من قِبل نفسك، والله أرْكَسَك وحصل على قلبك هذه الظلمات إنما هو بسببك أنت، فالله بيَّن لك الحق لكنك أنت ما أقبلت، قال جل وعلا: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ [فصلت:١٧]. فهذه شُبهة داحضَة ينبغي التنبُّه لها بارك الله فيكم.

السُّؤَال: هل العلماء يهدُون إلى الصراط المستقيم؟

الجَوَاب: إن قلت نعم؛ خطأ، وإن قلت لا؛ خطأ، لابد من التفصيل: إن كان المراد هداية الدِّلالة والإرشاد فنعَم، ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد:٧]، ﴿وَمِنْ

قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف:١٥٩]، ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى:٥٢].

إذًا كيف نجمع بين الآيتَين: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾، مع قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾؛ أَبينَهُمَا تناقض؟ لا، هذه هداية، وهذه هداية؛ المنفي في حق النبي ﷺ في قوله: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي﴾ هي هداية التوفيق والإِلْهام، ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي﴾ هذه شأْنٌ آخر، هذه هداية الدِّلالة والإرشاد، وهي ليست مختصَّة بالنبي ﷺ، بلْ هي عامة لجميع الأنبياء والدُّعاة. والله أعلم.



[باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص:٥٦]]

بتأريخ: [٣/ ٧/ ١٤٣٧]

السُّؤَال: حديث «لَقِّنُوا مَوْتَاكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» هل يُقتصر في التلْقين على هذه الكلمة، كلمة التوحيد، أو لابدَّ من الشهادتين؟

الجَوَاب: أكثر الأحاديث الواردة في فضْل أن تكون كلمة التوحيد آخر كلام الإنسان في الدنيا أكثر الأحاديث فيها الاقْتصار على شهادة أن لا إله إلا الله، ووجه ذلك: ما قد علمت من أن الشهادة الأخرى مضمَّنةٌ فيها، إذًا يُلقِّن الإنسانُ الميتَ هذه الكلمة، قُل: لا إله إلا الله. نسأل الله أن يرزقنا قولها.

السُّؤَال: هل كان أبا طالب يعلم أن محمدًا ﷺ سيكون نبيًا؟

الجَوَاب: بلْ علِم أنه نبي حقيقة، وعلِم صدْق النبي ﷺ دون شكّ.

السُّؤَال: لو أن أبا طالب قال (لا إله إلا الله) فهل ذلك سينفعه؟ الإشكال أنه في الغَرْغَرَة.

الجَوَاب: لا، هو ما وصل الغَرْغَرَة، هذا ما بيَّنتُه لك، لو كان قد وصل إلى مرحلة الغَرْغَرَة يعني وصلت الروح إلى الحلْقوم ما كان قد حصل منه ما حصل من سماعٍ للكلام وإجابة وكلام، ولاحِظ أنه كلام يعني مرتَّب، كيف أنه يقول للنبي ﷺ: «لَوْلَا أَنْ تُعَيِّرَنِي قُرَيْشٌ ..» إلى آخره، مثل هذا الكلام لا يقوله الإنسان وهو في مرحلة النَّزْع، إنما كان ذلك قبل.

إذًا: (لمَّا حضَرت أبا طالب الوفاةُ) يعني أنه كان في فراش الموت، وأنه قد دلَّت القرائن على قُرْب وفاته، وليس أنه وصل بالفعل إلى مرحلة الغَرْغَرَة.

السُّؤَال: كيف يُجاب على مَن يستدل بهذه القصة على أن قول لا إله إلا الله يكفي؟

الجَوَاب: بالعكس، هذه القصة تدل على عكس ذلك وأن مجرد القول لا ينفع، لِمَ؟ لأنه لو كان مجرد القول ينفع ما قالا له: أَتَرْغَب عن ملَّة عبد المطلب؟ إذًا المسألة فيها اعتقاد، اعتقاد إفراد الله ﷻبالعبادة، وكذلك اعتقاد الكفر بما يُعبد من دون الله. أما إن كان مقصود السائل العمل؛ فإن هذا الإنسان على فراش الموت ربما لا يكون متمكِّنًا من العمل، والعمل لابد منه في تحقيق الإيمان مع المُكْنة -يعني مع القدْرة- أما هو على فراش الموت.

السُّؤَال: هل تُكتَب الحسنات للكافر؟

الجَوَاب: هذا مضى الكلام فيه.

السُّؤَال: قول النبي ﷺ: «أَهْوَنُ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا» كيف يكون أهْونهم وهو قد مات على الشرك، فكيف يكون عذاب المقصِّر؟

الجَوَاب: مراد النبي ﷺ بقوله: «أَهْوَنُ أَهْلِ النَّارِ» الذين هم أهلها، يعني الكفار، وأما العُصاة فليسوا أهلها؛ لأن دُخولهم دخولٌ مؤقَّت، ولذلك في «صحيح مسلم» قال النبي ﷺ: «أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا، فَإِنَّهُمْ لَا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلَا يَحْيَوْنَ، وَلَكِنْ نَاسٌ أَصَابَتْهُمُ النَّارُ بِذُنُوبِهِمْ فَأَمَاتَهُمْ إِمَاتَةً»؛ دلَّ هذا على أن هذا الحديث وأمثاله يدل على أن كلمة «أهل النار» إنما يُراد بها: الكفار الذين هم أهلها ومستقرُّون فيها وباقون فيها، أما العاصي فإنه وإن دخل النار، وإن بقي فيها ما شاء الله أن يبقى فإن دخوله دُخولٌ مؤقَّت، فلا شكَّ أن عذاب العُصاة في النار أهون من عذاب الكفار، والله تعالى أعلم.



[باب: ما جاء أن سَبب كُفْر بني آدم وترْكهم دينهم الغُلو في الصالحين]

بتأريخ: [٧/ ٧/ ١٤٣٧]

السُّؤَال: إن بعض الناس يقول: إن دعاء النبي ﷺ ليس شركًا، بدليل قول النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ» فما الجواب عن هذا؟

الجَوَاب: الجواب عن هذا أن الله جلَّ وعلا اسْتجاب دعاء نبيه ﷺ.

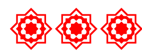
ودعا بأن لا يجعل القبر الذي ... ضمَّه وثنًا من الأوثان
فأجَاب ربُّ العالمين دُعاءَه ... وأحاطَه بثلاثَة الجُدْرَانِ

الذي يقَع إن وقع من تعلُّقٍ بالنبي ﷺ يصل إلى حدِّ الشرك عند المُواجهة ليس ذلك يجعل قبر النبي ﷺوثنًا يُعبد، فإن الذي يفعل هذا إنما يفعله في محلٍ بينه وبين قبر النبي ﷺ عدَّة حواجز، فقبر النبي ﷺمحفوظ، لا أحد يُباشره فيُعبده مباشرة، بمعنى لا أحد يصِل إليه فيَسجد عليه مثلًا أو يتمرَّغ عليه مثلًا، هذا محفوظ ولله الحمد، فبين الواقف في المواجهة وقبر النبي ﷺثلاثة جُدُر، بالتالي فإن قبر النبي ﷺ ما كان وثَنًا يُعبَد.

السُّؤَال: ما هو اعتقاد المشركين في الأصنام؟ هل كانوا يرونها تنفع بذاتها، وأنهم يرونها أنها تحلُّ فيها الأرواح المباركة، أو غير ذلك؟

الجَوَاب: نحن شرحنا وفصَّلنا اعْتقادهم في الأصنام في درس الأصول الثلاثة وفي درس القواعد الأربع بالتفصيل، وقلنا: إنهم كانوا متفاوتين، وكانت هناك اعْتقاداتٌ شتَّى عند هؤلاء المشركين الأوَّلين؛ منهم مَن كان يعتقد أن هذه

الأصنام تتصِل بها الأرواح العُلْوية -يعني الكواكب- فهي مثال أمام أعيُنهم لهذه الأرواح العلْوية التي تُدبر، ومنهم مَن كان يعتقد أنها أنصاب للأرواح الأرضية -يعني الأموات-، ومنهم مَن كان لا يعتقد، وهذا الغالب عليهم، مَن كان لا يعْتقد أن تدبير الكون لهذه الأرواح وإنما كانوا يتخذونهم مجرَّد شُفعاء، ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ﴾ [يونس:١٨]، و ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى﴾ [الزمر:٣] ، هذا هو الغالب على المشركين. والله تعالى أعلم.



[باب: ما جاء في التغليظ فيمَن عبد الله عند قبر رَجل صالح]

بتأريخ: [٩/ ٧/ ١٤٣٧]

السُّؤَال: هل الطواف بالقبر تقرُّبًا إلى الله لا لصاحب القبر شركٌ أكبر؟

الجَوَاب: لا، إنما يكون شركًا أكبر إذا تقرَّب لصاحب القبر، أما إذا زعَم أنه تقرب لله جل وعلا هناك فهذه بدعة ووسيلة إلى الشرك، على أن تصوّر هذه الصورة فيه بُعْد؛ أن يأتي إنسان ولا يجد مكانًا يطوف به إلا هذه البُقعة، ويزْعم بعد ذلك أنه يفعل ذلك لوجه الله، هذا فيه من البُعد ما فيه، والغالب على هؤلاء أنهم يقصدون التقرب إلى صاحب هذا القبر.

السُّؤَال: هل يدخل في هذا الباب مَن يعبُد الله عند قبر النبي ﷺ؟

الجَوَاب: ذكْر الصلاة إنما هو من باب المثال لأنها الصورة الغالبة، وإلا فلا فرْق بين التعبُّد لله عند القبور بصلاة أو بغيرها، فالحكم في ذلك واحد.

السُّؤَال: صلاة الإنسان أمامه وأمامَه مقبرة؟

الجَوَاب: لا حرج فيها إذا كانت هذه المقبرة لها سور، وهذا السُّور لا يمكن للمصلي أن يُشاهد القبور من خلاله، فالتالي إذا صلى الإنسان في هذه الحال فإن صلاته صحيحة، أن تصلي وأمامك سور مقبرة، وبينك وبين هذه القبور فاصل وهو سور المقبرة ولا تشاهد هذه القبور أثناء صلاتك، فإن ذلك صحيح إن شاء الله.

السُّؤَال: **يسأل عن الصلاة في المكان الذي فيه قبور، وكون هذا المسجد كان جزء منه مقبرة للمشركين؟**

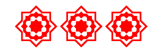
الجَوَاب: الحقيقة هذه صورة تَرُدّ مذهب المخالفين، وذلك أن النبي ﷺ ما بنَى المسجد على القبور، إنما نَبَشَ القبور ﷺ فأخرج رُفاتها خارج المسجد، ثم بعد ذلك سوَّى هذه القبور، ثم بنى المسجد، فدلَّ هذا على أن القبور إذا نُبِشَت زال حكمها، وزالَت العلَّة المَخُوفة من الصلاة هاهنا.

وهذه أيضًا فائدة، كون النبي ﷺ نَبَشَ القبور ثمَّ سوَّاها ثمَّ بنى المسجد؛ هذا يدلك على أن العلَّة في النهي عن الصلاة في المقابر ليست هي النجاسة؛ لأنه لم يثبت أن النبي ﷺ أتى بتُراب جديد من الخارج، إنما نفس التراب الموجود سوَّى به الأرض ثم بنى المسجد، ولو كان هذا التراب نجسًا ماذا فعل؟ كان أخرجه ﷺ وأتى بتراب نظيف، لكنه ما فعل ﷺ.

السُّؤَال: **كثير من الناس يُصلي في هذه المساجد، فما حكم الصلاة، والدليل على ذلك؟**

الجَوَاب: لعلَّه يُريد صلاة هؤلاء في المساجد التي فيها قبور؛ الجواب عن هذا بيَّنه النبي ﷺفي قوله: «كُلُّ الْأَرْضِ مَسْجِدٌ وَطَهُورٌ إِلَّا الْمَقْبَرَةَ وَالْحَمَّامَ» ، فإذا صلى الإنسان في المقبرة أو في الحمام الذي هو مكان المغْتسَل -المكان المعروف الذي يُسمى الحمَّام- فإن هذا لا شكَّ أنه صلى في المكان الذي نهى عنه النبي ﷺ، فتكون صلاة هؤلاء غير صحيحة، بشرط أن يكونوا يعلمون أن

هاهنا قبر، فإذا كانوا لا يعلمون فهم معذورون، لكن الواجب عليهم بعد العلم أن لا يفعلوا، أما إذا صلوا مع العلم فإن الصلاة على الصحيح غير صحيحة، والله أعلم.



[باب: ما جاء في التغليظ فيمَن عبد الله عند قبر رَجل صالح]

بتأريخ: [١٠/ ٧/ ١٤٣٧]

السُّؤَال: هل يلزم في الرقية أن نضع اليد على المريض في أثناء القراءة؟ أو يكفي مجرد القراءة؟

الجَوَاب: نحن قلنا في دروس ماضية إن الرقية جاءت عن النبي ﷺعلى ثلاث صفات:

من ذلك: وضْع اليد على موضع الألَم مع القراءة.

والثاني: القراءة مع النفْث، أو التَّفْل، كلاهما ثبت عن النبي ﷺ.

والثالث: القراءة المجردة؛ يقرأ دون أن يمسّ أو يلْمس، ودون أيضًا أن ينفث، كل ذلك ثابت عن النبي ﷺ.

السُّؤَال: إذا كان الناس في قرية يصلون في مسجد فيه قبر، وهم يعلمون بوجود القبر لكن لا يعلمون حكم الصلاة، ولم يعلموا إلا بعد سنوات، فماذا يلْزمهم؟

الجَوَاب: يلْزمهم مَنذ أن علموا أن يتقوا الله جل وعلا، وأن يسْتجيبوا لأمْر النبي ﷺ، هذا المسجد لا تجوز الصلاة فيه، لأنه أصبح مقبرة، «كُلُّ الْأَرْضِ مَسْجِدٌ وَطَهُورٌ إِلَّا الْمَقْبَرَةَ وَالْحَمَّامَ»، «اجْعَلُوا مِنْ صَلَاتِكُمْ فِي بُيُوتِكُمْ، وَلَا تَتَّخِذُوهَا قُبُورًا»، وقلنا إن المكان إذا وُجِد فيه قبر واحد فأكثر أصبح مقبرة، وبالتالي الحكم في هذا المسجد:

-أنه إن كان المتقدِّم وجودًا وجَب نبْش القبر وإخراجه.

-وإذا كان القبر هو المتقدِّم فإنه يجب هدْم المسجد، وإبقاء القبر في العَراء.

السُّؤَال: هل صحَّ أن نور الدين زِنكِي بنى حائلًا لقبر النبيﷺ من الأسفل؛ صيانة له ممَّن حاولوا سرقة الجثَّة الشريفة صلى الله على نبينا محمد وسلَّم؟

الجَوَاب: الواقع أن كتب التاريخ ذكَرَت عدَّة وقائع، وقد جمَعها السَّمهودي في «وفاء الوفا» وذكرها، وهي وقائع تاريخية الله أعلم بصحتها، لكن كثْرة وُرودها وكثْرة ذكرها كأنها -والله أعلم- لها أصل. فالشاهد إن كنت تريد الفائدة فارجع إلى هذا الكتاب.

هذا سؤال جيِّد: قول النبي ﷺ في حق اليهود والنصارى: «اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ» مع أن النصارى ليس لهم نبي إلا واحد، وهو عيسى عليه السلام، وهذا النبي الكريم ما قُبر، ليس له قبْر لأن الله جل وعلا رفَعَه إليه؟.

والجواب عن هذا من وجوه:

الوجه الأول: أن النبي ﷺ جمع بين اليهود والنصارى في الذكْر.

الوجه الثاني: أن بعض روايات الأحاديث فيها «أنبيائهم وصالحيهم» فيَتنزَّل هذا على هؤلاء.

الوجه الثالث: أن من النصارى مَن كان يتّخذ قبور مَن قبل عيسى ﷺمساجد -والأمر كما ذكر بعض العلماء ونقله الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ - أن اليهود ابتدعَت، والنصارى اتَّبعَت، اليهود ابتدعَت هذه البدْعة، والنصارى تابعُوهم على ذلك.

السُّؤَال: نحن في قرية لا يوجد فيها إلا مسجد واحد وفيه قبور، الآن كيف الصلاة فيه؟

الجَوَاب: الحكم -بارك الله فيك- أن الصلاة في المسجد الذي فيه قبر كما قلنا لا تجوز، وبالتالي أنا أنصحُك بالآتي:

أولًا: السَّعي في النصيحة والبيان والدعوة إلى الله بالرِّفْق واللِّين وبالتي هي أحسن، واستعِن بإخوانك العقلاء بعد الله جلَّ وعلا في نصيحة رؤساء ووجهاء هذه القرية؛ لعلَّ الله ﷻ أن يهديهم، فتزول هذه الإشكالية ويَزول هذا المنكر.

فإن لم يحصل فأوصيك ثانيًا: بأن تسْعى ومَن معك من أهل السنة والتوحيد أن تبنوا لكم مسجدًا خاليًا من هذا المنكر.

فإن ما تيسَّر فهذا عُذر لك في أن تصلي مع مَن كان حولك ممَّن تلْزمهم الصلاة ولو في البيت، في بيتك أو في بيت أحدكم، وإن ما تيسَّر فصلِّ وحدك، وهذا عُذرٌ لك، لكن إيَّاك أن تصلي في مسجد فيه قبر. والله أعلم.



[باب: ما جاء في أن الغُلو في الصالحين صيَّرهم أوثانًا تُعبد من دون الله]

[١٤٣٧/١٥/٧]

السُّؤَال: يسأل عن حكْم تجصِيص القبر؛ لأنه يخاف على هذا القبر أن يحصل بيعه لمَيت آخر يُدفن فيه؟

الجَوَاب: الذي يظهر -والله أعلم- أنه لا يجوز لك فعْل ذلك، فلا يجوز تجصِيص القبور، وأما ما يكون لهذا القبر فأنت لسْتَ مسؤولًا عنه، أولًا هذا أمر مُتوقَّع وليس أمرًا مقطوعًا به، وثانيًا: أنت مطالب بالأمر الذي يتعلق بك؛ ستُحاسَب على فعْلك، ولن تُحاسَب على فعْل غيرك، فإن أخطأ غيرك فالله ﷻ يتولَّى أمره، المهم أنك أنت لا تقع في المحذُور. والله أعلم.

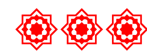
السُّؤَال: كيف نوفِّق بين قول ابن القيم: (وأحاطَه بثلاثَة الجُدْرَانِ) مع أن الجدار الثالث بعد ابن القيم؟

الجَوَاب: أنا ذكرتُ -إن كنتُم تذْكُرُون- ذكرتُ: أنه في سَنة [ستمائة وثمانية وستين] أُدير على الحُجْرَة، والعلماء إذا ذكروا في كتب التاريخ الحُجرة يريدون كل هذا المكان، بما يشمل من الجزء الخلْفي الذي هو من بيت فاطمة رضي الله عنها، يعني كل هذا المكان كمُصْطلَحٍ عند المؤرِخين يُسمى الحُجرة، قلت: إنه أُدير في هذه السَّنة [ستمائة وثمانية وستين] جدارٌ خشبي يُسمى (الدَّرابزِين) وهي كلمة أصلها فارسي، ثم إنه احتَرق المسجد بعد ذلك، فأُدير هذا الجدار المُشجَّر الحديدي بعد ذلك في عهْد (قايت باي) في [ثمانمائة وست وثمانين]،

أما قبل ذلك فابن القيم أدرَك (الدَّرابزِين) لكن لم يكن بهذه الصورة، إنما كان بصورة أخرى شَبيهة بها.

السُّؤَال: هل تُشرع زيارة قبر النبي ﷺ؟

الجَوَاب: نعم، وهذا الذي كان يفعله ابن عمر رضي الله عنهما كما ثبَت عن بإسناد صحيحٍ عند ابن أبي شيبة وغيره، ولكنه كان يفعل هذا ﷺ إذا أراد سفرًا أو قَدِم من سَفر، وسنتكلم عن هذا -إن شاء الله- عند حديث نهْي النبي ﷺعن أَن يُتَّخَذ قبرُه عِيدًا، والله أعلم.



[باب: ما جاء في حماية المصطفى عليه الصلاة والسلام لجَناب التوحيد]

[١٤٣٧/٧/١٦]

السُّؤَال: ما حكْم الصلاة في مسجد أُدخل عليه قبر لكن القبر ليس في جهة القبلة؟

الجَوَاب: متى ما كان القبر داخل هذا المسجد فإنه لا تجوز الصلاة فيه؛ لأنه بوجود قبرٍ فأكثر يصبح المكان مقبرة، والنبي ﷺ قد أخبر أن «الأرض كلها مسجد إلا المقبرة والحمام» فلا تجوز الصلاة في هذا المكان، والواجب شرعًا أن يُبقى الأَقدَم وأن يُزال الأُحدَث، فإذا كان المسجد هو المتقدِّم وجَب نبْش القبر ودفْن الميت أو ما يبقى منه خارجه، وإذا كان القبر متقدِّمًا وجَب هدْم المسجد وبناؤه في محلٍّ آخر.

السُّؤَال: قلتُم إن جنس العرب أفضل من غيرهم مع أنه ﷺيقول: «كلُّكم لآدم، وآدم من تراب» ما وجه تفضيلكم العرب على غيرهم؟

الجَوَاب: أولًا هذا موضع اتفاق بين أهل السنة والجماعة؛ وهو أن جنس العرب أفضل من جنس غيرهم، ولاحِظ -يا رعاك الله- أن التفضيل تفضيل جنسٍ على جنس، وليس تفضيل أفراد على أفراد، ووجه التفضيل: أن جنس العرب أقرَب إلى قبول الحق، ففيهم من حِدَّة الذهْن وصفاء القريحة ما يجعل قبولهم إلى الحق أكثر من غيرهم، وهذا كما قلنا من حيث الجنس، أما من حيث الأفراد بالتفضيل بالتقوى، ولِذا فإذا قدَّرنا أن هناك رجلٌ من العرب ورجلٌ من

غيرهم استويَا في التقوى والصلاح فلا تفضيل حينئذٍ؛ لأن العبرة عند ربنا ﷻ إنما هي بالتقوى، ولذلك باتفاق المسلمين الأنبياء من غير العرب أفضل من جميع العرب، إلا مَن كان أفضل منهم مِن الأنبياء، وسيّد الأنبياء وأفضلهم هو نبينا محمد ﷺ. ولشيخ الإسلام كلامٌ حسَن ونفيس في تفصيل هذه القاعدة وبيانها في «مِنهاج السنة»، ولعلَّ كلامه في أواخر الجزء الرابع من منهاج السنة، فلْيرجع إليه مَن أراد التفصيل.

السُّؤَال: الصحابة ﭫ أحرص الناس على التوحيد والدِّيانة، وقد مدحوا النبي ﷺ، ونجد مَن يُبالغ في منْع ذلك، فما هو الصحيح في ذلك؟

الجَوَاب: لا أعلَم أحدًا من أهل العلم يمنع من مدح النبي ﷺ، وإنما الذي يمنع منه أهل العلم إنما هو الخروج عن حدّ المشروع، وهذا هو الذي نَهَى عنه هو ﷺحينما قال: «لا تُطْرُوني كما أطرَت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبدٌ، فقولوا: عبد الله ورسوله».

السُّؤَال: هل مَن يتوسَّل بالأولياء والأموات مبتدع، وهل التوسل داخلٌ على قضية فقْهية أو عقديَّة؟

الجَوَاب: أولًا التوسُّل أصبح عند المتأخرين يُراد به أمران:

أولا يُراد بكلمة (التوسُّل): الاستغاثة والدعاء؛ فيُسمّون الاستغاثة بالأموات توسُّلًا بهم، يعني حينما يقول لمَيت: يا سيدي فلان أغثْني، يقول: أنا

أتوسل به، وهذا اصْطلاحٌ خاطئ ليس بصحيح، وسواء سمَّوه توسلًا أو لم يُسمّوه لا يُخرجه ذلك عن كونه شركًا بالله ﷻ.

أما المعنى الآخر وهو المعنى الصحيح: أن التوسل دعاء لله ﷻ بشيءٍ، إذًا فرْق بين دعاء الشيء والدعاء به، فدُعاء الشيء استغاثة وطلَب وسؤال ودعاء، وأما الدعاء به فهو الذي يُسمى توسُّلًا.

والتوسُّل بالذوات والجاه وما إلى ذلك هذا كله لا دليل عليه في الكتاب والسنة، ولو كان هذا عملًا صحيحًا وعبادة صحيحة لبيَّن ذلك الرُّؤوف الرحيم بأُمته ﷺ، فلِيتوسل المسلم بالشيء الذي ينفعه ويكون أعظم وسيلة إلى إجابة سُؤْله، وهو وأن يتوسل إلى الله جل وعلا بأسمائه وصفاته تبارك وتعالى، أو بعمله الصالح ومن ذلك إيمانه بالنبي ﷺ واتباعه له ﷺ، ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ﴾ ماذا؟ ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾[آل عمران:٥٣] انظر إلى هذا التوسل، أنت هنا تتوسل بشيءٍ يرجع إليك، أما مجرَّد التوسل بجاهِ النبي ﷺ فجاهُه له ﷺ ما علاقتك به؟ أنت تتوسل بشيء يتعلق بك، لو توسلت بإيمانك بجاه النبي ﷺ فإن توسُّلك حينئذٍ توسل صحيح.

السُّؤَال: ما هو الإخلاص، فأنا كثيرًا ما أُحِسُّ بالرياء في أعمالي وخاصة طلَب العلم، وقد كنتُ ملْتحقًا ببرامج إلا أني تركتُها خشْية الرياء؟

الجَوَاب: لا شكَّ أن هذا سؤال عظيم، والمقام مقامٌ مخُوف، لا سِيما فيما يتعلق بك يا طالب العلم وفيما أنت مشتغل به وهو طلب العلم، فأنت إذا تركْت

طلَب العلم وقعْت في أمر عظيم، وأنت إذا طلبت العلم ولم تكُن مخلصًا لله وقعْت في أمر عظيم، إذًا لا مَخرج إلا بأن تطلب العلم، وتكون مخلصًا لله ﷻفيه، والإخلاص ليس أمرًا مسْتحيلًا، قد يكون صعبًا نعم، ولكنه ليس أمرًا مستحيلًا، ولم يأمر الله ﷻ بشيءٍ قطّ وهو مستحيل، فالتكليف بما لا يُطاق أمْرٌ لا وجود له في هذه الشريعة ولله الحمد. فجاهِد نفسك وابذُل ما تسْتطيع في سبيل دفْع هذه الخواطر والواردات التي تَرِدُ عليك، ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت:٦٩]، احرصْ على أن ترسِّخ في نفسك معاني الإخلاص، وأن يسْتوي عندك مادِح وذامُّك، تأمَّل في حال الخلق وضعْفهم وفقرهم وعَجزهم، تأمَّل في عظمة الخالق ﷻ، وأن الأمر كله منه وإليه تبارك وتعالى، وبالتالي فإن من سُخْف العقل أن يطلب الإنسان بعمله وجهَ غيره.



[باب: ما جاء في حماية المصطفى عليه الصلاة والسلام لجَناب التوحيد]

[١٧/ ٧/ ١٤٣٧]

السُّؤَال: ما الجواب عن اعتراض القبُوريِّين الذين يقولون: إن النداء للنبي ﷺ ثابت في الدعاء الذي يُقرأ في التحيات: (السلام عليك، أيُّها النبي)؟

الجَوَاب: أولًا هذا ليس من الدعاء، يعني ليس من دعاء النبي ﷺ وليس من الاستغاثة به بوجهٍ من الوجوه.

وثانيًا: أن قول المصلي: (السلام عليك أيُّها النبي) هذا إنما هو من قَبيل الاسْتحضار الذهْني، لا من قَبيل مخاطبة مَن يسمع، فإن النبي ﷺ لا يسمع قولَ المصلِّين ذلك، إنما هذا من قَبيل الاسْتحضار الذهْني، فمَن أراد أن يستحضر شيئًا في ذهنه فإنه قد يناديه فينزِّله منزلة الحاضر عنده، وهذا ما وجَّه به أهل العلم هذا الحديث.

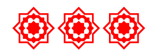
السُّؤَال: ذكرتُم أن الصحيح في حكْم بناء المسجد على القبر: أن المسجد إذا كان سابقًا على القبر نُبش القبر، وإن كان القبر سابقًا هُدم المسجد؛ فكيف يُجاب عن فعْل النبي ﷺ في نبْشه القبور .. إلى أن قال: فهل يُقيَّد ذلك بالقبر المحترَم؟

الجَوَاب: نعم، قبور المشركين غير محترمة، فمتى ما اقتضَت المصلحة استعمال هذا المكان في مقصودٍ شرعي جاز نبْش هذه القبور، أما قبور المسلمين فإن لهم حقًّا في هذا المكان، وهذا المكان أضْحى وقْفًا على أموات

المسلمين، فلا يجوز التصرُّف فيه، هذا حق لهم ولا يجوز الاعْتداء على حقِّهم، بلْ يجب احترام هذا الحق، وبالتالي فإن المسجد الذي يُبنى على القبر لا حق له فيه، ولا يُنبَش القبر لأجله، وإنما يُهدَم المسجد ويُبنى في مكانٍ آخر.

السُّؤَال: ما حكم الصلاة في المسجد الذي لا يكون بينه وبين المقبرة إلا جدار المسجد، وتكون المقبرة في جهة القبلة؟

الجَوَاب: الصحيح إن شاء الله أن الصلاة في المسجد الذي هذه هيئته صحيحة بشرط ألَّا يكون هناك نوافذ مُطِلَّة على القبور؛ سَدًّا لذريعة الشرك والتعلُّق بالقبور، وإذا كانت هناك نوافذ تُسَدّ حتى لا يكون هناك أدْنى ذَريعة إلى قصْد هذه القبور، والله تعالى أعلم.



[باب: ما جاء أن بعض هذه الأمة تعبد الأوثان]

[١٤٣٧/٧/٢٣]

السُّؤَال: ما المقصود بالأُمة هنا، أَهِيَ أُمَّة الإجابة؟

الجَوَاب: نعم، ذكرنا هذا في الدرس الماضي حينما ذكرْنا تبْويب المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان؛ المقصود أُمَّة الإجابة.

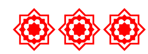
السُّؤَال: عن إخبار النبي ﷺ فيما حصل ؟

الجَوَاب: ما ورَد في هذا الحديث أخبر به النبي ﷺعلى سبيل التحذير، وليس على سبيل الإقرار، وهذا واضح عند جميع أهل العلم، وكلّ مَن يعرف لُغة العرب، وأُسلوب النبي ﷺ في حديثه يُدرك أن النبي ﷺ إنما ساق هذا الكلام مِن أنه سيكون هناك دَجَّالُون، ومِن أنَّ هناك فِئامٌ يعبدون غير الله جل وعلا، كل ذلك على سبيل التحذير.

السُّؤَال: إذا كان للإنسان ذُنوب قد غفَرَها اللهُ له، فهلْ تعود مرَّة أخرى إذا قَارَف ذنبًا آخر، أم أنها مُحِيَت بالمغفرة؟

الجَوَاب: الذنب الذي يغفره الله تَعَالَىٰزالَ أثرُه فلا يعود، الذنب الذي يغفره الله جل وعلا انتهى أمرُه، مُحِي من الصحف فلا يعود، ولا يكون على الإنسان أثرٌ منه، لكن هذا الأمر شأْن غَيبي؛ لا ندري ما الذي غُفر مِن الذي لم يُغفر؟ وبالتالي لا ينبغي للإنسان أن يُعوِّلَ على هذا الأمر من جهة أنه يظن قد غُفر له

ذنبٌ سابق، ما تدري! ولذلك دَاوِم على التوبة والاسْتغفار والإكثار من العمل الصالح، لعلَّه يكون سببًا في مغفرة هذا الذنب.



[باب: ما جاء في السِّحْرِ]

[١٤٣٧/٧/٢٤]

السُّؤَال: ما يُسمى بـ(خِفَّة اليد) هل يُعَدُّ هذا من السِّحْر؟

الجَوَاب: هذا من الأنواع التي لا تُعد من السحر الكفري، لأنه لا يكون عن طريق الاستعانة بالشياطين، ولكن فيه إلْباسًا ويُوقِع الناس في نوع من الرَّيب والشك والالْتباس، وهذا لا شك أنه أمْر محرم، فيُمنع، ويكون محرمًا ولا يجوز، ويجب على ولي الأمر أن يمنع هؤلاء الذين يُلبّسون على الناس ويُوهمونهم أنهم يفعلون أشياء خارِقة للعادة، والواقع أنهم فعلوا شيئًا ممكنًا ولكن عندهم سُرعة في اليد أو نحو ذلك، ويُوهمون أنهم سَحرة أو أنهم يفعلون الشيء الخارق، وكل هذا لا حقيقة له.

السُّؤَال: عن مَن يُنكر السحر؟

الجَوَاب: إنكار حقيقة السحر -كما ذكرتُ لك- إنكار لِما دلَّ الشرع عليه وما دلَّ الحسُّ عليه؛ فهو جهْل من صاحبه، ومَن أنكره ينبغي أن يُبيَّن له الأمر، ما كان النبي ﷺ ليَأمر الإنسان باتِّقاء شيء لا حقيقة له، والحديث في «الصحيحين»: «لم يُصبْه في ذلك اليوم سُمٌّ ولا سِحْر» يعني مَن تصبَّح يعني أكَل على الرِّيق سبع تمرات عجْوة، ما كان النبي ﷺ ليأمر بتوقِّي شيء لا حقيقة له، إلى غير ذلك من الأدلة التي ذكرناها.

السُّؤَال: هل الحل للسُّموم العَجْوَة؟

الجَوَاب: النبي ﷺ لا ينطق عن الهوى، أخبر أن مَن تصبَّح بهذه التمرات السبع، أكلَها على الرِّيق؛ لم يُصبْه في ذلك اليوم سُمٌّ ولا سِحْر، وصدَق ﷺ.

السُّؤَال: في بعض الدول لا يمنعون السحرة والدجالين والكُهَّان من أعمالهم، ما رأْيُكُم؟

الجَوَاب: نقول: المُشتكَى إلى الله، إنا لله وإنا إليه راجعون.

السُّؤَال: هل السحر له أثر في القلوب؟

الجَوَاب: نعَم، من أنواع السحر سِحْر الصرف، كما سيأتي معنا إن شاء الله الباب القادم في ذكْر بعض أنواع السحر، وسِحْر العطْف، ومنه: سِحر الصرف، ومنه: سِحْر الرَّبط، لا شك أنه يكون فيه تأثيرًا.

السُّؤَال: عن حكْم الاستعانة بالجن في فكِّ السحر ونحو ذلك؟

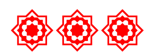
الجَوَاب: هذه مسألة تكلمنا عنها غير مرَّة، الصواب من كلام أهل العلم في هذه المسألة: أنه لا يجوز الاسْتعانة بالجن الذين يُظَن أنهم صالحون، وذكرنا أسباب ذلك، ومن ذلك: أنه وُجد المقتضِي لهذا الفعل في عهد النبي ﷺ وزالَ المانع ولم يفعلْ ﷺ، بلْ قد وُجِدَ المقتَضِي لِما فيه مصلحة عظيمة في الشريعة، ومع ذلك ما فعل النبي ﷺ .

أَضِفْ إلى هذا: أنه قد يجرُّ إلى ما لا تُحمَد عُقباه.

وأَضِفْ إلى هذا أيضًا: أنَّنا لا ندري صدْق هذا الذي يدَّعي أنه من الجن الصالحين، ما الذي يُدريك أنه صادق؟ ولِمَ لا يكون كاذبًا! ولِمَ لا يكون حريصًا على إغْوائك! فمثل هذا الأمر لا ينبغي فتْح بابه، سَدّ الذَّريعة أصل شرعي.

السُّؤَال: كيف يتخلَّص المسلم من السِّحْر؟

الجَوَاب: سنتكلم عن هذا على وجه التفصيل إن شاء الله لاحقًا.



[باب: بيان شيء من أنواع السِّحْر]

[١٤٣٧/٨/١٣]

السُّؤَال: هل يجوز للحائض زيارة الرسول ﷺ؟ وهل يجوز لها الطواف بالكعبة مع العلم أنها حضَرَت من مصر؟

الجَوَاب: أما الأمر الأول وهو زيارة الحائض قبر النبي ﷺ ففيه أمران:

-الأول: أنه لا يجوز للمرأة الحائض أن تدخل فتمكُث في المسجد، وزيارتها لهذا القبر لا تكون إلا بذلك، ستدخل وتمكُث في المسجد، وهذا أمر هي منه ممنوعة شرعًا؛ النبي ﷺ لما طلب من عائشة رضي الله عنها أن تُناولَه الخُمْرَة ماذا قالت؟ إنَّني حائض، ماذا ردَّ عليها النبي ﷺ؟ قال: «إنَّ حيضِتكِ

ليسَت في يدكِ». فدل هذا على أن المستقرّ عند الصحابة أن الحائض لا تدخل المسجد.

-الثاني: أن زيارة النساء للقبور عمومًا أمْر لا يجوز على الصحيح من كلام أهل العلم، وقد مرَّ بنا الكلام في ذلك على وجه التفصيل، وقبْر النبي ﷺ قبرٌ، وإن كان أشرَف القبور، فالمرأة لا يجوز لها أن تزور القبور ولو كان ذلك قبر النبي ﷺ على القول الصحيح الراجح من أقوال أهل العلم، لكنها تدخل إلى حيث الروضة إن شاءت فتُصلّي، هذا لا بأس به، وتُصلي على النبي ﷺ وتُسلِّم حيث كانت.

وأما الأمر الثاني: وهو طوافها بالكعبة، فلا شكَّ أنه أمرٌ لا يجوز، حتى ولو جاءت من الصين، ليس لها أن تطوف بالبيت، والنبي ﷺ قال: «افعَلِي مَا يفعل الحاجُّ غير ألَّا تَطوفِي بالبيت»، وهي إن شاء الله مأْجورة على نيّتها، نعم؛ أتَتْ من مكان بعيد وتكلَّفت وتَعبت، والله جل وعلا لا يُضيع أجر المحسنين، فلْتُبشر بالخير، يَنالها الثواب إن شاء الله، وبفضل الله ولو لم تطُفْ بالبيت يعني لو لم يتيسّر لها العمرة أو الطواف إلى وقت سفرها بسبب الحيض فلْتبشر بالخير، نيّتها تُبلّغها ما لم يبلّغها العمل.

السُّؤَال: هل لشعبان ليلة تُخصّ فيها العبادات؟ وما حكْم صيام النصف الثاني منه؟

الجَوَاب: الصحيح -بارك الله فيكم- أن كل الأحاديث الواردة في فضل ليلة النصف من شعبان لا تَصح، وعلى فرْض صحتها فإنه لا دليل على تخْصيصها بعبادة. إذًا عندنا أمران:

أولًا: الأحاديث على الصحيح ضَعيفة.

وثانيًا: لو صح منها شيءٌ فليس في ذلك ما يدل على تخْصيصها بعبادة، ومعلوم أن قصْد الإنسان إلى شيء عام فيُخصّص منه شيء- اللَّيالي يخصّ منها شيئًا لاعتقاد فضيلةٍ خاصة مع المُداومة على ذلك- هذا يُدخل هذا العمل في البدع، والله أعلم.

السُّؤَال: هل الفأْل يدخل في الطِّيرة أو نوع منها؟

الجَوَاب: سنتكلم عن هذا إن شاء الله، وعلى الفرق بين الفأل والطيرة على وجه التفصيل في درس قادم قريب إن شاء الله.

السُّؤَال: ذكرتُم فيما مضى أن الساحر اختُلف في حكْمه، فما القول الراجح مأْجورِين؟

الجَوَاب: أنا ما ذكرتُ خلافًا ثم سكتُ، أليس كذلك؟ أنا ذكرتُ الخلاف وقلتُ إن الخلاف راجع إلى وِفاق؛ فكل مَن تكلم في هذه المسألة أراد شيئًا، وما حصل تعارض، الخلاف يكون حينما يتوارَد النفي والإثبات مثلًا على شيء واحد، لكن العلماء الذين قالوا السحر كُفر، أرادوا السحر الذي فيه اسْتعانة

بالشياطين، وهذا ما لا يُختلَف فيه، وأما الذين قالوا إن السحر ليس بكفر، أرادوا الأنواع الأخرى، وهذا لا شكَّ فيه، لا شكَّ أنه يُمنع ويُحذَّر ويُقال إن هذه مُنكرات ومعاصي ومحرمات، هذا لا شك فيه ولا يُختلف فيه أيضًا، فالصحيح التفصيل، وبذلك يرجع الكلام المتفرق أو جُلُّه إلى وِفاق، والله أعلم.



[باب: بيان شيء من أنواع السِّحْر]

[١٤/٨/١٤٣٧]

السُّؤَال: عن حكْم العقاقير التي تُؤخذ من الساحر؟

الجَوَاب: لا أدري ماذا يريد بالعقاقير لكن لعلَّه يريد هذه الأمور التي تكون من الأعشاب أو خلْطات أو نحوها، أنا أقول -رَعاك الله- أنت تقول هذه عقاقير تُؤخذ من الساحر، والسؤال: هل الساحر يأتي بالخير أو يأتي بالشر؟ الساحر مقطوع الخير، حكم الله ﷻ بذلك، ﴿وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ [طه:٦٩]، فما لك وله يا عبد الله!! دَعْك منه ولا تأْتِه ولا تأخذ منه شيئًا، ولا يجوز للإنسان أصلاً أن يحضُر عند الساحر، إلا على سبيل الإنكار عليه ممَّن عنده قدْرة على ذلك، ومن عدا ذلك لا يجوز له أصلاً أن يأتي إليه.

وسنتحدَّث عن هذا -إن شاء الله- بالتفصيل في الباب بعد القادم الذي يتعلَّق بالنُشرة.

السُّؤَال: هذ الذي يحذِّر الناس من منافق أو إنسان كاذب وغير صادق يكون نَمامًا؟

الجَوَاب: ليس الأمر كذلك، النَّميمة لها ضابط واضح، لا ينبغي الخلْط بين الأمور، لابد أن يكون للأمور حُدود، فالنَّميمة: نقل الكلام بين الناس على جِهة الإفساد، النبي ﷺقال: «ليُفسد بين الناس»، أما من أراد الخير ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ [البقرة:٢٢٠]، هذا الذي يريد أن ينصر حقًا، وأن يُنبَّه

على باطل، وأن يحذِّر مسلمـًا من شر أَكيد، فإن هذا ليس داخلاً في ذلك، ومن أمثلة هذا: ما جاء في قصة موسى عليه السلام، ﴿إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ [القصص:٢٠]، مثل هذا أمر مشروع بل قد يكون متعيِّنـًا، فلا ينبغي إدخال هذا في هذا.

السُّؤَال: ما نصيحتُكم لطلاب العلم في استغلال هذه الإجازة، جزاكم الله خيرًا؟

الجَوَاب: هذه الإجازة فرصة طيِّبة؛ أيام طويلة ووقت مَدِيد، والموفَّق من أحسن استغلال هذه الإجازة، أنصحك -يا رَعاك الله- أن تجعل لنفسك برنامجـًا ثريـًا وغنيـًا تستغل فيه كل يوم بل كل ساعة فيما ينفعك، وحديثي مُوجَّه إلى طلاب العلم الذين شرح الله ﷻ صدورهم لطلب العلم والإقبال عليه، مثل هذه الإجازة فرصة تُهتَبل، ولا ينبغي أن تضيَّع، فإني أوصيك -يا رَعاك الله- بالجد والاجتهاد، فاحرص على أن تجمع في هذه الإجازة بين ثلاثة أمور في جدول مركَّز تأخذ نفسك وتحمل نفسك على العمل به:

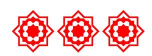
أولاً: الحفظ.

وثانيـًا: القراءة وجرْد الكتب.

وثالثـًا: الأخذ عن الأشياخ.

احرص على أن تجمع بين هذه الأمور الثلاثة، هذه الأيام فرصة، ربما تستطيع أن تحقِّق فيها ما لا تستطيع في أيام الدراسة النظامية، فضَع لنفسك هدفـًا تريد تحقيقه واسْعَى في ذلك، وإن صدقت الله ﷻسيعينك، اجعل لنفسك مُتونـًا معيَّنة في طلب العلم، وأنت أدرى بنفسك وما تحتاجه وما ينقُصك، وما ترى أنه متعيِّن وأهم من غيره بالنسبة لك فقدِّمه ورتِّبه، واجعل هذا في جدول دقيق، أنا ذكرتُ لكم مرة عن أحد طلاب العلم كان جاداً جداً، ودرس عندنا في الجامعة، كان يأتيني في بداية الفصل الدراسي فيقول: هذا الفصل فيه مثلاً خمسة وتسعين يومـًا، ثم جعل جدولاً فيه مربعات، كل يوم بالضبط يعرف ماذا سيفعل فيه؛ سيحفظ كذا من القرآن، أو يراجع كذا من القرآن، ويحفظ كذا من الحديث، ويقرأ خمسين صفحة من الكتاب الفلاني، ويحضر درس كذا، يعني إذا جاءت الإجازة يقول: هذه الإجازة فيها أربعة وسبعين يوم، وفي كل يوم يعرف بالضبط ماذا يفعل، وفي النهاية تجد أنه قد خرج بفائدة كبيرة. هذا عرف لماذا جاء إلى هذا المكان، وعرف أهمية الوقت، وأهمية الترتيب والتنظيم.

فأنا أوصيك -رعاك الله- بجدول، ولكن لا تُبالغ وكُن موضوعيـًا وكُن واقعيـًا، وخُذ بما تستطيع، أشياء تحفظها، كتب تقرأها وتُحدِّدها وتُحدِّد لنفسك صفحاتها، وتعرف بالضبط متى ستنتهي؛ لأنك ستقرأ كل يوم خمسين أو مائة صفحة مثلاً بحسب قدرتك، وأيضـًا هناك دروس معيَّنة تحاول أن تأخذها على المشايخ، إن أمكن أن تُحصِّلها مباشرة فالحمد لله، وإلا فإن في الدروس المسموعة المسجَّلة، فيها خير كثير، والله أعلم.



[باب: ما جاء في النُشرة]

بتأريخ: [٢٠/ ٨/ ١٤٣٧]

السُّؤَال: لو قال قائل "وُجد من ذهب إلى الساحر ليحلّ السحر فانتفع" ماذا نقول؟

الجَوَاب: نقول وُجد من قتل فانتفع، ووُجد من سرق فانتفع، ووُجد من ارتشى فانتفع، أليس كذلك؟ كثير أصبحوا أغنياء بسبب رِشوة، وربا، وسرقة، هل الانتفاع الدنيوي هل هو دليل الحِل؟ لا والله ليس دليل الحِل، فسقطت المسألة من أصلها.

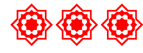
السُّؤَال: إذا عُلِمَ الساحر -هذه حالة تختلف عما ذكرتُ سابقًا انتبه- **إذا عُلِمَ الساحر، فأمكن أن يؤتى إليه فيُهدَّد بضرب بسجن، أو برغبة؛ يُعطى شيئًا من المال لأجل أن يدل على مكان السحر الذي خبَّأَه فيه، ثم يُذهب فيؤخذ هذا ويُتلف هذا الذي صنع فيه السحر، إن كان معقوداً يُحل، إن كان أمراً مكتوبًا فإنه يُحرق، وبذلك يزول أثره إن شاء الله، هل يجوز هذا أم لا؟**

الجَوَاب: هذا الذي يظهر والله أعلم أنه ليس داخلًا فيما تكلَّمنا عنه، إن عُلِمَ الساحر بعينه أنه هو الذي سحر فيُهدَّد "إما أن تُبلِّغنا عن مكان هذا السحر الذي وضعته، وإلا فعلنا بك وفعلنا"، أو يُستعمل معه شيء من السياسة والذكاء حتى يدل على المكان، ثم يذهب هذا الإنسان أو غيره فيصنع الأمر المشروع وهو أنه يفكّ هذا السحر ويحُل عُقَدَه، فإن هذا نافع إن شاء الله في إزالة هذا

السحر، وهذا لا يضر فيما يظهر والله أعلم، مع شرط أن يسعى في الإبلاغ عن هذا الإنسان إن كان يستطيع، إن كان في بلد يمكن فيها أن يُقام على هذا الساحر بالسلطة الشرعية وإزالة هذا المنكر، فلا يجوز له أن يسكت عن هذا الساحر، بل الواجب إزالة هذا المنكر ما أمكن.

السُّؤَال: ما حكم الاستعانة بالسحرة والكَهنة لأجل رَدّ المسروقات؟

الجَوَاب: كما قلنا سابقـًا، من أتى عَرَّافـًا فسأله مجرَّد سؤال لم تُقبل له صلاة أربعين يومـًا، وإن صدَّقه فالحديث -كما قد سمعت- فقد كفر بما أُنزل على محمد ﷺ .



[باب: ما جاء في التطيُّر]

بتأريخ: [٢١/ ٨/ ١٤٣٧]

السُّؤَال: هل يدخل في التطيُّر إذا دفعه التفاؤل إلى الإقدام على الفعل؟

الجَوَاب: سنتكلَّم -إن شاء الله- بالتفصيل عن التفاؤل في درس غدا إن شاء الله.

السُّؤَال: إذا اتصلتُ أو إذا اتصل عليه أحد آخر الليل فقال: خير إن شاء الله، فهل هذا من قبيل التطيُّر؟

الجَوَاب: لا؛ لأن العادة أو الغالب أن هذا الوقت لا أحد يتصل به إلا لأمر مُهم أو جَلَل أو ذُو خُطورة، ربما مات أحد أو مرض، فهو يستفسر، لعل الأمر خير حتى تتصل في هذا الوقت، الذي يظهر والله أعلم أن هذا ليس داخلاً في التطيُّر.



[باب: ما جاء في التطيُّر]

بتأريخ: [١٤٣٧/٨/٢٢]

السُّؤَال: هل نستطيع أن نقول إن الفأْل نوع من الطِّيرة؟

الجَوَاب: الحديث الذي مرَّ بِنا فيه جعْل النبي ﷺ الطِّيرة كأنها جنسٌ، والفأْل كأنه نوعٌ، هذه مسألة من جهة الاصطلاح اختلف العلماء فيها، والأقرب -والله أعلم- أن استعمالات العرب لهاتين الكلمتين هي: أن الطِّيرة تُستعمل غالبًا فيما يسُوء، والفأل يُستعمل غالبًا فيما يسُر، وقد تُستعمل إحدى الكلمتين في حال الأخرى. وهذا الحديث ظاهره أن النبي ﷺ جعل الفأل نوعًا يدخل تحت الطِّيرة. وبعض أهل العلم وجَّه هذا الحديث بأن النبي ﷺ ذكر هذا الأسلوب لِما بين الأمرين من التشابه، وإلا فالفأل شيء والطيرة شيء آخر، والله ﷻ أعلم.

السُّؤَال: رَجل إذا فاتته صلاة الفجر فإنه يبقى متكدِّر الخاطر، ولا يريد أن يُمضي أموراً مهمة؛ لأنه يرى أنه لم يكن في ذمة الله ﷻ، «من صلى الفجر في جماعة فهو في ذمة الله حتى يُمسي»؟

الجَوَاب: أقول هذا ليس داخلاً في التطيّر، وإنما يخشى الإنسان أنه إذا قصَّر في طاعة الله ﷻ أن يُخذل من قِبل تقصيره، فهذا يخشى عقوبة ذنب وتقصير، وليس أنه يتطيَّر، ويا ليت أن الإنسان يكون على هذه الحال؛ أنه إذا قصَّر في طاعة

الله ﷻ يُؤنِّب نفسه، ويتخوَّف ويترقَّب وقوع شيء، فإن هذا يدفعه إلى أن يلجأ إلى الله ﷻ بالتوبة النصوح، والله أعلم.



[باب: ما جاء في الاستسقاء بالأنواء]

بتأريخ: [٢٨/ ٨/ ١٤٣٧]

السُّؤَال: ذكرتم في قول النبي ﷺ: «ومصدِّق بالسحر»، منها: قيل إن المعنى عِلم التنجيم، فهل المقصود به عِلم التأثير أو عِلم التسيير؟ حيث إن الأول شرك أكبر، والثاني شرك أصغر؟

الجَوَاب: هل أنا قلت إن علم التأثير شرك أكبر، وعلم التسيير شرك أصغر؟ لا، أنت فهمت فهمًا خاطئًا، وأنصحك بمراجعة الدرس. علم التسيير لا بأس به، إنما علم التأثير هو الذي قلنا إن فيه تفصيلًا وانقسامًا.

السُّؤَال: العُصاة من المؤمنين لو تفصِّل لنا حالهم يوم القيامة؛ من أجل أن نفهم النصوص؟

الجَوَاب: المراد بالعُصاة -يا رعاكم الله- هم أهل الكبائر الذين يموتون على معاصٍ ما تابوا إلى الله ﷻ منها، أما لو وافَتهم المنية، وقد وفَّقهم الله ﷻإلى توبة قبلها، فلا يسمى هؤلاء عُصاة، ولا أهل كبائر؛ لأن «التائب من الذنب كمن لا ذنب له»، كما أخبر النبي ﷺ.

هؤلاء العصاة قد يُكفَّر عنهم بما يقع لهم من أهوال في البرزخ -يعني في القبر- أو في عرَصات القيامة، فإن في عرَصات القيامة من الكروب والأهوال شيء عظيم؛ فإذا وردوا إلى موقف الوزن فإنهم حينئذٍ بين ثلاثة أمور:

-أن تثقل موازين حسناتهم، يعني كفة الحسنات تزيد على كفة السيئات، عندهم حسنات زائدة على سيئاتهم؛ فهؤلاء موعودون وعد الصدق من الله جل وعلا أنهم ناجُون مفلحون من أهل الجنة، من زادت حسناته على سيئاته ولو بواحدة فهو من أهل الجنة، ولذلك استكثر من الحسنات، لا تدري ما هي الحسنة التي ربما تكون المُرجِّحة.

-القسم الثاني: من تساوَت حسناته وسيئاته، أتى بحسنات يقابلها سيئات مثلها؛ فهؤلاء الصحيح فيهم، وفيهم جاءت آثار الصحابة أنهم يكونون من أهل الأعراف، مرتفَع بين الجنة والنار، يوقفون عليه ما شاء الله أن يوقفوا، ثم يكون مآلهم بعد ذلك إلى الجنة.

-القسم الثالث: من زادت سيئاتهم على حسناتهم؛ وهؤلاء أهل المحنة والبلية، وظاهر النصوص أن هؤلاء يكونون من أهل النار، ودخولهم النار يكون من خلال سقوطهم من على الصراط، يمرون على الصراط فتأخذهم الكلاليب التي هي معلَّقة بالصراط فتقذفهم في النار، اللهم إلا إذا تداركهم الله ﷻ برحمته فقبِل فيهم شفاعة شافع، فإن الشفاعة تحلُّ حين يُضرَب الصراط على ظهر جهنم، فمن الناس من يريد الله ﷻ العفو عنه فيقبَل شفاعة الشافعين فيه، ومنهم من يشاء ﷻ أن يُعذَّبوا، فيدخلون النار من خلال سقوطهم من على الصراط إلى جهنم -عافاني الله وإياكم- فإن الصراط طريقٌ يُضرب على جهنم، قال أبو سعيد ﷺ كما في «صحيح مسلم»: «بلغني أن الصراط أدَقّ من الشعر وأحدّ من السيف».

ثم إن العصاة إذا دخلوا النار فإنهم يبقون فيها مدة موقَّتة، الله أعلم كم تكون، يُعذَّبون مدَّة مؤقَّتة ولا يكون دخلوهم دخولاً مؤبَّداً، ثم إنهم إذا مسَّتهم النار وعُذِّبوا ما شاء الله أن يُعذَّبوا فإنهم يموتون فيها إماتةً كما جاء هذا في «صحيح مسلم» عن النبي ﷺ، يموتون وهم في النار.

وخروجهم من النار يختلفون فيه؛ منهم من تشفع فيه الملائكة، ومنهم من يشفع فيه المؤمنون، ومنهم من يشفع فيه النبيون، وأعظم الناس حظاً في هذه الشفاعة نبينا الكريم ﷺ، ومنهم من يخرجهم الله ﷻ بمحض رحمته جعل وعلا، قال جل وعلا كما في الحديث القدسي: «شفعت الملائكة، وشفع النبيون، وشفع المؤمنون، وبقيت رحمة أرحم الراحمين»، فيُخرجون وقد ماتوا وتفحَّموا حتى يُلقَون على نهرٍ في الجنة يُقال له: «الحياة» أو «الحياء»، فيُفيض عليهم أهل الجنة من ماء هذا النهر فينبتون، يعني يُخلقون خلقاً آخر، كما تنبُت الحبة على حَميل السيل، كما أخبر النبي ﷺ، فيكونون حينئذٍ من أهل الجنة، ويسميهم أول وهْلة أهل الجنة يسمون هؤلاء الذين دخلوا النار ثم أُخرجوا منها إلى الجنة يسمونهم «الجهنميين»، ثم إن الله ﷻ يزيل عنهم هذا الاسم ويسميهم جل وعلا «عتقاء الجبار»، أو «عتقاء الرحمن»، فيكونون خالدين مخلَّدين في الجنة.

❁❁❁

[باب قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا﴾

[البقرة:١٦٥]]

بتأريخ: [٤/ ٩/ ١٤٣٧]

السُّؤَال: أثر عمر ﷺ مع سارية: «يا سارية الجبل»، هل هذه استغاثة بغير الله؟

الجَوَاب: سبحان الله! كيف يكون استغاثة، هذا أمر، كيف يكون الأمر استغاثة، هو يأمره يقول: الْزم الجبل، وهذه كرامة، الله جلا وعلا بصَّر عمر - وهو جل وعلا على كل شيء قدير- بصَّر عمر ﷺ وكشَف له الحال، فنادى من محله في المدينة سارية، وقال: الجبل، يعني احتمِ بالجبل أو الْزمِ الجبل حتى تنجو، فهذا أمر وليس استغاثة، على القول على كل حال بتحسين هذا الأثر، والأثر فيه بحث من جهة ثبوته.

السُّؤَال: عن محبة النبي ﷺ المحبة التي تفوق كل المَحاب إلا محبة الله؟

الجَوَاب: هذا قدر واجب وليس قدراً مستحبـًا، والقاعدة التي ذكرها شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ ووَافقه عليها غيره هي: أن نفي الإيمان دليل على أن الموضوع التي تعلَّق به أمر واجب، لا يتأتَّى أو لا يأتي نفي الإيمان في شيء مستحب، وإلا لصح نفي كل الأعمال الصالحة عن عامة المسلمين؛ أنهم ما صلوا ولا صاموا ولا حجوا؛ لأنهم في الغالب لا يأتون بالقدْر المستحب، فصح نفي الأعمال، كل

هذا إذا صحَّ نفي العمل لنفي قدْرٍ مستحب فيه، لكن لا يُنفى الشيء إلا لنفي قدر واجب فيه.

السُّؤَال: ما حكم قول القائل: (ادعُ لي)، أو (لا تنساني من صالح دعائك)؟

الجَوَاب: جائز، ولا حرج فيه أن يسأل الإنسان حيًا حاضراً هذا السؤال، ولكن الأَولى ألا يتخذ ذلك عادةً، المكروه التي كرهه أهل العلم أن يكون هذا دَيدَن الإنسان وعادته، كلما لقي أخاه فإنه يقول له: لا تنسَني من دعائك، هذا القدر مخالف لهدي النبي ﷺ فالأَولى تركه.

السُّؤَال: ما الفرق بين الوعد والوعيد؟

الجَوَاب: الوعْد: هو البشارة بما يسُر، والوَعيد عكسه، ولذلك في نحو قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم:٩٦] هذا وعد بما يسُر، فهو وعد ليس وعيداً، لكن ما جاء في الكتاب والسنة من الوعيد بالنار والعذاب، كقوله جل وعلا مثلاً: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران:١٣١] هذا وعيد، فالفرق بينهما ظاهر.

السُّؤَال: جدتي أوصَتني عندما أصل إلى قبر النبي ﷺ أن أقول له: إنها تسلم عليه، فهل هذا جائز؟

الجَوَاب: أقول لك -يا رعاك الله- هناك من هو خير مني يبلغ النبي ﷺ السلام، فلا حاجة لهذا الأمر، أليس كلامي صحيحـًا؟ ألم يقل النبي ﷺ: «إنَّ لله

ملائكة سَيَّاحين في الأرض تُبلِّغني عن أمتي السَّلام»، إذاً يكفي تبليغ الملائكة عليهم السلام لسَلامك، هذا أولاً.

وثانيًا: هذا الأمر -يا رعاك الله- أمر مُحدَث، أصحاب النبي ﷺ كانوا أعظم محبة وإجلالاً للنبي ﷺمنَّا، أليس كذلك؟ أهذا موضع خلاف أو اتفاق؟ كانوا ﷺ وقد تفرَّقوا في الآفاق، هل كان أحد منهم إذا أراد القدوم إلى المدينة من الشام أو من البصرة أو من مصرَ، أو من اليمن هل يقول له أخوه أو هو يقول لغيره: "يا أخي لا تنسَ أن تذهب إلى قبر النبي ﷺ وتُبلِّغه السلام عنّي" أَثَبت هذا عن واحد منهم قطّ؟ الجواب: لا، ودُونك ما شئت من كُتب الآثار، لن تجد شيئًا من ذلك، ولو كان هذا خيراً لسَبقُونا إليه.

السُّؤَال: عن مسألة الأخذ بالحساب الفلَكي في دخول الشهر، أو خروجه؟

الجَوَاب: قلنا إن القول باعتبار الحساب الفلَكي -كما هو حاصل في بعض الجهات- أنهم يُحدِّدون قبل الشهر أو قبل دخول الشهر بمدة، أن رمضان سيكون يوم كذا وكذا، بناء على هذا الحساب الفلكي، هذا الأمر باطل بالسنة والإجماع.

أما السنة: فقوله ﷺ : «صُومُوا لرؤيته»، وقوله ﷺ : «إنَّا أُمَّة أُمِّيّة لا نَحسب ..» الحديث.

أما الإجماع: فإنه قائم على عدم اعتبار الحساب الفلَكي، ونقل هذا الإجماع غير واحدٍ من أهل العلم، ومنهم القَرافي المالكي، ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية وغيرهم.

وإني والله لأعجب إلى هذا التشدُّد والتنطُّع في الدين، لماذا هذا الحرص الشديد على هذا الأمر، الله جل وعلا أرادها عبادة سهلة هيِّنة، رأينا الهلال صُمنا، ما رأينا الهلال أو كان هناك غَيم ماذا نفعل؟ نُكمل شعبان ثلاثين والحمد لله، يعني الخطْب يسير، لماذا هذا النزاع؟ ولماذا هذا التشدُّد في هذه القضية التي أرادها الله ﷻ سهلة؟ الله ﷻ يعلَم أن الناس عندهم قدْرة على أن يعرفوا هذه بهذه الحسابات، متى يولَد القمر ومتى يَغيب وإلى آخره، لكنه أراد أن تكون المسألة أسهل. يعني لو كنَّا نجزم بأن الهلال قد ظهر، ولكن هناك سحابٌ يحول بيننا وبين رؤيته، نصّ الحديث ماذا يقول؟ «فإن غُمَّ عليكم فأكملوا» والأمر سهل، لماذا هذا الحرص الشديد؟ والعجيب أن الذين يحرصون هذا الحرص لا تجد عندهم حرص على كثير مما جاءت به السنة! لكن هذه القضية كلما جاء رمضان أُثِيرت بطريقة عجيبة، وإلى متى والناس تُطالع في السماء مع توفُّر الآلات والأجهزة وتقدُّم العلم؟ يا أخي الموضوع أسهل، النبي ﷺ أراد أن تكون هذه العبادة بهذه السهولة، عبادة سهلة، رأينا الهلال صُمنا، ما رأيناه خلاص نُكمل شعبان، والحمد لله، الأمر على كل حال يَسير.

السُّؤَال: **ما كيفية أداء العمرة بالنسبة للمرأة الحائض التي سافرت للمدينة وحاضت قبل الميقات؟**

الجَوَاب: نقول بارك الله فيك انتبهْ لهذه المسألة فهي مهمة ويكثر الخطأ فيها؛ هذه المرأة الحائض إن كنتم يغلبوا على ظنكم أنكم ستمكثون في مكة إلى الوقت الذي تطهر فيه، فإن الواجب عليها حينئذٍ أن تُحرم من الميقات مثلها مثل الطاهر، ولا يجوز لها شرعـًا أن تتجاوز الميقات دون إحرام؛ لقول النبي ﷺ للمرأة التي كانت حالتها مثل حالة هذه الأخْت، قال عليه الصلاة والسلام للحائض: «افعلي ما يفعل الحاج غَير ألا تطوفي بالبيت»، إذاً تُحرم شأنها شأن الطاهر سواء بسواء، تُحرم وتترك المحظورات وتُلبِّي، لكن إذا وصلت مكة تجلس في الفندق ولا تذهب إلى المسجد الحرام، وتعلم أنها محرِمة، وبالتالي تتجنَّب كل المحظورات؛ فلا يقربها زوجها، ولا تضع طيبـًا، لا تقص شعراً، لا تأخذ شيئـًا من الأظافر، إلى آخره، فإذا طهرت اغتسلت في مكانها، ثم نزلت إلى المسجد الحرام فطافت وسَعَت وقصَّرت، والحمد لله.

أما إن كان الوقت قصيراً، تعرفون أن ذهابكم إلى مكةَ سيكون في مُدة لا تكفي لتطْهُر؛ لارْتباطكم بسفر وحُجوزات وإلى آخره، فنقول لهذه المرأة: لا تُحرمي، ونرجو الله ﷻ أن يكتب لكِ الأجر بالنية، الله ﷻ كتب عليكِ أنكِ تحيضينَ، فبنيَّتكِ تبلغين هذا الأجر إن شاء الله، والمرأة الحائض لا يجوز لها بالإجماع أن تعتمر.

أما إذا ذهبت وقدَّر الله عليها وهي لم تُحرم؛ لأن الغالب أنها لم تطْهُر، وأنه سيأتي موعد السفر قبل طُهرها، لكن قدَّر الله أن طهُرت أو تأخروا لسَبب من الأسباب فأحبت أن تعتمر، فنقول لها: اذهبي إلى الحِل؛ كالتنعيم مثلاً، وأَحرمي من هناك، ثم ادخلي إلى المسجد، وطوفي واسعي وأدّي عمرتكِ، والله أعلم.



[باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ [آل عمران:١٧٥]]

بتأريخ: [٥/ ٩/ ١٤٣٧]

السُّؤَال: ما الفرق بين الخوف، والخشية، والرهبة؟

الجَوَاب: أما الفرق بين الخوف والخشية فإن أقرب ما يُقال في ذلك: أن الخشية أخصّ من الخوف، يعني بينهما عموم وخصوص؛ فالخوف معنًا عام، والخشية معنىً خاص، واختَلف أهل العلم في هذه الخصوصية، وأقوى ما يُقال: أن الخشية خوفٌ مع علمٍ وتعظيم، يعني عِلمٍ بالمَخوف وتعظيمٍ له، فهذا هو ما يسمى خشية، ويكون خوفًا أيضًا. أما ما عَري عن ذلك فإنه يكون خوفًا فقط، إذا كان هناك جهل بتفاصيل المخوف، أو أن يكون خوفًا مجرَّداً ليس فيه إجلال ولا تعظيم فإن هذا لا يسمى خشية، والله أعلم.

أما الفرق بين الخوف والرهبة؛ فكذلك الأمر بينهما عموم وخصوص، فالرهبة خوف مع حذَر وهَرَب، يعني أن يبذل أسبابًا تُباعده عن هذا المخوف، والله ﷻأعلم.

السُّؤَال: عن أداء صلاة الفريضة في المسجد، إذا كان الرئيس في العمل يمنع منها؟

الجَوَاب: إذا كان بجوار العمل مسجد تُقام فيه الصلاة ويسمع أصحاب هذا العمل الأذان فإن الواجب عليهم أن يجيبوا هذا النداء ويُصلون في المسجد جماعة، هذا هو القول الصحيح الذي يجب على المسلم، وبالتالي فينبغي عليك أن تنصح هذا الرئيس أن يسمح لك بالخروج، بل الذي ينبغي أن تنصحه أيضـًا هو والذين معه أنهم يخرجون إلى صلاة الجماعة في المسجد حيث يُنادى بها. وهذا الحكم يُستثنى منه ما إذا كان هناك ضرورة تقتضي القضاء، وينبغي أن يُعلم حد الضرورة؛ يعني التي يترتَّب عليها أمر عظيم، ومفسدة عامة أو خاصة، كأن يكون هذا العمل عبارة عن مشفى، الناس في أي لحظة يمكن أن يأتوا بجريح أو مريض في حالة طارئة أو ما شاكل ذلك، فهذا لا شك أنه عذر في أن يصلوا جماعة في مَقر العمل، والله أعلم.

السُّؤَال: عن حكم الصلاة أمام الإمام عند ازدحام الصفوف؟

الجَوَاب: أعدل الأقوال في هذه المسألة، وهو اختيار المحقِّقين من أهل العلم؛ كشيخ الإسلام ابن تيمية وغيره: أن كون المأموم خلف الإمام من واجبات الصلاة، وهذا من معاني الإتمام، «إنما جُعل الإمام لِيُؤْتَمّ به»، والواجبات في الصلاة تسقط بالعذر، بمعنى أنه إذا لم تجد مكانـًا، امتلأت الصفوف وطفحت إلى خارج المسجد وما أمكنك أن تدخل، وما وجدت إلا مكانـًا قد تقدَّم الإمام، فإن هذا عذر يجوز لك معه أن تصلي في هذا الصف المتقدِّم.

السُّؤَال: **امرأة معها مرض بحيث يخرج منها ريح؟**

الجَوَاب: يبدو أنه يريد أنه يخرج هذا الريح بدون إرادة منها؟ إن كان الأمر كذلك فإن مَن به سَلس ريح كمثل مَن به سَلس بول أو سلس غائط، وحكم أولئك كحكْم المستحاضة؛ على الإنسان المصاب بهذه الأمراض -وأسأل الله ﷻ أن يعافيني وإيَّاكم وإيَّاهم- من أصيب بذلك فإنه يتوضأ بعد دخول الوقت. صاحب هذا السؤال يجيب هذه المرأة بأنها تتوضأ إذا دخل الوقت، ثم تصلي ولا يضرها ما خرج، كذلك إذا أردت الطواف بالبيت، فإنها قبل أن تُباشر الطواف تتوضأ، ثم بعد ذلك لا يضرها ما خرج؛ لأنه يخرج بغير إرادة منها، والله جل وعلا يقول: ﴿لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦].

السُّؤَال: **رجل يريد أن يعتمر بوالدته كبيرة السّن، والده المتوفَّى؟**

الجَوَاب: على كل حال السُّؤَال غير واضح، إن كان السُّؤَال عن أداء العمرة عن ميت؛ فإن الحج والعمرة يجوزان عن الميت، ويصل ثوابهما إن شاء الله إلى هذا الذي حجَجْت أو اعتمرت عنه، ويجوز أن يحج الإنسان أو يعتمر عن الميت كبيراً كان أو صغيراً، حتى لو كان طفلاً دون البلوغ فإنه يجوز أن يحج الإنسان عنه أو يعتمر.

السُّؤَال: **هل يجوز الإحرام من الفندق إلى المدينة أو لا يجوز؟**

الجَوَاب: الإحرام ليس هو لبس ملابس الإحرام؛ الإحرام: هو نية الدخول في النُّسُك، والسنة أن يصحَب ذلك تلْبية، يلبي الإنسان إذا أراد العمرة فيقول

عند هذه النية: (لبيك اللهمَّ عمرة)، ثم يباشر التلبية: (لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك) إلى آخره، حتى يصل مكة.

ويبدو أن السائل يسأل عن لبس ملابس الإحرام في الفندق؟ والجواب: أنه لا حرج عليك أن تغتسل وتتجهَّز وتلبس في الفندق، ثم تجعل نيتك في الميقات، وإن شئت أن تؤخر الاغتسال ولبس ملابس الإحرام إلى الميقات فلا بأس.

السُّؤَال: هل من الضروري الصلاة في مسجد الرسول ﷺ أربعين صلاة، أو حسب إقامة المعتمر؟

الجَوَاب: الحديث الذي فيه الحث على صلاة أربعين صلاة في مسجد الرسول ﷺحديث ضعيف، لم يصح عن رسول الله ﷺ، وبالتالي فإنه يُقال للأخ المعتمر: صلِّ ما يسَّر الله لك، أربعين أو خمسين أو مائة صلاة أو أقلّ من ذلك، بحسب ما يتيسَّر لك، وأبشر بالخير، والصلاة في هذا المسجد بألف صلاة كما أخبر النبي ﷺ، وإن تيسَّر لك أن تزيد من هذا الخير فافعل، وإن اقتصرت على ما يناسب مدَّة بقائك فالحمد لله، واسأل الله ﷻأن يُعيدك مرَّات وكرَّات إلى هذا المكان المبارك فتزداد من الصلاة فيه، أما التحديد بأربعين صلاة فإن هذا لم يثبت به حديث عن النبي ﷺ.

السُّؤَال: تحت أي قسم يندرج الخوف من الجن والشياطين؟

الجَوَاب: الخوف من الجن والشياطين، إن كان الخوف المعتاد، يخاف الإنسان من أن يصيبه الجني بأذى أو يخيفه أو ما شاكل ذلك هذا داخل تحت الخوف الطبيعي، لا حرج على الإنسان، ولذلك هذا الذي يخاف مثلاً من الظلام ويخاف من الدخول في الأماكن المهجورة، هذا خوف طبيعي لا حرج عليه في ذلك، أما إذا عظم هذا الخوف وبالغ الإنسان فيه فإنه يصل إلى الخوف المحرَّم.

السُّؤَال: هل هناك حديث يقول: «لعَنَ الله الكاذب وإن كان مَازحًا»، بهذا اللفظ؟

الجَوَاب: أنا لا أعلم حديثًا عن النبي ﷺ ، «لعن الله الكاذب وإن كان مازحًا» بهذا اللفظ لا أعلمه عن النبي ﷺ.



[باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ [آل عمران:١٧٥]]

بتأريخ: [٦/ ٩/ ١٤٣٧]

السُّؤَال: ذكرتم في درس أمس قولَين في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ [آل عمران:١٧٥]، يطلب إعادة التفسيرين؟

الجَوَاب: قلنا -يا أيها الأخوة- إن أهل العلم مختلفون في تفسير هذه الآية إلى قولين، وإن كان القول الأول هو الأشهر، بل إن بعضهم جعله القول الوحيد في الآية، ونفى أن يكون فيها قول آخر، لكن الصواب أن القول الآخر موجود في كتب أهل العلم ومرويٌّ عن أئمة التفسير؛ كالحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ.

التفسير المشهور في الآية: إنما ذلكم الشيطان يخوِّفكم أولياءه؛ يُخوّفكم من أوليائه، وهذا التخويف لا يعدو أن يكون من قَبيل الوسوسة، لأننا ذكرنا في الدرس الماضي أن عندنا حالتين: وسوسة، وسلطان، الشيطان عنده قدرة على الوسوسة، بالنسبة لأهل الإيمان عنده قدرة على أن يوسوس في صدورهم، لكن ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون، فهذا منه من قَبيل الوسوسة التي تُدفع بذكر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى واللجوء إليه.

أما التفسير الثاني: فهو إنما ذلكم الشيطان يخوِّف أولياءَه، يعني إنما يُوقِع الخوف في قلوب أوليائه، أما أهل الإيمان فإنه لا سلطان له على إيقاع الخوف في قلوبهم.

السُّؤَال: هل يمكن أن يخالف عِلم الظهور عِلمَ الله الأزلي الموجود في اللوح المحفوظ؟

الجَوَاب: مُستحيل، لا يمكن ذلك، علم الظهور مطابقٌ للعلم الأزَلي، وقوله: «العلم الأزلي الموجود في اللوح المحفوظ»، الذي في اللوح المحفوظ بعض ما في علم الله ﷻ، وليس هو العلم الأزلي؛ لأن له بداية، يعني كُتب في اللوح المحفوظ من ابتداء وقت، يعني في ابتداء وقت معيَّن، أما عِلم الله ﷻ فهو قائم بذات الله ﷻ، فهو ثابت له بلا بداية؛ لأن الله ﷻ هو الأول الذي لا ابتداء له جل وعلا.

المقصود أن علم الله جل وعلا القائم بذاته، العلم الذي هو صفة ذاتية له تبارك وتعالى لا يتخلَّف، ومستحيل أن يتخلَّف، إنما يعلم الله ﷻ الشيء موجوداً وقد علمه من قبل أنه سيوجد، هذا هو المقصود بعلم الظهور.

السُّؤَال: ما بال المرأة الحامل التي لا تستطيع الصوم، وما الأفضل في حقها الإطعام أو القضاء؟

الجَوَاب: ما بال المرأة الحامل التي لا تستطيع الصوم؟ لعلَّه يريد: ما حكْم المرأة الحامل التي لا تستطيع الصوم؟ المرأة الحامل التي لا تستطيع الصوم، ومسألة الاستطاعة وعدم الاستطاعة من مسائل الديانة، ما معنى من مسائل

الديانة؟ يعني يُديَّن فيها الإنسان، إن قال: لا أستطيع، فنقول هذا بينك وبين الله، الله يعلم إن كنت تستطيع أم لا، لكن انتبه أن الله ﷻ لا تخفى عليه خافية.

المقصود: أنها إذا قالت: "أنا لا أستطيع، أشعر بتعب لا أستطيع احتماله، أُصاب بدُوار، يكاد يُغمى عليَّ بسبب الصوم" فهذا عذر لها في أن تُفطر، فإن كان فطرها لخوفها على نفسها فالواجب عليها أن تقضي فقط. أما إن كان فطرها خوفًا على جنينها الذي في بطنها، أو خوفًا على نفسها وجنينها معًا، فالأحوط في حقها أن تجمع مع القضاء إطعام مسكين عن كل يوم أفطرته، هذا خروجًا من خلاف من أوجب ذلك من أهل العلم.

إذاً القضاء شيء ضروري، لا بد منه، لذلك الأخ يقول: ما الأفضل في حقها الإطعام أو القضاء؟ نقول: أما القضاء لا يُقال في حقها أفضل، هو واجب عليها، لا بد أن تقضي متى ما تمكَّنت من ذلك، والإطعام الأحوط أنها تُطعم إذا كان إفطارها بسبب خوفها على نفسها، وجنينها، أو على جنينها فقط.

السُّؤَال: في قول النبي ﷺ: «ثلاثة لا يدخلون الجنة: مُدمِن خمر.. » إلى آخره»، قِيل هذا في حق المستحل، قلتَ هذا ضعيف، لم أفهم وجه الضعف؟

الجَوَاب: ذكرنا في درس ماض أن توجيه حديث الوعيد المتعلِّقة بالعصاة بأنها في حق المستحلِّين، قلتُ إن هذا ضعيف عند أهل العلم والتحقيق؛ كالإمام أحمد وشيخ الإسلام ابن تيمية وغيرهما من أهل العلم، وذلك أن الوعيد الذي يرِد في النص قد تعلَّق بالفعل الذي هو مثلاً هنا في هذا الحديث إدمان الخمر، إذا

قلتَ إن الحديث تعلَّق بالمستحِلّ، أصبح ذكر الفعل هاهُنا لغواً لا فائدة منه، فضْلة؛ لأن الحكم حينئذٍ تعلَّق بالاستحلال، ومن استحلَّ شرب الخمر ولو لم يشربها فإنه كافر، من قال "الخمر حلال" فإنه بهذا يكفر؛ لأنه أحل ما حرَّم الله ﷻ وإن كان لم يشرب منها قطرة، وهذا خُلْف مع هذا الحديث؛ لأن الحديث علَّق عدم دخول الجنة على الاستحلال؟ أو على إدمان الخمر؟ على إدمان الخمر، فكيف نقول: إن هذا الحديث تعلق بالمستحِّل؟

إنما الصواب -بارك الله فيك- كما قلنا سابقًا -وهذا أعدل الأقوال وأصوبها في تفسير هذا الحديث وأمثاله- وهو أنَّ المنفي هاهنا إنما هو الدخول المطلق وليس مطلق الدخول، لا يدخل مع أول الداخلين، لا يدخل من أول وهلة، بالتالي يكون الحديث قد ضُمِّن معنى الوعيد بدخول النار، لأنه لو لم يدخل مع أول الداخلين كيف سيكون حاله؟ سيدخل النار فيعذَّب فيها ما شاء الله أن يُعذَّب ثم يكون مآله إلى الجنة، فالمنفي في حقه الدخول المطلق وليس مطلق الدخول، وقلتُ إن هذا أسلوب عربي صحيح، وله شواهد كثيرة في اللغة وأيضًا في النصوص.

السُّؤَال: أنا سوف أسافر إلى مكةَ كي أُسَوِّي عمرة وأحضر درسًا في مكة، هل لي أن أفطر أو أن أصوم؟

الجَوَاب: إذا كنت ستسافر لعمرة أو لغيرها، لحضور درس أو لتجارة أو لما شئت، فإن الشريعة قد أباحت لك أن تُفطر إن شئت، ولك أن تصوم إن شئت، فأنت -يا رعاك الله- بالخيار، إن شئت فصُم، حتى ولو كان الطريق

سهلاً، وإن شئت فأفطر، حتى لو كان الطريق سهلاً، يعني لو قال: أنا أسافر بطائرة مدة نصف ساعة فقط وما عندي أي مشقة، نقول: هذه رُخصة من الله ﷻ إن شئت أن تأخذها فخذها، وإن قلت: الأرْفق بي أن أصوم مع الناس، أخشى إن أفطرت أني أتكاسل في القضاء أو أنسى ولا مشقَّة عليَّ، فأريد أن أصوم، نقول: أنت بالخيار، والنبي ﷺ صام في السفر وأفطر عليه الصلاة والسلام، لكن الأفضل في حقك أنه إن كان يشق عليك الصوم، فالإفطار في حقك أفضل.

السُّؤَال: ماذا تنصحون في رمضان التفرُّغ للقرآن، أم الجمع بين القرآن وطلب العلم؟

الجَوَاب: إن كان العلم الذي تريد طلبه مما يصعب أو لا يمكن استدراكه، فأوصيك بأن تجمع بين الأمرين، أما إن كان ذلك مما يمكن أن تستدركه وكنت جاداً في التفرُّغ لتلاوة القرآن، فإن تفرُّغك لتلاوة القرآن في هذا الشهر الفضيل لعلَّه أفضل، اللهم إلا في حاله ما إذا كان هذا العلم الذي تريد طلبه مما يفوتك، يعني إما أن تدركه في هذا الوقت أو يفوتك فحاول أن تجمع، والوقت بحمد الله ﷻ فيه سَعة.

السُّؤَال: بعض الدعاة يؤثر الجلوس هُنا، ويترك مباشرة الدعوة في بلاده بحجة أن البلاد بلا وظائف ولا عمل فيها؟

الجَوَاب: والله -يا أخي الكريم- أنا أرى أن جلوس الإنسان هنا مع أن بلاده تنادي عليه بأنها محتاجة إلى دعوته وعلمه وتعليمه، فلا شك ولا أظن أن أحداً من طلبة العلم يخالف في أن ذهابه إلى هناك أولى به، وربما يتعيَّن في حقه إذا كان واجب الدعوة لا يتأدَّى أو لا يتأدَّى بعضه إلى بوجوده.

وبالنسبة لأمور الحياة كون الأمور الحياة المادية في الغالب متيسِّرة هنا بخلاف الحال في بلده إن كان الأمر في بلده ليس على ما يحب من رَغَد العيش، فنقول: يا أخي! اصبر واحتسب، وهذه الحياة من أولها إلى آخرها إنما هي فتنة وابتلاء وطُبعت على كدر، ولو أن الإنسان نظر إليها بعين البصيرة لوجد أن الحياة سهلة، وأن القليل منها يكفي، لكن المشكلة أن قلوبنا أو أن قلوب كثير منَّا -مع الأسف الشديد- قد تعلَّقت بزخارف هذه الحياة الدنيا، وإلا لو اقتصر الإنسان منها على قدر الكفاية لكفاه القليل منها. وذكرت سابقاً لكم كلمة حسنة لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ، ذكر في كتابه «القاعدة في المحبة» وهي: أن المؤمن ينبغي عليه أن يجعل الدنيا بالنسبة له بمثابة الخلاء -يعني بمثابة دورة المياه- لا بد له منها، ولكن قلبه ليس معلَّقاً بها، لا بد لك من دورة المياه، أليس كذلك؟ لكن لا أحد يستأنس ويجد الفرح وسرور قلبه بدخوله إلى دورة المياه، إنما يقتصر على الحد الأدنى من الوقت في هذا المكان، ويبادر ويسارع إلى الخروج.

۞۞۞

[باب: قول الله تعالى ﴿وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا﴾ [المائدة:٢٣]]

بتأريخ: [٧/ ٩/ ١٤٣٧]

السُّؤَال: ما رأيك بقول بعض الناس: "ما نستغني عنك"، أو "نحن بحاجة إليك"؟

الجَوَاب: هذا اللفظ لا بأس به إن كان مورد الكلام فيما هو في مَقدُور البشر، مثل هذا لا حرج فيه.

بعض الأسئلة فيها شيء من شُبه الملاحدة ونحوهم، وهذه إذا كانت وقعت في نفس أحد ينبغي أن يسأل عنها سؤالاً خاصـًا، لكن الشُّبَه لا يصلح أن تُطرح طرحـًا عامـًا، فالذي عنده إشكال في مثل هذه المسائل يسأل السُّؤال على وجه خاص.

السُّؤَال: محبة النبي ﷺ هل هي من المحبة المشتركة أو الخاصة، وكذلك محبة المؤمنين؟

الجَوَاب: نحن تكلَّمنا عن هذا إن كنتم تذكرون؛ المحبة لله، في الله، لأجل الله، تحت أي شيء تندرج؟ قلنا هذه من المحبة المشروعة؛ لأن هذه المحبة فرع عن محبة الله ﷻ، وبالتالي رجعت إلى محبة الله؛ لأن هذا الإنسان لم يُحب أخاه في الله جل وعلا إلا لأنه قائمٌ بطاعة الله ﷻ، هو لا يحب مشركـًا في الله ﷻ،

أليس كذلك؟ لا يحب فاسقًا في الله ﷻ؛ لأنه عاصٍ يدمن الكبائر، وهو يحبه في الله لأجل ذلك، بالتأكيد لا، هو وَاهِم في ذلك.

السُّؤَال: عن تحريك الإصبع في التشهد؟

الجَوَاب: الأمر عل كل حال في هذا واسع، ولكن الذي يظهر لي -والله تعالى أعلم- أن لفظ التحريك شاذ، وأن لفظ الإشارة هو الثابت، رواه نحو عشرة من الحفَّاظ، والذي رَوى التحريك واحد فقط، ومخالفة الثقة للثقات الأثبات وفيهم الكبار كشعبة وغيره، تجعل مثل هذا اللفظ الذي هو التحريك شاذ، والأمر على كل حال يسير، ومن أهل العلم من صحَّح لفظ التحريك، لكن الذي يظهر لي -والله أعلم- أن الأثبت هو لفظ الإشارة.

السُّؤَال: إذا كان بذل الأسباب من التوكُّل فهل يؤجر على بذل الأسباب؟

الجَوَاب: إذا كان بذل السبب من التوكُّل إذاً هو جزء من العبادة، وبالتالي فإنه يُثاب على ذلك، إذا كان يفعل هذا الأمر باعتباره بعض التوكل فإنه مُثاب على ذلك.

السُّؤَال: نقل ابن القيم عن شيخه ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ أنه قال: «إن في الدنيا جنة من لَم يدخلها لن يدخل جنة الآخرة»، ما المقصود بجنة الدنيا؟

الجَوَاب: جنة الدنيا هي طاعة الله ﷻ، وما ينبني عليها وما يترتَّب عليها من اللذة التي يجدها العابدون الطائعون، ولا شك أن الله ﷻ جعل هذه العبادة قرَّة عيون أهل الإيمان، ولذلك النبي ﷺ قال: «وجُعلت قُرَّة عَيني في الصلاة»، وأتباعه على هذا النهج، وبالتالي فإن هذه اللذة والطمأنينة والسعادة التي يجدها الطائعون هي جنة الدنيا، والذي لم يدخل إلى هذه الجنة، فإنه لن يدخل جنة الآخرة، نسأل الله ﷻ من فضله.

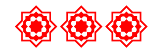
السُّؤَال: ما نصيحتكم لطالب العلم المُدمن على الإنترنت، حيث تضيع منه الساعات الطوال كل يوم بسببه؟

الجَوَاب: لا شكَّ أن هذا من مشكلات هذا العصر، والمصيبة حينما تمدَّدت هذه المشكلة حتى سرَت إلى بعض طلاب العلم، هذا الأمر في الحقيقة واقع مُشكل ومُحزِن، وأظن أن الواقع في هذا الأمر بحاجة إلى أن يحاسب نفسه ويراجعها، فإن رأس مالك هو هذا العُمُر الذي أنت فيه يا طالب العلم، وإذا كنت في شرخ الشباب فإن الأمر في حقك أعظم، فإن السؤال سيكون خاصاً عن الشباب، كما أنه سيكون عن العُمُر، لكن هناك سؤال خاص أيضاً يوم القيامة عن الشباب، فحسْرةٌ كبيرة أن يضيع عليك العُمُر وأن تذهب عليك الأوقات وأنت مشغول بشيء هو بيْن الممنوع أو المفضول، هذا الذي تذهب عليه الساعات وهو يُبحر في فضاء الشبكة لا يخلو الأمر؛ إما أن تَزِلّ به القدم فيقع في المحذور فيقرأ أو يطالع أو يستمع ما لا يحل له، وهذه لا شك أنها مصيبة، أو

على الأقل أنه يتتبَّع الأخبار هنا وهناك أو يتابع هذه الوسائل المسماة بوسائل التواصل، ويريد أن يُشرف على ما يقع ويحصل من خلافات مثلاً في ساحة الدعوة وما إلى ذلك، وأحسن أحوال من يفعل ذلك أنه قد ضيَّع عُمُره في مفضولٍ وفاته الفاضل؛ وهذا من وسائل الشيطان التي يغزو بها بني آدم، أن يشغلهم بالمفضول عن الفاضل.

فأوصي نفسي وإياك -يا رعاك الله- بأن تكون حازمًا مع نفسك، خُذ نفسك بالحزم والثقة، وحاسب نفسك محاسبة الشريك الشَّحيح، وحاول أن تُسايِس نفسك، إذا كنت قد بلغت -كما يقولون درجة الإدمان- حاول أن تُسايس نفسك، أشغِلها وألزمها بمواعيد تتعلَّق بالطلب، ارتبط مع إخوة لك جادون أكثر منك في الطلب، بحيث تلتزم معهم في دروس تذهب معهم إليها، أو تحفظ وإيَّاهم، وإذا أردت الدخول إلى الشبكة فحاول أن تختار الأوقات التي تُرغَم على ترك الشبكة خلالها.

أحد طلبة العلم كان إذا أراد الدخول إلى الشبكة اختار لهذا الوقت الذي يسبق الصلاة بقليل، لأجل ماذا؟ أنه إذا حضرت الصلاة فإنه سيضطر إلى إغلاق الشبكة، وبالتالي يحصَّل أو يقتصر في الشبكة على الحد الأدنى؛ لأن الوقت بالنسبة له ضيِّق، ويخرج منها وينتهي الأمر بالنسبة له.



[﴿وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا﴾ [المائدة:٢٣]]

بتأريخ: [٨/ ٩/ ١٤٣٧]

السُّؤَال: لو أعدتم شرح قول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في التوكل: «اضْطراب بلا سكون، وسكون بلا اضطراب»؟

الجَوَاب: هو في الحقيقة من منقول ابن القيم وليس من مَقُوله، نقله عن الخرَّاز، «اضطرابٌ بلا سكون»: يعني حركة بالجوارح دون كسَل، «وسكون بلا اضطراب»؛ سُكون يعني في القلب بلا اضطراب، بلا وجَل ولا خوف، ولا ضعف ثقة بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى . فهذه الكلمة تجمع الأمرين في التوكل: بذل السبب مع الاعتماد على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىبالقلب، وقطع التفات القلب إلى السبب.

السُّؤَال: هل يجوز أن يُقال: (توكلتُ على الله ثم عليك)؟

الجَوَاب: نحن أجبنا عن في درس أمس وقلنا: إن الجُمل الثلاث على الصحيح لا تجوز؛ (توكلتُ عليك)، (توكلتُ على الله وعليك)، (توكلتُ على الله ثم عليك)، قلنا هذه الجمل الثلاث كلها على الصحيح من كلام أهل العلم لا تجوز؛ لأن التوكل عبادة، فيها اعتماد وتفويض وحسن ظن، وهذا لا يجوز إلا في حق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، إنما المخلوق يوكَّل، وليس يُتوكَّل عليه.

السُّؤَال: (حسبي الله عليك) يقول: حينما تُقال إذا أخذ أحدهم الغضب، ويُقال لمن كان سبباً في ذلك؟

الجَوَاب: (حسبي الله عليك)، أو (حسبك الله) يعني: يجازيك ومحاسبك الله، فهذه تختلف عما نحن فيها، ولا حرج في قولها.

السُّؤَال: كيف دخل التوكل في توحيد الربوبية؟

الجَوَاب: مَن الذي يتوكل؟ الذي يعتقد أن ربه جل وعلا هو الذي على كل شيء قدير، وهو رب كل شيء ومَليكه، والذي هو حي لا يموت، ولا تغيب عنه غائبة، وإلا فلأي شيء يتوكل عليه إذا كان فاقداً لذلك! تعالى الله عن ذلك.

السُّؤَال: أنا زميلي مُنتكِس -نسأل الله السلامة والعافية- ونصحته بشتى الطرق، وبدأ بالتأثير عليَّ، فهل أَهجُره، أم ماذا أفعل؟

الجَوَاب: لا، انتظر، لماذا تهجره دَعْه يؤثر عليك حتى تكون مثله!! هل هذا ينبغي أن يُتردَّد فيه؟ نعم، إذا كان قد بدأ بالتأثير عليك فماذا تنتظر؟ لا ينبغي لك أن تُغامر برأس مالك الذي هو إيمانك، إن كان هناك مجال للربح ..، بل دَعْه وسَلِ الله ﷻأن يهديه، ولعل الله ﷻ أن يقيِّض غيرك لهدايته، المهم احرص على أن تَسلَم، واحرص على أن تنجو أنت أولاً، ثم إن يسَّر الله ﷻ أن عليك أن تكون سبباً لغيرك في أن يُهدى فالحمد الله، وإلا فإيَّاك أن تغامر -يا رعاك الله-.

السُّؤَال: عن كلمة (رمضان كريم)؟

الجَوَاب: الذي يظهر -والله أعلم- أن هذه الكلمة من حيث هي بغض النظر عن الموضع الذي تُقال فيه كلمة (رمضان كريم) من حيث هي لا بأس

بها، وبعض أهل العلم وقف وقفة مع هذه الكلمة باعتبار أن أحداً ربما يتصوَّر أن الخير والإكرام يكون من قِبل رمضان، في الحقيقة أن هذا احتمال بعيد، والكريم يأتي في لغة العرب بمعنى: الشريف وذو القَدر، ورمضان لا شك أنه شهرٌ عظيم وشهرٌ مشرَّف وشهرٌ كريم، ولذلك هذه الكلمة أن يُقال: إن رمضان كريم لا يبدو لي أن فيها محذوراً، والله تعالى أعلم.

السُّؤَال: فتحتُ محلاً بدون رأس مال، كل البضاعة دَين من التجار، والسداد على أقصاد شهرية، وأخذ بضاعة جديدة بقيمة الدفعات وهكذا، وأيضًا أبيع البضاعة بالدين للتجار، وآخذ دفعات أُسبوعية، وهكذا أقيمت الديون على مالي؟ ويسأل عن الزكاة في شأن هذه الصورة؟

الجَوَاب: الصواب -بارك الله فيك- أن الصحيح من قول أهل العلم: أن الدَّين لا يمنع الزكاة، فالنبي ﷺ كان يبعث السُعات لجباية الزكاة وما كانوا يسألون قبل أن يأخذوا الصدقة، هل عليك دين أم لا؟ ومعلوم أن أكثر الناس أو كثيراً منهم عليه ديون، أليس كذلك؟ ومع ذلك ما أمر النبي ﷺ هؤلاء السُعات أن يسألوا، وترك الاستفصال في مقام الاحتمال ينزَّل منزلة العموم في المقال، فالذي يبدو -والله أعلم- أن الدين لا يمنع الزكاة، وبالتالي فإذا كانت هذه البضاعة قد تملَّكتها أصبحت في ملكك -بمعنى أنها لو تلفت كانت على ضمانك- فإنه يجب عليك أن تُزكيها عند حولان الحول، تقوِّمها بكم تبيعها، وتُخرج الواجب وهو ربع العشر.

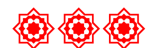
أما في شأن زكاة الدين الذي لك على غيرك؛ فهذا فيه تفصيل:

-إن كان هذا المال الذي لك على غيرك -يعني هذا الدين الذي لك على غيرك- هو عند إنسانٍ غني وباذل -بهذين الشرطين- غَني يعني عنده قدرة على السداد، والوفاء، وثانيـًا: باذل غير مماطل، فإن هذا المال في حكم المال الذي عندك، فأدخله في مالك وأخرج زكاته، احسبه أدخله ضمن المال الذي تخرج زكاته، كأنه في حسابك؛ لأنك وضعته عند شخص غني باذل ولو قلت له أعطني سيعطيك.

-أما إن كان هذا الدين الذي لك على غيرك عند إنسان فقير، يعني عاجز عن السداد، أو مماطل، عنده مال لكن يماطلك، فإن هذا الأقرب -والله أعلم- أنه في حكم المال المفقود، وبالتالي فإنه ليس عليك أن تزكيه، إلا إذا قبضته فتزكيه لعام واحد، ولو لم تقبضه إلا بعد عشر سنين.

السُّؤَال: ما دَليل تَوكيل العبد لربه؟

الجَوَاب: تكلَّمنا عنه نصف ساعة، (حسبي الله ونعم الوكيل) يعني: نِعْم الوكيل هو، هو وَكيلُك ﷻ، فكان التوكيل له أو إليه جل وعلا.



[باب: قول الله تعالى ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ﴾ [الأعراف:٩٩]]

بتأريخ: [١١/ ٩/ ١٤٣٧]

السُّؤَال: أيهما يُغلِّب العبد؛ الرجاء أم الخوف؟

الجَوَاب: تكلَّمنا عن هذا وقلنا إن الصواب أن يعتدل الأمران دائمًا في كل وقت، وأن يغلِّب المحبة عليهما.

السُّؤَال: هل «المحسِن» و«المقصود» من أسماء الله؟ وهل يجوز أن يتسمَّى الرجل ويُعبَّد بصفات الله؟

الجَوَاب: أما «المحسن» فثابت عن النبي ﷺ، وبالتالي فإن هذا الاسم يجب أن يُعتقد أنه اسم لله جل وعلا، ويجوز التعبيد به، فيُقال: عبد المحسن.

أما «المقصود» فلا أعلمه ثابتًا لا في القرآن ولا في السنة عن النبي ﷺ، وبالتالي فإنه لا ينبغي أن يُعدَّ في الأسماء الحسنى.

وهل يجوز أن يتسمَّى الرجل ويُعبَّد بصفات الله؟

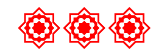
لا أدري ما المقصود بـ(يتسمَّى بصفات الله، أو يُعبَّد بصفات الله)، يعني يسمَّى عبد العزَّة، وعبد الكرم؟ إن كان هذا هو المقصود فلا شك أن هذا لا يجوز، فالتعبيد للمسمَّى ﷻ، والذي هذا اسمه جل وعلا، وأما الصفة فإنه لا يُتوجَّه لها بشيء، ولا يجوز أن يتعبَّد الإنسان للصفة، الواجب أن المسلم يتعبَّد للموصوف وهو الله جل وعلا، أما الصفة فلا يُعبَّد لها.

السُّؤَال: إذا اعتمر شخص فماذا يقول عندما يبدأ بالسعي بعد ركعتَي المقام؟

الجَوَاب: النبي ﷺ كما في حديث جابر عند «مسلم»، وهو الحديث الطويل في صفة حجة النبي ﷺ، لما توجَّه إلى الصفاء قال: «أبدأُ بما بدأ الله به: إنَّ الصفاء والمروة من شعائر الله».

السُّؤَال: هل هناك فرق بين المكر والعقوبة؟

الجَوَاب: العقوبة أثر المكر، فالله جل وعلا إذا مكَر بمن يشاء يعني بمَن يستحق، فإنه يوقع عقوبته جل وعلا عليه.



[باب: قول الله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ﴾ [الأعراف:٩٩]]

بتأريخ: [١٢/ ٩/ ١٤٣٧]

السُّؤَال: هل صفتا السمع والبصر صفتان لله ﷻ ذَاتيتان أم فَانيتان؟ وهل قولك: إنها صفة فعلية فقط، نرجو تفصيل القول في ذلك؟

الجَوَاب: تكرَّر عن هذا الموضوع، أعني ما يتعلَّق بصفة السمع والبصر لله ﷻ، وأبدأ بما جاء في آخر السُّؤَال: هل قولك في هاتين الصفتين إنهما صفتان فعليتان فقط؟

أقول: إن الذي أقول به وقلتُه وكتبتُه أيضـًا: إن هاتين الصفتين ذاتيتان فعليتان

-فهما ذاتيتان من حيث إنهما ملازمان للذَّات، بمعنى أن الله ﷻ لم يزل ولا يزال سميعـًا بصيرا، ولم يكن في وقت من الأوقات عادمـًا لهذا الكمال ثم اتصف به، بل لم يزل الله ولا يزال سميعـًا بصيرا.

-وأيضـًا هاتان الصفتان فعليتان، بمعنى أنه بالنظر إلى آحاد الصفة من حيث تعلُّقهما تعلُّق السمع وتعلُّق البصر بالصوت أو بالموجود، فإن هاتين الصفتين صفتان فعليتان، فتجمعان بين أنهما صفتان فعليتان، مع كون اتصاف الله ﷻ بهما قديم، يعني في الأزل، فلم يزل الله ولا يزال سميعـًا بصيرًا.

وهذا هو المتقرِّر عند أهل السنة والجماعة، وهذه من المسائل التي ينبغي أن يأخذها طالب العلم من العلماء المحقِّقين الذين أحاطوا بمنهج السلف الصالح في باب الاعتقاد، ولعلي أقرأ عليك شيئـًا من الكلام المتعلِّق بهذه

المسألة، وهو ما قرَّره شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الموضوع، فقد جاء في «رسالة الصفات الاختيارية» لشيخ الإسلام ابن تيمية، وذلك في المجلَّد السادس من «مجموع الفتاوى» في صحيفة (٢١٧)، وبالمناسبة هذه الرسالة مطبوعة في «جامع الرسائل» الذي جمعه وحقَّقه د.محمد رشاد سالم في أول المجلَّد الثاني، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فصْل في الصفات الاختيارية، وهي الأمور التي يتصف بها الرب عَزَّ وَجَلَّ فتقوم بذاته بمشيئته وقدرته».

بالمناسبة بالتتبُّع شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ يُطلق على هذه الصفات تارةً الصفات الاختيارية، وتارةً الصفات الفعلية، المقصود أنها التي تقوم بذات الله جل وعلا بمشيئته وقدْرته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. قال: «مثل: كلامه، وسمعه، وبصره، وإرادته، ومحبته، ورضاه، ورحمته، وغضبه، وسَخطه، ومثل: خَلْقه، وإحسانه، وعدله، ومثل: استوائه، ومجيئه، وإتيانه، ونزوله، ونحو ذلك من الصفات التي نطق بها الكتاب العزيز، والسنة».

فالمقصود أن شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ عد صفتَي السمع والبصر من الصفات الاختيارية التي هي الصفات الفعلية، ونص على هذا أيضاً في «مجموع الفتاوى» في المجلَّد الثالث عشر، أيضاً في صحيفة (١٣١)، حينما قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فصْلٌ: والجهمية والمعتزلة مشتركون في نفي الصفات، وابن كُلَّابٍ ومن تبعه؛ كالأشعري وأبي العباس القلانسي ومن تبعهم، أثبتوا الصفات، لكن لم يُثبتوا الصفات الاختيارية، مثل كونه يتكلَّم بمشيئته، ومثل كون فعله الاختياري يقوم بذاته، ومثل كونه يحب ويرضى عن المؤمنين بعد إيمانهم، ويغضب ويبغض

الكافرين بعد كفرهم، ومثل كونه يرى أفعال العباد بعد أن يعملوها، بعد أن يعملوها كما قال تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة:١٠٥]، فأثبت رؤية مستقبلة، وكذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس:١٤]».

إذاً الدليل قد دلَّ على أن الله ﷻ يرى الشيء عند وجوده، ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ﴾، ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾، كذلك يسمع الصوت عند وجوده، كما قال سبحانه: ﴿قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾ [المجادلة:١]، فالسؤال: متى سمع الله الصوت؟ هل هو في الأزل؟ أم سمعه في الوقت الذي حدث فيه الصوت؟ في الوقت الذي حدث فيه الصوت، وبالتالي سمع هذا الصوت بعد أن لم يكن سامعـًا له، وهذا يدلك دلالة واضحة على أن هذه الصفة صفة فعلية اختيارية.

ولا يمكن لأحد أن ينسب إلى أهل السنة والجماعة إلا هذا، ومن لم يدقِّق في هذا الموضع فإنه ربما أخطأ في تقرير هذه الصفة في ضوء معتقد أهل السنة والجماعة، ولو أن الإنسان تأمل في الخلاف والمعترَك الذي وقع بين أهل السنة والجماعة والمتكلِّمين في هذا الموضوع لاسْتبان له الأمر تمامـًا؛ فإن المتكلِّمين يعتقدون أن هاتين الصفتين صفتان أَزَليّتان قائمتان بذات الله ﷻ، وبالتالي فعاد قولهم فيهما إلى أن هاتين الصفتين من جنس صفة العلم، إما تصريحًا كما قال بعضهم: إن السمع والبصر والعلم بمعنى واحد، أو كما قال آخرون: إن السمع

والبصر علمٌ خاص؛ السمع علمٌ خاص، والبصر علمٌ خاص، إذاً ما أصبح هناك فرق بين صفة السمع والبصر، وصفة العلم.

وبالتالي الذي يقول: إن صفة السمع وإن صفة البصر صفتان ذاتيتان فقط؛ فإننا نقول له: إذاً ما الفرق بين صفة السمع والبصر، وصفة العلم؟ العلم القديم، علم الله ﷻبالأشياء قبل وجودها هذا أمر ذاتي قائمٌ بذات الله ﷻمنذ الأزل، فالله علِم كل شيء قبل وجوده. إذا كان الله ﷻ قد سمع وأبصر الأشياء قبل وجودها إذاً أصبح السمع صفة ذاتية فقط، وأصبح البصر صفة ذاتية فقط؛ على أن هذا القول غير معقول؛ لأن هذا يقتضي أن السمع والبصر قد تعلَّق بمعدوم، وهذا لا يقول به عاقل.

ثم إننا نسأل من قال بهذا: هل تجدَّد لله ﷻ شيء عند صدور الصوت، أو عند وجود المخلوق أم لا؟

إن قلتَ: لم يتجدَّد شيء؛ كان هذا قول أهل البدع، وعاد الكلام في هاتين الصفتين إلى أنهما من جنس صفة العلم، وهذا قولٌ باطل مخالف لما عليه أهل السنة والجماعة.

فإن قال: إنه تجدَّد لله ﷻشيء، وقام به شيء وهو سمعه الذي تعلَّق بهذا الصوت، إذاً عادت هذه الصفة إلى كونها صفة فعليةً اختيارية.

قد يُستشكل هاهنا استشكال؛ فيقول قائل مثلاً: إذاً يمكن على هذا إذا قلنا إن هذه الصفة صفة السمع مثلاً إنها صفة فعلية، يعني متعلِّقة بالمشيئة، وبالتالي فيمكن أن يُقال: إن الله ﷻ يمكن أن يسمع الصوت، ويمكن أن لا يسمعه؟

الجواب عن هذا يتمهَّد بمعرفة قاعدتين -انتبه لهما- شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ أثار هذه المسألة، يعني أثار هذا السؤال في نفس الرسالة، وذلك في صحيفة (٢٤٤)؛ أورد هذا الإشكال فقال: «فإن قيل أما كون الكلام والفعل يدخل في الصفات الاختيارية فظاهر، فإنه يكون بمشيئة الرَّب وقدْرته، وأما الإرادة والمحبة والرضا والغضب ففيه نظر، فإن نفس الإرادة هي المشيئة» إلى أن قال: «وكذلك إذا عمل الناس أعمالاً يراها، وهذا لازمٌ لا بد من ذلك، فكيف يدخل تحت الاختيار!» يعني إذا كان سيرى ولا بد كل شيء إذاً كيف يتعلَّق الأمر بالاختيار والمشيئة؟

الجواب عن هذا: أن تتنبَّه إلى قاعدتين:

القاعدة الأولى: أن كل ما كان بعد عدمه فإنه يكون بمشيئة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، كلما كان بعد عدمه فإنه يكون بمشيئة الله، فالله عَزَّ وَجَلَّ تكلَّم بآحاد الكلام، تكلَّم مثلاً بقوله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ [الفلق:١] بعد أن لم يكن متكلِّماً بذلك، هذا الذي عليه أهل السنة والجماعة، إذاً كان هذا منه بمشيئة الله.

السُّؤَال الآن: السمع كان بعد أن لم يكن السمع الخاص لصوتٍ خاص، الصوت السمع الذي تعلَّق بصوتٍ حادث هل كان بعد أن لم يكن أم لا؟ إن قلت: لا، رجعت إلى قول أهل البدع، وإن قلت: نعم، قلنا: إذاً كانت الصفة متعلِّقة بمشيئة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فكانت صفة اختيارية، هذا هو الأصل الأول.

الأصل الثاني: أن كون الشيء واقعاً ولا بد لا يناقض أنه واقع بمشيئة الله، انتبه لهذا الأمر، كون الشيء واقعاً ولا بد لا يناقض ولا يخالف كونه واقعاً

بمشيئة الله ﷻ، فهو واقع ولا بد، نعم، والله ﷻيسمع كل صوت نعم، ويرى كل شيء نعم، وكل ذلك بماذا؟ بمشيئة الله.

أضرب لك مثالاً: صفة المحبة هل هي صفة اختيارية فعلية أم لا؟ نعم، فالله ﷻ يحب المؤمن مثلاً بعد أن لم يكن محباً له، أليس كذلك؟ وهذا الشأن في صفة الرضاء، والبغض، والغضب إلى آخره.

في قول الله ﷻمثلاً: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ [البقرة:٢٢٢]، هل يمكن أن نقول: إنها -أعني صفة المحبة إذا كانت متعلِّقة بمشيئة الله- يمكن أن نقول إنه يمكن أن لا يحب التوابين؟ لا يمكن، هي -أعني هذه الصفة- متعلِّقة بمشيئة الله ومع ذلك إنها حاصلة ولا بد، كل من كان تائباً إلى الله فإن المحبة تتعلَّق به، فكون الشيء واقعاً ولابد هذا لا إشكال فيه، فالله ﷻ قد شاء أن يسمع كل صوت، وشاء أن يرى كل شيء ﷻ، وبالتالي فما الإشكال أن نقول: إنها صفة متعلِّقة بمشيئة الله، مع كون الله ﷻيسمع جميع الأصوات ويرى جميع المخلوقات؟!

على أن لشيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُفي المجلَّد الثالث عشر، يعني جواباً هذا الكلام الذي قلته لك قبل قليل فيما يتعلَّق في هذين الأصلين فصَّله شيخ الإسلام في صحيفة (٢٤٤-٢٤٥) من المجلَّد السادس، وله أيضاً جوابٌ آخر ذكره في المجلد الثالث عشر في صحيفة (١٣٢- ١٣٣،١٣٤) خلاصته: أنه ذكر قولاً عن بعض السلف أن جنس السمع والرؤية يتعلَّق بمشيئته وقدرته، فيمكن أن لا ينظر

إلى شيء المخلوقات، واستدل بحديث «الثلاثة الذين لا ينظر الله عز وجل إليهم يوم القيامة».

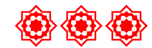
على كل حال أنا لا أريد أفصِّل القول في هذا، فهذا له محله من دروس الأسماء والصفات، لكني أردت فقط أن أشير إشارة إلى هذه المسالة التي كثر الكلام عنه في الأيام القريبة الماضية.

وإن كان من وصية أختم بها كلمتي في هذا الأمر؛ فهي أنني أوصي نفسي وإخواني معاشر طلاب العلم بضرورة أن نتخلَّق بأخلاقٍ حميدة وخلالٍ سديدة هي:

أولاً: الرفق؛ والرفق يقتضي ترك العنف.

وثانيـًا: التؤدة؛ والتؤدة تقتضي ترك العجلة، وهذا نحن أحوج ما نكون إليه في مسائل العلم.

والأمر الثالث: أن نتخلَّق بخُلق الإنصاف؛ وخُلق الإنصاف يدعونا إلى ترك الهوى والتعصُّب لمن نحب، أو للقول الذي نهوى.



[باب: من الإيمان بالله الصبر على أقدار الله]

بتأريخ: [١٣/ ٩/ ١٤٣٧]

السُّؤَال: لماذا بكى يعقوب عليه السلام؟ يعني يقصد: في بكائه وحزنه على ابنه عليه السلام؟

الجَوَاب: أن هذا من الرحمة التي جعلها الله عز وجل في قلب من شاء من عبادة، ولا شك أن أنبياء الله ورسله هم أعظم رحمة، وبالتالي كان هذا البكاء منه عليه السلام من هذا الباب.

أسئلة كثيرة تتعلَّق بمسألة الطعن في النسب.

الجَوَاب: البحث إنما يتعلَّق في الأنساب أو يتعلَّق بالأنساب الثابتة المعروفة عند الناس، وهذا له وسائله وطرائقه المعروفة عند أهل العلم بهذا الباب، فالأنساب الثابتة عند أهلها، يعني التي حكم أهل الأنساب بثبوتها وفق الطرائق والوسائل المعروفة، وهذا باب في الشريعة في إثبات الأنساب وتترتُّب عليه أحكام شرعية، هذا الذي نتحدَّث عنه في شأن الطعن في الأنساب، هذا الذي يشتغل به بعض ضعاف المروءة وضعاف الإيمان حينما يتشاغلون بالطعن في أنساب الناس من هذه الجهة؛ هذا هو المقصود.

السُّؤَال: أنا أحيانًا إذا فعلت ذنبًا أعاتب نفسي، فهل هذا من التسخُّط على أقدار الله؟

الجَوَاب: القدَر ينبغي أن يُلاحظ فيه ما يتعلَّق بأمرين:

أمر يتعلَّق بالأمر المؤلم الذي يقدِّره الله ﷻ فينزل بالإنسان؛ فهذا مما ينبغي أن يكون الإنسان مسلِّمًا وراضيًا به، وصابراً على ما يقدِّره الله جل وعلا في شأنه.

أما الذنوب والمعاصي والتقصير في حق الله ﷻ فهذا لا يجوز الرضا به، يعني لا يجوز للإنسان أن يرضى بالذنب، من جهة أنه قصَّر في حق الله ﷻ، ولذلك فإنه مؤاخذ، ولذلك فإنه معرَّض للعقوبة من هذه الجهة.

وسنتحدث إن شاء الله في آخر هذا الباب عن مسألة الرضا بقدر الله ﷻ.

السُّؤَال: هل الحلق أو حلق الرأس هو أخذ الرأس كله أو عندنا ما يُعرف بالصلع؟ أم جزء منه؟

الجَوَاب: إن كان المقصود الحلق الذي هو نُسك في الحج أو العمرة؛ فإن المقصود بذلك هو أخذ الشعر كله، يُعمِّم الحلق من جميع جهاته، أما لو حلق من جهة وترك من جهة فهذا لا يُعد عرفًا حالقًا، والشريعة تُعلِّق مثل هذه الأمور بالعُرف، عدا كون النبي ﷺ قد حلق شعر رأسه كله، ولم يبقِ منه شيئا عليه الصلاة والسلام، أما كون الإنسان يأخذ بعضًا ويترك بعضًا فهذا في الأصل مما جاء النهي عن النبي ﷺ في شأنه: هذا هو القزع الذي نهى عنه النبي ﷺ، فلا يجوز لا في النُسُك ولا في غيره.

وأُحب أن أنبه هنا إلى مسألة يُخطئ فيها كثير من المعتمرين والحجاج وهي: أنهم إذا انتهوا من السعي في العمرة وقفوا، وربما عند بعض هؤلاء الذين

معهم مقصات، فأخذ شعرتين من هاهنا وشعرتين من هاهنا وشعرتين من هاهنا، ثم قال: أنا تحلَّلت؛ على الصحيح من كلام أهل العلم أن التقصير لا بد أن يُعمَّ به الشعر؛ لأنه بدلٌ عن الحلق، والحلق لا يكون إلا لجميع الشعر، والحلق لا يكون إلا لجميع الشعر، إذاً هكذا ينبغي أن يكون التقصير، التقصير لابد أن يكون عاماً، يعني كما يعرفه الناس عند الحلاقين، هذا هو التقصير، أما شعرتين هنا وشعرتين هنا!! هذا الإنسان يُعرِّض نفسه إلى أمر عظيم، وهو أنه قد يكون لايزال محرماً، وبالتالي فإن ذلك يترتَّب عليه أمور كثيرة وأحكاماً عديدة؛ تتعلَّق بعلاقته بأهله، وارتكابه للمحظورات وما إلى ذلك، فلماذا يُعرِّض الإنسان نفسه إلى هذا الأمر الكبير؟ فأنا أقول: لابد للإنسان أن يعظِّم شعائر الله جل وعلا، ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج:٣٢]، فأدِّ النُسُك وقد بذلتَ جهدك ووقتك ومالك لأجل الوصول إلى ذلك المكان المبارك، فعليك أن تؤدي العبادة على الوجه الشرعي.

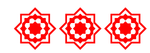
السُّؤَال: رأيت من يسمِّع أبنائه الصغار الأغاني، وإذا أُنكر عليه يقول: صغار لا ذنب عليهم، فماذا تقول؟

الجَوَاب: أنا أقول الذنب عليك أنت يا مسكين، يا من يعلِّم هذه الأغاني، نعم هم صغار وما جرى عليهم قلم التكليف إذا كانوا دون البلوغ، لكن أنت المؤاخذ، وأنت الذي عليك الذنب؛ لأنك تسبَّبت في تربيتهم على ما حرَّم الله ﷻ، بدل أن تُعلِّمهم كتاب الله ﷻ وحديث رسوله عليه الصلاة والسلام ومكارم

الأخلاق، تعلِّمهم هذه الأغاني وتنزل بهم إلى هذا الحضيض!! لا شك أن هذا أمر لا يجوز.

السُّؤَال: رجل يعلم عن ساحرة، ولا يُخبر عنها خشية أن تعلم أنه المخبر، فما حكم ذلك؟

الجَوَاب: أقول هذا خوف لا يجوز، يجب عليك أن تبلِّغ عنها من يستطيع أن يقيم عليها الحكم الشرعي من ولاة الأمر وأصحاب القرار، وأما خوفك منها فإن هذا مما ينبغي أن تذكِّر في شأنه نفسك قول الله جل وعلا: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ [آل عمران:١٧٥]، يعني يخوِّفك أولياءه ومنهم هذه الساحرة، إياك أن تخاف هذا الخوف المزري الذي هو خوفٌ لا يجوز، الخوف من هؤلاء السحرة لا شك أنه لا يجوز إذا كان سبباً لترك الإنكار عليهم وإقامة حكم الله ﷻ في شأنهم، بل الواجب أن تُبادر إلى ذلك، وأن تعتصم بالله ﷻ، والله ﷻ إذا كان معك، فإنه لا يضرك شيء من هؤلاء.



[باب: من الإيمان بالله الصبر على أقدار الله]

بتأريخ: [١٤/ ٩/ ١٤٣٧]

السُّؤَال: كيف نفرِّق بين أن ما قدِّر أو ما قدِّر الله للعبد أن ذلك خير له، أو أن ذلك عذاب له في الدنيا؟

الجَوَاب: قلنا إن الأمرين يجتمعان، فيُنظر إلى المصيبة من جهتين من زاويتين: هي من جهة نتيجة لذنب وقع من الإنسان فعوقب به، وفي نفس الوقت هي سببٌ لتكفير السيئات، فاجتماع النظرين فيها لا إشكال فيه.

السُّؤَال: هل يجوز للمسلم أن يتمنَّى المصيبة، أو أنه يسأل الله العافية؟

الجَوَاب: لا شك أن المطلوب أن يسأل الله تعالى العافية، وليس للإنسان أن يتمنى المصيبة، لكن إن قدِّرت عليه فإن عليه أن يصبر.

السُّؤَال: إذا أصاب الإنسان مُصيبة يفكر عن ذنب ارتكبه؟

الجَوَاب: يعني كأن السُّؤال هل للإنسان أن يفكر في سبب هذه المصيبة ومن أُتي؟ نعم، هذا مما يُحمَد من الإنسان، فيكون متيقِّظًا ومتنبِّهًا إلى نفسه ويعلم من أين أُتي، ولذلك جاء عن بعض السلف أنه قال: "إني إذا عملتُ المعصية أترقَّب نزول مصيبة، فإذا نزلت يكون هِجِّيراي: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله" ، يعني يقول: إن نزول المصيبة عليه عقيب

حصول المعصية مما يزيد إيمانه بصحة هذا الدين، وبنوّة رسول الله ﷺ؛ لأنه أخبرنا بذلك، فكانت المصيبة بالنسبة له سبباً في زيادة الإيمان من هذه الجهة.

السُّؤَال: **كيف نعرف من هو صابر؟**

الجَوَاب: قلنا: إن الصبر الدرجة الواجبة هي أنه يحبس نفسه عن قول ما لا يحل، أو فعل ما لا يحل، أو اعتقاد ما لا يحل، فمن استطاع أن يزِمَّ نفسه عن الانزلاق في هذا الأمر المحرَّم فإنه يكون صابراً.

السُّؤَال: **رجل عنده قطعة أرض ليست للتجارة، هل فيها زكاة؟**

الجَوَاب: ليس فيها الزكاة، الأمور التي يمتلكها الإنسان ولا يعُدُّها أو يدخرها للتكسُّب والتجارة؛ كسيارته، وأرضه، وبيته، وأثاث منزله أو حتى أثاث شركته، أو المعدات التي في دكانه، كل ذلك ليس على الإنسان فيه زكاة، وإنما الزكاة عليك في هذه الأرض تُحسب عليك من اللحظة التي تنوي فيها جعلها للتجارة، يعني أن تكون من عروض التجارة، أما ما لم يكن ذلك في نيتك فإنه ليس عليك فيها زكاة.

السُّؤَال: شخص كان في سفر وقبل الوصول إلى المدينة دخل وقت المغرب، فصلى المغرب وجمع معه العشاء، ثم وصل المدينة قبل وقت العشاء، هل عليه إعادة العشاء؟

الجَوَاب: ليس عليه إعادة العشاء، بل لا يجوز له أن يعيد العشاء، ليس للإنسان أن يصلي الفريضة مرتين، بما أنه صلى العشاء بمقتضى الرخصة الشرعية، فهو ممن أُبيح له أن يجمع بين الصلاتين، فهو قد صلى بمقتضى الرخصة الشرعية وبالتالي فإن ذمته قد برئت، اللهم إلا إذا أحب أن يدخل مع المصلين بنية النافلة هذا لا حرج عليه في ذلك، وهو مثاب، أما أن ينويها صلاة عشاء فلا.

السُّؤَال: ما حكم لبس الدبلة؟

الجَوَاب: لبس الدبلة ينقسم عند الناس إلى قسمين، يعني الناظر إلى أحوالهم يرى أنهم يلبسونه على إحدى حالتين:

الأولى: أن تُلبس مع اعتقاد أن لبس هذا الخاتم سببٌ لحصول المودة ودوامها بين الزوجين، من اعتقد هذا فإنه يكون قد وقع في شركٍ أصغر، قد جعل سبباً لم يجعله الله ﷻسبباً لا شرعاً ولا قدراً.

الحالة الثانية: أن لا يكون معتقداً ذلك؛ فأهل العلم قد أفتوا في هذا بأنه لا يجوز؛ لأن هذا من التشبه بالكفار، والنبي ﷺ يقول: «من تَشبَّه بقوم فَهُو مِنهُم».

السُّؤَال: كثر الإسبال، فما حكْمه؟

الجَوَاب: الإسبال بمعنى نزول الثوب، والمراد بالثوب: كل ما يُلبس، سواءً كان من السراويل أو البناطيل أو القُمص، يعني هذه الثياب أو غيرها؛ الصحيح من كلام أهل العلم أن إسبال الثياب أمرٌ محرَّم في الشريعة لا يجوز، فإن كان مع خيلا فإنه يعظم ذنب هذا الإنسان، بل قد سمعت شيخنا سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: «إنَّ الإسبال ولو دُون خُيلاء من الكبائر»، مجرَّد أن يُسبل الإنسان ثوبه هذا بحد ذاته من الكبائر، وأنت خبير بعِظم شأن الكبيرة في الشريعة، وما يترتَّب عليها من أحكام دنيوية وأُخرويّة.

فعليك يا عبد الله أن تتقي الله، النبي ﷺ أخبر أن ما زاد على الكعبين من الإزار فهو في النار، تهدَّد وتوعَّد النبي ﷺ هذا الإنسان بهذه العقوبة وهي النار - عافاني الله وإيَّاكم- ؛ فلماذا يا أخي تُعرِّض نفسك لهذا الأمر، والفارق إنما هو يعني -كما يقولون: واحد أو اثنين سم- يعني هذا فقط لو رفعت ثوبك خرجت عن حدود الأمر المحرَّم، وجاء عن النبي ﷺ أنه قال لأحد أصحابه: «إن كنت عبد الله فارفع إزارك»، انظر كيف علَّق النبي ﷺ هذا الحكم على هذا الوصف العظيم! وهو أن من تحقيق العبودية أن يترك الإنسان إسبال ثوبه. فأوصي نفسي وإخواني بترك هذه العادة القبيحة التي انتشرت مع الأسف الشديد عند كثير من الناس.

❁❁❁

[باب: ما جاء في الرياء]

بتأريخ: [١٥/ ٩/ ١٤٣٧]

السُّؤَال: قلتَ إن المعاصي والتسميع تُحبط العمل السابق، كيف يكون ذلك وقت كُتبت الحسنات؟

الجَوَاب: تُكتب وتُحبط لا إشكال في ذلك، والأدلة في هذا على كل حال كثيرة، النبي ﷺ قال كما في الصحيح فيمَن فاتته صلاة العصر: «إنه حَبط عمله»، وهذا العمل قد كُتب، أليس كذلك؟ الله جل وعلا قال: ﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد:٣٣]، قال السلف رحمهم الله في تفسير هذه الآية: أي بالمعاصي، فالمعاصي لها أثر في إبطال الحسنات المتقدِّمة أو إضعافها، يعني إنقاص ثوابها، وهذا مما يقِلُّ من يتنبَّه إليه، وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة، بخلاف مذهب أهل البدع من المتكلِّمة الذين نفوا حصول الحبوط الجزئي.

الحبوط عند أهل السنة كما دلَّت عليه النصوص نوعان:

-حبوط كلي، يعني لجميع الأعمال، وهذا لا يكون إلا بالكفر الأكبر، بشرط اقتران الموت، يعني يكفر ويستمر بالكفر حتى يموت.

-والحبوط الجزئي هو حبوط الأعمال الصالحة بالمعاصي والكبائر.

السُّؤَال: رجل كان يصلي وهو على جنابة ولا يدري كم عدد الصلوات التي صلاها وهو جُنب؟

الجَوَاب: الصلاة التي يصليها الإنسان وهو جُنب وهو يعلم أنه جُنب لا شك أنها باطلة، وهذا من المعلوم بالضرورة من الدين الإسلامي، وبالتالي فعلى هذا الإنسان أن يتوب إلى الله ﷻ أولاً مما حصل منه، وعليه ثانيًا: أن يجتهد في تقدير هذه الصلوات، وعند الاشتباه عليه أن يسلك مسلك الاحتياط، يعني يُقدِّر أنه مضى على هذا العلم شهرين ثلاثة أشهر سَنة، فيحسب كم صلاة خلال هذه المدة، وكم يُقدِّر أنه كان جُنبًا فيها، وإذا أشكل عليه الأمر يسلك مسلك الاحتياط، يعني لا يدري أهي خمسين صلاة أو ستين، نقول: اجعلها ستين حتى تبرأ ذمتك، والقضاء يكون بالتدريج، يعني إذا كانت الصلوات كثيرة فإنك تجزئها بحسب الإمكان، بعد الظهر تصلي فريضة فريضتين ثلاثة، بعد المغرب ما تيسَّر، بعد العشاء في آخر الليل، وهكذا حتى تقضي جميع ما عليك مع التوبة والاستغفار.

السَّؤَال: ما حكم قراءة الفاتحة للمأموم؟

الجَوَاب: أما بالنسبة للصلاة السرية، فالجمهور على وجوب ذلك، وهذا هو الصحيح، والخلاف في ذلك ضعيف. وأما في الصلاة الجهرية فالخلاف أقوى، والذي يظهر لي -والله تعالى أعلم- أن قراءة الفاتحة للمأموم مطلقًا واجبة، لابد في السرية والجهرية لابد أن يقرأ الفاتحة.

السُّؤَال: أيهما أفضل الاعتكاف في المسجد النبوي أم في المسجد الحرام؟

الجَوَاب: في المسجد الحرام دون شك، يكفيك أنك ستعتكف في مكان الصلاة فيه بمائة ألف.

السُّؤَال: أقول أذكار الصباح والمساء بحسب الترتيب الذي في الكتاب الذي حفظتها منه؟

الجَوَاب: أنصحك أن تخالف في الترتيب حتى لا تلتزم ترتيباً ليس عليه دليل، يعني الذي جاء في الكتاب إنما هو بمقتضى الضرورة، لابد أن يرتب المؤلف شيئاً وإلا كيف سيكتب الكتاب، لكن من حيث العلم أنصحك أن تفاوت في الترتيب، مرة تقدِّم هذا ومرة تقدم هذا حتى لا يكون هنا التزام بلا أثر، الالتزام بترتيب معيَّن لابد فيه من أثر عن النبي ﷺ.

السُّؤَال: إذا راءى الإنسان في عمل ما ثم تاب منه، هل يعود إليه الثواب؟

الجَوَاب: نعم، إذا تاب إلى الله جل وعلا فإنه يعود إليه ذلك الثواب، بل إن ما هو أعظم من الرياء وهو الردَّة -عافاني الله وإياكم- من ذلك، الصحيح من كلام أهل العلم: أن من ارتد ثم تاب إلى الله ﷻ فإنه تعود إليه أعماله الصالحة، فالتوبة تجُبُّ ما قبلها.

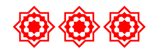
السُّؤَال: كيف أطرُد الرياء؟

الجَوَاب: هذا سؤالٌ لا شك أنه في غاية الأهمية، لكن من أعظم ما يعينك على دفع الرياء عن نفسك، أن تلاحظ أمرين:

الأول: تعظيم الله ﷻ.

وثانيـًا: حقيقة الخلق.

فكِّر في هذين يَهون عندك شأن الخلق، وبالتالي فإنك لا ترائيهم، تأمل دائمـًا، وأحضر ذهنك دائمـًا عظمة الغني العظيم ﷻ، وبذلك فإنه يضمحل الخلق في نظرك، والأمر الثاني: أن تنظر إلى حقيقة الخلق وأنهم لا يُقدَّمون شيئـًا ولا يؤخرون، ولا ينفعون ولا يضرون، وبالتالي فإن قصدهم بالعمل حماقة وخلل في التفكير ولا فائدة منه، في الحقيقة لا فائدة منه؛ هذه التي يطلبها الناس الثناء والمدحة ما هي في الحقيقة؟ هذه تسمى عند العلماء: بالشهوة أو اللذَّة التوهّمية، ما معنى توهّمية؟ يعني لا حقيقة لها. هناك لذة حسية؛ كونك تأكل شيئـًا لذيذاً أو كونك تشم رائحة حسنة، هنا أنت التذَذْت بماذا؟ بشيء حقيقي حسي، لكن كون الناس يثنون عليك! هذا في الحقيقة شيء فقط نشوة في النفس، لكن ليس من ورائها فائدة حقيقية لا في الدنيا ولا في الآخرة، بالتالي تفكير الإنسان في هذا الأمر ربما يكون سببـًا في دفع هذا الرياء عن نفسه.



[باب: من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا]

بتأريخ: [١٩/ ٩/ ١٤٣٧]

السُّؤَال: **هل يجوز فعْل العمرة بدلًا عن عاجز بنية الحصول على مقابل المادي فقط؟**

الجَوَاب: راجِع الدرس.

السُّؤَال: **هل يدخل في إرادة الدنيا أخْذ معلِّم القرآن راتبًا على تعليمه؟**

الجَوَاب: نقول أيضـًا راجع الدرس؛ فرقٌ بين من أخذ ليُعلِّم، وبين من علَّم ليأخذ، تأملها وستجد إن شاء الله تعالى الجواب، إذا كان قصدك أن تأخذ لتُعلِّم فإن هذا إن شاء الله لا يضرك، أما إن كان التعليم لأجل الأخذ -يعني الدنيا هي القصد، وتعليم القرآن هو الوسيلة- فإن هذا لا شك أنه مؤثر في الإخلاص.

السُّؤَال: **ما حكم رفع اليدين في القنوت في الوتر؟**

الجَوَاب: السلف رحمهم الله كانوا يرفعون أيديهم في دعاء القنوت، فلا حرج في رفع اليدين، بل هذا هو المشروع.

السُّؤَال: **العمل الصالح هل يرى المسلم أثره في حياته الدنيوية؟**

الجَوَاب: نعم، لا شك أنه ينال أثر ذلك في حياته الدنيوية، ألم يقل الله ﷻ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾

[النحل:٩٧]، وأي أثر أحسن من هذا الأثر! وهذا وعد من لا يُخلف وعده ﷻ، كما ثبت في «صحيح مسلم»، عن النبي ﷺأنه قال: «إنَّ الله لا يظلم مُسلمًا حَسَنة، يُعطَى بها في الدنيا، ويُدَّخَر له في الآخرة»، وهذا من كرم ربنا ومولانا ﷻ، ينال ثوابًا دنيويًا من تقديره ومن فضله ﷻ مع كون ما أعطى في الدنيا لا يؤثر على الآخرة، «ويُدَّخر له في الآخرة»، قال: «وأما الكافر فيُطعم بحسنات ما عمل لله في الدنيا حتى إذا لقيَ الله لم تكن له حسنة يُجزى بها»، فلا شك أن المسلم ينال الثواب المُعجَّل ويُدَّخر له الثواب المؤخر.

لكن ماذا نقول في قول الله عز وجل: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران:١٨٥]، قال العلماء: يعني أن الجزاء الأوفى الجزاء الكامل إنما يكون يوم القيامة، في الدنيا ينال الإنسان بعض ثواب العمل الصالح؛ بحياة طيبة، براحةٍ نفسية، بتيسير أسباب الخير، بتهيؤ المجالات للطاعة، بالولد الصالح، برَغَد العيش، بأي شيء يشاءه الله ﷻ، والله جلَّ وعلا أعلم بما يصلح عبده، قد يصلح العبد الغِنى، وقد يصلح العبد الفقر، والله مُنعِم بهذا وبهذا.

السُّؤَال: عن الخلْطة -خُلْطة الأصدقاء- يقول: فإن خالطت وقع لي التعلَّق بأحدٍ أو أكثر، وإذا بقيت وحدي أضعف، وقد أقع في بعض المعاصي والذنوب التي هي ذنوب الخلوات، ماذا أفعل؟

الجَوَاب: الذي تفعله أولاً: أن تلجأ إلى الله ﷻ أن يوجِّهك الوِجهة الصالحة، وأن يُعيذك من شرور نفسك ومن سيئات عملك.

هذه المسألة من المشكلات التي تَعرض للشباب، سواء كانوا طلاب عِلم أو لم يكونوا، وربما وقع بعض طلاب العلم في ذلك، وهي أنه يخالط فيقع في شيء من التعلُّق، وهذا التعلُّق قد لا يشعر صاحبه به، فإنه يكون قد وقع في شيء من التعلُّق القلبي أو ما يسمى بالعشق، وإن كان ليس هناك نية للفاحشة أو المنكر لكنه بعض صور ذلك العشق، وكون الإنسان يتنبَّه إلى ما في نفسه هذا من علامات التوفيق، وأرجو أنك قد وفِّقت في كونك علمتَ حال نفسك.

والذي أنصحك به -بارك الله فيك- أنك تُخالط وتقتصد؛ تُخالط الصالح، واحرص على أن يكون ممن تعلم من نفسك أنه ليس فيه الشيء الذي يجذبك إلى التعلُّق بالآخرين، إذا كان الذي يجذبك إلى التعلُّق بالأخرين المنظر الحسن أو التعامل اللطيف أو ما شاكل ذلك -هذا الذي يوقعك في التعلُّق- احرص على أن تصادق وتخالط من لا يوجد فيه هذه الصفة، كان التعلُّق يكون منك بمن كان أصغر منك فاحرص على أن تخالط من هو أكبر منك، المهم احرص على ذي التقوى والجاد في العلم والعمل، وخالطه باقتصاد.

من أسباب التعلُّق -مع الأسف-: أن يكون الاختلاط اختلاطًا موسَّعًا أو تامًا في كل لحظة ودقيقة، وفي كل صغيرة وكبيرة، وفي الدخول والخروج، والجلوس والنوم، مثل هذا يدفع أو يؤدي إلى مثل هذا البلاء ومثل هذا المرض النفسي؛ فأنصحك أن تخالط باقتصاد، وأن يكون لك حظ من خلوتك بنفسك، وكل من علمت في نفسك أنه ربما الْتفَت قلبك إلى التعلُّق به فأنصحك أن تبادر إلى تركه وعدم خُلْطته، وهذه إن شاء الله حالةٌ مؤقتة.

وعل كل حال؛ وقوع التعلُّق القلبي دليلٌ على فراغ، يعني الإنسان المشغول لا يقع في هذا الأمر، إنما هذا إنسانٌ فارغ، عنده فراغ، ولذلك يلتفت إلى مثل هذه الأمور، فأنصحك أن تشغل نفسك بما ينفعك، إن فتح الله عليك بابًا في العلم فاجتهد في الطلب، إن فتح الله عليك بابًا في العبادة فاجتهد في العبادة، إن فتح الله عليك بابًا في الدعوة اجتهد في الدعوة، إن فتح الله عليك بابًا في التأليف اجتهد في التأليف، وهكذا أشغل نفسك بما ينفعك ستجد أن قلبك لا يلتفت إلى مثل هذه الأمور.



[باب: من أطاع العلماء والامراء في تحريم ما أحل الله]

بتأريخ: [٢٠/ ٩/ ١٤٣٧]

السُّؤَال: في قول الله تعالى: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ [البقرة:٢٠١]، فيه تعارض مع درس أمس، ثم إن الإنسان إذا ضاق عليه أمر من أمور الدنيا فإنه يلجأ إلى الاستغفار، كذلك الصدقة في رفع المرض عن المريض هذا غرض دنيوي؟

الجَوَاب: نحن قد ذكرنا أن ما أَذن فيه الشرع من المقاصد الدنيوية أن هذا لا يُعكِّر على الإخلاص، قلنا الحالة الثانية: أن يرد في الأدلة ما يدل على أن العمل الصالح يُقصَد بأمر دنيوي أن هذا مما أذن فيه الشرع، فهو ليس داخلاً في إرادة الإنسان بعمله الدنيا التي هي مؤثرة في الإخلاص، فلعلَّك تراجع الكلام حتى يتضح لك الأمر.

السُّؤَال: عن طلب الإنسان بالعبادة أن تتيسَّر له أموره؟

الجَوَاب: هذا لا حرج فيه، ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا (١٢)﴾ [نوح: ١٠-١٢] ؛ هذا مما جاءت الشريعة بالإذن فيه، كون الإنسان يستقيم على طاعة الله ﷻ لأجل أن الله سبحانه يفتح له أبواب الرزق ويسهِّل له أموره، هذا مما جاءت الشريعة بالإذن في شأنه، إذاً هو داخل في الحالة الثانية، فينبغي التنبه إلى التفصيل الذي ذكرناه في درس أمس.

السُّؤَال: كيف نرد على من يقول: إن التقليد واجب لا مفرّ منه، فإن لم تقلِّد أحد الأئمة الأربعة فإنك ستقلِّد المعاصرين، فالأولى أن تقلِّد الأئمة المعروفين؟

الجَوَاب: نحن نتحدث -بارك الله فيك- عن تقليدٍ مَقيت وتعصُّبٍ أعمى، وهو الذي يجعل فيه الإنسان عالمـًا متبوعـًا بحيث لا يخرج الإنسان عن قوله البتَّة، هذا القدر ليس هو الذي أباحته الشريعة، الذي أباحته الشريعة أن يسأل الجاهل العالم دون تحديد عالم معيَّن، ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ [النحل:٤٣]، فرْقٌ بين من ينصب له إمامـًا لا يتجاوز قولَه، وبين من يسأل العلماء بحسب ما يتيسَّر له، تيسَّر له اليوم هذا العالم فسأله، وتيسَّر له غداً عالمٌ آخر فسأله، وتيسَّر له في اليوم الثالث العالم الأول فسأله، هذا لا بأس به، وقصْد هذا السائل أنه متى ما ظهر له أن هذا العالم أخطأ فإنه لا يتَّبعه على قوله، إذاً هذا ما يرجع إلى العمل والأخذ بالقول والتعبُّد بالقول.

أما ما يتعلَّق بالدراسة والتعلُّم -أنا قلتُ قبل قليل- هذه المذاهب كمثل المدارس التي يتعلَّم فيها الإنسان الفقه، ويدرس الأقوال ويتصوَّر المسائل، مثل هذا شيء، والتعبُّد شيء آخر، ينبغي أن يحرص في التعبُّد على أن يأخذ بالقول الراجح، ترجَّح له أن الصواب في هذه المسألة قول الشافعي، يأخذ بقول الشافعي، المسألة التي بعدها ترجَّح له أن قول أبي حنيفة هو الصواب يأخذ بهذا، لا لأنه قول الشافعي أو قول أبي حنيفة، إنما كانت هذه المذاهب وسيلة للوصول إلى مراد الله ورسوله ﷺ، هذا هو المقصود.

أنت يجب أن تكون متَّبعًا للنبي ﷺ، ولا يوجد غير النبي ﷺمعصومًا، مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ أشار نحو القبر، نحو الحُجْرة وقال: «ما مِنَّا إلا راد ومردودٌ عليه إلا صاحب هذا القبر»، كل واحد يؤخذ من قوله ويُترك إلا النبي ﷺ، أما هذا التعصُّب الذي نتحدث عنه فشأن آخر، ولذلك بلغ من بعض الناس في تعصبه أنه يزعم أن كل حديث يخالف مذهبه فإنه إما ضعيف أو مؤوَّل أو منسوخ، ما يحتاج ننظر فيه، حديث عن النبي ﷺ مذهبنا بخلافه، إذاً هذا الحديث لا يؤخذ به، لِمَ؟ لأنه لا يمكن أن يخالف قول الإمام، إذاً أصبح الإمام معصومًا، وأصبح هو الذي يجب اتباعه، لا حديث رسول الله ﷺ! وهذا لا شك أنه باطل.

والأئمة بشر يُصيبون ويُخطؤون، ولذلك قد يقول اليوم قولاً ويأخذ بعده بشيء آخر، وبقول آخر؛ الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ تُروى عنه في المسألة الواحدة الروايتان، والثلاث، والأربع. الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُلما كان في العراق كان له مذهب، لما انتقل إلى مصر كان له مذهب آخر، تراجع عن بعض أقواله، إذاً العلماء بشر يصيبون ويخطؤون، يجتهدون في الوصول إلى الحق، فنأخذ ما أصابوا فيه، وما وافقوا فيه الحق، وما خالفوا فيه ذلك فإننا نَدعُه، ونجمع بين الأمرين: بين اتباع الحق، وبين احترام العلماء؛ وهذا لا بد من اجتماعه في حق طالب العلم.

لسنا نعني حينما نقول إن الواجب أن يتبع الإنسان الحق، أنه لا يبالي بالعلماء ولا يقدرهم قدرهم ولا يعطيهم احترامهم، لا شك أن هذا غير مقصود وأن هذا مسلك رديء، بل الواجب أن يجمع الإنسان بين الأمرين: أن يكون

قصده الوصول إلى الحق، أينما وجده توجه إليه مع احترام العلماء وتقديرهم وإجلالهم الإجلال الشرعي، والحمد لله لا منافاة بين الأمرين.

السُّؤَال: عن مسائل الإكراه، إذا أُكره الإنسان على معصية؟

الجَوَاب: الإكراه لا بد أن يكون إكراهًا معتبراً شرعـًا حتى يرتفع الإثم عن هذا المكره:

- بأن يكون هذا الإكراه أولاً: مما يكون فيه الإنسان مُكرهًا بشيء يضره؛ يُهدَّد بقتل، أو بقطع عضو، أو ما شاكل ذلك، المهم أنه شيء يضر الإنسان.

-ويغلب على ظنه وقوعه؛ لا يقع في ظنه أن هذا الذي هدَّده إنما هو غير جاد فيما يقول.

-والأمر الثالث: أن يكون غلب على ظنه أيضـًا أنه قادر على إيقاع ما يُهدِّد به.

فمتى ما كانت هذه الأمور الثلاثة حاصلة فإن الإنسان معذور في فعل المعصية، بل ربما يكون معذوراً في فعل الشرك، ولذلك الله جل وعلا يقول: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾ [النحل:١٠٦].

السُّؤَال: بعض المعتكفين يقطعون الصفوف أثناء الصلاة بأغراضهم، فهل من نصيحة؟

الجَوَاب: هذه مشكلة قديمة متجدّدة، ومع كثرة مناشدة المشايخ والأئمة وقبل يومين حصلت مناشدة من الشيخ السديس، والوضع فيما يبدو -والله أعلم- أنه سيتكرَّر، وإن الإنسان ليعجب من حال بعض الإخوة الذين هم طالبون للخير فيما نظن ولكنهم يخطؤون هذا الخطأ، يضع أغراضه في الصف ويذهب يتقدَّم أو يتأخر أو يخرج ولا يعود في وقت مبكِّر، وبالتالي فإن الناس لا تصلي في هذا المكان، فيكون الصف منقطعـًا، وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «من وصَلَ صفـًا وصَلَه الله، ومن قَطَع صفـًا قَطَعَه الله»، المسألة والله خطيرة، هذا دعاء من النبي ﷺ على هذا الذي يقطع الصف، ومع الأسف كثير من الأخوة لا يبالون بهذا الأمر، يضع أغراضه ويمشي! يقول: أريد أتقدَّم للصفوف الأولى؟ طيب وهذه، والناس إذا جاؤوا بعدك فإنهم لن يصلون، يظنونك تتوضأ وتعود، وبالتالي تُقام الصلاة والصفوف كما نرى -مع الأسف الشديد- مقطَّعة، والذي ينبغي بذل النصيحة، من رأى من هؤلاء الإخوة شيئـًا من هذا ينبغي أن يناصحهم بلطف، لعل الأمور أن تتحسَّن.

السُّؤَال: أُمّي لم تحج، ولم تعتمر بعد، وتريد أن تحج وتعتمر عن أمها المتوفية -رحمة الله عليها- هل هذا جائز؟

الجَوَاب: نقول: نعم، ولكن بعد أن تؤدي هي الحج والعمرة، فالواجب أن يبدأ الإنسان بنفسه في أداء الحج والعمرة، ثم بعد ذلك إذا أحب أن يحج أو يعتمر عن متوفى فلا حرج، لكن عليها أن تحج هذه المرة عن نفسها، ثم المرة القادمة إن يسَّر الله تحج عن والدتها.

السُّؤَال: **أنا أرتدي ملابس الإحرام من الفندق بالمدينة، ثم أنوي العمرة من آبار علي؛ نظراً للزحام الشديد؟**

الجَوَاب: حتى ولو لم يكن ثَمَّة زِحام شديد أنت مخيَّر بين أن تلبس ملابس الإحرام في الفندق وتغتسل تتجهز من هنا ثم تُحرم، والإحرام: هو نية الدخول في النُّسُك ويقترن بذلك التلْبية، تجعلها في الميقات هذا لا حرج فيه، وإن شئت أن تؤخر اللباس إلى ذلك المكان فأنت بالخيار، أفعل ما هو أرفق بك.

السُّؤَال: **ماذا أقول عند زيارة قبر النبي ﷺ؟**

الجَوَاب: تقول كما قال ابن عمر رضي الله عنهما، فإنه الصحابي الوحيد الذي أُثر عنه أنه كان يأتي إلى قبر النبي ﷺمسلَّمـًا، وكان يفعل الآتي: إذا قدم من سفر أو أراد سفراً أتى قبر النبي ﷺفقال: «السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يا أبا بكر، السلام عليك يا أبتي» يعني يا عمر، ثم ينصرف، فلا وقوف

طويلاً، ولا دعاء، ولا ابتهال، ولا شيء من هذا الْبتَّة، إنما سلام بأدب ثم ينصرف، هذه هي الزيارة الشرعية.

السَّؤَال: صليتُ اليوم أمام الإمام وذلك لزحمة المصلين في الساحة، فما صحة صلاتي؟

الجَوَاب: صلاتك صحيحة، الصحيح من أقوال أهل العلم أن تأخر المأموم عن الإمام واجب من واجبات الصلاة، وواجبات الصلاة تسقط بالعذر، فإذا امتلأت الصفوف وفاضت حتى تقدَّمت ولم تجد مكاناً إلا ما هو متقدَّم على الإمام فإن صلاتك صحيحة إن شاء الله.

السُّؤَال: في كل رمضان أُقبل إلى الحرمين لطلب العلم مع العبادة، وأترك أهلي وأولادي في بلدي بخير وأمْن، هل عليَّ من حرج؟

الجَوَاب: ليس عليك من حرج، إذا كان أهلك وأولادك في خير، وعندهم ما يَقُوتهم، وعندهم من يقوم بشأنهم، وأنت مُطمئن عليهم، فإنه لا حرج عليك في ذلك.

السُّؤَال: عندنا في بلادنا الحلف بغير الله، عندما ننصحهم يقولون: هذا لُغو؟

الجَوَاب: لا شك أن هذا منكر ويجب إنكاره، ومخالف لقول النبي ﷺ: «من كان حالفًا فلْيحلف بالله أو ليصْمت»، وقول النبي ﷺ: «من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك»، من قال: والنبي، وحياتك، والكعبة، وأمثال هذه الأيمان لا شك أنه قد وقع في منكر، بل وقع في شرك، كما أخبر النبي ﷺ (فقد كفر أو أشرك) ولا يجوز لك أن تُشرك بالله ولا يجوز لك أن تعصي رسول الله ﷺ، فالواجب نصيحة هؤلاء حتى يتركوا هذه العادة القبيحة.



[باب قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [النساء:٦٠]]

بتأريخ: [٢٢/ ٩/ ١٤٣٧]

السُّؤَال: عن أحكام زكاة الفطر؟

الجَوَاب: يبدو أن الوقت مبكِّر، ونحن نشعر أن رمضان يتصرَّم من بين أيدينا، فمِن المبكَّر الكلام عن هذا بالتفصيل، لكن الذي أُريد ويهمّني أن أنبه عليه هو التنبُّه إلى أن سنة النبي ﷺ قد دلَّت على أن المشروع أن تُخرَج زكاة الفطر طعامًا، هكذا ثبت الحديث، «فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر صاعًا من طعام»، فإخراجها نقود -يعني فلوس أو مال- مُجانب للصواب، فهذا مما ينبغي التنبه له.

يخرج الإنسان صاعًا من طعام من قوت البلد، والصاع: آلةٌ لتقدير الحجم وليس لتقدير الوزن، ولذلك إذا قدَّرنا الوزن لابد أن نحدِّد الصنف؛ لأن الصاع من التمر ليس كالصاع من الماء، ليس كالصاع من القُطن، فإذا قدَّرنا بغالب قوت الناس في هذه البلاد وهو الرّز، فإن الصاع يساوي كيلوَين ونصف إلا قليلاً، فبالتقريب هو كيلوان ونصف، فهذا القدر هو يجب إخراجه إن أراد الإنسان إخراج الأرز، يخرجه عن كل نفس، إن كان ولي الأمر يعني الأب أو ولي أمر الأسرة فإنه يخرج عن نفسه وعن من يَعُول.

السُّؤَال: أرجو توضيح أوقات النهي عن الصلاة؟

الجَوَاب: الصلاة يُنهى عنها في ثلاثة أوقات، ليس لك أن تتنفَّل تنفُّلاً مطلقًا فيها، وهي:

-من بعد صلاة الفجر حتى ترتفع الشمس قِيد رُمح.

-وإذا قام قائم الظهيرة؛ يعني إذا توسَّطت الشمس في وسط السماء قبل الزوال، فإن زالت يعني مالَت إلى جهة الغرب فهاهُنا حل وقت الظهر فحلَّت الصلاة.

-وكذلك من بعد صلاة العصر إلى أن تغرب الشمس، على الإنسان أن يمسك عن الصلاة النافلة في هذا الوقت.

أما إذا تذكَّر مثلاً أنه قد فاتته فريضة، فالنبي ﷺقال: «من نام عن صلاة أو نسيها فليصلِّها إذا ذكرها لا كفَّارة لها إلا ذلك»، ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه:١٤].

السُّؤَال: عن وقت الضحى؟

الجَوَاب: وقت الضحى من بعد ارتفاع الشمس قيد رُمح، ويستمر وقتها إلى قُبيل دخول وقت النهي.

السُّؤَال: ما الفرق بين صلاة الإشراق وصلاة الضحى؟

الجَوَاب: لا أعلم دليلاً على صلاة مختصَّة اسمها (صلاة الإشراق)، صلاة الإشراق أو ما تسمى بصلاة الإشراق هي هي صلاة الضحى، لا يوجد صلاتان صلاة إشراق، وصلاة ضحى.

السُّؤَال: **نريد منكم طريقاً في التفريق بين مطلق الإيمان، والإيمان المطلق؟**

الجَوَاب: الأمر لا يحتاج إلى طريق، المسألة واضحة، مطلق الشيء والشيء المطلق، مطلق الشيء: أصْله أو أي شيء فيه، والشيء المطلق: يعني الشيء الكامل، طبِّق هذا على الإيمان، مطلق الإيمان: أصل الإيمان، الإيمان المطلق: الكامل، هذا باختصار شديد.

السُّؤَال: **ما المقصود بكمال الإيمان الواجب؟**

الجَوَاب: كمال الإيمان ينقسم إلى قسمين، وتنبَّه هنا أنك إذا قرأت في كلام العلماء حينما يتكلَّمون عن كمال الإيمان ماذا يريدون؟ فإن كمال الإيمان قد يُراد به كمال الإيمان الواجب، وقد يُراد به كمال الإيمان المستحب. والمقصود به أنه بعد أن يحقِّق الإنسان أصل الإيمان يفعل الواجبات جميعاً ويترك المحرَّمات جميعاً، إذا أتى بذلك فإنه يكون قد أتى بالإيمان الواجب، وإن شئت فقُل: أتى بكمال الإيمان الواجب.

كمال الإيمان الواجب يتحقَّق بفعل جميع الواجبات، سواءً كانت باطنة أو ظاهرة، سواءً كانت قولية أو عملية، وفي أثناء ذلك أو معه أيضـًا عليه أن يكف عن جميع المحرَّمات، إذا فعل ذلك فإنه يكون قد أتى بكمال الإيمان الواجب.

ولا شيء فوق ذلك إلا أن يحقِّق الدرجة الأعلى أو الدرجة العليا وهي: درجة كمال الإيمان المستحب؛ بأن يزيد بعد أداء الواجبات يزيد على ذلك أداء المستحبات، وبعد أن يكف عن المحرَّمات يكف عن المكروهات والمشتبهات وفضول المباحات؛ وهذه درجة عُليا، هي درجة أهل الإحسان.

وجمَع النبي ﷺ فيما يَروي عن ربه جل وعلا هاتين الدرجتين، قال جل وعلا في الحديث القدسي: «وما تقرَّب إلي عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضتُه عليه» هذا درجة الإيمان الواجب، «ولا يزال عبدي يتقرَّب إلى بالنوافل حتى أحبه» هذه درجة الإيمان المستحب.



[باب: من جَحَد شيئًا من الأسماء والصفات]

بتأريخ: [٢٥/ ٩/ ١٤٣٧]

السُّؤَال: **بعضهم يقول إن الخلاف بين الحنابلة والأشاعرة** - كأنه يريد بأن الحنابلة هم أهل السنة؟ والحقيقة أن هذا المذهب مذهب أهل السنة والجماعة لا يختص بالحنابلة دون غيرهم، بل هذا هو مذهب أهل السنة والجماعة من الحنابلة والمالكية والشافعية والحنفية ومن قبلهم ومن بعدهم ومن لا ينتسب إلى هذه المذاهب، هذا مذهب كل المسلمين، إلا من خرج وانحرف عن هذه الطريق- **الخلاف بينهم وبين الأشاعرة في الأصول خلاف سائغ، والله تعالى ترَك هذه المسائل للعقول، ولا يضر الخلاف فيها، وكلهم أهل سُنة؟**

الجَوَاب: هذا الكلام غير صحيح، ونتحدث إن شاء الله في شيء من التفصيل عن ذلك غداً إن شاء الله.

السُّؤَال: **هل مذهب السلف أسلَم، ومذهب الخلَف أفْقه؟**

الجَوَاب: هذا يقوله بعض الناس "إن مذهب السلف أسلَم، ومذهب الخلف أعلَم وأحكَم" ويريدون في تصوِّرهم أن مذهب السلف هو الذي ذكرته لك قبل قليل، وهو: الزعم بأن نصوص الصفات مجهولة المعنى، وظاهرها غير مراد قطعـًا، لها معنى يعلمه الله على خلاف الظاهر، هذا الذي يزعمونه مذهب السلف، وأما مذهب الخلف فهو تحريفه، ولذلك يقولون: هذا أعلم وأحكم

لأنه فيه عِلم، كوني أقول: إن «استوى» بمعنى استولى، أو «نزل» نزل أمره، هذا إنما يكون عن علم، وهذا الذي بحث فيه المتأخرون حتى وصلوا إليه.

والصحيح: أن ما حكَوه من هذين المذهبين لا شك أنهما مذهبان باطلان؛ مذهب التأويل ومذهب التفويض كلاهما مذهب باطل، والصواب مذهب أهل السنة والجماعة الذي هو إثبات ما أثبت الله لنفسه، وما أثبه له رسوله ﷺ من غير تكييف ولا تمثيل، ومن غير تعطيل ولا تحريف، هذا هو المذهب الأسلَم، والأعلم، والأحكم.

السُّؤَال: هناك من يقول: لا ينبغي تحديث العامة بالأسماء والصفات، ويستدل بقوله: (حدثوا الناس بما يعقلون)؟

الجَوَاب: هذا مما أورده المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الباب الذي معنا، فسنتكلَّم عن مراد يعني السلف بمثل هذا الكلام، نتكلَّم عنه إن شاء الله في محلِّه.

السُّؤَال: هل رأَى الرسول ﷺ ربَّه؟

الجَوَاب: أنَّ هاهُنا جاءت آثار متفاوتة عن الصحابة ﷺ، منهم من قال: إن النبي ﷺرأى ربه، ومنهم من قال: إن النبي ﷺلم يَرَ ربه. والصحيح أنه ليس بين هذين القولين اختلاف، فالمُثبت أراد شيئًا، والنافي أراد شيئًا آخر؛ المُثبت أراد أنه رآه بقلبه، والنافي أراد أنه رآه بعينه، فالصواب أن النبي ﷺ رأى ربه بقلْبه ولم يرَه بعينه، قال عليه الصلاة والسلام لما سُئل عن ذلك قال: «نُورٌ أَنَّى أَراهُ».

السُّؤَال: قمتُ بالإحرام من مطار القاهرة يوم ثلاثة عشر رمضان متوجِّهًا لجدّة ثم مكة، وعند المرور على الميقات بالطائرة كنت نائمًا ولم أُلَبِّ، ولم ينبهني أحد؟

الجَوَاب: قولك قمت بالإحرام، إن كنت تُريد به أنك لبست ملابس الإحرام فقط ولم تنوِ الدخول في النُسُك النية التي يقترن بها سنةً التلبية؛ هذا له حال، وإن أردت بالإحرام ما شاع عند العامة من أنه مجرَّد لبس ملابس الإحرام دون نية الدخول في النُّسُك؛ فهذا له حال أخرى.

إن كنت أردتَ بأنك في المطار لبست ملابس الإحرام فقط ولكنك لم تنوِ الدخول في النسك وأنت أعلم بحالك، وأنا أضرب لك مثالاً كيف نَويت أو ما نَويت، يعني لو قدَّرت أن أحداً في المطار بعد أن لبست هذه الملابس قرَّب إليك طيباً عطر، قال لك أنا أريد أن أطيِّبك، هل ستقبل أو لا؟ إن قلت: سأقبل؛ لأني لم أنوِ الدخول في النُسُك فنقول أنت لم تُحرم بعد، أنت لبست ملابس الإحرام، ولُبس ملابس الإحرام لا يقدَّم ولا يؤخر ولا يترتب عليه حكم، هو ملابس عادية، العبرة بنية الدخول في النُّسُك؛ وبالتالي إذا كانت هذه حالتك أنك لبست فقط، وكنت تريد أنك إذا حاذيت الميقات نويت الدخول في النُّسُك، فبالتالي أنت تكون قد أحرمت بعد تجاوز الميقات، وجمهور العلماء يرون أن من أحرم بعد تجاوز الميقات فإن عليه دمـًا، يعني عليك ذبيحة تذبحها في مكة وتوزعها على فقراء مكة.

أما إذا كنت نويت في مطار القاهرة ولكن كنت تريد فقط تلبِّي عند الميقات، فبالتالي أنت نويت وأحرمت، وبالتالي ليس عليك شيء.

السُّؤَال: **ماذا نقول لمن يستدل بصحة مذهب الأشاعرة، بأن أكثر أهل العلم كانوا أشاعرة؟**

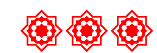
الجَوَاب: أولاً الكثرة والقلَّة ليست معياراً للحق -انتبه لهذا الأمر المهم- الكثرة والقلَّة ليست معياراً للحق، فربما يكون كثير من الناس على خطأ، ويكون القليل هم على الحق، وكم في كتاب الله ﷻ من شواهد على هذا: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف:١٠٣]، فهل هذا دليل على أن أكثر الناس في هذه الصورة كانوا على حق؟ إذاً الكثرة والقلَّة ليست هي معيار الحق، إنما معيار الحق هو موافقة الكتاب والسنة أو عدم موافقة ذلك؛ هذا هو الميزان، الميزان هو الشرع، نقيس الأشياء والأشخاص بالشرع، القريب والبعيد يتبيَّن بهذا الميزان.

والشرع مِيزانُ الأمورِ كلها وشاهدٌ لفَرْعها وأَصْلها

ثانيـًا: من قال لك إن أكثر العلماء على هذا المذهب!! دَعنا نعدِّد من عهد الصحابة، من أبي بكر ﷺ، ثم ننزل إلى آخر واحد في الصحابة، أكانوا على هذا المذهب أو لم يكونوا؟ ثم دعنا ننتقل بعد ذلك إلى التابعين وننظر هل هم كانوا على هذا المذهب؟ أتستطيع أن تُثبت عن واحد منهم فقط أنه كان يقول بما

يقول به أصحاب هذا المذهب؟! دَعنا ننتقل إلى أتباع التابعين، دعنا ننتقل إلى أئمة الأربعة، دعنا ننتقل إلى أئمة كُثر بعد ذلك.

الخلل هنا هو أن هذا الإنسان يتصوَّر مجموعة معيَّنة من العلماء فيظنهم هم العلماء، أو كل أو جُلّ العلماء؛ وهذا ليس بصحيح، علماءٌ كُثر كانوا في القديم وفي الحديث ليسوا على هذا المذهب، فقولك "إن أكثر العلماء على هذا المذهب" هذا قول فيه نظر، ولو سلَّمنا جدلاً فالعبرة ليست بالقلَّة أو الكثرة، إنما العبرة بموافقة الكتاب والسنة.



[باب: من جحد شيئًا من الأسماء والصفات]

بتأريخ: [٢٦/ ٩/ ١٤٣٧]

السُّؤَال: إذا سمعتُ «يد الله» أو «ساق الله» فيبدأ عقلي بتصور هذه اليد والساق، فما العلاج لذلك؟

الجَوَاب: لا شك أن من بدأ ذهنه يذهب إلى مثل هذا الأمر لا شك أنه بحاجة إلى أن يُعالج نفسه، والعلاج قد ذكرناه في الدرس الماضي وهو: قطع الطمع عن إدراك كيفية صفات الله ﷻ، إذا ورد على ذهنك شيء من ذلك فعالجه مباشرة بأدلة التنزيه؛ ذكِّر نفسك وذكِّر قلْبك بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١]، ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:٤]، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم:٦٥]، ذكِّر نفسك بهذا، وجاهد نفسك على طرْد هذه التوهّمات، ويزول الأمر عنك إن شاء الله.

السُّؤَال: لو تُعيدون قاعدة وجود قدر مشترك في الصفة؟

الجَوَاب: قلنا إن الصفات التي اتصف الله ﷻ بها واتصف بها المخلوق أيضًا من حيث أصل الصفة يقترن بها أمران: ثبوت قدر مشترَك، وثبوت قدر فارق.

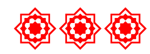
القدر المشترك هو: الصفة قبل الإضافة؛ استواء من حيث هو استواء، يَد من حيث هي يَد، هذا أمر معلوم من جهة اللغة العربية، وأما القدر الفارق: فهو الكيفية والحقيقة.

أَضرب لك مثالاً آخر بين مخلوقين: أَلَم يقل الله ﷻ: ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ [الزخرف:١٣]، هذه الدابة الخيل أو الجمل أو الحمار حينما يركبها الإنسان تخيَّل في ذهنك الكيفية التي يكون عليها هذا الإنسان في استوائه، أليست لها كيفية؟ كيفية معيَّنة، وقال الله ﷻ أيضًا في حق سفينة نوح: ﴿وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ [هود:٤٤]، هذا جبل استوَت عليه سفينة؛ أسألك سؤالاً: استواء السفينة كاستواء الإنسان على الدابة؟ متشابهان؟ متماثلان؟ بينهما قدر مشترك وهو العلو والارتفاع على الشيء، لكن عند النظر في الكيفية الأمر متفاوت، إذاً هذا قدر مشترك وقدر مميِّزٌ فارق، وإذا كان مخلوق ومخلوق ما اشتبها في الكيفية والكُنْه والحقيقة، فلأَن يكون هذا التفاوت والاختلاف ثابتًا بين استواء الله ﷻ واستواء المخلوق من باب أولى.

إذاً انتبه! (نفْي القدْر المشترَك تعطيل، ونفْي القدْر الفارق تمثيل)، هذه تتمة القاعدة ولابد من فهمها. (نفْي القدر المشترك تعطيل)؛ لأن الذي نفى القدْر المشترك -الذي هو الصفة في أصل اللغة- معنى ذلك أنه ما أثبت لله شيئًا، فبالتالي يكون قد وقع في التعطيل . والذي ينفي القدر الفارق يكون قد مثَّل، وبالتالي جعل صفة الله ﷻ من جنس صفة المخلوق، وهذا هو التمثيل. إذاً لابد من ملاحظة هذا الأمر، من نفَى القدْر المشترك عطَّل، ومن نفَى القدْر الفارق مثَّل.

السُّؤَال: من اغتسل قبل فجر الجمعة، هل أصاب سُنة الاغتسال؟

الجَوَاب: لا، هذا الاغتسال ما اسمه؟ غُسل الجمعة، وهل دخلت الجمعة؟ هو ما دخل، هذا اليوم ما دخل، بما أنه ما دخل الفجر إذاً ما دخلت الجمعة، وبالتالي يكون الاغتسال في غير الجمعة، فاحرص -بارك الله فيك- أن يكون اغتسالك بعد الفجر وإلى ما قبل صلاة الجمعة.



[باب قول الله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [النحل:٨٣]]

بتأريخ: [٢٨/ ٩/ ١٤٣٧]

السُّؤَال: كيف تكون النعمة مُسداة من غير الله؟

الجَوَاب: لا توجد نعمة يكون المُنعم بها غير الله ﷻ، فالنعمة لا يمكن أن تكون مُسداة يعني أُنشئ إعطاؤها من غير الله جل وعلا هذا لا يمكن، لكن الذي يقع هو أن الله ﷻ ييسِّرها على يد أحد من خلقه، وبالتالي فهذا المخلوق ليس المُسدِي على الحقيقة، ليس المنعِم على الحقيقة، إنما هو مجرَّد سبب، «إن الله هو المُعطي وأنا قاسم».

السُّؤَال: عند الرجوع إلى البلد نتزوَّد بماء زَمزَم، ومع كثرة المحتاجين نضيف إليه غير ماء زمزم حتى يَعُمّ الجميع، هل سيأخذ حكم زَمزَم؟

الجَوَاب: لا شك أنه ليس كزمزم الصافي، ولكن إذا ضاق الأمر اتسع، يعني إذا ما كان عندكم وسيلة أن تعطوا الجميع من ماء زمزم الصافي، فلعلَّ هذا يكون حلًا لتطْييب خاطر الجميع، كونكم تخلطونه بماء غيره، يعني على كل حال ينالهم شيء، وماء زَمزم سيبقى يعني أثره حتى لو خُلط بغيره، لكن التأثير سيكون أضعف.

السُّؤَال: هل لازم القولِ قولٌ؟

الجَوَاب: في المقام تفصيل، أما لازم كلام الله ورسوله ﷺ فنَعم، وأما كلام المخلوقين فلا. لازم قول المخلوق ليس بلازم، إلا إذا عُرض عليه فالْتزمه، فإنه يكون قوله، وأما إذا لم يُعرَض عليه فإنه ليس قولاً له، والسبب: أن ابن آدم ضعيف، ﴿وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٢٨]، قد يذهل ويذهب ذهنه عن هذا اللازم ولا يُفكِّر فيه حينما تكلَّم بهذا الكلام، ولذلك كثير من الناس إذا ذُكر لهم لازم قولهم تبرؤوا من القول، أو على الأقل تبرؤوا من اللازم وقالوا: لا أنا ما فكَّرت في هذا وما ظننت أن قولي يلزم منه هذا اللازم، إذاً لازم القول ليس بقول إلا إذا التزمه صاحبه. لكن لازم القول يفيدنا فائدة وهي: معرفة صواب القول أو خطئه، فإن اللازم الباطل دليلٌ على أن القول باطل، واللازم الصواب دليلٌ على أن القول صواب.

السُّؤَال: كيف يقطع الإنسان تعلُّقه بالناس مع إعطاء حقوقهم؟

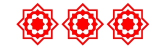
الجَوَاب: هذا سؤال كبير، لكن خلاصة الجواب فيه: سوف يكون ذلك إذا وطَّن الإنسان نفسه على تحقيق أمرين: معرفة حق الله ﷻ والقيام بهذا الحق على وجهه، ثم معرفة قدْر الناس وبالتالي إنزالهم منزلتهم. من لم يجمع بين الأمرين فإنه يكون منه اختلال، لابد من أن تعرف عظمة الله ﷻ، وأن كل شيء منه وإليه جل وعلا، وبالتالي حقه عليك عظيم ؛ على قلبك، وعلى لسانك، وعلى جوارحك. في مقابل هذا: أن تعرف حقيقة الناس، وأنهم لا ينفعون ولا

يضرون على الحقيقة، لو اجتمعوا جميعًا على أن ينفعوك بشيء والله ما أراده لن يكون، والعكس صحيح، وبالتالي (من عرف الناس استراح)، احفظ هذا.

السُّؤَال: كيف يقول الإنسان إذا نجا من أمر يقول مثلاً: (نجوتُ بفضل الله ثم فلان)؟

الجَوَاب: نعم، هاهنا مرتبتان: أن يقول الإنسان: (لولا الله ثم فلان)، هذه مرتبة جائزة، وسيمرّ معنا بإذن الله في الدرس القادم، الفرق بين قول: (لولا الله وفلان)، و(لولا الله ثم فلان).

المرتبة الثانية -وهي المستحبة وهي الأفضل وهي الأكمل-: أن يقول الإنسان: (لولا الله وحده)، وسنتكلَّم عن هذا إن شاء الله على وجه التفصيل بعون ربنا جل وعلا.



[باب: من جحد شيئًا من الأسماء والصفات]

بتأريخ: [٢٧/ ٩/ ١٤٣٧]

السُّؤَال: شخص يبيع سلعة بالأقصاد لا يملكها إلا بعد الاتفاق مع الزبون، علمًا أنه لا يُلزمه بالشراء لو تراجع بعد الاتفاق؟

الجَوَاب: ينبغي أن تعلم -يا رعاك الله- أن النبي ﷺقال: «لا تَبعْ ما ليس عندك»، لا يجوز للإنسان أن يبيع ما لا يملك، كونه يحصل الاتفاق على البيع والسلعة لم يشترِها بعد، هذا أمرٌ مخالف لحديث النبي ﷺ، حتى لو كان يقول له: إنني أخيُّرك بعد ذلك أو لا ألزمك بأخذها بعد ذلك. أصل إجراء العقد هذا غير صحيح، اللهم إلا باستثناء حالة واحدة فقط وهي: عقْد السَّلَم؛ إذا كان العقد عقْد سَلَمٍ مستوفيًا للشروط فلا حرج.

لكن يُشكِل على السؤال: أنه لا يمكن أن يكون عقد سَلم، لماذا؟ لأن من شروط عقد السَّلَم: تقديم الثمن كاملاً في مجلس العقد، في عقد السَّلَم حينما يتفق اثنان على أن يُحضر البائع السلعة المنضبطة بالوصف -يعني لابد أن تكون السلعة مما ينضبط بالوصف، ولابد أن يُذكَر الوصف كاملاً الذي يزول معه أي اختلاف، ولابد أيضًا أن يُحدَّد الزمان زمان التسليم- هذا يسمى عقد السَّلم، يُشترط هنا أن يُسلِّم المشتري الثمن كاملاً في مجلس العقد، ولو لم يحصل هذا لكان هذا من «بيع الكالئ بالكالئ» وهو ممنوع، ولكن هنا يقول: هذه بيع بالأقصاد، وبالتالي فلا يمكن أن يكون عقد سَلَم.

السُّؤَال: أريد أن أطلب العلم الشرعي، فبماذا تنصحوني؟

الجَوَاب: أنصحك أن تطلب العلم الشرعي، هذا الذي أنصحك به، جد واجتهد، واستعِن بالله ﷻ وابدأ، واسلُك الطريق، ولا تضيِّع وقتًا في ذكر المنهجيات والطرائق، هذا شيء مهم، لكن قد يكون مدخلًا من مداخل الشيطان على بعض طلاب العلم، يضيع وقته وهو يريد أن يرسم المنهج والطريق الذي سيطلب فيه العلم، ربما يضيع عليه أيام وليالي وربما أشهر وهو يغيِّر ويزيد، وأقرأ هذا، لا أقرأ هذا، ويستشير هذا يقول له: لا، الكتاب هذا ما يصلح لك، اقرأ هذا، ويبدأ يعني في دوَّامة، يا أخي اقرأ والفروق في النهاية الفروق يسيرة -خذها منِّي- الفروق يسيرة، كونك قدَّمت هذا الكتاب على هذا، وإن كان الأولى أن تقدِّم الثاني على الأول لكن الأمر سهل، المهم اقرأ، المهم اطلب العلم، المهم احفظ، طلب العلم إذا أردت أن تكون طالبًا للعلم لابد أن تسلك طريقًا فيه ثلاثة مسارات:

أولا: الحفظ.

وثانيًا: الأخْذ عن الأشياخ، لابد أن تدرس على المشايخ.

وثالثًا: لابد من قراءة، لابد من جَرْد للكتب.

إذاً: هناك أشياء تحفظها، هناك أشياء تدرسها، هناك أشياء تقرأها.

ولو وفَّقك الله ﷻ لشخص من طلبة العلم أكبر منك وأخبر منك بحيث أنك ترجع إليه، ولا تُثقل عليه، إنما ارجع إليه تقول له: أنا أريد أحفظ، عندي ثلاثة أربعة متون، أيش ترشِّح لي؟ يقول لك: احفظ هذا خلاص امشِ، استعن

بالله، ماذا أقرأ؟ اقرأ هذا ثم هذا ثم هذا، وهكذا يكون معك كالأستاذ الذي يعلِّمك، مثل هذا إن شاء الله سيكون من أسباب عدم الوقوع في الأخطاء، أخطاء الطريق طريق الطلب، والله أعلم.

السُّؤَال: كيف نرد على القائلين: إن في القرآن ظاهراً وباطنًا، وأن الظاهر للعامة، والباطن للخاصة؟

الجَوَاب: هذا الكلام غير صحيح، ومن قال به فإنه خالف كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وخالف نهج السلف الصالح، الله جل وعلا أمَر نبيه ﷺ أن يُبلِّغ هذا الدين، قال الله جل وعلا: ﴿لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام:١٩]، ويجب على النبي ﷺ-وقد قام بهذا الواجب- يجب عليه أن يبلِّغ الحق للناس كافة، أما أن يبلُغ تسعة وتسعين في المائة من الأمة حقٌّ قليل أو شيءٌ من الحق ويُستأثَر بالباقي في حق خاصة أو من يسمى خاصة، لا شك أن هذا من أبطل الباطل.

وعلي رضي الله عنه كما في «البخاري» لما قيل له: أخصَّكم رسول الله ﷺبشيء؟ قال رضي الله عنه: «لا، إلا فهمـًا يؤتيه الله عز وجل في كتابه، والصحيفة التي في هذا الجِراب» وأخرج صَحيفة من جراب سيفه فيها بعض الأحكام الفقهية في العاقلة وغيرها.

وإذا كان عليٌّ رضي الله عنه ليس من الخاصة، إذًا من سيكون الخاصة؟! على كل حال هذا منهج بدعي مخالف للكتاب والسنة، فاحذرْه.



[باب: قول الله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

[البقرة:٢٢]]

[١٤٣٧/٩/٢٩]

السُّؤَال: رجل قدم لي معروفًا، وقلتُ له: (أكْرمتني)؟

الجَوَاب: لا بأس به، هذا إخبار بأنه حصل منه إكرام، وشكْر الإنسان على ما قدَّم واعترافه بإحسانه هذا لا بأس به، لكن هذا لا يتجاوز الجوارح، قلنا سابقًا نحن نتكلم عن شيء يتعلق بالقلب، الاعتراف وشهود المِنَّة في قلب الإنسان يجب أن يتوجه لله ﷻفقط، أما باللسان فإنه يشكر، ويُثني على مَن أسدى إليه معروفًا من الناس.

السُّؤَال: حكْم مَن يشرب الماء على أذان الفجر في رمضان؟

الجَوَاب: هذا السؤال فيه تفصل: إن كان المؤذن يؤذن مع طلوع الفجر فلا شكَّ أن فعْل هذا الإنسان خاطئ، ويكون قد أفطر بذلك، ولا يجوز له ذلك، بل يجب عليه أن يكفّ إذا سمع الأذان، أي إذا عَلِم طلوع الفجر. والأذان الذي يكون مع طلوع الفجر علامة عليه.

أما إذا كان المؤذن يؤذن قبل دخول الوقت؛ فإن الأمر في حقه جائز، يجوز له أن يأكل وأن يشرب، ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ [البقرة:١٨٧] .

ومتى ما احتمل الأمر هذا وهذا فإن على الإنسان أن يحتاط وأن يكفَّ مع أذان الفجر.

السُّؤَال: هل مَسّ الفرج بدون حائل ينقض الوضوء؟

الجَوَاب: الأقرب -والله أعلم- عندي: نعم.

السُّؤَال: الصحابة رضوان الله عليهم ما يقعون في الشرك الأكبر ولا الأصغر؛ في الاستدلال بقول عمر الحلف أنه شرك أصغر ليس بقوي؟

الجَوَاب: على كل حال، يعني أنا لا أدري لماذا يقعِّد السائل هذه القاعدة، كون النبي ﷺ ينهى عمر رضي الله عنه عن هذا القول وقد قال: «مَن حلف بغير الله فقد أشرَك» لا شكَّ أنه يدل على أنه من الشرك الأصغر. وتنبيه النبي ﷺبهذا الخطاب: «أَلَا إنَّ الله ينهاكم عن أن تحلفوا بآبائكم، مَن كان حالفًا فلْيحلف بالله أو ليصْمُت» دليل على أن هذا القول مُنكر ولا يجوز، ودرجته قد بيّنتها الأدلة الأخرى.

كيف يُقال إنه ليس بشرك، والنبي ﷺيقول إن شرك!! يعني هل هذا الإنسان يستدرك على النبي ﷺ أم ماذا؟! ثم ماذا تقول في حديث قُيلة: «إنكم تُشركون، تقولون والكعبة»، واليهودي يحكي شيئًا كان حاصلًا من المسلمين، فإذًا كان يقع منهم، ووصف هذا القول بأنه من الشرك وأقرَّه النبي ﷺعلى ذلك،

والنبي ﷺ لا يقرّ على باطل، فنهاهم النبي ﷺ عن ذلك، وأمرهم أن يقولون: «ورَبِّ الكعبة».

السُّؤَال: ما حكْم خروج النساء لصلاة العيد إن كُنَّ متبرّجات؟

الجَوَاب: لا شك أن هذا منكر، التبرُّج من حيث هو منكر، وأن يكون أثناء التوجّه إلى بيت الله إلى أداء عبادةٍ لله بهذا التبرج لا شك أنه منكر فوق منكر، فكيف والأمكنة ستكون مكتظّة بالرجال اكتظاظًا عظيمًا، فتحصل فتنة عظيمة بالنساء المتبرجات، وهذا يجعله منكرًا أكبر، فكيف إذا كان هذا في مدينة رسول الله ﷺ! إذًا لا شك أن هذا الفعل منهُنَّ مُكر لا يجوز، المرأة إذا أرادت أن تخرج لصلاة العيد يجب عليها أن تَخرج تَفِلَة، يعني تخرج محتشمة مُبتعدة كل الابتعاد عن أن تكون متزينة أو متعطرة أو متبرجة، أو كاشفة عن محاسنها، أو كاشفة عن وجهِها، كل ذلك لا شكَّ أنه لا يجوز.

السُّؤَال: ما حكْم مَن يطوف بالقبور ولكن يقول: إنه يتقرب إلى الله جل وعلا وليس لصاحب القبر؟

الجَوَاب: هذا الفعل منكر وبدعة وإحداث في دين الله جل وعلا، حيث نقل عبادة الطواف عن محلها، ولا يكون ذلك شركًا إلا إذا تقرب به -يعني بالطواف- صاحبه لغير الله جل وعلا، على أنِّي أستبعد وأستبعد جدًا أن إنسانًا يطوف لله عند قبر، هذا أمْر أرى أنه في غاية البُعد، وأن من يطوف بالقبور فطوافه الظاهر لنا أنه يطوف لأجل صاحب القبر، وليس لله ﷻ.

السُّؤَال: ما حكْم الدعوة إلى الله ﷻ بدون علْم، وما الآثار المترتبة على ذلك؟

الجَوَاب: لا شك أنها آثار سيئة، والدعوة إلى الله جل وعلا دعوةٌ إلى الله، إذًا لابد أن تكون على نُورٍ من الله؛ ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف:١٠٨]، أما الذي يدعو عل جهل فإنه لم يدعُ على بصيرة، وبالتالي يكون ما يُفسد أكثر مما يُصلح. والذين يَندبُون أنفسهم للدعوة إلى الله جل وعلا دون أن يتسلَّحوا بالعلم ودون أن يكونوا عالِمين بما يدعون إليه، لا شكَّ أنهم يضرون أكثر مما ينفعون، والواجب عليهم أن يتعلموا أولًا، ثم بعد ذلك يخرجوا للدعوة إلى الله جل وعلا. أما أن يقوم الجُهَّال بهذا الواجب العظيم الذي هو وراثة للأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، حيث إن وظيفة الأنبياء كانت الدعوة إلى الله جل وعلا، فوُرَّاث الأنبياء هم أهل العلم، هم الذين يُبيّنون الدين والخير للناس من خلال كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، والجاهل لا علم له بذلك.

وليس المقصود أن يبلغ الإنسان من العلم درجة الاجتهاد حتى يدعو إلى الله، هذا ليس مقصودًا، إنما المقصود أنه لا يتكلم في شيء إلا وهو عالِمٌ به، فإن عَلم معنى (لا إله إلا الله) دعا إلى ذلك، إن عَلم الصلاة شروطً وأركانًا وواجبات وسُننًا دعا إلى ذلك، إن عَلم أركان الإيمان بعلمٍ صحيح دعا إلى ذلك، أما أن يتكلم في شيء لا يُحسنه، فلا شك أن هذا من الخطأ البيِّن.

ومع الأسف الشديد بعض الدعوات التي تروج وتنتشر ويتحمَّس لها كثير من الناس، النصيحة لهم أن يتريَّثوا قليلًا وأن يتدبروا في أحوالهم، وأن يُقارنوها بحال النبي ﷺ ومِنهاجه، النبي عليه الصلاة والسلام -وهكذا جميع الأنبياء والرسل- كانت دعوتهم تنطلق من التوحيد وتعود إلى التوحيد، النبي ﷺ لم تكُن دعوته إلى التوحيد لمدَّة ثلاث عشر سنة فقط في مكةَ، بلْ كل رسالته وكل نبوته مدَّة ثلاثٍ وعشرين سنة، مُنْذُ أن بُعث عليه الصلاة والسلام وإلى وفاته وكل دعوته تدور على محور التوحيد، مُنذ أن خرج على الناس عليه الصلاة والسلام لمَّا بُعث بهذه الدعوة وهذه الملَّة، خرج على الناس فقال: «قُولوا لا إله إلا الله تُفلحوا»، وإلى آخر لحظات حياته عليه الصلاة والسلام، كان يقول: «لعنة الله على اليهود والنصارى؛ اتخذوا قُبور أنبيائهم مساجد» يُحذِّر ما صنَعوا، يُبيِّن التوحيد ويحذر من الشرك.

أما دعوة لا تترسَّم ذلك ولا يوجد مساحة فيها لبيان التوحيد البيان المفصل، وللتحذير من الشرك التحذير المفصل! هذه دعوة مخالفة لنَهج الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، ورأسهم في ذلك نبينا الكريم ﷺ.

إذًا على هؤلاء أن يُعيدوا النظر في هذه الدعوة، نعَم الدعوة إلى الأخلاق وإلى الآداب أمْرٌ حسَن، ولكن ذلك يتقاصر أمام قضية التوحيد وأمام التحذير من الشرك، ما قيمة أن يتعلم الناس الآداب ويتعلموا الأخلاق الحسنة، لكنهم يُشركون بالله؟! ما فائدة ذلك، أَينفعهُم ذلك؟

هؤلاء الدعاة الذين يغفَلون أو يتغافلون عن التنبيه على أُسّ الأمور وهو التوحيد والتحذير من الشرك، هؤلاء يغشُّون الناس، هؤلاء يتركون الأمراض تنتشر في قلوبهم حتى تُرديهم وهم لا يحركون ساكنًا، والحقيقة أن هذا من الغِشّ لهذه الأمة، الواجب الصَّدْع بالحق، الواجب أن يُبين للناس الحق، الحق في كتاب الله وفي سنة رسوله ﷺ، وأساس ذلك وأوله وأهمّه: الدعوة إلى توحيد الله جل وعلا، أن يُبيَّن للناس معنى (لا إله إلا الله) حقًا، وليس أن تُفسَّر (لا إله إلا الله) بتفسير ما كان يخالف فيه كفار قريش، أن يُقال: بأنه لا خالق إلا الله ولا رازق إلا الله، نعم؛ لا خالق إلا الله ولا رازق إلا الله، ولكن ليس هذا معنى (لا إله إلا الله)، هذا القدر كان أبو جهل وأبو لهَب يعتقده، لكن (لا إله إلا الله) لها معنى آخر، (لا إله إلا الله) لما قالها النبي ﷺ للمشركين قالوا: ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص:٥] كانوا يفهمون الكلام، ويدركون معناه، ووالله لو أن النبي ﷺقال لهم: «قُولوا لا إله إلا الله» والمعنى: لا خالق إلا الله ولا رازق إلا الله لَقالوا: "حُبًّا وكَرامة، نحن نقول هذا قبل أن تُبعث"، أليس كذلك؟ والله في كتاب الله هذا، ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ [الزخرف:٨٧]، ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ [الزمر:٣٨]، ﴿وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللهُ﴾ [يونس:٣١]؛ إذًا هذا أمْر قطعي لا شك فيه، أنهم كانوا يعتقدون أن الله هو الخالق الرازق المدبر، ومع ذلك هُم كفار، ومع ذلك حكَم النبي ﷺ بالكفر، وتوعَّدهم الله جل وعلا بالخلود في النار، ومع ذلك قاتلهم النبي ﷺ. أن يُغشّ الناس فيُقال: إن معنى (لا إله إلا الله):

لا خالق إلا الله، ولا رازق إلا الله؛ هذه مشكلة كُبرى، وإذا كان سببها الجهل إذًا على مَن نصَّب نفسه داعية إلى الله جل وعلا وهو يجهل أساس الأمور، عليه أن يتقي الله جل وعلا، وأن يطلب العلم، وأن يفهم التوحيد أولًا، ثم بعد ذلك ينطلق داعيةً إلى هذا التوحيد.



[باب: ما جاء فيمَن لم يقنع بالحلف بالله]

[١٤٣٧/١١/٢]

السُّؤَال: نسمع كثيرًا من الناس يقول: (بذمّتك)؟

الجَوَاب: لا شك أن هذا منكر ولا يجوز، وأن هذا من جنس الحلف بغير الله الذي هو حلفٌ شركي، فعلى مَن سمع مثل هذا أن يذكِّر صاحبه بأن هذا منكر ولا يجوز. لكن إذا قال: (في ذمّتك) ومراده أنَّني أدعوك إلى أن تقول الكلام الصدق الذي أنت فيه صادق، وأن هذا يدخل فيما تدين الله ﷻ به وأن هذا يدخل في ذمتك، فإن هذا ليس بحلف. أما إذا قال: (بذمتك) وظاهر الكلام يدل على أنه حلف، فإن هذا لا يجوز، والله أعلم.

السُّؤَال: أبي يريد أن يشتري بيتًا، فوجد بيتًا في إحدى غرفه قبر قديم، فهل يجوز أن ننبُش هذا القبر وننقله في مكان آخر، وهل يؤثر كون القبر قبر مسلم أو كافر، ولكنه في بلاد المسلمين؟

الجَوَاب: أولًا إذا كان هذا القبر في بلاد المسلمين فالأصل أنه مسلم ومحكوم لهذه الجثَّة بأنها جثة مسلم. أما من حيث النبْش فنعَم، فالسنة العملية عند المسلمين من لدُن رسول الله ﷺ أن الدفن يكون في المقابر وليس في البيوت، فبالتالي واجبٌ نبْش هذا القبر وإخراج الرُّفات المتبقي ووضْعه في مقبرة من مقابر المسلمين، وأن يُسوى هذا المكان، وبالتالي فإنه يخرج حكمه عن كونه قبرًا حينئذٍ، والله أعلم.

السُّؤَال: ما حكْم مَن حلف بالله على أن يترك معصيةً ولا يعود لها، ثم عاد ضعفًا منه؟

الجَوَاب: عليه أن يتوب إلى الله ﷻ منها، وعليه أيضًا كفارة يمين على حِنثه في هذه اليمين، وكفارة اليمين ما أخبر الله ﷻ: ﴿فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ﴾ [المائدة:٨٩].

السُّؤَال: انتشر في بعض المجتمعات الحلف بالنبي ﷺ، هل من كلمة أو نصيحة؟

الجَوَاب: نعم، من المُؤسِف أنه قد كثر على ألْسنة بعض المسلمين أنهم يقولون: والنبي، أو بالنَّبي، وهذا منكر، وأول من أنكره النبي ﷺنفسه، وإنَّنا لنشهد بالله ونقسم بالله أنَّ النبي ﷺ نفسَه لو سمع هذه الكلمة من قائلها لأنكر عليه، عليه الصلاة والسلام، فإن كنت تدَّعي محبَّتك النبي ﷺ فكيف تعصيه يا عبد الله! كيف تحلف به وهو الذي يقول: «مَن كان حالفًا فلْيحلف بالله أو ليصمُت»، كيف تدعي حبَّك النبي ﷺ وأنت تخالفه! وهو القائل: «مَن حلف بغير الله، أو مَن حلف بشيء دون الله فقد أشرك»، إذًا عليك -يا عبد الله- أن تتقي الله.

وعلى كل من يسمع ذلك أن ينكره. وإنَّني لأظن بلْ أعتقد أن هذا المنكر لو بادر إلى إنكاره كل مَن سمعه لَما انتشر هذا الانتشار الفظيع في بعض

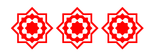
المجتمعات، لكن التكاسل والتساهل وغَلَبَة الضعف على بعض الغَيورين أدَّى إلى انتشار هذا المنكر، والله المستعان.

السُّؤَال: دخل مكةَ أول ذي القعدة قاصدًا الحج، وذلك من المدينة، ماذا عليه إذا دخل معتمرًا، وماذا لو دخل مكةَ غير معتمر؟

الجَوَاب: إذا دخل مكة من هذا الشهر أو من شهر شوال أو في شهر ذي الحجة فاعتمر ثم جلس في مكةَ، فإن هذا الإنسان إن حجَّ فإن حجه يكون حجة تمتُّع؛ لأنه يكون قد جمع بين حجة وعمرة في سفرة واحدة. أما إذا لم يكن مُريدًا للحج، واعتمر فجلس فقط إلى وقت الحج أو ما قبله أو ما بعده فإنه ليس عليه شيء، هذا أولًا.

ثانيًا: مَن ذهب إلى مكة بقصد العُمرة في أشهر الحج؛ في شوال أو في ذي القعدة أو في ذي الحجة، ثم إنه سافر بعد ذلك، اعتمر ثم سافر وهو يريد الحج من عامِه، فإن كان قد سافر إلى غير بلَده فإن الصحيح من كلام أهل العلم -وهو أعدل الأقوال في المسألة والعلم عند الله- أنه يكون متمتعًا إن حج، أما إن عاد إلى بلده فإنه قد انقطع حكم تمتعه؛ لأنه لا يصْدق عليه أنه قد جمع في سفرة واحدة بين عمرة وحج، وإن ذبح هدي التمتُّع على سبيل الاحتياط والخروج من خلاف أهل العلم فهو حسن إن شاء الله.

أما إذا دخل مكة غير معتمر فإنه لا يترتب عليه شيء من هذه الأحكام، والله أعلم.



[باب: قول: (ما شاء الله وشئت)]

[١٤٣٧/١١/٣]

السُّؤَال: ما الدليل على إطلاق اسم الشرك الأصغر على قول: (ما شاء الله وشئت)؟

الجَوَاب: سبق الكلام عن ذلك، وذلك أن النبي ﷺ كان يمنعه الحياء من إنكارها، فلو كان ذلك من الشرك الأكبر ما تردَّد ولا تأخر النبي ﷺعن إنكارها، وهذا ما نبَّه إليه المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُفي مسائل الباب.

ويُمكن أن يُقال أيضًا: إن كون هذا اللفظ قد وقع من بعض أصحاب النبي ﷺ فإنه يدل على أنه من جنس الشرك الأصغر لا الأكبر، فإنه يبعُد تمام البُعد أن يُقال إن الصحابي يقع في الشرك الأكبر، والله تعالى أعلم.

السُّؤَال: عن قول: (توكلتُ على الله ثم عليك)؟

الجَوَاب: مضى في دروس سابقة الكلام عن هذا اللفظ، وقلتُ إن من أهل العلم مَن جوَّز أن يقول القائل: (توكلتُ على الله ثم عليك)، وذكرتُ أن الصحيح والصواب إن شاء الله أن هذا اللفظ لا يجوز.

لا يجوز أن تقول: (توكلت على الله وعليك)، ولا يجوز أن تقول: (توكلتُ على الله ثم عليك)، إنما الواجب أ يقول القائل: (توكلتُ على الله وحده)؛ وذلك أن التوكل عبادة فيها تفويضٌ واعتماد كامل بالقلب، وهذا ما لا يجوز أن يُعلق على غير الله جل وعلا، فالصحيح: أن هذا اللفظ لا يجوز، إنما

يقول القائل: (توكلتُ على الله، ووكَّلْتُك) هذا لا بأس به، التوكيل لا بأس به، أما التوكل فإنه خاص بالله جل وعلا، ولو رجع السائل إلى تفصيل ذلك في (باب قول الله جل وعلا: ﴿وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا﴾ [المائدة:٢٣]) يَجد ما يشفيه إن شاء الله فيها.

السُّؤَال: قول بعض الناس: (باسم الحضور، أو الجمع الكريم نتقدَّم بالشكر لفلان) مثلًا، هل هذا جائز؟

الجَوَاب: نعم، كون الإنسان يقول: أنا أكلم باسمي وباسم الحاضرين، فإن مثل هذا لا بأس به.

السُّؤَال: ما مراد النصارى برمز الصليب، وما حكم تعليقه؟

الجَوَاب: مرادهم تعظيم هذا الصليب الذي صُلِبَ عليه المسيح عليه السلام ومات بسبب ذلك، حيث إنهم يعتقدون أنه مات ثم خرج بعد ذلك بعد عدَّة أيام من قبره على ما تذكر أَناجيلهم، فهم يرتبط عندهم هذا الأمر بعقيدة الفِداء التي يعتقدونها، فإن عيسى عليه السلام في زعمهم قد تحمل جميع الآثام التي كانت على بني آدم بسبب ما وقع عليه من هذا الصلب، فهم يعظمون الصليب من هذه الجهة التي يعتقدونها في مسألة الفِداء.

ولا شك أن تعليق الصّلْبان أمْر منكر ولا يجوز، لا يجوز أن يعلق الإنسان الصليب لا على عُنقه ولا في بيته، بلْ كان النبي ﷺ لا يجد صليبًا إلا أتْلفه عليه الصلاة والسلام؛ وذلك من حرصه على إبعاد الناس عن كل ما يؤثر توحيدهم،

بل سمَّاه النبي ﷺ «وثَنًا» كما في حديث عَدي بن حاتم، حينما قدِم على النبي ﷺ وكان يتعلق صليبًا، فقال: «أَلْقِ عنك هذا الوثن»؛ فدل هذا على أن كون الإنسان يعلق صليبًا أن هذا منكرٌ ولا يجوز.

السُّؤَال: هل رؤيا المؤمن يُحتج بها في بعض الأمور؟

الجَوَاب: لعلَّ السائل يشير إلى رؤيا الطفيل، ورؤيا الطفيل متى كانت حجة عندنا؟ لمّا أقر النبي ﷺذلك، وإلا قبل ذلك فإنها لم تكن حُجَّة.

الرؤى تنقسم إلى ثلاثة أقسام: رؤيا من الرحمن، أو حُلُم من الشيطان، أو حديث نفْس.

-قبل أن ينام الإنسان يفكر في الطعام فيرى طعامًا؛ فهذا لا عبرة به.

-أو حُلُم من الشيطان يشوش على الإنسان ويكدّر عليه ويتلاعب به؛ ومثل هذا لا يؤثر، وإذا ذكر الله هذا الرائي فإن ذلك لا يؤثر عليه.

-أما الرؤيا التي هي من الرحمن، فإنه يُستأنس بها ويُفرَح بها ويُرجى من ورائها الخير، لكن لا ينبغي أن تُبنى الأحكام الشرعية عليها، بل لا يجوز ذلك، الرؤيا التي تُبنى الأحكام عليها هي رؤيا الأنبياء؛ لأنها وحي من الله جل وعلا، أما رُؤيا الناس فإنه لا تبنى عليها الأحكام، وخطأ وأيّ خطأ أن يُقال بذلك، والله أعلم.



[باب: مَن سبَّ الدهر فقد آذى الله]

[١٤٣٧/١١/٤]

السُّؤَال: عن حكْم سبّ الدهر؟

الجَوَاب: قد ذكرتُ لك أنه قد يكون كفرًا بالله ﷻ، وقد يكون معصية وكبيرة، ليس كفرًا على التفصيل الذي سبق.

السُّؤَال: ما هو السِّن المناسب لتعويد الأبناء على الصلاة؟

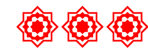
الجَوَاب: أما الأمر فالنبي ﷺ أمر أن يكون أمْر الأطفال بالصلاة في سِن السابعة، أما التحبيب فإنه يكون قبل ذلك، وهذا على سبيل الأفضلية أو الندب، وليس على سبيل الأمر، كما جاء الحديث بذلك عن النبي ﷺمقيدًا بهذه السِّن، وهي السابعة.

أما التحبيب في الصلاة والتشويق إلى ذلك ووضْع شيء من المحبِّبات والمحفِّزات للصلاة لهذا الطفل قبل ذلك فإن هذا لا بأس به وجائز، وهذا يتفاوت فيه الأطفال بحسب قدرتهم واستعدادهم وذكائهم، فمتى ما رأيت أن الطفل عند استعداد لتقبُّل هذا التحبيب للصلاة فاستعن بالله ﷻ.

السُّؤَال: عن حكْم سبّ الدين؟

الجَوَاب: سبّ دين النبي ﷺ أو سبّ دين الإسلام لا شكَّ أنه كفْر بإجماع المسلمين، مَن سبَّ دين المسلمين، أو سبَّ شيئًا من دين المسلمين؛ كالصلاة

أو الزكاة أو الحج؛ فهذا بإجماع المسلمين كفْرٌ أكبر -والعياذ بالله- ، وإذا كان هذا الإنسان السَّاب مسلمًا قبل ذلك فإنه يكون بمجرد خروج هذه الكلمة من فَمه -والعياذ بالله- قد أضحى مرتدًا عن دين الله. وهذا كما ذكرت أثناء الدرس أن سبّ الله أو سبّ رسوله ﷺ أو سبّ دين الإسلام أو شيئًا من دين الإسلام؛ هذا من الكفر الأكبر بإجماع المسلمين، وهذا من المعلوم من الإسلام بالضرورة، والله أعلم.



[باب: التسمّي بـ(قاضي القُضاة ونحوه)]

[١٤٣٧/١١/٩]

السُّؤَال: ما حكم التسمية بـ(إمام الأئمة) وكذلك (شيخ الإسلام)، أليس في هذا تعظيم؟

الجَوَاب: الذي يظهر أنه لا حرج في ذلك، فـ(إمام الأئمة) لفظ استُعمل في حق علماء كبار، وما أعلم أنه قد أُنكر من أحد منهم، ابن خزيمة كان يُلق بإمام الأئمة. وأما (شيخ الإسلام) فإن هذا اللفظ معناه: شيخٌ جليلٌ في الإسلام، ليس المقصود أن الإسلام تلميذ، وهذا شيخ له، إنما المقصود أنه شيخ جليل له قدَم صدْق في الإسلام، وهذا المعنى صحيح لا حرج فيه.

بالمناسبة؛ من اللطائف ما ذكَر ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «زاد المعاد» وكذلك في «تحفة المَودود» تعقيبًا على ذكره النهي عن التسمية بـ(قاضي القُضاة)، ذكر أيضًا: أنه لا يجوز التسمية بـ(سيّد الكل) أو (سيد الناس)؛ لأن هذا مما يختص بالنبي ﷺ، فإطلاق ذلك على غيره كذب، كما أنه لا يجوز أن يُقال عن أحد سوى النبي ﷺ إنه سيد ولَد آدم، ﷺ.

السُّؤَال: هل التسمي بـ(قاضي القُضاة) شرك بالله؟

الجَوَاب: لا، مجرد التسمية ليست شركًا بالله، إنما هو أمر محرم على الصحيح.

السُّؤَال: بعض الناس يُسمي مَن اسمه (عبد العزيز) بــ: عزيز، أو عزوز، فهل هذا يجوز، وكذلك عبد الرحيم؟

الجَوَاب: انتبه هنا إلى أمر؛ إن كان المراد أن يُصغَّر اسم الله جل وعلا فهذا قطعًا لا يجوز. أما إن كان المرد أن هذا الاسم يطلق على المخلوق، فأنت تسمي (عبد العزيز) بـ(عزيز)، ثم إنك تصغره باعتبار أن الاسم اسمٌ للمخلوق وليس للخالق، فإن هذا جائز لا حرج فيه.

وبالتالي ينبغي عليك أن تتنبَّه إلى ما يقع فيه بعض العامة من تصغيرهم اسم (الرحمن)، (الرحمن) بالاتفاق لا يطلق ولا يجوز أن يُسمى به غير الله جل وعلا، بعض الناس تجد يصغر هذا الاسم، أو من باب التمليح يقول للطفل الصغير: (رَحموني) مثلًا، فإن هذا لا يجوز؛ لأن هذا الاسم أصلًا لا يجوز أن يُسمى المخلوق به، وتصغير اسم الله جل وعلا يتنافى وتعظيم أسماء الله ﷻ.

السُّؤَال: دخلتُ مكة متمتعًا إلى الحج ثم بدَا لي أن أرجع إلى المدينة، فهل ينقطع تمتُّعي؟ وهل عليَّ إثم لقطع نية التمتُّع مع أني أنوي العودة إلى مكةَ، ماذا عليَّ أن أفعل؟

الجَوَاب: مَن ذهب إلى مكةَ ونيته التمتُّع -يعني أن يعتمر ثم يتحلل ثم يحج بعد ذلك- إن بدا له بعد العمرة أن يرجع ولا يحج فإن هذا جائز، ومجرد أنه يرغب أو ينوي أن يحج لا يُلزمِه بالحج ما لَم يدخل في الإحرام، ما لم يُحرِم بالحج، أما إذا اعتمر ثم ظهر له أمْر أو حصل له في بيته ما يستدعي رجوعه،

فرجع قبل أن يُلبي بالحج، فإن له أن يرجع، ثم بعد ذلك إن شاء أن يذهب إلى الحج أو يذهب بعمرة أخرى ثم حج فإنه يجوز له ذلك، ولا إثم في ذلك بحمد الله، وليس هناك سببٌ يقتضي التأثيم أصلًا.

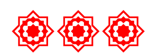
ويبقى بعد ذلك: أنه إذا رجع بالحج بعد أن يكون قد ترك مكةَ ثم أراد أن يرجع للحج، هل يكون متمتعًا أم لا؟ أجبتُ عن هذا سابقًا وقلتُ: إن أعدل الأقوال، وهذا هو المَروي عن عمرَ ﵁ وهو: أنه إذا رجع إلى بلده انقطع تمتُّعه، أما إذا سافر إلى مكان آخر فإنه يكون متمتعًا أو لا يزال متمتعًا، إن رجع إلى بلده فإن حكم العمرة الأُولى قد انقطع، إن شاء أن يكون متمتعًا هذه المرة فعليه أن يعتمر ثم أن يحج، وإن شاء أن يحج فقط فلا حرج عليه.

السُّؤَال: **عن التكنِّي بالبنت ؟**

الجَوَاب: على كل حال التكنِّي بالبنت أو بالذكر لا حرج، يعني كون الإنسان يتكنَّى ببنته لا حرج، هذا تميم بن أوس الداري، كانت كُنيته (أبا رُقية)، هذا أبو الدَّرداء، فالتكنّي بالبنت لا حرج، والكنّي بالذكر أيضًا لا حرج.

السُّؤَال: **هل يوجد اليوم مَن يَسوق الهدي؟**

الجَوَاب: ما الذي يمنع! يمكن أن تسوق الهدي، تضع الهدي في صندوق السيارة وتمشي.



[باب: مَن هزَل بشيءٍ فيه ذكْر الله]

[١٠/١١/١٤٣٧]

السُّؤَال: يسأل عن الذين يستهزؤون بشيء من الشرائع وهو يعتقد أنها ليست من الدين؟

الجَوَاب: أنا قلتُ لك إن الحكم معلق، إذا تعلق السَّب والاستهزاء والسُّخرية بشيء من الدين فإن هذا فيه تفصيل:

-إن كان من الأمور الظاهرة التي لا تخفى على المسلمين، يسُبّ الصلاة، أو يسخر بالزكاة، أو بالحج، ثم يقول: أنا لا أظن أن هذا من الدين، نقول: هذه دعوى لا يُلتفت إليها، هذا كذب من قائله قطعًا.

-أما إذا كان الأمر مما هو دون ذلك في الظهور، ويُحتمل أن يكون عند هذا الإنسان جهل بأن هذا من الدين؛ فإنه يُتريّث ولا يُحكَم عليه قبل أن يُبيَّن له أن هذا من الدين، فمتى ما تحقق الإنسان من علْمه بأنه من الدين، وأصرَّ على ذلك فإنه يكون مرتدًا بذلك.

السُّؤَال: ما معنى قول بعض العلماء: «إن سَبّ الله أو الدين رِدَّة مستقلة»؟

الجَوَاب: يعني هذه الكلمة تقال بعد جملة قبلها، يعني ربما يكون يتكلم عن سبب من أسباب الردة ثم يُعقِب على ذلك بأن هذه ردَّة مستقلة، لا أدري يحتاج أن يُنظر في السياق.

السُّؤَال: ما حكم تعامل المسلم مع مَن وقع في هذا الأمر؟

الجَوَاب: مَن وقع في هذا الأمر فإنه يتعلق به أمران:

أولا: ما يتعلق باعتقاد كفْره وردَّته، فمن تحقق من أن أحدًا سبَّ الله ﷻ، أو الرسول ﷺ، أو استهزَأ بشيء من دين الله جل وعلا، فإنه بذلك يجب أن يعتقد أنه قد كفَر بالله جل وعلا، وتكفير الكافر أمْر واجب.

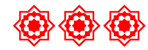
الأمر الثاني: فهو ما يتعلق بإقامة الحد عليه؛ فهذا مما يختص به الحاكم المسلم، متى ما كان الأمر واقعًا في بلدٍ من بلاد المسلمين فواجبٌ على الحاكم المسلم أن يَستتيب هذا الإنسان، فإن تاب وإلا فإنه يجب ضرْب عُنقه، كما دلَّ على هذا صريح سنة النبي ﷺ، أما آحاد الناس فإنهم لا ينهضُون بذلك، لكن يبقى واجب الأمر والنهي والتنبيه والنصيحة والإغلاظ في القول غَيرةً على مَحارم الله جل وعلا عند الإمكان.

السُّؤَال: عند السلام على النبي ﷺ هل يجوز رفْع اليد عند السلام عليه؟

الجَوَاب: ليس هذا مشروعًا، لم يأتِ في دليل من السنة فضلًا عن القرآن أو عن أحد من أصحاب النبي ﷺأو السلف أنهم كانوا يرفعون أيديهم عند السلام على النبي ﷺ، لا عند قبره ولا بعيدًا عن قبره، والله أعلم.

السُّؤَال: عن ترك الصلاة تكاسُلًا؟

الجَوَاب: قلنا إن المسألة اختلف فيها الفقهاء، مع أن جماهير السلف بلْ إجماعهم على أن ترك الصلاة ترْكًا مطلقًا أنه كفرٌ أكبر، وفي هذا يقول إسحاق بن رَاهويه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ترْك الصلاة كفْر من لدُن أصحاب النبي ﷺإلى يومنا هذا»، ويقول أيوب السِّختياني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ترْك الصلاة كفْر لا يُختلَف فيه». ودليل هذا من السنة: قول النبي ﷺ: «العهْد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمَن ترَكها فقد كفَر»، وقال عليه الصلاة والسلام: «بين الرجل وبين الكفر والشرك: ترْك الصلاة». والله أعلم.



[باب: مَن هزَل بشيءٍ فيه ذكْر الله]

[١٤٣٧/١١/١١]

السُّؤَال: ما شروط زواج الثاني بالنسبة للزوجة الأُولى؟

الجَوَاب: يعني شروط الزوج، أو شروط الزوجة؟ على كل حال شروطه: أن يستعين بالله ﷻ وأن يتزوج، وأن يختار المرأة الصالحة، ولا يُشترط رِضا الزوجة الأُولى، لكن حُسْن العِشرة المأمور به في الشريعة يقتضي أن يتلطَّف الإنسان مع زوجه الأولى، وأن يحسن التعامل معها وحسْن إبلاغها هذا الأمر، فالأمر لا شك أنه ليس أمرًا سهلًا، فالغَيرة في النساء أمرٌ متجذِّر في نفوسهنَّ في القديم وفي الحديث، وبالتالي فإن الرجل إذا احتاج إلى أن يتزوج فعليه أن يختار الزوجة الصالحة، وليحسن تعاهد ويحسن التعامل مع زوجه الأُولى، والله تعالى أعلم.

السُّؤَال: ورَد في ثَنايا حديثكم لفظة (الذات العليَّة)؟

الجَوَاب: كأن الأخ اسْتشكلها؛ لا بأس في ذلك فهذا من باب الإخبار، يُخبر فيُقال: ذات الله جل وعلا، ولا شك أن ذات الله جل وعلا ذات عَلِيَّة. لفظ (الذات) أظن أنَّني تكلمتُ عنه في دروس الصفات وقلنا: إن لفظة (ذات) في أصله لفظٌ مولَّد، يعني الذات بمعنى الشيء، ذات كذا يعني هو نفس الشيء أو الشخص، فمثل هذا لا بأس بالإخبار به، فيُقال: الذات، ويُقال: الصفات،

ويُقال: الصفات التي تقوم بالذات؛ بذات الله جل وعلا، فمثل هذا لا حرج فيه، وكونها عَلِيَّة؛ لأن الله ﷻ متصف بالعُلو.

السُّؤَال: ما حكم الذين يؤلِّفون النُّكات والطرائف التي فيها نوع اسْتهزاء بالدين؟

الجَوَاب: على كل حال ذكرنا حكم ذلك، وقلنا: إن الاسْتهزاء أيًا كان، سواء كان على سبيل الحقد والكَراهة لهذا الدين ولرسول رب العالمين ﷻ وصلى الله على نبينا وسلم، أو كان على سبيل المزاح واللعب، أو كان الإنسان ذَاهِلًا عن هذا الاعتقاد، ليس إلى هذا وليس إلى هذا، قلنا إن هذا كفْر بالله جل وعلا بالإجماع، ولا الْتفات إلى هذا الأمر، ولا فرق عند أهل العلم بين هذا وهذا.

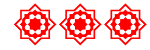
السُّؤَال: عن حكاية الكفر؟

الجَوَاب: حكاية الكفر ليست كفْر، إذا كانت القرينة تدل على أن الإنسان المسلم يحكي قول الكافر مجرد حكاية، فإن حكاية قول الكافر ليست كفْرًا بالله جل وعلا، والله ﷻ قد أخبرنا في كتابه بمَقالاتٍ للكفار والمشركين، فحِكاية أقوال الكفار والمشركين الكفرية على سبيل الحكاية مع كراهة ذلك وعدم الرضا به هذا لا حرج فيه إن شاء الله.

السُّؤَال: هل قوله تعالى: ﴿لا تَعْتَذِرُوا﴾ [التوبة:٦٦] دليل على أن المستهزئ لا توبة له؟

الجَوَاب: لا ليس بصحيح، إنما قوله تعالى: ﴿لا تَعْتَذِرُوا﴾ يعني هذا الاعتذار الذي تتكلمون به لا حاجة إليه ولا نفْع منه ولا فائدة فيه، هذا كلامٌ تتكلَّمونه بدون فائدة، لِمَ؟ لأن هذا الاعتذار مردودٌ غير مقبول، ولا شكَّ أن مَن وقع في شيء من الاستهزاء أو السب ثم تاب إلى الله جل وعلا وصدَقت توبته فإن توبتَه صحيحة ومقبولة عند الله جل وعلا، بدليل ما جاء في ختام السياق، قال: ﴿إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ﴾ [التوبة:٦٦] ، وإن صحَّت تلك الروايات المتعلقة بمَخْشِي بن حُميِّر، فهذا دليل صريح على أن توبة هذا التائب مقبولة.

وعلى كل حال؛ لا يوجد ذنبٌ لا تتناوله التوبة، التوبة سببٌ مكفِّر لجميع الذنوب والمعاصي، صغيرها وكبيرها، ما كان كفرًا وما لم يكن كفرًا؛ هذه قاعدة، أيّ شيء كان حتى الشرك بالله ﷻ، قال ﷻ في شأن الذين أشركوا مع الله، ووقعوا في مَسَبَّته، نسَبوا له الولد وهم النصارى، قال جلَّ وعلا: ﴿أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة:٧٤] ، فدلَّ هذا على أن من وقع في أي ذنب كان ثم تاب إلى الله فإن باب التوبة مفتوح، والله أعلم.



[باب قول الله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾ [فصلت:٥٠]]

[١٤٣٧/١١/١٦]

السُّؤَال: مَن جاء يسأل ويقول "أنا مسافر ومحتاج" ولا نعرف حاله، هل هو صادق أم كاذب؟

الجَوَاب: الذي يظهر -والله أعلم- أن الإنسان يجوز ويُشرع له أن يعطي هذا الإنسان بعد أن يُخبره، يدل على هذا: أن رجلَين جاءا إلى النبي ﷺ يسألانه، فنظر فيهما النبي ﷺ فوجد شابين جلدين -يعني أقوياء- فقال النبي ﷺ: «إن شئْتُما أعطيتُكُمَا ولا حظّ فيه لغَني ولا لقَوي مكتسِب» ؛ يعني هذه الصدقة أو هذه الزكاة ليس فيها حظٌ ولا يحق إن كان الإنسان غنيًا أو قويًا يستطيع الكسب أن يأخذ منها، فإن أخذ هذا الإنسان بعد ذلك فهي في ذمته، وأنت يا أيُّها المُعطي مأجور، أنت قصْدك أن تثاب، أليس كذلك؟ فأنت إذا فعلت المستطاع من التحرُّز ومن ذلك أنك تخبره، "هذه يا أخي زكاة، أو هذه صدقة، فإن كنت محتاجًا إن كانت صادقًا تفضل"، إن أخذها فهي في ذمته، وأنت مثابٌ سواء كان صادقًا أم كاذبًا.

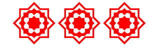
السُّؤَال: الإشكال في قول المَلَك: إنه مسكين؟

الجَوَاب: هذا المَلَك ما فعل هذا عن نفسه، إنما هو بأمر الله جل وعلا، ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ [مريم:٦٤] فهذا كان ابتلاء وامتحان بأمر الله ﷻ، ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص:٦٨].

السُّؤَال: ما حكْم توصيل الرموش والأظافر، وعَدسات العين للعروس؟

الجَوَاب: أما العدسات فالذي يظهر -والله تعالى أعلم- أن وضْعها في العين جائز بشرط: أن لا يترتب على ذلك غِشٌّ وتدليس، يعني غِشّ وتدليس مثلًا في حال رُؤية الخاطب، فترُي المخطوبة عينها بلَون بخلاف ما هي عليه، أما إذا كان خلاف ذلك يعني ليس فيه غِشّ وتدليس فالذي يظهر -والله أعلم- أنه من جملة ما تتزين به المرأة، والأصل في زينة المرأة الجواز، ﴿أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ﴾ [الزخرف:١٨].

وأما بالنسبة لوصْل الرُّموش فالأظهر عندي -والله تعالى أعلم- قُرب ذلك من وصل الشعر؛ لأن الشعر جنسٌ واحد، فالأقرب -والله أعلم- أنه من جنس الوصل المَنهي عنه، وأضعف الإيمان أن هذا موضع اشْتباه، فالوصية بالإنسان أن يدَع ما يَريبه إلى ما لا يَريبه.



[باب: من الشرك تعبيد الأسماء لغير الله تعالى]

[١٤٣٧/١١/١٧]

السُّؤَال: شخصان باع أحدهما الآخر ذهبًا بثَمن مؤجَّل، فقُتل المشتري وأُخذ كل ما عنده، ما حكم هذا العقد؟

الجَوَاب: هذا العقد في أصله باطل؛ لأن شراء الذهب بعقد مؤجل -يعني يُؤجَّل فيه أحد الثمنين أو كلاهما- هذا عين الربا، هذا أمرٌ حرمه النبي ﷺ تحريمًا مؤكَّدًا، (الذهب بالذهب، يدًا بيَد، هاء بهاء)؛ فكون الذهب يُباع بعقد مؤجل -يعني يُعطي المال ويأخذ الذهب بعد مدة، أو يأخذ الذهب ويدفع الثمن بعد ذلك- لا شك أن هذا وهذا باطل، والعقد بالتالي غير صحيح في أصله، وبالتالي فإن مَن دفع أحد الثمنَين يعود على الآخر أو يعود على ورثته بما دفع؛ لأن العقد في أصله غير صحيح.

السُّؤَال: الذي يذهب بابنه إلى القبر ؛ هذا يكون شركًا أصغر أم أكبر ؟

الجَوَاب: الجواب عن ذلك مبني على: لماذا يذهب بابنه؟ إن كان ذهب به لأجل التبرُّك، فتذكرون أنه مرَّ معنا حكم التبرك الممنوع، وقلنا: إنه يتراوح بين أن يكون شركًا أكبر أو أن يكون شركًا أصغر:

-فإن كان يعتقد أن صاحب القبر هو الذي يُعطي البركة من ذاته، فإن هذا لا شك أنه شرك أكبر، وهذا يعتقده كثير من عُبَّاد القبور، هو مستقل بالبركة.

وأما أن يُعتقد أنه مجرد سبب إذا مسَّ أو مسَح حديد القبر أو تعفَّر بتُرابه فإن هذا سبب لنَيل البركة، والبركة من الله جل وعلا؛ فهذا من جنس غيره من أنواع الشرك الأصغر.

فيُفصَّل الحكم في هذا بهذا التفصيل، والله أعلم.



[باب: قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاء فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف:١٩٠]]

[١٤٣٧/١١/١٨]

السُّؤَال: ما هي الكتب التي تنصح بقراءتها جمَعَت أسماء الله ومَعانيها؟

الجَوَاب: هذا الباب أُوصي بالعناية به وقراءة ما كتب أهل العلم فيه، لكن مع ملاحظة التنبُّه إلى وقوع أخطاء في بعض تلك الكتب التي أفردَت شرح أسماء الله ﷻ، بعض مَن تصدَّى لشرح أسماء الله ﷻ وقعوا في نوع من الإلْحاد في أسماء الله ﷻ من جهة التعطيل الذي هو التحريف، تعطيل التحريف، حيث تجد كثيرًا من التأويلات المخالفة لنَهج أهل السنة والجماعة فيها؛ فأُوصيك بأن تقرأ لمن صفَت عقيدته في هذا الباب، ومن أحسن مَن اعتنى بهذا الباب: ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في تَضاعيف كتبه، ولا سيما فيما أورد في كتابه «النُّونية»، ويَليه من حيث جودة ما كُتب في هذا الموضوع: الشيخ عبد الرحمن بن سعدي رَحِمَهُ اللهُ له فصل حافل أودَعه في وسط تفسيره ثم أُفرد بعد ذلك، وهو مطبوعٌ موجود، وهو أيضًا تفسيرٌ لأسماء الله جل وعلا مختصر، ولكنه مهمٌ ونافع مفيد.

السُّؤَال: ما حكم التسمّي بأسماء معبَّدة بأسماء غير ثابتة؟

الجَوَاب: الذي ينبغي أن تُعبَّد الأسماء لله جل وعلا بالتسمية بأسماء ثابتة لله جل وعلا، أما الأسماء التي لم تثبت لله جل وعلا فلا يصح أن يُسمى أو يُعبَّد

الاسم به، وبالتالي فإن مَن سُمِّي بذلك لا شك أن عليه أن يغيِّر هذا الاسم إذا استطاع وتمكن وتيسر له ذلك، غيِّر اسمك إلى اسمٍ معبَّد لاسم لله ﷻ ثابت، أما أن تُعبد الأسماء لِما لم يثبت من أسماء الله ﷻ فلا شك أن هذا لا يجوز.

السُّؤَال: التوسُّل إلى الله جل وعلا بصفاته؟

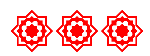
الجَوَاب: لا شكَّ أن هذا أمر ثابت، وجاء في كتاب الله ﷻفي مواضع كثيرة.

السُّؤَال: عن حكْم التسمية بعبد الله أو عبد اللطيف؟

الجَوَاب: لا شكَّ أنها تسْمية حسنة، وأحب الأسماء إلى الله جل وعلا: عبد الله وعبد الرحمن، والتسمية بعبد اللطيف أيضًا تسمية حسنة، يُعبَّد الإنسان لله جل وعلا باسم ثابت له.

السُّؤَال: هل يجوز تسمية المولود الجديد بكلمات من القرآن؟

الجَوَاب: يجوز إذا كانت الأسماء مناسبةً للمولود، يعني هذا اسمٌ يناسِب أن يتسمى به المولود، أما أن يُفعل كما يَفعل بعض الناس من أنه يفتح المصحف فأيُّ كلمة وقعت عينه عليها فإنه يُسمي مولوده بها، لا شكَّ أن هذا غير صحيح، يعني (مُنيب) اسم صحيح، لا إشكال فيه، (مِشْكاة) كذلك، لا حرج في مثل هذه التسميات، والله تعالى أعلم.



[باب: لا يُقال (السلام على الله)]

[١٤٣٧/١١/٢٣]

السُّؤَال: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ﴾ [الأحزاب:٤٤] أليس التحية راجعة للمؤمنين؟

الجَوَاب: الصحيح أن السلام هاهُنا من الله جل وعلا، ﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾ :يعني ما يُحيِّيهم به الله جل وعلا إذا لقيه عبادُه يوم القيامة أن يُسَلِّم عليهم، كما أرشد إلى هذا قوله تعالى: ﴿سَلامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾ [يس:٥٨]، وجاء في هذا عدَّة أحاديث عن النبي ﷺ.

السُّؤَال: ما حكْم لُبس النعل الذي فيه مَخيط عند الإحرام؟

الجَوَاب: الحقيقة أن كلمة (المَخيط) كلمةٌ سبَّبت كثيرًا من الإشكال عند بعض الحجاج، فإنهم يظنون أن كلمة (المَخيط) تعْني: ما فيه خيط، وهذا المفهوم غلط، ليس هذا مراد الفقهاء بهذه الكلمة، أولا كلمة (المَخيط) ما جاءت عن النبي ﷺ قط، إنما قالها العلماء، وأظن أن أوَّل من قالها: إبراهيم النخعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وتتابَع كثر من الفقهاء على التنصيص عليها.

مراد الفقهاء بقولهم (المَخيط) يعني: المُفصَّل على البدن؛ الذي خِيطَ على هيئة ثوب معهود، فهذا القميص الذي نحن نسميه الثوب يُسمى (مَخيطًا)، السُّتْرة الداخلية تُسمى (مَخيطًا)، السراويل تُسمَّى (مَخيطًا)، هذه العباءَة (مَخيط)، إذًا كل ما فصِّل على البدن هذا هو المخيط، وبالتالي لو قدَّرنا أنَّني

أخذتُ هذه العباءة وخلعتُها ولبستها على هيئة الرداء، تلفَّعْتُ بها على هيئة الرداء، هل يجوز أن أُحرم بها؟ الجواب: نعم؛ لأنها في هذه الحال ما أصبحت مَخيطًا، لو خلعت قميصك هذا فجعلتَه على هيئة الرداء، فإنك يجوز أن تحرم به.

إذًا ليس المقصود بالمَخيط ما فيه خيط، وإلا فإني أسألك: لباس الإحرام الذي اشتريته وتريد أن تلبسه من أي شيء مصنوع؟ من حديد، من زجاج، من ماذا؟ أليس خُيوطًا مجموعة إلى بعض؟ أي قماش هو عبارة عن ماذا؟ إذًا لا يجوز لك أن تلبس هذا اللباس إذا كان هذا هو المفهوم! إذًا كل ما فيه خيط يُمنع على الإنسان هذا تصور خاطئ، ليس صحيحًا، بل المخيط: اللباس المفصل على البدن، وعليه فإذا كانت النعل فيها خيط يجوز أن تَلبس هذه النعل، إذا كان الحزام أو ما يُسمى بالكَمَر الذي يوضع على الإزار أو يُحفظ فيه المال ونحوه فيه خيط، لا حرج، الْبسه ولا شيء عليك، المقصود هو أن لا تلبس لباسًا مفصلًا؛ قميص، سراويل، تُبَّان، إلى غير ذلك، كل هذه لا يجوز للمسلم أن يلْبسها.

السُّؤَال: حول الحج بدون تصريح؟

الجَوَاب: الذي أنصحك به -يا أخي المسلم- هو ألَّا تحج إلا بتصريح، تيسر لك التصريح فحُج والحمد لله، لم يتيسر لك لك عُذر عند الله جل وعلا، ﴿مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران:٩٧].

السُّؤَال: الحائض المحرمة للحج قبل أن تطوف طواف الإفاضة، هل يجوز لها أن تغتسل بالشيء المعطر كالصابون وغيره؟

الجَوَاب: مَن أحرمت وهي حائض فإنها محرمة، وتبقى محرمة إلى أن تَحُل من إحرامها، وبالتالي ليس لها أن تستعمل شيئًا معطرًا، وليس لها أن تقص من أظفارها، وليس لها أن تقصّ من شعرها، تجتنب الطيب، وتجتنب قصّ الأظافر وقصّ الشعر، كما تجتنبه المحرم الطاهر.

السُّؤَال: عن لُبس الخُفّ في الإحرام؟

الجَوَاب: ليس لك -يا رعاك الله- أن تلبس الخُفّ الذي يرتفع حتى يغطي الكعبين أو الكعبين وما فوق، هذا نهى عنه النبي ﷺ إلا في حق مَن لم يجد النَّعلَين، فإنه يلبس الخفين ويقطعهما أسفل من الكعبين، يعني هذا الذي يشرع في الساق من الخُفّ يقطعه فيما دون ما أسفل وما تحت الكعبين يقطعه، وبالتالي يكون إلى هيئة النعل أقرب، وبالتالي ليس لك يا أيُّها المحرم أن تلبس مثلًا الجوارب ، ما يُسمى بالشراب هذا ليس لك أن تلبسه إذا كنت محرمًا، وإنما تُلبس النعلَين، ومَن لم يجد النعلَين كما ذكرتُ لك يلبس خفين، ويَقطعهما أسفل من الكعبين.

السُّؤَال: عندنا إمام بعدما يرفع من الركوع ويريد أن يسجد لا يكبر تكبيرة الانتقال إلى السجود؟

الجَوَاب: لا شك أن هذا الفعل لا يجوز، مخالف لهدي النبي ﷺ، والنبي ﷺكان يكبر في كل خفْض ورفع، ينبغي أن يُناصح هذا الإمام لترْك ذلك، فالنبي ﷺإذا أراد الركوع، إذا رفع من الركوع، إذا أراد السجود، إذا رفَع من السجود ؛في كل ذلك يكبر عليه الصلاة والسلام.

السُّؤَال: يسأل عن صلاة الفاتِح التي تقولها بعض الطرق، هل هي صحيحة وثابتة عن النبي ﷺ؟

الجَوَاب: لو كانت ثابتة في كتاب الله، أو في حديث صحيح عن رسول الله ﷺ لقُلنا على الرأس وعلى العين، لكن هذه الصلاة غير ثابتة، ولا الأجر الذي يذكرونه لها أن مَن قال صلاة الفاتح مرَّةً واحدة كان ذلك خيرًا من قراءة القرآن ستة آلاف مرة أو نحو هذا العدد، وكل هذه تُرَّهات لا حقيقة لها. مهْما أتاك إنسان بعبادة من صلواتٍ أو ذكْرٍ أو أُجور مترتبة على ذلك فطالب يا رعاك الله بالدليل والبرهان، قُلْ: هاتِ الدليل الذي عليه ختْم النبوة، الذي عليه أثارة من نبوة نبينا ﷺ، هاتِ الدليل على ذلك من آية أو من حديث صحيح، وما سوى ذلك فدَعْه بارك الله فيك، ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ [الأعراف:٣].

السُّؤَال: إذا قال في النذر: إذا نجحتُ في الاختبار أشتري لكم الغداء أو العشاء، قال ذلك لأصحابه، هل يقال: هذا نذر لغير الله أو لا يُقال؟

الجَوَاب: هذا ليس نذرًا لغير الله جل وعلا، هذا نذر لله ﷻ لكنه نذر شيئًا مباحًا، وبالتالي فإنه يخيَّر بين أن يَفِيَ بنذره، أو أن يكفِّر كفارة يمين، مَن نذر أمرًا مباحًا فإنه يُخيَّر بين أن يَفِيَ بنذره -يعني أن يفعل الشيء الذي نذرَه- أو أن يكفر كفارة يمين إذا تحقَّق الأمر الذي علق عليه النذر؛ كحالة صاحبنا هذا، وكفارة اليمين: إطعام عشرة مساكين من أوسَط ما يُطعِم الإنسان أهله، أو كسْوتهم، أو تحرير رقبة، ومن لم يجد فإنه يصوم ثلاثة أيام.

السُّؤَال: ما المشروع زيارته في مدينة النبي ﷺ؟

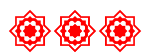
الجَوَاب: هذا سؤال مهم وتشْتدّ الحاجة إلى معرفته؛ الأماكن التي يُشرع زيارتها في المدينة: هي التي كان يحرص على زيارتها النبي ﷺ، وهي في المدينة أربعة أماكن: مقبرتان، ومسجدان.

-أما المسجدان فهما المسجد النبوي، ومسجد قُباء، ومَن جاء من سفر أو أراد سفرًا فله أن يفعل ما فعل ابن عمر رضي الله عنهما؛ كما ثبت عنه أنه إذا أراد سفرًا أو قدِم من سفر أتى قبر النبي ﷺ فسلَّم عليه وعلى صاحبيه، لكن هذا يفعله مرَّة واحدة، أما تكرار ذلك فليس مشروعًا. سُئِلَ الإمام مالك بن أنس الذي هو إمام هذه البلدة الطيبة عن أُناس كلما دخلوا المسجد أتوا قبر النبي ﷺ فسلَّموا؟

فقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما أدركنا على هذا أهلَ العلم عندنا، ولا يُصلِح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها».

-أما المقبرتان: فمَقبر البقيع، ومقبر شهداء أُحد.

هذه الأماكن التي يُشرع للزائر أن يزورها في مدينة النبي ﷺ، والله أعلم.



[باب: قول (ما شاء الله وشئت)]

[١٤٣٧/١١/٢٤]

السُّؤَال: بعض الأحيان يَرد على اللسان قول: (الله يحفظك إن شاء الله) عندما أدعو لأحد؟

الجَوَاب: أقول: عوِّد لسانك ترْك تعليق الدعاء بالمشيئة، وإن حرصت على ملاحظة نفسك على ذلك فإن نفسك ستَرتاض على هذا الاجتناب.

السُّؤَال: هل يجوز للحاج عن غيره أن يأتي بعمرة عن نفسه؟

الجَوَاب: التمتُّع هو الجمع بين عمرة مستقلة وحج مستقلّ في سفرة واحدة، فإذا جعل الإنسان العمرة والحج عن قريبه الميت مثلًا فهو متمتع، وإن جعل العمرة والحج عن نفسه فهو متمتع، وإن جعل العمرة عن نفسه والحج عن غيره، أو العكس جعل العمرة عن غيره والحج عن نفسه؛ فإنه في كل هذه الأحوال يكون متمتعًا.

السُّؤَال: هل الحاج عليه هدي وأُضحية، ولو عنده أُضحية الأفضل هنا أم في بلده وبين أبنائه؟

الجَوَاب: مَن كان متمتعًا فإن الهدي في حقه واجب، أما إن شاء أن يضحي عند أهله؛ يريد أن يقوم بهذه العبادة وأن يتوسع أبناؤه يوم العيد فيأكلون اللحم فلا حرج عليه أن يضحي في بلده. الهدي عبادةٌ خاصة بالمَناسك، وخاصةٌ

بالحرم، يعني لا يُذبح الهدي إلا في حدود الحرم المكي، أما الأضحية فإنها تُذبح في كل مكان.

السُّؤَال: هل إذا اعتمرتُ عن شخص فطواف العمرة يكون عنه؛ لأن بعض الإخوة قال: العمرة تكون عنه، والطواف لا يكون عنه؟

الجَوَاب: على كل حال؛ العمرة كلها بجميع أركانها وجميع أفعالها إذا نويتَها عن غيرك من الأموات أو العاجزين بدنًا فإنها كلها تكون عن هذا الذي نويتَ عنه.

السُّؤَال: هل يجوز الكلام بالهاتف الخَلَوِي داخل المسجد؟

الجَوَاب: الأصل أن الكلام المباح في المسجد جائز، سواء كان بالطريق المباشرة أو عن طريق الوسائط كالهاتف ونحوه، لكنني أنصحك أن لا تجعل هذا إلا في حدود الحاجة، يعني الكلام في الهاتف في داخل المساجد ينبغي أن يكون في حدود الحاجة، وينبغي استثمار الوقت في طاعة الله ﷻ بالذكر وتلاوة القرآن؛ فإنه لهذا أُنشئت وشُيِّدَت هذه المساجد، جُعلت المساجد لأجل القرآن والصلاة وذكْر الله جل وعلا؛ فلا ينبغي الانشغال كما نرى الآن، نرى كثيرًا من الناس يجعل جُلّ وقته أو كثيرًا من وقته وهو في المسجد في التصفح أو في العبث أو في الكلام بهذه الأجهزة الحديثة، الله المستعان.

السُّؤَال: إذا حلفتُ على شيء ثم اسْتثنيتُ؟

الجَوَاب: لعله يسأل عن الحِنث في الحلف؛ إذا كان اسْتثناءك حاصلًا في الحلف، يعني حلف واستثنيت، فقلتَ: (والله لا أفعل كذا إن شاء الله، أو والله لأفعلنَّ كذا إن شاء الله) ؛ فإنك إذا خالفت ما حلفتَ عليه فإنك لا تحنث، يعني لا كفارة عليك، فالتعليق بالمشيئة هذا يرفع الكفارة، إذا كان المقام مقام حلف مقام يَمين قسَم؛ فإنك إذا علقت بالمشيئة فإن هذا التعليق يرفع الكفارة عنك إن خالفت موجِب يَمينك.

السُّؤَال: هل يجوز القول: (الله يرزقك إن شاء الله) أو ما أشبه ذلك؟

الجَوَاب: هذا الذي نتحدث عنه يعني مُنذ الليلة.

السُّؤَال: ما مناسبة الباب لكتاب التوحيد؟

الجَوَاب: ذكرنا هذا أن ترْك التعليق بالمشيئة من تحقيق التوحيد، ومن كمال الأدب مع الله ﷻ.

السُّؤَال: أرجو تفصيل القول في عبارة: (أنا مؤمن إن شاء الله)؟

الجَوَاب: مرَّت بنا هذه المسألة فيما أظن في «أعلام السُّنة»، وخلاصة ذلك: أن قول الإنسان: (أنا مؤمن إن شاء الله) سائغٌ في حال، وغير سائغ في حالةٍ أخرى؛ فإن كان المقصود بقول الإنسان: (أنا مؤمن) الإيمان الكامل فإنه يُشرع

له أن يستثني، وأما إن كان سياق الحال يدل على أن قوله (أنا مؤمن) يعني أصل الإيمان فلا اسْتثناء.

إذًا؛ إذا كان السياق يدل على أن الإيمان يُراد أصله، بأن يقول قائل مثلًا لآخر: أنت مؤمن أم كافر؟ ماذا يُجيب؟ أنا مؤمن، يجزِم، لماذا؟ لأن المراد بقولك: (أنا مؤمن) هنا: مؤمن أصل الإيمان. أما إذا كان السؤال عن كمال الإيمان فإن الإنسان يستثني، وجاء عن الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ أنه سُئل: أَمُؤمِن أنت؟ فقال: «إن كنت تريد مؤمن بالله وملائكته وكُتُبه ورسله فأنا مؤمن، وإن كنتَ تريد ما أخبر الله جل وعلا: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال:٢] فلا أدري أنا مؤمن أم لا».

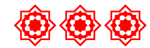
فالمقصود بالاستثناء في الإيمان: عدم الجزم، سواء كان بلفظ (إن شاء الله)، أو كان بلفظ (أرجو)، أو كان بلفظ (لا أدري)، كل ذلك داخل عند أهل السنة في معنى الاستثناء، فهذا هو الذي عليه أهل السنة والجماعة؛ أنه يُشرع في حال، ولا يُشرع في حال أخرى.

السُّؤَال: شخص إذا أصابه مكروهٌ أو مصيبةٌ قال: (خيرٌ إن شاء الله)؟

الجَوَاب: لا بأس، هو يخبر على سبيل الاستبشار أن مآل هذا الأمر إلى خير، هذا لا بأس به، وليس من الدعاء.

السُّؤَال: هل النذر يكون سببًا في حصول الأمر؟

الجَوَاب: لا، ليس الأمر كذلك، النذر لا يقدِّم ولا يؤخر، أخبر النبي ﷺ: «أنه لا يردّ شيئًا» يعني لا يرد شيئًا من القدَر ولا يؤثر في شيء، «إنما يُستخرج به من البخيل» كما أخبر النبي ﷺ.



[باب لا يقول: (عبدي وأَمَتي)]

[١٤٣٧/١١/٢٥]

السُّؤَال: عن وجود الرِّق في هذا الزمان؟

الجَوَاب: الله أعلم، لا أدري، فيما أعلم أنا لا أعرف شيئًا من ذلك، يُذكر عن بعض البلاد أن فيها شيئًا من ذلك، فالله أعلم بحقيقة ذلك. سُئل شيخنا الشيخ: ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ وأنا أسمع هذا السؤل؟ فقال: «قد كُنَّا نعلم شيئًا من الرقيق في بعض البلاد» وذكرها، «لكن حاكم البلاد قد حرَّرهم، فلا أعلم الآن شيئًا من الرقيق» هكذا كان جواب شيخنا رحمة الله تعالى عليه.

السُّؤَال: **ما حكم مَن يتجاوز الميقات بدون إحرام** -يبدو أنه يريد أنه يتجاوزه وهو مريدٌ للإحرام، ولكنه لا يحرم- **وما نصيحتُك لمن تجاوز الميقات بالمَخيط وهو يريد الحج؟**

الجَوَاب: نصيحتي -بارك الله فيك- أن تجعل أمْر النبي ﷺ نصْب عينيك، النبي ﷺ بيَّن لنا أن لهذه المواقيت حرمةً في الشريعة بحيث لا يجوز للإنسان أن يتجاوزها مُريدًا بيت الله ﷻ لنُسك حج أو عمرة إلا وقد أحرم، هذا من تعظيم شعائر الله جل وعلا؛ وذلك أنه قال ﷺ: «هُنَّ لهُنَّ ولِمن أتى عليهنَّ من غير أهلهِنَّ ممَّن أراد الحج والعمرة».

فكِلا الرجلَين مخطئ مخالف هدي النبي ﷺ: الذي يذهب بدون إحرام ثم يحرم بعد تجاوز الميقات، أو الذي يحرم وهو باقٍ على لباسه، مع أن النبي ﷺ

نهى عن ذلك، نهي المحرم عن أن يبقى على ملابسه وعليه قميصه وعليه خُفُّه وعليه عمامته، نهى عن ذلك النبي ﷺ في أحاديث عدَّة في «الصحيحين» وغيرهما، فكيف يعمَد إنسان إلى مخالف النبي ﷺ هذه المخالفة الصريحة؟! الذي أنصحك به: أنه إن تيسر لك أن تُحرم إحرامًا صحيحًا توافق فيه هدي النبي ﷺ فافعل، وإلا فالحمد لله، إن كان الحج في حقك مستحبًا فلماذا تُورِد نفسك هذه الموارد، وإن كان الحج في حقك واجبًا، فوُجوب الحج في الشريعة مقيدٌ بالاستطاعة.

السُّؤَال: عن الإتيان بعمرة ثانية؟

الجَوَاب: أنا أقول -يا أيُّها الإخوة- النبي ﷺ اعتمر في حياته أربع عُمَر، وما جمع النبي ﷺ في سفْرة واحدة بين عُمرتين، وخير الهدي هديُ محمد ﷺ، لاحِظ أن المسافة من المدينة إلى مكةَ سبعة أو ثمانية أيام ، في تعب وحَرّ ومشقة، ومع ذلك إذا وصل النبي ﷺ اعتمر كم مرَّة؟ واحد وعاد، فخير الهدي هدي محمد ﷺ.

السُّؤَال: إن ترَك الحاج الرمي كله فماذا يجب عليه؟

الجَوَاب: الذي يجب عليه أولًا: التوبة إلى الله ﷻ لأنه ترك أمرًا واجبًا.

وعليه ثانيًا: أن يذبح دَمًا على قول جمهور أهل العلم؛ لأنه ترَك واجبًا، والجمهور على أن من ترك أمرًا واجبًا فإن عليه ذبيحة، سواء ترك رمي يوم واحد أو ترك رمي جميع الأيام فالحكم في ذلك واحد.

السُّؤَال: عن شُكوك تَرِدَ عليه، حتى أنه يشك أنها أثَّرت في إسلامه؟

الجَوَاب: الذي أُوصيك به أن تترك هذه الوساوس وأن تصرف ذهْنك عنها، مهما وردت عليك فاحرص على أن تُذهبها عن نفسك، تتشاغل عنها، إذا كانت تأتيك في وقت أنت فيه فارغ انشغل بشيء؛ اذهبْ، اخرج، تكلم بالهاتف، وإن كانت تأتيك قبل النوم مثلًا احرص على أن لا تَصل إلى فراشك إلا وأنت مُنهَك تمامًا بحيث تنام مباشرة، وأبشر بالخير، لا تضرك إن شاء الله، إن كنتَ كارهًا لها ولستَ محبًا لها، فهذه علامة خير لك إن شاء الله تعالى.

السُّؤَال: عمن يرمي عن غيره من أصحاب الأعذار؟

الجَوَاب: أنت مخيَّر بين أن ترمي عن نفسك الجمرات الثلاث، ثم تعود فتَرمي عمَّن وكَّلَك، أو أنك في مقامك الواحد ترمي بنيةٍ عن نفسك ثم بنية عمَّن وكلك، يعني إذا وصلت إلى الجمرة الصغرى ترمي عن نفسك سبعًا، ثم ترمي عمَّن وكلَك سبعًا، وهكذا تفعل في الوسطى وفي الكبرى، لا حرج عليك في ذلك.

السُّؤَال: هل يجوز للحاج أخْذ كُتيب يذكره بمراحل العمرة والحج وبعض الآيات القرآنية والأدعية؟

الجَوَاب: نعم لا حرج في ذلك، تأخذ شيئًا تستصحب معك شيئًا من الكُتيبات التي فيها المناسك هذا أمْر حسَن وطيب، خُذ مثلًا «التحقيق والإيضاح» لشيخنا الشيخ ابن باز، أو مَنسك الشيخ ابن عثيمين، أو مَنسك شيخنا الشيخ عبد المحسِن العبَّاد، أو غير ذلك من الكتب الموثوقة التي تعلمك سنة رسول الله ﷺ في الحج، كذلك الكُتيبات التي جمعت أدعية صالحة من الكتاب والسنة الصحيحة لا بأس أن تستعين بها، ولكن تنبَّه إلى هذه الكتيبات التي تُباع في الأسواق وفيها تحديد ما أنزل الله به من سلطان، تجد أنه قد كُتب: (دُعاء الشوط الأول، دُعاء الشوط الثاني، دُعاء الشوط الأول من السعي، دعاء المقام، دعاء الحَطيم) ؛كل ذلك ليس عليه دليل لا من كتاب ولا من سنة، فهو من الأمور المحدَثَة.

السُّؤَال: هل يجوز الحج بدون رِضا الوالدَين؟

الجَوَاب: إن كان حجك حجّ فريضة فلا يلْزم إذْن الوالدَين.

السُّؤَال: عن مَن حج وهو لا يصلي؟

الجَوَاب: هذا شأنه في الحقيقة عجيب! يحجّ وهو لا يصلي، لماذا يتعنَّى؟ لماذا يتعب نفسه؟ عليه أن يتوب إلى الله جل وعلا من ترْك الصلاة، وأن يلْتزم بالصلاة، ثم يستعين بالله ﷻ ويحج.

السُّؤَال: **هل أفضل الأنساك التمتُّع؟**

الجَوَاب: نعم، هذا النُّسك الذي تمنَّاه النبي ﷺ وأمر أصحابه به، فمهما استطعت أن تكون متمتعًا فافعل.

السُّؤَال: **هل يستحب رفع ليدين عن التسْليم على النبي ﷺ عند قبره؟**

الجَوَاب: لو كان هذا ثابتًا في سُنةٍ نبوية أو أثر من الصحابة لقلنا به، لكنَّني لا أعلم ذلك ثابتًا، فلا ينبغي لك أن تفعل شيئًا إلا بدليل.

السُّؤَال: **يسأل عن شخص عنده جرح في رجله يخرج منه دمٌ، ويسأل عن وضْع لصقة عليه أو شيء من ذلك وقت الإحرام؟**

الجَوَاب: أنَّ هذا لا بأس به ولا يضر إحرامك، يعني إذا أُصبت بجُرْح أو نحو ذلك ضعْ عليه لصقة، وهذه ليست من محظورات الإحرام.

السُّؤَال: **عن الإحرام من جِدَّة؟**

الجَوَاب: جِدَّة على الصحيح -وهو قول جماهير أهل العلم، والقول بخلاف ذلك قولٌ شاذ لا دليل عليه- جِدَّة إنما هي ميقات لأهلها، أو مَن ورَد عليها من غير أهلها ثم نوى الحج هناك أو نوى العمرة هناك، يعني أنشأ النية وقد صل جدَّة، أمَّا مَن قدِم من غيرها فإن جدَّة في حقه ليست محل ميقات، اللهمَّ إلا فيما ذكروا منطقة واحدة من مناطق السودان، هذه يصح أن يكون الإنسان محرمًا من جدَّة فيها لأنه لا يمرّ بمُحاذاة ميقاتٍ قبلها، وعلى مَن أحرم من جدَّة أن يذبح ذبيحة يوزعها على فقراء الحرم؛ لأنه تجاوز الميقات بدون إحرام.

السُّؤَال: **ما حكْم قول: (سِي فلان)؟**

الجَوَاب: سِي كأنها اختصار أو ترْخيم لكلمة (سيّد) والله أعلم، فإذا كان انطبق الشرطان الذان ذكرتُهما -يعني كان أهلًا لهذا الوصف، ليس فاسقًا ولا منافقًا، ولم يكن السياق مُشعرًا بشيء من الغُلو- فإن ذلك فيما يبدوا جائز، والله أعلم.

السُّؤَال: **هل يجوز أن أرمي عن زوجتي الحامل التي يُخاف على حمْلها حسب قول الطبيب جمرة العقبة، وهل يجوز لها أن تحضُر ذبيحتها يوم النحر؟**

الجَوَاب: كونها تحضر ذبح ذبيحتها لا حرج فيه، لكن أستبعد أن يكون هذا ممكنًا في ضَوء الظروف المعاصرة، إلا إذا كانت ستذهب إلى المسلخ ، على كل حال هذا الأمر جائز.

أما الرمي عن الغَير؛ أنا أَلْحَظ أن كثيرًا من الحجاج، ولا أقول بعض الحجاج بل أقول كثيرًا من الحجاج، يتساهلون في شأن الرمي عن الغير، حتى كأن الرمي هذا شيء من الزوائد أو من الأمور الثانوية! فما أسهل أن يوكل الإنسان غيره في شأن الرمي عند أدنى شيء وربما بدون شيء، لا شك أن هذا أمْر لا يجوز، الرمي عبادة واجبة، لابد أن يقوم بها الإنسان، لماذا لا توكل في شأن الطواف؟ لماذا لا توكل في شأن السَّعي؟ لماذا لا توكل في شأن الوقوف بعرفة ومُزدلفة؟ لأنك تعتقد أن هذه أشياء مهمة ولابد منها.

بالنسبة للتوكيل في الرمي هذا أمْر لا يجوز إلا في حال الاضْطرار، أن يكون هناك عُذر قاهِر يمنع الإنسان من أن يرمي، فالصحابة ﷺ لما لَبُّوا عن صغارهم رمَوا عنهم؛ لأنهم لا يتمكنون -أعني: الصغار- من الرمي.

أما إذا كان الإنسان -ذكرًا أو أُنثى- مستطيعًا للرمي فيجب عليه أن يرمي بنفسه، وتوكيله لغيره توكيل باطل، فالمرأة الحامل نقول: إن كان خوفكِ على نفسكِ أو على الحمل بسبب الزحام، نقول: أَخِّري ذلك إلى الليل، والحمد لله، لو ذهَبت يوم العيد بعد المغرب أو بعد العشاء ربما تجد المكان فارغًا لا أحد فيه، أو تجد فيه قِلَّة، والآن -ولله الحمد- أصبحت الجمرات بفضل الله ﷻ واسعة فسيحة مكيّفة، الأمر مَيسور ولله الحمد، وأصبحت هناك طوابق عدَّة،

وأصبحت هناك -ولله الحمد، وجزاهم الله خيرًا- هناك سيارات من السيارات الصغيرة التي تحمل الشخص الذي لا يستطيع إذا قرُب من الجمرات توصله.

المقصود: أنَّه إن كان الخوف من الزحام أخِّر ذَهابها وليكن ذلك في المساء والحمد لله، أما إذا كان ذلك بسبب المشي والتعب والإرهاق فإنه لا حرج حينئذٍ عن أن ترمي عنها، ارمِ عن نفسك كل جمرة، يعني الجمرة الصغرى ثم ارمِ عنها، ثم ارمِ الوسطى ثم ارمِ عنها، وهكذا حتى تنتهي من جميع الجمرات، والله أعلم.



[باب: لا يُسأل بوجه الله إلا الجنة]

[٢/ ١٢/ ١٤٣٧]

السُّؤَال: في شأْن مَن أراد أن يضحي عن ميت ظاهر حاله أنه لم يكن يصلي؟

الجَوَاب: مَن كان تاركًا للصلاة ترْكًا مطلقًا فلا تضحِّ عنه، وفوِّض أمره إلى الله ﷻ.

السُّؤَال: وهل يأكل منها مَن يذبح الأضحية؟

الجَوَاب: نعم من السنة أن يأكل الإنسان من أُضحيته.

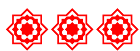
السُّؤَال: هل يمكن حجّ القِران دون سَوق الهدي؟ وهل يُعتبر شراء الهدي عن طريق البنك من سَوق الهدي؟

الجَوَاب: نعم يمكن أن يكون الإنسان قارنًا ولو لم يسُقِ الهدي، فالقارن يمكن أن يكون سائقًا لهديه، ويمكن أن لا يكون سائقًا لهديه، لكن الفرق هو أن مَن كان سائقًا لهديه فإنَّ هذا السَّوق يمنعه من أن يُحِلّ، يعني من أن يجعل طوافه وسعيه عمرة فيتحلَّل بعدها، فقط هذا الفرق، وإلا فلك أن تسُوق الهدي سواء كنت قارنًا أو كنت متمتعًا.

وشراء الهدي عن طريق البنك هذا ليس من سَوق الهدي، هذا من باب التوكيل، أنت وكَّلت غيرك في أن يذبح عنك الهدي، وهذا لا حرج فيه، والنبي ﷺ وكَّل عليًا رضي الله عنه في ذبح بعض هديه، فهذا ليس من السَّوق في شيء.

السُّؤَال: إذا حاضت المرأة أثناء حجّها ولَم تطُف، هل لها أن ترجع إلى بيتها في المدينة ثم ترجع وتطوف بعد طُهرها، أو يلزمها البقاء في مكة؟

الجَوَاب: إن كانت تستطيع البقاء في مكةَ دون مشقة عليها أو على وليّها فإنه تبقى، يدل على هذا: قول النبي ﷺ: «أَحَابستُنا هي؟»، أما إذا كان يشقّ عليها أو على وليّها البقاء فإنها ترجع إلى بلدها ثم تعود بعد ذلك إذا طهُرت، ولكن تلْحَظ أنها في هذه الحال تكون محرمة، ويجب عليها اجتناب محظور معاشرة الزوج.



[باب: النهي عن سبّ الريح]

[١٤٣٧/١٢/٣]

السُّؤَال: أُريد الحج، فما هو أفضل نُسك أُحرم به؟

الجَوَاب: لا شك أن النسك الأفضل وهو الذي تمنَّاه النبي ﷺ هو التمتُّع.

السُّؤَال: هل لمن نوى نُسكًا معينًا أن يغيره؟

الجَوَاب: له أن ينتقل من الإفراد إلى التمتع، يعني يَقلِب إحرامه بالحج في الطريق أو في مكة أو حتى بعد أن يطوف ويسعى له أن يَقلِب ذلك إلى تمتُّع، إلا إذا كان قد ساق الهدي فسَوقه الهدي مانعٌ من ذلك، أما أن يعكس يرجع من التمتع إلى الإفراد فإنه ليس له ذلك.

السُّؤَال: نحن جئنا من مصر إلى مكةَ واعتمرنا، والآن جئنا إلى المدينة، فهل تمتّعنا انقطع، أم مازلنا متمتِّعين، وهل علينا عمرة أخرى عند الرجوع إلى مكةَ؟

الجَوَاب: الصحيح من كلام أهل العلم أن التمتع لم ينقطع، ينقطع التمتع على الصحيح من كلام أهل العلم إذا رجع الإنسان إلى بلده، إما إذا سافر إلى غير بلده كهذه الحالة التي بين أيدينا فإنه لا يزال متمتعًا.

أما عند رجوعكم إلى مكة فإنكم مخيَّرون بين أن تأتوا بعمرة جديدة، أو أن تحرموا بالحج من ذي الحُليفة لأنكم أصبحتم في حكْم أهل المدينة، إذا كان

الوقت قريبًا من الحج -يعني ستسافرون في وقت ضيق- فإن شئتُم فأحرموا بالحج، وإن كان الوقت فيه سَعة وعندكم مُكْنة وفرصة للعمرة، فإتيانكم بالعمرة أفضل، وتتحلَّلون بعدها وأنتم باقون على تمتّعكم.

السُّؤَال: عن وضع شيء كمنديل أو نحوه على ذكَره؛ لأنه مصاب بسَلَس البول؟

الجَوَاب: هذا ليس من المخيط، ولا يستلزم الفدية إن شاء الله؛ هذه قطعة يسيرة يضعها الإنسان منديل أو قطعة قماش يسيرة على الذكَر، إن شاء الله ليست من المخيط الذي يسْتلزم الفدية.

السُّؤَال: شخص دخل مكةَ من أول ذي القعدة وهو ناوٍ للحج، ودخل من غير إحرام، فهل له أن يُحرم يوم الثامن بالحج من مكة؟

الجَوَاب: أولًا هذا الإنسان قد أخطأ حينما تجاوز الميقات الذي يلزمه أن يحرم إذا مرَّ به أو حاذاه، كان الواجب عليه أن يُحرم من الميقات، وبناء على ذلك فنقول له: ارجع إلى الميقات الذي تركته فأحرِم منه، فإن لم تفعل وقعتَ في ذنب، فتُب واستغفر الله تعالى، وإذا أحرمت بعد هذا الميقات، سواء كان هذا في مكة أو في غيرها، فإنه يلزمك أن تذبح دمًا عند جمهور أهل العلم.

السُّؤَال: عن الكلام عن حكمة الله ﷻ؟

الجَوَاب: بالنسبة للكلام عن حكمة الله ﷻ فأُوصيك بـ«شفاء العَليل» لابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ، فإنه من أحسن الكتب في تجلية هذه المسألة والاستدلال عليها.

السُّؤَال: عن مسألة التأثيم والإثابة؟

الجَوَاب: أنا أقول: التأثيم والإثابة مرجعها إلى الشرع لا إلى العقل، ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء:١٥] ، ما قال: حتى يحكم العقل، أو حتى يُحسِّن العقل أو يقبح، مخالفة حُسْن العقل وقُبحه هذه لا يترتب عليها تأثيم، العقل لا يأمر ولا ينهى، العقل لا يؤثِّم ولا يُثيب، إنما ذلك مرجعه إلى الشريعة، العقل قد -ولاحِظ أنَّني أقول قد- يحسِّن، ليس كل الأشياء، بعض الأشياء يقِف أمامها حائرًا، لِمَ كان هذا كذلك؟ الله أعلم، قد يظهر للإنسان حُسن الأشياء وقد يظهر له قُبحها، أما كونه قد يُدرك ذلك؛ نعم، أليس الله ﷻ قد قال: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ ماذا قال الله؟ ﴿قُلْ إِنَّ اللهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ [الأعراف:٢٨]، السؤال: ما هي هذه الفاحشة؟ الفاحشة هي الطواف بالبيت عُراة، هكذا كانوا يفعلون لمن لم يكن من قريش أو مَن والاها؛ إذا لم يُعطِه أحمسِيٌّ -يعني قريش ومَن والاها- إذا لم يُعطه أحد ثوبًا منهم فإنه سوف يطرح هذا الثوب ويطوف عاريًا، ذكَرًا أو أنثى، مع بعض أو كل واحد لوَحده، ولو خالف فطاف بثيابه فإنه يلزمه أن يخلع هذه الثياب بعد

ذلك ويرميها فلا ينتفع بها، هكذا كان نظامهم وقانونهم، وهذا الذي سمَّاه الله ﷻ فاحشة.

والسؤال: هو فاحشة لماذا؟ لأن الشرع نهى عنه؟ أو لأن العقل يدل على أنه فاحشة؟ في هذا الموضع هم يعلمون أنه فاحشة بعقولهم، فلأجل هذا ردَّهم الله ﷻ إلى ما أدركوا بعقولهم، فقال: ﴿قُلْ إِنَّ اللهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ ؛ يعني ما تُدركون بعقولكم أنه فاحشة فلا يَلِيق بالله أن يأمر به، وإلا لو كان هذا الأمر فاحشةً بنهي الشرع فحسْب لكان معنى الآية: (قل إن الله لا يأمر بما ينهى عنه) ، وهذا كلامٌ ليس فيه كبير فائدة، ليس فيه شيء جديد، إنما الآية فيها أنكم تدركون بعقولكم أن هذه فاحشة وأن هذا أمر قبيح، كون الإنسان يطوف ببيت الله في هذا المكان المُعظَّم عاريًا، وربما كانت امرأة، وربما كان رجلًا وامرأة، كلٌّ ينظر إلى الآخر، لا شكَّ أن هذا في العقول المستقيمة قبيح، إذًا ما كان لكم أن تنسبوا هذا إلى الله ﷻ؛ لأنهم يقولون: ﴿وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾، يقول الله: قل إن الله لا يأمر بما تُدركون بعقولكم أنه أمرٌ قبيح؛ لأنه خلاف ما يَليق به، والله تعالى أعلم.



[باب: ما جاء في مُنكرِ القدر]

[١٤٣٧/١٢/١٦]

السُّؤَال: حججْتُ في هذه السنة -ولله الحمد- فماذا أفعل كي يقبل الله منِّي هذا الحج، ويجعله حجًّا مبرورًا؟

الجَوَاب: أولًا عليك أن تسأل الله ﷻ القبول.

وثانيًا: أن تجمع بين مرتبتَي الخوف والرجاء؛ فارجُ الله القبول، وخفْ من الله ﷻ عدم القبول، وكُنْ متراوحًا بين هاتين المنزلتَين، أن ترجو الله أن يقبل، وأن تخاف أن يردَّ عليك عملك، لا لأن الله يخلف وعدَه، بل لأنك ربما تكون قد أتيت في عملك أو في غيره ما يكون سببًا لرَدِّ هذا العمل، قال جل وعلا: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون:٦٠] ؛فسر ذلك النبي ﷺ بالرجل يصوم ويصلي ويتصدق ويخشى أن لا يُقبل منه.

وثالثًا: أن تعلم أن علامة الحج المقبول: أن تكون حالك بعده خيرًا من حالك قبله؛ إذا أردت أن تعلم أن حجَّك مبرور وأن سعيك مشكُور، فقِسْ حالك بعد الحج، هل عندك همَّة ونشاط واجتهاد في طاعة الله ﷻ أكثر ممَّا كنت عليه قبل الحج؟ إن كان ذلك كذلك فأبشرْ بالخير، وإلا فأعِدِ النظر في نفسك وحالك، وتُب إلى الله ﷻ مما بدَر منك.

ورابعًا: عليك أن تأخذ العبرة من هذه العبادة التي وفقك الله ﷻ إليها، تأمَّل حالك حينما كنت محرمًا بالحج، تجد الواحد منَّا حريصًا أشد الحرص؛

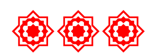
حتى إنه يسأل بخوف ووجَل أنه غطَّى رأسه للحظة ناسيًا، أو أنه حكّ شعره فخرجت شعرة، تجد هذا الحرص وهذه الدقَّة في اجتناب محظورات الإحرام!

اعلم -يا راعاك الله- أن المحظورات نوعان: محظورات مؤقَّتة، ومحظورات مؤبَّدة. وعليك أن تجتنب هذه، وأن تجتنب هذه.

-أما المحظورات المؤقتة: فهي محظورات الإحرام؛ في مدَّة وَجيزة، وخيرًا فعلْت حينما كنت تتوقاها.

-لكن اعلم أن ثمَّة محظورات مؤبَّد على كل مسلم طِيلة حياته، مُنذ أن جرى عليه القلم وإلى أن يُوسَّد في ترابه، هذه المحظورات: محارم الله ﷻ؛ فعليك أن تتوقاها يا عبدالله، إن كنت قد لبَّيت لله ﷻ حينما أحرمت فاعلم أن هذه التلْبية حقيقتها مستمرة، وأنك بلسان حالك خلال مسيرتك في هذه الحياة تُنادي بلسان الحال: (لبَّيك اللهمَّ لبَّيك، لبَّيك لا شريك لك لبَّيك)؛ هذه تلْبية حقيقتها أنك تُعلن أنك مستجيب لله ﷻ، والله جل وعلا جعل الاستجابة لأمره وأمر رسوله ﷺ ممتدة؛ لأن بها الحياة، قال جل وعلا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال:٢٤]، الحياة الحقيقية في الدنيا هي في الاستجابة لله ورسوله عليه الصلاة والسلام، والحياة الحقيقية في الآخرة التي هي الحيوان -يعني الحياة الكاملة- هي أيضًا للمُستجيب لله ولرسوله ﷺ.

فعليك أن تكون مُلَبِّيًا في حياتك بلسان حالك، وتكون مجتنبًا للمحظورات ما استطعت في كل عُمرك، وبذلك تكون مستجيبًا لله ولرسوله ﷺ.



[باب: ما جاء في مُنكرِ القدر]

[١٤٣٧/١٢/١٧]

السُّؤَال: هل يصح التعبير بأن أول المخلوقات هو كذا؟

الجَوَاب: قلنا -يا أيُّها الإخوة- إن أُريد أول المخلوقات من هذا العالَم المشهود الذي خلقه الله في ستة أيام؛ فإن القلم هو أول ذلك، لأنه به كان تقدير هذا العالَم. أما أول المخلوقات على الإطلاق؛ فالله ﷻ لم يزلْ خالقًا، كل مخلوق فله بداية، خلقه الله بعد أن لم يكُن، لكن الله ﷻخلق قبله وخلق قبله وخلق قبله وهكذا.

السُّؤَال: هل يُفهم من كلامك أن الله خلق عوالِم أخرى لم يُطلِعْنا عليها؟

الجَوَاب: نعم، أليس الله يقول: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٨].

السُّؤَال: ما هو أفضل كتاب في باب القدَر؟

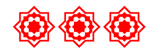
الجَوَاب: لا أعلم كتابًا شافيًا وافيًا في هذا الموضوع مثل كتاب ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «شفاء العليل» ؛ هذا أحسن وأوسع وأفضل كتاب في باب القدر في حدود عِلمي.

السُّؤَال: هل «المُعطِي» من أسماء الله تعالى؟

الجَوَاب: نعم، ثبت في «صحيح البخاري» وغيره: أن النبي ﷺ قال: «إن الله المُعطِي، وأنا قاسِم».

السُّؤَال: عن الحكمة في خلْق كذا وخلْق كذا؟

الجَوَاب: هذا موضوع لن ينتهي، يعني كون الإنسان يريد أن ينقّر عن الحكمة في كل شيء خلقه الله ﷻ فإنه لن يستطيع أن يحيط علمًا بذلك، وأنَّى للإنسان الضعيف العاجز الناقص أن يُحيط عِلمًا بحكمة الله الكبير العظيم العَليم الواسع ﷻ!! إنما قد نطلع على شيء يسير من حكمة الله ﷻ في تقديره أو في شرعه، ويبقى أن هناك أشياء كثيرة من الحكمة ليس عندنا علم بها، لكنَّنا نجزم من خلال ما علِمنا أن ما لَم نعلم فيه حكمة وإن كنَّا نجهل تفاصيلها، ولا يؤثر هذا في هذا الإيمان، نحن نستدل بما علِمنا على ما جهلنا.



[باب: ما جاء في المصوِّرين]

[١٤٣٧/١٢/٢٢]

السُّؤَال: هل يجوز تصوير الشمس والقمر؟

الجَوَاب: نعم، قلنا: إن ما لا روح فيه جاز تصْويره.

السُّؤَال: من المشكلات الكبيرة في هذا العصر والتي سهَّل وقوعها هذه الجوالات مسألة تساهل النساء في التصوير، تجد أنها تصور نفسها أو تصور قريباتها أو زميلاتها، وتظن أن هذه الصورة ربما لا يطلع عليها أحد؟

الجَوَاب: وما الذي يُدريك أن هذه الصورة، وما الذي يُدريكِ أن هذه الصورة لن تقع في يد أحد؟ تصوير النساء أمر لا ينبغي التساهل فيه يا أيُّها الإخوة.

أذكر لكم قصة وقعَت معي أنا: كنتُ واقفًا أتحدَّث مع أحد الأشخاص عند باب بيته، وإذا بطفل صغير في دور عالٍ يرمي أُلْبومًا من الصور سقط علينا، فأمسكتُه، وإذا به ممتلئ بصور النساء، يعني صور أهل هذا البيت وهُنَّ في الزفاف أو في بعض العزائم وما شاكل ذلك، وهُنَّ في أحسن حال، طفلٌ صغير أخذ هذا الذي يُسمى الأُلْبوم ورماه، وتخيّل كيف أن هذه صورة لعورات المسلمين قد أصبحت في الشارع، وربما يتناولها إنسان لا يخاف الله ﷻ، وما هي إلا دقائق وربما تجدها منشورة في شبكة الإنترنت، عدا أن هذه الجوالات أيضًا ربما يمكن سحْب هذه الصور التي فيها ولو مسحها الإنسان، فالذي ينبغي

على ولي أمر المرأة أن ينهاها عن التصوير، ويُخبرها أن هذا أمرٌ زائد على مجرد التصوير، تصوير النساء أمرٌ جائز على مجرد التصوير لِما قد يترتَّب عليه من مفاسد، والله أعلم.

السُّؤَال: بالنسبة للصور التي دَعَتْ إليها الحاجة؛ كالجواز، والرخصة، وما شاكل ذلك

الجَوَاب: الذي ينصح به علماؤنا: أن يجعلها الإنسان في بيته مطويةً، فإذا جعلها مطوية لعلَّه إن شاء الله يكون قد زال أثرها، يعني يجعلها مطوية أو يجعل فوقها كتابًا، أو يجعلها في داخل دُرج، أو في داخل جيبه، لا أنه يُظهِرها حتى يزول حكْمها، والله تعالى أعلم.

السُّؤَال: بالنسبة للتَّحنيط ؛تحنيط الحيوانات؟

الجَوَاب: هذه مسألة خلافية بين أهل العلم، والنصيحة بترْك هذا الأمر أيضًا، فإنه قد يترتب عليه مفسدة، هو ليس من جنس التصوير، لكن يُخشى أن يترتب عليه ما يترتب من مفاسد، وكان شيخنا الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ ينهى عن ذلك، وقد سمعتُه منه أكثر من مرَّة، والله تعالى أعلم.



[باب: ما جاء في كثرة الحلف]

[١٤٣٧/١٢/٢٣]

السُّؤَال: عن كفارة النذر، امرأة وزوجها كأنه يريد أن يبذل لها المال لكي تُطعِم؟

الجَوَاب: لا بأس إذا أذنتِ -أيَّتها الأخت- في أن يُطعِم زوجكِ عنكِ فلا حرج في ذلك إن شاء الله.

السُّؤَال: الإسبال هل هو خاص بالإزار، أو هو عام في كل ما يُلبس؟

الجَوَاب: الإسْبال: هو نزول الثوب إلى الكعبين فما بعد، ولا شك أن هذا منهي عنه في الإزار وفي غيره أيضًا، كل ما يُلبس يجب أن يكون فوق الكعبين.

السُّؤَال: هل يجوز حجز الأماكن في المساجد؟

الجَوَاب: المساجد بيوت الله ﷻ ليست ملْكًا لأحد، ومَن سبق إلى مكان مباح فإنه أحق به، هؤلاء الذين يحجزون الأماكن في المساجد في الصفوف المقدَّمة أو في بعض الأماكن فيها، لا شك أنهم قد ظلموا إخوانهم، بأي حق تحجز هذا المكان ثم تتركه لغير سبب شرعي!! بعض الناس يحجز هذا المكان بعد الفجر، ثم يذهب إلى عمله أو بيته، ثم يعود لكي يُدرك هذا المكان في صلاة الظهر؛ لا شكَّ أن هذا لا يجوز، وأمْرٌ منكر، ويجب أن يُناصَح فاعله.

أما الحجز لأجل أمرٍ يتعلق بالصلاة؛ كأن يحتاج الإنسان إلى أن يتوضأ، هو جالس في هذا المكان فاحتاج أن يتطهر للصلاة القادمة، فوضع شيئًا وذهب لكي يتوضأ ثم يعود، فإن مثل هذا لا حرج فيه إن شاء الله.

أما حجْز الأماكن في الدرس؛ فإني أنصحُك ألَّا تفعل أيضًا، ربما يأتي شخص في هذا المكان للصلاة وإذا بك قد وضعت شيئًا، فماذا يصنع وهو محتاج إلى أن يصلي هاهُنا؟ فأنصحكم أيضًا أن لا تحجزوا المكان حتى في حلق الدروس.

السُّؤَال: هل يجوز استعمال السجادة التي فيها صورة الكعبة في الصلاة؟

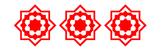
الجَوَاب: شيخنا الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ سُئل عن هذا الأمر وأنا أسمع، فأوصى بترْك ذلك، قال: لأنك إن وضعتها أمامك شغلتْك، وإن وضعتها تحت قدمَيك كان فيها شيء من الإهانة، قال: الأولى أن يستعمل الإنسان سجادةً سادَة -هكذا كانت كلمته- سجادة سادَة، يعني بدون هذه الصور التي توضع فيها.

السُّؤَال: عن حكْم لبس الخاتم الذي يُسمى الدِّبلة أو الدُّبْلة؟

الجَوَاب: الجواب عن هذا كما ذكر أهل العلم فيه تفصيل:

-فإن كان لُبس ذلك على اعتقاد أنه سبب لحصول الأُلْفة والمحبة بين الزوجين؛ فإن هذا الأصل فيه أنه شرك أصغر، لأنه من جنس التمائم حينئذٍ.

-أما إن كان على غير هذا الاعتقاد فالذي أفتى به علماؤنا: أن هذا أمرٌ لا يجوز؛ لحصول المشابهة للمشركين في ذلك، والنبي ﷺ قال: «مَن تشبَّه بقوم فهو مِنهُم». والله تعالى أعلم.



[باب: ما جاء في ذمة الله وذمة رسوله عليه الصلاة والسلام]

[١٤٣٧/١٢/٢٣]

السُّؤَال: هل الرجل المؤمن الذي يقسِم على الله، هل هذا الشيء والذي أقسم عليه قدَّره الله سابقًا أم ماذا؟

الجَوَاب: لا، هو لو كان من الشيء الذي قدَّره الله سابقًا فوقع ليس داخلًا في الإقسام على الله ﷻ، هو يقسِم على أمر واقع حينئذٍ، يقول: والله قد حصل كذا وكذا، ليس الأمر من هذا الباب، الأمر على شيء مستقبل، يحسِن العبد ظنه بالله ﷻ أن الله سيفعله إجابةً لسُؤْله، يحسِن الظن بالله أن الله ﷻيجيب سؤاله ويَبَرّ قسمَه، هذا هو المقصود.

السُّؤَال: لم أفهم الأيمان الداخلة في العهود والمواثيق؟

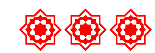
الجَوَاب: يعني في شأن العهود والمواثيق إذا أعطى الإنسان عهده يقول: (لك عهدُ الله ﷻ) هذا في حكم اليمين، إذا قال: (والله ليكونَنَّ كذا منِّي، وهذا عهدٌ وميثاق)، أو يقول: (لك عهدُ الله، لك ميثاقه، لك ذمَّة الله) وأمثال ذلك؛ فإن هذا من الأَيمان في حكم أهل العلم، والله تعالى أعلم.

السُّؤَال: ما فهمت القسم الثاني؟

الجَوَاب: أنا أُقربه لك بما كان من قصة أنس ابن النضر ﵁؛ لمَّا كان حكم الله ﷻ في هذه القضية هو أن تُكسر ثَنِيَّة الرّبيع؛ لأن هذا هو القصاص العادل، هذا الصحابي الجليل ﵁ قال: (والله لا تُكسَر ثنيَّة الرُّبيّع)، الرجل ﵁ كان عنده حسْن ظن بالله ﷻ أن الله سيجعل فرجًا ومخرجًا لهذا الأمر، لم يكن هذا ردًّا منه

لحكم الله، حاشا وكلا، إنما كان لحُسْن ظنه بالله ﷻ يرجو أن يكون هناك فرَج ومخرج، وبالتالي فلا تُكسر ثنيَّة الرَّبيع.

أعود فأقول: المقام مقامٌ رفيع، مقام عالٍ، حسبنا فقط أن نشرح ونبين طرفًا منه، وإلا فما يقوم في قلوب كُمَّل المؤمنين من عباد الله ﷻ شيء إنما يمكن أن يعبِّر عنه مَن كان قد وصل إلى هذه المرحلة، والله المستعان.



[باب: ما جاء في حماية المصطفى جناب التوحيد]

[١٤٣٧/١٢/٣٠]

السُّؤَال: كيف نرد على مَن استدل على التوسل بالمكانة والقدر بتوسّل عمر ﵁، والصحابة بالعباس لمكانته من رسول الله ﷺ؟

الجَوَاب: أن عمر ﵁وأصحابه ما توسَّلوا بذات العباس، ولو كانت التوسل بالذات والجاه مشروعًا لَما عدلوا عن التوسل بالنبي ﷺ، فإن قدْر النبي ﷺ وجاهَه لم تنتهِ بوفاته عليه الصلاة والسلام، لو كان هذا توسلًا مشروعًا لَما عدل الصحابة ﵃عنه، ولَتوسَّلوا بجاه النبي ﷺ، ولَدعوا الله جل وعلا بهذا التوسل؛ فدل هذا على أنهم ما كانوا متوسلين بجاه العباس ولا بذاته، إنما كانوا متوسلين بدعائه.

والعباس ﵁ اجتمع فيه وصفان: وصف الصلاح والتقوى، وكذلك وصف القرب من النبي ﷺ لأنه عمُّه، فدل هذا على أن التوسل بدعاء الصالحين إلى الله جل وعلا في الاستسقاء ونحوه لا سيما إذا كانوا من آل بيت النبي ﷺ لا حرج فيه.

السُّؤَال: هل السيد من أسماء الله تعالى؟

الجَوَاب: نعم، النبي ﷺ قال: «السيّد الله».

السُّؤَال: يطلب النصيحة لطلاب العلم في شأن المبالغة في مدح بعضهم لبعض أو لبعض المشايخ؟

الجَوَاب: أنا أقول المبالغة في المدح توقِع في الغُلو، والغُلو لا تُحمد عواقبه، وعلى الإنسان أن يتأمل مليًا الحديثَين الذين مرَّا معنا: «قُولُوا بقَولِكم أو بعض قولكم، ولا يسْتجرينَّكم الشيطان».

السُّؤَال: كيف نجمع بين قوله ﷺ: «السيد الله» وبين قوله: «أنا سيد بني آدم»؟

الجَوَاب: النبي ﷺ لا شك أنه سيد بني آدم، وسُؤْدَده عليه الصلاة والسلام لكونه جامعًا لخصال الخير، السيد: هو الجامع لخصال الخير، ومَن أبلغ في هذا الوصف من رسول الله ﷺ، وسُؤْدَده ﷺ راجع إلى أمرين:

أولًا: لِما جعل الله ﷻ فيه من الكمال البشري، فإن الله جل وعلا ما ابتعثه واختاره نبيًا رسولًا إلا لأنه أمثَلُ الناس عليه الصلاة والسلام قبل الرسالة.

الأمر الثاني وهو الأهم والأجدَر والأعظم بسُؤدده عليه الصلاة والسلام: كون الله جل وعلا جعله نبيًا رسولًا عليه الصلاة والسلام.

وهذا يجرُّني إلى أن أُنِّبه تنبيهًا حول بعض ما يُكتب أو يُنشر حول النبي ﷺ والثناء عليه؛ فإن بعض الكتابات التي كُتبت في هذا المقام قد لا يتنبَّه بعض أولئك المؤلفين حينما يوردون من كلام الغرب الذين مدحوا النبي ﷺ، لا يتنبَّهون إلى مسألة مهمة؛ نجد في كثير من كتابات الغربيين والمستشرقين مدح النبي ﷺ بأنه كان ذكيًا وكان عبقريًا وكان كذا وكان كذا، وهم في الحقيقة حينما

تكلموا هذا الكلام كانوا يعتقدون نبوته ورسالته أو كانوا يكفرون بنبوته ورسالته؟ هؤلاء كانوا كفارًا به عليه الصلاة والسلام، وما كانوا مؤمنين به، وهم يرون أن ما جرى على يديَه من هذه الفتوحات وقيام هذه الدولة الإسلامية إنما هو راجعٌ إلى الذكاء والفطنة والعبقرية، وليس لكونه رسول الله وأن الله ﷻ هو الذي نصَره، فهذا في الحقيقة ينبغي التنبُّه له، هذا مدح في الظاهر لكنه يتضمن قدحًا في الباطن، وينبغي أن يُراعى هذا الأمر فيما يتعلق بهذا المقام.

وأما قوله ﷺ «السيد الله» فإن معناه: السيد الذي له السيادة المطلقة هو الله تبارك وتعالى، كل مَن عدا ربنا جل وعلا فإن سيادته سيادةٌ نسْبيةٌ إضافية، أما السيادة التامة الكاملة المطلقة فهذه ليست إلا لله تبارك وتعالى؛ لأنه جل وعلا هو الرب المالك المدبر المتصرف في خلْقه بما يشاء جل وعلا.

السُّؤَال: ما حكْم استعمال كلمة (السيد) في حق المخلوق؟

الجَوَاب: قلنا إنه لا حرج في استعمال كلمة (السيد) حتى بالألِف واللام على الصحيح، بشرط أن يكون الذي قِيل فيه هذا القول أو قِيل فيه هذا الوصف مستحقٌ لذلك؛ لأن النبي ﷺ قال: «لا تقولوا للفاسق: سيد، فإنه إن يكُ سيدًا فقد أغضبتم ربكم».

السُّؤَال: ما حكم زيارة قبر النبي ﷺ كل يوم؟

الجَوَاب: الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ سُئل عن سؤال قريب من هذا؛ وهو: أن من الناس مَن إذا دخل المسجد فإنه يذهب إلى قبر النبي ﷺ فيُسلِّم عليه؛ كلما دخل أتى القبر النبوي فسلَّم على النبي ﷺ ، ومالك رَحِمَهُ اللَّهُ إمام هذه البلدة الطيبة، أليس كذلك؟ وكان يعيش في أيِّ عهد؟ يعني هو معدود من أي طبقة؟ في عهد أتباع التابعين، يعني في القرون المفضلة، في عصْر الخيرية، في عصْر النقاء، تلك الغُرَّة التي كانت خير هذه الأمة بنصّ حديث رسول الله ﷺ؛ لما سمع هذا الكلام أجاب رَحِمَهُ اللَّهُ بكلمة مهمة وفتوى جديرة بالأخْذ، قال: «ما أدركنا على هذا أهل العلم عندنا، ولا يُصلِح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أوَّلها».

هذا أمر مُحدَث، لو كان فيه خير لسبقنا إليه أصحاب النبي ﷺ، ولَسبقنا إليه التابعون، ولَسبقنا إليه أتباع التابعين، فكيف إذا علمتَ تحذير النبي ﷺ في أن يُجعل قبره ﷺ عيدًا، يعني يُعاد ويُكرَّر المجيء عليه في أزمنة معينة؛ لا شك أن هذا أمر ليس بالأمر المحمود، مهما كنت يا عبد الله محبًّا للنبي ﷺ فلست مُحبًّا له كحُبِّ أصحاب محمدٍ محمدًا عليه الصلاة والسلام، ومهما كنت مجلًّا له فإن الصحابة كانوا أعظم إجلالًا له منك، ومع ذلك ما كانوا يفعلونه، ولو كان خيرًا لَسَبَقونا إليه.

